تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء». وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومثلها في سورة «براءة» وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يظنون.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾. وقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]. أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف. ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]، وقال ها هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

يقول تعالى آمراً بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعمها في ذلك، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حباً دينياً؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾. وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، حدثنا ابن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب قال: سمعت مُصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد، قال: نزلت فيَّ أربع آيات. فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ الآية. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضاً، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. ثم قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك ـ يا محمد ـ وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقال تعالى مخبراً عنهم ها هنا: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكنّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: وليختبرنّ الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء، إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش: أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: وآثامكم ـ إن كانت لكم آثام في ذلك ـ علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزاراً أخر بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]. وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً» وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل». وقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلقون من البهتان. وقد ذكر ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية، حدثني سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به، ثم قال: «إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم! ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن ﷺ ثم يأمر المنادي فينادي. من كانت له تباعة ـ أو: ظُلاَمة ـ عند فلان ابن فلان، فهلم. فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي. فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناته. فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي. فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه». ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا أبو بشر الحذاء، عن أبي حمزة الثمالي، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كُحْل عينيه، وعن فتات الطينة بإصبعيه، فلا أُلفينَّك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، يخبره عن نوح، عليه السلام: أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً، وجهراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق، وإعراضاً عنه وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوّك، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. قال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً، حتى كثر الناس وفشوا. وقال قتادة: يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة، ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة. وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً. وقال عون بن أبي شداد: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة. وهذا أيضاً غريب، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وقول ابن عباس أقرب، والله أعلم. وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيل، عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً. قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا. وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوح عليه السلام. وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة «هود»، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف نجّاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال ها هنا: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] أي: وجعلنا نوعها، فإن التي يرمي بها ليست هي التي زينة للسماء وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، ولهذا نظائر كثيرة. وقال ابن جرير: لو قيل: إن الضمير في قوله ﴿وجعلناها﴾، عائد إلى العقوبة، لكان وجهاً، والله أعلم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ

كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْدَى لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أي: أخلصوا له العبادة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدي. وروى الوالبي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً، أي: تنحتونها أصناماً. وبه قال مجاهد ـ في رواية ـ وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير، رحمه الله. وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، ولهذا قال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾ أي فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ قال: يُعزي نبيه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾. وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل، عليه السلام لقومه يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراريّ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعَدْلٌ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ترجعون يوم القيامة. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: موجع في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨]، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب عنان السماء: ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفّة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً. ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان. وقوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: سلّمه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ ، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يُحصّل لكم المودة في الدنيا فقط، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ، ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا، فـ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال ها هنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو عاصم الثقفي حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هُبَيْرة المخزومي، عن أبيه، عن جده، عن أم هانىء ـ أخت علي بن أبي طالب ـ قالت: قال لي النبي ﷺ: «أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين الطرفان»، فقالت الله ورسوله أعلم «ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، فيشرئبون» قال أبو عاصم: يرفعون رؤوسهم «ثم ينادي يا أهل التوحيد، ثم ينادي الثالثة: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم» قال: «فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلامات الدنيا ـ يعني: المظالم ـ ثم ينادي: يا أهل التوحيد، ليعف بعضكم عن بعض، وعلى الله الثواب».

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم: أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط ابن هاران بن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح: أن إبراهيم حين مرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: هي أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: «إنك: أختي»، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين. وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً، عليه السلام، آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل «سدوم» وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ : يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿قال﴾، على لوط، لأنه أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ـ قال ابن عباس، والضحاك، هو المكنى عنه بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: من قومه. ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ، في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية. وقال قتادة: هاجرا جميعاً من «كوثى»، وهي من سواد الكوفة إلى الشام. قال: وذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، ينحاز أهل الأرض إلى مُهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها، حتى تلفظهم أرضهم وتقذرُهم روح الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل ما سقط منهم». وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث، فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية، قدمت الشام فأخبرت

بمقام يقومه نوف البكالي، فجئته؛ إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فينحاز الناس إلى مُهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضوهم، تقذرهم نفسُ الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل منهم من تخلّف». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قُطع، كلما خرج منهم قرن قطع» حتى عدّها زيادة على عشرين مرة «كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج الدجال في بقيتهم». ورواه أحمد عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدَّستُوائي، عن قتادة، به. وقد رواه أبو داود في سننه، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنى الشام: حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حيَّة، عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عُمَر يقول: لقد رأيتُنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن، والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد في سبيل الله، ليلزمنكم الله مذلّة في أعناقكم، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله ﷻ». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مُهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم، وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تقيل حيث يقيلون، وتبيت حيث يبيتون، وما سقط منهم فلها». ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من أمتي قوم يسيئون الأعمال، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال يزيد: لا أعلمه إلا قال ـ: يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه. كلما طلع منهم قرن قطعه الله». فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة، أو أكثر، وأنا أسمع.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الأوزاعي، عن نافع ـ وقال أبو النضر، عمن حدثه، عن نافع ـ عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة، إلى مهاجر إبراهيم، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها، تلفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، لها ما سقط منهم». غريب من حديث نافع. والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته عن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩] أي: إنه لما فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح في حياة جده. وكذلك قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما. وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال: «هما ولدا إبراهيم». فمعناه: أن ولد الولد بمنزلة الولد؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام، إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، عليهم السلام: ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله تعالى. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جمع الله

له بين سعاده الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيّ والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ، قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قالته عائشة، رضي الله عنها، والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سماك بن حرب، عن أبي صالح ـ مولى أم هانىء ـ عن أم هانىء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، قال: «يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه». ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة عن أبي يونس القُشيري، حاتم بن أبي صغيرة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرف إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة، عن سماك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: الصفير، ولعب الحمام والجُلاهق، والسؤال في المجلس، وحل أزرار القباء. وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما استنصر لوط، عليه السلام، الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم، عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤوانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ـ وكانت حاضرة ـ فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة «هود» و«الحجر». فلما جاءت إبراهيم بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون، لعل الله يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك، ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، أي: اهتم بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة،

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب، عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]. ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة «الأعراف، وهود، والشعراء». وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعّدهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم. وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ الآية، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهتُ على هذا لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، قال: قوم نوح. وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جُرَيْج لم يدركه. ثم قد ذكر في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق. وقال قتادة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، قوم شعيب. وهذا بعيد أيضاً لما تقدم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه

شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها. ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به. إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال: عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل. وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابن سنان، عن عمرو بن مُرّة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية. ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعداً».

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد، حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سُئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فلا صلاة له». وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً» ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المسيب، عمن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً. فهذا موقوف.

قال ابن جرير: وحدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن جُويبر، عن الضحاك، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر» قال: وقال سفيان: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] قال: فقال سفيان: أي والله، تأمره وتنهاه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن جويبر، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مرّة: عن عبد الله ـ: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر». والموقوف أصح، كما رواه الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لعبد الله: إن فلاناً ليطيل الصلاة؟ قال: إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها. وقال ابن جرير: قال علي: حدثنا إسماعيل بن مسلم، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً». والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وقتادة، والأعمش وغيرهم، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير ـ يعني ابن عبد الحميد ـ عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر ـ شك الأعمش ـ قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي فإذا أصبح سرق، قال: «سينهاه ما يقول». وحدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه ـ ولم يشك ـ ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي

صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال جرير وزياد: عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش قال: أنا أبو صالح، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إنه سينهاه ما يقول». وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم. وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكلّ صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه. وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يقول: ولذكر الله لعباده أكبر، إذا ذكروه من ذكرهم إياه. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك. قلت: فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول: قال: وأي شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه. قال: صدق. قال: وحدثنا أبي، حدثنا النفيلي، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم. قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولاً عجباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس. وروي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]. قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف. قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية. وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً. وقال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة: أن أبا نملة الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ، جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «الله

أعلم». قال اليهودي أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله وكتبه، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم». قلت: وأبو نملة هذا هو: عُمَارة: وقيل: عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصاري، رضي الله عنه. ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدِّثون به غالبُه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة بن عمير، عن حُرَيْث بن ظُهَيْر، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية، تدعوه إلى دينه كتالية المال. وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عُبَيْدالله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ أحدث تقرؤونه محضاً لم يُشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حُميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ـ وذكر كعب الأحبار ـ فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك، كُلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزل الكُتُب على من قبلك ـ يا محمد ـ من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد. وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما. وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، أي: قد لبثت في قومك ـ يا محمد ـ ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه، عليه السلام، كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»: فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل ـ أعني الباجي، فيما يظهر عنه ـ أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال، عليه الصلاة والسلام، إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن»، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت، عليه السلام، حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ أي: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾، لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦]، وقال ها هنا: ﴿بَلْ هُوَ

ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء، يسّره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

وفي حديث عياض بن حمار، في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان». أي: لو غسل الماء المحلّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل، كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب، ما أحرقته النار». لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم». واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك، آياتٌ بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً لكم بيّن النذارة فعليّ أن أبلغكم رسالة الله و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». أخرجاه من حديث الليث. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن: ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: بياناً للحق، وإزاحة للباطل و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ثم قال تعالى: قل: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم

على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال ها هنا: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة، عن سِمَاك، عن عكرمة قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ﴾، قال: البحر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدثنا أبي عن مجالد، عن الشعبي؛ أنه سمع ابن عباس يقول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ﴾: وجهنم هو هذا البحر الأخضر، تنتثر الكواكب فيه، وتُكور فيه الشمس والقمر، ثم يستوقد فيكون هو جهنم. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حُيَي، حدثنا صفوان بن يعلى، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «البحر هو جهنم»، قالوا: ليعلى، فقال: ألا ترون أن الله يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، قال: لا، والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله، ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله ﷻ. هذا تفسير غريب، وحديث غريب جداً، والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

﴿يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقيَّةُ بن الوليد، حدثني جُبَير بن عمرو القرشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم». ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رحمه الله، آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيُوما ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة. ثم قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولاً، ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾: نعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده. قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذن، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه

زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معاتق الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غُرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة، والناس نيام. قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ حدثنا الجراح بن مِنْهَال الجزري ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أخبيء رزقاً لغد». وهذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف. وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، خرجوا وهم بيضٌ فإذا رآهم أبواهم كذلك، نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه، فيقيض الله له طيراً صغاراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعّاب في عُشه وجابر العَظْم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر، كقول النبي ﷺ: «سافروا تصحوا وترزقوا». قال البيهقي أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن ردّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا». قال: ورويناه عن ابن عباس. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن درّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا». وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً، وعن معاذ بن جبل موقوفاً. وفي لفظ: «سافروا مع ذوي الجدود والميسرة». وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين ـ الذين يعبدون معه غيره ـ معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم فـفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شركاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

﴿ٱلَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقـال هـا هـنـا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا يُنَجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضاً، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعنَّ يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، وكان كذلك. وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾: هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ ـ ٤]. وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه شيء. ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾، يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد ـ من أهل عكا ـ في قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر ـ قاضي الري ـ حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم، عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك. وفي حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

انتهى تفسير سورة العنكبوت،

ولله الحمد والمنة



(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس ، وهى سبعون أو تسع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

(وأوتيت من كل شىء) أو يحمل قوله (أكلها دائم) على أن زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (كل شىء هالك) يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم بالهلاك على الشىء فدل على أن الشىء فى كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئاً والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ فى تفسير الآية وفيها يتعلق بالتفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الأول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للثأر ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو أنه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة (وادع إلى ربك) وكان فى الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب ، لأن النبى عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال (أحسب الناس أن يتركوا) (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة (كل شىء هالك إلا وجهه) ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال (له الحكم وإليه ترجعون) يعنى ليس كل شىء هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله . إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فإنها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة فيها . فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه ، بل حسن التكليف ليثيب

www.besturdubooks.wordpress.com

الشكور ويعذب الكفور فقال (أحسب الناس أن يتركوا) غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ، ولنقدم عليه كلاماً كلياً فى افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع فى المقصود . إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلى ، وكن لى . وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خاف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه . ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر . ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد ، والغافل ينبه أولا فيقال إلا يازيد . إذا ثبت هذا فنقول إن النبى ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هى كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى إفادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولا مفهوماً فاذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه ، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى (الٓمٓ ذلك الكتاب) (الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب) ، (المصٓ كتاب أنزل إليك) ، (يسٓ والقرآن) ، (صٓ والقرآن) (قٓ والقرآن) ، (الٓمٓ تنزيل الكتاب) ، (حمٓ تنزيل الكتاب) إلا ثلاثة سور (كهيعصٓ) ، (الٓمٓ أحسب الناس) ، (الٓمٓ غلبت الروم) والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن ، فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منبه ، وأيضاً فقد ...

www.besturdubooks.wordpress.com

سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله (سورة أنزلناها) وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) لأنا نقول جواباً عن الأول لا ريب فى أن كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن) مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثانى أن قوله (الحمد لله ، وتبارك الذى) تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهى ، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح (وسورة أنزلناها) قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى (إنا أنزلناه)فنقول هذا ليس وارداً على مشغول القلب بشيء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهى ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله (إنا أنزلناه) الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه ، واعلم أن التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كما فى قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وقوله (ياأيها النبى اتق الله ، ويا أيها النبى لم تحرم) لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الإبتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكاليف والمعانى ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهى فان قيل مثل هذا الكلام ، وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى ؟ (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال (أحسب) وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى أول الكلام لا فى أثنائه ، وأما (ألم غلبت الروم) فسيجيء فى موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى إعراب (ألم) وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : (الأول) أنها نزلت فى عمار ابن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثانى)

www.besturdubooks.wordpress.com

أنها نزلت فى أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) أنها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى التفسير قوله (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم (آمنا وهم لا يفتنون) لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو فى قوله (أن يقولوا) فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أى تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الفوائد المعنوية وهى أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر « لا يزال العبد يتقرب إلى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله ، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، وللسان مصدقات هى الأعضاء ، ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان ، فلا بد له من شهود فاذا استعمل الأركان فى الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ، ويقرر فى أقسام المقربين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين ، بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

﴿ فائدة ثانية ﴾ وهى أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فان ما دونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً فى شغله ماضياً فى فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابداً مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة القساة ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشارة للمطيع الناهض (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون فى أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى (والذين أوتوا العلم درجات) (فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) .
وقال بضده للكسلان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى إذا قال آمنت ويتخلف

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

بالعصيان يترك ويرضى منه ، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم (آمنا) بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفى قوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وجوه : (الأول) قول مقاتل فليرين الله (الثانى) فليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله ، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيداً مثلا سيطيع وعمراً سيعصى ، ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شىء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى ، وهو أن المرآة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع فى ذهن أحد أن المرآة فى كونها حديداً تغيرت ، أو يقع له أنها فى تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن مكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شىء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) يعنى يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم (وليعلمن الكاذبين) يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ، وفى قوله (الذين صدقوا) بصيغة الفعل وقوله (الكاذبين) باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة ، وهى أن اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين (الذين صدقوا) بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر (الكاذبين) بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال (يوم ينفع الصادقين صدقهم) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن فى اليوم المذكور الصدق قد يرسخ فى قلب

www.besturdubooks.wordpress.com

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾

لما بين حسن التكليف بقوله (أحسب الناس أن يتركوا) بين أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب وإن لم يعذب فى الحال فسيعذب فى الإستقبال ولا يفوت الله شيء فى الحال ولا فى المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولوكان يعذب ماكان عاجزاً عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخرالعقاب فقال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإمهال فلا يفضى إلى الإهمال والتعجيل فى جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الإستعجال .

ثم قال تعالى (ساء ما يحكمون) يعنى حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيء فإن الحكم الحسن لايكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة .

ثم قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى ، وبين فى قوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) أن من ترك ماكلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا فى مواضع أن الأصول الثلاثة وهى الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبى المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل فى الذكر الإلهى بعضها عن بعض ، فقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) فيه إشارة إلى الأصل الأول يعنى أظنوا أنه يكفى الأصل الأول وقوله (وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى الأصل الثانى وقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) مع قوله (من كان يرجو لقاء الله) فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى أن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله (من كان يرجو لقاء الله) من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر ، فان كان هو الموت فهذا ينبىء عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل، أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلولم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال ، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (من كان يرجو) شرط وجزاؤه (فان أجل الله لآت) والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (وهو السميع العليم) ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول فى قوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) وسبق الفعل بقوله (وهم لا يفتنون) وبقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وبقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال (ممن كذب) وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى أن العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته (أحدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهما دافع ، بين أن طلب الله ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غني مطلقاً ليس شيء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له ، وذلك لأن من يفعل فعلا لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال (من جاهد فإنما يجاهد لنفسه) فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالإستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فاذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فإنما) يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريده ونفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لغني عن العالمين) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غني عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الإستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا في مكان وإنه محال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قادريته محتاجا إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غني ، نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلاشيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ماخلقه لعبد من عباده لاشيء عليه لاستغنائه عنه . وهذا يوجب الرجاء التام .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾

لما بين إجمالا أن من يعمل صالحاً فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال (والذين آمنوا) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للايمان لأن العطف يوجب التغاير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الايمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك في أن عروقها وأغصانها منها ، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان هو التصديق كما قال (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلا أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي ، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي ، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في [كتب] الأصول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي . إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما تعالى (كل شيء هالك) فبقاؤه لابد من أن يكون بشيء باق ، لكن الباقي هو وجه الله

www.besturdubooks.wordpress.com

لقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) فينبغى أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحاً ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذى أتى به المكلف مخلصاً لله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذا يقتضى أن تكون النية شرطاً فى الصالحات من الأعمال وهى قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية فى الصوم خلافاً لزفر ، وفى الوضوء خلافاً لأبى حنيفة رحمه الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى (العمل الصالح يرفعه) لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وههنا لطيفة ، وهى أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته . فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب» والتائب النادم بقلبه . وكذلك قوله عليه السلام «يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم» يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتى الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر فى مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن) فتكفير السيئات فى مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن فى مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضى أموراً (الأول) المؤمن لا يخلد فى النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الأخرى ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن فى العقبى ، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله (لنكفرن عنهم سيئاتهم) يستدعى وجود السيئات حتى تكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتمونى أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

إليكم ، لا يقتضى هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكلف إلا وله سيئة . أما غير الأنبياء فظاهر ، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله (ولنجزينهم أحسن) يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم . وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ماتكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقى ، وعلى الوجه (الثانى) معناه قريب من معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله (فله خير منها) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكر حال المسىء مجملا بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) إشارة إلى التعذيب مجملا . وذكر حال المحسن مجملا بقوله (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) ومفصلا بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله .

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضاً للمكلف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الانسان إن انقاد لأحد ينبغى أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شىء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى القراءة قرئ حسناً وإحساناً وحسناً أظهرهها ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾

لأجل الإحسان إليهما يفضى إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى إلى الاحسان حقيقة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فقوله (ماليس لك به علم) يعنى التقليد فى الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد فى الكفر ، فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلا ، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول ، فاذا لم يشرك تقليداً ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى عاقبتكم ومآلكم إلى ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر .

ثم قوله تعالى (فأنبئكم) فيه لطيفة وهى أن الله تعالى يقول لا تظنوا أنى غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتماداً على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم إياى فانى حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماالفائدة فى إعادة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة أخرى ؟ نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالا بقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً ومضلا فقوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) يقتضى أن يهتدى بهما وقوله (وإن جاهداك لتشرك) بيان إضلالهما وقوله (إلى مرجعكم فأنبئكم) بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله (والذين آمنوا) على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة لبيان حال المهتدى ، ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال (أولا) (لنكفرن عنهم سيئاتهم) ، وقال (ثانياً) (لندخلنهم فى الصالحين) والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء (ألحقنى بالصالحين)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية . والمعمول له وهو وجه الله باق ، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل فى معنى قوله (لندخلنهم فى الصالحين) لندخلنهم فى مقام الصالحين أو فى دار الصالحين والأولى أن يقال لاحاجة إلى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق إليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الانسان فانه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله (تعالى لندخلنهم فى الصالحين) أى فى المجردين الذين لا فساد لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ .

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بين القسم الثالث وقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (ومن الناس من يقول آمنا) ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التى بعده كقوله تعالى (فاذا أوذى فى الله) وقوله (جعل فتنة الناس) وذلك لأن المنافق كان يشبه

www.besturdubooks.wordpress.com

نفسه بالمؤمن ، ويقول إيمانى كإيمانك فقال (آمنا) يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال فى القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقين كان الواحد يقول (آمنا) أى أنا والمحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاذا أوذى فى الله) هو فى معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأوذوا فى سبيلى) وقال ههنا (أوذى فى الله) ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الايذاء إلى حد الاكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالايمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الانسان كالصبر على العبادات .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطنا ، بل فى باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال(ولئن جاء نصر من ربك)ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله (أوذى فى الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجىء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم فى الحقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملا على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أوذى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإن المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبيس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب ، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر ، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلمن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلمن الله الذى آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

والكافر ، والكافر فى قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن فى قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر ، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً وكان ههنا المنافق صادقاً فى قوله فانه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب فى المنافق فقال (وليعلمن المنافقين) واعتبر أمر القلب فى المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطايا كم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر فى الذل وعلى الإيذاء لأى شىء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الآمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أى إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، قال صاحب الكشاف : هو فى معنى قول من يريد اجتماع أمرين فى الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن منى الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أى ليكن منا الحمل وليس هو فى الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) فهناك نفى الحمل ، وههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبى عليه السلام « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شىء » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا فى هذا فانهم لا يحملون شيئاً .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

ثم قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾

فى الذى كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة فى الكفر ، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر ، فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم ، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبى وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك ، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبى عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفائدة فى ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبى عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الاسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً فى الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضاً كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغى أن يغتروا فان العذاب يلحقهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض العلماء الاستثناء فى العدد تكلم بالباقى ، فاذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة ، فكأنه قال على سبعة ، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة ، فما الفائدة فى العدول عن هذه العبارة إلى غيرها ؟ فنقول قال الزمخشرى فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريباً لاتحقيقاً ، فاذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هى أن ذكر لبث نوح عليه السلام فى قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالنبى عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذى فى أعلى مراتب الأعداد التى لها اسم مفرد موضوع ، فان مراتب الأعداد هى الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض الأطباء العمر الانسانى لايزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم . والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذى فى الانسان ممكن لذاته ، وإلا لما بقى ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهى إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فاذن البقاء ممكن فى ذاته ، فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقى هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لانزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعى لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهى ، وأما العمر الطبيعى فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلا عن مائة أو أكثر

قوله تعالى : ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

فيه إشارة إلى لطيفة وهى أن الله لايعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فان الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الاصرار على الظلم ، فقوله (وهم ظالمون) يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم .

قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾

فى الراجع إليه الهاء فى قوله (جعلناها) وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا فى كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء ، ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لايتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثانى) أنها راجعة إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين .

ثم قال تعالى : ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

لما فرغ من الاشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور ، و(الثانى) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و(الأول) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم ، والثانى أنه منصوب بمذكور وهو قوله (ولقد أرسلنا) فيكون كأنه قال وأرسلنا ابراهيم ، وعلى هذا فى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إذ قال لقومه) ظرف أرسلنا أى أرسلنا ابراهيم إذ قال لقومه لكن قوله (لقومه اعبدوا الله) دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الارسال ، ولما كان هو مشتغلا بالدعاء إلى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله (اعبدوا الله واتقوه) اشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفى غيره فقوله (اعبدوا الله) إشارة إلى الاثبات ، وقوله (واتقوه) اشارة إلى نفى الغير لأن من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال (اعبدوا الله) إشارة إلى الاتيان بالواجبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الأول الاعتراف بالله ، وفى الثانى الامتناع من الشرك ، ثم قوله (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) يعنى عبادة الله وتقواه خير ، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتباراً ، أما عقلا فلأن الممكن لابد له من مؤثر لايكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكا وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الإلهية ، وما به الاشتراك غير مابه الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، واما اعتباراً فلأن الشرف ان يكون ملكا أو قريب ملك ، لكن الانسان لايكون ملكا للسموات والأرضين

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى (واسجد واقترب). وقال «لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ماافترضت عليهم» وقال « لايزال العبد يتقرب بالعبادة إلى » فالمعطل لاملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلا ، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة ، فإذن من يقول إن ربى لايماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدى صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أى خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ، وإما لكونه نافعاً فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقعاً منه أمراً فى المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه . فقال إبراهيم (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) إشارة إلى أنها لاتستحق العبادة لذاتها لكونهاأوثاناً لاشرف لها .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إشارة إلى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل ، وهذا لأن النفع ، إما فى الوجود ، وإما فى البقاء لكن ليس منهم نفع فى الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع فى البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال (فابتغوا عند الله الرزق) فقوله (الله) إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله (الرزق) إشارة إلى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشرى قال (لايملكون لكم رزقاً) نكرة فى معرض النفى أى لارزق عندهم أصلا ، وقال معرفة عند الإثبات عندالله أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والرزق

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقاً) لعدم حصول العلم به وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به ، ثم قال (فاعبدوه) أي اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق (وإليه ترجعون) أي اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وإن تكذبوا) وفي المخاطب في هذه الآية وجهان : (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه (إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما علي من التبليغ ، فان الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان (والثاني) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكي لأي شيء حكيت هذه الحكاية فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفاً من التعذيب ، فقال في أثناء حكايتهم يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول في الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ أن قوله (فقد كذب أمم) كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (أحدهما) أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم (والثاني) أن نوحا عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما (البلاغ) وما (المبين) ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانة هي إقامة البرهان عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ .

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ، وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله (وما على

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ

الرسول إلا البلاغ المبين) شرع فى بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث . وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال (أو لم يروا كيف يبدىء الله) ؟ فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا ، فنقول العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد فى الأرحام ، ويخلقه من نطفة فى غاية الإتقان والإحكام ، فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية ، وقال (أولم يروا) أى ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً (كيف يبدىء الله الخلق) يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم ، فان من نحت حجارات ووضع شيئا بجنب شىء ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيئا بجنب شىء فى هذه النوبة أسهل على لأن الحجارات منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله (وهو أهون) وإليه الاشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال : أو لم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يك شيئا مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بإمكان الاعادة فان الاعادة مثله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم قال (ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فان الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحى القادر ، بقدرة كاملة ، لا يعجزه شىء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لا راد لما أراده ، يقطع بجواز الاعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

إن الله على كل شىء قدير ﴾
الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال (أو لم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال فى هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكرى ، وهذا لأن الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال : إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا فى الأرض ، أى سيروا فكركم فى الأرض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال فى الآية الأولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضى إلى الرؤية ، يقال نظرت فرأيت والمفضى إلى الشىء دون ذلك الشىء ، فقال فى الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الأرض لتحصل لكم الرؤية ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفى الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسى إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الأمر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبرز اسم الله فى الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدئ الله) وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال (ثم الله ينشئ) لأن فى الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يبدئ الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ، وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الانشاء ثانياً حيث قال (ثم الله ينشئ) مع أنه كان يكفى أن يقول : ثم ينشئ النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الاعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو فى قوله (كيف يبدئ الله الخلق) ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن

www.besturdubooks.wordpress.com

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

مذكوراً عند البدء فأظهره (وثانيهما) أن الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفى الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وفى الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه ، وفى الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله (قل سيروا فى الأرض) وعندهما تم الدليلان ،فأكده باظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثانى ، فلم يقل ثم الله يعيده .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدئ) وههنا قال بلفظ الماضى فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم ببدء الخلق ، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله فى كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً ، ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال فى هذه الآية (إن الله على كل شئ قدير) وقال فى الآية الأولى (إن ذلك على الله يسير) وفيه فائدتان (احداهما) أن الدليل الأول هو الدليل النفسى ، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لأنه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ، فتم علمه بأن كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين (إن الله على كل شئ قدير) وقال عند الدليل الواحد (إن ذلك) وهو إعادته (على الله يسير) (الثانية) هى أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثانى أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه ، فاذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول إن ذلك عليه سهل يسير ، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا فى الأرض لتعلموا أنه مقدور ، ونفس كونه مقدوراً كاف فى إمكان الاعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر مايكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة ، وإثابة أهل الانابة فضلا ورحمة ، وفى الآية مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكياً عنه «سبقت رحمتى غضبى» فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد ـ التهديد بقوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب) كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله (سبقت رحمتى غضبى) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصى و تفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله (يعذب من يشاء) لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه ، فنقول : هذا أبلغ فى التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى ، فانه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى ، ولنضرب له مثلا فنقول : إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه ، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع ، فلا يقدر على أيضاً لكونى مثله ، وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ، لأن الأمن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى إلى صيرورة المطيع عاصياً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ثم إليه تقلبون) مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها و تقريرها فلم أعادها ؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين ، فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات ، فان إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها (وما أنتم بمعجزين) يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الإنفلات منه ، وفى تفسير هذه الآية لطائف (إحداها) هى إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع ، وذكر الله القسمين فقال (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) يعنى بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك فى السماء أو هبطتم إلى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾

لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال (وما أنتم بمعجزين) ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط (الثالثة) قدم الأرض على السماء ، والولي على النصير ، لأن هربهم الممكن في الأرض ، فان كان يقع منهم هرب يكون في الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء ، وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقي إلى غيره ، والشفاعة أجمل . ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لأجله .

ثم قال تعالى : ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) إشارة إلى الكفار بالله ، فان لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته ، فاذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال (أولئك يئسوا من رحمتي) لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة . لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة ، فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفني فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلي ، فاذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر . ثم إن في الآية فوائد (إحداها) قوله (أولئك يئسوا) حتى يكون منبئاً عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً (وأولئك لهم عذاب أليم) لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله (أولئك) مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم ، فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

بقوله (أولئك يئسوا) فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله ، لأن الإيمان به لا يصح إلا ذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقى الأمر من جانبهم . إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم (اقتلوه أو حرقوه) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف سمى قولهم (اقتلوه) جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقابله بالجواب ، وإنما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الآمر نفس المأمور ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فاذا قال أعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعنى إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان

www.besturdubooks.wordpress.com

أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون (أو) مستعملا فى موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال الله تعالى (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أوزد عليه) فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقالته خلوا سبيله وإن أصر خلوا فى النار مقيله .

ثم قال تعالى (فأنجاه الله من النار) اختلف العقلاء فى كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى (يا نار كونى بردا) وبعضهم قال خلق فى إبراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ماهو عليه والنار على ماكانت عليه ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنسانى له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش . مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فان صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فاذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل فى الإنسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى ، والقطنة كما هى ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف ، فان النار فى الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التى كانت فى النار ، فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهى إلى حد لا يؤذى الانسان ، ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو أن فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثانى فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة ، ألا ترى أن الإنسان

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

إذا مس الجمد زماناً ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار فى إحراق يده مثل ما تؤثر فى إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا . فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغى أن يكون خارقا للعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يعنى فى إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى إنجاء نوح وأصحاب السفينة (جعلناها آية) وقال ههنا (لآيات) بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شئ تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (آية للعالمين) وقال ههنا (لقوم يؤمنون) خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار [فإنه] لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الايمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهى أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة فى إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (جعلناها) وقال ههنا (جعلناه) لأن السفينة ما صارت آية فى نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها ، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ماهم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فان بين بعضكم وبعض مودة

www.besturdubooks.wordpress.com

فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) أى مودة بين الأوثان وبين عبدتها ، وتلك المودة هى أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق .. والعاقل يحمل الألم الجسمانى ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة ، والألم العقلى . إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلى العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولا وراءهم ، ولا يكون جسما من الأجسام ، ولا شيئاً يدخل فى الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) يعنى يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ، ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتى ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون ، بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى (ومأواكم النار) ثم قال تعالى (وما لكم من ناصرين) يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم فى النار ولا ناصر لكم ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال قبل هذا (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع (وما لكم من ناصرين) والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أى للأوثان وعبدتها من ناصرين ، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله (ولا نصير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (ما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وما ذكر الولى ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أى ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا) والشفيع لا يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

له شفيع ، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به ، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (مالكم من دون الله) فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً وولياً هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا (ما لكم من ناصرين) من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا . لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم ، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم ، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة (يكفر بعضكم ببعض) وعدم الناصر عام لأن التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾

يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) إبراهيم (إنى مهاجر إلى ربى) أى إلى حيث أمرنى بالتوجه إليه (إنه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن إيذائى بعزته ، وحكيم لا يأمرنى إلا بما يوافق لكمال حكمته ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فآمن له لوط) أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية ، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل ، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر ، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالته ، وإما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته ، وإليه أشار بقوله (فآمن له لوط) وما قال فآمن لوط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما تعلق قوله وقال (إنى مهاجر إلى ربى) بما تقدم ؟ فنقول لما بالغ إبراهيم فى الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى (ولم يؤمنوا) وجبت المهاجرة ، لأن الهادى إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا ، وإذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (مهاجر إلى ربى) ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة ، فنقول قوله (مهاجر) إلى حيث أمرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله (إلى ربى) لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلانى ، ثم إن واحداً منهم سافر إليه لغرض [فى] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال (مهاجر إلى ربى) يعنى توجهى إلى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) أن أثر رحمة الله فى أمرين فى الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن فى الدار الآخرة قطعاً بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لاثباته الواحد ، ولكن هذا ليس بواجب الحصول فى الدنيا ، فان كثيراً ما يكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكر فى أمر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا ، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد فى دعاء النبى ﷺ ، قوله «وقنا عذاب الفقر والنار» فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل ، وأما الثواب العاجل ففى قوله (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) إذا علم هذا فنقول إن ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار . ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله (ووهبنا له اسحاق ويعقوب) وفى الآية لطيفة : وهى أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم فى الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثر ماله حتى كان له من المواشى ما علم الله عدده ، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد إن كان خاملا . حتى قال قائلهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وهذا الكلام لا يقال إلا فى مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فان كون العبد صالحاً أعلى مراتبه ، لما بينا أن الصالح هو الباقى على ما ينبغى ، يقال الطعام بعد صالح ، أى هو باق على ما ينبغى ، ومن بقى على ما ينبغى لا يكون فى عذاب ، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

لحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال هو مذكور فى قوله (وجعلنا فى ذريته النبوة) ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر . كما يقول القائل إن السلطان فى خدمته الملوك والأمراء الملك الفلانى والأمير الفلانى ولا يعدد [الكل] لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى جعل فى ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى بين ولديه ، فكيف صارت النبوة فى أولاد اسحاق أكثر من النبوة فى أولاد اسماعيل ؟ فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس جمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحداً بعد واحد ، ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد اسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسماعيل مثل ذلك المقدار .

ثم قال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أئنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ .

الإعراب فى لوط ، والتفسير كما ذكرنا فى قوله (وإبراهيم إذ قال لقومه) وههنا مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله) وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه (لتأتون الفاحشة) فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها

www.besturdubooks.wordpress.com

ههنا ذكرها الله على سبيله الاختصار ، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله فى موضع آخر حيث قال (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم . وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فان ابراهيم لم يظهر ذلك [فى زمنه] ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم سمى ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لاتحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فانه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى إلى بقاء النوع ، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضى إلى وجود الولد ولكن لايفضى إلى بقائه ، لأن المياه إذا اشتبهت لايعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فاذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لاتستره المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضى إلى وجود الولد ولكن لا يفضى إلى بقائه ، فاللواطة التى لاتفضى إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة ، لأنها مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا ، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم ، وقوله (ماسبقكم بها من أحد) يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، (والثانى) أن قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء فى البخل ، وسبق اللئام فى اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بياناً لما ذكرنا ، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى (أتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله (وتأتون فى ناديكم المنكر) يعنى ما كفا لم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الاظهار ، وقوله (فما كان جواب قومه) فى التفسير ، كقوله فى قصة إبراهيم (وما كان جواب قومه) وفى الآية مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ الأولى ﴾ قال قوم إبراهيم (اقتلوه أو حرقوه) وقال قوم لوط (ائتنا بعذاب الله) وما هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى . والقدح فى الدين صعب ، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ، فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فان قيل إن الله تعالى قال فى موضع آخر (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) وقال ههنا (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا) فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الارشاد مكرراً عليهم التغيير والنهى والوعيد ، فقالوا أولا ائتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله (فقال رب انصرنى على القوم المفسدين) فان الله لا يحب المفسدين ، حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يعنى المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم ، فإنهم يضلون فى الحال وفى المآل فانهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع . فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالا ومآلا ، فعدمهم صار خيراً ، فطلب العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾

لما دعا لوط على قومه بقوله (رب انصرنى) استجاب الله دعاءه ، وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعنى أهل سدوم ، وفى الآية لطيفتان : (إحداهما) أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ،

www.besturdubooks.wordpress.com

لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالاهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الانذار . وقال (جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم قال (إنا مهلكوا) (الثانية) حين ذكروا البشرى ماعللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا (إن أهلها كانوا ظالمين) لأن ذا الفضل لايكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

﴿ والثانية ﴾ قال فى قوم نوح (فأخذهم الطوفان) وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال (إن أهلها كانوا ظالمين) ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضى حيث قال (فأخذهم) وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون ، وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا (إنا مهلكوا) فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه فى إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا ، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فان الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفاقاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا (إنا مهلكوا) وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعنى نعلم أن فيهم لوطاً فلننجينه وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعنى إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيراً . أما إبراهيم فلما سمع قول الملائكة (إنا مهلكوا) أظهر الإشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحاً ، وقال (إن فيها لوطاً) ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين ، وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك فى الماضى ، وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أى باق . وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق فى قولهم (إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة (إنها

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

من الغابرين) أى الماضى ذكرهم لا من الذين تنجى منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا (إنها من الغابرين) أى من الرائحين الماضين لامن الباقين المستمرين ، وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل فى الهلاك إلا من ننجى منه فقالوا إنا ننجى لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾.

ثم إنهم جاؤا من عند ابراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى جاءه ماساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز فى تدبيرهم ، قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى مالا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولا غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الانسان ، فكان الانسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الأمر قالوا لاتخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لاتخف لايوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم (إنا منجوك وأهلك) وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى قال من قبل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم) وقال ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهى أن الواقع فى وقت المجىء هناك قول

www.besturdubooks.wordpress.com

الملائكة (إنا مهلكوا) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا ، ثم قالوا إنا مهلكوا وأيضاً فالتأنى واللبث بعد المجيء ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجيء به ، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم ، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغى أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير ، إذا علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجيء ، فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت فى سورة هود ، وقال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) من غير أن ، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) فقوله هنالك (ولقد جاءت) لايدل على أن قولهم (إنا أرسلنا) كان فى وقت المجيء . وقوله (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم) دل على أن حزنه كان وقت المجيء . إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية إبراهيم (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ، ثم قالوا (لا تخف) ولا تحزن (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فحصل تأخير الانذار ، وبقوله فى حكاية لوط (ولما جاءت رسلنا) حصل بيان تعجيل الحزن ،وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم (ولما جاءت) قال فى حكاية لوط (ولما أن جاءت) لما ذكرنا من الفائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هنا (إنا منجوك وأهلك) وقال لابراهيم (لننجينه) بصيغة الفعل فهل فيه فائدة ؟ قلنا ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، والذى يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم (إن فيها لوطاً) وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم ، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا (إنا منجوك) أى ذلك واقع منا كقوله تعالى (إنك ميت) لضرورة وقوعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قولهم (لاتخف ولا تحزن) لايناسبه (إنا منجوك) لأن خوفه ما كان على نفسه ، نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن ، وهى أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لاتخف علينا ولا تحزن لأجلنا فانا ملائكة ، ثم قالوا له : يالوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ، ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع فى أهلك فقالوا (إنا منجوك وأهلك) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم ، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) واختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم حجارة

www.besturdubooks.wordpress.com

وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا (إنا منجوك) ثم قالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية) ولم يعللوا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الاهلاك بقولهم (بما كانوا يفسقون) وقالوا بما كانوا ، كما قالوا هناك (إن أهلها كانوا ظالمين) ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل :

﴿ إحداها ﴾ جعل الله الآية فى نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية) وقال (فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات) وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم، أما إبراهيم فلأن الآية كانت فى النجاة لأن فى ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما فى نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهى ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقى آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس فى البلاد فجعل الآية الأمر الباقى وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة فى الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى السفينة (وجعلناها آية) ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لأن الانجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع فى وهم جاهل أن الانجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفى زمان دون زمان ، فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك للعالمين وقال ههنا (لقوم يعقلون) قلنا لأن السفينة موجودة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاه ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى طلباً للنجاة ، وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المريد، بسبب اختصاصه بمكان ، دون مكان ووجوده فى زمان بعد زمان .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾

لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع فى الثالثة وقال (وإلى مدين أخاهم) واختلف المفسرون فى مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل فى الأصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر فى القوم ، والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال (ولما ورد ماء مدين) ولو كان اسماً للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل فى الاضافة التغاير حقيقة ، وقوله (أخاهم) قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الله تعالى فى نوح (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك فى إبراهيم ولوط ، وههنا ذكر القوم أولا وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل فى جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولا إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبى فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟ قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفى زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضاً فى التوحيد فبدأ به وقال (اعبدوا الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله

www.besturdubooks.wordpress.com

ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله (اعبدوا الله) ؟ فنقول : هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيداً وعمرو هناك وهو أكبر أوهو سيد زيد، فاذا قال له اخدم عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيداً ، فاذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لانعطه زيداً ، فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب (اعبدوا الله) ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها فى عبادة غيرالله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهوعبادة الله ففهم منه التوحيد ، ثم قال (وارجوا اليوم الآخر) قال الزمخشرى معناه افعلوا ماترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا . وقوله (وارجوا اليوم الآخر) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا يدل على صحة مذهبنا ، فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لايلزم المنعم أن يزيده ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ،فنقول قوله (وارجوا اليوم) بعد قوله (اعبدوا الله) يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وارجوا اليوم الآخر) ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال (اعبدوا) ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى فى حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، وأما فى الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أى قياماً ويكون قوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) كقول القائل إجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهى فى قوله (اعبدوا الله) وقوله (ولا تعثوا) ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما حكى عن شعيب أمر ونهى والأمر لا يصدق ولا يكذب ، فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال ههنا وفى الأعراف (فأخذتهم الرجفة) وقال فى هود (فأخذتهم الصيحة) والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فان قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافى الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوى ، وأن يقال شرب فقوى فى صورة واحدة .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ حيث قال (فأخذتهم الصيحة) قال (فى ديارهم) وحيث قال (فأخذتهم الرجفة) قال (فى دارهم) فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الالتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهى أن الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة فى الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها . والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا فى الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا فى ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾

ثم قال تعالى (وعاداً وثمود) أى وأهلكنا عاداً وثمود لأن قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) دل على الإهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى عبادتهم لغير الله (وصدهم عن السبيل) يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبل . ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفاً عليهم أى : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا

ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود (وكانوا مستبصرين) أى بالرسل ، ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الأرض) إشارة إلى مايوضح قلة عقلهم فى استكبارهم ، وذلك لأن من فى الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن فى السماء أقواهم ، ثم إن من فى السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف [يستكبر] من فى الأرض . ثم قال تعالى (وماكانوا سابقين) أى ماكانوا يفوتون الله لأنا بينا فى قوله تعالى (وما انتم بمعجزين فى الأرض) أن المراد أن أقطار الأرض فى قبضة قدرة الله .

ثم قال تعالى: ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج ، فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذى على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس ، والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء . فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فاذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ماهو منه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى (وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ماكان يظلمهم أى ماكان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته .

ثم قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ .

لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ، ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لا يجير آوياً ولا يريح ثاوياً ، وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه

(الأول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين . إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فان لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لايجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فان لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع ، فان من لايكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء ، فاذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء . (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب . والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار . والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيئاً يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير ، فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد ، فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فان العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب ، فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما أن هذا المثل صحيح في الأول فهو صحيح في الآخر ، فان بيت العنكبوت إذا هبت ريح لايرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً ، فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

ثم قال تعالى : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبيته يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون) .

ثم قال تعالى : ﴿ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾

قال الزمخشري : هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم . فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلا ، وهذا يفهم منه أنه جعل مانافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه مايدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم ، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى هذا لو قال قائل ماوجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت، فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري ، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي ، فقال الله تعالى الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾

قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فاذا قال الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يعنى حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكمى وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهر أو كون المدرك عاقلا ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلابد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هذا فقوله (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها ومافيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان . ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبرة وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

يعنى إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم ، فان خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفى الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهى أن الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى أن قال - لآيات لقوم يعقلون) فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى (ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال (ولئن سألتهم من خلق السموات الأرض ليقولن الله) وأما العقل فهو أن العاقل أول ماينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم ن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما تقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون اطلا ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

فيقول لايعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الأرض ولا فى السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات . فيجوز بعث من فى القبور وبعثة الرسول ، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه ، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله :

بقوله تعالى ﴿أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ .

يعنى إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى إليك لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال (اتل) وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك ، فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام . وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج إليه الرعية فى جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال . فمثل هذا الكتاب لايقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت فى الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لاتكره قراءته إلا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لايقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لايقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئموه ، وكتاب لايكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضا لنفس المتكلم فان كثيراً ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ

www.besturdubooks.wordpress.com

حتى يكاد يبكي من رقته دماً ولو أورثه البكاء عمى ، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان فى تلاوته فى كل زمان فائدة .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين (أحدهما) أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله . فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إلى وأقم الصلاة لوجهى (الوجه الثانى) هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية خارجية وهى العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لايتكرر فان من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبى عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر ممكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك . فأمره بهما فقال : اتل الكتاب وأقم الصلاة .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أى فيه النهى عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة فى هذا الموضع الذى قال قبله (اتل ما أوحى إليك) بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهى تنهى عنهما مادام العبد فى الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملا للصلاة ، لأن غيرها من الأشغال كثيراً مايكون كذلك كالنوم فى وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هى التى تكون مع الحضور وهى تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن المعاصى لم يزدد بها إلا بعداً » ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الأمرين مطلقاً وهى التى أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لاتصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لايصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الأول) هو أن من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لايتصور قبوله ، وفاته الخبر بحيث لايرجى حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفا أن يترك خدمة الملك ويدخل فى طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صارعبداً له ، وحصل له منزلة المصلى يناجى ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثانى) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لايباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج

www.besturdubooks.wordpress.com

مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدى الله واضع يمينه على شماله ، على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم ، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر . ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا فى ذلك الموضع ، فلو أراد أن يجلس فى صف النعال لا يترك . فكذلك العبد إذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقى والنادى والمتعيش لا يبالى بما فعل من الأفعال يأكل فى دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطى ماكان يفعله ، فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى (واسجد واقترب) فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصى والمناهى ، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر ، وفى الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله . فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شىء إلا وفيه آية على الله ، ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول) فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوز أن يكون له ولد ، ولداً كيف لا يكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع فى الصلاة يقول الله أكبر ، فبقوله الله ينفى التعطيل وبقوله أكبر ينفى التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فاذا قال بسم الله نفى التعطيل ، وإذا قال الرحمن الرحيم نفى الإشراك ، لأن الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة ، والرحيم من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يعطى البقاء بالرزق بالرحمة . فاذا قال الحمد لله رب العالمين ، أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله (رب العالمين) خلاف الإشراك . فإذا قال (إياك نعبد) بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله (وإياك نستعين) فإذا قال (إهدنا الصراط) نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له ، وبقوله (المستقيم) نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم رعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفى الإشراك والتعطيل ، وههنا لطيفة وهى أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله (أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلى أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقى من الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء فى آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير . لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع فى قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول . كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين يدى السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه بالإجلاس ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه لجثا ، وفى هذا الجثو لطيفة وهى أن من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لا يكون له جثو فى الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله فى حقهم (ونذر الظالمين فيها جثياً) .

ثم قال تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال (ولذكر الله أكبر) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم ، وفى قوله (ولذكر الله أكبر) مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهى أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ
﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ
وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال فى الصلاة الله أكبر أى له الكبر لا لغيره .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أى إذا ظلموا زائداً على كفرهم ، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى فى حقهم (صم بكم عمى) وقال (لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) إلى غير ذلك . وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبى عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم ، بخلاف المشرك ، ثم على هذا فقوله (إلا الذين ظلموا) تبيين له حسن آخر ، وهو أن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة . فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون ، لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضىء ، ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسياً فقال (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ، ثم قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ، واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله (هؤلاء) صرفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا ، إذكان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقـــل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الأنبياء ، فان الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء ، كما قال تعالى(أولئك الذين آتيناهم الكتاب) وقال (وآتينا داود زبوراً) وقال (وآتانى الكتاب) وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله ابن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عدداً قليلا ، ويكون المراد بقوله(ومن هؤلاء)غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيـان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم فى وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف فى الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف فى فضيلة الرؤساء والملوك ، فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتـال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى ﷺ نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ، ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعنى أنكم آمنتم بكل شىء ، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم ، فان الجاحد بآية يكون كافراً .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ماتقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيهـا كقول القائل : الزكاة تجب فى مال الصغير ، فاذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة فى ماله ، ولا يذكر أولا الجامع بينهما ، فان قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله (وكذلك أنزلنا إليك) ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلا ، وقوله تعالى (إذن لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف ، وهو أن النبى إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فان جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل فى الإبطال وهذا كقوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله (الم ذلك الكتاب لاريب فيه) .

ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبى وخاطرى ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه فى قلبى وصدرى ، فاذا قال (فى صدور الذين أوتوا العلم) لا يكون من صدر أحـــد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الآمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال ههنا الظالمون ، ومن قبل قال الكافرون ، مع أن الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه فائدة ، وهى أنهم قبل بيـان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هنـاك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون فى أول الأمر بالمشركين حكما ، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أى مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ .

ثم قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنانذير مبين ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهى بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك لأن موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله (إنما الآيات عند الله) ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله ، ثم إن توقف الخلق فى قبوله أو طلبوا منه دليلا ، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها ، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشئ إذا خلق الله الشئ لابد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي . ونعلم بها كونك نبياً ونؤمن بك . فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

ثم قوله (وإنما أنا نذير مبين) معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بى ما أنا إلا نذير وليس لى عليه حكم بشئ ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ، وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم مافى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

فقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى إن كان إنزال الآية شرطاً

www.besturdubooks.wordpress.com

فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله (أو لم يكفهم) عبارة تنبيء عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبيء عن أن ترك الضرب فى حقه كثير فكذلك قوله (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثانى) هو أن قلب العصا ثعباناً كان فى مكان واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهى أن آيات النبى عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدت الكنيسة بالروم فى قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال (إن فى ذلك لرحمة) إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق فى ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكرى) إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعنى هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقى وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بينى وبينكم ، كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريراً وتأكيداً ، ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء . فقال (يعلم ما فى السموات والأرض) وههنا مسألة : وهى أن الله تعالى قال فى آخر الرعد (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفى هذه السورة قدمها حيث قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) ومن هؤلاء من يؤمن به أى من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم

www.besturdubooks.wordpress.com

إن شهادة الله أقوى فى إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب . وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

ثم إنه تعالى لما بين الطريقين فى إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لأن ماسوى الله باطل لأنه هالك بقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) وكل ماهلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (أولئك هم الخاسرون) يقتضى الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتى بأحدهما دون الآخر ينبغى أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتى بالايمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله لجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلا بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبى من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمى حجارة ، فقال إن رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذى هو الله ليس بإله فيكون كفراً به ، وهذا لايرد علينا فيمن يقول . فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فانه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم يرعين راميها ، فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لايقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامى الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾

حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله .

ثم قوله (هم الخاسرون) كذلك بأتم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شىء ما أصلا من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها .

ثم قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له فى مقابلة قدر الخسران شىء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغى أن يكون حصل له فى مقابلة الدرهم مايساوى نصف درهم ، وإلا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم ، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله (وأولئك هم الخاسرون) تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحيما لا يكون غضوباً منزعجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه ، كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسؤلهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أى الأجل ، لأن الآتى بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة ، وقد ذكرنا أن فى كون العذاب أو الأجل آتياً بغتة حكمة ، وهى أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام

www.besturdubooks.wordpress.com

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يفيد فائدة مستقلة ، وهى أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلا .

ثم قال تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدنى به ، فقال ههنا (يستعجلونك بالعذاب) والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فقوله (ويستعجلونك) أولا إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم ، فقال تعالى :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ الأولى ﴾ لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التى تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ولم يقل من فوق رءوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرءوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلهذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطفىء بالدوس وما فوق على الإطلاق

ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياه سبباً لعذابهم ، وهذا كثير النظير فى الاستعمال .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ .

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) إن تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال، وبهذا علم أن الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب ، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، و[ر]دع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ (ياعبادى) لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فيه لوجوه : (أحدها) أن من قال فى حقه (عبادى) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله (ياعبادى) (الثانى) هو أن الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسماً عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) والخليفة أعظم الناس مقداراً وأتم ذوى البأس اقتداراً ،ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى (فأزلهما الشيطان) ثم إن من أولاده الصالحين من سمى بعبادى فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل ، كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال هو بلسانه (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك) فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى فى حقه عبدى وعندما ناداه بقوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) واجتباه بهذا النداء ، كما قال فى حق داود (واذكر عبدنا داود ذا الأيد)إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل فى قوله (ياعبادى) إلا المؤمن (الثالث) هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى (قال ادعونى أستجب لكم) فالمؤمن دعا ربه بقوله (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) فأجابه الله تعالى بقوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول ياعبادى غير المؤمنين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان عبادى لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة فى قوله (الذين آمنوا)

www.besturdubooks.wordpress.com

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تمييزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ قال (ياعبادى) فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الأمر بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان (إحداهما) المداومة أى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى فى المستقبل (الثانية) الإخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولا تعبد غيرى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء فى قوله (فاياى) تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك ؟ فنقول قوله (إن أرضى واسعة) إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتى فاعبدونى ، وأما الفاء فى قوله تعالى (فاعبدون) فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله (فإياى) وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال العبد مثل هذا فى قوله (إياك نعبد) وقال عقيبه (وإياك نستعين) والله تعالى وافقه فى قوله (فإياى فاعبدون) ولم يذكر الإعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله (ياعبادى) لأن المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الإعانة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فان الغرض سابق على الفعل فى الإدراك ، وذلك لأن من يبنى بيتاً للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض فى الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود ، فان الإعانة قبل العبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لابد من وقوعه (فان كل نفس ذائقة الموت) والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه ، فان إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ، وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى (لا يذوقون فيها الموت) إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فان

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾

النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله (كل نفس ذائقة الموت ، وكل شيء هالك إلا وجهه) فإذاً التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى (فإياى فاعبدون) أى تعلقوا بى ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت (ثم إلينا ترجعون) أى إذا تعلقتم بى فموتكم رجوع إلى وليس بموت كما قال تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء) وقال عليه السلام « المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار إلى دار » فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ .

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فبين أن للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجرى من تحتها الأنهار فى مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) فى مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر فى العذاب أن فوقهم عذاباً أى ناراً ، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر فى الدرك الأسفل من النار ، فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

وأما قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) لا ينافى لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن فى مسامتة الأقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذاً به ، فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا (نعم أجر العاملين) لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

بعده ، فان من قال لأجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه ، وأما إذا قال ما أتم أجرتك عندى أو نعم مالك من الأجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك (ذوقوا ما كنتم تعملون) فان قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم فى النعم وإليه الاشارة بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى الذى يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ، وأما الخلود وإن لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لاتدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشىء ، بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى فى الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه فى الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فان فاته شىء فانه يتوكل على حى باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فان قوله (ياعبادى) كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها . فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الاخوان ، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر مايعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيئاً لغد . ويأتيها كل يوم برزق رغد . وفى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كأين لغات أربع [لا] غير هذه [و] كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكى على دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كأى

www.besturdubooks.wordpress.com

يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون ، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل ، وحينئذ لا يكون كأى مركباً ، فاذا كان كأى ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولا للفرق . وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها وبين ثمت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادراً وكم يستعمل كثيراً من غير من ، يقال كم رجلا وكم من رجل ، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة ، وذلك لأن كأى إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل ، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق . قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها وإياكم) بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا ، فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق ، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق ، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظماً ولحماً وشحماً ، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذى يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق ، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك ، فان كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك ، فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية يجدها غداً ، ما مد إليه أحد يداً ، والانسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شىء ؟ وأيضاً حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة ، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدح فى التوكل ، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل ، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع ، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ، ومن يصلى وقلبه مع ما فى يد زيد وعمرو هو غير متوكل . وأما قوله حاجات الإنسان كثيرة ، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً ، فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج ، وبرجله كالساعى وغيره ، وبعينه كالناطور ، وبلسانه كالحادى والمنادى ، وبفهمه كالمهندس والتاجر ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)

وبعلمه كالطبيب والفقيه ، وبقوة جسمه كالعتال والحمال ، والحيوان لامكاسب له ، فالرغيف الذى يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل . وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فان الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى ، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل فى الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شاؤا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلا ، فان الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فاذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال (وهو السميع العليم) سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

نقول لما بين الله الأمر للمشرك مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله (ياعبادى الذين آمنوا) وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن ، فان السيد إذا كان له عبدان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولا المفسد ، فان لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفى الآية لطائف (إحداها) ذكر فى السموات والأرض الخلق ، وفى الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ماحصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فاذاً الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافياً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين ، فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر ما يتنفس الانسان

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات ، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب فى كل يوم وليلة مرة ، والأخرى حركتها من المغرب الى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ، ولولا الحركة التى من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لابعد فى ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة الى إيجاد الصفات وهى الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ، ثم قال تعالى (فأنى يؤفكون) يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجماد ، لأن الجماد دون الحيوان ، والحيوان دون الانسان ، والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾

قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذى خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولى الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً وقوله (لمن يشاء) إشارة إلى كمال الاحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئاً ، فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟

(ان الله بكل شيء عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفى إثبات العلم ههنا لطائف (إحداها) أن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الاطعام والطعام لايكون بعد قد استوى ، أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً ، وقد استوفى الأربع ، لأن قوله (خلق السموات والأرض) إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله (يبسط الرزق لمن يشاء) إشارة الى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله (إن الله بكل شيء عليم) إشارة إلى شمول علمه ، والقادر المريد العالم لايتصور إلا حياً ، ثم إنه تعالى لما قال (الله يبسط الرزق) ذكر اعترافهم بذلك . فقال :

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾

يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب ، فالرزق من الله ، ثم قال تعالى (وقل الحمد لله) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون كلاما معترضاً فى أثناء كلام كأنه قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى أثناء هذا الكلام (الحمد) لذكر النعمة ، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاماً متصلا ، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون ، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لايعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم (فقل الحمد لله) على ظهور تناقضهم (وأكثرهم لايعقلون) هذا التناقض أو فساد هذا التناقض .

ثم قال تعالى : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

www.besturdubooks.wordpress.com

يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

لو كانوا يعلمون ﴾ .

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفرق بين اللهو واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) أن كل شغل يفرض ، فان المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو ، فالدنيا لعب أى إقبال على الباطل ، ولهو أى إعراض عن الحق (الثانى) هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لامحالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثانى لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لاتسمى آلات الملاهى فى العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهى لأنها تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة ، وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى فى سورة الأنعام (وما الحياة الدنيا) ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا (وما هذه) فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى (فأحيا به الأرض من بعد موتها) فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال (ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال (وما الحياة الدنيا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (إلا لعب ولهو) وقال ههنا (الا لهو ولعب) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس إلى الاقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هناك (وللدار الآخرة خير) وقال ههنا (وإن الدار الآخرة

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

لهى الحيوان) فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ماكان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال لاحياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال فى أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً لحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشىء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال هناك (خير للذين يتقون) ولم يقل ههنا إلا لهى الحيون ، لأن الآخرة خير للمتقى لحسب أى المتقى عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية ، فكأنه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أطلق عليها الإسم المستعمل فى النامى المدرك .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال فى سورة الأنعام (أفلا تعقلون) وقال ههنا (لو كانوا يعلمون) وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجاهم عادوا إلى ماكانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن اللام لام كى ، أى يشركون ليكون إشراكهم كفراً بنعمة الإنجاء ، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثانى) أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد ، كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) وكما قال (اعملوا على مكانتكم إنى عامل

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

فسوف تعلمون) فساد ما تعملون .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون ﴾ .

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الانسان فى البحر يكون على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما إذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عندالخوف الشديد ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الأمن العظيم وهى كونهم فى مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم ، وهى حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعنى أنكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ماحصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لاغير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لاتكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟ والأصنام التى قطعتم فى حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها فى حال الأمن ؟ .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم على ما بين وضع الشىء فى غير موضعه ، فاذا وضع واحد شيئاً فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالماً فاذا وضعه فى موضع لايمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الامكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لايحصل وليس كل مالايحصل لايمكن ، فالله تعالى لايمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلماً يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لايمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظلماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله؟ فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بالالهية ، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة ، والآية تحتمل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى إنى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبىء ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن (جهنم مثوى للكافرين) والمتنبىء كافر ، وأنتم كذبتمونى فجهنم مثواكم إذ هى مثوى للكافرين ، وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنه (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى ما قال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقوله (لنهدينهم) إشارة الى الحسنى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكمى وهو أن يكون المعنى (والذين جاهدوا فينا) أى الذين نظروا فى دلائلنا (لنهدينهم سبلنا) أى لنحصل فيهم العلم بنا . ولنبين هذا فضل بيان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله يخلق فى الناظر علماً عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة ، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال (إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين) الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشىء كيف يطلبه فقوله (ومن أظلم) إشارة إلى الأول وقوله (والذين جاهدوا فينا) إشارة إلى الثانى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى الثالث .

والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين.

www.besturdubooks.wordpress.com

٢٩ — سورة العنكبوت

(مكية وهى تسع وستون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الم ﴿١﴾ ٢٩ العنكبوت

أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ٢٩ العنكبوت

﴿سورة العنكبوت﴾

مكية وهى تسع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) الكلام فيه كالذى مر مراراً فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن ١
مابعده لا يحتمل أن يتعلق به تعلقاً إعرابياً (أحسب الناس) الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل ٢
بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شىء لشىء أو انتفاء شىء عن شىء بحيث يتحصل منها مفعولاه إما بالفعل كما
فى عامة المواقع وإما بنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بأن والواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى
فإن كلا منها صالحة لأن يسبك منها مفعولاه لأن قوله تعالى أحسب الناس (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم ٭
لا يفتنون) فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا
تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققاً والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى
يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب
فى الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب
مراتب أعمالهم فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى
أنها نزلت فى ناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين جزعوا من أذية المشركين وقيل فى عمار
قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر
فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله ﷺ سيد الشهداء
مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) متصل بقوله تعالى ٣
أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى أن ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الأمم
كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها والمعنى أن الأمم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد
مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم
فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات وعن النبى ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ٢٩ العنكبوت

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ٢٩ العنكبوت

على رأسه فيفرق فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب
مايصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء
لترتيب مابعدها على مايفصح عنه ماقبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات إلى الاسم
الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فو الله ليتعلقن علمه
بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا فى الإيمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون
على الكذب ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن أو ليجازين وقرىء
وليعلمن من الأعلام أى وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه
٤ وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى
أعمالهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل
للإضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حسبانهم متروكين غير مفتونين إلى التوبيخ بإنكار ماهو أبطل من
الحسبان الأول وهو حسبانهم أن لايجازوا بسيئاتهم وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا
نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصى ولم يتفكروا فى العاقبة نزلوا منزلة من يطمع فى ذلك كما فى
قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده (ساء مايحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكماً يحكمونه
٥ حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) أى يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل
يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول
إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده
بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ماكان يأتى ويذر فإما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله
أو بضده لما سخطه (فإن أجل الله) الأجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لأمر من الأمور وقد يطلق
على كل ذلك الزمان والأول هو الأشهر فى الاستعمال أى فإن الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت)
لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائماً فلابد من
إتيان ذلك الجزاء أيضاً البتة وإتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتماً والجواب محذوف أى فليختر من
الأعمال مايؤدى إلى حسن الثواب وليحذر مايسوقه إلى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان يرجو
لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً وفيه من الوعد والوعيد مالايخفى وقيل فليبادر إلى
مايحقق أمله ويصدق رجاءه أو مايوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم
٦ من الأعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عز وجل (فإنما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ٢٩ العنكبوت

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ٢٩ العنكبوت

إليها (إن الله لغنى عن العالمين) فلاحاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته
٧ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالإيمان والمعاصى بما يتبعها من
الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم لا جزاء أحسن أعمالهم فقط
٨ (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) أى بإيتاء والديه وإيلائهما فعلا ذا حسن أو ماهو فى حد ذاته حسن
لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسناً ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير أنه يستعمل
فيما كان فى المأمور به نفع عائد إلى المأمور أوغيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسن بوالديك حسناً
وقيل انتصاب حسناً بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما حسناً وهو
* أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرىء حسناً وإحساناً (وإن جاهداك لتشرك بى ماليس
لك به علم) أى بالهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها للإيذان بأن مالا يعلم صحته لايجوز اتباعه وإن لم يعلم
* بطلانه فكيف بما علم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك فإنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من إضمار
القول إن لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكاليف إشعار بأن موجب النهى
فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية (إلى مرجعكم) أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن
* بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر
والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عند إسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت أبى سفيان
ابن أمية أن لا تنتقل من الضح إلى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا
التى فى سورة لقمان وسورة الأحقاف وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع
عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لأمه أسماء فنزلا بعياش
وقالا له إن من دين محمد ﷺ صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى
بيتاً حتى تراك فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك
ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال عمر رضى الله
عنه أما إذ عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء
قال أبو جهل إن ناقتى قد كلت فاحملنى معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل
٩ واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين آمنوا وعملوا

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ٢٩ العنكبوت

الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات
المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك
فى عبادك الصالحين وقال فى حق إبراهيم عليه السلام وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أو فى مدخل الصالحين
١٠ وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله) أى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة
على الإيمان (جعل فتنة الناس) أى ما يصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) فى الشدة والهول فيرتد عن الدين
مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح وغنيمة (ليقولن)
بضم اللام نظراً إلى معنى من كما أن الإفراد فيما سبق بالنظر إلى لفظها وقرىء بالفتح (إنا كنا معكم)
أى مشايعين لكم فى الدين فأشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار
وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين)
أى بأعلم منهم بما فى صدورهم من الإخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن
١١ المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الأوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله
الذين آمنوا) أى بالإخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم بأذية الكفرة أولا أى ليجزينهم
١٢ بما لهم من الإيمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة
بعد بيان حملهم لهم عليه بالأذية والوعيد وصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان
جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) أى
اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا
للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل خطاياكم) أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها
بالبعث كما تقولون وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل
بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى (وما هم بحاملين من
خطاياهم من شىء) وقرىء من خطيآتهم أى وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها
على أن من الأولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض أو حال (إنهم لكاذبون) حيث
أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا فإن الكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ ٢٩ العنكبوت

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ٢٩ العنكبوت

منطوقه يتطرق إليه باعتبار مايلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين
١٣ (وليحملن أثقالهم) بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته
لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر
أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة (وأثقالا) أخر (مع أثقالهم) لما تسببوا بالإضلال والحمل على
الكفر والمعاصى من غير أن ينتقص من أثقال من أضلوه شىء ما أصلا (وليسألن يوم القيامة) سؤال
تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها كذبهم
١٤ هذا (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) شروع فى بيان افتتان الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيداً للإنكار على الذين
يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء وحثاً لهم على الصبر فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء أولى وأحرى
قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين
سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة ولعل ماعليه النظم الكريم
الدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على مايقرب منه ولما فى ذكر الألف من تخييل طول
المدة فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله ﷺ وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة مايناله من الكفرة
وإظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما فى التكرير من نوع بشاعة
(فأخذهم الطوفان) أى عقب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل مايطوف بالشىء على كثرة وشدة *
من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) أى والحال أنهم مستمرون على الظلم لم *
يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه
١٥ المدة المتمادية (فأنجيناه) أى نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أى ومن ركب فيها معه من أولاده
وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم إناث (وجعلناها)
١٦ أى السفينة أو الحادثة والقصة (آية للعالمين) يتعظون بها (وإبراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ٢٩ العنكبوت
وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ٢٩ العنكبوت
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ٢٩ العنكبوت

بإضمار اذكر وقرىء بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم (إذ قال لقومه) على الأول ظرف للإرسال أى أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من إبراهيم (اعبدوا الله) أى وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيئاً (ذلكم) أى ماذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أى مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع أنه لاخيرية فيه قطعاً باعتبار زعمهم الباطل (إن كنتم تعلمون) أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو إن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف فى
١٧ الحكم بخيرية ماذكره من العبادة والتقوى (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق أى إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون إفكا) أى وتكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله تعالى أو تعملونها وتنحتونها للإفك وقرىء تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف إحدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرىء أفكا على أنه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقاً ذا إفك (إن الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية مايعبدونه من حيث إنه لا يكاد يجديهم نفعاً (لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (وإليه ترجعون)
١٨ أى بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره فافعلوا ماأمرتكم به وقرىء ترجعون من رجع رجوعاً (وإن تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم إليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضروننى بتكذيبكم فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه
١٩ البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ٢٩ العنكبوت

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ٢٩ العنكبوت

ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرىء بصيغة الخطاب لتشديد الإنكار وتأكيده وقرىء يبدأ وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على أولم يروا لا على يبدىء لعدم وقوع الرؤية عليه فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق * قياساً على الإبداء وقد جوز العطف على يبدىء بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (إن ذلك) أى ما ذكر من الإعادة (على الله يسير) إذ لا يفتقر فعله إلى شىء أصلا (قل سيروا فى الأرض) ٢٠

أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) بعد النشأة الأولى التى * شاهدتموها والتعبير عن الإعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة واسماً من حيث إن كلا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية وقرىء النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشىء بحذف الزوائد والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل أى ينشىء فينشأون النشأة الآخرة كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتاً حسناً والجملة معطوفة على جملة سيروا فى الأرض داخلة معها فى حيز القول وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره فى بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد وقوله تعالى (إن الله على كل شىء قدير) * تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التى من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعد ما أخبر به (يعذب) أى بعد النشأة الآخرة (من يشاء) أن ٢١

يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) أن يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب (وإليه تقلبون) عند ذلك لا إلى غيره فيفعل بكم ما يشاء من التعذيب والرحمة (وما أنتم بمعجزين) له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم (فى الأرض ولا فى ٢٢

السماء) أى بالتوارى فى الأرض أو الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا أو

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ٢٩ العنكبوت

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ٢٩ العنكبوت

القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أى ولا من فى السماء (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم
٢٣ (والذين كفروا بآيات الله) أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا أولياً وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام (ولقائه) الذى تنطق به تلك الآيات (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتى) أى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه أو يئسوا منها فى الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء (وأولئك لهم عذاب أليم) وفى تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم مالا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك
٢٤ الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والإيلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) وقرىء بالرفع على العكس وقد مر ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج إبراهيم عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الأخيرة وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى (فأنجاه الله من النار) الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام برداً وسلاماً حسبما بين فى مواضع أخر وقد مر فى سورة الأنبياء بيان كيفية إلقائه عليه الصلاة والسلام فيها وإنجائه تعالى إياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا (إن فى ذلك) أى فى إنجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) وأما
٢٥ من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) أى إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثاناً آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف أو بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثاناً سبب المودة

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ٢٩ العنكبوت

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ٢٩ العنكبوت

بينكم أو مودودة أو نفس المودة وقرىء مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والإضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة أو سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثاناً أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرىء لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرىء إنما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم إياها مودة بينكم ليس إلا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لأجل مودتكم لها انتصاراً منى كما ينبىء عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الأمور ويتبدل التواد تباغضاً والتلاطف تلاعناً حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الأوثان (ويلعن بعضكم بعضاً) أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أى هى منزلكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا

٢٦ (فآمن له لوط) أى صدقه فى جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعا إليه من التوحيد فقط فإنه كان منزها عن الكفر وما قيل إنه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى إليها إلا همم الأفراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام (وقال إنى مهاجر) أى من قومى (إلى ربى) إلى حيث أمرنى ربى (إنه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى روى أنه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه إلى حران ثم منها إلى الشأم فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم

٢٧ (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ولداً ونافلة حين أيس من عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته النبوة) فكثر منهم الأنبياء (والكتاب) أى جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة (وآتيناه أجره) بمقابلة هجرته إلينا (فى الدنيا) بإعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح

٢٨ (ولوطاً) منصوب إما بالعطف على نوحا أو على إبراهيم والكلام فى قوله تعالى (إذ قال لقومه) كالذى مر فى قصة إبراهيم عليه السلام (إنكم لتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح وقرىء أئنكم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فإن إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشى عنها ليس إلا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ٢٩ العنكبوت

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ٢٩ العنكبوت

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ٢٩ العنكبوت

---

٢٩ (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة اى بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيرا
مايفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحرث وإتيان ماليس بحرث وقيل
تقطعون السبيل بالقتل واخذ المال (وتأتون في ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لأصحابكم (المنكر)
كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها مما لاخير فيه من الأفاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله
عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الإزار
والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان
جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) أى فما كان جوابا من جهتهم شيء من
الأشياء إلا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام
وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما مافى سورة الأعراف من قوله تعالى وماكان جواب قومه إلا أن
قالوا اخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه إلا أن قالوا
أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعده هذه المرة وهى للمرة الأخيرة من مرات
٣٠ المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الأعراف (قال رب انصرنى)
أى بإنزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والإصرار عليها
٣١ واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وإنما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت
رسلنا إبراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لإبراهيم عليه السلام فى تضاعيف
الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (إنا مهلكوا اهل هذه القرية) أى قرية سدوم والإضافة
اللفظية لأن المعنى على الاستقبال (إن أهلها كانوا ظالمين) تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم
٣٢ فى فنون الفساد وأنواع المعاصى (قال إن فيها لوطاً) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه
وأهله) أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعرض له إبراهيم عليه السلام
من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم أتم اعتناء حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى
والله لننجينه وأهله (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب أو القرية .

وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ٢٩ العنكبوت

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ٢٩ العنكبوت

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ٢٩ العنكبوت

---

٣٣ (ولما أن جاءت رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام (لوطاً سيء بهم) اعتراه المساءة
بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد ما بين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم
ذرعا) أى ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رحب ذرعه بكذا
إذا كان مطيقاً به قادراً عليه وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع (وقالوا) ريثما شاهدوا
فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال إلى
أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (لاتخف) أى من قومك علينا (ولا تحزن) أى على شيء
وقيل بإهلاكنا إياهم (إنا منجوك وأهلك) مما يصيبهم من العذاب (إلا امرأتك كانت من الغابرين)
وقرىء لننجينك ومنجوك من الإنجاء وأياً ما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك بإضمار فعل
٣٤ أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) استئناف مسوق
لبيان ما أشير إليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم
٣٥ ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرىء منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد
تركنا منها) أى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة
فإنها كانت باقية بعدها وقيل الماء الأسود على وجه الأرض (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى
٣٦ الاستبصار والاعتبار وهو متعلق إما بتركنا أو بينة (وإلى مدين أخاهم شعيباً) متعلق بمضمر معطوف على
أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا
اليوم الآخر) أى توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته
وقيل وارجوا ثوابه بطريق إقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى
٣٧ الأرض مفسدين) (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين
ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها من

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ٢٩ العنكبوت
وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ
سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ٢٩ العنكبوت
فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ٢٩ العنكبوت
مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ
ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٢٩ العنكبوت

الأرض (فأصبحوا فى دراهم) أى بلدهم أو منازلهم والإفراد لأمن اللبس (جاثمين) باركين على الركب
٣٨ ميتين (وعاداً وثمود) منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ماقبله أى أهلكنا وقرىء ثموداً بتأويل الحى (وقد
تبين لكم من مساكنهم) أى وقد ظهر لكم إهلا كنا إياهم من جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم
بها ذهاباً إلى الشأم وإياباً منه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصى (فصدهم عن
السبيل) السوى الموصل إلى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم
لم يفعلوا ذلك أو متبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا
٣٩ حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عاداً قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد
جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وماكانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه إذا
٤٠ فاته ولم يدركه ولقد أدركهم أمر الله عز وجل أى إدراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير
لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام أى فكل واحد من المذكورين (أخذنا بذنبه) أى عاقبناه بجنايته
لا بعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً) تفصيل للأخذ أى ريحاً
عاصفاً فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم
من خسفنا به الأرض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم)
بما فعل بهم فإن ذلك محال من جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة
٤١ مايوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى فيما اتخذوه
متعمداً ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك أوهن من هذا
لأن له حقيقة وانتفاعا فى الجملة أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثله بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر
وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ٢٩ العنكبوت

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٢٩ العنكبوت

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ
ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ٢٩ العنكبوت

كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والإعكب فأسماء الجموع (وإن
أوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شيء يدانيه فى الوهن والوهى (لو كانوا يعلمون) أى شيئاً •
من الأشياء لجزموا أن هذا مثلهم أو أن دينهم أوهى من ذلك ويجوز أن يجعل بيت العنكبوت عبارة عن
٤٢ دينهم تحقيقاً للتمثيل فالمعنى وإن أوهن مايعتمد به فى الدين دينهم (إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء)
على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين أو
نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون أو مصدرية وشيء عبارة عن المصدر أو موصولة مفعول ليعلم
ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرىء تدعون بالتاء والكلام على الأولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل
وعلى الأخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فإن إشراك مالا يعد شيئاً بمن هذا •
شأنه من فرط الغباوة وأن الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ فى العلم وإتقان الفعل الغاية
٤٣ القاصية كالمعدوم البحت وأن من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الأمثال) أى هذا المثل وأمثاله
(نضربها للناس) تقريباً لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد
(إلا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الأشياء على ماينبغى وعنه ﷺ أنه تلا هذه فقال العالم
٤٤ من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والأرض بالحق) أى محقاً
مراعياً للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع
الدينية والدنيوية على أنه حال من مفعوله فإنها مع اشتمالها على جميع مايتعلق به معايشهم شواهد دالة على
شئونه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ماذكر •
من شئونه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد فى خلقهما للكل لأنهم المنتفعون
٤٥ بذلك (اتل ماأوحى إليك من الكتاب) تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتذكراً لما فى تضاعيفه من المعانى
وتذكيراً للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق (وأقم
الصلاة) أى داوم على إقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره
عليه الصلاة والسلام بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى (إن الصلاة تهى عن الفحشاء

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ٢٩ العنكبوت

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ٢٩ العنكبوت

والمنكر) كأنه قيل وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لأنها مناجاة لله تعالى فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلي عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى إلا بعداً وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضي الله عنه أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له ﷺ حاله فقال إن صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى فاسعوا إلى ذكر الله للإيذان بأن مافيها من ذكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر في الزجر عنهما وقيل ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا تجادلوا أهل الكتاب) من

٤٦ اليهود والنصارى (إلا بالتي هي أحسن) أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالأناة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدي إلى إعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (إلا الذين ظلموا منهم) بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا) من القرآن (وأنزل إليكم) أي وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل وقد مر تحقيق كيفية الإيمان بهما في خاتمة سورة البقرة وعن النبي ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه وبرسله فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم (وإلهنا وإلهكم واحد) لاشريك له في الألوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً

٤٧ من دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب إلى رسول الله ﷺ وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل أي مثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب (أنزلنا إليك الكتاب) أي القرآن الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٩ العنكبوت

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ٢٩ العنكبوت

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ٢٩ العنكبوت

ﷺ منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأن
من بعدهم من معاصرى رسول الله ﷺ قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب مابعدها
على ماقبلها فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أى ومن العرب أو أهل
مكة على الأول أو ممن فى عصره ﷺ على الثانى (من يؤمن به) أى بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) عبر عن
الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت إلى نون
العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها (إلا الكافرون) المتوغلون فى الكفر المصممون عليه
فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الأشرف وأصحابه (وما كنت ٤٨
تتلو من قبله) أى ما كنت قبل إنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو شيئاً من كتاب (ولا تخطه) أى
ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا أن تخطه (إذاً لارتاب
المبطلون) أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب
الأوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق فى شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين فى ارتيابهم على التقدير
المفروض لكونهم مبطلين فى اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته ﷺ عن ذلك (بل هو) أى ٤٩
القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (فى صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب
يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (إلا الظالمون) المتجاوزون
للحدود فى الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ٥٠
ومائدة عيسى عليهم السلام وقرىء آية (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد
فى ذلك قطعاً (وإنما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات (أو لم يكفهم) كلام ٥١
مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف
على مقدر يقتضيه المقام أى أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات (أنا أنزلنا عليك الكتاب) الناطق
بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها وممارستها (يتلى عليهم) فى كل
زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان
دون مكان أو يتلى على اليهود بتحقيق ما فى أيديهم من نعتك ونعت دينك (إن فى ذلك) الكتاب العظيم

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ٢٩ العنكبوت

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ٢٩ العنكبوت

الشأن الباقي على مر الدهور (لرحمة) أى نعمة عظيمة (وذكرى) أى تذكرة (لقوم يؤمنون) أى لقوم همهم الإيمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل إن ناساً من المؤمنين أتوا رسول الله ﷺ بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت
٥٢ (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً) بما صدر عنى وعنكم (يعلم ما فى السموات والأرض) أى من الأمور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيداً (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الإيمان به (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان بأن ضيعوا الفطرة الأصلية والأدلة السمعية الموجبة للإيمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل والكفر بالله والخسران إليهم بل ذكر على منهاج الإبهام كما فى قوله تعالى وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين
٥٣ (ويستعجلونك بالعذاب) على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا أجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالأجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه فى الجملة السابقة من مجىء العذاب عند محل الأجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند حلول الأجل (بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون) أى بإتيانه ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسئولهم فإن ذلك إتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل
٥٤ (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وإن العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وإنما

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ٢٩ العنكبوت

يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ٢٩ العنكبوت

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا
نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٢٩ العنكبوت

جىء بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الإحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فإن
الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل إن الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها
ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ
الحق ولام الكافرين إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون
٥٥ فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره إيذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه
قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال مالا يفى به
المقال وقيل ظرف للإحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى من جميع جهاتهم (ويقول) أى الله عز
وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره (ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء
٥٦ ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من السيئات التى من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعبادى
الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة
من جهة الكفرة وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم (إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) أى إذا لم يتسهل لكم
العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه ﷺ من فر بدينه من
أرض إلى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب
شرط محذوف إذ المعنى إن أرضى واسعة إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف
٥٧ الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص (كل نفس ذائقة الموت
ثم إلينا ترجعون) جملة مستأنفة جىء بها حثا على المسارعة فى الامتثال بالأمر أى كل نفس من النفوس
واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد
٥٨ من التزود والاستعداد لها وقرىء يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من
الجنة غرفا) أى علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرىء لنثوينهم من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب غرفا
حينئذ إما بإجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى لأقعدن
لهم صراطك المستقيم (تجرى من تحتها الأنهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أى فى الغرف أو فى الجنة
(نعم أجر العاملين) أى الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه وقرىء فنعم

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ٢٩ العنكبوت

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٢٩ العنكبوت

ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ٢٩ العنكبوت

٥٩ (الذين صبروا) إما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة
وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى
٦٠ (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) روى أن النبى ﷺ لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى
المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أولا
تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم
واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا
تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم
٦١ ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)
إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا إلى التردد فيه (فأنى يؤفكون) إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم
العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى فى الإلهية مع إقرارهم بتفرده تعالى فيما
٦٢ ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (من عباده ويقدر له) أى يقدر لمن
يشاء أن يقدر له منهم كائناً من كان على أن الضمير مبهم حسب إبهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على
التعاقب (إن الله بكل شىء عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره فيقدره له أو فيعلم
٦٣ أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها
وفروعها ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شىء ما أصلا (قل الحمد لله)
على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده وأنه أظهر حجتك عليهم وقيل على أن عصمك من
أمثال هذه الضلالات ولا يخفى بعده (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعلمون بمقتضى
قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك .

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ٢٩ العنكبوت

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ٢٩ العنكبوت

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ٢٩ العنكبوت

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ٢٩ العنكبوت

---

٦٤ (وما هذه الحياة الدنيا) إشارة تحقير وازدراء الدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله ﷺ لوكانت الدنيا
تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء (إلا لهو ولعب) أى إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان
يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى دار الحياة
الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أو هى فى ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حي سمى به
ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم
للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة (لوكانوا يعلمون) أى لما آثروا عليها الدنيا
٦٥ التى أصلها عدم الحياة ثم مايحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فإذا ركبوا فى الفلك)
متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى
والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للإيذان بأن المركوب فى نفسه من قبيل
الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية كما مر فى سورة هود والمعنى أنهم على ماوصفوا من الإشراك فإذا ركبوا
فى البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) أى كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث
لايدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)
٦٦ أى فاجئوا المعاودة إلى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يفاجئون الإشراك ليكونوا كافرين
بما آتيناهم من نعمة الإنجاء التى حقها أن يشكروها (فسوف يعلمون) أى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب
٦٧ (أو لم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أنا جعلنا) أى بلدهم (حرما آمناً) مصوناً من النهب والتعدى
سالماً أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلاً وسبياً
إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أى أبعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه
بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به
٦٨ غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لإظهار كمال شناعة مافعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) بأن

وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ٢٩ العنكبوت

زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك النظم دالا على نفى الأظلم من غير تعرض
لنفى المساوى وقد مر مراراً (أو كذب بالحق لما جاءه) أى بالرسول أو بالقرآن وفى لما تسفيه لهم
بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب آثر ذى أثير (أليس فى جهنم مثوى
للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال [ألستم خير من ركب المطايا] أى ألا يستوجبون الثواء
فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو إنكار واستبعاد لاجترائهم
على ماذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى
٦٩ اجترءوا هذه الجراءة (والذين جاهدوا فينا) أى فى شأننا ولوجهنا خالصاً أطلق المجاهدة ليعم جهاد
الأعادى الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدنهم هداية إلى
سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه
الله علم مالم يعلم (وإن الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة . عنه ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له
من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين .

﴿ سورة العنكبوت ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس . وابن مردويه . والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحو ذلك ، وروى القول بأنها مكية عن الحسن وجابر . وعكرمة ، وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة . وفي البحر عن الحبر . وقتادة أنها مدنية ، وقال يحيى ابن سلام : هي مكية إلا من أولها إلى قوله (وليعلمن المنافقين) وذكر ذلك الجلال السيوطي في الاتقان ولم يعزه ، وأنه لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها ثم قال : قلت ويضم إلى ذلك (وكأين من دابة) الآية لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها وسيأتي ان شاء الله تعالى الكلام في ذلك وهي تسع وستون آية بالاجماع كما قال الداني والطبرسي ، وذكر الجلال في وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه (علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) وافتتح هذه بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الايمان بعذاب دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل بكثير تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم وحثا على الصبر ، ولذا قيل هنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) وأيضا لما كان في خاتمة الأولى الاشارة إلى هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أي في قوله تعالى : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) على بعض الأقوال ، وفي خاتمة هذه الاشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى : (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة) ناسب تتاليهما *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ١ ﴾ سبق الكلام فيه وفي نظائره ولم يجوز بعضهم هنا ارتباط ما بعده به ارتباطا اعرابيا لأن الاستفهام مانع منه وبحث فيه بأن اللازم في الاستفهام تصدره في جملته وهو لا ينافي وقوع

www.Quranpdf.blogspot.in

تلك الجملة خبراً ونحوه كقولك . زيد هل قام أبوه؟ فلو قيل هنا المعنى المتلو عليك ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ إلى آخر السورة صح فلا يقال أيضا إن المانع منه عدم صحة ارتباطه بما قبله معنى. نعم الارتباط خلاف الظاهر، والاستفهام للانكار ، والحسبان مصدر كالغفران مما يتعلق بمضامين الجمل لأنه من الافعال الداخلة على المبتدأ والخبر وذلك للدلالة على وجه ثبوتها فى الذهن أو فى الخارج من كونها مظنونة أو متيقنة فتقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر أو ما يسد مسدهما وقد سد مسدهما هنا على ما قاله الحوفى. وابن عطية. وأبو البقاء : قوله تعالى: ﴿ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ وسد أن المصدرية الناصبة للفعل مع مدخولها مسد الجزأين بما قاله ابن مالك ، ونقله عنه الدماميني فى شرح التسهيل ، وزعم بعضهم ان ذلك إنما هو فى أن المفتوحة مشددة ومثقلة مع مدخولها، والترك هنا على ماذكره الزمخشرى بمعنى التصيير المتعدى لمفعولين كما فى قوله تعالى: (تركهم فى ظلمات لا يبصرون) وقول الشاعر :

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن قلة رأسه والمعصم

فضمير الجمع نائب مفعول أول والمفعول الثانى متروك بدلالة الحال الآتية أى كما هم أو على ما هم عليه كما فى قوله تعالى: (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا) على ما قدره الزمخشرى فيه وقوله سبحانه : ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ بمعنى لأن يقولوا متعلق بيتركوا على أنه غير مستقر ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ ﴾ فى موضع الحال من ضمير يتركوا ، ويجوز أن لا يعتبر كون المفعول الثانى ليتركوا متروكا بل تجعل هذه الجملة الحالية سادة مسده ، ألا ترى أنك لو قلت : علمت ضربى زيداً قائما صح ، على أن ترك ليس كأفعال القلوب فى جميع الأحكام ، بل القياس أن يجوز الاكتفاء فيه بالحال من غير نظر إلى أنه قائم مقام الثانى لأن قولك : تركته وهو جزر السباع كلام صحيح كما تقول أبقيته على هذه الحالة ، وهو نظير سمعته يتحدث فى أنه يتم بالحال بعده أو الوصف ، وههنا زاد أنه يتم أيضا بما يجرى مجرى الخبر ، وجوز أن تكون هذه الجملة هى المفعول الثانى لا سادة مسده وتوسط الواو بين المفعولين جائز كما فى قوله :

وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل

وقد نص شارح أبيات المفصل على أنه حكى عن الأخفش أنه كان يجوز كان زيد وأبوه قائم على نقصان كان وجعل الجملة خبراً مع الواو تشبيها لخبر كان بالحال فمتى جاز فى الخبر عنده فليجز فى المفعول الثانى وهو كما نرى ، واستظهر الطيبى كون الترك هنا متعديا لواحد على أنه بمعنى التخلية وليس بذاك ، وجوز الحوفى .وأبو البقاء أن يكون (أن يقولوا) بدلا من أن يتركوا وجوز أن يكون (أن يتركوا) هو المفعول الأول لحسب و(هم لا يفتنون) فى موضع الحال من الضمير (وأن يقولوا) بتقدير اللام هو المفعول الثانى، وكونه علة لا ينافى ذلك كما فى قولك : حسبت ضربه للتأديب ، والتقدير أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم : آمنا ، والمفعول الثانى ليتركوا متروك بدلالة الحال ، واعترضه صاحب التقريب بما حاصله أن الحسبان لتعلقه بمضامين الجمل إذا أنكر يكون باعتبار المفعول الثانى ، فاذا قلت : أحسبته قائما؟ فالمنكر حسبان قيامه ، كذلك إذا قيل : أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا أفاد إنكار حسبان أن الترك غير مفتونين لهذه العلة بل إنما هو لعلة أخرى ولا يلائم سبب النزول ولا مقصود الآية *

واختار أن يكون (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين و(أن يقولوا) علة للحسبان أي أحسبوا لقولهم آمنا

www.Quranpdf.blogspot.in

أن يتركوا غير مفتونين ، وأجيب بأن أصل الكلام ألا يفتنون لقولهم آمنا على إنكار أن يكون سبباً لعدم الفتن ، ثم قيل : أيتركون غير مفتونين لقولهم آمنا مبالغة فى إنكار أن يبقوا من غير فتن لذلك ثم أدخل على حسبان الترك مبالغة على مبالغة ، وإنما يرد ماأورد اذا لم يلاحظ أصل الكلام ويجعل مصب الانكار الحسبان من أول الأمر *

وقيل : إنما يلزم ماذكر لو لم يقدر أحسبوا تركهم غير مفتونين بمجرد قولهم : آمنا دون إخلاص وعمل صالح أما لو قدر ذلك استقام كما صرح به الزجاج ، على أن ذلك مبنى على اعتبار المفهوم ، واعترض ذلك بعضهم من حيث اللفظ بأن فيه الفصل بين الحال وذيها بثانى مفعولى حسب وهواجنبى ، وأجيب بأن الفصل غير ممتنع بل الأحسن أن لا يقع فصل إلا إذا اعترض مايوجبه ، وههنا الاهتمام بشأن الخبر حسن التقديم لأن مصب الانكار ذلك ، ولايخفى أنه يحتاج إلى مثل هذا الجواب على مايقتضيه الظاهر من جعل (أن يتركوا) فى تأويل مصدر وقع مفعولا أولا (وأن يقولوا) فى تأويل مصدر أيضا مجرور بلام مقدرة والجار والمجرور فى موقع المفعول الثانى ، وأما على ماذكره بعض المحققين من أنهما لم يجعلا كذلك وإنما جعل (أن يقولوا) معمولا ليتركوا بتقدير اللام وجعل (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين واقتضى المعنى أن يقال أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا بجعل تركهم مفعولا أولا ولقولهم مفعولا ثانيا فلا يحتاج اليه لأنه إن جرينا مع اللفظ كان (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين فلا يكون فيه مفعول ثان فاصل بين الحال وذيها وإن جرينا مع المعنى واعتبرنا الكلام مجردا عن أن المصدرية وجىء به كما سمعت كانت الحال متصلة بذيها ، وقيل : يجوز أن يكون المفعول الأول لحسب محذوفا أى أحسب الناس أنفسهم و(أن يتركوا) فى موضع المفعول الثانى على أنه فى تأويل مصدر وهو فى تأويل اسم المفعول أى متروكين وهم لا يفتنون فى موضع الحال كما تقدم وأن يؤمنوا بتقدير لأن يؤمنوا متعلق بيتركوا فكأنه قيل : أحسب الناس انفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا ، وقيل: إن هذا المعنى حاصل على تقدير سد (أن يتركوا) مسد المفعولين فتأمل فيه وفيما قبله ، ولعل الابعد عن التكلف ماذكرناه أولا ، والمراد إنكار حسبانهم أن يتركوا غير مفتونين بمجرد أن يقولوا آمنا واستبعاد له وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخاص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل بما يقتضيه ويجازيهم سبحانه بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد الايمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار *

وذكر بعضهم أنه سبحانه لو أثاب المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه فى الدنيا لقال الكافر المعذب : ربى لو أنك كنت فتنته فى الدنيا لكفر مثلى فايمانه الذى تثيبه عليه مما لا يستحق الثواب له فبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ويعوض المؤمن بدلها ما يعوض بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت والآية على ماأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن الشعبى نزلت فى أناس كانو بمكة قد أقروا بالاسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم اقرار ولا اسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الاية فكتبوا اليهم أنزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فان اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم

www.Quranpdf.blogspot.in

فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى فيهم (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) *

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل على عمار درعا من حديد فى اليوم الصائف وطعن فى فرج أمه برمح ففى ذلك نزلت (أحسب الناس) الخ ، وقيل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب قتل ببدر فجزع عليه أبواه وامرأته «وقال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة» ، وقيل : نزلت فى عياش أخى أبى جهل غدر وعذب ليرتد كما سيأتى خبره إن شاء الله تعالى، وفسر الناس بمن نزلت فيهم الآية ، وقال الحسن الناس هنا المنافقون *

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حال من الناس أو من ضمير يفتنون ، وعلى الأول يكون علة لإنكار الحسبان أى أحسبوا ذلك وقد علموا أن سنة الله تعالى على خلافه ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلا ، وعلى الثانى بيانا لأنه لا وجه لتخصيصهم بعدم الافتتان ، وحاصله أنه على الأول تنبيه على الخطأ ، وعلى الثانى تخطئة ، والمراد بالذين من قبلهم المؤمنون أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما أصابهم فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ كما يعرب عنه قوله تعالى : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) الآيات *

وروى البخارى . وأبو داود . والنسائى عن خباب بن الارت قال : « شكونا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولقد لقينا من المشركين شدة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى فى قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فى ذلك ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان ، واللام واقعة فى جواب القسم ، والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة ، وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير ، ويتوهم من الآية حدوث علمه تعالى بالحوادث وهو باطل . وأجيب بأن الحادث تعلق علمه تعالى بالمعدوم بعد حدوثه ، وقال ابن المنير : الحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقا على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء فكأنه قيل : فوالله ليعلمن بما يشبه الامتحان والاختبار الذين صدقوا فى الإيمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب فليجازين كلا بحسب علمه فيه ، وفى معناه ما قاله ابن جنى : من أنه من إقامة السبب مقام المسبب ، والغرض فيه ليكافئن الله تعالى الذين صدقوا وليكافئن الكاذبين وذلك أن المكافأة على الشيء إنما هى مسببة عن علم ، وقال محيي السنة : أى فليظهرن الله تعالى الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلوما لأن الله تعالى عالم بهم قبل الاختبار *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وجعفر بن محمد . والزهرى رضى الله تعالى عنهم (فليعلمن) بضم الياء وكسر اللام على أنه مضارع أعلم المنقولة بهمزة التعدية من علم المتعدية إلى واحد وهى التى بمعنى عرف فيكون

www.Quranpdf.blogspot.in

الفعل على هذه القراءة متعدياً لاثنين والثانى هنا محذوف أى فليعلمن الله الذين صدقوا منازلهم من الثواب وليعلمن الكاذبين منازلهم من العقاب وذلك فى الآخرة، او الأول محذوف أى فليعلمن الله الناس الذين صدقوا وليعلمنهم الكاذبين أى يشهدهم هؤلاء فى الخير وهؤلاء فى الشر ، والظاهر أن ذلك فى الآخرة أيضا ، وقال أبوحيان : فى الدنيا والآخرة ، وجوز أن يكون ذلك من الاعلام وهو وضع العلامة والسمة فيتعدى لواحد أى يسمهم بعلامة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها ، وقيل : يسمهم سبحانه بعلامة يعرفون بها فى الدنيا كقوله عليه الصلاة والسلام : « من أسر سريرة ألبسه الله تعالى رداءها »

وقرأ الزهرى الفعل الأول كما قرأ الجماعة ، والفعل الثانى كما قرأ على كرم الله تعالى وجهه . وجعفر . والزهرى رضى الله تعالى عنهم ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ قال مجاهد . أى يعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم وأصل السبق الفوت ، ثم أريد منه ماذكر . وقيل : أى يعجلونا محتوم القضاء ، والأول أولى *

وفسر قتادة على ماأخرجه عنه عبد بن حميد . وابن جرير (السيئات) بالشرك والجمع باعتبار تعدد المتصفين به وإطلاق العمل على الشرك سواء قلنا إنه ما كان عن فكر وروية كما قيل : أو عن قصد كما قال الراغب : أم لا لا ضير فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرها ، وقيل : المراد بالسيئات المعاصى غير الكفر فالآية فى المؤمنين قطعاً ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم فى ذلك لكن نزل جريهم على غير موجب العلم وهو غفلتهم وإصرارهم على المعاصى منزلة من لم يتيقن الجزاء ، ويحسب أنه يفوت الله عز وجل *

وعمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصى ، وتعليق العمل بها بناء على تسليم تخصيصه بما سمعت يحتمل أن يكون باعتبار التغليب ، وظاهر الآثار يدل على أن هذه الآية نزلت فى شأن الكفرة ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة . وأبا جهل . والأسود . والعاصى بن هشام . وشيبة . وعتبة . والوليد بن عتبة . وعتبة بن أبى معيط . وحنظلة بن وائل وأنظارهم من صناديد قريش ، وفى البحر أن الآية وإن نزلت على سبب فهى تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم ، والظاهر أن (أم) منقطعة بمعنى بل التى للاضراب بمعنى الانتقال وهو انتقال من إنكار حسبان عدم الفتن لمجرد الايمان إلى إنكار حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات *

وقال ابن عطية : (أم) معادلة للهمزة فى قوله تعالى : (أحسب) وكأنه سبحانه قرر الفريقين ، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لايفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات فى تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله تعالى ويعجزونه انتهى . ورد بأنها لو كانت معادلة للهمزة لكانت متصلة والتالى باطل لأن شرط المتصلة أن يكون مابعدها مفرداً نحو أزيد قائم أم عمرو أو ماهو فى تقدير المفرد نحو أقام زيد أم قعد وجوابها تعيين أحد الشيئين أو الأشياء وبعدها هنا جملة ، ولايمكن الجواب هنا أيضا بأحد الشيئين فالحق أنها منقطعة والاستفهام الذى تشعر به إنكارى لايحتاج للجواب كما لايخفى ، والظاهر أن الحسبان متعد إلى مفعولين وأن (أن يسبقونا) ساد مسدهما *

وجوز الزمخشرى هنا أن يضمن معنى التقدير فيكون متعديا لواحد وإن يسبقونا هو ذلك الواحد ،

www.Quranpdf.blogspot.in

وتعقبه أبو حيان بأن التضمين ليس بقياس ولا يصار اليه إلا عند الحاجة وهنا لا حاجة اليه ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك على أن ساء بمعنى بئس و (ما) موصولة و (يحكمون) صلتها ، والعائد محذوف وهي فاعل ساء ، والمخصوص بالذم محذوف أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك على أن ما موصوفة ويحكمون صفتها والرابط محذوف وهي تمييز وفاعل ساء ضمير مفسر بالتمييز والمخصوص محذوف أيضا *

وقال ابن كيسان : (ما) مصدرية ، والمصدر المؤول مخصوص بالذم فالتمييز محذوف ، وجوز كون ساء بمعنى قبح وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، والمضارع للاستمرار إشارة إلى أن دأبهم ذلك أو هو واقع موقع الماضي لرعاية الفاصلة وكلا الوجهين حكاهما في البحر ، والأول أولى ، وعندي أن مثل هذا لا يقال : إلا في حق الكفرة ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال : أي من كان يخشى البعث في الآخرة فالرجاء بمعنى الخوف كما في قول الهذلي في وصف عسال :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل

ولعل إرادة البعث من لقائه عزوجل لأنه من مباديه ، وقيل : لعله جعل لقاء الله تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة إلا أنه لما كان البعث من أعظم ما يتوقف ذلك عليه خصه بالذكر ، وفي الكشاف أن لقاء الله تعالى مثل للوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ؛ وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فاما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فمعنى (من كان) الخ من كان يأمل تلك الحال وإن يلقى فيها الكرامة من الله تعالى والبشرى ، فالكلام عنده من باب التمثيل والرجاء بمعنى الأمل والتوقع *

وجوز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف أي من كان يتوقع ملاقاة جزاء الله تعالى ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه عزوجل يوم القيامة وأن يكون بمعنى الخوف ، والمضاف محذوف أيضاً أي من كان يخاف ملاقاة عقاب الله تعالى، وأن يكون بمعنى ظن حصول ما فيه مسرة وتوقعه كما هو المشهور ، والمضاف كذلك أيضا ، أي من كان يرجو ملاقاة ثواب الله تعالى ، ويجوز أن لا يقدر مضاف ، ويجعل لقاء الله تعالى مجازاً عن الثواب لما أنه لازم له *

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهور وأن لقاء الله تعالى مشاهدته سبحانه على الوجه اللائق به عز وجل كما يقوله أهل السنة والجماعة إذ لا حاجة للخروج عن الظاهر من غير ضرورة وما حسبه المعتزلي منها فليس منها كما بين في علم الكلام أي من كان يتوقع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التي لا نعيم يعدلها ويلزمها الفوز بكل خير ونعيم ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الأجل غاية لزمان ممتد عينت لأمر من الامور ، وقد يطلق على كل ذلك الزمان ، والاول أشهر في الاستعمال أي فإن الوقت الذي عينه جل شأنه لذلك ﴿ لَآتٍ ﴾ لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن اجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائما ، ومجيء ذلك الوقت كناية عن إتيان ما فيه ووقوعه ، والجملة الاسمية قائمة مقام جواب الشرط وهي في الحقيقة دليل الجواب المحذوف أي فليبادر ما ينفعه من امتثال الأوامر واجتناب المناهي أو فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو نحو ذلك مما يلائم الشرط فتدبره

www.Quranpdf.blogspot.in

وقيل: يجوز أن تكون هى الجواب على أن المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذكر ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ جل شأنه لأقوال العباد ﴿ الْعَلِيمُ ٥ ﴾ بأحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة، والجملة تذييل لتحقيق حصول المرجو والمخوف وعداً ووعيدا ﴿ وَمَنْ جَـٰهَدَ ﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لعود المنفعة من الثواب المعد لذلك اليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ ٦ ﴾ فلاحاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم سبحانه بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته ٭

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الكفر الاصلى أو العارضى بالايمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧ ﴾ أى أحسن جزاء اعمالهم والجزاء الحسن أن يجازى بحسنة حسنة، وأحسن الجزاء أن تجازى الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة، وقيل: لو قدر لنجزينهم بأحسن اعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم لاخراج المباح جاز ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أى أمرناه بتعهدهما ومراعاتهما، وانتصب حسنا على أنه وصف لمصدر محذوف أى ايصاء حسنا أى ذا حسن أو هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: (وقولوا للناس حسنا) وهذا مااختاره أبو حيان ولا يخلو عن حسن: وقال الزمخشرى حسنا مفعول به لمصدر محذوف مضاف إلى والديه أى وصيناه بايتاء والديه أو بايلاء والديه حسنا، وفيه إعمال المصدر محذوفا وإبقاء عمله وهو لايجوز عند البصريين، وجوز أن يكون حسنا مصدرا لفعل محذوف أى أحسن حسنا، والجملة فى موضع المفعول لوصى لتضمنه معنى القول، وهذا على مذهب الكوفيين القائلين بأن مايتضمن معنى القول يجوز أن يعمل فى الجمل من غير تقدير للقول، وعند البصريين يقدر القول فى مثل ذلك وعليه يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف والجملة مقول القول وجملة القول مفسرة للتوصية أى قلنا أولهما أو افعل بهما حسنا، وعلى هذا يحسن الوقف على بوالديه لاستئناف الجملة بعده، ورجح تقدير الامر بأنه أوفق لما بعده من الخطاب والنهى الذى هو أخوه لكن ضعف مافيه كثرة تقدير بكثرة التقدير، ونقل ابن عطية عن الكوفيين أنهم يجعلون حسنا مفعولا لفعل محذوف ويقدرون أن يفعل حسنا، وفيه حذف أن وصلتها وإبقاء المعمول وهو لايجوز عند البصريين، وقيل: إن حسنا منصوب بنزع الخافض وبوالديه متعلق بوصينا والباء فيه بمعنى فى أى وصينا الانسان فى أمر والديه بحسن وهو كما ترى، وقرأ عيسى. والجحدرى (حسنا) بفتحتين وفى مصحف أبى احسانا ﴿ وَإِنْ جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ عطف على ماقبله ولا بد من اضمار القول إن لم يضمر قبل أى وقلنا: ان جاهداك الخ لئلا يلزم عطف الانشاء على الخبر لأن الجملة الشرطية إذا كان جوابها انشاء فهى انشائية كما صرحوا به فاذا لم يضمر القول لايليق عطفها على وصينا لما ذكر ولا على ماعمل فيه لكونه فى معنى القول وهو أحسن وإن توافقا فى الانشائية لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه منهى عن مطاوعتهما، وأما عطفه على قلنا المفسر للتوصية فلايضر لما فيه من تقييدها بعدم الافضاء إلى المعصية مآلا فكأنه قيل: أحسن اليهما وأطعهما مالم يأمراك بمعصية فتأمل، والظاهر الذى يقتضيه المقام أن (ما) عام لماسواه تعالى شأنه وقوله سبحانه: (به) على حذف مضاف أى ماليس لك بالهيته علم، وتنكير علم للتحقير ٭

والمراد لتشرك بى شيئاً لايصح أن يكون الها ولا يستقيم، وفى العدول عنه إلى مافى النظم الجليل ايذان

www.Quranpdf.blogspot.in

بأن مالا يعلم صحته ولو اجمالا كما فى التقليد لايجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم على أتم وجه بطلانه ، وجعل العلامة الطيبي نفى العلم كناية عن نفى المعلوم، وعلل ذلك بأن هذا الاسلوب يستعمل غالبا فى حق الله تعالى نحو (أتعلمون الله بمالا يعلم) ثم قال: وفيه إشارة إلى أن نفى الشرك من العلوم الضرورية وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه على ماورد «كل مولود يولد على الفطرة» وذلك أن المخاطب بقوله تعالى: (ووصينا الانسان) جنس الانسان انتهى ، وفيه بحث . ومتعلق تطعهما محذوف لوضوح دلالة الكلام عليه أى وإن استفرغا جهدهما فى تكليفك لتشرك بى غيرى مما الالهية له فلا تطعهما فى ذلك فانه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكليف اشعار بأن موجب النهى فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية وكذا موجبه فى مجاهدة أحدهما ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى مرجع من آمن منكم - ومن أشرك - ومن بر - ومن عق والجملة مقررة لما قبلها ولذا لم تعطف ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه رضى الله تعالى عنه حين أسلم قالت أمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس: ياسعد بلغنى أنك صبأت فوالله تعالى لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح وأن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكان أحب ولدها اليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشكا اليه فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان والتى فى الاحقاف فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالاحسان .

وروى أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما متوافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بنى تميم من بنى حنظلة فنزلا بعياش وقالا له: ان من دين محمد صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لاتطعم ولاتشرب ولاتأوى بيتا حتى تراك وهى أشد حبا لك منا فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب فاستشار عمر رضى الله تعالى عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فمازالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله تعالى عنه فقال عمر رضى الله تعالى عنه : أما اذ عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهم ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتى قد كلت فاحملنى معك ، قال: نعم . فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه ، فقالت : لاتزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح الكاملين فيه ، والصلاح ضد الفساد وهو جامع لكل خير؛ وله مراتب غير متناهية ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا ، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ويحتمل أن يكون الكلام بتقدير مضاف أى فى مدخل الصالحين وهى الجنة ، والموصول مبتدأ ولندخلنهم الخبر على ما ذكره أبو البقاء ، وجوز أن يكون فى موضع نصب على تقدير لندخلن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أى بعضهم ﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أى لأجله عز وجل على أن فى للسببية ، أو المراد فى سبيل الله تعالى بأن عذبهم المشركون على الايمان به تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أى

www.Quranpdf.blogspot.in

نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أى منزلة عذابه تعالى فى الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به عز وجل ٭

﴿وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ بأن حصل للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام الثانية وحذف ضمير الجمع لالتقاء الساكنين ، وهذا الضمير عائد إلى من والجمع بالنظر إلى معناها ، كما أن إفراد الضمائر العائدة اليها فيما سبق بالنظر إلى لفظها ، وحكى أبو معاذ النحوى أنه قرئ (ليقولن) بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سبق ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أى مشايعين لكم فى الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة ، وقيل : أى مقاتلين معكم ناصرين لكم فالمراد الصحبة فى القتال . ورد بأنها غير واقعة ، والآية نزلت فى ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين وبذلك يكونون منافقين ، ولذا قال ابن زيد . والسدى : إن الآية فى المنافقين فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه :

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٠ ١﴾ وهو فى الظاهر عطف على مقدر أى أيخفى حالهم وليس الخ أو أليس المتفرسون الذين ينظرون بنور الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس الخ ، و (أعلم) إما على أصله أى أليس هو عز وجل أعلم من العالمين بما فى صدور العالمين من الأخلاق والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة أو هو بمعنى عالم . وقال قتادة : نزلت فيمن هاجر فردهم المشركون إلى مكة ، وقيل : نزلت فى ناس مؤمنين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا وهم الذين قال الله تعالى فيهم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية ، وما تقدم هو الأوفق لما سبق من الآية وما لحق من قوله سبحانه : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالاخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بأذية أو لا ، والمراد بالعلم المجازاة أى ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق ، وكأن تلوين الخطاب فى الذين آمنوا والمنافقين لرعاية الفواصل ، والظاهر أن الآية بناء على أن النفاق ظهر فى المدينة مدنية ، وهو يؤيد ما تقدم من عدها من المستثنيات ، ولعل من يقول إنها مكية لظاهر إطلاق جمع القول بمكية السورة ، وأن تعذيب الكفرة المسلمين إنما كان فى الأغلب بمكة يمنع ذلك أو يذهب إلى أنها من الاخبار بالغيب فتدبر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيان لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد ، ووصفهم بالكفر ههنا دون ماسبق لما أن مساق الكلام لبيان جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه ، واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين ، عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أى إذا كان ذلك الاتباع خطيئة يؤاخذ عليها يوم القيامة كما تقولون أو ولنحمل ماعليكم من الخطايا إن كان بعث ومؤاخذة ، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على الأمر بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع ، فكأن أصل الكلام اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم بجزم نحمل على أنه جواب الأمر ، فيكون المعنى إن تتبعوا نحمل فعدل عنه إلى ما فى النظم الجليل للمبالغة المذكورة ، ومنشؤها الاشارة إلى أن الحمل لتحققه كأنه أمر واجب أمروا به من آمر مطاع ، والتعليق على الشرط الذى

www.Quranpdf.blogspot.in

تضمنه الأمركما فى قولهم : أكرمنى أنفعك لا يفيد ذلك ، والداعى لهم إلى المبالغة التشجيع على الاتباع ، والحمل هنا مجاز ، وفى البحر شبه القيام بما يتحصل من عواقب الاثم بالحمل على الظهر والخطايا بالمحمول ، وقال مجاهد : الحمل هنا من الحمالة لا من الحمل انتهى *

والآية على ما اخرج جماعة عن مجاهد نزلت فى كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لانبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا فان كان عليكم شيء فعلينا . وأخرج ابن أبى شيبة . وابن المنذر عن ابن الحنفية قال كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسلمون يقولون : إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ، وقيل : قائل ذلك أبوسفيان بن حرب . وأمية بن خلف قالا لعمر رضى الله تعالى عنه : إن كان فى الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عنك *

وقيل : قائله الوليد بن المغيرة ، ونسبة ما صدر عن الواحد للجمع شائعة ، وقد تقدم الكلام غير مرة فى وجه ذلك ، وقرأ الحسن . وعيسى . ونوح القارىء (ولنحمل) بكسر لام الأمر ، ورويت عن على كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ نفى مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التى التزموا حملها ، فالباء زائدة لتأكيد النفى والاستمرار الذى تفيده الجملة الاسمية معتبر بعد النفى ، ومن الأولى للبيان وهو مقدم من تأخير ، ومن الثانية مزيدة لتأكيد الاستغراق ، وهذه الجملة اعتراض أو حال *

وقرأ داود بن أبى هند فيما ذكر أبو الفضل الرازى (من خطيئتهم) على التوحيد قال: ومعناه الجنس ، ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة ، وذكر ابن خالويه . وأبو عمرو الدانى أن داود هذا قرأ (من خطيئاتهم) جمع خطيئة جمع السلامة بالألف والتاء ، وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ من (خطيهم) بفتح الطاء وكسر الياء، وينبغى أن يحمل كسر الياء على أنها همزة سهلت بين بين فاشبهت الياء لأن قياس تسهيلها هو ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ١٢ ﴾ استئناف مقرر للنفى السابق ، والكذب قيل راجع إلى تعليق الحمل بالاتباع فانه اخبار لا إلى الامر السابق لأنه إنشاء ولا يجرى الكذب فيه ، وتعقب بأن التعليق لا يلزمه أن يكون اخبار بل هو ضمان معلق أى إنشاء الضمان عند وجود الصفة ، ولذا قال الزمخشرى : إن ضامن مالا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه فى الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ماهو عليه ، وجعل هذا سؤالا عن وجه التعبير بكاذبون ، وأجاب عن ذلك بوجهين ، ثانيهما على مافى الكشف هو الوجه ، وحاصله أن الكذب ليس راجعا إلى أنهم غير حاملين ليقال : إن الضامن لا يسمى كاذبا بل أخبر الله تعالى أنهم عجز عما ضمنوه ومع ذلك هم كاذبون فى وعد إنشاء الضمان عند وجود الوصف ، والمحصل أن من وعد الضمان إن ضمن ولم يحقق لا يسمى كاذبا وإن لم يضمن سمى كاذبا ، وأولهما أنه شبه الله تعالى حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده سبحانه لا على ما هو عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ماعليه المخبر عنه *

وقال بعض المحققين : الكذب راجع إلى الخبر الذى فى ضمن وعدهم بالحمل وهو أنهم قادرون على إنجاز

www.Quranpdf.blogspot.in

ماوعدوا ، والكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار مايلزم مدلوله ، وفى الانتصاف أن فى قوله تعالى : (إنهم لكاذبون) نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجىء الأمر بمعنى الخبر فان من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ماورد فى ذلك على أصل الامر ولم يتم له ذلك فى هذه الآية لأنه سبحانه أردف قولهم (ولنحمل خطاياكم) على صيغة الامر بقوله تعالى : (إنهم لكاذبون) والتكذيب إنما يتطرق إلى الأخبار انتهى ، ويعلم منه وجه كونهم كاذبين فى قولهم ذلك مع إخراجهم له مخرج الامر إلا أن فى كون الآية دليلا على ماذكره نظرا كما لايخفى *

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا، والتعبير عن الخطايا بالأثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة، واللام واقعة فى جواب قسم محذوف أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿ وَأَثْقَالاً ﴾ أخر ﴿ مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهى أثقال ما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شىء ما. فقد أخرج عبد بن حميد. وابن المنذر عن الحسن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال. «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من اجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أو زارهم شيئاً» قال عون: وكان الحسن يقرأ عليها وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وللاشارة إلى استقلال أثقال أنفسهم وأنها نهضتهم واستفرغت جهدهم وأن الأثقال الأخر كالعلاوة عليها اختير مافى النظم الجليل على أن يقال وليحملن أثقالا مع أثقالهم *

﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١٣ ﴾ أى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والأباطيل التى من جملتها كذبهم هذا *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ شروع فى بيان إفتتان الانبياء عليهم السلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فان الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى ، والظاهر أن الواو للعطف وهو من عطف القصة على القصة ، قال ابن عطية : والقسم فيها بعيد يعنى أن يكون المقسم به قد حذف وبقى حرفه وجوابه فان فيه حذف المجرور وإبقاء الجار، وهم قالوا: لابد من ذكر المجرور، والفاء للتعقيب فالمتبادر أنه عليه السلام لبث فى قومه عقيب الارسال المدة المذكورة وقد جاء مصرحا به فى بعض الآثار *

أخرج ابن أبى شيبة. وعبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. وابن مردويه. والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث الله تعالى نوحا عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا ، وعلى هذه الرواية يكون عمره عليه السلام ألف سنة وخمسين سنة ، وقيل : إنه عليه السلام عمر أكثر من ذلك ، أخرج ابن جرير عن عون بن أبى شداد قال: إن الله تعالى أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين

www.Quranpdf.blogspot.in

عاما ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة فيكون عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح عليه السلام قبل أن يبعث إلى قومه وبعد ما بعث ألفا وسبعمائة سنة، وعن وهب أنه عليه السلام عاش ألفا وأربعمائة سنة، وفي جامع الاصول كانت مدة نبوته تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الغرق خمسين سنة ، وقيل : مائتي سنة وكانت مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء *

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ما ذكر الله عز وجل مدة إقامته عليه السلام من لدن مولده إلى غرق قومه، وقيل : يحتمل أن يكون ذلك جميع عمره عليه السلام ، ولا يخفى أن المتبادر من الفاء التعقيبية ما تقدم ، وجاء في بعض الآثار أنه عليه السلام أطول الانبياء عليهم السلام عمرا ، أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليهما السلام فقال: ياأطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال: كرجل دخل بيتا له بابان فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر، ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه عليه السلام للدلالة على كمال العدد وكونه متعينا نصا دون تجوز فان تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الالف من تخييل طول المدة لأنها أول ما تقرع السمع فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء ، واختلاف المميزين لما في التكرير في مثل هذا الكلام من البشاعة، والنكتة في اختيار السنة أولا أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى من قومه ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ أي عقيب تمام المدة المذكورة ، والطوفان قد يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام قال العجاج :

حتى إذا ما يومها تصبصبا وغم طوفان الظلام الاثأبا (١)

وقد غلب على طوفان الماء وهو المراد هنا ﴿ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي والحال هم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ أي نوحا عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه ، وكانوا ثمانين ، وقيل : ثمانية وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ، وعن محمد ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة ، وروى مرفوعا كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة أي مع أهليهم ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي السفينة ﴿ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ عبرة وعظة لهم لبقائها زمانا طويلا على الجودي يشاهدها المارة ولا شتهارها فيما بين الناس، ويجوز كون الضمير للحادثة والقصة المفهومة مما قبل وهي عبرة للعالمين لاشتهارها فيما بينهم ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب باضمار اذكر معطوفا على ما قبله عطف القصة على القصة فلا ضير في اختلافهما خبرا وانشاءاً وإذ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل اشتمال منه لأن الاحيان تشتمل على ما فيها ، وقد جوز ذلك الزمخشري. وابن عطية ، وتعقب ذلك أبو حيان بأن إذ لا تتصرف فلا تكون مفعولا به والبدلية تقتضي ذلك . ثم ذكر أن إذ ان كانت ظرفا لما مضى لا يصح أن تكون معمولة لاذكر لأن المستقبل

(١) قوله الاثأبا هو شجر الاثل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

لا يقع فى الماضى فلا يجوز قم أمس ، وإذا خلعت من الظرفية الماضوية و تصرف فيها جاز أن تكون مفعولا به ومعمولا لاذكر، وجوز غير واحد أن يكون نصبا بالعطف على نوحا فكأنه قيل : وأرسلنا إبراهيم فاذ حينئذ ظرف للارسال ، والمعنى على ماقيل أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق إلى طريق الحق ، وهذا على ماقاله بعض المحققين لما أن القول المذكور فى حيز إذ إنما كان منه عليه السلام بعد ماراهق قبل الارسال، وأنت تعلم أن قوله تعالى: (وإن تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) الخ إذا كان من قوله عليه السلام لقومه كالنص فى أن القول المحكى عنه عليه السلام كان بعد الارسال ؛ وفى الحواشى السعدية أن ذلك اشارة إلى دفع ماعسى أن يقال: الدعوة تكون بعد الارسال والمفهوم من الآية تقدمها عليه، وحاصله أنه ليس المراد من الدعوة ماهو نتيجة الارسال بل ماهو نتيجة كمال العقل وتمام النظر، مع أن دلالة الآية على تقدمها غير مسلمة ففى الوقت سعة، ويجوز أن يكون القصد هو الدلالة على مبادرته عليه السلام للامتثال اه فتدبر *

وجوز أبو البقاء ، وابن عطية أن يكون نصبا بالعطف على مفعول أنجيناه وهو كما ترى ، والاوفق بما يأتى إن شاء الله تعالى من قوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيبا) أن يكون النصب بالعطف على نوحا. وقرأ أبو حنيفة، والنخعى. وأبو جعفر. وإبراهيم بالرفع على أن التقدير ومن المرسلين إبراهيم، وقيل: التقدير ومما ينبغى ذكره ابراهيم، وقيل : التقدير وممن أنجينا ابراهيم، وعلى الأول المعول للدلالة ماقبل ومابعد عليه ، ويتعلق بذلك المحذوف (إذ قال لقومه) ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أن تشركوا به سبحانه شيئاً ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى ماذكر من العبادة والتقوى ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من كل شىء فيه خيرية أو مما أنتم عليه على تقدير الخيرية فيه على زعمكم، ويجوز كون خير صفة لا اسم تفضيل ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦ ﴾ أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو أن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ماذكر من العبادة والتقوى ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق ، أى ما تعبدون من دونه تعالى الا أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه ، أو تعملونها وتنحتونها للافك والكذب ، واللام لام العاقبة والا فهم لم يعملوها لأجل الكذب ، وجوز أن يكون ذلك من باب التهكم . وقال بعض الافاضل: الاظهر كون إفكا مفعولا به والمراد به نفس الاوثان وجعلها كذبا مبالغة ، أو الافك بمعنى المأفوك وهو المصروف عما هو عليه ، وإطلاقه على الاوثان لأنها مصنوعة وهم يجعلونها صانعا . وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. والسلمى . وعون العقيلى . وعبادة . وابن أبى ليلى . وزيد بن على رضى الله تعالى عنهما (تخلقون) بفتح التاء والخاء واللام مشددة ، قال ابن مجاهد : ورويت عن ابن الزبير وأصله تتخلقون فحذفت إحدى التاءين وهو من تخلق بمعنى تكذب وصيغة التكلف للمبالغة . وزعم بعضهم جواز أن يكون تفعل بمعنى فعل . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما أيضاً (تخلقون) من خلق بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء . وقرأ ابن الزبير

www.Quranpdf.blogspot.in

وفضيل بن زرقان (أفكا) بفتح الهمزة وكسر الفاء على أنه مصدر كالكذب واللعب أو وصف كالحذر وقع صفة لمصدر مقدر أى خلقاً أفكا أى ذا أفك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ بيان لشرية ما يعبدونه من حيث انه لا يكاد يجديهم نفعا، و(رزقا) يحتمل أن يكون مصدراً مفعولا به ليملكون، والمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، وأن يكون بمعنى المرزوق أى لا يستطيعون إيتاء شيء من الرزق وجوز على المصدرية أن يكون مفعولا مطلقاً ليملكون من معناه أو لمحذوف والاصل لا يملكون أن يرزقوكم رزقا وهو كما ترى ونكر كما قال بعض الاجلة: للتحقير والتقليل مبالغة في النفي، وخص الرزق لمكانته من الخلق ﴿ فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ أى كله على أن تعريف الرزق للاستغراق. قال الطيبي: هذا من المواضع التي ليست المعرفة المعادة عين الاول فيها، وجوز أن تكون عين الأول بناء على أن كلا منهما مستغرق ﴿ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ عز وجل وحده ﴿ وَٱشْكُرُوا لَهُ ﴾ على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بشكره تعالى للعتيد ومستجلبين به للمزيد، فالجملتان ناظرتان لما قبلهما، وجوز أن يكونا ناظرتين لقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ ﴾ كأنه قيل: استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر فانه اليه ترجعون، وجوز بعض المحققين أن تكون هذه الجملة تذييلا لجملة ما سبق مما حكى عن ابراهيم عليه السلام أو لأوله، والمعنى اليه تعالى لا إلى غيره سبحانه ترجعون بالموت ثم بالبعث فافعلوا ما أمرتكم به وما بينهما اعتراض لتقرير الشرية كما سمعت. وقرىء (ترجعون) بفتح التاء من رجع رجوعا ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ عطف على مقدر تقديره فان تصدقوني فقد فزتم بسعادة الدارين وان تكذبوا أى تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم اليه تعالى ترجعون بالبعث ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وهذا تعليل للجواب في الحقيقة، والاصل فلا تضروني بتكذيبكم فانه قد كذب أمم قبلكم رسلهم وهم شيث. وادريس. ونوح. وهود. وصالح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم اياى ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أصلا

وهذه الآية أعني (وإن تكذبوا) الخ على ماذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام وكذا ما بعد على ماقيل إلى قوله تعالى: (فما كان جواب قومه) وجوز أن يكون ذلك اعتراضا بذكر شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، قالوا: وفي (وإن تكذبوا) اعتراضية، والخطاب منه تعالى أو من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على معنى وقل لقريش (إن تكذبوا) الخ *

وذهب بعض المحققين إلى أن قوله تعالى: (إن تكذبوا) الخ من كلام إبراهيم عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، والهمزة لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، والواو للعطف على

www.Quranpdf.blogspot.in

مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك *

وقرأ حمزة . والكسائى . وأبو بكر بخلاف عنه (ألم تروا) بتاء الخطاب ، وهو على ماقال هذا البعض لتشديد الانكار وتأكيده ولا يحتاج عليه إلى تقدير قول ، ومن لم يجعل ذلك كلاما مستأنفا مسوقا من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث قال : إن الخطاب على تقدير القول أى قال لهم رسلهم :(ألم تروا)، ووجه ذلك بأنه جعل ضمير (أو لم يروا) على قراءة الغيبة لأمم فى قوله تعالى : (أمم من قبلكم) فيجعل فى قراءة الخطاب له أيضا ليتحد معنى القراءتين ، وحينئذ يحتاج لتقدير القول ليحكى خطاب رسلهم معهم إذ لا مجال للخطاب بدونه *

وقيل : إن ذاك لأنه لايجوز أن يكون الخطاب لمنكرى الاعادة من أمة إبراهيم أو نبينا عليهما الصلاة والسلام وهم المخاطبون بقوله تعالى : (وإن تكذبوا) لأن الاستفهام للانكار أى قد رأوا فلا يلائم قوله تعالى : (قل سيروا) الخ لأن المخاطبين فيها هم المخاطبون أولا ، يعنى ان كانت الرؤية علمية فالامر بالسير والنظر لا يناسب لمن حصل له العلم بكيفية الخلق ، والقول بأن الأول دليل أنفسى ، والثانى آفاقى مخالف للظاهر من وجوه اه فتدبر ، ولعل الأظهر والأبعد عن القيل والقال فى نظم الآيات ما نقلناه عن بعض المحققين *

وقرأ الزبيرى . وعيسى . وأبو عمرو بخلاف عنه (كيف يبدا) على أنه مضارع بدأ الثلاثى مع إبدال الهمزة ألفا كما ذكره الهمدانى ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطف على (أولم يروا) لا على يبدئ لأن الرؤية إن كانت بصرية فهى واقعة على الابداء دون الاعادة فلو عطف عليه لم يصح وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لاثباته فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل *

وجوز العطف عليه بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه سبحانه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه على ماقيل من غير ريب ، وعن مقاتل أن الخلق هنا الليل والنهار وليس بشىء ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من الاعادة ، وجوز أن يكون المشار اليه ماذكر من الامرين ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يحتاج فعله تعالى الى شىء خارج عن ذاته عز وجل *

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أمر لابراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحققين ، وكذا جعله من جعل جميع ماتقدم من قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن جعل قوله تعالى : (وان تكذبوا) الى قوله تعالى : (فما كان جواب قومه) اعتراضا جعل هذا أمرا لنبينا ﷺ أن يقول ذلك لقريش *

وجوز أن يجعل نظم الآيات السابقة على مانقل عن بعض المحققين ويجعل هذا أمرا للنبى عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم فانهم مثل قوم إبراهيم عليه السلام والامم الذين من قبلهم فى التكذيب بالبعث والانكار له ، ومافى حيز هذا القول متضمن مايدل على صحته ، وعدم اتحاده مع ماسبق لايضر . وأياما كان فاضافة الرحمة إلى ضمير المتكلم فيما يأتى إن شاء الله تعالى لما أن ذلك حكاية كلامه عز وجل على وجهه ومثله فى القرآن الكريم كثير ، والسير كما قال الراغب : المضى فى الأرض ، وعليه يكون فى الآية تجريد ، والظاهر أن المراد به المضى بالجسم ، وجوز أن يراد به اجالة الفكر . وحمل على ذلك فيما يروى فى وصف الانبياء عليهم السلام أبدانهم فى الارض سائرة وقلوبهم فى الملكوت جائلة ، ومنهم من حمل ذلك على الجد فى العبادة المتوصل

www.Quranpdf.blogspot.in

بها الى الثواب ، والمعنى على ما قلنا أولا امضوا فى الارض وسيحوا فيها ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ الله تعالى ﴿ الْخَلْقَ ﴾ أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى ، فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها ، وعلى هذا تتغاير الكيفية فى الآية السابقة والكيفية فى هذه الآية لما أن الاولى كما علمت باعتبار المادة وعدمها وهذه باعتبار تغاير الاحوال . ولعل التعبير فى الآية الاولى بالمضارع أعنى (يبدأ) دون الماضى كما هنا لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة على معنى أن خلق الاشياء أغرب من جعل أطوارها مختلفة ، وأنت إذا لاحظت أن خلق الاشياء يعود فى الآخرة الى ايجادها من كتم العدم من غير سبق مادة دفعا للتسلسل وأن جعل أطوارها مختلفة انما هو بعد سبق المادة ولو سبقا ذاتيا وهو ما قام به الاختلاف أعنى ذوات الأشياء لا تشك فى أن الأول أغرب من الثانى ،ولذا ترى التمدح بأصل الخلق فى القرآن العظيم أكثر من التمدح بالجعل المذكور . وقد وافق الصيغة فى الاشعار بالغرابة بناء الفعل من باب الافعال فانه غير مستعمل ولذا قالوا : أنه مخل بالفصاحة لولا وقوعه مع (يعيد) ، ومما يقرب من هذا السر ما قيل فى وجه حذف الياء من يسر فى قوله تعالى : (والليل إذا يسر) من أن ذلك لان الليل يسرى فيه لا يسرى أى ليدل مخالفة الظاهر فى اللفظ على مخالفته فى المعنى وهو معنى دقيق *

وقيل فى وجه التعبير بما ذكر افادة الاستمرار التجددى وهو بناء على المعنى الثانى فى الآية . وقال بعضهم فى تغاير الدليلين : إن هذا عينى وذلك علمى أوهذا آفاقى والأول أنفسى . وقرأ الزهرى (كيف بدا الخلق) بتخفيف الهمزة بابدالها ألفا ثم حذفها فى الوصل . قال ابو حيان : وهو تخفيف غير قياسى كما قال : * فارعى فزارة لا هناك المرتع ، وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى بعد النشأة الأولى التى شاهدتموها والنشأة الأيجاد والخلق ، والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولا فرق بينهما الا بالاولية والأخروية كذا قيل *

والظاهر أنه مبنى على أن الجسد يعدم بالكلية ثم يعاد خلقا جديدا لا أنه تتفرق اجزاؤه ثم تجمع بعد تفرقها وإلى كل ذهب بعض ، والأدلة متعارضة ، والمسألة كما قال ابن الهمام عند المحققين ظنية . وفى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد لحجة الاسلام الغزالى . فان قيل : فما تقولون أتعدم الجواهر والاعراض ثم تعادان جميعا أو تعدم الأعراض دون الجواهر وإنما تعاد الاعراض ؟ قلنا : كل ذلك ممكن ولكن ليس فى الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات انتهى ، وذهب ابن الهمام إلى أن الحق وقوع الكيفيتين اعادة ما انعدم بعينه و تأليف ما تفرق من الأجزاء ، وقد يقال : إن بدء الانسان ونحوه ليس اختراعا محضا واخراجا من كتم العدم إلى الوجود فى الحقيقة لما أنه مخلوق من التراب وسائر العناصر ، والظاهر أن فناءه ليس عبارة عن صيرورته عدما محضا بل هو عبارة عن انحلاله إلى ما تركب منه ورجوع كل عنصر إلى عنصره . نعم لا شك فى فناء بعض الاعراض وانعدامها بالكلية ، وقد يستثنى منه بعض الاجزاء فلا ينحل إلى ما منه التركيب بل يبقى على ما كان عليه وهو عجب الذنب لظاهر حديث الصحيحين « ليس شئ من الانسان لا يبلى الاعظما واحدا وهو عجب الذنب منه

www.Quranpdf.blogspot.in

يركب الخلق يوم القيامة » وتأويله بما أوله به ملا صدرا فى أسفاره مما لا ينبغى أن يلتفت اليه ، وحينئذ فالاعادة تكون بتركيب ما انحل من العناصر وضمه إلى هذا الجزء فلا تكون اختراعا محضا واخراجا من كتم العدم إلى الوجود فى الحقيقة ، لكن لكل من البدء والاعادة شبه تام بالاختراع والاخراج المذكور ، وبه يصح أن يقال لكل اختراع واخراج من العدم إلى الوجود فلا تغفل ، والجملة معطوفة على جملة (سيروا فى الأرض) داخلة معها فى حيز القول ، ولا يضر تخالفهما خبرا وانشاء فانه جائز بعد القول وماله محل من الاعراب ، ولا يصح عطفها على بدأ الخلق لأنها لا تصلح أن تكون موقعا للنظر أما إن كان بمعنى الابصار فظاهر وأما إن كان بمعنى التفكر فلأن التفكر فى الدليل لا فى النتيجة ، وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره فى بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة إلى علة الحكم فانه الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال وتكرير الاسناد ورد ماتقدم على مقتضى الظاهر فلا يحتاج للتوجيه ، وكون المراد منه ليس إثبات الاعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال غير مسلم ، وقرأ أبو عمرو . وابن كثير (النشاءة) بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة والقصر أشهر ، ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف العامل أى ينشئ فينشأون النشأة الآخرة نحو (أنبتكم من الارض نباتا) ﴿ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته عز وجل على جميع الممكنات التى من جملتها الاعادة لا يتصور أن يتردد فى قدرته سبحانه عليها ولا فى وقوعها بعدما أخبر به ، ثم اعلم أن أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته لجمع النقيضين بل غاية ماعندهم استبعاده ، والرد على هؤلاء بهذه الآيات ونحوها ظاهر لما فيها مما يزيل الاستبعاد من الابداء الذى هو فى الشاهد أشق من الاعادة ، ومنهم من يقول باستحالته عقلا فلا يصلح متعلقا للقدرة ، وهؤلاء هم القائلون باستحالة اعادة المعدوم ، والرد عليهم بعد تسليم أن ما نحن فيه من اعادة المعدوم وليس من جمع المتفرق بابطال ما استدلوا به على الاستحالة ، وقد تكفلت الكتب الكلامية بذلك ، وأما الرد عليهم بهذه الآيات ونحوها فلما فيها من الاشارة إلى تزييف أدلة الاستحالة فتدبر ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما بعد النشأة الآخرة أى يعذب بعد النشأة الآخرة من يشاء تعذيبه وهم المنكرون لها ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمته وهم المقرون بها ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ أى تردون ، والجملة تقرير للاعادة وتوطئة لما بعد ، وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى بالهرب فى الارض الفسيحة أو الهبوط فى مكان بعيد الغور والعمق بحيث لا يوصل اليه فيها ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها أو التى هى أمنع لمن حل فيها عن أن تناله أيدى الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقى اليها كما فى قوله تعالى : (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا) أو البروج والقلاع المرتفعة فى جهتها على ماقيل ، وهو خلاف الظاهر ، وقال ابن زيد . والفراء : إن (فى السماء) صلة موصول محذوف هو مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير ولا من فى السماء بمعجز ، والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها ، وضعف بأن فيه حذف الموصول مع بقاء صلته وهو لا يجوز عند البصريين الا في الشعر كقول حسان :

www.Quranpdf.blogspot.in

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

على ماهو الظاهر فيه ، على أن ابن مالك اشترط فى جوازه عطف الموصول المحذوف على موصول آخر مذكور كما فى هذا البيت ، وبأن فيه حذف الخبر أيضا مع عدم الحاجة اليه ، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفا على أنتم ولم يجعله مبتدأ محذوف الخبر ليكون العطف من عطف الجملة على الجملة ، وزعم بعضهم أن الموصول محذوف فى موضعين وأنه مفعول به لمعجزين وقال : التقدير وما أنتم بمعجزين من فى الارض أى من الانس والجن ولا من فى السماء أى من الملائكة عليهم السلام فكيف تعجزون الله عز وجل ، ولا يخفى أن هذا فى غاية البعد ولا ينبغى أن يخرج عليه كلام الله تعالى *

وقيل ليس فى الآية حذف أصلا ، والسماء هى المظلة إلا أن (أنتم) خطاب لجميع العقلاء فيدخل فيهم الملائكة ويكون السماء بالنظر اليهم والارض بالنظر إلى غيرهم من الانس والجن وهو كما ترى *

﴿ وَمَا لَكُم مِن دُون اللهَ من وَلى ﴾ يحرسكم من بلاء أرضى أو سماوى ﴿ وَلَا نَصِير ٢٣ ﴾ يدفعه عنكم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها النشأة الاولى الدالة على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا ، وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ﴿ وَلقَائه ﴾ الذى تنطق به تلك الآيات ﴿ أُولَـٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عز وجل ﴿ يَئِسُوا من رَحْمَتِى ﴾ أى ييأسون منها يوم القيامة على أنه وعيد ، والا فالكافر لا يوصف باليأس فى الدنيا لأنه لا رجاء له ، وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس فهو لا يخطر بباله رجاء ولا خوفا ، إن أخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف وإن أخطر المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء ، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم ، وأن يكون الكلام على الاستعارة * شبهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر لأنه مادامت الحياة لا يتحقق اليأس من الرحمة لرجاء الايمان ، أو من قدر آيسا من الرحمة على الفرض دلالة على توغلهم فى الكفر وعدم ارعوائهم . وقرأ الذمارى : وأبو جعفر ، (ييسوا) بغير همز بل بياء بدل الهمزة ﴿ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى تكرير اسم الاشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على فظاعة حالهم مالا يخفى . لكن قال الامام : إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عز وجل دون العذاب ليؤذن بأن رحمته جل وعلا سبقت غضبه سبحانه ، وأنت تعلم أن فى الآية على هذا دلالة على سوء حالهم أيضاً لافادتها أنهم حرموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِه ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى : ﴿ إلا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ *

وقرأ الحسن . وسالم الأفطس بالرفع على العكس ، وقد مر مافيه فى نظائره ، والمراد بالقتل ما كان بسيف ونحوه فتظهر مقابلة الاحراق له ، ولا حاجة إلى جعل أو بمعنى بل ، والآمرون بذلك إما بعضهم لبعض أو كبرائهم قالوا لأتباعهم : اقتلوه فتستريحوا منه عاجلا أو حرقوه بالنار فاما أن يرجع إلى دينكم إذا مضته

www.Quranpdf.blogspot.in

النار وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه ، وإياما كان ففيه إسناد ماللبعض إلى الكل ، وجاء هنا الترديد بين قتله عليه السلام وإحراقه فقد يكون ذلك من قائلين ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق ، وفى اقترب قالوا حرقوه اقتصروا على أحد الشيئين وهو الذى فعلوه رموه عليه السلام فى النار ولم يقتلوه ثم إنه ليس المراد أنهم لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حججه عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم ، بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الآخيرة ، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لايحصى ﴿ فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها سبحانه عليه بردا وسلاما حسبما بين فى مواضع أخر ، وقد مر بيان كيفية القائه عليه السلام فيها وإنجائه تعالى إياه منها ، وكان ذلك فى كوثى من سواد الكوفة ، وكونه فى المكان المشهور اليوم من أرض الرهى وعنده صورة المنجنيق وماء فيه سمك لايصطاد ولا يؤكل حرمة له لا أصل له ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى إنجائه عليه السلام منها ﴿ لَأَيَـٰتٍ ﴾ بينة عجيبة وهى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها *

وعن كعب أنه لم يحترق بالنار إلا الحبل الذى أوثقوه عليه السلام به ، ولولا وقوع اسم الاشارة فى أثناء القصة لكان الأولى كونه إشارة إلى ماتضمنته ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤ ﴾ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالفحص عنها ، والتأمل فيها ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار *

﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول له فى الخارج ، أو المعنى إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم إلى اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودونه اتخذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه ، وهذا كما يرى الانسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودة له ، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولا له فى الخارج ، والمراد نفى أن يكون فيها نفع أو ضر وأن الداعى لاتخاذها رجاء النفع أو خوف الضر ، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علة لاتخاذها علة وهو ما أشاروا اليه فى قولهم : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) للاشارة الى أن ذلك لكونه أمرا موهوما لاحقيقة له مما لا ينبغى أن يكون علة باعثة وسببا حاملا لمن له أدنى عقل *

وقال بعضهم : يجوز أن يكون المخاطبون فى هذه الآية أناسا مخصوصين ، والقائلون : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أناسا غيرهم ، وقيل : إن الاوثان أول مااتخذت بسبب المودة ، وذلك أنه كان أناس صالحون فماتوا وأسف عليهم أهل زمانهم فصوروا احجارا بصورهم حبا لهم وكانوا يعظمونها فى الجملة ولم يزل تعظيمها يزداد جيلا فجيلا حتى عبدت ، فالآية إشارة إلى ذلك ، والمعنى انما اتخذ أسلافكم من دون الله أوثانا الخ ، ومثله فى القرآن الكريم كثير ، وثانى مفعولى اتخذتم محذوف تقديره آلهة *

وقال مكى : يجوز أن يكون اتخذ متعديا إلى مفعول واحد كما فى قوله تعالى : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب) ورد بأنه مما حذف مفعوله الثانى أيضا ، وجوز أن يكون مودة هو المفعول الثانى بتقدير مضاف أى ذات مودة وكونها ذات مودة باعتبار كونها سبب المودة ، وظاهر كلام الكشاف أن المضاف المحذوف

www.Quranpdf.blogspot.in

هو لفظ سبب ، وقد يستغنى عن التقدير بتأويل مودة بمودودة ، أو بجعلها نفس المودة مبالغة ، واعترض جعل مودة المفعول الثانى بأنه معرفة بالاضافة إلى المضاف إلى الضمير والمفعول الاول نكرة وذلك غير جائز لأنهما فى الاصل مبتدأ وخبر . وأجيب بأنه لا يلزم من غير جواز ذلك فى أصلهما عدم جوازه فيهما ، وإذا سلم اللزوم فلا يسلم كون المفعول الثانى هنا معرفة بالاضافة لما أنها على الاتساع فهى من قبيل الاضافة اللفظية التى لا تفيد تعريفا وإنما تفيد تخفيفا فى اللفظ ، كذا قيل : وهو كما ترى *

وقرأ نافع . وابن عامر . وأبو بكر (مودة) بالنصب والتنوين بينكم بالنصب ، والوجه أن مودة منصوب على أحد الوجهين السابقين و(بينكم) منصوب به أو بمحذوف وقع صفة له ، وابن كثير . وأبو عمرو . والكسائى . ورويس (مودة بينكم) برفع مودة مضافة إلى بين وخفض بين بالاضافة ، وخرج الرفع على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أى هى مودة على أحد التأويلات المعروفة ؛ والجملة صفة أوثانا ، وجوز كونها المفعول الثانى أو على أنها خبر إن على أن ما مصدرية ، أى إن اتخاذكم ، أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول ، أى إن الذى اتخذتموه من دون الله أوثانا مودة بينكم ، ويجرى فيه التأويلات التى أشرنا اليها *

وقرأ الحسن . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وأبو عمرو فى رواية الأصمعى . والاعشى عن أبى بكر (مودة) بالرفع والتنوين (بينكم) بالنصب ، ووجه كل معلوم مما مر . وروى عن عاصم (مودة) بالرفع من غير تنوين و(بينكم) بفتح النون ، جعله مبنيا لاضافته إلى لازم البناء فحله الجر باضافة مودة اليه ، ولذا سقط التنوين منها . وفى قوله تعالى : (فى الحيوة الدنيا) على هذه القراءات والاوجه فيها أوجه من الاعراب ذكرها أبو البقاء . الاول : أن يتعلق باتخذتم على جعل ما كافة ونصب مودة لا على جعلها موصولة أو مصدرية ، ورفع مودة لئلا يؤدى إلى الفصل بين الموصول وما فى حيز الصلة بالخبر . الثانى : أن يتعلق بنفس مودة اذا لم يجعل بين صفة لها بناء على أن المصدر اذا وصف لا يعمل مطلقا ، وأجاز ابن عطية هذا التعلق وان جعل بين صفة لما أنه يتسع بالظرف مالم يتسع فى غيره ، فيجوز عمل المصدر به بعد الوصف . الثالث : أن يتعلق بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم . الرابع : أن يجعل حالا من بينكم لتعرفه بالأضافة . وتعقب أبو حيان هذين الوجهين بعد نقلهما عن أبى البقاء كما ذكرنا بأنهما اعرابان لا يتعقلان . الخامس : أن يجعل صفة ثانية لمودة اذا نونت وجعل بينكم صفة لها ، وأجاز ذلك مكى . وأبو حيان أيضا . السادس : أن يتعلق بمودة ويجعل بينكم ظرفا متعلقا بها أيضا ، وعمل مودة فى ظرفين لاختلافهما . السابع : أن يجعل حالا من الضمير فى بينكم إذا جعل وصفا لمودة والعامل الظرف لأن العامل فى ذى الحال هو العامل فى الحال ، ولا يجوز أن يكون العامل مودة لذلك . وقال مكى : لأنك قد وصفتها ومعمول المصدر متصل به فيكون قد فرقت بين الصلة والموصول بالصفة . وعن ابن مسعود أنه قرأ (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا إنما مودة بينكم فى الحياة الدنيا) بزيادة (إنما) بعد أوثانا ورفع (مودة) بلا تنوين وجر بين بالاضافة وخرجت على أن مودة مبتدأ وفى الحياة الدنيا خبره ، والمعنى إنما توادكم عليها أو مودتكم إياها كائن أو كائنة فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يتبدل الحال حيث ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم ﴾ وهم العبدة ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهم الاوثان ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق

www.Quranpdf.blogspot.in

الآخر ، وفيه تغليب الخطاب وضمير العقلاء ، وجوز أن يكون الخطاب للعبدة لا غير ، والمراد بكفر بعضهم ببعض التناكر أى ثم يوم القيامة يظهر التناكر والتلاعن بينكم أيتها العبدة للاوثان ×

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه أبداً ×

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٢٥ ﴾ يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها ، وجمع الناصرين لوقوعه فى مقابلة الجمع ، أى مالأحد منكم من ناصر أصلا ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى صدقه عليه السلام فى جميع مقالاته أو بنبوته حين ادعاها لا أنه صدقه فيما دعا اليه من التوحيد ولم يكن كذلك قبل ، فانه عليه السلام كان متنزها عن الكفر ، وما قيل : إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه ضعيف رواية وكذا دراية ، لأنه بظاهره يقتضى عدم إيمانه قبل وهو غير لائق به عليه السلام ، وحمله بعضهم على نحو ماذكرنا أو على أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها إلا الأفراد ، ولوط على مافى جامع الاصول ابن أخيه هاران بن تارح ، وذكر بعضهم أنه ابن أخته بالتاء الفوقية ﴿ وَقَالَ ﴾ ابراهيم عليه السلام: كما ذهب اليه قتادة . والنخعى ، وقيل : الضمير للوط عليه السلام وليس بشىء لما يلزم عليه من التفكيك ، والجملة إستئناف بيانى كأنه قيل . فماذا كان منه عليه السلام ؟ فقيل : قال ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ ﴾ أى من قومى ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أى إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة اليها ، وقيل : إلى حيث لا أمنع عبادة ربى ، وقيل : المعنى مهاجر من خالفنى من قومى متقربا إلى ربى ﴿ إِنَّهُ ﴾ عز وجل ﴿ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى ﴿ الْحَكِيمُ ٢٦ ﴾ الذى لا يفعل فعلا الاوفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى ×

روى أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوطا وسارة ابنة عمه الى حران ، ثم منها الى الشام فنزل قرية من أرض فلسطين ، ونزل لوط سذوم وهى المؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من قرية ابراهيم عليهما السلام ، وكان عمره اذ ذاك على مافى الكشاف والبحر خمسا وسبعين سنة ، وهو أول من هاجر فى الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولدا ونافلة حين أيس من عجوز عاقر ، والجملة معطوفة على ماقبل ولا حاجة الى عطفها على مقدر كاصلحنا أمره ، ولم يذكر سبحانه اسماعيل عليه السلام ، قيل لأن المقام مقام الامتنان وذكر الأحسان وذلك باسحاق ويعقوب لما أشرنا اليه بخلاف اسماعيل ، وقيل لأنه لا يناسب ذكره ههنا لانه ابتلى بفراقه ووضعه بمكة مع أمه دون أنيس ، وقال الزمخشرى : إنه عليه السلام ذكر ضمنا وتلويحا بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ولم يصرح به لشهرة أمره وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من أولاده وأعلم به ، والمراد بالكتاب جنسه المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ على ماعمل لنا ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ قال مجاهد: بأنجائه من النار ومن الملك الجبار والثناء الحسن عليه بحيث يتولاه كل أمة ، وضم إلى ذلك ابن جريج الولد الذى قرت به عينه ×

وقد يضم إلى ذلك أيضا استمرار النبوة فى ذريته ، وقال السدى : إن ذلك اراءته عليه السلام مكانه من الجنة ، وقال بعضهم : هو التوفيق لعمل الآخرة ، وقيل : هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وقال الماوردى :

www.Quranpdf.blogspot.in

هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لنبي غيره ، ولا يخفى حال بعض هذه الاقوال ، وذكر بعضهم أن المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته الينا ، وعليه لا يصح عد الانجاء من النار من الاجر بل يعد اعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم ونحوه ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الاجر ، وعطف هذا وما بعده من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى لفى عداد الكاملين فى الصلاح من التعميم بعد التخصيص، كأنه لما عدد ما أنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه : وجعلناه مع ماذكر خير الدارين ﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم أو على نوحا والكلام فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ كالذى فى القصة السابقة * ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة البالغة فى القبح ، وقرأ الجمهور (أئنكم) على الاستفهام الانكارى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ استئناف مقرر لكمال قبحها ، فان إجماع جميع افراد العالمين على التحاشى عنها ليس الا لكونها مما تشمئز منه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس الكريمة ، وجوز أبو حيان كون الجملة حالا من ضمير تأتون ، كأنه قيل: إنكم لتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أى تنكحونهم ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ أى وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارة تلك الفعلة القبيحة واتيانهم كرها أو وتقطعون سبيل النسل بالاعراض عن الحرث واتيان ماليس بحرث ، وقيل : تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال ، وقيل : تقطعونه بقبح الاحدوثة ﴿ وَتَأْتُونَ ﴾ أى تفعلون ﴿ فِي نَادِيكُمُ ﴾ أى فى مجلسكم الذى تجتمعون فيه ، وهو اسم جنس إذ أنديتهم فى مجالسهم كثيرة ، ولا يسمى ناديا إلا إذا كان فيه أهله فاذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد ﴿ الْمُنْكَرَ ﴾ أخرج أحمد . والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه . والطبرانى . والبيهقى فى الشعب . وغيرهم عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : (وتأتون فى ناديكم المنكر) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم ، وعن مجاهد . ومنصور والقاسم بن محمد . وقتادة . وابن زيد . هو اتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضا ، وعن مجاهد أيضا هو لعب الحمام وتطريف الاصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم ، وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم فيها ، وفى رواية أخرى عنه هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح ولم يأت فى قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء فى قصة إبراهيم وكذا فى قصة شعيب الآتية لأن لوطا كان من قوم إبراهيم وفى زمانه وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده واشتهر امره عند الخلق فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو اليه سبحانه فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى كذا فى البحر *

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٩ ﴾ أى فيما تعدنا من نزول العذاب على ما فى الكشاف وغيره ، وهذا ظاهر فى أنه عليه السلام كان أوعدهم بالعذاب ، وقيل : أى فى دعوى استحقاقنا العذاب على ما نحن عليه المفهومة من التوبيخ المعلوم من الاستفهام الانكارى ،

www.Quranpdf.blogspot.in

وقيل: أي في دعوى استقباح ذلك الناطق بها كلامك . وهذا الجواب صدر عنهم في المرة الأولى من مرات مواعظ لوط عليه السلام ، وما في سورة الاعراف المذكور في قوله تعالى : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) الآية وما في سورة النمل المذكور في قوله تعالى :(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) الآية فقد صدر عنهم بعد هذه المرة فلا منافاة بين الحصر هنا والحصر هناك ، قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود . وتعقب بأن هذا التعيين يحتاج إلى توقيف . وأجيب بأن مضموني الجوابين يشعران بالتقدم والتأخر ، وذلك أن (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) من باب التكذيب والسخرية وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات و (أخرجوهم من قريتكم) ونحوه من باب التعذيب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفي ، وهذا القدر يكفي لدعوى التقدم والتأخر ، وقيل في دفع المنافاة بين الحصرين : إن ماهنا جواب قومه عليه السلام له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا في أمره، وقيل: إن أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم والآخر صدر عن غيرهم ، وظاهر صنيع بعض الأجلة يقتضي اختيار أن يكون كل من الحصرين بالاضافة إلى الجواب الذي يرجوه عليه السلام في متابعته فتأمل *

﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ أي بانزال العذاب الموعود ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ٣٠ ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيما بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق السخرية ، وإنما وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ أي بالبشارة بالولد والنافلة ﴿ قَالُوا ﴾ أي لابراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ أي قرية سذوم وهي أكبر قرى قوم لوط وفيها نشأت الفاحشة أولا على ما قيل ، ولذا خصت بالذكر ، وفي الاشارة بهذه إشارة إلى أنها كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام وإضافة (مهلكو) إلى (أهل) لفظية لأن المعنى على الاستقبال، وجوز كونها معنوية لتنزيل ذلك منزلة الماضي لقصد التحقيق والمبالغة ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ٣١ ﴾ تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ، والتأكيد في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر وقال سبحانه : (ان أهلها) دون إنهم مع أنه أظهر وأخصر تنصيصا على اتفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجي *

وقال بعض المدققين : إن ذلك للدلالة على أن منشأ فساد جبلتهم خبث طينتهم ، ففيه اشارة خفية إلى أن المراد من أهل القرية من نشأ فيها فلا يتناول لوطا عليه السلام ، واعترض بأنه يبعد كل البعد خفاؤها لو كانت على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ وقيل : يجوز أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا اليه من عدم تناول أهل القرية اياه لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه ، وقيل : أراد أن يعلم هل يبقى في القرية عند اهلاكهم أو يخرج منها ثم يهلكون ، وكأن في قوله : (إن فيها) دون إن منهم إشارة إلى ذلك ، وأفهم كلام بعض المحققين أن قوله : (إن فيها لوطا) اعتراض على الرسل عليهم السلام بأن في القريه من لم يظلم بناء على أن المتبادر من إضافة الأهل اليها العموم ، وحمل الأهل على من سكن فيها وإن لم يكن توالده بها ، أومعارضة للموجب للهلاك وهو الظلم بالمانع وهو أن لوطا بين ظهرانيهم

www.Quranpdf.blogspot.in

وهو لم يتصف بصفتهم ، وأن جواب الرسل المحكي بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ تسليم لقوله عليه السلام فى لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ماكانوا غافلين عنه ، وجواب عنه بتخصيص الاهل بمن عداه وأهله على الاعتراض ؛ أو بيان وقت إهلاكهم بوقت لا يكون لوط وأهله بين ظهرانيهم على المعارضة ، وفيه مايدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب فى الجملة ، والذي يغلب على الظن أنهم أرادوا بأهل القرية من نشأبها على ماهو المتعارف فلا يكون لوط عليه السلام داخلا فى الأهل ، ويؤيد ذلك تأييداً ما قول قومه (أخرجوا آل لوط من قريتكم) وفهم إبراهيم عليه السلام ماأرادوه وعلم أن لوطا ليس من المهلكين إلا أنه خشى أن يكون هلاك قومه وهو بين ظهرانيهم فى القرية فيوحشه ذلك ويفزعه ه

ولعله عليه السلام غلب على ظنه ذلك حيث لم يتعرضوا لاخراجه من قرية المهلكين مع علمهم بقرابته منه ومزيد شفقته عليه فقال : (إن فيها لوطا) على سبيل التحزن والتفجع كما فى قوله تعالى : (إنى وضعتها أنثى) وجل قصده إن لا يكون فيها حين الاهلاك فأخبروه أولا بمزيد علمهم به وأفادوه ثانيا بما يسره ويسكن جأشه نظير ما فى قوله تعالى : (والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) وأكدوا الوعد بالتنجية إما للاشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلة من ينكر تنجيته لما شاهدوا منه فى حقه ، وتحمل التنجية على إخراجه من بين القوم وفصله عنهم وحفظه مما يصيبهم فانها بهذا المعنى الفرد الأكمل ، ويلائم هذا ماقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ٣٢ ﴾ أى من الباقين فى القرية وهو أحد تفسيرين ، ثانيهما ماروى عن قتادة وهو تفسيره الغابرين بالباقين فى العذاب فتأمل ، فكلام الله تعالى ذو وجوه ، وفسر الأهل هنا بأتباع لوط عليه السلام المؤمنين ، وجملة (كانت من الغابرين) مستأنفة وقد مر الكلام فى ذلك وكذا فى الاستثناء فارجع اليه ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿ لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ أى اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء ، وقد جاءوا اليه عليه السلام بصور حسنة إنسانية ه

وقيل : ضمير (بهم) للقوم أى سيء بقومه لما علم من عظيم البلاء النازل بهم ، وكذا ضمير (بهم) الآتى وليس بشيء ، و(أن) مزيدة لتأكيد الكلام التى زيدت فيه فتؤكد الفعلين واتصالهما المستفاد من لما حتى كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان فكأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث *

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أى وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم : ضاقت يده ، ويقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له قادرا عليه ، وذلك أن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع ه

﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ عطف على سيء ، وجوز أن يكون عطفا على مقدر أى قالوا : (إنا رسل ربك) وقالوا الخ ، وأيا ما كان فالقول كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلت به الحال إلى أن قال : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) والخوف للتوقع والحزن للواقع فى الأكثر ، وعليه فالمعنى لاتخف من تمكنهم منا ولاتحزن على قصدهم إيانا وعدم اكتراثهم بك ، ونهيهم عن الخوف من التمكن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر ، وإن كان بعد الاعلام فهو لتأنيسه وتأكيد ماأخبروه به ه

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال الطبرسي : المعنى لاتخف علينا وعليك ولاتحزن بما نفعله بقومك ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ فلا يصيبكم مايصيبهم من العذاب ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ إنها ﴿ كَانَتْ ﴾ فى علم الله تعالى ﴿ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ٣٣ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى . ويعقوب (لننجينه ومنجوك) بالتخفيف من الانجاء ، ووافقهم ابن كثير فى الثانى *

وقرأ الجمهور بشد نون التوكيد ، وفرقة بتخفيفها ، وأياما كان فمحل الكاف من منجوك الجر بالاضافة ، ولذا حذفت النون عند سيبويه و(أهلك) منصوب على اضمار فعل أى وننجى أهلك ، وذهب الاخفش . وهشام إلى أن الكاف فى محل النصب وأهلك معطوف عليه وحذفت النون لشدة طلب الضمير الاتصال بما قبله للاضافة ، وقال بعض الاجلة : لامانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلان الجر والنصب ويجوز العطف عليها بالاعتبارين ، وقرأ نافع . وابن كثير . والكسائى (سىء) باشمام السين الضم ، وقرأ عيسى . وطلحة (سوء) بضمها وهى لغة بنى هذيل . وبنى دبير يقولون فى نحو قيل وبيع قول وبوع وعليه قوله :

حوكت على نولين اذتحاك تختبط الشوك ولاتشاك

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ استئناف مسوق لبيان ماأشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم ، والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم : ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرأ ابن عامر (منزلون) بالتشديد . وابن محيصن (رجزا) بضم الراء ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٣٤ ﴾ أى بسبب فسقهم المعهود المستمر ، وقرأ أبو حيوة . والاعمش بكسر السين ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أى من القرية على ماعليه الاكثر ﴿ ءَايَةً بَيِّنَةً ﴾ قال ابن عباس : هى آثار ديارها الخربة ، وقال مجاهد : هى الماء الاسود على وجه الارض ، وقال قتادة : هى الحجارة التى امطرت عليهم وقد أدركتها أوائل هذه الامة ، وقال أبو سليمان الدمشقى : هى أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها إلى الآن ، وأنكر ذوو الابصار ذلك ، وقال الفراء : المعنى تركناها آية كما يقال : إن فى السماء آية ويراد أنها آية . وتعقبه أبو حيان بأنه لايتجه الا على زيادة (من) فى الواجب نحو قوله * أمهرت منها جبة وتيسا * يريد أمهرتها . وقال بعضهم : إن ذلك نظير قولك : رأيت منه أسدا ، وقيل : الآية حكايتها العجيبة الشائعة ، وقيل : ضمير (منها) للفعلة التى فعلت بهم والآية الحجارة أو الماء الاسود والظاهر ماعليه الاكثر *

ولا يخفى معنى (من) على هذه الأقوال ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥ ﴾ أى يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار ، فالفعل منزل منزلة اللازم و(لقوم) متعلق بتركنا أو ببينة ، واستظهر الثانى هذا ، وفى الآيات من الدلالة على ذم اللواطة وقبحها مالايخفى ، فهى كبيرة بالاجماع ، ونصوا على أنها أشد حرمة من الزنا وفى شرح المشارق للاكمل أنها محرمة عقلا وشرعا وطبعا ، وعدم وجوب الحد فيها عند الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه لعدم الدليل عنده على ذلك لالخفتها ، وقال بعض العلماء : إن عدم وجوب الحد للتغليظ لأن الحد مطهر ، وفى جواز وقوعها فى الجنة خلاف ، ففى الفتح قيل : إن كانت حرمتها عقلا وسمعا لاتكون فى الجنة وإن كانت سمعا فقط جاز أن تكون فيها ، والصحيح أنها لا تكون لأن الله تعالى استبعدها واستقبحها فقال سبحانه : (إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وسماها خبيثة فقال عز وجل

www.Quranpdf.blogspot.in

(كانت تعمل الخبائث) والجنة منزهة عنها . وتعقب هذا الحموى بأنه لا يلزم من كون الشيء خبيثا فى الدنيا أن لا يكون له وجود فى الجنة ألا ترى أن الخمر أم الخبائث فى الدنيا ولها وجود فى الجنة ، وفيه بحث ، لأن حبث الخمر فى الدنيا لازالتها العقل الذى هو عقال عن كل قبيح وهذا الوصف لا يبقى لها فى الجنة ولا كذلك اللواطة . وفى الفتوحات المكية فى صفة أهل الجنة أنهم لا أدبار لهم لأن الدبر إنما خلق فى الدنيا لخروج الغائط وليست الجنة محلا للقاذورات ، وعليه فعدم وجودها فى الجنة ظاهر ، ولا أظن ذا غيرة صادقة تسمح نفسه أن يلاط به فى الجنة سراً أو علنا ، وجواز وقوعها فيها قد ينجر إلى أن تسمح نفسه بذلك أو يجبر عليه وذلك إذا اشتهى أحد أن يلوط به إذ لابد من حصول ما يشتهيه ، وهذا وإن لم يكن قطعيا فى عدم وقوع اللواطة مطلقا فى الجنة إلا أنه يقوى القول بعدم الوقوع فتأمل ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ متعلق بارسلنا مقدر معطوف على أرسلنا فى قصة نوح أى وأرسلنا إلى مدين ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أى توقعوه وماسيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون به غائلته ، أو الأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب عليه الرجاء إقامة المسبب مقام السبب ، وفى الكلام مضاف مقدر فالمعنى افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر ، وجوز أن لا يقدر مضاف ، وإرادة الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه ، وقيل : الأمر برجاء الثواب أمر بسببه اقتضاء بلا تجوز فيه بعلاقة السببية *

وقال أبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والمعنى وخافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦ ﴾ حال مؤكدة لأن العثو الفساد ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما تضمنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمره ونهيه وقع بهم العذاب واليه ذهب أبو حيان ، وقيل : من أنه تعالى مستحق لأن يعبد وحده سبحانه وأن اليوم الآخر متحقق الوقوع أو نحو ذلك ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء وما يجاورها من الأرض ، وفسر مجاهد الرجفة هنا بالصيحة ، فقيل : لذلك ، وقيل : لأنها رجفت منها القلوب ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ ﴾ أى بلدهم فان الدار تطلق على البلد ، ولذا قيل : للمدينة دار الهجرة أو المراد مساكنهم وأقيم فيه الواحد مقام الجمع لأمن اللبس لأنهم لا يكونون فى دار واحدة ، ولعل فيه إشارة إلى أن الرجفة خربت مساكنهم وهدمت ما بينها من الجدران فصارت كمسكن واحد ﴿ جَاثِمِينَ ٣٧ ﴾ أى باركين على الركب ، والمراد ميتين على ما روى عن قتادة *

وفى مفردات الراغب هو استعارة للمقيمين من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطيء بالأرض ويرجع هذا إلى ميتين أيضا ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ منصوبان باضمار فعل ينبيء عنه ما قبله من قوله تعالى : (فأخذتهم الرجفة) أى وأهلكنا عاداً وثمود ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ﴾ عطف على ذلك المضمر أى وقد ظهر لكم أتم ظهور إهلاكنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها . وذلك بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذهابا إلى الشام وإيابا منه ، وجوز كون (من) تبعيضية ، وقيل: هما منصوبان باضمار أذكروا اى واذكروا عادا وثمود *

www.Quranpdf.blogspot.in

والمراد ذكر قصتهما أو باضمار اذكر خطابا له صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجملة (قد تبين) حيالية ، وقيل : هى بتقدير القول أى وقل : قد تبين ، وجوز أن تكون معطوفة على جملة واقعة فى حيز القول أى اذكر عادا وثمود قائلا قد مررتم على مساكنهم وقد تبين لكم الخ ، وفاعل تبين الاهلاك الدال عليه الكلام أومساكنهم على أن (من) زائدة فى الواجب ، ويؤيده قراءة الاعمش (مساكنهم) بالرفع من غير من ، و كون(من) هى الفاعل على أنها اسم بمعنى بعض مما لا يخفى حاله *

وقيل : هما منصوبان بالعطف على الضمير فى (فأخذتهم الرجفة) والمعنى يأباه ، وقال الكسائى : منصوبان بالعطف على الذين من قوله تعالى : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) وهو كما ترى ، والزمخشرى لم يذكر فى ناصبهما سوى ماذكرناه أولا وهو الذى ينبغى أن يعول عليه . وقرأ أكثر السبعة (وثمودا) بالتنوين بتأويل الحى، وهو على قراءة ترك التنوين بتأويل القبيلة ، وقرأ ابن وثاب (وعاد وثمود) بالخفض فيهما والتنوين عطفا على مدين على مافى البحر أى وأرسلنا إلى عاد وثمود ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بوسوسته واغوائه ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ القبيحة من الكفر والمعاصى ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أى الطريق المعهود وهو السوى الموصل إلى الحق ، وحمله على الاستغراق حصرا له فى الموصل إلى النجاة تكلف ﴿ وَكَانُوا ﴾ أى عاد وثمود لا أهل مكة كما توهم .

﴿ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أى عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم أغفلوا ولم يتدبروا وقيل : عقلاء يعلمون الحق ولكنهم كفروا عنادا وجحودا ، وقيل : متبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم السلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا مالقوا *

وعن قتادة . والكلبى . كما فى مجمع البيان أن المعنى كانوا مستبصرين عند أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدى . وأخرج ابن المنذر وجماعة عن قتادة أنه قال : أى معجبين بضلالتهم وهو تفسير بحاصل ما ذكر ، وهو مروى كما فى البحر عن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك ، والجملة فى موضع الحال بتقدير قد أو بدونها ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾ معطوف على عادا ، وتقديم قارون لأن المقصود تسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقى منه مالقى ، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود فانه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئا كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا ، أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على وفق الواقع ، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لايمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى عليه السلام ، ويكون فى تقديمه لذلك فى مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئا ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الأيمان والطاعة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى قلة عقولهم لأن من فى الأرض لا ينبغى له أن يستكبر *

﴿ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ٣٩ ﴾ أى فائتين أمر الله تعالى ، من قولهم : سبق طالبه أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك ، وقال ابو حيان : المعنى وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر أى تلك عادة الأمم مع رسلهم عليهم السلام ، وليس بذاك . وأياما كان فالظاهر أن ضمير كانوا القارون

www.Quranpdf.blogspot.in

وفرعون . وهامان ، وقيل : الجملة عطف على أهلكنا المقدر سابقا وضمير ـ كانوا ـ لجميع المهلكين ، وفيه تبر للنظم الجليل ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمنة تعذيب من كفر ولم يمتثل أمر من أرسل اليه ، وقال أبو السعود : هذا تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الابهام وما بعده تفصيل للأخذ ، وفى القلب منه شيء . وكأنه اعتبر رجوع ضمير ـ كانوا ـ إلى المهلكين ، وقد علمت حاله وتقديم المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق ، وقال الفاضل : المذكور للحصر أى كل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته لا بعضا دون بعض ، وبحث فيه بأن كلا متكفلة بهذا المعنى قدمت أو أخرت ، وأجيب بأنا لا نسلم أنه يفهم منها لا بعضا إذا أخرت وإنما يفهم منها بواسطة التقديم فتأمل ، والكلام فى مرجع ضمير بذنبه سؤالا وجوابا لا يخفى على من أحاط علما بما قيل فى قولهم : كل رجل وضيعته .وقولهم: الترتيب جعل كل شيء فى مرتبته ، وهو شهير بين الطلبة ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا عاصفا فيها حصباء ، وقيل : ملكا رماهم بالحصباء وهم قوم لوط ¤

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لا تخلو عن الحصب بأمور مؤذية ، والحاصب هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمى بشيء ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ هم مدين وثمود ولم يقل أخذناه بالصيحة ليوافق ماقبله ومابعده فى اسناد الفعل اليه تعالى الأوفق بقوله تعالى: (فكلا أخذنا بذنبه) دفعا لتوهم أن يكون سبحانه هو الصائح ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ومن معه ، وذكر بعضهم قوم نوح عليه السلام أيضا . واعترض بأنهم ليسوا من المذكورين ، وتعقب بأنهم أول المذكورين فى هذه السورة من الامم السالفة ، ولعل المعترض أراد بالمذكورين المذكورين متناسقين أى بلا فصل بأمة لم تفد قصتها اهلاكها ، وقوم نوح وإن ذكروا أولا لكن فصل بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة قوم إبراهيم عليه السلام وهى لم تفد أنهم أهلكوا ، وذكر النيسابورى أنه سبحانه قرر بقوله تعالى : (فكلا) الخ أمر المذنبين باجمال آخر يفيد أنهم عذبوا بالعناصر الاربعة فجعل ما منه تركيبهم سببا لعدمهم وما منه بقاؤهم سببا لفنائهم . فالحاصب وهو حجارة محماة تقع على كل واحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر اشارة إلى التعذيب بعنصر النار ، والصيحة وهى تموج شديد فى الهواء اشارة إلى التعذيب بعنصر الهواء ، والخسف اشارة إلى التعذيب بعنصر التراب ، والغرق اشارة إلى التعذيب بعنصر الماء اه ولا يخفى ما فيه ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى ما كان سبحانه مريداً لظلمهم وذلك بأن يعاقبهم من غير جرم لأنه خلاف ماتقتضيه الحكمة . وفى أنوار التنزيل أى ما كان سبحانه ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من سنته عز وجل ، ويفيد ذلك أنه لو وقع منه تعالى تعذيبهم من غير جرم لا يكون ظلما لأنه تعالى مالك الملك يتصرف به كما يشاء فله أن يثيب العاصى ويعذب المطيع ، وهذا أمر مشهور بين الأشاعرة والكلام فى تحقيقه يطلب من علم الكلام . وقد أسلفنا فى تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ما ينفعك فى هذا المقام تذكره فتذكر ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من الكفر والمعاصى باختيارهم ، وقال مولانا الشيخ ابراهيم الكورانى ما حاصله : إن ظلم الكفرة أنفسهم

www.Quranpdf.blogspot.in

إنما هو لسوء استعدادهم الذى هم عليه فى نفس الامر من غير مدخل للجعل فيه وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلق جل وعلا ماصار سببا لظهور شقائهم اه، والبحث فى ذلك طويل الذيل فليطلب من محله، وتقديم المعمول لرعاية رءوس الآى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ استئناف متضمن تقبيح حال أولئك المهلكين الظالمين لأنفسهم وأضرابهم ممن تولى غير الله عزوجل، وفيه اشارة الى أعظم أنواع ظلمهم فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عبدوا من دون الله عز وجل الاوثان *

وجوز أن يكون جميع من اتخذ غيره تعالى متكلا ومعتمدا آلهة كان ذلك أو غيرها، ولذا عدل إلى أولياء من آلهة أى صفتهم أو شبههم ﴿ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ أى كصفتها أو شبهها *

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ بيان لصفة العنكبوت التى يدور عليها أمر التشبيه، والجملة على ما نقل عن الاخفش من لزوم الوقف على العنكبوت مستأنفة لذلك (وإن أوهن البيوت) الخ فى موضع الحال من فاعل اتخذت المستكن فيه، وجوز كونه فى موضع الحال من مفعوله بناء على جواز مجىء الحال من النكرة، وعلى الوجهين وضع المظهر موضع الضمير الراجع الى ذى الحال، والجملة من تتمة الوصف. واللام فى البيوت للاستغراق، والمعنى مثل المتخذين لهم من دون الله تعالى أولياء فى اتخاذهم اياهم كمثل العنكبوت وذلك أنها اتخذت لها بيتا والحال أن أوهن كل البيوت وأضعفها بيتها، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى أولياء والحال أن اوهن كل الأولياء وأضعفها أولياؤهم، وإن شئت فقل: إنها اتخذت بيتا فى غاية الضعف وهؤلاء اتخذوا لها أو متكلا فى غاية الضعف فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه، ويجوز أن تكون جملة اتخذت حالا من العنكبوت بتقدير قد أو بدونها أو صفة لها لأن أل فيها للجنس، وقد جوزوا الوجهين فى الجمل الواقعة بعد المعرف بأل الجنسية نحو قوله تعالى: (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وعن الفراء أن الجملة صلة لموصول محذوف وقع صفة (العنكبوت) أى التى اتخذت، وخرج الآية التى ذكرناها على هذا واختار حذف الموصول فى مثله ابن درستويه، وعليه لا يوقف على العنكبوت، وأنت تعلم أن كون الجملة صفة أظهر. والمعنى حينئذ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس الى الموحد الذى عبد الله تعالى كمثل عنكبوت اتخذت بيتا بالاضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان، وهو وجه حسن ذكره الزمخشرى فى الآية، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه، والغرض إبراز تفاوت المتخذين والمتخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وادماج توطيد الآخر، وعليه يجوز أن يكون قوله تعالى: (وإن أوهن البيوت) جملة حالية لأنه من تتمة التشبيه، وإن يكون اعتراضية لأنه لو لم يؤت به لكان فى ضمنه ما يرشد إلى هذا المعنى وإلى كونه جملة حالية ذهب الطيبى *

وقال صاحب الكشف: كلام الزمخشرى إلى كونه اعتراضية أقرب لأن قوله: وكما أن أوهن البيوت الخ ليس فيه إيماء إلى تقييد الاول، وقد تعقب أبو حيان هذا الوجه بأنه لا يدل عليه لفظ الآية، وإنما هو تحميل اللفظ مالا يحتمله كعادته فى كثير من تفسيره، وهذه مجازفة على صاحب الكشاف كما لا يخفى، ويجوز أن يكون المعنى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيما اتخذوه معتمداً ومتكلا فى دينهم وتولوه من دون

www.Quranpdf.blogspot.in

الله تعالى كمثل العنكبوت فيما نسجته واتخذته بيتا ، والتشبيه على هذا من المركب فيعتبر فى جانب المشبه اتخاذ ومتخذ واتكال عليه ، وكذلك فى الجانب الآخر ما يناسبه ويعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كله بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر ، والغرض تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التى لاغاية بعدها ، ومدار قطب التشبيه أن أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : (إن أوهن البيوت) تذييلا يقرر الغرض من التشبيه *

وجوز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ماسمعت إلا أنه يجعل التذييل استعارة تمثيلية ويكون ماتقدم كالتوطئة لها ، فكأنه قيل : وإن أوهن ما يعتمد عليه فى الدين عبادة الأوثان ، وهى تقرر الغرض من التشبيه بتبعية تقرير المشبه ، وكأن التقرير فى الوجه السابق بتبعية تقرير المشبه به ، وهذا قريب من تجريد الاستعارة وترشيحها ، ونظير ذلك قولك : زيد فى الكرم بحر والبحر لايخيب من أتاه إذا كان البحر الثانى مستعارا للكريم ، وذكر الطرفين إنما يمنع من كونه استعارة لو كان فى جملته ، ورجح السابق لأن عادة البلغاء تقرير أمر المشبه به ليدل به على تقرير المشبه ، ولأن هذا إنما يتميز عن الالغاز بعد سبق التشبيه *

وجوز أن يكون قوله تعالى : (مثل الذين) الخ كالمقدمة الأولى ، وقوله سبحانه : (وإن أوهن البيوت) كالثانية وماهو كالنتيجة محذوف مدلول عليه بما بعد كما فى الكشف ، والمجموع يدل على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التى لاغاية بعدها على سبيل الكناية الايمائية فتأمل ، والظاهر أن المراد بالعنكبوت النوع الذى ينسج بيته فى الهواء ويصيد به الذباب لاالنوع الآخر الذى يحفر بيته فى الأرض ويخرج فى الليل كسائر الهوام ، وهى على ماذكره غير واحد من ذوات السموم فيسن قتلها لذلك ، لا لما أخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد من قوله ﷺ : «العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى فمن وجدها فليقتلها» فانه كما ذكر الدميرى ضعيف *

وقيل : لايسن قتلها فقد أخرج الخطيب عن على كرم الله تعالى وجهه قال : «قال رسول الله ﷺ دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن» ذكر هذا الخبر الجلال السيوطى فى الدر المنثور ، والله تعالى أعلم بصحته وكونه مما يصلح للاحتجاج به ، ونصوا على طهارة بيتها لعدم تحقق كون ماتنسج به من غذائها المستحيل فى جوفها مع أن الاصل فى الاشياء الطهارة ، وذكر الدميرى أن ذلك لاتخرجه من جوفها بل من خارج جلدها ، وفى هذا بعد . وأنا لم أتحقق أمر ذلك ولم أعين كونه من فمها اودبرها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك لا لعدم امكان الوقوف على الحقيقة ، وذكر أنه يحسن ازالة بيتها من البيوت لما أسند الثعلبى . وابن عطية وغيرهما عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فان تركه فى البيوت يورث الفقر» وهذا إن صح عن الامام كرم الله تعالى وجهه فذاك ، والا فحسن الازالة لمافيها من النظافة ولاشك بندبها . والتاء فى العنكبوت زائدة كتاء طالوت فوزنه فعللوت وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومن استعماله مذكرا قوله :

على هطالهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها

واستظهر الفاضل سعدى جلبى كون المراد به هنا الواحد ، وذهب إلى تأنيثه أيضا فذكر أنه اختير هنا

www.Quranpdf.blogspot.in

تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه ، وقال مولانا الخفاجى معرضا به : الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله تعالى : (الذين) وأما افراد البيت فلأن المراد الجنس ، ولذلك أنث (اتخذت) لا لأن المراد المؤنث ، وفى القاموس العنكبوت معروف وهى العنكباة والعكنباة والعنكبوه والعنكباء ، والذكر عنكب وهى عنكبة ، وجمعه عنكبوتات وعناكب ، والعكاب . والعكب والاعكب اسماء الجموع ، وتعقب بأن عد ماعدا ماذكره أولا اسم جمع لاوجه له لأن أعكب لايصح فيه ذلك ، وذكروا فى جمعه أيضا عناكيب ، واختلف فى نونه فقيل أصلية ، وقيل : زائدة كالتاء ، وجمعه على عكاب يدل على ذلك . وذكر السجستانى فى غريب سيبويه أنه ذكر عناكب فى موضعين فقال فى موضع : وزنه فناعل وفى آخر فعالل ، فعلى الأول النون زائدة وهو مشتق من العكب وهو الغلظ اه المراد منه ، ولعل الاقرب على ذلك كونه مشتقا من العكب بالفتح بمعنى الشدة فى السير فكأنه لشدة وثبه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند فراره أطلق عليه اسم العنكبوت ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كانوا يعلمون شيئاً من الاشياء لعلموا أن هذا مثلهم أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ، وقيل: أى لو كانوا يعلمون وهن الاوثان لما اتخذوها أولياء من دون الله تعالى ، وفى الكشف أن قوله تعالى (لو كانوا يعلمون) على جميع التقادير أى المذكورة فى الكشاف وقد ذكرناها فيما مر من الايغال ، جهلهم سبحانه فى الاتخاذ ثم زادهم جل وعلا تجهيلا أنهم لا يعلمون هذا الجهل البين الذى لا يخفى على من له أدنى مسكة ، و (لو) شرطية وجوابها محذوف على ما أشرنا اليه ، وجوز بعضهم كونها للتمنى فلاجواب لها وهو غير ظاهر *

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ ، وقيل : لا حاجة إلى إضماره لجواز أن يكون (تدعون) من باب الالتفات للايذان بالغضب ، وفيه بحث . وقرأ أبو عمرو . وسلام (يعلم ما) بالادغام . وأبو عمرو . وعاصم بخلاف (يدعون) بياء الغيبة حملا على ما قبله ، و (ما) استفهامية منصوبة بتدعون و (يعلم) معلقة عنها فالجملة فى موضع نصب بها و (من) الأولى متعلقة بتدعون على ما هو الظاهر و (من) الثانية للتبيين ، وجوز كونها للتبعيض ، ويجوز كون ما نافية ومن الثانية مزيدة وشىء مفعول تدعون ، أى لستم تدعون من دونه تعالى شيئا ، كأن ما يدعونه من دونه عز وجل لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئا ، وجوز كونها مصدرية وهى وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول يعلم على أنها بمعنى يعرف ناصبة لمفعول واحد ومن تبعيضية ، أي يعرف دعاءكم وعبادتكم بعض شىء من دونه وقيل : (من) للتبيين و (شىء) بمعنى ذلك المصدر وتنوينه للتحقير ، أى يعرف دعوتكم من دونه هى دعوة حقيرة ، وجوز كونها موصولة مفعول يعلم بمعنى يعرف ومفعول تدعون عائدها المحذوف ومن إما بيان للموصول أو تبعيضية *

وجوز زيادتها على هذا الوجه وما بعده ، ولا يخفى ما فيه . والكلام على الوجهين الاولين فى (ما) تجهيل للكفرة المتخذين من دون الله تعالى أولياء لما فيهما من نفى الشيئية عما اتخذوه وليا ، والاستفهام عنه الذى هو فى معنى النفى لأنه إنكار ، وفيه توكيد للمثل لأن كون معبودهم ليس بشىء يعبأ به مناسب ولذا لم يعطف ، وعلى الوجهين الاخيرين فيها وعيد لهم لأن العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارة عن مجازاتهم عليها وكذا العلم بما يدعونه عبارة عن مجازاتهم على دعائهم إياه ، وترك العطف فيه لأنه استئناف ، ويجوز ارادة التجهيل والوعيد (؟) الوجوه كلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤٢ ﴾ فى موضع الحال ويفهم منه التعليل على المعنيين ،

www.Quranpdf.blogspot.in

فان من فرط الغباوة اشراك مالا يعد شيئا بمن هذا شأنه ، وإن الجماد بالاضافة إلى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت ، وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم ه

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ أى هذا المثل ونظائره من الامثال المذكورة فى الكتاب العزيز ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ٤٣ ﴾ الراسخون فى العلم المتدبرون فى الأشياء على ماينبغى . وروى محي السنة بسنده عن جابر « أن النبى ﷺ تلا هذه الآية (وتلك الامثال) الآية فقال العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه » ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى محقا مراعيا للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنها حال من مفعوله ، فانها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شئونه تعالى المتعلقة بذاته سبحانه وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ٤٤ ﴾ دالة لهم على ماذكر من شئونه عزوجل، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لأنهم المنتفعون بذلك ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى دم على تلاوة ذلك تقربا إلى الله تعالى بتلاوته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملالهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الاخلاق ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى داوم على اقامتها، وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره صلى الله تعالى عليه وسلم باقامتها متضمنا لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ كأنه قيل: وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهيها إياهم عن ذلك أنها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدى الله عز وجل والركوع والسجود له سبحانه الدال على غاية الخضوع والتعظيم كأنها تقول لمن يأتى بها لا تفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص ربا هو أهل لما أتيت به ، و كيف يليق بك أن تفعل ذلك و تعصيه عز وجل وقد أتيت بما يدل على عظمته تعالى و كبريائه سبحانه من الاقوال والافعال بما تكون به أن عصيت وفعلت الفحشاء أوالمنكر كالمتناقض فى أفعاله ، وبما ذكر ينحل الاشكال المشهور وهو أنانرى كثيرا من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك ، فان نهيها اياهم عن الفحشاء وا نكر بهذا المعنى لا يستلزم انتهاءهم . ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضا كما قال سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) والناس لاينتهون وليس نهى الصلاة بأعظم من نهيه سبحانه وتعالى ، فاذا لم يكن هناك استلزام فكيف يكون هنا . وما أرى هذا الاشكال الا مبنيا على توهم استلزام النهى للانتهاء ، وهو توهم باطل وتخيل عاطل لا يشهد له عقل ولا يؤيده نقل . ونقل أبو حيان عن ابن عباس . والكلبى . وابن جريج . وحماد بن أبى سليمان أن الصلاة تنهى عن ذلك مادام المصلى فيها ، وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلى القائلة له لا تفعل ذلك مادام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الاقوال والافعال التى كان النهى بما تدل عليه من العظمة والكبرياء . ونقل عن القطب أنه قال فى جواب الاشكال : إن الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عز من قائل : (أقم الصلاة لذكرى) ومن كان ذاكرا لله عز وجل منعه ذلك عن

www.Quranpdf.blogspot.in

الاتيان بما يكرهه منه تعالى مما قل أو كثر وكل من تراه يصلي ويأتي الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلي لكان أشد اتيانا فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره ، وهو كما ترى ، وقيل : إن المراد أن الصلاة سبب للانتهاء عن ذلك ، وليس هذا كليا لما أن الصلاة في حكم النكرة وهي في الاثبات لا يجب أن تعم فينحل الاشكال، وعلى ماقلنا لا يضر دعوى الكلية . نعم النهي الذي ذكرناه يتفاوت بحسب تفاوت أداء الصلاة فهو في صلاة أديت على أتم مايكون من الخشوع والتدبر لما يتلى فيها مع الاتيان بفروضها وواجباتها وسننها وآدابها على أحسن أحوالها أتم ، وقد يضعف النهي فيها حتى كأنها لا تنهى كما في الصلاة التي تؤدى مع الغفلة التامة والاخلال بما يليق فيها وهي الصلاة المردودة التي تلف كما يلف الثوب الخلق ويرمى بها وجه صاحبها فتقول له: ضيعك الله تعالى كما ضيعتني ، وكأن مراد القائل : إن المراد بالصلاة التي تنهى عما ذكر هي الصلاة المقبولة هو هذا ●

وقد يجعل الانتهاء علامة القبول . روى بعض الامامية عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه أنه قال: من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر فبقدر مامنعته قبلت منه ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . والبيهقي في شعب الايمان عن الحسن قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفي لفظ « لم يزدد بها من الله تعالى الا بعدا » وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم . والطبراني . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعا ●

وأخرج ابن أبي شيبة . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم . والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قيل له : إن فلانا يطيل الصلاة فقال : إن الصلاة لا تنفع الا من أطاعها ثم قرأ (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقد يتفق لمن يكثر الصلاة أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتقبل لطفا من الله تعالى وكرما ، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصي، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد . وابن حبان . والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه ماتقول » وأصرح منه فيما ذكرنا ماروى أن فتى من الانصار كان يصلي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة ولا يدع شيئاً من الفواحش الا ركبه فوصف له ، فقال عليه الصلاة والسلام: إن صلاته ستنهاه » فلم يلبث إلا أن تاب . إلا أن ابن حجر ذكر فيه أنه لم يجده في كتب الحديث . ثم إن حمل الصلاة في الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيد بالآثار والاخبار الصحيحة ، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن المراد بها هنا القرآن، وقال ابن بحر: إن المراد بها الدعاء أي أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى ان الدعاء إلى أمره سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر، وكل منهما عدول عن الظاهر من غير داع . وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر. عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ (إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر) ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

قال ابن عباس . وابن مسعود . وابن عمر . وأبو قرة . ومجاهد . وعطية : المعنى لذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه سبحانه ، وفي لفظ لذكر الله تعالى العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى ، وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ (اذكروني أذكركم)●

وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن أبي مالك أنه قال ذكر الله تعالى العبد في الصلاة أكبر من الصلاة، فذكر مصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف وكذا المفضل عليه وهو خاص على ماسمعت ، وجوز

www.Quranpdf.blogspot.in

أن يكون عاما أي أكبر من كل شيء ، وقيل : المعنى ولذكر العبد لله تعالى فى الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : أي ولذكر العبد لله تعالى فى الصلاة أكبر من ذكره إياه سبحانه خارج الصلاة ، وقيل: أي ولذكر العبد لله تعالى أكبر من سائر أعماله ، وروى عن جماعة من السلف مايقتضيه . أخرج أحمد فى الزهد. وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : « ماعمل آدمي عملا أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول فى كتابه (ولذكر الله أكبر) ».

وأخرج ابن أبي شيبة . وابن جرير عن أبي الدرداء قال : «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأسماها فى درجاتكم وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم وخير من إعطاء الدنانير والدراهم قالوا : وماهو ياأبا الدرداء ؟ قال ذكر الله تعالى (ولذكر الله أكبر)» . وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سئل أي العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن؟ (ولذكر الله أكبر) لاشيء أفضل من ذكر الله ، ونسب فى البحر إلى أبي الدرداء . وسلمان رضى الله تعالى عنهما القول الذى ذكرناه أولا عمن سمعت، ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما ، وجاء عن ابن عباس أيضا رواية تشعر بأن المراد بذكر الله تعالى ذكر العبد له سبحانه .

أخرج سعيد بن منصور . وابن أبي شيبة . وابن المنذر . والحاكم فى الكنى . والبيهقى فى شعب الايمان عن عنترة قال : قلت لابن عباس رضى الله تعالى عنهما أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر وما قعد قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها وكانوا أضياف الله تعالى ماداموا فيه حتى يفيضوا فى حديث غيره وماسلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم الا سهل الله تعالى له طريقا إلى الجنة .

وقيل : المراد بذكر الله الصلاة كما فى قوله تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله) أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به للايذان بأن مافيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، وقيل : المعنى ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر ، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر من الصلاة ، (فذكر) على هذه الاقوال مصدر مضاف للمفعول والمفضل عليه محذوف، وجوز أن لا يكون أفعل للتفضيل سواء كانت إضافة المصدر للفاعل أم للمفعول كما فى الله أكبر ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ٤٥﴾ من الخير والطاعة فيجازيكم بذلك أحسن المجازاة، وقال أبو حيان : (يعلم ماتصنعون) من الخير والشر فيجازيكم بحسبه ففيه وعد ووعيد وحث على المراقبة .

لك الحمد ياالله على ماأنعمت علينا باتمام الجزء العشرين من تفسير روح المعانى
للعلامة الألوسى ووفقتنا لذلك نسألك أن تيسر لنا مابقى منه بعونك
وحولك ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادى والعشرون أوله
قوله تعالى : (ولا تجادلوا) الخ

www.Quranpdf.blogspot.in

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوا أَهْلَ الْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ، وقيل : من نصارى نجران ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح، والسورة بالاناة كما قال سبحانه : (ادفع بالتى هى أحسن) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالافراد فى الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النصح ، ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلاظة *

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن الذين ظلموا هم الذين أثبتوا الولد والشريك أو قالوا يدالله تعالى مغلولة، أو الله سبحانه فقير ، أو آذوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهذه الغلاظة التى تفهم الآية الاذن بها لاتصل إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أى وجه من الوجوه المذكورة كان ظلمهم لأن ظاهر كون السورة مكية أن هذه الآية مكية ، والقتال فى المشهور لم يشرع بمكة وليست الغلاظة محصورة فيه كما لا يخفى ، وقيل: المعنى ولاتجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فان أولئك مجادلتهم بالسيف *

وأخرج ابن جرير . وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ما يقرب منه ، وتعقب بأن السورة مكية والحرب والجزية مما شرع بالمدينة ، وكون الآية بيانا لحكم آت بعد بعيد وأيضا لاقرينة على التخصيص *

وقيل : يجوز أن يكون القائل بذلك ذاهبا إلى أن الآية مدنية ومكية السورة باعتبار أغلب آياتها ؛ أو ممن يقول : بأن الحرب شرع بمكة فى آخر الأمر، والسورة آخر مانزل بها إلا أنه لم يقع وعدم الوقوع لا يدل على عدم المشروعية *

وعن ابن زيد أن المراد بأهل الكتاب مؤمنو أهل الكتاب وبالتى هى أحسن موافقتهم فيما حدثوا به من أخبار أوائلهم وبالذين ظلموا من بقى منهم على كفره وهو كما ترى ، واختلف فى نسخ الآية . فأخرج أبو داود فى ناسخه . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن الانبارى فى المصاحف عن قتادة أنه قال : نهى فى هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب ، ثم نسخ ذلك فقال سبحانه : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر) الآية ولامجادلة أشد من السيف ، وقال فى مجمع البيان : الصحيح أنها غير منسوخة لأن المراد بالجدال المناظرة وذلك على الوجه الأحسن هو الواجب الذى لايجوز غيره *

وقال بعض الأجلة : إن المجادلة بالحسنى فى أوائل الدعوة لأنها تتقدم القتال فلايلزم النسخ ولاعدم القتال بالكلية ، وأما كون النهى يدل على عموم الأزمان فيلزم النسخ فلا يتم ماذكر فيدفعه أن من يقاتل كمانع الجزية داخل فى المستثنى فلا نسخ وإنما هو تخصيص بمتصل ، وكون ذلك يقتضى مشروعية القتال بمكة ليس بصحيح لأنه مسكوت عنه فتأمل *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ ابن عباس (ألا بالتى) الخ، على أن (الا) حرف تنبيه واستفتاح، والتقدير ألا جادلوهم بالتى هى أحسن ﴿وَقُولُوا ءامَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرءان ﴿وَ﴾ الذى ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أى وبالذى أنزل اليكم من التوراة والانجيل، وهذا القول نوع من المجادلة بالتى هى أحسن، وعن سفيان بن حسين أنه قال: هذه مجادلتهم بالتى هى أحسن، وأخرج البخارى. والنسائى. وغيرهما عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤن الكتاب بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ءامنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم» الآية، والتصديق والتكذيب ليسا نقيضين فيجوز ارتفاعهما *

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له فى الالوهية ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦﴾ أى مطيعون خاصة كما يؤذن بذلك تقديم (له)، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى *

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذلك إشارة الى مصدر الفعل الذى بعده، وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل أى مثل ذلك الانزال البديع الشأن الموافق لانزال سائر الكتب أنزلنا اليك القرءان الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالتى هى أحسن، وقيل: الإشارة الى ما تقدم لذكر الكتاب وأهله أى وكما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب *

﴿فَالَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من الطائفتين اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والانجيل والكلام على ظاهره، وقيل: هو على حذف مضاف أى آتيناهم علم الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب الذى انزل اليك، وقيل: الضمير له صلى الله تعالى عليه وسلم وهو كما ترى، والمراد بهم فى قول من تقدم عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أولئك حيث كانوا مصدقين بنزول القرآن حسبما علموا مما عندهم من الكتاب، والمضارع لاستحضار تلك الصورة فى الحكاية وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بأن مابعدهم من معاصرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ، وفى قول آخر معاصروه عليه الصلاة والسلام العاملون بكتابهم من عبد الله بن سلام وأضرابه، وتخصيصهم بايتاء الكتاب لما أنهم هم المنتفعون به فكأن من عداهم لم يؤتوه، قيل: هذا يؤيد القول: بأن الآيات المذكورة مدنية اذ كونها مكية وعبد الله ممن أسلم بعد الهجرة بناء على انه اعلام من الله تعالى باسلامهم فى المستقبل، والتفصيل باعتبار الاعلام بعيد جدا، وجوز الطبرسى أن يراد بالموصول المسلمون من هذه الأمة وضمير (به) للقرآن، ولا يخفى ما فيه، ولعل الأظهر كون المراد به علماء أهل الكتابين الحريون بأن ينسب اليهم ايتاء الكتاب كعبد الله بن سلام. وأضرابه، ولا بعد فى كون الآيات مكية بناء على ما سمعت، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى ومن العرب أو من أهل مكة على أن المراد بالموصول عبد الله. واضرابه، أو ممن فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود والنصارى على أن المراد به من تقدم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أى بالكتاب الذى أنزل اليك، (ومن) على ما استظهره بعضهم تبعيضية واقعة موقع المبتدأ وله نظائر فى الكتاب الكريم

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أى (وما يجحد) به، وأقيم هذا الظاهر مقام الضمير للتنبيه على ظهور دلالة الكتاب على

www.Quranpdf.blogspot.in

مافيه وكونه من عندالله عز وجل، والاضافة الى نون العظمة لمزيد التفخيم . وفيها ذكر غاية التشنيع على من يجحد به، والجحود كما قال الراغب : نفى ما فى القلب ثباته واثبات ما فى القلب نفيه ، وفسر هنا بالانكار عن علم فكأنه قيل: ومانكر آياتنا مع العلم بها ﴿إِلاَّ الْكَافِرُونَ ٤٧﴾ أى المتوغلون فى الكفر المصممون عليه فان ذلك يمنعهم عن الاقرار والتسليم ، وقيل: يجوز أن يفسر بمطلق الانكار، ويراد بالكافرين المتوغلون فى الكفر أيضا لدلالة فحوى الكلام ، والتعبير بآياتنا على ذلك أى وماينكر آياتنا مع ظهورها وارتفاع شأنها الا المتوغلون فى الكفر لأن ذلك يصدهم عن الاعتناء بها والالتفات اليها والتأمل فيها يؤديهم الى معرفة حقيتها ، والمراد بهم من اتصف بتلك الصفة من غير قصد الى معين ، وقيل : هم كعب بن الأشرف . واصحابه •

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى وما كنت من قبل انزالنا اليك الكتاب تقدر على ان تتلو ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ أى كتابا على أن (من) صلة ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ﴾ ولا تقدر على أن تخطه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا تخطه ، وذكر اليمين زيادة تصوير لما نفى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من الخط فهو مثل العين فى قولك: نظرت بعينى فى تحقيق الحقيقة وتأكيدها حتى لا يبقى للمجاز مجاز ﴿إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ٤٨﴾ أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله التقطه من كتب الاوائل ، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجه ، وكأن احتمال التعلم مما لم يلتفت اليه لظهور أن مثله من الكتاب المفصل الطويل لا يتلقى ويتعلم الا فى زمان طويل بمدارسة لا يخفى مثلها ، ووصف مشركى مكة بالابطال باعتبار ارتيابهم وكفرهم وهو عليه الصلاة والسلام أمى فكأنه قيل : اذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن وكان إذ ذاك لارتيابهم وجه ، وقيل : وصفهم بذلك باعتبار ارتيابهم ، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أمى وباعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام ليس بأمى أما كونهم مبطلين بالاعتبار الأول فظاهر ، وأما كونهم كذلك بالاعتبار الثانى فلأن غاية ما يلزم من عدم أميته ﷺ انتفاء أحد وجوه الاعجاز ، ويكفى الباقى فى الغرض فيكون المرتاب مبطلا كالمرتاب فى نبوة الانبياء الذين لم يكونوا أميين وصحة ما جاؤا به •

والأول أظهر ، وكون المراد بالمبطلين مشركى مكة هو المروى عن مجاهد ، وقال قتادة : هم أهل الكتاب أى لو كنت تتلو من قبل أو تخط لارتاب أهل الكتاب لأن نعتك فى كتابهم أمى ، ووصفهم بالابطال قيل: باعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام أمى كما هو الواقع ، والا فهم ليسوا بمبطلين فى ارتيابهم على فرض عدم كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أميا ، وفى الكشف هذا فرض وتمثيل دلالة على أن مدار الأمر على المعجز ، وان كونه عليه الصلاة والسلام أميا لا يخط ليس مما لا يتم دعواه به ، وتلك الدلالة لا تختلف والمنكر مبطل اهفتأمل •

هذا واختلف فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا؟ فقيل : إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره البغوى فى التهذيب وقال : إنه الاصح، وادعى بعضهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية. فلما نزل القرآن واشتهر الاسلام وظهر امر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ ، وروى ابن أبى شيبة . وغيره

www.Quranpdf.blogspot.in

« ما مات صلى الله تعالى عليه وسلم حتى كتب وقرأ » *

ونقل هذا للشعبى فصدقه وقال : سمعت أقواما يقولونه وليس فى الآية ما ينافيه ، وروى ابن ماجه عن أنس قال : « قال صلى الله تعالى عليه وسلم : رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » والقدرة على القراءة فرع الكتابة ورد باحتمال اقدار الله تعالى اياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزة أوفيه مقدر وهو فسألت عن المكتوب فقيل : الخ ، و يشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى . وغيره كما ورد فى صلح الحديبيه فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث ، وممن ذهب الى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروى . وأبو الفتح النيسابورى . وأبو الوليد الباجى من المغاربة ، وحكاه عن السمنانى ، وصنف فيه كتابا ، وسبقه اليه ابن منية ، ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب به إلى علماء الاطراف فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد أميته ﷺ لا تنافى المعجزة بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم ، ورد بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح ـ إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ـ ، وقال : كل ما ورد فى الحديث من قوله : كتب فمعناه أمر بالكتابة كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلان ، وتقديم قوله تعالى : (من قبله) على قوله سبحانه : (ولا تخطه) كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد ، وظن بعض الاجلة رجوعه الى ما قبله وما بعده فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادرا على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة ، وأنت تعلم أنه لو سلم ماذكره من الرجوع لا يتم أمر الافادة الا إذ قيل بحجية المفهوم والظان ممن لا يقول بحجيته ، ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام: « انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ليس نصا فى استمرار نفى الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام ، ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وكذا اكثر من بعث اليهم وهو بين ظهر انيهم من العرب أميون لا يكتبون ولا يحسبون فلا يضر عدم بقاء وصف الامية فى الاكثر بعد ، وأما ماذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فخلاف الظاهر ، وفى شرح صحيح مسلم للنواوى عليه الرحمة نقلا عن القاضى عياض أن قوله فى الرواية التى ذكرناها : ولا يحسن يكتب فكتب كالنص فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه الى غيره مجاز لا ضرورة اليه ثم قال : وقد طال كلام كل فرقة فى هذه المسئلة وشنعت كل فرقة على الأخرى فى هذا فالله تعالى أعلم *

ورأيت فى بعض الكتب ولا أدرى الآن أى كتاب هو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يقرأ ما يكتب لكن اذا نظر الى المكتوب عرف ما فيه باخبار الحروف اياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها فكل حرف يخبره عن نفسه أنه حرف كذا وذلك نظير اخبار الذراع اياه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها مسمومة *

وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل بدون خبر صحيح ولم أظفر به ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أى القرآن ، وهذا اضراب عن ارتيابهم ، اى ليس القرآن مما يرتاب فيه لوضوح أمره بل هو ﴿ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ واضحات ثابتة راسخة ﴿ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر على تحريفه بخلاف

www.Quranpdf.blogspot.in

غيره من الكتب ، وجاء في وصف هذه الأمة صدورهم أناجيلهم، وكون ضمير هو للقرآن هو الظاهر ، ويؤيده قراءة عبدالله (بل هي ءايات بينات) ، وقال قتادة : الضمير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقرأ (بل هو آية بينة) على التوحيد ، وجعله بعضهم له عليه الصلاة والسلام على قراءة الجمع على معنى بل النبي وأموره آيات ، وقيل: الضمير لما يفهم من النفي السابق أي كونه لا يقرأ ولا يخط آيات بينات في صدور العلماء من أهل الكتاب لأن ذلك نعت النبي عليه الصلاة والسلام في كتابهم ، والكل كما ترى ، وفي الأخير حمل (الذين أوتوا العلم) على علماء أهل الكتاب وهو مروي عن الضحاك . والأكثرون على أنهم علماء الصحابة أو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلماء أصحابه ، وروي هذا عن الحسن. وروى بعض الامامية عن أبي جعفر . وأبي عبدالله رضي الله تعالى عنهما أنهم الائمة من آل محمد ﷺ ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿ إِلَّا الظَّالِمُونَ ٤٩ ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والمكابرة والفساد ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي كفار قريش بتعليم بعض أهل الكتاب ٭

وقيل: الضمير لأهل الكتاب ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ، وقرأ أكثر أهل الكوفة (ءاية) على التوحيد ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ﴾ ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعا ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٠ ﴾ ليس من شأني إلا الانذار بما أوتيت من الآيات لا الاتيان بما اقترحتموه فالقصر قصر قلب ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم ءاية مغنية عن سائر الآيات ﴿ أَنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ ﴿ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل من مدارستها وممارستها ﴿ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم ءاية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل ءاية بعد كونها ، وقيل : (يتلى عليهم) أي أهل الكتاب بتحقق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك، وله وجه ان كان ضمير قالوا فيما تقدم لأهل الكتاب وأما اذا كان لكفار قريش فلا يخفى ما فيه ٭

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي الكتاب العظيم الشأن الباقي على ممر الدهور ، وقيل : الذي هو حجة بينة ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَى ﴾ أي تذكرة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥١ ﴾ أي همهم الايمان لا التعنت فالجار والمجرور متعلق بذكرى والفعل مراد به الاستقبال، ويجوز أن يكون (رحمة وذكرى) مما تنازعا في الجار والمجرور وفيجوز أن يكون الفعل للحال ، وأخرج الفريابي . والدارمي . وأبو داود في مراسيله . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم ، عن يحيى بن جعدة قال : « جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم الى ما جاء به غيره إلى غيرهم فنزلت (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) الآية» وأخرج الاسماعيلي في معجمه . وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما ذكر مرويا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ٭ و(يؤمنون) على هذا على ظاهره لا غير ، وتعقب بأن السياق والسباق مع الكفرة وان الظاهر كون (أو لم يكفهم) الآية جوابا لقولهم : (لولا أنزل) الخ ، وفي جعل سبب النزول ما ذكر خروج عن ذلك فتأمل ٭

www.Quranpdf.blogspot.in

وعليه تكون الآية دليلا لمن منع تتبع التوراة ونحوها . وروى هذا المنع عن عائشة رضي الله تعالى عنها ❊ أخرج ابن عساكر عن أبى مليكة قال : أهدى عبدالله بن عامر بن ركن الى عائشة رضى الله تعالى عنها هدية فظنت أنه عبد الله بن عمرو فردتها وقالت : يتتبع الكتب وقد قال الله تعالى: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فقيل لها: انه عبد الله بن عامر فقبلتها » وجاء فى عدة أخبار ما يقتضى المنع ، أخرج عبدالرزاق فى المصنف . والبيهقى فى شعب الايمان ، عن الزهرى أن حفصة جاءت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه فقال : والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وانا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم ❊

وأخرج عبد الرزاق . والبيهقى أيضا عن أبى قلابة «أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتابا فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب قال : نعم فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به اليه فنسخ له فى ظهره وبطنه ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون فضرب رجل من الانصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وانت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذلك : انما بعثت فاتحا وخاتما وأعطيت جوامع الكلام وخواتمه واختصر لى الحديث اختصارا فلا يهلكنكم المتهوكون» أى الواقعون فى كل أمر بغير روية ، وقيل : المتحيرون الى ذلك من الاخبار ، وحقق بعضهم أن المنع انما هو عند خوف فساد فى الدين وذلك مما لا شبهة فيه فى صدر الاسلام ، وعليه تحمل الاخبار ، وقد تقدم الكلام فى ذلك فتذكر ❊

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى عالما بما صدر عنى من التبليغ والانذار وبما صدر عنكم من مقابلتى بالتكذيب والانكار فيجازى سبحانه كلا بما يليق به ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى من الامور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا ، وجوز أن يكون المعنى كفى به عز وجل شاهدا بصدقى أى مصدقا لى فيما ادعيته بالمعجزات تصديق الشاهد لدعوى المدعى ، وجملة (يعلم) إما صفة (شهيدا) أو حال أو استئناف لتعليل كفايته ، وقيل عليه : إن هذا الوجه لا يلائمه قوله تعالى: (بينى وبينكم) سواء تعلق بكفى أو بشهيدا ولا قوله سبحانه : (يعلم ما فى السموات) الخ ، وفيه تأمل ❊

وقد يؤيد ذلك بما روى أن كعب بن الاشرف . وأصحابه قالوا : يامحمد من يشهد بأنك رسول الله؟ فنزلت (قل كفى) الآية إلا أن فى القلب من صحة هذه الرواية شيئا لما أن السياق والسباق مع كفرة قريش فلا تغفل ❊

وأياما كان فلا منافاة بين هذه الآية ، وقوله تعالى : (وادعوا شهداءكم من دون الله) بناء على أن المعنى لا تستشهدوا بالله تعالى ولا تقولوا الله تعالى يشهد أن ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن اقامة البينة اما لأن الشهيد ههنا بمعنى العالم والكلام وعد ووعيد ، واما بمعنى المصدق بالمعجزات وليست الشهادة باحد المعنيين هناك . والباء فى (بالله) زائدة والاسم الجليل فاعل (كفى) ، وقال الزجاج : ان الباء دخلت لتضمن كفى معنى اكتف فالباء كما قال اللقانى معدية لا زائدة ، قال ابن هشام فى المغنى : وهو من الحسن بمكان ويصححه قولهم: اتقى الله تعالى امرؤ فعل خيرا يثب عليه أى ليتق بدليل جزم يثب ويوجبه قولهم : كفى بهند بترك التاء

www.Quranpdf.blogspot.in

فان احتج بالفاصل فهو مجوز لا موجب بدليل وما تسقط من ورقة فان عورض بأحسن بهند فالتاء لاتلحق صيغ الأمر وإن كان معناها الخبر اه *

وتعقب ذلك الشيخ يس الحمصى فى حواشيه على التصريح فقال : أقول تفسير (كفى) على هذا القول باكتف غير صحيح اذ فاعل (كفى) حينئذ ضمير المخاطب ، و(كفى) ماض وهو لا يرفع ضمير المخاطب المستتر اه وفيه بعد بحث لا يخفى على المتأمل *

وظن بعض الناس أن (كفى) على هذا القول اسم فعل أمر يخاطب به المفرد المذكر وغيره نحو حى فى حى على الصلاة فالمعنى هنا اكتفوا بالله ، وأنت تعلم ان هذا بعيد الارادة من كلام الزجاج ويأباه كلام ابن هشام ، وقال ابن السراج : الفاعل ضمير الاكتفاء ، قال ابن هشام : وصحة قوله موقوفة على جواز تعلق الجار بضمير المصدر وهو قول الفارسى . والرمانى أجازوا مرورى بزيد حسن وهو بعمرو قبيح ، وأجاز الكوفيون اعماله فى الظرف وغيره ، ومنع جمهور البصريين اعماله مطلقا اه *

وتعقب ذلك ابن الصائغ فقال: لانسلم توقف الصحة على ذلك لجواز أن تكون الباء للحال ، وعليه يكون المعنى (كفى) هو أى الاكتفاء حال كونه ملتبسا بالله تعالى ، ولا يخفى انه مالم يبطل هذا القول لايتم ما ادعاه ابن هشام من أن ترك التاء فى كفى بهند يوجب كون كفى مضمنا معنى اكتف فتدبر ﴿ وَالَّذِينَ ءامَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أى بغير الله عزوجل وهو شامل لنحو عيسى والملائكة عليهم السلام *

والباطل فى الحقيقة عبادتهم وليس الباطل هنا مثله فى قول حسان: ألا كل شىء ما خلا الله باطل ، وقال مقاتل: أى بعبادة الشيطان ، وقيل: أى بالصنم ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الايمان به عزوجل ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٢ ﴾ المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان فاستوجبوا العقاب يوم الحساب ، وفى الكلام على ماقيل : استعارة مكنية شبه استبدال الكفر بالايمان المستلزم للعقاب باشتراء مستلزم للخسران ، وفى الخسران استعارة تخييلية هى قرينتها لأن الخسران متعارف فى التجارات ، وهذا الكلام ورد مورد الانصاف حيث لم يصرح بأنهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله عز وجل بل ابرزه فى معرض العموم ليهجم به التأمل على المطلوب فهو كقوله تعالى: (انا أو اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين) وكقول حسان : * فشركما لخيركما الفداء * وهذا من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أى ويستعجلك كفار قريش ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ على طريقة الاستهزاء والتعجيز والتكذيب به بقولهم : (متى هذا الوعد) وقولهم: أمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وسماه وأثبته فى اللوح ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به ، وقال ابن جبير : المراد بالاجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسوله ﷺ ان لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم الى يوم القيامة ، وقال ابن سلام : المراد به أجل ما بين النفختين ، وقيل : يوم بدر ، وقيل : وقت فنائهم بآجالهم ، وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما أشير اليه فى الجملة الس[illegible] مجىء العذاب عند حلول الأجل ، أى وبالله تعالى (ليأتينهم) العذاب الذى عين لهم عند حلول الا[illegible]

www.Quranpdf.blogspot.in

أى فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ٥٣ ﴾ أى باتيانه ، ولعل المراد باتيانه كذلك أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم قارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما ان اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل قاله بعضهم ، وقال آخرون : اتيانه كذلك من حيث انه غير متوقع لهم واتيان عذاب الآخرة ونحوه كذلك لانكارهم البعث ، وكذا عذاب القبر أو اعتقادهم شفاعة آلهتهم لهم فى دفع العذاب عنهم ، وكذا اتيان عذاب يوم بدر لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقعون غلبة المسلمين ولا تخطر لهم ببال على ما بين فى السير *

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤ ﴾ استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وهو ظاهر فى أن ما استعجلوه عذاب الآخرة ، وجملة (ان جهنم) الخ فى موضع الحال أى يستعجلونك بالعذاب والحال ان محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل : يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم على ارادة المستقبل من اسم الفاعل ، أو كالمحيط بهم الآن لاحاطة الكفر والمعاصى الموجبة اياه بهم على أن فى الكلام تشبيها بليغا أو استعارة أو مجازا مرسلا أو تجوزا فى الاسناد ، وقيل : إن الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة ، والمراد بالكافرين المستعجلون ، ووضع الظاهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ يَوْمَ يَغْشَيهُمُ الْعَذَابُ ﴾ ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل : يوم يأتيهم ويجللهم العذاب الذى أشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال والاهوال مالا يفى به المقال ، وقيل : ظرف لمحيطة على معنى وان جهنم ستحيط بالكافرين يوم يغشاهم العذاب ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أى من جميع جهاتهم فما ذكر للتعميم كما فى الغدو والآصال ، قيل : وذكر الارجل للدلالة على أنهم لا يقرون ولا يجلسون وذلك أشد العذاب ﴿ وَيَقُولُ ﴾ أى الله عز وجل ، وقيل : الملك الموكل بهم *

وقرأ ابن كثير . وابن عامر . والبصريون (ونقول) بنون العظمة وهو ظاهر فى أن القائل هو الله تعالى *

وقرأ أبو البرهسم (وتقول) بالتاء على أن القائل جهنم ، ونسب القول اليها هنا كما نسب فى قوله تعالى: (وتقول هل من مزيد) وقرأ ابن مسعود . وابن أبى عبلة (ويقال) مبنيا للمفعول ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥ ﴾ أى جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من السيئات التى من جملتها الاستعجال بالعذاب *

﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ نزلت على ماروى عن مقاتل . والكلبى فى المستضعفين من المؤمنين بمكة أمروا بالهجرة عنها وعلى هذا أكثر المفسرين ، وعمم بعضهم الحكم فى كل من لا يتمكن من اقامة أمور الدين كما ينبغى فى أرض لممانعة من جهة الكفرة أو غيرهم فقال : تلزمه الهجرة الى أرض يتمكن فيها من ذلك ، وروى هذا عن ابن جبير . وعطاء . ومجاهد . ومالك بن أنس ، وقال مطرف بن الشخير : إن الآية عدة منه تعالى بسعة الرزق فى جميع الأرض ، وعلى القولين فالمراد بالارض

www.Quranpdf.blogspot.in

الارض المعروفة ، وعن الجبائى أن الآية عدة منه عز وجل بادخال الجنة لمن أخلص له سبحانه العبادة وفسر الارض بأرض الجنة ، والمعول عليه ماتقدم ، والفاء فى (فاياى) فاء التسبب عن قوله تعالى : (ان أرضى واسعة) كما تقول : إن زيدا اخوك فأكرمه وكذلك لو قلت : انه أخوك فان أمكنك فأكرمه ، و(اياى) معمول لفعل محذوف يفسره المذكور ، ولا يجوز أن يكون معمولا له لاشتغاله بضميره وذلك المحذوف جزاء لشرط حذف وعوض عنه هذا المعمول ، والفاء فى (فاعبدون) هى الفاء الواقعة فى الجزاء الا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائما مقامه لفظا وأدخل الفاء عليه اذ لا بد منها للدلالة على الجزاء ، ولا تدخل على معمول المحذوف أعنى اياى وان فرض خلوه عن فاء لتمحضه عوضا عن فعل الشرط فتعين الدخول على المفسر ، وأيضا ليطابق المذكور المحذوف من كل وجه ، ولزم أن يقدر الفعل المحذوف العامل فى (اياى) مؤخرا لئلا يفوت التعويض عن فعل الشرط مع افادة ذلك معنى الاختصاص والاخلاص ، فالمعنى إن أرضى واسعة فان لم تخلصوا لى العبادة فى أرض فأخلصوها لى فى غيرها ، وجعل الشرط إن لم تخلصوا لدلالة الجواب المذكور عليه ، ولا منع من ان تكون الفاء الاولى واقعة فى جواب شرط آخر ترشيحا للسببية على معنى ان أرضى واسعة واذا كان كذلك فان لم تخلصوا لى الخ ، وقيل . الفاء الأولى جواب شرط مقدر وأما الثانية فتكرير ليوافق المفسر المفسر ، فيقال حينئذ : المعنى إن أرضى واسعة ان لم تخلصوا لى العبادة فى أرض فأخلصوها لى فى غيرها ، وتكون جملة الشرط المقدرة أعنى إن لم تخلصوا الخ مستأنفة عرية عن الفاء ، وما تقدم أبعد مغزى . وجعل بعض المحققين الفاء الثانية لعطف مابعدها على المقدر العامل فى (اياى) قصدا لنحو الاستيعاب كما فى خذ الاحسن فالاحسن . وتعقب بأنه حينئذ لا يصلح المذكور مفسرا لعدم جواز تخلل العاطف بين مفسر ومفسر البتة ، وأما ما ذكره الامام السكاكى فى قوله تعالى : (فاياى فارهبون) من أن الفاء عاطفة والتقدير فاياى ارهبوا فارهبون فانه أراد به أنها فى الأصل كذلك لا فى الحال على ماحققه صاحب الكشف ، هذا وقد أطالوا الكلام فى هذا المقام وقد ذكرنا نبذة منه فى أوائل تفسير سورة البقرة فراجعه مع ما هنا وتأمل والله تعالى الهادى الى سواء السبيل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثا على اخلاص العبادة والهجرة لله تعالى حيث أفادت أن الدنيا ليست دار بقاء وان وراءها دار الجزاء أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت ومفارقة البدن البتة فلا بد أن تذوقوه ثم ترجعون الى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالكم فمن كانت هذه عاقبته فلا بد له من التزود والاستعداد ، وفى قوله تعالى : (ذائقة الموت) استعارة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم مره ، والعدول عن تذوق الموت للدلالة على التحقق ، و(ثم) للتراخى الزمانى أو الرتبى *

وقرأ أبو حيوة (ذائقة) بالتنوين (الموت) بالنصب ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه (ترجعون) مبنيا للفاعل ، وروى عاصم (يرجعون) بياء الغيبة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أى لننزلنهم على وجه الاقامة ، وجملة القسم وجوابه خبر المبتدأ أعنى (الذين) ورد به وبأمثاله على ثعلب المانع من وقوع جملة القسم والمقسم عليه خبرا للمبتدا ، وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أى علالى وقصورا جليلة لاقصور فيها ، وهى على ما روى عن ابن عباس من الدر والزبرجد والياقوت ، مفعول ثان للتبوئة *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وعبد الله . والربيع بن خيثم . وابن وثاب . وطلحة . وزيد بن على . وحمزة . والكسائى (لنثوينهم) بالثاء المثلثة الساكنة بعد النون وابدال الهمزة ياء من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب (غرفا) حينئذ اما باجرائه مجرى لننزلنهم فهو مفعول به له أو بنزع الخافض على أن أصله بغرف فلما حذف الجار انتصب أو على انه ظرف والظرف المكانى اذا كان محدودا كالدار والغرفة لا يجوز نصبه على الظرفية الا أنه أجرى هنا مجرى المبهم توسعا كما فى قوله تعالى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) على ما فصل فى النحو .

وروى عن ابن عامر إنه قرأ (غرفا) بضم الراء ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ صفة لغرفا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى فى الغرف، وقيل : فى الجنة ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٥٨ ﴾ أى الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى نعم أجرى العاملين الغرف أو أجرهم، ويجوز كون التمييز محذوفا أى نعم أجرا أجر العاملين . وقرأ ابن وثاب (فنعم) بفاء الترتيب ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ صفة للعاملين أو خبر مبتدأ محذوف أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ ﴾ أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون الا على الله تعالى .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لما روى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة الى المدينة قالوا : كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة ؟ فنزلت، أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لاتدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها . عن ابن عيينة ليس شىء يخبأ الا الانسان والنملة والفأرة ، وعن ابن عباس لا يدخر الا الآدمى والنمل والفأرة والعقعق ويقال: للعقعق مخابى الا أنه ينساها ، وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر فى حضنيه والظاهر عدم صحته ، وذكر لى بعضهم ان أغلب الكوامن من الطير يدخر والله تعالى أعلم بصحته .

﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ثم إنهما مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو عز وجل المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالمهاجرة ولما كان المراد إزالة ما فى أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل : (يرزقها وإياكم) دون يرزقكم وإياها ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ البالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا ﴿ الْعَلِيمُ ٦٠ ﴾ البالغ فى العلم فيعلم ما انطوت عليه ضمائركم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى أهل مكة ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ اذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا التردد فيه ، والاسم الجليل مرفوع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة السؤال عليه أو على الفاعلية لفعل محذوف لذلك أيضا ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ٦١ ﴾ انكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه ، والفاء للترتيب أو واقعة فى جواب شرط مقدر أى إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده عز وجل فى الألوهية مع إقرارهم بتفرده سبحانه فيما ذكر من الخلق والتسخير .

وقدر بعضهم الشرط فان صرفهم الهوى والشيطان لمكان بناء (يؤفكون) للمفعول ، ولعل ما ذكرناه أولى .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يبسطه له لا لغيره ﴿ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى يضيق عليه ، والضمير

www.Quranpdf.blogspot.in

عائد على (من يشاء) الذى يبسط له الرزق أى عائد عليه مع ملاحظة متعلقه فيكون المعنى أنه تعالى شأنه يوسع على شخص واحد رزقه تارة ويضيقه عليه أخرى ، والواو لمطلق الجمع فقد يتقدم التضييق على التوسيع أو عائد على (من يشاء) بقطع النظر عن متعلقه فالمراد من يشاء آخر غير المذكور فهو نظير عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر ، وهذا قريب من الاستخدام ، فالمعنى أنه تعالى شأنه يوسع على بعض الناس ويضيق على بعض آخر ، وقرأ علقمة (ويقدر) بضم الياء وفتح القاف وشد الدال ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٢ ﴾ فيعلم أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته أو فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدر له ، وهذه الآية أعنى قوله تعالى : (الله يبسط) الخ تكميل لمعنى قوله سبحانه : (الله يرزقها وإياكم) لأن الأول كلام فى المرزوق وعمومه وهذا كلام فى الرزق وبسطه وقتره ، وقوله سبحانه : (ولئن سألتهم) الخ معترض لتوكيد معنى الآيتين وتعريض بأن الذين اعتمدتم عليهم فى الرزق مقرون بقدرتنا وبقوتنا كقوله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) قاله العلامة الطيبى *

وقال صاحب الكشف قدس سره : اعترض ليفيد أن الخالق هو الرزاق وان من أفاض ابتداء وأوجد أولى أن يقدر على الابقاء وأكد به ماضمن فى قوله عز وجل : (وعلى ربهم يتوكلون) *

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ معترفين بأنه عز وجل الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم إنهم يشركون به سبحانه بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شىء ما أصلا ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إظهار الحجة واعترافهم بما يلزمهم ، وقيل : حمده عليه الصلاة والسلام على العصمة مما هم عليه من الضلال حيث أشركوا مع اعترافهم بأن أصول النعم وفروعها منه جل جلاله فيكون كالحمد عند رؤية المبتلى ، وقيل : يجوز أن يكون حمدا على هذا وذاك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٦٣ ﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد أو لا يعقلون شيئا من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته ، فبل : إضراب عن جهلهم الخاص فى الاتيان بما هو حجة عليهم إلى أن ذلك لأنهم مسلوبو العقول فلا يبعد عنهم مثله ، وقوله تعالى : (قل الحمد لله) معترض وجعله الزمخشرى فى سورة لقمان الزاما وتقريرا لاستحقاقه تعالى العبادة ، وقيل : (لا يعقلون) ماتريد بتحميدك عند مقالهم ذلك ، ولم يرتضه بعض المحققين لخفائه وقلة جدواه وتكلف توجيه الاضراب فيه *

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ إشارة تحقير وكيف لا والدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ، فقد أخرج الترمذى عن سهل بن سعد قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » *

وقال بعض العارفين : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليها كلب بيد مجذوم ، ويعلم مما ذكر حقارة ما فيها من الحياة بالطريق الأولى ﴿ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أى إلا كما يلهو ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه ؛ وهذا من التشبيه البليغ ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى لهى دار الحياة الحقيقية إذ لا يعرض الموت والفناء لمن فيها أو هي ذاتها حياة للمبالغة ، و (الحيوان) مصدر حى سمي به ذو الحياة فى غير

www.Quranpdf.blogspot.in

هذا المحل ، وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا على خلاف القياس فلامه ياء وإلى ذلك ذهب سيبويه *

وقيل : إن لامه واو نظراً إلى ظاهر الكلمة وإلى حياة علم رجل ، ولاحجة على كونه ياء فى حى لأن الواو فى مثله تبدل ياء لكسر ما قبلها نحو شقى من الشقوة ، وهو أبلغ من الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها فى هذا المقام المقتضى للمبالغة وقد علمتها فى وصف الحياة الدنيا المقابلة للدار الآخرة ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٦٤ ﴾ شرط جوابه محذوف أى لو كانوا يعلمون لما آثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة، ثم مايحدث فيها من الحياة فيها عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال وكون (لو) للتمنى بعيد ﴿ فَاِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم ، والركوب الاستعلاء على الشىء المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى (لتركبوها) واستعماله ههنا وفى امثاله بفى للايذان بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير ارادية ، والفاء للتعقب وفى الكلام معنى الغاية فكأنه قيل : هم مصروفون عن توحيد الله تعالى مع اقرارهم بما يقتضيه لاهون بما هو سريع الزوال ذاهلون عن الحياة الابدية حتى اذا ركبوا فى الفلك ولقوا الشدائد ﴿ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى كائنين فى صورة من أخلص دينه وملته أو طاعته من المؤمنين حيث لا يذكرون الا الله تعالى ولا يدعون سواه سبحانه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد الا هو عز وجل ، وفيه تهكم به سواء أريد بالدين الملة أو الطاعة اما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فلانهم لا يستمرون على هذه الحال فهى قبيحة باعتبار المآل ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ٦٥ ﴾ أى فاجؤا المعاودة الى الشرك ولم يتأخروا عنها وو لاقتا *

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كى أى يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الاصنام وتوادهم عليها فالشرك سبب لهذا الكفران ، وأدخلت لام كى على مسببه لجعله كالغرض لهم منه فهى لام العاقبة فى الحقيقة . وقيل : اللام فيهما لام الأمر والأمر بالكفران والتمتع مجاز فى التخلية والخذلان والتهديد كما تقول عند الغضب على من يخالفك : افعل ما شئت ، ويؤيده قراءة ابن كثير . والأعمش . وحمزة . والكسائى (وليتمتعوا) بسكون اللام فان لام كى لا تسكن ، واذا كانت الثانية لذلك لام الأمر فالاولى مثلها ليتضح العطف ، وتخالفهما محوج الى التكلف بأن يكون المراد كما قال أبو حيان عطف كلام على كلام لا عطف فعل على فعل ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٦٦ ﴾ أى عاقبة ذلك حين يعاقبون عليه يوم القيامة مؤيد للتهديد ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ انَّا جَعَلْنَا ﴾ أى بلدهم ﴿ حَرَماً ﴾ مكانا حرم فيه كثير مما ليس بمحرم فى غيره من المواضع ﴿ آمِناً ﴾ أهله عما يسوءهم من السبى والقتل على أن أمنه كناية عن أمن أهله أو على ان الاسناد مجازى أو على ان فى الكلام مضافا مقدرا ، وتخصيص أهل مكة وان أمن كل من فيه حتى الطيور والوحوش لأن المقصود الامتنان عليهم ولأن ذلك مستمر فى حقهم . واخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أهل مكة قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل فى دينك الا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منا فمتى بلغهم انا قد دخلنا فى دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله تعالى : (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا)

﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب، والظاهر أن الجملة حالية بتقدير مبتدا أى وهم يتخطف الخ ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أن أبعدظهور الحق الذى لاريب فيه أوأبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها بالصنم، وقيل : بالشيطان يؤمنون ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ٦٧ ﴾ وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به تعالى غيره سبحانه ، وتقديم الصلة فى الموضعين للاهتمام بها لأنها مصب الانكار أو للاختصاص على طريق المبالغة لأن الايمان اذا لم يكن خاصا لا يعتد به ولأن كفران غير نعمته عز وجل بجنب كفرانها لا يعد كفرانا *

وقرأ السلمى . والحسن (تؤمنون وتكفرون) بتاء الخطاب فيهما ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بأن زعم أن له سبحانه شريكا وكونه كذبا على الله تعالى لانه فى حقه فهو كقولك : كذب على زيد اذا وصفه بما ليس فيه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى الرسول أو الكتاب ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى حين مجيئه اياه ، وفيه تسفيه لهـــم حيث لم يتأملوا ولم يتوقفوا حـــين جاءهم بل سارعوا الى التـــكذيب أول ماسمعوه * ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ٦٨ ﴾ أى ثواء واقامة لهم أو مكان يثوون فيه ويقيمون ، والكلام على كلا الوجهين تقرير لثوائهم فى جهنم لأن الاستفهام فيه معنى النفى وقد دخل على نفى ونفى النفى اثبات كما فى قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ... واندى العالمين بطون راح

أى ألا يستوجبون الثواء أو المكان الذى يثوى فيه فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله تعالى وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب أو انكار واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا ان فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجرأة ، وجعلهم عالمين بذلك لوضوحه وظهوره فنزلوا منزلة العالم به ، والتعريف فى (الكافرين) على الاول للعهد فالمراد بهم أولئك المحدث عنهم وهم أهل مكة ، وأقيم الظاهر مقام الضمير لتعليل استيجابهم المثوى ، ولا ينافى كون ظاهره ان العلة افتراؤهم وتكذيبهم لأنه لا يغايره والتعليل يقبل التعدد ، وعلى الثانى للجنس فالمراد مطلق جنس الكفرة ويدخل أولئك فيه دخولا أوليا برهانيا ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ فى شأننا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ففيه مضاف مقدر، وقيل : لاحاجة الى التقدير بحمل الكلام على المبالغة بجعل ذات الله سبحانه مستقرا للمجاهدة واطلقت المجاهدة لتعم مجاهدة الاعادى الظاهرة والباطنة بأنواعهما ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سبل السير الينا والوصول الى جنابنا ، والمراد نزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها فان الجهاد هداية أومرتب عليها، وقد قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) وفى الحديث « من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم مالم يعلم » *

ومن الناس من أول (جاهدوا) بأرادوا الجهاد وأبقى (لنهدينهم) على ظاهره، وقال السدى: المعنى والذين جاهدوا بالثبات على الايمان لنهدينهم سبلنا الى الجنة ، وقيل : المعنى والذين جاهدوا فى الغزو لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة ، وما ذكر أولا أولى ، والموصول مبتدأ وجملة القسم وجوابه خبره نظير ما مر من قوله :(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ ﴾ المتصف بجميع صفات الكمال الذى بلغت عظمته فى القلوب ما بلغت ﴿ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٦٩ ﴾ معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج لهما قرينة قوية على ارادة ذلك ، وقال العلامة الطيبي : إن قوله تعالى: (لمع المحسنين) قد طابق قوله سبحانه : (جاهدوا) لفظا ومعنى، أما اللفظ فمن حيث الاطلاق فى المجاهدة والمعية ، واما المعنى فالمجاهد للاعداء يفتقر الى ناصر ومعين ، ثم ان جملة قوله عز وجل : (ان الله لمع المحسنين) تذييل للآية مؤكد بكلمتى التوكيد محلى باسم الذات ليؤذن بأن من جاهد بكليته وشراشره فى ذاته جل وعلا تجلى له الرب عز اسمه الجامع فى صفة النصرة والاعانة تجليا تاما ، ثم ان هذه خاتمة شريفة للسورة لأنها مجاوبة لمفتتحها ناظرة الى فريدة قلادتها (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون لامحة الى واسطة عقدها (ياعبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) وهى فى نفسها جامعة فاذة اه *

و(أل) فى المحسنين يحتمل ان تكون للعهد فالمراد بالمحسنين الذين جاهدوا، ووجه اقامة الظاهر مقام الضمير ظاهر والى ذلك ذهب الجمهور ، ويحتمل أن يكون للجنس فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالافعال الحسنة ويدخل أولئك دخولا أوليا برهانيا . وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه فسر (المحسنين) بالموحدين وفيه تأييد ما للاحتمال الثانى والله تعالى أعلم *

﴿ ومن باب الاشارة فى الآيات ﴾ (أحسب الناس أن يتركوا) الآية قال ابن عطاء : ظن الخلق انهم يتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالبون بحقائقها وهى صب البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء الظاهر والباطن ، وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدس سره :

وتعذيبكم عذب لدى وجوركم على بما يقضى الهوى لكم عدل

وذكروا ان المحبة والمحنة توأمان (وبالامتحان يكرم الرجل أو يهان) (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) إشارة إلى حال الكاذبين فى دعوى المحبة وهم الذين يصرفون عنها بأذى الناس لهم (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) قال ابن عطاء : أى اطلبوا الرزق بالطاعة والاقبال على العبادة، وقال سهل : اطلبوه فى التوكل لا فى المكسب فان طلب الرزق فيه سبيل العوام (وقال انى مهاجر إلى ربى) أى مهاجر من نفسى ومن الكون اليه عز وجل ، وقال ابن عطاء : أى راجع إلى ربى من جميع مالى وعلى ، والرجوع اليه عز وجل بالانفصال عما دونه سبحانه ، ولا يصح لأحد الرجوع اليه تعالى وهو متعلق بشىء من الكون بل لابد أن ينفصل من الأكوان أجمع (وتأتون فى ناديكم المنكر) سئل الجنيد قدس سره عن هذه الآية فقال : كل شىء يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكر (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) أشار سبحانه وتعالى إلى من اعتمد على غير الله عز وجل فى أسباب الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل اليه ، قال ابن عطاء : من اعتمد شيئاً سوى الله تعالى كان هلاكه فى نفس ما اعتمد عليه ، ومن اتخذ سواه عز وجل ظهيراً قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته*

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) فيه إشارة إلى أن دقائق المعارف لا يعرفها إلا أصحاب الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائر شؤنه سبحانه لأنهم علماء المنهج ، وذكر ان العالم على الحقيقة من

www.Quranpdf.blogspot.in

يحجزه علمه عن كل ما يبيحه العلم الظاهر ، وهذا هو المؤيد عقله بانوار العلم اللدنى «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» ذكر ان حقيقة الصلاة حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر فالذكر فى الصلاة يطرد الغفلة التى هى الفحشاء والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهى المنكر ، هذا فى الصلاة وبعدها تنهى هى إذا كانت صلاة حقيقية وهى التى انكشف فيها لصاحبها جمال الجبروت وجلال الملكوت وقرت عيناه بمشاهدة أنوار الحق جل وعلا عن رؤية الأعمال والاعواض ، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : الصلاة إذا كانت مقبولة تنهى عن مطالعات الاعمال والاعواض (ولذكر الله أكبر) قال ابن عطاء : أى ذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم له سبحانه لأن ذكره تعالى بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والامانى والسؤال ، وأيضاً ذكره تعالى صفته وذكركم صفتكم ولا نسبة بين صفة الخالق جل شأنه وبين صفة المخلوق وأين التراب من رب الارباب « بل هو ءايات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فيه إشارة إلى أن عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات ، قال الصادق على آبائه وعليه السلام : لقد تجلى الله تعالى فى كتابه لعباده ولكن لا يبصرون « ياعبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون » قال سهل : إذا عمل بالمعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين ، وكأن هذا لئلا تنعكس ظلمة معاصى العاصين على قلوب الطائعين فيكسلوا عن الطاعة ، وذكروا أن سفر المريد سبب للتخلية والتحلية ، واليه الاشارة بما أخرجه الطبرانى والقضاعى ، والشيرازى فى الالقاب ، والخطيب ، وابن النجار ، والبيهقى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : سافروا تصحوا وتغنموا كل نفس ذائقة الموت فلا يمنعنكم خوف الموت من السفر (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم) فلا يمنعنكم عنه فقد الزاد أو العجز عن حمله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » قال ابن عطاء : أى الذين جاهدوا فى رضانا لنهدينهم إلى محل الرضا ، والمجاهدة كما قال : الافتقار الى الله تعالى بالانقطاع عن كل ماسواه ، وقال بعضهم : أى الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف لنوصلن أسرارهم الى اللطائف ، وقيل : أى الذين جاهدوا نفوسهم لأجلنا وطلبا لنا لنهدينهم سبل المعرفة بنا والوصول الينا ، ومن عرف الله تعالى عرف كل شىء ومن وصل اليه هان عنده كل شىء ، كان عبد الله بن المبارك يقول : من اعتاصت عليه مسئلة فليسأل أهل الثغور عنها لقوله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وجهاد النفس هو الجهاد الاكبر نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى والحفظ التام من كل شر بحرمة حبيبه سيد البشر صلى الله تعالى عليه وسلم ٥

سورة العنكبوت

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية كلها في أحد قولي ٱبن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلاّم أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة. وهي تسع وستون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

[٢] ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ تقدّم القول في أوائل السور. وقال ٱبن عباس: المعنى أنا الله أعلم. وقيل: هو ٱسم للسورة. وقيل ٱسم للقرآن. ﴿أَحَسِبَ﴾ ٱستفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن. ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ في موضع نصب بـ ﴿حَسِبَ﴾ وهي وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه. و ﴿أن﴾ الثانية من ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ في موضع نصب على إحدى جهتين، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير؛ التقدير ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ أحسبوا ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ قال ٱبن عباس وغيره: يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم. فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما ٱستنكِر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين؛ قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده ٱختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ٱبن عطية: وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر. وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدوّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه. وقال مقاتل: نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر؛ رماه عامر بن الحضرميّ بسهم فقتله. فقال النبيّ ﷺ يومئذ: «سيد الشهداء مِهْجَع وهو أوّل من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾. وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيّ ﷺ من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تُهَاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فآذوهم. فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاس أَنْ يُتْرَكُوا﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا؛ فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه؛ فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾. ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يمتحنون؛ أي أظنَّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ابتلينا الماضين كالخليل ألقي في النار، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه. وروى البخاريّ عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ: قالوا شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُرْدَة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا. فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشَار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه واللَّهِ ليتمَّن هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللَّهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون». وخرّج ابن ماجه عن

أبي سعيد الخدريّ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف. فقلت: يا رسول الله ما أشدّها عليك. قال: «إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويُضعَّف لنا الأجر» قلت: يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء» وقلت: ثم من. قال «ثم الصالحون أنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها[1] وأنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء». وروى سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشيء على الأرض وما عليه من خطيئة». وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً فأخذه السبع فأكله، فقال عيسى: يا رب وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلطت عليه كلباً فأكله. قال: «نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة. وقال وهب: قرأت في كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا، فإنه سلِك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي فليُرِيَنَّ الله الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في ﴿ البقرة ﴾ وغيرها. قال الزجاج: ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه. وإنما يعلم صدق الصادق واقعاً كائناً وقوعه، وقد علم أنه سيقع. وقال النحاس: فيه قولان أحدهما أن يكون ﴿صَدَقُوا﴾ مشتقاً من الصِّدْق و ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ مشتقاً من الكَذِب الذي هو ضد الصِّدق، ويكون المعنى؛ فليبيننَّ الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا

---

(١) وردت هذه الكلمة في «سنن ابن ماجه» بالهاء المهملة، وقال هامشه: «يحوبها» من حبى بحاء مهملة وباء موحدة أي يجعل لها جيبا. ووردت في «الجامع الصغير» للسيوطي بالجيم وقال شارحه: هي بجيم وواو وموحدة أي يخرقها ويقطعها، وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب. ورواية «الجامع الصغير» هي المتبادرة.

مثل ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر أن يكون صدقوا مشتقاً من الصَّدْق وهو الصُّلْب، والكاذبين مشتقاً من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب، والذين انهزموا؛ كما قال الشاعر[1]:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل ﴿لَيَعْلَمَنَّ﴾ في موضع فليبينن مجازاً. وقراءة الجماعة ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بفتح الياء واللام. وقرأ علي بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهي تبين معنى ما قاله النحاس. ويحتمل ثلاثة معان: الأوّل أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم. الثاني أن يكون المفعول الأوّل محذوفاً تقديره؛ فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث أن يكون ذلك من العلامة؛ أي يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيّ ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها».

[٤] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾.

[٦] ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي الشرك ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن

(١) هو زهير بن أبي سلمى. وعثر بشد المثلثة اسم موضع.

أبي سفيان والعاص بن وائل. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء. و ﴿ما﴾ في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم. وهذا قول الزجاج. وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك: أحدهما أن يكون موضع ﴿مَا يَحْكُمونَ﴾ بمنزلة شيء واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعت؛ أي صنيعك؛ فـ ﴿ـما﴾ والفعل مصدر في موضع رفع، التقدير؛ ساء حكمهم. والتقدير الآخر أن تكون ﴿ما﴾ لا موضع لها من الإعراب، وقد قامت مقام الاسم لساء، وكذلك نعم وبئس. قال أبو الحسن بن كيسان: وأنا أختار أن أجعل لـ ﴿ـما﴾ موضعاً في كل ما أقدر عليه؛ نحو قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ وكذا ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ ﴿ما﴾ في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها، وكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً﴾ ﴿ما﴾ في موضع نصب و ﴿بَعُوضَةً﴾ تابع لها.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ ﴿يَرْجُو﴾ بمعنى يخاف من قول الهُذَليّ في وصف عَسَّال:

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[1]

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه؛ ذكره النحاس. قال الزجاج: معنى ﴿يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ ثواب الله و ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿كَانَ﴾ في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و ﴿يرجو﴾ في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن جاهد في الدين، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه؛ أي ثواب ذلك كله له، ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن أعمالهم. وقيل: المعنى؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده.

---

(١) تمام البيت...

وحالفها في بيت نوب عوامل

وروي: عواسل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك، ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام. ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

[٨] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت فيّ أربعُ آيات فذكَر قصةً؛ فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر؛ قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا[1] فَاهَا فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وروي عن سعد أنه قال: كنت باراً بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه، وبقيت يوماً ويوماً فقلت: يا أماه! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآية. وقال ابن عباس: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق. و ﴿حُسْناً﴾ نصب عند البصريين على التكرير أي ووصيناه حسناً. وقيل: هو على القطع تقديره ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيراً أي

(١) شجروا فاها: أي أدخلوا في شجره عوداً حتى يفتحوه به.

بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً فيقدر له فعل. وقال الشاعر:

عَجبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونَا ومن أبي دَهْمَاءَ إذ يُوصينَا
خيراً بها كأنّما خافونا

أي يوصينا أن نفعل بها خيراً؛ كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ أي يمسح مسحاً. وقيل: تقديره ووصّيناه أمراً ذا حسنٍ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه ألزمناه حسناً. وقراءة العامة ﴿حُسْناً﴾ بضم الحاء وإسكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتح الحاء والسين. وقرأ الجحدري ﴿إحساناً﴾ على المصدر، وكذلك في مصحف أبيّ، التقدير: ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحساناً، ولا ينتصب بوصينا؛ لأنه قد أستوفى مفعوليه. ﴿إليّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغة على معنى؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة.

[١٠] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[١١] ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة فأرتد عن إيمانه. وقيل: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله

﴿وَلَئِنْ جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون؛ فقال الله لهم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم أفتتنوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك. وقال عكرمة: كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا فلحقهم المشركون، فأفتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم. وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضرب فأرتد. وإنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

[١٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ جزم على الأمر. قال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال[١].

فقلتُ ادعِي وأدعُ فإنّ أندى ... لِصوتٍ أنْ يُنادِيَ داعِيانِ

(١) البيت لمدثار بن شيبان النمري وقبله:

تقول خليلتي لما اشتكينا ... سيدركنا بنو القرم الهجان

أي إن دعوتِ دعوتُ. قال المهدوي: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بعده على الحمل على المعنى؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث، فإن كان عليكم وزر فعلينا؛ أي نحن نحمل عنكم ما يلزمكم. والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر. وروي أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبي ﷺ. وقد تقدّم في ﴿آل عمران﴾[1]. قال أبو أمامة الباهلي: «يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. ونظير هذا قوله عليه السلام: «من سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» روي من حديث أبي هريرة وغيره. وقال الحسن قال النبي ﷺ: «من دعا إلى هدًى فاتُّبع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتّبعه ولا يُنْقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتّبع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتّبعه لا يَنْقص ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

قلت: هذا مرسل وهو معنى حديث أبي هريرة خرجه مسلم. ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن له مثلَ أوزار من اتّبعه ولا يَنْقص من أوزارهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبع فإن له مثل أجور من اتّبعَه

---

(١) راجع ٤/٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ولا يَنْقص من أجورهم شيئاً» خرجه ٱبن ماجه في السنن. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير. وقد قيل: إن المراد أعوان الظلمة. وقيل: أصحاب البدع إذا ٱتُّبِعُوا عليها. وقيل: محدِثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم. والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله.

[١٤] ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾.

[١٥] ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيه ﷺ؛ أي ٱبتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا. وخص نوحاً بالذكر؛ لأنه أوّل رسول أرسل إلى الأرض وقد ٱمتلأت كفراً على ما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾[(١)]. وأنه لم يلق نبيّ من قومه ما لقي نوح على ما تقدم في ﴿هود﴾ عن الحسن. وروي عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أوّل نبي أرسل نوح» قال قتادة: وبعث من الجزيرة. وٱختلف في مبلغ عمره. فقيل: مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة، ودعاهم ثلثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة. وقال ٱبن عباس: بعث نوح لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا. وعنه أيضاً: أنه بعث وهو ٱبن مئتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة. وقال وهب: عمّر نوحٌ ألفاً وأربعمائة سنة. وقال كعب الأحبار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً. وقال عون بن أبي شداد: بعث نوح وهو ٱبن خمسين وثلاثمائة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

(١) راجع ٩/٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وخمسين سنة؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن. قال الحسن: لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال: ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان. قال ملك الموت: فكيف وجدت الدنيا؟ قال نوح: مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا. وروي من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لما بعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بُني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر» وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر. وقال ابن الوردي: بَنَى نوح بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا، فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال أبو المهاجر: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر، فقيل له: يا نبيّ الله ابن بيتاً، فقال: أموت اليوم [أو] أموت غداً. وقال وهب بن منبّه: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلاً من الموت. وقال مقاتل وجويبر: إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يا رب إلى متى أكدّ وأسعى؟ قال: يا آدم حتى يولد لك ولد مختون. فولد له نوح بعد عشرة أبطن، وهو يومئذٍ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً. وقال بعضهم: إلا أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسم نوح السكن. وإنما سمي السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم. وولد له سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، وفي كل هؤلاء خير. وولد حام القبط والسودان والبربر. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير. وقال ابن عباس: في ولد سام بياض وأدمة، وفي ولد حام سواد وبياض قليل. وفي ولد يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصفرة والحمرة. وكان له ولد رابع وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسميه يام. وسمي نوح نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة

إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخبير له: يروى أن نوحاً عليه السلام كان ٱسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يا نوح كم تنوح. فسمي نوحاً؛ فقيل: يا رسول الله فأيّ شيء كانت خطيئته؟ فقال: «إنه مرّ بكلب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه ٱخلق أنت أحسن من هذا. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لطول ما ناح على نفسه. فإن قيل: فلم قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً. ففيه جوابان: أحدهما ـ أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد. الثاني ـ ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع في ٱستكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال ٱبن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: المطر. الضحاك: الغرق. وقيل: الموت. روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفانُ موتٍ جارف

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ منصوب على الظرف ﴿إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ منصوب على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض. كأنك قلت ٱستثنيت زيداً.

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس عن الزهريّ عن ٱبن المسيّب عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «كان جبريل يذاكرني فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي. وقال: تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف في ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال.

[١٦] ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِبرَاهِيمَ﴾ قال الكسائي: ﴿وَإِبرَاهِيمَ﴾ منصوب بـ ﴿فأَنْجَيْنَا﴾ يعني أنه معطوف على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى واذكر إبراهيم. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي أفردوه بالعبادة. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ أي أصناماً. قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة. الجوهري: الوثن الصنم والجمع وُثْنٌ وأَوْثانٌ مثل أُسد وآساد. ﴿وَتَخْلُقُونَ إفكاً﴾ قال الحسن: معنى ﴿تَخْلُقُونَ﴾ تنحتون؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها. وقال مجاهد: الإفك الكذب والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب. وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿وَتَخَلَّقُونَ﴾. وقرىء ﴿تُخَلِّقُونَ﴾ بمعنى التكثير من خَلَق و ﴿تَخَلَّقُون﴾ من تَخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرّص. وقرىء ﴿أَفِكاً﴾ وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفة على فَعِل أي خلقاً أَفِكاً أي ذا إفك وباطل. و ﴿أَوْثَاناً﴾ نصب بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾ و ﴿ما﴾ كافة. ويجوز في غير القرآن رفع أوثانٍ على أن تجعل ﴿ما﴾ اسماً لأن؛ و ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلته، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن. فأما ﴿وَتَخْلُقُون افْكاً﴾ فهو منصوب بالفعل لا غير. وكذا ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ

اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي أصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره. ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لذكر الأمم كأنه قال أو لم ير الأمم كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾. وقد قيل: ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾ خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى أو لم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً. وكذلك سائر الحيوان. أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون.

[٢٠] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

[٢١] ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١)﴾.

[٢٢] ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)﴾.

[٢٣] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾.

[٢٤] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾.

[٢٥] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿النَّشَاءَةَ﴾ بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشبهه. الجوهري: أنشأه الله خلقه، والاسم النشأة والنشاءة بالمدّ عن أبي عمرو بن العلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتردون. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرّاء: معناه ولا من في السماء بمعجزين الله. وهو غامض في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني. وهو كقول حسان:

فمن يَهْجو رسولَ اللَّهِ منكم ... ويَمدحُهُ ويَنصرُه سَواءُ

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء؛ فأضمر مَن؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي مَن له. والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء إن عصوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان بالبصرة ولا هاهنا، بمعنى لا يفوتني بالبصرة لو صار إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في السماء. وقال المبرّد: والمعنى ولا مَن في السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و ﴿فِي السماءِ﴾ صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. ورد ذلك عليّ بن سليمان. وقال: لا يجوز. وقال: إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة؛ قال: والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون؛ والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله؛ كما قال: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ ويجوز ﴿نَصِيرٌ﴾ بالرفع على الموضع، وتكون ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام. ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا. وهذه

الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقي فيها ﴿لآيَاتٍ﴾. وقراءة العامّة ﴿جَوَابَ﴾ بنصب الباء على أنه خبر كان و ﴿أَنْ قَالُوا﴾ في محل الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار ﴿جَوَابُ﴾ بالرفع على أنه اسم ﴿كان﴾ و ﴿أَنْ﴾ في موضع الخبر نصباً. ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾. وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش ﴿مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ﴾. الباقون ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾. فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه؛ ذكر الزجاج منها وجهين: أحدهما ـ أن المودة ارتفعت على خبر إنّ وتكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي. والتقدير إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم. والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدأ أي هي مودّةُ أو تلك مودّةُ بينِكم. والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينِكم. قال ابن الأنباري: ﴿أَوْثَاناً﴾ وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون ﴿مَوَدَّةُ﴾ رفعاً بالابتداء و ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خبره؛ فأما إضافة ﴿مَوَدَّةُ﴾ إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ فإنه جعل ﴿بَيْنِكُمْ﴾ اسماً غير ظرف، والنحويون يقولون جعله مفعولاً على السعة. وحكى سيبويه: يا سارق الليلةِ أهل الدار. ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذكرها. ومن رفع ﴿مَوَدَّةٌ﴾ ونوّنها فعلى معنى ما ذكر، و ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب ظرفاً. ومن نصب ﴿مَوَدَّةَ﴾ ولم ينوّنها جعلها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل ﴿إنما﴾ حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي. ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول: جئتك ابتغاء الخير، وقصدت فلاناً مودّة له ﴿بينِكم﴾ بالخفض. ومن نوّن ﴿مَوَدَّةً﴾ ونصبها فعلى ما ذكر ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب من غير إضافة، قال ابن الأنباري: ومن قرأ ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾

و ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا. ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل: ﴿الأَخِلاَّء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

[٢٦] ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ لُوطٌ أوّل من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً. قال ٱبن إسحاق آمن لوط بإبراهيم وكان ٱبن أخته، وآمنت به سارّة وكانت بنت عمه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال النخعي وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ هو إبراهيم عليه السلام. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومعه ٱبن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وٱمرأته سارة. قال الكلبي: هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين. وهو أوّل من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ٱبن خمس وسبعين سنة. وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ لوط عليه السلام. ذكر البيهقي عن قتادة قال: أوّل من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال قتادة: سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم، فقدمت ٱمرأة من قريش فقالت: يا محمد رأيت خَتَنَك ومعه ٱمرأته. قال: «على أي حال رأيتهما» قالت: رأيته وقد حمل

آمرأته على حمار من هذه الدَّبَّابة[١] وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: «صحبهما الله إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله ﷺ. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم. وتقدم الكلام في الهجرة في ﴿النساء﴾[٢] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولداً ويعقوب ولد ولدٍ. وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]. فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده ﷺ وعليهم أجمعين. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني آجتماع أهل الملل عليه؛ قاله عكرمة. وروى سفيان عن حميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنيا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أن أهل كل دين يتولونه. وقيل: ﴿آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أن أكثر الأنبياء من ولده. ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ليس ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ داخلاً في الصلة وإنما هو تبيين. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٣] بيانه. وكل هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

[٢٨] ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

---

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع.
(٢) راجع ٥/٣٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ٢/١٣٣ طبعة ثانية.

[٣٠] ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾.

[٣١] ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾.

[٣٢] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾.

[٣٣] ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٣٤﴾.

[٣٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قال الكسائي: المعنى وأنجينا لوطاً أو أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحب إليّ. ويجوز أن يكون المعنى وٱذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً أو محذراً ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدم القراءة في هذا وبيانها في سورة ﴿الأعراف﴾[1]. وتقدم قصة لوط وقومه في ﴿الأعراف﴾ و ﴿هود﴾[2] أيضاً. ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قطاع الطريق؛ قاله ٱبن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه ٱبن شجرة. وقيل: إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن منبه. أي ٱستغنوا بالرجال عن النساء.

قلت: ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك. ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النادي المجلس وٱختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقالت فرقة: كانوا يخذفون النساء بالحصى، ويستخفّون بالغريب والخاطر عليهم. وروته أم هانىء عن النبيّ ﷺ. قالت أم هانىء: سألت رسول الله ﷺ

(١) راجع ٧/ ٢٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ٩/ ٧٩ طبعة أولى أو ثانية.

عن قول الله عز وجل: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال «كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوي والماوردي. وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ ﷺ: «إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به» يعني يذهب به للفاحشة فذلك قوله: ﴿وتأتون فِي نادِيكم المنكر﴾. وقالت عائشة وٱبن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة[١] والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال [منصور[٢] عن] مجاهد كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم. قال ٱبن عطية: وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحنّاء، وحل الإزار، وتنقيض[٣] الأصابع، والعمامة التي تلف حول الرأس، والتشابك، ورمي الجُلاَهِق[٤]، والصفير، والخذف، واللوطية. وعن ٱبن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أوّل من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج ؛ فقالوا : ﴿ أْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصمِّمون على ٱعتقاد كذبـه . وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم ٱستنصر

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاي كما في التقريب. (٢) في كل النسخ: مجاهد ومنصور. والتصويب عن «تفسير الطبري» وغيره. (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها.

(٤) الجلاهق كعلابط البندق الذي يرمى به. والخذف بالخاء المعجمة الحذف به.

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أوّلاً مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه في ﴿هود﴾ وغيرها. وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي ﴿لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وأَهْلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وهما لغتان: أَنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدّم. وقرأ ابن عامر ﴿إِنَّا مُنَزِّلُونَ﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أبقيت. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة. وقال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض. وكل ذلك باق فلا تعارض.

[٣٦] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ أي وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم في ﴿الأعراف﴾[1] و ﴿هود﴾. ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ وقال يونس النحوي: أي اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال. ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تكفروا فإنه أصل كل فساد. والعُثُوُّ والعِثيّ أشد الفساد. عَثِيَ يَعْثَى وَعَثَا يَعْثُو بمعنى واحد. وقد تقدّم. وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ أي صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

[٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة؛ أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثمود. قال: وأحبّ إليّ أن يكون معطوفاً على

---

(١) راجع ٧/٢٤٧ وما بعدها و ٩/٨٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجاج: أن التقدير وأهلكنا عاداً وثموداً. وقيل: المعنى: وٱذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ يا معشر الكفار ﴿مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ بالحُجْر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم فحذف فاعل التبيّن. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي عن طريق الحق. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: **أحدهما** ـ وكانوا مستبصرين في الضلالة؛ قاله مجاهد. **والثاني** ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنّه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيّن لهم أن عاقبتهم العذاب.

[٣٩] ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وصدّ قارون وفرعون وهامان. وقيل: أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ عن الحق وعن عبادة الله. ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي فائتين. وقيل: سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم. ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ قال الكسائي: ﴿فَكُلاًّ﴾ منصوب بـ ﴿أَخَذْنَا﴾ أي أخذنا كلاً بذنبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ يعني قوم لوط. والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار. وتستعمل في كل عذاب

﴿وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

[٤١] ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

[٤٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[٤٣] ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وقف تام، ثم قصّ قصّتها فقال: ﴿اتَّخذت بَيْتاً﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ صلة للعنكبوت، كأنه قال: كمثل التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً. ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أي أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾. قال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَوْ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت. أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لَمَا عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة. وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هَطَّالِهِمْ منهمْ بُيوتٌ كأنّ العنكبوتَ قدِ ابتناها

ويروى:

علـــى أهطـــالهـــم منهـــمْ بيـــوتٌ

قال الجوهري والهطال: ٱسم جبل. والعنكبوت الدويّبة المعروفة التي تنسج نسجاً رقيقاً مهلهلاً بين الهواء. ويجمع عناكِيب وَعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأَعْكُب. وقد حكي أنه يقال عَنكَب وعَكَنْبَاة[1]؛ قال الشاعر:

كـأنَّمـا يَسقـطُ مـن لُغَـامِهـا   بيـتُ عَكَنْبَـاةٍ علـى زِمَـامِهَـا

وتُصغَّر فيقال عُنَيْكِب. وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى. وقال عطاء الخراساني: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي ﷺ؛ ولذلك نهي عن قتلها. ويروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿ما﴾ بمعنى الذي، و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد ٱنقلب المعنى؛ والمعنى: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه. وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: ﴿يدعون﴾ بالياء وهو ٱختيار أبي عبيد؛ لذكر الأمم قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا﴾ أي هذا المثل وغيره مما ذكر في ﴿البقرة﴾ و ﴿الحج﴾ وغيرهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبيّنها ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي يفهمها ﴿إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ أي العالمون بالله؛ كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وٱجتنب سخطه».

[٤٤] ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي علامة ودلالة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين.

---

(١) ويقال أيضاً: عنكباة بتقديم النون على الكاف.

[٤٥] ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمر من التلاوة والدُّءوب عليها. وقد مضى في ﴿طه﴾[١] الوعيد فيمن أعرض عنها، وفي مقدمة الكتاب[٢] الأمر بالحض عليها والكتاب يراد به القرآن.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته. وإقامة الصلاة أداؤها في وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها. وقد تقدم بيان ذلك في ﴿البقرة﴾[٣] فلا معنى للإعادة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هي التي تكفّر ما بينها من الذنوب؛ كما قال عليه السلام: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شيء» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء؛ قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا» خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه حديث حسن صحيح. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن. والمعنى: الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» يريد قراءة الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُرَيج والكلبي: العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكراً؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها. قال ابن عطية: وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكِرَ للنبي ﷺ فقال: «إن الصلاة ستنهاه»

---

(١) راجع ١١/٢٥٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ١/١٦٢ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة. (٣) راجع ١/١٦٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله. فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم». وفي الآية تأويل ثالث، وهو الذي ٱرتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وأدكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت، وخامرها ٱرتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلت: لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود، ولا زمن مخصوص، ولا مرض معلوم، وهذا مما لا خلاف فيه. وروي عن بعض السلف أنّه كان إذا قام إلى الصلاة ٱرتعد وٱصفر لونه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى، وحقّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك. فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا ـ وليتها تجزي ـ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده. وعلى هذا يخرّج الحديث المرويّ عن ٱبن مسعود وٱبن عباس والحسن والأعمش قولهم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً» وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند. قال ٱبن عطية سمعت أبي رضي الله عنه يقول: فإذا قررناه ونُظِر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله، بل تتركه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيله، فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إن فلاناً كثير الصلاة. فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها.

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً» إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها. وقيل: هو خبر بمعنى الأمر. أي لينته المصلي عن الفحشاء والمنكر. والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سبب الانتهاء. وهو كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ٱبن مسعود وٱبن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرّة وسلمان والحسن؛ وهو ٱختيار الطبري. وروي مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ٱبن عمر أن النبيّ ﷺ قال في قول الله عز وجل ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه». وقيل: ذكركم اللَّهَ في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء. وقيل: المعنى؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقال الضحاك: ولذكر الله عندما يَحرم فيترك أجلّ الذكر. وقيل: المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر أي كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير. وقال ٱبن زيد وقتادة: ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكراً له لا يخالفه. قال ٱبن عطية: وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرِ اللَّهَ مراقبٍ له. وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى؛ كما في الحديث «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم» والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهيٍ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرّغه إلا من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى. وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه. قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وباقي الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة.

[٤٦] ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - آختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد: هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق. وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومن آمن معه. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. قال قتادة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا][1] الجزية فآنتصروا [منهم]. قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة آحتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول. وآختار هذا القول آبن العربي.

---

(١) عبارة الأصل هنا: «فهؤلاء المشركون في سقوط الجزية... الخ» والتصويب مستفاد من كتب التفسير.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: وقوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾ معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاريّ عن أبي هريرة: قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية، لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم» ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل». وفي «البخاريّ»: عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب.

[٤٨] ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الضمير في ﴿قبلِهِ﴾ عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً، ويخط حروفاً ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي من أهل الكتاب، وكان لهم في ٱرتيابهم متعلّق، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية؛ قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك.

الثانية ـ ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: ما مات النبي ﷺ حتى كتب. وأسند أيضاً حديث أبي كَبْشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ٱبن عطية: وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البَرَاء في صلح الحُدَيبية أن النبي ﷺ قال لعليّ: «ٱكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ ولكن ٱكتب محمد بن عبد الله فأمر علياً أن يمحوها، فقال علي: والله لا أمحاه[1]. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه فمحاها وكتب ٱبن عبد الله. قال علماؤنا رضي الله عنهم: وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ـ ﷺ ـ بيده، وكتب مكانها ٱبن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا. فقال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب. فقال جماعة: بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ[2] والباجي، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أمياً، ولا معارَض بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ ولا بقوله: «إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب» بل رأوه زيادة في معجزاته، وٱستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ٱبن عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة؛ كما أنه عليه السلام عَلِم عِلم الأوّلين والآخرين من غير تعلم ولا ٱكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته، وأعظم في فضائله. ولا يزول عنه ٱسم الأميّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسِن أن يكتب. فبقي عليه ٱسم الأميّ مع كونه قال كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثير من

(١) محا الشيء يمحوه ويمحاه محواً ومحيا أذهب أثره.

(٢) السمناني هو أبو عمرو الفلسطيني. وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروي، والباجي هو أبو الوليد.

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشدّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقف في تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح، لا سيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة؛ على أن المسألة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها. وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها.

قلت: وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة، فيقال له: كانت تكون آية لا تنكِر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب؛ وبكونه أمياً في أمّة أميّة قامت الحجة، وأُفحِم الجاحدون، وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم؛ أي أمر من يكتب به من كُتّابه، وكان من كتبة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتباً.

الثالثة ـ ذكر القاضي عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «أَلِق الدواةَ وحرّف القلمَ وأقم الباء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم» قال القاضي: وهذا وإن لم تصح الرواية أنه ﷺ كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا، ويُمنَع القراءة والكتابة.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجى. فإن قيل: فقد تهجى النبي ﷺ حين ذكر الدّجّال فقال: «مكتوب بين عينيه ك ا ف ر» وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أمياً؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ الآية وقال: «إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصّ عليه ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً. ففي حديث حذيفة «يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» فقد نص في ذلك على غير الكاتب ممن يكون أمياً. وهذا من أوضح ما يكون جلياً.

[٤٩] ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعم الفراء في قراءة عبد الله ﴿بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ المعنى بل آيات القرآن آيات بينات. قال الحسن: ومثله ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ ولو كانت هذه لجاز، نظيره ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قال الحسن: أعطيت هذه الأمة الحفظ، وكان من قبلها لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون. فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء. ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ؛ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا. وهذا اختيار الطبريّ. ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السَّمَيقَع ﴿بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بينات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به.

[٥٠] ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[٥١] ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

[٥٢] ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء. قيل: كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى؛ أي ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي ﴿آيَةٌ﴾ بالتوحيد. وجمع الباقون. وهو ٱختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ﴾ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر؛ والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وقيل: إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: أتى النبي ﷺ بكتف فيه كتاب فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميّ في مسنده. وذكره أهل التفسير في كتبهم. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا ٱتباعي» وفي مثله قال ﷺ: «ليس منّا من لم يَتغنَّ بالقرآن» أي يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية. وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَى﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدّعِيه من أني رسوله، وأن هذا القرآن كتابه. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء. وهذا ٱحتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد

أقرّوا بعلمه فلزمهم أن يقرّوا بشهادته. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال يحيى بن سلام: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ٱبن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

[٥٣] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لمّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عجل لنا هذا العذاب. وقيل: إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ٱبن عباس: يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾. وقال الضحاك: هو مدة أعمارهم في الدنيا. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى؛ قاله يحيى بن سلّام. وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم؛ قاله ٱبن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر. وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر. دليله قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾. ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني الذي ٱستعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون بنزوله عليهم. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ﴾ أي يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متصل بما هو قبله؛ أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم. وإنما قال: ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم؛ كما قال الشاعر:

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارِداً[١]

وقال آخر:

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العِدَا   عليهنّ غابٌ من قَنًى ودروع

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة ﴿نَقُولُ﴾ بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: ﴿ذُوقُوا﴾ والقراءتان ترجع إلى معنى. أي يقول الملَك بأمرنا ذوقوا.

[٥٦] ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

[٥٧] ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

[٥٨] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها. وقال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم

(١) تمام البيت:

حتى شتت همالة عيناها

والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا. وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير: المعنى إن رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إن رزقي لكم واسع فأبتغوه في الأرض. قال سفيان الثوري: إذا كنت بأرض غالية فأنتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها. ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿إِيَّايَ﴾ منصوب بفعل مضمر، أي فاعبدوا إياي فأعبدون، فأستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّايَ﴾ بمعنى الشرط؛ أي إن ضاق بكم موضع فإياي فأعبدوني [في غيره][1] لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقدّم في ﴿آل عمران﴾[2]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنّ بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا. أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى؛ وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقرأ أبو عمر ويعقوب والجحدري وأبن أبي إسحاق وأبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف ﴿يَا عِبَادِيْ﴾ بإسكان الياء. وفتحها الباقون. ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ فتحها أبن عامر. وسكنها الباقون. ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر أستوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم» عليهما السلام. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. وقرأ السُّلَميّ وأبو بكر عن عاصم ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء؛ لقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ... ونحن في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنَا
لا تَركنَنَّ إلى الدّنيا وزَهرتها ... وإن تَوشَّحتَ من أثوابها الحسَنَا

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) راجع ٤/٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفاً يثوون فيها. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي ﴿لَيُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بالياء مكان النون. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي لننزلنهم. ﴿غُرَفاً﴾ جمع غرفة وهي العِلِّيَّة المشرِفة. وفي «صحيح مسلم» عن سهل[1] بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدريّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين» وخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «هي لمن أطاب الكلامَ وأطعم الطعامَ وأدام الصيامَ وصلى لله بالليل والناس نيام» وقد زدنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة» والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هارون، قال: حدّثنا حجاج بن المِنْهال عن الزهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطاء ـ عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلقط من التمر [ويأكل][2] فقال: «يا بن عمر مالك لا تأكل» فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال: «لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا بن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سَنَتِهم ويضعف اليقين» قال: والله ما برحنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

---

(١) هذه رواية أبي سعيد الخدري؛ كما في «صحيح مسلم».
(٢) الزيادة من كتاب «أسباب النزول» للواحدي.

قلت: وهذا ضعيف يُضعِفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنَتَهم، ٱتفق البخاري عليه ومسلم. وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ٱبن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون «ٱخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة» قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ليس معها رزقها مدّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة. وهذا أشبه من القول الأوّل. وتقدّم الكلام في ﴿كأَيِّنْ﴾ وأن هذه ﴿أيّ﴾ دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي كشيء كثير من العدد من دابة. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدخر لغد. وقيل: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تقدر على رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾. وقيل: الحمل بمعنى الحمالة. وحكى النقاش: أن المراد النبي ﷺ يأكل ولا يدخر.

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبي ﷺ. وقد مضى هذا في ﴿النمل﴾ عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال ٱبن عباس: الدوابّ هو كل ما دبّ من الحيوان، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ٱبن آدم والنمل والفأر. وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في مِحْضَنه. ويقال للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يسوّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتر الجلِد أنه مرزوق بجلَده، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنوع بعجزه. وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «لو أنكم تَوكّلون على الله حق تَوكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً». ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم.

[٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الآية. لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء، وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق. أي فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيف تَشكُّون في الرزق، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد، ولهذا وصله بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكل شيء بقضاء وقدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع.

[٦٣] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي جدبها وقحط أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلِم تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين؛ فكرر تأكيداً. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

أي لا يتدبرون هذه الحجج. وقيل: ﴿الحمد لِلَّهِ﴾ على إقرارهم بذلك. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض. ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي شيء يُلْهَى به ويُلعبَ. أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها. وأنشد:

تَروحُ لنا الدنيا بغير الذي غَدَتْ ... وتَحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وَتَجْرِي الليالي باجتماعٍ وفُرقةٍ ... وتَطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللَّهُ عَمَّن صَيَّر الهمَّ واحداً ... وأيقن أن الدائراتِ تَدورُ

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوّة على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أي ما أبتغي به ثوابه ورضاه. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها. وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحيّ بكسر الحاء واحد. كما قال[1]:

وقد ترى إذ الحياةُ حِيٌّ

وغيره يقول: إن الحِيّ جمع على فعول مثل عصيّ. والحيوان يقع على كل شيء حيّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصل حَيَوان حَيَّان فأبدلت إحداهما واواً؛ لاجتماع المثلين. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

[٦٥] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) البيت للعجاج وتمامه:

وإذ زمان الناس دغفلي

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي صادقين في نياتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يدعون معه غيره، وما لم ينزل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاّح لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قيل: هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمر معناه التهديد والوعيد. أي أكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا. ودليل هذا قراءة أبيّ ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾. ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بجزم اللام. النحاس: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام. وقرأ أبو العالية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد.

[٦٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً. والخطف الأخذ بسرعة. وقد مضى في ﴿القصص﴾

وغيرها. فأذكرهم الله عزّ وجلّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي جعلتُ لهم حرماً آمناً أمنوا فيه من السّبي والغارة والقتل، وخلّصتهم في البر كما خلّصتهم في البحر، فصاروا يشركون في البر ولا يشركون في البحر. فهذا تعجب من تناقض أحوالهم. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاء الله وإحسانه. وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبي ﷺ من الهدى. وحكى النقاش: أفبإطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون. وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السديّ بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمد ﷺ. وكل قول يتناول القولين. ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي مستقر. وهو استفهام تقرير.

[٦٩] ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي جاهدوا الكفار فينا. أي في طلب مرضاتنا. وقال السديّ وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العبّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «من عمِل بما علِم علّمه الله ما لم يعلم» ونزع بعض العلماء إلى قوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿واتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الدارانيّ: ليس الجهاد في الآية

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد ٱختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي طريق الجنة؛ قاله السدي. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت في ﴿مع﴾ على أحد وجهين: أن يكون ٱسماً ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيداً لفي الدار. و «مع» إذا سكنت فهي حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون ٱسماً، وأن تكون حرفاً. والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين في ﴿البقرة﴾ وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيتين بونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر

وأوّله سورة ﴿الروم﴾

تفسير سورة الروم

مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْأٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)﴾.

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، كما سيأتي. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قال: غُلبت وغَلبت. قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعلوا بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دُون» أراه قال: «العشر». قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾. هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن الحسين بن حُرَيْث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان بن سعيد الثوري، به، وقال الترمذي: حسن غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان، عن حبيب. ورواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق الصاغاني، عن معاوية بن عمرو، به. ورواه ابن جرير: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا محمد بن سعيد ـ أو سعيد الثعلبي الذي يقال له: أبو سعد من أهل طرسوس ـ حدثنا أبو إسحاق الفزاري، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر.

حديث آخر: قال سليمان بن مِهْران الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان واللزام، والبطشة، والقمر، والروم. أخرجاه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامر ـ هو الشعبي ـ عن عبد الله ـ هو ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال: كان فارس ظاهراً على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم. وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾ قالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس بضع سنين؟! قال: صدق. قالوا: هل لك إلى أن نقامرك. فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ما بضع سنين عندكم»؟ قالوا: دون العشر. قال: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل». قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾ إلى قوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. **حديث آخر**: قال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي، حدثنا مُؤمَّل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا ترى إلى ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس. قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لك أن نخاطرك؟ فجعل بينه وبينهم أجلا، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس، فبلغ ذلك النبي ﷺ فساءه ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: «تعرَّض لهم وأعظم الخطر واجعله إلى بضع

سنين». فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فجاء به أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: هذا السحت، قال: «تصدق به».

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، أخبرني ابن أبي الزِّناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مُكرم الأسلمي قال: لما نزلت، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قوله الله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينك. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعُوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع: ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه. قال: فسمّوا بينهم ست سنين. قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير.

هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد. وقد روى نحو هذا مرسلاً عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبي، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّي، والزهري، وغيرهم. ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن داود في تفسيره حيث قال: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشيري عليَّ، أيّهم أستعمل؟ فقالت: هذا فلان، وهو أروغ من ثعلب، وأحذر من صقر. وهذا فرخان، وهو أنفذ من سنان. وهذا شهريراز، وهو أحلم من كذا ـ تعني أولادها الثلاثة ـ فاستعمل أيهم شئت. قال: فإني قد استعملت الحليم. فاستعمل شهريراز، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وخرّب مدائنهم، وقطع زيتونهم. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت، والزيتون الذي قطع. فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته. قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يَعْمَر: أن قيصر بعث رجلاً يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز، فالتقيا بأذرعات وبُصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارس الروم، فغلبتهم فارس. ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون. قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يُقِرّن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أُبيّ بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: أنا حبُك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين. ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل». فخرج أبو بكر فلقي أبيّاً فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادُّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمة: لما أن ظهرت فارس على الروم، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز، فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى. فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي هذا فابعث إليّ برأس فرخان. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، له نكاية وصوت في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجّل إليّ برأسه. فراجعه، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس: إني قد نزعت عنكم شهريراز، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا ولي فرخان الملك، وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة، قال: ائتوني بشهريراز، وقدّمه ليضرب عنقه، قال: لا

تعجل عليَّ حتى أكتب وصيتي، قال: نعم. فدعا بالسَّفط فأعطاه الصحائف وقال: كل هذا راجعتُ فيك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد. فرد الملك إلى أخيه شهريراز، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم: إن لي إليك حاجة لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصّحف، فالقني، ولا تلقني إلا في خمسين رومياً، فإني ألقاك في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مكر به، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً. ثم بسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين، فدعيا ترجماناً بينهما، فقال شهريراز: إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني. وقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما. ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا. قال: أجل. فقتلا الترجمان جميعاً بسكينيهما. قال: فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ففرح والمسلمون معه.

فهذا سياق غريب، وبناء عجيب. ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، في أول سورة «البقرة». وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محاريب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً، فتابعها ـ يقال: تقيّة ـ واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين ـ يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيّروا دين المسيح، عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة. وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة». والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل. وكان عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملَّك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، وملك البلاد كالعراق وخراسان والرّي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف. وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار.

فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك. فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام. فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة من جيش متوسط، هذا وكسرى مُخَيّم على القسطنطينية

ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وركّبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذه. فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله ﷻ، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنوده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون. لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادُهم قد خرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم. فكان هذا من غلب الروم فارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبُصرى، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمحي، عن الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مُناحبة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وروى ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو: أنه قال ذلك. وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قُطع المضاف، وهو قوله: ﴿قَبْلُ﴾ عن الإضافة، ونُويت. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس. وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدّي، وغيرهم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾. وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية؛ قاله عكرمة، والزهري، وقتادة، وغيرهم، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا ـ وهو بيت المقدس ـ شكراً لله ﷻ، ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ، الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر. فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش كانوا في غزة، فجيء بهم إليه، فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه ـ وأجلسهم خلفه ـ: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذّبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأثُروا عليّ الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته، فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو صانع فيها ـ يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي إصلاحه وتفقد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفّى بنذره، والله أعلم. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال الله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا

سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى ههنا: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثني أسيد الكلابي، قال: سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه، قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. وقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به ـ يا محمد ـ من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغَفّل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾. ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم ـ أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكّنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولاً لأساؤوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ أي: كانت السوأى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: يوم

القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكتئب المجرمون. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾، قال قتادة: هي ـ والله ـ الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني: إذا رفع هذا إلى عليين، وخفض هذا إلى أسفل السافلين، فذاك آخر العهد بينهما؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحبرة أعم من هذا كله، قال العجاج:

الحمد لله الذي أعطى الحَبَرْ مَوالِيَ الحقِّ إن المولى شكر

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده، مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض. ثم قال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا، كما قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٣، ٤]، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١، ٢]، والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجُهَني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون». وقال الطبراني: حدثنا مطلب بن شُعَيب الأزدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بشير، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ الآية بكمالها، أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته». إسناد جيد، ورواه أبو داود في سننه. وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾ [يس: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧]، ولهذا قال ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم

بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغُنْدَر، قالا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك». ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، به. وقال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً يكنّ لكم أزواجاً، ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار. وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، هؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرْبر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلاهم، فجميع أهل الأرض ـ بل أهل الدنيا ـ منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان. وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون. قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السدوسي، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلاثة، حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني وأهدىء ليلي» فقلتها، فذهب عني.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودَلالَة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:

١٣، ١٤]، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣].

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وفي حديث درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، مرفوعاً: «كل حرف في القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة». وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هَيِّنٌ. وكذا قال عكرمة وغيره. وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبيﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أو الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته ـ أيضاً ـ من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْر، عن أبي هريرة، عن النبيﷺ بنحوه، أو مثله. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. قال العوفي، عن ابن عباس: كل عليه هين. وكذا قال الربيع بن خُثَيْم. ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق، أي: وهو أهون على الخلق. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وقد أنشد بعض المُفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سَكَنَ الغديرُ على صَفاء ... وجُنِّبَ أن يُحرِّكهُ النسيمُ
ترى فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمسُ تَبْدو والنجومُ
كذاك قُلُوبُ أرْبابِ التجلي ... يُرَى في صَفْوِها الله العظيمُ

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرعاً وقدراً. وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكَدِر، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مِجْلَز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له. والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، فهم يأنفون من البنات. وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه. ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. قال الطبراني: حدثنا محمود بن الفرج الأصبهاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا حماد بن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله:

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾. ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: المشركون ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حُنَفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم». وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية. وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس على فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخعي، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله. وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لدين الله، خَلْقُ الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام. حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»؟ ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، به. وأخرجاه ـ أيضاً ـ من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة، فمنهم الأسودُ بن سريع التميمي. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع التميمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظهراً، فقتل الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناء المشركين؟ فقال: «ألا إنما خياركم أبناء المشركين». ثم قال: «لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية». وقال: «كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها». ورواه النسائي في كتاب السير، عن زياد بن أيوب، عن هُشَيْم، عن يونس ـ وهو ابن عبيد ـ عن الحسن البصري، به.

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري، قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً». ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سُئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم». أخرجاه في الصحيحين، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليَشْكُري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك. وقد قال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ يعني ابن سلمة ـ أنبأنا عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: أتى عليَّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله سئل عنهم فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قال: فلقيت الرجل فأخبرني. فأمسكت عن قولي. ومنهم عياض بن حمار المجاشعي، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مُطَرِّف، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي، ﷻ، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا،

كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله، ﷺ، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: يا رب، إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبْزَةً. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزك، وأنفق عليهم فسننفق عليك. وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك». قال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك». وذكر البخيل، أو الكذاب، والشنظير: الفحاش. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طرق عن قتادة، به. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: قال ابن زيد، وابن جُرَيْج، أي راجعين إليه، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه. قال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر، رضي الله عنه، بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن من المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت. حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة: أن عمر، رضي الله عنه، قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكره نحوه. وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم» أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل، عليه السلام، عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم، إذا فريق منهم، أي في حالة الاختبار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره. وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك. ثم قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره؛ وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية؛ قال الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له». وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو

المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذي ﴿الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: من البر والصلة، ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ وهو: الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله ـ بهذا فسره ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي ـ وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ٦] أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان، فربا لا يصح، يعني: ربا البيع؟ وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة؛ ولهذا قال ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد». وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام أبي شرحبيل، عن حبَّة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعنَّاه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزَتْ رؤوسكما؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ». وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. وقوله: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله، ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسُّدِّي، وغيرهم: المراد بالبر ههنا: الفَيَافي، وبالبحر: الأمصار والقرى، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقرى، وما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون: بل المراد بالبر هو المعروف، وبالبحر: البحر المعروف. وقال زيد بن رُفَيْع: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾، يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمي دوابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، عن سفيان، عن حُمَيد بن قيس الأعرج، عن مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غصباً. وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر: جزائره. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره، يعني: ببلده. ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بأن النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لحدٌّ يقام في الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً». والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت، انكف الناس ـ أو أكثرهم، أو كثير منهم ـ عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها ـ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها،

ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ ولهذا ثبت في الصحيح: «إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب». ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد والحسين قالا: حدثنا عوف، عن أبي قحذم قال: وجد رجل في زمان زياد ـ أو: ابن زياد ـ صرة فيها حبّ، يعني من بر أمثال النوى، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل. وروى مالك، عن زيد بن أسلم: أن المراد بالفساد ها هنا الشرك. وفيه نظر. وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختباراً منه ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل. الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذِّبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حق أوجبه على نفسه الكريمة، تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىء مسلم يَرُدُّ عن عرض أخيه، إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ، ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يمدّه فيكثرهُ ويُنَمّيه، ويجعل من القليل كثيراً، ينشىء سحابة فترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾. قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الورّاق، وقتادة: يعني قطعاً. وقال غيره: متراكماً، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهما ثقيلاً قريباً من الأرض. وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: فترى المطر ـ وهو القطر ـ يخرج من بين ذلك السحاب، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي:

لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾، معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً. وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: الإنزال ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾. ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله ـ أيضاً ـ قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانه فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾، يقول: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾، يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفراً، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أي: بعد هذا الحال يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا هُشَيم، عن يَعْلَى ابن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، قال: الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات. وأما العذاب فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه، والرياح مختلفة في مهابها: صبا ودبور، وجنوب، وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عبد الله بن عَيّاش، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعني الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، فقال: يا رب، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور. قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذاً تكفأ الأرض وما عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم»، فهي التي قال الله في كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]. هذا حديث غريب، ورفعه منكر. والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦]. وقد استدلت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جيَّفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق». وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر

مصححاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام». وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم». وروي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه، رد عليه السلام. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَري قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد متَّ؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا ـ والله ـ في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فنتلقى أخبارهم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته. قال: وحدثنا محمد بن الحسين، ثنا بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتي أهل الجبان، فنقف على القبور فنسلم عليهم، وندعو لهم ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: ثنا محمد، ثنا عبد العزيز بن أبان قال: ثنا سفيان الثوري قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خِدَاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التَّيَّاح يقول: كان مُطَرِّف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج. قال: وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطة، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتي الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلام عليكم. حدثني محمد بن الحسن، ثنا يحيى بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيته يوماً، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأني بكيت لما رأيته. قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك، قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً. حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّفَاوي قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت. فكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود يفرش فيه الريحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك، قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها، قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد. وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد، عن إبراهيم، عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به. وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمد أخي قال: دخل

عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال: عظني، قال: بم أعظك، أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، ثنا خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شرَّة سمجة، فمات أبي فتبت وندمت على ما فرطت، ثم زللت أيما زلة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني، ما كان أشد فرحي بك وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات، قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسألك إيابته لا رجعة فيها ولا حور، يا مصلح الصالحين، ويا هادي المضلين، ويا أرحم الراحمين. وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة. وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزي به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله. وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية»، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً ثم يُكسى لحماً، ويُنفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمَّة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن فضيل ويزيد، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، قال: قرأت على ابن عمر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، ثم قال: قرأتُ على رسول الله ﷺ كما قرأت عليّ، فأخذ علي كما أخذتُ عليك. ورواه أبو داود والترمذي ـ وحسَّنه ـ من حديث فضيل، به. ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر، عن عطية، عن أبي سعيد، بنحوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنظَروا حتى يُعذر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال

ههنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه. قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً، رضي الله عنه، وهو في الصلاة ـ صلاة الغداة ـ فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن عثمان بن أبي زُرْعَة، عن علي بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج علياً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾، فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شريك، عن عمران بن ظَبْيان، عن أبي تحيا قال: صلى علي رضي الله عنه، صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة، واستحباب قراءتها في الفجر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب ـ أبا روح ـ يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها الروم فأوهم، فقال: «إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء». وهذا إسناد حسن ومتن حسن، وفيه سر عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه، عليه السلام، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

آخر تفسير سورة «الروم»



(٣٠) سورة الروم مكية
وآياتها ستون

ستون آية مكية إلا آية ١٧ فمدنية ، نزلت بعد الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ﴾ وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما فى قوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الإله كما قال (وإلهنا وإلهكم واحد) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال (والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الأمور ، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادى ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمعادى ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى (الم ذلك الكتاب) ، (المص كتاب) ، (طه ما أنزلنا عليك القرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (يس والقرآن) ، (ص والقرآن) إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى أولها ماهو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التى لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فى أدنى الأرض) أى أرض العرب ، لأن الألف واللام

www.besturdubooks.wordpress.com

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعد قوله (غلبت الروم) لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً ، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا ، دل على أن ذلك بأمر الله ، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم ، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله (فى أدنى الأرض) لبيان شدة ضعفهم ، أى انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فى بضع سنين) قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت الوقت مع أن المعجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له فى إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبى بن خلف وغيره ، وناحبوا أبا بكر أى خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبى بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الإبل وماده فى الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعاً ، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة .

قوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾

ثم قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعنى إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هى إرادة نافذة ، وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن فى ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده .

www.besturdubooks.wordpress.com

بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ

ثم قال تعالى : ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء [وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

قوله] تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال (بنصر الله ينصر) وقدم الفعل على المصدر فى قوله (وأيدك بنصره) وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله ، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من أسمائه هذين الاسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة إليه .

ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعداً ووعد الله لا خلف فيه ، قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وأنه لا خلف فى وعده .

ثم قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هى وإنما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى ، فإذا قال هو شغلنى فلان فيقول ما شغلك ولكن نت اشتغلت .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم [ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق

www.besturdubooks.wordpress.com

لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

قوله] تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والإنكار بالحشر كما قال تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون) بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو[أن] أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لايخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً، ثم يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة التى يصفى بها الشيء فينزل منها الصافى إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية ، والعبرية عربية مفسودة فى الأكثر ، يقال لموسى ميشا وللاله إيل إلى غير ذلك ، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق ويندرق فى العروق الدقاق المذكورة ، وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواقى إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة فى خلق الإنسان ، وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختاراً قادراً كاملا عالماً شاملا علمه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أراده . وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضرورى ، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ فى إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لابد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال(ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فقوله (إلا بالحق) إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية ، وقد بينا ذلك فى قوله (خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) ونعيده فإن التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لايكون فيها بطلان

www.besturdubooks.wordpress.com

فلا يكون فيها فساد . لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (وأجل مسمى) يذكر بالأصل الآخر الذى أنكروه

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما فى إسعاد أو شقاء ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة، وأما المستفيد فإنه يفهم أولا الأبين ، ثم يرتقى إلى فهم ذلك الأخفى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخراً ، فالمذكور من المفيد آخراً مفهوم عند السامع أولا ، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال (أولم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما فى قوله (سنريهم) الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولا) الآفاق فان لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للانسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى يعلمون الله بدلائل الأنفس فى سائر الأحوال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) بدلائل الآفاق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر . وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو؟ فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل إمكان العدم . لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم ، فاذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً كما بين بقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا(كثيراً من الناس) وقال من قبل (ولكن أكثر الناس) وذلك لأنه من قبل لم يذكر دليلا على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لابد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل (وإن كثيراً) وقبله (ولكن أكثرهم) ثم بعد الدليل الذى لا يمكن الذهول عنه ، والدليل الذى لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التى فوقه والأرض التى تحته ، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

فقال تعالى ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقال فى الدليلين المتقدمين (أو لم يروا) ولم يقل (أو لم يسيروا) إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا (أو لم يسيروا فينظروا) ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه إذ بها المباشرة وقوة مالية إذا بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهى بالحصون والعمائر ، فقال تعالى :كانوا أشد منهم قوة فى الجسم وأكثر منهم مالا لأنهم أثاروا الأرض أى حرثوها ، ومنه بقرة تثير الأرض ، وقيل منه سمى ثوراً ، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم ، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم ، وقوله (فما كان الله ليظلمهم) يعنى لم يظلمهم بالتكليف ، فان التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها فى موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس ، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لا لأربح عليكم ، والوضع فى[أى]موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأماهم فوضعوا أنفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته ، لكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ

كما قال (للذين أحسنوا الحسنى) وقوله تعالى (أن كذبوا) قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيراً لأساؤا وفى هذه الآية لطائف (إحداها) قال فى حق الذين أحسنوا (للذين أحسنوا الحسنى) وقال فى حق من أساء (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى) إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فان الحسنى اسم الجنة والسوآى اسم النار ، فاذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شىء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أساؤا ، فالسوآى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم إليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسىء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر فى المسىء أن له السوآى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوآى للمسىء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لايكون عدلا فذكر السبب فى التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب فى الثواب .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ .

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان فى ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق ، يعنى من خلق بالقدرة والارادة لايعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ .

فى ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم ، والإبلاس يأس مع حيرة ، يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لايأس هو إحدى الراحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى ، ولديه مايفتخر به ويباهى ، فيخبره صادق بمجىء عدو لايرده راد ، ولا يصده صاد ، إذا جاءه لايبلعه ريقاً ، ولا يترك له الى الخلاص طريقاً ، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

مجنون إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادى عمن يكون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول مايريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم فى دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التى هى الأوثان دافعة عنك كل باس ، وشافعة لك عند خمود الحواس ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام فى النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فييأس حينئذ أى إياس ويبلس أشد إبلاس . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾

ثم بين أمراً آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فكان هذه الحالة مترتبة على الإبلاس ، فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وأعاد قوله (ويوم تقوم الساعة) لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله .

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى :

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ أى فى جنة يسرون بكل مسرة ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾

يعنى لاغيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال (لا يفتر عنهم العذاب) وفى الآيتين مسائل فيها لطائف :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين ، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون ، فقدم ذلك زيادة فى إيلامهم ،

www.besturdubooks.wordpress.com

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيء ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع ، فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور فى القسمين ، فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على مايقوله المعتزلة ، بل هو فى الأول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور ، وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأول (فى روضة) على التنكير ، وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أى كثير وعظيم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى الأول (يحبرون) بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال فى الآخر (محضرون) بصيغة الإسم ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبىء عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله (يحبرون) يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به . وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين .

ثم قال تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾

لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله (ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعظمته فى الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال (فسبحان الله) أى سبحوا الله تسبيحاً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو التسبيح ، سمى التسبيح بسبحان وجعل علماً له . وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ، أى صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أى نزهوه عن

www.besturdubooks.wordpress.com

صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول . وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه في التحقيق ، فاذا قال نزهوني ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ماهو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل إلى الحبور فى الرياض ، والحضور على الحياض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والانسان مادام فى الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال (ومن آياته منامكم بالليل) فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً فى أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبدى صرف جميع أوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التى إدعيتم بقولكم (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) على سبيل الانحصار بل هم مثلكم

www.besturdubooks.wordpress.com

فقامهم مثل مقامكم فى أعلى عليين ، واعلم أن فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة ، أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان فى سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) ويفهم من هذا أن قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) ذكر بلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة ، وأما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلا كما قال « تنام عيناى ولا ينام قلبى » جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى فى قوله (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى أربع وعشرين ساعة مسبحاً ، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين ، وأما فى أوقاته فما تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى أول النهار وآخره ، وأما الليـــل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون فى وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر فى وسط النهار ، وأما النبى ﷺ لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل » ليكون الأربع فى نصف الليل كما أن الأربع فى نصف النهار ، وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل ؛ لأن المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى فضيلة السبحلة والحمدلة فى المساء والصباح ، ولنذكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبى ﷺ أنه قال لبعض أصحابه « أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة » وسمعته يقول رحمه الله مسنداً « من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر

www.besturdubooks.wordpress.com

مرات الله أكبر أدخل الجنة » وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص ، فاذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالماً بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شئ لكونه قادراً على كل شئ فقد نزهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجرى فى ملكه إلا مايشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسما أو فى مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزهه . لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها . فاذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متنبهاً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ،لكن لاريب فى أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله فى أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه . وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه . وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لايفى عمره به ، فاذا استحضر فى ذهنه النعم التى لاتعد كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدى استغرق عمره فى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق فى صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله ، فكل ما يقع فى عقله من حقيقته فينبغى أن يقول الله أكبر مما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفنى عمره ولا يفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ما أتصوره بقوة عقلى وطاقة إدراكى يكون متوغلا فى العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك

فقول القائل المستيقظ « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذى يكون من صميم القلب لا الذى يكون من طرف اللسان :

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعشياً) عطف على (حين) أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله (وله الحمد فى السموات والأرض) كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قدم الإمساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله(وسبحوه بكرة وأصيلا) وذلك لأن ههنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إلى قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله (وكذلك تخرجون) والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تعلق إخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو أن عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة . وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفسرون فى قوله (يخرج الحى من الميت) فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد (يخرج الحى من الميت) أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان . وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده وإماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه .

ثم قال تعالى (ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) وفى هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميته لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله (فسبحان الله) إلى قوله (وكذلك تخرجون) ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية

www.besturdubooks.wordpress.com

باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ، ومن حيث فعله فانه ثقيل والأرواح التى بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات الذى ينبت فى الأرض ولا يبرزولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الأشجار التى تقبل التعظيم ، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولاسيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعى ، ثم الانسان ، وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو فى أعلى المراتب لايكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحمد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة ، وفى الآية لطيفتان : (إحداهما) قوله (إذا) وهى للمفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الله تعالى يخلق أولا إنساناً فينبهه أنه يحى حيواناً ونامياً وغير ذلك لا أنه خلق أولا حيواناً ، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الارادة الأولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة فى الشىء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، إما الادراك فلكثافته وجموده ، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله (تنتشرون) إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهى أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال (خلقكم من تراب) نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) ماقيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثانى) أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأنا خلقنا من

www.besturdubooks.wordpress.com

نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لاتصير شجرة إلا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى فى موضع آخر (وخلق من الماء بشراً) وقال (من ماء مهين) وههنا قال من (تراب) فكيف الجمع ؟ قلنا أما على (الجواب الأول) فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم . وأما على (الثانى) فنقول ههنا قال ماهو أصل أول ، وفى ذلك الموضع قال ماهو أصل ثان لأن ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعاً وهو المنى ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت إلا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال (من الماء بشراً) وإن كان الماء فكيف قال (خلقكم من تراب) وإن كاناهما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما ، وإنما هو بجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولا ، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فان كان كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلا وإن شاء جعل ذلك أصلا ، وإن شاء جعلهما أصلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحكماء إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهى التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فان التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ فان كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه ، وأما الآيات فنقول ماذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولاهما لاغير

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما فى الإنسان ظاهر لكل أحد نخص الظاهر المحسوس بالذكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

لما بين الله خلق الانسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فاذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة فى العمارة لا تنسد ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق لكم) دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى (خلق لكم ما فى الأرض) وهذا يقتضى أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكاليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من أنفسكم) بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ويدل عليه قوله (لتسكنوا إليها) يعنى أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال سكن إليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسمانى ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهى للقلوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وجعل بينكم مودة ورحمة) فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلا ولده ، فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين (أحدهما) كون الزوج من جنسه (والثانى) ما تفضى إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين (أحدهما) يفضى إلى الآخر فالمودة تكون أولا ثم إنها تفضى إلى الرحمة ، ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله (إن فى ذلك) يحتمل أن يقال المراد إن فى خلق الأزواج لآيات ، ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (أما الأول) فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات (وأما الثانى) فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم مالا يجده بين ذوى الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بداً من أن يقول ذلك بقدرة الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة (والثانى) اختلاف كلامهم فان عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمه بالغة وذلك لأن الانسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

اختلاف الصور وقد يكون بالسمع لخلق اختلاف الأصوات . وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى (لآيات للعالمين) لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال (للعالمين) لعموم العلم بذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (منامكم بالليل والنهار) قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة : ثم قال (وابتغاؤكم) أى فيهما فان كثيراً ما يكتسب الانسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ، ويدل عليه آيات أخر . منها قوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا) وقوله (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغى أن لايرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع ، منها قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله (ولتبتغوا من فضله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لايكون إلا لحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج فى الحال أو خائف من المآل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (آيات لقوم يسمعون) وقال من قبل (لقوم يتفكرون) وقال (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فانهما يدومان بدوام الإنسان

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

لجعلهما آيات عامة . وأما قوله (لقوله يتفكرون) فاعلم أن من الأشياء مايعلم من غير تفكر ، ومنها مايكفى فيه مجرد الفكرة ، ومنها مالا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقفه عليه ومرشد يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها مايحتاج إلى بعض الناس فى تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لايقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر ، فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال (لقوم يسمعون) ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

لما ذكر العرضيات التى للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق ، وقال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التى للأنفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق ، بقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل) وذلك لأن الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقريبة . وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لايتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو يتغير فى الأحوال وذلك لايتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لايتغيران ، ثم يرى فى بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما قدم السماء على الأرض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والاحياء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كما أن فى إنزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك فى تقدم البرق والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذى لايكون تحت كن يخاف الابتلال

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

فيستعد له ، والذى له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء . فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسما بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لابد له من سبب وينتهى إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال ههنا (لقوم يعقلون) لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

لما ذكر من العوارض التى للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها ، فان الأرض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فان الأرض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل إنها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها فى مكانها لاتخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع

www.besturdubooks.wordpress.com

الذى هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل ، والذى نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه ، وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الأنفس فقوله (خلق لكم) استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض فى قوله (خلق السموات والأرض) ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفى للاقرار بالحق . (والثانى) يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بأمره) أى بقوله (قوما) أو بارادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للارادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الأمر الذى للتكليف لا فى الأمر الذى للتكوين ، فانا لا ننازعهم فى أن قوله (كن) وكونوا (ويانار كونى) موافق للارادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (ومن آياته أن تقوم) وقال قبله (ومن آياته يريكم) ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته (أن يريكم) ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدراً ، لأن المستقبل ينبىء عن التجدد ، وفى البرق لما كان ذلك من الأمور التى تتجدد فى زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر ستة دلائل ، وذكر فى أربعة منها إن فى ذلك لآيات ، ولم يذكر فى الأول وهو قوله (ومن آياته أن خلقكم من تراب) ولا فى الآخر وهو قوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) أما فى الأول فلأن قوله بعده (ومن آياته أن خلق لكم) أيضاً دليل الأنفس ، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فاذا قال (إن فى ذلك لآيات) كان عائداً اليهما ، وأما فى قيام السماء والأرض فنقول فى الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

فلما كان فى أول الأمر ظاهراً فى آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن أحد فى ذلك ، وذكر ماهو مدلوله وهو قدرته على الاعادة ، وقال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماوجه العطف بثم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه والله أعلم إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ، قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يافلان إصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يافلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعى هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعنى أنتم تكونون فى الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذا أنتم) قد بينا أنه للمفاجأة يعنى يكون ذلك بكن فيكون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا إذا أنتم تخرجون ، وقال فى خلق الانسان أولا (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه ، فاذا هو بشر ، وأما فى الاعادة لايكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا ثم .

ثم قال تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التى هى الأصل الآخر ، والوحدانية التى هى الأصل الأول ، أشار اليها بقوله (وله من فى السموات والأرض) يعنى لاشريك له أصلا لأن كل من فى السموات وكل من فى الأرض ، ونفس السموات والأرض له وملكه ، فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعا مماثلا ، فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر ، فقال تعالى (وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى فى نظركم الاعادة أهون من الابداء

لأن من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هو هين عليه كما قيل فى قول القائل الله أكبر أى كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق من الابداء لأن فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم عظاماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلا يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما فى الاعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن فى البدء خلق الأجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول إلهين هو مالا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولا مبقى على حقيقته .

ثم قال تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله (وله المثل الأعلى) إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى أن الله تعالى قال فى موضع آخر (هو على هين) وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذى قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال (هو على هين) يعنى لا على غيرى ، وأما ههنا المعنى الذى ذكر أنه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال (وله المثل الأعلى) وكان ذلك مثلا مضروباً لمن فى الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) يعنى هذا مثل مضروب لكم (وله المثل الأعلى) من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات ، وأما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الأعلى أى فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقيل المثل الأعلى أى الصفة العليا وهى لا إله إلا الله ، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأجزاء فى الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها .

www.besturdubooks.wordpress.com

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾

لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعدالدليلين بين الواحدانية أيضاً بالمثل بعدالدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ،ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم ، وأما المخالفة فموجودة أيضاً وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله (من أنفسكم) يعنى ضرب لكم مثلامن أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله (مما ملكت أيمانكم) يعنى عبد كم لكم عليهم ملك اليد وهوطار[ىء] قابل للنقل والزوال ، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لاخروج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، فاذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه ، بل هو فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله (من شركاء فيما رزقناكم) يعنى الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم ، فكيف يجوزأن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله (فأنتم فيه سواء) أى هل أنتم ومماليككم فى شئ مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شئ مما يملكه ، لكن كل شئ فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئاً أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلايعبد لعظمته ولالمنفعة تصل إليكم منه ، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك ، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة ، فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من

www.besturdubooks.wordpress.com

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

الوجوه وإلى هذا أشار بقوله (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شىء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والحكايات الاقناعية لقوم يعقلون ، يعنى لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لايكون له عقل .

ثم قال تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ أى لايجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله (فمن يهدى من أضل الله) أى هؤلاء أضلهم الله فلا هادى لهم ، فينبغى أن لايحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهى أن قوله (فمن يهدى من أضل الله) مقو لما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لاشريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذى لايقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لايغنى عنهم شيئاً فلا ناصر لهم.

ثم قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ أى إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين ، وقوله (فأقم وجهك للدين) أى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) أى ذاته بصفاته ، وقوله (حنيفاً) أى مائلا عن كل ما عداه أى أقبل على الدين ومل عن كل شىء أى لايكون فى قلبك شىء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله (ولا تكونوا من المشركين) ثم قال الله تعالى (فطرت الله) أى ألزم فطرة الله وهى التوحيد

www.besturdubooks.wordpress.com

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم (ألست بربكم) ؟ فقالوا بلى ، وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لا يسعد ، وقيل (لا تبديل لخلق الله) أى الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطرى غير كاف . ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين إن الناقص لا يصلح لعبادة الله ، وإنما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال (لا تبديل لخلق الله) بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك .

ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم .

ثم قال تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

لما قال حنيفاً أى مائلا عن غيره قال (منيبين إليه) أى مقبلين عليه ، والخطاب فى قوله (فأقم وجهك) مع النبى والمراد جميع المؤمنين ، وقوله (واتقوه) يعنى إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة . أى كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال (ولا تكونوا من المشركين) قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان أى ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله (منيبين) أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك الظاهر وبقوله (ولا تكونوا من المشركين) أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى أى لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) يعنى لم يجتمعوا على الاسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

للخلاص من النار ، وكل واحد بما فى نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل مالدينا نافد لقوله تعالى (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) لابما عندهم فان كل ماعند العبد فهو نافد ، أما فى الدنيا فظاهر ، وأما فى الآخرة فلأن ماوصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذى لانفاد له فالذى لانفاد له هو فضله .

ثم قال تعالى : ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ .

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة ، فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويجد نفسه محتاجة إلى شىء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) يعنى إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان ، وبسبب الصنم الفلانى ، لا ، بل ينبغى أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فانه شرك خفى ، مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيهىء الله له لوحا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو ، فيقول تخلصت بلوح ، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى ، وإن كان بمعنى أن الله خلصنى على يد زيد فهو أخفى ، وفيه مسائل :

﴿الأولى﴾ قوله تعالى (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال فى القليل فإن العرف [أن] من أكل مأكولا كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال فى النفى ماذقت فى بيته طعاماً نفياً للقليل ليلزم نفى الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة فى الآخرة إذ لهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب (ذوقوا مس سقر ، ذوقوا ما كنتم تعملون ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين فى غاية القلة

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (منه) أى من الضر فى هذا التخصيص ماذكرناه من الفائدة وهى أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هى عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة

www.besturdubooks.wordpress.com

لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (إذا فريق منهم) ، قال فى العنكبوت (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذى لايشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه ، والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقى فريقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما أتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ .

قوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره في العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله (فتمتعوا) وعدمه هناك فى قوله (وليتمتعوا فسوف يعلمون) فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم مخاطب .

ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) أى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار ، أى ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنتأم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول ، أم يتبعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثانى فيتعين الاول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهو يتكلم) مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾

قوله] تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فاذا آتاه رضى وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) والأول كالذى يخدم مكرها مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن . فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهى أن قوله تعالى (فرحوا بها) اشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة . فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله ، وهو كما أن الملك لوحط عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به . ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبدية طعام أيضاً يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبدية .

ثم قال تعالى (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد فى الإحسان والثانى يحقق العدل . قوله (إذا هم يقنطون) إذا للمفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

أى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغى أن لا يكون نظره على مايوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شىء من الدنيا كما هوعادة المدوكر المتسلس(١) يعبد الله إذاكان فى الخوانق والرباط للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لايذكرالله ، بقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وبين أنه ينبغى أن يكون ، فى حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر ، فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالامساك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكويا أولم يكن ، وسواء كان بعد الحول أوقبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شىء له إذا بقى فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم

(١) المدوكر المتسلس : لعله اسم لطائفة من بنى ساسان وهم المكدون والمتسولون . يعبدون الله رياء وسمعة والخوانق أو الخوانيق جمع خانقاه كلمة أعجمية وهى مكان للعبادات وأما الرباطات فهى جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون فى سبيل الله على الثغور الاسلامية للحماية على الثغور .

www.besturdubooks.wordpress.com

واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون . ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شىء ما فنقول ، وإن كان الأمر كذلك لكن لا نزاع فى أن إطلاق المسكين على من لا شىء له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه ، والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان فى شدة ومخمصة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان فى شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدماً على من حاجته مختصة بموضع دون موضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر الأقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهى شىء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا فى الثابت ، فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوماً واحداً أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى وذو جاه وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأى وذو الفضل ، فقال (ذا القربى) إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال (مسكيناً ذا متربة) فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فآت ذا القربى حقه) ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلاناً يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون فى التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً يدخلان ، وإلى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « بئس خطيب القوم أنت » حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى . ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ذلك خير) يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى (وافعلوا الخير ، فاستبقوا الخيرات) والثانى أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله تعالى (للذين يريدون وجه الله) إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله (وجه الله) أى يكون عطاؤه لله لا غير . فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله . وإنما أراد مخلوق الله .

﴿ المسألة السابعة ﴾ كيف قال (وأولئك هم المفلحون) مع أن للافلاح شرائط أخر ، وهى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

المذكورة فى قوله (قد أفلح المؤمنون) فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح ، فقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح ، وذاك مفلح ، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى . فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظراً إلى علمه ثم إذا حد فى الزنا على سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل . إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

﴿ **المسألة الثامنة** ﴾ لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب ههنا بقوله (فآت) مع النبى ﷺ وغيره تبع ، وقد قال له من قبل (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وقال (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) .

﴿ **المسألة التاسعة** ﴾ قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) يفهم منه الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة (وأولئك هم المفلحون) إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبلة وبالآخرة . فلو كان المفلح منحصراً فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله (فأقم وجهك للدين) متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاه معترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾

ذكر هذا تحريضاً يعنى أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة تقع فى يد الرحمن فتربوا حتى تصير مثل الجبل » فينبغى أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر . وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى أولئك ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كونه حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفاً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل . فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شىء ثواباً

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصور مثله نظراً إلى الفضل . مثاله فى الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرماً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك ألفاً . فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه و تعالى عما يشركون ﴾ .

قوله] تعالى (الله الذى خلقكم) أى أوجدكم (ثم رزقكم) أى أبقاكم ، فان العرض مخلوق وليس يبقى (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) جمع فى هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله (ثم يحييكم) والدليل قدرته على الخلق ابتداء ، وأما التوحيد فبقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) . ثم قال تعالى (سبحانه و تعالى عما يشركون) فقوله سبحانه أى سبحوه تسبيحاً أى نزهوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله (و تعالى) أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه أى لا تصفوه بالإشراك . وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم (لفسدت السموات والأرض) كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه و تنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وإلى هذا أشار بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) واختلفت الأقوال فى قوله (فى البر والبحر) فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان فى البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضى وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فان العرب تسمى المدائن بحوراً لكون مبنى عمارتها على الماء . ويمكن أن يقال

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

إن ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لايكون لله بل يكون للنفس ، فالفاسق مشرك بالله بفعله ، غاية مافى الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فاذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدنى بسببهما ، وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم ، وقوله (لعلهم يرجعون) يعنى كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله ، لايرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لايرتدع بالكلام ، فيقول القائل لماذا لاتؤدبه بالكلام ؟ فاذا قال لاينفع ربما يقع فى وهمه أنه لايبعد عن نفع ، فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

لما بين حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب فساد أفوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب فى غاية الحسن وذلك لأنه فى وقت الامتنان والإحسان قال (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال (ظهر الفساد فى البر والبحر) أى قلل رزقكم ، ثم قال تعالى (سيروا فى الأرض) أى هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، أما سلب البقاء فبإظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولا ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن الهلاك فى الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافياً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ماهو مكلف به فانه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين فى التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام « إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين » وقد ذكرنا معناه ، وقوله (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون قوله (من الله) متعلقاً بقوله (يأتى) والثانى أن يكون المراد (لا مرد له من الله) أى الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون . ثم أشار إلى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً) ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به ، (والثانى) ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أولم يقل ، لكن الايمان لابد معه من العمل الصالح ، فان الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشىء منه لابد منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (فعليه) فوحد الكناية وقال (فلأنفسهم) جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبوق بالرحمة ، لازم لمن أساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (فعليه كفره) ولم يبين وقال فى المؤمن (فلأنفسهم يمهدون) تحقيقاً لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشارة ، وعند غيره أشار إليه إشارة .

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لايحب الكافرين ﴾ ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذى يجازيه به الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

والملك إذا كان كبيراً كريماً ، ووعد عبداً من عباده بأنى أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله (من فضله) يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ، ثم إنى لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ، ثم قال تعالى (إنه لايحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فان عدم المحبة من الله غاية العذاب ، وأفهم ذلك بمن يكون له معشوق فانه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إنى أحب فلاناً كيف يكون سروره .

وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان إلى العبد قدم الكافر فقال (من كفر فعليه كفره) وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال (ليجزى الذين آمنوا) ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) لأن قوله (من كفر) فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله (من عمل صالحاً) لتحريض المؤمن فالنهى كالايعاد والتحريض للتقرير والايعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان إظهاراً للكرم والرحمة ، فان قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة ، فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لايكون فى درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى (يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) قدم المؤمن على الكافر ، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر فى الذكر لأنه قال من قبل (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله (يبلس المجرمون) وقوله فى حق المؤمن (فى روضة يحبرون) لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال (وأما الذين كفروا) .

قوله تعالى : ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾.

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك

www.besturdubooks.wordpress.com

بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لاحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لئلا يتوهم به الظلم فقال (يرسل الرياح مبشرات) قيل بالمطر كما قال تعالى (بشراً بين يدى رحمته) أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال ، فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا ، أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان (وليذيقكم من رحمته) بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال فى القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزر قال (وليذيقكم) ، وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أى الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال (ولتبتغوا) مسنداً إلى العباد ذكر بعده (من فضله) أى لا استقلال لشىء بشىء وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال (مبشرات) باصلاح الهواء فان إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختيار من الآدمى بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى قوله تعالى (ظهر الفساد ... ليذيقهم بعض الذى عملوا) وقال ههنا (وليذيقكم من رحمته) فخاطب ههنا تشريفاً (ولأن رحمته قريب من المحسنين) فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا (من رحمته) فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان : (أحدهما) ماذكرنا أن الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضاً . وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى . وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال (من رحمته) كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم فى الآخرة ، وأما فى حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبىء عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (لعلهم يرجعون) وقال ههنا (ولعلكم تشكرون) قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما أخر هذه الآية لأن فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات (يريكم البرق) والحادث فى الجو فى أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا (مبشرات)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، وحكمه به حكم جازم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا) أى إرسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبى ﷺ وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضا بالبينات . وكان فى قومهم كافر ومؤمن كما فى قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفى قوله تعالى (وكان حقاً) وجهان : (أحدهما) فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أى علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثانى) (وكان حقاً علينا) أى نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلماً وإنما كان عدلا حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثانى تأكيد البشارة . لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبىء عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة ، فان إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولا ، ثم عادت آخراً لا يكون النصر إلا للمنهزم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم فى بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾

قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول فى إرسالها قدرة وحكمة . أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة فى نفس الهبوب فيما يفضى إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفضى إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى (فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها) وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أى من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل إنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجياً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أى من قبل ماذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى) لما ذكر الدلائل قال لمحي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فان الانسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثانى يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فانه آكد من قوله إنك تموت (وهو على كل شيء قدير) تأكيد لما يفيد الاعتراف .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ، فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة أيضاً لايدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى الآية الأولى (يرسل الرياح) على طريقة الإخبار عن الإرسال ، وقال ههنا (ولئن أرسلنا) لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهى متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رءوف بالعباد يمسكها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والأيام فى البرارى والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا فى بعض الأزمنة وفى بعض الأمكنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الريح الضارة فى أعوام ، بل الضارة فى الغالب لا تهب فى الدهور (الثانى) هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً فان ما يهب مرة واحدة لايصلح الهواء ولا ينشىء السحاب ولا يجرى السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ، أما الكيفية فهى إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح فى هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك فى نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد . وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ، ولا شك أن فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح .

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا

www.besturdubooks.wordpress.com

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

فراراً ، وإنباؤه إلا كفراً وإضراراً ، قال له (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم إرشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فانك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه ، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذى لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن مالا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فان المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا لاتسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدى الأعمى الذى دون الأصم.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى (الصم إذا ولوا مدبرين) ليكون أدخل فى الامتناع ، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فانما يفهم بالإشارة ، فاذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأصم (لاتسمع الصم الدعاء) ولم يقل فى الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لايبلغ ذلك الحد فقال إنك داع لست بملجىء إلى الإيمان والداعى لايسمع الأصم الدعاء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (وما أنت بهادى العمى) أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أى ليس شغله ذلك فقوله (إنك لاتسمع الموتى) نفى ذلك عنه ، وقوله (وما أنت بهادى العمى) يعنى ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سميعاً وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان ، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله ، وقوله (إن تسمع إلا من يؤمن) دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم مايجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم (قالوا سمعنا وأطعنا)

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

لما أعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً) وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلا من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله ، فقال (خلقكم من ضعف) أى مبنا كم على الضعف كما قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أى من حالة فقره ، ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلا مولوداً ورضيعاً ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ، وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ، ثم بين بقوله (يخلق مايشاء) إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق (فيبسطه فى السماء كيف يشاء وهو العليم القدير) لم قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل (وهو العزيز الحكيم) فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا . فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله (وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) لأن الاعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى (وهو العليم القدير) تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فان عملوا خيراً علمه وإن عملوا شراً علمه ، ثم إذا كان قادراً فاذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الاثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال (وهو العليم الحكيم) وإلى مثل هذا مثل هذا أشار فى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) عقيب خلق الانسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله (الخالقين) إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

فقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة . وقيل مالبثوا فى القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون ﴾ .

قوله (وقال الذين أوتو العلم والإيمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين ، فنقول الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ،والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها ، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء فى القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله (يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الاشارة بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) يعنى كان فى كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) يعنى طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لاتعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير .

ثم قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أى لايطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لاتطلب منهم لأنها لاتقبل منهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من مثل) إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فان طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لايصعب عليه تكذيب الدلائل ، بل لايجوز للمستدل أن يشرع فى دليل

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

آخر بعد ماذكر دليلاجيداً مستقيماً ظاهراً لاغبار عليه وعانده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أولا يعترف ، فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أوالمستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وأما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لايجوزالاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لأنه يقول العناد أفاد فى الأول حيث التزم ذكردليل آخر . فان قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعامن الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قرروها فرداً فرداً ، كمن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثانى كذا ، والثالث كذا ، وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال . وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله (ولئن جئتهم) والجمع فى قوله (إن أنتم) لطيفة وهى أن الله تعالى قال (ولئن جئتهم بكل آية) جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون . ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيئاً أية فائدة فى الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لايعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فاصبر إن وعد الله حق) أى أن صدقك يبين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة إلى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فانه لو سكت لقال الكافر إنه متقلب الرأى ، لاثبات له . والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين . وآله وصحبه أجمعين .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٠ — سورة الروم
(مكية وهى ستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ٣٠ الروم

غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ٣٠ الروم

فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) ٣٠ الروم

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) ٣٠ الروم

﴿ سورة الروم ﴾
مكية إلا قوله فسبحان الله الآية . وهى ستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) الكلام فيه كالذى مر فى أمثاله من الفواتح الكريمة (غلبت الروم) ١، ٢
(فى أدنى الأرض) أى أدنى أرض العرب منهم إذ هى الأرض المعهودة عندهم وهى أطراف الشام ٣
أو فى أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف إليه قال مجاهد هى أرض الجزيرة وهى
أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الأردن وفلسطين وقرىء أدانى
الأرض (وهم) أى الروم (من بعد غلبهم) أى من بعد مغلوبيتهم وقرىء بسكون اللام وهى لغة كالجلب
والجلب (سيغلبون) أى سيغلبون فارس (فى بضع سنين) روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم ٤
بأذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين
وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم فلنظهرن عليكم
فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرر الله أعينكم فو الله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له
أبى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا
الأجل ثلاث سنين فأخبر به أبو بكر رسول الله ﷺ فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر
وماده فى الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم
على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ أبو بكر
الخطر من ذرية أبى فجاء به رسول الله ﷺ فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من
البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبرت عن الغيب الذى
لا يعلمه إلا العليم الخبير وقرىء غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى أن الروم

بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ٣٠ الروم

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ٣٠ الروم

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ٣٠ الروم

غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض
بلادهم فإضافة الغلب حينئذ إلى الفاعل (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى فى أول الوقتين وفى آخرهما حين
غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين
وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله تعالى
وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس وقرىء من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف إليه
واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعداً بمعنى أولا وآخراً (ويومئذ) أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ويحل
٥ ماوعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون) (بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ
من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله إظهار صدق
المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولى بعض الظالمين بعضاً
وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهم شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن أبى سعيد
الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى
والأول هو الأنسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه
عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة
والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائناً من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن
ينصره أى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما أن كلا الفريقين لا
يستحق الرحمة الأخروية وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها لكن المراد
٦ ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر
مؤكد لنفسه لأن ماقبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعداً (لا يخلف الله وعده) أى وعد كان مما
يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتعليل
الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر
الموصوف كأنه قيل وعد الله وعداً غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ماسبق من شئونه
٧ تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) وهو مايشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة
لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها لا تمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها
كما قيل فإنهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهراً للتحقير والتخسيس

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ٣٠ الروم

دون الواحدة كما توهم أى يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية
القصوى والمطلب الأسنى (هم غافلون) لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا مايؤدى إلى معرفتها *
من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وإيرادها اسمية الدلالة على
استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى وهو على
الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم
بالبهائم المقصور إدراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور
الآخرة وإشعاراً بأن العلم المذكور وعدم العلم رأساً سيان (أولم يتفكروا) إنكار واستقباح لقصر ٨
نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام
وقوله تعالى (فى أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره
وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما) الخ متعلق إما *
بالعلم الذى يؤدى إليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى
خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر
عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها
ملتبسة بشىء من الأشياء (إلا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه إثر ما علموه *
والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو
استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته
وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم
بحسب أعمالهم غب ماتبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز
طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل
والأمارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه
على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره ﷺ بقوله أيكم
أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود عليه السلام
وقوله تعالى (وأجل مسمى) عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهى *
إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى فى أنفسهم صلة للتفكر على معنى
أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشئونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال
ماعداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ٣٠ الروم

ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ٣٠ الروم

وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذى دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة
مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد
لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة
والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات لجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه
بمنزل من الجزاء لعكيس الأمر فتدبر وقوله تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون)
تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ماذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والإعراض
عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم
٩ منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (أولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة
أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام
أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا (فى الأرض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل فى
حكم التقرير والتوبيخ والمعنى أنهم قد ساروا فى أقطار الأرض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من
قبلهم) من الأمم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا أشد منهم قوة) الخ بيان لمبدأ أحوالهم
ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة (وأثاروا الأرض)
أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) أى عمرها
أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (أكثر مما عمروها) أى
عمارة أكثر كما وكيفاً وزماناً من عمارة هؤلاء إياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم
فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم إذ
مدار أمرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى أكناف الأرض بأصناف التصرفات
وهم ضعفة ملجئون إلى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات)
بالمعجزات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله ليهلكهم من
غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن إهلاكه تعالى إياهم بلا جرم ليس من الظلم فى
شىء على ماتقرر من قاعدة أهل السنة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه فى معرض ما يستحيل
صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الأنفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بأن
١٠ اجترءوا على اقتراف ما يوجبه من المعاصى العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أى عملوا السيئات

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ٣٠ الروم

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ٣٠ الروم

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ٣٠ الروم

وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعلة الحكم (السوأى) أى العقوبة التى
هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن أو مصدر
كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرىء
على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوى
والأخروى أى لأن كذبوا أو بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته
الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزءون) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وإيراد
الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل
١١ وقيل (الله يبدأ الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم إليه ترجعون) إلى موقف الحساب
١٢ والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرىء بالياء (ويوم تقوم الساعة) التى هى وقت إعادة الخلق
ورجعهم إليه (يبلس المجرمون) أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وأيس
١٣ من أن يحتج وقرىء بفتح اللام من أبلسه إذا أفحمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم
من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع أى لم يكن لواحد منهم شفيع
أصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) أى بإلهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة
الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك إذ ليس فى الإخبار به فائدة
١٤ يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) أعيد لتهويله وتفظيع مايقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل
له إثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما
تقدم من بدئهم وإعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن
الآخر بل تفرقهم إلى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك
١٥ بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان
لأحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد
بها الجنة والحبور السرور يقال حبره إذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير
التحسين واختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ٣٠ الروم

فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ٣٠ الروم

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ٣٠ الروم

ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر بن عياش التيجان على رءوسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى ﷺ أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفى آخر القوم أعرابى فقال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال ﷺ ياأعرابى إن فى الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوى فسألت أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى إن فى الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحاً من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا

١٦ طرباً (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بأمره وقوله تعالى (فأولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للإيذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (فى العذاب محضرون) على الدوام

١٨،١٧ لا يغيبون عنه أبداً (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون)(وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) إثر ما بين حال فريقى المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمروا بما ينجى من الثانى ويفضى إلى الأول من تنزيه الله عزوجل عن كل مالا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الأول على الثانى لما أن التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب مابعدها على ما قبلها أى إذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الأوقات واحمدوه فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض فى معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كما ينبىء عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله ﷺ من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر وقوله ﷺ من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ماقال أو زاد عليه وقوله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والأحاديث وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أن مايحدث فيها من آيات قدرته وأحكام

يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ٣٠ الروم

رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشياً عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الأسلوب لما أنه لايجيء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك أنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً أما فى المساء والصباح فظاهر وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشياً صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن إلى أنها مدنية إذ كان يقول إن الواجب بمكة ركعتان فى أى وقت اتفقتا وإنما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة . عن النبى ﷺ من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه ﷺ من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته وقرىء حينا تمسون وحينا تصبحون أى تمسون فيه وتصبحون فيه

١٩ (يخرج الحى من الميت) كالإنسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيى الأرض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ذلك الإخراج (تخرجون) من قبوركم وقرىء تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده

٢٠ (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فإن دلالة بدء خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها (أن خلقكم) أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه ﷺ منطو على خلق ذرياته انطواء إجمالياً (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون فى الأرض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية

٢١ (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) أى

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ٣٠ الروم

لأجلكم (من أنفسكم أزواجا) فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن
من أنفسكم على ماعرفته من التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آخر وهو الأوفق لقوله تعالى (لتسكنوا
إليها) أى لتألفوها وتميلوا إليها وتطمئنوا بها فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من
أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) أى بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب
أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما مر فى قوله تعالى لا نفرق
بين أحد من رسله وقيل أو بين أفراد الجنس أى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى (مودة ورحمة) فإن
المراد بهما ماكان منهما بعصمة الزواج قطعاً أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من
غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من
قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال
تعالى ورحمة منا (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة
والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة
لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم
البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله مع التنبيه على أن ماذكر ليس بآية فذة كما ينبىء عنه قوله تعالى ومن
٢٢ آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ماذكر من أمر البعث ومايتلوه من الجزاء (خلق
السموات والأرض) إما من حيث إن القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة
على إعادة ماكان حياً قبل ذلك وإما من حيث إن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه
قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام
وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم بأن علم كل صنف لغته
وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى
الكيفية من كل وجه (وألوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الأعضاء
وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما
وأسبابهما والأمور المتلاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شىء من ذلك لامحالة وإن كانا فى غاية التشابه وإنما
نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة
بالانتظام فى سلك ماسبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من
تتمات خلقهم (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان
(لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) أى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى وما يعقلها

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٠ الروم

إلا العالمون وقرىء بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق
٢٣ كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم
من فضله) فيهما فإن كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وإن كان الأغلب وقوع الأول فى الأول
والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك
خلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الأخيرين لأنهما زمان والزمان مع ماوقع فيه كشىء
واحد مع إعانة اللف على الاتحاد (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى شأنهم أن يسمعوا الكلام
٢٤ سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شئونه تعالى (ومن
آياته يريكم البرق) الفعل إما مقدر بأن كما فى قول من قال [ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى] أى أن
أحضر أو منزل منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أو هو على حاله صفة
لمحذوف أى آية يريكم بها البرق كقول من قال [وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغى العيش
أكدح] أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى أبتغى فيها أو ومن آياته شىء أو سحاب يريكم البرق (خوفا)
من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فإن
إراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم إياه أو للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو إراءة خوف وطمع أو على
تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها
(وينزل من السماء ماء) وقرىء بالتخفيف (فيحيي به الأرض) بالنبات (بعد موتها) بيبسها (إن فى ذلك
لآيات لقوم يعقلون) فإنها من الظهور بحيث يكفى فى إدراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط
٢٥ أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى بإرادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها
بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والأسباب وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله
بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والأرض ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإن ذلك من تمام
إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٠ الروم

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ٣٠ الروم

بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضاً فقيل (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى ومن الأرض متعلق بدعاكم إذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها
٢٦ (وله) خاصة (من فى السموات والأرض) من الملائكة والثقلين خلقاً وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) أى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه فى شأن من شئونه
٢٧ تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) أى بإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه إلى الإعادة لما أنها مؤولة بأن يعيد وقيل هو راجع إلى الخلق وليس بذاك وأما ما قيل من أن الإنشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والإعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان أقرب إلى الحصول من الإنشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل إذ ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعليق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الأعلى) أى الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالواحدانية (فى السموات والأرض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالأعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الأعلى (وهو العزيز) القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٠ الروم

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٠ الروم

٢٨ (الحكيم) الذى يجرى الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك
(من أنفسكم) أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على
ماذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم
* (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والإماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الأموال وما يجرى مجراها مما
تتصرفون فيها فمن الأولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام
* فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما
ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب
أى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو
معار لكم فأنتم وهم فيه سواء يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر
* آخر لأنتم أو حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم
أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون مافصل
من الجملة الاستفهامية أى لاترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم أمثالكم فى البشرية
غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية
* مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح
(نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فإن التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة
* المحسوس وإبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون فى غاية الإيضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى
يستعملون عقولهم فى تدبر الأمور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها
٢٩ (بل اتبع الذين ظلموا) إعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات
واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة
* بل اتبعوا (أهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع
ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى
جاهلين بيطلان ماأتوا مكبين عليه لايلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه
(فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره إلى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد
(وما لهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم
من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ماهو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٠ الروم

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ٣٠ الروم

مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ٣٠ الروم

٣٠ (فأقم وجهك للدين) تمثيل لإقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب أسبابه فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه أى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يميناً وشمالا وقوله تعالى (حنيفاً) حال من المأمور أو من الدين (فطرة الله) الفطرة الخلقة وانتصابها على الإغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فإن الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والأفراد فى أقم لما أن الرسول ﷺ إمام الأمة فأمره ﷺ مستتبع لأمرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر فإن خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه أو عن ملة الإسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعاً فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها وما اختاروا عليها ديناً آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى وقوله ﷺ كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل الأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلابد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلابد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة إن فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم)

٣١ المستوى الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدوداً (منيبين إليه) حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله أو فى أقم لعمومه للأمة حسبما أشير إليه وما بينهما اعتراض أى راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى

٣٢ تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين بإعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٠ الروم

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ٣٠ الروم

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٠ الروم

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٠ الروم

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٠ الروم

اختلاف أهوائهم وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل
على الضلال المبين وقرىء فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به (وكانوا شيعاً) أى فرقا تشايع كل *
منها إمامها الذى أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل
(فرحون) مسرورون ظناً منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من تفريق *
دينهم وكونهم شيعاً وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من
٣٣ الذين فرقوا ولا يخفى بعده (وإذا مس الناس ضر) أى شدة (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه من
دعاء غيره (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) خلاصاً من تلك الشدة (إذا فريق منهم بربهم) الذى كانوا دعوه
منيبين إليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الإشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا *
كذلك كما فى قوله تعالى فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر
٣٤ لانزجاره فى الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا)
غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرىء وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرىء بالياء على أن تمتعوا ماض
٣٥ والالتفات إلى الغيبة فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للإيذان بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق
المباثة (سلطاناً) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا
كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالأمر الذى بسببه
٣٦ يشركون (وإذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطراً وأشراً لا حمداً وشكراً (وإن
تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (إذا هم يقنطون) فاجئوا القنوط من رحمته
٣٧ تعالى وقرىء بكسر النون (أو لم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)
فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٠ الروم

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٠ الروم

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٠ الروم

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ٣٠ الروم

---

٣٨ بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبي ﷺ أو لمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ذاته أو جهته ويقصدون بمعروفهم إياه تعالى خالصاً أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى (وأولئك

٣٩ هم المفلحون) حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من رباً) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرىء أتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) ليزيد ويزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرىء لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا

• (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصاً (فأولئك هم المضعفون) أى ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم

٤٠ وأموالهم بالبركة وقرىء بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصها ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار

• على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء

٤١ والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرىء تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة

• المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرىء البحور (بما كسبت أيدى الناس) بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى

قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ٣٠ الروم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٠ الروم

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ٣٠ الروم

لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ٣٠ الروم

كان يأخذ كل سفينة غصباً (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه فإن إتمامه فى الآخرة واللام
٤٢ للعلة أو العاقبة وقرىء لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا فى الأرض فانظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبل) ليشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن
ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم (فأقم
٤٣ وجهك للدين القيم) أى البليغ الاستقامة (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من
الله) متعلق بيأتى أو بمرد لأنه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون)
٤٤ أصله يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهو النار
المؤبدة (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) أى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين
٤٥ للدلالة على الاختصاص (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل
بيمهدون أى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء
المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الإثابة بطريق التفضل
لا الوجوب وأشير إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (إنه لا يحب الكافرين) فإن عدم محبته تعالى كناية •
٤٦ عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أى الشمال والصبا
والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله ﷺ اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها
ريحاً وقرىء الريح على إرادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهى المنافع التابعة لها •
وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة
معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الإرسال
تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم (ولتجرى الفلك) بسوقها •
(بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٣٠ الروم

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ٣٠ الروم

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ٣٠ الروم

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ٣٠ الروم

---

٤٧ الغايات الجليلة (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم) كما أرسلناك إلى قومك (فجاءوهم بالبينات) أى
جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى (فانتقمنا من الذين
أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان
المحذوف والإشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف
وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام من الكفرة
لأجله وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين
ماسبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بواجب الشكر
المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بإرسالها كيلا يحل بهم مثل ماحل
٤٨ بأولئك الأمم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال
الرياح (فتثير سحاباً فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائراً وواقفاً مطبقاً وغير
مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك (ويجعله كسفاً) تارة أخرى أى قطعاً وقرىء بسكون السين
على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فإذا
أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم (إذا هم يستبشرون) فاجئوا الاستبشار بمجيء الخصب
٤٩ (وإن كانوا) إن مخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى وإن الشأن كانوا (من قبل أن
ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه
وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب
من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى
الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار
٥٠ بشهادة إذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) المترتبة
على تنزيل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء أثر

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ٣٠ الروم

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ٣٠ الروم

وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٣٠ الروم

بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيي) أى الله تعالى (الأرض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأياً ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع مافيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرىء تحيي بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة (إن ذلك) العظيم الشأن الذى ذكر بعض شئونه (لمحيي الموتى) لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شىء قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الأشياء التى من جملتها إحياؤهم لما أن نسبة قدرته إلى

٥١ الكل سواء (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه) أى الأثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بالآثار فإنه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفراً) بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم ساد مسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زروعهم بالصفار فرأوه مصفراً ليظلن (من بعده يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تثبيتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الإفراط والتفريط مالا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى فى كل حال ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا

٥٢ اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الأمر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يرديهم (فإنك لاتسمع الموتى) لما أنهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء نبو أسماعهم عن الحق وإعراضهم عن الإصغاء إليه ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فإن الأصم المقبل إلى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشىء من كلامه وإن لم يسمعه أصلا وأما إذا

٥٣ كان معرضاً عنه فلا يكاد يفهم منه شيئاً وقرىء بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) سموا عمياً إما لفقدهم المقصود الحقيقى من الإبصار أو لعمى قلوبهم وقرىء تهدى العمى (إن تسمع) أى ما تسمع (إلا من يؤمن بآياتنا) فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو إلا من يشارف الإيمان بها ويقبل عليها إقبالا لائقاً (فهم مسلمون) منقادون لما تأمرهم به من الحق

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٠ الروم

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ٣٠ الروم

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ٣٠ الروم

٥٤ (الله الذي خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً أي خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) إذا أخذ منكم السن وقرىء بضم الضاد في الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما قرأتها على رسول الله ﷺ فأقرأني من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لأن المتقدم غير المتأخر (يخلق ما يشاء) من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم القدير) المبالغ في العلم والقدرة فإن الترديد فيما
٥٥ ذكر من الأطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون ما لبثوا) أي في القبور أو في الدنيا والأول هو الأظهر لأن لبثهم مغيا بيوم البعث كما سيأتي وليس لبثهم في الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفي الحديث ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام وقيل لا يعلم أهي أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً (كذلك كانوا يؤفكون)
٥٦ مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) في الدنيا من الملائكة والإنس (لقد لبثتم في كتاب الله) في علمه أو قضائه أو ما كتبه وعينه أو في اللوح أو القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (إلى يوم البعث) ردوا بذلك ما قالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زماناً مديداً وإن لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها وبكتوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذي كنتم توعدون في الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما في قول من قال [قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا]
٥٧ (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أي عذرهم وقرىء تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وإن توسط

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ٣٠ الروم

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ٣٠ الروم

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ٣٠ الروم

بينهما فاصل (ولا هم يستعتبون) لايدعون إلى مايقتضى إعتابهم أى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما
دعوا إليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا ٥٨
القرآن من كل مثل) أى وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنالهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم
كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد
اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم
وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى ﷺ والمؤمنين (إن أنتم إلا مبطلون) أى مزورون (كذلك) ٥٩
مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) لايطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل
يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب
تكذيب المحق (فاصبر) على ماتشاهد منهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة (إن وعد الله حق) ٦٠
وقد وعدك بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد من إنجازه والوفاء به لامحالة (ولا يستخفنك)
لايحملنك على الخفة والقلق (الذين لايوقنون) بماتتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم
لك بأباطيلهم التى من جملتها قولهم إن أنتم إلا مبطلون فإنهم شاكون ضالون ولا يستبعد منهم أمثال
ذلك وقرىء بالنون المخففة وقرىء ولا يستحقنك من الاستحقاق أى لا يفتننك فيملكوك ويكونوا
أحق بك من المؤمنين وأياً ماكان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهياً للكفرة عن استخفافه ﷺ
واستحقاقه لكنه فى الحقيقة نهى له ﷺ عن التأثر من استخفافهم والافتنان بفتنتهم على طريق الكناية
كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الروم
كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والأرض وأدرك ماضيع
فى يومه وليلته .

﴿ سورة الروم ٣٠ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم بل قال ابن عطية . وغيره : لا خلاف
فى مكيتها ولم يستثنوا منها شيئا ، وقال الحسن : هى مكية الا قوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون) الآية
وهو خلاف مذهب الجمهور والتفسير المرضى كما سيأتى ان شاء الله تعالى بيانه ، وآيها ستون وعند بعض تسع
وخمسون ، ووجه اتصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطى انها ختمت بقوله تعالى : (والذين

www.Quranpdf.blogspot.in

جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر وفرح المؤمنين بذلك وان الدولة لأهل الجهاد فيه ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة ، هذا مع تواخيها لما قبلها فى الافتتاح ـ بالم ـ ولا يخفى أن قتال أهل الكتاب ليس من المجاهدة فى الله عزوجل وبذلك تضعف المناسبة، ومن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أن ماافتتحت به هذه السورة متضمنا نصرة المؤمنين بدفع شماتة أعدائهم المشركين وهم لم يزالوا مجاهدين فى الله تعالى ولأجله ولوجهه عز وجل ولا يضر عدم جهادهم بالسيف عند النزول ، وهذا فى المناسبة أوجه فيما أرى من الوجه الذى ذكره الجلال فتأمل ٭

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الم ١ ﴾ الكلام فيه كالذى مر فى أمثاله من الفواتح الكريمة ﴿ غُلِبَت الرُّومُ ٢ ﴾ هى قبيلة عظيمة من ولد رومى بن يونان بن علجان بن يافث نوح عليه الصلام وقيل: من ولد يافان بن يافث، وقيل: من ولد رعويل بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، وقال الجوهرى: من ولد روم بن عيص المذكور صارت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فغلبتها وقهرتها فارس ﴿ فى أَدْنَى الْأَرْض ﴾ أى أقربها ٭

والمراد بالأرض أرض الروم على أن (أل) نائبة مناب الضمير المضاف اليه والاقربية بالنظر الى أهل مكة لأن الكلام معهم أو المراد بها أرض مكة ونواحيها لأنها الأرض المعهودة عندهم والاقربية بالنظر الى الروم أو المراد بالارض أرض الروم لذكرهم والاقربية بالنظر الى عدوهم أعنى فارس لحديث المغلوبية ، وقد جاء من طرق عديدة ان الحرب وقع بين اذرعات وبصرى ، وقال ابن عباس . والسدى : بالاردن وفلسطين ، وقال مجاهد : بالجزيرة يعنى الجزيرة العمرية لا جزيرة العرب ، وجعل كل قول موافقا لوجه من الأوجه الثلاثة على الترتيب ، وصحح ابن حجر القول الأول ٭

وقرأ الكلبى (فى أدانى الأرض) ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الروم ﴿ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أى غلب فارس اياهم على انه مصدر مضاف الى مفعوله أو الى نائب فاعله ان كان مصدرا لمجهول ورجحه بعضهم بموافقته للنظم الجليل ٭

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وابن عمر رضى الله تعالى عنهما . ومعاوية بن قرة (غلبهم) بسكون اللام ، وعن أبى عمرو أنه قرأ (غلابهم) على وزن كتاب والكل مصادر غلب ، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿ سَيَغْلِبُونَ ٣ ﴾ وفى ذلك تأكيد لما يفهم من السين ولكون مغلوبهم من كان غالبهم ، وفى بناء الجملة على الضمير تقوية للحكم أى سيغلبون فارس البتة ، وقوله تعالى : ﴿ فى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ متعلق بسيغلبون أيضا ٭

والبضع مابين الثلاث الى العشرة عن الاصمعى ، وفى المجمل ما بين الواحد : الى التسعة ، وقيل : هوما فوق الخمس ودون العشر ، وقال المبرد : ما بين العقدين فى جميع الاعداد . روى ان فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوا عليهم فبلغ ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يكره ان يظهر الاميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب وانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى (الم غلبت الروم) الآيات فخرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه الى الكفار فقال : أفرحتم بظهور اخوانكم

www.Quranpdf.blogspot.in

على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله تعالى عينكم فوالله تعالى ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فقام اليه أبي بن خلف فقال: كذبت فقال له: أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أنت أكذب ياعدو الله تعالى تعال أناحبك (١) عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت الى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء أبو بكر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام: ما هكذا ذكرت انما البضع مابين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال: لعلك ندمت؟ قال. لا تعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين قال: قد فعلت فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبى كفيلا بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبد الرحمن فلما اراد أبى الخروج الى أحد طلبه عبدالرحمن بالكفيل فاعطاه كفيلا ومات أبى من جرح جرحه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة *

وجاء فى بعض الروايات أنهم ظهروا عليهم يوم الحديبية، وأخرج الترمذى وحسنه أنه لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأخذ أبو بكر رضى الله تعالى عنه الخطر من ورثة أبى وجاء به إلى النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: تصدق به، وفى رواية أبى يعلى. وابن أبى حاتم. وابن مردويه. وابن عساكر عن البراء بن عازب أنه عليه الصلاة والسلام قال: هذا السحت تصدق به *

واستشكل بأنه ان كان ذلك قبل تحريم القمار كما أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم. والبيهقى عن قتادة. والترمذى وصححه عن نيار بن مكرم السلمى وهو الظاهر لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر من آخر القرآن نزولا فماوجه كونه سحتا؟ وإن كان بعد التحريم فكيف يؤمر بالتصدق بالحرام الغير المختلط بغيره وصاحبه معلوم وفى مثل ذلك يجب رد المال عليه، فان قيل: إنه مال حربى والحادثة وقعت بمكة وهى قبل الفتح دار حرب والعقود الفاسدة تجوز فيها عندأبى حنيفة ومحمد عليهما الرحمة لم يظهر كونه سحتا، وكأنى بك تمنع صحة هذه الرواية وإذا لم تثبت صحتها يبقى الامر بالتصدق، وحينئذ يجوز أن يكون لمصلحة رآها رسول الله ﷺ وهو تصدق بحلال؛ أما إذا كان ذلك قبل تحريم القمار كما هو المعول عليه فظاهر، وأما إن كان بعد التحريم فلأن أباحنيفة. ومحمدا قالا بجواز العقود الفاسدة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار واحتجا على صحة ذلك بما وقع من أبى بكر فى هذه القصة، وقد تظافرت الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينكر عليه المناحبة وإنما أنكر عليه التأجيل بثلاث سنين وأرشده إلى أن يزايدهم، وربما يقال على تقدير الصحة: إن السحت ليس بمعنى الحرام بل بمعنى مايكون سببا للعار والنقص فى المروءة حتى كأنه يسحتها أى يستأصلها كما فى قوله ﷺ: «كسب الحجام سحت» فقد قال الراغب: إن هذا لكونه ساحتا للمروءة لاللدين فكأنه ﷺ رأى أن تمول ذلك وإن كان حلالا مخل بمروءة أبى بكر رضى الله تعالى عنه فأطلق عليه السحت، ولا يأبى ذلك اذنه عليه الصلاة والسلام فى المناحبة لما أنها لاتضر بالمروءة أصلا وفيها من اظهار اليقين بصدق ماجاء به النبي ﷺ مافيها وكان عليه الصلاة والسلام على ثقة من صلاح الصديق رضى الله تعالى عنه وأنه إذا أمره بالتصدق بما يأخذه ونهاه عن تموله لم يخالفه، وقيل: السحت هنا بمعنى مالاشىء على من استهلكه وهو أحد اطلاقاته كما فى النهاية، والمراد هذا الذى لاشىء عليك إذا استهلكته وتصرفت فيه حسبما تشاء تصدق به كأنه عليه الصلاة والسلام

(١) قوله أناحبك أى أراهنك اهـ منه

www.Quranpdf.blogspot.in

بعد أن أخبر الصديق رضى الله تعالى عنه بأنه لا مانع له من التصرف فيه حسبما يريد أرشده إلى ماهو الأولى والاحرى فقال : تصدق به ، وهو كما ترى ، وقيل : إن السحت كما فى النهاية يرد فى الكلام بمعنى الحرام مرة وبمعنى المكروه أخرى ويستدل على ذلك بالقرائن فيجوز ان يكون فى الخبر إذا صح فيه بمعنى المكروه إذ الامر بالتصدق يمنع أن يكون بمعنى الحرام فيتعين كونه بمعنى المكروه ، وفيه نظر ، وأما تفسير السحت بالحرام والتزام القول بجواز التصدق بالحرام لهذا الخبر فما لا يلتفت اليه أصلا فتأمل . وكانت كلتا الغلبتين فى سلطنة خسرو برويز ، قال فى روضة الصفا ما ترجمته : إنه لما مضى من سلطنة خسرو أربعة عشر سنة غدر الروميون بملكهم وقتلوه مع ابنه بناطوس وهرب ابنه الآخر إلى خسرو فجهز معه ثلاثة رؤساء أولى قدر رفيع مع عسكر عظيم فدخلوا بلاد الشام وفلسطين وبيت المقدس وأسروا من فيها من الاساقفة وغيرهم وأرسلوا إلى خسرو الصليب الذى كان مدفونا عندهم فى تابوت من ذهب وكذلك استولوا على الاسكندرية وبلاد النوبة إلى أن وصلوا إلى نواحى القسطنطينية وأكثروا الخراب وجهدوا على اطاعة الروميين لابن قيصر فلم تحصل ، قيل : إن الروميين جعلوا عليهم حاكما شخصا اسمه هرقل وكان سلطانا عادلا يخاف الله تعالى فلما رأى تخريب فارس قد شاع فى بلاد الروم من النهب والقتل تضرع وبكى وسأل الله تعالى تخليص الروميين فصادف دعاؤه هدف الاجابة فرأى فى ليالى متعددة فى منامه أنه قد جىء اليه بخسرو فى عنقه سلسلة ، وقيل له : عجل بمحاربة برويز لأنه يكون لك الظفر والنصرة فجمع هرقل عسكره بسبب تلك الرؤيا وتوجه من قسطنطينية إلى نصيبين فسمع خسرو فجهز اثنى عشر ألفا مع أمير من أمرائه فقابلهم هرقل فكسرهم وقتل منهم تسعة آلاف مع رؤسائهم *

وفى بعض الروايات أنهم ربطوا خيولهم بالمدائن ، ورأيت فى بعض الكتب أن سبب ظهور الروم على فارس أن كسرى بعث الى أميره شهريار وهو الذى ولاه على محاربة الروم ان اقتل أخاك فرخان لمقالة قالها وهو قوله : لقد رأيتنى جالسا على سرير كسرى فلم يقتله فبعث إلى فارس إنى قد عزلت شهريار ووليت أخاه فرخان فاطلع فرخان على حقيقة الحال فرد الملك إلى أخيه وكتب شهريار إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى فغلبت الروم فارس وجاء الخبر ففرح المسلمون وكان ذلك من الآيات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل لما فى ذلك من الاخبار عن الغيب الذى لا يعلمه الا الله تعالى العليم الخبير ، وقد صح أنه أسلم عند ذلك ناس كثير . وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن عمر . وأبو سعيد الخدرى . والحسن . ومعاوية بن قرة (غلبت الروم) على البناء للفاعل و(سيغلبون) على البناء للمفعول ، والمعنى على ما قيل : إن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعض بلادهم ، واضافة (غلب) عليه من اضافة المصدر إلى الفاعل ، ووفق بين القراءتين بأن الآية نزلت مرتين مرة بمكة على قراءة الجمهور ومرة يوم بدر كما رواه الترمذى وحسنه عن أبى سعيد على هذه القراءة *

وقال بعض الاجلة : الصواب أن يبقى نزولها على ظاهره ويراد بغلب المسلمين اياهم ما كان فى غزوة موتة وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان وذلك قريب من التاريخ الذى ذكروه لنزول الآية أولا ولا حاجة إلى تعدد النزول فانه يجوز تخالف معنى القراءتين إذا لم يتناقضا ، وكون فريق غالبا ومغلوبا فى زمانين غير متدافع فتأمل انتهى *

ولا يخفى على من سبر السير أن هذا مما لا يكاد يتسنى لأن الروم لم يغلبهم المسلمون فى تلك الغزوة بل انصرفوا عنهم بعد أن أصيبوا بجعفر بن أبى طالب . وزيد بن حارثة . وعبد الله بن رواحة . وعباد بن قيس

www.Quranpdf.blogspot.in

فى آخرين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين كالمغلوبين ، بل ذكر ابن هشام انهم لما أتوا المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يافرار فررتم فى سبيل الله تعالى وكان رسول الله ﷺ يقول : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى . وروى أن أم سلمة قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومع المسلمين ؟ فقالت : والله مايستطيع ان يخرج كلما خرج صاح به الناس يافرار فررتم فى سبيل الله حتى قعد فى بيته ولم يخرج ، وذكر ابياتا لقيس اليعمرى يعتذر فيها بما صنع يومئذ وصنع الناس وقد تضمنت كما قال بيان أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وأن خالد بن الوليد انحاز بمن معه ، على أن فيما ذكر أنه الصواب بحثا بعد : فلعل الاولى فى التوفيق إذا صحت هذه القراءة ما ذكر أولا فتأمل *

وفى البحر كان شيخنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكى عن أبى الحكم بن برجان انه استخرج من قوله تعالى: (الم غلبت الروم - الى - سنين) افتتاح المسلمين بيت المقدس معينا زمانه ويومه وكان اذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى وان ابن برجان مات قبل الوقت الذى عينه للفتح وانه بعد موته بزمان افتتحه المسلمون فى الوقت الذى عينه أبو الحكم وكان أبو جعفر يعتقد فى أبى الحكم هذا انه كان يتطلع على اشياء من المغيبات يستخرجها من كتاب الله تعالى انتهى ، واستخراج بعض العارفين كمحيي الدين قدس سره . والعراقى وغيرهم المغيبات من القرآن العظيم أمر شهير وهو مبنى على قواعد حسابية واعمال حرفية لم يردشئ منها عن سلف الأمة ولا حجر على فضل الله عز وجل وكتاب الله تعالى فوق ما يخطر للبشر ، وقد سئل على كرم الله تعالى وجهه هل أسر اليكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا كتمه عن غيركم فقال : لا الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه ، هذا ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا لفهم اسرار كتابه بحرمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه *

﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أى من قبل هذه الحالة ومن بعدها وهو حاصل ماقيل أى من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين ، وتقديم الخبر للتخصيص، والمعنى ان كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس الا بأمر الله تعالى شأنه وقضائه عز وجل (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وقرأ أبو السمال . والجحدرى عن العقيلى (من قبل ومن بعد) بالكسر والتنوين فيهما فليس هناك مضاف اليه مقدر اصلا على المشهور كأنه قيل : لله الأمر قبلا وبعدا أى فى زمان متقدم وفى زمان متأخر ، وحذف بعضهم الموصوف ، وذكر السكاكى ان المضاف اليه مقدر فى مثل ذلك أيضا والتنوين عوض عنه ، وجوز الفراء الكسر من غير تنوين ، وقال الزجاج : إنه خطأ لأنه اما ان لايقدر فيه الاضافة فينون أو يقدر فيبنى على الضم ، وأما تقدير لفظه قياسا على قوله : بين ذراعى وجبهة الأسد فقياس مع الفارق لذكره فيه بعد وما نحن فيه ليس كذلك ، وقال النحاس : للفراء فى كتابه فى القرآن اشياء كثيرة الغلط ، منها انه زعم انه يجوز (من قبل ومن بعد) بالكسر بلا تنوين وانما يجوز (من قبل ومن بعد) على انهما نكرتان أى من متقدم ومن متأخر ، وذهب الى قول الفراء ابن هشام فى بعض كتبه ، وحكى الكسائى عن بعض بنى أسد (لله الأمر من قبل ومن بعد) على ان الأول مخفوض منون والثانى مضموم بلا تنوين ه

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أى ويوم إذ يغلب الروم فارسا ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له

www.Quranpdf.blogspot.in

وغيظ من شمتهم من كفار مكة وكون ذلك مما يتفاءل به لغلبة المؤمنين على الكفار، وقيل: نصر الله تعالى صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، وقيل: نصره عز وجل أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا وقلل كل منهما شوكة الآخر، وعن أبي سعيد الخدري أنه وافق ذلك يوم بدر، وفيه من نصر الله تعالى العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى، والاول أنسب لقوله تعالى: ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى: (لله الامر من قبل ومن بعد) والظاهر ان (يوم) متعلق بيفرح وكذا (بنصر) وجوز تعلق (يوم) به، وكذا جوز تعلق (بنصر) بالمؤمنين، وقيل: (يومئذ) عطف على قبل أو بعد كأنه حصر الازمنة الثلاثة الماضى والمستقبل والحال ثم ابتدأ الاخبار بفرح المؤمنين ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من شاء أن ينصر عليه كائنا من كان ﴿ الرَّحِيمُ ٥ ﴾ المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى فريق كان، والمراد بالرحمة هنا هى الدنيوية، أما على القراءة المشهورة فظاهر لأن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية، وأما على القراءة الاخيرة فلأن المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية، وتقديم وصف (العزيز) لتقدمه فى الاعتبار ٥

﴿ وَعْدَ اللهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من قوله تعالى: (سيغلبون) وقوله سبحانه: «يفرح المؤمنون» ويقال له المؤكد لنفسه لأن ذلك فى معنى الوعد وعامله محذوف وجوبا كأنه قيل: وعد الله تعالى ذلك وعدا ﴿ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لما فى خلفه من النقص المستحيل عليه عز وجل، وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار للتعليل الحكمى وتفخيمه، والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر، وجوز أن يكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه سبحانه يقول: وعد الله تعالى وعدا غير مخلف ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ ﴾ انه تعالى لا يخلف وعده لجهلهم بشؤونه عز وجل وعدم تفكرهم فيما يجب له جل شانه وما يستحيل عليه سبحانه أو لا يعلمون ماسبق من شؤونه جل وعلا، وقيل: لا يعلمون شيئا أو ليسوا من اولى العلم حتى يعلموا ذلك ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهو مايحسون به من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها ٥

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعلمون منافعها ومضارها ومتى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يجمعون وكيف يبنون أى ونحو ذلك مما لا يكون لهم منه أثر فى الآخرة، وروى نحوه عن قتادة. وعكرمة ٥

وأخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فى الآية: بلغ من حذق أحدهم بامر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلى، وقال الكرمانى: كل مايعلم بأوائل الروية فهو الظاهر وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن وقيل: هو هنا التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، وتعقب بانهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المرتبة على علمهم، وعن ابن جبير ان الظاهر هو ماعلموه من قبل الكهنة مما تسترقه الشياطين، وليس بشىء كما لا يخفى، وأياما كان فالظاهر ان المراد بالظاهر مقابل الباطن، وتنوينه للتحقير والتخسيس أى يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً، وقيل: هو بمعنى الزائل الذاهب كما فى قول الهذلى:

www.Quranpdf.blogspot.in

وعيرها الواشون أنى أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أى يعلمون أمراً زائلا لابقاء له ولا عاقبة من الحياة الدنيا ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ ﴾ التى هى الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ٧ ﴾ لاتخطر ببالهم فكيف يتفكرون فيها وفيما يؤدى إلى معرفتها من الدنيا وأحوالها ، والجملة معطوفة على (يعلمون) وإيرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها ، و(هم) الثانية تكرير للاولى وتأكيد لفظى لها دافع للتجوز وعدم الشمول ، والفصل بمعمول الخبر وان كان خلاف الظاهر لكن حسنه وقوع الفصل فى التلفظ والاعتناء بالآخرة او هومبتدأو (غافلون) خبره والجملة خبر (هم) الأولى ، وجملة (يعلمون) الخ بدل من جملة (لايعلمون) على ماذهب اليه صاحب الكشاف فان الجاهل الذى لا يعلم ان الله تعالى لايخلف وعده أولايعلم شؤونه تعالى السابقة ولا يتفكر فى ذلك هو الذى قصر نظره على ظاهر الحياة الدنيا ، والمصحح للبدلية اتحاد ما صدقا عليه ، والنكتة المرجحة له جعل علمهم والجهل سواء بحسب الظاهر ، وجملة (وهم عن الآخرة) الخ مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة السابقة تقريراً لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور إدراكها على ظواهر الدنيا الخسيسة دون أحوالها التى هى من مبادىء العلم بأمور الآخرة . واختار العلامة الطيبى ان جملة (يعلمون) الخ استئنافية لبيان موجب جهلهم بان وعد الله تعالى حق وان لله سبحانه الامر من قبل ومن بعد وأنه جل شأنه ينصر المؤمنين على الكافرين ولعله الأظهر ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، وقوله سبحانه : ﴿ فِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ظرف للتفكر ، وذكره مع ان التفكر لايكون إلا فى النفس لتحقيق أمره وزيادة تصوير حال المتفكرين كما فى اعتقده فى قلبك وأبصره بعينك ، وقوله عز وجل : ﴿ مَاخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ متعلق إما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى : (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا) أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر على ذلك ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا انه تعالى ما خلق السموات والأرض ومابينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشىء من الأشياء إلا ملتبسة بالحق أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ماعلموه ، والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لامحالة لابتنائه على الحكم البالغة التى من جملتها استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها على وجود صانعها ووحدته وعلمه وقدرته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم عما يتبين المحسن من المسىء ويمتاز درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله : أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع فى طاعة الله عز وجل » وقوله سبحانه : ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لابد لها من أن

www.Quranpdf.blogspot.in

تنتهى اليه لامحالة وهو وقت قيام الساعة وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، هذا وجوز أن يكون قوله تعالى: «فى أنفسهم» متعلقاً بيتفكروا ومفعولا له بالواسطة على معنى أولم يتفكروا فى ذواتهم وأنفسهم التى هى أقرب المخلوقات اليهم وهم أعلم بشؤونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً أو باطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذى دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت. وتعقب بأن أمر معاد الانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الاثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ماعداه مع كونه بمعزل من الاجزاء تعكيس للامر فتدبر. وجوز أبو حيان أن يكون (ما خلق) الخ مفعول (يتفكروا) معلقا عنه بالنفى، وأنت تعلم ان التعليق فى مثله ممنوع أو قليل، وقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨ ﴾ تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة من أحوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون لقاء حسابه تعالى وجزائه عزوجل بالبعث، وهم القائلون بأبدية الدنيا كالفلاسفة على المشهور ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم، والهمزة للانكار التوبيخى أو الابطالى وحيث دخلت على النفى وانكار النفى اثبات قيل: إنها لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا فى الأرض، وقوله تعالى: ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ عطف على يسيروا داخل فى حكمه والمعنى انهم قد ساروا فى أقطار الأرض وشاهدوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المهلكة كعاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الخ بيان لمبدإ أحوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أى قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء، وقيل: لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك *

وقرأ أبو جعفر (وآثاروا) بمدة بعد الهمزة، وقال ابن مجاهد: ليس بشىء وخرج ذلك أبو الفتح على الاشباع كقوله ومن ذم الزمان بمنتزاح. وذكر أن هذا من ضرورة الشعر ولا يجئ فى القرآن، وقرأ أبو حيوة وأثروا من الأثرة وهو الاستبداد بالشىء وآثروا الأرض أى أبقوا فيها آثاراً ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ أى وعمرها أولئك الذين كانوا قبلهم بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها، وقيل: أى أقاموا بها، يقال عمرت بمكان كذا وعمرته أى أقمت به ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أى عمارة أكثر من عمارة هؤلاء اياها والظاهر أن الأكثرية باعتبار الكم وعممه بعضهم فقال: أكثر كما وكيفا وزمانا، واذا أريد العمارة بمعنى الاقامة فالمعنى اقاموا بها اقامة أكثر زمانا من اقامة هؤلاء بها، وفى ذكر أفعل تهكم بهم اذ لا مناسبة بين كفار مكة وأولئك الامم المهلكة فانهم كانوا معروفين بالنهاية فى القوة وكثرة العمارة وأهل مكة ضعفاء ملجؤن الى واد غير ذى زرع يخافون ان يتخطفهم الناس، ونحو هذا يقال اذا فسرت العمارة بالاقامة فان أولئك كانوا مشهورين بطول الاعمار جدا وأعمار أهل مكة قليلة بحيث لا مناسبة يعتد بها بينها وبين أعمال أولئك المهلكين *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿ فَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله تعالى شأنه ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم ، وفى التعبير عن ذلك بالظلم اظهار لكمال نزاهته تعالى عنه والا فقد قال أهل السنة: إن اهلاكه تعالى من غير جرم ليس من الظلم فى شىء لأنه عزوجل مالك والمالك يفعل بملكه ما يشاء والنزاع فى المسئلة شهير ﴿ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ﴾ حيث ارتكبوا باختيارهم من المعاصى ما أوجب بمقتضى الحكمة ذلك ، وتقديم (أنفسهم) على (يظلمون) للفاصلة ؛ وجوز أن يكون للحصر بالنسبة إلى الرسل الذين يدعونهم ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا ﴾ أى عملوا السيئات ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم ، و (ثم) للتراخى الحقيقى أو للاستبعاد والتفاوت فى الرتبة ﴿ السُّوأَى ﴾ أى العقوبة السوأى وهى العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوأ كالحسنى تأنيث الاحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوء ، وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها (عاقبة) •

وقرأ الحرميان . وأبو عمرو (عاقبة) بالرفع على أنه اسم كان و (السوأى) بالنصب على الخبرية ، وقرأ الاعمش . والحسن (السوى) بابدال الهمزة واوا وادغام الواو فيها ، وقرأ ابن مسعود (السوء) بالتذكير ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ ﴾ علة للحكم المذكور أى لأن أو بأن كذبوا وهو فى الحقيقة مبين لما أشعر به وضع الموصول موضع الضمير لأنه مجمل وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ ١٠ ﴾ عطف على (كذبوا) داخل معه فى حكم العلية وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده ، وجوز أن يكون (السوأى) مفعولا مطلقا لأساؤا من غير لفظه أو مفعولا به له لأن أساؤا بمعنى اقترفوا واكتسبوا ، والسوأى بمعنى الخطيئة لأنه صفة أو مصدر مؤول بها وكونه صفة مصدر أساؤا من لفظه أى الاساءة السوأى بعيد لفظا مستدرك معنى ، و (ان كذبوا) اسم كان ، وكون التكذيب عاقبتهم مع انهم لم يخلوا عنه اما باعتبار استمراره أو باعتبار أنه عبارة عن الطبع ، وجوز أيضا أن يكون أن كذبوا بدلا من (السوأى) الواقع اسما لكان أو عطف بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى ان كذبوا ، وان تكون (أن) تفسيرية بمعنى أى والمفسر اما أساؤا أو (السوأى) فان الاساءة تكون قولية كما تكون فعلية فاذن ما قبلها مضمن معنى القول دون حروفه ويظهر ذلك التضمن بالتفسير ، وإذا جاز (وانطلق الملأ منهم ان أمشوا) فهذا أجوز فليس هذا الوجه متكلفا خلافا لأبى حيان . وجوز فى قراءة الحرميين . وأبى عمرو أن تكون (السوأى) صلة الفعل (وأن كذبوا) تابعا له أو خبر مبتدأ محذوف أو على تقدير حرف التعليل وخبر كان محذوفا تقديره وخيمة ونحوه . وتعقب ذلك فى البحر فقال: هو فهم أعجمى لأن الكلام مستقل فى غاية الحسن بلا حذف وقد تكلف له محذوف لا يدل عليه دليل ، وأصحابنا لا يجيزون حذف خبر كان ﴿ اللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ﴾ أى ينشئهم •

وقرأ عبدالله وطلحة (يبدئ) بضم الياء وكسر الدال ، وقد تقدم الكلام فى ذلك فتذكر فما بالعهد من قدم • ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بالبعث ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ ﴾ للجزاء ، وتقديم المعمول للتخصيص ، وكان الظاهر يرجعون بياء الغيبة إلا أنه عدل عنه إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد ومواجهتهم بالتهديد وإيهام ان ذلك مخصوص بهم فهو التفات للمبالغة فى الوعيد والترهيب وقرأ أبو عمرو . وروح (يرجعون) بياء الغيبة كما هو الظاهر

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ومرجعهم اليه عز وجل ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٢ ﴾ أي يسكتون وتنقطع حجتهم، قال الراغب: الابلاس الحزن المعترض من شدة اليأس ومنه اشتق إبليس فيما قيل، ولما كان المبلس كثيراً مايلزم السكوت وينسى ما يعينه قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته وأبلست الناقة فهي مبلاس إذا لم ترغ من شدة الضبعة (١) وقال ابن ثابت: يقال أبلس الرجل إذا يئس من كل خير، وفي الحديث «وأنا مبشرهم إذا أبلسوا» والمراد بالمجرمين على ماأفاده الطيبي أولئك الذين أساءوا السوأى لكنه وضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع والاشعار بعلة الحكم ❊

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه. والسلمي (يبلس) بفتح اللام وخرج على أن الفعل من أبلسه إذا أسكته، وظاهره أنه يكون متعديا وقد أنكره أبو البقاء. والسمين. وغيرهما حتى تكلفوا وقالوا: أصله يبلس إبلاس المجرمين على إقامة المصدر مقام الفاعل ثم حذفه وإقامة المضاف اليه مقامه. وتعقبه الخفاجي عليه الرحمة فقال: لا يخفى عدم صحته لأن ابلاس المجرمين مصدر مضاف لفاعله وفاعله هو فاعل الفعل بعينه فكيف يكون نائب الفاعل فتأمله وأنت تعلم أنه متى صحت القراءة لا تسمع دعوى عدم سماع استعمال أبلس متعديا ❊

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ ﴾ ممن أشركوهم بالله سبحانه في العبادة ولذا أضيفوا اليهم، وقيل: إن الاضافة لاشراكهم اياهم بالله تعالى في أموالهم والمراد بهم الاوثان، وقال مقاتل: الملائكة عليهم السلام، وقيل: الشياطين، وقيل: رؤساؤهم ﴿ شُفَعَاءُ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمون، وجيء بالمضارع منفيا بلم التي تقلبه ماضيا للتحقق، وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع أي لم يكن لواحد منهم شفيع أصلا ❊

وقرأ خارجة عن نافع، وابن سنان عن أبي جعفر، والانطاكي عن شيبة (ولم تكن) بالتاء الفوقية ❊

﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ أي بإلهيتهم وشركتهم كما يشير اليه العدول عن وكانوا بهم ﴿ كَافِرِينَ ١٣ ﴾ حيث يئسوا منهم ووقفوا على كنه أمرهم، (وكانوا) للدلالة على الاستمرار لا للمحافظة على رؤس الفواصل كما توهم ❊

وقيل: إنها للمضي كما هو الظاهر، والباء في (بشركائهم) سببية أي وكانوا في الدنيا كافرين بالله تعالى بسببهم ولم يرتضه بعض الأجلة إذ ليس في الاخبار بذلك فائدة يعتد بها، ولأن المتبادر أن (يوم تقوم الساعة) ظرف للابلاس وماعطف عليه ولذا قيل: إن المناسب عليه جعل الواو حالية ليكون المعنى أنهم لم يشفعوا لهم مع أنهم سبب كفرهم في الدنيا وهو أحسن من جعله معطوفا على مجموع الجملة مع الظرف، مع أنه عليه ينبغي القطع للاحتياط إلا أن يقال: انه ترك تعويلا على القرينة العقلية، وهو خلاف الظاهر، وكتب (شفعواء) في المصحف بواو بعدها ألف وهو خلاف القياس والقياس ترك الواو أو تأخيرها عن الألف لكن الأول أحسن كما ذكر في الرسم، وكذا خولف القياس في كتابة «السوأى» حيث كتبت بالألف قبل الياء والقياس كما في الكشف الحذف لأن الهمز يكتب على نحو مايسهل ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أعيد لتهويله وتفظيع مايقع فيه وهو ظرف للفعل بعده، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ على ماذكره الطبرسي بدل منه ❊

---

(١) قوله «الضبعة» هي شدة شهوة الناقة الفحل اه منه ❊

www.Quranpdf.blogspot.in

وفى البحر التنوين فى « يومئذ » تنوين عوض من الجملة المحذوفة أى ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس المجرمون ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ ﴾ وظاهره أن «يومئذ» ظرف لتقوم ، ولايخفى مافى جعل الجملة المعوض عنها التنوين حينئذ ما ذكره من النظر *

وفى إرشاد العقل السليم أن قوله تعالى : (يومئذ يتفرقون) تهويل ليوم قيام الساعة اثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع فى بعض منه ، وفى وجه الرمز إلى ذلك بما ذكر خفاء ، وضمير (يتفرقون) للمسلمين والكافرين الدال عليهما ماقبل من عموم الخلق ومابعد من التفصيل ، وذهب إلى ذلك الزمخشرى . وجماعة *

وقال فى الارشاد : هو لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من مبدئهم ومرجعهم وإعادتهم لا المجرمون خاصة ، وقال أبو حيان : يظهر أنه عائد على الخلق قبله وهو المذكور فى قوله تعالى : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » والمراد بتفرقهم اختلافهم فى المحال والأحوال كما يؤذن به التفصيل ، وليس ذلك باعتبار كل فرد بل باعتبار كل فريق ، فقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فى ذلك هؤلاء فى عليين وهؤلاء فى أسفل سافلين ، والتفصيل يؤذن بذلك أيضا ، وهذا التفرق بعد تمام الحساب *

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥ ﴾ الروضة الأرض ذات النبات والماء ، وفى المثل أحسن من بيضة فى روضة يريدون بيضة النعامة ، وباعتبار الماء قيل: أراض الوادى واستراض أى كثر ماؤه واراضهم أرواهم بعض الرى من أراض الحوض إذا صب فيه من الماء مايوارى أرضه، ويقال: شربوا حتى أراضوا أى شربوا عللا بعد نهل . وقيل : معنى أراضوا صبوا اللبن على اللبن ، وظاهر تفسير الكثير للروضة اعتبار النبات والماء فيها، وأظن أن ابن قتيبة صرح بأنه لايقال لأرض ذات نبات بلا ماء روضة *

وقيل : هى البستان الحسن ، وقيل : موضع الخضرة ، وقال الخفاجى : الروضة البستان وتخصيصها بذات الأنهار بناء على العرف ، وأياما كان فتنوينها هنا للتفخيم والمراد بها الجنة ، والحبر السرور يقال : حبره يحبره بالضم حبرا وحبرة وحبورا إذا سره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ، وفى المثل امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة ، وحكى الكسائى حبرته أكرمته ونعمته ، وقيل : الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين ، ويقال : فلان حسن الحبر والسبر بالفتح إذا كان جميلا حسن الهيئة ، واختلفت الأقوال فى تفسيره هنا فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وابن أبى حاتم عن الضحاك أنهما قالا: يحبرون يكرمون *

وأخرج جماعة عن مجاهد يحبرون ينعمون ، وقال أبو بكر ابن عياش :يتوجون على رؤسهم *

وقال ابن كيسان : يحلون ، وقال الأوزاعى . ووكيع . ويحيى بن أبى كثير : يسمعون الأغانى ، وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال : قيل يارسول الله ماالحبر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : اللذة والسماع *

وذكر بعضهم أن الظاهر يسرون ولم يذكر ما يسرون به إيذانا بكثرة المسار وما جاء فى الخبر فمن باب الاقتصار على البعض ، ولعل السائل كان يحب السماع فذكره صلى الله تعالى عليه وسلم له لذلك ، والتعبير بالمضارع للايذان بتجدد السرور لهم ففى كل ساعة يأتيهم مايسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة *

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ التى من جملتها الآيات الناطقة بما فصل ﴿ وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أى وكذبوا بالبعث ، وصرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء به ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات، ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦ ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبدا، والظاهر أن الفسقة من أهل الايمان غير داخلين فى أحد الفريقين أما عدم دخولهم فى الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر وأما عدم دخولهم فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات فاما لأن ذلك لايقال فى العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للفسقات على ماقيل، واما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذى لم يعمل شيئا من الصالحات اصلافهم غير داخلين فى ذلك باعتبار جميع الافراد وحكمهم معلوم من آيات أخر فلا تغفل ◆

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨ ﴾

اثر ما بين حال فريقى المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذبين بالآيات ومالهما من الثواب والعقاب أرشد سبحانه إلى ماينجى من الثانى ويفضى إلى الأول من تنزيه الله عز وجل عن كل مالا يليق بشأنه جل شأنه ومن حمده تعالى والثناء عليه ووصفه بماهو أهله من الصفات الجميلة والشؤن الجليلة، وتقديم الأول على الثانى لما أن التخلية متقدمة على التحلية مع أنه أول مايدعى اليه الذين كفروا المذكورون قبل بلا فصل، والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها، وظاهر كلامهم أن (سبحان) هنامنصوب بفعل أمر محذوف فكأنه قيل: إذاعلمتم ذلك أو إذا صح واتضح حال الفريقين ومآلهما فسبحوا سبحان الله الخ أى نزهوه تعالى تنزيهه اللائق به عز وجل فى هذه الاوقات، قال فى الكشف: وفيه اشكال لأن سبحان الله لزم طريقة واحدة لا ينصبه فعل الامر لأنه انشاء من نوع آخر، والجواب أن ذلك توضيح للمعنى وأن وقوعه جواب الشرط على منوال ان فعلت كذا فنعم مافعلت فانه انشاء أيضا لكنه ناب مناب الخبر وأبلغ، كذلك هو لانشاء تنزيهه تعالى فى الاوقات هربا من وبيل عقابه وطلبا لجزيل ثوابه، والشرط والجواب مقول على ألسنة العباد انتهى، وفى حواشى شيخ زاده أن الامر بل الجملة الانشائية مطلقا لايصح تعليقها بالشرط لأن الانشاء ايقاع المعنى بلفظ يقارنه ولوجاز تعليقه للزم تأخره عن زمان التلفظ وأنه غير جائز وإنما المعلق بالشرط هو الاخبار عن انشاء التمنى والترجى وانشاء المدح والذم والاستفهام ونحوها فاذا قلت: إن فعلت كذا غفر الله تعالى لك أو فنعم مافعلت كان المعنى فقد فعلت ماتستحق بسببه أن يغفر الله تعالى لك أو أن تمدح بسببه إلا أن الجملة الانشائية أقيمت مقامه للمبالغة للدلالة على الاستحقاق فمعنى الآية إذا كان الامر كما تقرر فانتم تسبحون الله تعالى فى الاوقات المذكورة وهو فى معنى الامر بالتسبيح فيها انتهى ◆

ولعله أظهر مما فى الكشف بل لايظهر ما ذكر فيه من دعوى أن الشرط والجواب مقول على ألسنة العباد ◆

ويوهم كلام بعضهم أن الكلام بتقدير القول حيث قال: كأنه قيل إذا صح واتضح عاقبة المطيعين والعاصين فقولوا: نسبح سبحان الخ، والمعنى فسبحوه تسبيحا فى الاوقات، ولايخفى مافيه، وكأنى بك تمنع لزوم سبحان طريقة واحدة وهى التى ذكرت أولا، ويجوز نصب فعل الامر لها إذا اقتضاه المقام وأشعر به الكلام، ولكن كأنك تميل إلى اعتبار كون الجملة خبرية لفظا انشائية معنى بأن يراد بها الامر لتوافق جملة (له الحمد) فانها وإن كانت خبرية إلا أن الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والارض كما يشعر به اتباع ذلك

ذكر الوعد والوعيد وتفريعه عليه بالفاء فى معنى الامر به على ابلغ وجه على ماصرح به بعض الاجلة فكأنه حينئذ قد قيل : فسبحوا الله تعالى تسبيحه اللائق به سبحانه فى هذه الاوقات واحمدوه ، وظاهر كلام الا كثرين أن جملة (له الحمد) الخ معطوفة على الجملة التى قبلها وأن (عشياً) معطوف على (حين تمسون) بل هم صرحوا بهذا ، وعلى ماذكر يكون جملة (له الحمد) فاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وماأشبه الآية حينئذ بآية الوضوء على ماذهب اليه أهل السنة . وفى الكشاف أن (عشياً) متصل بقوله تعالى : (حين تمسون) وقوله تعالى: (وله الحمد) الخ اعتراض بينهما ، ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه *

وإلى كون الجملة معترضة ذهب أبو البقاء أيضا ، وجعل قوله تعالى : (فى السموات) حالا من الحمد ، وفى جواز مجىء الحال منه على احتمال كونه مبتدأ وهو الظاهر خلاف ، ولعل من لايجوز ذلك يجعل الجار متعلقا بالثبوت الذى تقتضيه النسبة ، والمراد بالتسبيح والحمد ظاهرهما على ما ذهب اليه جمع من الاجلة ، وقيل : المراد بالتسبيح الصلاة . وأخرج عبد الرزاق . والفريابى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والطبرانى . والحاكم وصححه عن أبى رزين قال : جاء نافع بن الازرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ فقال : نعم فقرأ (فسبحان الله حين تمسون) صلاة المغرب (وحين تصبحون) صلاة الصبح (وعشيا) صلاة العصر (وحين تظهرون) صلاة الظهر ، وقرأ (ومن بعد صلاة العشاء) وأخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر عنه قال : جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة (فسبحان الله حين تمسون) المغرب والعشاء (وحين تصبحون) الفجر (وعشيا) العصر (وحين تظهرون) الظهر ، وذهب الحسن إلى ذلك حتى أنه ذهب إلى أن الآية مدنية لما أنه يرى فرضية الخمس بالمدينة وأنه كان الواجب بمكة ركعتين فى أى وقت اتفقت الصلاة فيه ، والصحيح أنها فرضت بمكة ويدل عليه حديث المعراج دلالة بينة *

واختار الامام الرازى حمل التسبيح على التنزيه فقال : إنه أقوى والمصير اليه أولى لأنه يتضمن الصلاة وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالاركان معهما جميعا وهو العمل الصالح ، والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى ، وذلك لأن الانسان اذا اعتقد شيئا ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحوال افعاله واللسان ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الاركان وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان فهو تنزيه فى التحقيق ، فاذا قال سبحانه نزهونى وهذا نوع من أنواع التنزيه والامر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون هذا أمرا بالصلاة ، ثم ان قولنا يناسبه ماتقدم وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال عز وجل : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال سبحانه : إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان فالكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل إلى الحبور فى الرياض والحضور على الحياض اه ، وأنا بالامام أقتدى فى دعوى أولوية الحمل على الظاهر ، واختار أيضا أن قوله تعالى : (له الحمد) اعتراض مؤكد بين المعطوف والمعطوف عليه مطلقاً ومعناه على ما سمعت عن الكشاف أن على المميزين كلهم أن يحمدوه فان حمل التسبيح على الصلاة فهو كلام يؤكد الوجوب لأن الحمد يتجوز به عن الصلاة كالتسبيح ، ووجه التأكيد دلالته على

www.Quranpdf.blogspot.in

أنه أمر عم المكلفين من أهل السموات والارض ، وان حمل على الظاهر فوجهه أن ذلك جار مجرى الاستدراك للامر بالتسبيح، ولما كان من واد واحد كان كل منهما مؤكدا للآخر فدل على دوام وجوب الحمد فى الاوقات ووجوب التسبيح على أهل السموات والارض ، وأما الدلالة على الوجوب فمن اتباع (سبحان الله) الخ ذكر الوعد والوعيد بالفاء فانه يفهم تعين ذلك طريقا للخلاص عن الدركات والوصول الى الدرجات وما يتعين طريقا لذلك كان واجبا كذا فى الكشف .

وذكر الامام أن فى هذا الاعتراض لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه قال جل وعلا : بين لهم أن تسبيحهم الله تعالى لنفعهم لا لنفع يعود الى الله عز وجل فعليهم أن يحمدوا الله تعالى اذا سبحوه جل شأنه ، وهذا كما فى قوله تعالى: (يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) .

وجوز بعضهم كون (عشيا) معطوفا على قوله تعالى : (فى السموات) ورد بأنه لا يعطف ظرف الزمان على المكان ولا عكسه ، وقيل : يحتمل أن يكون معطوفا على مقدر أى وله الحمد فى السموات والأرض دائما وعشيا على أنه تخصيص بعد تعميم والجملة اعتراضية او حالية وهو كما ترى ، وتخصيص الاوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها ، وقدم الامساء على الاصباح لتقدم الليل والظلمة ، وقدم العشى على الاظهار لأنه بالنسبة الى الاظهار كالامساء بالنسبة الى الاصباح . وفى البحر قوبل بالعشى الامساء وبالاظهار الاصباح لأن كلا منهما يعقب بما قابله فالعشى يعقبه الامساء والاصباح يعقبه الاظهار ، وقال العلامة أبو السعود: إن تقديم (عشيا) على (حين تظهرون) لمراعاة الفواصل وليس بذاك وذكر الامام أنه قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخر فى قوله تعالى : (سبحوه بكرة وأصيلا) لأن أول الكلام ههنا ذكر الحشر والاعادة وكذا آخره والامساء آخر فذكر الآخر أولا لتـــذكر الآخرة ، وتغيير الأسلوب فى (عشيا) لما أنه لا يجىء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السر فى ذلك على ماقيل : انه ليس من الاوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت يتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا ، اما فى المساء والصباح فظاهر . وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مرت اليه الاشارة فى سورة النور ، هذا وفضل التسبيح والتحميد أظهر من أن يستدل عليه، وذكروا فى فضل ما تضمنته الآية عدة اخبار، فأخرج الامام أحمد . وابن جرير . وابن المنذر: وابن أبى حاتم . وابن السنى فى عمل اليوم والليلة . والطبرانى . وابن مردويه . والبيهقى فى الدعوات عن معاذ ابن أنس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « ألا أخبركم لم سمى الله تعالى ابراهيم خليله الذى وفى لأنه يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون »

وأخرج أبو داود ، والطبرانى ، وابن السنى ، وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى: وكذلك تخرجون أدرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته من ليلته » إلى غير ذلك من الاخبار ، ولعل فيه تأييداً لكون (فسبحان) الخ مقولا على ألسنة العباد فتأمل. وقرأ عكرمة (حينا تمسون وحينا تصبحون) بتنوين حين فالجملة صفة حذف منها العائد والتقدير تمسون فيه وتصبحون فيه ، وعلى قراءة الجمهور الجملة مضاف اليها

www.Quranpdf.blogspot.in

ولا تقدير للضمير أصلا ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ الانسان من النطفة ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ النطفة من الانسان وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ، وابن مسعود ، ولعل مرادهما التمثيل ، وعن مجاهد يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ، وقيل : أى يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها فالاحياء والموت مجازان ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الاخراج البديع الشأن ﴿ تُخْرَجُونَ ١٩ ﴾ من قبوركم . وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والاعمش (تخرجون) بفتح التاء وضم الراء ، وهذا على ما قيل نوع تفصيل لقوله تعالى : (يبدأ الخلق ثم يعيده) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح من دلالة ما سبق فان دلالة بدأ خلقهم على اعادتهم أظهر من دلالة اخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه السلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، وقيل : خلقهم من تراب لأنه تعالى خلق مادتهم منه فهو مجاز أو على تقدير مضاف ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ٢٠ ﴾ أى فى الأرض تتصرفون فى أغراضكم وأسفاركم ، (وإذا) فجائية و(ثم) على ماذهب اليه ابو حيان للتراخى الحقيقى لما بين الخلق والانتشار من المدة ، وقال العلامة الطيبى : انها للتراخى الرتبى لأن المفاجأة تأبى الحقيقى . ورد بأنه لا مانع من أن يفاجىء أحدا أمر بعد مضى مدة من أمر آخر أو أحدهما حقيقى والآخر عرفى . وتعقب بانه على تسليم صحته يأباه الذوق فانه كالجمع بين الضب والنون فما ذكره الطيبى أنسب بالنظم القرآنى ، والظاهر أن الجملة معطوفة على المبتدأ قبلها وهى بتاويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته خلقكم من تراب ثم مفاجأتكم وقت كونكم بشرا منتشرين كذا قيل ، وفى وقوع الجملة مبتدأ بمثل هذا التأويل نظر إلا أن يقال : إنه يغتفر فى التابع مالا يغتفر فى المتبوع ويتخيل من كلام بعضهم أن العطف على (خلقكم) بحسب المعنى حيث قال: أى ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين ، ويفهم من كلام صاحب الكشف فى نظير الآية أعنى قوله تعالى الآتى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أنه أقيمت الجملة مقام المفرد من حيث المعنى لأنها تفيد فائدته ، والكلام على أسلوب (مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) لأنه فى معنى وأمن داخله ، وأما من حيث الصورة فهى جملة معطوفة على قوله تعالى : (ومن آياته أن خلقكم) وفائدة هذا الاسلوب الاشعار بأن ذلك آية خارجة من جنس الآيات مستقلة بشأنها مقصودة بذاتها فتأمل ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على البعث أيضا ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ ﴾ أى لأجلكم ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ فان خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفت من التحقيق ـ فمن ـ تبعيضية والانفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون (من) ابتدائية والأنفس مجاز عن الجنس أى خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر ، قيل : وهو الاوفق بقوله تعالى: ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ أى لتميلوا اليها يقال: سكن اليه إذا مال فان المجانسة من دواعى النظام والتعارف كما أن

www.Quranpdf.blogspot.in

المخالفة من أسباب التفرق والتنافر ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى بين الأزواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما فى قوله تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله) وقيل: بين أفراد الجنس أو بين الرجال والنساء، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وترحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا مرابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل: المودة والرحمة من الله تعالى والفرك وهو بغض أحد الزوجين الآخر من الشيطان *

وقال الحسن. ومجاهد. وعكرمة المودة كناية عن النكاح والرحمة كناية عن الولد، وكون المودة بمعنى المحبة كناية عن النكاح أى الجماع للزومها له ظاهر، وأما كون الرحمة كناية عن الولد للزومها له فلا يخلو عن بعد، وقيل: مودة للشابة ورحمة للعجوز، وقيل: مودة للكبير ورحمة للصغير، وقيل: هما اشتباك الرحم والكل كما ترى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة فهو اشارة إلى جميع ماتقدم، وقيل: إلى ماقبله وليس بذاك، ومافيه من معنى البعد مع قرب المشار اليه للاشعار ببعد منزلته ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة لايكتنه كنهها كثيرة لايقادر قدرها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ فى تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم، والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله مع التنبيه على أن ماذكر ليس بآية فذة بل هى مشتملة على آيات شتى وانها تحتاج إلى تفكر كما تؤذن بذلك الفاصلة. وذكر الطيبى أنه لما كان القصد من خلق الازواج والسكون اليها والقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التى يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التى ما خلقت السموات والارض الالها ناسب كون المتفكرين فاصلة هنا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أى لغاتكم بأن علم سبحانه كل صنف لغته أو ألهمه جل وعلا وضعها وأقدره عليها فصار بعض يتكلم بالعربية وبعض بالفارسية وبعض بالرومية إلى غير ذلك مما الله تعالى أعلم بكميته. وعن وهب أن الالسنة اثنان وسبعون لساناً فى ولد حام سبعة عشر وفى ولد سام تسعة عشر، وفى ولد يافث ستة وثلاثون، وجوز أن يراد بالالسنة أجناس النطق وأشكاله فقد اختلف ذلك اختلافا كثيراً فلا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه، ولعل هذا أولى مما تقدم. والامام حكى الوجه الأول وقدم عليه ماهو ظاهر فى أن المراد بالألسنة الاصوات والنغم ونص على أنه أصح من المحكى ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ بياض الجلد وسواده وتوسط فيما بينهما أو تصوير الاعضاء وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والامور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شىء من ذلك لامحالة وإن كانا فى غاية التشابه، فالالوان بمعنى الضروب والانواع كما يقال: ألوان الحديث وألوان الطعام، وهذا التفسير أعم من الاول، وإنما نظم اختلاف الالسنة والالوان فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية الحقيقة بالانتظام فى سلك ماسبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من متممات خلقهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة ﴿ لِلْعَالِمِينَ ٢٢ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

أى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى : (ومايعقلها الا العالمون) وقرأ الكثير (العالمين) بفتح اللام ، وفيه دلالة على وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِه مَنَامُكُم ﴾ أى نومكم ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار ﴾ لاستراحة القوى النفسانية و تقوى القوى الطبيعية ﴿ وَابْتِغَاؤُكُم ﴾ أى طلبكم ﴿ مِنْ فَضْلِه ﴾ أى بالليل والنهار، وحذف ذلك لدلالة ماقبل عليه ، ونظيره قوله :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

فانه أراد يقتلون نفوسهم عند السلم وحذف لدلالة الوغى فى الشطر الثانى عليه ، والنوم بالليل والابتغاء من الفضل أى الكسب بالنهار أمران معتادان ، وأما النوم بالنهار فكنوم القيلولة ، وأما الكسب بالليل فكما يقع من بعض المكتسبين ، وأهل الحرف من السعى والعمل ليلا لاسيما فى أطول الليالى وعدم وفاء نهارهم باغراضهم، ومن ذلك حراسه الحوانيت بالأجرة وكذا قطع البرارى فى الاسفار ليلا للتجارة ونحوها ، وقال الزمخشرى: وهذا من باب اللف وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار الا أنه فصل بين القرينين الأولين أعنى منامكم وابتغاؤكم بالقرينين الآخرين أعنى الليل والنهار لأنهما ظرفان والظرف والواقع فيه كشىء واحد مع اعانة اللف على الاتحاد وهو الوجه الظاهر لتكرره فى القرآن وأسد المعانى مادل عليه القرآن انتهى ؛ والظاهر انه اراد باللف الاصطلاحى ولا يأبى ذلك توسيط الليل والنهار لأنهما فى نية التأخير وإنما وسطا للاهتمام بشأنهما لانهما من الآيات فى الحقيقة لا المنام والابتغاء على ماحققه فى الكشف مع تضمن توسيطهما مجاورة كل لما وقع فيه فالجار والمجرور قيل حال مقدمة من تأخير أى كائنين بالليل والنهار، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أى وذلك بالليل والنهار ، والجملة فى النظم الكريم معترضة، وعلى كلا القولين لا يرد على الزمخشرى لزوم كون النهار معمولا للابتغاء مع تقدمه عليه وعطفه على معمول (منامكم) وفى اقتران الفضل بالابتغاء إشارة إلى أن العبد ينبغى أن لا يرى الرزق من نفسه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه جل وعلا •

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٢٣ ﴾ أى شأنهم ان يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار، وفيه إشارة إلى ظهور الامر بحيث يكفى فيه مجرد السماع لمن له فهم وبصيرة ولا يحتاج إلى مشاهدة وإن كان مشاهدا •

وقال الطيبى: جىء بالفاصلة هكذا لأن أكثر الناس منسدحون بالليل كالاموات ومترددون بالنهار كالبهائم لايدرون فيم هم ولم ذلك لكن من ألقى السمع وهو شهيد يتنبه لوعظ الله تعالى ويصغى اليه لأن مر الليالى وكر النهار ينادويان بلسان الحال الرحيل الرحيل من دار الغرور الى دار القرار كما قال تعالى: (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) وذكر الامام أن من الاشياء مايحتاج فى معرفته إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد، ولما كان المنام والابتغاء قد يقع لكثير انهما من أفعال العباد فيحتاج معرفة انهما من آياته تعالى إلى مرشد يعين الفكر قيل:(لقوم يسمعون) فكأنه قيل: لقوم يسمعون ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد انتهى ؛ ولعل الاحتياج إلى مرشد يعين الفكر فى أن الليل والنهار من الآيات بناء على ماسمعت فى بيان نكتة التوسيط أظهر فتأمل ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِه يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ ذهب أبو على إلى أنه بتقدير أن المصدرية والاصل أن يريكم فحذف أن وارتفع الفعل وهو الشائع بعد الحذف فى مثل ذلك، وشذ بقاؤه منصوبا بعده وقد روى بالوجهين قول طرفة :

www.Quranpdf.blogspot.in

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدى

وجوز كونه مما نزل فيه الفعل منزلة المصدر فلا تقدر أن بل الفعل مستعمل فى جزء معناه وهو الحدث مقطوع فيه النظر عن الزمان فيكون اسما فى صورة الفعل فيريكم بمعنى الرؤية، وحمل على ذلك فى المشهور قولهم: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه، وجوز فيه أن يكون مما حذف فيه أن وأيد بأنه روى فيه تسمع بالنصب أيضا ولم يرتضه بعض الاجلة لأن المعنى ليس على الاستقبال، وأما أن تراه فالاستقبال فيه بالنسبة إلى السماع فلا ينافيه، ومثله قوله :

فقالوا ما تشاء فقلت الهو إلى الاصباح آثر ذى أثير

ورجح الحمل على التنزيل منزلة اللازم دلالة على أنه كالحال اهتماما بشأن المراد لقوله: آثر ذى أثير، والتعليل بأن ما تشاء سؤال عما يشاؤه فى الحال وأن الاستقبال ليس بالوجه لأن المشيئة تتعلق بالمستقبل أبدا، وقال الجامع الاصفهانى: تقدير الآية ومن آياته آية يريكم البرق على أن (يريكم) صفة وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كما فى قوله :

وما الدهر الا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

أى فمنهما تارة أموت قيل فلا بد من راجع فقدر فيها أوبها، ونص على الثانى الرمانى كما فى البحر وكلاهما لا يسد ـ كما فى الكشف ـ عليه المعنى، وقيل: التقدير ومن آياته البرق ثم استؤنف يريكم البرق، وقيل: (من آياته) حال من البرق أى يريكم البرق حال كونه من آياته، وجوز أبو حيان تعلقه بيريكم و(من) لابتداء الغاية وفيه مخالفة لنظرائه *

وفى الكشف لعل الاوجه أن يكون من آياته خبر مبتدأ محذوف أى من آياته ما يذكر أو ما يتلى عليكم ثم قيل: (يريكم البرق) بيانا لذلك ثم قال: وهذا أقل تكلفا من الكل، وأنت تعلم أن الاوجه ما توافق الآية به نظائرها *

﴿خَوْفًا﴾ أى من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ فى المطر قاله الضحاك، وقال قتادة: خوفا للمسافر لأنه علامة المطر وهو يضره لعدم ما يكنه ولا نفع له فيه وطمعا للمقيم، وقيل: خوفا أن يكون خلبا وطمعا أن يكون ماطرا وقال ابن سلام: خوفا من البرد أن يهلك الزرع وطمعا فى المطر، ونصبهما على العلة عند الزجاج، وهو على مذهب من من لا يشترط فى نصب المفعول له اتحاد المصدر والفعل المعلل فى الفاعل ظاهر، وأما على مذهب الاكثرين المشترطين لذلك فقيل فى توجيهه: ان ذلك على تقدير مضاف أى ارادة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالاخافة والاطماع اما بأن يجعل أصلهما ذلك على حذف الزوائد أو بأن يجعلا مجازين عن سببيهما *

وقيل: ان ذلك لأن اراءتهم تستلزم رؤيتهم فالمفعولون فاعلون فى المعنى فكأنه قيل: لجعلكم رائين خوفا وطمعا *

واعترض بأن الخوف والطمع ليسا غرضين للرؤية ولا داعيين لها بل يتبعانها فكيف يكونان علة على فرض الاكتفاء بمثل ذلك عند المشترطين، ووجه بأنه ليس المراد بالرؤية مجرد وقوع البصر بل الرؤية القصدية بالتوجه والالتفات فهو مثل قعدت عن الحرب جبنا ولم يرتض ذلك أبو حيان أيضا ثم قال: لو قيل على مذهب المشترطين ان التقدير يريكم البرق فترونه خوفا وطمعا فحذف العامل للدلالة عليه لكان اعرابا سائغا، وقيل: لعل الاظهر

www.Quranpdf.blogspot.in

نصبهما على العلة للارادة لوجود المقارنة والاتحاد فى الفاعل فان الله تعالى هو خالق الخوف والطمع، وكون معنى قول النحاة لابد أن يكون المفعول له فعل الفاعل أنه لابد من كونه متصفا به كالاكرام فى قولك: جئتك اكراما لك ان سلم فلا حجر من الانتصاب على التشبيه فى المقارنة والاتحاد المذكور *

وتعقب بأن كون المعنى ماذكر مما لا شبهة فيه وقد ذكره صاحب الانتصاف وغيره فان الفاعل اللغوى غير الفاعل الحقيقى فالتوقف فيه وادعاء أنه لا حجر من الانتصاب على التشبيه مما لاوجه له ، وأنا أميل إلى عدم اشتراط الاتحاد فى الفاعل لكثرة النصب مع عدم الاتحاد كما يشهد بذلك التتبع والرجوع الى شرح الكافية للرضى ، والتأويل مع الكثرة مما لاموجب له، وجوز أن يكون النصب هنا على المصدر أى تخافون خوفا وتطمعون طمعا على أن تكون الجملة حالا ، واولى منه ان يكونا نصبا على الحال اى خائفين وطامعين *

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وقرأ غير واحد بالتخفيف ﴿ فَيُحْيِي بِهِ ﴾ أى بسبب الماء ﴿ الْأَرْضَ ﴾ بأن يخرج سبحانه به النبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٤ ﴾ يستعملون عقولهم فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع جل شأنه وحكمته سبحانه ، وقال الطيبى: لما كان ماذكر تمثيلا لاحياء الناس واخراج الموتى وكان التمثيل لادناء المتوهم المعقول واراءة المتخيل فى صورة المحقق ناسب ان تكون الفاصلة لقوم يعقلون *(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)* اى بقوله تعالى قوما او بارادته عز وجل، والتعبير عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والأسباب، وليس المراد باقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله بقوله تعالى : (ومن آياته خلق السموات والأرض) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات إنشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ماذكر فى موضع آخر من قوله تعالى : (خلق السموات بغير عمد ترونها) الآية بل قيامهما وبقاؤهما على ماهما عليه إلى أجلهما الذى أشير اليه بقوله تعالى فيما قبل: (ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) *

ولما كان البقاء مستقبلا باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآية أظهرت هنا كلمة (أن) التى هى علم فى الاستقبال . والامام ذهب الى أن القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول ثم قال على ما لخصه بعضهم : ذكرت (ان) ههنا دون قوله تعالى :(ومن آياته يريكم البرق) لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن العلم فى الاستقبال وجعل مصدراً ليدل على الثبوت ، واراءة البرق لما كانت من الامور المتجددة جىء بلفظ المستقبل ولم يذكر معه ما يدل على المصدر اه ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥ ﴾ (إذ) الاولى شرطية والثانية فجائية نائبة مناب الفاء فى الجزاء لاشتراكهما فى التعقيب . والجملة الشرطية قيل : معطوفة على (أن تقوم) على تأويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم من قبوركم بسرعة إذا دعاكم ، وصاحب الكشف يقول : إنها أقيمت مقام المفرد من حيث المعنى وأما من حيث الصورة فهى جملة معطوفة على قوله تعالى : (ومن اياته ان تقوم) وذلك على أسلوب (مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وفائدته ماسمعته قريبا ، وظاهر كلام بعض الأفاضل أن العطف عليه ظاهر فى عدم قصد عد ما ذكر آية . واختار أبو السعود عليه الرحمة كون العطف من عطف الجمل وان المذكور ليس من الآيات قال : حيث كانت آية قيام السماء والأرض بأمره تعالى متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة

www.Quranpdf.blogspot.in

بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضا فقيل: (ثم إذا دعاكم) الآية، والكلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعدد آياته تعالى الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل: ومن آياته قيام السماء والأرض على هيئتهما بامره عز وجل الى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أى بعد انقضاء الاجل فى الأرض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال سبحانه: ايها الموتى اخرجوا فجأتم الخروج منها، ولعل ما أشار اليه صاحب الكشف أدق وأبعد مغزى فتأمل، (ومن الأرض) متعلق بدعا و(من) لابتداء الغاية ويكفى فى ذلك إذا كان الداعى هو الله تعالى نفسه لا الملك بامره سبحانه كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطاع الى لا بدعوة فانه اذا جاء نهر الله جل وعلا بطل نهر معقل • نعم جوز كون ذلك صفة لها وأن يكون حالا من الضمير المنصوب ولا بتخرجون لأن مابعد اذا لا يعمل فيما قبلها، وقال ابن عطية: إن (من) عندى لانتهاء الغاية وأثبت ذلك سيبويه، وقال أبو حيان: إنه قول مردود عند أصحابنا، وظواهر الأخبار أن الموتى يدعون حقيقة للخروج من القبور، وقيل: المراد تشبيه ترتب حصول الخروج على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعى المطاع على دعائه، ففى الكلام استعارة تمثيلية أو تخييلية ومكنية بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب الى محل ملك عظيم متهيئين لذلك وإثبات الدعوة لهم قرينتها أو هى تصريحية تبعية فى قوله تعالى: (دعاكم) الى آخرها، (وثم) اما للتراخى الزمانى او للتراخى الرتبى، والمراد عظم ما فى المعطوف من احياء الموتى فى نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه فلا ينافى قوله تعالى الآتى: (وهو أهون عليه) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض لأنه المقصود من الايجاد والانشاء وبه استقرار السعداء والأشقياء فى الدرجات والدركات وهو المقصود من خلق الارض والسموات، فاندفع ماقاله ابن المنير من أن مرتبة المعطوف عليه هنا هى العليا مع إن كون المعطوف فى مثله ارفع درجة أكثرى لا كلى كما صرح به الطيبي فلا مانع من اعتبار التراخى الرتبى لو لم يكن المعطوف أرفع درجة، ويجوز حمل التراخى على مطلق البعد الشامل للزمانى والرتبى •

وقرأ السبعة ماعدا حمزة. والكسائى (تخرجون) بضم التاء وفتح الراء، وهذه الآية ذكر أنها مما تقرأ على المصاب، أخرج ابن أبى حاتم عن الأزهر بن عبد الله الجرازى قال: يقرأ على المصاب إذا أخذ (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وذكر الامام. وأبو حيان فى وجه ترتيب الآيات وتذييل كل منهما بما ذيل كلاما طويلا ان احتجته فارجع اليه •

﴿ وَلَهُ ﴾ عز وجل خاصة كل ﴿ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره سبحانه شركة فى ذلك بوجه من الوجوه ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ لا لغيره جل وعلا ﴿ قَانِتُونَ ٢٦ ﴾ منقادون لفعله لا يمتنعون عليه جل شأنه فى شأن من الشؤون وإن لم ينقد بعضهم لأمره سبحانه فالمراد طاعة الارادة لاطاعة الأمر بالعبادة، وهذا حاصل ما روى عن ابن عباس، وقال الحسن: (قانتون) قائمون بالشهادة على وحدانيته تعالى كما قال الشاعر:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال ابن جبير : (قانتون) مخلصون ، وقيل : مقرون بالعبودية ، وعليهما ليس العموم على ظاهره ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت ، والتكرير لزيادة التقرير لشدة إنكارهم البعث والتمهيد لمابعده من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الضمير المرفوع للاعادة وتذكيره لرعاية الخبر أو لأنها مؤولة بان والفعل وهو فى حكم المصدر المذكر أو لتاويلها بالبعث ونحوه ، وكونه راجعا إلى مصدر مفهوم من (يعيد) وهو لم يذكر بلفظ الاعادة لا يفيد على ماقيل لأنه اشتهر به فكأنه إذا فهم منه يلاحظ فيه خصوص لفظه والضمير المجرور لله تعالى شانه ، و«أهون» للتفضيل أى والاعادة أسهل على الله تعالى من المبدأ ، والاسهلية على طريقة التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فان إعادة شىء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء ، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث وإلا فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرته تعالى عز وجل سواء فكأنه قيل : وهو أهون عليه بالاضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم *

وذكر الزمخشرى وجها آخر للتفضيل وهو أن الانشاء من قبيل التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والاعادة من قبيل الواجب الذى لابد من فعله لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال اما محال والمحال ممتنع أصلا خارج عن المقدور ، واما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الاحالة ، واما تفضل والتفضل حاله بين بين للفاعل أن يفعله وأن لايفعله ، واما واجب لابد من فعله ولاسبيل إلى الاخلال به فكان الواجب أبعد الافعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الاعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الافعال من الامتناع وإذا كانت أبعدها منه كانت أدخلها فى التأتى والتسهل فكانت أهون منها واذا كانت كذلك كانت أهون من الانشاء اه . قال فى التقريب: وفيه نظر لأنه مبنى على الوجوب العقلى ولأن الوجوب اذا كان بالذات نافى القدرة كالامتناع والا كان ممكنا فتساوى الفعلان لاشتراكهما فى مصحح المقدورية وهو الامكان *

وتعقبه فى الكشف بقوله أقول : انه غير واجب بالذات ولا يلزم منه المساواة مع التفضل فى سهولة التأتى وأما المساواة فى مصحح المقدورية فلا مدخل لها فيما نحن فيه ، والحاصل منه أنه لو سلم منه أن الداعى الى فعله أقوى فلا شك أنه أقرب إلى الوجود مما لا يكون الداعى كذلك . نعم إذا خلص الداعى إلى القسمين صارا سواء ، وليس البحث على ذلك التقدير اه *

والحق ماقاله أبو السعود من أنه ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل إلى ايجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه عند تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ، ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب أو بطريق الاختيار . وروى الزجاج عن أبى عبيدة وكثير من أهل اللغة أن (أهون) ههنا بمعنى هين ، وروى ذلك عن ابن عباس . والربيع ، وكذا هو فى مصحف عبد الله ، وهذا كما يقال : الله تعالى أكبر أى كبير وأنت أوحد الناس أى واحدهم وإنى لأوجل أى وجل . وفى الكشف التحقيق أنه من باب الزيادة المطلقة ، وإنما قيل بمعنى الهين لأنه يؤدى مؤداه ، وقيل : أفعل على ظاهره وضمير عليه عائد على الخلق على معنى أن الاعادة أيسر على المخلوق لأن البداءة فيها تدريج من طور إلى طور إلى أن يصير انسانا والاعادة لاتحتاج إلى التدريجات فى الاطوار إنما يدعوه الله تعالى فيخرج *

www.Quranpdf.blogspot.in

وأما على معنى أن الاعادة أسهل على المخلوق أى أن يعيدوا شيئاً ويفعلوه ثانيا بعدما زاولوا فعله وعرفوه أولا أسهل من أن يفعلوه أولا قبل المزاولة وإذا كان هذا حال المخلوق فما بالك بالخالق ، ولا يخفى أن الظاهر رجوع الضمير اليه تعالى ، ثم ان الجار والمجرور صلة (أهون) وقدمت الصلة فى قوله تعالى : (وهو على هين) وأخرت هنا لأنه قصد هنالك الاختصاص وهو محزه فقيل (هو على هين) وإن كان صعبا عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما ههنا فلا معنى للاختصاص كيف والامر مبنى على مايعقلون من أن الاعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ، ولما أخبر سبحانه بأن الاعادة أهون عليه على طريق التمثيل عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ﴾ تعالى شأنه خاصة ﴿ الْمَثَلُ ﴾ أى الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال ﴿ الْأَعْلَىٰ ﴾ الذى ليس لغيره مايدانيه فضلا عما يساويه فكأنه قيل هذا لتفهيم العقول القاصرة إذ صفاته تعالى عجيبة وقدرته جل شأنه عامة وحكمته سبحانه تامة فكل شىء بدأ واعادة وايجادا واعداما على حد سواء ولا مثل له تعالى ولاند . وعن قتادة . ومجاهد أن (المثل الأعلى) لا اله الا الله ، ولعلهما أرادا بذلك الوحدانية فى ذاته تعالى وصفاته سبحانه ، والكلام عليه مرتبط بما قبله أيضا كأنه قيل : ما ذكر لتفهيم العقول القاصرة لأنه تعالى لا يشاركه أحد فى ذاته تعالى وصفاته عز وجل ، وقيل : مرتبط بما بعده من قوله تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) وقال الزجاج : المثل قوله تعالى : (هو أهون عليه) قد ضربه الله تعالى مثلا فيما يسهل ويصعب عندكم وينقاس على أصولكم فاللام فى المثل للعهد وهو محمول على ظاهره غير مستعار للوصف العجيب الشأن ﴿ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه سبحانه قد وصف بذلك وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وقيل : بالأعلى ، وقيل : بمحذوف هو حال منه أو من (المثل) أو من ضميره فى (الاعلى) وقيل : متعلق بما تعلق به (له) اى له فى السموات والأرض المثل الاعلى ، والمراد أن دلالة خلقهما على عظيم القدرة أتم من دلالة الانشاء فهو أدل على جواز الاعادة ولهذا جعل أعلى من الانشاء فتأمل ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن واعادته ﴿ الْحَكِيمُ ٢٧ ﴾ الذى يجرى الافعال على سنن الحكمة والمصلحة ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا ﴾ يتبين به بطلان الشرك ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الامور اليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية ، و(من) لابتداء الغاية وقوله تعالى : ﴿ هَل لَّكُم ﴾ إلى آخره تصوير للمثل ، والاستفهام انكارى بمعنى النفى و (لكم) خبر مقدم وقوله تعالى : ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ فى موضع الحال من (شركاء) بعد لأنه نعت نكرة تقدم عليها ، والعامل فيها كما فى البحر هو العامل فى الجار والمجرور الواقع خبرا و(من) للتبعيض و(ما) واقعة على النوع ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن شُرَكَاءَ ﴾ مبتدأ و(من) مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ متعلق بشركاء أى هل شركاء فيما رزقناكم من الاموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيه كائنون من النوع الذى ملكته أيمانكم من نوع العبيد والاماء كائنون لكم * وجوز أن يكون (لكم) متعلقا بشركاء . ويكون (فيما رزقناكم) فى موضع الخبر كما تقول : لزيد فى المدينة

www.Quranpdf.blogspot.in

مبغض فلزيد متعلق بمبغض الذى هو مبتدأ وفى المدينة الخبر أى هل شركاء لكم كائنون مما ملكته ايمانكم كائنون فيما رزقناكم ، وقوله تعالى : ﴿فَأَنْتُمْ فيه سَوَاءٌ﴾ جملة فى موضع الجواب للاستفهام الانـــكارى (وفيه) متعلق بسواء ، وفى الكلام محذوف معطوف على (أنتم) أى فانتم وهم أى المماليك مستوون فيه لا فرق بينكم وبينهم فى التصرف فيه ، وقيل : لا حذف (وأنتم) شامل للمماليك بطريق التغليب ، وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبر آخر لأنتم ، وقال ابو البقاء : حال من ضمير (أنتم) الفاعل فى (سواء) وقوله تعـالى : ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فى موضع الصفة لمصدر محذوف أى تخافونهم أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم يعنى الاحرار المساهمين لكم ، والمقصود نفى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية اى لا ترضون بان يشارككم فيما رزقناكم من الاموال ونحوها مماليككم وهم امثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقه سبحانه بل مصنوع مخلوقه جل وعلا حيث تصنعونه بايديكم ثم تعبـدونه *

وقرأ ابن أبى عبلة (أنفسكم) بالرفع على أن المصدر مضاف للمفعول (وأنفسكم) فاعله ، قال أبو حيان: وهو وجه حسن ولا قبح فى اضافة المصدر الى المفعول مع وجود الفاعل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فان التمـثيل تصوير للمعانى المعـقولة بصورة المحسوس وابراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان *

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٨﴾ أى يستعملون عقولهم فى تدبير الامثال ، وقيل: فى تدبير الامور مطلقا ويدخـل فى ذلك الأمثال دخولا أوليا ، وخصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها ، وذكر العلامة الطيبى أنه لما كان ضرب الامثال لادناء المتوهم إلى المعقول واراءة المتخيل فى صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة (لقوم يعقلون) وهذه النكتة هنا أظهر منها فيما تقدم فتذكر *

وقرأ عباس عن أبى عمرو (يفصل) بياء الغيبة رعيا لضرب اذ هو مسند لما يعود للغـائب . وقراءة الجمهور بالنون للحمل على (رزقناكم) وذكر بعض العلماء ان فى هذه الآية دليلا على صحة اصل الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض كأنه قيل : الممتنع المستقبح شركة العبيد لساداتهم أما شركة السادات بعضهم لبعض فلا تمتنع ولا تستقبح ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل : لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بانهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى جاهلين ببطلان ماأتوا منكبين عليه لا يصرفهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أى خلق فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أى لمن أضله الله تعالى ، والجمع باعتبار المعنى ﴿مِنْ نَاصِرِينَ ٢٩﴾ يخلصونهم من الضلال

www.Quranpdf.blogspot.in

ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ماهو المشهور فى مقابلة الجمع بالجمع، (ومن) مزيدة لتأكيد النفي ، والكلام مسوق لتسلية رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وتوطئة لأمره عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ قال العلامة الطيبي : انه تعالى عقيب ما عدد الآيات البينات والشواهد الدالة على الوحدانية ونفي الشرك واثبات القول بالمعاد وضرب سبحانه المثل وقال سبحانه : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أراد جل شأنه أن يسلي حبيبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه ويوطنه على اليأس من إيمانهم فأضرب تعالى عن ذلك وقال سبحانه : (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) وجعل السبب فى ذلك انه عز وجل ما اراد هدايتهم وانه مختوم على قلوبهم ولذلك رتب عليه قوله تعالى: (فمن يهدى من أضل الله) على التقريع والانكار ثم ذيل سبحانه الكل بقوله تعالى : (وما لهم من ناصرين) يعنى اذا اراد الله تعالى منهم ذلك فلا مخاص لهم منه ولا احد ينقذهم لا انت ولا غيرك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فاهتم بخاصة نفسك ومن تبعك واقم وجهك الخ اه ، ومنه يعلم حال الفاء فى قوله تعالى: (فمن) وكذا فى قوله سبحانه : (فاقم) وقدر النيسابورى للثانية اذا تبين الحق وظهرت الوحدانية فأقم الخ ، ولعل ما اشار اليه الطيبى أولى ، ثم انه يلوح من كلامه احتمال ان يكون الموصول قائما مقام ضمير (الذين ظلموا) فتدبره

(واقم) من اقام العود ويقال قوم العود ايضا اذا عدله ، والمراد الامر بالاقبال على دين الاسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام بترتيب اسبابه على ان الكلام تمثيل لذلك فان من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد اليه طرفه وسدد اليه نظره واقبل عليه بوجه غير ملتفت عنه فكأنه قيل : فعدل وجهك للدين وأقبل عليه إقبالا كاملا غير ملتفت يمينا وشمالا ، وقال بعض الاجلة : إن إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به ، ولعله اراد بالكناية المجاز المتفرع على الكناية فانه لا يشترط فيه إمكان ارادة المعنى الحقيقى ، ونصب (حنيفا) على الحال من الضمير فى (أقم) او من الدين ، وجوز ابو حيان كونه حالا من الوجه ، واصل الحنف الميل من الضلال الى الاستقامة وضده الجنف بالجيم ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ نصب على الاغراء اى الزموا فطرة الله تعالى ، ومن أجاز اضمار اسماء الافعال جوز ان يقدر هنا عليكم اسم فعل ، وقال مكي : هو نصب باضمار فعل أى اتبع فطرة الله ودل عليه قوله تعالى:(فأقم وجهك للدين) لأن معناه اتبع الدين، واختاره الطيبى وقال: انه أقرب فى تأليف النظم لأنه موافق لقوله تعالى : (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) ولترتب قوله تعالى : (فأقم وجهك) عليه بالفاء *

وجوز أن يكون نصبا باضمار أعنى وأن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف دل عليه مابعد أى فطركم فطرة الله ، ولا يصح عمل فطر المذكور بعد فيه لأنه من صفته ، وأن يكون منصوبا بما دل عليه الجملة السابقة على أنه مصدر مؤكد لنفسه . وأن يكون بدلا من (حنيفا) والمتبادر إلى الذهن النصب على الاغراء ، وإضمار الفعل على خطاب الجماعة مع أن المتقدم (فأقم) هو مااختاره الزمخشرى ليطابق قوله تعالى : (منيبين اليه) وجعله حالا من ضمير الجماعة المسند اليه الفعل، وجعل قوله تعالى: (واتقوه وأقيموا.ولا تكونوا) معطوفا على ذلك الفعل ه

وقال الطيبي : بعد ما اختار تقدير اتبع ورجحه بما سمعت : وأما قوله تعالى: (منيبين) فهو حال من الضمير فى (أقم) وإنما جمع لأنه مردد على المعنى لأن الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو خطاب لأمته

www.Quranpdf.blogspot.in

فكأنه قيل : أقيموا وجوهكم منيبين *

وقال الفراء : أي أقم وجهك ومن تبعك كقوله تعالى : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) فلذلك قال سبحانه : (منيبين) وفي المرشد أن (منيبين) متعلق بمضمر أي كونوا منيبين لقوله تعالى بعد : (ولا تكونوا من المشركين) اه . ولا يخفى على المنصف حسن كلام الزمخشري ، وماذكر من أن خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم خطاب الأمة يؤكد الدلالة وعلى ذلك المضمر لأنه يجوز أن يكون (منيبين) حالا من الضمير في (أقم) وظاهر كلام الفراء يقتضي كون الحال من مذكور ومحذوف وهو قليل في الكلام ، وإضمار كونوا مع إضمار فعل ناصب لفطرة الله موجب لكثرة الاضمار ، وإضماره دون إضمار فيما قبل موجب لارتكاب خلاف المتبادر هناك ، والفطرة على ماقال ابن الأثير للحالة كالجلسة والركبة من الفطر بمعنى الابتداء والاختراع ، وفسرها الكثير هنا بقابلية الحق والتهيء لادراكه ، وقالوا : معنى لزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل شياطين الانس والجن ، ووصفها بقوله تعالى : ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لتأكيد وجوب امتثال الأمر ، وعن عكرمة تفسيرها بدين الاسلام *

وفي الخبر مايدل عليه ، أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفار قال : سألت قتادة عن قوله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) فقال : حدثني أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطرة الله التي فطر الناس عليها دين الله تعالى» والمراد بفطرهم على دين الاسلام خلقهم قابلين له غير نابين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» والمراد بالناس على التفسيرين جميعهم *

وزعم بعضهم أن المراد بهم على التفسير الثاني المؤمنون وليس بشيء . واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع على الكفر . وأجيب بأن معنى ذلك أنه قدر أنه لو عاش يصير كافراً باضلال غيره له أو بآفة من الآفات البشرية ، وهذا على ماقيل هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : «الشقي شقي في بطن أمه» وذلك لاينافي الفطر على دين الاسلام بمعنى خلقه متهيأ له مستعدا لقبوله فتأمل فالمقام محتاج بعد إلى تحقيق ، وقيل : فطرة الله العهد المأخوذ على بني آدم ، ومعنى فطرهم على ذلك على ماقيل خلقهم مركوزا فيهم معرفته تعالى كما أشير اليه بقوله سبحانه : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقوله سبحانه : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به فالمراد بخلق الله فطرته المذكورة أولا ففيه إقامة المظهر مقام المضمر من غير لفظه السابق ، والمعنى لاصحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالاخلال بموجبها وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين ، وقيل : المعنى لايقدر أحد على أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته عز وجل فلا بد من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بازالتها رأسا ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة ، فان التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة

www.Quranpdf.blogspot.in

فى كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى ووسوسة الشياطين ، وقال الامام : يحتمل أن يقال : إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده لاتبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال وإذا كمل للعبد بها لا يبقى عليه تكليف *

وقول المشركين : إن الناقص لا يصلح لعبادة الله تعالى وإنما يعبد نحو الكواكب وهى عبيد الله تعالى ، وقول النصارى : إن عيسى عليه السلام كمل بحلول الله تعالى فيه وصار إلها اه وفيه مافيه ، ومما يستغرب ماروى عن ابن عباس من أن معنى (لاتبديل لخلق الله) النهى عن خصاء الفحول من الحيوان ، وقيل : إن الكلام متعلق بالكفرة كأنه قيل : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرة الله التى فطر الناس عليها فان هؤلاء الكفرة خلق الله تعالى لهم الكفر ولا تبديل لخلق الله أى أنهم لايفلحون . وأنت تعلم أنه لا ينبغى حمل كلام الله تعالى على نحو هذا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور باقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله تعالى المستفاد من الاغراء أو إلى الفطرة والتذكير باعتبار الخبر أو بتأويل المشار اليه بمذكر ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستوى الذى لاعوج فيه ولا انحراف عن الحق بوجه من الوجوه كما ينبىء عنه صيغة المبالغة ، وأصله قيوم على وزن فيعل اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فيها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ ذلك فيصدون عنه صدودا *

وقيل : أى لا علم لهم أصلا ولو علموا لعلموا ذلك على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أى راجعين اليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل من ناب نوبة ونوباً إذا رجع مرة بعد أخرى ، ومنه النوب أى النحل سميت بذلك لرجوعها إلى مقرها ، وقيل : أى منقطعين إليه تعالى من الناب السن خلف الرباعية لما يكون بها من الانقطاع ما لايكون بغيرها . وتعقب بانه بعيد لأن الناب يائى وهذا واوى ، وقد تقدم غير بعيد عدة أقوال فى وجه نصبه ، وزاد عليها فى البحر القول بكونه نصبا على الحال من (الناس) فى قوله تعالى : (فطر الناس) وقدمه على سائر الأقوال وهو كما ترى ، وتقدم أيضا ماقيل فى عطف قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أى من مخالفة أمره تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣١﴾ المبدلين لفطرة الله سبحانه تبديلا ، والظاهر أن المراد بهم كل من أشرك بالله عز وجل ، والنهى متصل بالأوامر قبله ، وقيل : باقيموا الصلاة ، والمعنى ولاتكونوا من المشركين بتركها واليه ذهب محمد بن أسلم الطوسى وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين باعادة الجار ، وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ، وقيل : اختلافهم فى اعتقاداتهم مع اتحاد معبودهم ، وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين *

وقرأ حمزة . والكسائى (فارقوا) أى تركوا دينهم الذى أمروا به أو الذى اقتضته فطرتهم ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

أى فرقا تشايع كل فرقة أمامها الذى مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل ﴿ فَرِحُونَ ٣٢ ﴾ مسرورون ظنا منهم أنه حق . والجملة قيل اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا ، وقيل : فى موضع نصب على أنها صفة (شيعا) بتقدير العائد أى كل حزب منهم ، وزعم بعضهم كونها حالا . وجوز أن يكون (فرحون) صفة لكل كقول الشماخ :

وكل خليل غير هاضم نفسه لوصل خليل صارم أو معارز

والخبر هو الظرف المتقدم أعنى قوله تعالى : (من الذين فرقوا دينهم) فيكون منقطعا عما قبله ، وضعف بأنه يوصف المضاف اليه فى نحوه صرح به الشيخ ابن الحاجب فى قوله :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك الا الفرقدان

وفى البحر أن وصف المضاف اليه فى نحوه هو الاكثر وأنشد قوله :

جادت عليه كل عين ترة فتركن كل حديقة كالدرهم

وماقيل : إنه إذا وصف به (كل) دل على أن الفرح شامل للكل وهو أبلغ ليس بشىء بل العكس أبلغ لو تؤمل أدنى تأمل ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أى شدة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين اليه تعالى من دعاء غيره عز وجل من الاصنام وغيرها ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصا من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ ﴾ الذى كانوا دعوه منيبين اليه ﴿ يُشْرِكُونَ ٣٣ ﴾ أى فاجأ فريق منهم الاشراك وذلك بنسبة خلاصهم إلى غيره تعالى من صنم أو كوكب أو نحو ذلك من المخلوقات ، وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك ، وتنكير (ضر . ورحمة) للتعليل اشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويطغون لأدنى نعمة ، و «ثم» للتراخى الرتبى أو الزمانى ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام فيه للعاقبة وكونها تقتضى المهلة ولذا سميت لام المآل والشرك والكفر متقاربان لا مهلة بينهما كما قيل لاوجه له ، وقيل : للامر وهو للتهديد كما يقال عند الغضب اعصنى مااستطعت وهو مناسب لقوله سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ فانه أمر تهديدى ، واحتمال كونه ماضيا معطوفا على « يشركون » لايخفى حاله ، والفاء للسببية ، والتمتع التلذذ ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ ﴾ وبال تمتعكم . وقرأ أبو العالية «فيمتعوا» بالياء التحتية مبنيا للمفعول وهو معطوف على (يكفروا . فسوف يعلمون) بالياء التحتية أيضا ، وعن أبى العالية أيضا (فيتمتعوا) بياء تحتية قبل التاء وهو معطوف على (يكفروا) أيضا ، وعن ابن مسعود (وليتمتعوا) باللام والياء التحتية وهو عطف على (ليكفروا) ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة إيذانا بالاعراض عنهم وتعديدا لجناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ، و (أم) منقطعة ، والسلطان الحجة فالانزال مجاز عن التعليم أو الاعلام ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ بمعنى فهو يدل على أن التكلم مجاز عن الدلالة ، ولك أن تعتبر هنا جميع مااعتبروه فى قولهم : نطقت الحال من الاحتمالات ، ويجوز أن يراد بسلطانا ذا سلطان أى ملكا معه برهان فلا مجاز أولا وآخرا وجملة (هو يتكلم) جواب الاستفهام الذى تضمنته (أم) إذ المعنى بل أأنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ٣٥ ﴾ أى باشراكهم بالله عز وجل، وصحته على أن (ما) مصدرية وضمير (به) له تعالى أو بالامر الذى يشركون بسببه وألوهيته على أن «ما» موصولة وضمير «به» لها والباء سببية، والمراد نفى أن يكون لهم مستمسك يعول عليه فى شركهم ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ أى نعمة من صحة وسعة ونحوهما ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ بطرا وأشرا فانه الفرح المذموم دون الفرح حمدا وشكرا. وهو المراد فى قوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» وقال الامام: المذموم الفرح بنفس الرحمة والممدوح الفرح برحمة الله تعالى من حيث أنها مضافة إلى الله تعالى ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦ ﴾ أى فاجؤا القنوط من رحمته عز وجل، والتعبير بإذا أولا لتحقق الرحمة وكثرتها دون المقابل، وفى نسبة الرحمة اليه تعالى دون السيئة تعليم للعباد أن لا يضاف اليه سبحانه الشر وهو كثير كقوله تعالى: «أنعمت والمغضوب» فى الفاتحة، وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة وبيان سبب اصابة السيئة اشارة إلى أن الأول تفضل والثانى عدل، والتعبير بالمضارع فى «إذاهم يقنطون» لرعاية الفاصلة والدلالة على الاستمرار فى القنوط، والمراد بالناس اما فريق آخر غير الأول على أن التعريف للعهد أو للجنس واما الفريق الأول لكن الحكم الأول ثابت لهم فى حال تدهشهم كمشاهدة الغرق وهذا الحكم فى حال آخر لهم فلا مخالفة بين قوله تعالى: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه» وقوله سبحانه: «وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» فلا يحتاج إلى تكلف التوفيق بأن الدعاء اللسانى جار على العادة فلا ينافى القنوط القلبى ولذا سمع بعض الخائضين فى دم عثمان رضى الله تعالى عنه يدعو فى طوافه ويقول: اللهم اغفر لى ولا أظنك تفعل، أو المراد يفعلون فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء، ولا يخفى أن فى المفاجأة نبوة ما عن هذا فتأمل.

وقرئ «يقنطون» بكسر النون ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يبسطه تعالى له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أى ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه، وهذا اما باعتبار شخصين أو باعتبار شخص واحد فى زمانين، والمراد إنكار فرحهم وقنوطهم فى حالتى الرخاء والشدة أى أولم يروا ذلك فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور أى البسط وضده أو جميع ما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧ ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ولله تعالى در من قال:

نكد الاريب وطيب عيش الجاهل ... قد أرشداك إلى حكيم كامل

قال الطيبى: كانت الفاصلة قوله تعالى: (لقوم يؤمنون) ايذانا بأنه تعالى يفعل ذلك بمحض مشيئته سبحانه وليس الغنى بفعل العبد وجهده ولا العدم بعجزه وتقاعده ولا يعرف ذلك الا من آمن بأن ذلك تقدير العزيز العليم كما قال:

كم من أريب فهم قلبه ... مستكمل العقل مقل عديم
ومن جهول مكثر ماله ... ذلك تقدير العزيز العليم

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ من الصلة والصدقة وسائر المبرات ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ما يستحقانه، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أنه عليه الصلاة والسلام المقصود أصالة وغيره من المؤمنين تبعا، وقال الحسن:

www.Quranpdf.blogspot.in

هو خطاب لكل سامع ، وجوز غير واحد أن يكون لمن بسط له الرزق ، ووجه تعلق هذا الامر بما قبله واقترانه بالفاء على ما ذكره الزمخشرى أنه تعالى لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، وحاصله على ما فى الكشف أن امتثال أوامره تعالى مجلبة رضاه والحياة الطيبة تتبعه كما أن عصيانه سبحانه مجلبة سخطه والجدب والضيقة من روادفه فاذا استبان ذلك فآت يا محمد ومن تبعه أو فآت يا من بسط له الرزق ذا القربى حقه الخ ، وذكر الامام وجها آخر مبنيا على أن الامر متفرع على حديث البسط والقدر وهو أنه تعالى لما بين أنه سبحانه يبسط ويقدر أمر جل وعلا بالانفاق ايذانا بأنه لا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله تعالى إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق وإذا قدر لا يزداد بالامساك كما قيل :

إذ جادت الدنيا عليك فجدبها ... على الناس طرا إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

قال صاحب الكشف روح الله تعالى روحه : إن ما ذكره الزمخشرى أوفق لتأليف النظم الجليل فان قوله تعالى : (أولم يروا أن الله يبسط الرزق) لتتميم الانكار على من فرح بالنعمة عن شكر المنعم ويئس عند زوالها عنه ، والظاهر على ما ذكره الامام أن المراد بالحق الحق المالى وكذا المراد به فى جانب المسكين وابن السبيل ، وحمل ذلك بعضهم على الزكاة المفروضة . وتعقب بأن السورة مكية والزكاة انما فرضت بالمدينة واستثناء هذه الآية ودعوى أنها مدنية يحتاج الى نقل صحيح ، وسبق النزول على الحكم بعيد ولذا لم يذكر هنا بقية الأصناف ، وحكى أن أبا حنيفة استدل بالآية على وجوب النفقة لكل ذى رحم محرم ذكرا كان أو أنثى إذا كان فقيرا أو عاجزا عن الكسب ، ووجه بأن (آت) أمر للوجوب ، والظاهر من الحق بقرينة ما قبله انه مالى ولو كان المراد الزكاة لم يقدم حق ذوى القربى إذ الظاهر من تقديمه المغايرة ، والشافعية أنكروا وجوب النفقة على من ذكر وقالوا : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين على ما بين فى الفقه ، والمراد بالحق المصرح به فى ذى القربى صلة الرحم بانواعها وبالحق المعتبر فى جانب المسكين وابن السبيل صدقة كانت مفروضة قبل فرض الزكاة أو الزكاة المفروضة والآية مدنية أو مكية والنزول سابق على الحكم . واعترض على هذا بأنه إذا فسر حق الاخيرين بالزكاة وجب تفسير الأول بالنفقة الواجبة لئلا يكون لفظ الأمر للوجوب والندب ، ولذا استدل أبو حنيفة عليه الرحمة بالآية على ما تقدم ، وفيه بحث *

وقال بعض اجلة الشافعية رادا على الاستدلال : إنه كيف يتم مع احتمال أن يكون الأمر بايتاء الصدقة أيضا بدليل ما تلاه ، ثم إن (ذا القربى) مجمل عند المستدل ومن أين له أنه بين بذى الرحم المحرم، وكذلك قوله تعالى : (حقه) ثم قال : والحق أنه أمر بتوفير حقه من الصلة لا خصوص النفقة وصلة الرحم من الواجبات المؤكدة انتهى ، والحق أحق بالاتباع ، ودليل الامام عليه الرحمة ليس هذا وحده كما لا يخفى على علماء مذهبه *

وخص بعض الخطاب به صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : المراد بذى القربى بنو هاشم وبنو المطلب أمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤتيهم حقهم من الغنيمة والفىء ، وفى مجمع البيان للطبرسى من الشيعة المعنى وآت يا محمد ذوى قرابتك حقوقهم التى جعلها الله تعالى لهم من الأخماس . وروى أبو سعيد الخدرى . وغيره أنه لما نزلت هذه الآية أعطى عليه الصلاة والسلام فاطمة رضى الله تعالى عنها فدكا وسلمه اليها ، وهو المروى عن أبى جعفر . وأبى عبد الله انتهى ، وفيه ان هذا ينافى ما اشتهر عند الطائفتين من أنها رضى الله تعالى عنها

www.Quranpdf.blogspot.in

ادعت فدكا بطريق الارث ، وزعم بعضهم أنها ادعت الهبة وأتت على ذلك بعلي والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم وبام أيمن رضي الله تعالى عنها فلم يقبل منها لمكان الزوجية والبنوة وعدم كفاية المرأة الواحدة في الشهادة في هذا الباب فادعت الارث فكان ما كان وهذا البحث مذكور على أتم وجه في التحفة ان أردته فارجع اليه، وخص بعضهم (ابن السبيل) بالضيف وحقه بالاحسان اليه الى أن يرتحل والمشهور أنه المنقطع عن ماله وبين المعنيين عموم من وجه ، وقدم ذو القربى اعتناء بشأنه وهو السر في تقديم المفعول الثاني على العطف والعدول عن وآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم،وعبر عن القريب بذي القربى في جميع المواضع ولم يعبر عن المسكين بذي المسكنة لأن القرابة ثابتة لاتتجدد وذو كذا لا يقال في الأغلب إلا في الثابت ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرر منه الرأي الصائب فلان ذو رأي ويكاد لاتسمعهم يقولون لمن أصاب مرة في رأيه كذلك وكذا نظائر ذلك من قولهم : فلان ذو جاه.وفلان ذو اقدام، والمسكنة لكونها مما تطرأ وتزول لم يقل في المسكين ذو مسكنة كذا قال الامام : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الايتاء المفهوم من الأمر ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه أو خير من غيره ﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي ذاته سبحانه أي يقصدونه عز وجل بمعروفهم خالصا أو جهته تعالى أي يقصدون جهة التقرب اليه سبحانه لاجهة أخرى والمعنيان كما في الكشف متقاربان ولكن الطريقة مختلفة •

﴿ وَأُولَٰئِكَ ﴾ المتصفون بالايتاء ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٣٨ ﴾ حيث حصلوا بانفاق ما يفنى النعيم المقيم، والحصر إضافي على ما قيل : أي أولئك هم المفلحون لا الذين بخلوا بما لهم ولم ينفقوا منه شيئا •

وقيل: هو حقيقي على أن المتصفين بالايتاء المذكور هم الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأنابوا اليه تعالى واتقوه عز وجل فلا منافاة بين هذا الحصر والحصر المذكور في أول سورة البقرة فتأمل ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ الظاهر أنه أريد به الزيادة المعروفة في المعاملة التي حرمها الشارع واليه ذهب الجبائي وروى ذلك عن الحسن ويشهد له ماروى عن السدي من أن الآية نزلت في ربا ثقيف كانوا يربون وكذا كانت قريش ، وعن ابن عباس ومجاهد . وسعيد بن جبير . والضحاك . ومحمد بن كعب القرظي . وطاوس . وغيرهم أنه أريد به العطية التي يتوقع بها مزيد مكافاة وعليه فتسميتها ربا مجاز لأنها سبب للزيادة ، وقيل : لأنها فضل لايجب على المعطي •

وعن النخعي أن الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضيل عليهم وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم وهي رواية عن ابن عباس فالمراد بالربا العطية التي تعطى للاقارب للزيادة في أموالهم، ووجه تسميتها بما ذكر معلوم مما ذكرنا ، وأياما كان فمن بيان لما لا للتعليل •

وقرأ ابن كثير (أتيتم) بالقصر ومعناه على قراءة الجمهور أعطيتم وعلى هذه القراءة جئتم أي ما جئتم به من عطاء ربا ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ أي ليزيد ذلك الربا ويزكو في أموال الناس الذين آتيتموهم اياه ، وقال ابن الشيخ: المعنى على تفسير الربا بالعطية ليزيد ذلك الربا في جذب أموال الناس وجلبها، وفي معناه ما قيل ليزيد دلك بسبب أموال الناس وحصول شيء منها لكم بواسطة العطية ، وعن ابن عباس . والحسن . وقتادة . وأبي رجاء . والشعبي . ونافع . ويعقوب . وابي حيوة (لتربوا) بالتاء الفوقية مضمومة واسناد الفعل اليهم وهو باب الافعال المتعدية لواحد بهمزة التعدية والمفعول محذوف أي لتربوه وتزيدوه في أموال الناس أو هو من

www.Quranpdf.blogspot.in

قبيل يجرح فى عراقيبها نصلى أى لتربوا و تزيدوا أموال الناس، ويجوز أن يكون ذلك للصيرورة أى لتصيروا ذوى ربا فى أموال الناس. وقرأ أبو مالك (لتربوها) بضمير المؤنث وكان الضمير للربا على تأويله بالعطية أو نحوها ﴿فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ﴾ أى فلا يبارك فيه فى تقديره تعالى وحكمه عز وجل ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أى من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ﴾ تبتغون به وجهه تعالى خالصا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ أى ذوو الاضعاف على أن مضعفا اسم فاعل من أضعف أى صار ذا ضعف بكسر فسكون بان يضاعف له ثواب ما أعطاه كاقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار فهو اصيرورة الفاعل ذا أصله، ويجوز أن يكون من أضعف والهمزة للتعدية والمفعول محذوف أى الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة. ويؤيد هذا الوجه قراءة أبى (المضعفون) اسم مفعول، وكان الظاهر أن يقال: فهو يربو عند الله لأنه الذى تقتضيه المقابلة الا أنه غير فى العبارة اذ اثبت غير ماقبله وفى النظم اذ أتى فيما قبل بجملة فعلية وهنا بجملة اسمية مصدرة باسم الاشارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة فاثبت لهم المضاعفة التى هى أبلغ من مطلق الزياده على طريق التأكيد بالاسمية والضمير وحصر ذلك فيهم بالاستحقاق مع مافى الاشارة من التعظيم لدلالته على علو المرتبة وترك ما أتوا وذكر المؤتى الى غير ذلك، والالتفات عن الخطاب حيث قيل: فاولئك دون فانتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفا لحالهم، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بان يقصد باولئك هؤلاء وغيرهم، والراجع فى الكلام الى (ما) محذوف ان جعلت موصولة وكذلك ان جعلت شرطية على الاصح لأنه خبر على كل حال أى فأولئك هم المضعفون به او فمؤتوا على صيغة اسم الفاعل أولئك هم المضعفون، والحذف لما فى الكلام من الدليل عليه، وعلى تقدير مؤتوه العام لا يكون هناك التفات بالمعنى المتعارف، واعتبار الالتفات أولى، وفى الكشاف أن الكلام عليه أملأ بالفائدة وبين ذلك بان الكلام مسوق لمدح المؤتين حثا فى الفعل وهو على تقدير الالتفات من وجوه. احدها الاشارة باولئك تعظيما لهم والثانى تقريع الملئكة عليهم السلام بمدحهم. والثالث ما فى نفس الالتفات من الحسن. والرابع مافى أولئك على هذا من الفائدة المقررة فى نحو * فذلك ان يهلك فحسبي ثناؤه * بخلافه إذا جعل وصفا المؤتين وعلى ذلك التقدير يفيد تعظيم الفعل لا الفاعل وإن لزم بالعرض فلا يعارض مايفيده بالاصالة فتأمل، والآية على المعنى الاول للربا فى معنى قوله عز وجل: (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) سواء بسواء، والذى يقتضيه كلام كثير أنها تشعر بالنهى عن الربا بذلك المعنى لكن أنت تعلم أنها لو أشعرت بذلك لأشعرت بحرمة الربا بمعنى العطية التى يتوقع بها مزيد مكافاة على تقدير تفسير الربا بها مع أنهم صرحوا بعدم حرمة ذلك على غيره صلى الله تعالى عليه وسلم وحرمتها عليه عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: (ولا تمنن تستكثر) وكذا صرحوا بان ما ياخذه المعطى لتلك العطية من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام ودافعه ليس بآثم لكنه لا يثاب على دفع الزيادة لأنها ليست صلة مبتدأة بل بمقابلة ما أعطى أولا ولا ثواب فيما يدفع عوضا وكذا لا ثواب فى اعطاء تلك العطية أولا لأنها شبكة صيد، ومعنى قول بعض التابعين الجانب المستغزر يثاب من هبته أن الرجل الغريب إذا أهدى اليك شيئا لتكافئه وتزيده شيئا فاثبه من هديته وزده *

﴿اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ الظاهر أن الاسم

www.Quranpdf.blogspot.in

الجليل مبتدأ و (الذى) خبره والاستفهام إنكارى و (من شركائكم) خبر مقدم و (من) مبتدأ مؤخر و (من) فيه للتبعيض و (من ذلكم) صفة (شىء) قدمت عليه فاعربت حالا و (من) فيه للتبعيض ايضا و (شىء) مفعول يفعل و (من) الداخلة عليه مزيدة لتأكيد الاستغراق ، وجوز الزمخشرى أن يكون الاسم الجليل مبتدأ و (الذى) صفته والخبر (هل من شركائكم) الخ والرابط اسم الاشارة المشار به إلى أفعاله تعالى السابقة ـ فمن ذلكم ـ بمعنى من أفعاله ، ووقعت الجملة المذكورة خبرا لأنها خبر منفى معنى وان كانت استفهامية ظاهرا فكأنه قيل: الله الخالق الرازق المميت المحيى لا يشاركه شىء ممن لا يفعل أفعاله هذه ، وبعضهم جعلها خبرا بتقدير القول فكأنه قيل: الله الموصوف بكونه خالقا ورازقا ومميتا ومحييا مقول فى حقه هل من شركائكم من هو موصوف بما هو موصوف به •

وتعقب ذلك أبو حيان بأن اسم الاشارة لا يكون رابطا إلا إذا اشير به الى المبتدأ وهو هنا ليس اشارة اليه لكنه شبيه بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس وذلك فى قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) فان التقدير يتربصن أزواجهم فقدر الضمير بمضاف الى ضمير (الذين) فحصل به الربط •

وكذلك قدر الزمخشرى من ذلكم بمن افعاله المضاف إلى ضمير المبتدأ لكن لا يخفى ان الاضافة غير معتبرة وعلى تقدير اعتبارها يلزم تقدير مضاف آخر ، وجوز أن تكون (من) الأولى لبيان من يفعل ومتعلقها محذوف و (من يفعل) فاعل لفعل محذوف أى هل حصل واستقر من يفعل كائنا من شركائكم ، وكذا جوز فى (من) الثانية أن تكون لبيان المستغرق ، وقيل: إن من الأولى ومن الثانية زائدتان كالثالثة وهو كما ترى ، والآية على ماقلناه أولا متضمنة جملتين دلت الاولى على إثبات ماهو من اللوازم المساوية للالوهية من الخلق والرزق والاماتة والاحياء له عز وجل وأفادت الثانية بواسطة عكس السالبة الكلية نفيها رأسا عن شركائهم الذين اتخذوهم شركاء له سبحانه من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار ، والعقل حاكم بان مايتخذ شريكا كالذى اتخذ فى الحكم المذكور أعنى نفى تأتى تلك الافعال منه ، وإن شئت جعلت (شركائكم) شاملا للصنفين ويفهم من ذلك عدم صحة الشركة اذ لا يعقل شركة ما ليس باله لعدم وجود لازم الالوهية فيه لمن هو اله فى الالوهيـــة ولتأكيد ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٠ ٤ ﴾ اى عن شركهم ، والتعبير بالمضارع لما فى الشرك من الغرابة أو للاشعار باستمراره وتجدده منهم ، وأشار بعضهم إلى أن تينك الجملتين يؤخذ منهما مقدمتان موجبة وسالبة كلية مرتبتان على هيئة قياس من الشكل الثانى وان قوله تعالى: (سبحانه) الخ يؤخذ منه سالبة كلية هى نتيجة ذلك القياس فتكون الجملتان المذكورتان فى حكم قياس من الشكل الثانى ، وقوله تعالى: (سبحانه) الخ فى حكم النتيجة له ، ولا يخفى احتياج ذلك إلى تكلف فتأمل جدا. وقرأ الاعمش وابن وثاب (تشركون) بتاء الخطاب

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الصيادين والغاصــة ومحق البركات من كل شىء وقلة المنافع فى الجملة وكثرة المضار ، وعن ابن عباس اجدبت الارض وانقطعت مادة البحر وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر ، وقال مجاهد: ظهر الفســـاد فى البر بقتل ابن آدم أخاه وفى البحر بأخذ السفن غصبا ، وفى رواية عن ابن عباس بأخذ جلندى كل سفينة غصبا ، ولعل المراد التمثيل ، وكذا يقال فى قتل ابن آدم أخاه وكان اول معصية ظهرت فى البر ، قال الضحاك : كانت الارض خضرة مونقة لايأتى ابن آدم شجرة الا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لا يفترس الاســـد البقر ولا الذئب

www.Quranpdf.blogspot.in

الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعر ما فى الأرض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا زعافا وقصد الحيوان بعضه بعضا *

وذكر أن أول معصية فى البحر غصب جاندى كل سفينة تمر عليه فكأن تخصيص الأمرين بالذكر لذلك، وأياما كان فالبر والبحر على ظاهرهما ، وعن مجاهد البر البلاد البعيدة من البحر والبحر السواحل والمدن التى عند البحر والأنهار ، وقال قتادة : البر الفيافى ومواضع القبائل وأهل الصحارى والعمود والبحر المدن، والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها، ومنه قول سعد بن عبادة فى عبدالله بن أبى بن سلول ، ولقد أجمع أهل هذه البحيرة يعنى المدينة ليتوجوه *

قال أبو حيان : ويؤيد هذا قراءة عكرمة (والبحور) بالجمع وروبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وجوز النحاس أن يكون البحر على ظاهره إلا أن الكلام على حذف مضاف أى مدن البحر فهو مثل (واسأل القرية) وجوز أيضاً أن يراد بالفساد المعاصى من قطع الطريق والظلم وغيرهما ،و(أل) فى (البر والبحر) للجنس وكذا فى (الفساد) أى ظهر جنس الفساد من الجدب والموتان ونحوهما فى جنس البر وجنس البحر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ ﴾ أى بسبب مافعله الناس من المعاصى والذنوب وشؤمه وهذا كقوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، وهو على التفسير الأول للفساد ظاهر (وأما على تفسيره بالمعاصى فالمعنى ظهرت المعاصى فى البر والبحر بكسب الناس إياها وفعلهم لها، ومعنى قوله تعالى: ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١ ﴾ على الأول ظاهر وهو أن الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه وأما على الثانى فاللام مجاز على معنى أن ظهور المعاصى بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكأنهم إنما فسدوا وتسببوا لفشو المعاصى فى الأرض لأجل ذلك *

وقرأ السلمى . والأعرج. وأبو حيوة . وسلام . وسهل. وروح . وابن حسان . وقنبل من طريق ابن مجاهد. وابن الصباح . وأبى الفضل الواسطى عنه ومحبوب عن أبى عمرو لنذيقهم بالنون، وظهور الفساد المذكور على ماأخرجه ابن جرير. وابن أبى حاتم عن قتادة كان قبل أن يبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بعث عليه الصلاة والسلام رجع من رجع من الناس عن الضلال والظلم ، وقيل : كان أوائل البعثة وذلك أن كفار قريش فعلوا ما فعلوا من المعاصى والاصرار على الشرك وإيذاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم فاقحطوا وحل بهم من البلاء ما حل فأخبر الله سبحانه أن ذلك بسبب معاصيهم ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون *

وفسر هذا القائل :(الناس) بكفار قريش ، وقيل : كان فى زمان سابق على زمان النزول أعم من أن يكون الزمان الذى قبيل البعثة أو بعيدها أو غير ذلك ،وحكم الآية عام فى كل فساد يظهر إلى يوم القيامة ، ومن هنا قيل: من أذنب ذنباً يكون جميع الخلائق من الانس والدواب والوحوش والطيور والذر خصماءه يوم القيامة لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية فيتضرر بذلك أهل البر والبحر جميعا، وروى عن شقيق الزاهد أنه قال : من أكل الحرام فقد خان جميع الناس، ووجه تعلق الآية بما قبلها أن فيها نعى مايعم الشرك وغيره من المعاصى

www.Quranpdf.blogspot.in

وفيما قبل نعي الشرك وفيها من تخويف المشركين ما فيها *

وقال الامام : فى وجه التعلق هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله تعالى إظهارهم الشرك ، ورثا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والأرض كما قال سبحانه : (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) وإلى هذا أشار عز وجل بقوله سبحانه : (ولنذيقهم بعض الذى عملوا) انتهى، فتأمل وانصف. وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ مسوق لتأكيد تسبب المعاصى لغضب الله تعالى ونكاله حيث أمروا بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله تعالى الامم وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ويتحققوا صدق ماتقدم ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ٤٢ ﴾ استئناف للدلالة على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدمير جميعهم بل هو سبب للتدمير فى أكثرهم وما دونه من المعاصى سبب له فى قليل منهم *

وجوز أن يكون للدلالة على أن سوء عاقبتهم لفشو الشرك وغلبته فيهم ففيه تهويل لأمر الشرك بأنه فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ أى إذا كان الأمر كذلك فاقم وتمام الكلام فيما هنا يعلم مما تقدم فى هذه السورة الكريمة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ جوز أن يتعلق بمرد وهو مصدر بمعنى الرد ، والمعنى لا يرده سبحانه بعد أن يجىء به ولا رد له من جهته عز وجل فيفيد انتفاء ردغيره تعالى له بطريق برهانى، واعترض بأنه لو كان كذلك للزم تنوين (يوم) لمشابهته للمضاف *

وأجيب بأنه مبنى على ما قال ابن مالك فى التسهيل من أنه قد يعامل الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه وحمل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «لا مانع لما أعطيت» وتفصيله فى شرحه، وبعضهم جعله متعلقا بمحذوف يدل عليه «مرد» أى لا يرد من جهته تعالى أى لا يرده هو عز وجل ، وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هو أى الرد المنفى كائن من الله تعالى، والجملة استئناف جواب سؤال تقديره ممن ذلك الرد المنفى ؟ وقيل : هو متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير فى الظرف الواقع خبرا للا ، وقيل : متعلق بالنفى او بما دل عليه ، وقيل : متعلق بمحذوف وقع صفة ليوم ، وجوز كثير تعلقه بيأتى أى من قبل أن يأتى من الله تعالى يوم لا يقدر أحد أن يرده *

وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى وهو مع ذلك قليل الفائدة وارتضاه الطيبي فقال: هذا الوجه أبلغ لاطلاق الرد وتفخيم اليوم وان اتيانه من جهة عظيم قادر ذى سلطان قاهر ومنه يعلم أن ذلك ليس قليل الفائدة . نعم ان فيه الفصل الملبس وحال سائر الاوجه لا يخفى على ذى تمييز ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ يأتى ﴿ يَصَّدَّعُونَ ٤٣ ﴾ اصله يتصدعون فقلبت تاؤه صادا وادغمت والتصدع فى الاصل تفرق اجزاء الاوانى ثم استعمل فى مطلق التفرق أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وقيل : يتفرقون تفرق الاشخاص على ما ورد فى قوله تعالى: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) لا تفرق الفريقين فان المبالغة فى التفرق المستفادة من (يصدعون) إنما تناسب الأول، ورجح الثانى بأنه المناسب للسياق والسباق إذ الكلام فى المؤمنين والكافرين فما ذكر بيان

www.Quranpdf.blogspot.in

لتباينهم فى الدارين ويكفى للمبالغة شدة بعد ما بين المنزلتين حساً ومعنى وهو تفسير رواه عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر عن قتادة ، وروى أيضاً عن ابن زيد ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى وبال كفره وهى النار المؤبدة ففى الكلام مضاف مقدر أو الكفر مجاز عن جزائه بل عن جميع المضار التى لا ضرر وراءها ، وافراد الضمير باعتبار لفظ (من) وفيه اشارة إلى قلة قدرهم عند الله تعالى وحقارتهم مع ما علم من كثرة عددهم ، وجمعه فى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٤٤ ﴾ باعتبار معناها ، وفيه مع رعاية الفاصلة اشارة الى كثرة قدرهم وعظمهم عند الله تعالى ، و(يمهدون) من مهد فراشه وطأه أى يوطئون لأنفسهم كما يوطىء الرجل لنفسه فراشه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينبيه وينغص عليه مرقده من نتوء أو قضض أو بعض ما يؤذى الراقد فكأنه شبه حالة المكلف مع عمله الصالح وما يتحصل به من الثواب ويتخلص من العقاب بحالة من يمهد فراشه ويوطؤه ليستريح عليه ولا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه ، وجوز أن يكون المعنى فعلى أنفسهم يشفقون على أن ذلك من قولهم فى المثل للمشفق أم فرشت فأنامت فيكون الكلام كناية إيمائية عن الشفقة والمرحمة والاول أظهر ، والظاهر أن هذه التوطئة لما بعد الموت من القبر وغيره ، وأخرج جماعة عن مجاهد أنه قال: فلأنفسهم يمهدون أى يسوون المضاجع فى القبر وليس بذاك . وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص وقيل: للاهتمام ، ومقابلة من (كفر) بمن عمل صالحاً لا بمن آمن اما للتنويه بشأن الايمان بناء على أنه المراد بالعمل الصالح واما لمزيد الاعتناء بشأن المؤمن العامل بناء على أن المراد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبى والقالبى ويشعر بأن المراد بمن عمل صالحاً المؤمن العامل قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فانه علة ليمهدون وأقيم فيه الموصول مقام الضمير تعليلا للجزاء لما أن الموصول فى معنى المشتق والتعليق به يفيد علية مبدأ الاشتقاق ، وذكر (من فضله) للدلالة على أن الاثابة تفضل محض ، وتأويله بالعطاء أو الزيادة على ما يستحق من الثواب عدول عن الظاهر ، وجوز أن يكون ذلك علة ليصدعون والاقتصار على جزاء المؤمنين للاشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء بفحوى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٤٥ ﴾ فان عدم المحبة كناية عن البغض فى العرف وهو يقتضى الجزاء بموجبه فكأنه قيل: وليعاقب الكافرين . وفى الكشاف أن تكرير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده تعالى إلا المؤمن الصالح ، وقوله تعالى: (انه) الخ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس ويعنى بذلك كل كلامين يقرر الاول الثانى وبالعكس سواء كان صريحاً واشارة أو مفهوماً ومنطوقاً وذلك كقول ابن هانىء :

فما جازه جود ولا حل دونه * ولكن يصير الجود حيث يصير

وبيانه فيما نحن فيه أن قوله تعالى: (ليجزى الذين آمنوا) يدل بمنطوقه على ما قرر على اختصاصهم بالجزاء التكريمى وبمفهومه على أنهم أهل الولاية والزلفى ، وقوله سبحانه: (انه لا يحب الكافرين) لتعليل الاختصاص يدل بمنطوقه على أن عدم المحبة يقتضى حرمانهم وبمفهومه على أن الجزاء لأضدادهم موفر فهو جل وعلا محب للمؤمنين ، وذكر العلامة الطيبى الظاهر أن قوله تعالى: (فأقم وجهك للدين القيم) الآية بتمامها كالمورد للسؤال والخطاب لكل أحد من المكلفين وقوله تعالى: (من كفر فعليه كفره) الآية وارد على الاستئناف منطو على

www.Quranpdf.blogspot.in

الجواب فكأنه لما قيل: أقيموا على الدين القيم قبل مجيء يوم يتفرقون فيه فقيل: ما للمقيمين على الدين وما على المنحرفين عنه وكيف يتفرقون؟ فأجيب من كفر فعليه كفره الآية، وأما قوله سبحانه: (ليجزي الذين آمنوا) الآية فينبغي أن يكون تعليلا للكل ليفصل ما يترتب على ما لهم وعليهم لكن يتعلق بيمهدون وحده لشدة العناية بشأن الايمان والعمل الصالح وعدم الاعباء بعمل الكافر ولذلك وضع موضعه (إنه لا يحب الكافرين) انتهى فلا تغفل، وفي الآية لطيفة نبه عليها الامام قدس سره وهي أن الله عز وجل عند ما أسند الكفر والايمان إلى العبيد قدم الكافر وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن لأن قوله تعالى: (من كفر) وعيد للمكلف ليمتنع عما يضره لينقذه سبحانه من الشر وقوله تعالى: (ومن عمل صالحا) تحريض له وترغيب في الخير ليوصله إلى الثواب والانقاذ مقدم عند الحكيم الرحيم وأما عند الجزاء فابتدأ جل شأنه بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة *

هذا ولما ذكر سبحانه ظهور الفساد والهلاك بسبب المعاصي ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر عز وجل أنه بسبب العمل الصالح لأن الكريم يذكر لعقابه سببا لئلا يتوهم منه الظلم ولا يذكر ذلك لاحسانه فقال عز من قائل:

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ ﴾ الجنوب ومهبها من مطالع سهيل إلى مطالع الثريا والصبا ومهبها من مطالع الثريا إلى بنات نعش، والشمال ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر فانها رياح الرحمة وأما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريح العذاب، وذكر أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه فلذا كانت رحمة، وعن أبي عبيدة الشمال عند العرب للروح والجنوب للامطار والانداء والصبا لالقاح الاشجار والدبور للبلاء وأهونه أن تثير غبارا عاصفا يقذي العين وهي أقلهن هبوبا، وروى الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس من حديث ذكر فيه ما كان يفعله ويقوله ﷺ إذا هاجت ريح: «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» وهو مبني على أن الرياح للرحمة والريح للعذاب، وفي النهاية العرب تقول: لا تلقح السحاب الا من رياح مختلفة فكأنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم اجعلها لقاحا للسحاب ولا تجعلها عذابا ثم قال: وتحقيق ذلك مجيء الجمع في آيات الرحمة والواحد في قصص العذاب كالريح العقيم وريحا صرصرا، وقال بعضهم: أن ذاك لأن الريح إذا كانت واحدة جاءت من جهة واحدة فصدمت جسم الحيوان والنبات من جهة واحدة فتؤثر فيه أثرا أكثر من حاجته فتضره ويتضرر الجانب المقابل لعكس ممرها ويفوته حظه من الهواء فيكون داعيا الى فساده بخلاف ما اذا كانت رياحا فانها تعم جوانب الجسم فيأخذ كل جانب حظه فيحدث الاعتدال، وأنت تعلم أنه قد تفرد الريح حيث لا عذاب كما في قوله تعالى: (وجرين بهم بريح طيبة) وقوله سبحانه: (ولسليمان الريح) والحديث مختلف فيه فرمز السيوطي لحسنه، وقال الحافظ الهيثمي: في سنده حسين بن قيس وهو متروك وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن عدي في الكامل من هذا الوجه وأعله بحسين المذكور، ونقل تضعيفه عن أحمد والنسائي. نعم ان الحافظ عزاه في الفتح لأبي يعلى وحده عن أنس رفعه، وقال اسناده صحيح فليحفظ ذلك *

وقرأ ابن كثير والكسائي والاعمش (الريح) مفردا على ارادة معنى الجمع ولذا قال سبحانه: ﴿ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني المنافع التابعة لها كتذرية الحبوب وتخفيف العفونة وسقي الاشجار إلى غير ذلك من اللطف والنعم، وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها، ولا وجه للتخصيص، والواو للعطف، والعطف على علة محذوفة دل عليها (مبشرات) أي ليبشركم وليذيقكم أو على

www.Quranpdf.blogspot.in

(مبشرات) باعتبار المعنى فان الحال قد يقصد بها التعليل نحو أهن زيدا مسيئا أى لاساءته فكأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، وكونه من عطف التوهم توهم أو على (يرسل) باضمار فعل معلل والتقدير ويرسلها ليذيقكم، وكون التقدير ويجرى الرياح ليذيقكم بعيد قيل: أو على جملة ومن آياته الخ بتقدير وليذيقكم أرسلها أو فعل مافعل، ولم يعتبره بعضهم لأن المقصود اندراج الاذاقة فى الآيات، وقيل: الواو زائدة ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ فى البحر عند هبوبها ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ عز وجل وإنما جىء بهذا القيد لأن الريح قد تهب ولا تكون مواتية فلا بد من انضمام ارادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتى المطلوب، وقيل: للاشارة إلى أن هبوبها مواتية أمر من أموره تعالى التى لا يقدر عليها غيره عز وجل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٤٦ ﴾ أى ولتشكروا نعمة الله تعالى فيما ذكر ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ اعتراض لتسليته ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له عليه الصلاة والسلام والوعيد لمن عصاه، وفى ذلك أيضا تحذير عن الاخلال بمواجب الشكر *

والمراد بقومهم أقوامهم والافراد للاختصار حيث لا لبس والمعنى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى أقوامهم كما أرسلناك الى قومك ﴿ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى جاء كل قوم رسولهم بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ الفاء فصيحة أى فآمن بعض وكذب بعض فانتقمنا، وقيل. أى فكذبوهم فانتقمنا منهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للاشعار بالعلة والتنبيه على مكان المحذوف، وجوز أن تكون تفصيلا للعموم بأن فيهم مجرما مقهورا ومؤمنا منصورا ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧ ﴾ فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم واشعار بأن الانتقام لأجلهم، والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجوز تخصيص ذلك بالرسل بجعل التعريف عهديا، وظاهر الآية أن هذا النصر فى الدنيا، وفى بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الامة *

أخرج ابن أبى حاتم. والطبرانى. وابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مامن امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله تعالى أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا عليه الصلاة والسلام وكان حقا علينا نصر المؤمنين» وفى هذا اشعار بأن (حقا) خبر كان (ونصر المؤمنين) الاسم كما هو الظاهر، وانما أخر الاسم لكون ما تعلق به فاصلة وللاهتمام بالخبر اذ هو محط الفائدة على مافى البحر *

قال ابن عطية: ووقف بعض القراء على (حقا) على أن اسم كان ضمير الانتقام أى وكان الانتقام حقا وعدلا لا ظلما، ورجوعه اليه على حد (اعدلوا هو أقرب للتقوى) و (علينا نصر المؤمنين) جملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر المؤيد بالخبر وإن لم يكن فيه محذور من حيث المعنى ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ تحركه وتنشره ﴿ فَيَبْسُطُهُ ﴾ بسطا تاما متصلا تارة ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ فى سمتها لا فى نفس السماء بالمعنى المتبادر ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك فالجملة الانشائية حال بالتأويل ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ أى قطعا تارة أخرى *

وقرأ ابن عامر بسكون السين على أنه مخفف من المفتوح أو جمع كسفة أى قطعة أو مصدر كعلم وصف به مبالغة أو بتأويله بالمفعول أو بتقدير ذا كسف ﴿ فَتَرَى ﴾ يامن يصح منه الرؤية ﴿ الْوَدْقَ ﴾ أى المطر

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى فرجه جمع خلل فى التارتين الاتصال والتقطع فالضمير للسحاب وهو اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه ، وجوز على قراءة (كسفا) بالسكون أن يكون له ، وليس بشيء *

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بلادهم وأراضيهم، والباء فى (به) للتعدية ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٤٨ ﴾ فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ الودق ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى التنزيل ﴿ لَمُبْلِسِينَ ٤٩ ﴾ أى آيسين ، والتكرير للتأكيد ، وأفاد كما قال ابن عطية الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الابلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن (من قبل أن ينزل عليهم) يحتمل الفسحة فى الزمان فجاء (من قبله) للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال ، وقال الزمخشرى : أكد ليدل على بعد عهدهم بالمطر فيفهم منه استحكام يأسهم ، وماذكره ابن عطية أقرب لأن المتبادر من القبلية الاتصال وتأكيد دال على شدته . وأبو حيان أنكر على كلا الشيخين وقال : ماذكراه من فائدة التأكيد غير ظاهر وإنما هو عندى لمجرد التأكيد و يفيد رفع المجاز فقط ، وقال قطرب : ضمير (قبله) للمطر فلاتأكيد . وأنت تعلم أنه يصير التقدير من قبل تنزيل المطر من قبل المطر وهو تركيب لايسوغ فى كلام فصيح فضلا عن القرآن ، وقيل : الضمير للزرع الدال عليه المطر أى من قبل تنزيل المطر من قبل أن يزرعوا ، وفيه أن (من قبل أن ينزل) متعلق بمبلسين ولايمكن تعلق (من قبله) به أيضا لأن حرفى جر بمعنى لايتعلقان بعامل واحد إلا أن يكون بوساطة حرف العطف أو على جهة البدل ولا عاطف هنا ولايصح البدل ظاهرا ، وجوز بعضهم فيه بدل الاشتمال مكتفيا فيه بكون الزرع ناشئاً عن التنزيل فكان التنزيل مشتملا عليه وهو كما ترى *

وقال المبرد : الضمير للسحاب لأنهم لما رأوا السحاب كانوا راجين المطر ، والمراد من قبل رؤية السحاب ، ويحتاج أيضا الى حرف عطف حتى يصح تعلق الحرفين بمبلسين ، وقال على بن عيسى : الضمير للارسال ، وقال الكرمانى : للاستبشار لأنه قرن بالإبلاس ومن عليهم به ، وأورد عليهما أمر التعلق من غير عطف كما أورد على من قبلهما فان قالوا بحذف حرف العطف ففى جوازه فى مثل هذا الموضع قياسا خلاف * واختار بعضهم كونه للاستبشار على أن (من) متعلقة بينزل و(من) الاولى متعلقة بمبلسين لأنه يفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية فتأمل ، و(ان) مخففة من الثقيلة واللام فى لمبلسين هى الفارقة ، ولا ضمير شأن مقدرا لإن لأنه انما يقدر للمفتوحة وأما المكسورة فيجب اهمالها كما فصله فى المغنى ، وبعض الاجلة قال بالتقدير ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وأنواع الثمار ، والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه *

وقرأ الحرميان . وأبو عمرو . وأبو بكر (أثر) بالافراد وفتح الهمزة والثاء . وقرأ سلام (إثر) بكسر الهمزة واسكان الثاء ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يُحْيِي ﴾ أى الله تعالى ﴿ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فى حيز النصب بنزع الخافض و(كيف) معلق لانظر أى فانظر لإحيائه تعالى البديع للارض بعد موتها ، وقال ابن جنى : على الحالية بالتأويل أي محييا ، وأياما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظيم قدرته تعالى وسعة رحمته عز

www.Quranpdf.blogspot.in

وجل مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث *

وقرأ الجحدرى . وابن السميقع . وأبو حيوة (تحيي) بتاء التأنيث والضمير عائد على الرحمة ، وجوز على قراءة الحرميين ومن معهما أن يكون الضمير للاثر على انه اكتسب التأنيث من المضاف اليه ، وليس بشيء كما لا يخفى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ العظيم الشأن ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ لقادر على احيائهم فانه احداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض احداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ، وقيل : يحتمل أن يكون النبات الحادث من أجزاء نباتية تفتتت وتبددت واختلطت بالتراب الذى فيه عروقها فى بعض الأعوام السالفة فيكون كالاحياء بعينه باعادة المواد والقوى لا باعادة القوى فقط ، وهو احتمال واهى القوى بعيد ، ولا نسلم أن المسلم المسترشد يعلم وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الأشـــياء التى من جملتها احياؤهم لما أن نسبة قدرته عز وجل الى الـكل سواء *

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى النبات المفهوم من السياق كما قال ابو حيان أو الاثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بها على ماقاله بعضهم ، والنبات فى الأصل مصدر يقع على القليل والـكثير ثم سمى به ما ينبت ، وقال ابن عيسى : الضمير للسحاب لأنه اذا كان مصفرا لم يمطر ، وقيل : للريح وهى تذكر وتؤنث، وكلا القولين ضعيفان كما فى البحر *

وقرأ جناح بن حبيش (مصفارا) بألف بعد الفاء ، واللام فى (لئن) موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء (فى فرأوه) فصيحة ، واللام فى قوله تعالى : ﴿ لَظَلُّوا ﴾ لام جواب القسم الساد مسد الجوابين ؛ والماضى بمعنى المستقبل كما قاله أبو البقاء . ومكى . وأبو حيان . وغيرهم ، وعلل ذلك بأنه فى المعنى جواب (ان) وهو لا يكون الا مستقبلا ، وقال الفاضل اليمنى : انما قدروا الماضى بمعنى المستقبل من حيث أن الماضى اذا كان متمكنا متصرفا ووقع جوابا للقسم فلا بد فيه من قد واللام معا فالقصر على اللام لأنه مســـتقبل معنى وفيه نظر ، وقدروه بمضارع مؤكد بالنون أى وبالله تعالى لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفرا بعد خضرته ونضارته ليظلن ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الارسال أو من بعد اصفرار زرعهم ، وقيل : من بعد كونهم راجين مستبشرين ﴿ يَكْفُرُونَ ٥١ ﴾ من غير تلعثم نعمة الله تعالى ، وفيما ذكر من ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الافراط والتفريط مالا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله سبحانه فى كل حال ويلجؤا اليه عز وجل بالاستغفار اذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا الى الشكر بالطاعة اذا أصابهم جل وعلا برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وان يصبروا على بلائه تعالى اذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه جل شأنه فعكسوا الامر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يؤذيهم ، ولا يخفى ما فى الآيات من الدلالة على ترجيح جانب الرحمة على جانب العـذاب فلا تغفل *

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ تعليل لما يفهم من الكلام السابق كأنه قيل : لاتحزن لعدم اهتدائهم بتذكيرك فانك الخ ، وفى الـكشف اعلم أن قوله تعالى : (الله الذى يرسل الرياح) كلام سيق مقررا لما فهم

من قوله سبحانه : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) الآية لدلالته على أنه عز وجل ينتقم من المكذبين برسول الله ﷺ وينصر متابعيه فذكر فيه من البينات ما أجمل هنالك مما يدل على القدرة والحكمة والرحمة واختير من الادلة ما يجمع الثلاثة وفيه ما يرشد الى تحقيق طرفى الايمان أعنى المبدأ والمعاد وصرح بكفرانهم بالنعمة وذمهم فى الحالات الثلاث لأن ذلك مما يعرفه أهل الفطرة السليمة ويتخلق به وأدمج فيه دلالته على المعاد بقوله تعالى : (فانظر الى آثار رحمة الله) ولما فرغ من حديث ذمهم بنى على هذا المدمج وما دل عليه سياق الكلام من تماديهم فى الضلالة مثل هذه البينات التى لا أتم منها فى الدلالة فقال سبحانه : (فانك لا تسمع) الى قوله تعالى : (فهم مسلمون) وفيه انهم اذا لا محالة من الذين ينتقم منهم وأنك وأشياعك من المنصورين والله تعالى أعلم اه ، فتأمله مع ما ذكرنا *

وقد تقدم الكلام فى هذه الجملة خالية عن الفاء فى سورة النمل وكذا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ٥٢ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْىِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ٥٣ ﴾ بيد أنا نذكر هنا ما ذكره الأجلة فى سماع الموتى وفاء بما وعدنا هنالك فنقول ومن الله تعالى التوفيق : نقل عن العلامة ابن الهمام أنه قال : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالا بقوله تعالى :(إنك لا تسمع الموتى) ونحوها يعنى من قوله تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) ولذا لم يقولوا بتلقين القبر وقالوا : لو حلف لا يكلم فلانا فكلمه ميتا لا يحنث ، وحكى السفارينى فى البحور الزاخرة أن عائشة ذهبت إلى نفى سماع الموتى ووافقها طائفة من العلماء على ذلك ، ورجحه القاضى أبو يعلى من أكابر أصحابنا ـ يعنى الحنابلة ـ فى كتابه الجامع الكبير واحتجوا بقوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) ونحوه ، وذهبت طوائف من أهل العلم الى سماعهم فى الجملة

وقال ابن عبد البر : ان الأكثرين على ذلك وهو اختيار ابن جرير والطبرى وكذا ذكر ابن قتيبة وغيره ، واحتجوا بما فى الصحيحين عن أنس عن أبى طلحة رضى الله تعالى عنهما قال : « لما كان يوم بدر وظهر عليهم ـ يعنى مشركى قريش ـ رسول الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين رجلا وفى رواية أربع وعشرين رجلا من صناديد قريش فألقوا فى طوى أى بئر من أطواء بدر وان رسول الله ﷺ ناداهم يا أباجهل بن هشام . يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فانى قد وجدت ما وعد ربى حقا ؟ فقال عمر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » زاد فى رواية لمسلم عن أنس « ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسل عبيد بن مرزوق قال : « كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد فماتت فلم يعلم بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فمر على قبرها فقال عليه الصلاة والسلام : ماهذا القبر؟ فقالوا : أم محجن قال : التى كانت تقم المسجد ؟ قالوا : نعم فصف الناس فصلى عليها فقال ﷺ : أى العمل وجدت أفضل ؟ قالوا يارسول الله أتسمع ؟ قال : ما أنتم باسمع منها فذكر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته قم المسجد » وبما رواه البيهقى . والحاكم وصححه . وغيرهما عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد فقال : « أشهد أنكم أحياء عند الله تعالى فزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة » وبما أخرج ابن عبد البر وقال عبد الحق الاشبيلى اسناده صحيح عن ابن عباس مرفوعا « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن

www.Quranpdf.blogspot.in

كان يعرفه فى الدنيا يسلم عليه الاعرفه ورد عليه» وبما أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: «الروح بيد ملك يمشى به مع الجنازة يقول له: أتسمع ما يقال لك؟ فاذا بلغ حفرته دفنه معه» وبما فى الصحيحين من قوله ﷺ: «إن العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم» وأجابوا عن الآية فقال السهيلى: إنها كقوله تعالى: (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) أى ان الله تعالى هو الذى يسمع ويهدى *

وقال بعض الأجلة: إن معناها لا تسمعهم إلا أن يشاء الله تعالى أولا تسمعهم سماعا ينفعهم، وقد ينفى الشيء لانتفاء فائدته وثمرته كما فى قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) الآية، وهذا التأويل يجوز أن يعتبر فى قوله تعالى: (ولا تسمع الصم) ويكون نكتة العدول عن ـ فانك لاتسمع الموتى ولا الصم ـ إلى ما فى النظم الجليل العناية بنفى الاسماع ويجوز أن لا يعتبر فيه ويبقى الكلام على ظاهره ويكون نكتة العدول الاشارة إلى أن (لا تسمع) فى كل من الجملتين بمعنى *

وقال الذاهبون الى عدم سماعهم: الاصل عدم التأويل والتمسك بالظاهر الى ان يتحقق ما يقتضى خلافه، وأجابوا عن كثير مما استدل به الآخرون فقال بعضهم: إن ما وقع فى حديث أبى طلحة رضى الله تعالى عنه يجوز أن يكون معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مراد من قال: إنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام وهى من خوارق العادة، والكلام فى موافقها وهو الذى نفى فى آية (إنك لا تسمع الموتى) ونحوها وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» دون ما أنتم بأسمع لما يقال ونحوه منهم تأييد ما لذلك، وحديث أبى الشيخ مرسل وحكم الاستدلال به معروف، على أن احتمال الخصوصية قائم فيه أيضا: وفى صحيح البخارى قال قتادة: أحياهم الله تعالى يعنى أهل الطوى حتى أسمعهم قوله صلى الله تعالى عليه وسلم توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما، ويؤيد ما أخرج البخارى، ومسلم، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: «وقف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ ثم قال عليه الصلاة والسلام: إنهم الآن يسمعون ما أقول» حيث قيد صلى الله تعالى عليه وسلم سماعهم بالآن، وإذا قلنا، بأن الميت يسئل سبعة أيام فى قبره مؤمنا كان أو منافقا أو كافرا وانه حين السؤال تعاد اليه روحه كان لك أن تقول: يجوز أن يكون خطاب أهل القليب حين إعادة أرواحهم إلى أبدانهم للسؤال فانه كما فى حديث أخرجه أحمد، والبخارى، ومسلم، وابو داود، والترمذى، والنسائى كان فى اليوم الثالث من قتلهم، ويحتمل أن يكون خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم لأم محجن كان وقت السؤال بأن يكون ذلك قبل مضى سبعة أيام عليها، وعليه لا يكون سماعهم من المتنازع فيه لأنهم حين سمعوا إحياء لاموتى، ويرد على هذا أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. ولم ينكر ذلك عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بل قال عليه الصلاة والسلام له: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ولو كان الامر كما قال قتادة لكان الظاهر أن يقول صلى الله تعالى عليه وسلم له رضى الله تعالى عنه: ليس الأمر كما تقول ان الله عز وجل أحياهم لى أو نحو ذلك، وعائشة رضى الله تعالى عنها أنكرت ما وقع فى الحديث مما استدل به على المقصود، ففى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه قال: ذكر عند عائشة ان ابن عمر رفع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت:

www.Quranpdf.blogspot.in

وهل ابن عمر انما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « إنه ليعذب بخطيئته وذنبه وان أهله ليبكون عليه الآن » قالت: وذلك مثل قوله: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ماقال إنهم ليسمعون ما أقول انما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» ثم قرأت (إنك لا تسمع الموتى. وما أنت بمسمع من فى القبور) وتعقب ذلك السهيلى فقال: عائشة رضى الله تعالى عنها لم تحضر قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فغيرها ممن حضر أحفظ للفظه عليه الصلاة والسلام، وقد قالوا له: يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا ؟ فقال ماأنتم بأسمع لما أقول منهم قالوا: وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحالة عالمين يعنى كما تقول عائشة جاز أن يكونوا سامعين اه وهو كلام قوى، ولا يقدح عدم حضورها فى روايتها لأنه مرسل صحابي وهو محمول على أنه سمع ذلك ممن حضره أو من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو كان ذلك قادحا فى روايتها لقدح فى رواية ابن عمر السابقة فانه لم يحضر ايضا، ولا مانع من أن يكون النبى عليه الصلاة والسلام قال اللفظين جميعا فانه كما علم من كلام السهيلي لا تعارض بينهما، وقال بعضهم فيما رواه البيهقى، والحاكم وصححه، وغيرهما: انا لا نسلم صحته وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار، وان سلمنا صحته نلتزم القول بأن الموتى الذين لا يسمعون هم من عدا الشهداء أما الشهداء فيسمعون فى الجملة لامتيازهم على سائر الموتى بما أخبر عنهم من أنهم أحياء عند الله عز وجل، وقيل فى حديث ابن عبدالبر: ان عبد الحق وان قال إسناده صحيح إلا أن الحافظ ابن رجب تعقبه وقال: انه ضعيف بل منكر وفى حديث ابن ابى الدنيا انه على تسليم صحته لا يثبت المطلوب لأن خطاب الملك عليه السلام للروح الذى بيده وهو ليس بميت، وفى حديث الصحيحين من سماع العبد قرع نعال أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه إنه إذ ذاك تعود اليه روحه للسؤال فيسمع وهو حى والجمهور على عود الروح الى الجسد أو بعضه وقت السؤال على وجه لا يحس به أهل الدنيا إلا من شاء الله تعالى منهم ووراء ذلك مذاهب، فمذهب ابن جرير وجماعة من الكرامية أن السؤال فى القبر على البدن فقط وأن الله تعالى يخلق فيه إدراكا بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم، وعلى هذا المذهب يمكن أن يقال نحو ما قيل على الاول، ومذهب ابن حزم وابن ميسرة انه على الروح فقط، ومذهب ابى الهذيل واتباعه أن الميت لا يشعر بشيء أصلا إلا بين النفختين، والحق ان الموتى يسمعون فى الجملة وهذا على أحد وجهين، أولهما أن يخلق الله عز وجل فى بعض أجزاء الميت قوة يسمع بها متى شاء الله تعالى السلام ونحوه مما يشاء الله سبحانه سماعه اياه ولا يمنع من ذلك كونه تحت أطباق الثرى وقد انحلت منه هاتيك البنية وانفصمت العرى ولا يكاد يتوقف فى قبول ذلك من يجوز أن يرى أعمى الصين بقة أندلس، وثانيهما أن يكون ذلك السماع للروح بلا وساطة قوة فى البدن ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحس وتدرك مطلقا بعد مفارقتها البدن بدون وساطة قوى فيه وحيث كان لها على الصحيح تعلق لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا الله عز وجل بالبدن كله أو بعضه بعد الموت وهو غير التعلق بالبدن الذى كان لها قبله أجرى الله سبحانه عادته بتمكينها من السمع وخلقه لها عند زيارة القبر وكذا عند حمل البدن اليه وعند الغسل مثلا ولا يلزم من وجود ذلك التعلق والقول بوجود قوة السمع ونحوه فيها نفسها أن تسمع كل مسموع لما أن السماع مطلقا وكذا سائر

www.Quranpdf.blogspot.in

الاحساسات ليس الا تابعا للمشيئة فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن فيقتصر على القول بسماع ماورد السمع بسماعه من السلام ونحوه، وهذا الوجه هو الذي يترجح عندي ولا يلزم عليه التزام القول بأن أرواح الموتى مطلقا فى أفنية القبور لما أن مدار السماع عليه مشيئة الله تعالى والتعلق الذي لا يعلم كيفيته وحقيقته إلا هو عز وجل فلتكن الروح حيث شاءت أو لا تكن فى مكان كما هو رأى من يقول بتجردها *

ويؤخذ من كلام ذكره العارف ابن برجان فى شرح اسماء الله تعالى الحسنى تحقيق على وجه آخر وهو أن للشخص نفسا مبرأة من باطن ماخلق منه الجسم وهى روح الجسم وروحا أوجدها الله تبارك وتعالى من باطن ما برأ منه النفس وهى للنفس بمنزلة النفس للجسم فالنفس حجابها وبعد المفارقة فى العبد المؤمن تجعل الحقيقة الروحانية عامرة العلو من السماء الدنيا الى السماء السابعة بل الى حيث شاء الله تعالى من العلو فى سرور ونعيم وتجعل الحقيقة النفسانية عامرة السفل من قبره الى حيث شاء الله تعالى من الجو ولذلك لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم موسى قائما يصلى فى قبره وابراهيم عليه السلام تحت الشجرة قبل صعوده عليه الصلاة والسلام الى السماء ولقيهما عليهما السلام بعد الصعود فى السموات العلا فتلك أرواحهما وهذه نفوسهما وأجسادهما فى قبورهما وكذا يقال فى الكافر الا أن الحقيقة الروحانية له لا تكون عامرة العلو فلا تفتح لهم أبواب السماء بل تكون عامرة دار شقائها والعياذ بالله تعالى، وبين الحقيقتين اتصال وبوساطة ذلك ومشيئته عز وجل يسمع من سلم عليه فى قبره السلام ولا يختص السماع فى السلام عند الزيارة ليلة الجمعة ويومها وبكرة السبت أو يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها بل يكون ذلك فى السلام عند الزيارة مطلقا فالميت يسمع الله تعالى روحه السلام عليه من زائره فى أى وقت كان ويقدره سبحانه على رد السلام كما صرح به فى بعض الآثار *

وما أخرجه العقيلي من أنهم يسمعون السلام ولا يستطيعون رده محمول على نفى استطاعة الرد على الوجه المعهود الذى يسمعه الاحياء، وقيل: رد السلام وعدمه مما يختلف باختلاف الاشخاص فرب شخص يقدره الله تعالى على الرد ولا يثاب عليه لانقطاع العمل وشخص آخر لا يقدره عز وجل، وعندى ان التعلق أيضا مما يتفاوت قوة وضعفا بحسب الاشخاص بل وبحسب الازمان أيضا وبذلك يجمع بين الاخبار والآثار المختلفة *

وأما الجواب عن الآية التى الكلام فيها ونحوها مما يدل بظاهره على نفى السماع فيعلم مما تقدم فليفهم والله تعالى أعلم ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ مبتدأ وخبر أى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف اساس أمركم كقوله تعالى: (وخلق الانسان ضعيفا) فمن ابتدائية وفى الضعف استعارة مكنية حيث شبه بالاساس والمادة وفى ادخال من عليه تخييل، ويجوز أن يراد من الضعف الضعيف باطلاق المصدر على الوصف مبالغة أو بتأويله به أو يراد من ذى ضعف والمراد بذلك النطفة أى الله تعالى الذى ابتدأ خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة كقوله تعالى: (من ماء مهين) وهذا التفسير وان كان مأثورا عن قتادة الا ان الاول أولى وأنسب بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بابدانكم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ اذا أخذ منكم السن والمراد بالضعف هنا ابتداؤه ولذا أخر الشيب عنه أو الاعم فقوله سبحانه: (شيبة) للبيان أو للجمع بين تغيير قواهم وظواهرهم، وفتح عاصم. وحمزة ضاد (ضعف) فى الجمع وهى قراءة عبد الله. وأبى رجاء *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ الجمهور بضمها فيه والضم والفتح لغتان في ذلك كما في الفقر والفقر الفتح لغة تميم والضم لغة قريش، ولذا اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قراءة الضم كما ورد في حديث رواه أبو داود · والترمذي وحسنه . وأحمد. وابن المنذر · والطبراني · والدارقطني. وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال : قرأت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (الله الذي خلقكم من ضعف) أي بالفتح فقال: (من ضعف) يابني أي بالضم لأنها لغة قومه عليه الصلاة والسلام ولم يقصد صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك رد القراءة الاخرى لأنها ثابتة بالوحي أيضا كالقراءة التي اختارها ، وروى عن عاصم الضم أيضا ، وعنه أيضا الضم في الأولين والفتح في الاخير ، وروى عن أبي عبد الرحمن · والجحدري ، والضحاك الضم في الأول والفتح فيما بعد ﴿

وقرأ عيسى بضم الضاد والعين وهي لغة أيضا فيه· وحكى عن كثير من اللغويين ان الضعف بالضم ما كان في البدن والضعف بالفتح ما كان في العقل، والظاهر انه لا فرق بين المضموم والمفتوح وكونهما مما يوصف به البدن والعقل، والمراد بضعف الثاني عين الاول، ونكر لمشاكلة (قوة) وبالاخير غيره فانه ضعف الشيخوخة وذاك ضعف الطفولية ، والمراد بقوة الثانية عين الاولى ونكرت لمشاكلة (ضعفا) وحديث النكرة اذا أعيدت كانت غير أغلبي ، وتكلف بعضهم لتحصيل المغايرة فيما نكر وكرر في الآية فتدبر ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ خلقه من الاشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة وخلقها اما بمعنى خلق أسبابها أو محالها واما ايجادها أنفسها وهو الظاهر ولا داعي للتأويل فانها ليست بعدم صرف ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الاحوال المختلفة مع امكان غيره من أوضح دلائل العلم والقدرة ﴿

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علما لها بالغلبة كالنجم للثريا والكوكب للزهرة ، والمراد بقيامها وجودها أو قيام الخلائق فيها ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا ﴾ أي ما أقاموا في القبور كما روي عن الكلبي· ومقاتل، والمراد به ما أقاموا بعد الموت ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ أي قطعة من الزمان قليلة ، وروي غير واحد عن قتادة انهم يعنون مالبثوا في الدنيا غير ساعة، ورجح الاول بأنه الاظهر لأن لبثهم مغيا بيوم البعث كما سيأتي ان شاء الله تعالى وليس لبثهم في الدنيا كذلك، وقيل: يعنون مالبثوا فيما بين فناء الدنيا والبعث وهو مابين النفختين، وفي الحديث الصحيح عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «ما بين النفختين أربعون قيل اربعون يوما يا أباهريرة قال أبيت قيل أربعون شهرا قال أبيت قيل أربعون سنة قال أبيت » وعنى بقوله رضي الله تعالى عنه أبيت : امتنعت من بيان ذلك لكم أو أبيت أن أسال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك، ولهذا الحديث قيل لا يعلم أهي أربعون سنة أم أربعون الف سنة · وحكى السفاريني في البحور الزاخرة عن بعضهم دعوى اتفاق الروايات على أن ما بين النفختين اربعون عاما ، وأنا أقول:الحق أنه لا يعلمه إلا الله تعالى ودعوى الاتفاق لم يقم عندي دليل عليها ﴿

وذكر الزمخشري أن ذلك وقت ينقطع عذابهم فيه واستقلوا مدة لبثهم كذبا على ماروى عن الكلبي أو نسيانا لما عراهم من هول المطالع على ما قيل، وجوز أن يكون استقلالهم تلك المدة بالاضافة إلى مدة عذابهم يومئذ ولا يبعد علمهم بها سواء كان هذا القول في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار ، وجوز أن يكونوا عدوا مدة بقائهم في الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها والكثير بلا نفع قليل كما أن القليل مع النفع كثير

www.Quranpdf.blogspot.in

فالكلام تأسف وتحسر على اضاعتهم أيام حياتهم ، و بين الساعة وساعة جناس تام مماثل كما أطبق عليه البلغاء إلا من لا يعتد به ولا يضر فى ذلك اختلاف الحركة الاعرابية ولا وجود أل فى احدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة ، وكذا لا يضر اتحاد مدلولهما فى الاصل لأن المعرف فيه كالمنكر بمعنى القطعة من الزمان لمكان النقل فى المعرف وصيرورته علما على القيامة كسائر الأعلام المنقولة وأخذ أحدهما من الآخر لا يضر أيضا كما يوضح ذلك ماقرروه فى جناس الاشتقاق ، وظن بعضهم أن الساعة فى القيامة مجاز ولذا أنكر التجنيس هنا إذ التجنيس المذكور لايكون بين حقيقة ومجاز فلاتجنيس فى نحو ركبت حمارا ولقيت حمارا معنيا تعنى رجلا بليدا واشتهر أنه لم يقع فى القرآن الكريم هذا النوع من الجناس الا فى هذا الموضع ، واستنبط شيخ الاسلام ابن حجر عليه الرحمة موضعا آخر وهو قوله تعالى (يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الأبصار) لان الأبصار الأول جمع بصر والابصار الثانى مراد به ماهو جمع بصيرة ، وتعقب بأنه وان كان الابصار الثانى مرادبه ماهو جمع بصيرة إلا أنه ليس من باب الحقيقة بل بطريق المجاز والاستعارة لأن البصيرة ماتجمع على أبصار بل على بصائر ، فقد قال علماء العربية : إن صيغة أفعال من جموع القلة لاتطرد إلا فى اسم ثلاثى مفتوح الفاء كبصر وأبصار أومكسورها كعنب وأعناب أو مضمومها كرطب وأرطاب ساكن العين كثوب وأثواب أومحركها كما تقدم وكعضد وأعضاد وفخذ وأفخاذ ، وصيغة فعائل من جموع الكثرة لا تطرد إلا فى اسم رباعى مؤنث بالتاء أو بالمعنى ثالثه مدة كسحابة وسحائب وبصيرة وبصائر وحلوبة وحلائب وشمال وشمائل وعجوز وعجائز وسعيد علم امرأة وسعائد فاستعيرت الأبصار للبصائر بجامع مابينهما من الادراك والتمييز وقد سمعت أن هذا النوع لا يكون بين حقيقة ومجاز فليحفظ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الافك ﴿ كَانُوا ﴾ أى فى الدنيا ﴿ يُؤْفَكُونَ ٥٥ ﴾ أى يصرفون عن الصدق والتحقيق ، والغرض من سوق الآية الاغراق فى وصف المجرمين بالتمادى فى التكذيب والاصرار على الباطل أومثل ذلك الافك كانوا يؤفكون فى الاغترار بماتبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة فسوق الكلام للتعجب من اغترارهم بلامع السراب والغرض أن يحقر عندهم مافيه من التمتعات وزخارف الدنيا كى يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبيل الرشاد فكأنه : قيل مثل ذلك الافك العجيب الشأن كانوا يؤفكون فى الدنيا اغترارا بماعدده ساعة استقصارا والصارف لهم هو الله تعالى أو الشيطان أو الهوى ، وأياما كان فليس ذاك إلا لسوء اختيارهم وخباثة استعدادهم ، وفى الآية على أحد الأقوال دليل على وقوع الكذب فى الآخرة من الكفرة *

واستدل بها بعضهم على نفى عذاب القبر ، وليس بشىء ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾ فى الدنيا من الملائكة أو الانس أومنهما جميعا ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى فى علمه وقضائه أوما كتبه وعينه سبحانه أو اللوح المحفوظ أو القرآن وهو قوله تعالى : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) وأياما كان فالجار والمجرور متعلق بماعنده *

وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وفيه من البعد ما فيه . ان الكلام على التقديم والتأخير والاصل وقال الذين أوتوا العلم والايمان فى كتاب الله لقد لبثتم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ والكلام رد لما قالوه مؤكد باليمين أو توبيخ وتفضيح وتهكم بهم فتأمل ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ الذى كنتم توعدون فى الدنيا والفاء فصيحة كأنه قيل : ان كنتم منكرين البعث فهذا يومه أى فنخبركم أنه قد تبين بطلان انكاركم

www.Quranpdf.blogspot.in

وجوز أن تكون عاطفة والتعقيب ذكرى أو تعليلية ﴿ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ ﴾ انه حق لتفريطكم فى النظر فتستعجلون به استهزاء، وقيل: لاتعلمون البعث ولا تعترفون به فلذا صار مصيركم الى النار ●

وقرأ الحسن (البعث) بفتح العين فيهما، وقرىء بكسرهما وهو اسم والمفتوح مصدر، وفى الآية من الدلالة على فضل العلماء مالا يخفى ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم اذ يقع ذلك من إقسام الكفار وقول أولى العلم لهم ﴿ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أى عذرهم ●

وقرأ الأكثر (تنفع) بالتاء محافظة على ظاهر الأمر للفظ وإن توسط بينهما فاصل ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧ ﴾ الاستعتاب طلب العتبى وهى الاسم من الاعتاب بمعنى إزالة العتب كالعطاء والاستعطاء أى لايطلب منهم إزالة عتب الله تعالى، والمراد به غضبه سبحانه عليهم بالتوبة والطاعة فانه قد حق عليهم العذاب، وان شئت قلت: أى لا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة وطاعة كما كان يقال لهم ذلك فى الدنيا، وقيل: أى لا يستقيلون فيستقالون بردهم الى الدنيا ●

وقال ابن عطية: هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم الاعتذار ولا يعطون عتبى وهى الرضا و(يستعتبون) بمعنى يعتبون كما تقول يملك ويستملك والباب فى استفعل أنه طلب الشىء وليس هذا منه لأن المعنى يفسد إذا كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبى انتهى، فجعل استفعل بمعنى فعل ●

وحاصل المعنى عليه على مافى البحر هم من الاهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب، وقيل: المعنى عليه هم لايعاتبون على سيا تهم بل يعاقبون، وما ذكرناه أولا هو الذى ينبغى أن يعول عليه، وياليت شعرى أين مالدعاه ابن عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه لا يطلب منهم عتبى على ماسمعت ●

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى وبالله تعالى لقد وصفنا للناس من كل صفة كأنها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل صفة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، فضرب المثل اتخاذه وصنعه من ضرب الخاتم واللبن ●

والمثل مجاز عن الصفة الغريبة، والمراد بهذا القرآن إما هذه السورة الجليلة الشأن أو المجموع وهو الظاهر، و(من) تبعيضيه وجوزت الزيادة، وقيل: المعنى وبالله تعالى لقد بينا للناس من كل مثل ينبؤهم عن التوحيد والبعث وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، فضرب بمعنى بين والمثل على أصله، وقيل: بمعنى الدليل العجيب والقرآن بمعنى المجموع ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ أى مع ضربنا لهم من كل مثل فى هذا القرآن الجليل الشأن لئن جئتهم بآية من آياته ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين لك وللمؤمنين ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨ ﴾ أى مزورون، وجوز حمل الآية على المعجزة أى لئن جئتهم بمعجزة من المعجزات التى اقترحوها ليقولن الذين كفروا الخ، والاتيان بالموصول دون الضمير لبيان السبب الحامل على القول المذكور، وإذا أريد بالناس مايعم الكفرة وغيرهم فوجه الاظهار ظاهر، وتوحيد الخطاب فى (جئتهم) على مايقتضيه الظاهر، وأما جمعه فى قولهم: (إن أنتم) فلئلا يبقى بزعمهم له عليه الصلاة

www.Quranpdf.blogspot.in

والسلام شاهد من المؤمنين حيث جعلوا الكل مدعين ، وقال الامام : فى توحيد الخطاب فى (جئتهم) وجمعه فى (أنتم) لطيفة وهى أن الله تعالى قال : إن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل عليهم السلام ويمكن أن يجاء بها يقولوا : أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون انتهى ، ولا يخفى أن ماذكرناه أحسن وألطف

﴿ كَذٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الطبع الفظيع ، وجوز أن يكون المعنى مثل ذلك القول ﴿ يَطْبَعُ ﴾ أى يختم ﴿ اللّهُ ﴾ الذى جلت عظمته وعظمت قدرته ﴿ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩ ﴾ أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها ، فان الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق ، ومن هنا قالوا : هو شر من الجهل البسيط ، وما ألطف ماقيل :

قال حمار الحكيم توما لو أنصفونى لكنت أركب

لأننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

واطلاق العلم على الطلب مجاز لما أنه لازم له عادة ، وقيل : المعنى يطبع الله تعالى على قلوب الذين ليسوا من أولى العلم ، وليس بذاك ، والمراد من (الذين لايعلمون) يحتمل أن يكون الذين كفروا فيكون قد وضع الموصول موضع ضميرهم للنعى بما فى حيز الصلة ، ويحتمل أن يكون عاما ويدخل فيه أولئك دخولا أوليا ﴿ وظاهر كلام بعض الأجلة يميل الى الاحتمال الأول ، وقد تقدم الكلام فى طبعه وختمه عز وجل على القلب ﴿

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى اذا علمت حالهم وطبع الله تعالى على قلوبهم فاصبر على مكارههم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ ﴾ وقد وعدك عز وجل بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولا بد من انجازه والوفاء به لا محالة ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لايحملنك على الخفة والقلق ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك بأباطيلهم التى من جملتها قولهم : (ان أنتم الا مبطلون) فانهم شاكون ضالون ولا يستبدع أمثال ذلك منهم ، وقيل : أى لا يوقنون بأن وعدالله حق وهو كما ترى ، والحمل وان كان لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم لكن النهى راجع اليه عليه الصلاة والسلام فهو من باب لا أرينك ههنا وقد مر تحقيقه فكأنه قيل : لا تخف لهم جزعا ، وفى الآية من ارشاده تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وتعليمه سبحانه له كيف يتلقى المكاره بصدر رحيب ما لا يخفى ﴿

وقرأ ابن أبى اسحق . ويعقوب (ولا يستحقنك) بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق ، والمعنى لا يفتننك الذين لا يوقنون ويكونوا أحق بك من المؤمنين على أنه مجاز عن ذلك لأن من فتن أحدا استماله اليه حتى يكون احق به من غيره ، والنهى على هذه القراءة راجع الى أمته عليه الصلاة والسلام دونه صلى الله تعالى عليه وسلم لمكان العصمة ، وقد تقدم نظائر ذلك وما للعلماء من الكلام فيها ﴿

وقرأ الجمهور بتشديد النون وخففها ابن ابى عبلة . ويعقوب ، ومن لطيف مايروى ما أخرجه ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والحاكم . والبيهقى فى سننه عن على كرم الله تعالى وجهه أن رجلا من الخوارج ناداه وهو فى صلاة الفجر فقال : (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه كرم الله تعالى وجهه وهو فى الصلاة (فاصبر ان وعد الله

www.Quranpdf.blogspot.in

حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) ولا بدع فى هذا الجواب من باب مدينة العلم وأخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا *

﴿ ومن باب الاشارة فى الآيات ﴾ (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) الى آخره ، قيل: الالف اشارة الى ألفة طبع المؤمنين واللام الى لؤم طبع الكافرين والميم الى مغفرة رب العالمين جل شأنه ، والروم اشارة الى القلب ، وفارس المشار اليهم بالضمير النائب عن الفاعل اشارة الى النفس ، والمؤمنون اشارة الى الروح والسر والعقل ، ففى الآية اشارة الى أن حال أهل الطلب يتغير بتغير الاوقات فيغلب فارس النفس روم القلب تارة ويغلب روم القلب فارس النفس بتأييد الله تعالى ونصره سبحانه تارة أخرى وذلك فى بضع سنين من أيام الطلب ويومئذ يفرح المؤمنون الروح والسر والعقل ، وعلى هذا المنهاج سلك النيسابورى: (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) فيه اشارة الى حال المحجوبين ووقوفهم على ظواهر الاشياء ، وما من شىء الا له ظاهر وهو ما تدركه الحواس الظاهرة منه ، وباطن وهو ما يدركه العقل باحدى طرق الادراك من وجوه الحكمة فيه ؛ ومنه ماهو وراء طور العقل وهو ما يحصل بواسطة الفيض الالهى وتهذيب النفس أتم تهذيب وهو وان لم يكن من مستنبطات العقل الا أن العقل يقبله ، وليس معنى أنه ما وراء طور العقل ان العقل يحيله ولا يقبله كما يتوهم ، ومما ذكرنا يعلم أن الباطن لا يجب أن يتوصل اليه بالظاهر بل قد يحصل لا بواسطته وذلك أعلى قدرا من حصوله بها ، فقول من يقول: انه لا يمكن الوصول الى الباطن الا بالعبور على الظاهر لا يخلو عن بحث (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى يسرون بالسماع فى روضة الشهود وذلك غذاء ارواحهم ونعيمها ، وأعلى أنواع السماع فى هذه النشأة عند السادة الصوفية ما يكون من الحضرة الالهية بالأرواح القدسية والاسماع الملكوتية ، وهذه الاسماع لم يفارقها سماع (ألست بربكم) واشتهر عندهم السماع فى سماع الاصوات الحسنة وسماع الاشياء المحركة لما غلب عليهم من الاحوال من الخوف والرجاء والحب والتعظيم وذلك كسماع القرآن والوعظ والدف والشبابة والاوتار والمزمار والحداء والنشيد وفى ذلك الممدوح والمذموم . وفى قواعد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الكبرى تفصيل الكلام فى ذلك على أتم وجه ، وسنذكر ان شاء الله تعالى قريبا ما يتعلق بذلك والله تعالى هو الموفق للصواب (فسبحان الله حين تمسون) الخ فيه اشارة الى أنه ينبغى استغراق الاوقات فى تنزيه الله سبحانه والثناء عليه جل وعلا بما هو سبحانه وتعالى أهله فان ذلك روضة هذه النشأة ، وفى الاثر ان حلق الذكر رياض الجنة (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) فيه اشارة الى ان الفرع لا يلزم أن يكون كأصله *

انما الورد من الشوك ولا ينبت النرجس الا من بصل

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها) فيه اشارة الى أن الاشتراك فى الجنسية من أسباب الالفة * ان الطيور على أشباهها تقع * (كل حزب بما لديهم فرحون) فيه اشارة الى أنه عز وجل لم يكره أحدا على ما هو عليه ان حقا وان باطلا ، وانما وقع التعاشق بين النفوس بحسب استعدادها وماهى عليه فأعطى سبحانه جلت قدرته كل عاشق معشوقه الذى هام به قلب استعداده وصار حبه ملء فؤاده وهذا

www.Quranpdf.blogspot.in

سر الفرح ، وماألطف ما قال قيس بن ذريح *

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن قبل ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس اذا متنا بمنفصم العقد
ولكنه باق على كل حادث وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

(وإذا مس الناس) الآية فيها إشارة إلى أن طبيعة الانسان ممزوجة من هداية الروح وإطاعتها ومن ضلال النفس وعصيانها ، فالناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية وانكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها رجعت أرواحهم إلى الحضرة ووافقتها النفوس على خلاف طباعها فدعوا ربهم منيبين اليه فاذا جاد سبحانه عليهم بكشف مانالهم ونظر جل وعلا باللطف فيما أصابهم عاد منهم من تمرد إلى عادته المذمومة وطبيعته الدنية المشؤمة (ظهر الفساد فى البر والبحر) الخ فيه إشارة إلى أن الشرور ليست مرادة لذاتها بل هى كبط الجرح وقطع الأصبع التى فيها آكلة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون) فيه إشارة لأهل الوراثة المحمدية أهل الارشاد بأن يصبروا على مكاره المنكرين المحجوبين الذين لايوقنون بصدق أحوالهم ولذا يستخفون بهم وينظرون اليهم بنظر الحقارة ويعيرونهم وينكرون عليهم فيما يقولون ويفعلون ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين وأن يحفظنا وأولادنا وإخواننا من الأمراض القلبية والقالبية بحرمة نبيه الأمين صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف

وهي ستون آية

[١] ﴿الٓمٓ ①﴾.

[٢] ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ②﴾.

[٣] ﴿فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③﴾.

[٤] ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④﴾.

[٥] ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾.

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ روى الترمِذيّ عن أبي سعيد الخُدرِيّ قال: لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك الْمُؤمنين فنزلت: ﴿ الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ ـ إلى قوله ـ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ﴾. قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديث غريب(١) من هذا الوجه. هكذا قرأ نصر بن عليّ الجَهْضَمِيّ ﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمّ منه. قال ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿ الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ قال: غَلَبَتِ وغُلِبَتِ، قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب؛ فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا؛ فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «ألا جعلته

(١) في نسخة الترمذي: «هذا حديث حسن غريب. . .».

إلى دون» ـ أراه قال العشر ـ قال قال أبو سعيد: والبِضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. ـ إلى قوله ـ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنصر اللهِ﴾. قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. ورواه أيضاً عن نِيار بن مُكْرَم الأَسْلَمِيّ قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصِيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. قال ناس من قريش لأبـي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين! أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فأرتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرّهان. وقالوا لأبـي بكر: كم تجعل البِضع؟ ثلاث سنين أو تسع[1] سنين؟ فسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه؛ قال فسَمَّوا بينهم ستّ سنين؛ قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبـي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبـي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وروى القُشَيْرِيّ وابن عطية وغيرهما: أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال: أسرّكم أن غَلبت الروم؟ فإن نبيّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أبـيّ بن خلف وأَميّة أخوه ـ وقيل أبو سفيان بن حرب ـ: يا أبا فَصِيل[2]! ـ يعرّضون بكنيته «يا أبا بكر» ـ فلْنَتَنَاحَبْ ـ أي نتراهن

(١) في جـ وك: «أو سبع».
(٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

في ذلك فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يحرم القمار[١]، وجعلوا الرّهان خمس قلائص[٢] والأجل ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «فهلا احتطت، فإن البِضع ما بين الثلاث والتسع والعشر! ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام، فغلبت الروم في أثناء الأجل، وقال الشعبيّ: فظهروا في تسع سنين. القشيرِيّ: المشهور في الروايات أن ظهور الروم كان في السابعة من غلبة فارس للروم، ولعل رواية الشعبي تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائص سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار؛ فأخبر رسول الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقاش وغيره: أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه لما أراد الهجرة مع النبيّ ﷺ تعلق به أُبيّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلا بالخطر[٣] إن غلبت؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أبيّ الخروج إلى أُحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً، ثم مات أبيّ بمكة من جرح جرحه النبيّ ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم. وقال الشعبيّ: لم تمض تلك المدّة حتى غلبت الروم فارس؛ وربطوا خيلهم بالمدائن، وبنوا رومِيَة؛ فَقَمَر[٤] أبو بكر أُبَيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته، فقال له النبيّ ﷺ: «تصدّق به» فتصدّق به. وقال المفسرون: إن سبب[٥] غلبة الروم فارس آمرأةٌ كانت في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال، فقال لها كسرى: أريد أن أستعمل أحد بنِيك على جيش أجهزه إلى الروم؛ فقالت: هذا هُرْمُز أرْوَغ من ثعلب وأحذر من صقر، وهذا فَرُّخان أحدّ من سِنان وأنفذ من نَبْل، وهذا شهر بزان[٦] أحلم من كذا، فآخْتَر؛ قال فآختار الحليم وولاّه، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

---

(١) في جـ: «الرهان». (٢) القلائص: جمع القلوص، وهي الفتية من الإبل.
(٣) الخطر (بالتحريك): الرهن، وما يخاطر عليه. (٤) قمرت الرجل: غلبته.
(٥) راجع هذا الخبر في تاريخ الطبري (٤/ ١٠٠٥ من القسم الأوّل طبع أوروبا).
(٦) هكذا ورد في كتب «التفسير». والذي في تاريخ الطبري: «شهر براز».

الروم. قال عكرمة وغيره: إن شهر بزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إليّ برأس فرخان فلم يفعل؛ فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعلمت عليكم فرُّخان وعزلت شهر بزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهر بزان؛ فأراد فَرُّخان قتل شهر بزان فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرُّخان، فقال شهر بزان لفرخان: إن كسرى كتب إليَّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتاب واحد؟ فردَّ المُلْك إلى أخيه، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى، فغلبت الروم فارس ومات كسرى. وجاء الخبر إلى النبيّ ﷺ يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾يعنى أرض الشام. عكرمة: بأذرعات، وهي ما بين بلاد العرب والشام. وقيل: إن قيصر كان بعث رجلاً يدعى يحنّس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين. و ﴿أدنى﴾ معناه أقرب. قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تنـوّرتهـا مـن أذرعـات وأهلُهـا بيثـرِبَ أدنـى دارِهـا نظـر عـالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرضِ كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة ﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ بفتح الغين واللام. وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم. قال أبو جعفر النحاس:

قراءة أكثر الناس ﴿غُلِبت الروم﴾ بضم الغين وكسر اللام. وروي عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا ﴿غَلَبَت الروم﴾ وقرأا ﴿سيُغلبون﴾. وحكى أبو حاتم أن عِصمة روى عن هارون: أن هذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقول: إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه، والحديث يدل على أن القراءة ﴿غُلِبَت﴾ بضم الغين، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوّة محمد ﷺ، لأن الروم غلبتها فارس، فأخبر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، وأن المؤمنين يفرحون بذلك، لأن الروم أهل كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل به مما لم يكن [علموه][1]، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ في الرهان، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونُسخ بتحريم القِمار. قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح، وأجمع الناس على ﴿سيغلِبون﴾ أنه بفتح الياء، يراد به الروم. ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضم[2] الياء في ﴿سيغلِبون﴾، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به. قال أبو جعفر النحاس: ومن قرأ ﴿سيُغلبون﴾ فالمعنى عنده: وفارس من بعد غلبهم، أي من بعد أن غَلَبوا، سيُغلبون. وروي أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري حديث الترمذِيّ، وروي أن ذلك كان يوم الحديبِية، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرّضوان؛ قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية: وفي كِلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، وفارس[3] من أهل الأوثان؛ كما تقدّم بيانه في الحديث. قال النحاس: وقول آخر وهو أولى ـ أن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى؛ إذ كان فيه دليل على النبوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه. قال ابن عطية: ويشبه أن يعلّل ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوّ الأصغر لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه؛ فتأمّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ

---

(١) زيادة عن النحاس.

(٢) في ك: بفتح الياء.

(٣) في ش: «كالمسلمين، فهم أقرب من أهل الأوثان...».

ترجّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه. وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبيّ عليه السلام يوم بدر؛ حكاه القُشَيْرِيّ.

قلت: ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك، فسروا بظهورهم على عدوّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله. وقرأ أبو حَيْوَة الشاميّ ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿من بعد غَلْبهم﴾ بسكون اللام، وهما لغتان؛ مثل الظَّعْن والظَّعَن. وزعم الفرّاء أن الأصل ﴿من بعد غلبتهم﴾ فحذفت التاء كما حذفت في قوله عز وجل: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ وأصله وإقامة الصلاة. قال النحاس: وهذا غلط لا يُخِيل[1] على كثير من أهل النحو؛ لأن ﴿إقام الصلاة﴾ مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله، فجعلت التاء عوضاً من المحذوف، و ﴿غلب﴾ ليس بمعتل ولا حذف منه شيء. وقد حكى الأصمعِيّ: طَرَد طَرَداً، وجَلَبَ جَلَباً، وحَلَبَ حَلَباً، وغَلَبَ غَلَباً؛ فأيّ حذف في هذا، وهل يجوز أن يقال في أَكَلَ أَكْلا وما أشبهه ـ: حذف منه؟. ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حذفت الهاء من ﴿بِضع﴾ فرقا بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في ﴿يوسف﴾[2] وفتحت النون من ﴿سِنِينَ﴾ لأنّه جمع مسلم. ومن العرب من يقول ﴿في بضع سنين﴾ كما يقول في ﴿غِسلين﴾ وجاز أن يُجمع سنة جَمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون؛ لأنه قد حذف منها شيء فجعل هذا الجمع عوضاً من النقص الذي في واحده؛ لأن أصل ﴿سنة﴾ سنهة أو سنوة، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه؛ هذا قول البصريين. ويلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول: الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو في أحد القولين، ولا يضمها أحد علِمناه.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بأنفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته فقال: ﴿لله الأمر﴾ أي إنفاذ الأحكام.

---

(١) أي لا يشكل، وهو من أخال الشيء اشتبه.   (٢) راجع ٩/١٩٧.

﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي من قبل هذه الغلبة ومن بعدها. وقيل: من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء. و ﴿مِن قبلُ ومِن بعدُ﴾ ظرفان بنيا على الضم؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف في التضمين فبنِيا، وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأضيف زال بناؤه، وكذلك هما فَضُمّا. ويقال: ﴿من قبلٍ ومِن بعدٍ﴾. وحكى الكسائي عن بعض بني أسد ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدُ﴾ الأوّل مخفوض منوّن، والثاني مضموم بلا تنوين. وحكى الفرّاء ﴿مِن قبلِ ومن بعدِ﴾ مخفوضين بغير تنوين. وأنكره النحاس وردّه. وقال الفرّاء في كتابه: في القرآن أشياء كثيرة، الغلط فيها بيّن، منها أنه زعم أنه يجوز ﴿من قبلِ ومن بعدِ﴾ وإنما يجوز ﴿من قبلٍ ومن بعدٍ﴾ على أنهما نكرتان. قال الزجاج: المعنى من متقدّم ومن متأخر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللهِ﴾ تقدم ذكره. ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني من أوليائه؛ لأن نصره مختصّ بغلبة أوليائه لأعدائه، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره، وإنما هو ابتلاء وقد يسمّى ظَفَرا. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

[٦] ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار وهم أكثر. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ على المصدر؛ أي وعد ذلك وعدا. ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني أمر معايشهم ودنياهم: متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون وكيف يبنون؛ قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها؛ والمعنى واحد. وقيل: هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر: ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾[1].

قلت: وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي. وقال أبو العباس المبرِّد: قسم كسرى أيامه فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ قال بعضهم:

ومن البليّة أن ترى لك صاحباً في صورة الرجل السميع المبصر
فطنٍ بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

[٨] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول، تعدّى إليه ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾ بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق. قال الزجاج: في الكلام حذف، أي فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه. ﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ قال الفرّاء: معناه إلا للحق؛ يعني الثواب والعقاب. وقيل: إلا لإقامة الحق. وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل. وقيل: بالحكمة؛ والمعنى متقارب. وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي أنه هو الحق وللحق خلقها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي للسموات والأرض أجل

(١) آية ٣٣ سورة الرعد ٩/ ٣٢٣.

ينتهيان إليه وهو يوم القيامة. وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء. وقيل: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي خلق ما خلق في وقت سمّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لكافرون بلقاء ربهم، على التقديم والتأخير؛ أي لكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إن زيداً في الدار لجالس. ولو قلت: إن زيداً لفي الدار لجالس جاز. فإن قلت: إن زيداً جالس لفي الدار لم يجز؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنِ وخبرِها، وإذا جئت بهما لم يجز أن تأتي بها. وكذا إن قلت: إن زيداً لجالس لفي الدار لم يجز.

[٩] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ أي قلبوها للزراعة؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾[1]. ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدّتهم. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات. وقيل: بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

[١٠] ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(١) راجع ١/٤٥٣.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ﴾ السّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن. وقيل: يعني بها هاهنا النار؛ قاله ابن عباس. ومعنى ﴿أساءوا﴾ أشركوا؛ دل عليه ﴿أن كذبوا بِآياتِ اللهِ﴾، ﴿السوءى﴾: اسم جهنم؛ كما أن الحسنى اسم الجنة. ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ﴾ أي لأن كذبوا؛ قاله الكسائي. وقيل: بأن كذبوا. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذكّرت لأن تأنيثها غير حقيقي. و ﴿السُّوءَىٰ﴾ خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. ﴿السوءى﴾ بالرفع اسم كان. ويجوز أن يكون اسمها التكذيب؛ فيكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا؛ ويكون السوءى مصدراً لأساءوا، أو صفة لمحذوف؛ أي الخَلّة السوءى. وروي عن الأعمش أنه قرأ ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءُ﴾ برفع السوء. قال النحاس: السوء أشدّ الشر؛ والسوءى الفعلى منه. ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ﴾ قيل بمحمد والقرآن؛ قاله الكلبيّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزل بهم. الضحاك: بمعجزات محمد ﷺ. ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

[١١] ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قرأ أبو عمرو وأبو بكر ﴿يرجعون﴾ بالياء. الباقون بالتاء. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ ﴿يُبْلَسُ﴾ بفتح اللام؛ والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته، ولم يؤمّل أن يكون له حجة. وقريب منه: تحيّر؛ كما قال العجاج:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَساً … قال نعم أعرفه وأبلسا[1]

(١) المكرس: الذي قد بعرت فيه الإبل وبوّلت فركب بعضه بعضاً.

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته. النحاس: ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف، وهو في القرآن غير منصرف. الزجاج: المبلِس الساكت المنقطع في حجته، اليائس من أن يهتدِي إليها. ﴿ولم يكن لهم مِن شركائِهِمْ﴾ أي ما عبدوه من دون الله ﴿شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ قالوا ليسوا بآلهة فتبرءوا منها وتبرأت منهم؛ حسبما تقدم في غير موضع.

[١٤] ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى ﴿أمّا﴾ دع ما كنا فيه وخذ في غيره. وكذا قال سيبويه: إن معناها مهما كنا[١] في شيء فخذ في غير ما كنا فيه. ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحاك: الروضة الجنة، والرياض الجنان. وقال أبو عبيد: الروضة ما كان في تسفُّل، فإذا كانت مرتفعة فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ؛ كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ[٢]
يضاحكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ ... مُـؤَزَّرٌ بعميـم النَّبْـتِ مُكْتهِـلُ[٣]
يـومـاً بـأطْيَـبَ منهـا نَشْـرَ رائحـةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُلُ[٤]

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي ترعة. وقد قيل في الترعة غير هذا. وقال القُشَيْرِيّ: والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) في ش وجـ «مهما يكن». (٢) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها.
(٣) قوله: «يضاحك الشمس» أي يدور معها حيثما دارت. وكوكب كل شيء معظمه؛ والمراد هنا الزهر. ومؤزر: مفعل من الإزار. والشرق: الريان الممتلىء ماء. والعميم: التام السن. والمكتهل: الذي قد بلغ وتم. (٤) النشر: الرائحة الطيبة. والأصل: جمع أصيل؛ وخص هنا الوقت لأن المنبت يكون فيه أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفيء عنه.

الغدير من البقول؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه. الجوهريّ: والجمع رَوْض ورِياض، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها. والرّوض؛ نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضة من ماء إذا غطّى أسفله. وأنشد أبو عمرو:

ورَوْضــةٍ سَقَيْــتُ منهــا نِضْــوَتِــي[1]

﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكرمون. وقيل ينعّمون؛ وقاله مجاهد وقتادة. وقيل يسرّون. السُّدّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح؛ ذكره الماورديّ. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور؛ ويقال: حبره يحبره (بالضم) حَبْرا وحَبْرَة؛ قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي ينعمون ويكرمون ويسرون. ورجل يَحْبُور[2] يفعول من الحبور. النحاس: وحكى الكسائيّ حبرته أي أكرمته ونعّمته. وسمعت عليّ بن سليمان يقول: هو مشتق من قولهم: على أسنانه حَبْرة أي أثر؛ فـ ﴿يحبرون﴾ يَتَبيّن عليهم أثر النعيم. والحبر مشتق من هذا. قال الشاعر:

لا تمـلأ الـدّلْـوَ وعَـرِّق[3] فيهـا أمـا تَـرَى حَبـارَ مــن يَسْقيهَـا

وقيل: أصله من التحبير وهو التحسين؛ فـ ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يحسَّنون. يقال: فلان حَسَن الحبر والسِّبْر إذا كان جميلاً حسن الهيئة. ويقال أيضاً: فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح)؛ وهذا كأنه مصدر قولك: حبَرتُه حَبْرا إذا حسّنته. والأوّل أسم؛ ومنه الحديث: «يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره» وقال يحيى بن أبي كثير ﴿في رَوْضَةٍ يُحبَرُونَ﴾ قال: السّمَاع[4] في الجنة؛ وقاله الأوزاعِيّ، قال: إذا أخذ أهل الجنة في السماع[4] لم تبق شجرة في الجنة إلا رَدّدَت الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال الأوزاعِيّ: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم. زاد غير الأوزاعِيّ: ولم تبق شجرة في الجنة إلا ردّدت، ولم يبق سِتر ولا باب إلا ارتج وأنفتح، ولم تبق حلقة

(١) النضو: الدابة التي أهزلتها الأسفار. (٢) اليحبور: الناعم من الرجال.
(٣) أعرقت الكأس وعرّقتها: أقللت ماءها. (٤) السماع: الغناء.

إلا طنت بألوان طنينها، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها فزَمَرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العِينِ إلا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويوحِي الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصواتٍ روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره: يا داود قم عند ساق عرشي فمجّدني؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها[1] وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيّ الحكيم رحمه الله. وذكر الثعلبيّ من حديث أبي الدّرداء أن رسول الله ﷺ كان يذكّر الناس؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفي أخريات القوم أعرابيّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابيّ! إن في الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة» فسأل رجل أبا الدّرداء: بماذا يتغنين؟ فقال: بالتسبيح. والخمصانِية: المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن، الضخمة الأسفل.

قلت: وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال. وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ على ما يأتي[2]. وقوله عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقد روي: «إن في الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار[3] فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشرِيّ.

---

(١) في ك: «ويحليها» بالحاء المهملة. وفي كتاب التذكرة: «ويخليها» بالخاء المعجمة.

(٢) راجع ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٣) في الأصول: «الأجراس».

[١٦] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الّذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتنَا﴾ تقدّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي بالبعث. ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: معذبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي نزل به؛ قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب.

[١٧] ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ الآية فيه ثلاثة أقوال: **الأوّل** ـ أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن؛ قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أن الآية تنبيه على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آية أخرى في ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾(١) وفي ذكر أوقات العورة. وقال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعت عليّ بن سليمان يقول: حقيقته عندي: فسبحوا الله في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصلاة؛ وهو **القول الثاني**. **والقول الثالث** ـ فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون؛ ذكره الماورديّ. وذكر القول

(١) راجع ٩/١١٠.

الأوّل، ولفظه فيه: فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لما تضمنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «تكون لهم سبحة يوم القيامة» أي صلاة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ اعتراض بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمه وآلائه. وقيل: معنى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوّل أظهر؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته؛ فيكون نوعاً آخر خلاف الصلاة، والله أعلم. وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار. وفي سورة ﴿سبحان﴾[1] بدأ بصلاة الظهر إذ هي أوّل صلاة صلاها جبريل بالنبيّ ﷺ. الماورديّ: وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلباً في أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل.

الثالثة ـ قرأ عكرمة ﴿حِيناً تُمْسُونَ وَحِيناً تُصْبِحُونَ﴾ والمعنى: حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه؛ فحذف فيه تحفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نفسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾[2]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريّ: العشِيّ والعشِية من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيته عشِية أمسِ وعشِيّ أمسِ. وتصغير العشِيّ: عشيان، على غير [قياس] مُكَبّرِه؛ كأنهم صغروا عَشْيَاناً، والجمع عُشَيّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيّة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاء (بالكسر[3] والمد) مثل العِشِيّ. والعِشاءان[4] المغرب والعتمة. وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غدونا غدوة سحراً بليلٍ   عِشاء بعد ما انتصف النهار

---

(١) راجع ١٠/ ٢١٠ (٢) راجع ١/ ٣٧٧ فما بعد.
(٣) من ك. (٤) في جـ: «والعشاء».

الماوردِيّ: والفرق بين المساء والعِشاء: أن المساء بُدُوّ الظلام بعد المغيب، والعِشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس.

[١٩] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

بيَّن كمال قدرته؛ أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس؛ وقد مضى في ﴿آل عمران﴾ بيان ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[١].

[٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) راجع ٤/٥٦.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي من علامات رُبُوبيّته ووَحْدانيّته أن خلقكم من تراب؛ أي خلق أباكم منه والفرع كالأصل، وقد مضى بيان هذا في ﴿الأنعام﴾(١). و ﴿أنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثاً؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح. ومعنى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي نساء تسكنون إليها. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من نطف الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوّاء، خلقها من ضِلع آدم؛ قاله قتادة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد: المودّة الجماع، والرحمة الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودّة والرحمة عطفُ قلوبهم بعضهم على بعض. وقال السدى: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقةُ؛ ورُوي معناه عن ٱبن عباس قال: المودّة حبُّ الرجل ٱمرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء. ويقال: إن الرجل أصله من الأرض، وفيه قوّة الأرض، وفيه الفرج الذي منه بُدىء خلقه فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقت المرأة سكنا للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية. وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فأوّل ٱرتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوّة، وذلك أن الفرج إذا تحمل(٢) فيه هيَّج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلق البُضْع منهنّ، قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾(٣) فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو ٱمرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها». وفي لفظ آخر: «إذا باتت المرأة هاجرة فِراش زوجِها لعنتها الملائكة حتى تُصبح». ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ تقدّم

---

(١) راجع ٦/٣٨٧. (٢) كذا في الأصل. (٣) راجع ١٣/١٣٢.

في ﴿البقرة﴾[1] وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ اللّسان في الفم؛ وفيه اختلاف اللغات: من العربيّة والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر الباريء. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾[2] أي للبَرّ والفاجر. وقرأ حفص: ﴿للعَالِمِينَ﴾ بكسر اللام جمع عالم. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحذِف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة؛ فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت، والتصرُف بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريد سماع تفهّم وتدبّر. وقيل: يسمعون الحق فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيصدّقونه؛ والمعنى متقارب. وقيل: كان منهم من إذا تُلِي القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع؛ فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ قيل: المعنى أن يريكم، فحذف ﴿أن﴾ لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

ألاَ أيّهذا اللائِمي أَحْضُرُ الوَغَى ... وأنْ أشْهَدَ اللَّذاتِ هل أنت مُخْلِدِي

وقيل: هو على التقديم والتأخير؛ أي ويريكم البرق من آياته. وقيل: أي ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق؛ كما قال الشاعر[3]:

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما ... أموتُ وأُخْرَى أبتغي العيش أكْدَحُ

وقيل: أي من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته؛ قاله الزجاج، فيكون عطف جملة على جملة. ﴿خَوْفاً﴾ أي للمسافر. ﴿وَطَمَعاً﴾ للمقيم؛ قاله قتادة. الضحاك:

---

(١) راجع ١/٢٥١. (٢) بفتح اللام قراءة نافع، وبها كان يقرأ المؤلف.

(٣) هو ابن مقبل؛ كما في شواهد سيبويه والخزانة.

﴿خَوْفاً﴾ من الصواعق، ﴿وَطَمَعاً﴾ في الغيث. يحيى بن سلام: ﴿خَوْفاً﴾ من البرد أن يهلك الزرع، ﴿وَطَمَعاً﴾ في المطر أن يحيي الزرع. ابن بحر: ﴿خَوْفاً﴾ أن يكون البرق بَرْقاً خُلَّباً لا يمطر، ﴿وَطَمَعاً﴾ أن يكون ممطراً؛ وأنشد قول الشاعر:

لا يكن بَرْقُك برقاً خُلّبا ... إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر:

فقد أرد المياه بغير زاد ... سوى عدّى لها برق الغمام

والبرق الخُلّب: الذي لا غيث فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِد ولا يُنْجِز: إنما أنت كبرقٍ خُلّب. والخُلّب أيضاً: السحاب الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلّب، بالإضافة. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدم. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ﴿أَنْ﴾ في محل رفع كما تقدم، أي قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد. وقيل: بتدبيره وحكمته؛ أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق. وقيل: ﴿بأمرِهِ﴾ بإذنه؛ والمعنى واحد. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبّث؛ كما يجيب الداعي المطاعَ مَدْعوُّه؛ كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً بأسمه فكأنما ... دعوت برأس الطَّود أو هو أسرع[١]

يريد برأس الطود: الصّدى أو الحجر إذا تَدَهْده. وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بـ ﴿ثم﴾ لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأوّلين. والآخرين إلا قامت تنظر؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[٢]. و ﴿إذا﴾ الأولى في قوله تعالى:

---

(١) رواية البيت كما في «اللسان»:

دعوت جليداً دعوة فكأنما ... دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال: وأبن الطود: الجلمود الذي يتدهدى من الطود. والطود: الجبل العظيم. وتدهده الحجر: تدحرج. في كتاب ما يعول عليه: دعوت خليداً... بالخاء المعجمة. (٢) راجع ١٥/ ٢٧٩.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وأجمع القراء على فتح التاء هنا في ﴿تَخْرُجُونَ﴾. واختلفوا في التي في ﴿الأعراف﴾ فقرأ أهل المدينة: ﴿ومنها تُخرجون﴾[1] بضم التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد. والمعنيان متقاربان، إلا أن أهل المدينة فرّقوا بينهما لنسق الكلام، فنسقُ الكلام في التي في ﴿الأعراف﴾ بالضم أشبه؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبه بنسق الكلام؛ أي إذا دعاكم خرجتم أي أطعتم؛ فالفعل [بهم][2] أشبه. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة؛ على ما تقدّم ويأتي. وقرىء: ﴿تخرجون﴾ بضم التاء وفتحها، ذكره الزَّمَخْشِريّ ولم يزد على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وعبدا. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ رُوي عن أبـي سعيد الخدرِيّ عن النبيّ ﷺ قال: «كلّ قنوت في القرآن فهو طاعة». قال النحاس: مطيعون طاعة انقياد. وقيل: ﴿قَانِتُونَ﴾ مقِرّون بالعبودية، إما قالة وإما دلالة؛ قاله عِكرمة وأبو مالك والسدّي. وقال ابن عباس: ﴿قَانِتُونَ﴾ مصلون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي قائم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾[3] أي للحساب. الحسن: كل له قائم بالشهادة أنه عبد له. سعيد بن جبير: ﴿قَانِتُونَ﴾ مخلصون.

[٢٧] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمّا بدْء خلقه فبعلوقه في الرّحم قبل ولادته، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث؛ فجعل ما علم من ٱبتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله

---

(١) راجع ٧/ ١٨١ فما بعد.

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس.

(٣) راجع ١٩/ ٢٥٢.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر: ﴿يُبْدِئُ الْخَلْقَ﴾ من أبدأ يبدىء؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(١). ودليل قراءة العامة قوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٢). و ﴿أَهْوَنُ﴾ بمعنى هيّن؛ أي الإعادة هيّن عليه؛ قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن. فأهون بمعنى هيّن؛ لأنه ليس شيء أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ وبقوله: ﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. والعرب تحمل أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سَمَكَ السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي دعائمه عزيزة طويلة. وقال آخر(٣):

لَعَمْرُكَ ما أدرِي وإني لأوْجَل ... على أيّنا تَعْدُو المنيّة أوّل

أراد: إني لوجِل. وأنشد أبو عبيدة أيضاً:

إني لأمْنَحُك الصّدود وإنَّني ... قَسَماً إليك مع الصُّدود لأمْيَلُ(٤)

أراد لمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَمنّى رجال أن أموت وإن أُمتْ ... فتلك سبيلٌ لست فيها بأوْحَدِ

أراد بواحد. وقال آخر:

لعمرك إن الزِّبرقان لباذل ... لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أي وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وهو عليه هين﴾. وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى أن الإعادة أهون عليه ـ أي على الله ـ من البداية؛ أي أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً؛ وقاله ابن عباس. ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم

---

(١) راجع ١٩/ ٢٩٤.
(٢) راجع ٧/ ١٨٧ فما بعد.
(٣) القائل هو معن بن أوس.
(٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصاري.

أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ للمخلوقين؛ أي وهو أهون عليه، أي على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفاً ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالاً ثم غلماناً ثم شباناً ثم رجالاً أو نساء. وقاله ٱبن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون أسهل؛ قال:

وهان على أسماء أن شطَّت النَّوَى يحـنّ إليهـا والـهٌ ويتـوق

أي سهل عليها، وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيء على الله بعزيز. عِكرمة: تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي ما أراده جلّ وعزّ كان. وقال الخليل: المثل الصفة؛ أي وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِد الْمُتَّقُونَ﴾ أي صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك[1]. وعن مجاهد: ﴿الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ قولُ لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي الذي له الوصف الأعلى، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله؛ ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ على ما نبيّنه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجاج: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوّل. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] تقدم.

[٢٨] ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(١) راجع ٩/ ٣٢٤.
(٢) راجع ١/ ٢٨٧. و٢/ ١٣١.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾؛ ثم قال: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فـ «ـمن» الأولى للابتداء؛ كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام. والآية نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك؛ قاله سعيد بن جبير. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله للمشركين؛ والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء.

الثانية - قال بعض العلماء: هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لما قال جل وعز: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا! فيقال لهم: فكيف يتصوّر أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعَمَى قلب! فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك، إذ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل؛ والقديمُ الأزليّ منزّه عن ذلك جلّ وعز.

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

[٢٩] ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي لا هادي لمن أضله الله تعالى. وفي هذا ردّ على القدرية. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

[٣٠] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قال الزجاج: ﴿فِطْرَتَ﴾ منصوب بمعنى اتبع فطرة الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ اتبع الدّين الحنيف واتبع فطرة الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ مصدر من معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فِطرة. وقيل: معنى ذلك اتبعوا دين الله الذي خلق الناسَ له؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على ﴿حَنِيفاً﴾ تاما. وعلى القولين الأوّلين يكون متصلا، فلا يوقف على ﴿حَنِيفاً﴾. وسميت الفِطْرة دِيناً لأن الناس يُخلقون له، قال جلّ وعز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. ويقال: ﴿عَلَيْهَا﴾ بمعنى لها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[2]. والخطاب بـ ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ للنبيّ ﷺ، أمره بإقامة وجهه للدِّين المستقيم؛ كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[3] وهو دين الإسلام. وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوّة على الجِدّ في أعمال الدين؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أمّتُه باتفاق من أهل التأويل. و ﴿حَنِيفاً﴾ معناه معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة.

الثانية ـ في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ في رواية على هذه الملة ـ أبواه يُهَوّدانه ويُنَصّرانه ويُمَجّسانه كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء[4] هل تُحِسّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم؛ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَر النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، في رواية: «حتى

(١) راجع ١٧/ ٥٥.
(٢) راجع ١٠/ ٢١٧.
(٣) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء.
(٤) أي سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها.

تكونوا أنتم تجدعونها» قالوا: يا رسول الله؛ أفرأيتَ من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». لفظ مسلم.

الثالثة ـ واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددّة؛ منها الإسلام؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيّ أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألاَ أحدّثكم بما حدّثني الله في كتابه، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً...» الحديث. وبقوله ﷺ: «خمس من الفطرة...» فذكر منها قصّ الشارب، وهو من سنن الإسلام؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار. وقال آخرون: الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها؛ أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب البداءة. والفاطر: المبتدىء؛ واحتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي ابتدأتها. قال المَرْوَزِيّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذه القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب التمهيد له: ما رسمه مالك في موطّئه وذكر في باب القدر[1] فيه من الآثار ـ يَدلّ على أن مذهبه في ذلك نحو هذا، والله أعلم. ومما احتجوا به ما روي عن كعب القُرَظِي في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةَ﴾[2] قال: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه، قال: وكان من الكافرين.

---

(١) في جـ، ش، ك: أبواب. (٢) راجع ٧/١٨٨ فما بعد.

قلت: قد مضى قول كعب هذا في ﴿الأعراف﴾ وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت: يا رسول الله، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه! قال: «أو غير ذلك يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرجه ابن ماجه في السنن. وخرج أبو عيسى الترمذيّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا؛ فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ـ ثم قال للذي في شماله ـ هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. . .» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن. وقالت فرقة: ليس المراد بقوله تعالى: ﴿فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ولا قوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة» العموم، وإنما المراد بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[١] وأخرج الذرّية من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخِضِر: طبع يوم طبع كافراً. وروى أبو سعيد الخُدْرِي قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار[٢]؛ وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال: «ألاَ إن بني آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَن القضاء حَسَن الطلب». ذكره حماد بن زيد بن سلمة[٣] في مسند الطيالسي قال: حدثنا عليّ بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثير في «لسان العرب»؛ ألا ترى إلى قوله

---

(١) راجع ٧/ ٣٢٤.
(٢) أي والشمس عالية.
(٣) لفظ «مسلمة» ساقط من جـ، ش.

عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] ولم تدمر السموات والأرض. وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة. وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي: تم الكلام عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنِيفاً﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾ أي فطر الله الخلق فِطرة إمّا بجنة أو نار، وإليه أشار النبيّ ﷺ في قوله: «كل مولود يولد على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس: من قال هي سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفِطرة المذكورة في القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدّل وتغيّر. وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة هي الخِلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه؛ فكأنه قال: كل مولود يولد على خِلْقة يعرِف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة؛ يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته. واحتجوا على أن الفطرة الخِلقة، والفاطر الخالق؛ لقول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ[٣] وَالأَرْضِ﴾ يعني خالقهن، وبقوله: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[٤] يعني خلقني، وبقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[٥] يعني خلقهن. قالوا: فالفطرة الخِلقة، والفاطر الخالق؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميّزوا. واحتجوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَج البَهيمةُ بهيمةً جمعاءَ ـ يعني سالمة ـ هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعة الأذن. فمثل قلوبَ بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعدُ وأنوفها؛ فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب[٦]. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة، فلما بلغوا ٱستهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فطِروا على شيء من الكفر والإيمان في أوّليّة أمورهم ما ٱنتقلوا عنه أبداً، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون. قالوا:

---

(١) راجع ١٦/٢٠٥. (٢) راجع ٦/٤٢٥. (٣) راجع ١٤/٣١٨ فما بعد.
(٤) راجع ١٥/١٧. (٥) راجع ١١/٢٩٦. (٦) راجع ٦/٣٣٥.

ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾(١) فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها. ومن الحجة أيضاً في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) و ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٣) ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٤) ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك. والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرة المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأن الإسلام والإيمان: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل. وأما قول الأوزاعي: سألت الزهرِيّ عن رجل عليه رَقَبة أيجزي عنه الصبيّ أن يعتقه وهو رضيع؟ قال نعم؛ لأنه وُلد على الفطرة يعنى الإسلام؛ فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأن حكمه حكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزِي في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٥) ولا في «أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدّره عليه» ـ دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمناً أو كافراً؛ لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أن الناس خلقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها؛ لأنه انفرد به عليّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة(٦) يتكلّم فيه. على أنه يحتمل قوله: «يولد مؤمناً» أي يولد ليكون مؤمناً، ويولد ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث «خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار» أكثر من مراعاة ما يختم به لهم؛ لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو ناراً، أو يعقل كفراً أو إيماناً.

---

(١) راجع ١٠/ ١٥١. (٢) راجع ١٧/ ٦٢ فما بعد.
(٣) راجع ١٩/ ٨٢ فما بعد. (٤) راجع ١٠/ ٢٣١ فما بعد.
(٥) راجع ٧/ ١٨٧ فما بعد. (٦) لفظة «شعبة» ساقطة من جـ.

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة، وشيخنا أبو العباس. قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدّة ومهيّأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به؛ فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تَعرِضهم العوارض؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تُحسّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليماً من الآفات، فلو تُرِك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرّف فيه[1] فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل؛ وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأول موافق له في المعنى، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة: من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، واختلاف الليل والنهار؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة، أعني جميع الأطفال، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذَّرّ أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ[2] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنا﴾[3]. ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بالرُّبوبية، وأنه الله لا إله غيره، ثم يُكتب العبد في بطن أمّه شقيًا أو سعيداً على

---

(١) لفظة «فيه» ساقطة من جـ. (٢) قراءة نافع، وبها كان يقرأ المؤلف.

(٣) راجع ٧/ ٣١٤ فما بعد.

الكتاب الأوّل؛ فمن كان في الكتاب الأوّل شقيًا عُمّر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوّل سعيداً عُمّر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيداً، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق. ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» يعني لو بلغوا. ودلّ على هذا التأويل أيضاً حديث البخاريّ عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبيّ ﷺ - الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه السلام: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الوِلدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة». قال فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين». وهذا نصّ يرفع الخلاف، وهو أصح شيء رُوي في هذا الباب، وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء؛ قاله أبو عمر بن عبد البر. وقد روي من حديث أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «لم تكن لهم حسنات فيجزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خدم لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلام في التفسير له. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب التذكرة، وذكرنا في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهْوَيه قال: حدّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم عن أبي رجاء العُطَارِديّ قال: سمعت ابن عباس يقول: لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو متقارباً ـ أو كلمة تشبه هاتين ـ حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرته لابن المبارك فقال: أيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت: فتأمر بالكلام؟ قال فسكت. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ هي الفقر والفاقة؛ وهذا حسن؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه؛ أي لا يشقى من خَلَقه سعيداً، ولا يسعد من خلقه شقيًا. وقال مجاهد: المعنى لا تبديل لدين الله؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِيّ، قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: وروي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أن المعنى: لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها؛ فيكون معناه النهي عن خِصاء الفحول من الحيوان. وقد مضى هذا في ﴿النساء﴾[1]. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك القضاء المستقيم؛ قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحساب البيّن. وقيل: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حكمه.

[٣١] ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختلِف في معناه، فقيل: راجعين إليه بالتوبة والإخلاص. وقال يحيى بن سلام والفرّاء: مقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب[2]؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأَسْلَت:

فإن تابوا فإن بني سليم   وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب وثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماوردِيّ: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أن أصله القطع؛ ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع؛ فكأنّ الإنابة هي الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع؛ مأخوذ[3] من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى؛ ومنه النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة. الجوهري:

(١) راجع ٥/٣٨٩ فما بعد.
(٢) لفظة «من الذنوب» ساقطة من جـ.
(٣) لفظة «مأخوذ» ساقطة من جـ.

وأناب إلى الله أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدة النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبتك ونيابتك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره. وانتصب على الحال. قال محمد بن يزيد: لأن معنى ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ فأقيموا وجوهكم منيبين. وقال الفرّاء: المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين. وقيل: انتصب على القطع؛ أي فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه، لأن الأمر له، أمرٌ لأمّته؛ فحسن أن يقول منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[1]. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي خافوه وامتثلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [بين أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾][2] وقد مضى هذا مبيناً ﴿في النساء[3] والكهف﴾ وغيرهما. ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ تأوّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدع. وقد مضى ﴿في الأنعام﴾[4] بيانه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرّقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وقاله قتادة ومَعْمَر. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليّ بن أبي طالب، أي فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد. ﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ أي فِرقا؛ قاله الكَلْبيّ. وقيل أدياناً؛ قاله مقاتل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي مسرورون معجبون، لأنهم لم يتبيّنوا الحق وعليهم أن يتبيّنوه. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض. وقول ثالث: أن العاصي لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم، والله أعلم. وزعم الفرّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينهم ﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. [النحاس: وإذا كان متصلاً بما قبله][2] فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف؛ كما قال جل وعز: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ ولو كان بلا حرف لجاز.

---

(١) راجع ١٨/١٤٧.
(٢) ما بين المربعين ساقط من جـ.
(٣) راجع ٥/ ١٨٠ و ١١/٦٩.
(٤) راجع ٧/١٤٩ و ٢٤٠

[٣٣] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي قَحْط وشِدّة ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون. ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم؛ أي إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرض وشدّة دعوا ربّهم؛ أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي عافية ونعمة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يشركون به في العبادة.

[٣٤] ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قيل: هي لام كي. وقيل: هي لام أمر فيه معنى التهديد، كما قال جل وعز: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]. ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد. وفي مصحف عبد الله ﴿وَليتَمَتّعوا﴾؛ أي مكّناهم من ذلك لكي يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب؛ مثل: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾. وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب؛ أي تمتعوا أيها الفاعلون لهذا.

[٣٥] ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً﴾ استفهام فيه معنى التوقيف. قال الضحاك: ﴿سُلْطَاناً﴾ أي كتابا؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس. وأضاف الكلام إلى الكتاب توسُّعاً. وزعم الفرّاء أن العرب تؤنّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليك السلطان. فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة؛ أي حجة

---

(١) راجع ١٠/٣٩٢ فما بعد.

تنطق بشرككم؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضاً. وقال عليّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سليط؛ مثل رغيف ورغفان، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾ الكلام في السلطان أيضاً مستوفى[1]. والسلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[2].

[٣٦] ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ يعني الخِصب والسّعة والعافية؛ قاله يحيى بن سلام. النّقاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعة؛ والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أي بالرحمة. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء وعقوبة؛ قاله مجاهد. السُّدّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي ييأسون من الرحمة والفرج[3]؛ قاله الجمهور. وقال الحسن: إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السرّ. قَنِط يَقْنَط، وهي قراءة العامة. وقَنَط يَقْنِط، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب. وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِط»[4] بالكسر فيهما؛ مثل حَسِب يَحْسِب. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدّة، ويبطَر عند النعمة؛ كما قيل:

كحمار السَّوء إن أعلفته ... رَمَحَ الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة؛ وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدّة.

[٣٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) راجع ٤/ ٢٣٣.
(٢) راجع ١٣/ ١٧٦ فما بعد.
(٣) في ك، ش: «الفرح» بالحاء.
(٤) راجع ١٠/ ٣٥.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

[٣٨] ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ لما تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق [لمن يشاء][1] ويقدِر أمر مَن وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنيّ. والخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد هو وأمته؛ لأنه قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمر بإيتاء ذي القربى لِقُرب رَحِمه؛ وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرّحِم. وقد فضّل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنّك لو أعطيْتها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك».

الثانية ـ واختلف في هذه الآية؛ فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث. وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم في البرّ على كل حال؛ وهو الصحيح. قال مجاهد وقتادة صلة الرّحِم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المراد بالقربى أقرباء النبيّ ﷺ. والأوّل أصح؛ فإن حقهم مبيّن في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾[2]. وقيل: إن الأمر بالإيتاء لذي القربى على جهة الندب. قال الحسن: ﴿حقَّه﴾ المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر. ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعم السائل الطوّاف؛ وابن السبيل: الضيف؛ فجعل الضيافة فرضاً، وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيَّناً في مواضعه[3] والحمد لله.

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك. (٢) راجع ٨/١.
(٣) راجع ٢/١٥ و ٢٤١، و ٨/١١ و ٩/٦٤.

الثالثة ـ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِين يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدّم في ﴿البقرة﴾[1] القول فيه.

[٣٩] ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ لمّا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضاً وجهه . وقرأ الجمهور : ﴿ آتَيْتُمْ ﴾ بالمد بمعنى أعطيتم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ ؛ بمعنى ما فعلتم من رِباً لِيَرْبُوَ ؛ كما تقول : أتيت صواباً وأتيت خطأ . وأجمعوا على المدّ في قوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾، والربا الزيادة وقد مضى في ﴿ البقرة ﴾ معناه[2] ، وهو هناك محرّم وهاهنا حلال ، وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ قال : الرِّبَا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الرّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى ، يُلتمس ما هو أفضل منه ، وعن الضحاك في هذه الآية : هو الرّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه[3] أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً ﴾ يريد هدية الرجل الشيء يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفي هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آية نزلت في هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ؛ فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي. وفي كتاب «النَّسائي»

(١) راجع ١/١٨١ . (٢) راجع ٣/٣٤٨ فما بعد. (٣) في جـ: «وليس فيه أجر».

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثَقيف على رسول الله ﷺ ومعهم هديّة [فقال: «أهدية أم صدقة][1] فإن كانت هدية فإنما يُبْتَغى بها وجه رسول الله ﷺ وقضاء الحاجة، وإن كانت صدقة فإنما يُبْتَغى بها وجه الله عز وجل» قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخعِي: نزلت في قوم يُعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم. وقال الشّعْبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يَجزِي به الخدمة لا يربو عند الله، وقيل: كان هذا حراماً على النبيّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[2] فنهى أن يعطى شيئاً فيأخذ أكثر منه عِوضاً. وقيل: إنه الربا المحرّم؛ فمعنى: ﴿لاَ يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه. قال السدّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربـي: صريح الآية فيمن يَهب يطلب[3] الزيادة من أموال الناس في المكافأة. قال المُهَلَّب: اختلف العلماء فيمن وهَبَ هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب مـن الموهوب له فله ذلك ؛ مثل هبة الفقير للغنيّ، وهبة الخادم لصاحبه ، وهبة الرجل لأميره ومَن فوقه ؛ وهو أحد قولي الشافعي . وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط ؛ وهو قول الشافعي الآخر . قال : والهبة للثواب باطلة لا تنفعه ؛ لأنها بيع بثمن مجهول . واحتج الكوفي بأن موضوع الهبة التبرع ، فلو أوجبنا فيها العِوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات ، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبة بخلاف ذلك . ودليلنا ما رواه مالك فـي موطئه عـن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : أيّما رجل وهب هبة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) ما بين المربعين ساقط من ش.
(٢) راجع ١٩/ ٦٦.
(٣) لفظة يطلب ساقطة من جـ وش.

منها. ونحوهُ عن عليّ رضي الله عنه قال: المواهب ثلاثة: مَوْهبة يراد بها وجه الله، وموهبة يراد بها وجوه الناس، وموهبة يراد بها الثواب؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثب منها، وترجم البخاريّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساق حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويُثيب عليها، وأثاب على لِقْحة[1] ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرجه الترمذي.

الثالثة ـ ما ذكره عليّ رضي الله عنه وفصّله من الهبة صحيح؛ وذلك أن الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها ـ أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغي عليها الثواب منه. والثاني ـ أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها. والثالث ـ أن يريد بها الثواب من الموهوب له؛ وقد مضى الكلام فيه. وقال ﷺ: «الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرىء ما نوى». فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وآبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًا حتى لا يكون كَلاًّ فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهمامن وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له في هبته؛ لا ثواب في الدنيا ولا أجر في الآخرة؛ قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[2] الآية.

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يثب بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها، على ظاهر قول عمر

(١) اللقحة (بكسر اللام وفتحها): الناقة الحلوب.
(٢) راجع ٣/ ٣١١.

وعليّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أن الهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمة كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقا؛ قاله ابن العربـي.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِيَرْبُوَ﴾ قرأ جمهور القرّاء السبعة: ﴿ليربو﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافع وحده: بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبـي. قال أبو حاتم: هي قراءتنا. وقرأ أبو مالك: ﴿لتربوها﴾ بضمير مؤنث. ﴿فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً له؛ وقد تقدّم في ﴿النساء﴾[(١)]. ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ﴾ قال ابن عباس: أي من صدقة. ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[(٢)]. وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾[(٢)]. وقال: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[(٣)] وفي معنى المُضْعفين قولان: أحدهما ـ أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم؛ أي هم أصحاب أضعاف، كما يقال: فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قوية، أوْ لَه أصحاب أقوياء. ومُسْمِن إذا كانت إبله سماناً. ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاشاً. ومضعِف إذا كانت إبله ضعيفة؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم». فالمخبث: الذي أصابه خبث، يقال: فلان رديء أي هو رديء؛ في نفسه. ومردِىء: أصحابهُ أردئاء.

---

(١) راجع ٥/ ٤١٠.
(٢) راجع ٣/ ٢٣٧ و ٣١٤.
(٣) راجع ٨/ ٣٢٤.

[٤٠] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ابتداء وخبر. وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا يفعل. ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لانهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

[٤١] ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ﴾ ٱختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر؛ فقال قتادة والسدّي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. وقال ٱبن عباس وعِكرمة ومجاهد: فساد البَرِّ قتلُ ٱبن آدم أخاه؛ قابيلُ قتل هابيل. وفي البحر بالْمَلِكِ الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا. وقيل: الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية. وعنه أيضاً: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقال عطية: فإذا قلّ المطر قلّ الغَوْص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر، وقال ٱبن عباس: إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ. وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش. وقيل: الفساد المعاصي وقطعُ السبيل والظلم؛ أي صار هذا العمل مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات؛ والمعنى كله متقارب. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة[١] وعند الناس؛ لا ما قاله بعض العُبّاد: أن البر اللسانُ، والبحر القلب؛ لظهور

(١) في جـ، ك: «في الفقه».

ما على اللسان وخفاء ما في القلب. وقيل: البَر: الفيافي، والبحر: القرى؛ قاله عكرمة. والعرب تسمي الأمصار البحار. وقال قتادة: البَرّ أهل العمود، والبحر أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر؛ وقاله مجاهد، قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جارٍ فهي بحر. وقال معناه النحاس، قال: في معناه قولان: **أحدهما** ـ ظهر الجَدْب في البر؛ أي في البوادي وقراها، وفي البحر أي في مدن البحر؛ مثل: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1]. أي ظهر قلة الغيث وغلاء السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ﴾ أي عقاب بعض ﴿ٱلَّذِي عَمِلُوا﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوّل مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذف واختصار دلّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يتوبون. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا﴾ لأن معظم الجزاء في الآخرة. والقراءة ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمِي وابن مُحَيْصن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم؛ أي نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا.

[٤٢] ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ليعتبروا بمن قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي كافرين فأهلكوا.

[٤٣] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) راجع ٩/ ٢٤٥ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجاج: أي أقم قصدك، واجعل جهتك اتباع الدّين القيم؛ يعني الإسلام. وقيل: المعنى أوضح الحق وبالغ في الإعذار، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يردّه الله عنهم، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه. ويجوز عند غير سيبويه ﴿لاَ مَرَدٌّ لَهُ﴾ وذلك عند سيبويه بعيد، إلا أن يكونَ في الكلام عطف. والمراد يوم القيامة. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه يتفرّقون. وقال الشاعر:

وكنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً ... من الدهر حتى قِيل لن يَتَصدّعا[1]

أي لن يتفرقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتفرّقون﴾ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. والأصل يتصدّعون؛ ويقال: تصدّع القوم إذا تفرّقوا؛ ومنه اشتق الصداع، لأنه يفرق شُعب الرأس.

[٤٤] ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي جزاء كفره. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح؛ ومنه: مهدُ الصبيّ. والمهاد الفراشُ، وقد مهدت الفراش مَهْداً: بسطته ووطّأته. وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها. وتمهيد العذر: بسطُه وقبوله. والتمهّد: التمكن. وروى ابن أبي نجِيح عن مجاهد ﴿فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر.

[٤٥] ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعي من قصيدة يرثي بها أخاه مالكاً مطلعها:

لعمري وما دهري بتأبين هالك ... ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله: «كندماني جذيمة» يعني جذيمة الأبرش وكان ملكاً. ونديماه: يقال لهما مالك وعقيل. ويضرب بهما المثل لطول ما نادماه، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثاً.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل يصدّعون ليجزيهم الله؛ أي ليميّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

[٤٦] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أي بالمطر لأنها تتقدّمه. وقد مضى في ﴿الحجِر﴾ بيانه[١]. ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني الغيث والخصب. ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ أي في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلّه مبينا[٢].

[٤٧] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات والحجج النيّرات ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حقًّا﴾ نصب على خبر كان، ﴿ونصر﴾ اسمها. وكان أبو بكر يقف على ﴿حَقًّا﴾ أي وكانَ عقابنا حقا، ثم قال: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ابتداء وخبر؛ أي أخبر بأنه لا يخلف[٣] الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا. وروي من حديث أبي الدَّرداء قال سمعت النبيّ ﷺ يقول: «ما من مسلم يَذُبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة ـ ثم تلا ـ وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين». ذكره النحاس والثعلبيّ والزّمخشرِيّ وغيرهم.

---

(١) راجع ١٠/١٥.

(٢) راجع ١/٣٨٨ و ٣٩٧ و ٢/١٩٤ فما بعد.

(٣) في جـ، ش: «أي أخبرنا به ولا . . .».

[٤٨] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

[٤٩] ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ قرأ ابن محيصن وابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿الريح﴾ بالتوحيد. والباقون بالجمع. قال أبو عمرو: وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد. وقد مضى في ﴿البقرة﴾(١) معنى هذه الآية وفي غيرها. ﴿كِسَفاً﴾ جمع كِسْفة وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر ﴿كِسْفا﴾ بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كسفة؛ كما يقال: سِدرة وِسدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذي بعده عائداً عليه؛ أي فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء [لا غير](٢) فالتذكير فيه حَسَن. ومن قرأ: ﴿كِسَفاً﴾ فالمضمر عنده عائد على السحاب. وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ﴾ ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالمطر. ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم . ﴿وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم . و ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ تكرير عند الأخفش معناه التأكيد؛ وأكثر النحويين على هذا القول ؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُ ب : إن ﴿ قبل ﴾ الأولى للإنزال والثانية للمطر ؛ أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلّ على الزرع المطر إذ بسببه يكون. ودلّ عليه أيضاً ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ على ما يأتي . وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ واختار هذا القول النحاس، أي من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي ليائسين. وقد تقدم ذكر السحاب(٣)

---

(١) راجع ٢/١٩٧ فما بعد. (٢) ما بين المربعين زيادة من ش وك.

(٣) راجع ٢/٢٠٠ فما بعدها.

[٥٠] ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني المطر؛ أي انظروا نظر استبصار واستدلال؛ أي استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿آثَارِ﴾ بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضاف إلى مفرد. والأثر فاعل ﴿يُحْيي﴾ .ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل. ومن قرأ: ﴿آثَارِ﴾ بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1]. وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الأَرْضَ﴾ بتاء؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة؛ أي كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار، «ويحيي» أي يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء. و ﴿كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ﴾ في موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر؛ والتقدير. فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب.

[٥١] ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيره. قال محمد بن يزيد: لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي، نحو أعجبني الدار وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر؛ والمعنى: فرأوا الأثر مصفرًّا؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدلّ على يبسه، وكذا السحاب يدلّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي لَيَظَلُّنّ؛ وحسن وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل؛ قاله الخليل وغيره.

---

(١) راجع ٩/٣٦٧ فما بعد.

[٥٢] ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ أي وَضَحت الحجج يا محمد؛ لكنهم لإلْفِهِم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولهم وعمِيت بصائرهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم. وهذا ردّ على القدرية. ﴿إِنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي لا تُسمع مواعظَ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهدايةَ. وقد مضى هذا في ﴿النمل﴾[1] ووقع قوله ﴿بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ هنا بغير ياء.

[٥٤] ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ذكر استدلالا آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى : ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ من نطفة ضعيفة وقيل: ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ أي في حال ضعف ؛ وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفاً ﴾ يعني الهرم . وقرأ عاصم وحمزة : بفتح الضاد فيهن، الباقون بالضم، لغتان، والضم لغة النبيّ ﷺ. وقرأ الجحدريّ: ﴿ من ضَعف ثم جعل من بعد ضَعْف ﴾ بالفتح فيهما؛ ﴿ ضُعْفاً ﴾ بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم . الجوهري : الضَّعف والضُّعف : خلاف القوّة . وقيل : الضعف بالفتح في الرأي ، وبالضم في الجسد ؛ ومنه الحديث في الرجل

(١) راجع ١٣/ ٢٣٣.

الذي كان يخدع في البيوع: «أنه يبتاع وفي عُقدته[١] ضعف». ﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني من قوّة وضعف. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبيره. ﴿الْقَدِيرُ﴾ على إرادته. وأجاز النحويون الكوفيون ﴿من ضَعَف﴾ بفتح العين، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً.

[٥٥] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يحلف المشركون. ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا رد لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحّ عن النبيّ ﷺ من غير طريق أنه تعوّذ منه، وأمر أن يتعوّذ منه؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله ، وبأبي أبي سفيان . وبأخي معاوية ؛ فقال لها النبيّ ﷺ : « لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر» في أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخاريّ وغيرهما. وقد ذكرنا منها جملة في كتاب (التذكرة). وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة؛ فعلى هذا قالوا: ﴿ما لبثنا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. [[٢]والقول الآخر ـ أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾[٣] كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون . قال الله عز وجل :][٢] ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كانوا يكذبون في الدنيا ؛ يقال : أُفِك الرجلُ إذا صُرف عن الصّدق والخير. وأرض مأفوكة: ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذِب لما هم فيه ، والقرآن يدلّ على غير ذلك ، قال الله عز وجل : ﴿كَذَلِكَ كَانُوا

(١) أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه. (٢) ما بين المربعين ساقط من ش.
(٣) راجع ١٩/ ٢٠٧ فما بعد.

يؤفكون﴾ أي كما صُرفوا عن الحق في قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا؛ وقال جل وعز: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُون﴾[1] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾[2].

[٥٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أوتُو الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ اختلف في الذين أوتوا العلم؛ فقيل الملائكة. وقيل الأنبياء. وقيل علماء الأمم. وقيل مؤمنو هذه الأمة. وقيل جميع المؤمنين؛ أي يقول المؤمنون للكفار ردّاً عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث. والفاء في قوله: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث. وحكى يعقوب عن بعض القراء وهي قراءة الحسن: ﴿إلى يوم البَعَث﴾ بالتحريك؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلْق. وقيل: معنى ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث؛ قاله مقاتل وقتادة والسّدي. القشيري: وعلى هذا ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه.

[٥٧] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) راجع ١٧/ ٣٠٥ فما بعد.

(٢) راجع ٦/ ٤٠٢.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذٍ. وقيل: لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع؛ يقال: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني، وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه. وسيأتي في ﴿فصلت﴾[1] بيانه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء.

[٥٨] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

[٥٩] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

[٦٠] ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي مِن كل مَثَل يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين. ﴿إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ أي تتبعون الباطل والسحر ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أدلّة التوحيد ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يستفزنّك عن دينك ﴿الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيّ ﷺ؛ والمراد أمّته؛ يقال: استخف فلان فلاناً أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ. وهو في موضع جزم بالنهي، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنيَ على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. ﴿الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع. وقد مضى في ﴿الفاتحة﴾[2].

---

(١) راجع ١٥/ ٣٥١ فما بعد. (٢) راجع ١/ ١٤٨ فما بعد.

❊ ❊ ❊

تفسير سورة لقمان

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

تقدم في أول سورة «البقرة» عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراباتها وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: هو ـ والله ـ الغناء. قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي

صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ـ فقال عبد الله: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا حُمَيْد الخراط عن عمار، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء: أنه سأل ابن مسعود عن قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: الغناء. وكذا قال ابن عباس، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، ومكحول، وعمرو بن شعيب، وعلي بن بذيمة.

وقال الحسن البصري: أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: والله لعله لا ينفق فيه مالاً، ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: عني بقوله: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: اشتراء المغنيات من الجواري. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي: حدثنا وكيع، عن خلاد الصفار، عن عُبَيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله ﷻ عليّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾. وهكذا رواه الترمذي وابن جرير، من حديث عُبَيد الله بن زحر بنحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وضُعف علي بن يزيد المذكور. قلت: علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء. والله أعلم. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله. وعلى قراءة فتح الياء، تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلاً للأمر القدري، أي: قُيضوا لذلك ليكونوا كذلك. وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزوا، يستهزىء بها. وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هزوا. وقال مجاهد أولى. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر وتصامّ وما به من صمم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة «الرعد» بما أغنى عن إعادته. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم. وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها. ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس ـ أيضاً ـ من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛

ولهذا قال: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: جهل وعمى، ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

اختلف السلف في لقمان، عليه السلام: هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النوبة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال الأوزاعي، رحمه الله: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب، لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر. وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الرَّبعيّ قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة. فذبحها، فقال: أخرج أطيب مُضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فمكث ما شاء الله ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها. فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما. فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا. وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً. وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين. وقال حكّام بن سَلْم، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين، مُصَفح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل. وذكر غيره: أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن داود، عليه السلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان، عليه السلام، عبداً أسود غليظ الشفتين، مُصَفَّح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا، قال: نعم. فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني. فهذه الآثار منها ما هو مُصرِّح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبداً قد مسَّه الرق ينافي كونه نبياً؛ لأن الرسل كان تبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة ـ إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة فقال: كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القِتْباني، عن عُمَر مولى غُفرة قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك وغشْيُهم بابك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك. قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عَبْدَة بن رَباح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أنه قال يوماً ـ وذُكر لقمان الحكيم ـ فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صَمْصَامة سكيتاً، طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخَّع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياها أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد، فماتوا فلم يبك عليهم. وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي. وقد ورد أثر غريب عن قتادة، رواه ابن أبي حاتم، فقال: حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة. قال: فأتاه جبريل

وهو نائم فذرَّ عليه الحكمة ـ أو: رش عليه الحكمة ـ قال: فأصبح ينطق بها. قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عَزْمَة لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليَّ. فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه، فالله أعلم. والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله، ﷻ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون. واسم ابنه: ثاران في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم. قال البخاري حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يَلْبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». ورواه مسلم من حديث الأعمش، به. ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البّر بالوالدين. كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾. قال مجاهد: مشقة وهن الولد. وقال قتادة: جهداً على جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف. وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليُذكِّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عبد الله بن أبي شيبة، ومحمود بن غَيْلان قالا: حدثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، وكان بعثه النبي ﷺ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت. وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعَيَّر بي، فيقال: «يا قاتل أمه». فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت، قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لكي مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأول أولى. وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صمّاء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم. وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾: أنها صخرة تحت الأرضين السبع، ذكره السُّدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالك، والثوري، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا والله أعلم، كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد: أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء، ليس لها باب ولا كُوّة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان». ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور. وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تُعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنبَسِط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله». قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وكذا روى العوفي وعكرمة عنه. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تكلّم وأنت معرض. وكذا رُوي عن مجاهد، وعكرمة، ويزيد بن الأصم، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن يزيد، وغيرهم. وقال إبراهيم النَّخعي: يعني بذلك: التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تُلفت أعناقُها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حُنى التَّغلَبي:

وكُنّا إذا الجبّارُ صعّر خدّه ... أقمنا له من ميله فتقوّما

وقال أبو طالب في شعره:

وكُنّا قديماً لا نقر ظُلامة ... إذ ما ثنوا صُعْر الرؤوس نُقيمها

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: جذلًا متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمران ابن أبي ليلى، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ثابت بن قيس بن شمّاس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه، فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور». فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس». ورواه من طريق أخرى بمثله، وفيه قصة

طويلة، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته. وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين. وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوتك أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه». وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه، من طرق، عن جعفر بن ربيعة به، وفي بعض الألفاظ: «بالليل»، فالله أعلم. فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني نهشل بن مُجَمِّع الضبي عن قزعة، عن ابن عمر، رضي الله عنه، قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيْمرة يحدث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل، مذلة بالنهار». وقال: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان، عن ضمرة، حدثنا السَّريّ بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك. وقال: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني: إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعني السلام ـ ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِلْ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم. وحدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضمرة، عن حفص بن عمر، رضي الله عنه، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد وعظتك موعظة لو وُعظها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصِّيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، حدثنا أبين بن سفيان المقدسي، عن خليفة ابن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن». قال أبو القاسم الطبراني: أراد الحبش.

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان، عليه السلام، لابنه، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً ونحن، نذكر منه مقاصده، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رُبَّ أشعث ذي طمرين يُصْفَح عن أبواب الناس، إذا أقسم على الله لأبره». ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ، فذكره، وزاد منهم البراء بن مالك. وروي أيضاً عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة». وقال أبو بكر بن سهل التميمي: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، عن عياش بن عباس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، رضي الله عنه، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة». حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عثَّام بن علي، عن حميد بن عطاء الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رُبَّ ذي طمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقال

أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره». وهذا مرسل من هذا الوجه. وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوف قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن من ملوك الجنة كُل أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم يُنصت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم». قال: وأنشدني عمر بن شبّة، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

ألا رُبّ ذي طمرين في مَنزل غداً ... زرابيه مَبثوثة ونمارقُه
قد اطّردَت أنهاره حَولَ قَصره ... وأشرق والتفّت عليه حدائقُه

وروي ـ أيضاً ـ من حديث عُبيد الله بن زحر، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «قال الله: من أغبط أوليائي عندي: مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع. إن صبر على ذلك». قال: ثم نقد رسول الله بيده وقال: «عُجّلت منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه». وعن عبد الله بن عمرو قال: أحب عباد الله إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أنعم عليك؟ ألم أعطك؟ ألم أسترك؟ ألم. . ؟ ألم. . . ؟ ألم أخمل ذكرك؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألا تُعرف فافعل، وما عليك ألا يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محموداً عند الله. وكان ابن مُحَيْريز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك. ثم قال:

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري، حدثنا ابن وهب، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسب امرىء من الشر ـ إلا من عصم الله ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم». وروي مثله عن إسحاق بن البهلول، عن ابن أبي فُدَيْك، عن محمد بن عبد الواحد الأخْنَسي، عن عبد الواحد بن أبي كثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً، مثله. وروي عن الحسن مرسلاً نحوه، فقيل للحسن: فإنه يشار إليك بالأصابع؟ فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق. وعن علي، رضي الله عنه، قال: لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسُر الأبرار، وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم، رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب: ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه. وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس. وقال سماك بن سلمة: إياك وكثرة الأخلاء. وقال أبان بن عثمان: إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم. وقال: حدثنا علي بن الجَعْد، أخبرنا شعبة، عن عَوْف، عن أبي رجاء قال: رأى طلحة قوماً يمشون معه، فقال: ذباب طمع، وفراش النار. وقال ابن إدريس، عن هارون بن عنترة، عن سليم بن حنظلة قال: بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال: إنها مذلة للتابع، وفتنة للمتبوع. وقال ابن عون، عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتبعه أناس، فقال: والله لو تعلمون ما أغلقُ عليه بابي، ما اتبعني منكم رجلان. وقال حماد بن زيد: كنا إذا مررنا على المجلس، ومعنا أيوب، فسلم، ردوا رداً شديداً فكان ذلك يغُمه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر: كان أيوب يطيل قميصه، فقيل له في ذلك، فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص، واليوم في تشميره. واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي ﷺ، فلبسهما أياماً ثم خلعهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما. وقال إبراهيم النّخعي: لا تلبس من الثياب ما يُشهر في الفقهاء، ولا ما يزدريك السفهاء. وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد، التي يُشتهر بها، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم. والثياب الرديئة التي يحتقر فيها، ويستذل دينه. وحدثنا خالد بن خداش: حدثنا حماد، عن أبي حسنة ـ صاحب الزيادي ـ قال: كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه

أكسية، فقال: إياكم وهذا الحمار النهاق. وقال الحسن، رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم، والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه، مالهم تفاقدوا. وفي بعض الأخبار أن موسى، عليه السلام، قال لبني إسرائيل: ما لكم تأتوني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وألينوا قلوبكم بالخشية.

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح، عن أنس، رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً. وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». وعن نوح بن عباد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد». وعن سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعاً: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»، وعن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار». وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرني أبي وعمي، عن جدي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج». وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله ﷺ، فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق». وقال يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ـ يبلغ به ـ قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»، وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء، به. وعن مسروق، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً». حدثنا عبد الله بن أبي بدر، حدثنا محمد بن عبيد، عن محمد بن أبي سارة، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه الأجر ويروح». وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون». وعن أبي أويس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً، أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يؤلفون ويألفون». وقال الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حسَّن الله خلق رجل وخُلُقه فتطعَمَه النار». وعن عبد الله بن غالب الحُدَّاني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»، وقال ميمون بن مهران، عن رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر». حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأحْمَسيّ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجل من قريش قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيىء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنكم لا تسعُون الناس بأموالكم، ولكن يسعُهم منكم بسط وجوه وحسن خلق». وقال محمد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدين.

فصل في ذم الكبر

قال علقمة، عن ابن مسعود ـ رفعه ـ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان». وقال إبراهيم بن أبي عَبْلَة، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، أكبه الله على وجهه في النار». حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب، وقال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود، عليهما السلام، ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع. حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليقذر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين. وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبار، ثم تلا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وقال الحسن: عجباً لابن آدم، يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر! يعارض جبار السموات، قال: حدثنا خالد بن خداش، حدثنا

حماد بن زيد، عن علي بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث. ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم. وقال الحسن، عن يحيى عن أبي قال: إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قزّحه وملّحه. وقال محمد بن الحسين بن علي ـ من ولد علي رضي الله عنه ـ: ما دخل قلب رجل شيء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك. وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق. ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يستخلف، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرء؟ فقال: له كالمعتزر إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية.

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه مرفوعاً: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه». ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وحدثنا محمد بن بكّار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزّناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره». و«بينما رجل يتبختر في برديه، أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وروى الزهري عن سالم، عن أبيه: «بينما رجل. . .» إلى آخره.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيؤون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرسال الرسل. ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبين يضيء. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزيهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلا تخفى عليه خافية. ثم قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلقٌ له وملك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددا. وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته. وقا الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مدادا، وقال الله: «إن من أمري كذا، ومن أمري كذا» لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية. يقول: لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاماً، لانكسرت الأقلام، وفنى ماء البحر. وبقيت. كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه. إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول. وقد روي أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود، قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؟ [الإسراء: ٨٥]، إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ «كلا». فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم». وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية. وهكذا روي عن عكرمة، وعطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كلّ شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه. وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر، رضي الله عنه، الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت». وقال ابن أبي الحاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جُريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر. إسناده صحيح. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]. ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل؟ فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرّة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي سخّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء. ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر. كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد ههنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: فالختّار: هو الغدّار. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر: أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معد يكرب:

وإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمَـيْـرٍ ... مـلأتَ يـديْـكَ مِـنْ غَـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة. فإنه يغر ابن آدم ويعدُه ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]. قال وهب بن منبه: قال عزير، عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي، وأرق نومي، فضرعت إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك أتضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع أرواح المصدقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر، ليس فيه رخصة، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد بغيره ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهُم همه ويبكي عوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره. رواه ابن أبي حاتم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي

مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك؛ ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بُريدة، سمعت أبي - بريدة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾». هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجوه. **حديث ابن عمر**: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾». انفرد بإخراجه البخاري فرواه في «كتاب الاستسقاء» من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري، به. ورواه في التفسير من وجه آخر فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، انفرد به أيضاً. ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عمر بن محمد؛ أنه سمع أباه يحدث، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾». **حديث ابن مسعود**، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾. وكذا رواه عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، به. وزاد في آخره: قال: قلت له: أنت سمعت من عبد الله؟ قال: نعم. أكثر من خمسين مرة. ورواه أيضاً عن وكيع، عن مسعر، عن عمرو بن مرة به. وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه.

حديث أبي هريرة: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق، عن جرير، عن أبي حيان، عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر». قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». فقال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذ ولدت الأمةُ ربَّتها، فذاك من أشراطها. وإذا كان الحفاة العُراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ . . . .﴾»، ثم انصرف الرجل فقال: «ردوه عليَّ». فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم». ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان»، ومسلم من طرق، عن أبي حيان، به. وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري. وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله وهو من أفراد مسلم.

حديث ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثنا عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: جلس رسول الله ﷺ مجلساً له، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام: أن تسلم وجهك لله ﷻ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله». قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت». قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره». قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد آمنت». قال: يا رسول الله، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان:

أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله، فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله. في خمس لا يعلمهن إلا هو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك؟». قال: أجل، يا رسول الله، فحدثني. قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربّتها ـ أو: ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها». قال: يا رسول الله، ومن أصحاب الشاء والحفاة والجياع العالة؟ قال: «العرب». حديث غريب، ولم يخرجوه.

حديث رجل من بني عامر: روى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن رجل من بني عامر؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرُجي إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولي له: فليقل: «السلام عليكم، أأدخل؟» قال: فسمعتُه يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن، فدخلت، فقلت: بم أتيتنا به؟ قال: «لم آتكم إلا بخير، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات؛ وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم». قال: فقال: فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: «قد علم الله ﷻ خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ﷻ: الـخـمـس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾». وهذا إسناد صحيح. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا جدبةٌ، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾. قال مجاهد: وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وقال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل؟ وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة»، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير، في مسند أسامة بن زيد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحفريّ، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن مطر بن عكامس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى الله ميتة عبد بأرض، جعل له إليها حاجة». وهكذا رواه الترمذي في «القدر»، من حيث سفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي ﷺ غير هذا الحديث. وقد رواه أبو داود في «المراسيل»، فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن أبي المليح بن أسامة، عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال: بها ـ حاجة». وأبو عزة هذا هو: يسار بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الهُذَلي. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل بن إبراهيم ـ وهو ابن عُلَيّة، وقال: صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يقدمها». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعي قالا: حدثنا عُمر بن علي، حدثنا إسماعيل، عن قيس، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة». ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمر بن علي المُقدّمي. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي مسيح

قال: أنشدني محمد بن الحكم لأعشي همدان:

فــمــا تــزوّد مــمّــا كــان يــجــمــعــه　　ســوى حَــنُــوط غَــدَاة الــبَــيْــن مَــعْ خــرق
وغَــيْــرَ نَــفْــحَــة أعْــوَاد تُــشَــبّ لَــهُ　　وقَــلّ ذلــك مِــنْ زاد لــمُــنْــطــلِــق!
لا تــأسَــيَــنّ عــلــى شــيء فــكُــلّ فــتــى　　إلــى مــنــيّــتــه ســيّــارٌ فــي عــنــق
وكُــلّ مَــنْ ظــنّ أنّ الــمــوت يُــخْــطِــئُــه　　مُــعَــلّــلٌ بــأعــالــيــل مــن الــحــمــق
بــأيّــمــا بــلْــدَة تُــقْــدَرْ مــنــيــتــه　　إن لا يُــسَــيّــرْ إلــيــهــا طــائــعــاً يُــسَــق

أورده الحافظ ابن عساكر، رحمه الله، في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى همدان، وكان الشعبي زوج أخته، وهو مُزَوّج بأخت الشعبي أيضاً، وقد كان ممن طلب العلم وتفقّه، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرف به. وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمر بن شبَّة، كلاهما عن عمر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثبته إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله ﷿، فتقول الأرض يوم القيامة: رب، هذا ما أودعتني». قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض، إلا جعل له إليها حاجة».

آخر تفسير سورة «لقمان» والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل

❋ ❋ ❋

(٣١) سورة لقمان مكية
وآياتها أربع وثلاثون

إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما (ولو أن ما فى الأرض من شجرة) الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) إشارة إلى كونه معجزة وقال (ولئن جئتهم بآية) إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً) .

وقوله ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾

فقوله (هدى) أى بياناً وفرقاناً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى) وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ، كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التى نزلت مع (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك إشارة إلى الكل أى آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى سورة البقرة (ذلك الكتاب) ولم يقل الحكيم ، وههنا قال (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال (هدى ورحمة) وقال هناك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

(هدى للمتقين) فقوله (هدى) فى مقابلة قوله (الكتاب) وقوله (ورحمة) فى مقابلة قوله (الحكيم) ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى ذات رضا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (للمتقين) وقال ههنا (للمحسنين) لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال (للمتقين) أى يهتدى به من يتق الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال (للمحسنين) أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتى بالإيمان والمتقى هو التارك للكفر ، كما قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال (للمحسنين) لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وقال ههنا (الذين يقيمون الصلاة) ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقى هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتى بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالا على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) قد ذكرنا ما فى الصلاة وإقامتها مراراً وما فى الزكاة والقيام بها ، وذكرنا فى تفسير الأنفال فى أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد . فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تتم العبودية .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الأول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

(الثالث) هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحمضوا ونقل عن النبي ﷺ أنه قال « روحوا القلوب ساعة فساعة » رواه الديلمي عن أنس مرفوعا ويشهد له ما في مسلم « ياحنظلة ساعة وساعة » والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة ، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فان الترويح به لا بغير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله (ليضل عن سبيل الله) كان فعله أدخل في القبح .

ثم قال تعالى (بغير علم) عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي (يتخذ السبيل هزواً أولئك لهم عذاب مهين) قوله (مهين) إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام ، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده ، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه ، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى ، فانه لا يكرمه . فقوله (عذاب مهين) إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر ، فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

أي يشترى الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه ، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها ، وهم ما كانوا يطلبونها ، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضاً مراتب (الأولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار ، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها ؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله ، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله ؟ (الثالث) قوله تعالى (كأن لم يسمعها) شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله (كأن في أذنيه وقراً) أدخل في الإعراض . ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أي له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده ، أو يقال إذا كان حاله هذا (فبشره بعذاب أليم) .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به ، فان من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : (إحداها) توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالا للراحة إلى القلب ، ولا يبين النقمة ، وإنما ينبه عليها تنبيهاً (الثالثة) قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله (مهين) وصرح فى الثواب بالخلود بقوله (خالدين فيها) ، (الرابعة) أكد ذلك بقوله (وعد الله حقاً) ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره (فبشره بعذاب) وقال ههنا بنفسه (وعد الله) ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) ولولا قوله (منه) لما عظمت البشارة ، ولو كانت (منه) مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة ، فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى (نزلا من غفور رحيم) والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو (العزيز الحكيم) كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغى ، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر .

ثم قال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال إنها مبسوطة كصفيحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله ، فضلا من أن ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى (كل فى فلك

www.besturdubooks.wordpress.com

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

يسبحون) والفلك اسم لشيء مستدير ، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع ، وإذا علم هذا فنقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله (بغير عمد) أى ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهى لاتزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها وبمجوعها لامكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا ، وهناك وعلى هذا قالوا إن من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز إذ يقال له هو ههنا وهناك ، وليس فى مكان إذ لا يعتمد على شيء ، فاذا حصل على الأرض حصل فى مكان ، إذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله (ترونها) فيه وجهان : (أحدهما) أنه راجع إلى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) أنه راجع إلى العمد أى بغير عمد مرئية ، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وإرادته .

ثم قال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

أى جبالا راسية ثابتة (أن تميد) أى كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لاتميد ، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع إلى موضع ، ثم قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضى يناسب بعض الحيونات لكانت الدابة التى لاتعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب ، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ، ثم قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء) هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده ، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات ، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة فى باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلا من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا . ثم إن

www.besturdubooks.wordpress.com

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

بكراً قال قولا حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الأول طبيعى والآخر اختيارى للحيوان ، ولكن لا يشك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى ، فقال (وأنزلنا من السماء) (الثانى) هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان ، متكثرة فى كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى (فأنبتنا فيها من كل زوج) أى من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذى هو الشجر إما أن يكون مثمراً ، وإما أن يكون غير مثمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى (كريم) أى ذى كرم ، لأنه يأتى كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض .

قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) أى بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فانه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ماسواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب . وأما الذى تولى لايصل إلى المقصود أصلا ، وإن دام فى السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم فى غير موضعها أو الواضعون أنفسهم فى عبادة غير الله .

ثم قال تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم

www.besturdubooks.wordpress.com

بإشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبى عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمه وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذى يدل على ماذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وإنما يكون مبخوتاً ، ألا ترى أن من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلوعن مفسدة ، لعدم علمه به أولا ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون فى فعله . ثم الذى يدل على ماذكرنا قوله تعالى (أن اشكر لله) فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله (أن اشكر لله) وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فان اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة ، وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة فى شىء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضى . ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غنى حميد) أى الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفى الآية مسائل ولطائف (الأولى) فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغى أن يكون قد أوتى الحكمة (والجواب) أن قوله تعالى (أن اشكر لله) أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفى الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى ، وإن كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد ، كقول القائل : من دخل دارى فهو حر ، ومن يدخل دارى فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغى أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغى أن يكرر ، والكفر ينبغى أن ينقطع فمن كفر ينبغى أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله ، بل أبداً يكون منه شىء فى العدم يريد الشاكر إدخاله فى الوجود ، كما قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) وكما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فأشار إليه بصيغة المستقبل . تنبيهاً على أن الشكر بكماله لم يوجد . وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضى .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى هنا (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران ، وقال فى سورة الروم (ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله (ومن عمل صالحاً) يحقق ماذكرنا أولا ، لأن المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لامرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله (ومن كفر فان الله غنى) عن حمد الحامدين ، حميد فى ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علو مرتبة الانسان بأن يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله (أن اشكر) إشارة إلى الكمال وقوله(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) إشارة إلى التكميل ، وفى هذا لطيفة وهى أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى أرشد الأجانب والأقارب فان إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة فى تعليم الأباعد فلا ، ثم إنه فى الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) فى عبادة الخسيس أولأنه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع فى موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطى عمراً يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد فى يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق . وأما الإشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلا .

ثم قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين أنها غير ممتنعة ، بل هى واجبة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال (حملته أمه) يعنى لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء. فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده . وفصاله فى عامين ، أى صارت بقدرته أيضاً سبب بقائه ، فاذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة ، فان الخدمة لها صورة العبادة ، فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفى الأب ماوجد فى الأم فان الأب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله (أن اشكرلى ولوالديك) لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال (أن اشكرلى ولوالديك) ثم بين الفرق وقال (إلى المصير) يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة ، فان إلى المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

يعنى أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية فى العنكبوت ، وقال ههنا (واتبع سبيل من أناب إلى) ، يعنى صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبى عليه السلام بعقلك ، فانه مربى عقلك ، كما أن الوالد مربى جسمك .

ثم قال تعالى : ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

لما قال (فأنبئكم بما كنتم تعملون) وقع لابنه أن مايفعل فى خفية يخفى فقال (يا بنى إنها) أى الحسنة والسيئة إن كانت فى الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فتكن) بالفاء لإفادة الاجتماع يعنى إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية فى موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قيل الصخرة لابد من أن تكون فى السموات أو فى الأرض فما الفائدة فى ذكرها ؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا فى أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لافى الأرض ولافى السماء (والثانى) ما قاله الزمخشرى وهو أن فيه إضماراً تقديره فتكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الأرض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام فى مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثانى فلما بينتم أن من قال هذا فى دار زيد أو فى غيرها أو فى دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة فى قوله أو فى غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا فى دار زيد أو فى دار عمرو أو فى غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشىء يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون فى ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فان انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً فى ضوء من غير حجاب فلا يخفى فى العادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر وقوله (فتكن فى صخرة) اشارة إلى الحجاب وقوله (أو فى السموات) إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله (أو فى الأرض) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشىء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشىء ويظهره لغيره فقوله (يأت بها الله) أى يظهرها الله للأشهاد وقوله (إن الله لطيف) أى نافذ القدرة (خبير) أى عالم ببواطن الأمور .

قوله تعالى : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت فى سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت .

ثم قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى إذا كملت أنت فى نفسك بعبادة الله فكمل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

غيرك ، فان شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكلوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فان قال قائل كيف قدم فى وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر ، وقبل قدم النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف فانه أول ماقال (يابنى لا تشرك) ثم قال (يابنى أقم الصلاة)؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف ، فان المشرك بالله لايكون نافياً لله فى الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد فى التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمره أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ، ثم قال تعالى (واصبر على ما أصابك) يعنى أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه ، وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أى من الأمور الواجبة المعزومة أى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما تقول أكلى فى النهار رغيف خبز أى مأكولى .

قوله تعالى : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختار فخور ﴾ .

لما أمره بأن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال (ولا تصعر خدك للناس) تكبراً (ولا تمش فى الأرض مرحا) تبختراً (إن الله لايحب كل مختال) يعنى من يكون به خيلاء وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (فخور) يعنى من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه ، وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أقم الصلاة) ثم قال (وأمر بالمعروف) وفى النهى قدم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال (ولا تصعر خدك) ثم قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) لأن فى طرف الإثبات من لا يكون كاملا لايمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال ، وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبختراً لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخترا فى نفسه قد لايتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر ، لأنه لو قد نفى التبختر للزم منه نفى التكبر فلا يحتاج إلى النهى عنه ، ومثاله أنه لايجوز أن يقال لاتفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ويجوز أن يقال لا تأكل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول أن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحداً .

قوله تعالى : ﴿واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لما قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال (واقصد فى مشيك) أى كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفى الآية مسائل :

﴿الأولى﴾ هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد فى المشى ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفى كلام الله من الفوائد مالا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه (الأول) هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى ، فان عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر (الثانى) هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أصلح ضميرك فان الله خبير ، بقى الأمران فقال (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى التوسط فى الأفعال والأقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد فى الأوصاف الانسانية والأوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه .فقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إشارة إلى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشىء ولا ينهاه عن شىء . وقوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا) الذى هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم . وقوله (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿ الأولى ﴾ لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى ، نقول أما على قولنا إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشى إليه فذاك ، وإلا فيوقفه بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن . وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو إن كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشى يؤذى آلة المشى . والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فان الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى ، وأما على قولنا الاشارة بالشىء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ماذكرتم وماذكرتم فى أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب (الثانى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه ، بمعنى أشدها طاعة فان أفعل لايجىء فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب إلا ماشذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول ، وأحمق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشىء فهو منكر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح ، وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير .

قوله تعالى : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ، وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

لما استدل بقوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) على الوحدانية ، وبين بحكاية لقمان أن

www.besturdubooks.wordpress.com

معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلا عن أنه على وفق الحكمة ، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه فى الأرض الرواسى . وذكر بعض النعم بقوله (وأنزلنا من السماء ماء) ذكر بعده عامة النعم فقال (سخر لكم ما فى السموات) أى سخر لأجلكم ما فى السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما فى الأرض لأجل عباده ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) وهى مافى الأعضاء من السلامة (وباطنة) وهى مافى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله (مافى السموات وما فى الأرض) يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) يكون إشارة إلى النعم الأنفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع كتب التفاسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولا منقولا ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولا .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله ﴾ يعنى لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون فى كتاب والذى يكون من إلهام ووحى ، فقال تعالى (يجادل) ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتى من لدنه علماً كما قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم) (والثانى) إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى (علمه شديد القوى) (والثالث) إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال فى هذه السورة (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى السجدة (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام ، والنبى هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفاً ، ولا بهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظا . ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال فى الكتاب (ولا كتاب منير) لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فان بعض ما يقولون فهو فى كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال (ولا كتاب منير) فان ذلك الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل فى المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير . ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون بكلام آبائهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم إن ههنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ، ويحتمل أن يكون حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً فى اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول ، فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) استفهاماً على سبيل التعجب فى الإنكار يعنى الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا يتبعون الشيطان . ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله (ومن يسلم وجهه إلى الله) إشارة إلى الإيمان وقوله (وهو محسن) إشارة إلى العمل الصالح فيكون الآية فى معنى قوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال ههنا (ومن يسلم وجهه إلى الله) وقال فى سورة البقرة (بلى من أسلم وجهه لله) فعدى ههنا بإلى وهناك باللام ، قال الزمخشرى معنى قوله (أسلم لله) أى جعل نفسه لله سالماً أى خالصاً

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله (يسلم وجهه إلى الله) يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهى إليك أى توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشئ قبل الوصول وقوله (أسلمت وجهى لك) لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) فقال الله رداً عليهم (تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم) ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) أى أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلا تدخلون [النار] ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التى هى الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذى ليس له أمر إلا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله (فله أجره عند ربه) وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة . ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى (وإلى الله عاقبة الأمور) يعنى استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شئ عاقبته إليه فاذا حصل فى الحال ما إليه عاقبته فى عاقبته فى غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .

قوله تعالى : ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ونمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال (ومن كفر فلا يحزنك) أى لا تحزن إذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة فى التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره ، فان المرجع إلى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله (إن الله عليم بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هى المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال (نمتعهم قليلا) أى بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله (ثم نضطرهم) أى نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

الآية متعلقة بما قبلها من جهين (أحدهما) أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد كله لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما فى السموات والأرض ، وكون الحمد كله لله يقتضى أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا (والثانى) أن الله تعالى لما سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم) أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك (فقل الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذبيك (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد أن له عطاء ومنعاً فكذلك ههنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد كله لله ، والثانى أبلغ لأن قول القائل : فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيداً ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

ثم قال تعالى : ﴿ لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلا وشرعا ، أما عقلا فلأن مافى السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلا لأنها ممكنة ، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعاً فلأن من يملك أرضا وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما فى السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله . ثم قوله تعالى (إن الله هو الغنى الحميد) فيه معان لطيفة (أحدها) أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهى لكم خلقها فهو غنى لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال إنه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد فى نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات ومافيها والأرض ومافيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى إلا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغنى المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا [يكون] الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف ، أى وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له .

ثم قال تعالى : ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾

لما قال تعالى (لله ما فى السموات والأرض) وكان ذلك موهماً لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز . يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء فى حق المريض

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة فى اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شيء فى التوراة ولم يبق شيء لم يذكره ، فقال الذى فى التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت فى واحد قال للنبى عليه السلام إنك تقول(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وتقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت رداً على الكفار حيث قالوا بأن مايورده محمد سينفد ، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد ، وما ذكر من أسباب النزول ينافى ماذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التى ذكرتموها وهى متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافى هذا ، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأنا نقول المخلوق هو الحروف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهى من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذى هو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذى فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف (الأولى) قال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما فى الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أن ما فى الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعنى ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله (يمده من بعده سبعة أبحر)إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعنى لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله (سبعة) ليس لانحصارها فى سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر ، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر فى سبعة أقاليم والزمان فى سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون إليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير (الثانى) هو أن الآحاد إلى العشرة وهى العقد الأول وما بعده يبتدئ من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الإسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فاذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التى هو العدد الأصلى تبقى

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

السبعة القسم الأكثر ، فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فإن المعدودات فى العبادات من التسبيحات فى الانتقالات فى الصلوات ثلاثة ، والمرار فى الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاء بالقسم الأول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام « المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم فى العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الأقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) بينا ان المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله فى البحر (والبحر يمده سبعة أبحر) إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى (والثانى) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد .

ثم قال تعالى (إن الله عزيز حكيم) لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى مايحقق ذلك فقال (إنه عزيز حكيم) أى كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففى علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفد مافى علمه وقدرته .

ثم قال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر مايبطل استبعادهم للحشر وقال (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى (إن الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) على وجه العموم ذكر منها بعض ماهو فيهما على وجه الخصوص بقوله (يولج الليل فى النهار) وقوله (وسخر الشمس والقمر) إشارة إلى مافى السموات ، وقوله بعد هذا (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) إشارة إلى مافى الأرض . ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول (وما يهلكنا إلا الدهر) والدهر هو الليالى والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالى والأيام التى تنسبون إليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ثم إن قائلا لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الأرض أكثر من التى تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى إن كنتم لاتعترفون بأن هذه الأشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ إيلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد إيلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد إيلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً فى النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لابد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال فى الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لأن الثانى يجعل الظرف مظروفاً . إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى (يولج الليل فى النهار) أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقوله (وجعل الظلمات والنور) وقوله (واختلاف الليل والنهار) ومن جنسه قوله (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس بمجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لابصر لهما ولا سمع ولا يقال لشىء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول مايتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شىء ، ويترتب عليه مقتضاه

www.besturdubooks.wordpress.com

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠)

لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعيش فى السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل ، فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ماتطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (يولج) بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لأن إيلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذى لا يكون عجيباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماتعلق قوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) بما تقدم؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن مايقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألم تر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لافائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ، ولماذا تقصيرك . فقوله (ألم تر) يكون خطاباً من ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾

ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله (إن الله هو الغنى الحميد) وقوله (إن الله عزيز حكيم) وقوله (إن الله سميع بصير) وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله (مانفدت كلمات الله) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وعلى الجملة فقوله (هو الغنى) إشارة إلى كل صفة سلبية فانه إذا كان غنياً لايكون عرضاً محتاجا إلى الجوهر فى القوام ، ولا جسما محتاجاً إلى الحيز فى الدوام ، ولا شيئاً من

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

الممكنات المحتاجة الى الموجد ، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت ، فان المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً اليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لانقص فيه .

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ماينبغى أن يكون له كالصبى والمريض والأعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالإنسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام « لو دنوت أنملة لاحترقت » لقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وفوق التمام) هو الذى حصل له ماجاز له وحصل لما عداه ماجاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله (هو الحق) إشارة إلى التمام وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) أى فوق التمام وقوله (وهو العلى) أى فى صفاته وقوله (الكبير) أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسما فى مكان لانه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل مايتصور .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله (الفلك تجرى) إشارة إلى المسبب وقوله (بنعمت الله) إشارة إلى السبب أى إلى الريح التى هى بأمر الله (ليريكم من آياته) عنى يريكم بإجرائها بنعمته (من آياته) أى بعض آياته ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

صبار شكور) صبار فى الشدة شكور فى الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» إشارة إلى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام « الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف » .

ثم قال تعالى : ﴿ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور ﴾ .

لما ذكر الله أن فى ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن فى بصره ضعف لايدركه أولا ، فاذا غشيه موج ووقع فى شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصاً أى يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه ، فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله (فمنهم مقتصد) وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (موج كالظلل) وحد الموج وجمع الظلل ، وقيل فى معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة الى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت فى الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى العنكبوت (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله) ثم قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا (أمراً عظيما) وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد فى الإخلاص فبقى معه شىء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما يجحد بآياتنا) فى مقابلة قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات) يعنى يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور فى موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار ، فانه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ 

العهد فينقضه ، وأما أن الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكده بقوله (لا يجزى والد عن ولده) وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه ويقضى ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف ، مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهى أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة ، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الإبن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله (لا يجزى والد عن ولده) فى دفع الآلام (ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) فى دفع الاهانة ، وفى قوله (لا يجزى) وقوله (ولا مولود هو جاز) (لطيفة أخرى) وهى أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ، اذا علمت هذا فنقول الإبن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد (ولا مولود هو جاز) .

ثم قال تعالى (إن وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقاً لليوم يعنى

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء يعنى (لا يجزى والد عن ولده) لأن الله وعد به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ووعد الله حق ، فلا يجزى والأول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ يعنى إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع [ذلك] اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا [بها] وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فنهاهم عن الأمرين وقال كونوا قسما ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا فى الأعين .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله (اخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) وذكر أنه كائن بقوله (إن وعد الله حق) كأن قائلا قال فتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مراراً على البعث (أحدهما) إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) وقال تعالى (ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال (وهو الذى ينزل الغيث) وقال (ويحيي الأرض)

www.besturdubooks.wordpress.com

(وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) وقال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) إلى غير ذلك فقال ههنا (ويعلم ما فى الأرحام) إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق فى الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرغام ، ثم قال لذلك الطالب علمه : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فانك لا تعلم معاشك ومعادك ، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكى تكون فى وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الأرض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها ، فاذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهى الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمت الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى (إن الله عليم خبير) لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله (إن الله عنده علم الساعة) ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شئ ، وليس علمه علما بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣١ ـــ سورة لقمان

مكية وهى أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٣١ لقمان

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٣١ لقمان

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٣١ لقمان

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ٣١ لقمان

أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ٣١ لقمان

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ٣١ لقمان

(سورة لقمان)

(مكية وقيل إلا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فإن وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لأنه ينافى
شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام وهى أربع وثلاثون آية)
(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه فى نظائره (الحكيم) أى ذى الحكمة
٢،١ لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله أو قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف
إليه مقامه فانقلب مرفوعاً فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن
فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل
٣ فيهما معنى الإشارة وقرئا بالرفع على أنهما خبران آخران لاسم الإشارة أو لمبتدأ محذوف (للمحسنين)
أى العاملين الحسنات فإن أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة
٤ ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله [الألمعى الذى يظن
بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا] وإن أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من
بين سائر شعبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها وتخصيص الوجه الأول بصورة كون الموصول صفة
للمحسنين والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ مما لا وجه له (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
٥ المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر ما فيه
من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه ٦

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ٣١ لقمان

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ٣١ لقمان

أو بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على
الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الإفادة
والمقصود بالإصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله
تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث مايلهى عما يعنى من المهمات
كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر مالاخير فيه من فضول الكلام
والإضافة بمعنى من التبيينية إن أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية إن أريد به الأعم من ذلك وقيل نزلت
الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول إن كان محمد ﷺ يحدثكم بحديث
عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة
من أراد الإسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أى دينه الحق الموصل إليه تعالى أو عن قراءة كتابه
الهادى إليه تعالى وقرىء ليضل بفتح الياء أى ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أى
بحال مايشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفاً على
يضل والضمير للسبيل فإنه مما يذكر ويؤنث وهو دين الإسلام أو القرآن أى ويتخذها (هزواً) مهزواً
به وقرىء ويتخذها بالرفع عطفاً على يشترى وقوله تعالى (أولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها
كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار إليه للإيذان
ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للإضلال (لهم عذاب مهين) لما
٧ اتصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (وإذا تتلى عليه) أى على المشترى
أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأول باعتبار لفظة من بعد ماجمع فيما بينهما باعتبار معناها
(آياتنا) التى هى آيات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين (ولى) أعرض عنها غير معتد بها
(مستكبراً) مبالغاً فى التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبراً والأصل
كأنه لحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز إلى أن
من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على
طريقة قول من قال [كأنك لم تجزع على ابن طريف] (كأن فى أذنيه وقراً) حال من ضمير لم يسمعها
أى مشبها حاله حال من فى أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز أن يكونا استئنافين وقرىء فى أذنيه بسكون
الذال (فبشره بعذاب أليم) أى فأعلمه بأن العذاب المفرط فى الإيلام لاحق به لامحالة وذكر البشارة
٨ للتهكم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثر بيان حال الكافرين بها
أى الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ماذكر من إيمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أى

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ ٣١ لقمان

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٍ تَرَوۡنَهَا وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ
وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ٣١ لقمان

هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ٣١ لقمان

نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر إن والأحسن أن يجعل لهم هو الخبر لأن وجنات النعيم مرتفعا
٩ به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميرهما
والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقاً) مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله تعالى
لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقاً فدال على معنى
الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعاً لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يغلبه شيء ليمنعه من
١٠ إنجاز وعده أو تحقيق وعيده (الحكيم) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات
بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي
هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد
كأهب جمع إهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي بغير دعائم على أن الجمع
• لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير
معمودة بمشاهدتهم لها كذلك أو صفة لعمد أي خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز إلى أنه تعالى
• عمدها بعمد لا ترونها هي عمد القدرة (وألقى في الأرض رواسي) بيان لصنعه البديع في قرار الأرض
إثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة
• الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع
اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث فيها من كل دابة) من
كل نوع من أنواعها (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر (فأنبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم)
١١ من كل صنف كثير المنافع والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (هذا) أي
ما ذكر من السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه (فأروني
ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب
• بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأروني متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين)
إضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم
بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا
من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ٣١ لقمان

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ٣١ لقمان

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ٣١ لقمان

واضعون للشيء فى غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد
١٢ (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من أولاد
آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتى
قبل مبعثه وقيل كان قاضياً فى بنى إسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبياً والحكمة فى عرف
العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة
على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها
لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت
حكيما وأن داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت فى يدى غيرى فتفكر داود فيه
فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بأن يذبح شاة ويأتى بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام
أمره بأن يأتى بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث
شيء إذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) أى اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول
وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أى ومن يشكر
له تعالى (فإنما يشكر لنفسه) لأن منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن
كفر فإن الله غنى) عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وإن
لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى
مشكوراً لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال ﷺ الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده
فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعاً (وإذ قال لقمان لابنه) أنعم وقيل أشكم وقيل ماثان (وهو يعظه ١٣
يا بنى) تصغير إشفاق وقرىء يا بنى بإسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به
حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (إن الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهى أو للانتهاء عن
١٤ الشرك (ووصينا الإنسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية
لقمان تأكيداً لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) إلى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر
والمفسر وقوله تعالى (وهناً) حال من أمه أى ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهناً

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٣١ لقمان

يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ٣١ لقمان

يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ٣١ لقمان

وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر أى كائناً على وهن أى تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها وقرىء وهناً على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهناً ووهن يوهن وهناً (وفصاله فى عامين) أى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند أبى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهراً وقد بين وجهه فى موضعه وقرىء وفصله (أن اشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال ﷺ لمن قال له من أبر : أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك (إلى المصير) تعليل لوجوب الامتثال أى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأجازيك
١٥ على ما صدر عنك من الشكر والكفر (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به) أى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من أناب إلى) بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة (ثم إلى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب إلى (فأنبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بأن أجازى
١٦ كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان إثر تقرير ما فى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرىء برفع مثقال على أن الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لإضافة المثقال إلى الحبة كما فى قول من قال [كما شرقت صدر القناة من الدم] أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة (فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض) أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى (يأت بها الله) أى يحضرها ويحاسب عليها (إن الله لطيف) يصل علمه إلى كل خفى (خبير) بكنهه وبعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول ما يجب على الإنسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من
١٧ حيث الاعتقاد فقال مستميلا له (يابنى أقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به (إن ذلك) إشارة إلى

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ٣١ لقمان
وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ٣١ لقمان
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ٣١ لقمان

كل ماذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للامر مراراً من الإشعار ببعد منزلته فى الفضل
• (من عزم الأمور) أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على
المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فإذا عزم الأمر أى جد والجملة تعليل لوجوب
١٨ الامتثال بما سبق من الأمر والنهى وإيذان بأن ما بعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أى لا تمله
ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى
منه عنقه وقرىء ولا تصاعر وقرىء ولا تصعر من الإفعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه
• (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى
تمرح مرحا أو لأجل المرح والبطر (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهى أو موجبه وتأخير
١٩ الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل (واقصد فى
مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والإسراع وعنه ﷺ سرعة المشى تذهب
بهاء المؤمن وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد به مافوق دبيب المتماوت وقرىء
بقطع الهمزة من أقصد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض من صوتك) وانقص منه واقصر
• (إن أنكر الأصوات) أى أوحشها (لصوت الحمير) تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبنى على
تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وإفراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير
عنه وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا
٢٠ الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس وقوله تعالى (ألم تروا
أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض) رجوع إلى سنن ماسلف قبل قصة لقمان من خطاب
المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ماهم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير إما
جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما
يريد كعامة مافى الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون
كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات
من الأشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشاً ومعاداً وما جعله منقاداً للأمر مذللا على أن معنى لكم

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ٣١ لقمان

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ٣١ لقمان

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ٣١ لقمان

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ٣١ لقمان

لأجلكم فإن جميع مافى السموات والأرض من الكائنات مسخر لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى
* (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرىء أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين أوالخاء أو القاف كما تقول فى سلخ صالخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرىء نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول ﷺ (ولا كتاب منير)
٢١ أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (وإذا قيل لهم) أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الأصنام (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فإن مدار إنكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون
* أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (إلى عذاب السعير) فهم متوجهون إليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى أولو كان
٢٢ آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن يسلم وجهه إلى الله) بأن فوض إليه مجامع أموره وأقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرىء بالتشديد
* (وهو محسن) أى فى أعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقدمر فى آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (وإلى الله) لا إلى
٢٣ أحد غيره (عاقبة الأمور) فيجازيه أحسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فإنه لا يضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرىء فلا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاى وليس بمستفيض (إلينا مرجعهم) لا إلى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الأول باعتبار لفظها (إن الله عليم بذات الصدور)
٢٤ تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعاً أو زماناً قليلا فإن مايزول وإن كان بعد أمد

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ٣١ لقمان

لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ٣١ لقمان

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ٣١ لقمان

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ٣١ لقمان

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ٣١ لقمان

طويل بالنسبة إلى مايدوم قليل (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم
إلى الإحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لغاية وضوح ٢٥
الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به (قل الحمد لله) على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها
المكابرون أيضاً (بل أكثرهم لا يعلمون) شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون
أن ذلك يلزمهم (لله مافى السموات والأرض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (إن الله هو الغنى) عن العالمين ٢٦
(الحميد) المستحق للحمد وإن لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أن مافى ٢٧
الأرض من شجرة أقلام) أى لو أن الأشجار أقلام وتوحيد الشجرة لما أن المراد تفصيل الآحاد (والبحر
يمده من بعده) أى من بعد نفاده (سبعة أبحر) أى والحال أن البحر المحيط بسعته يمده الأبحر السبعة مداً
لا ينقطع أبداً وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله (مانفدت كلمات الله) ونفدت تلك الأقلام
والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى وقرىء يمده من الإمداد بالياء والتاء وإسناد المد
إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظم منها وأطم لأنها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية
وإليها تنصب الأنهار العظام أولا ومنها ينصب إلى البحر المحيط ثانياً وإيثار جمع القلة فى الكلمات للإيذان بأن
ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير (إن الله عزيز) لا يعجزه شىء (حكيم) لا يخرج عن علمه وحكمته
أمر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى إلا كخلقها وبعثها فى ٢٨
سهولة التأتى إذ لا يشغله شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما
يفصح عنه قوله تعالى إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (إن الله سميع) يسمع كل مسموع
(بصير) يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث (ألم تر) قيل الخطاب ٢٩
لرسول الله ﷺ وقيل عام لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم علماً

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ٣١ لقمان

قوياً جارياً مجرى الرؤية (أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشير إلى ذلك حيث قيل (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام جرياً مستمراً (إلى أجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فإنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير اختصاصه به ﷺ يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فإن جريانهما إلى يوم القيامة من جملة ما فى حيز رؤيته ﷺ هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والأجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهراً فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجهاً إلى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الأرض كبراً فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الأرض تزداد صغراً فيزداد النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) عطف على أن الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها (ذلك) إشارة إلى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه ٣
من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق إلهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها شاهدة بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرىء بالتاء والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الإلهية به تعالى مستتبعة للدلالة على بطلان إلهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (وأن الله هو العلى الكبير) أى وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شىء المتسلط عليه فإن ما فى تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب أنه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت إلهيته وأنه

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ٣١ لقمان

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ٣١ لقمان

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ٣١ لقمان

خبير بأن حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ماذكر من الأحكام المعدودة لكن
بطلان إلهية الأصنام لادخل له فى المناطية قطعاً فلا مساغ لنظمه فى سلك الأسباب بل هو تعكيس
للأمر ضرورة أن الأحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها .
٣١ (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) بإحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته
وغاية حكمته وشمول إنعامه والباء إما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى
وقرىء الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته)
أى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما
قبله أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب
نفسه فى التفكر فى الأنفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهماصفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن
٣٢ (وإذا غشيهم) أى علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرىء كالظلال
جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ماينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم
من الدواهى والشدائد (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) أى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد أو
متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) غدار فإنه نقض العهد الفطرى أو
٣٣ رفض لما كان فى البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ فى كفران نعم الله تعالى (يا أيها الناس
اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) أى لا يقضى عنه وقرىء لا يجزى من أجزأ إذا أغنى
والعائد إلى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو
جاز عن والده شيئاً) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من
المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (إن وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لا يمكن إخلافه أصلا
(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان المبالغ فى الغرور بأن يحملكم على المعاصى

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ٣١ لقمان

٣٤ بتزيينها لكم وبرجيكم التوبة والمغفرة (إن الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روى أن الحرث بن
عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال متى الساعة وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فتى السماء تمطر وحمل امرأتى
ذكر أم أنثى وما أعمل غداً وأين أموت فنزلت وعنه ﷺ مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل
الغيث) فى إبانه الذى قدره وإلى محله الذى عينه فى علمه وقرىء ينزل من الإنزال (ويعلم ما فى الأرحام)
من ذكر أو أنثى تام أو ناقص (وما تدرى نفس) من النفوس (ماذا تكسب غداً) من خير أو شر
وربما تعزم على شىء منهما فتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) كما لا تدرى فى أى وقت
تموت. روى أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر
إليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى ببلاد الهند ففعل
ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى إليه تعجباً منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه
بالهند وهو عندك ونسبة العلم إلى الله تعالى والدراية إلى العبد للإيذان بأنه إن أعمل حيله وبذل فى التعرف
وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرىء بأية
أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل فى كلتهن (إن الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شىء من
الأشياء التى من جملتها ما ذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة
لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر.

﴿سورة لقمان ٣١﴾

أخرج ابن الضريس . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ، ولا استثناء فى هذه الرواية . وفى رواية النحاس فى تاريخه عنه استثناء ثلاث آيات منها وهى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) إلى تمام الثلاث فانها نزلن بالمدينة ، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أعنيتنا أم قومك؟ قال : كلا عنيت فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شىء فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك فى علم الله تعالى قليل فأنزل الآيات *

ونقل الدانى عن عطاء ، وأبو حيان عن قتادة أنهما قالا : هى مكية إلا آيتين هما (ولو أن ما فى الأرض) إلى آخر الآيتين ، وقيل : هى مكية إلا آية وهى قوله تعالى : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) فان إيجابهما بالمدينة ، وأنت تعلم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الاسراء كما فى صحيح البخارى وغيره فما ذكر من أن إيجابها بالمدينة غير مسلم ، ولو سلم فيكفى كونهم مأمورين بها بمكة ولو ندبا فلا يتم التقريب فيها ، نعم المشهور أن الزكاة إيجابها بالمدينة فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معا تحقق بالمدينة لا أن إيجاب كل منهما تحقق فيها ، ولا يضر فى ذلك أن إيجاب الصلاة كان بمكة ، وقيل : إن الزكاة إيجابها كان بمكة كالصلاة وتقدير الانصباء هو الذى كان بالمدينة ؛ وعليه لا تقريب فيهما ، وآيها ثلاث وثلاثون فى المكى والمدنى وأربع وثلاثون فى عدد الباقين *

www.Quranpdf.blogspot.in

وسبب نزولها على ما فى البحر أن قريشا سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت . ووجه مناسبتها لما قبلها على مافيه أيضا أنه قال تعالى فيماقبل : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة ، وأنه كان فى آخر ماقبلها (ولئن جئتهم بآية) وفيها (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) وقال الجلال السيوطى : ظهر لي فى اتصالها بماقبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح ـ بالم ـ إن قوله تعالى : (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) متعلق بقوله تعالى: فيما قبل : (وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) الآية فهذا عين إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر ، وأيضا ففى كلتا السورتين جملة من الآيات وابتداء الخلق *

وذكر فى السابقة (فى روضة يحبرون) وقد فسر بالسماع وذكر هنا (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) وقد فسر بالغناء وآلات الملاهى اه *

وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام فى ذلك ، وأقول فى الاتصال أيضا : إنه قد ذكر فيما تقدم قوله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وهنا قوله سبحانه : (ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة) وكلاهما يفيد سهولة البعث وقرر ذلك هنا بقوله عز قائلا : (إن الله سميع بصير) وذكر سبحانه هناك قوله تعالى : (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) وقال عز وجل هنا: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) فذكر سبحانه فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الأخرى إلى غير ذلك *

وما ألطف هذا الاتصال من حيث أن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم وغلبتهم المبنيتين على المحاربة بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تحاربا عليها وخرج بذلك عن مقتضى الحكمة فان الحكيم لايحارب على دنيا دنية لا تعدل عندالله تعالى جناح بعوضة وهذه ذكر فيها قصة عبد مملوك على كثير من الأقوال حكيم زاهد فى الدنيا غير مكترث بها ولا ملتفت اليها أوصى ابنه بما يأبى المحاربة ويقتضى الصبر والمسالمة وبين الأمرين من التقابل ما لا يخفى *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الم ١ تلك آيات الكتاب الحكيم ٢ ﴾ أى ذى الحكمة ، ووصف الكتاب بذلك عند بعض المغاربة مجاز لأن الوصف بذلك للتملك وهو لا يملك الحكمة بل يشتمل عليها ويتضمنها فلأجل ذلك وصف بالحكيم بمعنى ذى الحكمة ، واستظهر الطيبى أنه على ذلك من الاستعارة المكنية . والحق أنه من باب (عيشة راضية) على حد لابن وتامر *

نعم يجوز أن يكون هناك استعاره بالكناية أى الناطق بالحكمة كالحى ، ويجوز أن يكون الحكيم من صفاته عز وجل ووصف الكتاب به من باب الاسناد المجازى فانه منه سبحانه بدا ، وقد يوصف الشىء بصفة مبدئه كما فى قول الأعشى :

وغريبة تأتى الملوك حكيمة   قد قلتها ليقال من ذا قالها

وأن يكون الأصل الحكيم منزله أو قائله فحذف المضاف إلى الضمير المجرور وأقيم المضاف اليه مقامه

www.Quranpdf.blogspot.in

فانقلب مرفوعا ثم استكن فى الصفة المشبهة وأن يكون (الحكيم) فعيلا بمعنى مفعل كما قالوا: عقدت العسل فهو عقيد أى معقد وهذا قليل ، وقيل : هو بمعنى حاكم ، وتمام الكلام فى هذه الآية قد تقدم فى الكلام على نظيرها ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحالية من (آيات) والعامل فيهما معنى الاشارة على ماذكره غير واحد وبحث فيه *

وقرأ حمزة . والأعمش . والزعفرانى . وطلحة . وقنبل من طريق أبى الفضل الواسطى. ونظيف بالرفع على الخبر بعد الخبر لتلك على مذهب الجمهور أو الخبر لمحذوف أى هى أو هو هدى ورحمة عظيمة ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ٣ ﴾ أى العاملين الحسنات ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة للمتعاطفين ، وقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ ﴾ اما مجرور على أنه صفة كاشفة أو بدل أو بيان لما قبله ، واما منصوب أو مرفوع على القطع وعلى كل فهو تفسير للمحسنين على طريقة قول أوس بن حجر :

الالمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

فقد حكى عن الاصمعى أنه سئل عن الألمعى فأنشده ولم يزد عليه ، وهذا ظاهر على تقدير أن يراد بالحسنات مشاهيرها المعهودة فى الدين ، وأما على تقدير أن يراد بها جميع مايحسن من الأعمال فلا يظهر إلا باعتبار جعل المذكورات بمنزلة الجميع من باب «كل الصيد فى جوف الفرا» ، وقيل: . إذا أريد بالحسنات المذكورات يكون الموصول صفة كاشفة وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ ﴾ استئنافا ، وإذا أريد بها جميع مايحسن من الأعمال وكان تخصيص المذكورات بالذكر لفضل اعتداد بها يكون الموصول مبتدأ وجملة (أولئك على هدى) الخ خبره والكلام استئناف بذكر الصفة الموجبة للاستئهال *

وقيل : إن الموصول على التقديرين صفة إلا أنه على التقدير الأول كاشفة وعلى التقدير الثانى صفة مادحة للوصف لا للموصوف، وبناء (يوقنون) على (هم) للتقوى، وأعيد الضمير للتأكيد ولدفع توهم كون (بالآخرة) خبرا وجبرا للفصل بين المبتدا وخبره ولم يؤخر الفاصل للفاصلة *

وذكر بعض أجلة المفسرين فى قوله تعالى أول سورة البقرة : (وهم بالآخرة هم يوقنون) ان بناء (يوقنون) على (هم) يدل على أن مقابليهم ليسوا من اليقين فى ظل ولا فىء وان تقديم (فى الآخرة) يدل على أن ما عليه مقابلوهم ليس من الآخرة فى شيء وذلك لافادة تقديم الفاعل المعنوى وتقديم الجار على متعلقه الاختصاص فانظر هل يتسنى نحو ذلك هنا ، وقد مر أول سورة البقرة مايعلم منه وجه اختيار اسم الاشارة ووجه تكراره، وفى الآية كلام بعد لا يخفى على من راجع ماذكروه من الكلام على مايشبهها هناك وتأمل فراجع وتأمل *

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ أى بعض من الناس أو بعض الناس ﴿ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ أى الذى أو فريق يشترى على أن مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين ، والجملة عطف على ماقبلها بحسب المعنى كأنه قيل: من الناس هاد مهدى ومنهم ضال مضل أو عطف قصة على قصة ، وقيل : انها حال من فاعل الاشارة أى أشير إلى آيات الكتاب حال كونها هدى

www.Quranpdf.blogspot.in

ورحمة والحال من الناس من يشتري الخ، و(لهو الحديث) على ماروى عن الحسن كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والاضاحيك والخرافات والغناء ونحوها، والاضافة بمعنى من أن أريد بالحديث المنكر كما فى حديث «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» بناء على أنها بيانية وتبعيضية ان أريد به ما هو أعم منه بناء على مذهب بعض النحاة كابن كيسان. والسيرافى قالوا: إضافة ما هو جزء من المضاف اليه بمعنى من التبعيضية كما يدل عليه وقوع الفصل بها فى كلامهم، والذى عليه أكثر المتأخرين وذهب اليه ابن السراج. والفارسى وهو الأصح أنها على معنى اللام كما فصله أبو حيان فى شرح التسهيل وذكره شارح اللمع *

وعن الضحاك أن (لهو الحديث) الشرك، وقيل: السحر، وأخرج ابن أبى شيبة. وابن أبى الدنيا. وابن جرير. وابن المنذر. والحاكم وصححه. والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى الصهباء قال: سألت عبدالله ابن مسعود عن قوله تعالى: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) قال: هو والله الغناء وبه فسر كثير، والأحسن تفسيره بما يعم كل ذلك كما ذكرناه عن الحسن، وهو الذى يقتضيه ما أخرجه البخارى فى الأدب المفرد. وابن أبى الدنيا. وابن جرير. وابن أبى حاتم. وابن مردويه. والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه قال: (لهو الحديث) هو الغناء وأشباهه، وعلى جميع ذلك يكون الاشتراء استعارة لاختياره على القرآن واستبداله به، وأخرج ابن عساكر عن مكحول فى قوله تعالى: (من يشترى لهو الحديث) قال الجوارى الضاربات *

وأخرج آدم. وابن جرير. والبيهقى فى سننه عن مجاهد أنه قال فيه: هو اشتراؤه المغنى والمغنية والاستماع اليه وإلى مثله من الباطل، وفى رواية ذكرها البيهقى فى السنن عن ابن مسعود أنه قال: فى الآية هو رجل يشترى جارية تغنيه ليلا أو نهارا واشتهر أن الآية نزلت فى النضر بن الحرث، ففى رواية جويبر عن ابن عباس أنه اشترى قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت *

وفى أسباب النزول للواحدى عن الكلبى. ومقاتل أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم وفى بعض الروايات كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ويقول لهم: إن محمدا عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد. وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم. واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت، وقيل: إنها نزلت فى ابن خطل اشترى جارية تغنى بالسب، ولا يأبى نزولها فيمن ذكر الجمع فى قوله تعالى بعد: (أولئك لهم) كما لا يخفى على الفطن، والاشتراء على أكثر هذه الروايات على حقيقته ويحتاج فى بعضها إلى عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز كما لا يخفى على من دقق النظر، وجعل المغنية ونحوها نفس لهو الحديث مبالغة كما جعل (النساء) فى قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء) نفس الزينة *

وفى البحر إن أريد بلهو الحديث ما يقع عليه الشراء كالجوارى المغنيات وككتب الأعاجم فالاشتراء حقيقة ويكون الكلام على حذف مضاف أى من يشترى ذات لهو الحديث *

وقال الخفاجى: عليه الرحمة لا حاجة إلى تقدير ذات لأنه لما اشتريت المغنية لغنائها فكأن المشترى هو الغناء نفسه فتدبره، وفى الآية عند الأكثرين ذم للغناء بأعلى صوت وقد تضافرت الآثار وكلمات كثير من العلماء الأخيار على ذمه مطلقا لا فى مقام دون مقام، فأخرج ابن أبى الدنيا. والبيهقى فى شعبه عن ابن مسعود قال: إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه شيطان فقال: تغنه فان كان لا يحسن قال: تمنه، واخرجا ايضا عن

www.Quranpdf.blogspot.in

الشعبى قال: عن القاسم بن محمد أنه سئل عن الغناء فقال للسائل: أنهاك عنه وأكرهه لك فقال السائل: أحرام هو؟ قال: انظر يا ابن أخى إذا ميز الله تعالى الحق من الباطل فى أيهما يجعل سبحانه الغناء، وأخرج عنه أيضاً أنه قال: «لعن الله تعالى المغنى والمغنى له» ، وفى السنن عن ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» ، وأخرج عنه نحوه ابن أبى الدنيا ورواه عن أبى هريرة. والديلمى عنه وعن أنس وضعفه ابن القطان، وقال النووى لا يصح، وقال العراقى: رفعه غير صحيح لأن فى إسناده من لم يسم وفيه إشارة إلى أن وقفه على ابن مسعود صحيح وهو فى حكم المرفوع إذ مثله لا يقال من قبل الرأى، وأخرج ابن ابى الدنيا. وابن مردويه عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك» وأخرج ابن أبى الدنيا. والبيهقى عن أبى عثمان الليثى قال: قال يزيد بن الوليد الناقص: يا بنى أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا، وقال الضحاك: الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب، وأخرج سعيد بن منصور. وأحمد. والترمذى. وابن ماجه. وابن جرير وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى. وغيرهم عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) إلى آخر الآية» وفى رواية ابن أبى الدنيا. وابن مردويه عن عائشة قالت: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ (ومن الناس من يشترى لهو الحديث)» ويعود هذا ونحوه إلى ذم الغناء *

وقيل: الغناء جاسوس القلب وسارق المروءة والعقول يتغلغل فى سويداء القلوب ويطلع على سرائر الأفئدة ويدب إلى بيت التخييل فينشر ما غرز فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة فبينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار وبهاء العقل وبهجة الايمان ووقار العلم كلامه حكمة وسكوته عبرة فإذا سمع الغناء نقص عقله وحياؤه وذهبت مروءته وبهاؤه فيستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ويبدى من أسراره ما كان يكتمه وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان والاهتزاز كأنه جان وربما صفق بيديه ودق الأرض برجليه وهكذا تفعل الخمر إلى غير ذلك، واختلف العلماء فى حكمه فحكى تحريمه عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه القاضى أبو الطيب. والقرطبى. والماوردى. والقاضى عياض *

وفى التاتارخانية اعلم أن التغنى حرام فى جميع الأديان، وذكر فى الزيادات أن الوصية للمغنين والمغنيات مما هو معصية عندنا وعند أهل الكتاب، وحكى عن ظهير الدين المرغينانى: أنه قال من قال لمقرى زماننا أحسنت عند قراءته كفر، وصاحبا الهداية والذخيرة سمياه كبيرة. هذا فى التغنى للناس فى غير الأعياد والأعراس ويدخل فيه تغنى صوفية زماننا فى المساجد والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمرد بل هذا أشد من كل تغن لأنه مع اعتقاد العبادة وأما التغنى وحده بالأشعار لدفع الوحشة أو فى الأعياد والأعراس فاختلفوا فيه والصواب منعه مطلقاً فى هذا الزمان انتهى *

وفى الدر المختار التغنى لنفسه لدفع الوحشة لابأس به (١) عند العامة على ما فى العناية وصححه

(١) قوله لابأس به الخ لما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من دهاة الصحابة وكان يتغنى

www.Quranpdf.blogspot.in

العينى (١) وغيره قال ولو فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقا ومنهم من أجازه فى العرس كما جاز ضرب الدف فيه ومنهم من أباحه مطلقا ومنهم من كرهه مطلقا انتهى . وفى البحر والمذهب حرمته مطلقا فانقطع الاختلاف بل ظاهر الهداية أنه كبيرة ولو لنفسه وأقره المصنف وقال : ولا تقبل شهادة من يسمع الغناء أو يجلس مجلسه انتهى كلام الدر ».

وذكر الامام أبو بكر الطرسوسى فى كتابه فى تحريم السماع ان الامام أبا حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان وحماد وابراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم فى ذلك ولا نعلم خلافا بين أهل البصرة فى كراهة ذلك والمنع منه انتهى وكأن مراده بالكراهة الحرمة ، والمتقدمون كثيرا ما يريدون بالمكروه الحرام كما فى قوله تعالى: (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) ونقل عليه الرحمة فيه أيضا عن الامام مالك انه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بالعيب وانه سئل عما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال إنما يفعله عندنا الفساق ، ونقل التحريم عن جمع من الحنابلة على ماحكاه شارح المقنع وغيره ، وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب البلغة ان أكثر أصحابهم على التحريم وعن عبد الله ابن الامام أحمد انه قال سألت أبى عن الغناء فقال ينبت النفاق فى القلب لا يعجبنى ثم ذكر قول مالك إنما يفعله عندنا الفساق ، وقال المحاسبي فى رسالة الانشاء الغناء حرام كالميتة ، ونقل الطرسوسى أيضا عن كتاب أدب القضاء ان الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه قال: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ، وفيه انه صرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وأنكروا على من نسب اليه حله كالقاضى أبى الطيب والطبرى والشيخ أبى اسحق فى التنبيه وذكر بعض تلامذة البغوى فى كتابه الذى سماه التقريب ان الغناء حرام فعله وسماعه ، وقال ابن الصلاح فى فتاواه بعد كلام طويل: فاذن هذا السماع حرام باجماع أهل الحل والعقد من المسلمين انتهى ، والذى رأيته فى الشرح الكبير للجامع الصغير للفاضل المناوى ان مذهب الشافعى أنه مكروه تنزيها عند أمن الفتنة ، وفى المنهاج يكره الغناء بلا آلة قال العلامة ابن حجر لما صح عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وذكر الحديث السابق الموقوف عليه وانه جاء مرفوعا من طرق كثيرة بينها فى كتابه كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ثم قال وزعم أنه لادلالة فيه على كراهته لأن بعض المباح كلبس الثياب الجميلة ينبت النفاق فى القلب وليس بمكروه يرد بأنا لا نسلم ان هذا ينبت نفاقا أصلا ، ولئن سلمناه فالنفاق مختلف فالنفاق الذى ينبته الغناء من التخنث وما يترتب عليه أقبح وأشنع كما لا يخفى ثم قال: وقد جزم الشيخان يعنى النووى والرافعى فى موضع بأنه معصية وينبغى حمله على مافيه وصف نحو خمر أو تشبب بأمرد أو أجنبية ونحو ذلك مما يحمل غالبا على معصية ، قال الأذرعى: أما ما اعتيد عند محاولة عمل وحمل ثقيل كحداء الأعراب لإبلهم والنساء لتسكين صغارهن فلا شك فى جوازه بل ربما يندب إذا نشط على سير أو رغب فى خير كالحداء فى الحج والغزو ، وعلى هذا يحمل ماجاء عن بعض الصحابة انتهى ، وقضية قولهم بلا آلة حرمته مع الآلة ، قال الزركشى لكن القياس تحريم الآلة فقط وبقاء الغناء على الكراهة انتهى ،

وأجيب بانه يجوز أن يكون معنى يتغنى ينشد الاشعار أى المباحة اه منه

(٢) قوله وصححه العيني واليه ذهب شمس الأئمة السرخسي اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

ومثل الاختلاف فى الغناء الاختلاف فى السماع فأباحه قوم كما أباحوا الغناء. واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى عن عائشة قالت: «دخل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه - وفى رواية لمسلم - تسجى بثوبه ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزمارة الشيطان عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد» الحديث. ووجه الاستدلال أن هناك غناء أو سماعا وقد أنكر عليه الصلاة والسلام إنكار أبى بكر رضى الله تعالى عنه بل فيه دليل أيضا على جواز سماع الرجل صوت الجارية ولو لم تكن مملوكة لأنه عليه الصلاة والسلام سمع ولم ينكر على أبى بكر سماعه بل أنكر انكاره وقد استمرتا تغنيان الى أن أشارت اليهما عائشة بالخروج. وانكار أبى بكر على ابنته رضى الله تعالى عنهما مع علمه بوجود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان لظن أن ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام لكونه دخل فوجده مغطى بثوبه فظنه نائما. وفى فتح البارى استدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على اباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة.

ويكفى فى رد ذلك ما رواه البخارى أيضا بعيده عن عائشة أيضا قالت: «دخل على أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت الانصار يوم بعاث قالت: وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ وذلك فى يوم عيد فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ياأبا بكر ان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا» فنفت فيه عنهما من طريق المعنى ما أثبتته لهما باللفظ لأن الغناء يطلق على رفع الصوت وعلى الترنم الذى تسميه العرب النصب بفتح النون وسكون المهملة وعلى الحداء ولا يسمى فاعله مغنيا وانما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح.

قال القرطبى: قولها «ليستا بمغنيتين» أى ليستا ممن يعرف الغناء كما تعرفه المغنيات المعروفات بذلك وهذا منهما تجوز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به وهو الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن، وهذا النوع اذا كان فى شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف فى تحريمه وأما ما ابتدعه الصوفية فى ذلك فمن قبيل ما لا يختلف فى تحريمه لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب الى الخير حتى لقد ظهرت فى كثير منهم فعلات المجانين والصبيان حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة وانتهى التواقح بقوم منهم الى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال وأن ذلك يثمر سنى الاحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقول أهل المخرقة والله تعالى المستعان انتهى كلام القرطبى، وكذا الغرض من كلام فتح البارى وهو كلام حسن بيد أن قوله: وانما يسمى بذلك من ينشد الخ لا يخلو عن شىء بناء على أن المتبادر عموم ذلك لما يكون فى المنشد منه تعريض أو تصريح بالفواحش ولما لا يكون فيه ذلك، وقال بعض الاجلة: ليس فى الخبر الاباحة مطلقا بل قصارى مافيه اباحته فى سرور شرعى كما فى الاعياد والاعراس فهو دليل لمن أجازه فى العرس كما أجاز ضرب الدف فيه، وأيضا انكار أبى بكر رضى الله تعالى عنه ظاهر فى أنه كان سمع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذم الغناء والنهى عنه فظن عموم الحكم فأنكر، وبانكاره عليه الصلاة والسلام عليه انكاره تبين له عدم العموم. وفى الخبر الآخر ما يدل على أنه أوضح له صلى الله تعالى عليه وسلم الحال مقرونا ببيان الحكمة وهو أنه يوم عيد فلا ينكر فيه مثل هذا كما لا ينكر فى الاعراس، ومع هذا أشار صلى الله تعالى عليه وسلم بالتفافه بثوبه وتحويل وجهه الشريف الى أن الاعراض عن ذلك أولى، وسماع

www.Quranpdf.blogspot.in

صوت الجارية الغير المملوكة بمثل هذا الغناء اذا أمنت الفتنة مما لا بأس به فليكن الخبر دليلا على جوازه *

واستدل بعضهم على ذلك بما جاء عن أنس بن مالك انه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من دهاة الصحابة رضى الله تعالى عنهم وكان يتغنى ، ولا يخفى ما فيه فان هذا التغنى ليس بالمعنى المشهور ، ونحوه التغنى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وسفيان بن عيينة . وأبو عبيدة فسرا التغنى فى هذا الحديث بالاستغناء فكأنه قيل : ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن غيره ، وهو مع هذا تغن لازالة الوحشة عن نفسه فى عقر داره ، ومثله ماروى عن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر رضى الله تعالى عنه فسمعته يغنى *

فكيف ثوائى بالمدينة بعدما قضى وطرا منها جميل بن معمر

أراد به جميلا الجمحى وكان خاصا به فلما استأذنت عليه قال لى : أسمعت ما قلت ؟ قلت : نعم قال : أنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم . وحرم جماعة السماع مطلقا ، وقال الغزالى : السماع اما محبوب بأن غلب على السامع حب الله تعالى ولقائه ليستخرج به أحوالا من المكاشفات والملاطفات ، واما مباح بأن كان عنده عشق مباح لحليلته أو لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى ، وإما محرم بأن غلب عليه هوى محرم *

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الانشاد فى المحبة والرقص فقال : الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص العقل فلا يصلح الا للنساء ، وأما استماع الانشاد المحرك للاحوال السنية وذكر أمور الآخرة فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب ، ولا يحضر السماع من فى قلبه هوى خبيث فانه يحرك ما فى القلب ، وقال أيضا : السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم ، وهم اما عارفون بالله تعالى ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم فمن غلب عليه الخوف أثر فيه السماع عند ذكر المخوفات نحو حزن وبكاء وتغير لون ، وهو إما خوف عقاب أو فوات ثواب أو أنس وقرب وهو أفضل الخائفين والسامعين وتأثير القرآن فيه أشد ، ومن غلب عليه الرجاء أثر فيه السماع عند ذكر المطمعات والمرجيات ، فان كان رجاؤه للانس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين وان كان رجاؤه للثواب فهذا فى المرتبة الثانية ، وتأثير السماع فى الأول أشد من تأثيره فى الثانى ، ومن غلب عليه حب الله تعالى لانعامه فيؤثر فيه سماع الانعام والاكرام ، أو لجماله سبحانه المطلق فيؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات ، وهو أفضل مما قبله لأن سبب حبه أفضل الاسباب ، ويشتد التأثير فيه عند ذكر الاقصاء والابعاد ، ومن غلب عليه التعظيم والاجلال وهو أفضل من جميع ما قبله ، وتختلف أحوال هؤلاء فى المسموع منه ، فالسماع من الولى أشد تأثيرا من السماع من عامى ومن نبى أشد تأثيرا منه ومن ولى ، ومن الرب عز وجل أشد تأثيرا من السماع من نبي لأن كلام المهيب أشد تأثيرا فى الهائب من كلام غيره كما أن كلام الحبيب أشد تأثيرا فى المحب من كلام غيره ، ولهذا لم يشتغل النبيون والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهى والغناء واقتصروا على كلام ربهم جل شأنه ، ومن يغلب عليه هوى مباح كمن يعشق حليلته فهو يؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق فسماعه لا بأس به ، ومن يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد أو أجنبية فهو يؤثر فيه السعى الى الحرام وما أدى الى الحرام فهو حرام ، وأما من لم يجد فى نفسه شيئا من هذه الاقسام الستة فيكره سماعه من جهة ان الغالب على العامة انما هى الاهواء الفاسدة فربما هيجه السماع الى صورة محرمة فيتعلق بها ويميل اليها ، ولا يحرم عليه ذلك لأنا لا نتحقق السبب المحرم ، وقد يحضر السماع قوم من الفجرة

www.Quranpdf.blogspot.in

فيبكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها ويراؤن الحاضرين بأن سماعهم لشيء محبوب ، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين ايهام كونهم من الصالحين ، وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم ويذكرهم المنشد فراق الاحبة وعدم الانس فيبكى أحدهم ويوهم الحاضرين ان بكاءه لأجل رب العالمين جل وعلا وهذا مراء بأمر غير محرم ، ثم قال : اعلم أنه لا يحصل السماع المحمود الاعند ذكر الصفات الموجبة للاحوال السنية والافعال الرضية ، ولكل صفة من الصفات حال مختص بها ، فمن ذكر صفة الرحمة أو ذكر بها كانت حاله حال الراجين وسمعه سماعهم ، ومن ذكر شدة النقمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين وسماعه سماعهم، وعلى هذا القياس ، وقد تغلب الاحوال على بعضهم بحيث لايصغى الى ما يقوله المنشد ولا يلتفت اليه لغلبة حاله الأولى عليه انتهى ، وقد نقله بعض الأجلة وأقره وفيه ما يخالف مانقل عن الغزالى *

ونقل القاضى حسين عن الجنيد قدس سره انه قال : الناس فى السماع اما عوام وهو حرام عليهم لبقاء نفوسهم ، واما زهاد وهو مباح لهم لحصول مجاهدتهم ، واما عارفون وهو مستحب لهم لحياة قلوبهم ، وذكر نحوه أبو طالب المكى وصححه السهروردى عليه الرحمة فى عوارفه ، والظاهر ان الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحى *

واستظهر بعضهم أنه لم يرد ذلك وانما أراد أنه لا ينبغى . ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره أنه سئل عن السماع فقال : هو ضلال للمبتدى والمنتهى لايحتاج اليه ، وفيه مخالفة لما سمعت *

وقال القشيرى رحمه الله تعالى : إن للسماع شرائط منها معرفة الاسماء والصفات ليعلم صفات الذات ن صفات الافعال ومايمتنع فى نعت الحق سبحانه ومايجوز وصفه تعالى به ومايجب ومايصح اطلاقه عليه عز شأنه من الاسماء ومايمتنع ، ثم قال : فهذه شرائط صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوى العقول ، وأما عند أهل الحقائق فالشرط فناء النفس بصدق المجاهدة ثم حياة القلب بروح المشاهدة فمن لم تتقدم بالصحة معاملته ولم تحصل بالصدق منازلته فسماعه ضياع وتواجده طباع ، والسماع فتنة يدعو اليها استيلاء العشق الاعند سقوط الشهوة وحصول الصفوة ، وأطال بما يطول ذكره ، قيل : وبه يتبين تحريم السماع على اكثر متصوفة الزمان لفقد شروط القيام بأدائه . ومن العجب أنهم ينسبون السماع والتواجد إلى رسول الله ﷺ ويروون عن عطية أنه عليه الصلاة والسلام دخل على أصحاب الصفة يوما فجلس بينهم . وقال عليه الصلاة والتحية : هل فيكم من ينشدنا أبياتا. *فقال واحد :

لسعت حية الهوى كبدى ... ولا طبيب لها ولاراقى
الا الحبيب الذى شغفت به ... فعنده رقيتى وترياقى

فقام عليه الصلاة والسلام وتمايل حتى سقط الرداء الشريف عن منكبيه فأخذه أصحاب الصفة فقسموه فيما بينهم بأربعمائة قطعة ، وهو لعمرى كذب صريح وإفك قبيح لاأصل له باجماع محدثى أهل السنة وماأراه الا من وضع الزنادقة . فهذا القرآن العظيم يتلوه جبريل عليه السلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ويتلوه هو أيضا ويسمعه من غير واحد ولايعتريه عليه الصلاة والسلام شيء مماذكروه فى سماع بيتين هماما سمعت سبحانك هذا بهتان عظيم ، وأنا أقول : قد عمت البلوى بالغناء والسماع فى سائر البلاد والبقاع ولايتحاشى من ذلك فى المساجد وغيرها بل قد عين مغنون يغنون على المنائر فى أوقات مخصوصة شريفة بأشعار مشتملة على وصف الخمر والحانات وسائر مايعد من المحظورات ، ومع ذلك قد وظف لهم من غلة الوقف ماوظف ويسمونهم الممجدين،

www.Quranpdf.blogspot.in

ويعدون خلو الجوامع من ذلك من قلة الاكتراث بالدين ، وأشنع من ذلك مايفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم ثم انهم قبحهم الله تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون : نعنى بالخمر المحبة الالهية وبالسكر غلبتها وبمية. وليلى. وسعدى مثلا المحبوب الاعظم وهو الله عزوجل ، وفى ذلك من سوء الادب مافيه (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) وفى القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام ليس من أدب السماع أن يشبه غلبة المحبة بالسكر من الخمر فانه سوء الادب وكذا تشبيه المحبة بالخمر لأن الخمر أم الخبائث فلا يشبه ما أحبه الله تعالى بما أبغضه وقضى بخبثه ونجاسته فان تشبيه النفيس بالخسيس سوء الادب بلا شك فيه ، وكذا التشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات ، ولقد كره لبعضهم قوله: أنتم روحي ومعلم راحتي ولبعضهم قوله: فانت السمع والبصر لأنه شبه من لاشبيه له بروحه الخسيسة وسمعه وبصره اللذين لا قدر لهما ، ثم انه وإن اباح بعض اقسام السماع حط على من يرقص ويصفق عنده فقال: اما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة برعونة الاناث لا يفعلها الا أرعن أو متصنع كذاب ، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئاً من ذلك ، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله تعالى شأنه ولقد مانوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين. احداهما لذة قليل من الاحوال المتعلقة بذى الجلال. والثانية لذة الاصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذات ليست من آثار الدين ولا متعلقة بأموره فلما عظمت عندهم اللذات غلطوا فظنوا أن مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الاحوال وليس كذلك بل الاغلب عليهم حصول لذات النفوس التى ليست من الدين فى شيء . وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما التصفيق للنساء » ولعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء ، ومن هاب الاله وأدرك شيئاً من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ولا يصدران الا من جاهل ، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما فى كتاب ولا سنة ولم يفعل ذلك أحد من الانبياء ولا معتبر من أتباعهم وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالاهواء ، وقد قال تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) ولقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئا من ذلك فما ذلك الا غرض من اغراض النفس وليس بقربة إلى الرب جل وعلا ، وفاعله إن كان ممن يقتدى به ويعتقد أنه مافعله الا لكونه قربة فبئس ماصنع لايهامه أن هذا من الطاعات وانما هو من أقبح الرعونات . وأما الصياح والتغاشي ونحوهما فتصنع ورياء ، فان كان ذلك عن حال لا يقتضيهما فاثم الفاعل من جهتين . احداهما ايهامه الحال الثابتة الموجبة لهما . والثانية تصنعه ورياؤه ، وإن كان عن مقتض أثم اثم رياء لاغير . وكذلك نتف الشعور وضرب الصدور وتمزيق الثياب محرم لما فيه من اضاعة المال ، وأى ثمرة لضرب الصدور ونتف الشعور وشق الجيوب الا رعونات صادرة عن النفوس اه كلامه ، ومنه يعلم مافى نقل الاسنوى عنه رحمه الله تعالى أنه كان يرقص فى السماع ، والعلامة ابن حجر قال : يحمل ذلك على مجرد القيام والتحرك لغلبة وجد وشهود وتجل لايعرفه الا أهله ، ومن ثم قال الامام اسماعيل الحضرمى : موقف الشمس عن قوم يتحركون فى السماع هؤلاء

www.Quranpdf.blogspot.in

قوم يروحون قلوبهم بالأصوات الحسنة حتى يصيروا روحانيين فهم بالقلوب مع الحق وبالاجساد مع الخلق، ومع هذا فلا يؤمن عليهم العدو ولا يعول عليهم فيما فعلوا ولا يقتدى بهم فيما قالوا اه ، وما ذكره فيمن يصدر عنه نحو الصياح والتغاشى عن حال يقتضيه لا يخلو عن شيء ، فقد قال البلقينى فيما يصدر عنهم من الرقص الذى هو عند جمع ليس بحرم ولا مكروه لأنه مجرد حركات على استقامة أو اعوجاج ولأنه عليه الصلاة والسلام ، أقر الحبشة عليه فى مسجده يوم عيد، وعند آخرين مكروه، وعند هذا القائل حرام إذا كثر بحيث أسقط المروءة ان كان باختيارهم فهم كغيرهم والافليسوا بمكلفين، واستوضحه بعض الاجلة وقال: يجب اطراده فى سائر مايحكى عن الصوفية مما يخالف ظواهر الشرع فلا يحتج به لأنه ان صدر عنهم فى حال تكليفهم فهم كغيرهم أو مع غيبتهم لم يكونوا مكلفين به ، والذى يظهر لى أن غناء الرجل بمثل هذه الألحان ان كان لدفع الوحشة عن نفسه فمباح غير مكروه كما ذهب اليه شمس الائمة السرخسى لكن بشرط أن لا يسمعه من يخشى عليه الفتنة من امرأة أو غيرها ولا من يستخف به ويسترذله وبشرط أن لا يغير اسم معظم بنحو زيادة ليست فيه فى أصل وضعه لأجل أن لا يخرج عن مقتضى الصنعة مثل أن يقول فى الله ايلاه وفى محمد موحامد، هذا هذا مع كون ما يتغنى به مما لا بأس بانشاده وإن كان للناس للهو فى غير حادث سرور كعرس بأجرة أو بدونها ازدرى به لذلك أو لم يزدر كان مايتغنى به مباح الانشاد أو لم يكن فحرام وإن أمنت الفتنة وأراه من الصغائر كما يقتضيه كلام الماوردى حيث قال: وإذا قلنا بتحريم الأغانى والملاهى فهى من الصغائر دون الكبائر، وإن كان فى حادث سرور فهو مباح ان أمنت الفتنة وكان مايتغنى به جائز الانشاد ولم يغير فيه اسم معظم ولم يكن سببا للازدراء به وهتك مروءته ولا لاجتماع الرجال والنساء على وجه محظور، وإن كان سببا لمحرم فهو حرام وتتفاوت مراتب حرمته حسب تفاوت حرمة ما كان هو سببا له وإن كان للناس لا للهو بل لتنشيطهم على ذكر الله تعالى كما يفعل فى بعض حلق التهليل فى بلادنا فمحتمل الاباحة إن لم يتضمن مفسدة ولعله إلى الكراهة أقرب *

وربما يقال : إنه حينئذ قربة كالحداء وهو مايقال خلف الابل من زجر وغيره إذا كان منشطا لسير هو قربة لأن وسيلة القربة قربة اتفاقا فيقال : لم نقف على خبر فى اشتمال حلق الذكر على عهد رسول الله ﷺ وكذا على عهد خلفائه وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وهم أحرص الناس على القرب على هذا الغناء ولا على سائر أنواعه وصحت أحاديث فى الحداء ولذا أطلق جمع القول بندبه وكونهم نشطين بدون ذلك لا يمنع أن يكون فيهم من يزيده ذلك نشاطا فلو كان لذلك قربة لفعلوه ولو مرة ولم ينقل أنهم فعلوه أصلا، على أنه لا يبعد أن يقال : انه يشوش على الذاكرين ولا يتم لهم معه تدبر معنى الذكر وتصوره وهو بدون ذلك لا ثواب فيه بالاجماع، ولعل مايفعل على المنائر مما يسمونه تمجيدا منتظم عند الجهلة فى سلك وسائل القرب بل يعده أكثرهم قربة من حيث ذاته وهو لعمرى عند العالم بمعزل عن ذلك، وإن كان لحاجة مرض تعين شفاؤه به فلا شك فى جوازه والاكباب على المباح منه يخرم المروءة كاتخاذه حرفة ، وقول الرافعى : لا يخرمها إذا لاق به رده الزركشى بأن الشافعى نص على رد شهادته وجرى عليه أصحابه لأنها حرفة دنية ويعد فاعلها فى العرف ممن لا حياء له ، وعن الحسن أن رجلا قال له: ما تقول فى الغناء؟ قال: نعم الشيء الغناء يوصل به الرحم وينفس به عن المكروب ويفعل فيه المعروف قال : إنما أعنى الشد ، قال : وما الشد أتعرف منه شيئا؟ قال :

www.Quranpdf.blogspot.in

نعم قال : فما هو ؟ فاندفع الرجل يغني ويلوى شدقيه ومنخريه ويكسر عينيه فقال الحسن : ما كنت أرى أن عاقلا يبلغ من نفسه ما أرى ، واختلفوا فى تعاطى خارم المروءة على أوجه . ثالثها إن تعلقت به شهادة حرم وإلا فلا *

قال بعض الأجلة : وهو الأوجه لأنه يحرم عليه التسبب فى إسقاط ما تحمله وصار أمانة عنده لغيره ويظهر لى أنه إن كان ذلك من عالم يقتدى به أو كان ذلك سببا للازدراء حرم أيضا وإن سماعه أى استماعه لا مجرد سماعه بلا قصد عند أمن الفتنة وكون ما يتغنى به جائز الانشاد وعدم تسببه لمعصية كاستدامة مغن لغناء آثم به مباح والاكباب عليه كما قال النووى : يسقط المروءة كالاكباب على الغناء المباح ، والاختلاف فى تعاطى مسقطها قد ذكرناه آنفا وأما سماعه عند عدم أمن الفتنة وكون ما يتغنى به غير جائز الانشاد وكونه متسببا لمعصية فحرام ، وتتفاوت مراتب حرمته ولعلها تصل إلى حرمة كبيرة ، ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا وان خلا عن رقص فان مفاسده أكثر من أن تحصى وكثير مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يتلى ومع هذا يعتقدونه قربة ويزعمون أن أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون *

ولا يخفى على من أحاط خبراً بما تقدم عن القشيرى وغيره أن سماعهم مذموم عند من يعتقدون انتصاره لهم ويحسبون أنهم واياه من حزب واحد فويل ان شفعاؤه خصماؤه وأحباؤه أعداؤه ، وأما رقصهم عليه فقد زادوا به فى الطنبور رنة وضموا كسر الله تعالى شوكتهم بذلك إلى السفه جنة ، وقد أفاد بعض الأجلة أنه لا تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف الذى قيل يباح أو يسن ضربه لعرس وختان وغيرهما من كل سرور ، ومنه قدوم عالم ينفع المسلمين رادا على من زعم القبول فقال : وعن بعضهم تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف لاعتقادهم ان ذلك قربة كما تقبل شهادة حنفى شرب النبيذ لاعتقاده اباحته وكذا كل من فعل ما اعتقد إباحته اه ، ورد بأنه خطأ قبيح لأن اعتقاد الحنفى نشأ عن تقليد صحيح ولا كذلك غيره وإنما منشؤه الجهل والتقصير فكان خيالا باطلا لا يلتفت اليه اه *

ثم إنى أقول : لا يبعد أن يكون صاحب حال يحركه السماع ويثير منه ما يلجئه الى الرقص أو التصفيق أو الصعق والصياح وتمزيق الثياب أو نحو ذلك مما هو مكروه أو حرام فالذى يظهر لى فى ذلك أنه إن علم من نفسه صدور ما ذكر كان حكم الاستماع فى حقه حكم ما يترتب عليه ، وإن تردد فيه فالأحوط فى حقه إن لم نقل بالكراهة عدم الاستماع . ففى الخبر «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ثم ان ما حصل له شىء من ذلك بمجرد السماع من غير قصد ولم يقدر على دفعه أصلا فلا لوم ولا عتاب فيه عليه ، وحكمه فى ذلك حكم من اعتراه نحو عطاس وسعال قهريين ولا يشترط فى دفع اللوم والعتاب عنه كون ذلك مع غيبته فلا يجب على من صدر منه ذلك ان لم يغب اعادة الوضوء للصلاة مثلا ، ولينظر فيما لو اعتراه وهو فى الصلاة بدون غيبة هل حكمه حكم نحو العطاس والسعال اذا اعتراه فيها أم لا ، والذى سمعته عن بعض الكبار الثانى فتدبر . ومن الناس من يعتريه شىء مما ذكر عند سماع القرآن اما مطلقا أو اذا كان بصوت حسن ، وقلما يقع ذلك من سماع القرآن أو غيره لكامل ،

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها انه قيل لها : ان قوما اذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت : القرآن أكرم من ان يسرق منه عقول الرجال ولكنه كما قال الله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) وكثيرا ما يكون لضعف تحمل الوارد ، وبعض المتصنعين يفعله رياء ، وعن ابن سيرين انه سئل عمن يسمع القرآن فيصعق فقال : ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله الى آخره

www.Quranpdf.blogspot.in

فان صحقوا فهو كما قالوا، ولا يرد على اباحة الغناء وسماعه في بعض الصور خبر ابن مسعود «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» لالان الغناء فيه مقصور وأن المراد به غنى المال الذى هو ضد الفقر اذ يرد ذلك أن الخبر روى من وجه آخر بزيادة والذكر ينبت الايمان في القلب كما ينبت الماء الزرع، ومقابلة الغناء بالذكر ظاهر في المراد به التغنى، على أن الرواية كما قال بعض الحفاظ بالمدبل لأن المراد أن الغناء من شأنه أن يترتب عليه النفاق أى العملى بأن يحرك الى غدر وخلف وعد وكذب ونحوها ولا يلزم من ذلك اطراد الترتب *

وربما يشير الى ذلك التشبيه في قوله: كما ينبت الماء البقل فان انبات الماء البقل غير مطرد، ونظير ذلك في الكلام كثير، والقائل باباحته في بعض الصور انما يبيحه حيث لا يترتب عليه ذلك. نعم لا شك أن ما هذا شأنه الاحوط بعد كل قيل وقال عدم الرغبة فيه كذا قيل *

وقيل: يجوز أن يكون أريد بالنفاق الايمانى، ويؤيده مقابلته في بعض الروايات بالايمان ويكون مساق الخبر للتنفير عن الغناء اذ كان الناس حديثى عهد بجاهلية كان يستعمل فيها الغناء للهو ويجتمع عليه في مجالس الشرب، ووجه انباته للنفاق إذ ذاك أن كثيرا منهم لقرب عهده بلذة الغناء ومايكون عنده من اللهو والشرب وغيره من أنواع الفسق يتحرك قلبه لما كان عليه ويحن حنين العشار اليه ويكره لذلك الايمان الذى صده عما هنالك ولا يستطيع لقوة شوكة الاسلام أن يظهر ما أضمر وينبذ الايمان وراء ظهره ويتقدم الى ماعنه تأخر فلم يسعه الا النفاق لما اجتمع عليه مخافة الردة والاشتياق فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وأما الآية فان كان وجه الاستدلال بها تسمية الغناء لهوا فكم لهو هو حلال وان كان الوعيد على اشترائه واختياره فلا نسلم أن ذلك على مجرد الاشتراء لجواز أن يكون على الاشتراء ليضل عن سبيل الله تعالى ولا شك أن ذلك من الكبائر ولا نزاع لنا فيه، وقال ابن عطية: الذى يترجح أن الآيه نزلت في لهو الحديث مضافا الى الكفر فلذلك اشتدت الفاظ الآية بقوله تعالى: (ليضل) الخ اه *

ومما ذكرنا يعلم مافى الاستدلال بها على حرمة الملاهى كالرباب والجنك والسنطير والكمنجة والمزمار وغيرها من الآلات المطربة بناء على ماروى عن ابن عباس. والحسن أنهما فسرا (لهو الحديث) بها نعم أنه يحرم استعمالها واستماعها لغير ما ذكر فقد صح من طرق خلافا لما وهم فيه ابن حزم الضال المضل فقد علقه البخارى ووصله الاسماعيلى. وأحمد. وابن ماجه. وأبو نعيم. وأبو داود بأسانيد صحيحة لامطعن فيها وصححه جماعة آخرون من الائمة كما قاله بعض الحفاظ أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال «ليكونن في أمتى قوم يستحلون الخز والخمر والمعازف» وهو صريح في تحريم جميع آلات اللهو المطربة ومما يشبه الصريح في ذلك ما رواه ابن أبى الدنيا في كتاب ذم الملاهى عن أنس. وأحمد. والطبرانى عن ابن عباس. وأبى أمامة مرفوعا «ليكونن في هذه الامة خسف وقذف ومسخ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف» وهى الملاهى التى سمعتها، ومنها الصنج العجمى وهو صفر يجعل عليه أوتار يضرب بها على ماذهب اليه غير واحد خلافا للماوردى حيث قال: إن الصنج يكره مع الغناء ولا يكره منفردا لأنه بانفراده غير مطرب، ولعله أراد به العربى وهو قطعتان من صفر تضرب أحدهما بالاخرى فانه بحسب الظاهر هو الذى لايطرب منفردا لكن يزيد الغناء طربا، وذكر أنه يستعمله المخنثون في بعض البلاد، ولايبعد عليه القول بالحرمة، ومنها اليراع وهو الشبابة فانه مطرب بانفراده بل قال بعض أهل الموسيقى: إنه آلة كاملة جامعة لجميع النغمات إلا يسيرا، وقد أطنب الامام الدولقى وهو من أجلة

www.Quranpdf.blogspot.in

العلماء فى دلائل تحريمه؛ ومنها القياس وهو اما أولى أو مساو وقال : العجب كل العجب ممن هو من أهل العلم بزعم أن الشبابة حلال اه ومنه يعلم ما فى قول التاج السبكى فى توشيحه لم يقم عندى دليل على تحريم اليراع مع كثرة التتبع والذى أراه الحل فان انضم اليه محرم فلكل منهما حكمه، ثم الاولى عندى لمن ليس من أهل الذوق الاعراض عنه مطلقا لأن غاية مافيه حصول لذة نفسانية وهى ليست من المطالب الشرعية وأما أهل الذوق فحالهم مسلم اليهم وهم على حسب مايجدونه من أنفسهم اه ه

وحكى عن العز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد انهما كانا يسمعان ذلك والظاهر أنه كذب لا أصل له وبذلك جزم بعض الاجلة، ولا يبعد حلها اذا صفر فيها كالاطفال والرعاء على غير القانون المعروف من الاطراب ه

ومنها العود وهو آلة للهو غير الطنبور واطلقه بعضهم عليه وحكاية النجس ابن طاهر عن الشيخ أبى اسحاق الشيرازى أنه كان يسمع العود من جملة كذبه وتهوره كدعواه اجماع الصحابة والتابعين على اباحة الغناء واللهو، ومثله فى المجازفة وارتكاب الاباطيل على الجزم ابن حزم لا الدف فيجوز ضربه من رجل وامرأة لا من امرأة فقط خلافا للحليمى واستماعه لعرس ونكاح وكذا غيرهما من كل سرور فى الأصح وبحل ذى الجلاجل منه وهى إما نحو حلق يجعل داخله كدف العرب أو صنوج عراض من صفر تجعل فى حروف دائرته كدف العجم جزم جماعة وجزم آخرون بحرمته وبها أقول لأنه كما قال الأذرعى أشد اطرابا من أكثر الملاهى المتفق على تحريمها، وبعض المتصوفة ألفوا رسائل فى حل الأوتار والمزامير وغيرها من آلات اللهو وأتوا فيها بكذب عجيب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى أصحابه رضى الله تعالى عنهم والتابعين والعلماء العاملين وقلدهم فى ذلك من لعب به الشيطان وهوى به الهوى إلى هوة الحرمان فهو عن الحق بمعزل وبينه وبين حقيقة التصوف ألف ألف منزل، وإذا تحقق لديك قول بعض الكبار بحل شىء من ذلك فلا تغتر به لأنه مخالف لما عليه أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من الأكابر المؤيد بالادلة القوية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ماعدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن رزق عقلا مستقيما وقلبا من الاهواء الفاسدة سليما لايشك فى أن ذلك ليس من الدين وأنه بعيد بمراحل عن مقاصد شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، واستدل بعض أهل الإباحة على حل الشبابة بما أخرجه ابن حبان فى صحيحه عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع صوت زمارة راع فجعل إصبعيه فى أذنيه وعدل عن الطريق وجعل يقول : يانافع أتسمع فأقول : نعم فلما قلت : لا رجع إلى الطريق ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله، وأخرجه ابن أبى الدنيا . والبيهقى عن نافع أيضاً، وسئل عنه الحافظ محمد بن نصر السلامى فقال : إنه حديث صحيح، ووجه الاستدلال به أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر ابن عمر وكان عمره إذ ذاك كما قال الحافظ المذكور سبع عشرة سنة بسد أذنيه ولا نهى الفاعل فلو كان ذلك حراما لأمر ونهى عليه الصلاة والسلام، وسد أذنيه صلى الله تعالى عليه وسلم يحتمل أن يكون لكونه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك فى حال ذكر أو فكر وكان السماع يشغله عليه الصلاة والسلام والتحية ويحتمل أن يكون إنما فعله ﷺ تنزيها، وقال الأذرعى : بهذا الحديث استدل أصحابنا على تحريم المزامير وعليه بنوا التحريم فى الشبابة اه ه

والحق عندى أنه ليس نصا فى حرمتها لأن سد الاذنين عند السماع من باب فعله ﷺ وليس مما وضح فيه أمر الجبلة ولا ثبت تخصيصه به عليه الصلاة والسلام ولا مما وضح أنه بيان لنص علم جهته من الوجوب

www.Quranpdf.blogspot.in

والندب والاباحة فان كان مما علمت صفته فلا يخلو من أن تكون الوجوب أو الندب أو الاباحة لاجائز أن تكون الوجوب المستلزم لحرمة سماع اليراع إذ لاقائل بأنه يجب على أحد سد الاذنين عند سماع محرم إذ يأمن الاثم بعدم القصد فقد قالوا: إن الحرام الاستماع لامجرد السماع بلا قصد ، وفي الزواجر الممنوع هو الاستماع لاالسماع لاعن قصد اتفاقا ، ومن ثم صرح أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن من بجواره آلات محرمة ولا يمكنه إزالتها لايلزمه النقلة ولا يأثم بسماعها لاعن قصد واصغاء اه ، والظاهر أن الامر كذلك عند سائر الائمة ، نعم لهم تفصيل في القعود في مكان فيه نحو ذلك ، قال في تنوير الابصار وشرحه الدر المختار: دعي إلى وليمة وثمة لعب وغناء قعد وأكل ولو على المائدة لا ينبغي أن يقعد بل يخرج معرضا لقوله تعالى : (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) فان قدر على المنع فعل وإلا يقدر صبر ان لم يكن ممن يقتدى به فان كان مقتدى به ولم يقدر على المنع خرج ولايقعد لأن فيه شين الدين ، والمحكى عن الامام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه كان قبل أن يصير مقتدى به ، وإن علم أولا لايحضر أصلا سواء كان ممن يقتدى به أو لا اه فتعين كونها الندب أو الاباحة وكلا الامرين لايستلزمان الحرمة فيحتمل أن يكون ذلك حراما أو مكروها يندب سد الاذنين عند سماعه احتياطا من أن يدعو إلى الاستماع المحرم أو المكروه ، وإن كان مما لم تعلم صفته فقد قالوا فيما كان كذلك: المذاهب فيه بالنسبة الى الامة خمسة الوجوب والندب والاباحة والوقف والتفصيل وهو أنه ان ظهر قصد القربة فالندب والا فالاباحة ويعلم مما ذكرنا الحال على كل مذهب والذي يغلب على الظن أن ما أشار اليه الخبر ان كان الزمر بزمارة الراعي على وجه التأنق واجراء النغمات التي تحرك الشهوات كما يفعله من جعل ذلك صنعته اليوم فاستماعه حرام وسد الاذنين المشار اليه فيه لعله كان منه عليه الصلاة والسلام تعليما للأمة أحد طرق الاحتياط المعلوم حاله لئلا يجرهم ذلك الى الاستماع والا فالاستماع لمكان العصمة مما لايتصور في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن عرف قدر الصحابة واطلع على سبيلهم وحرصهم على التأسي به عليه الصلاة والسلام لم يشك في أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه سد أذنيه أيضا تاسيا ويكون حينئذ قوله عليه الصلاة والسلام الذي يشير اليه الخبر له رضي الله تعالى عنه أتسمع على معنى تسمع (١) أتسمع وانما أسقط تسمع لدلالة الحال عليه اذ من سد أذنيه لايسمع ، وانما أذن له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لموضع الحاجة وهذا أقرب من احتمال كون سد الاذنين منه صلى الله تعالى عليه وسلم لانه كان في حال ذكر أو فكر وكان يشغله صلى الله تعالى عليه وسلم عند السماع *

وأما عدم نهيه عليه الصلاة والسلام من كان يزمر عن الزمر والانكار عليه فلا يسلم دلالته على الجواز فانه يجوز أن يكون الصوت جاء من بعيد وبين الزامر وبينه عليه الصلاة والسلام مايمنع من الوصول اليه أو لم يعرف عينه ﷺ لأن الصوت قد جاء من وراء حجاب ولا تتحقق القدرة معه على الانكار ، ويجوز أيضا أن يكون التحريم معلوما من قبل وعلم من النبي ﷺ الاصرار عليه وأن يكون قد علم اصرار ذلك الفاعل على فعله فيكون ذلك كاختلاف أهل الذمة إلى كنائسهم ، وفي مثل ذلك لايدل السكوت وعدم الانكار على الجواز اجماعا ، ومن قال بأن الكافر غير مكلف بالفروع قال: يجوز أن يكون ذلك الزامر كافرا وأن السكوت في حقه ليس دليل الجواز وان كان الزمر بها لاعلى وجه التأنق واجراء النغمات التي تحرك الشهوات فلا بعد في

(١) قوله على معنى تسمع هي بشد الميم في خط المؤلف اه *

www.Quranpdf.blogspot.in

أن يقال بالجواز و الاباحة فعلا واستماعا، وسد الاذنين عليه لغاية التنزه اللائق به عليه الصلاة والسلام، وقول الاذرعي في الجواب أن قوله في الخبر: زمارة راع لا يعين انها الشبابة فان الرعاة يضربون بالشعيبية وغيرها يوهم أن مايسمى شعيبية مباح مفروغ منه وفيه نظر فانها عبارة عن عدة قصبات صغار ولها اطراب بحسب حذق متعاطيها فهي شبابة أو مزمار لامحالة ، وفي إباحة ذلك كلام، وبعد هذا كله نقول: إن الخبر المذكور رواه أبو داود وقال: إنه منكر وعليه لاحجة فيه للطرفين وكفى الله تعالى المؤمنين القتال، ثم إنك إذا ابتليت بشيء من ذلك فاياك ثم اياك أن تعتقد أن فعله أو استماعه قربة كما يعتقد ذلك من لاخلاق له من المتصوفة فلو كان الامر كما زعموا لما أهمل الانبياء أن يفعلوه ويأمروا اتباعهم به ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا أشار اليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء، وقد قال الله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم) ولو كان استعمال الملاهي المطربات أو استماعها من الدين ومما يقرب إلى حضرة رب العالمين لبينه ﷺ وأوضحه كمال الايضاح لأمته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام «والذي نفسي بيده ماتركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار الا امرتكم به وماتركت شيئاً يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة الانهيتكم عنه » وماذكر داخل في الشق الثاني كما لايخفى على من له قلب سليم وعقل مستقيم فتأمل وأنصف وإياك من الاعتراض قبل أن تراجع تعرف ، ولنا عودة إن شاء الله تعالى للكلام في هذا المطلب يسر الله تعالى ذلك لنا بحرمة حبيبه الاعظم ﷺ •

واستدل بعضهم بالآية على القول بأن لهو الحديث الكتب التي اشتراها النضر بن الحرث على حرمة مطالعة كتب تواريخ الفرس القديمة وسماع مافيها وقراءته، وفيه بحث، ولا يخفى أن فيها من الكذب مافيها فالاشتغال بها لغير غرض ديني خوض في الباطل ، وعده ابن نجيم في رسالته في بيان المعاصي من الصغائر ومثل له بذكر تنعم الملوك والاغنياء فافهم هذا ، ومن الغريب البعيد وفيه جعل الاشتراء بمعنى البيع ماذهب اليه صاحب التحرير قال : يظهر لي أنه أراد سبحانه بلهو الحديث ما كانوا يظهرونه من الاحاديث في تقوية دينهم والامر بالدوام عليه وتغيير صفة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن التوراة تدل على أنه من ولد اسحق عليه السلام يقصدون صد أتباعهم عن الايمان وأطلق اسم الاشتراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائل من ملوكهم ، وقال : يؤيده قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ وهو كما ترى ، والمراد بسبيله تعالى دينه عز وجل أو قراءة كتابه سبحانه أومايعمهما ، واللام في (ليضل) للتعليل . وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء ، والمراد ليثبت على ضلاله ويزيد فيه فان المخبر عنه ضال قبل : واللام للعاقبة وكونها على أصلها كما قيل بعيد ، وجوز الزمخشري أن يكون قد وضع (ليضل)على هذه القراءة موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالا لامحالة فدل بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الاضلال ، ووجه الدلالة أنه أريد بالضلال الضلال المضاعف في شأن من جانب سبيل الله تعالى وتركه رأسا وهذا الضلال لاينفك عن الاضلال وبالعكس ، وبه يندفع نظر صاحب الفرائد بأن الضلال لايلزمه الاضلال ، وفيه توافق القراءتين وبقاء اللام على حقيقتها ، وهي على الوجهين متعلقة بقوله سبحانه : (يشتري) وقوله عز وجل : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يجوز أن يكون متعلقا به أيضا أي يشتري ذلك بغير علم بحال مايشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، ويجوز أن يكون متعلقا بيضل أي ليضل عن سبيله تعالى جاهلا أنها سبيله عز وجل أو جاهلا انه يضل أو جاهلا الحق ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

بالنصب عطفا على (يضل) والضمير للسبيل فانه مما يذكر ويؤنث، وجوز أن يكون للآيات، وقيل: يجوز أن يكون للاحاديث لأن الحديث اسم جنس بمعنى الاحاديث وهو كما ترى ﴿ هُزُوًا ﴾ أى مهزوأ به. وقرأ جمع من السبعة (يتخذها) بالرفع عطفا على (يشترى) وجوز أن يكون على اضمار هو ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ ﴾ لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه والجزاء من جنس العمل، و(اولئك) اشارة إلى (من) وما فيه من معنى البعد للاشارة إلى بعد المنزلة فى الشرارة، والجمع فى اسم الاشارة والضمير باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها، وكذا فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ففى الآية مراعاة اللفظ ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ ونظيرها فى ذلك قوله تعالى فى سورة الطلاق: (ومن يؤمن بالله) الآية، قال أبو حيان: ولا نعلم جاء فى القرآن ما حمل على اللفظ ثم على المعنى ثم على اللفظ غير هاتين الآيتين، وقال الخفاجى: ليس كذلك فان لها نظائر أى وإذا تتلى على المشترى المذكور ﴿ ءَايَاتُنَا ﴾ الجليلة الشأن ﴿ وَلَّىٰ ﴾ أعرض عنها غير معتد بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغا فى التكبر فالاستفعال بمعنى التفعل ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ حال من ضمير (ولى) أو من ضمير (مستكبرا) أى مشابها حاله فى اعراضه تكبرا أو فى تكبره حال من لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول الخنساء:

أياشجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

و(كأن) المخففة ملغاة لا حاجة إلى تقدير ضمير شأن فيها وبعضهم يقدره ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أى صمما مانعا من السماع، وأصل معنى الوقر الحمل الثقيل استعير للصمم ثم غلب حتى صار حقيقة فيه، والجملة حال من ضمير لم يسمعها أوهى بدل منها بدل كل من كل أو بيان لها ويجوز أن تكون حالا من أحد السابقين، ويجوز أن تكون كلتا الجملتين مستأنفتين والمراد من الجملة الثانية الترقى فى الذم وتثقيل (كأن) فى الثانية كأنه لمناسبته للثقل فى معناه، وقرأ نافع (فى أذنيه) بسكون الذال تخفيفا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾ أى أعلمه أن العذاب المفرط فى الايلام لاحق به لا محالة، وذكر البشارة للتهكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان حال الكافرين بها أى ان الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿ لَهُمْ ﴾ بمقابلة ما ذكر من ايمانهم وعملهم ﴿ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ٨ ﴾ أى النعيم الكثير واضافة الجنات اليه باعتبار اشتمالها عليه نظير قولك: كتب الفقه * وفى هذا اشارة إلى أن لهم نعيمها بطريق برهانى فهو أبلغ من لهم نعيم الجنات اذ لا يستدعى ذلك أن تكون نفس الجنات ملكا لهم فقد يتنعم بالشىء غير مالكه، وقيل: فى وجه الابلغية أنه لجعل النعيم فيه أصلا ميزت به الجنات فيفيد كثرة النعيم وشهرته، وأياما كان فجنات النعيم هى الجنات المعروفة *

وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن دينار قال: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن وفيها جوار خلقن من ورد الجنة قيل: ومن يسكنها؟ قال: الذين هموا بالمعاصى فلما ذكروا عظمتى راقبونى والذين انثنت أصلابهم فى خشيتى، والله تعالى أعلم بصحة الخبر، والجملة خبر ان، قيل: والأحسن أن يجعل (لهم) هو الخبر لان

www.Quranpdf.blogspot.in

و(جنات النعيم) مرتفعا به على الفاعلية ، وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير المجرور أو المستتر في (لهم) بناء على انه خبر مقدم أو من (جنات) بناء على انه فاعل الظرف لاعتماده بوقوعه خبرا والعامل ما تعلق به اللام ه

وقرأ زيد بن علي رضى الله تعالى عنهما (خالدون) بالواو وهو بتقدير هو ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه أي لما هو كنفسه وهي الجملة الصريحة في معناه أعني قوله تعالى: (لهم جنات النعيم) فانه صريح في الوعد ه

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لتلك الجملة أيضا إلا أنه يعد مؤكداً لغيره إذ ليس كل وعد حقاً في نفسه ه

وجوز أن يكون مؤكدا لوعد الله المؤكد ، وأن يكون مؤكدا لتلك الجملة معدوداً من المؤكد لنفسه بناء على دلالتها على التحقيق والثبات من أوجه عدة وهو بعيد . وفي الكشف لا يصح ذلك لأن الأخبار المؤكدة لا تخرج عن احتمال البطلان فتأمل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنع من انجاز وعده وتحقيق وعيده ﴿الْحَكِيمُ ٩﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ويفهم هذا الحصر من الفحوى ، والجملة تذييل لحقية وعده تعالى المخصوص بمن ذكر المومى الى الوعيد لأضدادهم ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ الخ استئناف جيء به للاستشهاد بما فصل فيه على عزته عز وجل التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وإتقان العمل وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال امر الاشراك وتبكيت أهله ، والعمد جمع عماد كأهب جمع أهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته أي خلقها بغير دعائم على أن الجمع لتعدد السموات ، وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئناف في جواب سؤال تقديره ما الدليل على ذلك؟ فهو مسوق لاثبات كونها بلا عمد لأنها لو كانت لها عمد رؤيت فالجملة لا محل لها من الاعراب والضمير المنصوب للسموات والرؤية بصرية لا علمية حتى يلزم حذف أحد مفعوليها ، وجوز أن يكون صفة لعمد فالضمير لها أي خلقها بغير عمد مرئية على التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترى وهي عمد القدرة ، وروى ذلك عن مجاهد وكون عمادها في كل عصر الانسان الكامل في ذلك العصر ولذا اذا انقطع الانسان الكامل وذلك عند انقطاع النوع الانساني تطوى السموات كطي السجل للكتب كلام لا عماد له من كتاب أو سنة فيما نعلم وفوق كل ذي علم عليم ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ بيان لصنعه تعالى البديع في قرار الأرض اثر بيان صنعه عز وجل الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا شوامخ أو ثوابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ أو لئلا تميد أي تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ لو لم يلق سبحانه وتعالى فيها رواسي لما أن الحكمة اقتضت خلقها على حال لو خلت معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة لا كثرها والرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها أو بنحو ذلك ، وقد يعد منه حركة ثقيل عليها ، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناء على كرية الأرض ووجوب انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتها مع ما فيها من الجبال بسبب حركة ثقيل من جانب منها الى آخر لتغير مركز الثقل حينئذ إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الاثقال المتحركة عليها كلا شيء بالنسبة اليها مع ما فيها ، ولعل من يعد حركة الثقيل عليها من اسباب الميد لو خلت من الجبال يقول: لا يبعد حركة ثقيل عليها كماء جرى من مكان الى آخر فاجتمع حتى صار بحرا عظيما مع ما ينضم الى ذلك مما تنقله الاهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدار يعتد به بالنسبة الى الأرض خالية من الجبال فتتحرك بحركته الى خلاف جهته ، ثم ان الميد لولا الرواسي بنحو المياه والرياح متصور على

www.Quranpdf.blogspot.in

تقدير كون الأرض كرية كما ذهب اليه الغزالي وكذا ذهب الى كرية السماء، وجاء في رواية عن ابن عباس ما يقتضيه واليه ذهب أكثر الفلاسفة مستدلين عليه بما في التذكرة وشروحها وغير ذلك وهو الذي يشهد له الحس والحدس، وعلى تقدير كونها غير كروية كما ذهب اليه من ذهب واختلفوا في شكلها عليه وتفصيل ذلك يطلب من محله، ولا دلالة في الآية على انحصار حكمة القاء الرواسي فيها بسلامتها عن الميد فان لذلك حكماً لا تحصى *

وكذا لا دلالة فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائماً كما ذهب اليه أصحاب فيثاغورس، ووراءه مذاهب أظهر بطلانا منه. نعم الادلة النقلية والعقلية على ذلك كثيرة ﴿ وَبَثَّ فِيهَا ﴾ أي أوجد وأظهر، وأصل البث الاثارة والتفريق ومنه (فكانت هباء منبثا وكالفراش المبثوث) وفي تأخيره اشارة الى توقفه على ازالة الميد ﴿ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ من كل نوع من أنواعها ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر والمراد بالسماء جهة العلو، وجوز تفسيرها بالمظلة وكون الانزال منها بضرب من التأويل، وترك التأويل لا ينبغي ان يعول عليه الا اذا وجد من الادلة ما يضطرنا اليه لأن ذلك خلاف المشاهد ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي صنف ﴿ كَرِيمٍ ١٠ ﴾ أي شريف كثير المنفعة، والالتفات الى ضمير العظمة في الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بهما لتكررهما مع ما فيهما من استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض ما لا يخفى *

﴿ هَٰذَا ﴾ أي ما ذكر من السموات والارض وسائر الامور المعدودة ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي مخلوقه ﴿ فَأَرُونِي ﴾ أي اعلموني وأخبروني، والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم ذلك فأروني ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به العبودية، و(ماذا) يجوز أن يكون اسما واحداً استفهامياً ويكون مفعولا لخلق مقدماً لصدارته وأن يكون (ما) وحدها اسم استفهام مبتدأ و(ذا) اسم موصول خبرها وتكون الجملة معلقاً عنها سادة مسد المفعول الثاني لأروني، وأن يكون (ماذا) كله اسماً موصولا فقد استعمل كذلك على قلة على ما قال أبو حيان ويكون مفعولا ثانياً له والعائد محذوف في الوجهين وقوله تعالى:

﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١١ ﴾ اضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقوله الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على انهم باشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحد وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الاشارة إلى بطلانه بالعقل *

ولقمان اسم أعجمي لا عربي مشتق من اللقم وهو على ما قيل: ابن باعوراء قال وهب: وكان ابن أخت أيوب عليه الصلاة والسلام، وقال مقاتل: كان ابن خالته، وقال عبد الرحمن السهيلي: هو ابن عنقا بن سرون، وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك دواد عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتى قبل مبعثه فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت، وقيل: كان قاضيا في بني اسرائيل، ونقل ذلك عن الواقدي الا أنه قال: وكان زمانه بين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وقال عكرمة. والشعبي

www.Quranpdf.blogspot.in

كان نبيا، والأكثرون على أنه كان فى زمن داود عليه السلام ولم يكن نبيا. واختلف فيه أكان حرا أو عبدا والأكثرون على أنه كان عبدا. واختلفوا فقيل: كان حبشياً، وروى ذلك عن ابن عباس. ومجاهد.

وأخرج ذلك ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا، وذكر مجاهد فى وصفه انه كان غليظ الشفتين مصفح القدمين، وقيل: كان نوبيا مشقق الرجلين ذا مشافر، وجاء ذلك فى رواية عن ابن عباس. وابن المسيب. ومجاهد.

وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى اليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرا أفطس من النوبة، وأخرج هو. وابن جرير. وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال: إن لقمان كان أسود من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة. واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال فقال خالد بن الربيع: كان نجارا بالراء، وفى معانى الزجاج كان نجادا بالدال وهو على وزن كتان من يعالج الفرش والوسائد ويخيطها.

وأخرج ابن أبى شيبة. وأحمد فى الزهد. وابن المنذر عن ابن المسيب أنه كان خياطا وهو أعم من النجاد. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان راعيا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة ولا وثوق لى بشىء من هذه الأخبار وانما نقلتها تأسيا بمن نقلها من المفسرين الأخيار غير أنى اختار انه كان رجلا صالحا حكيما ولم يكن نبيا. و(الحكمة) على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس العقل والفهم والفطنة. وأخرج الفريابى. وأحمد فى الزهد. وابن جرير. وابن أبى حاتم عن مجاهد انها العقل والفقه والاصابة فى القول، وقال الراغب: هى معرفة الموجودات وفعل الخيرات وقال الامام: هى عبارة عن توفيق العمل بالعلم ثم قال: وان أردنا تحديدا بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول: حصول العمل على وفق المعلوم وقال أبو حيان: هى المنطق الذى يتعظ به ويتنبه ويتناقله الناس لذلك، وقيل: اتقان الشىء علما وعملا وقيل: كمال حاصل باستكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها وفسرها كثير من الحكماء بمعرفة حقائق الاشياء على ما هى عليه بقدر الطاقة البشرية. ولهم تفسيرات أخر ومالها وما عليها من الجرح والتعديل مذكوران فى كتبهم ومن حكمته قوله لابنه: أى بنى ان الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها الايمان وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا، وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا والذل فى طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية وقوله: ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع وقوله: يابنى اياك والدين فانه ذل النهار هم الليل وقوله يابنى ارج الله عز وجل رجاء لا يجريك على معصيته تعالى وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه، وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أيسر من افهام من لا يفهم، وقوله: يابنى حملت الجندل والحديد وكل شىء ثقيل فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمر من الفقر، يابنى لا ترسل رسولك جاهلا فان لم تجد حكيما فكن رسول نفسك، يابنى إياك والكذب فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يغلى صاحبه، يابنى احضر الجنائز ولا تحضر العرس فان الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا، يابنى لا تأكل شبعا على شبع فان القاءك اياه للكلب خير من أن تأكله، يابنى لا تكن حلوا فتبلع ولا مرا فتلفظ، وقوله لابنه: لا يأكل طعامك الا الاتقياء وشاور فى أمرك العلماء، وقوله: لا خير لك فى أن تتعلم

www.Quranpdf.blogspot.in

مالم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فان مثل ذلك مثل رجل احتطب حطبا فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم اليها أخرى ، وقوله : يابنى اذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه قبل ذلك فان انصفك عند غضبه والا فاحذره ، وقوله : لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن احب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ، وقوله : يابنى أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لاحاجة له بك ولابد لك منه ، يابنى كن كمن لا يبتغى محمدة الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه فى عناء والناس منه فى راحة ، وقوله : يابنى امتنع بما يخرج من فيك فانك ماسكت سالم وانما ينبغى لك من القول ما ينفعك الى غير ذلك مما لا يحصى ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى أى اشكر على ان (أن) تفسيرية ومابعدها تفسير لايتاء الحكمة وفيه معنى القول دون حروفه سواء كان بالهام أو وحى أو تعليم *

وجوز أن يكون تفسيرا للحكمة باعتبار ماتضمنه الأمر ، وجعل الزجاج (ان) مصدرية بتقدير اللام التعليلية ولا يفوت معنى الأمر كما مر تحقيقه *

وحكى سيبويه كتبت اليه بأن قم ، والجار متعلق بآتينا ، وجوز كونها مصدرية بلا تقدير على أن المصدر بدل اشتمال من الحكمة ، وهو بعيد ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ ﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ماقبله موجب للامتثال بالأمر أى ومن يشكر له تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه من ارتباط القيد واستجلاب المزيد والفوز بجنة الخلود مقصورة عليها ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر ﴿ حَمِيدٌ ١٢ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده تعالى جميع المخلوقات بلسان الحال ، فحميد فعيل بمعنى محمود على الوجهين ، وعدم التعرض لكونه سبحانه وتعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : «الحمد رأس الشكر لم يشكر الله تعالى عبد لم يحمده» فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا ، وفى اختيار صيغة المضى فى هذا الشق قيل : إشارة إلى قبح الكفران وأنه لاينبغى إلا أن يعد فى خبر كان ، وقيل : إشارة إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر (وقليل من عبادى الشكور) وجواب الشرط محذوف قام مقامه قوله تعالى : (فان الله) الخ ، وكان الأصل ومن كفر فانما يكفر على نفسه لأن الله غنى حميد ، وحاصله ومن كفر فضرر كفره عائد عليه لأنه تعالى غنى لا يحتاج إلى الشكر ليتضرر سبحانه بالكفر محمود بحسب الاستحقاق أو بنطق ألسنة الحال فكلا الوصفين متعلقان بالشق الثانى ، وجوز أن يكون (غنى) تعليلا لقوله سبحانه : (فانما يشكر لنفسه) وقوله عز جل : (حميد) تعليلا للجواب المقدر للشرط الثانى بقرينة مقابله وهو فانما يكفر على نفسه ، وأن يكون كل منهما متعلقا بكل منهما ، ولايخفى مافى ذلك من التكلف الذى لم يدع اليه ولم تقم عليه قرينة فتدبر *

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ تاران على ماقال الطبرى . والقتيبى ، وقيل : ماثان بالمثلثة ، وقيل : أنعم، وقيل : أشكم وهما بوزن أفعل ، وقيل : مشكم بالميم بدل الهمزة ، و(إذ) معمول لاذكر محذوفا ، وقيل : يحتمل أن يكون ظرفا لآتينا والتقدير وآتيناه الحكمة إذ قال واختصر لدلالة المقدم عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ جملة حالية ، والوعظ كما قال الراغب زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير اشفاق ومحبة لاتصغير تحقير *

www.Quranpdf.blogspot.in

ولكن إذا ما حب شيء تولعت به أحرف التصغير من شدة الوجد

وقال آخر : ما قلت حبيبي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

وقرأ البزي هنا (يابني) بالسكون وفيما بعد (يابني انها) بكسر الياء (ويابني اقم) بفتحها ، وقنبل بالسكون في الأولى والثالثة والكسر في الوسطى، وحفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يابنيا والاجتزاء بالفتحة عن الألف ، وقرأ باقي السبعة بالكسر فيها ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ قيل : كان ابنه كافراً ولذا نهاه عن الشرك فلم يزل يعظه حتى أسلم ، وكذا قيل في امرأته *

وأخرج ابن أبي الدنيا في نعت الخائفين عن الفضل الرقاشي قال : مازال لقمان يعظ ابنه حتى مات *

وأخرج عن حفص بن عمر الكندي قال : وضع لقمان جرابا من خردل وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفد الخردل فقال : يابني لقد وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطر فتفطر ابنه ، وقيل : كان مسلما والنهي عن الشرك تحذير له عن صدوره منه في المستقبل ، والظاهر أن الباء متعلق بما عنده، ومن وقف على (لا تشرك) جعل الباء للقسم أي أقسم بالله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ ﴾ والظاهر أن هذا من كلام لقمان ويقتضيه كلام مسلم في صحيحه، والكلام تعليل للنهي أو الانتهاء عن الشرك ، وقيل : هو خبر من الله تعالى شأنه منقطع عن كلام لقمان متصل به في تأكيد المعنى ، وكون الشرك ظلما لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه وكونه عظيما لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له *

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد في اثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيه من النهي عن الاشراك فهو من كلام الله عز وجل لم يقله سبحانه للقمان ، وقيل : هو من كلامه تعالى قاله جل وعلاله وكأنه قيل : قلنا له اشكر وقلنا له وصينا الانسان الخ ، وفي البحر لما بين لقمان لابنه ان الشرك ظلم ونهاه عنه كان ذلك حثا على طاعة الله تعالى ثم بين ان الطاعة أيضا تكون للابوين وبين السبب في ذلك فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه أخبر الله تعالى عنه بذلك ، وكلا القولين كما ترى ، والمعنى وأمرنا الانسان برعاية والديه ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا ﴾ اي ضعفا ﴿ عَلَى وَهْنٍ ﴾ أي ضعف ، والمصدر حال من (أمه) بتقدير مضاف أي ذات وهن ، وجوز جعله نفسه حالا مبالغة لكنه مخالف للقياس اذ القياس في الحال كونه مشتقا ، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا لفعل مقدر أي تهن وهنا، والجملة حال من (أمه) أيضا *

وأياما كان فالمراد تضعف ضعفا متزايدا بازدياد ثقل الحمل الى مدة الطلق ، وقيل : ضعفا متتابعا وهو ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف النفاس ، وجوز أن يكون حالا من الضمير المنصوب في (حملته) العائد على (الانسان) وهو الذي يقتضيه ما اخرجه ابن جرير . وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : (وهنا) الولد (على وهن) الوالدة وضعفها ، والمراد أنها حملته حال كونه ضعيفا على ضعيف مثله، وليس المراد أنها حملته حال كونه متزايد الضعف ليقال ان ضعفه لا يتزايد بل ينقص . وقرأ عيسى الثقفي . وأبو عمرو في رواية (وهنا على وهن) بفتح الهاء فيهما فاحتمل أن يكون من باب تحريك العين اذا كانت حرف حلق كالشعر والشعر على القياس المطرد عند الكوفي كما ذهب اليه ابن جني ، وأن يكون مصدر وهن بكسر الهاء يوهن بفتحها فان مصدره جاء كذلك وهذا كما يقال تعب يتعب تعبا كما قيل ، وكلام صاحب القاموس ظاهر في عدم

www.Quranpdf.blogspot.in

اختصاص أحد المصدرين بأحد الفعلين قال : الوهن الضعف فى العمل ويحرك والفعل كوعد وورث وكرم *

﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ أى فطامه وترك ارضاعه . وقرأ الحسن. وأبو رجاء وقتادة . والجحدرى . ويعقوب (وفصله) وهو أعم من الفصال ، والفصال ههنا أوقع من الفصل لأنه موقع يختص بالرضاع وان رجعا الى أصل واحد على ماقال الطيبي ﴿ فِى عَامَيْنِ ﴾ أى فى انقضاء عامين أى فى أول زمان انقضائهما ، وظاهر الآية أن مدة الرضاع عامان والى ذلك ذهب الامام الشافعى . والامام أحمد . وأبو يوسف . ومحمد ، وهو مختار الطحاوى . وروى عن مالك ، وذهب الامام ابوحنيفة الى أن مدة الرضاع الذى يتعلق به التحريم ثلاثون شهرا لقوله تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) ، ووجه الاستدلال به انه سبحانه وتعالى ذكر شيئين وضرب لهما مدة فكانت لكل واحد منهما بكمالها كالأجل المضروب للدينين على شخصين بأن قال: أجلت الدين الذى لى على فلان والدين الذى لى على فلان سنة فانه يفهم أن السنة بكمالها لكل ، أو على شخص بأن قال لفلان على ألف درهم وعشرة اقفزة الى سنة فصدقه المقر له فى الأجل فاذا مضت السنة يتم اجلهما جميعا الا انه قام النقص فى أحدهما أعنى مدة الحمل لقول عائشة الذى لا يقال مثله الا سماعا : الولد لا يبقى فى بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل فتبقى مدة الفصال على ظاهرها ، وما ذكر هنا أقل مدته وفيه بحث ﴿ ان اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ تفسير لوصينا كما اختاره النحاس فان تفسيرية ، وجوز أن تكون مصدرية بتقدير لام التعليل قبلها وهو متعلق بوصينا وبلا تقدير على أن يكون المصدر بدلا من ـ والديه ـ بدل الاشتمال ، وعليه كأنه قيل : وصينا الانسان بوالديه بشكرهما وذكر شكر الله تعالى لأن صحة شكرهما تتوقف على شكره عز وجل كما قيل فى عكسه لا يشكر الله تعالى من لا يشكر الناس ولذا قرن بينهما فى الوصية ، وفى هذا من البعد مافيه ، وأما القول بان الامر يأبى التفسير والتعليل والبدلية فليس بشىء كما أشرنا اليه قريبا ، وعلى الاوجه الثلاثة يكون قوله تعالى:(حملته أمه ـ الى ـ عامين) اعتراضا مؤكدا للتوصية فى حق الام خصوصا لذكره اقاسته فى تربيته وحمله ، ولذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى حديث صحيح رواه الترمذى . وأبوداود عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لمن سأله عمن يبره: أمك وأجابه عن سؤاله به ثلاث مرات ، وعن بعض العرب أنه حمل أمه الى الحج على ظهره وهو يقول فى حدائه :

احمل امى وهى الحمالة * ترضعنى الدرة والعلالة * ولا يجازى والد فعاله

ولله تعالى در من قال:

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك ياهذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكى ... لها من جراها أنة وزفير
وفى الوضع لو تدرى عليها مشقة ... فمن غصص لها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الاذى بيمينها ... وما حجرها الا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حنوا وإشفاقا وأنت صغير
فآها لذى عقل ويتبع الهوى ... وآها لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب فى عميم دعائها ... فانت لما تدعو به لفقير

واختلف فى المراد بالشكر المأمور به فقيل هو الطاعة وفعل مايرضى كالصلاة والصيام بالنسبة اليه تعالى

www.Quranpdf.blogspot.in

وكالصلة والبر بالنسبة الى الوالدين، وعن سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه فى ادبارها فقد شكرهما ولعل هذا بيان لبعض افراد الشكر ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ ١٤﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر أى الى الرجوع لا الى غيرى فأجازيك على ما صدر عنك مما يخالف أمرى ٭

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ أى باستحقاقه الاشراك أو بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة، والجار متعلق بقوله تعالى: ﴿عِلْمٌ﴾ وما مفعول (تشرك) كما اختاره ابن الحاجب ثم قال: ولو جعل (تشرك) بمعنى تكفر وجعلت (ما) نكرة أو بمعنى الذى بمعنى كفرا أو الكفر وتكون نصبا على المصدرية لكان وجها حسنا، والكلام عليه أيضا بتقدير مضاف أى وان جاهدك الوالدان على أن تكفر بى كفرا ليس لك أو الكفر الذى ليس لك بصحته أو بحقيته علم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فى ذلك والمراد استمرار نفى العلم لا نفى استمراره فلا يكون الاشراك إلا تقليدا. وفى الكشاف أراد سبحانه بنفى العلم نفى ما يشرك أى لا تشرك بى ما ليس بشىء يريد عز وجل الاصنام كقوله سبحانه (ما تدعون من دونه من شىء): وجعله الطيبى على ذلك من باب نفى الشئ بنفى لازمه وذلك ان العلم تابع للمعلوم فاذا كان الشىء معدوما لم يتعلق به موجودا، ونقل عن ابن المنير انه عليه من باب ٭ على لاحب لا يهتدى بمناره ٭ أى ما ليس باله فيكون لك علم بالهيته وفى الكشف أن الزمخشرى أراد أنه بولغ فى نفى الشريك حتى جعل كلا شئ ثم بولغ حتى ما لا يصح ان يتعلق به علم والمعدوم يصح أن يعلم ويصح ان يقال انه شىء فادخل فى سلك المجهول مطلقا وليس من قبيل نفى العلم لنفى وجوده وهذا تقرير حسن وفيه مبالغة عظيمة منه يظهر ترجيح هذا المسلك فى هذا المقام على أسلوب ٭ ولا ترى الضب بها ينجحر ٭ اه فافهم ولا تغفل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كاطعامهما واكسائهما وعدم جفائهما وانتهارهما وعيادتهما اذا مرضا ومواراتهما اذا ماتا، وذكر (فى الدنيا) لتهوين أمر الصحبة والاشارة الى أنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها لقلة أيامها وسرعة انصرامها، وقيل: للاشارة الى ان الرفق بهما فى الامور الدنيوية دون الدينية، وقيل: ذكره لمقابلته بقوله تعالى: (ثم الى مرجعكم) ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أى رجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والاخلاص بالطاعة، وحاصله اتبع سبيل المخلصين لا سبيلهما ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى رجوعك ورجوعهما وزاد بعضهم من أناب وهو خلاف الظاهر، وأياما كان ففيه تغليب للخطاب على الغيبة ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾ بان أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر، والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ٭ أخرج أبو يعلى. والطبرانى. وابن مردويه. وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى أن سعد بن ابى وقاص قال. أنزلت فى هذه الآية (وإن جاهداك) الآية كنت رجلا برا بامى فلما أسلمت قالت: يا سعد وما هذا الذى أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى فيقال يا قاتل أمه فقلت: لا تفعلى يا أمه فانى لا أدع دينى هذا لشىء فمكثت يوما وليلة لا تأكل فاصبحت قد جهدت فمكثت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا

www.Quranpdf.blogspot.in

ما تركت دينى هذا لشيء فان شئت فكلى وان شئت لا تأكلى فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية ،وذكر بعضهم ان هذه وماقبلها أعنى قوله تعالى:(ووصينا الانسان) الآية نزلتا فيه قيل ولكون النزول فيه قيل: من أناب بتوحيد الضمير حيث أريد بذلك أبو بكر رضى الله تعالى عنه فان اسلام سعد كان بسبب اسلامه *

أخرج الواحدى عن عطاء عن ابن عباس قال أنه يريد بمن أناب أبو بكر وذلك أنه حين أسلم رآه عبد الرحمن ابن عوف . وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزبير فقالوا لابى بكر آمنت وصدقت محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أبو بكر: نعم فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فامنوا وصدقوا فانزل الله تعالى يقول لسعد: (واتبع سبيل من أناب الى) يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه، وابن جريج يقول كما أخرج عنه ابن المنذر من أناب محمد عليه الصلاة والسلام، وغير واحد يقول هو صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون، والظاهر هو العموم *

﴿ يَابُنَيَّ ﴾ الخ رجوع الى القصة بذكر بقية ما أريد حكايته من وصايا لقمان أثر تقرير ما فى مطلعه من النهى عن الشرك وتاكيده بالاعتراض ﴿ إِنَّهَا ﴾ اى الخصلة من الاساءة والاحسان لفهمها من السياق . وقيل: وهو كما ترى انها أى التى سألت عنها ، فقد روى أن لقمان ساله ابنه أرأيت الحبة تقع فى مغاص البحر أيعلمها الله تعالى فقال يابنى انها أى التى سألت عنها ﴿ إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى ان تكن مثلا فى الصغر كحبة الخردل والمثقال ما يقدر به غيره لتساوى ثقلهما وهو فى العرف معلوم *

وقرأ نافع والاعرج وأبو جعفر (مثقال) بالرفع على أن الضمير للقصة و(تك) مضارع كان التامة والتأنيث لاضافة الفاعل الى المؤنث كما فى قول الاعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

أو لتأويله بالزنة أو الحسنة والسيئة ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أوحيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى ، وقيل : فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو أعلاه كمحدب السموات أو أسفله كمقعر الأرض، ولا يخفى أنه لادلالة فى النظم على تخصيص المحدب والمقعر ولعل المقام يقتضيه إذ المقصود المبالغة *

وفى قوله تعالى : (فى السموات) لا يأبى ذلك لأنها ذكرت بحسب المكانية أو المشاكلة أو هى بمعنى على، وعبر بها للدلالة على التمكن ومع هذا الظاهر ما تقدم ، وفى البحر أنه بدأ بما يتعقله السامع أولا وهو كينونة الشيء فى صخرة وهو ماصلب من الحجر وعسر الاخراج منه ثم أتبعه بالعالم العلوى وهو أغرب للسامع ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض ، وقيل : إن خفاء الشيء وصعوبة نيله بطرق بغاية صغره وببعده عن الرائى وبكونه فى ظلمة وباحتجابه فمثقال حبة من خردل إشارة إلى غاية الصغر، و(فى صخرة) إشارة إلى الحجاب و(فى السموات) إشارة إلى البعد و(فى الأرض) إشارة إلى الظلمة فان جوف الأرض أشد الأماكن ظلمة وأيا ما كان فليس المراد بصخرة صخرة معينة ، وعن ابن عباس . والسدى أن هذه الصخرة هى التى عليها الأرض ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان الارض على نون والنون على بحر والبحر على صخرة خضراء خضرة الماء منها والصخرة على قرن ثور وذلك الثور على الثرى ولا يعلم ماتحت الثرى الا الله تعالى *

وفسر بعضهم الصخرة بهذه الصخرة ، وقيل : هى صخرة فى الريح ، قال ابن عطية : وكل ذلك ضعيف

www.Quranpdf.blogspot.in

لا يثبت سنده وانما معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم أى ان قدرته عز وجل تنال مايكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء ومايكون فى الأرض اه . والأقوى عندى وضع هذه الأخبار ونحوها فليست الأرض الا فى حجر الماء وليس الماء الا فى جوف الهواء وينتهى الأمر الى عرش الرحمن جل وعلا والكل فى كف قدرة الله عز وجل *

وقرأ عبد الرحيم الجزرى (فتكن) بكسر الكاف وشد النون وفتحها ، وقرأ محمد بن أبى فجة البعلبكى (فتكن) بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة ، وقرأ قتادة (فتكن) بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون ورويت هذه القراءة عن الجزرى أيضا ، والفعل فى جميع ماذكر من وكن الطائر إذا استقر فى وكنته أى عشه ففى الكلام استعارة أو مجاز مرسل كما فى المشفر ، والضمير للمحدث عنه فيما سبق ، وجوز أن يكون للابن والمعنى إن تختف أو تخف وقت الحساب يحضرك الله تعالى ، ولا يخفى أنه غير ملائم للجواب أعنى قوله تعالى : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى يحضرها فيحاسب عليها ، وهذا اما على ظاهره أو المراد يجعلها كالحاضر المشاهد لذكرها والاعتراف بها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه تعالى الى كل خفى ﴿ خَبِيرٌ ١٦ ﴾ عالم بكنهه *

وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها ، وقيل : ذو لطف بعباده فيلطف بالاتيان بها بأحد الخصمين خبير عالم بخفايا الاشياء وهو كما ترى ، والجملة علة مصححة للاتيان بها ، أخرج ابن أبى حاتم عن على بن رباح اللخمى انه لما وعظ لقمان ابنه وقال : (انها ان تك) الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك وهو واد فى الشام فالقاها فى عرضه ثم مكث ماشاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها فى راحته والله تعالى أعلم ، وبعد ماأمره بالتوحيد الذى هو أول مايجب على المكلف فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علمه تعالى وقدرته عز وجل أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ تكميلا لنفسك ، ويروى انه قال له : يابنى اذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشىء صلها واسترح منها فانها دين ، وصل فى جماعة ولو على رأس زج ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ تكميلا لغيرك والظاهر انه ليس المراد معروفا ومنكرا معينين *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جبير انه قال : وأمر بالمعروف يعنى التوحيد وانه عن المنكر يعنى الشرك ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به من اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واحتياج الاخيرين للصبر على ماذكر ظاهر ، والأول لأن اتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق ولذا قال تعالى : (وانها لكبيرة الا على الخاشعين) وقال ابن جبير : واصبر على ماأصابك فى أمر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول : اذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك فى ذلك أذى وشدة فاصبر عليه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أى الصبر على ما أصابك عند ابن جبير ، وهو يناسب افراد اسم الاشارة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته فى الفضل ، أو الاشارة الى الصبر والى سائر ما أمر به والافراد للتأويل بما ذكر وأمر البعد على ماسمعت ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٧ ﴾ أى مما عزمه الله تعالى وقطعه قطع ايجاب وروى ذلك عن

www.Quranpdf.blogspot.in

ابن جريج، والعزم بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى ومنه ماورد من عزمات الله عز وجل ، والمراد به هنا المعزوم اطلاقا للمصدر على المفعول ، والاضافة من اضافة الصفة إلى الموصوف أى الأمور المعزومة ●

وجوز أن يكون العزم بمعنى الفاعل أى عازم الأمور من عزم الأمر أى جد فعزم الأمور من باب الاسناد المجازى كمكر الليل لا من باب الاضافة على معنى فى وان صح، وقيل: يريد من مكارم الاخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، واستظهر أبو حيان انه أراد من لا زمات الامور الواجبة، ونقل عن بعضهم ان العزم هو الحزم بلغة هذيل، والحزم والعزم أصلان، وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشىء لاطراد تصاريف كل من اللفظين فليس أحدهما أصلا للآخر ، والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق وفيه اعتناء بشانه ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أى لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون قاله ابن عباس. وجماعة وأنشدوا ●

وكنا اذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

فهو من الصعر بمعنى الصيد وهو داء يعترى البعير فيلوى منه عنقه ويستعار للتكبر كالصعر، وقال ابن خويزمنداد : نهى ان يذل نفسه من غير حاجة فيلوى عنقه، ورجح الاول بأنه أوفق بما بعد، ولام (للناس) تعليلية والمراد ولا تصعر خدك لأجل الاعراض عن الناس أو صلة. وقرأ نافع وأبو عمرو. وحمزة. والكسائى (تصاعر) بألف بعد الصاد . وقرأ الجحدرى تصعر مضارع أصعر والكل واحد مثل علاه وعالاه وأعلاه ●

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ ﴾ التى هى أحط الا ماكن منزلة ﴿ مَرَحًا ﴾ أى فرحا وبطرا، مصدر وقع موقع الحال للمبالغة أو لتأويله بالوصف أو تمرح مرحا على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة فى موضع الحال أو لأجل المرح على أنه مفعول له، وقرئ مرحا بكسر الراء على انه وصف فى موضع الحال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ ﴾ تعليل للنهى أو موجبه والمختال من الخيلاء وهو التبختر فى المشى كبرا ، وقال الراغب: التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للانسان من نفسه، ومنه تؤول لفظ الخيل لما قيل انه لا يركب أحد فرسا الا وجد فى نفسه نخوة، والفخور من الفخر وهو المباهاة فى الاشياء الخارجة عن الانسان كالمال والجاه ويدخل فى ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال، وعن مجاهد تفسير الفخور بمن يعدد ما أعطى ولا يشكر الله عز وجل، وفى الآية عند الزمخشرى لف ونشر معكوس حيث قال: المختال مقابل للماشى مرحا وكذلك الفخور للمصعر خده كبرا وذلك لرعاية الفواصل على ماقيل، ولا يأبى ذلك كون الوصية لم تكن باللسان العربى كما لا يخفى ●

وجوز أن يكون هناك لف ونشر مرتب فان الاختيال يناسب الكبر والعجب وكذا الفخر يناسب المشى مرحا، والكلام على رفع الايجاب الكلى والمراد السلب الكلى، وجوز أن يبقى على ظاهره، وصيغة (فخور) للفاصلة ولأن ما يكره من الفخر كثرته فان القليل منه يكثر وقوعه فلطف الله تعالى بالعفو عنه وهذا كما لطف باباحة اختيال المجاهد بين الصفين واباحة الفخر بنحو المال لمقصد حسن ﴿ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط فيه بين الدبيب والاسراع من القصد وهو الاعتدال، وجاء فى عدة روايات الا ان فى أكثرها مقالا يخرجها عن صلاحية الاحتجاج بها كما لا يخفى على من راجع شرح الجامع الصغير للمناوى

www.Quranpdf.blogspot.in

عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن » أي هيبته وجماله أي تورثه حقارة في أعين الناس ، وكأن ذلك لأنها تدل على الخفة وهذا أقرب من قول المناوي لأنها تتعب فتغير البدن والهيئة ه

وقال ابن مسعود: كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشيا بين ذلك، وما في النهاية من أن عائشة نظرت الى رجل كاد يموت تخافتا فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القراء فقالت: كان عمر رضي الله تعالى عنه سيد القراء وكان إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع، فالمراد بالاسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت(١) وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يتزيا بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الاموات ليوهم انه ضعف من كثرة العبادة فلا ينافي الآية، وكذا ما ورد في صفته صلى الله تعالى عليه وسلم اذ يمشي كأنما ينحط من صبب وكذا لا ينافيها قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا) اذ ليس الهون فيه المشي كدبيب النمل، وذكر بعض الافاضل أن المذموم اعتياد الاسراع بالافراط فيه ، وقال السخاوي : محل ذم الاسراع مالم يخش من بطء السير تفويت أمر ديني، لكن أنت تعلم أن الاسراع المذهب للخشوع لادراك الركعة مع الامام مثلا مما قالوا انه مما لا ينبغي فلا تغفل، وعن مجاهد أن القصد في المشي التواضع فيه، وقيل: جعل البصر موضع القدم ، والمعول عليه ما تقدم. وقرئ (وأقصد) بقطع الهمزة ونسبها ابن خالويه للحجازي من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية ووجهه اليها ليصيبها أي سدد في مشيك والمراد أمش مشيا حسنا وكأنه أريد التوسط به بين المشيين السريع والبطيء فتتوافق القراءتان ﴿ وَاغْضُضْ من صَوْتكَ ﴾ أي انقص منه واقصر من قولك فلان يغض من فلان اذا قصر به ووضع منه وحط من درجته. وفي البحر الغض رد طموح الشيء كالصوت والنظر ويستعمل متعديا بنفسه كما في قوله: ● فغض الطرف انك من نمير ● ومتعديا بمن كما هو ظاهر قول الجوهري غض من صوته ، والظاهر إن ما في الآية من الثاني، وتكلف بعضهم جعل من فيها للتبعيض، وادعى آخر كونها زائدة في الاثبات ، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية ومنه ، قول الشاعر :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النعم
ويخطو على العم خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عمم

والحكمة في غض الصوت المأمور به أنه أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه ﴿ انَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾ أي أقبحها يقال وجه منكر أي قبيح قال في البحر: وهو أفعل بني من فعل المفعول كقولهم: أشغل من ذات النحيين وبناؤه من ذلك شاذ، وقال بعض: أي أصعبها على السمع وأوحشها من نكر بالضم نكارة ومنه (يوم يدعو الداع إلى شيء نكر) أي أمر صعب لا يعرف، والمراد بالاصوات أصوات الحيوانات أي ان أنكر أصوات الحيوانات ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩ ﴾ جمع حمار كما صرح به أهل اللغة ولم يخالف فيه غير السهيلي قال: أنه فعيل اسم جمع كالعبيد وقد يطلق على اسم الجمع الجمع عند اللغويين ، والجملة تعليل للامر بالغض على أبلغ وجه وآكده حيث شبه الرافعون أصواتهم بالحمير وهم مثل في الذم البليغ والشتيمة ومثلت أصواتهم بالنهاق الذي أوله زفير

(١) ورأى عمر رضي الله تعالى عنه رجلا متماوتا فقال لا تمت علينا ديننا أماتك الله تعالى ورأى رجلا مطأطئا رأسه فقال أرفع رأسك فان الاسلام ليس بمريض اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

وآخره شهيق ثم أخلى الـكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الاستعارة ، وفي ذلك من المبالغة في الذم والتهجين والافراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه مافيه، وإفراد الصوت مع جمع ماأضيف هو اليه للاشارة إلى قوة تشابه أصوات الحمير حتى كأنها صوت واحد هو أنـكر الاصوات ، وقال الزمخشري ان ذلك لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الاجناس، قيل : فعلى هذا كان المناسب لصوت الحمار بتوحيد المضاف اليه. وأجيب بأن المقصود من الجمع التتميم والمبالغة في التنفير فان الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان انكر. وأورد عليه أنه يوهم أن الانـكرية في التوافق دون الانفراد وهو لايناسب المقام ، وأجيب بأنه لايلتفت إلى مثل هذا التوهم ، وقيل : لم يجمع الصوت المضاف لأنه مصدر وهو لايثنى ولايجمع مالم تقصد الانواع كما في (انـكر الاصوات) فتأمل ، والظاهر أن قوله تعالى:(أن انـكر الاصوات لصوت الحمير) من كلام لقمان لابنه تنفيرا له عن رفع الصوت ، وقيل : هو من كلام الله تعالى وانتهت وصية لقمان بقوله:(واغضض من صوتك) رد سبحانه به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفعه مع أن ذلك يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن وبين عز وجل أن مثلهم في رفع أصواتهم مثل الحمير وأن مثل أصواتهم التي يرفعونها مثل نهاقها في الشدة مع القبح الموحش وهذا الذي يليق أن يجعل وجه شبه لاالخلو عن ذكر الله تعالى كما يتوهم بناء على ماأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال:صياح كل شيء تسبيحه الا الحمار لما أن وجه الشبه ينبغي أن يكون صفة ظاهرة وخلو صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك، على انا لانسلم صحة هذا الخبر فان فيه مافيه، ومثله ماشاع بين الجهلة من أن نهيق الحمار لعن للشيعة الذين لايزالون ينهقون بسب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومثل هذا من الخرافات التي يمجها السمع ماعدا سمع طويل الاذنين، والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند التكلم والمحاورة ، وقيل : الغض من الصوت مطلقا فيشمل الغض منه عند العطاس فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده ان أمكنه عدم الرفع، وروى عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه مايقتضيه ثم أن الغض ممدوح أن لم يدع داع شرعي إلى خلافه، وأردف الامر بالقصد في المشي بالامر بالغض من الصوت لما أنه كثيرا مايتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل اليه بالمشي كذا قيل، هذا وأبعد بعضهم في الـكلام على هذين الامرين فقال:إن الأول اشارة إلى التوسط في الافعال والثاني اشارة إلى الاحتراز من فضول الـكلام والتوسط في الأقوال ، وجعل قوله تعالى : (إن تك مثقال حبة من خردل) الخ اشارة إلى اصلاح الضمير وهو كما ترى *

وقرأ ابن أبي عبلة (أصوات الحمير) بالجمع بغير لام التأكيد ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على اصرارهم على ماهم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد، والتسخير على ماقال الراغب سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهرا، وفي ارشاد العقل السليم المراد به اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامة ما في الارض من الاشياء المسخرة للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع مافي السموات من الاشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا، وأما جعله منقادا للامر مذللا على أن معنى (لـكم) لأجلكم

www.Quranpdf.blogspot.in

فان جميع ما فى السموات والارض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق ومايستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله عز وجل ﴿ وَأَسْبَغَ ﴾ أى أتم واوسع ﴿ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ جمع نعمة وهى فى الاصل الحالة المستلذة فانبناء الفعلة كالجاسة والركبة للهيئة ثم استعملت فيما يلائم من الامور الموجبة لتلك الحالة اطلاقا للمسبب على السبب، وفى معنى ذلك قولهم: هى ماينتفع به ويستلذ ومنهم من زاد ويحمد عاقبته، وقال بعضهم: لاحاجة الى هذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين أمر تحمد عاقبته وعليه لايكون لله عز وجل على كافر نعمة، ونقل الطيبى عن الامام أنه قال: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الاحسان الى الغير، ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الاحسان إلى الغير قالوا: وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا كانت قبيحة لايستحق بها الشكر، والحق أن هذا القيد غير معتبر لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالاحسان وان كان فعله محظورا لأن جهة الشكر كونه احسانا وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر فأى امتناع فى اجتماعهما، ألاترى أن الفاسق يستحق الشكر لانعامه والذم لمعصية الله تعالى فلم لايجوز أن يكون الامر ههنا كذلك، أما قولنا: المنفعة فلأن المضرة المحضة لاتكون نعمة، وقولنا: المفعولة على جهة الاحسان لأنه لو كان نفعا وقصد الفاعل به نفع نفسه لانفع المفعول به لايكون نعمة وذلك كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها اه، ويعلم منه حكم زيادة ويحمد عاقبته ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ أى محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة، وعن مجاهد النعمة الظاهرة ظهور الاسلام والنصرة على الاعداء والباطنة الامداد من الملائكة عليهم السلام، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الاعضاء والباطنة المعرفة، وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح والباطنة القلب والعقل والفهم، وقيل: الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة، وقيل: الظاهرة نحو ارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق لقبول الاسلام والاتيان به والثبات على قدم الصدق ولزوم العبودية والباطنة ماأصاب الارواح فى عالم الذر من رشاش نور النور

* وأول الغيث قطر ثم ينسكب *

ونقل بعض الامامية عن الباقر رضى الله تعالى عنه أنه قال: الظاهرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما جاء به من معرفة الله تعالى وتوحيده والباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا، والتعميم الذى أشرنا اليه أولا أولى، لكن أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن عطاء قال: سألت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن قوله تعالى: (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال: هذه من كنوز علمى سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال أما الظاهرة فماسوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو ابداها لقلاك اهلك فمن سواهم *

وفى رواية أخرى رواها ابن مردويه. والديلمى. والبيهقى. وابن النجار عن ابن عباس أنه قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى: (وأسبغ) الخ قال: أما الظاهرة فالاسلام وما سوى من خلقك وماأسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوى عملك فان صح ماذكر فلا يعدل عنه الى التعميم الا أن يقال: الغرض من تفسير الظاهرة والباطنة بما فسرنا به التمثيل وهو الظاهر لا التخصيص والا لتعارض الخبران *

ثم ان ظاهر هذين الخبرين يقتضى كون الذنب وهو المعبر عنه فى الاول بما ستر من العورة وفى الثانى بما ستر من مساوى العمل نعمة ولم نر فى كلامهم التصريح باطلاقها عليه ويلزمه أن من كثرت ذنوبه كثرت

www.Quranpdf.blogspot.in

نعم الله تعالى عليه فكان المراد أن النعمة الباطنة هي ستر ما ستر من العورة ومساوى العمل ولم يقل كذلك اعتمادا على وضوح الأمر، وجاء في بعض الآثار ما يقتضى ذلك، أخرج ابن أبي حاتم . والبيهقي . عن مقاتل أنه قال في الآية: (ظاهرة) الاسلام (و باطنة) ستره تعالى عليكم المعاصى، بل جاء في بعض روايات الخبر الثاني وأما ما بطن فستر مساوى عملك *

وجوز أن يكون (ما) في ما ستر في الخبرين ، مصدرية ومن صلة ستر لا بيان لما وقرأ . يحيى بن عمارة وأصبغ بالصاد وهى لغة بنى كلب يبدلون من السين اذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغين والخاء والقاف صادا فيقولون فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سائغ صائغ ولا فرق فى ذلك بين ان يفصل بينهما فاصل وان لا يفصل، وظاهر كلام بعضهم انه لا فرق أيضا بين أن تتقدم السين على أحد تلك الاحرف وأن تتأخر، واشترط آخر تقدم السين، وذكر الخفاجي أنه ابدال مطرد *

وقرأ بعض السبعة . وزيد بن على رضى الله تعالى عنهما (نعمة) بالافراد . وقرىء (نعمته) بالأفراد والاضافة، ووجه الافراد بارادة الجنس كما قيل ذلك فى قوله تعالى: (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقال الزجاج من قرأ . (نعمة) فعلى معنى ما أعطاهم من التوحيد ومن قرأ نعمه بالجمع فعلى جميع ما أنعم به عليهم والاول أولى، ونصب (ظاهرة وباطنة) فى قراءة التعريف على الحالية وفى قراءة التنكير على الوصفية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ ﴾ من الجدال وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أى أحكمت فتله كأن المتجادلين يفتل كل منهما صاحبه عن رأيه . وقيل: الاصل فى الجدال الصراع واسقاط الانسان صاحبه على الجدالة وهى الارض الصلبة وكأن الجملة فى موضع الحال من ضميره تعالى فيما قبل أى ألم تروا ان الله سبحانه فعل ما فعل من الامور الدالة على وحدته سبحانه وقدرته عز وجل والحال من الناس من ينازع ويخاصم كالنضر بن الحرث وأبى ابن خلف كانا يجادلان النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فِى اللَّهِ ﴾ أى فى توحيده عز وجل وصفاته جل شأنه كالمشركين المنكرين وحدته سبحانه وعموم قدرته جلت قدرته وشمولها للبعث ولم يقل فيه بدل فى الله بارجاع الضمير للاسم الجليل فى قوله تعالى: (ألم تروا ان الله سخر لكم) تهويلا لأمر الجدال ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مستفاد من دليل عقلى ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ راجع الى رسول مأخوذ منه، وجوز جعل الهدى نفس الرسول مبالغة وفيه بعد ﴿ وَلَا كِتَابٍ ﴾ أنزله الله تعالى ﴿ مُنِيرٍ ٢٠ ﴾ أى ذى نور، والمراد به واضح الدلالة على المقصود، وقيل: منقذ من ظلمة الجهل والضلال بل يجادلون بمجرد التقليد كما قال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريدون عبادة ما عبدوه من دون الله عز وجل، وهذا ظاهر فى منع التقليد فى أصول الدين والمسئلة خلافية فالذى ذهب اليه الاكثرون ورجحه الامام الرازى والآمدى انه لا يجوز التقليد فى الاصول بل يجب النظر والذى ذهب اليه عبيد الله بن الحسن العنبرى وجماعة الجواز وربما قال بعضهم انه الواجب على المكلف وان النظر فى ذلك والاجتهاد فيه حرام ، وعلى كل يصح عقائد المقلد المحقون وان كان آثما بترك النظر على الأول، وعن الأشعرى انه لا يصح إيمانه ، وقال الاستاذ أبو القاسم القشيرى: هذا مكذوب عليه لما يلزمه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين ، والتحقيق انه

www.Quranpdf.blogspot.in

إن كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك ووهم بأن لا يجزم المقلد فلا يكفى ايمانه قطعا لأنه لا إيمان مع أدنى تردد فيه وان كان لكن جزما فيكفى عند الاشعرى وغيره خلافا لأبى هاشم فى قوله لا يكفى بل لا بد لصحة الايمان من النظر، وذكر الخفاجى انه لاخلاف فى امتناع تقليد من لم يعلم أنه مستند الى دليل حق، وظاهر ذم المجادلين بغير علم ولا هدى ولا كتاب انه يكفى فى النظر الدليل النقلى الحق كما يكفى فيه الدليل العقلى *

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أى يدعو آباءهم لاأنفسهم كما قيل: فان مدار إنكار الاستتباع كون المتبوعين تابعين للشياطين وينادى عليه قوله تعالى: (أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون) بعد قوله سبحانه: (بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا) ويعلم منه حال رجوع الضمير إلى المجموع أى أولئك المجادلين وآباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ٢١ ﴾ أى إلى مايؤل اليه أو يتسبب منه من الاشراك وإنكار شمول قدرته عز وجل للبعث ونحو ذلك من الضلالات، وجوز بقاء (عذاب السعير) على حقيقته والاستفهام للانكار ويفهم التعجيب من السياق أو للتعجيب ويفهم الانكار من السياق والواو حالية والمعنى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أى فى حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب، وجوز كون الواو عاطفة على مقدر أى أيتبعونهم لولم يكن الشيطان يدعوهم الى العذاب ولو كان يدعوهم اليه، وهما قولان مشهوران فى الواو الداخلة على (لو) الوصلية ونحوها، وكذا فى احتياجها إلى الجواب قولان قول بالاحتياج وقول بعدمه لانسلاخها عن معنى الشرط، ومن ذهب إلى الأول قدره هنا لايتبعوهم وهو مما لاغبار عليه على تقدير كون الواو عاطفة، وأما على تقدير كونها حالية فزعم بعضهم أنه لايتسنى وفيه نظر، وقد مر الكلام على نحو هذه الآية الكريمة فتذكر *

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن فوض اليه تعالى جميع أموره وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه، فالاسلام كالتسليم التفويض، والوجه الذات، والكلام كناية عما أشرنا اليه من تسليم الأمور جميعها اليه تعالى والاقبال التام عليه عز وجل وقد يعدى الاسلام باللام قصداً لمعنى الاخلاص *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. والسلمى. وعبد الله بن مسلم بن يسار (يسلم) بتشديد اللام من التسليم وهو أشهر فى معنى التفويض من الاسلام ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى فى أعماله والجملة فى موضع الحال *

﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ تعلق أتم تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب وهذا تشبيه تمثيلى مركب حيث شبه حال المتوكل على الله عز وجل المفوض اليه أموره كلها المحسن فى أعماله بمن ترقى فى جبل شاهق أو تدلى منه فتمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، وجوز أن يكون هناك استعارة فى المفرد وهو العروة الوثقى بأن يشبه التوكل النافع المحمود عاقبته بها فتستعار له ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٢٢ ﴾ أى هى صائرة اليه عز وجل لا إلى غيره جل جلاله فلا يكون لأحد سواه جل وعلا تصرف فيها بأمر ونهى وثواب وعقاب فيجازى سبحانه هذا المتوكل أحسن الجزاء، وقيل: فيجازى كلا من هذا المتوكل وذاك المجادل بما يليق به بمقتضى الحكمة، وأل فى الأمور للاستغراق، وقيل: تحتمل العهد على أن المراد الأمور المذكورة من المجادلة ومابعدها، وتقديم (إلى الله) للحصر ردا على الكفرة فى زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور *

www.Quranpdf.blogspot.in

واختار بعضهم كونه إجلالا للجلالة ورعاية للفاصلة ظنا منه أن الاستغراق مغن عن الحصر وهو ليس كذلك.

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ﴾ أى فلا يهمنك ذلك ﴿ إِلَيْنَا ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ رجوعهم بالبعث يوم القيامة ﴿ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى بعملهم أو بالذى عملوه فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب، وقيل: الينا مرجعهم فى الدارين فنجازيهم بالاهلاك والتعذيب والاول أظهر وأيا ما كان فالجملة فى موضع التعليل كأنه قيل: لايهمنك كفر من كفر لانا ننتقم منه ونعاقبه على عمله أو الذى عمله والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الأول باعتبار لفظها، وقرىء فى السبع (ولا يحزنك) مضارع أحزن مزيد حزن اللازم، وقدر اللزوم ليكون للنقل فائدة وحزن وأحزن لغتان، قال اليزيدى: حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما، وذكر الزمخشرى أن المستفيض فى الاستعمال ماضى الأفعال ومضارع الثلاثى والعمدة فى ذلك عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٣ ﴾ تعليل للتنبئة المعبر بها عن المجازاة أى يجازيهم سبحانه لأنه عز وجل عليم بالضمائر فما ظنك بغيرها *

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا فان ما يزول بالنسبة الى ما يدوم قليل ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ٢٤ ﴾ ثقيل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ، والمراد بالاضطرار أى الالجاء الزامهم ذلك العذاب الشديد الزام المضطر الذى لا يقدر على الانفكاك مما ألجىء اليه، وفى الانتصاف تفسير هذا الاضطرار ما فى الحديث من أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد فيرسل عليهم الزمهرير فيكون أشد عليهم من اللهب فيتمنون عود اللهب اضطرارا فهو اختيار عن اضطرار وباذيال هذه البلاغة تعلق الكندى حيث قال:

يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرار

وقيل: المعنى نضمر إلى الاحراق الضغط والتضييق فلاتغفل ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى خلقهن الله تعالى، وجوز أن يكون التقدير الله خلقهن والأول أولى كما فصل فى محله وقولهم ذلك لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ماهم عليه من إشراك غيره تعالى به جل شأنه فى العبادة التى لا يستحقها غير الخالق والمنعم الحقيقى *

وجوز جعل المحمود عليه جعل دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابر أيضا ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٥ ﴾ أن ذلك يلزمهم قيل: وفيه إيغال حسن كأنه قال سبحانه: وان جهلهم انتهى إلى أن لا يعلموا أن الحمد لله ما موقعه فى هذا المقام، وقد مر تمام الكلام فى نظير الآية فى العنكبوت فتذكر *

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ليس لأحد سواه عز وجل استقلالا ولا شركة فلا يستحق العبادة فيهما غيره سبحانه وتعالى بوجه من الوجوه، وهذا ابطال لمعتقدهم من وجه آخر لأن المملوك لا يكون شريكا لمالكه فكيف يستحق ما هو حقه من العبادة وغيرها ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل شئ ﴿ الْحَمِيدُ ٢٦ ﴾ المستحق للحمد وان لم يحمده جل وعلا أحد او المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال، وكأن الجملة جواب عما يوشك أن يخطر ببعض الاذهان السقيمة من أنه هل اختصاص ما فى السموات

www.Quranpdf.blogspot.in

والأرض به عز وجل لحاجته سبحانه اليه، وهو جواب بنفى الحاجة على أبلغ وجه فقد كان يكفى فى الجواب إن الله غنى الا أنه جىء بالجملة متضمنة للحصر المبالغة وجىء بالحميد أيضا تأكيداً لما تفيده من نفى الحاجة بالاشارة الى أنه تعالى منعم على من سواه سبحانه أو متصف بسائر صفات الكمال فتأمل جدا ، وقال الطيبي: إن قوله تعالى: (لله مافى السموات والأرض) تهاون بهم وابداء أنه تعالى مستغن عنهم وعن حمدهم وعبادتهم ولذلك علل بقوله سبحانه: (ان الله هو الغنى) أى عن حمد الحامدين (الحميد) أى المستحق للحمد وان لم يحمدوه عز وجل

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى لو ثبت كون ما فى الارض من شجرة اقلاما فأن وما بعدها فاعل ثبت مقدر بقرينة كون (أن) دالة على الثبوت والتحقق والى هذا ذهب المبرد، وقال سيبويه: إن ذلك مبتدأ مستغن عن الخبر لذكر المسند والمسند اليه بعده، وقيل: مبتدأ خبره مقدر قبله، وقال ابن عصفور: بعده و(مافى الارض) اسم أن و(من شجرة) بيان لما أو للضمير العائد اليها فى الظرف فهو فى موضع الحال منها أو منه أى ولو ثبت أن الذى استقر فى الأرض كائنا من شجرة، و(أقلام) خبر أن قال أبو حيان: وفيه دليل دعوى الزمخشرى وبعض العجم ممن ينصر قوله : ان خبر أن الجائية بعد لو لا يكون اسما جامدا ولا إسما مشتقا بل يجب أن يكون فعلا وهو باطل ولسان العرب طافح بخلافه ، قال الشاعر :

ولو أنها عصفورة لحسبتها مسومة تدعو عبيداً وأزنماً

وقال آخر : ماأطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

إلى غير ذلك، وتعقب بأن اشتراط كون خبرها فعلا إنما هو إذا كان مشتقا فلا يرد (أقلام) هنا ولا ماذكر فى البيتين، وأما قوله تعالى: (لو أنهم بادون) فلو فيه للتمنى والكلام فى خبر أن الواقعة بعد لو الشرطية. والمراد بشجرة كل شجرة والنكرة قد تعم فى الاثبات إذا اقتضى المقام ذلك كما فى قوله تعالى: (علمت نفس ما أحضرت) وقول ابن عباس رضى الله عنهما لبعض أهل الشام وقد سأله عن المحرم اذا قتل جرادة أيتصدق بتمرة فدية لها؟ تمرة خير من جرادة على ما اختاره جمع ولا نسلم المنافاة بين هذا العموم وهذه التاء فكأنه قيل : ولو أن كل شجرة فى الأرض أقلام الخ، وكون كل شجرة أقلاما باعتبار الاجزاء أو الاغصان فيؤل المعنى الى لو أن أجزاء أو أغصان كل شجرة فى الارض أقلاما الخ ، ويحسن ارادة العموم فى نحو ما نحن فيه كون الكلام الذى وقعت فيه النكرة شرطا بلو وللشرط مطلقا قرب ما من النفى فما ظنك به إذا كان شرطا بها وإن كانت هنا ليست بمعناها المشهور من انتفاء الجواب لانتفاء الشرط أو العكس بل هى دالة على ثبوت الجواب أو حرف شرط فى المستقبل على ما فصل فى المغنى، واختيار (شجرة) على أشجار أو شجر لأن الكلام عليه أبعد عن اعتبار التوزيع بأن تكون كل شجرة من الاشجار أو الشجر قلما المخل بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه. وفى البحر أن هذا مما وقع فيه المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة، ونظيره (ما ننسخ من آية. ما يفتح الله للناس من رحمة . ولله يسجد ما فى السموات والأرض من دابة) وقول العرب: هذا أول فارس وهذا أفضل عالم يراد من الآيات ومن الرحمات ومن الدواب وأول الفرسان وأفضل العلماء ذكر المفرد النكرة وأريد به معنى الجمع المعرف باللام وهو مهيع فى كلام العرب معروف وكذلك يقدر هنا من الشجرات أو من الاشجار اه فلا تغفل *

وقال الزمخشرى: إنه قال سبحانه (شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذى هو شجر لأنه أريد تفصيل

www.Quranpdf.blogspot.in

الشجر شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت أقلاما. وتعقب بأن افادة المفرد التفصيل بدون تكرار غير معهود والمعهود افادته ذلك بالتكرير نحو جاؤني رجلا رجلا فتأمل، واختيار جمع القلة في (أقلام) مع أن الانسب للمقام جمع الكثرة لأنه لم يعهد للقلم جمع سواه وقلام غير متداول فلا يحسن استعماله ﴿ وَالْبَحْرُ ﴾ أي المحيط فأل للعهد لأنه المتبادر ولأنه الفرد الكامل إذ قد يطلق على شعبه وعلى الانهار العظام كدجلة والفرات ، وجوز ارادة الجنس ولعل الاول أبلغ ﴿ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نفاده وقيل من ورائه ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ مفروضة كل منها مثله في السعة والاحاطة وكثرة الماء، والمراد بالسبعة الكثرة بحيث تشمل المائة والالف مثلا لا خصوص العدد المعروف كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء» واختيرت لها لأنها عدد تام كما عرفت عند الكلام في قوله تعالى: (تلك عشرة كاملة) وكثير من المعدودات التي لها شأن كالسموات والكواكب السيارة والاقاليم الحقيقية وأيام الاسبوع إلى غير ذلك منحصر في سبع فلعل في ذكرها هنا دون سبعين المتجوز به عن الكثرة أيضا رمزا الى شأن كون تلك الابحر عظيمة ذات شأن ولما لم تكن موضوعة في الأصل لذلك بل للعدد المعروف القليل جاء تمييزها أبحر بلفظ القلة دون بحور وإن كان لا يراد به إلا الكثرة ليناسب بين اللفظين فكما تجوز في السبعة واستعملت للتكثير تجوز في أبحر واستعمل فيه أيضا، وكان الظاهر بعد جعل ما في الأرض من شجرة أقلاما أن يقال: والبحر مداد لكن جيء بما في النظم الجليل لأن يمده يغني عن ذكر المداد لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها أي جعلها ذات مداد وزاد في مدادها ففيه دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة وهو تصوير الامداد المستمر حالا بعد حال كما تؤذن به صيغة المضارع فأفاد النظم الجليل جعل البحر المحيط بمنزلة الدواة وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة مدادا فهي تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع، ورفع (البحر) على ما استظهره أبو حيان فيه على الابتداء وجملة يمده خبره والواو للحال والجملة حال من الموصول أو الضمير الذي في صلته أي لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاما في حال كون البحر ممدودا بسبعة أبحر، ولا يضر خلو الجملة عن ضمير ذي الحال فان الواو يحصل بها من الربط ما لا يتقاعد عن الضمير لدلالتها على المقارنة ، وأشار الزمخشري إلى أن هذه الجملة وما أشبهها كقوله:

وقد اغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الاوابد هيكل

وجئت والجيش مصطف من الاحوال التي حكمها حكم الظروف لأنها في معناها إذ معنى جئت والجيش مصطف مثلا ومعنى جئت وقت اصطفاف الجيش واحد وحيث أن الظرف يربطه بما قبله تعلقه به وان لم يكن فيه ضمير وهو اذا وقع حالا استقر فيه الضمير فما يشبهه كأنه فيه ضمير مستقر، ولا يرد عليه اعتراض أبي حيان بأن الظرف اذا وقع حالا ففي العامل فيه ضمير ينتقل الى الظرف ، والجملة الاسمية اذا كانت حالا بالواو فليس فيها ضمير منتقل فكيف يقال انها في حكم الظرف. نعم الحق أن الربط بالواو كاف عن الضمير ولا يحتاج معه الى تكلف هذه المؤنة ، وجوز أن تكون الجملة حالا من الارض والعامل فيه معنى الاستقرار والرابط ما سمعت او أل التي في (البحر) بناء على رأي الكوفيين من جواز كون أل عوضا عن الضمير كما في قوله تعالى: (جنات عدن مفتحة لهم الابواب) أي ولو ثبت كون الذي استقر في الارض من شجرة أقلاما حال كون بحرها ممدودا بسبعة أبحر

www.Quranpdf.blogspot.in

قال فى الكشف: ولا بد أن يجعل (من شجرة) بيانا للضمير العائد الى (ما) لئلا يلزم الفصل بين أجزاء الصلة بالاجنبي، و (البحر) على تقدير جعل ال فيه عوضا عن المضاف اليه العائد الى الارض يحتمل أن يراد به المعهود وأن يراد به غيره، وقال الطيبي: إن البحر على ذلك يعم جميع الابحر لقرينة الاضافة ويفيد أن السبعة خارجة عن بحر الأرض وعلى ما سواه يحتمل الحصة المعهودة المعلومة عند المخاطب. ورد بأنه لا فرق بينهما بل كون بحرها للعهد أظهر لأن العهد أصل الاضافة ولا ينافيه كون الارض شاملة لجميع الاقطار لأن المعهود البحر المحيط وهو محيط بها كلها، وجوز الزمخشري كون رفعه بالعطف على محل أن ومعمولها، وجملة (يمده) حال على تقدير لو ثبت كون ما فى الارض من شجرة أقلاما وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر، وتعقب بأن الدال على الفعل المحذوف هو أن وخبره على ما قرر فى بابه فاذن لا يمكن افضاء المحذوف الى المعطوف دون ملاحظة دال وفى هذا العطف اخراج عن الملاحظة، وأجيب بأنه يحتمل فى التابع ما لا يحتمل فى المتبوع، ثم لا يخفى أن العطف على هذا من عطف المفرد على المفرد لا المفرد على الجملة كما قيل اذ الظاهر أن المعطوف عليه انما هو المصدر الواقع فاعلا لثبت وهو مفرد لا جملة، وجوز أن يكون العطف على ذلك أيضاً بناء على رأى من يجعله مبتدأ، وتعقب بأنه يلزم أن يلى لو الاسم الصريح الواقع مبتدأ اذ يصير التقدير ولو البحر وذلك على ما قال أبو حيان لا يجوز الا فى ضرورة شعر نحو قوله : لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى (١)

وأجيب بأنه يغتفر فى التابع ما لا يغتفر فى المتبوع كما فى نحو رب رجل وأخيه يقولان ذلك، وقال بعضهم: إنه يلزم على العطف السابق أن يلى لو الاسم الصريح وهو أيضاً مخصوص بالضرورة. وأجاب بما أجيب وفيه عندى تأمل، وجوز كون الرفع على الابتداء، وجملة (يمده) خبر المبتدا والواو واو المعية وجملة المبتدا وخبره فى موضع المفعول معه بناء على أنه يكون جملة كما نقل عن ابن هشام ولا يخفى بعده، وجوز كون الواو على ذلك للاستئناف وهو استئناف بيانى كأنه؟ قيل: ما المداد حينئذ فقيل: والبحر الخ، وتعقب بأن اقتران الجواب بالواو وإن كانت استئنافية غير معهود، وما قيل: إنه يقترن بها إذا كان جوابا للسؤال على وجه المناقشة لا للاستعلام مما لا يعتمد عليه، ومن هنا قيل: الظاهر على ارادة الاستئناف أن يكون نحويا، وجوز فى هذا التركيب غير ما ذكر من أوجه الاعراب أيضاً *

وقرأ البصريان (والبحر) بالنصب على أنه معطوف على اسم أن و (يمده) خبر له أى ولو ان البحر ممدود بسبعة أبحر * قال ابن الحاجب فى أماليه : ولا يستقيم أن يكون (يمده) حالا لأنه يؤدى الى تقييد المبتدا الجامد بالحال ولا يجوز لأنها لبيان الفاعل أو المفعول والمبتدا ليس كذلك ويؤدى أيضا الى كون المبتدا لا خبر له ولا يستقيم أن يكون (أقلام) خبرا له لأنه خبر الاول اه، ولم يذكر احتمال تقدير الخبر لظهور أنه خلاف الظاهر *

وجوز أن يكون منصوبا على شريطة التفسير عطفا على الفعل المحذوف أعنى ثبت ودخول لو على المضارع جائز، وجملة (يمده) الخ حينئذ لا محل لها من الاعراب *

وقرأ عبد الله (وبحر) بالتنكير والرفع وخرج ذلك ابن جنى على انه مبتدأ وخبره محذوف أى هناك بحر يمده الخ، والواو واو الحال لا محالة، ولا يجوز أن يعطف على (أقلام) لأن البحر وما فيه ليس من حديث الشجر

---

(١) الاعتصار بالماء أن يشرب به قليلا قليلا ليسيغ ما غص به من الطعام اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

والاقلام وانما هو من حديث المداد . وفي البحران الواو على هذه القراءة للحال أو للعطف على ماتقدم، وإذا كانت للحال كان (بحر) مبتدا وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة تقدم تلك الواو فقد عد من مسوغات الابتداء بالنكرة كما في قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محياك أخفى ضوءه كل شارق

اه ولا يخفى انه اذا عطف على فاعل ثبت فجملة (يمده) في موضع الصفة له لا حال منه، وجوز ذلك من جوز مجيء الحال من النكرة ، والظاهر على تقدير كونه مبتدا جعل الجملة خبره ولا حاجة الى جعل خبره محذوفا كما فعل ابن جني ٭

وقرأ ابن مسعود. وأبي (تمده) بتاء التأنيث من مد كالذي في قراءة الجمهور . وقرأ ابن مسعود أيضا. والحسن. وابن مصرف. وابن هرمز (يمده) بضم الياء التحتية من الامداد. قال ابن الشيخ: يمد بفتح فضم ويمد بضم فكسر لغتان بمعنى . وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما (والبحر مداده) أى ما يكتب به من الحبر، وقال ابن عطية: هو مصدر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ جواب (لو) وفي الكلام اختصار يسمى حذف ايجاز ويدل على المحذوف السياق والتقدير ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله تعالى مانفدت لعدم تناهيها ونفد تلك الاقلام والمداد لتناهيها، ونظير ذلك في الاشتمال على ايجاز الحذف قوله تعالى: (أو به أذى من رأسه ففدية) أى فحلق رأسه لدفع مابه من الأذى ففدية، والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وحكمته جل شأنه وهو الذي يقتضيه سبب النزول على ما أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الروح فأنزل سبحانه (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم الا قليلا) فقالوا : تزعم (١) أنا لم نؤت من العلم الا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت (ولو أن) الخ . وظاهر هذا ان اليهود قالوا ذلك له عليه الصلاة والسلام مشافهة وهو ظاهر في أن الآية مدنية ، وقيل: انهم أمروا وفد قريش ان يقولوا له صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك وهذا القائل يقول: انها مكية، وحاصل الجواب أنه وإن كان ما أوتيتموه خيرا كثيرا لكونه حكمة الا أنه قليل بالنسبة الى حكمته عز وجل . وفي رواية أنه نزل بمكة قوله تعالى: (ويسألونك) الخ فلما هاجر عليه الصلاة والسلام أتاه أحبار اليهود فقالوا بلغنا أنك تقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « كلا عنيت » فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء. فقال عليه الصلاة والتحية: «هي في علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ما إن عملتم به نجوتم» قالوا: يامحمد كيف تزعم هذا وأنت تقول: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) فكيف يجتمع؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا علم قليل وخير كثير » فأنزل الله تعالى هذه الآية . وهذا نص في ان الآية مدنية، وقيل: المراد بها مقدوراته جل وعلا وعجائبه عز وجل التي إذا أراد سبحانه شيئا منها قال تبارك وتعالى له: (كن فيكون) ومن ذلك قوله تعالى في عيسى: (وكلمته ألقاها إلى مريم) وإطلاق الكلمات على ماذكر من اطلاق السبب على المسبب ، وعلى هذا وجه ربط الآية بما قبلها أظهر على ما قيل وهو أنه سبحانه لما

---

(١) قوله فقالوا تزعم عن ابن جريج أن القائل حيي بن أخطب اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

قال : (ولله مافى السموات والارض) وكان موهما لتناهى ملكه جل جلاله أردف سبحانه ذلك بما هو ظاهر بعدم التناهى وهذا مااختاره الامام فى المراد بكلماته تعالى إلا أن فى انطباقه على سبب النزول خفاء ، وعن أبى مسلم المراد بها ما وعد سبحانه به أهل طاعته من الثواب وما أوعد جل شأنه به أهل معصيته من العقاب ، وكأن الآية عليه بيان لأ كثرية ما لم يظهر بعد من ملكه تعالى بعد بيان كثرة ماظهر ، وقيل: المراد بها ماهو المتبادر منها بناء على ما أخرج عبدالرزاق . وابن جرير . وابن المنذر . وغيرهم عن قتادة قال: قال المشركون انما هذا كلام يوشك أن ينفد فنزلت (ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام) الآية ، وفى وجه ربط الآية عليه بما قبلها وكذا بما بعدها خفاء جدا إلا أنه لا يقتضى كونها مدنية ، وإيثار الجمع المؤنث السالم بناء على أنه كجمع المذكر جمع قلة لاشعاره وان اقترن بما قد يفيد معه الاستغراق والعموم من أل أو الاضافة نظرا لاصل وضعه وهو القلة بأن ذلك لا يفى بالقليل فكيف بالكثير . وقرأ الحسن . (مانفد) بغير تاء (كلام الله) بدل كلمات الله ﴿ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه جل شأنه شيء ﴿ حَكِيمٌ ٢٧ ﴾ لا يخرج عن علمه تعالى وحكمته سبحانه شيء ، والجملة تعليل لعدم نفاد كلماته تبارك وتعالى *

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى الا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى بالنسبة اليه عز وجل اذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق ارادته تعالى الواجبة أو قوله جل وعلا: كن مع قدرته سبحانه الذاتية وامكان المتعلق ولا توقف لذلك على آلة ومباشرة تقتضى التعاقب ليختلف عنده تعالى الواحد والكثير كما يختلف ذلك عند العباد ﴿ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع كل مسموع ﴿ بَصِيرٌ ٢٨ ﴾ يبصر كل مبصر فى حالة واحدة لا يشغله ادراك بعضها عن ادراك بعض فكذا الخلق والبعث وحاصله كما انه تعالى شأنه يبصر واحد يدرك سبحانه المبصرات وبسمع واحد يسمع جل وعلا المسموعات ولا يشغله بعض ذلك عن بعض كذلك فيما يرجع الى القدرة والفعل فهو استشهاد بما سلموه فشبه المقدورات فيما يراد منها بالمدركات فيما يدرك منها كذا فى الكشف . واستشكل كون ذلك مسلما بأنه قد كان بعضهم إذا طعنوا فى الدين يقول: أسروا قولكم لئلا يسمع اله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزل (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) *

وأجيب بأنه لا اعتداد بمثله من الحماقة بعد مارد عليهم مازعموا وأعلموا بما أسروا ، وقيل: إن الجملة تعليل لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع وأن شيئا من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره لعلمه تعالى بتفاصيلها وجزئياتها فيتصرف فيها كما يشاء كما يقال: فلان يجيد عمل كذا لمعرفته بدقائقه ومتمماته ، والمقصود من ايراد الوصفين اثبات الحشر والنشر لأنهما عمدتان فيه ألا ترى كيف عقب ذلك بما يدل على عظيم القدرة وشمول العلم *

وأياما كان يندفع توهم أن المناسب لما قبل أن يقال: إن الله قوى قدير أو نحو ذلك دون ماذكر لأن الخلق والبعث ليسا من المسموعات والمبصرات ، وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا: إن الله تعالى خلقنا أطوارا نطفة علقة مضغة لحما فكيف يبعثنا خلقا جديدا فى ساعة واحدة فنزلت وذكر النقاش أنها نزلت فى أبى بن خلف. وأبى الاسود ونبيه . ومنبه ابنى الحجاج ، وذكر فى سبب نزولها فيهم نحو ماذكر ، وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى انه تعالى سميع بقولهم ذلك بصير بما يضمرونه وهو كما ترى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قيل: خطاب لسيد المخاطبين ﷺ وقيل: عام لكل من يصلح للخطاب وهو الاوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه سبحانه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا، وعدل عن يواج أحد الملوين فى الآخر مع أنه اخصر للدلالة على استقلال كل منهما فى الدلالة على كمال القدرة، وقدم الليل على النهار لمناسبته لعالم الامكان المظلم من حيث امكانه الذاتى، وفى بعض الآثار كان العالم فى ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره، وهذا الايلاج انما هو فى هذا العالم ليس عند ربك صباح ولا مساء، وقدم الشمس على القمر فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مع تقديم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لأنها كالمبدإ للقمر ولأن تسخيرها للغاية عظمها أعظم من تسخير القمر وأيضا آثار ذلك التسخير أعظم من آثار تسخيره وقال الامام فى تعليل تقديم كل على ما قدم عليه: لأن الانفس تطالب سبب المقدم أكثر مما تطالب سبب المؤخر وبين ذلك بما بين، ولعل ما ذكرناه أولى لاسيما إذا صح أن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وعطف قوله سبحانه (سخر) على قوله تعالى (يولج) والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين وأما التسخير فأمر لاتعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد فى آثاره كما يشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ يسير سيرا سريعا مستمرا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ أى منتهى للجرى ﴿مُسَمًّى﴾ سماه الله تعالى وقدره لذلك، وهو كما قال الحسن يوم القيامة فانه لاينقطع جرى النيرين وتبطل حركتهما الا فى ذلك اليوم، والظاهر ان هذا الجرى هو هذه الحركة التى يشاهدها كل ذى بصر من أهل المعمورة، وهى عند الفلاسفة بواسطة الفلك الأعظم فان حركته كذلك وبها حركة سائر الافلاك وما فيها من الكواكب ويسمى حركة الكل والحركة اليومية والحركة السريعة والحركة الأولى والحركة على خلاف التوالى والحركة الشرقية، وبعضهم يسميها الحركة الغربية، وقيل: ما يعم هذه الحركة وحركتهما الخاصة بهما وهى حركتهما بواسطة فلكيهما على التوالى من المغرب الى المشرق وهى للقمر أسرع منها للشمس، وليس فى العقل الصريح والنقل الصحيح ما يأبى إثبات هاتين الحركتين لكل من النيرين كما لايخفى على المنصف العارف، ومنتهى هذا الجرى العام لهاتين الحركتين يوم القيامة أيضا، والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به صلى الله تعالى عليه وسلم يجوز أن تكون حالا من الشمس والقمر فان جريهما الى يوم القيامة من جملة ما فى حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام، وقيل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما والاجل المسمى لجرى الشمس آخر السنة المسماة بالسنة الشمسية الحقيقية وهى زمان مفارقة الشمس أية نقطة تفرض من فلك البروج الى عودها اليها بحركتها الخاصة، وجعلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل ومدتها عند بعض ثلثمائة وخمسة وستون يوما بليلته وربع يوم كذلك وعند بطليموس ثلثمائة وخمسة وستون يوما بليلته وخمس ساعات وخمسة وخمسون دقيقة واثنتا عشرة ثانية، وعند بعض المتأخرين ثلثمائة وخمسة وستون يوما وخمس ساعات وست وأربعون دقيقة وأربع وعشرون ثانية، وعند الحكيم محيي الدين الكسر الزائد خمس ساعات ودقيقة، وبالرصد الجديد الذى تولاه الطوسى بمراغة خمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة، ووجد برصد سمرقند أزيد من هذا بربع دقيقة، وأما الاصطلاحية فاعتبرها بعض كالروم والاقدمين من الفرس ثلثمائة وخمسة وستون يوما بليلته وربع يوم كذلك وأخذ الكسر ربعا تاما إلا أن الروم يجعلون ثلاث سنين

www.Quranpdf.blogspot.in

ثلثمائه وخمسة وستين ويكبسون فى الرابعة بيوم والفرس كانوا يكبسون فى مائة وعشرين سنة بشهر، واعتبرها بعض آخر كالقبط والمستعملين لتاريخ الفرس من المحدثين ثلثمائة وستين يوما بليلته وأسقط الكسر رأسا ولجرى القمر آخر الشهر القمرى الحقيقى وهو زمان مفارقة القمر أى وضع يعرض له من الشمس الى عوده اليه، وجعلوا ابتداءه من اجتماع الشمس والقمر وزمان مابين الاجتماعين المتتاليين (كط لا ن) من الأيام ودقائقها وثوانيها تقريبا وأما الشهر الغير الحقيقى فالمعتبر فيه الهلال ويختلف زمان مابين الهلالين كما هو معروف*

قيل : وعلى هذا فالجملة بيان لحكم تسخيرهما أو تنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين فى الآخر، وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها إلى سمت الرأس تزداد القوس التى فوق الأرض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل اليه إلى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى فوق الأرض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها رأس الجدى*

وأنت تعلم أنه لامدخل لجريان القمر فى الايلاج فالتعرض له فى الآية الكريمة يبعد هذا الوجه، ولعل الأظهر على تقدير جعل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما أن يجعل الأجل المسمى عبارة عن يوم القيامة أو يجعل عبارة عن آخر السنة والشهر المعروفين عند العرب فتأمل، وجرى يتعدى بالى تارة وباللام أخرى وتعديته بالأول باعتبار كون المجرور غاية وبالثانى باعتبار كونه غرضا فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة وجعلها الزمخشرى للاختصاص ولكل وجه، ولم يظهر لى وجه اختصاص هذا المقام بالى وغيره باللام، وقال النيسابورى: وجه ذلك أن هذه الآية صدرت بالتعجيب فناسب التطويل وهو كما ترى فتدبر، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٩ ﴾ عطف على قوله: (إن الله يولج الليل) الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير اللائق لايكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها وقرأ عياش عن أبى عمرو. (بما يعملون) بياء الغيبة ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تضمنته الآيات وأشارت اليه من سعة العلم وكمال القدرة واختصاص البارى تعالى شأنه بها ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى بسبب أنه سبحانه وحده الثابت المتحقق فى ذاته أى الواجب الوجود*

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلها ﴿ الْبَاطِلُ ﴾ المعدوم فى حد ذاته وهو الممكن الذى لايوجد إلا بغيره وهو الواجب تعالى شأنه ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ على الأشياء ﴿ الْكَبِيرُ ٣٠ ﴾ عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف جل وعلا بنقص لابشىء أعلى منه تعالى شأنه شأنا وأكبر سلطانا، ووجه سببية الأول لما ذكر أن كونه تعالى وحده واجب الوجود فى ذاته يستلزم أن يكون هو سبحانه وحده الموجد لسائر المصنوعات البديعة الشأن فيدل على كمال قدرته عز وجل وحده والايجاب قد أبطل فى الأصول ومن صدرت عنه جميع هاتيك المصنوعات لابد من أن يكون كامل العلم على مابين فى الكلام، ووجه سببية الثالث لذلك أن كونه تعالى وحده عليا على جميع الأشياء متسلطا عليها متنزها عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف بنقص عز وجل يستلزم

www.Quranpdf.blogspot.in

كونه تعالى وحده واجب الوجود فى ذاته وقد سمعت الكلام فيه، وأما وجه سببية كون مايدعونه من دونه إلها باطلا ممكنا فى ذاته لذلك فهو أن امكانه على علو شأنه عندهم على ماعداه مما لم يعتقدوا إلهيته يستلزم إمكان غيره مما سوى الله عز وجل لأن مافيه مما يدل على إمكانه موجود فى ذلك حذو القذة بالقذة ومتى كان مايدعونه إلها من دونه تعالى وغيره مما سوى الله سبحانه وتعالى ممكنا انحصر وجوب الوجود فى الله تعالى فيكون جل وعلا وحده واجب الوجود فى ذاته وقد علمت إفادته للمطلوب وكأنه إنما قيل أن مايدعون من دونه الباطل دون أن ماسواه الباطل مثلا نظير قول لبيد * ألا كل شىء ماخلا الله باطل * تنصيصا على فظاعة ماهم عليه واستلزام ذلك إمكان ماسوى الله تعالى من الموجودات من باب أولى بناء على مايزعم المشركون فى آلهتهم من علو الشأن ولم يكتف فى بيان السبب بقوله سبحانه : (بأن الله هو الحق) بل عطف عليه ماعطف مع أنه مما يعود اليه وتشعر تلك الجملة به إظهارا لكمال العناية بالمطلوب وبما يفيده منطوق المعطوف من بطلان الشريك وكونه تعالى هو العلى الكبير *

وقيل : أى ذلك الاتصاف بما تضمنته الآيات من عجائب القدرة والحكمة بسبب أن الله تعالى هو الاله الثابت إلهيته وإن من دونه سبحانه باطل الالهية وإن الله تعالى هو العلى الشأن الكبير السلطان ومدار أمر السببية على كونه سبحانه هو الثابت الإلهية وبين ذلك الطيبى بأنه قد تقرر أن من كان إلها كان قادرا خالقا عالما إلى غير ذلك من صفات الكمال ثم قال ان قوله تعالى ذلك بأن الله هو الحق كالفذلكة لما تقدم من قوله تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم) إلى (هذا المقام) وقوله تعالى : (وأن الله هو العلى الكبير) كالفذلكة لتلك الفواصل المذكورة هنالك كلها *

ولعل ماقدمنا أولى بالاعتبار ، وقال العلامة أبو السعود فى الاعتراض على ذلك : أنت خبير بان حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ماذكر من الصفات لكن بطلان إلهية الأصنام لادخل له فى المناطية قطعا فلامساغ لنظمه فى سلك الاسباب بل هو تعكيس للامر ضرورة أن الصفات المذكورة هى المقتضية لبطلانها لاأن بطلانها يقتضيها انتهى ، وفيه تأمل والعجب منه أنه ذكر مثل مااعترض عليه فى نظير هذه الآية فى سورة الحج ولم يتعقبه بشىء *

وجوز أن يكون المعنى ذلك أى ماتلى من الآيات الكريمة بسبب بيان أن الله هو الحق إلهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد ولأجل بيان بطلان إلهية مايدعون من دونه لكونها شاهدة شهادة بينة لاريب فيها ولأجل بيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شىء المتسلط عليه فان مافى تضاعيف تلك الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به أى بيان وهو وجه لا تكلف فيه سوى اعتبار حذف مضاف كما لايخفى وكأنه إنما قيل هنا : وأن مايدعون من دونه الباطل بدون ضمير الفصل ، وفى سورة الحج وأن مايدعون من دونه هو الباطل بتوسيط ضمير الفصل لما أن الحط على المشركين وآلهتهم فى هذه السورة دون الحط عليهم فى تلك السورة *

وقال النيسابورى فى ذلك أن آية الحج وقعت بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين فناسب ذلك توسيط الضمير بخلاف ماهنا ويمكن أن يقال تقدم فى تلك السورة ذكر الشيطان مرات فلهذا ذكرت تلك المؤكدات بخلاف هذه السورة فانه لم يتقدم ذكر الشيطان فيها نحو ذكره هناك ، وقرأ نافع . وابن كثير .

www.Quranpdf.blogspot.in

وابن عامر . وأبوبكر (تدعون) بتاء الخطاب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ استشهاد آخر على باهر قدرته جل وعلا وغاية حكمته عز وجل وشمول انعامه تبارك وتعالى، والمراد بنعمة الله تعالى إحسانه سبحانه فى تهيئة أسباب الجرى من الريح وتسخيرها فالباء للتعدية كما فى مررت بزيد أو سببية متعلقة بتجرى *

وجوز أن يراد بنعمته تعالى ماأنعم جل شأنه به مما تحمله الفلك من الطعام والمتاع ونحوه فالباء للملابسة والمصاحبة متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير الفلك أى تجرى مصحوبة بنعمته تعالى ؛ وقرأ موسى بن الزبير (الفلك) بضم اللام ومثله معروف فى فعل مضموم الفاء *

حكى عن عيسى بن عمر أنه قال : ماسمع فعل بضم الفاء وسكون العين إلا وقد سمع فيه فعل بضم العين *

وفى الكشاف كل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز فى كل فعل فعل، وجعل ضم العين للاتباع وإسكانها للتخفيف *

وقرأ الأعرج . والأعمش . وابن يعمر (بنعمات الله) بكسر النون وسكون العين جمعا بالألف والتاء وهو جمع نعمة بكسر فسكون ، ويجوز كما قال غير واحد فى كل جمع مثله تسكين العين على الأصل وكسرها اتباعا للفاء وفتحها تخفيفا *

وقرأ ابن أبى عبلة (بنعمات الله) بفتح النون وكسر العين جمعا لنعمة بفتح النون وهى اسم للتنعم ، وقيل : بمعنى النعمة بالكسر ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أى بعض دلائل ألوهيته تعالى ووحدته سبحانه وقدرته جل شأنه وعلمه عز وجل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣١﴾ تعليل لما قبله أى ان فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل مبالغ فى الصبر على بلائه سبحانه ومبالغ فى الشكر على نعمائه جل شأنه *

و(صبار شكور) كناية عن المؤمن من باب حى مستوى القامة عريض الأظفار فانه كناية عن الانسان لأن هاتين الصفتين عمدتا الايمان لأنه وجميع ما يتوقف عليه اما ترك للمألوف غالبا وهو بالصبر أو فعل لما يتقرب به وهو شكر لعمومه فعل القلب والجوارح واللسان ، ولذا ورد الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وذكر الوصفين بعد الفلك فيه أتم مناسبة لأن الراكب فيه لايخلو عن الصبر والشكر ، وقيل : المراد بالصبار كثير الصبر على التعب فى كسب الأدلة من الأنفس والآفاق وإلا فلا اختصاص للآيات بمن تعب مطلقا وكلا الوصفين بنيا بناء مبالغة ، وفعال على ما فى البحر أبلغ من فعول لزيادة حروفه ، قيل : وإنما اختير زيادة المبالغة فى الصبر إيماء إلى أن قليله لشدة مرارته وزيادة ثقله على النفس كثير ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ أى علاهم وغطاهم من الغشاء بمعنى الغطاء من فوق وهو المناسب هنا ، وقيل : أى أتاهم من الغشيان بمعنى الاتيان وضمير (غشيهم) ان اتحد بضمير المخاطبين قبله ففى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة وإلا فلا التفات ، والموج ما يعلو من غوارب المـاء وهو اسم جنس واحده موجة وتنكيره للتعظيم والتكثير، ولذا أفرد مع جمع المشبه به فى قوله تعالى : ﴿كَالظُّلَلِ﴾ وهو جمع ظلة كغرفة وغرف وقربة وقرب، والمراد بها ماأظل من سحاب أو جبل أو غيرهما *

وقال الراغب : الظلة السحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره ، وفسر قتادة الظلل هنا بالسحاب ،

www.Quranpdf.blogspot.in

وبعضهم بالجبال ، وقرأ محمد بن الحنفية رضى الله تعالى عنه (كالظلال) وهو جمع ظلة أيضا كعلبة وعلاب وجفرة وجفار ، وإذا ظرف لقوله تعالى: ﴿ دَعَوُا ﴾ أى دعوا ﴿ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ إذا غشيهم موج كالظلال وإنما فعلوا ذلك حينئذ لزوال ماينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد *

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ سالك القصد أى الطريق المستقيم لايعدل عنه لغيره، وأصله استقامة الطريق ثم أطلق عليه مبالغة، والمراد بالطريق المستقيم التوحيد مجازا فكأنه قيل : فمنهم مقيم على التوحيد، وقول الحسن : أى مؤمن يعرف حق الله تعالى فى هذه النعمة يرجع إلى هذا ، وقيل : مقتصد من الاقتصاد بمعنى التوسط. والاعتدال *

والمراد حينئذ على ماقيل متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء موف بماعاهد عليه الله تعالى فى البحر، وتفسيره بموف بعهده مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ويدخل فى هذا البعض على هذا المعنى عكرمة ابن أبى جهل فقد روى السدى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس أن يكفوا عن قتل أهلها إلا أربعة نفر منهم قال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين باستار الكعبة عكرمة بن أبى جهل . وعبدالله بن خطل . وقيس بن ضبابة . وعبدالله بن أبى سرح. فاما عكرمة فركب البحر فاصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة : أخلصوا فان آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ههنا فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الاخلاص ما ينجنى فى البر غيره . اللهم إن لك على عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما فجاء وأسلم ، وقيل : متوسط فى الكفر لانزجاره بما شاهد بعض الانزجار *

وقيل : متوسط فى الاخلاص الذى كان عليه فى البحر فان الاخلاص الحادث عند الخوف قلما يبقى لأحد عند زوال الخوف . وأياما كان فالظاهر أن المقابل لقسم المقتصد محذوف دل عليه قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ والآية دليل ابن مالك ومن وافقه على جواز دخول الفاء فى جواب لما ومن لم يجوز قال : الجواب محذوف أى فلما نجاهم إلى البر انقسموا قسمين فمنهم مقتصد ومنهم جاحد ، والختار من الختر وهو أشد الغدر ومنه قولهم: إنك لاتمد لنا شبرا من غدر إلا مددنا لك باعا من غدر ، وبنحو ذلك فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لابن الأزرق وأنشد قول الشاعر :

لقد علمت واستيقنت ذات نفسها * بأن لا تخاف الدهر صرمى ولا خترى

ونحوه قول عمرو بن معدى كرب :

وإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وختر

وفى مفردات الراغب الختر غدر يختر فيه الانسان أى يضعف ويكسر لاجتهاده فيه أى وما يجحد بآياتنا ويكفر بها إلا كل غدار أشد الغدر لأن كفره نقض للعهد الفطرى، وقيل: لأنه نقض لما عاهد الله تعالى عليه فى البحر من الاخلاص له عزوجل ﴿ كَفُورٍ ٣٢ ﴾ مبالغ فى كفران نعم الله تعالى، و(ختار) مقابل لصبار

www.Quranpdf.blogspot.in

لأن من غدر لم يصبر على العهد وكفوره قابل لشكور ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أمر بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم بعد ذكر دلائل الوحدانية ، ويجزى من جزى بمعنى قضى ومنه قيل للمتقاضى المتجازى أى لا يقضى والدعن ولده شيئا *

وقرأ أبو السمال . وعامر بن عبدالله . وأبو السوار (لا يجزىء) بضم الياء و كسر الزاى مهموزا ومعناه لا يغنى والد عن ولده ولا يفيده شيئا من أجزأت عنك مجزأ فلان أى أغنيت *

وقرأ عكرمة (لايجزى) بضم الياء وفتح الزاى مبنيا للمفعول والجملة على القراءات صفة يوما والراجع إلى الموصوف محذوف أى فيه فاما أن يحذف برمته وأما على التدريج بأن يحذف حرف الجر فيعدى الفعل إلى الضمير ثم يحذف منصوبا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ اما عطف على (والد) فهو فاعل (يجزى) وقوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ فى موضع الصفة له والمنفى عنه هو الجزاء فى الآخرة والمثبت له الجزاء فى الدنيا أو معنى هو جاز أى من شأنه الجزاء لعظيم حق الوالد أو المراد بلا يجزى لا يقبل منه ماهو جاز به، وأما مبتدا والمسوغ للابتداء به مع أنه نكرة تقدم النفى ، وذهل المهدوى عن ذلك فمنع صحة كونه مبتدأ وجملة (هو جاز) خبره و(شيئا) مفعول به أو منصوب على المصدرية لأنه صفة مصدر محذوف ، وعلى الوجهين قيل تنازعه (يجزى وجاز) واختيار ما لا يفيد التأكيد فى الجملة الأولى وما يفيده فى الجملة الثانية لأن أكثر المسلمين وأجلتهم حين الخطاب كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر وعلى الدين الجاهلى فلما كان غناء الكافر عن المسلم بعيدا لم يحتج نفيه إلى التأكيد، ولما كان غناء المسلم عن الكافر مما يقع فى الأوهام أكد نفيه قاله الزمخشرى *

وتعقبه ابن المنير بأنه يتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصا بالموجودين حينئذ والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، ورده فى الكشف بأن المتقدمتين فاسدتان، أما الثانية فلما تقرر فى أصول الفقه أن (يا أيها الناس) يتناول الموجودين ، وأما لغيرهم فبالاعلام أو بطريقه والمالكية موافقة، وأما الأولى فعلى تقدير التسليم لا شك أن أجلة المؤمنين وأكابرهم إلى انقراض الدنيا هم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ومعلوم أن أكثرهم قبض آباؤهم على الكفر فمن أين التوقيف اه *

واختار ابن المنير فى وجه ذلك أن الله تعالى لما أكد الوصية بالآباء وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره عز وجل وأوجب على الولد أن يكفى والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع سبحانه ههنا وهم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة يجزيه حقه عليه ويكفيه مايلقاه من أهوال يوم القيامة كما أوجب الله تعالى عليه فى الدنيا ذلك فى حقه فلما كان جزاء الولد عن الوالد مظنة الوقوع لأنه سبحانه حض عليه فى الدنيا كان جديرا بتأكيد النفى لازالة هذا الوهم ولا كذلك العكس وقريب منه ماقاله الامام: إن الولد من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما عليه من الحقوق والولد يجزى لما فيه من النفقة وليس ذلك بواجب عليه فلذا قال سبحانه فى الوالد : (لايجزى) وفى الولد (ولا مولود هو جاز عن والده) ألا ترى أنه يقال لمن يحيك وليست الحياكة صنعته هو يحيك ولمن يحيك وهى صنعته هو حائك ، وقيل: إن التأكيد فى الجملة الثانية الدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى لأنه دون الوالد فى الحنو والشفقة فلما كان أولى بهذا الحكم استحق التأكيد

www.Quranpdf.blogspot.in

وفى القلب منه شيء ،وقد يقال: إن العرب كانوا يدخرون الاولاد لنفعهم ودفع الأذى عنهم وكفاية ما يهمهم ولعل أكثر الناس اليوم كذلك فاريد حسم توهم نفعهم ودفعهم الأذى وكفاية المهم فى حق آبائهم يوم القيامة فأكدت الجملة المفيدة لنفى ذلك عنهم وعد من جملة المؤكدات التعبير بالمولود لأنه من ولد بغير واسطة بخلاف الولد فانه عام يشمل ولد الولد فاذا أفادت الجملة أن الولد الأدنى لايجزى عن والده علم أن من عداه من ولد الولد لايجزى عن جده من باب أولى *

واعترض بأن هذه التفرقة بين الولد والمولود لم يثبتها أهل اللغة ، ورد بان الزمخشرى. والمطرزى ذكرا ذلك وكفى بهما حجة ، ثم ان فى عموم الولد لولد الولد أيضا مقالا فقد ذهب جمع أنه خاص بالولد الصلبى حقيقة وقال صاحب المغرب يقال للصغير مولود وإن كان الكبير مولودا أيضا لقرب عهده من الولادة كما يقال لبن حليب ورطب جنى للطرى منهما ، ووجه أمر التاكيد عليه بانه إذا كان الصغير لايجزى حينئذ مع عدم اشتغاله بنفسه لعدم تكليفه فى الدنيا فالكبير المشغول بنفسه من باب أولى وهو كما ترى، وخصص بعضهم العموم بغير صبيان المسلمين لثبوت الأحاديث بشفاعتهم لوالديهم *

وتعقب بأن الشفاعة ليست بقضاء ولو سلم فلتوقفها على القبول يكون القضاء منه عز وجل حقيقة فتدبره

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ قيل بالثواب والعقاب على تغليب الوعد على الوعيد أو هو بمعناه اللغوى ﴿حَقٌّ﴾ ثابت متحقق لا يخلف وعدم إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلام فيه وأما عدم إخلاف الوعد بالعقاب ففيه كلام والحق أنه لا يخلف أيضا، وعدم تعذيب من يغفر له من العصاة المتوعدين فليس من إخلاف الوعيد فى شيء لما أن الوعيد فى حقهم كان معلقا بشرط لم يذكر ترهيبا وتخويفا، والجملة على هذا تعليل لنفى الجزاء ، وقيل: المراد إن وعد الله بذلك اليوم حق ،والجملة مستانفة استئنافا بيانيا كأنه لما قيل : ياأيها الناس اتقوا يوما (١) الخ سأل سائل أن يكون ذلك اليوم؟ فقيل : إن وعد الله حق أى نعم يكون لامحالة لمكان الوعد به فهو جواب على أبلغ وجه ، واليه يشير كلام الامام ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بان تلهيكم بلذاتها عن الطاعات ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ٣٣﴾ أى الشيطان كما روى عن ابن عباس. وعكرمة. وقتادة. ومجاهد. والضحاك بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة منه تعالى أو يذكر لكم أنها لاتضر من سبق فى علم الله تعالى موته على الايمان وأن تركها لاينفع من سبق فى العلم موته على الكفر، وعن أبى عبيدة كل شيء غرك حتى تعصى الله تعالى وتترك ما أمرك سبحانه به فهو غرور شيطانا أو غيره ، وإلى ذلك ذهب الراغب قال: الغرور كل ما يغر الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان *

وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر، وأصل الغرور من غر فلانا إذا أصاب غرته أى غفلته ونال منه ما يريد والمراد به الخداع ، والظاهر أن (بالله) صلة (يغرنكم) أى لايخدعنكم بذكر شيء من شؤنه تعالى يجسركم على معاصيه سبحانه *

وجوز أن يكون قسما وفيه بعد ، وقرأ ابن أبى اسحاق. وابن أبى عبلة . ويعقوب (تغرنكم) بالنون الخفيفة ،

---

١ قوله «اتقوا يوما» الخ هكذا بخطه والتلاوة تقدمت اتقوا ربكم واخشوا يوما

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ سماك بن حرب . وأبو حيوة (الغرور) بضم الغين وهو مصدر والكلام من باب جد جده ، ويمكن تفسيره بالشيطان بجعله نفس الغرور مبالغة ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الخ ، أخرج ابن المنذر عن عكرمة ان رجلا يقال له الوارث بن عمرو جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يامحمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية ، وذكر نحوه محيي السنة البغوى . والواحدى . والثعلبي فهو نظرا الى سبب النزول جواب لسؤال محقق ونظرا الى ماقبلها من الآى جواب لسؤال مقدر كأن قائلا يقول : متى هذا اليوم الذى ذكر من شأنه ما ذكر ؟ فقيل ان الله ، ولم يقل ان علم الساعة عند الله مع أنه أخصر لأن اسم الله سبحانه أحق بالتقديم ولأن تقديمه وبناء الخبر عليه يفيد الحصر كما قرره الطيبي مع ما فيه من مزية تكرر الاسناد ، وتقديم الظرف يفيد الاختصاص أيضا بل لفظ عند كذلك لأنها تفيد حفظه بحيث لا يوصل اليه فيفيد الكلام من أوجه اختصاص علم وقت القيامة بالله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أى فى ابانه من غير تقديم ولا تأخير فى بلد لا يتجاوزه به وبمقدار تقتضيه الحكمة ، الظاهر أنه عطف على الجملة الظرفية المبنية على الاسم الجليل على عكس قوله تعالى : (ونسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع) فيكون خبرا مبنيا على الاسم الجليل مثل المعطوف عليه فيفيد الكلام الاختصاص أيضا والمقصود تقييدات التنزيل الراجعة الى العلم لا محض القدرة على التنزيل إذ لا شبهة فيه فيرجع الاختصاص الى العلم بزمانه ومكانه ومقداره كما يشير الى ذلك كلام الكشف ، وقال العلامة الطيبي فى شرح الكشاف : دلالة هذه الجملة على علم الغيب من حيث دلالة المقدور المحكم المتقن على العلم الشامل ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ﴾ أى أذكر أم أنثى أتام ام ناقص و كذلك ماسوى ذلك من الاحوال عطف على الجملة الظرفية أيضا نظير ما قبله ، وخولف بين (عنده علم الساعة) وبين هذا ليدل فى الاول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها ، وفى هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص ، ولم يراع هذا الاسلوب فيما قبله بأن يقال : ويعلم الغيث مثلا اشارة باسناد التنزيل الى الاسم الجليل صريحا الى عظم شأنه لما فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من احياء الأرض على صحة البعث المشار اليه بالساعة فى الكتاب العظيم قال تعالى : (وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى) وقال سبحانه : (ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) الى غير ذلك ، وربما يقال : إن لتنزيل الغيث وان لم يكن الغيث المعهود دخلا فى المبعث بناء على ما ورد من حديث مطر السماء بعد النفخة الأولى مطرا كمنى الرجال ، وقيل : الاختصاص راجع الى التنزيل وما ترجع اليه تقييداته التى يقتضيها المقام من العلم ، وفى ذلك رد على القائلين مطرنا بنوء كذا وللاعتناء برد ذلك لما فيه من الشرك فى الربوبية عدل عن يعلم الى (ينزل) وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ أى كل نفس برة كانت أو فاجرة كما يدل عليه وقوع النكرة فى سياق النفى ﴿ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أى فى الزمان المستقبل من خير أو شر ، وقوله

www.Quranpdf.blogspot.in

سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ عطف على ما استظهره صاحب الكشف على قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) وأشار الى أنه لما كان الكلام مسوقا للاختصاص لا لافادة أصل العلم له تعالى فانه غير منكر لزم من النفى على سبيل الاستغراق اختصاصه به عز وجل على سبيل الكناية على الوجه الابلغ ، وفى العدول عن لفظ العلم الى لفظ الدراية لما فيها من معنى الختل والحيلة لأن أصل درى رمى الدرية وهى الحلقة التى يقصد رميها الرماة وما يتعلم عليه الطعن والناقة التى يسيبها الصائد ليأنس بها الصيد فيستتر من ورائها فيرميه وفى كل حيلة، ولكونها علما بضرب من الختل والحيلة لا تنسب اليه عز وجل الا اذا أولت بمطلق العلم كما فى خبر خمس « لا يدريهن الا الله تعالى » وقيل : قد يقال الممنوع نسبتها اليه سبحانه بانفراده تعالى أما مع غيره تبارك اسمه تغليبا فلا ، ويفهم من كلام بعضهم صحة النسبة اليه جل وعلا على سبيل المشاكلة كما فى قوله : * لاهم لا أدرى وأنت الدارى * فلا حاجة الى ما قيل : إنه كلام اعرابى جلف لا يعرف ما يجوز اطلاقه على الله تعالى وما يمتنع فيكون المعنى لا تعرف كل نفس وان أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شىء أخص بالانسان من كسبه وعاقبته فاذا لم يكن له طريق الى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد وأبعد ، وقد روعى فى هذا الاسلوب الادماج المذكور ولذا لم يقل : ويعلم ماذا تكسب كل نفس ويعلم أن كل نفس بأى أرض تموت . وجوز أن يكون أصل (وينزل الغيث) وأن ينزل الغيث فحذف ان وارتفع الفعل كما فى قوله : * أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * وكذا قوله سبحانه : (ويعلم ما فى الارحام) والعطف على (علم الساعة) فكأنه قيل : ان الله عنـــده علم الساعة وتنزيل الغيث وعلم ما فى الارحام ، ودلالة ذلك على اختصاص علم تنزيل الغيث به سبحانه ظاهر لظهور أن المراد بعنده تنزيل الغيث عنده علم تنزيله ، واذا عطف (ينزل) على (الساعة) كان الاختصاص أظهر لانسحاب علم المضاف الى الساعة الى الانزال حينئذ فكأنه قيل : ان الله عنده علم الساعة وعلم تنزيل الغيث ، وهذا العطف لا يكاد يتسنى فى (ويعلم) إذ يكون التقدير وعنده علم علم ما فى الارحام وليس ذلك بمراد أصلا .

وجعل الطيبى (وما تدرى نفس) الخ معطوفا على خبر إن من حيث المعنى بأن يجعل المنفى مثبتا بأن يقال : ويعلم ماذا تكسب كل نفس غدا ويعلم أن كل نفس بأى أرض تموت وقال : إن مثل ذلك جائز فى الكلام اذا روعى نكتة كما فى قوله تعالى : (أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا) فان العطف فيه باعتبار رجوع التحريم الى ضد الاحسان وهى الاساءة ، وذكر فى بيان نكتة العدول عن المثبت الى المنفى نحو ما ذكرنا آنفا . وتعقب ذلك صاحب الكشف بان عنه مندوحة أى بما ذكر من عطفه على جملة (إن الله عنده علم الساعة) وقال الامام : فى وجه نظم الجمل الحق أنه تعالى لما قال : (واخشوا يوما) الخ وذكر سبحانه أنه كائن بقوله عز وجل قائلا : (إن وعد الله حق) فكأن قائلا يقول : فمتى هذا اليوم ؟ فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى وذلك قوله سبحانه : (إن الله عنده علم الساعة) ثم ذكر جل وعلا الدليلين اللذين ذكرا مرارا على البعث . أحدهما احياء الأرض بعد موتها المشار اليه بقوله تعالى . (وينزل الغيث) والثانى الخلق ابتداء المشار اليه بقوله سبحانه : (ويعلم ما فى الارحام) فكأنه قال عز وجل : ياأيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله تعالى قادر عليها كما هو سبحانه قادر على احياء الأرض وعلى

www.Quranpdf.blogspot.in

الخلق فى الارحام ثم بعد جل شأنه له أن يعلم ذلك بقوله عز وجل وما تدرى الخ فكأنه قال تعالى : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها وإن من الاشياء ما هو أهم منها لا تعلمه فانك لا تعلم معاشك ومعادك فما تعلم ماذا تكسب غدا مع أنه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى يكون والله تعالى ما علمك كسب غدك ولا علمك أين تموت مع أن لك فى ذلك فوائد شتى وإنما لم يعلمك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا عليه سبحانه ولكيلا تأمن الموت اذا كنت فى غير الأرض التى أعلمك سبحانه أنك تموت فيها فاذا لم يعلمك ماتحتاج اليه كيف يعلمك مالا حاجة لك اليه وهو وقت القيامة وانما الحاجة الى العلم بأنها تكون وقد أعلمك جل وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه تعالى عليهم الصلاة والسلام انتهى، ولا يخفى أن الظاهر على ما ذكره ان يقال: ويخلق ما فى الارحام كما قال سبحانه: (وينزل الغيث) ووجه العدول عن ذلك الى ما فى النظم الجليل غير ظاهر على أن كلامه بعد لا يخلو عن شىء، وكون المراد اختصاص علم هذه الخمس به عز وجل هو الذى تدل عليه الاحاديث والآثار، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة من حديث طويل «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سئل متى الساعة؟ فقال للسائل: ما المسؤل عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الامة ربها واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن الا الله تعالى ثم تلا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الآية» أى الى آخر السورة كما فى بعض الروايات، وما وقع عند البخارى فى التفسير من قوله: الى الارحام تقصير من بعض الرواة، وأخرجا أيضا هما وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «مفتاح - وفى رواية مفاتح - الغيب خمس لا يعلمها الا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون فى غد ولا يعلم أحد ما يكون فى الارحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت وما يدرى أحد متى يجىء المطر».

وأخرج أحمد. والبزار. وابن مردويه. والرويانى. والضياء بسند صحيح عن بريدة قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خمس لا يعلمهن الا الله ان الله عنده علم الساعة الآية» وظاهر هذه الاخبار يقتضى أن ما عدا هذه الخمس من المغيبات قد يعلمه غيره عز وجل واليه ذهب من ذهب. أخرج حميد بن زنجويه عن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم أنه ذكر العلم بوقت الكسوف قبل الظهور فأنكر عليه فقال: انما الغيب خمس وتلا هذه الآية وما عدا ذلك غيب يعلمه قوم ويجهله قوم، وفى بعض الاخبار ما يدل على ان علم هذه الخمس لم يؤت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويلزمه أنه لم يؤت لغيره عليه الصلاة والسلام من باب أولى.

أخرج أحمد. والطبرانى. عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شىء الا الخمس (إن الله عنده علم الساعة) الآية، وأخرج أحمد. وأبو يعلى. وابن جرير. وابن المنذر. وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شىء غير الخمس (إن الله عنده علم الساعة) الآية.

وأخرج ابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه قال: لم يعم على نبيكم ﷺ الا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية فى آخر لقمان إن الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة، وأخرج سعيد بن منصور. وأحمد. والبخارى فى الادب عن ربعى بن حراش قال: حدثنى رجل من بنى عامر أنه قال: يارسول الله هل بقى من العلم شىء لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لقد علمنى الله تعالى خيرا وإن من العلم مالا يعلمه إلا الله تعالى الخمس إن الله عنده علم الساعة الآية، وصرح بعضهم باستئثار الله تعالى بهن، أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم. عن قتادة أنه قال فى الآية: خمس من الغيب استأثر الله تعالى بهن فلم يطلع عليهن ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا إن الله عنده علم الساعة

www.Quranpdf.blogspot.in

ولا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة فى أى سنة ولا فى أى شهر أليلا أم نهارا وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث أليلا أم نهارا ويعلم مافى الارحام فلا يعلم أحد مافى الارحام أذكرا أم أنثى أحمر أو اسود ولا تدرى نفس ماذا تكسب غدا أخيرا ام شرا وماتدرى بأى أرض تموت ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض أفى بحر أم فى بر فى سهل أم فى جبل، والذى ينبغى أن يعلم أن كل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل وليس المغيبات محصورة بهذه الخمس وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها أو لأنها كثيرا ماتشتاق النفوس إلى العلم بها، وقال القسطلانى: ذكر ﷺ خمسا وان كان الغيب لا يتناهى لأن العدد لا ينفى زائدا عليه ولأن هذه الخمسة هى التى كانوا يدعون علمها انتهى، وفى التعليل الاخير نظر لا يخفى وأنه يجوز أن يطلع الله تعالى بعض أصفيائه على إحدى هذه الخمس ويرزقه عز وجل العلم بذلك فى الجملة وعلمها الخاص به جل وعلا ماكان على وجه الاحاطة والشمول لأحوال كل منها وتفصيله على الوجه الاتم، وفى شرح المناوى الكبير للجامع الصغير فى الكلام على حديث بريدة السابق خمس لا يعلمهن الا الله على وجه الاحاطة والشمول كليا وجزئيا فلا ينافيه اطلاع الله تعالى بعض خواصه على بعض المغيبات حتى من هذه الخمس لأنها جزئيات معدودة، وانكار المعتزلة لذلك مكابرة انتهى، ويعلم مما ذكرنا وجه الجمع بين الاخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك وبين مايدل على خلافه كبعض اخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيبات التى هى من هذا القبيل يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء والمواهب اللدنية مما ذكر فيه معجزاته ﷺ وأخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات، وذكر القسطلانى أنه عز وجل اذا أمر بالغيث وسوقه الى ماشاء من الاماكن علمته الملائكة الموكلون به ومن شاء سبحانه من خلقه عز وجل، وكذا اذا أراد تبارك وتعالى خلق شخص فى رحم يعلم سبحانه الملك الموكل بالرحم بما يريد جل وعلا كما يدل عليه ماأخرجه البخارى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى وكل بالرحم ملكا يقول: يارب نطفة يارب علقة يارب مضغة فاذا أراد الله تعالى أن يقضى خلقه قال: أذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق والأجل؟ فيكتب فى بطن أمه فحينئذ يعلم بذلك الملك ومن شاء الله تعالى من خلقه عز وجل» وهذا لا ينافى الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات بناء على ماسمعت منا من أن المراد بالعلم الذى استأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كل على التفصيل فما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص يجوز أن يكون دون ذلك العلم بل هو كذلك فى الواقع بلا شبهة، وقد يقال فيما يحصل للاولياء من العلم بشىء مما ذكر إنه ليس بعلم يقينى قال: على القارى فى شرح الشفا: الاولياء وإن كان قد ينكشف لهم بعض الاشياء لكن علمهم لا يكون يقينيا والهامهم لا يفيد الا أمرا ظنيا ومثل هذا عندى بل هو دونه بمراحل علم النجومى ونحوه بواسطة أمارات عنده بنزول الغيث وذكورة الحمل أو أنوثته أو نحو ذلك ولا أرى كفر من يدعى مثل هذا العلم فانه ظن عن أمر عادى، وقد نقل العسقلانى فى فتح البارى عن القرطبى أنه قال: من ادعى علم شىء من الخمس غير مسنده إلى رسول الله ﷺ كان كاذبا فى دعواه وأما ظن الغيب فقد يجوز من المنجم وغيره اذا كان عن أمر عادى وليس ذلك بعلم، وعليه فقول القسطلانى من ادعى علم شىء منها فقد كفر بالقرآن العظيم ينبغى أن يحمل العلم فيه على نحو العلم الذى استأثر الله تعالى به دون مطلق العلم الشامل للظن ومايشبهه، وبعد هذا كله ان أمر الساعة أخفى الامور المذكورة وان ما أطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ من وقت قيامها فى غاية الاجمال وان كان أتم من علم غيره من البشر ﷺ و قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» لا يدل على أكثر من العلم الاجمالى بوقتها ولا أظن أن خواص

الملائكة عليهم السلام أعلم منه صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، ويؤيد ظنى ما رواه الحميدى فى نوادره بالسند عن الشعبي قال: سأل عيسى بن مريم جبريل عليهما السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته، وقال: ما المسؤل بأعلم من السائل، والمراد التساوى فى العلم بأن الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الاكمل ويرشد إلى العلم الاجمالى بها ذكر أشراطها كما لا يخفى، ويجوز أن يكون الله تعالى قد أطلع حبيبه عليه الصلاة والسلام على وقت قيامها على وجه كامل لكن لا على وجه يحاكى علمه تعالى به الا أنه سبحانه أوجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كتمه لحكمة ويكون ذلك من خواصه عليه الصلاة والسلام، وليس عندى ما يفيد الجزم بذلك، هذا وخص سبحانه المكان فى قوله تعالى: (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) ليعرف الزمان من باب أولى فان الأول فى وسع النفس فى الجملة بخلاف الثانى، وأخرج أحمد وجماعة عن أبى غرة الهذلى قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله تعالى قبض عبد بأرض جعل له اليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ عليه الصلاة والسلام وماتدرى نفس بأى أرض تموت» وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن خيثمة أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى بالهند ففعل فقال الملك: كان دوام نظرى اليه تعجبا منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك *

و(تدرى) فى الموضعين معلقة فالجملة من قوله تعالى: (ماذا تكسب) فى موضع المفعول، ويجوز أن تكون (ماذا) كلها موصولا منصوب المحل بتدرى كأنه قيل: وماتدرى نفس الشىء الذى تكسبه غدا و(بأى) متعلق بتموت والباء ظرفية، والجملة فى موضع نصب بتدرى *

وقرأ غير واحد من السبعة (ينزل) من الانزال، وقرأ موسى الاسوارى. وابن أبى عبلة (بأية أرض) بتاء التأنيث لاضافتها إلى المؤنث وهى لغة قليلة فيها كما أن كلا إذا أضيفت إلى مؤنث قد تؤنث نادرا فيقال: كلتهن فعلن ذلك فليعلم والله عز وجل أعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه سبحانه شىء من الأشياء ﴿ خَبِيرٌ ٣٤ ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها فالجمع بين الوصفين للاشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده عز وجل والجملة على ما قيل فى موضع التعليل لعلمه سبحانه بما ذكر، وقيل: جواب سؤال نشأ من نفى دراية الأنفس ماذا تكسب غدا وبأى أرض تموت كأنه قيل: فمن يعلم ذلك فقيل: إن الله عليم خبير وهو جواب بان الله تعالى يعلم ذلك وزيادة، ولايخفى أنه إذا كانت هذه الجملة من تتمة الجملتين اللتين قبلها كانت دلالة الكلام على انحصار العلم بالأمرين اللذين نفى العلم بهما عن كل نفس ظاهرة جدا فتأمل ذاك والله عز وجل يتولى هداك *

﴿ ومن باب الاشارة فى السورة الكريمة ﴾ (الم) إشارة إلى آلائه تعالى ولطفه جل شأنه ومجده عز وجل (الذين يقيمون الصلاة) بحضور القلب والاعراض عن السوى وهى صلاة خواص الخواص، وأما صلاة الخواص فبنفى الخطرات الردية والارادات الدنيوية ولا يضر فيها طلب الجنة ونحوه، وأما صلاة العوام فما يفعله أكثر الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (ويؤتون الزكاة) ببذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود وهى زكاة الأخص، وزكاة الخاصة ببذل المال كله لصفية قلوبهم عن صدإ محبة الدنيا، وزكاة العامة ببذل القدر المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهور لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل (ومن

www.Quranpdf.blogspot.in

الناس من يشترى لهو الحديث) هو مايشغل عن الله تعالى ذكره ويحجب عنه عز وجل استماعه ،وأماالغناء فهوعند كثيرمنهم أقسام منها ماهو من لهو الحديث ، ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره أنه قال : السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم وعلى أهل القلوب مباح لوفور علومهم وصفاء قلوبهم وعلى أصحابنا واجب لفناء حظوظهم ، وعن أبى بكر الكتانى سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل من هؤلاء مصدر ومقام، وذكروا أن من القوم من يسمع فى الله ولله وبالله ومن الله جل وعلا ولا يسمع بالسمع الانسانى بل يسمع بالسمع الربانى كما فى الحديث القدسى «كنت سمعه الذى يسمع به» وقالوا : انما حرم اللهو لكونه لهواً فمن لا يكون لهوا بالنسبة اليه لايحرم عليه إذ علة الحرمة فى حقه منتفية والحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، ويلزمهم القول بحل شرب المسكر لمن لايسكره لاسيما لمن يزيده نشاطا للعبادة مع ذلك ، ومن زنادقة القلندرية من يقول بحل الخمر والحشيشة ونحوهامن المسكرات المحرمة بلاخلاف زاعمين أن استعمال ذلك يفتح عليهم أبواب الكشوف ، وبعض الجهلة الذين لعب بهم الشيطان يطلبون منهم المدد فى ذلك الحال قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قيل : هى ادراك خطاب الحق بوصف الالهام ، وذكروا أن الحكمة موهبة الأولياء كما أن الوحى موهبة الأنبياء عليهم السلام فكل ليس بكسبي إلا أن للكسب مدخلا مافى الحكمة ، فقد ورد «من أخلص لله تعالى أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه» والحكمة التى يزعم الفلاسفة أنها حكمة ليست بحكمة إذ هى من نتائج الفكر ويؤتاها المؤمن والكافر وقلما تسلم من شوائب آفات الوهم ، ولهذا وقع الاختلاف العظيم بين أهلها وعدها بعض الصوفية من لهو الحديث ولم يبعد فى ذلك عن الصواب، وأشارت قصة لقمان إلى التوحيد ومقام جمع الجمع وعين الجمع واتباع سبيل الكاملين والاعراض عن السوى وتكميل الغير والصبر على الشدائد والتواضع للناس وحسن المماشاة والمعاملة والسيرة وترك التماوت فى المشى وترك رفع الصوت ، وقيل : (الحمير) فى قوله تعالى: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) هم الصوفية الذين يتكلمون بلسان المعرفة قبل أن يؤذن لهم ، وطبق بعضهم جميع ما فى القصة على مافى الأنفس (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال الجنيد : النعم الظاهرة حسن الأخلاق والنعم الباطنة أنواع المعارف،وقيل: على قراءة الافراد النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم والباطنة طلب الحقيقة فى الاتباع ، وقيل : النعمة الظاهرة نفس بلا زلة والباطنة قلب بلاغفلة *

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) يشير إلى أهل الجدل من الفلاسفة فانهم يجادلون فى ذات الله تعالى وصفاته عز وجل كذلك عند التحقيق لأنهم لايعتبرون كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا الكتب المنزلة من السماء وأكثر علومهم مشوب بآفة الوهم ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طور ماوراء طور العقل *

هيهات أن تصطاد عنقاء البقا بلعابهن عناكب الأفكار

وأبعد من محدب الفلك التاسع حصول علم بالله عز وجل وبصفاته جل شأنه يعتد به بدون نور الهى يستضيء العقل به وعقولهم فى ظلمات بعضها فوق بعض، وقد سدت أبواب الوصول إلا على متبع للرسول ﷺ قال بعضهم مخاطبا لحضرة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام :

وأنت باب الله أى امرىء أتاه من غيرك لا يدخل

www.Quranpdf.blogspot.in

(ذلك بأن الله هو الحق) الى قوله سبحانه (وأن الله هو العلى الكبير) فيه إشارة الى أنه سبحانه تمام وفوق التمام ، والمراد بالأول من حصل له كل ماجاز له واليه الاشارة بقوله تعالى : (هو الحق) والمراد بالثانى من حصل له ذلك وحصل لما عداه ما جاز له واليه الاشارة بقوله تعالى : (هو العلى الكبير) ووراء هذين الشيئين ناقص وهو ما ليس له ما ينبغى كالصبي والمريض والاعمى ومكتف وهو من أعطى ماتندفع به حاجته فى وقته كالانسان الذى له من الآلات ماتندفع به حاجته فى وقته لكنها فى معرض التحلل والزوال (إن الله عنده علم الساعة) الآية ذكر غير واحد حكايات عن الاولياء متضمنة لإطلاع الله تعالى اياهم على ماعدا علم الساعة من الخمس وقد علمت الكلام فى ذلك ، وأغرب ما رأيت ماذكره الشعرانى عن بعضهم أنه كان يبيع المطر فيمطر على أرض من يشترى منه متى شاء ، ومن له عقل مستقيم لا يقبل مثل هذه الحكاية ، وكم للقصاص أمثالها من رواية نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من اعتقاد خرافات لا أصل لها وهو سبحانه ولى العصمة والتوفيق .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية، غير آيتين قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ إلى آخر الآيتين[1]. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ. وهي أربع وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و ﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هذه تلك. ويقال: ﴿تِيكَ آياتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ بدلاً من تلك. والكتاب: القرآن. والحكيم: المحكم؛ أي لا خلل فيه ولا تناقض. وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال؛ مثل: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ[2] آيَةً﴾ وهذه قراءة المدنيين وأبـي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوّل آية. والآخر ـ أن يكون خبر ﴿تِلْكَ﴾. والمحسن: الذي يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ[3] لِلَّهِ﴾ الآية. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في ﴿البقرة﴾[4] وغيرها.

---

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الجزء.

(٢) راجع ٧/٢٣٨. (٣) راجع ٥/٣٩٩.

(٤) راجع ١/ ١٦٢ فما بعد. و ٦/ ٢٢١.

[٦] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء. و ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحاس: وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير: من يشتري ذا لهو أو ذات لهو؛ مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[١]. أو يكون التقدير: لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للّهو[٢].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾[٣]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيَرِيّة؛ اسمدي لنا؛ أي غنيّ لنا.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[٤] قال مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في ﴿سبحان﴾[٤] الكلام فيه. وروى الترمذِيّ عن أبـي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القَيْنَات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهنَّ وثمنهن حرام، في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبـي أمامة، والقاسم ثقة وعليّ بن يزيد يضعّف في الحديث؛ قاله محمد بن إسماعيل. قال ابن عطية: وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنَّخَعِيّ.

---

(١) راجع ٩/ ٢٤٥ فما بعد. (٢) كذا في جميع نسخ الأصل. وفي كتاب النحاس: «أو يكون التقدير: لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشترى اللهو». وفي العبارتين غموض، ولعل العبارة هكذا: أو يكون التقدير أنه لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو. (٣) راجع ١٧/ ١٢١ فما بعد. (٤) راجع ١٠/ ٢٩٠.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء. روى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء والله الذي لا إلٰه إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات. وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ وقاله مجاهد، وزاد: إنّ لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل. وقال الحسن: لهو الحديث المعازِف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. وقال ابن القاسم سألت مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ﴾[1] أفحق هو؟! وترجم البخاري[2] (بابٌ كلُّ لهو باطلٌ إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرْك)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ فقوله: (إذا شَغَلَ عن طاعة الله) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك. وتأوّله قوم على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل : نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد؛ حكاه الفرّاء والكَلْبي وغيرهما. وقيل: كان يشتري المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَته فيقول: أطعميه وأسقيه وغنّيه؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وهذا القول والأوّل ظاهر في الشراء . وقالت طائفة : الشراء في هذه الآية مستعار، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية. فكان ترك ما يجب فعله وامتثال هذه المنكرات

---

(١) راجع ٨/ ٣٣٥ فما بعد.
(٢) في آخر كتاب الاستئذان.

شراءً لها؛ على حد قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[(١)]؛ اشتروا الكفر بالإيمان؛ أي استبدلوه منه واختاروه عليه. وقال مُطَرِّف: شراء لهوِ الحديث استحبابه. قتادة: ولعلّه لا ينفق فيه مالا، ولكن سماعه شراؤه.

قلت: القول الأوّل أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبي والواحِديّ في حديث أبـي أمامة: «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنْكِب [والآخر[(٢)] على هذا المنكر] فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت». وروى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبيّ ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان فاجران أنهَى عنهما: صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح ورَنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب». وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «بُعثت بكسر المزامير» خرجه أبو طالب الغَيْلانِي. وخرّج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «بُعثت بهدم المزامير والطبل». وروى الترمذي من حديث عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمّتي خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء ـ فذكر منها: إذا اتخذت القَيْنات والمعازِف». وفي حديث أبـي هريرة: «وظهرت القِيان والمعازف». وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ في أذنه الآنُك[(٣)] يوم القيامة». وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبـي سلمة عن محمد بن المنكدِر قال: بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين عبادي الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أحِلّوهم رياض[(٤)] المسك وأخبروهم أني قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك: ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون». وقد روي مرفوعاً هذا المعنى من حديث أبـي موسى الأشعري أنه قال قال رسول الله ﷺ:

---

(١) راجع ١/ ٢١٠.
(٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع.
(٣) الآنك: الرصاص.
(٤) في جـ، ش: «رياض الجنة».

«من أستمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين». فقيل: ومَن الروحانيون يا رسول الله؟ قال: «قرّاء أهل الجنة» خرّجه الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول، وقد ذكرنا في كتاب التذكرة مع نظائره: «فمن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». إلى غير ذلك. وكلّ ذلك صحيح المعنى على ما بيّنّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه». ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة: ـ

الثانية ـ وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذي يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجَشة[1] وسَلَمة بن الأكْوع. فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات[2] والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدوّ. وفي اليراعة[3] تردّد. والدف مباح. [الجوهريّ[4]: وربما سمّوا قصبة الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة][4]. قال القشيريّ: ضُرب بين يدي النبيّ ﷺ يوم دخل المدينة، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح» فكنّ يضربن ويقلن: نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار. وقد قيل: إن الطبل في النكاح كالدُّف، وكذلك الآلات المشهِرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث.

(١) هو عبد أسود كان يسوق أو يقود بنساء النبيّ ﷺ عام حجة الوداع، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه.

(٢) الشبابة (بالتشديد): قصبة الزمر، وهي مولدة.

(٣) اليراعة: مزمار الراعي. (٤) ما بين المربعين ساقط من جـ، ش.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَد به الشهادة، فإن لم يدم لم تردّ. ذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألت مالك بن أنس عما يُرخِّص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردّها بالعيب؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأسا. وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: فأما مالك فيقال عنه: إنه كان عالماً بالصناعة وكان[1] مذهبه تحريمها. وروي عنه أنه قال: تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لي أمي: أيْ بنيّ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك، فاطلب العلوم الدينية؛ فصحبت ربيعة فجعل الله في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيذ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشعبيّ وحماد والثورى وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذلك. وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه؛ إلا ما روي عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيّ فقال: الغناء مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ روايات قال: وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخَلّال وصاحبِهِ عبد العزيز إباحة الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُهديّات؛ قال: وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد؛ ويدلّ عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال: تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية. فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفاً؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق.

---

(١) لفظة: «كان» ساقطة من جـ.

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويت المال على اليتيم، وصار هذا كقول أبي طلحة للنبيّ ﷺ: عندي خمر لأيتام؟ فقال: «أرقها». فلو جاز استصلاحها لما أمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه. وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسواد الأعظم. ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية». قال أبو الفرج: وقال القفّال من أصحابنا: لا تقبل شهادة المغنِّي والرقاص.

قلت: وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز. وقد ادّعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[1] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فيكف يمنع من التلذذ بصوتها. أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز مُنع من أوّله وأجتُثّ من أصله. وقال أبو الطّيب الطبريّ: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَم فإن أصحاب الشافعيّ قالوا لا يجوز، سواء كانت حرّة أو مملوكة. قال: وقال الشافعيّ: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته؛ ثم غلّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قراءة العامة بضم الياء؛ أي ليضل غيره عن طريق الهدى، وإذا أضل غيره فقد ضل. وقرأ ابن كثِير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبـي إسحاق (بفتح الياء) على اللازم؛ أي ليَضل هو نفسه.

(١) راجع ٧/ ٣.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفاً على ﴿مَنْ يَشْتَرِي﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: ﴿وَيتخِذَها﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلّ﴾. ومن الوجهين جميعاً لا يحسن الوقف على قوله: ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والوقف على قوله: ﴿هُزُواً﴾، والهاء في ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ كناية عن الآيات. ويجوز أن يكون كناية عن السبيل؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي شديد يهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما لَقِي الصليبُ من العذاب مهينا[١]

[٧] ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّى﴾ أي أعرض. ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ نصب على الحال. ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ ثِقَلاً وصَمَما. وقد تقدم[٢]. ﴿فَبَشِرْهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ تقدّم أيضاً[٣].

[٨] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾.

[٩] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلْف فيه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدّم أيضاً[٤].

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل، مطلعها:

أمسيت إذ رحل الشباب حزيناً ليت الليالي قبل ذاك فنينا

(٢) راجع ٦/٤٠٤.

(٣) راجع ١/١٩٨ و ٢٣٨ فما بعد.

(٤) راجع ١/٢٨٧ و ٢/١٣١ فما بعد.

[١٠] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في موضع خفض على النعت لـ ﴿عَمَدٍ﴾ فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرَى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من ﴿السَّمَوَاتِ﴾ ولا عَمَد ثَمّ ألْبَتّة. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً، ولا عَمَد ثَمّ؛ قاله مكيّ. ويكون ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ التمام. وقد مضى في ﴿الرعد﴾[١] الكلام في هذه الآية. ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت. ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي كراهية أن تميد. والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كل لون حَسَن. وتأوّله الشعبيّ على الناس؛ لأنهم مخلوقون من الأرض؛ قال: من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [مبتدأ[٢] وخبر. والخلق بمعنى المخلوق؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعاينون ﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾[٢]] أي مخلوق الله، أي خلقها من غير شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشر المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ أي المشركون ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي خسران ظاهر. و﴿ما﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ذا﴾ وذا بمعنى الذي. و﴿خلق﴾ واقع على هاء محذوفة؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه؛ والجملة في موضع نصب بـ﴿أروني﴾ وتضمر الهاء مع ﴿خلق﴾

---

(١) راجع ٩/٢٧٩. (٢) ما بين المربعين ساقط من ش.

تعود على الذين؛ أي فأروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمت، أنحوٌ أم شعر. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع نصب بـ ﴿أروني﴾ و ﴿ذا﴾ زائد؛ وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمت، أنحوا أم شعرا.

[١٢] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرف ﴿لُقْمَانَ﴾ لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدتين؛ فأشبه فُعلان الذي أنثاه فُعلَى فلم ينصرف في المعرفة لأنَّ ذلك ثقل ثان، وانصرف في النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قاله النحاس. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة؛ ذكره السهيليّ. قال وهب: كان ابنَ أخت أيوب. وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب. الزَّمَخْشَرِيّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له، فقال: الا أكتفي إذ كُفيت. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال سعيد بن المسيّب: كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوّة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليّاً ولم يكن نبيًا. وقال بنبوّته عِكرمة والشعبيّ؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوّة. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى ـ وهي للصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل[1] ـ قاضياً في بني إسرائيل، أسود مشقَّق الرِّجلين ذا مشافر، أي عظيم الشفتين؛ قاله ابن عباس وغيره. وروي من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبيًا ولكن كان عبداً كثير التفكر

(١) في تفسير ابن عطية: «. . . والعمل».

حسن اليقين، أحبّ الله تعالى فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة، وخيّره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق؛ فقال: ربّ، إن خيّرتني قبلتُ العافية وتركت البلاء، وإن عزمتَ عليّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني؛ ذكره ابن عطية. وزاد الثعلبيّ: فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرَى[١] أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلا [فذلك][٢] خير من أن يكون فيها شريفاً. ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه؛ فنام نومة فَأُعْطِيَ الحكمة فانتبه يتكلّم بها. ثم نودي داود بعده فقبلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوَى في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمان يوازره بحكمته؛ فقال له داود: طوبى لك يا لقمان! أعطيت الحكمة وصُرف عنك البلاء، وأُعطي داود الخلافة وأُبتُلي بالبلاء والفتنة. وقال قتادة: خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة؛ فاختار الحكمة على النبوّة؛ فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطِق بها؛ فقيل له: كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليّ بالنبوّة عَزْمة[٣] لرجوْت فيها العون منه، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعُف عن النبوّة، فكانت الحكمة أحبّ إليّ.

واختلف في صنعته؛ فقيل: كان خياطاً؛ قاله سعيد بن المسيّب، وقال لرجل أسود: لا تحزن من أنك أسود، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال ومِهْجع مولى عمر ولقمان. وقيل: كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمة حطب. وقال لرجل ينظر إليه: إن كُنْتَ تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وقيل: كان راعياً، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدَر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث،

(١) يقال: فلان حريّ بكذا، وحرى بكذا، وحر بكذا، وبالحرى أن يكون كذا؛ أي جدير وخليق.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) عزائم الله: فرائضه التي أوجبها على عباده.

وترك ما لا يعنيني؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال خالد الرَّبَعي: كان نجارا؛ فقال له سيده: اذبح لي شاة وائتني بأطيبها مُضْغتين؛ فأتاه باللسان والقلب؛ فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له: ألق أخبثها مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب؛ فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلقي أخبثها فألقيت اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

قلت: هذا معناه مرفوع في غير ما حديث؛ من ذلك قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة؛ منها قوله عليه السلام: «من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنة: ما بين لَحْيَيْه[1] ورجليه...» الحديث. وحِكَم لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها. وقيل له: أيّ الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً.

قلت: وهذا أيضاً مرفوع معنى، قال ﷺ: «كلّ أمتى معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يَكْشِف سِتر الله عنه». رواه أبو هريرة خرجه البخاري. وقال وهب بن منبّه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب. وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله، فأدركته الحكمة فسكت؛ فلما أتمها لبِسها وقال: نِعم لَبُوسُ الحرب أنتِ. فقال: الصمت حكمة، وقليل فاعله. فقال له داود: بحقٍّ مّا سُمِّيت حكيماً.

قوله تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون ﴿ أن ﴾ بمعنى أي مفسرة؛ أي قلنا له اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها؛ كما حكى سيبويه: كتبت إليه أن قم؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعيد. وقال الزجاج: المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللحيان: حائطا الفم، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لحى.

الحكمة لأن يشكر الله تعالى. وقيل: أي بأن أشكر لله تعالى فشكر؛ فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعته فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغة ومعنى في ﴿البقرة﴾[1] وغيرها. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب عائد إليه. ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي كفر النعم فلم يوحّد الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي محمود. وقال يحيى بن سلام: ﴿غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ في فعله.

[١٣] ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ قال السُّهَيْلي: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبِيّ. وقال الكلبي: مشكم. وقيل أنعم، حكاه النقاش. وذكر القشيري أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما.

قلت: ودلّ على هذا قوله: ﴿لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم». واختلف في قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أشفق أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكن إشفاقهم، وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبراً من الله تعالى؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد. و ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب بمعنى اذكر. وقال الزجاج

(١) راجع ١/٣٩٧. (٢) راجع ٧/٢٩ فما بعد.

في كتابه في القرآن: إن ﴿إذ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ـآتينا﴾ والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. النحاس: وأحسبه غلطاً؛ لأن في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَا بُنَيِّ﴾ بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى في ﴿هود﴾[1] القول في هذا. وقوله: ﴿يا بني﴾ ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترقيق؛ كما يقال للرجل: يا أُخَيّ، وللصبي هو كُوَيْس.

[١٤] ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

[١٥] ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان ٱبنَه؛ أخبر الله به عنه؛ أي قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصّى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى. وقيل: أي وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه، أي قلنا له ٱشكر لله، وقلنا له ووصينا الإنسان. وقيل: وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ٱبنه؛ ذكر هذه الأقوال القشيريّ. والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبـي وَقّاص؛ كما تقدم في ﴿العنكبوت﴾[2] وعليه جماعة المفسرين.

---

(١) في نسخ الأصل: «يوسف» وهو تحريف. راجع ٩/٣٩.

(٢) راجع ١٣/٣٢٨.

وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى[1] من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعته أمّه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية - لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله ﷺ حين قال له رجل من أبَرّ؟ قال: «أمّك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال «أبوك» فجعل له الرّبع من المَبَرّة كما في هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله في ﴿سبحان﴾[2].

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثَّقَفيّ: ﴿وَهَناً على وَهَن﴾ بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبـي عمرو، وهما بمعنًى واحد. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناهٍ فَيزْجُرَها ... إن العواذل فيها الأَيْن والوَهَن

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يَوْهَنُ ووَهِن، يَهِن؛ مثلُ وَرِمَ يَرِم. وانتصب ﴿وَهْناً﴾ على المصدر؛ ذكره القشيري. النحاس: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر؛ أي حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: ﴿وَفِصَالُهُ﴾ وقرأ الحسن ويعقوب: ﴿وفَصْله﴾ وهما لغتان، أي وفصاله في انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبّر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أي تميّز؛ وبه سُمّيَ الفَصِيل.

---

(١) لفظة «أقوى ساقطة من الأصل المطبوع».
(٢) راجع ١٠/٢٣٩.

الرابعة ـ الناس مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدّدت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص. وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع. وقالت فرقة: إن فُطم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرّم؛ وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾[1] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ ﴿أن﴾ في موضع نصب في قول الزجاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحاس: وأجود منه أن تكون ﴿أن﴾ مفسرة، والمعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم فَلَا تُطْعِهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْروفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمّا أسلم، وأن أمه وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أميَّة حلفت ألاّ تأكل؛ كما تقدم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي مصاحباً معروفاً؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَباً. و ﴿مَعْرُوفاً﴾ أي ما يحسن.

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلاَنة القول والدعاء إلى الإسلام برفق. وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبيّ ﷺ وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت: يا رسول الله، إن أمّي قدِمت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لِتقْدم على أسماء لولا حاجتها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزّي بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان قديمة الإسلام.

---

(١) راجع ٣/ ١٦٠.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيّة لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و ﴿أَنَابَ﴾ معناه مال ورجع إلى الشيء؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقاش أن المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزّبير فقالوا: آمنت! قال نعم؛ فنزلت فيه: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ[1] رَبِّهِ﴾ فلمّا سمعها الستة آمنوا؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ البُشْرى[1] ـ إلى قوله ـ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾. وقيل: الذي أناب النبيّ ﷺ. وقال ٱبن عباس: ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة. ثم توعّد عز وجل ببَعث مَن في القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها.

[١٦] ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾.

المعنى: وقال لقمان لابنه يا بُنَيّ. وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ٱبنه بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال: إن الحِسّ لا يدرك لها ثِقَلاً، إذ لا ترجّح ميزانا. أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدَل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن ٱتباع سبيل من أناب إليّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تكثِر همك ما يُقَدَّر يكون وما تُرْزق يأتيك». وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عدداً؛ سبحانه لا شريك له. وروي أن ٱبن لقمان سأل أباه

---

(١) راجع ١٥/ ٢٣٧ فما بعد. وص ٢٤٣ فما بعد.

عن الحبة تقع في سُفل البحر أيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقالَ حبة يأت بها الله؛ أي لا تفوت الإنسان المقدّر وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك][١] إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجية ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة. ومما يؤيّد قول من قال هي من الجواهر: قراءة عبد الكريم الجَزَري[٢] ﴿فتكِنّ﴾ بكسر الكاف وشدّ النون، من الكنّ الذي هو الشيء المغطى. وقرأ جمهور القرّاء: ﴿إِنْ تَكُ﴾ بالتاء من فوق ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب على خبر كان، واسمها مضمر تقديره: مسألتك، على ما روي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني؛ ويدلّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية. فما زال ابنه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل. والضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير القصة؛ كقولك: إنها هند قائمة؛ أي القصة إنها إن تك مثقال حبة. والبصريون يجيزون: إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا. وقرأ نافع: ﴿مِثقالُ﴾ بالرفع، وعلى هذا ﴿تكُ﴾ يرجع إلى معنى خردلة؛ أي إن تك حبة من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فعلا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٣] فأنّث وإن كان المِثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات. وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزت رِمَاحٌ تسفّهَتْ أعاليهَا مَرُّ الرياح النَّواسِمِ[٤]

و ﴿تَكُ﴾ هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبراً.

(١) زيادة عن ابن عطية. (٢) في جـ «الجوزي». (٣) راجع ٧/ ١٥٠.

(٤) البيت لذي الرمة. و «تسفّهت»: استخفت، والسفه خفة العقل وضعفه. و «النواسم»: الضعيفة الهبوب. وصف نساء فيقول: إذا مشين اهتززن في مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم؛ أي أن قدرته تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء والأرض. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت. وقال السُّدّي: هي صخرة ليست في السموات والأرض، بل هي وراء سبع أرضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْية عن قوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾؛ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يقال: قوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيد كقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ[(١)] مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ[(٢)] لَيْلاً﴾.

[١٧] ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ وصّى ابنه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع. ولقد أحسن من قال:

وٱبدأ بنفسك فٱنهها عن غيّها فإذا ٱنتهت عنه فأنت حكيم

في أبيات تقدّم في ﴿البقرة﴾ ذكرها[(٣)].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذَى أحيانا؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوّة في ذات الله؛ وأما على اللزوم فلا، وقد مضى الكلام في هذا مستوفىً في ﴿آل عمران والمائدة﴾[(٤)]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ.

---

(١) راجع ٢٠/١١٧. (٢) راجع ١٠/٢٠٤.
(٣) راجع ١/٣٦٧. (٤) راجع ٤/٤٧، و ٦/٢٤٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عز الأمور؛ أي مما عزمه الله وأمر به؛ قاله ابن جريج. ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جريج أصوب.

[١٨] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: ﴿تصاعر﴾ بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: ﴿تُصَعّر﴾ وقرأ الجحدرِي: ﴿تُصْعر﴾ بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل؛ ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهر صعري، بعد أن أقمت صعره. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التّغلبي

وكنا إذا الجبّار صَعّر خدّه   أقمنا له من مَيْله فتقوَّمِ[1]

وأنشده الطبري: «فتقوّما». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة[2]. وفي بيت آخر:

أقمنا له من خدّه المتصعر

قال الهروي؛ ﴿ولا تصاعر﴾ أي لا تعرِض عنهم تكبّرا عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وَصَيد إذا أصابه داء يَلْوِي منه عنقه. ثم يقال للمتكبّر: فيه صَعَر وصَيَد؛ فمعنى: ﴿لاَ تُصَعِّرْ﴾ أي لا تلزم خدّك الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر».

---

(١) يريد: فتقوم أنت.

(٢) قبل هذا البيت كما في معجم الشعراء للمرزباني:

نعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا   وليس علينا قتلهم بمحرم

قال المرزباني: وهذا البيت ـ بيت الشاهد ـ يروى من قصيدة المتلمس التي أولها:

يعيرني أمي رجال ولن ترى   أخا كرم إلا بأن يتكرّما

والأصعر: المعرض بوجهه كبرا؛ وأراد رُذالة الناس الذين لا دين لهم. وفي الحديث: «كلّ صعّار ملعونٌ» أي كل ذي أبَّهة وكبر.

الثانية ـ معنى الآية: ولا تُمِل خدّك للناس كبرا عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة. وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره؛ فالمعنى: أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدّثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه. وكذلك كان النبيّ ﷺ يفعل.

قلت: ومن هذا المعنى[1] ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك؛ وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه ويسرّك؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صَعّر خده، وبه فسر مجاهد الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: ﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خَدّكَ لِلنَّاسِ﴾ كأنه نهى أن يذِلّ الإنسان نفسه من غير حاجة؛ ونحو ذلك روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ليس للإنسان أن يذلّ نفسه».

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي متبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال، وقد مضى في ﴿سبحان﴾[2]. وهو النشاط والمشي فرحا في غير شغل وفي غير حاجة. وأهل هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء؛ فالمرِح مختال في مشيته. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي عن غُضيف بن الحارث قال: أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير[3] قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصي فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول: يابن آدم ما غَرّك بـي! ألم تعلم أني بيت الوحدة! ألم تعلم أني بيت الظلمة! ألم تعلم أني بيت الحق! يابن آدم ما غَرّك بي! لقد كنت تمشي حولي

---

(١) في جـ «ومن هذا الباب». (٢) راجع ١٠/ ٢٦٠.
(٣) ورد هذا الإسم مضطربا في نسخ الأصل. والتصويب عن تهذيب التهذيب.

فَدّادا. قال ابن عائذ قلت لغُضيف: ما الفدّاد يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتك يابن أخي أحياناً. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء. وقال ﷺ: «من جرّ ثوبه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة». والفخور: هو الذي يعدد ما أعطِي ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد. وفي اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك.

[١٩] ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لما نهاه عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء؛ أي لا تَدِبّ دبيب المُتَمَاوتين ولا تَثب وثب الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن». فأما ما روي عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع ـ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت؛ والله أعلم. وقد مدح الله سبحانه مَن هذه صفته حسبما تقدّم بيانه في ﴿الفرقان﴾[١].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي انقص منه؛ أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي. والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذّن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته: لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك! والمؤذّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر[٢]. والمُرَيْطاء: ما بين السرة إلى العانة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر. والحمار مَثَل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع ١٣/٦٨.
(٢) في الأصول: «معمر» بالميم بدل الياء وهو تحريف.

لذكره مجرداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوىء الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذللاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة ـ في الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة[٢] بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً». وقد روي: أنه[٣] ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا. وقال سفيان الثَّوْرِي: صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير، وقال عطاء: نهيق الحمير دعاء على الظلمة.

الخامسة ـ وهذه[٤] الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا[٥] بهم، أو بترك الصياح جملة؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل، حتى قال شاعرهم:

جَهِير الكلام جهير العُطاس جهِير الرُّواء جهير النَّعَم[٦]
ويَعْدُو على الأينَ عَدْوَى الظَّلِيم ويعلو الرجال بخَلْق عَمَم[٧]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي لو أن شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المثل سواء.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتاً فهو صائت. ويقال: صوّت تصويتا فهو مصوِّت. ورجل صاتٌ أي شديد الصوت بمعنى صائت؛ كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ؛ أي كثير المال والنوال.

---

(١) الرجلة (بضم فسكون): المشي راجلاً. (٢) الملاحاة: الملاومة والمباغضة.
(٣) لفظة «أنه» ساقطة من جـ.
(٤) في ك: «وفي هذه الآية إذن من الله تعالى بترك الصوت والصياح».
(٥) في جـ: «تهازيا».
(٦) الرواء (بالضم والمد): المنظر الحسن. والنعم: الإبل.
(٧) الأين الإعياء. والخلق العمم: التام.

[٢٠] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخّر لهم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجرّ إليهم منافعهم. ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ أي أكملها وأتمها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: ﴿وَأَصْبَغَ﴾ بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفْلها إلى عُلوّها فتردّها صاد. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهي قراءة نافع وأبـي عمرو وحفص. الباقون: ﴿نِعمةً﴾ على الإفراد؛ والإفراد يدلّ على الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[١]. وهي قراءة ابن عباس من وجوه صِحاح. وقيل: إن معناها الإسلام؛ قال النبيّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنة ما ستر عليك من سيّء عملك». النحاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[٢] قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمّا كان الإسلام يئول أمره إلى الجنّة سُمِّيَ نعمة. وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل. وقال المحاسبـي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العُقْبى. وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله

(١) راجع ٩/ ٣٦٦ فما بعد.

(٢) راجع ٦/ ٨٠ فما بعد.

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديّ في هذا أقوالا تسعة، كلها ترجع إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدّم معناها في ﴿الحج﴾[1] وغيرها. نزلت في يهوديّ جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، مِن أيّ شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته؛ قاله مجاهد. وقد مضى هذا في ﴿الرعد﴾[2]. وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: إن الملائكة بنات الله؛ قاله ابن عباس. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير حجة ﴿وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي نيّر بيّن؛ إلا الشيطان فيما يلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[3] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

[٢٢] ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[4]. وفي حديث جبريل قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله؛ وقد مضى في ﴿البقرة﴾[5]. وقد قرأ عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه والسُّلَمِي وعبد الله بن مسلم بن يسار: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّم ﴾. النحاس: و﴿يسلّم﴾ في هذا أعرف؛ كما قال عز وجل: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّه﴾[6] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عز وجل؛ ويكون ﴿يسلّم﴾ على التكثير؛ إلا أن المستعمل

(١) راجع ١٢/٥ و ١٥. (٢) راجع ٩/٢٩٨. (٣) راجع ٧/٧٧.
(٤) راجع ١١/٢٤٨ فما بعد. (٥) راجع ٣/٢٧٩. (٦) راجع ٤/٤٥.

في سلّمت أنه بمعنى دفعت؛ يقال سلمت في الحنطة، وقد يقال أسلمت. الزمخشريّ: قرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ﴾ بالتشديد؛ يقال أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعالى؛ فإن قلت: ماله عُدّي بإلى، وقد عدّي باللام في قوله عز وجل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾(١)؟ قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله؛ أي خالصاً له. ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكل عليه والتفويض إليه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي مصيرها.

[٢٣] ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي نجازيهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: ﴿كُفْرُهُ﴾ ثم قال: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ وما بعده على المعنى.

[٢٥] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبّرون. ﴿لِلَّهِ

(١) راجع ٢/ ٧٤ فما بعد.

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرهم لينفعهم. ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود على صنعه.

[٢٧] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بين أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها. وقال القَفّال: لما ذكر أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيّ: فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدّر في المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعدّه فلا بدّ من تناهيه، والقديمُ لا نهاية له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ في آخر ﴿الكهف﴾[1]. وقال أبو عليّ: المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحو مما قاله القَفّال، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية: يدلّ على أن المراد بالكلمات الكلام القديم. قال ابن عباس: إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية. قال أبو جعفر النحاس: فقد تبيّن أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(١) راجع ١١/٦٨. (٢) راجع ١٠/٣٢٤.

يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ؛ وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرف فيه من ضروب الطّعم واللون؛ فلو سَمّى كل دابة وحدها، وسَمّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كل زمان، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه، وقدّر ما ييبس من ذلك في كل زمان، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفال، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى. وقال قوم: إن قريشاً قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر؛ فنزلت. وقال السدّي: قالت قريش ما أكثر كلام محمد! فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال؛ كأنه قال: والبحر هذه حاله؛ كذا قدّرها سيبويه. وقال بعض النحويين: هو عطف على ﴿أنّ﴾ لأنها في موضع رفع بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبـي إسحاق: ﴿وَالْبَحْرَ﴾ بالنصب على العطف على ﴿ما﴾ وهي اسم ﴿أنّ﴾. وقيل: أي ولو أن البحر يمدّه أي يزيد فيه. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: ﴿يمدّه﴾؛ من أمدّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدّ الشيء بعضه بعضاً؛ كما تقول: مدّ النيل الخليج؛ أي زاد فيه. وأمدّ الشيء ما ليس منه. وقد مضى هذا في ﴿البقرة. وآل عمران﴾[1]. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿والبحر مداده﴾. ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ تقدم[2]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدم أيضاً[3]. وقال أبو عبيدة: البحر ها هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام.

---

(١) راجع ١/٢٠٩ و ٤/١٩٤ فما بعد.
(٢) راجع ١١/٦٨. (٣) راجع ٢/١٣١.

[٢٨] ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال الضحاك: المعنى ما ابتداء خلقكم جميعاً إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة. قال النحاس: وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة؛ مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[(١)]. وقال مجاهد: لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأسدين[(٢)] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عِظاما، ثم تقول إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعا في ساعة واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون.

[٢٩] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدم في ﴿الحج وآل عمران﴾[(٣)]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة

(١) راجع ٩/ ٢٤٥ فما بعد.

(٢) كذا في نسخ الأصل. وفي روح المعاني: «وأبى الأسود».

(٣) في الأصل: «الحج والأنعام» وهو تحريف. راجع ١٢/ ٩٠ و ٤/ ٥٦.

إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي مَن قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقراءة العامة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر. ﴿ذَلِكَ﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطان؛ قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العليّ في مكانته، الكبير في سلطانه.

[٣١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر. ﴿فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ أي بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه. وقرأ ابن هُرمُز: ﴿بنعمات الله﴾ جمع نعمة وهو جمع السلامة، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت. ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي ليريكم جري السفن؛ قاله يحيى بن سلام. وقال ابن شجرة: ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقاش: ما يرزقهم الله منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدّعاء. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبارٍ شَكُورٍ﴾ أي صبّار لقضائه شكور على نعمائه. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان. والآية: العلامة، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء. قال الشّعْبِيّ: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[1] وقال عليه السلام: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر».

(١) راجع ١٧/٣٩.

[٣٢] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسحاب؛ وقاله قتادة ـ جمع ظُلّة؛ شبّه الموج بها لكبرها وارتفاعها. قال النابغة في وصف بحر:

يماشيهن أخضر ذو ظلال على حافاته فِلَق الدِّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضه بعضاً كالظلل. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يجمع لأنه مصدر. وأصله من الحركة والازدحام؛ ومنه: ماج البحر، والناس يموجون. قال كعب:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية: ﴿مَوْجٌ كالظِّلال﴾ جمع ظِلّ. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه؛ وقد تقدّم[1]. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ يعني من البحر. ﴿إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهد عليه الله في البحر. النقاش: يعني عدل في العهد، وَفَى في البر بما عاهد عليه الله في البحر. وقال الحسن: ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ في القول مضمر للكفر. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: فمنهم مقتصد ومنهم كافر. ودلّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختار: الغدار. والخَتْر: أسوأ الغدر. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدْر وختْر

وقال الأعشى:

بالأبْلق الفَرْدِ من تَيْماء منزِلُهُ حِصنٌ حَصين وجارٌ غيرُ خَتّار

(١) راجع ٨/ ٣٢٥.

قال الجوهري: الخَتْر الغدر؛ يقال: ختره فهو ختار. الماورديّ: وهو قول الجمهور وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: ختر يختِر و يَخْتُر (بالضم والكسر) خَتْرا؛ ذكره القُشَيريّ. وجحدُ الآيات إنكار أعيانها. والجحد بالآيات إنكار دلائلها.

[٣٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن؛ أي خافوه ووحّدوه. ﴿وَٱخْشَوْا يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ تقدّم معنى ﴿يَجْزِي﴾ في البقرة[1] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيّ ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث[2] لم تَمَسّه النار إلا تحِلّة القسم». وقال: «من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهنّ كنّ له حجاباً من النار». قيل له: المعنيّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنب ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار، ويكون الولد سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي البعث ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي تخدعنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة[3] والحديد[4] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره، وهو الذي يغرّ الخلق ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة؛ وفي سورة ﴿النساء﴾: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾[5]. وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين؛ أي لا تغترّوا. كأنه مصدر غرّ يغر غُرورا. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة.

---

(١) راجع ١/ ٣٧٧.
(٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم فكتب عليهم الحنث؛ وهو الإثم.
(٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء (٤) راجع ١٧/ ٢٤٧. (٥) راجع ٥/ ٣٩٥.

[٣٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

زعم الفراء أن هذا معنى النفي؛ أي ما يعلمه أحد إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنه ﷺ قال في قول الله عز وجل: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾: «إنها هذه».

قلت: قد ذكرنا في سورة ﴿الأنعام﴾[١] حديث ابن عمر في هذا، خرجه البخاري. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: «أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا» قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ. وقال عبد الله بن مسعود: كل شيء أوتي نبيّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، الآية إلى آخرها. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسل؛ فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إن الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء[٢] وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك؛ حسبما تقدّم ذكره في الأنعام[١]. وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أن يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئت نبّأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام،

(١) راجع ١/٧ و ٢ فما بعد.
(٢) الأنواء: جمع نوء، وهو سقوط نجم في المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله في ساعته. وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحول عليّ الحول حتى أموت. قال: فأين موتك يا يهوديّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدق الله. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فرجع ٱبن عباس فوجد ٱبنه محموماً، ومات بعد عشرة أيام. ومات اليهوديّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجب الأحاديث. وقال مقاتل: إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيّ ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرني متى أموت، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غدا، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ ذكره القُشَيْرِي والماوَرْديّ. وروى أبو المَلِيح عن أبـي عَزّة الهُذَلِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمَها ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ـ إلى قوله ـ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديّ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) مستوفًى. وقراءة العامة: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ مشدّدا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففاً. وقرأ أُبـيّ بن كَعْب: ﴿بِأَيَّةِ أَرْضٍ﴾ الباقون ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾. قال الفراء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكّر. قال الشاعر:

فـلا مُـزْنـة وَدَقَـتْ وذْقَهـا ... ولا أرضَ أبقَـل إبقـالَهـا[1]

وقال الأخفش: يجوز مررت بجارية أيّ جارية، وأيّة جارية. وشبه سيبويه تأنيث ﴿أيّ﴾ بتأنيث كُلّ في قولهم: كُلّتهُنّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾ نعت لـ ﴿عليم﴾ أو خبر بعد خبر. والله تعالى أعلم.

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائي. وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث. والمزنة: السحابة. والودق: المطر.

❀ ❀ ❀

تفسير سورة السجدة

وهي مكية. قال البخاري في «كتاب الجمعة». حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هُرمُز الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾. ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ تفرد به أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل، ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ثم قال مخبراً عن المشركين: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، بل يقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه ـ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقد أورد النسائي ههنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا الأخضر بن عجلان، عون ابن جُرَيْج المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد

العصر، وخلقه من أديم الأرض، بأحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث». هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً من حديث الحجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق. وقد علله البخاري في كتاب «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح»، وكذا علله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها ـ هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قد عزّ كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾، يعني: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، يعني: العقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ. فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي: أئنا لنعُودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾. ثم قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة «إبراهيم»، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ، بنحوه مرسلاً. وقاله ابن عباس، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر عن جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن». فقال ملك الموت: يا محمد، طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر، في بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحه في كل يوم خمس مرات، حتى إني أعرفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد، لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها. قال جعفر: بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك، ودفع عنه الشيطان، ولقنه الملك: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في تلك الحال العظيمة. وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن مَيْسَرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين. وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات. ينظر هل فيه أحد أمر أن

يتوفاه. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]. وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.
﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾، يعني بذلك: قيام الليل: وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكدر، وأبي حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من وبال عقابه، وطعماً في جزيل ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه.

وفينا رسولُ الله يَتْلُو كتابه ... إذا انشقّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْح ساطعُ
أرانا الهُدى بَعْدَ العمى فقُلوبُنا ... به مُوقِناتٌ أنّ ما قال واقع
يَبِيتُ يُجافي جَنْبَهُ عَنْ فراشه ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشركين المضاجعُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه، ومن بين أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله ﷻ، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي

وشفقة مما عندي. فيقول الله، ﷻ للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهريق دمه». وهكذا رواه أبو داود في «الجهاد»، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى، يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عليك هذا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، من طرق عن معمر، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه ابن جرير من حديث شعبة، عن الحكم قال: سمعت عُرْوَة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل»، وتلا هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ورواه أيضاً من حديث الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، عن النبي ﷺ بنحوه، ومن حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ مرفوعاً بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن ابن النَّجُود، عن شهر، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، قال: «قيام العبد من الليل». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا فطر بن خليفة، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحكيم بن جُبَيْر، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾. ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعد، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليل». وقال البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر، حدثنا عبد الحميد بن سليمان، حدثني مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال بلال لما نزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية، كنا نجلس في المجلس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق. وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لمّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله. قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأيُّ شيء؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخراً من بله ما أطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. قال أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، قرأ أبو هريرة: «قُرّات أعْيُنٍ».

انفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق. ورواه الترمذي في التفسير، وابن جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال حماد: أحسبه عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وروى الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، أن أبا حازم حدثه قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف، وهارون بن سعد، كلاهما عن ابن وهب، به. وقال ابن جرير: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، يروي عن ربه، ﷻ، قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». لم يخرجوه. وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر وغيره، حدثنا سفيان، حدثنا مُطَرِّف بن طريف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر ـ يرفعه إلى النبي ﷺ ـ قال: «سأل موسى، عليه السلام ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»، قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. ورواه الترمذي عن ابن عمر، وقال: حسن صحيح، قال: ورواه بعضهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير المدائني، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدثنا زياد ابن خَيْثَمة، عن محمد بن جُحادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب؟ فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم، وذلك قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ويُخبرون أن الله عنهم راض. وقال ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبي اليمان الهوزني ـ أو غيره ـ قال: الجنة مائة درجة، أوّلها درجة فضة وأرضها فضة، ومساكنها فضة، وآنيتها فضة وترابها المسك. والثانية ذهب، وأرضها ذهب، ومساكنها ذهب، وآنيتها ذهب، وترابها المسك. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكنها اللؤلؤ، وآنيتها اللؤلؤ، وترابها المسك. وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، عن الروح الأمين قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، ينقص بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة واحدة وسع الله له في الجنة»، قال: فدخلت على «يزداد» فحدَّث بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فأين ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦]. قلت: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، قال: العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله، لم يُعلم به الناس، فأسرّ الله له يوم القيامة قُرّة أعين.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حُكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرُسُله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]؛ ولهذا قال تعالى: ههنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ أي: عند الله يوم القيامة. وقد ذكر عطاء بن يَسار والسُّدي وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي مُعَيط؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]. قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عبادة ليتوبوا إليه. وروى مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النَّخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزَري، وخُصيف. وقال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال: البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر. وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبيد الله بن عُمَر القواريري، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن عَزْرَة، عن الحسن العُرَني، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام. ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم. قال السُّدي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن ذَكَّرَه الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة، رحمه الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشد العَوَز، وعظم من أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام. وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكِلاعي، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نُسَيّ، عن جنادة بن أبي أمية، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم، من عقد لواء في غير حق، أو عق والديه، أو مشى مع ظالم ينصره، فقد أجرم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، به، وهذا حديث غريب جداً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة. وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾: قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. ثم روى عن أبي العالية الرِّياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم ـ يعني ابن عباس ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طُوَالاً جَعْداً، كأنه من رجال شَنُوءة. ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، مبسط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه»، ﴿فَلَا تَكُن فِي

مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن علي الحُلْواني، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: جُعل موسى هُدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، قال: من لقاء موسى ربه ﷺ. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحرّفوا وأوّلوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا: وكذلك قال الحسن بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا. قال وَكِيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز.

وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي على عمي ـ أو: عمي على أبي ـ سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧]، كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨]؛ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودَمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، وهي الأرض التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٨]، أي: يَبَساً لا تنبت شيئاً. وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج إلى الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينْبتَ الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لَهِيعة، عن قيس بن حجاج، عمن حدثه قال: لم فُتحت مصر، أتى أهلَها عمرو بن العاص ـ وكان أميراً بها ـ حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا سُنَّة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشر ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بِكْر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم

ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد... فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾. وقال ابن أبي نَجيح، عن رجل، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ قال: هي التي لا تُمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عباس، ومجاهد: هي أرض باليمن. وقال الحسن، رحمه الله: هي قرى فيما بين اليمن والشام. وقال عِكْرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدّي، وابن زيد: الأرض الجرز: التي لا نبات فيها وهي مغبرة.

قلت: وهذا كقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾؟ متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدال علينا، ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأس الله وسَخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥]، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النُّجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ [سبأ: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. ثم قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور: ٣٠]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «الم السجدة»

❁ ❁ ❁

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾

لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال (الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه) وقد علم ما فى قوله (الم) وفى قوله (لا ريب فيه) من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال (من رب العالمين) وقال من قبل (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى البقرة (هدى للمتقين) وذلك لأن من يرى كتابا عند غيره ، فأول ماتصير النفس طالبة تطلب مافى الكتاب فيقول ماهذا الكتاب ؟ فإذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو؟ ولا يقال أولا : هذا الكتاب تصنيف من ؟ثم يقول فيماذا هو ؟ إذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته .

ثم قال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾

يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف قال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) مع أن النذر سبقوه (الجواب) من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول . أما المنقول فهو أن قريشاً كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد . فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

أنبياء بنى إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع ؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم ، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبى أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم ، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتنذر قوماً ما أتاهم) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ماعداه فقوله (لتنذر قوماً ماأتاهم) يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا إليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لايوجب نفى ماعداه (والثانى) أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره فى أن التخصيص إن كان له سبب غير نفى ماعداه لايوجب نفى ماعداه ، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى ، ألا ترى أنه تعالى قال (وأنذر عشيرتك الأقربين) ولم يفهم منه أنه لاينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى ، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك (الثالث) هو أن على ما ذكرنا لايرد ماذكره أصلا ، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء ، وبهذا يتبين حسن مااخترناه ، وقوله (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجياً أنت اهتداءهم .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ .

لما ذكر الرسالة بين ماعلى الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل ، فقال (الله الذى

www.besturdubooks.wordpress.com

خلق السموات والأرض) الله مبتدأ وخـــبره الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات مابينهما وإلى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء على ستة أحوال . وإنما ذكر الايام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل مايقول القائل لغيره : إن يوماً ولدت فيه كان يوماً مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته .

ثم قال تعالى (ثم استوى على العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هـذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض إلى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والأول أسلم والى الحكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لايعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ،وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واحب ، ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة (إن الله عنده علم الساعة) فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، وصفة الاستواء مما لايجب العلم بهافمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطىء فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية مايلزمه أنه لايعلم ، والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلا مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى أن السكوت خير من الكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لايأتى على جميع ماأتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً مانرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجىء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا وإذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل أنى علمت كل سر فى هذا الكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك ، فكيف من يدعى أنه علم كل ما فى كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان الى

www.besturdubooks.wordpress.com

وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن مالا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن فى القرآن مالا يعلم ، وهذا أقرب الى ذلك الذى لايعلم ، للتشابه البالغ الذى فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض مايعلمه قطعاً أنهليس بمراد ، وهذا لأن قائلا إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لايريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وانما المراد منحصر فى الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المرادليس مايوجب نقصاً فى ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى) خطرومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهوالقيام والانتصاب أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والأول جهل محض والثانى يجوز أن يكون جهلا والأول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفراً ، والثانى وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلا وبدعة وكفراً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيداً الذى هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، ومما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسى فى العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض فى غاية العظمة ، عبر بما ينبىء فى العرف عن العظمة ، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى (إنا خلقنا ، وإنا زينا ، ونحن أقرب ، ونحن نزلنا) أيظن أو يشك مسلم فى أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا ، غير أن العظيم فى العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم فى العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه فى مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمنى وأنعم على مراراً ، ويحكى عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفنى ولا كنت فعلت معه ما يجازينى

www.besturdubooks.wordpress.com

بهذا، فنقول ثم للحكاية لا للمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا . أما النقل فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه . وأما الاستعمال فقول القائل :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فانه أعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والأرض (والوجه الثالث) قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه فى مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأى فى مكان وهو الخروج ، لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه فى مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان ، فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أو لا يجوز ، فإذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان ، فجواز كونه فى مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشىء على نفسه وهو محال ، ثم الذى يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى (وإن الله لهو الغنى) وهذا يقتضى أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه فى استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان ، فجاز عليه أن لا يكون فى مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى (وهو معكم) ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت فى متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله فى مكان ونحن متمكنون ، فقوله (إن الله معنا) وقوله (وهو معكم) كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى ، أى بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لأشرف فى الهلاك ولأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شىء منها ولا أكل

www.besturdubooks.wordpress.com

حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا تقول فى استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما تقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولو كان فى مكان لأحاط به المكان وحينئذ فإما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثانى بالاتفاق لأن القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالإجماع ، وإن كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الأبصار . وأما إذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار . أما إذا لم ير فظاهر ، وأما إذا رؤى فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه . وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه فى مكان ، كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون فى مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فيصير فلسفياً يقول بقدم سماء من السموات (والثانى) جواز الحركة والإنتقال على الله تعالى وهو يفضى إلى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فإما أن يكون فى الأزل ساكناً أو متحركاً لأنهما فرعا الحصول فى مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الأزل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والارض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا باذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى (أفلا تتذكرون) ماعلمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

www.besturdubooks.wordpress.com

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته . وقوله تعالى (ثم يعرج إليه) معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر . وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه : (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة (ثانيها) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة) يعنى (يدبر الأمر) فى زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه ، وكم تكون سنة منه . وكم يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر . فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون فى الخمسين أكثر وبين فائدتها فى موضعها إن شاء الله تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر فى هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وأشار إلى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره . واعلم أن ظاهر قوله (يدبر الأمر) فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ، ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل ، فإن الملك إذا كان آمراً ناهياً يطاع فى أمره ونهيه ، ولكن يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾

غافلا لا يكون مهيباً عظيما كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لاتخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله (خلق السموات) وعالم الأرواح بقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال (عالم الغيب) يعلم ما فى الأرواح (والشهادة) يعلم ما فى الأجسام أونقول قال (عالم الغيب) إشارة إلى مالم يكن بعد (والشهادة) إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى (العزيزالرحيم) لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما) وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله (الذى أحسن كل شيء) يعنى أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذى بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ماينبغى صلابة الأرض للنبات والنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشيء هناك يقبل الاحتراق وقوله (وبدأ خلق الإنسان من طين) قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين .

قوله تعالى : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثانى هو أن أصله من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هى من ماء مهين ، فان قال قائل التفسير الثانى غير صحيح لأن قوله (بدأ خلق الإنسان) ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لابل التفسير الثانى أقرب إلى الترتيب اللفظى فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء فى خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة ، وذلك بعد خلق آدم ، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر) ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله (ثم جعل نسله ثم سواه) أى كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً ، وقوله تعالى (ونفخ فيه من روحه) إضافة الروح إلى نفسه كاضافة البيت إليه للتشريف ، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله (ونفخ فيه من روحه) أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال وجعل لكم مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحى فلما قال (ونفخ فيه من روحه) خاطبه من بعده وقال جعل لكم ، فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق ، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهى كون الإنسان طيناً ثم ماء فهيناً ثم خلقاً مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الترتيب فى السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ، وذلك لأن الإنسان يسمع أولا من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ، فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الإسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ، لأن المصدر لايجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

واحد فإن الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين ، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة ، فذكر القوة فى الأذن وفى العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته ،فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الأبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته ، فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الأبصار والأفئدة الاسم الذى هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ماهو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب فى تأخير الأبصار مع أنها فى الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع لجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض إنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾

لما قال (قليلا ما تشكرون) بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، فى كلامه القديم ، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله (تنزيل الكتاب) إلى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وذكر الوحدانية بقوله (الله الذى خلق) إلى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو للعطف على ماسبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم إياه فى الحشر ، وقالوا بلفظ الماضى ، وذلك لأن تكذيبهم إياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه ، وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آبائهم فقال وقالوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى صرح بذكر قولهم فى الرسالة حيث قال (أم يقولون) وفى الحشر حيث قال (وقال أئذا) ولم يصرح بذكر قولهم فى الواحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين فى جميع الأحوال على انكار الحشر والرسول ، وأما الواحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ، ألا ترى أن الله تعالى قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه فى الظاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الواحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول فى الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال (ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وكذلك خلق السموات كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى)

وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) إضراب عن الأول يعنى ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فانهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب .

قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله (ثم إلى ربكم ترجعون) وقوله (الذى وكل بكم) إشارة إلى أنه لايغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا وقوله (يتوفاكم ملك الموت) ينبىء عن بقاء الأرواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم ، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته ، والحكماء يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به ، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فإن أرادوا ماذكرنا فقد وافقونا وإلا فيغير النظر فى ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غير حق ، فان قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ماعدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه ؛ وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً ، فقوله (قل يتوفاكم ملك الموت) أى الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾.

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم) يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً ، وقوله (ترى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ، ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصا ، وقوله (عند ربهم) لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب ، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة .

ثم قال تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا) يعنى يقولون أو قائلين (ربنا أبصرنا) وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وقوله (ربنا أبصرنا وسمعنا) أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ، وقولهم (إنا موقنون) معناه إنا فى الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل ، وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا (وما كنا مشركين) فقالوا إن هذا الذى جرى علينا ماجرى إلا بسبب ترك العمل الصالح . وأما الإيمان فانا موقنون وما أشركنا .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جواباً عن قولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وبيانه هو أنه تعالى قال إنى لو أرجعتكم إلى الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم أهدكم تبين أنى ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله (ولو شئنا لآتينا) صريح فى أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر ، ثم قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم) أى وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) هذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلا خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون فى العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر . وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان ، إذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلى الذى هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذى خيره غالب ، فانك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية ما فى الباب أن الكفر يحبط خيره ولا ينفعه ، إنما يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره ، وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك وكذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فاذا انظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذى يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى فى جوابهم (إنى أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير ، ثم بين لهم خيره بالتعليم ، كما قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة . وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب ، فقوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها) إشارة إلى الشر ، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله (وعلم آدم الأسماء) فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر ، لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول ، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة ، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة ، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير ، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير فى القضاء والشر فى القدر ، فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ، وقوله (من الجنة والناس) لأنه تعالى قال لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) وهذا إشارة إلى أن النار لمن فى العالم السفلى ، والذين فى العالم العلوى مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة ، وهذا يقتضى أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح . وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيداً وهو الظاهر (والثانى) أن يكون حالا ، أى مجموعين ، فان قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار ؟ نقول هذا لبيان الجنس ، أى جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناً للملائكة ، ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس ، فان قيل فهذا يقتضى أن تكون جهنم ضيقة تمتلىء ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله أعلم . ولما بين الله تعالى بقوله (ولو شئنا لآتينا) أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

وفى تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء) لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا ، أى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله (ألست بربكم قالوا بلى) أو بما فى الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله (نسيتم) أى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا فى المعلوم أولا إذا جهل آخراً نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون إشارة إلى اليوم ، أى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، إى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون إشارة إلى العذاب ، أى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسى قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر مايلزم من تركه إياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)

﴿ ثم قال تعالى إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإنما ينساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجداً له ، يعنى انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لايستكبرون ، يعنى وكان قلبه خاشعاً لايتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعنى بالليل قليلا مايهجعون وقوله (يدعون ربهم) أى يصلون ، فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافى الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

لأنه قال بعده (ومما رزقناهم ينفقون) وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وقوله (خوفاً وطمعاً) يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا ، أى خائفين طامعين كقولك جاؤنى زوراً أى زائرين ، وكأن فى الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى (إذا ذكروا بها خروا) فانه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع . وفى الآية الثانية إشارة الى المرتبتين الأخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً فى بره ، ثم بين مايكون لهم جزاء فعلهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال إن هذا لايدخل فى عينى ، يعنى عينى تطلع إلى غيره ، فاذا لم يبق تطلع للعين إلى شىء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهى أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فلله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلا لا أطلب عليه جزاء ، فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شىء لأنى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذى أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتى بحسنة فيقول الله إنى أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازيه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى إلى المهدى عوضاً فرآه المهدى الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض

www.besturdubooks.wordpress.com

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ
النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي
كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب ، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضاً يقول المهدى هذا عوض ما أهديت اليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكاليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما يعبده فى الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها.

قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ، أما الذين أمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى (نزلا) إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطى الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله (بما كانوا يعملون) يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها) إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الايمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله فى حق المؤمنين (لهم) بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

له استرداده بحكم قوله وكذلك فى قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان فى علمه أنه يخرجه منها قال (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولم يقل لكما الجنة وفى الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال (لكم الجنة) و(لهم جنات) وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا) إشارة إلى معنى حكمى ، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الانسان إذا وضع يده فى ماء بارد يتألم من البرد ، فاذا صبر زماناً طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم فى كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم فى الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثيراً ، ثم إنهم فى الآخرة كما فى الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ليس مقتصراً على تكذيبهم الذى كان فى الدنيا بل (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتم به من قبل . أما فى الدنيا بقولكم لا عذاب فى الآخرة ، وأما فى الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه .

ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ ولنذيقنهم من العـــذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا . فان عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فان العذاب الشديد فى الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب فى غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد . وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) فى مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر فى مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة فى مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل فى عذاب الدنيا أمران : (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضاً أمران (أحدهما) أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب فى عذاب الدنيا هو الذى يصلح

www.besturdubooks.wordpress.com

للتخويف به ، فان العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال فى عذاب الدنيا (العذاب الأدنى) ليحترز العاقل عنه ولو قال (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ماكان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل مايحصل بوصفه بالكبر ، وبالجملة فقد اختار الله تعالى فى العذابين الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لعلهم يرجعون) لعل هذه الترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى (إنا نسيناكم) يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت إليه أصلا ، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ، ونزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان اتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان فى موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك فى صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلا نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، ويصحح قولنا قوله تعالى فى حق إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى (وارجوا اليوم الآخر) مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول فى كل صورة قال الله تعالى (لعلهم) فان نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلا بما يكون غاية ما فى الباب أن الرجاء فى أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق فى حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز فى حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجى فى حقه على ما ذكرنا من المعنى .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ
﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ، ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾

قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما قال تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) أى دليلك الله لا تحتاج مانير الباطن إلى دليل على الله . ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فالأول الذى لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذى إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته ، فان الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) .

ثم قال تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أى لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى ﷺ ووجود من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته . وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)

بالمجمع عليه ، وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبى عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت . وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهى أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشيا منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا) ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾

قوله (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون) كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقاً وسبيل الحق واحد ، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغى أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فان المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما فى الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا أن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

من نذير من قبلك) ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم) وقوله (يمشون فى مساكنهم) زيادة إبانة ، أى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشىء ويفهمه .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾

قوله تعالى (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الارض الجزر) لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات . ثم قال تعالى (فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الأنعام على الأنفس فى الأكل لوجوه (أحدها) أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه . وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان (الثالث) إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب . والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة . ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فانها كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتنذر قوماً) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وقوله (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) وفى آخر السورة ذكره بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا نسوق) وذكر الحشر فى أولها بقوله (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله (ويقولون متى هذا الفتح) .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ أى لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أى لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم . قال تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال . وقوله (وانتظر إنهم منتظرون) يحتمل وجوهاً (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبى ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا (فأتنا بما تعدنا ، وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٢ ـــ سورة السجدة

﴿ مكية وآياتها ثلاثون ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٣٢ السجدة

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٣٢ السجدة

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٣٢ السجدة

﴿ سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) إما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا
مسمى بـ الم والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها وإما مسرود على نمط التعديد فلا محل له
٢ من الإعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول
مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ محذوف أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر الم أى
المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر مراراً أن مايجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم
* الانتساب إليه وإذ لاعهد بالتسمية قبل لحقها الإخبار بها وقوله تعالى (لا ريب فيه) خبر ثالث على
* الوجه الأول وثان على الأخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر
هو حال من الضمير المجرور أى كائناً منه تعالى لا بتنزيل لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والأوجه
حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه
٣ قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (أم يقولون افتراه) فإن قولهم
هذا إنكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكما مقصود الإفادة لا قيداً للحكم بنفى
الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جىء بأم المنقطعة إنكاراً له وتعجيباً منه لغاية ظهور بطلانه
* واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه إلى بيان حقية ما أنكروه حيث قيل (بل هو الحق من ربك)
بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفاً له ﷺ ثم أيد ذلك ببيان غايته
* حيث قيل (لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فإن بيان غاية الشىء وحكمته لاسيما عند
كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة إليها مما يقرر وجود الشىء ويؤكده لا محالة ولقد
كانت قريش أضل الناس وأحوجهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث إليهم

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ ٣٢ السجدة

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ ٣٢ السجدة

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦﴾ ٣٢ السجدة

من رسول قبله ﷺ أي ما أتاهم من نذير من قبل إنذارك أو من قبل زمانك والترجي معتبر من جهته ﷺ أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ماذكر من التأييد إنما يتسنى على ماذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لأن قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الأول وخبر ثالث على الوجهين الأخيرين وأياً ما كان فكونه من رب العالمين حكم
٤ مقصود الإفادة لا قيد لحكم آخر فتدبر (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى مالكم إذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أي ما لكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازاً فإذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير (أفلا تتذكرون) أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق
٥ مايوجبه من السماع (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض (ثم يعرج إليه) أى يثبت فى علمه موجوداً بالفعل (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد مابين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج إليه في زمان هو كألف سنة مما تعدون فإن مابين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء إلى الأرض بالوحى ثم لا يعرج إليه خالصاً إلا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخالص وأنت خبير
٦ بأن قلة الأعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها إلى السماء بل قلته وقرىء يعدون بالياء (ذلك) إشارة إلى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره مابعده أى ذلك العظيم الشأن (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ٣٢ السجدة

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ٣٢ السجدة

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ٣٢ السجدة

(الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه إيماء إلى أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالإحسان
٧ (الذى أحسن كل شىء خلقه) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه إذ ما من مخلوق خلقه إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة لجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان وقرىء خلقه على أنه بدل اشتمال من كل شىء والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شىء وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لأحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى كل شىء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الأول وكل شىء مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شىء مما يحتاجون إليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شىء يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الإنسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً لخروج كل فرد منها من القوة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قرباً وبعداً كما ينبىء عنه قوله
٨ تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى
٩ الممتهن (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه) أضافه إليه تعالى تشريفاً له وإيذاناً بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية وأن أقصى ما تنتهى إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) الجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعماً جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها إلى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على أن القلة بمعنى

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ٣٢ السجدة

قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ٣٢ السجدة

وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ ٣٢ السجدة

النفى كما ينبىء عنه مابعده أى شكراً قليلا أو زماناً قليلا تشكرون وفى حكاية أحوال الإنسان من مبدأ
فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبىء عن استعداده
١٠ للفهم وصلاحيته لهمن الجزالة مالا غاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق
الالتفات إيذاناً بأن ماذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم
بطريق المباثة (أئذا ضللنا فى الأرض) أى صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميز منه أو غبنا فيها بالدفن
وقرىء ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم إذا أنتن وقيل من الصلة وهى
الأرض أى صرنا من جنس الصلة قيل القائل أبى بن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول إلى الكل والعامل
فى إذا مايدل عليه قوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) وهو نبعث أو يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الإنكار
السابق وتأكيده وقرىء إنا على الخبر وأياً ماكان فالمعنى على تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو
المتبادر من تقدم الهمزة على إن فإنها مؤخرة عنها فى الاعتبار وإنما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل
هم بلقاء ربهم كافرون) إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ماهو أبلغ وأشنع منه وهو
١١ كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعاً (قل) بياناً للحق ورداً على
زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان
بموجب الجبلة أى يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيئاً أو لا يترك منكم أحداً على أشد ما يكون من
الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذى وكل بكم) أى بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم
١٢ (ثم إلى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى إذ المجرمون) وهم القائلون أئذا ضللنا فى
الأرض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسوا رءوسهم عند ربهم) من الحياء والخزى عند
ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا (ربنا) أى يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أى صرنا ممن يبصر
ويسمع وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عمياً وصماً لا ندرك
شيئاً (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل) عملا (صالحاً) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (إنا موقنون)
ادعاء منهم لصحة الأفئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ماقبله ادعاء لصحة مشعرى
البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلا وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة
إظهاراً لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعاً فى الإجابة إلى ماسألوه

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

٣٢ السجدة

من الرجعة وأنى لهم ذلك ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فإنهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصي على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم إلى النار لامحالة فالمعنى أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا أن مردنا إلى النار وهو الأنسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالإخبار بأنهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سمع طاعة وإذعان ولا يقدر لترى مفعول إذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبىء عنه صلة إذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لايختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لأن المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه
١٣ الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فإنه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول معطوف على ماقدر قبل قوله تعالى ربنا أبصرنا الخ أى ونقول لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقاً فعلياً بأن نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ماتهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء (ولكن حق القول منى) أى سبقت كلمتى حيث قلت لإبليس عند قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغى بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى إنما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لاتحقق القول وإنما قيدنا المشيئة بما مر من التعليق الفعلى بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطاً بتحققها وإنما مناطه علمه تعالى أزلا بصرف

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ٣٢ السجدة

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ٣٢ السجدة

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ٣٢ السجدة

اختيارهم فيما سيأتي إلى الغي وإيثارهم له على الهدى فلو أريدت هي من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها
ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم فمن توهم أن المعنى ولو
شئنا لأعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم
١٤ اختيار الكفر وإيثاره فقد اشتبه عليه الشئون والفاء في قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الأمر بالذوق
على ما يعرب عنه ما قبله من نفي الرجع إلى الدنيا أو على الوعيد المحكي والباء في قوله تعالى (بما نسيتم
لقاء يومكم هذا) للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضاً بسبب
موجب له من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم إلى الدنيا أو حق وعيدي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم
الهائل وتركم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية (إنا نسيناكم) أي تركناكم في العذاب ترك المنسي بالمرة
• وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوي
للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي
التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا وعدم نظم الكل في سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها في استيجاب
العذاب وفي إبهام المذوق أولاً وبيانه ثانياً بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبيء عن كمال السخط
١٥ بينهما من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) استئناف
مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق
القصر كأنه قيل إنكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو رجعنا كم إلى الدنيا كما تدعون
• حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنما يؤمن بها (الذين إذا ذكروا بها) أي وعظوا
(خروا سجداً) أثر ذي أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد
• والوعيد أي سقطوا على وجوههم (وسبحوا بحمد ربهم) أي ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من
الأمور التي من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات
والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار
بعلة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لا يستكبرون) أي والحال
١٦ أنهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أي
تنبو وتتنحى (عن المضاجع) أي الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون
بالليل قال أنس رضي الله عنه نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ٣٢ السجدة

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ٣٢ السجدة

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ٣٢ السجدة

العشاء مع النبي ﷺ وعن أنس أيضاً رضي الله عنه أنه قال نزلت في أناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهي صلاة الأوابين وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر في جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة لقوله ﷺ أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبي ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم أي داعين له تعالى على الاستمرار (خوفاً) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته
١٧ (وطمعاً) في رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) في وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عمن عداهم (ما أخفي لهم) أي لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقربه أعينهم وعنه ﷺ يقول الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين ٭ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرءوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقرىء ما أخفي لهم وما نخفي لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرىء قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) أي جزوا جزاء أو أخفي لهم للجزاء بما كانوا يعملونه
١٨ في الدنيا من الأعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذي حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذكرت أحواله (لا يستوون) التصريح به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرة على أبلغ وجه ٭ وآكده لبناء التفصيل الآتي عليه والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله
١٩ تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين في الآخرة بعد ذكر أحوالهما في الدنيا وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقي وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وإقيل المأوى جنة من الجنات وأياً ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ٣٢ السجدة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ٣٢ السجدة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٢ السجدة

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ٣٢ السجدة

التى هى مأواهم فى الدنيا (نزلا) أى ثواباً وهو فى الأصل مايعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه
٢٠ على الحالية (بما كانوا يعملون) فى الدنيا من الأعمال الصالحة أو بأعمالهم (وأما الذين فسقوا) أى خرجوا
عن الطاعة (فمأواهم) أى ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا أن يخرجوا
منها أعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى أنه يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى
طبقاتها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل
بهم أبداً وكلمة فى للدلالة على أنهم مستقرون فيها وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض (وقيل لهم)
تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) أى بعذاب النار (تكذبون) على
٢١ الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) أى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به من السنة سبع
سنين والقتل والأسر (دون العذاب الأكبر) الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه
وهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى أن الوليد بن عقبة فاخر علياً رضى الله عنه يوم بدر
٢٢ فنزلت هذه الآيات (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله
تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها
عقلا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما فى بيت الحماسة [ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة *
يرى غمرات الموت ثم يزورها] أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب على نفى الأظلم من غير
تعرض لنفى المساوى وقد مر مراراً (إنا من المجرمين) أى من كل من اتصف بالإجرام وإن هانت جريمته
٢٣ (منتقمون) فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى
التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله ﷺ
* كإيتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله
وإنك لتلقى القرآن والمعنى إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل مالقيناك
من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى
وعنه ﷺ رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعداً كأنه من رجال شنوأة (وجعلناه) أى

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٢ السجدة

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٢ السجدة

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٢ السجدة

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا
يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ٣٢ السجدة

---

٢٤ الكتاب الذى آتيناه موسى (هدى لبنى إسرائيل) قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد إسمعيل (وجعلنا منهم
أئمة يهدون) بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى مافيه
من دين الله وشرائعه (بأمرنا) إياهم بذلك أو بتوفيقنا له (لما صبروا) هى لما التى فيها معنى الجزاء نحو *
أحسنت إليك لما جئتنى والضمير للأئمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة أوهى ظرف بمعنى الحين أى
جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين أو صبرهم
عن الدنيا وقرىء لما صبروا أى لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التى فى تضاعيف الكتاب (يوقنون) لإمعانهم
فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناكه هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك
٢٥ الهداية (إن ربك هو يفصل) أى يقضى (بينهم) قيل بين الأنبياء وأممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين
٢٦ (يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمور الدين (أو لم يهد لهم) الهمزة
للإنكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام وفعل الهداية إما من قبيل فلان يعطى فى أن المراد إيقاع
نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول وإما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل مادل عليه قوله تعالى (كم *
أهلكنا) أى أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا (من قبلهم من القرون)
مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرىء نهد لهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى
أيضاً ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم أهلكنا الخ استئنافاً مبيناً لكيفية هدايته تعالى (يمشون فى مساكنهم)
أى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرىء
يمشون للتكثير (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو فى مساكنهم (لآيات)
٢٧ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (أولم يروا أنا نسوق
الماء إلى الأرض الجرز) أى التى جرز نباتها أى قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن (فنخرج
به) من تلك الأرض (زرعا تأكل) أى من ذلك الزرع (أنعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض
الحبوب المخصوصة بها وقرىء يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التى يقتاتها الإنسان والثمار (أفلا يبصرون)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ٣٢ السجدة

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٢ السجدة

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٢ السجدة

٢٨ أى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون
يقولون الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون بطريق
الاستعجال تكذيباً واستهزاء (متى هذا الفتح) أى النصر أو الفصل بالحكومة (إن كنتم صادقين) فى
٢٩ أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا
إيمانهم ولا هم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم
عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم
للتنبيه على أنه ليس مما ينبغى أن يسأل عنه لكونه أمراً بيناً غنياً عن الإخبار به وكذا إيمانهم واستنظارهم
يومئذ وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان وعدم الإنظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم
فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الأول ظاهر وأما على الأخيرين فالموصول عبارة عن
المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما فى الوجه الأول كيف لا وقد نفع الإيمان الطلقاء يوم الفتح
٣٠ وناساً آمنوا يوم بدر (فأعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبهم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (إنهم
منتظرون) قيل أى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا إنا معكم متربصون والأظهر أن يقال إنهم
منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه
ماقيل وانتظر عذابنا إنهم منتظروه فإن استعجالهم المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى
فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرىء على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر
هلاكهم أو فإن الملائكة ينتظرونه . عن النبى ﷺ من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من
الأجر كأنما أحيا ليلة القدر وعنه ﷺ من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام .

﴿ سورة السجدة ٣٢ ﴾

وتسمى المضاجع أيضا كما فى الاتقان، وفى مجمع البيان انها كما تسمى سورة السجدة تسمى سجدة لقمان لئلا تلتبس بحم السجدة، وأطلق القول بمكيتها، أخرج ابن الضريس. وابن مردويه. والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس انها نزلت بمكة، واخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير مثله، وجاء فى رواية أخرى عن الحبر استثناء، أخرج النحاس عنه رضى الله تعالى عنه أنه قال: نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات (أفمن كان مؤمنا) الى تمام الآيات الثلاث، وروى مثله عن مجاهد. والكلبى، واستثنى بعضهم أيضا آيتين أخريين وهما قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم) الخ، واستدل عليه ببعض الروايات فى سبب النزول وستطلع على ذلك إن شاء الله تعالى واستبعد استثناؤهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما، وهى تسع وعشرون آية فى البصرى وثلاثون فى الباقية، ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمال كل على دلائل الالوهية، وفى البحر لما ذكر سبحانه فيما قبل دلائل التوحيد وهو الاصل الأول ثم ذكر جل وعلا المعاد وهو الاصل الثانى وختم جل شأنه به السورة ذكر تعالى فى بدء هذه السورة الاصل الثالث وهو النبوة وقال الجلال السيوطى فى وجه الاتصال بما قبلها: إنها شرح لمفاتح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة ماقبل، فقوله تعالى: (ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) شرح قوله تعالى: (ان الله عنده علم الساعة) ولذلك عقب بقوله سبحانه: (عالم الغيب والشهادة) وقوله تعالى: (أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز) شرح قوله سبحانه: (وينزل الغيث) وقوله تبارك وتعالى: (الذى أحسن كل شىء خلقه) الآيات شرح قوله جل جلاله: (ويعلم مافى الارحام) وقوله عزوجل: يدبر الامر من السماء الى الأرض. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) شرح قوله تعالى: (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا) وقوله جل وعلا: (أئذا ضللنا فى الارض) الى قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون) شرح قوله سبحانه: (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) اه، ولايخلو عن نظر، وجاء فى فضلها أخبار كثيرة، أخرج أبو عبيد. وابن الضريس من مرسل المسيب بن رافع أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «تجىء ألم تنزيل ـ وفى رواية ـ ألم السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها وتقول: لاسبيل عليه لاسبيل عليه»

وأخرج الدارمى. والترمذى. وابن مردويه عن طاوس قال: ألم السجدة. وتبارك الذى بيده الملك تفضلان

www.Quranpdf.blogspot.in

على كل سوره فى القرآن بستين حسنة، وفى رواية عن ابن عمر تفضلان ستين درجة على غيرهما من سور القرآن *
وأخرج أبو عبيد فى فضائله . وأحمد . وعبد بن حميد . والدارمى . والترمذى . والنسائى . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن جابر قال: «كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك»
وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ تبارك الذى بيده الملك والم تنزيل السجدة بين المغرب والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر *
وروى نحوه هو . والثعلبى . والواحدى من حديث أبى بن كعب، والثعلبى دونهم من حديث ابن عباس، وتعقب ذلك الشيخ ولى الدين قائلا: لم أقف عليه وهذه الروايات كلها موضوعة، لكن رأيت فى الدر المنثور أن الخرائطى اخرج فى مكارم الاخلاق من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال. ما على الأرض رجل يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك فى ليلة الا كتب له مثل اجر ليلة القدر، قال حاتم: فذكرت ذلك لعطاء فقال: صدق طاوس والله ما تركتهن منذ سمعت بهن إلا أن أكون مريضا، ولم اقف على ما قيل فى هذا الخبر صحة وضعفا ووضعا، وفيه أخبار كثيرة فى فضلها غير هذا الله تعالى أعلم بحالها، وكان عليه الصلاة والسلام يقرؤها (وهل أتى) فى صلاة فجر الجمعة وهو مشعر بفضلها والحديث فى ذلك صحيح لا مقال فيه *
أخرج ابن أبى شيبة . والبخارى . ومسلم . والنسائى . وابن ماجه عن أبى هريرة قال: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل أتى على الانسان، وأخرج أبو داود . وهؤلاء الا البخارى نحوه عن ابن عباس *

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الم١﴾ ان جعل اسما للسورة أو القرآن فمحله الرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى هذا الم، وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر بعد خبر على انه مصدر باق على معناه لقصد المبالغة أو بتقدير مضاف أو هو مؤل باسم المفعول أى منزل وإضافته الى الكتاب من اضافة الصفة الى الموصوف أو بيانية بمعنى من، وقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث، وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ٢﴾ خبر رابع، وجوز أن يكون (ألم) مبتدأ وما بعده أخبار له أى المسمى بالم الكتاب المنزل لا ريب فيه كائن من رب العالمين، وتعقب بأن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالنسبة قبل فحقها الاخبار بها *
وقال ابو البقاء: (ألم) يجوز أن يكون مبتدأ و(تنزيل) بمعنى منزل خبره و(لا ريب فيه) حال من (الكتاب) والعامل فيها المضاف وهى حال مؤكدة و(من رب) متعلق بتنزيل، ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف هو حال من الضمير المجرور فى (فيه) والعامل فيها الظرف (لا ريب) لأنه هنا مبنى وفيه ما سمعت، وهذا التعلق يجوز أيضا على تقدير أن يكون (الم) خبر مبتدا محذوف وما بعده أخبارا لذلك المحذوف، وان جعل (الم) مسرودا على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب، وفى اعراب ما بعد عدة أوجه، قال أبو البقاء: يجوز أن يكون (تنزيل) مبتدأ و(لا ريب فيه) الخبر و(من رب) حال كما تقدم، ولا يجوز على هذا أن يتعلق بتنزيل لأن المصدر قد أخبر عنه، ويجوز أن يكون الخبر (من رب) و(لا ريب) حالا من (الكتاب) وأن يكون خبرا بعد خبر انتهى *
ووجه منع التعلق بالمصدر بعد ما أخبر عنه أنه عامل ضعيف فلا يتعدى عمله لما بعد الخبر وعن التزام حديث التوسع فى الظرف سعة هنا أو ان المتعلق من تمامه والاسم لا يخبر عنه قبل تمامه، وجوز ابن عطية

www.Quranpdf.blogspot.in

تعلق (من رب) بريب وفيه أنه بعيد عن المعنى المقصود ، وجوز الحوفى كون (تنزيل) خبر مبتدا محذوف أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب ، وقال أبو حيان: الذى اختاره أن يكون (تنزيل) مبتدأ (ولا ريب فيه) اعتراض لا محل له من الاعراب و (من رب العالمين) الخبر وضمير «فيه» راجع لمضمون الجملة أعنى كونه منزلا من رب العالمين لا للتنزيل ولا للكتاب كأنه قيل: لا ريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين وهذا ما اعتمد عليه الزمخشرى وذكر انه الوجه ويشهد لوجاهته قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فان قولهم هذا مفترى انكار لأن يكون من رب العالمين أى فالانسب أن يكون نفى الريب عما أنكروه وهو كونه من رب العالمين جل شأنه ، وقيل: أى فلا بد من أن يكون مورده حكما مقصودا بالافادة لا قيدا للحكم بنفى الريب عنه ، وفيه بحث ، و كذا قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فانه تقرير لما قبله فيكون مثله فى الشهادة ثم قال فى نظم الكلام على ذلك: إنه أسـلوب صحيح محكم أثبت سبحانه أولا أن تنزيله من رب العالمين وان ذلك بما لاريب فيه أى لا مدخل للريب فى أنه تنزيل الله تعالى وهو أبعد شئ منه لأن نافى الريب وعميطه معه لا ينفك أصلا عنه وهو كونه معجزا للبشر، ثم أضرب جل وعلا عن ذلك الى قوله تعالى: «أم يقولون افتراه» لأن «أم» هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة انكارا لقولهم وتعجيبا منه لظهور عجز بلغائهم عن مثل أقصر سورة منه فهو اما قول متعنت مكابر أو جاهل عميت منه النواظر، ثم أضرب سبحانه عن الانكار الى اثبات أنه الحق من ربك، وفى الكشف أن الزمخشرى بين وجاهة كون (تنزيل الكتاب) مبتدأ و (لاريب فيه) اعتراضا و (من رب العالمين) خبرا بحسن موقع الاعتراض إذ ذاك ثم حسن الانكار على الزاعم انه مفترى مع وجود نافى الريب ومميطه ثم اثبات ماهو المقصود وعدم الالتفات الى شغب هؤلاء المكابرة بعد التلخيص البليغ بقوله تعالى: (بل هو الحق من ربك) وما فى ايثار لفظ (الحق) وتعريفه تعريف الجنس من الحسن، ويقرب عندى من هذا الوجه جعل (تنزيل) مبتدأ وجملة (لاريب فيه) فى موضع الحال من (الكتاب) و (من رب) خبر افتدبر ولا تغفل ، وزعم أبو عبيدة أن (أم) بمعنى بل الانتقالية وقال: ان هذا خروج من حديث الى حديث وليس بشىء.

والظاهر أن (من ربك) فى موضع الحال أى كائنا من ربك، وقيل: يجوز جعله خبرا ثانيا واضافة الرب الى العالمين أولا ثم الى ضمير سيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا بعد ما فيه من حسن التخلص الى اثبات النبوة وتعظيم شأنه علا شأنه فيه انه عليه الصلاة والسلام العبد الجامع الذى جمع فيه ما فرق فى العالم بالاسر، ووروده على أسلوب الترقى دل على ان جمعيته صلى الله تعالى عليه وسلم أتم بما لكل العالم وحق له ذلك صلوات الله تعالى وسلامه عليه ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بيان للمقصود من تنزيله فقيل هو متعلق بتنزيل، وقيل: بمحذوف أى أنزله لتنذر الخ، وقيل: بما تعلق به (من ربك) (وقوما) مفعول أول لتنذر والمفعول الثانى محذوف أى العقاب و (ما) نافية كما هو الظاهر و (من) الاولى صلة (ونذير) فاعل (أتاهم) ويطلق على الرسول وهو المشهور وعلى ما يعمه والعـالم الذى ينذر عنه عز وجل قيل: وهو المراد هنا كما فى قوله تعالى: (وان من أمة الا خلا فيها نذير).

وجوز أن يكون النذير ههنا مصدرا بمعنى الانذار و (من قبلك) أى من قبل انذارك أومن قبل زمانك متعلق بأتى والجملة فى موضع الصفة لقوما ، والمراد بهم قريش على ماذهب اليه غير واحد، قال فى الكشف: الظاهر

www.Quranpdf.blogspot.in

أنه لم يبعث اليهم رسول منهم قبل رسول الله ﷺ وكانوا ملزمين بشرائع الرسل من قبل وإن كانوا مقصرين فى البحث عنها لاسيمادين ابراهيم . واسمعيل عليهما السلام إن قلنا:إن دعوتى موسى . وعيسى عليهما السلام لم تعمها وهو الاظهر ، وقد تقدم لك القول بانقطاع حكم نبوة كل نبى ماعدا نبينا ﷺ بعدموته فلا يكلف أحد مطلقا بمجيء بعده باتباعه والقول بالانقطاع الا بالنسبة لمن كان من ذريته ، والظاهر أن قريشا كانوا ملزمين بملة ابراهيم. واسمعيل عليهما السلام وانهم لم يزالوا على ذلك الى أن فشت فى العرب عبادة الاصنام التى أحدثها فيهم عمرو الخزاعى لعنه الله تعالى فلم يبق منهم على الملة الحنيفية الاقليل بل أقل من القليل فهم داخلون فى عموم قوله تعالى (وإن من أمة الاخلافيها نذير) فانه عام للرسول وللعالم الذى ينذر كذا قيل. واستشكل مع ماهنا، وأجيب بان المراد هنا ما أتاهم نذير منهم من قبلك واليه يشير كلام الكشف وهناك (الاخلافيها نذير) منها أو من غيرها أو يحمل النذير فيه على الرسول ، وفى تلك الآية على الاعم قال ابو حيان :فى تفسير سورة الملائكة إن الدعاء الى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة اما بمباشرة من انبيائهم وأما بنقل الى وقت بعثة محمد ﷺ والآيات التى تدل على أن قريشا ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم وآباءهم الاقربين وإماأن النذارة انقطعت فلا.نعم لما شرعت آثارها تندرس بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.وماذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات فان ذلك على حسب الفرض لا أنه واقع فلا توجد أمة على وجه الارض الا وقد علمت الدعوة الى الله عز وجل وعبادته انتهى ،

وفى القلب منه شيء ، ومقتضاه أن المنفى ههنا اتيان نذير مباشر أى نبى من الانبياء عليهم السلام قريشاً الذين كانوا فى عصره عليه الصلاه والسلام قبله ﷺ وأنه كان فيهم من ينذرهم ويدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده بالنقل أى عن نبى كان يدعو الى ذلك، والاول مما لا ينبغى أن يختلف فيه اثنان بل لا ينبغى أن يتوقف فيه انسان، والثانى مظنون التحقق فى زيد بن عمرو بن نفيل العدوى والد سعيد أحد العشرة فانه عاصر النبى ﷺ واجتمع وآمن به قبل بعثته عليه والصلاة السلام ولم يدركها اذ قدمات وقريش تبنى الكعبة وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين ، وكان على ملة ابراهيم . واسماعيل عليهما السلام.فقد صح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت :لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول:يامعشر قريش والذى نفسى بيده ماأصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيرى ، وفى بعض طرق الخبر عنه أيضا بزيادة ، وكان يقول:اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ولكنى لا أعلم ثم يسجد على راحلته ، وذكر موسى بن عقبة فى المغازى سمعت من أرضى يحدث أن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبحهم لغير الله تعالى وصح أنه لم يأكل من ذبائح المشركين التى أهل بها لغير الله ، وأخرج الطيالسى فى مسنده عن ابنه سعيد أنه قال:قلت للنبى ﷺ:إن أبى كان كما رأيت وكما بلغك أفاستغفر له: قال،نعم فانه يبعث يوم القيامة أمة وحده ولا يبعد ممن كان هذا شأنه الانذار والدعوة إلى عبادة الله تعالى بل من أنصف يرى تضمن كلامه الذى حكته أسماء وانكاره على قريش الذبح لغير الله تعالى الذى ذكره الطيالسى الدعوة إلى دين إبراهيم عليه السلام وعبادة الله سبحانه وحده.وكذا تضمن كلامه النقل أيضا،ويعلم مما نقلناه أن الرجل رضى الله تعالى عنه لم يكن نبيا وهو ظاهر ، وزعم بعضهم أنه كان نبيا، واستدل على ذلك بأنه كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: هلموا إلى فانه لم يبق على دين الخليل غيرى،وصحة ذلك ممنوعة، وعلى فرض التسليم لادليل فيه على المقصود كما لا يخفى على من له أدنى ذوق،ومثل زيد رضى الله تعالى عنه قس بن ساعدة الايادى فانه رضى الله تعالى عنه كان مؤمنا بالله عز وجل داعيا إلى عبادته سبحانه وحده

www.Quranpdf.blogspot.in

وعاصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومات قبل البعثة على الملة الحنيفية وكان من المعمرين، ذكر السجستاني أنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة، وقال المرزباني: ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة وذكروا في شأنه أخبارا كثيرة لكن قال الحافظ ابن حجر في كتابه الاصابة قد أفرد بعض الرواة طريق قس وفيه شعره وخطبته وهو في الطوالات للطبراني وغيرها وطرقه كلها ضعيفة وعدم منها ما عد فليراجع، ثم إن الاشكال إنما يتوهم لو أريد بقريش جميع أولاد قصي أو فهر أو النضر أو الياس أو مضر أما إذا أريد من كان منهم حين بعث ﷺ فلا كما لا يخفى على المتأمل فتأمل، وقيل: المراد بهم العرب قريش وغيرهم ولم يأت المعاصرين منهم رسول الله ﷺ نذير من الانبياء عليهم السلام غيره ﷺ وكان فيهم من ينذر ويدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده وليس بنبي على ما سمعت آنفا، وأما العرب غير المعاصرين فلم يأتهم من عهد اسمعيل عليه السلام نبي منهم بل لم يرسل اليهم نبي مطلقا، وموسى. وعيسى. وغيرهما من انبياء بني اسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا اليهم على الاظهر، وخالد بن سنان العبسي عند الاكثرين ليس بنبي، وخبر ورود بنت له عجوز على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: مرحبا بابنة نبي ضيعه قومه ونحوه من الاخبار مما للحفاظ فيه مقال لا يصلح معه للاستدلال، وفي شروح الشفاء والاصابة للحافظ ابن حجر بعض الكلام في ذلك، وقيل: المراد بهم أهل الفترة من العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب، والمعنى ما أتاهم نذير من قبلك بعد الضلال الذي حدث فيهم هذا وكأني بك تحمل النذير هنا على الرسول الذي ينذر عن الله عز وجل وكذا في قوله تعالى: (وإن من أمة الا خلا فيها نذير) ليوافق قوله تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) وأظن أنك تجعل التنوين في أمة للتعظيم أي وان من أمة جليلة معتنى بأمرها الا خلا فيها نذير ولقد بعثنا في كل أمة جليلة معتنى بأمرها رسولا أو تعتبر العرب أمة وبني اسرائيل أمة ونحو ذلك أمة دون أهل عصر واحد وتحمل من لم يأتهم نذير على جماعة من أمة لم يأتهم بخصوصهم نذير، ومما يستأنس به في ذلك أنه حين ينفي اتيان النذير ينفى عن قوم ونحوه لا عن أمة فليتأمل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام، وجوز كون (ما) موصولة وقعت مفعولا ثانيا لتنذر و(من نذير) عليه متعلق بأتاهم أي لتنذر قوما العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك أي على لسان نذير من قبلك واختاره أبو حيان، وعليه لا مجال لتوهم الاشكال لكن لا يخفى أنه خلاف المتبادر الذي عليه اكثر المفسرين، والاقتصار على الانذار في بيان الحكمة لأنه الذي يقتضيه قولهم: (افتراه) دون التبشير ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣﴾ أي لأجل أن يهتدوا بانذارك اياهم أو راجيا لاهتدائهم، وجعل الترجي مستعارا للارادة منسوبا اليه عز وجل نزغة اعتزالية:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ مر بيانه فيما سلف على مذهبي السلف والخلف ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ما لكم مجاوزين الله عز وجل أي رضاه سبحانه وطاعته تعالى ولي ولا شفيع أي لا ينفعكم هذان من الخلق عنده سبحانه دون رضاه جل جلاله - فمن دونه - حال من مجرور (لكم) والعامل الجار أو متعلقه، وعلى هذا المعنى لا دليل في الخطاب على أنه تعالى شفيع دون غيره ليقال: كيف ذلك وتعالى جل شأنه أن يكون شفيعا، وكفى في ذلك رده ﷺ على الأعرابي حيث قال: انا نستشفع بالله تعالى اليك، وقد يقال: الممتنع اطلاق الشفيع عليه تعالى بمعناه الحقيقي

www.Quranpdf.blogspot.in

وأما اطلاقه عليه سبحانه بمعنى الناصر مجازا فليس بممتنع ، ويجوز أن يعتبر ذلك هنا وحينئذ يجوز أن يكون (من دونه) حالا مما بعد قدم عليه لأنه نكرة ودون بمعنى غير ، والمعنى مالكم ولى ولاناصر غير الله تعالى ، ويجوز أن يكون حالا من المجرور كما فى الوجه السابق ، والمعنى مالكم إذا جاوزتم ولايته ونصرته جل وعلا ولى ولاناصر ، ويظهر لى أن التعبير بالشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيراً ماكانوا يقولون فى آلهتهم هؤلاء شفعاؤنا ويزعمون أن كل واحد منها شفيع لهم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ ﴾ أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالانكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى إلى عدم التذكر مع تحقق مايوجبه من السماع ٠

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ قيل : أى أمر الدنيا وشؤنها ، وأصل التدبير النظر فى دابر الأمر والتفكر فيه ليجيء محمود العاقبة وهو فى حقه عز وجل مجاز عن ارادة الشيء على وجه الاتقان ومراعاة الحكمة والفعل مضمن معنى الانزال والجاران فى قوله تعالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ متعلقان به ومن ابتدائية والى انتهائية أى يريده تعالى على وجه الاتقان ومراعاة الحكمة منزلا له من السماء الى الارض ، وانزاله من السماء باعتبار اسبابه فان أسبابه سماوية من الملائكة عليهم السلام وغيرهم ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ أى يصعد ويرتفع ذلك الامر بعد تدبيره ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عز وجل وهذا العروج مجاز عن ثبوته فى علمه تعالى أى تعلق علمه سبحانه به تعلقا تنجيزيا بان يعلمه جل وعلا موجودا بالفعل أو عن كتابته فى صحف الملائكة عليهم السلام القائمين بامره عز وجل موجودا كذلك ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥ ﴾ أى فى برهة متطاولة من الزمان فليس المراد حقيقة العدد ، وعبر عن المدة المتطاولة بالألف لأنها منتهى المراتب وأقصى الغايات وليس مرتبة فوقها الا مايتفرع منها من أعداد مراتبها ، والفعلان متنازعان فى الجار والمجرور وقد أعمل الثانى منهما فيه فتفيد الآية طول امتداد الزمان بين تعلق ارادته سبحانه بوجود الحوادث فى أوقاتها متقنة مراعى فيها الحكمة وبين وجودها كذلك ، وظاهرها يقتضى ان وجودها لا يتوقف على تعلق الارادة مرة أخرى بل يكفى فيه التعلق السابق وقيل : (فى يوم) متعلق بيعرج وليس الفعلان متنازعين فيه ، والمراد بعروج الأمر اليه بعد تدبيره سبحانه اياه وصول خبر وجوده بالفعل كما دبر جل وعلا بواسطة الملك وعرضه ذلك فى حضرة قد أعدها سبحانه للاختبار بما هو جل جلاله أعلم به لاظهار ألكمال عظمته تبارك وتعالى وعظيم سلطنته جلت سلطنته وهذا كعرض الملائكة عليهم السلام أعمال العباد الوارد فى الاخبار ، وألف سنة على حقيقتها وهى مسافة مابين الارض ومحدب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر فان مابين السماء والارض خمسمائة عام وثخن السماء كذلك كما جاء فى الاخبار الصحيحة والملك يقطع ذلك فى زمان يسير فالكلام على التشبيه فكأنه قيل : يريد تعالى الأمر متقنا مراعى فيه الحكمة باسباب سماوية نازلة آثارها وأحكامها الى الارض فيكون كما أراد سبحانه فيعرج ذلك الامر مع الملك ويرتفع خبره الى حضرته سبحانه فى زمان هو كألف سنة مما تعدون ، وقيل : العروج اليه تعالى صعود خبر الأمر مع الملك اليه عز وجل كما هو مروى عن ابن عباس . وقتادة . ومجاهد . وعكرمة . والضحاك والفعلان متنازعان فى (يوم) والمراد أنه زمان تدبير الأمر لو دبره البشر وزمان العروج لو كان منهم أيضا

www.Quranpdf.blogspot.in

والافزمان التدبير والعروج يسير ، وقيل : المعنى يدبر أمر الدنيا باظهاره فى اللوح المحفوظ فينزل الملك الموكل به من السماء الى الارض ثم يرجع الملك أو الامر مع الملك اليه تعالى فى زمان هو نظر للنزول و العروج كألف سنة مما تعدون ، وأريد به مقدار ما بين الارض ومقعر سماء الدنيا ذهابا و إيابا ، والظاهر أن (يدبر) عليه مضمن معنى الانزال ، والجاران متعلقان به لا بفعل محذوف أى فينزل به الملك من السماء الى الارض كما قيل ، وزعم بعضهم أن ضمير (اليه) للسماء وهى قد تذكر كما فى قوله تعالى : (السماء منفطر به) وقيل : المعنى يدبر سبحانه أمر الدنيا كلها من السماء الى الارض لكل يوم من أيام الرب جل شأنه وهو ألف سنة كما قال سبحانه : (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ثم يصير اليه تعالى و يثبت عنده عز وجل و يكتب فى صحف ملائكته جل وعلا كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الامر و يدخل تحت الوجود الى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضا ليوم آخر وهلم جرا الى ان تقوم الساعة ، ويشير الى هذا ماروى عن مجاهد قال : إنه تعالى يدبر و يلقى الى الملائكة أمور ألف سنة من سنيننا وهو اليوم عنده تعالى فاذا فرغت ألقى اليهم مثلها، وعليه الامر بمعنى الشأن والجاران متعلقان به أو بمحذوف حال منه ولا تضمين فى (يدبر) والعروج اليه تعالى مجاز عن ثبوته و كتبه فى صحف الملائكة و (ألف سنة) على ظاهره و (فى يوم) يتعلق بالفعلين واعمل الثانى كأنه قيل: يدبر الامر ليوم مقداره كذا ثم يعرج اليه تعالى فيه كما تقول: قصدت و نظرت فى الكتاب أى قصدت الى الكتاب ونظرت فيه ، ولا يمنع اختلاف الصلتين من التنازع ، و تكرار التدبير الى يوم القيامة يدل عليه العدول الى المضارع مع ان الأمر ماض كأنه قيل: يجدد هذا الأمر مستمرا ، وقيل : المعنى يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الارض الى أن تقوم الساعة ثم يعرج اليه تعالى ذلك الامر كله أى يصير اليه سبحانه ليحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة ، وعليه الامر بمعنى الشان والجار ان متعلقان به أو بمحذوف حال منه كما فى سابقه ، والعروج اليه تعالى الصيرورة اليه سبحانه لا ليثبت فى صحف الملائكة بل ليحكم جل وعلا فيه ٭

و (فى يوم) متعلق بالعروج ولا تنازع ، والمراد بيوم مقداره كذا يوم القيامة ، ولا ينافى هذا قوله تعالى : « كان مقداره خمسين ألف سنة » بناء على احد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حسب الشدة أو لأن ثم خمسين موطنا كل موطن الف سنة ، وقيل : المعنى ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام من السماء الى الارض ثم يرجع اليه تعالى ما كان من قبوله او رده مع جبريل عليه السلام فى يوم مقدار مسافة السير فيه الف سنة وهو ما بين السماء و الارض هبوطا وصعودا ، فالأمر عليه مراد به الوحى كما فى قوله تعالى : « يلقى الروح من امره » والعروج اليه تعالى عبارة عن خبر القبول والرد مع عروج جبريل عليه السلام والتدبير والعروج فى اليوم لكن على التوسع والتوزيع فالفعلان متنازعان فى الظرف ولكن لا اختلاف فى الصلة ولا تنافى الآية على هذا قوله تعالى شأنه: (تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) بناء على الوجه الآخر فيه وستعرفهما ان شاء الله تعالى لأن العروج فيه الى العرش وفيها الى السماء الدنيا وكلاهما عروج إلى الله تعالى على التجوز ٭

وقيل : المراد بالأمر المأمور به من الطاعات والاعمال الصالحات، والمعنى ينزل سبحانه ذلك مدبراً من السماء الى الأرض ثم لا يعمل به ولا يصعد اليه تعالى ذلك المأمور به خالصا كما يرتضيه الا فى مدة متطاولة لقلة الخاص من العباد وعليه (يدبر) مضمن معنى الانزال ومن والى متعلقان به، ومعنى العروج الصعود كما فى قوله

www.Quranpdf.blogspot.in

تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب) والغرض من الالف استطالة المدة ، والمعنى استقلال عبادة الخلص واستطالة مدة ما بين التدبير والوقوع ، و (ثم) للاستبعاد ، واستدل لهذا المعنى بقوله تعالى إثر ذلك : (قليلا ما تشكرون) لأن الكلام بعضه مربوط بالبعض وقلة الشكر مع وجود تلك الانعامات دالة على الاستقلال المذكور ه

وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارها في العالم من السماء الى الأرض وزمان طلوعها الى أن تغرب وترجع الى موضعها من الطلوع مقداره في المسافة ألف سنة وهي تقطع ذلك في يوم وليلة . هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها ، ولايخفى على ذى لب تكلف أكثر هذه الأقوال ومخالفته للظاهر جداً وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو . ويظهر لى أن المراد بالسماء جهة العلو مثلها في قوله تعالى : (أأمنتم من في السماء) وبعروج الامر اليه تعالى صعود خبره كما سمعت عن الجماعة و (في يوم) متعلق بالعروج بلا تنازع ، وأقول : إن الآية من المتشابه وأعتقد أن الله تعالى يدبر أمور الدنيا وشؤونها ويريدها متقنة وهو سبحانه مستو على عرشه وذلك هو التدبير من جهة العلو ثم يصعد خبر ذلك مع الملك اليه عز وجل إظهاراً لمزيد عظمته جلت عظمته وعظيم سلطنته عظمت سلطنته الى حكم هو جل وعلا أعلم بها وكل ذلك بمعنى لائق به تعالى بجامع للتنزيه مباين للتشبيه حسبما يقوله السلف في أمثاله ، وقول بعضهم : العرش موضع التدبير وما دونه موضع التفصيل وما دون السموات موضع التصريف فيه رائحة ما مما ذكرنا ، وأما تقدير يوم العروج هنا بالف سنة وفي آية أخرى بخمسين ألف سنة فقد كثر الكلام في توجيهه وقد تقدم لك بعض منه ه

وأخرج عبد الرزاق . وسعيد بن منصور . وابن المنذر . وابن أبي حاتم . وابن الانبارى في المصاحف . والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال : دخلت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فسأله عن قوله تعالى : (يدبر الأمر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة) فكأن ابن عباس اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتخبرني فقال رضي الله تعالى عنه . هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه الله تعالى أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست الى ابن المسيب فسأله عنهما انسان فلم يخبر ولم يدر فقلت : الا أخبرك بما سمعت من ابن عباس ؟ قال : بلى فاخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني ه

وبعض المتصوفة يسمون اليوم المقدر بالف سنة باليوم الربوبي واليوم المقدر بخمسين ألف سنة باليوم الالهي ، ومحيي الدين قدس سره يسمي الأول يوم الرب والثاني يوم المعارج ، وقد ذكر ذلك وأياما أخر كيوم الشان ويوم المثل ويوم القمر ويوم الشمس ويوم زحل وأيام سائر السيارة ويوم الحمل وأيام سائر البروج في الفتوحات ، وقد سألت رئيس الطائفة الكشفية الحادثة في عصرنا في كربلاء عن مسئلة فكتب في جوابها ما كتب واستطرد بيان اطلاقات اليوم وعد من ذلك أربعة وستين اطلاقا ، منها اطلاقه على اليوم الربوبي واطلاقه على اليوم الالهي وأطال الكلام في ذلك المقام ، ولعلنا إن شاء الله تعالى ننقل لك منه شيئاً معتدا به في موضع آخر ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أيضا تمام الكلام فيما يتعلق بالجمع بين هذه الآية وقوله سبحانه : (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) وقوله تعالى : (مما تعدون) صفة (ألف) أوصفة (سنة) ه

وقرأ ابن أبي عبلة (يعرج) بالبناء للمفعول والاصل يعرج به فحذف الجار واستتر الضمير . وقرأ جناح بن حبيش (ثم يعرج الملائكة) اليه بزيادة الملائكة قال أبو حيان : ولعله تفسير منه لسقوطه في سواد المصحف ه

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ السلمى. وابن وثاب. والاعمش. والحسن بخلاف عنه (يعدون) بياء الغيبة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الذات الموصوف بتلك الصفات المقتضية للقدرة التامة والحكمة العامة ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أى كل ما غاب عن الخلق ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى كل ما شاهده الخلق فيدبر سبحانه ذلك على وفق الحكمة، وقيل: الغيب الآخرة والشهادة الدنيا ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الرَّحِيمُ ٦ ﴾ للعباد، وفيه ايماء بأنه عز وجل متفضل فيما يفعل جل وعلا، واسم الاشارة مبتدأ والاوصاف الثلاثة بعده أخبار له، ويجوز أن يكون الاول خبرا والاخيران نعتان للاول.

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما بخفض الأوصاف الثلاثة على أن ذلك إشارة إلى الأمر مرفوع المحل على أنه فاعل (يعرج) والأوصاف مجرورة على البدلية من ضمير (اليه) وقرأ أبو زيد النحوى بخفض الوصفين الأخيرين على أن (ذلك) إشارة إلى الله تعالى مرفوع المحل على الابتداء و(عالم) خبره والوصفان مجروران على البدلية من الضمير، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ خبر رابع أو نعت ثالث أو نصب على المدح، وجوز أبو البقاء كونه خبر مبتدا محذوف أى هو الذى، وكون (العزيز) مبتدأ و(الرحيم) صفته وهذا خبره وجملة (خلقه) فى محل جر صفة (شىء) ويجوز أن تكون فى محل نصب صفة (كل) واحتمال الاستئناف بعيد أى حسن سبحانه كل مخلوق من مخلوقاته لأنه مامن شىء منها إلا وهو مرتب على ماا قتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت فى مراتب الحسن كما يشير اليه قوله تعالى: (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) ونفى التفاوت فى خلقه تعالى فى قوله سبحانه: (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) على معنى ستعرفه إن شاء الله تعالى غير مناف لما ذكر، وجوز أن يكون المعنى علم كيف يخلقه من قوله. قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وايقان، ولا يخفى بعده *

وقرأ العربيان. وابن كثير (خلقه) بسكون اللام فقيل: هو بدل اشتمال من (كل) والضمير المضاف هو اليه له وهو باق على المعنى المصدرى، وقيل: هو بدل كل من كل أو بدل بعض من كل والضمير لله تعالى وهو بمعنى المخلوق، وقيل: هو مفعول ثان لأحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى سبحانه كل شىء خلقه اللائق به بطريق الاحسان والتفضل، وقيل: هو المفعول الأول و(كل شىء) المفعول الثانى وضميره لله سبحانه على تضمين الاحسان معنى الالهام كما قال الفراء أو التعريف كما قال أبو البقاء، والمعنى ألهم أو عرف خلقه كل شىء مما يحتاجون اليه فيؤول الى معنى قوله تعالى: (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) *

واختار أبو على فى الحجة ماذكره سيبويه فى الكتاب انه مفعول مطلق لأحسن من معناه والضمير لله تعالى نحو قوله تعالى: (صنع الله ووعد الله) ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ أى آدم عليه السلام ﴿ مِنْ طِينٍ ٧ ﴾ أو بدأ خلق هذا الجنس المعروف (من طين) حيث بدأ خلق آدم عليه السلام خلقا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا منه، وقرأ الزهرى (بدا) بالألف بدلا من الهمزة قال فى البحر: وليس القياس فى هدأ هدا بابدال الهمزة ألفا بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين على أن الأخفش حكى فى قرأت قريت قيل: وهى لغة الأنصار فهم يقولون فى بدأ بدى بكسر عين الكلمة وياء بعدها، وطىء يقولون فى فعل هذا نحو بقى بقى كرمى فاحتمل أن تكون قراءة الزهرى على هذه اللغة بأن يكون الأصل بدى ثم صار بدا، وعلى

www.Quranpdf.blogspot.in

لغة الأنصار قال ابن رواحة :

باسم الاله وبه بدينا   ولو عبدنا غيره شقينا

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أى ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ أى خلاصة وأصلها مايسل ويخلص بالتصفية ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٨ ﴾ ممتهن لايعتنى به وهو المنى ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ماينبغى ، وأصل التسوية جعل الأجزاء متساوية ، و(ثم) للترتيب الرتبى أو الذكرى ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ أضاف الروح اليه تعالى تشريفا له كما فى بيت الله تعالى وناقة الله تعالى وإشعارا بأنه خلق عجيب وصنع بديع ، وقيل : اضافه لذلك إيماء إلى أن له شأنا له مناسبة ما إلى حضرة الربوبية *

ومن هنا قال أبو بكر الرازى: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ونفخ الروح قيل: مجاز عن جعلها متعلقة بالبدن وهو أوفق بمذهب القائلين بتجرد الروح وأنها غير داخلة فى البدن من الفلاسفة وبعض المتكلمين كحجة الاسلام الغزالى عليه الرحمة ، وقيل : هو على حقيقته والمباشر له الملك الموكل على الرحم واليه ذهب القائلون بأن الروح جسم لطيف كالهواء سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد والنار فى الجمر، وهو الذى تشهد له ظواهر الاخبار وأقام العلامة ابن القيم عليه نحو مائة دليل *

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ التفات إلى الخطاب لايخفى موقع ذكره بعد نفخ الروح وتشريفه بخلعة الخطاب حين صلح للخطاب والجعل ابداعى واللام متعلقة به، والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم، وتقديم السمع لكثرة فوائده فان أكثر أمور الدين لاتعلم إلا من جهته وأفرد لأنه فى الاصل مصدر*

وقيل : للايماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فانه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون وبخلاف الفؤاد فانه يدرك مدركات الحواس بواسطتها وزيادة على ذلك أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعما جليلة لايقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها إلى ماخلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما و تستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما، وقوله تعالى:

﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ٩ ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى والقلة بمعنى النفى كما ينبىء عنه مابعده* ونصب الوصف على أنه صفة لمحذوف وقع معمولا لتشكرون أى شكرا قليلا تشكرون أو زمانا قليلا تشكرون *

واستظهر الخفاجى عليه الرحمة كون الجملة حالية لا اعتراضية ﴿ وَقَالُوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بأن ماذكر من عدم شكرهم تلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ، وروى أن القائل أبى بن خلف فضمير الجمع لرضا الباقين بقوله ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ضعنا فيها بأن صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه فهو من ضل المتاع إذا ضاع أو غبنا فيها بالدفن وإن لم نصر ترابا واليه ذهب قطرب، وأنشد قول النابغة يرثى النعمان بن المنذر :

وآب مضلوه بعين جلية   وغودر بالجولان حزم ونائل

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ يحيى بن يعمر. وابن محيصن. وأبو رجاء. وطلحة. وابن وثاب (ضللنا) بكسر اللام ويقال: ضل يضل كضرب يضرب وضل يضل كعلم يعلم وهما بمعنى والأول اللغة المشهورة الفصيحة وهى لغة نجد والثانى لغة أهل العالية *
وقرأ أبو حيوة (ضللنا) بضم الضاد المعجمة وكسر اللام ورويت عن على كرم الله تعالى وجهه *
وقرأ الحسن. والاعمش. وابان بن سعيد بن العاصى (صللنا) بالصاد المهملة وفتح اللام ونسبت الى على كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وعن الحسن أنه كسر اللام ويقال فيه نحو ما يقال فى ضل بالضاد المعجمة وزيادة أصل بالهمزة كافعل، قال الفراء: والمعنى صرنا بين الصلة وهى الارض اليابسة الصلبة كأنها من الصليل لأن اليابس الصاب اذا انشق يكون له صليل، وقيل: أنتنا من الصلة وهو النتن، وقيل للارض الصلة لأنها است الدنيا وتقول العرب ضع الصلة على الصلة، وقال النحاس لا نعرف فى اللغة صللنا ولكن يقال أصل اللحم وصل وأخم وخم إذا نتن وهذا غريب منه. وقرأ ابن عامر (إذا) بترك الاستفهام والمراد الاخبار على سبيل الاستهزاء والتهكم والعامل فى (اذا) ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ءأنا لفى خلق جديد﴾ وهو نبعث أو يجدد خلقنا، ولا يصح أن يكون هو العامل لمكان الاستفهام وإن وكل منهما لا يعمل ما بعده فيما قبله ويعتبر ما ذكر من نبعث أو يجدد خلقنا جوابا لاذا إذا اعتبرت شرطية لا ظرفية محضة والهمزة للانكار والمراد تأكيد الانكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقديمها على أداته فانها مؤخرة عنها فى الاعتبار وتقديمها عليها لقوة اقتضائها الصدارة *

وقرأ نافع. والكسائى. ويعقوب (اذا) بترك الاستفهام على نحو ما ذكر آنفا ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون ١٠﴾ إضراب وانتقال عن بيان كفرهم بالبعث الى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بلقاء ملائكة ربهم عند الموت وما يكون بعده جميعا، وقيل: هو اضراب وترق من التردد فى البعث واستبعاده الى الجزم بجحده بناء على أن لقاء الرب كناية عن البعث، ولا يضر فيه على ما قال الخفاجى كون الاستفهام السابق انكاريا وهو يؤل الى الجحد فتأمل ﴿قل﴾ ردا عليهم ﴿يتوفاكم ملك الموت﴾ يستوفى نفوسكم لا يترك منها شيئا من أجزائها أولا يترك شيئا من جزئياتها ولا يبقى أحدا منكم، وأصل التوفى أخذ الشئ بتمامه، وفسر بالاستيفاء لأن التفعل والاستفعال يلتقيان كثيرا كتقضيته واستقضيته وتعجلته واستعجلته، ونسبة التوفى الى ملك الموت باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام يباشر قبض الانفس بأمره عز وجل كما يشير اليه قوله سبحانه: ﴿الذى وكل بكم﴾ أى بقبض أنفسكم ومعرفة انتهاء آجالكم *

وأخرج ابن أبى حاتم. وأبو الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على رضى الله تعالى عنهما قال: دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على رجل من الانصار يعوده فاذا ملك الموت عليه السلام عند رأسه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ياملك الموت ارفق بصاحبي فانه مؤمن فقال: أبشر يامحمد فانى بكل مؤمن رفيق واعلم يا محمد انى لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فاقوم فى جانب من الدار فاقول والله مالى من ذنب وان لى لعودة وعودة الحذر الحذر وما خلق الله تعالى من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر فى بر ولا بحر الا وانا أتصفحهم فيه كل يوم وليلة خمس مرات حتى انى لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله يا محمد انى لا أقدر أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى الذى يأمر بقبضه، وأخرج نحوه

www.Quranpdf.blogspot.in

الطبرانى. وابو نعيم. وابن منده و نسبته اليه عز وجل فى قوله سبحانه: (الله يتوفى الانفس) باعتبار أن أفعال العباد كلها مخلوقة له جل وعلا لامدخل للعباد فيها بسوى الـكسب كما يقوله الاشاعرة أو باعتبار ان ذلك باذنه تعالى ومشيئته جل شأنه ونسبته الى الرسل فى قوله تعالى: (توفته رسلنا) والى الملائـكة فى قوله سبحانه: (الذين تتوفاهم الملائـكة ظالمى انفسهم) لما أن ملك الموت لايستقل به بل له اعوان كما جاء فى الآثار يعالجون نزع الروح حتى إذا قرب خروجها اقبضها ملك الموت ، وقيل: المراد بملك الموت الجنس، وقال بعضهم: إن بعض الناس يتوفاهم ملك الموت وبعضهم يتوفاهم الله عزوجل بنفسه، أخرج ابن ماجه عن أبى أمامة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله تعالى وكل ملك الموت عليه السلام بقبض الارواح الا الشهداء البحر فانه سبحانه يتولى قبض ارواحهم » وجاء ذلك أيضا فى خبر آخر يفيد أن ملك الموت للانس غيره ملك الموت للجن والشياطين ومالا يعقل. أخرج ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: وكل ملك الموت عليه السلام بقبض أرواح المؤمنين فهو الذى يلى قبض أرواحهم وملك فى الجن وملك فى الشياطين وملك فى الطير والوحش والسباع والحيتان والنمل فهم أربعة أملاك والملائـكة يموتون فى الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلى قبض أرواحهم ثم يموت وأما الشهداء فى البحر فان الله تعالى يلى قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت بكرامتهم عليه سبحانه ٭

والذى ذهب اليه الجمهور أن ملك الموت لمن يعقل ومالا يعقل من الحيوان واحد وهو عزرائيل ومعناه عبد الله فيما قيل نعم له أعوان كما ذكرنا ، وخبر الضحاك عن ابن عباس الله تعالى أعلم بصحته ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١ ﴾ بالبعث للحساب والجزاء . ومناسبة هذه الآية لما قبلها على ماذكرنا فى توجيه الاضراب ظاهرة لأنهم لما جحدوا لقاء ملائـكة ربهم عند الموت ومايكون بعده ذكر لهم حديث توفى ملك الموت إياهم ايماء إلى أنهم سيلاقونه وحديث الرجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء، وأما على ماقيل فوجه المناسبة أنهم لما أنـكروا البعث والمعاد رد عليهم بماذكر لتضمن قوله تعالى: (ثم إلى ربكم ترجعون) البعث وزيادة ذكر توفى ملك الموت اياهم وكونه موكلا بهم لتوقف البعث على وفاتهم ولتهديدهم وتخويفهم وللاشارة إلى أن القادر على الاماتة قادر على الاحياء، وقيل: إن ذلك لرد مايشعر به كلامهم من أن الموت بمقتضى الطبيعة حيث أسندوه إلى أنفسهم فى قولهم: (أئذا ضللنا فى الأرض) فليس عندهم بفعل الله تعالى ومباشرة ملائـكته ، ولا يخفى بعده . وابعد منه ماقيل فى المناسبة : إن عزرائيل وهو عبد من عبيده تعالى إذا قدر على تخليص الروح من البدن مع سريانها فيه سريان ماء الورد فى الورد والنار فى الجمر فكيف لا يقدر خالق القوى والقدر جل شأنه على تمييز اجزائهم المختلطة بالتراب وكيف يستبعد البعث مع القدرة الـكاملة له عز وجل لما أن ذلك السريان مما خفى على العقلاء حتى أنـكره بعضهم فكيف بجهلة المشركين فتأمل . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (ترجعون) بالبناء للفاعل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وهم القائلون : (أئذا ضللنا فى الارض) أو جنس المجرمين وهم من جملتهم ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ مطرقوها من الحياء والخزى ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ حين حسابهم لما يظهر من قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (نـكسوا رؤسهم) فعلا ماضيا ومفعولا ﴿ رَبَّنَا ﴾ بتقدير القول الواقع حالا والعامل فيه (ناكسوا) أى يقولون ربنا الخ وهو أولى من تقدير يستغيثون بقولهم : ربنا

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا صما لاندرك شيئاً ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات وهذا على ماقيل ادعاء منهم لصحة مشعرى البصر والسمع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ استئناف لتعليل ماقبله، وقيل: استئناف لم يقصد به التعليل، وعلى التقديرين هو متضمن لادعائهم صحة الافئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بمايوجبها، وفيه من اظهار الثبات على الايقان وكمال رغبتهم فيه مافيه، وكأنه لذلك لم يقولوا: أبصرنا وسمعنا وأيقنا فارجعنا الخ، ولعل تأخير السمع لأن أكثر العمل الصالح الموعود يترتب عليه دون البصر فكان عدم الفصل بينهما بالبصر أولى، ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه بأن يقال: أبصرنا البعث الذى كنا ننكره وماوعدتنا به على إنكاره وسمعنا منك مايدل على تصديق رسلك عليهم السلام ويراد به نحو قوله تعالى: (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) لا الاخبار الصريح بلفظ ان رسلى صادقون مثلا أو يقال أبصرنا البعث وماوعدتنا به وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سمع طاعة واذعان أو يقال: أبصرنا قبح أعمالنا التى كنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا قول الملائكة لنا إن مردكم إلى النار، وقيل: أرادوا أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم حين كنا فى الدنيا أو أبصرنا آياتك التكوينية وسمعنا آياتك التنزيلية فى الدنيا فلك الحجة علينا وليس لنا حجة فارجعنا الخ، ولايخفى حال هذا القيل، وعلى سائر هذه التقادير وجه تقديم الابصار على السماع ظاهر، و «لو» هى التى سماها غير واحد امتناعية وجوابها محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لايقادر قدره والخطاب فى «ترى» لكل أحد ممن يصح منه الرؤية إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لايختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعته، وقيل: لأن القصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلايختص برؤيتها راء دون راء، والجواب المقدر أوفق بماذكر أولا، والفعل منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول أى لوتكن منك رؤية فى ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً، وجوز أن يكون الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين ﷺ و «لو» للتمنى كأنه قيل: ليتك ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم لتشمت بهم، وحكم التمنى منه تعالى حكم الترجى وقد تقدم، ولاجواب لها حينئذ عند الجمهور، وقال أبو حيان. وابن مالك: لابد لها من الجواب استدلالا بقول مهلهل فى حرب البسوس:

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أى زير

بيوم الشعثمين لقر عينا وكيف لقاء من تحت القبور

فان لو فيه للتمنى بدليل نصب فيخبر وله جواب وهو قوله لقر، ورد بأنها شرطية ويخبر عطف على مصدر متصيد من نبش كأنه قيل: لو حصل نبش فاخبار، ولايخفى مافيه من التكلف، وقال الخفاجى عليه الرحمة: لو قيل: انها لتقدير التمنى معها كثيرا أعطيت حكمه واستغنى عن تقدير الجواب فيها اذا لم يذكر كما فى الوصلية ونصب جوابها كان أسهل مما ذكر، وجوز أن يقدر لترى مفعول دل عليه مابعد أى لو ترى المجرمين أو لو ترى نكسهم رؤسهم والمضى فى لو الامتناعية واذ لأن اخباره تعالى عما تحقق فى علمه الازلى لتحققه بمنزلة الماضى

www.Quranpdf.blogspot.in

فيستعمل فيه مايدل على المضى مجازا كلو واذ، هذا ومن الغريب قول أبى العباس فى الآية: المعنى قل يامحمد للمجرم ولو ترى وقد حكاه عنه أبو حيان ثم قال: رأى أن الجملة معطوفة على (يتوفاكم) داخلة تحت «قل» السابق ولذا لم يجعل الخطاب فيه للرسول عليه الصلاة والسلام انتهى كلامه فلا تغفل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ مقدر بقول معطوف على مقدر قبل قوله تعالى: (ربنا أبصرنا) الخ وهو جواب لقولهم (ارجعنا) يفيد أنهم لو أرجعوا لعادوا لما نهوا عنه لسوء اختيارهم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى اعطاءهم الهدى أى ونقول: لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بأن نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة هداها أى ماتهتدى به إلى الايمان والعمل الصالح، وفسره بعضهم بنفس الايمان والعمل الصالح والاول أولى، وأما تفسيره بما سأله الكفرة من الرجوع إلى الدنيا أو بالهداية إلى الجنة فليس بشىء لأعطيناها اياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وماأخرناه إلى دار الجزاء ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ أى ثبت وتحقق قولى وسبقت كلمتى حيث قلت لابليس عند قوله: (لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين: فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣ ﴾ ما يلوح به تقديم الجنة على الناس فانه فى الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك لأنه الاوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديم فى الموضعين لأن الجهنميين من الجنة أكثر *

ويعلم بما ذكرنا وجه العدول عن ضمير العظمة فى قوله سبحانه: (ولو شئنا لآتينا) الى ضمير الوحدة فى قوله جل وعلا: (ولكن حق القول منى) وذلك لأن ماذكر اشارة إلى ما وقع فى الرد على اللعين وقد وقع فيه القول والاملاء مسندين الى ضمير الوحدة ليكون الكلام على طرز «لأغوينهم أجمعين الا عبادك» فى توحيد الضمير، وقد يقال: ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها «كل نفس» والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه (من الجنة والناس) أو يقال: إنه وحد الضمير فى الوعيد لما أن المعنى به المشركون فكأنه أخرج الكلام على وجه لايتوهم فيه متوهم نوعا من أنواع الشركة أصلا أو أخرج على وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد الى ما ارتكبوه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك، أو يقال: وحد الضمير فى «لأملأن» لأن الاملاء لاتعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك فى (حق القول منى) والايتاء يتعدد بتعدد المؤتى فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره فى (شئنا) فتدبر، ولا يلزم من قوله تعالى: «أجمعين» دخول جميع الجن والانس فيها، وأما قوله تعالى: (وان منكم الا واردها) فالورود فيه غير الدخول، وقد مر الكلام فى ذلك لأن «أجمعين» تفيد عموم الانواع لاالافراد فالمعنى لأملأنها من ذينك النوعين جميعا كملأت الكيس من الدراهم والدنانير جميعا كذا قيل، ورد بأنه لو قصد ماذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بان يقال كليهما، واستظهر أنها لعموم الافراد والتعريف فى (الجنة والناس) للعهد والمراد عصاتهما ويؤيده الآية المتضمنة خطاب ابليس، وحاصل الآية لو شئنا ايتاء كل نفس هداها لآتيناها اياه لكن تحقق القول منى لأملأن جهنم الخ فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من أتباع ابليس الذين انتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى باغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلال لم نشأ اعطاءه لكم وانما اعطيناه الذين أختاروه من البررة وهم المعنيون بما سيأتى إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: (انما يؤمن بآياتنا) الآية

www.Quranpdf.blogspot.in

فيكون مناط عدم مشيئته تعالى اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول، وانما قيدت المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى أنه لا يصرف اختيارهم فيما سيأتى الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو أريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها بأن يقال: ولكن لم نشأ ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) كذا قال بعض الاجلة *

وقد يقال: يجوز أن يراد بالمشيئة المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم ويراد بالقول علم الله تعالى فانه وكذا كلمة الله سبحانه يطلق على ذلك كما قال الراغب، وذكر منه قوله تعالى: (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) وقوله سبحانه: (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) وحاصل المعنى لو شئنا فى الازل ايتاء كل نفس هداها فى الدنيا لآتيناها اياه ولكن ثبت وتحقق علمى أزلا بتعذيب العصاة فبموجب ذلك لم نشأ اذ لابد من وقوع المعلوم على طبق العلم لئلا يلزم انقلاب العلم جهلا ووقوع ذلك يستدعى وجود العصاة اذ تعذيب العصاة فرع وجودهم ومشيئة ايتاء الهدى كل نفس تستلزم طاعة كل نفس ضرورة استلزام العلة المعلول فيلزم أن تكون النفس المعذبة عاصية طائعة وهو محال وهذا المحال جاء من مشيئته إيتاء كل نفس هداها مع علمه تعالى بتعذيب العصاة فاما أن ينتفى العلم المذكور وهو محال لأن تعلق علمه سبحانه بالمعلوم على ما هو عليه ضرورى فتعين انتفاء المشيئة لذلك ويرجع هذا بالآخرة الى أن سبب انتفاء مشيئته ايتاء الهدى للعصاة سوء ماهم عليه فى أنفسهم لأن المشيئة تابعة للعلم والعلم تابع للمعلوم فى نفسه فعلمه تعالى بتعذيب العصاة يستدعى علمه سبحانه إياهم بعنوان كونهم عصاة فلا يشاؤهم جل جلاله الا بهذا العنوان الثابت لهم فى أنفسهم ولا يشاؤهم سبحانه على خلافه لأن مشيئته تعالى اياهم كذلك تستدعى تعلق العلم بالشىء على خلاف ماهو عليه فى نفس الامر وليس ذلك علما *

ويمكن أن يبقى العلم على ظاهره ويقال: انه تعالى لم يشأ هداهم لأنه جل وعلا قال لابليس عليه اللعنة: إنه سبحانه يعذب أتباعه ولا بد ولا يقول تعالى خلاف مايعلم فلا يشاء تبارك وتعالى خلاف ما يقول ويرجع بالآخرة أيضا الى أنه تعالى لم يشأ هداهم لسوء ما هم عليه فى أنفسهم بأدنى تأمل، ومآل الجواب على التقريرين لا فائدة لكم فى الرجوع لسوء ما أنتم عليه فى أنفسكم، ولا يخفى ان ماذكر مبنى على القول بالاعيان الثابتة وان الشقى شقى فى نفسه والسعيد سعيد فى نفسه وعلم الله تعالى انما تعلق بهما على ماهما عليه فى أنفسهما وان مشيئته تعالى انما تعلقت بايجادهما حسبما علم جل شأنه فوجدا فى الخارج بايجاده تعالى اياهما على ماهما عليه فى أنفسهما فاذا تم هذا تم ذاك والافلا، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الامر بالذوق على مايعرب عنه ماقبل من نفى الرجع الى الدنيا أو على قوله تعالى: (ولكن حق القول منى) الخ، ولعل هذا أسرع تبادرا، وجعلها بعضهم واقعة فى جواب شرط مقدر أى اذا يئستم من الرجوع أو اذا حق القول فذوقوا، وجوز كونها تفصيلية والأمر للتهديد والتوبيخ، والباء فى قوله سبحانه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ للسببية و(ما) مصدرية و(هذا) صفة يوم جىء به للتهويل، وجوز كونه مفعول (ذوقوا) وهو اشارة الى ماهم فيه من نكس الرؤس والخزى والغم، وعلى الأول يكون مفعول (ذوقوا) محذوفا والوصفية أظهر أى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل

www.Quranpdf.blogspot.in

وتركهم التفكر فيه والتزود له بالكلية، وهذا تصريح بسبب العذاب من قبلهم فلا ينافي أن يكون له سبب آخر حقيقيا كان أو غيره، والتوبيخ به من بين الاسباب لظهوره وكونه صادرا منهم لا يسعهم انكاره، والمراد بنسيانهم ذلك تركهم التفكر فيه والتزود له كما أشرنا اليه وهو بهذا المعنى اختيارى يوبخ عليه ولا يكاد يصح ارادة المعنى الحقيقي وإن صح التوبيخ عليه باعتبار تعمد سببه من الانهماك فى اتباع الشهوات، ومثله فى كونه مجازا النسيان فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة وجعل بعضهم هذا من باب المشاكلة ولم يعتبر كون الأول مجازا مانعا منها قيل: والقرينة على قصد المشاكلة فيه انه قصد جزاؤهم من جنس العمل فهو على حد (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، وقوله تعالى: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المبهم للذوق والاشعار بأن سببه ليس مجرد ماذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا، ولما كان فيه زيادة على الأول حصلت به مغايرته له استحق العطف عليه ولم ينظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل من النسيان وما ذكر فى استيجاب العذاب، وفى ابهام المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير الامر وتوسيط الاستئناف المنبىء عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى *

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء الهدى والاشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا الدالة على شؤوننا ولا تعملون بموجبها عملا صالحا ولو ارجعنا كم إلى الدنيا وانما يؤمن ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ أى وعظوا ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أثر ذى أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف إلى معاينة مانطقت به من الوعد والوعيد أى سقطوا ساجدين تواضعا لله تعالى وخشوعا وخوفا من عذابه عز وجل، قال أبو حيان: هذه السجدة من عزائم سجود القرآن، وقال ابن عباس: السجود هنا الركوع *

وروى عن ابن جريج. ومجاهد ان الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا اذا أقيمت الصلاة خرجوا من المسجد فكان الركوع يقصد من هذا ويلزم على هذا ان تكون الآية مدنية ومن مذهب ابن عباس أن القارىء لآية السجدة يركع واستدل بقوله تعالى: (وخر راكعا وأناب) اه‍ *

ولا يخفى ما فى الاستدلال من المقال ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى ونزهوه تعالى عند ذلك عن كل مالا يليق به سبحانه من الأمور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه جل وعلا التى أجلها الهداية بايتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها فالحمد فى مقابلة النعمة، والباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال، والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة إلى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد بانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ١٥ ﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبرا كأن لم يسمع الآيات، والجملة عطف على الصلة أو حال من أحد ضميرى (خروا وسبحوا) وجوز عطفها على أحد الفعلين، وقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ جملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم * وجوز أن تكون حالية أو خبرا ثانيا للمبتدأ، والتجافى البعد والارتفاع؛ والجنوب جمع جنب الشقوق، وذكر

www.Quranpdf.blogspot.in

الراغب أن أصل الجنب الجارحة ثم يستعار فى الناحية التى تليها كعادتهم فى استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال، و(المضاجع) جمع المضجع أماكن الاتكاء للنوم أى تتنحى وترتفع جنوبهم عن مواضع النوم وهذا كناية عن تركهم النوم ومثله قول عبد الله بن رواحة يصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

نبي تجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمشهور أن المراد بذلك التجافى القيام لصلاة النوافل بالليل وهو قول الحسن . ومجاهد . ومالك . والاوزاعى . وغيرهم. وفى الأخبار الصحيحة مايشهد له ، أخرج أحمد . والترمذى وصححه . والنسائى. وابن ماجه . ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة . وابن جرير . وابن أبى حاتم . والحاكم . وصححه . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الايمان عن معاذ بن جبل قال : «كنت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت: يانبي الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار؟ قال : لقد سألت عن عظيم وانه يسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ يعملون» الحديث .

وقال أبو الدرداء . وقتادة . والضحاك هو أن يصلى الرجل العشاء والصبح فى جماعة، وعن الحسن. وعطاء هو أن لاينام الرجل حتى يصلى العشاء ، أخرج الترمذى وصححه . وابن جرير . وغيرهما عن أنس قال: إن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال فيها: نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : هو أن يصلى الرجل المغرب ويصلى بعدها إلى العشاء، فقد أخرج عبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد . وابن عدى . وابن مردويه عن مالك بن دينار قال : سألت أنس بن مالك عن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال : كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ويصلون بعدها إلى عشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم ، وقال قتادة . وعكرمة : هو أن يصلى الرجل ما بين المغرب والعشاء ، واستدل له بما أخرجه محمد بن نصر عن عبد الله بن عيسى قال: كان ناس من الأنصار يصلون مابين المغرب والعشاء فنزلت فيهم (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى الآية : تتجافى جنوبهم لذكر الله تعالى كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل اما فى الصلاة واما فى قيام أو قعود أو على جنوبهم لايزالون يذكرون الله تعالى ، وروى نحوه هو . ومحمد بن نصر عن الضحاك . والجمهور عولوا على ماهو المشهور ، وفى فضل التهجد ما لايحصى من الأخبار وأفضله على مانص عليه غير واحد ماكان فى الأسحار .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ حال من ضمير (جنوبهم) وقد أضيف اليه ماهو جزء، وجوز على احتمال كون جملة (تتجافى) الخ حالية أن تكون حالا ثانية مما جعلت تلك حالا منه وعلى احتمال كونها خبرا ثانيا للمبتدا أن تكون خبرا ثالثا ، وجوز كونها مستأنفة ، والظاهر أن المراد بدعائهم ربهم سبحانه المعنى المتبادر ، وقيل : المراد به الصلاة ﴿ خَوْفًا ﴾ أى خائفين من سخطه تعالى وعذابه عز وجل وعدم قبول عبادتهم ﴿ وَطَمَعًا ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

فى رحمته تبارك و تعالى فالمصدران حالان من ضمير (يدعون) وجوز أن يكونا مصدرين لمقدر أى يخافون خوفا ويطمعون طمعا وتكون الجملة حينئذ حالا، وأن يكونا مفعولا له ولا يخفى أن الآية على الحالية أمدح *

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ إياه من المال ﴿ يُنْفِقُونَ ١٦ ﴾ فى وجوه الخير ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ أى كل نفس من النفوس لاملك مقرب ولانبى مرسل فضلا عمن عداهم فان النكرة فى سياق النفى تعم، والفاء سببية أو فصيحة أى أعطوا فوق رجاءهم فلا تعلم نفس ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة ﴿ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أى مما تقر به أعين، وفى إضافة القرة إلى الاعين على الاطلاق لاالى أعينهم تنبيه على أن ماأخفى لهم فى غاية الحسن والكمال *

وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتكم عليه اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » وأخرج الفريابى . وابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والطبرانى . والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنه لمكتوب فى التوراة (لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر) ولا يعلم ملك مقرب ولانبى مرسل وأنه لفى القرآن فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ ﴾ أى جوزوا جزاء بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة فجزاء مفعول مطلق لفعل مقدر والجملة مستأنفة *

وجوز جعلها حالية ، وقيل : يجوز جعله مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة المتقدمة ، وقيل : يجوز أن يكون مفعولا له لقوله تعالى : (لاتعلم نفس) على معنى منعت العلم للجزاء أو لأخفى فان اخفاءه لعلو شأنه ، وعن الحسن أنه قال : أخفى القوم أعمالا فى الدنيا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت أى أخفى ذلك ليكون الجزاء من جنس العمل *

وفى الكشف أن هذا يدل على أن الفاء فى قوله تعالى: (فلا تعلم) رابطة للاحق بالسابق وأصله فلا يعلمون والعدول لتعظيم الجزاء، وعدم ذكر الفاعل فى (أخفى) ترشيح له لأن جازيه من هو العظيم وحده فلا يذهب وهل الى غيره سبحانه اه فتأمل *

وقرأ حمزة . ويعقوب . والأعمش (أخفى) بسكون الياء فعلا مضارعا للمتكلم، وابن مسعود (نخفى) بنون العظمة، والأعمش أيضا (أخفيت) بالاسناد الى ضمير المتكلم وحده، ومحمد بن كعب (أخفى) فعلا ماضيا مبنيا للفاعل

و(ما) فى جميع ذلك اسم موصول مفعول (تعلم) والعلم بمعنى المعرفة والعائد الضمير المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور وضميره محذوف على غيرها، وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون (ما) أستفهامية وموضعها رفع بالابتداء و(أخفى لهم) خبره على قراءة من فتح الياء وعلى قراءة من سكنها وجعل (أخفى) مضارعا يكون (ما) فى موضع نصب بأخفى ويعلم منه حالها على سائر القراءات ، واذا كانت استفهامية يجوز أن يكون العلم بمعنى المعرفة وأن يكون على ظاهره فيتعدى لمفعولين تسد الجملة الاستفهامية مسدهما، وعلى كل من احتمالى الموصولية والاستفهامية فالابهام للتعظيم. وقرأ عبد الله. وأبو الدرداء. وأبو هريرة. وعون. والعقيلى (من قرات) على الجمع بالالف والتاء، وهى رواية عن أبى عمرو. وأبى جعفر والأعمش، وجمع المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرة، والجار والمجرور فى موضع الحال *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذي حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذكرت أحواله القبيحة العاطلة، وأصل الفسق الخروج من فسقت الثمرة اذا خرجت من قشرها ثم استعمل في الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع مطلقا فهو أعم من الكفر وقد يخص به كما في قوله تعالى: (ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) وكما هنا لمقابلته بالمؤمن مع ماستسمعه بعد ان شاء الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ١٨ ﴾ التصريح به مع افادة الانكار لنفي المشابهة بالمرة على ابلغ وجه وآكده لزيادة التأكيد وبناء التفصيل الآتي عليه، والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها، وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمن والكافر والتثنية جمع *

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين بعد نفي استوائهما وقيل: بعد ذكر أحوالها في الدنيا، وأضيفت الجنان إلى المأوى لأنها المأوى والمسكن الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، وقيل: المأوى علم لمكان مخصوص من الجنان كعدن، وقيل: جنة المأوى لما روى عن ابن عباس، أنها تاوي اليها أرواح الشهداء، وروى أنها عن يمين العرش ولا يخفى ما في جعله علما من البعد وأياما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التي هي ماواهم في الدنيا،

وقرأطلحة (جنة الماوى) بالافراد ﴿ نُزُلًا ﴾ أي ثوابا وهو في الأصل مايعد للنازل من الطعام والشراب والصلة ثم عم كل عطاء، وانتصابه على أنه حال من (جنات) والعامل فيه الظرف، وجوز أن يكون جمع نازل فيكون حالا من ضمير (الذين آمنوا) وقرأ أبو حيوة (نزلا) باسكان الزاي كما في قوله *

وكنا اذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٩ ﴾ أي بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا من الاعمال الصالحة على ان ما موصولة والعائد محذوف والباء سببية، وكون ذلك سببا بمقتضى فضله تعالى ووعده عز وجل فلا ينافي حديث «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله» ويجوز أن تكون الباء للمقابلة والمعاوضة كهي في نحو بعتك الدار على الف درهم أي فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونه *

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿ فَمَأْوَاهُمُ ﴾ أي فمسكنهم ومحلهم ﴿ النَّارُ ﴾ وذكر بعضهم أن المأوى صار متعارفا فيما يكون ملجأ للشخص ومستراحا يستريح اليه من الحر والبرد ونحوهما فاذا أريد هنا يكون في الكلام استعارة تهكمية كما في قوله تعالى (فبشرهم بعذاب اليم)، وجوز أن يكون استعمال ذلك من باب المشاكلة لأنه لما ذكر في أحد القسمين فلهم جنات المأوى ذكر في الآخر (فمأواهم النار) ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا ﴾ استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم والكلام على حد قوله تعالى: (جدارا يريد أن ينقض) على ماقيل، والمعنى كلما شارفوا الخروج منها وقربوا منه أعيدوا فيها ودفعوا الى قعرها، فقد روى أنهم يضربهم لهب النار فيرتفعون الى أعلاها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون الى قعرها وهكذا يفعل بهم أبدا، وقيل: الكلام على ظاهره إلا أن فيه حذفا أي

www.Quranpdf.blogspot.in

كلما أرادوا أن يخرجوا منها نخرجوا من معظمها أعيدوا فيها، ويشير الى أن الخروج من معظمها قوله تعالى : (فيها) دون اليها ، وجوز أن يكون الكلام هنا عبارة عن خلودهم فيها، وأياما كان لامنافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : « وماهم بخارجين من النار » ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ تشديدا عليهم وزيادة في غيظهم *

﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ ﴾ اى بعذاب النار ﴿ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾ على الاستمرار فى الدنيا وأظهرت النار مع تقدمها قبل لزيادة التهديد والتخويف وتعظيم الأمر، وذكر ابن الحاجب فى أماليه وجها آخر للاظهار وهو أن الجملة الواقعة بعد القول حكاية لما يقال لهم يوم القيامة عند ارادتهم الخروج من النار فلا يناسب ذلك وضع الضمير اذ ليس القول حينئذ مقدما عليه ذكر النار وانما ذكرها سبحانه قبل اخبارا عن احوالهم ، ونظر فيه الطيبي عليه الرحمة بأن هذا القول داخل أيضا فى حيز الاخبار لعطفه على (أعيدوا) الواقع جوابا لكلما فكما جاز الاضمار فى المعطوف عليه جاز فيه أيضا ان لم يقصد زيادة التهديد والتخويف *

ورد بأن المانع انه حكاية لما يقال لهم يوم القيامة والاصل فى الحكاية أن تكون على وفق المحكى عنه دون تغيير ولا اضمار فى المحكى لعدم تقدم ذكر النار فيه . وتعقب بأنه قد يناقش فيه بأن مراده انه يجوز رعاية المحكى والحكاية وكما أن الاصل رعاية المحكى الاصل الاضمار إذا تقدم الذكر فلا بد من مرجح *

وقال بعض المحققين: اراد ابن الحاجب أن الاظهار هو المناسب فى هذه الجملة نظرا الى ذاتها ونظرا الى سياقها أما الاول فلأنها تقال من غير تقدم ذكر النار، وأما الثانى فلأن سياق الآية للتهديد والتخويف وتعظيم الامر وفى الاظهار من ذلك ماليس فى الاضمار، وهذا بعيد من أن يرد عليه نظر الطيبي ،والانصاف ان كلا من الاضمار والاظهار جائز وأنه رجح الاظهار اقتضاء السياق لذلك. ونقل عن الراغب مايدل على أن المقام فى هذه الآية مقام الضمير حيث ذكر عنه أنه قال فى درة التنزيل: إنه تعالى قال ههنا (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) وقال سبحانه فى آية أخرى:(عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) فذكر جل وعلا ههنا وأنث سبحانه هناك والسر فى ذلك أن النار ههنا وقعت موقع الضمير والضمير لا يوصف فأجرى الوصف على العذاب المضاف اليها وهو مذكر وفى تلك الآية لم يجر ذكر النار فى سياقها فلم تقع النار موقع الضمير فأجرى الوصف عليها وهى مؤنثة دون العذاب فتأمل ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ أى الاقرب ، وقيل : الاقل وهو عذاب الدنيا فانه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ، واختلف فى المراد به فروى النسائى . وجماعة وصححه الحاكم عن ابن مسعود أنه سنون أصابتهم ، وروى ذلك عن النخعى . ومقاتل، وروى الطبرانى . وآخرون وصححه والحاكم عن ابن مسعود أيضا أنه ما أصابهم يوم بدر . وروى نحوه عن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما بلفظ هو القتل بالسيف نحو يوم بدر ، وعن مجاهد القتل والجوع *

وأخرج مسلم . وعبدالله بن احمد فى زوائد المسند. وأبو عوانة فى صحيحه، وغيرهم عن أبى بن كعب أنه قال: هو مصائب الدنيا والروم والبطشة والدخان، وفى لفظ مسلم أو الدخان *

وأخرج ابن المنذر . وابن جرير . عن ابن عباس أنه قال : هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها، وفى رواية عنه . وعن الضحاك . وابن زيد بلفظ مصائب الدنيا فى الانفس والاموال، وفى معناه ما أخرج ابن مردويه عن أبى ادريس الخولانى قال: سألت عبادة بن الصامت عن قوله تعالى : (ولنذيقنهم) الآية فقال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها فقال عليه الصلاة والسلام : هى المصائب والاسقام والآصار عذاب للمسرف

www.Quranpdf.blogspot.in

فى الدنيا دون عذاب الآخرة قلت: يارسول الله فما هى لنا؟ قال: زكاة وطهور، وفى رواية عن ابن عباس انه الحدود
وأخرج هنا عن عن أبى عبيدة أنه فسره بعذاب القبر، وحكى عن مجاهد أيضا ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ هو عذاب يوم القيامة كما روى عن ابن مسعود. وغيره، وقال: ابن عطية لاخلاف فى أنه ذلك، وفى التحرير إن اكثرهم على أن العذاب الاكبر عذاب يوم القيامة فى النار، وقيل: : هو القتل والسبي والاسر، وعن جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنهما أنه خروج المهدى بالسيف انتهى. وعليهما يفسر العذاب الادنى بالسنين أو الاسقام أو نحو ذلك بما يكون أدنى مما ذكر، وعن بعض أهل البيت تفسيره بالدابة والدجال، والمعول عليه ما عليه الاكثر ﴿
وانما لم يقل الاصغر فى مقابلة (الاكبر) أو الابعد فى مقابلة (الأدنى) لأن المقصود هو التخويف والتهديد وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر وبالكبر لا بالبعد، قاله النيسابورى ملخصا له من كلام الامام، وكذا أبو حيان الا أنه قال: إن الادنى يتضمن الأصغر لأنه منقض بموت المعذب والاكبر يتضمن الأبعد لأنه واقع فى الآخرة فحصلت المقابلة من حيث التضمن وصرح بما هو آكد فى التخويف ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١ ﴾ أى لعل من بقى منهم يتوب قاله ابن مسعود، وقال الزمخشرى: أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله تعالى: (فارجعنا نعمل صالحا) وسميت ارادة الرجوع رجوعا كما سميت ارادة القيام قياما فى قوله تعالى: (اذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) ويدل عليه قراءة من قرأ (يرجعون) على البناء للمفعول انتهى ﴿
وهو على ماحكى عن مجاهد وروى عن أبى عبيدة فيتعلق (لعلهم) الخ بقوله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) كما فى الأول الا أن الرجوع هنالك التوبة وههنا الرجوع الى الدنيا ويكون من باب (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) أو يكون الترجي راجعا اليهم، ووجه دلالة القراءة المذكورة عليه أنه لا يصح الحمل فيها على التوبة، والظاهر التفسير المأثور، والقراءة لا تأباه لجواز أن يكون المعنى عليها لعلهم يرجعهم ذلك العذاب عن الكفر الى الايمان، و(لعل) لترجي المخاطبين كما فسرها بذلك سيبويه، وعن ابن عباس تفسيرها هنا بكى وكأن المراد كى نعرضهم بذلك للتوبة، وجعلها الزمخشرى لترجيه سبحانه ولاستحالة حقيقة ذلك منه عز وجل حمله على ارادته تعالى، وأورد على ذلك سؤالا أجاب عنه على مذهبه فى الاعتزال فلا تلتفت اليه، هذا والآيات من قوله تعالى: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) الى هنا نزلت فى على كرم الله تعالى وجهه. والوليد بن عقبة بن أبى معيط أخى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أخرج أبو الفرج الاصبهانى فى كتاب الاغانى. والواحدى. وابن عدى. وابن مردويه. والخطيب. وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلى كرم الله تعالى وجهه أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا واملأ للكتيبة منك فقال على رضى الله تعالى عنه: اسكت فانما أنت فاسق فنزلت (أفمن كان مؤمنا) الخ ﴿
وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحو ذلك، وأخرج هذا أيضا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنها نزلت فى على كرم الله تعالى وجهه. والوليد بن عقبة ولم يذكر ماجرى، وفى رواية أخرى عنه انها نزلت فى على كرم الله تعالى وجهه. ورجل من قريش ولم يسمه، وفى الكشاف روى فى نزولها أنه شجر بين على رضى

www.Quranpdf.blogspot.in

الله تعالى عنه . والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد : اسكت فانك صبي أنا أشب منك شبابا وأجلد منك جلدا وأذرب منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على كرم الله تعالى وجهه : اسكت فانك فاسق فنزلت ، ولم نره بهذا اللفظ مسندا ، وقال الخفاجي : قال ابن حجر إنه غلط فاحش فان الوليد لم يكن يوم بدر رجلا بل كان طفلا لا يتصور منه حضور بدر وصدور ماذكره

ونقل الجلال السيوطي عن الشيخ ولى الدين هو غير مستقيم فان الوليد يصغر عن ذلك (وأقول:) بعض الاخبار تقتضى أنه لم يكن مولودا يوم بدر أو كان صغيرا جدا ، اخرج أبو داود فى السنن من طريق ثابت بن الحجاج عن أبى موسى عبد الله الهمدانى عنه أنه قال : لما افتتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤسهم فأتى بى اليه عليه الصلاة والسلام وأنا مخلق فلم يمسنى من أجل الخلوق الا أن ابن عبد البر قال : ان أبا موسى مجهول ، وأيضاذكر الزبير وغيره من أهل العلم بالسير أن أم كلثوم بنت عقبة لما خرجت مهاجرة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهدنة سنة سبع خرج أخواها الوليد وعمارة ليرداها ، وهو ظاهر فى أنه لم يكن صبيا يوم الفتح إذ من يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح ، وبعض الاخبار تقتضى انه كان رجلا يوم بدر ، فقد ذكر الحافظ ابن حجر فى كتابه الاصابة انه قدم فى فداء ابن عم ابيه الحرث بن أبى وجرة بن أبى عمرو بن أمية وكان أسر يوم بدر فافتداه باربعة آلاف وقال : حكاه أهل المغازى ولم يتعقبه بشىء ، وسوق كلامه ظاهر فى ارتضائه ووجه اقتضائه ذلك أن ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان ، وهذا الذى ذكرناه عن ابن حجر يخالف ما ذكره عنه الخفاجي عليه الرحمة مما مر آنفا ، ولا ينبغى أن يقال : يجوز أن يكون صغيرا ذلك اليوم صغرا يمكن معه عادة الحضور فحضر وجرى ماجرى لأن وصفه بالفسق بمعنى الكفر والوعيد عليه بما سمعت فى الآيات مع كونه دون البلوغ مما لا يكاد يذهب اليه الامن يلتزم ان التكليف بالايمان اذ ذاك كان مشروطا بالتمييز ، ولا أن يقال : يجوز أن تكون هذه القصة بعد اسلامه وقد أطلق عليه فاسق وهو مسلم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) فقد قال ابن عبد البر : لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن انها نزلت فيه حيث انه ﷺ بعثه مصدقا الى بنى المصطلق فعاد وأخبر أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة ولم يكن الأمر كذلك لأن الفسق ههنا بمعنى الكفر وهناك ليس كذلك ، ثم اعلم أن القول بانها نزلت فى على كرم الله تعالى وجهه . والوليد لكلام جرى يوم بدر يقتضى أنها مدنية والمختار عند بعضهم خلافه *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بيان اجمالى لمن قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد ، وكلمة (ثم) لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى سعادة الدارين كما فى قول جعفر بن علبة الحارثى :

ولا يكشف الغماء الا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

والمراد أن ذلك أظلم من كل ظالم ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ قيل: أى من كل من اتصف بالاجرام وكسب الامور المذمومة وان لم يكن بهذه المثابة ﴿ مُنْتَقِمُونَ ٢٢ ﴾ فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل جارم ، ففى الجملة اثبات الانتقام منه بطريق برهانى *

www.Quranpdf.blogspot.in

وجوز أن يراد بالمجرم المعرض المذكور وقد اقيم المظهر مقام المضمر الراجع الى (من) باعتبار معناها وكان الاصل انا منهم منتقمون ليؤذن بان علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم : وفسر البغوى المجرمين هنا بالمشركين . وقال الطيبى عليه الرحمة بعد حكايته : ولا ارتياب أن الكلام فى ذم المعرضين وهذا الاسلوب أذم لأنه يقرر أن الكافر اذا وصف بالظلم والاجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده ولأن هذه الآية كالخاتمة لأحوال المكذبين القائلين : (أم يقولون افتراه) والتخلص الى قصة الكليم مسلاة لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام إلى آخر ماذكره فليراجع *

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أى جنس الكتاب ﴿ فَلَا تَكُنْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أى شك . وقرأ الحسن (مرية) بضم الميم ﴿ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أى لقائك ذلك الجنس على ان لقاء مصدر مضاف إلى المفعول وفاعله محذوف وهو ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم و الضمير المذكور للكتاب المراد به الجنس وايتاء ذلك الجنس باعتبار ايتاء التوراة ولقاؤه باعتبار لقاء القرآن ، وهذا كقوله تعالى : (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) وقوله سبحانه : (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) وحمل بعضهم (الكتاب) على العهد أى الكتاب المعهود وهو التوراة ولما لم يصح عود الضمير اليه ظاهرا لأنه عليه الصلاة والسلام لم يلق عين ذلك الكتاب قيل: الكلام على تقدير مضاف أى لقاء مثله أو على الاستخدام أو أن الضمير راجع إلى القرآن المفهوم منه ، ولا يخفى مافى كل من البعد ، والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وخلاصة ماتؤذن به الفاء التفريعية ان معرفتك بأن موسى عليه السلام أوتى التوراة ينبغى أن تكون سببا لازالة الريب عنك فى أمر كتابك ،ونهيه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون فى شك المقصود منه نهى أمته صلى الله تعالى عليه وسلم والتعريض بمن اتصف بذلك ، وقيل : المصدر مضاف الى الفاعل والمفعول محذوف هو ضميره عليه الصلاة والسلام أى من لقائه اياك ووصوله اليك ، وفى التعبير باللقـــاء دون الايتاء من تعظيم شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى على المتدبر ، وقد يقال : إن التعبير به على الوجه السابق مؤذن بالتعظيم أيضا لكن من حيثية أخرى فتدبر *

وقيل : الكتاب التوراة وضمير (لقائه) عائد اليه من غير تقدير مضاف ولا ارتكاب استخدام ، ولقاء مصدر مضاف الى مفعوله وفاعله موسى أى من لقاء موسى الكتاب أو مضاف الى فاعله ومفعوله موسى أى من لقاء الكتاب موسى ووصوله اليه ، فالفاء مثلها فى قوله :

ليس الجمـال بمئزر فاعلم وان رديت بردا

دخلت على الجملة المعترضة بدل الواو اهتماما بشأنها ، وعن الحسن أن ضمير (لقائه) عائد على ماتضمنه الكلام من الشدة والمحنة التى لقى موسى عليه السلام فكأنه قيل : ولقد آتينا موسى هذا العبء الذى أنت بسبيله فلا تمتر أنك تلقى مالقى هو من الشدة والمحنة بالناس ، والجملة اعتراضية ولا يخفى بعده ، وأبعد منه بمراحل ماقيل : الضمير لملك الموت الذى تقدم ذكره والجملة اعتراضية أيضا . بل ينبغى أن يجل كلام الله تعالى عن مثل هذا التخريج . وأخرج الطبرانى . وابن مردويه . والضياء فى المختارة بسند صحيح عن ابن عباس انه قال فى الآية : أى من لقاء موسى . وأخرج ابن المنذر . وغيره عن مجاهد نحوه ، وأخرج ابن أبى حاتم

www.Quranpdf.blogspot.in

عن أبى العالية انه قال كذلك فقيل له: أو لقى عليه الصلاة والسلام موسى ؟ قال: نعم ألا ترى الى قوله تعالى: (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) واراد بذلك لقاءه صلى الله تعالى عليه وسلم اياه ليلة الاسراء كما ذكر فى الصحيحين . وغيرهما ، وروى نحو ذلك عن قتادة . وجماعة من السلف ، وقاله المبرد حين امتحن الزجاج بهذه الآية ، وكأن المراد من قوله تعالى: « فلا تكن فى مرية من لقائه » على هذا وعده تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بلقاء موسى وتكون الآية نازلة قبل الاسراء ، والجملة اعتراضية بالفاء بدل الواو كما سمعت آنفا ه

وجعلها مفرعة على ما قبلها غير ظاهر ، وبهذا اعترض بعضهم على هذا التفسير ، وبالفرار الى الاعراض سلامة من الاعتراض وكأنى بك ترجحه على التفسير الاول من بعض الجهات والله تعالى الموفق ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى الكتاب الذى آتيناه موسى ، وقال قتادة . اى وجعلنا موسى عليه السلام ﴿ هُدًى ﴾ اى هاديا من الضلالة ﴿ لبَنِى إِسْرَائيلَ ٢٣ ﴾ خصوا بالذكر لما أنهم اكثر المنتفعين به ، وقيل : لأنه لم يتعبد بما فى كتابه عليه الصلاة والسلام ولد اسماعيل صلى الله تعالى عليه وسلم ه

﴿ وَجَعَلْنَا منهم أَئِمَّةً ﴾ قال قتادة : رؤساء فى الخير سوى الأنبياء عليهم السلام ، وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل ﴿ يَهْدُونَ ﴾ بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله تعالى وشرائعه عز وجل ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إياهم بأن يهدوا على أن الأمر واحد الأوامر ، وهذا على القول بانهم أنبياء ظاهر ، وأما على القول بانهم ليسوا بانبياء فيجوز أن يكون أمره تعالى اياهم بذلك على حد أمر علماء هذه الامة بقوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) الآية ه

وجوز أن يكون الأمر واحد الأمور والمراد يهـــدون بتوفيقنا ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال قتادة : على ترك الدنيا ، وجوز غيره أن يكون المراد لما صبروا على مشاق الطاعة ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين ، و (لما) يحتمل أن تكون هى التى فيها معنى الجزاء نحو لما أكرمتنى أكرمتك أى لما صبروا جعلنا أئمة ، ويحتمل أن تكون هى التى بمعنى الحين الخالية عن معنى الجزاء ، والظاهر أنها حينئذ ظرف لجعلنا أى جعلناهم أئمة حين صبروا ، وجوز أبو البقاء كونها ظرفا ليهدون ه

وقرأ عبد الله . وطلحة . والأعمش . وحمزة . والكسائى . ورويس (لما) بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام للتعليل وما مصدرية أى لصبرهم وهو متعلق بجعلنا أو بيهدون . وقرأ عبد الله أيضا (بما) بالباء السببية وما المصدرية أى بسبب صبرهم ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التى فى تضاعيف الكتاب ، وقيل : المراد بها ما يعم الآيات التكوينية ، والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ يُوقِنُونَ ٢٤ ﴾ أى كانوا يوقنون بها لامعانهم فيها النظر لا بغيرها من الأمور الباطلة ، وهو تعريض بكفرة أهل مكة ، والجملة معطوفة على (صبروا) فتكون داخلة فى حيز (لما) وجوز أن تكون معطوفة على (جعلنا) وأن تكون فى موضع الحال من ضمير (صبروا) ه والمراد كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناكه أو لنجعلنك هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ أى يقضى ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : بين الأنبياء عليهم السلام وأممهم ،

www.Quranpdf.blogspot.in

وقيل : بين المؤمنين والمشركين ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فيميز سبحانه بين المحق والمبطل ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٢٥ ﴾ من أمور الدين *

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الهمزة للانكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام ويناسب المعطوف معنى على ما اختاره غير واحد ، وفعل الهداية اما من قبيل فلان يعطى فى أن المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول ، واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ضمير عائد إلى ما فى الذهن ويفسره قوله تعالى :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ وكم فى محل نصب باهلكنا أى أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم أو طريق الحق كثرة من أهلكنا أو كثرة اهلاك من أهلكنا من القرون الماضية مثل عاد وثمود وقوم لوط ، ولا يجوز أن تكون (كم) فاعلا لصدارتها كما نص على ذلك الزجاج حاكيا له عن البصريين ، وقال الفراء : كم فى موضع رفع بيهد كأنك قلت : أو لم يهد لهم القرون الهالكة فيتعظوا ولا أن يكون محذوفا لأن الفاعل لا يحذف إلا فى مواضع مخصوصة ليس هذا منها ولا مضمرا عائدا إلى ما بعد لأنه يلزم عود الضمير إلى متأخر لفظا ورتبة فى غير محل جوازه ، ولا الجملة نفسها لأنها لا تقع فاعلا على الصحيح الا اذا قصد لفظها نحو تعصم لا اله الا الله الدماء والأموال ، وجوز أن يكون الفاعل ضميره تعالى شانه لسبق ذكره سبحانه فى قوله تعالى : (ان ربك) الخ وأيد بقراءة زيد (نهد لهم) بنون العظمة ، قال الخفاجي : والفعل بكم عن المفعول وهو مضمون الجملة لتضمنه معنى العلم فلا تغفل *

﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم ، والجملة حال من ضمير (لهم) ، وقيل : من (القرون) ، والمعنى أهلكناهم حال غفلتهم ، وقيل : مستأنفة بيان لوجه هدايتهم *

وقرأ ابن السميقع (يمشون) بالتشديد على أنه تفعيل من المشى للتكثير ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فيما ذكر من اهلاكنا للامم الخالية العاتية أو فى مساكنهم ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ٢٦ ﴾ هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الكلام فيه كالكلام فى (أولم يهد) اى أعموا ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ ﴾ بسوق السحاب الحامل له ، وقيل : نسوق نفس الماء بالسيول ، وقيل : باجرائه فى الانهار ومن العيون ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أى التى جرز نباتها أى قطع اما لعدم الماء واما لأنه رعى وأزيل كما فى الكشاف *

وفى مجمع البيان الأرض الجرز اليابسة التى ليس فيها نبات لانقطاع الامطار عنها من قولهم : سيف جراز أى قطاع لا يبقى شيئاً الا قطعه وناقة جراز إذا كانت تأكل كل شىء فلا تبقى شيئاً الا قطعته بفيها ورجل(١) جروز أى أكول ، قال الراجز : * خب جروز وإذا جاع بكى * . وقال الراغب : الجرز منقطع النبات من أصله وأرض مجروزة أكل ما عليها ، وفى مثل لا ترضى شانئة الا بجروزة أى بالاستئصال ، والجارز الشديد من السعال تصور منه معنى الجرز وهو القطع بالسيف اه ، ويفهم مما قاله أن الجرز يطلق على ما انقطع نباته لكونه ليس

(١) قوله جروز أى أكول قال الراغب هو الذى يأكل ما على الخوان اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

من شأنه الانبات كالسباخ وهو غير مناسب هنا لقوله تعالى: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ والظاهر أن المراد الارض المتصفة بهذه الصفة أى أرض كانت ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرى بين اليمن والشام ٭

وأخرج هو وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن ، وإلى عدم التعيين ذهب مجاهد ، أخرج عنه جماعة أنه قال: الأرض الجرز هى التى لاتنبت وهى أبين ونحوها من الارض وقرىء (الجرز) بسكون الراء ، وضمير (به) للماء والكلام على ظاهره عند السلف الصالح وقالت الاشاعرة: المراد فنخرج عنده ، والزرع فى الاصل مصدر وعبر به عن المزروع والمراد به ما يخرج بالمطر مطلقا فيشمل الشجر وغيره ولذا قال سبحانه : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ ﴾ أى من ذلك الزرع ﴿ أَنْعَامُهُمْ ﴾ كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ كالبقول والحبوب التى يقتاتها الانسان ، وفى البحر يجوز أن يراد بالزرع النبات المعروف وخص بالذكر تشريفا له ولأنه أعظم ما يقصد من النبات ، ويجوز أن يراد به النبات مطلقا ، وقدم الانعام لأن انتفاعها مقصور على ذلك والانسان قد يتغذى بغيره ولأن أكلها منه مقدم لأنها تأكله قبل أن يثمر ويخرج سنبله ، وقيل ليترقى من الادنى الى الاشرف وهم بنو آدم ٭

وقرأ أبو حيوة . وأبو بكر فى رواية (يأكل) بالياء التحتية ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ٢٧ ﴾ أى ألا يبصرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله عز وجل ، وجعلت الفاصلة هنا (يبصرون) لأن ماقبله مرئى وفيما قبله (يسمعون) لأن ما قبله مسموع ، وقيل : ترقيا إلى الاعلى فى الاتعاظ مبالغة فى التذكير ورفع العذر ٭

وقرأ ابن مسعود (تبصرون) بالتاء الفوقية ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿ مَتَى هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أى الفصل للخصومة بينكم وبيننا ، وكأن هذا متعلق بقوله تعالى: (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وقيل : أى النصر علينا ، أخرج ابن جرير . وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننتقم فيه فقال المشركون: متى هذا الفتح الخ فنزلت (ويقولون متى هذا الفتح ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٨ ﴾ أى فى أن الله تعالى هو يفصل بين المحقين والمبطلين ، وقيل: فى أن الله تعالى ينصركم علينا ٭

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتا لهم وتحقيقا للحق ﴿ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ٢٩ ﴾ أخرج الفريابى . وابن أبي شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: يوم الفتح يوم القيامة ، وهو كما فى البحر منصوب بلا ينفع ، والمراد بالذين كفروا إما أولئك القائلون المستهزئون فالاظهار فى مقام الاضمار لتسجيل كفرهم وبيان علة الحكم ، وإما ما يعمهم وغيرهم وحينئذ يعلم حكم أولئك المستهزئين بطريق برهانى ، والمراد من قوله تعالى: (ولا هم ينظرون) استمرار النفى ، والظاهر أن الجملة عطف على (لاينفع) الخ والقيد معتبر فيها ، وظاهر سؤالهم بقولهم (متى هذا الفتح) يقتضى الجواب بتعيين اليوم المسؤل عنه إلا أنه لما كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فكأنه قيل لهم : لاتستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان واستنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا ، وهذا قريب من الاسلوب الحكيم ٭

www.Quranpdf.blogspot.in

هذا وتفسير (يوم الفتح) بيوم القيامة ظاهر على القول بان المراد بالفتح الفصل للخصومة فقد قال سبحانه: (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) ولا يكاد يتسنى على القول بان المراد به النصر على أولئك القائلين اذا كانوا عانين به النصر والغلبة عليهم فى الدنيا كما هو ظاهر مما سمعت عن مجاهد، وعليه قيل: المراد بيوم الفتح يوم بدر، وأخرج ذلك الحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وقيل: يوم فتح مكة، وحكى ذلك عن الحسن ومجاهد، واستشكل كلا القولين بان قوله تعالى: (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) ظاهر فى عدم قبول الايمان من الكافر يومئذ مع أنه آمن ناس يوم بدر فقبل منهم وكذا يوم فتح مكة *

وأجيب بأن الموصول على كل منهما عبارة عن المقتولين فى ذلك اليوم على الكفر، فمعنى لا ينفعهم ايمانهم انهم لا إيمان لهم حتى ينفعهم فهو على حد قوله: * على لاحب لا يهتدى بمناره * سواء أريد بهم قوم مخصوصون استهزؤا أم لا وسواء عطف قوله تعالى: (ولا هم ينظرون) على المقيد أو على المجموع فتأمل *

وتعقب بان ذلك خلاف الظاهر، وأيضا كون يوم الفتح يوم بدر بعيد عن كون السورة مكية وكذا كونه يوم فتح مكة، ويبعد هذا أيضا قلة المقتولين فى ذلك اليوم جدا تدبر *

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، وعن ابن عباس أن ذلك منسوخ بآية السيف، ولا يخفى أنه يحتمل أن المراد الاعراض عن مناظرتهم لعدم نفعها أو تخصيصه بوقت معين فلا يتعين النسخ *

﴿ وَانْتَظِرْ ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ٣٠﴾ قال الجمهور: أى الغلبة عليكم كقوله تعالى: (فتربصوا إنا معكم متربصون) وقيل: الاظهر أن يقال: إنهم منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) الآية، ويقرب منه ماقيل: وانتظر عذابنا لهم انهم منتظرون أى هذا حكمهم وان كانوا لا يشعرون فان استعجالهم المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لامحالة. وقرأ اليمانى (منتظرون) بفتح الظاء اسم مفعول على معنى أنهم أحقاء أن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة عليهم السلام ينتظرونه والمراد أنهم هالكون لامحالة هذا *

﴿ ومن باب الاشارة ﴾ قوله تعالى: (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) فيه إشارة الى انه لا ينبغى الالتفات الى الاسباب والاعتماد عليها، وقوله سبحانه: (يدبر الأمر من السماء الى الأرض) فيه إشارة الى أن تدبير العباد عند تدبيره عز وجل لا أثر له فطوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله تعالى واستغنى به عن تدبيره (الذى أحسن كل شىء خلقه) فيه ارشاد الى أنه لا ينبغى لأحد أن يستقبح شيئا من المخلوقات، وقد حكى أن نوحا عليه السلام بصق على كلب اجرب فانطق الله تعالى الكلب فقال: يانوح اعبتنى ام عبت خالقى فناح عليه السلام لذلك زمانا طويلا فالاشياء كلها حسنة كل فى بابه والتفاوت اضافى، وفى قوله تعالى: (وبدأ خلق الانسان من طين) الى آخر الآية بعد قوله سبحانه: (الذى أحسن) الخ اشارة الى التنقل فى اطوار الحسن والعروج فى معارجه فكم بين الطين والانسان السميع البصير العالم فان الانسان مشكاة انوار الذات والصفات والطين بالنسبة اليه كلا شىء (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم

www.Quranpdf.blogspot.in

وهم لا يستكبرون) اشارة الى حال كاملى الايمان وعلو شأن السجود والتسبيح والتحميد والتواضع لعظمته عزوجل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) اشارة إلى سهرهم فى مناجاة محبوبهم وملاحظة جلاله وجماله، وفى قوله: (ومما رزقناهم) أى من المعارف وأنواع الفيوضات (ينفقون) اشارة إلى تكميلهم للغير بعد كمالهم فى أنفسهم وذكر القوم أن العذاب الادنى الحرص على الدنيا . والعذاب الاكبر العذاب على ذلك ٥

وقال بعضهم: الأول التعب فى طلب الدنيا والثانى شتات السر ، وقيل : الأول حرمان المعرفة والثانى الاحتجاب عن مشاهدة المعروف، وقيل: الأول الهوان والثانى الخذلان (وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فيه اشارة الى ما ينبغى أن يكون المرشد عليه من الأوصاف وهو الصبر على مشاق العبادات وأنواع البليات وحبس النفس عن ملاذ الشهوات والايقان بالآيات فمن يدعى الارشاد وهو غير متصف بما ذكر فهو ضال مضلل (فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون) فيه اشارة الى أنه ينبغى الاعراض عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجع فيهم الارشاد والنصيحة والى أنهم هالكون لامحالة فان الانكار الذى لايعذر صاحبه سم قاتل وسهم هدفه المقاتل نعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور بحرمة حبيبه الاكرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ٥

تفسير سورة السجدة

وهي مكية، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ تمام ثلاث آيات؛ قاله الكلبيّ ومقاتل. وقال غيرهما: إلا خمس آيات، من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى[1] جُنُوبُهُمْ ـ إلى قوله ـ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهي ثلاثون آية. وقيل تسع وعشرون. وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ. تَنْزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ الحديث. وخرج الدارميّ أبو محمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ. تَنْزِيلُ﴾ السجدة. و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾. قال الدّارميّ: وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن مَعْدَان قال: اقرؤوا المنجية، وهي ﴿الٓمٓ. تَنْزِيلُ﴾ فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا؛ فنشرت جناحها عليه وقالت: ربّ اغفر له فإنه كان يُكثر من قراءتي؛ فشفّعها الربّ فيه وقال: «اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الإجماع على رفع ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ ولو كان منصوباً على المصدر لجاز؛ كما قرأ الكوفيون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[1]. و ﴿تَنْزِيلُ﴾ رفع بالابتداء والخبر ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾. أو خبر على إضمار مبتدأ؛ أي هذا تنزيل، أو المتلوّ تنزيل، أو هذه الحروف تنزيل. ودلّت: ﴿الٓمٓ﴾

(١) راجع ١٥/٣ فما بعد.

على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع الحال من ﴿الْكِتَابِ﴾. و ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر. قال مكيّ: وهو أحسنها. ومعنى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين.

[٣] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذه ﴿أَمْ﴾ المنقطعة التي تقدّر ببل وألف الاستفهام؛ أي بل أيقولون. وهي تدلّ على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عز وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين، وأن ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي افتعله واختلقه. ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ كذّبهم في دعوى الافتراء. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ قال قتادة: يعني قريشاً، كانوا أمّة أمّية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ. و ﴿لِتُنْذِرَ﴾ متعلق بما قبلها فلا يوقف على ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾. ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقف على ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾. و ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا أَتَاهُمْ﴾ نفي. ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ صلة. و ﴿نَذِيرٍ﴾ في محل الرفع، وهو المُعْلِم المُخَوِّف. وقيل: المراد بالقوم أهل الفَترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل. وقيل: كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروْا رسولاً؛ وقد تقدّم هذا المعنى[١].

[٤] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

(١) راجع ٦/ ١٢١.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأمّلوه. ومعنى: ﴿خَلَقَ﴾ أبدع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقدارُه ألف سنة من سِنِي الدنيا. وقال الضحاك: في ستة آلاف سنة؛ أي في مدّة ستة أيام من أيام الآخرة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ تقدّم في الأعراف والبقرة[1] وغيرهما، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). وليست ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب وإنما هي بمعنى الواو. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ﴾ أي ما للكافرين من وليّ يمنع من عذابهم ولا شفيع. ويجوز الرفع على الموضع. ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قدرته ومخلوقاته.

[٥] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يُنزل القضاءَ والقدر. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبّر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، ومَلَك الموت، وإسرافيل؛ صلوات الله عليهم أجمعين. فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء. وأما مَلَك الموت فموكّل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم. وقد قيل: إن العرش موضع التدبير؛ كما أن ما دون العرش موضع التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾[2]. وما دون السموات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾[3].

---

(١) راجع ٧/٢١٩ و ١/٢٥٤.
(٢) راجع ٩/٢٧٩ فما بعد.
(٣) راجع ١٣/٥٧.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريل يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحي. النقاش: هو الملَك الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض. وقيل: إنها أخبار أهل الأرض تصعَد إليه مع حملتها من الملائكة؛ قاله ابن شجرة. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. وقيل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة. وعلى الأقوال المتقدّمة فالكناية في ﴿يَعْرُجُ﴾ كناية عن الملَك، ولم يجر له ذكر لأنه مفهوم من المعنى، وقد جاء صريحاً في ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[1]. والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكّرها، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه، أو على اسم الله تعالى؛ والمراد إلى الموضع الذي أقره فيه، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي إلى سدرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها؛ ثبت معنى ذلك في «صحيح مسلم». والهاء في ﴿مِقْدَارُهُ﴾ راجعة إلى التدبير؛ والمعنى: كان مقدار ذلك التدبير ألَف سنة من سِنِي الدنيا؛ أي يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد، ثم يلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد. وقيل: الهاء للعروج. وقيل: المعنى أنه يدبّر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة. وقيل: المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة. وقال ابن عباس: المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة. وروي ذلك عن جماعة من المفسرين، وهو اختيار الطبريّ؛ ذكره المهدويّ. وهو معنى القول الأول. أي أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم؛ ذكره الزمخشريّ. وذكر الماورديّ عن ابن عباس والضحاك أن الملَك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة. وعن قتادة أن الملَك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة؛ فيكون مقدار

---

(١) راجع ١٨/٢٧٨.

نزوله خمسمائة سنة، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّي. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزول ألف سنة، والصعود ألف سنة. ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي مما تحسبون من أيام الدنيا. وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي العالَم، وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين؛ لأن ذلك ليس عند الله. والعرب قد تعبّر عن مدّة العصر باليوم؛ كما قال الشاعر:

يـومـان يـومُ مُقـامـات وأنـديـة ... ويومُ سير إلى الأعداء تأويب(١)

وليس يريد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يُعْرَجُ﴾ على البناء للمفعول. وقرىء: ﴿يَعُدُّونَ﴾ بالياء. فأما قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمشكل مع هذه الآية. وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلميّ عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: أيام سمّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال: لا أدري. فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل: هذا ابن عباس اتّقى أن يقول فيها وهو أعلم مني. ثم تكلم العلماء في ذلك فقيل: إن آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية. والمعنى أن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة؛ قاله ابن عباس. والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر. قال:

ويوم كظل الرمح قصّر طولَه ... دَمُ الزّق عنّا واصطفاقُ المزاهر

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: أوقات القيامة مختلفة، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً، كلّ موقف ألف سنة. فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل. والتأويب في كلام العرب: سير النهار كله إلى الليل. يقال: أوّب القوم تأويباً أي ساروا بالنهار.

وقت، أو موقف من يوم القيامة. وقال النحاس: اليوم في اللغة بمعنى الوقت؛ فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة. وعن وهب بن منبّه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ما بين أسفل الأرض إلى العرش. وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] أراد من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا. وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّـي سَيَهْدِينِ﴾[2] أراد أرض الشام. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ﴾[3] أي إلى المدينة. وقال أبو هريرة قال النبيّ ﷺ: «أتاني مَلك من ربي عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد».

[٦] ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي عِلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم. و ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى أنا. حسبما تقدّم بيانه في أوّل البقرة[4]. وفي الكلام معنى التهديد والوعيد؛ أي أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها.

[٧] ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾.

[٨] ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾.

[٩] ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾.

---

(١) راجع ص ٨٧ و ٨٨ من هذا الجزء. (٢) راجع ١٥/٩٨.
(٣) راجع ١٥/٣٤٧ فما بعد.
(٤) راجع ١/١٥٧ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿خَلْقَهُ﴾ بإسكان اللام. وفتحها الباقون. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها. وهو فعل ماضٍ في موضع خفض نعت لـ ﴿شيء﴾. والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أحكم كلّ شيء خلَقه، أي جاء به على ما أراد، لم يتغيّر عن إرادته. وقول آخر ـ أن كل شيء خلقه حسن؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله؛ وهو دالّ على خالقه. ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه؛ لأن قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يدلّ على: خَلَق كلّ شيء خَلْقاً؛ فهو مثل: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾(١) و ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾(٢). وعند غيره منصوب على البدل من ﴿كلّ﴾ أي الذي أحسن خلق كل شيء. وهو مفعول ثانٍ عند بعض النحويين، على أن يكون معنى: ﴿أَحْسَنَ﴾ أفهم وأعلم؛ فيتعدّى إلى مفعولين، أي أفهم كل شي خلقه. وقيل: هو منصوب على التفسير؛ والمعنى: أحسن كل شيء خلقاً. وقيل: هو منصوب بإسقاط حرف الجر، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه. وروي معناه عن ابن عباس و ﴿أَحْسَنَ﴾ أي أتقن وأحكم؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها. ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة: ليست أسْت القرد بحسنة، ولكنها متقَنة محكمة. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أتقنه. وهو مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾(٣) أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان. ويجوز: ﴿خلقه﴾ بالرفع؛ على تقدير ذلك خلقه. وقيل: هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى؛ والمعنى: حسن خَلْق كل شيء حَسَنٍ. وقيل: هو عموم في اللفظ والمعنى، أي جعل كل شيء خلقه حسنا، حتى جعل الكلب في خلقه حسنا؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة: في أسْت القرد حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يعني آدم. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ تقدّم في ﴿المؤمنون﴾ وغيرها(٤). وقال الزجاج: ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ضعيف.

---

(١) راجع ١٣/٢٣٩ فما بعد. (٢) راجع ٥/١٢٠.
(٣) راجع ١١/٢٠٣ فما بعد.
(٤) راجع ١٢/١٠٩.

وقال غيره: ﴿مَهِينٍ﴾ لا خطر له عند الناس. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رجع إلى آدم، أي سوّى خلقه. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثم رجع إلى ذرّيته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾. وقيل: ثم جعل ذلك الماء المَهين خلقاً معتدلاً، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفاً. وأيضاً فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله: «عَبْدي». وعبّر عنه بالنفخ لأن الروح في جنس الريح. وقد مضى هذا مبيّناً في ﴿النساء﴾[1] وغيرها. ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون.

[١٠] ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ هذا قول منكري البعث؛ أي هلكنا وبطلنا وصرنا تراباً. وأصله من قول العرب: ضلّ الماء في اللبن إذا ذهب. والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفي فيه أثره: قد ضلّ. قال الأخطل:

كنتَ القَذَى في موج أكدر مُزْبد قـذف الأتـيّ بـه فضـلّ ضـلالا

وقال قُطْرُب:

معنـى ضَلَلْنـا غِبنـا فـي الأرض

وأنشد قول النابغة الذبياني:

فـآبَ مُضِلّـوه بعيـن جَلِيّـة وغُودِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائِلُ

وقرأ ابن مُحَيصِن ويحيى بن يعمر: ﴿ضَلِلْنَا﴾ بكسر اللام، وهي لغة. قال الجوهريّ: وقد ضللت أضِل قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾[2]. فهذه لغة نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون: ﴿ضَلِلْتُ﴾ ـ بكسر اللام ـ أَضَلّ. وهو ضالّ تالّ، وهي الضلالة والتلالة. وأضلّه أي أضاعه وأهلكه. يقال: أُضِلّ الميّت إذا دفن. قال:

فـــآب مُضِلـــوه . . . .

البيت.

---

(١) راجع ٦/ ٢٢. (٢) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء.

ابن السِّكِّيت. أضللت بعيري إذا ذهب منك. وضللت المسجد والدار: إذا لم تعرف موضعهما. وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى له. وفي الحديث: «العلّي أضِل الله» يريد أضل عنه، أي أخفى عليه، من قوله تعالى: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أي خفِينا. وأضله الله فضَلّ؛ تقول: إنك تهدِي الضالّ ولا تهدِي المتضال. وقرأ الأعمش والحسن: ﴿صَلَلْنَا﴾ بالصاد؛ أي أنتنّا. وهي قراءة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. النحاس: ولا يعرف في اللغة صللنا ولكن يقال: صلّ اللحمُ وأصلّ، وخَمّ وأخمّ إذا أنتن. الجوهريّ: صلّ اللحم يصلّ ـ بالكسر ـ صلولا، أي أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً. قال الحُطَيئة:

ذاك فتًــى يَبــذُل ذا قِــدرِه لاَ يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأَصَلّ مثله. ﴿إِنَّا[1] لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً؟ ويقرأ: ﴿أَئِنَّا﴾. النحاس: وفي هذا سؤال صعب من العربية؛ يقال: ما العامل في ﴿إِذَا﴾؟ و ﴿إِنّ﴾ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. والسؤال في الاستفهام أشدّ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر؛ ألا يعمل فيما قبله من ﴿إن﴾ كيف وقد اجتمعا. فالجواب على قراءة من قرأ: ﴿إنا﴾ أن العامل ﴿ضَلَلْنَا﴾، وعلى قراءة من قرأ ﴿أَئِنَّا﴾ أن العامل مضمر، والتقدير أنبعث إذا متنا. وفيه أيضاً سؤال آخر، يقال: أين جواب ﴿إِذَا﴾ على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط؟ فالقول في ذلك أن بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جاز هذا. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

[١١] ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

فيه مسألتان:

---

(١) قوله: «إنا» قراءة نافع، وعليها جرى المؤلف.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفيهم وأنه يعيدهم. ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ من توفى العدد والشيء إذا استوفاه وقبضه جميعاً. يقال: توفاه الله أي استوفى روحه ثم قبضه. وتوفيت مالي من فلان أي استوفيته. ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله؛ كما تقدّم في ﴿البقرة﴾[1]. وتصرفه كلّه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه. وروي في الحديث أن «البهائم كلّها يتوفّى الله أرواحها دون مَلَك الموت» كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية.

قلت: وقد روي خلافه، وأن مَلَك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيّ ﷺ: «ارفق بصاحبي فإنه مؤمن» فقال مَلَك الموت عليه السلام: «يا محمد، طِب نفسا وقَرّ عَيْناً فإني بكل مؤمن رفيق. وأعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر في بَرّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها». قال جعفر بن عليّ: بلغني أنه يتصفّحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماورديّ. وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغداديّ قال: حدّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال: حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفّار قال حدّثنا أبو بكر حامد المصري قال حدّثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مُهير الكلابيّ قال: حضرت مالك بن أنس رضي الله عنه فأتاه رجل فسأله: أبا عبد الله، البراغيث أمَلَك الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطرق مالك طويلاً ثم قال: ألها أنفس؟ قال نعم. قال: مَلَك الموت يقبض أرواحها؛ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2]. قال ابن عطية بعد ذكره الحديث: وكذلك الأمر في بني آدم، إلا أنه نوعٌ شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أرواحهم. فخلق الله تعالى مَلَكَ

---

(١) راجع ٢/٣٨.
(٢) راجع ١٥/ ٢٦٠ فما بعد.

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها. وخلق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عمله بأمره؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقد مضى هذا المعنى في ﴿الأنعام﴾[٢]. والبارىء خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[٣]. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهِق الروح. وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث. لكنه لما كان مَلَك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّي إليه كما أضيف الخلق للملك؛ كما تقدّم في ﴿الحج﴾[٤]. وروي عن مجاهد أن الدنيا بين يدي مَلَك الموت كالطّست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء. وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة). وروي أن مَلَك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال: ربّ جعلتني أُذكر بسوء ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى له: «إني أجعل للموت عللا وأسباباً من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير». وقد ذكرناه في التذكرة مستوفًى ـ وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ـ بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك.

الثانية ـ استدلّ بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بقبض الأرواح. قال ابن العربيّ: «وهذا أخذ من لفظه لا من معناه، ولو اطّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ[٥] جمِيعاً﴾: إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[٤] إنه وكالة؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكلّ دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقداراً معلوماً في وقت معلوم، دبّره بعلمه، وأنفذه

---

(١) راجع ٢٨/٨. (٢) راجع ٦/٧ و ٩٩.
(٣) راجع ٢٠٦/١٨. (٤) راجع ٧/١٢ و ٩٩.
(٥) راجع ٣٠١/٧ فما بعد.

من حكمه، وقدّره بحكمته. والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها. ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1] ولا يقال: هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده؛ لأن المقصِدَيْن مختلفان. أما إنه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال: إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

[١٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداء وخبر. قال الزجاج: والمخاطبة للنبيّ ﷺ مخاطبةٌ لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب. ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى: يا محمد، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك. ﴿نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ﴾ أي من الندم والخِزي والحزن والذلّ والغم. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربنا. ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أي أبصرنا ما كنا نكذب. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنا ننكر. وقيل: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعيدك. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ تصديق رسلك. أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع. ﴿فَارْجِعْنَا﴾ أي إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش. وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوريّ: فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2]. وقيل: معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي قد زالت عنا الشكوك الآن؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا

(١) راجع ٨/٢٦٦ فما بعد.
(٢) راجع ٦/٤٠٩ فما بعد.

يتدبرون، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع، فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا. وقيل: أي ربنا لك الحجة، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا. فهذا اعتراف منهم، ثم طلبوا أن يردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

[١٣] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

قال محمد بن كعب القُرَظيّ: لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ يقول: لو شئت لهديت الناس جميعاً فلم يختلف منهم أحد ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ الآية؛ ذكره ابن المبارك في «رقائقه» في حديث طويل. وقد ذكرناه في «التذكرة». النحاس: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في معناه قولان: **أحدهما** ـ أنه في الدنيا. **والآخر** ـ أن سياق الكلام يدلّ على أنه في الآخرة؛ أي لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّة والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي حق القول مني لأعذّبن من عصاني بنار جهنم. وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهُوا عَنْه﴾.

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة في القلب. وتأويل المعتزلة: ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة، لكن لا يحسن منه فعله؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذي لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره. وقالت الإمامية في تأويلها: إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها؛ قالوا: بل الواجب هداية المعصومين، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان. وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين. وأقرب ما لهم في

الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه، فصار يؤدّي ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب رَذْل عندنا وعندكم؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[١]، وقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[١]. ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. [فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله][٢]؛ ولهذا فرّطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق[٣] بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخلق مجبورون في طاعتهم كلها، التفاتاً إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وفرّطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد، فقالوا: الخلق خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾. ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد؛ وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقَدرية؛ وخير الأمور أوساطها. وذلك أن أهل الحق قالوا: نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش؛ ومن لا يفرق بين الحركتين: حركة الارتعاش وحركة الاختيار، وهما موجودتان في ذاته ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته ـ فهو معتوه في عقله ومختلّ في حسه، وخارج من حزب العقلاء. وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقي الإفراط والتفريط. و:

كِـلا طَـرَفَـيْ قصـد الأمـور ذَمِيـمُ[٤]

---

(١) راجع ١٩/٢٣٩ فما بعد وص ١٥٠.

(٢) ما بين المربعين ساقط من جـ، ك.

(٣) كذا في نسخ الأصل: «ولعلها مقرونة».

(٤) هذا عجز بيت وصدره:

ولا تغـلُ فـي شـيء مـن الأمـر واقتصـد

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سَمَّوْا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْباً، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(١).

[١٤] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما ـ أنه من النسيان الذي لا ذكر معه؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين. والآخر ـ أن ﴿نَسِيتُمْ﴾ بما تركتم، وكذا ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾. واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾(٢) قال: والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾(٣) فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكّره. وأنشد:

كأنه خارجاً من جَنْب صَفْحَته ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتأدِ(٤)

أي تركوه. ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة. قال الضحاك: ﴿نَسِيتُمْ﴾ أي تركتم أمري. يحيى بن سلام: أي تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّي. مجاهد: تركناكم في العذاب. وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ وبناء الفعل على ﴿إِنّ﴾ واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا؛ أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخِزي والغمّ بسبب نسيان الله. أو ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبّر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم. قال عمر بن أبـي ربيعة:

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها ... فسادٌ ألاَ يا رُبَّما كذب الزعم

---

(١) راجع ٣/ ٤٢٤ فما بعد. (٢) راجع ١١/ ٢٥١.

(٣) راجع ٧/ ١٧٧ فما بعد. (٤) السفود: حديدة يشوى عليها اللحم. الشرب (بالفتح): جماعة القوم يشربون. والمفتأد. موضع النار الذي يشوى فيه. والبيت من معلقة النابغة الذبياني.

الجوهريّ: وذُقْت ما عند فلان؛ أي خبرته. وذقت القَوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها. وأذاقه الله وبال أمره. قال طُفيل:

فذوقوا كما ذُقنا غَدَاة مُحَجَّرٍ   من الغيظ في أكبادِنا والتَّحَوُّبِ

وتذوّقته أي ذقته شيئاً بعد شيء. وأمر مستذاق أي مجرّب معلوم. قال الشاعر:

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ   وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتَذاقِ

والذوّاق: الملول.

[١٥] ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾.

هذه تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي أنهم لإلْفهم الكفر لا يؤمنون بك؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به، وهم الذين إذا قرىء عليهم القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ قال ابن عباس: ركّعا. قال المهدوِيّ: وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾[1]. وقيل: المراد به السجود، وعليه أكثر العلماء؛ أي خَرُّوا سُجَّداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه. ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي خلطوا التسبيح بالحمد؛ أي نزّهوه وحَمِدوه؛ فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربِّي الأعلى وبحمده؛ أي تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي صلُّوا حمداً لربهم. ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته؛ قاله يحيى بن سلام. النقاش: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كما استكبر أهل مكة عن السجود.

[١٦] ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي ترتفع وتَنْبو عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضع نصب على الحال؛ أي متجافية جنوبهم. والمضاجع جمع مضجع؛ وهي

(١) راجع ١٥/ ١٨٢.

مواضع النوم. ويحتمل عن وقت الاضطجاع، ولكنه مجاز، والحقيقة أوْلى. ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة:

وفينـا رسـول الله يتلـو كتـابـه إذا انشق معروف من الصبح ساطع

يبيـب يجـافـي جنبـه عـن فـراشـه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزّجاج والرُّمانِيّ: التّجافي التنحي إلى جهة فوق. وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سَبٍّ ونحوه. والجنُوب جمع جنب. وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان: أحدهما ـ لذكر الله تعالى، إمّا في صلاة وإما في غير صلاة؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثاني ـ للصلاة. وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال: أحدها ـ التّنفّل بالليل؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعيّ ومالك بن أنس والحسن بن أبـي الحسن وأبـي العالِية وغيرهم. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفي. والله أعلم. وسيأتي بيانه.

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال له: «ألاَ أدُلُّك على أبواب الخير: الصوم جُنّة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل من جَوْف الليل ـ قال ثم تلا ـ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ـ حتى بلغ ـ يَعْمَلُونَ﴾» أخرجه أبو داود الطيالسيّ في مسنده والقاضي إسماعيل بن إسحاق وأبو عيسى الترمذيّ، وقال فيه: حديث حسن صحيح. الثاني ـ صلاة العشاء التي يقال لها العتمة؛ قاله الحسن وعطاء. وفي الترمذيّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى العَتَمَة قال: هذا حديث حسن غريب. الثالث ـ التنفُّل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة. وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: كانوا يتنفّلون ما بين المغرب والعشاء. الرابع ـ قال الضحاك: تَجافِي الجُنُب هو أن يصلّي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدّرداء وعُبادة.

قلت: وهذا قول حسن، وهو يجمع الأقوال بالمعنى. وذلك أن منتظِر العشاء إلى أن يصليها في صلاة وذكرٍ لله جلّ وعز؛ كما قال النبيّ ﷺ: «لا يزال الرجل في صلاةٍ ما انتظر الصلاة». وقال أنس: المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل. قال ابن عطية: وكانت الجاهلية ينامون من أوّل الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً شاقًا. ومصلِّي الصبح في جماعة لا سيما في أوّل الوقت؛ كما كان عليه السلام يصليها. والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أوّل الوقت يقوم سَحَراً يتوضأ ويصلّي ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر؛ فقد حصل التجافي أوّلَ الليل وآخره. يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله». ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث: «من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلّى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة». وقد مضى في سورة ﴿النور﴾ عن كعب فيمن صلّى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر[1].

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثني محمد بن الحجاج أو ابن أبي الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصر في الجنة» فقال له عمر بن الخطاب : إذاً تَكْثر قصورنا وبيوتنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر وأفضل ـ أو قال ـ أطيب». وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صلاة الأوّابين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة. وكان عبد الله بن مسعود يصلّي في تلك الساعة ويقول: صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك. ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال قال

(١) راجع ١٢/٣٠٨.

النبيّ ﷺ: «من جَفَتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصران في الجنة مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة». وهي صلاة الأوّابين وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يردّ الدعاء بين المغرب والعشاء.

فصل في فضل التجافي ـ ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم؛ لِيَقُمِ الحامدون لله على كل حال، فيقومون فيُسَرّحون إلى الجنة. ثم ينادي ثانية: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ لِيَقُمِ الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثة: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ لِيَقُمِ الذين كانوا ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾، فيقومون فيسرحون إلى الجنة. ذكره الثعلبيّ مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبيّ ﷺ: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أوْلى بالكَرَمِ، لِيَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانيةَ ستعلمون اليوم مَن أوْلَى بالكرم لِيَقُمِ الذين لا تلهِيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون، ثم ينادي الثالثةَ ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيَقُمِ الحامدون لله على كل حال في السرّاء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس». وذكر ابن المبارك قال أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي العلاء بن الشِّخّير عن أبي ذرّ قال: ثلاثة يَضْحَك الله إليهم ويستبشر الله بهم: رجل قام من الليل وترك فراشه ودِفْئه، ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة؛ فيقول الله لملائكته: «ما حمل عبدي على ما صنع» فيقولون: ربّنا أنت أعلمُ به منا؛ فيقول: «أنا أعلم به ولكن أخبروني» فيقولون: رَجّيته شيئاً فرجاه وخوّفته فخافه. فيقول: «أشهدكم أني قد أمنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه» قال: ورجل كان

في سَرِيّة فلقِي العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة. ورجل سَرَى في ليلة حتى إذا كان في آخر الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلّي؛ فيقول الله لملائكته. . . » وذكر القصة.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في موضع نصب على الحال؛ أي داعين. ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة؛ أي تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل حال يدعون ربّهم لَيْلَهم ونهارهم. و ﴿خَوْفاً﴾ مفعول من أجله. ويجوز أن يكون مصدراً ﴿وَطَمَعاً﴾ مثله؛ أي خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي وتكون مصدراً، وفي كِلاَ الوجهين يجب أن تكون منفصلة[1] من ﴿مِن﴾ و ﴿يُنفِقُونَ﴾ قيل: معناه الزكاة المفروضة. وقيل: النوافل؛ وهذا القول أمدح.

[١٧] ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قرأ حمزة: ﴿مَا أُخْفِي لَهُمْ﴾ بإسكان الياء. وفتحها الباقون. وفي قراءة عبد الله ﴿مَا نُخْفِي﴾ بالنون مضمومة. وروى المفضّل عن الأعمش ﴿ما يُخْفَى لَهُمْ﴾ بالياء المضمومة وفتح الفاء. وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: ﴿من قُرّات أعين﴾. فمن أسكن الياء من قوله: ﴿ما أخفِي﴾ فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم. و ﴿ما﴾ في موضع نصب بـ ﴿أخفي﴾ وهي استفهام، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين، والضمير العائد على ﴿ما﴾ محذوف. ومن فتح الياء فهو فعل ماضٍ مبني للمفعول. و ﴿ما﴾ في موضع رفع بالإبتداء، والخبر ﴿أخفى﴾ وما بعده، والضمير في ﴿أخفى﴾ عائد على ﴿ما﴾. قال الزجاج: ويقرأ ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ﴾ بمعنى ما أخفى الله لهم؛ وهي قراءة محمد بن كعب، و ﴿ما﴾ في موضع نصب. المهدوِيّ: ومن قرأ: ﴿قرّات أعين﴾ فهو جمع قُرّة، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع، والإفراد لأنه

(١) الذي في كتب الإملاء أنه يجوز.

مصدر، وهو اسم للجنس. وقال أبو بكر الأنبارِيّ: وهذا غير مخالف للمصحف؛ لأن تاء ﴿قُرّة﴾ تكتب تاء على لغة من يجري الوصل على الوقف؛ كما كتبوا ﴿رحمت الله﴾ بالتاء. ولا يُستنكر سقوط الألف من ﴿قُرات﴾ في الخط وهو موجود في اللفظ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات[1] وهي ثابتة في اللسان والنطق. والمعنى المراد: أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآية: قال النبيّ ﷺ: «قال الله عز وجل أعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ ثم قرأ هذه الآية ـ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ـ إلى قوله ـ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» خرجه الصحيح من حديث سهل بن سعد الساعديّ. وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر. وقال ابن عباس: الأمر في هذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره.

قلت: وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً؛ كما جاء مبيَّناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شُعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربّه فقال يا ربِّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أيْ ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا فيقول رضيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت ربّ فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقول رضيتُ رَبّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ[2] كرامتهم بيدي وخَتمتُ عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يَخْطر على قلب بشر ـ قال ـ ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ

(١) في بعض النسخ. «المسلمات».

(٢) قال النووي: «أما أردت فبضم التاء، ومعناه اخترت واصطفيت. وأما غرست كرامتهم بيدي الخ فمعناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير».

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقد روي عن المغيرة موقوفاً قوله. وخرّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْراً بَلْهَ[١] ما أَطْلَعَكُمْ عليه ـ ثم قرأ ـ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾». وقال ابن سيرين: المراد به النظر إلى الله تعالى. وقال الحسن: أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

[١٨] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾ أي ليس المؤمن كالفاسق؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم. قال ابن عباس وعطاء بن يَسار: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط؛ وذلك أنهما تلاحَيَا[٢] فقال له الوليد: أنا أَبْسَطُ منك لساناً وأحدّ سِناناً وأردّ للكتيبة ـ وروي وأملأ في الكتيبة ـ جسداً. فقال له عليّ: اسكت! فإنك فاسق؛ فنزلت الآية. وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في عليّ وعُقبة بن أبي مُعَيْط. قال ابن عطية: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية؛ لأن عُقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله ﷺ من بدر. ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد. وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه، أو لما روي من نقله عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا[٣]﴾ على ما يأتي في الحُجُرَات بيانه. ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرف مما يبغي، وهو الذي شرب الخمر في زمن

(١) بله: من أسماء الأفعال، وهي مبنية على الفتح مثل كيف، ومعناها: دع عنكم ما أطلعكم عليه؛ فالذي لم يطلعكم أعظم؛ وكأنه أضرب عنه استقلالاً له في جنب ما لم يطلع عليه. «شرح النووي».

(٢) الملاحاة: المقاولة والمخاصمة.

(٣) راجع ١٦/٣١١.

عثمان رضي الله عنه، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال: أتريدون أن أزيدكم، ونحو هذا مما يطول ذكره.

الثانية ـ لما قسّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر ـ لأن التكذيب في آخر الآية يقتضي ذلك ـ اقتضى ذلك نفي المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القصاص بينهما؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. وبذلك احتج علماؤنا على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذميّ. وقال: أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب وفي الدنيا في العدالة. ونحن حملناه على عمومه، وهو أصح، إذ لا دليل يخصه؛ قاله ابن العربي.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ قال الزجاج وغيره: ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والجمع. النحاس: لفظ ﴿مَنْ﴾ يؤدي عن الجماعة؛ فلهذا قال: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾؛ هذا قول كثير من النحويين. وقال بعضهم: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ لاثنين؛ لأن الاثنين جمع، لأنه واحد جمع مع آخر. وقاله الزجاج أيضاً. والحديث يدلّ على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس. وغيره قال: نزلت ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً﴾ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط. وقال الشاعر:

أليس الموت بينهما سواء إذا ماتوا وصاروا في القبور

[١٩] ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أخبر عن مقرّ الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جنات المأوى، أي يأوون إلى الجنات؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك الموضع يتضمن جنات. ﴿نُزُلاً﴾ أي ضيافة. والنُّزُلُ: ما يُهيّأ

للنازل والضيف. وقد مضى في آخر ﴿آل عمران﴾[١] وهو نصب على الحال من الجنات؛ أي لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولاً له. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي مقامهم فيها. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في ﴿الحج﴾[٢]. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي يقول لهم خَزَنة جهنم. أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانه[٣].

[٢١] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبَـيّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعِيّ: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس. وعنه أيضاً أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجِيف؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضاً : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء بن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيريّ : وقيل عذاب القبر .وفيه نظر؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجع من بقي منهم. ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم؛ إلا ما روي عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدي بالسيف. والأدنى غلاء السعر. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قول مجاهد والبراء: أي لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛

---

(١) راجع ٤/٣٢١. (٢) راجع ١٢/٢٧. (٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء.

كقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾[١]. وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعاً كما سُمّيت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾[٢]. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ على البناء للمفعول؛ ذكره الزمخشري.

[٢٢] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه. ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي بحججه وعلاماته. ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بترك القبول. ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

[٢٣] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس. وقد لقيه ليلة الإسراء. قتادة: المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء. والمعنى واحد. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول؛ قاله مجاهد والزجاج. وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ فأوذي وكُذِّب، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى؛ فالهاء عائدة على محذوف، والمعنى من لقاء ما لاقى. النحاس وهذا قول غريب، إلا أنه من رواية عمرو

(١) راجع ٩٥ من هذا الجزء.

(٢) راجع ٦/ ٨٠ فما بعد.

ابن عُبيد. وقيل في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: قل يتوفاكم مَلَك الموت الَّذِي وُكِّلَ بكم فلا تكن في مِرْية من لقائه؛ فجاء معترضاً بين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. والضمير فيه ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني ـ جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي قادةً وقُدْوةً يُقتَدى بهم في دينهم. والكوفيون يقرءون ﴿أئمَّةً﴾ النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، وهو من دقيق النحو.

وشرحه: أن الأصل ﴿أأْمِمَة﴾ ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم، وخفّفت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد؛ فأمّا في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أومّ من هذا وأيمّ؛ بالواو والياء. وقد مضى هذا في ﴿براءة﴾[1] والله تعالى أعلم. ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي أمرناهم بذلك. وقيل: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي لأمرنا؛ أي يهدون الناس لديننا. ثم قيل: المراد الأنبياء عليهم السلام؛ قاله قتادة. وقيل: المراد الفقهاء والعلماء. ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءة العامة ﴿لَمّا﴾ بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها؛ أي حين صبروا. وقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخَلَفَ ورُوَيْس عن يعقوب: ﴿لِما صَبَرُوا﴾ أي لصبرهم جعلناهم أئمة. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود ﴿بمَا صَبَرُوا﴾ بالباء. وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَومَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كُلاًّ بما يستحق. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاه النقاش.

[٢٦] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) راجع ٨/ ٨٤ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمِيّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب ﴿نَهْدِ لَهُمْ﴾ بالنون؛ فهذه قراءة بيّنة. النحاس: وبالياء فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ ﴿يهد﴾؟ فتكلم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: ﴿كَمْ﴾ في موضع رفع بـ ﴿يهْدِ﴾. وهذا نقض لأصول النحويّين في قولهم: إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا في ﴿كَمْ﴾ بوجهٍ؛ أعني ما قبلها. ومذهب أبي العباس أن ﴿يهْدِ﴾ يدلّ على الهُدَى ؛ والمعنى أَوَلَمْ يَهْد لهم الهدى . وقيل : المعنى أَوَلَمْ يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحداً؛ أيَ أو لم نُبيّن لهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلهم. وقال الزجاج: ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يحتمل الضمير في ﴿يَمْشُونَ﴾ أن يعود على الماشين في مساكن المهلكين؛ أي وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون. ويحتمل أن يعود على المهلَكين فيكون حالاً؛ والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون.

[٢٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرض الْجُرُزِ﴾ أي أو لم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها. الزّمَخْشرِيّ : الجرز الأرض التي جُرِز نباتها ، أيْ قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ قال ابن عباس: هي أرض باليمن. وقال مجاهد: هي أَبْيَن. وقال عكرمة: هي الأرض الظمآى. وقال الضحاك: هي الأرض الميتة العَطْشَى. وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها . وقال الأصمعِيّ : هي الأرض التي لا تنبت شيئاً . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام؛ إلا أنه يجوز على قول من قال: العباس والضحاك. والإسناد

عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه. وهذا إنما هو نعت والنعت للمعرفة يكون بالألف واللام؛ وهو مشتق من قولهم: رجل جَروز إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكله. قال الراجز:

خِبٌّ جَروز وإذا جاع بكى ويأكل التمر ولا يُلقى النَّوَى

وكذلك ناقةٌ جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وسيفٌ جُراز: أي قاطع ماضٍ. وَجَرَزتِ الجراد الزرع: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفرّاء وغيره أنه يقال: أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بخل ورغب ورهب؛ في الأربعة أربع لغات. وقد روي أن هذه الأرض لا أنهار فيها، وهي بعيدة من البحر، وإنما يأتيها في كل عام وِدَان[1] فيزرعون ثلاث مرات في كل عام. وعن مجاهد أيضاً: أنها أرض النيل. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي بالماء. ﴿زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من الكلأ والحشيش. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحبّ والخضر والفواكه. ﴿أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم. و ﴿فَنُخْرِجُ﴾ يكون معطوفاً على ﴿نَسُوقُ﴾ أو منقطعاً مما قبله. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أنعَامهم﴾ في موضع نصب على النعت.

[٢٨] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿مَتَى﴾ في موضع رفع، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف. قال قتادة: الفتح القضاء. وقال الفراء والقُتَبِيّ: يعني فتح مكة. وأولى مِن هذا ما قاله مجاهد، قال: يعني يوم القيامة. ويروى أن المؤمنين قالوا: سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء. فقال الكفار على التّهزيء: متى يوم الفتح، أي هذا الحكم. ويقال للحاكم: فاتح وفتاح؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

---

(١) في «الأصول»: «واديان». والودان: البلل.

قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[١] وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾[٢] وغيرها. ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ على الظرف. وأجاز الفراء الرفع. ﴿لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يؤخرون ويمهلون للتوبة؛ إن كان يوم الفتح يومَ بدر أو فتح مكة. ففي بدر قُتلوا، ويوم الفتح هربوا[٣] فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم.

[٣٠] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به. ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي انتظر يوم الفتح، يوم يحكم الله لك عليهم. ابن عباس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن مشركي قريش مكة، وأن هذا منسوخ بالسيف في ﴿براءة﴾ في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[٤]. ﴿وَانْتَظِرْ﴾ أي موعدي لك. قيل: يعني يوم بدر. ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي ينتظرون بكم حوادث الزمان. وقيل: الآية غير منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها. وقيل: أعرض عنهم بعد ما بَلغت الحجة، وانتظر إنهم منتظرون. إن قيل: كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان: **أحدهما**: أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة؛ فيكون هذا مجازاً. **والآخر**: أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة؛ فيكون هذا جواباً لهذين الصنفين. والله أعلم. وقرأ ابن السَّمَيْقَع: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ بفتح الظاء. ورويت عن مجاهد وابن مُحَيْصِن. قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار، مجازه: إنهم منتظرون بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر؛ أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك. وقد قيل: إنّ قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن يُنْتظر هلاكهم؛ يعني أنهم هالكون لا محالة، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشرِيّ. وهو معنى قول الفرّاء. والله أعلم.

---

(١) راجع ٧/ ٢٥٠ فما بعد. (٢) راجع ٢/ ٣ فما بعد.
(٣) في ش: «هزموا».
(٤) راجع ٧/ ٧٢.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية. قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم ابن بَهْدَلَة، عن زرّ قال: قال لي أُبيّ بن كعب: كَأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كَأين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قَط! لقد رأيتها وإنها لتعادل «سورة البقرة»، ولقد قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم». ورواه النسائي من وجه آخر، عن عاصم ـ وهو ابن أبي النجود، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به. وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى.

وقد قال طَلْق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود العنوي أمراً حسياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عَلي كظهر أمي أماً له، وكذلك لا يصير الدَّعِيّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، كقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفي؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، كما قال في أثناء السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾: قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المستقيم. وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له: «ذو القلبين»، وأنه كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر. فأنزل الله هذه الآية رداً عليه. هكذا روى العَوْفي عن ابن عباس. قاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، واختاره ابن جرير. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس ـ يعني ابن أبي ظِبْيَان ـ أن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: أرأيت قول الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، ما عني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي، فخَطَر خَطْرَة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن صاعد الحراني ـ وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس ـ كلاهما عن زهير، وهو ابن معاوية، به. ثم قال: وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زهير،

به. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، في قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرُب له مثل، يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة. وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير، والله أعلم. وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط. قال البخاري، رحمه الله: حدثنا مُعَلى بن أسد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا موسى ابن عقبة قال: حدثني سالم عن عبد الله بن عمر؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن موسى بن عقبة، به. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله، كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَلَيّ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه» الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة، وقال: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعيّ، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله، عليه السلام في الصحيحين: «حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب». فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديث سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن الحسن العُرَني، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على حُمُرات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول: «أُبَيْنِيَّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس». قال أبو عُبَيد وغيره: «أُبَيْنِيّ»: تصغير بني. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر، وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ في شأن زيد بن حارثة، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم، من حديث أبي عَوَانة الوضاح بن عبد الله اليَشْكُري، عن الجَعْد أبي عثمان البصري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُني». ورواه أبو داود والترمذي. وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: أمر الله تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، فإن لم يعرفوا آباءهم، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي: عوضاً عما فاتهم من النسب. ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء، وتبعتهم ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فأخذها علي وقال لفاطمة: دونَك ابنة عَمِّك فاحتمليها. فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيهم يكفلها، فكل أدلى بحجة؛ فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عميس ـ وقال زيد: ابنة أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتي ـ يعني أسماء بنت عميس. فقضى النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعلي: «أنت مني، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه، عليه الصلاة والسلام، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»، كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بَكْرَة: قال الله، ﷻ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، فأنا ممن لا يُعرف أبوه، وأنا من إخوانكم في الدين. قال أبي: والله إني لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى إليه. وقد جاء في الحديث: «من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر». وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وفي صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر». وفي الحديث الآخر: «إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون عليه». وقال هاهنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وفي الحديث

المتقدم: «من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر». وفي القرآن المنسوخ: «فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم - أو: إن كفراً بكم - أن ترغبوا عن آبائكم»، وإن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله». وربما قال مَعْمَر: «كما أطرت النصارى ابن مريم». ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطَّعْن في النَّسبَ، والنِّياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقدَّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». وفي الصحيح أيضاً أن عمر، رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عمر». ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وقال البخاري عندها: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فُلَيح، حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا. فإن ترك دَيْناً أو ضَياعاً، فليأتني فأنا مولاه». تفرد به البخاري. ورواه أيضاً في «الاستقراض» وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله بنحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك ديناً، فإلي. ومن ترك مالاً فلورثته». ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل، به نحوه. وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعي على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي، رحمه الله. وقد روي عن أُبي بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه»، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرِّمّة.

وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن عجلان. والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: وقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف. وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضي الله عنه، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعبي - من ساكني بغداد - عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، ﷻ، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾،

وذلك أنا معشرٌ قريش لما قَدمنا المدينة، قَدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم وورثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلاناً، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زُرَيق، سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية. وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب. فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله وسلامه عليهم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة الدمشقي، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ الآية: قال النبي ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، فَبُدىء بي قبلهم» سعيد بن بشير فيه ضعف. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً، وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم. وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا علي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين. موقوف، وحمزة فيه ضعف. وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم ـ يعني: ذريته ـ وأن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لو سويتَ بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ الآية وهذا قول مجاهد أيضاً. وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد. وقوله: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بَلّغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عُقْبة وغيره كانت في سنة أربع. وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الْحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم

على حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً. وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفَر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة ـ وهم طائفة من اليهود ـ لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد عن النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾. ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري ـ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ـ ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي، رضي الله عنه، فكان علامة على النصر. ثم أرسل الله، ﷻ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾. قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنّى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عِكْرمة قال: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل. قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشَجّ، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وَهْب، حدثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مَظْعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف. وقال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي، وقال: «من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا». قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه عليّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفذها إلى الأرض.

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليّ. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يا بن أخي، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًا من الليل، ثم التفت فقال: «مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ ـ يشرط له النبي ﷺ أنه يرجع ـ أدخله الله الجنة». قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هَوِياً من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هَوِياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة». فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تُحدثَنّ شيئاً حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله، ﷻ، تفعل بهم ما تفعل، ولا تُقرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: ما معشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قُرَيظة، وبَلَغَنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح الذي ترون. والله ما

تطمئن لنا قدر، ولا تَقُوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مُرْتَحل، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ: «ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئتُ، لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مِرْط لبعض نسائه مُرَحل، فلما رآني أدخلني بين رجليه، وطرح عليّ طرف المرْط، ثم ركع، وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غَطَفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم، يكون معي يوم القيامة؟». فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله. ثم قال: «يا حذيفة، قم فأتنا بخبر من القوم». فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرهم عَلَيّ»، قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلى ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كَبِد قوسي، وأردت أن أرميَه، ثم ذكرتُ قول رسول الله ﷺ «لا تَذْعَرْهم عَلَيّ»، ولو رَمَيْته لأصبته. قال: فرجعت كأنما أمشي في حَمّام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فَرَغتُ وقُرِرْتُ فأخبرتُ رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان». ورواه يونس بن بُكَير، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة، رضي الله عنه: نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره. فقال حذيفة: ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله لا تَدْري يا بن أخي لو أدركتَه كيف كنتَ تكون. لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مَطِيرة. . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً. وروى بلال بن يحيى العَبْسي، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً. وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو شَهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك. لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعُود، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قطّ أشدّ ظلمةً ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: «إن بيوتنا عورة وما هي بعورة». فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رَجُلاً رجلاً حتى أتى عَلَيّ وما عَلَيّ جُنّة من العدو ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتي، ما يجاوز ركبتي. قال: فأتاني ﷺ وأنا جَاثٍ على ركبتَيَ فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. قال: «حذيفة». فتقاصرتُ بالأرض فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم. قال: قم، فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم» ـ قال: وأنا من أشد الناس فزعاً، وأشدهم قُرّاً ـ قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته». قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرّا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً. قال: فلما وليت قال: «يا حذيفة، لا تُحدثَنّ في القوم شيئاً حتى تأتيني». قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم تَوَقَّدُ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كَبِد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شَجَّعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيلَ الرحيلَ، لا مُقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وَفُرُشُهُمْ الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمّين، فقالوا: أخبرْ صاحبك أن الله تعالى كفَاه القوم. فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت رَاجَعَني القُرُ وجعلت أُقَرْقِفُ، فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل عليّ شملته. وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أني تركتهم يترحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾. وأخرج أبو داود في سننه منه: كان رسول الله ﷺ: إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار، به. وقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: من شدة الخوف والفزع، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾. قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال مُعَتِّب بن قشير ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط. وقال الحسن في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبي، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا الزبير ـ يعني: ابن عبد الله، مولى عثمان بن عفان ـ عن رُتَيْج بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن رَوْعاتنا». قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح. وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حَسِيكَة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة، كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دارَ هجرتكُم، أرض بين حَرَّتين فذهب وَهْلي أنها هَجَر، فإذا هي يثرب»، وفي لفظ: «المدينة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد ابن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّى المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة».

تفرد به الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم. ويقال: إنما كان أصل تسميتها «يثرب» برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السهيلي، قال: وروي عن بعضهم أنه قال إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطيبة، والمسكينة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة. وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة: يا طيبة، ويا طابة، ويا مسكينة، لا تقلي الكنوز، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى. وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق. وكذا قال غير واحد. وذكر ابن إسحاق: أن القائل لذلك هو أوس بن قَيْظِيّ، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هَرَباً من الزحف.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقُطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعاً. وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى: يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد، لا بد من ذلك. ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غِرّة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هَرَبكم وفراركم، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]. ثم قال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم، أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظِّلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم.

وقال السُّدي: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الغنائم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس: ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: استقبلوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق. وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أفي السِّلم أعياراً جَفاءً وغِلْظةً ... وفي الحرب أمثالَ النساء العَوارِكِ

أي: في حال المسالمة كأنهم الحمير. والأعيار: جميع عير، وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الحُيَّض؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً عنده.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخور، ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، بل هم قريب منهم، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: ويَوَدُّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، ﷺ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]. أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾: دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة. ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ما زادهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه. قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: لما نسخنا الصُحُف، فَقَدْتُ آيةً من «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصاري ـ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ـ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

انفرد به البخاري دون مسلم. وأخرجه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي ـ في التفسير من سننيهما ـ من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثني أبي، عن ثُمَامَةَ، عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرق أخر. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر سُميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين. واهاً لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل قال: فَوُجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته ـ عمتي الرُّبَيِّع ابنة النضر ـ: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. قال: فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه. ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. ورواه النسائي أيضاً وابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حميد، عن أنس أن عمه ـ يعني: أنس بن النضر ـ غاب عن قتال بدر، فقال: غُيِّبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين، لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع. قال: فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني: أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء ـ يعني: المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعني: ابن معاذ ـ دون أحد، فقال: أنا معك. قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع. قال: فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف، وطَعنةَ رمح، ورمية سهم. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ وأخرجه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد والنسائي فيه أيضاً، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به. وقال الترمذي: حسن. وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس، به، ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، حدثني أبي، عن جدي، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال: لما أن رجع النبي ﷺ من أحد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعَزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعَلَيّ ثوبان أخضران حَضْرَمِيّان فقال: «أيها السائل، هذا منهم». وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحي، به. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابني طلحة، عن أبيهما، به. وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر ـ يعني: العقدي ـ حدثنا إسحاق ـ يعني: ابن طلحة بن عبيد الله ـ عن موسى بن طلحة قال: دخلت على معاوية، رضي الله عنه، فلما خرجت، دعاني فقال: ألا أضع عندك يابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ أشهد لَسَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه». ورواه ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الحميد الحِمّاني، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلْحي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سفيان فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه». ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال: عهده، ﴿وَمِنْهُم

﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ قال: يوماً. وقال الحسن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يعني: موته على الصدق والوفاء. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً. وكذا قال قتادة، وابن زيد. وقال بعضهم: ﴿نَحْبَهُۥ﴾: نذره. وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾. وقوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده. وكذا قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن همَّ بشيء وصدق هَمَّه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله. وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». أخرجاه من حديث أبي هريرة. وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم، اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم. وقال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة. وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحاق حديث صحيح، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني أبو إسحاق قال: سمعت سليمان بن صُرَد يقول: قال رسول ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: بحوله وقوته، ردهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم بين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضري ـ لعنه الله ـ دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل والله أتيتني بذُلّ الدهر. ويحك يا حيي، إنك مشؤوم، فدعنا منك. فلم يزل يفتل في الذِّروة

والغَارب حتى أجابه، واشترط له حُيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم. فلما نَقَضت قريظةُ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه، وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيد الله وَنَصر، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺإلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضَعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وفي رواية فقال له: عذيرَك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: «أين؟». قال: بني قريظة، فإن الله أمرني أن أزلزل عليهم. فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة». فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً، رضي الله عنه، كان قد أصابه سهم في أكحَله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد فيما دعا به: اللهم، وإن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها ولا تمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة. فاستجاب الله دعاءه، وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم. ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه من الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت». قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قال: «نعم». قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال: وعلى من هاهنا. وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ـ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً ـ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: إني أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم، وتُسْبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، وفي رواية: «لقد حكمت بحكم المَلك». ثم أمر رسول الله ﷺ بالآخاديد فَخُدّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم يُنبت منهم من النساء وأموالهم، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً، ولله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً، طَمَعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، فعليهم لعنة الله. وقوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدّي، وغيرهم ومنه سميت صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب الفال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال: عُرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا فيَّ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلى عني وألحقني بالسبي. وكذا

رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه. وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرتني عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجَنَّة، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دِرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبِّثْ قَلِيلاً يَشْهَدِ الهَيْجَا حَمَلْ مَا أَحْسَنَ المَوتَ إذا حَانَ الأَجَلْ

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبغَة له ـ تعني المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمِّنك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوّز. قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفعَ الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التَحَوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمي سعداً رجل من قريش، يقال له ابن العَرقة بسهم، وقال له: خذها وأنا ابن العَرقة فأصابَ أكْحَلَه فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمتني حتى تُقر عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقأ كَلْمُه، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل، عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله فقال: ومن مر بكم؟ قالوا: مر بنا دحية الكلبي ـ وكان دحية الكلبي تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه، وحَفّ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية ومن قد علمت، قالت: ولا يَرْجِعُ إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أنزلوه». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله». ثم دعا سعد فقال: اللهم إني كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها. وإن كانت قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضني إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برىء منه إلا مثل الخُرْص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله. قالت عائشة: فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، وعمر: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وأنا في حجرتي. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. قال علقمة: فقلت: أيْ أمّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة نحواً من هذا، ولكنه أخصر منه، وفيه دُعاء سعد، رضي الله عنه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يخَيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. قال البخاري: حدثنا أبو

اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد عَلِمَ أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «وإن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾» إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وكذا رواه معلقاً عن الليث: حدثني يونس، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت. وقد حكى البخاري أن مَعْمَراً اضطرب، فتارة رواه عن الزهري، عن أبي سلمة، وتارة رواه عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبَدة الضَّبِّي، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إني أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمري أبويك». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النبي ﷺ. وحدثنا ابن وَكِيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «يا عائشة، إني عارض عليك أمراً، فلا تفتاتي فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رومان». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾». قالت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجَر، فقال: «إن عائشة قالت كذا وكذا». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن كلهن.

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشَجّ، عن أبي أسامة، عن محمد بن عمرو، به. قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل عَليَّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستشيري أباك». فقلت: وما هو يا نبي الله؟ قال: «إني أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذي تقول لا تعجلي حتى تستشيري أباك؟ فإني أختار الله ورسوله، فَسُرّ بذلك، وعَرَض على نسائه فتتابعن كُلّهن، فاخترنَ الله ورسوله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن سنان البصري، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عُقَيل، عن الزهري، أخبرني عُبيد الله بن عبد الله بن أبي ثَور، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بي أوّلَ امرأة من نسائه، فقال: «إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد عَلِم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾» الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفي هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن. وأخرجه البخاري ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، مثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبِيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجاه من حديث الأعمش. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضي الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً، فوجأت عنقها. فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه وقال: «هن حولي يسألنني النفقة». فقام أبو بكر، رضي الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضي الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، ﷻ، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة، رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها». انفرد بإخراجه مسلم دون

البخاري، فرواه هو والنسائي، من حديث زكريا بن إسحاق المكي، به.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد الله بن علي ابن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خَيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق. وهذا منقطع، وقد رُوي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن. وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَيّ النَّضريَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن.

ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضي الله عنها، في الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة. واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف. وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تُسلّي رسول الله ﷺ وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضي الله عنه. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيها إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنّي، وبشرها ببيت في الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب وهذه لعَمْر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأمّا عائشة، رضي الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبي ﷺ، فروى البخاري بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ. ومن خواص خديجة، رضي الله عنها: أنه لم تسوءه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاءٌ، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة. ومن خواصها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة. **فصل**: فلمّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضي الله عنها، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤي، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبي ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحباً له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في البخاري وغيره، أنه سئل أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكراً غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دون غيرها. ومن خصائصها: أن الله، ﷻ، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ فيها فخيرها، فقال: «ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك». فقالت: أفي هذا أستأمر أبواي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ، وقلن كما قالت. ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبراءتها، وحياً يتلى في محاريب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف

والإكرام الناشيء عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويُغتنم بصالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثُرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ منَ أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وإنَ إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم. ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر منَ جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً، وهو عند الله حقيراً، ومن خصائص عائشة، رضي الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضي الله عنهم، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين، استفتوها فيجدون علمه عندها. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتها. ومن خصائصها: أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في خرقة حرير، فقال النبي ﷺ: «إن يكن هذا من عند الله يمضه». ومن خصائصها: أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، رضي الله عنهم أجمعين، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً، ولا يثبت ذلك.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدراً، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة: أن النبي ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة. وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدي حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو بن صالح الحضرمي، عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبأ الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبي ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشي أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبي ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد. وزوجها ابنها ـ عمر ـ من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم في صحيحة أن عمر بن أبي سلمة ـ ابنها ـ سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إني أتقاكم لله وأعلمكم به» أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جداً، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال

البيهقي: وقول من زعم أنه كان صغيراً، دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح.

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بني خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات، وأنزل عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سمواته، وهذا من خصائصها. توفيت بالمدينة سنة عشرين، ودفنت بالبقيع. وتزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت تحت عبد الله بن جحش، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمى أم المساكين، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، رضي الله عنها. وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين، وهي التي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكان ذلك من بركتها على قومها.

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، من ولدها هارون بن عمران أخي موسى، سنة سبع، فإنها سبيت من خيبر، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق، فقتله رسول الله ﷺ، توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها. قال أنس: أمهرها نفسها، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد، رحمه الله. قال الترمذي: حدثنا إسحاق بن منصور، وعبد بن حميد، قالا: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: صفية بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبما تفخر عليك؟» ثم قال: «اتق الله يا حفصة». قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. وهذا من خصائصها، رضي الله عنها.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية تزوجها بسَرِف وهو على تسعة أميال من مكة، وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين، توفيت سنة ثلاث وستين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهي التي اختلف في نكاح النبي ﷺ لها. هل نكحها حلالاً أو محرماً؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير في نكاحها.

قال الحافظ أبو محمد المقدسي وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهن، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة، وأنهن نساؤه ﷺ في الدنيا والآخرة، فمن فارقها في حياتها ولم يدخل، ولا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتي دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة. وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد مثله. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً. ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾. قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: دَغَل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تَفِلات»، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن». وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مَسْعَدة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس، رضي الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قعد ـ أو كلمة نحوها ـ منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله». ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور. وقال البزار أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحَة بها وهي في قَعْر بيتها». ورواه الترمذي، عن بُنْدار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه. وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مَخدعِها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها». وهذا إسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن ـ وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج ـ فنهى الله عن ذلك. وقال مُقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج. وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود ـ يعني ابن أبي الفرات ـ حدثنا علي بن أحمر، عن عِكْرِمة عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دَمَامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فآجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزَمّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمَع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرَّجُ النساء للرجال. قال: ويتزيَّن الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هَجَم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصَبَاحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، نهاهن أولاً عن الشر في أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة ـ وهي: عبادة الله وحده لا شريك له ـ وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير: عن عِكْرِمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عِكْرِمة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

وقال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس ابن مالك، رضي الله عنه، قال:

إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: «الصلاة يا أهل البيت؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن عفان، به. وقال: حسن غريب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وَكيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: «الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». أبو داود الأعمى هو: نفيع بن الحارث، كذاب.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد أبو عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً، رضي الله عنه، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: تَوَجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه ـ زاد في آخره: قال واثلة: فقلت: وأنا يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ من أهلك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال واثلة: إنها من أرجى ما أرتجى. ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دُكَين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله، وأنا: قال: «وأنت». قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة، رضي الله عنها، ببرمة فيها خَزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادعي زوجك وابنيك». قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير». وفي إسناده من لم يسم، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. **طريق أخرى:** قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المعدل، عن عطية الطُّفَاوِيّ، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعلياً بالسدّة قالت: فقال لي: «قومي فَتَنَحي عن أهل بيتي». قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقَبَّل فاطمة وَقبَّل علياً، وأغدق عليهم خَميصَة سوداء وقال: «اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: «وأنت».

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألستُ من أهل البيت؟ قال: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، رضي الله عنهم. **طريق أخرى:** رواه ابن جرير أيضاً، عن أبي كُرَيْب، عن وَكيع، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أم سلمة بنحوه. **طريق أخرى:** قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتني أم سلمة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأر إلى الله، ﷻ، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم.

فقال: «أنت من أهلي». **طريق أخرى**: رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه بنحو ذلك. **طريق أخرى**: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا سعيد بن زرْبي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمَة لها قد صنعت فيها عَصيدَة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت: في البيت. فقال: «ادعيهم». فجاءت إلى علي فقالت: أجِبْ رسول الله أنت وابناك. قالت أم سلمة: فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة، فمده وبسطه، وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه، ﷺ، فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». **طريق أخرى**: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير».

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة، رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرْط مُرَحّل من شَعْر أسوِد، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به. **طريق أخرى**: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام ـ يعني: ابن حَوْشَب ـ عن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي، رضي الله عنه، فقالت، رضي الله عنه: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحّي، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زَبّان العَنَزيّ، حدثنا مِنْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم. وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي».

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مُخْلَد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة ـ قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيّان، حدثني يزيد بن حَيّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً؛ حَدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد كَبُرَت سِنّي، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من رسول الله ﷺ، فما حَدّثْتُكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعي خُما ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وَذَكّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فَحَثّ على كتاب الله وَرَغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذَكّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ فقال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من

حُرِمَ الصَّدَقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم. ثم رواه عن محمد بن بَكّار بن الريَّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد ابن حَيَّان، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصَبته الذين حُرموا الصدقة بعده. هكذا وقع في هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن في بعض أسانيدها نظراً، والله أعلم. ثم الذي لا يشكّ فيه من تَدَبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: اعلمن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحيُ في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء، رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: «وأهل بيتي أحق». وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: «هو مسجدي هذا». فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قُباء، كما ورد في الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولَى بِتَسمِيَته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبي جميلة قال: إن الحسن بن علي استُخلفَ حين قُتل علي، رضي الله عنهما، قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وَركه، فمرض منها أشهراً، ثم بَرَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء. وقال السُّدّي، عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير، رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة. وهي السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العَوْفي في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يَرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسَرّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حُجرة من حُجَر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» إلى آخر الآية. وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله. **طريق أخرى عنها**: قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيْد، أخبرنا عبد الله بن شَرِيك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت

للنبي ﷺ: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. وقد رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أيذكر الرجل في كل شيء ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية. **طريق أخرى**: قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزي، حدثنا أبو كُدَيْنة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبي ظِبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد؛ عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ، فقلن: قد ذَكَركُنّ الله في القرآن، ولم نُذكَر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه في أول شرح البخاري. وقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: القنوت: هو الطاعة في سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣] ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها، ثم القنوت ناشيء عنهما. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾: هذا في الأقوال، فإن الصدق خَصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرّب عليه كِذْبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» والأحاديث فيه كثيرة جداً. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾: هذه سَجِيَة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقّي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾: الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث الآخر: «والصدقة تطفيء الخطيئة، كما يطفيء الماء النار». وفي الترمذي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن الصدقة تطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء». وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولو بشق تمرة». وفي حديث أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل؟ قال: «ترضخ مما خولك الله»، أو: «ترضخ مما رزقك الله»؛ ولهذا لما خطب النبي ﷺ يوم العيد قال في خطبته: «يا معشر النساء تصدقن ولو في حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار». وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار، وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ذكر لي أن الأعمال تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ، مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهم جبتان من حديد، أو جنتان من حديد. قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدق، كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها. قال أبو هريرة: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جيبه. فلو رأيته يوسعها ولا يتسع. وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. فجود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده. كما قيل:

ويظهر عيبَ المرء في الناس بخلُه وتستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً، له موضع بذاته. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾: في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «والصوم زكاة البدن» أي: تزكيه وتطهره وتنقية من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً. قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، دخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصَن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وَجَاء» ـ ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]. وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقمر، عن الأغَرّ أبي مسلم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وقد رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي ﷺ، بمثله. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل منه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمْدان فقال: «هذا جُمْدان، سيروا فقد سبق المُفَرّدون». قالوا: وما المُفَرّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً». ثم قال: «اللهم اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرين؟ قال: «اللهم، اغفر للمحلقين». قالوا: والمقصرين؟ قال: «والمقصرين». تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره. وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد ـ مولى عبد الله بن عَيَّاش بن أبي ربيعة ـ أنه بلغه عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدمي عملًا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله». وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ذكر الله، ﷻ». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنيّ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلًا سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم لله ذكراً». قال: فأي الصائمين أكثر أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أكثرهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر، رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «أجل». وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله في هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ الآية [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجراً عظيماً وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بل فانكحيه». قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي. فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: «نعم». قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي. وقال ابن لَهيعة، عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل الله، ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش الأسدية حين خطبها

رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة، فامتنعت ثم أجابت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت أول من هاجر من النساء ـ يعني: بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت. فزوجها زيد بن حارثة ـ يعني والله أعلم بعد فراقه زينب ـ فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ إلى آخر الآية. قال: وجاء أمر أجمع من هذا: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: فذاك خاص وهذا جمَاع. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ثابت البُنَاني، عن أنس قال: خطب النبي ﷺ على جُلَيْبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها. فقال: النبي ﷺ: فنعم إذاً. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاها الله ذا، وما وجد رسول الله ﷺ إلا جلَيبيبا، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدّوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. قال: فكأنها جلَّت عن أبويها، وقالا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: «فإني قد رضيته». قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جُلَيْبيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ يعني: ابن سلمة ـ عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي برزة الأسلمي أن جليبيباً كان امرأ يدخل على النساء يَمُرّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكم جُليبيبُ، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم: هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك». قال: نعم، وكرامة يا رسول الله، ونُعْمَة عين. فقال: إني لست أريدها لنفسي. قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: لجليبيب. فقال: يا رسول الله، أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونُعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أَجُلَيبيب إنيه؟ أجليبيب إنيه؟ لا، لعمر الله لا تزَوّجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها. قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها. فَزَوّجها جليبيباً. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد»؟! قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً. قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «لكني أفقد جليبيباً». قال: «فاطلبوه في القتلى». فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه. مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ. ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضي الله عنه. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيّم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: «اللهم، صب عليها الخير صبا، ولا تجعل عيشها كدّا» كذا قال، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ تلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. وقال ابن جُرَيْج أخبرني عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس، رضي الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، كان سيداً كبير الشأن جليل القدر،

حبيباً إلى النبي ﷺ، يقال له: الحِبّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبّ ابن الحِبّ. قالت عائشة، رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي عنها. وقال البزار: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عَوَانة (ح)، وحدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة، أخبرني عمران بن أبي سلمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ. قال: فأتيتُ رسولَ الله فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: «لكني أدري»، قال: فأذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أيُّ أهلك أحبّ إليك؟ فقال: «أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد»، قالا: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامة بن زيد بن حارثة، الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه».

وكان رسول الله ﷺ قد زَوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ وأمها أميمة بنت عبد المطلب ـ وأصدقها عشرة دنانير، وستين درهماً، وخِماراً، ومِلْحَفَة، ودرعاً، وخمسين مُدّا من طعام، وعشرة أمداد من تمر. قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله». قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف، رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صَفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً، من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً. وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا مُعَلّى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة، رضي الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن علي ابن زيد بن جُدْعان قال: سألني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؟ فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أني مُزَوّجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه. وهكذا رُوي عن السُّدّي أنه قال نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داود عن عامر، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾: الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فَرَغ منها، وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي وَلِي تزويجها منه هو الله، ﷻ، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم ـ يعني: ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، رضي الله عنه، قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي». فانطلق حتى أتاها وهي تُخمّر عَجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري ـ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ـ أنّ رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، ﷻ. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية. ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سليمان بن المغيرة، به. وقد روى البخاري، رحمه الله، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات. وقد قدمنا في «سورة النور» عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب، رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذري من السماء، فاعترفت لها زينب، رضي الله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير جبريل

عليه السلام. وقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دَعيه زيد بن حارثة. وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعيه، الذي كان قد تبناه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

يمدح تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيد الناس في هذا المقام ـ بل وفي كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحَضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَير، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَري، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْقرنّ أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن يخشى». ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن الثوري، عن زبيد، عن عمرو بن مرة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كُرَيْب، عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش به. وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، نهى تعالى أن يقال بعد هذا: «زيد بن محمد» أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه، صلوات الله عليه وسلامه، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زُهَير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبيّ بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبنة لم يَضَعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة». ورواه الترمذي، عن بُنْدار، عن أبي عامر العقدي، به، وقال: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار بن فُلفل، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي». قال: فشَقّ ذلك على الناس قال: قال:

«ولكن المبشرات». قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة». وهكذا روى الترمذي عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن عفان بن مسلم، به. وقال: صحيح غريب من حديث المختار بن فُلفُل.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سَليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء، عليهم السلام». ورواه البخاري، ومسلم، والترمذي، من طرق، عن سليم بن حيان، به. وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبنَة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة». انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عُبَيد الراسبي قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات». قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ: الرؤيا الصالحة».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لَبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وَضَعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟!» قال رسول الله ﷺ: «فكنت أنا اللبنة». أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

حديث آخر: عن أبي هريرة أيضاً: قال: الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة». ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كُرَيْب، كلاهما عن أبي معاوية، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرحمٰن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العِرْباض بن سارية قال: قال النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنْجَدِل في طينته».

حديث آخر: قال الزهري: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي». أخرجاه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودّع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي ـ ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بي، وعُوفيتُ وعُوفيت أمتي؛ فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذُهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه». تفرد به الإمام أحمد. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن مريج الخولاني، عن أبي قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء.

والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العَنْسي باليمن،

ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحجًى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ الآية [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عياش عن أبي بَحرية، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله، ﷻ». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد ـ مولى ابن عياش ـ عن أبي بَحرِّية ـ واسمه عبد الله بن قيس التراغمي ـ عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: ورواه بعضهم عنه فأرسله. قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في مسند الإمام أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا فرج بن فَضَالة، عن أبي سعيد الحِمْصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم، اجعلني أُعَظِم شكرك، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك». ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريب. وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المدني عن أبي هريرة فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمرني بأمر أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله». وروى الترمذي وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به. وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إنّ دَرّاجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون». وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مُكرم العَمّي، حدثنا سعيد بن سفيان الجَحْدَري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثُبَيت الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً حتى يقول المنافقون: تراؤون». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا رأوه حسرة يوم القيامة». وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي، رحمه الله تعالى. وقوله:

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في مَلأ ذكرته في ملأ خير منهم». والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم. وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ ـ ٩]. وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جَهله غيرهم، وبَصّرهم الطريق الذي ضَل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاء إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وَسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفّضهم رسول الله ﷺ وقال: «ولا الله، لا يلقي حبيبه في النار». إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا. قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها». وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾: الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى يوم يلقونه ﴿سَلَامٌ﴾ أي: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة. واختاره ابن جرير. قلت: وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ١٠]. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا».

وقد رواه البخاري في «البيوع» عن محمد بن سِنان، عن فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن علي به. ورواه في التفسير عن عبدالله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبدالعزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، به. وقال البخاري في البيوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ـ يقال له: شعياء ـ: أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه مبشراً ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت

قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كُمهاً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، أَسَدِّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأعرف به بعد النُّكرَة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهوءا متشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي: ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزُحوناً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجليهم في صدورهم، رهبان بالليل لُيوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العَرْزَمي، عن شَيْبَان النحوي، أخبرني قتادة، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ـ وقد كان أمر علياً ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن ـ فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل علي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾». ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بإسناده مثله. وقال في آخره: «فإنه قد أنزل علي: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن». وقوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ أي: لله بالوحدانية، أنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند. وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: لا تطعهم ولا تسمع منهم في الذي يقولونه ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسَيَّب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى. وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»: فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهي طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه،

فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شُمَيْل، حدثنا يونس ـ يعني: ابن أبي إسحاق ـ سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسِي، حدثنا وَكِيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟! وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق قبل النكاح. وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح». وفي الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أُسَيد؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيَّين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كان سمى لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مُهُورَهُنَّ، وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونَشًا وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي، رحمه الله، أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عن جميعهن. وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾: هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع. وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ فوَحّد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾: قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازي، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي صالح، عن أم هانىء قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذري، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن عبيد الله بن موسى، به. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنه بنحوه. ورواه الترمذي في جامعه.

وهكذا قال أبو رَزِين وقتادة: إن المراد: من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللاتي هَاجَرْنَ مَعَك».

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: ويحل لك ـ يأيها النبي ـ المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال هاهنا: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وَهَبت نفسي لك. فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زَوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال رسول الله ﷺ: «إن عندك من شيء تُصدقها إياه»؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ: «هل أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك، فالتمس شيئاً». فقال: لا أجد شيئاً. فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له رسول الله ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن». أخرجاه من حديث مالك. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سمعت ثابتاً يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها! فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها». انفرد بإخراجه البخاري، من حديث مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن ثابت البُنَاني، عن أنس، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سِنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها. فقال: «قد قبلتها». فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تَشْتَك شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك». لم يخرجوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مُزَاحم، حدثنا ابن أبي الوضاح ـ يعني: محمد بن مسلم ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم. وقال ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزِّنَاد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص، من بني سُلَيم، كانت من اللاتي وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ. وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة. فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأة أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِي، حدثنا وَكِيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صَعْصَعَة، وامرأتان من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين ـ امرأة من بني أبي بكر بن كلاب من القرطاء ـ وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتان صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية. وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن ابن عباس: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث. فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خُزَيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم. والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ كثير، كما قال البخاري، حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: هشام بن عُرْوَة حدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى رَبَّك إلا يُسَارع في هواك. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن عَنْبَسَة بن الأزهر، عن سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. ورواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن يونس بن بُكَيْر. أي: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل

له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما. أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش، رضي الله عنها. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: من حَصْرِهم في أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً فيه؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله، ﷻ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك. وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أسامة، عن هشام بن عُرْوَة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِى﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات أنفسهن ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشعبي في قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنْكحن بعده، منهن أم شريك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت. هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رَزِين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كان، صلوات الله وسلامه عليه، يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه، صلوات الله وسلامه عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة. وقال البخاري: حدثنا حبّان بن موسى، حدثنا عبد الله ـ هو ابن المبارك ـ أخبرنا عاصم الأحول، عن مُعاذة عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً. فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قِلابَة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة ـ وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تلمني فيما تملك ولا أملك: يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

ذكر غير واحد من العلماء ـ كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم ـ أن هذه الآية نزلت

مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن. قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء. ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيْج، عن عَطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة، حدثني عمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة، عن أبي سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله، ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مرويّ عن أبي بن كعب، ومجاهد، وعِكْرِمة، والضحاك - في رواية - وأبي رَزِين - في رواية عنه - وأبي صالح، والحسن، وقتادة - في رواية - والسدي، وغيرهم. قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود بن أبي هند، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زياد - رجل من الأنصار - قال: قلت لأبي بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ تُوفين، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضربا من النساء، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ ثم قيل له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود، به. وروى الترمذي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء. وقال مجاهد: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما سمى لك، لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة. وقال أبو صالح: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة وقال عكرمة: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: التي سمى الله.

واختار ابن جرير، رحمه الله، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم. فأما قَضية سَوْدَة ففي الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها، وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ الآية [النساء: ١٢٨]. وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حَي عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد قوي. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الصحيحين. وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكْرُه هاهنا، فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة، رضي الله عنه، قال: كان البَدلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلْني امرأتك وأبادلُك بامرأتي. أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عيينه بن حصن على النبي ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين الاستئذان؟ فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضر منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين». قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق؟ قال: «يا عيينة إن الله قد حرم ذلك». فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: هذا أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه». ثم قال البزار إسحاق بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيّنا العلة فيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضية رابعة. وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما. وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنى، وخَليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم. قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرَّقاشي، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مِجْلَز، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية.

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به. ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قِلابة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، بنحوه. ثم قال: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلْتُ على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه. قال: «ارفعوا طعامكم»، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته». قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فَتَقَرَّى حجر نسائه كُلّهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع رسول الله ﷺ فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة، فما أدري أخبرتُه أم أخبر أن القوم خَرَجُوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفة الباب داخلة، وأخرى خارجة، أرْخَى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، سوى النسائي في اليوم والليلة، من حديث عبد الوارث. ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد الله بن بكر السهمي، عن حُمَيد، عن أنس، بنحو ذلك، وقال: «رجلان» انفرد به من هذا الوجه. وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفر بن سليمان، عن الجعد ـ أبي عثمان اليَشْكُرِي ـ عن أنس بن مالك قال: أعرس

رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً ثم وضعته في تَوْر، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، وأقرئه مني السلام، وأخبره أن هذا منا له قليل ـ قال أنس: والناس يومئذ في جهد ـ فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوَضَعته في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً». وسمى رجالاً كثيراً، وقال: «ومن لقيتَ من المسلمين». فدعوتُ مَن قال لي، ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصُّفَّة والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة ـ قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جِئ به». فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه، ودعا وقال: «ما شاء الله». ثم قال: «ليتَحلَّق عَشَرة عَشَرة، وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه». فجعلوا يسمون ويأكلون، حتى أكلوا كلهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه». قال: فجئتُ فأخذت التَّورَ فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت؟ قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله، وزَوجُ رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مُولِّية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حُجَره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَّلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسولُ الله ﷺ في بيته يسيراً، وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾. قال أنس: فقرأهن عَليّ قبل الناس، فأنا أحدثُ الناس بهن عهداً. وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به. وقال الترمذي: حسن صحيح وعَلَّقه البخاري في كتاب النكاح فقال: وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن الجَعْد أبي عثمان، عن أنس، فذكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الجعد، به. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شَرِيك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى البخاري والترمذي، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأحْمَسِي الكوفي، عن أنس، بنحوه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، من حديث أبي نَضْرَة العبدي، عن أنس بن مالك، بنحوه. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهري، عن أنس، بنحو ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ: «اذهب فاذكرها علي». قال: فانطلق زيد حتى أتاها، قال: وهي تُخَمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت في صدري. . . وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وزاد في آخره بعد قوله: وَوُعِظ القوم بما وعظوا به. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة، به. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخي ابن وهب ـ حدثني عمي عبد الله بن وهب، حدثني يونس عن الزهري، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرْصاً أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب.

هكذا وقع في هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، من حديث هشام بن عُرْوَة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جَسِيمَةً لا تَخفَى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تَخْفَين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأت راجعة، ورسولُ الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عَرْق، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفِعَ عنه وإن العَرْق في يده، ما وضعه. فقال: «إنه قد أذنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن». لفظ البخاري. فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾: حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء». ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب

الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرساً كان أو غيره». وأصله في الصحيحين وفي الصحيح أيضاً، عن رسول الله ﷺ: «لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ كُرَاع لقبلت، فإذا فَرَغتم من الذي دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض»؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾. وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه، عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مِسْعَر، عن موسى ابن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حَيْساً في قَعْب، فمر عمر فدعاه، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: حَسِّ - أو: أوّه - لو أطاع فيكن ما رأتك عين. فنزل الحجاب. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهْرَان، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال: نزلت في رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك. وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت الأشعث - يعني: ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيّرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضي الله عنهما، وسكن. وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثم قال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعض السلف فقال: لِمَ لَمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي: بأنهما لم يذكرا؛ لأنهما قد يصفانَ ذلك لبنيهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قالا:

هما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾: يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: يعني به: أرقاءهن من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه. قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به: الإماء فقط. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبرِّكون. هكذا علقه البخاري عنهما. وقد رواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك. وروى مثله عن الربيع أيضاً. وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم. وقال أبو عيسى الترمذي: وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأوْدِيّ، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش عن عطاء بن أبي رباح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ﴾قال: صلاته تبارك وتعالى: سُبّوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر - يعني: ابن المغيرة - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى، عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: يا موسى، سألوك: «هل يصلي ربك؟» فقل: نعم، إنما أصلي أنا وملائكتي على أنبيائي ورسلي. فأنزل الله، ﷻ، على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. وقد أخبر أنه، سبحانه وتعالى، يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامِن الصفوف». وفي الحديث الآخر: «اللهم، صل على آل أبي أوفى». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها -: «صلى الله عليك، وعلى زوجك». وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان. قال البخاري - عند تفسير هذه الآية -: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي، عن مِسْعَر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم، صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم: قال: سمعت ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا - أو: عرفنا - كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللّهم، بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق متعددة، عن الحكم - وهو ابن عتبة - زاد البخاري: وعبد الله بن عيسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فذكره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيم بن بُشَير، عن يزيد بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد». وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم. ورواه الترمذي بهذه الزيادة. ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه»: هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خَبَّاب، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». وفي رواية: قال أبو صالح، عن الليث: «على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والدَّرَاوَرْدي، عن يزيد ـ يعني: ابن الهاد ـ قال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم». وأخرجه النسائي وابن ماجه، من حديث ابن الهاد، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذي، من حديث مالك، به.

حديث آخر: قال مسلم: حدثنا يحيى التميمي قال: قرأت على مالك، عن نُعَيم بن عبد الله المُجمِّر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري ـ قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أُرِيَ النداء بالصلاة ـ أخبره عن أبي مسعود الأنصاري ـ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللّهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد عَلمتم». وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خُزَيمة، وابن حبّان، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللّهم، صَل على محمد وعلى آل محمد. . . .» وذكره. ورواه الشافعي، رحمه الله، في مسنده، عن أبي هريرة، بمثله. ومن هاهنا ذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإنه تركه لم تصح صلاته. وقد شَرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَعَسّف القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع على ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البدري، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقي، به. وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن الموّاز المالكي، رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن حكاه البَنْدَنيجِيّ، وسُلَيم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، والله أعلم. والغَرَض أن الشافعي، رحمه الله، لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ كما تقدم، لله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم. ومما يؤيد ذلك: الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي ـ وصححه ـ والنسائي وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما، من رواية حَيْوة بن شُرَيْح المصري، عن أبي هانىء حميد بن هانىء، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنْبي، عن فضالة بن عبيد، رضي الله عنه، قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عَجل هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله، ﷻ، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليدعُ بعد بما شاء».

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه، من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار». ولكن عبدالمهيمن هذا متروك. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أبي بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيمن»، والله أعلم. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُرَيدة قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد». أبو داود الأعمى اسمه: نفيع بن الحارث، متروك. **حديث آخر موقوف**: رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندي: أن علياً، رضي الله عنه، كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللّهم داحي المدْحُوّات، وباريء المسموكات، وَجَبّار القلوب على فطْرَتها شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حُمّل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، غير نَكل في قَدَم، ولا واهن في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قبساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأقام مُوضحات الأعلام، ومُنِيرات الإسلام ونائرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبَعيثُك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مُفسحَات في عدلك، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهنّآت له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمول. اللّهم، أعل على بناء البانين بنيانه، وأكرم مثواه لديك ونزله. وأتمم له نوره، وأجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخُطّة فصل، وحجة وبرهان عظيم. هذا مشهور من كلام علي، رضي الله عنه، وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ، إلا أن في إسناده نظراً. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً. وكذا قال: وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندي قال: كان علي، رضي الله عنه، يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول: «اللّهم، داحي المَدْحُوّات» وذكره.

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: حدثنا الحُسَين بن بَيَان، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فَاختة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعرَض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللّهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو ـ أو: عمر ـ على الشك من الراوي قريباً من هذا. **حديث آخر**: قال: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خَبّاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، عَلمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد». فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت واسعاً». وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليّ، فَلْيُقِلّ عبد من ذلك أو ليكثر». ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة به. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، ويونس ـ هو ابن محمد ـ قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي

الحويرث، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد فأطال السجود، حتى خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لي: ألا أبشرك؟ إن الله، ﷻ، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلّم عليك سلمتُ عليه». **طريق أخرى**: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجداً، فأطال السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله، سجدت سجدة خشيت أن يكون الله، ﷻ، قبض نفسك فيها. فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله، ﷻ، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه ـ فسجدتُ لله، ﷻ، شكراً».

حديث آخر: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان، حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة، وحدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله بن عمر، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم النَّخَعي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فأتاه بِمطْهَرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مَشربة، فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القعنبي، عن سلمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه. ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه. **حديث آخر**: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدثني موسى بن يعقوب الزَّمْعِيّ، حدثني عبد الله بن كَيْسَان؛ أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة». تفرد بروايته الترمذي، رحمه الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. **حديث آخر**: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشراً». فقام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائي لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ ـ كان بمكة، يقال له: مَنِيع ـ لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدري.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سَلام العطار، حدثنا سفيان ـ يعني: الثوري ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». قال أبي: يا رسول الله، إني أصلي من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلثان». قال أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن يغفر الله لك ذنبك كله». وقد رواه الترمذي بنحوه فقال: حدثنا هَنَاد، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تُكفى همّك، ويغفر لك ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن. وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور في وجهك. فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك، ﷻ، يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من

أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً؟ قال: بلى». ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به. وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عُبَيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أبي طلحة، بنحوه. **طريق أخرى**: قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا أبو مَعْشَر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس، يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يرى في وجهك البشر؟ قال: «أجل، أتاني آت من ربي، ﷿، فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة، كَتَب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها». هذا أيضاً إسناد جيد، ولم يخرجوه. **حديث آخر**: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه؛ عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عَلَيّ واحدة، صلى الله عليه بها عشراً». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلوا علي؛ فإنها زكاة لكم. وسلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها درجة في أعلى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو». تفرد به أحمد، وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة، بنحوه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البَكّالي، حدثا عثمان بن سعيد، حدثنا داود بن عُلَيَّة، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي، فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة» فسألناه ـ أو: أخبرنا ـ فقال: «هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل». في إسناده بعض من تُكُلِّم فيه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مَريح الخولاني، سمعت أبا قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فَلْيُقِلّ عبد من ذلك أو ليكثر. وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي ـ قاله ثلاث مرات ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعَلمتُ كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بي، عُوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذُهِب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه». **حديث آخر**: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو سَلَمة الخراساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذُكرت عنده فَلْيصلّ علي، ومن صَلَّى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشراً». ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داود الطيالسي، عن أبي سلمة ـ وهو المغيرة بن مسلم الخراساني ـ عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبِيعي، عن أنس، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو ـ يعني: يونس بن أبي إسحاق ـ عن بُرَيد بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلاة واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد قالا: حدثنا سليمان بن بلال، عن عمارة بن غَزِيَّة، عن عبد الله بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البخيل من ذُكرت عنده، ثم لم يصل علي». وقال أبو سعيد: «فلم يصل علي». ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. ومن الرواة من جعله من مسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مسند «علي» نفسه. **حديث آخر**: قال إسماعيل القاضي: حدثنا حجاج بن مِنْهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن هلال العَنَزي، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذر، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يصل علي». **حديث آخر مرسل**: قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حَرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّي علي»، صلوات الله عليه.

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا رِبْعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي. ورغم أَنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة». ثم قال: حسن غريب. قلت: وقد رواه البخاري في الأدب، عن محمد بن عبيد الله، حدثنا ابن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة، مرفوعاً، بنحوه. ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به.

قال الترمذي: وفي الباب عن جابر وأنس. قلت: وابن عباس، وكعب بن عُجْرَة، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي، ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه: حدثنا جُبَارة بن المغَلِّس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عَلَيَّ خَطِيء طريق الجنة». جُبَارة ضعيف. ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عليّ خَطيء طريق الجنة». وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله والله أعلم. وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب. نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن صالح - مولى التَّوْأمة - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةً، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم». تفرد به الترمذي من هذا الوجه. ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون، كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة، مرفوعاً مثله. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد رُوي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، من غير وجه، وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن ذَكْوَان، عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ، إلا عليهم حسرة، وإن دخلوا الجنة لَما يرون من الثواب». وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه، عليه السلام، في العمر مرة واحدة، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبراني أن محمل الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام، وشعار أهله. قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه: بعد النداء للصلاة؛ للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا كعب بن علقمة، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى عَلَيَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن علقمة. **طريق أخرى**: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عمرو بن علي، عن أبي بكر الجُشَمي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة، حقَّت عليه شفاعتي يوم القيامة».

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب - هو كعب الأحبار - عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا عَلَيَّ، فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة». قال: فإما حَدّثنا وإما سَألناه، فقال: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون ذلك الرجل». ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن معتمر، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - به. وكذا الحديث الآخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن سوادة، عن زياد بن نعيم، عن وَفاء الحضرمي، عن رُوَيْفع بن ثابت الأنصاري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى على محمد وقال: اللهم، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي». وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

أثر آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثني مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى، عليهما السلام. إسناد جَيّد قوي صحيح. ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: «اللّهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك». وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عمر التميمي، عن سليمان الضَّبِّيّ، عن

علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ. وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع الشافعي، رحمه الله. وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تستحب؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك: الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة: فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده. قال الشافعي، رحمه الله: حدثنا مُطَرِّف بن مازن، عن مَعْمَر، عن الزهري: أخبرني أبو أمامة ابن سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه. ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة في الصلاة على الجنازة. . . فذكره. وهكذا رُوي عن أبي هريرة، وابن عمر، والشعبي. ومن ذلك: في صلاة العيد: قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدَّسْتَوائي، حدثنا حَمَّاد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو، وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن. إسناد صحيح. ومن ذلك: أنه يُسْتَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذي: حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر بن شميل، عن أبي قُرّة الأسدي، عن سعيد بن المسيَّب، عن عمر بن الخطاب، قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك. وهكذا رواه أيوب بن موسى، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قوله. ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً. وكذا رواه رَزِين بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي ﷺ قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد حتى يصلى علي، فلا تجعلوني كَغُمَر الراكب، صلوا عليّ أول الدعاء وأوسطه وآخره». وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حُميد الكَشي حيث قال: حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسى بن عبيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الراكب، إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه، اجعلوني في أول الدعاء، وفي وسط الدعاء، وفي آخر الدعاء». فهذا حديث غريب، وموسى بن عُبَيدة ضعيف الحديث.

ومن آكد ذلك: دعاء القنوت: لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وابن خزيمة، وابن حبَّان، والحاكم، من حديث أبي الحوراء، عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: علَّمَني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يَذِلّ من واليت، تباركت ربنا وتعاليت». وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على النبي محمد. ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه في يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجَعْفِي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس الثقفي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمْتَ؟ - يعني: وقد بليت - قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في الأذكار. **حديث آخر**: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَّاد المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادة بن نُسَيّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة. وإن أحداً لن يصلي علي إلا عُرضت عَلَيّ صلاته حتى يفرغ منها». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» فنبي الله حي يرزق. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين

عُبادة بن نَسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروي مرسلاً عن الحسن البصري، فقال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن ـ هو البصري ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل الأرض جَسَدَ من كَلَّمه روحُ القدس». مرسل حسن. وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة علي». هذا مرسل. وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك؛ لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة. هذا مذهب الشافعي وأحمد، رحمهما الله. ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه: قال أبو داود: حدثنا ابن عوف ـ هو محمد ـ حدثنا المقري، حدثنا حَيْوَة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رَدّ الله علي روحي، حتى أرد عليه السلام». تفرد به أبو داود، وصححه النووي في الأذكار. ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قُبُوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم». تفرد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيْج، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به. وصححه النووي أيضاً: وقد روى من وجه آخر عن علي، رضي الله عنه. قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»: حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيْس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب عمن أخبره من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي ابن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبي ﷺ. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال: نعم. فقال: له علي بن الحسين: أخبرني أبي، عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ وسلموا حيثما كنتم فتبلغني صلاتكم وسلامكم». في إسناده رجل مبهم لم يُسَمَّ. وقد رُوي من وجه آخر مرسلاً، قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عَجْلان، عن رجل ـ يقال له: سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن علي؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني». فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم. وقد روي أنه رأى رجلاً ينتاب القبر فقال: يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، أي: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رِشْدين المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني». ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيت قول الله، ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟» فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتموني عنه لما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذانك الملكان: «غفر الله لك». وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: «آمين». ولا يصلي أحد إلا قال ذانك الملكان: «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: «آمين». غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغوني من أمتي السلام». وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مِهْرَان الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب، به. فأما الحديث الآخر: «من صلى عَلَيّ عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد بُلغته» ـ ففي إسناده نظر، تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال أصحابنا: ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ: لما روي عن الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يُؤمر الرجل إذا

فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال. وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ، ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. إسناد جيد حسن قوي. وقالوا: ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح: واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ٤]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: «لا أذكر إلا ذكرت معي». وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى، كما عند الأكل، والدخول، والوقاع وغير ذلك، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ. **حديث آخر**: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عمر بن هارون، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله؛ فإن الله بعثهم كما بعثني». في إسناده ضعيفان، وهما عمر بن هارون وشيخه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن موسى بن عبيدة الرَّبَذي، به.

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن، إن صح الخبر في ذلك، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا مَعْمَر بن محمد بن عبيد الله، عن أبيه محمد، عن أبيه أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طنت أذن أحدكم فَلْيذكرني وليصل عليّ، وَلْيَقُل: ذَكَر الله مَن ذكرني بخير». إسناده غريب، وفي ثبوته نظر، والله أعلم. **وهاهنا مسألة**: وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة، عن نَهْشَل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في كتاب، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب». وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة، وقد رُوي من حديث أبي هريرة، ولا يصح أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخُنا: أحسبه موضوعاً. وقد رُوي نَحوُه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء، والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه: «الجامع لآداب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: «اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم: فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، وبقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وبقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفَى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صَل عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». أخرجاه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صل عَلَيَّ وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليكِ وعلى زوجك». وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صلى الله عليه». أو: «قال علي صلى الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال محمد، ﷻ، وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامرأته. وهذا مسلك حسن. وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يُقتدى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه؛ لأن شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في اللسان بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا: «ﷻ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «محمد ﷻ، وإن كان عزيزاً جليلاً، لا يقال: «أبو بكر - أو: علي - صلى الله عليه». هذا لفظه بحروفه. قال: وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَيني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا

يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليكم، أو سلام عليك، أو السلام عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه. انتهى ما ذكره. قلت: وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علي، رضي الله عنه، بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة، أو: «كرم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يُسَاوي بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين. قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة.

وقال أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حسين بن علي، عن جعفر بن بَرْقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز، رحمه الله: أما بعد، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدلَ الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمُرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة، ويدعوا ما سوى ذلك. أثر حسن. قال إسماعيل القاضي: حدثنا معاذ بن أسد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثني خالد بن يَزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نُبَيه بن وهب؛ أن كعباً دخل على عائشة، رضي الله عنها، فذكروا رسول الله ﷺ، فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه.

فرع: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه فقط»، ولا: «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، فالأولى أن يقال: ﷺ تسليما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى: متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بعيب أو تنقص، عياذاً بالله من ذلك. قال عِكْرِمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: نزلت في المصوّرين. وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يَسُبّ الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره». ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله، ﷻ، فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء، رحمهم الله. وقال العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، من آذاه فقد أذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عَبيدة بن أبي رائطة الحذاء التميمي، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل المزني قال: قال النبي ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه». وقد رواه الترمذي من حديث عَبيدة بن أبي رائطة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ وهذا هو البهت البيّن أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، ﷻ، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين. وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيّ، حدثنا عبد العزيز - يعني: ابن محمد - عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرُكَ أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه». وهكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراوردي، به. قال: حسن صحيح. وقد قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيُّ الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أربى الربا عند الله استحلالُ عرض امرىء مسلم»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلى الله عليه وسلم تسليما، أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء. والجلباب هو: الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد. وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلباب: الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تَمْشي النُّسورُ إليه وَهْيَ لاهيَةٌ مَشْيَ العَذارى عَلَيْهِنَّ الجَلابيبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة. وقال محمد بن سيرين: سألت عَبيدةَ السَّلماني عن قول الله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. وقال عكرمة: تغطي ثُغْرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الظِّهراني فيما كتب إليّ، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ابن خُثَيْم، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سُود يلبسنها. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه ـ يعني: الزهري ـ: هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾. وروي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة؛ لا لحرمتهن، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قال: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حتى يختلط الظلام إلى طرق المدينة، يتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضَيِّقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة، كفوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أمة. فوثبوا إليها. وقال مجاهد: يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك. ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يقولون: «جاء الأعداء» و«جاءت الحروب»، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: لنسلطنك عليهم. وقال قتادة، رحمه الله: لنحرّشنّك بهم. وقال السدي: لنعلمنك بهم. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وجدوا، ﴿أُخِذُوا۟﴾ لذلتهم وقلتهم، ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾. ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (٦٦) وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً الرسول ﷺ: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك. وأرشده أن يرد علمها إلى الله، ﷻ، كما

قال له في سورة «الأعراف»، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رَدّ علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدار الآخرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه. ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾ أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾. وقال طاوس: سادتنا: يعني الأشراف، وكبراءنا: يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم. أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللّهم، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». أخرجاه في الصحيحين يروى «كبيراً» و «كثيراً»، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارىء مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضِرَار بن صُرَد، حدثنا علي بن هاشم، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي، رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حَيِيًّا، وذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾. هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً، وقد رواه في أحاديث «الأنبياء» بهذا السند بعينه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى، عليه السلام، كان رجلاً حَيِياً سِتِّيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاهُ من آذاهُ من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما بَرَص وإما أُدْرَة وإما آفة، وإن الله، ﷻ، أراد أن يُبرئه مما قالوا لموسى، عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله، ﷻ، وأبرأه مما يقولون، وقال الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾». وهذا سياق حسن مطول، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن النبي ﷺ ـ وخلاس، ومحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ قال: قال النبي ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِياً سِتِّيراً، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه». ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولاً، ورواه في تفسيره عن روح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو هذا. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له: إنك آدر. فخرج ذات يوم يغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بني

إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ . وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلي الأدميّ قالا: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «كان موسى، عليه السلام، رجلاً حَيِياً، وإنه أتى ـ أحسبه قال: الماء ـ ليغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، وكان لا يكاد تبدو عورته، فقال بنو إسرائيل: إن موسى آدر ـ أو: به آفة، يعنون: أنه لا يضع ثيابه ـ فاحتملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال، أو كما قال، فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حياء. فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، عن علي بن موسى الطوسي، عن عباد بن العوام، به. ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله، ﷻ . قالت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش، به. **طريق أخرى**: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم ـ مولى الهمداني، عن زيد بن زائد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلّغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». فأتى رسول الله ﷺ مالٌ فقسمه، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة. قال: فَتَثَبَّتُ حتى سمعت ما قالا، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنك قلت لنا: «لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً»، وإن مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشَقَّ عليه، ثم قال: «دعنا منك، لقد أوذي موسى بأكثر من هذا، فصبر».

وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به مختصراً: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً؛ إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وكذا رواه الترمذي في «المناقب»، عن الذُهْلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السُدِّي، عن الوليد بن أبي هاشم، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السدي، ثم قال: غريب من هذا الوجه. وقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: له وجاهة وجاه عند ربه، ﷻ . قال الحسن البصري: كان مستجابَ الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله، ﷻ . وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ : وذلك أنه يجار من النار، ويصير إلى النعيم المقيم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عَوْن، حدثنا خالد، عن لَيْث، عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركن: أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً». وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سَمُرة، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما قام رسول الله ﷺ على المنبر

إلا سمعته يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ الآية. غريب جداً. وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمّي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً، من سره أن يكون أكرم الناس، فليتق الله. قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾.

قال العَوْفي، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، وإن أدوها أثابهم. وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ يعني: غراً بأمر الله. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ قال: عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غَفرت لك، وإن عَصيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة. وقد روى الضحاك، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن البصري، وغير واحد: ألا إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصرى، حدثنا حماد بن واقد ـ يعني: أبا عمر الصفار ـ سمعت أبا معمر ـ يعني: عون بن معمر ـ يحدث عن الحسن ـ يعني: البصري ـ أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جُزِيت، وإن أسأت عُوقِبت. قالت: لا. ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شدت بالأوتاد، وذللت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا. وقال مقاتل بن حيان: إن الله حين خلق خلقه، جمع بين الإنس والجن، والسموات والأرض والجبال، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة. .؟ فقلن: يا رب، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة، ولكنا لك مطيعين. ثم عرض الأمانة على الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني، وأعطيكن الفضل والكرامة؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق، ولكنا لك سامعين مطيعين، لا نعصيك في شيء تأمرنا به. ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة، فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة. وإن عصيت ولَم ترعَها حق رعايتها وأسأت، فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار. قال: رضيت يا رب. وتَحمَّلها، فقال الله ﷻ: قد حمَّلْتُكَها. فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السموات فقالت: يا رب، حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض فقالت: يا رب، غرست في الأشجار، وأجريت فيّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ في عاقبة أمره. وهكذا قال ابن جُرَيْج. وعن ابن أشوع أنه قال: لما عرض الله عليهن حمل الأمانة، ضَجَجْنَ إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن، وقلن: ربنا. لا طاقة لنا بالعمل، ولا نريد الثواب.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ الآية، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى: إني مُعينك عليها، أي: معينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق. ومعينك على لسانك بطبقتين، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق. ومعينك على فرجك بلباس، فلا تكشفه إلى ما أكره. ثم روى عن أبي حازم نحو هذا. وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله، ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال: إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً، ويستأمنهن على الدين. فقلن: لا، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً. قال: وعرضها الله على آدم فقال: بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجاباً، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه، وأجعل للسانك بابا وغلقا، فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكُوني، حدثنا بقِيَّة، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: قال النبي ﷺ: «إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء، فأرسلوا به، فمنهم رسول الله، ومنهم نبي، ومنهم نبي رسول، ونزل القرآن وهو كلام الله، ونزلت العربية والعجمية، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم، ولم يدع الله شيئاً من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم، إلا بينه لهم. فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها، حتى وصل إليّ وإلى أمتي، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يغفله إلا تارك. فالحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملاً». هذا حديث غريب جداً، وله شواهد من وجوه أخرى. ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العوام القطان، حدثنا قتادة، وأبان بن أبي عياش، عن خُلَيد العَصَري، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن، ومواقيتهن، وأعطى الزكاة من ماله طَيب النفس بها ـ وكان يقول: وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن ـ وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا، وأدى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة، فإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره. وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن أبي العوام عمران بن دَاور القطان، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال: يكفر كل شيء ـ إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية. فيذهب به إلى الهاوية، فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها، فيجدها هنالك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه، فيصعد بها شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلّت فهوى في أثرها أبد الآبدين». قال: والأمانة في الصوم، والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع. فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق. قال شريك: وحدثنا عياش العامري، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بنحوه. ولم يذكر: «الأمانة في الصلاة وفي كل شيء». إسناده جيد، ولم يخرجوه. ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة». ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: «ينام الرجال النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُنتبراً وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، قال: «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله. وما في قلبه حبة من خردل من إيمان. ولقد أتى عَلَيَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، إن كان مسلماً ليردنه على دينه، وإن كان نصرانيا أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً. وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال

الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظ أمانة، وصِدْق حديث، وحُسْن خليقة، وعِفَّة طُعمة». هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدثني يحيى بن أيوب العلاف المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا ابن لِهَيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حجَيرة، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة». فزاد في الإسناد: «ابن حُجَيرة»، وجعله من مسند ابن عمر.

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال: جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال: أقبلت مع زياد ابن حُدَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يبكي ويبكي، فظننت أني أتيتُ أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يكره هذا؟ فقال: نعم. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»، تفرد به أبو داود، رحمه الله. وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله، ﷻ، ومخالفة رسله، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

آخر تفسير سورة «الاحزاب»

(٣٣) سُورَةُ الأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إتق الله ﴾ . فى تفسير الآية مسائل :

﴿ الاولى ﴾ فى الفرق بين النداء والمنادى بقوله يارجل ويا أيها الرجل ، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً وينبىء عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى (أما الثانى) فمذكور (وأما الاول) فلأن قوله (يا أى) جعل المنادى غير معلوم أو لا فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادى فاذا خص واحداً كان فى ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور إذا علم هذا فنقول (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبى لأن قوله (النبى) ينافى الغفلة لأن النبى عليه السلام خبير فلا يكو غافلا فيجب حمله على خطر الخطب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأمر بالشىء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبى عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم ، أى دم على ما أنت عليه (والثانى) وهو معقول لطيف ، وهو أن الملك يتق منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثانى ، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام فى الدنيا . وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمى فى الدنيا تارة مع الله ، وأخرى مقبل على مالابد منه ، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كأنى منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثانى) هو أن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركا للافضل ، فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله (اتق الله) على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة السلام بقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

«من استوى يوماه فهو مغبون» ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه بهزيادة العلم حيث قال(وقل رب زدنى علماً) وأيضاً إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئاً ، إذا علم هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم بحكم (إنما أنا بشر مثلكم) كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له ، فى (يا أيها النبى) أنت مابقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى . مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لايقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه ، فكذلك النبى عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لايبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيداً أو عمراً خف عمراً فان زيداً لايقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمراً بالخوف من عمرو فانه يخافه وإنما يكون ذلك نهياً عن الخوف من زيد فى ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيداً .

ثم قوله تعالى ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ يقرر قولنا أى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لايطيع أحداً غير الله ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن ذكر الغير لاحاجة إليه لأن غيرهما لايطلب من النبى عليه الصلاة والسلام الاتباع ، ولا يتوقع أن يصير النبى عليه السلام مطيعاً له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعا (والثانى) هو أنه تعالى لما قال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبى عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأمر أمر إيجاب معتقداً على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغى تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم ، وقوله (حكيما) إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال إذا قال الله شيئاً وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبى عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهاً معقولا . فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

تعالى إنه حكيم ولا تكون المصلحة إلا فى قول الحكيم ، فاذا أمرك الله بشىء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه .

قوله تعالى : ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ .

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ، ثم قال تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيراً) لما قال إنه عليم بما فى قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم . ثم قال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعاً ينفع ولا يضر معه شىء وإن ضر لا ينفع معه شىء .

ثم قال تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ماجعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين ، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتق ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل فى قلبه شىء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لا يكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخرة غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى أنه يتقى الله حق تقاته ، ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام أنه لا ينبغى أن يتقى أحداً ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى أن تدخل فى

www.besturdubooks.wordpress.com

قلبك ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة و السلام بتلك الحالة ذكر مايدفع عنه السوء . فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى أنكم إذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى أماً بإجماع الكل ، أما فى الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء ، وأما فى الجاهلية فلأنه كان طلاقاً حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد ، فاذا كان قول القائل لزوجته أنتِ أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة أماً كذلك قول القائل للدعى أنت ابنى لا يوجب كونه ابناً فلا تصير زوجته زوجة الإبن فلم يكن لأحد أن يقول فى ذلك شيئاً فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمراً مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحداً

ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شىء كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب ، لأن الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لايكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه ، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز من التخلق بأخلاقها ، فقول القائل : هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لا غير ، واللطيفة هى أن الله تعالى ههنا قال (ذلكم قولكم بأفواهكم) وقال فى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم) يعنى نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضاً فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم .

ثم قال تعالى (والله يقول الحق) إشارة إلى معنى لطيف وهوان العاقل ينبغى أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولداً وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام الفراش ونقول إنه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال ، وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم ، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله (وهو يهدى السبيل) يؤكد قوله (والله يقول الحق) يعنى يجب اتباعه لكونه حقاً ولكونه هادياً وقوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق) فيه لطيفة وهو أن الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ، ثم إن الكلام الذى بالقلب قد

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

يكون حقاً وقد يكون باطلا ، لأن من يقول شيئاً عن اعتقاد قد يكون مطابقاً فيكون حقاً ، وقد لا يكون فيكون باطلا ، فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقاً وقد يكون باطلا لأنه يتبع الوجود ، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون ، فإذن قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التى بأفواهكم ، فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسناً يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم .

ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير .

ثم بين الهداية وقال ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما ﴾

قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منوياً كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ثم تمم الإرشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ، ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يا بنى بطريق الشفقة ، وقول القائل لغيره يا أبى بطريق التعظيم ، فإنه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو فى اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد إلى إثبات النسب سواء ، وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاماً شافياً فى المغفرة والرحمة فى مواضع ، ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى أن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال إنه غفر له ، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه ، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء فى خيره أو عوضاً عما صدر منه آنفاً من الإحسان لا يقال رحمه ، إذا علم هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه سترعيبه ثم رآه مفلساً عاجزاً فرحمه وأعطاه ما كفاه ، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه .

قوله تعالى :﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلا لو قال هب أن الأدعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابناً إذا كان لدعيه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفاً فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جواباً عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب ؛ دفع حاجة الأجانب ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس ، والأول عرفا دون الثانى وكذلك شرعا فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجانب والثانى دون الثالث أيضاً وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطى به إحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شق بدنه ، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد أن يقول له لم فعلت فضلا عن أن يقول بئسما فعلت ، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذى هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا ، فمن يعكس الأمر يقال له لم فعلت ، وإذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه فى برد مفرط قاصداً به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذى رأسه الذى لا نبات لشعره إلا منه ، فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس

www.besturdubooks.wordpress.com

دفعاً للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبي الذى منه يتعلم كيفية العبادة فى الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس ، فتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئاً حرم على الأمة التعرض إليه فى الحكمة الواضحة .

ثم قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ تقريراً آخر ، وذلك لأن زوجة النبى ﷺ ما جعلها الله تعالى فى حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام ، فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق لحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره ، فلو قال قائل كيف قال (وأزواجه أمهاتهم) وقال من قبل (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أماً بوجه ، ولذلك قال تعالى فى موضع آخر (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة . كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لها بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد ، وإن تبين أن التى حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد ، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزانى لا يجعل أباً لولد الزنا . إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمى قول يفهم لاعن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة . وأما قول الشارع [فهو] حق والذى يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ، ألا ترى أن الأم ما صارت أماً إلا بخلق الله الولد فى رحمها ، ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الأم غيرها ، فاذا كان هو الذى يجعل الأم الحقيقية أماً فله أن يسمى امرأة أماً ويعطيها حكم الأمومة ، والمعقول فى جعل أزواجه أمهاتنا . هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الإبن ، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها ، فان تزوج الإبن بمن كانت تحت الأب يفضى ذلك إلى قطع الرحم والعقوق ، لكن النبى عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء ، فإن الأب يربى فى الدنيا فحسب ، والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء ، فإن قال قائل : فلم لم يقل إن النبى أبوكم ويحصل هذا المعنى ، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم . فنقول لحكمة ، وهى أن النبى لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى عليه الصلاة والسلام ، فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد . ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولذلك فان المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ، ويجب عليه صرفه إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أزواجه لهم حكم زوجات

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

الآب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإن كان الكل يحرمن فى الأم الحقيقية والرضاعية .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾ إشارة إلى الميراث ، وقوله (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم) معروفاً إشارة إلى الوصية ، يعنى إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم ، فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره ، وهو أن غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصير له مال الغير ، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته ، والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته ، كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع إليهم ، حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى أن النبى ﷺ إذا أراد شيئاً يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعنى بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبى لاتوارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو أن الله تعالى ذكر دليلا على أن النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، ثم إذا أراد أحد براً مع صديق فيوصى له بشىء فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى إلا إلى من أريده ، فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ماأراده ثم مايفضل منه يكون لغيره وقوله « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالإتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أكده بوجه آخر وقال (وإذ أخذنا من النبيين) كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما ، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ، ونوحاً لأنه كان أصلا ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن فى زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى كثير من المواضع يقول الله (عيسى بن مريم ، والمسيح بن مريم) إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به ، وقوله (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الإرسال كما قال تعالى (ولنسألن المرسلين) وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشىء وقبله فهو ميثاق ، فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة ، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) هو الإخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول » وكما أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد .

ثم قال تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ .

يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ، لأن الصادق محاسب والكافر معذب ، وهذا كما قال على عليه السلام « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله (يا أيها النبى اتق الله) .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

www.besturdubooks.wordpress.com

زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾.

تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن فى واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق ، كان الأمر فى غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى أن لايخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم ، وقوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة ، وقوله (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء ، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غيرالله فان قوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون ، فان كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله (والله بصير بما تعملون) فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره (فانه بكل شىء بصير) وقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، وقيل (من فوقكم) أى من جانب الشرق (ومن أسفل منكم) من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الأبصار أى مالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته (وبلغت القلوب الحناجر) كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى (حتى إذا بلغت الروح الحلقوم) وقوله (وتظنون بالله الظنونا) الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام « ظنوا بالله خيراً » ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وقوله (إن يتبعون إلا الظن) فان قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة فى جمع الظنون؟ فنقول لاشك فى أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال ضربته سياطاً وأدبته مراراً فكأنه قال ظننتم ظناً بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى أن الله تعالى لو قال : تظنون ظناً ، جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال : ظنوناً ، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها

www.besturdubooks.wordpress.com

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

وقد يكذب بعضها إذا كانت فى أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر أو حجر. وقد يكون أحدهم مصيباً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله (الظنونا) أفاد أن فيهم من أخطأ الظن، ولو قال تظنون بالله ظناً ما كان يفيد هذا.

ثم قال تعالى: ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾.

أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله (وزلزلوا) أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقاً.

ثم قال تعالى: ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾.

فسر الظنون وبينها. فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم) أى لا وجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها (ويثرب) اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله (وما هى بعورة) وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلا لغرض ، فاذا فاته الغرض لايفعله ، كمن يبذل المال لكى لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضاً ، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة ، وقوله (ولو دخلت عليهم) احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت ، وقوله (وما تلبثوا بها) يحتمل أن يكون المراد الفتنة (إلا يسيراً) فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ماتلبثوا بالمدينه إلا يسيراً فان المؤمنين يخرجونهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لاتمتعون إلا قليلا ﴾ .

بياناً لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذراً وندماً ، وذكروا أن القتال لايزال لهم قدماً ثم هددهم بقوله (وكان عهد الله مسئولا) وقوله (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) إشارة إلى أن الأمور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار ، وما قدره الله كائن فمن أمر بشىء إذا خالفه يبقى فى ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخالفة عاجلا ، ثم قال تعالى (وإذاً لاتمتعون إلا قليلا) كأنه يقول ولوفررتم منه فى يومكم مع أنه غير ممكن لما دمتم بل لاتمتعون إلا قليلا فالعاقل لايرغب فى شىء قليل مع أنه يفوت عليه شيئاً كثيراً ، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلا .

قوله تعالى : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

بياناً لما تقدم من قوله (لن ينفعكم الفرار) وقوله (ولا يجدون لهم من دون الله) تقرير لقوله (من ذا الذى يعصمكم) أى ليس لكم ولى يشفع لمحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء إذا أتاكم.

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم ﴾ .

أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلمن ، وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) (لا يأتون البأس) بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى (أشحة عليكم) أى بخلاء حيث لا ينفقون فى سبيل الله شيئاً (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم ، وقوله (أشحة عليكم) أى بأنفسهم وأبدانهم .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر

www.besturdubooks.wordpress.com

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لابدل له فيتوقف فيه، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه إخراج المال فى القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك ، وأما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام ، وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم ، وقوله تعالى (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) أى غلبوكم بالألسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب ، وقوله (أشحة على الخير) قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير فى الحالتين كثيرو الشر فى الوقتين فى الأول يبخلون ، وفى الآخر كذلك .

ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظاً فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) إشارة إلى ما يكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) وذلك لأن الإحباط إعدام وإهدار ، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم بتفريق أجزائه ، فان من أحرق شيئاً يبقى منه رماد ، وذلك لأن الرماد إن فرقته الريح يبقى منه ذرات ، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد مايشاء منها ، وأما العمل فهو فى العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره ، فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم .

قوله تعالى : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين معاً أنهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لايقاتلون كما قال تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟
ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

(ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا).

قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾.

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهوأنهم قالوا هذا ماوعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا (وصدق الله ورسوله) فى مقابلة قولهم (ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وقولهم (وصدق الله ورسوله) ليس إشارة إلى ماوقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هى إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا (هذا ماوعدنا الله) وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله (وما زادهم إلا إيماناً) بوقوعه وتسليما عند وجوده.

ثم قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكنى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ، ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولى الأدبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله (إن شاء) ذلك فيمنعهم من الإيمان

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)

أو يتوب عليهم إن أراد . وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله (وكان الله غفوراً) حيث ستر ذنوبهم و(رحيما) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول (ويعذب المنافقين)مع أنه كان غفوراً رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) أى مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يحوجهم إلى قتال (وكان الله قوياً) غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم.

قوله تعالى :﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾

أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى فريقاً تقتلون وهم الرجال ، وتأسرون فريقاً وهم الصبيان والنسوان ، فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقاً تقتلون وتأخيره حيث قال (وتأسرون فريقاً) فائدة ؟ قلت قد أجبنا أن ما من شئ من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر ، والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى ، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله (فريقاً تقتلون) فعل ومفعول والأصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل ، أما أنها جملة فعلية فلأنها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول ، وههنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق فى قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الأصل فقدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون ، أولا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى ، وكذلك الكلام فى قوله (وأنزل الذين ظاهروهم) وقوله (وقذف) فان قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال ، ولكن لما كان الفرح فى إنزالهم أكثر ، قدم الإنزال على قذف الرعب والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديراً ﴾ .

فيه ترتيب على ما كان ، فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله (وأرضاً لم تطئوها) قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شىء قديراً)هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم(وأرضاً لم تطئوها) هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شىء قدير يملككم غيرها .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله «الصلاة وما ملكت أيمانكم » ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله (يا أيها النبى اتق الله) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن فى النفقة .وفى الآية مسائل فقهية منها أن التخيير

www.besturdubooks.wordpress.com

هل كان واجباً على النبي عليه السلام أم لا ؟ فنقول التخيير قولا كان واجباً من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة ، لأن الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة ، وأما التخيير معنى فمبنى على أن الأمر للوجوب أم لا ؟ والظاهر أنه للوجوب ، ومنها أن واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقاً والظاهر أنه لا يصير فراقاً وإنما تبين المختارة نفسها بإبانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين إلا بإبانة من جهه النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا ؟ الظاهر نظراً إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب ، لأن الخلف فى الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا ، فانه لا يلزمه شرعاً الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا ، والظاهر أنها لا تحرم ، وإلا لا يكون التخيير ممكناً لها من التمتع بزينة الدنيا ، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا ؟ الظاهر الحرمة نظراً إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلا ، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب ، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا ، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبهن غاية الإلتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ، ومنها قوله عليه السلام (أسرحكن سراحاً جميلا) إشارة إلى ماذكرنا ، فان السراح الجميل مع التأذى القوى لا يجتمع فى العادة ، فعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه ، ومنها قوله (وإن كنتن تردن الله) إعلاماً لهن بأن فى اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله (أعد للمحسنات منكن) أى لمن عمل صالحاً منكن ، وقوله (تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فيه معنى الإيمان ، وقوله (للمحسنات) لبيان الإحسان حتى تكون الآية فى المعنى ، كقوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وقوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والأجر العظيم الكبير فى الذات الحسن فى الصفات الباقى فى الأوقات ، وذلك لأن العظيم فى الأجسام لا يطلق إلا على الزائد فى الطول وفى العرض وفى العمق ، حتى لو كان زائداً فى الطول يقال له طويل ، ولو كان زائداً فى العرض يقال له عريض ، وكذلك العميق، فاذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم . فيقال جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً فى الجهات ، وإن كان مرتفعاً لحسب يقال جبل عال ، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا فى ذاته قليل وفى صفاته غير خال عن جهة قبح ، لما فى مأكوله من الضرر والثقل ، وكذلك فى مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم ، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾

لما خيرهن النبي ﷺ واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التى هى أصعب على الزوج من كل ما تأتى به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (إحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما فى الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه ، وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك . ولأن امرأة لو كانت تحت النبي ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبي وأولى ، والنبي أولى من النفس التى هى أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (ثانيتهما) أن هذا إشارة إلى شرفهن ، لأن الحرة عذابها ضعف عذاب الأمة إظهاراً لشرفها ، ونسبة النبي إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم ، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن أمهات المؤمنين ، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة ، وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته ، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبي عليه السلام كالأمة بالنسبة إلى الحرة ، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث إن ذلك ممكن الوقوع فى أول النظر ، ولا يقع فى بعض الصور جزماً . وفى بعض يقع جزماً من مات فقد استراح ، وفى البعض يتردد السامع فى الأمرين ، فقوله تعالى (من يأت منكن بفاحشة) عندنا من القبيل الأول ، فان الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة ، وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيراً) أى ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وإخوانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ بياناً لزيادة ثوابهن ، كما بين

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة وهى أن عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال (يضاعف) إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ، وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقاً كريماً) وصف رزق الآخرة بكونه كريماً ، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس ، التاجر يسترزق من السوقة ، والمعاملين والصناع من المستعملين ، والملوك من الرعية والرعية منهم ، فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه ، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار. وأما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه ، فلأجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم إلا الرزاق ، وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق .

قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء ، فقال (لستن كأحد) ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس ، يعنى ليس فيه مجرد كونه إنساناً ، بل وصف أخص موجود فيه ، وهو كونه عالماً أو عاملا أو نسيباً أو حسيباً ، فان الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم ، فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيداً أو عمراً ، فكذلك قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين ، وكما أن محمداً عليه السلام ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام « لست كأحدكم » كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة .

ثم قوله تعالى (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق . ثم قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفاً) أى ذكر الله ، وما تحتجن إليه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

من الكلام والله تعالى لما قال (فلا تخضعن بالقول) ذكر بعده (وقلن) إشارة إلى أن ذلك ليس أمراً بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لا غيره.

قوله تعالى: ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله ﴾.

قوله تعالى (وقرن في بيوتكن) من القرار وإسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى (فظلتم تفكهون) وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى (الجاهلية الأولى) فيه وجهان: (أحدهما) أن المراد من كان في زمن نوح والجاهلية الأخرى من كان بعده (وثانيهما) أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى.

ثم قال تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يعني ليس التكليف في النهي فقط حتى يحصل بقوله تعالى (لا تخضعن، ولا تبرجن) بل فيه وفي الأوامر (فأقمن الصلاة) التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر (وآتين الزكاة) التي هي تشبه بالكريم الرحيم (وأطعن الله) أي ليس التكليف منحصراً في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه

ثم قال تعالى: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾.

يعني ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به. وإنما نفعه لكن وأمره تعالى إياكن لمصلحتكن، وقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) فيه لطيفة وهي أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس) أي يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أي يلبسكم خلع الكرامة، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبي عليه السلام وملازمته للنبي.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ

قوله تعالى : ﴿واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أى القرآن (والحكمة) أى كلمات النبي عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة، وما ذكر الله فى هذه الآية فقال (واذكرن مايتلى) ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها ، والمحرمات بأسرها فينتهين عنها .

[وقوله] ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إشارة إلى أنه خبير بالبواطن ، لطيف فعلمه يصل إلى كل شيء ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة .

ثم قال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين مايكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الأولى) الاسلام والانقياد لأمر الله (والثانية) الإيمان بما يرد به أمر الله ، فان المكلف أولا يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام ، فاذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو (المرتبة الثالثة) المذكورة بقوله ﴿والقانتين والقانتات﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿والصادقين والصادقات﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿والصابرين والصابرات﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة ، والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين الذين لايميلهم الجاه عن العبادة ، ثم قال تعالى ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أى الباذلين الأموال الذين لايكنزونها لشدة محبتهم إياها . ثم قال تعالى ﴿والصائمين والصائمات﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله . ثم قال تعالى ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أى الذين لاتمنعهم الشهوة الفرجية .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي

ثم قال تعالى :﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله ، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا ، وفي قوله بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال من قبل (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية .

ثم قال تعالى : ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وأجراً عظيما﴾ ذكرناه فيما تقدم .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾

قيل بأن الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي ﷺ تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبي عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به ، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبي ﷺ لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك ، ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره ، فقال في هذه الآية لاينبغي أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما في الزوجات ، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالا مبيناً ، لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل ، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي

www.besturdubooks.wordpress.com

نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟
مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ

فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها لـكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾

وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والإعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى أمسك أى لا تطلقها (واتق الله) قيل فى الطلاق ، وقيل فى الشكوى من زينب ، فان زيداً قال فيها إنها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفى فى نفسك ماالله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الإبن (والله أحق أن تخشاه) ليس إشارة إلى أن النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحداً معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً ، فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) .

ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها) أى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لأن الزوجة مادامت فى نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج إليها ، فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان فى العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره ، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا موافق لما فى الشرع لأن التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال (فلما قضى) وكذلك قوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى إذا طلقوهن وانقضت عدتهن ، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أى مقضياً ماقضاه كائن .

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان مبيناً لشرع مشتمل على فائدة كان خالياً من المفاسد فقال:
﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

www.besturdubooks.wordpress.com

يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

قدراً مقدوراً﴾ يعني كان شرع من تقدمه كذلك، كان يتزوج الأنبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أي كل شيء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر، فالقضاء ماكان مقصوداً في الأصل والقدر مايكون تابعاً له، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت إلى هذه القرية؟ إني ماجئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وإن كان قد جاءها ودخلها، إذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر، فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب، ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين عليهما مثاباً عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك في البعض إلى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصوداً منه القتل والزنا وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا (وكان أمر الله مفعولا) وقوله ثانياً (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) لطيفة وهي أنه تعالى لما قال (زوجناكها) قال (وكان أمر الله مفعولا) أي تزويجنا زينب إياك كان مقصوداً متبوعا مقضياً مراعى، ولما قال (سنة الله في الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أي كان ذلك حكما تبعياً، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقاً بالطبع لخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو. فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شيء لا باختياره، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل، فنقول ماكان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر، ثم بين الذين خلوا بقوله:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾

يعني كانوا هم أيضاً مثلك رسلا، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحداً إلا الله) فصار كقوله (فبهداهم اقتده) وقوله (وكفى بالله حسيباً) أي محاسبا

www.besturdubooks.wordpress.com

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

فلا تخش غيره أو محسوباً فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله فى حسابك .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

لما بين الله ما فى تزوج النبى عليه السلام بزينب من الفوائد بين أنه كان خالياً من وجوه المفاسد ، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصراً فى التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى إن زيداً لم يكن ابناً له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد ، فان قائل النبى كان أبا أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء) والصبى داخل فيه ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل فى الاستعمال يدخل فى مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبى عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل (والثانى) هو أنه تعالى قال (من رجالكم) ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أباً عقبه بما يدل على ثبوت ماهو فى حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالأب للأمة فى الشفقة من جانبه ، وفى التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والأب ليس كذلك ، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لأن النبى الذى يكون بعده نبى إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتى بعده ، وأما من لا نبى بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى ، إذ هو كوالد لولده الذى ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شىء عليما) يعنى علمه بكل شىء دخل فيه أن لا نبى بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث إن قول النبى صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن إذا امتنع هو عنه يبقى فى بعض النفوس نفرة ، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقى فى النفوس شىء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه فى بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبى ﷺ وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) والله تعالى يأمر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) كما قال لنبيه (يا أيها النبي اتق الله) .

(ثم ههنا لطيفة) وهي أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر ، أما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال (اتق الله) فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله (ذكراً كثيراً) قد ذكرنا أن الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا .

وقوله تعالى ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أي إذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا إشارة إلى المداومة وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام « لو أن أولكم وآخركم » ، ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم .

ثم قال تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعني يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العنايه جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجميع المؤمنين واشارة إلى أن قوله (يصلي عليكم) غير مختص بالسامعين وقت الوحي ،

ثم قال تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ لما بين الله عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فان من لقي غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة وقوله (يوم يلقونه) أي يوم القيامة وذلك لأن الإنسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه ، وأما في الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وأعدلهم أجراً كريماً ﴾ لو قائل قائل الإعداد إنما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة إلى الشئ عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الإعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فاذا أراد إكرامه يهيئ له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه مايرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريماً والكريم قدذكرناه فى الرزق أى أعدله أجراً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر . وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة ، كما قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقال(وكان بالمؤمنين رحيما) والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شفيقاً بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الاكرام .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها (يا أيها النبى اتق الله) اشارة إلى ماينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله (يا أيها النبى إنا أرسلناك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى (شاهداً) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وعلى هذا فالنبى بعث شاهداً أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيداً أى مؤدياً لما تحمله (ثانيها) أنه شاهد أن لا إله إلا الله ، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبى شاهداً على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعياً فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعياً لها لأن المدعى من يقول شيئاً على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهداً له فى مجازاة كونه شاهداً لله فقال تعالى (والله يشهد أنك لرسوله) (وثالثها) أنه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله (ومبشراً ونذيراً وداعياً) فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبى عليه السلام أرسل شاهداً بقول لا إله إلا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك يرهب بالإنذار ثم لا يكتفي بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (وسراجاً منيراً) أي مبرهناً على ما يقول مظهراً له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى (بالحكمة والموعظة الحسنة).

وفيه لطائف (إحداها) قوله تعالى (وداعياً إلى الله بإذنه) حيث لم يقل وشاهداً باذنه ومبشراً وعند الدعاء قال وداعياً باذنه ، وذلك لأن من يقول عن ملك إنه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه إلى إذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك في ذلك ، وأما إذا قال تعالوا إلى سماطه ، واحضروا على خوانه يحتاج فيه إلى إذنه فقال تعالى (وداعياً إلى الله باذنه) ووجه آخر وهو أن النبي يقول إني أدعو إلى الله والولي يدعو إلى الله ، والأول لا إذن له فيه من أحد ، والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبداً سمع مقالتي فأداها كما سمعها » والنبي عليه السلام هو المأذون من الله في الدعاء إليه من غير واسطة .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قال في حق النبي عليه السلام سراجا ولم يقل إنه شمس مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائد منها ، أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه ، وكذلك إن غاب والنبي عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وفي الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهي أن النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه ، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبي عليه السلام وفعله ، فأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام أيضاً سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار ، وليس كذلك فان مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيؤخذ من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجاً وهذا يوجب ضعفاً في حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه وفي تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك ، وسراجا منيراً عطفاً على محل الكاف أي وأرسلنا سراجاً منيراً وعلى قولنا إنه عطف على مبشراً ونذيراً يكون معناه وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفاً لأن النبي عليه السلام لم يكن سراجاً حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسداً أي شجاعاً فقوله سراجاً أي هادياً مبيناً كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه، وأما البشارة فانها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة لولا الأمر قوله تعالى: ﴿ بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ هو مثل قوله (وأعد لهم أجراً عظيما) فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف إذا كان مع ذلك كبارة أخرى.

قوله تعالى: ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾

إشارة إلى الإنذار يعني خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أى دعه إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار، ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى الله كاف عبده، قال بعض المعتزلة لايجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف، وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) يتبين إذا نظرت فى الأمور التى لأجلها لايكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قوياً قادراً على العمل كالملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله، ومنها أن لا يكون عالماً بما فيه التوكيل، ومنها أن لايكون غنياً، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج فيكفى وكيلا.

ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا ﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه. لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبى مكرمة وعلمه أدباً ذكر للمؤمنين مايناسبه، فكما بدأ الله فى تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر مايتعلق بجانب الله بقوله (ياأيها النبي اتق الله) وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد (ياأيها النبي قل لأزواجك) وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً)

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ

كذلك بدأ فى إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) ثم كما ثلث فى تأديب النبي بجانب الأمة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) وبقوله (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى مايتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر ؟ فنقول هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ، ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لامودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الأقلام ولا تكفى لها الأوراق ، وهذا مثل قوله تعالى (فلا تقل لهما أف)لو قال لاتضربهما أو لاتشتمهما ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم ، أما إذا قال لاتقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالإحسان مع من لامودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه .

وقوله (إذا نكحتم المؤمنات) التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصيناً لدينه ، وقوله (ثم طلقتموهن) يمكن التمسك به فى أن تعليق الطلاق بالنكاح ، لا يصح لأن التطليق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم ، وهى للتراخي وقوله (فما لكم عليهن من عدة) بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لايسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى ، وقوله (تعتدونها) أى تستوفون أنتم عددها(فتمتعوهن)قيل بأنه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة ، وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أوأمر ندب اختلف العلماء فيه ، فنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً ، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشىء ، وقوله تعالى (وسرحوهن سراحا جميلا) الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَـةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَـا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَـا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرت معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

ذكر للنبي عليه السلام ماهو الأولى فإن الزوجة التى أوتيت مهرها أطيب قلباً من التى لم تؤت ، والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه أطهر من التى اشتراها الرجل لأنها لا يدرى كيف حالها ، ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ، ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولا ، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له ، والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب فى المرة الأولى ، إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا ، وقال ويؤكد هذا قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى) يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها ، وقوله تعالى (إن أراد النبى أن يستنكحها) إشارة إلى أن هبتها نفسها لا بد معها من قبول وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال الشافعي رضى الله عنه معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك ، وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لاتحل لغيرك أبداً ، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) معناه أن ماذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك فى السرارى .

وقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أى تكون فى فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك ، وقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب جميعاً ويرحم العبيد .

قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ .

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم ، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وإن لم يك نبياً فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق ، فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة إليه ، فإذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات . والإرجاء التأخير والإيواء الضم (ومن ابتغيت ممن عزلت) يعنى إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك فى شىء من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجباً مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال المراد (ترجى من تشاء) أى تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم فى الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن ، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى .

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

يعنى إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم (تقر أعينهن) لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك ، فليلة تكون عند إحداهن تقول ماجاء فى لهوى قلبه إنما جاء فى لأمر الله وإيجابه عليه (ويرضين بما آتيتهن) من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شىء حتى لا يرضين.

قوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾ .

أى إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم ، فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل .

قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن

www.besturdubooks.wordpress.com

إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾.

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ماجازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله (ولا أن تبدل بهن) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يحل لك النساء من بعد) قال المفسرون من بعدهن والأولى أن يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا أن تبدل بهن) يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزاً لجاز أن يطلق الكل ، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أولا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي ، وكيف وهو يقول «النكاح سنتى» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتى ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله (ولا أن تبدل بهن) منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته ، وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسألتين (إحداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن النساء. قال الزمخشرى قوله (ولو أعجبك) فى معنى الحال ، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله (من أزواج) لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام ، يعنى لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها ، وهذه المسألة حكمية وهى أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء فى أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ، ففى أول الأمر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغاً لقلبه وتوسيعاً لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ، ثم لما استأنس بالوحى وبمن على لسانه الوحى نسخ ذلك ، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين ، وإما أنه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا ، فلم يبق له التفات إلى غير الله ، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا

﴿ المسألة السادسة ﴾. اختلف العلماء فى أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا ؟ فقال الشافعى نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبى إلا وأحل له النساء، وعلى هذا فالناسخ قوله (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك) إلى أن قال (وبنات عمك) وقال (وامرأة مؤمنة) على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبراً.

ثم قال تعالى (إلا ماملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل بالمملوكة، ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وإمكان المخاصمة، ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعاً من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد.

ثم قال تعالى (وكان الله على كل شئ رقيباً)أى حافظاً عالماً بكل شئ قادراً عليه، لأن الحفظ لا يحصل إلا بهما.

قوله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾

لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً) بياناً لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم إن حال الأمة مع النبى على وجهين (أحدهما) فى حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبين ذلك بقوله (لا تدخلوا بيوت النبى) (وثانيهما) فى الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقوله (إلى طعام غير ناظرين إناه) أى لا تدخلوا بيوت النبى إلى طعام إلا أن يؤذن لكم.

قوله تعالى :﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾

لما بين من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله (وداعياً إلى الله) قال ههنا لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعنى كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله (غير ناظرين) منصوب على الحال . والعامل فيه على ما قاله الزمخشرى لاتدخلوا قال وتقديره لاتدخلوا بيوت النبي إلا مأذونين غير ناظرين ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام) إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم ، فلا يكون منعاً من الدخول فى غير وقت الطعام بغير الإذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولاتدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز ، نقول المراد هو الثانى ليعم النهى عن الدخول ، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذى إلى طعام ، نقول : قال الزمخشرى الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول فى وقته بغير إذن ، والأولى أن يقال المراد هو الثانى لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل وقوله (إلى طعام) من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ماعداه ، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته بإذنه إلىطعامه جاز دخوله إلىغير طعامه بإذنه ، فانغير الطعام يمكن وجوده مع الطعام ، فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقضيه فى حوائجه ويعلمه بما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام ، فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض أقرب إلىالفعل فيصيرمن باب(ولا تقل لهما أف) وقوله (غير ناظرين) يعنى أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) فيه لطيفة وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلهاأصلا لابالدعاء ولا بالدعاء ، فقال لاتفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لاتدخلوا لاتدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا ، وإناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله (إلا أن يؤذن) يفيد الجواز وقوله (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) يفيد الوجوب فقوله (ولكن إذا دعيتم) ليس تأكيداً بل هو يفيد فائدة جديدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يشترط فى الإذن التصريح به ، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال (إلا أن يؤذن) من غير بيان فاعل ، فالآذن إن كان الله أو النبى أو العقل المؤيد بالدليل

www.besturdubooks.wordpress.com

إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى (أو صديقكم) وحد الصداقة لما ذكرنا ، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع فى بيت عائشة من بيوت النبى عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أوهى محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك ، جاز الدخول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فاذا طعمتم فانتشروا) كأن بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبى عليه السلام فى عرس زينب ، والنبى عليه السلام لم يقل له شيئاً ، فوردت الآية جامعة لآداب ، منها المنع من إطالة المكث فى بيوت الناس ، وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده ، وقوله (ولا مستأنسين لحديث) قال الزمخشرى هو عطف على (غير ناظرين) مجرور ، ويحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على المعنى ، فان معنى قوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) لا تدخلوها هاجمين ، فعطف عليه (ولا مستأنسين) ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدباً وكون النبي حليما بقوله (إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) إشارة إلى أن ذلك حق وأدب ، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبى عليه السلام ، ثم ذكر الله أدباً آخر وهو قوله (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) لما منع الله الناس من دخول بيوت النبيعليه السلام ، وكان فى ذلك تعذر الوصول إلى الماعون ، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب ، وقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يعنى العين روزنة القلب ، فاذا لم تر العين لا يشتهى القلب . أما إن رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر ، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه ، وقوله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله ، قال لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة ، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول ، فان المراد أن إيذاء الرسول حرام ، والتعرض لنسائه فى حياته إيذاء فلا يجوز ، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقاً . ثم أكد بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إيذاء الرسول

قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فان الله كان بكل شىء عليما ﴾ .

يعنى إن كنتم لا تؤذونه فى الحال وتعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده ، فالله عليم بذات الصدور .

www.besturdubooks.wordpress.com

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله﴿لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ﴾ وفى الآية مسائل:

﴿ الأولى ﴾ فى الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال. فلم لم يستثن الرجال عن الجناح، ولم يقل لاجناح على آبائهن؟ فنقول قوله تعالى (فاسألوهن من وراء حجاب) أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن، ثم أمر الرجال بتركهن كذلك، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء. (وفيه لطيفة) وهى أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى. وعند الاستثناء قال تعالى(لاجناح عليهن) عند رفع الحجاب عنهن، فالرجال أولى بذلك.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر. وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر. إنما الكلام فى بنى الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الأخوات، لأن بنى الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات أبنائهم، وبنى الأخوة آباؤهم محارم أيضاً، ففى بنى الأخوات مفسدة ما وهى أن الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال، فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (أحدهما) أن ذلك علم من بنى الإخوة وبنى الأخوات، لأن من علم أن بنى الأخ للعمات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم، وكذلك الحال فى أمر الخال (ثانيهما) أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم، وكذلك الحال فى ابن الخال.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (ولا نسائهن) مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات فى وجه.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ولا ما ملكت أيمانهن) هذا بعد الكل، فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة، ومن الأئمة من قال المراد من كان دون البلوغ.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

ثم قوله تعالى ﴿ واتقين الله ﴾ عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع ، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا .

قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته ، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلوته ، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) وحالة يكون في ملأ . والملأ إما الملأ الأعلى ، وإما الملأ الأدنى ، أما في الملأ الأعلى فهو محترم ، فان الله وملائكته يصلون عليه . وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه ، أي دعا له ، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فانه لايدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث . فقال الشافعي رضي الله عنه استعمل اللفظ بمعان ، وقد تقدم في تفسير قوله (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) والذي نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله ، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال(يصلون) وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا لأن إفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف ، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضاً يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان ، إذا علمت هذا ، فقال في حق النبي عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالأصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا دليل على مذهب الشافعي لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سئل النبي عليه السلام كيف نصلي عليك يارسول الله ؟ فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول الصلاة عليه ليس لحاجته إليها وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه ، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ، ولهذا قال عليه السلام « من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً »

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله (وسلموا تسليما) أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبي فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبي) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ فصل الأشياء بتبيين بعض أضدادها ، فبين حال مؤذى النبي ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره . ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم [بين] أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ، ولا سيما إذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده ، وقوله (فى الدنيا والآخرة) إشارة إلى بعد لا رجاء للقرب معه ، لأن المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة ، فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب وخسر ، لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه فى الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله (وأعد لهم عذاباً مهيناً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله ، لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه ، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه ، لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب ، لأنا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول ، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذى النبي عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير إشراك ، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر ، فقد آذى النبي عليه السلام غير أن الله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب.

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكد العذاب بكونه مهيناً لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه فى موضع بميز، أو أمر بضربه رجلا كبيراً يدل على أن الأمر هين، وإن أمر بضربه على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبىء عن شدة الأمر، فمن آذى الله ورسوله من المخلدين فى النار فيعذب عذاباً مهيناً، وقوله (أعد لهم) للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيداً وغلا، فان الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثانى.

قوله تعالى: ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾.

لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه، فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبى كما صليت عليه، لاينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول، كما أن إيذائى إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله وللملائكة والرسول والمؤمنين صار لايكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين فى الصداقة، وقوله (بغير ما اكتسبوا) احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد، فان من جلد مائة على شرب الخمر أوحد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا، ومن جلد على الزنا أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب، ويمكن أن يقال لم يؤذ أصلا لأن ذلك إصلاح حال المضروب، وقوله (فقد احتملوا بهتانا) البهتان هو الزور وهو لايكون إلا فى القول والإيذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمناً بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتاناً، فنقول: المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول. وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لايقدر ولا يعلم أو من هو محتاج فى وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم، وذلك لأن الإنسان لايقدر أن يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ مايحتاج اليه فيؤذيه بالقول، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه مايصل اليه فيتأذى، والوجه الثانى فى

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

الجواب هو أن نقول قوله بعدذلك(وإثماً مبيناً)مستدرك فكأنه قال احتمل بهتاناً إن كان بالقول وإثما مبينا كيفما كان الإيذاء ، وكيفما كان فان الله خص الإيذاء القولى بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب . فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والآذان سبيله .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن ، أمر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه . ولما كان الايذاء القولى مختصاً بالذكر اختص بالذكر ماهو سبب الأيذاء القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ، ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه ، وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم ، فأمر الله الحرائر بالتجلبب .

وقوله ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال المراد يعرفن أنهن لايزنين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن . وقوله ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحماً عليكم .

قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ .

لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله ، والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ، ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : وهم المؤذون الله . والمؤذون الرسول ، والمؤذون المؤمنين . ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سراً (والثانى) الذى

www.besturdubooks.wordpress.com

مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء ، وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم ولنخرجنهم من المدينة ، ثم لايجاوزونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم ، فاذا أغريناك لا يجاورونك ، (والأول) كقول القائل يخرج فلان ويقرأ إشارة إلى أمرين (والثانى) كقوله يخرج فلان ويدخل السوق ففى الأول يقرأ وإن لم يخرج وفى الثانى لا يدخل إلا إذا خرج . والاستثناء فيه لطيفة وهى أن الله تعالى وعد النبى عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته ، ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لأخلى المدينة عنهم فى ألطف آن [بقوله] كن فيكون ، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبى لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال (ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج .

قوله تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ .

أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ، ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون .

قوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام ، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت القيامة (قل إنما علمها عند الله) لا يتبين لكم ، فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت.

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ إشارة إلى التخويف ، وذلك لأن قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلانى ينبىء عن إبطاء الأمر ، ألا ترى أن من يطالب مديوناً بحقه فان استمهله شهراً أوشهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجىء فلان ، ويمكن أن يكون مجىء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا (وما يدريك لعل الساعه تكون قريباً) يعنى هى فى علم الله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً ﴾ يعنى كما أنهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله (وأعد لهم سعيراً) كما قال تعالى (لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً خالدين فيها أبداً) مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم وقوله ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ، ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع.

قوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾

لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الإنسان يدفع عن وجهه الضربة إتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطىء رأسه كى لا يصيب وجهه ، وفى الآخرة (تقلب وجوههم فى النار) فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة ، لحصول علمهم بأن الخلاص ليس إلا للمطيع . ثم يقولون (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابر

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

فبدلنا الخير بالشر ، فلاجرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ، ثم إنهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) أى بسبب ضلالهم وإضلالهم وفى قوله تعالى (ضعفين والعنهم لعناً كثيراً) معنى لطيف وهو أن الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ماليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم (ضعفين) وزيادة اللعن بقولهم (لعناً كبيراً) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾

لما بين الله تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر ، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هو دونه وهو لا يورث كفراً ، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالفئ لبعض وغير ذلك فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وحديث إيذاء موسى مختلف فيه ، قال بعضهم هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب فى بدنه ، وقال بعضهم [إن] قارون قررمع امرأة فاحشة حتى تقول عند بنى إسرائيل إن موسى زنى بى فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله فى قلبها أنها صدقت ولم تقل مالقنت وبالجملة الايذاء المذكور فى القرآن كاف وهو أنهم قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) إلى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أى لا تقولوا (اذهب أنت وربك فقاتلا)ولا تسألوا مالم يؤذن لكم فيه «وإذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه ما استطعتم» وقوله(فبرأه الله مما قالوا)على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذى رموه به ، وعلى ما ذكرنا (فبرأه الله مما قالوا) أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض اياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجتهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم . وقوله ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أى ذا وجاهة ومعرفة ، والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفاً بالخير ، وكل أحد وإن كان عند الله معروفاً لكن المعرفة المجردة لا تكفى فى الوجاهة ، فإن من عرف غيره لكونه خادماً له وأجيراً عنده لا يقال هو وجيه عند فلان ، وإنما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدهم إلى ماينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديداً ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً فى الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ فطاعة الله هى طاعة الرسول ، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه يفعله الواحد اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يدا وقوله (فقد فاز فوزاً عظيما) جعله عظيما من وجهين (أحدهما) أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطاً ثم نجا منه لا يقال فاز فوزاً عظيما ، لأن العذاب الذى نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً (والثانى) أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدى .

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولا ﴾

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب ، بين أن التكليف الذى وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال (إنا عرضنا الأمانة) أى التكليف وهو الأمر بخلاف مافى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه ؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الأمانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لأن من قصر فيه

www.besturdubooks.wordpress.com

فعليه الغرامة ، ومن وفرفله الكرامة.ومنهم من قال هو قول لاإله إلا الله وهو بعيد فانالسموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ، ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك ، والرجل والفرج واللسان ، ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشرومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الأمانة على السموات فرجحتالأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى السموات والأرض) وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها ، (والثانى) المراد أهلوها ، ففيه إضمار تقديره : إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الرابعة ﴾قوله(فأبين أن يحملنها) لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) من وجهين (أحدهما) أن هناك السجود كان فرضاً ، وههنا الأمانة كانت عرضاً (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكباراً وههنا استصغاراً استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله (وأشفقن منها) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما سبب الإشفاق ؟ نقول الأمانة لاتقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالأوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار ، فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاجلقبلها ، فىالأول لأمانه من هلاكها ، وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان شهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع ، والأمركان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين إذ العرض كان بعد خروج آدم منالجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كإيداع الحيوانات التى تحتاج إلى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها ، فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج إلى تربية وتنمية .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الأشياء ؟ فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن . ولهذا قال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولا) . (والثانى) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن ، والانسان نظر إلى جانب المكلف ، وقال المودع عالم قادر لايعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لايتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها ، وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله تعالى (إنه كان ظلوما جهولا) فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ماعليه من العقاب (ثالثها) إنه كان ظلوماً جهولا ، أى كان من شأنه الظلم والجهل

www.besturdubooks.wordpress.com

يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أى من شأنه ذلك ، فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقى بعضهم على ماكان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال فى حق المؤمنين عامة (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (رابعها) (إنه كان ظلوماً جهولا) فى ظن الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء) وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم ثم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل ، قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية . فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفاً يكون مكلفاً لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفاً لما أن المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفاً وفى الآية لطائف (الأولى) الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز ، بقى أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤتمن ، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان ، فالمؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز . ولهذا قال تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى (فتاب عليه) والكافر صار آخذاً للأمانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة فى يده شىء بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن مافات بغير تقصير ، والكافر إذا أصاب الأمانة فى يده شىء ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره ، لأنه يضمن مافات وإن لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال ، وأما السموات فلقوله تعالى (وخلقنا فوقكم سبعاً شداداً) والأرض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها . ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن ، لأنهن وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن ، وحملها الإنسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) ولكن وعده بالاعانة على حفظ الأمانة بقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر ؟ نقول قال الله تعالى «أنا أعين من يستعين بى ويتوكل على » والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الأمانة (اللطيفة الثالثة) قوله

www.besturdubooks.wordpress.com

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

تعالى فأبين (أن يحملنها) وقوله تعالى (وحملها الإنسان) إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف مالو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ، ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لايستحق أجرة فقال تعالى (وحملها) إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أى على مجرد حمل الأمانة ، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها ، غاية ما فى الباب أن الكافر لم يأت بشيء زائد على الحمل فينبغى أن يستحق الأجر على الحمل فنقول الفعل إذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الأجرة ، ألا ترى أنه لو قال احمل هذا إلى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها إلى الضيعة التى على الجنوب لايستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التى عملها بسببه.

قوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

أى حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك ، فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم عطف المشرك على المنافق ، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولوقال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا ؟ نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال (ويتوب الله) ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله فى الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفوراً رحيما) أى كان غفوراً للظلوم ورحيما على الجهول ، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذى هو الشرك كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الوعد فقوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت .

(وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولا ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى الأمى وآله .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٣ ــ سورة الأحزاب
(مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ٣٣ الأحزاب

﴿ سورة الأحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يأيها النبي اتق الله) فى ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فإن له باباً واسعاً وعرضاً عريضاً لا ينال مداه (ولا تطع الكافرين) أى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له أى فيما يعودونهن فى الدين وإعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا عليه ﷺ فى الموادعة التى كانت بينه ﷺ وبينهم وقام معهم عبدالله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله ﷺ ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبى ﷺ والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت أى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك (إن الله كان عليما حكيما) مبالغاً فى العلم والحكمة فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ولا يحكم

٢ إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للأمر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) أى فى كل ما تأتى وتذر من أمور الدين (مايوحى إليك من ربك) من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر (إن الله كان بما تعملون خبيراً) قيل الخطاب للرسول ﷺ والجمع للتعظيم وقيل له ﷺ وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأياً ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه أما على الوجهين الأولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل إن الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثواباً وعقاباً وأما على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل إن الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك إلى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على مايعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك أن تعمله فى دفعها وردها فلابد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما .

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٣٣ الأحزاب

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٣ (وتوكل على الله) أى فوض جميع أمورك إليه (وكفى بالله وكيلا) حافظاً موكولا إليه كل الأمور
٤ (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى إلقاء الوحى الذى أمر ﷺ باتباعه وهذا مثل ضربه الله
تعالى تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيهاً على أن كون المظاهر منها أما وكون الدعى ابنا أى بمنزلة الأم والابن فى الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبى معمر أو لجميل بن سيد الفهرى ذو القلبين أى ماجمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ولا زوجية ولا أمومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام البنوة على الإطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لإبطال ماكانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها وإجراء أحكام البنوة على الدعى ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الإسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فإن ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان الزوجة وظهرها إلى السماء وقرىء اللاء وقرىء تظاهرون بحذف إحدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بإدغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من أظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من ظهر ظهوراً وادعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولداً على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى وأتقياء كأنه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه
٥ كقتلاء وأسراء (ذلكم) إشارة إلى مايفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو إلى الأخير الذى هو المقصود من مساق الكلام أى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الأعيان فإذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو
٥ يهدى السبيل) أى سبيل الحق لاغير فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم) أى انسبوهم

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى
كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى
ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا
مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ٣٣ الأحزاب

إليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو أقسط عند الله) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى *
اعدلوا هو أقرب للتقوى وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل أى الدعاء
لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه (فإن لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم إليهم (فإخوانكم) *
فهم إخوانكم (فى الدين ومواليكم) وأولياؤكم فيه أى فادعوهم بالأخوة الدينية والمولوية (وليس
عليكم جناح) أى إثم (فيما أخطأتم به) أى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو أو النسيان أو سبق
اللسان (ولكن ماتعمدت قلوبكم) أى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى أو ماتعمدت قلوبكم
فيه الجناح (وكان الله غفوراً رحيما) لعفوه عن المخطىء وحكم التبنى بقوله هو ابنى إذا كان عبداً للقائل *
العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر
قبله بنسبه من غيره (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به ٦
الإطلاق فيجب عليه أن يكون ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم
من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى أنه ﷺ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج
فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرىء وهو أب لهم أى فى الدين فإن كل نبى أب لأمته من حيث
إنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون أخوة (وأزواجه أمهاتهم) أى منزلات منزلة الأمهات *
فى التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا
أمهات النساء (وأولوا الأرحام) أى ذو القرابات (بعضهم أولى ببعض) فى التوارث وهو نسخ لما كان *
فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين (فى كتاب الله) فى اللوح أو فيما أنزله وهو
هذه الآية أو آية المواريث أو فيما فرض الله تعالى (من المؤمنين والمهاجرين) بيان لأولى الأرحام أو صلة
لأولى أى أولوا الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (إلا
أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) استثناء من أعم ماتقدر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف
التوصية أو منقطع (كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) أى كان ماذكر من الآيتين ثابتاً فى اللوح أو القرآن وقيل
فى التوراة (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة ٧
والدعاء إلى الدين الحق (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع

لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ٣٣ الأحزاب

اندراجهم فى النبيين اندراجا بينا للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً) أى عهداً عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين وهذا هو الميثاق الأول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ إثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى
٨ (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ماهو داع إلى ماذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فإن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بياناً قصدياً كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم أوعن تصديقهم إياهم تبكيتالهم كما فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق وأما ماقيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) عطف على ماذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بأن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو بأن المعنى أن الله تعالى أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض إلى كون بيان إعداد العذاب الأليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على مادل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية
٩ (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) إن جعل النعمة مصدراً فالجار متعلق بها وإلا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها أى كائنة عليكم (إذ جاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر ألفاً فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا

إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ٣٣ الأحزاب

خيولهم وتيمموا من الخندق مكاناً مضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلماً ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه ياعمرو إنى أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام قال لا حاجة لى إليه قال فإنى أدعوك إلى النزال قال ياابن أخى والله لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيوراً مشهوراً بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على على فتناولا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلين منبه بن عثمان ابن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى قتله أيضاً على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً) عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة إجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة (وجنوداً لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صباً باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدى أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم إليه ورجائكم من فضله وقرىء بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزب والمحاربة أو من الكفر والمعاصى (بصيراً) ولذلك فعل مافعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض

١٠ مقرر لماقبله (إذ جاءوكم) بدل من إذ جاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (وإذ زاغت الأبصار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصاً وقيل عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الإيمان على الإطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى ينجز وعده فى إعلاء دينه كما يعرب عنه ماسيحكى عنهم من قولهم هذا ماوعدنا

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ٣٣ الأحزاب

الله ورسوله وصدق الله ورسوله الآية أو يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ماحكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرىء الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد في
١١ القوافي (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أي في ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض (ابتلي المؤمنون) أي عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا
١٢ زلزالا شديداً) من الهول والفزع وقرىء بفتح الزاي (وإذ يقول المنافقون) عطف على إذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين في قلوبهم مرض)
• أي ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من إعلاء الدين والظفر (إلا غروراً) أي وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا
١٣ لا يقدر أن يتبرز فرقا ماهذا إلا وعد غرور (وإذ قالت طائفة منهم) هم أوس بن قيظي وأتباعه وقيل عبد الله بن أبي وأشياعه (يا أهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها وقد نهى النبي ﷺ أن تسمى بها كراهة لها وقال هي طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة
• له ﷺ ونداؤهم إياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها (لا مقام لكم) لا موضع إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرىء بفتح الميم أي لا قيام أو لا موضع
• قيام لكم (فارجعوا) أي إلى منازلكم بالمدينة مرادهم الأمر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لا قيام لكم في دين محمد ﷺ فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه إلى أعدائه أو لا مقام لكم في يثرب
• فارجعوا كفاراً ليتسنى لكم المقام بها والأول هو الأنسب لما بعده فإن قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبي) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة
• استأذنوه ﷺ في الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبني على السؤال عن كيفية الاستئذان (إن بيوتنا عورة) أي غير حصينة معرضة للعدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر والعورة في الأصل الخلل أطلقت على المختل مبالغة وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرىء بها والأول هو الأنسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وما هي بعورة) والحال أنها ليست كذلك

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ٣٣ الأحزاب

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ٣٣ الأحزاب

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ٣٣ الأحزاب

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

٣٣ الأحزاب

(إن يريدون) ما يريدون بالاستئذان (إلا فراراً) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول ١٤
إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو
لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقاً كما هو المفهوم لو أسند إلى الجار والمجرور
(من أقطارها) أى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية •
ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا) من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة
والرجفة الهائلة (الفتنة) أى الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة
(لآتوها) لأعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرىء لأتوها
بالقصر أى لفعلوها وجاءوها (وما تلبثوا بها) بالفتنة أى ما ألبثوها وما أخروها (إلا يسيراً) ريثما يسع •
السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا
بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيراً والأول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك
العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع
لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم إذا دعوا إلى الحق تعللوا بشىء يسير وإن دعوا إلى
الباطل سارعوا إليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من
جهة العساكر المذكورة وإسناد سؤال الفتنة والدعوة إلى الكفر إلى طائفة أخرى مع أن العساكر هم
المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الإعراض عن الحق المجدون فى الدعاء
إلى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) فإن بنى ١٥
حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر
ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله
مسئولا) مطلوباً مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار إن ١٦
فررتم من الموت أو القتل) فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف فى وقت معين سبق به
القضاء وجرى عليه القلم (وإذن لا تمتعون إلا قليلا) أى وإن نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك
التمتيع إلا تمتيعاً قليلا أو زماناً قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم ١٧

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ٣٣ الأحزاب

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ٣٣ الأحزاب

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ
أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ٣٣ الأحزاب

رحمة أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الأول لما فى العصمة من معنى المنع
١٨ (ولا يجدون لهم من دون الله ولياً) ينفعهم (ولا نصيراً) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى
المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون (والقائلين لإخوانهم) من منافقى المدينة (هلم إلينا) وهو
صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم
فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم إلينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من
المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) أى الحراب والقتال (إلا قليلا) أى إتياناً أو زماناً
أو بأساً قليلا فإنهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا
تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلا إذا اضطروا إليه كقوله تعالى ما قاتلوا إلا قليلا وقيل إنه من تتمة
١٩ كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلا (أشحة عليكم) أى بخلاء
عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون أو
من المعوقين أو على الذم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) فى أحداقهم (كالذى
يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى
ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك أو ينظرون
كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه (فإذا ذهب
الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بألسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم
وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرىء صلقوكم
(أشحة على الخير) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من
صفات السوء (لم يؤمنوا) بالإخلاص (فأحبط الله أعمالهم) أى أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال
فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الإحباط (على الله
يسيراً) هيناً وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شىء عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر
٢٠ حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

٣٣ الأحزاب

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

٣٣ الأحزاب

لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب وقرىء بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرىء يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الأعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فإن صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت إليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكورة ونظائره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا

٢١ إلى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا إلا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديداً أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد وقرىء بكسر الهمزة وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى ثواب الله أو لقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً وقيل هو مثل قولك أرجو زيداً وفضله فإن اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والأكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) أى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيراً) أى ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً فإن المثابرة على ذكره تعالى تؤدى

٢٢ إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله ﷺ (ولما رأى المؤمنون الأحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشئون واختلاف الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين إلى ما شاهدوه من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ كما فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله إشارة إلى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء إلى قوله تعالى ألا إن نصر الله قريب وقوله ﷺ سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله ﷺ إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرىء بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء وإظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) أى ما رأوه (إلا إيماناً) بالله تعالى وبمواعيده

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ٣٣ الأحزاب

٢٣ (وتسليما) لأوامره ومقاديره (من المؤمنين) أى المؤمنين بالإخلاص مطلقاً لا الذين حكيت محاسنهم
خاصة (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لأعداء الدين وهم
رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا لقو حربا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى
يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب
ابن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من
صدقنى إذا قال لك الصدق ومحل ماعاهدوا النصب إما بطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه كما فى قولهم
صدقنى سن بكره أى فى سنه وإما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال
لكرمائه [نحرتنى الأعداء إن لم تنحرى] وقالوا له سننى بك وحيث وفوا به فقدصدقوه ولو كانوا نكثوه
لكذبوه ولكان مكذوباً (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم إلى قسمين والنحب
النذر وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار
والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله
الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس
ابن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته
بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر
وهو الموت شهيداً أو كان مستعاراً لالتزامه على ما سيأتى (ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم
(من ينتظر) أى قضاء نحبه لكونه موقتاً كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله
تعالى عليهم أجمعين فإنهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله ﷺ
والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال إلى الموت شهيداً
هذا ويجوز أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت شهيداً إما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال
اختيارية للناذر منزلة الالتزام نفسه وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وإيراد الالتزام عليه وهو الأنسب
بمقام المدح وأياً ما كان ففى وصفهم بالانتظار المنبىء عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم إلى
الشهادة وأما ماقيل من أن النحب استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة
وذهاب برونقها وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله
فاعله أى وما بدلوا عهدهم وماغيروه (تبديلا) أى تبديلا ما لا أصلا ولا وصفاً بل ثبتوا عليه راغبين فيه
مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق
شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ٣٣ الأحزاب

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ٣٣ الأحزاب

ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال ﷺ أوجب طلحة الجنة وفى رواية أوجب طلحة وعنه ﷺ فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض
٢٤ وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة وهذا يشير إلى أنه من الأولين حكما (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ماهو داع إلى وقوع ما حكى من الأحوال والأقوال على التفصيل وغاية له كما مر فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ماوقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية (إن شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) إن تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفي التبديل المنطوق وإثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى وما زادهم إلا إيماناً وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الأحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق (إن الله كان غفوراً رحيما) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث إلى
٢٥ التوبة وقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا) رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار إليها إجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها معطوف إما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ماوقع من الحوادث ورد الله الخ وإما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والأفهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الأقدام وتفصيل ماصدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لإظهار عظم النعمة وإبانة خطرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها أى فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيراً) بتداخل أو تعاقب أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للأولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من إرسال الريح والجنود (وكان الله قوياً) على إحداث كل ما يريد (عزيزاً)

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٢٦ غالباً على كل شىء (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الأحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو
قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جميع صيصية وهى مايتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى
وشوكة الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم
للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً) من غير أن يكون من جهتهم حراك
فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم
فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ماوضعوا
السلاح إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن فى الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببنى
قريظة فحاصروهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى
فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم فكبر
النبى ﷺ وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة إلى
تسعمائة وأسر سبعمائة وقرىء تأسرون بضم السين كما قرىء الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول فى
الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما فى قوله تعالى ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون وقوله تعالى
٢٧ فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم
وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار فى ذلك
فقال ﷺ إنكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال ﷺ لا إنما جعلت هذه
لى طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضاً لم تطئوها) أى أورثكم فى علمه وتقديره أرضاً لم
تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شىء قديرا)
٢٨ فقد شاهدتم بعض مقدوراته من إيراث الأراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ماعداها (ياأيها النبى قل
لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها (فتعالين) أى أقبلن
بارادتكن واختياركن لأحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى (أمتعكن)
بالجزم جوابا للأمر وكذا (وأسرحكن) أى أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار
وقرىء بالرفع على الاستئناف روى أنهن سألنه ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
٣٣ الأحزاب

تخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لايحل لك النساء من بعد واختلف فى أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييراً لهن بين الارادتين على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن ﷺ كما ينبىء عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضاً للطلاق إليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف فى حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم إذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شىء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها إن اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على رضى الله عنه أنها إن اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها لا يقع شىء أصلا وعليه إجماع فقهاء الأمصار وقد روى عن عن عائشة رضى الله عنها خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر والمتعة فى المطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهى درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار إلا أن يكون
٢٩ نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الأقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وإن كنتن تردن الله ورسوله) أى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للإيذان بجلالة محله ﷺ عنده تعالى (والدار الآخرة) أى نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعاً (فإن الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة إحسانهن (أجراً عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لأن كلهن محسنات وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الإكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع
٣٠ على التسريح وفى وصف السراح بالجميل (يانساء النبى) تلوين للخطاب وتوجيه له إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه ﷺ لأنها التى يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرىء بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله ﷺ ونشوزهن وطلبهن منه مايشق عليه أو مايضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقرىء تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ٣٣ الأحزاب

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ٣٣ الأحزاب

ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الأمم وقرىء يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب (وكان ذلك على الله يسيراً) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي ﷺ بل يدعوه إليه لمراعاة حقه

٣١ (ومن يقنت منكن) وقرىء بالتاء أي ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة وقرىء يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) في الجنة زيادة على

٣٢ أجرها المضاعف (رزقا كريماً) مرضياً (يانساء النبي لستن كأحد النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع في النفي مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف (إن اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو إن اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند مخاطبة الناس أي لا تجبن بقولكن خاضعاً لينا على سنن قول المريبات والمومسات (فيطمع الذي في قلبه مرض) أي فجور وريبة وقرىء بالجزم عطفاً على محل فعل النهي على أنه نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الإطماع بالقول الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفا) بعيداً عن الريبة والإطماع بجد وخشونة

٣٣ من غير تخنيث أو قولا حسناً مع كونه خشناً (وقرن في بيوتكن) أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن فحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ماقبلها كما في قولك ظلن أو من قار يقار إذا اجتمع وقرىء بكسر القاف من وقر يقر وقاراً إذا ثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر حذفت إحدى راءى اقررن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظلن (ولا تبرجن) أي لا تتبخترن في مشيكن (تبرج الجاهلية الأولى) أي تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية القديمة وهي ما بين آدم ونوح وقيل ما بين إدريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الأولى جاهلية

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ٣٣ الأحزاب

الكفر والجاهلية الأخرى الفسوق فى الإسلام ويؤيده قوله ﷺ لأبى الدرداء إن فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية إسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة) أمرن بهما لإنافتهما على غيرهما وكونهما أصلى الطاعات البدنية والمالية (وأطعن الله ورسوله) أى فى كل ما تأتن وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مراداً بهم من حواهم بيت النبوة (ويطهركم) من أوضار الأوزار والمعاصى (تطهيراً) بليغاً واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى ﷺ من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما ما تمسكوا به من أن رسول الله ﷺ خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فإنما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها فى مقابلة النص

٣٤ (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن) أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى فى بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (إن الله كان لطيفاً خبيراً) يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته (إن المسلمين والمسلمات) أى الداخلين

٣٥ فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ٣٣ الأحزاب

به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعة القائمين بها (والصادقين والصادقات) فى القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصى (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب فى مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ماعملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة (وأجراً عظيما) على ماصدر عنهم من الطاعات والآيات وعدلهن ولأمثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبى ﷺ ورضى عنهن قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل مناطاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل فى نساء النبى ﷺ مانزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شىء فنزلت وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضرورياً ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار
٣٦ إعداد ماأعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجليلة (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة) أى ماصح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (إذا قضى الله ورسوله أمراً) أى إذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره ﷺ أو للإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاء الله عز وجل لأنه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله وقيل فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهبت نفسها للنبى ﷺ فزوجها من زيد فسخطت هى وأخوها وقالا إنما أردنا الله ورسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ماشاءوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى وقيل الضمير الثانى الرسول ﷺ والجمع للتعظيم وقرىء تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) فى أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلال مبيناً)
٣٧ أى بين الانحراف عن سنن الصواب (وإذ تقول) أى واذكر وقت قولك (للذى أنعم الله عليه) بتوفيقه

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٣٣ الأحزاب

للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من فنون الإحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وإيراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه ﷺ من إظهار خلاف ما فى ضميره إذ هو إنما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور فى حق زيد (أمسك عليك زوجك) أى زينب وذلك أنه ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت فى نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع فى نفسه كراهة صحبتها فأتى النبى ﷺ وقال أريد أن أفارق صاحبتى فقال مالك أرابك منها شىء قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم على فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) فى أمرها فلا تطلقها إضراراً وتعللا بتكبرها (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها إن طلقها أو إرادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم إياك به (والله أحق أن تخشاه) إن كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الإخفاء وحده بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافى إضماره فإن الأولى فى أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه (فلما قضى زيد منها وطراً) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لى فيك (زوجناكها) وقرىء زوجتكها والمراد الأمر بتزويجها منه ﷺ وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبى ﷺ إن الله تعالى تولى نكاحى وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير فى خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة إيمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (فى أزواج أدعيائهم) أى فى حق تزوجهن (إذا قضوا منهن وطراً) فإن لهم فى رسول الله أسوة حسنة وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أى ما يريد تكوينه من الأمور

٣٨ أو مأموره الخاص بكن (مفعولا) مكوناً لا محالة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ما كان على النبى من حرج) أى ما صح وما استقام فى الحكمة أن يكون له ضيق (فيما فرض الله له) أى قسم له وقدر من قولهم فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض العساكر لأعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تراباً وجندلا مؤكد لما قبله من نفى الحرج أى سن الله ذلك سنة (فى الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم فى باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى قضاء مقضياً وحكما مبتوتاً اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفى الحرج وتحقيقه.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٣٩ (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرىء رسالة الله
(ويخشونه) فى كل مايأتون ويذرون لاسيما فى أمر تبليغ الرسالة حيث لايخرمون منها حرفا ولا تأخذهم
فى ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحداً إلا الله) فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر
عنه ﷺ من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه
(وكفى بالله حسيباً)كافياً للمخاوف فينبغى أن لايخشى غيره أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة فيجب
٤٠ أن يكون حق الخشية منه تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه
مايثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه ﷺ أبا الطاهر والقاسم
وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالاله ﷺ لالهم (ولكن رسول الله) أى كان رسولا
لله وكل رسول أبو أمته لكن لاحقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الأبدية وما زيد إلا
واحد من رجالكم الذين لا ولادة بينهم وبينه ﷺ فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى
التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرىء بكسر التاء أى كان خاتمهم
ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبياً ختم النبيين وأياً ماكان فلو كان له ابن بالغ لكان نبياً ولم يكن هو
ﷺ خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى إبراهيم حين توفى لوعاش لكان نبياً ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده
عليهما السلام لأن معنى كونه خاتم النبيين أنه لاينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبىء قبله وحين ينزل إنما ينزل
عملا على شريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شىء عليما) ومن جملته هذه
٤١ الأحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله
٤٢ من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكراً كثيراً) يعم الأوقات والأحوال (وسبحوه) ونزهوه
عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح
عليهما دون سائر الأوقات بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح
من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه إليهما كقولك صم وصل
يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة .

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ٣٣ الأحزاب

تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٤٣ (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين فإن صلاته تعالى عليهم مع
عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على مايستوجبه تعالى عليهم من ذكره
تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد *
بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانياً فإن استعمال اللفظ الواحد فى معنيين
متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فرداً حقيقياً له وهو الاعتناء
بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فإن كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى
المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولاريب فى أن استغفار
الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره
ينزع إلى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم *
هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) *
اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم مايفعل
من الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم إلى الإيمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين
٤٤ مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم وإشعاراً بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان
للأحكام الآجلة لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم إلى الطاعة
أى مايحيون به على أنه مصدر أضيف إلى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور أو عند
دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم كما
فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أو إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة
وقوله تعالى (وأعد لهم أجراً كريماً) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار
رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك ولعل إيثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم
أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الأجر الذى هو المقصد
٤٥ الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع مافيه من مراعاة الفواصل (يأيها النبى إنا
أرسلناك شاهداً) على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتتحمل منهم الشهادة بما صدر
عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا

وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ٣٣ الأحزاب

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ٣٣ الأحزاب

٤٦ فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشراً ونذيراً) تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار (وداعياً إلى الله) أى إلى الإقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله (بإذنه) أى بتيسيره أطلق عليه مجازاً لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيذاناً بأنها أمر صعب المنال وخطب فى غاية الإعضال لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وإدخال الأعناق فى قلادة غير معهودة (وسراجا منيراً) يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره إلى مناهج
٤٧ الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بأن لهم من الله فضلا كبيراً) أى على مؤمنى سائر الأمم فى الرتبة
٤٨ والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة واستعمال لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الإنذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى على التهييج والإلهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أى لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والإنذار (وتوكل على الله) فى كل ما تأتى وما تذر من الشئون التى من جملتها هذا الشأن فإنه تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا إليه الأمور فى كل الأحوال وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيدا ستقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف ﷺ بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحاً وهو الأمر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفاً وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى إنذارهم كما حققته وقوبل الداعى إلى الله بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث إنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهاناً نيراً يهدى الخلق من ظلمات الغى إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفى به عن كل ما سواه
٤٩ (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى تجامعوهن وقرىء تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بأيام يتربصن فيها بأنفسهن (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

٣٣ الأحزاب

الأزواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرىء تعتدونها على إبدال إحدى الدالين بالتاء أو على أنه من
الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة فى حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم
للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة وفائدة ثم إزاحة ما عسى
يتوهم أن تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة يؤثر فى العدة كما يؤثر فى النسب (فمتعوهن) أى إن لم يكن
مفروضاً لها فى العقد فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فإنها مستحبة عندنا فى رواية
وفى أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة (سراحاً
جميلا) من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السنى لأنه إنما يتسنى فى المدخول بهن
٥٠ (يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى مهورهن فإنها أجور الأبضاع وإيتاؤها
إما إعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد وأياً ما كان فتقييد الإحلال له ﷺ به ليس لتوقف الحل عليه
ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه بل لإيثار
الأفضل والأولى له ﷺ كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء
الله عليك) فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه
فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل
تقييد الحل بذلك فى حقه ﷺ خاصة ويعضده قول أم هانىء بنت أبى طالب خطبنى رسول الله ﷺ
فاعتذرت إليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة
مؤمنة) بالنصب عطفاً على مفعول أحللنا إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز بل إعلام مطلق الإحلال
المنتظم لما سبق ولحق وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللناها لك أيضاً (إن وهبت نفسها
للنبى) أى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر إن اتفق ذلك كما ينبىء عنه تنكيرها لكن لا مطلقاً بل
عند إرادته ﷺ استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل (إن أراد النبى أن يستنكحها) أى أن يتملك بضعها
كذلك أى بلا مهر فإن ذلك جار منه ﷺ مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصاً فى كون تمليكها بلفظ الهبة
لم يصلح أن يكون مناطاً للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجاباً أو سلباً واختلف فى اتفاق هذا العقد
فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده ﷺ أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت
الحرث وزينب بنت خزيمة الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وإيراده ﷺ فى الموضعين

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ٣٣ الأحزاب

بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به ﷺ حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى (خالصة لك) أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصاً فإن الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك إحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الأول أن الإحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وإنما المتحقق هناك الإحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه إحلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرىء خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أى على المؤمنين (فى أزواجهم) أى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله ﷺ وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه مالم يفرض عليه ﷺ تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم فى حق أزواجهم (وما ملكت أيمانهم) وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) أى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الإحلال وحصوله له ﷺ لا باعتبار اختصاصه به ﷺ لأن مدار انتفاء الحرج هو الأول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع
٥١ الأمر فى مواقع الحرج (ترجى من تشاء منهن) أى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك من تشاء منهن وتضاجعها أو تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرىء ترجىء بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعية (فلا جناح عليك) فى شىء مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق أو يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق فإما أن يخلى المعزولة أو يبتغيها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت مما آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأرجى خمساً وآوى أربعاً وروى أنه كان يسوى بينهن مع ما أطلق له وخير إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك (ذلك) أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى أقرب إلى قرة عيونهن ورضاهن جميعاً لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ٣٣ الأحزاب

أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرىء تقر بضم التاء ونصب أعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرىء بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم مافى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى إحسانها (وكان الله عليما) مبالغاً فى العلم فيعلم كل ماتبدونه وتخفونه (حليما) لايعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فإنه إمهال لا إهمال (لايحل لك النساء) بالياء لأن تأنيث الجمع غيرحقيقى ٥٢
ولوجود الفصل وقرىء بالتاء (من بعد) أى من بعد التسع وهو فى حقه كالأربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا أن تبدل) أى تتبدل بحذف إحدى التاءين (بهن) أى بهؤلاء التسع (من أزواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق * أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى ﷺ عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبى أمية وصفيـــة بنت حيى الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لايحل لك النساء من بعد الأجناس الأربعة اللاتى أحللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الإماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فإن معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلال نكاحهن فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن الأزواج المستبدلة * وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضاً إعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب أى هى ممن أعجبه ﷺ حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة أو منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء وقيل بقوله تعالى إنا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها مامات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات ﷺ على التحريم (إلا ما ملكت * يمينك) استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شىء رقيباً) * حافظاً مهيمناً فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ٣٣ الأحزاب

٥٣ (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان مايجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى ﷺ إثر بيان مايجب مراعاته عليه ﷺ من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى (إلا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تدخلوها فى حال من الأحوال إلا حال كونكم مأوذنا لكم وقيل من أعم الأوقات أى لاتدخلوها فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وإنما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (إلى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن كما يشعر به قوله تعالى (غير ناظرين إناه) أى غير منتظرين وقته أو إدراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معاً عند من يجوزه أو من المجرور فى لكم وقرىء بالجر صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هو له بلا إبراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرىء بالإمالة لأنه مصدر أنى الطعام أى أدرك (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير إذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه (فإذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته ﷺ بإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضكم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا أو ولا تمكثوا مستأنسين الخ (إن ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيي منكم) أى من إخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيي من الحق) فإنه يستدعى أن يكون المستحيي منه أمراً حقاً متعلقاً بهم لا أنفسهم وما ذاك إلا إخراجهم فينبغى أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرىء لا يستحى بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها إلى ماقبلها (وإذا سألتموهن) الضمير لنساء النبى المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ (متاعا) أى شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أى المتاع (من وراء حجاب) أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل إنه ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد

إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ٣٣ الأحزاب

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ٣٣ الأحزاب

عائشة رضى الله عنها فكره النبى ذلك فنزلت (ذلكم) أى ماذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أى وما صح وما استقام لكم (أن تؤذوا رسول الله) أى أن تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) أى من بعد وفاته أو فراقه (إن ذلكم) إشارة إلى ماذكر من إيذائه ﷺ ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أى أمراً عظيما وخطباً هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً مالا يخفى ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال (إن تبدوا شيئاً) مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فإن الله كان
٥٤ بكل شىء عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لا محالة وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة فى الوعيد (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن
٥٥ ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يارسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب فنزلت وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الأخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما أنهن عمات لأبناء الأخوة وخالات لأبناء الأخوات وقيل لأنه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما (ولا نسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة وقد مر فى سورة النور (واتقين الله) فى كل ماتأتين وما تذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (إن الله كان على كل شىء شهيداً) لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت فى علمه الأحوال (إن الله وملائكته) وقرىء وملائكته
٥٦ بالرفع عطفاً على محل إن واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضاً يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ٣٣ الأحزاب

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ٣٣ الأحزاب

تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغى أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فرداً حقيقياً له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضاً بذلك فإنكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله ﷺ رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله ﷺ من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه ﷺ قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على إلا قال ذانك ملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ﷺ كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى إظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه ﷺ أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بأن يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن إبراهيم النخعى رحمه الله أن الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطاً وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعاً وتكره استقلالا لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن
يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلا (إن الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالإيذاء إما فعل ٥٧
ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجازاً لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى إيذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقيل قول الذين يلحدون فى آياته وفى إيذاء الرسول ﷺ هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم فى نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وإما إيذاؤه ﷺ خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى وإيذاؤه ﷺ إيذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (فى الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها (وأعد لهم) مع ذلك (عذاباً مهيناً) يصيبهم
فى الآخرة خاصة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده ٥٨

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ٣٣ الأحزاب

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ٣٣ الأحزاب

بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) أى بغير جناية يستحقون بها الأذية بعد إطلاقه فيما قبله الإيذان بأن أذى
الله ورسوله لا يكون إلا غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) أى ظاهراً *
بيناً قيل إنها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون علياً رضى الله عنه ويسمعونه مالا خير فيه وقيل فى أهل الإفك
وقال الضحاك والكلبى فى زناة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء
ولكن ربما كان يقع منهما التعرض للحرائر أيضاً جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس والظاهر
٥٩ عمومه لكل ماذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين (يأيها النبى) بعدما بين سوء حال المؤذين زجراً لهم
عن الإيذاء أمر النبى ﷺ بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع
الإيذاء فقيل (قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من
الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هى الملحفة وكل ما يتستر به أى
يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعى ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها
* وإرخاء بعضها وعن السدى تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين (ذلك) أى ماذكر من التغطى
(أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الإماء والقينات اللاتى هن مواقع تعرضهم وإيذائهم (فلا يؤذين) من
جهة أهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفوراً) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعى
٦٠ من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء
(والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه (والمرجفون فى المدينة)
من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة
المستتبعة للأذية وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها
متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو بما يضطرهم إلى الجلاء ولنحرضنك على
ذلك (ثم لا يجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول ﷺ
أعظم ما يصيبهم (فيها) أى فى المدينة (إلا قليلا) زماناً أو جواراً قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء
٦١ وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم أو الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضاً على رأى من يجوزه كما
مر فى قوله تعالى غير ناظرين إناه ولا سبيل إلى انتصابه عن قوله تعالى (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا)

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ٣٣ الأحزاب

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ٣٣ الأحزاب

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ٣٣ الأحزاب

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٦٢ لأن مابعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الأمم الماضية سنة
وهى أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما
ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لا بتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع
٦٣ (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالا بطريق
الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل إنما علمها عند الله)
لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له ﷺ غير داخل
تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن قريب أى أى شىء يعلمك
بوقت قيامها أى لا يعلمك به شىء أصلا (لعل الساعة تكون قريبا) أى شيئا قريبا أو تكون الساعة فى وقت
قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أن الساعة فى معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد
٦٤ للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والإظهار فى حيز الإضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيدا استقلال الجملة كما
أشير إليه (إن الله لعن الكافرين) على الإطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعد لهم)
٦٥ مع ذلك (سعيرا) نارا شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا
٦٦ نصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل
مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور
به الغليان من جهة إلى جهة أو من حال إلى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرىء تقلب بحذف
إحدى التاءين من تتقلب ونقلب بإسناد الفعل إلى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب بإسناده إلى السعير
وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع الأمر وتهويل للخطب ويجوز أن
تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم
الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على مافاتهم (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا
٦٧ الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم (وقالوا)

رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ٣٣ الأحزاب

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ٣٣ الأحزاب

عطف على يقولون والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق بل
هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة وإن علموا
عدم قبوله في حق خلاصهم منها (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر *
وقرىء ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في
مقام التحقير والإهانة (فأضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الأباطيل والألف للإطلاق كما في وأطعنا
٦٨ الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أي مثلي العذاب الذي آتيتناه لأنهم ضلوا وأضلوا (والعنهم
لعناً كبيراً) أي شديداً عظيماً وقرىء كثيراً وتصدير الدعاء بالنداء مكرراً للمبالغة في الجؤار واستدعاء
٦٩ الإجابة (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من
قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) أي فأظهر براءته عليه السلام مما قالوا في حقه أي من مضمونه ومؤداه الذي هو
الأمر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بأن دفع إليها مالا
عظيما فأظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بأن أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها
وبين قارون وفعل بقارون مافعل كما فصل في سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عندخروجه
معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل أحياه الله تعالى فأخبرهم
ببراءته وقيل قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله تعالى على براءته بأن
فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيهاً) ذا قربة ووجاهة *
٧٠ وقرىء وكان عبد الله وجيهاً (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي في كل ماتأتون وما تذرون لا سيما في
ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذي رسوله عليه السلام (وقولوا) في كل شأن من الشئون (قولا سديداً) قاصداً
إلى الحق من سد يسد سداداً يقال سدد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا
٧١ فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها
بالقبول والإثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل (ومن يطع
الله ورسوله) في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) في الدارين (فوزاً عظيما) *
لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته .

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ٣٣ الأحزاب

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ٣٣ الأحزاب

٧٢ (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظم شأن
طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب
ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن
ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالأمانة تنبيهاً على أنها حقوق
مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم
بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى
استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليها لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن
لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل
لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية
التي أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك
الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وأشفقن
منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود
بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الإنسان) أي عند عرضها عليه إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتكليفه
إياها يوم الميثاق أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو إما عبارة عن قبوله
لها بموجب استعداده الفطري أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (إنه كان ظلوماً جهولا) اعتراض
وسط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أي إنه كان مفرطاً في الظلم مبالغاً
في الجهل أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون
٧٣ من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى (ليعذب الله المنافقين
والمنافقات والمشركين والمشركات) أي حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم
يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل لكن لما ترتب عليه
بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز في معرض الغرض أي كان عاقبة
حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية
وإلى الفريق الثاني أشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أي كان عاقبة حمله لها أن يتوب
الله تعالى على هؤلاء من أفراده أي يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما

فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار فى موقع الإضمار ثانياً لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى أعلم وجعل الأمانة التى شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذى ينبىء عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانياً وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها فيكون الإباء امتناعا عن الخيانة وإتياناً بالمراد فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتها وأتين بما أمرهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به إنه كان ظلوماً جهولا وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال لها إنى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لانحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله مايشق عليها جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وهذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرىء ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفوراً رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم. قال ﷺ من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر والله أعلم.

﴿ سورة الاحزاب ٣٣ ﴾

أخرج البيهقى فى الدلائل وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: نزلت سورة الاحزاب بالمدينة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وهى ثلاث وسبعون آية قال الطبرسى بالاجماع ، وقال الدانى هذا متفق عليه ، وأخرج عبد الرزاق فى المصنف . والطيالسى . وسعيد بن منصور . وعبدالله بن أحمد فى زوائد المسند . والنسائى . والحاكم وصححه. والضياء فى المختارة. وآخرون عن زر بن حبيش قال: قال لى أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه كائن (١) تقرأ سورة الاحزاب أو كائن تعدها؟ قلت: ثلاثا وسبعين آية فقال: أقط (٢) لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فرفع فيما رفع وأراد رضى الله تعالى عنه بذلك النسخ، وأما كون الزيادة كانت فى صحيفة عند عائشة فأكلها الداجن (٣) فمن وضع الملاحدة وكذبهم فى أن ذلك ضاع بأكل الداجن من غير نسخ كذا فى الكشاف ه

وأخرج أبو عبيد فى الفضائل . وابن الانبارى . وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة الاحزاب تقرأ فى زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مائتى آية فلما كتب عثمان رضى الله تعالى عنه المصاحف لم يقدر منها الا على ماهو الآن، وهو ظاهر فى الضياع من القرآن، ومقتضى ماسمعت أنه موضوع، والحق أن كل خبر ظاهره ضياع شيء من القرآن اما موضوع أو مؤول. ووجه اتصالها بما قبلها على ماقال الجلال السيوطى تشابه مطلع هذه ومقطع تلك فان تلك ختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى اليه والتوكل عليه عز وجل حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ناداه جل وعلا بوصفه عليه الصلاة

---

(١) اى كم اهمنه (٢ أى أحسب اه منه (٣) الداجن وكذا الراجن بالراء ما يألف البيوت ويأنس من شاة وغيرها اهمنه

www.Quranpdf.blogspot.in

والسلام دون اسمه تعظيما له وتفخيما، قال في الكشاف: إنه تعالى جعل نداءه من بين الانبياء عليهم السلام بالوصف كرامة له عليه الصلاة والسلام وتشريفا وربأ بمحله وتنويها بفضله، وأوقع اسمه في الاخبار في قوله تعالى: محمد رسول الله. وما محمد الا رسول) لتعليم الناس بأنه رسول وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والاخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الاخبار كيف ذكره تعالى بنحو ماذكره في النداء كما في قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم. وقال الرسول يارب. النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) إلى غير ذلك *

وتعقبه في الكشف بأن أمر التعليم والتلقين في قوله تعالى (محمد رسول الله) ظاهر أما في قوله تعالى (وما محمد الا رسول) فلا، على أن قوله تعالى: (وآمنوا بما نزل على محمد) ينقض ما بناه، نعم النداء يناسب التعظيم وربما يكون نداء سائر الانبياء عليهم السلام في كتبهم أيضا على نحو منه، وحكي في القرآن باسمائهم دفعا للالباس، والاشبه أنه لما قل ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه دل على أنه أعظم شأنا صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وفيه نظر *

واختار الطيبي طيب الله تعالى ثراه أن النداء المذكور هنا للاحتراس وجبر مايوهمه الامر والنهي كقوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وظاهر سياق مابعد أن المعنى بالامر بالتقوى هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا أمته كما قيل في نظائره والمقصود الدوام والثبات عليها، وقيل: الازدياد منها فان لها بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال مداه ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ ﴾ أي المجاهرين بالكفر ﴿ وَالْمُنَٰفِقِينَ ﴾ المضمرين لذلك فيما يريدون من الباطل؛ أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ان أهل مكة منهم الوليد ابن المغيرة. وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم(١) وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فنزلت، وذكر الثعلبي والواحدي بغير إسناد أن أبا سفيان ابن حرب. وعكرمة بن أبي جهل. وأبا الاعور (٢) السلمي قدموا عليه عليه الصلاة والسلام في زمان الموادعة التي كانت بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبدالله بن أبي. ومعتب بن قشير. والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت، وقيل: نزلت في ناس من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يمتعهم باللات والعزى سنة قالوا: لتعلم قريش منزلتنا منك ولا يبعد أن يكون المراد بالنهي الثبات على عدم الاطاعة، وذكره بعد الامر بالتقوى المراد منه الثبات عليها على ماقيل من قبيل التخصيص بعد التعميم لاقتضاء المقام الاهتمام به، وقيل: من قبيل التأكيد، وقيل: متعلق كل من التقوى والاطاعة مغاير للآخر على ماروى الواحدي. والثعلبي، والمعنى اتق الله تعالى في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك من رفض ذكر آلهتهم وقولك: انها تشفع وتنفع وكأنه إنما قدم الامر بتقوى الله تعالى في نقض العهد لما أن المؤمنين قدهموا بما يقتضيه بخلاف الاطاعة المنهي عنها فانها مما لم يهم بما يقتضيها أحد أصلا فكان الاهتمام بالامر أتم من الاهتمام بذلك النهي ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مبالغا في العلم والحكمة فيعلم الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه

(١) وفي رواية ويزوجه شيبة بنته اه منه (٢) اسمه عمرو بن أبي سفيان اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

مصلحة ولا ينهاك الا عما فيه مفسدة ولا يحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بها *

وقيل : المعنى إن الله كان عليما بمن يتقى فيجازيه بما يليق به حكيما فى هدى من شاء واضلال من شاء فالجملة تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس بشئ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ عطف على ما تقدم من قبيل عطف العام على الخاص أى اتبع فى كل ما تأتى وتذر من أمور الدين ما يوحى اليك من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله تعالى الناهية عن إطاعة الكفرة والمنافقين، والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ٢ ﴾ قيل: الخطاب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والجمع للتعظيم، وقال أبو البقاء: انما جاء بالجمع لأنه عنى بقوله تعالى :(اتبع ما يوحى) الخ اتبع أنت وأصحابك ، وقيل: للغائبين من الكفرة المنافقين وبطريق الالتفات. ولا يخفى بعده. نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب ، وأياما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لموجبه فكأنه قيل على الأول: ان الله تعالى يعلم بما تعمل فيرشدك الى ما فيه الصلاح فلا بد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما، وعلى الثانى ان الله تعالى خبير بما يعمل الكفرة والمنافقون من الكيد والمكر فيأمرك سبحانه بما يدفعه فلا بد من اتباع ما يوحيه جل وعلا اليك، وعلى الثالث ان الله تعالى خبير بما تعمل ويعمل الكفرة والمنافقون فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك ويطلعك على كيدهم ومكرهم ويأمرك جل شأنه بما يدفع ذلك ويرده فلا بد من اتباع وحيه تعالى والعمل بموجبه . وقرأ أبو عمرو (يعملون) بياء الغيبة على أن الضمير للكفرة والمنافقين *

وجوز كونه عاما فلا تغفل ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوض جميع أمورك اليه عز وجل ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ٣ ﴾ حافظا موكولا اليه كل الأمور ، والاظهار فى مقام الاضمار للتعظيم ولتستقل الجملة استقلال المثل *

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ أخرج أحمد . والترمذى وحسنه . وابن جرير . وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والحاكم وصححه . وابن مردويه. والضياء فى المختارة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فنزلت، وفى رواية عنه رضى الله تعالى عنه صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا: إن له قلبين ألم تسمعوا الى قوله وكلامه فى الصلاة إن له قلبا معكم وقلبا مع أصحابه فنزلت ، وقال مقاتل فى تفسيره . واسماعيل بن أبى زياد الشامى. وغيرهما : نزلت فى أبى معمر الفهرى كان أهل مكة يقولون: له قلبان من قوة حفظه وكانت العرب تزعم أن كل لبيب أريب له قلبان حقيقة، وأبو معمر هذا أشتهر بين أهل مكة بذى القلبين وهو على ما فى الاصابة جميل بن أسيد مصغر الاسد ، وقيل: ابن أسد مكبرا وسماه ابن دريد عبد الله بن وهب، وقيل: ان ذا القلبين هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة (١) ابن جمح الجمحى وهو المعنى بقوله: وكيف ثوائى البيت وقد تقدم فى تفسير سورة لقمان ، والمعول على ما فى الاصابة، وحكى انه كان يقول: (٢) إن لى قلبين أفهم باحدهما

(١) فى البحر حارثة بدل حذافة اه منه (٢) وأسلم بعد وعده ابن حجر فى الصحابة وكذا جميل الجمحى اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

أكثر مما يفهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فروى أنه انهزم يوم بدر فمر بأبي سفيان وهو معلق احدى نعليه بيده والاخرى فى رجله فقال له أبو سفيان: ما فعل الناس؟ فقال: هم مابين مقتول وهارب فقال له: ما بال احدى نعليك فى رجلك والاخرى فى يدك؟ فقال: ما ظننت الا أنهما فى رجلى فأ كذب الله تعالى قوله وقولهم *

وعن الحسن انه كان جماعة يقول الواحد منهم: نفس تأمرنى ونفس تنهانى فنزلت، والجعل بمعنى الخلق ومن سيف خطيب، والمراد ما خلق سبحانه لأحد أو لذى قلب من الحيوان مطلقا قلبين فخصوص الرجل ليس بمقصود وتخصيصه بالذكر لكمال لزوم الحياة فيه فاذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الاناث، وأما الصبيان فمآلهم الى الرجولية، وقوله سبحانه: (فى جوفه) للتأكيد والتصوير كالقلوب فى قوله تعالى: « ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وذكر فى بيان عدم جعله تعالى قلبين فى جوف بناء على ماهو الظاهر من أن المراد بالقلب المضغة الصنوبرية أن النفس الناطقة وكذا الحيوانية لابد لها من متعلق ومتعلقها هو الروح وهو جسم لطيف بخارى يتكون من ألطف أجزاء الاغذية لأن شد الاعصاب يبطل قوى الحس والحركة عما وراء موضع الشد مما لا يلى جهة الدماغ والشد لا يمنع الانفوذ الاجسام، والتجارب الطبية أيضا شاهدة بذلك، وحيث أن النفس واحدة فلا بد من عضو واحد يكون تعلقها به أولا ثم بسائر الاعضاء بواسطته *

وقد ذكر غير واحد ان أول عضو يخلق هو القلب فانه المجمع للروح فيجب أن يكون التعلق أولا به ثم بواسطته بالدماغ والكبد وبسائر الاعضاء فمنبع القوى بأسرها منه وذلك يمنع التعدد اذ لو تعدد بأن كان هناك قلبان لزم أن يكون كل منهما أصلا للقوى وغير أصل لها أو توارد علتين على معلول واحد، ولا يخفى على من له قلب أن هذا مع ابتنائه على مقدمات لا تكاد تثبت عند أكثر الاسلاميين من السلف الصالح والخلف المتأخرين ولو بشق الأنفس أمر اقناعى لا برهان قطعى، على أن للفلسفى أيضا له فيه مقالا، وقد يفسر القلب بالنفس بناء على أن سبب النزول ماروى عن الحسن اطلاقا للمتعلق على المتعلق وقد بينوا وحدة النفس وأنه لا يجوز أن تتعلق نفسان فأكثر ببدن بما يطول ذكره، وللبحث فيه مجال فليراجع، ثم ان هذا التفسير بناء على أن سبب النزول ما ذكر غير متعين بل يجوز تفسير القلب عليه بما هو الظاهر المتبادر أيضا، وحيث ان القلب متعلق النفس يكون نفى جعل القلبين دالا على نفى جعل النفسين فتدبر *

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ إبطال لما كان فى الجاهلية من اجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، والظهار لغة مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر ويستعمل فى معان مختلفة راجعة اليه معنى ولفظا بحسب اختلاف الاغراض فيقال ظاهرته اذا قابلت ظهرك بظهره حقيقة وكذا إذا غايظته باعتبار أن المغايظة تقتضى هذه المقابلة، وظاهرته اذا نصرته باعتبار أنه يقال: قوى ظهره اذا نصره وظاهرت بين ثوبين اذا لبست أحدهما فوق الآخر على اعتبار جعل مايلى به كل منهما الآخر ظهرا للثوب، ويقال: ظاهر من زوجته إذ قال لها أنت على كظهر أمى نظير لبى إذ قال لبيك وأفف اذا قال أف، وكون لفظ الظهر فى بعض هذه التراكيب مجازا لا يمنع الاشتقاق منه ويكون المشتق مجازا أيضا والمراد منه هنا المعنى الاخير، وكان ذلك طلاقا منهم *

وإنما عدى بمن مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى التباعد ونحوه مما فيه معنى المجانبة ويتعدى بمن، والظهر فى ذلك مجاز على ما قيل عن البطن لأنه انما يركب البطن فقوله: كظهر أمى بمعنى كبطنها بعلاقة المجاورة ولأنه

www.Quranpdf.blogspot.in

عموده ، قال ابن الهمام : لكن لا يظهر ما هو الصارف عن الحقيقة من النكات ، وقال الأزهرى ما معناه : خصوا الظهر لأنه محل الركوب والمرأة تركب اذا غشيت فهو كناية تلويحية انتقل من الظهر الى المركوب ومنه الى المغشى ، والمعنى أنت محرمة على لا تركبين كما لا يركب ظهر الام وقيل : خص الظهر لأن اتيان المرأة من ظهرها فى قبلها كان حراما عندهم فاتيان أمه من ظهرها أحرم فكثر التغليظ ، وقيل : كنوا بالظهر عن البطن لأنهم يستقبحون ذكر الفرج وما يقرب منه سيما فى الأم وما شبه بها ، وليس بذاك ، وهو فى الشرع تشبيه الزوجة أو جزء منها شائع أو معبر به عن الكل بما لا يحل النظر اليه من المحرمة على التأبيد ولو برضاع أو صهرية وزاد فى النهاية قيد الاتفاق ليخرج التشبيه بما لا يحل النظر اليه ممن اختلف فى تحريمها كالبنت من الزنا ، وتحقيق الحق فى ذلك فى فتح القدير ، وخص باسم الظهار تغليبا للظهر لأنه كان الأصل فى استعمالهم وشرطه فى المرأة كونها زوجة وفى الرجل كونه من أهل الكفارة ، وركنه اللفظ المشتمل على ذلك التشبيه ، وحكمه حرمة الوطء ودواعيه الى وجود الكفارة ، وتمام الكلام فيه فى كتب الفروع ، وسيأتى ان شاء الله تعالى بعض ذلك فى محله *

وقرأ قالون . وقنبل هنا وفى المجادلة والطلاق (اللاء) بالهمز من غير ياء ، وورش بياء مختلسة الكسرة ، والبزى . وأبو عمرو (اللاى) بياء ساكنة بدلا من الهمزة وهو بدل مسموع لا مقيس وهى لغة قريش ، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم (تظاهرون) بفتح التاء وتخفيف الظاء وأصله تتظاهرون فحذفت احدى التاءين *

وقرأ ابن عامر (تظاهرون) بفتح التاء وتشديد الظاء وأصله كما تقدم الا أنه ادغمت التاء الثانية فى الظاء ، وقرأ الحسن (تظهرون) بضم التاء وفتح الظاء المخففة وشد الهاء المكسورة مضارع ظهر بتشديد الهاء بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد ، وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية (تظهرون) بضم التاء وسكون الظاء وكسر الهاء مضارع أظهر ، وقرأ هرون عن أبى عمرو (تظهرون) بفتح التاء والهاء وسكون الظاء مضارع ظهر بتخفيف الهاء ، وفى مصحف أبى (تتظهرون) بتاءين ومعنى الكل واحد *

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ إبطال لما كان فى الجاهلية أيضا وصدر من الاسلام من أنه اذا تبنى الرجل ولد غيره أجريت أحكام البنوة عليه ، وقد تبنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة زيد ابن حارثة . والخطاب عامر بن ربيعة . وأبو حذيفة مولاه سالما الى غير ذلك ، وأخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر عن مجاهد ان قوله تعالى : (وما جعل) الخ ، نزلت فى زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه *

و (أدعياء) جمع دعى وهو الذى يدعى ابنا فهو فعيل بمعنى مفعول وقياسه أن يجمع على فعلى كجريح وجرحى لا على أفعلاء فان الجمع عليه قياس فعيل المعتل اللام بمعنى فاعل كتقى وأتقياء فكأنه شبه به فى اللفظ فحمل عليه وجمع جمعه كما قالوا فى أسير وقتيل أسراء وقتلاء ، وقيل : إن هذا الجمع مقيس فى المعتل مطلقا ، وفيه نظر *

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ قيل : إشارة الى مايفهم من الجمل الثلاث من أنه قد يكون قلبان فى جوف والظهار والادعاء ، وقيل : إلى مايفهم من الأخيرتين ، وقيل : إلى مايفهم من الأخيرة ﴿ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الواقع ونفس الأمر فاذن هو بمعزل عن القبول أو استتباع الأحكام كما زعمتم *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ الثابت المحقق فى نفس الأمر ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٤ ﴾ أى سبيل الحق فدعوا قولكم وخذوا بقوله عز وجل ◙

وقرأ قتادة على ما فى البحر (يهدى) بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال ، وفى الكشاف أنه قرأ (وهو الذى يهدى السبيل) ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ أى انسبوهم اليهم وخصوهم بهم، أخرج الشيخان . والترمذى . والنسائى . وغيرهم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم) الخ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: أنت زيد ابن حارثة بن شراحيل ، وكان من أمره رضى الله تعالى عنه على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان فى اخواله بنى معن من بنى ثعل من طى فأصيب فى نهب من طى فقدم به سوق عكاظ وانطلق حكيم بن حزام ابن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاما ظريفا عربيا ان قدر عليه فلما قدم وجد زيدا يباع فيها فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها وقال لها : انى قد ابتعت لك غلاما ظريفا عربيا فان أعجبك فخذيه وإلا فدعيه فانه قد أعجبنى فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته فتزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عندها فأعجب النبى عليه الصلاة والسلام ظرفه فاستوهبه (١) منها. فقالت أهبه لك فان أردت عتقه فالولاء لى فأبى عليها عليه الصلاة والسلام فأوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك قال : فشب عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم انه خرج فى ابل لأبى طالب بأرض الشام فمر بأرض قومه فعرفه عمه فقام اليه فقال : من أنت ياغلام ؟ قال : غلام من أهل مكة قال : من أنفسهم ؟ قال : لا قال : فحر أنت أم مملوك قال: بل مملوك قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب فقال له : أعرابى أنت أم عجمى ؟ قال : عربى قال: ممن أهلك ؟ قال : من كلب قال : من أى كلب؟ قال: من بنى عبد ود قال: ويحك ابن من أنت؟ قال. ابن حارثة بن شراحيل قال : وأين أصبت؟ قال: فى اخوالى قال: ومن أخوالك؟ قال طى قال. ما اسم أمك ؟ قال: سعدى فالتزمه وقال: ابن حارثة ودعا أباه فقال : ياحارثة هذا ابنك فأتاه حارثة فلما نظر اليه عرفه قال: كيف صنع مولاك اليك؟ قال: يؤثرنى على أهله وولده فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة فلقوا رسول الله ﷺ فقال له حارثة : يامحمد أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير ابنى عندك فامنن علينا وأحسن الينا فى فدائه فانك ابن سيد قومه وإنا سنرفع اليك فى الفداء ما أحببت فقال له رسول الله ﷺ: أعطيكم خيرا من ذلك قالوا: وما هو؟ قال أخيره فان اختاركم فخذوه بغير فداء وان اختارنى فكفوا عنه فقال: جزاك الله تعالى خيرا فقد أحسنت فدعاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا زيد أتعرف هؤلاء ؟ قال : نعم هذا أبى وعمى وأخى فقال عليه الصلاة والسلام: فهم من قد عرفتهم فان اخترتهم فاذهب معهم وإن اخترتنى فأنا من تعلم قال له زيد : ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا أنت معى بمكان الوالد والعم قال أبوه وعمه : ايا زيد أتختار العبودية ؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه عليه قال: اشهدوا انه حر وانه ابنى يرثنى وأرثه فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه عليه الصلاة والسلام فلم يزل فى الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم) فدعى زيد بن حارثة ، وفى بعض

(١) يروى أنه كان ابن ثمان حين وهب اه منه ◙

الروايات أن أباه سمع أنه بمكة فأتاه هو وعمه وأخوه فكان ما كان ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ تعليل للامر والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى: (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ، و(أقسط) أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل والمراد به البالغ فى الصدق فاندفع مايتوهم من أن المقام يقتضى ذكر الصدق لاالعدل أى دعاؤكم اياهم لآبائهم بالغ فى العدل والصدق وزائد فيه فى حكم الله تعالى وقضائه عز وجل *

وجوز أن يكون أفعل على ماهو الشائع فيه، والمعنى أعدل مما قالوه ويكون جعله ذا عدل مع أنه زور لا عدل فيه أصلا على سبيل التهكم ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ﴾ أى تعرفوا ﴿ ءَابَاءَهُمْ ﴾ فتنسبوهم اليهم ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم اخوانكم ﴿ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ أى وأولياؤكم فيه فادعوهم بالأخوة والمولوية بتأويلهما بالأخوة والولاية فى الدين ، وبهذا المعنى قيل لسالم بعد نزول الآية مولى حذيفة وكان قد تبناه قبل ، وقيل : (مواليكم) أى بنو أعمامكم ، وقيل : معتقوكم ومحرروكم وكأن دعاءهم بذلك لتطييب قلوبهم ولذا لم يؤمر بدعائهم بأسمائهم فقط *

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ أى اثم ﴿ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ أى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهى ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أى ولكن الجناح والاثم فيما تعمدتموه بعد النهى على أن (ما) فى محل الجر عطفا على ما من (فيما أخطأتم) وتعقب بأن المعطوف المجرور لا يفصل بينه وبين ما عطف عليه، ولذا قال سيبويه فى قولهم ما مثل عبد الله يقول ذلك ولا أخيه : إنه حذف المضاف من جهة المعطوف وأبقى المضاف اليه على اعرابه والاصل ولا مثل اخيه ليكون العطف على المرفوع. وأجيب بالفرق بين ما هنا والمثال وان لا فصل فيه لان المعطوف هو الموصول مع صلته أعنى ما تعمدت على مثله أعنى ما أخطأتم أو ولكن ماتعمدتم فيه الجناح على أن ما فى موضع رفع على الابتداء وخبره جملة مقدرة، ونسبة التعمد الى القلوب على حد النسبة فى قوله تعالى: (فانه آثم قلبه) وكون المراد فى الأول قبل النهى وفى الثانى بعده أخرجه الفريابى. وابن أبى شيبة. وابن جرير. وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن مجاهد، وقيل : كلا الامرين بعد النهى والخطأ مقابل العمد ، والمعنى لا اثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يابنى على سبيل الخطأ وعدم التعمد كأن سهوتم أو سبق لسانكم ولكن الاثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين. وأخرج ابن جرير. وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى الآية: لو دعوت رجلا لغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه *

وجوز أن يراد بقوله تعالى: (وليس عليكم جناح) الخ العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم لحديث عائشة (١) رضى الله تعالى عنها قالت : «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انى لست أخاف عليكم الخطأ ولكن أخاف عليكم العمد» وحديث ابن عباس (٢) قال : «قال عليه الصلاة والسلام وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» ثم تناوله لعمومه خطأ التبنى وعمده، والجملة على تقديرى الخصوص والعموم واردة على سبيل الاعتراض التذييلى تأكيداً لامتثال ما ندبوا اليه مع ادماج حكم مقصود فى نفسه ، وجعلها بعضهم عطفا مؤولا بجملة طلبية على معنى ادعوهم لآبائهم هو أقسط لكم ولا تدعوهم لأنفسكم متعمدين

(١) أخرجه ابن مردويه اه منه (٢) اخرجه ابن ماجه اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

فتأثموا على تقدير الخصوص وجملة مستطردة على تقدير العموم وتعقب بانه تكلف عنه مندوحة، وظاهر الاية حرمة تعمد دعوة الانسان لغير أبيه، ولعل ذلك فيما إذا كانت الدعوة على الوجه الذى كان فى الجاهلية، وأما إذا لم تكن كذلك كما يقول الكبير للصغير على سبيل التحنن والشفقة يا ابنى وكثيرا ما يقع ذلك فالظاهر عدم الحرمة ه

وفى حواشى الخفاجى على تفسير البيضاوى النبوة وان صح فيها التأويل كالاخوة لكن نهى عنها بالتشبيه بالكفرة والنهى للتنزيه انتهى، ولعله لم يرد بهذا النهى ما تدل عليه الآية المذكورة فان ماتدل عليه نهى التحريم عن الدعوة على الوجه الذى كان فى الجاهلية، والأولى ان يقال فى تعليل النهى: سدا لباب التشبه بالكفرة بالكلية، وهذا الذى ذكره الخفاجى من كراهة قول الشخص لولد غيره ياابنى حكاه لى من ارتضيه عن فتاوى ابن حجر الكبرى، وحكم التبنى بقوله: هو ابنى ان كان عبدا للقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثله ولم يقر قبله بنسب من غيره، وعند الشافعى لا عبرة بالتبنى فلا يفيد العتق ولا ثبوت النسب، وتحقيق ذلك فى موضعه، ثم الظاهر أنه لافرق إذا لم يعرف الأب بين ان يقال يا أخى وان يقال يا مولاى فى ان كلا منهما مباح مطلقا حينئذ لكن صرح بعضهم بحرمة أن يقال للفاسق يا مولاى لخبر فى ذلك، وقيل: لما ان فيه تعظيمه وهو حرام، ومقتضاه ان قول يا اخى إذا كان فيه تعظيم بأن كان من جليل الشأن حرام أيضا، فلعل الدعاء لغير معروف الأب بما ذكر مخصوص بما إذا لم يكن فاسقا ودليل التخصيص هو دليل حرمة تعظيم الفاسق فتدبر، وكذا الظاهر أنه لافرق فى أمر الدعوة بين كون المدعو ذكرا وكونه انثى لكن لم نقف على وقوع التبنى للاناث فى الجاهلية والله تعالى اعلم ﴿وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً﴾ فيغفر للعامد إذا تاب ﴿رَحِيمًا ه﴾ ولذا رفع سبحانه الجناح عن المخطىء، ويعلم من الآية انه لا يجوز انتساب الشخص الى غير أبيه، وعد ذلك بعضهم من الكبائر لما أخرج الشيخان. وابو داود عن سعد بن أبى وقاص ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير أبيه فالجنة عليه حرام» ه

وأخرج الشيخان أيضا «من ادعى الى غير أبيه أو انتمى الى غير مواليه فعليه لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا» وأخرجا أيضا «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم الا كفر» ه

وأخرج الطبرانى فى الصغير من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وحديثه حسن قال: «قال رسول الله ﷺ كفر من تبرأ من نسب وأن دق أو ادعى نسبا لا يعرف» إلى غير ذلك من الاخبار، هذا ومناسبة قوله تعالى: (ماجعل الله) الخ لما قبله أنه شروع فى ذكر شىء من الوحى الذى أمر ﷺ فى اتباعه كذا قيل، وقيل: إنه تعالى لما أمر بالتقوى كان من حقها أن لا يكون فى القلب تقوى غير الله تعالى فان المرء ليس له قلبان يتقى باحدهما الله تعالى وبالآخر غيره سبحانه الا بصرف القلب عن جهة الله تعالى إلى غيره جل وعلا ولا يليق ذلك بمن يتقى الله تعالى حق تقاته، وعن أبى مسلم أنه متصل بقوله تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين) حيث جىء به للرد عليهم، والمعنى ليس لأحد قلبان يؤمن باحدهما ويكفر بالآخر وإنما هو قلب واحد فاما أن يؤمن واما أن يكفر، وقيل: هو متصل بلا تطع واتبع والمعنى أنه لا يمكن الجمع بين اتباعين متضادين اتباع الوحى والقرآن

www.Quranpdf.blogspot.in

واتباع أهل الكفر والطغيان فكنى عن ذلك بذكر القلبين لأن الاتباع يصدر عن الاعتقاد وهو من أفعال القلوب فكما لا يجمع قلبان فى جوف واحد لايجمع اعتقادان متضادان فى قلب واحد ، وقيل : هو متصل بقوله تعالى : (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) من حيث أنه مشعر بوحدته عز وجل فكأنه قيل: وتوكل على الله وكفى به تعالى وكيلا فانه سبحانه وتعالى وحده المدبر لأمور العالم، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أن أمر الرجل الواحد لاينتظم ومعه قلبان فكيف تنتظم أمور العالم وله إلهان ، وقيل : إن ذلك مسوق للتنفير عن اطاعة الكفرة والمنافقين بحكاية أباطيلهم ، وذكر أن قوله تعالى: (ماجعل) الخ ضرب مثلا للظهار والتبنى أى كما لايكون لرجل قلبان لاتكون المظاهرة أما والمتبنى ابنا، وجعل المذكورات الثلاث بجملتها مثلا فيما لاحقيقة له وارتضى ذلك غير واحد ، وقال الطيبى: إن هذا أنسب لنظم القرآن لأنه تعالى نسق المنفيات الثلاث على ترتيب واحد ، وجعل سبحانه قوله جل وعلا: (ذلكم) فذلكة لها ثم حكم تعالى بأن ذلك قول لاحقيقة له، ثم ذيل سبحانه وتعالى الكل بقوله تعالى: (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) وتعقبه فى الكشف بأن سبب النزول وقوله سبحانه بعد التذييل (ادعوهم لآبائهم) الآية شاهدا صدق بأن الأول مضروب للتبنى ثم انهم ماكانوا يجعلون الازواج أمهات بل كانوا يجعلون اللفظ طلاقا فادخاله فى قرن مسئلة التبنى استطرادا هو الوجه لا أنه قول لاحقيقة له كالاول *

وانتصر الخفاجى للجماعة فقال : لوكان مثلا للتبنى نقط لم يفصل منه ، وكون القلبين لرجل وجعل المتبنى ابنا فى جميع الاحكام مما لاحقيقة له فى نفس الامر ولا فى شرع ظاهر، وكذا جعل الازواج كالامهات فى الحرمة المؤبدة مطلقا من مخترعاتهم التى لم يستندوا فيها إلى مستند شرعى فلاحقيقة له أيضا فما ادعاه غير وارد عليهم لاسيما مع مخالفته لما روى عنهم انتهى، ويد الله تعالى مع الجماعة، وبين الطيبى نظم الآيات من مفتتح السورة إلى ههنا فقال: إن الاستهلال بقوله تعالى: (ياأيها النبى اتق الله) دال على أن الخطاب مشتمل على التبنية على أمر معتنى بشأنه، لائح فيه معنى التهييج والالهاب ، ومن ثم عطف عليه (ولاتطع) كما يعطف الخاص على العام وأردف النهى بالامر على نحو قولك لاتطع من يخذلك واتبع ناصرك. ولا يبعد أن يسمى بالطرد والعكس، ثم أمر بالتوكل تشجيعا على مخالفة أعداء الدين والالتجاء إلى حريم جلال الله تعالى ليكفيه شرورهم، ثم عقب سبحانه كلا من تلك الاوامر على سبيل التتميم والتذييل بما يطابقه، وعلل قوله تعالى (ولاتطع الكافرين والمنافقين) بقوله سبحانه وتعالى (إن الله كان عليما حكيما) تتميما للارتداع أى اتق الله فيما تأتى وتذر فى سرك وعلانيتك لأنه تعالى عليم بالاحوال كلها يجب أن يحذر من سخطه حكيم لايحب متابعة حبيبه أعداءه، وعلل قوله تعالى: (واتبع مايوحى اليك من ربك) بقوله تعالى: (إن الله كان بما تعملون خبيرا) تتميما أيضا أى اتبع الحق ولاتتبع أهواءهم الباطلة وآراءهم الزائغة لان الله تعالى يعلم عملك وعملهم فيكافىء كلا مايستحقه، وذيل سبحانه وتعالى قوله تبارك وتعالى: (وتوكل على الله) بقوله تعالى: (وكفى بالله وكيلا) تقريرا وتوكيدا على منوال فلان ينطق بالحق والحق أبلج يعنى من حق من يكون كافيا لكل الامور أن تفوض الامور اليه وتوكل عليه ، وفصل قوله تعالى: (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) على سبيل الاستئناف تنبيها على بعض من أباطيلهم وتمحلاتهم ، وقوله تعالى (ذلكم قولكم) الخ فذلكة لتلك الاقوال آذنت بأنها جديرة بأن يحكم عليها بالبطلان وحقيق بأن يذم قائلها فضلا عن أن يطاع، ثم وصل تعالى (والله يقول الحق) الخ على هذه الفذلكة بجامع التضاد على منوال ماسبق فى (ولا تطع واتبع) وفصل قوله تعالى: (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وقوله تعالى: (النبى) الخ وهلم جرا إلى آخر السورة تفصيلا لقول الحق والاهتداء إلى

www.Quranpdf.blogspot.in

السبيل القويم انتهى فتأمل ولا تغفل ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أحق وأقرب اليهم ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أو أشد ولاية ونصرة لهم منها فانه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم ولا يرضى منهم الا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فانها اما أمارة بالسوء وحالها ظاهر أو لا فقد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها بعض المنافع وأطلقت الاولوية ليفيد الكلام أولويته عليه الصلاة والسلام فى جميع الامور ويعلم من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أولى بهم من انفسهم كونه عليه الصلاة والسلام أولى بهم من كل من الناس ، وقد اخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عنه ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن الا وانا اولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا (١) فليأتنى فانا مولاه» ولا يلزم عليه كون الأنفس هنا مثلها فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا أنفسكم) لأن إفادة الآية المدعى على الظاهر ظاهرة أيضا ، وإذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المثابة فى حق المؤمنين يجب عليهم أن يكون أحب اليهم من أنفسهم وحكمه عليه الصلاة والسلام عليهم أنفذ من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وسبب نزول الآية على ماقيل ما روى من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت، ووجه دلالتها على السبب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كان أولى من أنفسهم فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى ولا حاجة إلى حمل أنفسهم عليه على خلاف المعنى المتبادر كما أشرنا اليه آنفا ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى منزلات منزلة أمهاتهم فى تحريم النكاح واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك من النظر اليهن والخلوة بهن وارثهن ونحو ذلك فهن كالأجنبيات، وفرع على هذا القسطلانى فى المواهب انه لا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين فى الأصح، والطبرسى وهو شيعى انه لا يقال لإخوانهن أخوال المؤمنين، ولا يخفى أنه يسر حسوا بارتغاء، وفى المواهب أن فى جواز النظر اليهن وجهين أشهرهما المنع، ولكون وجه الشبه مجموع ماذكر قالت عائشة رضى الله تعالى عنها لامرأة قالت لها يا أمه: أنا أم رجالكم لا أم نسائكم أخرجه ابن سعد . وابن المنذر . والبيهقى فى سننه عنها ، ولا ينافى هذا استحقاق التعظيم منهن أيضا ۞

وأخرج ابن سعد عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أنها قالت أنا أم الرجال منكم والنساء. وعليه يكون ماذكر وجه الشبه بالنسبة إلى الرجال وأما بالنسبة إلى النساء فهو استحقاق التعظيم ، والظاهر أن المراد من أزواجه كل من أطلق عليها أنها زوجة له صلى الله تعالى عليه وسلم من طلقها ومن لم يطلقها ، وروى ذلك ابن أبى حاتم عن مقاتل فيثبت الحكم لكلهن وهو الذى نص عليه الامام الشافعى وصححه فى الروضة ، وقيل : لا يثبت الحكم لمن فارقها عليه الصلاة والسلام فى الحياة كالمستعيذة والتى رأى بكشحها بياضا، وصحح أمام الحرمين. والرافعى فى الصغير تحريم المدخول بها فقط لما روى أن الاشعث بن قيس نكح المستعيذة فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه فهم عمر برجمه فأخبره انها لم تكن مدخولا بها فكف، وفى رواية أنه رضى الله تعالى عنه هم برجمها فقالت له : ولم هذا ؟ وماضرب على حجاب ولا سميت للمسلمين أما فكف عنها ، وذكر فى المواهب ان فى حل من اختارت منهن الدنيا للازواج طريقين. أحدهما طرد الخلاف والثانى القطع بالحل ، واختار هذا الامام

(١) أى عيالا ضياعا اه منه ۞

www.Quranpdf.blogspot.in

والغزالى، وحكى القول بأن المطلقة لا يثبت لها هذا الحكم عن الشيعة، وقد رأيت فى بعض كتبهم نفى الأمومة عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالوا: لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فوض إلى على كرم الله تعالى وجهه أن يبقى من يشاء من أزواجه ويطلق من يشاء منهن بعد وفاته وكالة عنه عليه الصلاة والسلام وقد طلق رضى الله تعالى عنه عائشة يوم الجمل فخرجت عن الازواج ولم يبق لها حكمهن وبعد أن كتبت هذا اتفق لى ان نظرت فى كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحرانى عليه من الله تعالى مايستحق فى مثالب جمع من الصحابة حاشى رضى الله تعالى عنهم فرأيت مانصه :

روى أبو منصور احمد بن أبى طالب الطبرسى فى كتاب الاحتجاج عن سعد بن عبدالله انه سأل القائم المنتظر وهو طفل فى حياة أبيه فقال له يامولانا وابن مولانا روى لنا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل طلاق نسائه إلى أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه حتى انه بعث فى يوم الجمل رسولا إلى عائشة وقال: انك أدخلت الهلاك على الاسلام وأهله بالغش الذى حصل منك وأوردت أولادك فى موضع الهلاك بالجهالة فان امتنعت وإلا طلقتك فاخبرنا يامولانا عن معنى الطلاق الذى فوض حكمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أمير المؤمنين فقال : ان الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فخصهن بشرف الامهات فقال عليه الصلاة والسلام : ياأبا الحسن انهذا الشرف باق مادمنا على طاعة الله تعالى فأيتهن عصت الله تعالى بعدى بالخروج عليك فطلقها من الازواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين، ثم قال: وروى الطبرسى أيضاً فى الاحتجاج عن الباقر انه قال: لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال على كرم الله تعالى وجهه: والله ماأرانى إلا مطلقها فأنشد الله تعالى رجلا سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: ياعلى أمر نسائى بيدك من بعدى لما قام فشهد فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا بذلك الحديث ، ورأيت فى بعض الاخبار التى لاتحضرنى الآن ما هو صريح فى وقوع الطلاق اه ماقاله البحرانى عامله الله تعالى بعدله . وهذا لعمرى من السفاهة والوقاحة والجسارة على الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكان وبطلانه أظهر من أن يخفى وركاكة ألفاظه تنادى على كذبه بأعلى صوت ولا أظنه قولا مرضيا عند من له أدنى عقل منهم فلعن الله تعالى من اختلقه وكذا من يعتقده، وأخرج الفريابى. والحاكم. وابن مردويه. والبيهقى فى سننه عن ابن عباس انه كان يقرأ (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم) وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قال: كان فى الحرف الأول (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم) وفى مصحف أبى رضى الله تعالى عنه كما روى عبدالرزاق. وابن المنذر. وغيرهما (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وإطلاق الأب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه سبب للحياة الأبدية كما ان الأب سبب للحياة أيضاً بل هو عليه الصلاة والسلام أحق بالأبوة منه وعن مجاهد كل نبى أب لأمته، ومن هنا قيل فى قول لوط هؤلاء بناتى انه أراد المؤمنات ووجهه ماذكر، ويلزم من هذه الابوة على ماقيل إخوة المؤمنين*

ويعلم مما روى عن مجاهد ان الابوة ليست من خصوصياته عليه الصلاة والسلام وهذا ليس كأمومة أزواجه فانها على مافى المواهب من الخصوصيات فلا يحرم نكاح أزواج من عداه صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام من بعدهم على أحد من أممهم ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ أى ذوو القرابات الشاملون للعصبات

www.Quranpdf.blogspot.in

لاما يقابلهم ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ فى النفع بميراث وغيره من النفع المالى أو فى التوارث ويؤيده سبب النزول الآتى ذكره ﴿ فِى كِتَابِ اللهِ ﴾ أى فيما كتبه فى اللوح أو فيما انزله وهى آية المواريث او هذه الآية أو فيما كتبه سبحانه وفرضه وقضاه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ صلة لأولى فمدخول (من) هو المفضل عليه وهى ابتدائية مثلها فى قولك : زيد أفضل من عمرو أى أولو الأرحام بحق القرابة أولى فى كل نفع أو بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة ، وقال الزمخشرى : يجوز أن يكون بيانا لأولو الأرحام أى الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب، والأول هو الظاهر، وكان فى المدينة توارث بالهجرة وبالموالاة فى الدين فنسخ ذلك بآية آخر الأنفال أو بهذه الآية ، وقيل: بالاجماع وأرادوا كشفه عن الناسخ وإلا فهو لايكون ناسخا كما لايخفى، ورفع (بعضهم) يجوز أن يكون على البدلية وأن يكون على الابتداء و (فى كتاب) متعلق بأولى ويجوز أن يكون حالا والعامل فيه معنى (أولى) ولا يجوز على ما قال أبو البقاء ان يكون حالا من (أولو) للفصل بالخبر ولأنه لاعامل إذاً، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ إما استثناء متصل من أعم ما تقدر الأولوية فيه من النفع كأنه قيل: القريب أولى من الأجنبى من المؤمنين والمهاجرين فى كل نفع من ميراث وصدقة وهدية ونحو ذلك إلا فى الوصية فانها المرادة بالمعروف فالاجنبى أحق بها من القريب الوارث فانها لا تصح لوارث ، واما استثناء منقطع بناء على ان المراد بما فيه الأولوية هو التوارث فيكون الاستثناء من خلاف الجنس المدلول عليه بفحوى الكلام كأنه قيل: لاتورثوا غير أولى الأرحام لكن فعلكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفا وهو ان توصوا لمن احببتم منهم بشىء جائز فيكون ذلك له بالوصية لا بالميراث ، ويجوز أن يكون المعروف عاما لما عدا الميراث، والمتبادر إلى الذهن انقطاع الاستثناء واقتصر عليه أبو البقاء ومكى. وكذا الطبرسى وجعل المصدر مبتدأ محذوف الخبر كما أشرنا اليه .

وتفسير الأولياء بمن كان من المؤمنين والمهاجرين هو الذى يقتضيه السياق فهو من وضع الظاهر موضع الضمير بناء على ان (من) فيما تقدم للابتداء لا للبيان، وأخرج ابن جرير. وغيره عن مجاهد تفسيره بالذين والى بينهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المهاجرين والانصار، وأخرج ابن المنذر. وابن جرير. وابن أبى حاتم. عن محمد بن الحنفية أنه قال: نزلت هذه الآية فى جواز وصية المسلم لليهودى والنصرانى، وأخرجوا عن قتادة انه قال: الأولياء القرابة من أهل الشرك والمعروف الوصية ، وحكى فى البحر عن جماعة منهم الحسن. وعطاء ان الأولياء يشمل القريب والأجنبى المؤمن والكافر وأن المعروف أعم من الوصية . وقد أجازها للكافر القريب وكذا الأجنبى جماعة من الفقهاء والامامية يجوزونها لبعض ذوى القرابة الكفار وهم الوالدان والولد لاغير، والنهى عن اتخاذ الكفار أولياء لايقتضى النهى عن الاحسان اليهم والبر لهم. وعدى (تفعلوا) بالى لتضمنه معنى الايصال والاسداء كأنه قيل: إلا أن تفعلوا مسدين إلى أوليائكم معروفا ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى ما ذكر فى الآيتين أعنى (أدعوهم لآبائهم والنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وجوز أن يكون إشارة إلى ما سبق من أول السورة إلى هنا أو إلى مابعد قوله تعالى: (ماجعل الله لرجل من قلبين) أو إلى ما ذكر فى الآية الأخيرة وفيه بحث ﴿ فِى الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللوح أو القرآن وقيل فى التوراة ﴿ مَسْطُورًا ٦ ﴾ أى مثبتا بالاسطار وعن

www.Quranpdf.blogspot.in

قتادة انه قال في بعض القراءات : كان ذلك عند الله مكتوبا ان لايرث المشرك المؤمن فلا تغفل *

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ مقدر باذكر على انه مفعول لا ظرف لفساد المعنى ، وهو معطوف على ماقبله عطف القصة على القصة او على مقدر كخذ هذا ، وجوز ان يكون ذلك عطفا على خبر كان وهو بعيد وان كان قريبا ، ولما كان ماسبق متضمنا احكاما شرعها الله تعالى وكان فيها اشياء مما كان في الجاهلية واشياء مما كان في الاسلام ابطلت و نسخت اتبعه سبحانه بما فيه حث على التبليغ فقال عز وجل: (وإذ) الخ اى واذكر وقت اخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والشرائع والدعاء إلى الدين الحق وذلك على ما قال الزجاج وغيره وقت استخراج البشر من صلب آدم عليه السلام كالذر ، واخرج ابن جرير. وابن أبي حاتم عن قتادة انه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم بتصديق بعضهم بعضا واتباع بعضهم بعضا ، وفى رواية اخرى عنه انه اخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضا والاعلان بأن محمداً رسول الله وإعلان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا نبي بعده ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراجا بينا للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع *

واشتهر انهم هم أولو العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين وأخرج البزار عن أبي هريرة أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام ، وتقديم نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه آخرهم بعثة للايذان بمزيد خطره الجليل أو لتقدمه فى الخلق ، فقد أخرج ابن أبي عاصم. والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب مرفوعا بدئ بي الخلق وكنت آخرهم فى البعث ، واخرج جماعة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث ، وكذا فى الاستنباء فقد جاء فى عدة روايات انه عليه الصلاة والسلام قال: « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل يارسول الله متى أخذ ميثاقك ؟ قال: وآدم بين الروح والجسد ، ولايضر فيما ذكر تقديم نوح عليه السلام فى آية الشورى اعنى قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا) الآية إذ لكل مقام مقال والمقام هناك وصف دين الاسلام بالاصالة والمناسب فيه تقديم نوح فكأنه قيل: شرع لكم الدين الاصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم وبعث عليه محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء فى العهد الحديث وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير ، وقال ابن المنير: السر فى تقديمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه هو المخاطب والمنزل عليه هذا المتلو فكان أحق بالتقديم ، وفيه بحث ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧ ﴾ أى عهد عظيم الشأن أو وثيقا قويا وهذا هو الميثاق الاول واخذه هو اخذه ، والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى: (ونجيناهم من عذاب غليظ) اثر قوله سبحانه :(فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه) وفى ذلك من تفخيم الشأن مافيه ولهذا لم يقل عز وجل: وإذ أخذنا من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ميثاقا غليظا مثلا ، وقال سبحانه مافى النظم الكريم ، وقيل: الميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى فيكون بعد ما اخذ الله سبحانه من النبيين الميثاق بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الحق اكد باليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا فالميثاقان متغايران بالذات ، وقوله عز وجل: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

قيل متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان علة الأخذ المذكور وغايتــــه أي فعل الله تعالى ذلك ليسأل الخ وقيل: متعلق بأخذنا، وتعقب بأن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان علته وغايته بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى الغيبة، والمراد بالصادقين النبيون الذين أخذ ميثاقهم ووضع موضع ضميرهم للايذان من أول الامر بأنهم صادقوا فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه أي ليسأل الله تعالى يوم القيامة النبيين الذين صدقوا عهودهم عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم أو عن تصديق أقوامهم اياهم. وسؤالهم عليهم السلام عن ذلك على الوجهين لتبكيت الكفرة المكذبين كما في قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) او المراد بهم المصدقون بالنبيين، والمعنى ليسأل المصدقين للنبيين عن تصديقهم اياهم فيقال: هل صدقتم؟ وقيل: يقال لهم هل كان تصديقكم لوجه الله تعالى؟ ووجه ارادة ذلك ان مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق، وقيل: المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم، وتعقب بأنه يأباه مقام تذكير ميثاق النبيين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾ قيل عطف على فعل مضمر متعلقا فيما قبل، وقيل: على مقدر دل عليه (ليسأل) كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الخ، وقيل: على (أخذنا) وهو عطف معنوي كأنه قيل: أكد الله تعالى على النبيين الدعوة الى دينه لأجل اثابة المؤمنين وأعد للكافرين الخ، وقيل: على (يسأل) بتأويله بالمضارع ولابد من ملاحظة مناسبة ليحسن العطف، وقيل: على مقدر وفي الكلام الاحتباك والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد لهم ثوابا عظيما ويسأل الكاذبين عن كذبهم وأعد لهم عذابا أليما فحذف من كل منهما ما ثبت في الآخر، وقيل: إن الجملة حال من ضمير (يسأل) بتقدير قد أو بدونه، ولا يخفى أقلها تكلفا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ شروع في ذكر قصة الاحزاب وهي وقعة الخندق، وكانت على ما قال ابن إسحق في شوال سنة خمس، وقال مالك: سنة أربع * والنعمة ان كانت مصدرا بمعنى الانعام فالجار متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف وقع حالا منها أي كائنة عليكم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم، وقيل: منصوب باذكر على أنه بدل اشتمال من (نعمة) والمراد بالجنود الاحزاب، وهم قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الاعور السلمي، وبنو النضير رؤساؤهم حيي بن اخطب وابناء ابي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه بسعي حيي، وكان مجموعهم عشرة آلاف في قول وخمسة عشر ألفا في آخر، وقيل: زهاء اثني عشر ألفا، فلما سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باقبالهم حفر خندقا قريبا من المدينة محيطا بها باشارة سلمان الفارسي أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة، ثم خرج عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فدفعوا في الآطام، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق كما قص الله تعالى، ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبل والحجارة من وراء الخندق إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وكان يعد بالف فارس. وعكرمة ابن أبي جهل. وضرار بن الخطاب. وهبيرة بن أبي وهب. ونوفل بن عبد الله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا ضيقا فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع فخرج علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في نفر من المسلمين رضي الله تعالى عنهم حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فاقبلت

www.Quranpdf.blogspot.in

الفرسان معهم وقتل على كرم الله تعالى وجهه عمرا فى قصة مشهورة فانهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار . ونوفل بن عبد العزى ، وقيل : وجد نوفل فى جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة اجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام ٭

وذكر ابن إسحق أن عليا كرم الله تعالى وجهه طعنه فى ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات فى الخندق وبعث المشركون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبى عليه الصلاة والسلام : هو لكم لانأكل ثمن الموتى ، ثم أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ عطف على (جاءتكم) مسوق لبيان النعمة اجمالا وسيأتى إن شاء الله تعالى بقيتها فى آخر القصة ٭

﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا على ما قيل ألفا ، روى أن الله تعالى بعث عليهم صبا باردة فى ليلة باردة فاخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة عليهم السلام فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب وأطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدى : أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا ، وقال حذيفة رضى الله تعالى عنه وقد ذهب ليأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخبر القوم . خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد واذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل لامقام لكم واذا الرجل فى عسكرهم مايجاوز عسكرهم شبرا فوالله انى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم والريح تضربهم ثم خرجت نحو النبى عليه الصلاة والسلام فلما صرت فى نصف الطريق أو نحو ذلك اذا أنا بنحو عشرين فارسا متعممين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ٭

وقرأ الحسن (وجنودا) بفتح الجيم ، وقرأ أبو عمرو فى رواية . وأبو بكر فى رواية أيضا (لم يروها) بياء الغيبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب أعلاء لكلمة الله تعالى ، وقيل : من التجائكم اليه تعالى ورجائكم من فضله عز وجل ٭

وقرأ أبو عمرو (يعملون) بياء الغيبة أى بما يعمله الكفار من التحزب والمحاربة وإغراء بعضهم بعضا عليها حرصا على إبطال حقكم ، وقيل : من الكفر والمعاصى ﴿ بَصِيرًا ٩ ﴾ ولذلك فعل مافعل من نصركم عليهم ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ ﴾ بدل من (إذ جاءتكم) بدل كل من كل ، وقيل : هو متعلق بتعملون أو بصيرا ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادى من جهة المشرق والاضافة اليهم لأدنى ملابسة ، والجائى من ذلك بنو غطفان . ومن تابعهم من أهل نجد . وبنو قريظة . وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب ، والجائى من ذلك قريش ومن شايعهم من الأحابيش . وبنى كنانة . وأهل تهامة ، وقيل : الجائى من فوق بنو قريظة . ومن أسفل قريش . وأسد . وغطفان . وسليم ، وقيل : غير ذلك ويحتمل أن يكون من فوق ومن أسفل كناية عن الاحاطة من جميع الجوانب كأنه قيل : إذ جاءوكم محيطين

www.Quranpdf.blogspot.in

بكم كقوله تعالى : (يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ عطف على ١٠
قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت الابصار عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة •

وقال الفراء : أى حين مالت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أى
خافت خوفا شديدا وفزعت فزعا عظيما لانها تحركت عن موضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج •

أخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة أنه قال فى الآية : إن القلوب لو تحركت وزالت خرجت نفسه ولكن
إنما هو الفزع فالكلام على المبالغة ، وقيل : القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقاص فيلتصق
بالحنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مخرج النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس ويموت خوفا ، وقيل : إن الرئة
تنتفخ من شدة الفزع والغضب والغم الشديد وإذا انتفخت ربت وارتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة،
ومن ثم قيل للجبان : انتفخ سحره ، وإلى حمل الكلام على الحقيقة ذهب قتادة •

أخرج عنه عبد الرزاق . وابن المنذر . وابن أبى حاتم أنه قال فى الآية : أى شخصت عن مكانها فلولا
أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت ، وفى مسند الامام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قلنا يارسول الله
هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا قال : فضرب
الله تعالى وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله تعالى بالريح ، والخطاب فى قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠ ﴾
لمن يظهر الايمان على الاطلاق ، والظنون جمع الظن وهو مصدر شامل للقليل والكثير ، وإنما جمع للدلالة على
تعدد أنواعه ، وقد جاء كذلك فى أشعارهم أنشد أبو عمرو فى كتاب الألحان :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة فيظن المخلصون منكم الثابتون فى ساحة الايمان أن ينجز
سبحانه وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويعرب عن ذلك ماسيحكى عنهم من
قولهم : (هذا ماوعدنا الله ورسوله) الآية ، أو أن يمتحنهم فيخافون ان تزل أقدامهم فلا يتحملون مانزل بهم،
وهذا لاينافى الاخلاص والثبات كما لا يخفى ، ويظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماحكى عنهم فى قوله
تعالى : (وإذ يقول المنافقون) الآية . وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن الحسن انه قال فى الاية : ظنون
مختلفة ظن المنافقون أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله
ورسوله حق وأنه سيظهر على الدين كله ، وقد يختار أن الخطاب للمؤمنين ظاهرا وباطنا واختلاف ظنونهم
بسبب أنهم يظنون تارة أن الله سبحانه سينصرهم على الكفار من غير أن يكون لهم استيلاء عليهم أولا ،
وتارة أنه عز وجل سينصر الكفار عليهم فيستولون على المدينة ثم ينصرهم عليهم بعد ، وأخرى أنه سبحانه
سينصر الكفار بحيث يستأصلونهم وتعود الجاهلية ، أو بسبب أن بعضهم يظن هذا وبعضهم يظن ذاك وبعضهم
يظن ذلك . ويلتزم أن الظن الذى لايليق بحال المؤمن كان من خواطر النفس التى أوجبها الخوف الطبيعى
ولم يمكن البشر دفعها ومثلها عفو ، أو يقال : ظنونهم المختلفة هى ظن النصر بدون نيل العدو منهم شيئا وظنه
بعد النيل وظن الامتحان وعلى هذا لا يحتاج الى الاعتذار ، وأياما كان فالجملة معطوفة على (زاغت)وصيغة
المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ، وكتب (الظنونا) وكذا أمثاله من المنصوب المعرف

www.Quranpdf.blogspot.in

بأل كالسبيلا والرسولا فى المصحف بالف فى آخره ، فحذفها أبو عمرو وقفا ووصلا ، وابن كثير . والكسائى وحفص يحذفونها وصلا خاصة ويثبتها باقى السبعة فى الحالين . واختار أبو عبيد . والحذاق أن يوقف على نحو هذه الكلمة بالألف ولا توصل فتحذف أو تثبت لأن حذفها مخالف لما اجتمعت عليه مصاحف الامصار ولأن اثباتها فى الوصل معدوم فى لسان العرب نظمهم ونثرهم لافى اضطرار ولا فى غيره ، أما اثباتها فى الوقف ففيه اتباع الرسم وموافقة لبعض مذاهب العرب لأنهم يثبتون هذه الالف فى قوافى أشعارهم ومصاريعها ومن ذلك قوله : ه أقلى اللوم عاذل والعتابا ه (١) والفواصل فى الكلام كالمصاريع ، وقال أبو على : إن رؤس الآى تشبه بالقوافى من حيث كانت مقاطع كما كانت القوافى مقاطع ﴿ هُنَالِكَ ﴾ ظرف مكان ويستعمل للزمان وقيل : إنه مجاز وهو أنسب هنا ، وأياما كان فهو ظرف لما بعده لا لتظنون كما قيل أى فى ذلك الزمان الهائل أو فى ذلك المكان المدحض ﴿ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى اختبرهم الله تعالى ، والكلام من باب التمثيل ، والمراد عاملهم سبحانه وتعالى معاملة المختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل ، وابتلاؤهم على ماروى عن الضحاك بالجوع ، وعلى ما روى عن مجاهد بشدة الحصار ، وعلى ماقيل بالصبر على الايمان ه

﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١ ﴾ أى اضطربوا اضطرابا شديدا من شدة الفزع وكثرة الاعداء ، وعن الضحاك أنهم زلزلوا عن أماكنهم حتى لم يكن لهم الا موضع الخندق ، وقيل : أى حركوا الى الفتنة فعصموا . وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤى عن أبى عمرو (زلزلوا) بكسر الزاى قاله ابن خالويه ، وقال الزمخشرى : وعن أبى عمرو اشمام زاى زلزلوا وكأنه على اشمامها الكسر ووجه الكسر انه اتبع حركة الزاى الاولى لحركة الثانية ولم يعتد بالساكن كما لم يعتد به من قال منتن بكسر الميم اتباعا لحركة التاء وهو اسم فاعل من أنتن . وقرأ الجحدرى . وعيسى (زلزالا) بفتح الزاى ، ومصدر فعلل من المضاعف يجوز فيه الفتح والكسر نحو قلقل قلقالا ، وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال بمعنى مصلصل ، فان كان من غير المضاعف فما سمع منه على فعلال مكسور الفاء نحو سرهفه سرهافا ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عطف على (اذ زاغت) وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته ه

﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ظاهر العطف انهم قوم لم يكونوا منافقين فقيل : هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بادخال الشبهة عليهم ، وقيل : قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالاسلام . وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسهم والعطف لتغاير الوصف كقوله : ه الى الملك القرم وابن الهمام ه

﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ من الظفر واعلاء الدين ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى وعد غرور ، وقيل : أى قولا باطلا وفى البحر أى أمرا يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به ، روى ان الصحابة بينما يحفرون الخندق عرضت لهم صخرة بيضاء مدورة شديدة جدا لا تدخل فيها المعاول فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاخذ المعول من سلمان رضى الله تعالى عنه فضربها ضربة صدعها وبرقت منها برقة اضاء منها مابين لابتى المدينة حتى لكأن

(١) فى رواية اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

مصباحا في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاء منها ما بين لابتيها فكبر عليه الصلاة والسلام وكبر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرقت برقة اضاء منها ما بين لابتيها فكبر صلى الله تعالى عليه وسلم وكبر المسلمون فسئل عن ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: أضاء لي في الاولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها انياب الكلاب فاخبرني جبريل عليه السلام ان أمتي ظاهرة عليها واضاء لي الثانية قصور الحمر من ارض الروم كأنها انياب الكلاب واخبرني جبريل عليه السلام ان أمتي ظاهرة عليها وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها انياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن امتي ظاهرة عليها فابشروا بالنصر فاستبشر المسلمون وقال رجل من الانصار يدعى معتب ابن قشير وكان منافقا: أيعدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفتح لنا مدائن اليمن وبيض المدائن وقصور الروم وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته الا قتل هذا والله الغرور فانزل الله تعالى في هذا (واذ يقول المنافقون) الخ *

وفي رواية قال المنافقون حين سمعوا ذلك ألا تعجبون يحدثكم ويعدكم ويمنيكم الباطل انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم وانتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فانزل الله تعالى قوله سبحانه (واذ يقول المنافقون) ووجه الجمع على القول بان القائل واحد أن الباقين راضون بذلك قابلوه منه ، والظاهر ان نسبة الوعد الى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة من المنافقين الذين لا يعتقدون اتصافه صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة ولا ان الوعد وعد الله تعالى شأنه كانت من باب المماشاة أو الاستهزاء وان كانت قد وقعت من غيرهم فهي بالتبعية لهم *

ويجوز أن يكون وقوع ما ذكر في الحكاية لا في كلامهم ويستأنس له بما وقع في بعض الآثار وبعضهم بحث عن أطلاق الرسول عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال انه في الحكاية لا في كلامهم كما يشهد بذلك ماروى عن معتب أو هو تقية لا استهزاء لأنه لا يصح بالنسبة لغير المنافقين فتأمل ولا تغفل ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ قال السدي: هم عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه، وقال مقاتل: هم بنو سلمة، وقال أوس بن رومان: هم أوس بن قيظي وأصحابه بنو حارثة وضمير (منهم) للمنافقين أو للجميع ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ هو اسم المدينة المنورة، وقال أبو عبيدة اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وقيل: اسم أرضها وهو عليها ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل أو التانيث ولا ينبغي تسمية المدينة بذلك أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابة هي طابة هي طابة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا تدعونها يثرب فانها طيبة يعني المدينة ومن قال يثرب فليستغفر الله تعالى ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة، وفي الحواشي الخفاجية أن تسميتها به مكروهة كراهة تنزيهية، وذكر في وجه ذلك أن هذا الاسم يشعر بالتثريب وهو اللوم والتعيير *

وقال الراغب: التثريب التقريع بالذنب والثرب شحمة رقيقة، ويثرب يصح أن يكون أصله من هذا الباب والياء تكون فيه زائدة انتهى ، وقيل : يثرب اسم رجل من العمالقة وبه سميت المدينة وكان يقال لها أثرب أيضاء ونقل الطبرسي عن الشريف المرتضى أن للمدينة أسماء منها يثرب وطيبة وطابة والدار والسكينة وجابرة والمجبورة والمحبة والمحبوبة والعذراء والمرحومة والقاصمة ويندد انتهى، وكأن القائلين اختاروا يثرب من

www.Quranpdf.blogspot.in

بين الاسماء مخالفة له صلى الله تعالى عليه وسلم لما علموا من كراهيته عليه الصلاة والسلام لهذا الاسم من بينها، ونداؤهم أهل المدينة بعنوان أهاليتهم لها ترشيح لما بعد من الأمر بالرجوع اليها ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي لا مكان إقامة أولا اقامة لكم أي لا ينبغي أو لا يمكن لكم الاقامة ههنا.

وقرأ أبو جعفر . وشيبة . وأبو رجاء . والحسن . وقتادة . والنخعي . وعبد الله بن مسلم . وطلحة . وأكثر السبعة (لا مقام) بفتح الميم وهو يحتمل أيضا المكان أي لا مكان قيام والمصدر أي لا قيام لكم، والمعنى على نحو ما تقدم ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أي الى منازلكم بالمدينة ليكون ذلك أسلم لكم من القتل أو ليكون لكم عند هذه الاحزاب يد، قيل: ومرادهم أمرهم بالفرار على ما يشعر به ما بعد لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالتهم وايذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم، وقيل: المعنى لا مقام لكم في دين محمد ﷺ فارجعوا الى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه الى اعدائه عليه الصلاة والسلام، أو لا مقام لكم بعد اليوم في يثرب أو نواحيها الغلبة الاعداء فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام فيها لارتفاع العداوة حينئذ.

وقيل: يجوز أن يكونوا خافوا من قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياهم بعد غلبته عليه الصلاة والسلام حيث ظهر أنهم منافقون فقالوا: (لا مقام لكم) على معنى لا مقام لكم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه إن غلب قتلكم فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه عليه الصلاة والسلام أو فارجعوا عن الاسلام واتفقوا مع الاحزاب أو ليس لكم محل اقامة في الدنيا أصلا إن بقيتم على ما أنتم عليه فارجعوا عما بايعتموه عليه عليه الصلاة والسلام الى آخره، والأول أظهر وأنسب بما بعده، وبعض هذه الاوجه بعيد جدا كما لا يخفى.

﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ عطف على (قالت) وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة، والمستأذن على ما روى عن ابن عباس . وجابر بن عبد الله بنو حارثة بن الحرث، قيل: أرسلوا أوس بن قيظي أحدهم للاستئذان، وقال السدي: جاء هو ورجل آخر منهم يدعى أبا عرابة بن أوس، وقيل: المستأذن بنو حارثة . وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام في الرجوع ممتثلين بأمر أولئك القائلين يا أهل يثرب.

وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بدل من (يستأذن) أو حال من فاعله أو استئناف مبني على السؤال عن كيفية الاستئذان ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي ذليلة الحيطان يخاف عليها السراق كما نقل عن السدي، وقال الراغب: أي متخرقة ممكنة لمن أرادها، وقال الكلبي: أي خالية من الرجال ضائعة، وقال قتادة: قاصية يخشى عليها العدو، وأصلها على ما قيل مصدر بمعنى الخلل ووصف بها مبالغة وتكون صفة للمؤنث والمذكر والمفرد وغيره كما هو شأن المصادر، وجوز أن تكون صفة مشبهة على أنها مخفف عورة بكسر الواو كما قرأ بذلك هنا وفيما بعد ابن عباس . وأبو يعمر . وقتادة . وأبو رجاء . وأبو حيوة . وابن أبي عبلة . وأبو طالوت . وابن مقسم . واسمعيل بن سليمان عن ابن كثير من عورت الدار اذا اختلت، قال ابن جني: صحة الواو على هذا شاذة والقياس قلبها ألفا فيقال عارة كما يقال كبش صاف ونعجة صافة ويوم راح ورجل مال والاصل صوف وصوفة وروح ومول . وتعقب بان القياس انما يقتضي القلب اذا وقع القلب في الفعل وعور هنا قد صحت عينه حملا على اعور المشدد، ورجح كونها مصدرا وصف به للمبالغة بانه الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير

www.Quranpdf.blogspot.in

مقالتهم بحرف التحقيق ، لكن ينبغى أن يقال فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ اذا أجرى فيه هذا اللفظ كما أجرى فيما قبله أن المراد المبالغة فى النفى على نحو ما قيل(١) قوله تعالى : (وما ربك بظلام للعبيد)والوو فيه للحال أى يقولون ذلك والحال أنها ليست كذلك ﴿ إِن يُرِيدُونَ ﴾ أى ما يريدون بالاستئذان ﴿ إِلَّا فِرَارًا ١٣ ﴾ أى هربا من القتال ونصرة المؤمنين قاله جماعة ، وقيل : فرارا من الدين ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ ﴾ أى البيوت كما هو الظاهر ﴿ عَلَيْهِم ﴾ أى على هؤلاء القائلين ، وأسند الدخول إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند الى الجار والمجرور وفاعل الدخول الداخل من أهل الفساد من كان أى لو دخل كل من أراد الدخول من أهل الدعارة والفساد بيوتهم وهم فيها ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ جمع قطر بمعنى الناحية والجانب ويقال قتر بالتاء لغة فيه أى من جميع جوانبها وذلك بأن تكون مختلة بالكلية وهذا داخل فى المفروض فلا يخالف قوله تعالى (وما هى بعورة) ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا ﴾ أى طلب منهم من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ أى القتال كما قال الضحاك ﴿ لَآتَوْهَا ﴾ أى لأعطوها أولئك السائلين كأنه شبه الفتنة المطلوب اتباعهم فيها بأمر نفيس يطلب منهم بذله ونزل اطاعتهم واتباعهم بمنزلة بذل ما سئلوه واعطائه . وقرأ نافع . وابن كثير (لأتوها) بالقصر أى لفعلوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ أى بالفتنة، والباء للتعدية أى ما لبثوها وما اخروها ﴿ إِلَّا يَسِيرًا ١٤ ﴾ أى الا تلبثا يسيرا أو الا زمانا يسيرا وهو مقدار ما يأخذون فيه سلاحهم على ما قيل ، وقيل : مقدار ما يجيبون السؤال فيه ، وكلاهما عندى من باب التمثيل ، والمراد أنهم لو سألهم غيرك القتال وهم فى أشد حال وأعظم بلبال لأسرعوا جدا فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن . والحاصل أن طلبهم الاذن فى الرجوع ليس لاختلال بيوتهم بل لنفاقهم وكراهتهم نصرتك ، وقال ابن عطية : المعنى ولو دخلت المدينة من أقطارها واشتد الحرب الحقيقى ثم سئلوا الفتنة والحرب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم لطاروا اليها ولم يتلبثوا فى بيوتهم لحفظها الا يسيرا قيل قدر ما يأخذون سلاحهم انتهى ، فضمير (دخلت) عنده عائد على المدينة وباء (بها) للظرفية كما هو ظاهر كلامه ، وجوز أن تكون سببية والمعنى على تقدير مضاف أى ولم يتلبثوا بسبب حفظها ، وقيل : يجوز أن تكون للملابسة أيضا ، والضمير على كل تقدير للبيوت وفيه تفكيك الضمائر *

وعن الحسن . ومجاهد . وقتادة (الفتنة) الشرك ، وفى معناه ماقيل: هى الردة والرجوع إلى اظهار الكفر ، وجعل بعضهم ضميرى (دخلت ـ وبها) للمدينة وزعم أن المعنى ولو دخلت المدينة عليهم من جميع جوانبها ثم سئلوا الرجوع إلى اظهار الكفر والشرك لفعلوا وما لبثوا بالمدينة بعد اظهار كفرهم الا يسيرا فان الله تعالى يهلكهم أو يخرجهم بالمؤمنين ، وقيل : ضمير (دخلت)للبيوت أو للمدينة وضمير (بها) للفتنة بمعنى الشرك والباء للتعدية ، والمعنى ولو دخلت عليهم ثم سئلوا الشرك لأشركوا وما أخروه الا يسيرا ،وقريب منه قول قتادة أى لو دخلت عليهم ثم سئلوا الشرك لأعطوه طيبة به أنفسهم وما تحبسوا به الا يسيرا ، وجوز أن تكون الباء

---

(١) قوله ما قيل الخ كذا بخطه ولعل لفظ فى ساقطة من قلمه

www.Quranpdf.blogspot.in

لغير ذلك ، وقيل : فاعل الدخول اولئك العساكر المتحزبة، والوجوه المحتملة فى الآية كثيرة كما لا يخفى على من له أدنى تأمل ، وماذكرناه اولا هو الاظهر فيما أرى . وقرأ الحسن (سولوا) بواو ساكنة بعد السين المضمومة قالوا : وهى من سال يسال كخاف يخاف لغة فى سأل المهموز العين ، وحكى أبو زيد هما يتساولان، وقال أبو حيان: ويجوز أن يكون أصلها الهمز لأنه يجوز أن يكون سولوا على قول من يقول فى ضرب مبنياً للمفعول ضرب ثم سهل الهمزة بابدالها واوا على قول من قال فى بؤس بوس بابدال الهمزة واوا لضم ماقبلها . وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو . والاعمش (سيلوا) بكسر السين من غير همز نحو قيل . وقرأ مجاهد (سويلوا) بواو ساكنة بعد السين المضمومة وياء مكسورة بدلا من الهمزة ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ هؤلاء هم الفريق المستأذنون وهم بنو حارثة عند الاكثرين ، وقيل : هم بنو سلمة كانوا قد جبنوا يوم احد ثم تابوا وعاهدوا يومئذ قبل يوم الخندق أن لا يفروا . وعن ابن عباس أنهم قوم عاهدوا بمكة ليلة العقبة أن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه أنفسهم ، وقيل: أناس غابوا عن وقعة بدر فحزنوا على ما فاتهم مما أعطى أهل بدر من الكرامة فقالوا : لئن أشهدنا الله تعالى قتالا لنقاتلن و(عاهد) أجرى مجرى اليمين ولذلك تلقى بقوله تعالى : (لا يولون الادبار) وجاء بصيغة الغيبة على المعنى ولو جاء كما لفظوا به لكان التركيب لا نولى الادبار ، وتولية الادبار كناية عن الفرار والانهزام فان الفار يولى دبره من فرمنه ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا ١٥ ﴾ عن الوفاء به مجازى عليه وذلك يوم القيامة ، والتعبير بالماضى على ما فى مجمع البيان لتحقق الوقوع ، وقيل : أى كان عند الله تعالى مسؤلا عن الوفاء به أو مسؤلا مقتضى حتى يوفى به *

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أى لن ينفعكم ذلك ويدفع عنكم ما أبرم فى الأزل عليكم من موت أحدكم حتف أنفه أو قتله بسيف ونحوه فان المقدر كائن لا محالة ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦ ﴾ أى وان نفعكم الفرار بأن دفع عنكم ما أبرم عليكم فمتعتم لم يكن ذلك التمتيع الا تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا *

وهــذا من باب فرض المحال ولم يقل : ولو نفعكم اخراجا للكلام مخرج المماشاة أواذا نفعكم الفرار فمتعتم بالتأخير بأن كان ذلك معلقا عند الله تعالى على الفرار مربوطا به لم يكن التمتيع إلا قليلا فان أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، وعمر تأكله ذرات الدقائق وإن كثر قليل ، وقال بعض الاجلة : المعنى لا ينفعكم نفعا دائما أو تاما فى دفع الأمرين المذكورين الموت أو القتل بالكلية إذ لا بد لكل شخص من موت حتف أنفه أو قتل فى وقت معين لا لأنه سبق به القضاء لأنه تابع للمقضى فلا يكون باعثا عليه بل لأنه مقتضى ترتب الأسباب والمسببات بحسب جرى العادة على مقتضى الحكمة فلا دلالة فيه على أن الفرار لا يغنى شيئا حتى يشكل بالنهى عن الالقاء الى التهلكة وبالامر بالفرار عن المضار ، وقوله تعالى:(وإذا لا تمتعون إلا قليلا) يدل على أن فى الفرار نفعا فى الجملة اذ المعنى لا تمتعون على تقدير الفرار إلا متاعا قليلا ، وفيه ما فيه فتأمل *

وذكر الزمخشرى أن بعض المروانية مر على حائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب وكأنه مال الى الوجه الثانى أو الى ما ذكره البعض فى الآية ، وجواب الشرط لإن محذوف لدلالة ماقبله عليه و(اذن) تقدمها ههنا حرف عطف فيجوز فيها الاعمال والاهمال لكنه لم يقرأ هنا إلا بالاهمال .

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرئ بالاعمال فى قوله تعالى فى سورة الاسراء : (وإذاً لا يلبثوا خلافك) وقرىء (لا يمتعون) بياء الغيبة *

﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ استفهام فى معنى النفى أى لا أحد يمنعكم من الله عز وجل وقدره جل جلاله ان خيرا وان شرا فجعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة مع انه لا عصمة الا من السوء لما فى العصمة من معنى المنع ، وجوز ان يكون فى الكلام تقدير والاصل قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن اراد بكم سوأ أو يصيبكم بسوء ان اراد بكم رحمة فاختصر نظير قوله :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلدا سيفا ورمحا

فانه أراد وحاملا أو ومعتقلا رمحا ، ويجرى نحو التوجيه السابق فى الآية ، وجوز الطيبي أن يكون المعنى من الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو من الذى يمنع رحمة الله منكم ان أراد بكم رحمة ، وقرينة التقدير ما فى (يعصمكم) من معنى المنع ، واختير الأول لسلامته عن حذف جملة بلا ضرورة *

﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا ﴾ ينفعهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ١٧ ﴾ يدفع الضرر عنهم ، والمراد الاولى فيجدوه الخ فهو كقوله : * ولا ترى الضب بها ينجحر * اه وهو معطوف على ماقبله بحسب المعنى فكأنه قيل: لا عاصم لهم ولا ولى ولا نصير أو الجملة حالية *

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أى المثبطين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى اقبلوا الينا أو قربوا أنفسكم الينا ، قال ابن السائب : الآية فى عبدالله ابن أبى . ومعتب بن قشير . ومن رجع من المنافقين من الخندق الى المدينة كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ويكتبون الى اخوانهم فى العسكر أن ائتونا فانا ننتظركم ، وقال قتادة : هى فى المنافقين كانوا يقولون لاخوانهم من ساكنى المدينة من أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: انصرف رجل من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الاحزاب الى شقيقه فوجد عنده شواء ونبيذا فقال له : أنت ههنا ورسول الله عليه الصلاة والسلام بين الرماح والسيوف فقال : هلم الى فقد أحيط بك وبصاحبك والذى يحلف به لا يستقبلها محمد أبدا فقال : كذبت والذى يحلف به لأخبرنه بأمرك فذهب ليخبره صلى الله تعالى عليه وسلم فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية *

وقيل: هؤلاء اليهود كانوا يقولون لأهل المدينة : تعالوا الينا وكونوا معنا ، وكأن المراد من أهل المدينة المنافقون منهم المعلوم نفاقهم عند اليهود ؛ و(قد) للتحقيق أو للتقليل وهو باعتبار المتعلق، و(منكم) بيان للمعوقين لاصلته كما أشير اليه ، والمراد بالاخوة التشارك فى الصفة وهو النفاق على القول الاول ، والكفر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم على القول الأخير ، والصحبة والجوار وسكنى المدينة على القول الثانى وكذا على القول الثالث فان ذلك يجامع الاخوة فى النسب ، وظاهر صيغة الجمع يقتضى ان الآية لم تنزل فى ذينك الشقيقين وحدهما فلعلها نزلت فيهما وفى المنافقين القائلين ذلك والانصار المخلصين المقول لهم ، وجواز كونها نزلت فى جماعة من الاخوان فى النسب مجرد احتمال وان كان له مستند سمعى فلتحمل الأخوة عليه على الآخوة

www.Quranpdf.blogspot.in

فى النسب ولاضير، والقول بجميع الأقوال الاربعة المذكورة وحمل الأخوة على الأخوة فى الدين والاخوة فى الصحبة والجوار والاخوة فى النسب لايخفى حاله ، (وهلم) عند أهل الحجاز يسوى فيه بين الواحد والجماعة ، وأما عند تميم فيقال: هلم يارجل وهلموا يارجال، وهو عند بعض الائمة صوت سمى به الفعل ، واشتهر انه يكون متعديا كهلم شهداءكم بمعنى أحضروا أو قربوا ولازما كهلم الينا بناء على تفسيره بأقبلوا الينا ؛ واما على تفسيره بقربوا أنفسكم الينا فالظاهر أنه متعد حذف مفعوله، وجوز كونه لازما وهذا تفسير لحاصل المعنى. وفى البحر أن الذى عليه النحويون أن هلم ليس صوتا وإنما هو مركب اختلف فى أصل تركيبه فقيل : مركب من ها التى للتنبيه والمم بمعنى اقصد وأقبل وهو مذهب البصريين ، وقيل: من هل وأم، والكلام على المختار من ذلك مبسوط فى محله ◈

﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ ﴾ أى الحرب والقتال وأصل معناه الشدة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ ﴾ أى اتيانا أو زمانا قليلا فقد كانوا لا يأتون العسكر الا أن لا يجدوا بدا من اتيانه فيأتون ليرى الناس وجوههم فاذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم ، ويجوز أن يكون صفة مفعول مقدر كما كان صفة المصدر أو الزمان أى الا بأسا قليلا على انهم يعتذرون فى البأس الكثير ولا يخرجون إلا فى القليل، واتيان البأس على هذه الأوجه على ظاهره، ويجوز أن يكون كناية عن القتال ، والمعنى ولا يقاتلون الا قتالا قليلا كقوله تعالى: (وما قاتلوا إلا قليلا) وقلته اما لقصر زمانه وإما لقلة غنائه، وأياما كان فالجملة حال من (القائلين) وقيل : يجوز أيضا أن تكون عطف بيان على (قد يعلم) وهو كما ترى ، وقيل: هى من مقول القول وضمير الجمع لاصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أى القائلين ذلك والقائلين لا يأتى أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حرب الاحزاب ولا يقاومونهم الا قليلا، وهذا القول خلاف المتبادر وكأنه ذهب اليه من قال ان الآية فى اليهود ◈

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة على ما روى عن مجاهد . وقتادة ، وقيل : بأنفسهم ، وقيل : بالغنيمة عند القسم ، وقيل : بكل مافيه منفعة لكم وصوب هذا أبو حيان ، وذهب الزمخشرى إلى أن المعنى أضناء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف وذلك لأنهم يخافون على أنفسهم لو غلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حيث لم يكن لهم من يمنع الأحزاب عنهم ولا من يحمى حوزتهم سواهم ، وقيل : كانوا يفعلون ذلك رياء ، والأكثرون ذهبوا إلى ما سمعت قبل وعدل اليه مختصرو كشافه أيضا وذلك على ما قيل لأن ماذهب اليه معنى ما فى التفريع بعد فيحتاج إلى جعله تفسيرا ، ورجحه بعض الأجلة على ماذهب اليه الأكثر فقال: انما اختاره ليطابق معنى ويقابل قوله تعالى بعد: (أشحة على الخير) ولأن الاستعمال يقتضيه فان الشح على الشىء هو ان يراد بقاؤه كما فى الصحاح وأشار اليه بقوله : أضناء بكم ، وماذكره غيره لايساعده الاستعمال انتهى ◈

قال الخفاجى : ان سلم ماذكر من الاستعمال كان متعينا وإلا فلكل وجهة كما لايخفى على العارف بأساليب الكلام ، و(أشحة) جميع شحيح على غير القياس إذ قياس فعيل الوصف المضعف عينه ولامه أن يجمع على افعلاء كضنين واضناء وخليل واخلاء فالقياس أشحاء وهو مسموع أيضا، ونصبه عند الزجاج . وأبى البقاء على الحال من فاعل (يأتون) على معنى تركوا الاتيان أشحة ، وقال الفراء : على الذم ، وقيل : على الحال من ضمير (هلم الينا) أو من ضمير يعوقون مضمرا ، ونقل أولهما عن الطبرى وهو كما ترى ، وقيل: من (المعوقين) أو من

www.Quranpdf.blogspot.in

القائلين، وردا بأن فيهما الفصل بين أبعاض الصلة، وتعقب بأن الفاصل من متعلقات الصلة وإنما يظهر الرد على كونه حالا من (المعوقين) لأنه قد عطف على الموصول قبل تمام صلته ٭

وقرأ ابن أبى عبلة (أشحة) بالرفع على إضمار مبتدا أى هم أشحة ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ من العدو وتوقع أن يستأصل أهل المدينة ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ أى أحداقهم أو بأحداقهم على أن الباء للتعدية فيكون المعنى تدير أعينهم أحداقهم، والجملة فى موضع الحال أى دائرة أعينهم من شدة الخوف ٭

﴿ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ صفة لمصدر (ينظرون) أو حال من فاعله أو لمصدر (تدور) أو حال من (أعينهم) أى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولواذا بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا كدوران عين الذى الخ أو تدور أعينهم كائنة كعين الذى الخ، وقيل: معنى الآية إذا جاء الخوف من القتال وظهر المسلمون على أعدائهم رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم فى رؤيتهم وتجول وتضطرب رجاء أن يلوح لهم مضرب لأنهم يحضرون على نية شر لا على نية خير، والقول الأول هو الظاهر ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أى أذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنة سلطة ذربة قاله الفراء، وعن قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطونا اعطونا فلستم بأحق بهامنا، وقال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم فى أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين ٭

وقال بعض الأجلة: أصل السلق بسط العضو ومده للقهر سواء كان يدا أو لسانا فسلق اللسان باعلان الطعن والذم وفسر السلق هنا بالضرب مجازا كما قيل للذم طعن، والحامل عليه توصيف الألسنة بحداد، وجوز أن يشبه اللسان بالسيف ونحوه على طريق الاستعارة المكنية ويثبت له السلق بمعنى الضرب تخييلا، وسأل نافع ابن الأزرق ابن عباس رضى الله تعالى عنه عن السلق فى الآية فقال: الطعن باللسان قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهم الخصب والسماحة والنجدة فيهم والخاطب المسلاق

وفسره الزجاج بالمخاطبة الشديدة قال: معنى سلقوكم خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها فى الغنيمة يقال: خطيب مسلاق وسلاق إذا كان بليغا فى خطبته، واعتبر بعضهم فى السلق رفع الصوت وعلى ذلك جاء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس منا من سلق أو حلق» قال فى النهاية أى رفع صوته عند المصيبة، وقيل: أن تصك المرأة وجهها وتمرشه، والأول اصح، وزعم بعضهم ان المعنى فى الآية بسطوا السنتهم فى مخادعتكم بما يرضيكم من القول على جهة المصانعة والمجاملة، ولا يخفى مافيه، وقرأ ابن ابى عبلة (صلقوكم) بالصاد ٭

﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ اى بخلاء حريصين على مال الغنائم على ماروى عن قتادة، وقيل: على مالهم الذى ينفقونه، وقال الجبائى: أى بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير، وذهب أبو حيان إلى عموم الخير. ونصب (أشحة) على الحال من فاعل (سلقوكم) أو على الذم، ويؤيده قراءة ابن أبى عبلة (أشحة) بالرفع لأنه عليه خبر مبتدا محذوف أى هم (أشحة) والجملة مستأنفة لا حالية كما هو كذلك على الذم، وغاير بعضهم بين الشح هنا والشح فيما مر بأن ماهنا مقيد بالخير المراد به مال الغنيمة وما مر مقيد بمعاونة المؤمنين ونصرتهم أو بالانفاق

www.Quranpdf.blogspot.in

فى سبيل الله تعالى فلا يتكرر هذا مع ماسبق، والزمخشرى لما ذهب إلى ماذهب هناك ، قال هنا: فاذاذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ونسوا تلك الحالة الاولى واجترؤا عليكم وضربوكم بألسنتهم الخ ، وقد سمعت ماقال بعض الاجلة فى ذلك *

ويمكن أن يقال فى الفرق بين هذا وماسبق :إن المراد مماسبق ذمهم بالبخل بكل مافيه منفعة أو بنوع منه على المؤمنين ومن هذا ذمهم بالحرص على المال أومافيه منفعة مطلقا من غير نظر إلى كون ذلك على المؤمنين أوغيرهم وهو أبلغ فى ذمهم من الاول ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بماذكر من صفات السوء ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ بالاخلاص فانهم المنافقون الذين أظهروا الايمان وأبطنوا فى قلوبهم الكفر ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أظهر بطلانها لأنها باطلة منذ عملت اذ صحتها مشروطة بالايمان بالاخلاص وهم مبطنون الكفر وفى البحر أى لم يقبلها سبحانه فكانت كالمحبطة وعلى الوجهين المراد بالاعمال العبادات المأمور بها ، وجوز أن يكون المراد بهاماعملوه نفاقا وتصنعا وإن لم يكن عبادة، والمعنى فأبطل عز وجل صنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا *

وحمل بعضهم الاعمال على العبادات والاحباط على ظاهره بناء على ماروى عن ابن زيد عن ابيه قال نزلت الآية فى رجل بدرى نافق بعد بدر ووقع منه ماوقع فاحبط الله تعالى عمله فى بدر وغيرها، وصيغة الجمع تبعد ذلك وكذا قوله تعالى: (لم يؤمنوا) فانهذا كما هو ظاهر هذه الرواية قد آمن قبل، وأيضا قوله عليه الصلاة والسلام: ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» يأبى ذلك فالظاهر والله تعالى أعلم ان هذه الرواية غير صحيحة *

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى الاحباط ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٩ ﴾ أى هينا لايبالى به ولايخاف سبحانه اعتراضا عليه، وقيل : أى هينا سهلا عليه عز وجل ، وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم بالاحباط المذكور لكمال تعاضد الحكم المقتضية له وعدم مانع عنه بالكلية ، وقيل : ذلك اشارة إلى حالهم من الشح ونحوه ، والمعنى كان ذلك الحال عليه عز وجل هينا لا يبالى به ولايجعله سبحانه سببا لخذلان المؤمنين وليس بذاك، والمقصود مماذكر التهديد والتخويف ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أى هم من الجزع والدهشة لمزيد جبنهم وخوفهم بحيث هزم الله تعالى الاحزاب فرحلوا وهم يظنون انهم لم يرحلوا ، وقيل : المراد هؤلاء لجبنهم يحسبون الاحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق راجعين إلى المدينة لذلك، وهذا إن صحت فيه رواية فذاك والافالظاهر أنه مأخوذ من قوله تعالى: (والقائلين لاخوانهم هلم الينا) لدلالته ظاهراً على أنهم خارجون عن معسكر رسول الله ﷺ يحثون اخوانهم على اللحاق بهم، وكون المراد هلموا إلى رأينا أو إلى مكاننا الذى هو فى طرف لا يصل اليه السهم خلاف الظاهر، وكذا من قوله سبحانه (ولو كانوا فيكم) على ماهو الظاهر أيضا إذ يبعد حمله على اتحاد المكان ولو فى الخندق ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ كرة ثانية ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ تمنوا انهم خارجون إلى البدو وحاصلون مع الاعراب وهم أهل العمود ، وقرأ عبدالله . وابن عباس . وابن يعمر . وطلحة (بدى) جمع باد كغاز وغزى وليس بقياس فى معتل اللام وقياسه فعلة كقاض وقضاة ؛ وفى رواية أخرى عن ابن عباس (بدوا) فعلا ماضيا، وفى رواية صاحب الاقليد (بدى) بوزن عدى ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ أى كل قادم من جانب المدينة ﴿ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ عما جرى عليكم من الاحزاب يتعرفون أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة

www.Quranpdf.blogspot.in

فرقا وجبنا، واختيار البداوة ليكونوا سالمين من القتال ، والجملة في موضع الحال من فاعل بادون ، وحكى ابن عطية أن اباعمرو . وعاصما . والاعمش (قرؤا) يسلون بغير همز نحو قوله تعالى : (سل بني اسرائيل) ولم يعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم ، ولعل ذلك في شاذهما ونقلها صاحب اللوامح عن الحسن . والاعمش ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما . وقتادة . والجحدري . والحسن . ويعقوب بخلاف عنهما (يساءلون) بتشديد السين والمد وأصله يتساءلون فأدغمت التاء في السين أي يسأل بعضهم بعضا أي يقول بعضهم لبعض : ماذا سمعت وماذا بلغك ؟ أو يتساءلون الاعراب أي يسألونهم كما تقول : رأيت الهلال وتراءيته وأبصرت زيدا وتباصرته ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ ﴾ أي في هذه الكرة المفروضة بقوله تعالى : (وإن يأت الاحزاب أولو كانوا فيكم) في الكرة الأولى السابقة ولم يرجعوا إلى داخل المدينة وكانت محاربة بالسيوف ومبارزة الصفوف ﴿ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ٢٠ ﴾ رياء وسمعة وخوفا من التعيير قال مقاتل والجبائي والبعلبكي : هو قليل من حيث هو رياء ولو كان لله تعالى كان كثيرا ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الظاهر أن الخطاب للمؤمنين الخلص المخاطبين من قبل في قوله تعالى : (عن أنبائكم) وقوله سبحانه : (ولو كانوا فيكم) .

والاسوة بكسرة الهمزة كما قرأ الجمهور وبضمها كما قرأ عاصم الخصلة ، وقال الراغب : الحالة التي يكون عليها الانسان وهي اسم كان و(لكم) الخبر و(في رسول الله) متعلق بما تعلق به (لكم) أو في موضع من (اسوة) لأنه لو تأخر جاز أن يكون نعتا لها أو متعلق بكان على مذهب من أجاز فيها ناقصة وفي اخواتها أن تعمل في الظرف ، وجوز أن يكون في رسول الله الخبر ولكم تبيين أي أعني لكم أي والله لقد كان لكم في رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد ، ويجوز أن يراد بالاسوة القدوة بمعنى المقتدى على معنى هو صلى الله تعالى عليه وسلم في نفسه قدوة يحسن التأسي به ، وفي الكلام صنعة التجريد وهو أن ينتزع من ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في الاتصاف نحو لقيت منه اسدا وهو كما يكون بمعنى من يكون بمعنى في كقوله :

أراقت بنو مروان ظلما دماءنا وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدل

وكقوله : في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا القدر من الحديد ، والآية وإن سيقت للاقتداء به عليه الصلاة والسلام في أمر الحرب من الثبات ونحوه فهي عامة في كل أفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا لم يعلم أنها من خصوصياته كنكاح ما فوق أربع نسوة ، أخرج ابن ماجه . وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم قال : قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة ولا بعدها فقال يا ابن أخي صحبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا فلم أره يصلي قبل الصلاة ولا بعدها ويقول الله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة قال : هم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن ينهى عن الحبرة فقال رجل : أليس قد رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يلبسها ؟ قال عمر : بلى قال الرجل : ألم يقل الله تعالى . (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) فترك ذلك عمر رضي الله تعالى عنه .

وأخرج الشيخان . والنسائي . وابن ماجه . وغيرهم عن ابن عمر أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة فقال قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج الشيخان.وغيرهما عن ابن عباس قال:إذا حرم الرجل عليه أمرأته فهو يمين يكفرها،وقال (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة)الى غير ذلك من الاخبار،وتمام الكلام فى كتب الاصول.

﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أى يؤمل الله تعالى وثوابه كما يرمز اليه أثر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما،وعليه يكون قد وضع(اليوم الآخر)بمعنى يوم القيامة موضع الثواب لأن ثوابه تعالى يقع فيه فهو على ماقال الطيبي من اطلاق اسم المحل على الحال،والكلام نحو قولك:أرجو زيداً وكرمه ممايكون ذكر المعطوف عليه فيه توطئة للمعطوف وهو المقصود وفيه من الحسن والبلاغة ماليس فى قولك:أرجو زيدا كرمه على البدلية: وقال صاحب الفرائد،يمكن أن يكون التقدير يرجو رحمة الله أو رضا الله وثواب اليوم الآخر فنى الكلام مضا فان مقدران،وعن مقاتل أى يخشى الله تعالى ويخشى البعث الذى فيه جزاء الاعمال على أنه وضع اليوم الآخر موضع البعث لأنه يكون فيه،والرجاء عليه بمعنى الخوف، ومتعلق الرجاء باى معنى كان أمر من جنس المعانى لأنه لا يتعلق بالذوات ،وقدر بعضهم المضاف الى الاسم الجليل لفظ أيام مرادا بها الوقائع فان اليوم يطلق على ما يقع فيه من الحروب والحوادث واشتهر فى هذا حتى صار بمنزلة الحقيقة وجعل قرينة هذا التقدير المعطوف وجعل العطف من عطف الخاص على العام،والظاهر أن الرجاء على هذا بمعنى الخوف ، وجوز أن يكون الكلام عليه كقولك : ارجو زيداً و كرمه.وان يكون الرجاء فيه بمعنى الامل إن أريد ما فى اليوم من النصر والثواب ، وأن يكون بمعنى الخوف والامل معا بناء على جواز استعمال اللفظ فى معنييه أو فى حقيقته ومجازه وارادة مايقع فيه من الملائم والمنافر ، وعندى أن تقدير أيام غير متبادر الى الفهم، وفسر بعضهم (اليوم الآخر) بيوم السياق والمتبادر منه يوم القيامة و(من) على ما قيل بدل من ضمير الخطاب فى(لكم)وأعيد العامل للتاكيد وهو بدل كل من كل والفائدة فيه الحث على التأسى،وابدال الاسم الظاهر من ضمير المخاطب هذا الابدال جائز عند الكوفيين.والاخفش ، ويدل عليه قوله:

بكم قريش كفينا كل معضلة وام نهج الهدى من كان ضليلا

ومنع ذلك جمهور البصريين:ومن هنا قال صاحب التقريب،هو بدل اشتمال أو بدل بعض من كل،ولا يتسنى الا على القول بان الخطاب عام وهو مخالف للظاهر كما سمعت،ومع هذا يحتاج الى تقدير منكم،وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون لمن متعلقا بحسنة أو بمحذوف وقع صفة لها لأنه وقع بعد نكرة ، وقيل : يجوز أن يكون صفة لأسوة .وتعقب بان المصدر الموصوف لا يعمل فيما بعد وصفه،وكذا تعدد الوصف بدون العطف لا يصح، وقد صرح بمنع ذلك الامام الواحدى، ولا يخفى أن المسئلة خلافية فلا تغفل .

﴿ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ أى ذكراً كثيرا وقرن سبحانه بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة على كثرة ذكره عز وجل تؤدى الى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.ومما ينبغى ان يعلم انه قد صرح بعض الأجلة كالنووى ان ذكر الله تعالى المعتبر شرعا مايكون فى ضمن جملة مفيدة كسبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة الا بالله ونحو ذلك ومالا يكون بمفرد لا يعد شرعا ذكرا نحو الله أو قادر أو سميع أو بصير اذا لم يقدر هناك ما يصير به اللفظ كلاما ،والناس عن هذا غافلون، وانهم اجمعوا على أن الذكر المتعبد بمعناه لا يثاب صاحبه مالم يستحضر معناه فالمتلفظ بنحو سبحان الله ولا إله الا الله اذا كان غافلا عن المعنى غير ملاحظ له ومستحضراً اياه لا يثاب اجماعا،والناس أيضا عن هذا غافلون

www.Quranpdf.blogspot.in

فانا لله وإنا اليه راجعون ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ بيان لما صدر عن خاص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم ﴿ قَالُوا هَذَا ﴾ اشارة عند بعض المحققين الى ما شاهدوه من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من احكام اللفظ نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فان ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ، وعند الاكثر اشارة الى الخطب والبلاء ، و(ما) موصولة عائدها محذوف وهو المفعول الثانى لوعد أى الذى وعدناه الله ، وجوز أن تكون مصدرية أى هذا وعد الله تعالى ورسوله ايانا وأرادوا بذلك ما تضمنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) كما أخرج ذلك ابن جرير . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأخرجه جماعة عن قتادة أيضا ونزلت آية البقرة قبل الواقعة بحول على ما أخرجه جويبر عن الضحاك عن الحبر رضى الله تعالى عنه ه

وفى البحر عن ابن عباس قال : « قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لاصحابه : ان الاحزاب سائرون اليكم تسعا أو عشرا أى فى آخر تسع ليال أو عشر أى من وقت الاخبار أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد اقبلوا للميعاد قالوا ذلك فمرادهم بذلك ماوعد بهذا الخبر . وتعقبه ابن حجر بأنه لم يوجد فى كتب الحديث . وقرىء بامالة الراء من (رأى) نحو الكسرة وفتح الهمزة وعدم امالتها ، وروى امالتهما وامالة الهمزة دون الراء على تفصيل فيه فى النشر فليراجع ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الظاهر أنه داخل فى حيز القول فيجوز ان يكون عطفا على جملة (هذا ما وعدنا) الخ أو على صلة الموصول وهو كما ترى ، وان يكون فى موضع الحال بتقدير قد او بدونه *

وايا ما كان فالمراد ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الصدق محقق قبل ذلك والمترتب على رؤية الاحزاب ظهوره ، وجوز ان يكون المعنى وصدق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فى النصرة والثواب كما صدق الله تعالى ورسوله فى البلاء ، والاظهار مع سبق الذكر للتعظيم ولأنه لو اضمر وقيل وصدق جاء الجمع بين الله تعالى وغيره فى ضمير واحد والأولى تركه أو قيل وصدق هو ورسوله بقى الاظهار فى مقام الاضمار فلا يندفع السؤال كذا قيل ، وحديث الجمع قد مر ما فيه ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى ما رأوا المفهوم من قوله تعالى : (ولما رأى المؤمنون) الخ ورجوع الضمير إلى المصدر المفهوم من (رأى) يعكر عليه التذكير ، وأرجعه بعضهم إلى الشهود المفهوم من ذلك ، وجوز رجوعه الى الوعد أو الخطب والبلاء المفهومين من السياق أو الاشارة *

وقرأ ابن أبى عبلة (وما زادوهم) بضمير الجمع العائد على الاحزاب ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله تعالى وبمواعيده عز وجل ﴿ وَتَسْلِيمًا ٢٢ ﴾ لأوامره جل شأنه واقداره سبحانه ، واستدل بالآية على جواز زيادة الايمان ونقصه . ومن أنكر قال : ان الزيادة فيما يؤمن به لا فى نفس الايمان والبحث فى ذلك مشهور وفى كتب الكلام على أبسط وجه مسطور ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى المؤمنين بالاخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم خاصة

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ رِجَالٌ ﴾ أى رجال ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ من الثبات مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمقاتلة للاعداء ، وقيل: من الطاعات مطلقا و يدخل فى ذلك ماذكر دخولا أوليا، وسبب النزول ظاهر فى الأول *

أخرج الامام أحمد . ومسلم . والترمذى . والنسائى . وجماعة عن أنس قال: غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غبت عنه لئن أرانى الله تعالى مشهدا مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ونزلت هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وكانوا يرون انها نزلت فيه وأصحابه . وفى الكشاف نذر رجال من الصحابة انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا أى نذروا الثبات التام والقتال الذى يفضى بحسب العادة إلى نيل الشهادة وهم عثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وحمزة . ومصعب بن عمير . وغيرهم، وعن الكلبى . ومقاتل ان هؤلاء الرجال هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة، وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة والمعول عليه عندى ماقدمته، ومعنى (صدقوا) أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال الصدق، ومحل (ماعاهدوا) النصب اما على نزع الخافض وهو فى وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره على رواية النصب أى فى سن بكره والمفعول محذوف والأصل صدقوا الله فيما عاهدوه، وإما على أنه هو المفعول الصريح *

وجعل ماعاهدوا عليه بمنزلة شخص معاهد على طريق الاستعارة المكنية وجعله مصدوقا تخييل وعلى الاسناد المجازى ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين ، والنحب على ماقال الراغب النذر المحكوم بوجوبه يقال : قضى فلان نحبه أى وفى بنذره . وقال أبو حيان : النذر الشىء الذى يلتزمه الانسان ويعتقد الوفاء به قال الشاعر :

عشية فر الحارثيون بعـــد ما قضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

وقال جرير :

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنـا عشية بسطام جرين على نحب

أى على أمر عظيم التزم القيام به . وشاع قضى فلان نحبه بمعنى مات إما على أن النحب مستعار استعارة تصريحية للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل انسان والقرينة حالية والقضاء ترشيح، وأما على أن قضاء النحب مستعار له *

وجوز أن يراد بالنحب فى الآية النذر وأن يراد الموت ، وقال بعض الاجلة يجوز أن يكون مستعاراً لالتزام الموت شهيدا اما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، واما بتنزيل نفسه منزلة اسبابه وإيراد الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح، وجعله استعارة للموت لأنه كنذر لازم مسخ للاستعارة واذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية انتهى ؛ وفيه منع ظاهر كما لا يخفى على المنصف *

والذى يقتضيه ظاهر بعض الاخبار أن النحب هنا بمعنى النذر وقضاؤه أداؤه والوفاء به ، فقد أخرج ابن أبى عاصم . والترمذى وحسنه . وابن جرير . والطبرانى . وابن مردويه عن طلحة أن أصحاب النبى ﷺ قالوا لأعرابى جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترؤن على مسئلته يوقرونه ويهابونه فسأله الاعرابى

www.Quranpdf.blogspot.in

ثم انى اطلعت من باب المسجد فقال : أين السائل عمن قضى نحبه ؟ قال الاعرابى : انا قال : هذا ممن قضى نحبه . وأخرج ابن منده . وابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت : دخل طلحة بن عبيد الله على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ياطلحة أنت ممن قضى نحبه ، وأخرج الحاكم عن عائشة نحوه *

وأخرج الترمذى . وغيره عن معاوية أنه قال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : طلحة ممن قضى نحبه ، وكأن عليا كرم الله تعالى وجهه عنى مدحه بذلك فى قوله وقد قيل له حدثنا عن طلحة : ذاك أمرؤ نزل فيه آية من كتاب الله (فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) وقد أخرج ذلك عنه كرم الله تعالى وجهه أبو الشيخ . وابن عساكر ، وكان رضى الله تعالى عنه قد ثبت يوم أحد حتى أصيبت يده ، والى حمل النحب على حقيقته ذهب مجاهد فالمعنى منهم من وفى بعهده وأدى نذره ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أى وبعضهم ﴿ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ يوما فيه جهاد فيقضى نحبه ويؤدى نذره ويفى بعهده ، ومن حمل ماعاهدوا الله تعالى على العموم وأبقى النحب على حقيقته قال : المعنى منهم من وفى بعهود الاسلام وما يلزم من الطاعات ومنهم من ينتظر الحصول فى أعلا مراتب الايمان والصلاح ، واستشكل ابقاء النحب على حقيقته لأن وفاء النذر عين صدق العهد فيكون حاصل المعنى من المؤمنين رجال عاهدوا الله تعالى وصدقوا أى فعلوا ووفوا بما عاهدوا الله تعالى عليه فمنهم من فعل ووفى بما عاهد ، وفيه تقسيم الشيء الى نفسه ، ويشكل على هذا المعنى قوله تعالى : (ومنهم من ينتظر) لأن المنتظر غير واف فكيف يجعل قسما من الذين صدقوا أى وفوا . وأجيب بأن المراد بالصدق فى الآية مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجة وهذا الكلام المتضمن لهذه النسبة هو ما اقتضاه عهدهم على الثبات من نحو قولهم : لئن أرانا الله مشهدا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنثبتن ولنقاتلن ، واتصاف الخبر بالصدق وكذا المخبر به لا يقتضى أكثر من مطابقة نسبته للواقع فى أحد الازمنة فنحو يقوم زيد صادق وكذا المخبر به وقت الاخبار به وان كان وقوع القيام بعد ألف سنة مثلا ، وكذا نحو إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود صادق وإن كان التكلم به ليلا فهؤلاء الرجال لما أخبروا عن أنفسهم إنهم أن أراهم الله تعالى مشهدا مع رسوله عليه الصلاة والسلام ثبتوا وقاتلوا وعلم سبحانه أن هذا مطابق للواقع أخبر تعالى عنهم بأنهم صدقوا ثم قسمهم عز وجل الى قسمين قسم أدى ما أخبر عن نفسه أنه يؤديه وقسم ينتظر وقتاً يؤديه فيه ، ولا يتصف هذا القسم بالكذب إلا اذا مات وقد أراه الله تعالى ذلك ولم يؤد ، ومن أخبر الله تعالى عنهم بالصدق ماماتوا حتى أدوا فلا اشكال . نعم الاشكال على تقدير أن يراد بالصدق فيما عاهدوا تحقيق العهد فيما أظهروه من أفعالهم كما فسره الراغب ويراد من قضاء النحب وفاء النذر أو العهد كما لا يخفى ، وقيل : المراد بصدقهم المذكور مطابقة ما فى ألسنتهم لما فى قلوبهم على خلاف المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . ولا اشكال فى التقسيم حينئذ . وقيل : الصدق بالمعنى المشهور بين الجمهور إلا أن المراد بصدقوا يصدقون ، وعبر عن المضارع بالماضى لتحقق الوقوع ، وكلا القولين كما ترى . وعن ابن عباس أن نافع بن الازرق سأله عن قوله تعالى : (قضى نحبه) فقال : أجله الذى قدر له فقال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول لبيد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وأخرج جماعة عنه أنه فسر ذلك بالموت ، وروى نحوه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وعليه لامانع

www.Quranpdf.blogspot.in

من أن يراد بصدقوا ما عاهدوا الله عليه كما ذكر عن الراغب حققوا العهد فيما أظهروه من أفعالهم ، فيكون المعنى من المؤمنين رجال عاهدوا الله تعالى على الثبات والقتال اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحققوا ذلك وثبتوا فمنهم من مات ومن منهم من ينتظر الموت ، والذى يقتضيه السياق أن المراد قضى نحبه ثابتا بأن يكون قد استشهد كانس بن النضر . ومعصب بن عمير ، ويحتمل أن يراد ما أعم من ذلك فيدخل من مات بعد الثبات حتف انفه قبل نزول الآية إن كان هنالك من هو كذلك ، وعدوا ممن ينتظر عثمان . وطلحة وأول ماورد فى طلحة من انه ممن قضى نحبه بأن المراد أنه فى حكم من استشهد ، وأوجبوا ذلك فيما أخرج سعيد ابن منصور . وأبو يعلى . وابن المنذر . وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من سره ان ينظر الى رجل يمشى على الارض قد قضى نحبه فلينظر الى طلحة » وأخرج ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله مثله *

وفى ارشاد العقل السليم عن عائشة بلفظ «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى فى الارض ، وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة» وفى مجمع البيان عن أبى اسحق عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : نزلت فينا (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية وأنا والله المنتظر ، وفى وصفهم بالانتظار المنبىء عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم إلى الشهادة ، وقيل : إلى الموت مطلقا حبا للقاء الله تعالى ورغبة فيما عنده عز وجل ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٣ ﴾ عطف على (صدقوا) وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وما غيروه تبديلا ما لا أصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون ، أما الذين قضوا فظاهر ، وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة ، وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ، وجوز أن يكون ضمير (بدلوا) للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم ، وفى الكلام تعريض بمن بدل من المنافقين حيث ولوا الادبار وكانوا عاهدوا لا يولون الادبار فكأنه قيل : وما بدلوا تبديلا كما بدل المنافقون فتأمل جميع ذاك والله تعالى يتولى هداك ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّدِقِينَ ﴾ أى الذين صدقوا ما عدوا الله تعالى عليه ﴿ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى بسبب صدقهم ، وصرح بذلك مع أنه يقتضيه تعليق الحكم بالمشتق اعتناء بأمر الصدق ، ويكتفى بما يقتضيه التعليق فى قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ لأنه الأصل ولا داعى إلى خلافه ، والمراد ويعذب المنافقين بنفاقهم ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى تعذيبهم ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى فلا يعذبهم بل يرحمهم سبحانه إن شاء عز وجل كذا قيل ، وظاهره أن كلا من التعذيب والرحمة للمنافقين يوم القيامة ولو ماتوا على النفاق معلق بمشيئته تعالى . واستشكل بأن النفاق اقبح الكفر كما يؤذن به قوله تعالى (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) وقد أخبر عز وجل أنه سبحانه يعذب الكفرة مطلقا حتما لا محالة فكيف هذا التعليق . وأجيب بأنه لا اشكال فان الله جل جلاله لا يجب عليه شىء والتعليق لذلك فهو جل شأنه إن شاء عذب المنافق وإن شاء رحمه لكن المتحقق أنه تبارك وتعالى شاء تعذيبه ولم يشأ رحمته فكأنه قيل : إن شاء يعذب المنافقين فى الآخرة لكنه سبحانه شاء تعذيبهم فيها أو يتوب عليهم إن شاء لكنه جل وعلا لم يشاء ، ورفع مقدم الشرطية الثانية فى مثل هذه القضية ينتج رفع التالى ، وانما لم تقيد مجازاة الصادقين بالمشيئة كما

www.Quranpdf.blogspot.in

قيد تعذيب المنافقين والتوبة عليهم بها مع أنه تعالى ان شاء يجزي الصادقين وإن شاء لم يجزهم لمكان نفي وجوب شيء عليه تعالى لمجموع أمرين هما تحقق مشيئة المجازاة وكون الرحمة مقصودة بالذات بخلاف العذاب ، وكأنه سبحانه لهذا الاخير لم يقل ليثيب أو لينعم وقال سبحانه في المقابل : « ويعذب » وقال بعض الاجلة : ان التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم ومعنى توبته تعالى على العباد قبول توبتهم فكأنه قيل : أو يقبل توبتهم إن تابوا ، وحذف الشرط لظهور استلزام المذكور له ، ويجوز أن تفسر توبته تعالى عليهم بتوفيقه تعالى اياهم للتوبة اليه سبحانه ، وكلا هذين المعنيين لتوبته تعالى وارد كما في القاموس ، وأياما كان فالامر معلق بالمشيئة ضرورة أنه لا يجب عليه سبحانه قبول التوبة ولا التوفيق لها ، والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة أنه تعالى ان شاء عذبهم بابقائهم منافقين وإن شاء سبحانه لم يعذبهم بان يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق الى الاخلاص في الايمان ؛ وقال ابن عطية : تعذيب المنافقين ثمرة اقامتهم على النفاق وموتهم عليه والتوبة موازنة لتلك الاقامة وثمرتها تركهم بلا عذاب فهناك امران اقامة على النفاق وتوبة منه وعنهما ثمرتان تعذيب ورحمة فذكر تعالى على جهة الايجاز واحدة من هاتين وواحدة من هاتين ودل ماذكر على ماترك ذكره ، ويدلك على أن معنى قوله تعالى : « ليعذب » ليديم على النفاق قوله سبحانه : « ان شاء » ومعادلته بالتوبة وحرف (أو) انتهى ، وأراد بذلك حل الاشكال ، وكأن ماذكره يؤل الى أن التقدير ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه ان شاء فيعذبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو التعذيب وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران وذلك من قبيل الاحتباك ، قال في البحر : وهذا من الايجاز الحسن ، وقال السدي : المعنى ويعذب المنافقين إن شاء أن يميتهم على نفاقهم أو يتوب عليهم بنقلهم من النفاق الى الايمان ، وكأنه جعل مفعول المشيئة الاماتة على النفاق دون التعذيب كما هو الظاهر لما سمعت من استشكال تعليق تعذيبهم بالمشيئة مع أنه متحتم ، وقيل لذلك أيضا : إن المراد يعذبهم في الدنيا إن شاء أو يتوب عليهم فلا يعذبهم فيها ، وحكى هذا عن الجبائي والكلام عليه في غاية الظهور ، وقد يقال : المراد بالمنافقين الجماعة المخصوصون القائلون (ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا) على أن ذلك كالاسم لهم فلا يلاحظ فيه مبدأ الاشتقاق ولا يجعل علة للحكم بل العلة له مايفهم من سياق الكلام فيكون المعلق بالمشيئة تعذيب أناس مخصوصين ويكون المعنى يعذب فلانا وفلانا مثلا ان شاء بأن يميتهم سبحانه مصرين على ماهم عليه مما يقتضى التعذيب أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة فيرحمهم ، ويجوز أن يراد بالصادقين نحو هذا وحينئذ يكون قوله سبحانه : (بصدقهم) تصريحا بما يفهم من السياق ، ويفهم من كلام شيخ الاسلام أن ذكر الصدق وحده من باب الاكتفاء حيث قال في معنى الآية : ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الاقوال والوفاء قولا وفعلا ويعذب المنافقين بما صدر عنهم من الاعمال والاقوال المحكية ، قيل : ولم يقل في جانب المنافقين بنفاقهم لقوله سبحانه : (أو يتوب) الخ فانه يستدعى فعلا خاصا بهم فتأمل ، والظاهر أن اللام في (ليجزي) للتعليل ، والكلام عند كثير تعليل للمنطوق من نفي التبديل عن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه والمعرض به من اثبات التعريض لمن سواهم من المنافقين فان الكلام على ما سمعت في قوة وما بدلوا تبديلا كما بدل المنافقون فقوله : (ليجزي ويعذب) متعلق بالمنفي والمثبت على اللف والنشر التقديري ، وجعل تبديل المنافقين علة للتعذيب مبني على تشبيه المنافقين بالقاصدين عاقبة السوء على نهج الاستعارة المكنية والقرينة اثبات معنى التعليل ، وقيل : إن اللام للعلة حقيقة بالنظر

www.Quranpdf.blogspot.in

الى المنطوق ومجازا بالنظر الى المعرض به ويكون من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وقد جوزه من جوزه * وقيل : لا يبعد جعل (ليجزى) الخ تعليلا للمنطوق المقيد بالمعرض به فكأنه قيل : ما بدلوا كغيرهم ليجزيهم بصدقهم ويعذب غيرهم إن لم يتب ، وأنه يظهر بحسن صنيعهم قبح غيره ، وبضدها تتبين الاشياء ، وقيل : تعليل لصدقوا وحكى ذلك عن الزجاج ، وقيل : لما يفهم من قوله تعالى : (وما زادهم الا ايمانا وتسليما) وقيل : لما يستفاد من قوله تعالى : (ولما رأى المؤمنون الاحزاب كأنه قيل : ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية ، واختاره الطيبي قائلا . إنه طريق أسهل مأخذا وأبعد عن التعسف وأقرب الى المقصود من جعله تعليلا للمنطوق والمعرض به . واختار شيخ الاسلام كونه متعلقا بمحذوف والكلام مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع إلى وقوع ما حكى من الأقوال والافعال على التفصيل وغاية كما في قوله تعالى : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) كأنه قيل . وقع جميع ما وقع ليجزى الله الخ ، وهو عندى حسن وإن كان فيه حذف فتأمل ذلك والله تعالى يتولى هداك ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ٢٤ ﴾ أى لمن تاب ، وهذا اعتراض فيه بعث الى التوبة *

وقوله سبحانه : ﴿ وَرَدَّ اللهُ ﴾ الخ رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل لتتمة النعمة المشار اليها إجمالا بقوله تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) وهو معطوف على (أرسلنا) وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تحاكت فيها الركب وزلت الأقدام ، وتفصيل ماصدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لاظهار عظم النعمة وإبانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية احتياجهم اليها أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وجوز شيخ الاسلام ولعل صنيعه يشير إلى أولويته حيث بدأ به كونه معطوفا على المقدر قبل : (ليجزى الله) كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا وقيل هو معطوف من حيث المعنى على قوله تعالى (ليجزى) كأنه قيل فكان عاقبة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه أن جزاهم الله تعالى بصدقهم ورد أعدائهم وهذا الرد من جملة جزائهم على صدقهم وهو كما ترى ، والمراد بالذين كفروا الأحزاب على ما روى غير واحد عن مجاهد . والظاهر أنه عنى المشركين واليهود الذين تحزبوا *

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى أنه فسر ذلك بأبى سفيان . وأصحابه ، ولعله الأولى ، وعلى القولين المراد رد الله الذين كفروا من محل اجتماعهم حول المدينة وتحزبهم إلى مساكنهم ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ حال من الموصول لا من ضمير (كفروا) والباء للملابسة أى ملتبسين بغيظهم وهو أشد الغضب ، وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ حال من ذلك أيضا أو من ضمير (بغيظهم) أى غير ظافرين بخير أصلا ، وفسر بعضهم الخير بالظفر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ، واطلاق الخير عليه مبنى على زعمهم ، وفسره بعضهم بالمال كما فى قوله تعالى : (وانه لحب الخير لشديد) والأولى أن يراد به كل خير عندهم فالنكرة فى سياق النفى تعم ، وجوز أن تكون الجملة مستأنفة لبيان سبب غيظهم . أو بدلا ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى وقاهم سبحانه ذلك ، و (كفى) هذه تتعدى لاثنين ، وقيل : هى بمعنى أغنى وتتعدى إلى مفعول واحد * والكلام هنا على الحذف والايصال والأصل وكفى الله المؤمنين عن القتال أى أغناهم سبحانه عنه ولا وجه له

www.Quranpdf.blogspot.in

وهذه الكفاية كانت كما أخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن قتادة بالريح والملائكة عليهم السلام ، وقيل : بقتل على كرم الله تعالى وجهه عمرو بن عبدود *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه . وابن عساكر عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف (وكفى الله المؤمنين القتال بعلى بن أبى طالب) وفى مجمع البيان هو المروى عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه ولا يكاد يصح ذلك ، والظاهر ماروى عن قتادة لمكان قوله تعالى : (فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) وكأن المراد بالقتال الذى كفاهم الله تعالى إياه القتال على الوجه المعروف من تعبية الصفوف والرمى بالسهام والمقارعة بالسيوف أو القتال الذى يقتضيه ذلك التحزب والاجتماع بحكم العادة *

وفى البحر ما هو ظاهر فى أن المراد كفى الله المؤمنين مداومة القتال وعودته فان قريشا هزموا بقوة الله تعالى وعزته عزوجل وماغزوا المسلمين بعد ذلك وإلا فقد وقع قتال فى الجملة وقتل من المشركين على ماروى عن ابن اسحق ثلاثة نفر من بنى عبد الدار بن قصى منبه بن عثمان بن عبيد ابن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة ، ومن بنى مخزوم بن يقظة نوفل بن عبد الله بن المغيرة اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل ، ومن بنى عامر بن لؤى ثم من بنى مالك بن حسل عمرو بن عبد ود نازله على كرم الله تعالى وجهه كما علمت فقتله *

وروى عن ابن شهاب أنه رضى الله تعالى عنه قتل يومئذ ابنه حسل أيضا فيكون من قتل من المشركين أربعة واستشهد من المؤمنين بسبب هذه الغزوة سعد بن معاذ وأنس بن أويس بن عتيك . وعبد الله بن سهل وهم من بنى عبد الاشهل . والطفيل بن النعمان . وثعلبة بن عثمة وهما من بنى جشم بن الخزرج من بنى سلمة . وكعب ابن زيد وهو من بنى النجار ثم من بنى دينار أصابه سهم غرب فقتله ، قال ابن إسحق : ولم يستشهد الا هؤلاء الستة رضى الله تعالى عنهم ﴿ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً ﴾ على احداث كل مايريد جل شأنه ﴿ عَزِيزاً ٢٥ ﴾ غالبا على كل شىء ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى عاونوا الاحزاب المردودة ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وهم بنو قريظة عند الجمهور ، وعن الحسن أنهم بنو النضير وعلى الأول المعول ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى من حصونهم جمع صيصية وهى كل ما يمتنع به ويقال لقرن الثور والظباء ولشوكة الديك التى فى رجله كالقرن الصغير ، وتطلق الصياصى على الشوك الذى للنساجين ويتخذ من حديد قاله أبو عبيدة وأنشد لدريد بن الصمة الجشمى :

نظرت اليه والرماح تنوشه كوقع الصياصى فى النسيج الممدد

وتطلق على الاصول أيضا قال : أبو عبيدة إن العرب تقول : جذ الله تعالى صئصئه أى أصله *

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ٢٦ ﴾ أى من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء . وفى البحر أن قذف الرعب سبب لانزالهم ولكن قدم المسبب لما أن السرور بانزالهم أكثر والاخبار به أهم ، وقدم مفعول (تقتلون) لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين وكان الاعتناء بحالهم أهم ولم يكن فى المأسورين هذا الاعتناء بل الاعتناء هناك بالاسر أشد ، ولو قيل : وفريقا تأسرون لربما ظن قبل سماع تأسرون أنه يقال بعد تهزمون : أو نحو ذلك ، وقيل : قدم المفعول فى الجملة الاولى لأن مساق الكلام

www.Quranpdf.blogspot.in

لتفصيله وأخر فى الثانية لمراعاة الفواصل، وقيل التقديم لذلك وأما التأخير فلئلا يفصل بين القتل وأخيه وهو الاسر فاصل، وقيل: غوير بين الجملتين فى النظم لتغاير حال الفريقين فى الواقع فقد قدم أحدهما فقتل وأخر الآخر فأسر وقرأ ابن عامر والكسائى (الرعب) بضم العين وقرأ أبو حيوة (تاسرون) بضم السين، وقرأ اليمانى (ياسرون) بياء الغيبة وقرأ ابن أنس عن ابن ذكوان بها فيه وفى يقتلون ولا يظهر لى وجه وجيه لتخصيص الاسم بصيغة الغيبة فتأمل، وتفصيل القصة على سبيل الاختصار انه لما كانت صبيحة الليلة التى انهزم فيها الاحزاب أو ظهر يوم تلك الليلة على ما فى بعض الروايات وقد رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون الى داخل المدينة اتى جبريل عليه السلام معتجرا بعمامة استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج رسول الله ﷺ وهو عند زينب بنت جحش تغسل رأسه الشريف وقد غسلت شقه فقال: أوقد وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم، فقال: عفا الله تعالى عنك ما وضعت الملائكة عليهم السلام السلاح بعد وما رجعت الا الآن من طلب القوم وإن الله تعالى يأمرك بالمسير الى بنى قريظة و إنى عامد اليهم فمزلزل بهم حصونهم فأمر عليه الصلاة والسلام مؤذنا فاذن فى الناس من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببنى قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وقدم على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه برايته اليهم وابتدرها الناس فسار كرم الله تعالى وجهه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرجع حتى لقيه عليه الصلاة والسلام فقال: يارسول الله لاعليك أن تدنو من هؤلاء الاخابث قال: لم؟ أظنك سمعت لى منهم أذى قال: نعم يارسول الله قال لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: ياإخوان القردة هل أخزاكم الله تعالى وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: ياأبا القاسم ما كنت جهولا وفى رواية فحاشا وكان عليه الصلاة والسلام قد مر بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل اليهم فقال: هل مر بكم أحد قالوا: يارسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبى على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك جبريل عليه السلام بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم ولما أتاهم ﷺ نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنا وتلاحق الناس فأتى رجال من بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصلين أحد العصر الا ببنى قريظة وقد شغلهم ما لم يكن لهم منه بد فى حربهم فلما أتوا صلوها بعد العشاء فما عابهم الله تعالى بذلك فى كتابه ولا عنفهم رسوله عليه الصلاة والسلام ٭

وحاصرهم صلى الله تعالى عليه وسلم خمسة وعشرين ليلة، وقيل: احدى وعشرين، وقيل: خمس عشرة وجهدهم الحصار وخافوا أشد الخوف وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما عاهده عليه فلما أيقنوا بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب: يا معشر يهود قد نزل بكم من الامر ما ترون وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا ايها شئتم قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم انه نبى مرسل وانه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فاذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينهم فان نهلك نهلك ولم نترك

www.Quranpdf.blogspot.in

وراءنا نسلا نخشى عليه وان نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والابناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال: فان أبيتم على هذه فان الليلة ليلة السبت وانه عسى ان يكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ قال: فما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما ثم انهم بعثوا الى رسول الله ﷺ ان ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو ابن عوف. وكانوا حلفاء الاوس نستشيره فى أمرنا فارسله عليه الصلاة والسلام اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة أترى ان ننزل على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال: نعم وأشار بيده الى حلقه انه الذبح فعرف أنه قد خان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فلم يرجع الى رسول الله ﷺ وذهب الى المدينة وربط نفسه بجذع فى المسجد حتى نزلت توبته رضى الله تعالى عنه ثم انه عليه الصلاة والسلام استنزلهم فتواثب الاوس فقالوا: يارسول الله انهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى اخواننا بالأمس ماقد علمت وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع وقد كانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله اياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له فلما كلمته الاوس قال عليه الصلاة والسلام الاترضون يامعشر الاوس ان يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى قال فذاك الى سعد بن معاذ وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعله فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به صنيعة من المسلمين وقد كان رضى الله تعالى عنه قد أصيب يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة بسهم فأصاب اكحله فقطعه فدعا الله تعالى فقال: اللهم لاتمتنى حتى تقر عينى من قريظة، وروى ان بنى قريظة هم اختاروا النزول على حكم سعد ورضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فاتاه قومه وهو فى المسجد فحملوه على حمار وقد وطأوا له بوسادة من ادم وكان رجلا جسيما جميلا ثم أقبلوا معه الى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما اكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ان لا تأخذه فى الله تعالى لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الاشهل فنعى اليهم رجال بنى قريظة قبل ان يصل اليهم سعد عن كلمته التى سمع منه فلما انتهى سعد الى رسول الله عليه الصلاة والسلام والمسلمين قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «قوموا إلى سيدكم» فاما المهاجرون من قريش فقالوا: انما أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الانصار واما الانصار فيقولون: قدعم بها عليه الصلاة والسلام المسلمين فقاموا اليه فقالوا: ياأباعمرو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد: عليكم عهد الله تعالى وميثاقه ان الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم قال: وعلى من ههنا فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض برسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: نعم قال سعد: فانى أحكم فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى والنساء فكبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فحبسهم رسول الله ﷺ فى دار بنت الحرث امرأة من بنى النجار ثم خرج الى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج اليهم بها أرسالا وفيهم عدو الله تعالى حيى بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم

www.Quranpdf.blogspot.in

وهم سمائة أوسبعمائة والمستكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة وقد قالوا لكعب وهم يذهب بهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أرسالا يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع ومن ذهب منكم لا يرجع هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأتي بحيي بن أخطب عدو الله تعالى وعليه حـلة تفاحية (١) قد شقها عليه من كل ناحية قدر انملة انملة لئلا يسلبها مجموعة يداه الى عنقه بحبل فلما نظر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أما والله مالمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله تعالى يخذل ثم أقبل على الناس فقال: أيها النـاس انه لا بأس بأمر الله تعالى كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني اسرائل ثم جلس فضربت عنقه فقال فيه جبل بن جدال التغلبي :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخـذل
لجاهد حتى ابلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وروى ان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه استوهب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبير بن باطا القرظي لأنه من عليه في الجاهلية يوم بعاث فقال صلى الله تعالى عليه وسلم هو لك فاتاه فقال: ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهب لي دمك فهو لك قال: شيخ كبير فما يصنع بالحياة ولا أهل له ولا ولد؟ فاتى ثابت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله امرأته وولده قال: هم لك فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فاتى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : ماله قال: هو لك فاتاه فقال: قد أعطاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مالك فهو لك فقال أي ثابت: مافعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتمرأ فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن شموال؟ قال: قتل قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال: قتلوا قال: فاني أسألك ياثابت بيدي عندك الا ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله تعالى قتلة ذكر ناصح حتى القى الاحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه فلما بلغ أبا بكر رضي الله تعالى عنه قوله: ألقى الاحبة قال: يلقاهم والله في جهنم خالدين فيها مخلدين ، واستوهبت سلمى بنت أقيس أم المنذر أخت سليط بن قيس وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد صلت معه القبلتين وبايعته مبايعة النساء رفاعة بن شموال القرظي وقالت : بأبي انت وأمي يانبي الله هب لي رفاعة فانه زعم أنه سيصل ويأكل لحم الجمـل فوهبه عليه الصلاة والسلام لها فاستحيته. وقتل منه كل من انبت من الذكور ، واما النساء فلم يقتل منهم الا امرأة يقال لها لبابة زوجة الحكم القرظي وكانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته. اخرج ابن اسحق عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : والله ان هذه الامرأة لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله ﷺ يقتل رجالها بالسيوف اذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت: أنا والله قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته فانطلق بها فضربت عنقها فكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: فوالله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل، ثم ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قسم

(١) قال ابن هشام تفاحية ضرب من الوشي اهـ منه

www.Quranpdf.blogspot.in

أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس وكان للفرس سهمان وللفارس سهم وللراجل الذى ليس له فرس سهم، وكانت الخيل فى تلك الغزوة ستة وثلاثين فرسا وهو أول فىء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس على ما ذكر ابن اسحق، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الانصارى أخا بنى عبد الاشهل بسبايا من سبايا القوم وكانت السبايا كلها على ماقيل سبعمائة وخمسين إلى نجد فابتاع بها لهم خيلا وسلاحا وكان عليه الصلاة والسلام قد اصطفى لنفسه الكريمة من نسائهم ريحانة بنت عمرو وكانت فى ملكه ﷺ حتى توفى، وقد كان عليه الصلاة والسلام عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت: يارسول الله بل تتركنى فى ملك فهو أخف على وعليك فتركها ﷺ وكانت حين سباها قد أبت الا اليهودية فعزلها عليه الصلاة والسلام ووجد فى نفسه لذلك فبينما هو صلى الله تعالى عليه وسلم مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: ان هـذا لنعلا ابن شعبة جاء يبشرنى باسلام ريحانة فجاءه فقال: يارسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك من أمرها ، وكان الفتح على ما فى البحر فى آخر ذى القعدة وهذه الغزوة وغزوة الخندق كانتا فى سنة واحدة كما يدل عليه ما ذكرناه أول القصة وهو الصحيح خلافا لمن قال: ان كلا منهما فى سنة، ولما انقضى شأن بنى قريظة انفجر لسعد رضى الله تعالى عنه جرحه فمات شهيدا ، وقد استبشرت الملائكة عليهم السلام بروحه واهتزله العرش ، وفى ذلك يقول رجل من الانصار:

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به الا لسعد أبى عمرو

واستشهد يوم بنى قريظة على ما روى عن ابن اسحق من المسلمين ثم من بنى الحرث بن الخزرج خلاد بن سويد ابن ثعلبة بن عمرو طرحت عليه رحا فشدخته شدخا شديدا ، وذكروا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن له لأجر شهيدين ، ومات أبو سنان بن محصن بن حرثان أخو بنى أسد بن خزيمة ورسول الله عليه الصلاة والسلام محاصر بنى قريظة فدفن فى مقبرتهم التى يدفنون فيها اليوم واليه دفنوا ، وتاهم فى الاسلام ، وتمام الكلام فيما وقع فى هذه الغزوة فى كتب السير ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ عطف على قوله سبحانه وتعالى: (أنزل) الخ ، والمراد بأرضهم مزارعهم، وقدمت لكثرة المنفعة بها من النخل والزروع ، وفى قوله عز وجل: (أورثكم) إشعار بأنه انتقل اليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين وأن ملكهم اياه ملك قوى ليس بعقد يقبل الفسخ أو الاقالة ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ أى حصونهم ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم التى اشتملت عليها أرضهم وديارهم. أخرج ابن أبى شيبة. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم عن قتادة من خبر طويل أن سعدا رضى الله تعالى عنه حكم كما حكم بقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم بأن أعقارهم للمهاجرين دون الانصار فقال قومه. أتؤثر المهاجرين بالاعقار علينا ؟ فقال: انكم ذوو أعقار وان المهاجرين لا أعقار لهم ، وأمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حكمه.

وفى الكشاف روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: انكم فى منازلكم ، وقال عمر رضى الله تعالى عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال: لا إنما جعلت هذه لى طعمة دون الناس قال: رضينا بما صنع الله تعالى ورسوله ﷺ.

www.Quranpdf.blogspot.in

وذكر الجلال السيوطي أن الخبر رواه الواقدي من رواية خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت : لما غنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بني النضير جعل الحديث ، ومن طريق المسور بن رفاعة قال : فقال عمر يارسول الله الا تخمس ما أصيب من بني النضير الحديث اه ، وعليه لايحسن من الزمخشري ذكره ههنا مع أن الآيات عنده في شأن بني قريظة ، وسيأتي الكلام فيما وقع لبني النضير في تفسير سورة الحشر إن شاء الله تعالى ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا ﴾ قال مقاتل ، ويزيد بن رومان . وابن زيد : هي خيبر فتحت بعد بني قريظة ، وقال قتادة : كان يتحدث انها مكة ، وقال الحسن : هي ارض الروم وفارس ، وقيل : اليمن ، وقال عكرمة : هي ما ظهر عليها المسلمون الى يوم القيامة واختاره في البحر ، وقال عروة : لا أحسبها الا كل ارض فتحها الله تعالى على المسلمين او هو عز وجل فاتحها الى يوم القيامة ، والظاهر ان العطف على (أرضهم) واستشكل بأن الارث ماض حقيقة بالنسبة الى المعطوف عليه ومجازاً بالنسبة الى هذا المعطوف . وأجيب بأنه يراد بأورثكم أورثكم في علمه وتقديره وذلك متحقق فيما وقع من الارث كأرضهم وديارهم واموالهم وفيما لم يقع بعد كارث ما لم يكن مفتوحا وقت نزول الآية . وقدر بعضهم اورثكم في جانب المعطوف مراداً به يورثكم إلا انه عبر بالماضي لتحقق الوقوع والدليل المذكور ، واستبعد دلالة المذكور عليه لتخالفهما حقيقة ومجازاً .

وقيل . الدليل ما بعد من قوله تعالى : (وكان الله) الخ ، ثم اذا جعلت الأرض شاملة لما فتح على ايدي الحاضرين ولما فتح على ايدي غيرهم ممن جاء بعدهم لايخص الخطاب الحاضرين كما لايخفى . ومن بدع التفاسير انه اريد بهذه الأرض نساؤهم ، وعليه لايتوهم اشكال في العطف . وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما (لم تطوها) بحذف الهمزة أبدل همزة تطأ الفا على حد قوله :

إن السباع لتهدى في مرابضها والناس لايهتدى من شرهم أبداً

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت كقولك لم تروها ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ٢٧ ﴾ فهو سبحانه قادر على أن يملككم ما شاء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى السعة والتنعم فيها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ اى زخرفها وهو تخصيص بعد تعميم ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ اى أقبلن بارادة تكن واختياركن لاحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني ، واصل تعال امر بالصعود لمكان عال ثم غلب في الامر بالمجيء مطلقا والمراد به ههنا ماسمعت ، وقال الراغب : قال بعضهم إن اصله من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاء إلى ما فيه رفعة كقولك : افعل كذا غير صاغر تشريفا للمقول له ، وهذا المعنى غير مراد هنا كما لايخفى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ اى اعطكن متعة الطلاق ، والمتعة للمطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد واجبة عند الامام ابي حنيفة رضي الله تعالى عنه واصحابه ، ولسائر المطلقات مستحبة ، وعن الزهري متعتان احداهما يقضي بها السلطان ويجبر عليها من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها والثانية حق على المتقين من طلق بعد ما فرض ودخل . وخاصمت أمرأة الى شريح في المتعة فقال : متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره ، وعن سعيد بن جبير المتعة حق مفروض ، وعن الحسن لكل مطلقة متعة الا المختلعة والملاعنة ، والمتعة درع وخمار وملحفة على حسب السعة والاقتار الا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فيجب لها الاقل منهما ولا

www.Quranpdf.blogspot.in

ينقص من خمسة دراهم لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها كذا في الكشاف ، وتمام الكلام في الفروع ، والفعل مجزوم على أنه جواب الأمر وكذا قوله تعالى : ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ وجوز أن يكون الجزم على أنه جواب الشرط ويكون (فتعالين) اعتراضا بين الشرط وجزائه ، والجملة الاعتراضية قد تقترن بالفاء كما في قوله :

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقرأ حميد الخزاز (أمتعكن وأسرحكن) بالرفع على الاستئناف، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما (أمتعكن) بالتخفيف من أمتع ، والتسريح في الأصل مطلق الارسال ثم كني به عن الطلاق أي وأطلقكن ﴿ سَرَاحاً ﴾ أي طلاقا ﴿ جَمِيلاً ٢٨ ﴾ أي ذا حسن كثير بأن يكون سنيا لاضرار فيه كما في الطلاق البدعي المعروف عند الفقهاء . وفي مجمع البيان تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة ، وكان الظاهر تأخير التمتيع عن التسريح لما أنه مسبب عنه إلا أنه قدم عليه ايناسا لهن وقطعا لمعاذيرهن من أول الأمر ، وهو نظير قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) مروجه ولأنه مناسب لما قبله من الدنيا : وجوز أن يكون في محله بناء على أن إرادة الدنيا بمنزلة الطلاق والسراح الاخراج من البيوت فكأنه قيل : إن أردتن الدنيا وطلقتن فتعالين أعطكن المتعة وأخرجكن من البيوت إخراجا جميلا بلا مشاجرة ولا ايذاء ، ولا يخفى بعده وسبب نزول الآية على ما قيل : إن أزواجه عليه الصلاة والسلام سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة .

وأخرج أحمد . ومسلم . والنسائي . وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر قال . أقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر : لأكلمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعله يضحك فقال : يارسول الله لو رأيت ابنة زيد يعني امرأته رضي الله تعالى عنه سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدا ناجذه وقال : هن حولي سألنني النفقة فقام أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضي الله تعالى عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماليس عنده فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ماليس عنده . وأنزل الله تعالى الخيار فبدأ بعائشة فقال عليه الصلاة والسلام : إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت : ماهو ؟ فتلا عليها (ياأيها النبي قل لأزواجك) الآية قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسألك أن لاتذكر لامرأة من نسائك مااخترت فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله تعالى لم يبعثني متعنتا ولكن بعثني معلما مبشرا لا تسألني امرأة منهن عما أخبرتني إلا أخبرتها ، وفي خبر رواه ابن جرير . وابن أبي حاتم عن قتادة . والحسن أنه لما نزلت آية التخيير كان تحته عليه الصلاة والسلام تسع نسوة خمس من قريش : عائشة . وحفصة . وأم حبيبة بنت أبي سفيان . وسودة بنت زمعة . وأم سلمة بنت أبي أمية وكان تحته صفية بنت حيي الخيبرية . وميمونة بنت الحرث الهلالية . وزينب بنت جحش الأسدية . وجويرية بنت الحرث من بني المصطلق وبدأ بعائشة فلما اختارت الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والدار الآخرة رؤي الفرح في

www.Quranpdf.blogspot.in

وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتتابعن كلهن على ذلك فلما خيرهن واخترن الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام والدار الآخرة شكرهن الله جل شأنه على ذلك إذ قال سبحانه : (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) فقصره الله تعالى عليهن وهن التسع اللاتى اخترن الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ه

وأخرج ابن سعد عن عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أنه صلى الله تعالى عليه وسلم خير نساءه فاخترن جميعاً الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام غير العامرية اختارت قومها فكانت بعد تقول : أنا الشقية وكانت تلقط البعر وتبيعه وتستأذن على أزواج النبي ﷺ فتقول : أنا الشقية ٭

وأخرج أيضا عن ابن جناح قال : اخترنه جميعا غير العامرية كانت ذاهبة العقل حتى ماتت . وجاء فى بعض الروايات عن ابن جبير غير الحيرية وهى العامرية ، وكان هذا التخيير كما روى عن عائشة . وأبى جعفر بعد أن هجرهن عليه الصلاة والسلام شهرا تسعة وعشرين يوما . وفى البحر أنه لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة ظن أزواجه عليه الصلاة والسلام أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يارسول الله بنات كسرى . وقيصر فى الحلى والحلل والاماء والخول ونحن على ماتراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال وان يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم فامره الله تعالى بان يتلو عليهن مانزل فى أمرهن ، وما أحسن موقع هذه الآيات على هذا بعد انتهاء قصة الأحزاب وبنى قريظة كما لايخفى ، ويفهم من كلام الامام أنها متعلقة باول السورة ، وذلك أن مكارم الأخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه عز وجل فبدأ سبحانه بارشاد حبيبه عليه الصلاة والسلام إلى ما يتعلق بجانب التعظيم له تعالى فقال سبحانه : (ياأيها النبي اتق الله) الخ ثم أرشده سبحانه إلى ما يتعلق بجانب الشفقة ، وبدأ بالزوجات لأنهن أولى الناس بذلك ، وقدم سبحانه الشرطية المذكورة على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخ لأن سبب النزول ماسمعت ه

وقال الامام : إن التقديم اشارة الى أن النبي ﷺ غير ملتفت الى الدنيا ولذاتها غاية الالتفات ، وذكر ان فى وصف السراح بالجميل اشارة إلى ذلك أيضا ، ومعنى (إن كنتن تردن الله ورسوله) ان كنتن تردن رسول الله وإنما ذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى ﴿ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى نعيمها الباقى الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ ﴾ أى هيأ ويسر ﴿ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ ﴾ بمقابلة احسانهن ﴿ أَجْرًا ﴾ لاتحصى كثرته ﴿ عَظِيمًا ٢٩ ﴾ لاتستقصى عظمته ، و(من) للتبيين لأن كلهن كن محسنات ه

وقيل : ويجوز فيه التبعيض على أن المحسنات المختارات لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم واختيار الجميع لم يعلم وقت النزول ، وهو على ما قال الخفاجى عليه الرحمة بعيد ، وجواب (إن) فى الظاهر ما قرن بالفاء إلا أنه قيل الماضى فيه بمعنى المضارع الدال على الاستقبال والتعبير به دونه لتحقق الوقوع ، وقيل : الجواب محذوف نحو تثبن أو تنلن خيرا وما ذكر دليله ، وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى

www.Quranpdf.blogspot.in

التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه، قيل: وهو السر في تقديم التمتيع على التسريح ووصف التسريح بالجميل *

هذا واختلف فيما وقع من التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا فذهب الحسن. وقتادة وأكثر أهل العلم (١) على مافي إرشاد العقل السليم وهو الظاهر إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييرا لهن بين الارادتين على أنهن ان أردن الدنيا فارقهن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما ينبيء عنه قوله تعالى: (فتعالين أمتعكن وأسرحكن) وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضا للطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا، وكذا اختلف في حكم التخيير بأن يقول الرجل لزوجته اختاري فتقول اخترت نفسي أو اختاري نفسك فتقول اخترت فعن زيد بن ثابت انه يقع الطلاق الثلاث وبه اخذ مالك في المدخول بها وفي غيرها يقبل من الزوج دعوى الواحدة، وعن عمر. وابن عباس. وابن مسعود انه يقع واحدة رجعية وهو قول عمر بن عبد العزيز. وابن أبي ليلى. وسفيان. وبه اخذ الشافعي. واحمد وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه يقع واحدة بائنة، وروى ذلك الترمذي عن ابن مسعود، وأيضا عن عمر رضي الله تعالى عنهما، وبذلك أخذ ابو حنيفة عليه الرحمة، فان اختارت زوجها فعن زيد بن ثابت انه تقع طلقة واحدة وعن علي كرم الله تعالى وجهه روايتان احداهما انه تقع واحدة رجعية والأخرى أنه لا يقع شيء اصلا وعليه فقهاء الامصار *

وذكر الطبرسي ان المروي عن أئمة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين اختصاص التخيير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأما غيره عليه الصلاة والسلام فلا يصح له ذلك. واختلف في مدة ملك الزوجة الاختيار إذا قال لها الزوج ذلك فقيل: تملكه ما دامت في المجلس وروى هذا عن عمر. وعثمان. وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم. وبه قال جابر بن عبد الله. وجابر بن زيد. وعطاء. ومجاهد. والشعبي. والنخعي. ومالك. وسفيان. والاوزاعي. وأبو حنيفة. والشافعي. وأبو ثور، وقيل: تملكه في المجلس وفي غيره وهو قول الزهري. وقتادة. وأبي عبيدة. وابن نصر وحكاه صاحب المغني عن علي كرم الله تعالى وجهه *

وفي بلاغات محمد بن الحسن أنه كرم الله تعالى وجهه قائل بالاقتصار على المجلس كقول الجماعة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وتمام الكلام في هذه المسئلة وما لكل من هذه الأقوال وما عليه يطلب من كتب الفروع كشروح الهداية وما يتعلق بها بيد أني أقول: كون ما في الآية هو المسئلة المذكورة في الفروع التي وقع الاختلاف فيها مما لا يكاد يتسنى، وتأول الخفاجي استدلال من استدل بها في هذا المقام بما لا يخلو عن كلام عند ذوي الافهام. هذا وذكر الامام في الكلام على تفسير هذه الآية عدة مسائل. الأولى أن التخيير منه صلى الله تعالى عليه وسلم قولا كان واجبا عليه عليه الصلاة والسلام بلا شك لأنه ابلاغ الرسالة، وأما معنى فكذلك على القول بأن الأمر للوجوب. الثانية أنه لو أردن كلهن أو احداهن الدنيا فالظاهر نظرا إلى منصب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يجب عليه التمتيع والتسريح لأن الخلف في الوعد منه عليه الصلاة والسلام غير جائز. الثالثة أن الظاهر أنه لا تحرم المختارة بعد البينونة على غيره عليه الصلاة والسلام والا لا يكون التخيير ممكنا من التمتع بزينة الدنيا. الرابعة أن الظاهر أن من اختارت الله تعالى ورسوله

---

(١) ومنهم ابن الهمام اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

صلى الله تعالى عليه وسلم يحرم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نظرا إلى منصبه الشريف طلاقها والله تعالى أعلم *

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ ﴾ تلوين للخطاب و توجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن و نداؤهن ههنا وفيما بعد بالاضافة اليه عليه الصلاة والسلام لأنها التى يدور عليها مايرد عليهن من الاحكام، واعتبار كونهن نساء فى الموضعين ابلغ من اعتبار كونهن أزواجا كما لايخفى على المتأمل ﴿ مَنْ يَأْتِ ﴾ بالياء التحتية حملا على لفظ (من)، وقرأ زيد ابن على رضى الله تعالى عنهما. والجحدرى. وعمرو بن قائد الاسوارى ويعقوب بالتاء الفوقية حملا على معناها ﴿ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ ﴾ بكبيرة ﴿ مُبَيِّنَةٍ ﴾ ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين، وقرأ ابن كثير. وأبو بكر مبينة بفتح الياء والمراد بها على ماقيل: كل مايقترف من الكبائر، وأخرج البيهقى فى السنن عن مقاتل بن سليمان أنها العصيان للنبى ﷺ، وقيل: ذلك وطلبهن مايشق عليه عليه الصلاة والسلام أو مايضيق به ذرعه ويغتم ﷺ لأجله *

ومنع فى البحر ان يراد بها الزنا قال: لأن النبى ﷺ معصوم من ارتكاب نسائه ذلك ولأنه وصفت الفاحشة بالتبين والزنا مما يتستر به ومقتضاه منع ارادة الاعم ثم قال. وينبغى أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته، ولا يخلو كلامه عن بحث والامام فسرها به، وجعل الشرطية من قبيل (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث أن ذلك يمكن الوقوع فى أول النظر ولا يقع جزما فان الانبياء صان الله تعالى زوجاتهم عن ذلك، وقد تقدم بعض الكلام فى هذه المسئلة فى سورة النور وسيأتى إن شاء الله تعالى طرف مما يتعلق بها أيضا ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ يوم القيامة على ماروى عن مقاتل اوفيه، وفى الدنيا على ماروى عن قتادة ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه فان مكث غيرهن ممن اتى بفاحشة مبينة فى النار يوما مثلا مكثن هن لو أتين بمثل ما أتى يومين، وإن وجب على غيرهن حد لفاحشة وجب عليهن لو أتين بمثلها حدان، وقال أبو عمرو. وابو عبيدة فيما حكى الطبرى عنهما الضعفان أن يجعل الواحدة ثلاثة فيكون عليهن ثلاثة حدود او ثلاثة امثال عذاب غيرهن، وليس بذاك، وسبب تضعيف العذاب ان الذنب منهن أقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه وتلك ظاهرة فيهن ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الامم وكذا حال العالم بالنسبة إلى الجاهل فليس من يعلم كمن لايعلم، وروى عن زين العابدين رضى الله تعالى عنه أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما اجرى الله تعالى فى ازواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسننا ضعفين من الاجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى تليها، وقرأ الحسن. وعيسى. وأبو عمرو (يضعف) بالياء التحتية مبنياً للمفعول بلا ألف والجحدرى. وابن كثير. وابن عامر (نضعف) بالنون مبنياً للفاعل بلا ألف أيضاً وزيد بن على. وابن محيصن. وخارجة عن أبى عمرو (نضاعف) بالنون والالف والبناء للفاعل وفرقة (يضاعف) بالياء والالف والبناء للفاعل، وقرأ (العذاب) بالرفع من قرأ بالبناء للمفعول وبالنصب من قرأ بالبناء للفاعل ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى تضعيف العذاب عليهن ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى سهلا لا يمنعه جل شأنه عنه كونهن نساء النبى ﷺ بل هو سبب له *

﴿ تم بحمد الله الجزء الحادى والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى والعشرون واوله (ومن يقنت منكن) ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ ﴾ أى ومن تخشع وتخضع ﴿ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ ﴾ عملا ﴿ صَالِحًا ﴾ كصلاة وصوم وحج وإيتاء زكاة وهذا العمل غير القنوت لله تعالى على ماسمعت من تفسيره فلا تكرار، وفسره بعضهم بالطاعة ودفع التكرار بأن المراد (ومن يقنت منكن) لرسول الله (وتعمل صالحا) لله تعالى، وذكر الله إنما هو لتعظيم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بجعل طاعته غير منفكة عن طاعة الله عز وجل، وبعضهم بماذكر أيضا إلا أنه دفع التكرار بأن المراد بالعمل الصالح الخدمة الحسنة والقيام بمصالح البيت لانحو الصلاة والصيام وبالطاعة المفسر بها القنوت امتثال الاوامر واجتناب النواهى، وفسره بعضهم بدوام الطاعة فقيل فى دفع التكرار نحو ما مر، وقيل: المراد به الدوام على الطاعة السابقة وبالعمل الصالح العبادات التى يكلفن بها بعد *

وقيل: القنوت السكوت كما قيل ذلك فى قوله تعالى: (وقوموا لله قانتين) والمراد به ههنا السكوت عن طلب مالم يأذن الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم لهن به من زيادة النفقة وثياب الزينة، وقيل غير ذلك *

﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا ﴾ الذى تستحقه على ذلك فضلا وكرما ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ فيكون أجرها مضاعفا وهذا فى مقابلة يضاعف لها العذاب ضعفين *

أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس أنه قال فى حاصل معنى الآيتين: إنه من عصى منكن فانه يكون العذاب عليها الضعف منه على سائر نساء المؤمنين ومن عمل صالحا فان الاجر لها الضعف على سائر نساء المسلمين، ويستدعى هذا أنه اذا أثيب نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها أثبن هن على الحسنة بعشرين مثلا لها وإن زيد للنساء على العشر شىء زيد لهن ضعفه، وكأنه والله تعالى أعلم انما قيل (نؤتها أجرها مرتين) دون يضاعف لها الاجر كما قيل فى المقابل (يضاعف لها العذاب ضعفين) لأن أصل تضعيف الأجر ليس من خواصهن بل كل من عمل صالحا من النساء والرجال من هذه الامة يضاعف أجره فأخرج الكلام مغايرا لما تقتضيه المقابلة رمزا إلى أن تضعيف الاجر على طرز مغاير لطرز تضعيف العذاب مع تضمن الكلام المذكور الاشارة إلى مزيد تكريمهن ووفور الاعتناء بهن فان الاحسان المكرر أحلى، ومن تأمل فى الجملتين ظهر له تغليب جانب الرحمة على جانب الغضب وكفى بالتصريح بفاعل ايتاء الأجر وجعله ضمير العظمة والتعبير عما يؤتون من النعيم بالاجر مع اضافته الى ضميرهن مع خلو جملة تضعيف العذاب عن مثل ذلك شهداء على ماذكر، ثم ان تضعيف أجرهن لمزيد كرامتهن رضى الله تعالى عنهن على الله عز وجل بما من به عليهن من النسبة إلى خير البرية عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التحية، والظاهر أن ذلك ليس بالنسبة الى أعمالهن الصالحة التى عملنها فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم فقط بل يضاعف أجرهن عليها وعلى الاعمال الصالحة التى يعملنها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال بعض الاجلة : إن هاتين المرتين احداهما على الطاعة والأخرى على طلبهن رضاء النبي ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ، وجعل فى البحر وغيره سبب التضعيف هذا الطاب وتلك الطاعة ، ولا يخفى أن ما ذكروه هو لعدم التضعيف بالنسبة لما فعلوه من العمل الصالح بعد وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعض المدققين : أراد من جعل سبب مضاعفة أجورهن ما ذكر التطبيق على لفظ الآية حيث جعل القنوت لله ولرسوله مع ما تلاه سببا ويدمج فيه أن مضاعفة العذاب انما نشأت من أن النشوز مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب ما يشق عليه ليس كالنشوز مع سائر الازواج ولذلك اقتضى مضاعفة العذاب وكذلك طاعته وحسن التخلق معه والمعاشرة على عكس ذلك فهذا يؤكد ما قالوا من أن سبب تضعيف العذاب زيادة قبح الذنب منهن وفيه أن العكس يوجب العكس فتأمل *

وقال بعض المفسرين : العذاب الذى توعد به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة وكذلك الأجر فالمرتان احداهما فى الدنيا وثانيتهما فى الأخرى ، ولا يخفى ضعفه . وقرأ الجحدري . والاسواري . ويعقوب فى رواية . وكذا ابن عامر (ومن تقنت) بتاء التأنيث حملا على المعنى . وقرأ السلمي . وابن وثاب . وحمزة . والكسائي بياء من تحت فى الافعال الثلاثة على أن فى (يؤتها) ضمير اسم الله تعالى ، وذكر أبو البقاء أن بعضهم قرأ (ومن تقنت) بالتاء من فوق حملا على المعنى (ويعمل) بالياء من تحت حملا على اللفظ فقال بعض النحويين : هذا ضعيف لأن التذكير أصل فلا يجعل تبعا للتأنيث وما عللوه به قد جاء مثله فى القرآن وهو قوله تعالى (خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) انتهى فتذكر ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا ﴾ فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف ﴿ رِزْقًا كَرِيمًا ٣١ ﴾ عظيم القدر رفيع الخطر مرضيا لصاحبه ، وقيل الرزق الكريم ما يسلم من كل آفة *

وجوز ابن عطية أن يكون فى ذلك وعد دنياوى أى ان رزقها فى الدنيا على الله تعالى وهو كريم من حيث هو حلال وقصد برضا من الله تعالى فى نيله ، وهو كما ترى ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ذهب جمع من الرجال إلى أن المعنى ليس كل واحدة منكن كشخص واحد من النساء أى من نساء عصركن أى ان كل واحدة منكن أفضل من كل واحدة منهن لما امتازت بشرف الزوجية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمومة المؤمنين ـ فأحد ـ باق على كونه وصف مذكر الا أن موصوفه محذوف ولا بد من اعتبار الحذف فى جانب المشبه كما أشير اليه ، وقال الزمخشري : أحد فى الاصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه ، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء أى اذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة ، وقد استعمل بمعنى المتعدد أيضا فى قوله تعالى (ولم يفرقوا بين أحد منهم) لمكان (بين) المقتضية للدخول على متعدد . وحمل أحد على الجماعة على ما فى الكشف ليطابق المشبه ، والمعنى على تفضيل نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على نساء غيره لا النظر إلى تفضيل واحدة على واحدة من آحاد النساء فان ذلك ليس مقصودا من هذا السياق ولا يعطيه ظاهر اللفظ *

وكون ذلك أبلغ لما يلزم عليه تفضيل جماعتهن على كل جماعة ولا يلزم ذلك تفضيل كل واحدة على كل واحدة من آحاد النساء لو سلم لكان إذا ساعده اللفظ والمقام ، واعترضه أيضا بعضهم بأنه يلزم عليه أن يكون كل واحدة من نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من فاطمة رضى الله تعالى عنها مع أنه ليس كذلك *

www.Quranpdf.blogspot.in

وأجيب عن هذا بانه لامانع من التزامه الا أنه يلتزم كون الأفضلية من حيث أمومة المؤمنين والزوجية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا من سائر الحيثيات فلا يضر فيه كون فاطمة رضي الله تعالى عنها أفضل من كل واحدة منهن لبعض الحيثيات الأخر بل هي من بعض الحيثيات كحيثية البضعية أفضل من كل من الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، نعم أورد على ما فى الكشاف أن أحد الموضوع فى النفى العام همزته أصلية غير منقلبة عن الواحد وقد نص على ذلك أبو على، وخالف فيه الرضى فنقل عنه أن همزة أحد فى كل مكان بدل من الواو، والمشهور التفرقة بين الواقع فى النفى العام والواقع فى الاثبات بأن همزة الأول أصلية وهمزة الثانى منقلبة عن الواو. وفى العقد المنظوم فى ألفاظ العموم للفاضل القرافى قد أشكل هذا على كثير من الفضلاء لأن اللفظين صورتهما واحدة ومعنى الوحدة يتناولهما والواو فيهما أصلية فيلزم قطعا انقلاب ألف أحد مطلقا عنها وجعل ألف أحدهما منقلبا دون الف الآخر تحكم، وقد اطلعنى الله تعالى على جوابه وهو أن أحد الذى لا يستعمل الا فى النفى معناه انسان باجماع أهل اللغة وأحد الذى يستعمل فى الاثبات معناه الفرد من العدد فاذا تغاير مسماهما تغاير اشتقاقهما لأنه لا بد فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى ولا يكفى فيه أحدهما، فاذا كان المقصود به الانسان فهو الذى لا يستعمل إلا فى النفى وهمزته أصلية، وإن قصد به العدد ونصف الاثنين فهو الصالح للإثبات والنفى وألفه منقلبة عن واو اه، ولا يخفى أنه إذا سلم الفرق المذكور ينبغى أن تكون الهمزة هنا أصلية، وإلى أن همزة الواقع فى النفى أصلية ذهب أبو حيان فقال: إن ماذكره الزمخشرى من قوله: ثم وضع فى النفى العام الخ غير صحيح لأن الذى يستعمل فى النفى العام مدلوله غير مدلول واحد لأن واحدا ينطلق على كل شىء اتصف بالوحدة وأحد المستعمل فى النفى العام مخصوص بمن يعقل وذكر النحويون أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى واحد أصله واو وحاء ودال فقد اختلفا مادة ومدلولا ه

وذكر أن ما فى قوله تعالى: (لانفرق بين أحد من رسله) يحتمل أن يكون الذى للنفى العام ويحتمل أن يكون بمعنى واحد، ويكون قد حذف معطوف أى بين واحد وواحد من رسله كما قال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالما ... أبو حجر إلا ليال قلائل

وقال الراغب: أحد يستعمل على ضربين فى النفى لاستغراق جنس الناطقين، ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد نحو ما فى الدار أحد أى لا واحد ولا اثنان فصاعدا لامجتمعين ولا مفترقين، وهذا المعنى لا يمكن فى الاثبات لأن نفى المتضادين يصح، ولا يصح اثباتهما، فلو قيل فى الدار أحد لكان إثبات أحد منفرد مع إثبات مافوق الواحد مجتمعين ومتفرقين وهو بين الاحالة ولتناوله مافوق الواحد صح نحو (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وفى الاثبات على ثلاثة أوجه، استعماله فى الواحد المضموم إلى العشرات كأحد عشر وأحد وعشرين، واستعماله مضافا أو مضافا اليه بمعنى الأول نحو (أما أحدكما فيسقى) وقولهم يوم الأحد، واستعماله وصفا وهذا لا يصح إلا فى وصفه تعالى شأنه، أما أصله ـ أعنى وحد ـ فقد يستعمل فى غيره سبحانه كقول النابغة:

كأن رحلى وقد زال النهار بنا ... بذى الجليل على مستأنس وحد

انتهى

وهو محتمل لدعوى انقلاب همزته عن واو مطلقا ولدعوى انقلابها عنها فى الاستعمال الأخير *

www.Quranpdf.blogspot.in

ولا يخفى على المنصف أن كون المعنى فى الآية ماذكره الزمخشرى أظهر، وتفضيل كل واحدة من نسائه صلى الله تعالى عليه وسلم على كل واحدة واحدة من سائر النساء لايلزم أن يكون لهذه الآية بل هو لدليل آخر إما عقلى أو نص مثل قوله تعالى: (وأزواجه أمهاتهم) وقيل يجوز أن يكون ذلك لها فانها تفيد بحسب عرف الاستعمال تفضيل كل منهن على سائر النساء لأن فضل الجماعة على الجماعة يكون غالبا لفضل كل منها *

﴿ان اتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء وجوابه محذوف دل عليه المذكور والاتقاء بمعناه المعروف فى لسان الشرع، والمفعول محذوف أى ان اتقيتن مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك ومثله شائع أو هو على ظاهره والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل اليه النساء لبعده من مقامهن بمنزلة الخروج من التقوى أو شرط جوابه قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ والاتقاء بمعناه الشرعى أيضا، وفى البحر أنه بمعنى الاستقبال أى ان استقبلتن أحدا فلا تخضعن، وهو بهذا المعنى معروف فى اللغة قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد

أى استقبلتنا باليد، ويكون هذا المعنى أبلغ فى مدحهن إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ولا علق نهيهن عن الخضوع بها إذ هن متقيات لله تعالى فى أنفسهن، والتعليق يقتضى ظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى، وفيه ان اتقى بمعنى استقبل وإن كان صحيحا لغة، وقد ورد فى القرآن كثيرا كقوله تعالى: (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب) إلا أنه لايتأتى ههنا لأنه لايستعمل فى ذلك المعنى إلا مع المتعلق الذى تحصل به الوقاية، كقوله سبحانه: (بوجهه) وقول النابغة باليد وما استدل به أمره سهل، وظاهر عبارة الكشاف اختيار كون (إن اتقيتن) شرطا جوابه فلا تخضعن، وفسر (ان اتقيتن) بأن أردتن التقوى وإن كنتن متقيات مشيرا بذلك إلى أنه لابد من تجوز فى الكلام لأن الواقع أن المخاطبات متقيات فاما أن يكون المقصود الأولى المبالغة فى النهى فيفسر بان أردتن التقوى، وإما أن يكون المقصود التهييج والإلهاب، فيفسر بان كنتن متقيات فليس فى ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز كما توهم، وقد قرر ذلك فى الكشف، ومعنى لاتخضعن بالقول لاتجبن بقولكن خاضعا أى لينا خنثا على سنن كلام المريبات والمومسات، وحاصله لاتلن الكلام ولا ترققنه، وهذا على ماقيل فى غير مخاطبة الزوج ونحوه كمخاطبة الأجانب وإن كن محرمات عليهم على التأبيد *

روى عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلمت أجنبيا تغير صوتها بذلك خوفا من أن يسمع رخيما لينا، وعد إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء جاهلية وإسلاما، كما عد منها بخلهن بالمال وجبنهن، وماوقع فى الشعر من مدح العشيقة برخامة الصوت وحسن الحديث ولين الكلام فمن باب السفه كما لايخفى. وعن الحسن أن المعنى لاتكلمن بالرفث، وهو كما ترى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أى فجور وزنا، وبذلك فسره ابن عباس وأنشد قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض

والمراد نية أو شهوة فجور وزنا، وعن قتادة تفسيره بالنفاق، وأخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم عن زيد بن على رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: المرض مرضان فمرض زنا ومرض نفاق، ونصب (يطمع)

www.Quranpdf.blogspot.in

فى جواب النهى. وقرأ أبان بن عثمان . وابن هرمز (فيطمع) بالجزم وكسر العين لالتقاء الساكنين وهو عطف على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول كأنه قيل : فلا تخضعن بالقول فلا يطمع الذى فى قلبه مرض ، وقال أبو عمرو الدانى : قرأ الأعرج . وعيسى (فيطمع) بفتح الياء وكسر الميم ، ونقلها ابن خالويه عن أبى السمال . قال : وقد روى ذلك عن ابن محيصن ، وذكر أن الأعرج وهو ابن هرمز قرأ (فيطمع) بضم الياء وفتح العين وكسر الميم أى فيطمع هو أى الخضوع بالقول . و (الذى) مفعول أو الذى فاعل والمفعول محذوف أى فيطمع الذى فى قلبه مرض نفسه ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً معروفاً ٣٢ ﴾ حسنا بعيدا عن الريبة غير مطمع لأحد ، وقال الكلبى : أى صحيحا بلا هجر ولا تمريض ، وقال الضحاك : عنيفا ، وقيل أى قولا أذن لكم فيه ، وقيل ذكر الله تعالى وما يحتاج اليه من الكلام ﴿ وَقَرْنَ فى بيوتكن ﴾ من قر يقر من باب علم أصله اقررن فحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ما قبلها وحذفت الهمزة للاستغناء عنها بتحرك القاف * وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب التبيان وجها آخر قال : قار يقار إذا اجتمع ومنه القارة لاجتماعها ، ألا ترى إلى قول عضل والديش : اجتمعوا فكونوا قارة فالمعنى واجمعن أنفسكن فى البيوت *

وقرأ الأكثر (وقرن) بكسر القاف من وقر يقر وقارا إذا سكن وثبت ، وأصله اوقرن ففعل به مافعل بعدن من وعد أو من قر يقر المضاعف من باب ضرب وأصله اقررن حذفت الراء الأولى وألقيت كسرتها إلى القاف وحذفت الهمزة للاستغناء عنها ، وقال مكى . وأبو على : أبدلت الراء التى هى عين الفعل ياء كراهة التضعيف ثم نقلت حركتها إلى القاف ثم حذفت لسكونها وسكون الراء بعدها وسقطت الهمزة لتحرك القاف . وهذا غاية فى التمحل ، وفى البحران قررت وقررت بالفتح والكسر كلاهما من القرار فى المكان بمعنى الثبوت فيه وقد حكى ذلك أبو عبيدة . والزجاج . وغيرهما ، وأنكر قوم منهم المازنى مجىء قررت فى المكان بالكسر أقر بالفتح وإنما جاء قرت عينه تقر بالكسر فى الماضى والفتح فى المضارع والمثبت مقدم على النافى *

وقرأ ابن أبى عبلة (واقررن) بألف الوصل وكسر الراء الأولى ، والمراد على جميع القراءات أمرهن رضى الله تعالى عنهن بملازمة البيوت وهو أمر مطلوب من سائر النساء . أخرج الترمذى . والبزار عن ابن مسعود عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فاذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان وأقرب ماتكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها *

وأخرج البزار عن أنس قال جئن النساء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلن : يارسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين فى سبيل الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام : « من قعدت منكن فى بيتها فانها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى » وقد يحرم عليهن الخروج بل قد يكون كبيرة كخروجهن لزيارة القبور إذا عظمت مفسدته وخروجهن ولو إلى المسجد وقد استعطرن وتزين إذا تحققت الفتنة أما إذا ظنت فهو حرام غير كبيرة ، ومايجوز من الخروج كالخروج للحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى ، وتعزية الأموات من الأقارب ونحو ذلك ، فانما يجوز بشروط مذكورة فى محلها * وظاهر إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات أنها كانت ملكهن وقد صرح بذلك الحافظ غلام محمد الأسلمى نور الله تعالى ضريحه فى التحفة الاثنى عشرية ، وذكر فيها أنه عليه الصلاة والسلام بنى كل حجرة لمن سكن

www.Quranpdf.blogspot.in

فيها من الأزواج وكانت كل واحدة منهن تتصرف بالحجرة الساكنة هي فيها تصرف المالك في ملكه بحضوره صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ذكر الفقهاء أن من بنى بيتا لزوجته وأقبضه إياها كان كمن وهب زوجته بيتا وسلمه اليها، فيكون البيت ملكا لها ويشهد لدعوى أن الحجرة التي كانت تسكنها عائشة رضي الله تعالى عنها كانت ملكا لها غير الاضافة في (بيوتكن) الداخل فيه حجرتها استئذان عمر رضي الله تعالى عنه لدفنه فيها منها بمحضر من الصحابة، وعدم إنكار أحد منهم حتى علي كرم الله تعالى وجهه، واستئذان الحسن رضي الله تعالى عنه منها لذلك أيضا الثابت عند أهل السنة والشيعة، كما ذكر في الفصول المهمة في معرفة الأئمة وغيره من كتبهم فان تلك الحجرة لو كانت لبيت المال لحديث «نحن معاشر الأنبياء لانورث» لاستأذن رضي الله تعالى عنه من الوزغ مروان فانه إذ ذاك كان حاكم المدينة المنورة والمتصرف في بيت المال، ولو كانت للورثة بناء على زعم الشيعة من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يورث كغيره لزم الاستئذان من سائر الأزواج أيضا لتعلق حقهن فيها على زعمهم بل يلزم الاستئذان أيضا من عصبته عليه الصلاة والسلام المستحقين لما يبقى بعد النصف والثمن إذا قلنا بتوريثهم فحيث لم يستأذن رضي الله تعالى عنه إلا منها علم أنها ملكها وحدها.

والقول بأنه علم رضا الجميع سواها رضي الله تعالى عنها فاستأذنها لذلك مما لا يقوم لهم حجة، ولهم في هذا الباب أكاذيب لا يعول عليها ولا يلتفت أريب اليها، منها أن عائشة رضي الله تعالى عنها أذنت للحسن رضي الله تعالى عنه حين استأذنها في الدفن في الحجرة المباركة، ثم ندمت بعد وفاته رضي الله تعالى عنه وركبت على بغلة لها وأتت المسجد ومنعت الدفن ورمت السهام على جنازته الشريفة الطاهرة وادعت الميراث.

وأنشأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول:

تجملت تبغلت * وإن عشت تفيلت لك التسع من الثمن * فكيف الكل ملكت

وركاكة هذا الشعر تنادي بكذب نسبته إلى ذلك الحبر رضي الله تعالى عنه، وليت شعري أي حاجة لها إلى الركوب ومسكنها كان تلك الحجرة المباركة فلو كانت بصدد المنع لاغلقت بابها ثم إنها رضي الله تعالى عنها كيف يظن بها ولها من العقل الحظ الأوفر بالنسبة إلى سائر أخواتها أمهات المؤمنين تدعي الميراث وهي وأبوها رضي الله تعالى عنهما رويا بمحضر الصحابة الذين لا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم «نحن معاشر الأنبياء لانورث» هذا، ويجوز أن تكون إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات باعتبار أنهن ساكنات فيها قائمات بمصالحها قيمات عليها، واستعمال الخاصة والعامة شائع باضافة البيوت إلى الأزواج بهذا الاعتبار والاستئذان يجوز أن يكون لانتقال كل بيت إلى ملك الساكنة فيه بعد وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة الخليفة ولي بيت المال لما رأى من المصلحة في تخصيص كل منهن بمسكنه وتركه لها على نحو الاقطاع من بيت المال، ومما يستأنس به لكون الاضافة إلى ضميرهن بهذا الاعتبار لا لكون البيوت ملكهن إضافة البيت إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غير ما أثر، بل سيأتي إن شاء الله تعالى إضافة البيوت اليه عليه الصلاة والسلام وذلك في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية وهي أحق بأن تكون الملك فليراجع هذا المطلب وليتأمل ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ التبرج على ماروي عن مجاهد. وقتادة. وابن أبي نجيح المشي بتبختر وتكسر وتغنج، وعن مقاتل أن تلقي المرأة خمارها

www.Quranpdf.blogspot.in

على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها ، وقال المبرد : أن تبدى من محاسنها مايجب عليها ستره ، قال الليث . ويقال تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ويرى مع ذلك من عينها حسن نظر ، وقال أبو عبيدة : أن تخرج من محاسنها ماتستدعى به شهوة الرجال ، وأصله على مافى البحر من البرج وهو سعة العين وحسنها ، ويقال طعنة برجاء أى واسعة وفى أسنانه برج إذا تفرق مابينها وقيل : هو البرج بمعنى القصر ، ومعنى تبرجت المرأة ظهرت من برجها أى قصرها ، وجعل الراغب إطلاق البرج على سعة العين وحسنها للتشبيه بالبرج فى الأمرين ، ولا يخفى أنه لو فسر التبرج هنا بالظهور من البرج تكون هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها فالأولى أن لا يفسر به،وتبرج مصدر تشبيهى مثل له صوت صوت حمار أى لا تبرجن مثل تبرج الجاهلية الأولى ، وقيل فى الكلام إضمار مضافين أى تبرج نساء أيام الجاهلية ، وإضافة نساء على معنى فى والمراد بالجاهلية الأولى على ماأخرج ابن جرير.وابن أبى حاتم. والحاكم . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس الجاهلية مابين نوح وإدريس عليهما السلام وكانت ألف سنة ، قال : وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبال، وكان رجال الجبال صباحا وفى النساء دمامة ، وكان نساء السهل ورجاله على العكس فاتخذ أهل السهل عيداً يجتمعون اليه فى السنة ، فتبرج النساء للرجال والرجال لهن ، وأن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن فظهرت الفاحشة فيهن ، وفى رواية أن المرأة إذ ذاك تجتمع بين زوج وعشيق ٭

وأخرج ابن جرير عن الحكم بن عيينة قال : كان بين آدم ونوح عليهما السلام ثمانمائة سنة فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان وكانت المرأة تراود الرجل عن نفسه وهى الجاهلية الأولى . وروى مثله عن عكرمة ، وقال الكلبى:هى مابين نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وقال مقاتل : كانت زمن نمروذ وكان فيه بغايا يلبسن أرق الدروع ويمشين فى الطرق ، وروى عنه أيضا أن الجاهلية الأولى زمن إبراهيم عليه السلام والثانية زمن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يبعث ، وقال أبو العالية : كانت الأولى زمن داود وسليمان عليهما السلام وكان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين يظهر منه الأعكان والسوأتان ٭

وقال المبرد: كانت المرأة تجمع بين زوجها وخدنها للزوج نصفها الأسفل وللخدن نصفها الأعلى يتمتع به فى التقبيل والترشف ، وقيل : مابين موسى وعيسى عليهما السلام ،وقال الشعبى : مابين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ٭ قال الزجاج : وهو الأشبه لأنهم هم الجاهلية المعروفة كانوا يتخذون البغايا ، وإنما قيل (الأولى) لأنه يقال لكل متقدم ومتقدمة أول وأولى، وتأويله أنهم تقدموا على أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.وروى عن ابن عباس ما هو نص فى أن الأولى هنا مقابل الأخرى،وقال الزمخشرى : يجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الاسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الاسلام فكأن المعنى ولا تحدثن بالتبرج جاهلية فى الاسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر ٭

وقال ابن عطية : الذى يظهر عندى أن الجاهلية الأولى إشارة إلى الجاهلية التى تخصهن فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ماكان قبل الشرع من سيرة الكفر وقلة الغيرة ونحو ذلك . وفى حديث أخرجه الشيخان

www.Quranpdf.blogspot.in

وأبو داود . والترمذي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبي ذر وكان قد عير رجلا أمه أعجمية فشكاه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ياأبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية ، وفسرها ابن الأثير بالحالة التي عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك والله تعالى أعلم ، وتمسك الرافضة في طعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وحاشاها من كل طعن بخروجها من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة وهناك وقعت وقعة الجمل بهذه الآية قالوا : إن الله تعالى أمر نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهي منهن بالسكون في البيوت ونهاهن عن الخروج وهي بذلك قد خالفت أمر الله تعالى ونهيه عز وجل . وأجيب بان الأمر بالاستقرار في البيوت والنهي عن الخروج ليس مطلقا وإلا لما أخرجهن صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نزول الآية للحج والعمرة ولما ذهب بهن في الغزوات ولما رخصهن لزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأقارب وقد وقع كل ذلك كما تشهد به الأخبار ، وقد صح أنهن كلهن كن يحججن بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا سودة بنت زمعة ، وفي رواية عن أحمد عن أبي هريرة إلا زينب بنت جحش . وسودة ولم ينكر عليهن أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم الأمير كرم الله تعالى وجهه وغيره ، وقد جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لهن بعد نزول الآية : «وأذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» فعلم أن المراد الأمر بالاستقرار الذي يحصل به وقارهن وامتيازهن على سائر النساء بان يلازمن البيوت في أغلب أوقاتهن ولا يكن خراجات ولاجات طوافات في الطرق والأسواق وبيوت الناس ، وهذا لا ينافي خروجهن للحج أو لما فيه مصلحة دينية مع التستر وعدم الابتذال ، وعائشة رضي الله تعالى عنها ، إنما خرجت من بيتها إلى مكة للحج وخرجت معها لذلك أيضا أم سلمة رضي الله تعالى عنها وهي وكذا صفية مقبولة عند الشيعة لكنها لما سمعت بقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وانحياز قتلته إلى علي كرم الله تعالى وجهه حزنت حزنا شديدا واستشعرت اختلال أمر المسلمين وحصول الفساد والفتنة فيما بينهم ، وبينما هي كذلك جاءها طلحة . والزبير . ونعمان ابن بشير ، وكعب بن عجرة في آخرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم هاربين من المدينة خائفين من قتلة عثمان رضي الله تعالى عنهم لما أنهم أظهروا المباهاة بفعلهم القبيح ، وأعلنوا بسب عثمان فضاقت قلوب أولئك الكرام وجعلوا يستقبحون ما وقع ويشنعون على أولئك السفلة ويلومونهم على ذلك الفعل الأشنع فصح عندهم عزمهم على الحاقهم بعثمان رضي الله تعالى عنه وعلموا أن لاقدرة لهم على منعهم إذا هموا بذلك فخرجوا إلى مكة ولاذوا بام المؤمنين وأخبروها الخبر فقالت لهم : أرى الصلاح أن لا ترجعوا إلى المدينة مادام أولئك السفلة فيها محيطين بمجلس الأمير علي كرم الله تعالى وجهه غير قادر على القصاص منهم أو طردهم فاقيموا ببلد تأمنون فيه وانتظروا انتظام أمور أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه وقوة شوكته واسعوا في تفرقهم عنه وإعانته على الانتقام منهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم فارتضوا ذلك واستحسنوه فاختاروا البصرة لما أنها كانت إذ ذاك مجمعا لجنود المسلمين ورجحوها على غيرها وألحوا على أمهم رضي الله تعالى عنها أن تكون معهم إلى أن ترتفع الفتنة ويحصل الأمن وتنتظم أمور الخلافة وأرادوا بذلك زيادة احترامهم وقوة أمنيتهم لما أنها أم المؤمنين والزوج المحترمة غاية الاحترام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنها كانت أحب

www.Quranpdf.blogspot.in

أزواجه اليه وأكثرهن قبولا عنده وبنت خليفته الأول رضى الله تعالى عنه فسارت معهم بقصد الاصلاح وانتظام الأمور وحفظ عدة نفوس من كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم وكان معها ابن أختها عبدالله بن الزبير وغيره من أبناء أخواتها أم كلثوم زوج طلحة . وأسماء زوج الزبير بل كل من معها بمنزلة الأبناء فى المحرمية وكانت فى هودج من حديد ه

فبلغ الامير كرم الله تعالى وجهه خبر التوجه الى البصرة أولئك القتلة السفلة على غير وجهه وحملوه على أن يخرج اليهم ويعاقبهم ، وأشار عليه الحسن . والحسين . وعبد الله بن جعفر . وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم بعدم الخروج واللبث الى أن يتضح الحال فأبى رضى الله تعالى عنه ليقضى الله أمرا كان مفعولا فخرج كرم الله تعالى وجهه ومعه أولئك الاشرار أهل الفتنة فلما وصلوا قريبا من البصرة أرسلوا القعقاع الى أم المؤمنين . وطلحة . والزبير ليتعرف مقاصدهم ويعرضها على الامير رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه فجاء القعقاع الى أم المؤمنين فقال : يا أماه ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة ؟ فقالت : أى بنى الاصلاح بين الناس ثم بعثت الى طلحة . والزبير . فقال القعقاع : أخبرانى بوجه الصلاح قالا : اقامة الحد على قتلة عثمان وتطييب قلوب أوليائه فيكون ذلك سببا لأمننا وعبرة لمن بعدهم فقال القعقاع : هذا لايكون الا بعد اتفاق كلمة المسلمين وسكون الفتنة فعليكما بالمسالمة فى هذه الساعة فقالا : أصبت وأحسنت فرجع الى الامير كرم الله تعالى وجهه فأخبره بذلك فسر به واستبشر وأشرف القوم على الرجوع ولبثوا ثلاثة أيام لايشكون فى الصلح فلما غشيتهم ليلة اليوم الرابع وقررت الرسل والوسائط فى البين أن يظهروا المصالحة صبيحة هذه الليلة ويلاقى الامير كرم الله تعالى وجهه طلحة . والزبير رضى الله تعالى عنهما وأولئك القتلة ليسوا حاضرين معه وتحققوا ذلك ثقل عليهم واضطربوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فتشاوروا فيما بينهم أن يغيروا على من كان مع عائشة من المسلمين ليظنوا الغدر من الامير كرم الله تعالى وجهه فيهجموا على عسكره فيظنوا بهم أنهم هم الذين غدروا فينشب القتال ففعلوا ذلك فهجم من كان مع عائشة على عسكر الامير وصرخ أولئك القتلة بالغدر فالتحم القتال وركب الأمير متعجبا فرأى الوطيس قد حمى والرجال قد سبحت بالدماء فلم يسعه رضى الله تعالى عنه الا الاشتغال بالحرب والطعن والضرب ، وقد نقل الواقعة كما سمعت الطبرى وجماهير ثقات المؤرخين ورووها كذلك من طرق متعددة عن الحسن . وعبدالله بن جعفر . وعبد الله بن عباس ، وماوراء ذلك مما رواه الشيعة عن اسلافهم قتلة عثمان مما لا يلتفت له ، ويدل على تغلب القتلة وقوة شوكتهم ما فى نهج البلاغة المقبول عند الشيعة من أنه قال للامير كرم الله تعالى وجهه بعض أصحابه : لو عاقبت قوما أجلبوا على عثمان فقال : يا أخوتاه إنى لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لى بهم والمجلبون على شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم وهاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت اليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤا ه

فحيث كان الخروج أولا للحج ومعها من محارمها من معها ولم يكن الأمر بالاستقرار فى البيوت يتضمن النهى عن مثله لم يتوجه الطعن به أصلا ، وكذا المسير الى البصرة لذلك القصد فانه ليس أدون من سفر حج النفل ، وما ترتب عليه لم يكن فى حسابها ولم يمر ببالها ترتبه عليه ، ولهذا لما وقع ما وقع وترتب ما ترتب ندمت غاية الندم ، فقد روى أنها كلما كانت تذكر يوم الجمل تبكى حتى يبتل معجرها ، بل أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد . وابن المنذر . وابن أبى شيبة . وابن سعد عن مسروق قال: كانت عائشة رضى الله تعالى عنها اذا قرأت

www.Quranpdf.blogspot.in

(وقرن فى بيوتكن) بكت حتى تبل خمارها وما ذاك الا لأن قراءتها تذكرها الواقعة التى قتل فيها كثير من المسلمين ، وهذا كما أن الأمير كرم الله تعالى وجهه أحزنه ذلك ، فقد صح أنه رضى الله تعالى عنه لما وقع الانهزام على من مع أم المؤمنين وقتل من قتل من الجمعين طاف فى مقتل القتلى فكان يضرب على فخذيه ويقول : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، وليس بكاؤها عند قراءة الآية لعلمها بأنها أخطأت فى فهم معناها أو أنها نسيتها يوم خرجت كما توهم ، وقال فى ذلك مستهزئا كاظم الازدى البغدادى من متأخرى شعراء الرافضة من قصيدة طويلة كفر بعدة مواضع فيها :

حفظت أربعين ألف حديث ومن الذكر آية تنساها

نعم قد ينضم لما ذكرناه فى سبب البكاء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال يوما لأزواجه المطهرات وفيهن عائشة : « كأنى باحداكن تنبحها كلاب الحوأب » وفى بعض الروايات الغير المعتبرة عند أهل السنة بزيادة « فاياك أن تكونى ياحميراء » ولم تكن سألت قبل المسير عن الحوأب هل هو واقع فى طريقها أم لا حتى نبحتها فى أثناء المسير كلاب عند ماء فقالت لمحمد بن طلحة : ما اسم هذا الماء ؟ فقال : يقولون له حوأب فقالت : ارجعونى وذكرت الحديث وامتنعت عن المسير وقصدت الرجوع فلم يوافقها أكثر من معها ووقع التشاجر حتى شهد مروان بن الحكم مع نحو من ثمانين رجلا من دهاقين تلك الناحية بان هذا الماء ماء آخر وليس هو حوأبا فمضت لشأنها بسبب ذلك وتعذر الرجوع ووقوع الامر ، فكأنها رضى الله تعالى عنها رأت سكوتها عن السؤال وتحقيق الحال قبل المسير تقصيراً منها وذنبا بالنسبة إلى مقامها فبكت له . ولما تقدم وما زعمته الشيعة من أنها رضى الله تعالى عنها كانت هى التى تحرض الناس على قتل عثمان وتقول : اقتلوا نعثلا فقد فجر تشبهه بيهودى يدعى نعثلا حتى إذا قتل وبايع الناس عليا قالت : ما أبالى أن تقع السماء على الأرض قتل والله مظلوما وأنا طالبة بدمه فذكرها عبيد بما كانت تقول فقالت . قد والله قلت وقال الناس فانشد

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام وقلت لنا إنه قد فجر

كذب لا أصل له وهو من مفتريات ابن قتيبة . وابن أعثم الكوفى . والسمساطى وكانوا مشهورين بالكذب والافتراء ، ومثل ذلك فى الكذب زعمهم أنها رضى الله تعالى عنها ماخرجت وسارت إلى البصرة الا لبغض على كرم الله تعالى وجهه فانها لم تزل تروى مناقبه وفضائله ، ومن ذلك ماروا الديلمى أنها قالت : « قال رسول الله ﷺ حب على عبادة » وقالت بعد وقوع ماوقع : والله لم يكن بينى وبين على الا مايكون بين المرأة واحمائها .

وقد أكرمها على كرم الله تعالى وجهه وأحسن مثواها وبالغ فى احترامها وردها إلى المدينة ومعها جماعة من نساء أعيان البصرة عزيزة كريمة ، وهذا مما يرد به على الرافضة الزاعمين كفرها وحاشاها بما فعلت ، وماروى عن الاحنف بن قيس من أن عليا كرم الله تعالى وجهه لما ظهر على أهل الجمل أرسل إلى عائشة أن ارجعى إلى المدينة فأبت فأعاد اليها الرسول وامره أن يقول لها : والله لترجعن أو لأبعثن اليك نسوة من بكر بن وائل معهن شفار حداد يأخذنك بها فلما رأت ذلك خرجت لا يعول عليه وإن قيل : إنه رواه أبو بكر بن أبى شيبة فى المصنف لمخالفته لما رواه الاوثق حتى كاد يبلغ مبلغ التواتر ، هذا ولا يعكر على القول بجواز الخروج للحج ونحوه ما أخرجه عبد بن حميد . وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال : ثبت أنه قيل لسودة رضى الله تعالى عنها زوج النبى ﷺ :

www.Quranpdf.blogspot.in

مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت وأمرني الله تعالى ان أقر في بيتي فو الله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال : فوالله ماخرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها لأن ذلك مبني على اجتهادها كما أن خروج الاخوات مبني على اجتهادهن ، نعم أخرج أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع : «هذه ثم لزوم الحصر» قال : فكان كلهن يحججن الا زينب بنت جحش . وسودة بنت زمعة وكانتا تقولان : والله لاتحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : هذه الخ أنكن لاتعدن تخرجن بعد هذه الحجة من بيوتكن وتلزمن الحصر وهو جمع حصير الذي يبسط في البيوت من القصب وتضم الصاد وتسكن تخفيفا وهو في معنى النهي عن الخروج للحج فلا يتم ماذكر أولا ويشكل خروج سائر الازواج لذلك . وأجيب بأن الخبر ليس نصا في النهي عن الخروج للحج بعد تلك الحجة والا لما خرج له سائر الازواج الطاهرات من غير نكير أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عليهن بل جاء أن عمر رضي الله تعالى عنه أرسلهن للحج في عهده وجعل معهن عثمان . وعبدالرحمن بن عوف وقال لهما : انكما ولدان باران لهن فليكن أحدكما قدام مراكبهن والآخر خلفها ولم ينكر أحد فكان اجماعا سكوتيا على الجواز فكأن زينب. وسودة فهمامن الخبر قضيت هذه الحجة أو أبيحت لكن هذه الحجة بخصوصها ثم الواجب بعدها عليكن لزوم البيوت فلم يحجابعد لذلك، وغيرهما فهم منه المناسب لكن أواللائق بكن هذه الحجة أي جنسها أو هذه الحالة من السفر للحج أو لأمر ديني مهم ثم بعد الفراغ المناسب أواللائق لزوم البيوت فيكون مفاده اباحة الخروج لذلك ، ومن أنصف لايكاد يقول بافادة الخبر الامر بلزوم البيوت والنهي عن الخروج منها مطلقاً بعد تلك الحجة بخصوصها فان النبي ﷺ مرض في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها وبقي مريضاً فيه حتى توفي عليه الصلاة والسلام ولا يكاد يشك أحد في خروج سائرهن لعيادته أو يتصور استقرارهن في بيوتهن غير بالين شوقهن برؤية طلعته الشريفة حتى توفي ﷺ فان مثل ذلك لا يفعله أقل النساء حباً لأزواجهن الذين لاقدر لهم فكيف يفعله الأزواج الطاهرات مع رسول الله ﷺ وهو هو وحبهن له حبهن . ثم ان الجواب المذكور إنما يحتاج اليه بعد تسليم صحة الخبر ويحتاج الجزم بصحته إلى تنقير ومراجعة فلينقر وليراجع والله تعالى أعلم.

﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ أمرن بهما لانافتهما على غيرهما وكونهما أساس العبادات البدنية والمالية .

﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في كل ما تأتين وتذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣ ﴾ استئناف بياني مفيد تعليل أمرهن ونهيهن، والرجس في الاصل الشيء القذر وأريد به هنا عند كثير الذنب مجازا ، وقال السدي: الاثم . وقال الزجاج: الفسق وقال ابن زيد: الشيطان ، وقال الحسن : الشرك ، وقيل : الشك ، وقيل : البخل والطمع ، وقيل : الاهواء والبدع ، وقيل : إن الرجس يقع على الاثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص ، والمراد به هنا مايعم كل ذلك، ولايخفى عليك مافي بعض هذه الاقوال من الضعف، وأل فيه للجنس اوللاستغراق ، والمراد بالتطهير قيل التحلية بالتقوى، والمعنى على ماقيل إنما يريد الله ليذهب عنكم الذنوب والمعاصي فيما نهاكم ويحليكم بالتقوى تحلية بليغة فيما أمركم ، وجوز أن يراد به الصون، والمعنى انما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجس ويصونكم من المعاصي صونا بليغا فيما أمر ونهى جل شأنه . واختلف في لام (ليذهب) فقيل زائدة ومابعدها في موضع المفعول به

www.Quranpdf.blogspot.in

ليريد فكأنه قيل: يريد الله اذهاب الرجس عنكم وتطهيركم ، وقيل : للتعليل ثم اختلف هؤلاء فقيل المفعول محذوف أى إنما يريد الله أمركم ونهيكم ليذهب أو إنما يريد منكم مايريد ليذهب أونحو ذلك ، وقال الخليل. وسيبويه ومن تابعهما: الفعل فى ذلك مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء. واللام ومابعدها خبر أى إنما ارادة الله تعالى للاذهاب على حد ماقيل فى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه. فلا مفعول للفعل ، وقال الطبرسي: اللام متعلق بمحذوف تقديره وارادته ليذهب وهو كما ترى، وهذا الذى ذكروه جار فى قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقول الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل مكان

ونصب (أهل) على النداء ، وجوز أن يكون على المدح فيقدر أمدح أو أعنى، وأن يكون على الاختصاص وهو قليل فى المخاطب ومنه بك الله نرجو الفضل، وأكثر ما يكون فى المتكلم كقوله. نحن بنات طارق نمشى على النمارق

وأل فى البيت للعهد ، وقيل : عوض عن المضاف اليه أى بيت النبى ﷺ والظاهر أن المراد به بيت الطين والخشب لابيت القرابة والنسب وهو بيت السكنى لا المسجد النبوى كما قيل، وحينئذ فالمراد بأهله نساؤه ﷺ المطهرات للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه عليه الصلاة والسلام ليس له بيت يسكنه سوى سكناهن ، وروى ذلك غير واحد، أخرج ابن أبى حاتم . وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت (إنما يريد الله) الخ فى نساء النبى ﷺ خاصة ، وأخرج ابن مردويه من طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة ، وقال عكرمة من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخرج ابن جرير . وابن مردويه عن عكرمة أنه قال فى الآية: ليس بالذى تذهبون اليه إنما هو نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وروى ابن جرير أيضا أن عكرمة كان ينادى فى السوق قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نزل فى نساء النبى عليه الصلاة والسلام ، وأخرج ابن سعد عن عروة (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال: يعنى أزواج النبى ﷺ وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهرات باعتبار الاضافة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيت واحد وجمعه فيما سبق ولحق باعتبار الاضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتى كن متعددات وجمعه فى قوله سبحانه الآتى إن شاء الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) دفعا لتوهم إرادة بيت زينب لو أفرد من حيث أن سبب النزول أمر وقع فيه كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى ، وأورد ضمير جمع المذكر فى (عنكم. ويطهركم) رعاية للفظ الأهل. والعرب كثيرا مايستعملون صيغ المذكر فى مثل ذلك رعاية للفظ وهذا كقوله تعالى خطابا لسارة : امرأة الخليل عليهما السلام (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) ومنه على ماقيل قوله سبحانه: (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا) خطابا من موسى عليه السلام لامرأته . ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل فى التعظيم ، وقيل : المراد هو ﷺ ونساؤه المطهرات رضى الله تعالى عنهن وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن . وقيل : المراد بالبيت بيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما فى السابق واللاحق .

فقد أخرج الحكيم الترمذى . والطبرانى . وابن مردويه . وأبو نعيم . والبيهقى معا فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسما

www.Quranpdf.blogspot.in

فذلك قوله تعالى : (وأصحاب اليمين . وأصحاب الشمال) فانا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرها ثلثا فذلك قوله تعالى (١) : (وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة والسابقون السابقون) فانا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الاثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى : (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا فذلك قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب» فان المتبادر من البيت الذى هو قسم من القبيلة البيت النسبى، واختلف فى المراد بأهله فذهب الثعلبى إلى أن المراد بهم جميع بنى هاشم ذكورهم وإناثهم ، والظاهر أنه أراد مؤمنى بنى هاشم وهذا هو المراد بالآل عند الحنفية ، وقال بعض الشافعية : المراد بهم آله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين هم مؤمنو بنى هاشم . والمطلب ، وذكر الراغب أن أهل البيت تعورف فى أسرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مطلقا وأسرة الرجل على مافى القاموس رهطه أى قومه وقبيلته الأدنون ، وقال فى موضع آخر: صار أهل البيت متعارفا فى آله عليه الصلاة والسلام، وصح عن زيد ابن أرقم فى حديث أخرجه مسلم أنه قيل له : من أهل بيته نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى آخر أخرجه هو أيضا مبين هؤلاء الذين حرموا الصدقة أنه قال: هم آل على . وآل عقيل . وآل جعفر . وآل عباس ، وقال بعض الشيعة : أهل البيت سواء أريد به البيت المدر والخشب أم بيت القرابة والنسب عام، أما عمومه على الثانى فظاهر، وأما على الأول فلأنه يشمل الاماء والخدم فان البيت المدرى يسكنه هؤلاء أيضا وقد صح ما يدل على أن العموم غير مراد ه

أخرج الترمذى . والحاكم وصححاه . وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه . والبيهقى . فى سننه من طرق عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت فى بيتى نزلت انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفى البيت فاطمة وعلى . والحسن . والحسين فجللهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ه

وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ثلاث مرات ه

وفى بعض آخر أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فدكيا ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتى وفى لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل ابراهيم إنك حميد مجيد ه

وجاء فى رواية أخرجها الطبرانى عن أم سلمة أنها قالت : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه صلى الله عليه وسلم من يدى وقال : إنك على خير ، وفى أخرى رواها ابن مردويه عنها أنها قالت ألست من أهل البيت؟ فقال صلى الله عليه وسلم إنك إلى خير إنك من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وفى آخرها رواها الترمذى . وجماعة عن عمر بن أبى سلمة ربيب النبى عليه الصلاة والسلام قال : قالت أم سلمة وأنا معهم: يانبى الله قال : أنت على مكانك وانك على خير، وأخبار ادخاله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا وفاطمة وابنيهما رضى الله تعالى عنهم تحت الكساء ، وقوله عليه الصلاة والسلام

---

(١) قوله : وأصحاب المشأمة الخ كذا بخطه وفيه حذف صدر الآية وهو الثلث الاول اه ه

www.Quranpdf.blogspot.in

اللهم هؤلاء أهل بيتى ودعائه لهم وعدم ادخال أم سلمة اكثر من أن تحصى، وهى مخصصة لعموم أهل البيت باى معنى كان البيت فالمراد بهم من شملهم الكساء ولا يدخل فيهم أزواجه ﷺ، وقد صرح بعدم دخولهن من الشيعة عبد الله المشهدى وقال المراد من البيت بيت النبوة ولا شك أن أهل البيت لغة شامل للازواج بل للخدام من الاماء اللائى يسكن فى البيت أيضا: وليس المراد هذا المعنى اللغوى بهذه السعة بالاتفاق فالمراد به آل العباء الذين خصصهم حديث الكساء وقال أيضا: إن كون البيوت جمعا فى (بيوتكن) وافراد البيت فى (أهل البيت) يدل على أن بيوتهن غير بيت النبي ﷺ اه، وفيه ماستعلمه إن شاء الله تعالى. وقيل المراد بالبيت بيت السكنى وبيت النسب وأهل ذلك أهل كل من البيتين وقد سمعت ما قيل فيه وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ه

وقال بعض المحققين: المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والأخبار التى لا تحصى كثرة ويشهد له العرف من له مزيد اختصاص به إما بالسكنى فيه مع القيام بمصالحه وتدبير شأنه والاهتمام بامره وعدم كون الساكن فى معرض التبدل والتحول بحكم العادة الجارية من بيع وهبة كالازواج أو بالسكنى فيه كذلك بدون ملاحظة القيام بالمصالح كالاولاد أو بقرابة من صاحبه تقضى بحسب العادة بالتردد اليه والجلوس فيه من غير طلب من صاحبه لذلك أو بعدم المنع من ذلك فالاولاد الذين لا يسكنونه وكاولادهم وإن نزلوا وكالاعمام وأولاد الاعمام وعلى هذا يحصل الجمع بين الاخبار وقد سمعت بعضها كحديث الكساء ولا دلالة فيه على الحصر، وكالحديث الحسن أنه ﷺ اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال: يارب هذا عمى وصنو أبى وهؤلاء أهل بيتى فاسترهم من النار كسترى اياهم بملاءتى هذه فامنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت آمين ثلاثاه

وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضم إلى أهل الكساء علياً وفاطمة والحسنين رضى الله تعالى عنهم بقية بناته وأقاربه وأزواجه وصح عن أم سلمة فى بعض آخر أنها قالت، فقلت يارسول الله أما أنا من أهل البيت؟ فقال: بلى إن شاء الله تعالى، وفى بعض آخر أيضا أنها قالت له ﷺ ألست من أهلك قال: بلى وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم، وقد تكرر كما أشار اليه المحب الطبرى منه ﷺ الجمع وقول هؤلاء أهل بيتى والدعاء فى بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضى الله تعالى عنهما وغيرهما وبه جمع بين اختلاف الروايات فى هيئة الاجتماع وما جلل ﷺ به المجتمعين ومادعا به لهم، وما أجاب به أم سلمة وعدم ادخالها فى بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلا بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الازواج اللاتى يقتضى سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم بخلاف من ادخلوا تحته رضى الله تعالى عنهم فانه عليه الصلاة والسلام لولم يدخلهم ويقل ماقال لتوهم عدم دخولهم فى الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحمل على أن النزول كان مرتين، وقد أدخل ﷺ بعض من لم يكن بينه وبينه قرابة سببية ولا نسبية فى أهل البيت توسعا وتشبيها كسلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه حيث قال عليه الصلاة والسلام «سلمان منا أهل البيت»، وجاء فى رواية صحيحة أن واثلة قال: وأنا من أهلك يارسول الله؟ فقال: عليه الصلاة والسلام وأنت من أهلى فكان واثلة يقول: إنها لمن أرجى ما أرجو، والخبر الدال بظاهره على أن المراد بالبيت البيت النسبي أعنى خبر الحكيم الترمذى ومن معه عن ابن عباس يجوز حمل البيت فيه على بيت المدر والحيوان ينقسم إلى رومى وزنجى مثلا كما ينقسم الانسان اليهما على أن فى رواته من وثقه ابن معين وضعفه غيره والجرح مقدم

www.Quranpdf.blogspot.in

على التعديل وما روى عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه من نفى كون أزواجه ﷺ أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام فالمراد بأهل البيت فيه أهل البيت الذين جعلهم رسول الله ﷺ ثانى الثقلين لا أهل البيت بالمعنى الاعم المراد فى الآية، ويشهد لهذا مافى صحيح مسلم عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة. وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا اليه قال له حصين: لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا حدثنا يازيد بما سمعت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: ياابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا وما لا لاتكلفونيه ثم قال. قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا ياأيها الناس فانما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب وإنى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال. «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثا - فقال له حصين: ومن أهل بيته يازيد أليس نساؤه من من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده - قال: ومن هم قال هم آل على وآل عقيل. وآل جعفر. وآل عباس» الحديث فان الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر فى أن الغرض بيان المراد بأهل البيت فى الحديث الذى حدث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وهم فيه ثانى الثقلين فلأهل البيت إطلاقان يدخل فى أحدهما النساء ولا يدخلن فى الآخر وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضى الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت *

وقال بعضهم: إن ظاهر تعليله نفى كون النساء أهل البيت بقوله: أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها يقتضى أن لا يكن من أهل البيت مطلقا فلعله أراد بقوله فى الخبر السابق نساؤه من أهل بيته أنساؤه الخ بهمزة الاستفهام الانكارى فيكون بمعنى ليس نساؤه من أهل بيته كما فى معظم الروايات فى غير صحيح مسلم ويكون رضى الله تعالى عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسن من أهل البيت أصلا ولا يلزمنا أن ندين الله تعالى برأيه لاسيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف وحينئذ يجوز أن يكون أهل البيت الذين هم أحد الثقلين بالمعنى الشامل للأزواج وغيرهن من أصله وعصبته صلى الله تعالى عليه وسلم الذين حرموا الصدقة بعده ولا يضر فى ذلك عدم استمرار بقاء الأزواج كما استمر بقاء الآخرين مع الكتاب كما لا يخفى اه، وأنت تعلم أن ظاهر ماصح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى تارك فيكم خليفتين -وفى رواية- ثقلين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» يقتضى أن النساء المطهرات غير داخلات فى أهل البيت الذين هم أحد الثقلين لأن عترة الرجل كما فى الصحاح نسله ورهطه الأدنون، وأهل بيتى فى الحديث الظاهر أنه بيان له أو بدل منه بدل كل من كل وعلى التقديرين يكون متحدا معه فحيث لم تدخل النساء فى الأول لم تدخل فى الثانى. وفى النهاية أن عترة النبى ﷺ بنو عبد المطلب. وقيل أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلى وأولاده رضى الله تعالى عنهم، وقيل: عترته الأقربون والأبعدون منهم اه. والذى رجحه

www.Quranpdf.blogspot.in

القرطبي أنهم من حرمت عليهم الزكاة ، وفى كون الأزواج المطهرات كذلك خلاف قال ابن حجر : والقول بتحريم الزكاة عليهن ضعيف وإن حكى ابن عبد البر الاجماع عليه فتأمل ، ولا يرد على حمل أهل البيت فى الآية على المعنى الأعم ماأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . والطبرانى . عن أبى سعيد الخدرى قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نزلت هذه الآية فى خمسة فى وفى على وفاطمة وحسن وحسين إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » إذ لادليل فيه على الحصر والعدد لامفهوم له، ولعل الاقتصار على من ذكر صلوات الله تعالى وسلامه عليهم لأنهم أفضل من دخل فى العموم وهذا على تقدير صحة الحديث والذى يغلب على ظنى أنه غير صحيح إذ لم أعهد نحو هذا فى الآيات منه صلى الله تعالى عليه وسلم فى شيء من الأحاديث الصحيحة التى وقفت عليها فى أسباب النزول، وبتفسير أهل البيت بمن له مزيد اختصاص به على الوجه الذى سمعت يندفع ما ذكره المشهدى من شموله للخدام والاماء والعبيد الذين يسكنون البيت فانهم فى معرض التبدل والتحول بانتقالهم من ملك إلى ملك بنحو الهبة والبيع وليس لهم قيام بمصالحه واهتمام بأمره وتدبير لشأنه إلا حيث يؤمرون بذلك ، ونظمهم فى سلك الأزواج ودعوى أن نسبة الجميع إلى البيت على حد واحد مما لا يرتضيه منصف ولا يقول به إلا متعسف *

وقال بعض المتأخرين : إن دخولهم فى العموم مما لابأس به عند أهل السنة لأن الآية عندهم لاتدل على العصمة ولا حجر على رحمة الله عز وجل ولأجل عين ألف عين تكرم ، وأما أمر الجمع والافراد فقد سمعت ما يتعلق به ، والظاهر على هذا القول أن التعبير بضمير جمع المذكر فى (عنكم) للتغليب ، وذكر أن فى (عنكم) عليه تغليبين أحدهما تغليب المذكر على المؤنث ، وثانيهما تغليب المخاطب على الغائب إذ غير الأزواج المطهرات من أهل البيت لم يجر لهم ذكر فيما قبل ولم يخاطبوا بأمر أو نهى أو غيرهما فيه ، وأمر التعليل عليه ظاهر وإن لم يكن كظهوره على القول بأن المراد بأهل البيت الأزواج المطهرات فقط *

واعتذر المشهدى عن وقوع جملة (إنما يريد الله) الخ فى البين بأن مثله واقع فى القرآن الكريم فقد قال تعالى شأنه : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل) ثم قال سبحانه بعد تمام الآية : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فعطف أقيموا على أطيعوا مع وقوع الفصل الكثير بينهما ، وفيه أنه وقع بعد (أقيموا الصلاة) الخ (وأطيعوا الرسول) فلو كان العطف على ماذكر لزم عطف أطيعوا على أطيعوا وهو كما ترى *

سلمنا أن لا فساد فى ذلك إلا أن مثل هذا الفصل ليس فى محل النزاع فانه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبى من حيث الاعراب وهو لا ينافى البلاغة وما نحن فيه على ما ذهبوا اليه فصل بأجنبى باعتبار موارد الآيات اللاحقة والسابقة ، وإنكار منافاته للبلاغة القرآنية مكابرة لاتخفى . ومما يضحك منه الصبيان أنه قال بعد : إن بين الآيات مغايرة إنشائية وخبرية لأن آية التطهير جملة ندائية وخبرية وما قبلها وما بعدها من الأمر والنهى جمل إنشائية وعطف الانشائية على الخبرية لا يجوز ، ولعمرى أنه أشبه كلام من حيث الغلط بقول بعض عوام الأعجام : حسن وحسين دختران مغاوية (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ثم أن الشيعة استدلوا بالآية بعد قولهم : بتخصيص أهل البيت فيها بمن سمعت وجعل (ليذهب) مفعولا به (ليريد)

وتفسير الرجس بالذنوب على العصمة فذهبوا إلى أن عليا وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم معصومون من الذنوب عصمته صلى الله تعالى عليه وسلم منها وتعقبه بعض أجلة المتأخرين بأنه لو فرض تعين كل ماذهبوا اليه لا تسلم دلالتها على العصمة بل لها دلالة على عدمها إذ لا يقال فى حق من هو طاهر: إنى أريد أن أطهره ضرورة امتناع تحصيل الحاصل، وغاية مافى الباب أن كون أولئك الأشخاص رضى الله تعالى عنهم محفوظين من الرجس والذنوب بعد تعلق الارادة باذهاب رجسهم يثبت بالآية ولكن هذا أيضا على أصول أهل السنة لا على أصول الشيعة لأن وقوع مراده تعالى غير لازم عندهم لارادته عز وجل مطلقا وبالجملة لو كانت إفادة معنى العصمة مقصودة لقيل هكذا إن الله أذهب عنكم الرجس أهل البيت وطهركم تطهيرا وأيضا لو كانت مفيدة للعصمة ينبغى أن يكون الصحابة لاسيما الحاضرين فى غزوة بدر قاطبة معصومين لقوله تعالى فيهم: (ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) بل لعل هذا أفيد لما فيه من قوله سبحانه: (وليتم نعمته عليكم) فان وقوع هذا الاتمام لا يتصور بدون الحفظ عن المعاصى وشر الشيطان اه. وقرر الطبرسى وجه الاستدلال بها على العصمة بأن (إنما) لفظة محققة لما أثبت بعدها نافية لما لم يثبت فاذا قيل: إنما لك عندى درهم أفاد أنه ليس للمخاطب عنده سوى درهم فتفيد الآية تحقق الارادة ونفى غيرها، والارادة لاتخلو من أن تكون هى الارادة المحضة أو الارادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس لايجوز أن تكون الارادة المحضة لأنه سبحانه وتعالى قد أراد من كل مكلف ذلك بالارادة المحضة فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر المكلفين ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بلاريب ولا مدح فى الارادة المجردة فتعين إرادة الارادة بالمعنى الثانى، وقد علم أن من عدا أهل الكساء غير مراد فتختص العصمة بهم اه. وهو كما ترى، على أنه قد ورد فى كتب الشيعة ما يدل على عدم عصمة الأمير كرم الله تعالى وجهه وهو أفضل من ضمه الكساء بعد رسول الله ﷺ ففى نهج البلاغة أنه كرم الله تعالى وجهه قال لأصحابه: لاتكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فانى لست بفوق أن أخطىء ولا آمن من ذلك فى فعلى إلا أن يلقى الله تعالى فى نفسى ماهو أملك به منى *

وفيه أيضا كان كرم الله تعالى وجهه يقول فى دعائه: اللهم اغفر لى ماتقربت به اليك وخالفه قلبى، وقصد التعليم كما فى بعض الأدعية النبوية بعيد كذا قيل فتدبر ولا تغفل، وفسر بعض أهل السنة الارادة ههنا بالمحبة قالوا: لأنه لو أريد بها الارادة التى يتحقق عندها الفعل لكان كل من أهل البيت إلى يوم القيامة محفوظا من كل ذنب والمشاهد خلافه، والتخصيص بأهل الكساء وسائر الأئمة الاثنى عشر كما ذهب اليه الامامية المدعون عصمتهم مما لا يقوم عليه دليل عندنا، والمدح جاء من جهة الاعتناء بشأنهم وافادتهم محبة الله تعالى لهم هذا الأمر الجليل الشأن ومخاطبته سبحانه إياهم بذلك وجعله قرآنا يتلى إلى يوم القيامة *

وقد يستدل على كون الارادة ههنا بالمعنى المذكور دون المعنى المشهور الذى يتحقق عنده الفعل بأنه ﷺ قال حين أدخل عليا وفاطمة والحسنين رضى الله تعالى عنهم تحت الكساء «اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» فانه أى حاجة للدعاء لو كان ذلك مرادا بالارادة بالمعنى المشهور وهل هو الا دعاء بحصول واجب الحصول *

واستدل بهذا بعضهم على عدم نزول الآية فى حقهم وانما ادخلهم صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهل البيت

www.Quranpdf.blogspot.in

المذكور فى الآية بدعائه الشريف عليه الصلاة والسلام ولا يخلو جميع ماذكر عن بحث، والذى يظهر لى أن المراد باهل البيت من لهم مزيد علاقة به ﷺ ونسبة قوية قريبة اليه عليه الصلاة والسلام بحيث لا يقبح عرفا اجتماعهم وسكناهم معه ﷺ فى بيت واحد ويدخل فى ذلك أزواجه والاربعة أهل الكساء وعلى كرم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله ﷺ قد نشأ فى بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه وعامله كولده صغيرا وصاهره وآخاه كبيراً، والارادة على معناها الحقيقى المستتبع للفعل، والآية لا تقوم دليلا على عصمة أهل بيته صلى الله تعالى عليه وعليهم وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنة لا لاحتمال أن يكون المراد توجيه الأمر والنهى أو نحوه لاذهاب الرجس والتطهير بأن يجعل المفعول به (ايريد) محذوفا ويجعل (ليذهب · ويطهر) فى موضع المفعول له وإن لم يكن فيه بأس وذهب اليه من ذهب بل لأن المعنى حسبما ينساق اليه الذهن ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهى والامر نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم وفى ذلك غاية المصلحة لكم ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود اليكم وهو على معنى الشرط أى يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهركم أن انتهيتم وائتمرتم ضرورة أن أسلوب الآية نحو أسلوب قول القائل لجماعة علم أنهم إذا شربوا الماء أذهب عنهم عطشهم لامحالة يريد الله سبحانه بالماء ليذهب عنكم العطش فانه على معنى يريد سبحانه بالماء اذهاب العطش عنكم ان شربتموه فيكون المراد اذهاب العطش شرط شرب المخاطبين الماء لا الاذهاب مطلقا. فمفاد التركيب فى المثال تحقق اذهاب العطش بعد الشرب وفيما نحن فيه اذهاب الرجس والتطهير بعد الانتهاء والائتمار لأن المراد الاذهاب المذكور بشرطهما فهو متحقق الوقوع بعد تحقق الشرط وتحققه غير معلوم اذ هو أمر اختيارى وليس متعلق الارادة، والمراد بالرجس الذنب وباذهابه ازالة مباديه بتهذيب النفس وجعل قواها كالقوة الشهوانية والقوة الغضبية بحيث لا ينشأ عنها ما ينشأ من الذنوب كالزنا وقتل النفس التى حرم الله تعالى وغيرهما لا ازالة نفس الذنب بعد تحققه فى الخارج وصدوره من الشخص اذ هو غير معقول الا على معنى محوه من صحائف الاعمال وعدم المؤاخذة عليه وارادة ذلك كما ترى *

وكأن مآل الاذهاب التخلية ومآل التطهير التحلية بالحاء المهملة، والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم ان ينتهوا عما ينهى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يذهب عنهم لامحالة مبادى ما يستهجن ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن، وفيه ايماء الى قبول أعمالهم وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم من حيث أن أولئك الاغيار اذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك *

ولذا نجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم فى العبادة الظاهرة وأحسن اخلاقا وأزكى نفسا واليهم تنتهى سلاسل الطرائق التى مبناها كما لا يخفى على سالكيها التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران الى حظائر القدس والوقوف على أوكار الانس حتى ذهب قوم الى أن القطب فى كل عصر لا يكون الا منهم خلافا للاستاذ أبى العباس المرسى حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله الى أنه قد يكون من غيرهم، ورأيت فى مكتوبات الامام الفاروقى الربانى مجدد الالف الثانى قدس سره ما حاصله أن القطبية لم تكن على سبيل الاصالة الا لائمة أهل البيت المشهورين ثم انها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم حتى انتهت النوبة الى السيد الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره النورانى فنال مرتبة القطبية

www.Quranpdf.blogspot.in

على سبيل الاصالة فلما عرج بروحه القدسية الى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه فاذا جاء المهدى ينالها اصالة كانالها غيره من الائمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين اه ، وهذا مما لاسبيل الى معرفته والوقوف على حقيته الا بالكشف وأنى لى به *

والذى يغلب على ظنى أن القطب قد يكون من غيرهم لكن قطب الاقطاب لا يكون الا منهم لأنهم أزكى الناس أصلا وأوفرهم فضلا وان من ينال هذه الرتبة منهم لا ينالها الا على سبيل الاصالة دون النيابة والوكالة وأنا لا أعقل النيابة فى ذلك المقام وإن عقلت قلت: كل قطب فى كل عصر نائب عن نبينا عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل السلام ولا بدع فى نيابة الاقطاب بعده عنه ﷺ كما نابت عنه الأنبياء قبله فهو عليه الصلاة والسلام الكامل المكمل للخليقة والواسطة فى الافاضة عليهم على الحقيقة وكل من تقدمه عصرا من الانبياء وتأخر عنه من الاقطاب والأولياء نواب عنه ومستمدون منه، وأقول: إن السيد الشيخ عبد القادر قدس سره وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأكمل حال فقد كان رضى الله تعالى عنه من أجلة أهل البيت حسنيا من جهة الاب حسينيا من جهة الام لم يصبه نقص لو أن وعسى وليت ولا ينكر ذلك الا زنديق أو رافضى ينكر صحبة الصديق وأرى أن قوله رضى الله تعالى عنه :

أفلت شموس الاولين وشمسنا أبدا على فلك العلا لا تغرب

لا يدل على أن من ينال القطبية بعده من أهل البيت الذين عنصرهم وعنصره واحد نائب عنه ليس له فيض إلا منه بل غاية ما يدل عليه ويومىء اليه استمرار ظهور أمره وانتشار صيته وشهرة طريقته وعموم فيضه لمن استفاض على الوجه المعروف عند أهله منه وذلك مما لا يكاد ينكر وأظهر من الشمس والقمر ، هذا ماعندى فى الكلام على الآية الكريمة المتضمنة لفضيلة لأهل البيت عظيمة، ويعلم منه وجه التعبير بيريد على صيغة المضارع ووجه تقديم إذهاب الرجس على التطهير ووجه دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم لأهل الكساء باذهاب الرجس من غير حاجة إلى القول بأن ذلك طلب للدوام كما قيل فى قوله تعالى · (ياأيها الذين آمنوا آمنوا) و وه، ولا يورد عليه كثير مما يورد على غيره ومع هذا لمسلك الذهن اتساع ولا حجر على فضل الله عز وجل فلا مانع من أن يوفق أحدا لما هو أحسن من هذا واجل فتدبر ذاك والله سبحانه يتولى هداك *

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ، وقيل : أى تذكرن ولا تنسين مايتلى فى بيوتكن ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ ﴾ أى القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هى السنة على ماأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة وفسرت بنصائحه صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان فى المصحف بدل (الحكمة) السنة حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى أوائل تفسيره مفاتيح الأسرار ، وقال جمع : المراد بالآيات والحكمة القرآن وهو أوفق بقوله سبحانه : (يتلى) أى اذكرن مايتلى من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله تعالى البينة الدالة على صدق النبوة بأوجه شتى وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، وهذا تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وماشاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة وفيه حث على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه ، وقيل : هذا هذا أمر بتكميل الغير بعد الأمر بما فيه كما لهن ويعلم منه وجه توسيط (إنما يريد) الخ فى البين والتعرض

www.Quranpdf.blogspot.in

للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنها الأنسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول، وقيل: إن ذلك لرعاية الحكمة بناء على أن المراد بها السنة فانها لم تنزل نزول القرآن. وتعقب بأنها لم تتل أيضا تلاوته، وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما *

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (تتلى) بتاء التأنيث ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا ٣٤ ﴾ يعلم ويدبر مايصلح فى الدين ولذلك فعل مافعل من الأمر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته، وقيل: يعلم الحكمة حيث أنزل كتابه جامعا بين الوصفين، وجوز بعضهم أن يكون اللطيف ناظرا للآيات لدقة أعجازها والخبير للحكمة لمناسبتها للخبرة *

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ أى الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى أو المفوضين أمرهم لله عز وجل من الذكور والإناث ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين *

﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ المداومين على الطاعات القائمين بها ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ فى أقوالهم التى يجب الصدق فيها، وقيل فى القول والعمل *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جبير أنه قال أى فى إيمانهم ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ على المكاره وعلى العبادات وعن المعاصى ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم *

وقيل: الذين لا يعرفون من عن أيمانهم وشمائلهم إذا كانوا فى الصلاة ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ بما يحسن التصدق به من فرض وغيره ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ الصوم المشروع فرضا كان أو نفلا، وعن عكرمة الاقتصار على صوم رمضان، وقيل: من تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ عما لا يرضى به الله تعالى *

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ بالألسنة والقلوب ومدار الكثرة العرف عند جمع، وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور. وعبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. عن مجاهد قال: لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا *

وأخرج أبو داود. والنسائى. وابن ماجه. وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»، وقيل: المراد بذكر الله تعالى ذكر آلائه سبحانه ونعمه وروى ذلك عن عكرمة ومآل هذا إلى الشكر وهو خلاف الظاهر *

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ بسبب كسبهم ما ذكر من الصفات ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بالأعمال الصالحة كما ورد ﴿ وَأَجْرًا عَظِيماً ٣٥ ﴾ على ما عملوا من الطاعات، والآية وعد للازواج المطهرات وغيرهن ممن اتصفت بهذه الصفات، أخرج أحمد. والنسائى. وغيرهما عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت:

www.Quranpdf.blogspot.in

قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال؟ فلم يرعنى منه ﷺ ذات يوم إلا نداءه على المنبر وهو يقول : (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية، وضمير «مالنا» للنساء على العموم فنى رواية أخرى رواها النسائى . وجماعة عنها أيضا أنها قالت: قلت للنبي عليه الصلاة والسلام مالى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن والنساء لا يذكرون؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية *

وفى بعض الآثار ما يدل على أن القائل غيرها ، أخرج الترمذى وحسنه . والطبرانى . وعبد بن حميد . وآخرون عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: ماأرى كل شيء إلا للرجال وماأرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية (إن المسلمين) الخ *

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقلن: قد ذكركن الله تعالى فى القرآن ولم يذكرنا بشيء أمافينا مايذكر فأنزل الله تعالى (إن المسلمين) الآية ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال لما ذكر أزواج النبي ﷺ قال النساء: لو كان فينا خير لذكرنا فأنزل الله تعالى الآية *

ولا مانع أن يكون كل ذلك ، وعطف الاناث على الذكور كالمسلمات على المسلمين والمؤمنات على المؤمنين ضرورى لأن تغاير الذوات المشتركة فى الحكم يستلزم العطف «ما لم يقصد السرد على طريق التعديد» وعطف الزوجين أعنى مجموع كل مذكر ومؤنث كعطف مجموع المؤمنين والمؤمنات على مجموع المسلمين والمسلمات غير لازم وإنما ارتكب ههنا للدلالة على أن مدار اعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجليلة *

وذكر الفروج متعلقا للحفظ لكونها مركب الشهوة الغالبة ، وذكر الاسم الجليل متعلقا للذكر لأنه الاسم الاعظم المشعر بجميع الصفات الجليلة ، وحذف متعلق كل من الحافظات والذاكرات لدلالة ماتقدم عليه ، وجعل الذكر آخر الصفات لعمومه وشرفه (ولذكر الله أكبر) وتذكير الضمير فى (أعد الله لهم) لتغليب الذكور على الاناث والا فالظاهر لهم ولهن ، ولله تعالى در التنزيل أشار فى أول الآية وآخرها الى افضلية الذكور على الاناث ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين *

﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ أى قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر الله تعالى لتعظيم أمره بالاشارة الى أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة من الله تعالى بحيث تعد أوامره أوامر الله عز وجل أو للاشعار بأن ما يفعله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما يفعله بأمره لأنه لاينطق عن الهوى فالنظم إما من قبيل (فأن لله خمسه وللرسول) أو من قبيل (فالله ورسوله أحق أن يرضوه) ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أى أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارهم تلوا لاختياره *

والخيرة مصدر من تخير كالطيرة مصدر من تطير ، ولم يجئ على ماقيل مصدر بهذه الزنة غيرهما ، وقيل: هى صفة مشبهة وفسرت بالمتخير ، و(من أمرهم) متعلق بها أو بمحذوف وقع حالا منها ، وجمع الضمير فى (لهم) رعاية للمعنى لوقوع مؤمن ومؤمنة فى سياق النفى والنكرة الواقعة فى سياقه تعم ، وكان من حقه على مافى الكشاف توحيده كما تقول: ما جاءنى من امرأة ولا رجل الا كان من شأنه كذا : وتعقبه أبو حيان بأن هذا عطف بالواو والتوحيد فى العطف بأو نحو من جاءك من شريف أو وضيع أكرمه فلا يجوز إفراد الضمير فى ذاك الا بتأويل الحذف *

وجمعه فى (أمرهم) مع أنه للرسول ﷺ أوله ولله عزوجل للتعظيم على ما قيل *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال بعض الاجلة : لم يظهر عندى امتناع أن يكون عائدا على ماعاد عليه الأول على أن يكون المعنى ناشئة من أمرهم أى دواعيهم السائقة الى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله ﷺ أو يكون المعنى الاختيار فى شىء من أمرهم اى امورهم التى يعنونها . ويرجح عوده على ماذكر بعدم التفكيك ورد بأن ذاك قليل الجدوى ضرورة ان الخيرة ناشئة من دواعيهم او واقعة فى امورهم وهو بين مستغن عن البيان بخلاف ما إذا كان المعنى بدل امره الذى قضاه عليه الصلاة والسلام او متجاوزين عن امره لتأكيده وتقريره للنفى وهذا هو المانع من عوده الى ماعاد عليه الاول ، والحق أنه لامانع من ذلك على ان يكون المعنى ما كان للمؤمنين ان يكون لهم اختيار فى شىء من امورهم إذا قضى الله ورسوله لهم امرا، ولا نسلم ان ما عد مانعا مانع فتدبر *

ولعل الفائدة فى العدول عن الظاهر فى الضمير الاول على ما قال الطيبى الايذان بأنه كما لا يصح لكل فرد فرد من المؤمنين أن يكون لهم الخيرة كذلك لا يصح أن يجتمعوا ويتفقوا على كلمة واحدة لأن تأثير الجماعة واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد ، ويستفاد منه فائدة الجمع فى الضمير الثانى على تقدير عوده على ما عاد عليه الأول وكذا وجه افراد الأمر اذا أمعن النظر وقرأ الحرميان والعربيان وأبو عمرو. وأبو جعفر . وشيبة . والاعرج . وعيسى . تكون بتاء التأنيث والوجه ظاهر ووجه القراءة بالياء وهى قراءة الكوفيين . والحسن والأعمش . والسلمى أن المرفوع بالفعل مفصول مع كون تأنيثه غير حقيقى ، وقرىء كما ذكر عيسى بن سليمان (الخيرة) بسكون الياء ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق ﴿ضَلَالًا مُبِينًا ٣٦﴾ أى بين الانحراف عن سنن الصواب ، والظاهر أن هذا فى الأمور المقضية على مايشعر به السوق، والآية على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . ومجاهد . وغيرهم نزلت فى زينب بنت جحش من عمته صلى الله تعالى عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وأخيها عبد الله خطبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة وقال: إنى أريد أزوجك زيد بن حارثة فانى قد رضيته لك فأبت وقالت: يارسول الله لكنى لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قومى وبنت عمتك فلم أكن لأفعل*

وفى رواية أنها قالت: أنا خير منه حسبا ووافقها أخوها عبد الله على ذلك فلما نزلت الآية رضيا وسلما فأنكحها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زيدا بعد أن جعلت أمرها بيده وساق اليها عشرة دنانير وستين درهما مهرا وخمارا وملحفة ودرعا وازارا وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فزوجها زيد بن حارثة فحطت(١) هى وأخوها وقالت انما أردنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فزوجنا عبده ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ خطاب للنبى ﷺ أى اذكر وقت قولك ﴿ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته وعتقه ومراعاته وتخصيصه بالتبنى ومزيد القرب ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعمل بما وفقك الله تعالى له من فنون الاحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه، وإيراده بالعنوان المذكور كما قال شيخ الاسلام : لبيان منافاة حاله لما

---

(١) قوله فحطت هى وأخوها الخ كذا بخطه ولعلها فخطئت الخ وحرر اه

www.Quranpdf.blogspot.in

صدر عنه عليه الصلاة والسلام من إظهار خلاف ما فى ضميره الشريف اذ هو انما يقع عند الاستحياء والاحتشام وكلاهما مما لا يتصور فى حق زيد رضى الله تعالى عنه، وجوز أن يكون بيانا لحكمة اخفائه ﷺ ما أخفاه لأن مثل ذلك مع مثله مما يطعن به الناس كما قيل :

وأظلم خلق الله من بات حاسداً   لمن كان فى نعمائه يتقلب

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ أى زينب بنت جحش وذلك أنها كانت ذاحدة ولا زالت تفخر على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره فجاء رضى الله تعالى عنه يوما الى النبى ﷺ فقال: يارسول الله إن زينب قد اشتد على لسانها وأنا أريد أن أطلقها فقال له عليه الصلاة والسلام: (أمسك عليك زوجك) ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ فى أمرها ولا تطلقها ضراراً وتعللا بتكبرها واشتداد لسانها عليك، وتعدية (أمسك) بعلى لتضمينه معنى الحبس *

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ عطف على (تقول) وجوزت الحالية بتقدير وأنت تخفى أو بدونه كما هو ظاهر كلام الزمخشرى فى مواضع من كشافه، والمراد بالموصول على ما أخرج الحكيم الترمذى وغيره عن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ما أوحى الله تعالى به اليه أن زينب سيطلقها زيد ويتزوجها بعد عليه الصلاة والسلام والى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهرى. وبكر بن العلاء. والقشيرى. والقاضى أبى بكر بن العربى. وغيرهم ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ تخاف من اعتراضهم وقيل: أى تستحى من قولهم: إن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تزوج زوجة ابنه، والمراد بالناس الجنس والمنافقون وهذا عطف على ما تقدم أو حال *

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى موضع الحال لاغير، والمعنى والله تعالى وحده أحق أن تخشاه فى كل أمر فتفعل ما أباحه سبحانه لك واذن لك فيه، والعتاب عند من سمعت على قوله عليه الصلاة والسلام ذلك مع (أمسك) مع علمه بأنه سيطلقها ويتزوجها هو صلى الله تعالى عليه وسلم بعده وهو عتاب على ترك الاولى *

وكان الأولى فى مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الامر الى رأى زيد رضى الله تعالى عنه *

وأخرج جماعة عن قتادة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يخفى ارادة طلاقها ويخشى قالة الناس إن أمره بطلاقها وأنه عليه الصلاة والسلام قال له: (أمسك عليك زوجك واتق الله) وهو يحب طلاقها، والعتاب عليه على ظهار ما ينافى الاضمار، وقد رد ذلك القاضى عياض فى الشفاء وقال: لا تسترب فى تنزيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن هذا الظاهر وأنه يأمر زيدا بامساكها وهو يحب تطليقه اياها كما ذكره جماعة من المفسرين الى آخر ما قال *

وذكر بعضهم أن ارادته صلى الله تعالى عليه وسلم طلاقها وحبه اياه كان مجرد خطوره بباله الشريف بعد العلم بأنه يريد مفارقتها، وليس هناك حسد منه عليه الصلاة والسلام وحاشاه له عليها فلا محذور، والاسلم ما ذكرناه عن زين العابدين رضى الله تعالى عنه. والجمهور، وحاصل العتاب لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه مبدى ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ولم يظهر غير تزويجها منه فقال سبحانه: (زوجناكها) فلو كان المضمر محبتها وارادة طلاقها ونحو ذلك لأظهره جل وعلا، وللقصاص فى هذه القصة كلام لا ينبغى أن يجعل فى حيز القبول *

منه ما اخرجه ابن سعد. والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان أنه ﷺ جاء إلى بيت زيد فلم يجده وعرضت

www.Quranpdf.blogspot.in

زينب عليه دخول البيت فأبى أن يدخل وانصرف راجعا يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد فأخبرته بما كان فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له: بلغني يارسول الله انك جئت منزلى فهلا دخلت يارسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها فقال عليه الصلاة والسلام: أمسك عليك زوجك واتق الله فما استطاع زيد اليها سبيلا بعد ففارقها ، وفى تفسير على بن ابراهيم أنه ﷺ أتى بيت زيد فرأى زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيبا بفهر لها فلما نظر اليها قال: سبحان خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين فرجع فجاء زيد فأخبرته الخبر فقال لها: لعلك وقعت فى قلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت: أخشى أن تطلقنى ولا يتزوجنى فجاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له: أريد أن أطلق زينب فاجابه بما قص الله تعالى إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتتبع ، وفى شرح المواقف أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي ﷺ عن مثله فان صحت فميل القلب غير مقدور مع ما فيه من الابتلاء لهما ، والظاهر أن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى أوحى اليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد فلم يبادر له صلى الله تعالى عليه وسلم مخافة طعن الاعداء فعوتب عليه ، وهو توجيه وجيه قاله الخفاجي عليه الرحمة ثم قال: إن القصة شبيهة بقصة داود عليه السلام لاسيما وقد كان النزول عن الزوجة فى صدر الهجرة جاريا بينهم من غير حرج فيه انتهى ، وأبعد بعضهم فزعم أن (وتخفى) الخ خطاب كسابقه من الله عز وجل أو من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لزيد فانه أخفى الميل اليها واظهر الرغبة عنها لما وقع فى قلبه أن النبي ﷺ يود أن تكون من نسائه ، هذا وفى قوله تعالى (أمسك عليك زوجك) وصول الفعل الرافع الضمير المتصل إلى الضمير المجرور وهما لشخص واحد فهو كقوله : هون عليك ودع عنك نهبا صيح فى حجراته ، وذكروا فى مثل هذا التركيب أن على وعن اسمان ولا يجوز أن يكونا حرفين لامتناع فكرفيك وأعين بك بل هذا مما تكون فيه النفس أى فكر فى نفسك وأعين بنفسك ، والحق عندى جواز ذلك التركيب مع حرفية على وعن ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ أى طلقها كما روى عن قتادة وهو كناية عن ذلك مثل لا حاجة لى فيك ، ومعنى الوطر الحاجة وقيدها الراغب بالمهمة ، وقال أبو عبيدة : هو كالادب وأنشد للربيع بن ضبع :

ودعنا قبل أن نودعه ... لما قضى من شبابنا وطراً

ويفسر الادب بالحاجة الشديدة المقتضية للاحتيال فى دفعها ويستعمل تارة فى الحاجة المفردة وأخرى فى الاحتيال وإن لم تكن حاجة ، وقال المبرد: هو الشهوة والمحبة يقال: ماقضيت من لقائك وطرا أى ما استمتعت منك حتى تنتهى نفسى وأنشد :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما ... قضى وطرا منها جميل بن معمر

وعن ابن عباس تفسير الوطر هنا بالجماع، والمراد لم يبق له بها حاجة الجماع وطلقها ، وفى البحر نقلا عن بعضهم أنه رضى الله تعالى عنه أنه لم يتمكن من الاستمتاع بها ، وروى أبو عصمة نوح بن أبى مريم باسناد رفعه اليها انها قالت: ما كنت امتنع منه غير أن الله عز وجل منعنى منه ، وروى أنه كان يتورم ذلك منه حين يريد أن يقربها فيمتنع *

قيل : ولا يخفى أنه على هذا يحسن جدا جعل قضاء الوطر كناية عن الطلاق فتأمل ، وفى الكلام تقدير

www.Quranpdf.blogspot.in

أى فلما قضى زيد منها وطراً وانقضت عدتها ، وقيل : إن قضاء الوطر يشعر بانقضاء العدة لأن القضاء الفراغ من الشيء على التمام فكأنه قيل: فلما قضى زيد حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها فلم يكن فى قلبه ميل اليها ولا وحشة من فراقها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أى جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد إصالة أو وكالة، فقد صح من حديث البخارى. والترمذى أنها رضى الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات، وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال: كانت تقول للنبى عليه الصلاة والسلام إنى لأدل عليك بثلاث مامن نسائك امرأة تدل بهن إن جدى وجدك واحد وإنى انكحك الله اياى من السماء وإن السفير لجبريل عليه السلام، ولعلها ارادت سفارته عليه السلام بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ والا فالسفير بينه عليه الصلاة والسلام وبينها كان زيدا * أخرج أحمد. ومسلم. والنسائى. وغيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لزيد: اذهب فاذكرها على فانطلق قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى فقلت : يازينب ابشرى أرسلنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يذكرك قالت: ماأنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودخل عليها بغير اذن *

ومن حديث أخرجه الطبرانى. والبيهقى فى سننه. وابن عساكر من طريق ابن زيد الاسدى عن مذكور مولى زينب قالت طلقنى زيد فبت طلاقى فلما انقضت عدتى لم أشعر الا والنبى عليه الصلاة والسلام قد دخل على وأنا مكشوفة الشعر فقلت: هذا من السماء دخلت يارسول الله بلا خطبة ولا شهادة فقال: الله تعالى المزوج وجبريل الشاهد، ولا يخفى ان هذا بظاهره يخالف ماتقدم من الحديث والمعول على ذاك ، وقيل : المراد بزوجناكها امرناك بتزوجها *

وقرأ على. وابناه ريحانتا رسول الله ﷺ الحسن. والحسين. وابنه محمد بن الحنفية. وجعفر الصادق رضى الله تعالى عنهم أجمعين (زوجتكها) بتاء الضمير للمتكلم وحده ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق وقيل إثم ، وفسره بهما بعضهم كالطبرسى بناء على جواز استعمال المشترك فى معنييه مطلقا كما ذهب اليه الشافعية أو فى النفى كما ذهب اليه العلامة ابن الهمام من الحنفية ﴿فِي أَزْوَاجِ﴾ أى فى حق تزوج أزواج ﴿أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى إذا طلقوهن الأدعياء وانقضت عدتهن فان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، واستدل بهذا على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام ثابت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام بدليل ، وتمام الكلام فى المسئلة مذكور فى الأصول، والمراد بالحكم ههنا على ما سمعت أولا مطلق تزوج زوجات الأدعيـــاء وهو على ما قيل ظاهر ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن ﴿مَفْعُولًا ٣٧﴾ مكونا لامحالة، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لماقبله من تزويج زينب رضى الله تعالى عنها ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى ماصح وما استقام فى الحكمة أن يكون له حرج ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى قسم له ﷺ وقدر من قولهم: فرض له فى الديوان كذا، ومنه فروض العساكر لما يقطعه السلطان لهم ويرسم به ، وقال قتادة : أى فيما أحل له ، وقال الحسن: فيما خصه به من صحة

www.Quranpdf.blogspot.in

النكاح بلا صداق، وقال الضحاك : من الزيادة على الأربع ﴿سُنَّةَ اللّٰهِ﴾ أى سن الله تعالى ذلك سنة فهو مصدر منصوب بفعل مقدر من لفظه ، والجملة مؤكدة لما قبلها من نفى الحرج ،وذهب الزمخشرى إلى أنه اسم موضوع موضع المصدر كقولهم : تربا وجندلا أى رغما وهوانا وخيبة، وكأنه لم تثبت عنده مصدريته، وقيل: منصوب بتقدير الزم ونحوه *

قال ابن عطية : ويجوز أن يكون نصبا على الاغراء كأنه قيل: فعليه سنة الله . وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لأن عامل الاسم فى الاغراء لايجوز حذفه، وأيضا تقدير فعليه سنة الله بضمير الغائب لايجوز إذ لايغرى غائب وقولهم عليه رجلا ليسنى مؤول وهو مع ذلك نادر . واعترض بأن قوله: لأن عامل الاسم فى الاغراء لا يجوز حذفه ممنوع ، وهو خلاف مايفهم من كتب النحو وبأن ماذكره فى أمر إغراء الغائب مسلم لكن يمكن توجيهه ههنا كما لايخفى ، ثم قيل: إن ظاهر كلام ابن عطية يشعر بأن النصب بتقدير الزم قسيم للنصب على الاغراء وليس كذلك بل هو قسم منه اه فتدبر *

﴿فى الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أى مضوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبلك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث لم يحرج جل شأنه عليهم فى الاقدام على ماأحل لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسرارى وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية *

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى أنه كان له عليه السلام ألف امرأة، والظاهر أنه عنى بالمرأة مايقابل السرية ويحتمل أنه أراد بها الأعم فيوافق ماقبله . يروى أن اليهود قاتلهم الله تعالى عابوه وحاشاه من العيب صلى الله تعالى عليه وسلم بكثرة النكاح وكثرة الأزواج فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه :(سنة الله) الآية *

وقيل : إنه جل وعلا أشار بذلك إلى ما وقع لداود عليه السلام من تزوجه امرأة أوريا . وأخرج ذلك ابن المنذر . والطبرانى عن ابن جريج، واسم تلك الامرأة عنده اليسية وهذا مما لا يلتفت اليه، والقصة عند المحققين لاأصل لها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ٣٨﴾ أى عن قدر أو ذا قدر ووصفه بمقدور نحو وصف الظل بالظليل والليل بالأليل فى قولهم ظل ظليل وليل أليل فى قصد التأكيد، والمراد بالقدر عند جمع المعنى المشهور للقضاء وهو الارادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهى عليه، وجوز كونه بالمعنى المشهور له وهو إيجاد الأشياء على قدر مخصوص وكمية معينة من وجوه المصلحة وغيرها، والمعنى الأول أظهر، والقضاء والقدر يستعمل كل منهما بمعنى الآخر وفسر الأمر بنحو ما فسر به فيما سبق . وجوز أن يراد به الأمر الذى هو واحد الأوامر من غير تأويل ويراد أن أتباع أمر الله تعالى المنزل على أنبيائه عليهم السلام والعمل بموجبه لازم مقضى فى نفسه أو هو كالمقضى فى لزوم اتباعه ، ولايخفى تكلفه ، وظاهر كلام الامام اختيار أن الأمر واحد الأمور وفرق بين القضاء والقدر بما لم نقف عليه لغيره فقال ماحاصله. القضاء مايكون مقصودا له تعالى فى الأصل والقدر ما يكون تابعا والخير كله بقضاء وما فى العالم من الضرر بقدر كالزنا والقتل ثم بنى على ذلك لطيفة وهو أنه لما قال سبحانه : (زوجناكها) ذيله بأمرا مفعولا لكونه مقصودا اصليا وخيرا مقضيا ولما قال جل شأنه : (سنة الله فى الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال سبحانه : (قدرا مقدورا) لكون الافتتان شرا غير مقصود أصلى من خلق المكلف، وفيه مافيه ، والجملة اعتراض وسط بين الموصولين

www.Quranpdf.blogspot.in

الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفى الحرج وتحقيقه ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ﴾ صفة للذين خلوا أو هو فى محل رفع أو نصب على اضمارهم أو على المدح *

وقرأ عبدالله (بلغوا) فعــلا ماضيا، وقرأ أبى (رسالة) على التوحيد لجعل الرسالات المتعددة لاتفاقها فى الأصول وكونها من الله تعالى بمنزلة شىء واحد وان اختلفت أحكامها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أى يخافونه تعالى فى كل مايأتون ويذرون لاسيما فى أمر تبليغ الرسالة ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الناس من حيث أن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التى ينبغى الاقتداء بها ذلك، وهذا كالتأكيد لما تقدم من التصريح فى قوله سبحانه: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وتوهم بعضهم أن منشأ التعريض توصيف الأنبياء بتبليغ الرسالات وحمل الخشية على الخشية فى أمر التبليغ لو قوعها فى سياقه وفيه مالا يخفى ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ٣٩﴾ أى كافيا للمخاوف أو محاسبا على الكبائر والصغائر من أفعال القلب والجوارح فلا ينبغى أن يخشى غيره، والاظهار فى مقام الاضمار لما فى هذا الاسم الجليل ماليس فى الضمير، واستدل بالآية على عدم جواز التقية على الأنبياء عليهم السلام مطلقا، وخص ذلك بعض الشيعة فى تبليغ الرسالة وجعلوا ماوقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه القصة المشار اليه بقوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) بناء على أن الخشية فيه بمعنى الخوف لا على أن المراد الاستحياء من قول الناس تزوج زوجة ابنه كما قاله ابن فورك من التقية الجائزة حيث لم تكن فى تبليغ الرسالة، ولافرق عندهم بين خوف المقالة القبيحة واساءة الظن وبين خوف المضار فى أن كلا يبيح التقية فيما لايتعلق بالتبليغ، ولهم فى التقية كلام طويل وهى لأغراضهم ظل ظليل، والمتتبع لكتب الفرق يعرف أن قد وقع فيها افراط وتفريط وصواب وتخليط وان أهل السنة والجماعة قد سلكوا فيها الطريق الوسط وهو الطريق الاسلم الامين سالكه من الخطأ والغلط، أما الافراط فللشيعة حيث جوزوا بل أوجبوا على ماحكى عنهم اظهار الكفر لأدنى مخافة اوطمع، وأما التفريط فللخوارج والزيدية حيث لايجوزون فى مقابلة الدين مراعاة العرض وحفظ النفس والمال أصلا، وللخوارج تشديدات عجيبة فى هذا الباب، وقد سبوا وطعنوا بريدة الاسلمى أحد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسبب أنه رضى الله تعالى عنه كان يحافظ فرسه فى صلاته خوفا من أن يهرب *

ومذهب أهل السنة أن التقية وهى محافظة النفس أو العرض أو المال من نحو الاعداء باظهار محظور دينى مشروعة فى الجملة *

وقسموا العدو إلى قسمين: الأول من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالمسلم والكافر ويلحق به من كانت عداوته لاختلاف المذهب اختلافا يجر إلى تكفير أصحاب أحد المذهبين أصحاب المذهب الآخر كأهل السنة والشيعة، والثانى من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمرأة، وعلى هذا تكون التقية أيضا قسمين: أما الأول فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين حقيقة أو حكما وقد ذكروا فى ذلك أن من يدعى الإيمان إذا وقع فى محل لايمكن أن يظهر دينه وماهو عليه لتعرض المخالفين وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على الاظهار ولايجوز له أن يسكن هنالك ويكتم دينه بعذر الاستضعاف

www.Quranpdf.blogspot.in

فأرض الله تعالى واسعة ، نعم إن كان له عذر غير ذلك كالعمى والحبس وتخويف المخالف له بقتله أو قتل ولده أو أبيه أو أمه على أى وجه كان القتل تخويفا يظن معه وقوع ما خوف به جاز له السكنى والموافقة بقدر الضرورة ووجب عليه السعى فى الحيلة للخروج وان لم يكن التخويف كذلك كالتخويف بفوات المنفعة أو بلحوق المشقة التى يمكنه تحملها كالحبس مع القوت والضرب القليل الغير المهلك لايجوز له الموافقة وإن ترتب على ذلك موته كان شهيدا ، وأما الثانى فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية •

وقد اختلف العلماء فى وجوب الهجرة وعدمه فيه فقال بعضهم : تجب الهجرة لوجوب حفظ المال والعرض •

وقال جمع : لاتجب إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية ولا يعود بتركها نقصان فى الدين إذ العدو المؤمن كيفما كان لايتعرض لعدوه الضعيف المؤمن مثله بالسوء من حيث هو مؤمن •

وقال بعض الأجلة على طريق المحاكمة : الحق أن الهجرة ههنا قد تجب أيضا وذلك إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه أو الافراط فى هتك حرمته ، وقال : إنها مع وجوبها ليست عبادة إذ التحقيق أنه ليس كل واجب عبادة يثاب عليها فان الأكل عند شدة المجاعة والاحتراز عن المضرات المعلومة أو المظنونة فى المرض وعن تناول السمومات فى حال الصحة وما أشبه ذلك أمور واجبة ولا يثاب فاعلها عليها اه ، وفيه بحث ، وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من زبر العلماء الاعلام ، ولعل لنا عودة ان شاء الله تعالى لذكر شىء من ذلك والله تعالى الهادى لسلوك أقوم المسالك · بقى لنا فيما يتعلق بالآية شىء وهو ماقيل : انه سبحانه وصف المرسلين الخالين عليهم الصلاة والسلام بأنهم لايخشون أحدا إلا الله وقد أخبر عز وجل عن موسى عليه السلام بأنه قال : (إنا نخاف أن يفرط علينا) وهل خوف ذلك الا خشية غير الله تعالى فما وجه الجمع؟ قلت : أجيب بأن الخشية أخص من الخوف •

قال الراغب : الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه ، وذكر فى ذلك عدة آيات منها هذه الآية ، ونفى الخاص لايستلزم نفى العام فقد يجتمع مع إثباته ، وهذا أولى مما قيل فى الجواب من أن الخشية أخص من الخوف لأنها الخوف الشديد والمنفى فى الآية ههنا هو ذلك لا مطلق الخوف المثبت فيما حكى عن موسى عليه السلام ، وأجاب آخر بأن المراد بالخشية المنفية الخوف الذى يحدث بعد الفكر والنظار وليس من العوارض الطبيعية البشرية ، والخوف المثبت هو الخوف العارض بحسب البشرية بادى الرأى وكم قد عرض مثله لموسى عليه السلام ولغيره من إخوانه وهو مما لانقص فيه كما لا يخفى على كامل ، وهو جواب حسن ، وقيل : ان موسى عليه السلام انما خاف أن يعجل فرعون عليه بما يحول بينه وبين اتمام الدعوة واظهار المعجزة فلا يحصل المقصود من البعثة فهو خوف لله عز وجل ، والمراد بما نفى عن المرسلين هو الخوف عنه سبحانه بمعنى أن يخاف غيره جل وعلا فيخل بطاعته أو يقدم على معصيته وأين هذا من ذاك فتأمل تولى الله تعالى هداك •

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ رد لمنشأ خشيته صلى الله تعالى عليه وسلم الناس المعاتب عليها بقوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وهو قولهم : إن محمدا عليه الصلاة والسلام تزوج زوجة ابنه زيد بنفى كون زيد ابنه الذى يحرم نكاح زوجته عليه صلى الله تعالى عليه وسلم على أبلغ وجه كما ستعرفه قريبا

www.Quranpdf.blogspot.in

إن شاء الله تعالى ، والرجال جمع رجل بضم الجيم كما هو المشهور وسكونه وهو على مافى القاموس الذكر إذا احتلم وشب أو هو رجل ساعة يولد ، وفى بعض ظواهر الآيات والأخبار ماهو مؤيد للثانى نحو قوله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الولدان والأقربون) وقوله سبحانه : (وإن كان رجل يورث كلالة) ونحو قوله عليه الصلاة والسلام : « فلأولى رجل ذكر » والبحث الذى ذكره بعض أجلة المتأخرين فيما ذكر من الأمثلة لا يدفع كون الظاهر منها ذلك عند المنصف، وقد يذكر لتأييد الأول قوله تعالى : (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) فان الرجال فيه للبالغين ، وفيه بحث ، نعم ظاهر كلام الزمخشرى وهو امام له قدم راسخة فى اللغة وغيرها من العلوم العربية يدل على أن الرجل هو الذكر البالغ، وأياما كان فاضافة رجال الى ضمير المخاطبين باعتبار الولاد فان أريد بالرجال الذكور البالغون فالمعنى ما كان محمد أبا أحد من أبنائكم أيها الناس الذكور البالغين الذين ولدتموهم ، وان أريد بهم الذكور مطلقا فالمعنى ما كان محمد أبا أحد من أبنائكم الذين ولدتموهم مطلقا كبارا كانوا أوصغارا .

والأب حقيقة لغوية فى الوالد على مايفهم من كلام كثير من اللغويين ، والمراد بالابوة المنفية هنا الابوة الحقيقية الشرعية التى يترتب عليها أحكام الابوة الحقيقية اللغوية من الارث ووجوب النفقة وحرمة المصاهرة سواء كانت بالولادة أو بالرضاع أو بتبنى من يولد مثله لمثله وهو مجهول النسب فحيث نفى كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أبا أحد من رجالهم بأى طريق كانت الابوة، ومن المعلوم أن زيدا أحد من رجالهم تحقق نفى كونه عليه الصلاة والسلام ابا له مطلقا ، أما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس ابا له بالولادة فمما لانزاع فيه ولم يتوهم أحد خلافه ، ومثله كونه عليه الصلاة والسلام ليس ابا له بالرضاع، وأما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أبا له بالتبنى مع تحقق تبنيه عليه الصلاة والسلام فلأن الابوة بالتبنى التى نفيت انما هى الابوة الحقيقية الشرعية وما كان من التبنى لايستتبعها لتوقفها شرعا على شرائط ، منها كون المتبنى مجهول النسب وذلك منتف فى زيد فقد كان معروف النسب فيما بينهم، وقد تقدم لك أنه ابن حارثة، وتعميم نفى أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من رجالهم بحيث شمل نفى الابوة بالولادة والابوة بالرضاع والابوة بالتبنى مع أنه لاكلام فى انتفاء الاولين وانما الكلام فى انتفاء الاخيرة فقط اذ هى التى يزعمها من يقول : تزوج محمد عليه الصلاة والسلام زوجة ابنه للمبالغة فى نفى الابوة بالتبنى التى زعموا ترتب احكام الابوة الحقيقية عليها بنظمها فى سلك ما لاخفاء فيه أصلا .

ولعل هذا هو السر فى قوله سبحانه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) دون ما كان محمد أبا أحد من الرجال أو ما كان محمد أبا أحد منكم ، ولعله لهذا أيضا صرح بنفى أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من رجالهم ليعلم منه نفى بنوة أحد من رجالهم له عليه الصلاة والسلام ، ولم يعكس الحال بأن يصرح بنفى بنوة أحد من رجالهم له عليه الصلاة والسلام ليعلم نفى أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من رجالهم، ويؤتى بما بعد على وجه ينتظم مع ما قبل وبحمل الابوة المنفية على الأبوة الحقيقية الشرعية ينحل اشكال فى الآية وهو أن سياقها لنفى أبوته عليه الصلاة والسلام لزيد ليرد به على من يعترض على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتزوجه مطلقته فان أريد بالابوة الابوة الحقيقية اللغوية وهى ما يكون بالولادة لم تلائم السياق ولم يحصل بها الرد المذكور مع أنه هو المقصود إذ لم يكن أحد يزعم ويتوهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أبا زيد بالولادة ، وان أريد بها الابوة المجازية التى تحقق بالتبنى ونحوه فنفيها غير صحيح لأنه عليه الصلاة والسلام كان

www.Quranpdf.blogspot.in

أبا لزيد مجازا لتبنيه إياه ولم يزل زيد يدعى بابن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) فدعوه حينئذ بابن حارثة، ووجه انحلاله بما ذكرنا من أن المراد بالابوة الابوة الحقيقية الشرعية أن هذه الابوة تكون بالولادة وبالرضاع وبالتبنى بشرطه وهى بانواعها غير متحققة فى زيد، أما عدم تحققها بالنوعين الاولين فظاهر، وأما عدم تحققها بالنوع الاخير فلأن التبنى وإن وقع إلا أن شرطه الذى به يستتبع الابوة الحقيقية الشرعية مفقود كما علمت، وبجعل اضافة الرجال الى ضمير المخاطبين باعتبار الولادة يندفع استشكال النفى المذكور بأنه عليه الصلاة والسلام قد ولد له عدة ذكور فكيف يصح النفى لأن من ولد له عليه الصلاة والسلام ليس مضافا للمخاطبين باعتبار الولادة بل هو مضاف اليه صلى الله تعالى عليه وسلم باعتباره، ومن خص الرجال بالبالغين قال: لا ينتقض العموم بذلك لأن جميع من ولد له عليه الصلاة والسلام مات صغيرا ولم يبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لا اشكال فى ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له ابن يوم نزول الآية لأن السورة مدنية نزلت على مانقل عن ابن الاثير فى تاريخ الكامل السنة الخامسة من الهجرة وفيها تزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب، ومن ولد له صلى الله تعالى عليه وسلم من الذكور ممن عدا ابراهيم فانما ولد بمكة قبل الهجرة وتوفى فيها، وابراهيم وإن ولد بالمدينة لكن ولد السنة الثامنة من الهجرة فلم يكن مولودا يوم النزول بل بعده وهو كما ترى، وكما استشكل النفى بما ذكر استشكل بالحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما فقد كان النبى ﷺ أبا لهما حقيقة شرعية، ولم يرتض بعضهم هنا الجواب بخروجهما بالاضافة لأن لهما نسبة إلى المخاطبين باعتبار الولادة لدخول على كرم الله تعالى وجهه فيهم وهما ولداه، وارتضاه آخر بناء على أن الاضافة للاختصاص باعتبار الولادة ولا اختصاص للحسنين بعلى رضى الله تعالى عنهم باعتبارها لما أنهما ولدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا لكن بالواسطة. فان قبل هذا فذاك وإلا فالجواب. أما ماقيل من أن المراد بالرجال البالغون ولم يكونا رضى الله تعالى عنهما يوم النزول كذلك فان الحسن رضى الله تعالى عنه ولد السنة الثالثة من الهجرة والحسين رضى الله تعالى عنه ولد السنة الرابعة منها لخمس خلون من شعبان وقد علقت به أمه عقب ولادة أخيه بخمسين ليلة أو أقل وكان النزول بعد ولادتهما على ماسمعت آنفا، وأما ماقيل من أن المراد بالاب فى الآية الاب الصلب ومعلوم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن أباهما كذلك فتدبر، وقيل: ليس المراد من الآية سوى نفى أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من الرجال بالتبنى لتنتفى أبوته عليه الصلاة والسلام لزيد التى يزعمها المعترض كما يدل عليه سوق الآية الكريمة فكأنه قيل: ماكان محمد أبا أحد من رجالكم كما زعمتم حيث قلتم إنه أبو زيد لتبنيه اياه وهى ساكتة عن نفى أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد بالولادة أو بالرضاع وعن اثباتها فلا سؤال بمن ولد له صلى الله تعالى عليه وسلم من الذكور ولا بالحسنين رضى الله تعالى عنهم ولا جواب ٭

وإلى اختيار هذا يميل كلام أبى حيان والله تعالى أعلم. واستدل بعض الشافعية بهذه الآية على أنه لا يجوز أن يقال للنبى عليه الصلاة والسلام أبو المؤمنين حكاه صاحب الروضة ثم قال: ونص الشافعى عليه الرحمة على أنه يجوز أن يقال له صلى الله تعالى عليه وسلم أبو المؤمنين أى فى الحرمة ونحوها، وقال الراغب بعد أن قال الاب الوالد مانصه: ويسمى كل من كان سببا فى ايجاد شىء او اصلاحه اوظهوره أبا ولذلك سمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا المؤمنين قال الله تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) وفى بعض القراآت (وهو أب لهم) وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: لعلى كرم الله تعالى وجهه «أنا وأنت أبوا هذه الأمة» وإلى هذا أشار صلى الله

www.Quranpdf.blogspot.in

تعالى عليه وسلم بقوله «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى» اه فلا تغفل، وعلى جواز الاطلاق قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ استدراك من نفى كونه عليه الصلاة والسلام أبا أحد من رجالهم على وجه يقتضى حرمة المصاهرة ونحوها إلى إثبات كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أبا لكل واحد من الأمة فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له صلى الله تعالى عليه وسلم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه عليه الصلاة والسلام فان كل رسول أب لأمته فيما يرجع إلى ذلك، وحاصله أنه استدراك من نفى الأبوة الحقيقية الشرعية التى يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها إلى إثبات الأبوة المجازية اللغوية التى هى من شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتقتضى التوقير من جانبهم والشفقة من جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل فى توجيه الاستدراك أيضا إنه لما نفيت أبوته صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من رجالهم مع اشتهار أن كل رسول أب لأمته ولذا قيل: إن لوطا عليه السلام عنى بقوله: (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) المؤمنات من أمته يتوهم نفى رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم بناء على توهم التلازم بين الأبوة والرسالة فاستدرك باثبات الرسالة تنبيها على أن الأبوة المنفية شىء والمثبتة للرسول شىء آخر، وأما قوله سبحانه ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۧنَ﴾ فقد قيل إنه جىء به ليشير إلى كمال نصحه وشفقته صلى الله تعالى عليه وسلم فيفيد أن أبوته عليه الصلاة والسلام للأمة المشار اليها بقوله تعالى: (ولكن رسول الله) أبوة كاملة فوق أبوة سائر الرسل عليهم السلام لأمهم وذلك لأن الرسول الذى يكون بعده رسول ربما لايبلغ فى الشفقة غايتها وفى النصيحة نهايتها اتكالا على من يأتى بعده كالوالد الحقيقى إذا علم أن لولده بعده من يقوم مقامه، وقيل: إنه جىء به للاشارة إلى امتداد تلك الأبوة المشار اليها بما قبل إلى يوم القيامة فكأنه قيل: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) بحيث تثبت بينه وبينه حرمة المصاهرة ولكن كان أبا كل واحد منكم وأبا أبنائكم وأبناء أبنائكم وهكذا إلى يوم القيامة بحيث يجب له عليكم وعلى من تناسل منكم احترامه وتوقيره ويجب عليه لكم ولمن تناسل منكم الشفقة والنصح الكامل، وقيل: إنه جىء به لدفع مايتوهم من قوله تعالى: (من رجالكم) من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون أبا أحد من رجاله الذين ولدوا منه عليه الصلاة والسلام بأن يولد له ذكر فيعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال وذلك لأن كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين يدل على أنه لا يعيش له ولد ذكر حتى يبلغ لأنه لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبيا فلا يكون هو صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين ويراد بالأب عليه الأب الصلب لئلا يعترض بالحسنين رضى الله تعالى عنهما، ودليل الشرطية مارواه إبراهيم السدى عن أنس قال: كان إبراهيم - يعنى ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - قد ملأ المهد ولو بقى لكان نبيا لكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء عليهم السلام، وجاء نحوه فى روايات أخر *

أخرج البخارى من طريق محمد بن بشر عن إسماعيل بن أبى خالد قال: قلت لعبدالله بن أبى أوفى رأيت إبراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: مات صغيرا ولو قضى بعد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبى عاش ابنه إبراهيم ولكن لانبى بعده *

وأخرج أحمد عن وكيع عن إسماعيل سمعت ابن أبى أوفى يقول: لو كان بعد النبى نبى مامات ابنه *

وأخرج ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس لما مات إبراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى عليه وقال:

www.Quranpdf.blogspot.in

«إن له مرضعا فى الجنة ولو عاش لكان صديقا نبيا ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط وما استرق قبطى» وفى سنده أبو شيبة إبراهيم بن عثمان الواسطى وهو على ماقال القسطلانى ضعيف، ومن طريقه أخرجه ابن منده فى المعرفة وقال: إنه غريب، وكأن النووى لم يقف على هذا الخبر المرفوع أو نحوه أو وقف عليه ولم يصح عنده فقال فى تهذيب الأسماء واللغات: وأما ما روى عن بعض المتقدمين لو عاش إبراهيم لكان نبيا فباطل وجسارة على الكلام على المغيبات ومجازفة وهجوم على عظيم، ومثله ابن عبدالبر فقد قال فى التمهيد: لاأدرى ما هذا فقد ولد نوح عليه السلام غير نبي ولو لم يلد النبي إلا نبيا لكان كل أحد نبيا لأنهم من نوح عليه السلام، وأنا أقول: لايظن بالصحابي الهجوم على الاخبار عن مثل هذ الأمر بالظن، فالظاهر أنه لم يخبر إلا عن توقيف من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا صح حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما المرفوع ارتفع الخصام، لكن الظاهر أن هذا الأمر فى إبراهيم خاصة بأن يكون قد سبق فى علم الله تعالى أنه لو عاش لجعله جل وعلا نبيا لا لكونه ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بل لأمر هو جل شأنه به أعلم (والله أعلم حيث يجعل رسالته) وحينئذ يرد على الشرطية السابقة أعنى قوله لأنه: لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبيا منع ظاهر، والدليل الذى سيق فيما سبق لايثبتها لما أن ظاهره الخصوص فيجوز أن يبلغ ولد ذكره عليه الصلاة والسلام غير إبراهيم ولا يكون نبيا لعدم أهليته للنبوة فى علم الله تعالى لو عاش.

وقول بعض الأفاضل: ليس مبنى تلك الشرطية على اللزوم العقلى والقياس المنطقى بل على مقتضى الحكمة الالهية وهى أن الله سبحانه أكرم بعض الرسل عليهم السلام بجعل أولادهم أنبياء كالخليل عليه السلام ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أكرمهم عليه وأفضلهم عنده فلو عاش أولاده اقتضى تشريف الله تعالى له وأفضليته عنده ذلك ليس بشىء لأنا نقول: لا يلزم من إكرام الله تعالى بعض رسله عليهم السلام بنبوة الأولاد وكون نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أكرمهم وأفضلهم اقتضاء التشريف والأفضلية نبوة أولاده لو عاشوا وبلغوا ليقال إن حكمة كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين لكونها أجل وأعظم منعت من أن يعيشوا فينبؤا، ألاترى أن الله تعالى أكرم بعض الرسل بجعل بعض أقاربهم فى حياتهم وبعد مماتهم أنبياء معينين لهم ومؤيدين لشريعتهم غير مخالفين لها فى أصل أو فرع كموسى عليه السلام ونبينا عليه الصلاة والسلام أكرمهم وأفضلهم ولم يجعل له ذلك.

فان قيل: إنه عوض صلى الله تعالى عليه وسلم عنه بأن جعل جل شأنه له من أقاربه وأهل بيته علماء أجلاء كأنبياء بنى إسرائيل كعلى كرم الله تعالى وجهه كما يرشد اليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم له رضى الله تعالى عنه «أنت منى بمنزلة هرون من موسى» إلا أنه لا نبي بعدى قلنا. فلم لايجوز أن يبقى سبحانه له عليه الصلاة والسلام أولادا ذكورا بالغين ويعوضه عن نبوتهم التى منعت عنها حكمة الخاتمية نحو ماعوضه عن نبوة بعض أقاربه التى منعت عنها تلك الحكمة وذلك أقرب لمقتضى التشريف كما لايخفى، وقيل: الملازمة مستفادة من الآية لأنه لولاها لم يكن للاستدراك معنى إذ لكن تتوسط بين متقابلين فلابد من منافاة بنوتهم له عليه الصلاة والسلام لكونه خاتم النبيين وهو إنما يكون باستلزام بنوتهم نبوتهم، ولا يقدح فيه قوله تعالى: (رسول الله) كما يتوهم لأنه لو سلم رسالتهم لكانت إما فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وهى تنافى رسالته أو بعده وهى تنافى

www.Quranpdf.blogspot.in

خاتميته اه ، وفيه أن الملازمة فى قوله: ولولا ذلك لم يكن للاستدراك معنى ممنوعة، والدليل المذكور لم يثبتها لجواز أن يكون معنى الاستدراك ماذكرناه أولا ، على أن فيما ذكره بعد ما لا يخفى، وقيل فى توجيه الاستدراك: إنه لما كان عدم النسل من الذكور يفهم منه أنه لا يبقى حكمه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يدوم ذكره استدرك بما ذكر وهو كما ترى *

وقال بعض المتأخرين : يجوز أن لا يكون الاستدراك بل لكن هنا بمعنى رفع التوهم الناشىء من أول الكلام كما فى قولك : مازيد كريم لكنه شجاع بل بمعنى أن يثبت لما بعدها حكم مخالف لما قبلها نحو ماهذا ساكن لكنه متحرك وما هذا أبيض لكنه أسود وقد جاء كذلك فى بعض آى الكتاب الكريم كما فى قوله تعالى : (ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) فان نفى السفاهة لا يوهم انتفاء الرسالة ولا انتفاء ما يلزمها من الهدى والتقوى حتى يجعل استدراكا بالمعنى الأول اه فليتأمل *

ومن العجيب ان ابن حجر الهيتمى قال فى فتاواه الحديثية : إنه لا بعد فى إثبات النبوة لابراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صغره وقد ثبت فى الصغر لعيسى ويحيى عليهما السلام ، ثم نقل عن السبكى كلاما فى حديث « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد » حاصله أن حقيقته عليه الصلاة والسلام قد تكون من قبل آدم آتاها الله تعالى النبوة بأن خلقها مهيأة لها وأفاضها عليها من ذلك الوقت وصار نبيا ثم قال: وبه يعلم تحقيق نبوة سيدنا إبراهيم فى حال صغره اه وفيه بحث . وخبر أنه عليه الصلاة والسلام أدخل يده فى قبره بعد دفنه وقال « أما والله إنه لنبى ابن نبى » فى سنده من ليس بالقوى فلا يعول عليه ليتكلف لتأويله، والخاتم اسم آلة لما يختم به كالطابع لما يطبع به فمعنى خاتم النبيين الذى ختم النبيون به ومآله آخر النبيين، وقال المبرد : (خاتم) فعل ماض على فاعل وهو فى معنى ختم النبيين فالنبيين منصوب على أنه مفعول به وليس بذاك . وقرأ الجمهور (وخاتم) بكسر التاء على أنه اسم فاعل أى الذى ختم النبيين ، والمراد به آخرهم أيضا، وفى حرف ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين ، والمراد بالنبى ماهو أعم من الرسول فيلزم من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين كونه خاتم المرسلين والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة فى أحد من الثقلين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها فى هذه النشأة *

ولا يقدح فى ذلك ما أجمعت الأمة عليه واشتهرت فيه الاخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوى ونطق به الكتاب على قول ووجب الايمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان لأنه كان نبيا قبل تحلى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بالنبوة فى هذه النشأة ومثل هذا يقال فى بقاء الخضر عليه السلام على القول بنبوته وبقائه ، ثم انه عليه السلام حين ينزل باق على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال لكنه لا يتعبد بها لنسخها فى حقه وحق غيره وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلا وفرعا فلا يكون اليه عليه السلام وحى ولا نصب أحكام بل يكون خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحاكما من حكام ملته بين أمته بما علمه فى السماء قبل نزوله من شريعته عليه الصلاة والسلام كما فى بعض الآثار أو ينظر فى الكتاب والسنة وهو عليه السلام لا يقصر عن رتبة الاجتهاد المؤدى الى استنباط ما يحتاج اليه أيام مكثه فى الأرض من الاحكام وكسره الصليب وقتله الخنزير ووضعه الجزية وعدم قبولها مما علم من شريعتنا صوابيته فى قوله

www.Quranpdf.blogspot.in

صلى الله تعالى عليه وسلم (١) «إن عيسى ينزل حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»فنزوله عليه السلام غاية لاقرار الكفار ببذل الجزية على تلك الأحوال ثم لا يقبل الاالاسلام لانسخ لها قاله شيخ الاسلام ابراهيم اللقانى فى هداية المريد لجوهرة التوحيد، وقوله: أنه عليه السلام حين ينزل باق على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال لكنه لايتعبد بها الخ أحسن من قول الخفاجى الظاهر أن المراد من كونه على دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم انسلاخه عن وصف النبوة والرسالة بأن يبلغ ما يبلغه عن الوحى وانما يحكم بما يتلقى عن نبينا عليه الصلاة والسلام ولذا لم يتقدم لامامة الصلاة مع المهدى ولا أظنه عنى بالانسلاخ عن وصف النبوة والرسالة عزله عن ذلك بحيث لا يصح اطلاق الرسول والنبى عليه عليه السلام فمعاذ الله أن يعزل رسول أو نبى عن الرسالة أو النبوة بل أكاد لا أتعقل ذلك، ولعله أراد أنه لايبقى له وصف تبليغ الاحكام عن وحى كما كان له قبل الرفع فهو عليه السلام نبى رسول قبل الرفع وفى السماء وبعد النزول وبعد الموت أيضا، وبقاء النبوة والرسالة بعد الموت فى حقه وحق غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام حقيقة مما ذهب اليه غير واحد فان المتصف بهما وكذا بالايمان هو الروح وهى باقية لاتتغير بموت البدن، نعم ذهب الاشعرى كما قال النسفى الى انهما بعد الموت باقيان حكما، وما أفاده كلام اللقانى من أنه عليه السلام يحكم بما علم فى السماء قبل نزوله من الشريعة قد أفاده السفارينى فى البحور الزاخرة وهو الذى أميل له، وأما أنه يجتهد ناظرا فى الكتاب والسنة فبعيد وإن كان عليه السلام قد أوتى فوق ما أوتى مجتهدو الامم مما يتوقف عليه الاجتهاد بكثير اذ قد ذهب معظم اهل العلم الى أنه حين ينزل يصلى وراء المهدى رضى الله تعالى عنه صلاة الفجر وذلك الوقت يضيق عن استنباط ما تضمنته تلك الصلاة من الاقوال والافعال من الكتاب والسنة على الوجه المعروف *

نعم لا يبعد أن يكون عليه السلام قد علم فى السماء بعضا ووكل الى الاجتهاد والاخذ من الكتاب والسنة فى بعض آخر، وقيل: إنه عليه السلام يأخذ الاحكام من نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم شفاها بعد نزوله وهو فى قبره الشريف عليه الصلاة والسلام، وأيد بحديث أبى يعلى «والذى نفسى بيده لينزلن عيسى ابن مريم ثم لئن قام على قبرى وقال يا محمد لأجيبنه» *

وجوز أن يكون ذلك بالاجتماع معه عليه الصلاة والسلام روحانية ولا بدع فى ذلك فقد وقعت رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وفاته لغير واحد من الكاملين من هذه الامة والاخذ منه يقظة، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن فى طبقات الاولياء: قال الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر فقال لى: يا بنى لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه أنا رجل أعجم كيف أتكلم على فصحاء بغداد فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه سبعا وقال: تكلم على الناس وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فصليت الظهر وجلست وحضرنى خلق كثير فارتج على فرأيت عليا كرم الله تعالى وجهه قائما بازائى فى المجلس فقال لى: يا بنى لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه قد ارتج على فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه ستا فقلت: لم لا تكملها سبعا قال: أدبا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم توارى عنى فقلت: غواص الفكر يغوص فى بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها الى ساحل الصدر فينادى عليها سمسار ترجمان اللسان فتشترى بنفائس أثمان حسن الطاعة فى بيوت اذن الله ان ترفع، وقال أيضا فى ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهرملكى: كان كثير الرؤية لرسول الله عليه

(١) حديث صحيح وفى الصحيحين ماهو بمعناه اه منه

الصلاة والسلام يقظة ومناما فكان يقال: إن أكثر أفعاله يتلقاه منه ﷺ يقظة ومناما ورآه فى ليلة واحدة سبع عشرة مرة قال له فى احداهن: يا خليفة لاتضجر منى فكثير من الأولياء مات بحسرة رؤيتى، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى لطائف المنن: قال رجل للشيخ أبى العباس المرسى ياسيدى صافحنى بكفك هذه فانك لقيت رجالا وبلادا فقال: والله ما صافحت بكفى هذه الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: وقال الشيخ لو حجب عنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين، ومثل هذه النقول كثير من كتب القوم جدا *

وفى تنوير الحلك للجلال الدين السيوطى الذى رد به على منكرى رؤيته ﷺ بعد وفاته فى اليقظة طرف معتد به من ذلك، وبدأ فى الاستدلال على ذلك بما أخرجه البخارى. ومسلم. وأبو داود عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولا يتمثل الشيطان بى» وأخرج الطبرانى مثله من حديث مالك بن عبد الله الخثعمى ومن حديث أبى بكرة، وأخرج الدارمى مثله من حديث أبى قتادة *

وللمنكرين اختلاف فى تأويله فقيل: المراد فسيرانى فى القيامة فهناك اليقظة الكاملة كما يشير اليه الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا. وتعقب بأنه لافائدة فى هذا التخصيص لأن كل أمته يرونه يوم القيامة من رآه منهم فى المنام ومن لم يره، وقيل: المراد الرؤية على وجه خاص من القرب والحظوة منه صلى الله تعالى عليه وسلم يوم القيامة أو حصول الشفاعة له أو نحو ذلك، ولا يرد عليه ماذكر، وقيل: المراد بمن من آمن به فى حياته ولم يره لكونه حينئذ غائبا عنه فيكون الخبر مبشرا له بأنه لابد أن يراه فى اليقظة يعنى بعينى رأسه، وقيل: بعين قلبه حكاهما القاضى أبو بكر بن العربى، وقال الامام أبو محمد بن أبى جمرة فى تعليقه على الاحاديث التى انتقاها من صحيح البخارى: هذا الحديث يدل على أن من يراه صلى الله تعالى عليه وسلم فى النوم فسيراه فى اليقظة وهل هذا على عمومه فى حياته وبعد مماته عليه الصلاة والسلام أو هذا كان فى حياته وهل ذلك لكل من رآه مطلقا أو خاص بمن فيه الاهلية والاتباع لسنته عليه الصلاة والسلام اللفظ يعطى العموم ومن يدعى الخصوص فيه بغير مخصص منه صلى الله تعالى عليه وسلم فمتعسف، وأطال الكلام فى ذلك ثم قال: وقد ذكر عن السلف والخلف وهلم جرا ممن كانوا رأوه صلى الله تعالى عليه وسلم فى النوم وكانوا ممن يصدقون بهذا الحديث فرأوه بعد ذلك فى اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فاخبرهم بتفريجها ونص لهم على الوجوه التى منها يكون فرجها فجاء الامر كذلك بلا زيادة ولا نقص انتهى المراد منه، ثم ان رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم يقظة عند القائلين بها أكثر ماتقع بالقلب ثم يترقى الحال إلى أن يرى بالبصر، واختلفوا فى حقيقة المرئى فقال بعضهم المرئى ذات المصطفى ﷺ بجسمه وروحه، وأكثر أرباب الاحوال على أنه مثاله وبه صرح الغزالى فقال: ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه بل مثالا له صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذى فى نفسه قال: والآلة تارة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية والنفس غير المثال المتخيل فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق *

وفصل القاضى أبو بكر بن العربى فقال: رؤية النبى ﷺ بصفته المعلومة ادراك على الحقيقة ورؤيته على غير صفته ادراك للمثال واستحسنه الجلال السيوطى وقال: بعد نقل أحاديث وآثار مانصه فحصل من مجموع هذا الكلام النقول والاحاديث أن النبى ﷺ حى بجسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث شاء فى اقطار الارض وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء وانه مغيب عن الابصار كما غيبت الملائكة مع

www.Quranpdf.blogspot.in

كونهم أحياء باجسادهم فاذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أرادا كرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليه الصلاة والسلام عليها لامانع من ذلك ولاداعي إلى التخصيص برؤية المثال اه ، وذهب رحمه الله تعالى إلى نحو هذا في سائر الانبياء عليهم السلام فقال انهم احياء ردت اليهم أرواحهم بعد ماقبضوا واذن لهم في الخروج من قبورهم والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي، وهذا الذي ذكره من الخروج من القبور ذكر اخبارا كثيرة تشهد له *

منها ماأخرجه ابن حبان في تاريخه. والطبراني في الكبير. وأبو نعيم في الحلية عن أنس قال: « قال رسول الله ﷺ ما من نبي يموت فيقيم في قبره الا أربعين صباحا» ومنها مارواه عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري عن أبي المقدام عن سعيد بن المسيب قال: مامكث نبي في الارض أكثر من أربعين يوما، وأبو المقدام هو ثابت بن هرمز شيخ صالح ، ومنها ماذكره امام الحرمين في النهاية ثم الرافعي في الشرح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «انا أكرم على ربي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث» زاد امام الحرمين وروى أكثر من يومين *

والذي يغلب على الظن أن رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وفاته بالبصر ليست كالرؤية المتعارفة عند الناس من رؤية بعضهم لبعض وإنما هي جمعية حالية وحالة برزخية وامر وجداني لايدرك حقيقته الامن باشره ، ولشدة شبه تلك الرؤية بالرؤية البصرية المتعارفة يشتبه الامر على كثير من الرائين فيظن أنه رآه ﷺ ببصره الرؤية المتعارفة وليس كذلك، وربما يقال انها رؤية قلبية ولقوتها تشتبه بالبصرية، والمرئي إما روحه عليه الصلاة والسلام التي هي أكمل الارواح تجردا وتقدسا بأن تكون قد تطورت وظهرت بصورة مرئية بتلك الرؤية مع بقاء تعلقها بجسده الشريف الحي في القبر السامي المنيف على حد ماقاله بعضهم من أن جبريل عليه السلام مع ظهوره بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي أو غيره لم يفارق سدرة المنتهى، وإما جسد مثالي تعلقت به روحه صلى الله تعالى عليه وسلم المجردة القدسية ، ولامانع من أن يتعدد الجسد المثالي إلى مالايحصى من الاجساد مع تعلق روحه القدسية عليه من الله تعالى ألف ألف صلاة وتحية بكل جسد منها ويكون هذا التعلق من قبيل تعلق الروح الواحدة باجزاء بدن واحد ولا تحتاج في ادراكاتها واحساساتها في ذلك التعلق إلى ماتحتاج اليه من الآلات في تعلقها بالبدن في الشاهد، وعلى ماذكر يظهر وجه مانقله الشيخ صفي الدين بن أبي منصور. والشيخ عبد الغفار عن الشيخ أبي العباس الطنجي من أنه رأى السماء والارض والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله ﷺ وينحل به السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام في زمان واحد في أقطار متباعدة * ولايحتاج معه إلى ما أشار اليه بعضهم وقد سئل عن ذلك فانشد :

كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وهذه الرؤية إنما تقع في الأغلب للكاملين الذين لم يخلوا باتباع الشريعة قدر شعيرة، ومتى قويت المناسبة بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين أحد من الأمة قوى أمر رؤيته إياه عليه الصلاة والسلام، وقد تقع لبعض صلحاء الأمة عند الاحتضار لقوة الجمعية حينئذ، والرؤية التي تكون يقظة لمن رآه صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام إن كانت في الدنيا فهي على نحو رؤية بعض الكاملين إياه صلى الله تعالى عليه وسلم وهي أكمل من الرؤيا وإن كان المرئي فيهما هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، وآخر مظان تحققها وقت الموت* ولعل الأغلب في حق العامة تحققها فيه، وإن كانت في الآخرة فالأمر فيها واضح ويرجح عندي كونها في الآخرة على وجه خاص من القرب والحظوة وما شاكل ذلك أن البشارة في الخبر عليه أبلغ، ثم إن الخبر

www.Quranpdf.blogspot.in

المذكور فيما مر مذكور فى صحيح مسلم بالسند إلى أبى هريرة أنه قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة أو لكأنما رآنى فى اليقظة لا يتمثل الشيطان بى » فلا قطع على هذه الرواية بأنه عليه الصلاة والسلام قال : فسيرانى فان كان الواقع فى نفس الأمر ذلك فالكلام فيه ماسمعت، وإن كان الواقع لكأنما رآنى فهو كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى خبر آخر: «فقد رآنى» وفى آخر أيضا «فقد رأى الحق» والمعنى أن رؤياه صحيحة ، وماتقدم من أن الأنبياء عليهم السلام يخرجون من قبورهم أى بأجسامهم وأرواحهم كما هو الظاهر ويتصرفون فى الملكوت العلوى والسفلى فمما لا أقول به ؛والخبر السابق الذى أخرجه ابن حبان. والطبرانى. وأبو نعيم. عن أنس وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم :«مامن نبى يموت فيقيم فى قبره إلا أربعين صباحا » قد أخرجوه عن الحسن بن سفيان عن هشام بن خالد الأزرق عن الحسن بن يحيى الخشنى عن سعيد بن عبد العزيز عن يزيد بن أبى مالك عن أنس رضى الله تعالى عنه وقال فيه ابن حبان :هو باطل والخشنى منكر الحديث جدا يروى عن الثقات مالا أصل له *

وفى الميزان عن الدارقطنى الخشنى متروك ومن ثم حكم ابن الجوزى بوضع الحديث وهو مع ذلك بعض حديث والحديث بتمامه عند الطبرانى « ما من نبى يموت فيقيم فى قبره إلا أربعين صباحا حتى ترد اليه روحه ومررت ليلة أسرى بى بموسى وهو قائم يصلى فى قبره » وهو على هذا لا يدل على أنه بعد الاربعين لا يقيم فى قبره بل يخرج منه وإنما يدل على أنه لا يبقى فى القبر ميتا كسائر الاموات أكثر من أربعين صباحا بل ترد اليه روحه ويكون حيا ، وأين هذا من دعوى الخروج من القبر بعد الاربعين، والحياة فى القبر لا تستلزم الخروج وأنا أقول بها فى حق الأنبياء عليهم السلام ، وقد ألف البيهقى جزأ فى حياتهم فى قبورهم وأورد فيه عدة أخبار *

ولا يضرنى بعد ظهور أن الحديث السابق لا يدل على الخروج المنازعة فى وصفه وبلوغه بماله من الشواهد درجة الحسن ، والأخبار المذكورة بعد فيماسبق المراد منها كلها إثبات الحياة فى القبر بضرب من التأويل، والمراد بتلك الحياة نوع من الحياة غير معقول لنا وهى فوق حياة الشهداء بكثير ، وحياة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل وأتم من حياة سائرهم عليهم السلام ، وخبر «مامن مسلم يسلم على إلا رد الله تعالى على روحى حتى أرد عليه السلام » محمول على إثبات إقبال خاص والتفات روحانى يحصل من الحضرة الشريفة النبوية الى عالم الدنيا وتنزل الى عالم البشرية حتى يحصل عند ذلك رد السلام ، وفيه توجيهات أخر مذكورة فى محلها، ثم إن تلك الحياة فى القبر وان كانت يترتب عليها بعض ما يترتب على الحياة فى الدنيا المعروفة لنا من الصلاة والأذان والاقامة ورد السلام المسموع ونحو ذلك الا أنها لا يترتب عليها كل مايمكن أن يترتب على تلك الحياة المعروفة ولا يحس بها ولا يدركها كل أحد فلو فرض انكشاف قبر نبى من الأنبياء عليهم السلام لا يرى الناس النبى فيه إلا كما يرون سائر الاموات الذين لم تأكل الأرض أجسادهم ، وربما يكشف الله تعالى على بعض عباده فيرى ما لا يرى الناس ،ولو لا هذا لأشكل الجمع بين الاخبار الناطقة بحياتهم فى قبورهم، وخبر أبى يعلى وغيره بسند صحيح كما قال الهيثمى مرفوعا ان موسى نقل يوسف من قبره بمصر، ثم إنى أقول بعد هذا كله إن ما نسب الى بعض الكاملين من أرباب الاحوال من رؤية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وفاته وسؤاله والاخذ عنه لم نعلم وقوع مثله فى الصدر الاول، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم من حين توفى عليه الصلاة والسلام الى ماشاء الله تعالى فى مسائل دينية وأمور دنيوية وفيهم أبو بكر. وعلى رضى الله تعالى عنهما

www.Quranpdf.blogspot.in

واليهما ينتهى أغلب سلاسل الصوفية الذين تنسب اليهم تلك الرؤية ولم يبلغنا أن أحدا منهم ادعى أنه رأى فى اليقظة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ عنه ما أخذ، وكذا لم يبلغنا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ظهر لمتحير فى أمر من أولئك الصحابة الكرام فارشده وأزال تحيره، وقد صح عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال فى بعض الامور: ليتنى كنت سالت رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، ولم يصح عندنا أنه توسل الى السؤال منه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الوفاة نظير ما يحكى عن بعض أرباب الاحوال، وقد وقفت على اختلافهم فى حكم الجد مع الاخوة فهل وقفت على أن أحدا منهم ظهر له الرسول ﷺ فأرشده الى ما هو الحق فيه، وقد بلغك ما عرا فاطمة البتول رضى الله تعالى عنها من الحزن العظيم بعد وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم وما جرى لها فى أمر فدك فهل بلغك أنه عليه الصلاة والسلام ظهر لها كما يظهر للصوفية فبل لوعتها وهون حزنها وبين الحال لها وقد سمعت بذهاب عائشة رضى الله تعالى عنها إلى البصرة وما كان من وقعة الجمل فهل سمعت تعرضه ﷺ لها قبل الذهاب وصده إياها عن ذلك لئلا يقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى كثرة. والحاصل أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل بيته وهم هم مع احتياجهم الشديد لذلك وظهوره عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعض الشيعة افتراء محض وبهت بحت *

وبالجملة عدم ظهوره لأولئك الكرام، وظهوره لمن بعدهم مما يحتاج إلى توجيه يقنع به ذوو الأفهام، ولا يحسن منى أن أقول: كل ما يحكى عن الصوفية من ذلك كذب لا أصل له لكثرة حاكيه وجلالة مدعيه، وكذا لا يحسن منى أن أقول: إنهم إنما رأوا النبى ﷺ مناما فظنوا ذلك لخفة النوم وقلة وقته يقظة فقالوا: رأينا يقظة لما فيه من البعد ولعل فى كلامهم ما يأباه، وغاية ما أقول: إن تلك الرؤية من خوارق العادة كسائر كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء عليهم السلام وكانت الخوارق فى الصدر الأول لقرب العهد بشمس الرسالة قليلة جدا وأنى يرى النجم تحت الشعاع أو يظهر كوكب وقد انتشر ضوء الشمس فى البقاع فيمكن أن يكون قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل الندرة ولم تقتض المصلحة إفشاءه، ويمكن أن يقال: إنه لم يقع لحكمة الابتلاء أو لخوف الفتنة أو لأن فى القوم من هو كالمرآة له ﷺ أو ليهرع الناس إلى كتاب الله تعالى وسنته ﷺ فيما يهمهم فيتسع باب الاجتهاد وتنتشر الشريعة وتعظم الحجة التى يمكن أن يعقلها كل أحد أو لنحو ذلك *

وربما يدعى أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان متسترا فى ظهوره كما روى أن بعض الصحابة أحب أن يرى رسول الله ﷺ فجاء إلى ميمونة فأخرجت له مرآته فنظر فيها فرأى صورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم ير صورة نفسه فهذا كالظهور الذى يدعيه الصوفية إلا أنه بحجاب المرآة، وليس من باب التخيل الذى قوى بالنظر إلى مرآته عليه الصلاة والسلام وملاحظة أنه كثيرا ما ظهرت فيها صورته حسبما ظنه ابن خلدون *

فان قبل قولى هذا وتوجيهى لذلك الأمر فبها ونعمت وإلا فالأمر مشكل فاطلب لك ما يحله والله سبحانه الموفق للصواب *

هذا وقيل يجوز أن يكون عيسى عليه السلام قد تلقى من نبينا عليه الصلاة والسلام أحكام شريعته المخالفة لما كان عليه هو من الشريعة حال اجتماعه معه قبل وفاته فى الأرض لعلمه أنه سينزل ويحتاج إلى ذلك واجتماعه معه كذلك جاء فى الأخبار *

www.Quranpdf.blogspot.in

أخرج ابن عدى عن أنس « بينا نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ رأينا بردا ويدا فقلنا: يارسول الله ماهذا البرد الذى رأينا واليد ؟ قال: قد رأيتموه قالوا : نعم قال: ذلك عيسى ابن مريم سلم على » وفى رواية ابن عساكر عنه « كنت أطوف مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حول الكعبة إذ رأيته صافح شيئا ولم أره قلنا : يارسول الله صافحت شيئا ولا نراه قال : ذلك أخى عيسى ابن مريم انتظرته حتى قضى طوافه فسلمت عليه » ومن هنا عد عليه السلام من الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وقيل: إنه عليه السلام بعد نزوله يتلقى أحكام شريعتنا من الملك بأن يعلمه إياها أو يوقفه عليها لاعلى وجه الايحاء بها عليه من جهته عز وجل وبعثه بها ليكون فى ذلك رسالة جديدة متضمنة نبوة جديدة، وقد دل قوله تعالى :(وخاتم النبيين) على انقطاعها بل على نحو تعليم الشيخ ما علمه من الشريعة تلميذه، ومجرد الاجتماع بالملك والأخذ عنه وتكليمه لا يستدعى النبوة ، ومن توهم استدعاءه إياها فقد حاد كما قال اللقانى عن الصواب فقد كلمت الملائكة عليهم السلام مريم وأم موسى فى قول ورجلا خرج لزيارة أخ له فى الله تعالى وبلغته أن الله عز وجل يحبه كحبه لأخيه فيه ه

وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الذكر عن أنس قال : قال أبى بن كعب لأدخلن المسجد فلأصلين ولأحمدن الله تعالى بمحامد لم يحمده بها أحد فلما صلى وجلس ليحمد الله تعالى ويثنى عليه إذا هو بصوت عال من خلف يقول: اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله واليك يرجع الامر كله علانيته وسره لك الحمد انك على كل شىء قدير اغفر لى ما مضى من ذنوبى واعصمنى فيما بقى من عمرى وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى وتب على فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال: ذاك جبريل عليه السلام، والاخبار طافحة برؤية الصحابة للملك وسماعهم كلامه ، وكفى دليلا لما نحن فيه قوله سبحانه: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) الآية فان فيها نزول الملك على غير الانبياء فى الدنيا وتكليمه إياه ولم يقل أحد من الناس : إن ذلك يستدعى النبوة وكون ذلك لأن النزول والتكليم قبيل الموت غير مفيد كما لايخفى ، وقد ذهب الصوفية إلى نحو ماذكرناه، قال حجة الاسلام الغزالى فى كتابه ـ المنقذ من الضلال ـ أثناء الكلام على مدح أولئك السادة: ثم انهم وهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ه

وقال تلميذه القاضى أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه قانون التأويل : ذهبت الصوفية إلى أنه إذا حصل للانسان طهارة النفس وتزكية القلب وقطع العلائق وحسم مواد أسباب الدنيا من الجاه والمال والخلطة بالجنس والاقبال على الله تعالى بالكلية علما دائما وعملا مستمرا كشفت له القلوب ورأى الملائكة وسمع كلامهم واطلع على أرواح الانبياء والملائكة ، وسماع كلامهم ممكن للمؤمن كرامة وللكافر عقوبة اه

ونسب إلى بعض ائمة أهل البيت أنه قال: إن الملائكة لتزاحمنا فى بيوتنا بالركب ، والظاهر من كلامهم أن الاجتماع بهم والاخذ عنهم لايكون الاللكاملين ذوى النفوس القدسية وأن الاخلال بالسنة مانع كبير عن ذلك، ويرشد اليه ماأخرجه مسلم فى صحيحه عن مطرف قال: قال لى عمران بن حصين قد كان ملك يسلم على حتى اكتويت فترك ثم تركت الكى فعاد ، ويعلم مما ذكرنا أن مدعيه إذا كان مخالفا لحكم الكتاب والسنة كاذب لاينبغى أن يصغى اليه ودعواه باطلة مردودة عليه فاين الظلمة من النور والنجس من الطهور، ثم انه لاطريق إلى معرفة كون المجتمع به ملكا بعد خبر الصادق سوى العلم الضرورى الذى يخلقه الله تعالى فى العبد بذلك ويقطع بعدم كونه

www.Quranpdf.blogspot.in

ملكا حتى خالف ماألقاه وأتى به الكتاب أوالسنة أواجماع الامة ومثله فيما أرى التكلم بما يشبه الهذيان ويضحك منه الصبيان وينبغي لمن وقع له ذلك أن لا يشيعه ويعلن به لما فيه من التعرض للفتنة، فقد أخرج مسلم عن مطرف أيضاً من وجه آخر قال: بعث إلىّ عمران بن حصين فى مرضه الذى توفى فيه فقال: إنى محدثك فان عشت فاكتم عنى وإن مت فحدث بها إن شئت إنه قد سلم علي. وفى رواية الحاكم فى المستدرك. اعلم يامطرف أنه كان يسلم على الملائكة عند رأسى وعند البيت وعند باب الحجرة فلما اكتويت ذهب ذلك قال: فلما برأ كلمه قال: اعلم يامطرف أنه عاد إلى الذى كنت اكتم على حتى أموت، وكذا ينبغى أن لا يقول لالقاء الملك عليه ايحاء لما فيه من الايهام القبيح وهو ايهام وحى النبوة الذى يكفر مدعيه بعد رسول الله ﷺ بلا خلاف بين المسلمين، وأطلق بعض الغلاة من الشيعة القول بالايحاء إلى الائمة الاطهار وهم رضى الله تعالى عنهم بمعزل عن قبول قول أولئك الاشرار *

فقد روى أن سديراً الصيرفى سأل جعفرا الصادق رضى الله تعالى عنه فقال: جعلت فداك إن شيعتكم اختلفت فيكم فاكثرت حتى قال بعضهم: إن الامام ينكت فى أذنه، وقال آخرون: يوحى اليه، وقال آخرون: يقذف فى قلبه، وقال آخرون: يرى فى منامه، وقال آخرون: إنما يفتى بكتب آبائه فبأى جوابهم آخذ يجعلنى الله تعالى فداك؟ قال: لا تأخذ بشىء مما يقولون ياسدير نحن حجج الله تعالى وأمناؤه على خلقه حلالنا من كتاب الله تعالى وحرامنا منه، حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى أول تفسيره مفاتيح الاسرار وقد ظهر فى هذا العصر (١) عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية لهم فى هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم فى سلك ذوى العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم فى العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق حيث خذلهم نصره الله تعالى وشتت شملهم وغضب عليهم رضى الله تعالى عنه وأفسد عملهم فجزاه الله تعالى عن الاسلام خيرا ودفع عنه فى الدارين ضيما وضيرا. وادعى بعضهم الوحى إلى عيسى عليه السلام بعد نزوله، وقد سئل عن ذلك ابن حجر الهيثمى فقال: نعم يوحى اليه عليه السلام وحى حقيقى كما فى حديث مسلم وغيره عن النواس بن سمعان، وفى رواية صحيحة «فبينما هو كذلك إذ اوحى الله تعالى ياعيسى انى أخرجت عبادا لى لا يد لأحد بقتالهم فحول عبادى إلى الطور وذلك الوحى على لسان جبريل عليه السلام إذ هو السفير بين الله تعالى وانبيائه» لا يعرف ذلك لغيره، وخبر لا وحى بعدى باطل، وما اشتهر أن جبريل عليه السلام لا ينزل إلى الارض بعد موت النبي ﷺ فهو لا أصل له، ويرده خبر الطبرانى ما أحب أن يرقد الجنب حتى يتوضأ فانى أخاف أن يتوفى وما يحضره جبريل عليه السلام فانه يدل على أن جبريل ينزل إلى الارض ويحضر موت كل مؤمن توفاه الله تعالى وهو على طهارة اه، ولعل من نفى الوحى عنه عليه السلام بعد نزوله أراد وحى التشريع وما ذكر وحى لا تشريع فيه فتأمل *

وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب وصدعت به السنة واجمعت عليه الامة فيكفر مدعى خلافه ويقتل ان أصر *

ومن السنة ما أخرج أحمد. والبخارى. ومسلم. والنسائى. وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا بناء فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فانا اللبنة وأنا خاتم النبيين» وصح عن جابر مرفوعا نحو هذا، وكذا عن أبى بن كعب. وأبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنهم، وللشيخ محيى الدين بن عربى

(١) سنة ١٢٦١ اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

قدس سره كلام فى حديث اللبنة قد انتقده عليه جماعة من الاجلة فعليك بالتمسك بالكتاب والسنة والله تعالى الحافظ من الوقوع فى المحنة، ونصب (رسول) على اضمار كان لدلالة كان المتقدمة عليه والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ماقبلها، وكون لكن المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون مابعدها مفردا، وجوز أن يكون النصب بالعطف على (أبا أحد) وقرأ عبدالوارث عن أبى عمرو (لكن) بالتشديد فنصب (رسول) على أنه اسم لكن والخبر محذوف تقديره ولكن رسول الله وخاتم النبيين هو أى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال الزمخشرى: تقديره ولكن رسول الله من عرفتموه أى لم يعش له ولد ذكر، وحذف خبر لكن واخواتها جائز إذا دل عليه الدليل، ومما جاء فى لكن قول الشاعر:

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى   ولكن زنجيا عظيم المشافر

أى ولكن زنجيا عظيم المشافر أنت، وفيه بحث لايخفى على ذى معرفة، وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما. وابن أبى عبلة بتخفيف (لكن) ورفع (رسول وخاتم) أى ولكن هو رسول الله الخ كما قال الشاعر:

ولست الشاعر السفاف فيهم   ولكن مدرة الحرب العوالى

أى ولكن أنا مدرة ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أعم من أن يكون موجوداً أو معدوما ﴿ عَلِيماً ٤٠ ﴾ فيعلم سبحانه الاحكام والحكم التى بينت فيما سبق والحكمة فى كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين *

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ﴾ بما هو جل وعلا أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ ذِكْراً كَثِيراً ٤١ ﴾ يعم أغلب الاوقات والاحوال كما قال غير واحد، وعن ابن عباس الذكر الكثير أن لا ينسى جل شأنه، وروى ذلك عن مجاهد أيضا، وقيل: أن يذكر سبحانه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى وينزه عما لايليق به، وعن مقاتل هو أن يقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر على كل حال، وعن العترة الطاهرة رضى الله تعالى عنهم من قال ذلك ثلاثين مرة فقد ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا، وفى مجمع البيان عن الواحدى بسنده إلى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يامحمد قل سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم عدد ماعلم وزنة ما علم وملء ماعلم فانه من قالها كتب له بها ست خصال كتب من الذاكرين الله تعالى كثيرا وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار وكن له غرسا فى الجنة وتحاتت عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة وينظر الله تعالى اليه ومن نظر الله تعالى اليه لم يعذبه كذا رأيته فى مدونه فلا تغفل، وقال بعضهم: مرجع الكثرة العرف *

﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾ ونزهوه سبحانه عما لا يليق به ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ٤٢ ﴾ أى أول النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لانافة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما تحضرهما ملائكة الليل والنهار وتلتقى فيهما كافراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة بينها، وقيل: كلا الأمرين متوجه اليهما كقولك: صم وصل يوم الجمعة، وبتفسير الذكر الكثير بما يعم أغلب الأوقات لاتبقى حاجة إلى تعلقهما بالأول وعن ابن عباس أن المراد بالتسبيح الصلاة أى باطلاق الجزء على الكل والتسبيح بكرة صلاة الفجر والتسبيح أصيلا صلاة العشاء، وعن قتادة نحو ماروى عن ابن عباس إلا أنه قال: أشار

www.Quranpdf.blogspot.in

بهذين الوقتين إلى صلاة الغداة وصلاة العصر وهو أظهر مما روى عن الحبر. وتعقب ماروى عنهما بأن فيه تجوزا من غير ضرورة، وقد يقال: إن التسبيح على حقيقته لكن التسبيح بكرة بالصلاة فيها والتسبيح أصيلا بالصلاة فيه فتأمل *

وجوز أن يكون المراد بالذكر المأمور به تكثير الطاعات والاقبال عليها فان كل طاعة من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا أى الصلاة فى جميع أوقاتها أو صلاة الفجر والعصر أو الفجر والعشاء لفضل الصلاة على غيرها من الطاعات البدنية، ولا يخفى بعده ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ عطف على الضمير فى (يصلى) لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لاعلى (هو) والصلاة فى المشهور - وروى ذلك عن ابن عباس - من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار ومن مؤمنى الانس والجن دعاء، ويجوز على رأى من يجوز استعمال اللفظ فى معنيين أن يراد بالصلاة هنا المعنيان الأولان فيراد بها أولا الرحمة وثانيا الاستغفار، ومن لايجوز كأصحابنا يقول بعموم المجاز بأن يراد بالصلاة معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو إما الاعتناء بمافيه خير المخاطبين وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له وهذا المجاز من الصلاة بمعنى الدعاء وهو إما استعارة لأن الاعتناء يشبه الدعاء لمقارنة كل منهما لارادة الخير والأمر المحبوب أو مجاز مرسل لأن الدعاء مسبب عن الاعتناء وأما الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المعروفة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود، ولا ريب فى أن استغفار الملائكة عليهم السلام ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم، وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل ففيه بحث، ورجح جعل المعنى العام ماذكر بأنه أقرب لما بعد فانه نص عليه فيه بقوله تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيما) فدل على أن المراد بالصلاة الرحمة. واعترض بأن رحم متعد وصلى قاصر فلا يحسن تفسيره به، وبأنه يستلزم جواز رحم عليه، وبانه تعالى غاير بينهما بقوله سبحانه: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) للعطف الظاهر فى المغايرة. وأجيب بانه ليس المراد بتفسير صلى برحم إلا بيان أن المعنى الموضوع له صلى هو الموضوع له رحم مع قطع النظر عن معنى التعدى واللزوم فان الرديفين قد يختلفان فى ذلك وهو غير ضار فزعم أن ذلك لايحسن وأنه يلزم جواز رحم عليه ليس فى محله على أنه يحسن تعدية صلى بعلى دون رحم لما فى الأول من ظهور معنى التحنن والتعطف والعطف لأن الصلاة رحمة خاصة ويكفى هذا القدر من المغايرة، وقيل: إن تعدد الفاعل صير الفعل كالمتعدد فكأن الرحمة مرادة من لفظ والاستغفار مراد من آخر فلا حاجة إلى القول بعموم المجاز وليس هناك استعمال لفظ واحد حقيقة وحكما فى معنيين وهو كما ترى، ومثله كون (ملائكته) مبتـــدأ خبره محذوف لدلالة ماقبل عليه كأنه قيل هو الذى يصلى عليكم وملائكته يصلون عليكم فهناك لفظان حقيقة كل منهما بمعنى، وسيأتى إن شاء الله تعالى مايزيدك علما بأمر الصلاة، وسبب نزول الآية ما أخرجه عبد بن حميد. وابن المنذر قال: لما نزلت (إن الله وملائكته يصلون على النبى) قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: ما أنزل الله تعالى عليك خيرا إلا أشركنا فيه فنزلت (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات المعاصى إلى نور الطاعة، وقال الطبرسى: من الجهل بالله تعالى إلى معرفته عز وجل فان الجهل أشبه شىء بالظلمة والمعرفة

www.Quranpdf.blogspot.in

أشبه شيء بالنور ؛ وقال ابن زيد : أى من الضلالة إلى الهدى، وقال مقاتل : من الكفر إلى الايمان، وقيل: من النار إلى الجنة حكاه الماوردى، وقيل : من القبور إلى البعث حكاه أبو حيان وليس بشيء، واللام متعلقة بيصلى أى يعتنى بكم هو سبحانه وملائكته ليخرجكم أو يترحم هو عز وجل وملائكته ليخرجكم بذلك من الظلمات إلى النور ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣ ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كان سبحانه بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم كامل الرحمة ولذا يفعل بكم ما يفعل بالذات وبالواسطة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم وإشعارا بعلة الرحمة، وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ بيان للاحكام الآجلة لرحمته تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة من الاخراج المذكور، والتحية أن يقال: حياك الله أى جعل لك حياة وذلك إخبار ثم يجعل دعاء، ويقال حيا فلان فلانا تحية إذا قال له ذلك، وأصل هذا اللفظ من الحياة ثم جعل كل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة أوسبب حياة إما لدنيا أو لآخرة.

وهو هنا مصدر مضاف إلى المفعول وقع مبتدأ و (سلام) مرادا به لفظه خبره، والمراد مايحييهم الله تعالى به ويقوله لهم يوم يلقونه سبحانه ويدخلون دار كرامته سلام أى هذا اللفظ. روى أن الله تعالى يقول: سلام عليكم عبادى أنا عنكم راض فهل أنتم عنى راضون فيقولون : بأجمعهم ياربنا إنا راضون كل الرضا. وورد أن الله تعالى يقول: السلام عليكم مرحبا بعبادى المؤمنين الذين أرضونى فى دار الدنيا باتباع أمرى، وقيل: تحييهم الملائكة عليهم السلام بذلك إذا دخلوا الجنة كما قال تعالى: (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم).

وقيل: تحييهم عند الخروج من القبور فيسلمون عليهم ويبشرونهم بالجنة، وقيل عند الموت.

وروى عن ابن مسعود أنه قال: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام، قيل: فعلى هذا الهاء فى (يلقونه) كناية عن غير مذكور وهو ملك الموت، ولاضرورة تدعو لذلك إذ لامانع من أن يكون الضمير لله تعالى عليه كما هو كذلك على الأقوال الأخر جميعها. ولقاء الله تعالى على ما أشار اليه الامام عبارة عن الاقبال عليه تعالى بالكلية بحيث لايعرض للشخص مايشغله ويلهيه أو يوجب غفلته عنه عز وجل ويكون ذلك عند دخول الجنة وفيها وعند البعث وعند الموت.

وقال الراغب : ملاقاة الله تعالى عبارة عن القيامة وعن المصير اليه عز وجل، وقال الطبرسى : هى ملاقاة ثوابه تعالى وهو غير ظاهر على جميع الأقوال السابقة بل ظاهر على بعضها كما لايخفى، وعن قتادة فى الآية أنهم يوم دخولهم الجنة يحيي بعضهم بعضا بالسلام أى سلمنا وسلمت من كل مخوف، والتحية عليه على ما قال الخفاجي مصدر مضاف للفاعل. وفى البحر هى عليه مصدر مضاف للمحيي والمحي لا على جهة العمل لأن الضمير الواحد لا يكون فاعلا مفعولا ولكنه كقوله تعالى :(وكنا لحكمهم شاهدين) أى للحكم الذى جرى بينهم.

وكذا يقال هنا التحية الجارية بينهم هى سلام، وقول المحيي فى ذلك اليوم سلام اخبار لادعاء لأنه أبلغ على ماقيل فتدبر، وأحرى الاقوال بالقبول عندى أن الله تعالى يسلم عليهم يوم يلقونه اكراما لهم وتعظيما.

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ٤٤ ﴾ أى وهيأ عز وجل لهم ثوابا حسنا، والظاهر أن التهيئة واقعة قبل دخول الجنة والتحية ولذا لم تخرج الجملة مخرج ماقبلها بأن يقال وأجرهم أجر كريم أى ولهم أجر كريم، وقيل : هى بعد الدخول والتحية فالكلام بيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته

www.Quranpdf.blogspot.in

الواصلة اليهم قبل ذلك ، ولعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها للمبالغة فى الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الامر الذى هو المقصد الاقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع مافيه من مراعاة الفواصل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾ على من بعثت اليهم تراقب أحوالهم وتشاهد اعمالهم و تتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وماعليهم، وهو حال مقدرة وإن اعتبر الارسال أمراً ممتدا لاعتبار التحمل والاداء فى الشهادة، والارسال بذلك الاعتبار و إن قارن التحمل إلا أنه غير مقارن للاداء و إن اعتبر الامتداد.

وقيل: باطلاق الشهادة على التحمل فقط تكون الحال مقارنة والاحوال المذكورة بعد على اعتبار الامتداد مقارنة، ولك أن لاتعتبره أصلا فتكون الاحوال كلها مقدرة، ثم ان تحمل الشهادة على من عاصره ﷺ واطلع على عمله أمر ظاهر ، وأما تحملها على من بعده باعيانهم فان كان مرادا أيضا ففيه خفاء لأن ظاهر الاخبار أنه عليه الصلاة و السلام لايعرف أعمال من بعده باعيانهم ، روى أبو بكر. وأنس. وحذيفة. وسمرة. وأبو الدرداء عنه ﷺ ليردن على ناس من أصحابى الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دونى فاقول: يارب اصيحابى اصيحابى فيقال لى: إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك. نعم قد يقال: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم بطاعات ومعاص تقع بعده من أمته لكن لايعلم أعيان الطائعين والعاصين، وبهذا يجمع بين الحديث المذكور وحديث عرض الاعمال عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كل اسبوع أو أكثر أو أقل ، وقيل : يجمع بانه عليه الصلاة والسلام يعلم الاعيان أيضا إلا أنه نسى فقال: اصيحابى، ولتعظيم قبح ماأحدثوا قيل له: انك لاتدرى ماأحدثوا بعدك، وقيل: يعرض ماعدا الكفر وهو كما ترى، وأما زعم أن التحمل على من بعده إلى يوم القيامة لما أنه ﷺ حى بروحه وجسده يسير حيث شاء فى اقطار الارض والملكوت فمبنى على ماعلمت حاله، ولعل فى هذين الخبرين مايأباه كما لا يخفى على المتدبر، وأشار بعض السادة الصوفية إلى أن الله تعالى قد أطلعه صلى الله تعالى عليه وسلم على أعمال العباد فنظر اليها ولذلك أطلق عليه عليه الصلاة والسلام شاهد. قال مولانا جلال الدين الرومى قدس سره العزيز فى مثنويه :

در نظر بودش مقامات العباد زان سبب نامش خدا شاهد نهاد

فتأمل ولا تغفل ، وقيل: المراد شاهدا على جميع الامم يوم القيامة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ودعوهم إلى الله تعالى، وشهادته بذلك لما علمه من كتابه المجيد ، وقيل : المراد شاهدا بأن لا إله إلا الله ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ تبشر الطائعين بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ٤٥ ﴾ تنذر الكافرين والعاصين بالنار ، ولعموم الانذار وخصوص التبشير قيل: مبشرا ونذيرا على صيغة المبالغة دون ومنذرا مع أن ظاهر عطفه على (مبشرا) يقتضى ذلك. وقدم التبشير لشرف المبشرين ولأنه المقصود الاصلى إذ هو صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة للعالمين وكأنه لهذا جبر مافاته من المبالغة بقوله تعالى : (وبشر المؤمنين) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أى إلى الاقرار به سبحانه وبوحدانيته وبسائر مايجب الايمان به من صفاته وأفعاله عز وجل، ولعل هذا هو مراد ابن عباس . وقتادة من قولهما أى شهادة أن لا اله الا الله ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بتسهيله وتيسيره تعالى، وأطلق الاذن على التسهيل مجازا لما أنه من اسبابه لاسيما الاذن من

www.Quranpdf.blogspot.in

الله عز وجل ولم يحمل على حقيقته وإن صح هنا أن يأذن الله تعالى شأنه له عليه الصلاة والسلام حقيقة فى الدعوة لأنه قد فهم من قوله سبحانه : انا أرسلناك داعيا أنه صلى الله عليه وسلم مأذون له فى الدعوة، ومما ذكر يعلم أن (باذنه) من متعلقات داعيا، وقيدت الدعوة بذلك إيذانا بانها أمر صعب المنال وخطب فى غاية الاعضال لا يتأتى الا بامداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وادخال للاعناق فى قلادة غير معهودة، وجوز رجوع القيد للجميع والأول أظهر ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ٤٦ ﴾ يستضئ به الضالون فى ظلمات الجهل والغواية ويقتبس من نوره أنوار المهتدين إلى مناهج الرشد والهداية، وهو تشبيه إما مركب عقلى أو تمثيل منتزع من عدة أمور أو مفرق، وبولغ فى الوصف بالانارة لآن من السرج مالا يضىء إذا قل سليطه ودقت فتيلته *

وقال الزجاج : هو معطوف على شاهدا بتقدير مضاف أى ذا سراج منير، وقال الفراء : إن شئت كان نصبا على معنى وتاليا سراجا منيرا، وعليهما السراج المنير القرآن، وإذا فسر بذلك احتمل على ماقيل أن يعطف على كاف (أرسلناك) على معنى أرسلناك والقرآن إما على سبيل التبعية وإما من باب متقلدا سيفا ورمحا، وقيل: إنه على تقدير تاليا سراجا يجوز هذا العطف أى إنا أرسلناك وتاليا سراجا كقوله تعالى : (يتلو صحفا مطهرة) على أنه الجامع بين الآمرين على نحو (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء) أى أرسلنا بارسالك تاليا *

وجوز أن يراد وجعلناك تاليا، وقيل: يجوز أن يراد بذا سراج القرآن وحينئذ يكون التقدير إنا أرسلناك وأنزلنا عليك ذا سراج . وتعقب بأن جعل القرآن ذا سراج تعسف، والحق أن كل ماقيل كذلك *

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل : فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين . وجوز عطفه على الخبر السابق عطف القصة على القصة، وقيل :هو معطوف عليه ويجعل فى معنى الأمر لأنه فى معنى ادعهم شاهدا ومبشرا ونذيرا الخ وبشر المؤمنين منهم ﴿ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٤٧ ﴾ أى عطاء جزيلا وهو كما روى عن الحسن . وقتادة الجنة وما أوتوا فيها ويؤيده قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) وقيل: المعنى فضلا على سائر الأمم فى الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان * أخرج ابن جرير. وابن عكرمة عن الحسن قال لما نزل (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) قالوا: يارسول الله قد علمنا مايفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة ولين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الانذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى النهى والتنفير عن المنهى عنه بنظمها فى سلكها وتصويره بصورتها، وحمل غير واحد النهى على التهييج والإلهاب من حيث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يطعهم حتى ينهى، وجعله بعضهم من باب إياك أعنى واسمعى ياجاره فلا تغفل *

﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى لا تبال بايذائهم إياك بسبب إنذارك إياهم واصبر على ما ينالك منهم قاله قتادة فأذاهم مصدر مضاف للفاعل، وقال أبو حيان: الظاهر أنه مصدر مضاف للمفعول لما نهى صلى الله تعالى عليه وسلم عن طاعتهم أمر بترك إيذائهم وعقوبتهم ونسخ منه مايخص الكافرين بآية السيف وروى نحوه عن مجاهد. والكلبى والأول أولى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فى كل ماتأتى وتذر من الشئون التى من جملتها هذا الشأن فانه

www.Quranpdf.blogspot.in

عز وجل يكفيهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ٤٨ ﴾ مو كولا اليه الأمور فى كل الأحوال، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف صلى الله تعالى عليه وسلم بنعوت خمسة قوبل كل واحد منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر ماقابل الشاهد صريحا وهو الأمر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقابل النذير بالنهى عن مداراة الكافرين والمنافقين والمسامحة فى إنذارهم وقوبل الداعى باذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث أنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به عز وجل وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدى الخلق من ظلمات الغى إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفى به تعالى عمن سواه، وجعل الزمخشرى مقابل الشاهد وبشر المؤمنين ومقابل الاعراض عن الكافرين والمنافقين المبشر أعنى المؤمنين وتكلف فى ذلك *

وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه: نظير هذه الآية ماروى البخارى: والامام احمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: اخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ياأيها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للمؤمنين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى الاسواق ولايدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ويفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، وروى الدارمى نحوه عن عبد الله بن سلام فقوله: حرزا للمؤمنين مقابل لقوله تعالى (وداعيا إلى الله باذنه) فان دعوته ﷺ إنما حصلت فائدتها فيمن وفقه الله تعالى: بتيسيره وتسهيله فلذلك أمنوا من مكاره الدنيا وشدائد الآخرة فكان صلوات الله تعالى وسلامه عليه بهذا الاعتبار حرزا لهم، وقوله. سميتك المتوكل الخ مقابل لقوله (وسراجا منيرا) فعلم أن قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) مناسب لقوله تعالى (وسراجا منيرا) فان السراج مضىء فى نفسه ومنور لغيره فبكونه متوكلا على الله تعالى يكون كاملا فى نفسه فهو مناسب لقوله: أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل إلى قوله: يعفو ويصفح وكونه منيرا يفيض الله تعالى عليه يكون مكملا لغيره وهو مناسب لقوله: حتى يقيم به الملة العوجاء الخ ثم قال. ويمكن أن ينزل المراتب على لسان أهل العرفان فقوله تعالى (إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) هو مقام الشريعة ودعوة الناس إلى الايمان وترك الكفر ونتيجة الاعراض عما سوى الله تعالى والاخذ فى السير والسلوك والالتجاء إلى حريم لطفه تعالى والتوكل عليه عز وجل وقوله، سبحانه: (وسراجا منيرا) هو مقام الحقيقة ونتيجته فناء السالك وقيامه بقيوميته تعالى اه ،ولايخفى تكلف ماقرره فى الحديث والله تعالى أعلم بمراده *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ عود إلى ذكر النساء، والنكاح هنا العقد بالاتفاق واختلفوا فى مفهومه لغة فقيل هو مشترك بين الوطء والعقد اشتراكا لفظيا ، وقيل : حقيقة فى العقد مجاز فى الوطء، وقيل . بقلبه وقيل هو مشترك بينهما اشتراكا معنويا وهو من أفراد المشكك وحقيقته الضم والجمع كما فى قوله :

ضممت إلى صدرى معطر صدرها كما نكحت أم الغلام صبيها

ونقل المبرد ذلك عن البصريين. وغلام ثعلب الشيخ عمر والزاهد عن الكوفيين، ثم المتبادر من لفظ الضم

www.Quranpdf.blogspot.in

تعلقه بالاجسام لا الاقوال لأنها اعراض يتلاشى الاول منها قبل وجود الثانى فلا يصادف الثانى ماينضم اليه وهذا يقتضى كونه مجازا فى العقد، وإن اعتبر الضم أعم من ضم الجسم إلى الجسم والقول إلى القول جاز أن يكون النكاح حقيقة فى كل من الوطء والعقد وجاز أن يكون مجازا على التفصيل المعروف فى استعمال العام فى كل فرد من افراده، واختار الراغب القول الثانى من الاقوال السابقة وبالغ فى عدم قبول الثالث: فقال هو حقيقة فى العقد ثم استعير للجماع ومحال أن يكون فى الاصل للجماع ثم استعير للعقد لأن اسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ومحال أن يستعير من لايقصد فحشا اسم مايستفظعونه لما يستحسنه

واختار الزمخشرى الثالث فقال: النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث أنه طريق له ونظيره تسمية الخمر اثما لأنها سبب فى اقتراف الاثم، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله تعالى الا فى معنى العقد لأنه فى حق الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشى والاتيان، وأراد على ماقيل إنه فى العقد حقيقة شرعية منسى فيه المعنى اللغوى، وبحث فى قوله لم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله تعالى الا فى معنى العقد بأنه فى قوله تعالى (حتى تنكح زوجا غيره) بمعنى الوطء وهذا ماعليه الجمهور وخالف فى ذلك ابن المسيب، وتمام الكلام فى موضعه، والمس فى الاصل معروف وكنى به هنا عن الجماع، والعدة هى الشىء المعدود وعدة المرأة المراد بها الايام التى بانقضائها يحل لها التزوج أى ياايها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن فما لكم عليهن من عدة بايام يتربصن فيها بأنفسهن تستوفون عددها على أن تعتدون مطاوع عد يقال عد الدراهم فاعتدها أى استوفى عددها نحو قولك كلته فاكتلته ووزنته فاتزنته أو تعدونها على أن افتعل بمعنى فعل، واسناد الفعل إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الازواج كما أشعر به قوله تعالى (فما لكم) واعترض بأن المذكور فى كتب الفروع كالهداية وغيرها أنها حق الشرع ولذا لا تسقط لو اسقطها الزوج ولا يحل لها الخروج ولو أذن لها وتتداخل العدتان ولا تداخل فى حق العبد وحق الولد أيضا ولذا قال ﷺ «لا يحل لامرئ مؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره» وفرعوا على ذلك انهما لا يصدقان فى ابطالها باتفاقهما على عدم الوطء

وأجيب بأنه ليس المراد أنها صرف حقهم بل أن نفعها وفائدتها عائدة عليهم لأنها لصيانة مياههم والأنساب الراجعة اليهم فلا ينافى أن يكون للشرع والولد حق فيها يمنع إسقاطها ولو فرض أنها صرف حقهم يجوز أن يقال: إن عدم سقوطها باسقاطهم لا ينافى ذلك إلا إذا ثبت أن كل حق للعبد إذا أسقطه العبد سقط وليس كذلك فان بعض حقوق العبد لا تسقط باسقاطه كالإرث وحق الرجوع الهبة وخيار الرؤية، ثم أن فى الاستدلال بالحديث على أنها حق الولد تأملا كما لا يخفى، وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة، وحاصله أنه لبيان الاحرى والأليق بعد مافصل فى البقرة نكاح الكتابيات، وفائدة المجىء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ازاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق له دخل فى إيجاب العدة لاحتمال الملاقاة والجماع سرا كما أن له دخلا فى النسب، ويمكن أن تكون الاشارة إلى التراخى الرتبى فان الطلاق وإن كان مباحا لا كراهة فيه على ما قيل لقوله تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن) غير محبوب كالنكاح من حيث أنه يؤدى إلى قطع الوصلة وحل قيد العصمة المؤدى لقلة التناسل الذى به تكثر الأمة ولهذا ورد

www.Quranpdf.blogspot.in

كما أخرج أبو داود . وابن ماجه . والحاكم . والطبراني . وابن عدي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعا « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ورواه البيهقي مرسلا بدون ابن عمر بل قال العلامة ابن الهمام : الأصح حظره وكراهته إلا لحاجة لما فيه من كفران نعمة النكاح وللاخبار الدالة على ذلك، ويحمل لفظ المباح في الخبر المذكور على ما أبيح في بعض الأوقات أعني أوقات تحقق الحاجة المبيحة وهو ظاهر في رواية لأبي داود ما أحل الله شيئا أبغض اليه من الطلاق ، والفعل لاعموم له في الأزمان والحاجة المبيحة الكبر والريبة مثلا وعدوا من المبيح عدم اشتهائها بحيث يعجز أو يتضرر باكراهه نفسه على جماعها مع عدم رضاها باقامتها في عصمته من غير وطء أو قسم .

وأما ماروى عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه وكان قيل له في كثرة تزوجه وطلاقه فقال: أحب الغناء فقد قال تعالى : (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) فهو رأي منه إن كان على ظاهره، وكل ما نقل عن طلاق الصحابة رضي الله تعالى عنهم فمحمله وجود الحاجة، وظاهر الآية يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة لأنه سبحانه نفى فيها وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع والخلوة ليست جماعا وهي عندنا إذا كانت صحيحة على الوجه المبين في كتب الفروع كالجماع في وجوب العدة فتجب فيه العدة احتياطا لتوهم الشغل نظرا إلى التمكن الحقيقي بل قالوا هو مثله في جميع أحكامه سوى عشرة نظمها أفضل من عاصرناه من الفقهاء الشيخ محمد الأمين الشامي الشهير بابن عابدين بقوله :

وخلوته كالوطء في غير عشرة ... مطالبة بالوطء إحصان تحليل
وفيء وارث رجعة فقد عنة ... وتحريم بنت عقد بكر وتغسيل

وظاهر قولهم بوجوب العدة فيها أنها واجبة قضاء وديانة. وفي الفتح قال العتابي : تكلم مشايخنا في العدة الواجبة بالخلوة الصحيحة أنها واجبة ظاهرا أو حقيقة فقيل: لو تزوجت وهي متيقنة بعدم الدخول حل لها ديانة لاقضاء اه ، ولم يتعقبه بشيء وذكره سعدي جلبي في حواشي البيضاوي وقال : ينبغي أن يكون التعويل على هذا القول. وتعقب ذلك الشهاب الخفاجي بانه وإن نقله ففقهاؤنا فقد صرحوا بانه لايعول عليه ونحن لم نر هذا التصريح فليتتبع ، ثم لايخفى أن عدم وجوب العدة في الطلاق بعد الخلوة مما يعد منطوقا صريحا في الآية إذا فسر المس بالجماع وليس من باب المفهوم حتى يقال: إنا لانقول به كما يتوهم فلا بد لاثبات وجوب العدة في ذلك من دليل . ومن الناس من حمل المس فيها على الخلوة إطلاقا لاسم المسبب على السبب إذ المس مسبب عن الخلوة عادة ، واعترض بأنه لم يشتهر المس بمعنى الخلوة ولاقرينة في الكلام على إرادته منه، وأيضا يلزم عليه أنه لو طلقها وقد وطئها بحضرة الناس عدم وجوب العدة لأنه قد طلقها قبل الخلوة . وأجيب عن هذا بأن وجوب العدة في ذلك بالاجماع، وبأن العدة إذا وجبت في الطلاق بمجرد الخلوة كانت واجبة فيه بالجماع من باب أولى وكيف لا تجب به ووجوبها بالخلوة لاحتمال وقوعه فيها لالذاتها،وقيل:إن المس لما لم يرد ظاهره وإلا لزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده في غير خلوة مع أنها لاتلزم في ذلك بلا خلاف علم أنه كنى به عن معنى آخر من لوازم الاتصال فهو الجماع وما في معناه من الخلوة الصحيحة، وفيه نظر لأن عدم صحة إرادة ظاهره لا يوجب إرادة مايعم الجماع والخلوة لم لايجوز إرادة الجماع ويرجحها شهرة الكناية

www.Quranpdf.blogspot.in

بذلك ونحوه عن الجماع، وإطلاقه عليه إما من إطلاق اسم السبب على المسبب أو من إطلاق اسم المطلق على أخص بخصوصه وهو الأوجه على ماذكره العلامة ابن الهمام ، وبالجملة القول بأن ظاهر الآية يقتضى عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة قول متين وحق مبين فتأمل *

وفى البحر لأبى حيان الظاهر أن المطلقة إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقها قبل أن يمسها لاتتم عدتها من الطلقة الأولى لأنها مطلقة قبل الدخول بها وبه قال داود . وقال عطاء وجماعة: تمضى فى عدتها عن طلاقها الأول وهو أحد قولى الشافعى، وقال مالك: لاتبنى على العدة من الطلاق الأول وتستأنف العدة من يوم طلقها الطلاق الثانى وهو قول جمهور فقهاء الأمصار، والظاهر أيضا أنها لو كانت بائنا غير مبتوتة فتزوجها فى العدة ثم طلقها قبل الدخول فكالرجعية فى قول داود ليس عليها عدة لابقية عدة الطلاق الأول ولا استئناف عدة للثانى ولها نصف المهر ، وقال الحسن : وعطاء . وعكرمة . وابن شهاب . ومالك . والشافعى . وعثمان البتى . وزفر: لها نصف الصداق وتتم بقية العدة الأولى، وقال الثورى والأوزاعى . وأبو حنيفة . وأبو يوسف: لها مهر كامل للنكاح الثانى وعدة مستقبلة جعلوها فى حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه اهـ، وفيه أيضا الظاهر أن الطلاق لايكون إلا بعد العقد فلا يصح طلاق من لم يعقد عليها وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين *

وقالت طائفة كثيرة منهم مالك يصح ذلك وعنى بطلاق من لم يعقد عليها قول الرجل كل امرأة أتزوجها فهى طالق أو إن تزوجت فلانة فهى طالق *

وقد أخرج جماعة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذلك فقال: هو ليس بشىء فقيل له: إن ابن مسعود كان يقول إن طلق مالم ينكح فهو جائز فقال: أخطأ فى هذا وتلا الآية . وفى بعض الروايات أنه قال: رحم الله تعالى أبا عبد الرحمن لو كان كما قال لقال الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن) ولكن إنما قال (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) *

وفى الدر المنثور عدة أحاديث مرفوعة ناطقة بأن لاطلاق قبل نكاح، والمذكور فى فروعنا أن ذلك من باب التعليق وشرطه الملك أو الاضافة اليه فاذا قال : إن نكحت امرأة فهى طالق أو إن نكحتك فانت طالق وكل امرأة أنكحها فهى طالق يقع الطلاق إذا نكح لأن ذلك تعليق وفيه اضافة إلى الملك ويكفى معنى الشرط الافى المعينة باسم ونسب لما إذا قال: فلانة بنت فلان التى أتزوجها فهى طالق أو باشارة فى الحاضرة كما لو قال: هذه المرأة التى أتزوجها طالق فانها لا تطلق فى الصورتين لتعريفها فلغا الوصف بالتى اتزوجها فصار كأنه قال: فلانة بنت فلان أو هذه المرأة طالق وهى أجنبية ولم توجد الاضافة إلى الملك فلا يقع الطلاق إذا تزوجها فتدبره

وقرئ (تماسوهن) بضم التاء وألف بعد الميم، وعن ابن كثير. وغيره من أهل مكة (تعتدونها) بتخفيف الدال ونقلها عن ابن كثير ابن خالويه. وأبو الفضل الرازى فى اللوامح عنه وعن أهل مكة، وقال ابن عطية: روى ابن أبى بزة عن ابن كثير أنه قرأ بتخفيف الدال من العدوان كأنه قال : فمالكم عدة تلزمونها عدوانا وظلما لهن ، والقراءة الأولى أشهر عنه وتخفيف الدال وهم من ابن أبى بزة اهـ، وليس بوهم إذ قد نقله عنه جماعة غيره ، وخرج ذلك على أن (تعتدونها) من الاعتداء بمعنى الظلم كما فى قوله تعالى (ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا) والمراد تعتدون فيها كقوله : ويوما شهدناه سليما وعامرا قليل سوى طعن الدراك نوافله

www.Quranpdf.blogspot.in

أي شهدنا فيه فحذف حرف الجر ووصل الفعل بالضمير ، وقال أبو حيان: ان الاعتداء يتعدى بعلى فالمراد تعتدون عليهن فيها ، ونظيره في حذف على قوله :

تحن فتبدى مابها من صبابة وأخفى الذى لولا الاسى لقضانى

فانه اراد لقضى على ، وجوز أن يكون ذلك على ابدال أحد الدالين بالتاء ، وقيل عليه :إنه تخريج غير صحيح لأن عد يعد من باب نصر كما فى كتب اللغة فلا وجه لفتح التاء لو كانت مبدلة من الدال فالظاهر حمله على حذف احدى الدالين تخفيفا ، وقرأ الحسن باسكان العين كغيره وتشديد الدال جمعا بين الساكنين ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أى فأعطوهن المتعة وهى فى المشهور درع أى قميص وخمار وهو ماتغطى به المرأة رأسها وملحفة وهى ماتلتحف به من قرنها إلى قدمها ولعلها مايقال له ازار اليوم ، وهذا على مافى البدائع أدنى ما تكتسى به المرأة وتستتر عند الخروج ٭

ويفهم من كلام فخر الاسلام . والفاضل البرجندى أنه يعتبر عرف كل بلدة فيما تكتسى به المرأة عند الخروج ، والمفتى به الاشبه بالفقه قول الخصاف إنها تعتبر بحالهما فان كانا غنيين فلها الاعلى من الثياب أو فقيرين فالادنى أو مختلفين فالوسط ، وتجب لمطلقة قبل الوطء والخلوة عند معتبرها لم يسم لها فى النكاح تسمية صحيحة من كل وجه مهر ولا تزيد على نصف مهر المثل ولا تنقص عن خمسة دراهم فان ساوت النصف فهى الواجبة وأن كان النصف أقل منها فالواجب الاقل إلا أن ينقص عن خمسة دراهم فيكمل لها الخمسة . وفى البدائع لو دفع لها قيمة المتعة اجبرت على القبول ، فمعنى الآية على ماسمعت وكان الامر للوجوب فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن فى النكاح وروى هذا عن ابن عباس ، وأما المفروض لها فيه إذا طلقت قبل المس فالواجب لها نصف المفروض لاغير ٭

واما المتعة فهى على مافى المبسوط والمحيط وغيرهما من المعتبرات مستحبة ، وعلى مافى بعض نسخ القدورى ومشى عليه صاحب الدرر غير مستحبة أيضاً والارجح أنها مستحبة ، وفى قول الشافعى القديم أنها واجبة كما فى صورة عدم الفرض ، وجوز أن تبقى الآية على ظاهرها ويكون المراد ذكر حكم المطلقة قبل المس سواء فرض لها فى النكاح أم لم يفرض ويراد بالمتعة العطاء مطلقاً فيعم نصف المفروض والمتعة المعروفة فى الفقه ويكون الامر للوجوب أيضاً أو يراد بالمتعة معناها المعروف ويحمل الامر على مايشمل الوجوب والندب ٭

وادعى سعيد بن المسيب كما أخرج عبد بن حميد أن الآية منسوخة بآية البقرة وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم) قال: فصار لها نصف الصداق ولا متاع لها ، وأنكر الحسن وأبو العالية النسخ وقالا لها نصف الصداق ولها المتاع ٭

وجاء فى رواية أخرى أخرجها عبد بن حميد عن الحسن أيضاً أن لكل مطلقة متاعا دخل بها أم لم يدخل بها فرض لها أو لم يفرض ، وظاهره دعوى الوجوب فى الكل وهو خلاف ماعندنا ، وقد علمت الحكم فى صورتين وهو فى الصورتين الباقيتين الاستحباب ، وأما دعوى النسخ فلا يخفى مافيها ، والظاهر أن الفاء لتفريع مابعدها على ماقبلها ، وقيل : نصيحة أى إذا كان كما ذكر فمتعوهن ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أى أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة وأصل التسريح أن ترعى الابل السرح وهو شجر له ثمرة ثم جعل لكل ارسال فى الرعى ثم لكل ارسال واخراج ﴿ سَرَاحاً جَمِيلاً ٤٩ ﴾ مشتملا على كلام طيب عاريا عن أذى ومنع واجب ، وقيل : السراح الجميل أن لا يطالبوهن بما آتوهن ، وقال الجبائى هو الطلاق السنى ، وليس بشىء لأن ذاك لعطفه على

www.Quranpdf.blogspot.in

التمتيع الواقع بعد الفاء مرتب على الطلاق فيلزم ترتب الطلاق السنى على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن فلا يمكن أن يكون ذلك طلاقا مرتبا على الطلاق الأول لأن غير المدخول بهن لا يتصور فيها لحوق طلاق بعد طلاق آخر مع أنها إذا طلقت بانت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ اِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الّٰتِى ءاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أى مهورهن كذا قال مجاهد، وغيره وأطلق الاجر على المهر لأنه أجر على الاستمتاع بالبضع وغيره مما يجوز به الاستمتاع وتقييد الاحلال له باعطائها معجلة كما يفهم من معنى (آتيت) ظاهرا ليس لتوقف الحل عليه بل لايثار الافضل له ﷺ فان فى التعجيل براءة الذمة وطيب النفس ولذا كان سنة السلف لا يعرف منهم غيره، وقال الامام: من الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر أولا وذلك لأن المرأة لها الامتناع من تسليم نفسها إلى أن تأخذ المهر والنبي ﷺ ماكان يستوفى مالا يجب له والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان حلالا وكيف والنبي عليه الصلاة والسلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع فلو طلب التمكين قبل ايتاء المهر لزم أن يجب وأن لا يجب وهو محال ولا كذلك أحدنا اهـ، وفيه بحث لا يخفى، وحمل الايتاء على الاعطاء ومافى حكمه كالتسمية فى العقد، وجعل التقييد لايثار الافضل أيضا فان التسمية أولى من تركها وان جاز العقد بدونها ولزم مهر المثل خلاف الظاهر *

واستدل أبو الحسن الكرخى من أصحابنا بقوله تعالى (إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) على أن النكاح ينعقد بلفظ الاجارة كما ينعقد بلفظ التزويج ويكون لفظ الاجارة مجازاً عنه لأن الثابت بكل منهما ملك منفعة فوجد المشترك ورد بأنه لا يلزم من تسمية المهر أجراً صحة النكاح بلفظ الاجارة وماذكر من التجوز ليس بشيء لأن الاجارة ليست سبباً لملك المنفعة حتى يتجوز بها عنه قاله فى الهداية، وقال بعضهم: ان الاجارة لا تنعقد إلا مؤقتة والنكاح يشترط فيه نفيه فيتضادان فلا يستعار أحدهما للآخر. وتعقب بأنه إن كان المتضادان هما العرضين اللذين لا يجتمعان فى محل واحد لزمكم مثله فى البيع من كونه لا يجامع النكاح مع جواز العقد به عند الأصحاب، على أن التحقيق أن التوقيت ليس مفهوم لفظ الاجارة ولا جزأ منه بل شرط لاعتباره فيكون خارجا عنه فهو مجرد تمليك المنافع بعوض غير أنه إذا وقع مجرداً لا يعتبر شرعا على مثال الصلاة فانها الأقوال والأفعال المعروفة ولو وجدت من غير طهارة لا تعتبر، ولا يقال: إن الطهارة جزء مفهوم الصلاة هذا ومثل تقييد إحلال الأزواج بما ذكر على ماقيل تقييد إحلال المملوكة بكونها ممن باشر سباءها وشاهده فى قوله تعالى ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ ﴾ فان المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وماجرى عليها لجواز كون السبي ليس فى محله، ولذا نكح بعض المتورعين الجوارى بعقد بعد الشراء مع القول بعدم صحة العقد على الاماء. واستشكل ذلك بمارية بنت شمعون القبطية رضى الله تعالى عنها فانها لم تكن مسبية بل أهداها له صلى الله تعالى عليه وسلم أمير القبط جريج بن مينا صاحب الاسكندرية ومصر. وأجيب بأن هذا غير وارد لأن هدايا أهل الحرب للامام لها حكم الفيء، وقد يقال: إنه يستشكل بسرية له صلى الله تعالى عليه وسلم أخرى وهى جارية وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها وكان هجرها عليه الصلاة والسلام فى شأن صفية بنت حيي ذا الحجة والمحرم وصفر فلما كان شهر ربيع الأول الذى قبض فيه رضي عنها ودخل عليها فقالت ما أدرى ما أجزيك فوهبتها له وقد عدوها من سراريه صلى الله تعالى عليه

www.Quranpdf.blogspot.in

وسلم والجواب المذكور لايتسنى فيها، ولعل الجواب عن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام تسراها بيانا للجواز ولا يبعد أنه كان متحققا بدء أمرها وماجرى عليها بحيث كأنه باشر سببها وشاهده، ويحتمل أنها كانت مما أفاء الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام فملكتها زينب ببعض أسباب الملك ثم وهبتها له صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع ذلك قد أطلق له عليه الصلاة والسلام حل المملوكة بعد ولم يقيد بحسب الظاهر بكونها مما أفاء الله عليه في قوله تعالى (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك)*

ثم إن هبة هذه الجارية كانت شهر وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم والآية نزلت قبل لأنها نزلت إما سنة الأحزاب وهي السنة الخامسة من الهجرة وإما بعيد الفتح وهو السنة الثامنة منها وعلى هـذا يكون ماوقع من أمر مارية متقدما على نزول الآية لأنها أهديت له صلى الله تعالى عليه وسلم السنة السابعـة من الهجرة فانه عليه الصلاة والسلام فيها أرسل رسله إلى الملوك ومنهم حاطب بن أبي بلتعة اللخمي أرسله إلى المقوقس أمير القبط المتقدم ذكره فقدم منه بمارية وبأختها شيرين وبأخ أو بابن عم لها خصي يقال له مابور وببغلة تسمى دلدلا وبحمار يسمى يعفورا أو عفيراً وبألف مثقال ذهبا وبغير ذلك فتدبر، ومثل ماذكر على ماقيل تقييد القرائب بكونها مهاجرات معه صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله سبحانه :

﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ فهن أفضل من غيرهن، والمعية للتشريك في الهجرة لا للمقارنة في الزمان كأسلمت مع سليمان، قال أبو حيان: يقال دخل فلان معي وخرج معي أي كان عمله كعملي وإن لم يقترنا في الزمان، ولو قلت: خرجنا معا اقتضى المعنيين الاشتراك في الفعل والاقتران في الزمان وهو كلام حسن، وحكى الماوردي قولا بأن الهجرة شرط في إحلال الأزواج على الاطلاق وهو ضعيف جداً. وقولا آخر بأنها شرط في إحلال قراباته عليه الصلاة والسلام المذكورات واستدل له بما أخرجه ابن سعد. وعبد بن حميد. والترمذي وحسنه. وابن جرير. وابن أبي حاتم. والطبراني. والحاكم وصححه. وابن مردويه. والبيهقي عن أم هانىء فاختة بنت أبي طالب قالت « خطبني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) إلى قوله سبحانه (هاجرن معك) قالت فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء» وأجيب بأن عدم الحل لفقد الهجرة إنما فهم من قول أم هانىء فلعلها إنما قالت ذلك حسب فهمها إياه من الآية وهو لاينتهض حجة علينا إلا إذا جاءت به رواية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لايقال: إنه أخرج ابن سعد عن أبي صالح مولى أم هانىء قال: «خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم هانىء بنت أبي طالب فقالت: يارسول الله إني مؤتمة وبني صغار فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه عليه الصلاة والسلام فقال: أما الآن فلا إن الله تعالى أنزل علي (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك - إلى - اللاتي هاجرن معك) ولم تكن من المهاجرات وهو يدل على أنه نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم فهم الحرمة وإلا لتزوجها لأنا نقول بعد تسليم صحة الخبر: لا نسلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم فهم الحرمة وعدم التزوج يجوز أن يكون لكونه خلاف الأفضل، ويدل خبر أم هانىء على أن هذه الآية نزلت بعد الفتح فلاتغفل. وادعى بعضهم أن تحريم نكاح غير المهاجرة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أولا ثم نسخ، وعن قتادة أن معنى (هاجرن معك) أسلمن معك، قيل: وعلى هذا لايحرم عليه عليه الصلاة والسلام إلا الكافرات وهو في غاية البعد كما لايخفى، والظاهر أن المراد بأزواجك اللاتي آتيت مهورهن

www.Quranpdf.blogspot.in

نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم اللاتى كن فى عصمته وقد آتاهن مهورهن كعائشة وحفصة وسودة وبما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك نحو ريحانة بناء على ما قاله محمد ابن اسحاق أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما فتح قريظة اصطفاها لنفسه فكانت عنده حتى توفيت عنده وهى فى ملكه ووافقه فى ذلك غيره أخرج الواقدى بسنده إلى أيوب بن بشير قال إنه عليه الصلاة والسلام أرسل بها إلى بيت سلمى بنت قيس أم المنذر فكانت عندها حتى حاضت حيضة ثم طهرت من حيضها فجاءت أم المنذر فأخبرته صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءها فى منزل أم المنذر فقال لها: إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت وإن أحببت أن تكونى فى ملكى أطأك بالملك فعلت فقالت: يارسول الله أحب أن أخف عليك وأن أكون فى ملكك فكانت فى ملك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطؤها حتى ماتت. وذهب بعضهم إلى أنه عليه الصلاة والسلام أعتقها وتزوجها، وأخرج ذلك الواقدى أيضا عن ابن أبى ذئب عن الزهرى ثم قال: وهذا الحديث أثبت عندنا، وروى عنها أنها قالت: لما سبيت بنو قريظة عرض السبى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكنت فيمن عرض عليه فأمر بى فعزلت وكان له صفى كل غنيمة فلما عزلت خار الله تعالى لى فأرسل بى إلى منزل أم المنذر بنت قيس أياما حتى قتل الأسرى وفرق السبى فدخل على صلى الله تعالى عليه وسلم فتجنبت منه حياء فدعانى فأجلسنى بين يديه فقال: إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه فقلت: إنى اختار الله تعالى ورسوله فلما أسلمت أعتقنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجنى وأصدقنى اثنتى عشرة أوقية ذهبا كما كان يصدق نساءه وأعرس بى فى بيت أم المنذر وكان يقسم لى كما يقسم لنسائه وضرب على الحجاب، ولم يذكر ابن الأثير غير القول باعتاقها وتزوجها. ومنهم من ذهب إلى أنها أسلمت فاعتقها عليه الصلاة والسلام فلحقت بأهلها وكانت تحتجب عندهم وتقول: لا يرانى أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى لحوقها بأهلها عن الزهرى. وادعى بعضهم بقاءها حية بعده عليه الصلاة والسلام وأنها توفيت سنة ست عشرة أيام خلافة عمر رضى الله تعالى عنه. وذكر ابن كمال فى تفسيره لبيان الموصول صفية وجويرية. والمذكور فى أكثر المعتبرات فى أمرهما أن صفية لما جمع سبى خيبر أخذها دحية وقد قال له صلى الله عليه وسلم: اذهب فخذ جارية ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنها لا تصلح إلا له لكونها بنت سيد قومه فقال لدحية: خذ غيرها وأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها وتزوجها وكان صداقها نفسها، وأن جويرية فى غزوة بنى المصطلق وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الانصارى فكاتبته على نفسها ثم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله أنا جويرية بنت الحرث وكان من أمرى مالا يخفى عليك ووقعت فى سهم ثابت ابن قيس وإنى كاتبت نفسى فجئت أسألك فى كتابتى فقال عليه الصلاة والسلام فهل لك إلى ما هو خير: قالت؟ وما هو يارسول الله؟ قال: أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك قالت: قد فعلت، وقال ابن هشام ويقال اشتراها صلى الله عليه وسلم من ثابت وأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم، ولا يخفى عليك أنه إذا كان المراد إحلال ما ملكت يمينه صلى الله عليه وسلم حين الملك من حيث أنه ملك له وإن لم يحصل وطء بالفعل يدخل جميع ما ملكه عليه الصلاة والسلام من الجوارى حين الملك ولا يضر الاعتاق والتزوج بعد ذلك وحل الوطء بسبب النكاح لا الملك وإن كان المراد إحلال ذلك مع وقوع الوطء بالفعل ووصف الملك قائم لا يصح بيان الموصول إلا بمملوكة وطئها عليه الصلاة والسلام وهى ملكه كريحانة فى قول وجارية أصابها فى بعض السبى وعدوها من سراريه صلى الله عليه وسلم ولم يذكر المعظم اسمها وعد الحلبى من سراريه عليه الصلاة والسلام جارية سماها زليخة القرظية فلعلها هى

www.Quranpdf.blogspot.in

التي لم تسم وكمارية القبطية والجارية التي وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب، وقد سمعت الكلام فيهما آنفا والمراد ببنات عمه وبنات عماته بنات القرشيين وبنات القرشيات فانه يقال للقرشيين قربوا أو بعدوا أعمامه ﷺ وللقرشيات قربن أو بعدن عماته عليه الصلاه والسلام، والمراد ببنات خاله وبنات خالاته بنات بني زهرة ذكورهم وأناثهم وإلى هذا ذهب الطبرسي في مجمع البيان ولم يذكر غيره، وإطلاق الأعمام والعمات على أقارب الشخص من جهة أبيه ذكورا واناثا قربوا أو بعدوا والأخوال والخالات على أقاربه من جهة أمه كذلك شائع في العرف كثير في الاستعمال*

واللاتي نكحهن ودخل بهن صلى الله تعالى عليه وسلم من القرشيات ست وكان نكاحه بعضهن قبل نزول الآية بيقين ونكاحه بعضهن الآخر محتمل للقبلية والبعدية كما لا يخفى على من راجع كتب السير وسمع ماقيل في وقت نزول الآية، ولم نقف على أنه عليه الصلاة والسلام نكح أحدا من الزهريات أصلا فالمراد باحلال نكاح أولئك مجرد جوازه وهو لا يستدعي الوقوع، وإذا حمل العم على أخي الاب والعمة على اخته والخال على اخي الام والخالة على أختها اقتضى ظاهر الآية أن يكون له ﷺ عم وعمة وخال وخالة كذلك وأن يكون لهم بنات وذلك مشهور في شأن العم والعمة وبناتهما فقد ذكر معظم أهل السير عدة أعمام له ﷺ وعدة بنات لهم كالعباس ومن بناته أم حبيبة تزوجها أسود المخزومي وكان قد خطبها رسول الله ﷺ على ماقيل فوجد أباها أخاه من الرضاعة كان قد أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وكأبي طالب ومن بناته أم هانئ وقد سمعت ماقيل في شأنها وجمانة كانت احدى المبايعات له صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت تحت أبي سفيان بن الحرث عمها، وكأبي لهب ومن بناته خالدة تزوجها عثمان بن أبي العاصي الثقفي وولدت له، ودرة اسلمت وهاجرت وكانت تحت الحرث ابن نوفل ثم تحت دحية الكلبي، وعزة تزوجها أوفى بن أمية، وكالزبير ومن بناته ضباعة زوجة المقداد بن الاسود وام الحكم ويقال أنها أخته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة وكان يزورها بالمدينة وكحمزة ومن بناته امامة لماقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عمرة القضاء أتى بها من مكة وزوجها سلمة بن أم سلمة ومقتضى قول القسطلاني أن حمزة أخوه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاعة أرضعتهما ثويبة بلبن ابنها مسروح أنها لا تحل له عليه الصلاة والسلام بل ذكر هو أيضا أنها عرضت عليه فقال هي ابنة أخي من الرضاعة وكالحرث ومن بناته أروى زوجة أبي وداعة وكالمقوم ومن بناته من اسمها أروى أيضا زوجة ابن عمها أبي سفيان بن الحرث وذكروا أيضا له صلى الله تعالى عليه وسلم عدة عمات وعدة بنات لهن، منهن أميمة ومن بناتها زينب أم المؤمنين وهي التي نزل فيها قوله تعالى: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) وأم حبيبة وكانت زوجة عبدالرحمن ابن عوف، وحمنة وكانت عند مصعب بن عمير ثم عند طلحة أحد العشرة، ومنهن البيضاء ومن بناتها أروى أم عثمان رضي الله تعالى عنه. وأم طلحة بنتا كريز بن ربيعة؛ ومنهن عاتكة ومن بناتها قريبه بنت زاد الراكب أبي أمية ابن المغيرة، ومنهن صفية ومن بناتها صفية بنت الحرث بن حارثة وأم حبيبة بنت العوام بن خويلد، وأما الخال والخالة فلم يشتهر ذكرهما، نعم ذكر في الاصابة فريعة بنت وهب الزهرية رفعها النبي ﷺ وقال: من أراد أن ينظر إلى خالة رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذه، وفيها أيضا فاختة بنت عمرو الزهرية خالة النبي ﷺ ه

أخرج الطبراني من طريق عبدالرحمن بن عثمان الوقاصي عن ابن المنكدر عن جابر سمعت رسول الله ﷺ

www.Quranpdf.blogspot.in

يقول :وهبت خالتى فاختة بنت عمرو غلاما وأمرتها أن لاتجعله جازرا ولا صائغا ولا حجاما، والوقاصى ضعيف*
وقال : فى صفية بنت عبدالمطلب هى شقيقة حمزة أمهما هالة خالة رسول الله ﷺ أى هالة بنت وهب كما فى المواهب ولم نقف لهذه الخالة على بنت غير صفية عمته عليه الصلاة والسلام، وكذا لم نقف على بنات لمن ذكرنا قبلها ،ووقفنا على خال واحد له عليه الصلاة والسلام وهو عبد يغوث بن وهب ولم نقف على بنت له وإنما وقفنا على ابنين أحدهما الأرقم وله ابن يسمى عبدالله وهو صحابى كتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولصاحبيه وكان على بيت المال فى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه وكان أثيرا عنده حتى ان حفصة روت عنه أنه قال لها :لولا أن ينكر على قومك لاستخلفت عبد الله بن الأرقم، وقيل: هو ابن عبد يغوث والأرقم هو عبد يغوث، والبخارى على ماقلنا وقد أسلم يوم الفتح، وقال بعضهم فيه : خال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن الناس من ذكر لعبدالله هذا أخا سماه عبدالرحمن بن الأرقم وأثبت له الصحبة وفى ذلك مقال، وثانيهما الأسود وأطلق عليه النبى عليه الصلاة والسلام اسم الخال ،فقد روى أنه كان أحد المستهزئين به صلى الله تعالى عليه وسلم فقصد جبريل عليه السلام إهلاكه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: ياجبريل خالى فقال : دعه عنك، وله ابن هو عبدالرحمن وبنت هى خالدة وكانت من المهاجرات الصالحات وقد أطلق عليها أيضا اسم الخالة *

أخرج المستغفرى من طريق أبى عمير الجرمى عن معمر عن الزهرى عن عبيدالله مرسلا قال : دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منزله فرأى عند عائشة امرأة فقال : من هذه ياعائشة قالت :هذه إحدى خالاتك فقال: أن خالاتى بهذه البلدة لغرائب فقالت : هذه خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث فقال : سبحان الذى يخرج الحى من الميت قرأها مثقلة *

وأخرج موسى بن إبراهيم عن أبيه عن أبى سلمة عن عائشة موصولا نحوه، وفى هذا الخبر وما قبله إطلاق الخال والخالة على قرابة الأم وإن لم يكن الخال أخاها والخالة أختها ، وبذلك يتأيد ما ذكرناه سابقا فاحفظ ذاك والله تعالى يتولى هداك ،وإياك أن تظن الأمر فرضيا أو أن الخطاب وإن كان خاصا فى الظاهر عام فى الحقيقة فيكفى وجود بنات خال وبنات خالات لغيره عليه الصلاة والسلام كما يظن ذلك من يشهد العم بجهله ويصدق الخال بقلة عقله ،هذا وقد كثر السؤال عن حكمة افراد العم والخال وجمع العمة والخالة حتى ان السبكى على ماقيل صنف جزأ فيه سماه الهمة فى افراد العم وجمع العمة *

قال الخفاجى : وقد رأيت لهم فيه كلمات ضعيفة كقول الرازى إن العم والخال على زنة المصدر ولذا لم يجمعا بخلاف العمة والخالة، وقيل لم يجمعا ليعما إذا أضيفا، والعمة والخالة لايعمان لتاء الوحدة وهى إن لم تمنع العموم حقيقة تأباه ظاهرا ،ولا يأبى ذلك قوله تعالى : فى سورة النور (بيوت أعمامكم وبيوت عماتكم) لأنه على الأصل، ثم قال : وأحسن منه ماقيل إن أعمامه صلى الله تعالى عليه وسلم العباس وحمزة رضى الله تعالى عنهما أخواه من الرضاع لاتحل له بناتهما ،وأبو طالب ابنته أم هانىء لم تكن مهاجرة اهـ، وما ادعى ضعفه فهو كما قال وما زعم أنه أحسن منه إن كان كما نقلناه بهذا المقدار خاليا عن إسقاط شىء حسبما وجدناه فى نسختنا فهو مما لاحسن فيه فضلا عن كونه أحسن، وإن كان له تتمة فالنظر فيه بعد الاطلاع عليها اليك وأظنه على العلات ليس بشىء *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال بعض الأجلة المعاصرين من العلماء المحققين لازال سعيد زمانه سابقا بالفضل على أقرانه: يحتمل أن يكون إفراد العم لأنه بمنزلة الأب بل قديطلق عليه الأب ومنه فى قول: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) والأب لا يكون إلا واحدا فكان الافراد أنسب بمن ينزل منزلته ويكون جمع العمة على الأصل وإفراد الخال ليكون على وفق العم وجمع الخالة وإن كانت بمنزلة الأم لتكون على وفق العمات، ويحتمل أن يكون إفراد المذكر وجمع المؤنث لقلة الذكور وكثرة الأناث، وقدورد فى الآثار مايدل على أن النساء أكثر من الرجال*

وقال آخر من أولئك الأجلة لا زالت مدارس العلم تزهو به وتشكر فضله: إن ذلك لما فيه من الحسن اللفظى فان بين العم والعمات والخال والخالات نوعا من الجناس ولأن أعمامه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما ذكره صاحب ذخائر العقبى اثنى عشر عماً وعماته كن ستاً فلو قيل أعمامك لتوهم أنهم أقل من اثنى عشر لأنه جمع قلة وغاية ما يصدق هو عليه تسعة أوعشرة على قول ولو قيل: عمتك لم تتحقق الاشارة إلى قلتهن فلذا أفرد العم وجمعت العمة وقيل: خالك وخالاتك ليوافق ماقبل، وأنا أقول: الذى يغلب على ظنى فى ذلك ماحكاه أبو حيان عن القاضى أبى بكر بن العربى من أن ماذكر عرف لغوى على معنى أنه جرى عرف اللغويين فى مثل ذلك على إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة، ونحن قد تتبعنا كثيرا من أشعار العرب فلم نر العم مضافا إليه ابن أو بنت بالأفراد أو الجمع إلا مفردا نحو قوله:

جاء شقيق عارضا رمحه * إن بنى عمك فيهم رماح

وقوله: فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى * بصاحبه يوما دما فهو آكله

وقوله: قالت بنات العم ياسلمى وإن * كان فقيرا معدما قالت وإن

وقوله: يابنت عما لاتلومى واهجعى * فليس يخلو عنك يوما مضجعى

إلى ما لا يحصى كثرة، وأما اطراد إفرادالخال وجمع العمة والخالة إذا أضيف اليها ماذكر فلست على ثقة من أمره، فاذا كان الأمر فى المذكورات كالأمر فى العم فليس فوق هذا الجواب جواب، والظن بالقاضى أنه لم يحكم بما حكم إلا عن بينة مع أنى لاأطلق القول بعدم قبول حكم القاضى بعلمه ولاأفتى به، نعم لهذا القاضى حكم مشهور فى أمر الحسين رضى الله تعالى عنه ولعن من رضى بقتله لايرتضيه إلا يزيد زاده الله عز وجل عليه عذابه الشديد، وعلى تقدير كون الأمر فى العم ومن معه كما قال يحتمل أن يكون الداعى لافراد العم والخال الرجوع إلى أصل واحد مع ما بين الذكور من جهة العمومة والخؤلة فى حق الشخص المدلى بهما من التناصر والتساعد فلذلك ترى الشخص يهرع لدفع بليته إلى ذكور عمومته وخؤلته، وذلك التعاضد يجعل المتعدد فى حكم الواحد، ويقوى هذا الاعتبار هنالك إضافة الفرع كالبنين والبنات إلى ذلك، ولعل فى الافراد مع جمع المضاف المذكور إشارة إلى أن البنين والبنات وإن كانوا بنين وبنات لمتعددين فى نفس الأمر إلا أنهم فى حكم البنين والبنات لواحد وأن كل واحد من الأعمام والأخوال لمزيد شفقته على أبناء وبنات كل كأنه أب لأبناء وبنات كل، وهذا الذى ذكرناه لايوجد فى العمات والخالات. ولا يرد عليه جمع العم والخال فى آية النور كما لا يخفى على من له أدنى نور يهتدى به إذا أشكلت الأمور، ويمكن أن يقال فى الحكمة ههنا خاصة: أنه لما كان المنفرد

www.Quranpdf.blogspot.in

أصلا والمجموع فرعه والمذكر أصلا والمؤنث فرعه أتى بالعم والخال المذكرين مفردين وبالعمة والخالة المؤنثين مجموعين فاجتمع فى الأولين أصلان وفى الأخيرين فرعان بحكم شبيه الشيء منجذب اليه وإن الطيور على أشباهها تقع، وما ألطف هذا الاجتماع فى منصة مقام النكاح لما فيه من الاشارة إلى الكفاءة وأن المناسب ضم الجنس إلى جنسه كما يقتضيه بعض الآيات وهو لعمرى ألطف من جمع المذكر وإفراد المؤنث ليجتمع فى كل أصل وفرع فيوافق ما فى النكاح من اجتماع ذكر هو أصل وأنثى هى فرع لخلوه عن الاشارة إلى ذلك الضم المناسب المستحسن عند كل ذى رأى صائب على أن فى جمع أصلين فى العم موافقة لما فى النكاح من جمع الزوجين الذين هما أصلان لما يتولد منهما وإذا اعتبر جمعهما فى الخال الذى قرابته من جهة الأم التى لا تعتبر فى النسب وافق الجملة مافى النكاح من اجتماع أصل وفرع فلا يفوت ذلك بالكلية على مافى النظم الجليل *

وأيضا فى الانتقال من الأفراد إلى الجمع فى جانبي العمومة والخؤلة إشارة إلى ما فى النكاح من انتقال كل من الزوج والزوجة من حال الانفراد إلى حال الاجتماع فلله تعالى در التنزيل، هذا ماعندى وهو زهرة ربيع لا تتحمل الفرك ومع هذا قسه إلى ما سمعت عن ساداتنا المعاصرين واختر لنفسك مايحلو والله تعالى أعلم بأسرار كتابه *

﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ بالنصب عطفا على مفعول أحللنا عند جمع وليس معنى (أحللنا) إنشاء لاحلال الناجز ولا الاخبار عن إحلال ماض بل إعلام بمطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق فلا يعكر على ذلك الشرط وهذا كما تقول أبحت لك أن تكلم فلانا إن سلم عليك، ولما فيه من البحث قال بعضهم: إنه نصب بفعل يفسره ما قبل أى ويحل لك امرأة أو وأحللنا لك امرأة وهو مستقبل لمكان الشرط. وقرأ أبو حيوة بالرفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف أى وامرأة مؤمنة أحللناها لك أيضا ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أى ملكته المتعة بها بأى عبارة كانت بلا مهر *

وقرأ أبى. والحسن. والشعبي. وعيسى. وسلام (أن وهبت) بفتح الهمزة أى لأن وهبت وقيل: أى وقت أن وهبت أو مدة أن وهبت فتكون أن وما بعدها فى تأويل مصدر منصوب على الظرفية، وأكثر النحاة لا يجيزونه فى غير المصدر الصريح كآتيك خفوق النجم وغير ما المصدرية، وجوز أن يكون المصدر بدلا من (امرأة) وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (إذ وهبت) وإذ ظرف لما مضى وقيل: هى مثلها فى قوله تعالى: (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أى يتملك المتعة بها بأى عبارة كانت بلا مهر وهذا شرط للشرط الأول فى استيجاب الحل فهبتها نفسها منه ﷺ لا يوجب له حلها إلا بارادته نكاحها وهذه الارادة جارية مجرى قبول الهبة، وقال ابن كمال: الارادة المذكورة عبارة عن القبول ولا وجه لحملها على الحقيقة لأن قوله تعالى: (يستنكحها) يغنى عن الارادة بمعناه الوضعى وهو يشير إلى أن السين للطلب، وكلام بعض الأجلة على هذا حيث قال: إرادة طلب النكاح كناية عن القبول *

وقيل: استفعل هنا بمعنى فعل فالاستنكاح بمعنى النكاح لئلا يتوهم التكرار وفيه نظر، واستظهر صاحب هذا القيل حمل الارادة على الارادة المتقدمة على الهبة بناء على أن التركيب يقتضى تقدم هذا الشرط فقد قالوا: إذا اجتمع شرطان فالثانى شرط فى الأول متأخر فى اللفظ متقدم فى الوقوع وهو بمنزلة الحال، ومن هنا قال:

www.Quranpdf.blogspot.in

الفقهاء: لو قال: إن ركبت إن أكلت فأنت طالق لا تطلق مالم يتقدم الأكل على الركوب ليتحقق تقييد الحالية ه

واستشكل السمين هذه القاعدة بما هنا بناء على أنهم جعلوا ذلك الشرط بمنزلة القبول لاقتضاء الواقع ذلك، ثم ذكر أنه عرضه على علماء عصره فلم يجدوا مخلصا منه إلا بأن هذه القاعدة ليست بكلية بل مخصوصة بما لم تقم قرينة على تأخر الثانى كما فى نحو إن تزوجتك إن طلقتك فعبدى حر فان الطلاق لا يتقدم التزوج ومانحن فيه من هذا القبيل ثم قال: فمن جعل الشرط الثانى هنا متقدما لم يصب ورأيت فى الفن السابع من الأشباه والنظائر النحوية للجلال السيوطى عليه الرحمة كلاما لابن هشام ذكر فيه أن جعل الآية كالمثال ونظمهما فى سلك مسئلة اعتراض الشرط على الشرط هو ما ذهب اليه جماعة منهم ابن مالك، وذهب هو إلى أن المثال من مسئلة الاعتراض المذكور دون الآية واحتج عليه بما احتج، ثم ذكر الخلاف فى صحة تركيب ماوقع فيه الاعتراض كالمثال وأن الجمهور على جوازه وهو الصحيح وأن المجيزين اختلفوا فى تحقيق مايقع به مضمون الجواب الواقع بعد الشرطين على ثلاثة مذاهب، أحدها أنه إنما يقع بمجموع أمرين، أحدهما حصول كل من الشرطين، والآخر كون الشرط الثانى واقعا قبل وقوع الأول ففى المثال لا يقع الطلاق إلا بوقوع الركوب والأكل من تقدم وقوع الأكل على الركوب، وذكر أن هذا مذهب الجمهور. وثانيها أنه يقع بحصول الشرطين مطلقا وذكر أنه حكاه له بعض العلماء عن إمام الحرمين وأنه رآه محكيا عن غيره بعد. وثالثها أنه يقع بوقوع الشرطين على الترتيب فانما تطلق فى المثال إذا ركبت أولا ثم أكلت وأبطل كلا من المذهبين الأخيرين وذكر فى توجيه التركيب على المذهب الأول مذهبين: الأول مذهب الجمهور أن الجواب المذكور للشرط الأول وجواب الثانى محذوف لدلالة الأول وجوابه عليه ولإغناء ذلك عنه وقيامه مقامه لزم فى وقوع المعلق على ذلك أن يكون الثانى واقعا قبل الأول ضرورة أن الجواب لابد من تأخره عن الشرط فكذا الأمر فى القائم مقام الشرط، والثانى مذهب ابن مالك أن الجواب المذكور للأول والثانى لاجواب له لامذكور ولامقدر لأنه مقيد للاول تقييده بحال واقعة موقعه فالمعنى فى المثال إن ركبت آكلة فأنت طالق، وفيه أنه خارج عن القياس وأنه لا يطرد فى إن قمت إن قعدت فأنت طالق وأن الشرط بعيد عن مذهب الحال لمكان الاستقبال ه

وبالجملة قد أطال الكلام فى هذه المسألة وهى مسئلة شهيرة ذكرها الأصوليون وغيرهم وفيما ذكرنا فيها اكتفاء بأقل اللازم ههنا فتأمل ه

وأكثر العلماء على وقوع الهبة واختلفوا فى تعيين الواهبة فعن ابن عباس. وقتادة. وعكرمة هى ميمونة بنت الحرث الهلالية، وفى المواهب يقال: إن ميمونة وهبت نفسها للنبي ﷺ وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام انتهت اليها وهى على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله ﷺ وكان ذلك سنة سبع بعد غزوة خيبر وبنى عليها عليه الصلاة والسلام بسرف على عشرة أميال من مكة، وعليه تكون إرادة النكاح سابقة على الهبة فيضعف به قول السمين: وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما. والضحاك. ومقاتل هى أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية، قال فى الصفوة: والأكثرون على أنها هى التى وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها فلم تتزوج حتى ماتت. وفى الدر المنثور عن منير بن عبد الله الدوسى أنه عليه الصلاة والسلام قبلها، وعن عروة. والشعبي هى زينب بنت خزيمة من الأنصار كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين لاطعامها إياهم وكان ذلك فى سنة ثلاث ولم

www.Quranpdf.blogspot.in

تلبث عنده ﷺ إلا قليلا حتى توفيت رضى الله تعالى عنها *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه . والبيهقى فى السنن عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : التى وهبت نفسها للنبى ﷺ خولة بنت حكيم وقد أرجأها عليه الصلاة والسلام فتزوجها عثمان بن مظعون باذنه ﷺ وقال بعضهم : يجوز تعدد الواهبات فقد أخرج الشيخان. وغيرهما عن عروة بن الزبير قال : كانت خولة بنت حكيم من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فقالت عائشة : أما تستحى المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت (ترجى من تشاء منهن) قالت عائشة : يارسول الله ما أرى ربك إلا يسارع لك فى هواك فقوله: من اللاتى وهبن أنفسهن صريح فى تعددهن ، وأنكر بعضهم وقوع الهبة وقيل : إن قوله تعالى : (إن وهبت) يشير إلى عدم وقوعها وأنها أمر مفروض وكذا تنكير (امرأة) فالمراد الاعلام بالاحلال فى هذه الصورة ان اتفقت وأنكر بعضهم القبول *

أخرج ابن سعد عن ابن أبى عون أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبى ﷺ ووهبن نساء أنفسهن فلم نسمع أن النبى ﷺ قبل منهن أحدا ، وما أخرجه ابن جرير . وابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له يحتمل نفى القبول ويحتمل نفى الهبة، وإيراده صلى الله تعالى عليه وسلم فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويتضمن ذلك الاشارة إلى أن هبة من تهب لم تكن حرصا على الرجال وقضاء الوطر بل على الفوز بشرف خدمته صلى الله تعالى عليه وسلم والنزول فى معدن الفضل، وبذلك يعلم أن قول عائشة : مافى امرأة وهبت نفسها لرجل خير و كذ اعتراضها السابق صادر من شدة غيرتها رضى الله تعالى عنها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا بدع فالمحب غيور وقد قال بعض المحبين :

أغار إذا آنست فى الحى أنة حذارا وخوفا أن تكون لحبه

ونصب (خالصة) على أنه مصدر مؤكد للجملة قبله ، وفاعلة فى المصادر على ما قال الزمخشرى غير عزيز كالعافية والكاذبة، وادعى أبو حيان عزتها، والكثير على تعلق ذلك باحلال الواهبة أى خاص لك إحلالها خالصة أى خلوصا ، وقال الزجاج: هو حال من (امرأة) لتخصصها بالوصف أى أحللناها خالصة لك لا تحل لأحد غيرك فى الدنيا والآخرة *

وقال أبو البقاء : هو حال من ضمير (وهبت) أو صفة لمصدر محذوف أى هبة خالصة. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ذاك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين *

واستدل الشافعية رضى الله تعالى عنهم به على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ ، وقال بعض أجلة أصحابنا فى ذلك: إن المراد بالهبة فى الآية تمليك المتعة بلا عوض بأى لفظ كان لا تمليكها بلفظ وهبت نفسى فحيث لم يكن ذلك نصا فى التمليك بهذا اللفظ لم يصلح لأن يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجابا وسلبا ، ومعنى خلوص الاحلال المذكور له صلى الله تعالى عليه وسلم من دون المؤمنين كونه متحققا فى حقه غير متحقق فى حقهم إذ لا بد فى

www.Quranpdf.blogspot.in

الاحلال لهم من مهر المثل *

وظاهر كلام العلامة ابن الهمام اعتبار لفظ الهبة حيث قال فى الفتح: قد ورد النكاح بلفظ الهبة وساق الآية ثم قال: والأصل عدم الخصوصية حتى يقوم دليلها، وقوله تعالى (خالصة لك) يرجع إلى عدم المهر بقرينة إعقابه بالتعليل بنفى الحرج فان الحرج ليس فى ترك لفظ إلى غيره خصوصا بالنسبة إلى أفصح العرب بل فى لزوم المال، وبقرينة وقوعه فى مقابلة المؤتى أجورهن فصار الحاصل أحللنا لك الأزواج المؤتى مهورهن والتى وهبت نفسها لك فلم تأخذ مهرا خالصة هذه الخصلة لك من دون المؤمنين أما هم فقد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم الخ من المهر وغيره. وأبدى صدر الشريعة جواز كونه متعلقا بأحللنا قيداً فى إحلال أزواجه له صلى الله تعالى عليه وسلم لافادة عدم حلهن لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى، وجوز بعضهم كونه قيدا فى إحلال الاماء أيضا لافادة عدم حل إمائه كأزواجه لأحد بعده عليه الصلاة والسلام، وبعض آخر كونه قيداً لاحلال جميع ما تقدم على القيود المذكورة أى خاص إحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خلوصها من دون المؤمنين فان احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال بعض المعدود على الوجه المعهود، واختاره الزمخشرى، وأياما كان فقوله تعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ اعتراض بين المتعلق والمتعلق، والأول على جميع الأوجه قوله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ والثانى على الوجه الأخير وهو تعلق خالصة بجميع ماسلف من الاحلالات الأربع قوله تعالى (خالصة) وهو مؤكد معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما اختص به بأن كلا من الاختصاص عن علم وأن هذه الحظوة مما يليق بمنصب الرسالة فحسب فالمعنى أن الله تعالى قد علم ماينبغى من حيث الحكمة فرضه على المؤمنين فى حق الأزواج والاماء وعلى أى حد وصفة ينبغى أن يفرض عليهم ففرضه واختصك سبحانه بالتنزيه واختيار ماهو أولى وأفضل فى دنياك حيث أحل جل شأنه لك أجناس المنكوحات وزاد لك الواهبة نفسها من غير عوض لئلا يكون عليك ضيق فى دينك، وهو على الوجه الأول الذى ذكرناه وهو تعلق خالصة بالواهبة خاصة قوله عز وجل: (إنا أحللنا) وهو الذى استظهره أبو حيان وأمر الاعتراض عليه فى حاله، وبعضهم يجعل المتعلق خالصة على سائر الأوجه والتعلق به باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له صلى الله تعالى عليه وسلم لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لأن مدار انتفاء الحرج هو الأول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم

وقال ابن عطية: ان (لكيلا) الخ متعلق بمحذوف أى بيناهذا البيان وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويظن بك أنك قد أثمت عند ربك عز وجل فلا اعتراض على هذا، ولا يخلو عن اعتراض فتدبر ولا تغفل *

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً﴾ أى كثير المغفرة فيغفر ما يشاء مما يعسر التحرز عنه وغيره ﴿رَحِيماً ٥٠﴾ أى وافر الرحمة، ومن رحمته سبحانه أن وسع الأمر فى مواقع الحرج ﴿تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أى تؤخر من تشاء من نسائك وتترك مضاجعتها ﴿وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ وتضم إليك من تشاء منهن وتضاجعها، وروى هذا عن قتادة وعن ابن عباس. والحسن أى تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء، وقال بعضهم: الارجاء والايواء

www.Quranpdf.blogspot.in

لاطلاقهما يتناولان مافى التفسيرين وماذكر فيهما فانما هو من باب التمثيل ولايخلو عن حسن، وفى رواية عن الحسن أن ضمير (منهن) لنساء الأمة والمعنى تترك نكاح من تشاء من نساء أمتك فلاتنكح وتنكح منهن من تشاء *

وقال: كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها وعن زيد بن أسلم والطبرى أنه للواهبات أنفسهن أى تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتى يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء منهن فلا تقبلها، وعن الشعبي مايقتضيه، فقد أخرج ابن سعد والبيهقى فى السنن وغيرهما عنه قال: كن نساء وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن فلم يقربن حتى توفى عليه الصلاة والسلام ولم ينكحن بعده، منهن أم شريك فذلك قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) ويشهد لما تقدم من رجوعه إلى النساء ماأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم عن أبى رزين قال: هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن لاتخل سبيلنا وأنت فى حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك ماشئت فأنزل الله تعالى الآية فأرجأ منهن نسوة وكان ممن أرجأ ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة وكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله تعالى عنهن أجمعين. وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو. وابن عامر. وأبو بكر (ترجىء) بالهمزة وهو عند الزجاج أجود والمعنى واحد ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ أى طلبت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أى تجنبت وحمل هذا التجنب على ما كان بطلاق، ومن شرطية منصوبة بما بعدها، وقوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ جوابها أى من طلبتها ممن طلقت فليس عليك اثم فى طلبها أو موصولة والجملة خبرها أى والتى طلبتها لاجناح عليك فى طلبها والمراد نفى أن يكون عليه عليه الصلاة والسلام اثم فى ارجاع المطلقة، وقيل من موصولة معطوفة على (من تشاء) الثانى والمراد به غير المطلقة ومعنى فلاجناح عليك فلا إثم عليك فى شىء مما ذكر من الارجاء والايواء والابتغاء والمراد تفويض ذلك إلى مشيئته صلى الله تعالى عليه وسلم *

وقال بعضهم: المراد به ما كان بترك مضاجعة بدون طلاق، والمقصود من الآية بيان أن له ﷺ ترك مضاجعة من شاء من نسائه ومضاجعة من شاء منهن أى ممن لم يكن أرجأها وترك مضاجعتها والرجوع إلى مضاجعة من ترك مضاجعتها واعتزلها فمن عزل هى المرجأة، وأفاد صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الفرض لأنه ﷺ إما أن يطلق وإما أن يمسك وإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أولم يقسم وإذا طلق وعزل فاما أن يخلى المعزولة لايبتغيها أو يبتغيها وانفهام الطلاق والامساك باقسامه بواسطة اطلاق الارجاء والايواء فى قوله تعالى: (ترجى من تشاء منهن وتؤوى) وانفهام ابتغاء المعزولة من قوله سبحانه (ومن ابتغيت) الخ ومتى فهم ان لاجناح فى ابتغاء المعزولة بالطلاق وردها إلى النكاح فهم منه أن رفع النكاح فى عدم ردها من طريق الأولى ولقد أجاد فيما أفاد، وجوز بعضهم أن يكون من مبتدا وفى الكلام معطوف وخبر محذوفان أى ومن ابتغيت ممن عزلت ومن لم تعزل سواء، وقوله سبحانه: (فلاجناح عليك) تأكيد لذلك ولايخفى بعده وتعسفه، وقال الحسن: معنى - ومن ابتغيت - الخ من مات من نسائك اللواتى عندك أو خليت سبيلها فلاجناح عليك فى أن تستبدل عوضها من اللاتى أحللت لك فلا تزداد على عدة نسائك اللاتى عندك كذا فى البحر، وكأنه جعل من للبدل كالتى فى قوله تعالى: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) ومن عزلت شاملا لمن ماتت ومن طلقت وكلاهما بعيد، وثانيهما

www.Quranpdf.blogspot.in

أبعد من أولها بكثير ومثله اعتبار مااعتبره من القيود وبالجملة هو قول تبعد نسبته إلى الحسن، وأبعد من ذلك نسبته إلى ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما في الدر المنثور *

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى تفويض الامر إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن وسرورهن ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهن، وروى هذا عن قتادة، والمراد بما آتيتهن عليه ماصنعت معهن فيتناول ترك المضاجعة والقسم، وعن ابن عباس. ومجاهد أن المعنى أنهن إذا علمن أن لك ردهن إلى فراشك بعد مااعتزلتهن قرت أعينهن ولم يحزن ويرضين بماتفعله من التسوية والتفضيل لأنهن يعلمن أنك لم تطلقهن، وظاهره جعل المشار اليه العلم بان له صلى الله تعالى عليه وسلم الايواء، وأظهر منه فى ذلك قول الجبائى ذلك العلم منهن بأنك إذا عزلت واحدة كان لك أن تؤويها بعد ذلك أدنى لسرورهن وقرة أعينهن *

وقال بعض الاجلة: كون الاشارة إلى التفويض أنسب لفظا لأن ذلك للبعيد وكونها إلى الايواء أنسب معنى لأن قرة عيونهن بالذات إنما هى بالايواء فلاتغفل، والاعين جمع قلة وأريد به ههنا جمع الكثرة وكأن اختياره لأنه أوفق بكمية الازواج، وقرأ ابن محيصن (تقر) من أقر وفاعله ضميره ﷺ و(أعينهن) بالنصب على المفعولية *

وقرئ (تقر) مبنيا للمفعول وأعينهن بالرفع نائب الفاعل و(كلهن) بالرفع فى جميع ذلك وهو توكيد لنون (يرضين) *

وقرأ أبو اياس جوية بن عائذ (كلهن) بالنصب تأكيدا لضميره فى (آتيتهن) قال ابن جنى: وهذه القراءة راجعة إلى معنى قراءة العامة (كلهن) بضم اللام وذلك أن رضاهن كلهن بما أوتين كلهن على انفرادهن واجتماعهن فالمعنيان اذن واحد إلا أن للرفع معنى وذلك أن فيه اصراحا من اللفظ بأن يرضين كلهن، والاصراح فى القراءة الشاذة إنما هو فى اتيانهن وإن كان محصول الحال فيهما واحدا مع التأويل انتهى، وقال الطيبى: فى توكيد الفاعل دون المفعول اظهار لكمال الرضا منهن وإن لم يكن الايتاء كاملا سويا، وفى توكيد المفعول اظهار انهن مع كمال الايتاء غير كاملات فى الرضا، والأول أبلغ فى المدح لأن فيه معنى التتميم وذلك أن المؤكد يرفع ايهام التجوز عن المؤكد انتهى فتأمل ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ خطاب له ﷺ ولأزواجه المطهرات على سبيل التغليب *

والمراد بما فى القلوب عام ويدخل فيه مايكون فى قلوبهن من الرضا بما دبر الله تعالى فى حقهن من تفويض الامر اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ومقابل ذلك ومافى قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام من الميل إلى بعضهن دون بعض، والكلام بعث على الاجتهاد فى تحسين مافى القلوب، ولعل اعتباره صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخطاب لتطييب قلوبهن، وفى الكشاف أن هذا وعيد لمن لم يرض منهن بمادبر الله تعالى من ذلك وفوض سبحانه إلى مشيئة رسوله عليه الصلاة والسلام وبعث على تواطىء قلوبهن والتصافى بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وطيب نفسه الكريمة، والظاهر أنه غير قائل بدخوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخطاب، وحينئذ فاما أن يقول: إنه عام لهن ولسائر المؤمنين وإما أن يقول بأنه خاص بهن ولعله ظاهر كلامه وعليه لا يظهر وجهه التذكير، وربما يقال على الاول: إن المقام غير ظاهر فى اقتضاء دخول سائر المؤمنين فى الخطاب، وقال ابن عطية: الاشارة بذلك ههنا إلى مافى قلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من محبة شخص دون شخص ويدخل فى المعنى المؤمنون، وربما يتخيل أن الخطاب لجميع المكلفين والكلام بعث على تحسين

www.Quranpdf.blogspot.in

مافى القلوب فى شأن مادبر الله تعالى لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمر أزواجه ونفى الخواطر الرديئة بأن يظن ان ذاك هو الذى تقتضيه الحكمة وأنه دليل على كمال المحبوبية، ولا يتوهم خلافه فان بعض الملحدين طعنوا كالنصارى فى كثرة تزوجه عليه الصلاة والسلام وكونه فى أمر النساء على حال لم يبح لأمته من حل جمع مافوق الاربع وعدم التقيد بالقسم لهن مثلا وزعموا أن فى ذلك دليلا على غلبة القوة الشهوية فيه عليه الصلاة والسلام وذلك مناف لتقدس النفس الذى هو من شأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فجزموا والعياذ بالله تعالى بنفى نبوته وأن مافعله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن منه تعالى بل ليس ذلك الامنه عليه الصلاة والسلام

ولا يخفى أن قائلى ذلك على كفرهم جهلة بمراتب الكمال صم عن سماع آثاره عليه الصلاة والسلام ومن سبر الاخبار علم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل الانبياء على الاطلاق لغاية كمال بشريته وملكيته وآثار الكمال الأول تزوج مافوق الاربع والطواف عليهن كلهن فى الليلة الواحدة وآثار الكمال الثانى أنه عليه الصلاة والسلام كثيرا ماكان يبيت ويصبح لا يأكل ولا يشرب وهو على غاية من القوة وعدم الاكتراث بترك ذلك وليس لأحد من الانبياء عليهم السلام اجتماع هذين الكمالين حسب اجتماعهما فيه عليه الصلاة والسلام ولتكثره النساء حكمة دينية جليلة أيضا وهى نشر أحكام شرعية لاتكاد تعلم الابواسطتهن مع تشييد أمر نبوته فان النساء لا يكدن يحفظن سرا وهن أعلم الناس بخفايا أزواجهن فلو وقف نساؤه عليه الصلاة والسلام على أمر خفى منه يخل بمنصب النبوة لأظهرنه، وكيف يتصور اخفاؤه بينهن مع كثرتهن، وكل سر جاوز الاثنين شاع *

وفى عدم ايجاب القسم عليه عليه الصلاة والسلام تأكيد لذلك كما لا يخفى على المنصف ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً ﴾ مبالغا فى العلم فيعلم كل مايبدى ويخفى ﴿ حَلِيماً ٥١ ﴾ مبالغا فى الحلم فلا يعجل سبحانه بمقابلة من يفعل خلاف مايحب حسبما يقتضيه فعله من عتاب أو عقاب أو فيصفح عما يغلب على القلب من الميول ونحوها، هذا وفى البحر اتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعدل بين أزواجه المطهرات فى القسمة حتى مات ولم يستعمل شيئا مما أبيح له ضبطا لنفسه وأخذا بالأفضل غير ماجرى لسودة فانها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لاتطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب أنه قال لم يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرجأ منهن شيئا ولا عزله بعد ماخيرن فاخترنه *

وأخرج الشيخان. وأبو داود . والنسائى. وغيرهم عن عائشة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية (ترجى من تشاء منهن) فقيل لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول له إن كان ذاك إلى فانى لا أريد أن أوثر عليك أحدا فتأمله مع حكاية الاتفاق السابق والله تعالى الموفق *

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقى وقد وقع بفصل أيضا، والمراد بالنساء الجنس الشامل للواحدة ولم يؤت بمفرد لأنه لا مفرد له من لفظه والمرأة شاملة للجارية وليست بمرادة، واختصاص النساء بالحرائر بحكم العرف، وقرأ البصريان بالتاء الفوقية، وسهل . وأبو حاتم يخير فيهما، وأيا كان ماكان فالمراد يحرم عليك نكاح النساء ﴿ مِنْ بَعْدُ ﴾ قيل أى من بعد التسع اللاتى فى عصمتك اليوم، أخرج ابن سعد عن عكرمة قال: لما خير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أزواجه اخترنه فانزل الله تعالى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى

www.Quranpdf.blogspot.in

اخترنك أى لقد حرم عليك تزويج غيرهن ؛ وأخرج أبو داود فى ناسخه . وابن مردويه . والبيهقى فى سننه عن انس قال لما خيرهن فاخترن الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم قصره عليهن فقال سبحانه (لا يحل لك النساء من بعد) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه عليه الصلاة والسلام ، وقدر بعضهم المضاف اليه المحذوف اختياراً أى من بعد اختيارهن الله تعالى ورسوله *

وقال الامام : هو أولى وكأن ذلك لكونه أدل على أن التحريم كان كرامة لهن وشكراً على حسن صنيعهن *

وجوز آخر أن يكون التقدير من بعد اليوم وماله تحريم من عدا اللاتى اخترنه عليه الصلاة والسلام *

وحكى فى البحر عن ابن عباس وقتادة قال : لما خيرن فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ جازاهن أن حظر عليه النساء غيرهن وتبديلهن ونسخ سبحانه بذلك ما أباحه له قبل من التوسعة فى جميع النساء ، وحكى أيضاً عن مجاهد وابن جبير أن المعنى من بعد إباحة النساء على العموم، وقيل التقدير من بعد التسع على معنى أن هذا العدد مع قطع النظر عن خصوصية المعدود نصابه ﷺ من الأزواج كما أن الاربع نصاب أمته منهن فالمعنى لا يحل لك الزيادة على التسع ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ﴾ أصله تتبدل فخفف بحذف إحدى التاءين أى ولا يحل لك أن تستبدل ﴿ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى، ففى الآية حكمان حرمة الزيادة وحرمة الاستبدال ، وظاهره أنه يحل له عليه الصلاة والسلام نكاح امرأة أخرى على تقدير أن تموت واحدة من التسع ، وإذا كان المراد من الآية تحريم من عدا اللاتى اخترنه عليه الصلاة والسلام أفادت الآية أنه لو ماتت واحدة منهن لم يحل له نكاح أخرى، وكلام ابن عباس السابق ظاهر فى ذلك جداً، وكأن قوله تعالى (ولا أن تبدل) الخ عليه لدفع توهم أن المحرم ليس إلا أن يرعهن صلى الله تعالى عليه وسلم بواحدة من الضرائر *

وفى رواية أخرى عن عكرمة أن المعنى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء اللاتى سمى الله تعالى لك فى قوله سبحانه (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الآية فلا يحل له صلى الله تعالى عليه وسلم ما وراء الأجناس الأربعة كالأعرابيات والغرائب ويحل له منها ماشاء ، وأخرج عبد بن حميد والترمذى وحسنه وغيرهما عن ابن عباس ماهو ظاهر فى ذلك حيث قال فى الخبر وقال تعالى: (يا أيها النبي إنا أحللنا لك) إلى قوله سبحانه (خالصة لك) وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء ، وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر. والضياء فى المختارة . وغيرهم عن زياد قال: قلت لأبى بن كعب رضى الله تعالى عنه أرأيت لو أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام متن أما يحل له أن يتزوج قال: ومايمنعه من ذلك قلت: قوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد) فقال : إنما أحل له ضربا من النساء ووصف له صفة فقال سبحانه يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله تعالى (وامرأة مؤمنة) الخ ثم قال تبارك وتعالى لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة ، وعلى هذا القول قال الطيبي : يكون قوله سبحانه (ولا أن تبدل) الخ تأكيداً لما قبله من تحريم غير مانص عليه من الأجناس الأربعة وكأن ضمير بهن للاجناس المذكورة فى قوله تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الآية والمعنى لا يحل لك أن تترك هذه الأجناس وتعدل عنها إلى أجناس غيرها ، وقال شيخ الاسلام أبو السعود عليه الرحمة بعد ماحكى القول المذكور وأباه قوله تعالى: (ولا أن تبدل بهن) الخ فان معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلال

www.Quranpdf.blogspot.in

نكاحهن فيكون التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذى هو ليس من الوظائف البشرية انتهى فتأمل ولا تغفل ، وقيل (ولا أن تبدل) من البدل الذى كان فى الجاهلية كان يقول الرجل للرجل بادلنى بامرأتك وأبادلك بامرأتى فينزل كل واحد منهما عن امرأته للآخر ، وروى نحوه عن ابن زيد وأنكر هذا القول الطبرى وغيره فى معنى الآية وقالوا مافعلت العرب ذلك قط ، وماروى من حديث عيينة بن حصن أنه قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين دخل عليه بغير استئذان وعنده عائشة : من هذه الحميراء ؟ فقال : عائشة فقال عيينة : يارسول الله إن شئت نزلت لك عن سيدة نساء العرب جمالا ونسباً فليس بتبديل ولا أراد ذلك وإنما احتقر عائشة رضى الله تعالى عنها لأنها كانت إذ ذاك صبية ، ومن مزيد لتأكيد الاستغراق فيشمل النهى تبدل الكل والبعض ؛ وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فى موضع الحال فاعل تبدل والتقدير مفروضا إعجابك بهن ، وحاصله ولا تبدل بهن من أزواج على كل حال ، وظاهر كلام بعضهم أنه لا يجوز أن يكون حالا من مفعوله أعنى أزواجا وعلل ذلك بتوغله فى التنكير . وتعقب بأنه مخالف لكلام النحاة فانهم جوزوا الحال من النكرة إذا وقعت منفية لأنها تستغرق حينئذ فيزول ابهامها كما صرح به الرضى *

وقيل إن التنكير مانع من الحالية ههنا لأن الحال تقاس بالصفة والواو مانعة من الوصفية فتمنع من الحالية ومنع لزوم القياس مع أن الزمخشرى وغيره جوزوا دخول الواو على الصفة لتأكيد لصوقها ، وقيل فى عدم جواز ذلك إن ذا الحال إذا كان نكرة يجب تقديمها ولم تقدم ههنا . وتعقب بأن ذلك غير مسلم فى الجملة المقرونة بالواو لكونه بصورة العاطف . واستظهر صاحب الكشف الجواز وذكر أن المعنى فى الحالين لا يتفاوت كثير تفاوت لأنه إذا تقيد الفعل لزم تقييد متعلقاته وإنما الاختلاف فى الاصالة والتبعية ، وضمير حسنهن للازواج والمراد بهن من يفرضن بدلا من ازواجه اللاتى فى عصمته عليه الصلاة والسلام فتسميتهن أزواجا باعتبار ما يعرض مآلا وهذا بناء على أن باء البدل فى بهن داخلة على المتروك دون المأخوذ فلو اعتبرت داخلة على المأخوذ كان الضمير للنساء لا للازواج ، وممن أعجبه صلى الله تعالى عليه وسلم حسنهن على ماقيل أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب بعد وفاته رضى الله تعالى عنه ، وفى قوله سبحانه : (ولو أعجبك حسنهن) على ما نقل عن ابن عطية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها وفى الأخبار أدلة على ذلك وتفصيل الأقوال فيه فى كتب الفروع . واختلف فى أن الآية الدالة على عدم حل النساء له ﷺ هل هى محكمة أم لا . فعن أبى بن كعب وجماعة منهم الحسن . وابن سيرين واختاره الطبرى واستظهره أبو حيان أنها محكمة وعن على كرم الله تعالى وجهه وابن عباس . وأم سلمة رضى الله تعالى عنهما والضحاك عليه الرحمة أنها منسوخة وروى ذلك عن عائشة رضى الله تعالى عنها *

أخرج أبو داود فى ناسخه والترمذى وصححه والنسائى . والحاكم وصححه أيضا وابن المنذر وغيرهم عنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء ماشاء إلا ذات محرم لقوله سبحانه: (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء) وهذا ظاهر فى أن الناسخ قوله تعالى (ترجى) الخ وهو مبنى على أن المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء ، ووجه النسخ به على هذا التفسير أنه يدل بعمومه على أنه أبيح له ﷺ الطلاق والامساك لكل من يريد فيدل على أن له تطليق منكوحاته ونكاح من يريد من غيرهن إذ

www.Quranpdf.blogspot.in

ليس المراد بالامساك إمساك من سبق نكاحه فقط لعموم من تشاء وقوله سبحانه : (تؤوى) ليس مقيدا بمنهن كذا قال الخفاجي : وفي القلب منه شيء ولا بد على القول بأن النسخ بذلك من القول بتأخر نزوله عن نزول الآية المنسوخة إذ لا يمكن النسخ مع التقدم وهو ظاهر ولا يعكر التقدم في المصحف لأن ترتيبه ليس على حسب النزول وقال بعضهم: إن الناسخ السنة ويغلب على الظن أنها كانت فعله عليه الصلاة والسلام *

أخرج ابن أبي شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبي حاتم عن عبدالله بن شداد أنه قال : في قوله تعالى : (ولا أن تبدل) الخ ذلك لو طلقهن لم يحل له أن يستبدل وقد كان ينكح بعد مانزلت هذه الآية ما شاء ونزلت وتحته تسع نسوة ثم تزوج بعد أم حبيبة بنت أبي سفيان وجويرية بنت الحرث رضي الله تعالى عنهما ، والظاهر على القول بأن الآية نزلت كرامة للمختارات وتطييبا لخواطرهن وشكرا لحسن صنيعهن عدم النسخ والله تعالى أعلم ، وقوله : ﴿إلَّا مَامَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء متصل بناء على أصل اللغة لتناوله عليه الحرائر والاماء ومنقطع بناء على العرف لاختصاصه فيه بالحرائر ولا أن تبدل بهن من أزواج كالصريح فيه *

وقال ابن عطية : إن ما إن كانت موصولة واقعة على الجنس فهو استثناء من الجنس مختار فيه الرفع على البدل من النساء ويجوز النصب على الاستثناء وإن كانت مصدرية فهي في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول انتهى ، وليس بجيد لأنه قال والتقدير إلا ملك اليمين وملك بمعنى مملوك فاذا كان بمعنى مملوك لم يصح الجزم بأنه ليس من الجنس وأيضا لا يتحتم النصب وإن فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة بل أهل الحجاز ينصبون وبنو تميم يبدلون وأياما كان فالظاهر حل المملوكة له ﷺ سواء كانت مما أفاء الله تعالى عليه أم لا ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢﴾ أي راقبا أو مراقبا والمراد كان حافظا ومطلعا على كل شيء فاحذروا تجاوز حدوده سبحانه وتخطي حلاله إلى حرامه عز وجل *

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ شروع في بيان بعض الحقوق على الناس المتعلقة به ﷺ وهو عند نسائه ، والحقوق المتعلقة بهن رضي الله تعالى عنهن ومناسبة ذلك لما تقدم ظاهرة ، والآية عند الأكثرين نزلت يوم تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش *

أخرج الامام أحمد . وعبد بن حميد . والبخاري . ومسلم . والنسائي . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم . وابن مردويه . والبيهقي في سننه من طرق عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فانزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي) الآية والنهي للتحريم، وقوله سبحانه : (إلا أن يؤذن) بتقدير باء المصاحبة استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لاتدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مصحوبين بالاذن *

وجوز أبو حيان كونه بتقدير باء السببية فيكون الاستثناء من أعم الأسباب أي لا تدخلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الاذن ، وذهب الزمخشري إلى أنه استثناء من أعم الأوقات أي لاتدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم ، وأورد عليه أبو حيان أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون

www.Quranpdf.blogspot.in

المؤول فلا يقال أتيتك أن يصيح الديك وإنما يقال أتيتك صياح الديك ، ولا يخفى أن القول بالاختصاص أحد قولين للنحاة فى المسئلة نعم انه الأشهر والزمخشرى إمام فى العربية لا يعترض عليه بمثل هذه المخالفة *

وزعم بعضهم أن الوقت مقدر فى نظم الكلام فيكون محذوفا حذف حرف الجر وأن هذا ليس من باب وقوع المصدر موقع الظرف *

وأجاز بعض الأجلة كون ذلك استثناء من أعم الأحوال بلا تقدير الباء بل باعتبار أن المصدر مؤول باسم المفعول أى لا تدخلوها إلا مأذونا لكم والمصدر المسبوك قد يؤول بمعنى المفعول كما قيل فى قوله تعالى (ما كان هذا القرآن أن يفترى) إن المعنى ما كان هذا القرآن مفترى فمن قال كون المصدر بمعنى المفعول غير معروف فى المؤول لم يصب ، وقيل فيما ذكر مخالفة لقول النحاة المصدر المسبوك معرفة دائما كما صرح به فى المغنى *

وتعقبه الخفاجى بأن الحق أنه سطحى وأنه قد يكون نكرة وذكر قوله تعالى . (ما كان) الخ ، وقوله سبحانه: ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ متعلق بيؤذن وعدى بالى مع أنه يتعدى بفى فيقال أذن له فى كذا لتضمينه معنى الدعاء للاشعار بانه لا ينبغى أن يدخلوا على طعام بغير دعوة وإن تحقق الاذن الصريح فى دخول البيت فان كل اذن ليس بدعوة ، وقيل يجوز أن يكون قد تنازع فيه الفعلان (تدخلوا . ويؤذن) وهو مما لا بأس به، وقوله تعالى:

﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين نضجه وبلوغه تقول أنى الطعام يأنى أنى كقلى يقلى قلى إذا نضج وبلغ قاله الزجاج ؛ وقال مكى: أناه ظرف زمان مقلوب آن التى بمعنى الحين فقلبت النون قبل الألف وغيرت الهمزة إلى الكسرة أى غير ناظرين آنه أى حينه والمراد حين إدراكه ونضجه أو حين أكله حال من فاعل تدخلوا وهو حال مفرغ من أعم الأحوال كما سمعت فى (أن يؤذن لكم) وإذا جعل ذلك حالا فهى حال مترادفة فكأنه قيل : لا تدخلوا فى حال من الاحوال إلا مصحوبين بالاذن غير ناظرين ، والظاهر أنها حال مقدرة ويحتمل أن تكون مقارنة ، والزمخشرى بعد أن جعل ماتقدم نصبا على الظرفية جعل هذا حالا أيضا لكنه قال بعد وقع الاستثناء على الوقت والحال معا كأنه قيل لا تدخلوا بيوت النبى إلا وقت الاذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين ه

وتعقبه أبو حيان بانه لا يجوز على مذهب الجمهور من أنه لا يقع بعد إلا فى الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه أو صفة المستثنى منه ثم قال وأجاز الأخفش . والكسائى ذلك فى الحال أجاز ماذهب القوم إلا يوم الجمعة راحلين عنا فيجوز ماقاله الزمخشرى عليه ولا يخفى على المتأمل فى كلام الزمخشرى أنه بعيد بمراحل عن جعل الآية الكريمة كالمثال المذكور لأنه على التأخير والتقديم وكلامه آب عن اعتبار ذلك فى الآية نعم لو اقتصر على جعل (غير ناظرين) حالا من ضمير (تدخلوا) لأمكن أن يقال إن مراده لا تدخلوا غير ناظرين إلا أن يؤذن لكم ويكون المعنى أن دخولهم غير ناظرين إناه مشروط بالاذن وأما دخولهم ناظرين فممنوع مطلقا بطريق الأولى ثم قدم المستثنى وأخر الحال . وتعقبه بعضهم بأن فيه استثناء شيئين وهما الظرف والحال بأداة واحدة وقد قال ابن مالك فى التسهيل : لا يستثنى بأداة واحدة دون عطف شيئا آن وظاهره عدم جواز ذلك سواء كان الاستثناء مفرغا أم لا وسواء كان الشيئا آن مما يعمل فيهما العامل المتقدم أم لا فلا يجوز قام القوم إلا زيدا عمرا ولا ماقام القوم إلا زيدا عمرا أو إلا زيد عمرو ولا ماقام إلا خالد بكر ولا ما أعطيت أحدا شيئا إلا عمرا دانقا ولا ما أعطيت إلا عمرا دانقا ولا ما أخذ أحد شيئا إلا زيد درهما ولا ما أخذ أحد إلا زيد درهما، والكلام

www.Quranpdf.blogspot.in

فی هذه المسئلة وما یصح من هذه التراکیب ومالا یصح وإذا صح فعلی أی وجه یصح طویل عریض، والذی أمیل الیه تقیید إطلاقهم لا یستثنی باداة واحدة دون عطف شیئآن بما إذا کان الشیئآن لا یعمل فیهما العامل السابق قبل الاستثناء فلا یجوز ماقام إلا زید إلا بکر مثلا إذ لا یکون للفعل فاعلان دون عطف ولا ماضربت إلا زیدا عمرا مثلا إذ لا یکون لضرب مفعولان دون عطف أیضا، وأری جواز نحو ما أعطیت أحدا شیئا إلا عمرا دانقا ونحو ماضرب إلا زید عمرا من غیر حاجة إلی التزام ابدال اسمین من اسمین نظیر قوله :

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه بعض أبت عیدانه أن تکسرا

فی الأول واضمار فعل ناصب لعمرو دل علیه المذکور فی الثانی، وماذکره ابن مالک فی الاحتجاج علی الشبه بالعطف حیث قال: کما لا یقدر بعد حرف العطف معطوفان کذلک لا یقدر بعد حرف الاستثناء مستثنیان لا یتم علینا فانا نقول فی العطف بالجواز فی مثل ماضرب زید عمرا. وبکر خالدا قطعا فنحو ما أعطیت أحدا شیئاً الازیداً دانقا کذلک، وقوله: إن الاستثناء فی حکم جملة مستأنفة لأن معنی جاء القوم الا زیدا جاء القوم ما منهم زید وهو علی ماقیل یقتضی أن لا یعمل ماقبل الا فیما بعدها فی مثل ماذکر لأنها بمثابة ما ولیس ذلک من الصور المستثناة لیس بشیء کما لا یخفی، ومافی امالی الکافیة من أنه لابد فی المستثنی المفرغ من تقدیر عام فلو استعمل بعد الاشیآن فاما أن لا یقدر عام أصلا وهو یخالف حکم الباب أو یقدر عامان وهو یؤدی إلی أمر خارج عن القیاس من غیر ثبت ولو جاز فی الاثنین جاز فیما فوقهما وهو ظاهر البطلان أو یقدر لأحدهما دون الآخر وهو یؤدی إلی اللبس فیما قصد. تعقبه الحدیثی بأن لقائل أن یختار الثالث ویقول: العام لا یقدر الا للذی یلی الا منهما لأنه المستثنی المفرغ ظاهرا فلا یحصل اللبس أصلا، وأبو حیان قدر فی الآیة محذوفا وجعل (غیر ناظرین) حالا من الضمیر فیه والتقدیر ادخلوا غیر ناظرین وهو الذی یقتضیه کلام ابن مالک حیث أوجب فی نحو ماضرب الازید عمرا جعل عمرا مفعولا لمحذوف دل علیه المذکور، والجملة مستأنفة استئنافا بیانیا وقعت جوابا لسؤال نشأ من الجملة الأولی کأنه لما قیل ماضرب الازید سأل سائل من ضرب؟ فقیل: ضرب عمرا، وذکر العلامة تقی الدین السبکی علیه الرحمة فی رسالته المسماة بالحلم والاناة فی اعراب (غیر ناظرین اناه) وفیها یقول الصلاح الصفدی :

یاطالب النحو فی زمان أطول ظلا من القناة

وما تحلی منه بعقد علیك بالحلم والاناة

إن الظاهر أن الزمخشری ماقال ذلك الا تفسیر معنی والمستثنی فی الحقیقة هو المصدر المتعلق به الظرف والحال فکأنه قیل: لا تدخلوا الا دخولا مصحوبا بکذا ثم قال: ولست اقول بتقدیر مصدر هو عامل فیهما فان العمل للفعل المفرغ وإنما أردت شرح المعنی، ومثل هذا الاعراب هو الذی نختاره فی قوله تعالی (وما اختلف الذین أوتوا الکتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغیا بینهم) أی الا اختلافا من بعد ماجاءهم العلم بغیا بینهم فمن بعد ماجاءهم وبغیا لیسا مستثنیین بل وقع علیهما المستثنی وهو الاختلاف کما تقول ماقمت الا یوم الجمعة ضاحکا أمام الامیر فی داره فکلها یعمل فیها الفعل المفرغ من جهة الصناعة وهی من جهة المعنی کالشیء الواحد لأنها بمجموعها بعض من المصدر الذی تضمنه الفعل المنفی وهذا أحسن من أن یقدر اختلفوا بغیاً بینهم لأنه حینئذ لا یفید الحصر وعلی ماقلناه یفید الحصر فیه کما أفاده فی قوله تعالی (من بعد ماجاءهم العلم) فهو حصر فی شیئین لکن بالطریق الذی قلناه لا أنه استثناء شیئین بل استثناء شیء صادق علی شیئین، ویمکن حمل کلام الزمخشری علی ذلك فقوله: وقع

www.Quranpdf.blogspot.in

الاستثناء على الوقت والحال معا صحيح وان المستثنى أعم لأن الاعم يقع على الاخص والواقع على الواقع واقع فتخلص عما ورد عليه من قول النحاة لا يستثنى باداة واحدة دون عطف شيآن انتهى فتدبره ، وجوز أن يكون (غير ناظرين) حالا من المجرور فى (لكم) ولم يذكره الزمخشرى ، وفى الكشف لو جعل حالا من ذلك لافاد ماذكره من حيث أنه نهى عن الدخول فى جميع الاوقات الا وقت وجود الاذن المقيد ، وقال العلامة تقى الدين: لم يجعل حالا من ذلك وإن كان جائزا من جهة الصناعة لأنه يصير حالا مقدرة ولأنهم لا يصيرون منهيين عن الانتظار بل يكون ذلك قيدا فى الاذن وليس المعنى على ذلك بل على انهم نهوا أن يدخلوا الا باذن ونهوا إذا دخلوا أن يكونوا غير ناظرين اناه فلذلك امتنع من جهة المعنى أن يكون العامل (فيه يؤذن) وان يكون حالا من مفعوله اه

ولعله أبعد نظرا مما فى الكشف ، وقرأ ابن أبى عبلة (غير) بالكسر على أنه صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له ، ومذهب البصريين فى ذلك وجوب ابراز الضمير بأن يقال هنا غير ناظر أنتم اوغير ناظرين انتم ولا بأس بحذفه عند الكوفيين إذا لم يقع لبس كما هنا والتخريج المذكور عليه ، وقد أمال حمزة . والكسائى (إناه) بناء على أنه مصدر أنى الطعام إذا ادرك ، وقرأ الاعمش (اناءه) بمدة بعد النون ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة على أن المراد بالاذن إلى الطعام الدعوة اليه ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أى فاذا أكلتم الطعام فتفرقوا ولا تلبثوا ، والفاء للتعقيب بلا مهلة للدلالة على أنه ينبغى أن يكون دخولهم بعد الاذن والدعوة على وجه يعقبه الشروع فى الاكل بلا فصل ، والآية على ماذهب اليه الجل من المفسرين خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه مخصوصة بهم وبامثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة وجلس منتظرا للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بأذن لغير طعام ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر ، ولو اعتبر الخطاب عاما لكان الدخول واللبث المذكوران منهيا عنهما ولا قائل به ، ويؤيد ماذكر ماأخرجه عبد بن حميد عن الربيع عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبى ﷺ فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فانزل الله تعالى (يأيها الذين آمنوا) الآية وكذا ماأخرجه ابن أبى حاتم عن سليمان بن أرقم قال نزلت فى الثقلاء . ومن هنا قيل إنها آية الثقلاء ، وتقدم لك القول بجواز كون (إلى طعام) قد تنازع فيه الفعلان (تدخلوا . ويؤذن) والأمر عليه ظاهر

وقال العلامة ابن كمال: الظاهر أن الخطاب عام لغير المحارم وخصوص السبب لا يصلح مخصصا على ماتقرر فى الاصول ، نعم يكون وجها لتقييد الاذن بقوله تعالى (إلى طعام) فيندفع وهم اعتبار مفهومه انتهى وفيه بحث فتأمل والمشهور فى سبب النزول ماذكرناه أول الكلام فى الآية عن الامام أحمد والشيخين وغيرهم فلا تغفل

﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أى لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له فاللام تعليلية أو اللام المقوية و(مستأنسين) مجرور معطوف على (ناظرين) و(لا) زائدة ، ويجوز أن يكون منصوبا معطوفا على (غير) كقوله تعالى (ولا الضالين) ، وجوز أن يكون حالا مقدرة أو مقارنة من فاعل فعل حذف مع فاعله وذلك معطوف على المذكور والتقدير ولا تدخلوها أو لا تمكثوا مستأنسين لحديث ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى اللبث الدال عليه الكلام أو الاستئناس أو المذكور من الاستئناس والنظر أو الدخول على غير الوجه المذكور ، والاول أقوى ملاءمة

www.Quranpdf.blogspot.in

للسياق والسباق ﴿ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ ﴾ لأنه يكون مانعا له عليه الصلاة والسلام عن قضاء بعض أوطاره مع مافيه من تضييق المنزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أهله ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ أى من اخراجكم بأن يقول لكم اخرجوا أو من منعكم عما يؤذيه على ماقيل فالكلام على تقدير المضاف لقوله تعالى :

﴿ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ﴾ فانه يدل على أن المستحيا منه معنى من المعانى لاذواتهم ليتوارد النفى والاثبات على شيء واحد كما يقتضيه نظام الكلام فلو كان المراد الاستحياء من ذواتهم لقال سبحانه والله لايستحى منكم فالمراد بالحق اخراجهم أو المنع عن ذلك، ووضع الحق موضعه لتعظيم جانبه وحاصل الكلام أنه تعالى لم يترك الحق وأمركم بالخروج، والتعبير بعدم الاستحياء للمشاكلة ، وجوز أن يكون الكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل، واعتبار تقدير المضاف بما ذهب اليه الزمخشرى وكثير وهو الذى ينبغى أن يعول عليه ، وفى الكشاف فان قلت: الاستحياء من زيد للاخراج مثلا هو الحقيقة والاستحياء من استخراجه توسع بجعل مانشأ منه الفعل كالصلة وكلتا العبارتين صحيحة يصح ايقاع احداهما موقع الاخرى، قلت: أريد أنه لابد من ملاحظة معنى الاخراج فاما أن يقدر الاخراج ويوقع عليه فيكثر الاضمار ولا يطابق اللفظ نفيا واثباتا، وإما أن يقدر المضاف فيقل ويطابق، ومع وجود المرجح وفقد المانع لاوجه للعدول فلا بد مما ذكر *

وقال العلامة ابن كمال: إن قوله تعالى (فيستحي منكم) تعليل لمحذوف دل عليه السياق أى ولا يخرجكم فيستحي منكم ولذلك صدر باداة التعليل ولو كان المعنى يستحي من اخراجكم لكان حقه أن يصدر بالواو، وفيه أن الكلام بعد تسليم ماذكر على تقدير المضاف. وزعم بعضهم أن الاصل فيستحي منكم من الحق والله لايستحيي منكم من الحق ، والمراد بالحق اخراجهم على أن ذلك من الاحتباك وكلا حرفى الجر ليس بمعنى واحد بل الاول للابتداء والثانى للتعليل ، وقال: إن الحمل على ذلك هو الانسب للاعجاز التنزيلى والاختصار القرآنى ولا يخفى مافيه *

وقرأت فرقة كما فى البحر (فيستحى) بكسر الحاء مضارع استحى وهى لغة بنى تميم والمحذوف اما عين الكلمة فوزنه يستفل أو لامها فوزنه يستفع ، وفى الكشاف قرىء (لا يستحى) بياء واحدة وأظن أن القراءة بياء واحدة فى الفعل فى الموضعين ، هذا والظاهر حرمة اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت وليس ماذكر مختصا بما إذا كان اللبث فى بيت النبى عليه الصلاة والسلام، ومن هنا كان الثقيل مذموما عند الناس قبيح الفعل عند الاكياس *

وعن ابن عباس. وعائشة رضى الله تعالى عنهما حسبك فى الثقلاء أن الله عز وجل لم يحتملهم وعندى كالثقيل المذكور من يدعى فى وقت معين مع جماعة فيتأخر عن ذلك الوقت من غير عذر كثير شرعى بل لمحض أن ينتظر ويظهر بين الحاضرين مزيد جلالته وأن صاحب البيت لايسعه تقديم الطعام للحاضرين قبل حضوره مخافة منه أو احتراما له أو لنحو ذلك فيتأذى لذلك الحاضرون أو صاحب البيت، وقد رأينا من هذا الصنف كثيرا نسأل الله تعالى العافية إن فضله سبحانه كان كبيرا ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ الضمير لنساء النبى ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام أى وإذا طلبتم منهن ﴿ مَتَاعاً ﴾ أى شيئا يتمتع به من الماعون وغيره ﴿ فَاسْأَلُوهُنَّ ﴾ فاطلبوا منهن ذلك ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أى ستر *

www.Quranpdf.blogspot.in

أخرج البخارى . وابن جرير . وابن مردويه عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فانزل الله تعالى آية الحجاب وكان رضى الله تعالى عنه حريصا على حجابهن وما ذاك إلا حبا لرسول الله ﷺ *

أخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام كن يخرجن بالليل إذبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول للنبي ﷺ :احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها ليلة من الليالى عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر رضى الله تعالى عنه بصوته الأعلى قد عرفناك ياسودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى الحجاب وذلك أحد موافقات عمر رضى الله تعالى عنه وهى مشهورة، وعد الشيعة ماوقع منه رضى الله تعالى عنه فى خبر ابن جرير من المثالب قالوا : لما فيه من سوء الأدب وتخجيل سودة حرم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإيذائها بذلك *

وأجاب أهل السنة بعد تسليم صحة الخبر أنه رضى الله تعالى عنه رأى أن لا بأس بذلك لما غلب على ظنه من ترتب الخير العظيم عليه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان أعلم منه وأغير لم يفعل ذلك انتظارا للوحى وهو اللائق بكمال شأنه مع ربه عز وجل *

وأخرج البخارى فى الأدب .والنسائى من حديث عائشة أنها كانت تأكل معه عليه الصلاة والسلام (١) وكان يأكل معهما بعض أصحابه فاصابت يد رجل يدها فكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك فنزلت، ولا يبعد أن يكون مجموع ماذكر سببا للنزول ، ونزل الحجاب على ما أخرج ابن سعد عن أنس سنة خمس من الهجرة *

وأخرج عن صالح بن كيسان أن ذلك فى ذى القعدة منها ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الظاهر أنه إشارة إلى السؤال من وراء حجاب ، وقيل : هو إشارة إلى ماذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب ﴿ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى أكثر تطهرا من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى أمر الرجال فان الرؤية سبب التعلق والفتنة ، وفى بعض الآثار النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وقال الشاعر :

والمرء مادام ذا عين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ساء مهجته ... لامرحبا بانتفاع جاء بالضرر

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ أى وما صح وما استقام لكم ﴿ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أى تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به كاللبث والاستئناس بالحديث الذى كنتم تفعلونه وغير ذلك ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل والاشارة إلى أنه بمراحل عما يقتضيه شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم إذ فى الرسالة

(١) وفى مجمع البيان للطبرسى أن مجاهدا روى عن عائشة أنها كانت تأكل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيسا فى قعب فمر عمر فدعاه عليه الصلاة والسلام فأكل فاصابت أصبعه أصبع عائشة فقال لو أطاع فيكن مارأتكن عين فنزلت آية الحجاب اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

من نفعهم المقتضى للمقابلة بالمثل دون الايذاء ما فيها ﴿ وَلَاأَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ من بعد وفاته أو فراقه وهو كالتخصيص بعد التعميم فان نكاح زوجة الرجل بعد فراقه إياها من أعظم الأذى . ومن الناس من تفرط غيرته على زوجته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده وخصوصا العرب فانهم أشد الناس غيرة *

وحكى الزمخشرى أن بعض الفتيان قتل جارية له يحبها مخافة أن تقع فى يد غيره بعد موته . وظاهر النهى أن العقد غير صحيح ، وعموم الازواج ظاهر فى أنه لا فرق فى ذلك بين المدخول بها وغيرها كالمستعيذة والتى رأى بكشحها بياضا فقال لها عليه الصلاة والسلام قبل الدخول « الحقى بأهلك » وهو الذى نص عليه الامام الشافعى وصححه فى الروضة . وصحح إمام الحرمين والرافعى فى الصغير أن التحريم للمدخول بها فقط لما روى أن الأشعث بن قيس الكندى نكح المستعيذة فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه فهم عمر برجمه فاخبر أنها لم يكن مدخولا بها فكف من غير نكير . وروى أيضا أن قتيلة بنت قيس أخت الأشعث المذكور تزوجها عكرمة بن أبى جهل بحضرموت وكانت قد زوجها أخوها قبل من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبل أن يدخل بها حملها معه إلى حضرموت وتوفى عنها عليه الصلاة والسلام فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله تعالى عنه فقال : هممت أن أحرق عليها بيتها فقال له عمر : ماهى من أمهات المؤمنين ما دخل بها صلى الله تعالى عليه وسلم ولا ضرب عليها الحجاب *

وقيل : لم يحتج عليه بذلك بل احتج بأنها ارتدت حين ارتد أخوها فلم تكن من أمهات المؤمنين بارتدادها وكذا هو ظاهر فى أنه لا فرق فى ذلك بين المختارة منهن الدنيا كفاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابى فى رواية ابن إسحاق والمختارة الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم كنسائه عليه الصلاة والسلام التسع اللاتى توفى عنهن *

وللعلماء فى حل مختارة الدنيا للأزواج طريقان ، أحدهما طرد الخلاف ، والثانى القطع بالحل واختاره الامام والغزالى عليهما الرحمة ، وكأن من قال بحل غير المدخول بها وبحل المختارة المذكورة حمل الأزواج على من كن فى عصمته يوم نزول الآية وعلى من يشبههن ولسن إلا المدخولات بهن اللاتى اخترنه عليه الصلاة والسلام ، وإذا حمل ذلك وأريد بقوله تعالى : (من بعده) من بعد فراقه يلزم حرمة نكاح من طلقها صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الأزواج على المؤمنين وهو كذلك ، ومن هنا اختلف القائلون بانحصار طلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم بالثلاث فقال بعضهم : تحل له عليه الصلاة والسلام من طلقها ثلاثا من غير محلل ، وقال آخرون : لا تحل له أبدا ، وظاهر التعبير بالأزواج عدم شمول الحكم لأمة فارقها صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وطئها *

وفى المسئلة أوجه ثالثها أنها تحرم إن فارقها بالموت كمارية رضى الله تعالى عنها ولا تحرم إن باعها أو وهبها فى الحياة *

وحرمة نكاح أزواجه عليه الصلاة والسلام من بعده من خصوصياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسمعت عن بعض جهلة المتصوفة أنهم يحرمون نكاح زوجة الشيخ من بعده على المريد وهو جهل ما عليه مزيد ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده ، وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشر والفساد ﴿ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فى حكمه عز وجل ﴿ عَظِيمًا ٥٣ ﴾ أى أمرا عظيما وخطبا هائلا لا يقادر قدره ، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وإيجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى *

www.Quranpdf.blogspot.in

ولذلك بالغ عز وجل فى الوعيد حيث قال سبحانه : ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً ﴾ مما لاخير فيه على ألسنتكم كأن تتحدثوا بنكاحهن ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ فى صدوركم ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ٥٤ ﴾ كامل العلم فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لامحالة، وهذا دليل الجواب والأصل إن تبدوا شيئا أو تخفوه يجازكم به فان الله الخ.

وقيل هو الجواب على معنى فاخبركم أن الله الخ، وفى تعميم (شىء) فى الموضعين مع البرهان على المقصود من ثبوت علمه تعالى بما يتعلق بزوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم مزيد تهويل وتشديد ومبالغة الوعيد، وسبب نزول الآية على ماقيل أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل: انهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لنتزوجن نساءه، وفى بعض الروايات تزوجت عائشة أو أم سلمة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلا أتى بعض أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فكلمها وهو ابن عمها فقال النبى عليه الصلاة والسلام: لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال : يارسول الله إنها ابنة عمى والله ما قلت لها منكرا ولا قالت لى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : قد عرفت ذلك أنه ليس أحد أغير من الله تعالى وأنه ليس أحد أغير منى فمضى ثم قال: عنعنى من كلام ابنة عمى لأتزوجنها من بعده فانزل الله تعالى هذه الآية فاعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله تعالى وحج ماشيا من كلمته.

وأخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن المنذر عن قتادة أن طلحة بن عبيد الله قال: لو قبض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تزوجت عائشة فنزلت (وما كان لكم) الآية.

قال ابن عطية : كون القائل طلحة رضى الله تعالى عنه لايصح وهو الذى يغلب على ظنى ولا أكاد أسلم الصحة إلا إذا سلم ماتضمنه خبر ابن عباس مما يدل على الندم العظيم، وفى بعض الروايات أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم سلمة بعد أبى سلمة. وحفصة بعد خنيس بن حذافة مابال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت، ولعمرى أن ذلك غير بعيد عن المنافقين وهو أبعد من العيوق عن المؤمنين المخلصين لاسيما من كان من المبشرين رضى الله تعالى عنهم أجمعين، ورأيت لبعض الأجلة أن طلحة الذى قال ماقال ليس هو طلحة أحد العشرة وإنما هو طلحة آخر لا يبعد منه القول المحكى وهذا من باب اشتباه الاسم فلا إشكال.

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ استئناف لبيان من لايجب عليهن الاحتجاب عنه، روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب أونحن يارسول الله نكلمهن أيضا من وراء حجاب فنزلت، والظاهر أن المعنى لااثم عليهن فى ترك الحجاب من آبائهن الخ، وروى ذلك عن قتادة، وعن مجاهد أن المراد لاجناح عليهن فى وضع الجلباب وابداء الزينة للمذكورين، وفى حكمهم كل ذى رحم محرم من نسب أو رضاع على ماروى ابن سعد عن الزهرى، وأخرج ابن أبى شيبة. وأبو داود فى ناسخه عن عكرمة قال: بلغ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن عائشة رضى الله تعالى عنها احتجبت من الحسن رضى الله تعالى عنه فقال إن رؤيته لها لحل. ولم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الاخوة وابناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الحجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما انهن عمات لأبناء الاخوة وخالات لأبناء الاخوات، وقال الشعبى:

www.Quranpdf.blogspot.in

لم يذكرا وإن كانا من المحارم لئلا يصفاها لأبنائهما وليسوا من المحارم ، وقد أخرج نحو ذلك ابن جرير . وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وقد كره الشعبي. وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أوخالها مخافة وصفه إياها لابنه، وهذا القول عندي ضعيف لجريان ذلك في النساء كلهن ممن لم يكن أمهات محارم، ولاأرى صحة الرواية عن علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ أي النساء المؤمنات على ماروى عن ابن عباس . وابن زيد . ومجاهد، والاضافة اليهن باعتبار انهن على دينهن فيحتجبن على الكافرات ولو كتابيات ، وفي البحر دخل في نسائهن الامهات والاخوات وسائر القرابات ومن يتصل بهن من المتصرفات لهن والقائمات بخدمتهن *

﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ظاهره من العبيد والاماء ، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس واليه ذهب الامام الشافعي ، وقال الخفاجي: مذهب أبي حنيفة أنه مخصوص بالاماء وعلى الظاهر استثنى المكاتب قال أبو حيان: إنه صلى الله عليه وسلم أمر بضرب الحجاب دونه وفعلته أم سلمة مع مكاتبها نبهان ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ في كل ما تأتين وتذرن لاسيما فيما أمرتن به ومانهيتن عنه ، وفي البحر في الكلام حذف والتقدير اقتصرن على هذا واتقين الله تعالى فيه أن تتعدينه إلى غيره ، وفي نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب فضل تشديد في طلب التقوى منهن ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ٥٥ ﴾ لاتخفى عليه خافية ولاتتفاوت في علمه الاحوال فيجازي سبحانه على الاعمال بحسبها، هذا واختلف في حرمة رؤية أشخاصهن مستترات فقال بعضهم بها ونسب ذلك إلى القاضي عياض، وعبارته فرض الحجاب مما اختصصن به فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولاغيرها ولااظهار شخوصهن وإن كن مستترات الامادعت اليه ضرورة من براز *

ثم استدل بما في الموطأ أن حفصة لما توفي عمر رضي الله تعالى عنه سترتها النساء عن أن يرى شخصها وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها انتهى ، وتعقب ذلك الحافظ ابن حجر فقال: ليس فيما ذكره دليل على ماادعاه من فرض ذلك عليهن فقد كن بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحججن ويطفن وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الابدان لاالاشخاص اه . وأنا أرى أفضلية ستر الاشخاص فلا يبعد القول بندبه لهن وطلبه منهن أزيد من غيرهن ، وفي البحر ذهب عمر رضي الله تعالى عنه إلى أنه لا يشهد جنازة زينب الاذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بقبة تضرب عليه وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه عمر رضي الله تعالى عنه ، وروي أنه صنع ذلك في جنازة فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ كالتعليل لما أفاده الكلام السابق من التشريف العظيم الذي لم يعهد له نظير، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، وذكر أن الجملة تفيد الدوام نظرا إلى صدرها من حيث أنها جملة اسمية وتفيد التجدد نظرا إلى عجزها من حيث أنه جملة فعلية فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتا فوقتا، وتأكيدها بإن للاعتناء بشأن الخبر ، وقيل لوقوعها في جواب سؤال مقدر هو ماسبب هذا التشريف العظيم؟ وعبر بالنبي دون اسمه صلى الله تعالى عليه وسلم على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام اشعارا بما اختص به صلى الله عليه وسلم من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر ،وأكد ذلك الاشعار بأل التي للغلبة اشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم المعروف

www.Quranpdf.blogspot.in

الحقيق بهذا الوصف، وقال بعض الاجلة: إن ذاك للاشعار بعلة الحكم، ولم يعبر بالرسول بدله ليوافق ما قبله من قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) لأن الرسالة أفضل من النبوة على الصحيح الذى عليه الجمهور خلافا للعز بن عبد السلام فتعليق الحكم بها لا يفيد قوة استحقاقه عليه الصلاة والسلام للصلاة بخلاف تعليقه بما هو دونها مع وجودها فيه وهو معنى دقيق فلا تسارع إلى الاعتراض عليه، واضافة الملائكة للاستغراق.

وقيل: (ملائكته) ولم يقل الملائكة اشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم باضافتهم إلى الله تعالى وذلك مستلزم لتعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يصل اليه منهم من حيث أن العظيم لا يصدر منه الا عظيم، ثم فيه التنبيه على كثرتهم وأن الصلاة من هذا الجمع الكثير الذى لا يحيط بمنتهاه غير خالقه واصلة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم على ممر الايام والدهور مع تجددها كل وقت وحين، وهذا ابلغ تعظيم وأنهاه وأشمله وأكمله وأزكاه.

واختلفوا فى معنى الصلاة من الله تعالى وملائكته عليهم السلام على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم على أقوال فقيل: هى منه عز وجل ثناؤه عليه عند ملائكته وتعظيمه، ورواه البخارى عن أبى العالية. وغيره عن الربيع بن أنس وجرى عليه الحليمى فى شعب الايمان، وتعظيمه تعالى إياه فى الدنيا باعلاء ذكره واظهار دينه وابقاء العمل بشريعته، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته واجزال أجره ومثوبته وابداء فضله للاولين والآخرين بالمقام المحمود وتقديمه على كافة المقربين الشهود، وتفسيرها بذلك لا ينافى عطف غيره كالآل والاصحاب عليه لأن تعظيم كل احد بحسب ما يليق به، وهى من الملائكة الدعاء له عليه الصلاة والسلام على مارواه عبد بن حميد. وابن أبى حاتم عن أبى العالية، وقيل: هى منه تعالى رحمته عز وجل، ونقله الترمذى عن الثورى. وغير واحد من أهل العلم ونقل عن أبى العالية أيضا، وعن الضحاك وجرى عليه المبرد. وابن الاعرابى. والامام الماوردى وقال: ان ذلك أظهر الوجوه.

واعترض بما مر عند الكلام فى قوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) والجواب هو الجواب، وبأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم سألوا كما سيأتى قريبا إن شاء الله تعالى لما نزلت عن كيفية الصلاة فلولم يكونوا فهموا المغايرة بينها وبين الرحمة ماسألوا عن كيفيتها مع كونهم علموا الدعاء بالرحمة فى التشهد. وأجيب بأنها رحمة خاصة فسألوا عن الكيفية ليحيطوا علما بذلك الخصوص، وهى من الملائكة كما سمعت أولا، ويلزم على هذا وذلك استعمال اللفظ فى معنيين ولا يجوزه كثير كالحنفية، والقائلون بأحد القولين الذين لا يجوزون الاستعمال المذكور اختلفوا فى التفصى عن ذلك فى الآية فقال بعضهم: فى الآية حذف والأصل إن الله يصلى وملائكته يصلون فيكون قد أدى كل معنى بلفظ، وقال آخر: تعدد الفاعل صير الفعل كالمتعدد، وقال صدر الشريعة يجوز أن يكون المعنى واحداً حقيقياً وهو الدعاء والمعنى والله تعالى أعلم أنه تعالى يدعو ذاته والملائكة بايصال الخير وذلك فى حقه تعالى بالرحمة وفى حق الملائكة بالاستغفار، وفيه دغدغة لا تخفى، وقال جمع من المحققين: يتفصى عن ذلك بعموم المجاز فيراد معنى مجازى عام يكون كل من المعانى فرداً حقيقياً له وهو الاعتناء بما فيه خيره صلى الله تعالى عليه وسلم وصلاح أمره وإظهار شرفه وتعظيم شأنه أو الترحم والانعطاف المعنوى.

وقال بعض الأجلة: إن معنى الصلاة يختلف باعتبار حال المصلى والمصلى له والمصلى عليه، والأولى أنها موضوعة هنا للقدر المشترك وهو الاعتناء بالمصلى عليه أو إرادة وصول الخير، وقال آخر: الصواب أن الصلاة لغة بمعنى واحد وهو العطف ثم هو بالنسبة إليه تعالى الرحمة وإلى الملائكة عليهم السلام الاستغفار

www.Quranpdf.blogspot.in

وإلى الآدميين الدعاء. وتعقب بأن العطف بمعناه الحقيقى مستحيل عليه تعالى فيلزم من اعتباره مسنداً إليه تعالى وإلى الملائكة عليهم السلام مايلزم. وأجيب بأنا لا نسلم الاستحالة إلا إذا كان العطف فى الغائب كالعطف فى الشاهد لا يتحقق إلا بقلب ونحوه من صفات الأجسام المستحيلة عليه سبحانه، ونحن من وراء المنع فكثير مما فى الشاهد شىء وهو فى الله تعالى وراء ذلك ويسند إليه سبحانه على الحقيقة كالسمع والبصر وكذا الارادة.

وقد ذهب السلف إلى عدم تأويل الرحمة فيه تعالى بأحد التأويلين المشهورين مع أنها فى الشاهد لا تتحقق إلا بما يستحيل عليه تعالى ولو أوجب ذلك التأويل لم يبق بأيدينا غير محتاج إليه إلا القليل، وقد تقدم مايتعلق بهذا المطلب فى غير موضع من هذا الكتاب، وقد يختار أن الصلاة هنا تعظيم لشأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يقارنه عطف لائق به تعالى وبملائكته، وإذا انسحبت عليه عليه الصلاة والسلام وعلى أحد من المؤمنين تعلقت بكل حسبما يليق به، وجمع الله سبحانه والملائكة فى ضمير واحد لاينافى قوله عليه الصلاة والسلام لمن قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى «بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله» لأن ذلك منه تعالى محض تشريف للملائكة عليهم السلام لايتوهم منه نقص ولذا قيل إذا صدر مثله عن معصوم قيل كما فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وقال بعضهم: لابأس بذلك مطلقا، وذم الخطيب لأنه وقف على يعصهما وسكت سكتة واستدل بخبر لأبى داود، وقيل يقبح إذا كان فى جملتين كما فى كلام الخطيب ولا يقبح اذا كان فى واحدة كما فى الآية وكلام الحبيب عليه الصلاة والسلام وفيه بحث. وقرأ ابن عباس. وعبد الوارث عن أبى عمرو (وملائكته) بالرفع فعند الكوفيين غير الفراء هو عطف على محل ان واسمها، والفراء يشترط فى العطف على ذلك خفاء إعراب اسم ان كما فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) وكما فى قول الشاعر:

ومن يك أمسى فى المدينة رحله فانى وقيار بها لغريب

وهل خفاء الاعراب شامل للاسم المقصور والمضاف للياء أو خاص بالمبنى فيه خلاف، وعند البصريين والفراء هو مبتدأ وجملة (يصلون) خبره وخبر إن محذوف ثقة بدلالة مابعد عليه أى إن الله يصلى وملائكته يصلون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أى عظموا شأنه عاطفين عليه فانكم أولى بذلك. وظاهر سوق الآية أنه لإيجاب اقتدائنا به تعالى فيناسب اتحاد المعنى مع اتحاد اللفظ، وقراءة ابن مسعود صلوا عليه كما صلى عليه وكذا قراءة الحسن فصلوا عليه أظهر فيما ذكر فيبعد تفسير صلوا عليه بقولوا: اللهم صل على النبى أو نحوه *

ومن فسره بذلك أراد أن المراد بالتعظيم المأمور به ما يكون بهذا اللفظ ونحوه مما يدل على طلب التعظيم لشأنه عليه الصلاة والسلام من الله عز وجل لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه عليه الصلاة والسلام *

وماجاء فى الأخبار إرشاد إلى كيفية ذلك وصفته لا أنه تفسير للفظ صلوا، وجاء ذلك على عدة أوجه والجمع ظاهر

أخرج عبد الرزاق. وابن أبى شيبة. والامام أحمد. وعبد بن حميد. والبخارى. ومسلم. وأبو داود والترمذى. والنسائى. وابن ماجه. وابن مردويه. عن كعب بن عجرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رجل: يارسول الله أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك قال: «قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد *

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج الامام مالك . والامام أحمد . والبخارى . ومسلم . وأبوداود . والنسائى . وابن ماجه . وغيرهم عن أبى حميد الساعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلى عليك؟فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « قولوا اللهم صلى على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد » وأخرج الامام أحمد . والبخارى . والنسائى . وابن ماجه . وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى قلنا : يارسول الله هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم »

وأخرج النسائى . وغيره عن أبى هريرة ، انهم سألوا رسول الله ﷺ كيف نصلى عليك . قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وآل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم » وأخرج الامام أحمد . وعبد بن حميد . وابن مردويه . عن ابن بريدة رضى الله تعالى عنه قال : قلنا يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك؟ قال : « قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على ابراهيم انك حميد مجيد» إلى غير ذلك مما ملئت منه كتب الحديث إلا أن فى بعض الروايات المذكورة فيها مقالا ، والظاهر من السؤال أنه سؤال عن الصفة كما أشرنا إليه قبل وهو الذى رجحه الباجى . وغيره وجزم به القرطبى . وقيل : إنه سؤال عن معنى الصلاة وبأى لفظ تؤدى والحامل لهم على السؤال على هذا أن السلام لما ورد فى التشهد بلفظ مخصوص فهموا أن الصلاة أيضا تقع بلفظ مخصوص ولم يفروا إلى القياس لتيسر الوقوف على النص سيما والاذكار يراعى فيها اللفظ ما أمكن فوقع الأمر كما فهموه فانه لم يقل عليه الصلاة والسلام كالسلام بل علمهم صفة أخرى كذا قيل . ويقال على الأول : إنهم لما سمعوا الأمر بالصلاة بعد سماع أن الله عز وجل وملائكته عليهم السلام يصلون عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وفهموا أن الصلاة منه عز وجل ومن ملائكته عليه عليه الصلاة والسلام نوع من تعظيم لائق بشأن ذلك النبى الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم لم يدروا ما اللائق منهم من كيفيات تعظيم ذلك الجناب وسيد ذوى الألباب صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة وسلاما يستغرقان الحساب فسألوا عن كيفية ذلك التعظيم فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى ما علم أنه أولى أنواعه وهو بهم رؤف رحيم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم :« قولوا اللهم صل محمد» إلى آخر ما فى بعض الروايات الصحيحة ، وفيه إيماء إلى أنكم عاجزون عن التعظيم اللائق بى فاطلبوه من الله عز وجل لى

ومن هنا يعلم أن الآتى بما أمر به من طلب الصلاة له صلى الله تعالى عليه وسلم منه عز وجل آت بأعظم أنواع التعظيم لتضمنه الاقرار بالعجز عن التعظيم اللائق ، وقد قيل ونسب إلى الصديق رضى الله تعالى عنه العجز عن درك الأدراك ادراك . ويقرب فى الجملة مما ذكرنا قول بعض الأجلة ونقله أبو اليمن بن عساكر وحسنه لما أمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم لم نبلغ معرفة فضلها ولم ندرك حقيقة مراد الله تعالى فيه فاحلنا ذلك إلى الله عز وجل فقلنا اللهم صل أنت على رسولك لأنك أعلم بما يليق به وبما أردته له صلى الله عليه تعالى وسلم انتهى ، ولعل ماذكرناه ألطف منه ، ومقتضى ظاهر إرشاده صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم إلى طلب الصلاة عليه من الله تعالى شأنه أنه لا يحصل امتثال الأمر إلا بما فيه طلب ذلك منه عز وجل

www.Quranpdf.blogspot.in

ويكفى اللهم صل على محمد لأنه الذى اتفقت عليه الروايات فى بيان الكيفية ، وكأن خصوصية الانشاء لفظا ومعنى غير لازمة، ولذا قال بعض من أوجبها فى الصلاة وستعلمه إن شاء الله تعالى : إنه كما يكفى اللهم صل على محمد ، ولا يتعين اللفظ الوارد خلافا لبعضهم يكفى صلى الله على محمد على الأصح بخلاف الصلاة على رسول الله فانه لا يجزى اتفاقا لأنه ليس فيه إسناد الصلاة إلى الله تعالى فليس فى معنى الوارد . وفى تحفة ابن حجر يكفى الصلاة على محمد إن نوى بها الدعاء فيما يظهر ، وقال النيسابورى: لايكفى صليت على محمد لأن مرتبة العبد تقصر عن ذلك بل يسأل ربه سبحانه أن يصلى عليه عليه الصلاة والسلام وحينئذ فالمصلى عليه حقيقة هو الله تعالى ، وتسمية العبد مصلياً عليه مجاز عن سؤاله الصلاة من الله تعالى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمله ٭

وذكروا أن الاتيان بصيغة الطلب أفضل من الاتيان بصيغة الخبر. وأجيب عن إطباق المحدثين على الاتيان بها بانه مما أمرنا به من تحديث الناس بما يعرفون إذ كتب الحديث يجتمع عند قراءتها أكثر العوام فخيف أن يفهموا من صيغة الطلب أن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لم توجد من الله عز وجل بعد وإلا لما طلبنا حصولها له عليه صلاة الله تعالى وسلامه فاتى بصيغة يتبادر إلى أفهامهم منها الحصول وهى مع ابعادها اياهم من هذه الورطة متضمنة للطلب الذى أمرنا به انتهى، ولا يخفى ضعفه فالأولى أن يقال: إن ذلك لأن تصليتهم فى الأغلب فى أثناء الكلام الخبرى نحو قال النبى صلى الله عليه وسلم كذا وفعل صلى الله عليه وسلم كذا فاحبوا أن لا يكثر الفصل وأن لا يكون الكلام على أسلوبين لما فى ذلك من الخروج عن الجادة المعروفة إذ قلما تجد فى الفصيح توسط جملة دعائية إلا وهى خبرية لفظاً مع احتمال تشوش ذهن السامع وبطء فهمه وحسن الافهام مما تحصل مراعاته فتدبر ٭

والظاهر أنه لا يحصل الامتثال باللهم عظم محمداً التعظيم اللائق ونحوه مما ليس فيه مشتق من الصلاة كصل وصلى فانا لم نسمع أحدا عد قائل ذلك مصليا عليه ﷺ وذلك فى غاية الظهور إذا كان قولوا اللهم صل على محمد تفسيرا لقوله تعالى: (صلوا عليه) ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦ ﴾ أى وقولوا والسلام عليك أيها النبى ونحوه وهذا ماعليه أكثر العلماء الأجلة ، وفى معنى السلام عليك ثلاثة أوجه، أحدها السلامة من النقائص والآفات لك ومعك أى مصاحبة وملازمة فيكون السلام مصدرا بمعنى السلامة كاللذاذ واللذاذة والملام والملامة ولما فى السلام من الثناء عدى بعلى لا لاعتبار معنى القضاء أى قضى الله تعالى عليك السلام كما قيل لأن القضاء كالدعاء لا يتعدى بعلى للنفع ولا لتضمنه معنى الولاية والاستيلاء لبعده فى هذا الوجه ، ثانيها السلام مداوم على حفظك ورعايتك ومتول له وكفيل به ويكون السلام هنا اسم الله تعالى، ومعناه على ما اختاره ابن فورك وغيره من عدة أقوال ذو السلامة من كل آفة ونقيصة ذاتا وصفة وفعلا، وقيل: إذا أريد بالسلام ماهو من أسمائه تعالى فالمراد لاخلوت من الخير والبركة وسلمت من كل مكروه لأن اسم الله تعالى إذا ذكر على شىء أفاده ذلك ٭

وقيل : الكلام على هذا التقدير على حذف المضاف أى حفظ الله تعالى عليك والمراد الدعاء بالحفظ ، وثالثها الانقياد عليك على أن السلام من المسالمة وعدم المخالفة ، والمراد الدعاء بأن يصير الله تعالى العباد منقادين مذعنين له عليه الصلاة والسلام ولشريعته وتعديته بعلى قيل : لما فيه من الاقبال فان من انقاد لشخص واذعن له فقد

www.Quranpdf.blogspot.in

أقبل عليه، والارجح عندي هو الوجه الأول ، وقيل: معنى (سلموا تسليما) انقادوا لاوامره ﷺ انقيادا وهو غير بعيد إلا أن ظواهر الاخبار والآثار تقتضي المعنى السابق وكأنه لذلك ذهب اليه الاكثرون ، والجملة صيغة خبر معناها الدعاء بالسلامة وطلبها منه تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم. واستشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى السلام عليك أيها النبي أونحوه بأن الدعاء لا يتصور منه عز وجل لأنه طلب وهو يتضمن طالباً ومطلوباً ومطلوباً منه وهي أمور متغايرة فان كان طالبه سبحانه السلامة لنبيه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمحاليته من أجلى البديهيات ، وإن كان من ذاته عز وجل لزم أن يغاير ذاته والشيء لايغاير ذاته ضرورة ، وهذا منشأ قول بعضهم: إن في السلام منه تعالى اشكالا له شأن فينبغي الاعتناء به وعدم اهمال أمره فقل من يدرك سره *

وأجيب بأن الطلب من باب الارادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئاً فكذلك يريد من نفسه أن يفعله هو والطلب النفسي وإن لم يكن الارادة فهو أخص منها وهي كالجنس له فكما يعقل أن المريد يريد من نفسه فكذلك يطالب منها إذ لافرق بين الطلب والارادة ، والحاصل أن طلب الحق جل وعلا من ذاته أمر معقول يعلمه كل واحد من نفسه بدليل أنه يأمرها وينهاها قال سبحانه (إن النفس لأمارة بالسوء. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) والامر والنهي قسمان من الطلب وقد تصورا من الانسان لنفسه بالنص فكذا بقية اقسام الطلب وأنواعه، وأوضح من هذا ان الطلب منه تعالى بمعنى الارادة وتعقل ارادة الشخص من ذاته شيئاً بناء على التغاير الاعتباري ومثله يكفي في هذا المقام، ومعنى اللهم سلم على النبي اللهم قل السلام على النبي على ماقيل ، وقيل : معناه اللهم أوجد أوحقق السلامة له ، وقيل : اللهم سلمه من النقائص والآفات *

وقال بعض المعاصرين : إن السلام عليك ونحوه من الله عزوجل لانشاء السلامة وايجادها بهذا اللفظ نظير ماقالوه في صيغ العقود واختار أن معنى اللهم سلم على النبي اللهم أوجد السلامه أوحققها له دون قل السلام على النبي تقليلا للمسافة فتدبر ، وقد يكون السلام منه عز وجل على أنبيائه عليهم السلام نحو قوله سبحانه (سلام على نوح في العالمين . سلام على إبراهيم. سلام على موسى وهرون) تنبيها على أنه جل شأنه جعلهم بحيث يدعى لهم ويثني عليهم ، ونصب (تسليما) على أنه مصدر مؤكد، وأكد سبحانه التسليم ولم يؤكد الصلاة قيل لأنها مؤكدة باعلامه تعالى أنه يصلي عليه وملائكته ولا كذلك التسليم فحسن تأكيده بالمصدر إذ ليس ثم مايقوم مقامه *

وإلى هذا يئول قول ابن القيم التأكيد فيهما (١) وان اختلف جهته فانه تعالى أخبر في الأول بصلاته وصلاة ملائكته عليه مؤكدا له بان وبالجمع المفيد للعموم في الملائكة وفي هذا من تعظيمه ﷺ مايوجب المبادرة إلى الصلاة عليه من غير توقف على الأمر موافقة لله تعالى وملائكته في ذلك، وبهذا استغنى عن تأكيد «يصلي» بمصدر ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد حسن تأكيده بالمصدر تحقيقا للمعنى وإقامة لتأكيد الفعل مقام تقريره وحينئذ حصل لك التكرير في الصلاة خبرا وطلبا كذلك حصل لك التكرير في السلام فعلا ومصدرا ، وأيضا هي مقدمة عليه لفظا والتقديم يفيد الاهتمام فحسن تأكيد السلام لئلا يتوهم قلة الاهتمام به لتأخره، وقيل : إن في الكلام الاحتباك والأصل صلوا عليه تصلية وسلموا عليه تسليما فحذف عليه من إحدى الجملتين والمصدر من الأخرى وأضيفت الصلاة إلى الله تعالى وملائكته دون السلام وأمر

(١) مبتدأ وخبر اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

المؤمنون بهما قيل لأن للسلام معنيين التحية والانقياد فامرنا بهما لصحتهما هنا، ولم يضف لله سبحانه والملائكة لئلا يتوهم إنه فى الله تعالى والملائكة بمعنى الانقياد المستحيل فى حقه تعالى وكذا فى حق الملائكة، وقيل: الصلاة من الله سبحانه والملائكة متضمنة للسلام بمعنى التحية الذى لايتصور غيره فكان فى إضافة الصلاة اليه تعالى وإلى الملائكة استلزام لوجود السلام بهذا المعنى، وأما الصلاة منا فهى وإن استلزمت التحية أيضا إلا أنا مخاطبون بالانقياد وهى لا تستلزمه فاحتيج إلى التصريح به فينا لأن الصلاة لاتغنى عن معنييه المتصورين فى حقنا المطلوبين منا، ثم قيل: وهذا أولى بما قبله لأن ذلك يرد عليه قوله تعالى: (سلام على إبراهيم. والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) ولا يرد هذان على هذا اه، وفيه بحث *

وقال الشهاب الخفاجى عليه الرحمة: قد لاح لى فى ترك تأكيد السلام وتخصيصه بالمؤمنين نكتة سرية وهى أن السلام عليه عليه الصلاة والسلام تسليمه عما يؤذيه فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر مايؤذى النبى ﷺ والأذية إنما هى من البشر وقد صدرت منهم فناسب التخصيص بهم والتأكيد، وربما يقال على بعد فى ذلك: إنه يمكن أن يكون سلام الله تعالى وملائكته عليه عليه الصلاة والسلام معلوما للمؤمنين قبل نزول الآية فلم يذكر ويسلمون فيها لذلك وأن كونهم مأمورين بأن يسلموا عليه ﷺ كان أيضا معلوما لهم كيفية السلام ويؤذن بهذه المعلومية ماورد فى عدة أخبار أنهم قالوا عند نزول الآية: يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك وعنوا بذلك على ما قيل ما فى التشهد من السلام فلما أخبروا بصلاة الله تعالى وملائكته عليه ﷺ فى الآية مجردة عن ذكر السلام وأردف ذلك بالأمر بالصلاة كان مظنة عدم الاعتناء بامر السلام أو أنه نسخ طلبه منهم فامروا به مؤكدا دفعا لتوهم ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، والأمر فى الآية عند الأكثرين للوجوب بل ذكر بعضهم إجماع الأئمة والعلماء عليه، ودعوى محمد بن جرير الطابرى أنه للندب بالاجماع مردودة أو مؤولة بالحمل على ما زاد على مرة واحدة فى العمر فقد قال القرطبى المفسر: لاخلاف فى وجوب الصلاة فى العمر مرة، وتفصيل الكلام فى أمرها بعد الغاء القول بندبها ان العلماء اختلفوا فيها فقيل: واجبة مرة فى العمر ككلمة التوحيد لأن الأمر مطلق لا يقتضى تكرارا والماهية تحصل بمرة وعليه جمهور الأمة منهم أبو حنيفة. ومالك. وغيرهما، وقيل: واجبة فى التشهد مطلقا، وقيل: واجبة فى مطلق الصلاة، وتفرد بعض الحنابلة بتعين دعاء الافتتاح بها *

وقيل: يجب الاكثار منها من غير تعيين بعدد وحكى ذلك عن القاضى أبى بكر بن بكير، وقيل: تجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ﷺ مرارا، وقيل: تجب فى كل دعاء، وقيل: تجب كلما ذكر عليه الصلاة والسلام وبه قال جمع من الحنفية منهم الطحاوى، وعبارته تجب كلما سمع ذكره من غيره أو ذكره بنفسه وجمع من الشافعية منهم الامام الحليمى. والأستاذ أبو إسحاق الاسفراينى. والشيخ أبو حامد الاسفراينى. وجمع من المالكيه منهم الطرطوشى. وابن العربى. والفاكهانى. وبعض الحنابلة قيل وهو مبنى على القول الضعيف فى الأصول أن الأمر المطلق يفيد التكرار وليس كذلك بل له أدلة أخرى كالأحاديث التى فيها الدعاء بالرغم والابعاد والشقاء والوصف بالبخل والجفاء. وغير ذلك مما يقتضى الوعيد وهو عند الأكثر من علامات الوجوب. واعترض هذا القول كثيرون بأنه مخالف للاجماع المنعقد قبل قائله إذ لم يعرف عن صحابى ولا

www.Quranpdf.blogspot.in

تابعى وبأنه يلزم على عمومه أن لا يتفرغ السامع لعبادة أخرى وأنها تجب على المؤذن وسامعه والقارئ المار بذكره والمتلفظ بكلمتى الشهادة وفيه من الحرج ماجاءت الشريعة السمحة بخلافه، وبأن الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب ولم يقولوا به، وبانه لايحفظ عن صحابى أنه قال : يارسول الله صلى الله عليك، وبأن تلك الأحاديث المحتج بها للوجوب خرجت مخرج المبالغة فى تأكد ذلك وطلبه وفى حق من اعتاد ترك الصلاة ديدنا ه

ويمكن التفصى عن جميع ذلك ، أما الأول فلأن القائلين بالوجوب من أئمة النقل فكيف يسعهم خرق الاجماع على أنه لا يكفى فى الرد عليهم كونه لم يحفظ عن صحابى أو تابعى وإنما يتم الرد ان حفظ اجماع مصرح بعدم الوجوب كذلك وأنى به، وأما الثانى فممنوع بل يمكن التفرغ لعبادات أخر، وأما الثالث فللقائلين بالوجوب التزامه وليس فيه حرج، وأما الرابع فلأن جمعا صرحوا بالوجوب فى حقه تعالى أيضا، وأما الخامس فلأنه ورد فى عدة طرق عن عدة من الصحابة أنهم لما قالوا : يارسول الله قالوا : صلى الله عليك، وأما السادس فلأن حمل الأحاديث على ماذكر لايكفى إلا مع بيان سنده ولم يبينوه، ثم القائلون بالوجوب كما ذكر أكثرهم على أن ذلك فرض عين على كل فرد فرد وبعضهم على أنه فرض كفاية، واختلفوا أيضا هل يتكرر الوجوب بتكرر ذكره صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد، وفى بعض شروح الهداية يكفى مرة على الصحيح. وقال صاحب المجتبى : يتكرر وفى تكرر ذكر الله تعالى لا يتكرر، وفرق هو وغيره بينهما بما فيه نظر. ويمكن الفرق بأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والتوسعة وحقوق العباد مبنية على المشاحة والتضييق ما أمكن . والقول بانها أيضا حق الله تعالى لأمره بها سبحانه ناشئ من عدم فهم المراد بحقه تعالى ، وقيل: إنها تجب فى القعود آخر الصلاة بين التشهد وسلام التحلل وهذا هو مذهب الشافعى الذى صح عنه، ونقل الاسنوى أن له قولا آخر إنها سنة فى الصلاة لم يعتبره أجلة أصحابه ووافقه على ذلك جماعة من الصحابة والتابعين من بعدهم وفقهاء الأمصار، فمن الصحابة ابن مسعود فقد صح عنه أنه قال :يتشهد الرجل فى الصلاة ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يدعو لنفسه، وأبو مسعود. البدرى. وابن عمر فقد صح عنهما أنه لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فان نسيت من ذلك شيئا فاسجد سجدتين بعد السلام ، ومن التابعين الشعبى فقد صح عنه كنا نعلم التشهد فاذا قال : وأن محمدا عبده ورسوله يحمد ربه ويثنى عليه ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسأل حاجته ه

وأخرج البيهقى عنه من لم يصل على النبى صلى الله عليه وسلم فى التشهد فليعد صلاته أوقال: لاتجزئ صلاته، والامام أبو جعفر محمد الباقر فقد روى البيهقى عنه نحو ماذكر عن الشعبى، وصوبه الدارقطنى. ومحمد بن كعب القرظى. ومقاتل بل قال الحافظ ابن حجر: لم أر عن أحد من الصحابة والتابعين التصريح بعدم الوجوب إلا ما نقل عن إبراهيم النخعى وهذا يشعر بأن غيره كان قائلا بالوجوب، ومن فقهاء الأمصار أحمد فانه جاء عنه روايتان والظاهر أن رواية الوجوب هى الأخيرة فانه قال: كنت أتهيب ذلك ثم تبينت فاذا الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم واجبة وإسحق ابن راهويه فقد قال فى آخر الروايتين عنه : إذا تركها عمدا بطلت صلاته أو سهوا رجوت أن تجزئه وهو قول عند المالكية اختاره ابن العربى منهم ولعله لازم للقائلين بوجوبها كلما ذكر صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى التشهد إلا أن وجوبها بعد التشهد لذلك لا يستلزم كونها شرطا لصحة الصلاة إلا أنه يرد على القائلين بان الشافعى رضى الله تعالى عنه شذ فى قوله بالوجوب، وأما دليله رضى الله تعالى عنه على ذلك فمذكور فى الأم. وقد استدل له

www.Quranpdf.blogspot.in

أصحابه بعدة أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف وألفوا الرسائل فى الانتصار له والرد على من شنع عليه كابن جرير . وابن المنذر . والخطابى . والطحاوى . وغيرهم، وأنا أرى التشنيع على مثل هذا الامام شنيعا والتعصب مع قلة التتبع أمرا فظيعا ، والكلام فى السلام كالكلام فى الصلاة *

وقد صرح ابن فارس اللغوى بانهما سيان فى الفرضية لأن كلا منهما مأمور به فى الآية والامر للوجوب حقيقة الا إذا ورد ما يصرفه عنه . وأفضل الكيفيات فى الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماعلمه رسول الله عليه الصلاة والسلام لاصحابه بعد سؤالهم اياه لأنه لايختار صلى الله تعالى عليه وسلم لنفسه الا الاشرف والافضل، ومن هنا قال النووى فى الروضة: لو حلف ليصلين على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الصلاة لم يبر الا بتلك الكيفية، ووجهه السبكى بأن من أتى بها فقد صلى الصلاة المطلوبة بيقين وكان له الخبر الوارد فى أحاديث الصلاة كذلك ، ونقل الرافعى عن المروزى أنه يبر باللهم صل على محمد وآل محمد كلما ذكرك الذاكرون وكلما سها عنه الغافلون ، وقال القاضى حسين: طريق البر اللهم صل على محمد كما هو أهله ومستحقه، واختار البارزى أن الافضل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد أفضل صلواتك وعدد معلوماتك، وقال الكمال بن الهمام: كلما ذكر من الكيفيات موجود فى اللهم صل أبداً أفضل صلواتك على سيدنا عبدك ونبيك ورسولك محمد وآله وسلم عليه تسليما وزده شرفا وتكريماً وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة ، واختار ابن حجر الهيثمى غير ذلك ، ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام أنه لابد فى السلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يزيد تسليما كأن يقول : اللهم صل على محمد وسلم تسليما أوصلى الله تعالى عليه وسلم تسليما، وكأنه أخذ بظاهر ما فى الآية وليس أخذا صحيحا كما يظهر بأدنى تأمل ، ونقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم أن كيفية الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يوقف فيها مع المنصوص وأن من رزقه الله تعالى بيانا فأبان عن المعانى بالالفاظ الفصيحة المبانى الصريحة المعانى مما يعرب عن كمال شرفه صلى الله تعالى عليه وسلم وعظيم حرمته فله ذلك، واحتج له بما أخرجه عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن ماجه . وابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه فانكم لاتدرون لعل ذلك يعرض عليه قالوا: فعلمنا؟ قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك امام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والآخرون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد ، وفى قوله سبحانه: (صلوا عليه وسلموا تسليما) رمز خفى فيما أرى إلى مطلوبية تحسين الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام حيث أتى به كلاما يصلح أن يكون شطرا من البحر الكامل فتدبره فانى أظن أنه نفيس ، واستدل النووى رحمه الله تعالى بالآية على كراهة افراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الامر بهما معا فيها ووافقه على ذلك بعضهم ، واعترض بأن أحاديث التعليم تؤذن بتقدم تعليم التسليم على تعليم الصلاة فيكون قد أفرد التسليم مرة قبل الصلاة فى التشهد، ورد بأن الافراد فى ذلك الزمن لاحجة فيه لأنه لم يقع منه عليه الصلاة والسلام قصدا كيف والآية ناصة عليهما وإنما يحتمل أنه علمهم السلام وظن أنهم يعلمون الصلاة فسكت عن تعليمهم اياها فلما سألوه أجابهم صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك وهو كما ترى ، وذكر العلامة ابن حجر الهيثمى أن الحق أن المراد بالكراهة خلاف الأولى إذ لم يوجد مقتضيها من النهى المخصوص *

ونقل الحموى من أصحابنا عن منية المفتى أنه لا يكره عندنا افراد أحدهما عن الآخر ثم قال نقلا عن العلامة

www.Quranpdf.blogspot.in

ميرك وهذا الخلاف فى حق نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وأما غيره من الانبياء عليهم السلام فلا خلاف فى عدم كراهة الافراد لأحد من العلماء ومن ادعى ذلك فعليه أن يورد نقلا صريحا ولايجد اليه سبيلا انتهى*

وصرح بعضهم أن الكراهة عند من يقول بها إنما هى فى الافراد لفظا وأما الافراد خطا كما وقع فى الام فلا كراهة فيه، وعندى أن الاستدلال بالآية على كراهة الافراد حسبما سمعت فى غاية الضعف إذ قصارى ماتدل عليه أن كلا من الصلاة والتسليم مأمور به مطلقا ولا تدل على الامر بالاتيان بهما فى زمان واحد كأن يؤتى بهما مجموعين معطوفا احدهما على الآخر فمن صلى بكرة وسلم عشيا مثلا فقد امتثل الامر فانها نظير قوله تعالى: (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. واذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه) إلى غير ذلك من الاوامر المتعاطفة، نعم درج اكثر السلف على الجمع بينهما فلا أستحسن العدول عنه مع ما فى ذكر السلام بعد الصلاة من السلامة من توهم لا يكاد يعرض إلا للاذهان السقيمة كما لايخفى، وفى دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخطاب بيا أيها الذين آمنوا هنا خلاف فقال بعضهم بالدخول، وقد صرح بعض أجلة الشافعية بوجوب الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فى صلاته وذكر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلى على نفسه خارجها كما هو ظاهر أحاديث كقوله ﷺ حين ضلت ناقته وتكلم منافق فيها «إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ» وقوله حين عرض على المسلمين رد ما أخذه من أبى العاص زوج ابنته زينب قبل اسلامه «وإن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتنى» الحديث فذكر التصلية والتسليم على نفسه بعد ذكره واحتمال أن ذلك فى الحديثين من الراوى بعيد جدا اه*

وتوقف بعضهم فى دخوله من حيث أن قرينة سياق (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) إلى هنا ظاهرة فى اختصاص هذا الحكم بالمؤمنين دونه صلى الله تعالى عليه وسلم، ونظر فيه بأن ماقبل هذه الآية صريح فى اختصاصه بالمؤمنين وأما هى فلا قرينة فيها على الاختصاص، وأنت تعلم أن للاصوليين فى دخوله ﷺ فى نحو هذه الصيغة أقوالا، عدمه مطلقا وهو شاذ، ودخوله مطلقا وهو الاصح على ماقال جمع، والدخول إلا فيما صدر بامره بالتبليغ نحو قل ياأيها الذين آمنوا، وأنا أعول على الدخول إلا إذا وجدت قرينة على عدم الدخول سواء كانت الامر بالتبليغ أولا، وههنا السباق والسياق قرينتان على عدم الدخول فيما يظهر، وعبر بالذين آمنوا دون الناس الشامل للكفار قيل: اشارة إلى أن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من أجل الوسائل وأنفعها والكافر لاوسيلة له فلم يؤت بلفظ يشمله، ومخاطبة الكفار بالفروع على القول بها بالنسبة لعقابهم عليها فى الآخرة فحسب على أن محل تكليفهم بها حيث أجمع عليها، ومن ثم استثنى من مخاطبتهم بها معاملتهم الفاسدة ونحوها*

ولعل الأولى أن التعبير بذلك لما ذكر مع اقتضاء السياق له، وفى نداء المؤمنين بهذا الاسلوب من حثهم على امتثال الامر مالايخفى، والامر بالصلاة والتسليم من خواص هذه الامة فلم تؤمر أمة غيرها بالصلاة والتسليم على نبيها*

وكان ذلك على مانقل عن أبى ذر الهروى فى السنة الثانية من الهجرة، وقيل: كان فى ليلة الاسراء، وأنت تعلم أن الآية مدنية، وأخرج عبد بن حميد. وابن المنذر عن مجاهد أنها لما نزلت قال أبو بكر: ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) وحكمة تغاير أسلوبى الآيتين ظاهرة على المتأمل، والصلاة منا على الانبياء ماعدا نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام جائزة بلا كراهة، فقد جاء بسند صحيح على ماقاله المجد اللغوى «إذا صليتم على المرسلين فصلوا على معهم فانى رسول من المرسلين» وفى لفظ «إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين» وللاول طريق أخرى اسنادها حسن جيد لكنه مرسل*

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج عبد الرزاق . والقاضي اسماعيل . وابن مردويه . والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله فان الله تعالى بعثهم كما بعثني وهو وإن جاء من طرق ضعيفة يعمل به في مثل هذا المطلب كما لا يخفى . وأما ماحكى عن مالك من أنه لا يصلى على غير نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنبياء فأوله أصحابه بأن معناه إنا لم نتعبد بالصلاة عليهم كما تعبدنا بالصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، والصلاة على الملائكة قيل لا يعرف فيها نص وإنما تؤخذ من حديث أبي هريرة المذكور آنفاً إذا ثبت أن الله تعالى سماهم رسلا . وأما الصلاة على غير الأنبياء والملائكة عليهم السلام فقد اضطربت فيها أقوال العلماء فقيل تجوز مطلقاً قال القاضي عياض وعليه عامة أهل العلم واستدل له بقوله تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) وبما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم صل على آل أبي أوفى » وقوله عليه الصلاة والسلام وقد رفع يديه :« اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » وصحح ابن حبان خبر « إن امرأة قالت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : صل علي وعلى زوجي ففعل » وفي خبر مسلم «أن الملائكة تقول لروح المؤمن : صلى الله عليك وعلى جسدك » وبه يرد على الخفاجي قوله في شرح الشفاء صلاة الملائكة على الأمة لا تكون إلا بتبعيته صلى الله تعالى عليه وسلم . وقيل لا تجوز مطلقاً . وقيل لا تجوز إستقلالا وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص كالآل أو ألحق به كالأصحاب . واختاره القرطبي وغيره . وقيل تجوز تبعاً مطلقا ولا تجوز استقلالا ونسب إلى أبي حنيفة وجمع . وفي تنوير الأبصار ولا يصلى على غير الأنبياء والملائكة إلا بطريق التبع وهو محتمل لكراهة الصلاة بدون تبع تحريماً ولكراهتها تنزيها ولكونها خلاف الأولى لكن ذكر البيرى من الحنفية من صلى على غيرهم اثم وكره وهو الصحيح . وفي رواية عن أحمد كراهة ذلك استقلالا . ومذهب الشافعية أنه خلاف الأولى . وقال اللقاني: قال القاضي عياض الذي ذهب إليه المحققون وأميل إليه ماقاله مالك. وسفيان واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه يجب تخصيص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم كما يختص الله سبحانه عند ذكره بالتقديس والتنزيه ويذكر من سواهم بالغفران والرضا كما قال تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه. يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) وأيضاً فهو أمر لم يكن معروفا في الصدر الأول وإنما أحدثه الرافضة في بعض الأئمة والتشبه باهل البدع منهي عنه فتجب مخالفتهم انتهى . ولا يخفى أن كراهة التشبه باهل البدع مقررة عندنا أيضاً لكن لامطلقاً بل في المذموم وفيما قصد به التشبه بهم فلا تغفل . وجاء عن عمر بن عبدالعزيز بسند حسن أو صحيح أنه كتب لعامله إن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على حلفائهم ومواليهم عدل صلاتهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين خاصة ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ماسوى ذلك *

وصح عن ابن عباس أنه قال: لاتنبغي الصلاة من أحد على أحد إلا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

وفي رواية عنه ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار، وكلاهما يحتمل الكراهة والحرمة . واستدل المانعون بأن لفظ الصلاة صار شعاراً لعظم الأنبياء وتوقيرهم فلا تقال لغيرهم استقلالا وإن صح كما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عليه الصلاة

www.Quranpdf.blogspot.in

والسلام عزيزاً جليلا لأن هذا الثناء صار شعاراً لله تعالى فلا يشارك فيه غيره . وأجابوا عمار بانه صدر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام . ولهما أن يخصا من شاءا بما شاءا وليس ذلك لغيرهما إلا باذنهما ولم يثبت عنهما إذن فى ذلك . ومن ثم قال أبو اليمن بن عساكر له صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصلى على غيره مطلقا لأنه حقه ومنصبه فله التصرف فيه كيف شاء بخلاف أمته إذ ليس لهم أن يؤثروا غيره بما هو له لكن نازع فيه صاحب المعتمد من الشافعية بانه لادليل على الخصوصية . وحمل البيهقى القول بالمنع على ما إذا جعل ذلك تعظيما وتحية وبالجواز عليها إذا كان دعاء وتبركا ، واختار بعض الحنابلة أن الصلاة على الآل مشروعة تبعاً وجائزة استقلالا وعلى الملائكة وأهل الطاعة عموما جائزة أيضاً وعلى معين شخص أو جماعة مكروهة ولو قيل بتحريمها لم يبعد سيما إذا جعل ذلك شعاراً له وحده دون مساويه ومن هو خير منه كما تفعل الرافضة بعلى كرم الله تعالى وجهه ولا بأس بها أحيانا كما صلى عليه الصلاة والسلام على المرأة وزوجها وكما صلى عليه الصلاة والسلام على على وعمر رضى الله تعالى عنهما لما دخل عليه وهو مسجى ثم قال : وبهذا التفصيل تتفق الأدلة ، وأنت تعلم اتفاقها بغير ماذكر . والسلام عند كثير فيما ذكر وفى شرح الجوهرة للقانى نقلا عن الامام الجوينى أنه فى معنى الصلاة فلا يستعمل فى الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء عليهم السلام فلا يقال على عليه السلام بل يقال رضى الله تعالى عنه . وسواء فى هذا الأحياء والأموات إلا فى الحاضر فيقال السلام أو سلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه انتهى . وفى حكاية الاجماع على ذلك نظر *

وفى الدر المنضود السلام كالصلاة فيما ذكر إلا إذا كان لحاضر أو تحية لحى غائب ، وفرق آخرون بأنه يشرع فى حق كل مؤمن بخلاف الصلاة ، وهو فرق بالمدعى فلا يقبل ، ولا شاهد فى السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لأنه وارد فى محل مخصوص وليس غيره فى معناه على أن ما فيه وقع تبعاً لا استقلالا *

وحقق بعضهم فقال ما حاصله مع زيادة عليه : السلام الذى يعم الحى والميت هو الذى يقصد به التحية كالسلام عند تلاق أو زيارة قبر وهو مستدع للرد وجوب كفاية أو عين بنفسه فى الحاضر ورسوله أو كتابه فى الغائب ، وأما السلام الذى يقصد به الدعاء منا بالتسليم من الله تعالى على المدعو له سواء كان بلفظ غيبة أو حضور فهذا هو الذى اختص به صلى الله تعالى عليه وسلم عن الأمة فلا يسلم على غيره منهم إلا تبعاً كما أشار إليه التقى السبكى فى شفاء الغرام ، وحينئذ فقد أشبه قولنا عليه السلام قولنا عليه الصلاة من حيث أن المراد عليه السلام من الله تعالى ، ففيه إشعار بالتعظيم الذى فى الصلاة من حيث الطلب لأن يكون المسلم عليه الله تعالى كما فى الصلاة وهذا النوع من السلام هو الذى ادعى الحليمى كون الصلاة بمعناه انتهى *

واختلف فى جواز الدعاء له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة فذهب ابن عبد البر إلى منع ذلك ، ورد بوروده فى الأحاديث الصحيحة ، منها وهو أصحها حديث التشهد السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ومنها قول الأعرابى : اللهم ارحمنى ومحمداً وتقريره ﷺ لذلك ، وقوله ﷺ : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك اللهم أرجو رحمتك ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث » وفى خطبة رسالة الشافعى ما لفظه ﷺ ورحم وكرم ، نعم قضية كلامه كحديث التشهد أن محل الجواز إن ضم إليه لفظ الصلاة أو السلام وإلا لم يجز وقد أخذ به جمع منهم الجلال السيوطى بل نقله القاضى عياض فى الاكمال عن الجمهور ، قال القرطبى : وهو الصحيح ، وجزم

www.Quranpdf.blogspot.in

بعدم جوازه منفرداً الغزالي عليه الرحمة فقال: لايجوز ترحم على النبي ويدل له قوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) والصلاة وإن كانت بمعنى الرحمة إلا أن الأنبياء خصوا بها تعظيما لهم وتمييزاً لمرتبتهم الرفيعة على غيرهم على أنها في حقهم ليست بمعنى مطلق الرحمة بل المراد بها ماهو أخص من ذلك كما سمعت فيما تقدم.

نعم ظاهر قول الاعرابي السابق وتقريره عليه الصلاة والسلام له الجواز ولو بدون انضمام صلاة أو سلام.

قال ابن حجر الهيثمي: وهو الذي يتجه وتقريره المذكور خاص فيقدم على العموم الذي اقتضته الآية ثم قال: وينبغي حمل قول من قال لا يجوز ذلك على أن مرادهم نفي الجواز المستوى الطرفين فيصدق بأن ذلك مكروه أو خلاف الأولى، وذكر زين الدين في بحره أنهم اتفقوا على أنه لايقال ابتداء رحمه الله تعالى، وأنا أقول: الذي ينبغي أن لايقال ذلك ابتداء.

وقال الطحطاوي في حواشيه على الدر المختار: وينبغي أن لايجوز غفر الله تعالى له أو سامحه لما فيه من إيهام النقص، وهو الذي أميل إليه وإن كان الدعاء بالمغفرة لا يستلزم وجوب ذنب بل قد يكون بزيادة درجات كما يشير إليه استغفاره عليه الصلاة والسلام في اليوم والليلة مائة مرة. وكذا الدعاء بها للميت الصغير في صلاة الجنازة، ومثل ذلك فيما يظهر عفا الله تعالى عنه وإن وقع في القرآن فان الله تعالى له أن يخاطب عبده بما شاء، وأرى حكم الترحم على الملائكة عليهم السلام كحكم الترحم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن اختلف في نبوته كلقمان يقال فيه رضي الله تعالى عنه أو صلى الله تعالى على الأنبياء وعليه وسلم، هذا وقد بقيت في هذا المقام أبحاث كثيرة يطول الكلام بذكرها جداً فلتطلب من مظانها والله تعالى ولي التوفيق وبيده سبحانه أزمة التحقيق *

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أريد بالايذاء إما ارتكاب ما لايرضيانه من الكفر وكبائر المعاصي مجازاً لأنه سبب أو لازم له وإن كان ذلك بالنظر اليه تعالى بالنسبة إلى غيره سبحانه فانه كاف في العلاقة، وقيل في إيذائه تعالى: هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقيل قول الذين يلحدون في آياته سبحانه، وقيل تصوير التصاوير وروى عن كعب مايقتضيه، وقيل في إيذاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هو قولهم: شاعر ساحر كاهن مجنون وحاشاه عليه الصلاة والسلام، وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الشريف وكان ذلك في غزوة أحد، وقيل طعنهم في نكاح صفية بنت حيي، والحق هو العموم فيهما، وإما إيذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان قربه وكونه حبيبه المختص به حتى كان مايؤذيه يؤذيه سبحانه كما أن من يطيعه يطيع الله تعالى *

وجوز أن يكون الايذاء على حقيقته والكلام على حذف مضاف أي يؤذون أولياء الله ورسوله وليس بشيء، وقيل يجوز أن يراد منه المعنى المجازي بالنسبة اليه تعالى والمعنى الحقيقي بالنسبة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام وتعدد المعمول بمنزلة تكرر لفظ العامل فيخف أمر الجمع بين المعنيين حتى ادعى بعضهم أنه ليس من الجمع الممنوع وليس بشيء ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها، وذلك في الآخرة ظاهر، وأما في الدنيا فقيل بمنعهم زيادة الهدى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ يصيبهم في الآخرة خاصة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يفعلون بهم مايتأذون به

www.Quranpdf.blogspot.in

من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى بغير جناية يستحقون بها الأذية شرعا بعد إطلاقه فيما قبله للايذان بأن أذى الله تعالى ورسوله ﷺ لا يكون إلا في غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه ﴿

وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال يوما لأبى : ياأبا المنذر قرأت البارحة آية من كتاب الله تعالى فوقعت منى كل موقع (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) والله إنى لأعاقبهم وأضربهم فقال : إنك لست منهم إنما أنت معلم ومقوم وقوله تعالى : (الذين) مبتدأ وقوله سبحانه ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ أى فعلا شنيعا وقيل ماهو كالبهتان أى الكذب الذى يبهت الشخص لفظاعته فى الاثم ، وقيل احتمل بهتانا أى كذبا فظيعا إذا كان الايذاء بالقول ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨﴾ أى ظاهرا بينا خبره، ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، والآية قيل نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليا كرم الله تعالى وجهه ويسمعونه مالا خير فيه ﴿

وأخرج ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت فى عبد الله بن أبى وناس معه قذفوا عائشة رضى الله تعالى عنها فخطب النبى ﷺ وقال: « من يعذرنى من رجل يؤذينى ويجمع فى بيته من يؤذينى فنزلت » ﴿

وأخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم عنه رضى الله تعالى عنها انها نزلت فى الذين طعنوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أخذ صفية بنت حيى رضى الله تعالى عنها ، وعن الضحاك. والسدى. والكلبى انها نزلت فى زناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون الا للاماء ولكن ربما يقع منهم التعرض للحرائر جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس ، والظاهر عموم الآية لكل ماذكر ولكل ماسيأتى من أراجيف المرجفين، وفيها من الدلالة على حرمة المؤمنين والمؤمنات مافيها ، وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى هذه الآية قال: يلقى الجرب على أهل النار فيحكون حتى تبدو العظام فيقولون ربنا بماذا أصابنا هذا فيقال: بأذاكم المسلمين ، وأخرج غير واحد عن قتادة قال: اياكم وأذى المؤمن فان الله تعالى يحوطه ويغضب له ﴿

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الايمان عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه أى الربا أربى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ثم قرأ ﷺ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا الآية » ،

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ بعد مابين سبحانه سوء حال المؤذين زجرا لهم عن الايذاء أمر النبى ﷺ بان يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم فى الجملة من التستر والتميز عن مواقع الايذاء فقال عز وجل :

﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والامة تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل من غير امتياز بين الحرائر والاماء وكان فى المدينة فساق يتعرضون للاماء وربما تعرضوا للحرائر فاذا قيل لهم يقولون حسبناهن اماء فامرت الحراير أن يخالفن الاماء بالزى والتستر ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن، والجلابيب جمع جلباب وهو على ماروى عن ابن عباس الذى يستر من فوق إلى أسفل ، وقال ابن جبير: المقنعة ، وقيل : الملحفة ، وقيل : كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها ، وقيل : كل ما تستتر به من كساء أو غيره، وأنشدوا ﴿ تجلببت من سواد الليل جلبابا ﴿ وقيل هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء، والادناء التقريب يقال أدنانى أى قربنى وضمن معنى الارخاء أو السدل

www.Quranpdf.blogspot.in

ولذا عدى بعلى على ما يظهر لى، ولعل نكتة التضمين الاشارة إلى أن المطلوب تستر يتأتى معه رؤية الطريق إذا مشين فتأمل ٭

ونقل أبو حيان عن الكسائي أنه قال: أى يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن ثم قال: أراد بالانضمام معنى الادناء، وفى الكشاف معنى (يدنين عليهن) يرخين عليهن يقال إذا زل الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك ٭ وفسر ذلك سعيد بن جبير بيسدلن عليهن، وعندى أن كل ذلك بيان لحاصل المعنى، والظاهر أن المراد بعليهن على جميع أجسادهن، وقيل: على رؤسهن أو على وجوههن لأن الذى كان يبدو منهن فى الجاهلية هو الوجه ٭ واختلف فى كيفية هذا التستر فأخرج ابن جرير. وابن المنذر. وغيرهما عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلمانى عن هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) فرفع ملحفة كانت عليه فتقنع بها وغطى رأسه كله حتى بلغ الحاجبين وغطى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر، وقال السدى: تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين، وقال ابن عباس. وقتادة: تلوى الجلباب فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكن تستر الصدر ومعظم الوجه، وفى رواية أخرى عن الحبر رواها ابن جرير. وابن أبى حاتم. وابن مردويه تغطى وجهها من فوق رأسها بالجلباب وتبدى عينا واحدة ٭

وأخرج عبد الرزاق. وجماعة عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كان على رؤسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها ٭

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت. رحم الله تعالى نساء الأنصار لما نزلت (ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك) الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها فصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤسهن الغربان ٭

ومن للتبعيض ويحتمل ذلك على ما فى الكشاف وجهين، أحدهما أن يكون المراد بالبعض واحدا من الجلابيب وإدناء ذلك عليهن أن يلبسنه على البدن كله، وثانيهما أن يكون المراد بالبعض جزأ منه وإدناء ذلك عليهن أن يتقنعن فيسترن الرأس والوجه بجزء من الجلباب مع إرخاء الباقى على بقية البدن، والنساء مختصات بحكم العرف بالحرائر وسبب النزول يقتضيه وما بعد ظاهر فيه فاماء المؤمنين غير داخلات فى حكم الآية ٭

وعن عمر رضى الله تعالى عنه أن غير الحرة لا تتقنع. أخرج ابن أبى شيبة. عن قلابة قال: كان عمر بن الخطاب لا يدع فى خلافته أمة تتقنع ويقول: القناع للحرائر لكيلا يؤذين؛ وأخرج هو وعبد بن حميد عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: رأى عمر رضى الله تعالى عنه جارية مقنعة فضربها بدرته وقال: القى القناع لا تتشبهى بالحرائر، وجاء فى بعض الروايات أنه رضى الله تعالى عنه قال لأمة رآها مقنعة: يالكعاء أتتشبهين بالحرائر؟ وقال أبو حيان: نساء المؤمنين يشمل الحرائر والاماء والفتنة بالاماء أكثر لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر فيحتاج اخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح انتهى، وأنت تعلم أن وجه الحرة عندنا ليس بعورة فلا يجب ستره ويجوز النظر من الأجنبى إليه إن أمن الشهوة مطلقاً وإلا فيحرم، وقال القهستانى: منع النظر من الشابة فى زماننا ولو بلا شهوة واما حكم أمة الغير ولو مدبرة أو أم ولد فكحكم المحرم فيحل النظر إلى رأسها ووجهها وساقها وصدرها وعضدها إن أمن شهوته وشهوتها. وظاهر الآية لا يساعد على ما ذكر فى الحرائر فلعلها محمولة على طلب تستر تمتاز به الحرائر عن الاماء أو العفائف مطلقا عن غيرهن فتأمل؛ و(يدنين)

www.Quranpdf.blogspot.in

يحتمل أن يكون مقول القول وهو خبر بمعنى الأمر وأن يكون جواب الأمر على حد (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) وفى الآية رد على من زعم من الشيعة أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له من البنات إلا فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم وأما رقية. وأم كلثوم فربيبتاه عليه الصلاة والسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أى ماذكر من الادناء والتستر ﴿أَدْنَى﴾ أى أقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أى يميزن عن الاماء اللاتى هن مواقع تعرضهم وإيذائهم * ويجوز إبقاء المعرفة على معناها أى أدنى أن يعرفن أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن بناء عن أنهن إماء *

وقال أبو حيان: أى ذلك أولى أن يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن لأن المرأة إذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فانها مطموع فيها، وهو تفسير مبنى على رأيه فى النساء، وأياما كان فقد قال السبكى فى طبقاته: إن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن وإن لم يفعله السلف لأن فيه تمييزا لهم حتى يعرفوا فيعمل بأقوالهم وهو استنباط لطيف ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ كثير المغفرة فيغفر سبحانه ما عسى يصدر من الاخلال بالتستر، وقيل: يغفر ما سلف منهن من التفريط. وتعقب بانه إن أريد التفريط فى أمر التستر قبل نزول الآية فلا ذنب قبل الورود فى الشرع وإن أريد التفريط فى غير ذلك ليكون وكان الله كثير المغفرة فيغفر ما سلف من ذنوبهن وارتكابهن ما نهى عنه مطلقا فهو غير مناسب للمقام، وجوز أن يراد التفريط فى أمر التستر والأمر به معلوم من آية الحجاب التزاما وهو كما ترى ﴿رَحِيمًا ٥٩﴾ كثير الرحمة فيثيب من امتثل أمره منهن بما هو سبحانه أهله، وقيل: رحيما بهن بعد التوبة عن الاخلال بالتستر بعد نزول الآية، وقيل: رحيما بعباده حيث راعى سبحانه فى مصالحهم أمثال هذه الجزئيات *

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للايذاء ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه من الاخير فيه ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من اليهود المجاورين لها عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة المستتبعة للأذية، وأصل الأرجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها فى نفسها متزلزلة غير ثابتة أو لتزلزل قلوب المؤمنين واضطرابها منها، والتغاير بين المتعاطفات على ماذكرنا بالذات وهو الذى يقتضيه ظاهر العطف *

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن مالك بن دينار قال: سألت عكرمة عن الذين فى قلوبهم مرض فقال: هم أصحاب الفواحش، وعن عطاء أنه فسرهم بذلك أيضا، وفى رواية أخرى عنه أنه قال: هم قوم مؤمنون كان فى أنفسهم أن يزنوا فالمرض حب الزنا، وإذا فسر المرجفون على ذلك بما سمعت يكون التغاير بين المتعاطفات بالذات أيضا *

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب أن الذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون وهو المعروف فى وصفهم *

وأخرج هو أيضا عن عبيد بن حنين أن الذين فى قلوبهم مرض والمرجفون جميعا هم المنافقون فيكون العطف مع الاتحاد بالذات لتغاير الصفات على حد * هو الملك القرم وابن الهمام * فكأنه قيل: لئن لم ينته الجامعون

www.Quranpdf.blogspot.in

بين هذه الصفات القبيحة عن الاتصاف بها المفضى إلى الايذاء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أى لندعونك إلى قتالهم وإجلائهم أو فعل ما يضطرهم إلى الجلاء ونحرضك على ذلك يقال: أغراه بكذا إذا دعاه إلى تناوله بالتحريض عليه، وقال الراغب: غرى بكذا أى لهج به ولصق، وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلصق به وقد أغريت فلانا بكذا ألهجت به، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أى لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على جواب القسم وثم للتفاوت الرتبي والدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول ﷺ أعظم ما يصيبهم وأشده عندهم ﴿فِيهَا﴾ أى فى المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ أى زمانا أو جوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه أو يتلقطون عيالاتهم وأنفسهم.

وفى الآية عليه كما فى الانتصاف إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعى يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتيسر له منزل آخر على حسب الاجتهاد، ونصب (قليلا) على ما أشرنا اليه على الظرفية أو المصدرية، وجوز أن يكون نصبا على الحال أى الا قليلين أذلاء، ولا يخفى حاله على ذى تمييز.

وقوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الذم أى أذم ملعونين أو على الحال من فاعل (لا يجاورونك) والاستثناء شامل له عند من يرى جواز نحو ذلك، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى: (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) وجعل ابن عطية المعنى على الحالية ينتفون ملعونين، وجوز أن يكون حالا من ضميرهم فى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أى حصروا وظفر بهم، وكأنه على معنى أينما ثقفوا متصفين بما هم عليه ﴿أُخِذُوا﴾ أى أسروا ومنه الأخيذ للاسير ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ٦١﴾ أى قتلوا أبلغ قتل. وقرىء (قتلوا) بالتخفيف فيكون (تقتيلا) مصدرا على غير الصدر. واعترض على الحالية مما ذكر بأن أداة الشرط لا يعمل ما بعدها فيما قبلها مطلقا وهذا أحد مذاهب للنحاة فى المسئلة، ثانيها الجواز مطلقا، وثالثها جواز تقديم معمول الجواب دون معمول الشرط. وجوز على تقدير كون (قليلا) حالا أن يكون (ملعونين) بدلا منه. وتعقبه أبو حيان بأن البدل بالمشتق قليل ثم قال: والصحيح أن (ملعونين) صفة لقليل أى الا قليلين ملعونين ويكون (قليلا) مستثنى من الواو فى (لا يجاورونك) والجملة الشرطية صفة أيضا أى مقهورين مغلوبا عليهم اهـ، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أى سن الله تعالى ذلك فى الأمم الماضية سنة وهى قتال الذين يسعون بالفساد بين قوم وإجلائهم عن أوطانهم وقهرهم أينما ثقفوا متصفين بذلك.

﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أيها النبى أو يا من يصح منك الوجدان أبدا ﴿لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ لعادته عز وجل المستمرة ﴿تَبْدِيلًا ٦٢﴾ لابتنائها على أساس الحكمة فلا يبدلها هو جل شأنه وهيهات هيهات أن يقدر غيره سبحانه على تبديلها، ومن سبر أخبار الماضين وقف على أمر عظيم فى سوء معاملتهم المفسدين فيما بينهم، وكأن الطباع مجبولة على سوء المعاملة معهم وقهرهم، وفى تفسير الفخر (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ. وللسدى كلام غريب فى الآية لا أظن أن أحدا قال به. أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فيها: كان النفاق على ثلاثة أوجه: نفاق مثل نفاق عبدالله بن سلول ونظائره كانوا وجوها من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك

www.Quranpdf.blogspot.in

أنفسهم وهم المنافقون فى الآية ، ونفاق الذين فى قلوبهم مرض وهم منافقون إن تيسر لهم الزنا عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهتموا بأمره ، ونفاق المرجفين وهم منافقون يكابرون النساء يقتصون أثرهن فيغلبوهن على أنفسهن فيفجرون بهن ، وهؤلاء الذين يكابرون النساء (لنغرينك بهم) يقول سبحانه لنعلمنك بهم ثم قال تعالى (ملعونين) ثم فصلت الآية (أينما ثقفوا) يعملون هذا العمل مكابرة النساء (أخذوا وقتلوا تقتيلا) ثم قال السدى: هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به لو أن رجلا وما فوقه اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم وهو أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم سنة الله فى الذين خلوا من قبل كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ولن تجد لسنة الله تبديلا فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل فليس على قاتله دية لأنه يكابر انتهى ، والظاهر أنه قد وقع الانتهاء من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض عما هو المقصود بالنهى وهو ما يستتبعه حالهم من الايذاء ولم يقع من المرجفين أعنى اليهود فوقع القتال والاجلاء لهم *

وفى البحر الظاهر أن المنافقين يعنى جميع من ذكر فى الآية انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وتستر جميعهم وكفوا خوفا من أن يقع بهم ما وقع القسم عليه وهو الاغراء والاجلاء والقتل . وحكى ذلك عن الجبائى، وعن أبى مسلم لم ينتهوا وحصل الاغراء بقوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين) وفيه أن الاجلاء والقتل لم يقعا للمنافقين والجهاد فى الآية قولى، وقيل إنهم لم يتركوا ما هم عليه ونهوا عنه جملة ولا نفذ عليهم الوعيد كاملا ألا ترى إلى إخراجهم من المسجد ونهيه تعالى عن الصلاة عليهم وما نزل فى سورة براءة ، وزعم بعضهم أنه لم ينته أحد من المذكورين أصلا ولم ينفذ الوعيد عليهم ففيه دليل على بطلان القول بوجوب نفاذ الوعيد فى الآخرة ويكون هذا الوعيد مشروطا بالمشيئة وفيه من البعد ما فيه *

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أى عن وقت قيامها ووقوعها، كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء والمنافقون تعنتاً واليهود امتحانا لما أنهم يعلمون من التوراة أنها مما أخفاه الله تعالى فيسألونه عليه الصلاة والسلام ليمتحنوه هل يوافقها وحياً أولا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع سبحانه عليه ملكا مقرباً ولا نبياً مرسلا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطاب مستقل له ﷺ غير داخل تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة مرجوة المجىء عن قريب ، وما استفهام فى موضع الرفع بالابتداء والجملة بعده خبر أى أى شىء يعلمك بوقت قيامها، والمعنى على النفى أى لا يعلمنك به شىء أصلا *

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ أى لعلها توجد وتتحقق فى وقت قريب فقريباً منصوب على الظرفية واستعماله كذلك كثير ، و(تكون) تامة ويجوز أن تكون ناقصة وإذا كان (قريبا) الخبر واعتبر وصفاً لا ظرفا فالتذكير لكونه فى الأصل صفة لخبر مذكر يخبر به عن المؤنث وليس هو الخبر أى لعل الساعة تكون شيئا قريباً ، وجوز أن يكون ذلك رعاية للمعنى من حيث أن الساعة بمعنى اليوم أو الوقت *

وقال أبو حيان: يجوز أن يكون ذلك لأن التقدير لعل قيام الساعة فلوحظ الساعة فى تكون فأنث ولوحظ المضاف المحذوف وهو قيام فى (قريبا) فذكر ، ولا يخفى بعده، وقيل إن قريبا لكونه فعيلا يستوى فيه المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقد تقدم ما فى ذلك ، وفى الكلام تهديد للمستعجلين

www.Quranpdf.blogspot.in

المستهزئين وتبكيت للمتعنتين والممتحنين، والاظهار فى موضع الاضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجلة كما أشير إليه ﴿ إِنَّ اللّٰهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ على الاطلاق أى طردهم وأبعدهم عن رحمته العاجلة والآجلة ﴿ وَأَعَدَّ ﴾ هيأ ﴿ لَهُمْ ﴾ مع ذلك فى الآخرة ﴿ سَعِيراً ٦٤ ﴾ ناراً شديدة الاتقاد كما يؤذن بذلك صيغة المبالغة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً ﴾ متوليا لأمرهم يحفظهم ﴿ وَلَا نَصِيراً ٦٥ ﴾ ناصراً يخلصهم منها ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ ﴾ ظرف لعدم الوجدان ، وقيل لخالدين، وقيل لنصير، وقيل مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة أو يوم تتغير وجوههم من حال إلى حال فتتوارد عليها الهيئات القبيحة من شدة الأهوال أو يوم يلقون فى النار مقلوبين منكوسين ، وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ، ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد . وقرأ الحسن. وعيسى. وأبو جعفر الرواسى. (تقلب) بفتح التاء والأصل تتقلب فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن أبى عبلة بهما على الأصل، وحكى ابن خالويه عن أبى حيوة أنه قرأ (نقلب وجوههم) باسناد الفعل إلى ضمير العظمة ونصب (وجوههم) على المفعولية *

وقرأ عيسى الكوفة (تقلب وجوههم) باسناد الفعل إلى ضمير السعير اتساعا ونصب الوجوه ﴿ يَقُولُونَ ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفيظعة كأنه قيل: فماذا يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسرين على مافاتهم ﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللّٰهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ٦٦ ﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير (وجوههم) أو من نفسها وجوز أن يكون هو الناصب ليوم ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على (يقولون) والعدول إلى صيغة الماضى للاشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفى بمضاعفة عذاب الذين أوردوهم هذا المورد الوخيم وألقوهم فى ذلك العذاب الأليم وإن علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم بما هم فيه *

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ أى ملوكنا وولاتنا الذين يتولون تدبير السواد الاعظم منا ﴿ وَكُبَرَاءَنَا ﴾ أى رؤساءنا الذين أخذنا عنهم فنون الشر وكان هذا فى مقابلة ماتمنوه من اطاعة الله تعالى واطاعة الرسول فالسادة والكبراء متغايران، والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والافهم فى مقام التحقير والاهانة وقدموا فى ذلك اطاعة السادة لما أنه كان لهم قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم فى مقام الاعتذار وطلب التشفى ، وقيل : باتحاد السادة والكبراء والعطف على حد العطف فى قوله . ه وألفى قولها كذبا ومينا ه والمراد بهم العلماء الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم ، وعن قتادة رؤساؤهم فى الشر والشرك *

وقرأ الحسن وأبو رجاء .وقتادة. والسلمى. وابن عامر. والعامة فى الجامع بالبصرة (ساداتنا) على جمع الجمع وهو شاذ كبيوتات ، وفيه على ماقيل دلالة على الكثرة. ثم ان كون سادة جمعا هو المشهور ، وقيل : اسم جمع فان كان جمعا لسيد فهو شاذ أيضا فقد نصوا على شذوذ فعلة فى جمع فعيل وان كان جمعا لمفرد مقدر وهو سائد كان ككافر وكفرة لكنه شاذ أيضا لأن فاعلا لا يجمع على فعلة الا فى الصحيح ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ٦٧ ﴾ أى جعلونا ضالين

www.Quranpdf.blogspot.in

عن الطريق الحق بما دعونا اليه وزينوه لنا من الاباطيل، والالف للاطلاق كما فى (وأطعنا الرسولا) *

﴿رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أى عذابين يضاعف كل واحد منهما الآخر عذابا على ضلالهم فى أنفسهم وعذابا على اضلالهم لنا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ٦٨﴾ أى شديدا عظيما فان الكبر يستعار للعظمة مثل (كبرت كلمة) ويستفاد التعظيم من التنوين أيضا، وقرأ الاكثر (كثيرا) بالثاء المثلثة أى كثير العدد، وتصدير الدعاء بالنداء مكررا للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الاجابة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءاذَوْا مُوسَى﴾ قيل نزلت فيما كان من أمر زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها وتزوجه ﷺ بها وما سمع فى ذلك من كلام آذاه عليه الصلاة والسلام ﴿فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أى من قولهم أو الذى قالوه وأيا ما كان فالقول هنا بمعنى المقول، والمراد به مدلوله الواقع فى الخارج وبتبرئة الله تعالى اياه من ذلك اظهار براءته عليه السلام منه وكذبهم فيما أسندوا اليه لأن المرتب على أذاهم ظهور براءته لا براءته لأنها مقدمة عليه، واستعمال الفعل مجازا عن اظهاره، والمقول بمعنى المضمون كثير شائع، فالمعنى فأظهر الله تعالى براءته من الامر المعيب الذى نسبوه اليه عليه السلام،

وقيل: لاحاجة إلى ماذكر فانه تعالى لما اظهر براءته عما افتروه عليه انقطعت كلما تهم فيه فبرىء من قولهم على أن (برأه) بمعنى خلصه من قولهم لقطعه عنه، وتعقب بأنه مع تكلفه لأن قطع قولهم ليس مقصودا بالذات بل المراد انقطاعه لظهور خلافه لابد من ملاحظة ماذكر، والمراد بالامر الذى نسبوه اليه عليه السلام عيب فى بدنه *

أخرج الامام أحمد. والبخارى. والترمذى. وجماعة من طريق أبى هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل وقالوا مايستتر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وأن موسى عليه السلام خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر غدا بثوبه فاخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى أسرائيل فرأوه عريانا أحسن ماخلق الله تعالى وبرأه مما يقولون وقام الحجر فاخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فذلك قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا)» *

وقيل: إن ذلك ما نسبوه اليه عليه السلام من قتل هرون، أخرج ابن منيع. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. وابن مردويه. والحاكم وصححه عن ابن عباس عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى الآية: صعد موسى وهرون عليهما السلام الجبل فمات هرون فقالت بنو اسرائيل لموسى أنت قتلته كان أشد حبا لنا منك وألين فآذوه من ذلك فامر الله تعالى الملائكة عليهم فحملوه فمروا به على مجالس بنى اسرائيل وتكلمت الملائكة عليهم السلام بموته فبرأه الله تعالى فانطلقوا به فدفنوه ولم يعرف قبره الا الرخم وإن الله تعالى جعله أصم أبكم، وفى رواية عن ابن عباس. وأناس من الصحابة أن الله تعالى اوحى إلى موسى إنى متوف هرون فأت جبل كذا فانطلقا نحو الجبل فاذاهم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت ومافيه أعجبه فقال ياموسى انى أحب ان أنام على هذا السرير قال نم عليه قال نم معى فلما ناما أخذ هرون الموت فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء فلما رجع موسى إلى بنى اسرائيل قالوا قتل هرون

www.Quranpdf.blogspot.in

وحسده لحب بنى اسرائيل له وكان هرون أكف عنهم وألين لهم وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال : ويحكم إنه كان أخى أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل بالسرير حتى نظروا اليه بين السماء والأرض فصدقوه ، وقيل : مانسبوه اليه عليه السلام من الزنا وحاشاه ، روى أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه السلام بنفسها ودفع اليها مالا عظيما فأقرت بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل به مافعل كما فصل فى سورة القصص ، ويبعد هذا القول تبعيدا ماجمع الموصول ، وقيل : مانسبوا اليه من السحر والجنون ، وقيل : ماحكى عنهم فى القرآن من قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) إلى غير ذلك ، ويمكن حمل ماقالوا على جميع ماذكر ه

﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ٦٩ ﴾ أى كان ذا جاه ومنزلة عنده عز وجل ، وفى معناه قول قطرب : كان رفيع القدر ونحوه قول ابن زيد : كان مقبولا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال وجيها مستجاب الدعوة وزاد بعضهم ماسأل شيئاً إلا أعطى الا الرؤية فى الدنيا ، ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع رفعة القدر ، وقيل: وجاهته عليه السلام أن الله تعالى كلمه ولقب كليم الله ، وقرأ ابن مسعود . والاعمش . وأبو حيوة (عبدا) من العبودة (لله) بلام الجر فيكون عبدا خبر كان ووجيها صفة له وهى قراءة شاذة ، وفى صحة القراءة بالشواذ كلام ه

قال ابن خالويه : صليت خلف ابن شنبوذ فى شهر رمضان فسمعته يقرأ وكان (عبدا لله) على قراءة ابن مسعود ولعل ابن شنبوذ ممن يرى صحة القراءة بها مطلقا ، ويحتمل مثل ذلك فى ابن خالويه والافقد قال الطيبى : قال صاحب الروضة : وتصح بالقراءة الشاذة إن لم يكن فيها تغيير معنى ولا زيادة حرف ولا نقصان ، وههنا بين المعنيين بون كما يشير اليه كلام الزمخشرى ونحوه عن ابن جنى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل ماتأتون وتذرون لاسيما فى ارتكاب مايكرهه تعالى فضلا عما يؤذى رسوله وحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَقُولُوا ﴾ فى كل شأن من الشؤون ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ ﴾ قاصدا ومتوجها إلى هدف الحق من سد يسد بكسر السين سدادا بفتحها يقال سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمى ولم يعدل به عن سمته ، والمراد على ماقيل نهيهم عن ضد هذا القول وهو القول الذى ليس بسديد ويدخل فيه ماصدر منهم فى قصة زينب من القول الجائر عن العدل والقصد وكذا كل قول يؤذيه عليه الصلاة والسلام ، وعن مقاتل . وقتادة أن المعنى وقولوا قولا سديدا فى شأن الرسول عليه الصلاة والسلام . وزيد . وزينب ، وعن ابن عباس . وعكرمة تخصيص القول السديد بلا إله الا الله ، وقيل: هو مايوافق ظاهره باطنه ، وقيل : مافيه اصلاح ، ولعل ماأشرنا اليه هو الاولى ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ بالقبول والاثابة عليها على ماروى عن ابن عباس . ومقاتل ، وقيل اصلاح الاعمال التوفيق فى المجىء بها صالحة مرضية ه

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الاوامر والنواهى التى من جملتها ماتضمنته هذه الآيات ﴿ فَقَدْ فَازَ ﴾ فى الدارين ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ لايقادر قدره ولاتبلغ غايته

قال فى الكشاف وهذه الآية يعنى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) إلى آخرها مقررة للتى قبلها بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهذه على الامر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والامر مع اتباع النهى مايتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام لأن وصفه بوجاهته عند الله

www.Quranpdf.blogspot.in

تعالى متضمن أنه تعالى انتقم له ممن آذاه واتباع الامر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الاذى والداعى إلى تركه انتهى فلا تغفل *

﴿ انَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَات وَالأَرْض وَالْجِبَال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ لما بين جل شأنه عظم شأن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك عظم شأن مايوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الايذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا ابرام، وعبر عنها بالأمانة وهى فى الأصل مصدر كالأمن والأمان تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشىء من حقوقها، وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها من حيث الخصوصيات بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتنا بامرها والرغبة فى قبولهن لها، وعن عدم استعدادهن لقبولها ومنافاتها لما هن عليه بالإباء والاشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة، والمعنى أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وخفن منها لكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المعروض بصورة المحقق لزيادة تحقيق المعنى المقصود وتوضيحه *

﴿ وَحَمَلَهَا الانْسَانُ ﴾ أى هذا الجنس نحو (إن الإنسان لربه لكنود، وإن الانسان ليطغى) وحمله إياها إما باعتبارها بالاضافة إلى استعداده أو بتكليفه إياها يوم الميثاق أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة، وهو إما عبارة عن قبولها بموجب استعداده الفطرى أو عن القبول القولى يوم الميثاق، وتخصيص الانسان بالذكر مع أن الجن مكلفون أيضا وكذا الملائكة عليهم السلام وإن لم يكن فى ذلك كلفة عليهم لما انه ليس فيه مايخالف طباعهم لأن الكلام معه، وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ٧٢ ﴾ اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من أول الأمر بعدم وفائه بما تحمل، والتأكيد لمظنة التردد أى إنه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو قبولهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تعالى تبديلا، ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشىء وجوده فى بعض أفراده فضلا عن وجوده فى غالبها، وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى :

﴿ لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى حملها الانسان ليعذب الله تعالى بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وإن لم يكن غرضا من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض أى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية، وإلى الفريق الثانى أشير بقوله سبحانه ﴿ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة

www.Quranpdf.blogspot.in

وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والانابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطاب وتربية المهابة، والاظهار فى موضع الاضمار ثانيا لابراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه كذا قال بعض الأجلة فى تفسير الآية. ووراء ذلك أقوال فقيل الأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء والكلام تقرير الوعد الكريم الذى ينبىء عنه قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاه فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين. وتعقب بأن جعل الأمانة التى شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل عن التقريب وإن حمل الكلام على التقرير بالوجه الذى قرر يأباه وصف الانسان بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا ، وقد يقال: مراد ذلك القائل أن الأمانة هى الطاعة من حيث أمره عز وجل بها وأن قوله تعالى (إنه كان) الخ على معنى أنه كان كذلك إن لم يراع حقها فتأمل. وأخرج ابن جرير. وغيره عن ابن عباس أن الأمانة الفرائض وروى نحوه عن سعيد بن جبير. وهو غير ما ذكر أولا بناء على أن التكليفات الشرعية مراد بها المعنى المصدرى دون اسم المفعول، وقيل: الصلاة فقد روى عن على كرم الله تعالى وجهه أنه كان إذا دخل وقت الصلاة اصفر وجهه الشريف وتغير لونه فسئل عن ذلك فقال: إنه دخل على وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وقد حملتها أنا مع ضعفى فلا أدرى كيف أؤديها، وحكى السفيرى أنها الغسل من الجنابة، وقيل الصلاة والصيام والغسل من الجنابة فقد أخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «الأمانة ثلاث الصلاة والصيام والغسل من الجنابة» وفى رواية عن السدى والضحاك أنها أمانات الناس المعروفة والوفاء بالعهود. وقيل هى أن لا تغش مؤمنا ولا معاهداً فى شىء قليل ولا كثير، وقيل: هى كلمة التوحيد لأنها المدار الأعظم للتكليفات الشرعية. وقيل هى الأعضاء والقوى، فقد أخرج ابن أبى الدنيا فى الورع. والحكيم الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما قال: «أول ما خلق الله تعالى من الانسان فرجه ثم قال هذه أمانتى عندك فلا تضعها إلا فى حقها فالفرج أمانة والسمع أمانة والبصر أمانة».

ولا يخفى أن تفسير الامانة فى الآية بالاعضاء مما لا ينبغى أن يلتفت اليه، والخبر المذكور إن صح لا يدل عليه، ومثله بل دونه بكثير أنها حروف التهجى ولا يكاد يقول به إلا أطفال المكاتب، وأقرب الاقوال المذكورة للقبول القول بانها الفرائض أى من فعل وترك، وتخصيص شىء منها بالذكر فى خبر ان صح لا يدل على أنه الامانة فى الآية لا غيره وكم يخص بعض افراد العام بالذكر لنكتة، وقال أبو حيان: الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا، ويعم هذا المعنى جميع ما تقدم، وفيها أقوال أخر ستأتى إن شاء الله تعالى، واختلفت كلمات الذاهبين إلى أنها الفرائض فى تحقيق ما بعد فقيل الكلام على حذف مضاف والتقدير إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات الخ.

وحكى ذلك عن الجبائى وليس بشىء، وقيل الكلام على ظاهره وكذا العرض والاباء وذلك أنه عز وجل خلق للسموات والارض والجبال فهما وتمييزا فخيرت فى الحمل فأبت وروى ذلك عن ابن عباس.

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج ابن المنذر . وابن أبي حاتم . وابن الأنباري عن ابن جريج قال : بلغني أن الله تعالى لما خلق السموات والأرض والجبال قال : إني فارض فريضة وخالق جنة ونارا وثوابا لمن أطاعني وعقابا لمن عصاني فقالت السموات خلقتني فسخرت في الشمس والقمر والنجوم والسحاب والريح فأنا مسخرة على ماخلقتني لاأتحمل فريضة ولا أبغي ثوابا ولا عقابا ونحو ذلك قالت الأرض والجبال، ويعلم مما ذكر أن الاباء لم يكن معصية لأنه لم يكن هناك تكليف بل تخيير، وأما كونها استحقرت أنفسها عن أن تكون محل الأمانة فلا ينفي عنهن العصيان بالاباء لو كان هناك تكليف بالحمل، وقيل: لاحذف والكلام من باب التمثيل على ماسمعت أولا *

وذهب كثير إلى أن المراد بحملها التزام القيام بها وبالانسان آدم عليه السلام، واختلف في حمله إياها هل كان بعد عرضها عليه أو بدونه فقيل كان بعد العرض *

فقد أخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم «أن الله تعالى عرض الأمانة على السماء الدنيا فأبت ثم التي تليها فأبت حتى فرغ منها ثم الأرضين ثم الجبال ثم عرضها على آدم عليه السلام فقال نعم بين أذني وعاتقي» الخبر وقيل : بدونه *

قال ابن الجوزي . لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح مثلت له الامانة بصخرة ثم قال: للسموات احملي هذه فأبت وقالت : إلهي لاطاقة لي بها وقال سبحانه : للارض احمليها فقالت: لاطاقة لي بها وقال تعالى للجبال: احمليها فقالت: لاطاقة لي بها فأقبل آدم عليه السلام فحركها بيده وقال لو شئت حملتها فحملها حتى بلغت حقويه ثم وضعها على عاتقه فلما أهوى ليضعها نودي من جانب العز يا آدم مكانك لاتضعها فهذه الأمانة قد بقيت في عنقك وعنق أولادك إلى يوم القيامة ولكم عليها ثواب في حملها وعقاب في تركها، وهذا ظاهر في أن الحمل على حقيقته وفي أن العرض على السموات والأرض والجبال كان بمسمع من آدم عليه السلام وإلى هذا ذهب ابن الأنباري، وفي بعض الآثار ما يدل على أن العرض عليهن قبل خلقه عليه السلام *

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لما خلق الله تعالى السموات والأرض عرض عليهن الأمانة فلم يقبلنها فلما خلق آدم عليه السلام عرضها عليه فقال: يارب وماهي؟ قال سبحانه : هي إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال : فقد تحملت يارب فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج إلا قدر مابين الظهر والعصر، وكأني بك تختار من هذه الأقوال أن العرض على تقدير كونه بعد إعطاء الفهم والتمييز كان بمسمع من آدم عليه السلام وأنه بعد أن سمع الاباء حملته الغيرة على الحمل، وربما يفضي بك هذا إلى اختيار القول بانه حمل الأمانة بدون عرضها عليه كما هو ظاهر الآية وبه يتأكد وصفه بماوصف لكني لاأظنك تقول بصحة حديث تمثل الأمانة بصخرة وإن قلت بصحة تمثل المعاني بصور الأجسام كما ورد في حديث ذبح الموت وغيره، وأنا لاأميل إلى القول بأن المراد بالانسان آدم عليه السلام وإن كان أول أفراد الجنس ومبدأ سلسلتها لمكان (إنه كان ظلوما جهولا) فانه يبعد غاية البعد وصف صفي الله عزوجل بنص (إن الله اصطفى آدم) بمزيد الظلم والجهل، وكون المعنى كان ظلوما جهولا بزعم الملائكة عليهم السلام قول بارد، وحمله على معنى كان ظلوما لنفسه حيث حملها على ضعفه ما أبت الأجسام القوية حمله جهولا بقدر مادخل فيه أو بعاقبة ماتحمل لايزيل البعد، ولا استحسن كون المراد كان من شأنه لو خلي ونفسه ذلك كما قيل :

www.Quranpdf.blogspot.in

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

إلا على القول بارادة الجنس، واخراج الكلام مخرج الاستخدام على نحو ماقالوا فى عندى درهم ونصفه بعيد لفظا ومعنى، وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤه الذى يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها. ومنه قولهم حامل الأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فتبرأ ذمته وأنشدوا *

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة وتحمل أخرى أخرجتك الودائع

فيكون الاباء امتناعا من الخيانة واتيانا بالمراد، فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتنا وأتين بما أمرناهن به لقوله تعالى (أتينا طائعين) وخانها الانسان حيث لم يأت بما أمرناه به إنه كان ظلوما جهولا ولا يخفى بعده ولم نر فى المأثور مايؤيده، نعم ان العوام يقولون: إن الأرض لا تخون الأمانة حتى أنهم جرت عادتهم فى بلادنا أنهم إذا أرادوا دفن ميت فى مكان ولم يتيسر لهم وضعوه فى قبر وقالوا حين الوضع مخاطبين الأرض: هذا أمانة عندك كذا شهرا أو كذا سنة وحثوا التراب عليه وانصرفوا فاذا نبشوا القبر قبل مضى المدة وجدوه كما وضعوه لم يتغير منه شيء فيخرجونه ويدفنونه حيث أرادوا وإذا بقى حتى تمضى المده التى عينوها وجدوه متغيرا، وهذا أمر تواتر نقله لنا وهو مما يستبعده العقل، وإلى نحو هذا ذهب أبو إسحاق الزجاج إلا أنه قال: عرض الأمانة وضع شواهد الوحدانية فى المصنوعات، ونقله عنه أبو حيان وذكر البيت المار آنفا لكنه تعقبه بأن الحمل فيه ليس نصا فى الخيانة، وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة إلى استعدادهن وبابائهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية الداعية للظلم والشهوية الداعية للجهل بعواقب الأمور، قيل وعليه ينتظم قوله تعالى: (إنه كان ظلوما جهولا) مع ماقبله على أنه علته باعتبار حمل العقل عليه بمعنى إيداعه فيه لأجل إصلاح مافيه من القوتين المحتاجتين إلى سلطان العقل الحاكم عليهما فكأنه قيل: حملناه ذلك لما فيه من القوى المحتاجة لقهره وضبطه، وكذا إذا أريد التكليف فان معظم المقصود منه تعديل تلك القوى وكسر سورتها، ومن هنا قيل إنه أقرب للتحقيق، وقيل الأمانة تجلياته عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته تعالى العليا وعرضها عليهن وإباؤهن وحمل الانسان كالمذكور آنفا.

وقوله تعالى: «إنه كان ظلوما جهولا» تعليل للحمل مشار به إلى قوة استعداده، وقوله سبحانه. «ليعذب» تعليل للعرض على معنى عرضنا ذلك لتظهر تجلياتنا الجلالية والجمالية، ويشير إلى هذا قول العلامة الطيبى عليه الرحمة: إن الله تعالى خلق الخلق ليكون مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا فحامل معنى الكبرياء والعظمة السموات والأرض والجبال من حيث كونها عاجزة عن حمل سائر الصفات لعدم استعدادها لقبولها ولذلك أبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان لقوة استعداده واقتداره لكونه ظلوما جهولا فاختص لذلك من بين سائر المخلوقات بقبول تجلى القهارية والتوابية والمغفرة وشاركها بقبول تجلى الرحمة وله النصيب الأوفر منها لقوة استعداده واقتداره، وهو مشرب صوفى كما لايخفى وأنا اختار كون الأمانة كل مايؤتمن عليه ويطلب حفظه ورعايته ولها أفراد كثيرة متفاوتة فى جلالة القدر وإن عرضها على تلك الأجرام كان على وجه التخيير

www.Quranpdf.blogspot.in

لهن فى حملها لا الالزام وأنهن خوطبن فى ذلك وعقلن الخطاب والله عز وجل قادر على أن يخلق فى كل ذرة من ذرات الكائنات الحياة والعلم كما خلقهما سبحانه فى ذوى الألباب بل ذهب الفلاسفة إلى القول بثبوت النفوس والحركة الارادية للأفلاك بل قال بعضهم نحو ذلك فى الكواكب وأثبت الحركة الارادية ونفى القواسر هناك وأن المراد بالانسان الجنس وأن قوله تعالى: «إنه كان ظلوما جهولا» فى موضع التعليل للحمل *

ووصف الجنس بصيغتى المبالغة لكثرة الأفراد المتصفة بالظلم والجهل منه وإن لم يكونوا فيها على وجه المبالغة بل لا يخلو فرد من الأفراد عن الاتصاف بظلم ما وجهل ما، ولا يجب فى وصف الجنس بصيغة المبالغة تحقق تلك الصفة فى الأفراد كلا أو بعضا على وجه المبالغة، نعم إن تحقق ذلك فهو زيادة خير، كما فيما نحن فيه فان أكثر أفراد الانسان فى غاية الظلم ونهاية الجهل، ولعل المراد بظلوم جهول من شأنه الظلم والجهل وأن قوله تعالى: «ليعذب» الخ متعلق بعرضنا على أنه تعليل له، وفى الكلام التفات لا يخفى، وتقديم التعذيب لأنه أوفق بصفتى الظلم والجهل، وقيل: لأن الأمانة من حكمها اللازم أن خائنها يضمن وليس من حكمها أن حافظها يؤجر، ومقابلة التعذيب بالتوبة دون الاثابة أو الرحمة للاشارة إلى أن فى المؤمنين والمؤمنات من يصدر منه ما يصح أن يعذب عليه ومع ذلك لا يعذب، وفيه إشعار بأنه لا يعذب على كل ظلم وجهل وفى هذا من إدخال السرور على المؤمنين والكآبة على أضدادهم ما فيه، وأيضا أن ذلك أوفق بظاهر قوله تعالى: «إنه كان ظلوما جهولا» وقيل لم يعتبر بالاثابة لأنها علمت من قوله سبحانه: «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما» فعبر بما ذكر للتنبيه على أن ذلك بمحض الفضل وهو كما ترى، وقيل إن ذاك لأن التذييل متكفل بافادة رحمتهم وإثابتهم *

وقرأ الحسن كما ذكر صاحب اللوامح «ويتوب» بالرفع على الاستئناف ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٣ ﴾ أى مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويثيبنا بالفوز العظيم إنه جل جلاله وعم نواله غفور رحيم *

﴿ ومن باب الاشارة فى آيات من هذه السورة الكريمة ﴾ «يا أيها النبى اتق الله» الخ فيه إشارة إلى عظم شأن التقوى وكذا شأن كل أمر ونهى يتعلقان به عليه الصلاة والسلام، وفيه أيضا إشارة إلى أنه لا ينبغى محبة أعداء الله عز وجل حيث نهى عن طاعتهم وهما كالمتلازمين «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» لأن موقعه فى البدن موقع الرئيس فى المملكة والحكمة تقتضى وحدة الرئيس، وفى الخبر إذا بويع خليفتان فاقتلوا أحدهما،

وقيل: إن ذلك لتشعر وحدته فى بدن الانسان الذى هو العالم الأصغر المنطوى فيه العالم الأكبر بوحدة الله سبحانه فى الوجود، وينبغى أن يعلم أن للقلب عندهم كما قال الصدر القونوى إطلاقين الأول إطلاقه على اللحم الصنوبرى الشكل المعروف عند الخاصة والعامة. والثانى إطلاقه على الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشئون الربانية وبين الخصائص والأحوال الكونية الروحانية منها والطبيعية وهى تنشأ من بين الهيئة الاجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الالهية والكونية وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة وما يتولد من بينهما بعد الارتياض والتزكية وظهور ذلك مما ذكر ظهور السواد بين العفص والزاج والماء وهذا هو القلب الذى أخبر عنه الحق على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه: «ما وسعنى أرضى ولا سمائى

www.Quranpdf.blogspot.in

ووسعنى قلب عبدى المؤمن التقى النقى الوادع» وهو محل نظر الحق ومنصة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدليه واللحم الصنوبرى أحقر من حيث صورته أن يكون محل سره جل وعلا فضلا عن أن يسعه سبحانه ويكون مطمح نظره الأعلى ومستواه، وادعوا أن تسمية ذلك الصنوبرى الشكل بالقلب على سبيل المجاز باعتبار تسمية الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول «وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم» فيه أن الحقائق لا تنقلب وأن فى القرابة النسبية خواص لا تكون فى القرابة السببية فأين الأزواج من الأمهات والأدعياء من الأبناء فالأمهات أصول ولا كذلك الأزواج والأبناء فروع ولا كذلك الأدعياء، ومن هنا قيل: الولد سر أبيه، وقد أورده الشمس الفنارى فى مصباح الأنس حديثا بصيغة الجزم من غير عزو ولا سند ولا يصح ذلك عند المحدثين، وهو إشارة إلى الأوصاف والأخلاق والكمالات التى يحصلها الولد بالسراية من والده لا بواسطة توجه القلب إلى حضرة الغيب الالهى وعالم المعانى فانه باعتبار ذلك قد تحصل للولد أوصاف وأخلاق على خلاف حال والده؛ ومنه يظهر سر «يخرج الحى من الميت» (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) فيه إشارة إلى أن للدين نوعا من الأبوة ولهذا قد يقع به التوارث «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» لأنه عليه الصلاة والسلام يحب لهم فوق ما يحبون لها ويسلك بهم المسلك الذى يوصلهم إلى الحياة الأبدية «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم» أى فى الأزل إذ كانوا أعيانا ثابتة أو يوم الميثاق إذ صار لهم نوع تعين «ليسئل الصادقين عن صدقهم» سؤال تشريف لا تعنيف، والصدق على ماقالوا أن لا يكون فى أحوالك شوب ولا فى أعمالك عيب ولا فى اعتقادك ريب؛ ومن أماراته وجود الاخلاص من غير ملاحظة المخلوق وتصفية الأحوال من غير مداخلة إعجاب وسلامة القول من المعاريض والتباعد عن التلبيس فيما بين الناس وإدامة التبرى من الحول والقوة بل الخروج من الوجود المجازى شوقا إلى الوجود الحقيقى «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود» الخ طبق بعضهم ما تضمنته الآيات من قصة الأحزاب على ما فى الأنفس ولا يخفى حاله، ومن غريب ما رأيت أن الشيخ محيى الدين قدس الله سره قسم الأولياء إلى أقسام وجعل منهم قسما يقال لهم اليثربيون وقال: هم قوم من الأولياء لا مقام لهم كما لسائر الأولياء وجعل قول المنافقين «يا أهل يثرب لا مقام لكم» إشارة إلى ذلك، وكم قول غريب لهذا الشيخ غفر الله تعالى له «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا» لأنه عليه الصلاة والسلام أكمل الخلق على الاطلاق وأحظى الناس باشراق أنوار أخلاقه عليه الذين يرجون الله تعالى واليوم الآخر ويذكرونه عز وجل كثيرا لصقالة قلوبهم وقوة استعدادها لاشراق الأنوار وظهور الآثار «من المؤمنين رجال» أى رجال كاملون، وقول بعضهم: أى متصرفون فى الموجودات تصرف الذكور فى الأناث كلام بشع تنقبض منه ككثير من كلام المتصوفة قلوب المقتفين للسلف الصالح *

«يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا» الخ فيه إشارة إلى أن حب الدنيا وزينتها يكون سببا لمفارقة رسول الله ﷺ والبعد عن حضرته الشريفة وأن محبته عليه الصلاة والسلام تكون سببا للاجر العظيم «يا نساء النبى من يأت منكن» الخ فيه إشارة إلى تفاوت قبح المعاصى وحسن الطاعات باعتبار الأشخاص ومثل ذلك تفاوتها باعتبار الأماكن والأزمان

www.Quranpdf.blogspot.in

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم » إشارة إلى مقام التسليم وأنه اللائق بالمؤمنين وهذا حكم مستمر على الأمة إلى يوم القيامة فلا ينبغى لأحد بلغه شىء عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ أن يختار لنفسه خلافه لإشعار ذلك باتهام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام *

ولعل الاشارة فى الآيات بعد ظاهرة لمن له أدنى التفات بيد أنهم أطالوا الكلام فى الامانة المذكورة فى قوله تعالى : (إنا عرضنا الامانة) الآية فلنذكر بعضا من ذلك فنقول : قال الشيخ محيى الدين قدس سره فى بلغة الغواص: إن الامانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها هى السعة لمعرفة الله تعالى فلم يوجد فى السموات والأرض قبول لما قبله الانسان بهذا التأليف الصورى إذ هو ثمرة العالم فهو يرى نفسه فى العالم ويرى ربه سبحانه بالعالم الذى هو نفسه من حيث هو كل العالم فلذلك اتسع لما لم يسعه العالم ولذلك خصه سبحانه بالسعة حيث أخبر جل شأنه أنه لم يسعه سمواته ولا أرضه ووسعه قلب المؤمن من نوع الانسان انتهى *

وكأنه أراد بكونه وسع الحق سبحانه كونه مظهرا جامعا للاسماء والصفات على وجه لا ينافى تنزيه الحق جل جلاله، وهذا قريب مما ذكرناه فى التفسير وقلنا إنه مشرب صوفى كما لا يخفى ، وقال آخر: هى عبارة عن الفيض الالهى بلا واسطة وحمله خاص بالانسان لأن نسبته مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص فالعالم شخص وقلبه الانسان فكما أن القلب حامل للروح بلا واسطة وتسرى منه بواسطة العروق والشرايين ونحوها إلى سائر البدن كذلك الانسان حامل للفيض الالهى بلا واسطة ويسرى منه إلى ظاهر الكون وباطنه بواسطة ظاهره وباطنه من أعمال البدن والروح فظاهر العالم وباطنه معموران بظاهر الانسان وباطنه وهذا سر الخلافة ومعنى كونه ظلوما أنه ظالم لنفسه حيث استعد لأن يحمل أمرا عظيما وكونه جهولا أنه جاهل بها حيث لم يعرف حقيقتها ولم يدرك منها سوى الصورة الحيوانية المتصفة بالصفات البهيمية من الاكل والشرب والنكاح وهاتان الصفتان فى حق حاملى الامانة ومؤدى حقها من حيث أنهما صارتا سببا لحمل الامانة صفتا مدح وفى حق الخائنين صفتا ذم والشىء قد يكون ذما فى حق شخص ومدحا فى حق آخر، والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ومنه الاستمداد فى فهم كلامه العزيز الجليل ه

﴿ سورة سبأ ٣٤ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس. وقتادة، وفى التحرير هى مكية باجماعهم ، وقال ابن عطية: مكية الا قوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم) وروى الترمذى عن فروة بن مسيكة المرادى قال: أتيت النبى ﷺ فقلت يارسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومى الحديث ، وفيه وأنزل فى سبأ ما أنزل فقال رجل: يارسول الله وماسبأ؟ الحديث * قال ابن الحصار هذا يدل على أن هذه القصة مدنية لأن مهاجرة فروة بعد اسلام ثقيف سنة تسع، ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته فلا يأبى كونها مكية ، وآياتها خمس وخمسون فى الشامى وأربع وخمسون فى الباقين، وما قيل خمس وأربعون سهو من قلم الناسخ، ووجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التى أجريت على الله تعالى فى مفتتحها مما يناسب الحكم التى فى مختتم ما قبل من قوله تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) الخ*

وأيضاً قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء وههنا قد حكى عنهم إنكارها صريحا والطعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه وذكر مما يتعلق بذلك مالم يذكر هناك ، وفى البحر أن سبب نزولها أن

www.Quranpdf.blogspot.in

سورة الأحزاب

مدنيّة في قول جميعهم. نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها. وهي ثلاث وسبعون آية. وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة. وكانت فيها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم)؛ ذكره أبو بكر الأنباري عن أُبيّ بن كعب. وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا، وأن آية الرَّجْم رفع لفظها. وقد حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلاّم قال حدّثنا ابن أبـي مريم عن ابن لَهيعة عن أبـي الأسود عن عروة عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كُتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن. قال أبو بكر: فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة: أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا.

قلت: هذا وجه من وجوه النسخ، وقد تقدم في ﴿البقرة﴾[1] القولُ فيه مستوفًى والحمد لله. وروى زِرّ قال قال لي أُبـيّ بن كعب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية؛ قال: فوالذي يحلف به أُبيّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أُبيّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن. وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾.

(١) راجع ٢/ ٦١ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ضُمّت ﴿أيّ﴾ لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها. و ﴿النبيّ﴾ نعت لأيّ عند النحويين؛ إلا الأخفش فإنه يقول: إنه صلة لأيّ. مكيّ: ولا يُعرف في كلام العرب اسم مفرد صلة لشيء. النحاس: وهو خطأ عند أكثر النحويين؛ لأن الصلة لا تكون إلا جملة، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتاً لازماً سُمِّيَ صلة؛ وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلةً لها. ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين. وأجازه المازنيّ، جعله كقولك: يا زيدُ الظريفَ، بنصب «الظريف» على موضع زيد. مكيّ: وهذا نعت يستغنى عنه، ونعت ﴿أيّ﴾ لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع. وأيضاً فإن نعت ﴿أيّ﴾ هو المنادى في المعنى فلا يحسن نصبه. وروي أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود: قُريظة والنَّضير وبني قَيْنُقَاع؛ وقد تابعه[1] ناس منهم على النفاق، فكان يُلين لهم جانبَه؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم؛ فنزلت. وقيل: إنها نزلت فيما ذكر الواحدي والقُشَيْريّ والثّعلبيّ والماوَرْدِي وغيرهم في أبي سفيان بن حرب وعِكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو[2] بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح وطُعْمة بن أُبَيْرِق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللاّت والعزّى ومَناة، وقل إن لها شفاعة ومنعة[3] لمن عبدها، ونَدَعُك وربّك. فشقّ على النبي ﷺ ما قالوا. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي في قتلهم. فقال النبي ﷺ: «إني قد أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبي ﷺ أن يخرجوا من المدينة؛ فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي خَفِ الله. ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة؛ يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة؛ يعني عبد الله بن أُبَيّ وطَعْمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نُهيت عنه،

---

(١) في جـ وك: «بايعه». (٢) في «الأصول»: «عمر».
(٣) في أسباب النزول: «ومنفعة».

ولا تمل إليهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بكفرهم ﴿حَكِيماً﴾ فيما يفعل بهم. الزّمخشريّ: وروي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السُّلَمِيّ قدِموا على النبيّ ﷺ في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أُبَيّ ومُعَتّب بن قُشَير والجَدّ بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا. وذكر الخبر بمعنى ما تقدّم. وأن الآية نزلت في نقض العهد ونَبْذ الموادعة. ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروي أن أهل مكة دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه شيبةُ بن ربيعة بنته، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع؛ فنزلت. النحاس: ودلّ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ على أنه كان يميل إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام؛ أي لو علم الله عز وجل أن مَيْلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه؛ لأنه حكيم. ثم قيل: الخطاب له ولأمته.

[٢] ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن. وفيه زَجْر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص. والخطاب له ولأمته. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ السلَمِيّ وأبو عمرو وابن أبي إسحاق: ﴿يعملون﴾ بالياء على الخبر؛ وكذلك في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾(١). ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه في كل أحوالك؛ فهو الذي يمنعك ولا يضرك من خذلك. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ حافظاً. وقال شيخ من أهل الشام: قدِم على النبيّ ﷺ وفد من ثَقيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنةً ـ وهي الطاغية التي كانت ثَقيف تعبدها ـ وقالوا: لتعلم قريش منزلتنا عندك؛ فهمَّ

---

(١) راجع ١٦/ ٣٨٠ فما بعد.

النبيّ ﷺ بذلك، فنزلت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي كافياً لك ما تخافه منهم. و ﴿بِاللَّهِ﴾ في موضع رفع لأنه الفاعل. و ﴿وَكِيلاً﴾ نصب على البيان أو الحال.

[٤] ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. قال: وكان من فِهْر. الواحديّ والقُشَيْرِيّ وغيرهما: نزلت في جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً حافظاً لما يسمع. فقالت قريش: ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان. وكان يقول: لي قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد. فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر، رآه أبو سفيان في العير وهو معلّق إحدى نَعْلَيْه في يده والأخرى في رجله؛ فقال أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجليّ؛ فعرفوا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده. وقال السُّهَيْليّ: كان جميل بن معمر الجُمَحيّ، وهو ابن معمر بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، واسم جمح: تَيْم؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثوائي بالمدينة بعد ما قضى وَطَراً منها جَمِيلُ بن معمر

قلت: كذا قالوا جميل بن معمر. وقال الزمخشريّ: جميل بن أسد الفهري. وقال ابن عباس: سببها أن بعض المنافقين قال: إن محمداً له قلبان؛ لأنه ربما كان في شيء فنزع

في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأوّل؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل. وقيل: نزلت في عبد الله بن خَطَل. وقال الزهريّ وابن حبّان: نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبنّاه النبيّ ﷺ؛ فالمعنى: كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين. قال النحاس: وهذا قول ضعيف لا يصح في اللغة، وهو من منقطعات الزهريّ، رواه معمر عنه. وقيل: هو مثل ضرب للمُظاهر؛ أي كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمّه حتى تكون له أُمّان. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب يأمرني بكذا؛ فالمنافق ذو قلبين؛ فالمقصود ردّ النفاق. وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف؛ فالمعنى: لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب. ويظهر من الآية بجملتها نفي أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر، والله أعلم.

الثانية ـ القلب بَضْعة[1] صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرة، خلقها الله تعالى في الآدميّ وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهيّ، ويضبطه فيه بالحفظ الرّباني، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئاً. وهو بين لَمَّتَين: لَمّة[2] من المَلك، ولَمَّةٌ من الشيطان؛ كما قال ﷺ. خرّجه الترمذيّ، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3]. وهو محل الخَطَرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة[4]. والمعنى في الآية: أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ وهذا نفي لكل ما توهمه أحد في ذلك من حقيقة أو مجاز، والله أعلم.

الثالثة ـ أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لا أحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم؛ أي إنما هو قلب واحد، فإمّا فيه إيمان وإمّا فيه كفر؛ لأن

---

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) القطعة من اللحم.
(٢) اللمة (بالفتح) الهمة والخطرة تقع في القلب.
(٣) راجع ١/ ١٨٧ فما بعد.
(٤) في بعض النسخ: «والطمأنينة والاعتدال».

درجة النفاق كأنها متوسطة، فنفاها الله تعالى وبيَّن أنه قلب واحد. وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية، متى نسي شيئاً أو وهم. يقول على جهة الاعتذار: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعني قول الرجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمّي. وذلك مذكور في سورة ﴿المجادلة﴾(١) على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة. وروى الأئمة أن ٱبن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وكان زيد فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشأم، سبته خيل من تِهامة، فٱبتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبيّ ﷺ فأعتقه وتبنّاه، فأقام عنده مدّة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبيّ ﷺ وذلك قبل البعث: «خيِّراه فإن ٱختاركما فهو لكما دون فداء». فٱختار الرق مع رسول الله ﷺ على حريته وقومه؛ فقال محمد ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش اشهدوا أنه ٱبني يرثني وأرثه» وكان يطوف على حِلَق قريش يشهدهم على ذلك، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا. وكان أبوه لما سبي يدور الشأم ويقول:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعل ... أحَيٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله لا أدري وإني لسائل ... أغالك بعدِي السَّهلُ أم غالك الجبل
فيا ليت شعري! هل لك الدهرَ أَوْبَةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ(٢)
تُذَكِّرُنِيه الشمس عند طلوعها ... وتَعْرِض ذكراه إذا غَرْبُهَا أفَلْ
وإن هَبَّت الأرياح هَيَّجْنَ ذِكْرَه ... فيا طول ما حُزْنِي عليه وما وَجَلْ
سَأُعْمِل نَصّ العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التَّطواف أو تسأمُ الإبل
حياتِيَ أو تأتِي عليّ منيّتي ... فكل ٱمرىء فانٍ وإن غرّه الأمل

(١) راجع ١٧/٢٧٩ فما بعد. (٢) بجل: كنعم زنة ومعنى. وأبجله الشيء: كفاه.

فأخبر أنه بمكة؛ فجاء إليه فهلك عنده. وروي أنه جاء إليه فخيّره النبي ﷺ كما ذكرنا وانصرف. وسيأتي من ذكره وفضله وشرفه شفاءٌ عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1] إن شاء الله تعالى. وقتل زيد بمُؤْتَةَ من أرض الشأم سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان النبي ﷺ أمّره في تلك الغزاة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة». فقتل الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولما أتى رسول الله ﷺ نَعْي زيد وجعفر بكى وقال: «أخَوَاي ومؤنساي ومحدِّثاي».

[٥] ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ نزلت في زيد بن حارثة، على ما تقدّم بيانه. وفي قول ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، دليل على أن التَّبَنِّي كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتوارث به ويتناصر، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أعدل. فرفع الله حكم التَّبَنِّي ومنع من إطلاق لفظه، وأرشد بقوله إلى أن الأَوْلى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نَسَباً؛ فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلَده وظَرْفه ضمه إلى نفسه، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان يُنْسب إليه فيقال فلان بن فلان. وقال النحاس: هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنّي، وهو من نسخ السنّة بالقرآن؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى وَلائه، فإن لم يكن له وَلاء معروف قال له يا أخي؛ يعني في الدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

---

(١) راجع ص ١٨٨ من هذا الجزء. (٢) راجع ١٦/٣٢٢.

الثانية ـ لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّي فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وكذلك لو دعوت رجلاً إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه فليس عليك بأس؛ قاله قتادة. ولا يجري هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبنّي كالحال في المِقْداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبنّي، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه في الجاهلية وعرف به. فلما نزلت الآية قال المِقْداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه. ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمداً. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يدعى لأبي حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّي وٱنْتُسِب لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمّداً عصى لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي فعليكم الجناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي ﴿غَفُوراً﴾ للعمد، و ﴿رَحِيماً﴾ برفع إثم الخطأ.

الثالثة ـ وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ﴾ مُجْمَل؛ أي وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم، وكانت فُتْيَا عطاء وكثيرٍ من العلماء. على هذا إذا حلف رجل ألاّ يفارق غريمه حتى يستوفي منه حقه، فأخذ منه ما يرى أنه جيّد من دنانير فوجدها زيوفاً أنه لا شيء عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلّم على فلان فسلّم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث؛ لأنه لم يتعمد ذلك. و ﴿ما﴾ في موضع خفض ردًّا على ﴿ما﴾ التي مع ﴿أَخْطَأْتُمْ﴾. ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ والتقدير: ولكن الذي تؤاخذون به ما تَعمّدت قلوبكم. قال قتادة وغيره: من نسب رجلاً إلى غير أبيه، وهو يرى أنه أبوه، خطأً[١] فذلك من الذي رفع الله فيه الجناح. وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يا بنيّ؛ على غير تَبَنٍّ.

الرابعة ـ قوله[٢] تعالى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تأكيد لبطلان القول؛ أي أنه قول لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول لسانيّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشي

(١) في ش: «خطأ من الخطأ الذي. . .».
(٢) هذه المسألة هكذا وردت في جميع نسخ الأصل. ويلاحظ أنها مقحمة هنا وموضعها الآية السابقة.

إليك على قَدَم؛ فإنما تريد بذلك المبرّة. وهذا كثير. وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع[1]. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ ﴿الحقّ﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي يقول القول الحق. و ﴿يَهْدِي﴾ معناه يبين؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ.

الخامسة ـ الأدعياء جمع الدّعيّ، وهو الذي يدعي ٱبنا لغير أبيه أو يدّعِي غير أبيه؛ والمصدر الدِّعْوة بالكسر؛ فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلب، فمن جهل ذلك فيه ولم تشتهر أنسابهم كان مَوْلًى وأخاً في الدِّين. وذكر الطبريّ أن أبا بكرة قرأ هذه الآية وقال: أنا ممن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدِّين ومولاكم. قال الراوي عنه: ولو علم ـ والله ـ أن أباه حمار لانتمى إليه. ورجال الحديث يقولون في أبي بكرة: نُفَيع بن الحارث.

السادسة ـ روى الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص وأبي بكرة كلاهما قال: سَمِعَتْه أذناي ووعاه قلبي محمداً[2] ﷺ يقول: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام». وفي حديث أبي ذرّ أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «ليس مِن رجل ٱدّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر».

[٦] ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام؛ منها: أنه ﷺ كان لا يصلّي على مَيّت

(١) راجع ٤/ ٢٦٧ و ٨/ ١١٨ فما بعد.

(٢) قوله: «محمدا» نصب على البدل من الضمير المنصوب في قوله: «سمعته أذناي».

عليه دَيْن، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن تُوُفِّيَ وعليه دَين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته» أخرجه الصحيحان. وفيهما أيضاً «فأيكم ترك دَيْناً أو ضَياعاً فأنا مولاه». قال ابن العربيّ: فانقلبت الآن الحال بالذنوب، فإن تركوا مالا ضُويق العصبة فيه، وإن تركوا ضياعاً أسلموا إليه؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيّ ﷺ وتنبيهه؛ (ولا عِطْر بعد عَرُوس). قال ابن عطية: وقال بعض العلماء العارفين هو أوْلى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك؛ وهو يدعوهم إلى النجاة. قال ابن عطية: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا آخِذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحّم الفَراش».

قلت: هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها، والحديث الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنما مَثَلي ومَثَل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه[1] وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم وأنتم تَقَحّمُون فيه». وعن جابر مثله؛ وقال: «وأنتم تَفَلَّتُون من يدي». قال العلماء: الْحُجْزَة للسراويل، والمَعْقِد للإزار؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه. وهذا مثل لاجتهاد نبيّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تخلّصنا من الهلكات التي بين أيدينا؛ فهو أوْلى بنا من أنفسنا؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدوّنا اللعين بنا صِرنا أحقر من الفِراش وأذلّ من الفَراش، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم! وقيل: أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبيّ ﷺ أوْلى. وقيل: أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم؛ أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه.

الثانية ـ قال بعض أهل العلم: يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبيّ ﷺ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال: «فعليّ قضاؤه». والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوقد المفهوم من الكلام.

من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قَيم له. وسمّيت الأرض ضَيعة لأنها معرّضة للضياع، وتجمع ضِياعا بكسر الضاد.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ شرّف الله تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أي في وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات. وقيل: لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التَّبنِّي. وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس. وسيأتي عدد أزواج النبيّ ﷺ في آية التخيير(١) إن شاء الله تعالى.

واختلف الناس هل هنّ أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة؛ على قولين: فروى الشعبيّ عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن ٱمرأة قالت لها: يا أمّة؛ فقالت لها: لست لك بأمّ، إنما أنا أمّ رجالكم. قال ابن العربي: وهو الصحيح.

قلت: لا فائدة في ٱختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء. يدلّ عليه صدر الآية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً. ويدلّ على ذلك حديث أبي هريرة وجابر؛ فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع. ثم إن في مصحف أُبيّ بن كعب ﴿وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿من أنفسهم وهو أب [لهم](٢) وأزواجه [أمهاتهم](٢)﴾. وهذا كلّه يوهن ما رواه مسروق إن صح من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به في التخصيص، وبقينا على الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهوم(٣). والله أعلم.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ قيل: إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، وبالمهاجرين قريشا. وفيه قولان:

---

(١) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء.

(٢) ما بين المربعين زيادة يقتضيها السياق، ليست في نسخ الأصل.

(٣) كذا في جـ. وفي ك: «الفهم». وفي ش: «المفهوم».

أحدهما ـ أنه ناسخ للتوارث بالهجرة. حكى سعيد عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾[١] فتوارث المسلمون بالهجرة؛ فكان لا يرث الأعرابيّ المسلم من قريبه المسلم المهاجِر شيئاً حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾. الثاني ـ أن ذلك ناسخ للتوارث بالحِلف والمؤاخاة في الدِّين؛ روى هشام بن عُروة عن أبيه عن الزبير: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وذلك أنَّا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخيت أنا كعب بن مالك، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا. وثبت عن عُروة أن رسول الله ﷺ آخى بين الزّبير وبين كعب بن مالك، فأرْتُثّ[٢] كعب يوم أُحُدٍ فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح[٣] والريح لورثه الزبير، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. فبيّن الله تعالى أن القرابة أوْلى من الحِلْف، فتركت الوراثة بالحِلْف وورثوا بالقرابة. وقد مضى في ﴿الأنفال﴾[٤] الكلام في توريث ذوي الأرحام. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذي قضى فيه أحوال خلقه. و ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَوْلَى﴾ لا بقوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ﴾ بالإجماع؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلاف في عمومها، وهذا حلّ إشكالها؛ قاله ابن العربي. النحاس: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يتعلّق ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بـ ﴿أُولُو﴾ فيكون التقدير: وَأُولُو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين. ويجوز أن يكون المعنى أوْلَى من المؤمنين. وقال المهدوِيّ: وقيل إن معناه: وأولو الأرحام بعضهم أولى

---

(١) راجع ٨/ ٥٥ فما بعد. (٢) الارتثاث: أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح. (٣) الضح (بالكسر): ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض. أراد لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح؛ وكنى بهما عن كثرة المال. (٤) راجع ٨/ ٥٩.

ببعض في كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبيّ ﷺ أن يُدعَين أمّهات المؤمنين. والله تعالى أعلم.

الخامسة - واختلف في كونهن كالأمهات في المَحْرَم وإباحة النظر؛ على وجهين: **أحدهما** - هنّ مَحْرَم، لا يحرم النظر إليهنّ. **الثاني** - أن النظر إليهن محرّم، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله ﷺ فيهن، وكان من حفظ حقّه تحريمُ النظر إليهن؛ ولأن عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها[1] أمرت أختها أسماء أن ترضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَماً يستبيح النظر. وأما اللاتي طلقهنّ رسول الله ﷺ في حياته فقد ٱختلف في ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه: **أحدها** - ثبتت لهن هذه الحرمة تغليباً لحرمة رسول الله ﷺ. **الثاني** - لا يثبت لهن ذلك، بل هن كسائر النساء؛ لأن النبيّ ﷺ قد أثبت عصمتهن، وقال: «أزواجي في الدنيا هنّ أزواجي في الآخرة». **الثالث** - من دخل بها رسول الله ﷺ منهن ثبتت حرمتها وحَرُم نكاحها وإن طلقها؛ حفظاً لحرمته وحراسة لخلوته. ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة؛ وقد همّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه برجم ٱمرأة فارقها رسول الله ﷺ فتزوّجت فقالت: لم هذا! وما ضرب عليَّ رسول الله ﷺ حجاباً ولا سُمّيت أمّ المؤمنين؛ فكفّ عنها عمر رضي الله عنه.

السادسة - قال قوم : لا يجوز أن يُسَمَّى النبيّ ﷺ أباً لقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ ﴾ . ولكن يقال : مِثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم... » الحديث . خرجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أبٌ للمؤمنين ، أي في الحرمة ، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي في النسب. وسيأتي. وقرأ ابن عباس: ﴿مِنْ أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه﴾. وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: حُكمها يا غلام؟ فقال: إنها في مصحف أُبـيّ؛ فذهب إليه

---

(١) راجع ١٠٩/٥ و ١٥٤/٤ شرح الموطأ.

فسأله فقال له أُبـيّ: إنه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصَّفْق[1] بالأسواق؟ وأغلظ لعمر. وقد قيل في قول لوط عليه السلام ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾[2]: إنما أراد المؤمنات؛ أي تزوّجوهن. وقد تقدّم.

السابعة ـ قال قوم: لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعيّ رضي الله عنه: تزوّج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت عائشة، ولم يقل هي خالة المؤمنين. وأطلق قوم هذا وقالوا: معاوية خال المؤمنين؛ يعني في الحرمة لا في النسب.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت؛ أي إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء. وقال محمد بن الحنفِيّة، نزلت في إجازة الوصية لليهوديّ والنّصرانيّ؛ أي يفعل هذا مع الوَلِيّ والقريب وإن كان كافراً؛ فالمشرك وَلِيّ في النسب لا في الدّين فيوصى له بوصية. واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصيًّا؛ فجوّز بعضٌ ومنع بعض. وردّ النظر إلى السلطان في ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرمّاني إلى أن المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظ الآية يَعْضُد هذا المذهب. وتعميم الوليّ أيضاً حسن. وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالمَودّة كوليّ الإسلام.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ ﴿الْكِتَابِ﴾ يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين في ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾. و ﴿مَسْطُوراً﴾ من قولك سطرت الكتاب إذا أثبته أسطاراً. وقال قتادة: أي مكتوباً عند الله عز وجلّ ألاّ يرث كافرٌ مسلماً. قال قتادة: وفي بعض القراءة ﴿كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوباً﴾. وقال القُرَظِيّ: كان ذلك في التوراة.

[٧] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

---

(١) الصفق: التبايع. (٢) راجع ٩/٧٦ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي عهدهم على الوفاء بما حمّلوا، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدّق بعضهم بعضاً؛ أي كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وإنما خصّ هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيّين تفضيلاً لهم. وقيل: لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم. ويحتمل أن يكون هذا تعظيماً في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أي هذا مما لم تختلف فيه الشرائع، أي شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أي كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سبب متأكد في الدّيانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق؛ فلا تُداهنوا في الدين ولا تمالئوا الكفار. ونظيره: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ـ إلى قوله ـ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1]. ومن ترك التفرق في الدين ترك موالاة الكفار. وقيل: أي النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيق من الأنبياء. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ أي عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً. والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأوّل باليمين. وقيل: الأوّل هو الإقرار بالله تعالى، والثاني في أمر النبوّة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾[2] الآية. أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمداً رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبيّ بعده. وقدّم محمداً في الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: «كنت أوّلهم في الخلق وآخرهم في البعث». وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) راجع ١٦/٩ فما بعد.

(٢) راجع ٤/١٢٤ فما بعد.

[٨] ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها ـ ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم؛ حكاه النقاش. وفي هذا تنبيه؛ أي إذا كان الأنبياء يُسْألون فكيف مَن سواهم.

الثاني ـ ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم؛ حكاه عليّ بن عيسى.

الثالث ـ ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ حكاه ابن شجرة.

الرابع ـ ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، وفي التنزيل: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقد تقدّم[١]. وقيل: فائدة سؤالهم توبيخ الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[٢]. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو عذاب جهنم.

[٩] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

يعني غزوة الخَنْدق والأحزاب وبني قُرَيظة[٣]، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة، وتضمّنت أحكاماً كثيرة وآيات باهرات عزيزة، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفي في عشر مسائل:

الأولى ـ اختلف في أيّ سنة كانت؛ فقال ابن إسحاق: كانت في شوال من السنة الخامسة. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله: كانت وقعة الخندق سنة أربع،

---

(١) راجع ٧/ ١٦٤.
(٢) راجع ٦/ ٣٧٤
(٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر الرسول ﷺ. وأما تسميتها بالأحزاب: فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود.

وهي وبنو قُريظة في يوم واحد، وبين بني قريظة والنَّضير أربع سنين. قال ابن وهب وسمعت مالكاً يقول: أمر رسول الله ﷺ بالقتال من المدينة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. قال: ذلك يوم الخندق، جاءت قريش من هاهنا واليهود من هاهنا والنَّجدية من هاهنا. يريد مالك: إن الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغَطَفان. وكان سببها: أن نفراً من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبـي الحُقَيق وسلام بن أبـي الحُقَيق وسلام بن مِشْكم وحُيَـيّ بن أخطب النضِريّون وهَوْذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل، وهم كلهم يهود، هم الذين حزبوا الأحزاب وألّبوا وجمعوا، خرجوا في نفر من بني النَّضير ونَفَر من بني وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله ﷺ، وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك؛ فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غَطَفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غَطَفان وقائدهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَاريّ على فَزارة، والحارث بن عوف المُرّي على بني مُرّة، ومسعود بن رُخَيلة على أشجع. فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه، فأشار عليه سلمانُ بحفر الخندق فرضي رأيه. وقال المهاجرون يومئذ: سلمان منا. وقال الأنصار: سلمان منا! فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت». وكان الخندق أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر. فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون وجعلوا يتسلّلون لِواذاً[1] فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره. وكان مَن فرغ من المسلمين من حصّته عاد إلى غيره، حتى كمل الخندق. وكانت فيه آيات بيّنات وعلامات للنبوّات.

قلت: ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي: ـ

---

(١) أي مستخفين ومستترين بعضهم ببعض.

الثانية ـ مشاورة السلطان أصحابَه وخاصّته في أمر القتال؛ وقد مضى ذلك في ﴿آل عمران[١]، والنمل﴾. وفيه التحصّن من العدوّ بما أمكن من الأسباب واستعمالها؛ وقد مضى ذلك في غير موضع. وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوماً على الناس؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ، فالمسلمون يدٌ على مَن سواهم؛ وفي «البخاري ومسلم» عن البَرَاء بن عازِب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيتُهُ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّي الغبارُ جِلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجِز بكلمات ابن رَواحة ويقول:

اللّهُمّ لولا أنت ما ٱهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صَلّينا
فأنزِلَنْ سكِينةً عَلَيْنَا ... وَثَبّتِ الأقدام إن لاَقَيْنَا

وأما ما كان فيه من الآيات وهي:

الثالثة ـ فروى النسائي عن أبي سكينة رجلٍ من المحرَّرين[٢] عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله ﷺ وأخذ المِعْول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال: ﴿وَتَمَّتْ كلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً﴾[٣] الآية؛ فَنَدَرَ[٤] ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر، فَبَرَق مع ضربة رسول الله ﷺ بَرْقَةٌ، ثم ضرب الثانية وقال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ الآية؛ فَنَدَر الثلث الآخر؛ فبرقت برقة فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً﴾ الآية؛ فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس. قال سلمان: يا رسول الله، رأيتك حين ضربت! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة؟ قال له رسول الله ﷺ: «رأيت ذلك يا سلمان»؟ فقال: أيْ والذي بعثك بالحق يا رسول الله! قال: «فإني حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لي مدائن كِسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينيّ ـ قال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله،

(١) راجع ٤/٢٤٩ فما بعد. و ١٣/ ١٩٤
(٢) أي المعتق من النار.
(٣) راجع ٧/ ٧١.
(٤) ندر: سقط.

ادع الله أن يفتحها علينا ويغنِّمنا ذراريهم[١] ويخرّب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله ﷺ ثم ضربتُ الضربة الثانية فرُفعت لي مدائن قَيْصر وما حولها حتى رأيتها بعينيّ ـ قالوا: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله ﷺ ـ ثم ضربتُ الضربة الثالثة فرُفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعينيّ ـ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: دعوا الحبشة ما وَدَعوكم وٱتركوا الترك ما تركوكم». وخرجه أيضاً عن البَرَاء قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فٱشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فجاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبه وأخذ المِعْول وقال: «باسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال: «الله أكبر أُعْطِيت مفاتيح الشام واللَّهِ إني لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا» قال: ثم ضرب أخرى وقال: «باسم الله» فكسر ثلثا آخر ثم قال: «الله أكبر أُعطِيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض». ثم ضرب الثالثة وقال: «باسم الله» فقطع الحجر وقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر باب صنعاء». صححه أبو محمد عبد الحق.

الرابعة ـ فلما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غَطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحُد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر سَلْع[٢] في ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين، وٱستعمل على المدينة ٱبنَ أُمّ مَكْتوم ـ في قول ابن شهاب ـ وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ، وكان صاحبَ عقد بني قريظة ورئيسَهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاقده وعاهده؛ فلما سمع كعب بن أسد حُيَيّ بن أخطب

(١) في النسائي: «ديارهم».
(٢) سلع: جبل بالمدينة.

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له؛ فقال له: افتح لي يا أخي؛ فقال له: لا أفتح لك، فإنك رجل مشؤوم، تدعوني إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدتُهُ وعاهدته، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً، فلست بناقض ما بيني وبينه. فقال حُيَيّ: افتح لي حتى أكلمك وأنصرف عنك؛ فقال: لا أفعل؛ فقال: إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك؛ فغضب كعب وفتح له؛ فقال: يا كعب! إنما جئتك بعزّ الدهر جئتك بقريش وسادتها، وغَطفان وقادتها؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه؛ فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام[1] لا غيث فيه! ويحك يا حُيَيّ؟ دَعْنِي فلستُ بفاعل ما تدعوني إليه؛ فلم يزل حُيَيّ بكَعْب يَعِده ويَغُرّه حتى رجع إليه وعاقده على خِذلان محمد ﷺ وأصحابه وأن يسير معهم، وقال له حُيَيّ بن أخطب: إن انصرفت قريش وغَطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود. فلما انتهى خبر كعب وحُيَيّ إلى النبيّ ﷺ بعث سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج، وسيّد الأوْسِ سعد بن معاذ، وبعث معهما عبد الله بن رَواحة وخَوّات بن جُبير، وقال لهم رسول الله ﷺ: «انطلقوا إلى بني قُريظة فإن كان ما قيل لنا حقاً فالْحنوا لنا لَحْناً ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس. وإن كان كذباً فاْجهروا به للناس» فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد له عندنا؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه؛ وكانت فيه حدّة فقال له سعد بن عُبادة: دع عنك مشاتمتهم، فالذي بيننا وبينهم أكثر من ذلك، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله ﷺ في جماعة المسلمين فقالا: عَضَل والقَارَة ـ يعرّضان بغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه ـ فقال النبيّ ﷺ: «أبشروا يا معشر المسلمين» وعظم عند ذلك البلاء واْشتدّ الخوف، وأتى المسلمين عدوّهم من فوقهم؛ يعني من فوق الوادي من قبل المشرق، ومن أسفل منهم من بطن الوادي من قبل المغرب، حتى ظنوا بالله الظنونا؛ وأظهر المنافقون كثيراً مما كانوا يسرّون، فمنهم من قال: إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها،

(١) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

فإنا نخاف عليها؛ وممن قال ذلك: أوْس بن قَيْظي. ومنهم من قال: يَعِدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقَيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: مُعَتِّب بن قُشير أحد بني عمرو بن عوف. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر لم يكن بينهم حَرْب إلا الرمي بالنَّبْل والحصى. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتدّ على المسلمين البلاء بعث إلى عُيَيْنة بن حِصن الفَزَاري، وإلى الحارث بن عوف المرِّي، وهما قائدا غَطَفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان ويخذلا قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقداً؛ فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضِيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما وآستشارهما فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبّه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال: «بل أمر أصنعه لكم، واللَّهِ ما أصنعه إلا أنّي قد رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، واللَّهِ لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمِعوا قَطّ أن ينالوا منا ثمرة إلا شِراء أو قِرًى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!! فسُرّ رسول الله ﷺ بذلك وقال: «أنتم وذاك». وقال لعيينة والحارث: «انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف». وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها.

الخامسة ـ فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون على حالهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ العامريّ من بني عامر بن لُؤَيّ، وعِكرمة بن أبي جهل، وهُبَيرة بن أبي وهب، وضِرار بن الخطاب الفهريّ، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع، وخرج علي بن أبي طالب

في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثّغْرة التي ٱقتحموا منها، وأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو بن عبد وُدّ قد أثبتته الجراح يوم بَدْر فلم يشهد أُحُداً، وأراد يوم الخندق أن يُرى مكانُه، فلما وقف هو وخيله؛ نادى: من يبارز؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب وقال له: يا عمرو، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدعَى إلى إحدى خَلّتين إلا أخذت إحداهما؟ قال نعم. قال: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فأدعوك إلى البراز. قال: يا بن أخي، والله ما أحبّ أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له: عليّ: أنا والله أحبّ أن أقتلك. فحَمِي عمرو بن عبد وُدّ ونزل عن فرسه، فعقره وصار نحو عليّ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما، فما ٱنجلى النَّقْع حتى رُئِيَ عليّ على صدر عمرو يقطع رأسه، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله عليّ اقتحموا بخيلهم الثُّغْرة منهزمين هاربين. وقال عليّ رضي الله عنه في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيِهِ ... ونصرتُ دِينَ محمد بِضراب[1]
نازلته[2] فتركته متجدِّلاً ... كالجِذْع بين دَكادكٍ ورَوَابي[3]
وعففتُ عن أثوابه ولو أنني ... كنت المقطَّرَ بَزَّنِي أثوابي[4]
لا تحسِبُنّ الله خاذلَ دينه ... ونبيِّه يا معشر الأحزاب

قال ابن هشام أكثر أهل العلم بالسير[5] يشك فيها لعليّ. قال ابن هشام: وألقى عِكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو؛ فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فرّ وألقَى لنا رُمْحَه ... لعلّك عِكرِمَ لم تَفْعلِ
وولّيت تَعْدُو كعَدْوِ الظَّلِـ ... ـيم ما إن تجور عن المَعْدِلِ
ولم تُلق ظهرك مستأنساً ... كأن قَفَاك قَفَا فُرْعُل

---

(١) في سيرة ابن هشام: «بصوابي». (٢) في سيرة ابن هشام: «فصددت حين تركته...».
(٣) المتجدّل: اللاصق بالأرض. والدكادك: جمع دكداك، وهو الرمل اللين. والروابي: جمع رابية، وهو ما ارتفع من الأرض. (٤) المقطر: الذي ألقى على أحد قطريه، أي جنبيه. وبزني: سلبني وجردني. (٥) في سيرة ابن هشام: «بالشعر».

قال ابن هشام: فرعل صغير الضباع. وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة، وأمُّ سعد بن معاذ معها، وعلى سعد درع مُقَلَّصة[١] قد خرجت منها ذراعه، وفي يده حربته وهو يقول:

لَبِّثْ قليلاً يلحق الهَيْجَا جَمَلْ لا بأس بالموت إذا كان الأجَلْ

ورُمي يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[٢]. واختلف فيمن رماه؛ فقيل: رماه حِبّان بن قيس بن العَرِقة[٣]، أحد بني عامر بن لؤيّ، فلما أصابه قال له: خذها وأنا ابن العَرِقة. فقال له سعد: عرّق الله وجهك في النار. وقيل: إن الذي رماه خفاجة بن عاصم بن حبان[٤]. وقيل: بل الذي رماه أبو أسامة الجُشَمِيّ، حليف بني مخزوم. ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره.

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: كنا يوم الأحزاب في حِصن حسان بن ثابت، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبيّ ﷺ وأصحابه في نحر العدوّ لا يستطيعون الانصراف إلينا، فإذا يهوديّ يدور، فقلت لحسان: انزل إليه فاقتله؛ فقال: ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب! فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فقتلته، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سَلَبه إلا أنه رجل. فقال: ما لي بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب! قال: فنزلت فسلبته. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السِّيَر وقالوا: لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم في الجاهلية والإسلام، ولَهُجِيَ بذلك ابنه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيراً ما يهاجي الناس من شعراء العرب؛ مثل النجاشي وغيره.

السادسة ـ وأتى رسول الله ﷺ نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعيّ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمُرْني بما شئت؛ فقال له

(١) مقلصة: مجتمعة منضمة.
(٢) الأكحل: عرق في وسط الذراع.
(٣) العرقة (بفتح العين وكسر الراء): أم حبان، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة، وسميت العرقة لطيب ريحها، وهي جدّة خديجة.
(٤) في «الأصول»: «جبارة» والتصويب عن «سيرة ابن هشام» و «شرح المواهب».

رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد من غَطَفان فلو خرجتَ فخذّلت عنّا إن استطعت كان أحبّ إلينا من بقائك[١] معنا فأخرج فإن الحرب خدعة»[٢]. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قُريظة ـ وكان ينادمهم في الجاهلية ـ فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم وُدّي إياكم، وخاصّة ما بيني وبينكم؛ قالوا: قل فلستَ عندنا بمتَّهَم؛ فقال لهم: إن قريشاً وغَطَفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإن قريشاً وغَطَفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نُهْزة[٣] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحِقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً. ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لهم: قد عرفتم وُدّي لكم معشرَ قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحق أن أبلِّغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عليّ؛ قالوا نفعل؛ قال: تعلمون أن معشر يهودَ، قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنا قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان [رجالاً من أشرافهم[٤] فنعطيكهم فتضرب] أعناقهم، ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غَطَفَان فقال مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قُرَيظة عِكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخُفّ والحافر، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمداً؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما نال منّا مَن تعدّى في السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا: صَدَقنا واللَّهِ نعيم بن مسعود؛ فردّوا

---

(١) في ك: «أن تقاتل معنا. وفي جـ: «مقامك».

(٢) قوله: «خدعة» في النهاية لابن الأثير: «يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدّال، ويضمها مع فتح الدال. فالأوّل معناه: أن الحرب ينقضي أمرها بخدعة واحدة من الخداع؛ أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة. وهي أفصح الروايات وأصحها. ومعنى الثاني: هو الاسم من الخداع. ومعنى الثالث: أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفي لهم، كما يقال: فلان رجل لعبة وضحكة؛ أي كثير اللعب والضحك.

(٣) النهزة: الفرصة تجدها من صاحبك.

(٤) ما بين المربعين كذا ورد في ك. والذي في جـ، ش: «. . . وغطفان رهنا رجالاً ونسلمهم».

إليهم الرسل وقالوا: والله لا نعطيكم رهناً أبداً فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم. فقال بنو قريظة: صدق واللَّهِ نعيم بن مسعود. وخذل الله بينهم، واختلفت كلمتهم، وبعث الله عليهم رِيحاً عاصفاً في ليالٍ شديدة البرد؛ فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم.

السابعة ـ فلما اتصل برسول الله ﷺ اختلاف أمرهم، بعث حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبرهم، فأتاهم واستتر في غمارهم[١]، وسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليتعرّف كل امرىء جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد جليسي وقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا فلان. ثم قال أبو سفيان: ويلكم يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخُفّ[٢] وأخلفتنا بنو قُريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترون، ما يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإني مرتحل؛ ووثب على جمله فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم. قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله ﷺ لي إذ بعثني، قال لي: «مُرّ إلى القوم فاعلم ما هم عليه ولا تحدِث شيئاً» ـ لقتلته بسهم، ثم أتيت رسول الله ﷺ عند رحيلهم، فوجدته قائماً يصلّي في مِرْطٍ لبعض نسائه مراجل ـ قال ابن هشام: المراجل ضرب من وَشْي اليمن ـ فأخبرته فحمِد الله.

قلت: وخبر حذيفة هذا مذكور في «صحيح مسلم»، وفيه آيات عظيمة، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمِيّ عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتَلْت معه وأبلَيْت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك! لقد رأيتُنَا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقرّ. فقال رسول الله ﷺ: «ألاَ رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة»؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة»؟ فسكتنا فلم يجبه أحد. فقال: «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بُدًّا إذ دعاني بأسمي أن أقوم. قال: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذْعَرْهم[٣] عليّ» قال: فلما وَلّيت من عنده جعلت كأنما

---

(١) مثلث الغين.

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل. والخف: اسم يجمع الإبل.

(٣) الذعر: الفزع، يريد لا تعلمهم بنفسك وأمش في خفية لئلا ينفروا منك ويقبلوا عليّ.

أمشي في حَمّام[١] حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كَبِد القَوس فأردت أن أرْمِيَه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تَذْعَرهم عليّ» ولو رميته لأصبته: فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرت، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «قم يا نَوْمَان». ولما أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل ﷺ في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له: يا محمد، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها. إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظة، وإني متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فأمر رسول الله ﷺ وهي:

الثامنة ـ منادياً فنادى: لا يصلّيَنّ أحد العصر إلا في بني قُريظة؛ فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قُريظة. وقال آخرون: لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنّف واحداً من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين. وقد مضى بيانه في ﴿الأنبياء﴾[٢]. وكان سعد بن معاذ إذْ أصابه السهم دعا ربه فقال: اللَّهُم إن كنت أبقيْتَ من حرب قريش فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه. اللَّهُمّ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تُمِتْني حتى تقرّ عيني في بني قُريظة. وروى ابن وهب عن مالك قال: بلغني أن سعد بن معاذ مَرّ بعائشة رضي الله عنها ونساء معها في الأُطم[٣] (فارع)[٤]، وعليه دِرع مُقَلّصة[٥] مشمّر الكُمّين، وبه أثر صفرةٌ وهو يرتجز:

لَبّثْ قليلاً يُدْرك الهَيْجا جَمَلْ   لا بأس بالموت إذ حان الأَجَلْ

---

(١) يقول: كأنما أمشي في حرّ لم يصبني برد ولا من تلك الريح الشديدة شيء ببركة توجيه النبيّ ﷺ.
(٢) راجع ١١/٣١١. (٣) الأطم: حصن مبني بحجارة.
(٤) في «الأصول»: «في الأطم الذي فارع». وفارع حصن بالمدينة، يقال إنه حصن حسان بن ثابت.
(٥) مقلصة: مجتمعة منضمة.

فقالت عائشة رضي الله عنها: لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا في أطرافه؛ فأصيب في أَكْحَله. وروى ٱبن وهب وٱبن القاسم عن مالك قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله ﷺ. فأصيب في أكحله ثم قال: اللهم إن كان حرب قُريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءه؛ فلما حُكّم في بني قُريظة تُوُفِّيَ؛ ففرح الناس وقالوا: نرجو أن يكون قد ٱستجيبت دعوته.

التاسعة ـ ولما خرج المسلمون إلى بني قُريظة أعطى رسول الله ﷺ الراية عليّ بن أبي طالب، وٱستخلف على المدينة ٱبن أمّ مَكْتوم، ونهض عليّ وطائفة معه حتى أتوا بني قريظة ونازلوهم، فسمعوا سبّ الرسول ﷺ، فانصرف عليّ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، لا تبلغ إليهم، وعَرّض له. فقال له: «أظنك سمعت منهم شتمي. لو رأوني لكفّوا عن ذلك» ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا. فقال لهم: «نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته» فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا؛ ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة. وعرض عليهم سيّدهُم كعب ثلاثَ خصال ليختاروا أيّها شاءوا: إما أن يسلمُوا ويتبعوا محمداً على ماجاء به فيسلَموا. قال: وتحرزوا أموالكمَ ونساءكم وأبناءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوباً في كتابكم. وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا؛ فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم. وإما أن يبيّتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً. فقالوا له: أما الإسلام فلا نُسلم ولا نخالف حكم التوراة، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم، ونحن لا نتعدّى في السبت. ثم بعثوا إلى أبي لُبابة، وكانوا حلفاء بني عمرو بن عوف وسائر الأوْس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال نعم، ـ وأشار بيده إلى حَلْقه ـ إنه الذبح إن فعلتم. ثم ندم أبو لبابة في الحين، وعلم أنه خان الله ورسوله، وأنه أمرٌ لا يستره الله عليه عن نبيّه ﷺ.

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيّ ﷺ فربط نفسه في سارِية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تَحُلّه لوقت كل صلاة. قال ابن عُيينة وغيره: فيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[١] الآية. وأقسم ألاّ يدخل أرض بني قُريظة أبداً مكاناً أصاب فيه الذنب. فلما بلغ ذلك النبيّ ﷺ من فعل أبي لُبابة قال: «أمَا إنه لو أتاني لاستغفرت له وأما إذْ فعل ما فعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى» فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾[٢] الآية. فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثب الأوْس إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، وقد علمتَ أنهم حلفاؤنا، وقد أسعَفتَ[٣] عبد الله بن أُبيّ بن سلول في بني النَّضِير حلفاء الخَزْرج، فلا يكن حظُّنا أوْكَسَ وأنقص عندك من حَظّ غيرنا، فهم موالينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر الأوس ألاَ ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ـ قالوا بلى. قال ـ: ـ فذلك إلى سعد بن معاذ». وكان رسول الله ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد، ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق. فحكم فيهم بأن تُقتل المقاتِلة، وتُسْبَى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة»[٤] . وأمر رسول الله ﷺ فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم ـ زمن ابن إسحاق ـ فخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وقتل يومئذ حييّ بن أخْطب وكعب بن أسد، وكانا رأس القوم، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حُيَيّ حُلّة فُقّاحِيّه[٥] قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة ، أنملة أنملة لئلا يُسْلَبها . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ

(١) راجع ٧/ ٣٩٤.
(٢) راجع ٨/ ٢٤٢.
(٣) الأسعاف: قضاء الحاجة.
(٤) أرقعة جمع رقيع، والرقيع السماء؛ سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم.
(٥) أي بلون الورد حين أن يتفتح.

حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال: أمَا والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك.

ولكنـــه مـــن يخـــذل الله يخـــذل

ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس بأمر الله كتاب وقَدَر ومَلْحمة[1] كُتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه. وقتل من نسائهم امرأة، وهي بُنانة امرأة الحكم القُرَظِيّ التي طرحت الرّحَى على خَلّاد بن سُويد فقتلته. وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم يُنبت. وكان عطية القُرَظِيّ ممن لم ينبت، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة. ووَهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمّاس ولدَ الزُّبير بن باطا فاستحياهم؛ منهم عبد الرحمن بن الزُّبير أسلم وله صحبة. وَوَهَب أيضاً عليه السلام رفاعة بن سَمَوْأل القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس، أخت سَليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلّت إلى القبلتين؛ فأسلم رفاعة وله صحبة ورواية. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أتى ثابت بن قيس بن شمّاس إلى ابن باطا ـ وكانت له عنده يد ـ وقال: قد استوهبتك من رسول الله ﷺ ليدك التي لك عندي، قال: ذلك يفعل الكريم بالكريم، ثم قال: وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل؟ قال: فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأعطاه أهله وولده؛ فأتى فأعلمه فقال: كيف يعيش رجل لا مال له؟ فأتى ثابت النبيّ ﷺ فطلبه فأعطاه ماله، فرجع إليه فأخبره؛ قال: ما فعل ابن أبـي الحُقَيق الذي كأن وجهه مرآة صينية؟ قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان، يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قُريظة؟ قال: قتلوا. قال: فما فعلت الفئتان؟ قال: قتلتا. قال: برئت ذمتك، ولن أصبّ فيها دلواً أبداً، يعني النخل، فألحقني بهم، فأبـى أن يقتله فقتله غيره. واليد التي كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعاث فجز ناصيته وأطلقه.

(١) الملحمة: الوقعة العظيمة القتل.

العاشرة ـ وقسم ﷺ أموال بني قُريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً. وقد قيل: للفارس سهمان وللراجل سهم. وكانت الخيل للمسلمين يومئذٍ ستة وثلاثين فرساً. ووقع للنبي ﷺ من سَبْيِهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة[١] أحد بني عمرو بن قُريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات ﷺ. وقيل: إن غَنيمة قريظة هي أوّل غنيمة قسّم فيها للفارس والراجل، وأوّل غنيمة جعل فيها الخُمس. وقد تقدّم أن أوّل ذلك كان في بعث عبد الله بن جَحْش؛ فالله أعلم. قال: أبو عمر: وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أوّلَ غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[٢] الآية. وكان عبد الله بن جَحْش قد خمّس قبل ذلك في بعثه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأوّل ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة. فلما تمّ أمر بني قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه، وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات رضي الله عنه. وهو الذي أتى الحديث فيه: «اهتزّ لموته عَرْشُ الرّحمن» يعني سكان العرش من الملائكة فرِحوا بقدوم روحه واهتزُّوا له. وقال ابن القاسم عن مالك: حدّثني يحيى بن سعيد قال: لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملَك، ما نزلوا إلى الأرض قبلها. قال مالك: ولم يستشهد يوم الخَنْدق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة.

قلت: الذي استُشْهِد يوم الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد بن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل، وأنس بن أوْس بن عتيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضاً من بني عبد الأشهل، والطّفيل بن النعمان، وثعلبة بن غَنَمَة[٣]، وكلاهما من بني سلمة، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ[٤] فقتله، رضي الله عنهم.

---

(١) ويقال: فيه «خنافة» بالخاء المعجمة. (٢) راجع ٨/١.

(٣) في «المواهب اللدنية» و«الإصابة»: «ثعلبة بن عنمة بفتح العين المهملة والنون».

(٤) قال ابن هشام: «سهم غرب، وسهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذي لا يعرف من أين جاء ولا من رمى به».

وقتل من الكفار ثلاثة: منبّه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم مات منه بمكة. وقد قيل: إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق. ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، اقتحم الخندق فتورّط فيه فقتِل، وغلب المسلمون على جسده؛ فروي عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله ﷺ في جسده عشرة آلاف درهم فقال: «لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه» فخلّى بينهم وبينه. وعمرو بن [عبد] ودّ الذي قتله عليٌّ مبارزة، وقد تقدّم. واستشهد يوم قُريظة من المسلمين خَلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج؛ طرحت عليه امرأةٌ من بني قُريظة رحى فقتلته. ومات في الحصار أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان الأسدي، أخو عُكاشة بن مِحْصَن، فدفنه رسول الله ﷺ في مقبرة بني قُريظة التي يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم. ولم يُصب غير هذين، ولم يغزُ كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق. وأسند الدارِميّ أبو محمد في مسنده: أخبرنا يزيد بن هارون عن ابن أبي ذِئب عن المَقْبُرِيّ عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن أبيه قال: حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هَوِيّ[1] من الليل حتى كفينا؛ وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ فأمر النبي ﷺ بلالاً فأقام فصلّى الظهر فأحسن كما كان يصليها في وقتها، ثم أمره فأقام العصر فصلّاها، ثم أمره فأقام المغرب فصلّاها، ثم أمره فأقام العشاء فصلّاها، وذلك قبل أن ينزل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾[2] خرّجه النسائي أيضاً. وقد مضت هذه المسألة في ﴿طه﴾[3]. وقد ذكرنا في هذه الغَزاة أحكاماً كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر. ثم نرجع إلى أوّل الآي وهي تسع عشرة آية تضمّنت ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب. ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ قال مجاهد: هي الصَّبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم. قال: والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذٍ. وقال عِكْرِمة: قالت الجنوب للشَّمال ليلة الأحزاب:

---

(١) الهوي (بالفتح): الزمان الطويل. (٢) راجع ٣/ ٢٢٣. (٣) راجع ١١/ ١٨٠.

انطلقي لنصرة النبيّ ﷺ، فقالت الشَّمال: إن مَحْوَةَ[1] لا تسرِي بليل. فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصَّبا. وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «نُصرت بالصَّبا وأهلِكت عادٌ بالدَّبور». وكانت هذه الريح معجزة للنبيّ ﷺ؛ لأن النبيّ ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم بها. ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقرىء بالياء؛ أي لم يرها المشركون. قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة. فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرُّعْب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر؛ حتى كان سيّدُ كل خباء يقول: يا بني فلان هُلُمّ إليّ فإذا ٱجتمعوا قال لهم: النّجاءَ النّجاءَ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ وقرىء: ﴿يعملون﴾ بالياء على الخبر، وهي قراءة أبي عمرو. الباقون بالتاء؛ يعني من حفر الخندق والتحرز من العدوّ.

[١٠] ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب بمعنى واذكر. وكذا ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾. ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قبل المشرق، جاء منه عَوْف بن مالك في بني نصر، وعيينة بن حِصْن في أهل نجد، وطُليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة، ويزيد بن جَحْش على قريش، وجاء أبو الأعور السُّلَمي ومعه حُيَيّ بن أخطب اليهودي في يهود بني قُريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ أي شَخَصت. وقيل: مالت؛ فلم تلتفت إلا إلى

---

(١) محوة: من أسماء الشمال؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب بها، وهي معرفة لا تنصرف، ولا تدخلها ألف ولام.

عدوّها دَهَشاً من فرط الهَوْل. ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم، واحدها حنجرة؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة. وقيل: هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد؛ قال[1]:

إذا مـا غَضِبْنَـا غَضْبَـةً مُضَـرِيَّـة ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَمَا

أي كادت تقطر. ويقال: إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سَحْره. وقيل: إنه مثل مضروب في شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة. قال معناه عكرمة. روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: بلغ فزعها. والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه، أي كأنه لشدّة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحنجرة والحُنجور (بزيادة النون) حرف الحلق. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون. وقيل: هو خطاب للمنافقين؛ أي قلتم هلك محمد وأصحابه. وٱختلف القرّاء في قوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا، والرسولا، والسبيلا﴾ آخر السورة؛ فأثبت ألفاتها في الوقف والوصل نافع وابن عامر. ورروي عن أبي عمرو والكسائي تمسكاً بخط المصحف، مصحف عثمان، وجميع المصاحف في جميع البلدان. وٱختاره أبو عبيد؛ إلا أنه قال: لا ينبغي للقارىء أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن. قالوا: ولأن العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريعها؛ قال:

نحن جلبنا القُرّح[2] القوافِلاَ ... تستنفـر الأواخـرُ الأوائـلا

وقرأ أبو عمرو والجحدريّ ويعقوب وحمزة بحذفها في الوصل والوقف معاً. قالوا: هي زائدة في الخط كما زيدت الألف في قوله تعالى: ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ﴾[3] فكتبوها كذلك، وغير هذا. وأما الشعر فموضع ضرورة، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه. قال ٱبن الأنباري: ولم يخالف المصحف من قرأ. ﴿الظنون. والسبيل. والرسول﴾ بغير ألف

(١) القائل هو بشار بن برد. (٢) القرح: جمع القارح، وهي الناقة أوّل ما تحمل.
(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف. ﴿ولا أوضعوا﴾ بزيادة ألف.

في الحروف الثلاثة، وخطّهن في المصحف بألف لأن الألف التي في ﴿أطعنا﴾ والداخلة في أوّل ﴿الرسول. والظنون. والسبيل﴾ كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ ألفُ أبـي جادٍ من ألف هوّاز. وفيه حجة أخرى: أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحق دِعامة للحركة التي تسبق والنية فيه السقوط؛ فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَهما ويعمل على أن صورة الألف في الخط لا توجب موضعاً في اللفظ، وأنها كالألف في ﴿سٰحِران﴾ وفي ﴿فَٰطِر السموات والأرض﴾ وفي ﴿وٰعَدْنَا مُوسى﴾ وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود في اللفظ[1]، وهو مسقط من الخط. وفيه حجة ثالثة هي أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا. وقرىء على لغة من يقول: لقيت الرجل، بغير ألف. أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرّجلُو، بواو، ومررت بالرجلى، بياء، في الوصل والوقف. ولقيت الرجلا؛ بألف في الحالتين كلتيهما. قال الشاعر:

أسـائلـةٌ عُميـرةُ عـن أبيهـا ... خلالَ الجيش تَعْتَرِف الرّكابا[2]

فأثبت الألف في ﴿الركاب﴾ بناءً على هذه اللغة. وقال الآخر:

إذا الجـوزاء أردفـت الثـريـا ... ظننـت بـآل فـاطمـة الظنـونـا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره. وقرأ ابن كثير وابن محيْصِن والكسائيّ بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل. قال ابن الأنباريّ: ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصاً على بقاء الفتحة، وأن الألف تدعمها وتقوّيها.

[١١] ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿هنا﴾ للقريب من المكان. و ﴿هنالك﴾ للبعيد. و ﴿هناك﴾ للوسط. ويشار به إلى الوقت؛ أي عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق. وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال. ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أي حرّكوا تحريكاً.

---

(١) في «الأصول»: «وهو موجود في اللفظ ويثبت في اللفظ وهو...».
(٢) البيت لبشر بن أبـي خازم. واعترف القوم: سألهم..

قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح؛ نحو قلقلته قِلقالا وقَلقالاً، وزلزلوا زِلزالاً وزَلزالاً. والكسر أجود؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دِحراجاً. وقراءة العامة بكسر الزاي. وقرأ عاصم والجحدريّ ﴿زَلزالا﴾ بفتح الزاي. قال ابن سلام: أي حرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً. وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق. وقيل: إنه ٱضطرابهم عما كانوا عليه؛ فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه. و ﴿هنالِك﴾ يجوز أن يكون العامل فيه ﴿ٱبْتُلِيَ﴾ فلا يوقف على ﴿هنالك﴾. ويجوز أن يكون ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُّونَا﴾ فيوقف على ﴿هنالك﴾.

[١٢] ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق. ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ أي باطلاً من القول. وذلك أن طُعْمة بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب بن قُشير وجماعة نحو من سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق: كيف يَعِدُنا كنوزَ كِسْرى وقَيْصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز؟ وإنما قالوا ذلك لمّا فَشَا في أصحاب النبيّ ﷺ من قوله عند ضرب الصخرة، على ما تقدم في حديث النسائيّ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

[١٣] ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه. وعُنِي به هنا أوْس بن قَيْظِيّ والد عَرَابة بن أوس؛ الذي يقول فيه الشماخ:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمَجْد تلقّاها عَرابةُ باليمين

و ﴿يَثْرِب﴾ هي المدينة؛ وسَمّاها رسول الله ﷺ طَيْبة وطابة. وقال أبو عبيدة: يثرب اسم أرض، والمدينة ناحية منها. السُّهَيْلِيّ: وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف[1]. وبنو عميل[2] هم الذين سكنوا الجُحْفَة فأجحفت بهم السيول فيها. وبها سميت الجحفة. ﴿لاَ مُقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم قراءة العامّة. وقرأ حفص والسُّلَمي والجحدري وأبو حَيْوَةَ: بضم الميم؛ يكون مصدراً من أقام يقيم، أي لا إقامة، أو موضعاً يقيمون فيه. ومن فتح فهو اسم مكان؛ أي لا موضع لكم تقيمون فيه. ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى منازلكم. أمروهم بالهروب من عسكر النبيّ ﷺ. قال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأصحابِهِ من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة بن الحارث، في قول ابن عباس. وقال يزيد بن رُومان: قال ذلك أوس بن قَيظِيّ عن ملأ من قومه. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهي مما يلي العدوّ. وقيل: مُمْكِنة للسرّاق لخلوها من الرجال. يقال: دارٌ مُعْوِرة وذات عَوْرة إذا كان يسهل دخولها. يقال: عَوِر المكان عَوَراً فهو عَوِر. وبيوت عَوِرة. وأعْور فهو مُعوِر. وقيل: عَوِرة ذات عَوْرة. وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرة؛ قاله الهرَوِيّ. وقرأ ابن عباس وعِكرمة ومجاهد وأبو رجاء العُطارِديّ: ﴿عَوِرة﴾ بكسر الواو؛ يعني قصيرة الجدران فيها خلل. تقول العرب: دار فلانٍ عَوِرة إذا لم تكن حصينة. وقد أعور الفارِس إذا بَدَا فيه خَلَل للضرب والطعن؛ قال الشاعر:

متى تَلْقَهم لم تَلْقَ في البيت مُعْوِراً ... ولا الضيفَ مفجوعاً ولا الجار مُرْمِلاً

---

(١) في كتاب «معجم البلدان» لياقوت: «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام».

(٢) في «معجم البلدان»: «وقال الكلبي: إن العماليق أخرجوا بني عقيل وهم إخوة عاد فنزلوا الجحفة...».

الجوهريّ: والعَوْرة كل خلل يُتَخَوَّف منه في ثَغر أو حرب. النحاس: يقال أعور المكان إذا تُبُيِّنت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تُبُيِّن فيه موضع الخلل. المهدوِيّ: ومن كسر الواو في ﴿عورة﴾ فهو شاذ؛ ومثله قولهم: رجل عوِر[١]؛ أي لا شيء له، وكان القياس أن يُعَلّ فيقال: عارٍ؛ كيوم راحٍ[٢]، ورجلٍ مالٍ؛ أصلهما روِح ومولِ. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيباً لهم ورداً عليهم فيما ذكروه. ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ أي ما يريدون إلا الهرب. قيل: من القتل. وقيل: من الدِّين. وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار: بني حارِثة وبني سَلِمة؛ وهَموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾[٣] الآية. فلما نزلت هذه الآية قالوا: واللَّهِ ما ساءنا ما كنا هممنا به؛ إذ اللَّهُ ولِيُّنا. وقال السدي: الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما ـ أبو عَرابة بن أوس، والآخر أوْس بن قَيْظِيّ. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه.

[١٤] ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ وهي البيوت أو المدينة؛ أي من نواحيها وجوانبها، الواحد قُطْر، وهو الجانب والناحية. وكذلك القُتْر لغة في القطر. ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأَتَوْهَا﴾ أي لجاؤوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر. وقرأ الباقون بالمدّ؛ أي لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقد جاء في الحديث: أن أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يعذَّبون في الله ويُسألون الشرك، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلا بلالاً. وفيه دليل على قراءة المدّ، من الإعطاء. ويدل على قراءة القصر قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ

---

(١) اضطربت الأصول هنا؛ فقد ذكر في ش: «رجل أعور أي لا شيء له». وفي جـ: «رجل عور كور...» بالكاف. وفي ك: «رجل عور لور...» باللام. ولعل الكلمة الأخيرة اتباع؛ على أننا لم نجدها في مظانها.

(٢) أي ذو ريح وذو مال. (٣) راجع ٤/ ١٨٥.

لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾؛ فهذا يدل على ﴿لأَتَوْهَا﴾ مقصوراً. وفي ﴿الفتنة﴾ هنا وجهان: أحدهما ـ سئلوا القتال في العصبية لأسرعوا إليه؛ قاله الضحاك. الثاني ـ ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا؛ قاله السُّدِّي والقُتَيبيّ والحسن والفراء. وقال أكثر المفسرين: أي وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ولأجابوا بالشرك مسرعين؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

[١٥] ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل غزوة الخندق وبعد بدر. قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ. وقال يزيد بن رُومان: هم بنو حارثة، هَمُّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بني سَلِمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم. ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ أي مسؤولاً عنه. قال مقاتل والكَلْبي: هم سبعون رجلاً بايعوا النبيّ ﷺ ليلة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك ولربّك ما شئت. فقال: « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم ». فقالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك يا نبيّ الله؟ قال: « لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ». فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ أي أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة.

[١٦] ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أي مَن حضر أجلُه مات أو قُتل؛ فلا ينفع الفِرار. ﴿ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي في الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضي آجالكم؛ وكل ما هو آتٍ فقريب. وروى السّاجي عن يعقوب الحضرميّ ﴿ وَإِذاً لاَ يُمَتَّعُونَ ﴾ بياء. وفي بعض الروايات ﴿وإذا لا تمتعوا ﴾ نصب بـ﴿ إذاً ﴾ والرفع بمعنى ولا تمتعون. و﴿ إذاً ﴾ ملغاة، ويجوز إعمالها. فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء. فإذا كانت مبتدأة نَصَبْت بها فقلت: إذاً أكرمَك.

[١٧] ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي يمنعكم منه. ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً ﴾ أي هلاكاً. ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أي خيراً ونصراً وعافية، ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُون اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ﴾ أي لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم.

[١٨] ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أي المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبيّ ﷺ؛ وهو مشتق من عاقني عن كذا أي صرفني عنه. وعوّق، على التكثير ﴿ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ على لغة أهل الحجاز. وغيرهم يقولون: ﴿ هَلُمُّوا ﴾ للجماعة، وهَلُمِّي للمرأة؛ لأن الأصل: «ها» التي للتنبيه ضُمت إليها «لَمَّ» ثم حذفت الألف استخفافاً وبُنيت على الفتح. ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف. ومعنى «هَلُم» أقبل؛ وهؤلاء طائفتان؛ أي منكم من يثبّط ويعوّق. والعوق المنع والصرف؛ يقال: عاقه يعوقه عوقاً، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد. قال مقاتل: هم عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه المنافقون.

﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ﴾ فيهم ثلاثة أقوال: أحدها ـ أنهم المنافقون؛ قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أُكلة[1] رأس، وهو هالك ومن معه، فهلم إلينا. الثاني ـ أنهم اليهود من بني قُريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا؛ أي تعالوا إلينا وفارقوا محمداً فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظَفَر لم يُبق منكم أحداً. والثالث ـ ما حكاه ابن زيد: أن رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ بين الرماح والسيوف؛ فقال أخوه ـ وكان من أمّه وأبيه ـ: هلم إليّ، قد تُبع بك وبصاحبك؛ أي قد أحيط بك وبصاحبك. فقال له: كذبت، والله لأخبرنه بأمرك؛ وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ . ذكره الماوَرْدي والثعلبي أيضاً . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبيّ ﷺ فوجد أخاه بين يديه رغيف وشِواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟ فقال : هَلُمّ إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذي تحلف به لا يستقلّ بها محمد أبداً . فقال: كذبت . فذهب إلى النبيّ ﷺ يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رِياءً وسُمْعة.

[١٩] ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم؛ أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم.

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد؛ وهو جمع آكل.

وقيل: أشِحّةً بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السدي. وانتصب على الحال. قال الزجاج: ونصبه عند الفرّاء من أربعة جهات: إحداها ـ أن يكون على الذم؛ ويجوز أن يكون عنده نصباً بمعنى يعوّقون أشحة. ويجوز أن يكون التقدير: والقائلين أشحة. ويجوز عنده [﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أشحة؛ أي أنّهم يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة[1]]. النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه ﴿المعوقين﴾ ولا ﴿القائلين﴾؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول. ابن الأنباري: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ غير تام؛ لأن ﴿أَشِحَّةً﴾ متعلق بالأول، فهو ينتصب من أربعة أوجه: أحدها ـ أن تنصبه على القطع من ﴿المعوّقين﴾ كأنه قال: قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشِحون عن الإنفاق على فقراء المسلمين. ويجوز أن يكون منصوباً على القطع من ﴿القائلين﴾ أي وهم أشحة. ويجوز أن تنصبه على القطع مما في ﴿يأتون﴾؛ كأنه قال: ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء. ويجوز أن تنصب ﴿أشحة﴾ على الذمّ. فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾. ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ وقف حسن. ومثله ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ حال من المضمر في ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ وهو العامل فيه. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وصفهم بالجبن؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدّداً بصره، وربما غشي عليه. وفي ﴿الْخَوْف﴾ وجهان: أحدهما ـ من قتال العدوّ إذا أقبل؛ قاله السدّى. الثاني ـ الخوف من النبيّ ﷺ إذا غلب؛ قاله ابن شجرة. ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ خوفاً من القتال على القول الأول. ومن النبيّ ﷺ على الثاني. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة. وقيل: لشدّة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكى الفراء ﴿صلقوكم﴾ بالصاد. وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق إذا كان بليغاً. وأصل الصلق الصوت؛ ومنه قول النبيّ ﷺ: «لعن الله الصالقة والحالقة والشاقّة». قال الأعشى:

---

(١) ما بين المربعين من كتاب «النحاس» وهو واضح. وعبارة الأصول: «ولا يأتون البأس إلا قليلاً، يأتونه أشحة؛ أي أشحة على الفقراء بالغنيمة جبناء».

فيهم المجد والسماحة والنّجـ ـدَةُ فيهم والخاطب السَّلاق[١]

قال قتادة: ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم. فعند الغنيمة أَشَحُّ قومٍ وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قومٍ وأخوفهم. قال النحاس: هذا قول حسن؛ لأن بعده ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾[٢]. وقيل: المعنى بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم. وقال القتبي: المعنى آذوكم بالكلام الشديد. السّلق: الأذى. ومنه قول الشاعر:

ولقـــد سلقنـــا هـــوازنـــا بنـــواهـــلٍ حتـــى انحنينـــا

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله؛ قاله السدّي. ﴿أولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم الكُفر[٣]. ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لم يثبهم عليها؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ يحتمل وجهين: أحدهما ـ وكان نفاقهم على الله هَيّناً. الثاني ـ وكان إحباط عملهم على الله هيّناً.

[٢٠] ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي لجبنهم؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا في السير. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال. ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوْا أن يكونوا مع الأعراب حَذَراً من القتل وتربُّصاً للدوائر. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف ﴿لَو أنهم بُدًّى فِي الأعرابِ﴾؛ يقال: بادٍ وبُدًّى؛ مثل غازٍ وغُزًّى. ويُمَدّ مثل صائم وصوّام. بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى «المسلاق». (٢) في الأصول: «أشحة عليكم».
(٣) عبارة الأصول: «لوصف الله عز وجل بالكفر» وهو خطأ.

إلى البادية . وهي البِداوة والبَداوة ؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدْو وهو الظهور . ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب في رواية رُوَيس ﴿ يتساءلون عن أنبائكم ﴾ أي عن أخبار النبيّ ﷺ . يتحدّثون : أمَا هلك محمد وأصحابه! أمَا غلب أبو سفيان وأحزابه ! أي يودّوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أي هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين ، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَو كَانُوا فيكُمْ مَا قَاتَلُوا إلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي رمياً بالنّبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة؛ ولو كان ذلك لِلَّهِ لكان قليله كثيراً.

[٢١] ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال؛ أي كان لكم قدوة في النبيّ ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق. والأسوة القدوة. وقرأ عاصم ﴿أُسوة﴾ بضم الهمزة. الباقون بالكسر؛ وهما لغتان. والجمع فيهما واحد عند الفرّاء. والعلة عنده في الضم على لغة من كسر في الواحدة؛ الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون كِسْوة وكُساً، ولِحية ولحىً. الجوهريّ: والأُسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان. والجمع أُسَى وإسَى. وروى عقبة بن حسان الهجري عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع النبيّ ﷺ ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسّى به ؛ أي يُتعزَّى به. فيقتَدي به في جميع أفعاله ويتعزّى به في جميع أحواله ؛ فلقد شُجّ وجهه، وكسرت رباعيته،

وقُتل عمه حمزة، وجاع بطنه، ولم يُلْفَ إلا صابراً محتسِباً، وشاكراً راضياً. وعن أنس بن مالك عن أبـي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا [عن بطوننا][(١)] عن حَجَر حجر؛ فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث غريب. وقال ﷺ لما شُجّ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وقد تقدّم. ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ والْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانـه ويصدّق بالبعث الذي فيـه جزاء الأفعال. وقيل: أي لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر. ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب ﴿ يرجو ﴾ إلا بغير ألف إذا كان لواحد؛ لأن العلة التي في الجمع ليست في الواحد. ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ خوفاً من عقابه، ورجاء لثوابه. وقيل: إن ﴿لِمَنْ﴾ بدل من قوله ﴿ لَكُمْ ﴾ ولا يجِيزه البصريون؛ لأن الغائب لا يبدل من المخاطب، وإنمـا اللام مـن ﴿ لِمن ﴾ متعلقـة بـ ﴿ حسنة ﴾ ، و ﴿ أُسْوة ﴾ اسم ﴿ كَانَ ﴾ و ﴿ لَكُمْ ﴾ الخبر. وٱختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين: أحدهما - المنافقون؛ عطفاً على ما تقدّم من خطابهم. الثاني - المؤمنون؛ لقوله: ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾.

وٱختلف في هذه الأسوة بالرسول عليه السلام، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؛ على قولين: أحدهما - على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب. الثاني - على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب. ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

[٢٢] ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ ومن العرب من يقول: ﴿راء﴾ على القلب. ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ يريد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زيادة عن سنن الترمذي.

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[1] الآية. فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ قاله قتادة. وقول ثانٍ رواه كُثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ـ يعني على قصور الحيرة ومدائن كِسرى ـ فأبشروا بالنصر» فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صادق؛ إذ وُعدنا بالنصر بعد الحصر. فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ذكره الماوردي. و ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ إن جعلت ﴿ما﴾ بمعنى الذي فالهاء محذوفة. وإن جعلتها مصدراً لم تحتج إلى عائد ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب. وقال علي بن سليمان: ﴿رأى﴾ يدل على الرؤية، وتأنيث الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتسليماً للقضاء، قاله الحسن. ولو قال: ما زادوهم لجاز. ولما اشتدّ الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام عليه السلام على التّل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : «من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة» فلم يجبه أحد. وقال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: «من هذا»؟ فقال حذيفة. فقال: «ألم تسمع كلامي منذ الليلة»؟ قال حذيفة: فقلت يا رسول الله، منعني أن أجيبك الضُّرّ والقُرّ . قال : « انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إليّ، انطلق ولا تحدِث شيئاً حتى تأتيني». فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف هَمي وغَمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابـي». فنزل جبريل وقال: «إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوّك» فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : « شكراً شكراً كما رحِمتني ورحِمت أصحابي » . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً؛ فبشّر أصحابه بذلك.

---

(١) راجع ٣/ ٣٣.

قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء. وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاءَ النجاءَ! وفعل كذلك عُيينة بن حِصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس. وتفرّقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة وبه من الشّعَث ما شاء الله؛ فجاءته فاطمة بغَسول فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: «وضعتَ السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء ـ ثم قال ـ انهض إلى بني قريظة». وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الرَّوْحاء.

[٢٣] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصَلُح الابتداء بالنكرة لأن ﴿صَدَقُوا﴾ في موضع النعت. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾. ﴿مَن﴾ في موضع رفع بالابتداء. وكذا ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ والخبر في المجرور. والنَّحْب: النذر والعهد؛ تقول منه: نَحَبت أنْحُب؛ بالضم. قال الشاعر:

وإذا نحبت كَلْبٌ على الناس إنهم ... أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر:

قد نحب المجدُ علينا نَحْبَا[١]

وقال آخر:

أنَحْبٌ فيقضي أم ضلالٌ وباطلُ[٢]

---

(١) قبله:
يا عمرو يا ابْنَ الأكرمين نسبا

(٢) هذا عجز بيت للبيد، وصدره:
ألا تسألان المرء ماذا يحاول

وروى البخاريّ ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال عمّي أنس بن النَّضْر ـ سُمِّيت به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكَبُر عليه فقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غِبتُ عنه، أما واللهِ لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد لَيَرَيَنّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد من العام القابل، فاستقبله سعد بن مالك فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واهاً[١] لريح الجنة! أجدها دون أُحُد؛ فقاتل حتى قُتل، فوجِد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية. فقالت عَمّتي الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببَنانه. ونزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ لفظ الترمذيّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية: منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله ﷺ حتى أصيبت يده؛ فقال النبيّ ﷺ: «أوْجب[٢] طلحة الجنة». وفي الترمذيّ عنه: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيّ جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته، يوقرونه ويهابونه؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه؛ ثم إني اطّلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر، فلما رآني النبيّ ﷺ قال: «أين السائل عمن قضى نحبه»؟ قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قضى نَحْبَه» قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير. وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد، مرّ على مصعب بن عُمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودَعَا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ـ إلى ـ تَبْدِيلاً﴾ ـ ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) هذه الكلمة توضع موضع الإعجاب بالشيء.

(٢) أوجب الرجل: إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار.

«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتُوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه». وقيل: النحب الموت؛ أي مات على ما عاهد عليه؛ عن ابن عباس. والنحب أيضاً الوقت والمدّة. يقال: قضى فلان نحبه إذا مات. وقال ذو الرمّة:

عشِيّةَ فرّ الحارِثيون بعد ما ... قَضَى نَحْبه في ملتَقَى الخيل هَوْبَرُ

والنَّحْب أيضاً الحاجة والهِمة؛ يقول قائلهم: ما لي عندهم نحب؛ وليس المراد بالآية. والمعنى في هذا الموضع بالنحب النذر كما قدّمنا أوّلا؛ أي منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم. ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدّلوا عهدهم ونذرهم. وقد روي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلاً﴾. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا الحديث عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماع، ولأن فيه طعناً على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء؛ فما يعرف فيهم مغيّر وما وجد من جماعتهم مبدّل؛ رضي الله عنهم. ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي أمر الله بالجهاد ليجزي الصادقين في الآخرة بصدقهم. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ في الآخرة ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

[٢٥] ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة: قالت: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هاهنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تِهامة، ورجع عُيينة إلى نجد. ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ورجعت بنو قُريظة إلى صياصِيهم؛ فكفى أمر قريظة بالرعب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ أمره ﴿عَزِيزاً﴾ لا يُغلَب.

[٢٦] ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني الذين عاونوا الأحزاب: قريشاً وغَطَفان؛ وهم بنو قُرَيظة. وقد مضى خبرهم. ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي حصونهم؛ واحدها صِيصَة. قال الشاعر:

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ ... نساء تميم يبتدِرْن الصياصِيا[1]

ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوَّى السَّداة واللُّحمة: صِيصة. قال دريدُ بن الصِّمَّة:

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه ... كوقعِ الصَّياصِي في النسيج الممدّد

ومنه: صيصَة الديك التي في رجله. وصَياصِي البقر قرونها؛ لأنها تمتنع بها. وربما كانت تركّب في الرماح مكان الأسنة؛ ويقال: جَذَّ اللَّهُ صِئْصِئه؛ أي أصله. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال. ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ وهم النساء والذّرية؛ على ما تقدّم. ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ بعدُ. قال يزيد بن رُومان وابن زيد ومقاتل: يعني حُنَين؛ ولم يكونوا نالوها، فوعدهم الله إياها. وقال قتادة: كنا نتحدّث أنها مكة. وقال الحسن: هي فارس والرّوم. وقال عِكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوٍ قديرٌ؛ قاله محمد بن إسحاق. الثاني ـ على ما أراد أن يفتحه

---

(١) البيت لعبد بني الحسحاس، وقد أورده صاحب اللسان شاهداً على أن صياصي البقر قرونها؛ وروايته في البيت:

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت ... نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أي يلتقطن القرون لينسجن بها، يريد لكثرة المطر غرق الوحش.

من الحصون والقُرَى قدير؛ قاله النقاش. وقيل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما وَعَدَكُمُوه ﴿قَدِيراً﴾ لا تردّ قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى. ويقال: تأسِرون وتأسُرون (بكسر السين وضمها) حكاه الفراء.

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ قال علماؤنا: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمّ من المنع من إيذاء النبيّ ﷺ؛ وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل: سألنه شيئاً من عرَض الدنيا. وقيل: زيادة في النفقة. وقيل: آذَيْنَه بغيْرَة بعضهنّ على بعض. وقيل: أمِر ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهنّ بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعيّ: رحمه الله تعالى: إن مَنْ مَلَكَ زوجة فليس عليه تخييرها. أمر ﷺ أن يخيّر نساءه فاخترنه. وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبيّ ﷺ بين أن يكون نبيًا مِلِكاً وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا، وبين أن يكون نبيًا مِسكيناً؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها؛ فلما اختارها وهي أعلى المنزلتين، أمره الله عز وجل أن يخيّر زوجاته؛ فربما كان فيهنّ من يكره المقام معه على الشدّة تنزيهاً له. وقيل: إن السبب الذي أوجَب التخيير لأجله، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حَلْقة من ذهب، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهَب - وقيل بالزعفران - فأبت إلا أن تكون من ذهب؛ فنزلت آية التخيير فخيرهنّ، فقلن اخترنا الله ورسوله. وقيل: إن واحدة منهنّ اختارت الفراق. فالله أعلم. روى البخاريّ ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ

فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : ـ فأذِن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذِن له ، فوجد النبيّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً ـ قال : ـ فقال والله لأقولنّ شيئاً أضحك رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمتُ إليها فَوَجَأْتُ عنقها ؛ فضحك رسول الله ﷺ وقال : « هنّ حولي كما ترى يسألنَني النفقة » فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يَجَأ عنقها ؛ كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده !! فقلن : واللّهِ لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده . ثم اعتزلهنّ شهراً أو تسعاً وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ـ حتى بلغ ـ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ . قال : فبدأ بعائشة فقال : « يا عائشة ، إني أريد أن أعرِض عليك أمراً أحِبُ ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر آمرأة من نسائك بالذي قلت . قال : « لا تسألني آمرأة منهن إلا أخبرتها ، إنّ اللهَ لم يبعثني مُعَنتا ولا مُتعنّتاً ولكن بعثني معلماً مُيَسِّراً ». وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: « يا عائشة ، إني ذاكر لكِ أمراً فلا عليكِ ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويْك» قالت : وقد عَلم أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفراقه ؛ قالت ثم قال : « إنّ الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ـ حتى بلغ ـ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾» فقلت : أفي هذا أستأمر أبويّ ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، وفعل أزواج النبيّ ﷺ مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبيّ ﷺ عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فِراقه ، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ لأَزْوَاجِكَ﴾ كان للنبيّ ﷺ أزواج، منهن من دخل بها، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها.

فأوّلهنّ: خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بنِ كلاب. وكانت قبله عند أبي هالة[1] واسمه زرارة بن النبّاش الأسدي، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ، وَلدت منه غلاماً اسمه عبد مناف. وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه. ويقال: إن الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند، وسُمعت نادبته تقول حين مات: واهندُ بن هنداه، وا ربيبَ رسول الله. ولم يتزوّج رسول الله ﷺ على خديجة غيرها حتى ماتت. وكانت يوم تزوّجها رسول الله ﷺ بنت أربعين سنة، وتوفيت بعد أن مضى من النبوّة سبع سنين، وقيل: عشر. وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة. وهي أول امرأة آمنت به. وجميع أولاده منها غير إبراهيم. قال حكيم بن حزام: توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحَجُون؛ ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذ سُنَّةُ الجنازة الصلاةَ عليها.

ومنهن: سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عمّ لها يقال له السكران بن عمرو؛ وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها. وقيل: مات بالحبشة؛ فلما حلّت خطبها رسول الله ﷺ، فتزوّجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألاّ يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة ـ حسبما هو مذكور في «الصحيح» ـ فأمسكها، وتوفيت بالمدينة في شوّال سنة أربع وخمسين.

ومنهن: عائشة بنت أبي بكر الصدّيق، وكانت مسماة لجُبير بن مطعم، فخطبها رسول الله ﷺ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْني أسُلّها من جُبير سَلاًّ رفِيقاً؛ فتزوّجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين، وقيل بثلاث سنين؛ وبنى بها بالمدينة

---

(١) في كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل.

وهي بنت تسع ، وبقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول الله ﷺ وهي بنت ثمان عشرة ، ولم يتزوج بِكراً غيرها ، وماتت سنة تسع وخمسين ، وقيل ثمان وخمسين.

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشِية العدويّة ، تزوّجها رسول الله ﷺ ثم طلقها، فأتاه جبريل فقال: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة» فراجعها. قال الواقديّ: وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وهي ابنة ستين سنة. وقيل: ماتت في خلافة عثمان بالمدينة.

ومنهن: أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أميّة المخزومية ـ واسم أبي أمية سُهيل ـ تزوّجها رسول الله ﷺ في ليال بقين في شوّال سنة أربع، زوّجها منه ابنها سلمة على الصحيح، وكان عُمَرُ ابنُها صغيراً، وتوفيت في سنة تسع وخمسين. وقيل: سنة ثنتين وستين؛ والأول أصح. وصلّى عليها سعيد بن زيد. وقيل أبو هريرة . وقُبِرت بالبقِيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة.

ومنهنّ : أم حبيبة ، وأسمها رَمْلة بنت أبي سفيان . بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْريّ إلى النجاشيّ ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوَّجه إياها ، وذلك سنة سبع من الهجرة ، وأصدق النجاشيّ عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار ، وبعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة ، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقال الدّارَقُطْنِيّ : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية ، فزوّجها النجاشيّ النبيّ ﷺ ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة.

ومنهنّ: زينب بنت جَحْش بن رِئاب الأسديّة؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكان أسم أبيها بُرّة؛ فقالت: يا رسول اﷺ، بدّل اسم أبي فإن البُرّة حقيرة؛ فقال لها النبيّ ﷺ: «لو كان أبوك مؤمناً سميناه بأسم رجل منا أهل البيت ولكني قد سميته جحشاً والجحش من البُرّة» ذكر هذا الحديث الدّارَقُطْنِيّ. تزوّجها

رسول الله ﷺ بالمدينة في سنة خمس من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين، وهي بنت ثلاث وخمسين.

ومنهنّ: زينب بنت خذيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صَعْصعة الهلالية، كانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأوّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت بالبقيع.

ومنهنّ : جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعية المُصْطَلِقيّة ، أصابها في غزوة بني المُصْطَلِق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شَمّاس فكاتبها ؛ فقضى رسول الله ﷺ كتابتها وتزوّجها ، وذلك في شعبان سنة ست ، وكان اسمها بَرّة فسمّاها رسول الله ﷺ جوَيريَّة ، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين ، وهي ابنة خمس وستين.

ومنهن : صفية بنت حُيَيّ بن أخْطَب الهارونية ، سباها النبيّ ﷺ يوم خَيْبر واصطفاها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها . وفي « الصحيح » : أنها وقعت في سهم دِحْيَة الكَلْبِيّ فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس ، وماتت في سنة خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، ودفنت بالبقيع.

ومنهن : رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النَّضير ، سباها رسول الله ﷺ وأعتقها ، وتزوّجها في سنة ست ، وماتت مرْجِعه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع . وقال الواقديّ : ماتت سنة ست عشرة وصلّى عليها عمر . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بِملْك اليمين ولم يعتقها.

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلي في عداد أزواج النبيّ ﷺ.

ومنهن: ميمونة بنت الحارث الهلالِية، تزوّجها رسول الله ﷺ بِسَرِف على عشرة أميال من مكة، وذلك في سنة سبع من الهجرة في عُمْرة القَضِيّة، وهي آخر أمرأة تزوّجها رسول الله ﷺ، وقدّر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله ﷺ بها، ودفنت هنالك، وذلك في سنة إحدى وستين. وقيل: ثلاث وستين. وقيل ثمان وستين.

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبيّ ﷺ، وهنّ اللاتي دخل بهن؛ رضي الله عنهن.

فأما من تزوّجهن ولم يدخل بهن؛ فمنهنّ: الكلابِية. واختلفوا في أسمها؛ فقيل فاطمة. وقيل عَمْرة. وقيل العالية. قال الزهريّ: تزوّج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلقها، وكانت تقول: أنا الشقيّة. تزوّجها في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة، وتوفيت سنة ستين.

ومنهن: أسماء بنت النعمان بن الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهي الجونية. قال قتادة: لما دخل عليها دعاها فقالت: تعالَ أنت، فطلّقها. وقال غيره: هي التي استعاذت منه. وفي البخاريّ قال: تزوّج رسول الله ﷺ أميمة بنت شَراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أَسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين. وفي لفظ آخر قال أبو أُسيد: أتِي رسول الله ﷺ بالجَوْنية، فلما دخل عليها قال: «هبِي لي نفسك» فقالت: وهل تهب المِلكة نفسها للسُّوقة! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن؛ فقالت: أعوذ بالله منك! فقال: «قد عُذتِ بمعَاذ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أَسَيد، اكْسها رازِقِيين[1] وألحقها بأهلها».

ومنهنّ: قُتَيْلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوّجها إياه الأشعث، ثم أنصرف إلى حَضْرَمَوْت، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ ﷺ. فردّها إلى بلاده، فارتدّ

(١) قوله «رازقيين» بالتثنية، صفة موصوف محذوف للعلم. في رواية «رازقيتين» والرازقية: ثياب من كتان بيض طوال.

وارتدت معه. ثم تزوّجها عِكرمة بن أبي جَهْل، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْداً شديداً. فقال له عمر: إنها والله ما هي من أزواجه، ما خيّرها ولا حجبها. ولقد برّأها[١] الله منه بالارتداد. وكان عروة ينكر أن يكون تزوّجها.

ومنهنّ: أم شريك الأزدية، واسمها غُزَيَّة بنت جابر بن حكيم[٢]، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى، فطلقها النبيّ ﷺ ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إن التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ خَوْلة بنت حكيم.

ومنهنّ: خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوّجها رسول الله ﷺ، فهلكت قبل أن تصل إليه.

ومنهنّ: شَرَافُ بنت خليفة، أخت دِحْية، تزوّجها ولم يدخل بها.

ومنهنّ: ليلى بنت الخَطِيم، أخت قيس، تزوّجها وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها.

ومنهنّ: عمرة بنت معاوية الكِندية، تزوّجها النبيّ ﷺ. قال الشعبيّ: تزوّج امرأة من كِنْدة فجيء بها بعدما مات.

ومنهنّ: ابنة جندب بن ضمرة الجُنْدُعِية. قال بعضهم: تزوّجها رسول الله ﷺ. وأنكر بعضهم وجود ذلك.

ومنهنّ: الغِفَارِيّة. قال بعضهم: تزوّج امرأة من غِفار، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضاً فقال: «الْحَقِي بأهلك». ويقال: إنما رأى البياض بالكلابية. فهؤلاء اللاتي عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ؛ ﷺ.

فأما من خطبهنّ فلم يتم نكاحه معهنّ؛ ومن وهبت له نفسها:

فمنهنّ: أم هانىء بنت أبي طالب، واسمها فاختة. خطبها النبيّ ﷺ فقالت: إني امرأة مُصْبِيَة[٣] واعتذرت إليه فعذرها.

---

(١) كذا في «الأصول» و «أسد الغابة»، وعبارته: «وقد برأها الله بالردّة» والذي في «شرح المواهب»: «... وارتدّت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله... الخ».

(٢) في «المواهب»: «جابر بن عوف». (٣) أي ذات صبيان.

ومنهنّ: ضُباعة بنت عامر.

ومنهنّ: صفِية بنت بَشامة بن نضلة، خطبها النبيّ ﷺ وكان أصابها سِباء، فخيّرها النبيّ ﷺ، فقال: «إن شئت أنا وإن شئت زوجك»؟ قالت: زوجي. فأرسلها؛ فلعنتها بنو تميم؛ قاله ابن عباس.

ومنهنّ: أم شريك. وقد تقدّم ذكرها.

ومنهنّ: ليلى بنت الخَطِيم؛ وقد تقدّم ذكرها.

ومنهنّ: خولة بنت حكيم بن أمية؛ وهبت نفسها للنبيّ ﷺ فأرجأها، فتزوّجها عثمان بن مظعون.

ومنهنّ: جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المرّي؛ خطبها النبيّ ﷺ فقال أبوها: إن بها سوءاً ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برِصَت، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

ومنهنّ: سودة القرشية؛ خطبها رسول الله ﷺ وكانت مصبِية. فقالت: أخاف أن يَضغُوَ[1] صِبْيَتِي عند رأسك. فحمِدها ودعا لها.

ومنهنّ: امرأة لم يُذكر اسمها. قال مجاهد: خطب رسول الله ﷺ امرأة فقالت: أستأمر أبي. فلقِيت أباها فأذن لها، فلقِيت رسول الله ﷺ فقال: «قد التحفنا لحافاً غيرك».

فهؤلاء جميع أزواج النبي ﷺ.

وكان له من السَّراري سُرِّيَّتان: مارِية القبطية، ورَيْحانة؛ في قول قتادة. وقال غيره: كان له أربع: مارية، ورَيحانة، وأخرى جميلة أصابها في السَّبْي، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش.

---

(١) أي يصيحوا ويضجوا.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ﴿إِنْ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ فعلق التخيير على شرط. وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان، فينفذان ويمضيان؛ خلافاً للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته: أنتِ طالق إن دخلتِ الدار، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار؛ لأن الطلاق الشرعيّ هو المنجَّز في الحال لا غير.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هو جواب الشرط، وهو فعل جماعة النساء، من قولك تعالَي: وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال: تعالَ بمعنى أقبل، وُضع لمن له جلالة ورفعة، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وأما في هذا الموضع فهو على أصله؛ فإن الداعي هو رسول الله ﷺ. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ قد تقدّم الكلام في المُتْعة في ﴿البقرة﴾[1]. وقرىء ﴿أُمَتِّعُكُنَّ﴾ بضم العين. وكذا ﴿وَأُسَرِّحُكُنَّ﴾ بضم الحاء على الاستئناف. والسراح الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها.

الخامسة ـ اختلف العلماء في كيفية تخيير النبيّ ﷺ أزواجه على قولين: **الأوّل ـ** أنه خيّرهنّ بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبيّ وابن شهاب وربيعة. ومنهم من قال: إنما خيرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ، وبين الآخرة فيمسكهنّ؛ لتكون لهنّ المنزلة العليا كما كانت لزوجهنّ؛ ولم يخيرهنّ في الطلاق؛ ذكره الحسن وقتادة. ومن الصحابة عليّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخيّر رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة.

قلت: القول الأوّل أصح؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت: قد خيّرنا رسول الله ﷺ أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يعدّه طلاقاً. ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق؛ لذلك قال: «يا عائشة إني ذاكِرٌ لكِ أمراً فلا عليك ألاّ تعجلي فيه حتى تستأمري

(١) راجع ٣/ ٢٠٠ فما بعد.

أبويك» الحديث. ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أن الاستئمار إنما وقع في الفرقة، أو النكاح. والله أعلم.

السادسة ـ اختلف العلماء في المخيَّرة إذا اختارت زوجها؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى: إنه لا يلزمه طلاق، لا واحدة ولا أكثر؛ هذا قول عمر بن الخطاب وعليّ وٱبن مسعود وزيد بن ثابت وٱبن عباس وعائشة. ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وٱبن شهاب. وروي عن عليّ وزيد أيضاً: إن ٱختارت زوجها فواحدة بائنة؛ وهو قول الحسن البصريّ والليث، وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك. وتعلقوا بأن قوله: اختاري، كناية عن إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة؛ كقوله: أنتِ بائن. والصحيح الأوّل؛ لقول عائشة: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعدّه علينا طلاقاً. أخرجه الصحيحان. قال ابن المنذر: وحديث عائشة يدل على أن المخيّرة إذا ٱختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقاً، ويدل على أن ٱختيارها نفسها يوجب الطلاق، ويدل على معنى ثالث؛ وهو أن المخيَّرة إذا ٱختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله ﷺ بخلاف ما أمره الله . وروي هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبي ليلى والثوريّ والشافعيّ. وروي عن عليّ أنها إذا ٱختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك . وروي عن زيد بن ثابت أنها إذا ٱختارت نفسها أنها ثلاث. وهو قول الحسن البصريّ، وبه قال مالك والليث؛ لأن المِلك إنما يكون بذلك. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنها إذا ٱختارت نفسها فليس بشيء. وروي عنه أنها إذا ٱختارت زوجها فواحدة رجعية.

السابعة ـ ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء، والقضاء ما قضت فيهما جميعاً؛ وهو قول عبد العزيز بن أبي سلمة. قال ابن شعبان: وقد ٱختاره كثير من أصحابنا، وهو قول

جماعة من أهل المدينة. قال أبو عمر: وعلى هذا القول أكثر الفقهاء. والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما؛ وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته: قد ملّكتك؛ أي قد ملّكتك ما جعل الله لي من الطلاق واحدة أو ٱثنتين أو ثلاثاً؛ فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك، كان القولُ قولَه مع يمينه إذا ناكرها. وقالت طائفة من أهل المدينة: له المناكرة في التمليك وفي التخيير سواء في المدخول بها. والأوّل قول مالك في المشهور. وروى ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة في الثلاث، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة. وبه قال أبو الجَهْم. قال سُحْنون: وعليه أكثر أصحابنا.

وتحصيل مذهب مالك: أن المخيّرة إذا ٱختارت نفسها وهي مدخول بها فهو الطلاق كله، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له. وإن ٱختارت واحدة فليس بشيء، وإنما الخيار البتات، إما أخذته وإما تركته؛ لأن معنى التخيير التسريح؛ قال الله تعالى في آية التخيير: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾[1] فمعنى التسريح البتات، قال الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة؛ روي ذلك عن النبيّ ﷺ كما تقدّم. ومن جهة المعنى أن قوله: اختاريني أو ٱختاري نفسك يقتضي ألاّ يكون له عليها سبيل إذا ٱختارت نفسها، ولا يملك منها شيئاً؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا ٱختارته، فإذا ٱختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزل من خُيّر بين شيئين فاختار غيرهما. وأما التي لم يدخل بها فله مناكرتها في التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة؛ لأنها تبِين في الحال.

الثامنة ـ اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار؛ فقال مرة: لها الخيار ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض. فإن لم تختر ولم تقض شيئاً حتى ٱفترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء. وقال مرة: لها الخيار أبداً ما لم يعلم أنها تركت؛ وذلك يُعلم بأن تمكّنه من نفسها بوطء أو مباشرة؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئاً كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط، فإن أبت أسقط

(١) راجع ٣/ ١٢٥.

الحاكم تمليكها. وعلى القول الأول إذا أخذت في غير ذلك من حديث أو عمل أو مشي أو ما ليس في التخيير بشيء كما ذكرنا سقط تخييرها. واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(١). وأيضاً فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها، فصار كالعقد بينهما، فإن قبلته وإلا سقط؛ كالذي يقول: قد وهبت لك أو بايعتك، فإن قبل وإلا كان الملك باقياً بحاله. هذا قول الثوريّ والكوفيين والأوزاعيّ والليث والشافعي وأبي ثور، وهو ٱختيار ٱبن القاسم. ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار في يدها وملَّكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها.

قلت: وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» رواه الصحيح، وخرّجه البخاريّ، وصححه الترمذيّ. وقد تقدم في أول الباب. وهو حجة لمن قال: إنه إذا خيّر الرجل ٱمرأته أو ملّكها أن لها أن تقضي في ذلك وإن ٱفترقا من مجلسهما؛ روي هذا عن الحسن والزُّهريّ، وقاله مالك في إحدى روايتيه. قال أبو عبيد: والذي عندنا في هذا الباب، ٱتباع السنة في عائشة في هذا الحديث، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر. قال المَرْوزِيّ: هذا أصح الأقاويل عندي، وقاله ٱبن المنذر والطّحاويّ.

[٣٠] ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

(١) راجع ٥/٤١٨.

قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قال العلماء: لما ٱختار نساءُ النبيّ ﷺ رسولَ الله ﷺ شكرهنّ الله على ذلك فقال تكرمة لهن: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾[(١)] الآية. وبين حكمهن عن غيرهن فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾[(١)]. وجعل ثواب طاعتهنّ وعقاب معصيتهنّ أكثر مما لغيرهنّ فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبيّ ﷺ بفاحشة ـ والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر في حديث الإفك[(٢)] ـ يضاعف لها العذاب ضعفين؛ لشرف منزلتهنّ وفضل درجتهنّ، وتقدّمهنّ على سائر النساء أجمع. وكذلك بيّنت الشريعة في غير ما موضع حسبما تقدّم بيانه غير مرة ـ أنه كلما تضاعفت الحُرُمات فهتِكت تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضُوعف حدّ الحرّ على العبد والثّيب على البكر. وقيل: لما كان أزواج النبيّ ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوِي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن؛ فضوعف لهنّ الأجر والعذاب. وقيل، إنما ذلك لعظم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله ﷺ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله ﷺ؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[(١)]. واختار هذا القول الكِيَا الطبري.

الثانية ـ قال قوم: لو قُدّر الزنى من واحدة منهن ـ وقد أعاذهنّ الله من ذلك ـ لكانت تُحدّ حدّين لعظم قدرها، كما يزاد حدّ الحرة على الأَمَة. والعذاب بمعنى الحدّ، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ[(٢)] مِنَ[(٣)] الْمُؤْمِنِينَ﴾. وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المِثلين أو المرتين. وقال أبو عبيدة: ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة. وقاله أبو عمرو فيما

(١) راجع ص ٢١٩ و ٢٢٨ و ٢٣٧ من هذا الجزء.
(٢) راجع ١٢/ ١٩٧ فما بعد وص ١٦٦. (٣) راجع ١٢/ ١٦٢.

حكى الطبريّ عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة. وضعّفه الطبري. وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلّق الاحتمال. وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة؛ قاله ابن عطية. وقال النحاس: فرق أبو عمرو بين ﴿يُضَاعف ويضعَّف﴾ قال: ﴿يُضَاعَف﴾ للمرار الكثيرة. و ﴿يضعّف﴾ مرتين. وقرأ ﴿يضعَّف﴾ لهذا. وقال أبو عبيدة: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ يجعل ثلاثة أعذبة. قال النحاس: التفريق الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علِمته، والمعنى في ﴿يضاعف ويضعَّف﴾ واحد؛ أي يجعل ضعفين؛ كما تقول: إن دفعت إليّ درهماً دفعت إليك ضِعْفَيه؛ أي مِثْلَيه؛ يعني درهمين. ويدل على هذا ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ ولا يكون العذاب أكثر من الأجر. وقال في موضع آخر ﴿آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾(١) أي مثلين. وروى معمر عن قتادة ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة. قال القشيري أبو نصر: الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين؛ لأنه قال: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾. فأما في الوصايا، لو أوصى لإنسان بضعفي نصيب ولده فهو وصية بأن يعطَى مِثل نصيبه ثلاث مرات؛ فإن الوصايا تجري على العرف فيما بين الناس، وكلام الله يردُّ تفسيره إلى كَلام العرب، والضعف في كلام العرب المِثل إلى ما زاد، وليس بمقصور على مثلين. يقال: هذا ضعف هذا؛ أي مثله. وهذا ضعفاه، أي مثلاه؛ فالضعف في الأصل زيادة غير محصورة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾(١) ولم يرِد مِثلاً ولا مِثلين. كل هذا قول الأزهري. وقد تقدم في ﴿النور﴾ الاختلاف في حد من قذف واحدة. منهن(٢)؛ والحمد لله.

الثالثة ـ قال أبو رافع : كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح ، وكان إذا بلغ ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﴾ رفع بها صوته؛ فقيل له في ذلك فقال : « أذكِّرهن العهد » . قرأ الجمهور : ﴿ مَنْ يَأْتِ ﴾ بالياء . وكذلك ﴿ مَنْ يَقْنُتْ ﴾ حملاً على لفظ

(١) راجع ص ٢٥٠ و ٣٠٦ من هذا الجزء. (٢) راجع ١٢/ ١٧٦.

﴿مَن﴾. والقنوت الطاعة؛ وقد تقدم[١]. وقرأ يعقوب: ﴿من تأت﴾ و ﴿تقنت﴾ بالتاء من فوق، حملاً على المعنى. وقال قوم: الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط. وإذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي. وإذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته. وقالت فرقة: بل قوله ﴿فَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ تعم جميع المعاصي. وكذلك الفاحشة كيف وردت. وقرأ ابن كثير ﴿مبيَّنةٍ﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها. وقرأت فرقة: ﴿يُضَاعِفْ﴾ بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى. وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة ﴿نضاعِف﴾ بالنون المضمومة ونصب ﴿العذاب﴾ وهذه قراءة ابن مُحَيْصِن. وهذه مفاعلة من واحد؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص. وقرأ نافع وحمزة والكسائيّ ﴿يضاعَف﴾ بالياء وفتح العين، ﴿العذابُ﴾ رفعاً. وهي قراءة الحسن وابن كثير وعيسى. وقرأ ابن كثير وابن عامر ﴿نُضَعِّف﴾ بالنون وكسر العين المشددة، ﴿العذابَ﴾ نصباً. قال مقاتل: هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضاً في الآخرة. وهذا حسن؛ لأن نساء النبيّ ﷺ لا يأتين بفاحشة توجب حدًّا. وقد قال ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبيّ قط، وإنما خانت في الإيمان والطاعة. وقال بعض المفسرين: العذاب الذي تُوُعِّدْن به ﴿ضعفين﴾ هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فكذلك الأجر. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبي ﷺ لا ترفع عنهن حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هي حال الناس عليه؛ بحكم حديث عُبادة بن الصّامت[٢]. وهذا أمر لم يُرْوَ في أزواج النبيّ ﷺ ولا حفظ تقرره. وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النحاس.

---

(١) راجع ٢/٨٦ و ٣/٢١٣.

(٢) لفظ الحديث كما في كتاب البخاري في تفسير سورة الممتحنة: قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ـ وقرأ آية النساء ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ ـ فمن وفى منكم فأجره على الله. ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له. ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له».

[٣٢] ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعني في الفضل والشرف . وقال : ﴿ كَأَحَدٍ ﴾ ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحداً نفي[1] من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدميّ؛ يقال: ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير. وإنما خصص النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم. وقد أشار إلى هذا قتادة؛ وقد تقدّم في «آل عمران» الاختلاف في التفضيل بينهن، فتأمله[2] هناك . ثم قال : ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ أي خفتن الله. فبيّن أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن في حقهن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ في موضع جزم بالنهي؛ إلا أنه مبنيّ كما بني الماضي، هذا مذهب سيبويه؛ أي لا تلنّ القول. أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يُظهر في القلب علاقة بما يَظهر عليه من اللين؛ كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه؛ مثل كلام المريبات والمومسات. فنهاهن عن مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على جواب النهي. ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق؛ عن قتادة والسُّدِّي. وقيل: تشوّف لفجور، وهو الفسق والغَزَل؛ قاله عكرمة. وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية. وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ ﴿فَيَطْمِع﴾ بفتح الياء وكسر الميم. النحاس: أحسب هذا غلطاً، وأن يكون قرأ ﴿فيطمَعِ﴾ بفتح الميم[3] وكسر العين بعطفه على ﴿تَخْضَعْنَ﴾ فهذا وجه جيد حسن. ويجوز ﴿فيُطْمِع﴾ بمعنى فيطمع الخضوع أو القول.

---

(١) كذا في «الأصول»؛ يريد أنه نفي عام للمذكر والمؤنث.
(٢) راجع ٤/ ٨٢.
(٣) في «الأصول»: «بفتح الياء».

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ قال ابن عباس: أمرهن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرّمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام. وعلى الجملة فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

[٣٣] ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ قرأ الجمهور ﴿وَقِرن﴾ بكسر القاف. وقرأ عاصم ونافع بفتحها. فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين: أحدهما ـ أن يكون من الوقار؛ تقول: وَقَرَ يَقِر وَقاراً أي سكن، والأمر قِرْ، وللنساء قِرْن، مثل عِدْن وزِنّ. **والوجه الثاني** ـ وهو قول المبرد[1]، أن يكون من القرار؛ تقول: قَرَرت بالمكان (بفتح الراء) أقِرّ، والأصل أقْرِرن، بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً؛ كما قالوا في ظَلَلت: ظِلت، ومَسَسْت: مِسْت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف. قال أبو عليّ: بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف؛ كما أبدلت في قيراط ودينار، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه؛ فالتقدير: إقْيِرْن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير ﴿قِرْن﴾. وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قرِرت في المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أَقَرّ (بفتح القاف)؛ من باب حمِد يَحْمَد، وهي لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف» عن الكسائي، وهو من أجلّ مشايخه، وذكرها الزجاج وغيره، والأصل ﴿إقْرَرْن﴾

---

(١) في نسخة: «الفراء».

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول: قَرْن. قال الفراء: هو كما تقول: أَحَسْتَ صاحبك؛ أي هل أَحْسَسْت. وقال أبو عثمان المازني: قَرِرت به عينا (بالكسر لا غير)، من قُرّة العين. ولا يجوز قَرِرت في المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح في القراءة إذا ثبتت عن النبيّ ﷺ؛ فيستدلّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة. وذهب[1] أبو حاتم أيضاً أن ﴿قَرْن﴾ لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: وأمّا قول أبي حاتم: «لا مذهب له» فقد خولف فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكِسائي، والآخر ما سمعت عليّ بن سليمان يقول، قال: وهو من قَرِرْتُ به عَيْنا أَقَر، والمعنى: واْقرن به عَيْناً في بيوتكن. وهو وجه حسن؛ إلا أن الحديث يدلّ على أنه من الأول. كما روي أن عماراً قال لعائشة رضي الله عنها: إن الله قد أمرك أن تَقَرِّي في منزلك؛ فقالت: يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قوّالاً بالحق فقال: الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك. وقرأ ابن أبي عَبْلة ﴿واْقرِرن﴾ بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة.

الثانية ـ معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة؛ على ما تقدم في غير موضع. فأمر الله تعالى نساء النبيّ ﷺ بملازمة بيوتهنّ، وخاطبهنّ بذلك تشريفاً لهنّ، ونهاهنّ عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى﴾. وقد تقدّم معنى التبرج في ﴿النور﴾[2]. وحقيقته إظهار ما ستره أحسن؛ وهو مأخوذ من السَّعة، يقال: في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرّقة؛ قاله المبرد. واختلف الناس في ﴿الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾؛ فقيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدّرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال. وقال الحكم بن عُيينة: ما بين آدم ونوح،

---

(١) في جـ، وش، وك: «زعم».

(٢) راجع ٣٠٩/١٢.

وهي ثمانمائة سنة، وحُكيت لهم سِيَر ذميمة. وقال ابن عباس: ما بين نوح وإدريس. الكلبيّ: ما بين نوح وإبراهيم. قيل: إن المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخِيط الجانبين، وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري بدنها. وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبي: ما بين عيسى ومحمد ﷺ. أبو العالية: هي زمان داود وسليمان؛ كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين. وقال أبو العباس المبرد: والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء، قال: وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها[1]، فينفرد خِلّها بما فوق الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل. وقال مجاهد: كان النساء يتمشّين بين الرجال، فذلك التبرج. قال ابن عطية: والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحِقنها، فأمِرْن بالنّقلة عن سيرتهنّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب[2]، وجَعْلُهَا أولى بالنسبة إلى ما كنّ عليه؛ وليس المعنى أن ثَمّ جاهلية أخرى. وقد أوقِع اسم الجاهلية على تلك المدّة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليّ في الشعراء. وقال ابن عباس في «البخاريّ»: سمعت أبـي في الجاهلية يقول؛ إلى غير هذا.

قلت: وهذا قول حسن. ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك في الغالب، وأن التنعم وإظهارَ الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة، وهي المراد بالجاهلية الأولى، وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشية على تَغْنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً. وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذُّل[3] وتستُّر تام. والله الموفق.

الثالثة ـ ذكر الثعلبيّ وغيره: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تَبُلّ خمارها. وذكر أن سَوْدة قيل لها: لم لا تحجّين ولا تَعْتَمرين كما يفعل

---

(١) في ش: «خلمها» والخلم (بالكسر): الصديق الخالص. (٢) في «الأصول»: «حجبة».

(٣) التبذل: ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع.

أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقرّ في بيتي. قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها! قال ابن العربي: لقد دخلت نَيِّفاً على ألف قرية، فما رأيت نساء أَصْون عيالا ولا أعفّ نساء من نساء نابلس، التي رُمي بها الخليل ﷺ بالنار؛ فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة فإنهنّ يخرجن إليها حتى يمتلىء المسجد منهنّ، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهنّ لم تقع عيني على واحدة منهنّ إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهنّ حتى استشهدن فيه.

الرابعة ـ قال ابن عطية: بكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمّار: إن الله قد أمرك أن تَقرِّي في بيتك. قال ابن العربي: تعلق الرافضة ـ لعنهم الله ـ بهذه الآية على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالوا: إنها خالفت أمر رسول الله ﷺ حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقرّبت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مَرْوان: أقيمي هنا يا أمّ المؤمنين، وردّي هؤلاء الرّعاع؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حَجّك. قال ابن العربي قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة رضي الله عنها، نذرت الحج قبل الفتنة، فلم ترى التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت في تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لها. وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجَوْا بركتها، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق، وظنّت هي ذلك [فخرجت][1] مقتدية بالله في قوله: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[3]. والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى؛ حُرّ

(١) زيادة عن ابن العربي. (٢) راجع ٥/ ٣٨٢. (٣) راجع ١٦/ ٣١٥.

أو عبد. فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان. فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضي الله تعالى عنها، فاحتملها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة، قَرَنَهُنّ عليٌّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة بَرَّةً تقيّة مجتهدة، مصيبة مثابة فيما تأوّلت، مأجورة فيما فعلت؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب. وقد تقدّم في ﴿النحل﴾[1] اسم هذا الجمل، وبه يعرف ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر ونهى. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال الزجاج: قيل يراد به نساء النبيّ ﷺ. وقيل: يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته؛ على ما يأتي بيانه بعدُ. و ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على المدح. قال: وإن شئت على البدل. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس: إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبي العباس محمد بن يزيد، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب؛ لأنهما لا يحتاجان إلى تبيين. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ مصدر فيه معنى التوكيد.

[٣٤] ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ هذه الألفاظ تعطي أن أهل البيت نساؤه. وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت، من هم؟ فقال عطاء وعِكرمة وابن عباس: هم زوجاته خاصّةً، لا رجل معهن. وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبيّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. وقالت فرقة منهم الكَلْبيّ: هم عليّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة؛ وفي هذا أحاديث عن النبيّ ﷺ، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾

---

(١) راجع ١٠/ ٧٣ فما بعد.

بالميم، ولو كان للنساء خاصة لكان ﴿عنكنّ ويطهركنّ﴾؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل؛ كما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؛ أي ٱمرأتك ونساؤك؛ فيقول: هم بخير، قال الله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1].

والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُم﴾ لأن رسول الله ﷺ وعَلِيًّا وحَسناً وحُسيناً كان فيهم، وإذا ٱجتمع المذكر والمؤنث غُلّب المذكر؛ فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت، لأن الآية فيهنّ، والمخاطبة لهنّ، يدلّ عليه سياق الكلام. والله أعلم. أما أن أمّ سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحَسَناً وحُسَيْناً، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيّ وقال: «هؤلاء أهل بيتي» ـ وقرأ الآية ـ وقال: «اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» فقالت أمّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «أنت على مكانك وأنتِ على خير» أخرجه الترمذي وغيره وقال: هذا حديث غريب. وقال القشيري: وقالت أمّ سلمة أدخلت رأسي في الكساء وقلت: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «نعم». وقال الثعلبي: هم بنو هاشم، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم. وروي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنهم أجمعين. وعلى قول الكَلْبـي يكون قوله: ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ ابتداء مخاطبة الله تعالى ، أي مخاطبة أمـر الله عز وجل أزواج النبـيّ ﷺ، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى في بيوتهنّ من آيات الله تعالى والحكمة. قال أهل العلم بالتأويل : ﴿ آيَاتِ اللَّهَ ﴾ القرآن . ﴿ وَالْحِكْمَة ﴾ السنة . والصحيح أن قوله : ﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ منسوق على ما قبله . وقال ﴿ عنكم ﴾ لقوله ﴿ أهل ﴾ فالأهل مذكر؛ فسماهنّ ـ وإن كنّ إناثاً ـ باسم التذكير فلذلك صار ﴿ عنكم ﴾ . ولا اعتبار بقول الكلبـي وأشباهه ، فإنه توجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان في زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها مـن قولـه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ـ إلى قوله ـ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ منسوق بعضها على بعض،

(١) راجع ٩/ ٧٠.

فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهنّ! وإنما هذا شيء جرى في الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا عليًا وفاطمة والحسن والحسين، فعمَد النبيّ ﷺ إلى كساء فلفّها عليهم، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال: «اللّهُم هؤلاء أهل بيتي اللّهُم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فهذه دعوة من النبيّ ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحبَّ أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيّرها لهم خاصّة، وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل.

الثانية - لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة معان: أحدها - أي اُذكرن موضع النعمة، إذ صيّركن الله في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة. الثاني - اُذكرن آيات الله واُقدرن قدرها، وفكِّرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعِظن بمواعظ الله تعالى، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله. الثالث - ﴿اُذكرن﴾ بمعنى اُحفظن واُقرأْن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: اُحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه، وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله. فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدِّين.

الثالثة - قال ابن العربي: في هذه الآية مسألة بديعة، وهي أن الله تعالى أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن؛ وتعليم ما علمه من الدين؛ فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا؛ ولهذا قلنا: يجوز العمل بخبر بُسْرة[1] في إيجاب الوضوء من مسّ الذكر؛ لأنها رَوَت ما سمعت وبلّغت ما وَعَت. ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة، على أنه قد نقل عن سعد بن أبي وقاص واُبن عمر.

(١) هي بسرة بنت صفوان بن نوفل؛ روت عن النبيّ ﷺ.

[٣٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ روى الترمذي عن أمّ عُمارة الأنصارية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء! فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية. هذا حديث حسن غريب. و ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ اسم ﴿إنّ﴾. ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ عطف عليه. ويجوز رفعهن عند البصريين، فأما الفرّاء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب.

الثانية ـ بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعمّ الإيمان وعمل الجوارح، ثمّ ذكر الإيمان تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عُظْم الإسلام ودعامته. والقانت: العابد المطيع. والصادق: معناه فيما عوهد عليه أن يفِي به. والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْره والمَنْشَط[1]. والخاشع: الخائف لله. والمتصدّق بالفرض والنفل. وقيل: بالفرض خاصّة؛ والأوّل أمدح. والصائم كذلك. ﴿والحافِظين فروجهم والحافِظاتِ﴾ أي عما لا يحلّ من الزنى وغيره. وفي قوله: ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف يدل عليه المتقدّم، تقديره: والحافظاتها، فاكتفى بما تقدّم، وفي ﴿الذَّاكِرَاتِ﴾ أيضاً مثله، ونظيره قول الشاعر:

---

(١) المكره (بفتح الميم): المكروه. والمنشط: وهو الأمر الذي تنشط له وتخف إليه وتؤثر فعله؛ وهو مصدر بمعنى النشاط.

وكُمْتاً مُدَمّاة كأن متونها جرى فوقها واستشعرتْ لَوْنُ مُذْهَبِ[(١)]

وروى سيبويه : ﴿ لَوْنَ مُذْهَبِ ﴾ بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء ، كأنه قال : واستشعرته ؛ فيمن رفع لونا . والذاكر قيل في أدبار الصلوات وغُدُوًّا وعَشِيًّا ، وفي المضاجع وعند الانتباه من النوم . وقد تقدّم هذا كله مفصلاً في مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة[(٢)] . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذاكراً للهِ تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً . وقال أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلّيا أربع ركعات كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

[٣٦] ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

فيه أربع مسائل:

الأولى- روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنّت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت؛ فنزلت الآية. فأذعنت زينب حينئذٍ وتزوّجته. في رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيداً كان بالأمس عبداً، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: مُرْني بما شئت، فزوّجها من زيد. وقيل: إنها نزلت في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، وكانت وهبت نفسها للنبيّ ﷺ، فزوّجها من زيد بن حارثة؛ فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله

---

(١) الكمت: جمع أكمت، وهي حمرة تضرب إلى السواد. والمدماة: شديدة الحمرة مثل الدم. والمتون: جمع متن، وهو الظهر. واستشعرت: جعلت شعارها. والمذهب: المموّه بالذهب. والبيت لطفيل الغنوي (عن سيبويه والعيني).

(٢) راجع ١/٣٣١ و ٤/٨٢ و ٣١٠.

ﷺ فزوّجَنا غيره؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد؛ قاله ابن زيد. وقال الحسن: ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ بأمر أن يعصياه.

الثانية ـ لفظة ما كان، وما ينبغي ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون؛ كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾[1]. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ[2] والنُّبُوَّةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[3]. وربما كان في المندوبات؛ كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا.

الثالثة ـ في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان؛ خلافاً لمالك والشافعيّ والمغيرة وسُحْنون. وذلك أن الموالي تزوّجت في قريش؛ تزوّج زيد زينب بنت جحش. وتزوّج المِقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وزوّج أبو حذيفة سالماً من فاطمة[4] بنت الوليد بن عُتبة. وتزوّج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد تقدّم هذا المعنى في غير[5] موضع.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ قرأ الكوفيون: ﴿ أَنْ يَكُونَ ﴾ بالياء. وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن. والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير؛ فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السَّمَيْقَع ﴿ الخِيْرة ﴾ بإسكان الياء. وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[6]. ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل.

---

(١) راجع ١٣/ ٢٢١.
(٢) راجع ٤/ ١٢١.
(٣) راجع ١٦/ ٥٣.
(٤) في الأصول وابن العربي: «هند» والتصويب عن كتب الصحابة.
(٥) راجع ٣/ ٦٩ و ١٣/ ٢٧٨. (٦) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء.

وهـذا أدل دليـل علـى مـا ذهب إليه الجمهور من فقهائنـا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة «أفعل» للوجوب في أصل وضعها؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ، ثم أطلق على من بقيت له خيـرة عنـد صدور الأمـر آسم المعصية، ثم علّق على المعصية بذلك الضلالَ، فلزم حمل الأمر على الوجوب. والله أعلم.

[٣٧] ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى - روى الترمذيّ قال: حدّثنا عليّ بن حجر قال حدثنا داود بن الزِّبْرقان عـن داود بن أبـي هنـد عن الشعبيّ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لـو كان رسـول الله ﷺ كاتمـا شيئـاً مـن الوحـي لكتـم هذه الآيـة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فأعتقته. ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّـهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَـاهُ - إلـى قولـه - وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُـولاً ﴾ وأن رسول الله ﷺ لما تزوّجهـا قالـوا: تزوّج حليلـة آبنـه، فأنـزل الله تعالـى: ﴿ مَا كَانَ مُحمَّـدٌ أَبَـا أَحَـدٍ مِـنْ رِجَالِكُـمْ وَلَكِـنْ رَسُولَ اللَّـهِ وَخَاتَـمَ النَّبِيِّـينَ﴾. وكان رسـول الله ﷺ تبنّـاه وهـو صغيـر، فلبث حتى صار رجلاً يقال لـه زيـد بـن محمـد، فأنـزل الله تبـارك وتعالـى ﴿ آدْعُوهُـمْ لِآبَائِهِـمْ هُـوَ أَقْسَـطُ عِنْـدَ ٱللَّـهِ فَإِنْ لَـمْ تَعْلَمُـوا آبَاءَهُـمْ فَإِخْوَانُكُـمْ فِـي الدِّيـنِ وَمَوَالِيكُـمْ﴾

فلان مولى فلان، وفلان أخو فلان، هو أقسط عند الله [يعني أعدل][(١)]. قال أبو عيسى: هذا حديث [غريب][(١)] قد روي عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها. قالت: لو كان النبيّ ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ هذا الحرف لم يُرْوَ بطوله.

قلت: هذا القدر هو الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»، وهو الذي صحّحه الترمذي في جامعه. وفي «البخاريّ» عن أنس بن مالك أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية. وقال الحسن وعائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لشدّتها عليه. وروي في الخبر أنه: أمسى زيد فأوى إلى فراشه، قالت زينب: ولم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر عليّ. هذه رواية أبي عِصْمة نوح بن أبي مريم، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك. وفي بعض الروايات: أن زيداً تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربها؛ فهذا قريب من ذلك. وجاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال: إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها، فقال له: ﴿أمسِك عليك زوجك واتقِ الله﴾ الآية. فطلّقها زيد فنزلت: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم الطبري وغيره ـ إلى أن النبيّ ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عِصْمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلّقها زيد فيتزوّجها هو؛ ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيان أمرٍ، وأذًى باللسان وتعظُّماً بالشرف، قال له: «اتق الله ـ أي فيما تقول عنها ـ وأمسك عليك زوجك» وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إيّاها. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف.

(١) زيادة عن صحيح الترمذي.

وقال مقاتل: زوّج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهوِيَها وقال: « سبحان الله مقلّبَ القلوب »! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطِن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبراً، تعظُم عليّ وتؤذيني بلسانها، فقال عليه السلام: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله». وقيل: إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلَةٌ[1] في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبيّ ﷺ، وذلك لما جاء يطلب زيداً، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها. وقال ابن عباس: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحبَّ لها. ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أي تستحييهم. وقيل: تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلتَ طلّقها، ويقولون أمر رجلاً بطلاق آمرأته ثم نكحها حين طلقها. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في كل الأحوال. وقيل: والله أحق أن تستحي منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا. وروي عن عليّ بن الحسين: أن النبيّ ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب. وأنه يتزوّجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبيّ ﷺ خُلُقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: « اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك » وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوّجها؛ وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشِي الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: ﴿أمسِكْ﴾ مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي

(١) تفضلت المرأة: لبست ثياب مهنتها. أو كانت في ثوب واحد.

لامه بالحال ولا يصح عن رسول الله، انظر تفسير الآية بن كثير وهو الصحيح

هذا هو الصحيح

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين؛ كالزهريّ والقاضي بكر بن[1] العلاء القشيريّ، والقاضي أبي بكر بن العربيّ وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ٱبنه. فأما ما روي أن النبيّ ﷺ هَوِي زينب ٱمرأة زيد ـ وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عَشِق ـ فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبيّ ﷺ عن مثل هذا، أو مستخِفّ بحرمته. قال الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول»، وأسند إلى عليّ بن الحسين قولَه: فعليّ بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر، ودُرًّا من الدّرَر، أنه إنما عَتَب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: «أمسك عليك زوجك» وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوّج ٱمرأة ٱبنه؛ والله أحق أن تخشاه. وقال النحاس: قال بعض العلماء: ليس هذا من النبيّ ﷺ خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس.

الثانية ـ قال ٱبن العربيّ: فإن قيل لأيّ معنى قال له: ﴿ أمسِك عليك زوجك ﴾ وقد أخبره الله أنها زوجه. قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها؛ فأبدى له زيد من النُّفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها. فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بدّ منه؟ وهذا تناقض. قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة؛ لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلّق الأمر لمتعلّق العلم ما يمنع من الأمر به عقلاً وحكماً. وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله: ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي في طلاقها، فلا تطلّقها. وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم، لأن الأولى ألا يطلق. وقيل: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تذمّها بالنسبة

---

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق. له كتاب في الأحكام والردّ على المزني والأشربة، ورد فيه على الطحاوي، وكتاب في «الأصول»، والردّ على القدريّة والردّ على الشافعيّ. توفي سنة ٣٤٣هـ (الوافي بالوفيات للصفدي).

إلى الكِبْر وأذى الزوج. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ قيل تعلّق قلبه. وقيل: مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيداً سيطلقها؛ لأن الله قد أعلمه بذلك.

الثالثة ـ روي عن النبيّ ﷺ أنه قال لزيد: «ما أجد في نفسي أوثق منك فٱخطب زينب عليّ» قال: فذهبت وولّيتها ظهري توقيراً للنبيّ ﷺ، وخطبتها ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامِرَ[1] ربّي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوّجها النبيّ ﷺ ودخل بها.

قلت: معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح. وترجم له النسائي (صلاة المرأة إذا خُطبت واستخارتها ربّها) روى الأئمة ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ» قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تُخَمّر عجينها. قال: فلما رأيتها عَظُمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أنّ رسول الله ﷺ ذكرها فولّيتها ظهري، ونَكَصْتُ على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؛ قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامِر ربّي؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: فقال ولقد رأيتُنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار. . . الحديث. في رواية «حتى تركوه». وفي رواية عن أنس أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أَوْلَم على ٱمرأة [من نسائه][2] ما أَوْلَمَ على زينب؛ فإنه ذبح شاة. قال علماؤنا: فقوله عليه السلام لزيد: «فاذكرها عليّ» أي ٱخطبها؛ كما بيّنه الحديث الأول. وهذا امتحان لزيد واختبار له، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه.

قلت: وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب عليّ فلانة، لزوجه المطلقة منه، ولا حرج في ذلك. والله أعلم.

---

(١) آمره في أمره، ووامره واستأمره: شاوره.
(٢) زيادة من مسلم.

الرابعة ـ لمّا وكَلَت أمرها إلى الله وصحّ تفويضها إليه تولّى الله إنكاحها؛ ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾. وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ ﴿وَطَراً زَوَّجْتُكَها﴾. ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا[1] ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته ﷺ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين. ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجني الله تعالى. أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تَفْخَر على نساء النبي ﷺ تقول: إن الله عز وجل أنكحني من السماء. وفيها نزلت آية الحجاب؛ وسيأتي.

الخامسة ـ المُنْعَم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة، كما بيناه؛ وقد تقدّم خبره في أوّل السورة[2]. وروي أن عمّه لقيَه يوماً وكان قد ورد مكة في شغل له، فقال: ما ٱسمك يا غلام؟ قال: زيد؛ قال: ٱبن من؟ قال: ابن حارثة. قال ابن من؟ قال: ابن شراحيل الكلبي. قال: فما اسم أمّك؟ قال: سُعْدَى، وكنت في أخوالي طيّ؛ فضمّه إلى صدره. وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا، وأرادوا منه أن يقيم معهم؛ فقالوا: لمن أنت؟ قال: لمحمد بن عبد الله؛ فأتَوْه وقالوا: هذا ٱبننا فردّه علينا. فقال: «أعْرِضُ عليه فإن اختاركم فخذوا بيده» فبعث إلى زيد وقال: «هل تعرف هؤلاء»؟ قال نعم! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي. فقال له النبي ﷺ: «فأيّ صاحب كنتُ لك»؟ فبكى وقال: لِمَ سألتني عن ذلك؟ قال: «أخيّرك فإن أحببت أن تلحق بهم فٱلحق وإن أردت أن تقيم فأنا مَن قد عرفتَ» فقال: ما أختار عليك أحداً. فجذَبه عمّه وقال: يا زيد، اخترت العبوديّة على أبيك وعمك! فقال: أيْ واللّهِ العبودية عند محمد أحبّ إليّ من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا أني وارث وموروث». فلم يزل يقال: زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ ونزل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾.

---

(١) في ش: «حقوقها».

(٢) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء.

السادسة ـ قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلي رضي الله عنه: كان يقال زيد بن محمد حتى نزل ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة. وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر[١]، وعلِم الله وحشته من ذلك شرّفه بخِصِّيصة لم يكن يَخُصّ بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سماه في القرآن؛ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً﴾ يعني من زينب. ومَن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه[٢] قرآناً يُتْلَى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه؛ فكان في هذا تأنيس له وعِوض من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له. ألا ترى إلى قول أُبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذ» فبكى وقال: أوَذُكِرتُ هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره؛ فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنة كذلك أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين؛ إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زَيْد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السَّفَرَةُ الكرام البَرَرَة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له مما نُزِع عنه. وزاد في الآية أن قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإيمان؛ فدلّ على أنه من أهل الجنة، علِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَطَراً﴾ الوَطَر كلّ حاجة للمرء له فيها همّة؛ والجمع الأوطار. قال ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته؛ يعني الجماع. وفيه إضمار؛ أي لما قضى وطره منها وطلّقها ﴿زَوّجناكَها﴾. وقراءة أهل البيت ﴿زوّجْتُكها﴾. وقيل: الوطر عبارة عن الطلاق؛ قاله قتادة.

الثامنة ـ ذهب بعض الناس من هذه الآية، ومن قول شعيب: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾[٣] إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون: «أنكحه إياها» فتقدّم

---

(١) في «الأصول»: «. . . وهذا الفخر منه» بزيادة لفظة «منه».

(٢) لفظة «اسمه» ساقطة من الأصل المطبوع. (٣) راجع ١٣/ ٢٧١.

ضمير الزوج كما في الآيتين. وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء «اذهب فقد أَنْكَحتُكها بما معك من القرآن». قال ابن عطية: وهذا غير لازم؛ لأن الزوج في الآية مخاطب فحسن تقديمه، وفي المهور الزوجان [سواء]، فقدّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال، وأنهم القوّامون.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ دليل على ثبوت الوليّ في النكاح؛ وقد تقدّم الخلاف في ذلك[1]. روي أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة: أنا التي جاء بي المَلَك إلى النبيّ ﷺ في سَرَقة[2] من حرير فيقول: «هذه امرأتك» خرّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التي زوّجني الله من فوق سبع سموات. وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ إني لأَدِلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِلّ بهنّ ـ: إن جَدّي وجدَّك واحد، وإن الله أنكحك إيّاي من السماء، وإن السّفير في ذلك جبريل. وروي عن زينب أنها قالت: لما وقعت في قلب رسول الله ﷺ لم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّي فلا يقدر عليّ.

[٣٨] ﴿مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة. أعلمهم أن هذا ونحوه هو السَّنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم؛ أي سَنّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سُنّة الأنبياء الماضية؛ كداود وسليمان. فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرِّية. وذكر الثعلبيّ عن مقاتل وابن الكلبيّ أن الإشارة إلى داود عليه السلام؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها.

---

(١) راجع ٣/ ٧٢ فما بعدها. (٢) السرق (بفتحتين): شقق الحرير الأبيض.

و ﴿سُنَّةَ﴾ نصب على المصدر؛ أي سَنّ الله له سُنة واسعة. و ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم الأنبياء؛ بدليل وصفهم بعدُ بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ﴾.

[٤٠] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - لما تزوّج زينب قال الناس: تزوّج امرأة ابنه؛ فنزلت الآية؛ أي ليس هو بأبنه حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمّته في التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، وأعلم أن محمداً لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة. ولم يقصد بهذه الآية أن النبيّ ﷺ لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور: إبراهيم، والقاسم، والطيّب، والمطهّر؛ ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرَيْنِ له.

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش والفرّاء: أي ولكن كان رسول الله. وأجازا ﴿ولكنْ رسولُ الله وخاتَمُ﴾ بالرفع. وكذلك قرأ ابن أبي عَبْلة وبعض الناس ﴿ولكِنْ رسولُ اللَّهِ﴾ بالرفع؛ على معنى هو رسول الله وخاتم النبيين. وقرأت فرقة ﴿ولكنّ﴾ بتشديد النون، ونصب ﴿رسول الله﴾ على أنه اسم ﴿لكنّ﴾ والخبر محذوف. ﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصم وحده بفتح التاء، بمعنى أنهم به خُتموا؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم. وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم؛ أي جاء آخرهم. وقيل: الخاتَم والخاتِم لغتان؛ مثل طابَع وطابِع، ودانَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق.

الثالثة - قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمّة[1] خَلَفاً وسلَفاً متلقّاةً على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبيّ بعده ﷺ. وما ذكره القاضي أبو الطيّب في كتابه المسمّى بالهداية: من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف. وما ذكره الغزالي

---

(١) في جـ، ش: «الأئمة».

في هذه الآية، وهذا المعنى في كتابه الذي سمّاه بالاقتصاد، إلحاد عندي، وتطرّق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد ﷺ النبوّة؛ فالحذرَ الحذرَ منه! والله الهادي برحمته.

قلت: وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا نبوّة بعدي إلا ما شاء الله». قال أبو عمر: يعني الرؤيا ـ والله أعلم ـ التي هي جزء منها؛ كما قال عليه السلام: «ليس يبقى بعدي من النبوّة إلا الرؤيا الصالحة». وقرأ ابن مسعود «من رجالكم ولكن نبيًّا ختم النبيين». قال الرُّمّاني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميؤوس من صلاحه.

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه السلام: «بعثت لأتمّم مَكارم الأخلاق». وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمَثَل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لَبِنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضِعُ اللَّبِنة! ـ قال رسول الله ﷺ ـ فأنا موضع اللّبِنة جئت فختمتُ الأنبياء». ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: فأنا اللّبِنة وأنا خاتَم النبيين».

[٤١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد. ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس: لم يُعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله. وروى أبو سعيد عن النبيّ ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون». وقيل: الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان.

[٤٢] ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي اشغلوا ألسنتكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. قال مجاهد: وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدِث والجنب. وقيل: أُدعوه. قال جرير:

فلا تنس تسبيح الضُّحى إن يوسفاً دَعَا ربّه فاختاره حين سبَّحا

وقيل: المراد صلّوا لله بكرة وأصِيلاً؛ والصلاة تسمّى تسبيحاً. وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها، لاتصالها بأطراف الليل[١]. وقال قتادة والطبري: الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر. والأصِيل: العشيّ وجمعه أصائل. والأصلُ بمعنى الأصيل، وجمعه آصال؛ قاله المبرد. وقال غيره: أُصُل جمع أصيل؛ كرغيف ورغف. وقد تقدم[٢].

مسألة ـ هذه الآية مدنيّة، فلا تعلّق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أوّلاً صلاتين في طرفي النهار. والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معوّل عليها. وقد مضى الكلام في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في «سبحان»[٣] والحمد لله.

[٤٣] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: لما نزل ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصّة، وليس لنا فيه شيء؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قلت: وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم؛ ودليل على فضلها[٤] على سائر الأمم. وقد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٥]. والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه. وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم؛ كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[٦] وسيأتي. وفي الحديث: أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أيُصلّي ربك جل وعز؟ فأعظم ذلك؛ فأوحى الله جل وعز: «إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي» ذكره النحاس. وقال ابن عطية: وروت فرقة أن النبيّ ﷺ

---

(١) في ك: «بأطراف النهار». (٢) راجع ٧/ ٣٥٥. (٣) راجع ١٠/ ٢١٠.
(٤) في أ، جـ، ش: «فضيلتها». (٥) راجع ٤/ ١٧٠. (٦) راجع ١٥/ ٢٩٣ فما بعد.

قيل له: يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده. قال: «سُبُّوح قُدّوس ـ رحمتي سبقت غضبي». واختلف في تأويل هذا القول؛ فقيل: إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلاته على عباده. وقيل سُبُّوح قُدّوس من كلام[1] محمد ﷺ، وقدّمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فهم من السائل أنه توهّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل؛ فقدّم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره.

قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى. ومعنى هذا التثبيت على الهداية؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾.

[٤٤] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

اختلف في الضمير الذي في ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ على من يعود؛ فقيل على الله تعالى، أي كان بالمؤمنين رحيماً، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يلقونه. و ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية بعضهم لبعض. ﴿سَلَامٌ﴾ أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله. وقيل: هذه التحية من الله تعالى؛ المعنى: فيسلّمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يوم القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجاج؛ واستشهد بقوله جل وعز: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[2]. وقيل: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يوم يلقَوْن مَلَك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه. روي عن البَراء بن عازِب قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ فيسلّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلّم عليه.

[٤٥] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) في أ، جـ، ش: «كلام» من كلام.

(٢) راجع ٨/ ٣١٣.

هذه الآية فيها تأنيس للنبيّ ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم. وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء ولنبيّنا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدّمة. وقد سماه الله في كتابه محمداً وأحمد. وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وفي «صحيح مسلم» من حديث جُبير بن مُطْعِم: وقد سماه الله ﴿رَءُوفاً رَحِيماً﴾. وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعريّ قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء، فيقول: «أنا محمد وأحمد والمُقَفِّي والحاشر ونبيّ التوبة ونبيّ الرحمة». وقد تتبع القاضي أبو الفضل عِياض في كتابه المسمّى (بالشِّفا) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ومما نقل في الكتب المتقدّمة[1]، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفاتٍ عديدة، قد صدقت عليه ﷺ مُسَمَّياتها، ووجدت فيه معانيها. وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربيّ في أحكامه في هذه الآية من أسماء النبيّ ﷺ سبعة وستين اسماً. وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد ﷺ مائة وثمانين اسماً، من أرادها وجدها هناك. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عليًا ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا فبشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرَا ولا تُعَسِّرا فإنه قد أنزل عليّ. . . » وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿شَاهِداً﴾ قال سعيد عن قتادة؛ ﴿شاهداً﴾ على أمّته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم؛ ونحو ذلك. ﴿وَمُبَشِّراً﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة. ﴿وَنَذِيراً﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. و ﴿بِإِذْنِهِ﴾ هنا معناه: بأمره إياك، وتقديره ذلك في وقته وأوانه. ﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ هنا استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه.

---

(١) في أ وش: «القديمة».

وقيل: ﴿وَسِرَاجاً﴾ أي هادياً من ظلم الضلالة؛ وأنت كالمصباح المضيء. ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء، إذا قَلّ سلِيطه(١) ودَقّت فتيلته. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تُضْنِي: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء. وسئل بعضهم عن الموحشَيْن فقال: ظلام ساتر وسراج فاتر، وأسند النحاس قال: حدّثنا محمد بن إبراهيم الرازي قال حدّثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن شَيبان النحوي قال حدّثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال؛ لما نزلت ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. ودَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًا ومعاذاً فقال: «انطلقا فبشِّرا ولا تُعَسِّرَا فإنه قد نزل عليّ الليلة آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً ونَذِيراً ـ من النار ـ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ ـ قال ـ شهادة أن لا إله إلا الله ـ بِإِذْنه ـ بأمره ـ وَسِرَاجاً مُنِيراً ـ قال ـ بالقرآن﴾». وقال الزجاج: ﴿وسِرَاجاً﴾ أي وذا سراج مُنير؛ أي كتاب نَيِّر. وأجاز أيضاً أن يكون بمعنى: وتالياً كتاب الله.

[٤٧] ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

[٤٨] ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة؛ والمعنى منقطع من الذي قبله. أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى. وعلى قول الزجاج: ذا سراج منير، أو وتالياً سراجاً منيراً، يكون معطوفاً على الكاف لا في ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾. قال ابن عطية: قال لنا أُبَيّ رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيّه أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً؛ وقد بيّن تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

(١) السليط: الزيت.

عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1]. فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حٰمٓ. عٓسٓقٓ﴾ تفسير لها. ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة في الدين ولا تمالئهم. ﴿الْكَافِرِينَ﴾: أبي سفيان وعكرمة وأبي الأعْوَر السُّلَمِيّ؛ قالوا: يا محمد، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾: عبد الله بن أُبَيّ وعبد الله بن سعد وطُعْمة بن أُبَيْرِق، حَثُّوا النبيّ ﷺ على إجابتهم بتعِلّة المصلحة. ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي دع أن تؤذيهم مجازاةً على إذايتهم[2] إياك. فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم، والصفح عن زللهم؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول. ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يخصّ الكافرين، وناسخه آية السيف. وفيه معنى ثانٍ: أي أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تشتغل به؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل. وهذا تأويل مجاهد، والآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ وفي قوّة الكلام وعدٌ بنصر. والوكيل: الحافظ القائم على الأمر.

[٤٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب، وكانت مدخولاً بها، وخطبها النبيّ ﷺ بعد انقضاء عدّتها ـ كما بيّناه ـ خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء، وبيّن ذلك الحكم للأمة؛ فالمطلّقة إذا لم تكن ممسوسةً لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمّة على ذلك. فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعاً.

(١) راجع ١٦/ ٢٠.

(٢) في «الأصول»: «على إذايتك إياهم».

الثانية ـ النكاح حقيقة في الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً[١] لأنه سبب في اقتراف الإثم. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد، لأنه في معنى الوطء، وهو من آداب القرآن، الكناية عنه بلفظ: الملامسة والمماسّة والقُربان والتغشّي والإتيان.

الثالثة ـ استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلّق المرأة قبل نكاحها وإن عيّنها، فإن ذلك لا يلزمه. وقال هذا نَيِّفٌ على ثلاثين مِن صاحبٍ وتابع وإمامٍ. سَمّى البخاريّ منهم اثنين[٢] وعشرين. وقد روي عن النبي ﷺ «لا طلاق قبل نكاح» ومعناه: أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح. قال حبيب بن أبي ثابت: سئل علي بن الحسين رضي الله عنهما عن رجل قال لامرأة: إن تزوجتك فأنت طالق؟ فقال: ليس بشيء؛ ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق. وقالت طائفة من أهل العلم: إن طلاق المعيّنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح؛ منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة. وقد مضى في ﴿براءة﴾[٣] الكلام فيها ودليل الفريقين. والحمد لله. فإذا قال: كل امرأة أتزوّجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرّ؛ لم يلزمه شيء. وإن قال: كلّ امرأة أتزوّجها إلى عشرين سنة، أو إن تزوّجت من بلد فلان أو من بني فلان فهي طالق، لزمه الطلاق ما لم يخف العَنَت على نفسه في طول السنين، أو يكون عمره في الغالب لا يبلغ ذلك، فله أن يتزوج. وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمّم لأنه ضيّق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألاّ يتزوّج لحرج[٤] وخيف عليه العنت. وقد قال بعض أصحابنا: إنه إن وجد ما يتسرر به لم ينكِح؛ وليس بشيء، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف، قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد.

---

(١) الخمر: تؤنث وتذكر؛ والتأنيث أكثر.

(٢) الذي سماهم البخاري في (باب لا طلاق قبل النكاح) أربعة وعشرون.

(٣) راجع ٨/٢١١.

(٤) حرج: أثم.

الرابعة ـ استدلّ داود ـ ومن قال بقوله ـ إن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقها قبل أن يَمَسها، أنه ليس عليها أن تتم عدّتها ولا عدّة مستقبلة؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها. وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة: تمضي في عدّتها من طلاقها الأوّل ـ وهو أحد قولي الشافعي ـ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسها في حكم من طلقها في عدّتها قبل أن يراجعها. ومن طلّق امرأته في كل طُهر مرّة بنت ولم تستأنف. وقال مالك: إذا فارقها قبل أن يمسها إنها لا تبني على ما مضى من عدّتها، وإنها تنشىء من يوم طلقها عدّة مستقبلة. وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان أرتجعها ولا حاجة له بها. وعلى هذا أكثر أهل العلم؛ لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكنى وغير ذلك؛ ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام. وقال الثوريّ: أجمع الفقهاء عندنا على ذلك.

الخامسة ـ فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوّجها في العدّة ثم طلّقها قبل الدخول فقد اختلفوا في ذلك أيضاً، فقال مالك والشافعيّ وزفر وعثمان البَتّي: لها نصف الصداق وتتم بقية العدّة الأولى. وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثّوريّ والأوزاعيّ: لها مهر كامل للنكاح الثاني وعدّة مستقبلة. جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه. وقال داود: لها نصف الصداق، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلة. والأولى ما قاله مالك والشافعيّ، والله أعلم.

السادسة ـ هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾، ولقوله: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (١) وقد مضى في ﴿ البقرة ﴾(٢)، ومضى فيها الكلام في المُتعة (٢)، فأغنى عن الإعادة هنا. ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أنه دفع المتعة بحسب المَيْسرة والعُسْرة، قاله

(١) راجع ١٦٢/١٨.   (٢) راجع ١١٢/٣ فما بعد، وص ٢٠٠ فما بعد.

ابن عباس. الثاني ـ أنه طلاقها طاهراً من غير جماع؛ قاله قتادة. وقيل: فسرحوهنّ بعد الطلاق إلى أهلهنّ، فلا يجتمع الرجل والمطلّقة في موضع واحد.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد: هي منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾ أي فلم يذكر المتعة. وقد مضى الكلام في هذا في ﴿البقرة﴾[1] مستوفى. وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ طلّقوهنّ. والتسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة، لأنه يستعمل في غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعي صريح. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ القول فيه فلا معنى للإعادة[1]. ﴿جَمِيلاً﴾ سُنّة، غير بِدْعة.

[٥٠] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾.

فيه تسع عشرة مسألة.

الأولى ـ روى السّدّي عن أبي صالح عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت[2] إليه فعذرني؛ ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

(١) راجع ٣/ ٢٠٤ و ١٢٥.

(٢) قالت: إني امرأة مصبية (ذات صبيان). وفي بعض الروايات: قالت يا رسول الله، لأنت أحب إلي من سمعي وبصري وحق الزوج عظيم. فأخشى أن أضيع حق الزوج.

عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ الَّلاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له؛ لأني لم أهاجر، كنت من الطُّلقاء. خرّجه أبو عيسى وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال ابن العربيّ: وهو ضعيف جداً، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتجّ بها.

الثانية ـ لما خير رسول الله ﷺ نساءه فاخترنه، حَرُم عليه التزوّج بغيرهن والاستبدال بهنّ، مكافأة لهن على فعلهن. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية. وهل كان يحلّ له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك؟ فقيل: لا يحل له ذلك جزاءاً لهن على اختيارهن له. وقيل: كان يَحِلّ له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوّج بدلها. ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوّج بمن شاء عليهن من النساء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ والإحلال يقتضي تقدّم حَظْر. وزوجاته اللاتي في حياته لم يكنّ محرمات عليه، وإنما كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن، ولأنه قال في سياق الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ الآية. ومعلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أحلّ له التزويج بهذا ابتداء. وهذه الآية وإن كانت مقدمة في التلاوة فهي متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها، كآيتي الوفاة في ﴿البقرة﴾[1].

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل: المراد بها أن الله تعالى أحلّ له أن يتزوّج كل امرأة يؤتيها مهرها ، قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل: المراد أحلَلْنا لك أزواجك ، أي الكائنات عندك ، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة ، قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر ، لأن قوله : ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويجيء الأمر على هذا التأويل ضيّقاً على النبيّ ﷺ. ويؤيد هذا التأويل ما قاله

---

(١) راجع ٣/ ٢٧٣ و ٢٢٦.

ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزوج في أيّ الناس شاء، وكان يشقّ ذلك على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا مَن سُمِّيَ، سُرّ نساؤه بذلك.

قلت: والقول الأوّل أصح لما ذكرناه. ويدلّ أيضاً على صحته ما خرّجه الترمذيّ عن عطاء قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله تعالى له النساء. قال: هذا حديث حسن صحيح.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أحلّ الله تعالى السراري لنبيّه ﷺ ولأمّته مطلقاً، وأحل الأزواج لنبيّه عليه الصلاة والسلام مطلقاً، وأحلّه للخلق بعددٍ. وقوله: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي ردّه عليك من الكفار. والغنيمة قد تسمى فيئاً؛ أي مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ أي أحللنا لك ذلك زائداً من الأزواج اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجتَ وآتيت أجرها، لما قال بعد ذلك: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ لأن ذلك داخل فيما تقدّم.

قلت: وهذا لا يلزم، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر تشريفاً؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[1]. والله أعلم.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ فيه قولان: **الأوّل** ـ لا يحلّ لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب، وبنات أولاد بنات عبد المطلب، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهْرة إلا من أسلم؛ لقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجِر من هجر ما نهى الله تعالى عنه». **الثاني** ـ لا يحلّ لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

(١) راجع ١٧/ ١٨٥.

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾(١) ومن لم يهاجر لم يَكْمُل، ومَن لم يكمل لم يصلح للنبيّ ﷺ الذي كَمُل وشَرُف وعَظُم، ﷺ.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾ المَعِيّة هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها؛ فمن هاجر حلّ له، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن. يقال: دخل فلان معي وخرج معي؛ أي كان عمله كعملي وإن لم يقترن فيه عَمَلُكما. ولو قلت: خرجنا معاً لاقتضى ذلك المعنيين جميعاً: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه].

السابعة ـ ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فَرْداً والعمّات جمعاً. وكذلك قال: ﴿خَالِكَ﴾، ﴿وَخَالاَتِكَ﴾ والحكمة في ذلك: أن العمّ والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز؛ وليس كذلك العمة والخالة. وهذا عُرْف لغويّ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال وهذا دقيق فتأملوه؛ قاله ابن العربي.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ عطف على ﴿أَحْلَلْنَا﴾. المعنى وأحللنا لك امرأة تَهَب نفسها من غير صداق. وقد اختلف في هذا المعنى؛ فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو مِلك يمين. فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد. وقال قوم: كانت عنده موهوبة.

قلت: والذي في الصحيحين يقوّي هذا القول ويَعْضُدُه؛ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أما تستحي امرأة تَهَب نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ فقلت: والله ما أرى رَبَّكَ إلا يسارع في هواك. وروى البخاريّ عن عائشة أنها قالت: كانت خَوْلة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهنّ لرسول الله ﷺ. فدلّ هذا على أنهن كنّ غير واحدة. والله تعالى أعلم. الزَّمَخْشَرِيّ: وقيل الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخَوْلة بنت حكيم.

---

(١) راجع ٨/ ٥٥.

قلت: وفي بعض هذا اختلاف. قال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبيّ: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين ٱمرأة من الأنصار. وقال عليّ بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير: أم حكيم بنت الأوقص السلمية.

التاسعة ـ وقد ٱختلف في اسم الواهبة نفسها؛ فقيل هي أم شريك الأنصارية، اسمها غَزِيّة. وقيل غُزَيلة. وقيل ليلى بنت حكيم. وقيل: هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبيّ ﷺ، فجاءها الخاطب وهي على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: هي أم شريك العامرية، وكانت عند أبي العكر الأزدي. وقيل: عند الطُّفيل بن الحارث فولدت له شريكاً. وقيل: إن رسول الله ﷺ تزوّجها؛ ولم يثبت ذلك. والله تعالى أعلم؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر. وقال الشعبيّ وعروة: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين. والله تعالى أعلم.

العاشرة ـ قرأ جمهور الناس ﴿إِنْ وَهَبَتْ﴾ بكسر الألف، وهذا يقتضي استئناف الأمر؛ أي إن وقع فهو حلال له. وقد روي عن ٱبن عباس ومجاهد أنهما قالا: لم يكن عند النبيّ ﷺ ٱمرأة موهوبة؛ وقد دللنا على خلافه. وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في «الصحاح»: أن ٱمرأة قالت لرسول الله ﷺ: جئت أهب لك نفسي، فسكت حتى قام رجل فقال: زوجْنِيها إن لم يكن لك بها حاجة. فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يقرّ على الباطل إذا سمعه؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظراً بياناً؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير، فاختار تركها وزوّجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لها طالباً. وقرأ الحسن البصريّ وأُبيّ بن كعب والشعبيّ ﴿أَنْ﴾ بفتح الألف. وقرأ الأعمش ﴿وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ﴾. قال النحاس: وكسر ﴿إِنْ﴾ أجمع للمعاني؛ لأنه قيل إنهن نساء. وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها؛ لأن الفتح على البدل من ٱمرأة، أو بمعنى لأن.

الحادية عشرةـ قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنَةً﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له. قال إمام الحرمين: وقد ٱختلف في تحريم الحرّة الكافرة عليه. قال ٱبن العربيّ: والصحيح عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميز علينا؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر؛ فجوّز لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقصر هو ﷺ لجلالته على المؤمنات. وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحْرَى ألاّ تحل له الكافرة[1] الكتابية لنقصان الكفر.

الثانية عشرةـ قوله تعالى: ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة، قد تقدمت في ﴿النساء﴾[2] وغيرها. وقال الزجاج: معنى ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيّ﴾ حلّت. وقرأ الحسن: ﴿أن وهبت﴾ بفتح الهمزة. و ﴿أن﴾ في موضع نصب. قال الزجاج: أي لأن. وقال غيره: ﴿أن وهبت﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱمرأة﴾.

الثالثة عشرةـ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبيّ ﷺ حلت له، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك. كما إذا وهبت لرجل شيئاً فلا يجب عليه القبول؛ بَيْد أن من مكارم أخلاق نبيّنا أن يقبل من الواهب هبته. ويرى الأكارم أن ردّها هُجْنة في العادة، ووصمة على الواهب وأَذِيّة لقلبه؛ فبيّن الله ذلك في حق رسوله ﷺ وجعله قرآناً يتلى؛ ليرفع عنه الحرج، ويبطل بُطْل الناس في عادتهم وقولهم.

الرابعة عشرةـ قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ أي هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز؛ فلا يجوز أن تَهَب المرأة نفسها لرجل. ووجه الخاصيّة أنّها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك. فأما فيما بيننا فللمفوّضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول.

---

(١) في ابن العربي «الحرة».
(٢) راجع ٥/١٢٧ فما بعد.

الخامسة عشرة ـ أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز[١]، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح؛ إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز. قال ٱبن عطية: فليس في قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة، وإلا فالأفعال التي ٱشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، وقد تقدمت هذه المسألة في ﴿القصص﴾ مستوفاة[٢] والحمد لله.

السادسة عشرة ـ خصّ الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد ـ في باب الفرض والتحريم والتحليل ـ مزيّةً على الأمَةِ وُهبت[٣] له، ومرتبة خصّ بها؛ ففرِضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحَرُمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم؛ منها متفَق عليه ومختلف فيه.

فأما ما فُرض عليه فتسعة: **الأوّل** ـ التهجد بالليل؛ يقال: إن قيام الليل كان واجِباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ[٤]. قُمِ اللَّيْلَ﴾ الآية. والمنصوص أنه كان واجباً عليه ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ[٥] بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ وسيأتي. **الثاني** ـ الضُّحَا. **الثالث** ـ الأَضْحى. **الرابع** ـ الوتر؛ وهو يدخل في قسم التهجُد. **الخامس** ـ السواك. **السادس** ـ قضاء دين من مات معسِراً. **السابع** ـ مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. **الثامن** ـ تخيير النساء. **التاسع** ـ إذا عمل عملاً أثبته. زاد غيره: وكان يجب عليه إذا رأى منكراً أنكره وأظهره، لأن إقراره لغيره على ذلك يدلّ على جوازه، ذكره صاحب البيان.

وأما ما حرم عليه فجملته عشرة: **الأوّل** ـ تحريم الزكاة عليه وعلى آله. **الثاني** ـ صدقة التطوّع عليه، وفي آله تفصيل باختلاف. **الثالث** ـ خائنة[٦] الأعين، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع عما يجب. وقد ذمّ بعضَ الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

---

(١) أي أمر غير جائز.
(٢) راجع ١٣/ ٢٧٢. (٣) في ابن العربي: «وهبة له».
(٤) راجع ١٩/ ٣٠. (٥) راجع ١٠/٣٠٧.
(٦) الخائنة بمعنى الخيانة، وهي من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية؛ فإذا كف الإنسان لسانه وأوما بعينه فقد خان، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين.

عند دخوله[١]. الرابع - حَرّم الله عليه إذا لبس لأمته[٢] أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس - الأكل متّكئاً. السادس - أكل الأطعمة الكريهة الرائحة. السابع - التبدّل بأزواجه؛ وسيأتي. الثامن - نكاح امرأة تكره صحبته. التاسع - نكاح الحرّة الكتابية. العاشر - نكاح الأمة.

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيهاً له وتطهيراً. فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه؛ تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[٣]. وذكر النقاش أن النبيّ ﷺ ما مات حتى كتب؛ والأوّل هو المشهور. وحرم عليه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع به الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾[٤] الآية.

وأما ما أحِلّ له ﷺ فجملته ستة عشر: الأوّل - صَفِيُّ المغنم. الثاني - الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس. الثالث - الوصال. الرابع - الزيادة على أربع نسوة. الخامس - النكاح بلفظ الهبة. السادس - النكاح بغير وليّ. السابع - النكاح بغير صداق. الثامن - نكاحه في حالة الإحرام. التاسع - سقوط القَسْم بين الأزواج عنه؛ وسيأتي. العاشر - إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها؛ وحلّ له نكاحها. قال ابن العربي: هكذا قال إمام الحرمين، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيد من هذا المعنى. الحادي عشر - أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها. الثاني عشر - دخوله مكة بغير إحرام، وفي حقنا فيه اختلاف. الثالث عشر - القتال بمكة. الرابع عشر - أنه لا يورث. وإنما ذكر هذا في قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه، ولم يبق له إلا الثلث خالصاً، وبقي ملك رسول الله ﷺ، على ما تقرّر بيانه في آية المواريث[٥]، وسورة ﴿مريم﴾[٦] بيانه أيضاً. الخامس عشر - بقاء زوجيّته من بعد

---

(١) راجع كتاب «البخاري» ومسلم (باب الأدب).
(٢) اللأمة (وقد يترك همزها): الدرع. وقيل السلاح.
(٣) راجع ١٣/٣٥١. (٤) راجع ١١/٢٦١.
(٥) راجع ٥/٥٩. (٦) راجع ١١/١٨.

الموت. السادس عشر ـ إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تُنكح. وهذه الأقسام الثلاثة تقدّم معظمها مفصلاً في مواضعها. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

[وأبيح(١) له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك، لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبي ﷺ بنفسه. وأبيح له أن يحمي لِنفسه(٢). وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجعلت الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً. وكان من الأنبياء [مَن] لا تصح صلاتهم إلا في المساجد. ونُصِر بالرُّعْب؛ فكان يخافه العدوّ من مسيرة شهر. وبُعث إلى كافة الخلق، وقد كان مَن قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض. وجُعلت معجزته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة. وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماء من الصخرة. وقد أنشق القمر للنبي ﷺ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ. وكانت معجزة عيسى ﷺ إحياء الموتى وإبراء الأكْمَه والأبرص. وقد سبّح الحصى في يد النبي ﷺ، وحنّ الجِذع إليه؛ وهذا أبلغ. وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة، ولهذا جُعلت نبوّته مؤبّدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة](١).

السابعة عشر ـ قوله تعالى: ﴿أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي ينكحها، يقال: نَكَح واستنكح؛ مثل عَجِب واستعجب، وعجِل واستعجل. ويجوز أن يَرِد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح، أو طلب الوطء. و ﴿خَالِصَةً﴾ نصب على الحال، قاله الزجاج. وقيل: حال من ضمير متصل بفعل مضمر دلّ عليه المضمر، تقديره: أحللنا لك أزواجك، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير وليّ.

الثامنة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخول، لأن تصريف الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام.

(١) ما بين المربعين ساقط من ج و ك.

(٢) في ش: «بنفسه». بالباء بدل اللام؛ والجملة غير ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي ما أوجبنا على المؤمنين، وهو ألا يتزوّجوا ألا أربع نسوة بمهر وبيّنة ووَلِيّ. قال معناه أُبَيّ بن كعب وقتادة وغيرهما.

التاسعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي ضيق في أمر أنت فيه محتاج إلى السعة، أي بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ . فـ﴿ ـلكيلا ﴾ متعلق بقوله: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ أي فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربّك في شيء. ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

[٥١] ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ قرىء مهموزاً وغير مهموز، وهما لغتان، يقال: أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته. ﴿وَتُؤْوِي﴾ تَضُمّ، يقال: آوى إليه (ممدودة الألف) ضمّ إليه. وأوى (مقصورة الألف) انضمّ إليه.

الثانية ـ واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصح ما قيل فيها. التوسعة على النبيّ ﷺ في ترك القَسْم، فكان لا يجب عليه القَسْم بين زوجاته. وهذا القول هو الذي يناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كنت أغار على اللائي وهبن أنفُسَهُن لرسول الله ﷺ وأقول: أو تهب المرأة نفسها لرجل؟ فلما أنزل الله عز وجل ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ قالت: قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. قال

ابن العربي : هذا الذي ثبت في « الصحيح » هو الذي ينبغي أن يعوّل عليه . والمعنى المراد : هو أن النبيّ ﷺ كان مخيَّراً في أزواجه ، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم ، وإن شاء أن يترك القَسم ترك . فخص النبيّ ﷺ بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قِبَل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطييباً لنفوسهنّ ، وصوناً لهنّ عن أقوال الغَيْرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي . وقيل : كان القَسْم واجباً على النبي ﷺ ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رَزِين : كان رسول الله ﷺ قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ما شئت . فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهنّ من نفسه وماله سواء بينهنّ . وكان ممن أرجى سودة وجُوَيْرِية وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهنّ ما شاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ قالت : هذا في الواهبات أنفسهنّ . قال الشعبيّ : هنّ الواهبات أنفسهنّ ؛ تزوّج رسول الله ﷺ منهنّ وترك منهنّ . وقال الزُّهْري : ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحداً من أزواجه ، بل آواهن كلهن . وقال ابن عباس وغيره : المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كلّ معنًى فالآية معناها التوسعة على رسول الله ﷺ والإباحة . وما اخترناه أصح والله أعلم.

الثالثة ـ ذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ الآية ، ناسخ لقوله : ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخَ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات . وفي ﴿ البقرة ﴾ عدّة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدّم عليه[1] .

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبت؛ والابتغاء الطلب، و ﴿عَزَلْتَ﴾ أزلت؛ والعزلة الإزالة، أي إن أردت أن تؤوي إليك ٱمرأة ممن

---

(١) راجع ٣/ ١٧٤ و ٢٢٦ .

عزلتهن من القسمة وتضمّها إليك فلا بأس عليك في ذلك. وكذلك حكم الإرجاء، فدلّ أحد الطرفين على الثاني.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي لا ميل، يقال: جنحت السفينة أي مالت إلى الأرض. أي لا ميل عليك باللوم والتوبيخ.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ قال قتادة وغيره: أي ذلك التخيير الذي خيّرناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل[1] من الله قرّت أعينهن بذلك ورضين؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان راضياً بما أوتي منه وإن قلّ. وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غَيْرته عليه وعَظُمَ حرصه فيه. فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه. وقرىء: ﴿تُقِرّ أعينَهن﴾ بضم التاء ونصب الأعين. ﴿وتُقَرّ أعينُهن﴾ على البناء للمفعول وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، تطييباً لقلوبهن ـ كما قدّمناه ـ ويقول: «اللهم هذه قدرتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني قلبه، لإيثاره عائشة رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة. قالت عائشة: أوّل ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيتها ـ يعني بيت عائشة ـ فأذِنّ له... الحديث، خرجه الصحيح. وفي «الصحيح» أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد[2]،

(١) في ش وك: «العدل».

(٢) كذا في ش، وك، والذي في البخاري: «ليتعذر» قال القسطلاني: «بالعين المهملة والذال المعجمة؛ أي يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة. وعند القابسي «يتقدّر» بالقاف والدال المهملة؛ أي يسأل عن قدر ما بقي إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجد؛ لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون».

يقول: «أين أنا اليوم أين أنا غداً» استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها. قالت: فلما كان يومي قبضه الله تعالى بين سَحْري ونَحْري[1]؛ ﷺ.

السابعة ـ على الرجل أن يعدِل بين نسائه لكل واحدة منهن يوماً وليلة؛ هذا قول عامة العلماء. وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار. ولا يُسقِط حقّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته؛ إلا أن يَعْجِز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض، فإذا صحّ استأنف القَسم. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء. قال عبد الملك: للحُرّة ليلتان وللأمة ليلة. وأما السراري فلا قَسْم بينهن وبين الحرائر، ولا حظّ لهن فيه.

الثامنة ـ ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة. واختلف في دخوله لحاجة وضرورة؛ فالأكثرون على جوازه؛ مالك وغيره. وفي كتاب ابن حبيب منعه. وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء. قال ابن بكير: وحدّثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون. فأسهم بينهما أيهما تدلى أوّل.

التاسعة ـ قال مالك: ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتّى العدل فيهما، وهو المعنيّ بقوله ﷺ في قَسْمه. «اللهم هذا فِعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وفي كتاب أبي داود «يعني القلب»، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا، تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم

(١) تريد بين جنبي وصدري. والسحر: الرئة، فأطلقت على الجنب مجازاً، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه. والنحر: الصدر. (٢) راجع ٥/٤٠٧.

ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض مَن عندنا من النساء دون بعض، وهو العالِم بكل شيء ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾(١) ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٢) لكنه سَمَح في ذلك، إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل، وإلى ذلك يعود قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. وقد قيل في قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهنَّ﴾ وهي:

العاشرة ـ أي ذلك أقرب ألاّ يحزنّ إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأَثَرَة والميل. وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل». ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ توكيد للضمير، أي ويرضين كلهن. وأجاز أبو حاتم والزجاج ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾ على التوكيد للمضمر الذي في ﴿آتيتهن﴾. والفراء لا يجيزه، لأن المعنى ليس عليه، إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن. النحاس: والذي قاله حسن.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص. وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وفي البخاريّ عن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أيّ الناس أحبّ إليك؟ فقال: «عائشة» فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم مَن؟ قال: «عمر بن الخطاب. . .» فعدّ رجالاً. وقد تقدّم القول في القلب بما فيه كفاية في أوّل ﴿البقرة﴾(٣)، وفي أول هذه السورة(٤). يروى أن لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيّده: اذبح شاة وائتني بأطيبها بَضْعتين، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له: ألق أخبثها بَضْعتين، فألقى اللسان والقلب. فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها بَضْعَتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلقي بأخبثها بَضعتين فألقيت اللسان والقلب!؟ فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا.

---

(١) راجع ٤/٦ فما بعد. (٢) راجع ١١/١٦٥ فما بعد.
(٣) راجع ١/١٨٧. (٤) ص ١١٧ من هذا الجزء.

[٥٢] ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ اختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ على أقوال سبعة:

الأولى ـ أنها منسوخة بالسُّنة، والناسخ لها حديث عائشة، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء. وقد تقدّم[1].

الثاني ـ أنها منسوخة بآية أخرى، روى الطحاويّ عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوّج من النساء من شاء؛ إلا ذات مَحْرم، وذلك قوله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ قال النحاس: وهذا والله أعلم أوْلى ما قيل في الآية؛ وهو وقول عائشة واحد في النسخ. وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحلّ له ذلك بالقرآن. وهو مع هذا قول عليّ بن أبي طالب وابن عباس وعليّ بن الحسين والضحاك. وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال: محال أن تنسخ هذه الآية يعني ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون. ورجح قول من قال نسخت بالسُّنَّة. قال النحاس: وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة، كما صحّ عن ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان. ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[2] منسوخة على قول أهل التأويل ـ لا نعلم بينهم

(١) ص ٢٠٧ من هذا الجزء.
(٢) راجع ٣/٣، ٢٢٦.

خلافاً ـ بالآية التي قبلها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعشراً﴾[1].

الثالث ـ أنه ﷺ حظر عليه أن يتزوّج على نسائه؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال النحاس: وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ.

الرابع ـ أنه لما حرم عليهن أن يتزوّجن بعده حرُم عليه أن يتزوّج غيرهن؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف.

الخامس ـ ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي من بعد الأصناف التي سُمّيت؛ قاله أُبَيّ بن كعب وعكرمة وأبو رَزين، وهو اختيار محمد بن جرير. ومن قال إن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا: ﴿ لاَ يَحِلّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات. وهذا تأويل فيه بُعْدٌ. وروي عن مجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة أيضاً. وهو القول السادس. قال مجاهد: لئلا تكون كافرة أُمًّا للمؤمنين. وهذا القول يبعد؛ لأنه يقدّره: من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر. وكذلك قدّر ﴿ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ أي ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابية.

السابع ـ أن النبيّ ﷺ كان له حلال أن يتزوّج من شاء ثم نسخ ذلك. قال: وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِي.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ قال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خذ زوجتي وأعطني زوجتك، روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عُيينة بن حِصْن الفَزَارِيّ على رسول الله ﷺ وعنده

(١) راجع ٣/ ١٧٤، ٢٢٦.

عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عُيينة فأين الاستئذان»؟ فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَرَ منذ أدركت. قال: مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين» قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال: «يا عُيينة، إن الله قد حرّم ذلك». قال فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله، مَن هذا؟ قال: «أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسَيّدُ قومه». وقد أنكر الطبريّ والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبريّ: وما فعلت العرب قط هذا، وما روي من حديث عيينة بن حِصن من أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة... الحديث، فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبـي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدلّ على خلاف ما أنكر من ذلك، والله أعلم. قال المبرد: وقرىء ﴿لاَ يَحِلُ﴾ بالياء والتاء. فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء. وزعم الفراء قال: اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء؛ وهذا غلط، وكيف يقال: اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا ٱختلاف عنه!.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماء بنت عُمَيس؛ أعجب رسولَ الله ﷺ حين مات عنها جعفر بن أبـي طالب حُسنها، فأراد أن يتزوّجها، فنزلت الآية؛ وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربيّ.

الرابعة ـ في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها. وقد أراد المغيرة بن شُعبة زواج امرأة، فقال له النبيّ ﷺ: «انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤدم بينكما»[١]. وقال عليه السلام لآخر: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً» أخرجه الصحيح. قال الحميديّ وأبو الفرج الجوزيّ. يعني صفراء أو زرقاء. وقيل رمصاء[٢].

---

(١) أي أحرى أن تدوم المودّة بينكما. يقال: أدم الله بينهما يادم أدماً؛ أي ألف ووفق.

(٢) الرمص (بالتحريك): وسخ يجتمع في الموق؛ فإن سال فهو غمص، وإن جمد فهو رمص.

الخامسة ـ الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغّبه في نكاحها. ومما يدلّ على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل». فقوله: «فإن استطاع فليفعل» لا يقال مثله في الواجب. وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعيّ والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر. وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. وقال سهل بن أبي حثمة: رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت له: أتفعل هذا؟ فقال نعم! قال النبيّ ﷺ: «إذا ألقى الله في قلب أحدكم خِطْبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها». الإجّار: السطح، بلغة أهل الشام والحجاز. قال أبو عبيد: وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة.

السادسة ـ ٱختلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك: ينظر إلى وجهها وكفّيها، ولا ينظر إلا بإذنها. وقال الشافعيّ وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعيّ: ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. قال داود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكاً بظاهر اللفظ. وأصولُ الشريعة تردّ عليه في تحريم الاطلاع على العورة. والله أعلم.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأَمَة الكافرة للنبيّ ﷺ على قولين: تحلّ لعموم قوله: ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم. قالوا: قوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي لا تحلّ لك النساء من غير المسلمات، فأما اليهوديات والنّصرانيات والمشركات فحرام عليك؛ أي لا يحلّ لك أن تتزوّج كافرة فتكون أُمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حسنها؛ إلا ما ملكت يمينك، فإن له أن يتسرّى بها. القول الثاني ـ لا تحلّ؛ تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾(١) فكيف به ﷺ.

---

(١) راجع ١٨/ ٦٥.

و ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ في موضع رفع بدل من ﴿ النساء ﴾ . ويجوز أن يكون في موضع نصب على استثناء ، وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك، ومِلك بمعنى مملوك ، وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول.

[٥٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

فيه ست عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ﴿أنْ﴾ في موضع نصب على معنى: إلا بأن يؤذن لكم، ويكون الاستثناء ليس من الأول. ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ نصب على الحال، أي لا تدخلوا في هذه الحال. ولا يجوز في ﴿غَيْر﴾ الخفض على النعت للطعام، لأنه لو كان نعتاً لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين، وكان يقول: غير ناظرين إناه أنتم. ونظير هذا من النحو: هذا رجلٌ مع رجل ملازمٌ له، وإن شئت قلت: هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو.

وهذه الآية تضمّنت قصتين: إحداهما ـ الأدب في أمر الطعام والجلوس. والثانية ـ أمر الحجاب. وقال حماد بن زيد: هذه الآية نزلت في الثقلاء. فأما القصة

الأولى فالجمهور من المفسرين على أن : سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوّج زينب بنت جحش امرأة زيد[1] أوْلَم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط، فثقُلُوا على رسول الله ﷺ. قال أنس: فما أدري آأنا أخبرت النبيّ ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القومَ بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبيّ : إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة . والأوّل الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبيّ ﷺ فيدخلون قبل أن يدرِكَ الطعام، فيقعدون إلى أن يدرِك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء . وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبيّ : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود في بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً. وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة: سببها أن عمر قال قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ؛ فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربّي في ثلاث : في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر. هذا أصح ما قيل في أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شيء منها على ساق ، وأضعفها ما روي عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبيّ ﷺ بالحجاب ، فقالت زينب بنت جحش : يا بن الخطاب ، إنك تَغَار علينا والوحي ينزل في بيوتنا! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وهذا باطل، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب، كما بيّناه. أخرجه البخاريّ ومسلم والترمذي وغيرهم. وقيل: إن رسول الله ﷺ كان يَطْعَم ومعه بعض

(١) أي التي كانت امرأة زيد ثم طلقها وانقضت عدتها منه.

أصحابه، فأصاب يَدُ رجل منهم يدَ عائشة، فكره النبيّ ﷺ فنزلت آية الحجاب. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضْجَه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبيّ ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نُضج الطعام.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ دليل على أن البيت للرجل، ويحكم له به، فإن الله تعالىٰ أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ والْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خبيراً﴾[1] قلنا: إضافة البيوت إلى النبيّ ﷺ إضافة مِلك، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبيّ ﷺ، والإذن إنما يكون للمالك.

الثالثة ـ واختلف العلماء في بيوت النبيّ ﷺ إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته، هل هي ملك لهنّ أم لا على قولين: فقالت طائفة: كانت ملكاً لهنّ، بدليل أنهنّ سكنّ فيها بعد موت النبيّ ﷺ إلى وفاتهنّ، وذلك أن النبيّ ﷺ وهب ذلك لهنّ في حياته. الثاني ـ أن ذلك كان إسكاناً كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة، وتمادى سكناهنّ بها إلى الموت. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربيّ وغيرهم، فإن ذلك من مؤونتهنّ التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهنّ، كما استثنى لهنّ نفقاتهنّ حين قال: «لا تَقْتَسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤونة عاملي فهو صدقة». هكذا قال أهل العلم، قالوا: ويدلّ على ذلك أن مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ. قالوا: ولو كان ذلك ملكاً لهنّ كان لا شك قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ. قالوا: وفي ترك ورثتهنّ ذلك دليل على أنها لم تكن لهنّ ملكاً، وإنما كان لهنّ

---

(١) راجع ص ١٨٢ من هذا الجزء.

سكنى حياتهنّ، فلما تَوفِّين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه، كما جعل ذلك الذي كان لهنّ من النفقات في تركة رسول الله ﷺ لمّا مضين لسبيلهنّ، فزيد إلى أصل المال فصرف في منافع المسلمين مما يعمّ جميعَهم نفعُه. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نُضْجه. و ﴿إِنَاهُ﴾ مقصور، وفيه لغات: ﴿إِنَى﴾ بكسر الهمزة. قال الشيباني:

وكِسْــرَى إذ تقسّمـــه بَنُـــوه ... بـأسيـاف كمـا اقْتُسِـم اللِّحـام
تمخّضــت المَنــون لــه بيــوم ... أنَــى[1] ولكــل حــاملــة تمــام

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿غَيرِ نَاظِرِينَ إِنَاه﴾ مجروراً صفة لـ ﴿طعام﴾. الزمخشريّ: وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ، فيقال: غيرِ ناظرين إناه أنتم، كقولك: هندٌ زيدٌ ضاربته هي. وأنى «بفتحها»، وأناء «بفتح الهمزة والمد» قال الحطيئة:

وأخّــرت العَشــاء إلــى سُهَيْــل ... أو الشِّعْــرَى فطــال بِــيَ الإنــاءُ

يعني إلى طلوع سهيل. وإناه مصدر أنى الشيء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فأكّد المنع، وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة. قال ابن العربيّ: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فآدخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول. والفاء في جواب ﴿إذا﴾ لازمة لما فيها من معنى المجازاة.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أَمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرّق جميعهم وينتشروا. والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل. والدليل على ذلك أن الدخول حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله.

(١) «أنى» هنا فعل ماض، بمعنى أدرك وبلغ؛ كما في «اللسان» و «شرح القاموس».

السادسة ـ في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه[1] سواه، وبقي الملك على أصله.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله: ﴿غير ناظِرِينَ﴾ و ﴿غَيْرَ﴾ منصوبة على الحال من الكاف والميم في ﴿لكم﴾ أي غير ناظرين ولا مستأنسين؛ والمعنى المقصود: لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ في وليمة زينب. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره. ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر. وفي «الصحيح» عن أم سلَمة قالت: جاءت أم سُليم إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأت الماء».

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾ الآية. روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال قال عمر: وافقت ربي في أربع...؛ الحديث. وفيه: قلت يا رسول الله، لو ضربتَ على نسائك الحجاب، فإنه يدخل عليهنّ البرّ والفاجر؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

واختلف في المتاع؛ فقيل: ما يتمتع به من العواريّ[2]. وقيل فَتْوَى. وقيل صحف القرآن. والصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا.

التاسعة ـ في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهنّ من وراء حجاب في حاجة تَعْرِض، أو مسألة يُستفتين فيها؛ ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، بدنها وصوتها؛ كما تقدّم، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يعرض وتعيَّن عندها.

---

(١) في ح، ش: «إليهم».
(٢) العواري: جمع العارية، ما تداولوه بينهم.

العاشرة ـ استدلّ بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبيّ ﷺ من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها. وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما. قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب. وقال الشافعيّ: لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال؛ أي ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية. وهذا يدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ روى إسماعيل بن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلاً قال: لو قُبض رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. ونزلت: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. وقال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حِراء ـ في نفسه ـ لو توفي رسول الله ﷺ لتزوّجت عائشة، وهي بنت عمي. قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله. قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدّث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً فكفّر الله عنه. وقال ابن عطية: روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله ﷺ لتزوّجت عائشة؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتأذّى به؛ هكذا كنّى عنه ابن عباس ببعض الصحابة. وحكى مكيّ عن معمر أنه قال: هو طلحة بن عبيد الله.

قلت: وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة؛ ولا يصح. قال ابن عطية: لله درّ ابن عباس! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله. قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله! والكذب في نقله[1]؛ وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال. يروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوّج رسول الله ﷺ أمّ سلمة بعد أبـي سلمة، وحفصة بعد خُنيس بن حُذافة: ما بال محمد يتزوّج نساءنا! والله لو قد مات لأجَلْنا السهام على نسائه؛ فنزلت الآية في هذا؛ فحرم الله نكاح أزواجه من بعده، وجعل لهن حكم الأمهات. وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ. قال الشافعيّ رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يحلّ لأحد نكاحهن، ومن استحلّ ذلك كان كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾. وقد قيل: إنما منع من التزوّج بزوجاته؛ لأنهن أزواجه في الجنة، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها. قال حذيفة لامرأته: إن سرّك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجي من بعدي؛ فإن المرأة لآخر أزواجها. وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة.

الرابعة عشرة ـ اختلف العلماء في أزواج النبيّ ﷺ بعد موته؛ هل بقين أزواجاً أم زال النكاح بالموت، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا؟ فقيل: عليهن العدة؛ لأنه تُوُفّي عنهن، والعدة عبادة. وقيل: لا عدة عليهن؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة. وهو الصحيح؛ لقوله عليه السلام: «ما تركت بعد نفقة عيالي» وروى «أهلي» وهذا أسم خاص بالزوجية؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه، وحرمن على غيره؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح. وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب في حق غيره؛ لكونهن أزواجاً له في الآخرة قطعاً بخلاف سائر

---

(١) في ش: «وحاشاهم عن مثله. . . وإنما. . . والكذب في نقله» وموضع النقط في الأصل بياض. وفي ك: «وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب في نقله».

الناس؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار؛ فبهذا انقطع السبب في حق الخلق وبقي في حق النبيّ ﷺ؛ وقد قال عليه السلام: «زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة». وقال عليه السلام: «كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة».

فرع ـ فأما زوجاته عليه السلام اللاتي فارقهن في حياته مثل الكَلْبية وغيرها؛ فهل كان يحلّ لغيره نكاحهن؟ فيه خلاف. والصحيح جواز ذلك؛ لما روي أن الكلبية التي فارقها رسول الله ﷺ تزوجها عكرمة بن أبي جهل على ما تقدّم. وقيل: إن الذي تزوّجها الأشعث بن قيس الكندي. قال القاضي أبو الطيّب: الذي تزوّجها مهاجر بن أبي أميّة، ولم ينكر ذلك أحد؛ فدلّ على أنه إجماع.

الخامسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ يعني أَذِيَّة رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه؛ فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه.

السادسة عشرة ـ قد بيّنا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر، وكان يقول لسَوْدة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة: قد رأيناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. ولا بُعْد في نزول الآية عند هذه الأسباب كلها ـ والله أعلم ـ بَيْدَ أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال: لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها؛ مراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها. فدلته أسماء بنت عُميس على سترها في النعش في القُبّة، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه عمر. وروي أن ذلك صُنع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ.

[٥٤] ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

البارىء سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماضٍ تَقَضَّى، ولا مستقبَلٌ يأتي. وهذا على العموم تمدّح به. وهو أهل المدح والحمد. والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومن أشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ

تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فقيل لهم في هذه الآية: إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها. فصارت هذه الآية منعطفة[1] على ما قبلها مبينة لها. والله أعلم.

[٥٥] ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية.

الثانية ـ ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحلّ للمرأة البروزُ له، ولم يذكر العمّ والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد يسمى العم أباً، قال الله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾[2] وإسماعيل كان العمّ. قال الزجاج: العمّ والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحلّ لابن العمّ وابن الخال فكره لهما الرؤية. وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها. وقد ذكر في هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع في سورة ﴿النور﴾ فهذه الآية بعض تلك، وقد مضى الكلام هناك مستوفى[3]، والحمد لله.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدَّينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعيَّنهن في هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن. والله أعلم. ثم توعّد تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيداً﴾

(١) في ابن العربي «منقطعة» وهو تحريف. (٢) راجع ٢/١٣٨.
(٣) راجع ١٢/٢٢٦.

[٥٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

هذه الآية شرّف الله بها رسولَه عليه السلام حياتَه وموته، وذكر منزلته منه، وطهّر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك. والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.

مسألة ـ واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ فقالت فرقة: الضمير فيه لله والملائكة؛ وهذا قولٌ من الله تعالى شرّف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوَى. فقال له رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله» أخرجه الصحيح. قالوا: لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء. وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره إن الله يصلّي وملائكته يصلون، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وذلك جائز للبشر فعله. ولم يقل رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت» لهذا المعنى، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما، وسكت سكتة. واستدلوا بما رواه أبو داود عن عديّ بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبيّ ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله ومن يعصهما. فقال: «قم ـ أو اذهب ـ بئس الخطيب أنت». إلا أنه يحتمل أن يكون لما خطأه في وقفه وقال له: «بئس الخطيب» أصلح له بعد ذلك جميع كلامه، فقال: «قل ومن يعص الله ورسوله» كما في كتاب «مسلم». وهو يؤيد القول الأوّل بأنه لم يقف على «ومن يعصهما». وقرأ ابن عباس: ﴿وملائكتُه﴾ بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول ﴿إنّ﴾. والجمهور بالنصب عطفاً على المكتوبة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيّه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلاف في أن

الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه. الزَّمَخْشَرِيّ: فإن قلت الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها؟ قلت: بل واجبة. وقد اختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث: «من ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله». ويروى أنه قيل له: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فقال النبيّ ﷺ: «هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكّل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلّي عليّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملَكين آمين. ولا أُذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذلك المَلَكَان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك المَلَكين آمين». ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس. وكذلك في كل دعاء في أوّله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر. وكذلك قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط: الصلاة عند كل ذكر، لما ورد من الأخبار في ذلك.

الثانية ـ واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه ﷺ، فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاريّ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلّي عليك يا رسول الله، فكيف نصلّي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم». ورواه النسائيّ عن طلحة مثله، بإسقاط قوله: «في العالمين» وقوله: «والسلام كما قد علمتم». وفي الباب عن كعب بن عُجْرة وأبي حُميد الساعديّ وأبي سعيد الخُدْريّ وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة وبُريدة الخزاعيّ وزيد بن خارجة،

ويقال ابن حارثة. أخرجها أئمة أهل الحديث في كتبهم. وصحح الترمذيّ حديث كعب بن عُجْرة. خرّجه مسلم في «صحيحه» مع حديث أبي حميد الساعديّ. قال أبو عمر: روى شُعبة والثوريّ عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عُجرة قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة؟ فقال: «قل اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا لفظ حديث الثوريّ لا حديث شعبة، وهو يدخل في التفسير المسند إليه لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ فبيّن كيف الصلاة عليه وعلمهم في التحيات كيف السلام عليه، وهو قوله: «السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته». وروى المسعوديّ عن عون بن عبد الله عن أبي فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال: إذا صلّيتم على النبيّ ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه. قالوا فعلّمنا؛ قال: «قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدِك ونبيّك ورسولِك إمامِ الخير وقائد الخير ورسولِ الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وروينا بالإسناد المتصل في كتاب (الشفا) للقاضي عياض عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: عدّهن في يدي رسول الله ﷺ وقال: «عدّهن في يدي جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم وترحّم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم وتحنّن

على محمد وعلى آل محمد كما تَحَنَّنْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». قال ابن العربيّ: من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم، وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه، ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يَقْوى، وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً معيباً، وإنما يختارون السالم الطيب، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبيّ ﷺ إلا ما صحّ عن النبيّ ﷺ سنده، لئلا يدخل في حيّز الكذب على رسول الله ﷺ، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، بل ربما أصاب الخسران المبين.

الثالثة ـ في فضل الصلاة على النبيّ ﷺ، ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من صلّى عَلَيَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً». وقال سهل بن عبد الله: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك. قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبيّ ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبيّ ﷺ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما. وروى سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء يُحجَب دون السماء حتى يصلّى على النبيّ ﷺ، فإذا جاءت الصلاة على النبيّ ﷺ رفع الدعاء. وقال النبيّ ﷺ: «من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب».

الرابعة ـ واختلف العلماء في الصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة؛ فالذي عليه الجمّ الغفير والجمهور الكثير: أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها. قال ابن المنذر: يستحب ألا يصلّي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوريّ وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم. وهو قول جُلّ أهل العلم. وحكي عن مالك وسفيان أنها في

التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها في التشهد مسيء، وشذ الشافعيّ فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة. وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان. وقال أبو عمر: قال الشافعيّ: إذا لم يصلّ على النبيّ ﷺ في التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة. قال: وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه. وهذا قول حكاه عنه حَرْملة بن يحيى، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعيّ إلا من رواية حَرْملة عنه، وهو من كبار أصحابه الذين كَتبوا كتبه. وقد تقلّده أصحاب الشافعيّ ومالوا إليه وناظروا عليه، وهو عندهم تحصيل مذهبه. وزعم الطحاوي أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره. وقال الخطّابي وهو من أصحاب الشافعيّ: وليست بواجبة في الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعيّ، ولا أعلم له فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعيّ وإجماعهم عليه، وقد شُنّع عليه في هذه المسألة جداً. وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعيّ وهو الذي علمه النبيّ ﷺ، ليس فيه الصلاة على النبيّ ﷺ، وكذلك كل من روى التشهد عنه ﷺ. وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلّمنا التشهد على المنبر كما تعلّمون الصبيان في الكتاب. وعلّمه أيضاً على المنبر عمر، وليس فيه ذكر الصلاة على النبيّ ﷺ.

قلت: قد قال بوجوب الصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة محمد بن الموّاز من أصحابنا فيما ذكر ابن القَصّار وعبد الوهاب، واختاره ابن العربيّ للحديث الصحيح: إن الله أمرنا أن نصلّي عليك فكيف نصلّي عليك؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفيةً ووقتاً. وذكر الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين أنه قال: لو صلّيتُ صلاة لم أصلِّ فيها على النبيّ ﷺ ولا على أهل بيته لرأيتُ أنها لا تتم. وروي مرفوعاً عنه عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ. والصواب أنه قول أبي جعفر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ قال القاضي أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه. وكذلك من بعدهم أمروا

أن يسلّموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره. وروى النسائيّ عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبِشْر يُرى في وجهه، فقلت: إنا لنرى البشرى في وجهك! فقال: «إنه أتاني المَلَك فقال يا محمد إن ربّك يقول أما يرضيك إنه لا يصلّي عليك أحد إلا صلّيت عليه عشراً ولا يسلّم عليك أحد إلاّ سلّمتُ عليه عشراً». وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد يسلم عليّ إذا متُّ إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته» وروى النسائيّ عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني من أمّتي السلام». قال القُشيريّ: والتسليم قولك: سلام عليك.

[٥٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - اختلف العلماء في أذِيّة الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود لعنهم الله: وقالت اليهود يد الله مغلولة. والنصارى: المسيح ابن الله. والمشركون: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وفي «صحيح البخاريّ» قال الله تعالى: «كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك...» الحديث. وقد تقدّم في سورة ﴿مريم﴾[1]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما». هكذا جاء هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة في هذه الرواية. وقد جاء مرفوعاً عنه «يؤذيني ابن آدم

---

(١) راجع ١١/١٥٩.

يَسُبّ الدهر وأنا الدهر أقلّب الليل والنهار» أخرجه أيضاً مسلم. وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرّض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصوّرين». قلت: وهذا مما يقوّي قول مجاهد في المنع من تصوير الشجر وغيرها؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبّه بفعل الله الذي انفرد به سبحانه وتعالى. وقد تقدّم هذا في سورة ﴿النمل﴾[1] والحمد لله. وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف، تقديره: يؤذون أولياء الله. وأما أذِيّة رسوله ﷺ فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنًى واحد، ومن الأفعال أيضاً. أما قولهم: «فساحر. شاعر. كاهن مجنون. وأما فعلهم: فكسر رباعِيته وشج وجهه يوم أُحُد، وبمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد» إلى غير ذلك. وقال ٱبن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين ٱتخذ صفية بنت حُيَيّ. وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأنّ إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه.. ومنه..

الثانية ـ قال علماؤنا: والطعن في تأمير أسامة بن زيد أذيّةٌ له عليه السلام. روى الصحيح عن ٱبن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمرته؛ فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبلُ وأيْمُ الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لَمِنْ أحب الناس إليّ وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده». وهذا البعث ـ والله أعلم ـ هو الذي جهّزه رسول الله ﷺ مع أسامة وأمّره عليهم وأمَره أن يَغْزُوَ «أُبْنَى» وهي القرية التي عند مُؤْتَة، الموضع الذي قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رَوَاحة. فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن من في قلبه ريب في إمْرته؛ من حيث إنه كان من الموالي، ومن حيث إنه كان صغير السنّ؛ لأنه كان إذ ذاك ٱبن ثمان عشرة سنة؛ فمات النبيّ ﷺ وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها؛ فنفذه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ.

---

(١) راجع ١٣/ ٢٢١.

الثالثة ـ في هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوْلَى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى. وقدّم رسول اللهﷺ سالماً مولى أبي حُذيفة على الصلاة بقُبَاء، فكان يؤمّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش. وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان، وكان عمر يستعمله على مكة فقال. من استعملت على هذا الوادي؟ قال: أبن أبزى. قال: ومَن أبن أبْزَى؟ قال: مَوْلًى من موالينا. قال: فأستخلفت عليهم مَوْلًى! قال: إنه لقارىء لكتاب الله وإنه لعالم بالفرائض ـ قال ـ أما إن نبيكم قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين».

الرابعة ـ كان أسامة رضي الله عنه الحب أبن الحِبِّ وبذلك كان يُدْعَى، وكان أسودَ شديدَ السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن. هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. وقال غير أحمد: كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديدَ الأُدْمَة. ويروى أن النبيّﷺ كان يُحسّن أسامة وهو صغير ويمسح مخاطه، وينقّي أنفه ويقول: «لو كان أسامة جارية لزيّناه وجهزناه وحبَّبناه إلى الأزواج». وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبيّﷺ، أنه لما كان عليه السلام في حجّة الوداع بجبل عرفة عشيّة عرفة عند النَّفْر، أحتبس النبيّﷺ قليلاً بسبب أسامة إلى أن أتاه؛ فقالوا: ما أحتبس إلا لأجل هذا! تحقيراً له. فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم. ذكره البخاريّ في التاريخ بمعناه. والله أعلم.

الخامسة ـ كان عمر رضي الله عنه يفرض لأسامة في العطاء خمسة آلاف، ولابنه عبد الله ألفين؛ فقال له عبد الله: فضّلت عليّ أسامة وقد شهدتُ ما لم يشهد! فقال: إن أسامة كان أحب إلى رسول اللهﷺ منك، وأباه كان أحب إلى رسول اللهﷺ من أبيك؛ ففضل رضي الله عنه محبوبَ رسول اللهﷺ على محبوبه. وهكذا يجب أن يُحَبّ ما أحبّ رسول اللهﷺ ويُبْغَض مَن أبغض. وقد قابل مَرْوان هذا الحبّ بنقيضه؛ وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلي عند باب بيت

النبيّ ﷺ فقال له مَرْوان : إنما أردت أن نرى مكانك ، فقد رأينا مكانك ، فعل الله بك! وقال[١] قولاً قبيحاً. فقال له أسامة: إنك آذيتني، وإنك فاحش متفحش، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش » . فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين ، فقد آذى بنو أمية النبيّ ﷺ في أحبابه ، وناقضوه في محابّه.

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ معناه أبعِدوا من كل خير. واللعن في اللغة: الإبعاد، ومنه اللعان. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ تقدّم معناه في غير موضع. والحمد لله رب العالمين.

[٥٨] ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

أذيّة المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذب الفاحش المختلق. وهذه الآية نظيرُ الآية التي في النساء: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾[٢] كما قال هنا. وقد قيل: إن من الأذيّة تعييره بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه، لأن أذاه في الجملة حرام. وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأوّل كفراً والثاني كبيرة، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ وقد بيّناه. وروي أن عمر بن الخطاب قال لأبـيّ بن كعب: قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم. فقال له أُبـيّ: يا أمير المؤمنين، لستَ منهم إنما أنت معلم ومقوّم. وقد قيل: إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان؛ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: نزلت في عليّ، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه. رضي الله عنه.

---

(١) في الأصول: «وفعل قولا . . .». (٢) راجع ٥/ ٣٨٠.

[٥٩] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ قد مضى الكلام في تفضيل أزواجه واحدة واحدة[1]. قال قتادة: مات رسول الله ﷺ عن تسع. خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأمّ حبيبة، وَسَوْدة، وأمّ سلمة. وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرِية. وواحدة من بني هارون: صفية. وأما أولاده فكان للنبيّ ﷺ أولاد ذكور وإناث.

فالذكور من أولاده: القاسم، أمّه خديجة، وبه كان يُكْنَى ﷺ، وهو أوّل من مات من أولاده، وعاش سنتين. وقال عروة: ولدت خديجة للنبيّ ﷺ القاسم والطاهر وعبد الله والطيّب. وقال أبو بكر البرقي: ويقال إن الطاهر هو الطيّب وهو عبد الله. وإبراهيم أمّه مارِية القبطية، ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وتوفي ابن ستة عشر شهراً، وقيل ثمانية عشر؛ ذكره الدَّارَقُطْنِيّ. ودفن بالبقيع. وقال ﷺ: «إن له مرضعاً تُتِمّ رضاعه في الجنة». وجميع أولاد النبيّ ﷺ من خديجة سوى إبراهيم. وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة.

وأما الإناث من أولاده فمنهنّ: فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبني البيت قبل النبوّة بخمس سنين، وهي أصغر بناته، وتزوّجها عليّ رضي الله عنهما في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وبنى بها في ذي الحجة، وقيل: تزوّجها في رجب، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير، وهي أوّل من لحقه من أهل بيته. رضي الله عنها.

---

(١) راجع ص ١٦٢ فما بعد من هذا الجزء.

ومنهنّ: زينب ـ أمّها خديجة ـ تزوّجها ٱبن خالتها أبو العاصي بن الربيع، وكانت أمّ العاصي هالة بنت خويلد أخت خديجة. وٱسم أبي العاصي لَقِيط. وقيل هاشم. وقيل هُشيم. وقيل مِقْسم. وكانت أكبر بنات رسول الله ﷺ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها.

ومنهنّ: رُقَيّة ـ أمّها خديجة ـ تزوّجها عُتبة بن أبي لَهَب قبل النبوّة، فلما بعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[1] قال أبو لهب لابنه: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلّق ٱبنته؛ ففارقها ولم يكن بَنَى بها. وأسلمت حين أسلمت أمّها خديجة، وبايعت رسول الله ﷺ هي وأخواتها حين بايعه النساء، وتزوّجها عثمان بن عفان، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوّجها عثمان:

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ رقيّةٌ وبعلها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا[2] ثم ولدت بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به في الإسلام، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فمات.، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله ﷺ يتجهز إلى بدر فخلّف عثمانَ عليها، فتوفّيت ورسول الله ﷺ ببدر، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة. وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رُقَيّة. ولم يشهد دفنها رسول الله ﷺ.

ومنهنّ: أم كلثوم ـ أمها خديجة ـ تزوّجها عُتيبة بن أبي لهب ـ أخو عتبة ـ قبل النبوّة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور في أمر رقية، ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ. وأسلمت حين أسلمت أمها، وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ. فلما توفّيت رقية تزوّجها عثمان، وبذلك سمي ذا النُّورَيْن. وتوفيت

(١) راجع ٢٠/ ٢٣٤. (٢) السقط: بتثليث السين؛ والكسر أكثر.

فتي حياة النبيّ ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله ﷺ على قبرها ، ونزل في حفرتها عليّ والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبيّ ﷺ : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيّب والطاهر ، ووُلد بعد النبوّة ومات صغيراً . ثم أمّ كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانية ـ لما كانت عادة العربيات التبذّل، وكنّ يكشفْن وجوههنّ كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعّب الفكرة فيهن، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن، وكنّ يتبرّزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكُنُف ـ فيقع الفرق بينهن وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهن، فيكُفّ عن معارضتهن من كان عذَباً أو شابًّا. وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرّز للحاجة فيتعرّض لها بعض الفجار يظن أنها أَمَة، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ ـ ونزلت الآية بسبب ذلك. قال معناه الحسن وغيره.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء. وقد قيل: إنه القناع. والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن. وفي «صحيح مسلم» عن أمّ عطيّة قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: «لتُلْبِسْها أختُها من جلبابها».

الرابعة ـ واختلف الناس في صورة إرخائه؛ فقال ابن عباس وعَبِيدة السَّلْمانيّ: ذلك أن تلوِيه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تُبصر بها. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشدّه، ثم تعطِفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن: تغطّي نصف وجهها.

الخامسة ـ أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وإن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأن له أن يستمتع بها

كيف شاء. ثبت أن النبيﷺ استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقِظ صواحب الحجر رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٌ في الآخرة». وروي أن دِحْيَةَ الكلْبيّ لما رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيّﷺ قُبْطِيّة؛ فقال: «اجعل صديعاً لك قميصاً وأعط صاحبتك صديعاً تختمر به». والصّديع النصف. ثم قال له: «مُرْها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف». وذكر أبو هريرة رقّة الثياب للنساء فقال: الكاسيات العاريات الناعمات[١] الشقيّات. ودخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهنّ ثياب رِقاق، فقالت عائشة: إن كنتنّ مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه[٢]. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قُبْطِيّ مُعَصْفَر، فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة ﴿النور﴾ امرأة تلبس هذا. وثبت عن النبيﷺ أنه قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مُمِيلات رؤوسهن مثل أسنمة البُخْت لا يَدْخلْنَ الجنة ولا يجدْنَ ريحها». وقال عمر رضي الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها[٣] أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أي الحرائر، حتى لا يختلطن بالإماء؛ فإذا عُرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرّيّة، فتنقطع الأطماع عنهن. وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمَةَ قد تقنعت ضربها بالدرّة، محافظة على زيّ الحرائر. وقد قيل: إنه يجب الستر والتقنّع الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أن أصحاب رسول اللهﷺ منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول اللهﷺ مع قوله: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو عاش رسول اللهﷺ إلى وقتنا هذا لمنعهنّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

---

(١) في ح: «المتنعمات».

(٢) وردت هذه الكلمة محرّفة في نسخ الأصل، ولعلها «فتمتعن به».

(٣) الأطمار: جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق.

[٦٠] ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

[٦١] ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى- قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآية. أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال: هم شيء واحد، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء. والواو مقحمة، كما قال:

إلى الملك القَرْم وابن الهمام وليْثِ الكَتيبة في المُزْدَحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليثِ الكتيبة، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1]. وقيل: كان منهم قوم يُرجفون، وقوم يتبعون النساء للرِّيبة، وقوم يشكّكون المسلمين. قال عكرمة وشَهْر بن حَوْشَب: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني الذين في قلوبهم الزنى. وقال طاوس: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كُهيل: نزلت في أصحاب الفواحش، والمعنى متقارب. وقيل: المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد، عبّر عنهم بلفظين؛ دليله آية المنافقين في أول سورة ﴿البقرة﴾[1]. والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوّهم، فيقولون إذا خرجت سرايا رسولِ الله ﷺ: إنهم قد قتلوا أو هزموا، وإن العدوّ قد أتاكم، قاله قتادة وغيره. وقيل كانوا يقولون: أصحاب الصُّفة قوم عزّاب، فهم الذين يتعرّضون للنساء. وقيل: هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حُبًّا للفتنة. وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حُبًّا

(١) راجع ١/ ٣٨٥ و ١٩٢.

للفتنة. وقال ابن عباس: الإرجاف التماس الفتنة، والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل للاغتمام[١] به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرض ـ أي تحرّكت وتزلزلت ـ ترجُف رَجْفاً. والرَّجفان: الاضطراب الشديد. والرَّجَاف: البحر، سُمّي به لاضطرابه. قال الشاعر:

المُطعِمـون اللّحـم كـلّ عشيّـة حتى تَغيب الشمسُ في الرَّجاف[٢]

والإرجاف: واحدُ أراجيف الأخبار. وقد أرجَفوا في الشيء، أي خاضوا فيه. قال الشاعر:

فـإنـا وإن عيّـرتمـونـا بقتلـه وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ

وقال آخر:

أبالأراجيف يابن اللؤم توعِدني وفـي الأراجيف خِلت اللـؤم والخـور[٣]

فالإرجاف حرام، لأن فيه إذاية. فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل. وقال ابن عباس: لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم. ثم إنه قال عز وجل: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ[٤]﴾ وإنه أمره بلعنهم، وهذا هو الإغراء؛ وقال محمد بن يزيد: قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتصال الكلام بها، وهو قوله عز وجل: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾. فهذا فيه معنى الأمر

---

(١) في ز: «الاهتمام» وفي ش: الإغمام. (٢) قال ابن بري: البيت لمطرود بن كعب الخزاعي يرثى عبد المطلب جد سيدنا رسول الله ﷺ؛ وقبله:

يـا أيهـا الـرجـل المحـوّل رحلـه هـلا نـزلـت بـآل عبـد منـاف

(٣) البيت للعين المنقري يهجو به العجاج أو رؤبة. والرواية المعروفة فيه:

أبالأراجيز يابن اللؤم توعدني وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز: جمع أرجوزة بمعنى الرجز، وهو بحر من بحور الشعر. وجاء به علماء النحو شاهداً على «خلت» من الأفعال التي يلغى عملها لتوسطها بين مفعوليها. ولو نصبت قوله «اللؤم والخور» على المفعولية لجاز. (راجع كتاب سيبويه ١/ ٦١ وباب ظن وأخواتها في كتب النحو).

(٤) راجع ٨/ ٢١٨.

بقتلهم وأخذهم؛ أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ : «خمس يُقتلن في الحِلّ والحَرَم». فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء. النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وقيل: إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغرِ بهم. ولام ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لام القسم، واليمين واقعة عليها، وأدخلت اللام في ﴿إن﴾ توطئة لها.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي في المدينة. ﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾؛ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء. فهذا أحد جوابي الفرّاء، وهو الأولى عنده، أي لا يجاورونك إلا في حال قلتهم. والجواب الآخر ـ أن يكون المعنى إلا وقتاً قليلاً، أي لا يبقون معك إلا مدّة يسيرة، أي لا يجاورونك فيها إلا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، فيكون نعتاً لمصدر أو ظرف محذوف. ودلّ على أن مَن كان معك ساكناً بالمدينة فهوجارٌ. وقد مضى في ﴿النساء﴾[1].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد، وهو منصوب على الحال. وقال ابن الأنباريّ: ﴿قليلاً ملعونين﴾ وقف حسن. النحاس: ويجوز أن يكون التمام ﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾ وتنصب ﴿مَلْعُونِينَ﴾ على الشتم. كما قرأ عيسى بن عمر: ﴿وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾. وقد حكي عن بعض النحويين أنه قال: يكون المعنى أينما ثُقِفوا أخذوا ملعونين. وهذا خطأ لا يَعمل ما [كان][2] مع المجازاة فيما قبله. وقيل: معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون. وقد فعل بهم هذا، فإنه لما نزلت سورة ﴿براءة﴾ جمعوا، فقال النبيّ ﷺ : «يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ أي سنّ اللهُ جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أي تحويلاً وتغييراً، حكاه النقّاش. وقال السدّي: يعني أن من قُتل بحق فلا دِية على قاتله.

---

(١) راجع ٥/١٨٣ فما بعد. (٢) زيادة عن النحاس.

المهدَوِيّ: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم، وقد مضى هذا في ﴿آل عمران﴾[1] وغيرها.

[٦٣] ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ هؤلاء المؤذُون لرسول الله ﷺ لمّا تُوعِّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكذيباً، موهمين أنها لا تكون. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يُبطل نبوّتي، وليس من شرط النبيّ أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جلّ وعزّ. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي ما يعلمك. ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ أي في زمان قريب. وقال ﷺ: «بُعثت أنا والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبّابة والوسطى، خرّجه أهل الصحيح. وقيل: أي ليست الساعة تكون قريباً، فحذف هاء التأنيث ذهاباً بالساعة إلى اليوم؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة ذهاباً بالرحمة إلى العفو، إذ ليس تأنيثها أصلياً. وقد مضى هذا مستوفى[2]. وقيل: إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها في كل وقت.

[٦٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي طردهم وأبعدهم. واللعن: الطرد والإبعاد عن الرحمة. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3] بيانه. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ فأنّث السعير لأنها بمعنى النار. ﴿لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾ ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه.

---

(١) راجع ٤/ ٣٠٣. (٢) راجع ٧/ ٢٢٧. (٣) راجع ٢/ ٢٥.

[٦٦] ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦)﴾.

[٦٧] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول. وقرأ عيسى الهمداني وابن إسحاق: ﴿نُقَلِّبُ﴾ بنون وكسر اللام. ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ نصباً. وقرأ عيسى أيضاً: ﴿تُقَلِّبُ﴾ بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعيرُ وجوهَهم. وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى. وإذا بدّلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا﴾. ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلَّب وجوههم في النار يا ليتنا. ﴿أَطَعْنَا اللَّهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ أي لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون. وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها. وكذا ﴿السَّبِيلاَ﴾ وقد مضى في أوّل السورة[١]. وقرأ الحسن: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا﴾ بكسر التاء، جمع سادة. وكان في هذا زجر عن التقليد. والسادة جمع السيد، وهو فَعَلة، مثل كتبة وفجرة. وساداتنا جمع الجمع. والسادة والكبراء بمعنًى. وقال قتادة: هم المطعمون في غزوة بدر. والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة، أي أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ أي عن السبيل وهو التوحيد، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب. والإضلال لا يتعدّى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر، كقوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾[٢].

[٦٨] ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾.

---

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء.

(٢) راجع ١٣/ ٢٥ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإضلال؛ أي عذّبهم مثْلَي ما تعذّبنا فإنهم ضلّوا وأضلّوا. ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة والنحاس، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[1] وهذا المعنى كثير. وقال محمد بن أبي السري: رأيت في المنام كأني في مسجد عسقلان وكأن رجلاً يناظرني فيمن يبغض أصحاب محمد فقال: والعنهم لعناً كثيراً، ثم كررها حتى غاب عني، لا يقولها إلا بالثاء. وقراءة الباء ترجع في المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيراً عظيم المقدار.

[٦٩] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، حذر المؤمنين من التعرّض للإيذاء، ونهاهم عن التشبّه ببني إسرائيل في أذِيّتهم نبيّهم موسى. واختلف الناس فيما أوذي به محمد ﷺ وموسى، فحكى النقاش أن أذِيّتهم محمداً عليه السلام قولهم: زيد بن محمد. وقال أبو وائل: أذِيته أنه ﷺ قَسم قَسْماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القِسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فغضب وقال: «رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». وأما أذِيّة موسى ﷺ فقال ابن عباس وجماعة: هي ما تضمّنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، وذلك أنه قال: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستّر كثيراً ويخفي بدنه فقال قوم هو آدر[2] وأبرص أو به آفة، فانطلق ذات يوم يغتسل في عين بأرض الشأم وجعل ثيابه على صخرة ففرّ الحجر بثيابه واتبعه موسى عرياناً يقول ثَوْبِي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ[3] حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فنظروا إليه وهو من

(١) راجع ٢/ ١٨٤ فما بعد.

(٢) الأدره (وزان الغرفة): انتفاخ الخصية

(٣) أي دع ثوبي يا حجر.

أحسنهم خَلْقاً وأعد لهم صورة وليس به الذي قالوا فهو قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾» أخرجه البخاريّ ومسلم بمعناه. ولفظ مسلم: قال قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سَوْءةِ بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوماً[١] يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه قال فجمح[٢] موسى عليه السلام بإثره يقول ثَوْبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوأة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نُظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفِق بالحجر ضرْباً» قال أبو هريرة: والله إنه بالحجر نَدَبٌ[٣] ستةٌ أبو سبعةٌ ضَرْبُ موسى بالحجر. فهذا قول. وروي عن ابن عباس عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: آذوْا موسى بأن قالوا: قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهارون خرجا من فَحْص[٤] التِّيه إلى جبل فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، وكان ألين لنا منك وأشدّ حُبًّا. فآذوْه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلّتهم على صدق موسى، ولم يكن فيه أثر القتل. وقد قيل: إن الملائكة تكلّمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وأنه تعالى جعله أصم أبكم. ومات هارون قبل موسى في التِّيه، ومات موسى قبل انقضاء مدّة التِّيه بشهرين. وحكى القشيريّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات. وقد قيل: إن أذِيّة موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون. والصحيح الأوّل. ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرّأه الله من جميع ذلك.

مسألة ـ في وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله في الماء عُرياناً ـ دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور، ومنعه ابن أبي لَيْلَى واحتجّ بحديث

---

(١) في «مسلم»: «مرة». (٢) جرى أشد الجري. (٣) الندب (بالتحريك): أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد، فشبه به أثر الضرب في الحجر. (٤) قال ياقوت: الفحص كل موضع يسكن سهلاً كان أو جبلاً بشرط أن يزرع. والتيه: هو الموضع الذي ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه. وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر). وهو الآن قلب شبه جزيرة طور سينا.

لم يصحّ وهو قوله ﷺ: «لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للماء عامراً». قال القاضي عياض: وهو ضعيف عند أهل العلم.

قلت: أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن عليّ دخل غَديراً وعليه بُرد له متوشحاً به، فلما خرج قيل له، قال: إنما تسترت ممن يراني ولا أراه؛ يعني من ربي والملائكة. فإن قيل: كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل؟ قيل: لأنه صدر عن الحجر فعل مَن يعقل. و «حَجرُ» منادى مفرد محذوف حرف النداء، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[1]. و «ثوبي» منصوب بفعل مضمر؛ التقدير: أعطني ثوبي، أو اترك ثوبي، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي عظيماً. والوجيه عند العرب: العظيم القدر الرفيع المنزلة. ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَكَانَ عَبْداً لِلَّهِ﴾. وقيل: معنى ﴿وَجِيهاً﴾ أي كلمه تكليما. قال أبو بكر الأنباريّ في (كتاب الرد): زعم مَن طعن في القرآن أن المسلمين صحّفوا ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ وأن الصواب عنده «وَكَانَ عَبْداً لِلَّهِ وَجِيهاً» وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه، وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت: «وكان عبداً» نقص الثناء على موسى عليه السلام؛ وذلك أن ﴿وَجِيهاً﴾ يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة، فلا يوقف على مكان المدح، لأنه إن كان وجيهاً عند بني الدنيا كان ذلك إنعاماً من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله. فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله، فمن غيّر اللفظة صرف عن نبيّ الله أفخر الثناء وأعظم المدح.

[٧٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠)﴾.

[٧١] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)﴾.

---

(١) راجع ٩/ ١٧٥.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ أي قصداً وحقًّا. وقال ابن عباس: أي صواباً. وقال قتادة ومقاتل: يعني قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحلّ. وقال عِكرمة وابن عباس أيضاً: القول السداد لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه. وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره. وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين. وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض. والقول السداد يعم الخيرات، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك.

وظاهر الآية يعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين. ثم وعد جل وعز بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

[٧٢] ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

[٧٣] ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

لما بيّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيّن، أمر بالتزام أوامره. والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور. روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله: حدّثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد[1] بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) في ش وك: «محمد بن زيد» ولم نقف على تصويبه.

وما فيها يا رب قال إن حملتها أُجِرت وإن ضيّعتها عُذّبت فاحتملها بما فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها». فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد. وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال. وقال أُبيّ بن كَعْب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها. وفي حديث مرفوع «الأمانة الصلاة» إن شئت قلت قد صلّيت وإن شئت قلت لم أصلّ. وكذلك الصيام وغسل الجنابة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أوّل ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها[1] إلا بحق. فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال السدّي: هي ائتمان آدم أبنه قابيل على ولده وأهله، وخيانته إياه في قتل أخيه. وذلك أن الله تعالى قال له: «يا آدم، هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض» قال: «اللهم لا» قال: «فإن لي بيتاً بمكة فأته، فقال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة؟ فأبت، وقال للأرض: احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال للجبال كذلك فأبت. فقال لقابيل: احفظ ولدي بالأمانة، فقال نعم، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك. فرجع فوجده قد قتل أخاه، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية. وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبال، قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنتِ جوزيتِ وإن أساتِ عوقبتِ. فقالت لا. قال مجاهد: فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه، قال: وما هي؟ قال: إن أحسنت أجرتك وإن

(١) كذا وردت هذه الجملة في نسخ الأصل. والذي في «نوادر الأصول»: «فلا تبسل منها شيئاً إلا بحقها» والإبسال هنا التضييع؛ وهو رواية «الدر المنثور»؛ قال: «فلا تضيعها إلا في حقها». يقال: أبسلت فلاناً إذا أسلمته للهلكة.

أسأتَ عذبتك. قال: فقد تحملتها يا رب. قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها إلى أن أُخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وروى عليّ بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال: الأمانة الفرائض، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال، إن أدَّوْهَا أثابهم، وإن ضيّعوها عذّبهم. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله عز وجل ألا يقوموا به. ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها. قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير. وقيل: لما حضرت آدم ﷺ الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه. وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق، من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها؛ قاله بعض المتكلمين. ومعنى ﴿عَرَضْنَا﴾ أظهرنا، كما تقول: عرضت الجارية على البيع. والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ أي أن يحملن وزرها، كما قال جل وعز: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1]. ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ قال الحسن: المراد الكافر والمنافق. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً﴾ لنفسه ﴿جَهُولاً﴾ بربه. فيكون على هذا الجوابُ مجازاً، مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[2]. وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب، أي أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها، وأشفقت وقالت: لا أبتغي ثواباً ولا عقاباً، وكلٌّ يقول: هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أُمِرن به وسُخِّرن له، قاله الحسن وغيره. قال العلماء: معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير. وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام. والعرض على الإنسان إلزام. وقال القفّال وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مَثَل، أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها

(١) راجع ١٣/ ٣٣٠ فما بعد.
(٢) راجع ٩/ ٢٤٥ فما بعد.

تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال، وقد كُلِّفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عَقَل. وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا[1] الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ ـ ثم قال: ـ ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾. قال القفال: فإذا تقرّر في أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حمله عليه. وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت، فعبّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾ الآية. وهذا كما تقول: عرضت الحِمل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه. وقيل: ﴿عَرَضْنَا﴾ بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها. وقيل: إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام. وذلك أن الله تعالى لما أستخلفه على ذرّيته، وسلّطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهِد إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرّم وأحلّ، فقبله ولم يزل عاملاً به. فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلِمه مَن يستخلف بعده، ويقلده من الأمانة ما تقلده، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى، فأبَيْن أن يقبلنه شَفَقاً[2] من عذاب الله. ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه. ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط، ولم يَهَبْ منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً﴾ لنفسه ﴿جَهُولاً﴾ بعاقبة ما تقلّد لربه. قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي: عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً مما قال! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة، إلا أنه يومِىء في مقالته إلى أنه سلّطه على

---

(١) راجع ١٨/ ٤٤.

(٢) الشفق والإشفاق: الخوف.

جميع ما في الأرض، وعهِد الله إليه عهداً فيه أمره ونهيه وحِلّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟ وما التسليط[1] على الأنعام والطير والوحش وكيف إذا عرضه على ولده فقبله في أعناق ذرّيته من بعده. وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أي من قِبَلِ نفسه لاَ أنه حمِّل ذلك، فسماه ﴿ظَلُوماً﴾ أي لنفسه، ﴿جَهُولاً﴾ بما فيها. وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر، فحدّثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفي حدثنا السّرِيّ بن إسماعيل عن عامر الشّعبيّ عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: لما خلق الله الأمانة مثّلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحمِلْنها، وقال لهن: إنّ هذه ﴿الأمانة﴾، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا: يا ربّ، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قَبْل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حِقْوَيه[2]، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه ﴿الأمانة﴾ ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذرّيتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوماً جهولا. وذكر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها. ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ أي التزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه. وقال قتادة: للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه. وهذا تأويل ابن عباس وابن جُبير. وقال الحسن: جهول بربه. قال: ومعنى ﴿حملها﴾ خان فيها. وقال الزجاج: والآية في الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل. وقال ابن عباس وأصحابه

---

(١) في أ: «وما تسليطه».

(٢) الحقو (بفتح الحاء وكسرها): الخاصرة.

والضحاك وغيره: ﴿الإنسان﴾ آدم، تحمَّل الأمانة فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة. وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له: أتحمل هذه الأمانة بما فيها. قال وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُزِيت وإن أسأت عوقبت. قالِ: أنا أحملها بما فيها بين أذني وعاتقي. فقال الله تعالى له: إني سأعينك، قد جعلت لبصرك حجاباً فأغلقه عما لا يحلّ لك، ولفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال قوم: ﴿الإنسان﴾ النوع كله. وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أوّلاً. وقال السدّي: الإنسان قابيل. فالله أعلم.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ اللام في ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ متعلقة بـ ﴿حمل﴾ أي حملها ليعذب العاصي ويثيب المطيع؛ فهي لام التعليل؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة. وقيل بـ ﴿عرضنا﴾؛ أي عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شركُ المشرك ونفاق المنافق ليعذبهم الله، وإيمانُ المؤمن ليثيبه الله. ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع، يقطعه من الأوّل؛ أي يتوب الله عليهم بكل حال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ خبر بعد خبر لـ ﴿كان﴾. ويجوز أن يكون نعتاً لغفور، ويجوز أن يكون حالاً من المضمر. والله أعلم بالصواب.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة سبأ

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمدَ المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: ٧٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣)﴾ [الليل: ١٣]. ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره؛ ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من قطر ورزق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة، الغفور من ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره

من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]، فقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.
قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨]. وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾: هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾. العزيز هو: المنيع الجناب، الذي لا يُغالب ولا يُمانع، بل قد قهر كل شيء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا. ثم قال منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظلّلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨]. قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ قال: إنك نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: قال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿مُّنِيبٍ﴾: تائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله ﷻ. أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: «لقد أوتي هذا مِزْمَاراً من مزامير آل داود». وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِي﴾ أي: سبحي. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سَبّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها. وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه «الجُمل» في باب النداء منه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسآد: سير الليل كله. وهذا لفظه، وهو غريب جداً لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: رَجّعي مُسَبّحة معه، كما تقدم، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخلَه ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سَمَاعة، حدثنا ابن ضَمْرَة، عن ابن شَوْذَب قال: كان داود، عليه السلام، يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحُوّاري. ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: هذا إرشاد من الله لنبيه داود، عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق في الحلقة، ولا تُغَلِّظه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عُتيبة: تُغَلظه فيفصم، وتُدِقّه فيقلَق. وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد: حَلَق الحديد. وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وعَليهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما «دَاوُد»، أو صَنعَ السَّوابغ «تُبَّعُ»

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود، عليه السلام، من طريق إسحاق بن بشر - وفيه كلام - عن أبي إلياس، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه: أن داود، عليه السلام، كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته ومعدلته، صلوات الله وسلامه عليه. قال وهب: حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني: بيت المال، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام، إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فألان له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدرع، وهو أول من عملها، فقال الله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ يعني: مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته. وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكأن قد أعطي سبعين مزماراً في حلقه. وقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى سليمان، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع. وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن

زيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان، عليه السلام. قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو الحريق. وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نُفَير، عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون». رفعه غريب جداً. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حَرْمَلة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مُضَر، عن محمد، عن ابن أنعم أنه قال: الجن ثلاثة: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب. قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنس ثلاثة: صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة. وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وصنف في صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعني: ابن الفضل ـ عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾: أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره. وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور، وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطية العوفي، والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تَروحُ عَلَى آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كَجابِيَةِ الشَّيْخِ العِراقِي تَفْهَقُ

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: كالجوبة من الأرض. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات: أي الثابتات، في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها. كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثافيها منها. وقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين. وشكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثَلاثَةً: ... يَدي، وَلِساني، وَالضَّميرَ المُحَجَّبا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر. وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرَظي قال: الشكر تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود، عليه السلام، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر ـ يعني: ابن سليمان ـ عن ثابت البُنَاني قال: كان داود، عليه السلام، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يَفر إذا لاقى». وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنيد بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة». وروى ابن أبي حاتم عن داود، عليه السلام، هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو يزيد فيض بن إسحاق الرقي قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني». وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾: إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

يذكر تعالى كيفية موت سليمان، عليه السلام، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه ـ وهي مِنْسَأته ـ كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحواً من سنَة، فلما أكلتها دابةُ الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب، وفي صحته نظر، قال ابن جرير:

حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان نبي الله، عليه السلام، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم، عَمِّ على الجن موتتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصاً، فتوكأ عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل. فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين». قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال: «فشكرت الجن الأرضة، فكانت تأتيها بالماء». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طَهْمان، به. وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات، وفي بعض حديثه نكارة. وقال السُّدِّي، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: كان سليمان يتحرر في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها، فيقول: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نَبتَ دواء قالت: نَبَتُّ دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها: الخرّوبة، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. قال: ولأي شيء نَبَتِّ؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان: ما كان الله لِيُخَرِّبه وأنا حي؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه، فمات ولا تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألست جلداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فمر ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يتحرق. ونظر إلى سليمان، عليه السلام، قد سقط ميتاً. فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه. وَوَجدوا منسأته ـ وهي: العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. وهي في قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة، وذلك قول الله ﷻ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين، شكراً لها.

وهذا الأثر ـ والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب. وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرخ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ قال: قال سليمان، عليه السلام، لملك الموت: إذا أمرتَ بي فأعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أمرت بك، وقد بقيت لك سويعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت، فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه، ولم يصنع ذلك

فراراً من ملك الموت. قال: والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه، يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله، ﷻ، دابة الأرض. قال: والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها: القادح ـ فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعف، وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾. قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر. وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مَذرَ، كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، ولد عَشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِجُ، وكِندَةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان». ورواه عَبدُ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به. وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه، وقد روي من طرق متعددة. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القصد والأمَم، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم»، من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه. وقد روي نحوه من وجه آخر. وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبي حيَّة الكلبي، عن يحيى بن هانيء بن عُرْوَة، عن فروة بن مُسيك قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقاتل بمقبل قومي مدبرهم؟ قال: «نعم، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم». فلما وليت دعاني فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام». فقلت: يا رسول الله، أرأيت سبأ؛ أواد هو، أو رجل، أو ما هو؟ قال: «لا، بل رجل من العرب، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة، تيامن الأزد، والأشعريون، وحمير، وكندة، ومذحج، وأنمار الذي يقال لهم: بجيلة وخثعم. وتشاءم لخم، وجذام، وعاملة، وغسّان». وهذا أيضاً إسناد جيد وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبي، وقد تكلموا فيه. لكن رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب، عن العَنْقَزِي، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانيء المرادي، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال: قدم فروة بن مُسيَك على رسول الله ﷺ، فذكره.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة، عن توبة بن نَمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يوماً: ما أظن قوماً بأرض إلا هم من أهلها. فقال علي بن رباح: كلا، قد حدثني فلان أن فروة بْن مُسَيك الغُطَيفي قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية، وإني أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: «ما أمرت فيهم بشيء بعد». فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ الآيات، فقال له رجل: يا رسول الله، ما سبأ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله: أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: «بل رجل، وَلَد عَشْرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أم اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير غير ما حلها. وأما الشام: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة».

فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة، والسورة مكية كلها، والله أعلم. **طريق أخرى:** قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سَبْرَة النَّخَعِي، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفي قال: قال رجل: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ: ما هو؟ أرض، أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد، فتيامن ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا: فكندة: والأشعريون، والأزد، ومذحج، وحمير، وأنمار». فقال رجل: ما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة». ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كُرَيْب وعبد بن حميد قالا: حدثنا أبو أسامة، فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري؛ أن رجلاً أتى

رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ، فذكر مثله، فقوى هذا الحديث وحَسّن. قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشاً ورياشاً. وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سَيَملك بَعدَنَا مُلكاً عَظيماً ... نَبيّ لا يُرَخِّصُ في الحَرَام
وَيَملك بَعدَه منهُم مُلُوك ... يدينون العبادَ بغير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك ... يَصير المُلك فينَا باقْتِسَام
وَيَملك بَعدَ قَحطَان نَبي ... تَقي خَبْتَة خير الأنام
وسُمي أحْمَداً يَا لَيتَ أني ... أعَمر بَعد مَبْعَثه بعَام
فاعضُده وأحبوه بنَصْري ... بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظهَرْ فَكُونُوا نَاصريه ... وَمَنْ يَلقَاهُ يُبلغه سَلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب «الإكليل». واختلفوا في قحطان في ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق. **والثاني**: أنه من سلالة عَابَر، وهو هود، عليه الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. **والثالث**: أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمري، رحمه الله، في كتابه المسمى: «الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة». ومعنى قوله عليه السلام: «كان رجلاً من العرب» يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام، من سلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل، عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ مر بنفر من «أسلَم» ينتضلون، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً». فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غَسّان بماء نزلوا عليه قيلَ: باليمن. وقيل: إنه قريب من المُشَلّل، كما قال حسن بن ثابت:

إمّا سَألت فَإنّا مَعشَرٌ نُجُبٌ ... الأزدُ نِسْبَتُنَا، والماء غَسّانُ

ومعنى قوله: «ولد له عشرة من العرب» أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب. ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة» أي: بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم من قام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطّاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد. وقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤]. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن مُنَبّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السُّدّي: أرسل الله إليهم اثنى عشر ألف نبي، والله أعلم. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: قيل: المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي.

وقيل: الجُرَذ. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع». و «سعيد كُرْز» حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك؛ أن الله، ﷻ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: «الجُرَذ» نقبته ـ قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السّدّ فنقبته، فانهار عليهم. وقال قتادة وغيره: الجُرَذ: هو الخُلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول، صَدَم الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء الخراساني، والحسن، وقتادة، والسُّدّي: وهو الأراك، وأكلة البَرير. ﴿وَأَثْلٍ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السَّمُر. فالله أعلم. وقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجرة الأراك والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم بالحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ أي: عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبي، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب علي، رضي الله عنه ـ قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك. وقال مجاهد: والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسُّدّي، وابن زيد وغيرهم: يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها: بيت المقدس. وقال العوفي، عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: «بعد بين أسفارنا». وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. وقال في حق هؤلاء: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثاً للناس، وَسَمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول

العرب في القوم إذا تفرقوا: «تفرقوا أيدي سبأ» «وأيادي سبأ» و «تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ، قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وإنه خُبّر أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلهم. فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالاً ـ: إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتك فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمر عظيم، وأمر شديد، قال: يا بني، قد حدث أمر لا بد منه. فلم يزل به حتى وافاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمع الناس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا، فأبى، فانتهره أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه، فوثب على أبيه فلطمه، فقال: ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة. قالوا: وما تصنع بالشفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تذبح ابنك. الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحرزه، قال: أي قوم، إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم داراً جديداً، وجملاً شديداً، وسفراً بعيداً، فليلحق بعمان. ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها ـ فليلحق بيثرب ذات نخل. فأطاعه قومه، فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت غسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل. قال: فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلاً. فأقاموا به، فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان، وتوجهت غسان إلى بصرى. هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن، بسبب استشعاره بإرسال العرم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ـ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ـ: أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم. فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي. وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو، فاشتروا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر. فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد «عك» مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، وكانت حربهم سجَالاً. ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمي:

وَعَـكُّ بـنُ عَـدنَـانَ الـذيـنَ تَـغَـلَّـبُـوا بِـغَـسَّـانَ، حـتـى طُـرِّدُوا كُـلَّ مَـطْـرَد

وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مَرّا. ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عُمَان عُمان، ثم أرسل الله على السد السيل فهدمَه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات. وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه»، مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، أخبرنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهناً، فرأى في كهانته أن قومه سَيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد علمتِ أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادعة بن عمرو. ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن، فليلحق بأرض شَنْ. فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يريد عيشاً آنياً، وحرماً آمناً، فليلحق بالأرزين. فكانت خزاعة. ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج، وهما هذان الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريد خمراً وخَميراً، وذهباً وحريراً، وملكاً وتأميراً، فليلحق بكُوثي وبُصري، فكانت غسانَ بنو جَفنة ملوكُ الشام. ومن كان منهم بالعراق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أيّ ذلك كان. وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشي ـ أعشى بني قيس بن ثعلبة ـ واسمه: ميمون بن قيس:

وَفِـي ذَاكَ لِـلْـمُـؤْتَـسِـي أُسْـوَةٌ ... وَمَـأْرِبُ عَـفَّـى عَـلَـيْـهَـا الْـعَـرِمْ
رُخَـامٌ بَـنَـتْـهُ لَـهُـمْ حِـمْـيَـرُ ... إذا جَـاءَ مَـوَّارُهُ لَـمْ يَـرِمْ
فَـأَرْوَى الـزُّرُوعَ وَأَعْـنَـابَـهَـا ... عَـلَـى سَـعَـةٍ مَـاؤُهُـمْ إذْ قُـسِـمْ
فَـصَـارُوا أَيَـادِي مَـا يَـقْـدِرُو ... نَ مِـنْـهُ عَـلَـى شُـرْبِ طِـفْـلٍ فُـطِـمْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني، قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد، عن أبيه ـ هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خير حَمدَ رَبَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي، به ـ وهو حديث عزيز ـ من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: كان مطرّف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾. قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ثم قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧] والآيات في هذا كثيرة. وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف. وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ فقال عند ذلك إبليس: «لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأُمَنّيه وأخدعه». فقال الله: «وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له». رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾: قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه. وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

بيّن تعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، من عون يعينه بشيء. وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ولهذا ثبت في الصحيحين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله ـ: أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلّهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطه واشفع تشفع» الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾. وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قال ابن عباس، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي، وإبراهيم النَّخَعيّ، والضحاك والحسن، وقتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: جُلّي عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعاً ـ: «حتّى إذَا فرغ» بالغين المعجمة، ويرجع إلى الأول. فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك والتكذيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك، قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره: قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عِكْرِمة، سمعت أبا هُرَيرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمرَ في السماء، ضربَتِ الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوانَ، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقّ، وهو العلي الكبير فيسمعها مُسْتَرِق السمع، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرَفها وبَدّد بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن: فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذْبَة، فيقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء. انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه. وقد رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبد الرزاق: «من الأنصار» ـ فَرُميَ بنجم فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول يُولَد عظيم، أو يموت عظيم ـ قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غُلّظت حين بعث النبي ﷺ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمي بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا، تبارك وتعالى، إذا قضى أمراً سبح حَمَلةُ العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذي يَلُونَ حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء؛ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون. هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كَيْسَان، والأوزاعي، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله، أربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس عن رجل من

الأنصار، به. ورواه وقال يونس: عن رجال من الأنصار. وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزبيدي، عن الزهري، به. ورواه الترمذي فيه عن الحُسَين بن حريث؛ عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، رضي الله عنه، والله أعلم. **حديث آخر**: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سَمْعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة؛ من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مَرّ بسماء سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض». وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد، به. قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله. وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العَوفي، عن ابن عباس ـ وعن قتادة: أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مقرراً تفردَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض ـ أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد. وقال عِكْرِمة وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾: معناه: التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون]. وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور. وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيَّرتموها له عدلاً. ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظير ولا نديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾: أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾: أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمد ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله ﷻ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العَدَني، حدثنا الحكم ـ يعني: ابن أبان ـ عن عِكْرِمة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله إلى الجن والإنس. وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رَفعهُ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر». قال مجاهد: يعني: الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الآية [الشورى: ١٨]. ثم قال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا يتنقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٤ ـ ١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً، ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغُرّونا وتُمَنّونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطلٌ وكَذِبٌ ومَيْن. قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكرهم بالليل بالنهار. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبهاً وأشياء من المحال، تضلونا بها ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فُرْوَة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سِنان ضرار بن صُرَد، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها، ثم لَفَحتْهُم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب». وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخُشَني قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثتُهُ أبا سليمان ـ يعني: الداراني، رحمة الله عليه ـ فبكى ثم قال: ويحك. فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجليه، والغُلّ في يديه والسلسلة في عنقه، ثم أدخل الدار وأدخل المغار؟!.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال هاهنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم، عن أبي رَزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه ـ قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب ـ قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلى اتبعه رُذالة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الآيات، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ«إن الله قد أنزل تصديق ما قلت». وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك. قال الله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦] وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٧]. وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئاً، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا كَثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه ومسلم وابن ماجة، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقان، به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحذر منه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَة بن المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي:

بحسب مَا لَه في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كَفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه». رواه مسلم من حديث ابن عمرو. وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك». وفي الحديث: أن ملكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُمْسِكاً تَلَفاً»، ويقول الآخر: «اللهم أعط منفقاً خَلَفاً» وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

وقال ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعدكم زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هُشَيم، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يديه حذار الإنفاق»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وَيَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، إن كان عندك معروف، فعُد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾: إن كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؟ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]. قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، تقريعاً وتوبيخاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله ﷺ، ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدُّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذلك

قال قتادة، والسدي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي؟

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: إنما آمركم بواحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. هذا معنى ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسُّدِّيّ، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعطيت ثلاثة لم يعطهن من قبلي ولا فخر: أحلت لي الغنائم، ولم تحل لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها. وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وكان كل نبي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أتيمم بالصعيد، وأصلي حيث أدركتني الصلاة، قال الله: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدي» ـ فهو حديث ضعيف الإسناد، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد، ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابت في الصحاح وغيرها، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: قال البخاري عندها: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خَازم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرَّة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: صَعِدَ النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد]. وقد تقدم عند قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، تدرون مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنما مثلي ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أوتيتم. أيها الناس، أوتيتم ـ ثلاث مرات». وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني». تفرد به الإمام أحمد في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جُعلا ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض. وقوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطعنُ الصنم بسِيَة قَوْسِه، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري،

عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَة، عن ابن مسعود، به. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة. وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل هاهنا إبليس، أي: إنه لا يخلق أحداً ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد هاهنا، والله أعلم. وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، لما سئل عن تلك المسألة في المفَوضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولو ترى ـ يا محمد ـ إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يكونوا يُمنعون في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقتادة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عباس والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك. وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس، ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية. ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه. ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة. وكذا قال محمد بن كعب القرظي، رحمه الله. وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسل؟ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار. وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني: الإيمان. وقال السُّدِّي: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعة. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فلنذكره بطوله فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرَقيّ بن قُطَامي، عن سعد بن طريف، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس في قول الله ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إلى آخر الآية، قال: كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً ـ أي: فتح الله له مالاً ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أي: فاسد ـ فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت، ثم رحل فأتى عيناً ثجاجة فسرح فيها ماله، وابتنى قصراً. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجا ـ أي: ريحاً ـ فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة

لك؟ قال: قد كان ذلك. فهل لك من بَعل؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتني، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يَهُولنَّكَ. فلما كان من الغد تزود زاد يوم، وانطلق فانتهى إلى قصر، فقرع رتاجة، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً - أي: ريحاً - فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي. قال: فما حاجتك؟ قال: دعتني صاحبة هذا القصر إلى نفسها. قال: صدقت، فهل رأيت في طريقك هولاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس عليّ، لهالني الذي رأيت؛ أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بكلبة فاتحة فاها، ففزعت، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها ينبحن في بطنها. فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويَبُزّهم حديثهم. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل، وإذا فيها جَدْي يمصّها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً، فتح فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، ملك يجمع صامت الناس كلّهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر، فأردت قطعه، فنادتني شجرة أخرى: «يا عبد الله، مني فخذ». حتى ناداني الشجر أجمع: «يا عبد الله، منا فخذ». قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، يقل الرجال ويكثر النساء، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين، يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تَصَدعوا عنه صَبّ في جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشيء. قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها، وإذا رجل قد ركبها، وإذا رجل يحلبها. فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فَبخٍ بخٍ، ذهب ذلك بها. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، وإذا أنا برجل يمتح على قَليب، كلما أخرج دلوه صبّه في الحوض، فانساب الماء راجعاً إلى القليب. قال: هذا رجل رَدّ الله عليه صالح عمله، فلم يقبله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل يبذُر بذراً فيستحصد، فإذا حنطة طيبة. قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله، وأزكاه له. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال: يا عبد الله، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقني الله فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عمْر الأبعد نَفَد، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتك... أمرني الله بقبض روح الأبعد من هذا المكان، ثم أصيره إلى نار جهنم قال: ففيه نزلت هذه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآية.

هذا أثر غريب، وفي صحته نظر، وتنزيل هذه الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة، وحيل بينه وبين ما يشتهي. وقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

آخر تفسير سورة «سبأ»، ولله الحمد والمنة

❃ ❃ ❃

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الآية)
وقيل خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان فى الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مايدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الأول (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه (هو الذى خلقكم من طين) إشارة إلى الايجاد الأول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما) إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات فى المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفانى ، ثم قال فى هذه السورة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) وقال فى الملائكة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عنهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) اشارة إلى النعمة العاجلة وقوله (مالك يوم الدين) إشارة إلى النعمة

www.besturdubooks.wordpress.com

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ، ثم فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما فى السموات وما فى الأرض لنفسه بقوله (له مافى السموات ومافى الأرض) ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جواباً عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلا ، فان الإنسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به أصلا أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلاناً ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك ما فى السموات ومافى الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله (له مافى السموات ومافى الأرض) يوجب شكراً أتم مما يوجبه قوله تعالى (خلق لكم مافى الأرض) وذلك لأن ما فى السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو ، يوجب ذلك شكراً لا يوجبه كون ذلك لنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التى فى الآخرة ، فلم ذكر الله السموات والأرض ؟ فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى مافى السموات ومافى الأرض ، ثم قال (وله الحمد فى الآخرة) ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال (وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخبر، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى فى الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذى يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله (حكيم) أى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير أى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء .

ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله ﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾

ما يلج فى الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وماينزل من السماء

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله (والعمل الصالح يرفعه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ما يلج فى الأرض على ماينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانياً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند السموات فقال (وما يعرج فيها) ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (وهو الرحيم الغفور) رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء ، غفور عند ماتعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانياً عند العروج .

ثم بين أن هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ ثم رد عليهم وقال ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾

أخبر بإتيانها وأكده باليمين ، قال الزمخشرى رحمه الله : لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به ، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وبيان كونه دليلا هو أن المسىء قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة ويموت فيها ، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان

www.besturdubooks.wordpress.com

الأمر على خلاف الحكمة ، والذى أقوله أنا هو أن الدليل المذكور فى قوله (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) أظهر ، وذلك لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة ، وعلى هذا فقوله تعالى (فى السموات ولا فى الأرض) فيه لطيفة وهى أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها فى الأرض والأرواح فى السماء فقوله (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات) إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله(ولا فى الأرض) إشارة إلى علمه بالأجسام ، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد فى المعاد . وقوله (ولا أصغر من ذلك) إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب ، وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر ؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه ، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم ، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهى قال أخبرنى والدى عن جدى عن محى السنة عن عبد الواحد المليجى عن أحمد بن عبد الله النعيمى عن محمد بن يوسف الفربرى عن محمد بن اسماعيل البخارى « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملا ، فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه إنعاماً ويطعمه طعاماً ، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذى كرم أومكرم ، أو لأنه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا ، فإنه مالم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله (ليجزى الذين آمنوا) ، (وثانيهما) أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشىء آخر لأن قوله (أولئك لهم) جملة تامة إسمية ، وقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) جملة فعلية مستقلة ، وهذا أبلغ فى البشارة من قول القائل . ليجزى الذين آمنوا رزقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى ليجزى للتعليل ، معناه الآخرة للجزاء ، فإن قال قائل : فما وجه المناسبة ؟ فنقول : الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف داراً باقية ليكون ثوابه واصلا إليه دائماً أبداً ، وجعل قبلها داراً فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ

فيه فى الآخرة إذا نسبه إلى ماقبلها وإذا نظر إليه فى نفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة واحدة هى للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ، ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين ، وقوله (والذين سعوا فى آياتنا) أى بالابطال ، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا فى مقابلة ماتقدم لأن قوله تعالى (آمنوا) معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم فى الإبطال مع أن المذكور مطلق السعى ؟ فنقول فهم من قوله تعالى (معاجزين) وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعى فى التقرير والتبليغ لا يكون الساعى معاجزاً لأن القرآن وآيات الله معجزة فى نفسها لا حاجة لها إلى أحد . وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعى العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به ، وقيل بأن المراد من قوله (معاجزين) أى ظانين أنهم يفوتون الله ، وعلى هذا يكون كون الساعى ساعياً بالباطل فى غاية الظهور ، ولهم عذاب فى مقابلة لهم رزق ، وفى الآية لطائف (الأولى) قال ههنا (لهم عذاب) ولم يقل يجزيهم الله ، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشىء آخر ، وقوله (أولئك لهم مغفرة) إخبار عن مستحقهم المعد لهم ، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظراً إلى قوله (ليجزى) وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال (ورزق كريم) وههنا لم يقل إلا لهم عذاب من رجز أليم ، والجواب تقدم فى مثله (الثالثة) قال هناك (لهم مغفرة ورزق كريم) ولم يقلله بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا (لهم عذاب من رجز أليم) بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب ، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة ، وفى الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى ، والجر نظراً إلى اللفظ ، فان قيل فلم تنحصر الأقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمناً ليس له عمل صالح أو كافر متوقف ، فنقول إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم ، وإن لم يكن فى الكرامة مثل رزق الذى عمل صالحاً

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التى للمكذبين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتى علماً لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق ، وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق إلا ذلك ، وأما قول المكذب فباطل ، بخلاف ما إذا تنازع خصمان ، والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقاً فى المعنى ، وقوله تعالى (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) يحتمل أن يكون بياناً لكونه هو الحق فانه هاد إلى هذا الصراط ، ويحتمل أن يكون بياناً لفائدة أخرى ، وهى أنه مع كونه حقاً هادياً والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول إلى الله ، وقوله (العزيز الحميد) يفيد رغبة ورهبة ، فانه إذا كان عزيزاً يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب ، وإذا كان حميداً يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً ، فإن قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع أنك أبداً تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول كونه عزيزاً تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجى أيضاً ، وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾ .

وجه الترتيب : هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله (قل بلى وربى لتأتينكم) وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات ، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله (قل بلى وربى لتأتينكم) فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل إليك الحق وهو يهدى ، وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب (هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد؟) وهذا كقول القائل فى الاستبعاد ، جاء رجل يقول إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً

قوله تعالى : ﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعنى هو من كلام من قال (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال (هل ندلكم) كأن السامع لما سمع قول القائل (هل ندلكم على رجل) قال له : أهو يفترى على الله كذباً ؟ إن كان يعتقد خلافه ، أم به جنة [أى] جنون ؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفى هذا الطيفة) وهى أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر ، بل قال مفتر أو مجنون ، احترازاً من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر ، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفترياً وكاذباً فى بعض المواضع ، ألا ترى أن من يقول جاء زيد ، فاذا تبين أنه لم يجىء وقيل له كذبت ، يقول ما كذبت ، وإنما سمعت من فلان أنه جاء ، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن ، فهم احترزوا عن تبين كذبهم ، فكل عاقل ينبغى أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب) فى مقابلة قولهم (أفترى على الله كذباً) وقوله (والضلال البعيد) فى مقابلة قولهم (به جنة) وكلاهما مناسب . أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية ، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب . وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه فى الإيذاء ، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب ، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ، ثم وصف ضلالهم بالبعد ، لأن من يسمى المهتدى ضالا يكون هو الضال ، فمن يسمى الهادى ضالا يكون أضل ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازياً على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديداً . أما الدليل فقوله (من السماء والأرض) فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مراراً ، وكما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة ، وقد ذكرناه مراراً ، وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم

www.besturdubooks.wordpress.com

لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

وأما التهديد فبقوله (إن نشأ نخسف بهم الأرض) يعنى نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف .

قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ أى لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبين ما آتاه الله على أنابته فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (منا) إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقريره هو أن قوله (ولقد آتينا داود منا فضلا) مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتى الملك زيداً خلعة ، فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ، ومثل هذا قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) فان رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال (يبشرهم ربهم برحمة منه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (ياجبال أوبى معه) قال الزمخشرى (ياجبال) بدل من قوله (فضلا) معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال ، أو من آتينا ومعناه قلنا ياجبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع ، وقيل بأن معناه سيرى معه ، وفى قوله (يسبحن) قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء (والطير) بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يكن الموافق له فى التأويب منحصراً فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة ، فاذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وألنا له الحديد) عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى قوله ياجبال تقديره قلنا (ياجبال) أوبى وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفاً على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير ، فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به ، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل

www.besturdubooks.wordpress.com

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢)

إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التى هى من أمره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل ، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير ﴾ قيل إن أن ههنا للتفسير فهى مفسرة ، بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير (ألنا) وتحقيقه لأن يعمل ، يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه : ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد ، قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله (وقدر فى السرد) أى الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الأيام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله (إنى بما تعملون بصير) وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل للملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيباً آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) .

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (ولسليمان الريح) بالرفع وبالنصب وجه الرفع (ولسليمان الريح) مسخرة أو سخرت (لسليمان الريح) ووجه النصب (ولسليمان) سخرنا (الريح) وللرفع وجه آخر

www.besturdubooks.wordpress.com

وهو أن يقال معناه (ولسليمان الريح) كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفاً لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لايجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذكرنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا (وألنا له الحديد) كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة لا هذه الرياح ، فانها المنافع عامة فى أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شىء (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهى كالريح وقوله (غدوها شهر) ثلاثون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج فى أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله فى حق داود (وألنا له الحديد) وقوله فى حق سليمان (وأسلنا له عين القطر) أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أى أناساً أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و]عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أقول قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) وقوله (ولسليمان الريح عاصفة) لو قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى قال فى الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال) وفى هذه السورة قال (ياجبال أوبى معه) وقال فى الريح هناك وههنا (ولسليمان) تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب ، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو أن على قولنا (أوبى معه) سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعاً ، والريح لاتتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها ، فلم يقل الريح مع سليمان ، بل سليمان كان مع الريح (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس (ومن الجن) أى سخرنا له من الجن ، وهذا ينبىء عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر .

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان ، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه ، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمى والآدمى أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أى الجبال مع داود على ما قلنا (أوبى) أى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضاً ، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما

www.besturdubooks.wordpress.com

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لا يجتمعان مع الإنسان ؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن ، فان الإنسان يتق مواضع الجن ، والجن يطلب أبداً اصطياد الانسان والإنسان يطلب إصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفرمن داود بل يستأنس به ويطلبه ، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وههنا لطيفة) وهى أن الآدمى ينبغى أن يتق الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضى إلى المفسدة ولهذا قال تعالى (أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى (من يعمل بين يديه باذن ربه) إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهى أن الله تعالى قال ههنا (باذن ربه) بلفظ الرب وقال (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ولم يقل عن أمر ربه ، وذلك لأن الرب لفظ ينبىء عن الرحمة ، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال(ربه)وعندما كانت الاشارة إلى تعذيبهم قال(عن أمرنا) بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى(نذقه من عذاب السعير) فيه وجهان : (أحدهما) أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقامع من نار فالإشارة إليه (وثانيهما) أن السعير هو ما يكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب

قوله تعالى : ﴿ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى (إذ تسوروا المحراب) والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ، ثم لما ذكر البناء الذى هو المسكن بين ما يكون فى المسكن من ماعون الأكل فقال (وجفان كالجواب) جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس (وقدور راسيات) ثابتات لا تنقل لكبرها ، وإنما يغرف منها فى تلك الجفان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون فى الأبنية وقدم (الجفان) فى الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ، فنقول : لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال (راسيات) أى غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع فى النفس أن الطعام الذى يكون فيها فى أى شىء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب ، وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة . واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح فكان فى زمانه العظمة بالإطعام والإنعام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لما قال عقيب قوله تعالى (أن اعمل سابغات) اعملوا صالحاً ، قال عقيب ما يعمله الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى ماذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغى أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكراً ، وفيه إشارة إلى عدم الإلتفات إلى هذه الأشياء ، وقلة الاشتغال بها كما فى قوله (وقدر فى السرد) أى اجعله بقدر الحاجة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصاب شكراً يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعاً وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدراً كقول القائل شكرت الله شكراً ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعوداً ، وذلك لأن العمل شكر فقوله (اعملوا) يقوم مقام قوله (اشكروا) (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيداً كما قال تعالى (واعملوا صالحاً) لأن الشكر صالح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده ، وذلك لأنه لما قال (اعملوا آل داود شكراً) فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغى لا يمكن ، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر ، فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر ، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم فى ذلك حرج ، فان عبادى قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل فى قوله (عبادى) مع الإضافة إلى نفسه ، وعبادى بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد فى القرآن إلا فى حق الناجين ، كقوله تعالى (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فان قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله (قليل) يدل على أن فى عباده من هو شاكر لأنعمه ، نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أو نقول الشاكر التام ليس إلا من رضى الله عنه ، وقال له ياعبدى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمى بأسرها ، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت ، وأنه قضى عليه الموت ، تنبيهاً للخلق على أن الموت لابد منه ، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه ، وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ كان سليمان عليه السلام يقف فى عبادة الله ليلة كاملة ويوماً(١) تاماً وفى بعض الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكى عليها واقفا بين يدى ربه ، ثم فى بعض الأوقات كان واقفاً على عادته فى عبادته إذ توفى ، فظن جنوده أنه فى العبادة وبقى كذلك أياماً وتمادى شهوراً ، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم ، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله .

قوله تعالى : ﴿ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ كانت الجن تعلم مالا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك ، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلا فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه ، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان ، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا فى الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حى . وقوله (مالبثوا فى العذاب المهين) دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير ، لأن المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين .

ثم قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية أهل سبأ ، وفى سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر ، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله (آية) أى من فضل ربهم ، ثم بينها بذكر بدله بقوله (جنتان عن يمين وشمال) قال الزمخشرى أية آية فى جنتين ، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان ؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة ، قوله (كلوا من رزق ربكم) إشارة إلى تكميل النعم عليهم

(١) قوله «ويوماً» الواو فيه بمعنى أو ، وبذلك تتصور الزيادة على اليوم أو الليلة إذ ليس للانسان بعد اليوم التام والليلة الكاملة وقت آخر و يزيده .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض ، وقوله (واشكروا له) بيان أيضاً لكمال النعمة ، فان الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة ، ثم لما بين حالهم في مساكنهم و بساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا ، فقال (بلدة طيبة) أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم ، وقال (ورب غفور) أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة ، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية .

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إبانة الآية كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال (إنا من المجرمين منتقمون) وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم ، وفي العرم وجوه (أحدها) أنه الجرذ الذى سبب خراب السكر ، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبواباً ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض . فنقب الجرذ السكر ، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة (ثالثها) اسم للوادى الذى خرج منه الماء وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) بين به دوام الخراب ، وذلك لأن البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار ، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة ، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه قليل لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى) أي لا نجازى بذلك الجزاء (إلا الكفور) قال بعضهم : المجازاة تقال في النقمة والجزاء

www.besturdubooks.wordpress.com

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ
سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

فى النعمة لكن قوله تعالى (ذلك جزيناهم) يدل على أن الجزاء يستعمل فى النقمة ، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهى فى أكثر الأمر تكون بين اثنين ، يؤخذ من كل واحد جزاء فى حق الآخر . وفى النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدىء بالنعم .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة : وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

أى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة . وقرى ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى ، فان قال قائل : هذا من النعم والله تعالى قد شرع فى بيان تبديل نعمهم بقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة ؟ فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل . ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله(ربنا باعد بين أسفارنا) وقد فعل ذلك ، ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر ، وقوله (وقدرنا فيها السير) الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز ، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار ، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ماأمكن فى العرف تجاوزها ، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جاداً حتى يقطعها ، وقوله (سيروا فيها ليالى وأياماً) أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله (آمنين) إشارة إلى كثرة العمارة ، فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون فى مثل هذه الأماكن ، وقيل بأن معنى قوله (ليالى وأياماً)تسيرون فيه إن شئتم ليالى وإن شئتم أياماً لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا ، لئلا يعلم العدو بسيرهم ، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو ، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ، وقوله تعالى(قالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى إشارة إلى أنه لا يقدر عليه . ويمكن أن يقال : (قالوا ربنا بعد) بلسان الحال ، أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم . وقوله (وظلموا أنفسهم) يكون بيانا لذلك ، وقوله (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا ، يقال : تفرقوا أيدى سبا ، وقوله (ومزقناهم كل ممزق) بيان لجعلهم أحاديث ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ أى ظنه أنه يغويهم كما قال (فبعزتك لأغوينهم) وقوله (فاتبعوه) بيان لذلك أى أغواهم ، فاتبعوه (إلا فريقا من المؤمنين) قال تعالى فى حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويمكن أن يقال (صدق عليهم ظنه) فى أنه خير منه كما قال تعالى عنه (أنا خير منه) ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه ، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذى يدل على أن إبليس خير من الكافر . هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عناداً كفر ، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد ، وهم كفروا بأمر هو الإشراك ، ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء ، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوى الكل ، بدليل أنه تعالى قال عنه (إلا عبادك منهم المخلصين) فما ظن أنه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء ، وأما فى قوله (أنا خير منه) اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ، ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الأول ، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج ، لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى ، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض .

قوله تعالى : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه . فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الأمر فعلم الله فى الأزل أن العالم سيوجد ، فاذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم ، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرآة المصقولة فيها الصفاء

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ، ثم إذا قابلهاعمرو يظهر فيها صورته ، والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها ، إنما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله (إلا لنعلم) أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو .

وقوله (وما كان له عليهم من سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجىء وإنما هو آية ، وعلامة خلقها الله لتبيين ماهو فى علمه السابق ، وقوله (وربك على كل شىء حفيظ) يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة ، إذ الجاهل بالشىء لا يمكنه حفظه ولا العاجز .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ .

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً بقوله (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) .

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات فى حكمهم ، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله إلههم ، فقال الله تعالى فى إبطال قولهم (إنهم لا يملكون فى السموات شيئاً) كما اعترفتم ، قال ولا فى الأرض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له ، فقال فى إبطال قولهم (وما لهم فيهما من شرك) أى الأرض كالسماء لله لا لغيره ، ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من

www.besturdubooks.wordpress.com

الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب ، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه ، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال فى العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ماضرب فلان فلاناً ، وإنما الملك أمر بضربه فضرب ، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى فى إبطال قولهم (وماله منهم من ظهير) مافوض إلى شىء شيئاً ، بل هو على كل شىء حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التى هى صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى فى إبطال قولهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن فى الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى أزيل الفزع عنهم ، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب ، وفى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) وجوه (أحدها) الفزع الذى عند الوحى فان الله عندما يوحى يفزع من فى السموات ، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله ؟ فيقول قال الحق أى الوحى (وثانيها) الفزع الذى من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام (فزع من فى السموات) من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة ، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل (الحق) أى الوحى (وثالثها) هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ، ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى . إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين قوله تعالى (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (قل) لأنه بينه بالوحى لأن قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله ، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال (قل) فزع من فى السموات ، ثم أزيل عنه الفزع ، وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع ، ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق ، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى (قالوا ماذا) هو الملائكة السائلون من جبريل . وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل فى قوله (الحق) على القولين الأولين هم الملائكة ، وعلى الثالث هم المشركون .

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقاً مطلقاً لا يرتفع بالباطل الذى هو العدم والكلام الذى يكون صدقاً يسمى حقاً ، لأن الكلام له متعلق فى الخارج بواسطة أنه متعلق بما فى الذهن ، والذى فى الذهن متعلق بما فى الخارج ، فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما فى ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما فى الخارج لكن للصدق متعلق يكون فى الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون فى الخارج ، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق فى الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التى تكون صادرة

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

عن معاند كاذب ، وإما أن يكون له متعلق فى الذهن على خلاف ما فى الخارج فيكون إعتقاداً باطلا جهلا أو ظناً لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل ، وكلام الله لا بطلان له فى أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند (ولا يأتيه الباطل) كما يكون كلام الظان ، وقوله تعالى (وهو العلى الكبير) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) أن (الحق) إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم ، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله (وهو العلى الكبير) إشارة إلى أنه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته ، وهذا يبطل القول بكونه جسماً وفى حيز، لأن كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الاشارة لأن الاشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو ، وإذا وقعت الاشارة إليه فقد تناهت الاشارة عنده ، وفى كل موقع تقف الاشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير علياً بالاضافة لا مطلقاً وهو على مطلقاً ولو كان جسماً لكان له مقدار ، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيراً بالنسبة إلى غيره لا مطلقاً وهو كبير مطلقاً .

قوله تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ قد ذكرنا مراراً أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهاً ، وإنما يطلبون به شيئاً ، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم) على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وقال بعد إتمام بيان ذلك (قل من يرزقكم من السموات والأرض) إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه ، فاذاً إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضراً أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع.

ثم قال تعالى ﴿ قل الله ﴾ يعنى إن لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال (قالوا الحق) وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون فى الضر كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه) وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال (قل الله) أى هم فى حالة الراحة غافلون عن الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية فى العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذى تقوله خطأ وأنت فيه مخطىء يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع فى الفهم فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك فى أنه مخطىء والتمادى فى الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم فى النظر ويترك التعصب وذلك لايوجب نقصاً فى المنزلة لأنه أوهم بأنه فى قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لايشك فى أنه هو الهادى وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون.

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لأن المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلى، والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض، فميز البعض عن البعض بالوصف.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله (إنا) وهو مقدم فى الذكر.

قوله تعالى : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أضاف الإجرام إلى النفس وقال فى حقهم (ولا نسأل عما تعملون) ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله (لا تسألون) (ولا نسأل) زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فاذا احترز نجا، ولو كان البرىء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

ثم قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكر، فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله (يفتح) قيل معناه يحكم، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة. ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله (وهو الفتاح العليم) إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه.

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله (قل من يرزقكم من السموات والأرض) بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم) أى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ لما بين مسألة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة) وفيه وجهان (أحدها) كافة أى إرسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة أى أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه (بشيراً) أى تحثهم بالوعد (ونذيراً) تزجرهم بالوعيد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ قد ذكرنا فى سورة الأعراف أن قوله (لا تستأخرون) يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ماوجهه ؟ وذكرنا هناك وجهاً ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا أمهال ، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب ، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفى قوله تعالى (لكم ميعاد يوم) قراءات (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوماً قال الزمخشرى ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد أعنى يوماً وذلك يفيد التعظيم والتهويل ، ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوماً

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

كما يقول القائل : أنا جائيك يوماً وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوماً وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يوماً (الثالثة) الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل سحق ثوب للتبيين وإسناد الفعل إليهم بقوله (لا تستأخرون عنه) بدلا عن قوله (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن) وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله (ولا بالذى بين يديه) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ، ويحتمل أن يقال إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذى بين يديه أي ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم ، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر ، فإن قيل : أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر ، فنقول إذا لم يصدق واحد مافى الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض مافيه لكونه فى غيره فيكون إيمانه لا بما فيه . مثاله : أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه ، فانه كان عالما به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أي الذى هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾

لما وقع اليأس من إيمانهم فى هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأبيد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطؤا فى أمر يقول بعضهم كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك ، وجواب لو محذوف ، تقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجباً ، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) إشارة إلى أن

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ

كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا ما جاءنا رسول ، ولا أن يقولوا قصر الرسول ، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ ،

رداً لما قالوا إن كفرنا كان لمانع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى المانع ينبغى أن يكون راجحاً على المقتضى حتى يعمل عمله ، والذى جاء به هو الهدى ، والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ماجاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع ، ثم بين أن كفرهم كان إجراما من حيث إن المعذور لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شىء منهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، ﴾ .

لما ذكر المستكبرون أنا ماصددناكم وماصدر منا مايصلح مانعاً وصارفاً اعترف المستضعفون به وقالوا (بل مكر الليل والنهار) منعنا ، ثم قالوا لهم إنكم وإن كنتم ماأتيتم بالصارف القطعى والمانع القوى ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد فى المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار لحذف المضاف إليه . وقوله (إذ تأمروننا أن نكفر بالله) أى ننكره (ونجعل له أنداداً) هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهاً ، وقوله فى الأول (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل ، وقوله فى الآيتين المتأخرتين (وقال الذين استكبروا ، وقال الذين استضعفوا) بصيغة الماضى مع أن السؤال والتراجع فى القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لابد وأن يقع ، فان الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

معناه أنهم يتراجعون القول فى الأول ، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة ، وقيل معنى الإسرار الإظهار أى أظهروا الندامة ، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا إلى الله بقولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) ثم أجيبوا وأخبروا بأن لامرد لكم فأسروا ذلك القول ، وقوله (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافياً بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال فى أعناقهم ، وقوله (يجزون إلا ما كانوا يعملون) إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلا .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ .

تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبياناً لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعا ، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا (إنا بما أرسلتم به كافرون) لأن الأغنياء المترفين هم الأصل فى ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا (نحن أكثر أموالا وأولاداً) أى بسبب لزومنا لديننا ، وقوله (وما نحن بمعذبين) أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم ، وأما آجلا فلا نعذب إما إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقادا لحسن حالهم فى الآخرة أيضاً قياساً [على حسن حالهم فى الدنيا] .

ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يعنى أن الرزق فى الدنيا لاتدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ،

ثم بين فساد استدلالهم بقولهم ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحاً ، فان المال لايقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله (فأولئك لهم جزاء الضعف) أى الحسنة فان الضعف لايكون إلا فى الحسنة وفى السيئة لايكون إلا المثل ،

ثم زاد وقال (وهم فى الغرفات آمنون) إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة لايكون آمنا .

ثم بين حال المسىء بقوله ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾ وقد ذكرنا تفسيره ، وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) إشارة إلى الدوام أيضاً كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وكما قال تعالى (وما هم عنها بغائبين).

ثم قال ثم قال تعالى : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافى نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد ، قطعاً لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم

www.besturdubooks.wordpress.com

فان كثيراً من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الأتقياء ممتعون وفيه مسائل :

﴿الأولى﴾ ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فان الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فان الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، ومآله إلى الوبال . وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خير ، فان ما فى يد الإنسان فى معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله (والله خير الرازقين) وخيرية الرازق فى أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما (الأول) فلأنه عالم وقادر (والثانى) فلأنه غنى واسع (والثالث) فلأنه كريم، وقد ذكر ذلك بقوله (يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكرنا هو المراد ، أى يرزقه حلالا لا يحاسبه عليه (والرابع) فلأنه على كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضى ثواباً .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام «مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفاً » وذلك لأن الله تعالى ملك على وهو غنى ملى ، فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك فى البحر وعلى ضمانه ، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال(١) إلى الهلاك ، فان لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل ملىء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فان أموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن الملىء وهو الله العلى وقال تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فإن الإنسان لابد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفى يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

(١) فى النسخة الأميرية إلى « الاهمال » ولكن ما كتبناه أولى وأنسب لسياق الكلام .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (خير الرازقين) ينبىء عن كثرة فى الرازقين ولا رازق إلا الله، فما الجواب عنه؟ فنقول عنه جوابان (أحدهما) أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك فى قوله تعالى (وهو أحسن الخالقين) (وثانيهما) هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأول العلم، فان الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة، وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية مافى الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثانى الرازق والخالق، فان العبد إذا أعطى غيره شيئاً فان الله هو المعطى، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمى معطياً، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان، مثال الثالث الأزلى والله وغيرهما، وقد يقال فى أشياء فى الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ لما بين أن حال النبى ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم، بين مايكون من عاقبة حالهم فقال (ويوم نحشرهم جميعاً) يعنى المكذبين بك وبمن تقدمك، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فان غاية ما ترتقى إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم! إهانة لهم، فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت معبودنا ومعبود كل خلق، وقولهم (أنت ولينا من دونهم) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة: بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التى يكون فيها سواد عظيم. لأنه لا يترأس هناك فيرضى لضياع والبلاد الصغيرة، وبعضهم لايريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به، ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان، وهو

www.besturdubooks.wordpress.com

فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا (أنت ولينا من دونهم) يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أي كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هي الطاعة وقوله تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين ، فما وجه قوله (أكثرهم بهم مؤمنون) فانه ينبيء أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثاني) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطن فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا (أكثرهم بهم مؤمنون) عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فان القلب لا اطلاع عليه إلا لله ، كما قال تعالى (إنه عليم بذات الصدور) .

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخطاب بقوله (بعضكم) مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأنه قال بعده (ونقول للذين ظلموا ذوقوا) فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله (بعضكم لبعض) أي الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام أنتم قلتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، وعلى هذا فقوله (ونقول للذين ظلموا) إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم في الظلم ، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافياً لكنه ، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة ، فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (نفعاً) مفيد للحسرة . وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ههنا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) وقال في السجدة (عذاب النار الذي كنتم به) جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل ، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول مارأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلارجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

إظهاراً لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا (سبحانك أنت ولينا) أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعني يعارضون البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) وهو يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد أن القول بالوحدانية (إفك مفترى) ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم (أإفكا آلهة دون الله تريدون) وكما قالوا هم للرسول (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) (وثانيها) أن يكون المراد (ما هذا إلا إفك) أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

إلا سحر مبين) إشارة إلى القرآن وعلى الثانى يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى (وقال الذين كفروا) بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾ .

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعنى يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم (إفك مفترى) من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال المفسرون معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندى [أنه] يحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يقال المراد (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشفى ، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل ، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان المؤتى فى الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإيتاء فى الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى .

ثم قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

ذكر الأصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ماسبق منه تقريرها بالدلائل فقوله (أن تقوموا لله) إشارة إلى التوحيد وقوله (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم) إشارة إلى الرسالة وقوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى اليوم الآخر وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إنما أعظكم بواحدة) يقتضى أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرساله والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله (إنما أعظكم بواحدة)؟ فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع فى الآخرة قدره فالنبى ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهىء لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبى ﷺ ما قال إنى لا آمركم فى جميع عمرى إلا بشئ واحد ، وإنما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى (ثم تتفكروا) فإن التفكر أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بواحدة) قال المفسرون أنثها على أنها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أن العدل نفى الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل فى تفسير قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أن المراد هل جزاء الايمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مثنى وفرادى) إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل فى قوله (مثنى) وإذا كان وحده دخل فى قوله (فرادى) فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ثم تتفكروا) يعنى اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فانه يحتاج إلى تفكر ، وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا ، فانه قال (أن تقوموا لله ثم تتفكروا) ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبى عليه السلام فقال (ما بصاحبكم من جنة) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ما بصاحبكم من جنة) يفيد كونه رسولا وإن كان لا يلزم فى كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا ، وذلك لأن النبى عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبى ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات ، فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فاذا قال ما هو بمجنون لم

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله فى قوة لسانه وبيانه فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده إن هو إلا نذير ، يعنى إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شئ شهيد ﴾ لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنوناً ، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا ، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجراً فى الدنيا فهو يفعله للآخرة ، والكاذب فى الآخرة معذب لا مثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبى صادق وقوله (وهو على كل شهيد) تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة . بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إنى مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إنى رسولك فاذا قال إنه رسولى إليكم لا يبقى فيه شك كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسل إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين ، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبى ﷺ بقوله (إن هو إلا نذير لكم) وأكده بقوله (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال (قل إن ربى يقذف بالحق) أى فى القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطى ما يشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى (علام الغيوب) إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ

كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب (الوجه الثاني) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما كما قال في سورة الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال (قل إن ربي يقذف بالحق) أي على باطلكم، وقوله (علام الغيوب) على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه، وعن أحواله وأهواله. ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة، فلما قال (يقذف بالحق) أي على الباطل، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال (علام الغيوب) أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فان الله علام الغيوب، والآية تحتمل تفسيراً آخر وهو أن يقال (ربي يقذف بالحق) أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله (وقضى بينهم بالحق) وفي قوله (فاحكم بين الناس بالحق) والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾.

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال. ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) أنه القرآن (الثاني) أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد من (جاء الحق) ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق هو الموجود، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر، كان حقاً لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لا يثبت، وهذا المعنى يفهم من قوله (وما يبدىء الباطل) أي الباطل لا يفيد شيئاً في الأولى ولا في الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلا، والحق المأتي به لا عدم له أصلا، وقيل المراد لا يبدىء الشيطان ولا يعيد، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى (قل إن ربي يقذف بالحق) لما كان فيه معنى قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

فأبطله ودمغه، فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخراً، وإنما المراد من قوله (فيدمغه) أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى فى موضع آخر (وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) يعنى ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل، فقوله (وما يبدىء الباطل) أى لا يثبت فى الأول شيئاً خلاف الحق (ولا يعيد) أى لا يعيد فى الآخرة شيئاً خلاف الحق.

ثم قال تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب ﴾.

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم (من اهتدى فلنفسه) وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم، وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحى المبين، وقوله (إنه سميع) أى يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾

لما قال (سميع) قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لافوت، وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله (ولو ترى) جوابه محذوف أى ترى عجباً (وأخذوا من مكان قريب) لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب.

ثم قال تعالى: ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾.

أى بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان، قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة، فان قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة، ولهذا سماها الله الساعة وقال (لعل الساعة قريب) نقول الماضى كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب. وقيل عن بعد، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد مامضى من الدنيا.

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لانفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل، والإشارة فى قوله

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

(آمنا به) وقوله ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ إلى شيء واحد ، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى ، وقوله ﴿ويقذفون بالغيب﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ، فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب ، أى يقول مالا يعلمه ، وقوله ﴿من مكان بعيد﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة ، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء ، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح اليه ، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا ، كقول قائلهم (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فان مالا يجب عقلا لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق ، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد ، فان قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده (الثانى) أن الحكاية يوم القيامة ، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم فى الآخرة يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا . فان قيل : كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب﴾ وما حيل بينهم وبين العود ؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم ، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل ، وقوله (مريب) يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب ، وسنذكره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه أجمعين .

تم الجزء الخامس والعشرون ، ويليه السادس والعشرون وأوله سورة فاطر

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٤ ـــ سورة سبإ
﴿ مكية وآياتها أربع وخمسون ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ٣٤ سبإ

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٣٤ سبإ

﴿ سورة سبأ مكية وقيل إلا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهى أربع وخمسون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض) أى له تعالى خلقاً وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة جميع ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكناً فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر فى آية الكرسى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ماأفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على مابين فى فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ماسواه من الموجودات التى من جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الأخروى به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوى به على أن الجار متعلق إما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار وإطلاقه عن ذكر مايشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضاً فيها بل ليعم النعم الأخروية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذى أحلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى هدانا لهذا أى لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتى الدنيا والآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذى أحكم أمور الدين

٢ والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (الخبير) ببواطن الأشياء ومكنوناتها وقوله تعالى (يعلم مايلج

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ٣٤ سبإ

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ٣٤ سبإ

فى الأرض) الخ تفصيل لبعض مايحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أى يعلم مايدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها (ومايخرج منها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرىء وماننزل بالتشديد ونون العظمة (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة (وهو الرحيم) للحامدين على ماذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) ٣
أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى إتيانها نفى وجودها بالكلية لاعدم حضورها مع تحققها فى نفس الأمر وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لاسيما أجزاء الزمان لايكون إلا بالإتيان والحضور وقيل هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) ردلكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها وقوله تعالى (وربى لتأتينكم) تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها وقرىء ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ إمداد للتأكيد وتسديد له إثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر ولا ريب فى أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى لاسيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلق خاص بالمقسم عليه كما نحن فيه فإن وصفه بعلم الغيب الذى أشهر أفراده وأدخلها فى الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لايحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لايبقى للمعاندين عذر ما أصلا فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه مكابرة وقرىء علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح (لايعزب عنه) أى لا يبعد وقرىء بكسر الزاى (مثقال ذرة) مقدار أصغر نملة (فى السموات ولا فى الأرض) أى كائنة فيهما (ولا أصغر من ذلك) أى من مثقال ذرة (ولا أكبر) أى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (إلا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب وقرىء ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى حيز الجر لامتناع الصرف لما أن الاستثناء يمنعه إلا أن يجعل الضمير فى عنه للغيب ويجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شىء إلا مسطوراً فى اللوح (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما ٤

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ٣٤ سبإ

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ٣٤ سبإ

يقتضى إتيانها (أولئك) إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف أى أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك (مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لا تعب فيه ولا من عليه

٥ (والذين سعوا فى آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) أى مسابقين كى يفوتونا وقرىء معجزين أى مثبطين عن الإيمان من أراده (أولئك لهم عذاب) الكلام فيه كالذى مر آنفاً ومن فى قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (أليم) بالرفع صفة عذاب أى أولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الإيلام وقرىء أليم بالجر

٦ صفة لرجز (ويرى الذين أوتوا العلم) أى يعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن يشايعهم من علماء الأمة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم (الذى أنزل إليك من ربك) أى القرآن (هو الحق) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الأول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثانى ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد بأولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات وقيل منصوب عطفاً على ليجزى أى وليعلم أولو العلم عند مجىء الساعة معاينة أنه الحق حسبما علموه الآن برهاناً ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز أن يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الأحبار أى ليعلموا يومئذ أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً (ويهدى) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه فى تأويله كما فى قوله تعالى صافات ويقبض أى وقابضات كأنه قيل ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الحق وهادياً (إلى صراط العزيز الحميد) الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى

٧ أنزل على إضمار مبتدأ أى وهو يهدى كما فى قول من قال [نجوت وأرهنهم مالكا] (وقال الذين كفروا) هم كفار قريش قالوا مخاطباً بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون به النبى ﷺ وإنما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى (ينبئكم) أى يحدثكم بعجب عجاب وقرىء ينبئكم من الإنباء (إذا مزقتم كل ممزق) أى إذا متم ومزقت أجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم تراباً ورفاتاً (إنكم لفى خلق جديد) أى مستقرون فيه عدل إليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ
ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ٣٤ سبإ
أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ
نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ٣٤ سبإ

تخلقون خلقاً جديداً للإشباع فى الاستبعاد والتعجب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه مادل عليه
المذكور لا نفسه لما أن مابعد إن لا يعمل فيما قبلها والجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو
٨ قليل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ثم شاع (أفترى على الله كذباً) فيما قاله (أم به
جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على أن بين الصدق والكذب
واسطة هو مالا يكون من الأخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب (بل
الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على
طريقة الاستفهام بالإضراب عن شقيه وإبطالهما وإثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم
سوء حالهم وابتلاءهم بما قالوا فى حقه ﷺ كأنه قيل ليس الأمر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل
وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى إليه ذلك من العذاب ولذلك
يقولون مايقولون وتقديم العذاب على مايوجبه ويستتبعه للمسارعة إلى بيان مايسوءهم ويفت فى أعضادهم
والإشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة
ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن علة ماارتكبوه واجترءوا عليه من الشناعة
٩ الفظيعة كفرهم بالآخرة ومافيها من فنون العقاب ولولاها لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته وقوله تعالى (أفلم يروا
إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) استئناف مسوق لتهويل مااجترءوا عليه من تكذيب
آيات الله تعالى واستعظام ماقالوا فى حقه ﷺ وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع
العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (إن نشأ) الخ بيان لما
ينبىء عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه
إلا تعلق المشيئة به أى أفعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من
جميع جوانبهم بحيث لامفر لهم عنه ولا محيص إن نشأ جرياً على موجب جناياتهم (نخسف بهم الأرض)
كما خسفناها بقارون (أو نسقط عليهم كسفاً) أى قطعاً (من السماء) كما أسقطناها على أصحاب الأيكة
لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل
فيه إزاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزءاً وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى
ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقاً أم هى وإن نشأ نخسف بهم الأرض
أو نسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرىء يخسف

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ٣٤ سبإ

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ٣٤ سبإ

ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفاً بسكون السين (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلى من الوحى الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الإنابة إلى ربه فإنه إذا تأمل فيهما أو فى الوحى المذكور ينزجر عن تعاطى

١٠ القبائح وينيب إليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والإنابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) أى آتيناه لحسن إنابته وصحة توبته فضلا على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى نوعا من الفضل وهو ماذكر بعد فإنه معجزة خاصة به ﷺ أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما فى قوله تعالى وآتيناه من لدنا علماً وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا وردها يتمكن عندها فضل تمكن (ياجبال أوبى معه) من التأويب أى رجعى معه التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك إما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتاً مثل صوته كما خلق الكلام فى الشجرة أو بأن يتمثل له ذلك وقرىء أوبى من الأوب أى ارجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال مايسمع من المسبح معجزة له عليه الصلاة والسلام وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتينا بإضمار قلنا أو من فضلا بإضمار قولنا (والطير) بالنصب عطفاً على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لأن إيتاءها إياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة إلى إضماره كما نقل عن الكسائى ولا إلى تقدير مضاف أى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل عطفاً على محل الجبال وفيه من التكلف لفظاً ومعنى مالا يخفى وقرىء بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية وقد جوز انتصابه على أنه مفعول معه والأول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بأنه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى وكمال كبرياء سلطانه مالا يخفى على أولى الألباب (وألنا له الحديد) أى جعلناه ليناً فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير إحماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التى آتيناها إياه ليناً كالشمع

١١ بالنسبة إلى سائر القوى البشرية (أن اعمل) أمرناه أن اعمل على أن أن مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لايخفى (سابغات) واسعات وقرىء صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام أول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى إسرائيل يخرج متنكراً فيسأل الناس ماتقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ٣٤ سبإ

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ٣٤ سبإ

صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود فسأله عنها فقال لولا أنه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه أن يسبب له مايستغنى به عن بيت المال فعلمه تعالى صنعة الدروع وقيل كان يبيع الدروع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء (وقدر فى السرد) * السرد نسج الدروع أى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظاً وورد بأن دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبىء عنه إلانة الحديد وقيل معنى قدر فى السرد لاتصرف جميع أوقاتك إليه بل مقدار مايحصل به القوت وأما الباقى فاصرفه إلى العبادة وهو الأنسب بقوله تعالى (واعملوا صالحاً) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام * ولأهله (إنى بما تعملون بصير) تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له ١٢
الريح وقرىء برفع الريح أى ولسليمان الريح مسخرة وقرىء الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة إما مستأنفة أو حال من الريح وقرىء غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه ومابنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبايتون بالشأم إن شاء الله تعالى (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد * لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عيناً وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه) إما جملة من مبتدأ وخبر أو من يعمل * عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (بإذن ربه) بأمره تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرىء يزغ على البناء للمفعول من أزاغه (نذقه من عذاب السعير) أى عذاب النار فى الآخرة وروى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى (يعملون له مايشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم ١٣
وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أى من قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بذلك لأنها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام على * ما اعتادوه فإنها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس ويعبدوا مثل عباداتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى أنهم عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ٣٤ سبإ

وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهي الصفحة (كالجواب) كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهي من الصفات الغالبة كالدابة وقرىء بإثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكراً) حكاية لما قيل لهم وشكراً نصب على أنه مفعول له أو مصدر لاعملوا لأن العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أي اشكروا شكراً أو حال أي شاكرين أو مفعول به أي اعملوا شكراً (وقليل من عبادي الشكور) أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا
١٤ وإنسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان عليه السلام (مادلهم) أي الجن أو آله (على موته إلا دابة الأرض) أي الأرضة أضيفت إلى فعلها وقرىء بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال أرضت الأرضة الخشبة أرضا فأرضت أرضاً مثل أكلت القوارح أسنانه أكلا فأكلت أكلا (تأكل منسأته) أي عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها ما يطرد وقرىء منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وبإخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة في ميضأة ومن ساته أي من طرف عصاه من سأة القوس وفيه لغتان كما في قحة بالكسر والفتح وقرىء أكلت منساته (فلما خر تبينت الجن) من تبينت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أي علمت الجن علماً بيناً بعد التباس الأمر عليهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا في تسخيره إلى أن خر أو من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى أي ظهرت الجن وأن مع ما في حيزها بدل اشتمال من الجن أي ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرىء تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين في الحقيقة هو أن مع ما في حيزها لأنه بدل وقرىء تبينت الإنس والضمير في كانوا للجن في قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فتوفي قبل تمامه فوصى به إلى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى إذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك وهم فيما أمروا به من الأعمال حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ٣٤ سبإ

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ٣٤ سبإ

أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر إليه شيطان فى صلاته إلا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فإذا سليمان عليه السلام قد خر ميتاً ففتحوا عنه فإذا عصاه قد أكلها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها فى يوم وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك فوجدوه قدمات منذ سنة وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء
١٥ بيت المقدس لأربع مضين من ملكه (لقد كان لسبأ) بيان لأخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى إثر بيان أحوال الشاكرين لها أى لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقرىء بمنع الصرف على أنه اسم القبيلة وقرىء بقلب الهمزة ألفاً ولعله إخراج لها بين بين (فى مسكنهم) وقرىء بكسر الكاف كالمسجد • وقرىء بلفظ الجمع أى مواضع سكناهم وهى باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل مايشاء من الأمور • البديعة المجازى للمحسن والمسىء معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح • والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامهما كأنهما جنة واحدة أو بستاناً كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيراً لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) • استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم مافيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرىء الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الأشجار فيمتلىء
١٦ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شىء (فأعرضوا) عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه قيل أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى سيل الأمر العرم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذى يجعل سداً وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقا على ما يحتاجون إليه فى

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ٣٤ سبإ

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ٣٤ سبإ

سقيهم وقيل العرم الجرذ الذى نقب عليهم ذلك السد وهو الفأر الأعمى الذى يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرمَ اسم الوادى وقرىء العرم بسكون الراء. قالوا كان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى والنبى عليهما الصلاة والسلام (وبدلناهم بجنتيهم) أى أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما (جنتين ذواتى أكل خمط) أى ثمر بشع فإن الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شىء وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الأراك أو كل شجر ذى شوك والتقدير أكل أكل خمط لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقرىء أكل خمط بالإضافة وبتخفيف أكل (وأثل وشىء من سدر قليل) معطوفان على أكل لا على خمط فإن الأثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرىء وأثلا وشيئا عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس فى البساتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثاني حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر

١٧ الشجر بأعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم (ذلك) إشارة إلى مصدر قوله تعالى (جزيناهم) أو إلى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد رتبته فى الفظاعة ومحله على الأول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثانى النصب على أنه مفعول ثان له أى ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم لا غيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ما ضدها أو بسبب كفرهم بالرسل (وهل نجازى إلا الكفور) أى وما نجزى هذا الجزاء إلا المبالغ فى الكفران أو الكفر وقرىء يجازى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضا وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة

١٨ فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) حكاية لما أوتوا من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وإنما لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبأ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أى وجعلنا مع ما آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم أى بين بلادهم وبين القرى الشامية التى باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) أى جعلناها فى نسبة بعضها

فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ٣٤ سبإ

إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى أخرى والرائح منها يبيت فى أخرى إلى أن يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيراً لها فى الحضر والسفر (سيروا فيها) على إرادة القول أى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى (ليالى وأياماً) أى متى شئتم من الليالى والأيام (آمنين) من كل ما تكرهونه لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وقرىء يا ربنا بطروا النعمة 19
وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب وقرىء بعدو ربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا وقرىء ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الأول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أو دنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها (فجعلناهم أحاديث) أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام مالا يخفى أى مزقناهم تمزيقاً لا غاية وراءه بحيث يضرب به الأمثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان وأصل قصتهم على ما رواه الكلبى عن أبى صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ وبينهما اثنى عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتفريق سيل العرم الجنتين وعن أبى زيد الأنصارى أن عمرا رأى جرذاً يحفر السد فعلم أنه لا بقاء له بعد وقيل إنه كان كاهناً وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد إلى بلد حتى انتهى إلى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى إسمعيل عليه السلام وغيرهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو ابن عامر يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعاً

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ٣٤ سبإ

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ٣٤ سبإ

يسعه ومن معه من قومه فأبوا فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وما حولها فى قومه وعساكره حولا فأصابتهم الحمى فاضطروا إلى الخروج وقد رجع إليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الأزد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ومضت غسان فنزلوا بالشام وانخزعت خزاعة بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد إسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى ﷺ عن سبأ فقال ﷺ هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والأزد والأشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدى سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الأوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فخالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها بعضهم ينسبونها إلى قحطان وبعضهم إلى عدنان والله تعالى أعلم (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار شكور) أى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى

٢٠ وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقا وقرىء بالتخفيف أى صدق فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له إغواءهم وبرفعهما والتخفيف على الإبدال وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم فى الشهوات أو ببنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لأضلنهم ولأغوينهم (فاتبعوه) أى أهل سبأ أو الناس (إلا فريقا من المؤمنين) إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالإضافة إلى

٢١ الكفار أو إلا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون (وما كان له عليهم من سلطان) أى تسلط

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ٣٤ سبإ
وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟
ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ٣٤ سبإ

واستيلاء بالوسوسة والاستواء وقوله تعالى (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) استثناء *
مفرغ من أعلم العلل ومن موصولة أى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً
ممن هو فى شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء أو إلا ليتميز المؤمن من الشاك أو إلا ليؤمن من قدر
إيمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة (وربك على كل شىء حفيظ) أى
٢٢ محافظ عليه فإن فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان (قل) أى للمشركين إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتاً لهم
(ادعوا الذين زعمتم) أى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الأول تخفيفاً لطول الموصول بصلته
والثانى لقيام صفته أعنى قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولا سبيل إلى جعله مفعولا ثانياً لأنه لا يلتئم مع الضمير *
كلاما وكذا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم
يستجيبون لكم إن صح دعواكم ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال
(لا يملكون مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (فى السموات ولا فى الأرض) أى فى أمر ما من *
الأمور وذكرهما للتعميم عرفا أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية
كالأصنام أو لأن الأسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم (وما لهم) *
أى لآلهتهم (فيهما من شرك) أى شركة لا خلقاً ولا ملكا ولا تصرفا (وما له) أى لله تعالى (منهم) من
٢٣ آلهتهم (من ظهير) يعينه فى تدبير أمرهما (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى لا توجد رأساً كما فى قوله [ولا
ترى الضب بها ينجحر] لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها
تصريحاً بنفى ماهو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (إلا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى *
لا تقع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من
المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها
ضرورة استحالة الإذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلأن
إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ومن
البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من
الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين
لها فلا تنفعهم اصلا وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة
غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حيث

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ٣٤ سبإ

حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلأن حرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرىء أذن له مبنياً للمفعول (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل والتفزيع إزالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبىء عنه ماقبلها من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له فإنه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على أوجل وفزع ملياً حتى إذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير الإجابة (قالوا) أى المشفوع لهم إذ هم المحتاجون إلى الإذن والمهتمون بأمره (ماذا قال ربكم) أى فى شأن الإذن (قالوا) أى الشفعاء لأنهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة (الحق) أى قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرىء الحق مرفوعا أى ماقاله الحق (وهو العلى الكبير) من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لأحد من أشراف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه وقرىء فزع مخففاً بمعنى فزع وقرىء فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرىء فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شىء وهو من الإسناد المجازى لأن الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده فأسند إليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الرجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وبه يعرف حال التفريغ وقرىء ارتفع عن قلوبهم بمعنى
٢٤ انكشف عنها (قل من يرزقكم من السموات والأرض) أمر ﷺ بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فإنهم لا ينكرونه كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً فى الجواب مخافة الإلزام قيل له ﷺ (قل الله) إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الإمكانية لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعد ماسبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد وقرىء وإنا أو إياكم إما على هدى أو فى ضلال مبين واختلاف الجارين للإيذان بأن الهادى كمن استعلى مناراً ينظر الأشياء ويتطلع

قُلْ لَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ٣٤ سبإ

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٤ سبإ

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٤ سبإ

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٤ سبإ

---

٢٥ عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لا يرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج منها (قل
لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا أبلغ فى الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف
حيث أسند فيه الإجرام وإن أريد به الزلة وترك الأولى إلى أنفسهم ومطلق العمل إلى المخاطبين مع أن
٢٦ أعمالهم أكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) أى
يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم
٢٧ الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بما ينبغى أن يقضى به (قل أرونى الذين ألحقتم) أى ألحقتموهم (به
شركاء) أريد بأمرهم بإراءة الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان
رأيهم أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شىء فى استحقاق العبادة وفيه مزيد
تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة (بل هو الله العزيز
الحكيم) أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فأين شركاؤكم التى هى أخس الأشياء وأذلها من
٢٨ هذه الرتبة العالية والضمير إما لله عز وعلا أو للشأن كما فى قل هو الله أحد (وما أرسلناك إلا كافة للناس)
أى إلا إرسالة عامة لهم فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا جامعاً لهم فى الإبلاغ فهى حال
من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل إلى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيراً
ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغى والضلال (ويقولون) من
٢٩ فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه أو الموعود
٣٠ بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (إن كنتم صادقين) مخاطبين لرسول الله ﷺ والمؤمنين به (قل لكم
ميعاد يوم) أى وعد يوم أو زمان وعد والإضافة للتبيين وقرىء ميعاد يوم منونين على البدل ويوماً بإضمار
أعنى للتعظيم (لا تستأخرون عنه) عند مفاجأته (ساعة ولا تستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب من
المبالغة فى التهديد ما لا يخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مراراً
ويجوز أن يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٣٤ سبإ

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٤ سبإ

---

٣١ وتقريره (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى بين يديه القيامة (ولو ترى إذ الظالمون) المنكرون للبعث (موقوفون عند ربهم) أى فى موقف المحاسبة (يرجع بعضهم إلى بعض القول) أى يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ أى يقول الأتباع (للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال (لولا أنتم) أى لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول ﷺ
٣٢ (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الإيمان مثبتين أنهم هم الصادون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الإجرام
٣٣ (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) إضراباً عن إضرابهم وإبطالا له (بل مكر الليل والنهار) أى بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى وقرىء بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين أى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف إليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرىء بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أى تكرون الإغواء مكراً دائباً لا تفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنا مكركم الإغواء فى الليل والنهار على ماسبق من الاتساع فى الظرف بإقامته مقام المضاف إليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الإغواء مكر الليل والنهار أى مكراً دائماً وقوله تعالى (إذ تأمروننا) ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) على أن المراد بمكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر كما فى قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٤ سبإ

وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٤ سبإ

وجعلكم ملوكا فإن الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى وأى نعمة وأما أمور أخر مقارنة لأمرهم
داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى أضمر
الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والإضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير أو أظهروها
فإنه من الأضداد وهو المناسب لحالهم (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى فى أعناقهم والإظهار
فى موضع الإضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب أغلالهم (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى
لايجزون إلا جزاء ما كانوا يعملون أو إلا بما كانوا يعملونه على نزع الجار (وما أرسلنا فى قرية) من
٣٤ القرى (من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله ﷺ عما منى به من قومه
من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها
والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بأنه
لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قال مترفوهم مثل ماقال مترفو أهل مكة فى حقه ﷺ وكادوا به نحو
ماكادوا به ﷺ وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لو لم
يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهم وعلى ذلك
الرأى الركيك بنوا أحكامهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) إما بناء على انتفاء
٣٥ العذاب الأخروى رأساً أو على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم فى الدنيا فلايهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها
(قل) رداً عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقاً للحق الذى عليه يدور أمر التكوين (إن ربى يبسط
٣٦ الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لأحد من الفريقين
داع إلى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر
وربما يوسع عليهما معاً وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا
من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين
مناطهما الطاعة وعدمها وقرىء ويقدر بالتشديد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيزعمون أن
مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون
٣٧ بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم

وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٤ سبأ

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ٣٤ سبأ

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٤ سبأ

عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ماسبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فإن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرىء بالذى أى بالشىء الذى (إلا من آمن وعمل صالحاً) استثناء من مفعول تقربكم أى وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى إلا أموال من الخ (فأولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح (لهم جزاء الضعف) أى ثابت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرر الإسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لأولئك وما بعده مرتفع على الفاعلية وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً فما فوقها وقرىء جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على أن الضعف بدل من جزاء (بما عملوا) من الصالحات (وهم فى الغرفات) أى غرفات الجنة (آمنون)

٣٨ من جميع المكاره وقرىء بفتح الراء وسكونها وقرىء فى الغرفة على إرادة الجنس (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) سابقين لأنبيائنا أو زاعمين أنهم يفوتوننا (أولئك فى العذاب

٣٩ محضرون) لا يجديهم ماعولوا عليه نفعاً (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أى يوسعه عليه تارة (ويقدر له) أى يضيقه عليه تارة أخرى فلاتخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) عوضاً إما عاجلا وإما آجلا (وهو خير الرازقين) فإن غيره

٤٠ واسطة فى إيصال رزقه لاحقيقة لرازقيته (ويوم يحشرهم جميعاً) أى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتى تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر (ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) تقريعاً للمشركين وتبكيتاً لهم على نهج قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الخ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ٣٤ سبإ

فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٤ سبإ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ٣٤ سبإ

لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولوية وقرىء الفعلان بالنون
٤١ (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك (سبحانك أنت ولينا من دونهم) والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على التحقق أى أنت الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أى الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الأول للإنس أو للمشركين والأكثر بمعنى الكل والثانى للجن (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) من جملة ما يقال للملائكة ٤٢
عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الإخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه أصلا إما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها أو لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على نقول للملائكة لا على لا يملك كما قيل فإنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة أى يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) يكون من الأهوال والأحوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا ٤٣

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ٣٤ سبإ

وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ٣٤ سبإ

بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم أى إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقية
التوحيد و بطلان الشرك (قالوا ماهذا) يعنون رسول الله ﷺ (إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد
آباؤكم) فيستتبعكم بما يستدعيه من غير أن يكون هناك دين إلهى وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم
لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك و تنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ماهذا) يعنون
القرآن الكريم (إلا إفك) أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع (مفترى) بإسناده إلى الله
تعالى (وقال الذين كفروا للحق) أى لأمر النبوة أو الإسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان
بأن يراد بالأول معناه وبالثانى نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (إن هذا إلا سحر مبين)
ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول
٤٤ فيه وما فى لما من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من
كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الإشراك كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا
به يشركون وقوله تعالى أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون وقرىء يدرسونها ويدرسونها
بتشديد الدال يفتعلون من الدرس (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إليه وينذرهم بالعقاب إن
لم يشركوا وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية
٤٥ تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الأمم المتقدمة والقرون الخالية
كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر
وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلى) عطف على كذب
الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان
٤٦ نكير) أى إنكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل إنما أعظكم بواحدة) أى ما أرشدكم
وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هى مادل عليه قوله تعالى (أن تقوموا لله) على أنه بدل منها أو بيان لها أو
خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله ﷺ أو تنتصبوا للأمر خالصاً لوجه الله
تعالى معرضاً عن المماراة والتقليد (مثنى وفرادى) أى متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام
يشوش الأفهام ويخلط الأفكار بالأوهام وفى تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان (ثم

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) ٣٤ سبإ

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) ٣٤ سبإ

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ٣٤ سبإ

تتفكروا) فى أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (مابصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لا دعائه إلا مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذقد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأنزههم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا مابصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا أى شىء به من آثار الجنون (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فإنه ﷺ مبعوث فى نسم الساعة
٤٧ (قل ماسألتكم من أجر) أى أى شىء سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأساً كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً إن أعطيتنى شيئاً فخذه وقيل ماموصولة أريد بها ماسألهم بقوله تعالى ماأسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا وقوله تعالى لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه ﷺ قرباهم (إن أجرى إلا على الله وهو على
٤٨ كل شىء شهيد) مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرىء إن أجرى بسكون الياء (قل إن ربى يقذف بالحق) أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل إن واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لإن أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء بالنصب صفة لربى أو مقدراً بأعنى وقرىء
٤٩ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الإسلام والتوحيد (وما يبدىء الباطل وما يعيد) أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد [أقفر من أهله عبيد ❊ فليس يبدى ولا يعيد] وقيل الباطل إبليس أو الصنم والمعنى لا ينشىء خلقاً ولا يعيد أو لا يبدىء خيراً لأهله ولا يعيد وقيل
٥٠ ما استفهامية منصوبة بما بعدها (قل إن ضللت) عن الطريق الحق (فإنما أضل على نفسى) فإن وبال ضلالى عليها لأنه بسببها إذ هى الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرىء ربى بفتح الياء (إنه سميع

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ٣٤ سبأ

وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ٣٤ سبأ

وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ٣٤ سبأ

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ٣٤ سبأ

٥١ قريب) يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وإن بالغ فى إخفائهما (ولو ترى إذ فزعوا) عند الموت أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو تحصن (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الأرض أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى قليبها أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرىء وأخذ بالعطف على محله أى فلا فوت هنا وهناك أخذ

٥٢ (وقالوا آمناً به) أى بمحمد ﷺ وقد مر ذكره فى قوله تعالى مابصاحبكم (وأنى لهم التناوش) التناوش التناول السهل أى ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فإنه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالإيمان بعد مافات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرىء بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت الشيء إذا طلبته وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم نأشت إذا أبطأت وتأخرت

٥٣ ومنه قول من قال [تمنى نئيشاً أن يكون أطاعنى ٭ وقد حدثت بعد الأمور أمور] (وقد كفروا به) أى بمحمد ﷺ أو بالعذاب الشديد الذى أنذرهم إياه (من قبل) أى من قبل ذلك فى أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول ﷺ من المطاعن أو فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله ﷺ حيث ينسبونه ﷺ إلى الشعر والسحر والكذب وإن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شيء من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرىء ويقذفون على أن الشيطان يلقى إليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا

٥٤ فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ماضيعوه من الإيمان فى الدنيا (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من نفع الإيمان والنجاة من النار وقرىء بإشمام الضم للحاء (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة (إنهم كانوا فى شك مريب) أى موقع فى الريبة أو ذى ريبة والأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى والثانى من صاحب الشك إلى الشك كما يقال شعر شاعر والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبى إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً .

﴿ سورة سبأ ٣٤ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس. وقتادة، وفى التحرير هى مكية باجماعهم، وقال ابن عطية: مكية الا قوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم) وروى الترمذى عن فروة بن مسيكة المرادى قال: أتيت النبى ﷺ فقلت يارسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومى الحديث، وفيه وأنزل فى سبا ما أنزل فقال رجل: يارسول الله وما سبأ؟ الحديث * قال ابن الحصار هذا يدل على أن هذه القصة مدنية لأن مهاجرة فروة بعد اسلام ثقيف سنة تسع، ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته فلا يأبى كونها مكية، وآياتها خمس وخمسون فى الشامى وأربع وخمسون فى الباقين، وماقيل خمس وأربعون سهو من قلم الناسخ، ووجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التى أجريت على الله تعالى فى مفتتحها ما يناسب الحكم التى فى مختتم ماقبل من قوله تعالى: (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) الخ * وأيضاً قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء وههنا قد حكى عنهم إنكارها صريحا والطعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه وذكر مما يتعلق بذلك مالم يذكر هناك، وفى البحر أن سبب نزولها أن

www.Quranpdf.blogspot.in

أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) كأن محمدا يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت ويتخوفنا بالبعث واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث فقال الله تعالى قل يامحمد بلى وربى لتبعثن قاله مقاتل وباقى السورة تهديد لهم وتخويف، ومن هذا ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها انتهى.

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ أى له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل: له هذا العالم بالاسر، ووصفه تعالى بذلك على ماقاله أبو السعود لتقرير ماأفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة عند أرباب التحقيق بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد المخلوقات به عز وجل ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ماسواه سبحانه من الموجودات التى من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فماهذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى، وفى الوصف بما ذكر أيضا ايذان بأنه تعالى المحمود على نعم الدنيا حيث عقب الحمد بما تضمن جميع النعم الدنيوية فيكون الكلام نظير قولك: احمد أخاك الذى حملك وكساك فانك تريد به احمده على حملانه وكسوته، وفى عطف قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الحَمْدُ فِى الآخِرَةِ ﴾ على الصلة كما هو الظاهر ايذان بأنه سبحانه المحمود على نعم الآخرة ليتلاءم الكلام، وفى تقييد الحمد فيه بأن محله الآخرة ايذان بأن محل الحمد الاول الدنيا لذلك أيضا فتفيد الجملتان أنه عز وجل المحمود على نعم الدنيا فيها وأنه تبارك وتعالى المحمود على نعم الآخرة فيها، وجوز أن يكون فى الكلام صنعة الاحتباك وأصله الحمد لله الخ فى الدنيا وله مافى الآخرة والحمد فيها فاثبت فى كل منهما ماحذف من الآخر، وقال أبو السعود: إن الجملة الثانية لاختصاص الحمد الاخروى به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوى به سبحانه على أن (فى الآخرة) متعلق بنفس الحمد أو بما تعلق به (له) من الاستقرار، واطلاقه عن ذكر مايشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد فيها أيضا بل ليعم النعم الاخروية كما فى قوله تعالى (الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله) ومايكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية كما فى قوله تعالى (الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى لما جزاؤه هذا النعيم من الايمان والعمل الصالح.

وأنت تعلم أن المتبادر إلى الذهن هو ماقرر أولا، والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط، وقد ورد فى الخبر ان أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وقول الزمخشرى: إن الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها والثانى ليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الايصال إلى مستحقها مبنى على رأى المعتزلة على أن قوله: لأنه على نعمة واجبة الايصال ليس على اطلاقه عندهم لأن مايعطى الله تعالى العباد فى الآخرة ليس مقصورا على الجزاء عندهم بل بعض ذلك تفضل وبعضه أجر، وتقديم الخبر فى الجملة الثانية لتأكيد الحصر المستفاد من اللام على ماهو الشائع اعتناء بشأن

www.Quranpdf.blogspot.in

نعم الآخرة ، وقيل : للاختصاص لأن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة ، وكأنه أراد لتأكيد الاختصاص أوبنى الامر على أن الاختصاص المستفاد من اللام بمعنى الملابسة التامة لا الحصر كما فصله الفاضل اليمنى ، وأما أنه أراد لاختصاص الاختصاص فكما ترى ،ويرد على قوله: ولا كذلك نعم الآخرة (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) فتأمل ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ الذى أحكم أمر الدارين ودبره حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ الْخَبِيرُ ١ ﴾ العالم ببواطن الاشياء ومكنوناتها ويلزم من ذلك علمه تعالى بغيرها ، وعمم بعضهم من أول الامر وما ذكر مبنى على ماقاله بعض أهل اللغة من أن الخبرة تختص بالبواطن لأنها من خبر الأرض إذا شقها ، وفى هذه الفاصلة إيذان بأنه تعالى كما يستحق الحمد لأنه سبحانه منعم يستحقه لأنه جل شأنه منعوت بالكمال الاختيارى وتكميل معنى كونه تعالى منعما أيضا بأنه على وجه الحكمة والصواب وعن علم بموضع الاستحقاق والاستيجاب لا كمن يطلق عليه أنه منعم مجازا ، وقوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ الخ استئناف لتفصيل بعض ما يحيط به علمه تعالى من الامور التى نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية ، وجوز أن يكون تفسيرا للخبير ، وأن يكون حالا من ضميره تعالى فى (له ما فى السموات) فيكون (له الحمد فى الآخرة) اعتراضا بين الحال وصاحبها أى يعلم سبحانه مايدخل فى الأرض من المطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات قاله السدى ﴿

وقال الكلبى: مايدخل فيها من الاموات ومايخرج منها من جواهر المعادن ، والأولى التعميم فى الموصولين فيشملان كل ما يلج فى الأرض ولو بالوضع فيها وكل مايخرج منها حتى الحيوان فانه كله مخلوق من التراب ﴿

﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى من الملائكة قاله السدى والكلبى ، والأولى التعميم فيشمل (ماينزل) المطر والثلج والبرد والصاعقة والمقادير ونحوها أيضا (ومايعرج) الابخرة والادخنة واعمال العباد وأدعيتهم ونحوها أيضا ، ويراد بالسماء جهة العلو مطلقا ولعل ترتيب المتعاطفات كما سمعت افادة للترقى فى المدح ، وضمن العروج معنى السير أو الاستقرار على ماقيل فلذا عدى بفى دون إلى ، وقيل : لاحاجة إلى اعتبار التضمين والمراد بما يعرج فيها مايعرج فى ثخن السماء ويعلم من العلم بذلك العلم بما يعرج اليها من باب أولى فتدبر ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه والسلمى (ينزل) بضم الياء وفتح النون وشد الزاى أى الله كذا فى البحر ﴿

وفى الكشاف عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ (ننزل) بالتشديد ونون العظمة ﴿ وَهُوَ ﴾ مع كثرة نعمته وسبوغ فضله ﴿ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ٢ ﴾ للمفرطين فى أداء مواجب شكرها فهذا التذنيب مع كونه مقررا للخبرة مفصل لما أجمل فى قوله سبحانه : (له مافى السموات وما فى الأرض) يعرف منه كيف كان كله نعمة وكالتبصر لأنواع النعم الكلية فكل منه ومن التذنيب السابق فى موضعه اللاحق فلا تتوهم أن العكس أنسب ﴿

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط وبنفى اتيانها نفى وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحقيقها فى نفس الأمر ، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون باتيانها ، وقيل : لأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا يكون إلا بالاتيان والحضور ، وقيل : هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم (متى هذا الوعد)؟

www.Quranpdf.blogspot.in

والأول أولى، والجملة قيل: معطوفة على ماقبلها عطف القصة على القصة وجعلها حالية غير ظاهر ﴿قُلْ بَلَى﴾ رد لـكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها، وجاء القسم بالرب للاشارة إلى أن إتيانها من شؤون الربوبية، وأتى به مضافا إلى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم ليدل على شدة القسم، وروى هرون كما قال ابن جنى عن طايق قال: سمعت أشياخنا يقرؤون (ليأتينكم) بالياء التحتية وخرجت على أن الفاعل ضمير البعث لأن مقصودهم من نفى اتيان الساعة أنهم لا يبعثون، وقيل: الفاعل ضمير (الساعة) على تأويلها باليوم أو الوقت. وتعقبه أبو حيان بأنه بعيد إذ لا يكون مثل هذا إلا فى الشعر نحو * ولا أرض أبقل إبقالها * وقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بدل من المقسم به على ماذهب اليه الحوفى. وأبو البقاء، وجوز أن يكون عطف بيان، وأجاز أبو البقاء أن يكون صفة له *

وتعقب بأنه صفة مشبهة وهى كما ذكره سيبويه فى الكتاب لا تتعرف بالاضافة إلى معرفة والجمهور على أنها تتعرف بها ولذا ذهب جمع من الأجلة إلى أنه صفة ووصف سبحانه باحاطة العلم امدادا للتأكيد وتشديدا له إثر تشديد فان عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ، وخص هذا الوصف بالذكر من بين الأوصاف مع أن كل وصف يقتضى العظمة يتأتى به ذلك لما أن له تعلقا خاصا بالمقسم عليه فانه أشهر أفراد الغيب فى الخفاء ففيه مع رعاية التأكيد حسن الاقسام على منوال وثناياك انها إغريض كأنه قيل: وربى العالم بوقت قيامها لتأتينكم، وفيه ادماج أن لا كلام فى ثبوتها *

وقال صاحب الفرائد: جىء بالوصف المذكور لأن إنكارهم البعث باعتبار أن الاجزاء المتفرقة المنتشرة يمتنع اجتماعها كما كانت يدل عليه قوله تعالى: (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) الآية، فالوصف بهذه الأوصاف رد لزعمهم الاستحالة وهو أن من كان علمه بهذه المثابة كيف يمتنع منه ذلك انتهى، واستحسنه الطيبى، وقال فى البحر: أتبع القسم بقوله تعالى: (عالم الغيب) وما بعده ليعلم أن إتيانها من الغيب الذى تفرد به عز وجل، وماذكر أولا أبعد مغزى، وفائدة الامر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فانهم كانوا يعرفون أمانته صلى الله تعالى عليه وسلم ونزاهته عن وصمة الـكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه عليه الصلاة والسلام مكابرة، وغفل صاحب الفرائد عن هذه الفائدة فقال: اقتضى المقام اليمين لأن من أنكر ماقيل له فالذى وجب بعد ذلك إذا أريد إعادة القول له أن يكون مقترنا باليمين والا كان خطأ بالنظر إلى علم المعانى وإن كان صحيحا بالنظر إلى العربية والنحو. وقد يغفل الاريب *

وقرأ نافع. وابن عامر. ورويس. وسلام. والجحدرى. وقعنب (عالم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو عالم، وجوز الحوفى أن يكون مبتدأ خبره محذوف أى عالم الغيب هو، وجوز هو وأبو البقاء أن يكون مبتدأ والجملة بعده خبره *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ ابن وثاب . والاعمش. وحمزة . والكسائي (علام) بصيغة المبالغة والخفض، وقرئ (عالم) بالرفع يكون بلا مبالغة (الغيوب) بالجمع ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يبعد ومنه روض عزيب بعيد من الناس *

وقرأ الكسائي بكسر الزاي ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي مثقال ذرة ﴿ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ أي منه، والكلام على حد (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى : ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٣ ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الأكثرين*

والجملة مؤكدة لنفي العزوب ، وقرأ الأعمش . وقتادة . وأبو عمرو. ونافع في رواية عنهما (ولا أصغر. ولا أكبر) بالنصب على أن (لا) لنفي الجنس عاملة عمل إن وما بعدها اسمها منصوب بها لأنه شبيه بالمضاف ولم ينون للوصف ووزن الفعل فليس ذلك نحو لا مانع لما أعطيت، والخبر هو الخبر على قراءة الجمهور، وقال أبو حيان: (لا) لنفي الجنس وهي وما بني معها مبتدأ على مذهب سيبويه والخبر (الا في كتاب) وما ذكرناه في توجيه القراءتين هو الذي ذهب اليه كثير من الأجلة ، وقيل : إن ذلك معطوف في قراءة الرفع على (مثقال) وفي القراءة الأخرى على (ذرة) والفتحة فيه نيابة عن الكسرة للوصف والوزن واليه ذهب أبو البقاء . واستشكل بأنه يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متصلا كما هو الأصل لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين فانه يعزب عنه فيه، وفساده ظاهر، والتزم السراج البلقيني على تقدير العطف المذكور أن يكون الاستثناء من محذوف والتقدير ولا شيء إلا في كتاب ثم قال: ولا بدع في حذف ماقدر لدلالة الكلام عليه ، ويحصل من مجموع ذلك إثبات العلم لله تعالى بكل معلوم وان كل شيء مكتوب في الكتاب، وقيل العطف على ماذكر والاستثناء منقطع والمعنى لا يعزب عنه تعالى شيء من ذلك لكن هو في كتاب، وقيل العطف على ذلك والكلام نهج قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فالمعنى ان كان يعزب عنه شيء فهو الذي في كتاب مبين لكن الذي في الكتاب لا يعزب عنه فلا يعزب عنه شيء، وفيه من البعد مافيه؛ وقيل: إن المراد بقوله تعالى (لا يعزب) الخ أنه تعالى عالم به والمراد بقوله سبحانه (الا في كتاب) نحو ذلك لأن الكتاب هو علم الله تعالى، والمعنى وما يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء الا يعلمه ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في علمه فيكون نظير قوله (وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب) وفيه أنه أبعد مما قبله، وقيل: يعزب بمعنى يظهر ويذهب والعطف على ماسمعت، والمعنى لم يظهر شيء عن الله تعالى بعد خلقه له الا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وتلخيصه كل مخلوق مكتوب ، وفيه أن هذا المعنى ليعزب غير معروف وانما المعروف ما تقدم ، نعم قال الصغاني في العباب قال: أبو سعيد الضرير يقال ليس لفلان امرأة تعزبه أي تذهب عزبته بالنكاح مثل قولك تمرضه أي تقوم عليه في مرضه ثم قال الصغاني: والتركيب يدل على تباعد وتنح فتفسيره بالظهور بعيد ولئن سلمنا قربه فلأي شيء جمع بين الظهور والذهاب. وقيل الا بمعنى الواو وهو مقدر في الكلام والكلام قد تم عند (أكبر) كأنه قيل: لا يعزب عنه ذلك وهو في كتاب ، ومجيء الا بمعنى الواو ذهب اليه الاخفش من البصريين والفراء من الكوفيين *

www.Quranpdf.blogspot.in

وخرج عليه قوم (يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم . وخالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) وقد حكى هذا القول مكي في نظير الآية ثم قال : وهو قول حسن لولا أن جميع البصريين لايعرفون الا بمعنى الواو كأنه لم يقف على قول الاخفش وهو من رؤساء نحاة البصرة أو لم يعتبره فلذا قال جميع البصريين ، وقد كثر الكلام في هذا الوجه وارتضاه السراج البلقيني وأنا لا أراه مرضيا وأن أوقد له ألف سراج ، وقيل العطف على ما سمعت وضمير (عنه) للغيب فلا اشكال اذ المعنى حينئذ لايبعد عن غيبه شيء الا ما كان في اللوح لبروزه من الغيب الى الشهادة واطلاع الملأ الاعلى عليه . وتعقب بان المعنى لا يساعده لأن الأمر الغيبي اذا برز الى الشهادة لم يعزب عنه بل بقي في الغيب على ما كان عليه مع بروزه ، ومعناه أن كونه في اللوح المحفوظ كناية عن كونه من جملة معلوماته تعالى وهي اما مغيبة واما ظاهرة وكل مغيب سيظهر والا كان معدوما لا مغيبا وظهوره وقت ظهوره لايرفع كونه مغيبا فلا يكون استثناء متصلا ، ألا ترى أنك لو قلت علم الساعة مغيب عن الناس الا علمهم بها حين تقوم ويشاهدونها لم يكن هذا الاستثناء متصلا كذا قيل فتأمل ولا تغفل ه

وأنت تعلم أن هذا الوجه على فرض عدم ورود ما ذكر عليه ضعيف لأن الظاهر الذي يقتضيه قوله تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء) الآية رجوع الضمير الى الله عز وجل ه

والذي ذهب اليه أبو حيان أن الكتاب ليس هو اللوح وليس الكلام الا كناية عن ضبط الشيء والتحفظ به وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) بكسر الراءين ه

وخرج على أنه نوى مضاف اليه والتقدير ولا أصغره ولا أكبره ، و(من ذلك) ليس متعلقا بافعل بل هو تبيين لأنه لما حذف المضاف اليه أبهم لفظا فبين بقوله تعالى من ذلك أي أعني من ذلك ، ولا يخفى أنه توجيه شذوذ ه

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ متعلق بقوله سبحانه (لتأتينكم) على أنه علة له وبيان لمقتضى اتيانها فهو من تتمة المقسم عليه ، فحاصل الكلام أن الحكمة تقتضي اثباتها والعلم البالغ المحيط بالغيب وجميع الجزئيات جليها وخفيها حاصل والقدرة المقتضية لايجاد العالم وما فيه وجعله نعمة على ما مر فقد تم المقتضى وارتفع المانع فليس في الآية اكتفاء في الرد بمجرد اليمين ، واستظهر في البحر تعلقه بلا يعزب ه

وذهب اليه أبو البقاء . وتعقب بان علمه تعالى ليس لأجل الجزاء ، وقيل متعلق بمتعلق (في كتاب) وهو كما ترى ه

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف أي أولئك الموصوفون بالايمان وعمل الاعمال الصالحات ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ ﴾ حسن لا تعب فيه ولا من عليه ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءايَاتِنَا ﴾ بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أي مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا قاله قتادة ، وقال عكرمة : مراغمين ، وقال ابن زيد : مجاهدين في أبطالها ه

وقرأ جمع (معجزين) مخففا ، وابن كثير . وأبو عمرو . والجحدري . وأبو السمال مثقلا ، قال ابن الزبير : أي مثبطين عن الايمان من اراده مدخلين عليه العجز في نشاطه ، وقيل معجزين قدرة الله عز وجل في زعمهم ه

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر وفيه إشارة إلى بعد منزلتهم في الشر ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

أى من سيء العذاب وأشده، ومن للبيان ﴿أليم ٥﴾ بالرفع صفة (عذاب) وقرأ أكثر السبعة بالجر على أنه صفة مؤكدة لرجز بناء على ماسمعت من معناه، وجعله بعضهم صفة مؤسسة له بناء على أن الرجز كما روى عن قتادة مطلق العذاب وجوز جعله صفة (عذاب) أيضا والجر للمجاورة، والظاهر أن الموصول مبتدأ والخبر جملة (أولئك لهم عذاب) وجوز أن يكون فى محل نصب عطفا على الموصول قبله أى ويجزى الذين سعوا وجملة (أولئك لهم) الخ التى بعده مستأنفة والتى قبله معترضة. وفى البحر يحتمل على تقدير العطف على الموصول أن تكون الجملتان المصدرتان بأولئك هما نفس الثواب والعقاب، ويحتمل أن يكونا مستأنفتين والثواب والعقاب غير ما تضمنتاما هو أعظم كرضا الله تعالى عن المؤمن دائما وسخطه على الكافر دائما، وفيه انه كيف يتأتى حمل ذلك على رضا الله تعالى وضده وقد صرح أولا بالمغفرة والرزق الكريم وفى مقابله بالعذاب الأليم وجعل الأول جزاء *

﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ أى ويعلم أولوا العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته عليه الصلاة والسلام أو من آمن من علماء أهل الكتاب كما روى عن قتادة كعبدالله بن سلام. وكعب وأضرابهما رضى الله تعالى عنهم ﴿الذى أنزل اليك من ربك﴾ اى القرآن ﴿هو الحق﴾ بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الأول هو الموصول الثانى و(هو) ضمير الفصل *

وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على جعل الضمير مبتدأ وجعله خبرا والجملة فى موضع المفعول الثانى ليرى وهى لغة تميم يجعلون ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، وقوله تعالى: (ويرى) الخ ابتداء كلام غير معطوف على ماقبله مسوق للاستشهاد بأولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات. وفى الكشف هو عطف على قوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) على معنى وقال الجهلة: لاساعة وعلم أولى العلم أنه الحق الذى نطق به المنزل اليك الحق. وتعقب بأنه تكلف بعيد فان دلالة النظم الكريم على الاهتمام بشأن القرآن لاغير، وقيل عليه: أنت خبير بأن ما قبله من قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) وقوله سبحانه: «وقال الذين كفروا هل ندلكم» الخ فى شأن الساعة ومنكرى الحشر فكيف يكون ماذكر بعيدا بسلامة الأمير فذكر حقية القرآن بطريق الاستطراد والمقصود بالذات حقية ما نطق به من أمر الساعة، وقال الطبرى. والثعلبى: إن (يرى) منصوب بفتحة مقدرة عطفا على يجزى أى وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة معاينة أنه الحق حسبما علموه قبل برهانا ويحتجوا به على المكذبين وعليه فقوله تعالى: «والذين سعوا» معطوف على الموصول الأول أو مبتدأ والجملة معترضة فلا يضر الفصل كما توهم، وجوز أن يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الأحبار أى ليعلموا يومئذ أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما. وتعقب بأن وصفهم بأولى العلم يأباه لأنه صفة مادحة ولعل المجوز لا يسلم هذا، نعم كون ذلك بعيدا لا ينكر لاسيما وظاهر المقابلة بقوله تعالى: «وقال الذين كفروا» يقتضى الحمل على المؤمنين ﴿ويهدى الى صراط العزيز﴾ الذى يقهر ولا يقهر ﴿الحميد ٦﴾ المحمود فى جميع شؤنه عز وجل، والمراد بصراطه تعالى التوحيد والتقوى، وفاعل يهدى إما ضمير (الذى أنزل) أو ضمير الله تعالى ففى (العزيز الحميد) التفات، والجملة على الأول إما مستأنفة أو فى موضع الحال من (الذى) على إضمار مبتدأ أى وهو يهدى كما فى قوله: * نجوت وأرهنهم مالكا * أو معطوفة على (الحق) بتقدير وإنه يهدى وجوز أن يكون يهدى

www.Quranpdf.blogspot.in

معطوفا على (الحق) عطف الفعل على الاسم لأنه فى تأويله كما فى قوله تعالى: «صافات ويقبضن» أى قابضات وبعكسه قوله:

وألفيته يوما يبير عدوه * وبحر عطاء يستحق المعابرا

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض على جهة التعجب والاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون به النبى ﷺ والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل كأنهم لم يعرفوا منه ﷺ إلا أنه رجل وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهر من الشمس

وليس قولك من هذا بضائره * العرب تعرف من أنكرت والعجم

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدثكم بأمر مستغرب عجيب. وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما «ينبيكم» بابدال الهمزة ياء محضة وحكى عنه (ينبئكم) بالهمز من أنبأ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾ إذا شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه أى تبعثون أو تحشرون وهو العامل فى إذا على قول الجمهور والجملة الشرطية بتمامها معمولة لينبئكم لأنه فى معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ثم أكد ذلك بقوله تعالى. (أنكم لفى خلق جديد) وجوز أن يكون «إنكم لفى خلق جديد» معمولا لينبئكم وهو معلق ولولا اللام فى خبر إن لكانت مفتوحة والجملة سدت مسد المفعولين والشرطية على هذا اعتراض، وقد منع قوم التعليق فى باب أعلم والصحيح جوازه وعليه قوله:

حذار فقد نبئت أنك للذى * ستجزى بما تسعى فتسعد أو تشقى

وجوز أن تكون إذا لمحض الظرفية فعاملها الذى دل عليه مابعد يقدر مقدما أى تبعثون او تحشرون إذا مزقتم، ولا يجوز أن يكون العامل (يدلكم) أو (ينبئكم) لعدم المقارنة ولا (مزقتم) لأن إذا مضافة اليه والمضاف اليه لا يعمل فى المضاف. ولا خلق ولا جديد لأن إن لها الصدر فلا يعمل مابعدها فيما قبلها *

وقال الزجاج: إذا فى موضع النصب بمزقتم وهى بمنزلة من الشرطية يعمل فيها الذى يليها، وقال السجاوندى: العامل محذوف وما بعدها إنما يعمل فيها إذا كان مجزوما بها وهو مخصوص بالضرورة نحو * وإذا تصبك خصاصة فتجمل * فلا يخرج عليه القرآن فاذا لم تجزم كانت مضافة إلى مابعدها والمضاف اليه لا يعمل فى المضاف *

وقال أبو حيان: الصحيح أن العامل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط، وتمام الكلام على ذلك فى كتب النحو، وممزق مصدر جاء على زنة اسم المفعول كمسرح فى قوله:

ألم تعلم مسرحى القوافى * فلا عيابهن ولا اجتلابا

وتمزيق الشىء تخريقه وجعله قطعا قطعا ومنه قوله:

إذا كنت مأكولا فكن خير آكل * وإلا فأدركنى ولما أمزق

والمراد اذا متم وفرقت أجسادكم كل تفريق بحيث صرتم رفاتا وترابا، ونصب (كل) على المصدرية *

وجوز أن يكون اسم مكان فنصب كل على الظرفية لأن لها حكم ما تضاف اليه أى إذا فرقت أجسادكم فى كل مكان من القبور وبطون الطير والسباع وما ذهبت به السيول كل مذهب وما نسفته الرياح فطرحته

www.Quranpdf.blogspot.in

كل مطرح، و(جديد) فعيل بمعنى فاعل عند البصريين من جد الشيء إذا صار جديدا و بمعنى مفعول عند الكوفيين من جده إذا قطعه ثم شاع فى كل جديد وإن لم يكن مقطوعا كالبناء، والسبب فى الخلاف أنهم رأوا العرب لا يؤنثونه و يقولون ملحفة جديد لا جديدة فذهب الكوفيون الى أنه بمعنى مفعول والبصريون الى خلافه وقالوا ترك التأنيث لتأويله بشيء جديد أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول كذا قيل: ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فيما ينسب اليه من أمر البعث ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، واستدل به أبو عمرو الجاحظ على ما ذهب اليه من أن صدق الخبر مطابقته للواقع مع الاعتقاد و كذبه عدمها معه وغيرهما ليس بصدق ولا كذب، وذلك أن الكفار وهم عقلاء من أهل اللسان عارفون باللغة حصروا أخبار النبي ﷺ بالبعث فى الافتراء والاخبار حال الجنة على سبيل منع الخلو بالمعنى الاعم ولا شك أن المراد بالثانى غير الكذب لأنه قسيمه وغير الصدق لأنهم اعتقدوا عدمه، وأيضا لا دلالة لقولهم (أم به جنة) على معنى أم صدق بوجه من الوجوه فيجب أن يكون بعض الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب ليكون ذلك منه بزعمهم وان كان صادقا فى نفس الأمر، وتوضيحه أن ظاهر كلامهم هذا يدل على طلب تعيين أحد حالى النبي ﷺ المستويين فى اعتقاد المتكلم حين الاخبار بالبعث وهو يستلزم تعيين أحد حالى الخبر والاستفهام ههنا للتقرير فيفيد ثبوت أحد الحالين للخبر ولا شك أن ثبوت أحدهما لا يثبت الواسطة ما لم يعتبر تنافيهما وكذا تنافيهما فى الجمع لا يثبتها بل لابد من تنافيهما فى الارتفاع يعنى أن خبره عليه الصلاة والسلام بالبعث لا يخلو عن أحد الأمرين المتنافيين فيكون المراد بالثانى ما هو مناف وقسيم للاول ومعلوم أنه غير الصدق فليس الصدق عبارة عن مطابقة الواقع فقط والكذب عن عدم المطابقة له كما يقول الجمهور أو عن مطابقة الاعتقاد له وعدم مطابقته له كما يقول النظام فيكونان عبارتين عن مطابقتهما وعدم مطابقتهما وتثبت الواسطة. وأجيب بأن معنى (أم به جنة) أم لم يفتر فعبر عن عدم الافتراء بالجنة لأن المجنون يلزمه أن لا افتراء له كما دل عليه نقل الأئمة واستعمال العرب الكذب عن عمد ولا عمد للمجنون فالثانى ليس قسيما للكذب بل لما هو أخص منه أعنى الافتراء فيكون ذلك حصرا للخبر الكاذب بزعمهم فى نوعيه الكذب عن عمد والكذب لا عن عمد ولو سلم أن الافتراء بمعنى الكذب مطلقا فالمعنى أقصد الافتراء أى الكذب أم لم يقصد بل كذب بلا قصد لما به من الجنة *

وقيل: المعنى افترى أم لم يفتر بل به جنون وكلام المجنون ليس بخبر لأنه لا قصد له يعتد به ولا شعور فيكون مرادهم حصره فى كونه خبرا كاذبا أو ليس بخبر فلا يثبت خبر لا يكون صادقا ولا كاذبا، ونوقش فيه كما لا يخفى على من راجع كتب المعانى. بقى ههنا بحث وهو أن الطيبي أشار الى أن مبنى الاستدلال كون (أم) متصلة واعترضه بأن الظاهر كونها منقطعة أما لفظا فلاختلاف مدخول الهمزة وأم وأما معنى فلأن الكفرة المعاندين لما أخرجوا قولهم هل ندلكم على رجل ينبئكم مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبكلامه من اثبات الحشر والنشر وعقبوه بقولهم (افترى على الله كذبا) أضربوا عنه الى ما هو أبلغ منه ترقيا من الاهون الى الاغلظ من نسبة الجنون اليه وحاشاه ﷺ فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء فان ههنا ما هو أطم منه لأن العاقل كيف يحدث بانشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب، ولما كان التعويل على ما بعد الاضراب من اثبات الجنون أوقع الاضراب الثانى فى كلامه تعالى ردا لقولهم ونفيا للجنون عنه صلوات الله

www.Quranpdf.blogspot.in

تعالى وسلامه عليه واثباتا له فيهم الى آخر ما قال ، ولم يرتض ذلك صاحب الكشف فقال فى كلام الكشاف اشارة الى أن أم متصلة : وفائدة العدول عن الفعل فى جن ايماء الى أن الثابت هو ذلك الشق كأنه قيل: أعن افتراء هذا الكذب العجاب أم جنون ، والتقابل لأن المجنون لا افتراء له فالاستدلال على الانقطاع بتخالف العديلين ساقط، وأما الترقى من الاتصال أيضا على ما لوح اليه بوجه الطف اه *

وأنت تعلم أن ظاهر الاستدلال يقتضى الاتصال لكن قال الخفاجى: إن كون الاستدلال مبنيا على الاتصال غير مسلم فتأمل، والظاهر أفترى على الله كذبا أم به جنة من قول بعضهم لبعض. وفى البحر يحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم ردد بين شيئين ولم يجزم باحدهما لما فى كل من الفظاعة *

﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٨ ﴾ ابطال من جهته تعالى لما قالوا بقسيميه واثبات ما هو أشد وأفظع لهم ولذا وضع الذين لا يؤمنون موضع الضمير توبيخا لهم وايماء الى سبب الحكم بما بعده كأنه قيل: ليس الأمر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى اليه ذلك من العذاب حيث أنكروا حكمة الله تعالى فى خلق العالم وكذبوه عز وجل فى وعده ووعيده وتعرضوا لسخطه سبحانه . وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان ما يسوءهم ويفت فى اعضادهم والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه، ووصف الضلال بالبعيد الذى هو وصف الضال للمبالغة لأن ضلالهم إذا كان بعيداً فى نفسه فكيف بهم أنفسهم *

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو استئناف مسوق لتذكيرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته عز وجل وتنبيههم على ما يحتمل أن يقع من الامور الهائلة فى ذلك ازاحة لاستحالتهم الاحياء حتى قالوا ما قالوا فيمن أخبرهم به وتهديداً على ما اجترؤا عليه، والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أنهم أشد خلقاً أم هى وأنا إن نشأ نخسف بهم الأرض كما خسفناها بقارون أو نسقط عليهم كسفاً أى قطعاً من السماء كما أسقطنا على أصحاب الايكة لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات وهو تفسير ملائم للمقام إلا أن ربط قوله تعالى إن نشأ الخ بما قبله بالطريق الذى ذكره بعيد. وفى البحر أنه تعالى وقفهم فى ذلك على قدرته الباهرة وحذرهم احاطة السماء والارض بهم وكأن ثم حالا محذوفة أى أفلا يرون إلى ما يحيط بهم من سماء وأرض مقهور تحت قدرتنا نتصرف فيه كما نريد إن نشأ نخسف بهم الارض الخ أو فلم ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطا بهم وهم مقهورون فيما بينه إن نشأ الخ ولا يخلو عن شىء، وقال العلامة أبو السعود: إن قوله تعالى (أفلم يروا) الخ استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير، وقوله تعالى (إن نشأ) الخ بيان لما ينبىء عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من اسباب وقوعه الا تعلق المشيئة به أى فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص ان نشأ جريا على موجب جناياتهم نخسف الخ ، ولا يخفى أن فيه بعدا وضعف ربط بالنسبة إلى ما سمعت أولا مع أن ما بعد ليس فيه كثير ملائمة لما قبله عليه ، ويخطر لى أن قوله تعالى (أفلم يروا) مسوق لتذكيرهم

www.Quranpdf.blogspot.in

باظهر شىء لهم بحيث أنهم يعاينونه أينما التفتوا ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا يدل على كمال قدرته عز وجل ازاحة لما دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيد الانبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام من زعمهم قصور قدرته تعالى عن البعث والاحياء ضرورة ان من قدر على خلق تلك الاجرام العظام لا يعجزه اعادة اجسام هى كلا شىء بالنسبة إلى تلك الاجرام كما قال سبحانه (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشار اليه بالضلال البعيد مافيه، وقوله تعالى ﴿ انَّ فى ذَٰلكَ ﴾ أى فيما ذكر مما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لدلالة واضحة على كمال قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرق الاجزاء المحاطة بهما ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنيبٍ ٩ ﴾ أى راجع إلى ربه تعالى مطيع له جل شانه لأن المنيب لا يخلو من النظر فى آيات الله عز وجل والتفكر فيها كالتعليل لما يشعر به قوله سبحانه (أفلم يروا) الخ من الحث على الاستدلال بذلك على مايزيح إنكارهم البعث وفيه تعريض بانهم معرضون عن ربهم سبحانه غير مطيعين له جل وعلا وتخلص إلى ذكر المنيبين اليه تعالى على قول، وقوله تعالى (ان نشأ) كالاعتراض جىء به لتأكيد تقصيرهم والتنبيه على أنهم بلغوا فيه مبلغا يستحقون به فى الدنيا فضلا عن الاخرى نزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب وأنه لم يبق من أسباب ذلك الاتعلق المشيئة به إلا أنها لم تتعلق لحكمة، وظنى أنه حسن وتحتمل الآية غير ذلك والله تعالى أعلم باسرار كتابه ، وقيل : إن ذلك اشارة إلى مصدر يروا وهو الرؤية وذكر لتأويله بالنظر والمراد به الفكر، وقيل اشارة إلى ماتلى من الوحى الناطق بما ذكر، وقرأ حمزة . والكسائى . وابن وثاب . وعيسى . والاعمش . وابن مصرف (يشأ ويخسف ويسقط) بالياء فيهن وأدغم الكسائى الفاء فى الباء فى (يخسف بهم) قال أبو على: ولا يجوز ذلك لأن الباء أضعف فى الصوت من الفاء فلا تدغم فيها وإن كانت الباء تدغم فى الفاء نحو اضرب فلانا وهذا كما تدغم الباء فى الميم نحو اضرب مالكا ولا تدغم الميم فى الباء نحو اضمم بك لأن الباء انحطت عن الميم بفقد الغنة التى فيها ، وقال الزمخشرى: قرأ الكسائى (يخسف بهم) بالادغام وليست بقوية، وأنت تعلم أن القراءة سنة متبعة ويوجد فيها الفصيح والافصح وذلك من تيسير الله تعالى القرآن للذكر وما أدغم الكسائى الاعن سماع فلا التفات إلى قول أبى على ولا الزمخشرى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ أى آتيناه لحسن انابته وصحة توبته فضلا أى نعمة واحسانا، وقيل فضلا وزيادة على سائر الانبياء المتقدمين عليه أو أنبياء بنى اسرائيل أو على ماعدا نبينا ﷺ لانه مامن فضيلة فى أحد من الانبياء عليهم السلام الا وقد أوتى عليه الصلاة والسلام مثلها بالفعل أو تمكن منها فلم يختر اظهارها أو على الانبياء مطلقا وقد يكون فى المفضول ماليس فى غيره، وقد انفرد عليه السلام بما ذكر ههنا ، وقيل : أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن. وتعقب بانه إن أريد أن كلا منها فضل لا يوجد فى سائر الناس فعدم مثل ملكه وصوته محل شبهة وإن أريد المجموع من حيث هو نفيه أنه غير موجود فى الانبياء أيضا فلا وجه لتخصيصه بهذا الوجه ● وأنا أرى الفضل لتفسير الفضل بالاحسان وتنكيره للتفخيم و(منا) أى بلا واسطة لتاكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية كما فى قوله تعالى (وآتيناه من لدنا علما) وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن فى النفس عند وروده فضل تمكن، وذكر شؤن داود وسليمان عليهما السلام هنا لمناسبة ذكر المنيب فى

www.Quranpdf.blogspot.in

قوله تعالى (إن فى ذلك) لآية لكل عبد منيب كما أشرنا اليه ، وقال أبو حيان: مناسبة قصتيهما عليهما السلام لما قبلها هى أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته فى زعمهم فأخبروا بوقوع ماهو مستحيل فى العادة مما لايمكنهم إنكاره إذ طفحت ببعضه أخبارهم واشعارهم ، وقيل : ذكر سبحانه نعمته عليهما احتجاجا على مامنح نبينا ﷺ كأنه قيل: لا تستبعدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديما بكذا وكذا فلما فرغ التمثيل له عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسبا وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو (يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ) أى سبحى معه قاله ابن عباس وقتادة . وابن زيد ، وأخرجه ابن جرير عن أبى ميسرة إلا أنه قال: معناه ذلك بلغة الحبشة ، والظاهر أنه عربى من التأويب والمراد رجعى معه التسبيح ورددبه ، وقال ابن عطية: ان أصل ماضيه آب وضعف للمبالغة . وتعقبه فى البحر بقوله ويظهر أن التضعيف للتعدية لأن آب بمعنى رجع لازم صلته اللام فعدى بالتضعيف إذ شرحوه بقولهم رجعى معه التسبيح *

يروى أنه عليه السلام كان اذا سبح سبحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يسمع منها ولا يعجز الله عز وجل أن يجعلها بحيث تسبح بصوت يسمع وقد سبح الحصى فى كف نبينا عليه الصلاة والسلام وسمع تسبيحه وكذا فى كف أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، ولا يبعد على هذا أن يقال : إنه تعالى خلق فيها الفهم أو لا فنادادها كما ينادى أولوا الفهم وأمرها ، وقال بعضهم : إنه سبحانه نزل الجبال منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا اشعارا بأنه مامن حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته سبحانه ودلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية حيث نادى الجبال وأمرها ، وقيل : المراد بتأويبها حملها إياه على التسبيح إذا تأمل مافيها، وفيه مع كونه خلاف المأثور ان (معه) يأباه، وأيضا لا اختصاص له عليه السلام بتأويب الجبال بهذا المعنى حتى يفضل به أو يكون معجزة له ، وقيل : كان عليه السلام ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده باصدائها، وفيه أن الصدى ليس بصوت الجبال حقيقة وإنما هو من آثار صوت المتكلم على ما قام عليه البرهان ، والله تعالى نادى الجبال وأمرها أن تؤوب معه ، وأيضا أى اختصاص له عليه الصلاة والسلام بذلك ولصوت كل أحد صدى عند الجبال ، وعن الحسن أن معنى (أوبى معه) سيرى معه أين سار، والتأويب سير النهار كأن الانسان يسير الليل ثم يرجع السير بالنهار أى يردده *

ومن ذلك قول تميم بن مقبل :

لحقنا بحى أوبوا السير بعدما دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح

وقول آخر : يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

وأورد عليه أن الجبال أوتاد الأرض ولم ينقل سيرها مع داود عليه السلام أو غيره ، وقيل : المعنى تصرفى معه على ما يتصرف فيه فكانت إذا سبح سبحت وإذا ناح ناحت وإذا قرأ الزبور قرأت. وتعقب بأنه لم يعرف التأويب بمعنى التصرف فى لغة العرب ، وقيل : المعنى ارجعى إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين واستخراج معدن ووضع طريق ، والجملة معمولة لقول مضمر أى قولنا ياجبال على أنه بدل من (فضلا) بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو قلنا ياجبال على أنه بدل من (آتينا) وجوز كونه بدلا من (فضلا) بناء على أنه

www.Quranpdf.blogspot.in

يجوز إبدال الجملة من المفرد ، وجوز أبو حيان الاستئناف وليس بذاك ٥

وقرأ ابن عباس . والحسن . وقتادة . وابن أبي إسحق (أوبى) بضم الهمزة وسكون الواو أمر من الأوب وهو الرجوع وفرق بينهما الراغب بأن الأوب لا يقال إلا في الحيوان الذي له ارادة والرجوع يقال فيه وفي غيره ٥ والمعنى على هذه القراءة عند الجمهور ارجعي معه في التسبيح وأمر الجبال كامر الواحدة المؤنثة لأن جمع ما لا يعقل يجوز فيه ذلك ، ومنه ياخيل الله اركبي وكذا (مآرب أخرى) وقد جاء ذلك في جمع من يعقل من المؤنث قال الشاعر :

تركنا الخيل والنعم المفدى وقلنا للنساء بها أقيمى

لكن هذا قليل ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب وهو عند أبي عمرو بن العلاء باضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير وحكى أبو عبيدة عنه ان ذلك بالعطف على (فضلا) ولا حاجة إلى الاضمار لأن إيتاءها إياه عليه السلام تسخيرها له ، وذكر الطيبي أن ذلك كقوله : ٭ علفتها تبنا وماء باردا ٭ وقال الكسائي : بالعطف أيضا إلا أنه قدر مضافا أي وتسبيح الطير ولا يحتاج اليه ، وقال سيبويه : الطير معطوف على محل (جبال) نحو قوله :

٭ ألا يازيد والضحاك سيرا ٭ بنصب الضحاك ، ومنعه بعض النحويين الزوم دخول يا على المنادى المعرف بأل ، والمجيز يقول : رب شيء يجوز تبعا ولا يجوز استقلالا ، وقال الزجاج : هو منصوب على أنه مفعول معه . وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز لأن قبله (معه) ولا يقتضى اثنين من المفعول معه إلا على البدل أو العطف فكما لا يجوز جاء زيد مع عمرو مع زينب إلا بالعطف كذلك هذا ، وقال الخفاجي : لا يأباه (معه) سواء تعلق باوبي على أنه ظرف لغو أو جعل حالا لأنهما معمولان متغايران اذ الظرف والحال غير المفعول معه وكل منها باب على حده وإنما الموهم لذلك لفظ المعية فما اعترض به أبو حيان غير متوجه وإن ظن كذلك ، وأقبح من الذنب الاعتذار حيث أجيب بانه يجوز أن يقال حذفت واو العطف من قوله تعالى : (والطير) استثقالا لاجتماع الواوين أو اعتبر تعلق الثاني بعد تعلق الأول ٥

وقرأ السلمى . وابن هرمز . وأبو يحيى . وأبو نوفل . ويعقوب . وابن أبي عبلة . وجماعة من أهل المدينة . وعاصم في رواية (والطير) بالرفع وخرج على أنه معطوف على (جبال) باعتبار لفظه وحركته لعروضها تشبه حركة الاعراب ويغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع ، وقيل معطوف على الضمير المستتر في (أوبى) وسوغ ذلك الفصل بالظرف ، وقيل : هو بتقدير ولتؤوب الطير نظير ماقيل في قوله تعالى : (اسكن أنت وزوجك الجنة) ٥

وقيل : هو مرفوع بالابتداء والخبر محذوف أي والطير تؤوب ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة قاله السدى . وغيره ، وقيل : جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياه لينا كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ (أن) مصدرية وهي على إسقاط حرف الجر أي ألنا له الحديد لعمل سابغات أو وأمرناه بعمل سابغات ، والأول أولى ، وأجاز الحوفي وغيره أن تكون مفسرة ولما كان شرط المفسرة أن يتقدمها معنى القول دون حروفه وألنا ليس فيه ذلك قدر بعضهم قبلها فعلا محذوفا فيه معنى القول ليصح كونها مفسرة أي وأمرناه أن أعمل أي أي اعمل ، وأورد عليه أن حذف المفسر لم يعهد ، والسابغات الدروع وأصله صفة من السبوغ وهو التمام والكمال فغلب على الدروع

www.Quranpdf.blogspot.in

كالابطح قال الشاعر:

لا سابغات ولا جأواء باسلة تقى المنون لدى استيفاء آجال

ويقال سوابغ أيضا كما في قوله:

عليها أسود ضاريات لبوسهم سوابغ بيض لا تخرقها النبل

فلا حاجة الى تقدير موصوف أى دروعا سابغات، ولا يرد هذا نقضاً على ما قيل إن الصفة مالم تكن مختصة بالموصوف كحائض لايحذف موصوفها. وقرىء (صابغات) بابدال السين صادا لأجل الغين

﴿ وَقَدِّرْ فى السَّرْدِ ﴾ السرد نسج فى الاصل كما قال الراغب خرز ما يخشن ويغلظ قال الشماخ

فظلت سراعا خيلنا فى بيوتكم كما تابعت سرد العنان الخوارز

واستعير لنظم الحديد. وفى البحر هو اتباع الشىء بالشىء من جنسه ويقال للدرع مسرودة لأنه توبع فيها الحلق بالحلق قال الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

ولصانعها سراد وزراد بابدال السين زايا، وفسره هنا غير واحد بالنسج وقال: المعنى اقتصد فى نسج الدروع بحيث تتناسب حلقها، وابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم من طرق بالحلق أى اجعل حلقها على مقادير متناسبة، وقال ابن زيد: لاتعملها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على الدفاع ولا كبيرة فينال صاحبها من خلالها، وجاء فى رواية أخرى عن ابن عباس تفسيرها بالمسامير وروى ذلك عن قتادة. ومجاهد أى قدر مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا أى اجعلها على مقدار معين دقة وغيرها مناسبة للثقب الذى هىء لها فى الحلقة فانها إن كانت دقيقة اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها وان كانت غليظة خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه فلا تمسك أيضا، ويبعد هذا أن إلانة الحديد له عليه السلام بحيث كان كالشمع والعجين يغنى عن التسمير فانه بعد جمع الحلق وادخال بعضه فى بعض يزال انفصال طرفى كل حلقة بمزج الطرفين كما يمزج طرفا حلقة من شمع أو عجين والاحكام بذلك أتم من الاحكام بالتسمير بل لايبقى معه حاجة الى التسمير أصلا فلعله إن صح مبنى على أنه عليه السلام كان يعمل الحلق من غير مزج لطرفى كل فيسمر للاحكام بعد ادخال بعضه فى بعض، ويظهر ذلك على التفسير الثانى لقوله تعالى (وألناله الحديد) اذ غاية القوة كسر الحديد كما يريد من غير آلة دون وصل بعضه ببعض، ولا يعارض ذلك مانقل عن البقاعى أنه قال: أخبرنا بعض من رأى ما نسب الى داود عليه السلام من الدروع أنه بغير مسامير فانه نقل عن مجهول فلا يلتفت لمثله، وقيل معنى (قدر فى السرد) لاتصرف جميع أوقاتك فيه بل مقدار مايحصل به القوت وأما الباقى فاصرفه الى العبادة قيل وهو الانسب بالامر الآتى، وحكى أنه عليه السلام أول من صنع الدرع حلقا وكانت قبل صفائح وروى ذلك عن قتادة.

وعن مقاتل أنه عليه السلام حين ملك على بنى إسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس عن حاله فعرض له ملك فى صورة إنسان فسأله فقال: نعم العبد لولا خلة فيه فقال: وماهى؟ قال: يرزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده تمت فضائله فدعا الله تعالى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه فعلمه صنعة الدروع وألان له الحديد فأثرى

www.Quranpdf.blogspot.in

وكان ينفق ثلث المال فى صالح المسلمين وكان يفرغ من الدرع فى بعض يوم أو فى بعض ليل وثمنها ألف درهم *

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول. وابن أبى حاتم عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعا فيبيعها بستة آلاف درهم ألفان له ولأهله وأربعة آلاف يطعم بها بنى إسرائيل الخبز الحوارى، وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وفى مجمع البيان عن الصادق رضى الله تعالى عنه أنه عمل ثلثمائة وستين درعا فباعها بثلثمائة وستين ألف درهم فاستغنى عن بيت المال ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ خطاب لداود وآله عليهم السلام وهم وإن لم يجر لهم ذكر يفهمون على ماقال الخفاجى التزاما منذكره، وجوز أن يكون خطابا له عليه السلام خاصة على سبيل التعظيم، وأياما كان فالظاهر أنه أمر بالعمل الصالح مطلقا، وليس هو على الوجه الثانى أمرا بعمل الدروع خالية من عيب *

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٠﴾ فاجازيكم به وهو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أى وسخرنا له الريح، وقيل (لسليمان) عطف على (له) فى (ألنا له الحديد) والريح عطف على (الحديد) والانة الريح عبارة عن تسخيرها *

وقرأ أبو بكر (الريح) بالرفع على أنه مبتدأ و(لسليمان) خبره والكلام على تقدير مضاف أى ولسليمان تسخير الريح، وذهب غير واحد إلى أنه مبتدأ ومتعلق الجار كون خاص هو الخبر وليس هناك مضاف مقدر أى ولسليمان الريح مسخرة، وعندى أن الجملة على القراءتين معطوفة على قوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) الخ عطف القصة على القصة، وقال ابن الشيخ: العطف على القراءة الأولى على (ألنا له الحديد) وكلتا الجملتين فعلية وعلى القراءة الثانية العطف على اسمية مقدرة دلت عليها تلك الجملة الفعلية لاعليها للتخالف فكأنه قيل: ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح فانها كانت له كالمملوك المختص بالمالك يأمرها بما يريد ويسير عليها حيثما يشاء، ثم قال: وإنما لم يقل ومع سليمان الريح لأن حركتها ليست بحركة سليمان بل هى تتحرك بنفسها وتحرك سليمان وجنوده بحركتها وتسيير بهم حيث شاء وهذا على خلاف تأويب الجبال فانه كان تبعا للتأويب داود عليه السلام فلذا جىء هناك بمع *

وقرأ الحسن. وأبو حيوة. وخالد بن الياس (الرياح) بالرفع جمعا ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك، والجملة اما مستأنفة او حال من (الريح) ولا بد من تقدير مضاف فى الخبر لأن الغدو والرواح ليس نفس الشهر وانما يكونان فيه، ولا حاجة إلى تقدير فى المبتدا كما فعل مكى حيث قال: أى مسير غدوها مسيرة شهر ومسير رواحها كذلك لما لا يخفى، وقال ابن الحاجب فى أماليه الفائدة فى اعادة لفظ الشهر الاعلام بمقدار زمن الغدو وزمن الرواح والالفاظ التى تأتى مبينة للمقادير لا يحسن فيها الاضمار الاترى أنك تقول زنه هذا مثقال وزنة هذا مثقال فلا يحسن الاضمار كما لا يحسن فى التمييز، وأيضا فانه لو أضمر فالضمير إنما يكون لما تقدم باعتبار خصوصيته فاذا لم يكن له بذلك الاعتبار وجب العدول إلى الظاهر، ألا ترى أنك إذا أكرمت رجلا وكسوت ذلك الرجل بخصوصه لكانت العبارة أكرمت رجلا وكسوته ولو أكرمت رجلا وكسوت رجلا آخر لكانت العبارة أكرمت رجلا وكسوت رجلا فتبين أنه ليس من وضع الظاهر موضع الضمير كذا فى حواشى الطيبى عليه الرحمة، ولا يخفى أن ماذكره مبنى على ماهو الغالب والافقد قال تعالى

www.Quranpdf.blogspot.in

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره) ولم يقتصر على الاعلام بزمن الغدو ليقاس عليه زمن الرواح لأن الريح كثيرا ما تسكن أو تضعف حركتها بالعشى فدفع بالتنصيص على بيان زمن الرواح توهم اختلاف الزمانين، قال قتادة: كانت الريح تقطع به عليه السلام فى الغدو إلى الزوال مسيرة شهر وفى الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر ه

وأخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أنه قال فى الآية كان سليمان عليه السلام يغدو من بيت المقدس فيقيل باصطخر ثم يروح من اصطخر فيقيل بقلعة خراسان *

وقد ذكر حديث هذه الريح فى بعض الأشعار القديمة قال وهب: ونقله عنه فى البحر وجدت أبياتا منقورة فى صخرة بأرض كسكر لبعض أصحاب سليمان عليه السلام وهى *

ونحن ولا حول سوى حول ربنا ه نروح من الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان ريث رواحنا ه مسيرة شهر والغدو لآخر
أناس شروا لله طوعا نفوسهم ه بنصر ابن داود النبي المطهر
لهم فى معالى الدين فضل ورفعة ه وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى تركب الريح المطيعة أسرعت ه مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظلهم طير صفوف عليهم ه متى رفرفت من فوقهم لم تنفر

وذكر أيضا رضى تعالى عنه أنه عليه السلام كان مستقره تدمر وأن الجن قد بنتها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأشقر وقال: وفيه يقول النابغة:

ألا سليمان إذ قال الاله له * قم فى البرية فاصددها عن الفند
وجيش الجن إنى قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

انتهى، وما ذكره فى تدمر هو المشهور عند العامة وقد ذكر ذلك الثعالبي فى تفسيره مع الأبيات المذكورة لكن فى القاموس تدمر كتنصر بنت حسان بن أذينة بها سميت مدينتها وهو ظاهر فى المخالفة، ولعل التعويل على ما فيه إن لم يمكن الجمع والله تعالى أعلم بحقيقة الحال *

وقرأ ابن أبى عبلة (غدوتها وروحتها) على وزن فعلة وهى المرة الواحدة من غدا وراح (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) أى النحاس الذائب من قطر يقطر قطرا وقطرانا بسكون الطاء وفتحها، وقيل الفلزات النحاس والحديد وغيرهما، وعلى الأول جمهور اللغويين، وأريد بعين القطر معدن النحاس ولكنه سبحانه أساله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سمى عين القطر باسم ما آل اليه، وذكر الجلبي أن نسبة الاسالة إلى العين مجازية كما فى جرى النهر ه

وقال الخفاجى: إن كانت العين هنا بمعنى الماء المعين أى الجارى وإضافتها كما فى لجين الماء فلا تجوز فى النسبة وإنما هو من مجاز الأول على أن العين منبع الماء ولا حاجة اليه اه فتأمل ه

وقال بعضهم: القطر النحاس وعين بمعنى ذات ومعنى أسلنا أذبنا فالمعنى أذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود عليه السلام فكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله

www.Quranpdf.blogspot.in

والظاهر المؤيد بالآثار أنه تعالى جعله فى معدنه عينا تسيل كعيون الماء *

أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنه قال فى الآية : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء قيل: إلى أين ؟ قال : لا أدرى. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال: سيلت له عين من نحاس ثلاثة أيام ، وفى البحر عن ابن عباس . والسدى . ومجاهد قالوا : أجريت له عليه السلام ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بارض اليمن ، وفى رواية عن مجاهد أن النحاس سال من صنعاء وقيل : كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام *

﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف هو خبر مقدم و(من) فى محل رفع مبتدأ ويحتمل أن يكون متعلقا بمحذوف وقع حالا مقدما من (من) وهى فى محل نصب عطف على (الريح) وجوز أن يكون (من الجن) عطفا على الريح على أن من للتبعيض و(من يعمل) بدل منه وهو تكلف و(يعمل) إما منزل منزلة اللازم أو مفعوله مقدر يفسره ما سيأتى إن شاء الله تعالى ليكون تفصيلا بعد الاجمال وهو أوقع فى النفس ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بامره عز وجل ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام . وقرىء (يزغ) بضم الياء من أزاغ مبنيا للفاعل ومفعوله محذوف أى من يمل ويصرف نفسه أو غيره ، وقيل مبنيا للمفعول فلا يحتاج إلى تقدير مفعول ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١١ ﴾ أى عذاب النار فى الآخرة كما قال أكثر المفسرين وروى ذلك عن ابن عباس، وقال بعضهم : المراد تعذيبه فى الدنيا *

روى عن السدى أنه عليه السلام كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه جنى ضربه من حيث لا يراه الجنى *

وفى بعض الروايات أنه كان يحرق من يخالفه ، واحتراق الجنى مع أنه مخلوق من النار غير منكر فانه عندنا ليس نارا محضة وإنما النار أغلب العناصر فيه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ جمع محراب وهو كما قال عطية القصر، وسمى باسم صاحبه لأنه يحارب غيره فى حمايته، فان المحراب فى الأصل من صيغ المبالغة اسم لمن يكثر الحرب وليس منقولا من اسم الآلة وإن جوزه بعضهم، ولابن حيوس *

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى محرابه

ويطلق على المكان المعروف الذى يقف بحذائه الامام، وهو مما أحدث فى المساجد ولم يكن فى الصدر الأول كما قال السيوطى وألف فى ذلك رسالة ولذا كره الفقهاء الوقوف فى داخله *

وقال ابن زيد : المحاريب المساكن، وقيل مايصعد اليه بالدرج كالغرف، وقال مجاهد : هى المساجد سميت باسم بعضها تجوزا على ماقيل، وهو مبنى على أن المحراب اسم لحجرة فى المسجد يعبد الله تعالى فيها أو لموقف الامام *

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن قتادة تفسيرها بالقصور والمساجد معاً، وجملة (يعملون له مايشاء) استئناف لتفصيل ماذكر من عملهم، وجوز كونها حالا وهو كما ترى ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ قال الضحاك : كانت صور حيوانات، وقال الزمخشرى : صور الملائكة والأنبياء والصلحاء كانت تعمل فى المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم وكان اتخاذ الصور فى ذلك الشرع جائزا كما قال الضحاك وأبو العالية *

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس أنه قال فى الآية اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال يارب انفخ فيها الروح فانها أقوى على الخدمة فينفخ الله تعالى فيها الروح فكانت تخدمه

www.Quranpdf.blogspot.in

واسفنديار من بقاياهم، وهذا من العجب العجاب ولا ينبغي اعتقاد صحته وماهو إلا حديث خرافة، وأما ماروى من أنهم عملوا له عليه السلام أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران باجنحتهما فامر غير مستبعد فان ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة، وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة، وقيل: التماثيل طلسمات فتعمل تمثالا للتمساح أو للذباب أو للبعوض فلا يتجاوزه الممثل به مادام في ذلك المكان، وقد اشتهر عمل نحو ذلك عن الفلاسفة وهو مما لايتم عندهم إلا بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ؛ وعلى الباب الشهيرة بباب الطلسم من أبواب بغداد تمثال حية يزعمون أنه لمنع الحيات عن الايذاء داخل بغداد ونحن قد شاهدنا مرارا أناسا لسعتهم الحيات فمنهم من لم يتأذ ومنهم من تأذى يسيرا ولم نشاهد موت أحد من ذلك وقلما يسلم من لسعته خارج بغداد لكن لانعتقد أن لذلك التمثال مدخلا فيما ذكر ونظن أن ذاك لضعف الصنف الموجود في بغداد من الحيات وقلة شره بالطبيعة، وقيل كانت التماثيل صور شجر أوحيوانات محذوفة الرؤس مما جوز في شرعنا ، ولايحتاج إلى التزام ذلك إلا إذا صح فيه نقل فان الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملا لم تكن في ذلك الشرع وإنما هي في شرعنا ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل وأن لاتكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد أو جدار مثلا *

وحكى مكي في الهداية أن قوما أجازوا التصوير وحكاه النحاس أيضا وكذا ابن الفرس واحتجوا بهذه الآية. وأنت تعلم أنه ورد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصورين ماورد فلا يلتفت إلى هذا القول ولا يصح الاحتجاج بالآية، وكأنه إنما حرمت التماثيل لأنه بمرور الزمان اتخذها الجهلة مما يعبد وظنوا وضعها في المعابد لذلك فشاعت عبادة الاصنام أو سدا لباب التشبه بمتخذي الاصنام بالكلية ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ جمع جفنة وهي مايوضع فيها الطعام مطلقا كما ذكره غير واحد، وقال بعض اللغويين: الجفنة أعظم القصاع ويليها القصعة وهي ماتشبع العشرة ويليها الصحفة وهي ماتشبع الخمسة ويليها المئكلة وهي ماتشبع الاثنين والثلاثة ويليها الصحيفة وهي ماتشبع الواحد، وعليه فالمراد هنا المطلق لظاهر قوله تعالى ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أي كالحياض العظام جمع جابية من الجباية أي الجمع فهي في الاصل مجاز في الطرف أو النسبة لأنها يجبى اليها لاجابية ثم غلبت على الاناء المخصوص غلبة الدابة في ذوات الاربع ، وجاء تشبيه الجفنة بالجابية في كلامهم من ذلك قول الاعشى :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة   كجابية السيح العراقي تفهق

وقول الافوه الاودي :

وقدور كالربى راسية   وجفان كالجوابي مترعه

وذكر في سعة جفان سليمان عليه السلام أنها كان على الواحدة منها ألف رجل . وقرىء (كالجوابي) بياء وهو الاصل وحذفها للاجتزاء بالكسرة واجراء أل مجرى ماعاقبها وهو التنوين فكما يحذف مع التنوين يحذف مع ماعاقبه ﴿ وَقُدُورٍ ﴾ جمع قدر وهو مايطبخ فيه من فخار أو غيره وهو على شكل مخصوص ﴿ رَاسِيَاتٍ ﴾ ثابتات على الاثافي لاتنزل عنها لعظمها قاله قتادة ، وقيل : كانت عظيمة كالجبال وقدمت المحاريب على التماثيل

www.Quranpdf.blogspot.in

لأن الصور توضع فى المحاريب أو تنقش على جدرانها، وقدمت الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الاكل والطبخ قبل الاكل لأنه لما ذكرت الابنية الملكية ناسب أن يشار إلى عظمة السماط الذى يمد فيها فذكرت الجفان أولا لأنها تكون فيها بخلاف القدور فانها لاتحضر هناك كما يقتضي عنه قوله تعالى (وراسيات) على ماسمعت أولا، وكأنه لما بين حال الجفان اشتاق الذهن إلى حال القدور فذكرت للمناسبة ه

﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ بتقدير القول على الاستئناف أو الحالية من فاعل (سخرنا) المقدر وآل منادى حذف منه حرف النداء و(شكرا) نصب على أنه مفعول له، وفيه اشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف أو على أنه مفعول مطلق لاعملوا لأن الشكر نوع من العمل فهو كقعدت القرفصاء ، وقيل : لتضمين (اعملوا) معنى اشكروا ، وقيل : لاشكروا محذوفا أو على أنه حال بتأويل اسم الفاعل أى اعملوا شاكرين لأن الشكر يعم القلب والجوارح أو على أنه صفة لمصدر محذوف أى اعملوا عملا شكرا أو على أنه مفعول به لاعملوا فالكلام كقولك عملت الطاعة ، وقيل : إن اعملوا أقيم مقام اشكروا مشاكلة لقوله سبحانه يعملون ه

وقال ابن الحاجب. أنه جعل مفعولا به تجوزا. وأيا ما كان فقد روى ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود قال: لما قيل لهم اعملوا آل داود شكرا لم يأت ساعة على القوم الا ومنهم قائم يصلى، وفى رواية كان مصلى آل داود لم يخل من قائم يصلى ليلا ونهارا وكانوا يتناوبونه وكان سليمان عليه السلام يأكل خبز الشعير ويطعم أهله خشكاره، والمساكين الدرمك وهو الدقيق الحوارى وما شبع قط ، وقيل له فى ذلك فقال: أخاف إذا شبعت أن أنسى الجياع، وجوز بعض الافاضل دخول داود عليه السلام فى الآل هنا لأن آل الرجل قد يعمه ه

ويؤيده ما أخرجه أحمد فى الزهد: وابن المنذر. والبيهقى فى شعب الايمان عن المغيرة بن عتيبة قال: قال داود عليه السلام يارب هل بات أحد من خلقك أطول ذكرا منى فاوحى الله تعالى اليه الضفدع وأنزل سبحانه عليه عليه السلام (اعملوا آل داود شكرا) فقال داود عليه السلام كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم على ثم ترزقنى على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ فقال جل وعلا: ياداود الآن عرفتنى حق معرفتى ه

وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضيل أنه عليه السلام قال يارب: كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتنى حين علمت النعم منى، وكذا ما أخرجه الفريابى: وابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قال داود لسليمان عليهما السلام: قد ذكر الله تعالى الشكر فاكفنى قيام النار أكفك قيام الليل قال: لاأستطيع قال: فاكفنى صلاة النهار فكفاه ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٣ ﴾ قال ابن عباس: هو الذى يشكر على أحواله كلها ، وفى الكشاف هو المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعترافا واعتقادا وكدحا وأكثر أوقاته ، وقال السدى: هو من يشكر على الشكر ، وقيل : من يرى عجزه عن الشكر لأن توفيقه للشكر نعمة يستدعى شكرا آخر لا إلى نهاية، وقد نظم هذا بعضهم فقال :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة   على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله   وإن طالت الايام واتسع العمر
إذا مس بالنعماء عم سرورها   وإن مس بالضراء أعقبها الاجر

www.Quranpdf.blogspot.in

وقد سمعت آنفاً ماروى عن داود عليه السلام، وهذه الجملة يحتمل أن تكون داخلة في خطاب آل داود وهو الظاهر وأن تكون جملة مستقلة جيء بها اخباراً لنبينا ﷺ وفيها تنبيه وتحريض على الشكر •

وقرأ حمزة (عبادى) بسكون الياء وفتحها الباقون ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ قيل أى أوقعنا على سليمان الموت حاكمين به عليه، وفي مجمع البيان أى حكمنا عليه بالموت ، وقيل : أوجبناه عليه، وفي البحر أى أنفذنا عليه ماقضينا عليه في الازل من الموت وأخرجناه إلى حيز الوجود، وفيه تكلف، وأياما كان فليس المراد بالقضاء أخا القدر فتدبر ، ولما شرطية مابعدها شرطها وجوابها قوله تعالى ﴿مَادَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ واستدل بذلك على حرفيتها وفيه نظر، وضمير (دلهم) عائد على الجن الذين كانوا يعملون له عليه السلام ، وقيل: عائد على آل سليمان ، ويأباه بحسب الظاهر قوله تعالى بعد (تبينت الجن) والمراد بدابة الأرض الارضة بفتحات وهي دويبة تأكل الخشب ونحوه وتسمى سرفة بضم السين واسكان الراء المهملة وبالفاء ، وفي حياة الحيوان عن ابن السكيت انها دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتا مربعا من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها ثم تدخل فيه وتموت، وفي المثل أصنع من سرفة وسماها في البحر بسوسة الخشب، والارض على ماذهب اليه أبو حاتم وجماعة مصدر أرضت الدابة الخشب تأرضه إذا أكلته من باب ضرب يضرب فاضافة (دابة) اليه من اضافة الشيء إلى فعله، ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس. والعباس بن الفضل (الارض) بفتح الراء لانه مصدر أرض من باب علم المطاوع لأرض من باب ضرب يقال أرضت الدابة الخشب بالفتح فأرض بالكسر كما يقال أكلت القوادح الاسنان أكلا فاكلت أكلا فالارض بالسكون الاكل والارض بالفتح التأثر من ذلك الفعل •

وقد يفسر الأول بالتأثر الذى هو الحاصل بالمصدر لتتوافق القراءتان ، وقيل الأرض بالفتح جمع أرضة وإضافة (دابة) اليه من إضافة العام إلى الخاص، وقيل: إن الأرض بالسكون بمعناها المعروف وإضافة (دابة) اليها قيل لأن فعلها في الأكثر فيها، وقيل لأنها تؤثر في الخشب ونحوه كما تؤثر الأرض فيه إذا دفن فيها وقيل غير ذلك والأولى التفسير الأول وإن لم تجيء الأرض في القرآن بذلك المعنى في غير هذا الموضع ، وقوله تعالى ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ في موضع الحال من (دابة) أى آكلة منسأته والمنسأة العصا من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها أو من نسأته إذا أخرته ومنه النسيء ، ويظهر من هذا أنها العصا الكبيرة التي تكون مع الراعي وأضرابه •

وقرأ نافع . وابن عامر . وجماعة (منساته) بالف وأصله منسأته فابدلت الهمزة ألفا بدلا غير قياسي •

وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها لانى لا أعرف لها اشتقاقا فان كانت مما لا تهمز فقد احتطت وإن كانت مما تهمز فقد يجوز لى ترك الهمز فيما يهمز، ولعله بيان لوجه اختيار القراءة بدون همزة وبالهمز جاءت في قول الشاعر •

ضربت بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا

وبدونه في قوله : إذا دببت على المنساة من هرم فقد تباعد منك اللهو والغزل

وقرأ ابن ذكوان وبكار. والوليد بن أبي عتبة. وابن مسلم. وآخرون (منسأته) بهمزة ساكنة وهو من تسكين المتحرك تخفيفا وليس بقياس ، وضعف النحاة هذه القراءة لانه يلزم فيها أن يكون ماقبل تاء التانيث ساكنا

www.Quranpdf.blogspot.in

غير ألف ، وقيل : قياسها التخفيف بين بين والراوى لم يضبط، وأنشد هرون بن موسى الاخفش الدمشقى شاهدا على السكون فى هذه القراءة قول الراجز :

صريع خمر قام من وكأته كقومة الشيخ إلى منسأته

وقرى" بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلبا وحذفا و(منساءته) بالمد على وزن مفعالة كما يقال فى الميضأة وهى آلة التوضئ وتطلق على محله أيضا ميضاءة، وقرى" (منسيته) بابدال الهمزة ياء. وقرأت فرقة منهم عمرو بن ثابت عن ابن جبير (من) مفصولة حرف جر (ساته) بجر التاء وهى طرف العصا وأصلها ما انعطف من طرفى القوس ويقال فيه سية أيضا استعيرت لما ذكر إما استعارة اصطلاحية لأنها كانت خضراء فاعوجت بالاتكاء عليها على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى فى القصة أو لغوية باستعمال المقيد فى المطلق، وبما ذكر علم رد ماقاله البطليوسى بعد ما نقل هذه القراءة عن القراء أنه تعجرف لايجوز أن يستعمل فى كتاب الله عز وجل ولم يات به رواية ولا سماع ومع ذلك هو غير موافق لقصة سليمان عليه السلام لأنه لم يكن معتمدا على قوس وإنما كان معتمدا على عصا. وقرى" (أكلت منسأته) بصيغة الماضى فالجملة إما حال أيضا بتقدير قد أو بدونه وإما استئناف بيانى

﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ أى علمت بعد التباس أمر سليمان من حياته ومماته عليهم ﴿ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ١٤ ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته زمن وقوعه فلم يلبثوا بعده حولا فى الأعمال الشاقة إلى أن خر، والمراد بالجن الذين علموا ذلك ضعفاء الجن وبالذين نفى عنهم علم الغيب رؤساؤهم وكبارهم على ماروى عن قتادة، وجوز عليه أن يراد بالأمر الملتبس عليهم أمر علم الغيب أو المراد بالجن الجنس بأن يسند للكل ما للبعض أو المراد كبارهم المدعون علم الغيب أى علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لايعلمون الغيب ، وهم وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم لكن أريد التهكم بهم كما تقول للمبطل إذا دحضت حجته هل تبينت أنك مبطل . وأنت تعلم أنهم لم يزل كذلك متبينا.

وجوز أن يكون تبين بمعنى بان وظهر فهو غير متعد لمفعول كما فى الوجه الاول فان مفعوله فيه (أن لو كانوا) الخ وهو فى هذا الوجه بدل من (الجن) بدل اشتمال نحو تبين زيد جهله، والظهور فى الحقيقة مسند اليه أى فلما خر بان للناس وظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب ، ولا حاجة على ماقرر إلى اعتبار مضاف مقدر هو فاعل تبين فى الحقيقة إلا أنه بعد حذفه أقيم المضاف اليه مقامه وأسند اليه الفعل ثم جعل (أن لو كانوا) الخ بدلا منه بدل كل من كل والأصل تبين أمر الجن أن لو كانوا الخ، وجعل بعضهم فى قوله تعالى (أن لو كانوا يعلمون) الخ قياسا طويت كبراه فكأنه قيل لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين لكنهم لبثوا فى العذاب المهين فهم لايعلمون الغيب ، ومجىء تبين بمعنى بان وظهر لازما وبمعنى أدرك وعلم متعديا موجود فى كلام العرب قال الشاعر :

تبين لى أن القماءة ذلة وأن أعزاء الرجال طيالها

وقال الآخر: أفاطم إنى ميت فتبينى ولا تجزعى كل الأنام تموت

وفى البحر نقلا عن ابن عطية قال. ذهب سيبويه إلى أن (أن) لاموضع لها من الأعراب وإنما هى منزلة منزلة القسم من الفعل الذى معناه التحقيق واليقين ، لأن هذه الأفعال التى هى تحققت وتيقنت وعلمت ونحوها

www.Quranpdf.blogspot.in

تحل محل القسم ـ فما لبثوا ـ جواب القسم لا جواب لو اه فتأمله فانى لا أكاد أتعقله وجها يلتفت اليه ه

وفى أمالى العز بن عبد السلام أن الجن ليس فاعل (تبينت) بل هو مبتدأ (وان لو كانوا يعلمون) خبره والجملة مفسرة لضمير الشأن فى (تبينت) إذ لو لا ذلك لكان معنى الكلام لما مات سليمان وخر ظهر لهم أنهم لا يعلمون الغيب وعلمهم بعدم علمهم الغيب لا يتوقف على هذا بل المعنى تبينت القصة ماهى والقصة قوله تعالى (الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) اه ، والعجب من صدور مثله عن مثله ، وما جعله مانعا عن فاعلية (الجن) مدفوع بما سمعت فى تفسير الآية كما لا يخفى ، وفى كتاب النحاس إشارة إلى أنه قرئ (تبينت الجن) بالنصب على أن تبينت بمعنى علمت والفاعل ضمير الانس (والجن) مفعوله ، وقرأ ابن عباس فيما ذكر ابن خالويه • ويعقوب بخلاف عنه (تبينت) مبنيا للمفعول ، وقرأ أبى (تبينت الانس) وعن الضحاك (تباينت الانس) بمعنى تعارفت وتعالمت والضمير فى (كانوا) للجن المذكو فيما سبق وقرأ ابن مسعود (تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب وهى قراءات مخالفة لسواد المصحف مخالفة كثيرة وفى القصة روايات فروى أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف فى مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى فى محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله تعالى فيسألها لأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخرنوبة فسألها فقالت : نبت لخراب هذا المسجد فقال : ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائط له واتخذ منها عصا وقال : اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم أنهم لا يعلمون الغيب كما يوهون وقال لملك الموت : إذا أمرت بى فاعلمنى فقال : أمرت بك وقد بقى من عمرك ساعة فدعا الجن فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الجن تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن جنى ينظر اليه فى صلاته إلا احترق فمر جنى فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر إذا سليمان قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا العصا قد أكلتها الأرضة فارادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فاكلت منها فى يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيا فتبين أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا فى العذاب سنة ، ولا يخفى أن هذا من باب التخمين والاقتصار على الأقل وإلا فيجوز أن تكون الأرضة بدت بالأكل بعد موته بزمان كثير وأنها كانت تأكل أحيانا وتترك أحيانا ه

وأما كون بدئها فى حياته فبعيد ، وكونه بالوحى إلى نبى فى ذلك الزمان كما قيل فواه لأنه لو كان كذلك لم يحتاجوا إلى وضع الأرضة على العصا ليستعلموا المدة ، وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فامر الجن باتمامه فلما بقى من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب ، وهذا بظاهره مخالف لما روى أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أسس بيت المقدس بعد الكعبة باربعين سنة ثم خرب وأعاده داود ومات قبل أن يتمه ، وأيضا إن موسى عليه السلام لم يدخل بيت المقدس بل مات فى التيه ، وجاء فى الحديث الصحيح أنه عليه السلام سأل ربه عند وفاته أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، وأيضا قد روى أن سليمان قد فرغ من بناء المسجد وتعبد فيه وتجهز بعده للحج شكرا لله تعالى على ذلك . وأجيب عن الأول بان المراد تجديد التاسيس ، وعن الثانى بان المراد بفسطاط موسى فسطاطه المتوارث وكانوا يضربونه يتعبدون فيه تبركا لا أنه كان يضرب هنالك فى زمنه

www.Quranpdf.blogspot.in

عليه السلام ، ويحتاج هذا إلى نقل فان مثله لايقال بالرأى فان كان فأهلا ومرحبا، وقيل المراد به مجمع العبادة على دين موسى كما وقع فى الحديث فسطاط إيمان *

وقال القرطبي فى التذكرة: المراد به فرقة منحازة عن غيرها ، مجتمعة تشبيها بالخيمة، ولا يخفى مافيهما وإن قيل إنهما أظهر من الأول ، وعن الثالث بأن المراد بالفراغ القرب من الفراغ وما قارب الشيء له حكمه وفيه بعد ، واختير أن هذا رواية وذاك رواية والله تعالى أعلم بالصحيح منهما . وروى أنه عليه السلام قد أمر ببناء صرح له فبنوه فدخله مختليا ليصفو له يوم فى الدهر من الكدر فدخل عليه شاب فقال: له كيف دخلت على بلا إذن ؟ فقال: إنما دخلت باذن فقال: ومن أذن لك؟ قال: رب هذا الصرح فعلم أنه ملك الموت أتى لقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم الذى طلبت فيه الصفا فقال له: طلبت مالم يخلق فاستوثق من الاتكاء على عصاه فقبض روحه وخفى على الجن موته حتى سقط، وروى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه ، ولذا لم تقربه الجن وخفى أمر موته عليهم *

ونظر فيه بأن سليمان كان بعد موسى بمدة مديدة وأفريدون كان قبله لأن منوجهر من أسباط أفريدون وظهر موسى عليه فى زمانه ، وعلى جميع الروايات الدالة على موته عليه السلام خروره لما كسرت العصا لضعفها بأكل الارضة منها، ونسبة الدلالة فى الآية اليها نسبة إلى السبب البعيد *

ومن الغريب مانقل عن ابن عباس أنه عليه السلام مات فى متعبده على فراشه ، وقد أغلق الباب على نفسه فأكلت الارضة المنسأة أى عتبة الباب فلما خر أى الباب علم موته فان فيه جعل ضمير (خر) للباب واليه ذهب بعضهم، وفيه أنه لم يعهد تسمية العتبة منسأة، وأيضا كان اللازم عليه خرت بتاء التأنيث ولا يجيء حذفها فى مثل ذلك الا فى ضرورة الشعر، وكون التذكير على معنى العود بعيد فالظاهر عدم صحة الرواية عن الحبر والله تعالى أعلم،

وحكى البغوى عنه أن الجن شكروا الارضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف الخشب وهذا شيء لاأقول به ولاأعتقد صحة الرواية أيضا، وكان عمره عليه السلام ثلاثا وخمسين سنة وملك بعد أبيه وعمره ثلاثة عشر سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ثم مضى وانقضى وسبحان من لا ينقضى ملكه ولا يزول سلطانه ، وفى الآية دليل على أن الغيب لايختص بالامور المستقبلة بل يشمل الامور الواقعة التى هى غائبة عن الشخص أيضا ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ لما ذكر عز وجل حال الشاكرين لنعمه المنيبين اليه تعالى ذكر حال الكافرين بالنعمة المعرضين عنه جل شأنه موعظة لقريش وتحذيرا لمن كفر بالنعم وأعرض عن المنعم، وسبأ فى الاصل اسم رجل وهو سبا بن يشجب بالشين المعجمة والجيم كينصر بن يعرب بن قحطان ، وفى بعض الاخبار عن فروة بن مسيك قال: أتيت النبى ﷺ فقلت: يارسول الله أخبرنى عن سبا أرجل هو أم امرأة ؟ فقال: هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فاما الذين تيامنوا فالازد، وكندة، ومذحج والاشعريون وأنمار ومنهم بجيلة وأما الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام ، وفى شرح قصيدة عبد المجيد ابن عبدون لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى البسق أن سبا بن يشجب أول ملوك اليمن فى قول واسمه عبد شمس وإنما سمى سبا لأنه أول من سبى السبي من ولد قحطان وكان ملكه أربعمائة وأربعا وثمانين سنة ثم سمى به الحى، ومنع الصرف عنه ابن كثير. وأبو عمرو باعتبار جعله اسما للقبيلة ففيه العلمية والتأنيث، وقرأ قنبل باسكان

www.Quranpdf.blogspot.in

الهمزة على نية الوقف ، وعن ابن كثير قلب همزته الفا ولعله سكنها أولا بنية الوقف كقنبل ثم قلبها الفاً والهمزة إذا سكنت يطرد قلبها من جنس حركة ماقبلها ، وقيل : لعله أخرجها بين بين فلم يؤده الراوى كما وجب، والمراد بسبا هنا إما الحى أو القبيلة وإما الرجل الذى سمعت وعليه فالكلام على تقدير مضاف أى لقد كان فى أولاد سبا ، وجوز أن يراد به البلد وقد شاع اطلاقه عليه وحينئذ فالضمير فى قوله تعالى ﴿ فى مَسْكَنِهِمْ ﴾ لاهلها أولها مراداً بها الحى على سبيل الاستخدام والامر فيه على ماتقدم ظاهر، والمسكن اسم مكان أى فى محل سكناهم وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً كما تسمى الدنيا داراً ، وقال أبو حيان: ينبغى أن يحمل على المصدر أى فى سكناهم لأن كل أحد له مسكن وقد أفرد فى هذه القراءة وجعل المفرد بمعنى الجمع كما فى قوله ﴿ كلوا فى بعض بطنكم تعفوا ﴾ وقوله ﴿ قد عض اعناقهم جلد الجواميس ﴾ يختص بالضرورة عند سيبويه انتهى ﴾

وبماذكرنا لاتبقى حاجة اليه كما لايخفى، واسم ذلك المكان مأرب كمنزل وهى من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وقرأ الكسائى والاعمش وعلقمة (مسكنهم) بكسر الكاف على خلاف القياس كمسجد ومطلع لأن ماضمت عين مضارعه أو فتحت قياس المفعل منه زمانا ومكانا ومصدرا الفتح لاغير ، وقال أبو الحسن كسر الكاف لغة فاشية وهى لغة الناس اليوم والفتح لغة الحجاز وهى اليوم قليلة ، وقال الفراء: هى لغة يمانية فصيحة ﴾

وقرأ الجمهور (مساكنهم) جمعا أى فى مواضع سكناهم ﴿ ءاية ﴾ أى علامة دالة بملاحظة اخواتها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار وأنه سبحانه قادر على مايشاء من الامور العجيبة مجاز للمحسن والمسيء وهى اسم كان وقوله تعالى ﴿ جَنَّتَان ﴾ بدل منها على ماأشار اليه الفراء وصرح به مكى وغيره، وقال الزجاج: خبر مبتدأ محذوف أى هى جنتان ولا يشترط فى البدل المطابقة افرادا وغيره وكذا الخبر إذا كان غير مشتق ولم يمنع المعنى من اتحاده مع المبتدأ، ولعل وجه توحيد الآية هنا مثله فى قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ولاحاجة إلى اعتبار مضاف مفرد محذوف هو البدل أو الخبر فى الحقيقة أى قصة جنتين، وذهب ابن عطية بعد أن ضعف وجه البدلية ولم يذكر الجهة إلى أن (جنتان) مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ولا يظهر لأنه نكرة لامسوغ للابتداء بها إلا أن اعتقد أن ثم صفة محذوفة أى جنتان لهم أو جنتان عظيمتان وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام متفلتا عما قبله. وقرأ ابن أبى عبلة (جنتين) بالنصب على المدح ، وقال أبو حيان: على أن آية اسم كان و (جنتين) الخبر وايا ما كان فالمراد بالجنتين على ماروى عن قتادة جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله واطلاق الجنة على كل جماعة لأنها لتقارب أفرادها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها ، وقيل : أريد بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال سبحانه (جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) قيل: ولم تجمع لئلا يلزم أن لكل مسكن رجل جنة واحدة لمقابلة الجمع بالجمع، ورد بأن قوله تعالى (عن يمين وشمال) يدفع ذلك لأنه بالنظر إلى كل مسكن إلا أنها لو جمعت أوهم أن لكل مسكن جنات عن يمين وجنات عن شمال وهذا لامحذور فيه إلا أن يدعى أنه مخالف للواقع ثم أنه قيل ان فى فيما سبق بمعنى عند فان المساكن محفوفة بالجنتين لاظرف لهما ، وقيل : لاحاجة إلى هذا فان القريب من الشيء قد يجعل فيه مبالغة فى شدة القرب ولكل جهة لكن أنت تعلم أنه إذا أريد بالمساكن أو المسكن مايصلح أن يكون ظرفا لبلدهم المحفوفة بالجنتين

www.Quranpdf.blogspot.in

أو لحل كل منهم المحفوفة بهما لم يحتج إلى التأويل أصلا فلا تغفل ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ جملة مستأنفة بتقدير قول أي قال لهم نبيهم كلوا الخ ، وفي مجمع البيان قيل: إن مساكنهم كانت ثلاثة عشر قرية في كل قرية نبي يدعوهم إلى الله عز وجل يقول كلوا من رزق ربكم الخ ، وقيل : ليس هناك قول حقيقة وإنما هو قول بلسان الحال ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥ ﴾ أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره ، والجملة استئناف للتصريح بموجب الشكر ، ومعنى طيبة زكية مستلذة *

يروى أنها كانت لطيفة الهواء حسنة التربة لا تحدث فيها عاهة ولا يكون فيها هامة حتى أن الغريب إذا حلها وفي ثيابه قمل أو براغيث ماتت ، وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ووفور نزهتها وأنه ليس فيها حر يؤذي في الصيف ولا برد يؤذي في الشتاء ، وقرأ رويس بنصب (بلدة) وجميع ما بعدها وذلك على المدح والوصفية *

وقال أحمد بن يحيى: بتقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا ربا غفورا ومن الاتفاقات النادرة إن لفظ بلدة طيبة بحساب الجمل واعتبار هاء التأنيث باربعمائة كما ذهب اليه كثير من الادباء وقع تاريخا لفتح القسطنطينية وكانت نزهة بلاد الروم ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ اى عن الشكر كما يقتضيه المقام ويدخل فيه الاعراض عن الايمان لأنه أعظم الكفر والكفران ، وقال أبو حيان : أعرضوا عما جاء به اليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر حيث دعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمه سبحانه فكذبوهم وقالوا ، انعرف لله نعمة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أي الصعب من عرم الرجل مثلث الراء فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب ، وفي معناه ما جاء في رواية عن ابن عباس من تفسيره بالشديد ، واضافة السيل اليه من اضافة الموصوف إلى الصفة ، ومن أباها من النحاة قال التقدير سيل الامر العرم *

وقيل : العرم المطر الشديد والاضافة على ظاهرها ، وقيل : هو اسم للجرذ الذي نقب عليهم سدهم فصار سببا لتسلط السيل عليهم وهو الفار الاعمى الذي يقال له الخلد واضافة السيل اليه لأدنى ملابسة ، وقال ابن جبير: العرم المسناة بلسان الحبشة ، وقال الاخفش: هو بهذا المعنى عربي ، وقال المغيرة بن حكيم: وأبو ميسرة :العرم في لغة اليمن جمع عرمة وهي كل ما بني أو سنم ليمسك الماء ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز المسناة، والاضافة كما في سابقه والملابسة في هذا أقوى ، وعن ابن عباس . وقتادة . والضحاك . ومقاتل هو اسم الوادي الذي كان يأتي السيل منه وبنى السد فيه ، ووجه اضافة السيل اليه ظاهر ، وقرأ عزرة بن الورد فيما حكى ابن خالويه (العرم) باسكان الراء تخفيفا كقولهم في الكبد الكبد. روى أن بلقيس لما ملكت اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها وراودوها على أن ترجع فابت فقالوا : لترجعن أو لنقتلنك فقالت لهم :انتم لا عقول لكم ولا تطيعوني فقالوا :نطيعك فرجعت إلى واديهم وكانوا إذا مطروا اتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام فأمرت فسد ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السد وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجا على عدة انهارهم وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان *

وقيل: الذي بنى لهم السد هو حمير أبو القبائل اليمنية، وقيل بناه لقمان الأكبر بن عاد ورصف أحجاره بالرصاص والحديد وكان فرسخا في فرسخ ولم يزالوا في أرغد عيش وأخصب أرض حتى أن المرأة تخرج وعلى رأسها

www.Quranpdf.blogspot.in

المكتل فتعمل بيديها وتسير فيمتلىء المكتل مما يتساقط من أشجار بساتينهم إلى أن أعرضوا عن الشكر وكذبوا الأنبياء عليهم السلام فساط الله تعالى على سدهم الخلد فوالد فيه فخرقه فأرسل سبحانه سيلا عظيما فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس ، وقيل إنه أذهب السد فاختل أمر قسمة الماء ووصوله إلى جنانهم فيبست وهلكت، وكان ذلك السيل على ماقيل فى ملك ذى الأذعار بن حسان فى الفترة بين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعيسى عليه السلام، وفيه بحث على تقدير القول بأن الاعراض كان عما جاءهم من أنبيائهم الثلاثة عشر كما ستعلمه إن شاء الله تعالى عن قريب •

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أى أذهبنا جنتيهم وأتينا بدلها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أى ثمر ﴿خَمْطٍ﴾ أى حامض أو مر، وعن ابن عباس الخمط الأراك ويقال لثمره مطلقاً أو إذا اسود وبلغ البربر، وقيل شجر الغضا ولا أعلم هل له ثمر أم لا ، وقال أبوعبيدة: كل شجرة مرة ذات شوك ، وقال ابن الاعرابى :هو ثمر شجرة على صورة الخشخاش لاينتفع به وتسمى تلك الشجرة على ما قيل بفسوة الضبع ،وهو على الأول صفة لأكل والأمر فى ذلك ظاهر، وعلى الأخير عطف بيان على مذهب الكوفيين المجوزين له فى النكرات ، وقيل بدل وعلى مابينهما الكلام على حذف مضاف أى أكل أكل خمط وذلك المضاف بدل من أكل أو عطف بيان عليه ولما حذف أقيم المضاف إليه مقامه وأعرب باعرابه كما فى البحر،وقيل هو بتقدير أكل ذى خمط ،وقيل هو بدل من باب يعجبنى القمر فلكه وهو كما ترى، ومنع جعله وصفاً من غير ضرب من التأويل لأن الثمر لايوصف بالشجر لا لأن الوصف بالأسماء الجامدة لايطرد وإن جاء منه شىء نحو مررت بقاع عرفج فتأمل •

وقرأ أبو عمرو (أكل خمط) بالاضافة وهو من باب ثوب خز ، وقرأ ابن كثير (أكل) بسكون الكاف والتنوين ﴿وَأَثْلٍ﴾ ضرب من الطرفاء على ماقاله أبو حنيفة اللغوى فى كتاب النبات له ،وعن ابن عباس تفسيره بالطرفاء،ونقل الطبرسى قولا أنه السمر وهو عطف على(أكل)ولم يجوز الزمخشرى عطفه على(خمط)معللا بأن الأثل لاثمر له ، والأطباء كداود الانطاكى وغيره يذكرون له ثمرا كالحمص ينكسر عن حب صغار ملتصق بعضه ببعض ويفسرون الأثل بالعظيم من الطرفاء ويقولون فى الطرفاء هو برى لاثمر له وبستانى له ثمر لكن قال الخفاجى:لايعتمد على الكتب الطبية فى مثل ذلك وفى القلب منه شىء،ونحن قد حققنا أن للاثل ثمراً . وكذا لصنف من الطرفاء إلا أن ثمرهما لا يؤكل ولعل مراد النافى نفى ثمرة تؤكل،والأطباء يعدون ماتخرجه الشجر غير الورق ونحوه ثمرة أكلت أم لا، ومثله فى العطف على ذلك فى قوله تعالى: •

﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦﴾ وحكى الفضيل بن ابراهيم أنه قرىء (أثلا وشيئاً) بالنصب عطفاً على (جنتين) والسدر شجر النبق، وقال الأزهرى:السدر سدران سدر لاينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عفصة لاتؤكل وهو الذى يسمى الضال وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب انتهى.واختلف فى المراد هنا فقيل الثانى ،ووصف بقليل لفظا ومعنى أو معنى فقط وذلك إذا كان نعتاً لشىء المبين به لأن ثمره مما يطيب أكله فجعل قليلا فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لانقمة ، وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة لتكون حسرة عليهم، وقيل المراد به الأول حتما لأنه الأنسب بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه• ويمكن أن يقال فى الوصف به مطلقا أن السدر له شأن عند العرب ولذا نص الله تعالى على وجوده فى الجنة

www.Quranpdf.blogspot.in

والبستاني منه لايخفى نفعه والبرى يستظل به أبناء السبيل ويأنسون به ولهم فيه منافع أخرى ويستأنس لعلو شانه بما أخرجه أبوداود فى سننه . والضياء فى المختارة عن عبدالله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار وبما أخرجه البيهقي عن أبي جعفر قال: «قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله تعالى وجهه فى مرض موته: أخرج ياعلى فقل عن الله لاعن رسول الله لعن الله من يقطع السدر» وفى معناهما عدة أخبار لها عدة طرق ، والكل فيما أرى محمول على ما إذا كان القطع عبثا ولو كان السدر فى ملكه وقيل فى ذلك مخصوص بسدر المدينة، وإنما نهى عن قطعه ليكون انسا وظلا لمن يهاجر إليها ، وقيل بسدر الفلاة ليستظل به أبناء السبيل والحيوان، وقيل بسدر مكة لأنها حرم، وقيل بما إذا كان فى ملك الغير وكان القطع بغير حق، والكل كما ترى، وأياما كان ففى التنصيص عليه مايشير إلى أن له شأنا فلما ذكر سبحانه ما آل اليه حال أولئك المعرضين وما بدلوا بجنتيهم أتى جل وعلا بما يتضمن الايذان بحقارة ماعوضوا به وهو مما له شان عند العرب أعنى السدر وقلته ، والايذان بالقلة ظاهر وأما الايذان بالحقارة فمن ذكر شيء والعدول عن أن يقال وسدر قليل مع أنه الأخصر الأوفق بما قبله ففيه إشارة إلى غاية انعكاس الحال حيث آوما الكلام إلى أنهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتيهم شيئاً مما لجنسه شأن عند العرب إلا السدر وماأوتوه من هذا الجنس حقير قليل، وتسمية البدل جنتين مع أنه ماسمعت للمشاكلة والتهكم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ماذكر من التبديل ، ومافيه من معنى البعد للاشارة إلى بعد رتبته فى الفظاعة أو إلى مصدر قوله تعالى: ه

﴿ جَزَيْنَاهُم ﴾ كما قيل فى قوله سبحانه (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ومحله على الأول النصب على أنه مفعول ثان ، وعلى الثاني النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور ، والتقديم للتعظيم والتهويل وقيل للتخصيص أى ذلك التبديل جزيناهم لاغيره أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لاجزاء آخر ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أى بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها، وقيل بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم . واستشكل هذا مع القول بأن السيل العرم كان زمن الفترة بأن الجمهور قالوا: لانبي بين نبينا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما ﷺ أربعة أنبياء ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد العبسي وهو قد بعث لقومه وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب. وأجيب بأن ما كان زمن الفترة هو السيل العرم لاغير والرسل الثلاثة عشر هم جملة من كان فى قومهم من سبا بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين فتأمل ولاتغفل ه

﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى مانجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا المبالغ فى الكفران أو الكفر فلا يتوجه على الحصر إشكال أن المؤمن قد يعاقب فى العاجل. وفى الكشف لايراد أن المؤمن أيضا يعاقب فانه ليس بعقاب على الحقيقة بل تمحيص ولأنه أريد المعاقبة بجميع مايفعله من السوء ، ولا كذلك المؤمن، ولامانع من أن يكون الجزاء عاما فى كل مكافآت واريد به المعاقبة مطلقا من غير تقييد بما سبق لقرينة (جزيناهم بما كفروا) لتعيين المعاقبة فيه بل قال الزمخشرى : هو الوجه الصحيح وذلك لعدم الاضمار ولأن التذييل هكذا آكد وأسد موقعا ولا يتوجه الاشكال لما فى الكشف. وقرأ الجمهور (يجازى) بضم الياء وفتح الزاى مبنيا للمفعول (الكفور) بالرفع على النيابة عن الفاعل . وقرىء (يجازى) بضم الياء وكسر الزاى مبنيا

www.Quranpdf.blogspot.in

للفاعل وهو ضميره تعالى وحده (الكفور) بالنصب على المفعولية، وقرأ مسلم بن جندب (يجزى) مبنيا للمفعول (الكفور) بالرفع على النيابة، والمجازات على ماسمعت عن الزمخشرى المكافآت لكن قال الخفاجى لم ترد فى القرآن إلا مع العقاب بخلاف الجزاء فانه عام وقد يخص بالخير، وعن أبى إسحق تقول جزيت الرجل فى الخير وجازيته فى الشر، وفى معناه قول مجاهد يقال فى العقوبة يجازى وفى المثوبة يجزى ٭

وقال بعض الأجلة: ينبغى أن يكون أبو إسحاق قد أراد أنك اذا أرسلت الفعلين ولم تعدهما إلى المفعول الثانى كانا كذلك وأما إذا ذكرته فيستعمل كل منهما فى الخير والشر، ويرد على ماذكر (جزيناهم بما كفروا) وكذا (وهل يجزى) فى قراءة مسلم إذ الجزاء فى ذلك مستعمل فى الشر مع عدم ذكر المفعول الثانى، وقوله:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقال الراغب: يقال جزيته وجازيته ولم يجىء فى القرآن إلا جزى دون جازى وذلك لأن المجازاة المكافأة وهى مقابلة نعمة بنعمة هى كفؤها ونعمة الله عز وجل تتعالى عن ذلك ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة فيه سبحانه وتعالى، وفيه غفلة عما هنا إلا أن يقال: أراد أنه لم يجىء فى القرآن جازى فيما هو نعمة مسندا اليه تعالى فانه لم يخطر لى مجىء ذلك فيه والله تعالى أعلم، ويحسن عندى قول أبى حيان: أكثر مايستعمل الجزاء فى الخير والمجازاة فى الشر لكن فى تقييدهما قد يقع كل منهما موقع الآخر، وفى قوله سبحانه: (جزيناهم بما كفروا) دون جازيناهم بما كفروا على الوجه الثانى فى اسم الاشارة مايحكى تمتع القوم بما يسر ووقوعهم بعده فيما يسىء ويضر، ويمكن أن تكون نكتة التعبير بجزى الأكثر استعمالا فى الخير، ويجوز أن يكون التعبير بذاك أول وبنجازى ثانيا ليكون كل أوفق بعلته وهذا جار على كلا الوجهين فى الاشارة فتدبر جدا ٭

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ إلى آخره عطف بمجموعه على مجموع ماقبله عطف القصة على القصة وهو حكاية لما أوتوا من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ومافعلوا بها من الكفران وماحاق بهم بسبب ذلك وماقبل كان حكاية لما أوتوا من النعم فى مساكنهم ومحل إقامتهم وما فعلوا بها وما فعل بهم، والمراد بالقرى التى بورك فيها قرى الشام وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها والتوسعة على أهلها وعن ابن عباس هى قرى بيت المقدس وعن مجاهد هى السراوية وعن وهب قرى صنعاء، وقال ابن جبير: قرى مأرب والمعول عليه الأول حتى قال ابن عطية إن إجماع المفسرين عليه، ومعنى (ظاهرة) على ماروى عن قتادة متواصلة يقرب بعضها من بعض بحيث يظهر لمن فى بعضها مافى مقابلته من الأخرى وهذا يقتضى القرب الشديد لكن سيأتى قريبا إن شاء الله تعالى ماقيل فى مقدار مابين كل قريتين وقال المبرد ظاهرة مرتفعة أى على الآكام والظراب وهى أشرف القرى، وقيل ظاهرة معروفة يقال هذا أمر ظاهر أى معروف وتعرف القرية لحسنها ورعاية أهلها المارين عليها، وقيل ظاهرة موضوعة على الطرق ليسهل سير السابلة فيها ٭

وقال ابن عطية: الذى يظهر لى أن معنى (ظاهرة) خارجة عن المدن فهى عبارة عن القرى الصغار التى فى ظواهر المدن كأنه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التى هى المدن، وظواهر المدن ماخرج عنها فى الفيافى ومنه قولهم نزلنا بظاهر البلد الفلانى أى خارجا عنه، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتنى من قريش عصابة قريش البطاح لاقريش الظواهر

يعنى أن الخارجين من بطحاء مكة ويقال للساكنين خارج البلد أهل الضواحى وأهل البوادى أيضا ٭

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى جعلنا نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير قيل من سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب فلا يحتاج لحمل زاد ولامبيت فى أرض خالية ولايخاف من عدو ونحوه ، وقيل: كان بين كل قريتين ميل ، وقال الضحاك: مقادير المراحل كانت القرى على مقاديرها وهذا هو الاوفق بمعنى (ظاهرة) على ماسمعت عن قتادة وكذا بقوله سبحانه ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ فانه مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى، والظاهر أن (سيروا) أمر منه عز وجل على لسان نبي أو نحوه وهو بتقدير القول أى قلنا لهم سيروا فى تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً﴾ أى متى شئتم من ليل ونهار ﴿آمِنِينَ ١٨﴾ من كل ماتكرهونه لايختلف الامن فيها باختلاف الاوقات، وقدم الليالى لأنها مظنة الخوف من مغتال وإن قيل الليل أخفى للويل أو لأنها سابقة على الايام أو قلنا سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة، قال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان ولو وجد الرجل قاتل أبيه لم يهجه أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم أى مدة أعماركم لاتلقون فيها الاالامن، وقدمت الليالى لسبقها وأياما كان فقد علم فائدة ذكر الليالى والايام وإن كان السير لا يخلو عنهما ، وجوز أن لا يكون هناك قول حقيقة وإنما نزل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه منزلة القول لهم وأمرهم بذلك والامر على الوجهين للاباحة *

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لما طالت بهم مدة النعمة بطروا وملوا وآثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير كما فعل بنو إسرائيل وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعد كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى فطلبوا تبديل اتصال العمران وفصل المفاوز والقفار وفى ضمن ذلك إظهار القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزود الأزواد الفخر والكبر على الفقراء العاجزين عن ذلك فعجل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب ، والظاهر أنهم قالوا ذلك بلسان القال ، وجوز الامام أن يكونوا قالوا : (باعد) بلسان الحال أى فلما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم *

وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو . وهشام (بعد) بتشديد العين فعل طلب ، وابن عباس . وابن الحنفية . وعمرو ابن فائد (ربنا) رفعا (بعد) بالتشديد فعلا ماضيا، وابن عباس. وابن الحنفية أيضا. وأبو رجاء. والحسن . ويعقوب وزيد بن علي . وأبو صالح . وابن أبي ليلى . والكلبي . ومحمد بن علي . وسلام. وأبو حيوة (ربنا) رفعا و(باعد) طلبا من المفاعلة، وابن الحنفية أيضا . وسعيد بن أبي الحسن أخو الحسن. وسفيان بن حسين. وابن السميقع (ربنا) بالنصب، (بعد) بضم العين فعلا ماضيا (بين) بالنصب إلا سعيدا ، منهم فانه يضم النون ويجعل (بين) فاعلا، ومن نصب فالفاعل عنده ضمير يعود على (السير) ومن نصب (ربنا) جعله منادى فان جاء بعده طلب كان ذلك أشرا وبطرا *

وفاعل بمعنى فعل وإن جاء فعلا ماضيا كان ذلك شكوى من مسافة مابين قراهم مع قصرها لتجاوزهم فى الترفه والتنعم أو شكوى مما حل بهم من بعد الأسفار التى طلبوها بعد وقوعها أو دعاء بلفظ الخبر، ومن رفع (ربنا) فلا يكون الفعل عنده إلا ماضيا والجملة خبرية متضمنة للشكوى على ماقيل، ونصب (بين) بعد كل فعل متعد فى إحدى القراءات ماضيا كان أو طلبا عند أبى حيان على أنه مفعول به ، وأيد ذلك بقراءة الرفع أو على الظرفية والفعل منزل منزلة اللازم أو متعد مفعوله محذوف أى السير وهو أسهل من إخراج الظرف الغير المتصرف

www.Quranpdf.blogspot.in

عن ظرفيته . وقرىء (بوعد) مبنيا للمفعول. وقرأ ابن يعمر (سفرنا) بالافراد ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة وغمطوها ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أحدوثة وهى مايتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب لا جمع حديث على خلاف القياس، وجعلهم نفس الأحاديث إما على المبالغة أو تقدير المضاف أى جعلناهم بحديث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم ٭

وقيل المراد لم يبق منهم إلا الحديث عنهم ولو بقى منهم طائفة لم يكونوا أحاديث ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان، وفى التعبير بالتمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والايلام ما لا يخفى أى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب مثلا فى كل فرقة ليس بعدها وصال، وعن ابن سلام أن المراد جعلناهم ترابا تذروه الرياح وهو أوفق بالتمزيق إلا أن جميع أجلة المفسرين على خلافه وأن المراد بتمزيقهم تفريقهم بالتباعد، وقد تقدم لك غير بعيد حديث كيفية تفرقهم فى جواب رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك ٭

وفى الكشاف لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان. وفى التحرير وقع منهم قضاعة بمكة وأسد بالبحرين وخزاعة بتهامة، وظاهر الآية أن ذلك كان بعد إرسال السيل العرم. وفى البحر أن فى الحديث أن سبأ أبو عشرة قبائل فلما جاء السيل على مأرب تيامن منها ستة قبائل وتشاءمت أربعة، وزعم بعضهم أن تفرقهم كان قبيل مجىء السيل ٭

قال عبد الملك فى شرح قصيدة ابن عبدون إن أرض سبا من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر فزقوا كل ممزق وكان أول من خرج من اليمن فى أول الامر عمرو بن عامر مزيقيا، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة يقال لها طريفة الخير وكانت رأت فى منامها أن سحابة غشيت أرضهم فارعدت وأبرقت ثم صعقت فاحرقت كل ما وقعت عليه ففزعت طريفة لذلك فزعا شديدا وأتت الملك عمرا وهى تقول مارأيت كاليوم أزال عنى النوم رأيت غيما أرعد وأبرق وزمجر وأصعق فما وقع على شىء إلا أحرق فلما رأى ماداخلها من الفزع سكنها ثم أن عمرا دخل على حديقة له ومعه جاريتان من جواريه فبلغ ذلك طريفة فخرجت اليه وخرج معها وصيف لها اسمه سنان فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن وهى دواب تشبه اليرابيع فقعدت إلى الارض واضعة يديها على عينيها وقالت: لوصيفها إذا ذهبت هذه المناجد فاخبرنى فلما ذهبت أخبرها فانطلقت مسرعة فلما عارضها الخليج الذى فى حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة فوقعت على الطريق على ظهرها وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول على بطنها قذفا فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فاذا الشجر يتكافأ من غير ريح فلما رآها استحى منها وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ثم قال لها ياطريفة فكهنت وقالت: والنور والظلماء والارض والسماء ان الشجر لهالك وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك قال عمرو: من أخبرك بهذا؟ قالت: أخبرتنى المناجد بسنين شدائد يقطع فيها الولد الوالد قال: ماتقولين؟ قالت: أقول قول الندمان لهيفا لقد رأيت سلحفا تجرف التراب

www.Quranpdf.blogspot.in

جرذا وتقذف بالبول قذفا فدخلت الحديقة فاذا الشجر من غير ريح يتكفى قال: ماترين فى ذلك؟ قالت: هى داهية دهياء من أمور جسيمة ومصايب عظيمة قال: وماهو ويلك؟ قالت: أجل وإن فيه الويل ومالك فيه من نيل وإن الويل فيما يجىء به السيل فالقى عمرو عن فراشه وقال: ماهذا ياطريفة؟ قالت: خطب جليل وحزن طويل وخلف قليل قال: وماعلامة ماتذكرين؟ قالت: اذهب إلى السد فاذا رأيت جرذا يكثر بيديه فى السد الحفر ويقلب برجليه من أجل الصخر فاعلم أن الغمر عمر وأنه قد وقع الامر قال: وماالذى تذكرين؟ قالت: وعد من الله تعالى نزل وباطل بطل ونكال بنا نكل فبغيرك ياعمرو يكون الثكل فانطلق عمرو فاذا الجرذ يقلب برجليه صخرة مايقلها خمسون رجلا فرجع وهو يقول:

أبصرت أمرا عادنى منه ألم وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الاجم أو كبش صرم من أفاويق الغنم
يسحب قطرا من جلاميد العرم له مخاليب وأنياب قضم
ماقاته سحلا من الصخر قصم

فقالت طريفة: وإن من من علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فان الريح يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادى وحزنه وقد علمت أن الجنان مظللة لايدخلها شمس ولاريح فامر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ولم تمكث الاقليلا حتى امتلأت من التراب فاخبرها بذلك، وقال لها: متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد؟ قالت له: فيما بينى وبينك سبع سنين قال: ففى أيها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ولو علمه أحد لعلمته وانه لاتاتى على ليلة فيما بينى وبين السبع سنين الاظننت هلاكه فى غدها أو فى مسائها ثم رأى عمرو فى منامه سيل العرم، وقيل له: إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل فنظر اليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها فعلم أنه واقع وأن بلادهم ستخرب فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شىء له بارض مارب وان يخرج منها هو وولده ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك فامر أحد اولاده إذا دعاه لما يدعوه اليه أن يتأبى عليه وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ثم صنع عمرو طعاما وبعث إلى أهل مارب أن عمرا قد صنع طعاما يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بماقد أمره فجعل يامره فيتابى عليه فرفع عمرو يده فلطمه ابنه وكان اسمه مالكا فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو وبهجته صبى يضرب وجهه وحلف ليقتلنه فلم يزالوا يرغبون اليه حتى ترك وقال: والله لاأقيم بموضع صنع فيه بى هذا ولأبيعن أموالى حتى لايرث بعدى منها شيئا فقال الناس: بعضهم لبعض اغتنموا غيظ عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل ماله بارض مارب وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شان سيل العرم فقام ناس من الازد فباعوا أموالهم فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فامسكوا عن الشراء فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج فخرج لخروجه منها بشر كثير فنزلوا أرض عك فحاربتهم عك فارتحلوا عن بلادهم ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو وتفرقوا فى البلاد فمنهم من سار إلى الشام وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ومنهم من سار إلى يثرب وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر وسارت أزد السراة إلى السراة وأزد عمان

www.Quranpdf.blogspot.in

إلى عمان وسار مالك بن فهم إلى العراق ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيء فنزلت اجأ وسلمى ونزلت ابناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة وسموا خزاعة لانخزاعهم من اخوانهم ثم ارسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفى ذلك يقول ميمون بن قيس الاعشى :

وفى ذاك للمؤتسى اسوة ومأرب عفا عليها العرم
رخام بنته لهم حمـــير إذا جاء مواره لم يرم
فاروى الزروع واعنابها على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادى مايقدرو ن منه على شرب طفل فطم

وذكر الميدانى عن الكلبي عن أبى صالح أن طريفة الكاهنة قد رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب وأنه سيأتى سيل العرم فيخرب الجنتين فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة فاقاموا بها وبما حولها فأصابتهم الحمى وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى فدعوا طريفة فشكوا اليها الذى أصابهم فقالت لهم: أصابنى الذى تشكون وهو مفرق بيننا قالوا فما ذا تأمرين قالت: من كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد فكانت أزد عمان ثم قالت: من كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على أزمات الدهر فعليه بالأراك من بطن مر فكانت خزاعة ثم قالت: من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل المطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس. والخزرج ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأسير ويلبس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير وهما من أرض الشام فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق، والحق أن تمزيقهم وتفريقهم فى البلاد كان بعد إرسال السيل، نعم لا يبعد خروج بعضهم قبيله حين استشعروا وقوعه، وفى المثل ذهبوا أيدى سبأ ويقال تفرقوا أيدى سبا ويروى أيادى وهو بمعنى الأولاد لأنهم اعضاد الرجل لتقويه بهم ه

وفى المفصل أن الأيدى الأنفس كناية أو مجازا قال فى الكشف : وهو حسن، ونصبه على الحالية بتقدير مثل لاقتضاء المعنى إياه مع عدم تعرفه بالاضافة ، وقيل : إنه بمعنى البلاد أو الطرق من قولهم خذ يد البحر أى طريقه وجانبه أى تفرقوا فى طرق شتى، والظاهر أنه على هذا منصوب على الظرفية بدون تقدير ـ فى ـ كما أشار اليه الفاضل اليمنى، وربما يظن أن الأيدى أو الأيادى بمعنى النعم وليس كذلك، ويقال فى الشخص إذا كان مشتت الهم موزع الخاطر كان أيادى سبا، وعليه قول كثير عزة :

أيادى سبا ياعز ما كنت بعدكم فلم يحل بالعينين بعدك منظر

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم ﴿ لَآيَـٰتٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى شأنه الصبر على الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات، وقيل: شأنه الصبر على النعم بأن لا يبطر ولا يطغى وليس بذاك ﴿ شَكُورٍ ١٩ ﴾ شأنه الشكر على النعم، وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ أى حقق عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقا، والظاهر أن ضمير (عليهم) عائد على سبا، ومنشأ ظنه رؤية انهماكهم فى الشهوات ، وقيل : هو لبنى آدم ومنشأ ظنه أنه شاهد أباهم آدم عليه السلام وهو هو قد أصغى إلى وسوسته

www.Quranpdf.blogspot.in

فقاس الفرع على الأصل والولد على الوالد ، وقيل : إنه أدرك ما ركب فيهم من الشهوة والغضب وهما منشئان للشرور ، وقيل : إن ذاك كان ناشئا من سماع قول الملائكة عليهم السلام (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) يوم قال سبحانه لهم : (إني جاعل في الأرض خليفة) ويمكن أن يكون منشأ ذلك ماهو عليه من السوء كما قيل :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وجوز أن يكون كل ماذكر منشأ لظنه فى سبأ، والكلام على الوجه الأول فى الضمير على ما قال الطيبي تتمة لسابقه إما حالا أو عطفا، وعلى الثانى هو كالتذييل تأكيدا له . وقرأ البصريون (صدق) بالتخفيف فنصب (ظنه) على إسقاط حرف الجر والأصل صدق فى ظنه أى وجد ظنه مصيبا فى الواقع فصدق حينئذ بمعنى أصاب مجازا *

وقيل هو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدر أى يظن ظنه كفعلته جهدك أى تجهد جهدك ، والجملة فى موقع الحال و(صدق) مفسر بما مر ، ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول به والفعل متعد إليه بنفسه لأن الصدق أصله فى الأقوال والقول مما يتعدى إلى المفعول به بنفسه، والمعنى حقق ظنه كما فى الحديث « صدق وعده ونصر عبده » وقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) *

وقرأ زيد بن على . وجعفر بن محمد رضى الله تعالى عنهم. والزهرى . وأبو الجهجاه الأعرابى من فصحاء العرب وبلال بن أبى برزة بنصب (إبليس) ورفع (ظنه) كذا فى البحر والظاهر ذلك مع قراءة (صدق) بالتشديد أى وجده ظنه صادقا لكن ذكر ابن جنى أن الزهرى كان يقرأ ذلك مع تخفيف (صدق) أى قال له الصدق حين خيل له إغواؤهم *

وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو (إبليس ظنه) برفعهما بجعل الثانى بدل اشتمال، وأبهم الزمخشرى القارىء بذلك فقال قرىء بالتخفيف ورفعهما على معنى صدق عليهم ظن إبليس ولو قرىء بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة فى (صدق) كقوله :

فدت نفسى وما ملكت يمينى فوارس صدقت فيهم ظنونى

وهو ظاهر فى أنه لم يقرأ أحد بذلك والله تعالى أعلم، وعلى جميع القراءات (عليهم) متعلق بالفعل السابق وليس متعلقا بالظن على شىء منها ﴿ فَاتَّبَعُوهُ ﴾ أى سبأ أو قيل بنو آدم ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠ ﴾ أى إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية ، وتقليلهم إما لقلتهم فى حد ذاتهم أو لقلتهم بالاضافة إلى الكفار، وهذا متعين على القول برجوع الضمير إلى بنى آدم، وكأنى بك تختار كون القلة فى حد ذاتهم على القول برجوع الضمير إلى سبأ لعدم شيوع كثرة المؤمنين فى حد ذاتهم منهم أو إلا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون فمن تبعيضية والمراد مطلق الاتباع الذى هو أعم من الكفر *

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء *

﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل، و(من) موصوله وجعلها استفهامية بعيد، والعلم المستقبل المعلل ليس هو العلم الأزلى القائم بالذات المقدس بل تعلقه بالمعلوم فى عالم الشهادة الذى يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب وهو مضمن معنى التميز لمكان من أى ما كان له عليهم تسلط لأمر من الأمور إلا لتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو منها فى شك تعلقا حاليا يترتب عليه

www.Quranpdf.blogspot.in

الجزاء وإلى هذا يشير كلام كثير من أئمة التفسير ، وقيل : المعنى لنجعل المؤمن متميزا من غيره فى الخارج فيتميز عند الناس ، وقيل . المراد من وقوع العلم فى المستقبل وقوع المعلوم لأنه لازمه فكأنه قيل ماكان ذلك لأمر من الأمور إلا ليؤمن من قدر إيمانه ويضل من قدر ضلاله ، وعدل عنه إلى ما فى النظم الجليل للمبالغة لما فيه من جعل المعلوم عين العلم ، وقيل المراد بالعلم الجزاء فكأنه قيل على الايمان وضده ، وقيل : العلم على ظاهره إلا أن المستقبل بمعنى الماضى وعلم الله تعالى الأزلى بأهل الشك يستدعى تسلط الشيطان عليهم *

وقيل : المراد لنعامل معاملة من كأنه لايعلم ذلك وإنما يعمل ليعلم ، وقيل : المراد ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك ، ولا يخفى عليك ما فى بعض هذه الأقوال ، وكان الظاهر إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن لا يؤمن بها وعدل عنه إلى ما فيه النظم الجليل لنكتة وهى أنه قوبل الايمان بالشك ليؤذن بأن أدنى مراتب الكفر مهلكة ، وأورد المضارع فى الجملة الأولى إشارة إلى أن المعتبر فى الايمان الخاتمة ولأنه يحصل بنظر تدريجى متجدد ، وأتى بالثانية اسمية إشارة إلى أن المعتبر الدوام والثبات على الشك الى الموت ، ونون شكا للتقليل ، وأتى بفى إشارة إلى أن قليله كأنه محيط بصاحبه ، وعداه بمن دون فى وقدمه لأنه إنما يضر الشك الناشىء منها وأنه يكفى شك ما فيما يتعلق بها *

وقرأ الزهرى (ليعلم) بضم الياء وفتح اللام مبنيا للمفعول ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٢١ ﴾ أى وكيل قائم على أحواله وشؤونه ، وهو إما مبالغة فى حافظ وإما بمعنى محافظ كجليس ومجالس وخليط ومخالط ورضيع ومراضع إلى غير ذلك *

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ المعروفة عندهم بالنقل فى أخبارهم وأشعارهم تنبيها على بطلان ما هم عليه وتبكيتا لهم ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى زعمتموهم آلهة كذا قدره الجمهور على أن الضمير مفعول أول وآلهة مفعول ثان وحذف الأول تخفيفا لأن الصلة والموصول بمنزلة اسم واحد فهناك طول يطلب تخفيفه والثانى لأن صفته أعنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ سدت مسده فلا يلزم اجحاف بحذفهما معا ، ولا يجوز أن يكون (من دون الله) هو المفعول الثانى اذ لا يتم به مع الضمير الكلام ولا يلتئم النظام فاى معنى معتبر لهم من دون الله على أن فى جواز حذف أحد مفعولى هذا الباب اختصارا خلافا ومن أجازه قال هو قليل فى كلامهم ، وكذا لا يجوز أن يكون لا يملكون لأن ما زعموه ليس كونهم غير مالكين بل خلافه ، وليس ذلك أيضا بزعم بالمعنى الشائع لو سلم أنه صدر منهم بل حق ، وقال ابن هشام : الأولى أن يقدر زعمتم أنهم آلهة لأن الغالب على زعم أن لا يقع على المفعولين الصريحين بل على ما يسد مسدهما من أن وصلتهما ولم يقع فى التنزيل إلا كذلك أى فالأنسب أن يوافق المقدر المصرح به فى التنزيل *

ورجح تقدير الجمهور بأنه أبعد عن لزوم الاجحاف والأمر للتوبيخ والتعجيز أى ادعوهم فيما يهمكم من دفع ضر أو جلب نفع لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم . روى أن ذلك نزل عند الجوع الذى أصاب قريشا *

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ كلام مستأنف فى موقع الجواب ولم يمهلهم ليجيبوا إشعارا بتعينه فانه لا يقبل المكابرة ، وجوز تقدير ثم أجب عنهم قائلا لا يملكون الخ وهو متضمن بيان حال الآلهة فى الواقع

www.Quranpdf.blogspot.in

وأنهم إذا لم يملكوا مقدار ذرة أى من خير وشر ونفع وضر كيف يكونون آلهة تعبد *

﴿ فى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى فى أمر من الامور، وذكر السموات والأرض للتعميم عرفا فيراد بهما جميع الموجودات، وهذا كما يقال المهاجرون والانصار ويراد جميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم فلا يتوهم انهم يملكون فى غيرهما، ويجوز أن يقال: إن ذكرهما لأن بعض آلهة المخاطبين سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام فالمراد نفى قدرة السماوى منهم على أمر سماوى والارضى على أمر أرضى ويعلم نفى قدرته على غيره بالطريق الأولى أولأن الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية فالمراد نفى قدرتهم بشىء من الاسباب القريبة فكيف بغيرها ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أى لآلهتهم ﴿ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى شركة ما لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ أى لله عز وجل ﴿ مِنْهُم ﴾ أى من آلهتهم ﴿ مِّن ظَهِيرٍ ٢٢ ﴾ أى معين يعينه سبحانه فى تدبير أمرهما ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ ﴾ أى لا توجد رأسا كما فى قوله: * على لاحب لا يهتدى بمناره * لقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) وإنما علق النفى بنفعها دون وقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها *

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال على ما اختاره الزمخشرى، و(من) عبارة عن الشافع واللام الداخلة عليه للاختصاص مثلها فى الكرم لزيد ولام (له) صلة أذن، والمراد نفى شفاعة آلهتهم لهم لكن ذكر ذلك على وجه عام ليكون طريقا برهانيا أى لا تنفع الشفاعة فى حال من الاحوال أو كائنة لمن كانت الا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ومن البين انهم لا يؤذن لهم فى الشفاعة للكفار فقد قال الله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب وعدم الاذن للاصنام أبين وأبين فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية أو (من) عبارة عن المشفوع له واللام الداخلة عليه للتعليل ولام (له) صلة (أذن) أى لا تنفع الشفاعة الا كائنة لمشفوع أذن له أى لشفيعه على الاضمار لأن المشفوع لم يصدر عنه فعل حتى يؤذن له فيه أن يشفعه، واختار الزمخشرى أن لام (له) للتعليل أى إلا لمن وقع الاذن للشفيع لأجله، ووجهه على ما فى الكشف حصول الاشارة إلى الشافع والمشفوع لأن المأذون لأجله المشفوع والمأذون الشافع ولأن الغرض بيان محل النفع وهو المشفوع كان التصريح بذكره أهم، ولا يخفى أن الوجه السابق ظاهر التكلف فيه الاضمار الذى لا يقتضيه المقام، وحاصل المعنى على هذا لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها إلا كائنة لمن وقع الاذن للشفيع لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم أصلا وإن فرض وقوعها من الشفعاء إذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم، ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص وعن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها فى الجملة فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى، وذهب أبو حيان إلى أن الاستثناء من أعم الذوات أى لا تنفع الشفاعة لأحد إلا لمن الخ، واستظهر احتمال أن تكون من عبارة عن المشفوع له واللام نظرا إلى الظاهر متعلقة بالشفاعة، وجوز أبو البقاء تعلقها بتنفع. وتعقبه بأنه لا يتعدى إلا بنفسه وقال أبو حيان فيه: إن المفعول متأخر فدخول اللام قليل. وقرأ أبو عمرو. وحمزة. والكسائى (أذن) مبنيا للمفعول فله قائم مقام

www.Quranpdf.blogspot.in

فاعله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ صيغة التفعيل للسلب كما في قردت البعير إذا أزلت قراده ومنه التمريض فالتفزيع إزالة الفزع، وهو على ما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الانسان من الشيء المخيف، و (حتى) للغاية واختلفوا في المغيا إذ لم يكن قبلها ما يصلح أن يكون مغيا بحسب الظاهر، واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافا كثيرا، فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة ويشير اليه، وذلك أن قوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) يؤذن بشفعاء ومشفوع لهم وأن هناك استئذانا في الشفاعة ضرورة أن وقوع الاذن يستدعي سابقية ذلك وهو مستدع للترقب والانتظار للجواب وحيث أنه كلام صادر عن مقام العظمة والكبرياء كيف وقد تقدمه ما تقدمه يدل على كون الكل في ذلك الموقف خلف سرادق العظمة ملقى عليهم رداء الهيبة، وما بعد حرف الغاية أيضا شديد الدلالة على ذلك فكأنه قيل: تقف الشفعاء والمشفوع لهم في ذلك الموقف الذي يتشبث فيه المستشفعون بأذيال الرجاء من المستشفع بهم ويقوم فيه المستشفع به على قدم الالتجاء إلى الله جل جلاله فيطرق باب الشفاعة بالاستئذان فيها ويبقون جميعا منتظرين وجلين فزعين لا يدرون ما يوقع لهم الملك الأعظم جل وعلا على رقعة سؤالهم وماذا يصح لهم بعد عرض حالهم حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير حسن التوقيع وسطوع أنوار الاجابة والارتضاء من آفاق رحمة الملك الرفيع قالوا أي قال بعضهم لبعض، والظاهر أن البعض القائل المشفوع لهم وإن شئت فأعد الضمير اليهم من أول الأمر إذ هم الأشد احتياجا إلى الاذن والأعظم اهتماما بأمره ماذا قال ربكم في شأن الاذن بالشفاعة قالوا: أي الشفعاء فانهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون لأولئك السائلين بالشفاعة عنده عز وجل قال ربنا القول الحق أي الواقع بحسب ما تقتضيه الحكمة وهو الاذن بالشفاعة لمن ارتضى *

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٢٣﴾ من تتمة كلام الشفعاء قالوه اعترافا بعظمة جناب العزة جل جلاله وقصور شأن كل من سواه أي هو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه وليس لكل منهم كائنا من كان أن يتكلم إلا من بعد إذنه جل وجلا، وفيه من تواضعهم بعد ترفيع قدرهم بالاذن لهم بالشفاعة ما فيه، وفيه أيضا نوع من الحمد كما لا يخفى وهذه الجملة المغيات بما ذكر لا يبعد أن تكون جوابا السؤال المقدر كأنه قيل: كيف يكون الاذن في ذلك الموقف للمستأذنين وكيف الحال فيه للشافعين والمستشفعين؟ فقيل: يقفون منتظرين وجلين فزعين حتى إذا الخ، والآيات دالة على أن المشفوع لهم هم المؤمنون وأما الكفرة فهم عن موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف ألف منزل، وجعل بعضهم على هذا الوجه من كون المغيا ما ذكر ضمير (قلوبهم) للملائكة وخص الشفعاء بهم وضمير (قالوا) الأول لهم أيضا وضمير (قالوا) الثاني للملائكة الذين فوقهم وهم الذين يبلغون ذلك اليهم وقال: إن فزعهم إما لما يقرن به الاذن من الأمر الهائل أو لغشية تصيبهم عند سماع كلام الله جل شأنه أو من ملاحظة وقوع التقصير في تعيين المشفوع لهم بناء على ورود الاذن بالشفاعة إجمالا وهو كما ترى *

وقال الزجاج: تفسير هذا أن جبريل عليه السلام لما نزل إلى النبي ﷺ بالوحي ظنت الملائكة عليهم السلام أنه نزل بشيء من أمر الساعة ففزعت لذلك فلما انكشف عنها الفزع قالوا: ماذا قال: ربكم سألت لأي شيء

www.Quranpdf.blogspot.in

نزل جبريل عليه السلام قالوا: الحق اه •

روى ذلك عن قتادة . ومقاتل . وابن السائب بيد أنهم قالوا: إن الملائكة صعقوا لذلك فجعل جبريل عليه السلام يمر بكل سماء ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحى ، ولم يبين الزجاج وجه اتصال الآية بما قبلها ولا بحث عن الغاية بشيء وقد ذكر نحو ذلك الامام الرازى ثم قال فى ذلك: أن (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى: (قل) لأنه تبينه بالوحى فلما قال سبحانه (قل) فزع من فى السموات وهو لعمرى من العجب العجاب •

وقال الفاضل الطيبي بعد نقله ذلك التفسير: وعليه أكثر كلام المفسرين ويعضده مارويناً عن البخارى . والترمذى . وابن ماجه . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « اذا قضى الله تعالى الامر فى السماء ضربت الملائكة اجنحتها خضعاناً لقوله تعالى كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الذى قال الحق وهو العلى الكبير » وعن أبى داود عن ابن مسعود قال: « اذا تكلم الله تعالى بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا أتاهم جبريل عليه السلام فزع عن قلوبهم فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحق الحق » ثم ذكر فى أمر الغاية واتصال الآية بما قبلها على ذلك أنه يستخرج معنى المغيا من المفهوم وذلك إن المشركين لما ادعوا شفاعة الآلهة والملائكة وأجيبوا بقوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) من الاصنام والملائكة وسميتموهم باسمه تعالى والتجؤا اليهم فانهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا تنفع الشفاعة من هؤلاء الا للملائكة لكن مع الاذن والفزع العظيم وهم لا يشفعون الا للمرضيين فعبر عن الملائكة عليهم السلام بقوله تعالى (الا لمن أذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم) الآية كناية كأنه قيل: لا تنفع الشفاعة الا لمن هذا شانه ودأبه وأنه لا يثبت عند صدمة من صدمات هذا الكتاب المبين وعند سماع كلام الحق يعنى الذين إذا نزل عليهم الوحى يفزعون ويصعقون حتى اذا أتاهم جبريل عليه السلام فزع عن قلوبهم فيقولون : ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحق انتهى، ولا يخفى على من له أدنى تمييز حاله وأنه مما لا ينبغى أن يعول عليه •

وقول ابن عطية : إن تاويل الآية بالملائكة اذا سمعت الوحى الى جبريل أو الامر بامر الله تعالى به فتسمع كجر سلسلة الحديد على الحديد فتفزع تعظيما وهيبة ، وقيل خوف قيام الساعة هو الصحيح وهو الذى تظاهرت به الاحاديث ناشىء من حرمان عطية سلامة الذوق وتدقيق النظر ، والتفسير الذى ذكرناه أولا بمراحل فى الحسن عما ذكر عن أكثر المفسرين ، وما سمعت من الرواية لا ينافيه اذ لا دلالة فيه على أنه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك فى معرض تفسير الآية ولا تنافى بين التفزيعين وكأن الاكثر من المفسرين نظروا الى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث فنزلوا الآية على ذلك فوقعوا فيما وقعوا فيه وان كثروا وجلوا، والقائل بما سبق نظر الى طباق المقام وحقق عدم المنافاة وظهر له حال ما قالوه فعدل عنه •

وأخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم عن الضحاك أنه قال فى الآية: زعم ابن مسعود أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون الى أهل الارض يكتبون أعمالهم اذا ارسلهم الرب تبارك وتعالى فانحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة فيخرون سجداً وهذا كلما مروا عليهم فيفعلون من خوف ربهم تبارك وتعالى، وابن مسعود عندى أجل من أن يحمل الآية على هذا فالظاهر أنه لا يصح عنه •

www.Quranpdf.blogspot.in

ومثل هذا ما زعمه بعضهم أن ذلك فزع ملائكة أدنى السموات عند نزول المدبرات الى الارض، وقيل إن (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر الى غاية التفزيع ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق واليه يشير ما أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال فى الآية: حتى اذا فزع الشيطان عن قلوبهم ففارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم به قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ثم قال: وهذا فى بنى آدم أى كفارهم عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الأقرار، والظاهر أن فى الكلام عليه التفاتا من الخطاب فى (زعمتم) الى الغيبة فى (قلوبهم) وأن ضمير (قالوا) الأول للملائكة الموكلين بقبض أرواحهم والمراد بالتفزيع عن القلوب كشف الغطاء وموانع ادراك الحق عنها. وما نقل عن الحسن من أنه قال: انما يقال للمشركين ماذا قال ربكم أى على لسان الانبياء عليهم السلام فاقروا حين لا ينفع يحتمل أن يكون كالقول المذكور فى أن ذلك عند الموت ويحتمل أن يكون قولا بان ذلك يوم القيامة الا أن فى جعل حتى غاية للزعم عليه غير ظاهر اذ لا يستصحبهم ذلك الى يوم القيامة حقيقة كما لا يخفى، وأبعد من هذا القول كون ذلك غاية لقوله تعالى (ممن هو منها فى شك) وضمير قلوبهم لمن باعتبار معناه، والتفزيع كشف الغطاء وموانع ادراك الحق بل هو مما لا ينبغى حمل كلام الله تعالى عليه *

وزعم بعضهم أن المعنى اذا دعاهم اسرافيل عليه السلام من قبورهم قالوا مجيبين ماذا قال ربكم حكاه فى البحر ثم قال: والتفزيع من الفزع الذى هو الدعاء والاستصراخ كما قال زهير:

اذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم   طوال الرماح لا ضعاف ولا عزل

وأنت تعلم أن التفزيع بالمعنى المذكور لا يتعدى بعن وأمر الغاية عليه غير ظاهر، وبالجملة ذلك الزعم ليس بشىء *

واختار أبو حيان أن المغيا الاتباع فى قوله تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) وضمير قلوبهم عائد إلى ما عاد اليه ضمير الرفع فى (اتبعوه) أعنى الكفار وكذا ضمير (قالوا) الثانى وضمير (قالوا) الاول للملائكة وكذا ضمير (ربكم) وجملة قوله تعالى: (قل ادعوا الذين) الخ اعتراضية بين الغاية والمغيا والتفزيع حال مفارقة الحياة أو يوم القيامة ويجعل اتباعهم ابليس مستصحبا لهم إلى ذلك اليوم مجازا، ولا يخفى بعده، والوجه عندى ما ذكر أولا، و(ماذا) تحتمل أن تكون منصوبة بقال أى أى شىء قال ربكم، وتحتمل أن تكون فى موضع رفع على أن ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبره وجملة قال صلة الموصول والعائد محذوف أى ما الذى قاله ربكم، وقرأ ابن عباس. وابن مسعود. وطلحة. وأبو المتوكل الناجى. وابن السميقع. وابن عامر. ويعقوب (فزع) بالتشديد والبناء للفاعل والفاعل ضمير الله تعالى المستتر أى أزال الله تعالى الفزع عن قلوبهم *

وقال أبو حيان: هو ضميره تعالى إن كان ضمير قلوبهم للملائكة وإن كان للكفار فهو ضمير مغويهم *

وقرأ الحسن (فزع) بالتخفيف والبناء للمفعول فعن قلوبهم نائب الفاعل كما فى قراءة الجمهور، وقرأ هو. وأبو المتوكل أيضا. وقتادة. ومجاهد (فرغ) بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة مشددا مبنيا للفاعل بمعنى أزال، وقرأ الحسن أيضا كذلك إلا أنه خفف الراء، وقرأ عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما. والحسن أيضا. وأيوب السختيانى. وقتادة أيضا. وأبو مجلز (فرغ) كذلك إلا أنهم بنوه للمفعول، وقرأ ابن مسعود فى رواية. وعيسى (افرنقع) قيل بمعنى تفرق *

وقال الزمخشرى: بمعنى انكشف، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وفيه ايهام أن العين والراء من حروف الزيادة وليس كذلك، وقرأ ابن أبى عبلة (الحق)

www.Quranpdf.blogspot.in

بالرفع أي مقوله الحق ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمر ﷺ أن يقول ذلك تبكيتا للمشركين بحملهم على الاقرار بأن آلهتهم لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولافى الارض وإن الرزاق هوالله عز وجل فانهم لاينكرونه وحيث كانوا يتلعثمون احيانا فى الجواب مخافة الالزام قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ اذ لاجواب سواه عندهم أيضا ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢٤ ﴾ أى وإن أحد الفريقين منا معشر الموحدين المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية العابدية وحده عز وجل ومنكم فرقة المشركين به العاجزين فى أنفسهم عن دفع أدنى ضر وجلب أحقر نفع وفيهم النازل إلى أسفل المراتب الامكانية المتصفون باحد الامرين من الاستقرار على الهدى والانغماس فى الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أومناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك، وفى درجه بعد تقدمة ماقدم من التقرير البليغ دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على هدى ومن هو فى ضلال ولكن التعريض أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه قد علم الله تعالى الصادق منى ومنك وإن أحدنا لكاذب، ومنه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء　　فشركما لخيركما الفداء

وقول أبى الاسود :

يقول الارذلون بنو قشير　　طوال الدهر لاتنسى عليا
بنو عم النبي وأقربوه　　أحب الناس كلهم اليا
فان يك حبهم خيرا أصبه　　ولست بمخطىء إن كان غيا

وذهب أبو عبيدة إلى أن أو بمعنى الواو كما فى قوله :

سيان كسر رغيفه　　أو كسر عظم من عظامه

والكلام من باب اللف والنشر المرتب بان يكون (على هدى) راجعا لقوله تعالى (إنا) و(فى ضلال) راجعاً لقوله سبحانه (إياكم) فان العقل يحكم بذلك كما فى قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا　　لدى وكرها العناب والحشف البالى

ولايخفى بعده، وأياما كان فليس هذا من باب التقية فى شىء كما يزعمه بعض الجهلة، والظاهر أن (لعلى هدى) الخ خبر (انا أو اياكم) من غير تقدير حذف إذ المعنى إن أحدنا لمتصف باحد الامرين كقولك زيد أو عمرو فى السوق أو فى البيت، وقيل: هو خبر (انا) وخبر (إياكم) محذوف تقديره لعلى هدى أو فى ضلال مبين، وقيل: هو خبر (إياكم) وخبر (إنا) محذوف لدلالة ماذكر عليه، و(إياكم) على تقدير ان ولكنها لما حذفت انفصل الضمير *

وفى البحر لاحاجة إلى تقدير الحذف فى مثل هذا وإنما يحتاج اليه فى نحو زيد أو عمرو قائم فتدبر، والمتبادر أن (مبين) صفة (ضلال) ويجوز أن يكون وصفا له ولهدى والوصف وكذا الضمير يلزم افراده بعد المعطوف باو، وأدخل على على الهدى للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكنه واطلاعه على مايريد كالواقف على مكان عال أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء، و(فى) على الضلال للدلالة على انغماس صاحبه فى ظلام حتى كأنه فى مهواة مظلمة لايدرى

www.Quranpdf.blogspot.in

أين يتوجه ففي الكلام استعارة مكنية أو تبعية. وفي قراءة أبي (انا أو إياكم أما على هدى أو في ضلال مبين) *

﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ ﴾ هذا أبلغ في الانصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين وزيادة على ذلك أنه ذكر الاجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك، وذكر أن في الآية تعريضا وأنه لا يضر بما ذكر، وزعم بعضهم أنها من باب المتاركة وأنها منسوخة بآية السيف *

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ يقضي سبحانه بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بالعدل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ القاضي في القضايا المنغلقة فكيف بالواضحة كابطال الشرك وإحقاق التوحيد أو القاضي في كل قضية خفية كانت أو واضحة، والمبالغة على الأول في الكيف وعلى الثاني في الكم، ولعل الوجه الأول أولى. وفيه إشارة إلى وجه تسمية فصل الخصومات فتحا وانه في الأصل لتشبيه ماحكم فيه بأمر منغلق كما يشبه بأمر منعقد في قولهم: حلال المشكلات، وقرأ عيسى (الفاتح) ﴿ الْعَلِيمُ ٢٦ ﴾ بما ينبغي أن يقضى به أو بكل شيء *

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ استفسار عن شبهتهم بعد الزام الحجة عليهم زيادة في تبكيتهم، وأرى على ما استظهره أبو حيان بمعنى أعلم فتتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ياء المتكلم والموصول و(شركا) وعائد الموصول محذوف أي ألحقتموهم، والمراد اعلموني بالحجة والدليل كيف وجه الشركة، وجوز كون رأى بصرية تعدت بالنقل لاثنين ياء المتكلم والموصول و(شركاء) حال من ضمير الموصول المحذوف أي ألحقتموهم متوهما شركتهم أو مفعول ثان لألحق لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد أرونيهم لأنظر بأي صفة ألحقتموهم بالله عز وجل الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسميهم شركاء، والغرض اظهار خطئهم العظيم *

وقال بعض الأجلة: لم يرد من (أروني) حقيقته لأنه ﷺ كان يراهم ويعلمهم فهو مجاز وتمثيل، والمعنى ازعمتموه شريكا إذا برز للعيون وهو خشب وحجر تمت فضيحتكم، وهذا كما تقول للرجل الخسيس الأصل اذكر لي أباك الذي قايستبه فلانا الشريف ولا تريد حقيقة الذكر وإنما تريد تبكيته وانه ان ذكر أباه افتضح *

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن زعم الشركة بعد ما كسره بالابطال كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) بعد ماحج قومه ﴿ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ ﴾ أي الموصوف بالغلبة القاهرة المستدعية لوجوب الوجود ﴿ الْحَكِيمُ ٢٧ ﴾ الموصوف بالحكمة الباهرة المستدعية للعلم المحيط بالأشياء، وهؤلاء الملحقون عن الاتصاف بذلك في معزل وعن الحوم حول مايقتضيه بألف ألف منزل، والضمير اما عائد لما في الذهن ومابعده وهو الله الواقع خبرا له يفسره و(العزيز الحكيم) صفتان للاسم الجليل أو عائد لربنا في قوله سبحانه: «يفتح بيننا ربنا» على ماقيل أو هو ضمير الشأن و(الله) مبتدأ و(العزيز الحكيم) خبره والجملة خبر ضمير الشأن لأن خبره لا يكون إلا جملة على الصحيح ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ المتبادر أن (كافة) حال من الناس قدم مع إلا عليه للاهتمام

www.Quranpdf.blogspot.in

كما قال ابن عطية ، وأصله من الكف بمعنى المنع وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج واشتهر فى ذلك حتى قطع النظر فيه عن معنى المنع بالكلية فمعنى جاء الناس كافة جاءوا جميعا، ويشير إلى هذا الاعراب ماأخرج ابن أبى شيبة . وابن المنذر عن مجاهد أنه قال فى الآية: أى إلى الناس جميعا ، وما أخرج ابن أبى حاتم عن محمد ابن كعب أنه قال . أى للناس كافة ، وكذا ماأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى الآية : أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم فاكرمهم على الله تعالى أطوعهم له، ومانقل عن ابن عباس أنه قال . أى إلى العرب والعجم وسائر الأمم، وهو مبنى على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف وهو الذى ذهب اليه خلافا لكثير من النحاة أبو على . وابن كيسان . وابن برهان . والرضى . وابن مالك حيث قال : وسبق حال مابحرف جرقد أبوا ولا أمنعه فقد ورد

وأبو حيان حيث قال بعد أن نقل الجواز عمن عدا الرضى من المذكورين وهو الصحيح: ومن أمثلة أبى على زيد خير ما يكون خير منك ، وقال الشاعر :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئا فمطلبها كهلا عليه شديد

وقال آخر: تسليت طرا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندى

وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به، ومن ذلك قوله :

مشغوفة بك قد شغفت وإنما حتم الفراق فما اليك سبيل

وقول آخر: غافلا تعرض المنية للمر ء فيدعى ولات حين إباء

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقديمها عليه دون العامل أجوز انتهى، وجعلوا هذا الوجه أحسن الأوجه فى الآية وقالوا: إن ماعداه تكلف، واعترض بأنه يلزم عليه عمل ماقبل إلا وهو أرسل فيما بعدها وهو (للناس) وليس بمستثنى ولا مستثنى منه ولاتابعا له وقد منعوه ، وأجيب بأن التقدير وماأرسلناك للناس إلا كافة فهو مقدم رتبة ومثله كاف فى صحة العمل مع أنهم يتوسعون فى الظرف مالا يتوسعون فى غيره *

وقال الخفاجى عليه الرحمة: الاحسن أن يجعل (للناس) مستثنى على أن الاستثناء فيه مفرغ وأصله ماأرسلناك لشىء من الاشياء الا لتبليغ الناس كافة، وأما تقديره بما أرسلناك للخلق مطلقا الا للناس كافة على أنه مستثنى فركيك جدا اه ، ولا يخفى أن فى الآية على ما أستحسنه حذف المضاف والفصل بين أداة الاستثناء والمستثنى وتقديم الحال على صاحبها والكل خلاف الاصل وقلما يجتمع مثل ذلك فى الكلام الفصيح . واعترض عليه أيضا بأنه يلزم حينئذ جعل اللام فى (للناس) بمعنى الى وليس بشىء لأن أرسل يتعدى باللام والى كما ذكره أبو حيان وغيره فلا حاجة الى جعلها بمعنى الى على أنه لو جعلت بمعناها لا يلزم خطأ أصلا لمجىء كل من اللام والى بمعنى الآخر ، وكذا لاحاجة إلى جعلها تعليلية إلا على ما استحسنه الخفاجى *

وقال غير واحد : إن (كافة) اسم فاعل من كف والتاء فيه للمبالغة كتاء راوية ونحوه وهو حال من مفعول (أرسلناك) و(للناس) متعلق به واليه ذهب أبو حيان أى ماأرسلناك إلا كافا ومانعا للناس عن الكفر والمعاصى * وإلى الحالية من الكاف ذهب أبو على أيضا إلا أنه قال : المعنى إلا جامعا للناس فى الابلاغ . وتعقبه أبو حيان بان اللغة لاتساعد على ذلك لأن كف ليس بمحفوظ أن معناه جمع، وفيه منع ظاهر لأنه يقال: كف القميص

www.Quranpdf.blogspot.in

إذا جمع حاشيته وكف الجرح إذا ربطه بخرقة تحيط به وقد قال ابن دريد : كل شيء جمعته فقد كففته مع أنه جوز أن يكون مجازا من المنع لأن مايجمع يمتنع تفرقه وانتشاره، وقيل إنه مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية وهو أيضا حال من الكاف إما باق على مصدريته بلا تقدير شيء مبالغة وإما بتأويل اسم الفاعل أو بتقدير مضاف أي إلا ذا كافة أي ذا كف أي منع للناس من الكفر، وقيل ذا منع من أن يشذوا عن تبليغك، وذهب بعضهم إلى أنه مصدر وقع مفعولا له ولم يشترط في نصبه اتحاد الفاعل كما ارتضاه الرضي ، وذهب العلامة الزمخشري إلى أنه اسم فاعل من الكف صفة لمصدر محذوف وتاؤه للتأنيث أي ما أرسلناك إلا إرسالة كافة أي عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم عن أن يخرج منها أحد منهم. واعترض عليه بأن كافة لم ترد عن العرب إلا منصوبة على الحال مختصة بالمتعدد من العقلاء وأن حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه إنما يكون لما عهد وصفه بها بحيث لاتصلح لغيره وأجيب بأن كافة ههنا غير ماالتزم فيه الحالية وإن رجعا إلى معنى واحد، وما قيل من أنه لم تستعمله العرب إلا كذلك ليس بشيء وإقامة الصفة مقام موصوفها منقاس مطرد بدون شرط إذا قامت عليه قرينة، وذكر الفعل قبله دال على تقدير مصدره كما في قمت طويلا وحسنا أي قياما طويلا وحسنا . وفي الحواشي الخفاجية قد صح أن عمر رضي الله تعالى عنه قال في كتابه لآل بني كاكلة : قد جعلت لآل بني كاكلة على كافة بيت المسلمين لكل عام مائتي مثقال ذهبا إبريزا وقاله علي كرم الله تعالى وجهه حين أمضاه فقد استعمل هذان الامامان كافة في غير العقلاء وغير منصوب على الحالية *

ولا يخفى أن بعض ما اعترض به على هذا الوجه يعترض به على بعض الأوجه السابقة أيضا، والجواب هو الجواب *

والذي أختاره في الآية ماهو المتبادر، ولا بأس بالتقدم والاستعمال وارد عليه ولا قياس يمنعه، وأمر تخطي العامل إلا إلى ماليس مستثنى ولا مستثنى منه سهل لحديث التوسع في الظرف، والآية عليه أظهر في الاستدلال على عموم رسالته ﷺ وهي في ذلك كقوله تعالى: (قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) ولو استدل بها القاضي أبو سعيد لبهت اليهودي ، وقد يستدل عليه بما لا يكاد ينكره من فعله ﷺ مع اليهود في عصره ودعوته عليه الصلاة والسلام إياهم إلى الاسلام ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أسلم بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لم يسلم بالعقاب، والوصفان حالان من مفعول (أرسلناك) وقد يجعلان على بعض الأوجه السابقة بدلا من (كافة) نحو بدل المفصل من المجمل فتأمل *

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨﴾ ذلك فيحملهم جهلهم على الاصرار على ماهم عليه من الغي والضلال ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي لجهلهم حقيقة أو حكما ولذا لم يعطف بالفاء. وقيل يقولون أي من فرط تعنتهم وعدم العطف بالفاء لذلك وقيل الحامل فرط الجهل وعدم العطف بالفاء لظهور تفرعه على ماقبله ومثله يوكل إلى ذهن السامع، وقيل إن ذلك لأن فرط الجهل غير الجهل وهو كما ترى، وقيل لأن هذا حال بعض وعدم العلم في قوله تعالى: (لا يعلمون) حال بعض آخر ، والذي يظهر لي أن القائلين بالفعل هم بعض المشركين المعاصرين له ﷺ لا أكثر الناس مطلقا وأن المراد بصيغة المضارع الاستمرار التجددي، وقيل عبر بها استحضارا للصورة الماضية لنوع غرابة والأصل وقالوا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالى (يجمع بيننا

www.Quranpdf.blogspot.in

ربنا ثم يفتح بيننا) ﴿ان كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٩﴾ مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به *

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ أو وعد يوم على أن (ميعاد) مصدر ميمي أو اسم أقيم مقام المصدر على مانقل عن أبي عبيدة وهو بمعنى الموعود ، وقيل : الكلام على تقدير مضاف أي لكم وقوع وعد يوم أو نجز وعد يوم ، وتنوين يوم للتعظيم أي يوم عظيم ، وجوز أن يكون الميعاد اسم زمان واضافته إلى يوم (للتبيين) أي لبيان زمان الوعد بأنه يوم مخصوص نحو سحق ثوب و بعير سانية ، وأيد الوجه الأول بوقوع الكلام جوابا لقولهم (متى هذا الوعد) والوجه الثاني أنه قرىء (ميعاد يوم) برفعهما وتنوينهما فان يوم على هذه القراءة بدل وذلك يقتضي أن الميعاد نفس اليوم ، وكونه بدل اشتمال بعيد ، وكذا ماقال أبو حيان من أنه على تقدير محذوف أي قل لكم ميعاد ميعاد يوم فلما حذف المضاف أعرب ماقام مقامه باعرابه ، وقرأ ابن أبي عبلة (ميعاد) بالرفع والتنوين (يوما) بالنصب والتنوين قال الزمخشري : وهو على التعظيم باضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعنى يوما من صفته كيت وكيت ، ويجوز الرفع على هذا أيضا ، وجوز أن يكون على الظرفية لميعاد على أنه مصدر بمعنى الموعود لا اسم زمان ، وقال في البحر : يجوز أن يكون انتصابه على الظرف والعامل فيه مضاف محذوف أي انجاز وعد يوما من صفته كيت وكيت . وقرأ عيسى (ميعاد) منونا (يوم) بالنصب من غير تنوين مضافا إلى الجملة . ووجه النصب ما مر آنفا *

﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ٣٠﴾ أي عنه ساعة ، والهاء على ماقال أبو البقاء يجوز أن تعود على (ميعاد) وإن تعود على (يوم) وعلى أيهما عادت كانت الجملة وصفا له . وفي الارشاد هي صفة لازمة لميعاد ، وفي الجواب على تقدير تقييد النفي بالمفاجأة من المبالغة في التهديد مالا يخفى ، ويجوز أن يكون النفي غير مقيد بذلك فيكون وصف الميعاد بما ذكر لتحقيقه وتقديره ، وقد تقدم الكلام في نظير هذه الجملة فتذكر *

ولما كان سؤالهم عن الوقت على سبيل التعنت أجيبوا بالتهديد ، وحاصله أنه لوحظ في الجواب المقصود من سؤالهم لا ما يعطيه ظاهر اللفظ وليس هذا من الاسلوب الحكيم فان البليغ يلتفت لفت المعنى ، وقال الطيبي : هو منه سألوا عن وقت ارساء الساعة وأجيبوا عن أحوالهم فيها فكأنه قيل : دعوا السؤال عن وقت ارسائها فان كينونته لابد منه بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيرين فيها من هول ماتشاهدون فهذا أليق بحالكم من أن تسألوا عنه وهو كما ترى ، وقيل : إنه متضمن الجواب بأن ذلك اليوم لايعلمه إلا الله عز وجل لمكان تنكير (يوم) وهو تعسف لاحاجة اليه . واختلف في هذا اليوم فقيل يوم القيامة وعليه كلام الطيبي ، وقيل : يوم مجيء أجلهم وحضور منيتهم ، وقيل : يوم بدر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركو العرب ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب القديمة كما روى عن قتادة . والسدي . وابن جريج ، ومرادهم نفي الايمان بجميع مايدل على البعث من الكتب السماوية المتضمنة لذلك ، ويروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم فأغضبهم ذلك فقالوا ماقالوا ، وضعف بأنه ليس في السياق والسباق مايدل عليه ، وقيل الذي بين يديه القيامة *

وخطأ ابن عطية قائله بان مابين اليد في اللغة المتقدم ، وتعقب بانه قد يراد به ما مضى وقد يراد به ماسيأتي *

نعم يضعف ذلك أن ما بين يدي الشيء يكون من جنسه لكن محصل كلامهم على هذا أنهم لم يؤمنوا بالقرآن

www.Quranpdf.blogspot.in

ولا بما دل عليه، وأما ادعاء أن الأكثر كونه لماضي فقد قيل أيضا إنه غير مسلم، وحكى الطبرسي أن المراد بالذين كفروا اليهود وحينئذ يراد بما بين يديه الانجيل، ولا يخفى أن هذا القول مما لا ينبغي أن يلتفت اليه وليس في السباق والسياق ما يدل عليه ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لكل واقف عليه، ومفعول (ترى) إذ أو محذوف و(إذ) ظرف له أي أي حال الظالمين و(لو) للتمني مصروفا إلى غيره تعالى لا جواب لها أو هو مقدر أي لرأيت أمراً فظيعاً أو نحوه، و(الظالمون) ظاهر وضع موضع الضمير للتسجيل وبيان علة استحقاقهم، والأصل ولو ترى إذهم موقوفون عند ربهم أي في موقف المحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يتحاورون ويتراجعون القول، والجملة في موضع الحال، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ استئناف لبيان تلك المحاورة أو بدل من (يرجع) الخ أي يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغي والضلال ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدى ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١﴾ بما جاء به الرسول ﷺ *

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال الذين استكبروا لما اعترض عليهم الأتباع وبخوهم؟ فقيل قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ٣٢﴾ أنكروا أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الايمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم أي لسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين الايمان بعد إذ صممتم على الدخول فيه بل أنتم منعتم أنفسكم حظها باجرامكم وإيثاركم الكفر على الايمان *

ووقوع إذ مضافا اليها الظرف شائع في كلامهم كوقوعها مضافة وذلك من باب الاتساع في الظروف لا سيما الزمانية، وبهذا يجاب عما قيل إن إذ من الظروف اللازمة للظرفية فكيف وقعت ههنا مجرورة مضافا اليها *

وقال صاحب الفرائد إن إذهمنا جردت عن معنى الظرفية وانسلخت عنه رأسا وصيرت اسما صرفا لأن المراد من وقت مجيء الهدى هو الهدى لا الوقت نفسه فلذا أضيف اليها *

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ اضرابا عن اضرابهم وابطالا له ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي بل صدنا مكركم بنا في الليل والنهار فحذف المضاف اليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل الليل والنهار ماكرين على الاسناد المجازي، وقيل لا حاجة إلى ذلك فان الاضافة على معنى في. وتعقب بانها مع أن المحققين لم يقولوا بها يفوت باعتبارها المبالغة، ويعلم مما أشرنا اليه أن (مكر) فاعل لفعل محذوف، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي سبب كفرنا مكر الليل والنهار أو مكر الليل والنهار سبب كفرنا. وقرأ قتادة. ويحيى ابن يعمر (بل مكر الليل والنهار) بالتنوين ونصب الظرفين أي بل صدنا مكركم أو مكر عظيم في الليل والنهار *

وقرأ محمد بن جعفر. وسعيد بن جبير. وأبو رزين. وابن يعمر أيضا (مكر الليل والنهار) بفتح الميم والكاف وتشديد الراء والرفع مع الاضافة أي بل صدنا كرور الليل والنهار واختلافهما، وأرادوا على ما قيل الاحالة على طول الأمل والاغترار بالأيام مع هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله عز وجل *

وقرأ ابن جبير أيضا. وراشد القاري. وطلحة. كذلك إلا أنهم نصبوا (مكر) على الظرف أي بل صددتمونا مكر الليل والنهار أي في مكرهما أي دائما، وجوز أن يكون مفعولا مطلقا أي تكرون الاغراء مكرا دائما لا تفترون عنه، وجوز صاحب اللوامح كونه ظرفا لتامرونتا بعد. وتعقبه أبو حيان بانه وهم لأن ما بعد إذ لا يعمل

www.Quranpdf.blogspot.in

فيما قبلها ، وقوله تعالى : ﴿إذ تأمروننا﴾ بدل من الليل والنهار أو تعليل للمكر ، وجعله فى الارشاد ظرفا له أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا ﴿أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ على أن مكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر وأما أمور آخر مقارنة لأمرهم داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك ه

وجملة (قال الذين استضعفوا) الخ عطف على جملة (يقول الذين استضعفوا) الخ وإن تغايرتا مضيا واستقبالا ه

ولما كان هذا القول رجوعا منهم إلى الكلام دون قول المستكبرين أنحن صددناكم فانه ابتداء كلام وقع جوابا للاعتراض عليهم جىء بالعاطف ههنا ولم يجىء به هناك على مااختاره بعضهم ، وقيل : إن النكتة فى ذلك أنه لما حكى قول المستضعفين بعد قوله تعالى (يرجع بعضهم إلى بعض القول) كان مظنة إن يقال: فماذا قال الذين استكبروا للذين استضعفوا وهل كان بين الفريقين تراجع ؟ فقيل: قال الذين استكبروا كذا ، وقال الذين استضعفوا كذا فأخرج مجموع القولين مخرج الجواب وعطف بعض الجواب على بعض فتدبر، والانداد جمع ند هو شائع فيمن يدعى أنه شريك مطلقا لكن ذكر الشيخ الاكبر قدس سره فى تفسيره الجارى فيه على مسلك المفسرين إيجاز البيان فى الترجمة عن القرآن وبخطه الشريف النورانى رأيته أنه مخصوص بمن يدعى الالوهية كفرعون واضرابه لأنه بذلك ند عن الله تعالى وشرد عن رحمته سبحانه ، وقال الشيخ: لأنه شرد عن العبودية له جل شأنه ﴿وأسروا﴾ أى أضمر الظالمون من الفريقين المستكبرين والمستضعفين ﴿الندامة﴾ على ما كان منهم فى الدنيا من الضلال والاضلال نظرا للمستكبرين ومن الضلال فقط نظرا للمستضعفين، والقول بحصول ندامتهم على الاضلال أيضا باعتبار قبوله تكلف، ولم يظهروا مايدل عليها من المحاورة وغيرها ﴿لما رأوا العذاب﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق واشتغلوا عن اظهارها بشغل شاغل ، وقيل : اخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير ، وتعقب بأنه كيف يتأتى هذا مع قول المستضعفين لرؤساهم لولا أنتم لكنا مؤمنين وأى ندامة اشد من هذا، وأيضا مخافة التعيير فى ذلك المقام بعيدة ، وقيل: اسروا الندامة بمعنى اظهروها فان اسر من الاضداد إذ الهمزة تصلح للاثبات وللسلب فمعنى اسره جعله سرا أو ازال سره ونظيره أشكيت، وانشد الزمخشرى لنفسه :

شكوت إلى الايام سوء صنيعها ومن عجب باك فشكى إلى المبكى
فما زادت الايام الاشكاية وما زالت الايام نشكى ولا تشكى

وتعقب ابن عطية هذا القول بأنه لم يثبت قط فى لغة ان أسر من الاضداد، وأنت تعلم أن المثبت مقدم على النافى فلا تغفل ﴿وجعلنا الأغلال﴾ أى القيود ﴿فى أعناق الذين كفروا﴾ وهم المستكبرون والمستضعفون والاصل فى أعناقهم إلا أنه أظهر فى مقام الاضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب اغلالهم، واستظهر أبو حيان عموم الموصول فيدخل فيه الفريقان المذكوران وغيرهم لأن من الكفار من لا يكون له اتباع تراجعه القول فى الآخرة ولا يكون هو تابعا لرئيس له كالغلام الذى قتله الخضر عليه السلام ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ٣٣﴾ أى لا يجزون الامثل الذى كانوا يعملونه من الشر، وحاصله لا يجزون الاشرا، وجزى قد يتعدى إلى مفعولين بنفسه كما يشير اليه قول الراغب يقال جزيته كذا وبكذا، وجوز كون مافى محل النصب بنزع الخافض وهو إما الباء أو عن أو على فانه ورد تعدية جزى بها جميعا ، وقيل : إن هذا التعدى لتضمينه معنى القضاء ومتى صح ماسمعت

www.Quranpdf.blogspot.in

عن الراغب لم يحتج إلى هذا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ ﴾ من القرى ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أى نذيرا من النذر ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أى المتوسعون فى النعم فيها ، والجملة فى موضع الحال ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره ، والجار الثانى متعلق بما عنده والأول متعلق بقوله تعالى: ﴿ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾ وهو خبر إن ، وظاهر الآية ان مترفى كل قرية قالوا لرسولهم ذلك وعليه فالجمع فى أرسلتم للتهكم ، وقيل : لتغليب المخاطب على جنس الرسل أو على اتباعه المؤمنين به ، وقال بعض الاجلة: الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع فقيل الجمع الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى (أرسلتم) والثانى (كافرون) فقد كفر كل برسوله وخاطبه بمثله فلا تغليب فى الخطاب فى أرسلتم ، وقيل : الجمع الأول «نذير» لأنه يفيد العموم فى الحكاية لا المحكى لوقوعه فى سياق النفى ، وليس كل قوم منكرا لجميع الرسل لحمل على المقابلة ، والكلام مسوق لتسلية رسول الله ﷺ مما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ، وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم فى الاغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون فى الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها بخلاف الفقراء فان قلوبهم لخلوها من ذلك أقبل للخير ولذلك تراهم أكثر اتباع الانبياء عليهم السلام كما جاء فى حديث هرقل ﴿ وَقَالُوا ﴾ الضمير للمترفين الذين تقدم ذكرهم ، وقيل : لقريش ، والظاهر المتبادر هو الأول ، والمراد حكاية ما شجعهم على الكفر بما أرسل به المنذرون أى وقال المترفون : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ أى أموالنا وأولادنا كثيرة جدا فأفعل للزيادة المطلقة ، وجوز بقاؤه على ماهو الاكثر استعمالا والمفضل عليه محذوف أى نحن أكثر منكم أموالا وأولادا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ ﴾ بشىء من أنواع العذاب الذى يكدر علينا لذة كثرة الأموال والاولاد من خوف الملوك وقهر الاعداء وعدم نفوذ الكلمة والكد فى تحصيل المقاصد ونحو ذلك ، وإيلاء الضمير حرف النفى للاشارة إلى أن المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك ، وحاصل قولهم نحن فى نعمة لا يشوبها نقمة وهو دليل كرامتنا على الله عز وجل ورضاه عنا فلو كان ما نحن عليه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه مخالفا لرضاه لما كنا فيما كنا فيه من النعمة ، ويجوز أن يكونوا قد قاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أن المنعم عليه فى الدنيا منعم عليه فى الآخرة ، وإلى هذا الوجه ذهب جمع وقالوا : نفى كونهم معذبين إما بناء على انتفاء العذاب الاخروى رأسا وإما بناء على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها ، وقال الخفاجى فى وجه إيلاء الضمير حرف النفى: إنه اشارة إلى أن المؤمنين معذبون استهانة بهم لظنهم أن المال والولد يدفع العذاب عنهم كما قاله بعض المشركين ، وأنت تعلم أن الاظهر عليه التفريع ، وذهب أبو حيان إلى أن المراد بالعذاب المنفى أعم من العذاب الاخروى والعذاب الدنيوى الذى قد ينذر به الانبياء عليهم السلام ويتوعدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم ، ولعل ماذكرناه أولا أنسب بالمقام فتأمل جدا ﴿ قُلْ ﴾ ردا لما زعموه من أن ذلك دليل الكرامة والرضا ﴿ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أن يبسطه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ على من يشاء أن يقدره عليه فربما يوسع سبحانه على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما معا وقد يوسع على شخص مطيع أو عاص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل

www.Quranpdf.blogspot.in

المبنية على الحكم البالغة فلو كان البسط دليل الا كرام والرضا لاختص به المطيع وكذا لو كان التضييق دليل الاهانة والسخط لاختص به العاصى وليس فليس، والحاصل كما قيل منع كون ذلك دليلا على مازعموا لاستواء المعادى والموالى فيه ، وقال جمع: أريد أنه تعالى يفعل ذلك حسب مشيئته المبنية على الحكم فلا ينقاس عليه أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها ، وقال ناصر الدين: لو كان ذلك لكرامة أوهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى، وهو مبنى على أن الايجاب ينافى الاختيار والمشيئة وقد قال به الخفاجى أخذا من كلام مولانا جلال الدين ورد به على من رد ، ولا يخفى أن دعوى المترفين الايجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه غير ظاهرة حتى يرد عليهم باثبات المشيئة التى لاتجامع الايجاب ، وقرأ الأعمش (ويقدر) مشدد هنا وفيما بعد ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ ذلك فنهم من يزعم أن مدار البسط الشرف والكرامة ومدار التضييق الهوان والحقارة، ومنهم من تحير واعترض على الله تعالى فى البسط على أناس والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الافهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

وعنى هذا القائل بالعالم النحرير نفسه ، ولعمرى أنه بوصف الجاهل البليد أحق منه بهذا الوصف فالعالم النحرير من يقول :

ومن الدليل على القضاء وحكمه (١) بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ كلام مستأنف من جهته عز وجل خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ماسبق كذا فى إرشاد العقل السليم، وجوز أن يكون ما تقدم لنفى أن يكون القرب والكرامة مدارا وعلة لكثرة الرزق وهذا النفى أن تكون كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة ويكون الخطاب للكفرة ، والتى واقع على الأموال والأولاد ، وحيث أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث وكان المجموع بمعنى جماعة صح الافراد والتأنيث أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف فى النظم الكريم ، وما ذكر تقدير معنى لا اعراب ، وعن الزجاج أن فى الكلام حذفا فى أوله لدلالة ما فى آخره والتقدير وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتى الخ ، وأنت تعلم أنه لا حاجة اليه أيضا، وجوز أن تكون التى صفة لموصوف مفرد مؤنث تقديره بالتقوى أو بالخصلة التى، وجوز الزمخشرى أن تكون التى كناية عن التقوى لأن المقرب إلى الله تعالى ليس إلا تلك أى وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب . وقرأ الحسن (باللاتى) جمعا وهو راجع للاموال والأولاد كالتى على ماسمعت أولا. وقرىء «بالذى» أى بالشىء الذى يقربكم

وزلفى مصدر كالقربى وانتصابه على المصدرية من المعنى . وقرأ الضحاك «زلفا» بفتح اللام وتنوين الفاء جمع زلفة وهى القربة ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء من مفعول «تقربكم» على ماذهب اليه جمع، وهو استثناء متصل إذا كان الخطاب عاما للمؤمنين والكفرة ومنقطع إذا كان خاصا بالكفرة فالموصول فى محل نصب

(١) نسخة وكونه بدل حكمه *

www.Quranpdf.blogspot.in

أو رفع على أنه مبتدأ ما بعده خبره أو خبره مقدر أي لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانه وعمله يقربانه *
واستظهر أبو حيان الانقطاع، وقال في البحر: ان الزجاج ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور وغلطه النحاس بأن ضمير المخاطب لا يجوز الابدال منه فلا يقال رأيتك زيدا، ومذاهب الأخفش . والكوفيين أنه يجوز أن يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم لكن البدل في الآية لا يصح ألا ترى أنه لا يصح تفريغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا فلو قلت مازيد بالذي يضرب إلا خالدا لم يصح اه *
وذكر بعض الأجلة ان جعله استثناء من المفعول لا يصح على جعل التي كناية عن التقوى لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حق غير من آمن وعمل صالحاً لكنها غير مقربة، وقيل لا بأس بذلك إذ يصح ان يقال وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلا المؤمنين، وحاصله ان المال والولد لا يكونان تقوى ومقربين لأحد إلا للمؤمنين، واذا كان الاستثناء منقطعاً صح واتضح ذلك ، وجوز أن يكون استثناء من (أموالكم وأولادكم) على حذف مضاف أي إلا أموال من آمن وعمل صالحاً وأولادهم، وفي هذا اذا جعل التي كناية عن التقوى مبالغة من حيث أنه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى. ثم ان تقريب الأموال المؤمن الصالح بانفاقها فيما يرضى الله تعالى وتقريب الاولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة *
﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فيما تقدم باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي فاولئك المنعوتون بالايمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ أي لهم أن يجازيهم الله تعالى الضعف أي الثواب المضاعف فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبعمائة فاضافة جزاء الى الضعف من اضافة المصدر الى مفعوله . وقرأ قتادة (جزاء الضعف) برفعهما فالضعف بدل ، وجوز الزجاج كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الضعف. ويعقوب في رواية بنصب (جزاء) ورفع (الضعف) فجزاء تمييز أو حال من فاعل (لهم) ان كان الضعف مبتدأ أو منه ان كان فاعلا أو نصب على المصدر لفعله الذي دل عليه (لهم) اي يجزون جزاء، وقرىء (جزاء) بالرفع والتنوين (الضعف) بالنصب على اعمال المصدر ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي في غرفات الجنة ومنازلها العالية ﴿آمِنُونَ ٣٧﴾ من جميع المكاره الدنيوية والأخرويه . وقرأ الحسن وعاصم بخلاف عنه. والاعمش. ومحمد ابن كعب (في الغرفات) باسكان الراء ، وقرأ بعض القراء بفتحها ، وابن وثاب . والأعمش . وطلحة. وحمزة وخلف (في الغرفة) بالتوحيد وإسكان الراء ، وابن وثاب ايضاً بالتوحيد وضم الراء والتوحيد على ارادة الجنس لأن الكل ليسوا في غرفة واحدة والمفرد أخصر مع عدم اللبس فيه ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي بحسب زعمهم الباطل الله عز وجل أو الأنبياء عليهم السلام، وحاصله زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السلام عليهم، ومعنى المفاعلة غير مقصود ههنا ﴿أُولَئِكَ﴾ الذي بعدت منزلتهم في الشر ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾ لا يجديهم ما عولوا عليه نفعاً، وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يوسعه سبحانه عليه تارة ويضيقه عليه أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله تعالى وتقربوا لديه عز وجل بأموالكم

www.Quranpdf.blogspot.in

وتعرضوا لنفحاته جل وعلا فمساق الآية للوعظ والتزهيد فى الدنيا والحض على التقرب اليه تعالى بالانفاق وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فانه للرد على الكفرة كما سمعت، وأيضا ماسبق عام وماهنا خاص فى البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين كما يشعر به قوله تعالى هنا (له) وعدم قوله هناك، والضمير وان كان فى موضع من المبهم إلا أن سبق النظير خاليا عن ذلك وذكر هذا بعده مشتملا عليه كالقرينة على ارادة ماذكر فلا تغفل *

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ يحتمل أن تكون ما شرطية فى موضع نصب بانفقتم وقوله تعالى ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ جواب الشرط ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذى فى موضع رفع بالابتداء والجملة بعد خبره ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، و (من شىء) تبيين على الاحتمالين، ومعنى (يخلفه) يعطى بدله ومايقوم مقامه عوضا عنه وذلك إما فى الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التى هى كنز لايفنى كما قيل. وإما فى الآخرة بالثواب الذى كل خلف دونه وخصه بعضهم بالآخرة ، أخرج الفريابى وعبد بن حميد . وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : إذا كان لأحدكم شىء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية (وما انفقتم من شىء فهو يخلفه) فان الرزق مقسوم ولعل ماقسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه، وأخرج من عدا الفريابى من المذكورين عنه انه قال فى الآية : أى ماكان من خلف فهو منه تعالى وربما أنفق الانسان ماله كله فى الخير ولم يخلف حتى يموت ، ومثلها (وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها) يقول ما آتاها من رزق فمنه تعالى وربما لم يرزقها حتى تموت ، والأول أظهر لأن الآية فى الحث على الانفاق وان البسط والقدر اذا كانا من عنده عز وجل فلا ينبغى لمن وسع عليه أن يخاف الضيعة بالانفاق ولا لمن قدر عليه زيادتها، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٣٩ ﴾ تذييل يؤيد ذلك كأنه قيل : فيرزقه من حيث لايحتسب . وقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن جابر بن عبدالله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « كل ما أنفق العبد نفقة فعلى الله تعالى خلفها ضامناً إلا نفقة فى بنيان أو معصية » *

وأخرج البخارى . وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «قال الله عز وجل أنفق ياابن آدم أنفق عليك » وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عنه قال «قال عليه الصلاة والسلام إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة » وفى حديث طويل عن الزبير قال الله تبارك وتعالى « أنفق أنفق عليك وأوسع أوسع عليك ولا تضيق أضيق عليك ولا تصر فأصر عليك ولا تخزن فاخزن عليك إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات متواصل إلى العرش لايغلق ليلا ولانهارا ينزل الله تعالى منه الرزق على كل امرىء بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته فمن أكثر أكثر له ومن أقل أقل له ومن أمسك أمسك عليه يازبير فكل وأطعم ولا تركى فيوكى عليك ولاتحصى فيحصى عليك ولا تقتر فيقتر عليك ولا تعسر فيعسر عليك » الحديث ، ومعنى الرازقين الموصلين للرزق والموهبين له فيطلق الرازق حقيقة على الله عز وجل وعلى غيره ويشعر بذلك (فارزقوهم منه) نعم لايقال لغيره سبحانه رازق فلا إشكال فى قوله سبحانه (وهو خير الرازقين) ووجه الأخيرية فى غاية الظهور ، وقيل إطلاق الرازق على غيره تعالى مجاز باعتبار أنه واسطة فى إيصال رزقه تعالى فهو رازق صورة فاستشكل أمر التفضيل بأنه لابد من مشاركة المفضل المفضل عليه فى أصل الفعل حقيقة لاصورة،

www.Quranpdf.blogspot.in

وأجاب الآمدى بأن المعنى خير من تسمى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقة أو مجازا وهو ضرب من عموم المجاز ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أى المستكبرين والمستضعفين أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عزوجل ، و«يوم» ظرف لمضمر متقدم أى واذكر يوم أو متأخر أى ويوم نحشرهم جميعا ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إلى آخره يكون من الأحوال والأهوال مالا يحيط به نطاق المقال، وظاهر العطف بثم يقتضى أن القول للملائكة متراخ عن الحشر وفى الآثار مايشهد له، فقد روى أن الخلق بعد أن يحشروا يبقون قياما فى الموقف سبع آلاف سنة لايكلمون حتى يشفع فى فصل القضاء نبينا ﷺ فلعله عند ذلك يقول سبحانه للملائكة عليهم السلام ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٤٠ ﴾ تقريعا للمشركين وتبكيتا وإقناطا لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعة الملائكة عليهم السلام لعلمه سبحانه بما تجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين) وتخصيصهم بالذكر لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم والصالحون عادة للخطاب وعبادتهم مبدأ الشرك بناء على مانقل ابن الوردى فى تاريخه فى أن سبب حدوث عبادة الأصنام فى العرب أن عمرو بن لحى مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له هذه أرباب نتخذها على شكل الهيا كل العلوية فنستنصر بها ونستسقى فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسول للعرب فعبدوه واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الاسلام وحدثت عبادة عيسى عليه السلام بعد ذلك بزمان كثير فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية .

و(هؤلاء) مبتدأ و«كانوا يعبدون» خبره و(إياكم) مفعول (يعبدون) قدم للفاصلة مع أنه أهم لأمر التقريع واستدل بتقديمه على جواز تقديم خبر كان إذا كان جملة عليها كما ذهب إليه ابن السراج فان تقديم المعمول مؤذن بجواز تقديم العامل . وتعقبه أبو حيان بأن هذه القاعدة ليست مطردة ثم قال : والأولى منع ذلك إلا أن يدل على جوازه سماع من العرب ، وقرأ جمهور القراء (نحشرهم ثم نقول) بالنون فى الفعلين ﴿ قَالُوا ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل : فماذا تقول الملائكة حينئذ؟ فقيل تقول منزهين عن ذلك ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على التحقق أى أنت الذى نواليه من دونهم لاموالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أى الشياطين كما روى عن مجاهد حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله تعالى، وقيل صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها، وقيل: كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها ، وقيل أرادوا أنهم عبدوا شيئا تخيلوه صادقا على الجن لاصادقا علينا فهم يعبدون الجن حقيقة دوننا ، وقال ابن عطية : يجوز أن يكون فى الأمم الكافرة من عبد الجن وفى القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت فى سورة الأنعام وغيرها ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٤١ ﴾ الضمير الثانى للجن والأول للمشركين ، والأكثر على ظاهره لأن من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتباعا لقومه كأبى طالب أو الأكثر بمعنى الكل، واختار فى البحر الأول لأن كونه بمعنى الكل ليس حقيقة وقال: إنهم لم يدعوا الاحاطة إذ يكون فى الكفار من لم يطلع الله تعالى الملائكة عليهم السلام عليهم أو أنهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجن لأن الايمان من أعمال القلب فلم يذكروا الاطلاع على عمل جميع قلوبهم لأن ذلك

www.Quranpdf.blogspot.in

لله عز وجل، وجوز أن يكون الضمير الأول للانس فالأكثر على ظاهره أى غالبهم مصدقون أنهم آلهة، وقيل مصدقون أنهم بنات الله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) وقيل مصدقون أنهم ملائكة ۞

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من جملة مايقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتبرىء عما نسب اليهم المشركون يخاطبون بذلك على رؤس الأشهاد إظهارا لعجزهم وقصورهم عن زاعمى عبادتهم وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية ، وقيل للكفار وليس بذاك، والفاء لترتيب الأخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السلام، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم ، والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها ، وقيل لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وفيه بعد، والمراد باليوم يوم القيامة وتقييد الحكم به مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذ ۞

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾ عطف على (نقول للملائكة) وقيل على لا يملك وتعقب بأنه مما يقال يوم القيامة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السلام . وأجيب بأن ذلك ليس بمانع فتدبر. ووقع الموصول هنا وصفا للمضاف اليه وفى السجدة فى قوله تعالى (عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) صفة للمضاف فقال أبو حيان : لأنهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب كما ينبىء عنه قوله تعالى : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) فوصف لهم ثمت مالابسوه وهنا لم يكونوا ملابسين له بل ذلك أول مارأوا النار عقب الحشر فوصف ماعاينوه لهم ، وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أن تأنيثه مكتسب لتتحد الآيتان تكلف سمج ۞

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بيان لبعض آخر من كفرهم أى إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون رسول الله ﷺ التالى للآيات، والاشارة للتحقير قاتلهم الله تعالى ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلهى، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ يعنون القرآن المتلو والاشارة كالاشارة السابقة ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أى كلام مصروف عن وجهه لامصداق له فى الواقع ﴿مُفْتَرًى﴾ باسناده إلى الله عز وجل ۞

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أى لأمر النبوة التى معها من خوارق العادة مامعها أو للاسلام المفرق بين المرء وزوجه وولده أو القرآن الذى تتأثر به النفوس على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالأول معناه وبالثانى نظمه المعجز ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تدبر ولا تأمل فيه ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٤٣﴾ ظاهر سحريته ۞

وفى ذكر (قال) ثانيا والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الاشارة إلى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجب بليغ منه، وجوز أن تكون كل جملة صدرت

www.Quranpdf.blogspot.in

من قوم من الكفرة ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى أهل مكة ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضى صحة الاشراك ليعذروا فيه فهو كقوله تعالى: «أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون» وقوله سبحانه: «أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون» وإلى هذا ذهب ابن زيد، وقال السدى: المعنى ما آتيناهم كتبا يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلان ماجئت به، ويرجع إلى الأول، والمقصود نفى أن يكون لهم دليل على صحة ماهم عليه من الشرك، ومن صلة، وجمع الكتب إشارة على ماقيل الى أنه لشدة بطلانه واستحالة إثباته بدليل سمعى أو عقلى يحتاج إلى تكرر الأدلة وقوتها فكيف يدعى ما تواترت الأدلة النيرة على خلافه. وقرأ أبو حيوة «يدرسونها» بفتح الدال وشدها وكسر الراء مضارع أدرس افتعل من الدرس ومعناه يتدارسونها، وعنه أيضا «يدرسونها» من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب مخففاً ودرس الكتب مشددا التضعيف فيه باعتبار الجمع.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ٤٤﴾ أى وما أرسلنا اليهم قبلك نذيرا يدعوهم إلى الشرك وينذرهم بالعقاب على تركه وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ، وفيه من التهكم والتجهيل ما لا يخفى، ويجوز أن يراد أنهم أميون كانوا فى فترة لا عذر لهم فى الشرك ولا فى عدم الاستجابة لك كأهل الكتاب الذين لهم كتب ودين يأبون تركه ويحتجون على عدم المتابعة بأن نبيهم حذرهم ترك دينه مع أنه بين البطلان لثبوت أمر من قبله باتباعه وتبشير الكتب به، وذكر ابن عطية أن الأرض لم تخل من داع إلى توحيد الله تعالى فالمراد نفى إرسال نذير يختص بهؤلاء ويشافههم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام والله تعالى يقول: «إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا» ولكن لم يتجرد للنذارة وقاتل عليها إلا محمد ﷺ اهـ، ثم انه تعالى هددهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدمة والقرون الخالية بما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أى أهل مكة ﴿مِعْشَارَ﴾ أى عشر ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وقال: قوم المعشار عشر العشر ولم يرتضه ابن عطية، وقال الماوردى: المراد المبالغة فى التقليل أى ما بلغوا أقل قليل مما آتينا أولئك المكذبين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أى أولئك المكذبون ﴿رُسُلِي﴾ الذين أرسلتهم اليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ أى إنكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك. والفاء الأولى سببية و(كذب) الأول تنزل منزلة اللازم أى فعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه، ونظير ذلك أن يقول القائل أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ومن هنا قالوا: إن (كذبوا رسلى) عطف على (كذب الذين) عطف المقيد على المطلق وهو تفسير معنى (وما بلغوا) اعتراض والفاء الثانية فصيحة فيكون المعنى فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير فكيف كان نكيرى لهم، وجعل التدمير إنكارا تنزيلا للفعل منزلة القول كما فى قوله * ونشتم بالأفعال لا بالتكلم * أو على نحو * تحية بينهم ضرب وجيع * وجوز بعضهم أن يكون صيغة التفعيل فى (كذب الذين للتكثير) وفى (كذبوا) للتعدية والمكذب فيهما واحد أى أنهم أكثروا الكذب وألفوه فصار سجية لهم حتى اجترؤا على تكذيب الرسل، وعلى الوجهين لا تكرار، وجوز أن يكون (كذبوا

www.Quranpdf.blogspot.in

رسلى) منعطفا على (مابلغوا) (١) من تتمة الاعتراض والضمير لأهل مكة يعنى هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذبين الأولين وفضلوهم فى التكذيب لأن تكذيبهم لخاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيب لجميع الرسل عليهم السلام من وجهين وعليه لايتوهم تكرار كما لايخفى، وكون جملة (مابلغوا) معترضة هو الظاهر وجعل (وكذب الذين من قبلهم) تمهيدا لئلا تكون تلك الجملة كذلك يدفعه (فكيف كان نكير) لأن معناه للمكذبين الأولين البتة فلا التئام دون القول بكونها معترضة، وإرجاع ضمير (بلغوا) إلى أهل مكة والضمير المنصوب فى (آتيناهم) إلى (الذين من قبلهم) وبيان الموصول بما سمعت هو المروى عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، وقيل الضمير الأول للذين من قبلهم والضمير الثانى لأهل مكة أى وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى، وقيل :الضميران للذين من قبلهم، أى كذبوا وما بلغوا فى شكر النعمة ومقابلة المنة عشر ما آتيناهم من النعم والاحسان إليهم، واستظهر ذلك أبو حيان معللا له بتناسق الضمائر حيث جعل ضمير (فكذبوا) للذين من قبلهم فلا تغفل ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة وهى على ماقال قتادة ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ على أنه فى تأويل مصدر بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى قيامكم أو مفعول لفعل محذوف أى أعنى قيامكم، وجوز الزمخشرى كونه عطف بيان لواحدة . واعترض بأن (أن تقوموا) معرفة لتقديره بقيامكم، وعطف البيان يشترط فيه عند البصريين أن يكون معرفة من معرفة وهو عند الكوفيين يتبع ماقبله فى التعريف والتنكير والتخالف مما لم يذهب اليه ذاهب ه

والظاهر أن الزمخشرى ذاهب إلى جواز التخالف، وقد صرح ابن مالك فى التسهيل بنسبة ذلك اليه وهو من مجتهدى علماء العربية، وجوز أن يكون قد عبر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيهما وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمى التوكيد صفة وعطف البيان صفة، ثم إن كون المصدر المسبوك معرفة أو مؤولا بها دائما غير مسلم، والقيام مجاز عن الجد والاجتهاد، وقيل هو على حقيقته والمراد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وليس بذاك، وقد روى نفى إرادته عن ابن جريج أى إن تجدوا وتجتهدوا فى الأمر باخلاص لوجه الله تعالى ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان فى الازدحام على الأغلب تهويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الانصاف كما هو مشاهد فى الدروس التى يجتمع فيها الجماعة فانه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق وفى تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان، وفى البحر قدم لأن طلب الحقائق من متعاضدين فى النظر أجدى من فكرة واحدة فاذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة وشاع الفتح بين الاثنين ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فى أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيته، والوقف عند أبى حاتم هنا، وقوله تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لايتصدى لادعائه إلا مجنون لايبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله تعالى مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلا وأصدقهم قولا وأذكاهم نفسا وأفضلهم علما وأحسنهم

(١) والفاء للفذلكة على ماقيل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للايماء إلى أن حاله ﷺ مشهور بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفا بما ذكرنا، وجوز أن يكون متعلقا بما قبله والوقف على (جنة) على أنه مفعول لفعل علم مقدر لدلالة التفكر عليه لكونه طريق العلم أى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة أو معمول لتتفكروا على أن التفكر مجاز عن العلم أو معمول له بدون ارتكاب تجوز بناء على ماذهب اليه ابن مالك فى التسهيل من أن تفكر يعلق حملا على أفعال القلوب، وجوز أن يكون هناك تضمين أى ثم تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جنة، وقال ابن عطية: هو عند سيبويه جواب ماينزل منزلة القسم لأن تفكر من الأفعال التى تعطى التمييز كتبيين وتكون الفكرة على هذا فى آيات الله تعالى والايمان به اه وهو كما ترى، و(ما) مطلقا نافية والباء بمعنى فى ومن صلة، وقيل: ما الاستفهام الإنكارى ومن بيانية، وجوز أن تكون صلة أيضا وفيه تطويل المسافة وطيها أولى (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٤٦) هو عذاب الآخرة فانه ﷺ مبعوث فى نسم الساعة وجاء «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضم عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور *

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفى السؤال رأسا كقولك لصاحبك إن أعطيتنى شيئاً فخذه وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئاً، فما شرطية مفعول (سألتكم) وهو المروى عن قتادة، وقيل هى موصولة والعائد محذوف ومن للبيان، ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط أى الذى سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعود اليكم، وهو على مازوى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إشارة إلى المودة فى القربى فى قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) وكون ذلك لهم على القول بأن المراد بالقربى قرباهم ظاهر، وأما على القول بأن المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام فلأن قرباه ﷺ قرباهم أيضا أو هو إشارة إلى ذلك وإلى ماتضمنه قوله تعالى: (ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) وظاهر أن اتخاذ السبيل اليه تعالى منفعتهم الكبرى، وجوز كون ما نافية ومن صلة وقوله سبحانه: (فهو لكم) جواب شرط مقدر أى فاذا لم أسألكم فهو لكم، وهو خلاف الظاهر *

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يؤيد إرادة نفى السؤال رأسا. وقرىء (إن أجرى) بسكون الياء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٤٧﴾ أى مطلع فيعلم سبحانه صدقى وخلوص نيتى ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ قال السدى وقتادة: بالوحى، وفى رواية أخرى عن قتادة بالقرآن والمآل واحد، وأصل القذف الرمى بدفع شديد وهو هنا مجاز عن الالقاء، والباء زائدة أى إن ربى يلقى الوحى وينزله على قلب من يجتبيه من عباده سبحانه، وقيل القذف مضمن معنى الرمى فالباء ليست زائدة، وجوز أن يراد بالحق مقابل الباطل والباء للملابسة والمقذوف محذوف، والمعنى إن ربى يلقى مايلقى الى أنبيائه عليهم السلام من الوحى بالحق لا بالباطل *

وعن ابن عباس إن المعنى يقذف الباطل بالحق أى يورده عليه حتى يبطله عز وجل ويزيله، والحق مقابل الباطل والباء مثلها فى قولك قتلته بالضرب، وفى الكلام استعارة مصرحة تبعية والمستعار منه حسى والمستعار له عقلى، وجوز أن تكون الاستعارة مكنية، وقيل: المعنى يرمى بالحق الى أقطار الآفاق على أن ذلك

www.Quranpdf.blogspot.in

مجاز عن اشاعته فيكون الكلام وعدا باظهار الاسلام وافشائه، وفيه من الاستعارة ما فيه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ ٤٨﴾ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أى هو سبحانه علام الغيوب أو صفة محمولة على محل إن مع اسمها كما جوزه الكثير من النحاة وان منعه سيبويه أو بدل من ضمير (يقذف) ولا يلزم خلو جملة الخبر من العائد لأن المبدل منه ليس بمنه الطرح من كل الوجوه، وقال الكسائى: هو نعت لذلك الضمير ومذهبه جواز نعت المضمر الغائب *

وقرأ عيسى. وزيد بن على. وابن أبى اسحق. وابن أبى عبلة. وأبو حيوة. وحرب عن طلحة (علام) بالنصب فقال الزمخشرى: صفة لربى، وقال أبو الفضل الرازى. وابن عطية: بدل، وقال الحوفى: بدل أو صفة، وقيل نصب على المدح. وقرأ ابن ذكوان. وأبو بكر. وحمزة. والكسائى (الغيوب) بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالعشور وهو فيهما جمع، وقرىء بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أى الاسلام والتوحيد أو القرآن، وقيل السيف لأن ظهور الحق به وهو كما ترى ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أى الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾ أى ذهب واضمحل بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحى فانه إذا هلك لم يبق له ابداء أى فعل أمر ابتداء ولا اعادة أى فعله ثانيا كما يقال لا يأكل ولا يشرب أى ميت فالكلام كناية عما ذكر أو مجاز متفرع على الكناية، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص

أقفر من أهله عبيد * فاليوم لا يبدى ولا يعيد

وقال جماعة: الباطل ابليس واطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه، ولا كناية فى الكلام عليه، والمعنى لا ينشىء خلقا ولا يعيد أو لا يبدىء خيرا لأهله ولا يعيد أى لا ينفعهم فى الدنيا والآخرة، وقيل هو الصنم والمعنى ما سمعت، وعن أبى سليمان أن المعنى إن الصنم لا يبتدى من عنده كلاما فيجاب ولا يرد ما جاء من الحق بحجة *

و(ما) على جميع ذلك نافية، وقيل: هى على ما عدا القول الأول للاستفهام الانكارى منتصبة بما بعدها أى أى شىء يبدى الباطل وأى شىء يعيد ومآله النفى، والكلام جوز أن يكون تكميلا لما تقدم وأن يكون من باب العكس والطرد وأن يكون تذييلا مقررا لذلك فتأمل ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى﴾ أى عائدا ضرر ذلك ووباله عليها فانها الكاسبة للشرور والأمارة بالسوء ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ الى الحق ﴿فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى﴾ فان الاهتداء بهدايته تعالى وتوفيقه عز وجل، وما موصولة أو مصدرية، وكان الظاهر وان اهتديت فلها كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها) أو ان ضللت فانما أضل بنفسى ليظهر التقابل لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بالتقابل بحسب المعنى لأن الكلام عليه أجمع فان كل ضرر فهو من النفس وبسببها وعليها وباله، وقد دل لفظ على فى القرينة الأولى على معنى اللام فى الثانية والباء فى الثانية على معنى السببية فى الأولى فكأنه قيل: قل إن ضللت فانما أضل بسبب نفسى على نفسى وان اهتديت فانما اهتدى لنفسى بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه، وعبر عن هذا (بما يوحى إلى ربى) لأنه لازمه، وجعل على للتعليل وإن ظهر عليه التقابل ارتكاب لخلاف الظاهر من غير نكتة *

وجوز أن يكون معنى القرينة الأولى قل إن ضللت فانما أضل على لا على غيرى، ولا يظهر عليه أمر التقابل مطلقا، والحكم على ما قال الزمخشرى عام وإنما أمر ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل

www.Quranpdf.blogspot.in

تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به، وقال الامام: أي إن ضلال نفسى كضلالكم لأنه صادر من نفسى ووباله عليها وأما اهتدائى فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال وإنما هو بالوحى المنير فيكون مجموع الحكمين عنده مختصا به عليه الصلاة والسلام، وفيما ذكره دلالة على ماقال الطيبى على أن دليل النقل أعلى وأفخم من دليل العقل وفيه بحث. وقرأ الحسن. وابن وثاب. وعبدالرحمن المقرى (ضللت) بكسر اللام و(أضل) بفتح الضاد وهى لغة تميم، وكسر عبدالرحمن همزة (أضل) وقرىء (ربى) بفتح الياء ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ٥٠﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدى والضال وفعله وإن بالغ فى إخفائهما فيجازى كلا بما يليق.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ أى اعتراهم انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف، والخطاب فى ترى للنبى ﷺ أو لكل من تصح منه الرؤية، ومفعول (ترى) محذوف أى الكفار أو فزعهم أوهو (إذ) على التجوز إذ المراد برؤية الزمان رؤية مافيه أوهو متروك لتنزيل الفعل منزلة اللازم أى لوتقع منك رؤية وجواب (لو) محذوف أى لرأيت أمراً هائلا، وهذا الفزع على ماأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد يوم القيامة، والظاهر عليه أنه فزع البعث وهو مروى عن الحسن. وأخرج ابن المنذر. وغيره عن قتادة أنه فى الدنيا عند الموت حين عاينوا الملائكة عليهم السلام. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه يوم بدر فقيل هو فزع الحرب، وعن السدى. وابن زيد فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب، وقيل فى آخر الزمان حين يظهر المهدى ويبعث إلى السفيانى جنداً فيهزمهم ثم يسير السفيانى إليه حتى إذا كان ببيداء من الأرض خسف به وبمن معه فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم فالفزع فزع مايصيبهم يومئذ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أونحوه عما يريد سبحانه بهم ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ٥١﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم وإلا فلاقرب ولابعد بالنسبة إلى الله عزوجل، والجملة عطف على (فزعوا) على ماذهب إليه جماعة قال فى الكشف: وكأن فائدة التأخير أن يقدر فلافوت ثانيا إما تأكيداً وإما أن أحدهما غير الآخر تنبيها على أن عدم الفوت سبب للاخذ وأن الأخذ سبب لتحققه وجوداً، وفيه مبالغة حسنة، وقيل على (لافوت) على معنى فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جنى معترضا على ماتقدم بأنه لايراد ولو ترى وقت فزعهم وأخذهم وإنما المراد ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا، وبما نقل عن الكشف يتحصل الجواب عنه.

وجوز كونها حالا من فاعل (فزعوا) أو من خبر لا المقدر وهو لهم بتقدير قد أو بدونه، والفاء فى (فلافوت) قيل إن كانت سببية فهى داخلة على المسبب لأن عدم فوتهم من فزعهم وتحيرهم وإن كانت تعليلية فهى تدخل على السبب لترتب ذكره على ذكر المسبب، وإذا عطف (أخذوا) عليه أو جعل حالا من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع. وقرأ عبدالرحمن مولى بنى هاشم عن أبيه وطلحة (فلا فوت وأخذ) مصدرين منونين.

وقرأ أبى (فلافوت) مبنياً (وأخذ) مصدراً منونا، وإذا رفع أخذ كان خبر مبتدأ محذوف أى وحالهم أخذ أو مبتدأ خبره محذوف أى وهناك أخذ وإلى ذلك ذهب أبو حيان، وقال الزمخشرى: قرىء وأخذ بالرفع على أنه معطوف على محل (لا فوت) ومعناه فلافوت هناك وهناك أخذ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أى بالله عزوجل على ما أخرجه جمع

www.Quranpdf.blogspot.in

عن مجاهد، وقالت فرقة: أى بمحمد ﷺ وقد مر ذكره فى قوله سبحانه (مابصاحبكم من جنة) وقيل الضمير للعذاب، وقيل للبعث، ورجح رجوعه الى محمد عليه الصلاة والسلام لأن الايمان به ﷺ شامل للايمان بالله عز وجل وبما ذكر من العذاب والبعث ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ التناوش التناول كما قال الراغب وروى عن مجاهد * وقال [illegible] ى‍ء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم وتناوشوا فى الحرب ناش بعضهم بعضاً بالسلاح وقال الراجز :

فهى تنوش الحوض نوشا من علا   نوشا به تقطع أجواز الفلا

وابقاؤه على عمومه أولى أى من أين لهم أن يتناولوا الايمان ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٥٢ ﴾ فانه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد؛ ونقل فى البحر عن ابن عباس تفسير (التناوش) بالرجوع أى من أين لهم الرجوع الى الدنيا، وأنشد ابن الأنبارى :

تمنى أن تؤوب الى مى   وليس الى تناوشها سبيل

ولايخفى أنه ليس بنص فى ذلك، والمراد تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالايمان بعد مافات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشىء بعد أن بعد عنه وفات فى الاستحالة. وقرأ حمزة. والكسائى. وأبو عمرو. وابو بكر (التناؤش) بالهمز وخرج على قلب الواو همزة، قال الزجاج: كل واو مضمومة ضمة لازمة فانت بالخيار فيها ان شئت أبقيتها وان شئت قلبتها همزة فتقول ثلاث أدور بلا همز وثلاث أدؤر بالهمز. وتعقب ذلك أبو حيان فقال: إنه ليس على اطلاقه بل لايجوز ذلك فى المتوسطة اذا كانت مدغما فيها نحو تعود وتعوذ مصدرين وقد صرح بذلك فى التسهيل ولا اذا صحت فى الفعل نحو ترهوك ترهوكا وتعاون تعاونا، وعلى هذا لايصح التخريج المذكور لأن التناوش كالتعاون فى أن واوه قد صحت فى الفعل اذ تقول تناوش فلا يهمز. وقال الفراء : هو من نأشت أى تأخرت وأنشد قول نهشل :

تمنى نئيشا ان يكون أطاعنى   وقد حدثت بعد الأمور أمور

أى تمنى أخيراً، والضمير للدولى فى قوله :

ومولى عصانى واستبد برأيه   كما لم يطع فيما أشاء قصير

فالهمزة فيه أصلية واللفظ ورد من مادتين، وقال بعضهم: هو من نأشت الشىء اذا طلبته، قال رؤبة :

أقحمنى جار أبى الخاموش   اليك نأش القدر النؤش

فالهمزة أصلية أيضاً ، قيل والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بعد لأن الأخير يقتضى ذلك والطلب لا يكون للشىء القريب منك الحاضر عندك فيكون من (مكان بعيد) تأكيداً أو يجرد التناوش لمطلق التناول ، وحمل البعد فى قيده على البعد الزمانى بحث فيه الشهاب بأنه غير صحيح لأن المستعار منه هو فى المكان وماذكر من أحوال المستعار له ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ حال أو معطوف او مستأنف والأول أقرب، والضمير المجرور لما عاد عليه الضمير السابق فى (آمنا به) ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل ذلك فى أوان التكليف *

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى كانوا يرجمون بالمظنون ويتكلمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق فى شأن

www.Quranpdf.blogspot.in

الله عز وجل فينسبون إليه سبحانه الشريك ويقولون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا أوفى شأن الرسول عليه الصلاة والسلام فيقولون فيه وحاشاه: شاعر وساحر وكاهن أو فى شأن العذاب أو البعث فيبتون القول بنفيه ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٥٣﴾ من جهه بعيدة من أمر من تكلموا فى شأنه، والجملة عطف على (وقد كفروا) وكان الظاهر وقذفوا إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع حكاية للحال الماضية، والكلام قيل لعله تمثيل لحالهم من التكلم بما يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق بحال من يرمى شيئاً لايراه من مكان بعيد لامجال للظن فى لحوقه، وجوز الزمخشرى كونه عطفا على (قالوا آمنا به) على أنهم مثلوا فى طلبهم تحصيل ماعطلوه من الايمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لامجال للظن فى لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه شاحطا. وقرأ مجاهد. وأبوحيوة. ومحبوب عن أبى عمرو (يقذفون) مبنيا للمفعول، قال مجاهد: أى ويرجمهم الوحى بما يكرهون مما غاب عنهم من السماء، وكأن الجملة فى موضع الحال من ضمير كفروا كأنه قيل: وقد كفروا به من قبل وهم يقذفون بالحق الذى غاب عنهم وخفى عليهم، والمراد تعظيم أمر كفرهم، وجوز أن يراد بالغيب ماخفى من معايبهم أى وقد كفروا وهم يقذفهم الوحى من السماء ويرميهم بما خفى من معايبهم *

وقال أبو الفضل الرازى: أى ويرمون بالغيب من حيث لايعلمون، ومعناه يجازون بسوء أعمالهم ولاعلم لهم بمأتاه إما فى حال تعذر التوبة عند معاينة الموت وإما فى الآخرة انتهى، وفى حالية الجملة عليه نوع خفاء *

وقال الزمخشرى: أى وتقذفهم الشياطين بالغيب ويلقنونهم إياه وكان الجملة عطف على (قد كفروا) وقيل أى يلقون فى النار وهو كما ترى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال ابن عباس: هو الرجوع إلى الدنيا، وقال الحسن: هو الايمان المقبول، وقال قتادة: طاعة الله تعالى، وقال السدى: التوبة، وقال مجاهد: الأهل والمال والولد *

وقيل أى حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش أو بينهم وبين تخريب الكعبة أو بينهم وبين النجاة من العذاب أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذتها وروى ذلك عن مجاهد أيضا و (حيل) مبنى للمجهول ونائب الفاعل كما قال أبو حيان ضمير المصدر أى وحيل هو أى الحول، وحاصله وقعت الحيلولة ولاضماره لم يكن مصدرا مؤكداً فناب مناب الفاعل، وعلى ذلك يخرج قوله:

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل يسؤك وإن يكشف غرامك تدرب

أى يعتلل هو أى الاعتلال، وقال الحوفى: قام الظرف مقام الفاعل، وتعقبه فى البحر بأنه لو كان كذلك لكان مرفوعا والاضافة إلى الضمير لاتسوغ البناء وإلا لساغ جاء غلامك بالفتح ولايقوله أحد، نعم للبناء للاضافة إلى المبنى مواضع أحكمت فى النحو، وماذا يقول الحوفى فى قوله * وقد حيل بين العير والنزوان * فانه نصب بين مع اضافتها إلى معرب. وقرأ ابن عامر. والكسائى باشمام الضم للحاء *

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة، و (من قبل) متعلق بأشياعهم على أن المراد من اتصف بصفتهم من قبل أى فى الزمان الأول، ويرجحه أن مايفعل بجميعهم فى الآخرة إنما هو فى وقت واحد أو متعلق بفعل إذا كانت الحيلولة فى الدنيا، وعن الضحاك أن المراد بأشياعهم أصحاب الفيل، والظاهر أنه جعل الآية فى السفيانى ومن معه *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ٥٤﴾ أي موقع في ريبة على أنه من أرابه أوقعه في ريبة وتهمة أو ذي ريبة من أراب الرجل صار ذا ريبة فاما أن يكون قد شبه الشك بانسان يصح أن يكون مريبا على وجه الاستعارة المكنية التخييلية أو يكون الاسناد مجازيا أسند فيه مالصاحب الشك للشك مبالغة كما يقال شعر شاعر، وكأنه من هنا قال ابن عطية: الشك المريب أقوى مايكون من الشك، وضمير الجمع للاشباع وقيل: لأولئك المحدث عنهم والله تعالى أعلم ﴿ومن باب الاشارة في بعض آيات السورة ماقيل﴾ (ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير) أشير بالجبال إلى عالم الملك وبالطير إلى عالم الملكوت، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سرى في جميع أجزاء البدن فيسمع الذاكر كل جزء منه ذاكرا فاذا ترقى حاله يسمع كل ما في عالم الملك كذلك فاذا ترقى يسمع كل ما في الوجود كذلك وإن من شيء إلا يسبح بحمده (وألنا له الحديد) القلب (أن اعمل سابغات) وهي الحكم البالغة التي تظهر من القلب على اللسان (وقدر في السرد) أي في سرد الحديث بأن تتكلم بالحكمة على قدر مايتحمله عقل مخاطبك، وقد ورد كلموا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله ﷺ ٥

ومن هنا يصعب الجواب عمن تكلم من المتصوفة بما ينكره أكثر من يسمعه من العلماء وبه ضل كثير من الناس (ولسليمان الريح) ريح العناية (غدوها شهر ورواحها شهر) فكان يتصرف بالهمة وقذف الانوار في قلوب متبعيه من مسافة شهر (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) اشارة إلى قوة باطنه حيث انقاد له من جبل على المخالفة وفعل الشرور (وقليل من عبادي الشكور) وهو من شكره بالاحوال أعني التخلق باخلاق الله تعالى (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته) فيه اشارة إلى أن الضعيف قد يفيد القوى علما (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) وهي مقامات أهل الباطن من العارفين (قرى ظاهرة) وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين (سيروا فيها الليالي) في ليالي البشرية (وأياما) في أيام الروحانية (آمنين) في خفارة الشريعة ٥

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفية: القرى المبارك فيها الائمة رضي الله تعالى عنهم والقرى الظاهرة الدعاة اليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم (وظلموا أنفسهم) بميلهم إلى الدنيا وترك السير لسوء استعدادهم (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم) فيه اشارة إلى أن الهيبة تمنع الفهم (وما أرسلناك) أي ما أخرجناك من العدم إلى الوجود (الا كافة للناس) الأولين والآخرين (بشيرا ونذيرا) وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الارواح وفي عالم الاجساد (ولكن اكثر الناس لايعلمون) إذ لانور لهم يهتدون به (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا الارجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) هؤلاء قطاع الطريق على عباد الله تعالى ومثلهم المنكرون على أولياء الله تعالى الذين ينفرون الناس عن الاعتقاد بهم واتباعهم (قل إن ضللت فانما أضل على نفسي) إن النفس لأمارة بالسوء (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربي) من القرآن وفيه اشارة إلى أنه نور لايبقى معه ديجور أو مراتب الاهتداء به متفاوتة حسب تفاوت الفهم الناشئ من تفاوت صفاء الباطن وطهارته، وقد ورد أن للقرآن ظاهرا وباطنا ولايكاد يصل الشخص إلى باطنه الا بتطهير باطنه كما يرمز اليه قوله تعالى (لايمسه الا المطهرون) نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم ظاهره وباطنه إلى ماشاء من البطون فانه جل وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون ٥

www.Quranpdf.blogspot.in

سورة سبإ

مكية في قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ الآية . فقالت فرقة : هي مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي ﷺ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلاَم وغيره؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ المؤمنون به كائناً من كان. وهي أربع وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ﴿الَّذِي﴾ في موضع خفض على النعت أو البدل. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ، وأن يكون في موضع نصب بمعنى أعني. وحكى سيبويه «الحمد لله أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض. والحمد الكامل والثناء الشامل كله لِلَّهِ؛ إذ النعم كلها منه. وقد مضى الكلام فيه في أوّل الفاتحة[1]. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[2]. وقيل: هو قوله ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] فهو المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا؛ وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأمر خلقه.

[٢] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي ما يدخل فيها من قَطْر وغيره، كما قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾[2] من الكنوز والدفائن والأموات وما هي له كِفات[4]. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات. وقرأ عليّ بن أبي طالب ﴿وما ننزِّل﴾ بالنون والتشديد. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد؛ قاله الحسن وغيره. ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

(١) راجع ١/ ١٣١.
(٢) راجع ١٥/ ٢٨٤ فما بعد وص ٢٤٥.
(٣) راجع ٨/ ٣١٣.
(٤) الكفات: الموضع الذي يضم إليه الشي ويقبض.

[٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾﴾.

[٤] ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قيل: المراد أهل مكة. قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللاّت والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وروى هارون عن طَلْق المعلم قال: سمعت أشياخنا يقرؤون ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بياء، حملوه على المعنى، كأنه قال: ليأتينكم البعث أو أمره. كما قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(١). فهؤلاء الكفار مقرّون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا: وإن قدر لا يفعل. فهذا تحكّم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب مَن وجب صدقه محال. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء، وخبره ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ وقرأ عاصم وأبو عمرو ﴿عالِم﴾ بالخفض، أي الحمد لِلّهِ عالِم، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿علاّم الغيب﴾ على المبالغة والنعت. ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنه﴾ أي لا يغيب عنه، ﴿ويَعْزِب﴾ أيضاً. قال الفراء: والكسر أحبّ إليّ. النحاس: وهي قراءة يحيى بن وثّاب، وهي لغة معروفة. يقال: عَزَب يعزُب ويعزِب إذا بَعُد وغاب. ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي قدر نملة صغيرة. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾ وفي قراءة الأعمش ﴿وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ﴾ بالفتح فيهما عطفاً على ﴿ذَرَّةٍ﴾. وقراءة العامّة

(١) راجع ١٠/ ١٠٢.

بالرفع عطفاً على ﴿مِثْقَالُ﴾. ﴿إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ منصوب بلام كي، والتقدير: لتأتينكم لِيجزي. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني المؤمنين. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

[٥] ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي في إبطال أدلّتنا والتكذيب بآياتنا. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة، وظنوا أنا نُهملهم؛ فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ يقال: عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه. و ﴿أَلِيمٍ﴾ قراءة نافع بالكسر نعتاً للرِّجْز، فإن الرِّجْز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾(١). وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع ﴿الميم﴾ هنا وفي ﴿الجاثية﴾(٢) نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ مثبّطين؛ أي ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن.

[٦] ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾.

لما ذكر الذين سَعَوا في إبطال النبوّة بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق. قال مقاتل: ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحاب محمد ﷺ. وقيل جميع المسلمين، وهو أصح لعمومه. والرؤية بمعنى العلم، وهو في موضع نصب عطفاً على ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ أي ليجزي وليرى، قاله الزجاج والفرّاء. وفيه نظر

(١) راجع ١/٤١٥ فما بعد.
(٢) راجع ١٦/١٥٩ فما بعد.

لأن قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ السَّاعَة»، ولا يقال: لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، فإنهم يرون القرآن حقًّا وإن لم تأتهم الساعة. والصحيح أنه رفع على الاستئناف، ذكره القشيريّ.

قلت: وإذا كان ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقاً بمعنى أثبت ذلك في كتاب مبين، فيحسن عطف ﴿وَيَرَى﴾ [عليه]، أي وأثبت أيضاً ليرى[1] الذين أوتوا العلم أن القرآن حق. ويجوز أن يكون مستأنفاً. ﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب على أنه مفعول أوّل لـ ﴿يرى﴾ ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ مفعول ثان، و ﴿هو﴾ فاصلة. والكوفيون يقولون ﴿هو﴾ عماد. ويجوز الرفع على أنه مبتدأ. و ﴿الْحَقُّ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب على المفعول الثاني، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوك هو زيد، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع. وكذا كان محمد هو عمرو. وعلّته في اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة في قولك: كان زيد هو جالس، لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع. ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي يهدي القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله. ودلّ بقوله: ﴿العزيزِ﴾ على أنه لا يغالب. وبقوله: ﴿الْحَمِيدِ﴾ على أنه لا يليق به صفة العجز.

[٧] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ وإن شئت أدغمت اللام في النون لقربها منها. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبار عمن قال: ﴿لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم، أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البِلى في القبور. وهذا صادر عن فرط إنكارهم. الزمخشريّ: «فإن قلت: كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ

---

(١) في «الأصول»: «وأثبت أيضاً رؤية الذين. . .».

عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكّروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يُدَلّ على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْز[1] والهزؤ والسخرية، فأخرجوه مخرج التحكي[2] ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهّي، متجاهلين به وبأمره. و ﴿إذا﴾ في موضع نصب والعامل فيها ﴿مُزِّقْتُمْ﴾ قاله النحاس. ولا يجوز أن يكون العامل فيها ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾، لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت. ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد ﴿إِنَّ﴾، لأنه لا يعمل فيما قبله، وألا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولها. وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفاً؛ التقدير: إذا مزقتم كل ممزق بعثتم، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم. المهدويّ: ولا يعمل فيه ﴿مُزِّقْتُمْ﴾؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأجازه بعضهم على أن يجعل ﴿إِذَا﴾ للمجازاة، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه. وأكثر ما تقع ﴿إِذَا﴾ للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقتم كل تفريق. والمَزْق خرق الأشياء؛ يقال: ثوب مَزِيق وممزوق ومتمزِّق وممزَّق.

[٨] ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَى على اللَّهِ كَذِباً﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل فحذفتها، وكان فتح ألف الاستفهام فرقاً بينها وبين ألف الوصل. وقد مضى هذا في سورة ﴿مريم﴾ عند قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾[3] مستوفًى. ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ هذا مردود على ما تقدّم من قول المشركين، والمعنى: قال المشركون ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾. والافتراء الاختلاق. ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون، فهو يتكلم بما لا يدري. ثم ردّ عليهم فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر كما قالوا، بل هو أصدق الصادقين، ومن ينكر البعث فهو غداً في العذاب، واليوم في الضلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإلٰه ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات.

---

(١) الطنز: السخرية. (٢) في «الكشاف والبحر»: «التحلي» باللام. (٣) راجع ١١/١٤٧.

[٩] ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾.

أعلم الله تعالى أن الذي قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم، فاستدلّ بقدرته عليهم، وأن السموات والأرض ملكه، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة. وقرأ حمزة والكسائيّ ﴿إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاث؛ أي إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم، أو السماء فتسقط عليهم كِسَفاً. الباقون بالنون على التعظيم. وقرأ السُّلِميّ وحفص ﴿كِسَفاً﴾ بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدّم بيانه في «سبحان»[1] وغيرها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي في هذا الذي ذكرناه من قدرتنا «لآية» أي دلالة ظاهرة. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي تائب رجّاع إلى الله بقلبه. وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته.

[١٠] ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ بيّن لمنكري نبوة محمد ﷺ أن إرسال الرسل ليس أمراً بِدْعاً ، بل أرسلنا الرسل وأيّدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب . ﴿ آتَيْنَا ﴾ أعطينا . ﴿ فَضْلاً ﴾ أي أمراً فضلناه به على غيره . واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال : الأوّل - النبوّة. الثاني - الزبور . الثالث - العلم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾[2] . الرابع - القوّة ، قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ﴾[3]. الخامس - تسخير

(١) راجع ١٠/ ٣٣٠.
(٢) راجع ١٣/ ١٦٣ فما بعد.
(٣) راجع ١٥/ ١٥٨.

الجبال والناس ، قال الله تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي[١] مَعَهُ ﴾. السادس - التوبة، قال الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا[١] له ذَلِكَ ﴾ . السابع - الحكم بالعدل ، قال الله تعالى : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ[١] خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ الآيـة . الثامن - إلانَة الحديد ، قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[١] . التاسع - حسن الصوت ، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن . وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه ، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾[٢] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبـي موسى : « لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود » . قال العلماء: المزمار والمزمور الصوت الحسن ، وبه سميت آلة الزمر مزماراً . وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القّراءة بالتزيين والترجيع ، وقد مضى هذا في مقدّمة الكتاب[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي وقلنا يا جبال أوّبي معه، أي سبّحي معه، لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[١]. قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة، ومعنى تسبيح الجبال: هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيُسمع منها ما يُسمع من المسبّح معجزةً لداود عليه الصلاة والسلام. وقيل: المعنى سِيري معه حيث شاء؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل. قال ابن مقبل:

لحقنـا بحـيّ أوّبـوا السيـر بعـدمـا ... دفعنا شُعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: ﴿أُوبِي مَعَهُ﴾ أي رجِّعي معه؛ من آب يئووب إذا رجع، أوْباً وأوْبة وإياباً. وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت مافعل. وقال وهب بن منبّه: المعنى نوحِي معه والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

---

(١) راجع ١٥/ ١٨٤ و ١٨٨ و ١٥٩.
(٢) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء
(٣) راجع ١/ ١١ فما بعد.

بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه. فَصَدى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة؛ فأيّد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فَتْرة[١]، فإذا دخلت الفترة اهتاج، أي ثار وتحرّك، وقوي بمساعدة الجبال والطير. وكان قد أعطي من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته، وكان الماء الجاري ينقطع عن الجري وقوفاً لصوته. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع قراءة ابن أبي إسحاق ونصر عن عاصم وابن هُرْمُز ومَسْلمة بن عبد الملك، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمر في ﴿أَوِّبِي﴾ وحسّنه الفصل بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع ﴿يَا جِبَالُ﴾ أي نادينا الجبال والطير، قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير. وقال الكسائي: هو معطوف، أي وآتيناه الطير، حملاً على ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾. النحاس: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة. وسمعت الزجاج يجيز: قمت وزيداً فالمعنى أوّبي معه ومع الطير. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع. وقال الحسن: كالعجين، فكان يعمله من غير نار. وقال السدّي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف شاء، من غير إدخال نار ولا ضرب بمِطْرَقة. وقاله مقاتل. وكان يفرغ من الدّرع في بعض اليوم أو بعض الليل، ثمنها ألف درهم. وقيل: أعطي قوةً يَثْنِي بها الحديد، وسبب ذلك أن داود عليه السلام، لما ملك بني إسرائيل لقِي ملَكاً وداود يظنه إنساناً، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثّل له: «ما قولك في هذا الملِك داود»؟ فقال له الملَك «نِعم العبد لولا خَلّة فيه» قال داود: «وما هي»؟ قال: «يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله». فرجع فدعا الله في أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه، فعلّمه صنعةَ لَبُوسٍ كما قال جل وعز في سورة الأنبياء[٢]، فألان له الحديد فصنع الدروع، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوي ألف درهم، حتى ادّخر منها كثيراً وتوسّعت

---

(١) الفترة الضعف.

(٢) راجع ١١/ ٣٢٠.

معيشة منزله، ويتصدّق على الفقراء والمساكين، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين، وهو أوّل من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح. ويقال: إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف. والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب. ودرع المرأة مذكر.

مسألة ـ في هذه الآية دليل على تعلّم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. وفي «الصحيح» عن النبيﷺ قال: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». وقد مضى هذا في ﴿الأنبياء﴾ مُجَوّداً والحمد لله.

[١١] ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي دروعاً سابغات، أي كوامل تامات واسعات؛ يقال: سبغ الدرعُ والثوب وغيرهما إذا غطّى كل ما هو عليه وفضل منه. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالاً؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة. أي قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه. أي لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة. وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحَلْقة، أي لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها. وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقاً فَيَقْلَق[1]، ولا غليظاً فَيَفصِم الحلَق. روي ﴿يقصم﴾ بالقاف، والفاء أيضاً رواية. ﴿فِي السَّرْدِ﴾ السَّرْد نسج حلَق الدروع، ومنه قيل لصانع حلق الدروع: السرّاد والزرّاد، تبدل من السين الزاي، كما قيل: سرّاط وزرّاط. والسّرْد: الخَرْز، يقال: سرد يسرد إذا خرز. والمِسْرد: الإشفى، ويقال سراد؛ قال الشّماخ:

(١) القلق: ألا يستقر في مكان واحد.

فظلت[١] تباعاً خيلنا في بيوتكم كما تابعت سرْد العِنان الخوارزُ

والسِّراد: السير الذي يخرز به؛ قال لَبِيد:

يشك صِفاحها بالرَّوْق شَزْراً كما خرج السِّراد من النقال[٢]

ويقال: قد سرد الحديث والصوم؛ فالسرد فيهما أن يجيء[٣] بهمَا وِلاء في نسق واحد، ومنه سرد الكلام. وفي حديث عائشة: لم يكن النبيّ ﷺ يسرد الحديث كسردكم، وكان يحدّث الحديث لو أراد العادّ أن يعدّه لأحصاه. قال سيبويه: ومنه رجل سَرَنْدَى أي جريء، قال: لأنه يمضي قُدُماً[٤]. وأصل ذلك في سرد الدرع، وهو أن يُحكمها ويجعل نظام حلَقها وِلاء غير مختلف. قال لبيد:

صنع الحديدَ مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مَرُومِ

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعُ السوابِغ تُبَّعُ[٥]

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ أي عملاً صالحاً. وهذا خطاب لداود وأهله، كما قال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

[١٢] ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قال الزجاج، التقدير وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرفع على الابتداء، والمعنى له تسخير

---

(١) رواية البيت كما في ديوانه:

شككن بأحشاء الذنابي على هدى كما تابعت . . . . الخ

(٢) الروق: القرن. والنقال: جمع النقل (بالتحريك) والنقل، وهو الخف الخلق.

(٣) في «الأصول»: «به».

(٤) أي لم يعرّج ولم يثن؛ يوصف به الذكر والأنثى.

(٥) قضاهما: أحكمهما، أو فرغ منهما. والصنع (بالتحريك): الحِذق في العمل. والصنع ها هنا تبع، وهو ملك من ملوك حمير. ويروى: «أو صنع السوابغ».

الريح، أو بالاستقرار، أي ولسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول. فإن قال قائل: إذا قلت أعطيت زيداً درهماً ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار. وقيل: الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى، لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي مسيرة شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فَيَقِيل بإصْطَخْر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصْطَخر ويبيت بكابُل، وبينهما شهر للمسرع. قال السُّدّيّ: كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسيّ، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سِفْلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن مما يلي سِفْلة الإنس، وجلس سِفْلة الجن مما يليهم، ومُوكّل بكل كرسيّ طائر لعملٍ قد عرفه، ثم تقلّهم الريح، والطير تظلهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر، فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾. وقال وهب بن منبّه: ذكر لي أن منزلاً بناحية دِجْلة مكتوباً فيه ـ كتبه بعض صحابة سليمان؛ إمّا من الجن وإما من الإنس ـ: نحن نزلنا وما بنيناه، ومَبْنيّاً وجدناه، غُدوّنا من إصْطَخْر فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام. وقال الحسن: شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيراً منها وأسرع، أبدله الريح تجري بأمره حيث شاء، غدوّها شهر ورواحها شهر. وقال ابن زيد: كان مستقر سليمان بمدينة تَدْمُر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشأم إلى العراق، فبنوها له بالصُّفّاح[1] والعَمَد والرخام الأبيض والأصفر. وفيه يقول النابغة:

إلاّ سليمانَ إذ قال الإلٰـه لـه ... قُمْ في البريّة فاْحدُدْها[2] عن الفَنَد
وَخَيِّس[3] الجن إني قد أذنت لهم ... يبنـون تَـدْمر بـالصُّفّـاح والعَمَـد

---

(١) الصفاح (كرمان): حجارة عريضة رقيقة.

(٢) الحد: المنع. والفند: الخطأ.

(٣) خيس: ذلل.

فمـن أطـاعـك فـانفعـه بطـاعتـه كما أطاعك وأدْلُلْه على الرشد
ومـن عصـاك فعـاقِبْـه معـاقبـةً تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُد على ضَمَد[1]

ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض يَشْكُر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربّنا نروح إلى الأوطان من أرض تَدْمُرِ
إذا نحـن رُحْنـا كـان رَيْـثُ رواحِنـا مسيـرةَ شهـرٍ والغُـدُوُّ لآخَـرِ
أنـاسٌ شَـرَوْا لله طـوْعـاً نفـوسَهـم بنصـر ابْـن داودَ النبـيِّ المطهَّـرِ
لهم في معالي الدِّين فضلٌ ورفعة[2] وإن نُسِبُوا يـومـاً فمـن خيـر مَعْشَـرِ
متى يركبوا الريح المطيعةَ أسرعتْ مبـادِرةً عـن شَهْـرهـا لـم تُقَصِّـرِ
تُظِلُّهُـمْ طيـرٌ صفـوفٌ عليهـمُ متـى رَفْـرَفَـتْ مـن فـوقهـم لـم تُنَفِّـرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ القِطر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره. أسِيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس فيما روي لأحد قبله، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملها فيما يريد. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري! وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدّي: أجريت له عين الصُّفر ثلاثة أيام بلياليهن. قال القشيريّ: وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يدرى ما حدّه، ولعله وَهم من الناقل؛ إذ في رواية عن مجاهد: أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدّة. والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوّته. وقال الخليل: القِطْر: النحاس المذاب.

قلت: دليله قراءة من قرأ: ﴿مِن قِطرٍ آنٍ﴾. ﴿وِمنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي بأمره ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان. ﴿نُذِقْهُ مِنْ

---

(١) الضمد: الحقد.
(٢) في «الأصول»: «رأفة» والتصويب عن «البحر وروح المعاني».

عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي في الآخرة، قاله أكثر المفسرين. وقيل ذلك في الدنيا، وذلك أن الله تعالى وكّل بهم ـ فيما روى السُّدّي ـ ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته. و ﴿مَن﴾ في موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل. ويجوز أن يكون في موضع رفع، كما تقدّم في الريح.

[١٣] ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ المحراب في اللغة: كل موضع مرتفع. وقيل للذي يصلَّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظّم. وقال الضحاك: ﴿مِنْ مَحَارِيبَ﴾ أي من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريب دون القصور. وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار. قال:

وماذا عليه أن ذكرتُ أوانساً كغِزلان رَمْل في محاريب أقيالِ[١]

وقال عَدِيّ بن زيد:

كدُمَى العاج في المحاريب أو كالـ ـبَيْض في الروض زهره مستنيرُ

وقيل: هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[٢] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾[٣] أي أشرف عليهم. وفي الخبر «أنه أمر أن يعمل حول كرسيّه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسي في موكِبه والمحاريب حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سبّحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: هلّلوه إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: كبّروه إلى ذلك العَلَم الآخر، فتَلِجّ الجنود بالتسبيح والتهليل لَجّةً واحدة.

(١) البيت لامرىء القيس. والأقيال: جمع قيل، وهو الملك.
(٢) راجع ١٥/ ١٦٥. (٣) راجع ١١/ ٨٤.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال. وهو كل ما صُوّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان. وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان. وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً، قال ﷺ: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنَوْا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصُّورَ». أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة. وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة ﴿نوح﴾[1] عليه السلام. وقيل: التماثيل طِلَّسْمات كان يعملها، ويحرم على كل مصوّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً ما دام ذلك التمثال قائماً. وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء. قال:

ويا رُبَّ يومٍ قد لهَوْتُ وليلةٍ   بـآنسة كـأنهـا خـطّ تمثـالِ[2]

وقيل: إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحيك[3] فيهم السلاح. ويقال: إن اسفنديار كان منهم؛ والله أعلم. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النَّسران أجنحتهما.

الثالثة ـ حكى مكيّ في الهداية له: أن فرقة تجوّز التصوير. وتحتج بهذه الآية. قال ابن عطية: وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه.

قلت: ما حكاه مكيّ ذكره النحاس قبله، قال النحاس: قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية، ولِمَا أخبر الله عز وجل عن المسيح. وقال قوم: قد صح النهي عن النبيّ ﷺ عنها، والتوعّد لمن عملها أو اتخذها، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحاً قبله، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد، فكان الأصلح إزالتها.

---

(١) راجع ١٨/٣٠٧ فما بعد.
(٢) البيت لامرىء القيس.
(٣) حاك السيف حيكا: أثر وعمل.

الرابعة ـ التمثال على قسمين: حيوان وموات. والموات على قسمين: جماد ونام؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه؛ لعموم قوله: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾. وفي الإسرائيليات: أن التماثيل من الطير كانت على كرسي سليمان. فإن قيل: لا عموم لقوله: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾. فإنه إثبات في نكرة، والإثبات في النكرة لا عموم له، إنما العموم في النفي في النكرة. قلنا: كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات في النكرة ما يقتضي حمله على العموم، وهو قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فاقتران المشيئة به يقتضي العموم له. فإن قيل: كيف استجاز الصور المنهى عنها؟ قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً.

الخامسة ـ مقتضى الأحاديث يدلّ على أن الصور ممنوعة، ثم جاء «إلا ما كان رَقْماً[١] في ثوب» فخص من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة في الثوب: «أخّريه عني فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا». ثم بهتكه[٢] الثوب المصوّر على عائشة منع منه، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئها، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز، لقولها في النُّمرُقة المصوّرة[٣]: اشتريتها لك لتقعد عليها وَتَوسَّدها، فمنع منه وتوعّد عليه. وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز في الرقم في الثوب ثم نسخه المنع منه. فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم؛ قاله ابن العربي.

السادسة ـ روى مسلم عن عائشة قالت: كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حوّلي هذا فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا». قالت: وكانت لنا قطيفة كنا نقول علَمها حرير، فكنا نلبسها. وعنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مستترة بِقِرام[٤] فيه صورة، فتلوّن وجهه،

---

(١) الرقم: النقش والوشي.
(٢) الهتك: الخرق والشق.
(٣) النمرقة (بضم النون والراء وبكسرهما وبغير هاء): الوسادة.
(٤) القرام: الستر الرقيق.

ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: «إن من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُشَبِّهون بخلق الله عز وجل». وعنها: أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوة[١]، فكان النبيّ ﷺ يصلّي إليه فقال: «أخِّريه عني» قالت: فأخرته فجعلته وسادتين. قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره وَرَعاً؛ لأن محل النبوة والرسالة الكمالُ. فتأمله.

السابعة ـ قال المزنيّ عن الشافعيّ: إن دعي رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صوراً ذاتِ أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبة. وإن كانت توطأ فلا بأس، وإن كانت صور الشجر. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء. واستثنى بعضهم «ما كان رقماً في ثوب»، لحديث سهل بن حُنيف.

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن. وقوله: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيُوا ما خلقتم» ولم يستثن. وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال ﷺ: «يخرج عُنُق[٢] من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلٰهاً آخر وبالمصوّرين» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفي «البخاري ومسلم» عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون». يدل على المنع من تصوير شيء، أي شيء كان. وقد قال جل وعز: ﴿ما كان لكم أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾[٣] على ما تقدّم بيانه فٱعلمه.

الثامنة ـ وقد ٱستثنى من هذا الباب لُعَب البنات، لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ تزوّجها وهي بنت سبع سنين، وزُفّت إليه وهي بنت تسع

---

(١) السهوة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالمخدع والخزانة. وقيل: هو كالصفة تكون بين يدي البيت. وقيل: شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء.

(٢) العنق: القطعة.

(٣) راجع ١٣/٢١٩.

ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة. وعنها أيضاً قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبيّ ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمِعن[١] منه فيُسَرِّبُهُنّ[٢] إليّ فيلعبن معي. خرجهما مسلم. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدرّبن على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له، فرخّص في ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ قال ابن عرفة: الجوابي جمع الجابية، وهي حُفيرة كالحوض. وقال: كحياض الإبل. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبَة من الأرض، والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألف رجل. النحاس: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ الأوْلى أن تكون بالياء، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيّرها عن حالها، فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء. وواحد الجوابي جابية، وهي القِدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيء أي يجمع؛ ومنه جبيت الخراج، وجَبيت الجراد؛ أي جعلت الكساء فجمعته فيه. إلا أن لَيْثاً روى عن مجاهد قال: الجوابي جمع جَوبة، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون في الجبل فيها ماء المطر. وقال الكسائي: جَبَوْت الماء في الحوض وجبيته أي جمعته، والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، قال:

تــروح علــى آلِ المُحَلَّــقِ جَفْنَــة كجـابيـة الشيـح العـراقـي تَفْهَـقُ[٣]

ويروى أيضاً.

نفـى الـذمَّ عـن آل المُحَلـق جفنـةٌ كجابية السيح[٤] . . . .

ذكره النحاس.

(١) أي يتغيبن ويدخلن في بيت أو من وراء ستر، حياءً وهيبة له عليه السلام.

(٢) أي يرسلهن ويبعثهنّ. (٣) البيت للأعشى. والفهق: الامتلاء. وخص العراقي لجهله بالمياه لأنه حضري؛ فإذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يعدها. (٤) السيح: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ قال سعيد بن جُبير: هي قدور النحاس تكون بفارس. وقال الضحاك: هي قدور تعمل من الجبال. غيره: قد نحتت من الجبال الصُّم مما عملت له الشياطين، أثافِيها[1] منها منحوتة هكذا من الجبال. ومعنى ﴿رَاسِيَاتٍ﴾ ثوابت، لا تُحمل ولا تحرّك لعظمها. قال ابن العربي: وكذلك كانت قدور عبد الله بن جُدعان، يصعد إليها في الجاهلية بسُلَّم. وعنها عبّر طرفة بن العبد بقوله:

كـالجـوابـي لا تَنِـي مُتْـرَعَـةً لِقِـرَى الأضيـاف أو للمحتضِـر

قال ابن العربي: ورأيت برباط أبـي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً ويأكلون جميعاً من غير استئثار واحد منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكر في ﴿البقرة﴾[2] وغيرها. وروي أن النبيّ ﷺ صعِد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال: «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود» قال فقلنا: ما هن؟ فقال: «العدل في الرضا والغضب. والقصد في الفقر والغنى. وخشية الله في السر والعلانية». خرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبـي هريرة. وروي أن داود عليه السلام قال: «يا رب كيف أطيق شكرك على نعمك. وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمةٌ لك» فقال: «يا داود الآن عرفتني». وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿إبراهيم﴾[3]. وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالها في طاعته، والكفران استعمالها في المعصية. وقليل من يفعل ذلك؛ لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق التقدير. وقال مجاهد: لما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾ قال داود لسليمان: إن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفني صلاة النهار أكفك صلاة الليل، قال: لا أقدر، قال: فاكفني ـ قال الفاريابي، أراه قال إلى صلاة الظهر ـ قال نعم، فكفاه، وقال الزهري: ﴿اعْمَلُوا

(١) الأثافي (جمع الأثفية): ما يوضع عليه القدر.

(٢) راجع ١/٣٩٧ فما بعد. (٣) راجع ٩/٣٤٣.

آل دَاوُدَ شُكْراً﴾ أي قولوا الحمد لله. و ﴿شُكْراً﴾ نصب على جهة المفعول؛ أي اعملوا عملاً هو الشكر. وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي في نفسها الشكر إذ سدّت مسدّه، ويبيّن هذا قوله تعالى: ﴿إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[1] وهو المراد بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾. وقد قال سفيان بن عُيَيْنَة في تأويل قوله تعالى: ﴿أنِ اشْكُرْ لِي﴾ أنّ المراد بالشكر الصلوات الخمس. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّر[2] قدماه؛ فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». انفرد بإخراجه مسلم. فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد ﷺ. قال ابن عطية: وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل؛ فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾. فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر! وروي أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار[3] ويطعم المساكين الدَّرْمَك[4]. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويتوسَّده، والأول أصح، إذ الرماد ليس بقوت. وروي أنه ما شبع قَطُّ، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمّله، والله أعلم.

[١٤] ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

(١) راجع ١٥/ ١٦٥ فما بعد. (٢) تفطر: تتشقق.

(٣) الخشكار: ما خشن من الطحين (فارسية).

(٤) الدرمك: دقيق الحوّارى. وهو الدقيق الأبيض.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ وذلك أنه كان متّكِئاً على المِنْسَأة (وهي العصا بلسان الحبشة، في قول السُّدِّي. وقيل: هي بلغة اليمن، ذكره القشيريّ) فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميّتاً لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها، فعُلم موته بذلك، فكانت الأَرَضَة دالّة على موته، أي سبباً لظهور موته، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة. واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين: أحدهما ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجن تدّعي علم الغيب، فلما مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. ابن مسعود: أقام حولاً والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأَرَضَة مِنسأته فسقط. ويروى أنه لما سقط لم يُعلم منذ مات؛ فوُضِعت الأَرَضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسِبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة. وقيل: كان رؤساء الجن سبعة، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام أسَّس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس، فأمر سليمان الجن به؛ فلما دنا وفاته قال لأهله: لا تخبروهم بموتي حتى يتموا بناء المسجد، وكان بقي لإتمامه سنة. وفي الخبر أن ملَك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرة يقال لها الخرنوبة، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت في بيت المقدس شجرة فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا؛ فيقول: ولأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا ولكذا؛ فيأمر بها فتقطع، ويغرِسها في بستان له، ويأمر بكتب منافعها ومضارّها وٱسمها وما تصلح له في الطب؛ فبينما هو يصلّي ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوبة؛ قال: ولأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال سليمان: ما كانَ الله ليخربه وأنا حيّ، أنتِ التي على وجهك هلاكي وهلاك بيت المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه ثم قال: اللهم عَمّ عن الجن موتي حتى تعلم

الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسيّه، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أحسن ما قيل في الآية، ويدل على صحته الحديث المرفوع، روى إبراهيم بن طُهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «كان نبيّ الله سليمان بن دواد عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك؟ قالت: الخرنوبة؛ فقال: لأي شيء أنت؟ فقالت: لخراب هذا البيت؛ فقال: اللّهُمّ عَمّ عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: ﴿تَبَيَّنَت الإنسُ أن لَوْ كَانَ الْجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾. وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس ﴿تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ﴾ غير مسمى الفاعل. ونافع وأبو عمرو ﴿تأكل مِنْساتَه﴾ بألف بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف، لغتان، إلا أن ابن ذَكْوَان أسكن الهمزة تخفيفاً، قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساة من كِبَر ... فقد تباعد عنك اللّهْوُ والغَزَلُ

وقال آخر فهمز وفتح:

ضربنا بمنسَأة وجهه ... فصار بذاك مهيناً ذليلاً

وقال آخر:

أمن أجل حَبْل لا أباك ضربتَه ... بمنسأة قد جَرّ حبلُك أحْبُلاَ

وقال آخر فسكّن همزها:

وقائم قد قام من تُكَأتِهْ ... كقومة الشيخ إلى مِنْسَأْتِهْ

وأصلها من: نسأت الغنم أي زجرتها وسقتها، فسمّيت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق. وقال طَرفَة:

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأْتها على لاحِب كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[1]

فسكّن همزها. قال النحاس: واشتقاقها يدل على أنها مهموزة؛ لأنها مشتقة من نسأته أي أخرته ودفعته فقيل لها مِنْسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر. وقال مجاهد وعكرمة: هي العصا، ثم قرأ ﴿منساته﴾ أبدل من الهمزة ألفا، فإن قيل: البدل من الهمزة قبيح جداً وإنما يجوز في الشعر على بُعْد وشذوذ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لا سيما وأهل المدينة على هذه القراءة. فالجواب على هذا أن العرب استعملت في هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل في غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو: ولست أدري ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزاً فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزاً لم يجز همزه بوجه. المهدوِيّ: ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذٌّ بعيد؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ما قبلها إلا متحركاً أو ألفاً، لكنه يجوز أن يكون ما سكن من المفتوح استخفافاً، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفاً على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها في قولهم العألم والخأتم، وروي عن سعيد بن جبير ﴿مِن﴾ مفصولة ﴿سأته﴾ مهموزة مكسورة التاء؛ فقيل: إنه من سئة القوس في لغة من همزها، وقد روي همز سِيةِ القوس عن رؤبة. قال الجوهري: سية القوس ما عطف من طرفيها، والجمع سِيَات، والهاء عوض من الواو، والنسبة إليها سِيَوِيّ. قال أبو عبيدة: كان رؤبة يهمز «سية القوس» وسائر العرب لا يهمزونها. وفي دابة الأرض قولان: أحدهما ـ أنها الأَرَضة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وقد قرىء ﴿دابة الأَرَض﴾ بفتح الراء، وهو جمع[2] الأَرَضة؛ ذكره الماوردي. الثاني ـ أنها دابة تأكل العيدان. قال الجوهري: والأَرضة (بالتحريك): دُوَيّبة تأكل الخشب؛ يقال: أرِضت الخشبة تُؤرض أرْضا (بالتسكين) فهي مأروضة إذا أكلتها.

---

(١) الأمون: التي يؤمن عثارها. والإران: تابوت الموتى. واللاحب: الطريق الواضح. والبرجد: كساء مخطط.

(٢) في نسخ الأصل: «وهو واحد».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ قال الزجاج: أي تبينت الجن موته. وقال غيره: المعنى تبين أمر الجن؛ مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾. وفي التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكىء على عصاه، والجن منصرفة فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول؛ فلما خَرّ تبيّنت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين. وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير. وفي الخبر: أن الجن شكرت ذلك للأَرَضَة فأينما كانت يأتونها بالماء. قال السدي: والطين، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فإنه مما يأتيها[1] به الشياطين شكراً؛ وقالت: لو كنتِ تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما. و ﴿ أَنْ ﴾ في موضع رفع على البدل من الجن، والتقدير: تبين أمر الجن، فحذف المضاف، أي تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدل الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير حذف اللام. و ﴿ لَبِثُوا ﴾ أقاموا. و ﴿ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ السُّخرة والحمل والبنيان وغير ذلك. وعمّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة، ومدّة ملكه أربعون سنة؛ فملك وهو ٱبن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ٱبن سبع عشرة سنة. وقال السُّدِّي وغيره: كان عمر سليمان سبعاً وستين سنة، وملك وهو ٱبن سبع عشرة سنة. وٱبتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ٱبن عشرين سنة، وكان ملكه خمسين سنة. وحكي أن سليمان عليه السلام ٱبتدأ بنيان بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وقرّب بعد فراغه منه ٱثني عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهمّ أنت وهبت لي هذا السلطان وقوّيتني على بناء هذا المسجد، اللهمّ فأوزعني شكرك على ما أنعمت عليّ وتوفّني على مِلّتك ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني، اللهمّ إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه. ولا خائفٌ إلا أمّنته. ولا سقيم

---

(١) في ج، ح، ك: «فإنها مما يأتيها بها».

إلا شفيته. ولا فقير إلا أغنيته. والخامس ـ ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحاداً أو ظلماً، يا رب العالمين؛ ذكره الماورديّ.

قلت: وهذا أصح مما تقدّم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة هذا ما خرّجه النسائيّ وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ «أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالاً ثلاثة: حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه[1] إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمّه» وقد ذكرنا هذا الحديث في ﴿آل عمران﴾[2] وذكرنا بناءه في ﴿سبحان﴾[3].

[١٥] ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ[4] آيَةٌ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حيّ، وهو في الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن النبيّ ﷺ. روى الترمذيّ قال: حدّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا حدّثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعيّ قال حدّثنا أبو سَبْرة النّخعيّ عن فَروة بن مُسيك المرادي قال: أتيت النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؛ فأذِن لي في قتالهم وأمرني؛ فلما خرجت من عنده سأل عني: «ما فعل الغُطَيْفيّ»[5]؟ فأخبِر أني قد سِرت، قال: فأرسل في أثري فردّني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال: «ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك؛ قال: وأنزل في سبإ ما أنزل؛ فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا بامرأة

---

(١) أي لا يحركه. (٢) راجع ٤/١٣٧. (٣) راجع ١٠/٢١١.

(٤) ﴿في مساكنهم﴾ قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه.

(٥) في «الأصول» و «الترمذي»: «القطيفي» بالقاف بدل الغين وهو تحريف.

ولكنه رجل ولَد عشرة من العرب فتيامَن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة. فأما الذين تشاءموا فَلخْم وجُذام وغَسّان وعاملة. وأما الذين تيامَنوا فالأزْد والأشعرِيُّون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار. فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة». وروي هذا عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو ﴿لِسَبَأَ﴾ بغير صرف، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيار أبي عبيد، وٱستدل على أنه ٱسم قبيلة بأن بعده ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾. النحاس: ولو كان كما قال لكان في مساكنها. وقد مضى في ﴿النمل﴾[1] زيادة بيان لهذا المعنى. وقال الشاعر في الصرف:

الـواردون وتَيْـمٌ فـي ذُرى سبـأ قد عضّ أعناقَهم جِلدُ الجواميس

وقال آخر في غير الصرف:

من سَبَأَ الحاضرين مأرِبَ إذ يَبْنُـون مـن دون سَيْلها العَـرِمـا

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَة والجَحْدَرِيّ ﴿لسَبَأْ﴾ بإسكان الهمزة. ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ قراءة العامة على الجمع، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد. وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص ﴿مسكنِهِم﴾ موحَّداً، إلا أنهم فتحوا الكاف. وقرأ يحيى والأعمش والكسائيّ موحَّداً كذلك، إلا أنهم كسروا الكاف. قال النحاس: والساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت ﴿مسكنهم﴾ كان فيه تقديران: أحدهما ـ أن يكون واحداً يؤدي عن الجمع. والآخر ـ أن يكون مصدراً لا يثنّى ولا يُجمع؛ كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾[2] فجاء بالسمع موحَّداً. وكذا ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[3] و ﴿مَسْكِن﴾ مثل مسجِد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلا سماعاً. ﴿آيَةٌ﴾ اسم كان، أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. ﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز

---

(١) راجع ١٣/ ١٨١.
(٢) راجع ١/ ١٨٥. (٣) راجع ١٧/ ١٤٩.

أن يكون بدلاً من ﴿آية﴾، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فيوقف على هذا الوجه على ﴿آية﴾ وليس بتمام. قال الزجاج: أي الآية جنتان، فجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف. وقال الفراء: رفع تفسيراً للآية، ويجوز أن تنصب ﴿آية﴾ على أنها خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قطُّ ولا ذباباً ولا بُرغُوثاً ولا قملة ولا عقرباً ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب. وقيل: إن الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكتل[1] فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها؛ قاله قتادة. وروي أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وُجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما: نحن بنينا سَلْحِين في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخر مكتوب: نحن بنينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله. قال القشيريّ: ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يَمنة ويَسرة؛ أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار؛ تستتر الناس بظلالها. ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي قيل لهم كلوا، ولم يكن ثمّ أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك؛ أي أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي من ثمار الجنتين. ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ يعني على ما رزقكم. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلام مستأنف؛ أي هذه بلدة طيبة أي كثيرة الثمار. وقيل: غير سبخة. وقيل: طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء. ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي والمنعم بها عليكم ربّ غفور يستر ذنوبكم، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه. وقيل: إنما ذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أوّل ﴿البقرة﴾[2]. وقيل: إنما امتَنّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا.

---

(١) المكتل: شبه الزنبيل.

(٢) راجع ١/١٧٧.

[١٦] ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ يعني عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدّي ووهب: بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيًّا فكذبوهم. قال القُشيري: وكان لهم رئيس يلقّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ. وقيل: كان له ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر؛ ولهذا يقال: أكفر من حمار. وقال الجوهريّ؛ وقولهم: «أكفر من حمار» هو رجل من عادٍ مات له أولاد فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرّ بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتله. ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرّقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه. ولهذا قيل في المثل: «تفرّقوا أيادى سَبَا». وقيل: الأوْس والخزرج منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعرِم فيما روي عن ابن عباس: السَّد؛ فالتقدير: سَيل السَّد العَرِم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. قتادة: العرم وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن؛ فردموا ردماً بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم؛ فأخصبوا وكَثُرت أموالهم، فلما كذبوا الرسل سلّط الله عليهم الفأر فنقب الردم. قال وهب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدّهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهِرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها ونقبت السَّد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم. وقال الزجاج: العَرِم اسم الجُرَذ الذي نقب السِّكْر عليهم، وهو الذي يقال له الخُلد ـ وقاله قتادة أيضاً ـ فنسب السيل إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابي

أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر. وقال مجاهد وابن أبي نَجيح: العَرِم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السَّد فشقه وهدمه. وعن ابن عباس أيضاً أن العَرِم المطر الشديد. وقيل العَرْم بسكون الراء. وعن الضحاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام. وقال عمرو بن شُرَحْبيل: العرم المُسَنّاة؛ وقاله الجوهريّ، قال: ولا واحد لها من لفظها، ويقال واحدها عَرِمة. وقال محمد بن يزيد: العَرِم كل شيء حاجز بين شيئين، وهو الذي يسمى السُّكْر، وهو جَمع عِرمة. النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسَنّاة فهو العَرِم، والمُسَنّاة هي التي يسميها أهل مصر الجسر[1]؛ فكانوا يفتحونها إذا شاؤوا فإذا رَويت جنتاهم سدّوها. قال الهَرَوِيّ: المُسَنّاة الضفيرة تبنى للسيل تردّه، سُمِّيت مُسَنّاةً لأن فيها مفاتح الماء. وروي أن العرم سدّ بنته بِلْقِيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام، وهو المسنّاة بلغة حِمير، بنته بالصخر والقار، وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وهو مشتق من العرامة وهي الشدّة، ومنه: رجل عارم، أي شديد، وعَرَمت العظم أعرِمه وأعرُمه عَرْماً إذا عَرَقته، وكذلك عَرَمت الإبل الشجر أي نالت منه. والعُرام بالضم: العراق من العظم والشجر. وتعرّمت العظم تعرّقته. وصبيّ عارم بيِّن العُرام (بالضم) أي شَرِس. وقد عرم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح). والعَرِم العارم؛ عن الجوهريّ.

قوله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو ﴿ أُكُلِ خَمْطٍ ﴾ بغير تنوين مضافاً. قال أهل التفسير والخليل: الخمط الأراك. الجوهري: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل. وقال أبو عبيدة: هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة. الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. المبرّد: الخمط كل ما تغيّر إلى ما لا يشتهى. واللبن خَمْط إذا حَمُض. والأولى عنده في القراءة ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعت لـ ﴿أُكُل﴾ أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

(١) في جـ: «الحبس»، والحبس (بكسر الحاء): حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم، والجمع أحباس.

تقديرها ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة. وقال الأخفش: والإضافة أحسن في كلام العرب؛ نحو قولهم: ثوبُ خزٍّ. والخمط: اللبن الحامض. وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلَب ولم يتغيّر طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوَّهة[١]. وتخمَّط الفحل: هَدَر. وتخمّط فلان أي غضب وتكبّر. وتخمّط البحر أي التطم. وخَمَطت الشاة أخمِطها خَمْطاً. إذا نزعت جلدها وشويتها فهي [خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهي][٢] سميط. والخَمْطة: الخمر التي قد أخذت رِيح الإدراك كرِيح التّفاح ولم تُدْرِك بعدُ. ويقال هي الحامضة؛ قاله الجوهريّ. وقال القُتَبِيّ في أدب الكاتب. يقال للحامضة خمطة، ويقال: الخمطة التي قد أخذت شيئاً من الرِيح؛ وأنشد:

عُقارٌ كماء النِّيء ليست بخمطة ولا خَلّةٍ يكْوِي الشُّروبَ شِهابُها[٣]

﴿وأَثْلٍ﴾ قال الفرّاء: هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً؛ ومنه اتخذ مِنبَرُ النبيّ ﷺ، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات. وقال الحسن: الأثل الخشب. قتادة: هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفَيْد. وقيل هو السَّمُر. وقال أبو عبيدة: هو شجر النُّضار. [النضار: الذهب. والنضار: خشب يعمل منه قصاع، ومنه: قدح نضار][٤]. ﴿ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قال الفَرّاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس. وقال الأزهري: السِّدر من الشجر سِدران: برّيّ لا يُنتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضّال. والثاني ـ سِدْر ينبت على الماء وثمره النَّبق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب. قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة

---

(١) في المخصص لابن سيده: «... فهو قوهة، صاحب العين: فوهة بالفاء». وفي كتب اللغة «القوهة بالضم». اللبن تغير قليلاً وفيه حلاوة. والفوهة كقبرة: اللبن فيه طعم الحلاوة.

(٢) ما بين المربعين ساقط من نسخ الأصل. وهو من كتب اللغة.

(٣) الخلة: التي جاوزت القدر فخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل. والشروب: الندامى. يقول: هي في لون اللحم النيء.

(٤) ما بين المربعين ساقط من ش.

وأنبت بدلها الأراك والطَّرفاء والسِّدْر. القُشَيريّ: وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستاناً ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وجزاءُ سَيِّئَةٍ سيِّئةٌ مِثْلُهَا﴾[1]. ويحتمل أن يرجع قوله ﴿قَلِيلٍ﴾ إلى جملة ما ذُكر من الخَمْط والأَثْل والسِّدر.

[١٧] ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي هذا التبديل جزاء كفرهم. وموضع ﴿ذلك﴾ نصب؛ أي جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وهَلْ يُجَازَى إلاّ الْكَفُورُ﴾ قراءة العامة ﴿يُجَازَى﴾ بياء مضمومة وزاي مفتوحة، ﴿الكَفورُ﴾ رفعاً على ما لم يُسمّ فاعله. وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائيّ: ﴿نُجازِي﴾ بالنون وكسر الزاي، ﴿الكفورَ﴾ بالنصب، واختار أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأن قبله ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ ولم يقل جُوزُوا. النحاس: والأمر في هذا واسع، والمعنى فيه بيّن، ولو قال قائل: خلق الله تعالى آدم ﷺ من طين، وقال آخر: خُلق آدم من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة - في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشدّ منه، وهو أن يقال: لم خصّ الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ فتكلم العلماء في هذا؛ فقال قوم: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام[2] والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: يجازى بمعنى يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكل سوءِ عمِله؛ فالمؤمن يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب[3]. وقال طاوس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب. وقال قُطْرُب خلاف هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر. النحاس: وأولى ما قيل في هذه الآية وأجلّ ما روي فيها: أن الحسن قال مِثْلاً بمثل. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ

(١) راجع ١٦/٣٨ فما بعد.
(٢) الاصطلام: الاستئصال.
(٣) في نسخ الأصل: «لا يثاب».

يقول: «من حوسب هلك» فقلت: يا نبيّ الله، فأين قوله جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [1]؟ قال: «إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك». وهذا إسناد صحيح. وشرحه: أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمِل من خير؛ ويبيّن هذا قوله تعالى في الأوّل: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ وفي الثاني: ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلاَّ الْكَفُورُ﴾ ومعنى ﴿يُجَازَى﴾: يكافأ بكل عَمَل عَمِله، ومعنى ﴿جزيناهم﴾. وفّيناهم؛ فهذا حقيقة اللغة، وإن كان ﴿جازى﴾ يقع بمعنى ﴿جزى﴾ مجازاً.

[١٨] ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشأم. والقُرَى التي بورك فيها: الشام والأُرْدُنّ وفِلَسْطين. والبركة: قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويحتمل أن يكون ﴿بَارَكْنَا فيهَا﴾ بكثرة العدد. ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام. وقال قتادة: معنى ﴿ظَاهِرَةً﴾: متصلة على طريق، يغدون فيَقِيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية. وقيل: كان على كل مِيل قريةٌ بسوق، وهو سبب أمن الطريق. قال الحسن: كانت المرأة تخرج معها مِغْزَلها وعلى رأسها مِكْتَلُها ثم تلتهي بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مِكْتَلها من كل الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك. وقيل ﴿ظَاهِرَةً﴾ أي مرتفعة، قاله المبرد. وقيل: إنما قيل لها ﴿ظَاهرَةً﴾ لظهورها؛ أي إذا خرجْتَ عن هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهِرة أي معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر أي معروف. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيرَ﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْراً مقدّراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى. وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء

(١) راجع ١٩/ ٢٧٠.

ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد. ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أي وقلنا لهم سيروا فيها، أي في هذه المسافة فهو أمر تمكين، أي كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً﴾ ظرفان ﴿آمِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً﴾ بلفظ النكرة تنبيهاً على قِصر أسفارهم؛ أي كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتِلَ أبيه لا يحرّكه.

[١٩] ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لما بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوْا طول الأسفار والكَدْح في المعيشة؛ كقول بني إسرائيل: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾[١] الآية. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[٢] فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يوم بدر بالسيف صَبْراً[٣]؛ فكذلك هؤلاء تبدّدوا في الدنيا ومُزّقوا كل مُمَزَّق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد . وقراءة العامة ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به، لأن معناه: نادَيْت ودعَوْت. ﴿بَاعِدْ﴾ سألوا المباعدة في أسفارهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيْصِن وهشام عن ابن عامر: ﴿رَبَّنا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بَعِّدْ﴾ من التبعيد. النحاس: وباعد وبعّد واحد في المعنى. كما تقول: قارب وقرّب. وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم

---

(١) راجع ١/ ٤٢٢ فما بعد.
(٢) راجع ٨/ ٣٩٨. (٣) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل: قتل صبراً.

ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: ﴿رَبُّنَا﴾ رفعاً ﴿باعَدَ﴾ بفتح العين والدال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربّنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قرَّبنا لهم أسفارهم فقالوا أَشَراً وَبَطَراً: لقد بُوعدت علينا أسفارنا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطَراً وعجباً مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يَعْمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس ﴿رَبَّنَا بَعّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بشدّ العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شكوْا أن ربهم باعد بين أسفارهم. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري ﴿رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾ نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: ﴿بَعُدْ بينُ أَسْفَارِنَا﴾ ورفع ﴿بين﴾ بالفعل، أي بعدما يتصل بأسفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب ﴿بين﴾ على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبّر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بَطَراً وَأشراً، وخبّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوْا، كما قال ابن عباس. ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي يُتَحدّث بأخبارهم، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث. ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا. قال الشعبيّ: فلحقت الأنصار بيثْرِب، وغسّان بالشام، والأسد بعُمَان، وخُزاعة بتِهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبا وأيادي سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبار الذي يصبر عن المعاصي، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صَبَرَ عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾[1].

[٢٠] ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) راجع ١/ ٣٧١ و ٣٩٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فيه أربع قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتخفيف ﴿إبليسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالنصب؛ أي في ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر؛ أي صدق عليهم ظنًّا ظنه إذ صدق في ظنه؛ فنصب على المصدر أو على الظرف. وقال أبو عليّ: ﴿ظنّه﴾ نصب لأنه مفعول به؛ أي صدق الظن الذي ظنه إذ قال: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1] وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به، ويقال: صدق الحديثَ، أي في الحديث. وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثّاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائيّ: ﴿صدّق﴾ بالتشديد ﴿ظنَّه﴾ بالنصب بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه. وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج[3] ﴿صدَق عليهم﴾ بالتخفيف ﴿إبليسَ﴾ بالنصب ﴿ظنُّه﴾ بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز هذه القراءة الفرّاء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل ﴿صدق﴾ ﴿إبليسَ﴾ مفعول به؛ والمعنى: أن إبليس سوّل له ظنه فيهم شيئاً فصدق ظنه، فكأنه قال: ولقد صدّق عليهم ظن إبليسَ. و ﴿على﴾ متعلقة بـ ﴿صدق﴾، كما تقول: صدقت عليك فيما ظننته بك، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شيء من الصلة على الموصول. والقراءة الرابعة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيهم إبليسُ ظَنُّهُ﴾ برفع إبليس والظن، مع التخفيف في ﴿صدق﴾ على أن يكون ظنه بدلاً من إبليس وهو بدل الاشتمال. ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي كفروا وغيّروا وبدّلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عام، أي صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد. وقال الحسن: لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حوّاء وهبط إبليس قال إبليس: أمّا إذا أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف! فكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ وقال ابن عباس: إن إبليس قال: خُلقت من نار وخُلق آدم من طين

---

(١) راجع ٧/ ١٧٤. (٢) راجع ١٠/ ٢٧. (٣) كذا في نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس. وفي «روح المعاني والبحر المحيط»: «أبو الجهجاه».

والنار تحرق كل شيء ﴿لأحتنكنَّ ذُرِّيَّتَهُ[1] إلاَّ قَلِيلاً﴾ فصدق ظنه عليهم. وقال زيد بن أسلم: إن إبليس قال يا رب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرّفتهم وفضّلتهم عليّ لا تجد أكثرهم شاكرين، ظناً منه فصدق عليهم إبليس ظنه. وقال الكلبي: إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه. ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظناً فكان كما ظن بوسوسته. ﴿إلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدهما ـ أنه يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيراً من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، أي ما سلم من المؤمنين أيضاً إلا فريق وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1]. فأما ابن عباس فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلهم، فـ ﴿ـمن﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض، فإن قيل: كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب؟ قيل له: لما نفذ له في آدم ما نفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته، وقد وقع له تحقيق ما ظن. وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1] فأعطى القوة والاستطاعة، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ علم أن له تبعاً ولآدم تبعاً؛ فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم، لما وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزيّن في أعينهم تلك الشهوات، ومدّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنه، والله أعلم.

[٢١] ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي لم يَقْهَرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين. والسلطان: القوّة. وقيل الحجة، أي لم تكن له حجة يستتبعهم

(١) راجع ١٠/ ٢٨٧ فما بعد وص ٢٨.

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ﴾ يريد علم الشهادة الذي يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفرّاء أن يكون المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾[1] على قولكم وعندكم، وليس قوله: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ في ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أي وما جعلنا له سلطاناً إلا لنعلم، فالاستثناء منقطع، أي لا سلطان له عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم، فـ ﴿إِلا﴾ بمعنى لكن. وقيل هو متصل، أي ما كان له عليهم من سلطان، غير أنّا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء. وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة؛ أي وما له عليهم من سلطان، كقوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ[2] أُمَّةٍ ﴾ أي أنتم خير أمّة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال: وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل: وما كان له في قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل: ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ إلا لنظهر، وهو كما تقول: النار تحرق الحطب، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار؛ فيقول الأول تعال حتى نجرّب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه، أي لنظهر ذلك وإن كان معلوماً لهم ذلك. وقيل: إلا لتعلموا أنتم. وقيل: أي ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ[3]﴾ أي يحاربون أولياء الله ورسوله. وقيل: أي ليميز؛ كقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾[4] وغيرها. وقرأ الزهري ﴿إِلاّ لِيُعْلَمَ﴾ على ما لم يسم فاعله. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي أنه عالم بكل شيء. وقيل: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

[٢٢] ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١٠/٩٨. (٢) راجع ٤/١٧٠.
(٣) راجع ٦/١٤٧ فما بعد.
(٤) راجع ٢/١٥٦ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك. وهذا خطاب توبيخ، وفيه إضمار: أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك، و ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِن ظَهِيرٍ﴾ أي ما لِلَّه من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالإيجاد؛ فهو الذي يُعبَد، وعبادة غيره محال.

[٢٣] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي شفاعة الملائكة وغيرهم. ﴿عِنْدَهُ﴾ أي عندَ الله. ﴿إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ قراءة العامة ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيّ ﴿أُذِن﴾ بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله. والآذن هو الله تعالى. و ﴿مَن﴾ يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: خُلّي عن قلوبهم الفزع. قطرب: أخرج ما فيها من الخوف. مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة؛ أي إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله؛ كما قال: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(١). والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي ماذا أمر الله به» فيقولون لهم: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكم في عباده بما

---

(١) راجع ١١/٢٨١.

يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة. وفي الكلام إضمار؛ أي ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيّباً لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد. وقيل: هذا الفزع يكون اليوم للملائكة في كل أمر يأمر به الرب تعالى؛ أي لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين. وفي «صحيح الترمذي» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنها سلسلة على صَفوَانَ[1] فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ـ قال ـ والشياطين بعضهم فوق بعض» قال: حديث حسن صحيح. وقال النوّاس بن سمعان قال النبي ﷺ: «إن الله إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو رِعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعِقوا وخروا لله تعالى سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد ثم يمرّ جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير ـ قال ـ فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله تعالى». وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقوا فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنةُ الناسَ [يقولون] يكون العامَ كذا وكذا فيجدونه كذلك؛ فلما بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُّهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك: هلك من في السماء، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة،

---

(١) الصفوان: الصخر الأملس.

وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا في أموالهم فقالت ثَقيف وكانت أعقلَ العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث في الأرض اليوم حَدَث، فأتوني من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يَشُمّها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحَدَث؛ فنصتوا فإذا رسول الله ﷺ قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة ﴿الحجر﴾[1]، ومعنى القول أيضاً في رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتي في سورة ﴿الجن﴾[2] بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فَتْرة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعِقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلي الكبير، وذلك أن محمداً عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجَّداً ويَصْعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صَعِقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤمّلون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: في الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا

---

(١) راجع ١٠/١٠.

(٢) راجع ١٩/١٠ فما بعد.

حين لا ينفعهم الإقرار، أي قالوا قال الحق. وقراءة العامة ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس ﴿فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِم﴾ مسمًّى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ومن بناه للمفعول فالجار والمجرور في موضع رفع، والفعل في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أزيل الفزع عن قلوبهم، حسبما تقدم بيانه. ومثله: أشكاه، إذا أزال عنه ما يشكوه. وقرأ الحسن: ﴿فُزِع﴾ مثل قراءة العامة، إلا أنه خفف الزاي، والجار والمجرور في موضع رفع أيضاً؛ وهو كقولك: انصرف عن كذا إلى كذا. وكذا معنى ﴿فُرِغَ﴾ بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل، رويت عن الحسن أيضاً وقتادة. وعنهما أيضاً ﴿فَرَغَ﴾ بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل، والمعنى: فرغ الله تعالى قلوبهم أي كشف عنها، أي فرغها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً ﴿فرّغ﴾ بالتشديد.

[٢٤] ﴿ ۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرّة مما يقدر عليه الرّب قرّر ذلك فقال: قل يا محمد للمشركين ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات؛ أي عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي الخارجة من الأرض عن الماء والنبات ـ أي لا يمكنهم أن يقولوا هذا فِعْلُ آلهتنا ـ فيقولون لا ندري، فقل إن الله يفعل ذلك الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يعبد. ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذا على وجه الإنصاف في الحجة؛ كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادّين، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالّ

وهو أنتم؛ فكذّبهم بأحسن من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالون حين أشركتم بالذي يرزقكم من السموات والأرض. ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ معطوف على اسم ﴿إِنّ﴾ ولو عطف على الموضع لكان ﴿أو أنتم﴾ ويكون ﴿لَعَلَى هُدًى﴾ للأول لا غير. وإذا قلت: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ كان للثاني أولى، وحذفت من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيار المبرد، قال: ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة: أحدنا كاذب، قد عرف المعنى، كما تقول: أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطيء، وقد عرف أنه هو المخطيء فهكذا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. و ﴿أَوْ﴾ عند البصريين على بابها وليست للشك، ولكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة والفراء: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين. وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارس أو رياحاً ... عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرَّبابا[1]

يعني أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلما اشتد أمر الحرب فينا ... تأمّلنا رياحاً أو رِزاما

[٢٥] ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أي اكتسبنا ، ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضاً ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، لا أنه ينالني ضرر كفركم ، وهذا كما قال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2] والله مجازي الجميع . فهذه آية مهادنة ومتاركة ، وهي منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف.

[٢٦] ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه: «والخشابا». (٢) راجع ٢٠/٢٢٩.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يقضي فيثيب المهتدي ويعاقب الضال ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ أي القاضي بالحق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال الخلق . وهكذا كله منسوخ بآية السيف.

[٢٧] ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون ﴿أَرُونِيَ﴾ هنا من رؤية القلب، فيكون ﴿شُرَكَاءَ﴾ المفعول الثالث، أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لِلَّه عز وجل، وهل شاركت في خلق شيء، فبينوا ما هو؟ وإلا فلِم تعبدونها. ويجوز أن تكون من رؤية البصر، فيكون ﴿شُرَكَاءَ﴾ حالاً. ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ ردّ لجوابهم المحذوف، كأنه قال: أروني الذين ألحقتم به شركاء. قالوا: هي الأصنام. فقال كلا، أي ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

[٢٨] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

[٢٩] ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

[٣٠] ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ﴾ أي وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة ؛ ففي الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج: أي وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع. وقيل : معناه كافاً للنَّاس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أي إلا ذا كافة، فحذف المضاف ، أي ذا منع للناس من أن يَشذُّوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ، ومنه:

كف الثوبَ، لأنه ضم طرفيه. ﴿بَشِيراً﴾ أي بالجنة لمن أطاع. ﴿وَنَذِيراً﴾ من النار لمن كفر. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله وهم المشركون؛ وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عدداً. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرّنكم تأخيره. والميعاد الميقات. ويعني بهذا الميعاد وقت البعث وقيل وقت حضور الموت؛ أي لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولي. وقيل: أراد بهذا اليوم يوم بدر؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدنيا في حكم الله تعالى. وأجاز النحويون ﴿ميعاد يومٌ﴾ على أن يكون ﴿ميعادٌ﴾ ابتداء و ﴿يومٌ﴾ بدل منه، والخبر ﴿لكم﴾. وأجازوا ﴿ميعادٌ يوماً﴾ يكون ظرفاً، وتكون الهاء في ﴿عنه﴾ ترجع إلى ﴿يوم﴾ ولا يصح ﴿ميعادُ يومَ لا تستأخرون﴾ بغير تنوين، وإضافة ﴿يوم﴾ إلى ما بعده إذا قدّرت الهاء عائدة على اليوم، لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم.

[٣١] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا﴾ يريد كفار قريش. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيد عن قتادة: ﴿وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل من الآخرة. وقال ابن جُريج: قائل ذلك أبو جهل بن هشام. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين. وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ أي لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً. ثم ذكر أيّ شيء يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي أغويتمونا وأضللتمونا. واللغة الفصيحة ﴿لَوْلاَ أَنْتُمْ﴾ ومن العرب من يقول ﴿لولاكم﴾ حكاها سيبويه؛ تكون ﴿لَوْلاَ﴾ تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوز «لولاكم» لأن المضمر عقيب المظهر، فلما كان المظهر مرفوعاً بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضاً مرفوعاً. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار، أي ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم. ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُم مُجْرِمِينَ﴾ أي مشركين مصرِّين على الكفر. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به يَمكُرُ فهو ماكر ومَكّار. قال الأخفش: هو على تقدير: هذا مكر الليل والنهار. قال النحاس: والمعنى ـ والله أعلم ـ بل مكركم في الليل والنهار، أي مسارّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكركم بالليل والنهار صدّنا؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما،

وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾[١] فأضاف الأجل إلى نفسه، ثم قال: ﴿فإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾[٢] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قبيل قولك: ليله قائم ونهاره صائم. قال المبرد: أي بل مكركم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهاره صائم وليله قائم. وأنشد لجرير:

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائم

وأنشد سيبويه:

فنـــام ليلـــي وتجلّـــى همـــي

أي نمت فيه. ونظيره: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[٣]. وقرأ قتادة: ﴿بل مكْرٌ الليلَ والنهارَ﴾ بتنوين ﴿مكر﴾ ونصب ﴿الليل والنهار﴾، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار، فحذف. وقرأ سعيد بن جبير ﴿بَلْ مكَرُّ﴾ بفتح الكاف وشدّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف. ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دلّ عليه ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدّنا مكر الليلِ والنهار. وروي عن سعيد بن جبير ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليلُ والنهار عليهم فغفلوا. وقيل: طول السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾[٤]. وقرأ راشد ﴿بل مَكَرَّ الليل والنهار﴾ بالنصب، كما تقول: رأيته مَقْدَمُ الحاج، وإنما يجوز هذا فيما يعرف، لو قلت: رأيته مقدمَ زيد، لم يجز؛ ذكره النحاس. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ أي أشباهاً وأمثالاً ونظراء. قال محمد بن يزيد: فلانٌ نِدُّ فلانٍ، أي مثله. ويقال نَدِيد؛ وأنشد:

أينمــا تجعلــونِ إلــيّ نــدّا ... ومـا أنتـم لـذي حسـب نَـديـد

وقد مضى هذا في «البقرة»[٥]. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي أظهروها، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء. قال امرؤ القيس:

تجاوزت أحراساً وأهوال مَعْشرٍ ... عليّ حراصا لو يُسِرّون مَقْتَلي[٦]

---

(١) راجع ١٨/ ٢٩٩ فما بعد. (٢) راجع ٧/ ٢٠١ فما بعد. (٣) راجع ٨/ ٣٦٠.
(٤) راجع ١٧/ ٢٤٨ فما بعد. (٥) راجع ١/ ٢٣٠.
(٦) هذه رواية البيت كما في نسخ الأصل والديوان وروايته كما في المعلقات:

تجـاوزت أحـراسـاً إليهـا ومعشـرا ... علـيّ حـراسـا لـو يشـرون مقتلـي

«يشرون» بالشين المعجمة: يظهرون.

وروي ﴿يُبْشِرون﴾. وقيل: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ أي تبينت الندامة في أسرار وجوههم. قيل: الندامة لا تظهر، وإنما تكون في القلب، وإنما يظهر ما يتولّد عنها، حسبما تقدّم بيانه في سورة ﴿يونس[1]، وآل عمران﴾. وقيل: إظهارهم الندامة قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾[3]. ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأغلال جمع غُلّ، يقال: في رقبته غُلّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غلٌّ قَمِل، وأصله أن الغُلّ كان يكون من قِدّ وعليه شعر فيَقْمَل. وغَللتُ يده إلى عنقه؛ وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: مالَه أُلَّ وغُلَّ[4]. والغُلّ أيضاً والغُلّة: حرارة العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلاً فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهري. أي جعلت الجوامع في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل من غير هؤلاء الفريقين. وقيل يرجع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إليهم. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ﴾ بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

[٣٤] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٣٨] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) راجع ٨/ ٣٥٢.
(٢) راجع ١٣/ ١١٧.
(٣) راجع ١١/ ٢١٥.
(٤) ألّ: دفع في قفاه. وغلّ: جن؛ فوضع في عنقه الغل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ قال قتادة: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً﴾ أي فُضّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يخوّلنا ذلك. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءَ﴾ أي يوسعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يقتّر، أي إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلّ شيء من ذلك على ما في العواقب، فسَعَة الرزق في الدنيا لا تدلّ على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غداً شيئاً. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون. ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ قال مجاهد: أي قُرْبى. والزُّلْفة القربة. وقال الأخفش: أي إزلافاً، وهو اسم المصدر، فيكون موضع ﴿قُرْبَى﴾ نصباً، كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً. وزعم الفراء أن ﴿التي﴾ تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قول آخر وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج، يكون المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأوّل لدلالة الثاني عليه. وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ

ويجوز في غير القرآن: باللتين وباللاتي وباللواتي وباللّذَين وبالّذين ؛ للأولاد خاصة، أي لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة، ولا تقرّبكم تقريباً. ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى إلا من آمن وعمل صالحاً فلن يضره مالُه وولُده في الدنيا. وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وجنّبني المالَ والولد ، فإني سمعت فيما أوْحيتَ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.

قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنّبني المال والولد المطْغِيَيْن أو اللذين لا خير فيهما ؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنِعم هذا ! وقد مضى هذا في « آل عمران

ومريم، والفرقان»[(١)]. و ﴿مَن﴾ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقرّبانه مني. وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في ﴿تقرّبكم﴾. النحاس: وهذا القول غلط؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل، ولو جاز هذا لجاز: رأيتك زيداً. وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين، ولكن قوله يؤول إلى ذلك، وزعم أن مثله ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(١)] يكون منصوباً عنده بـ ﴿ينفع﴾. وأجاز الفراء أن يكون ﴿مَن﴾ في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، كذا قال، ولست أحصِّل معناه. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[(٢)] فالضعف الزيادة، أي لهم جزاء التضعيف، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: لهم جزاء الأضعاف، فالضعف في معنى الجمع، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حق اليقين، وصلاة الأولى. أي لهم الجزاء المضعّف، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة.

وبهذه الآية استدلّ من فضّل الغنى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية. ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ قراءة العامة ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ بالإضافة. وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم ﴿جزاءً﴾ منوّناً منصوباً ﴿ الضعفُ ﴾ رفعاً؛ أي فأولئك لهم الضعف جزاء، على التقديم والتأخير. ﴿وَجَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ على أن يجازوا الضعف. و ﴿جزاءٌ الضعفُ﴾ مرفوعان، الضعفُ بدل من جزاء. وقرأ الجمهور أيضاً ﴿في الْغُرُفَات﴾ على الجمع، وهو اختيار أبي عبيد ؛ لقوله : ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾[(١)]. الزمخشري: وقرىء ﴿ فِي الغرفاتِ ﴾ بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثّاب وحمزة وخلف ﴿في الغرفة﴾ على التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾[(١)]. والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرف

---

(١) راجع ٤/ ٧٢ و ١١/ ٨٠ و ١٣/ ٨٢ و ١١٤ و ٣٥٩. (٢) راجع ٧/ ١٥٠.

من ياقوت وزبرجد ودُرّ. وقد مضى بيان ذلك[1]. ﴿آمِنُونَ﴾ أي من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ في إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ معانِدين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي في جهنم تحضرهم الزبانية فيها.

[٣٩] ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ كرر تأكيداً ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسِّع على من يشاء ويضيِّق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه. وفيه إضمار، أي فهو يخلفه عليكم؛ يقال: أخلف له وأخلف عليه، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً». وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قال لي أَنفق أنفق عليك...» الحديث. وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء ـ كما تقدّم[2] ـ سواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار، والادخار هاهنا مثله في الأجر.

مسألة ـ روى الدَّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِيّ عن عبد الحميد الهلالي عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عرضَه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع ٨/ ٢٠٤ و ١٣/ ٨٣ و ٣٥٩.
(٢) راجع ٣/ ٣٠٨ فما بعد.

من نفقة فعلى الله خلَفُها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية». قال عبد الحميد: قلت لابن المنكدر: «ما وَقَى الرجل عرضه»؟ قال: يعطي الشاعر وذا اللسان. عبد الحميد وثّقه ابن معين.

قلت: أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له. وأما البنيان فما كان منه ضرورياً يكنّ الإنسانَ ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه. وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته، قال ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سِوى هذه الخصال، بيت يسكنه وثوب يوارِي عورته وجِلْفُ الخبز والماء». وقد مضى هذا المعنى في ﴿الأعراف﴾[1] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾ لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله، والأمير جنده؛ قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾ والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2].

[٤٠] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾.

[٤١] ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ[3] جَمِيعاً﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾[4]. أي لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيعاً. والخطاب للنبي ﷺ، وا لمراد هو وأمته. ثم قال: ولو تراهم أيضاً ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ العابدين والمعبودين، أي نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ[3] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا

(١) راجع ٧/٢٣٩. (٢) راجع ١٧/٥٥.
(٣) قوله: ﴿نحشرهم، نقول﴾ بالنون قراءة نافع. (٤) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

أستفهام؛ كقوله عز وجل لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[(١)]. قال النحاس: فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذّبتهم كان في ذلك تبكيت لهم؛ فهو أستفهام توبيخ للعابدين. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص في العبادة له. ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي يطيعون إبليس وأعوانه. وفي «التفاسير»: أن حَيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله؛ وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾[(٢)].

[٤٢] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً﴾ أي شفاعة ونجاة. ﴿وَلاَ ضَرًّا﴾ أي عذاباً وهلاكاً. وقيل: أي لا تملك الملائكة دفع ضرّ عن عابديهم؛ فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

[٤٣] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ﴾ يعنون محمداً ﷺ. ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أي أسلافكم من

---

(١) راجع ٦/ ٣٧٤.
(٢) راجع ١٥/ ١٣٤.

الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ يعنون القرآن؛ أي ما هو إلا كذب مختلَق. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إلاَّ سِحرٌ مُبِينٌ﴾ فتارةً قالوا سحر، وتارةً قالوا إفك. ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك.

[٤٤] ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝﴾.

[٤٥] ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي لم يقرؤوا في كتاب أوتُوه بطلانَ ما جئتَ به، ولا سمعوه من رسول بُعث إليهم، كما قال: ﴿أم آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾(١) فليس لتكذيبهم وجه يتشبّث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله الحق: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذب قبلهم أقوام كانوا أشدّ من هؤلاء بطشاً وأكثرَ أموالاً وأولاداً وأوسع عيشاً، فأهلكتهم كثمود وعاد. ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي ما بلغ أهل مكة ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ تلك الأمم. والمعشار والعُشر سواء، لغتان. وقيل: المعشار عشر العشر. الجوهري: ومعشار الشيء عشره، ولا يقولون هذا في شيء سوى العشر. وقيل: ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم؛ حكاه النقاش. وقيل: ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمة أعلمَ من أمته، ولا كتاب أبين من كتابه. وقيل: المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءاً من ألف جزء. الماوردي: وهو الأظهر، لأن المراد به المبالغة في التقليل. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي عقابي في الأمم، وفيه محذوف وتقديره: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

---

(١) راجع ١٦/ ٧٤.

[٤٦] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ تمم الحجة على المشركين؛ أي قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ﴾ أي أذكّركم وأحذّركم سوء عاقبة ما أنتم فيه. ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ أي بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام، تقتضي نفي الشرك وإثبات الإلٰه. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله؛ وهذا قول ابن عباس والسّدي. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كل المواعظ. وقيل: تقديره بخصلة واحدة، ثم بينها بقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ فتكون ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض على البدل من ﴿وَاحِدَةٍ﴾، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هي أن تقوموا. ومذهب الزجاج أنها في موضع نصب بمعنى لأن تقوموا. وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذي هو ضدّ القعود، وهو كما يقال: قام فلان بأمر كذا؛ أي لوجه الله والتقرب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾[1]. ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي وُحداناً ومجتمعين؛ قاله السّدّي. وقيل: منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره، وهذا قول مأثور. وقال القُتَبِيّ: مناظراً مع غيره ومفكّراً في نفسه، وكله متقارب. ويحتمل رابعاً أن المَثْنَى عمل النهار والفرادى عمل الليل، لأنه في النهار معانٌ وفي الليل وحيد، قاله الماوردي. وقيل: إنما قال: ﴿مَثْنَى وفُرَادَى﴾ لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد؛ والله أعلم. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ منْ جِنَّةٍ﴾ الوقف عند أبي حاتم وابن الأنباري على ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾. وقيل: ليس هو بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جرَّبتم على صاحبكم كذبا، أو رأيتم فيه جنة، أو في أحواله من

(١) راجع ٥/٤٠٢.

فساد، أو اختلف إلى أحد ممن يدّعي العلم بالسحر، أو تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب، أو عرفتموه بالطمع في أموالكم، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديدٍ﴾ وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. ورَهْطَكَ مِنهم المُخْلِصين﴾[1] خرج رسول الله ﷺ حتى صعِد الصَّفا فهتف: يا صباحاه[2]؟ فقالوا: من هذا الذي يهْتِف!؟ قالوا محمد؛ فاجتمعوا إليه فقال: «يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب ـ فاجتمعوا إليه فقال ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد». قال فقال أبو لهب: تبًا لك! أمَا جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قال فنزلت هذه السورة: ﴿تبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[3] وقَد تَبّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة.

[٤٧] ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي رقيب وعالم وحاضر لأعمالي وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء فهو يجازي الجميع.

[٤٨] ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يبيّن الحجة ويظهرها. قال قتادة: بالحق بالوحي. وعنه: الحق القرآن. وقال ابن عباس: أي يقذف الباطل بالحق علامُ الغيوبِ.

---

(١) قال القسطلاني في قوله: «ورهطك منهم المخلصين»: هو من عطف الخاص على العام، وكان قرآناً فنسخت تلاوته.

(٢) قوله: «يا صباحاه» بسكون الهاء، وهي كلمة يقولها المستغيث؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون الغارة يوم الصباح.

(٣) راجع ٢٠/ ٢٣٤.

وقرأ عيسى بن عمر ﴿عَلَّامَ الغيوب﴾ على أنه بدل، أي قل إن ربي علام الغيوب يقذف بالحق. قال الزجاج. والرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل مما في يقذف. النحاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ. وزعم الفراء أن الرفع في مثل هذا أكثر في كلام العرب إذا أتى بعد خبر ﴿إنّ﴾ ومثله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ[1] النَّارِ﴾ وقرىء: ﴿الغِيوبُ﴾ بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت[2]، والغَيوب كالصبور، وهو الأمر الذي غاب وخَفِيَ جدًّا.

[٤٩] ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس: والتقدير جاء صاحب الحق؛ أي الكتاب الذي فيه البراهين والحجج. ﴿وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان؛ أي ما يخلق الشيطان أحداً. ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ فـ ﴿ـما﴾ نَفْيٌ. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى أيّ شيء؛ أي جاء الحق فأيّ شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه؛ أي فلم يبق منه شيء، كقوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[3] أي لا ترى.

[٥٠] ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركتَ دين آبائك فضللت. فقال له: قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي. وقراءة العامة ﴿ضَللت﴾ بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وَثّاب وغيره: ﴿قُلْ إِنْ ضَلِلت﴾ بكسر اللام وفتح الضاد من ﴿أَضَلُّ﴾، والضلال والضلالة ضدّ الرشاد. وقد ضلَلت (بفتح اللام) أضل

(١) راجع ١٥/ ٢٢٥.
(٢) عبارة روح المعاني: «... الغيوب (بالكسر) كالبيوت». وعبارة البحر: «... أما الضم فجمع غيب، وأما الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضمة التي على الياء مع الواو، وأما الفتح فمفعول للمبالغة كالصبور»
(٣) راجع ١٨/ ٢١٦.

(بكسر الضاد)، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ فهذه لغة نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون ﴿ضَلِلت﴾ بالكسر ﴿أضِل﴾[1]، أي إثم ضلالتي على نفسي. ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة. وقيل وجه النظم: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيّن الحجة، وضلال من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب.

[٥١] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق. والمعنى: لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم، روي معناه عن ابن عباس. الحسن: هو فزعهم في القبور من الصيحة. وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم؛ وقاله قتادة. وقال ابن مُغَفَّل: إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. السّدّي: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة. سعيد بن جُبير: هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فزعهم. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا نجاة؛ قاله ابن عباس. مجاهد: فلا مهرب. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه. وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليَخْرِبوها، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم؛ فهو الأخذ من مكان قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»، قال قال رسول الله ﷺ - وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب -: «فبينا هم

(١) في مختار الصحاح: «بالكسر فيهما» والذي في اللسان: «ضللت بالكسر أضل».

كذلك إذ خرج عليهم السُّفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين، جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة ـ يعني مدينة بغداد، قال ـ فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش[1] من ولد العباس، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين[2] فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السّبي والغنائم ويَحُلّ جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل اذهب فأبِدْهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جُهينة، ولذلك جاء القول: وعند جهينة الخبر اليقين. وقيل: ﴿أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت، وهذا على قول من يقول: هذا الفزع عند النزع. ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فزع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف. ومنه الخبر إذا قال للأنصار: «إنكم لتَقِلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع». ومن قال: أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال: أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة. ومن قال: هو فزع يوم القيامة قال: أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها. وقيل: ﴿أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من جهنم فألقوا فيها.

[٥٢] ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي بالقرآن. وقال مجاهد: بالله عز وجل. الحسن: بالبعث. قتادة: بالرسول ﷺ. ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال

(١) كبش القوم: رئيسهم، وسيدهم، وحاميتهم، والمنظور إليه فيهم.
(٢) في كتاب التذكرة «على ميلين».

ابن عباس والضحاك: التناوش الرجعة؛ أي يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك! ومنه قول الشاعر:

تمنّى أن تؤوب إليّ ميٌّ وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدّي: هي التوبة؛ أي طلبوها وقد بَعُدت، لأنه إنما تقبل التوبة في الدنيا. وقيل: التناوش التناول؛ قال ابن السِّكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه ينوشه نَوْشاً. وأنشد:

فهي تنوش الحوض نَوْشاً مِن عَلاَ نَوْشاً به تَقْطع أجوازَ الفَلا[1]

أي تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر. قال: ومنه المناوشة في القتال؛ وذلك إذا تدانى الفريقان. ورجل نَوُوش أي ذو بطش. والتناوش. التناول: والانتياش مثله. قال الراجز:

كانت تنوش العنقَ انتياشا

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنّى لهم تناول الإيمان في الآخرة وقد كفروا في الدنيا. وقرأ أبو عمرو والكسائي والأعمش وحمزة: ﴿وأنى لهم التناؤش﴾ بالهمز. النحاس: وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأن ﴿التناؤش﴾ بالهمز البعد، فكيف يكون: وأنى لهم البعد من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءة جائزة حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يتأوّل بها هذا المتأوّل البعيد. فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية، وذلك كثير في كلام العرب. وفي المصحف الذي نقلته الجماعة عن الجماعة ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[2] والأصل ﴿وُقّتت﴾ لأنه مشتق من الوقت. ويقال في جمع دار: أدؤر. والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال: يكون مشتقاً من النئيش وهو الحركة في إبطاء؛ أي من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد، يقال: نأشت الشيء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث: والضمير في قوله «فهي» للإبل. وتنوش الحوض: تتناول ملأه. وقوله: «من علا» أي من فوق. يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق؛ وذلك النوش الذي تناله هو الذي يعينها على قطع الفلوات. والأجواز: جمع جوز وهو الوسط.

(٢) راجع ١٩/ ١٥٥.

من بُعْد والنئيش: الشيء البطيء. قال الجوهري: التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد. وقد نأشت الأمر أناشه نأشاً أخرته؛ فانتأش. ويقال: فعله نئيشاً أي أخيراً.

قال الشاعر:

تمنّى نئيشاً أن يكون أطاعني ... وقد حدثت[١] بعد الأمور أمور

وقال آخر:

قعدت زماناً عن طلابك للعلا ... وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخُبْر[٢]

وقال الفراء: الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب؛ مثل: ذِمْت[٣] الرجلَ وذَأَمْته أي عبته. ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال: ﴿وأنّى لهم﴾ قال: الردّ، سألوه وليس بحين ردّ.

[٥٣] ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ أي بالله عز وجل. وقيل: بمحمد ﴿مِنْ قَبْل﴾ يعني في الدنيا. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يَحُقّه[٤]: هو يقذف ويرجم بالغيب. ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب، أي يرمون بالظن فيقولون: لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، رَجْماً منهم بالظن؛ قاله قتادة. وقيل: ﴿يقذفون﴾ أي يرمون في القرآن فيقولون: سحر وشعر وأساطير الأولين. وقيل: في محمد؛ فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون. ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي إن الله بعَّد لهم أن يعلموا صدق محمد. وقيل: أراد البعد عن القلب، أي من مكان بعيد عن قلوبهم. وقرأ مجاهد ﴿وَيُقْذَفُونَ بالغيب﴾ غير مسمّى الفاعل، أي يُرمون به. وقيل: يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم.

---

(١) في اللسان مادة نأش: «ويحدث من بعد...».

(٢) في ش، ك: «الخير» بالياء المثناة.

(٣) في اللسان: ذامه يذيمه ذيماً وذاماً عابه، وذمته أذيمه وأذمته وذممته، كله بمعنى.

(٤) حق الأمر يحقه وأحقه: كان منه على يقين.

[٥٤] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حيل بينهم وبين النجاة من العذاب. وقيل: حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصل ﴿حُوِل﴾ فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثُمَّ حذفت حركتها لثقلها. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ الأشياع جمع شَيع، وشِيَع جمع شيعة. ﴿مِنْ قَبْل﴾ أي بمن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ أي من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى واحد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي يستراب به، يقال: أراب الرجل أي صار ذا ريبة، فهو مريب. ومن قال هو من الريب الذي هو الشك والتهمة قال: يقال شكٌّ مريب؛ كما يقال: عجبٌ عجيب وشعر شاعر؛ في التأكيد.

ختمت السورة، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

قال سفيان الثوري، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضاً: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض. وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه، ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب؛ ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري، وابن جُرَيج في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: حسن الصوت. رواه عن الزهري البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقرىء في الشاذ: «يزيدُ في الحلق»، بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب إلي بما سمعتَ من رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ»، وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومَنْع وَهَات. وأخرجاه من طرق عن وَرّاد، به. وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم، أهلَ الثناء والمجد. أحقّ ما قال العبد، كلنا لك عبد. اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ». وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. ولهذا نظائر كثيرة. وقال الإمام مالك: كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول: مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

يقول: وإن يكذبوك ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلَهّوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان. قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤]. ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله

القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى عذاب السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحِمْصي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني ـ أو: ربيعة ـ عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله ﷻ». ثم قال: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بن شرحبيل، عن زيد ابن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب». وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما في أول سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب، منه خلق ومنه يركب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. وتقدم في «الحج» حديث أبي رَزين: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك مُحْلاً ثم مررت به يهتز خَضِراً؟» قلت: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى». وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. قال مجاهد: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقال قتادة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليتعزز بطاعة الله ﷻ. وقيل: من كان يريد علم العزة، لمن هي، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. قاله غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحْمَسِيّ، أخبرني جعفر بن عَوْن، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله: إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صَعد بهن إلى السماء

فلا يُمرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ . وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا سعيد الجُرَيْري، عن عبد الله بن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدوياً حول العرش كدويّ النحل، يُذَكِّرْن بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن. وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار، رحمه الله، وقد روي مرفوعاً. قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَيْر، حدثنا موسى ـ يعني: ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد الله، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرون بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به؟». وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى ابن أبي عيسى الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير، به.

وقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ : قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه. ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وإبراهيم النَّخعي، والضحاك، والسُّدِّيَ، والربيع بن أنس، وشَهْر بن حَوْشَب، وغير واحد من السلف. وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن، وقتادة: لا يقبل قولٌ إلا بعمل. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ : قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضاء إلى الله، يراؤون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون. والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى؛ ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ، أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذكرا وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم، لتسكنوا إليها. وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨ـ٩]. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. ورُوي من طريق العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمُر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره: فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ ، وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السدي، وعطاء الخراساني. واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال. وقال النسائي

عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله فليَصِلْ رَحِمه». وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيْلِي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا عثمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مَشْجَعَة بن ربعي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله يأخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر». وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مُرَّة، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر. ثم قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ٢٢ ـ ٢٣]. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسَنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو: صدره. وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، وغيرهم: القطمير: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير. ثم قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]. وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثلُ خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟

﴿الصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾، أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، أي: ولو كان قريباً إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. قال عكرمة في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب، سل هذا: لم كان يغلق بابه دوني. وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك يداً، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا؟ وقد احتجت إليك اليوم. فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار. وأن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أيّ والد كنتُ لك؟ فيثني خيراً، فيقول له: يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة ـ أو: يا هذه ـ أي زوج كنت لك؟ فتثني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لي، لعلي أنجو بها مما ترين فتقول: ما أيسر ما طلبت. ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية، ويقول الله: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم، رحمه الله، عن أبي عبد الله الطهراني، عن حفص بن عمر، عن الحكم بن أبان، عن عِكرمة، به. ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون من أمرهم به، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُواۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي الظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فالمؤمن سميع بصير في نور يمشي، على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي، لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا يسمع وينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَٰلَةُ﴾ الآية [النحل: ١٣٦]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وهي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البين. ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمۡرٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد في تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمۡرٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق ـ وهي: الجُدَد، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضاً. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الجُدَد: الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادة، والسدي. ومنها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراساني وقتادة. وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سود غرابيب. وفيما قاله نظر. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: و كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب ـ وهو: كل ما دب على قوائم ـ والأنعام، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ فقال: «نعم صبغا لا يُنفض، أحمر وأصفر وأبيض». ورُوي مرسلاً وموقوفاً، والله أعلم. ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال ابن لَهِيعَة، عن ابن أبي عمرة، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ. وقال الحسن البصري: الإيمان مَنْ خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، زهد فيما سَخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب، عن مالك قال: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب. قال أحمد بن صالح المصري: معناه: أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وأما العلم الذي فرض الله، ﷻ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة، وما جاء عن الصحابة، رضي الله عنهم، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله: «نور» يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه. وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان التميمي، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله ﷻ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله. كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مُطَرِّف، رحمه الله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرّاجاً أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه سَبْعةَ أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعةَ أصناف من الشر لم يعمله». غريب جداً.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذي اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبيّ قالا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثني ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي». قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ. وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب. قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هو الكافر. وكذا رَوَى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة «الواقعة» وآخرها. والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة. وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ، من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن نورد منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار؛ أنه سمع رجلاً من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة». هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسمّ. وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضَمْرة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فأما الذي سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾». **طريق أخرى**: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: «فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة». ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم، آنس وحشتي، وارحم غربتي، ويسر لي جليساً صالحاً، قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، «فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾».

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة».

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَزيز، حدثنا سلامة، عن عَقيل، عن ابن شهاب، عن عَوْف بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: «لا إله إلا الله وحده». يقول الله ﷻ: صدقوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: ﴿لا إله إلا الله وحده﴾ واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويمحص». غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثني ابن حميد، حدثنا الحكيم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن عبد الله بن عيسى، عن يزيد بن الحارث، عن شَقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلاث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول: ما هؤلاء؟ ـ وهو أعلم تبارك وتعالى ـ فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الربﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي: وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية. **أثر آخر**: قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب، عن عقبة بن صُهْبَان الهُنَائي قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، عن قول الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية، فقالت لي: يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم. قال: فجعلت نفسها معنا. وهذا منها، رضي الله عنها، من باب الهَضْم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقال عبد الله بن المبارك، رحمه الله: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: هي لأهل بدونا، ومقتصدنا أهل حضرنا، وسابقنا أهل الجهاد. رواه ابن أبي حاتم. وقال عَوْف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأحبار قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار. ورواه ابن

جرير من طرق، عن عوف، به. ثم قال: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثني ابن عُلَيَّة، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: تماست مناكبهم ورَب كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم. ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السَّبيعي في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج. ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن محمد بن الحنفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. ورواه الثوري، عن إسماعيل بن سَمِيع، عن رجل، عن محمد بن الحنفية، بنحوه. وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعني: الباقر - عن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو بدمشق - فقال: ما أقدمك أيْ أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر». وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول: قيس بن كثير - عن أبي الدرداء. وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواية فيه في شرح «كتاب العلم» من «صحيح البخاري»، ولله الحمد والمنة. وقد تقدم في أول «سورة طه» حديث ثعلبة بن الحكم، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي».

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم، ﷻ، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة». وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحِيّ، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لَهِيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلي أهل الجنة فقال: «مسورون بالذهب والفضة، مُكَلَّلة بالدر، وعليهم أكاليل من دُرّ وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جُرْدٌ مُردٌ مكحّلون». ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذوه من هموم الدنيا والآخرة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل «لا إله إلا الله» ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾». رواه ابن أبي حاتم من حديثه. وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا يحيى بن موسى المروزي، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشة في الموت ولا في قبورهم ولا في النشور. وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾».

قال ابن عباس، وغيره: غَفَر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾: يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومَنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن

رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء. والنصب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب. وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم. فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُونَ أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠]. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب بالحق. وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله، ﷻ، بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب، جل جلاله، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١١-١٢]، أي: لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة. وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة. وكذا قال أبو غالب الشيباني. وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن رجل، عن وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قال: عشرين سنة. وقال هُشَيْم، عن منصور، عن زاذان، عن الحسن في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال: أربعين سنة. وقال هشيم أيضاً، عن مجاهد، عن الشعبي، عن مسروق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ.

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أربعون سنة. هكذا رواه من هذه الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضا، لما ثبت في ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير، من أن الحديث لم يصح؛ لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره. وقد روى أصبغ بن نُباتة، عن علي، رضي الله عنه، أنه قال: العمر الذي عَيَّرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا دُحَيْم، حدثنا ابن أبي فُدَيْك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حُسَين المكي؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبي رباح ـ عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾». وكذا رواه ابن جرير، عن علي بن شعيب، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فُديك، به. وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فُدَيك، به. وهذا الحديث فيه نظر؛ لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن رَجُل من بني غفَار، عن سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه».

وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» من صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، عن عُمَر بن عليّ، عن مَعْن بن محمد الغفَاري، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله ﷻ إلى امرىء أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة». ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابن عَجْلان، عن سعيد المَقْبُري. فأما أبو حازم فقال ابن جرير: حدثنا أبو صالح الفَزَاريّ، حدثنا محمد بن سَوَّار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القاريّ الإسكندريّ، حدثنا أبو حازم، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من عَمَّره الله ستين سنة، فقد أعذر إليه في العمر». وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، به. ورواه البزار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». يعني: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ . وأما متابعة «ابن عجلان» فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقري، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله، ﷻ، إليه في العمر». وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرىء، به. ورواه أحمد أيضاً عن خلف عن أبي مَعْشَر، عن سعيد المقْبِرِيّ. **طريق أخرى عن أبي هريرة:** قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرج أبو عُتْبة الحمُصي، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكناني، حدثني مَعْمَر بن راشد قال: سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله ﷻ، إلى صاحب الستين سنة والسبعين». فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت. وقول ابن جرير: (إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره)، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم. وذكر بعضهم أن العمر الطبعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذَا بَـلَـغَ الـفـتـى سـتـيـن عَـامـا ... فـقـد ذَهَـبَ الـمَـسَـرَّةُ والـفَـتَـاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عرفة، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد، عن الحسن بن عرفة، به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا عَجَب من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى، عن أبي هريرة، حيث قال: حدثنا سليمان بن عمر، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وقد رواه الترمذي في «كتاب الزهد» أيضاً، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد بن ربيعة، به. ثم قال: هذا حديث حسن غريب، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روى من غير وجه عنه. هذا نصه بحروفه في الموضعين، والله أعلم. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي فُدَيك، حدثني إبراهيم بن الفضل - مولى بني مخزوم - عن المقبُري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين». وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقل أمتي أبناء سبعين». إسناده ضعيف. **حديث آخر في معنى ذلك:** قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانىء، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن رِبْعي عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله، أنبئنا بأعمار أمتك. قال: «ما بين الخمسين إلى الستين». قالوا: يا رسول الله، فأبناء السبعين؟ قال: «قل من يبلغها من أمتي، رحم الله أبناء السبعين، ورحم الله أبناء الثمانين». ثم قال البزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة. وقيل: ستين. وقيل: خمساً وستين سنة. والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ : روي عن ابن عباس، وعِكْرِمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا: يعني: الشيب. وقال السُّدّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

[الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨]، أي: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]. وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝﴾.

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين، فسبحان المقدر المدبر رب العالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير. وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض من أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥] ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾، أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. وقد أورد ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً بل منكراً، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى، عليه السلام، على المنبر قال: «وقع في نفس موسى، عليه السلام: هل ينام الله، ﷻ، فأرسل الله إليه ملكاً، فأرقه ثلاثاً، وأعطاه قارورتين، في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسّرَت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض». والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة؛ فإن موسى، عليه السلام، أجَلّ من أن يجوّز على الله، سبحانه وتعالى، النوم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً. قال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السموات تدور على مِنْكب مَلَك. قال: أفصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته. قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها، كَذَب كعب. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود. ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: ذهب جُنْدَب البَجَلي إلى

كعب بالشام، فذكر نحوه. وقد رأيت في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلي، سماه «سير الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع، وَكِيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زونان ـ يعني: عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب، عن مالك أنه قال: السماء لا تدور. واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إن بالمغرب باباً للتوبة لا يزال مفتوحاً حتى تطلع الشمس منه». قلت: وهذا الحديث في الصحيح، والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧ ـ ١٧٠]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ـ وهو: محمد ﷺ ـ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين، ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدّهم إياهم عن سبيل الله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياك ومكر السيىء، فإنه لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، ولهم من الله طالب»، وقد قال محمد بن كعب القُرَظي: ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغي أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فَخُلِيَتْ منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجُعَلُ أن يعذب في حُجْره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقال سعيد بن جبير، والسُّدي في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن يُنْظرهم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهلَ الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾.

آخر تفسير سورة «فاطر» ولله الحمد والمنة



(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة فى أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا) وقوله فى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإبقاء، فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضى ذلك إلى التقاتل والتفانى، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفى قوله فى سورة سبأ (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثانى بالحشر، واستدللنا عليه بقوله (يعلم مايلج فى الأرض) من الأجسام (وما يخرج منها وما ينزل من السماء) من الأرواح (وما يعرج فيها) وقوله عن الكافرين (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى وربى) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء فى الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وعلى هذا فقوله تعالى (فاطر السموات) يحتمل وجهين (الأول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثانى) (فاطر السموات والأرض) أى شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فإن فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت. كما قال تعالى عنهم (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم

www.besturdubooks.wordpress.com

أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ

مبشرين ، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ أقل ما يكون لذى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة ، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء ، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله (علمه شديد القوى) وقال تعالى فى حقهم (فالمدبرات أمراً) فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة ، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذى عليه إطباق المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ، ومنهم من قال الصوت الحسن ، ومنهم من قال كل وصف محمود ، والأولى أن يعمم ، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ يقرر قوله (يزيد فى الخلق ما يشاء) .

قوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر ، وقال ما يفتح الله للناس ، يعنى إن رحم فلا مانع له . وإن لم يرحم فلا باعث له عليها ، وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة فى الذكر ، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية فى الأول فقال (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما ، ولكن قال تعالى (لها) ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى وصلة إلى من رحمته ، وقال عند الإمساك (وما يمسك فلا مرسل له) بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة ، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله (من بعده) أى من بعد الله ، فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له إلا الله فنزل له مرسلا ، وعند الإمساك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ
ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

الإمساك قال لا ممسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أى كامل القدرة ﴿ الحكيم ﴾ أى كامل العلم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال (اذكروا نعمة الله) وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

قوله تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد فى الابتداء .

قوله تعالى : ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بين أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شىء قدير نافذ الإرادة فى كل شىء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ثم لما بين الأصل (الأول) وهو التوحيد ذكر الأصل (الثانى) وهو الرسالة فقال تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب فى العذاب . والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ثم بين الأصل (الثالث) وهو الحشر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

أى الشيطان وقد ذكرنا مافيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شىء . وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشىء وهون عليه مفاسده . ويبين له منافع . يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوى الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى (لا تغرنكم الحياة الدنيا) إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغر ولا يغتر .

قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ لما قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولا تسمعوا قوله ، وقوله (فاتخذوه عدوا) أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله فى أمره طريقان : (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) أن يذهب عداوته بإرضائه ، فلما قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدواً) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فانه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان ، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله . فقال :

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ فالمعادى للشيطان وإن كان فى الحال فى عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعاً للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا إلى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ،

www.besturdubooks.wordpress.com

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

وبين فيه أن الإيمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن فى النار ، والعمل الصالح فى مقابلته الأجر الكبير .

قوله تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

يعنى ليس من عمل سيئاً كالذى عمل صالحاً ، كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسىء الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل ، فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها ، والذى له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ، ومن زين له العمل السيء فرآه حسناً غير ، بل الذين زين لهم السيء دون من أساء وعلم أنه مسىء فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسىء الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لا يعلم يصر على الذنوب والمسىء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم . والمسىء الذى يرى الإساءة إحسانا له صفتا ذم الإساءة والجهل ، ثم بين أن الكل بمشيئة الله ، وقال (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية فى الحقيقة والإساءة والإحسان ، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم ، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله .

ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم نفسك حسرات ﴾ كما قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) .

ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال ، وإن كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون .

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

www.besturdubooks.wordpress.com

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفى حركاته المختلفة قد ينشيء السحاب ، وقد لا ينشيء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (والله الذى أرسل) بلفظ الماضى وقال (فتثير سحاباً) بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الارسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زماناً ولا جزأ من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الارسال فى الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ، ولما أسند فعل الاثارة إلى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال (تثير) أى على هيئتها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أرسل) إسناداً للفعل إلى الغائب وقال (سقناه) بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك فى قوله (فأحيينا) وذلك لأنه فى الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الارسال ، ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الأرض ففى الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفى الثانى كان تذكيراً بالنعمة فان كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله (سقناه وأحيينا) بصيغة الماضى يؤيد ماذكرناه من الفرق بين قوله (أرسل) وبين قوله (تثير) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه التشبيه بقوله (كذلك النشور) فيه وجوه (أحدها) أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء (وثالثها) كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شيء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله (جاعل الملائكة رسلا) ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله (والله الذى أرسل الرياح) .

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

لما بين برهان الايمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التى كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا فى طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهى عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة فى الحقيقة ، فهى كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى هذه الآية (فلله العزة جميعاً) وقال فى آية أخرى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقوله (جميعاً) يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله (فلله العزة) أى فى الحقيقة وبالذات وقوله (ولرسوله) أى بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطه النبى ﷺ ألا ترى قوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه فى وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذى عمله لوجهه والذليل من يدفع الذى عمله فى وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بها بل عليها ذلة ، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو !.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) وجوه (أحدها) كلمة لا إله إلا الله هى الطيبة (وثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الأربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) وفى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة إلى الكلم الطيب أى العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب ورد فى الخبر « لا يقبل الله قولا بلا عمل » (وثانيهما) هى عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ، وهذا يؤيده قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، (ووجه آخر) القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبى ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» وما فى القلب لا يظهر إلا باللسان وما فى اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألاترى أن الإنسان لايتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الأمر لا يتكلم فى نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل ، فالقول أشرف .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزمخشرى المكر لايتعدى فبم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال (الذين يعملون السيئات) وفى قوله (الذين يعملون السيئات) يحتمل ماذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله (والعمل الصالح يرفعه) إشارة إلى بقائه وارتقائه (ومكر أولئك) أى العمل السىء (هو يبور) إشارة إلى فنائه .

قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

فى دلائل الأنفس ، وقد ذكرنا تفسيره مراراً وذكرنا ما قيل من أن قوله (من تراب) إشارة إلى خلق آدم (ثم من نطفة) إشارة إلى خلق أولاده . وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل (خلقكم) خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء ، والغذاء بالآخرة ينتهى إلى الماء والتراب ، فهو من تراب صار نطفة .

وقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع) إشارة إلى كمال العلم ، فان ما فى الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لا يعلم حاله أحد ، كيف والأم الحاملة لاتعلم منه شيئاً ، فلما ذكر بقوله (خلقكم من تراب) كمال قدرته بين بقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لاقدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق شىء منها العبادة ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير ، والأول أشبه فإن اليسير استعماله فى الفعل أليق ،

قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج . ثم على هذا ، فقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات فى خير ونفع إذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ، ولا نفع فى الكفر والكافر ، وهذا على نسق قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقوله (كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء ، فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح

www.besturdubooks.wordpress.com

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فان اللحم الطرى يوجد فيهما ، والحلية تؤخذ منهما ، ومن يوجد فى المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً . وقوله (وما يستوى البحران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة لا يقال فى ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح . وإنما يقال له ملح ، وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحاً ، ويؤاخذ قائله به . وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح ، وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك ، لأن المالح شىء فيه ملح ظاهر فى الذوق ، والماء الملح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر فى الذوق ، بخلاف ماهو من أصل خلقته كذلك ، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فانه جعله ماء جاوره ملح ، وأهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة ، والأجاج المر ، وقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشق ، وقوله (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يدل على ماذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

قوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً ، وذكرنا أن قوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس فى بعض البلاد المائلة فى الآفاق ، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله

www.besturdubooks.wordpress.com

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى سبب الاختلاف وإن كان ماذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ﴾ .

أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه ، فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ماينافى صفة الإلهية ، وهو قوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ، (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة (والثانى) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فاذا لم يملك قطميراً ماخلق قليلا ولا كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

إبطالا لما كانوا يقولون إن فى عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لايرى ولايصل إليه أحد فقال هؤلاء لايسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب ، فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ماكان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى الحس به ، ثم إنه تعالى قال (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى باشراككم بالله شيئاً ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) أى

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

الإشراك وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن المخبرعنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد ، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولا ينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى (أنتم الفقراء إلى الله والله هوالغنى) فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾. التعريف فى الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر فى الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو فى ظن المتكلم أن السامع لاعلم له به ، ثم أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم أو قام أى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لاعلم عندك به ، فان كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لاتفهيماً يحسن تعريف الخبرغاية الحسن ، كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا ، حيث عرف كون الله رباً ، وكون محمد نبياً . وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلى الله) إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقراً إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، ثم قال (والله هو الغنى) أى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (الحميد) لما زاد فى الخبرالأول وهو قوله (أنتم الفقراء) زيادة وهو قوله (إلى الله) إشارة لوجوب حصرالعبادة فى عبادته زاد فى وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم إليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر ، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هوغنى على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركـكم غير مقضى الحاجات بل قضى فى الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتم يقضى في الآخرة حوائجكم فهو حميد .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ

قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بياناً لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال (إن يشأ يذهبكم) أى ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشئ المحتاج إليه ، فان المحتاج لايقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره ، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها ، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله (ويأت بخلق جديد) يعنى إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل .

قوله تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى الإذهاب والإتيان وههنا مسألة : وهى أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة فى القائم بنفسه حيث قال فى حق نفسه (وكان الله قوياً عزيزاً) وقال فى هذه السورة (إن الله عزيز غفور) واستعمله فى القائم بغيره حيث قال (وما ذلك على الله بعزيز) وقال (عزيز عليه ما عنتم) فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فنقول العزيز هو الغالب فى اللغة يقال من عز بز أى من غلب سلب ، فالله عزيز أى غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله (وما ذلك على الله بعزيز) أى لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله (عزيز عليه ماعنتم) أى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى ﴾ متعلق بما قبله ، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر مايدعوهم إلى النظر فيه فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبى ﷺ لو كان كاذباً فى دعائه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز ، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول (أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وازرة) أى نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزرة أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى ، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة فى أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى ، قد يجتمع معها أن

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

لاتزر وزراً أصلا كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزراً رأساً فقوله (ولا تزر وازرة) بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف .

ثم قال تعالى (وإن تدع مثقلة) إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً ولا بعد السؤال ، فان المحتاج قد يصبر و تقضى حاجته من غير سؤاله ، فاذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (مثقلة) زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولا (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيظن أن أحداً لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على حمله ، كما أن القوى إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لاتحمل عنه ، وأما إذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال (مثقلة) يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زاد فى ذلك بقوله (ولو كان ذا قربى) أى المدعو لو كان ذا قربى لايحمله وفى الأول كان يمكن أن يقال لايحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل ، أو الأجنبى الذى يرى أجنبياً تحت حمل لايحمل عنه فقال (ولو كان ذا قربى) أى يحصل جميع المعانى الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة ، لو كان المسئول قريباً فاذن لايكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل .

ثم قال تعالى ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ماأتيت به ، ولم يفدهم ، فلا تنذر إنذاراً مفيداً إلا الذين تمتلىء قلوبهم خشية و تتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله (الذين آمنوا) إشارة إلى عمل القلب (وعملوا الصالحات) إشارة إلى عمل الظواهر فقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) فى ذلك المعنى ، ثم لما بين (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) بين أن الحسنة تنفع المحسنين .

فقال ﴿ ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ﴾ أى فتزكيته لنفسه .

قوله تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى المتزكى إن لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير إلى الله يظهر عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء . والوازر إن لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة إذ المصير إلى الله .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ

قوله تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر ، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والأعمى ، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفى تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ؟ فنقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن فى ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور ، فالمؤمن بإيمانه فى ظل وراحة والكافر بكفره فى حر وتعب ، ثم قال تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) مثلا آخر فى حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير فى إدراك ما . والكافر غير مدرك إدراكا نافعاً فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا (وما يستوى الأعمى والبصير) وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) كأنه جعل هذا مقابلا لذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر كلمة النفى بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات ، ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة ، فالظلمة تنافى النور وتضاده والعمى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حياً محلا للحياة فيصير ميتاً محلا للموت ولكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان فى إدراك أشياء ، ولا كذلك الحى والميت ، كيف والميت يخالف الحى فى الحقيقة لا فى الوصف على ما تبين فى الحكمة الإلهية .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الأشرف فى مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره فى مثلين وهو البصر والنور، وفى مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخى أواخر الآى ، وهو ضعيف لأن تواخى الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى . وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى . فنقول الكفار قبل النبى ﷺ كانوا فى ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبى ﷺ وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان فى زمان محمد ﷺ ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله فى الإلهيات سبقت رحمتى غضبى ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال (وما يستوى الأحياء) أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين ، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فان قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع فى أحدهما والواحد فى الآخر ، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت نعم بفضل الله وهدايته ، أما فى الأعمى والبصير والظل والحرور، فلأنه قابل الجنس بالجنس ، ولم يذكر الأفراد لأن فى العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوى فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب فى موضع والأعمى الذى هو تربية ذلك المكان ، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه ، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوى به البليد البصير ، فالتفاوت بينهما فى الجنسين مقطوع به فان جنس البصير خير من جنس الأعمى ، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوى فى الإدراك حياً من الأحياء ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد ، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين ، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوى النور ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (وجعل الظلمات والنور) السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير . مثاله الشمس

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ
إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾

إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع ، فان البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فانه لا يضيء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين (الأول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي (والثاني) أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله ، فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من في القبور ، فما عليك من حسابهم من شيء .

قوله تعالى : ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بياناً للتسلية .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ لما قال (إن أنت إلا نذير) بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير باذن الله وإرساله .

قوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ تقريراً لأمرين (أحدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملا لتأذي القوم (وثانيهما) إلزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم مافعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير)

www.besturdubooks.wordpress.com

ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا

والكل آتيناها محمداً ، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين ، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب . واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات . وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعا ناسخاً ، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية ، ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر ، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب .

قوله تعالى : ﴿ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ .

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام ، وقوله (فكيف كان نكير) سؤال للتقرير فانهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ .

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان (الأول) أن انزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فانه يقول له في الموضع الفلاني ، فان لم يره ، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعد ما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات ، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم ، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد ، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ

ويكرر معه ماذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيضة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج إلى كلام أجنبى عن الأول ، بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الأولى) قال أنزل وقال أخرجنا . وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول : قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل) فإن كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله ، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال (إن الله أنزل) علم الله بدليل ، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين ، فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الإخراج أتم نعمة من الإنزال ، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب .

(اللطيفة الثانية) قال تعالى ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾

كأن قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع . ألا ترى أن بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره ، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بارادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض ، والجدد جمع جدة وهى الخطة أو الطريقة ، فان قيل الواو فى (ومن الجبال)ما تقديرها؟ نقول هى تحتمل وجهين(أحدهما)أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان ، وفى الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة ، رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال . قال الزمخشرى : أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال فى موضع آخر (وفى الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر فى الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال مختلفاً كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال فى بعض نواحى الأرض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال جدد بيض ، أى مع دلالتها بنفسها هى دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

ألوانها دلائل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مختلف ألوانها . الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أى بيض مختلف ألوانها ، وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب ، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود ، يقال أسود غربيب والمؤكد لايجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرابيب سود ؟ نقول قال الزمخشرى : غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سواد غرابيب ، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالا آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الانسان فقال (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها فى حياتها والأنعام منفعتها فى الأكل منها ، أو لأن الدابة فى العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها فى أنفسها دلائل ، كذلك فى اختلافها دلائل . وأما قوله (مختلف ألوانه) فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير أعلى وأولى .

قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

الخشية بقدر معرفة المخشى ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه . وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم . فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك فى علمه ، فان من يراه يقول : لو علم لعمل . ثم قال تعالى (إن الله عزيز غفور) ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ . وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم ويبجل .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه . وقوله (يتلون كتاب الله) إشارة إلى الذكر .

قوله تعالى : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدنى .

وقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى العمل المالى ، وفى الآيتين حكمة بالغة ، فقوله إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب ، وقوله (إن الذين يتلون) إشارة إلى عمل اللسان . وقوله (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم) إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأنا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده فى حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدى مرضت فما عدتنى ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدى فلان وما زرته ولو زرته لوجدتنى عنده ، يعنى التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لاشفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

قوله تعالى : ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ ، فان تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله (سراً) أى صدقة (وعلانية) أى زكاة . فان الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

قوله تعالى : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أى ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشىء من الأشياء غير وجه الله ، فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .

قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أى مايتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أى يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء فى تفسير الزيادة ﴿ إنه غفور ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شكور ﴾ عند إعطاء الزيادة .

قوله تعالى : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾.

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله (والله الذى أرسل

www.besturdubooks.wordpress.com

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ج

الرياح ، وقوله (والله خلقكم) وقوله (ألم تر أن الله أنزل) ذكر الأصل الثانى وهو الرسالة ، فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) تقريراً لما بين من الأجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (من الكتاب) يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الإرشاد والتبيين الذى أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هو الحق) آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين (أحدهما) أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر فى غاية الظهور لأن الخبر فى الأكثر يكون نكرة ، لأن الإخبار فى الغالب يكون إعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فاذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الاخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لاخلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحياً لأن النبى ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان مافى كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال إن هذا الوحى مصدق لما تقدم لأن الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى إنزال التوراة والإنجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن مامضى أيضاً مصدق له لأن الوحى إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ماتقدم مصدقا للقرآن لأن القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى ، وأما ماتقدم فلابد معه من معجزة تصدقه .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر، فلا يكون باطلا في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر (وثانيهما) أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل.

قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها) أخبر بدخولهم الجنة وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى، ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والمعنى على هذا : إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولأن قوله (من عبادنا) دل على أن العباد أكابر مكرمون بالاضافة إليه، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلماً، وعلى الوجه الأول الظاهر بين هناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا (فمنهم ظالم) وهو المسيء (ومنهم مقتصد) وهو الذي خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً (ومنهم سابق بالخيرات) وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات، فان قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ « ظالمنا مغفور له » وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق، وأما قلب المؤمن فطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي

www.besturdubooks.wordpress.com

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (ورابعها) الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالى العالم ، والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار ، والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى أخذ القرآن ولم يعمل ، به والمقتصد الذى عمل به ، والسابق الذى أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشيء فى غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد فى ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس ، ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوهاً (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله (باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ، (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال (ثم أورثنا الكتاب) أى جنس الكتاب ، كما قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخى وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً (ثم أورثناهم الكتاب) ، (ثانيها) كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين ، بل المعنى إن الذى أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتباً ، ومنهم أى من قومك

www.besturdubooks.wordpress.com

جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً (وثالثها) قوله (جنات عدن يدخلونها) الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا، نقول الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده، ويدل عليه قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) وقوله (أذهب عنا الحزن).

ثم قال ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفى الداخلين وجوه (أحدها) الأقسام الثلاثة وهى على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثانى) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله (يحلون) فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

﴿ الأول ﴾ تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا (الله خلق السموات) وقول القائل: زيد بنى الجدار فان الله موجود قبل كل شىء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء فى يدخلونها، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى أى المداخل يكون، فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فان بين المدخلين بوناً بعيداً (الثانى) قوله (يحلون فيها) إشارة إلى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال (يدخلونها) وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله (من أساور) بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهى جمع سوار، وقوله (ولباسهم فيها حرير) ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ

يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لايدل إلا على الغنى (الرابع) ذكر الأساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) وذلك لأن التحلى بمعنيين (أحدهما) إظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الأشغال لأن التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلى إما باللآلىء والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلىء يدل على أن المتحلى لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة ، والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدى وأكثر الأعمال باليد فانها للبطش ، فاذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلى .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

فى الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ماينبغى وبقائه دائماً فان شيئاً منه لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته ، وقوله (إن ربنا لغفور شكور) ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله (الأول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادى قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم (غفور) ، (الرابع) قولهم (شكور) والغفور إشارة إلى ما غفر لهم فى الآخرة بما وجد لهم من الحمد فى الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم فى الآخرة من الحمد .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ أى دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا (الذى أحلنا دار المقامة) أى الإقامة والمفعول وربما يجىء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل ، وقال تعالى (مدخل صدق) وقال تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول فى الحقيقة ، فانه هو الذى فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفى قوله (دار المقامة) إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة

www.besturdubooks.wordpress.com

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق . وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقولهم (من فضله) أى بحكم وعده لا بايجاب من عنده .

قوله تعالى : ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ . اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل إذا بين أنه (لا يمسهم فيها نصب) علم أنه (لا يمسهم فيها لغوب) ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ، ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفى الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قال الله فى غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أماكنها على قسمين : (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والأراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التى فى الأسفار من من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء إلا بعد ما يستريح فقال تعالى (لا يمسنا فيها نصب) أى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى أفضل من المواضع التى هى مواضع مرجع العى ، فقال (ولا يمسنا فيها لغوب) أى ، لانخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الاعياء وقرىء (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا مايصلح لذلك ، وهذا لأن القوى السوى إذا قال ماتعبت اليوم لايفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملا لم يكن بالنسبة إليه متعباً لقوته ، فإذا قال ما مسنى ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرته . واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض ، وعلى هذا لحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذى يعيا منه مباشره .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ عطف على قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله (جنات عدن يدخلونها) قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى (الذين يتلون كتاب الله) .

قوله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أى لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾ أى النار وفيه لطائف

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ

(الأولى) أن العذاب فى الدنيا إن دام كثيراً يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسداً متمكنا لايحس به المعذب ، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، إما أن يفنى ، وإما أن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب ، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولايجابون كما قال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) أى بالموت (الثالثة) فى المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ، ولم يقل نزيدهم عذاباً . وفى المثابين ذكر الزيادة بقوله (ويزيدهم من فضله) ثم لما بين أن عذابهم لايخفف .

قال تعالى ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أى لايخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لايخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب

وقوله تعالى ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ أى صراخهم بهذا أى يقولون (ربنا أخرجنا). لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب ، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه : لا أرجع إلى مافعلت وبئسما فعلت يتركه ، وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لايخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجنى أفعل كذا وكذا .

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون فى الدنيا ضالا فهو فى الآخرة ضال كما قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار.

وعلى هذا قالوا ﴿نعمل صالحاً﴾ جازمين من غير إستعانة بالله ولامثنوية فيه ، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله ، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال .

وقولهم ﴿ غير الذى كنا نعمل ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم وكأن الله تعالى كما لم يهدهم فى الدنيا لم يهدهم فى الآخرة ، فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة ، وكما هدى الله المؤمن فى الدنيا هداه فى العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الاجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكور إقراراً بوصول مالم يخطر ببالهم إليهم وقالوا (أحلنا دار المقامة من فضله) أى لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا (أخرجنا نعمل صالحاً

www.besturdubooks.wordpress.com

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

إغماضاً فى حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته ، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل ، فان النبي ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادا .

قوله تعالى : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله . وإما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقوله (فذوقوا) إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة . فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله (فما للظالمين من نصير) وقوله (وما للظالمين من أنصار) يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركباً ، وهو الذى يعتقد الباطل حقاً فى الدنيا (وما له من نصير) أى من علم ينفعه فى الآخرة ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى (فأتوا بسلطان) والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلا ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال فى آل عمران (وما للظالمين من أنصار) وقال (فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) وقال هينا (فما للظالمين من نصير) أى هذا وقت كونهم واقعين فى النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال (ما لكم من نصير) أصلا ، وهناك كان الأمر محكياً فى الدنيا أو فى أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾

تقريراً لدوامهم فى العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولا يزاد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغى أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .

وفى قوله تعالى (بذات الصدور) مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهى أن لقائل أن يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ؟

www.besturdubooks.wordpress.com

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى إذا كان فيها ذلك ، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد ، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ، ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وإن كان هو فيها .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾

تقريراً لقطع حجتهم فانهم لما قالوا (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) وقال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر) إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله (وجاءكم النذير) أى آتيناكم عقولا ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف ، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف فى الأرض ، أى خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فمن كفر ﴾ بعد هذا كله ﴿ فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذى لا يخدم سيده واللاحق الذى أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذى ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالى لهم الذى رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ أى الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ، ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة ، فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

تقريراً للتوحيد وإبطالا للاشراك ، وقوله (أرأيتم) المراد منه أخبرونى ، لأن الاستفهام يستدعى جواباً ، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع باع أو اشترى ، ولولا تضمنه معنى أخبرنى وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم ، وقوله (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام فى الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال شركاءكم ، أى الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم ، أى شركاءكم فى النار لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهو قريب ، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول وقوله (أرونى) بدل عن (أرأيتم) لأن كلاهما يفيد معنى أخبرونى ، ويحتمل أن يقال قوله (أرأيتم) استفهام حقيقى و (أرونى) أمر تعجيز للتبيين ، فلما قال (أرأيتم) يعنى أعلمتم هذه التى تدعونها كما هى وعلى ما هى عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة ، فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها ؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأرونى قدرتها فى أى شىء هى ، أهى فى الأرض : كما قال بعضهم : إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض ، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها ؟ أم هى فى السموات ، كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء فى خلق السموات ، وهذه الأصنام صورها ؟ أم قدرتها فى الشفاعة لكم ، كما قال بعضهم إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا ، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ وقوله (أم آتيناهم كتابا) فى العائد إليه الضمير وجهان (أحدهما) أنه عائد إلى الشركاء ، أى هل آتينا الشركاء كتاباً (وثانيهما) أنه عائد إلى المشركين ، أى هل آتينا المشركين كتاباً وعلى الأول فمعناه ماذكرنا ، أى هل مع ما جعل شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله ، فان أحداً لا يشفع عنده إلا باذنه ، وعلى الثانى معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا فى السماء شيئاً من الأشياء ، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة ، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً ﴾ ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ

للرحمن ولداً) ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية (إنه كان حليما غفورا) كان حليما ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلماً ، وتحتمل الآية وجهاً (ثالثاً) وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ماخلقوا من الأرض شيئاً ولا فى السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلاعبادة لهم . وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده) فاذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليما غفوراً ، حليما حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم الرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) وهذا مبالغة منهم فى التكذيب ،كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً على لقضيته وزدت له ، إظهاراً لكونه مطالباً بالباطل ، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أى محمد ﷺ جاءهم أى صح مجيؤه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورا ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا ، بعد الرسالة وقال بعض المفسرين إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه

www.besturdubooks.wordpress.com

واتبعناه ، وهذا فيه اشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين الرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسل ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وماجاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا فى شيء ؟ بل المراد ماذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولا من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله (فلما جاءهم) أى فلما صح لهم مجيؤه بالمعجزة ، وفى قوله (أهدى) وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله (من إحدى الأمم) للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى (فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا) أى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو ، وفى الأمم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أى أهدى من أى إحدى الأمم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أى أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان فى زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ استكباراً فى الأرض ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أى مستكبرين فى الأرض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أى للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله (ومكر السيء) إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراً سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم ، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيء لكون السوء فيه أبين الأمور ، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا فى قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) أى يعملون السيئات ، ومكرهم السيء ، وهو جميع ماكان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول فى الايمان واظهار الانكار ، ثم قال (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى لايحيط إلا بفاعله وفى قوله (ولا يحيق) وقوله (إلا بأهله) فوائد ، أما فى قوله (يحيق) فهى أنها تنبيء عن الإحاطة التى هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس فى قوله ولا يلحق أو ولا يصل ، وأما فى قوله (بأهله) ففيه ماليس فى قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا بالماكر ، كى لايأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيء ، وأما فى النفى والإثبات ففائدته الحصر بخلاف مايقول القائل المكر السيء يحيق بأهله ، فلا ينبيء عن عدم الحيق بغير أهله ، فان قال قائل كثيراً مانرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المكر المذكور فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فان النبى عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبى ﷺ أنه قال « لاتمكروا ولا تعينوا ماكراً فان الله يقول ولا يحيق المكر السيء

www.besturdubooks.wordpress.com

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

إلا بأهله » وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به [لا] يكون أهلا فلا يرد نقضاً (وثالثها) أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر فنى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا، ويبين هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى إذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون.

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أى ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ لأنها سنة من سنن الله، إذا علمت هذا فنقول أضافها فى الأول إليهم حيث قال (سنة الأولين) لأن سنة الله الإهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الأولين تميزت وفى الثانى أضافها إلى الله، لأنها لما علمت فالاضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار، وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتى بسنة لاتبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

﴿ المسألة الثانية ﴾ التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار ؟ نقول بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) حصل العلم بأن العذاب لاتبديل له بغيره، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع أنه لاتبديل له بالثواب لايتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسىء.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المخاطب بقوله (فلن تجد) يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً (أحدهما) أن يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله أنه لايهلك ما بقى فى القوم من كتب الله إيمانه، فاذا

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

آمن من فى علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح (إنك إن تذرهم) أى تمهل الأمر وجاء وقت سنتك .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم ياأهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى (وكانوا أشد منهم قوة) قد ذكرناه فى سورة الروم ، بقى فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال هناك (كانوا أشد) من غير واو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمنى وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم ، وإذا قال أما رأيته كيف أكرمنى هو أعظم منك يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثانى فى الظهور مثل الأول بحيث لايحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أى نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها) وفى موضع آخر قال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بياناً لهم أى أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لايعجزوه (والثانى) أن يكون قطعاً لأطماع الجهال فان قائلا لو قال هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكننا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما) بأفعالهم وأقوالهم (قديراً) على إهلاكهم واستئصالهم .

قوله تعالى : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً﴾ .

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فان الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله إيمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه (أحدها) أن خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولا ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامى إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات فى عالم العناصر للانسان (الثانى) هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الأشياء بالانسان كما أن بقاء الإنسان بالاشياء وذلك لأن الانسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الإنسان فاذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الانسان إياها عن التلف والهلاك بالسقى والعلف (الثالث) هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله فى حق العباد فاذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى (ماترك على ظهرها من دابه) (الوجه الثالث) لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (على ظهرها) كناية عن الأرض وهى غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول بما تقدم وبما تأخر ، أما ما تقدم فقوله (وماكان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض) فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها ، وأما ما تأخر فقوله (من دابة) لأن الدواب على ظهر الأرض ، فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض

www.besturdubooks.wordpress.com

وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وجوه : (أحدها) إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فاذا جاء أجلهم ، فان الله كان بعباده بصيراً) تسلية للمؤمنين للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال (ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة ، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر ، وقوله (بصير) اللفظ أتم فى التسلية من العلم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٥ — سورة فاطر
(مكية وهى خمس وأربعون آية)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾ ٣٥ فاطر

﴿ سورة فاطر مكية وهى خمس وأربعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله فاطر السموات والأرض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم بإخراجهما منه وإضافته محضة لأنه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق (جاعل الملائكة) الكلام فى إضافته وكونه نعتاً أو بدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثانى من الإضافة بالاتفاق وأما على الوجه الأول فكذلك عند الكسائى وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم إلا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى إلى اثنين يعمل فى الثانى لأن باضافته إلى الأول تعذرت إضافته إلى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرىء جاعل بالرفع على المدح وقرىء الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة أى جاعلهم وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خلقه أيضاً حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييرياً أما على تقدير كونه إبداعياً فرسلا نصب على الحالية وقرىء رسلا بسكون السين (أولى أجنحة) صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم لذا ونظيرهما فى الأسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لأجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى أن من الملائكة خلقاً لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقاً آخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراءى له فى صورته فقال إنك لن تطيق ذلك قال إنى أحب أن تفعل فخرج ﷺ فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه ﷺ ثم أفاق وجبريل مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ٣٥ فاطر

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ٣٥ فاطر

إسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل
الأحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير (يزيد فى الخلق مايشاء)
استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة فى عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته
تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد فى أى خلق كان كل مايشاء أن يزيده
بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التى لايحيط بها الوصف وماروى عن النبى ﷺ من تخصيص
بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة
بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى (إن الله على كل شىء قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم
المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كل مايشاؤه إيجاباً بيناً
٢ (مايفتح الله للناس من رحمة) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون
وأعزها منالا وتنكيرها للإشاعة والإبهام أى أى شىء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة
وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لايحاط به (فلا ممسك لها) أى لا أحد يقدر على إمساكها (وما
يمسك) أى أى شىء يمسك (فلا مرسل له) أى لا أحد يقدر على إرساله واختلاف الضميرين لما أن
مرجع الأول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائناً ماكان وفيه إشعار بأن رحمته
سبقت غضبه (من بعده) أى من بعد إمساكه (وهو العزيز) الغالب على كل مايشاء من الأمور التى من
جملتها الفتح والإمساك (الحكيم) الذى يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل
مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين
وبعد مابين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون
٣ لأحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال (ياأيها
الناس اذكروا نعمة الله عليكم) أى إنعامه عليكم إن جعلت النعمة مصدراً أو كائنة عليكم إن جعلت اسماً
أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله
تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفى أن يكون فى الوجود شىء غيره تعالى
يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال (هل
من خالق غير الله) أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة
من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرىء

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ٣٥ فاطر

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ٣٥ فاطر

بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والأرض) أى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لامحل له من الإعراب داخل فى حيز النفى والإنكار ولا مساغ لما قيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لأن معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معاً من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من أنه الخبر للمبتدأ ولا لما قيل من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأساً مع أنه المراد حتماً ألا يرى إلى قوله تعالى (لا إله إلا هو) فإنه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصداً وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة لحيث كان هذا ناطقاً بنفى الوجود تعين أن يكون ذلك أيضاً كذلك قطعاً والفاء فى قوله تعالى (فأنى تؤفكون) لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ماقبلها كأنه قيل وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك وقوله تعالى (وإن

٤ يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بين خطابى الناس مسارعة إلى تسليته ﷺ بعموم البلية أولا والإشارة إلى الوعد والوعيد ثانياً أى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ماذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه إلى المصابرة أى رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الأحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة فى الوعد والوعيد مالا يخفى وقرىء ترجع بفتح التاء من الرجوع والأول أدخل فى التهويل

٥ (يأيها الناس) رجوع إلى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (إن وعد الله) المشار إليه برجع الأمور إليه تعالى من البعث والجزاء (حق) ثابت لامحالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك مايهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهى صورة إليها كما فى قوله تعالى لايجرمنكم شقاقى (ولا يغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) أى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصى قائلا اعملوا ماشئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرىء الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد ،

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٣٥ فاطر

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ٣٥ فاطر

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ٣٥ فاطر

٦ (إن الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لا تكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدواً) بمخالفتكم له فى عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع أحوالكم وقوله تعالى (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه فى دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم وإلقاؤهم فى العذاب
٧ المخلد من حيث لا يحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته (عذاب شديد) لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم) بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (وأجر
٨ كبير) لا غاية لهما (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) إما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين إلى تينك العاقبتين والفاء لإنكار ترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أبعد كون حاليهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح حتى لا تكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ما حذف لدلالة ما سبق عليه وقوله تعالى
* (فإن الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فإنه تعالى يضل (من يشاء)
* أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه فيرده أسفل سافلين (ويهدى من يشاء) أن يهديه بصرف اختياره إلى الهدى فيرفعه إلى أعلى عليين وإما تمهيد لما يعقبه من نهيه ﷺ عن التحسر والتحزن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحاً ولا يبالى بهم قطعاً أى أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) دلالة بينة وإما تمهيد لصرفه ﷺ عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم والمبالغة فى دعوتهم إليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعد ما ذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسناً فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى إسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ما حذف لدلالة ما مر من قوله تعالى فإن الله يضل من يشاء الخ على أنه ممن شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرىء فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات إما مفعول له أى فلا

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ٣٥ فاطر

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ٣٥ فاطر

تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه ﷺ على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حباً ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته وإما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى (إن الله عليم بما يصنعون) أى من القبائح تعليل لماقبله على الوجوه الثلاثة مع مافيه من الوعيد. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة
٩ (والله الذى أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرىء الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى (فتثير سحاباً) لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند إليها أو للدلالة على استمرار الإثارة (فسقناه إلى بلد ميت) وقرىء بالتخفيف (فأحيينا به الأرض) أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازماً فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب (بعد موتها) أى يبسها وإيراد الفعلين على صيغة الماضى الدلالة على التحقق وإسنادهما إلى نون العظمة المنبىء عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الألف فى الأول دون الثانى وقيل فى كيفية الإحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق
١٠ (من كان يريد العزة) هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما فى قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها (فلله العزة جميعاً) أى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله إيذاناً بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما إليه مجاز عن قبوله تعالى إياهما أو صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أى إليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا إلى الملائكة الموكلين بأعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات

وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ
وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ٣٥ فاطر

والمستكن فى يرفعه للكلم فإن مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو العمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ولا ينال الدرجات العالية إلا به وقرىء يصعد من الإصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه ﷺ أنه سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل إليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيئات) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيئات على أنها صفة للمصدر المحذوف أى يمكرون المكرات السيئات وهى مكرات قريش بالنبى ﷺ فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى إحدى الثلاث التى هى الإثبات والقتل والإخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان أى ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به ﷺ (هو يبور) أى هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة

11 وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التى اكتفوا فى حقه ﷺ بواحدة منهن (والله خلقكم من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور أى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً كما مر فى تحقيقه مراراً (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم منها خلقاً تفصيلياً (ثم جعلكم أزواجا) أى أصنافاً أو ذكراناً وإناثاً وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أى من أحد وإنما سمى معمراً باعتبار مصيره أى وما يمد فى عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أى من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائداً بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً وقيل الزيادة والنقص فى عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار ﷺ بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فإنه يكتب فى الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتى على آخره وقرىء ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ٣٥ فاطر

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ٣٥ فاطر

بسكون الميم (إلا فى كتاب) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل إنسان (إن ذلك) أى ماذكر من الخلق وما بعده مع كونه محاراً للعقول والأفهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الأسباب فكذلك البعث (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح
١٢
أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره لعذوبته والأجاج الذى يحرق بملوحته وقرىء سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى (ومن كل) أى من كل واحد منهما (تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون) أى من المالح خاصة (حلية تلبسونها) إما استطراد فى صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع وإما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وإن اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى الكافر المؤمن وإن شاركه فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث أنه يشارك العذب فى منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) أى فى كل منهما وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل حد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الأفعال المذكورة أى فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا على ذلك وحرف
١٣
الترجى للإيذان بكونه مرضياً عند الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد حيناً فحيناً وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره وقد أشير إليه بقوله تعالى (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جرياناً مستمراً (لأجل مسمى)

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا
يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ٣٥ فاطر

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ٣٥ فاطر

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ٣٥ فاطر

قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما فى فلكيهما والأجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان (ذلكم) إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أى ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذه الصنائع البديعة (الله ربكم له الملك) وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له مالا يخفى ويجوز أن يكون الأخير كلاما مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) للدلالة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية وقرىء يدعون بالياء التحتانية
١٤ والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله كاشف عن جلية حال مايدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع (ولو سمعوا) على الفرض والتقدير (مااستجابوا لكم) لعجزهم عن الأفعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرئون منكم ومما تدعون لهم فإن ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يجحدون بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم بقولهم ما كنتم إيانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) أى لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفى
١٥ مايدعون لهم من الإلهية (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) فى أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً (والله هو الغنى الحميد) أى
١٦ المستغنى على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)
١٧ ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أى ماذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولا متعسر .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا
تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى
ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ٣٥ فاطر

وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ٣٥ فاطر

وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى
ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ٣٥ فاطر

---

١٨ (ولا تزروازرة) أى لاتحمل نفس آثمة (وزر أخرى) إثم نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها
وأماما فى قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل
أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شىء (وإن تدع مثقلة)
أى نفس أثقلها الأوزار (إلى حملها) لحمل بعض أوزارها (لايحمل منه شىء) لم تجب بحمل شىء منه
(ولوكان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعى وقرىء ذو قربى وهذا نفى
للحمل اختياراً والأول نفى له جباراً (إنما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى إنما تنذر
بهذه الإنذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أوعن الناس فى
خلواتهم أويخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلاة) أى راعوها كما ينبغى وجعلوها مناراً
منصوباً وعلماً مرفوعاً أى إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد
والعناد (ومن تزكى) أن تطهر من أوضار الأوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الإنذارات (فإنما يتزكى
لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لايتدنس إلا عليها وقرىء من أزكى فإنما يزكى وهو
اعتراض مقرر لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنها من معظم مبادى التزكى (وإلى الله المصير) لا إلى أحد
١٩ غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء (وما يستوى الأعمى والبصير) أى
٢٠ الكافروالمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد
٢١ فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أىولا الثواب ولا العقاب وإدخال لا على المتقابلين
لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم
٢٢ مايهب نهاراً والحرور مايهب ليلا (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ٣٥ فاطر

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ٣٥ فاطر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ٣٥ فاطر

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ٣٥ فاطر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ٣٥ فاطر

أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين وقيل
تمثيل للعلماء والجهلة (إن الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما أنت
بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات وإشباع فى إقناطه ﷺ من إيمانهم
٢٣ (إن أنت إلا نذير) ما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه فى
٢٤ المطبوع على قلوبهم (إنا أرسلناك بالحق) أى محقين أو محقاً أنت أو إرسالا مصحوباً بالحق ويجوز أن
يتعلق بقوله (بشيراً ونذيراً) أى بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق (وإن من أمة) أى ما من
أمة من الأمم الدارجة فى الأزمنة الماضية (إلا خلا) أى مضى (فيها نذير) من نبى أو عالم ينذرهم
والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفاً ولأن الإنذار هو الأنسب
٢٥ بالمقام (وإن يكذبوك) أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم وبتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم)
من الأمم العاتية (جاءتهم رسلهم بالبينات) أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف
إبراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد
٢٦ بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم
بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ (فكيف كان نكير) أى إنكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد
٢٧ وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف
والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم (أن الله
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع
البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفاً ألوانها) أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها
ذو أصناف مختلفة أو هيآتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الأوفق
لما فى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) أى ذو جدد أى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ٣٥ فاطر

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ٣٥ فاطر

على ظهره وقرىء جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح (بيض وحمر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف (وغرابيب سود) عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ماهو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره مابعده فإن الغربيب تأكيد للأسود كالفاقع للأصفر والقانى للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره فى الصفة قول النابغة [والمؤمن العائذات الطير يمسحها] وفى مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الإضمار والإظهار (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم
٢٨
مختلف ألوانه على مامر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمناً بالله وإيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس فى الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة لحيث كان أمراً حادثاً عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريرى المنبىء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافاً كائناً كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرىء ألواناً وقرىء والدواب بالتخفيف مبالغة فى الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى (إنما يخشى الله من عبده العلماء) تكملة لقوله تعالى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان أى إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال ﷺ أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلية وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر وقرىء برفع الاسم الجليلة ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً (إن الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه (إن الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته أو متابعة مافيه حتى
٢٩

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ٣٥ فاطر

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ٣٥ فاطر

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ٣٥ فاطر

صارت سمة لهم وعنواناً والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتي من توفية الأجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفاً ظاهراً مما لا سبيل إليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الإسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والإشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والإقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعاً لما أن الباقى مشروعا ليس إلا حكمها لكن لا من حيث إنه حكمها بل من حيث إنه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الأجر بالمرة فتدبر (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد إليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر إن وقوله تعالى (لن تبور) أى لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جىء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لأنه اشتراء باق بفان والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله

٣٠ تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته مايشاء وقيل بمضمر دل عليه ماعدمن أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجون على أن اللام للعاقبة (إنه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أى غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أى مجازيهم عليها وقيل هو خبر إن

٣١ الذين ويرجون حال من واو أنفقوا (والذى أوحينا إليك من الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته إياه فى العقائد وأصول الأحكام (إن الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلوكان فى أحوالك ماينافى النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هى

٣٢ الأمور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أى قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضى لتقرره

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ ٣٥ فاطر

وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٣٥ فاطر

وتحققه وقيل أورثناه من الأمم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم بمن يسير سيرتهم أو الأمة بأسرهم فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به وهو المرجأ لأمر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به فى أغلب الأوقات ولا يخلو من خلط السيء (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) قيل هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وقيل هم المداومون على إقامة مواجبه علماً وعملا وتعليما وفى قوله بإذن الله أى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيء والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله ﷺ وأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وأما المقتصد فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله ﷺ سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) إشارة إلى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هو الفضل

٣٣ الكبير) من الله عز وجل لا ينال إلا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) إما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الأول هو مستأنف وجمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقاً لكن فيه تحذيراً لهما من التقصير وتحريضاً على السعى فى إدراك شأو السابقين وقرىء جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرىء يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرىء يحلون من حليت المرأة فهى حالية (من أساور) هى جمع أسورة جمع سوار (من ذهب) من الأولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤاً) بالنصب عطفاً على محل من أساور وقرىء بالجر عطفاً على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير)

٣٤ وتغيير الأسلوب قد مر فى سورة الحج (وقالوا) أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة إبليس وقيل هم المعاش وقيل حزن

ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ٣٥ فاطر

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ٣٥ فاطر

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ٣٥ فاطر

زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرىء الحزن وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (إن ربنا لغفور)
٣٥ أى للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى أحلنا دار المقامة) أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً (من فضله) من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شىء من قبلنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) كلال والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب مايحدث منه من الفتور والتصريح
٣٦ بنفى الثانى مع استلزام نفى الأول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لايحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه بإضمار أن وقرىء فيموتون عطفاً على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد إسعارها (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى كل كفور) مبالغ فى الكفر أو الكفران لاجزاء أخف وأدنى منه وقرىء يجزى على البناء للمفعول وإسناده إلى الكل وقرىء يجازى
٣٧ (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل) بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ماعملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً والآن تبين خلافه وقوله تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة أى ألم نمهلكم أو ألم نؤخركم ولم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم قال ﷺ أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على الجملة الاستفهامية لأنها فى معنى قد عمرناكم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لأنه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله ﷺ أو مامعه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الأقارب والاقتصار على ذكر النذير لأنه الذى

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ٣٥ فاطر

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ٣٥ فاطر

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا
غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ٣٥ فاطر

يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الأمر بالذوق على ماقبلها من التعمير ومجيء النذير
٣٨ وفى قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (إن الله عالم غيب السموات والأرض) بالإضافة وقرىء
بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أى لايخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه أحوالهم (إنه عليم بذات
٣٩ الصدور) قيل إنه تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها (هو الذى
جعلكم خلائف فى الأرض) يقال للمستخلف خليفة وخليف والأول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى أنه
تعالى جعلكم خلفاءه فى أرضه وألقى إليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على مافيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم
خلفاء عن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر)
منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) أى وبال كفره لا يتعداه إلى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد
الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) بيان لوبال الكفر وغائلته وهو
مقت الله تعالى إياهم أى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار
والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق
٤٠ الاستقلال والأصالة (قل) تبكيتاً لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى آلهتكم والإضافة
إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا وقيل جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه
ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قيل
أخبرونى عن شركائكم أرونى أى جزء خلقوا من الأرض (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة
مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ذاتية (أم آتيناهم كتاباً) ينطق
بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ويجوز
أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً الخ وقرىء على بينات وفيه إيماء
إلى أن الشرك أمر خطير لا بد فى إثباته من تعاضد الدلائل (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً)
لما نفى أنواع الحجج فى ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف للأخلاف وإضلال
الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب إليه .

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ٣٥ فاطر

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٣٥ فاطر

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ٣٥ فاطر

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ٣٥ فاطر

---

٤١ (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله أى يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع (ولئن زالتا إن أمسكهما) أى ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال والجملة سادة مسدّ الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (إنه كان حليما غفوراً) غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هداً حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه
٤٢ وتنشق الأرض وقرىء ولو زالتا (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (مازادهم) أى النذير أو مجيئه (إلا
٤٣ نفوراً) تباعداً عن الحق (استكباراً فى الأرض) بدل من نفوراً أو مفعول له (ومكر السيء) أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكراً السيء ثم ومكر السيء وقرىء بسكون الهمزة فى الوصل ولعله اختلاس ظن سكوتاً أو وقفة خفيفة وقرىء مكراً سيئاً (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون) أى ماينتظرون (إلا سنة الأولين) أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنة الله تبديلا) بأن يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم والفاء لتعليل مايفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما
٤٤ بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ماقبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ٣٥ فاطر

فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الأمم الماضية العاتية والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أى أقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا أشد منهم قوة) وأطول أعماراً فما نفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى * ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شىء) أى ليسبقه ويفوته (فى السموات ولا فى الأرض) اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة وقوله تعالى (إنه كان عليما قديراً) أى مبالغاً فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو ٤٥
يؤاخذ الله الناس) جميعاً (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) أى على ظهر الأرض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم أيضاً من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما ويعضد الأول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن * خيراً فخير وإن شراً فشر. عن النبى ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أى باب شئت والله تعالى أعلم.

﴿ سورة فاطر ٣٥ ﴾

وتسمى سورة الملائكة، وهي مكية كما روى عن ابن عباس. وقتادة. وغيرهما، وفي مجمع البيان قال الحسن: مكية الا آيتين (إن الذين يتلون كتاب الله) الآية (ثم أورثنا الكتاب) الآية، وآيها ست وأربعون في المدنى الاخير والشامى وخمس وأربعون في الباقين، والمناسبة على ما في البحر أنه عز وجل لما ذكر في آخر السورة المتقدمة هلاك المشركين أعداء المؤمنين وانزالهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره كما في قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وينضم إلى ذلك تواخى السورتين في الافتتاح بالحمد وتقاربهما في المقدار وغير ذلك.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أى موجدهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه، فالفطر الابداع، وقال الراغب: هو إيجاده تعالى الشيء وأبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الافعال.

وأخرج عبد بن حميد. والبيهقي في شعب الايمان. وغيرهما عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات والارض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يعنى ابتدأتها، وأصل الفطر الشق، وقال الراغب: الشق طولا ثم تجوز فيه عما تقدم وشاع فيه حتى صار حقيقة أيضا، ووجه المناسبة أن السموات والارض والمراد بهما العالم باسره لكونهما ممكنين والاصل في الممكن العدم كما يشير اليه قوله تعالى: (كل شيء هالك الا وجهه) وقوله عليه الصلاة والسلام «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن» وصرح بذلك فلاسفة الاسلام قال رئيسهم: الممكن في نفسه ليس وهو عن علته ايس كان العدم كامن فيهما وبايجادهما يشقان ويخرج العدم منهما.

وقيل في ذلك: كأنه تعالى شق العدم باخراجهما منه، وقيل: لا مانع من حمله على أصله هنا ويكون اشارة إلى الامطار والنبات فكأنه قيل: الحمد لله فاطر السموات بالامطار وفاطر الأرض بالنبات وفيه نظر ستأتى الاشارة اليه قريبا، وقوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلا ﴾ على القوانين يحتمل أن يكون معناه جاعل الملائكة عليهم السلام وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم رسالته سبحانه بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عز وجل يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه كالامطار والرياح وغيرهما وهم الملائكة الموكلون بامور العالم، وهذا أنسب بالقول الثانى لكن يرد عليه أنه لا معنى لكون الامطار شاقة للسموات، وقال الامام: إن الحمد يكون على النعم ونعمه تعالى عاجلة وآجلة، وهو في سورة سبأ اشارة إلى نعمة الايجاد والحشر ودليله (يعلم مايلج في الارض ومايخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها) وقوله تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) والحمد في هذه السورة اشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ودليله جاعل الملائكة رسلا أى يجعلهم سبحانه رسلا يتلقون عباد الله تعالى كما قال سبحانه تتلقاهم الملائكة فيجوز أن يكون المعنى الحمد لله شاق السموات والارض يوم القيامة لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الأرض وجاعل الملائكة رسلا في ذلك اليوم يتلقون عباده، وعليه فاول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لأن قوله تعالى (كما فعل بأشياعهم) بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر سبحانه حالهم ذكر حال المؤمنين وبشرهم بارسال الملائكة اليهم وأنه تعالى يفتح أبواب الرحمة لهم انتهى، وفيه من البعد مافيه، و (فاطر) صفة لله واضافته

www.Quranpdf.blogspot.in

محضة قال أبو البقاء: لأنه للماضى لاغير، وقال غيره: هو معرف بالاضافة إذ لم يجر على الفعل بل أريد به الاستمرار والثبات كما يقال زيد مالك العبيد جاء أى زيد الذى من شأنه أن يملك العبيد جاء، ومن جعل الاضافة غير محضة جعله بدلا وهو قليل فى المشتقات، وكذا الكلام فى (جاعل. ورسلا) على القول بأن اضافته غير محضة منصوب به بالاتفاق، وأما على القول الآخر فكذلك عند الكسائى، وذهب أبو على إلى أنه منصوب بمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عنده كسائر البصريين الامعرفا باللام، وقال أبو سعيد السيرافى: اسم الفاعل المتعدى إلى اثنين يعمل بالثانى لأنه باضافته إلى الاول تعذرت اضافته إلى الثانى فتعين نصبه له *

وعلل بعضهم ذلك بأنه بالاضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله هذا على تقدير كون الجعل تصييريا أما على تقدير كونه ابداعيا فرسلا حال مقدرة، وقرأ الضحاك. والزهرى (فطر. جعل) فعلا ماضيا ونصب مابعده قال أبو الفضل الرازى: يحتمل أن يكون ذلك على اضمار الذى نعتا لله تعالى أو على تقدير قد فتكون الجملة حالا *

وأنت تعلم أن حذف الموصول الاسمى لايجوز عند جمهور البصريين، وذهب الكوفيون. والاخفش إلى اجازته وتبعهم ابن مالك وشرط فى بعض كتبه كونه معطوفا على موصول آخر ومن حجتهم (آمنوا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم) وقول حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم ... وينصره ويمدحه سواء

وقول آخر:

ماالذى دأبه احتياط وحزم ... وهواه اطاع يستويان

واختار أبو حيان كون الجملة خبر مبتدأ محذوف أى هو فطر. وقرأ الحسن (جاعل) بالرفع على المدح وجر (الملائكة) وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو (جاعل) بالرفع بلاتنوين ونصب (الملائكة) وخرج حذف التنوين على أنه لالتقاء الساكنين ونصب الملائكة إذا كان جاعل للمضى على مذهب الكسائى. وهشام فى جواز أعمال الوصف الماضى النصب. وقرأ ابن يعمر. وخليد (جعل) فعلا ماضيا (الملائكة) بالنصب وذلك بعد قراءته (فاطر) كالجمهور كقراءة من قرأ (فالق الأصباح وجعل الليل سكنا) وفى الكشاف قرىء (فطر. وجعل) كلاهما بلفظ الفعل الماضى *

وقرأ الحسن. وحميد بن قيس (رسلا) بسكون السين وهى لغة تميم، وقوله تعالى ﴿أُولِى أَجْنِحَةٍ﴾ صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما إن أولاه اسم جمع لذا، ونظير ذلك من الأسماء المتمكنة المخاض، قال الجوهرى: هى الحوامل من النوق واحدتها خلفة، و(أجنحة) جمع جناح صيغة جمع القلة ومقتضى المقام أن المراد به الكثرة *

وفى البحر قياس جمع الكثرة فيه جنح فان كان لم يسمع كان أجنحة مستعملا فى القليل والكثير، والظاهر أن الجناح بالمعنى المعروف عند العرب بيد أنا لانعرف حقيقته وكيفيته ولانقول إنه من ريش كريش الطائر *

نعم أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن أجنحة الملائكة عليهم السلام زغبة، ورأيت فى بعض كتب الامامية أن الملائكة تزدحم فى مجالس الأئمة فيقع من ريشها مايقع وأنهم يلتقطونه ويجعلون منه ثيابا لأولادهم *

وهذا عندى حديث خرافة، والكشفية منهم يؤولونه بما لا يخرجه عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الظاهر أنه صفة لأجنحة، والمنع من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن

www.Quranpdf.blogspot.in

اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة *

وقال الزمخشرى : إنما لم تنصرف هذه الألفاظ لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد من صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحزام عن حازمة وعن تكرير إلى غير تكرير ففيها عدلان وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها الاتراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها. وتعقبه أبو حيان بأنه قاس الصفة فى هذا المعدول على الصفة فى أربع وثلاثة وليس بصحيح لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة بل اشترطوا أن تكون الوصفية غير عارضة كما فى أربع وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون فيه كثلاث وثلاثة ، وقال صاحب الكشف فيه: ان العدول عن التكرر لا يعتبر فيه للصيغة واعتبر فى تحقق العدل ذلك ثم العدول عن الصيغة الأصلية لافادة التكرر فلا عدولين بوجه ، وبعد تسليم أن المعتبر فى الوصف مقارنته لوضع المعدول فلا يضر عروضه فى المعدول عنه لا اتجاه للمنع ولا معول على السند وهو قول سيبويه على مانقله الجوهرى وهو المنصور على مانبهت إليه انتهى. وتعقبه أيضا صاحب الفرائد وصاحب التقريب بعروض الوصفية فى المعدول عنه وعدمه فى المعدول، لكن قال الطيبى: وجدت لبعض المغاربة كلاما يصلح أن يكون جوابا عنه وهو أن ثلاث مثلا لا يخلو من أن يكون موضوعا للصفة من غير اعتبار العدد أو لا يكون فان كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدر خلافه، وإن كان الثانى كان الوصف عارضا لثلاث كما كان عارضا لثلاثة فيمكن أن يقال ان هذه الأعداد غير منصرفة للعدل المكرر كالجمع وألف التأنيث انتهى، وفيه ما لا يخفى *

وقال ابن عطية : إن هذه الألفاظ عدلت فى حال التنكير فتعرفت بالعدل فهى لا تنصرف للعدل والتعريف وهذا قول غريب ذكر فى البحر لبعض الكوفيين. وفى الكشاف هى نكرات يعرفن بلام التعريف تقول فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع، وقيل (مثنى الخ) حال من محذوف والعامل فيه محذوف يدل عليه (رسلا) أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع، والمعول عليه ما تقدم، والمراد ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها حين يؤمرون، ويجوز أن تكون كلا أو بعضا لأمور أخر كالزينة فيما بينهم وكالاترخاء على الوجه حياء من الله تعالى إلى غير ذلك، والمعنى أن من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا لكل منهم ثلاثة أجنحة وخلقا لكل منهم أربعة أجنحة، ولا دلالة فى الآية على نفى الزائد بل قال بعض المحققين: ان ماذكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت لا للتعيين ولا لنفى النقصان عن اثنين *

وقد أخرج الشيخان . والترمذى عن ابن مسعود فى قوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) رأى جبريل له ستمائة جناح ، والترمذى عن مسروق عن عائشة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى ومرة فى جياد له ستمائة جناح قد سد الأفق، وقال الزمخشرى: مر بى فى بعض الكتب أن صنفا من الملائكة عليهم السلام لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما فى أمر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل *
والبحث عن كيفية وضع الأجنحة شفعا كانت أو وترا فيما أرى مما لا طائل تحته ولم يصح عندى فى ذلك شىء

www.Quranpdf.blogspot.in

ولقياس الغائب على الشاهد ، قال بعضهم: إن المعنى إن فى كل جانب لبعض الملائكة عليهم السلام جناحين ولبعضهم ثلاثة ولبعضهم أربعة وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت، وهو كما ترى *

وقال قوم : إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه أن الله تعالى ليس فوقه شيء وكل شيء سواه فهو تحت قدرته سبحانه والملائكة عليهم السلام لهم وجه إلى الله تعالى يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه باذنه سبحانه كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال تعالى (علمه شديد القوى) وقال تعالى (فالمدبرات أمرا) وهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة منهم من له ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، وهذا خلاف الظاهر جداً ولا يحتاج إليه السنى القائل بأن الملائكة عليهم السلام أجسام لطيفة نورية يقدرون على التشكل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقة وإنما يحتاج اليه أو إلى نحوه الفلاسفة وأتباعهم فان الملائكة عندهم هى العقول المجردة ويسميها أهل الاشراق بالأنوار الظاهرة وبعض المتصوفة بالسرادقات النورية، وقد ذكر بعض متأخريهم أن لها ذوات حقيقية وذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن فأما ذواتها الحقيقية فانما هى أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الاضافية فانما هى خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم اسرافيل عليه السلام، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول كالمدبرات العلوية والسفلية من النفوس والطبائع، وأطالوا الكلام فى ذلك وظواهر الآيات والأخبار تكذبهم والله تعالى الموفق للصواب *

﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السلام فى عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه عز وجل يزيد فى أى خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته سبحانه ومقتضى حكمته من الأمور التى لا يحيط بها الوصف ، وقال الفراء والزجاج: هذا فى الأجنحة التى للملائكة أى يزيد فى خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء فيجعل لكل ستة أجنحة أو أكثر وروى ذلك عن الحسن ، وكأن الجملة لدفع توهم عدم الزيادة على الأربعة *

وعن ابن عباس يزيد فى خلق الملائكة والاجنحة ما يشاء، وقيل (الخلق) خلق الانسان و(ما يشاء) الخلق الحسن أو الصوت الحسن أو الخط الحسن أو الملاحة فى العينين أو فى الأنف أو فى الوجه أو خفة الروح أو جعودة الشعر وحسنه أو العقل أو العلم أو الصنعة أو العفة فى الفقراء أو حلاوة النطق، وذكروا فى بعض ذلك أخباراً مرفوعة والحق أن ذلك من باب التمثيل لا الحصر، والآية شاملة لجميع ذلك بل شاملة لما يستحسن ظاهراً ولما لا يستحسن وكل شيء من الله عز وجل حسن *

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فان شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء مما يوجب قدرته سبحانه على أن يزيد فى كل خلق كل ما يشاؤه تعالى إيجابا بينا ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أى ما يطلقها ويرسلها فالفتح مجاز عن الارسال بعلاقة السببية فان فتح المغلق سبب لاطلاق ما فيه وإرساله ولذا قوبل بالامساك والاطلاق كناية عن الاعطاء كما قيل أطلق السلطان للجند أرزاقهم فهو كناية متفرعة على المجاز *

وفى اختيار لفظ الفتح رمز إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالا، وتنكيرها للاشاعة والابهام أى أى شيء يفتح الله تعالى من خزائن رحمته أى رحمة كانت من نعمة وصحة وامن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما

www.Quranpdf.blogspot.in

لايحاط به حتى ان عروة كان يقول كما أخرج ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه فى ركوب المحمل هى والله رحمة فتحت للناس ثم يقول (مايفتح الله للناس من رحمة) الخ ه

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى الرحمة المطر، وعن ابن عباس التوبة والمراد التمثيل، والجار والمجرور فى موضع الحال لا فى موضع الصفة لان اسم الشرط لايوصف ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أى فلا أحد يقدر على إمساكها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أى أى شىء يمسك ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ اى فلا أحد يقدر على ارساله، واختلاف الضميرين لما أن مرجع الاول مبين بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها، وفى ذلك مع تقديم أمر فتح الرحمة اشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عز وجل كما ورد فى الحديث الصحيح، وقيل المراد وما يمسك من رحمة إلا أنه حذف المبين لدلالة ماقبل عليه، والتذكير باعتبار اللفظ وعدم مايقوى اعتبار المعنى فى التلفظ ه

وأيد بأنه قرىء (فلامرسل لها) بتأنيث الضمير ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد امساكه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل مايشاء من الامور التى من جملتها الفتح والامساك ﴿ الْحَكِيمُ ٢ ﴾ الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين، وما ادعى هذه الآية الى الانقطاع الى الله تعالى والاعراض عما سواه عز وجل واراحة البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال ه

وقد أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس: قال أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهن فما أبالى ماأصبح عليه وأمسى (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلامرسل له من بعده. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الاهو وأن يردك بخير فلا راد لفضله. وسيجعل الله بعد عسر يسرا. ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها) وبعد مابين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الاطلاق أمر الناس قاطبة أو أهل مكة كما روى عن ابن عباس واختاره الطيبى بشكر نعمه عز وجل فقال تعالى:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى انعامه تبارك وتعالى عليكم إن جعلت النعمة مصدرا أو كائنة عليكم أن جعلت اسما أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها فليس المراد مجرد الذكر باللسان بل هو كناية عما ذكر، وعن ابن عباس وقد جعل الخطاب لمن سمعت اذكروا نعمة الله عليكم حيث اسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم، وعنه أيضا نعمة الله تعالى العافية، والاولى عدم التخصيص، ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفى سبحانه أن يكون فى الوجود شىء غيره سبحانه يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الذى هو لانكار التصديق وتكذيب الحكم فقال عز وجل ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ ﴾ وهل تأتى لذلك كما فى المطول وحواشيه، وقول الرضى: إن هل لاتستعمل للانكار أراد به الانكار على مدعى الوقوع كما فى قوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) ويلزمه النفى والانكار على من أوقع الشىء كما فى قولك أتضرب زيدا وهو أخوك أى هل خالق مغاير له تعالى موجود لكم أو للعالم على أن (خالق) مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه (من) لتأكيد العموم و(غير الله) صفة له باعتبار محله، وصحت الوصفية به مع إضافته إلى أعرف المعارف لتوغله فى التنكير فلا يكتسب تعريفا فى

www.Quranpdf.blogspot.in

مثل هذا التركيب ، وجوز أن يكون بدلا من (خالق) بذلك الاعتبار و يعتبر الانكار فى حكم النفى ليكون غير الله هو الخالق المنفى ولأن المعنى على الاستثناء أى لاخالق الا الله تعالى والبدلية فى الاستثناء بغير إنما تكون فى الكلام المنفى وبهذا الاعتبار زيدت (من) عند الجمهور وصح الابتداء بالنكرة ، وكذا جوز أن يكون فاعلا بخالق لاعتماده على أداة الاستفهام نحو أقائم زيد فى أحد وجهيه وهو حينئذ ساد مسد الخبر. وتعقبه أبو حيان بقوله فيه نظر وهو أن اسم الفاعل أو ما يجرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجرى مجرى الفعل فرفع ما بعده هل يجوز أن تدخل عليه من التى للاستغراق فيقال هل من قائم الزيدون كما تقول هل قائم الزيدون ، والظاهر أنه لايجوز ألا ترى أنه إذا أجرى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم بخلافه إذا دخلت عليه من ولاأحفظ مثله فى لسان العرب، وينبغى أن لا يقدم على اجازة مثل هذا الا بسماع من كلامهم، وفيه أن شرط الزيادة والاعمال موجود ولم يبد مانعا يعول عليه فالتوقف تعنت من غير توقف . وفى الكشف لامانع من أن يكون (غير) خبرا . ومنعه الشهاب بأن المعنى ليس عليه ، وقرأ ابن وثاب . وشقيق . وأبو جعفر . وزيد بن على . وحمزة . والكسائى (غير) بالخفض صفة لخالق على اللفظ، وهذا متعين فى هذه القراءة ولأن توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الاظهر فى القراءة الأولى كونه وصفا لخالق أيضا ، وقرأ الفضل بن ابراهيم النحوى (غير) بالنصب على الاستثناء، وقوله تعالى ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالمطر والنبات كلام مبتدأ لامحل له من الاعراب لاصفة (خالق) باعتبار لفظه أو محله، قال فى الكشف: لأن المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به فكأنه قيل: هل من خالق لتلك النعم التى أمرتم بذكرها أو مطلقا وهو أولى وتدخل دخولا أوليا (غير الله) ثم تمم ذلك بأنه يرزقكم من السماء والأرض وذلك أيضا يقتضى اختصاصه تعالى بالعبادة كما أن الخالقية تقتضى ذلك، وفيه أن الخالق لا يكون الا رازقا ولو قيل هل من خالق رازق من السماء والارض غير الله يخرج الكلام عن سننه المقصود *

وجوز أن يكون (خالق) فاعلا لفعل مضمر يفسره المذكور والأصل هل يرزقكم خالق و(من) زائدة فى الفاعل ، وتعقب بأن مافى النظم الجليل ان كان من باب هل رجل عرف فقد صرح السكاكى بقبح هذا التركيب لأن هل إنما تدخل على الجملة الخبرية فلا بد من صحتها قبل دخول هل ورجل عرف لا يصح بدون اعتبار التقديم والتأخير لعدم مصحح الابتدائية سواه وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلام مفيدا لحصول التصديق بنفس الفعل فلا يصح دخول هل عليه لأنها لطلب التصديق وماحصل لا يطلب لئلا يلزم تحصيل الحاصل ولاحتمال أن يكون رجل فاعل فعل محذوف قال بالقبح دون الامتناع وإن كان من باب هل زيد عرف فقد صرح العلامة الثانى السعد التفتازانى بأنه قبيح باتفاق النحاة وأن ماذكره صاحب المفصل من أن نحو هل زيد خرج على تقدير الفعل تصحيح للوجه القبيح البعيد لا أنه شائع حسن غاية مافى الباب أن سبب قبحه ليس ماذكر فى قبح هل زيد عرف عند السكاكى لعدم تأتيه فيه بل السبب أن هل بمعنى قد فى الأصل وأصله أهل كقوله

* أهل عرفت الدار بالغرتين * وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها فى الاستفهام فأقيمت هى مقام الهمزة وتطفلت عليها فى الاستفهام، وقد من لوازم الافعال فكذا ماهى بمعناها، ولم يقبح دخولها على الجملة الاسمية التى طرفاها اسمان لأنها إذا لم تر الفعل فى حيزها تتسلى عنه ذاهلة وهذا بخلاف ماإذا رأته فانها حينئذ تتذكر

www.Quranpdf.blogspot.in

عهودا بالحمى وتحن إلى الالف المألوف وتطلب معانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما، ويعلم من هذا أنه لا فرق عند النحاة بين هل رجل عرف وهل زيد عرف فى القبح لذلك. وأجاب بعضهم بأن مجوز هذا الوجه الزمخشرى ومتابعوه وهو لا يسلم ماذكر لأن حرف الشرط كان مثلا ألزم للفعل من هل لأنه لا يجوز دخوله على الجملة الاسمية التى طرفاها اسمان كما دخلت عليها هل وقد جاز بلا قبح عمل الفعل بعده على شريطة التفسير كقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك) فيجوز فى هل بالطريق الأولى، وقيل: يجوز أن يكون (يرزقكم) الخ مستأنفا فى جواب سؤال مقدر تقديره أى خالق يسأل عنه، وأن يكون هو الخبر لخالق، ولا يخفى على متأمل أن مانقل عن الكشف قاض برجوحية هذه الاوجه جميعها فتأمل. وفى الآية على ماهو الأولى فى تفسيرها واعرابها رد على المعتزلة فى قولهم: العبد خالق لافعاله ونصرة لاهل السنة فى قولهم لاخالق الا الله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ استئناف مقرر للنفى المفهوم مما تقدم قصدا، ولم يجوز جار الله أن يجعل صفة لخالق كما جعل (يرزقكم) صفة له حيث قال: ولو وصلت جملة (لا اله الا هو) كما وصلت (يرزقكم) لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر سوى الله لا اله الا ذلك الخالق غير مستقيم لأن قولك هل من خالق سوى الله اثبات لله تعالى فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضا بالنفى بعد الاثبات اه، وبين صاحب الكشف وجه المناقضة على تقدير أن يكون غير الله صفة بأن الكلام مسوق لنفى المشاركة فى الصفة المحققة أعنى الخلق فقولك هل من خالق آخر سوى الله اثبات لله تعالى ونفى المشارك له فيها ثم وصف الآخر بانحصار الالهية فيه يكون لنفى خالقيته دون تفرد بالإلهية والتفرد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان لأن الأول ينفيه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والثانى يثبته مع الغير جل عن كل شريك ونقص، ثم قال: والتحقيق فى هذا أن هل لانكار ما يليها وماتلاه إن كان من تتمته ينسحب عليه حكم الانكار بالبقية والا كان مبقى على حاله نفيا واثباتا، ولما كان الكلام فى الخالقية على مامر لم يكن الوصفان اعنى تفرد الآخر بالإلهية ومغايرته للقيوم الحق مصبا له وهما متناقضان فى أنفسهما على مابين فيلزم ماذكره جار الله لزوماً بينا اه، وقد دفع بتقريره ذلك كثيرا من القال والقيل بيد أنه لا يخلو عن بحث، ويمكن تقرير المناقضة على تقدير الوصفية بوجه أظهر لعله لا يخفى على المتأمل، ويجوز أن يكون المانع من الوصفية النظم المعجز وحاكمه الذوق السليم والكلام فى ذلك طويل فتأمل، والفاء فى قوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٣ ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الاشراك على ماقبلها كأنه قيل: وإذا تبين تفرده تعالى بالالوهية والخالقية والرازقية فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وقوله تعالى ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الخ تسلية له عليه الصلاة والسلام بعموم البلية والوعد له ﷺ والوعيد لاعدائه، والمعنى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت اليهم من الحق المبين بعد ماأقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى الصبر فقد كذبهم قومهم وصبروا فجملة (قد كذبت رسل من قبلك) قائمة مقام جواب الشرط والجواب فى الحقيقة تأس، واقيمت تلك الجملة مقامه اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب، وجوز أن تجعل هى الجواب من غير تقدير ويكون المترتب على الشرط الاعلام والاخبار كما فى قوله تعالى (ومابكم من نعمة فمن الله) وتنكير رسل للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسى والصبر على ماأصابه عليه الصلاة والسلام من

www.Quranpdf.blogspot.in

قومه أى رسل أولو شأن خطير وعدد كثير ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٤ ﴾ لا إلى غيره عز وجل فيجازى سبحانه كلا منك ومنهم بما يليق به، وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد مالا يخفى. وقرىء (ترجع) بفتح التاء من الرجوع والاول ادخل فى التهويل *

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ المشار اليه بقوله سبحانه (وإلى الله ترجع الامور) من البعث والجزاء ﴿ حَقٌّ ﴾ ثابت لامحالة من غير خلف ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ماينفعكم يوم حلول الميعاد، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهى صورة اليها نظير قوله تعالى (لايجرمنكم شقاقى) وقولك لاأرينك هنا ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ ﴾ حيث أنه جل شأنه عفو كريم رؤف رحيم ﴿ الْغَرُورُ ٥ ﴾ أى المبالغ فى الغرور، وهو على ماروى عن ابن عباس. والحسن. ومجاهد الشيطان فالتعريف للعهد، ويجوز التعميم أى لايغرنكم كل من شأنه المبالغة فى الغرور بأن يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعصية قائلا إن الله يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وإن أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة، وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية *

وقرأ أبو حيوه. وأبو السمال «الغرور» بالضم على أنه مصدر غره يغره وإن قل فى المتعدى أو جمع غار كقعود وسجود مصدرين وجمعين، وعلى المصدرية الاسناد مجازى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة عامة قديمة لاتكاد تزول، ويشعر بذلك الجملة الاسمية و«لكم» وتقديمه للاهتمام ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بمخالفتكم إياه فى عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه فى مجامع أحوالكم ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٦ ﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه فى دعوة شيعته إلى إتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس إلا توريطهم والقاءهم فى العذاب المخلد من حيث لايشعرون فاللام ليست للعاقبة. وزعم ابن عطية أنها لها *

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته، ولعل تنكير «عذاب» لتعظيمه بحسب المدة فكأنه قيل: لهم عذاب دائم شديد ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ ﴾ لاغاية لهما بسبب ماذكر من الايمان والعمل الصالح، و«الذين كفروا» مبتدأ خبره «لهم عذاب» وكذا «الذين آمنوا. ولهم مغفرة» الخ، وجوز بعضهم كون (الذين كفروا) فى موضع خفض بدلا من «أصحاب السعير» أو صفة له أو فى موضع نصب بدلا من «حزبه» أو صفة له أو فى موضع رفع بدلا من ضمير (ليكونوا) والكل مفوت لجزالة التركيب كما لايخفى على الأريب ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى حسن له عمله السيء ﴿ فَرَآهُ ﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿ حَسَنًا ﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«من» موصولة فى موضع رفع على الابتداء والجملة بعدها صلتها والخبر محذوف والفاء للتفريع والهمزة للانكار فان كانت مقدمة من تأخير كما هو رأى سيبويه والجمهور فى نظير ذلك فالمراد تفريع إنكار مابعدها على ماقبلها من الحكمين السابقين أى إذا كانت عاقبة كل من الفريقين ماذكر فليس الذى زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده

www.Quranpdf.blogspot.in

حسناً وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح وإن كانت فى محلها الأصلى وكان العطف على مقدر تكون هى داخلة اليه كما ذهب اليه جمع فالمراد مافى حيزها ويكون التقدير أهما أى الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويان فالذى زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسنا وانهمك فيه كمن استقبحه وأجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح أى ماهما متساويان ليكون الذى زين له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه واقتضاء النظم الجليل إياه، وقدصرح بالجزأين فى نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) وقوله سبحانه: (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وقوله عزوجل: (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات) وفى التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فرآه حسنا إشارة إلى غاية ضلاله حتى كأنه غلب على عقله وسلب تمييزه فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير اليه قول أبى نواس:

اسقنى حتى ترانى حسناً عندى القبيح

وظاهر كلام الزجاج أن من شرطية حيث قال: الجواب على ضربين، أحدهما مايدل عليه قوله تعالى: (فلا تذهب نفسك) الخ ويكون المعنى أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليهم حسرة، وثانيهما مايدل عليه قوله تعالى: (فان الله) الخ ويكون المعنى أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله تعالى، وإلى ذلك ذهب ابن مالك أيضاً. واعترض ابن هشام على التقدير الثانى بان الظرف لا يكون جوابا وإن قلنا إنه جملة، ووجهه أن الرضى صرح بانه لا يكون مستقراً فى غير الخبر والصفة والصلة والحال ولم يذكر الجواب لا أن ذلك لعدم الفاء، وتقديرها داخلة على مبتدأ يكون الظرف خبره والجملة بتمامها جزاء غير جائز لما فيه من التكلف كما قيل *

وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون الزجاج قد ذهب إلى أن من موصولة وأطلق على خبرها الجواب لشبهه به فى المعنى ألا تراهم يدخلون الفاء فى خبر الموصول الذى صلته جملة فعلية كما يدخلونها فى جواب الشرط فيقولون الذى يأتينى فله درهم، وفيه أنه خلاف الظاهر ولا قرينة على ارادته سوى عدم صحة الجزائية، وضعف التقدير الأول بالفصل بين مافيه الحذف ودليل المحذوف مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه، ولا ينبغى أن تكون من شرطية جوابها فرآه لما فى ذلك من الركاكة الصناعية فان الماضى فى الجواب لا يقترن بالفاء بدون قد مع خفاء أمر انكار رؤية سوء العمل حسنا بعد التزيين وتفريعه على ما قبله من الحكمين، وكون الانكار لما أن المزين هو الشيطان العدو والتفريع على قوله تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) لا يخفى حاله فالوجه المعول عليه ما تقدم جعل عليه، وقوله تعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ تعليلا لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا، وفيه دفع استبعاد أن يرى الشخص القبيح حسنا بتزيين العدو اياه ببيان أن ذلك بمشيئة الله عز وجل التابعة للعلم المتعلق بالاشياء على ماهى عليه فى نفس الامر وايذان بان اولئك الكفرة الذين زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا ممن شاء الله تعالى ضلالهم، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ تفريع عليه أى إذا كان الامر كذلك فلا تذهب نفسك الخ، وذكر المولى سعدى جلبى أن الهمزة فى (أفمن) على التقدير الأول من التقديرين اللذين

www.Quranpdf.blogspot.in

نقلا عن الزجاج لانكار ذهاب نفسه ﷺ عليه عليهم حسرة والفاء فى قوله سبحانه (فان الله) الخ تعليل لما يفهمه النظم الجليل من أنه لاجدوى للتحسر ، وفى الكشاف أنه تعالى لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال سبحانه لنبيه ﷺ (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) يعنى أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لا فقال تعالى (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ويفهم من كلام الطيبى أن فاء (فلا تذهب) جزائية وفاء (فان الله) للتعليل وأن الجملة مقدمة من تأخير فقد قال : إنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على ايمان القوم وأن يسلك الضالين فى زمرة المهتدى فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الانكار لذلك: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فلابد أن يقر ﷺ بالنفى ويقول لا فحينئذ يقال له فاذا كان كذلك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فقدم وأخر انتهى وفيه نظر، وفى الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشرى لف ونشر وبذلك صرح الطيبى ثم قال: الاحسن أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق فقوله تعالى (ياأيها الناس إن وعد الله حق) جمع الفريقين معا فى حكم نداء الناس وجمع ما لهما من الثواب والعقاب فى حكم الوعد وحذرهما معا عن الغرور بالدنيا والشيطان، وأما التقسيم فهو قوله تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) وأما التفريق فقوله تعالى (أفمن زين له سوء عمله) لأنه فرق فيه وبين التفاوت بين الفريقين كما قال الزمخشرى أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له، وفرع على ذلك ظهور أن الفاء فى (أفمن) للتعقيب والهمزة الداخلة بين المعطوف والمعطوف عليه لانكار المساواة وتقرير البون العظيم بين الفريقين وأن المختار من أوجه ذكرها السكاكى فى المفتاح تقدير كمن هداه الله تعالى لحذف لدلالة (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ولهم فى نظم الآيات الكريمة كلام طويل غير ما ذكرناه من أراده فليتتبع كتب التفاسير والعربية، ولعل فيما ذكرناه مقنعا لمن أوتى ذهنا سليما وفهما مستقيما *

والحسرات جمع حسرة وهى الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه ما حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه اعياء عن تدارك ما فرط منه، وانتصبت على أنها مفعول من اجله أى فلا تهلك نفسك للحسرات ، والجمع مع أن الحسرة فى الاصل مصدر صادق على القليل والكثير للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح اعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر ، و(عليهم) صلة (تذهب) كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا أو هو بيان للمتحسر عليه فيكون ظرفا مستقرا ومتعلقه مقدر كأنه قيل: على من تذهب ؟ فقيل: عليهم ، وجوز أن يتعلق بحسرات بناء على أنه يغتفر تقديم معمول المصدر عليه إذا كان ظرفا وهو الذى أختاره والزمخشرى لايجوز ذلك ، وجوز أن يكون حسرات حالا من (نفسك) كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير :

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاكلا وصدورا

يريد رجعن كلاكلا وصدورا أى لم يبق الا كلاكلها وصدورها، وهو الذى ذهب اليه سيبويه فى البيت، وقال المبرد: كلاكلا وصدورا تمييز محول عن الفاعل أى حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله :

فعلى أثرهم تساقط نفسى حسرات وذكرهم لى سقام

www.Quranpdf.blogspot.in

وفيه مبالغات ثلاث، وقرأ عبيد بن عمير (زين) مبنيا للفاعل، ونصب (سوء) وعنه أيضا (أسوأ) على وزن أفعل وأريد بأسوأ عمله الشرك، وقرأ طلحة (أمن) بغير فاء قال صاحب اللوامح: فالهمزة للاستخبار والتقرير ويجوز أن تكون للنداء وحذف ما نودى لأجله أى تفكر وارجع إلى الله فان الله الخ، والظاهر أنها للانكار كما فى قراءة الجمهور، وقرأ أبو جعفر . وقتادة . وعيسى . والاشهب وشيبة . وأبو حيوة . وحميد . والاعمش. وابن محيصن (تذهب) من أذهب مسندا إلى ضمير المخاطب (نفسك) بالنصب على المفعولية ورويت عن نافع *

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨﴾ فى موضع التعليل لما قبله وفيه وعيد للكفرة أى انه تعالى عليم بما يصنعونه من القبائح فيجازيهم عليه، والآيات من قوله تعالى (افمن زين له سوء عمله) إلى هنا نزلت على ماروى عن ابن عباس فى أبى جهل ومشركى مكة، وأخرج جويبر عن الضحاك أنها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه . وأبى جهل حيث هدى الله تعالى عمر وأضل أبا جهل ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرأ حمزة . والكسائى . وابن كثير (الريح) وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة وكثيرا مايفعلون ذلك بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أوتهم المخاطب أو غير ذلك، ومنه قول تأبط شرا :

الامن مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان
بأنى قد رأيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أرض ... أخو سفر فخلى لى مكانى
فشدت شدة نحوى فأهوت ... لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

ولأن الاثارة خاصية للرياح وأثر لاينفك فى الغالب عنها فلا يوجد إلا بعد إيجادها فيكون مستقبلا بالنسبة إلى الارسال، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل لأن المعتبر زمان الحكم لازمان التكلم، والفاء دالة على عدم تراخى ذلك وهو شىء آخر وجوز أن يكون الاتيان بما يدل على الماضى ثم بما يدل على المستقبل إشارة إلى استمرار الأمر وأنه لايختص بزمان دون زمان إذلا يصح المضى والاستقبال فى شىء واحد إلا إذا قصد ذلك، وقال الامام: اختلاف الفعلين لأنه لما أسند فعل الارسال إلى الله تعالى وما يفعل سبحانه يكون بقوله عز وجل (كن) فلا يبقى فى العدم زمانا ولا جزء زمان جىء بلفظ الماضى دون المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان ولأنه تعالى فرغ من كل شىء فهو سبحانه قدر الارسال فى الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة إلى الرياح وهى تؤلف فى زمان قال سبحانه : (تثير) بلفظ المستقبل اه *

وأورد عليه قوله تعالى : فى سورة الروم (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) وفى سورة الأعراف (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) حيث جىء فى الارسال فيها بالمضارع فتأمل *

﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ قطعة من الأرض لانبات فيها. وقرىء (ميت) بالتخفيف وهما بمعنى واحد فى المشهور،

www.Quranpdf.blogspot.in

وفى كليات أبى البقاء الكفوى الميت بالتخفيف هو الذى مات والميت بالتشديد والمائت هو الذى لم يمت بعد، وأنشد

ومن يك ذا روح فذلك ميت   وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

والمعول عليه هو المشهور ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فانه سبب السبب وإحياء الأرض إنبات الشجر والكلأ فيها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وخلوها عن ذلك، وايراد الفعلين بصيغة الماضى للدلالة على التحقيق، واسنادهما الى نون العظمة المنبيء عن الاختصاص به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الارض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ٩﴾ فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية، وقال الامام عليه الرحمة: أسند (أرسل) الى الغائب وساق (وأحيى) الى المتكلم لأنه فى الأول عرف سبحانه نفسه بفعل من الأفعال وهو الارسال ثم لما عرف قال تعالى: أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الأرض ففى الأول كان تعريفا بالفعل العجيب وفى الثانى كان تذكيرا بالنعمة فان كمال نعمتى الرياح والسحب بالسوق والاحياء، وهو كما ترى *

وقال سبحانه: فأحيينا به الأرض دون فأحييناه أى البلد الميت به تعليقاً للاحياء بالجنس المعلوم عند كل أحد وهو الأرض ولأن ذلك أوفق بأمر البعث، وقال تعالى: (بعد موتها) مع أن الأحياء مؤذن بذلك لما فيه من الاشارة الى أن الموت للارض الذى تعلق بها الاحياء معلوم لهم وبذلك يقوى أمر التشبيه فليتأمل *

والنشور على ما فى البحر مصدر نشر الميت اذا حيى قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا   ياعجبا للميت الناشر

وفى نهاية ابن الأثير يقال نشر الميت ينشر نشورا إذا عاش بعد الموت وانشره الله تعالى أحياه، وقال الراغب: قيل نشر الله تعالى الميت وأنشره بمعنى والحقيقة أن نشر الله تعالى الميت مستعار من نشر الثوب أى بسطه كما قال الشاعر:

طوتك خطوب دهرك بعد نشر   كذاك خطوبه طيا ونشرا

والمراد بالنشور هنا إحياء الأموات فى يوم الحساب وهو مبتدأ والجار والمجرور قبله فى موضع الخبر وقيل الكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل ذلك الاحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات يوم القيامة فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الألف فى الأول دون الثانى، وقال أبو حيان: وقع التشبيه بجهات لما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب كذلك يجمع الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى أو كما يسوق سبحانه السحاب إلى البلد الميت يسوق عز وجل الروح والحياة إلى البدن، وقال بعضهم: التشبيه باعتبار الكيفية *

فقد أخرج ابن جرير. وغيره عن عبدالله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله فى السموات والأرض إلا من شاء الله تعالى الا مات ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء كمنى الرجال فتنبت أجسامهم من ذلك الماء وقرأ الآية ثم يقوم ملك فينفخ فيه فتنطلق كل نفس الى جسدها، وفى حديث مسلم مرفوعا ينزل الله تعالى مطرا كأنه الطل فينبت أجساد الناس

www.Quranpdf.blogspot.in

ونبات الأجساد من عجب الذنب على ما ورد في الآثار وقد جاء أنه لا يبلى وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز ، وقال أبو زيد الوقواقي : هو جوهر فرد يبقى من هذه النشأة لا يتغير ، ولا حاجة إلى التزام أنه جوهر فرد ، ووراء ذلك أقوال عجيبة في هذا العجب فقيل هو العقل الهيولاني ، وقيل بل الهيولي ، وعن الغزالي إنما هو النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة ، وعن الشيخ الأكبر أنه العين الثابت من الانسان ، وعن بعض المتكلمين أنه الأجزاء الأصلية ، وقال الملا صدرا الشيرازي في أسفاره : هو عندنا القوة الخيالية لأنها آخر الأكوان الحاصلة في الانسان من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الانسانية في هذا العالم وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة ثم بين ذلك بما بين وأنه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن . والمعول عليه ما يوافق فهم أهل اللسان ، وأي حاجة إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديان جل شأنه وعظم سلطانه .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز أي صلبة وتعريفها للجنس ، والآية في الكافرين كانوا يتعززون بالأصنام كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال سبحانه : (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة) ومن اسم شرط وما بعده فعل الشرط ، والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها ، وقوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ دليل الجواب ولا يصح جعله جوابا من حيث الصناعة لخلوه عن ضمير يعود على من ، وقد قالوا : لابد أن يكون في جملة الجواب ضمير يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفا ، والتقدير من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى فلله وحده لا لغيره العزة فهو سبحانه يتصرف فيها كما يريد فوضع السبب موضع المسبب لأن الطالب ممن هي له وفي ملكه جميعها مسبب عنه ، وتعريف العزة للاستغراق بقرينة (جميعا) وانتصابه على الحال ، والمراد عزة الدنيا والآخرة ، وتقديم الخبر على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا اليه .

ولا ينافي ذلك قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) لأن ما لله تعالى وحده العزة بالذات وما للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم العزة بواسطة قربه من الله تعالى وما للمؤمنين العزة بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأنه للاشارة إلى ذلك أعيد الجار ، وقدر بعضهم الجواب فليطع الله تعالى ، وأيد بما رواه أنس كما في مجمع البيان عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز » ومن قدر فليطلبها من الله تعالى قال : إن الطلب منه تعالى إنما يكون بالطاعة والانقياد ، وعن الفراء المعنى من كان يريد علم العزة أي القدرة على القهر لمن هي فإنها إلى الله تعالى فهي له تعالى وحده ، وقيل : المعنى من كان يريد العزة أي الغلبة فهو مغلوب لأن الغلبة لله تعالى وحده ولا تتم الا به عز وجل ونسب هذا إلى مجاهد ، وقيل : تعريف العزة الأولى للاستغراق أيضا أو للعهد والمراد الفرد الكامل ، والمعنى من كان يريد العزة جميعها أو الفرد الكامل منها وهي العزة التي لا يشوبها ذلة من وجه فهو لا ينالها فانها لله تعالى وحده ، وهذا القول أحسن من القولين قبله ، وأظهر الاقوال عندي الأول وهو منسوب إلى قتادة ، وقوله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ إلى آخره كالبيان لطريق تحصيل العزة وسلوك السبيل إلى نيلها وهو الطاعة القولية والفعلية ، وقيل : بيان لكون

www.Quranpdf.blogspot.in

العزة كلها لله تعالى وبيده سبحانه لأنها بالطاعة وهى لايعتد بها ما لم تقبل، وقيل: استئناف كلام، وعلى الأول المعول. و(الكلم) اسم جنس جمعى عند جمع واحده كلمة، والمراد بالكلم الطيب على مافى الكشاف والبحر عن ابن عباس لااله الا الله، ومعنى كونه طيبا على ماقيل أن العقل السليم يستطيبه ويستلذه لما فيه من الدلالة على التوحيد الذى هو مدار النجاة والوسيلة إلى النعيم المقيم أو يستلذه الشرع أو الملائكة عليهم السلام ، وقيل: إنه حسن يقبله العقل ولا يرده ، واطلاق الكلم على ذلك إن كان واحده الكلمة بالمعنى الحقيقى ظاهر لتضمنه عدة كلمات لكن فى وصفه بالطيب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاء، ولعل ذلك باعتبار خصوصية التركيب، وان كان واحده هنا الكلمة بالمعنى المجازى كما فى قوله تعالى (وتمت كلمة ربك . وكلا إنها كلمة هو قائلها) وقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد» وقولهم لااله الا الله كلمة التوحيد إلى مالا يحصى كثرة فاطلاق الكلم على ذلك لتعدده بتعدد القائل .وكأن القرينة على ارادة المعنى المجازى للكلمة الصادق على الكلام الوصف بالطيب بناء على أن مايستطيب ويستلذ هو الكلام دون الكلمة العرية عن افادة حكم تنبسط منه النفس أو تنقبض *

أو يقال: إن كثرة اطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم حتى قال بعضهم كما نقل الحمصى فى حواشى التصريح عن بعض شراح الآجرومية أنه حقيقية لغوية تغنى عن القرينة ، واخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الاسماء والصفات عن الحبر أنه فسر الكلم الطيب بذكر الله تعالى ، وقيل : هو سبحان الله والحمد لله ولااله الا الله والله أكبر ، وهو ظاهر أثر أخرجه ابن مردويه . والديلمى عن أبى هريرة *

وقيل : هو سبحان الله وبحمده والحمد لله ولااله الا الله والله أكبر وتبارك الله ، وهو ظاهر أثر أخرجه جماعة عن ابن مسعود ، وأخرجه ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب أنه القرآن ، وقيل : هو الثناء بالخير على صالحى المؤمنين ، وقيل : هو الدعاء الذى لاظلم فيه ، وقال الامام وبه اقتدى: المختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم ، وأما ماأفاده كلام الملا صدرا فى اسفاره من أنه النفوس الطاهرة الزكية فانه تطلق الكلمة على النفس إذا كانت كذلك كما قال تعالى فى عيسى عليه السلام (وكلمته ألقاها إلى مريم) فلا ينبغى أن يعد فى عداد أقوال المفسرين كما لايخفى، وصعود الكلم اليه تعالى مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم او استعارة بتشبيه القبول بالصعود ، وجوز أن يجعل الكلم مجازا عما كتب فيه بعلاقة الحلول أو يقدر مضاف أى اليه يصعد صحيفة الكلم الطيب أو يشبه وجوده الخارجى هنا ثم الكتابى فى السماء بالصعود ثم يطلق المشبه به على المشبه ويشتق منه الفعل على ما هو المعروف فى الاستعارة التبعية ، وقيل : لامانع من اعتبار حقيقة الصعود للكلم فلله تعالى تجسيد المعانى، وكون الصعود اليه عز وجل من المتشابه والكلام فيه شهير، والكلام بعد ذلك كناية عن قبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجار والمجرور لافادة الحصر ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. وابن مسعود رضى الله تعالى عنه. والسلمى. وابراهيم (يصعد) من أصعد الكلام الطيب بالنصب ، وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك (يصعد) بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للمفعول ولا اعراب مابعده ، وفى الكشاف وقرئ (اليه يصعد الكلم الطيب) على البناء للمفعول و(اليه يصعد الكلم الطيب) من أصعد والمصعد هو الرجل أى يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب ، وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (اليه يصعد) من صعد الكلام بالرفع *

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ مبتدأ وخبر على المشهور، واختلف فى فاعل (يرفع) فقيل ضمير يعود على العمل

www.Quranpdf.blogspot.in

الصالح وضمير النصب يعود على (الكلم) أى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب وروى ذلك عن ابن عباس. والحسن. وابن جبير. ومجاهد . والضحاك : وشهر بن حوشب على ماأخرجه عنه سعيد بن منصور وغيره *

وأخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم . والبيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عباس أنه فسر العمل الصالح باداء الفرائض ثم قال: فمن ذكر الله تعالى وأدى فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وكان عمله أولى به، وتعقب ذلك ابن عطية فقال: هذا قول يرد معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس ، والحق أن العاصى بترك فرائضه إذا ذكر الله تعالى وقال كلاما طيبا كتب له ذلك وتقبل منه وعليه وزر ترك الفرائض، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك انتهى *

ولعل المراد برفع العمل الصالح الكلم الطيب رفع قدره وجعله بحيث يترتب عليه من الثواب ما لم يترتب عليه إذا كان بلا عمل ، وحديث لا يقبل الله قولا الا بعمل ولا يقبل قولا وعملا الا بنية ولا يقبل قولا وعملا ونية الا باصابة السنة المذكور فى الكشاف لا أظن صحته ، وقيل : إنه لو سلم صحته فالمراد نفى القبول التام ، ويجوز أن يكون المراد برفعه اياه تحقيقه وتقويته وذلك باعتبار أن الكلام الطيب هو الايمان فانه لا شك أن العمل الصالح يثبت الايمان ويحققه باظهار آثاره إذ به يعلم التصديق القلبي ، وقيل : الفاعل ضمير يعود على الكلم الطيب وضمير النصب يعود على العمل الصالح أى يرفع الكلم الطيب العمل الصالح *

ونسب أبو حيان هذا القول إلى أبي صالح. وشهر بن حوشب، وأيد بقراءة عيسى: وابن أبي عبلة (والعمل الصالح) بالنصب على الاشتغال، وفيه بحث لعدم تعين ضمير (الكلم) للفاعلية عليها، ومعنى رفع الكلم الطيب العمل الصالح قيل أن يزيده بهجة وحسنا. ومن فسر الكلم الطيب بالتوحيد قال: معنى ذلك جعله مقبولا فان العمل لا يقبل الا بالتوحيد ، وقيل : الفاعل ضميره تعالى وضمير النصب يعود على العمل ، وأخرج ذلك ابن المبارك عن قتادة أى والعمل الصالح يرفعه الله تعالى ويقبله. قال ابن عطية: هذا أرجح الاقوال عندى ، وقيل : ضمير الفاعل يعود على العمل وكذا الضمير المنصوب والكلام على حذف مضاف أى والعمل الصالح يرفع عامله ويشرفه، ونسب ذلك أبو حيان إلى ابن عباس ثم قال: ويجوز عندى أن يكون (العمل) معطوفا على (الكلم) و(يرفعه) استئناف اخبار أى يرفعهما الله تعالى ، ووحد الضمير لاشتراكهما فى الصعود والضمير قد يجرى مجرى اسم الاشارة فيكون لفظه مفردا والمراد به التثنية فكأنه قيل. ليس صعودهما من ذاتهما بل ذلك برفع الله تعالى اياهما اه ، وهو خلاف الظاهر جدا، ومثله مانسبه إلى ابن عباس وأنا لا أظن صحة نسبته اليه، وعلى التسليم يحتمل أنه رضى الله تعالى عنه أراد بقوله العمل الصالح يرفع عامله ويشرفه بيان ماتشير اليه الآية فى الجملة. والذى يتبادر إلى ذهنى من الآية ماروى عن قتادة واختاره ابن عطية ، وتخصيص العمل الصالح برفع الله تعالى اياه على ذلك قيل لما فيه من الكلفة والمشقة إذ هو الجهاد الاكبر، وظاهر هذا أن العمل أشرف من الكلام ولا كلام فى ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبي كالتصديق، ولعل الكلام عليه نظير قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) وقوله سبحانه (سبحان الذى أسرى بعبده) وكلام الامام صريح فى أن الكلم الطيب المفسر بالذكر أشرف من العمل حيث جعل صعود الكلم بنفسه دليل ترجيحه على العمل الذى يرفعه غيره ، وقال فى وجه ذلك: الكلام شريف فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق والعمل حركة وسكون يشترك فيه الانسان وغيره والشريف إذا وصل إلى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجد الطريق الاعند الطلب، ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة

www.Quranpdf.blogspot.in

أمن من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق وأمن فى نفسه ودمه وحرمه فى الدنيا إن كان ظاهرا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وأيضا أن القلب هو الاصل ومافيه لا يظهر الا باللسان ومافى اللسان لا يبين صدقه الا بالفعل فالقول اقرب إلى القلب من الفعل فيكون اشرف منه، اه وفى القلب منه شيء فتدبر *

﴿ والَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى المكرات السيآت أو أصناف المكرات السيآت على أن (السيآت) صفة لمحذوف وليس مفعولا به ليمكرون لأن مكر لازم ، وجوز أن يكون مفعولا على تضمين يقصدون أو يكسبون وعلى الأول فيه مبالغة للوعيد الشديد على قصد المكر أو هو اشارة إلى عدم تأثير مكرهم، والموصول مبتدأ وجملة قوله تعالى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ خبره أى لهم بسبب مكرهم عذاب شديد لا يقادر قدره ولا يعبأ بالنسبة اليه بما يمكرون . والآية على ماروى عن أبى العالية فى الذين مكروا برسول الله ﷺ فى دار الندوة كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) والمضارع لحكاية الحال الماضية، ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم فى قوله سبحانه ﴿ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ ﴾ للايذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ، ومافيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان أى ومكر أولئك المفسدين المشهورين ﴿ هُوَ يَبُورُ ١٠ ﴾ أى يفسد، وأصل البوار فرط الكساد أو الهلاك فاستعير هنا للفساد عدم التأثير لأن فرط الكساد يؤدى إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد أو لأن الكاسد يكسد فى الغالب لفساده ولأن الهالك فاسد لا أثر له، و(مكر) مبتدأ خبره جملة (هو يبور) وتقديم الضمير للتقوى أو الاختصاص أى مكرهم هو يفسد خاصة لا مكرنا بهم، وأجاز الحوفى. وأبو البقاء كون الخبر جملة (يبور) و(هو) ضمير فصل. وتعقبه فى البحر بأن ضمير الفصل لا يكون مابعده فعلا ولم يذهب إلى ذلك أحد فيما علمنا الا عبدالقاهر الجرجانى فى شرح الايضاح له فانه أجاز فى كان زيد هو يقوم أن يكون هو فصلا، ورد ذلك عليه *

وجوز أبو البقاء أيضا كون (هو) تأكيدا للمبتدأ، والظاهر ماقدمناه، وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد ابارة مكرهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التى اكتفوا فى حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن وحقق عز وجل فيهم قوله سبحانه : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقوله تعالى : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ووجه ارتباط الآية بما قبلها على ما ذكره شيخ الاسلام أنها بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح *

وقال فى الكشف: كأنه لما حصر سبحانه العزة وخصها به تعالى يعطيها من يشاء وأرشد إلى نيل ما به ينال ذلك المطلوب ذكر على سبيل الاستطراد حال من أراد العزة من عند غيره عز وجل وأخذ فى إهانة من أعزه الله تعالى فوق السماكين قدرا ومارجع اليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى وهو خلاصة ماذكره الطيبي فى وجه الانتظام، وروى عن مجاهد. وسعيد بن جبير. وشهر بن حوشب أن الآية فى أصحاب الرياء وهى متصلة بما عندها على ماروى عن شهر حيث قال: (والذين يمكرون السيآت) أى يراؤن (ومكر أولئك هو يبور) هم أصحاب الرياء عملهم لا يصعد ، وقال الطيبي: إن الجملة على هذه الرواية عطف على جملة الشرط والجزاء أعنى قوله تعالى :(من كان يريد العزة) الخ فيجب حينئذ مراعاة التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الامكان بأن يقدر فى كل منهما مايحصل به التقابل بدلالة المذكور فى الأولى على المتروك فى الأخرى وبالعكس اه

www.Quranpdf.blogspot.in

ولا يخفى بعده، وأياما كان فالمضارع للاستمرار التجددى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور أى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا اجماليا ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى أصنافا ذكرانا وإناثا كما قال سبحانه: (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) وأخرجه ابن أبى حاتم عن السدى، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم بعضا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال من الفاعل ومن زائدة أى إلا ملتبسة بعلمه تعالى ومعلومية الفاعل راجعة إلى معلومية أحواله مفصلة ومنها حال ماحملته الأنثى ووضعته فجعله من ذلك أبلغ معنى وأحسن لفظا من جعله من المفعول أعنى المحمول والموضوع لأن المفعول محذوف متروك كما صرح به الزمخشرى فى حم السجدة، وجعله حالا من الحمل والوضع أنفسهما خلاف الظاهر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أى من أحد أى وما يمد فى عمر أحد وسمى معمرا باعتبار الأول نحو (إنى أرانى أعصر خمرا) ومن قتل قتيلا على ما ذكر غير واحد وهذا لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وجوز أن يقال لأن (يعمر) مضارع فيقتضى أن لا يكون معمرا بعد ولا ضرورة للحمل على الماضى ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على معمر آخر نظير ماقال ابن مالك فى عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر، ولا يضر فى ذلك احتمال أن يكون المراد مثل نصفه لأنه مثال وهو استخدام أو شبيه به وإلى ذلك ذهب الفراء وبعض النحويين ولعله الأظهر، وفسروا المعمر بالمزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله تعالى: (ولا ينقص) الخ وهو الذى دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه ضرورة أنه لا يكون المزيد فى عمره منقوصا من عمره، وقيل: عليه هب أن مرجع الضمير معمر آخر أليس قد نسب النقص فى العمر إلى معمر وقد قلتم إنه المزاد عمره. أجيب بأن الأصل ومايعمر من أحد فسمى معمرا باعتبار ما يؤول اليه وعاد الضمير باعتبار الأصل المحول عنه فمآل ذلك ولا ينقص من عمر أحد أى ولا يجعل من ابتداء الأمر ناقصا فهو نظير قولهم ضيق فم الركية، وقال آخرون: الضمير عائد على المعمر الأول بعينه والمعمر هو الذى جعل الله تعالى له عمرا طال أو قصر، ولا مانع أن يكون المعمر ومن ينقص من عمره شخصا واحدا والمراد بنقص عمره ما يمر منه وينقضى مثلا يكتب عمره مائة سنة ثم يكتب تحته مضى يوم مضى يومان وهكذا حتى يأتى الخ وروى هذا عن ابن عباس. وابن جبير. وأبى مالك وحسان بن عطية. والسدى، وقيل بمعناه:

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزأ

وقيل الزيادة والنقص فى عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح كما ورد فى الخبر الصدقة تزيد فى العمر فيجوز أن يكون أحد معمرا أى مزاداً فى عمره إذا عمل عملا وينقص من عمره إذا لم يعمله، وهذا لايلزم منه تغيير التقدير لأنه فى تقديره تعالى معلق أيضا وإن كان ما فى علمه تعالى الأزلى وقضائه المبرم لايعتريه محو على ماعرف عن السلف ولذا جاز الدعاء بطول العمر.

وقال كعب: لو أن عمر رضى الله تعالى عنه دعا الله تعالى أخر أجله، ويعلم من هذا أن قول ابن عطية: هذا قول

www.Quranpdf.blogspot.in

ضعيف مردود يقتضى القول بالأجلين كما ذهبت اليه المعتزلة ليس بشيء ، ومن العجيب قول ابن كمال: النظر الدقيق يحكم بصحة أن المعمر أى الذى قدر له عمر طويل يجوز أن يبلغ ذلك العمر وأن لا يبلغ فيزيد عمره على الأول وينقص على الثانى ومع ذلك لا يلزم التغيير فى التقدير لأن المقدر فى كل شخص هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة ثم قال: فافهم هذا السر العجيب وكتب فى الهامش حتى ينكشف لك سر اختيار حبس النفس ويتضح وجه صحة قوله عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار » اه . وتعقبه الشهاب الخفاجى بأنه مما لا يعول عليه عاقل ولم يقل به أحد غير بعض جهلة الهنود مع أنه مخالف لما ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم . والنسائى . وابن أبى شيبة . وأبو الشيخ عن عبدالله بن مسعود من قول النبى ﷺ لأم حبيبة وقد قالت: اللهم امتعنى بزوجى النبى ﷺ وبأبى أبى سفيان وبأخى معاوية ، سألت الله تعالى لآجال مضروبة وأيام معدودة الحديث وأطال الجلبى فى رده وهو غنى عنه اه *

وقال بعضهم : يجوز أن لا يبلغ من قدر له عمر طويل ما قدر له بأن يغير ما قدر أولا بتقدير آخر ولا حجر على الله تعالى ، ويشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث التراويح « خشيت أن تفرض عليكم » وقوله ﷺ فى دعاء القنوت « وقنى شر ما قضيت » وخوفه عليه من الله تعالى آلاف آلاف صلاة وسلام من قيام الساعة إذا اشتدت الريح مع إخباره بأن بين يديها خروج المهدى والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها إلى غير ذلك مما لم يحدث بعد ، وغاية ما يلزم من ذلك تغير المعلوم ولا يلزم منه تغير العلم على ما بين فى موضعه وعلى هذا لا إشكال فى خبر « الصدقة تزيد فى العمر » ويتضح أمر فائدة الدعاء ، وما يحكى عن بعضهم من نفى القضاء المبرم يرجع اليه ، وقد رأيت كراسة لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها بالتشييد هذا القول وتثبيت أركانه ، والحق عندى أن ما فى العلم الأزلى المتعلق بالأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر لا يتغير ويجب أن يقع كما علم وإلا يلزم الانقلاب ، وما يتبادر منه خلاف ذلك إذا صح مؤول ، وخبر « الصدقة تزيد فى العمر » قيل إنه خبر آحاد فلا يعارض القطعيات ، وقيل المراد أن الصدقة وكذا غيرها من الطاعات تزيد فيما هو المقصود الأهم من العمر وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التى بها تستكمل النفوس الانسانية فتفوز بالسعادة الأبدية ، والدعاء حكمه حكم سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفظ من شدة الحر والبرد مثلا ففائدته كفائدتها ، وقيل هو لمجرد إظهار الاحتياج والعبودية فليتدبر *

وقيل الضمير للمعمر والنقص لغيره أى ولا ينقص من عمر المعمر لغيره بأن يعطى له عمر ناقص من عمره ، وقيل الضمير للمنقوص من عمره وهو وإن لم يصرح به فى حكم المذكور كما قيل * وبضدها تتبين الأشياء * فيكون عائداً على ما علم من السياق أى ولا ينقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصا *

وقرأ الحسن . وابن سيرين . وعيسى (ولا ينقص) بالبناء للفاعل وفاعله ضمير المعمر أو (عمره) و(من) زائدة فى الفاعل وإن كان متعديا جاز كونه ضمير الله تعالى . وقرأ الأعرج (من عمره) بسكون الميم ﴿ إلا فى كتاب ﴾ عن ابن عباس هو اللوح المحفوظ ، وجوز أن يراد به صحيفة الانسان فقد أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال قال: رسول الله ﷺ : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول يارب أشقى أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله تعالى ويكتب ثم يكتب عمله

www.Quranpdf.blogspot.in

ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها، وجوز أيضاً أن يراد به علم الله عز وجل، وذكر في ربط الآيات أن قوله تعالى: (والله خلقكم من تراب) الخ مساق للدلالة على القدرة الكاملة وقوله سبحانه: (وما تحمل من أنثى) الخ للعلم الشامل وقوله عز وجل: (وما يعمر من معمر) الخ لاثبات القضاء والقدر، والمعنى وما يعمر منكم خطابا لأفراد النوع الانسانى وأيد بذلك الوجه الأول من أوجه (وما يعمر) الخ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى ماذكر من الخلق وما بعده مع كونه محارا للعقول والأفهام ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١١﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب فكذلك البعث والنشور ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ﴾ طيب ﴿فُرَاتٌ﴾ كاسر العطش ومزيله.

وقال الراغب: الفرات الماء العذب يقال للواحد والجمع، ولعل الوصف على هذا على طرز أسود حالك وأصفر فاقع ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ سهل انحداره لحلوه مما تعافه النفس. وقرأ عيسى (سيغ) كميت بالتشديد، وجاء كذلك عن أبى عمرو. وعاصم، وقرأ عيسى أيضا (سيغ) كميت بالتخفيف ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾ متغير طعمه التغير المعروف، وقرأ أبو نهيك. وطلحة (ملح) بفتح الميم وكسر اللام، قال أبو الفتح الرازى: وهى لغة شاذة، وجوز أن يكون مقصورا من مالح للتخفيف، وهو مبنى على ورود مالح والحق وروده بقلة وليس بلغة رديئة كما قيل.

وفرق الامام بين الملح والمالح بأن الملح الماء الذى فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة كماء البحر والمالح الماء الذى وضع فيه ملح فتغير طعمه ولا يقال فيه إلا مالح ولم أره لغيره، وقال بعضهم: لم يرد مالح أصلا وهو قول ليس بالمليح ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة من قولهم أجيج النار وأجتها، ومن هنا قيل هو الذى يحرق بملوحته، وهذا مثل ضرب للمؤمن والكافر، وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أى من كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أى غضا جديدا وهو السمك على ماروى عن السدى، وقيل الطير والسمك واختار كثير الأول، والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيوانا قيل للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل، ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع اليه الفساد كما ينبىء عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله.

واستدل مالك. والثورى بالآية حيث سمى فيها السمك لحما على حنث من حلف لا يأكل لحما وأكل سمكا، وقال غيرهما: لا يحنث لأن مبنى الأيمان على العرف وهو فيه لا يسمى لحما ولذلك لا يحنث من حلف لا يركب دابة فركب كافرا مع أن الله تعالى سماه دابة فى قوله سبحانه: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) ولا يبعد عندى أن يراد بلحما لحم السمك ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك فى الأكل لا أظنها تامة ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ظاهره ومن كل تستخرجون ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والحلية التى تستخرج من البحر الملح اللؤلؤ والمرجان ويلبس ذلك الرجال والنساء وان اختلفت كيفية اللبس، أو يقال عبر عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم، ولا نعلم حلية تستخرج من البحر العذب، ولا يظهر هنا اعتبار إسناد ما للبعض إلى الكل كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وكون بعض الصخور التى فى مجارى السيول قد تكسر فيوجد فيها ماس وهو حلية تلبس إن صح لا ينفع اعتباره هنا إذ ليس فيه استخراج الحلية من البحر العذب ظاهرا، وقيل: لا يبعد أن تكون الحلية المستخرجة من ذلك عظام السمك التى يصنع منها قبضات للسيوف

www.Quranpdf.blogspot.in

والخناجر مثلا فتحمل و يتحلى بها ، وفيه مافيه لاسيما إذا كانت الحلية كالحلى مايتزين به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة ، وقال الخفاجي : لامانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره، ولا يخفى مافيه من البعد *

وذهب بعض الأجلة للخلاص من القيل والقال أن المراد و تستخرجون من البحر الملح خاصة حلية تلبسونها ويشعر به كلام السدي يحتمل ثلاثة أوجه، الأول أنه استطراد فى صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع *

والثانى أنه تتميم و تكميل للتمثيل لتفضيل المشبه به على المشبه وليس من ترشيح الاستعارة كما زعم الطيبي فى شيء بل إنما هو استدراك لدعوى الاشتراك بين المشبه والمشبه به يلزم منه أن يكون المشبه أقوى وهذا الاستدراك مخصوص بالملح ، وايضاحه أنه شبه المؤمن والكافر بالبحرين ثم فضل الأجاج على الكافر بأنه قد شارك الفرات فى منافع والكافر خلو من النفع فهو على طريقة قوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) ثم قال سبحانه : (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) والثالث أنه من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وان اشتركا فى بعض الفوائد تفاوتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه مالم يبقه على صفاء فطرته كذلك المؤمن والكافر وان اتفق اتفاقهما فى بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر فجملة (ومن كل) الخ حالية، وعندى خير الأوجه الثلاثة أوسطها، وعلى كل يحصل الجواب عما قيل كيف يناسب ذكر منافع البحر الملح وقد شبه به الكافر؟ وقال أبو حيان : إن قوله تعالى : (وما يستوى البحران) الخ لبيان ما يستدل به كل عاقل على أنه مما لامدخل لصنم فيه *

وقال الامام : الأظهر أنه دليل لكمال قدرة الله عز وجل، وما ذكرنا أولا من أنه تمثيل للمؤمن والكافر هو المشهور رواية ودراية وفيه من محاسن البلاغة مافيه ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فيه﴾ أى فى كل منهما وانظر هل يحسن رجوع الضمير للبحر الملح لانسياق الذهن اليه من قوله سبحانه : (وتستخرجون حلية تلبسونها) بناء على أن المعروف استخراجها منه خاصة وأمر الفلك فيه أعظم من أمرها فى البحر العذب ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحال التى ذكر الله تعالى، وأفرد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة فالمخر الشق *

قال الراغب : يقال مخرت السفينة مخراً ومخورا إذا شقت الماء بجوجئها ، وفى الكشاف يقال : مخرت السفينة الماء و يقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء ، والسفن الذى اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ، وقيل المخر صوت جرى الفلك وجاء فى سورة النحل (وترى الفلك مواخر فيه) بتقديم (مواخر) وتأخير (فيه) وعكس ههنا فقيل فى وجهه لأنه علق (فيه) ههنا بترى وثمت بمواخر، ولا يحسم مادة السؤال *

والذى يظهر لى فى ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها و تعقيب الآيات بقوله سبحانه : (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) فكان الاهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فانه إنما سيق استطرادا أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه (فيه) إيذانا بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأن الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال فى تلك الآية (ولتبتغوا) بالواو ، ومخالفة ماهنا لذلك

www.Quranpdf.blogspot.in

اقتضت ترك الواو فى قوله سبحانه: ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى من فضل الله تعالى بالنقلة فيها وهو سبحانه وإن لم يجر له ذكر فى الآية فقد جرى له تعالى ذكر فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه عز شأنه *
واللام متعلقة بمواخر، وجوز تعلقها بمحذوف دل عليه الأفعال المذكورة كسخر البحرين وهيأهما أو فعل ذلك (لتبتغوا من فضله) ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ ﴾ تعرفون حقوقه تعالى فتقومون بطاعته عز وجل وتوحيده سبحانه *
ولعل للتعليل على ما عليه جمع من الأجلة وقد قدمنا ذلك، وقال كثير: هي للترجي ولما كان محالا عليه تعالى كان المراد اقتضاء ما ذكر من النعم للشكر حتى كأن كل أحد يترجاه من المنعم عليه بها فهو تمثيل يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطبين ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر باضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ عطف على (يولج) واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره، وقد أشير اليه بقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ أى بحسب حركته على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة أو بحسب حركتيه الخاصة وهى من المغرب إلى المشرق والقسرية التى هى من المشرق إلى المغرب جريانا مستمرا ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن *
وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما والأجل المسمى عبارة عن مجموع مدة دورتيهما أو منتهاها وهى للشمس سنة وللقمر شهر وقد تقدم الكلام فى ذلك مفصلا ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أى ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له تعالى، وفى الكشاف ويجوز فى حكم الأعراب إيقاع اسم الله تعالى صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان و(ربكم) خبرا لولا أن المعنى يأباه اه *
قال فى الكشف: فيه نظر لأن الاسم الجليل جار مجرى العلم فلا يجوز أن يقع وصفا لاسم الاشارة البتة لا لفظا ولا معنى، وكأنه فرض على تقدير عدم الغلبة، وأما إباء المعنى على تقدير تجويز الوصف فقد قيل: إن المقصود أنه تعالى المنفرد بالالهية لا أن المنفرد بالالهية هو ربكم لأن المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الاطلاق، وأما عطف البيان فقيل لأنه يوهم تخييل الشركة ألا ترى أنك إذا قلت ذلك الرجل سيدك عندى ففيه نوع شركة لأن ذا اسم مبهم، وكأنه أراد أن البيان حيث يذهب الوهم إلى غيره ويحتمل الشركة مناسب لا فى مثل هذا المقام، وأفاد الطيبى أن ذلك يشار به إلى ما سبق للدلالة على جدارة ما بعده بسبب الأوصاف السابقة ولو كان وصفاً أو بيانا لكان المشار اليه ما بعده، وهذا فى الأول حسن دون الثانى اللهم إلا أن يكون قوله: أو عطف بيان إشارة إلى المذهب الذى يجعل الجنس الجارى على المبهم غير وصف فيكون حكمه حكم الوصف إذ ذاك، وبعد أن تبين أن المقام للاشارة إلى السابق فاسم الاشارة قد يجاء به لأغراض آخر اه *
وأبو حيان: منع صحة الوصفية للعلمية ثم قال لا يظهر إباء المعنى ذلك، ويجوز أن يكون قوله تعالى: (له الملك)

www.Quranpdf.blogspot.in

جملة مبتدأة واقعة فى مقابلة قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ١٣ ﴾ ويكون ذلك مقررا لما قبله من التفرد بالالهية والربوبية واستدلالا عليه إذ حاصله جميع الملك والتصرف فى المبدا والمنتهى له تعالى وليس لغيره سبحانه منه شيء ، ولذا قيل إن فيه قياسا منطقيا مطويا . وجوز أن يكون مقررا لقوله تعالى : (والله خلقكم) الخ وقوله تعالى : (يولج) الخ فجملة (الذين تدعون) الخ عليه إما استئنافية أيضا وهى معطوفة على جملة « له الملك » وإما حال من الضمير المستقر فى الظرف أعنى له ، وعلى الوجه الأول هى معطوفة على جملة « ذلكم الله » الخ أو حال أيضا ، والقطمير على ما أخرج ابن جرير . وغيره عن مجاهد لفافة النواة وهى القشر الأبيض الرقيق الذى يكون بين التمر والنواة وهو المعنى المشهور *

وأخرج ابن جرير . وابن المنذر أنه القمع الذى هو على رأس التمرة ، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه القشرة على رأس النواة وهو ما بين القمع والنواة ، وقال الراغب . إنه الأثر على ظهر النواة ، وقيل هو قشر الثوم ، وأياما كان فهو مثل للشيء الدنيء الطفيف ، قال الشاعر : *

وأبوك يخصف نعله متوركا ما يملك المسكين من قطمير

وقرأ عيسى . وسلام . ويعقوب . يدعون بالياء التحتانية ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ استئناف مقرر لما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع ، هذا إذا كان الكلام مع عبدة الأصنام ويحتمل أن يكون مع عبدتها وعبدة الملائكة . وعيسى وغيرهم من المقربين ، وعدم السماع حينئذ إما لأن المعبود ليس من شأنه ذلك كالأصنام وإما لأنه فى شغل شاغل وبعد بعيد عن عابده كعيسى عليه السلام ، وروى هذا عن البلخى أو لأن الله عز وجل حفظ سمعه من أن يصل إليه مثل هذا الدعاء لغاية قبحه وثقله على سمع من هو فى غاية العبودية لله سبحانه ، فلا يرد أن الملائكة عليهم السلام يسمعون وهم فى السماء كما ورد فى بعض الآثار دعاء المؤمنين ربهم سبحانه ، وفى نظم ذى النفوس القدسية فى سلك الملائكة عليهم السلام من حيثية السماع وهم فى مقار نعيمهم توقف عندى بل فى سماع كل من الملائكة عليهم السلام وهم فى السماء وذوى النفوس القدسية وهم فى مقار نعيمهم نداء من ناداهم غير معتقد فيهم الآلهية توقف عندى أيضا إذ لم أظفر بدليل سمعى على ذلك والعقل يجوزه لكن لا يكتفى بمجرد تجويزه فى القول به *

﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ لأنهم لم يرزقوا قوة التكلم والسماع لا يستلزم ذلك فالمراد بالاستجابة الاستجابة بالقول ، ويجوز أن يراد بها الاستجابة بالفعل أى ولو سمعوا ما نفعوكم لعجزهم عن الأفعال بالمرة ، هذا إذا كان المدعون الأصنام وأما إذا كانوا الملائكة عليهم السلام أو نحوهم من المقربين فعدم الاستجابة القولية لأن دعاءهم من حيث زعم أنهم آلهة وهم بمعزل عن الالهية فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم وفيه من التهمة ما فيه ، وعدم الاستجابة الفعلية يحتمل أن يكون لهذا أيضا ويحتمل أن يكون لأن نفع من دعاهم ليس من وظائفهم ، وقيل لأنهم يرون ذلك نقصا فى العبودية والخضوع لله عز وجل *

ويجوز أن يكون هذا تعليلا للاول أيضا فتأمل ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فضلا عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم ، وشرك مصدر مضاف إلى الفاعل أى ويوم القيامة يجحدون إشراككم إياهم

www.Quranpdf.blogspot.in

وعبادتكم إياهم وذلك بأن يقدر الله تعالى الأصنام على الكلام فيقولون لهم ما كنتم إيانا تعبدون أو يظهر من حالها ظهور نار القرى ليلا على علم مايدل على ذلك ولسان الحال أفصح من لسان المقال، ومن هذا القبيل قول ذى الرمة:

وقفت على ربع لمية ناطق   يخاطبنى آثاره وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه   تكلمنى أحجاره وملاعبه

وإن كان المدعون الملائكة ونحوهم فأمر التكلم ظاهر، وقد حكى الله تعالى قول الملائكة للمشركين فى السورة السابقة بقوله سبحانه (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤﴾ أى لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر خبيراً خبرك به يعنى به تعالى نفسه كما روى عن قتادة. وغيره فانه سبحانه الخبير بكنه الأمور، وهو خطاب للنبى ﷺ ويجوز أن يكون غير مختص أى لا يخبرك أيها السامع كائنا من كنت مخبر هو مثل الخبير العالم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، والمراد تحقيق ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم ونفى مايدعون لهم من الالهية *

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام كأنه قيل: ولا يخبرك مخبر مثل من يخبرك عن نفسه وهى قد أخبرت عن أنفسها بأنها ليست بآلهة، وفيه من البعد مافيه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ فى أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم، وتعريف (الفقراء) للجنس أو للاستغراق إذ لا عهد، وعرف كذلك للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى (وخلق الانسان ضعيفا) ولا يرد الجن إذ هم لا يحتاجون فى المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الانسان وضعفهم ليس كضعفه فلا حاجة إلى إدخالهم فى الناس تغليباً على أنه قيل لا يضر ذلك إذ الكلام مع من يظهر القوة والعناد من الناس، والقول أن القصر إضافى بالنسبة إليه تعالى لا يخفى مافيه، وقال صاحب الفرائد: الوجه أن يقال والله تعالى أعلم المراد الناس وغيرهم وهو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب وأولى العلم على غيرهم، وهو بعيد جداً *

وقال العلامة الطيبى: الذى يقتضيه النظم الجليل أن يحمل التعريف فى الناس على العهد وفى الفقراء على الجنس لأن المخاطبين هم الذى خوطبوا فى قوله تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك) الآية أى ذلكم المعبود هو الذى وصف بصفات الجلال لا الذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجا إليه عز وجل ولا يخلو عن حسن ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل شىء لا غيره ﴿الْحَمِيدُ ١٥﴾ المنعم على جميع الموجودات المستحق بانعامه سبحانه للحمد، وأصله المحمود وأريد به ذلك على طريق الكناية ليناسب ذكره بعد فقرهم إذ الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جواداً منعما ومثله مستحق للحمد، وهذا كالتكميل لما قبله كما فى قول كعب الغنوى:

حليم إذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم فى عين العدو مهيب

ويدخل فى عموم المستغنى عنه المخاطبون وعبادتهم، وفى كلام الطيبى رائحة التخصيص حيث قال ماسمعت

www.Quranpdf.blogspot.in

نقله وهو سبحانه غنى عنكم وعن عبادتكم لأنه تعالى حميد له عباد يحمدونه وإن لم تحمدوه أنتم والأولى التعميم*

وماروى فى سبب النزول من أنه لما كثر من النبى ﷺ الدعاء وكثر الاصرار من الكفار قالوا لعل الله تعالى محتاج لعبادتنا فنزلت لايقتضى شيئاً من التخصيص فى الآية كما لايخفى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أى إن يشأ سبحانه إذهابكم أيها الناس والاتيان بخلق جديد يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦﴾ بعالم غير الناس لاتعرفونه هذا إذا كان الخطاب عاما أو إن يشأ يذهبكم أيها المشركون أو العرب ويأت بخلق جديد ليسوا على صفتكم بل مستمرون على طاعته وتوحيده. وهذا إذا كان الخطاب خاصا، وتفسير الجديد بما سمعت مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأياما كان فالجملة تقرير لاستغنائه عز وجل ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أى ماذكر من إذهابهم والاتيان بخلق جديد ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧﴾ أى بصعب فإن أمره تعالى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون*

وإن كان فى الناس تغليب الحاضر على الغائب وأولى العلم على غيرهم وكان الخطاب هنا على ذلك الطرز وقلنا إن الآية تشعر بأن ما يأتى به سبحانه من العالم أبدع أشكل بحسب الظاهر قول حجة الاسلام ليس فى الامكان أبدع مما كان. وأجيب بأن ذلك على فرض وقوعه داخل فى حيز ما كان وهو مع هذا العالم كبعض أجزاء هذا العالم مع بعض أو بأن الأبدعية المشعور بها بمعنى والأبدعية فى كلام حجة الاسلام بمعنى آخر فتدبر*

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أى لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى اثم نفس أخرى بل تحمل كل نفس وزرها*

ولامنافاة بين هذا وقوله تعالى فى سورة العنكبوت (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) فانه فى الضالين المضلين وهم يحملون اثم اضلالهم مع اثم ضلالهم وكل ذلك آثامهم ليس فيها شىء من آثام غيرهم، ولاينافيه قوله سبحانه (مع أثقالهم) لأن المراد بأثقالهم ما كان بمباشرتهم وبما معها ماكان بسوقهم وتسببهم فهو للمضلين من وجه وللآخرين من آخر ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أى نفس أثقلتها الاوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذى أثقلها ووزرها الذى بعضها ليحمل شىء منه ويخفف عنها، وقيل: أى إلى حمل حملها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تجب بحمل شىء منه، والظاهر أن (ولاتزر) الخ نفى للحمل الاختيارى تكرما من نفس الحامل ردا لقول المضلين (ولنحمل خطاياكم) ويؤيده سبب النزول فقد روى ان الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين اكفروا بمحمد ﷺ وعلى وزركم فنزلت*

وهذا نفى للحمل بعد الطلب من الوازرة أعم من أن يكون اختيارا أو جبرا وإذا لم يجبر أحد على الحمل بعد الطلب والاستعانة علم عدم الجبر بدونه بالطريق الأولى فيعم النفى أقسام الحمل كلها، وكذا الحامل أعم من أن يكون وازرا أم لا، وجاء العموم من عدم ذكر المدعو ظاهرا، وقد يقال مع ذلك: إن فى الأولى نفى حمل جميع الوزر بحيث يتعرى منه المحمول عنه، وفى الثانى نفى التخفيف فلا اتحاد بين مضمونى الجملتين كما لايخفى، وقيل فى الفرق بينهما: ان الأول نفى الحمل اجبارا والثانى نفى له اختياراً، وتعقب بأن المناسب على هذا ولايوزر على وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها احدا لايحمل منه شيئا، وأيضا حق نفى الاجبار أن يتعرض له بعد نفى الاختيار، وقيل: أن الجملة الأولى كما دلت على أن المثقل بالذنوب لايحمل احد من ذنوبه شيئا دلت على عدله تعالى الكامل، والجملة الثانية دلت على أنه لامستغاث من هول ذلك اليوم أيضا وهما المقصودان من الآيتين

www.Quranpdf.blogspot.in

فالفرق باعتبار ذلك ، ولعل ماذكرناه أولا أولى، وذكر بعض الافاضل فى الجملة الأولى ثلاثة أسئلة قال فى الاخيرين منها: لم أر من تفطن لهما وقد أجاب عن كل، الأول أن عدم حمل الغير على الغير عام فى النفس الآثمة وغير الآثمة فلم خص بالآثمة مع ان التصريح بالعموم أتم فى العدل وأبلغ فى البشارة وأخصر فى اللفظ وذلك بأن يقال: ولا تحمل نفس حمل أخرى، وجوابه أن الكلام فى أرباب الاوزار المعذبين لبيان ان عذابهم إنما هو بمااقترفوه من الاوزار لا بما اقترفه غيرهم، الثانى أن معنى وزر حمل الوزر لامطلق الحمل على مافى النهاية الاثيرية حيث قال: يقال وزر يزر فهو وازر إذا حمل ما يثقل ظهره من الاشياء المثقلة ومن الذنوب فكيف صح ذكر وزر مع يزر وجوابه أنه من باب التجريد، الثالث أن (وازرة) يفهم من تزر كما يفهم ضارب من يضرب مثلا فاى فائدة فى ذكره؟ وجوابه أنه إذا قيل ضرب ضارب زيدا فالذى يستفاد من ضرب إنما هو ذات قام بها ضرب حدث من تعلق هذا الفعل بتلك الذات ولما عبر عن شىء بما فيه معنى الوصفية وعلق به معنى مصدرى فى صيغة فعل أوغيرها فهم منه فى عرف اللغة أن ذلك الشىء موصوف بتلك الصفة حال تعلق ذلك المعنى به لا بسببه كما حققه بعض أجلة شراح الكشاف فيجب أن يكون معنى ضارب فى المثال متصفا بضرب سابق على تعلق ضرب به وكذا يقال فى (ولاتزر وازرة) وهذه فائدة جليلة ويزيدها جلالة استفادة العموم إذا أورد اسم الفاعل نكرة فى حيز نفى ، وبذلك يسقط قول العلامة التفتازانى إن ذكر فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرة قليل الجدوى جدا انتهى .

وأنت تعلم أنه من مجموع الجملتين يستفاد ما ذكره فى السؤال الاول من العموم ، وفى خصوص هاتين الجملتين وذكرهما معا مالايخفى من الفائدة ، وفى القاموس وزره كوعده وزرا بالكسر حمله ، وفى الكشاف وزر الشىء إذا حمله، ونحوه فى البحر، وعلى ذلك لاحاجة إلى التجريد فلا تغفل، وأصل الحمل ماكان على الظهر من ثقيل فاستعير للمعانى من الذنوب والآثام ، وقرأ أبو السمال عن طلحة . وابراهيم عن الكسائى (لاتحمل) بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم وتقتضى هذه القراءة نصب شىء على أنه مفعول به لتحمل وفاعله ضمير عائد على مفعول تدعو المحذوف أى وإن تدع مثقلة نفسا إلى حملها لم تحمل منه شيئا ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أى المدعو المفهوم من الدعوة ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ذا قرابة من الداعى، وقال ابن عطية: اسم كان ضمير الداعى أى ولوكان الداعى ذا قرابة من المدعو، والأول أحسن لأن الداعى هو المثقلة بعينه فيكون الظاهر عود الضمير عليه وتأنيثه .

وقول أبى حيان ذكر الضمير حملا على المعنى لأن قوله تعالى (مثقلة) لا يراد بها مؤنث المعنى فقط بل كل شخص فكأنه قيل وإن يدع شخص مثقل لايخفى مافيه. وقرىء ولو كان (ذوقربى) بالرفع، وخرج على أن (كان) ناقصة أيضا و(ذو قربى) اسمها والخبر محذوف أى ولو كان ذوقربى مدعوا ، وجوز أن تكون تامة. وتعقب بأنه لا يلتئم معها النظم الجليل لأن الجملة الشرطية كالتتميم والمبالغة فى أن لاغياث أصلا فيقتضى أن يكون المعنى أن المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لايجيبها إلى مادعته اليه ولو كان ذو القربى مدعوا، ولو قلنا إن المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لايحمل مدعوها شيئاً ولو حضر ذو قربى لم يحسن ذلك الحسن، وملاحظة كون ذى القربى مدعوا بقرينة السياق او تقدير فدعته كما فعل أبو حيان خلاف الظاهر فيخفى عليه أمر الانتظام ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى إنما تنذر بهذه الانذارات ونحوها ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أى يخشونه

www.Quranpdf.blogspot.in

تعالى غائبين عن عذابه سبحانه أو عن الناس فى خلواتهم أويخشون عذاب ربهم غائبا عنهم فالجار والمجرور فى موضع الحال من الفاعل أو من المفعول ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أى إنما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد، ونكتة اختلاف الفعلين تعلم مما مر فى قوله تعالى (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) فتذكر مافى العهد من قدم.

﴿ وَمَنْ تَزَكَّى ﴾ تطهر من أدناس الاوزار والمعاصى بالتأثر من هذا الانذارات ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس الا عليها، والتزكى شامل للخشية وإقامة الصلاة فهذا تقرير وحث عليهما.

وقرأ العباس عن أبى عمرو (ومن يزكى فانما يزكى) بالياء من تحت وشد الزاى فيهما وهما مضارعان اصلهما ومن يتزكى فانما يتزكى فادغمت التاء فى الزاى كما أدغمت فى يذكرون، وقرأ ابن مسعود. وطلحة (ومن ازكى) بادغام التاء فى الزاى واجتلاب همزة الوصل فى الابتداء، وطلحة أيضا (فانما تزكى) بادغام التاء فى الزاى ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ١٨ ﴾ لا الى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم احسن الجزاء ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ١٩ ﴾ عطف على قوله تعالى (وما يستوى البحران) والاعمى والبصير مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة والسدى وغيرهما

وقيل هما مثلان للصنم ولله عز وجل فهو من تتمة قوله تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك) والمعنى لا يستوى الله تعالى مع ماعبدتم ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ٢٠ ﴾ أى ولا الباطل ولا الحق ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ٢١ ﴾ ولا الثواب ولا العقاب، وقيل: ولا الجنة ولا النار، والحرور فعول من الحر وأطلق كما حكى عن الفراء على شدة الحر ليلا أو نهارا، وقال أبو البقاء: هو شدة حر الشمس، وفى الكشاف الحرور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار، وقيل: بالليل ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين الذين دخلوا فى الدين بعد البعثة والكافرين الذين أصروا واستكبروا فالتعريف كما قال الطيبي للعهد، وقيل: للعلماء والجهلاء.

والثعالبي جعل الاعمى والبصير مثلين لهما وليس بذاك ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يسمعه ويجعله مدركا للاصوات، وقال الخفاجي وغيره: ولعل فى الآية مايقتضى أن المراد يسمع من يشاء سماع تدبر وقبول لآياته عز وجل ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ٢٢ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالاموات واشباع فى اقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم، والباء مزيدة للتأكيد أى وما أنت مسمع، والمراد بالسماع هنا ما أريد به فى سابقه، ولا يأبى إرادة السماع المعروف ماورد فى حديث القليب لأن المراد نفى الاسماع بطريق العادة ومافى الحديث من باب (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وإلى هذا ذهب البعض، وقدمر الكلام فى ذلك فلا تغفل.

وما ألطف نظم هذه التمثيلات فقد شبه المؤمن والكافر أولا بالبحرين وفضل البحر الأجاج على الكافر لخلوه من النفع ثم بالأعمى والبصير مستتبعا بالظلمات والنور والظل والحرور فلم يكتف بفقدان نور البصر حتى ضم إليه فقدان ما يمده من النور الخارجي وقرن إليه نتيجة ذلك العمى والفقدان فكان فيه ترق من التشبيه الأول إليه ثم بالأحياء والأموات ترقيا ثانيا وأردف قوله سبحانه (وما أنت بمسمع من فى القبور).

وذكر الطيبي أن إخلاء الثانى من لا المؤكدة لأنه كالتمهيد لقوله تعالى (ومايستوى الأحياء ولا الأموات)

www.Quranpdf.blogspot.in

ولهذا كرر (ومايستوى) وأما ذكرها فى التمثيلين بعده فلأنهما مقصودان فى أنفسهما إذ ما فيهما مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب دون المؤمن والكافر كما فى غيرهما، وإنما حملت على أنها زائدة للتأكيد إذ ليس المراد أن الظلمات فى نفسها لا تستوى بل تتفاوت فمن ظلمة هى أشد من أخرى مثلا وكذا يقال فيما بعد بل المراد أن الظلمات لاتساوى النور والظل لا يساوى الحرور والاحياء لاتساوى الأموات *

وزعم ابن عطية أن دخول لا على نية التكرار كأنه قيل: ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات وهكذا فاستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ودل مذكور الكلام على متروكه، والقول بأنها مزيدة لتأكيد النفى يغنى عن اعتبار هذا الحذف الذى لا فائدة فيه *

وقال الامام: كررت لا فيما كررت لتأكيد المنافاة فالظلمات تنافى النور وتضاده والظل والحرور كذلك لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد بخلاف الأعمى والبصير فان الشخص الواحد قد يكون بصيراً. ثم يعرض له العمى فلا منافاة إلا من حيث الوصف، وأما الأحياء والأموات فيهما وإن كانا كالأعمى والبصير من حيث أن الجسم الواحد قد يكون حيا ثم يعرض له الموت لكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير فانهما قد يشتركان فى إدراك أشياء ولا كذلك الحى والميت كيف والميت مخالف الحى فى الحقيقة على ماتبين فى الحكمة الالهية، وقيل لم تكرر قبل وكررت بعد لأن المخاطب فى أول الكلام لا يقصر فى فهم المراد، وقيل كررت فيما عدا الأخير لأنه لو قيل ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلا لتوهم نفى الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير ومجموع الظلمات والنور، وفى الأخير للاعتناء وادخال (لا) على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء، وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الايمان، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فان الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يقدم الحرور على الظل ليكون على طرز ماسبق من تقديم غير الأشرف بل قدم الظل رعاية لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما فى ذلك من رعاية الفاصلة *

وقدم الأحياء على الأموات ولم يعكس الأمر ليوافق الأولين فى تقديم غير الأشرف لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة والأموات إشارة إلى المصرين على الكفر بعدها ولذا قيل بعد (إن الله يسمع من يشاء) الخ ووجود المصرين بوصف الاصرار بعد وجود المؤمنين، وقيل قدم ماقدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق وفى الأخير لأن المراد بالأموات. فاقدو الحياة بعد الاتصاف بها كما يشعر به ارداف ذلك بقوله تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور) فيكون للحياة مع أنها وجودية رتبة السبق أيضا، وقيل ان تقديم غير الأشرف مع انفهام أنه غير أشرف على الأشرف للاشارة إلى أن التقديم صورة لا يخل بشرف الأشرف *

فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبار عمائم الفرسان

وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق، وقيل لأن الظلمة قد تتعدد فتكون فى محال قد تخلل بينهما نور والنور فى هذا العالم وإن تعدد إلا أنه يتحد وراء محل تعدده، وجمع الأحياء والأموات على بابه لتعدد المشبه بهما ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك لأن القصد إلى الجنس والمفرد أظهر فيه مع أن فى البصراء ترك رعاية الفاصلة وهو على الذوق السليم دون البصير، فتدبر جميع ذلك والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ الأشهب . والحسن (بمسمع من) بالاضافة ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ ﴾ أى ماعليك إلاأن تبلغ وتنذر فان كان المنذر ممن أراد الله تعالى هدايته سمع واهتدى وإن كان ممن أراد سبحانه ضلاله وطبع على قلبه فما عليك منه تبعة ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى محقين على أنه حال من الفاعل أو محقا على أنه حال من المفعول أو إرسالا مصحوبا بالحق على أنه صفة لمصدر محذوف، وجوز الزمخشرى تعلقه بقوله سبحانه ﴿ بَشِيراً ﴾ ومتعلق قوله تعالى ﴿ وَنَذِيراً ﴾ محذوف لدلالة المقابل على مقابله أى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق *

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى ما من جماعة كثيرة أهل عصر وأمة من الأمم الدارجة فى الأزمنة الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤ ﴾ من نبى أو عالم ينذرها، والاكتفاء بذكر العلم بأن النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفا مع أن الانذار أنسب بالمقام، وقيل خص النذير بالذكر لأن البشارة لا تكون إلا بالسمع فهو من خصائص الأنبياء عليهم السلام فالبشير نبى أو ناقل عنه بخلاف النذارة فانها تكون سمعاً وعقلا فلذا وجه النذير فى كل أمة، وفيه بحث *

واستدل بعض الناس بهذه الآية مع قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) على فى البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون، والاستدلال بذلك باطل لايكاد يخفى بطلانه على أحد حتى على البهائم، ولم نسمع القول بنبوة فرد من البهائم ونحوها إلا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدس الله سره، ورأيت فى بعض الكتب أن القول بذلك كفر والعياذ بالله تعالى *

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم العاتية فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إياك * ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ فى موضع الحال على ماقال أبو البقاء إما بدون تقدير قد أو بتقديرها أى كذب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدقهم فيما يدعون ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ٢٥ ﴾ كالتوراة والانجيل على إرادة التفصيل يعنى أن بعضهم جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا لا على إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب وعدد الرسل أكثر بكثير من عدد الكتب كما هو معروف، ومآل هذا إلى منع الخلو، ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد والعطف لتغاير العنوانين لكن فيه بعد ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم لذمهم بما حيز الصلة والاشعار بعلة الأخذ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ ﴾ أى انكارى عليهم بالعقوبة، وفيه مزيد تشديد وتهويل وقد تقدم الكلام فى نظير هذا فى سبأ فتذكره *

وفى الآية من تسليته ﷺ مافيها ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الخ استئناف مسوق على مايخطر بالبال لتقرير ما أشعر به قوله تعالى (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) من عظيم قدرته عز وجل . وقال شيخ الاسلام: هو لتقرير ماقبله من اختلاف الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان *

وقال أبو حيان: تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية اثر تقريرها بأمثال ضربها جل شأنه، وهذا

www.Quranpdf.blogspot.in

كما ترى، والاستفهام للتقرير والرؤية قلبية لأن إنزال المطر وإن كان مدركا بالبصر لكن إنزال الله تعالى إياه ليس كذلك، والخطاب عام أى ألم تعلم أن الله تعالى أنزل من جهة العلو ماء ﴿ فَأَخْرَجْنَا به ﴾ أى بذلك الماء على أنه سبب عادى للاخراج، وقيل أى أخرجنا عنده، والالتفات لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ﴿ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ أى أنواعها من التفاح والرمان والعنب والتين وغيرها مما لا يحصر، وهذا كما يقال فلان أتى بألوان من الأحاديث وقدم كذا لونا من الطعام، واختلاف كل نوع بتعدد أصنافه كما فى التفاح فان له أصنافا متغايرة لذة وهيئة وكذا فى سائر الثمرات ولا يكاد يوجد نوع منها إلا وهو ذو أصناف متغايرة، ويجوز أن يراد اختلاف كل نوع باختلاف أفراده.

وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن قتادة أنه حمل الألوان على معناها المعروف واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها، وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وهو الأوفق لما فى قوله تعالى.

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ وهو إما عطف على ماقبله بحسب المعنى أو حال وكونه استئنافا مع ارتباطه بماقبله غير ظاهر، و(جدد) جمع جدة بالضم وهى الطريقة من جده إذا قطعه.

وقال أبو الفضل: هى من الطرائق مايخالف لونه لون مايليه ومنه جدة الحمار للخط الذى فى وسط ظهره يخالف لونه، وسأل ابن الأزرق ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن الجدد فقال طرائق طريقة بيضاء وطريقة خضراء، وأنشد قول الشاعر:

قد غادر السبع فى صفحاتها جددا كأنها طرق لاحت على أكم

والكلام على تقدير مضاف إن لم تقصد المبالغة لأن الجبال ليست نفس الطرائق أى ذو جدد. وقرأ الزهرى (جدد) بضمتين جمع جديدة كسفينة وسفن وهى بمعنى جدة. وقال صاحب اللوامح هو جمع جديد بمعنى آثار جديدة واضحة الألوان. وقال أبو عبيدة: لامدخل لمعنى الجديدة فى هذه الآية. ولعل من يقول بتجدد حدوث الجبال وتكونها من مياه تنبع من الأرض وتتحجر أولا فأولا ثم تنبع من موضع قريب مما تحجر فتتحجر أيضا وهكذا حتى يحصل جبل لا يأبى حمل الآية على هذه القراءة على ماذكر، والظاهر من الآيات والأخبار أن الجبال أحدثها الله تعالى بعيد خلق الأرض لئلا تميد بسكانها، والفلاسفة يزعمون أنها كانت طينا فى بحار انحسرت ثم تحجرت، وقد أطال الامام الكلام على ذلك فى كتابه المباحث المشرقية واستدل على ذلك بوجود أشياء بحرية كالصدف بين أجزائها، وهذا عند تدقيق النظر هباء. وأكثر الأدلة مثله، ومن أراد الاطلاع على ماقالوا فليرجع إلى كتبهم. وروى عنه أيضا أنه قرأ (جدد) بفتحتين ولم يجز ذلك أبو حاتم وقال: إن هذه القراءة لا تصح من حيث المعنى وصححها غيره وقال: الجدد الطريق الواضح المبين إلا أنه وضع المفرد موضع الجمع ولذا وصف بالجمع، وقيل هو من باب نطفة أمشاج وثوب أخلاق لاشتمال الطريق على قطع، وتعقب بأنه غير ظاهر ولامناسب لجمع الجبال ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ أى أصنافها بالشدة والضعف لأنها مقولة بالتشكيك فمختلف صفة بيض وحمر، و(ألوانها) فاعل له وليس بمبتدأ، و(مختلف) خبره لوجوب مختلفة حينئذ، وجوز أن يكون صفة (جدد) ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ عطف على (بيض) فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها أى ومن

www.Quranpdf.blogspot.in

الجبال ذو جدد بيض وحمر ، وغرابيب والغربيب هو الذى أبعد فى السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ، وكثر فى كلامهم اتباعه للاسود على أنه صفه له أو تأكيد لفظى فقالوا أسود غربيب كما قالوا أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قانى *

~~وظاهر كلام الزمخشرى~~ أن (غرابيب) هنا تأكيد لمحذوف والأصل وسود غرابيب أى شديدة السواد *

وتعقب بأنه لا يصح إلا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحاة من منع ذلك وهو اختيار ابن مالك لأن التأكيد يقتضى الاعتناء والتقوية وقصد التطويل والحذف يقتضى خلافه . ورده الصفار كما فى شرح التسهيل لأن المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافى تأكيده ، وفى بعض شروح المفصل أنه صفة لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه ، وقوله تعالى ﴿ سُودٌ ٢٧ ﴾ بدل منه أو عطف بيان له وهو مفسر للمحذوف ، ونظير ذلك قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها   ركبان مكة بين الغيل والسند

وفيه التفسير بعد الابهام ومزيد الاعتناء بوصف السواد حيث دل عليه من طريق الاضمار والاظهار *

ويجوز أن يكون العطف على (جدد) على معنى ومن الجبال ذو جدد مختلف اللون ومنها غرابيب متحدة اللون كما يؤذن به المقابلة وإخراج التركيب على الأسلوب الذى سمعته ، وكأنه لما اعتنى بأمر السواد بافادة أنه فى غاية الشدة لم يذكر بعده الاختلاف بالشدة والضعف *

وقال الفراء : الكلام على التقديم والتأخير أى سود غرابيب ، وقيل ليس هناك مؤكد ولا موصوف محذوف وإنما (غرابيب) معطوف على (جدد) أو على بيض من أول الأمر و (سود) بدل منه ، قال فى البحر : وهذا حسن ويحسنه كون غربيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً ، ومنه ماجاء فى الحديث إن الله تعالى يبغض الشيخ الغربيب وهو الذى يخضب بالسواد ، وفسره ابن الأثير بالذى لايشيب أى لسفاهته أو لعدم اهتمامه بأمر آخرته ، وحكى مافى البحر بصيغة قيل ، وقول الشاعر :

العين طامحة واليد شامخة   والرجل لائحة والوجه غربيب

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو بعضهم مختلف ألوانه على ماذكروا فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله) والجملة عطف على الجملة التى قبلها وحكمها حكمها *

وفى إرشاد العقل السليم أن إيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس فى الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمراً حادثاً عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريرى المنبىء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فانها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر اه ، وماذكره من أمر تعليق الرؤية مخالف لما فى البحر حيث قال : وهذا استفهام تقرير ولايكون إلا فى الشىء الظاهر جداً فتأمل *

وقرأ الزهرى (والدواب) بتخفيف الباء مبالغة فى الهرب من التقاء الساكنين كما همز بعضهم (ولا الضالين) لذلك *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ ابن السميقع (ألوانها) وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ فى محل نصب صفة لمصدر مختلف المؤكد والتقدير مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمرات والجبال فهو من تمام الكلام قبله والوقف عليه حسن باجماع أهل الأداء وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ تكملة لقوله تعالى: (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد الايماء إلى بيان شرف الخشية ورداءة ضدها وتوعد المتصفين به وتقرير قدرته عز وجل المستدعى للخشية على مانقول أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس وتباين مراتبهم أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان، وقيل (كذلك) فى موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أى الأمر كذلك أى كما بين ولخص ثم قيل: (إنما يخشى الله) الخ وسلك به مسلك الكناية من باب العرب لاتخفر الذمم دلالة على أن العلم يقتضى الخشية ويناسبها وهو تخلص إلى ذكر أوليائه تعالى مع إفادة أنهم الذين نفع فيهم الانذار وأن لك بهم غنية عن هؤلاء المصرين، قال صاحب الكشف: والرفع أظهر ليكون من فصل الخطاب ٭

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون (كذلك) متعلقا بما بعده خارجا مخرج السبب أى كذلك الاعتبار والنظر فى مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشى الله العلماء، ورده السمين بأن إنما لا يعمل مابعدها فيما قبلها وبأن الوقف على كذلك عند أهل الأداء جميعا، وارتضاه الخفاجي وقال: وبه ظهر ضعف ماقيل ان المعنى الأمر كذلك أى كما بين ولخص على أنه تخلص لذكر أولياء الله تعالى، وفيه أنه ليس فى هذا المعنى عمل ما بعد إنما فيما قبلها واجماع أهل الأداء على الوقف على (كذلك) ان سلم لايظهر به ضعف ذلك، وفى بعض التفاسير المأثورة عن السلف مايشعر بتعلق (كذلك) بما بعده ٭

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال فى الآية كما اختلفت هذه الأنعام تختلف الناس فى خشية الله تعالى كذلك وهذا عندى ضعيف والأظهر ماعليه الجمهور وما قيل أدق وألطف، والمراد بالعلماء العالمون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة لا العارفون بالنحو والصرف مثلا فمدار الخشية ذلك العلم لاهذه المعرفة فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى. روى الدارمى عن عطاء قال: قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أحكم؟ قال الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه قال: يارب أى عبادك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمت له قال: يارب أى عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بى. وصح عنه ﷺ أنه قال «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» ولكونه المدار ذكرت الخشية بعد ما يدل على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس كما أخرج عنه ابن المنذر. وابن جرير (العلماء) فى الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شىء قدير، وتقديم المفعول لأن المقصود بيان الخاشين والاخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أخر لكان المقصود بيان المخشى والاخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما فى قوله تعالى: (ولا يخشون أحدا إلا الله) والمقام لايقتضيه بل يقتضى الأول ليكون تعريضاً بالمنذرين المصرين على الكفر والعناد وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته ولذلك لايخشون الله تعالى ولا يخافون عقابه ٭

وأنكر بعضهم إفادة (إنما) هنا للحصر وليس بشىء، وروى عن عمر بن عبد العزيز. وأبى حنيفة رضى الله تعالى عنهما أنهما قرءا (إنما يخشى الله) بالرفع (العلماء) بالنصب وطعن صاحب النشر فى هذه القراءة، وقال أبو حيان:

www.Quranpdf.blogspot.in

لعلها لا تصح عنهما، وقد رأينا كتبا في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة في كتابه الكامل وخرجت على أن الخشية مجاز عن التعظيم بعلاقة اللزوم فان المعظم يكون مهيبا ، وقيل الخشية ترد بمعنى الاختيار كقوله * خشيت بني عمي فلم أر مثلهم *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ تعليل لوجوب الخشية لأن العزة دالة على كمال القدرة على الانتقام ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، وقيل ذكر (غفور) من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكور آنفا *

والآية على ما في بعض الآثار نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانا كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين والمراد بكتاب الله القرآن فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: هذه آية القراء *

وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أنها نزلت في حصين بن الحرث بن عبد المطلب القرشي ، ثم إن العبرة بعموم اللفظ فلذا قال السدي في التالين : هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال عطاء: هم المؤمنون أي عامة وهو الأرجح ويدخل الأصحاب دخولا أوليا، وقيل معنى يتلون كتاب الله يتبعونه فيعملون بما فيه ، وكأنه جعل يتلو من تلاه إذا تبعه أو حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنها ليس فيها كثير نفع دونه ، وقد ورد «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه» ويشعر كلام بعضهم باختيار المعنى المتبادر حيث قال: إنه تعالى لما ذكر الخشية وهي عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية، وجوز أن يراد بكتاب الله تعالى جنس كتبه عز وجل الصادق على التوراة والانجيل وغيرهما فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين بقوله تعالى (وإن يكذبوك) الخ والمضارع لحكاية الحال الماضية، والمقصود من الثناء عليهم وبيان ما لهم حث هذه الأمة على اتباعهم وأن يفعلوا نحو ما فعلوا، والوجه الأول أوجه كما لا يخفى وعليه الجمهور *

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين ومعلنين أو في سر وعلانية ، والمراد ينفقون كيفما اتفق من غير قصد إليهما، وقيل السر في الانفاق المسنون والعلانية في الانفاق المفروض، وفي كون الانفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط، ومقام التمدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب؛ وقيل جيء بمن لذلك، والمعتزلة يخصون الرزق بالحلال وهو أنسب باسناد الفعل إلى ضمير العظمة، ومن لا يخصه بالحلال يقول هو التعظيم والحث على الانفاق ﴿يَرْجُونَ﴾ بما آتوا من الطاعات ﴿تِجَٰرَةً﴾ أي معاملة مع الله تعالى لنيل ربح الثواب على أن التجارة مجاز عما ذكر (والقرينة) حالية كما قال بعض الأجلة ، وقوله تعالى : ﴿لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ أي لن تكسد ، وقيل لن تهلك بالخسران صفة تجارة وترشيح للمجاز ، وجملة (يرجون) الخ على ما قال الفراء . وأبو البقاء خبر إن، وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم، وجعل بعضهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة وأمر الترشيح على حاله وإليه ذهب أبو السعود ثم قال: والاخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة

www.Quranpdf.blogspot.in

قطعية بحصول مرجوهم *
وظاهر ما روى عن قتادة من تفسيره التجارة بالجنة أنها مجاز عن الربح وفسر (لن تبور) بلن تبيد وهو كما ترى، وقوله تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلق عند بعض بما دل عليه لن تعلق (بنعمة ربك) فى قوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) بما دل عليه ما لا بالحرف إذ لا يتعلق الجار به على المشهور أى ينتفى الكساد عنها وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء. وعن أبى وائل زيادته تعالى إياهم بتشفيعهم فيمن أحسن اليهم *
وقال الضحاك: بتفسيح القلوب، وفى الحديث بتضعيف حسناتهم، وقيل بالنظر الى وجهه تعالى الكريم *
والظاهر أن (من فضله) راجع لما عنده ففيه إشارة إلى أن توفية أجورهم كالواجب لكونه جزاء لهم بوعده سبحانه ويجوز أن يكون راجعا إليهما أو متعلق بمقدر يدل عليه ماقبله وهو ما عد من أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم الخ، وجوز تعلقه بما قبله على التنازع وصنيع أبى البقاء يشعر باختيار تعلقه بيرجون وجعل اللام عليه لام الصيرورة. ويعقب بأنه لا مانع من جعلها لام العلة كما هو الشائع الكثير ولا يظهر للعدول عنه وجه *
ووجه ذلك الطيبى بأن غرضهم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارة غير كاسدة لأن صلة الموصول هنا علة وإيذان بتحقق الخبر ولما أدى ذلك إلى أن وفاهم الله تعالى أجورهم أتى باللام، وإنما لم يذهب اليه بعض الأجلة كالزمخشرى لأن هذه اللام لا توجد إلا فيما يترتب الثانى الذى هو مدخولها على الأول ولا يكون مطلوبا نحو تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ٣٠﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة عند الكثير أى غفور لفرطات المطيعين شكور لطاعاتهم أى مجازيهم عليها أكمل الجزاء فيوفى هؤلاء أجورهم ويزيدهم من فضله، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر والعائد محذوف أى لهم، وجوز أن يكون هو الخبر بتقدير العائد وجملة (يرجون) حال من ضمير (أنفقوا) بناء على أن القيد المتعقب لأمور متعددة يختص بالأخير كما هو مذهب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أو على أن رجاء التجارة النافقة أوفق بالانفاق أو من مقدر أى فعلوا جميع ذلك راجين *
واستظهره الطيبى، والجملة عليه معترضة فلا يرد أن فيه الفصل بين المبتدأ وخبره بأجنبى، وجوز أن يكون حالا من ضمير (الذين) على سبيل التنازع، ولم يشتهر التنازع فى الحال وأنا لا أرى فيه بأساً، واستظهر بعض المعاصرين جعل الجملة المذكورة حالا من ضمير (أنفقوا) لقربه وشدة الملاءمة بين الانفاق ورجاء تجارة لها نفاق ولا يبعد أن يكون قد حذف فيما تقدم نظيرها لدلالتها عليه وجعل (ليوفيهم) متنازعا فيه للافعال الثلاثة المتعاطفة أو جعل الجملة حالا من مقدر كما سمعت آنفا و(ليوفيهم) متعلقا بيرجون وجملة (إنه غفور شكور) خبر المبتدأ والرابط محذوف وفى جملة (يرجون) الخ احتمال الاستعارة التمثيلية ولو على بعد ولم أر من أشار اليه فتدبر *
﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن، و(من) للتبيين إذ القرآن أخص من الذى أوحينا فهو وما وان اتحدا ذاتا أو جنس الكتاب ومن للتبعيض إذ المراد من (الذى أوحينا) هو القرآن وهو بعض جنس الكتاب، وقيل هو اللوح ومن للابتداء ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ إذا كان المراد الحصر فهو من قصر المسند اليه على المسند

www.Quranpdf.blogspot.in

لا العكس لعدم استقامة المعنى إلا أن يقصد المبالغة قاله الخفاجي والمتبادر الشائع فى أمثاله قصر المسند على المسند اليه وهو ههنا ان لم تقصد المبالغه قصر إضافى بالنسبة إلى ما يفتريه أهل الكتاب و ينسبونه الى الله تعالى.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى لما تقدمه من الكتب السماوية ونصب (مصدقا) على الحالية والعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة قبله أى أحققه مصدقا وهو حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته الكتب الالهية المتقدمة عليه بالزمان فى العقائد وأصول الأحكام، واللام للتقوية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ٣١ محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان فى أحوالك ما ينافى النبوة لم يوح اليك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب، وتقديم (الخبير) للتنبيه على أن العمدة هى الأمور الروحانية، والى ذلك أشار ﷺ بقوله «ان الله لا ينظر الى أعمالكم وانما ينظر الى قلوبكم» ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أى القرآن كما عليه الجمهور، والعطف قيل على (الذى أوحينا) وقيل على (أوحينا) باقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول، واستظهر ذلك بالقرب و توافق الجملتين أى ثم أعطيناه من غير كد وتعب فى طلبه ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم كما قال ابن عباس . وغيره أمة محمد ﷺ فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بالانتماء الى أكرم رسله وأفضلهم عليهم الصلاة والسلام، و(ثم) للتراخى الرتبى فان إيحاء الكتاب اليه ﷺ أشرف من الايراث المذكور كأنه كالعلة له وبه تحققت نبوته عليه الصلاة والسلام التى هى منبع كل خير وليست للتراخى الزمانى اذ زمان ايحائه اليه عليه الصلاة والسلام هو زمان ايراثه، واعطائه أمته بمعنى تخصيصه بهم وجعله كتابهم الذى اليه يرجعون وبالعمل بما فيه ينتفعون، واذا أريد بايراثه اياهم ايراثه منه ﷺ وجعلهم منتفعين به فاهمين مافيه بالذات كالعلماء أو بالواسطة كغيرهم بعده عليه الصلاة والسلام فهى للتراخى الزمانى، والتعبير عن ذلك بالماضى لتحققه، وجوز أن يكون معنى (أورثنا الكتاب) حكمنا بايراثه وقدرناه على أنه مجاز من اطلاق السبب على المسبب فتكون ثم للتراخى الرتبى والا فزمان الحكم سابق على زمان الايحاء.

ووجه التعبير بالماضى عليه ظاهر. وفى شرح الرضى أن ثم قد تجىء فى عطف الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها وعدم مناسبته له كما فى قوله تعالى (استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) فان بين توبة العباد وهى انقطاع العبد اليه تعالى بالكلية وبين طلب المغفرة بونا بعيدا وهذا المعنى فرع التراخى ومجازه اه.

وابن الشيخ جعل ماهنا كما فى هذه الآية، وجوز أن يكون (ثم أورثنا) الخ متصلا بما سبق من قوله تعالى: (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من أمة الا خلا فيها نذير) والمراد ثم أورثنا الكتاب من الأمم السالفة وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمة المحمدية، والكتاب القرآن كما قيل (وانه لفى زبر الأولين) وقيل لايحتاج الى اعتبار ذلك ويجعل المعنى ثم أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناه هذه الأمة، ووجه النظم أنه تعالى قدم ارساله فى كل أمة رسولا وعقبه بما ينبىء أن تلك الأمم تفرقت حزبين حزب كذبوا الرسل وما أنزل معهم وهم المشار اليهم بقوله تعالى: (فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحزب صدقوهم وتلوا كتاب الله تعالى وعملوا بمقتضاه وهم المشار اليهم بقوله سبحانه (ان

www.Quranpdf.blogspot.in

الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة) الخ وبعد أن أثنى سبحانه على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم جاء بما يختص برسوله ﷺ من قوله سبحانه : (والذى أوحينا اليك من الكتاب) الخ استطراداً معترضاً ثم أخبر سبحانه بايراثه هذا الكتاب الكريم هذه الأمة بعد إعطاء تلك الأمم الزبر والكتاب المنير ، وعلى هذا يكون المعنى فى (أورثنا) على ظاهره ، وثم للتراخى فى الأخبار أو للتراخى فى الرتبة إيذانا بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب وفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وفى هذا الوجه حمل الكتاب فى قوله سبحانه :(إن الذين يتلون كتاب الله) على الجنس وجعل الآية ثناء على الأمم المصدقين بعد اقتصاص حال المكذبين منهم ، فان دفع ما فيه فهو من الحسن بمكان. وجوز أن يكون عطفاً على (إن الذين يتلون كتاب الله) وإذا كان إيراث الكتاب سابقا على تلاوته فالمعنى على ظاهره وثم للتفاوت الرتبى أو للتراخى فى الاخبار (والذى أوحينا) الخ اعتراض لبيان كيفية الإيراث لأنه إذا صدقها بمطابقته لها فى العقائد والأصول كان كأنه هى وكأنه انتقل اليهم ممن سلف، وهو كما ترى ، وجوز على هذا وما قبله أن يراد بالكتاب الجنس، ولا يخفى أن إرادة القرآن هو الظاهر ، وقيل المراد بالمصطفين علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم وإيراثهم القرآن جعلهم فاهمين معناه واقفين على حقائقه ودقائقه أمناء على أسراره *

وروى الامامية عن الصادق والباقر رضى الله تعالى عنهما أنهما قالا: هى لنا خاصة وإيانا عنى أراد أن أهل البيت أو الائمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسى الامامى قال فى تفسيره مجمع البيان: وهذا أقرب الاقوال لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الانبياء عليهم السلام *

وربما يستأنس له بقوله عليه الصلاة والسلام « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض » وحملهم على علماء الامة أولى من هذا التخصيص ويدخل فيهم علماء أهل البيت دخولا أولياً ففى بيتهم نزل الكتاب ولن يفترقا حتى يردا الحوض يوم الحساب، واذا كانت الإضافة فى (عبادنا) للتشريف واختص العباد بمؤمنى هذه الامة وكانت من للتبعيض كأن حمل المصطفين على العلماء كالمتعين ، وعن الجبائى أنهم الانبياء عليهم السلام اختارهم الله تعالى وحباهم رسالته وكتبه، وعليه يكون تعريف الكتاب للجنس والعطف على قوله تعالى : (والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق) وثم للتراخى فى الاخبار، أخبر سبحانه أولا عما أوتيه نبينا ﷺ وهو متضمن للاخبار بايتائه عليه الصلاة والسلام الكتاب على أكمل وجه ثم أخبر سبحانه بتوريث إخوانه الانبياء عليهم السلام وايتائهم الكتب ، ومما يرد عليه أن ايتاء الانبياء عليهم السلام الكتب قد علم قبل من قوله تعالى : (فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير)*

وعن أبى مسلم أنهم المصطفون المذكورون فى قوله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) وهو دون ما قبله، وأياما كان فالموصول مفعول أول لأورثنا و(الكتاب) مفعول ثان له قدم لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، ومن للبيان أو للتبعيض ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الفاء للتفصيل لا للتعليل كما قيل، وضمير الجمع على ما سمعت أولا فى تفسير الموصول للموصول، والظالم لنفسه من قصر فى العمل بالكتاب وأسرف على نفسه وهو صادق على من ظلم غيره لأنه بذلك ظالم لنفسه والمشهور مقابلته بالظالم لغيره، واللام للتقوية *

﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ يتردد بين العمل به ومخالفته فيعمل تارة ويخالف أخرى، وأصل معنى الاقتصاد التوسط

www.Quranpdf.blogspot.in

فى الامر ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ ﴾ متقدم الى ثواب الله تعالى وجنته ﴿ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ أى بسبب الخيرات أى الاعمال الصالحة ، وقيل :سابق على الظالم لنفسه والمقتصد فى الدرجات بسبب الخيرات، وقيل :أى محرز الفضل بسببها ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بتيسيره تعالى وتوفيقه عزوجل، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها، وفسر بمن غلبت طاعته معاصيه و كثر عمله بكتاب الله تعالى، وما ذكر فى تفسير الثلاثة مما يشير اليه كلام الحسن فقد روى عنه أنه قال : الظالم من خفت حسناته والمقتصد من استوت والسابق من رجحت، ووراء ذلك أقوال كثيرة فقال معاذ : الظالم لنفسه الذى مات على كبيرة لم يتب منها والمقتصد من مات على صغيرة ولم يصب كبيرة لم يتب منها والسابق من مات تائباً من كبيرة أو صغيرة أو لم يصب ذلك ، وقيل الظالم لنفسه العاصى المسرف والمقتصد متقى الكبائر والسابق المتقى على الاطلاق ، وقيل الاول المقصر فى العمل والثانى العامل بالكتاب فى أغلب الاوقات ولم يخل عن تخليط والثالث السابقون الاولون من المهاجرين والانصار *

وقيل الاولان كما ذكر والثالث المداوم على إقامة مواجب الكتاب علما وعملا وتعليما، وقيل :الاول من أسلم بعد الفتح والثانى من أسلم قبله والثالث من أسلم قبل الهجرة، وقيل: هم من لا يبالى من أين ينال ومن قوته من الحلال ومن يكتفى من الدنيا بالبلاغ، وقيل : من همه الدنيا ومن همه العقبى ومن همه المولى، وقيل: طالب النجاة وطالب الدرجات وطالب المناجاة ، وقيل : تارك الزلة وتارك الغفلة وتارك العلاقة، وقيل: من شغله معاشه عن معاده ومن شغله بهما ومن شغله معاده عن معاشه وقيل: من يأتى بالفرائض خوفا من النار ومن يأتى بها خوفا منها ورضا وراحة بابا ومن يأتى بها رضا واحتسابا فقط ، وقيل : الغافل عن الوقت والجماعة والمحافظ على الوقت دون الجماعة والمحافظ عليهما، وقيل: من غلبت شهوته عقله ومن تساويا ومن غلب عقله شهوته، وقيل: من لا ينهى عن المنكر ويأتيه ومن ينهى عن المنكر ويأتيه ومن يأمر بالمعروف ويأتيه، وقيل: ذو الجور وذو العدل وذو الفضل، وقيل: ساكن البادية والحاضرة والمجاهد، وقيل: من كان ظاهره خيرا من باطنه ومن استوى باطنه وظاهره ومن باطنه خير من ظاهره *

وقيل: التالى للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه والتالى العالم غير العامل والتالى العالم العامل، وقيل : الجاهل والمتعلم والعالم ، وقيل : من خالف الاوامر وارتكب المناهى ومن اجتهد فى أداء التكاليف وإن لم يوفق لذلك ومن لم يخالف تكاليف الله تعالى *

وروى بعض الامامية عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه الظالم لنفسه منامن لا يعرف حق الامام والمقتصد العارف بحق الامام والسابق هو الامام، وعن زياد بن المنذر عن ابى جعفر رضى الله تعالى عنه الظالم لنفسه منا من عمل صالحا وآخر سيئا والمقتصد المتعبد المجتهد والسابق بالخيرات على والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهم. ومن قتل من آل محمد شهيدا ، وقيل : هم الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والموحد الذى يمنع جوارحه بالتكليف والموحد الذى ينسيه التوحيد غير التوحيد ، وقيل : من يدخل الجنة بالشفاعة ومن يدخلها بفضل الله تعالى ومن يدخلها بغير حساب ، وقيل : من أوتى كتابه من وراء ظهره ومن أوتى كتابه بشماله ومن أوتى كتابه بيمينه ، وقيل : الكافر مطلقا والفاسق والمؤمن التقى، وفى معناه ماجاء فى رواية عن ابن عباس . وقتادة . وعكرمة الظالم لنفسه اصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق بالخيرات السابقون المقربون ، والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحو قولهم يجعلون ضمير (منهم) للعباد لا للموصول ولا شك

www.Quranpdf.blogspot.in

أن منهم الكافر وغيره وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصا بالمؤمنين ليس بمطرد وإنما يكون كذلك إذا قصد بالاضافة التشريف، والقول برجوع الضمير للموصول والتزام كون الاصطفاء بحسب الفطرة تعسف كما لا يخفى، وقيل: فى تفسير الثلاثة غير ماذكر، وذكر فى التحرير ثلاثة وأربعين قولا فى ذلك، ومن تتبع التفاسير وجدها أكثر من ذلك لكن لايجد فى أكثرها كثير تفاوت، والذى يعضده معظم الروايات والآثار أن الاصناف الثلاثة من أهل الجنة فلا ينبغى أن يلتفت إلى تفسير الظالم بالكافر الا بتأويل كافر النعمة وارادة العاصى منه *

أخرج الامام أحمد. والطيالسى. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. وابن مردويه. والبيهقى. والترمذى وحسنه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية: (ثم أورثنا الكتاب - إلى - الخيرات) هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم فى الجنة، وقوله عليه الصلاة والسلام وكلهم الخ عطف تفسيرى *

وأخرج الطبرانى. وابن مردويه فى البعث عن أسامة بن زيد أنه قال فى الآية «قال رسول الله ﷺ كلهم من هذه الامة وكلهم فى الجنة» وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» وأخرج العقيلى. وابن مردويه. والبيهقى عن عمر بن الخطاب مرفوعا نحوه *

وأخرج الامام أحمد. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى. والحاكم. وابن مردويه. والبيهقى عن أبى الدرداء قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فاما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله تعالى برحمته فهم الذين يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» الآية قال البيهقى: إذا كثرت الروايات فى حديث ظهر ان للحديث أصلا، والاخبار فى هذا الباب كثيرة وفيما ذكر كفاية، وقدم الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم وعقب بالمقتصد لقلة المقتصدين بالنسبة اليهم وأخر السابق لأن السابقين أقل من القليل قاله الزمخشرى، وحكى الطبرسى أن هذا الترتيب على مقامات الناس فان احوال العباد ثلاث معصية ثم توبة ثم قربة فاذا عصى العبد فهو ظالم فاذا تاب فهو مقتصد فاذا صحت توبته وكثرت مجاهدته فهو سابق، وقيل: قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله تعالى وأخر السابق لئلا يعجب بعمله فتعين توسيط المقتصد، وقال قطب الدين: النكتة فى تقديم الظالم أنه أقرب الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بايراث الكتاب فاذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثر قليلا وهو الظالم لنفسه ومنهم من يتأثر تأثرا وسطا وهو المقتصد ومنهم من يتأثر تأثرا تاما وهو السابق، وقريب منه ماقيل: إن الاصطفاء مشكك تتفاوت مراتبه وأولها مايكون للمؤمن الظالم لنفسه وفوقه مايكون للمقتصد وفوق الفوق مايكون للسابق بالخيرات فجاء الترتيب كالترقى فى المراتب، وقيل: أخر السابق لتعدد مايتعلق به فلو قدم أو وسط لبعد فى الجملة ما بين الاقسام المتعاطفة ولما كان الاقتصاد كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديم الظالم وتأخير المقتصد ليكون المقتصد بين الظالم والسابق لفظا كما هو بينهما معنى، وقد يقال: رتب هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالهم فى الذكر بالنسبة إلى ماوعدوا به من الجنات فى قوله سبحانه (جنات عدن) الآية حالهم فى الحشر عند تحقق الوعد فأخر السابق الداخل فى الجنان أولا ليتصل ذكره بذكر الجنات الموعود بها وذكر قبله المقتصد

وجعل السابق فاصلا بينه وبين الجنات لأنه إنما يدخلها بعده فيكون فاصلا بينه وبينها فى الدخول وذكر قبلهما الظالم لنفسه لأنه إنما يدخلها ويتصل بها بعد دخولها فتأخير السابق فى المعنى تقديم وتقديم الظالم فى المعنى تأخير ، ويحتمل ذلك أوجها أخرى تظهر بالتأمل فتأمل ، وقرأ أبو عمران الجونى . وعمر بن أبى شجاع . ويعقوب فى رواية . والقزاز عن أبى عمرو (سباق) بصيغة المبالغة ﴿ ذَلكَ ﴾ أى ماتقدم من الايراث والاصطفاء ﴿ هُوَ الفَضْلُ الْكَبِيرُ ٣٢ ﴾ من الله عز وجل لادخل للكسب فيه ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ويؤيده قراءة الجحدرى وهرون عن عاصم (جنات) بالنصب على الاشتغال أى يدخلون جنات عدن يدخلونها واحتمال جره بدلا من الخيرات بعيد وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبى فلا يلتفت اليه ه

وضمير الجمع للذين اصطفينا أو للثلاثة . وقال الزمخشرى : ذلك اشارة إلى السبق بالخيرات (وجنات عدن) بدل من الفضل الذى هو السبق ولما كان السبق بالخيرات سببا لنيل الثواب جعل نفس الثواب اقامة للسبب مقام المسبب ثم ابدل منه وضمير الجمع للسابق لأن القصد إلى الجنس ، فخص الوعد بالقسم الاخير مراعاة لمذهب الاعتزال وهو على ماسمعت للاقسام الثلاثة وذلك هو الاظهر فى النظم الجليل ليطابقه قوله تعالى بعد (والذين كفروا لهم نار جهنم) وليناسب حديث التعظيم والاختصاص المدمج فى قوله سبحانه (ثم أورثنا الكتاب) والا فأى تعظيم فى ذلك الذكر بعد أن لز أكثر المصطفين فى قرن الكافرين وليناسب ذكر الغفور بعد حال الظالم والمقتصد والشكور حال السابق ولتعسف ماذكره من الاعراب وبعده عن الذوق وكيف لايكون الاظهر وقد فسره كذلك أفضل الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين على مامر آنفا واليه ذهب الكثير من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الانام رضى الله تعالى عنهم وعد منهم فى البحر عمر . وعثمان . وابن مسعود . وأبا الدرداء . وأبا سعيد . وعائشة رضى الله تعالى عنهم ، وقد أخرج سعيد بن منصور . والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب أنه قال بعد أن قرأ الآية : أشهد على الله تعالى أنه يدخلهم الجنة جميعا ، وأخرج غير واحد عن كعب أنه قرأ الآية إلى (لغوب) فقال دخلوها ورب الكعبة ، وفى لفظ كلهم فى الجنة ألا ترى على أثره (والذين كفروا لهم نار جهنم) نعم أن اريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذر رجوع الضمير إلى ماذكر ويتعين رجوعه إلى السابق واليه وإلى المقتصد لأن المراد بهما الجنس لكن لاينبغى أن يراد بعد هاتيك الاخبار ، وقرأ زر بن حبيش . والزهرى (جنة عدن) بالافراد والرفع وقرأ أبو عمرو (يدخلونها) بالبناء للمفعول وروبت عن ابن كثير ، وقوله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فيهَا ﴾ خبر ثان لجنات أو حال مقدرة ، وقيل : إنها لقرب الوقوع بعد الدخول تعد مقارنة وقرىء (يحلون) بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة فهى حالية إذا لبست الحلى ويقال جيد حال إذا كان عليه الحلى ﴿ منْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار على مافى الارشاد ، وفى القاموس السوار ككتاب وغراب القلب كالاسوار بالضم جمعه اسورة وأساور وأساورة وسور وسؤور اهـ ، واطلاق الجمع على جمع الجمع كثير فلا مخالفة ، وسوار المرأة معرب كما قال الراغب وأصله دستواره ، ومن للتبعيض أى يحلون بعض أساور كأنه بعضه له امتياز وتفوق على سائر الابعاض ، وجوز أن تكون للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلى المبهم ، وقيل : زائدة بناء على مايرى الاخفش من جواز زيادتها فى الاثبات ، وقيل : نعت لمفعول محذوف ليحلون وأنه بمعنى يلبسون (ومن) فى قوله تعالى ﴿ منْ ذَهَبٍ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

بيانية ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ عطف على محل (من أساور) أى ويحلون فيها لؤلؤا . أخرج الترمذى . والحاكم . وصححه . والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ تلا الآية فقال : إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء مابين المشرق والمغرب ، وقيل : عطف على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه (يحلون) أى ويؤتون لؤلؤا . وقرأ جمع من السبعة (ولؤلؤ) بالجر عطفاً على (ذهب) أى يحلون فيها بعض أساور من مجموع ذهب ولؤلؤ بأن تنظم حبات ذهب مع حبات لؤلؤ ويتخذ من ذلك سوار كما هو معهود اليوم فى بلادنا أو بأن يرصع الذهب باللؤلؤ كما يرصع ببعض الاحجار ، وقيل : أى من ذهب فى صفاء اللؤلؤ ، وفيه مافيه من الكدر ه

ولعل من يقول بأنه لا اشتراك بين ذهب الدنيا ولؤلؤها وذهب الآخرة ولؤلؤها إلا بالاسم لا يلتزم النظم ولا الترصيع كما لا يخفى ، وقرئ (لؤلوا) بتخفيف الهمزة الأولى ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٣٣ ﴾ أى إبريسم محض كما فى مجمع البيان ، وقال الراغب : مارق من الثياب . وتغيير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا قيل للايذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان إن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فانها ليست من اللوازم الضرورية ولذا لا يلزم العدل بين الزوجات فيها فجعل بيان تحليتهم مقصورا بالذات ، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس ، وقيل : إن ذلك للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة مع المحافظة على هيئة الفواصل وليس بذاك ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى ويقولون *

وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ حزن تقلب القلب وخوف العاقبة على ماروى عن القاسم بن محمد ، وقال أبو الدرداء : حزن أهوال القيامة وما يصيب من ظلم نفسه هنالك ه

وأخرج الحاكم وصححه : وابن أبى حاتم وغيرهما عن ابن عباس حزن النار . وقال الضحاك . حزن الموت يقولون ذلك إذا ذبح الموت ، وقال مقاتل : حزن الانتقال يقولون ذلك إذا استقروا فيها ، وقال قتادة : حزن أن لا تتقبل أعمالهم ، وقال الكلبى : خوف الشيطان ، وقال سمرة بن جندب : حزن معيشة الدنيا الخبز ونحوه ، وعن ابن عباس حزن الآفات والأعراض وقيل : حزن كراء الدار والأولى أن يراد جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة ، وكل ماسمعت من باب التمثيل وقد تقدم فى الحديث «إن الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون» أى بعد أن يتلقاهم الله تعالى برحمته (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) الخ فلا تغفل وقرىء الحزن بضم الحاء وسكون الزاى ذكره جناح بن حبيش ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين ﴿ شَكُورٌ ٣٤ ﴾ للمطيعين *

وأخرج ابن المنذر : وغيره عن ابن عباس أنه قال فى ذلك . غفر لنا العظيم من ذنوبنا وشكر لنا القليل من أعمالنا ، وفى الكشاف ذكر الشكور دليل على أن القوم كثير والحسنات ، وكان عليه أن يقول : وذكر الغفور دليل على أنهم كثيرو الفرطات فينطبق على الفرق ولا ينفك النظم ولكن منعه المذهب ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ أى دار الاقامة التى لا انتقال عنها أبدا وهى الجنة ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من إنعامه سبحانه وتفضله وكرمه فان العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة فى الجملة لكن سببيته بفضل الله عز وجل أيضا إذ ليس هناك استحقاق ذاتى ، ومن علم أن العمل متناه زائل وثواب الجنة دائم لا يزول لم يشك فى أن الله تعالى ما أحل من أحل دار الاقامة إلا من محض فضله سبحانه وقال الزمخشرى : أى من إعطائه تعالى وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه

www.Quranpdf.blogspot.in

وفواضل وليس من الفضل الذى هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع وفيه من الاعتزال مافيه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾ كلال وفتور وهو نتيجة النصب، وضمه اليه وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما كذا قال جمع من الأجلة، وقال بعضهم: النصب التعب الجسمانى واللغوب التعب النفسانى *

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه فسر النصب بالوجع والكلام من باب * لاترى الضب بها ينجحر * والجملة حال من أحد مفعولى أحل. وقرأ على كرم الله تعالى وجهه والسلمى (لغوب) بفتح اللام، قال الفراء: هو مايغب به كالفطور والسحور، وجاز أن يكون صفة لمصدر محذوف أى لايمسنا فيها لغوب لغوب نحو شعر شاعر كأنه وصف اللغوب بأنه قد لغب أى أعيى وتعب *

وقال صاحب اللوامح: يجوز أن يكون مصدراً كالقبول وإن شئت جعلته صفة لمضمر أى أمر لغوب *

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ أى لايحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكلية وإنما فسر لايقضى بماذكر دون لايموتون لئلا يلغوا فيموتوا ويحتاج إلى تأويله بيستريحوا *

ونصب يموتوا فى جواب النفى باضمار أن والمراد انتفاء المسبب لانتفاء السبب أى مايكون حكم بالموت فكيف يكون الموت. وقرأ عيسى والحسن (فيموتون) بالنون عطفا كما قال أبو عثمان المازنى على (يقضى) كقوله تعالى: (لايؤذن لهم فيعتذرون) أى لايقضى عليهم ولا يموتون ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ المعهود لهم بل كلما خبت زيد إسعارها، والمراد دوام العذاب فلا ينافى تعذيبهم بالزمهرير ونحوه، ونائب فاعل يخفف (عنهم) ومن عذابها فى موضع نصب ويجوز العكس، وجوز أن تكون من زائدة فيتعين رفع مجرورها على أنه النائب عن الفاعل على ماقال أبو البقاء. وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو (ولا يخفف) باسكان الفاء شبه المنفصل بالمتصل كقوله * فاليوم أشرب غير مستحقب * ﴿كَذَلِكَ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦﴾ مبالغ فى الكفر أو الكفران لاجزاء أخف وأدنى منه *

وقرأ أبو عمرو. وأبو حاتم عن نافع (يجزى) بالياء مبنياً للمفعول و(كل) بالرفع على النيابة عن الفاعل وقرىء (نجازى) بنون مضمومة وألف بعد الجيم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ افتعال من الصراخ وهو شدة الصياح والأصل يصترخون فأبدلت التاء طاء ويستعمل كثيراً فى الاستغاثة لأن المستغيث يصيح غالبا، وبه فسره هنا قتادة فقال: يستغيثون فيها، واستغاثتهم بالله عز وجل بدليل مابعده وقيل بعضهم لحيرتهم وليس بذاك،

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ باضمار القول أى ويقولون بالعطف أو يقولون بدونه على أنه تفسير لما قبله أو قائلين على أنه حال من ضميرهم، وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ماعملوه من غير الصالح مع الاعتراف به والاشعار بأن استخراجهم لتلافيه فهو وصف مؤكد ولأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا فكأنهم قالوا: نعمل صالحا غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله فالوصف مقيد *

وذكر أبو البقاء (ان صالحا. وغير الذى) يجوز أن يكونا صفتين لمصدر محذوف أو لمفعول محذوف وأن يكون (صالحا) نعتاً لمصدر و(غير الذى) مفعول (نعمل) وأيا ما كان فالمراد أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا نعمل

www.Quranpdf.blogspot.in

صالحا وكأنهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد وامتثال أمر الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد له، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: (نعمل صالحا) نقل لا إله إلا الله ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم في الآخرة حين يقولون (ربنا) الخ فهو بتقدير فنقول لهم أو فيقال لهم «أو لم نعمركم» الخ، وفي بعض الآثار أنهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا، والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما موصولة أو موصوفة أي ألم نمهلكم ونعمركم الذي أي العمر الذي أو عمرا يتذكر فيه من تذكر أي يتمكن فيه من أراد التذكر وتحققت منه تلك الارادة من التذكر والتفكر.

وقال أبو حيان: ما مصدرية ظرفية أي ألم نعمركم في مدة تذكر، وتعقب بأن ضمير (فيه) يأباه لأنها لا يعود عليها ضمير الا على نظر الاخفش فانه يرى اسميتها وهو ضعيف، ولعله يجعل الضمير للعمر المفهوم من (نعمر) وفيه بعد.

وجعل ما نافية لا يصح كما قال ابن الحاجب لفظا ومعنى، وهذا العمر على ما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه وأخرجه جماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس ستون سنة، وقد أخرج الامام أحمد. والبخاري. والنسائي. وغيرهم عن سهل بن سعد قال: «قال رسول الله ﷺ اعذر الله تعالى إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة» - وقيل: هو خمسون سنة» وفي رواية عن ابن عباس أنه ست وأربعون سنة، وأخرج عبد بن حميد. وابن أبي حاتم عن الحسن أنه أربعون سنة، وفي رواية أخرى عنه أنه سن البلوغ، وقيل: سبع عشرة سنة، وعن قتادة ثمان عشرة سنة، وعن عمر بن عبد العزيز عشرون سنة، وعن مجاهد ما بين العشرين إلى الستين، وقرأ الاعمش (ما يذكر فيه من اذكر) بالادغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظا بها في الدرج ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ عطف على معنى الجملة الاستفهامية فكأنه قيل: عمرناكم وجاءكم النذير فليس من عطف الخبر على الانشاء كما في قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك) وجوز أن يكون عطفا على (نعمركم) ودخول الهمزة عليهما فلا تغفل.

والمراد بالنذير على ما روي عن السدي. وابن زيد رسول الله ﷺ، وقيل: ما معه من القرآن، وقال أبو حيان: المراد جنس النذير وهم الانبياء عليهم السلام فكل نبي نذير أمته، ويؤيده أنه قرئ (النذر) جمعا، وعن ابن عباس. وعكرمة. وسفيان بن عيينة. ووكيع. والحسين بن الفضل. والفراء. والطبري هو الشيب، وفي الاثر ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدي فقد قرب الموت، ومن هنا قيل:

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير
وقائلة تخضب ياحبيبي ... وسود شعر شيبك بالعبير
فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسودا وجه النذير

وقيل: الحمى، وقيل: موت الاهل والاقارب، وقيل: كمال العقل، والاقتصار على النذير لأنه الذي يقتضيه المقام، والفاء في قوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا ﴾ لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير، وفي قوله سبحانه ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ٣٧ ﴾ للتعليل، والمراد بالظلم هنا الكفر، قيل كان الظاهر فما لكم لكن عدل إلى المظهر لتقريعهم، والمراد استمرار نفي أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي كل غيب فيهما أي لا يخفى عليه سبحانه خافية فيهما فلا تخفى عليه جل شأنه أحوالهم التي اقتضت الحكمة

www.Quranpdf.blogspot.in

أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار، وقرأ جناح بن حبيش (عالم) بالتنوين (غيب) بالنصب على المفعولية لعالم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٣٨ ﴾ قيل إنه تعليل لما قبله لأنه تعالى إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى ما يكون كان عز وجل أعلم بغيرها، وفيه نوع خفاء، وقال الامام: إن قوله تعالى (إن الله) الخ تقرير لدوامهم فى العذاب مع انهم ما كفروا الا أياما معدودة فكأن سائلا يسأل عن وجه ذلك فقيل: إن الله تعالى لا يخفى عليه غيب السموات والأرض فلا يخفى عليه ما فى الصدور فكان يعلم سبحانه من الكافر أن الكفر قد تمكن فى قلبه بحيث لو دام إلى الابد لما أطاع الله تعالى ولا عبده انتهى، وظاهره أن الجملة الأولى تعليل للثانية على عكس ما قيل، ويمكن أن يقال: إن قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) متضمن نفى أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار ومستدع خلودهم فى العذاب فكان مظنة أن يقال: كيف ينفى ذلك على سبيل الاستمرار والعادة فى الشاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه فاجيب بأن الله عالم غيب السموات والأرض على معنى أنه تعالى محيط بالاشياء علما فلو كان لهم نصير فى وقت من الاوقات لعلمه ولما نفى ذلك على سبيل الاستمرار، وكذا مظنة أن يقال: كيف يخلدون فى العذاب وهم قد ظلموا فى أيام معدودة؟ فاجيب بأنه عليم بذات الصدور على معنى أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الابد فكل من الجملتين مستأنف استئنافا بيانيا فتأمل ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ﴾ ملقى اليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فيها او جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الامم وأورثكم ما بايديكم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الامم الذين كذبوا الرسل فهلكوا فلم تتعظوا بحالهم وما حل بهم من الهلاك، والخطاب قيل عام، واستظهره فى البحر، وقيل: لأهل مكة، والخلائف جمع خليفة وقد اطرد جمع فعيلة على فعائل وأما الخلفاء فجمع خليف ككريم وكرماء، وجوز الواحدى كونه جمع خليفة أيضا وهو خلاف المشهور ﴿ فَمَنْ كَفَرَ ﴾ منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها او فمن استمر على الكفر وترك الايمان بعد أن لطف به وجعل له ما ينبهه على ما يترتب على ذلك ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى وبال كفره وجزاؤه لا على غيره *

﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أشد الاحتقار والبغض والغضب *

﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ٣٩ ﴾ فى الآخرة، وجملة (ولا يزيد) الخ بيان وتفسير لقوله سبحانه (فعليه كفره) ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له ولو لا ذلك لفصل عنه، والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد واحد من الامرين الامرين المقت والخسارة مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه بمعنى أنه لو لم يكن الكفر مستوجبا لشىء سوى مقت الله تعالى لكفى ذلك فى قبحه وكذا لو لم يستوجب شيئا سوى الخسار لكفى ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتا لهم ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى آلهتكم، والاضافة اليهم لأدنى ملابسة حيث أنهم هم الذين جعلوهم شركاء الله تعالى واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما اصلا، وقيل: الاضافة حقيقية من حيث أنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه اوجعلهم الله تعالى شركاء لهم فى النار كما قال سبحانه (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) والصفة عليهما مقيدة لا مؤكدة، وسياق النظم الكريم وسباقه ظاهر ان فيما تقدم ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ بدل اشتمال من (ارأيتم) لأنه بمعنى

www.Quranpdf.blogspot.in

اخبرونى كأنه قيل : اخبرونى عن شركائكم أرونى أى جزء خلقوا من الارض حتى يستحقوا الالهية والشركة ﴿
وجوز أن يكون بدل كل ، وقال أبو حيان: لاتجوز البدلية لأنه إذا ابدل مما دخل عليه الاستفهام فلابد من دخول الاداة على البدل، وأيضا ابدال الجملة من الجملة لم يعهد فى لسانهم ثم البدل على نية تكرار العامل ولا يتأتى ذلك ههنا لأنه لاعامل لأرأيتم ثم قال: والذى أذهب اليه أن (أرأيتم) بمعنى اخبرونى وهى تطلب مفعولين أحدهما منصوب والآخر مشتمل على الاستفهام كقول العرب أرأيت زيدا ماصنع فالاول هنا (شركاؤكم) والثانى (ماذا خلقوا) و(أرونى) جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد، ويحتمل أن يكون ذلك أيضا من باب الاعمال لأنه توارد على (ماذا خلقوا) أرأيتم . وأرونى لأن ارونى قد تعلق عن مفعولها الثانى كما علقت رأى التى لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها فى قولهم: اماترى أى برق ههنا ويكون قد اعمل الثانى على المختار عند البصريين انتهى، وماذكره احتمال فى الآية الكريمة كأن ماذكر أولا احتمال وماقاله فى رده ليس بشىء ، أما الاول فلأن لزوم دخول الاداة على البدل فيما إذا كان الاستفهام باق على معناه أما إذا نسخ عنه كما هنا فليس ذلك بلازم، وأما الثانى فلأن أهل العربية والمعانى نصوا على خلافه وقد ورد فى كلام العرب كقوله :

أقول له ارحل لاتقيمن عندنا   والا فكن فى السر والجهر مسلما

وأما الثالث فلأن كون البدل على نية تكرار العامل إنما هو كما نقل الخفاجى عنهم فى بدل المفردات ﴿
وليس لك أن تقول العامل هنا موجود وهو (قل) لأن العبرة بالمقول ولا عامل فيه إذ قال وهو ظاهر، وجوز أن لايكون (أرأيتم) بمعنى أخبرونى بل المراد حقيقة الاستفهام عن الرؤية وأرونى أمر تعجيز للتبيين أى أعلمتم هذه التى تدعونها ماهى وعلى ماهى عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها أو كنتم توهمتم فيها قدرة فأرونى أثرها، وما تقدم أظهر ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أى بل ألهم شركة مع الله عز وجل فى خلق السموات حتى يستحقوا مازعمتم فيهم، وقال بعضهم: الأولى أن لا يقدر مضاف على أن المعنى أم لهم شركة معه سبحانه فى السموات خلقا وإبقاء وتصرفا لأن المقصود نفى آيات الالهية عن الشركاء وليست محصورة فى الخلق والتقدير أوفق بما قبله ، والكلام قيل من باب التدرج من الاستقلال إلى الشركة ثم منها إلى حجة وبينة مكتوبة بالشركة كأنه قيل : أخبرونى عن الذين تدعون من دون الله هل استبدوا بخلق شىء من الأرض حتى يكونوا معبودين مثل الله تعالى بل ألهم شركة معه سبحانه فى خلق السموات ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾ أى بل آتيناهم كتابا ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا ﴿

وقال فى الكشف : الظاهر أن الكلام مبنى على الترقى فى إثبات الشركة لأن الاستبداد بخلق جزء من الأرض شركة ما معه عز وجل والاشتراك معه سبحانه فى خلق السموات أدل على إثباتها ثم إيتاء كتاب منه تعالى على أنهم شركاؤه أدل وأدل، وقيل: هم فى (آتيناهم) للمشركين وكذا فى فهم كما فى قوله تعالى: (أم أنزلنا عليهم سلطانا) الخ ففى الكلام التفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة إعراضا عن المشركين وتنزيلا لهم منزلة الغيب ﴿
والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لايخلق جزأ ما من الأرض دلالة شرك فى السماء وإما بالنقل ولم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء، وفيه تفكيك للضمائر، وقال بعضهم: ضمير

www.Quranpdf.blogspot.in

(آتيناهم) للشركاء كالضمائر السابقة وضمير (فهم على بينة) للمشركين و «أم» منقطعة للاضراب عن الكلام السابق وزعم أن لا التفات حينئذ ولا تفكيك فتأمل *

وقرأ نافع . وابن عامر . ويعقوب . وأبو بكر (على بينات) بالجمع فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل وهو ضرب من التهكم ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ٤٠ ﴾ لما نفى سبحانه مانفى من الحجج فى ذلك أضرب عز وجل عنه بذكر ماحملهم على الشرك وهو تقرير الأسلاف للاخلاف وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله تعالى يشفعون لهم بالتقرب اليهم، والآية عند الكثير فى عبدة الأصنام وحكمها عام؛ وقيل: فى عبدة غير الله عز وجل صنما كان أو ملكا أو غيرهما *

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أى إن الله تعالى يحفظ السموات والأرض كراهة زوالها أولئلا تزولا وتضمحلا فان الممكن كما يحتاج إلى الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج اليه حال بقائه ، وقال الزجاج :(يمسك) بمعنى يمنع و «أن تزولا» مفعوله على الحذف والايصال لأنه يتعدى بمن أى يمنعهما من أن تزولا ، وفى البحر يجوز أن يكون أن تزولا بدل اشتمال من السموات والأرض أى يمنع سبحانه زوال السموات والأرض ، وفسر بعضهم الزوال بالانتقال عن المكان أى أن الله تعالى يمنع السموات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الارض أيضا من أن تنتقل كذلك ، وفى أثر اخرجه عبد ابن حميد. وجماعة عن ابن عباس مايقتضيه ، وقيل : زوالها دورانهما فهما ساكنتان والدائرة بالنجوم أفلاكها وهى غير السموات، فقد أخرج سعيد بن منصور . وابن جرير . وابن المنذر . وعبد بن حميد عن شقيق قال:قيل لابن مسعود إن كعبا يقول: إن السماء تدور فى قطبة مثل قطبة الرحى فى عمود على منكب ملك فقال: كذب كعب إن الله تعالى يقول (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) وكفى بها زوالا أن تدور، والمنصور عند السلف أن السموات لا تدور وانها غير الافلاك، وكثير من الاسلاميين ذهبوا إلى أنها تدور وأنها ليست غير الافلاك، وأما الارض فلا خلاف بين المسلمين فى سكونها والفلاسفة مختلفون والمعظم على السكون، ومنهم من ذهب إلى أنها متحركة وأن الطلوع والغروب بحركتها ورد ذلك فى موضعه، والأولى فى تفسير الآية ماسمعت أولا وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا، وقيل إنه تعالى لما بين فساد أمر الشركاء ووقف على الحجة فى بطلانها عقب بذلك عظمته عز وجل وقدرته سبحانه ليتبين الشيء بضده وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله عز وجل ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا ﴾ أى ان أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيده قراءة ابن أبى عبلة (ولو زالتا) وقيل إن ذلك إشارة إلى مايقع يوم القيامة من طى السموات ونسف الجبال *

﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴾ أى ما أمسكهما ﴿ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة فى « لئن » وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وأمسك بمعنى يمسك كما فى قوله تعالى (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) ومن الأول مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ٤١ ﴾ فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السموات والأرض وتخريب العالم الذى هم فيه فلا يتوهم أن

www.Quranpdf.blogspot.in

المقام يقتضى ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى حلفوا واجتهدوا فى الحلف أن يأتوا به على أبلغ مافى وسعهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ الضمائر لقريش، وذلك أنهم بلغهم قبل مبعث النبي ﷺ أن طائفة من أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فكان منهم بعد ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية (وأن جاءهم) جاء على المعنى والا فهم قالوا : (جاءنا) وكذا (ليكونن) وإحدى بمعنى واحدة ، والظاهر أنها عامة وإن كانت نكرة فى الاثبات لاقتضاء المقام العموم، وتعريف (الأمم) للعهد والمراد الأمم الذين كذبوا رسلهم (أى لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من كل واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم فنؤمن جميعا ولا يكذب أحد منا أو المعنى لنكونن أهدى من أمة يقال فيها إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها من الأمم كما يقال هو واحد القوم وواحد عصره وكما قالوا هو أحد الأحدين وهى إحدى الأحد يريدون التفضيل فى الدهاء والعقل، قال الشاعر :

حتى استشاروا بى إحدى الأحد ليثا هزبرا ذا سلاح معتد

وقد نص ابن مالك فى التسهيل على أنه قد يقال لما يستعظم مما لا نظير له هو إحدى الأحد لكن قال الدماميني فى شرحه : إنما ثبت استعماله فى احدى ونحوه المضاف الى جمع مأخوذ من لفظه كاحدى الأحد وأحد الأحدين أو المضاف الى وصف كاحد العلماء وإحدى الكبر أما فى المضاف الى أسماء الأجناس كالامم فيحتاج الى نقل ، وبحث فيه بأنه قد ثبت استعمال إحدى فى الاستعظام من دون إضافة أصلا فانهم يقولون للداهية العظيمة هى إحدى من سبع أى احدى ليالى عاد فى الشدة وشاع واحد قومه وأوحدهم وأوحد أمه ولم يظهر فارق بين المضاف الى الجمع المأخوذ من اللفظ والمضاف الى الوصف وبين المضاف الى أسماء الاجناس ولا أظن أن مثل ذلك يحتاج الى نقل فليتدبر *

وقال صاحب الكشف : ان دلالة (احدى الامم) على التفضيل ليست بواضحة بخلاف واحد القوم ونحوه ثم وجهها أنه على أسلوب * أو يرتبط بعض النفوس حمامها * يعنى أن البعض المبهم قد يقصد به التعظيم كالتنكير فاحدى مثله ، وفيه أنه متى ثبت استعماله للاستعظام كانت دلالته على التفضيل فى غاية الوضوح *

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأى نذير وهو أشرف الرسل محمد ﷺ كما روى عن ابن عباس . وقتادة وهو الظاهر ، وعن مقاتل هو انشقاق القمر وهو أخفى من السها والمقام عنه يأبى ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ أى النذير أو مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ تباعدا عن الحق وهربا منه، واسناد الزيادة إلى ذلك مجاز لأنه هو السبب لها. والجملة جواب لما *

واستدل بالآية على حرفيتها لمكان النفى المانع عن عمل ما بعده فيها، وفيه بحث، وقوله تعالى ﴿اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ﴾ بدل من (نفورا) وقال أبو حيان: الظاهر أنه مفعول من أجله ، ونقل الأول عن الاخفش ، وقيل : هو حال أى مستكبرين ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ هو الخداع الذى يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له ، وقال قتادة هو الشرك وروى ذلك عن ابن جريج ، وهو عطف على (استكبارا) وأصل التركيب وأن مكروا السيء على أن (السيء) صفة لموصوف مقدر أى المكر السيء ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضيف إلى ما كان صفة ، وجوز أن يكون

www.Quranpdf.blogspot.in

عطفا على (نفورا) وقرأ الاعمش وحمزة (السيء) باسكان الهمزة فى الوصل اجراء له مجرى الوقف أو لتوالى الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل، وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن لما فيها من حذف الاعراب كما قال ابو جعفر *

وزعم محمد بن يزيد أن الحذف لا يجوز فى نثر ولا شعر لأن حركات الاعراب دخلت للفرق بين المعانى، وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الاعمش قرأ بها، وقال: إنما كان يقف على هذه الكلمة فغلط من أدى عنه، والدليل على هذا أنها تمام الكلام ولذا لم يقرأ فى نظيرها كذلك مع أن الحركة فيه أثقل لأنها ضمة بين كسرتين، والحق أنها ليست بلحن، وقد أكثر أبو على فى الحجة من الاستشهاد والاحتجاج للاسكان من أجل توالى الحركات والوصل بنية الوقف، وقال ابن القشيرى: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قرىء به فلا بد من جوازه ولا يجوز أن يقال لحن، ولعمرى أن الاسكان ههنا أحسن من الاسكان فى (بارئكم) كما فى قراءة أبى عمرو، وروى عن ابن كثير (ومكر السأى) بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة وهو مقلوب السيء المخفف من السيء كما قال الشاعر:

ولا يجزون من حسن بسيء ولا يجزون من غلظ بلين

وقرأ ابن مسعود (مكرا سيئا) عطف نكرة على نكرة ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ ﴾ أى لا يحيط ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ *

وقال الراغب: أى لا يصيب ولا ينزل، وايا ما كان فهو إنما ورد فيما يكره، وزعم بعضهم أن أصل حاق حق فجيء بدل احد المثلين بالالف نحو ذم وذام وزل وزال، وهذا من ارسال المثل ومن أمثال العرب من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا، وعن كعب أنه قال لابن عباس: قرأت فى التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك فى كتاب الله تعالى فقرأ الآية، وفى الخبر «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله تعالى يقول ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا فان الله سبحانه يقول إنما بغيكم على أنفسكم» وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر *

والآية عامة على الصحيح والامور بعواقبها والله تعالى يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، وبالجملة من مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك، أسأل الله تعالى بحرمة حبيبه الاعظم ﷺ أن يدفع ويرفع عنا مكر الماكرين وأن يعاملهم فى الدارين بعدله إنه سبحانه القوى المتين. وقرىء (ولا يحيق) بضم الياء (المكر السيء) بالنصب على أن يحيق من أحاق المتعدى وفاعله ضمير راجع اليه تعالى و(المكر) مفعوله ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون، وهو مجاز بجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظر ويتوقع ﴿ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى الا سنة الله تعالى فيهم بتعذيب مكذبيهم *

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ بأن يضع سبحانه موضع العذاب ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣ ﴾ بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم، والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه، ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى، وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما، والخطاب عام أو خاص به عليه الصلاة والسلام *

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استشهاد على ما قبله من جريان سنة الله تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم ومتاجرهم فى رحلتهم إلى الشام واليمن والعراق

www.Quranpdf.blogspot.in

من آثار الامم الماضية وعلامات هلاكهم، والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام على رأى أى أقعدوا ولم يسيروا، وقوله تعالى ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فى موضع الحال بتقدير قد أوبدونها *

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ ﴾ أى ليس من شأنه عز شأنه أن يسبقه و يفوته ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شىء. ومن لاستغراق الاشياء ﴿ فِى السَّمَوٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ هو نظير (لايغادر صغيرة ولا كبيرة) والواو حالية أو عاطفة .
وفى الارشاد الجملة اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السالفة، وظاهره أن الواو اعتراضية *

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ٤٤ ﴾ مبالغا فى العلم والقدرة، والجملة تعليل لنفى الاعجاز ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ ﴾ جميعا ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ فعلوا من السيآت كما واخذ أولئك ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴾ أى ظهر الارض وقد سبق ذكرها فى قوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض) فليس من الاضمار قبل الذكر كما زعمه الرضى، وظهر الارض مجاز عن ظاهرها كما قال الراغب . وغيره ، وقيل : فى الكلام استعارة مكنية تخييلية والمراد ماترك عليها ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى من حيوان يدب على الأرض لشؤم المعاصى ، وقد قال سبحانه (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهو المروى عن ابن مسعود ، وقيل : المراد بالدابة الانس وحدهم وأيد بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة فان الضمير للناس لأنه ضمير العقلاء و يوم القيامة الاجل المضروب لبقاء نوعهم ، وقيل : هو لجميع من ذكر تغليبا و يوم القيامة الاجل المضروب لبقاء جنس المخلوقات ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ٤٥ ﴾ فيجازى المكلفين منهم عند ذلك باعمالهم إن شرا فشر وإن خيرا فخير ، وجملة «فان الله» الخ موضوعة موضع الجزاء والجزاء فى الحقيقة يجازى كما أشرنا اليه، هذا والله تعالى هو الموفق للخير ولا اعتماد الا عليه *

﴿ ومن باب الاشارة ﴾ (الحمد لله فاطر السموات والارض) اشارة إلى إيجاد عالمى اللطافة والكثافة وإلى أن ايجاد عالم اللطافة مقدم على إيجاد عالم الكثافة، و يشير إلى ذلك ماشاع خلق الله تعالى الارواح قبل الابدان باربعة آلاف سنة (جاعل الملائكة رسلا) فى ايصال اوامره إلى من يشاء من عباده أو وسائط تجرى ارادته سبحانه فى مخلوقاته على ايديهم (أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) اشارة إلى اختلافهم فى الاستعداد (يزيد فى الخلق مايشاء) عام فى الملك وغيره ، وفسرت الزيادة بهبة استعداد رؤيته عز وجل للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (مايفتح الله للناس من رحمة) الزيادة المشار اليها وغيرها (فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) فيه اشارة إلى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه عز وجل (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) تسلية لحبيبه ﷺ وارشاد لورثته إلى الصبر على إيذاء اعدائهم لهم وتكذيبهم اياهم وإنكارهم عليهم (والله الذى ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فاحيينا به الأرض بعد موتها) جرت سنته تعالى فى احياء الأرض بهذه الكيفية كذلك إذا أراد سبحانه احياء أرض القلب فيرسل أولا رياح الارادة فتسير سحاب المحبة ثم يأتى مطر الجود والعناية فينبت فى القلب رياحين الروح وازهار البسط ونوار الانوار ويطيب العيش .
(من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) اشارة إلى أن العزة الحقيقية لا تحصل بدون الفناء ، ولا تغفل عن حديث « لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل » الخ (والله خلقكم من تراب) وهو ابعد المخلوقات من الحضرة وأسفلها

www.Quranpdf.blogspot.in

وأكثفها (ثم من نطفة) وفيها نوع ما من اللطافة (ثم جعلكم أزواجا) اشارة إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلوى والقالب الكثيف السفلى وهو مبدأ استعداد الوقوف على عوالم الغيب والشهادة (وما يستوى البحران) قيل أى بحر العلم الوهبي وبحر العلم الكسبي (هذا) أى بحر العلم الوهبي (عذب فرات سائغ شرابه) لخلوه عن عوارض الشكوك والاوهام (وهذا) أى بحر العلم الكسبي (ملح أجاج) لما فيه من مشقة الفكر ومرارة الكسب وعروض الشكوك والتردد والاضطراب (ومن كل تأكلون لحما طريا) اشارات لطيفة تتغذون بها وتتقوون على الاعمال (وتستخرجون حلية تلبسونها) وهى الاخلاق الفاضلة والآداب الجميلة والاحوال المستحسنة التى تكسب صاحبها زينة (وترى الفلك)سفن الشريعة والطريقة (فيه مواخر) جارية (لتبتغوا من فضله) بالوصول إلى حضرته عز وجل فعل ذلك (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) فى سائر شؤنكم ، ومراتب الفقر متفاوتة وكلما ازداد الانسان قربا منه عز وجل ازداد فقره اليه لازدياد المحبة حينئذ وكلما زاد العشق زاد فقر العاشق إلى المعشوق حتى يفنى (والله هو الغنى الحميد) فيه من البشارة ما فيه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى العلماء به تعالى وبشؤنه فهم كلما ازدادوا علما ازدادوا خشية لما يظهر لهم من عظمته عز وجل وأنهم بالنسبة اليه تعالى شأنه لاشىء (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قيل : الظالم لنفسه السالك والمقتصد السالك المجذوب والسابق المجذوب السالك ، والسالك هو المتقرب والمجذوب هو المقرب والمجذوب السالك هو المستهلك فى كمالات القرب الفانى عن نفسه الباقى بربه عز وجل (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) حزن تخيل الهجر فلا حزن للعاشق أعظم من حزن تخيل هجر معشوقه له وجفوته اياه (إن ربنا لغفور شكور) فلا بدع إذا أذهب عنا ذلك وآمننا من القطيعة والهجران (الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب) هو نصب الابدان وتعبها من اعمال الطاعة للتقرب اليه سبحانه (ولا يمسنا فيها لغوب) هو لغوب القلوب واضطرابها من تخيل القطيعة والرد وهجر الحبيب ، وقيل : لا يمسنا فيها نصب السعى فى تحصيل أى أمر اردناه ولا يمسنا فيها لغوب تخيل ذهاب أى مطلوب حصلناه ، وقد اشاروا إلى أن كل ذلك من فضل الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم ، هذا ونسأل الله تعالى من فضله الحلو ما تنشق منه مرارة الحسود وينفطر به قلب كل عدو وينتعش فؤاد كل محب ودود ☆

سورة فاطر

مكية في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ
يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ .

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ يجوز في ﴿فاطر﴾ ثلاثة أوجه: الخفض على النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح. وحكى سيبويه: الحمد لله أهل الحمد [مثله][1] وكذا ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾ والفاطر: الخالق. وقد مضى في ﴿يوسف﴾[2] وغيرها. والفَطْر. الشق عن الشيء؛ يقال: فطرته فانفطر. ومنه: فَطَر نابُ البعير طلع، فهو بعير فاطر. وتفطّر الشيء تشقق. وسيف فُطار، أي فيه تشقق. قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي سلاحي لا أَفَلّ ولا فُطَارا[3]

والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها. والفَطْر. حلب الناقة بالسبابة والإبهام. والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة. ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾ لا يجوز فيه التنوين، لأنه لما مضى. ﴿رُسُلاً﴾ مفعول ثان، ويقال على إضمار فعل؛ لأن ﴿فاعلا﴾ إذا كان لما مضى لم يعمل فيه شيئاً، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك ﴿الحمد لله فطر السمواتِ والأرض﴾ على الفعل الماضي. ﴿جاعِلِ الملائِكةِ رسلا﴾ الرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: ﴿جَاعِلُ الملائكة﴾ بالرفع. وقرأ خُليد بن نشيط ﴿جعل الملائكة﴾ وكله ظاهر. ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ نعت، أي أصحاب أجنحة. ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[4] أي اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة؛ ينزلون بهما من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرة كذا في وقت واحد، أي جعلهم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السدّي: إلى العباد برحمة أو نقمة. وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ رأى جبريل عليه

---

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيها السياق. (٢) راجع ٩/٢٧٩، ٦/٣٩٧.

(٣) عقيقة البرق: شعاعه. والكمع (بكسر فسكون) والكميع: الضجيع.

(٤) في كتاب البحر: «وقيل أولى أجنحة» معترض، و «مثنى» حال، والعامل فعل محذوف يدل عليه «رسلا»؛ أي يرسلون مثنى وثلاث ورباع».

السلام له ستمائة جناح. وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله وإنه في الأحايين ليتضائل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصع ـ والوصع عصفور صغير ـ حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته». و ﴿أُولُو﴾ اسم جمع لذو، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا، ونظيرهما في المتمكنة: المخاض[1] والخَلِفة. وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنَى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ في ﴿النساء﴾[2] وأنه غير منصرف. ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي في خلق الملائكة، في قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدويّ. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي في أجنحة الملائكة ما يشاء. وقال الزهري وابن جريج: يعني حسن الصوت. وقد مضى القول فيه في مقدّمة الكتاب[3]. وقال الهيثم الفارسي: رأيت النبيّ ﷺ في منامي، فقال: «أنت الهيثم الذي تُزَيِّنُ القرآن بصوتك جزاكِ الله خيراً». وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ الملاحة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم. وقيل: الخط الحسن. وقال مهاجر الكَلاعِي قال النبيّ ﷺ: «الخط الحسن يزيد الكلام وضوحاً». وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن؛ ذكره القُشَيري. النقاش: هو الشعر الجَعْد[4]. وقيل: العقل والتمييز. وقيل: العلوم والصنائع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة. الزمخشري: والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأتٍّ[5] في مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف.

---

(١) المخاض: الحوامل من النوق، واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها؛ كما قالوا لواحدة النساء: امرأة، ولواحدة الإبل: ناقة أو بعير.

(٢) راجع ٥/ ١٥ فما بعد.

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى).

(٤) ما فيه التواء وتقبض. أو القصير منه.

(٥) تأتّى فلان لحاجته: إذا ترفق لها وأتاها من وجهها.

[٢] ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن ﴿فلا ممسك له﴾ على لفظ ﴿ما﴾ و ﴿لها﴾ على المعنى. وأجازوا ﴿وَما يُمْسِك فلا مُرْسِلَ لها﴾. وأجازوا ﴿ما يفتحُ الله للناس من رحمة﴾ (بالرفع) تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي. أي إن الرسل بُعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله. وقيل: ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله. وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيق وهداية.

قلت: ولفظ الرحمة يجمع ذلك؛ إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام، فهي متناولة لكل رحمة على البدل، فهو عام في جميع ما ذكر. وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يتلو هذه الآية ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم[١].

[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذكر الشكرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يجوز في ﴿غير﴾[٢] الرفع والنصب والخفض، فالرفع من وجهين: **أحدهما** ـ بمعنى هل من خالق إلا الله؛ بمعنى ما خالق إلا الله. **والوجه الثاني** ـ أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأن المعنى: هل خالق غير الله، و ﴿من﴾ زائدة. والنصب على الاستثناء.

---

(١) راجع ٢/١٣١.
(٢) في ش، وك. «يجوز في القرآن الرفع...» الخ وفي ح: «في غير القرآن.

والخفض على اللفظ. قال حُميد الطويل: قلت للحسن: من خلق الشر؟ فقال سبحان الله! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرِ اللَّهِ﴾ بالخفض. الباقون بالرفع. ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي المطر. ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي النبات. ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ من الأَفْك (بالفتح) وهو الصرف؛ يقال: ما أفكَك عن كذا، أي ما صرفك عنه. وقيل: من الإفك (بالكسر) وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدم؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب، أي من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله. والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقاً غير الله وهم يثبتون معه خالقين، على ما تقدم في غير موضع.

[٤] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفار قريش. ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيّه ويسلّيه ﷺ؛ وليتأسّى بمن قبله في الصبر. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن مُحَيْصِن وحميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائيّ وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل. واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[1] الباقون ﴿تُرْجَع﴾ على الفعل المجهول.

[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله: إن البعث والثواب والعقاب حق. ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جُبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة،

(١) راجع ١٦/ ٥٤ فما بعد.

حتى يقول: يا ليتني قدّمت لحياتي. ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم: ﴿الغَرور﴾ الشيطان. وغرور جمع غَرّ، وغَرٌّ مصدر. ويكون ﴿الغَرور﴾ مصدراً وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن «غررته» متعدّ، والمصدر المتعدّي إنما هو على فَعْل؛ نحو: ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا: لزمْته لُزوماً، ونَهكه المرض نُهوكاً. فأما معنى الحرفِ فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير، قال: الغرور بالله أن يكونَ الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنّى على الله المغفرة. وقراءة العامة ﴿الغَرور﴾ (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أي لا يغرّنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم. وقرأ أبو حَيْوة وأبو السَّمّال العدويّ ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿الغُرور﴾ (برفع الغين) وهو الباطل؛ أي لا يغرّنكم الباطل. وقال ابن السكيت: والغُرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا. قال الزجاج: ويجوز أن يكون الغرور جمع غارّ؛ مثل قاعد وقعود. النحاس: أو جمع غَرّ، أو يُشبّه بقولهم: نهكه المرض نهوكاً ولزمه لزوماً. الزمخشريّ: أو مصدر «غره» كاللزوم والنهوك.

[٦] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي فعادوه ولا تطيعوه. ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾(١) الآية. وقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾(٢) الآية. فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم ﷺ، وكيف أنتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل بن عِياض يقول: يا كذاب

(١) راجع ٥/ ٣٨٨ فما بعد.

(٢) راجع ٧/ ١٧٤.

يا مُفْتَرٍ، اتق الله ولا تَسُبَّ الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر. وقال ابن السماك: يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في ﴿البقرة﴾(١) مجوَّداً. و ﴿عدوّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى معادٍ، فيثنّى ويجمع ويؤنث. ويكون بمعنى النسب فيكون موحداً بكل حال؛ كما قال جل وعز: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾(٢). وفي المؤنث على هذا أيضاً عدّو. النحاس: فأما قول بعض النحويين إن الواو خفية فجاءوا بالهاء فخطأ، بل الواو حرف جلد. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ كفّت ﴿ما﴾ ﴿إنّ﴾ عن العمل فوقع بعدها الفعل. ﴿حِزْبَهُ﴾ أي أشياعه. ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فهذه عداوته. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً ﴿مِنْ أَصْحَابِ﴾ فيكون في موضع خفض، أو يكون بدلاً من ﴿حِزْبَهِ﴾ فيكون في موضع نصب، أو يكون بدلاً من الواو فيكون في موضع رفع. وقول رابع وهو أحسنها ـ يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون خبره ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تَمّ في قوله: ﴿مِنْ أصحَابِ السَّعِيرِ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضاً. وخبره ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

[٨] ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والذي يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فالمعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: وهذا كلام

---

(١) راجع ٢/٢٠٩.
(٢) راجع ١٣/١٠٨ فما بعد.

عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليل. وذكره الزمخشريّ عن الزجاج. قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية، لما ذكره من الدلالة على المحذوف، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، كما قال جل وعز: ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾(١) قال أهل التفسير: قاتِل. قال نصر بن عليّ: سألت الأصمعيّ عن قول النبيّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبخع طاعةً» ما معنى أبخع؟ فقال: أنصح. فقلت له: إن أهل التفسير مجاهداً وغيرَه يقولون في قول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾: معناه قاتِل نفسك. فقال: هو من ذاك بعينه، كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حَسَناً، فلا تَذْهَب نفسُك عليهم حسرات، فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء. وقيل: الجواب محذوف؛ المعنى أفمن زين له سوءُ عمله كمن هدى، ويكون يدل على هذا المحذوف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وقرأ يزيد بن القَعْقاع: ﴿فَلاَ تُذْهِبْ نَفْسَكَ﴾ وفي ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أربعة أقوال، أحدها ـ أنهم اليهود والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة. ويكون ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ معاندة الرسول عليه والصلاة والسلام. الثاني ـ أنهم الخوارج؛ رواه عمر بن القاسم. فيكون ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ تحريف التأويل. الثالث ـ الشيطان؛ قاله الحسن. ويكون ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ الإغواء. الرابع ـ كفار قريش؛ قاله الكلبي. ويكون ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ الشِّرك وقال: إنها نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِي والأسود بن المطلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بن هشام. ﴿فَرَآهُ حَسَناً﴾ أي صواباً؛ قاله الكلبيّ. وقيل: جميلاً.

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(٣)، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾(١)، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٤)،

(١) راجع ١٠/ ٣٥٣.
(٢) راجع ٣/ ٣٣٧.
(٣) راجع ٤/ ٢٨٤.
(٤) راجع ١٣/ ٨٧ فما بعد.

وقوله في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾. وهذا ظاهر بيّن، أي لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم، فإن الله أضلهم. وهذه الآية تردّ على القدرية قولهم على ما تقدم؛ أي أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تريد أن تهديه، وإنما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ. وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصن: ﴿فَلَا تُذهِب﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿نفسَك﴾ نصباً على المفعول، والمعنيان متقاربان. ﴿حَسَرَاتٍ﴾ منصوب مفعول من أجله؛ أي فلا تذهب نفسك للحسرات. و ﴿عَلَيْهِم﴾ صلة ﴿تذهب﴾، كما تقول: هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزناً. وهو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر؛ كما قال جرير:

مَشَق الهواجِرُ لَحْمَهُنَّ مع السُّرى حتى ذَهَبْنَ كَلاكِلاً وصُدُورَا

يريد: رجعن كَلَاكِلاً وصدوراً؛ أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها. ومنه قول الآخر:

فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام

أو مصدراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

[٩] ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ مَيّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتَة ومَيْتة؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قول البصريين، ولم يستثن أحداً، واستدلّ على ذلك بدلائل قاطعة. وأنشد:

ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ إنما المْيت ميّت الأحياء
إنما المَيْت من يعيش كئيباً كاسِفاً بالُه قليل الرجاء

قال: فهل ترى بين مَيّت ومَيْت فرقا، وأنشد:

هَيْنون لَيْنون أيسارٌ بنو يَسَر سُوَاس مَكْرُمة أبناء أَيْسار

قال: فقد أجمعوا على أن هَيْنون وَلَيْنون واحد، وكذا مَيّت ومَيْت، وسَيِّد وسَيْد. قال: ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وهو من باب تلوين الخطاب. وقال أبو عبيدة: سبيله ﴿فَتَسُوقُه﴾، لأنه قال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾. الزمخشري: فإن قلت: لم جاء ﴿فتثير﴾ على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحابَ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب، أو تَهُمُّ المخاطب أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شَرًّا:

بأني قد لقيت الغول تهوى بسَهْب كالصحيفة صحصحان[١]

فأضربها بلا دَهش فخرت صريعاً لليدين وللجران[٢]

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: ﴿فسقنا﴾ و ﴿أحيينا﴾ معدولاً بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه. وقراءة العامة ﴿الرياح﴾. وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي ﴿الريح﴾ توحيداً. وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى[٣]. ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي كذلك تُحيون بعدما متم؛ من نشر الإنسان نشوراً. فالكاف في محل الرفع؛ أي مثل إحياء الموت نشر الأموات. وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أمَا مررتَ بوادي أهلِك مُمْحِلاً ثم مررت به يهتزّ خَضِرا» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه» وقد ذكرنا هذا الخبر في ﴿الأعراف﴾[٤] وغيرها.

---

(١) السهب (بالفتح): الفضاء المستوفي البعيد الأطراف. والصحيفة: الكتاب. والصحصحان (بالفتح): المستوي من الأرض. (٢) الجران (بالكسر): مقدّم العنق من مذبح البعير إلى منحره.

(٣) راجع ٢/ ١٩٨. (٤) راجع ٧/ ٢٣٠.

[١٠] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ التقدير عند الفراء: من كان يريد علم العزة. وكذا قال غيره من أهل العلم. أي من كان يريد علم العزة التي لا ذلة معها؛ لأن العزة إذا كانت تؤدّي إلى ذلة فإنما هي تعرض للذلّة، والعزةُ التي لا ذُلّ معها لله عز وجل. ﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال. وقدّر الزجاج معناه: من كان يريد بعبادته اللَّهَ عزّ وجل العزّةَ ـ والعزة له سبحانه ـ فإن الله عز وجل يُعِزه في الآخرة والدنيا.

قلت: وهذا أحسن، وروي مرفوعاً على ما يأتي. ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزتـه، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به ـ سبحانه ـ وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق في سورة يونس: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنّ الْعِزَّةَ(١) لِلَّهِ﴾. ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبّه ذوي الأقدار والهمم مِن أين تنال العزة ومن أين تُستحق؛ فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة. فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقار وذل، وسكون وخضوع، وجدها عنده ـ إن شاء الله ـ غير ممنوعة ولا محجوبة عنه؛ قالﷺ: «من تواضع لِلَّه رفعه الله». ومن طلبها من غيره وَكَله إلى من طلبها عنده. وقد ذكر قوماً طلبوا العزة عند من سواه فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾(٢). فأنبأك صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له يُعِزّ بها من يشاء ويُذِل من يشاء. وقالﷺ مفسّراً لقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ

(١) راجع ٨/٣٥٩.
(٢) راجع ٥/٤١٦ فما بعد.

العِزَّة فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾: «من أراد عز الدارين فليطع العزيز». وهذا معنى قول الزجاج.

ولقد أحسن من قال:

وإذا تذلّلت الرقاب تواضعا منا إليك فعزّها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة ـ ولِلَّه العزة ـ فليقصِد بالعزة الله سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزّه الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وتم الكلام. ثم تبتدىء ﴿وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه. ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون الكلام متصلاً على ما يأتي بيانه. والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضاً. ولا يتصوّر ذلك في الكلام لأنه عَرض، لكن ضرب صعوده مثلاً لقبوله؛ لأن موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل. وقال الزجاج: يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه؛ فهو بمعنى العلم. وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه. وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم. وقيل: أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء. و ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيّبة. وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه. وأنشدوا:

لا ترض من رجل حلاوةَ قوله حتى يُزَيِّن ما يقول فَعالُ
فإذا وزنت فَعاله بمقاله فتوَازَنا فإخاء ذاك جَمَالُ

وقال ابن المُقَفّع: قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحابٍ بلا مطر، وقوسٍ بلا وتر. وفيه قيل:

لا يكون المقال إلا بفعلٍ كلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَبَاءُ
إنّ قولاً بلا فعالٍ جميل ونِكاحاً بلا وَلِيّ سواء

وقرأ الضحاك ﴿يُصعد﴾ بضم الياء[1]. وقرأ جمهور الناس ﴿الكلِم﴾ جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿الكلام﴾.

قلت: فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلِم وبالعكس؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم: أقسام الكلام ثلاثة؛ فوضع الكلام موضع الكلم، والله أعلم. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وفي الحديث «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنيّة، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة». قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ اللَّهَ وقال كلاماً طيّباً وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله، وإذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله. قال ابن عطية: وهذا قول يردّه معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس. والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له متقبَّل منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضاً فإن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأوّل أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه. كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك، إذا تخلل أعمالَه كَلِمٌ طيّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف؛ فيكون قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ موعظة وتذكرة وحَضًّا على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة. قال ابن العربيّ: «إنَّ كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه. وتحقيق هذا: أن العمل إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مرتبطاً، فإنه لا قبول له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه فإن كلمه الطيب يكتب له، وعمله السّيء يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران».

قلت: ما قاله ابن العربيّ تحقيق. والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيّب. وقد جاء في الآثار «أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

---

(١) في «روح المعاني»: «وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء ولم يذكر مبنياً للفاعل ولا مبنياً للمفعول، ولا إعراب ما بعده».

إلى عمله، فإن كان العمل موافقاً لقوله صعداً جميعاً، وإن كان عمله مخالفاً وقف قوله حتى يتوب من عمله». فعلى هذا العملُ الصالح يرفع الكلمَ الطيّب إلى الله. والكناية في ﴿يرفعه﴾ ترجع إلى الكلم الطيب. وهذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك. وعلى أن ﴿الكلِم الطيب﴾ هو التوحيد، فهو الرافع للعمل الصالح؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد. أي والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ فالكناية تعود على العمل الصالح. وروي هذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال: ﴿الكلم الطيب﴾ القرآن ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ القرآن. وقيل: تعود على الله جل وعز؛ أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكَلِم الطيّب؛ لأن العمل تحقيق الكلِم، والعامل أكثر تعباً من القائل، وهذا هو حقيقة الكلام؛ لأن الله هو الرافع الخافض. والثاني والأوّل مجاز، ولكنه سائغ جائز. قال النحاس: القول الأوّل أولاها وأصحها لعلوّ من قال به، وأنه في العربية أولى؛ لأن القرّاء على رفع العمل. ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعه الله، أو العمل الصالح يرفعه[1] الكلم الطيّب، لكان الاختيار نصف العمل. ولا نعلم أحداً قرأه منصوباً إلا شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس ﴿والعملَ الصالحَ يرفعه الله﴾. وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القشيريّ.

الثانية ـ ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة، فقرأ هذه الآية: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم، وقد دخل في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع. وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه السلام؛ «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إن الأسود شيطان» خرجه مسلم[2]. وقد

(١) في «الأصول»: «يرفع». (٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا بلفظه.

جاء ما يعارض هذا، وهو ما خرّجه البخاري عن ابن أخي ابن شهاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء؟ فقال: لا يقطعها شيء، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت: لقد كان رسول الله ﷺ يقوم فيصلي من الليل، وإني لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذكر الطبري في (كتاب آداب النفوس): حدثني يونس بن عبد الأعلى قال حدّثنا سفيان عن لَيْث بن أبي سليم عن شَهْر بن حَوْشَب الأشعري في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قال: هم أصحاب الرياء؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبيّ ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي: يعني الذين يعملون السيئات في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك، فتكون ﴿السّيئات﴾ مفعولة. ويقال: بار يبور إذا هلك وبطل. وبارت السوق أي كسدت، ومنه: نعوذ بالله من بوار الأيِّم[1]. وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾[2] أي هلكى. والمكر: ما عمل على سبيل احتيال وخديعة. وقد مضى في ﴿سبأ﴾[3].

[١١] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال سعيد عن قتادة قال: يعني آدم عليه السلام، والتقدير على هذا: خلق أصلكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال: أي التي أخرجها من ظهور آبائكم. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ قال: أي زوّج بعضكم بعضاً، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضاء مدّتها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ

(١) الأيم: التي لا زوج لها.
(٢) راجع ١٦/٢٦٩ فما بعد.
(٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

الاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أي جعلكم أزواجاً فيتزوّج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن تدبيره. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ سماه معمّراً بما هو صائر إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمَّر مِنْ مُعَمَّر﴾ إلا كتب عمره، كم هو سنة كم هو شهراً كم هو يوماً كم هو ساعة؛ ثم يكتب في كتاب آخر: نقص من عمره يوم، نقص شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجله. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، قال: فما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذي يعمره؛ فالهاء على هذا للمعمر. وعن سعيد أيضاً: يكتب عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره. وعن قتادة: المعمّر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. ومذهب الفرّاء في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّر مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي ما يكون من عمره ﴿وَلاَ يُنْقَص من عمرِهِ﴾ بمعنى معمر آخر، أي ولا ينقص الآخر من عمره إلا في كتاب. فالكناية في ﴿عمره﴾ ترجع إلى آخر غير الأوّل. وكنّى عنه بالهاء كأنه الأوّل، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه، أي نصف آخر. وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو في كتاب. وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه ويُنْسأ له في أثرِه[١] فليصِلْ رحمه» أي أنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة . فبيّن ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ ، إنه سيصل رحمه فمن أطلع على الأوّل دون الثاني ظن أنه زيادة أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[٢] والكناية على هذا ترجع إلى العمر. وقيل: المعنى وما يعمَّر من معمَّر أي هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب ؛ أي بقضاء من الله جل وعز . روي معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل. وروي نحوه عن ابن عباس. فالهاء على هذا يجوز أن تكون للمعمّر، ويجوز أن تكون لغير

(١) ينسأ: يؤخر. والأثر: الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها.
(٢) واجع ٩/٣٢٩.

المعمر. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه. وقراءة العامة ﴿يُنْقَص﴾ بضم الياء وفتح القاف. وقرأت فرقة منهم يعقوب ﴿يَنقُص﴾ بفتح الياء وضم القاف، أي لا ينقص من عمره شيء. يقال، نقص الشيءُ بنفسه ونقصه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدّ ولازم. وقرأ الأعرج والزهري ﴿مِن عُمْره﴾ بتخفيف الميم. وضمها الباقون. وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق. و ﴿يَسِيرٌ﴾ أي إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب. والفعل منه: يَسُر. ولو سميت به إنساناً انصرف؛ لأنه فعيل.

[١٢] ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قال ابن عباس: ﴿فُراتٌ﴾ حلو، و ﴿أُجاجٌ﴾ مرّ. وقرأ طلحة: ﴿هذا مَلِح أجاج﴾ بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف. وأما المالح فهو الذي يجعل فيه الملح. وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق ﴿سيغ شرابه﴾ مثل سيد وميت. ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا﴾ لا اختلاف في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في ﴿النحل﴾ الكلام فيه(١).

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبي إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح، فقيل منهما لأنهما مختلطان. وقال غيره: إنما تستخرج الأصداف التي فيها الحلية من الدرّ وغيره من المواضع التي فيها العذب والملح نحو العيون، فهو مأخوذ منهما؛ لأن في البحر عيوناً عذبة، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج. وقيل:

(١) راجع ١٠/ ٨٥.

من مطر السماء. وقال محمد بن يزيد قولاً رابعاً، قال: إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة. النحاس: وهذا أحسنها وليس هذا عنده، لأنهما مختلطان، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[١]. وكما تقول: لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيراً وشرًّا. وكما تقول: لو رأيت الأصمعي وسيبويه لملأت يدك لغة ونحواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلام فصيح كثير، فكذا: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوّل وانفرد الملح بالثاني.

الثالثة ـ وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾، دليل على أن لباس كل شيء بحسبه؛ فالخاتم يجعل في الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل. وفي «البخاري» و «النسائي» عن ابن سِيرين قال قلت لعبيدة: افتراش الحرير كلبسه؟ قال: نعم. وفي «الصحاح» عن أنس «فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس». الحديث.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس: أي ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال فيهما. وقد مَخَرت السفينة تَمْخُر إذا شقت الماء. وقد مضى هذا في ﴿النحل﴾[٢]. ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال مجاهد: التجارة في الفُلك إلى البلدان البعيدة في مدّة قريبة؛ كما تقدّم في ﴿البقرة﴾[٣]. وقيل: ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فضله. وقيل: على ما أنجاكم من هَوْله.

[١٣] ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدّم في ﴿آل عمران﴾[٤] وغيرها. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ تقدّم في ﴿لقمان﴾[٥] بيانه.

---

(١) راجع ١٣/٣٠٨ فما بعد. (٢) راجع ١٠/٨٩. (٣) راجع ٢/١٩٤ فما بعد.

(٤) راجع ٤/٥٦. (٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي هذا الذي من صنعه ما تقرّر هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر؛ فهو الذي يعبد. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه. والقِطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين. وقال ابن عباس: هو شق النواة؛ وهو اختيار المَبرّد، وقاله قتادة. وعن قتادة أيضاً: القِطمير القِمْع الذي على رأس النواة. الجوهري: ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة، تنبت منها النخلة.

[١٤] ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقاً. وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرؤون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[١]. ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو الله جل وعز؛ أي لا أحد أخبر بخلق اللَّهِ من الله، فلا ينبئك مثله في عمله[٢].

[١٥] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) راجع ٦/ ٣٧٤.

(٢) في ب وح: «علمه».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم. الزمخشرِيّ: «فإن قلت لِم عرّف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرِهم؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾[1]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾[2] ولو نكّر لكان المعنى: أنتم بعض الفقراء. فإن قلت: قد قوبل ﴿الفقراء﴾ بـ ﴿ـالغنيّ﴾ فما فائدة ﴿الحميد﴾؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم، وليس كل غنيّ نافعاً بغناه إلا إذا كان الغنيّ جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد ـ ذكر ﴿الحميد﴾ ليدلّ به على أنه الغنيّ النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه». وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعاً. ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ تكون ﴿هو﴾ زائدة، فلا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً.

[١٦] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذف؛ المعنى إن يشأ [أن][3] يذهبكم يذهبكم؛ أي يفنيكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أطوع منكم وأزكى. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ممتنع عسير متعذر. وقد مضى هذا في ﴿إبراهيم﴾[4].

[١٨] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) راجع ٥/١٦٨. (٢) راجع جـ ٤٦ من هذا الجزء.
(٣) زيادة عن النحاس.
(٤) راجع ٩/٣٥٤.

تقدم الكلام فيه[(١)]، وهو مقطوع مما قبله. والأصل ﴿تَوْزَر﴾ حذفت الواو اتباعاً ليزر. ﴿وازِرةٌ﴾ نعت لمحذوف، أي نفس وازرة. وكذا ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ قال الفرّاء: أي نفس مثقله أو دابة. قال: وهذا يقع للمذكر والمؤنث. قال الأخفش: أي وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حِملها وهو ذنوبها. والحِمْل ما كان على الظهر، والحَمْل حمل المرأة وحمل النخلة؛ حكاهما الكسائيّ بالفتح لا غير. وحكى ابن السِّكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر. ﴿لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسان المدعوّ ذا قربى. وأجاز الفرّاء ولو كان ذو قربى. وهذا جائز عند سيبويه، ومثله ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[(٢)] فتكون ﴿كان﴾ بمعنى وقع، أو يكون الخبر محذوفاً؛ أي وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناس مجزيُّون بأعمالهم إن خير فخير؛ على هذا. وخيراً فخير؛ على الأوّل. وروي عن عكرمة أنه قال: بلغني أن اليهودي والنصرانيّ يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له: ألم أكن قد أسديت إليك يداً، ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى. فيقول: أنفعني؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه. وأن الرجل ليأتي إلى أبيه يوم القيامة فيقول: ألم أكن بك باراً، وعليك مشفقاً، وإليك محسناً، وأنت ترى ما أنا فيه، فهب لي حسنة من حسناتك، أو احمل عني سيئة؛ فيقول: إن الذي سألتني يسير؛ ولكني أخاف مثل ما تخاف. وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحواً من هذا. وأن الرجل ليقول لزوجته: ألم أكن أحسن العِشرة لكِ، فاحملي عني خطيئة لعلي أنجو؛ فتقول: إن ذلك ليسير ولكني أخاف مما تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. وقال الفُضيل بن عياض: هي المرأة تلقي ولدها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حجري لك وطاء؛ فيقول: بلى يا أماه؛ فتقول: يا بنيّ، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً؛ فيقول: إليكِ عني يا أماه، فإني بذنبي عنكِ مشغول.

(١) راجع ٧/ ١٥٧.
(٢) راجع ٣/ ٣٧١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. وقرىء: ﴿ومنِ ازَّكَّى فإنما يَزَّكَّى لِنفسِهِ﴾. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه مرجع جميع الخلق.

[١٩] ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن والجاهل والعالم. مثل: ﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾[2]. ﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾ قال الأخفش سعيد: ﴿لا﴾ زائدة؛ والمعنى ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور. قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّموم يكون بالليل، وقيل بالعكس: وقال رُؤْبة بن العجاج: الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة، حكاه المهدوِيّ. وقال الفرّاء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. النحاس: وهذا أصح؛ لأن الحرور فعول من الحرّ، وفيه معنى التكثير، أي الحرّ المؤذي.

قلت: وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار ربِّ أكل بعضي بعضاً فأذَنْ لي أتنفس فأذِن لها بنَفَسين نَفَسٍ في الشتاء ونفس في الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم». وروي من حديث الزهريّ عن سعيد عن أبي هريرة: «فما تجدون من الحرّ فمن

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء فما بعد آية ١١ سورة يس.
(٢) راجع ٦/٣٢٧.

سمومها وشدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها» وهذا يجمع تلك الأقوال، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار؛ فتأمله. وقيل: المراد بالظل والحرور الجنة والنار؛ فالجنة ذات ظل دائم، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(١) والنار ذات حرور، وقال معناه السُّدّي. وقال ابن عباس: أي ظل الليل، وحرّ السموم بالنهار. قُطرُب: الحرور الحر، والظل البرد. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ قال ابن قُتيبة: الأحياء العقلاء، والأموات الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يُسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أي كما لا تُسمع من مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبه. وقرأ الحسن وعيسى الثقفيّ وعمرو بن ميمون: ﴿بِمُسْمِعِ مَن فِي القبورِ﴾ بحذف التنوين تخفيفاً؛ أي هم بمنزلة [أهل] القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه.

[٢٣] ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي رسول منذرٍ؛ فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدى شيء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

[٢٤] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي بشيراً بالجنة أهل طاعته، ونذيراً بالنار أهل معصيته. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي سلف فيها نبيّ. قال ابن جريج: إلا العرب.

(١) راجع ٩/ ٣٢٤.

[٢٥] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥﴾.

[٢٦] ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وإنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفار قريش. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم، يسلّي رسوله ﷺ. ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي الكتب المكتوبة. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح. وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين. وقيل: يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْش عن نافع وشيبة الياء في ﴿نكيري﴾ حيث وقعت في الوصل دون الوقف. وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين. وقد مضى هذا كله. والحمد لله.

[٢٧] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧﴾.

[٢٨] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم؛ أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل؛ فـ: «أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولي الرؤية. ﴿فَأَخرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ هو من باب تلوين الخطاب. ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ نصبت ﴿مُخْتَلِفاً﴾ نعتا لـ ﴿ثَمَرَاتٍ﴾. ﴿أَلْوَانُهَا﴾ رفع بمختلف، وصلح أن يكون نعتاً لـ ﴿ثَمَرَات﴾ لما عاد عليه من ذكره. ويجوز في غير القرآن

رفعه؛ ومثله رأيت رجلاً خارجاً أبوه ﴿بِهِ﴾ أي بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الجدد جمع جُدّة، وهي الطرائق المختلفة الألوان، وإن كان الجميع حجراً أو تراباً. قال الأخفش: ولو كان جمع جديد لقال: جُدُد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر. وقال زهير:

كأنه أسفع الخدّين ذو جُدُدٍ طاوٍ ويرتع بعد الصيف عُريانا

وقيل: إن الجدد القِطع، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته؛ حكاه ابن بحر. قال الجوهريّ: والجُدَّة الخُطّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه. والجُدّة الطريقة، والجمع جدد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي طرائق تخالف لون الجبل. ومنه قولهم: ركب فلان جُدَّةً من الأمر؛ إذا رأى فيه رأياً. وكساء مجدّد: فيه خطوط مختلفة. الزمخشري: وقرأ الزهريّ ﴿جدد﴾ بالضم جمع جديدة، وهي الجدّة؛ يقال: جديدة وجُدُد وجدائد؛ كسفينة وسفن وسفائن. وقد فسّر بها قول أبي ذُؤيب:

جَـوْنُ السَّـراةِ لـه جـدائـد أربـعُ[1]

وروي عنه ﴿جَدَد﴾ بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾ وقرىء: ﴿والدواب﴾ مخففاً. ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ: ﴿وَلاَ الضَّالين﴾ لأن كل واحد منهما فرّ من التقاء الساكنين، فحرّك ذلك أوّلهما، وحذف هذا آخرهما؛ قاله الزمخشريّ. ﴿وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك، وكل ذلك دليل على صانع مختار. وقال: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ فذكّر الضمير مراعاة لـ ﴿ من ﴾ ؛ قاله المؤرّج . وقال أبو بكر بن عياش: إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى ﴿ ما ﴾ مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه، أي أبيض وأحمر وأسود. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال أبو عبيدة: الغربيب الشديد السواد؛ ففي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ومن الجبال

---

(١) صدر البيت:

والـدهـر لا يبقـى علـى حـدثـانـه

سود غرابيب. والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب: أسود غربيب. قال الجوهري: وتقول هذا أسود غربيب؛ أي شديد السواد. وإذا قلت: غرابيب سود، تجعل السود بدلاً من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «إن الله يبغض الشيخ الغربيب» يعني الذي يخضِب بالسواد. قال امرؤ القيس:

العيـن طـامحـة واليـد سـابحـة والرِّجل لافحة والوجه غربيب[١]

وقال آخر يصف كَرْماً:

ومن تعاجيب خلق الله غاطيةٌ يُعصَر منها مُلاحِيٌّ وغِربيب[٢]

﴿ كَذٰلِكَ ﴾ هنا تمام الكلام ؛ أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية ، ثم استأنف فقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته ؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبـي طلحة عن ابن عباس ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قديـر . وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم. وقال مجاهد: إنما العالِم من خشي الله عز وجل. وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً. وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل. وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل. وعن علي رضي الله عنه قال: إن الفقيه حقَّ الفقيه من لم يُقنط

---

(١) هذه رواية الأصول. والبيت كما ورد في ديوانه طبع مطبعة الاستقامة:

واليد سابحة والرجل ضارحة والعين قادحة والمتـن سلحـوب

والماء منهمر والشدّ منحـدر والقصب مضطمر واللون غربيب

قوله «سابحة» يعني إذا جرى فرسه مد يديه فكأنه سابح في الماء. وضرحت الدابة برجلها: رمحت. وقدحت العين: غارت. والمتن: الظهر. وقوله «سلحوب» بالسين، وفسر بأنه أملس قليل اللحم. وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة في المظان التي بين أيدينا. والرواية فيه «ملحوب» بالميم. ولحب متن الفرس وعجزه: إملاس في حدور. ومتن لحوب. و «والشدّ» العدو. و «القصب» بالضم: الخصر. و «مضطمر» ضامر.

(٢) الغاطية: الشجرة التي طالت أغصانها وانبسطت على الأرض. و «ملاحيّ»: أبيض.

الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يُؤَمِّنْهُمْ من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره؛ إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها. وأسند الدارميّ أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله ﷺ: «إن فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم ـ ثم تلا هذه الآية ـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. إن الله وملائكته وأهلَ سمواته وأهل أرضيه والنونَ في البحر يُصلون على الذين يعلّمون الناس الخير» الخبر مرسل. قال الدارمي: وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد[1] أنه سمع تُبَيْعاً يحدّث عن كعب قال: إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل، ويتفقهون لغير العبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن، قلوبهم أمرُّ من الصبر؛ فبي يغترّون، وإياي يخادعون، فبي حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران. خرّجه الترمذيّ مرفوعاً من حديث أبـي الدرداء وقد كتبناه في مقدّمة الكتاب[2]. الزمخشريّ: فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ﴾ بالرفع ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾ بالنصب، وهو عمر بن عبد العزيز، وتُحكى عن أبي حنيفة. قلت الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى.

[٢٩] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[٣٠] ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

(١) في الأصول: «جرير بن يزيد» وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمي.

(٢) راجع ١٩/١ فما بعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق، وقد مضى في مقدّمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلّق به قارىء القرآن[1]. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ قال أحمد بن يحيى: خبر ﴿إن﴾ ﴿يرجون﴾. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قيل الزيادة الشفاعة في الآخرة. وهذا مِثل الآية الأخرى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ـ إلى قوله ـ ويَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2]، وقوله في آخر النساء: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهناك[3] بيناه. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل القَليل من العمل الخالص، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

[٣١] ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن. ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

[٣٢] ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١/٢٦ فما بعد. (٢) راجع ١٢/٢٧٩. (٣) راجع ٦/٢٦.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : ﴿اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قال النحاس: فمن أصح ما روي في ذلك ما روي عن ابن عباس ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال : الكافر ؛ رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضا. وعن ابن عباس أيضاً ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِم لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: نجت فرقتان، ويكون التقدير في العربية: فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه؛ أي كافر. وقال الحسن: أي فاسق. ويكون الضمير الذي في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعود على المقتصِد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفرّاء أن المقتصد المؤمن العاصي، والسابق التّقي على الإطلاق. قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً[1] ثَلَاثَةً﴾ الآية. قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أصحاب المشأمة، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أصحاب الميمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ السابقون من الناس كلهم. وقيل: الضمير في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعود على الثلاثة الأصناف، على ألا يكون الظالم هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممن روي عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء . وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول: أن يكون الظالم لنفسه الذي عمل الصغائر. و ﴿المقتصد﴾ قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها؛ فيكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ عائداً على الجميع على هذا الشرح والتبيين؛ وروي عن أبي سعيد الخدري. وقال كعب الأحبار: استوت مناكبهم ـ وربّ الكعبة ـ وتفاضلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السَّبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناجٍ. وروى أسامة بن زيد أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة». وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناجٍ وظالمنا مغفور له». فعلى هذا القول يقدّر مفعول الاصطفاء من قوله: ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

(١) راجع ١٩٨/١٧.

﴿اَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافا حُذف كما حذف المضاف في ﴿وَاَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(١) أي اصطفينا دينهم، فبقي اصطفيناهم؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾(١) أي تزدريهم، فالاصطفاء إذاً موجه إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ(٢) الدِّينَ﴾. قال النحاس: وقول ثالث ـ يكون الظالم صاحبَ الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون: ﴿جنَاتُ عَدنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير. وهذا قول جماعة من أهل النظر؛ لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى.

قلت: القول الوسط أوْلاها وأصحها إن شاء الله؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطَفوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم. وهذا قول ستة من الصحابة، وحسْبُك. وسنزيده بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ أي أعطينا. والميراث عطاء حقيقةً أو مجازاً؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر. و ﴿الكتابَ﴾ هاهنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا. ﴿اَصْطَفَيْنَا﴾ أي اخترنا. واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر. وأصله اصتَفوْنا، فأبدلت التاء طاء والوا ياء. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل المراد أمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس وغيره. وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأُوَل لم يرثوه. وقيل: المصطَفْون الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾(٣)، وقال: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾(٤) فإذا جاز أن تكون النبوّة موروثة فكذلك الكتاب. ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ من وقع في صغيرة، قال ابن عطية: وهذا

---

(١) راجع ٩/ ٢٤٥ و ٢٧. (٢) راجع ٢/ ١٣٤ فما بعد.
(٣) راجع ١٣/ ١٦٣ فما بعد. (٤) راجع ١١/ ٧٣ فما بعد.

قول مردود من غير ما وجه. قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي من ذرِّيتهم ظالم لنفسه وهو المشرك. الحسن: من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف في الظالم. والآية في أمة محمد ﷺ. وقد ٱختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل. وقال ذو النون المصري: الظالم الذاكر الله بلسانه فقط، والمقتصد الذاكر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ٱبن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبد الله طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب. وقيل: الظالم الزاهد في الدنيا، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظاً وهي المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب. وقيل: الظالم الذي يجزع عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء، والسابق المتلذذ بالبلاء. وقيل: الظالم الذي يعبد الله على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذي يعبده على الهيبة. وقيل: الظالم الذي أُعْطِيَ فمنَع، والمقتصد الذي أُعْطِيَ فبذَل، والسابق الذي مُنع فشكر وآثر. يروى أن عابِدَيْن التقيا فقال: كيف حال إخوانكم بالبصرة؟ قال: بخير، إن أُعْطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا. فقال[1]: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ! عُبَّادنا إن مُنعوا شكروا وإن أُعطوا آثروا. وقيل: الظالم من ٱستغنى بماله، والمقتصد من ٱستغنى بدينه، والسابق من ٱستغنى بربه. وقيل: الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارىء للقرآن العامل به والعالِم به. وقيل: السابق الذي يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن، والمقتصد الذي يدخل المسجد وقد أُذِّن، والظالم الذي يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة، لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيره. وقال بعض أهل العلم في هذا: بل السابق الذي يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين، والمقتصد الذي إن فاتته الجماعة لم يفرط

---

(١) الزيادة من ك.

في الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم. وقيل: الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب دينه، والسابق الذي يحب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا يُنصف، والمقتصد الذي ينتصف ويُنصف، والسابق الذي يُنصف ولا ينتصف. وقالت عائشة رضي الله عنها: السابق الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف؛ وهم كلهم مغفور لهم.

قلت: ذكر هذه الأقوال وزيادةً عليها الثعلبيّ في تفسيره. وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل؛ ومنه قول جابر بن حُنَيّ التَّغْلبيّ:

نعاطي الملوكَ السّلم ما قصدوا لنا ... وليس علينا قتلُهم بمحرّم

أي نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد، أي ما لم يجوروا، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا؛ فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني إتياننا الكتاب لهم. وقيل: ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير. وقيل: وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير.

الثالثة ـ وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل: التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ[1] النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾. وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقل من القليل؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره. وقيل: قدّم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه. واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته. وقيل: قدّم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله. وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق رضي الله عنه: قدّم الظالم ليخبر أنه لا يتقرّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة

(١) راجع ١٨/ ٤٤.

بحرمة كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وقال محمد بن علي الترمذي: جمعهم في الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث، لا الإرث يوجب الاصطفاء، ولذلك قيل في الحكمة: صحح النسبة ثم ادّع في الميراث. وقيل: أخّر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدّم الصوامع والبيع في ﴿سورة الحج﴾[1] على المساجد، لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله. وقيل إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى؛ كقوله تعالى: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[3]، وقوله: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

قلت: ولقد أحسن من قال:

وغاية هذا الجود أنت وإنما يوافي إلى الغايات في آخر الأمر

الرابعة ـ قوله: ﴿جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جمعهم في الدخول لأنه ميراث، والعاق والبارّ في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب؛ فالعاصي والمطيع مقرّون بالرب. وقرىء: ﴿جَنَّةُ عَدْنٍ﴾ على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم؛ على ما تقدّم. و ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها. وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وقرأ أبو عمرو ﴿يُدخَلونها﴾ بضم الياء وفتح الخاء. قال. لقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾. وقد مضى في ﴿الحج﴾ الكلام في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[4].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عنَّا الْحَزَنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُرْبَتي وآنس وحدتي ويسر لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً فلأنا أسعد بذلك منك، سمعت النبيّ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

(١) راجع ١٢/٦٨. (٢) راجع ٧/٣٠٩.
(٣) راجع ١٦/٤٨. (٤) راجع ١٢/٢٨.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ـ قال ـ فيجيء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ويوبخ ويقرّع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. وفي لفظ آخر «وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم[١] الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ـ إلى قوله ـ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾». وقيل هو الذي يؤخذ منه في مقامه؛ يعني يكفَّر عنه بما يصيبه من الهمّ والحزن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[٢] يعني في الدنيا. قال الثعلبيّ: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والكافر والمنافق لم يصطفَوْا.

قلت: وهذا هو الصحيح، وقد قال ﷺ: «ومَثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر». فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحقّ سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

[٣٦] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) كذا في ش وح. وفي ب. وك: «يتلافاهم».
(٢) راجع ٥/٣٩٦.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم. ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ مثل: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾[1]. ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[2]. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي كافر بالله ورسوله. وقرأ الحسن ﴿فيموتون﴾ بالنون، ولا يكون للنفي حينئذ جواب، ويكون ﴿فيموتون﴾ عطفاً على ﴿يُقْضَى﴾ تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3]. قال الكسائي: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنه رأس آية و ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ لأنه ليس رأس آية. ويجوز في كل واحد منهما ما جاز في صاحبه. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصراخ الصوت العالي، والصارح المستغيث، والمصرِخ المغيث. قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ   كان الصراخُ له قرعَ الظَّنابيب[4]

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ قال ابن عباس: نقل: لا إله إلا الله. وهو معنى قولهم: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي من الشرك؛ أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل. ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ هذا جواب دعائهم؛ أي فيقال لهم، فالقول مضمر. وترجم البخاري: (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني الشيب) حدّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدّثنا عمر بن علي قال حدَّثنا مَعْن بن محمد الغِفَاري عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «أعذر الله إلى أمرىء أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة». قال الخَطَّابي: «أعذر إليه» أي بلغ به أقصى العذر، ومنه قولهم: قد

---

(١) راجع ١١/٢٢٧. (٢) راجع ٥/٢٥٣. (٣) راجع ١٩/١٦٤.

(٤) البيت لسلامة بن جندل. والظنابيب (جمع الظنبوب) وهو مسمار يكون في جبة السنان.

أعذر من أنذر؛ أي أقام عذر نفسه في تقديم نذارته. والمعنى: أن من عمَّره الله ستين سنة لم يبق له عذر؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا، وهو سنُّ الإنابة والخشوع وترقُّب المنية ولقاء الله تعالى؛ ففيه إعذار بعد إعذار، الأوّل بالنبيّ ﷺ، والمُوْتانُ[١] في الأربعين والستين. قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنه ستون سنة، وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال في موعظته: «ولقد أبلغ في الإعذار من تقدّم في الإنذار وإنه لينادي منادٍ من قِبل الله تعالى أبناء الستين ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فِيهِ من تذكّر وجاءكم النذِير﴾». وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رَباح عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نودي أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله ﴿أَوَ لم نعمِّركم ما يتذكَّر فِيهِ من تذكّر﴾». وعن ابن عباس أيضاً أنه أربعون سنة. وعن الحسن البصري ومسروق مثله. ولهذا القول أيضاً وجه، وهو صحيح؛ والحجة له قوله تعالى: ﴿حتى إِذَا بلغَ أَشُدَّه وبَلَغَ أربعِين سنةً[٢]﴾ الآية. ففي الأربعين تناهي العقل، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه[٣]، والله أعلم. وقال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿الأعراف﴾[٤]. وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أعمار أمّتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك».

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وقرىء ﴿وجاءتكم النُّذُرُ﴾ واختلف فيه؛ فقيل القرآن. وقيل الرسول؛ قاله زيد بن علي وابن زيد. وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكِيع والحسين بن الفضل والفرّاء والطبري: هو الشيب. وقيل: النذيرُ الحُمَّى. وقيل: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمال العقل. والنذير بمعنى الإنذار.

---

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو): الموت.

(٢) راجع ١٦/ ١٩٤.

(٣) كيف هذا وقد عاش ﷺ ثلاثاً وستين سنة؟؟

(٤) راجع ٧/ ٢٧٦.

قلت: فالشيب والحُمَّى وموتُ الأهل كلُّه إنذار بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموت». قال الأزهري: معناه أن الحمى رسول الموت، أي كأنها تُشعر بقدومه وتُنْذِرُ بمجيئه. والشيب نذير أيضاً؛ لأنه يأتي في سنّ الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبَا الذي هو سِنٌّ اللهو واللعب. قال:

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحسْبُك مِن نذير

وقال آخر:

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمري ... ولست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان، وحين وزمان. قال:

وأراك تحملهم ولستَ تردّهم ... فكأنني بك قد حُمِلت فلم تُردَّ

وقال آخر:

الموت في كل حين ينشر الكَفَنَا ... ونحن في غفلة عمّا يُرادُ بنا

وأما كمال العقل فبِه تُعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات؛ فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير. وأما محمد ﷺ فبعثَه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قطعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لِئلّا يكون لِلناسِ على اللّهِ حجةٌ بعد الرسلِ﴾[1]، وقال : ﴿وما كنا مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولاً﴾[2].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ يريد عذاب جهنم؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتّعظتم. ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي مانع من عذاب الله.

[٣٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) راجع ٦/١٨.
(٢) راجع ١٠/ ٢٣٠.

تقدّم معناه في غير موضع. والمعنى: علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال: ﴿ولو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه﴾[1]. و ﴿عالِمُ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل، وإذا كان منوّنا لم يجز أن يكون للماضي.

[٣٩] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ قال قتادة: خَلَفاً بعد خَلَف، قَرْناً بعد قرن. والخلف هو التالي للمتقدّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفة الله؛ فقال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راض بذلك. ﴿فمَن كَفَرَ فعَلَيهِ كُفْرُهُ﴾ أي جزاء كفره وهو العقاب والعذاب. ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلاَّ مَقْتاً﴾ أي بُغضاً وغضباً. ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلاَّ خَسَاراً﴾ أي هلاكاً وضلالاً.

[٤٠] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ﴿شركاءكم﴾ منصوب بالرؤية، ولا يجوز رفعه، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم: قد علمت زيداً أبو من هو؟ لأن زيداً في المعنى مستفهم عنه، ولو قلت: أرأيت زيداً أبو من هو؟ لم يجز الرفع. والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرني عنه، وكذا معنى هذا أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من

(١) راجع ٦/٤٠٩.

دون الله، أعبدتموهم لأن لهم شركة في خلق السموات، أم خلقوا من الأرض شيئاً! ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتاباً﴾ أي أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة. وكان في هذا رَدٌّ على من عبد غير الله عز وجل؛ لأنهم لا يجدون في كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعْبَد غيره. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ﴿على بيّنةٍ﴾ بالتوحيد، وجمع الباقون، والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى؛ لأنه لا يخلو من قرأه ﴿على بينةٍ﴾ من أن يكون خالف السواد الأعظم، أو يكون جاء به على لغة من قال: جاءني طلحت، فوقف بالتاء، وهذه لغة شاذة قليلة، قاله النحاس. وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمع أولى لموافقته الخط، لأنها في مصحف عثمان ﴿بينات﴾ بالألف والتاء. ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ أي أباطيل تغرّ، وهو قول السادة للسّفلة: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم. وقيل: إن الشيطان يَعِد المشركين ذلك. وقيل: وعدهم بأنهم ينصرون عليهم.

[٤١] ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه. و ﴿أن﴾ في موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا، أو لئلا تزولا، أو يحمل على المعنى؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا، فلا حاجة على هذا إلى إضمار، وهذا قول الزجاج. ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال الفرّاء: أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد. و ﴿إن﴾ بمعنى ما. قال: وهو مثل قوله: ﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾[1]. وقيل المراد زوالهما

---

(١) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء.

يوم القيامة. وعن إبراهيم قال: دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منه العلم، فلما رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبت من كعب؟ قال سمعت كعباً يقول: إن السماء تدور على قُطْب مثل قطب الرّحَى، في عمود على مِنكب مَلَك؛ فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبت براحلتك وراحلها، كذب كعب، ما ترك يهوديَّته! إن الله تعالى يقول: ﴿إن الله يُمسِك السمواتِ والأرضَ أن تزولا﴾ إن السموات لا تدور، ولو كانت تدور لكانت قد زالت. وعن ابن عباس نحوه، وأنه قال لرجل مقبل من الشام: من لقِيت به؟ قال كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إن السموات على منكب مَلَك. قال: كذب كعب، أما ترك يهوديَّته بعدُ! إن الله يقول: ﴿إن الله يُمسِك السموات والأرض أن تزولا﴾ والسموات سبع والأرضون سبع، ولكن لما ذكّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكناية إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ السمواتِ والأرضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُما﴾[1] ثم ختم الآية بقوله: ﴿إنه كان حلِيماً غَفُوراً﴾ لأنِ المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل: أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين، وقولهم اتخذ الله ولداً. قال الكلبي: لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكَادُ السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنه﴾[2] الآية.

[٤٢] ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

[٤٣] ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١١/ ٢٨٢.

(٢) راجع ١١/ ١٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً ﷺ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فلَعنوا مَن كذّب نبيَّه منهم، وأقسموا بالله جلّ اسمه ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِير﴾ أي نبيّ ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ يعني ممن كذَّب الرسل من أهل الكتاب. وكانت العرب تتمنّى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنَّوْه وهو النذير من أنفسهم، نفروا عنه ولم يؤمنوا به. ﴿اسْتِكْبَاراً﴾ أي عُتُوًّا عن الإيمان ﴿ومَكْرَ السَّيِّء﴾ أي مكر العمل السيىء وهو الكفر وخَدْع الضعفاء، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم. وأنّث ﴿من إحدى الأمم﴾ لتأنيث أُمة؛ قاله الأخفش. وقرأ حمزة والأخفش ﴿ومكر السَّيِّءْ وَلاَ يَحِيق الْمَكْرُ السَّيِّءُ﴾ فحذف الإعراب من الأوّل وأثبته في الثاني. قال الزجاج: وهو لحن؛ وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه. وزعم المبرِّد أنه لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا، قال: إنما كان يقف عليه، فغلط من أدّى عنه، قال: والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثاني لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق، والحركة في الثاني أثقل منها في الأوّل لأنها ضمة بين كسرتين. وقد احتج بعض النحويين لحمزة في هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره:

إذا اعوججن قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ[١]

وقال الآخر:

فاليوم أشرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثماً مِن الله ولا واغلِ[٢]

(١) تمامه:

بالدوّ أمثال السفين العوّم

الدوّ: الصحراء. وأمثال السفين: رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر.

(٢) البيت لامرىء القيس. والمستحقب: المكتسب للإثم الحامل له. والواغل: الداخل على القوم يشربون ولم يدع. قال هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم في شربها إذ قد وفى بنذره فيها.

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يجزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه. وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده:

إذا اعـــوججـــن قلـــت صـــاح قـــوّم

وأنه أنشد:

فـــاليـــوم أشـــرب غيـــر مستحقِـــبِ

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس. الزمخشريّ: وقرأ حمزة ﴿ومكر السَّيِّىءْ﴾ بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات، ولعله اختلس فظن سكوناً، أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتدأ ﴿ولا يحيق﴾. وقرأ ابن مسعود ﴿وَمَكْراً سيئاً﴾. وقال المهدويّ: ومن سكّن الهمزة من قوله: ﴿ومكر السيىء﴾ فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات، كما قال:

فـــاليـــوم اشـــرب غيـــر مستحقـــب

قال القشيريّ: وقرأ حمزة ﴿ومكر السيىءْ﴾ بسكون الهمزة وخطّأه أقوام. وقال قوم: لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروي ذلك عنه في الإدراج، وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبيّ ﷺ قرأه فلا بدّ من جوازه، ولا يجوز أن يقال: إنه لحن، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحاً. ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك. وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم ببدر.

وقال الشاعر:

وقـد دفعـوا المنيـة فـاستقلـت ذراعـاً بعـد مـا كـانـت تحيـق

أي تنـزل، وهـذا قـول قُطْـرُب. وقـال الكلبـيّ: ﴿يَحِيـق﴾ بمعنـى يُحيـط. والحَـوْق الإحاطة، يقال: حاق به كذا أي أحاط به. وعن ابن عباس أن كعباً قال له: إني أجد في التوراة «من حفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها»؟ فقال ابن عباس: فإني أوجِدُك في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ ﴿ولاَ يَحِيقَ المكر السيىء إلا بأهلِهِ﴾. وفي أمثال

العرب «من حفَر لأخيه جُبًا وقَع فيه مُنْكَباً» وروى الزُّهريّ أن النبيّ ﷺ قال: «لا تَمكر ولا تُعِن ماكراً فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهلِهِ﴾، ولا تَبْغِ ولا تُعنْ باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿فمَن نكَث فإنما يَنكُثُ على نفسِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّمَا بَغْيُكم على أنفسِكم﴾» وقال بعض الحكماء:

يـا أيهـا الظـالـم فـي فعلـه والظلم مردود على من ظلم
إلـى متـى أنـت وحتـى متـى تُحصي المصائب وتَنسى النِّعم

وفي الحديث «المكر والخديعة في النار» فقوله: «في النار» يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة». وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فهل يَنظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوّلين﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين. ﴿فلن تَجِد لِسُنّةِ اللَّهِ تَبدِيلاً ولن تَجِد لِسُنةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار، ويجعل ذلك سُنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره. والسُّنَّة الطريقة، والجمع سُنَن. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾[1] وأضافها إلى الله عز وجل. وقال في موضع آخر: ﴿سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رُسُلِنا﴾[2] فأضاف إلى القوم لتعلّق الأمر بالجانبين؛ وهو كالأجل، تارة يضاف إلى الله، وتارة إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فإن أجل الله لآتٍ﴾[3] وقال: ﴿فإذا جاء أجلهم﴾.

[٤٤] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾.

(١) راجع ٤/٢١٦. (٢) راجع ١٠/٣٠٢. (٣) راجع ١٣/٣٢٦.

بين السنة التي ذكرها؛ أي أو لم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود، وبمَدْيَنَ وأمثالهم لما كذّبوا الرسل، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم، وبما سمعوا على التواتر بما حلّ بهم، أفليس فيه عبرة وبيان لهم؛ ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى؛ دليله قوله: ﴿وكانوا أشَدَّ مِنهم قُوَّةً وما كان اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شيء في السّموات ولا في الأرض﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعْجزه ذلك. ﴿إنه كان علِيماً قدِيراً﴾.

[٤٥] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤاخذُ اللَّهُ الناسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني من الذنوب. ﴿ما تَرك على ظهرها من دابة﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دَبّ ودَرَج. قال قتادة: وقد فُعل ذلك زمن نوح عليه السلام. وقال الكلبيّ: ﴿مِنْ دابّةٍ﴾ يريد الجنّ والإنس دون غيرهما؛ لأنهما مُكلَّفان بالعقل. وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم.

قلت: والأوّل أظهر؛ لأنه عن صحابيّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَل أن يُعذب في جُحره بذنب ابن آدم. وقال يحيى بن أبي كثير: أمَر رجل بالمعروف[1] ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه. فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلا هو ـ ثم قال ـ والذي نفسي بيده إن الحُبَارَى لتموت هَزْلاً في وَكرها بظلم الظالم. وقال الثُّمَالي ويحيى بن سلام في هذه الآية: يحبس الله المطر فيهلك كل شيء. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير ﴿وَيَلْعَنُهم اللاّعنون﴾[2] هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديث البَرَاء

(١) في الأصل المطبوع بالمعرف. (٢) راجع ١٨٦/٢ طبعة ثانية.

ذابن عازب قال قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ويلعنهم اللاعِنون﴾ قال: «دواب الأرض». ﴿ولَكِنْ يُؤَخِّرهُم إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ قال مقاتل: الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللّوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يوم القيامة. ﴿فإنّ الله كان بِعِبَادِهِ﴾ أي بمن يستحق العقاب منهم ﴿بصِيراً﴾. ولا يجوز أن يكون العامل في ﴿إذا﴾ ﴿بصِيراً﴾ كما لا يجوز: اليوم إن زيداً خارج. ولكن العامل فيها ﴿جاء﴾ لشبهها بحروف المجازاة، والأسماء التي يجازَى بها يعمل فيها ما بعدها. وسيبويه لا يرى المجازاة بـ ﴿ـإذا﴾ إلا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها خُطانا إلى أعدائنا فنضارب(١)

خُتمت سورة ﴿فاطر﴾ والحمد لله

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي،

تفسير سورة يسٓ

وهي مكية. قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا قتيبة وسفيان بن وَكيع، حدثنا حميد بن عبد الرحمٰن الرُّؤاسي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس. ومن قرأ يس كَتَب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات». ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمد شيخ مجهول. وفي الباب عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة منظور فيه. أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول. وأما حديث أبي هريرة فقال أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا زيد ـ هو ابن الحباب ـ حدثنا حُميد ـ هو المكي، مولى آل علقمة ـ عن عطاء ـ هو ابن أبي رباح ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس». ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا حجاج بن محمد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له. ومن قرأ: «حم» التي فيها الدخان أصبح مغفوراً له». إسناد جيد. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم ـ مولى ثقيف ـ حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، حدثنا محمد بن جُحَادة، عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله، غفر له». وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يَسَار، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذِرْوَته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها ـ أو: فوصلت بسورة البقرة ـ ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة، إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم». وكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن معمر بن سليمان، به. ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا ابن المبارك، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنهدي ـ عن أبيه، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوها على موتاكم» ـ يعني: يس.

ورواه أبو داود، والنسائي في «اليوم والليلة» وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به إلا أن في رواية النسائي: عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة: أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله. وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله أعلم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قرأت ـ يعني يس ـ عند الميت خُفِّف عنه بها. وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» ـ يعني: يس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول «سورة البقرة»: ورُوي عن ابن عباس وعِكْرِمة، والضحاك، والحسن وسفيان بن عُيينة أن «يس» بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنَزَّل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ يعني بهم: العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفي من

عداهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المواترة في عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾: قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غُل، فجَمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسُه، فصار مقمَحاً؛ ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، والمقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زَرْع في كلامها: «وأشرب فأتقمّح» أي: أشرب فأروي، وأرفع رأسي تهنيئاً وتَرَوّيا. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فَـمَـا أدري إذا يَـمَّـمْـتُ أرضـا	أريـد الـخـيْـرَ أيـهـمـا يَـلـيـنـي
أألـخَـيْـرُ الـذي أنـا أبْـتَـغـيـه	أم الـشَّـرّ الـذي لا يَـأتَـلـيـنـي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه، وكذا هذا، لما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جَمَع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ قال: هو كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير. وقال مجاهد: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال: رافعوا رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾: قال مجاهد: عن الحق، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: الضلالات. وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «فأعشيناهم» بالعين المهملة، من العشا وهو داء في العين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧] ثم قال: من منعه الله لا يستطيع. وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمد. فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره. رواه ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جِنانٌ خير من جنان الأرْدُن. وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذَّبون بها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك، وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه، فجعل يذُرّها على رؤوسهم، ويقرأ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وباتوا رُصَداء على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً. قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبيّ ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك: إن لهم مني لذبحاً، وإنه أحدهم». وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من

يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: ١٧]. وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي: من الأعمال. وفي قوله: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً». رواه مسلم، من رواية شعبة، عن عون بن أبي جُحَيفة، عن المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، وفي قصة مُجتَابي النِّمار المُضَريِّين. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحياة يحيى بن يَعْلَى، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله، فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾. وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوَانة، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه، فذكره. وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده». وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد قال: سمعت مجاهداً يقول في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة.

وقال ابن لَهِيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ يعني: ما أثَرُوا. يقول: ما سَنوا من سنة، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم. وهذا القول هو اختيار البَغَوي.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال ابن أبي نَجيح وغيره، عن مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾: أعمالهم. ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم. وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ يعني: خطاهم. قال قتادة: لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليفعل. وقد وَرَدت في هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضْرة، عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». وهكذا رواه مسلم، من حديث سعيد الجريري وكَهْمس بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة ـ واسمه: المنذر بن مالك بن قطْعَة العَبْدي ـ عن جابر.

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلَمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتبُ». فلم ينتقلوا. انفرد بإخراجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: (حسن غريب من حديث الثوري). ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سفيان الثوري، عن طريف ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي ـ عن أبي نضرة، به. وقد رُويَ من غير طريق الثوري، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن زياد الساجي، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن سعيد الجُريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: إن بني سلَمة شَكَوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾، فأقاموا في مكانهم. وحدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا الجَريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، بنحوه. وفيه غرابة من حيثُ ذكْرُ نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، فالله أعلم.

الحديث الثالث: قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجَهْضَمي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عِكْرمة، عن ابن عباس قال: كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا

﴿قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فقالوا: نثبت مكاننا. هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع. ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فثبتوا في منازلهم.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثني حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمٰن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: توفي رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي ﷺ وقال: «يا ليته مات في غير مولده». فقال رجل من الناس: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة».

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى، وابن ماجه عن حرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن حيي بن عبد الله، به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو تُمَيْلَة، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيت مع أنس فأسرعت المشي، فأخذ بيدي فمشينا رويداً، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب؟ أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب؟

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فلأن تُكتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: واضرب ـ يا محمد ـ لقومك الذين كذبوك ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه ـ: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: انطيخس بن انطيخس بن انطيخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم: صادق وصدوق وشلوم، فكذبهم. وهكذا روي عن بُرَيدة بن الحُصَيب، وعِكْرِمة، وقتادة، والزهري: أنها أنطاكية. وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية، بما سنذكره بعد تمام القصة، إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالتكذيب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أي: قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث. قال ابن جُرَيْج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي قال: كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبو العالية. وزعم قتادة بن دعامة: أنهم كانوا رسل المسيح، عليه السلام، إلى أهل أنطاكية ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحيَ إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكاية عنهم في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]، ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾؟ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢]. ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾: يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإن أطعتم كانت لكم

السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبّ ذلك، والله أعلم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾.

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها. ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾: قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشتم. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: عقوبة شديدة. فقالت لهم رسالهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: ٤٧]. وقال قتادة، ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]. وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا؟ بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا، بل أنتم قوم مسرفون.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾.

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ـ: إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه ـ قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير ـ وهو الحبال ـ وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم النظرة. وقال ابن إسحاق عن رجل سماه، عن الحكم، عن مِقْسَم ـ أو: عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: كان اسم صاحب يس حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وقال الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجْلَز: كان اسمه حبيب بن مري. وقال شبيب بن بشر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس أيضاً قال: اسم صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه.

وقال السدي: كان قَصّاراً. وقال عمر بن الحكم: كان إسكافاً. وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله لو أرادني بسوء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [يونس: ١٠٧]. وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله. وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾: قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ يقول لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي كفرتم به، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي: الذي أرسلكم، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني قد آمنت بربكم واتبعتكم. وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم، اهد قومي، فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك، فقتلوه، رحمه الله.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾.

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال الله له:

﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقم الدنيا وحزنها ونَصبها. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة. وذلك أنه قُتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً؛ لَمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾. تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له، وما هجم عليه. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾. رواه ابن أبي حاتم. وقال سفيان الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجلَز: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾: بإيماني بربي، وتصديقي المرسلين.

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن عبد الملك ـ يعني: ابن عمير ـ قال: قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي ﷺ: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك». فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق». فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحَنَّك غداً بما يسوؤك. فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العُزى لا عُزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا. قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكْحَله فقتله، فبلغ رسولَ الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾». وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن مَعْمَر بن حَزم: أنه حدث عن كعب الأحبار: أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم ـ أخو بني مازن بن النجار ـ الذي كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ فجعل يقول: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فيقول له مسيلمة: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم. فجعل يُقَطِّعه عضوا عضوا، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه. فقال كعب حين قيل له: اسمه حبيب، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب.

وقوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾: يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود، فيما رواه ابن إسحاق، عن بعض أصحابه، عنه أنه قال في قوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾ أي: ما كاثرناهم بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾، قال: فأهلك الله ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من رسالة أخرى إليهم. قاله مجاهد وقتادة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾. قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عليه السلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تبق بهم روح تتردد في جسد. وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح، عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله، ﷻ، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ [يس: ١٤ ـ ١٧]. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: ١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتَاركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين. ثم رومية لأنها مدينة الملك

قسطنطين الذي نصر دينهم وأطَّده. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، فالله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتري، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني، حدثنا حُسَين الأشقر، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «السُّبَّق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب»، فإنه حديث منكر، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعي متروك، والله أعلم.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يا ويل العباد. وقال قتادة: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾: أي يا حسرة العباد على أنفسها، على ما ضيعت من أمر الله، فرطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءة: ﴿يا حسرة العباد على أنفسها﴾. ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾. وقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله، ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف؛ فمنهم من قرأ: (وَإن كل لَمَا) بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات، ومنهم من شدد «لَمّا»، وجعل «إن» نافية، و«لمّا» بمعنى «إلا» تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره. لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم

من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ واختار ابن جرير ـ بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً ـ أن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى: «الذي»، تقديره: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾. ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب، فيقبل الليل؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم». هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وقد ضعف ابن جرير قولَ قتادة هاهنا، وقال: إنما معنى الإيلاج: الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية. وهذا الذي قاله ابن جرير حق. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث. قال البخاري: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تَغربُ الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾». حدثنا عبد الله بن الزبير الحُميديّ، حدثنا وَكيع عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: «مستقرها تحت العرش». كذا أورده هاهنا. وقد أخرجه في أماكن متعددة، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: «يا أبا ذر، تدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت. فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾». وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين هذا؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت. فتطلع من مغربها، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾». وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو قال في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، قال: إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتى إذا غربت سلَّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت، واستأذنت فلا يؤذن لها، فتقول: إن المسير بعيد وإني إلا يؤذن لي لا أبلغ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس، ثم يقال لها: «اطلعي من حيث غربت». قال: «فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً». وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه. وقيل: المراد: أنها

لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: (وَالشَّمسُ تَجْرِي لا مُسْتَقر لَهَا) أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتر ولا تقف. كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يخالَف ولا يُمانَع، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]. ثم قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري. وأما القمر، فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس: وهو أصل العِذْق. وقال مجاهد: العرجون القديم: أي العذق اليابس. يعني ابن عباس: أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما. ثم بعد هذا يبديه الله جديداً في أول الشهر الآخر، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول «غُرَر» واللواتي بعدها «نُفَل»، واللواتي بعدها «تُسع»؛ لأن أخراهن التاسعة، واللواتي بعدها «عُشَر»؛ لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها «البيض»؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن «دُرَع» جمع دَرْعاء؛ لأن أولهن سُود؛ لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود. وبعدهن ثلاث «ظُلَم» ثم ثلاث «حَنَادس»، وثلاث «دآدىء»، وثلاث «مَحَاق»؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن. وكان أبو عُبيد ينكر التُسَع والعُشَر. كذا قال في كتاب «غريب المصنف».

وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الحسن في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ قال: ذلك ليلة الهلال. وروى ابن أبي حاتم هاهنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للريح جناحاً، وإن القمر يأوي إلى غلاف من الماء. وقال الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: يعني: أن لكل منهما سلطاناً، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل. وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: يقول: لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا. وأومأ بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: يطّلبان حثيثين، ينسلخ أحدهما من الآخر. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء. قاله ابن عباس، وعِكْرِمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: في فلك بين السماء والأرض. رواه ابن أبي حاتم، وهو غريب جداً، بل منكر. قال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فَلْكةٍ كفَلْكة المغْزَل. وقال مجاهد: الفَلَك كحديدة الرَّحَى، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تعالى: تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح، عليه السلام، التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من

كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: المُوقَر. وكذا قال سعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، والضحاك، والسدي. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك: الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة - في رواية - وعبد الله بن شداد، وغيرهم. وقال السدي - في رواية -: هي الأنعام. وقال ابن جرير: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: تدرون ما ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال غير واحد وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، وأبو صالح، والسدي أيضاً: المراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي السفن. ويُقوي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: مما أصابهم، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وهذا استثناء منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم في البحر والبحر، ونُسلّمكم إلى أجل مسمى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن بذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا نظر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً - وهي صفحة العنق - يتسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، والنَّسلان هو: المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؟ يعنون: من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. وقال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفختين. فلذلك يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من السلف ـ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم. وقال عبد الرحمٰن بن زيد: الجميع من قول الكفار: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تعالى في الصافات: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]. وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]. أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: من عملها، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في رَوْضات الجنات: أنهم ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي: في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم. قال الحسن البصري: وإسماعيل بن أبي خالد: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: ﴿فَاكِهُونَ﴾ أي: فرحون. وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسَيب، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والأعمش، وسليمان التيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي: بسماع الأوتار. وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو افتضاض الأبكار. وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وخُصَيْف: ﴿الْأَرَائِكِ﴾: هي السرر تحت الحجال. قلت: نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله أعلم. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها، ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا محمد بن مهاجر، عن الضحاك المَعَافري، عن سليمان بن موسى، حدثني كُرَيْب؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خَطَر لها، هي ـ ورب الكعبة ـ نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مَشيد، ونهر مُطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وحَبْرَة ونعمة، ومحلة عالية بَهِيَّة». قالوا: يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «قولوا: إن شاء الله». قال القوم: إن شاء الله. وكذا رواه ابن ماجه في «كتاب الزهد» من سننه، من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مُهَاجر، به. وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: قال ابن جريج: قال ابن عباس في قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾: فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة. وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً في إسناده نظر، فإنه قال: حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العَبَّاداني، حدثنا الفضل الرَّقاشيّ، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾». قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم». ورواه ابن ماجه في «كتاب السنة» من سننه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، به. وقال ابن جرير: حدثنا

يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا حَرْمَلَة، عن سليمان بن حُمَيد قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظِي يحدّث عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة، قال: فيسلم على أهل الجنة، فيردون عليه السلام ـ قال القرظي: وهذا في كتاب الله ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ ـ فيقول: سلوني. فيقولون: ماذا نسألك أي ربّ؟ قال: بلى سلوني. قالوا: نسألك ـ أي رب ـ رضاك. قال: رضائي أحلكم دار كرامتي. قالوا: يا رب، فما الذي نسألك، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم، لا ينقصنا ذلك شيئاً. قال: إن لديّ مزيداً. قال: فيفعل ذلك بهم في درجهم، حتى يستوي في مجلسه. قال: ثم تأتيهم التحف من الله، ﷻ، تحملها إليهم الملائكة. ثم ذكر نحوه. وهذا أثر غريب، أورده ابن جرير من طرق.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدْعين فرقتين، ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾: هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾، يقال: «جِبِلاً» بكسر الجيم، وتشديد اللام. ويقال: «جُبُلاً» بضم الجيم والباء، وتخفيف اللام. ومنهم من يسكن الباء. والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدولكم إلى اتباع الشيطان؟! قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع، عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنُق ساطع مظلم، يقول: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون. فيتميز الناس ويجثون، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾» [الجاثية: ٢٨].

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾: هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المُكتب، عن الفُضيل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون ممَ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً،

وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي. فتنطق بعلمه، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكن وسُحقاً، فعنكنّ كنتُ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عُبيد الله بن عبد الرحمٰن الأشجعي، عن سفيان ـ هو الثوري ـ به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم. كذا قال، وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي ـ وهو العَقَدِيّ ـ عن سفيان.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بَهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّمة أفواهكم بالفِدَام، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه». رواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، به. وقال سفيان بن عيينة، عن سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك، آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصليت وتصدقت ـ ويثني بخير ما استطاع ـ قال: فيقال له: ألا نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسه، من الذي يشهد عليه، فيختَم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه. وذلك الذي سخط الله عليه». ورواه مسلم وأبو داود، من حديث سفيان بن عيينة، به بطوله. ثم قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة عن شُرَيْح بن عبيد، عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه، فَخذُه من الرجل اليسرى». ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش، به مثله. وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد، رحمه الله، فقال: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمي، عمن حَدَّثه عن عقبة بن عامر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه، فَخذه من الرجل الشمال».

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا يونس بن عُبَيد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى ـ هو الأشعري، رضي الله عنه ـ: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فَيَعرِضُ عليه رَبه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أيْ رب، عملتُ عملتُ عملت. قال: فيغفر الله له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته، فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله، فيجحد فيقول: أي رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا، في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك أيْ رب ما عملتُه. فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه. قال أبو موسى الأشعري: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عُمياً يترددون.

وقال السدي: لو شِئنا أعمينا أبصارهم. قال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يعني: الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراط هاهنا: الحق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمسنا على أعينهم؟ وقال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: لا يبصرون الحق.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: قال العوفي عن ابن عباس: أهلكناهم. وقال السدي: يعني: لغيرنا خَلْقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة. وقال الحسن البصري، وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي: إلى أمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]. وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]. والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار

زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى نفس الشَّبيبَة، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّته؛ ولهذا ورَدَ أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه. وقال أبو زُرْعة الرازي: حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر، إلا رسول الله ﷺ. ذكره ابن عساكر في ترجمة «عتبة بن أبي لهب» الذي أكله السَّبُع بالزرقاء. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كَفَى بالإسلامَ والشيب للمرْء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وهكذا روى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمي: «أنت القائل:

أتجعل نَهبي ونَهب العُبَيد بينَ الأقرع وعيينة»

فقال: إنما هو: «بين عيينة والأقرع» فقال: «الكل سواء». يعني: في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر السهيلي في «الروض الأنف» لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه، عليه السلام، في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْر الفزاري؛ لأنه ارتد أيام الصديق، بخلاف ذاك، والله أعلم. وهكذا روى الأموي في مغازيه: أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: «نُفلق هَاماً.................». فيقول الصديق، رضي الله عنه، متمماً للبيت:

.... مِن رجال أعِزَّةٍ عَلَينا وهُم كَانُوا أعَقَّ وأَظلما

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له، وهي في الحماسة. وقال الإمام أحمد؛ حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله إذا استراث الخبر، تمثل فيه بيت طَرَفَةَ:

وَيَأتيك بالأخبار مَن لَم تُزوِّدِ

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها. ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدام بن شُرَيْح بن هانىء، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها، كذلك. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أسامة، عن زائدة، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

وَيَأتيك بالأخبَار مَن لَم تُزَوِّدِ

ثم قال: رواه غير زائدة، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن عائشة. وهذا في شعر طرفة بن العبد، في معلقته المشهورة، وهذا المذكور هو عجز بيت منها، أوله:

سَتُبْدي لكَ الأيامُ مَا كُنتَ جَاهلا وَيَأتيك بالأخبَار مَن لَم تُزَوِّدِ

وَيَأتيكَ بالأخبَار مَن لَم تَبع لهُ بَتَاتاً ولم تَضرب له وَقت مَوْعد

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم ـ وكيل المتقي ببغداد ـ حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير، حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتاً واحداً:

تَفَاءلْ بما تَهوَى يَكُنْ فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لشيء كَانَ إلا تَحَقَّقَا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي عن هذا الحديث، فقال: هو منكر. ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضرير. وقال

سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا. فقال رسول الله ﷺ: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي». رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذا لفظه. وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سُئلت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طَرَفَةَ:

سَتُبْدي لكَ الأيامُ ما كُنتَ جاهلا ... وَيَأتيكَ بالأخْبارِ مَن لم تُزَوِّدِ

فجعل يقول: «من لم تُزَوِّد بالأخبار». فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا. فقال: «إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي».

وثبت في الصحيحين أنه، عليه الصلاة والسلام، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعاً لقول أصحابه، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... وَلا تَصَدَّقْنا وَلا صَلَّينا

فأنزلَنْ سَكينةً علَيْنا ... وَثَبِّت الأقْدامَ إنْ لاقَينا

إنّ الأُلى قَدْ بَغَوا علَيْنا ... إذا أرَادُوا فِتْنةً أبَيْنا

ويرفع صوته بقوله: «أبينا» ويمدها. وقد روى هذا بزحاف في الصحيح أيضاً. وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة، يُقدم بها في نحور العدو:

أنا النبيّ لا كَذِبْ ... أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه. وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فَنَكِبت أصبعه، فقال:

هَلْ أنْتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ ... وفي سَبيلِ اللّهِ ما لَقِيتِ

وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] إنشادِ:

إنْ تَغْفِر اللَّهُمّ تَغْفِرْ جَمّا ... وَأي عَبْدٍ لكَ ما ألَمّا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عُلّم شعراً ولا ينبغي له؛ فإن الله تعالى إنما علّمه القرآن العظيم، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]. وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يُؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضُّلَّالِ وآراء الجُهَّال. وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً، كما رواه أبو داود قال:

حدثنا عبيد الله بن عُمَر، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا شرحبيل بن يزيد المَعَافري، عن عبد الرحمٰن بن رافع التَّنُوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أبالي ما أوتيت إن أنا شَربت ترياقاً، أو تعلقت تميمة، أو قلت الشعر من قبل نفسي». تفرد به أبو داود. وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل قال: سألتُ عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك.

وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً». تفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بريد، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْد الباهلي، عن عاصم بن مَخْلَد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأشيب فقال: عن ابن عاصم، عن أبي الأشعث، عن شَدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة، لم تقبل له صلاة تلك الليلة». وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحة، وأمثالهم وأضرابهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه». وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي ﷺ مائة بيت، يقول عقب كل بيت: «هيه». يعني يستطعمه، فيزيده من

ذلك. وقد روى أبو داود من حديث أُبي بن كعب، وبُريدة بن الحُصَيب، وعبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ يعني: محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما يصلح له، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر. وقال الضحاك: يعني: عاقلاً، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾. قال قتادة: مطيقون أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه. وكذا لو كان القطارُ مائة بعير أو أكثر، لسار الجميع بسيرِ صغير. وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي: أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خِزْيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً، إنما هي أصنام. وهكذا قال الحسن البصري. وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال مجاهد، وعِكْرِمة، وعروة بن الزبير، والسُّدّي. وقتادة: جاء أُبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفَتّتُهُ ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: «نعم، يميتك الله ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلى آخرهن.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سعد الزيات، عن هُشَيْم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، أن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله تعالى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم». قال: ونزلت الآيات من آخر «يس». ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن هُشَيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، فذكره ولم يذكر «ابن عباس». وروى من طريق العَوفي، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن أبي بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم.

وهذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة. وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت

في أبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث. والألف واللام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا حَرِيز، حدثني عبد الرحمٰن بن مَيْسَرة، عن جُبَيْر بن نفير، عن بُسْر بن جَحَّاش؛ أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم، أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوّيتك وعَدَلتك، مشيت بين بردَيك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغَت التراقي قلت: أتصدق وأنَّى أوان الصدقة؟». ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حَرِيز بن عثمان، به. ولهذا قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟ أي: استبعد إعادة الله تعالى ـ ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانة، عن عبد الملك بن عمير، عن رِبْعيّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمعوا لي حَطَباً كثيراً جزَلا، ثم أوقدوا فيه نارا، حتى إذا أكلت لحمي وخلَصت إلى عظمي فامتُحشْتُ، فخذوها فَذَروها في اليم. ففعلوا، فجمعه الله إليه فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نَبّاشاً. وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة، منها: أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يذَروا نصفه في البر ونصفه في البحر، في يوم رائح، أي: كثير الهواء ـ ففعلوا ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن. فإذا هو رجل قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم. فما تلافاه أن غفر له».

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قَدْح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس. رضي الله عنهما. وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المَرْخُ والعَفَار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم. قاله ابن جرير. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ أي: يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار:

إذا مَا أراد الله أمراً فإنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ «كُنْ» قَولَةً فَيَكُونُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمير، حدثنا موسى بن المسَيَّب، عن شَهْر، عن عبد الرحمٰن بن غَنْم، عن أبي ذَر، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. وكلكم

فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون».

وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازى كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل.

ومعنى قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبة ورهبوت، وجَبْر وجَبَروت. ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حماد، عن عبد الملك بن عمير، حدثني ابن عم لحذيفة، عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطُّوَل في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال: «الحمد لذي ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاي.

وقد روى أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرة، عن أبي حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بني عَبْس، عن حذيفة؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: «الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: «لربي الحمد». ثم سجد، فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب، اغفر لي، رب اغفر لي». فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة ـ أو الأنعام ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبي داود.

وقال النسائي: «أبو حمزة عندنا: طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة». كذا قال. والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة، كما تقدم في رواية الإمام أحمد، والله أعلم. فأما رواية صلة بن زفر، عن حذيفة، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حُميد، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة». ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة.

ورواه الترمذي في الشمائل، والنسائي، من حديث معاوية بن صالح، به.

آخر تفسير سورة «يس»

ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

❋ ❋ ❋

(٣٦) سُورَةُ يسٓ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قد ذكرنا كلاماً كلياً فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا أن فى كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثاً :

﴿ البحث الأول ﴾ هو أن فى ذكر هذه الحروف فى أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لايصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلى من الحكمة فيها، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفاً وهى نصف ثمانية وعشرين حرفاً ، وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم ، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس هذا أمراً يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة ، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعى فيه شيئاً فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن . و ق . و ص . وبعضها بحرفين كسورة حم . ويس . وطس . وطه . وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم . وطسم . والر . وبعضها بأربعة كسورتى المر . والمص . وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حمعسق . وكهيعص . وهب أن قائلا يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام ، إما حرف ، وإما فعل ، وإما اسم ، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾

وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى فى الحرف وإلى وعلى فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء فى القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه ، فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها مالم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذى [هو] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الأعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ماعلم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك فى العبادات الجارحية ماعلم معناه ومالم نعلم كمقادير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم مافيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتى به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزاً هو لك ينقلها وإن لم يؤمن ، إذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها مالا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهى فاذا قال (حمٓ ، يسٓ ، المٓ ، طسٓ) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

﴿ البحث الثانى ﴾ قيل فى خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يسٓ) أى أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده (إنك لمن المرسلين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرىء يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبنى كحيث ، وقرىء يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرىء يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى (والقرآن الحكيم) أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم .

قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ مقسم عليه وفيه مسائل:

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة فى الإقسام ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى ﷺ ذلك بقوله «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع » ثم إنهم كانوا يقولون إن النبى ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأناً وأمنع مكاناً فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب (الثانى) هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لايجوز أن يأتى هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فيقول والله إنى لست مكابراً وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فهنا يتعين اليمين ، فكذلك النبى ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم) (وقالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو أن هذا ليس مجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج فى صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم لم يذكر فى صورة الدليل ؟ وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين ؟ قلنا الدليل أن ذكره فى صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعى على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام ، ولكونه دليلا شافياً يتشربه الفؤاد فيقع فى السمع وينفع فى القلب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثانى) أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبى ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذى يوجب ثقتهم به .

www.besturdubooks.wordpress.com

تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾

أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والذين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم ، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله (على صراط مستقيم) فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا فى الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال (والقرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، إنك لمن المرسلين لتنذر) وقرىء بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثانى) أنه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعنى تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر ، وهذا مااختاره الزمخشرى وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله (العزيز الرحيم) إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول المرسل يكون منه فى رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

قد تقدم تفسيره فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، فتكون ما مصدرية (الثانى) أن تكون موصولة معناه : لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون ، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلا ، وعلى قولنا هى للاثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضى أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد ؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافى أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين .

www.besturdubooks.wordpress.com

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) يقتضى أن لا يكون النبى صلى الله عليه وسلم مأموراً بانذار اليهود لأن آباءهم أنذروا . نقول ليس كذلك ، أما على قولنا ما للاثبات لا للنفى فظاهر . وأما على قولنا هى نافية فكذلك ، وقد بينا ذلك فى قوله تعالى (بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فان الله إذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبى ويأمر به لايرسل الرسول فى أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر ، فمعنى قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ماضلوا ، فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فهم غافلون) دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولا ، وكذلك من خالف الأمور التى لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة ، وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه أن الله تعالى لو خلق فى قوم علماً بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل .

قوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للانذار ، أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء ، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى (لقد حق القول) وجوه (الأول) وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى (حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك) ، (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض أنه لا يؤمن ، وقال فى حق غيره أنه يؤمن (فحق القول) أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل فى مهلة النظر يرجى منه الايمان إذا بان له البرهان ، فاذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضى وقت رجاء الايمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عند ما حق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

وعند العيان لا يفيد الإيمان ، وقوله (على أكثرهم) على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون لحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال (إنا جعلنا) وفيه وجوه ١ أحدها) أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون فى سبيل الله كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) (والثانى) أن الآية نزلت فى أبى جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه . (والثالث) وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول : (الوجه الأول) له مناسبة وهى أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون . وأما على الوجه الثانى فمناسبة خفية وهى أنه لما قال (لقد حق القول على أكثرهم) وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهى) راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان (١أحدهما) أنها راجعة إلى الأيدى وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون أيديه مجموعة فى الغل إلى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشرى أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطىء رأسه.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف يفهم من الغل فى العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذى بلغ الغل إلى ذقنه وبقى مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذى عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذى يهديه النبى إلى الصراط المستقيم العقلى جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من إبصار الطريق الحسى ، ويحتمل وجها آخر وهو أن يقال الأغلال في الأعناق

www.besturdubooks.wordpress.com

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ



عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطىء رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ، ويصدق هذا قوله (مقمحون) فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبى يقال بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال (إناجعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم مقمحون) لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً) إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصررن الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للايقان . أما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولا واتباع الرسول ثانياً ، ولا يتبعون الرسول أولا لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولا لأنهم واقعون فى السد فلا يتبعون الرسول ثانياً (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون فى النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما فى النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التى فى أنفسهم كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التى فى الآفاق وعلى هذا فقوله (إنا جعلنا فى أعناقهم) (وجعلنا من بين أيديهم) إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وفى تفسير قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ السد من بين الأيدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون وينبغى أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سداً) فلا يقدرون على السلوك ، وأما السد من خلفهم ، فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه : (الاول) هو أن الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول (جعلنا من بين أيديهم سداً) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التى هى نظرية (وجعلنا من خلفهم سداً) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى) هو أن الانسان مبدأه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لايكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم) إشارة إلى إهلاكهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فأغشيناهم) بحرف الفاء يقتضى أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بياناً لأمور مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) فلا يبصرون ما فى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئاً أصلا (وثانيهما) هو أن ذلك بيان لكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فللحجاب ، وأما عين السد فلكون شرط المرئى أن لايكون قريباً من العين جداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر السدين من بين الأيدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ فنقول ، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سبباً للاغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن أنه على الطريقة المستقيمة ، وغير ضال .

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لاينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء . بقوله تعالى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين ، فان قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع أنه تعالى قال (سواء عليهم) وما قال سواء

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب فى زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا ، وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار فى دار القرار .

قوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ والترتيب ظاهر وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال (إنما تنذر) وهو يقضى التخصيص فكيف الجمع بينهما ؟ نقول من وجوه : (الأول) هو أن قوله (لتنذر) أى كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله (إنما تنذر) أى الإنذار المفيد لايكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى (الثانى) هو أن الله تعالى لما قال إن الارسال والانزال ، وذكر أن الانذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يامحمد إنك بإنذارك تهدى ولا تدرى من تهدى فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو أن نقول قوله (لتنذر) أى أولا فاذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى ، فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول ، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من اتبع الذكر) يحتمل وجوهاً (الأول) وهو المشهور من أتبع القرآن (الثانى) من اتبع مافى القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) فما جعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه : إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقوله (اتبع الذكر) أى آمن ، وقوله (وخشى الرحمن) أى عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله (فبشره بمغفرة وأجر كريم) لأنا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام ، وقد تقدم ذكر القرآن فى قوله تعالى (والقرآن الحكيم) وقوله (وخشى الرحمن) فيه لطيفة وهى أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن و رحيم فالعاقل

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

لا ينبغي أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة (وتكملة اللطيفة) هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) حتى قال بعض الأئمة هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبىء عن العاطفية فقال في موضع يرجو الله ، وقال ههنا (وخشي الرحمن) يعني مع كونه ذاهيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه ، وقوله (بالغيب) يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد فان عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة ، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوحدانية تدخل فيه ، وقوله (فبشره) فيه إشارة إلى الأمر الثاني من أمري الرسالة فان النبي صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الانذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما أنذرت ونفعت ، وقوله (بمغفرة) على التنكير أي بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية (وأجر كريم) أي ذي كرم ، وقد ذكرنا ما في الكريم في قوله (ورزق كريم) وفي قوله (ورزقا كريما) .

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

في الترتيب وجوه (أحدها) أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله (فبشره بمغفرة) ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال إن لم ير في الدنيا فالله يحي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إنا نحن) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبراً كقول القائل : أنا أبو النجم وشعري شعري

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لا يعرف يقال له من أنت ؟ فيقول أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر (نحي) كأنه قال إنا نحي الموتى ، و(نحن) يكون تأكيداً والأول أولى .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنا نحن فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التميز بغير النفس فان زيداً إذا شاركه غيره فى الاسم ، فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام . لأن للسامع أن يقول : أيما زيد ؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفى قوله ابن عمرو . فلما قال الله (إنا نحن) أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فتمتاز . وحينئذ تصير الأصول الثلاثة مذكورة؛ الرسالة والتوحيد والحشر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وتكتب ماقدموا) فيه وجوه (أحدها) المراد ماقدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما فى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) والمراد والبرد أيضاً (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى (بما قدمت أيديهم) أى بما قدمت فى الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الأعمال وآثارهم أى أعمالهم على هذا الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وآثارهم فيه وجوه (الأول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم» (والثانى) هى السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ، والحبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهى وأدوات المناهى المعمولة الباقية ، وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شىء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها» فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ماقدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الاحياء ولأنه تعالى لما قال (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك بياناً لكون ماقدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فان القلم جف بما هو كائن فلما قال (نكتب ماقدموا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا لمعنى قوله (ونكتب) لأن من يكتب شيئاً فى أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك فى إمام مبين وهذا كقوله تعالى (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٣)

التخصيص كأنه تعالى يكتب ماقدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصي فى إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى (وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) يعنى ليس ما فى الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء جمعاً فى قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بأئمتهم وحينئذ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهراً للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً فى الجنة وفريقاً فى السعير .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القريه إذ جاءها المرسلون ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الأول) هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلا (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله (إنك لمن المرسلين) وقال (لتنذر) قال قل لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) بل قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة . وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى إن الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبى عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا ، أى مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما معنى قول القائل ضرب مثلا ؟ وقوله تعالى (واضرب) مع أن الضرب فى اللغة ، إما إمساس جسم جسماً بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف فى كقوله تعالى (إذا ضربتم فى الأرض) ؟ نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذاك من ضرب واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه فى الإعراب كقوله (واسأل القرية) هذا قول الزمخشرى فى الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ جاءها المرسلون . إذ منصوبة لأنها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟

(واضرب لهم) وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشري وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذظرف منصوب بقوله (اضرب) أي اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه ، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله (إذ أرسلنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون إذ أرسلنا بدلا من إذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أي لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا ، وهذا فيه لطيفة : وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى انطاكية فقال تعالى إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتم التسلية بقوله (إذ أرسلنا) وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا (واضرب لهم مثلا) ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر .

وقوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾

في بعثة الاثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن الله فكان عليهما انهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قوينا وقرىء فعززنا بثالث مخففاً ، من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبي بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد في الفروع مقبول ، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى لموسى عليه السلام (سنشد عضدك) فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق ، نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾

وهرون بعث معه بطلبه حيث قال (فأرسله معى) فكان هرون مبعوثاً ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره ، وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هرون ، وأما هٰهنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ماجرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ كما قال (إنك لمن المرسلين) وبين ما قال القوم بقوله ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلا على عدم الإرسال ، وهذا عام من المشركين قالوا فى حق محمد (أأنزل عليه الذكر) وإنما ظنوه دليلا بناء على أنهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار ، وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان ، والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبقوله (الله يجتبى إليه من يشاء) إلى غير ذلك ، وقوله (وما أنزل الرحمن من شيء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة . ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحداً ، فكيف صرتم رسلا لله ؟ (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئاً فى هذا العالم ، فإن تصرفه فى العالم العلوى وللعلويات التصرف فى السفليات على مذهبهم ، فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء فى الدنيا فكيف أنزل إليكم ، وقوله (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم . لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة ، فكيف لاينزل رحمته وهو رحمن ، فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لاينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئاً ، هو الرحمة الكاملة .

قوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ أى ما أنتم إلا كاذبين .

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله يجرى مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه ، وفى قوله (ربنا يعلم) إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعنى هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته .

وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسلية لأنفسهم ، أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثاً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا (ما علينا إلا البلاغ) كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك مما يحمل العاقل على النظر (والمبين) يحتمل أموراً (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل ، أى لا يكفى أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك .

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب ، فلما قال المرسلون (إنا إليكم لمرسلون) قالوا (إن أنتم إلا تكذبون) ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا (ربنا يعلم) أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الأول كنتم كاذبين ، وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين عليه ، و«اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» فتشاءمنا بكم ثانياً ، وفى الأول كما تركتم ففى الثانى لانتركم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله (وليمسنكم) ترق كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم ، بل يؤدى ذلك إلى الضرب والإيلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذ فقوله (وليمسنكم) بيان للرجم ، يعنى ولا يكون الرجم رجماً قليلا نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد (لنرجمنكم وليمسنكم) بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا فى الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل بمعنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله (عيشة راضية) أى ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو ذو ألم ، وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير .

ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أى شؤمكم معكم وهو الكفر .

ثم قالوا ﴿ أئن ذكرتم ﴾ جواباً عن قولهم (لنرجمنكم) يعنى أتفعلون بنا ذلك ، وإن ذكرتم أى بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾

يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب فى حقه الإكرام أو (مسرفون) حيث تكفرون، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان، فان الكافر مسىء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الأشياء، أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الإيلام والإكرام، وأما فى الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل، فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان، فان قيل بل للاضراب فما الأمر المضرب عنه؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مشئومون، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام، وإن بينا صحة ما أتينا به، لا (بل أنتم قوم مسرفون) وأما الحكاية فمشهورة، وهى أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير، ثم قال له: إنى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما؟ قال الملك بلى، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة، فقال لهما شمعون: فهل لكما بينة؟ قالا نعم، فأبرآ الأكمه والأبرص وأحييا الموتى، فقال شمعون: أيها الملك، إن شئت أن تغلبهم، فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك، قال الملك: أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم، فقال شمعون: فإذن ظهر الحق من جانبهم، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون، وكانت الغلبة للمكذبين.

قوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين﴾.

وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان: (أحدهما) أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى، وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة (وثانيهما) أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا، ووصول الجزاء الأوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ، وفى التفسير مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل) فى تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان: (الأولى) أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى

(الثانية) أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطئوا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله (من أقصى المدينة) وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من فى (أقصى المدينة) والمدينة هى أنطاكية ، وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى (قال ياقوم اتبعوا المرسلين) فيه معان لطيفة (الأول) فى قوله (ياقوم) فانه ينبىء عن إشفاق عليهم وشفقة فان إضافتهم إلى نفسه بقوله (ياقوم) يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعونى فان قيل قال هذا الرجل (اتبعوا المرسلين) وقال ذلك اتبعونى فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعونى فى الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ، ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله (اتبعوا) نصيحة وقوله (المرسلين) إظهار أنه آمن (الثالث) قدم إظهار النصيحة على إظهار الايمان لأنه كان ساعياً فى النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله (رجل يسعى) يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر فى حكايته أنه كان يقتل وهو يقول «اللهم اهد قومى» .

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ وهذا فى غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال (اتبعوا المرسلين) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك أن الخلق فى الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل فى طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

قوله تعالى : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ لما قال (وهم مهتدون) بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحى القيوم ، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الأولى قوله (مالى) أى مالى مانع من جانبى . إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبى فلا جرم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

عبدته ، وفى العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى (ولطيفة ثانية) وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم ، لم يكن فى البيان مثل قوله (ومالى) لأنه لما قال (ومالى) وأحد لايخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لايطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال (مالكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فان قيل قال الله (مالكم لاترجون لله وقاراً) نقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال (ومالى لاأعبد) وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله (الذى فطرنى) إشارة إلى وجود المقتضى فان قوله (ومالى) إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى ، فقوله (الذى فطرنى) ينبىء عن الاقتضاء ، فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال (ومالى لا أعبد) باسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

واعلم أن المشهور فى قوله (فطرنى) خلقنى اختراعا وابتداعا ، والغريب فيه أن يقال (فطرنى) أى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) وعلى هذا فقوله (ومالى لا أعبد) أى لم يوجد فى مانع فأنا باق على فطرة ربى الفطرة كافية فى الشهادة والعبادة فإن قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر فى قوله (فاطر السموات) فنقول قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذى هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

قوله تعالى : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ اشارة إلى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفاً وطمعاً وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى، وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً (فالأول) عابد يعبد الله ، لكونه الهاً مالكا سواء أنعم بعد ذلك أولم ينعم ، كالعبد الذى يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء (والثانى) عابد يعبد

www.besturdubooks.wordpress.com

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً

الله للنعمة الواصلة إليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الأول من يخدم الجواد ، ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال (ومالى لاأعبد الذى فطرنى) أى هو مالكى أعبده لأنظر إلى ماسيعطيني ولأنظر إلى أن لايعذبني وجعلهم دون ذلك فقال (وإليه ترجعون) أى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لاتعبدونه ، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرنى لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره .

قوله تعالى : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ ليتم التوحيد ، فان التوحيد بين التعطيل والاشراك ، فقال ومالى لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال (أأتخذ من دونه) إشارة إلى نفى غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، وفى الآية أيضاً لطائف (الأولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، وذلك أن من أخبر عن شىء فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فاذا قال (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار ،كأنه يقول استشرتك فدلنى والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر فى الأمر تفهم من غير إخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى (لطيفة عجيبة) وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله (الذى فطرنى) بين أن من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شىء مشارك للمعبود الذى اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لاأتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذى فطرك ، ويلزمك عقلا أن تتخذ آلهة لاحصرلها ، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لايكون إله ، ولهذا قال تعالى (ماتخذ صاحبة ولاولدا) وقال (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال (ولم يتخذ ولداً) ولا يقال قال الله تعالى (فاتخذه وكيلا) فى حق الله تعالى حيث قال (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هوفاتخذه وكيلا) نقول ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان فى أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة ، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إنى أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لايشتغل بأمر أصلا ويترك أطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو ، فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار ، فقال الله لرسوله أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله ، ولا إله يطلب لقضاء

www.besturdubooks.wordpress.com

إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾

الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلا ، وفوض جميع أمورك إليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال ومعنى قوله (فاتخذه وكيلا) أى فى جميع أمورك وقوله تعالى (لا تغن عنى) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بى ضراً (وثانيهما) أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة .

قوله تعالى :﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (إن يردن الرحمن بضر) ولم يقل إن يرد الرحمن بى ضراً ، وكذلك قال تعالى (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) ولم يقل إن أراد الله بى ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة الملك ؟ يقول اختصها بزيد فيجعل المسئول مفعولا بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء ، وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول فى قوله تعالى (إن أرادنى الله بضر) المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) يعنى هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر فى قوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصوداً بالذكر لزجرهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال (أو أراد بكم رحمة) نقول المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى (من بعده ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت فى قوله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) فإن الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فإنه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، والمقصود إنى على هدى وأنتم فى ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾

المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (إن يردن الرحمن) وقال فى الزمر (إن أرادنى الله) فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك ؟ نقول أما الماضى والمستقبل فان إن فى الشرط تصير الماضى مستقبلا وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله (أأتخذ) وقوله (وما لى لا أعبد) والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله (أفرأيتم) وكذلك فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) لكون المتقدم عليه مذكوراً بصيغة المستقبل وهو قوله (من يصرف عنه) وقوله (إنى أخاف إن عصيت) والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف ، وهذا ما سبق منكم ، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير ، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران ، وأما قوله هناك (إن أرادنى الله) فنقول قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة ، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض) فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله (الذى فطرنى) فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال (إن يردن الرحمن بضر) ثم قال تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) على ترتيب ما يقع من العقلاء ، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولا فان قبله وإلا يدفع فقال (لا تغن عنى شفاعتهم) ولا يقدرون على إنقاذى بوجه من الوجوه ، وفى هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظراً إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظرا إلى إحسانه فهو رحمن ، وإن كان نظرا إلى الخوف فهو يدفع ضره ، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئاً إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع .

قوله تعالى : ﴿ إنى إذاً لفى ضلال مبين ﴾ . يعنى إن فعلت فأنا ضال ضلالا بيناً ، والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم ، ويمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الأمر للناظر والأول هو الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ فى المخاطب بقوله (بربكم) وجوه (أحدها)

www.besturdubooks.wordpress.com

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى

هم المرسلون ، قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال : إنى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفى قوله (فاسمعون) فوائد (أحدها) أنه كلام متروٍ متفكر حيث قال (فاسمعون) فان المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) أنه ينبه القوم ويقول إنى أخبرتكم بما فعلت حتى لاتقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) أن يكون المراد السماع الذى بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولى أى قبله ، فان قلت لم قال من قبل (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) وقال ههنا (آمنت بربكم) ولم يقل آمنت بربى ؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه إليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال (أعبد الذى فطرنى) ثم قال (آمنت بربكم) فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى (الله ربنا وربكم) .

قوله تعالى : ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الأول .

قوله تعالى :﴿ قال ياليت قومى يعلمون ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى (قيل) وجهان كما أن فى وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة ، وهذا كما فى قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن) ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى) فى وجه جعل الأرض بالعة ماءها .

قوله تعالى :﴿ بما غفر لى ربى ﴾ وجوه (أحدها) أن ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية ، كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى ، والوجهان الآخران هما المختاران .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ

قوله تعالى : ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) والرجل كان من المؤمنين الصلحاء ، والمكرم على ضد المهان والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه .

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فانه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (وما أنزلنا) باسناد الفعل إلى النفس ، وقال في بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم ، وأما في (ادخل الجنة) فقال قيل ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها ، وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى (وقيل ادخلوا) إشارة إلى أن الدخول يكون دخولا بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رءوس الأشهاد يهنئه كل أحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟ نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر ، وهذا من قوم أولئك في النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص ؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ، ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله (وما أنزلنا) يستلزم أنه لايكون من المنزلين ؟ نقول قوله (وما كنا) أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) فى مثل تلك الواقعة جنداً فى غير تلك الواقعة ، فان قيل فكيف أنزل الله جنوداً فى يوم بدر وفى غيرذلك حيث قال (وأنزل جنوداً لم تروها) ؟ نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد ﷺ .

ثم بين الله تعالى ما كان بقوله ﴿ إن كانت ﴾ الواقعة ﴿ إلا صيحة ﴾ وقال الزمخشرى أصله إن كان شىء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة .

قوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .

قوله تعالى : ﴿ فاذا هم خامدون ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر، ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لأن الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك ، أما الغضب فانهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال (فاذا هم خامدون) (وفيه وجه آخر) وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالأحجار تصير مياها ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان ، فقال خامدين بسببها لخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة .

قوله تعالى : ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ أى هذا وقت الحسرة فاحضرى يا حسرة والتنكير للتكثير ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المتحسر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) لا متحسر أصلا فى الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

www.besturdubooks.wordpress.com

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

(وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطى ويمنع ولا يكون هناك شيء معطى إذ المقصود أن له المنع والاعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا ، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) أن قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للأمر وتهويلا له وحينئذ يكون كالألفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخروالتعجب والتمنى ، أونقول ليس معنى قولنا ياحسرة وياندامة ، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوزفى بيان كونه تعالى قال (ياحسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا فى النداء ، فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكى عن حبيب أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعد ماقتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء (ياحسرة) بالتنوين ، و(ياحسرة العباد) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرىء ياحسرة على بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقوله (ياعبادى الذين أسرفوا) وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار ، وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فان الاضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف مالا يكون فى قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى (وعباد الرحمن) من قبيل قوله (ان عبادى) وكذلك (عباد الله) .

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة فى الحس،ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان مايدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزأوا واستخفوا واستهانوا

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله (ما يأتيهم) الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أى ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة (إلا كانوا به يستهزؤون) على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أى الباقون لا يرون ماجرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل فى حقهم (ياحسرة) هم الذين قال فى حقهم (ألم يروا) ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله .

وقوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل فى المعنى عن قوله (كم أهلكنا) وذلك لأن معنى (كم أهلكنا) ألم يروا كثرة إهلاكنا ، وفيه معنى ، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لايرجعون ، وحينئذ يكون كبدل الاشتمال ، لأن قوله (أنهم إليهم لا يرجعون) حال من أحوال المهلكين ، أى أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيداً أدبه ، وعلى هذا فقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا إهلاكا لا رجوع لهم إلى من فى الدنيا (وثانيهما) هو أنهم لايرجعون إليهم ، أى الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعنى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك فى أن الإهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلا ، والثانى أظهر عقلا .

قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شى

وقوله (وإن كل لما) فى إن وجهان (أحدهما) أنها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة فى المعنى ، والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيبويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما ، يؤيد هذا ما روى أن أبياً قرأ (وما كل إلا جميع) وفى قول سيبويه لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفى جمعا وهما لم وما فتأكد النفى ، ولهذا يقال فى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفي جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر ، قال الزمخشري : فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعني عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال: وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم يوجد ماذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ،كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبي نبي مرسل ، والواو في وإن كل لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ماذكرت ، وأبين أن كلا لدينا محضرون ، وكذلك الواو في قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾

كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) كذلك نحيي الموتى (وثانيهما) أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال (وآية لهم) نقول: الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل، فان النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) يعني أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾، إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفى قوله (أحييناها) ولا حاجة إلى قوله (وأخرجنا منها حباً) وغير ذلك ، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة فى قوله (الأرض الميتة أحييناها) لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر ، ثم هب أنها غير كافية فقوله (الميتة أحييناها) كاف فى التوحيد فما فائدة قوله (وأخرجنا منها حباً) نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ماذكره الله تعالى فائدة . أما قوله (وأخرجنا منها حباً) فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى ، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياء تاماً لأن الأرض المخضرة التى لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته فى الحياة ، فكأنه قال تعالى الذى أحيا الأرض إحياء كاملا منبتاً للزرع يحيى الموتى إحياء كاملا بحيث تدرك الأمور ، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والأمر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهى مكان لهم لابد لهم منها فهى نعمة ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم ، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم فى السماء أو فى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب فى كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله (وأخرجنا منها حباً) كالإشارة إلى الأمر الضرورى الذى لا بد منه وقوله (وجعلنا فيها جنات) كالأمر المحتاج إليه الذى إن لم يكن لايغنى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله (وفجرنا فيها من العيون) إشارة إلى الزينة التى إن لم تكن لا تغنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة ، لكنه لايكون على أحسن ماينبغى ، وكأن حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين ، فيقول الله عز وجل كما فعلنا فى موات الأرض كذلك نفعل فى الأموات فى الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لابد لهم منه فى بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى إحياء تاماً كما أحيينا الأرض إحياء تاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال عند ذكر الحب (فمنه يأكلون) وفى الأشجار والثمار قال (ليأكلوا من ثمره) وذلك لأن الحب قوت لابد منه فقال (فمنه يأكلون) أى هم آكلوه ، وأما الثمار ليست كذلك ، فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الخامسة ﴾ خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهى فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعاً فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون فى الأنعام والقضب والزيتون والتين فى مواضع ، نقول فى الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) وإلى قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع ، وقد ذكرنا فى سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى (فاكهة ونخل ورمان) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى المواضع التى ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهى النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها ، وقوله تعالى (وفجرنا فيها من العيون) آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون فى المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع ،فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجرى فى القنوات ، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء فى المواضع المرتفعة وساقها فى الأنهار والسواقى أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى فى الأودية إلى البقاع التى أنعم الله على أهلها .

قوله تعالى : ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً فى التفسير وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله (ليأكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال (وفجرنا فيها من العيون) وقال فى الحب (فمنه يأكلون) عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا ؟ نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شىء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء . وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الانسان أعم وجوداً ، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (من ثمره) عائد إلى أى شىء ؟ نقول المشهور أنه عائد إلى الله أى

www.besturdubooks.wordpress.com

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهى أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهى ثمره ، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها فى حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع إلى المذكور أى من ثمر ما ذكرنا ، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب ، وحينئذ يكون الضمير عائداً إلى التفجير المدلول عليه بقوله (وفجرنا فيها من العيون) تفجيراً ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى (إنا صببنا الماء صباً) إلى أن قال (فأخرجنا به حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا) والتفجير أقرب فى الذكر من النخيل ، ولو كان عائداً إلى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما فى قوله (وما عملته) من أى الماءات هى ؟ نقول فيها وجوه : (أحدها) نافية كأنه قال (وما عملت) التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال والذى عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاً ويأكلون من ثمر الله الذى أخرجه من غير سعى من الناس ، فعطف الذى عملته الأيدى على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعنى يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله ، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ على قولنا ما موصولة ، يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أى بالتجارة كأنه ذكر نوعى ما يأكل الإنسان بهما ، وهما الزراعة والتجارة ، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التى لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذى لا يؤكل إلا بعد إصلاح ، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله (أفلا يشكرون) وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الازواج كلها ، ومعنى سبح نزه ، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال (أفلا يشكرون) وشكر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال (سبحان الذى خلق الأزواج) وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول ، لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى أن يكون عليه العاقل فقال (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) أو نقول لما بين الآيات قال : (سبحان الذى خلق) ماذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (كلها) يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هى واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لايقال مما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيداً كل ماكان لى يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فاذا قال بعده من الثياب لايبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذاكانت من لبيان التخصيص ، أما إذاكانت لتأكيد العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شىء من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيدهذا قوله تعالى فى حم (الذىخلق الأزواج كلهاوجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) من غير تقييد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله (مما تنبت الأرض) يدخل فيها مافى الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله (ومما لا يعلمون) يدخل مافى أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومما لا يعلمون) فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخلق ، لكن التوحيد الحقيقى لايحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فانه عند الله كله مخلوق لكونه كله ممكناً .

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ﴾ .

لما استدل الله بأحوال الأرض وهى المكان الكلى استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى فان دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار

www.besturdubooks.wordpress.com

والشمس والقمر) ثم قال بعده (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً . لكن المقصود أولا هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى (لا تسجدوا للشمس) ثم الحشر بدليل قوله تعالى (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) وههنا المقصود أولا إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر . يدل عليه النظر فى السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة ، والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة . (أما بيان الأول) فذلك لأن الفلسفي يقول لوكان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان ، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال ، فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية ، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق ،فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقية ، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه ،فان أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولاملا ، نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

(وأما بيان الثاني) فلأن المشبهي يقول لا يمكن وجود موجود إلا في مكان ، فالله في مكان . فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله فى زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجوداً ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال (وآية لهم الليل) ؟ نقول لما استدل بالمكان الذى هو المظلم وهو الأرض وقال (وآية لهم الأرض) استدل بالزمان الذى فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ فى الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال فى الأرض (وآية لهم الأرض الميتة) فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ مامعنى سلخ النهار من الليل ؟نقول معناه تمييزه منه يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه ، وأما إذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره ، فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة إلى قوله (نسلخ منه النهار) ؟ نقول الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه . ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها ، وقوله (فاذا هم مظلمون) أى داخلون فى الظلام ، وإذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره : وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه ، فهى كلها آية ، وقوله (والشمس تجرى) إشارة إلى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار ، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) بأمر الله فمغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله (والشمس تجرى لمستقر لها) إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه ، وقوله (لمستقر) اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة فى الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما فى قوله : دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للأكل ، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشيء يشبه سبب الشيء لأن الوقت يأتى بالأمر الكائن فيه ، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا (وأقم الصلاة لدلوك الشمس) لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زماناً أمرت بالجرى فجرت ، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أى إلى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس فجاز استعمال مايستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ (والشمس تجرى إلى مستقر لها) وعلى هذا ففى ذلك المستقر وجوه (الأول) يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى إلى الليل (الرابع) أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الأول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها إلى بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لاتميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ، ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها . فإن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فالشمس تجرى مجرى مستقرها ، وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لأمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى ليس لإدارتها وإنما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره إياها ، فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لايختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون اشارة إلى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أى الذى قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه (الأول) هو أن الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شىء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ، ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الأرض التى هى مسامتة لمرها وبقى المجموع مستولياً على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات فى باطن الأرض والأشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخريج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار (الثانى) هو أن الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروباً لئلا تكل القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة ، (الثالث) جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً فى مسامتة شىء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة .

قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه ، والقمر قدرناه ذامنازل لأن ذا الشىء قريب من الشىء ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشىء كالقائم به الشىء فأتوا بلفظ الوصف .

وقوله (حتى عاد كالعرجون القديم) أى رجع فى الدقة إلى حالته التى كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ماغبر عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لاتشترط فى جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لايقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هى قديمة

www.besturdubooks.wordpress.com

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له سنة ، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال فى العالم إنه قديم ، لأن القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، واطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

قوله تعالى : ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ .

إشارة إلى أن كل شىء من الأشياء المذكورة خلق على وفق الحكمة : فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله (ولا الليل سابق النهار) قيل فى تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أى الليل لا يدخل وقت النهار والثانى بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر فى ليلة مقداراً ظاهراً فى الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس ؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر ؛ لبقى القمر والشمس مدة مديدة فى مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهى الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلا ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس ، فقوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) إشارة إلى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله (ولا الليل سابق النهار) إشارة إلى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة ، وعلى هذا ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى اطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وما ذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الاشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فان الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال

www.besturdubooks.wordpress.com

ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو علها طلوع وغروب في الليل والنهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك) بصيغة الفعل وقوله (ولا الليل سابق النهار) بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر؟ نقول الحركة الأولية التى للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة . والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكا لكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن خياطاً ، فان قيل قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله (ولا الليل سابق النهار) معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان فى عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فان قيل فلم ذكر ههنا (سابق النهار) وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد فى هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهى فى هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، ولا من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقضى منه ، وقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) يحقق ما ذكرنا أى للكل طلوع وغروب فى يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة فى فلك تخصه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التنوين فى قوله وكل عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير فى شىء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفى المعنى معرف بالاضافة ، فان قيل فهل يختلف الأمر عند الاضافة لفظاً وتركها ؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فاذا قال كل كذا يدخل فى الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة ، وهذا كما فى قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شىء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق ؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولا للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال (يسبحون)؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب فى السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً ، وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية (وثالثها) لما قال (ولا الليل سابق النهار) والمراد ما فى الليل من الكواكب قال (يسبحون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك ماذا؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة ، فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة . وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى . ويدل عليه قوله تعالى (والسقف المرفوع) نقول ليس فى النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير إليه . أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) أن من أمعن فى السير فى جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائماً ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبدياً ، ولو كان السماء مسطحاً مستوياً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فان بعضه حينئذ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى (الثانى) هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل(١) مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب فى منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم ثم فى قليل يستتر الكوكب الذى كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذى كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً (الثالث) هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر إذا انكسف فى ساعة من الليل فى جانب الشرق ، ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف فى ساعة أخرى قبل تلك الساعة التى رآى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على أن الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية

(١) الحمل من بروج الشمس الاثنى عشر وقد نظمت فى قول الشاعر : حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

www.besturdubooks.wordpress.com

لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند ما يكون فوق رءوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعند ما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتد ، وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعند ما يكون على مسامتة رؤوسنا فى بحر السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء ، نقول لا تنازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا فى بحر السماء ، وبالجملة الدلائل كثيرة . والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان ذلك العلم ، وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذى أوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديراً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا ، فما قولك فيه ؟ نقول : أما السبعة السيارة(١) فلكل فلك ، وأما الكواكب الأخر فقيل للكل فلك واحد ، ولنذكر كلاماً مختصراً فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول : قيل إن للقمر فلكا لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية ، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر ، فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة أخرى حتى فى بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ، ثم إن أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته ، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة ، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه ، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب ، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة

---

(١) نظم بعضهم السبعة السيارة فى بيت وهو : زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

والمراد من قوله شرى كوكب المشترى : ولم يكن معروفا غير هذه السبعة عند القدماء ، وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس .

www.besturdubooks.wordpress.com

على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز . أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا ، لأن قوله تعالى (يسبحون) يفهم منه أنه بشق والتئام ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على مابينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة ، فاذا جعلت فى الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها فى الأوج ، وإذا حصلت فى الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون فى الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير ، وللمشترى ثلاثة كما لزحل ، وللمريخ كذلك ثلاثة ، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز ، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة . هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والإقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال (يسبحون) وذلك لا يطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذى يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شىء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق الأصنام (ما لكم لا تنطقون) وقوله (ألا تنطقون) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) أنه تعالى لما من بإحياء الأرض وهى مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أويسيرفيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله (وحملنا كم فى البر والبحر) ويؤيد هذا قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) إذا فسرناه بأن المراد الإبل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هوأنه تعالى لما بين سباحة الكواكب فى الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ، ولها (وجه ثالث) وهى أن الأمور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثانى للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله (وآية لهم الليل) أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذى لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (إحداهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) (وثانيتهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فان الدواب زينة كما قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وقال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لا يقال بأن النافع ذكره فى قوله (جنات من نخيل وأعناب) فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعاً للضرورى ، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة ففى الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(أما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أى حملنا آباءكم فى الفلك والألف واللام للتعريف أى فلك نوح وهو مذكور فى قوله (واصنع الفلك) ومعلوم عند العرب فقال الفلك ؛ هذا قول بعضهم ، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلابد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وقال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقال تعالى (فاركبوا فى الفلك) إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس ، فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الأول) أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة فى ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله

www.besturdubooks.wordpress.com

(حملنا ذريتهم) بدل قوله (حملناهم) إشارة إلى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشرى ، ويحتمل عندى أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة فى وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أى لم يكن الحمل حملا لهم ، وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لا يشترى بشىء؟ يقول لا أحمل الصندوق وإنما أحمل مافيه (الثانى) هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي ﷺ عن قتل الذرارى ، أى النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أى أمثالنا فقوله (أنا حملنا ذريتهم) أى أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو أن الضمير فى قوله (وآية لهم) عائد إلى العباد حيث قال (ياحسرة على العباد) وقال بعد ذلك (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) وقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ويريد بعضكم بعضاً ، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم فى الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً ، فكذلك قوله تعالى (وآية لهم) أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم . وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها ، فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى فى سفينة نوح (وجعلناها آية للعالمين) أى بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فنقول قوله تعالى (حملنا ذريتهم) أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال (وآية لهم الأرض الميتة) إلى أن قال (فمنه يأكلون) لأن الأكل عام ، وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال (وترى الفلك فيه مواخر) جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال (فى الفلك المشحون) نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة ، والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدراً حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر

www.besturdubooks.wordpress.com

وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغى أن يلحق المشتق تغيير فى حركة أو حرف أو فى مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئنا بلفظ السجود ، فاذاً السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونها جمعاً مثل خشب ومرد وغيرهما ، فان قلت فاذا جعلته جمعاً ماذا يكون واحدها ؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول فى (إمام مبين) وفى قوله (ندعوا كل أناس(١) بامامهم) أى بأئمتهم عند قوله تعالى (إمام مبين) إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى (كل أناس بامامهم) إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (وأما المعنوية) فنذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (حملنا ذريتهم) من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون فى الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال (حملنا ذريتهم) لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال (فى الفلك المشحون) فان امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجرى ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فان قيل قال تعالى (وحملناهم فى البر والبحر) ولم يقل (وحملنا ذريتهم) مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة ، لا دفع النقمة ، نقول لما قال (فى البر والبحر) عم الخلق ، لأن ما من أحد إلا وحمل فى البر أو البحر ، وأما الحمل فى البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (المشحون) يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهى أن الآدمى يرسب فى الماء ويغرق ، فحمله فى الفلك واقع بقدرته ، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب فى الماء ، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال (الفلك المشحون) أثقل من الثقال التى ترسب ، ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله ، فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بارادة الله .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ، وذلك لأن حملهم فى الفلك هو العجب . أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبنى من خشب . وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لأحد إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من حيث اللغة والمعنى . أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله (وآية لهم) وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (من) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله ، وهذا على رأى الأخفش ، وسيبويه يقول : من لايكون صلة إلا عند النفى ، تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) ، (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) كأنه لما قال (خلقنا لهم) والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الضمير فى (مثله) على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وإن نشأ نغرقهم) ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فاصلا بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات فى قوله (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) وهذا كما قالوا فى قوله تعالى(ليأكلوا من ثمره) أن الهاء عائد إلى ماذكرنا ،أى من ثمر ماذكرنا ، وعلى هذا فقوله(خلقنا لهم)فيه لطيفة ، وهى أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وإن كنا ما حملناهم ، وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان : (أحدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (ثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر ، فان قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ نقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا .

ثم قال تعالى ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ إشارة إلى فائدتين : (إحداهما) أن فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألست توافق أن من السفن ماينقلب

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله إغراقهم أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

قوله تعالى : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .

قوله تعالى : ﴿ ولاهم ينقذون ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لاصريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) فقوله (لاصريخ لهم ولاهم ينقذون) فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال لاصريخ لهم ولم يقل ولامنقذلهم وذلك لأن من لايكون منشأنه أن ينصر لايشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لاصريخ لهم ، وأما منلا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه فى الإنقاذ ولا يغلب على ظنه . وإنما يبذل المجهود فقال (ولا هم ينقذون) ولم يقل ولا منقذ لهم .

ثم استثنى فقال ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وهو يفيد أمرين : (أحدهما) انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أي فيمنعلم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لايؤمن فليتمتع زمانا ويزداد إثماً (وثانيهما) أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله (وآية لهم الأرض ، وآية لهم الليل ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لايتقونفهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لامثل العلماء الذين يتبعونالبرهان ، ولامثلالعامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى (لعلكم ترحمون) بحرف التمنى أى فى ظنكم فانمنيخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط ، وجوابقوله (إذا قيل لهماتقوا) محذوف معناه وإذا قيللهم ذلك لايتقون أو يعرضون ، وإنما حذف لدلالة مابعده عليه وهو قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) وفى قوله تعالى (ما بين أيديكم وما خلفكم)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

وجوه : (أحدها) (ما بين أيديكم) الآخرة فإنهم مستقبلون لها (وما خلفكم) الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) (مابين أيديكم) من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق ، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى (ومتاعا إلى حين) (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فانه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) مع أن الرحمة واجبة ، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال (اتقوا) بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال (لعلكم ترحمون) يعنى أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا ، والحق ما ذكرنا من وجهين : (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لايجب عليه شيء (وثانيهما) هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فان الملك إذا كان فى قلبه أن يعطى من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لاتقتضى ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق .

قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى (ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) ، (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يعنى إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا اليها وقوله (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) إلى قوله (لعلكم ترحمون) كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال (وإذا قيل لهم اتقوا) وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصراً على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وعلى هذا كانوا فى المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أى لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من

www.besturdubooks.wordpress.com

أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ .

إشارة إلى أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا ، فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم (أنفقوا) فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشىء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم فى التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى مايكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتى العذاب لا يكون إلا للبعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما فى الشفقة فقيل لهم (أنفقوا مما) أى بعض ماهو لله فى أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل مافى أيديهم ،بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما أن فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فان من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه . لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره (الثالثة) قوله (مما رزقكم) إشارة إلى أمرين (أحدهما) أن البخل به فى غاية القبح فان أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولا وفيه مسائل أيضاً :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند قوله تعالى (واذا قيل لهم أنفقوا) حذف الجواب ، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال (وإذا قيل لهم أنفقوا) قالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) لكان كافياً ، فما الفائدة فى قوله تعالى (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء ، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام ، قال تعالى عنهم (قال الذين كفروا للذين آمنوا) إشارة إلى الرد ، وأما فى قولهم (اتقوا مابين أيديكم) فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا فأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق فى قوله (وإذا قيل لهم أنفقوا) فكان جوابهم بأن

www.besturdubooks.wordpress.com

يقولوا أننفق فلم قالوا (أنطعم) ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لانطعم ، وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كان كلامهم حقاً فان الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإتفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله (مما رزقكم) فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما فى خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه ، وقوله (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

﴿أما اللغوية﴾ فنقول (إن) وردت للنفى بمعنى ما ، وكان الأرض فى إن أن تكون للشرط والأصل فى ما أن تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط واستعمل إن فى النفى ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذى يدخل عليه ما وأن لا يكون ثابتاً ، أما فى ما فظاهر ، وأما فى إن فلأنك إذا قلت إن جاءنى زيد أكرمه ينبغى أن لايكون له فى الحال مجىء فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أى ما زيد بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ماتصنع أصنع ، والذى يدل على ماذكرنا أن ماالنافية تستعمل حيث لاتستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا تقول إن جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلا وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن فى الشرط أصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس .

﴿ البحث الثانى ﴾ قد ذكرنا أن قوله (إن أنتم إلا) يفيد مالا يفيد قوله (أنتم فى ضلال) لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا فى غير الضلال .

﴿ البحث الثالث ﴾ وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أى فى ضلال لايخفى على أحد أنه ضلال .

﴿ البحث الرابع ﴾ قد ذكرنا أن قوله (فى ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ، وقوله فى مواضع على بينة (وعلى هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه

﴿وأما المعنوية﴾ فهى أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال ، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا (أنطعم من

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

لو يشاء الله أطعمه) إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلا للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع مالم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمرونا بالإطعام (ووجه آخر) هو أنهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعياً فى إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ولم يكن فى الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغى أن يكشف سبب الأمر والاطلاع على المقصود الذى أمر به لأجله . مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره ، فالأدب فى الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذ قال (أنفقوا مما رزقكم) لا يجوز أن يقولوا : لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها فى قوله (وإذا قيل لهم اتقوا) والإنفاق المذكور فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله (متى هذا الوعد) أى متى يقع الموعود به ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهى أن إن للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب؟ نقول هى فى الصورة استفهام ، وفى المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب مع من فى قولهم (إن كنتم) ؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ليس فى هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله (هذا الوعد) إلى أى وعد؟ نقول هو ما فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) من قيام الساعة ، أو نقول هو معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ أى لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير ، فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها ، فنقول الانتظار فعلى لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاماً حقيقياً قال ينتظرون انتظاراً غير حقيق ، لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله . وقد ذكروا ههنا فى الصيحة أموراً تدل على

www.besturdubooks.wordpress.com

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

هولها وعظمها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرىء (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها إلى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالأخذ وتصل إلى من فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيما .

وقوله ﴿ تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة ، فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم ، ويحتمل أن يقال (يخصمون) فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهيأله وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء) ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها ، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشيا عليه ، ثم بين شدة الأخذ وهى بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا . وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال (لا يستطيعون) كلمة فكيف فعلا يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لاقدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجزعنها عاجزعن غيرها (الخامس) قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها ، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية ، فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفى قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) وجهان (أحدهما) ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية (وثانيهما) أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعنى يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا ، ومن يسافر سفراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصية .

ثم بين ما بعد بالصيحة الأولى فقال ﴿ ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

أى نفخ فيه [مرة] أخرى كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى فى موضع اخر (ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون) وقال ههنا (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين (فإذاهم) يقتضى أن يكونا معاً نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المشى السريع لأن الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن السرعة بجىء الأمور كأن الكل فى زمان واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معـــا [كجلمود صخر حطه السيل من عل]

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟ نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق ، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل أن النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما التحقيق فى إذا التى للمفاجأة ؟ نقول هى إذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشىء قد يكون ظرفاً للشىء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك ، فاذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب . لكنه لم يكن معلوماً فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أين يكون فى ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع الله أجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالا على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً وأكثر ندماً من غيره .

﴿ المسألة السادسة ﴾ المسىء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، والنسلان هو سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول (ينسلون) من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (فاذا هم ينظرون) أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ فى الصور ، فيكون فى وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو فى زمان واحد ، فقوله (فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) يعنى فى زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لا يكون إلا بعد مراتب .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

يعني لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله (ونفخ فى الصور) يدل على أنهم بعثوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل : لو قال الله تعالى فاذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)على ماذكرنا إشارة إلى أنه تعالى فى أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع نسلانهم فى وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك مثل الحال لينسلون ، أى ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك ، فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا ، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل : قد عرفنا معنى النداء فى مثل يا حسرة وياحسرتا وياويلنا ، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال (ياحسرة على العباد) من غير إضافة ، وقالوا يا حسرتا ويا حسرتنا و ياويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولا بنفسه ، فكان كل واحد يقول : يا حسرتنا ويا ويلنا ، فقوله (قالوا ياويلنا) أى كل واحد قال يا ويلى ، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه تعلق (من بعثنا من مرقدنا) بقولهم (يا ويلنا) نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا (ياويلنا من بعثنا) أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول : هذا ذلك أم لا ؟ ويدل على ما ذكرنا قولهم (من مرقدنا) حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا (من بعثنا) إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به ، وقالوا (من مرقدنا) إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ما ذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما) هذا إشارة إلى البعث ، أى هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى(ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) ؟ نقول يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة

www.besturdubooks.wordpress.com

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

الإضمار ، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم ، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

﴿ المسألة السادسة ﴾ إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث ، فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون ؟ نقول : لما كان غرضهم من قولهم (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً ، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان ؟ فله أن يقول لاتخف ويسكت، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه و به يحصل الجواب .

قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون ﴾

أى ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، يدل على النفخة قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة ، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هى التامة ، بمعنى ما وقعت إلا صيحة ، وقال الزمخشرى : لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال : إن كان ، لأن المعنى حينئذ ماوقع شيء إلا صيحة ، لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر ، ويمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع أن قوله (إذا وقعت الواقعة)تأنيث تهويل ومبالغة ، يدل عليه قوله (ليس لو قعتها كاذبة) فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال (إن كانت إلا صيحة) مؤنثة تأنيث تهويل ، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها ، والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة ، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة ، وقوله (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجبارى لا اختيارى .

ثم بين ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعـــالى ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

فقوله (لا تظلم نفس) ليأمن المؤمن (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) لييأس المجرم الكافر وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله (ولا تجزون) وترك الخطاب فى الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله (لا تظلم) ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون ؟ نقول لأن قوله (لا تظلم نفس شيئاً) يفيد العموم وهو كذلك فانها لا تظلم أبداً (ولا تجزون) مختص بالكافر ، فان الله يجزى المؤمن وإن لم يفعل فان الله فضلا مختصاً بالمؤمن وعدلا عاماً ، وفيه بشارة .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المقتضى لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال (محضرون) مجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالى أو للقاضى : جلست للعدل فلا تظلم ، أى ذلك يقتضى هذا ويستعقبه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يجزون عين ماكانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشىء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى (يجزون بما كانوا يعملون) فى فى المساواة كأنه عين ماعملوا يقال فلان يجاوبنى حرفاً بحرف أى لا يترك شيئاً ، وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هى للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أى إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ثم بين حال المحسن وقال ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ .

وقوله (فى شغل) يحتمل وجوهاً : (أحدها) (فى شغل) عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولاحساب ، وقوله (فاكهون) يكون متمماً لبيان سلامتهم فالله لو قال (فى شغل) جاز أن يقال هم فى (شغل) عظم من التفكر فى اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال (فاكهون) أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شىء بل يكون معناه هم فى عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فإنهم تصوروا فى الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا مالم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه : غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث أن الانسان

www.besturdubooks.wordpress.com

قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يؤتيه مايشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله (فاكهون) خبر إن ، و(فى شغل) بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً . وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرىء بالنصب والفاكه(١) الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون فى السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف ، وهو أنه أشار بقوله (فى شغل) عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ، ثم بين بقوله (فاكهون) عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قدلايكون واجداً للذة . فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله (هم وأزواجهم) وذلك لأن من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال (هم وأزواجهم) أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من فى النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ، ولايكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : (أحدهما) أشكالهم فى الإحسان وأمثالهم فى الإيمان كما قال تعالى (من شكله أزواج) ، (وثانيهما) الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) وقوله تعالى (ويذرون أزواجاً) فان المراد ليس هو الإشكال ،وقوله (فى ظلال) جمع ظل وظلال جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لايخشى المطر ولاحر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وقال (لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إشارة إلى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضاً وهى أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج فى البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب فى شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى (فى شغل فاكهون) إشارة إلى أنهم ليسوا فى تعب وقال (هم وأزواجهم) إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال (فى ظلال على الأرائك متكئون) إشارة إلى المكان وقال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله (متكئون) إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكىء فلا يتكىء إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لايقدر على الإتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً (والأرائك) جمع أريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو

---

(١) فى طبعة بولاق ، والفاكهة ، وهو خطأ واضح ، والفاكه اسم فاعل من فكه والتفكه التنعم والتعجب . والفكاهة المزاح .

www.besturdubooks.wordpress.com

وما فوقه وقوله (لهم فيها فاكهة) إشارة إلى أن لاجوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما مأكولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى (ولحم طير مما يشتهون) يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لأنا نقول قوله (مما يشتهون) يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (إحداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغاير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدح فى غرضنا ، لأنا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله (لهم فيها فاكهة) ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله (ولهم ما يدعون) فيه وجوه : (أحدها) (لهم فيها ما يدعون) لأنفسهم أى دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن الملك إذا طلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ماطلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى (ولهم مايدعون) ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعنى كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أو نقول المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب (الثانى) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ، ومعناه ماذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون فى الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لامولى لهم . فقال لهم فى الجنة مايدعون به فى الدنيا ، فتكون الحكاية محكية فى الدنيا ، كأنه يقول فى يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غداً ماتدعون اليوم ، لا يقال بأن قوله (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال) يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (هم) مبتدأ (وأزواجهم) عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه فى ظلال غداً وله ما يدعيه (والجواب الثانى)

www.besturdubooks.wordpress.com

سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم مايدعون أى ما كانوا يدعون . لايقال بأنه إضمار حيث لاضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله (سلام قولا من رب رحيم) هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله (مايدعون) ولأن قوله (ما يدعون) مذكور بين جمل كلها فى الآخرة فما يدعون أيضاً ينبغى أن يكون فى الآخرة وفى الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذى لا شىء فوقه ولنبينه فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الرافع لقوله (سلام) ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً (أحدها) هو بدل عما يدعون كأنه تعالى لما قال (لهم ما يدعون) بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور، كما يقال فى الداررجل ولزيد مال ، وإن كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما فى قوله تعالى (ما يدعون) لا موصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شىء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال (سلام) والأول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أوالسليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى (سلام) منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى فى يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل) ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما فى قوله تعالى (سلام على نوح ، سلام على المرسلين) فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قولا ، منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله (من رب رحيم) يكون لبيان أن السلام منه أى سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولا وقد

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾

يكون فعلا فإن من يدخل على الملك فيطأطىء رأسه يقول سلمت على الملك ، وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لا حساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لا ظناً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى السلام من رب رحيم وقال فى غيره من أنواع الإكرام (نزلا من غفور رحيم) فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم ، أما هناك فلأن النزل ما يرزق النزيل أولا ، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فان النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه فى الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه فى غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال (رب غفور) لأن رب الشيء مالكه الذى إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم ، فاذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه .

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضاً (الأول) امتازوا فى أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ) أى بعضه من بعض من غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم (امتازوا اليوم) إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثانى) امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذى أشار إليه بقوله تعالى (هم وأزواجهم) فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة ، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمى دون التفرق العقلى (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير ، والمجرم هو الذى يأتى بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها ، كما قال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول (كن فيكون) كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو فى وجوههم سواء .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾

لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولا ، والجهل من الأعذار ، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغى أن تفعلوه وما لا ينبغى ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى اللغات التى فى (أعهد) وهى كثيرة (الأولى) كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين جيما ألم أجهد وذلك فى كل عين بعدها هاء (الرابعة) إدغام الهاء فى الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محا ، أى دعها معها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص إليكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى هذا العهد وجوه (الأول) أنه هو العهد الذى كان مع أبينا آدم بقوله (وعهدنا إلى آدم) ، (الثانى) أنه هو الذى كان مع ذرية آدم بقوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى) فان ذلك يقتضى أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا فى حقيقته وكيفيته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا تعبدوا الشيطان) معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم فى قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول عبادة الشيطان فى مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففى بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو فى غيرك ، وفى بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فاذا جاءك شخص يأمرك بشىء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فان لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فان أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فان لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هى الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فان اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولا بمخالفة

www.besturdubooks.wordpress.com

الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له اعبد الله كي لا تهان ، وليرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك ، فان أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكونه متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار ، ومن ذلك قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم » وقوله ﷺ « السيف محاء للذنوب » أي لمثل هذه الذنوب ، ويدل عليه ما قال ﷺ في الحدود « إنها كفارات » وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب في الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعداء هم من عوام الناس ، فاذا صدر من الأمير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان في غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فان صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فان كان الصادر من الحواشي الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يسدي إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكى النبي ﷺ عن ربه أنه قال « لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم » ، (وههنا لطيفة) وهي أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك رافعاً لدرجة العبد ، فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى (لهم درجات عند ربهم) والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكياً عن ربه « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وفرق

www.besturdubooks.wordpress.com

بين من يكون عندالله ، وبين من يكون عنده الله ، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشيء فلم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولا غير مردود . ومن هذا يتبين أمر أصولى وهو أن الناس اختلفوا فى أن المذنب هل يخرج من الايمان أم لا ؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الإيمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الأنبياء من الذنوب ، والأشبه أن الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه ، والقلبى لا يجوز عليهم ، ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان ؟ فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم ، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثانى من الله كرم ، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق فى الخزانة ، فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً ، وأما الثانى فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك ، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقاً ، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتماماً للاكرام وإكمالا للافضال ، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً يبغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس . فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من أين إبانة عداوة إبليس ؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (لأحتنكن ذريته) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا كان الشيطان للانسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا ، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة ؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله ، فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصى كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال ، فترى المحموم يريد الماء البارد

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وهو يريد فى مرضه . ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد فى معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهى إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبىء لا يستغنى الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات . فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فاذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة ، وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

قوله تعالى : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمرض ، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند المنع من عبادة الشيطان قال (إنه لكم عدو مبين) لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة . فيقول إنه يحبنى فلا حاجة إلى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيما ، وذلك لأن الانسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه ، والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى (هذا صراط مستقيم) كان ذلك سبباً حاثاً على السلوك ، وفى ضمن قوله تعالى (هذا صراط) اشارة إلى أن الانسان مجتاز لأنه لو كان فى دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيما ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن إلا فى مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان ، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجا والله تعالى يقول إن العمل الصالح

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف مايستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العبادة تنبىء عن معنى التذلل ، فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال (وأن إعبدونى) ينبغى أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أنه يرى نفسه خيراً من غيره ، فان نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغى أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ماسوى الله أن لا ينقاد لشىء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه فى التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى الجبل الجيم والباء واللام لاتخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة لجباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير ، لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبىء عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هى لاجتماع الأماكن الخالية التى تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمى بلداً للاجتماع لاللتفرق ، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وإن لم يكن صحيحاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : (أحدهما) أن الإضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد ، وهو يفضى إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية .

ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ .

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع فى مشقة ولو أقام فى وطنه لعل

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وذلك ظاهر فى المحسوس فان من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً .

ثم بين أنهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

وفى هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه : (أحدها) قوله تعالى (اصلوها) فانه أمر تنكيل وإهانة كقوله ذق (إنك أنت العزيز الكريم) ، (والثانى) قوله (اليوم) يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) وقوله تعالى (بما كنتم تكفرون) فإن الكفر والكفران ينبىء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام . ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :-

أليس بكاف لذى نعمة حياء المسىء من المحسن

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ فى الترتيب وجوه : (الأول) أنهم حين يسمعون قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) يريدون [أن]ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم (ألم أعهد إليكم) لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفى الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشىء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسى الرءوس وقوف القنوط اليئوس لا يجد عذراً فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدى والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكى على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية (فالأولى منها) هى أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال (نختم) وأسند

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لأنه لو قال تعالى (نختم على أفواههم) وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) أى باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى أن الله تعالى قال (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدى لأن الأفعال تسند إلى الأيدى قال تعالى (وما عملته أيديهم) أى ما عملوه وقال (ولا تلقوا بأيديكم) أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الأيدى كالعاملة ، والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها ، وأما المعنوية (فالأولى) منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة ، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم ، لا يقال الأيدى والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهى فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتها ، لأنا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها ، لأنها إن كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم ، والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الأمور ، لابد من أن يكون مذنباً فى الدنيا ، وإن صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق : إن كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر ، فقال الفاسق: كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد ، لأنه إن صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء ، وإن كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم ، فوجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الختم لازم الكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على أفواههم ، ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم ، كما قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم ، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء ، فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان .

قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى ، والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس ، وههنا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

كذلك لما قال الله تعالى (وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير والشر عليهم ، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعمى البصيرة ويضعف القوة العقلية ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته ، إذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته ، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضى والرجوع . فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية ، فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر . وفى الآيتين أبحاث لفظية :

﴿ البحث الأول ﴾ فى قوله (فاستبقوا الصراط) قال الزمخشرى فيه وجوه (الأول) أنه يكون فيه حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله أعمال الابتدار (الثالث) أن يجعل الصراط مستبقاً لا مستبقاً إليه ، يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء إلى الطريق ، كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه ، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

﴿ البحث الثانى ﴾ قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال إن أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لايهتدون إليه ، فان قال قائل الأعمى قد يهتدى إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشى بحس اللمس ، فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لايهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قدم المضى على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضى ، لأن المضى لا ينبىء عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبىء عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال (لا يستطيعون مضياً) ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى .

قوله تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾

فقد ذكرنا أن قوله تعالى (ألم أعهد إليكم) قطع للأعذار بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

وأتمه شرع فى قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت مناتقصيراً ، فقال الله تعالى (أفلا تعقلون) أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الإمكان ، فلو عمرنا كم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتى به زمان الإزمان .

قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

فى الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله فى كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهى الوحدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر ، أما الوحدانية ففى قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وفى قوله (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) وأما الحشر ففى قوله تعالى (اصلوها اليوم) وفى قوله (اليوم نختم على أفواههم) إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما علمناه الشعر) إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفى تفسير الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ خص الشعر بنفى التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبى ﷺ أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبى ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول . وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك . وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عند ما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما معنى قوله (وما ينبغى له) ؟ قلنا قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون مايتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » . (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو أن يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ماكان يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير

www.besturdubooks.wordpress.com

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتى به لأجل ذلك اللفظ، وعلى هذا نقول: الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد إلى وزنه قصداً أولياً، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً، ألا ترى إلى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ليس بشعر، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما فى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله:

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية، وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً، لعدم قصده اللفظ قصداً أولياً، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس فى الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولا. ثم قوله تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى ﷺ شعره حكمة، ونفى الله كون النبى شاعراً، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لا نظر إلى القالب. فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه، والشاعر الموعظ كلامه حكيما.

قوله تعالى: ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾.

قرىء بالتاء والياء، بالتاء خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله (وما علمناه) وقوله (وما ينبغى له). (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى (والثانى) أقرب إلى اللفظ، أما الأول فلأن المنذر صفة للرسل أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (وأما الثانى) فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله (لينذر) وقوله (من كان حياً) أى من

www.besturdubooks.wordpress.com

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

كان حي القلب ، ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حياً فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حياً فى نفس الأمر ، أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب (ويحق القول على الكافرين) أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى (حقت كلمة العذاب) وذلك لأن الله تعالى قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فاذاً جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب ، وأما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب .

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا .

قوله تعالى : ﴿ فهم لها مالكون ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام فى خلق الأنعام ، فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها .

وقوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع ، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهى نادة صادة لما تم الإنعام الذى فى الركوب وإن كان يحصل الأكل كما فى الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذى فى الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ إلا للبعض وفى البعض .

قوله تعالى : ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود .

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ وذلك لأن من الحيوانات مالا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والأدوات من القرب [وغيرها] ، وإن قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهى مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ هذه النعم التى توجب العبادة شكراً ، ولو شكرتم لزادكم

www.besturdubooks.wordpress.com

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ

من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لايضر ولاينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) وفى الحقيقة لاهى ناصرة ولا منصورة .

قوله تعالى : ﴿ لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد ، وهذا كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال (لا يستطيعون نصرهم) أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الإستطاعة ، فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .

قوله تعالى : ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه .

قوله تعالى : ﴿ إنا نعلم مايسرون وما يعلنون ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين فقوله (مايسرون) من النفاق (ومايعلنون) من الشرك (والثانى) مايسرون من العلم بك ومايعلنون من الكفر بك (الثالث) مايسرون من العقائد الفاسدة ومايعلنون من الأفعال القبيحة .

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) ذكر دليلا من الأنفس .

فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما بالياً وأتى النبى ﷺ وقال إنك تقول إن إلهك يحي هذه العظام فقال رسول الله ﷺ نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت فى أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

لا بخصوص السبب ، ألا ترى أن قوله تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أو لم يروا خلق الأنعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى (أو لم ير الإنسان) كلام أعم من قوله (أو لم يروا) لأنه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فان الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها عند غيبتها ولكن [لا يغفل] هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون . فقال : إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه ، فما باله أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة ، فان سائر النعم بعد وجوده وقوله (من نطفة) إشارة إلى وجه الدلالة ، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو ، وكذلك الحال فى كل عضو ، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وإلى هذا أشار بقوله تعالى (يسقى بماء واحد) .

وقوله ﴿ فاذا هو خصيم مبين ﴾ (فيه لطيفة) غريبة وهى أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فهب أن جاهلا يقول إنه استحال وتكون جسما آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة ؟ فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والإختيار منه أقرب فقوله (خصيم) أى ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فان الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله (مبين) إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى (من نطفة) إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله (خصيم مبين) إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى أن قال تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما إشارة إلى التغيرات فى الجسم وقوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (فاذا هو خصيم مبين) أى ناطق عاقل .

قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفى هذه الآيات إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون، أئنك لمن المصدقين، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال ﴿قال من يحي العظام وهى رميم﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بإبطال استبعادهم بقوله (ونسى خلقه) أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم من النواصى إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي[ن] بهما استحقوا الإكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا. ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما فى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا (من يحي العظام وهى رميم) اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم فقال (وضرب لنا مثلا) أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت فى آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود، وأجاب عن هذه الشبهة.

قوله تعالى: ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ يعنى كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل أنساناً وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فأجزاء المأكول، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه. وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء.

فقال تعالى فى إبطال هذه الشبهة ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ ووجهه هو أن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية، وفى المأكول كذلك. فاذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلى من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هى ما كان له قبل الأكل (والله بكل

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

خلق عليم) يعلم الأصلى من الفضلى فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة فى البقاع ، المبددة فى الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم .

قوله تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهى كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فان النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) .

قوله تعالى : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الأكبر ، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الأحياء حيث قالوا (من يحيي العظام) ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة .

قوله تعالى : ﴿ بلى وهو الخلاق ﴾ إشار إلى أنه فى القدرة كامل .

قوله تعالى : ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل .

ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لايقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخالق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك . وفى الآية مباحث .

﴿ البحث الأول ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شىء لأنه يقول لما أراده (كن فيكون) فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شىء حيث قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً) والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق إدارته به ، فقوله (إذا) مفهوم

www.besturdubooks.wordpress.com

الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذ لا يرد ماذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة به شيء موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة ، فاذاً الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجاداً لموجود؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه ، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد ، وليس فى الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الارادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى (إذا أراد) ووجه دلالته من أمرين : (أحدهما) من حيث إنه جعل للارادة زماناً ، فان إذا ظرف زمان وكل ماهو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله (كن) وقوله (كن) متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال (فيكون) بفاء التعقيب لكن الكون حادث . وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم فى هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة ، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله (إذا أراد) من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشيء لأن قوله (أراد) فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشيء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها مريد ، ولنضرب مثالا للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ، ولله المثل الأعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أى يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

﴿ البحث الثالث ﴾ قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله (كن) كلام (وكن) من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين : (أحدهما) أنه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى (يقول له) باللام للاضافة صريح فى التعلق

www.besturdubooks.wordpress.com

فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ونحن نقول إن قوله للشيء الحادث حادث لأنه مع التعلق ، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما فى الأزل وإنما تجدهما جميعاً فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم ، فتفكر جداً ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك ، فان ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث ، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل أحد طرفى المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معـــه فى الأزل ، وأما قوله (كن) من الحروف ، تقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثانى) ما عند السامع ، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد . أما بيان ما ذكرناه ، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندى كلام أريد أن أقوله لك غداً ، ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام الذى كان عنده أمس ، فيقول له إنى أريد أن تحضر عندى اليوم ، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذى سمعت هو الذى كان عندى ، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف ، لأن الكلام الذى عنده جاز أن يذكره بالعربى فيكون له حروف ، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر ، والكلام الذى عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة ، فاذاً معنى قوله هذا ماكان عندى ، هو أن هذا يؤدى إليك ماكان عندى ، وهذا أيضاً مجاز ، لأن الذى عنده ما انتقل إليه ، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر فى القراءة والكتابة أو الإشارة ، إذا علمت هذا فالكلام الذى عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان ، والذى يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق ، فاذا قال تعالى (يقول له) حصل قائل وسامع . فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذى يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب .

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾

لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك (الذى بيده ملكوت كل شيء) وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا ، وقالوا بأن الإعادة لاتكون ، فقال (وإليه ترجعون) رداً عليهم فى الأمرين ، وقد ذكرنا مايتعلق بالنحو فى قوله : سبحان . أى سبحوا تسبيح الذى أو سبح من فى السموات والأرض تسبيح الذى (فسبحان) علم للتسبيح ، والتسبيح هو التنزيه ، والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت ، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقاً به .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم إن النبي ﷺ قال « إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس » وقال الغزالي فيه : إن ذلك لأن الايمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك . واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى(١) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله (إنك لمن المرسلين) ودليلها ما قدمه عليها بقوله (والقرآن الحكيم) وما أخره عنها بقوله (لتنذر قوماً) وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وإليه ترجعون) إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان . وأما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وفي قوله تعالى (ومن أحسن قولا) وقوله تعالى (بالقول الثابت ، وألزمهم كلمة التقوى ، وإليه يصعد الكلم الطيب) إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل ، كما في قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا . . ولا تقتلوا النفس) وقوله (واعملوا صالحاً) وأيضا مما في غير هذه السورة ، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً ، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت ، وقراءتها عند رأسه ، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ماسواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لا نقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين .

تم تفسير هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

(١) قوله « واستحسنه فخر الدين الرازي الخ » يفيد أن المتكلم غير المؤلف ، فلعل هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف رحمهما الله

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٦ — سورة يس
(مكية وآياتها ثلاث وثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ ٣٦ يس

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٣٦ يس

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ٣٦ يس

﴿ سورة يس مكية . وعنه ﷺ تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآياتها ثلاث وثمانون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يس) إما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولا مساغ للنصب بإضمار فعل القسم لأن مابعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شىء واحد قبل انقضاء الأول ولا مجال للعطف لاختلافهما إعراباً وقيل هو مجرور بإضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يتأتى فيها الإعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب أسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا إنسان فى لغة طىء قالوا المراد به رسول الله ﷺ ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على
٢ شطره كما قيل من الله فى أيمن الله (والقرآن) بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفاً على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم (الحكيم) أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الإسناد المجازى وقد جوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة
٣ لقمان (إنك لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم فى حقه ﷺ لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم وفى تخصيص القرآن بالإقسام به أولا وبوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضاً لما أن الإقسام بالشىء

عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ ٣٦ يس

تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ٣٦ يس

لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ٣٦ يس

لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ ٣٦ يس

استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلا عليه قطعاً وقوله
٤ تعالى (على صراط مستقيم) خبر آخر لإن أو حال من المستكن فى الجار والمجرور على أنه عبارة عن
الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته ﷺ أقوم الشرائع وأعدلها كما
٥ يعرب عنه التنكير التفخيمى والوصف إثر بيان أنه ﷺ من جملة المرسلين بالشرائع (تنزيل العزيز
الرحيم) نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياً
ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بياناً لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عز وجل
كأنه نفس التنزيل وإظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص
الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الإيمان به ترهيباً وترغيباً وإشعار بأن
تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين وقيل النصب على أنه
مصدر مؤكد لفعله المضمر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة
٦ شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه
الأول وبعامله المضمر على الوجه الأخير أى لتنذر به كما فى صدر الأعراف وقيل هو متعلق بما يدل
عليه لمن المرسلين أى إنك مرسل لتنذر (قوما ما أنذر آباؤهم) أى لم ينذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة
الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذى أنذره أو شيئاً أنذره آباؤهم
الأبعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولا ثانياً لتنذر أو إنذار آبائهم الأقدمين على أنها
مصدرية فيكون نعتاً لمصدر مؤكد أى لتنذر إنذار كائناً مثل إنذارهم (فهم غافلون) على الوجه الأول
متعلق بنفى الإنذار مترتب عليه والضمير للفريقين أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون وعلى الوجوه
الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده إنك لمن المرسلين وارد لتعليل إنذاره ﷺ أو إرساله بغفلتهم
المحوجة إليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الأقدمون لامتداد
٧ المدة واللام فى قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) جواب القسم أى والله لقد ثبت وتحقق عليهم
البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب إصرارهم الاختيارى على
الكفر والإنكار وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع
خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ٣٦ يس

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ٣٦ يس

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ٣٦ يس

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ٣٦ يس

تعالى لإبليس عندقوله لأغوينهم أجمعين لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى
لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه كما ترى قد أوقع فيه الحكم
بإدخال جهنم على من تبع إبليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعاً وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم
بأكثرهم إنما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية إبليس أبداً وإذ قد تبين أن مناط ثبوت
القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت ظهر أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) متفرع فى
٨ الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) تقرير لتصميمهم على
الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهى إلى الأذقان) أى فالأغلال
منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رءوسهم له (فهم
٩ مقمحون) رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون إلى جهته (وجعلنا
من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) إما تتمة للتمثيل وتكميل له أى تكميل أى
وجعلنا مع ماذكر من أمامهم سداً عظيما ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بها أبصارهم فهم بسبب ذلك
لا يقدرون على إبصار شىء ما أصلا وإما تمثيل مستقل فإن ماذكر من جعلهم محصورين بين سدين
هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كاف فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم
محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات محرومين عن النظر فى الأدلة والآيات وقرىء سداً بالضم وهى
لغة فيه وقيل ماكان من عمل الناس فهو بالفتح وماكان من خلق الله فبالضم وقرىء فأعشيناهم من العشا
وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله ﷺ يصلى ليرضخن رأسه فأتاه
وهو ﷺ يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها
بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى
١٠ بصره (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل أى
مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف
مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الإنذار
١١ عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (إنما تنذر) أى إنذاراً مستتبعاً للأثر (من اتبع الذكر)
أى القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشى الرحمن بالغيب) أى

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ٣٦ يس

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ٣٦ يس

إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ٣٦ يس

خاف عقابه وهو غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فإنه
منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو
العذاب الأليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (وأجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر
١٢ بها على ماقبلها من اتباع الذكر والخشية (إنا نحن نحيى الموتى) بيان لشأن عظيم ينطوى على الإنذار والتبشير
انطواء إجماليا أى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن إحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان فهو حينئذ
عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ماقدموا) أى ماأسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم)
التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات
والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر
والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل
هى آثار المشائين إلى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرىء ويكتب على البناء للمفعول ورفع
آثارهم (وكل شىء) من الأشياء كائناً ما كان (أحصيناه فى إمام مبين) أصل عظيم الشأن مظهر لجميع
١٣ الأشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرىء كل شىء بالرفع (واضرب لهم مثلا أصحاب
القرية) ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى ضرب الله
مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى
تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال على أحد الوجهين أى بينا لكم أحوالا بديعة
هى فى الغرابة كالأمثال فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار
على تكذيب الرسل أى طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله
الأول أخر عنه ليتصل به ماهو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله
تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية أنطاكية (إذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال
١٤ من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ونسبة إرسالهم إليه تعالى فى قوله (إذ أرسلنا
إليهم اثنين) بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية وهما يحيى وبولس وقيل غيرهما
(فكذبوهما) أى فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فى الرسالة (فعززنا) أى قوينا يقال عزز المطر
الأرض إذا لبدها وقرىء بالتخفيف من عزه إذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ماقبله عليه ولأن
المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) أى جميعاً (إنا إليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم
لسبق الإنكار لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم

قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ٣٦ يس

قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ٣٦ يس

وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ٣٦ يس

عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما ألنا إله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت مايقولونه قال لا حال الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شىء وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل مايشاء ويحكم مايريد قال وما آيتكما قالا مايتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقتين فوضعاهما فى حدقتيه فصار تامقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لى عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إنى أدخلت فى سبعة أودية من النار وإنى أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوماً من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يكون إيمان الملك بطريق الخفية على خوف

١٥ من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذراً بعذر من الأعذار (قالوا) أى أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة (ما أنتم إلا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفى المقتضى لإعمال ما بإلا (وما أنزل الرحمن من شىء) مما تدعونه من الوحى والرسالة (إن

١٦ أنتم إلا تكذبون) فى دعوى رسالته (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم

١٧ من شدة الإنكار (وما علينا) أى من جهة ربنا (إلا البلاغ المبين) أى إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً بيناً

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ٣٦ يس

قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ٣٦ يس

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٣٦ يس

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ٣٦ يس

وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٦ يس

بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ماعلينا شيء
نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فأى شيء تطلبون مناحتى تصدقونا
بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل (إنا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجملة ١٨
حيث كانوا يتيمنون بكل مايوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها
وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لاتخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضر
متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر
فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب أليم) لا يقادر
قدره (قالوا طائركم) أى سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرىء طيركم ١٩
(أئن ذكرتم) أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى تطيرتم
وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرىء بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وأن
ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ (بل أنتم قوم مسرفون)
إضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححاً للتوعد أى ليس الأمر كذلك
بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم
وتشاءمتم بمن يجب إكرامه والتبرك به (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) هو حبيب النجار وكان ٢٠
ينحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل
وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره ﷺ أحـــد قبل مبعثه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر
الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه
ساعياً كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (ياقوم اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم
على اتباعهم كما أن خطابهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من ٢١
لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه
عن الغرض الدنيوى والاهتداء إلى خير الدنيا والدين (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) تلطف فى الإرشاد ٢٢

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ٣٦ يس

إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ٣٦ يس

إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ٣٦ يس

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٦ يس

بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ٣٦ يس

بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم مايختار لنفسه والمراد تقريعهم
على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبىء عنه قوله (وإليه ترجعون) مبالغة فى التهديد ثم عاد إلى
٢٣ المساق الأول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) إنكار ونفى لاتخاذ الآلهة على الإطلاق وقوله (إن يردن
الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً) أى لا تنفعنى شيئاً من النفع (ولا ينقذون) من ذلك الضر
بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفى المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه بعضهم ربما يوهم
أن هناك آلهة ليست كذلك وقرىء إن يردن بفتح الياء على معنى إن يوردنى ضراً أى يجعلنى مورداً
٢٤ للضر (إنى إذاً) أى إذا اتخذت من دونه آلهة (لفى ضلال مبين) فإن إشراك ماليس من شأنه النفع ولا
دفع الضر بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال بين لايخفى على أحد ممن له تمييز فى
٢٥ الجملة (إنى آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجمه فأسرع
نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وإنما أكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف
الرب إلى ضميرهم روما لزيادة التقرير وإظهاراً للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم
أو الذى تدعوننا إلى الإيمان به (فاسمعون) أى اسمعوا إيمانى واشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب
للكفرة شافههم بذلك إظهاراً للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق
٢٦ الحق والتنبيه على بطلان ماهم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً وقيل للناس جميعاً (قيل ادخل الجنة) قيل
له ذلك لما قتلوه إكراما له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة
قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حى يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من
أهلها وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة فى المسارعة إلى بيانه والجملة
استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك
التصلب فى دينه والتسخى بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومى
٢٧ يعلمون) (بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فإنه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا
قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك عن اكتساب مثله

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ٣٦ يس

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٦ يس

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٦ يس

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ٣٦ يس

بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والطاعة جرياً على سنن الأولياء فى كظم الغيظ والترحم على
الأعداء أوليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه إلا
سعادة وقرىء من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية وردت على الأصل
والباء متعلقة بغفر أى بأى شىء غفر لى ربى يريد به تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم
٢٨ (وما أنزلنا على قومه من بعده) من بعد قتله أو رفعه (من جند من السماء) لإهلاكهم والانتقام منهم
كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم وإيماء إلى تفخيم
شأن الرسول ﷺ (وما كنا منزلين) وماصح فى حكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جنداً من السماء لما أناقدرنا
لكل شىء سبباً حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف
وبعضهم بالإغرق وجعلنا إنزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ماموصولة معطوفة
٢٩ على جند أى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها (إن كانت) أى ما كانت
الأخذة أو العقوبة (إلا صيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرىء إلا صيحة بالرفع على أن
كان تامة وقرىء إلا زقية واحدة من زقا الطائر إذا صاح (فإذا هم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة
رمزاً إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد [وما المرء إلا كالشهاب
٣٠ وضوئه * يحور رماداً بعد إذ هو ساطع] (ياحسرة على العباد) تعالى فهذه من الأحوال التى حقها
أن تحضرى فيها وهى مادل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) فإن المستهزئين
بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون أو قد
تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسراً عليهم من جهة الله تعالى
بطريق الاستعارة لتعظيم ماجنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ياحسرتا لأن المعنى ياحسرتى ونصبها لطولها
بما تعلق بها من الجار وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف وقرىء ياحسرة العباد بالإضافة إلى الفاعل أو
٣١ المفعول وياحسرة على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) أى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل
فى قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لأن كم لا يعمل فيها ماقبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها
الاستفهام خلا أن معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك ألم تر أن زيداً لمنطلق وإن لم يعمل فى لفظه (أنهم

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ٣٦ يس

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٦ يس

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ٣٦ يس

لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٦ يس

إليهم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفاً
ومن غيرهم كونهم غير راجعين إليهم وقرىء بالكسر على الاستئناف وقرىء ألم يروا من أهلكنا والبدل
٣٢ حينئذ بدل اشتمال (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم
الرجوع إلى الدنيا وإن نافية وتنوين كل عوض عن المضاف إليه ولما بمعنى إلا وجميع فعيل بمعنى
مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل
محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرىء لما بالتخفيف على أن أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة
٣٣ وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الأرض الميتة) بالتخفيف وقرىء بالتشديد
وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم إما متعلقة بها لأنها بمعنى العلامة أو بمضمر
هو صفة لها والأرض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية
وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والأرض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل
الأرض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الأرض وأحييناها صفتها لأن المراد
بها الجنس لا المعينة والأول هو الأولى لأن مصب الفائدة هو كون الأرض آية لهم لا كون الآية
هى الأرض (وأخرجنا منها حباً) جنس الحب (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على أن الحب
٣٤ معظم ما يؤكل ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) أى من أنواع النخل والعنب ولذلك
جمعاً دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع وذكر النخيل
دون التمور ليطابق الحب والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرىء
بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى (من العيون) أى بعضاً من العيون لحذف
٣٥ الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى الأخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق
بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادى الإثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى
إثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل بإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة وقيل الضمير لله
تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة والإضافة لأن الثمر بخلقه تعالى وقرىء بضمتين وهى لغة فيه أو جمع
ثمار وبضمة وسكون (وما عملته أيديهم) عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما
وقيل ما نافية والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الأول قراءة

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٦ يس

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٦ يس

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ٣٦ يس

عملت بلاهاء فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها (أفلا يشكرون) إنكار واستقباح
لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها
فلا يشكرونها (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك ٣٦
شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذكر فى حيز صلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع
نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من إخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح
الذى هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء إذا
أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه
أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملا تنزيهاً خاصاً به حقيقاً بشأنه وفيه مبالغة من جهة
الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى
الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر
مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة
إسناد التنزه إلى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل مالا يليق به تنزهاً خاصاً به فالجملة على هذا إخبار
من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل مالا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الأول حكم منه عز وجل
بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالأزواج
الأصناف والأنواع (مما تنبت الأرض) بيان لها والمراد به كل ماينبت فيها من الأشياء المذكورة
وغيرها (ومن أنفسهم) أى خلق الأزواج من أنفسهم أى الذكر والأنثى (ومما لا يعلمون) أى
والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الإحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شىء
من مصالحهم الدينية والدنيوية وإنما أطلعهم على ذلك بطريق الإجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق
مالا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ٣٧
ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية أى نزيله ونكشفه عن
مكانه مستعار من السلخ وهو إزالة مابين الحيوان وجلده من الاتصال والأغلب فى الاستعمال تعليقه
بالجلد يقال سلخت الإهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فإذا هم مظلمون) أى داخلون
فى الظلام مفاجأة وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض (والشمس تجرى لمستقر لها) لحد ٣٨
معين ينتهى إليه دورها فشبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لكبد السماء فإن حركتها فيه توجد أبطأ

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ٣٦ يس

لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٦ يس

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ٣٦ يس

بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال [والشمس حيرى لها بالجو تدويم] أو لا استقرار لها على نهج مخصوص
أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها فى دورها ثلاثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل
يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرىء
إلى مستقر لها وقرىء لا مستقر لها أى لا سكون لها فإنها متحركة دائما وقرىء لا مستقر لها على أن لا بمعنى ليس
(ذلك) إشارة إلى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى
ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحار فى فهمها العقول والأفهام (تقدير العزيز) الغالب
٣٩ بقدرته على كل مقدور (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) بالنصب بإضمار فعل يفسره الظاهر
وقرىء بالرفع على الابتداء أى قدرنا له (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية
وعشرون الشرطين البطان الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوا
السماك الغفر الزبانى الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ
الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ولا يتقاصر
عنها فإذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون)
كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرىء كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون
٤٠ (القديم) العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعدا (لا الشمس ينبغى لها) أى يصح ويتسهل (أن
تدرك القمر) فى سرعة السير فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو فى الآثار والمنافع أو فى
المكان بأن تنزل فى منزله أو فى سلطانه فتطمس نوره وإيلاء حرف النفى الشمس للدلالة على أنها
مسخرات لا يتيسر لها إلا ما قدر لها (ولا الليل سابق النهار) أى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد
بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وإيراد السبق
مكان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سيره (وكل) أى وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف إليه الذى
هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فإن اختلاف
الأحوال يوجب تعدداً ما فى الذات أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها (فى فلك يسبحون)
٤١ يسيرون بانبساط وسهولة (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم
ونساءهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن
استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (فى الفلك المشحون) أى المملوء وقيل هو فلك نوح

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٦ يس

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٦ يس

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ٣٦ يس

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ٣٦ يس

عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم
٤٢ بالذكر دونهم لأنه أبلغ فى الامتنان وأدخل فى التعجيب الذى عليه يدور كونه آية (وخلقنا لهم من مثله)
مما يماثل الفلك (مايركبون) من الإبل فإنها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق
وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بإقدار الله تعالى وإلهامه
بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا
ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم
٤٣ بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وإن نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية
فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين
وقرىء نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل مايوجب إهلاكهم
من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أى إن نشأ نغرقهم فى اليم مع ماحملناهم فيه من الفلك فحديث
خلق الإبل حينئذ كلام جىء به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفلك فكأنها
نوع منه أو مع مايركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق •
ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ (ولا هم ينقذون) أى ينجون
٤٤ منه بعد وقوعه وقوله تعالى (إلا رحمة منا ومتاعا) استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم
والغاية المتأخرة أى لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الإغاثة
والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة مايقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون
كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتيع (إلى حين) أى إلى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل
٤٥ [ولم أسلم لكى أبقى ولكن • سلمت من الحمام إلى الحمام] (وإذا قيل لهم اتقوا) بيان لإعراضهم عن
الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أى إذا
قيل لهم بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا (مابين أيديكم وما خلفكم) من الآفات •
والنوازل فإنها محيطة بكم أو مايصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لا تحتسبون أو من
الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ٣٦ يس

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ
ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ٣٦ يس

الأرض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر (لعلكم ترحمون) إما حال من واو اتقوا أو غاية له أى راجين أن ترحموا أو كى ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط
٤٦ النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما إذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولوية كأنه قيل وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانى تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه فى حقها والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ما ينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء وإما ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفاً فالمراد بإتيانها ما يعم نزول الوحى وظهور تلك الأمور لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به تعالى وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما تأتيهم من آية من آيات ربهم فى حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها فى حال
٤٧ من أحوالها إلا حال إعراضهم عنها (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) أى أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال عبر عنها بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً فى الإنفاق على منهاج قوله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك وتنبيهاً على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالأمر وكذلك من التبعيضية أى إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ٣٦ يس

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ٣٦ يس

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٦ يس

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ٣٦ يس

قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ٣٦ يس

أطعمه) أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة على المساكين
قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم
التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والأنعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ إطعامهم وهو
قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو إلا لفرط جهالتهم فإن الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها
حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما
يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جواباً لهم من جهته تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.
٤٨ (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله
ﷺ والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها ومعنى القرب فى هذا إما بطريق
٤٩ الاستهزاء وإما باعتبار قرب العهد بالوعد (ماينظرون) جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون (إلا
صيحة واحدة) هى النفخة الأولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخصمون) أى يتخاصمون فى متاجرهم
ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا
بعدم ظهور علاماتها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد
ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء للإتباع وبفتح الخاء على إلقاء حركة التاء عليه وقرىء
على الاختلاس وبالإسكان على تجويز الجمع بين الساكنين إذا كان الثانى مدغماً وإن لم يكن الأول حرف
٥٠ مد وقرىء يخصمون من خصمه إذا جادله (فلا يستطيعون توصية) فى شىء من أمورهم إن كانوا فيما
بين أهليهم (ولا إلى أهلهم يرجعون) إن كانوا فى خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا
٥١ (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة أى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة
على تحقق الوقوع (فإذا هم من الأجداث) أى القبور جمع جدث وقرىء بالفاء (إلى ربهم) مالك أمرهم
على الإطلاق (ينسلون) يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرىء
٥٢ بضم السين (قالوا) أى فى ابتداء بعثهم من القبور (ياويلنا) احضر فهذا أوانك وقرىء ياويلتنا (من
بعثنا من مرقدنا) وقرىء من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وقرىء من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله

إن كانت إلا صيحة وٰحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿٥٣﴾ ٣٦ يس

فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿٥٤﴾ ٣٦ يس

إن أصحٰب الجنة اليوم في شغل فٰكهون ﴿٥٥﴾ ٣٦ يس

هب بنا لحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وعن مجاهد أن للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبي بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ماشاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرىء من بعثنا ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد إما مصدر أى من رقادنا أو اسم مكان أريد

به الجنس فينتظم مراقد الكل (هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدأ وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً على أن الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الأمر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ماسمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر

٥٣ مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ماوعدالرحمن وصدق المرسلون حق (إن كانت) أى ما كانت النفخة التى حكيت آنفاً (إلا صيحة واحدة) حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور (فإذا هم جميع) أى مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ماطرفة عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر

٥٤ والإيذان باستغنائهما عن الأسباب مالا يخفى (فاليوم لا تظلم نفس) من النفوس برة كانت أو فاجرة (شيئاً) من الظلم (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم

٥٥ تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم وقوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) من جملة ماسيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شئونه لكونه أهم عنده من الكل إما لإيجابه كمال المسرة

هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ٣٦ يس

لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ٣٦ يس

والبهجة أو كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الأول وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه
عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداها بالكلية وأما أن المراد به افتصاض
الأبكار أو السماع وضرب الأوتار أو التزاور أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار على
الإطلاق أو شغلهم عن أهاليهم فى النار لا يهمهم أمرهم ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى
نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط
بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان
إياه وهو مع جاره خبر لإن وفاكهون خبر آخر لها أى أنهم مستقرون فى شغل وأى شغل فى شغل عظيم
الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل
المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرىء
فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرىء فكهون للمبالغة وفكهون
٥٦ بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى (هم
وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها
بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على أن هم مبتدأ وأزواجهم
عطف عليه ومتكئون خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقا به من
الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الأول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكئون وهو خبر
لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر مقدم ومتكئون مبتدأ مؤخر وقرىء متكين بلا همز نصبا على الحال من
المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر إن ومتكئون خبر آخر لها وعلى الأرائك
متعلق به وكذا فى ظلال أو هذا بمضمر هو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع
ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والأرائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال
٥٧ ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة
من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الإنس
ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من
الفواكه وما فى قوله تعالى (ولهم مايدعون) موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين
أو مبهم إيذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ماعداه ثم صرح به روما لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق
كما ستعرفه أو هى باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأياما كان
فهو مبتدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف مايدعون على فاكهة لئلا

سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ٣٦ يس

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ٣٦ يس

يتوهم كون ماعبارة عن توابع الفاكهة وتمامها والمعنى ولهم مايدعون به لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن أو كل مايدعون به كائناً ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأياً ما كان ففيه دلالة على أنهم فى أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير إليه مثل اشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ماشئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء أى مايدعو به أهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال
٥٨ بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشى وقوله تعالى (سلام) على التقدير الأول بدل من مايدعون أو خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى (قولا) مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام أو مايدعون سلام يقال لهم قولا
كائناً (من) جهة (رب رحيم) أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل إنه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى مايدعون سالم لهم خالص لاشوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات فيكون قولا مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصباً لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرىء سلاما بالنصب على الحالية أى
٥٩ لهم مرادهم سالماً خالصاً وقرىء سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف إما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الأمر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما وإما على مضمر ينساق إليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل إثر بيان كونهم
فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عيناً وامتازوا عنهم (أيها المجرمون) إلى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى وأما ماقيل من أن المضمر فليمتازوا فبمعزل من السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لايجدى نفعاً لأن مناط الإضمار انسياق الإفهام إليه وانصباب

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ٣٦ يس

وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ٣٦ يس

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ٣٦ يس

نظم الكلام عليه فبعدما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه وأسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدى لإضمار شيء يتعلق

٦٠ به إخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمر بدخول جهنم بقوله تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بنى آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو مانصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرىء إعهد بكسر الهمزة وأعهد بكسر الهاء وأحهد الحاء مكان العين وأحد بالإدغام وهى لغة بنى تميم (إنه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وهو

٦١ تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وأن اعبدونى) عطف على أن لا تعبدوا على أن أن فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والأمر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والإسلام وهو المشار إليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لأقعدن لهم

٦٢ صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرىء بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرىء جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى فطرة وخلقة وقرىء جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً أو صنفاً

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٣٦ يس

ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٣٦ يس

ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ٣٦ يس

وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ٣٦ يس

كثيراً عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات
الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون)
للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم
٦٣ أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى (هذه
جهنم التى كنتم توعدون) استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند
إشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان
مثل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فإن
جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً وقوله تعالى قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم
٦٤ منكم أجمعين وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أمر تنكيل وإهانة
كقوله تعالى ذق إنك أنت العزيز الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر
٦٥ فى الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) أى ختما يمنعها عن الكلام التفات إلى الغيبة للإيذان بأن
ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى
* أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرىء تختم (وتكلمنا
أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم
وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول
العبد يوم القيامة إنى لا أجيز على شاهداً إلا من نفسى فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله
ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الأركان وشهادتها
دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرىء وتتكلم أيديهم وقرىء ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كى
٦٦ والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرىء ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم (ولو
نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على
القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لو نشاء أن نطمس على
أعينهم لفعلناه وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم
لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ٣٦ يس
وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٦ يس
وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ٣٦ يس

الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) أى فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك
٦٧ (ولو نشاء لمسخناهم) بتغيير صورهم وإبطال قواهم (على مكانتهم) أى مكانهم إلا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرىء على مكاناتهم أى لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) أى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرىء مضياً بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ماذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم احقاء بأن يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس إلا عدم تعلق المشيئة الإلهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جرياً على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم (ومن نعمره) أى نطل عمره (ننكسه فى الخلق) أى ٦٨
نقلبه فيه ونخلقه على عكس ماخلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك وقرىء ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الإنكاس (أفلا يعقلون) أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ماذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما تعقلون بالتاء
٦٩ لجرى الخطاب قبله (وماعلمناه الشعر) رد وإبطال لما كانوا يقولونه فى حقه ﷺ من أنه شاعر ومايقوله شعر أى ماعلمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشئون واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (وما ينبغى له) ومايصح له الشعر ولا يتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أمياً لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله ﷺ أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ٣٦ يس

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ٣٦ يس

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ٣٦ يس

المطلب وقوله ﷺ هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد إليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن أى وما ينبغى للقرآن أن يكون شعراً (إن هو) أى ما القرآن (إلا ذكر) أى عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال تعالى إن هو إلا ذكر للعالمين (وقرآن مبين) أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أو فارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى
٧٠ المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ماقالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول ﷺ ويؤيده القراءة بالتاء وقرىء لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنياً للمفعول من الإنذار (من كان حياً) أى عاقلا متأملا فإن الغافل بمنزلة الميت أو مؤمناً فى علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به (ويحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين على الكفر وفى إيرادهم بمقابلة من كان حياً إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة
٧١ أموات فى الحقيقة (أو لم يروا) الهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علماً يقينياً مناخماً للمعاينة (أنا خلقنا لهم) أى لأجلهم وانتفاعهم (مما عملت أيدينا) أى مما تولينا إحداثه بالذات وذكر الأيدى وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإحداث والاعتناء به (أنعاماً) مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبئاً عن كون المؤخر أمراً نافعاً خطيراً كما فى النظم الكريم فإن الجار الأول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الأمور الخطيرة يزيدان النفس شوقا إليه ورغبة فيه ولأن فى تأخيره جمعاً بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون) الآيات الثلاث أى فملكناها إياهم وإيثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها بأقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا إياها لهم كما فى قول من قال [أصبحت لاأحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير إن نفرا] والأول هو الأظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيساً لنعمة على
٧٢ حيالها لا تتمة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شىء مما يريدون بها حتى الذبح

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٣٦ يس

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ٣٦ يس

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ٣٦ يس

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ٣٦ يس

حسبما ينطق به قوله تعالى (فمنها ركوبهم) الخ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى
فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات
الركوب وقرىء ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرىء ركوبهم أى ذو
٧٣ ركوبهم (ومنها يأكلون) أى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) أى فى الأنعام بكلا قسميها (منافع)
أخر غير الركوب والأكل كالجلود والأصواف والأوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من
اللبن جمع مشرب وهذا مجمل مافصل فى سورة النحل (أفلا يشكرون) أى أيشاهدون هذه النعم أو
٧٤ أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا
تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الأصنام وأشركوها به تعالى
فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الأمور أو يشفعوا لهم فى الآخرة
٧٥ وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس
تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) أى المشركون (لهم) أى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم
عند مساقهم إلى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم
٧٦ الكريم فإن الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ماقبله فلابد أن يكون عبارة عن
خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس الأمر عليهم بترتيب الشر على مارتبوه
لرجاء الخير فإن ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم وحفظهم فبمعزل من
ذلك والنهى وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه إلى رسول الله ﷺ
ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده فإن النهى عن أسباب الشىء
ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى وإبطال للسببية وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى
عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ماينبىء عنه
ماذكر من اتخاذهم الأصنام آلهة فإن ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وأنهم شركاء لله سبحانه
فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرىء يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من
حزن اللازم وقوله تعالى (إنا نعلم مايسرون وما يعلنون) تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد •
تعليله بطريق الإشعار فإن العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعاً أى إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ٣٦ يس

والبادية التى لا يعزب عن علمنا شىء منها وفيه فضل تسلية لرسول الله ﷺ وتقديم السر على العلن إما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه

٧٧ تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ماشاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ماسبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله تعالى بعد ماعاينوا فيما بأيديهم مايوجب التوحيد والإسلام وأما ماقيل من أنه تسلية ثانية لرسول الله ﷺ بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر فكلا والهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى الجملة الإنكارية السابقة أى ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علماً يقينياً أنا خلقناه من نطفة الخ أو هى عين الجملة السابقة أعيدت تأكيداً للنكير السابق وتمهيداً لإنكار ماهو أحق منه بالإنكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب فى أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأكمل فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك أدخل كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الأهمية على معنى أن المنكر الأول بعيد قبيح والثانى أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الإنكارية الثانية على الأولى على أنها متقدمة فى الاعتبار وأن تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة فى الكلام كما هو رأى الجمهور وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان كما فى قوله تعالى أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً

• وقوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين) أى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا فى أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى بن خلف الجمحى وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا فى ذلك فقال لهم أبى بن خلف ألا ترون إلى مايقول محمد أن الله يبعث الأموات ثم قال واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يامحمد أترى الله يحيى هذا بعد مارم قال ﷺ نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فنزلت وقيل معنى قوله تعالى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الإنكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ٣٦ يس

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٣٦ يس

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ٣٦ يس

---

٧٨ (وضرب لنا مثلا) معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الإنكار والتقبيح وأما على التقدير الأول
فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى
نفس الأمر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهى إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه
واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهى إحياؤنا إياها وجعل لنا مثلا ونظيراً من
الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى (ونسى خلقه) أى خلقنا إياه على
الوجه المذكور الدال على بطلان ماضربه إما عطف على ضرب داخل فى حيز الإنكار والتعجيب أو حال
من فاعله بإضمار قد أو بدونه وقوله تعالى (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية ضربه
المثل كأنه قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال (من يحيى العظام) منكراً له أشد النكير مؤكداً له
بقوله تعالى (وهى رميم) أى بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الأول هو إنكار إحيائه
تعالى للعظام فإنه أمر عجيب فى نفس الأمر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم
العقول ببطلان الإنكار ووقوع المنكر لكونه كالإنشاء بل أهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو
إحياؤه تعالى لها فإنه أمر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وأنكره أشد الإنكار مع أنه
فى نفس الأمر أقرب شىء من الوقوع لما سبق من كونه مثل الإنشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا
فرق بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبراً للمؤنث لأنه اسم لما
بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم
بنجاسة عظم الميتة وأما أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد بإحياء العظام ردها إلى ما كانت
٧٩ عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتاً له بتذكير مانسيه من فطرته الدالة
على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى أنشأها أول مرة) فإن قدرته كما هى
لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد
إنشاء وإعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع
بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع
القوى التى كانت قبل والجملة إما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول
إلى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى
٨٠ جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ٣٦ يس

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ٣٦ يس

فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ٣٦ يس

للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لأجلكم ومنفعتكم منه ناراً على أن الجعل إبداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخيرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ووصف الشجر بالأخضر نظراً إلى اللفظ وقد قرىء الخضراء نظراً إلى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فإذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع مافيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة الغضاضة
٨١ إلى ما كان غضاً فطراً عليه اليبوسة والبلى وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض) الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر ﷺ بأن يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أليس الذى أنشأها أول مرة وليس الذى جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً وليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر والقماءة بالنسبة إليهما فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الأناسى أقدر كما قال تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وقرىء يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى من تقرير مابعد النفى وإيذان بتعين الجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على مايفيده الإيجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفاً
٨٢ وكما (إنما أمره) أى شأنه (إذا أراد شيئاً) من الأشياء (أن يقول له كن) أى أن يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شىء آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع المأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شىء ما وقرىء فيكون
٨٣ بالنصب عطفاً على يقول (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للإشارة إلى أن مافصل من شئونه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل إيجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للإشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرىء ملكة كل شىء ومملكة كل شىء وملك كل شىء (وإليه ترجعون) لا إلى غيره وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى. عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا أعلم ماروى فى فضائل يس

﴿سورة يس ٣٦﴾

صح من حديث الامام أحمد . وأبى دواد . والنسائى. وابن ماجه. والطبرانى. وغيرهم من معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال (يس) قلب القرآن وعد ذلك أحد أسمائها، وبين حجة الاسلام الغزالى عليه الرحمة وجه اطلاق ذلك عليها بأن المدار على الايمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه ولذا شبهت بالقلب الذى به صحة البدن وقوامه واستحسنه الامام الرازى، وأورد على ظاهره أن كل ما يجب الايمان به لا يصح الايمان بدونه فلا وجه لاختصاص الحشر والنشر بذلك. وأجيب بأن المراد بالصحة فى كلام الحجة ما يقابل السقم والمرض ولا شك أن من صح إيمانه بالحشر يخاف من النار ويرغب فى الجنة دار الأبرار فيرتدع عن المعاصى التى هى كاسقام الايمان إذ بها يختل ويضعف ويشتغل بالطاعات التى هى

www.Quranpdf.blogspot.in

كحفظ الصحة ومن لم يقو إيمانه به كان حاله على العكس فشابه الاعتراف به بالقلب الذى بصلاحه يصلح البدن وبفساده يفسد، وجوز أن يقال وجه الشبه بالقلب أن به صلاح البدن وفساده وهو غير مشاهد فى الحس وهو محل لانكشاف الحقائق والأمور الخفية وكذا الحشر من المغيبات وفيه يكون انكشاف الأمور والوقوف على حقائق المقدور وبملاحظته وإصلاح أسبابه تكون السعادة الأبدية وبالاعراض عنه وإفساد أسبابه يبتلى بالشقاوة السرمدية . وفى الكشف لعل الاشارة النبوة فى تسمية هذه السورة قلبا وقلب كل شىء لبه وأصله الذى ماسواه إما من مقدماته وإما من متمماته إلى ما أسلفناه فى تسمية الفاتحة بأم القرآن من أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غايتهم الكمالية فى المعاد وذلك بالتحقق والتخلق المذكورين هنالك وهو المعبر عنه بسلوك الصراط المستقيم ومدارهذه السورة الكريمة على بيان ذلك أتم بيان اه *

ويعلم منه وجه اختصاص الحشر بما ذكر فى كلام الحجة فلا وجه لقول البعض فى الاعتراض عليه فلا وجه الخ ، وسيأتى إن شاء الله تعالى آخر الكلام فى تفسير السورة الاشارة الى ما اشتملت عليه من أمهات علم الأصول والمسائل المعتبرة بين الفحول وتقريرها إياها بأبلغ وجه وأتمه، ولعل هذا هو السر فى الأمر الوارد فى صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أى المحتضرين ، وتسمى أيضا العظيمة عند الله تعالى *

أخرج أبو نصر السجزى فى الابانة وحسنه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: « قال رسول الله ﷺ إن فى القرآن لسورة تدعى العظيمة عند الله تعالى ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة فى أكثر من ربيعة ومضر وهى سورة (يس) وذكر أنها تسمى أيضا المعمة والمدافعة القاضية *

أخرج سعيد بن منصور . والبيهقى عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال « سورة يس تدعى فى التوراة المعمة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة وتدفع عنه أهاويل الدنيا والآخرة، وتدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة » الخبر (١) وتعقبه البيهقى فقال: تفرد به محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الجدعانى عن سليمان بن دفاع وهو منكر، وهى على ماأخرج ابن الضريس . والنحاس . وابن مردويه . والبيهقى عن ابن عباس مكية ، واستثنى منها بعضهم قوله تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى » الآية مدعيا أنها نزلت بالمدينة لما أراد بنو سلمة النقلة إلى قرب مسجد النبى ﷺ وكانوا فى ناحية المدينة فقال عليه الصلاة والسلام «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا، وسيأتى ان شاء الله تعالى ما قيل فى ذلك وقوله سبحانه « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله » الآية لأنها نزلت فى المنافقين فتكون مدنية *

وتعقب بأنه لاصحة له، وآيها ثلاث وثمانون آية فى الكوفى واثنتان وثمانون فى غيره، وجاء مما يشهد بفضلها وعلو شأنها عدة أخبار وآثار وقد مر آنفا بعض ذلك ، وصح من حديث معقل بن يسار لا يقرؤها عبد يريد الله تعالى والدار الآخرة الا غفرله ماتقدم من ذنبه *

وأخرج الترمذى . والدارمى من حديث أنس « من قرأ يس كتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات، ولا يلزم من هذا تفضيل الشىء على نفسه اذ المراد بقراءة القرآن قراءته دون يس، وقال الخفاجى: لايلزم ذلك اذ يكفى فى صحة التفضيل المذكور التغاير الاعتبارى فان يس من حيث تلاوتها فردة غير كونها

«١» وأخرج الخطيب عن أنس مثله اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

مقروءة فى جملته كما اذا قلت : الحسناء فى الحلة الحمراء أحسن منها فى البيضاء وقد يكون للشيء مفرداً ما ليس له مجموعا مع غيره كما يشاهد فى بعض الأدوية ورجا أن يكون أقرب مما قدمنا وأنا لا أرجو ذلك، والظاهر أنه يكتب له الثواب المذكور مضاعفاً أى كل حرف بعشرة حسنات ولا بدع فى تفضيل العمل القليل على الكثير فلله تعالى أن يمن بما شاء على من شاء، ألا ترى ماصح أن هذه الأمة أقصر الأمم أعماراً وأكثرها ثوابا وانكار الخصوصيات مكابرة، ولله تعالى در من قال :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

وذكر بعضهم أن من قرأها أعطى من الأجر لمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة . وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن أبى قلابة - وهو من كبار التابعين - أن من قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة *

وعن أبى سعيد أنه قال من قرأ يس مرة فكأنما قرأ القرآن مرتين *

وحديث العشر مرفوع عن ابن عباس . ومعقل بن يسار . وعقبة بن عامر . وأبى هريرة . وأنس رضى الله تعالى عنهم فعليه المعول ، ووجه إتصالها بما قبلها على ماقاله الجلال السيوطى أنه لما ذكر فى سورة فاطر قوله سبحانه (وجاءكم النذير) وقوله تعالى (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير) إلى قوله سبحانه (فلما جاءهم نذير) وأريد به محمد ﷺ وقد أعرضوا عنه وكذبوه افتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم وقال سبحانه فى فاطر (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل) وفى هذه السورة (والشمس تجرى لمستقر لها والقمر قدرناه منازل) إلى غير ذلك ولا يخفى أن أمر المناسبة يتم على تفسير النذير بغيره ﷺ أيضا فتأمل *

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يس ١﴾ الكلام فيه كالكلام فى (الم) ونحوه من الحروف المقطعة فى أوائل السور إعرابا ومعنى عند كثير . وأخرج ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس أنه قال : يس يا انسان . وفى رواية أخرى عنه زيادة بالحبشية . وفى أخرى عنه أيضا فى لغة طى *

قال الزمخشرى : إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما فى القسم م الله فى أيمن الله . وتعقبه أبو حيان بأن المنقول عن العرب فى تصغير إنسان أنيسيان بياء قبل الألف وهو دليل على أن الانسان من النسيان وأصله انسيان فلما صغر رده التصغير إلى أصله ولا نعلمهم قالوا فى تصغيره انيسين ، وعلى تقدير أنه بقية أنيسين فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم ولا يبقى موقوفا لأنه منادى مقبل عليه ومع ذلك لا يجوز التصغير فى أسماء الأنبياء عليهم السلام كما لا يجوز فى أسماء الله عزوجل ، وماذكره فى - م - من أنه شطر أيمن قول ، ومن النحويين من يقول - م - حرف قسم وليس شطر أيمن انتهى *

قال الخفاجى : لزوم البناء على الضم مما لا كلام فيه فلعل من فسره بذلك يقرؤه بالضم على الأوجه فيه ، وأما الاعتراضان الآخران فلا ورود لهما أصلا ، فأما الأول فلأن من يقول أنيسيان على خلاف القياس وهو الأصح لا يلزمه فيما غير منه أن يقدره كذلك وهو لم يلفظ به حتى يقال له : إنك نطقت بما لم تنطق به العرب بل هو أمر تقديرى ، فاذا قال : المقدر مفروض عندى على القياس هل يتوجه عليه السؤال ، وأما الأخير فلأن

www.Quranpdf.blogspot.in

التصغير فى نحو ذلك إنما يمتنع منا وأما من الله تعالى فله سبحانه أن يطلق على نفسه عز وجل وعظماء خلقه ما أراد ويحمل حينئذ على مايليق كالتعظيم والتحبيب ونحوه من معانى التصغير كما قال ابن الفارض :

ما قلت حبيبى من التحقـــير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

والذى قاله أبو حيان فى توجيه ذلك أنهم يقولون إيسان بمعنى إنسان ويجمعون على أياسين فهذا منه ولا يخفى أنه يحتاج إلى إثبات وبعده لايخفى مافى التخريج عليه، وقالت فرقة: ياحرف نداء والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه ، ونظيره ماجاء فى الحديث « كفى بالسيف شا» أى شاهداً، وأيد بما ذهب إليه ابن عباس فى (حم عسق) ونحوه من أنها حروف من جملة أسماء له تعالى وهى رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك . وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن يس بمجموعه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام وهو ظاهر قول السيد الحميرى :

يانفس لا تمحضى بالود جاهدة على المودة إلا آل ياســـينا

ولتسميته ﷺ بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف ، وقد تكلمت ولله تعالى الحمد فيما تعلق بهذه الكلمة الشريفة ثلاثة أيام أشرع كل يوم منها بعد العصر وأختم قبيل المغرب وذلك فى مجلس وعظى فى المسجد الجامع الداودى واليوم لاأستطيع أن أذكر من ذلك بنت شفة بل لاأتذكر منه إلا رسما هب عليه عاصف الزمان الغشوم فنسفه فحسبى الله عمن سواه فلارب غيره ولا يرجى إلا خيره *

وقرىء بفتح الياء وإمالتها محضا وبين بين *

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة فى الواو، وآخرون بسكونها مظهرة والقراءتان سبعيتان ، وقرأ ابن أبى إسحق وعيسى بفتح النون ، قال أبو حاتم قياس قول قتادة إنه قسم أن يكون على حد الله لأفعلن بالنصب * ويجوز أن يكون مجرورا باضمار باء القسم وهو ممنوع من الصرف. وقال الزجاج: النصب على تقدير أتل يس وهذا على قول سيبويه أنه اسم للسورة ، وقيل هو مبنى والتحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين والفتح للخفة كما فى أين ، وسبب البناء غير خفى عليك إذا أحطت خبراً بما قرروا فى «الم» أول سورة البقرة * ولا تغفل عما قالوا فى النصب باضمار فعل القسم من أنه لا يسوغ لما فيه من جمع قسمين على مقسم عليه واحد وهو مستكره، ولا سبيل إلى جعل الواو بعد للعطف لا للقسم لمكان الاختلاف إعرابا *

وقرأ الكلبى بضم النون وخرج على أنه منادى مقصود بناء على أنه بمعنى إنسان أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، ويقدر هذه إذا كان إسما للسورة وهذا إن كان اسما للقرآن وهو يطلق على البعض كما يطلق على الكل ، وجعله مبتدأ محذوف الخبر وهو قسم أى يس قسمى نحو أمانة الله لأفعلن بالرفع لايخفى حاله ، وقيل الضمة فيه ضمة بناء كما فى حيث *

وقرأ أبو السمال . وابن أبى اسحق أيضا بكسرها، وخرج على أنه للجد فى الهرب عن الساكنين بما هو الأصلى فتأمل وتذكر ﴿ وَالْقُرْءانِ ﴾ ابتداء قسم، وجوز أن يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجروراً باضمار باء القسم لاأنه قسم بعد قسم لما سمعت من كلامهم ﴿ الْحَكِيمِ٢ ﴾ أى ذى حكمة على أنه صيغة نسبة كلابن وتامر أى متضمن إياها أو الناطق بالحكمة كالحى على أن يكون من الاستعارة المكنية أو المتصف

www.Quranpdf.blogspot.in

بالحكمة على أن الاسناد مجازى وحقيقته الاسناد إلى الله تعالى المتكلم به · وفى البحر هو إما فعيل بمعنى مفعل كأعقدت العسل فهو عقيد أى معقد وإما للمبالغة من حاكم ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ ﴾ جواب للقسم، والجملة لرد إنكار الكفرة رسالته عليه الصلاة والسلام فقد قالوا: (لست مرسلا) وتقدم مايشعر بانهم على جانب عظيم من الانكار أعنى قوله تعالى (فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا) استكبارا فى الأرض ومكر السيء، وهذه الآية من جملة ما أشير اليه بقوله تعالى فى جوابهم عن إنكارهم (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم) وتخصيص القرآن بالاقسام به أولا و بوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه على أكمل وجه *

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤ ﴾ خبر ثان لان، واختاره الزجاج قائلا: إنه الأحسن فى العربية أو حال من ضميره عليه الصلاة والسلام المستكن فى الجار والمجرور أو الواقع اسم إن بناء على رأى من يجوز الحال من المبتدأ، وجوز أن يكون متعلقا بالمرسلين وليس المراد به الحال أو الاستقبال أى لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم، وأن يكون حالا من عائد الموصول المستتر فى اسم الفاعل، أو حالا من نفس (المرسلين)*

والزمخشرى لم يذكر من هذه الأوجه سوى كونه خبرا وكونه صلة للمرسلين، وأياما كان فالمراد بالصراط المستقيم ما يعم العقائد والشرائع الحقة وليس الغرض من الاخبار الاعلام بتمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ليقال إن ذلك حاصل قبله لما أن كل أحد يعلم أن المرسلين لايكونون إلا على صراط مستقيم بل الغرض الاعلام بانه موصوف بكذا وأن ماجاء به الموصوف بكذا تفخيما لشأنهما فسلكا فى مسلك سلوكا لطريق الاختصار، وأيضا التنكير فى (صراط) للتفخيم فهو دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه وهذاشىء لم يعلم قبل، ولا يرد أن الطريق المستقيم واحد ليس إلا ألا ترى إلى قوله تعالى : (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) لأن لكل نبى شارع منهاجا هو مستقيم وباعتبار الرجوع إلى المرسل تعالى شأنه الكل متحد وباعتبار الاختصاص بالمرسل والشرائع مختلف فصح أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة الخ . وأيضا هو فرض والفرض تعظيم هذا الصراط بانه لاصراط أقوم منه واقعا أو مفروضا ولا نظر الى أن هنالك آخر أولا ، وهذا قريب من أسلوب مثلك لايفعل كذا فافهم ولا تغفل *

وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ ﴾ نصب على المدح أو على المصدرية لفعل محذوف أى نزل تنزيل *

وقرأ جمع من السبعة وأبو بكر . وأبو جعفر . وشيبة . والحسن . والأعرج . والأعمش بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والمصدر بمعنى المفعول أى هو تنزيل أى منزل العزيز الرحيم ، والضمير للقرآن ويجوز إبقاؤه على أصله بجعله عين التنزيل، وجوز أن يكون خبر (يس) إن كان المراد بها السورة والجملة القسمية معترضة ، والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به اهتماما فلا يقال: إن الكفار ينكرون القرآن فكيف يقسم به لالزامهم *

وقرأ أبو حيوة. واليزيدى . والقورضى عن أبى جعفر. وشيبة بالخفض على البدلية من (القرآن) أو الوصفية له *

وأياما كان ففيه إظهار لفخامة القرآن الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة، وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة الكاملة والرحمة الفاضلة حث على الايمان به ترهيبا وترغيبا وإشعارا بأن

www.Quranpdf.blogspot.in

تنزيله ناشيء عن غاية الرحمة حسبما أشار إليه قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ﴿لِتُنْذِرَ﴾ متعلق بتنزيل أو بفعله المضمر على الوجه الثانى فى إعرابه أى نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر به أو بما يدل عليه (لمن المرسلين) أى أرسلت أو إنك مرسل لتنذر ﴿قَوْمًا مَّآ أُنْذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أى لم تنذر آباؤهم على ماروى عن قتادة فما نافية والجملة صفة (قوما) مبينة لغاية احتياجهم إلى الانذار، والمراد بالانذار الاعلام أو التخويف ومفعوله الثانى محذوف أى عذابا لقوله تعالى (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) والمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون والافلا بعدون قد أنذرهم اسمعيل عليه السلام وبلغهم شريعة ابراهيم عليه السلام *

وقد كان منهم من تمسك بشرعه على أتم وجه ثم تراخى الأمر وتطاول المدد فلم يبق من شريعته عليه السلام إلا الاسم . وفى البحر الدعاء الى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة اما بمباشرة من أنبيائهم واما بنقل الى وقت بعثة نبينا ﷺ والآيات التى تدل على أن قريشا ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم ولا آباءهم القريبين . وأما ان النذارة انقطعت فلا، ولما شرعت آثارها تندرس بعث النبى ﷺ وماذكره المتكلمون من حال أهل الفترات فهو على حسب الفرض اه *

وعليه فالمعنى ما أنذر آباءهم رسول أى لم يباشرهم بالانذار لا أنه لم ينذرهم منذر أصلا فيجوز أن يكون قد أنذرهم من ليس بنبى كزيد بن عمرو بن نفيل. وقس بن ساعدة فلامنافاة بين ماهنا وقوله تعالى (وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وليس فى ذلك انكار الفترة المذكورة فى قوله تعالى (على فترة من الرسل) لأنها فترة ارسال وانقطاعها زمانا لا فترة إنذار مطلقا، وعن عكرمة (ما) بمعنى الذى، وجوز أن تكون موصوفة وهى على الوجهين مفعول ثان لتنذر أى لتنذر قوما الذى أنذره أو شيئاً أنذره الرسل آباءهم الأبعدين، وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون ما مصدرية فتكون نعتا لمصدر مؤكد أى لتنذر قوما إنذارا مثل انذار الرسل آباءهم الأبعدين، وقيل هى زائدة وليس بشيء ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ ٦﴾ هو على الوجه الاول متفرع على نفى الانذار ومتسبب عنه والضمير للفريقين أى لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجل ذلك غافلون، وعلى الأوجه الباقية متعلق بقوله تعالى (لتنذر) أو بما يفيده (انك لمن المرسلين) وارد لتعليل انذاره عليه الصلاة والسلام أو ارساله بغفلتهم المحوجة اليه نحو اسقه فانه عطشان على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم *

وقال الخفاجى : يجوز تعلقه بهذا على الأول أيضا وتعلقه بقوله تعالى (لتنذر) على الوجوه وجعل الفاء تعليلية والضمير لهم أو لآبائهم اه، ولا يخفى عليك أن المنساق الى الذهن ماقرر أولا ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ جواب لقسم محذوف أى والله لقد ثبت ووجب ﴿الْقَوْلُ﴾ الذى قاله لابليس يوم قال (لأغوينهم أجمعين) وهو (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ متعلق بحق . والمراد سبق فى علمى دخول أكثرهم فيمن أملأ منهم جهنم وهم تبعة ابليس كما يشير اليه تقديم الجنة على الناس وصرح به قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) *

ولامانع من أن يراد بالقول لكن المشهور ماتقدم ، وظاهر كلام الراغب أن المراد بالقول علم الله تعالى بهم ولا حاجة إلى التزام ذلك ، وقيل : الجار متعلق بالقول ويقال قال عليه إذا تكلم فيه بالشر، والمراد لقد ثبت فى الازل عذابى لهم، وفيه مافيه ، ويؤيد تعلقه بحق قوله تعالى (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) ،ونقل

www.Quranpdf.blogspot.in

أبو حيان أن المعنى حق القول الذى قاله الله تعالى على لسان الرسل عليهم السلام من التوحيد وغيره وبان برهانه وهو كما ترى *

﴿ فَهُمْ ﴾ أى الاكثر ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ ﴾ بانذارك اياهم، والفاء تفريعية داخلة على الحكم المسبب عما قبله فيفيد أن ثبوت القول عليهم علة لتكذيبهم وكفرهم وهو علة له باعتبار سبق العلم بسوء اختيارهم وما هم عليه فى نفس الامر فان علمه تعالى لا يتعلق بالاشياء الا على ما هى عليه فى أنفسها ومآله إلى أن سوء اختيارهم وما هم عليه فى نفس الامر علة لتكذيبهم وعدم ايمانهم بعد الانذار فليس هناك جبر محض ولا أن المعلوم تابع للعلم *

وقال بعضهم: الفاء إما تفريعية وكون ثبوت القول علة لعدم إيمانهم مبنى على أن المعلوم تابع للعلم وإما تعليلية مفيدة أن عدم الايمان علة لثبوت القول بناء على أن العلم تابع للمعلوم. ولا يلزم الجبر على الوجهين، أما على الثانى فظاهر، وأما على الأول فلأن العلم ليس علة مستقلة عند القائل بذلك بل لاختيارهم وكسبهم مدخل فيه فتأمل *

والتفريع هو الذى أميل اليه ﴿ انَّا جَعَلْنَا فى أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾ جمع عنق بالضم وبضمتين وهو الجيد ويقال عنيق كأمير وعنق كصرد ﴿ أَغْلَالًا ﴾ جمع غل بالضم وهو على ماقيل مايشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، وفى البحر الغل ما احاط بالعنق على معنى التثقيف والتضييق والتعذيب والاسر ومع العنق اليدان او اليد الواحدة *

وذكر الراغب أنه مايقيد به فتجعل الاعضاء وسطه، واصله من الغلل تدرع الشئ وتوسطه ومنه الغلل للماء الجارى بين الشجر وقد يقال له الغيل، وكأن فى الكلام عليه قلبا أى جعلنا اعناقهم فى اغلال كما تقول جعلت الخاتم فى اصبعى أى جعلت اصبعى فى الخاتم، وجوز أن يكون على حد (لاصلبنكم فى جذوع النخل) والتنوين للتعظيم والتهويل أى أغلالا عظيمة هائلة، واسناد الفعل إلى ضمير العظمة مما يؤيد ذلك ﴿ فَهِىَ ﴾ أى الاغلال كما هو الظاهر ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن بالتحريك مجتمع اللحيين من اسفلهما، وأل للعهد أو عوض عن المضاف اليه والظرف متعلق بكون خاص خبر هى أى فهى واصلة اومنتهية إلى أذقانهم، والفاء للتفريع، وقيل: لمجرد التعقيب بناء على عدم حمل التنوين على التعظيم والتهويل، وقوله تعالى ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨ ﴾ نتيجة (فهى إلى الاذقان) فالفاء تفريعية أيضا، والمقمح على ما فى النهاية الذى يرفع رأسه ويغض بصره وكأنه اراد المجهول بحيث يرفع الخ *

وقال أبو عبيدة: يقال قمح البعير قموحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب والجمع قماح، ومنه قول بشر يصف سفينة أخذهم الميد فيها:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالابل القماح

وقال الليث: هو رفع البعير رأسه إذا شرب الماء الكريه ثم يعود، ومنه قيل للكانونين شهرا قماح بضم القاف وكسرها لأن الابل إذا وردت الماء ترفع رؤسها لشدة برده، وقال الراغب: القمح رفع الرأس لسف الشئ المتخذ من القمح أى البر إذا جرى فى السنبل من لدن الانضاج إلى حين الاكتناز ثم يقال لرفع الرأس كيفما كان قمح، وقمح البعير رفع رأسه وأقمحت البعير شددت رأسه إلى خلف، وقيل: المقمح الذى يجذب ذقنه حتى يصير فى صدره ثم يرفع، وقال مجاهد: القامح الرافع الرأس الواضع يده على فيه، وقال الحسن: هو الطامح بصره إلى موضع قدمه، وظاهره يقتضى أن يكون هناك نكس للرأس والمعروف فى القمح الرفع، ووجه التفريع

www.Quranpdf.blogspot.in

أن طوق الغل الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يطأطىء و يوطىء قذاله فلا يزال مقمحا لاسيما إذا كان الغل عظيما ، وقال ابن عطية: إن الاغلال عريضة تبلغ بحروفها الاذقان أى فيحصل القمح، وكلام ابن الاثير يشعر أن القمح اضيق الغل، وإن أريد جعلنا فى كل من أعناقهم اغلالا كان أمر القمح أظهر وأظهر ، وقال البغوى. والطبرى. والزجاج. والطبرسى: ضمير هى للايدى وان لم يتقدم لها ذكر لوضوح مكانها من المعنى لأن الغل يتضمن العنق واليد ولذلك سمى جامعة ومايكون فى العنق وحدها وفى اليد وحدها لايسمى غلا فمتى ذكر مع العنق فاليد مرادة أيضا ومتى ذكر مع اليد كما فى قراءة ابن عباس (فى أيديهم أغلالا) وفى قراءة ابن مسعود (فى أيمانهم أغلالا) فالعنق مراد أيضا، وهذا ضرب من الايجاز والاختصار ونظير ذلك قول الشاعر :

وماأدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى
أألخير الذى انا ابتغيه أم الشر الذى لا يأتلينى

حيث ذكر الخير وحده وقال أيهما أى الخير والشر، وقد علم أن الخير والشر يعرضان للانسان، واختار الزمخشرى ماتقدم ثم قال: والدليل عليه قوله تعالى : (فهم مقمحون) ألا ترى كيف جعل الاقماح نتيجة (فهى إلى الأذقان) ولو كان الضمير للايدى لم يكن معنى التسبب فى الاقماح ظاهراً على أن هذا الاضمار فيه ضرب من التعسف ، وترك الظاهر الذى يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذى يجفو عنه ترك للحق الأبلج الى الباطل اللجلج اهـ، وصاحب الانتصاف أراد الانتصار للجماعة فقال : يحتمل أن يكون الفاء فى (فهم مقمحون) للتعقيب كسابقه أو للتسبب فان ضغط اليد مع العنق يوجب الاقماح لأن اليد تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن رافعة لها ولأن اليد إذا كانت مطلقة كانت راحة للمغلول فربما يتحيل بها على فكاك الغل فيكون منبها على انسداد باب الحيلة اهـ ٭

قال صاحب الكشف: والجواب أنه لافخامة للتعقيب المجرد، ثم ان ماذكره الزمخشرى وقد أشرنا اليه نحن فيما سبق مستقل فى حصول الاقماح فأين التعقيب، وبه خرج الجواب عن التسبب، وقوله ولأن اليد الخ لا يستقل جوابا دون الأولين اهـ ، وعلى العلات رجوع الضمير الى الأغلال هو الحرى بالاعتبار وبلاغة الكتاب الكريم تقتضيه ولا تكاد تلتفت الى غيره ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على (جعلنا) السابق ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قدامهم ﴿سَدًّا﴾ عظيما وقيل نوعا من السد ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من ورائهم ﴿سَدًّا﴾ كذلك والقدام والوراء كناية عن جميع الجهات ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فغطينا بما جعلناه من السد أبصارهم ، وعن مجاهد «فأغشيناهم» فألبسنا أبصارهم غشاوة ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يُبْصِرُونَ٩﴾ لايقدرون على إبصار شىء ما أصلا٭

وقرأ جمع من السبعة وغيرهم (سدا) بضم السين وهى لغة فيه، وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله تعالى فهو بالضم، وقيل بالعكس. وقرأ ابن عباس . وعمر بن عبدالعزيز. وابن يعمر . وعكرمة . والنخعى . وابن سيرين . والحسن . وأبو رجاء . وزيد بن على. وأبو حنيفة . ويزيد البربرى. ويزيد بن المهلب . وابن مقسم (فأعشيناهم) بالعين من العشا وهو ضعف البصر ، ومجموع المتعاطفين من قوله تعالى : (إنا جعلنا) الخ تأكيد وتقرير لما دل عليه قوله سبحانه : (لقد حق القول على أكثرهم) الخ من

www.Quranpdf.blogspot.in

سوء اختيارهم وقبح حالهم فان جعل الله تعالى إياهم بما أظهر فيهم من الاعجاب العظيم بانفسهم مستكبرين عن اتباع الرسل عليهم السلام شامخين برؤسهم غير خاضعين لما جاؤا به وسد أبواب النظر فيما ينفعهم عليهم بالكلية ليس إلا لأنهم سيئو الاختيار وقبيحو الأحوال قد عشقت ذواتهم ماهم عليه عشقا ذاتيا وطلبته طلبا استعداديا فلم تكن لها قابلية لغيره ولم تلتفت الى ماسواه ، وإذا قايست بين ذواتهم وما هم عليه وبين الجسم والحيز أو الثلاثة والفردية مثلا لم تكد تجد فرقا (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) في الكلام تشبيهات متعددة كما لوحنا اليه ، وهذا الوجه هو الذى يقتضيه ماعليه كثير من الأجلة وإن لم يذكروه فى الآية ؛ وفى الانتصاف إذافرق التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبها بالاغلال وكان استكبارهم عن قبول الحق والتواضع لاستماعه مشبهاً بالاقماح لأن المقمح لايطأطأ رأسه ، وقوله تعالى : (فهى إلى الأذقان) تتمة للزوم الاقماح لهم وكان عدم النظر فى أحوال الأمم الخالية مشبها بسد من خلفهم وعدم النظر فى العواقب المستقبلة مشبها بسد من قدامهم وفى التيسير جمع الأيدى الى الأذقان بالأغلال عبارة عن منع التوفيق حتى استكبروا عن الحق لأن المتكبر يوصف برفع العنق والمتواضع بضده كما فى قوله تعالى (فظلت أعناقهم لها خاضعين) ولم يذكر المراد بجعل السد ، وذكر الامام أن المانع عن النظر فى الآيات قسمان قسم يمنع عن النظر فى الانفس فشبه ذلك بالغل الذى يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه وقسم يمنع عن النظر فى الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فان المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له مافيها من الآيات فمن ابتلى بهما حرم عن النظر بالكلية ، واختار بعضهم كون (إنا جعلنا) الخ تمثيلا مسوقا لتقرير تصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه فيكون قد مثل حالهم فى ذلك بحال الذين غلت أعناقهم ، وجوز فى قوله تعالى (وجعلنا) الخ أن يكون تتمة لذلك وتكميلا له وأن يكون تمثيلا مستقلا فان جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لايبصرون شيئاً قطعا كاف فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات *

وقال أبو حيان الظاهر أن قوله تعالى (إنا جعلنا) الآية على حقيقتها لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون أخبر سبحانه عن شىء من أحوالهم فى الآخرة إذا دخلوا النار، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع، ولا يضعف هذا كما زعم ابن عطية قوله تعالى (فاغشيناهم فهم لايبصرون) لأن بصر الكافر يومئذ حديد يرى قبح حاله ، الاترى إلى قوله سبحانه (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا) وقوله سبحانه (قال رب لم حشرتنى أعمى) فاما أن يكون ذلك حالين وإما أن يكون قوله تعالى : (فبصرك اليوم حديد) كناية عن ادراك مايؤول اليه حتى كأنه يبصره ، واعترض بعضهم عليه بأنه يلزم أن يكون الكلام أجنبيا فى البين وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) قد دغدغ فيه، والانصاف أنه خلاف الظاهر ، وقال الضحاك والفراء فى قوله تعالى : (انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) استعارة لمنعهم من النفقه فى سبيل الله تعالى كما قال سبحانه (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك) ولعله جعل الجملة الثانية استعارة لمنعهم عن رؤية الخير والسعى فيه، ولايخفى أن كون الكلام على هذا أجنبيا فى البين فى غاية الظهور، وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة فتأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فاذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤا إلى النبى ﷺ فقالوا : ننشدك الله تعالى والرحم يامحمد قال ولم يكن بطن من بطون قريش الا وللنبى ﷺ فيهم قرابة

www.Quranpdf.blogspot.in

فدعا النبي عليه الصلاة والسلام حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس والقرآن الحكيم - إلى قوله سبحانه (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، وروى أن الآيتين نزلتا فى بنى مخزوم وذلك ان أبا جهل حمل حجراً لينال بها ما يريد برسول الله ﷺ وهو يصلى فاثبتت يده إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر قد لزق بيده فما فكوه الا بجهد فاخذه مخزومى آخر فلما دنا من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم طمس الله تعالى بصره فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه فقام ثالث فقال: لأشدخن أنا رأسه ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشيا عليه فقيل له: ماشأنك؟ قال: عظيم رأيت الرجل فلما دنوت منه فاذا فحل ما رأيت فحلا أعظم منه حال بينى وبينه فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلنى فجعل الغل يكون استعارة عن منع من أراد أذاه عليه الصلاة والسلام وجعل السد استعارة عن سلب قوة الابصار كما قيل، وقال السدى: السد ظلمة حالت فمنعت الرؤية، وجاء فى الآثار غير ذلك مما يقرب منه والربط عليها غير ظاهر، ولعله باعتبار اشارة الآيتين إلى ما هو عليه من التصميم على الكفر وشدة العناد، ومع هذا الارجح فى نظر البليغ حمل الكلام على غير ما تقتضيه ظواهر الآثار مما سمعت وليس فيها ما ينافيه عند التحقيق فتأمل ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ أى مستو عندهم انذارك اياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى أوائل سورة البقرة، والظاهر أن العطف على (أنا جعلنا) وكأنه جىء به للتصريح بما هم عليه فى أنفسهم بعد الاشارة اليه فيما تقدم بناء على أنه مما يستتبع الجعل المذكور *

وقريب منه القول بأن ما تقدم لبيان حالهم المجعول وهذا لبيان حالهم من غير ملاحظة جعل وفيه تمهيد لقوله تعالى (إنما تنذر) الخ. وفى ارشاد العقل السليم هو بيان لشأنهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل، وفى الحواشى الخفاجية لم يورد بالفاء مع ترتبه على ماقبله إما تفويضا لذهن السامع أو لأنه غير مقصود هنا انتهى *

وانظر هل تجد مانعا من العطف على (لا يبصرون) ليكون خبرا لهم أيضا داخلا فى حيز الفاء والتفريع على ما تقدم كأنه قيل: فهم سواء عليهم الخ، واختلاف الجملتين بالاسمية والفعلية لا أراك تعده مانعا، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ ﴾ استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من اجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه *

ولما بين كون الانذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أى انذارا مستتبعا للاثر ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى القرآن كما روى عن قتادة بالتأمل فيه والعمل به، وقيل: الوعظ، واتبع بمعنى يتبع، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع أو المعنى إنما ينفع انذارك المؤمنين الذين اتبعوا، ويكون المراد بمن اتبع المؤمنين وبالانذار الانذار عما يفرط منهم بعد الاتباع فلا يلزم تحصيل الحاصل، وقيل: المراد من اتبع فى علم الله تعالى وهم الاقلون الذين لم يحق القول عليهم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ أى عقابه ولم يغتر برحمته عز وجل فانه سبحانه مع عظم رحمته أليم العذاب كما نطق به قوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) وأن عذابى هو العذاب الاليم *

ومما قرر يعلم سر ذكر الرحمن مع الخشية دون القهار ونحوه ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من المضاف المقدر فى نظم الكلام كما أشرنا اليه أى خشى عقاب الرحمن حال كون العقاب ملتبسا بالغيب أى غائبا عنه، وحاصله خشى العقاب قبل حلوله ومعاينة أهواله. ويجوز أن يكون حالا من فاعل (خشى) أى خشى عقاب الرحمن غائبا عن

www.Quranpdf.blogspot.in

العقاب غير مشاهد له أو خشى غائبا عن أعين الناس غير مظهر الخشية لهم لأنها علانية قلما تسلم عن الرياء، وبعضهم فسر الغيب بالقلب وجعل الجار متعلقا بخشى أى خشى فى قلبه ولم يكن مظهرا للخشية وليس بخاش، قيل: ويجوز جعله حالا من (الرحمن) ولا يخفى حاله، والكلام فى خشى على طرز الكلام فى (اتبع) ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة لما سلف، وقيل: لما يفرط منه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ ﴾ حسن لا يقادر قدره لما أسلف، والفاء لترتيب البشارة أو الامر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية. وفى البحر لما أجدت فيه النذارة فبشره الخ فلا تغفل، وعن قتادة تفسير الأجر الكريم بالجنة والمراد نعيمها الشامل لما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأجل جميع ذلك رؤية الله عز وجل *

وقوله سبحانه . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ الخ تذييل عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفعين بالانذار ترهيبا وترغيبا ووعيداً ووعداً، وتكرير الضمير لافادة الحصر أو للتقوية، وما ألطف هذا الضمير الذى عكسه كطرده ههنا، وضمير العظمة للاشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الانكار فان الكفرة كانوا يقولون : (ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى إنا نحن نحيي الأموات جميعا ببعثهم يوم القيامة ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ التى أبقوها بعدهم من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء فى سبيل الله تعالى بنوه وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادىء الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين *

أخرج ابن أبى حاتم عن جرير بن عبدالله البجلى قال: « قال رسول الله ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئا ثم تلا (ونكتب ماقدموا وآثارهم)» وعن أنس أنه قال فى الآية: هذا فى الخطو يوم الجمعة، وفسر بعضهم الآثار بالخطا إلى المساجد مطلقا لما أخرج عبدالرزاق . وابن جرير . وابن المنذر . والترمذى وحسنه عن أبى سعيد الخدرى قال كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة فارادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله تعالى (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم) فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا *

وأخرج الامام أحمد فى الزهد . وابن ماجه . وغيرهما عن ابن عباس قال كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فارادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) فقالوا بل: نمكث مكاننا *

وأنت تعلم أنه لا دلالة فيما ذكر على أن الآثار هى الخطا لا غير وقصارى ما يدل عليه أنها من الآثار فلتحمل الآثار على مايعمها وغيرها، واستدل بهذين الخبرين ونحوهما على أن الآية مدنية *

وقال أبو حيان : ليس ذلك زعما صحيحا وشنع عليه بما ورد مما يدل على ذلك، وانتصر له الخفاجى بأن الحديث الدال معارض بما فى الصحيحين أن النبى ﷺ قرأ لهم هذه الآية ولم يذكر أنها نزلت فيهم وقراءته عليه الصلاة والسلام لا تنافى تقدم النزول ومراد أبى حيان هذا لا أنه أنكر أصل الحديث، ولا يخفى أن الحديثين

www.Quranpdf.blogspot.in

السابقين ظاهران في أن الآية نزلت يومئذ وليس في حديث الصحيحين مايعارض ذلك، والعجب من الخفاجي كيف خفي عليه هذا، وقيل ماقدموا من النيات وآثارهم من الأعمال، والظاهر أن المراد بالكتابة الكتابة في صحف الملائكة الكرام الكاتبين ولكونها بامره عز وجل أسندت اليه سبحانه، وأخرت في الذكر عن الاحياء مع أنها مقدمة عليه لأن أثرها إنما يظهر بعده وعلى هذا يضعف تفسير ماقدموا بالنيات بناءعلى ما يدل عليه بعض الأخبار من أن النيات لاتطلع عليها الملائكة عليهم السلام ولا يؤمرون بكتابتها *

وفسر بعضهم الكتابة بالحفظ أي نحفظ ذلك ونثبته في علمنا لاننساه ولانهمله كما يثبت المكتوب، ولعلك تختار أن كتابة ماقدموا وآثارهم كناية عن مجازاتهم عليها ان خيرا فخير وإن شرآ فشر وحينئذ فوجه ذكرها بعد الاحياء ظاهر *

وعن الحسن. والضحاك أن احياء الله تعالى الموتى أن يخرجهم من الشرك الى الايمان وجعلا الموت مجازآ عن الجهل، وتعريف «الموتى» للعهد والكلام عليه توكيد للوعد المبشر به كأنه قيل: إنما ينفع انذارك في هؤلاء لأنا نحييهم ونكتب صالح أعمالهم وآثارهم ولا يخفى مافي ذلك من البعد. وقرأ زر. ومسروق (ويكتب) بالياء مبنيا للمفعول (وآثارهم) بالرفع ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء كائنا ما كان، والنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي بيناه وحفظناه، وأصل الاحصاء العد ثم تجوز به عما ذكر لأن العد لأجله *

﴿فِي إِمَامٍ﴾ أي أصل عظيم الشان يؤتم ويقتدى به ويتبع ولا يخالف ﴿مُبِينٍ ١٢﴾ مظهر لما كان وسيكون، وهو على ما في البحر حكاية عن مجاهد. وقتادة. وابن زيد اللوح المحفوظ، وبيان كل شيء فيه اذا حمل العموم على حقيقته بحيث يشمل حوادث الجنة وما يتجدد لأهلها من دون انقطاع على ما نحو مايحكى من بيان الحوادث الكونية في الجفر الجامع لكنه على طرز أعلا وأشرف، ونحو هذا ماقال غير واحد من اشتمال القرآن الكريم على كل شيء حتى أسماء الملوك ومدد ملكهم أو يقال إن بيان ذلك فيه ليس دفعة واحدة بل دفعات بأن يبين فيه جملة من الأشياء كحوادث ألف سنة مثلا ثم تمحى عند تمام الألف ويبين فيه جملة أخرى كحوادث ألف أخرى وهكذا، والداعي لما ذكر أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناه الابعاد كما تشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف لنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفا لغير المتناهي وهو محال بالبديهة *

واذا أريد بكل شيء الأشياء التي في هذه النشأة وأفعال العباد وأحوالهم فيها فلا إشكال في البيان على الوجه المعروف دفعة *

والذي يترجح عندي أن ما كتب في اللوح ما كان وما يكون الى يوم القيامة وهو متناه وبعض الآثار تشهد بذلك والمطلق منها محمول على المقيد، وحقيقة اللوح لم يرد فيها ما يفيد القطع ولذا نمسك عن تعيينها، وكون أحد وجهيه ياقوتة حمراء والثاني زمردة خضراء جاء في بعض الآثار ولا جزم لنا بصحته، وكونه أحد المجردات ومامن شيء الا وهو يعلمه بالفعل مما لم يذهب اليه أحد من المسلمين وانما هو من تخيلات الفلاسفة ومن حذا حذوهم فلا ينبغي أن يعول عليه، وفسر بعضهم الامام المبين بعلمه تعالى الأزلي كما فسر أم الكتاب في قوله تعالى: (وعنده أم الكتاب) به وهو أصل لايكون في صفوف صنوف الممكنات مايخالفه كما يلوح به قول الشافعي:

خلقت العباد على ماعلمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

ووصفه بمبين لأنه مظهر فقد قالوا: العلم صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت به أو لأن إظهار الأشياء من

www.Quranpdf.blogspot.in

خزائن العدم يكون بعد تعلقه فان القدرة إنما تتعلق بالشيء بعد العلم فالشيء يعلم أولا ثم يراد ثم تتعلق القدرة بايجاده فيوجد، ولايخفى مافى هذاالتفسير من ارتكاب خلاف الظاهر وعليه فلا كلام فى العموم، نعم فى كيفية وجود الأشياء فى علمه تعالى كلام طويل محله كتب الكلام. وعن الحسن أنه أريد به صحف الأعمال وليس بذاك. وحكى لى عن بعض غلاة الشيعة أن المراد بالامام المبين على كرم الله تعالى وجهه وإحصاء كل شيء فيه من باب:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ومنهم من يزعم أن ذلك على معنى جعله كرم الله تعالى وجهه خزانة للمعلومات على نحو اللوح المحفوظ، ولا يخفى مافى ذلك من عظيم الجهل بالكتاب الجليل نسأل الله تعالى العفو والعافية، ويمكن أن يقال: إنهم أرادوا بذلك نحو ما أراده المتصوفة فى إطلاقهم الكتاب المبين على الانسان الكامل اصطلاحا منهم على ذلك فيهون أمر الجهل، وكمال على كرم الله تعالى وجهه لا ينكره إلا ناقص العقل عديم الدين *

وقرأ أبو السمال (وكل) بالرفع على الابتداء ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ إما عطف على ماقبله عطف القصة على القصة وأما عطف على مقدر أى فانذرهم واضرب لهم الخ، وضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بأخرى مثلها كما فى قوله تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح) الآية وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى (وضربنا لكم الأمثال) فى وجه أى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالأمثال، فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والاصرار على التكذيب أى طبق حالهم بحالهم على أن (مثلا) مفعول ثان لاضرب (وأصحاب القرية) مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ماهو شرحه وبيانه، وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل، وقوله سبحانه (أصحاب القرية) بتقدير مضاف أى مثل أصحاب القرية وهذا المضاف بدل من (مثلا) بدل كل من كل أو عطف بيان له على القول بجواز اختلافهما تعريفا وتنكيرا، وجوز أن يكون المقدر مفعولا وهذا حالا * والقرية كما روى عن ابن عباس. وبريدة. وعكرمة انطاكية، وفى البحر انها هى بلا خلاف *

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٣﴾ بدل اشتمال (من اصحاب القرية) أو ظرف للمقدر، وجوز أن يكون بدل كل من (أصحاب) مرادا بهم قصتهم وبالظرف مافيه وهو تكلف لاداعى اليه، وقيل، إذ جاءها دون إذ جاءهم إشارة إلى أن المرسلين أتوهم فى مقرهم، والمرسلون عند قتادة. وغيره من أجلة المفسرين رسل عيسى عليه السلام من الحواريين بعثهم حين رفع إلى السماء، ونسبة إرسالهم إليه تعالى فى قوله سبحانه:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية، وقال ابن عباس. وكعب. هم رسل الله تعالى: واختاره بعض الأجلة وادعى أن الله تعالى أرسلهم ردءا لعيسى عليه السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليهما السلام، وأيد بظاهر (إذ أرسلنا إليهم اثنين) وقول المرسل اليهم (ما أنتم الا بشر مثلنا) اذ البشرية تنافى على زعمهم الرسالة من الله تعالى لا من غيره سبحانه، واستدل البعض على ذلك بظهور المعجزة كابراء الأكمه واحياء الميت على أيديهم كما جاء فى بعض الآثار والمعجزة مختصة بالنبي على ماقرر فى

www.Quranpdf.blogspot.in

الكلام، ومن ذهب الى الأول أجاب عن الأول بما سمعت وعن الثانى بأنهم اما أن يكونوا دعوهم على وجه فهموا منه أنهم مبلغون عن الله تعالى دون واسطة أو أنهم جعلوا الرسل بمنزلة مرسلهم فخاطبوهم بما يبطل رسالته ونزلوه منزلة الحاضر تغليباً فقالوا ماقالوه، وعن الثالث بأن ماظهر على أيديهم ان صح الأثر كان كرامة لهم فى معنى المعجزة لعيسى عليه السلام ولا يتعين كونه معجزة لهم الا اذا كانوا قد ادعوا الرسالة من الله تعالى بدون واسطة وهو أول المسئلة، و «اذ» بدل من اذ الأولى، والاثنان قيل يوحنا وبواس، وقال مقاتل: ومان وبولس، وقال شعيب الجبائى شمعون ويوحنا، وقال وهب وكعب: صادق وصدوق، وقيل نازوص وماروص.

وقيل (أرسلنا اليهم) دون أرسلنا اليها ليطابق اذ جاءها لأن الارسال حقيقة انما يكون اليهم لا اليها بخلاف المجىء وأيضا التعقيب بقوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ عليه أظهر وهو هنا نظير التعقيب فى قوله تعالى: (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت) وسميت الفاء الفصيحة لأنها تفصح عن فعل محذوف وكان أصحاب القرية اذ ذاك عباد أصنام ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ أى قويناهما وشددنا قاله مجاهد وابن قتيبة، وقال يقال تعزز لحم الناقة اذا صلب، وقال غيره: يقال عزز المطر الأرض اذا لبدها وشدها ويقال للارض الصلبة العزاز ومنه العز بمعناه المعروف، ومفعول الفعل محذوف أى فعززناهما ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ لدلالة ماقبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به.

وهو على ما روى عن ابن عباس شمعون الصفا ويقال سمعان أيضا، وقال وهب وكعب: شلوم وعند شعيب الجبائى بولص بالصاد وبعضهم يحكيه بالسين. وقرأ الحسن. وأبو حيوة. وأبو بكر. والمفضل. وأبان (فعززنا) بالتخفيف وهو والتشديد لغتان كشدة وشدده فالمعنى واحد، وقال أبو على المخفف من عزه اذا غلبه ومنه قولهم من عزيز أى من غلب سلب، والمعنى عليه فغلبناهم بحجة ثالث. وقرأ عبد الله «بالثالث» ﴿ فَقَالُوا ﴾ عطف على «فكذبوهما» فعززنا والفاء للتعقيب أى فقال الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ١٤ ﴾ ولا يضر فى نسبة القول الى الثلاثة سكوت البعض اذ يكفى الاتفاق بل قالوا طريقة التكلم مع الغير كون المتكلم واحدا والغير متفقا معه ﴿ قَالُوا ﴾ أى أصحاب القرية مخاطبين للثلاثة ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، ورفع (بشر) لانتقاض النفى بالا فان ما عملت حملا على ليس فاذا انتقض نفيها بدخول الا على الخبر ضعف الشبه فيها فبطل عملها خلافا ليونس؛ ومثل صفة (بشر) ولم يكتسب تعريفا بالاضافة كما عرف فى النحو ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مما تدعون من الوحى على أحد وظاهر هذا القول يقتضى اقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام وكان تخصيص هذا الاسم الجليل من بين أسمائه عز وجل لزعمهم أن الرحمة تأبى انزال الوحى لاستدعائه تكليفا لا يعود منه نفع له سبحانه ولا يتوقف ايصاله تعالى الثواب الى العبد عليه، وقيل ذكر الرحمن فى الحكاية لا فى المحكى وهم قالوا لا اله ولا رسالة لما فى بعض الآثار أنهم قالوا ألنا اله سوى آلهتنا، والتعبير به لحلمه تعالى عليهم ورحمته سبحانه اياهم بعدم تعجيل العذاب آن انكارهم ولعل ماتقدم أولى وأظهر ولا جزم بصحة ماينافيه من الأثر.

﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥ ﴾ فيما تدعون وهذا تصريح بما قصدوه من الجملتين السابقتين واختيار تكذبون

www.Quranpdf.blogspot.in

على كاذبون للدلالة على التجدد *

﴿ قَالُوا ﴾ أي المرسلون ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦ ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جار مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به، وذكر أن من استشهد به كاذبا يكفر ولا كذلك القسم على كذب، وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى، وفي اختيار عنوان الربوبية رمز إلى حكمة الارسال كما رمز الكفرة إلى ما ينافيه بزعمهم *

واضافه رب إلى ضمير الرسل لا يأبى ذلك ، ويجوز أن يكون اختياره لأنه أوفق بالحال التي هم فيها من اظهار المعجز على أيديهم فكأنهم قالوا ناصرنا بالمعجزات يعلم إنا إليكم لمرسلون، وتقديم المسند اليه لتقوية الحكم أو للحصر أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٧ ﴾ الا تبليغ رسالته تعالى تبليغا ظاهرا بينا بحيث لا يخفى على سامعه ولا يقبل التأويل والحمل على خلاف المراد أصلا وقد خرجنا من عهدته فلا مؤاخذة علينا من جهة ربنا كذا قيل، والأولى أن يفسر التبليغ المبين بما قرن بالآيات الشاهدة على الصحة وهم قد بلغوا كذلك بناء على ماروى من انهم أبرؤا الاكمه وأحيوا الميت أو أنهم فعلوا خارقا غير ماذكر ولم ينقل لنا ولم يلتزم في الكتاب الجليل ولا في الآثار ذكر خارق كل رسول كما لا يخفى، ثم إن ذلك اما معجزة لهم على القول بأنهم رسل الله تعالى بدون واسطة أو كرامة لهم معجزة لمرسلهم عيسى عليه السلام على القول بأنهم رسله عليه السلام، والمعنى ما علينا من جهة ربنا الا التبليغ البين بالآيات وقد فعلنا فلا مؤاخذة علينا أوما علينا شيء نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد بلغنا كذلك فأي شيء تطلبون مناحتى تصدقونا بدعوانا ولكون تبليغهم كان بينا بهذا المعنى حسن منهم الاستشهاد بالعلم فلا تغفل، وجاء كلام الرسل ثانيا في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الانكار جدا حيث أتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الانكار كما لا يخفى على من له أدنى تأمل قال السكاكي: أكدوا في المرة الأولى لأن تكذيب الاثنين تكذيب للثالث لاتحاد المقالة فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا في التأكيد ، وقال الزمخشري: إن الكلام الاول ابتداء اخبار والثاني جواب عن إنكار، ووجه ذلك السيد السند بأن الأول ابتداء اخبار بالنظر إلى أن مجموع الثلاثة لم يسبق منهم اخبار فلا تكذيب لهم في المرة الأولى فيحمل التأكيد فيها على الاعتناء والاهتمام منهم بشأن الخبر انتهى، وفيه أن الثلاثة كانوا عالمين بانكارهم والكلام المخرج مع المنكر لا يقال له ابتداء اخبار ، وقال صاحب الكشف: أراد أنه غير مسبوق باخبار سابق ولم يرد أنه كلام مع خالي الذهن أوجعل الابتداء باعتبار قول الثالث أو المجموع ، وقال الجلبي: لعل مراده أنه بمنزلة ابتداء اخبار بالنسبة إلى انكارهم الثاني في عدم احتياجه إلى مثل تلك المؤكدات فكان انكارهم الاول لا يعد انكاراً بالنسبة إلى انكارهم الثاني لا أنه ابتداء اخبار حقيقة، ولا يخفى ضعف ذلك ، وقال الفاضل اليمني: إنما أكد القول الأول لتنزيلهم منزلة من أنكر ارسال الثلاثة لأنه قد لاح ذلك من انكار الاثنين فعلى هذا يكون ابتداء اخبار بالنظر إلى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر وإنكاريا بالنظر إلى اخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر فنظر الزمخشري أدق من نظر السكاكي وإن قال السيد السند بالعكس، ويعلم ما فيه مما تقدم بأدنى نظر ، وقال أجل المتأخرين الفاضل عبد الحكيم السالكوتي: عندي أن ماذكره السكاكي مبني على عطف (فقالوا انا اليكم مرسلون) على (فكذبوهما فعززنا) والفاء للتعقيب فيكون الكلام صادرا عن الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث فكان كلاما مع المنكرين فجاء مؤكدا، وقول الزمخشري

www.Quranpdf.blogspot.in

مبنى على أنه عطف على (إذ جاءها المرسلون) وأنه تفصيل للقصة المذكورة إجمالا بقوله سبحانه (إذ جاءها المرسلون) إلى قوله تعالى (فعززنا بثالث) فالفاء للتفصيل فقوله تعالى (فقالوا إنا إليكم مرسلون) بيان لقوله عز وجل (إذ أرسلنا اليهم اثنين) فيكون ابتداء إخبار صدر من الاثنين قالوا بصيغة الجمع تقريراً لشأن الخبر وقوله تعالى (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) الخ بيان لقوله تعالى ﴿فكذبوهما﴾ وقوله سبحانه (ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) بيان لقوله عز شأنه (فعززنا بثالث) فان البلاغ المبين هو إثباتهم الرسالة بالمعجزات وهو التعزيز والغلبة ثم قال : ولا يخفى حسن هذا التفسير لموافقته للقصة المذكورة فى التفاسير وملاءمته لسوق الآية فانها ذكرت أولا اجمالا بقوله تعالى (واضرب له مثلا أصحاب القرية) ثم فصلت بعض التفصيل بقوله تعالى (اذ جاءها المرسلون) الى قوله سبحانه (فعزز بثالث) ثم فصلت تفصيلا تاما بقوله تعالى (قالوا انا اليكم لمرسلون) الى قوله تعالى (خامدون) وعدم احتياجه الى جعل الفاء فى (فكذبوهما) فصيحة بخلاف تفسير السكاكى فانه يحتاج الى تقدير فدعوا الى التوحيد اه •

ولا يخفى على المنصف أنه تفسير فى غاية البعد والكلام عليه واصل الى رتبة الألغاز ، ومع هذا فيه مافيه ، وأنا أقول: لا يبعد أن يكون الزمخشرى أراد بكلامه أحد الاحتمالات التى ذكرت فى توجيهه الا أن ما ذهب اليه السكاكى أبعد عن التكلف وأسلم عن القيل والقال ﴿قَالُوا﴾ لما ضاقت عليهم الحيل وعييت بهم العلل ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر ويتشاءمون بما لا يوافقها وان كان مستتبعا لكل خير أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة ضر ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه ، وقد قال مقاتل: إنه حبس عنهم المطر وقال آخر: أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل عليهم السلام، وقال ابن عطية: أن تطير هؤلاء كان بسبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وأصل التطير التفاؤل بالطير البارح والسانح ثم عم ، وكان مناط التطير بهم مقالتهم كما يشعر به قوله تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ أى عن مقالتكم هذه •

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة قاله قتادة وذكر فيه احتمالان احتمال أن يكون الرجم للقتل أى لنقتلنكم بالرجم بالحجارة واحتمال أن يكون للاذى أى لنؤذينكم بذلك، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال: أى لنشتمنكم ثم قال: والرجم فى القرآن كله الشتم •

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾ قال فى البحر: وهو الحريق، وقيل عذاب غيره تبقى معه الحياة، والمراد لنقتلنكم بالحجارة أو لنعذبنكم اذا لم نقتلكم عذابا أليما لا يقادر قدره تتمنون معه القتل، وقيل أريد بالعذاب الأليم العذاب الروحانى وأريد بالرجم بالحجارة النوع المخصوص من الأذى الجسمانى فكأنهم قد رددوا الأمر بين إيذاء جسمانى وايذاء روحانى، وقيل أريد بالعذاب الأليم الجسمانى وبالرجم العذاب والأذى الروحانى بناء على أن المراد به الشتم ، وقيل غير ذلك ﴿قَالُوا﴾ أى الرسل ردا عليهم ﴿طَائِرُكُمْ﴾ أى سبب شؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ لا من قبلنا كما تزعمون وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم •

وأخرج ابن المنذر . عن ابن عباس أنه فسر الطائر بنفس الشؤم أى شؤمكم معكم وهو الاقامة على الكفر

www.Quranpdf.blogspot.in

وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعوا إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وفيه غاية اليمن والخير والبركة، وعن أبى عبيدة. والمبرد (طائركم) أى حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير وان شرا فشر *

وقرأ الحسن . وابن هرمز . وعمرو بن عبيد وزر بن حبيش (طيركم) بياء ساكنة بعد الطاء، قال الزجاج: الطائر والطير بمعنى ، وفى القاموس الطير جمع طائر وقد يقع على الواحد وذكر أن الطير لم يقع فى القرآن الكريم الا جمعا كقوله تعالى : (والطير صافات) فاذا كان فى هذه القراءة كذلك فطائر وإن كان مفردا لكنه بالاضافة شامل لكل مايتطير به فهو فى معنى الجمع فالقراءتان متوافقتان، وعن الحسن أنه قرأ (أطيركم) مصدر أطير الذى أصله تطير فادغمت التاء فى الطاء فاجتلبت همزة الوصل فى الماضى والمصدر ﴿ائن ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية همزة إن الشرطية حققها الكوفيون. وابن عامر وسهلها باقى السبعة*

واختلف سيبويه . ويونس فيما اذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب فذهب سيبويه إلى اجابة الاستفهام أى تقدير المستفهم عنه وكأنه يستغنى به عن تقدير جواب الشرط فالمعنى عليه أئن ذكرتم ووعظتم بما فيه سعادتكم تتطيرون أو تتوعدون أو نحو ذلك ويقدر مضارع مرفوع وان شئت قدرت ماضيا كتطيرتم*

وذهب يونس الى اجابة الشرط وكأنه يستغنى به عن اجابة الاستفهام وتقدير مصب له فالتقدير أئن ذكرتم تتطيروا أو نحوه مما يدل عليه ماقبل ويقدر مضارع مجزوم وان شئت قدرت ماضيا مجزوم المحل. وقرأ زر بهمزتين مفتوحتين وهى قراءة أبى جعفر .وطلحة الاأنهما لينا الثانية بين بين ، وعلى تحقيقهما جاء قول الشاعر:

إن كنت داود بن أحوى مرجلا فلست براع لابن عمك محرما

فالهمزة الأولى للاستفهام والثانية همزة ان المصدرية والكلام على تقدير حرف لام الجر أى ألأن ذكرتم تطيرتم . وقرأ الماجشون يوسف بن يعقوب المدنى بهمزة واحدة مفتوحة فيحتمل تقدير همزة الاستفهام فتتحد هذه القراءة والتى قبلها معنى ، ويحتمل عدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر، وهو على ماقيل مسوق للتعجب والتوبيخ ، وتقدير حرف الجر على حاله، والجار متعلق بمحذوف على مايشعر به كلام الكشاف أى تطيرتم لأن ذكرتم ، وقال ابن جنى (ان ذكرتم) على هذه القراءة معمول (طائركم معكم) فانهم لما قالوا (انا تطيرنا بكم) أجيبوا بل طائركم معكم ان ذكرتم أى هو معكم لأن ذكرتم فلم تذكروا ولم تنتهوا فاكتفى بالسبب الذى هو التذكير عن المسبب الذى هو الانتهاء كما وصفوا الطائر موضع مسببه وهو التشاؤم لما كانوا يألفونه من تكارههم نعيب الغراب أو بروحه. وقرأ الحسن بهمزة واحدة مكسورة وفى ذلك احتمالان تقدير الهمزة فتتحد هذه القراءة وقراءة الجمهور وعدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر والجواب محذوف لدلالة ماقبل عليه وتقديره كما تقدم، وقرأ أبو عمرو فى رواية. وزر أيضا بهمزتين مفتوحتين بينهما مدة كأنه استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف . وقرأ أيضاً أبو جعفر. والحسن وكذا قرأ قتادة. والأعمش وغيرهما «أين» بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتح النون (ذكرتم) بتخفيف الكاف على أن أين ظرف أداة شرط وجوابها محذوف لدلالة طائركم عليه على ماقيل أى أين ذكرتم صحبكم طائركم والمراد شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وفيه من المبالغة بشؤمهم مالا يخفى.

وفى البحر من جوز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون. وأبو زيد. والمبرد يجوز أن يكون الجواب طائركم معكم وكان أصله أين ذكرتم فطائركم معكم فلما قدم حذفت الفاء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ١٩﴾ أى عادتكم

www.Quranpdf.blogspot.in

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أى قوم الرجل الذى قيل له ادخل الجنة ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعدقتله ،وقيل: من بعد رفعه إلى السماء حيا ﴿ مِنْ جُنْدٍ ﴾ أى جندا فمن مزيدة لتأكيد النفى ، وقيل : يجوز أن تكون للتبعيض وهو خلاف الظاهر ، والجند العسكر لما فيه من الغلظة كأنه من الجند أى الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، والظاهر أن المراد بهذا الجند جند الملائكة أى ماأنزلنا لاهلاكهم ملائكة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ٢٨ ﴾ وما صح فى حكمتنا أن ننزل الجند لاهلاكهم لما أنا قدرنا لكل شىء سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك فى الانتصار لك من قومك وكفينا أمر هؤلاء بصيحة ملك صاح بهم فهلكوا كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ٢٩ ﴾ وفى ذلك استحقار لهم ولاهلاكهم وإيماء إلى تفخيم شأن النبى ﷺ ، وفسر أبو حيان الجند بما يعم الملائكة فقال: كالحجارة والريح وغير ذلك والمتبادر ماتقدم ، وقيل: الجند ملائكة الوحى الذين ينزلون على الانبياء عليهم السلام أى قطعنا عنهم الرسالة حين فعلوا مافعلوا ولم نعبأ بهم واهلكناهم ، وعن الحسن ومجاهد قالا قطع الله تعالى عنهم الرسالة حين قتلوا رسله، وهذا التفسير بعيد جدا ، وقتل الرسل الثلاثة محكى فى البحر بقيل وهو ظاهر هذا المروى لكن المعروف أنهم لم يقتلوا وإنما قتل حبيب فقط ، وذهبت فرقة إلى أن ما فى قوله تعالى (وما كنا منزلين) موصولة معطوفة على (جند) والمراد ما انزلنا على قومه من بعده جندا من السماء وما انزلنا الذى كنا منزليه على الذين من قبلهم من حجارة وريح وغير ذلك ٭

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم عليه زيادة (من) فى المعرفة، ومن هنا قيل الأولى جعلها نكرة موصوفة، وأجيب بأنه يغتفر فى التابع ما لا يغتفر فى المتبوع، ولا يخفى أن هذا لا يدفع بعده، ومن أبعد ما يكون قول أبى البقاء: يجوز أن تكون ما زائدة أى وقد كنا منزلين على غيرهم جندا من السماء بل هو ليس بشىء، وإن نافية وكان ناقصة واسمها مضمر و(صيحة) خبرها أى ما كانت هى أى الاخذة أو العقوبة الا صيحة واحدة، روى أن الله تعالى بعث عليهم جبريل عليه السلام حتى أخذ بعضادتى باب المدينة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً، وإذا فجائية وفيها اشارة إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة ، وقد شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية والخمود تخييل، وفى ذلك رمز إلى أن الحى كشعلة النار والميت كالرماد كما قال لبيد :

وما المرء الا كالشهاب وضوئه   يحور رمادا بعداذ هو ساطع

ويجوز أن تكون الاستعارة تصريحية تبعية فى الخمود بمعنى البرودة والسكون لأن الروح لفزعها عند الصيحة تندفع إلى الباطن دفعة واحدة ثم تنحصر فتنطفىء الحرارة الغريزية لانحصارها، ولعل فى العدول عن

www.Quranpdf.blogspot.in

هامدون إلى (خامدون) رمزاً خفياً إلى البعث بعد الموت، والظاهر أنه لم يؤمن منهم سوى حبيب وانهم هلكوا عن آخرهم ، وفي بعض الآثار أنه آمن الملك وآمن قوم من حواشيه ومن لم يؤمن هلك بالصيحة، وهذا بعيد فانه كان الظاهر أن يظاهر اولئك المؤمنون الرسل كما فعل حبيب ولكان لهم في القرآن الجليل ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يقال: انهم آمنوا خفية وكان لهم ما يعذرون به عن المظاهرة، ومع هذا لا يخلو بعد عن بعد ، وقرأ أبو جعفر . وشيبة . ومعاذ بن الحرث القاري (صيحة) بالرفع على أن كان تامة أي ماحدثت ووقعت الاصيحة وينبغي أن لا تلحق الفعل تاء التأنيث في مثل هذا التركيب فلا يقال ماقامت الاهند بل ماقام الاهند لأن الكلام على معنى ماقام أحد الاهند والفاعل فيه مذكر، ولم يجوز كثير من النحويين الالحاق الافي الشعر كقول ذي الرمة :

طوى النحز والاجراز مافي غروضها ... وما بقيت الا الضلوع الجراشع

وقـــول الآخر :

ما برئت من ريبة وذم ... في حربنا الا بنات العم

ومن هنا أنكر الكثير كما قال أبو حاتم هذه القراءة، ومنهم من أجاز ذلك في الكلام على قلة كما في قراءة الحسن. ومالك بن دينار . وأبي رجاء . والجحدري . وقتادة . وأبي حيوة . وابن أبي عبلة . وأبي بحرية (لا ترى الامساكنهم) بالتاء الفوقية، ووجهه مراعاة الفاعل المذكور، وكأني بك تميل إلى هذا القول ، وقرأ ابن مسعود (الا زقية) من زقي الطائر يزقو ويزقي زقوا وزقاء إذا صاح ، ومنه المثل أثقل من الزواقي وهي الديكة لأنهم كانوا يسمرون إلى أن تزقوا فاذا صاحت تفرقوا ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ الحسرة على ماقال الراغب الغم على مافات والندم عليه كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو ادركه اعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر هي أن يركب الانسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيرا ، والظاهر أن (يا) للنداء و(حسرة) هو المنادى ونداؤها مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء كأنه قيل: ياحسرة احضري فهذه الحال من الاحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي مادل عليها قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٠ ﴾ والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولا أوليا ، وقيل : هم المراد وليس بذاك وبالحسرة المناداة حسرتهم والمستهزؤن بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا على انفسهم حيث فوتوا عليها السعادة الابدية وعوضوها العذاب المقيم، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس. وأبي. وعلي بن الحسين. والضحاك. ومجاهد. والحسن (ياحسرة العباد) بالاضافة، وكون المراد حسرة غيرهم عليهم والاضافة لأدنى ملابسة خلاف الظاهر ، وأخرج ابن جرير. وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القرآت (ياحسرة العباد على أنفسها ما يأتيهم) الخ *

وجوز أن تكون حسرة الملائكة عليهم السلام والمؤمنين من الثقلين، وعن الضحاك تخصيصها بحسرة الملائكة عليهم السلام وزعم أن المراد بالعباد الرسل الثلاثة وأبو العالية فسر (العباد) بهذا أيضا لكنه حمل الحسرة على حسرة الكفار المهلكين قال: تحسروا حين رأوا عذاب الله تعالى وتلهفوا على مافاتهم ، وقيل : المراد بالعباد المهلكون والمتحسر الرجل الذي جاء من اقصى المدينة تحسر لما وثب القوم لقتله ، وقيل : المراد بالعباد أولئك والمتحسر الرسل حين قتلوا ذلك الرجل وحل بهم العذاب ولم يؤمنوا، ولا يخفى حال هذه الاقوال وكان مراد

www.Quranpdf.blogspot.in

من قال: المتحسر الرجل ومن قال المتحسر الرسل عنى أن القول المذكور قول الرجل أو قول الرسل، وفي كلام أبي حيان ماهو ظاهر في ذلك ، ومع هذا لاينبغي أن يعول على شيء مما ذكر، وجوز أن يكون التحسر منه سبحانه وتعالى مجازا عن استعظام ماجنوه على أنفسهم، وأيد بأنه قرىء (ياحسرتا على العباد) فان الاصل عليها ياحسرتي فقلبت الياء ألفا ، ونحوها قراءة ابن عباس كما قال ابن خالويه (ياحسرة على العباد) بغير تنوين فان الاصل أيضا ياحسرتي فقلبت الياء الفا ثم حذفت الالف واكتفى عنها بالفتحة ، وقرأ أبو الزناد . وابن هرمز وابن جندب (ياحسره على العباد) بالهاء السا كنة، قال في المنتقى: وقف (على حسره) وقفا طويلا تعظيما للامر ثم قيل (على العباد) *

وفي اللوامح وقفوا على الهاء مبالغة في التحسر لما في الهاء من التأهه كالتأوه ،ثم وصلوه على تلك الحال، وقال الطيبي: إن العرب إذا أخبرت عن الشيء غير معتد به أسرعت فيه ولم تأت على اللفظ المعبر عنه نحو قلت لها قفي قالت لنا قاف أي وقفت فاقتصرت من جملة الكلمة على حرف منها تهاونا بالحال وتثاقلا عن الاجابة ، ولا يخفى أن هذا لايناسب المقام، وينبغي على هذه القراءة أن لايكون (على العباد) متعلقا بحسرة أو صفة له إذ لايحسن الوقف حينئذ بل يجعل متعلقا بمضمر يدل عليه (حسرة) نحو يتحسر أو أتحسر على العباد، وتقدير انظروا ليس بذاك أو خبر مبتدأ محذوف لبيان المتحسر عليه أي الحسرة على العباد وتخريج قراءة (ياحسرتا بالألف على هذا الطرز بأن يقال: قدر الوقف على المنصوب المنون فانه يوقف عليه بالألف ككان الله على كل شيء قديرا ، وضرب زيد عمرا ليس بشيء ولو سلم أنه شيء لاينافي التأييد، وقيل (يا) للنداء والمنادى محذوف و(حسرة) مفعول مطلق لفعل مضمر و (على العباد) متعلق بذلك الفعل أي ياهؤلاء تحسروا حسرة على العباد، ولعل الأوفق للمقام المتبادر إلى الأفهام أن المراد نداء حسرة كل من يتأتى منه التحسر ففيه من المبالغة مافيه * وقوله تعالى (ماياتيهم) الخ استئناف لبيان مايتحسر منه، و (به) متعلق بيستهزؤن. وقدم عليه للحصر الادعائي وجوز أن يكون لمراعاة الفواصل *

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الضمير لأهل مكة والاستفهام للتقرير وكم خبرية في موضع نصب باهلكنا و (من القرون) بيان لكم ، وجوز بعض المتأخرين كون (كم) مبتدأ والجملة بعده خبره وهو كلام من لاخبر عنده والجملة معمولة ليروا نافذ معناها فيها و (كم) معلقة لها عن العمل في اللفظ لأنها وإن كانت خبرية لها صدر الكلام كالاستفهامية فلا يعمل فيها عامل متقدم على اللغة الفصيحة إلا إذا كان حرف جر أو اسما مضافا نحو على كم فقير تصدقت أرجو الثواب وابن كم رئيس صحبته *

وحكى الأخفش على ما في البحر جواز تقدم عامل عليها غير ذلك عن بعضهم نحو ملكت كم غلام أي ملكت كثيراً من الغلمان عاملوها معاملة كثير ، والرؤية علمية لابصرية خلافا لابن عطية لأنها لاتعلق على المشهور ولأن أهل مكة لم يحضروا إهلاك من قبلهم حتى يروه بل علموه بالأخبار ومشاهدة الآثار، والقرون جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد كعاد وثمود وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ الضمير عائد على معنى (كم) وهي القرون أي إن القرون المهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى أهل مكة ﴿لَا يَرْجِعُونَ ٣١﴾ وأن ومابعدها في تأويل المفرد

www.Quranpdf.blogspot.in

بدل من جملة (كم أهلكنا) على المعنى كما نقل عن سيبويه وتبعه الزجاج أى ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين اليهم ٭

وقيل على المعنى لأن الكثرة المذكورة وعدم الرجوع ليس بينهما اتحاد بجزئية ولا كلية ولا ملابسة كما هو مقتضى البدلية لكن لما كان ذلك فى معنى الذين أهلكناهم وأنهم لا يرجعون بمعنى غير راجعين اتضح فيه البدلية على أنه بدل اشتمال أو بدل كل من كل قاله الخفاجى : وأفاد صاحب الكشف على أنه من بدل الكل بجعل كونهم غير راجعين كثرة اهلاك تجوزا ، وعندى أن هذا الوجه وإن لم يكن فيه ابدال مفرد من جملة وتحقق فيه مصحح البدلية على ماسمعت ولا يخلو عن تكلف ، وسيبويه ليس بنبي النحو ليجب اتباعه ٭

وقال السيرافى : يجوز أن يجعل (أنهم) الخ صلة أهلكناهم أى أهلكناهم بانهم لا يرجعون أى بهذا الضرب من الهلاك ، وجوز ابن هشام فى المغنى أن يكون ان وصلتها معمول (يروا) وجملة (كم أهلكنا) معترضة بينهما وأن يكون معلقا عن (كم أهلكنا) وأنهم اليهم لا يرجعون مفعولا لأجله ، قال الشمنى: ليروا والمعنى أنهم علموا لأجل أنهم لا يرجعون اهلاكهم . ورد بانه لافائدة يعتد بها فيما ذكر من المعنى. وتعقبه الخفاجى بقوله: لا يخفى أن ما ذكر وارد على البدلية أيضا ، والظاهر أن المقصود من ذكره إما التهكم بهم وتحميقهم وإما إفادة ما يفيد تقديم (اليهم) من الحصر أى أنهم لا يرجعون اليهم بل الينا فيكون مابعده .ؤكدا لما ه وهو كما ترى ، وقال الحلبى : لعل الحق أن يجعل أول الضميرين لمعنى (كم) وثانيهما للرسل وان وصلتها مفعولا لأجله لأهلكناهم ، والمعنى أهلكناهم لاستمرارهم على عدم الرجوع عن عقائدهم الفاسدة إلى الرسل وما دعوهم اليه فاختيار (لا يرجعون) على لم يرجعوا للدلالة على استمرار النفى مع مراعاة الفاصلة انتهى . وهو على بعده ركيك معنى ، وأرك منه ما قيل الضميران على مايتبادر فيهما من رجوع الأول لمعنى (كم) والثانى لمن نسبت اليه الرؤية وأن وصلتها علة لاهلكنا ، والمعنى انهم لا يرجعون اليهم فيخبروهم بما حل بهم من العذاب وجزاء الاستهزاء حتى ينزجر هؤلاء فلذا أهلكناهم ، ونقل عن الفراء أنه يعمل (يروا) فى (كم أهلكنا) وفى (أنهم) الخ من غير ابدال ولم يبين كيفية ذلك ٭

وزعم ابن عطية أن أن وصلتها بدل من (كم) ولا يخفى أنه إذا جعلها معمول (أهلكنا) كما هو المعروف لا يسوغ ذلك لأن البدل على نية تكرار العامل ولا معنى لقولك أهلكنا أنهم لا يرجعون ولعله تسامح فى ذلك ، والمراد بدل من (كم أهلكنا) على المعنى كما حكى عن سيبويه ، وأما جعل (كم) معمولة ليروا والابدال منها نفسها إذ ذاك فلا يخفى حاله ، وقال أبو حيان: الذى تقتضيه صناعة العربية أن (انهم) الخ معمول لمحذوف دل عليه المعنى وتقديره قضينا أو حكمنا انهم اليهم لا يرجعون والجملة حال من فاعل (أهلكنا) على ماقال الخفاجى وأراه أبعد عن القيل والقال بيد أن فى الدلالة على المحذوف خفاء فان لم يلصق بقلبك لذلك فالاقوال بين يديك ولا حجر عليك ٭

وكأنى بك تختار مانقل عن السيرافى ولا بأس به ، وجوز على بعض الأقوال أن يكون الضمير فى (أنهم) عائداً على من أسند إليه يروا وفى (إليهم) عائداً على المهلكين ، والمعنى أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة أى أهلكناهم وقطعنا نسلهم والاهلاك مع قطع النسل أتم وأعم ، ويحسن هذا على الوجه المحكى عن السيرافى . وقرأ ابن عباس . والحسن (إنه) بكسر الهمزة على الاستئناف وقطع الجملة عما قبلها من جهة الاعراب . وقرأ عبد الله (ألم يروا من أهلكنا فانهم) الخ على قراءة الفتح بدل اشتمال ، ورد بالآية على القائلين بالرجعة كما ذهب اليه الشيعة ٭

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن أبى إسحق قال : قيل لابن عباس أن ناسا يزعمون أن عليا كرم الله تعالى وجهه مبعوث قبل يوم القيامة ؟ فسكت ساعة ثم قال : بئس القوم نحن إن نكحنا نساءه واقتسمنا ميراثه أما تقرؤن (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون) *

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٢﴾ بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا و(إن) نافية و(كل) مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف اليه، و(لما) بمعنى إلا ومجيئها بهذا المعنى ثابت فى لسان العرب بنقل الثقات فلا يلتفت إلى زعم الكسائى أنه لا يعرف ذلك . وقال أبو عبد الله الرازى: فى كونها بهذا المعنى معنى مناسب وهو أنها كأنها حرفا نفى أكد أولهما بثانيهما وهما لم وما وكذلك إلا كأنها حرفا نفى وهما إن النافية ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر، وهو عندى ضرب من الوساوس و(جميع) خبر المبتدأ وهو فعيل بمعنى مفعول فيفيد ما لا تفيده (كل) لأنها تفيد إحاطة الأفراد وهذا يفيد اجتماعها وانضمام بعضها إلى بعض و(لدينا) ظرف له أو لمحضرون و(محضرون) خبر ثان أو نعت وجمع على المعنى، والمعنى ما كلهم الا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء *

وقال ابن سلام : محضرون أى معذبون فكل عبارة عن الكفرة، ويجوز أن يراد به هذا المعنى على الأول* وفى الآية تنبيه على أن المهلك لا يترك . وقرأ جمع من السبعة (لما) بالتخفيف على أن إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن الشأن كلهم مجموعون الخ وهذا مذهب البصريين، وذهب الكوفيون إلى أن إن نافية واللام بمعنى إلا وما مزيدة والمعنى كما فى قراءة التشديد ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف وقرأ نافع بالتشديد ، و(آية) خبر مقدم للاهتمام وتنكيرها للتفخيم و(لهم) إما متعلق بها لأنها بمعنى العلامة أو متعلق بمضمر هو صفة لها وضمير الجمع لكفار أهل مكة ومن يجرى مجراهم فى إنكار الحشر ، و(الأرض) مبتدأ و(الميتة) صفتها، وقوله تعالى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ استئناف مبين لكيفية كونها آية، وقيل فى موضع الحال والعامل فيها آية لما فيها من معنى الاعلام وهو تكلف ركيك، وقيل (آية) مبتدأ أول و(لهم) صفتها أو متعلق بها وكل من الأمرين مسوغ للابتداء بالنكرة و(الأرض الميتة) مبتدأ ثان وصفة وجملة (أحييناها) خبر المبتدأ الثانى وجملة المبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول ولكونها عين المبتدأ كخبر ضمير الشأن لم تحتج لرابط ، قال الخفاجى: وهذا حسن جدا إلا أن النحاة لم يصرحوا به فى غير ضمير الشأن ، وقيل إنها مؤولة بمدلول هذا القول فلذا لم تحتج لذلك ولا يخفى بعده ، وقيل (آية) مبتدأ و(الأرض) خبره وجملة (أحييناها) صفة الأرض لأنها لم يرد بها أرض معينة بل الجنس فلا يلزم توصيف المعرفة بالجملة التى هى فى حكم النكرة، ونظير ذلك قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

وأنكر جواز ذلك أبو حيان مخالفا للزمخشرى . وابن مالك فى التسهيل وجعل جملة يسبنى حالا من اللئيم، وأنت تعلم أن المعنى على استمرار مروره على من يسبه واغماضه عنه ولهذا قال: أمر وعطف عليه فمضيت والتقييد بالحال لا يؤدى هذا المؤدى ، ثم ان مدار الخبرية ارادة الجنس فليس هناك اخبار بالمعرفة عن النكرة ليكون مخالفا للقواعد كما قيل نعم أرجح الأوجه ماقرر أولا وقد مر المراد بموت الأرض وأحيائها فتذكر *

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أى جنس الحب من الحنطة والشعير والأرز وغيرها ، والنكرة قد تعم كما إذا كانت

www.Quranpdf.blogspot.in

فى سياق الامتنان أو نحوه ، وفى ذكر الاخراج وكذا الجعل الآتى تنبيه على كمال الاحياء ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أى من الحب بعد إخراجنا إياه ، والفاء داخلة على المسبب ومن ابتدائية أو تبعيضية والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى ﴿ يَأْكُلُونَ ٣٣ ﴾ والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به لما فى ذلك من إيهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ ﴾ جمع نخل كعبيد جمع عبد كما ذهب اليه أكثر الأئمة وصرح به فى القاموس ، وقيل اسم جمع، وقال الجوهرى : النخل والنخيل بمعنى واحد وعلى الأول المعول ﴿ وَأَعْنَابٍ ﴾ جمع عنب ويقال على الكرم نفسه وعلى ثمرته كما قال الراغب : ولعله مشترك فيهما ، وقيل حقيقة فى الثمرة مجاز فى الشجرة، وأياما كان فالمراد الأول بقرينة العطف على النخيل، وجمعا دون الحب قيل لتدل الجمعية على تعدد الأنواع أى من أنواع النخل وأنواع العنب وذلك لأن النخل والعنب اسمان لنوعين فكل منهما مقول على افراد حقيقة واحدة فلا يدلان على اختلاف ماتحتهما وتعدد أنواعه الا إذا عبر عنهما بلفظ الجمع بخلاف الحب فانه اسم جنس وهو يشعر باختلاف ماتحته لأنه المقول على كثرة مختلفة الحقائق قولا ذاتيا فلا يحتاج فى الدلالة على الاختلاف إلى الجمعية، وقولهم جمع العالم فى قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) وهو اسم جنس ليشمل ماتحته من الأجناس لاينافى ذلك قيل لأن المراد ليشمل شمولا ظاهراً متعينا وان حصل الاشعار بدونه ، وقيل جمعا للدلالة على مزيد النعمة، وأما الحب ففيه قوام البدن وهو حاصل بالجنس *

وامتن عزوجل فى معرض الاستدلال على أمر الحشر بجعل الجنات من النخيل والأعناب المراد بها الأشجار ولم يمتن سبحانه وتعالى بجعل ثمرات تلك الأشجار من التمر والعنب كما امتن جل جلاله باخراج الحب أعظاما للمنة لتضمن ذلك الامتنان بالثمار وغيرها من منافع تلك الأشجار أنفسها بسائر أجزائها للانسان نفسه بلا واسطة لاسيما النخيل، ولا دلالة فى الكلام على حصر ثمرة الجعل بأكل الثمرة، وثمرة التنصيص على ذلك من بين المنافع ظاهرة وهذا بخلاف أشجار الحبوب فانها ليست بهذه المثابة ولذا غير الأسلوب ولم يعامل ثمر ذلك معاملة الحبوب وكلام البيضاوى عليه الرحمة ظاهر فى أن المراد بالأعناب الثمار المعروفة لا الكروم وعلل ذكر النخيل دون ثمارها مع أنه الأوفق بما قبل ومابعد باختصاصها بمزيد النفع وآثار الصنع وتفسير الأعناب بالثمار دون الكروم بعيد عندى لمكان العطف مع أن الجار والمجرور فى موضع الصفة لجنات ، والمعروف كونها من أشجار لامن ثمار *

قال الراغب : الجنة كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة وعلى ذلك حمل قوله : * من النواضح تسقى جنة سحقا * على أن فى الآية بعد مايؤيد إرادة الثمار فتدبر *

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أى شققنا فى الأرض . وقرأ جناح بن حبيش (فجرنا) بالتخفيف والمعنى واحد بيد أن المشدد دال على المبالغة والتكثير ﴿ مِنَ الْعُيُونِ ٣٤ ﴾ أى شيئاً من العيون على أن الجار والمجرور فى موضع الصفة لمحذوف، ومن بيانية وجوز كونها تبعيضية وليس بذاك، وقيل المفعول محذوف و(من العيون) متعلق بفجر ومن ابتدائية على معنى فجرنا من المنابع ما ينتفع به من الماء ، وذهب الأخفش إلى زيادة من وجعل العيون مفعول فجرنا لأنه يرى جواز زيادتها فى الاثبات مع تعريف مجرورها ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ متعلق بجعلنا

www.Quranpdf.blogspot.in

وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادىء الثمر أى وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ورتبنا مبادىء ثمرها ليأكلوا ، وضمير ثمره عائد على المجعول وهو الجنات ولذا أفرد وذكر ولم يقل من ثمرها أى الجنات أو من ثمرهما أى النخيل والأعناب ، ومثله ماقيل عائد على المذكور والضمير قد يجرى مجرى اسم الاشارة كما فى قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق(١)

فانه أراد كما قال لأبى عبيدة وقد سأله كأن ذاك ، وقيل عائد على الماء لدلالة العيون عليه أو لكون الكلام على حذف مضاف أى ماء العيون ، وقيل على النخيل واكتفى به للعلم باشتراك الأعناب معه فى ذلك ، وقيل على التفجير المفهوم من (فجرنا) والمراد بثمره فوائده كما تقول ثمرة التجارة الربح أو هو ظاهره والاضافة لأدنى ملابسة والكل كما ترى ، وجوز أن يكون الضمير له عز وجل وإضافة الثمر اليه تعالى لأنه سبحانه خالقه فكأنه قيل: ليأكلوا مما خلقه الله تعالى من الثمر . وكان الظاهر من ثمرنا لضمير العظمة على قياس ماتقدم إلا أنه التفت من التكلم الى الغيبة لأن الأكل والتعيش مما يشغل عن الله تعالى فيناسب الغيبة فالالتفات فى موقعه ﴿

وزعم بعضهم أن هذا ليس من مظانه لأنه أولى بضمير الواحد المطاع لأنه المقصود بالاحياء والجعل والتفجير وقد أسندت اليه . ورد بان ماسبق أفخم لأنها أفعال عامة النفع ظاهرة فى كمال القدرة والثمر أحط مرتبة من الحب ولذا لم يورد على سبيل الاختصاص فلا يستحق ذلك التفخيم كيف وقد جعل بعضهم الثمر خلق الله تعالى وكاله بفعل الآدمى ، وبما تقدم يستغنى عما ذكر . وقرأ طلحة . وابن وثاب . وحمزة . والكسائى (من ثمره) بضمتين وهى لغة فيه أو هو جمع ثمار ﴿

وقرأ الأعمش (من ثمره) بضم فسكون ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ (ما) موصولة فى محل جر عطف على (ثمره) وجعله فى محل نصب عطفا على محل (من ثمره) خلاف الظاهر أى وليأكلوا من الذى عملوه أو صنعوه بقواهم، والمراد به ما يتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما ، وقال الزمخشرى: أى من الذى عملته أيديهم بالغرس والسقى والآبار وليس بذاك ، وجوز أن تكون مانكرة موصوفة أى ومن شىء عملته أيديهم والأول أظهر ، وقيل : ما نافية وضمير (عملته) راجع إلى الثمر والجملة فى موضع الحال ، والمراد من نفى عمل أيديهم اياه أنه بخلق الله تعالى لا بفعلهم ولا تقول المشايخ بالتوليد، وروى القول بانها نافية عن ابن عباس . والضحاك، وظاهر كلام الحبر أن الضمير راجع إلى شيئا الموصوف المحذوف والجملة حال منه، فقد روى سعيد بن منصور . وابن المنذر عنه أنه قال: وجدوه معمولا لم تعمله أيديهم يعنى الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباههاوفيه بعد. وأيد القول بالموصولية بقراءة طلحة. وعيسى . وحمزة . والكسائى. وأبى بكر (وماعملت) بلاهاء، ووجه التأييد أن الموصول مع الصلة كاسم واحد فيحسن معه لاستطالته ولاقتضائه اياه ودلالته عليه يكون كالمذكور، وتقدير اسم ظاهر غير ظاهر ، وقال الطيبى: جعلها نافية أولى من جعلها موصولة لئلا يوهم استقلالهم بالعمل لأن ذكر الايدى للتأكيد فى هذا المقام كما فى قوله تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) لأن التركيب من باب أخذته بيدى ورأيته بعينى وحينئذ لا يناسب أن يكون قوله تعالى (أحييناها) الخ تفسيرا لكون الأرض الميتة آية، وتعقبه فى الكشف بانه ليس بشىء لأن

---

(١) ظهور النقط البيض على الشى اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

العمل من العباد بمعنى الكسب وقد جاء بما قدمت أيديكم و بما قدمت يداك فهذا التأكيد دافع للايهام انتهى فلا تغفل *
وجوز على هذه القراءة كون ما مصدرية أى وعمل أيديهم ويراد بالمصدر اسم المفعول أى معمول أيديهم فيعود إلى معنى الموصولة ولا يخفى ما فيه ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٣٥ ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره عز وجل واستعظام ما ذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة لشكره تعالى وتخصيص العبادة به سبحانه والتعجيب من اخلالهم بذلك والحال هذه، وقد تقدم الكلام فى (سبحان) . وفى الارشاد هنا أنه علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء إذا بعد فيهما وأمعن وانتصابه على المصدرية أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه عز شأنه، وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق وجهة العدول إلى التفعيل وجهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم وجهة اقامته مقام المصدر مع الفعل ، وقيل : هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه إلى الذات المقدس فالمعنى تنزه بذاته عن كل مالا يليق به تعالى تنزها خاصا به سبحانه، فالجملة على هذا اخبار منه تعالى بتنزهه وبراءته عن كل مالا يليق به مما فعلوه وما تركوه، وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه *
وقدر بعضهم الفعل الناصب أمرا أى سبحوا سبحان، والمراد بالازواج الانواع والاصناف ، وقال الراغب: الازواج جمع زوج ويقال لكل واحد من القرينين ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضاداً وكل ما فى العالم زوج من حيث أن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض *
﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ بيان للازواج والمراد به كل ما ينبت فيها من الاشياء المذكورة وغيرها ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى وخلق الازواج من أنفسهم أى الذكر والانثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ٣٦ ﴾ أى والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته بخصوصياته وإنما اطلعهم سبحانه على ذلك بطريق الاجمال على منهاج (ويخلق ما لا تعلمون) لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وجلالة سلطانه عز وجل، ولعله لما كان العلم من أخص صفات الربوبية لم يثبت على وجه الكمال والاحاطة لأحد سواه سبحانه ولو كان بطريق الفيض منه تبارك وتعالى على أن ظرف الممكن يضيق عن الاحاطة فما يجهله كل أحد أكثر مما يعلمه بكثير ، وقد يقال على بعض الاعتبارات: إن ما يعلمه كل أحد متناه وما يجهله غير متناه ولا نسبة بين المتناهى وغير المتناهى أصلا فلا نسبة بين معلوم كل أحد ومجهوله، وتأمل فى هذا مع دعوى بعض الاكابر الوقوف على الاعيان الثابتة والاطلاع عليها وقل رب زدنى علما ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ ﴾ بيان لقدرته تعالى الباهرة فى الزمان بعد ما بينها سبحانه فى المكان، و(آية) خبر مقدم و(الليل) مبتدأ مؤخر وقوله تعالى ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ استئناف لبيان كونه آية، وفى التركيب احتمالات أخر تعلم مما مر إلا أن الارجح ما ذكر أى نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل وموضع القاء ظله وظلمته وهو الهواء

www.Quranpdf.blogspot.in

فالنهار عبارة عن الضوء اما على التجوز أو على حذف المضاف، وقوله تعالى (منه) على حذف مضاف وذلك لأن النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الافق وتحته ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر وأصل السلخ كشط الجلد عن نحو الشاة فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته وظله استعارة تبعية مصرحة والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر فانه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، وجوز أن يكون فى النهار استعارة مكنية وفى السلخ استعارة تخييلية والجمهور على ماذكرنا ومن ابتدائية ، وقيل : تبعيضية وجعلها سببية ليس بشىء، وهذا التفسير محكى عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع ، واستعمال الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧﴾ أى داخلون فى الظلام كما يفيده همزة الافعال عليه ظاهر ، ووقع فى عبارة الشيخ عبدالقاهر والامام السكاكى أن المستعار له فى الآية ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده وذلك على ماقال العلامة الطيبي والفاضل اليمنى مأخوذ من قول الزجاج معنى نسلخ منه النهار نخرج منه النهار اخراجا لايبقى معه شىء من ضوئه فالظهور فى عبارتهما بمعنى الخروج وهو يتعدى بمن فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن *

وقد جاء بهذا المعنى كما فى قول عمر لأبى عبيدة رضى الله تعالى عنهما اظهر بمن معك من المسلمين اليها أى الأرض يعنى اخرج إلى ظاهرها ، وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها كان ﷺ يصلى العصر ولم يظهر الفىء بعد من الحجرة أى لم يخرج إلى ظاهرها فسقط ماأورد عليه من أنه لو أريد الظهور لقيل (فاذاهم مبصرون) ولم يقل (فاذا هم مظلمون) لأن الواقع عقيب ظهور النهار من ظلمة الليل إنما هو الابصار لا الأظلام من غير حاجة إلى حمل العبارة على القلب أى ظهور ظلمة الليل من النهار ، وبعضهم (١) رفع هذا الايراد بأن النهار عبارة عن مجموع المدة من طلوع الفجر أو الشمس إلى الغروب لاعن بعضها فالواقع عقيب هذه المدة كلها الدخول فى الظلام . وتعقبه السالكوتى بأن الدخول فى الظلام مترتب على السلخ لاعلى انقضاء مدة النهار *

ولعل مراد البعض أن السلخ بمعنى ظهور النهار لايتحقق إلا بظهور كل أجزائه ومتى ظهرت أجزاء النهار كلها انقضت مدته ، وذكر العلامة القطب أن السلخ قد يكون بمعنى النزع نحو سلخت الأهاب عن الشاة وقد يكون بمعنى الاخراج نحو سلخت الشاة من الأهاب والشاة مسلوخة وذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكى إلى الثانى وغيرهما إلى الأول فاستعمال الفاء فى (فاذاهم) ظاهر على قول الغير وأما على قولهما فانما يصح من جهة أنها موضوعة لما يعد فى العادة مرتبا غير متراخ وهذا يختلف باختلاف الأمور والعادات فقد يطول الزمان والعادة فى مثله تقتضى عدم اعتبار المهلة وقد يكون بالعكس كما فى هذه الآية فان زمان النهار وإن توسط بين إخراج النهار من الليل وبين دخول الظلام لكن لعظم دخول الظلام بعد إضاءة النهار وكونه مما ينبغى أن لا يحصل إلا فى أضعاف ذلك الزمان عد الزمان قريبا وجعل الليل كأنه يفاجئهم عقيب إخراج النهار من الليل بلامهلة *

ثم لايخفى أن إذ المفاجأة إنما تصح إذا جعل السلخ بمعنى الاخراج كما يقال: أخرج النهار من الليل ففاجأه دخول الليل فانه مستقيم بخلاف ما إذا جعل بمعنى النزع فانه لايستقيم أن يقال: نزع ضوء الشمس عن الهواء ففاجأه الظلام كما لايستقيم أن يقال كسرت الكوز ففاجأه الانكسار لأن دخولهم فى الظلام عين حصول الظلام فيكون نسبة دخولهم فى الظلام إلى نزع ضوء النهار كنسبة الانكسار إلى الكسر فلهذا جعلا السلخ

---

(١) هو شيخ الاسلام فى حواشيه على المطول اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

بمعنى الاخراج دون النزع اه كلامه، وقواه العلامة الثانى بأنه لاشك أن الشىء إنما يكون آية إذا اشتمل على نوع استغراب واستعجاب بحيث يفتقر إلى نوع اقتدار وذلك إنما هو مفاجأة الظلام عقيب ظهور النهار لاعقيب زوال ضوء النهار *

وقال السالكوتى: إن عدم استقامة المفاجأة فيما ذكر لأنها إنما تتصور فيما لايكون مترقبا بل يحصل بغتة وحينئذ يمكن أن يقال فى الجواب: إن نزع الضوء عن الليل لكون ظهوره فى غاية الكمال كان المترقب فيه أن يكون فى مدة مديدة فحصول الظلام بعده فى مدة قصيرة أمر غير مترقب ثم قال وبهذا ظهر الجواب عن التقوية، وقيل إن الظلمة لكونها مما تنفر عنها الطباع وتكرهها النفوس يكون حصولها كأنه غير مترقب ويكفى نفس السلخ فى الدلالة على الاقتدار، والذى يقتضيه ماسبق عن الطيبى واليمنى أن الشيخ والسكاكى أرادا إخراج النهار من الليل إخراجا لايبقى معه شىء من ضوئه كما قال الزجاج، ومآله إزالة ضوء النهار من مكان الليل وموضع ظلمته كما قال الفراء، وجاء فى كلامهم الظهور بمعنى الزوال كما فى قول أبى ذؤيب:

وعيرها الواشون أنى أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وحكى الجوهرى. يقال هذا أمر ظاهر عنك عاره أى زائل. وقال المرزوقى فى قول الحماسى:

* وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر * أيضا كذلك فلا مانع من أن يكون فى كلام الشيخين بهذا المعنى ويراد بالظهور الاظهار، والتعبير به مساهلة لظهور أن نسلخ متعد فيرجع الأمر إلى الازالة فيتحد كلاهما بما قاله الفراء وكذا على ما قيل المراد بالظهور الخروج على وجه المفارقة لظهور الزوال فيه حينئذ وأمر المساهلة على حاله، وعلى القول بالاتحاد يجىء اعتراض العلامة والجواب هو الجواب فتأمل والله تعالى الهادى إلى الصواب *

وفى الآية على ماقال غير واحد دلالة على أن الأصل الظلمة والنور طارىء عليها يسترها بضوئه وفى الحديث مايشعر بذلك أيضا، روى الامام أحمد. والترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره اهتدى ومن أخطأه ضل» *

﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ عطف على (الليل) أى وآية لهم الشمس *

وقوله تعالى ﴿ تَجْرِى ﴾ الخ استئناف لبيان كونها آية، وقيل (الشمس) مبتدأ ومابعده خبر والجملة عطف على (الليل نسلخ) وقيل غير ذلك فلا تغفل، والجرى المر السريع، وأصله لمر الماء ولما يجرى بجريه والمعنى تسير سريعا ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحد معين تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره من حيث أن فى كل انتهاء إلى محل معين وإن كان للمسافر قرار دونها، وروى هذا عن الكلبى واختاره ابن قتيبة، والمستقر عليه اسم مكان واللام بمعنى إلى وقرىء بها بدل اللام، وجوز أن تكون تعليلية أو لمنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب لأنها تتقصاها مشرقا مشرقا ومغربا مغربا حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لاتعدوه *

وروى هذا عن الحسن وهو متفق فى أن المستقر اسم مكان واللام على ما سمعت، ومختلف باعتبار أن الأول من استقرار المسافر تشبيها لانتهاء الدورة بانتهاء السفرة وهذا باعتبار مقنطرات الارتفاع وبلوغ

www.Quranpdf.blogspot.in

أقصاها ومقنطرات الانخفاض كذلك والاستقرار باعتبار عدم التجاوز عن الأول فى استقصاء المشارق وعن الثانى فى استقصاء المغارب أو لحد لهـا من مسيرها كل يوم فى رأى عيوننا وهو المغرب، والمستقر عليه اسم مكان أيضـا واللام كما سمعت أو لـكبد السماء ودائرة نصف النهار فالمستقر (١) واللام على نظير ماتقدم، وكون ذلك محل قرارها إما مجاز عن الحركة البطيئة أوهو باعتبار مايتراءى، قال ذو الرمة يصف فرسه وجريه فى الظهيرة وشدة الحر :

معرووريا رمض الرضراض تركضـه والشمس حيرى لها بالجو تدويم (٢)

أو لاستقرار لها ومكث فى كل برج من البروج الاثنى عشر على نهج مخصوص فالمستقر مصـدر ميمى واللام داخلة على الغاية أو الحامل ، وقيـل تجرى لبيتها وهو برج الأسد، واستقرارها عبارة عن حسن حالها فيه، وهذا غير مقبول إلا عند أهل الأحكام ولا يخفى حكمهم على محققى الاسلام، وقال قتادة . ومقاتل المعنى تجرى الى وقت لها لاتتعداه ، قال الواحدى : وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضا الدنيا وهذا اختيار الزجاج كما قال النووى : فى شرح صحيح مسلم ، ومستقر عليه اسم زمان وفى غير واحد من الصحاح عن أبى ذر قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد عند غروب الشمس فقال ياأبا ذر أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت الله تعالى ورسوله أعلم قال: تذهب لتسجد (٣) فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لهـا ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل · (والشمس تجرى لمستقر لها) وفى رواية أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة » الحديث وفى ذلك عدة روايات وقد روى مختصرا جدا .

وأخرج أحمد . والبخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن أبى حاتم . وأبو الشيخ وابن مردويه . والبيهقى عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها) قال مستقرها تحت العرش فالمستقر اسم مكان والظاهر أن للشمس فيه قراراً حقيقة ، قال النووى : قال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدى : وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع ، ثم قال النووى: وسجودها بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها .

وذكر ابن حجر الهيتمى فى فتاويه الحديثية أن سجودها تحت العرش إنما هو عند غروبها وحكى فيها عن بعضهم أنها تطلع من سماء إلى سماء حتى تسجد تحت العرش وتقول : يارب إن قوما يعصونك فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتنزل من سماء إلى سماء حتى تطلع من المشرق وبنزولها إلى سماء الدنيا يطلع الفجر ، وفيها أيضا أخرج أبو الشيخ عن عكرمة انها إذا غربت دخلت نهرا تحت العرش فتسبح ربها حتى إذا أصبحت استعفت ربها عن الخروج فيقول سبحانه لم فتقول أنى إذا خرجت عبدت من دونك، والسجود تحت العرش قد جاء أيضا من روايات الامامية ولهم فى ذلك أخبار عجيبة منها أن الشمس عليها سبعون الف كلاب وكل كلاب يجره سبعون الف ملك من مشرقها إلى مغربها ثم ينزعون منها النور فتخر ساجدة تحت العرش ثم يسألون

(١) وجوز كونه مصدرا فلا تغفل اه منه (٢) هو وقوف الطائر فى الهواء اه منه

(٣) أى فى الرجوع كما جاء مصرحا به فى حديث آخر رواه أحمد والترمذى وغيرهما فلا تغفل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

ربهم هل نلبسها لباس النور أم لا ؟ فيجابون بما يريده سبحانه ثم يسألونه عز وجل هل نطلعها من مشرقها أو مغربها؟ فيأتيهم النداء بما يريد جل شأنه ثم يسألون عن مقدار الضوء فيأتيهم النداء بما يحتاج اليه الخلق من قصر النهار وطوله *

وفى الهيئة السنية للجلال السيوطى أخبار من هذا القبيل والصحيح من الاخبار قليل ؛ وليس لى على صحة اخبار الامامية واكثر مافى الهيئة السنية تعويل نعم ماتقدم عن أبى ذر مما لا كلام فى صحته وماذا يقال فى أبى ذر وصدق لهجته ، والأمر فى ذلك مشكل إذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش سواء قيل إنها تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل اليه فتسجد أم قيل انها تستقر وتسجد تحته من غير طلوع فقد صرح امام الحرمين وغيره بانه لاخلاف فى أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وبين الليل والنهار اختلاف ما فى الطول والقصر عند خط الاستواء ، وفى بلاد بلغار قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب ، وفى عرض تسعين لاتزال طالعة مادامت فى البروج الشمالية وغاربة مادامت فى البروج الجنوبية فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على مافصل فى موضعه ، والادلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها والالكانت ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها فى افق طلوع فى غيره ، وأيضا هى قائمة على أنها لا تفارق فلكها فكيف تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل إلى العرش بل كون الأمر ليس كذلك أظهر من الشمس لايحتاج إلى بيان أصلا وكذا كونها تحت العرش دائما بمعنى احتوائه عليها وكونها فى جوفه كسائر الأفلاك التى فوق فلكها والتى تحته وقد سألت كثيراً من أجلة المعاصرين عن التوفيق بين ماسمعت من الأخبار الصحيحة وبين ما يقتضى خلافها من العيان والبرهان فلم أوفق لأن أفوز منهم بما يروى الغليل ويشفى العليل ، والذى يخطر بالبال فى حل ذلك الاشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى الآتى (كل فى فلك يسبحون) حيث جىء بالفعل مسنداً إلى ضمير جمع العقلاء وقوله تعالى (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) لنحو ما ذكر يدل وعليه ظاهر ماروى عن أبى ذر من أنها تسجد وتستأذن فان المتبادر من الاستئذان مايكون بلسان القال دون لسان الحال * وخلق الله تعالى الادراك والتمييز فيها حال السجود والاستئذان ثم سلبه عنها مما لا حاجة إلى التزامه بل هو بعيد غاية البعد والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصى كثرة وبعض يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص وبعضها يدل على ثبوته لها باعتبار دخولها فى العموم أو بالمقايسة إذ لاقائل بالفرق ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفس ناطقة كنفس الانسان بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جدا ، والحكماء أثبتوا النفس للفلك وصرح بعضهم باثباتها للكواكب أيضا وقالوا : كل مافى العالم العلوى من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير حى ناطق والأنفس الناطقة الانسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ عن الأبدان وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما يتمثل جبريل عليه السلام ويظهر بصورة دحية أو بصورة بعض الأعراب كما جاء فى صحيح الأخبار حيث يشاء الله عز وجل مع بقاء نوع تعلق لها بالأبدان الأصلية يتأتى معه صدور الأفعال منها كما يحكى عن بعض الأولياء قدست أسرارهم أنهم يرون فى وقت واحد فى عدة مواضع وما ذاك إلا لقوة تجرد أنفسهم وغاية تقدسها فتمثل وتظهر فى موضع وبدنها الأصلى فى موضع آخر *

www.Quranpdf.blogspot.in

لا تقل دارها بشرقى نجد كل نجد للعامرية دار

وهذا أمر مقرر عند السادة الصوفية مشهور فيما بينهم وهو غير طى المسافة وانكار من ينكر كلا منهما عليهم مكابرة لا تصدر إلا من جاهل أو معاند، وقد عجب العلامة التفتازانى من بعض فقهاء أهل السنة أى كابن مقاتل حيث حكم بالكفر على معتقد ماروى عن إبراهيم بن أدهم قدس سره أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية ورؤى ذلك اليوم بمكة ، ومبناه زعم أن ذلك من جنس المعجزات الكبار وهو مما لا يثبت كرامة لولى وأنت تعلم أن المعتمد عندنا جواز ثبوت الكرامة للولى مطلقا إلا فيما يثبت بالدليل عدم إمكانه كالاتيان بسورة مثل إحدى سور القرآن ، وقد أثبت غير واحد تمثل النفس وتطورها لنبينا صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة وادعى أنه عليه الصلاة والسلام قد يرى فى عدة مواضع فى وقت واحد مع كونه فى قبره الشريف يصلى ،وقد تقدم الكلام مستوفى فى ذلك، وصح أنه صلى الله عليه وسلم رأى موسى عليه السلام يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر ورآه فى السماء وجرى بينهما ماجرى فى أمر الصلوات المفروضة، وكونه عليه السلام عرج إلى السماء بجسده الذى كان فى القبر بعد أن رآه النبى صلى الله عليه وسلم مما لم يقله أحد جزما والقول به احتمال بعيد،وقد رأى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به جماعة من الأنبياء غير موسى عليه السلام فى السموات مع ان قبورهم فى الأرض ولم يقل أحد إنهم نقلوا منها اليها على قياس ماسمعت آنفا ، وليس ذلك مما ادعى الحكميون استحالته من شغل النفس الواحدة أكثر من بدن واحد بل هو أمر وراءه كما لايخفى على من نور الله تعالى بصيرته فيمكن أن يقال :إن للشمس نفسا مثل تلك الأنفس القدسية وأنها تنسلخ عن الجرم المشاهد المعروف مع بقاء نوع من التعلق لها به فتعرج إلى العرش فتسجد تحته بلاواسطة وتستقر هناك وتستأذن ولا ينافى ذلك سير هذا الجرم المعروف وعدم سكونه حسبما يدعيه أهل الهيئة وغيرهم ويكون ذلك إذا غربت ولجاوزت الأفق الحقيقى وانقطعت رؤية سكان المعمور من الأرض إياها ولا يضر فيه طلوعها إذ ذاك فى عرض تسعين ونحوه لأن ماذكرنا من كون السجود والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء الله تعالى لا ينافى سير الجرم المعروف بل لو كانا نصف النهار فى خط الاستواء لم يضر أيضا، ويجوز أن يقال سجودها بعد غروبها عن أفق المدينة ولا يضر فيه كونها طالعة إذ ذاك فى أفق آخر لما سمعت إلا أن الذى يغلب على الظن ماذكرأولا ،وعلى هذا الطرز يخرج مايحكى أن الكعبة كانت تزور واحدا من الأولياء بان يقال إن الكعبة حقيقة غير مايعرفه العامة وهى باعتبار تلك الحقيقة تزور والناس يشاهدونها فى مكانها أحجاراً مبنية ٥

وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره فى الفتوحات كلاما طويلا ظاهراً فى أن لها حقيقة غير مايعرفه العامة وفيه أنه كان بينه وبينها زمان مجاورته مراسلات وتوسلات ومعاتبة دائمة وانه دون بعض ذلك فى جزء سماه تاج الوسائل ومنهاج الرسائل وقد سأل نجم الدين عمر النسفى مفتى الانس والجن عما يحكى أن الكعبة كانت تزور الخ هل يجوز القول به فقال نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة وارتضاه العلامة السعد وغيره لكن لم أر من خرج زيارتها على هذا الطرز ،وظاهر كلام بعضهم أن ذلك بذهاب الجسم المشاهد منها إلى المزور وانتقاله من مكانه ، ففى عدة الفتاوى والولوالجية وغيرهما لو ذهبت الكعبة لزيارة بعض الأولياء فالصلاة إلى هوائها ، ويمكن أن يكون أريد به غير ما يحكى فانه والله تعالى أعلم لم يكن بانتقال

www.Quranpdf.blogspot.in

الجسم المشاهد ثم الجمع بين الحديث فى الشمس وبين مايقتضيه الحس وكلام أهل الهيئة بهذا الوجه لم أره لأحد بيد أنى رأيت فى بعض مؤلفات عصرينا الرشتى رئيس الطائفة الامامية الكشفية أن سجدة الشمس عند غروبها تحت العرش عبارة عن رفع الانية ونزع جلباب الماهية وهو عندى نوع من الرطانة لايفهمه من لا خبرة له باصطلاحاته ولو كان ذا فطانة :وقال فى موضع آخر بعد ان ذكر حديث الكلاليب السابق إن ذلك لا ينافى كلام أهل الهيئة ولا بقدر سم الخياط ولم يبين وجه عدم المنافاة مع أنها أظهر من الشمس معتذرا بأن الكلام فيه طويل ولا أظنه لو كان آتيا به الا من ذلك القبيل، وهذا ماعندى فليتأمل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل *

وقرأ عبد الله . وابن عباس . وزين العابدين . وابنه الباقر . وعكرمة . وعطاء بن أبى رباح (لامستقر لها) بلا النافية للجنس وبناء (مستقر) على الفتح فتقتضى انتفاء كل مستقر حقيقى لجرمها المشاهد وذلك فى الدنيا أى هى تجرى فى الدنيا دائما لاتستقر .وقرأ ابن أبى عبلة بلا أيضا إلا أنه رفع (مستقر) ونونه على اعمالها اعمال ليس كما فى قوله :

تعز فلا شىء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجرى المفهوم من (تجرى) أى ذلك الجرى البديع الشأن المنطوى على الحكم الرائقة التى تحار فى فهمها العقول والأذهان ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ ٣٨﴾ المحيط علمه بكل معلوم، وذكر بعضهم فى حكمة جريها حتى تسجد كل ليلة تحت العرش مايقتضيه الخبر السابق تجدد اكتساب النور من العرش ويترتب عليه فى عالم الطبيعة والعناصر مايترتب وباكتسابها النور من العرش صرح به غير واحد ، ومن العجيب ماذكره الرشتى أنها تستمد النور من ظاهر العرش وتمد فلك القمر ومن باطن العرش وتمد فلك زحل وتستمد من ظاهر الكرسى وتمد فلك عطارد ومن باطنه وتمد فلك المشترى وتستمد من ظاهر تقاطع نقطتى المنطقتين وتمد فلك الزهرة ومن باطنه وتمد فلك المريخ ،وليت شعرى من أين استمد فقال ماقال وذلك مما لم نجد فيه نقلا ولا نظن أنه مر بخيال ،وقال الشيخ الأكبر قدس سره إن نور الشمس ماهو من حيث عينها بل هو من تجل دائم لها من اسمه تعالى النور ونور سائر السيارات من نورها وهو فى الحقيقة من تجلى اسمه سبحانه النور فما ثم إلا نوره عز وجل *

وادعى كثير من أجلة المحققين أن نور جميع الكواكب ثوابتها وسياراتها مستفاد من ضوء الشمس وهو مفاض عليها من الفياض المطلق جل جلاله وعم نواله .وفى الآية رد على القائلين بأن الشمس ساكنة وهى مركز العالم والكواكب والأرض كرات دائرة عليها ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أى صيرنا مسيره أى محله الذى يسير فيه ﴿مَنَازِلَ﴾ فقدر بمعنى صير الناصب لمفعولين والكلام على حذف مضاف والمضاف المحذوف مفعوله الأول و(منازل) مفعوله الثانى .واختار أبو حيان تقدير مصدر مضاف وقدر متعد إلى واحد و(منازل) منصوب على الظرفية أى قدرنا سيره فى منازل وقدر بعضهم نوراً أى قدرنا نوره فى منازل فيزيد مقدار النور كل يوم فى المنازل الاجتماعية وينقص فى المنازل الاستقبالية لما أن نوره مستفاد من ضوء الشمس لاختلاف تشكلاته

www.Quranpdf.blogspot.in

بالقرب والبعد منها مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها وبهذا يتم الاستدلال ،والحق أنه لا قطع بذلك وليس هناك إلا غلبة الظن ، ويجوز أن يكون قدر متعديا لاثنين و(منازل) بتقدير ذامنازل،وأن يكون متعديا لواحد وهو (منازل) والأصل قدرنا له منازل على الحذف والايصال واختاره أبو السعود،ونصب (القمر) بفعل يفسره المذكور أى وقدرنا القمر قدرناه وفى ذلك من الاعتناء بأمر التقدير مافيه ،وكأنه لما أن شهرهم باعتباره ويعلم منه سر تغيير الأسلوب ٭

وقرأ الحرميان . وأبو عمرو . وأبو جعفر . وابن محيصن . والحسن بخلاف عنه (والقمر) بالرفع قال غير واحد،على الابتداء،وجملة (قدرناه) خبره،ويجوز فيها أرى أن يجرى فى التركيب ماجرى فى قوله تعالى :(والشمس تجرى) من الاعراب تدبر،والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون لأن القمر يقطع فلك البروج فى سبعة وعشرين يوما وثلث فحذفوا الثلث لأنه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم ،وعند العرب وساكنى البدو ثمانية وعشرون لا لأنهم تمموا الثلث واحدا كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلة مختلفة الأوائل لوقوعها فى وسط الصيف تارة وفى وسط الشتاء أخرى وكذا أوقات تجارتهم وزمان أعيادهم احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا فى استقبال كل فصل بما يهمهم فى ذلك الفصل من الانتقال إلى المراعى وغيرها فاحتالوا فى ضبطها فنظروا أولا إلى القمر فوجدوه يعود إلى وضع له من الشمس فى قريب من ثلاثين يوما ويختفى آخر الشهر لليلتين أو أقل أو أكثر فاسقطوا يومين من زمان الشهر فبقى ثمانية وعشرون وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلا أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستترا آخره فقسموا دور الفلك عليه فكان كل قسم اثنتى عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريبا وهو ستة أسباع درجة فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا فى ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستتر دائما ثلاثة منازل ماهى فيه بشعاعها وما قبلها بضياء الفجر ومابعدها بضياء الشمس ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ثم بشعاعها ثم بضياء الشفق فوجدوا الزمان بين كل ظهورى منزلتين ثلاثة عشر يوما تقريبا فأيام جميع المنازل تكون ثلثمائة وأربعة وستين لكن الشمس تقطع جميعها فى ثلثمائة وخمس وستين فزادوا يوما فى أيام منزل غفر وزادوه ههنا اصطلاحا منهم أو لشرفه على ماتسمعه إن شاء الله تعالى وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ويرجع الأمر إلى النجم الأول ،واعلم أن العرب جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره أو يحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلا بقرب أحدها وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل وهى فى فلك الأفلاك وإذا أسرع القمر فى سيره فقد يخلى منزلا فى الوسط وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين فى منزل أول الليلتين فى أوله وآخرهما فى آخره وقد يرى فى بعض الليالى بين منزلتين ، ومايقال فى الشهور إن الظاهر من المنازل فى كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفى وأنه إذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمى به تشبيها له برقيب يرصده ليسقط فى المغرب إذا ظهر ذلك فى المشرق ظاهر الفساد لأنها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد مابينها متساوية ولهذا

www.Quranpdf.blogspot.in

قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر وقد يكون الخفى ثلاثة عشر وهذه الكواكب المسماة بالمنازل المسامتة للمنازل الحقيقية على ما روى عن ابن عباس وغيره أولها الشرطان بفتحتين الشين والراء مثنى شرط بفتحتين وهى العلامة وهما كوكبان نيران من القدر الثالث على قرنى الحمل معترضان بين الشمال والجنوب بينهما ثلاثة أشبار وبقرب الجنوبى منهما كوكب صغير سمت العرب الكل أشراطا لأنها بسقوطها علامات المطر والريح والقمر يحاذيهما وبقرب الشمالى منهما كوكب نير هو الشرطان عند بعض ويقال للشرطين الناطح أيضاً ثم البطين تصغير البطن وهو ثلاثة كواكب خفية من القدر الخامس على شكل مثلث حاد الزوايا على فخذى الحمل بينه وبين الشرطين قيد رمح والقمر يجتاز بها أحيانا ثم الثريا (١) تصغير ثروى من الثراء وهو الكثرة ويسمى بالنجم وهى على المشهور عند المنجمين ستة كواكب مجتمعة كشكل مروحة مقبضها نحو المشرق وفيه انحناء فى جانب الشمال، وقيل هى شبيهة بعنقود عنب وعليه قول أحيحة بن الجلاح أو قيس بن الأسلت *

وقد لاح فى الصبح الثريا كما ترى ... كعنقود ملاحية حين نورا

والمرصود منها أربعة كلها من القدر الخامس وموضعها سنام الثور، وفى الكشف هى الية الحمل وربما يكسفها القمر ثم الدبران بفتحتين سمى به لأنه دبر الثريا وخلفها وهو كوكب أحمر نير من القدر الأول على طرف صورة السبعة من رقوم الهند ويسمى المجدح وموقعه عين الثور والذى على طرفه الآخر من القدر الثالث على عينه الأخرى والثلاثة الباقية وهى من الثالث أيضاً على وجهه وزاوية هذا الرقم على خطام الثور وبعضهم يسمى الدبران بقلب الثور وقد يكسفه القمر ثم الهقعة بفتح الهاء وسكون القاف وفتح العين المهملة وهى ثلاثة كواكب خفية مجتمعة شبيهة بنقط الثاء كأنها لطخة سحابية شبهت بالدائرة التى تكون فى عرض زور الفرس أو بحيث تصيب رجل الفارس أو بلمعة بياض تكون فى جنب الفرس الأيسر تسمى بذلك وتسمى الأثافى أيضاً وهى على رأس الجبار المسمى بالجوزاء والقمر يحاذيها ولا يقاربها ثم الهنعة بوزن الهقعة وثانيه نون وهى كوكبان من القدر الرابع والثالث شبهت بسمة فى منخفض عنق الفرس وهما على رجلى التوأمين (٢) مما يلى الشمال وفى الكشف هى منكب الجوزاء الأيسر والقمر يمر بهما ثم الذراع وهما كوكبان أزهران من القدر الثانى على رأسى التوأمين يعنون بهما ذراع الاسد المبسوطة إذ المقبوضة هى الشعرى الشامية مع مرزمها والقمر يقارب المبسوطة ثم النثرة وهى الفرجة بين الشاربين حيال وترة الأنف وهو أنف الأسد وهما كوكبان خفيان من الرابع بينهما قيد ذراع ولطخة سحابية وهى على وسط السرطان ويقربها كوكبان يسميان بالحمارين واللطخة التى بينهما بالمعلف تشبيهاً لها بالتبن وبمحطة الأسد أى موضع استتاره ويكسب القمر كلا منهما ثم الطرف وهما كوكبان صغيران من الرابع أحدهما على رأس الأسد قدام عينيه والآخر قدام يده المقدمة والقمر يحاذى أشملهما ويكسف أجنبهما ويعنون بالطرف عين الأسد ثم الجبهة ويعنون بها جبهة الأسد وهى أربعة كواكب على سطر فيه تعويج آخذ من الشمال إلى الجنوب أعظمها على طرف السطر مما يلى الجنوب يسمى قلب الأسد لكونه فى موضعه ويسمى الملكى أيضاً وهو من القدر الأول والقمر يمر به وبالذى يليه ثم الزبرة بضم الزاى

«١» رأيت منها بواسطة بعض الآلات ما يزيد على ثلاثين كوكب اه منه «٢» الجوزاء اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

وسكون الباء وهما كوكبان نيران على أثر الجبهة بينهما أرجح من ذراع وهما على زبرة الأسد أى كاهله عند العرب وعند المنجمين عند مؤخره فزبرة الأسد شعره الذى يزبر عند الغضب فى قفاه أجنبهما من الثالث واشمالهما من الثانى وتسمى ظهر الأسد والقمر يحاذيهما من جهة الجنوب ثم الصرفة وهو كوكب واحد على طرف ذنب الاسد ويسمى ذنب الأسد والقمر يحاذيه من جهة الجنوب وسمى بذلك لأن البرد ينصرف عند سقوطه ثم العواء يمد ويقصر والقصر أجود وهى خمسة كواكب من الثالث على هيئة لام فى الخط العربى ثلاثة منها آخذة من منكب العذراء الأيسر الى تحت ثديها الايسر وهى على سطر جنوبى من الصرفة ثم ينعطف اثنان على سطر يحيط مع الأول بزاوية منفرجة زعمت العرب أنها كلاب تعوى خلف الأسد ولذلك سميت العواء ، وقيل فى ذلك كانها تعوى فى أثر البرد ولهذا سميت طاردة البرد ، وقيل هى من عوى الشيء عطفه فلما فيها من الانعطاف سميت بذلك *

وفى الكشف العوا سافلة الانسان ويقال أنها ورك الأسد والقمر يخرقها ثم السماك الأعزل وهو كوكب نير من الأول على كتف العذراء اليسرى قريب من المنطقة والقمر يمر به ويكسفه ويقابل السماك الأعزل السماك الرامح وليس من المنازل وسمى رامحا لكوكب يقدمه كأنه رمحه وسمى سماكا لأنه سمك أى ارتفع ثم الغفر وهى ثلاثة كواكب من الرابع على ذيل العذراء ورجلها المؤخرة على سطر معوج حدبته إلى الشمال وقيل كوكبان والقمر يمر بجنوبيهما وقد يحاذى الشمالى وهو منزل خير بعد عن شرين مقدم الأسد ومؤخر العقرب ويقال إنه طالع الأنبياء والصالحين وسميت غفراً لسترها ونقصان نورها وذكر بعضهم أنها من كواكب الميزان ثم الزبانا بالضم وآخره ألف وهما كوكبان نيران من الثانى متباعدان فى الشمال والجنوب بينهما قيد رمح على كفتى الميزان *

وقال غير واحد هما قرنا العقرب والقمر قد يكسف جنوبيهما ثم الاكليل وهى ثلاثة كواكب خفية معترضة من الشمال إلى الجنوب على سطر مقوس يشبه شكلها شكل الغفر الاوسط منها متقدم والاثنان تاليان وهى من الرابع والقمر يمر بجميعها ، وقيل هى أربعة كواكب برأس العقرب ولذا سميت به وأصل معناه التاج ثم القلب وهو قلب العقرب كوكب أحمر نير اوسط الثلاثة التى على بدن العقرب على استقامة من المغرب إلى المشرق وهو من الثانى واللذان قبله وبعده ويسميان نياطين من الثالث والقمر يمر به ويكسفه من المنطقة ثم الشولة بفتح الشين المعجمة واللام وتسمى ابرة العقرب عند الحجازيين كوكبان من الثانى أزهران متقاربان على طرف ذنب العقرب فى موضع الحمة والقمر يحاذيهما ثم النعائم أربعة كواكب من الثالث على منحرف تابع للشولة وتسمى النعائم الواردة أى إلى المجرة والقمر يمر باثنين منها ويحاذى الباقية ويقرب منها أربعة أخرى من الثالث على منحرف هى النعائم الصادرة أى من المجرة وكلها من صورة الرامى وسميت نعائم تشبيها بالخشبات التى تكون على البئر ، ثم البلدة وهى قطعة من السماء خالية من الكواكب مستديرة شبهت ببلدة الثعلب وهى مايكنسه بذنبه وتسمى أيضا بالمفازة والفرجة ، وقيل سميت بذلك تشبيها بالفرجة التى تكون بين الحاجبين وموضعها خلف الكواكب التى تسمى بالقلادة وهى عصابة الرامى ثم سعد الذابح كوكبان على قرنى الجدى بينهما قدر باع جنوبيهما من الثالث والقمر يقاربه ولا يكسفه ويقرب الشمالى كوكب صغير يكاد يلتصق به يقال إنه شاته التى يريد ان يذبحها ، وقيل : إنه فى مذبحه ولهذا يسمى بالذابح ثم سعد بلع (١) كوكبان على كف ساكب

(١) طلوعه لليلة تبقى من كانون الآخر وسقوطه لليلة تمضى من آب اه قاموس اه منه

الماء اليسرى فوق ظهر الجدى بينهما قدر باع غربيهما من الثالث وشرقيهما من الرابع ويقرب متقدمهما كوكب صغير كأنه ابتلعه فلهذا سمى به، وفى القاموس سعد بلع كزفر معرفة منزل للقمر طلع لما قال الله تعالى (ياأرض ابلعى ماءك) وهو نجمان مستويان فى المجرى أحدهما خفى والآخر مضىء يسمى بالعا كأنه بلع الآخر ، وقيل : لأنه ليس له ما لسعد الذابح فكأنه بلع شاته والقمر يقارب أجنبهما ولا يكسفه ثم سعد السعود كوكبان ، وقيل : ثلاثة على خط مقوس بين الشمال والجنوب حدبته إلى المغرب أجنبهما والقمر يقرب منه من الخامس على طرف ذنب الجدى وأشملهما من الثالث وهو مع الآخر فى القول الآخر من كواكب القوس والقمر يقارب اجنبهما وسمى بذلك لأنه فى وقت طلوعه ابتداء ما به يعيشون وتعيش مواشيهم ثم سعد الاخبية اربعة كواكب من الثالث ومن كواكب الرامى على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا والرابع وسطه وهو السعد والثلاث خباؤه ولذا سمى بذلك ، وقيل : لأنه يطلع قبل الدفء فيخرج من الهوام ما كان مختبئا والقمر يقاربها من ناحية الجنوب ثم الفرغ المقدم ويقال الاعلى كوكبان نيران من الثانى بينهما قيد رمح اجنبهما على متن الفرس الاكبر المجنح (١) واشملهما على منكبه والقمر يمر بالبعد منهما ثم الفرغ المؤخر كوكبان نيران من الثانى بينهما قيد رمح أيضا أجنبهما على جناح الفرس واشملهما مشترك بين سرته ورأس المسلسلة شبهت العرب الاربعة بفرغ الدلو وهو بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وغين معجمة مصب الماء منها لكثرة الامطار فى وقتها ثم بطن الحوت ويقال له الرشاء بكسر الراء أى رشاء الدلو وقلب الحوت أيضا كوكب نير من الثالث على جنب المرأة المسلسلة يحاذيه القمر ولا يقاربه وإنما سمى به لوقوعه فى بطن سمكة عظيمة تحت نحر الناقة تصورها العرب من سطرين عليهما كواكب خفية بعضها من المسلسلة وبعضها من احدى سمكتى الحوت *

هذا واعلم أن هذه المنازل الثمانية والعشرين تسمى العرب الاربعة عشر الشمالية منها التى أولها الشرطان وآخرها السماك شامية والباقية منها التى أولها الغفر وآخرها بطن الحوت يمانية وأنها تسمى خروج المنزل من ضياء الفجر طلوعه وغروب رقيبه وقت الصبح سقوطه والمنازل التى يكون طلوعها فى مواسم المطر الانواء ورقباؤها إذا طلعت فى غير مواسم المطر البوارح قاله القطب ، وقال الجوهرى: النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته فى كل ليلة إلى مضى ثلاثة عشر يوما ماخلا الجبهة فان لها أربعة عشر يوما، قال أبو عبيد: ولم يسمع فى النوء أنه السقوط الا فى هذا الموضع والعرب تضيف الامطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقال الاصمعى: إلى الطالع فى سلطانه فتقول مطرنا بنوء الثريا مثلا والجمع أنواء ونوآن مثل عبد وعبدان ، وذكر الطيبى عن المرزوقى أن نوء الشرطين ثلاثة أيام ونوء البطين ثلاث ليال ونوء الثريا خمس ليال ونوء الدبران ثلاث ليال ونوء الهقعة ست ليال ولا يذكرون نوأها الا بنوء الجوزاء ونوء الهنعة لا يذكر أيضا وإنما يكون فى أنواء الجوزاء والذراع لا نوء له ونوء النثرة سبع ليال ونوء الطرف ثلاث ليال ونوء الجبهة سبع والزبرة أربع والصرفة ثلاث والعواء ليلة والسماك اربع والغفر ثلاث وقيل ليلة والزبانا ثلاث والاكليل اربع والقلب ثلاث والشولة كذلك والنعائم ليلة والبلدة ثلاث، وقيل: ليلة وسعد الذابح ليلة وبلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ المقدم ثلاث والمؤخر اربع ولم يذكر فى نسختى للرشاء نوءا .ثم أن قول الانسان مطرنا بنوء كذا ان أراد به أن النوء

(١) أى ذى الجناحين اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

نزل بالماء فهو كفر والقائل كافر حلال دمه إن لم يتب كما نص عليه الشافعى وغيره، وفى الروضة من اعتقد أن النوء يمطر حقيقة كفر وصار مرتدا وإن اراد به أن النوء سبب ينزل الله تعالى به الماء حسبما علم وقدر فهو ليس بكفر بل مباح لكن قال ابن عبد البر: هو وإن كان مباحا كفر بنعمة الله تعالى وجهل بلطيف حكمته *
وفى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اثر سماء: «هل تدرون ماقال؟ ربكم قالوا. الله تعالى ورسوله اعلم قال: قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله تعالى ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بى مؤمن بالكوكب» وظاهره أن الكفر مقابل الايمان فيحمل على ما إذا أراد القائل ماسمعت أولا والله تعالى الحافظ من كل سوء لارب غيره ولا يرجى الاخيره *
والقمر فى العرف العام هو الكوكب المعروف فى جميع ليالى الشهر، والمشهور عند اللغويين أنه بعد الاجتماع مع الشمس ومفارقته إياها لا يسمى قمرا الا من ثلاث ليال وست وعشرين ليلة وفيما عدا ذلك يسمى هلالا ولعل الاظهر فى الآية حمله على المعنى الأول وهو الشائع إذا ذكر مع الشمس أى قدرنا هذا الجرم المعروف منازل ومسافات مخصوصة فسار فيها ونزلها منزلة منزلة ﴿ حَتَّىٰ عَادَ ﴾ أى صار فى أواخر سيره وقربه من الشمس فى رأى العين ﴿ كَالْعُرْجُونِ ﴾ هو عود عزق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته منها وروى ذلك عن الحسن وقتادة، وعن ابن عباس أنه أصل العذق، وقيل الشمراخ وهو ماعليه البسر من عيدان العذق والكباسة، والمشهور الاول، ونونه على ماحكى عن الزجاج زائدة فوزنه فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج والانعطاف، وذهب قوم واختاره الراغب. والسمين. وصاحب القاموس إلى أنها أصلية فوزنه فعلول، وقرأ سليمان التيمى (كالعرجون) بكسر العين وسكون الراء وفتح الجيم وهى لغة فيه كالبزيون والبزيون وهو بساط رومى أو السندس ﴿ الْقَدِيمِ ٣٩ ﴾ أى العتيق الذى مر عليه زمان يبس فيه ووجه الشبه الاصفرار والدقة والاعوجاج، وقيل: أقل مدة القدم حول فلو قال رجل كل مملوك لى قديم فهو حر عتق منهم من مضى له حول وا كثر، وقيل: ستة أشهر وحكاه بعض الامامية عن أبى الحسن الرضا رضى الله تعالى عنه ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا ﴾ أى يتسخر ويتسهل كما فى قولك النار ينبغى أن تحرق الثوب او يحسن ويليق أى حكمة كما فى قولك الملك ينبغى أن يكرم العالم، واختار غير واحد المعنى الأول، وأصل (ينبغى) مطاوع بغى بمعنى طلب وماطاوع وقبل الفعل فقد تسخر وتسهل، والنفى راجع فى الحقيقة إلى (ينبغى) فكأنه قيل: لا يتسهل للشمس ولا يتسخر ﴿ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ أى فى سلطانه بأن تجتمع معه فى الوقت الذى حده الله تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه فانه عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حدا محدودا ووقتا معينا يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما فى سلطان الآخر بل يتعاقبان إلى أن يأتى أمر الله عز وجل، وهذه الجملة لنفى أن تدرك الشمس القمر فيما جعل له وقوله تعالى ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ لنفى أن يدرك القمر الشمس فيما جعل لها أى ولا آية الليل سابقة آية النهار وظاهر سلطانها فى وقت ظهور سلطانها وإلى هذا المعنى يشير كلام قتادة. والضحاك. وعكرمة. وأبى صالح. واختاره الزمخشرى ليناسب قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها) ولأن الكلام فى الآيتين دل عليه قوله تعالى (والشمس تجرى) الآيتان وآخرا (كل فى فلك يسبحون) وعبر بالادراك أولا وبالسبق ثانيا على مافى الكشاف لمناسبة

www.Quranpdf.blogspot.in

حال الشمس من بطء السير وحال القمر من سرعته ، ولم يقل ولا القمر سابق الشمس ليؤذن على ما قال الطيبي بالتعاقب بين الليل والنهار وبخصوصية التدبير على المعاقبة فانه مستفاد من الحركة اليومية التي مدار تصرف كل منهما عليها. وفى الكشف التحقيق أن المقصود بيان معاقبة كل من الشمس و القمر فى ترتب الاضاءة وسلطانه على الاستقلال وكذلك اختلاف الليل والنهار فقيل : (ولا الليل سابق النهار) كناية عن سبق آيتها آيته فحصل الدلالة على الاختلاف أيضا ادماجا لأنها لا تنافى ارادة الحقيقة، وجاء من ضرورة التقابل هذا المعنى فى النهار أيضا من قوله تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) ولما ذكر مع الشمس الادراك المؤذن بأنها طالبة للحاق قيل (لا ينبغي) رعاية للمناسبة وجيء بالفعل المؤذن بالتجدد ولما نفى السبق فى المقابل أكد ذلك بأن جيء بالجملة الاسمية المحضة من دون الابتغاء لأنه مطلوب اللحوق اه *

ولم يذكر السر فى إدخال حرف النفى على الشمس دون الفعل المؤذن بصفتها ويوشك أن يكون أخفى من السها وكان ذلك ليستشعر منه فى المقام الخطابى أن الشمس إذا خليت وذاتها تكون معدومة كما هو شأن سائر الممكنات وإنما يحصل لها ما يحصل من علته التى هى عبارة عن تعلق قدرته تعالى به على وفق إرادته سبحانه الكاملة التى لا يأبى عنها شيء من أشياء عالم الامكان ويفيد ذلك فى غاية كونها مسخرة فى قبضة تصرفه عز وجل لا شيء فوق تلك المسخرية وفيه تأكيد لما يفيده قوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) ورد بليغ لمن إليها يسند التأثير *

وجوز أن يكون ذلك لافادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفى نحو ما أنا قلت هذا وما زيد سعى فى حاجتك يفيد التخصيص أى ما أنا قلت هذا بل غيرى وما زيد سعى فى حاجتك بل غيره على ما حققه علماء البلاغة والمقصود من نفى تسهل إدراك القمر فى سلطانه عن الشمس نفى أن يتسهل لها أن تطمس نوره وتذهب سلطانه ويرجع ذلك إلى نفى قدرتها على الطمس وإذهاب السلطان فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها *

وقال بعض الفضلاء فيما كتبه على هامش تفسير البيضاوى عند قوله: وإيلاء حرف النفى الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها وجه الدلالة أن الايلاء المذكور يفيد التخصيص والابتغاء بمعنى الصحة والتسهيل المساوقين للاقتدار فيفيد الكلام أن الشمس ليس لها قدرة على ادراك القمر وسرعة المسير التى هى ضد لحركتها الخاصة بل القدرة عليهما لله سبحانه فهو فاعل لحركتها حقيقة ولها مجرد المحلية للحركة فصحت الدلالة المذكورة ثم قال: وتفصيل الكلام أن الله سبحانه ذكر أولا أن الشمس تجرى لمستقر لها إشارة إلى حركتها الخاصة ثم ذكر سبحانه أنه قدر القمر أيضا فى منازل الشمس حتى عاد كالعرجون القديم أى رجع إلى الشكل الهلالى وذلك إنما يكون عند قربه إلى الشمس ورجوعه إليها ولما كان للوهم سبيل إلى أن يتوهم أن جرى الشمس وسيرها وتقدير أنوار القمر وجرمه المرئى مما يستند إلى إرادتهما على سبيل إرادتنا التى تتعلق تارة بالشيء وأخرى بضده فيصح ويتيسر للنيرين الأمران كما يصحان لنا وأن يتوهم أن إسناد أمر

www.Quranpdf.blogspot.in

الشمس والقمر إلى التقدير الالهى من قبيل اسناد أفعالنا إليه من حيث أن الأقدار والتمكين منه تعالى وأنه سبحانه المبدأ والمنتهى إلى غير ذلك من الاعتبارات ﴿

نبه جل شأنه بالتخصيص المذكور على دفع على هذا التوهم على سبيل التنبيه على كون الشيء مسخراً مضطراً فى أمره بسلب اقتداره على ضده وإن لم يذكر جميع أضداده فأشار سبحانه إلى أن الحركة السريعة المفضية إلى إدراك القمر التى هى ضد الحركة الخاصة للشمس لايصح استنادها اليها والقدرة عليها مختصة بغيرها (وهو العزيز العليم) حتى يظهر أن وجود الحركة الخاصة لها مستند إلى تقديره تعالى وتدبيره جل شأنه من غير مشاركة للشمس معه سبحانه ثم أردف ذلك بحكم القمر حيث قال تعالى (ولا الليل سابق النهار) فان الأقرب كون المعنى فيه ليس لآية الليل القدرة على أن تسبق آية النهار بحيث تفوتها ولا تكون لها مراجعة إليها ولحوق بها تنبيها على أن تقدير القمر فى المنازل على الوجه المرصود الذى يعود به إلى الشكل الهلالى الشبيه بالعرجون ويفضى إلى مقاربة الشمس مستند أيضا إلى تقديره تعالى وتدبيره سبحانه من غير مشاركة للقمر فيه فالجملتان فى قوة التأكيد للآيتين السابقتين ولهذا فصلتا اه، وفيه دغدغة لاتخفى على ذكى فتأمل ﴿

وما أشار اليه من أن معنى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) أن الشمس لاقدرة لها على أن تدرك القمر فى سيره لبطء حركتها الخاصة وسرعة حركته كذلك قاله غير واحد. وادعى النحاس أنه أظهر ماقيل فى معناه وبينه وبين ما تقدم من المعنى قرب ما بل قال بعضهم: الفرق بين الوجهين بالاعتبار، وقال بعض من ذهب اليه فى (ولا الليل سابق النهار) إن المراد أن القمر لايسبق الشمس بالحركة اليومية وهى ماتكون له وكذا لسائر الكواكب بواسطة فلك الأفلاك فان هذه الحركة لايقع بسببها تقدم ولا تأخر وقيل المراد بقوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) إنه لاينبغى لها أن تدركه فى آثاره ومنافعه فانه سبحانه خص كلا منهما بآثار ومنافع كالتلوين بالنسبة للقمر والنضج بالنسبة للشمس، وعن الحسن أن المراد أنهما لايجتمعان فيما يشاهد من السماء ليلة الهلال خاصة أى لاتبقى الشمس طالعة إلى ان يطلع القمر ولكن إذا غربت طلع، وقال يحيى ابن سلام: المراد لا تدركه ليلة البدر خاصة لأنه يبادر المغيب قبل طلوعها وكلا القولين لايعول عليهما ولا ينبغى أن يلتفت اليهما، وقيل فى معنى الجملة الثانية إن الليل لا يسبق النهار ويتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه ﴿

وفى الدر المنثور عن بعض الأجلة أى لاينبغى إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، وعليك بما تقدم فهو لعمرى أقوم، واستدل بالآية أن النهار سابق على الليل فى الخلق. روى العياشى فى تفسيره بالاسناد عن الأشعث بن حاتم قال كنت بخراسان حيث أجتمع الرضا رضى الله تعالى عنه والمأمون والفضل بن سهل فى الايوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا: إن رجلا من بنى إسرائيل سألنى بالمدينة. فقال النهار خلق قبل أم الليل فما عندكم؟ فأرادوا الكلام فلم يكن عندهم شيء فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحك الله تعالى قال نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل. من جهة الحساب فقال رضى الله تعالى عنه: قد علمت يافضل أن طالع الدنيا السرطان والكواكب فى مواضع شرفها فزحل فى الميزان والمشترى فى السرطان والمريخ فى الجدى والشمس فى الحمل والزهرة فى الحوت وعطارد فى السنبلة والقمر فى الثور فتكون الشمس فى العاشر وسط السماء فالنهار قبل الليل، ومن القرآن قوله تعالى: (ولا الليل سابق النهار) أى الليل قد سبقه النهار اه ﴿

www.Quranpdf.blogspot.in

وفى الاستدلال بالآية بحث ظاهر وأما بالحساب فله وجه فى الجلة . ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر ، والذى يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضى أجل من أن يستدل بالآية على ماسمعت من دعواه وفهم الامام من قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن الليل مسبوق لاسابق ومن قوله سبحانه (يغشى الليل النهار) يطلبه حثيثا أن الليل سابق لأن النهار يطلبه ،وأجاب عما يلزم عليه من كون الليل سابقا مسبوقا بأن المراد من الليل هنا آيته وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان فى عقب الآخر كان طالبه .وتعقبه أبو حيان بأن فيه جعل الضمير الفاعل فى (يطلبه) عائداً على النهار وضمير المفعول عائداً على (الليل) والظاهر أن ضمير الفاعل عائد على ماهو الفاعل فى المعنى وهو الليل لأنه كان قبل دخول همزة النقل (يغشى الليل النهار) وضمير المفعول عائد على (النهار) لأنه المفعول قبل النقل وبعده وحينئذ كلتا الآيتين تفيد أن النهار سابق فلا سؤال انتهى . فتأمل ولا تغفل ❊

وقرأ عمار بن عقيل (سابق) بغير تنوين (النهار) بالنصب قال المبرد: سمعته يقرأ فقلت ماهذا؟ قال: أردت سابق النهار بالتنوين فحذفت لأنه أخف. وفى البحر حذف التنوين لالتقاء الساكنين ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر إذ هما المذكوران صريحا والتنوين عوض عن المضاف اليه وقدره بعضهم ضمير جمع العقلاء ليوافق ما بعد أى كلهم وقدره آخر اسم إشارة أى كل ذلك أى المذكور الشمس والقمر ﴿ فى فَلَكٍ ﴾ هو كما قال الراغب مجرى الكوكب سمى به لاستدارته كفلكة المغزل وهى الخشبة المستديرة فى وسطه وفلكة الخيمة وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة ❊

﴿ يَسْبَحُونَ ٤٠ ﴾ أى يسيرون فيه بانبساط وكل من بسط فى شىء فهو يسبح فيه، ومنه السباحة فى الماء، وهذا الجرى فى السماء. ولا مانع عندنا أن يجرى الكوكب بنفسه فى جوف السماء وهى ساكنة لا تدور أصلا وذلك بأن يكون فيها تجويف مملوء هواء أو جسما آخر لطيفا مثله يجرى الكوكب فيه جريان السمكة فى الماء أو البندقة فى الأنبوب المستدير مثلا أو تجويف خال من سائر مايشغله من الأجسام يجرى الكوكب فيه أو بأن تكون السماء بأسرها لطيفة أو ماهو مجرى الكوكب منها لطيفا فيشق الكوكب مايحاذيه وتجرى كما تجرى السمكة فى البحر أو فى ساقية منه وقد انجمد سائره وانقطاع كرة الهواء عند كرة النار المماسة لمقعر فلك القمر عند الفلاسفة وانحصار الأجسام اللطيفة بالعناصر الثلاثة وصلابة جرم السماء وتساوى أجزائها واستحالة الخرق والالتئام عليها واستحالة وجود الخلاء لم يتم دليل على شىء منـــه، وأقوى مايذكر فى ذلك شبهات أوهن من بيت العنكبوت وأنه ورب السماء لأوهن البيوت ❊

ويجوز أن يكون الفلك عبارة عن جسم مستدير ويكون الكوكب فيه يجرى بجريانه فى ثخن السماء من غير دوران للسماء، ولا مانع من أن يعتبر هذا الفلك لبعض الكواكب الفلك الكلى ويكون فيه نحو مايثبته أهل الهيئة لضبط الحركات المختلفة من الأفلاك الجزئية لكن لا يضطر إلى ذلك بناء على القواعد الاسلامية كما لا يخفى إلا أن فى نسبة السبح إلى الكوكب نوع أباء بظاهره عن هذا الاحتمال، وفى كلام الأئمة من الصحابة وغيرهم إيماء إلى بعض ماذكرنا ❊

www.Quranpdf.blogspot.in

أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم. وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (كل فى فلك) فلكة كفلكة المغزل يسبحون يدورون فى أبواب السماء كما تدور الفلكة فى المغزل. وأخرج الأخيران عن مجاهد أنه قال: لا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل والنجوم فى فلكة كفلكة المغزل فلا يدرن إلا بها ولا تدور الا بهن . وفى الفتوحات المكية للشيخ الأكبر قدس سره جعل الله تعالى السموات ساكنة وخلق فيها سبحانه نجوما وجعل لها فى عالم سيرها وسباحتها فى هذه السموات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها عاقلة سامعة مطيعة وأوحى فى كل سماء أمرها ثم أنه عز وجل لما جعل السباحة للنجوم فى هذه السموات حدثت لسيرها طرق لكل كوكب طريق وهو قوله تعالى (والسماء ذات الحبك) فسميت تلك الطرق أفلاكا فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهى سريعة السير فى جرم السماء الذى هو مساحتها فتخرق الهواء المماس لها فيحدث لسيرها أصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الأفلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماويه فهى تجرى فى هذه الطرق بعادة مستمرة قد علم بالرصد مقادير ودخول بعضها على بعض فى السير وجعل سيرها للناظرين بين بطء وسرعة وجعل سبحانه لها تقدما وتأخراً فى أماكن معلومة من السماء تعينها أجرام الكواكب لاضائتها دونها إلى آخر ماقال . وقال الامام: إن الله تعالى قادر على أن يجعل الكوكب بحيث يشق السماء فيجعل دائرة متوهمة كما لو جرت سمكة فى الماء على الاستدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (فى فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكوكب على هذا الوجه.

وأرباب الهيئة انكروا ذلك للزوم الخرق والالتئام ان انشق موضع الجرى والتأم او الخلاء ان انشق ولم يلتئم والكل محال عندهم وعندنا لا محالية فى ذلك ومايلزم هنا الخرق والالتئام لأنه المفهوم من يسبحون ولا دليل لهم على الاستحالة فيما عدا المحدد وهو هناك شبهة ضعيفة لا دليل، وظاهر الآية أن كل واحد من من النيرين فى فلك أى فى مجرى خاص به وهذا مما يشهد به الحس وذهب إلى نحوه فلاسفة الاسلام كغيرهم من الفلاسفة بيد أنهم يقولون باتحاد الفلك والسماء ولما سمعوا عمن قبلهم أن كلا من السبع السيارة فى فلك وكل الكواكب الثوابت فى فلك وفوق كل ذلك فلك يحرك الجميع من المشرق إلى المغرب ويسمى فلك الأفلاك لتحريكه إياها والفلك الأعظم لاحاطته بها والفلك الأطلس لأنه كاسمه غير مكوكب وسمعوا عن الشارع ذكر السموات السبع والكرسى والعرش أرادوا أن يطبقوا بين الأمرين فقالوا : السموات السبع فى كلام الشارع هى الأفلاك السبعة فى كلام الفلاسفة فلكل من السيارات سماء من السموات والكرسى هو فلك الثوابت والعرش هو الفلك المحرك للجميع المسمى بفلك الأفلاك وقد أخطؤا فى ذلك وخالفوا سلف الأمة فيه فالفلك غير السماء، وقوله تعالى مع ماهنا (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا) لا يدل على الاتحاد لما قلنا من أن الكوكب فى الفلك والفلك فى السماء فيكون الكوكب فيها بلا شبهة فلا يحوج الجمع إلى القول بالعينية ولم يقم دليل على كرية العرش بل ظاهر ماورد فى الأخبار من أن له قوائم يدل على عدم الكرية، نعم ورد مايدل بظاهره أنه مقبب وهذا شىء غير مايزعمونه فيه وكذا الكرسى لم يدل دليل على كريته كما يزعمون ومع هذا ليس عندهم دليل تام على كون الثوابت كلها فى فلك فيجوز أن تكون فى أفلاك كمثلات كلها فوق زحل أو بعضها فوقه وبعضها بين أفلاك العلوية وهى لا تكسف

www.Quranpdf.blogspot.in

الثوابت التي عروضها أكثر من عروضها ولا لها اختلاف منظر ليعرف بأحد الوجهين كون الجميع فوق العلوية أو كتداوير ولا يلزم اختلاف أبعاد بعضها من بعض لجواز تساوي أجرام التداوير وحركاتها ولا اختلاف حركاتها بالسرعة والبطء لبعد والقرب وموافقة الممثل ومخالفته لأنا لا نسلم أن حركاتها لا تختلف بذلك المقدار ولا اختلاف أبعادها من الأرض لأنها غير محققة، ويجوز أيضا أن تكون كلها مركوزة في محدب ممثل زحل على أنه يتحرك الحركة البطيئة والمعدل الحركة السريعة، وأيضا يجوز أن يكون فيما سموه الفلك الأطلس كواكب لا ترى لصغرها جداً أو ترى وهي سريعة الحركة ولم يرصد كل كوكب ليتحقق بطء حركة الجميع، وأيضا يجوز أن تكون السيارات أكثر من سبع فيحتاج إلى أزيد من سبع سموات، ويقرب هذا ظفر أهـــل الارصاد الجديدة بكوكب سيار غير السبع سموه باسم من ظفر به وأدركه وهو هرشل، وبالجملة لا قاطع فيما قالوه، وللشيخ الأكبر قدس سره في هذا الباب كلام آخر مبناه الكشف وهو أن العرش الذي استوى الرحمن سبحانه عليه سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية وهي على الماء الجامد وفي جوفه الكرسي وهو على شكله في التربيع لا في القوائم ومقره على الماء الجامد أيضا وبين مقعر العرش وبينه فضاء واسع وهواء مخترق وفي جوف الكرسي خلق الله تعالى الفلك الأطلس جسما شفافا مستديرا مقسما إلى إثني عشر قسما هي البروج المعروفة وفي جوفه الفلك المكوكب وما بينهما الجنات وبعد أن خلق الله تعالى الأرضين واكتسى الهواء صورة الدخان خلق الله سبحانه السموات السبع وجعل في كل منها كوكبا وهي الجواري، وزعم الخفاجي أن المراد بالفلك في الآية الفلك الأعظم لأن الشمس والقمر وكذا سائر الكواكب تتحرك بحركته فالسباحة عنده عبارة عن الحركة القسرية، وفي القلب من ذلك شيء، ثم على ماهو الظاهر من أن لكل واحد فلكا يخصه ذهبوا إلى أن فلك الشمس فوق فلك القمر لما أنه يكسفها والمكسوف فوق الكاسف ضرورة، وذكر معظم أهل الهيئة أن الفلك الأدنى فلك القمر وفوقه فلك عطارد وفوقه فلك الزهرة وفوقه فلك الشمس وفوقه فلك المريخ وفوقه فلك المشتري وفوقه فلك زحل واستدلوا على بعض ذلك بالكسف وعلى بعضه الآخر بأن فيه حسن الترتيب وجودة النظام، ولا مانع فيما أرى من القول بذلك لكن لا على الوجه الذي قال به أهل الهيئة من كون السموات هي الأفلاك الدائرة بل على وجه يتأتى معه القول بسكون السموات ودوران الكواكب في أفلاكها ومجاريها بعضها فوق بعض، وقد مر لك ما ينفعك في هذا المقام فراجعه، وجوز كون ضمير (يسبحون) عائداً على الكواكب ويشعر بها ذكر الشمس والقمر والليل والنهار، ورجح على الأول بأن الاتيان بضمير الجمع عليه ظاهر لا يحتاج إلى تكلف بخلافه على الأول فانه محوج إلى أن يقال اختلاف أحوال الشمس والقمر في المطالع وغيرها نزل منزلة تعدد أفرادهما فكان المرجع شموسا وأقمارا، وظني أنه لا يحتاج إلى ذلك بناء على أنه قد يعتبر الاثنان جمعا أو بناء على ما قال الامام من أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى لفظه وأن يجمع نظراً إلى كونه بمعنى الجميع وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى قال: فعلى هذا يحسن أن يقال زيد وعمرو كل جاء وكل جاؤا ولا يحسن كل جاءا بالتثنية، واستدل بالاتيان بضمير جمع العقلاء على أن الشمس والقمر من ذوي العقول. وأجيب بأن ذاك لما أن المسند إليهما فعل ذوي العقول كما في قوله تعالى في حق الأصنام (مالكم لا تنطقون) وقوله سبحانه (ألا تأكلون) والظواهر غير ماذكر مع المستدلين. واستدل بالآية بعض فلاسفة الاسلام القائلين باتحاد السماء والفلك على استدارة السماء وجعلوا من اللطائف فيها أن (كل في فلك)

www.Quranpdf.blogspot.in

لا يستحيل بالانعكاس نحو كلامك كالك وسر فلا كبابك الفرس وقالوا. لا يعكر على ذلك أنه سبحانه سماها سقفا فى قوله عز قائلا (والسقف المرفوع) لأن السقف المقبب لايخرج عن كونه سقفا بالتقبيب ، وأنت تعلم أن السموات غير الأفلاك ومع هذا أقول باستدارة السموات كماذهب اليه بعض السلف، و بعض ظواهر الأخبار يقتضى أنها أنصاف كرات كل سماء نصف كرة كالقبة على أرض من الأرضين السبع وإليه ذهب الشيخ الأكبر وقال بالاستدارة لفلك المنازل دون السموات السبع وادعى أن تحت الأرضين السبع التى على كل منها سماء ماء ، وتحته هواء ، وتحته ظلمـــة وعليه فليتأمل فى كيفية سير الكوكب بعد غروبه حتى يطلع *

ثم ان الفلاسفة الذاهبين إلى استدارة السماء تمسكوا فى ذلك بأدلة أقربها على ماقيل دليلان، الاول أنامتى قصدنا عدة مساكن على خط واحد من عرض الأرض وحصلنا الكواكب المارة على سمت رأس فى كل واحدة منها ثم اعتبرنا ابعاد ممرات تلك الكواكب فى دائرة نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الارضية بين تلك المساكن، و كذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلا بمثل تلك النسب فتحدب السماء فى العرض مشابه لتحدب الأرض فيه لكن هذا التشابه موجود فى كل خط من خطوط العرض وكذا فى كل خط من خطوط الطول فسطح السماء بأسره مواز لسطح الظاهر من الأرض بأسره وهذا السطح مستدير حسا فكذا سطح السماء الموازى له، والثانى أن أصحاب الارصاد دونوا فى كتبهم مقادير اجرام الكواكب وابعاد ما بينها فى الاماكن المختلفة فى وقت واحد كما فى أنصاف نهار تلك الاماكن مثلا متساوية وهذا يدل على تساوى أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الابصار المستلزم لتساوى أبعادها عن مركز العالم لاستدارة الأرض المستلزم لكون جرم السماء كريا، ونوقش فى هذا بأنه إنما يصح أن لو كان الفلك ساكنا والكوكب متحركا إذ لو كان الفلك متحركا جاز أن يكون مربعا وتكون مساواة ابعاد مراكز الكواكب عن مناظر الابصار وتساوى مقادير الاجرام للكواكب حاصلة ، وفى الأول بأنه إنما يصح لو كان الاعتبار المذكور موجودا فى كل خط من خطوط الطول والعرض ولايخفى جريان كل من المناقشتين فى كل من الدليلين، ولهم غير ذلك من الادلة مذكورة بما لها وعليها فى مطولات كتبهم ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى أولادهم، قال الراغب: الذرية أصلها الصغار من الاولاد ويقع فى التعارف على الصغار والكبار معا ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع ، وفيه ثلاثة أقوال فقيل هو من ذرأ الله الخلق فترك همزته نحو برية وروية ، وقيل : أصله ذروية ، وقيل : هو فعلية من الذر نحو قمرية واستظهر حمله على الاولاد مطلقا أبو حيان، وجوز غير واحد أن يحمل على الكبار لأنهم المبعوثون للتجارة أى حملناهم حين يبعثونهم للتجارة ﴿ فِى الْفُلْكِ ﴾ أى السفينة سميت بذلك على ما فى مجمع البيان لأنها تدور فى الماء ﴿ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ أى المملوء ، وقيل: هو مستعمل على أصله وهم الاولاد الصغار الذين يستصحبونهم، وقيل : المراد به النساء فانه يطلق عليهن، وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل الذرارى وفسر بالنساء *

وفى الفائق قال حنظلة الكاتب : كنا فى غزاة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرأى امرأة مقتولة فقال: هاه ماكانت هذه تقاتل الحق خالدا وقل لا تقتلن ذرية ولا عسيفا، وهى نسل الرجل وأوقعت على النساء كقولهم للمطر سماء ويراد بالنساء اللاتى يستصحبونهن وتخصيص الذرية على هذين القولين بالذكر لأن استقرارهم

www.Quranpdf.blogspot.in

وتماسكهم فى الفلك أعجب ، وقيل : تطلق الذرية على الآباء وعلى الابناء قاله أبو عثمان. وتعقبه ابن عطية بأنه تخليط لا يعرف فى اللغة ، وقيل : الذرية النطف والفلك المشحون بطون النساء ذكره الماوردى ونسب إلى على كرم الله تعالى وجهه ، والظاهر أنه لم يصح ذلك عنه رضى الله تعالى عنه وفى الآية ما يبعده وهو اشبه شىء بتأويلات الباطنية ، والمراد بالفلك جنسه والوصف بالمشحون أقوى فى الامتنان بسلامتهم فيه ، وقيل : لأنه أبعد من الخطر ، وارادة الجنس مروية عن ابن عباس . ومجاهد . والسدى ، وفسر ما فى قوله تعالى :

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٤٢ ﴾ عليه بالابل فانها سفائن البر لكثرة ما تحمل وقلة كلالها فى المسير ، واطلاق السفائن عليها شائع كما قيل ، سفائن بر والسراب بحارها ، وروى ذلك عن الحسن وعبد الله بن شداد ، وفسره مجاهد بالانعام الابل وغيرها ، وعن أبى مالك وأبى صالح وغيرهما وهى رواية عن ابن عباس أيضا أن المراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام على أن التعريف للعهد فما عبارة عما سمعت أيضا عند بعض وعند آخرين هى السفن والزوارق التى كانت بعد تلك السفينة . واستشكل حمل ذريتهم فى سفينة نوح عليه السلام. واجيب بأن ذلك بحمل آبائهم الأقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذريتهم ، وتخصيص الذرية مع انهم محمولون بالتبع لأنه ابلغ فى الامتنان حيث تضمن بقاء عقبهم وأدخل فى التعجب ظاهرا حيث تضمن حمل ما لا يكاد يحصى كثرة فى سفينة واحدة مع الايجاز لأنه كان الظاهر أن يقال حملناهم ومن معهم ليبقى نسلهم فذكر الذرية يدل على بقاء النسل وهو يستلزم سلامة أصولهم فدل بلفظ قليل على معنى كثير ، وقال الامام : يحتمل عندى أن التخصيص لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة فى وجودهم أى لم يكن الحمل حملا لهم وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أى حملنا ذريات جنسهم وهو كما ترى ، وقيل : ضمير (لهم) لأهل مكة وضمير (ذريتهم) للقرون الماضية الذين هم منهم وحكى ذلك عن على بن سليمان وليس بشىء . وجوز الامام كون الضميرين للعباد فى قوله تعالى (ياحسرة على العباد) ولا يكون المراد فى كل أشخاصا معينين بل ذلك على نحو هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم على معنى قتل بعضهم بعضا فالمعنى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وفيه من البعد ما فيه ، ورجح تفسير (ما) بالابل ونحوها من الانعام دون السفن بأن المتبادر من الخلق الانشاء والاختراع فيبعد أن يتعلق بما هو مصنوع العباد . وتعقب بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى عند أهل الحق وتبادر الانشاء ممنوع وعليه يكون فى الآية رد على المعتزلة كما قيل فى قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) على تقدير كون ما موصولة ، و(من) تحتمل أن تكون للبيان وأن تكون للتبعيض ، وجوز زيادتها على نظر الاخفش ورأيه ، والظاهر أن ضمير (لهم) الثانى عائد على ما عاد عليه ضمير الأول ، وجوز عوده على الذرية ، وجوز أيضا عود ضمير (مثله) على معلوم غير مذكور تقديره من مثل ما ذكرنا من المخلوقات فى قوله سبحانه (سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الأرض) وهو أبعد من العيوق ، وإياما كان فلا يخفى مناسبة هذه الآية لقوله تعالى : (كل فى فلك يسبحون) وإنما لم يؤت بها على اسلوب اخواتها بأن يقال وآية لهم الفلك حملنا ذريتهم فيه كما قال سبحانه (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) لأنه ليس الفلك نفسه عجبا وإنما حملهم فيه هو العجب ، وقرأ نافع . وابن عامر . والاعمش . وزيد بن على . وأبان بن عثمان (ذرياتهم) بالجمع ، وكسر زيد . وأبان الذال ﴿ وَإِن نَّشَأْ ﴾ اغراقهم ﴿ نُغْرِقْهُمْ ﴾ فى الماء مع ما حملناهم فيه من الفلك وما يركبون

www.Quranpdf.blogspot.in

من السفن والزوارق فالـكلام من تمام ما تقدم فان كان المراد بما هناك السفن والزوارق فالامر ظاهر وإن كان المراد بها الابل ونحوها كان الـكلام من تمام صدر الآية أى نغرقهم مع ماحملناهم فيه من الفلك وكان حديث خلق الابل ونحوها فى البين استطرادا للتماثل، ولما فى ذلك من نوع بعد قيل إن قوله سبحانه (وإن نشأ) الخ يرجح حمل (الفلك) على الجنس و(ما) على السفن والزوارق الموجودة بين بنى آدم إلى يوم القيامة، وفى تعليق الاغراق بمحض المشيئة اشعار بأنه قد تـكامل مايستدعى اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق الاتعلق مشيئته تعالى به، وقيل إن فى ذلك اشارة إلى الرد على من يتوهم إن حمل الفلك الذرية من غير أن يغرق أمر تقتضيه الطبيعة ويستدعيه امتناع الخلاء، وقرأ الحسن (نغرقهم) بالتشديد ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أى فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، وتفسير الصريخ بالمغيث مروى عن مجاهد. وقتادة، ويكون بمعنى الصارخ وهو المستغيث ولا يراد هنا، ويكون مصدرا كالصراخ ويتجوز به عن الاغاثة لأن المستغيث ينادى من يستغيث به فيصرخ له ويقول جاءك العون والنصر قال المبرد فى أول الـكامل: قال سلامة بن جندل:

كنا إذا ماأتانا صارخ فزع   كان الصراخ له قرع الظنابيب(١)

يقول إذا أتانا مستغيث كانت اغاثته الجد فى نصرته، وجوز ارادته هنا أى فلا اغاثة لهم ﴿وَلَاهُمْ يُنقَذُونَ ٤٣﴾ أى ينجون من الموت به بعد وقوعه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أى لايغاثون ولا ينقذون لشىء من الاشياء الالرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما، ويجوز أن يراد بالرحمة مايقارن التمتيع بالحياة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتيع، وإلى كونه استثناء مفرغا مما يكون مفعولا لأجله ذهب الزجاج والـكسائى، والاستثناء على مايقتضيه الظاهر متصل، وقيل: الاستثناء منقطع على معنى ولكن رحمة منا ومتاع يكونان سببا لنجاتهم وليس بذاك، وجوز أن يكون النصب بتقدير الباء أى الابرحمة ومتاع، والجار متعلق بينقذون ولما حذف انتصب مجروره بنزع الخافض. وقيل هو على المصدرية لفعل محذوف أى إلا أن نرحمهم رحمة ونمتعهم تمتيعا، ولا يخفى حاله وكذا حال ماقبله ﴿إِلَىٰ حِينٍ ٤٤﴾ أى إلى زمان قدر فيه حسبما تقتضيه الحـكمة آجالهم، ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله:

ولم أسلم لـكى أبقى ولـكن   سلمت من الحمام إلى الحمام

والظاهر أن المحدث عنه من يشاء الله تعالى إغراقهم، وقال ابن عطية: إن (فلا صريخ لهم) الخ استئناف أخبار عن المسافرين فى البحر ناجين كانوا أو مغرقين أى لا نجاة لهم إلا برحمة الله تعالى، وليس مربوطا بالمغرقين وقد يصح ربطه به والأول أحسن فتأمله اه، وقد تأملناه فوجدناه لا حسن فيه فضلا عن أن يكون أحسن.

والفاء ظاهرة فى تعلق مابعدها بما قبلها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الخ بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أى اذا قيل لأهل مكة بطريق الانذار بما نزل من الآيات أو بغيره ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال قتادة. ومقاتل: أى عذاب الأمم التى قبلـكم، والمراد

(١) لعله جمع مطناب الجيش العظيم اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

اتقوا امثل عذابهم ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أى عذاب الآخرة، وقال مجاهد فى رواية عكس ذلك، وجاء عنه فى رواية أخرى ما بين أيديهم ما تقدم من ذنوبهم وما خلفهم ما يأتى منها، وعن الحسن مثله ، وقيل ما بين أيديهم نوازل السماء وما خلفهم نوائب الأرض ، وقيل ما بين أيديهم المكاره من حيث يحتسبون وما خلفهم المكاره من حيث لا يحتسبون، وحاصل الأمر على ما قيل اتقوا العذاب أو اتقوا ما يترتب العذاب عليه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٥ ﴾ حال من واو اتقوا أو غاية له راجين أن ترحموا أو كى ترحموا، وفسرت الرحمة بالانجاء من العذاب، وجواب اذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤٦ ﴾ انفهاما بينا، أما إذا كان الانذار بالآية الكريمة فبعبارة النص، وأما اذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولى كأنه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أو اتقوا ما يوجبه أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه، وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى، ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية، وإضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترأوا عليه فى حقها، والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للاقبال عليها والايمان وإيتاؤها نزول الوحى بها أى ما نزل الوحى بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء، وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا وإيتاؤها ظهورها لهم أى ما ظهرت لهم آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شؤنه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان به عز وجل *

وفى الكلام إشارة الى استمرارهم على الاعراض حسب استمرار إتيان الآيات، و(عن) متعلقة بمعرضين قدمت عليه للحصر الادعائى مبالغة فى تقبيح حالهم، وقيل للحصر الاضافى أى معرضين عنها لا عما هم عليه من الكفر وقيل لرعاية الفواصل والجملة فى حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما تأتيهم آية من آيات ربهم فى حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها فى حال من أحوالها إلا حال اعراضهم عنها *

وجملة (وما تأتيهم) الخ ـ على ما يشعر به كلام الكشاف ـ تذييل يؤكد ما سبق من حديث الاعراض، والى كونه تذييلا ذهب الخفاجى ثم قال: فتكون معترضة أو حالا مسوقة لتأكيد ما قبلها لشمولها لما تضمنه مع زيادة إفادة التعليل الدال على الجواب المقدر المعلل به فليس من حقها الفصل لأنها مستأنفة كما توهم فتأمل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى أعطاكم سبحانه بطريق التفضل والانعام من أنواع الأموال، وعبر بذلك تحقيقا للحق وترغيبا فى الانفاق على منهاج قوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله اليك) وتنبيها على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالأمر، وكذلك الاتيان بمن التبعيضية، والكلام على ما قيل لذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى اثر ذمهم على ترك تعظيمه عز وجل بترك التقوى، وفى ذلك إشارة الى أنهم أخلوا بجميع التكاليف لأنها كلها ترجع الى أمرين التعظيم لله تعالى والشفقة على خلقه سبحانه، وقيل هو للاشارة إلى عدم مبالاتهم بنصح الناصح وإرشاده إياهم إلى ما يدفع

www.Quranpdf.blogspot.in

البلاء عنهم نظير قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا) الخ والمعنى عليه . إذا قيل لهم بطريق النصيحة والارشاد الى ما فيه نفعهم انفقوا بعض ما آتاكم الله من فضله على المحتاجين فان ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ والأول أظهر، والظاهر أن الذين كفروا هم الذين قيل لهم انفقوا وعدل عن ضميرهم الى الظاهر إيماء الى علة القول المذكور، وفى كون القول للذين آمنوا إيماء الى أنهم القائلون، قيل: لما أسلم حواشى الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال فندبهم المؤمنون الى صلة حواشيهم فقالوا: (أنطعم) الخ، وقيل: شحت قريش بسبب أزمة على المساكين من مؤمن وغيره فندبهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى النفقة عليهم فقالوا هذا القول، وقيل: قال فقراء المؤمنين أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله تعالى فحرموا وقالوا ذلك، وروى هذا عن مقاتل، وقال ابن عباس: كان بمكة زنادقة اذا أمروا بالصدقة قالوا لا والله أيفقره الله تعالى ونطعمه نحن وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون الأفعال بمشيئة الله تعالى يقولون لو شاء الله تعالى لأغنى فلانا ولو شاء لأعزه ولو شاء سبحانه لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون *

وقال القشيرى أيضا: إن الآية نزلت فى قوم من الزنادقة لا يؤمنون بالصانع وأنكروا وجوده فقولهم لو يشاء الله من باب الاستهزاء بالمسلمين . وجوز أن يكون مبنيا على اعتقاد المخاطبين ويفهم من هذا أن الزنديق من ينكر الصانع، وقد حقق الأمر فيه على الوجه الأكمل ابن الكمال فى رسالة مستقلة فارجع إليها إن أردت ذلك . وعن الحسن . وأبى خالد أن الآية نزلت فى اليهود أمروا بالانفاق على الفقراء فقالوا ذلك *

وظاهر ما تقدم يقتضى أنها فى كفار مكة أمروا بالانفاق مما رزقهم الله تعالى وهو عام فى الاطعام وغيره فأجابوا بنفى الاطعام الذى لم يزالوا يفتخرون به دلالة على نفى غيره بالطريق الأولى ولذا لم يقل أننفق *

وقيل لم يقل ذلك لأن الاطعام هو المراد من الانفاق أو لأن (نطعم) بمعنى نعطى وليس بذاك، و(أطعمه) جواب (لو) وورود الموجب جوابا بغير لام فصيح ومنه (أن لو نشاء أصبناهم لو نشاء جعلناه اجاجا) نعم الاكثر مجيئه باللام *

والظاهر أن قوله تعالى ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٤٧ ﴾ من تتمة قول الذين كفروا للذين آمنوا أى ما أنتم الا فى ضلال ظاهر حيث طلبتم منا ما يخالف مشيئة الله عز وجل، ولعمرى أن الاناء ينضح بما فيه فان جوابهم يدل على غاية ضلالهم وفرط جهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم باسباب منها حث الاغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم سبحانه له، ويجوز أن يكون جوابا من جهته تعالى زجر به الكفرة وجهلهم به أو حكاية لجواب المؤمنين لهم فيكون على الوجهين استئنافا بيانيا جوابا لما عسى أن يقال ماقال الله تعالى أوماقال المؤمنون فى جوابهم ؟ *

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عطف على الشرطية السابقة مفيد لانكارهم البعث الذى هو مبدأ كل قبيح والنبى ﷺ لم يزل يعدهم بذلك، ومما يستحضر فى اذهانهم ماتقدم من الاوامر فلذا أتوا بالاشارة إلى القريب فى قولهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنون وعد البعث، وجوز أن يكون ذلك من باب الاستهزاء وأرادوا متى يكون ذلك ويتحقق فى الخارج ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٨ ﴾ فيما تقولون وتعدون فاخبرونا بذلك، والخطاب لرسول الله ﷺ

www.Quranpdf.blogspot.in

والمؤمنين لما انهم أيضا كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه والآمرة بالايمان به وكأنه لم يعتبر كونه شرا لهم ولذا عبروا بالوعد دون الوعيد، وقيل: إن ذاك لأنهم زعموا إن لهم الحسنى عند الله تعالى إن تحقق البعث بناء على أن الآية فى غير المعطلة ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى أى ماينتظرون ﴿ الأَصَيْحَةً ﴾ عظيمة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ وهى النفخة الأولى فى الصور التى يموت بها أهل الأرض. وعبر بالانتظار نظرا إلى ظاهر قولهم (متى هذا الوعد) أولأن الصيحة لما كانت لابد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ٤٩ ﴾ أى يتخاصمون ويتنازعون فى معاملاتهم ومتاجرهم لايخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله تعالى (فاخذتهم الساعة بغتة وهم لايشعرون) فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها حسبما يريدون ولا يزعمون انها لا تأتى، وأخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: «لينفخن فى الصور والناس فى طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى ان الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ فى الصور فيصعق به» وهى التى قال الله تعالى (ماينظرون الاصيحة واحدة) الخ، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بابن نعجته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها» وأصل يخصمون يختصمون وبه قرأ أبى فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد بعد قلبها صادا ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وجوز أن يكون الكسر لإتباع حركة الصاد الثانية والساكن لايضر حاجزاً ٭

وقرأ الحرميان. وأبو عمرو. والأعرج. وشبل. وابن قسطنطين بادغام التاء فى الصاد ونقل حركتها وهى الفتحة إلى الخاء، وأبو عمرو أيضا. وقالون بخلف باختلاس حركة الخاء وتشديد الصاد، وعنهما اسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا جادله، والمفعول عليها محذوف أى يخصم بعضهم بعضا، وقيل يخصمون مجادلتهم عن أنفسهم، وبعضهم يكسر ياء المضارعة إتباعا لكسرة الخاء وشد الصاد، وكسر ياء المضارعة لغة حكاها سيبويه عن الخليل فى مواضع، وعن نافع أنه قرأ بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الصاد المكسورة، وفيها الجمع بين الساكنين على حده المعروف، وكأنه يجوز الجمع بينهما إذا كان الثانى مدغما كان الأول حرف مد أيضا أم لا، وهذا مااخترناه فى نقل القراءات تبعا لبعض الأجلة والرواة فى ذلك مختلفون ٭

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ فى شىء من أمورهم إذا كانوا فيما بين أهليهم، ونصب (توصية) على أنه مفعول به ليستطيعون، وجوز أن يكون مفعولا مطلقا لمقدر ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ٥٠ ﴾ إذا كانوا فى خارج ابوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى الله عز وجل لا إلى غيره سبحانه. وقرأ ابن محيصن (يرجعون) بالبناء للمفعول والضمائر للقائلين (متى هذا الوعد) لامن حيث أعيانهم أعنى أهل مكة الذين كانوا وقت النزول بل لمنكرى البعث مطلقا ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هى النفخة الثانية بينها و بين الأولى أربعون أى ينفخ فيه، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ٭

وقرأ الأعرج (الصور) بفتح الواو وقد مر الكلام فى ذلك ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور جمع

www.Quranpdf.blogspot.in

جدث بفتحتين، وقرىء بالفاء بدل الثاء والمعنى واحد ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مالك أمرهم ﴿ يَنْسِلُونَ ٥١ ﴾ يسرعون بطريق الاجبار لقوله تعالى (لدينا محضرون) قيل: وذكر الرب للاشارة إلى إسراعهم بعد الاساءة إلى من أحسن إليهم حين اضطروا إليه، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى (فاذاهم قيام ينظرون) لجواز اجتماع القيام والنظر والمشى أو لتقارب زمان القيام ناظرين وزمان الاسراع فى المشى. وقرأ ابن أبى إسحق. وأبو عمرو بخلاف عنه بضم السين ﴿ قَالُوا ﴾ اى فى ابتداء بعثهم من القبور ﴿ يَاوَيْلَنَا ﴾ أى هلا كنا أحضر فهذا أوانك وقيل أى ياقومنا أنظروا ويلنا وتعجبوا منه، وعلى حذف المنادى قيل وى كلمة تعجب ولنا بيان ونسب للكوفيين وليس بشىء

وقرأ ابن أبى ليلى ياويلتنا بتاء التأنيث، وعنه أيضا (ياويلتى) بتاء بعدها ألف بدل من ياء الاضافة، والمراد أن كل واحد منهم يقول ياويلتى ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ أى رقادنا على أنه مصدر ميمى أو محل رقادنا على أنه اسم مكان ويراد بالمفرد الجمع أى مراقدنا، وفيه تشبيه الموت بالرقاد من حيث عدم ظهور الفعل والاستراحة من الأفعال الاختيارية، ويجوز أن يكون المرقد على حقيقته والقوم لاختلاط عقولهم ظنوا أنهم كانوا نياما ولم يكن لهم إدراك لعذاب القبر لذلك فاستفهموا عن موقظهم، وقيل سموا ذلك مرقدا مع علمهم بما كانوا يقاسون فيه من العذاب لعظم ماشاهدوه فكأن ذلك مرقد بالنسبة إليه، فقد روى أنهم إذا عاينوا جهنم ومافيها من ألوان العذاب يرون ماكانوا فيه مثل النوم فى جنبها فيقولون ذلك

وأخرج الفريابى. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب أنه قال: ينامون قبل البعث نومة، وأخرج هؤلاء ما عدا ابن جرير عن مجاهد قال: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم قبل يوم القيامة فاذا صيح بأهل القبور يقولون (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) وروى عن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا الأهوال قالوا: ذلك

وفى البحر أن هذا غير صحيح الاسناد واختار أن المرقد استعارة عن مضجع الموت

وقرأ أمير المؤمنين على. وابن عباس. والضحاك. وأبو نهيك (من بعثنا) بمن الجارة والمصدر المجرور وهو متعلق بويل أو بمحذوف وقع حالا منه. ونحوه فى الخبر ويلى عليك وويلى منك يارجل ومن الثانية متعلقة ببعث

وعن ابن مسعود أنه قرأ (من أهبنا) بمن الاستفهامية وأهب بالهمز من هب من نومه إذا انتبه وأهببته أنا أى أنبهته

وعن أبى أنه قرأ (هبنا) بلا همز قال ابن جنى: وقراءة ابن مسعود أقيس فهبنى بمعنى أيقظنى لم أر لها أصلا ولا مر بنا فى اللغة مهبوب بمعنى موقظ اللهم إلا أن يكون حرف الجر محذوفا أى هب بنا أى أيقظنا ثم حذف وأوصل الفعل، وليس المعنى على من هب فهببنا معه وإنما معناه من أيقظنا، وقال البيضاوى: هبنا بدون الهمز بمعنى أهبنا بالهمز، وقرىء (من هبنا) بمن الجارة والمصدر من هب يهب ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ جملة من مبتدا وخبر ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٥٢ ﴾ عطف على مافى حيز ما، وعطفه على الجملة الاسمية أو جعله حالا بتقدير قد بدونه خلاف الظاهر، وما موصولة محذوفة العائد أى هذا الذى وعده الرحمن والذى صدقه المرسلون أى صدق فيه من قولهم صدقت زيدا الحديث أى صدقته فيه ومنه قولهم صدقنى سن بكره أو مصدرية أى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، وهو على ماقيل جواب

www.Quranpdf.blogspot.in

من جهته عز وجل على ما قال الفراء من قبل الملائكة وعلى ما قال قتادة ومجاهد من قبل المؤمنين، وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذى سألوا عنه بأن يقال الرحمن أو الله بعثكم لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه مع تضمنه الاشارة إلى الفاعل ، وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى لا تسألوا عن الباعث فان هذا البعث ليس كبعث النائم وان ذلك ليس مما يهمكم الآن وانما الذى يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ذو الأهوال والافزاع، وفيه من تقريعهم ما فيه *

وزعم الطيبي أن ذكر الفاعل ليس بكاف فى الجواب لأن قولهم (من بعثنا من مرقدنا) حكاية عن قولهم ذلك عند البعث بعد ما سبق من قولهم (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فلا بد فى الجواب من قول مضمن معنيين فكان مقتضى الظاهر أن يقال بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل لكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ليكون أهول وفى التقريع أدخل، وهو وارد على الأسلوب الحكيم وفى دعوى عدم كفاية ذكر الفاعل فى الجواب نظر ، وفى ايثارهم اسم الرحمن قيل اشارة الى زيادة التقريع من حيث أن الوعد بالبعث من آثار الرحمة وهم لم يلقوا له بالا ولم يلتفتوا اليه وكذبوا به ولم يستعدوا لما يقتضيه، وقيل آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهى نصب أعينهم، واختصاص رحمة الرحمن بما يكون فى الدنيا ورحمة الرحيم بما يكون فى الأخرى ممنوع فقد ورد يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما *

وقال ابن زيد: هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليهم السلام أو أجاب بعضهم بعضا ، وآثروا اسم الرحمن طمعا فى أن يرحمهم وهيهات ليس الكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل، وجوز الزجاج كون (هذا) صفة لمرقدنا لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه، وقد روى عن حفص أنه وقف عليه وسكت سكتة خفيفة لحكاية اجماع القراء على الوقف على (مرقدنا) غير تامة، وما مبتدأ محذوف الخبر أى حق أو مبتدأ خبره محذوف أى هو أو هذا ما وعد، وفيه من البديع صنعة التجاذب وهو أن تكون كلمة محتملة أن تكون من السابق وأن تكون من اللاحق، ومثله كما قال الشيخ الاكبر قدس سره فى تفسيره (١) المسمى بايجاز البيان فى الترجمة عن القرآن ومن خطه الشريف نقلت (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) الآية بعد قوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) وقوله تعالى (فيه هدى - بعد - لاريب) فليحفظ ﴿ إِنْ كَانَتْ ﴾ أى ما كانت الفعلة أو النفخة التى حكيت آنفا ﴿ الأَصَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام فى الصور ، وقيل : هى قول اسرائيل عليه السلام أيتها العظام النخرة والاوصال المتقطعة والشعور المتمزقة ان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقرىء برفع (صيحة) ومر توجيهها ﴿ فَاذَاهُمْ جَمِيعٌ ﴾ مجموع ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا وفى محل حكمنا وانقطاع التصرف الظاهرى من غيرنا ﴿ مُحْضَرُونَ ٥٣ ﴾ لفصل الحساب من غير لبث ماطرفة عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب مالا يخفى *

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ الحاضر أو المعهود وهو يوم القيامة الدال نفخ الصور عليه، وانتصب على الظرف والعامل فيه قوله تعالى ﴿ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿ شَيْئًا ﴾ من الظلم فهو نصب على المصدرية أو شيئا

(١) وهو على اسلوب تفاسير المفسرين دون أهل التأويل اه

www.Quranpdf.blogspot.in

من الاشياء على أنه مفعول به على الحذف والايصال ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٤ ﴾ أى الاجزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصى فالكلام على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد أو الا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه ، وقيل: لاتجزون إلا النفس ما كنتم تعملونه بأن يظهر بصورة العذاب، وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم، واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين بأن يكون الكلام اخبارا من الله تعالى عما لأهل المحشر على العموم كما يشير اليه تنكير (نفس) واختاره السكاكى ، وقيل : عليه يأباه الحصر لأنه تعالى يوفى المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة. ورد بان المعنى أن الصالح لاينقص ثوابه والطالح لا يزاد عقابه لأن الحكمة تأبى ماهو على صورة الظلم اما زيادة الثواب ونقص العقاب فليس كذلك أو المراد بقوله تعالى (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) إنكم لاتجزون الا من جنس عملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ه

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ ٥٥ ﴾ على تقدير كون الخطاب السابق خاصا بالكفرة من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال أعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفى حكاية ذلك مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين ، وعلى تقدير كونه عاما ابتداء كلام واخبار لنا بما يكون فى يوم القيامه إذا صار كل الى ما أعد لهم من الثواب والعقاب ، والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه أهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة أو كمال المساءة والمراد ههنا هو الأول ، وتنكيره للتعظيم كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذى شغلهم عن كل ما يخطر بالبال ، وعن ابن عباس . وابن مسعود . وقتادة هو افتضاض الأبكار وهو المروى عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس ضرب الأوتار وقيل السماع وروى عن وكيع . وعن ابن كيسان التزاور ، وقيل ضيافة الله تعالى وهى يوم الجمعة فى الفردوس الأعلى عند كثيب المسك وهناك يتجلى سبحانه لهم فيرونه جل شأنه جميعا، وعن الحسن نعيم شغلهم عما فيه أهل النار من العذاب ، وعن الكلبى شغلهم عن أهاليهم من أهل النار لايذكرونهم لئلا يتنغصوا ، ولعل التعميم أولى ه

وليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم ، وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه ، وأفرد الشغل باعتبار أنه نعيم وهو واحد بهذا الاعتبار ، والجار مع مجروره متعلق بمحذوف وقع خبرا لإن و(فاكهون) خبر ثان لها وجوز أن يكون هو الخبر و(فى شغل) متعلق به أو حال من ضميره ، والمراد بفاكهون على ما أخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . عن ابن عباس فرحون ، وأخرجوا عن مجاهد أن المعنى يتعجبون بما هم فيه ه

وقال أبو زيد : الفاكه الطيب النفس الضحوك ولم يسمع له فعل من الثلاثى ، وقال أبو مسلم : إنه مأخوذ من الفكاهة بالضم وهى التحدث بما يسر ، وقيل التمتع والتلذذ فيل (فاكهون) ذووا فاكهة نحو لابن وتامر ه

وظاهر صنيع أبى حيان اختياره ، والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها لتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ، وفيه على تقدير خصوص الخطاب زيادة لمساءة المخاطبين ه

وقرأ الحرميان وأبو عمرو (شغل) بضم الشين وسكون الغين وهى لغة فى شغل بضمتين للحجازيين كما قال الفراء ه

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ مجاهد. وأبو السمال. وابن هبيرة فيما نقل عنه ابن خالويه بفتحتين، ويزيد النحوى. وابن هبيرة أيضا فيما نقل عنه أبو الفضل الرازى بفتح الشين وإسكان العين وهما لغتان أيضا فيه *

وقرأ الحسن. وأبو جعفر. وقتادة. وأبو حيوة. ومجاهد. وشيبة. وأبو رجاء. ويحيى بن صبيح. ونافع فى رواية (فكهون) جمع فكه كحذر وحذرون وهو صفة مشبهة تدل على المبالغة والثبوت، وقرأ طلحة. والأعمش (فاكهين) بالألف وبالياء نصبا على الحال (١) و(فى شغل) هو الخبر، وقرئ (فكهين) بغير ألف وبالياء كذلك، وقرئ (فكهون) بفتح الفاء وضم الكاف وفعل بضم العين من أوزان الصفة المشبهة كنطس وهو الحاذق الدقيق النظر الصادق الفراسة، وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ٥٦﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة أزواجهم، فهم مبتدأ و(أزواجهم) عطف عليه و(متكئون) خبر والجار إذ صلة له قيل قدما عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجار ان بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة، وجوز أن يكون الخبر هو الظرف الأول والظرف الثانى متعلق بمتكئون وهو خبر مبتدأ محذوف أى هم متكئون على الأرائك أو الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم و(متكئون) مبتدأ مؤخر والجملة على الوجهين استئناف بيانى، وقيل (هم) تأكيد للمستكن فى خبر إن أعنى فاكهون أو فى شغل *

ومنعه بعضهم زعما منه أن فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبى و(متكئون) خبر آخر لها و(على الأرائك) متعلق به وكذا (فى ظلال) أو هو متعلق بمحذوف هو حال من المعطوف والمعطوف عليه، ومن جوز مجىء الحال من المبتدأ جوز هذا الاحتمال على تقدير أن يكون (هم) مبتدأ أيضا، والظلال جمع ظل وجمع فعل على فعال كثير كشعب وشعاب وذئب وذئاب، ويحتمل أن يكون جمع ظلة بالضم كقبة وقباب وبرمة وبرام، وأيد بقراءة عبد الله. والسلمى. وطلحة. وحمزة. والكسائى (فى ظلل) بضم ففتح فانه جمع ظلة لا ظل والأصل توافق القراءات، ومنذر بن سعيد يقول: جمع ظلة بالكسر وهى لغة فى ظلة بالضم فيكون كلقحة ولقاح وهو قليل *

وفسر الامام الظل بالوقاية عن مظان الألم؛ ولأهل الجنة من ظل الله تعالى ما يقيهم الأسواء والجمع باعتبار مالكل واحد منهم من ذلك أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاية. ويحتمل أنه جمع باعتبار كونه عظيم الشأن جليل القدر كجمع اليد بمعنى القدرة على قول فى قوله تعالى: (والسماء بنيناها بأيد) *

وفسر أبو حيان الظلال جمع ظلة بالملابس ونحوها من الأشياء التى تظل كالستور، وأقول قال ابن الأثير: الظل الفىء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أى شىء كان، وقيل هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس وما كان بعده فهو الفىء، وأنت تعلم أن الظل بالمعنى الذى تعتبر فيه الشمس لا يتصور فى الجنة إذ لا شمس فيها، ومن هنا قال الراغب: الظل ضد الضح وهو أعم من الفىء فانه يقال ظل الليل وظل الجنة، وجاء فى ظلها ما يدل على أنه كالظل الذى يكون فى الدنيا قبل طلوع الشمس، فقد روى ابن القيم فى حادى الأرواح عن ابن عباس أنه سئل ما أرض الجنة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضة كأنها مرآة قيل: ما نورها؟ قال: ما رأيت الساعة التى قبل طلوع الشمس فذلك نورها إلا أنها ليس فيها شمس ولا زمهرير، وذكر ابن عطية نحو هذا لكن لم يعزه. وتعقبه أبو حيان بأنه يحتاج إلى نقل صحيح وكيف يكون ذلك وفى الحديث ما يدل على أن حوراء من حور الجنة

(١) فى الظرف أى من المستكن اه

www.Quranpdf.blogspot.in

لو ظهرت لأضاءت منها الدنيا أو نحو من هذا ، ويمكن الجواب بأن المراد تقريب الأمر لفهم السائل وإيضاح الحال بما يفهمه أو بيان نورها فى نفسها لا الأعم منه ومما يحصل فيها من أنوار سكانها الحور العين وغيرهم.

نعم نورها فى نفسها أتم من نور الدنيا قبل طلوع الشمس كما يومىء اليه ما أخرجه ابن ماجه عن أسامة قال: «قال رسول الله ﷺ : ألا هل مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها أى لا عدل ولا مثل وهى ورب الكعبة نور يتلألأ » الحديث، ويجوز حمل الظلال جمع ظل هنا على هذا المعنى وجمعه للتعدد الاعتبارى، ويجوز حمل الظل على العزة والمناعة فانه قد يعبر به عن ذلك وبهذا فسر الراغب قوله تعالى: (إن المتقين فى ظلال وعيون) وهو غير معنى الوقاية عن مظان الألم الذى ذكره الامام ، ويجوز حمله على أنه جمع ظلة على الستور التى تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوهما ووجود ذلك فى الجنة مما لا شبهة فيه فقد جاء فى الكتاب وصح فى السنة أن فيها غرفا وهى ظاهرة فيما كان ذا سقف بل صرح فى بعض الأخبار بالسقف وجاء فيها أيضا ماهو ظاهر فى أن فيها شجرا مرتفعا يظل من تحته ، وقد صح من رواية الشيخين أنه ﷺ قال : «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها فاقرؤا إن شئتم (وظل ممدود)» وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه قال الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها يخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها الخبر، وابن الأثير يقول: معنى فى ظلها فى ذراها وناحيتها ، وكان هذا لدفع أنها تظل من الشمس أو نحوها ، و(الارائك) جمع أريكة وهو السرير فى قول، وقيل : الوسادة حكاه الطبرسى. وقال الزهرى: كل ما اتكىء عليه فهو أريكة، وقال ابن عباس: لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة فان كان سرير بغير حجلة لا تكون أريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فالسرير والحجلة أريكة . وفى حادى الأرواح لا تكون أريكة إلا أن يكون السرير فى الحجلة وأن يكون على السرير فراش، وفى الصحاح الأريكة سرير منجد مزين فى قبة أو بيت، وقال الراغب: الأريكة حجلة على سرير والجمع أرائك، وتسميتها بذلك إما لكونها فى الأرض متخذة من أراك وهو شجر معروف أو لكونها مكانا للاقامة من قولهم أرك بالمكان أروكا ، وأصل الأروك الاقامة على رعى الأراك ثم تجوز به فى غيره من الاقامات.

وبالجملة إن كلام الأكثرين يدل على أن السرير وحده لا يسمى أريكة نعم يقال للمتكىء على أريكة متكىء على سرير فلا منافاة بين ماهنا وقوله تعالى : (متكئين على سرر مصفوفة) لجواز أن تكون السرر فى الحجال فتكون أرائك، ويجوز أن يقال: إن أهل الجنة تارة يتكئون على الأرائك وأخرى يتكئون على السرر التى ليست بأرائك ، وسيأتى إن شاء تعالى ماورد فى وصف سررهم رزقنا الله تعالى وإياكم الجلوس على هاتيك السرر والاتكاء مع الأزواج على الارائك ، والظاهر أن المراد بالأزواج أزواجهم المؤمنات اللاتى كن لهم فى الدنيا ، وقيل أزواجهم اللاتى زوجهم الله تعالى إياهن من الحور العين، ويجوز فيما يظهر أن يراد الأعم من الصنفين ومن المؤمنات اللاتى متن ولم يتزوجن فى الدنيا فزوجهن الله تعالى فى الجنة من شاء من عباده بل الأعم من ذلك كله ومن المؤمنات اللاتى تزوجن فى الدنيا بأزواج ماتوا كفارا فأدخلوا النار مخلدين فيها وأدخلن الجنة كامرأة فرعون فقد جاء فى الأخبار أنها تكون زوجة نبينا ﷺ وجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم فى الاحسان وأمثالهم فى الايمان كما قال سبحانه :(وآخر من شكله أزواج) وقريب منه ماقيل

www.Quranpdf.blogspot.in

المراد به أخلاؤهم كما فى قوله تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وقيل يجوز أن يراد به ما يعم الاشكال والاخلاء ومن سمعت أولاء وأنت تعلم بعد إرادة ذلك وكذا إرادة الاشكال أو الاخلاء بالخصوص

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة كذا قيل ، ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا وقع جواب سؤال نشأ مما يدل عليه الكلام السابق من اشتغالهم بالانس واتكائهم على الأرائك عدم تعاطيهم أسباب المأكل والمشرب فكأنه قيل: إذا كان حالهم ماذكر فكيف يصنعون فى أمر مأكلهم ؟ فأجيب بقوله سبحانه : (لهم فيها فاكهة) وهو مشير إلى أن لهم من المأكل مالهم على أتم وجه ، وأفيد أن فيه إشارة إلى أنه لاجوع هناك وليس الأكل لدفع ألم الجوع وإنما مأكولهم فاكهة ولو كان لحما ، والتنوين للتفخيم أى فاكهة جليلة الشأن ، وفى قوله سبحانه : (لهم فيها فاكهة) دون يأكلون فيها فاكهة إشارة إلى كون زمام الاختيار بايديهم وكونهم مالكين قادرين فان شاؤا أكلوا وإن شاؤا أمسكوا ه

﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ٥٧﴾ أى مايدعون به لانفسهم أى لهم كل مايطلبه أحد لنفسه لانهم يطلبون فانه حاصل كما إذا سألك أحد فقلت: لك ذلك تعنى فلم تطلب أو لهم مايطلبون بالفعل على أن هناك طلبا وإجابة لأن الغبطة بالاجابة توجب اللذة بالطلب فانه مرتبة سنية لاسيما والمطلوب منه والمجيب هو الله تعالى الملك الجليل جل جلاله وعم نواله ، فيدعون من الدعاء بمعنى الطلب ، وأصله يدتعيون على وزن يفتعلون سكنت الياء بعد أن ألقيت حركتها على ماقبلها وحذفت لسكونها وسكون الواو بعدها، وقيل بل ضمت العين لأجل واو الجمع ولم يلق حركة الياء عليها وإنما حذفت استثقالا ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار يدتعون فقلبت التاء دالا وأدغمت، وافتعل بمعنى فعل الثلاثى كثير ومنه اشتوى بمعنى شوى واجتمل بمعنى جمل أى أذاب الشحم ه

قال لبيد : فاشتوى (١) ليلة ريح واجتمل * و(لهم) خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وهى موصولة والجملة بعدها صلة والعائد محذوف وهو إما ضمير مجرور أو ضمير منصوب على الحذف والايصال ، وجوز أن تكون مانكرة موصوفة وأن تكون مصدرية فالمصدر (٢) حينئذ مبتدأ وهو خلاف الظاهر، والجملة عطف على الجملة قبلها، وعدم الاكتفاء بعطف (ما) على (فاكهة) لئلا يتوهم كونها عبارة عن توابع الفاكهة ومتمماتها *

وجوز أن يكون (يدعون) من الافتعال بمعنى التفاعل كارتموه بمعنى تراموه أى لهم مايتداعون، والمعنى كل مايصح أن يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم أو ما يطلبه بعضهم من بعض بالفعل لما فى ذلك من التحاب، وأن يكون من الافتعال على ماسمعت أولا إلا أن الادعاء بمعنى التمنى *

قال أبو عبيدة: العرب تقول ادع على ماشئت بمعنى تمن على، وتقول فلان فى خير ماادعى أى تمنى أى لهم مايتمنون ، قال الزجاج: وهو مأخوذ من الدعاء أى كل مايدعونه أهل الجنة يأتيهم، وقيل افتعل بمعنى فعل فيدعون بمعنى يدعون من الدعاء بمعناه المشهور أى لهم ما كان يدعون به الله عز وجل فى الدنيا من الجنة ودرجاتها ه

وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ﴾ جوز أن يكون بدلا من مابدل بعض من كل ولزوم الضمير غير مسلم، وقوله تعالى :

---

(١) وغلام ارسلته أمه بالوك فبذلنا ماسال . أرسلته فاتاه رزقه فاشتوى الخ اه منه

(٢) قيل إذا جعلت مصدرية فالمصدر بمعنى المفعول اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة صفة سلاما، وقوله تعالى ﴿مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ٥٨﴾ صفة (قولا) أى سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم أى يسلم عليهم من جهته تعالى بلا واسطة تعظيما لهم، فقد أخرج ابن ماجه وجماعة عن جابر قال: «قال النبي ﷺ بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم ياأهل الجنة وذلك قول الله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال فينظر اليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم» وقيل بواسطة الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وروى ذلك عن ابن عباس وعلى الأول الأكثرون، وأما ماقيل ان ذلك سلام الملائكة على المؤمنين عند الموت فليس بشىء، والبدلية المذكورة مبنية على أن ما عامة.

وجوز أن يكون بدل كل من كل على تقدير أن يراد بها خاص أو على ادعاء الاتحاد تعظيما، ولا بأس فى إبدال هذه النكرة منها على تقدير موصوليتها لأنها نكرة موصوفة بالجملة بعدها، على أنه يجوز أن يلتزم جواز إبدال النكرة من المعرفة مطلقا من غير قبح. ويجوز أن يكون (سلام) خبر مبتدأ محذوف والجملة بعده صفته أى هو أو ذلك سلام يقال قولا من رب رحيم، والضمير لما وكذا الاشارة، وجوز أن يكون صفة لما أى لهم مايدعون سالم أو ذو سلامة مما يكره، و(قولا) مصدر مؤكد لقوله تعالى (لهم مايدعون) سلام أى عدة من رب رحيم، وهذه الوصفية على تقدير كون ما نكرة موصوفة ولا يصح على تقدير كونها موصولة للتخالف تعريفا وتنكيرا وأن يكون خبراً لما، و(لهم) متعلق به لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر أى مايدعون سالم لهم خالص لاشوب فيه، ونصب (قولا) على ماسمعت آنفا.

وفى الكشاف الأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه فيكون الكلام جملة مفصولة عما سبق ولا ضير فى نصب النكرة على ذلك، وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أى ولهم سلام يقال قولا من رب رحيم، وقدر الخبر مقدما لتكون الجملة على أسلوب أخواتها لا ليسوغ الابتداء بالنكرة فان النكرة موصوفة بالجملة بعدها، وظاهر كلامهم تقدير العاطف أيضا ويمكن أن لا يقدر، وفصل الجملة على ماقيل لأنها كالتعليل لما تضمنته الآى قبلها فان سلام الرب الرحيم منشأ كل تعظيم وتكريم، وجوز على تقدير كونه مبتدأ تقدير الخبر المحذوف عليهم، قال الامام: فيكون ذلك اخبارا من الله تعالى فى الدنيا كأنه سبحانه حكى لنا وقال جل شأنه (إن أصحاب الجنة فى شغل) ثم لما كمل بيان حالهم قال (سلام عليهم) وهذا كما قال سبحانه (سلام على نوح وسلام على المرسلين) فيكون جل وعلا قد أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين ثم قال: وهذا وجه مبتكر جيد مايدل عليه فنقول: أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعا من الالتفات حيث قال تعالى لهم كذا وكذا ثم قال سبحانه (سلام عليكم) اهـ. ووجه الابتداء بسلام فى مثل هذا التركيب موصوفا كان أم لا معروف عند أصاغر الطلبة. وقرأ محمد بن كعب القرظى (سلم) بكسر السين وسكون اللام ومعناه سلام. وقال أبو الفضل الرازى: مسالم لهم أى ذلك مسالم وليس بذاك.

وقرأ أبى. وعبدالله. وعيسى. والغنوى (سلاما) بالنصب على المصدر أى يسلم عليهم سلاما أو على الحال من ضمير ما فى الخبر أو منها على القول بجواز مجىء الحال من المبتدأ أى ولهم مرادهم خالصا.

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ٥٩ ﴾ أى انفردوا عن المؤمنين إلى مصيركم من النار . وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة أى اعتزلوا عن كل خير ، وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى أى على خلاف ما للمؤمنين من الاجتماع مع من يحبون ، ولعل هذا بعد زمان من أول دخولهم فلا ينافى عتاب بعضهم بعضا الوارد فى آيات أخر كقوله تعالى (وإذ يتحاجون فى النار) ويحتمل أنه أراد لكل صنف كافر كاليهود والنصارى ، وجوز الامام كون الأمر أمر تكوين كما فى (كن فيكون) على معنى أن الله تعالى يقول لهم ذلك فتظهر عليهم سيماء يعرفون بها كما قال سبحانه (يعرف المجرمون بسيماهم) ولا يخفى بعده ، والجملة عطفا ما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أصحاب الجنة من عطف القصة على القصة فلا يضر التخالف إنشائية وخبرية ، وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما ، وإما على مضمر ينساق إليه حكاية حال أصحاب الجنة كأنه قيل اثر بيان كونهم فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا عنهم أيها المجرمون *

قاله أبو السعود ، وقال الخفاجى: يجوز أن يكون بتقدير ويقال امتازوا على أنه معطوف على يقال المقدر العامل فى قولا وهو أقرب وأقل تكلفا لأن حذف القول وقيام معموله مقامه كثير حتى قيل فيه هو البحر حدث عنه ولا حرج ، وفيه بحث يظهر بأدنى تأمل ، وقيل : إن المذكور من قوله تعالى (إن أصحاب الجنة) إلى هنا تفصيل للمجمل السابق أعنى قوله تعالى : (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) وبنى عليه أن المعطوف عليه متضمن لمعنى الطلب على معنى فليمتز المؤمنون عنكم ياأهل المحشر إلى الجنة وامتازوا عنهم إلى النار ، وتعقبه فى الكشف بأنه ليس بظاهر إذ باحد الامرين غنية عن الآخر ثم قال: والوجه أن المقصود عطف جملة قصة أصحاب النار على جملة قصة أصحاب الجنة وأوثرها هنا الطلب زيادة للتهويل والتعنيف ألا ترى إلى قوله تعالى (اصلوها اليوم) وإن كان لابد من التضمين فالمعطوف أولى بأن يجعل فى معنى الخبر على معنى وأن المجرمون ممتازون منفردون *

وفائدة العدول ما فى الخطاب والطلب من النكتة اه ، وماذكره من حديث اغناء أحد الامرين عن الآخر سهل لكون الامر تقديريا مع أن الامتياز الأول على وجه الاكرام وتحقيق الوعد والآخر على وجه الاهانة وتعجيل الوعيد فيفيد كل منهما مالا يفيده الآخر ، نعم قال العلامة أبو السعود فى ذلك: إن اعتبار فليمتز المؤمنون واضماره بمعزل عن السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الامر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل، وكون ذلك تنزيل المترقب منزلة الواقع لايجدى نفعا لأن مناط الاعتبار والاضمار انسياق الافهام اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد التنزيل المذكور واسقاط الترقب عن درجة الاعتبار يكون التصدى لاضمار شىء يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة، والظاهر أنه لافرق فى هذا بين التضمين والاضمار ، والذى يغلب على الظن أن ماذكر لا يفيد أكثر من أولوية تقدير فليقروا عينا على تقدير فليمتازوا فليفهم ، وقال بعض الاذكياء: يجوز أن يكون (امتازوا) فعلا ماضيا والضمير للمؤمنين أى انفرد المؤمنون عنكم بالفوز بالجنة ونعيمها أيها المجرمون ففيه تحسير لهم والعطف حينئذ من عطف الفعلية الخبرية على الاسمية الخبرية ولا منع منه ، وتعقب بانه مع ما فيه من المخالفة للاسلوب المعروف من وقوع النداء مع الامر نحو (يوسف أعرض عن هذا) قليل الجدوى وماذكره من التحسير يكفى فيه ماقبل من ذكر ماهم عليه من

www.Quranpdf.blogspot.in

التنعم وأيضا المأثور يأبى عنه غاية الإباء وهو كالنص فى أن (امتازوا) فعل أمر ولا يكاد يخطر اقارىء ذلك *

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ من جملة مايقال لهم بطريق التقريع والالزام والتبكيت بين الامر بالامتياز والامر بمقاساة حر جهنم، والعهد الوصية والتقدم بامر فيه خير ومنفعة، والمراد به هنا ماكان منه تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام من الاوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) الآية، وقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وغيرهما من الآيات الواردة فى هذا المعنى، وقيل: هو الميثاق المأخوذ عليهم فى عالم الذر إذ قال سبحانه لهم (ألست بربكم) وقيل: هو مانصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله تعالى الزاجرة عن عبادة غيره عز وجل فكأنه استعارة لاقامة البراهين والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به اليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله تعالى من الآلهة الباطل وإضافتها إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها فالتجوز فى النسبة، وقرأ طلحة. والهذيل بن شرحبيل الكوفى (إعهد) بكسر الهمزة قاله صاحب اللوامح وقال هى لغة تميم، وهذا الكسر فى النون والتاء اكثر من بين أحرف المضارعة، وقال ابن عطية قرأ الهذيل وابن وثاب (ألم إعهد) بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء وهى من كسر حرف المضارعة سوى الياء، وروى عن ابن وثاب (ألم أعهد) بكسر الهاء ويقال عهد وعهد اه *

ولعله اراد أن كسر الميم يدل على كسر الهمزة لأن حركة الميم هى الحركة التى نقلت اليها من الهمزة وحذفت الهمزة بعد نقل حركتها لاان الميم مكسورة والهمزة بعدها مكسورة أيضا فتلفظ بها، وقال الزمخشرى: قرىء (إعهد) بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز فى حروف مضارعته الكسر الا فى الياء و(أعهد) بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب و(احهد) بابدال العين وحدها حاء مهملة و(احد) بابدالهامع ابدال الهاء وادغامها وهى لغة تميم ومنه قولهم دحا محا أى دعها معها وماذكره من قوله: الا فى الياء مبنى على بعض اللغات وعن بعض كلب أنهم يكسرون الياء أيضا فيقولون يعلم مثلا وقوله فى أحهد وأحد لغة بنى تميم هو المشهور، وقيل: أحهد لغة هذيل وأحد لغة بنى تميم وقولهم دحا محا إما يريدوا به دع هذه القربة مع هذه المرأة أودع هذه المرأة مع هذه القربة ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠ ﴾ أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء، وقيل: تعليل للنهى وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام والنداء بوصف النبوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على مقتضى العلم فهم والمنكرون سواء ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِى ﴾ عطف على (أن لا تعبدوا الشيطان) على أن (أن) فيها مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول دون حروفه أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم اعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الامر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية قيل: وليتصل به قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١ ﴾ بناء على أن الاشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف فى الصراط المستقيم، وجعل بعضهم الاشارة إلى ماعهد اليهم من ترك عبادة الشيطان وفعل عبادة الله عز وجل *

ورجح بأن عبادته تعالى إذا لم تنفرد عن عبادة غيره سبحانه لاتسمى صراطا مستقيما فتأمل والجملة استئنافية جيء بها لبيان المقتضى للعهد بعبادته تعالى أو للعهد بشقيه والتنكير للمبالغة والتعظيم أى هذا صراط بليغ

www.Quranpdf.blogspot.in

فى استقامته جامع لكل مايجب أن يكون عليه واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم أو هذا هو الصراط المستقيم وإن كان مفيدا للحصر ، وجوز أن يكون التنكير للتبعيض على معنى هذا بعض الصرط المستقيمة وهو للهضم من حقه على الكلام المنصف، وفيه ادماج التوبيخ على معنى أنه لو كان بعض الصرط الموصوفة بالاستقامة لكفى ذلك فى انتهاجه كيف وهو الاصل والعدة كما قيل:

واقول بعض الناس عنك كناية   خوف الوشاة وأنت كل الناس

وفيه أن المطلوب الاستقامة والامر دائر معها وقليلها كثير ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم اثر بيان نقضهم العهد فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم، واسناد الاضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للاغواء *

والجبل - قال الراغب - الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبيها بالجبل فى العظم، وعن الضحاك أقل الجبل وهى الأمة العظيمة عشرة آلاف ، وفسره بعضهم بالجماعة و بعض بالأمة بدون الوصف وقيل هو الطبع المخلوق عليه الذى لا ينتقل كأنه جبل وهو هنا خلاف الظاهر *

وقرأ العربيان. والهذيل (جبلا) بضم الجيم واسكان الباء . وقرأ ابن كثير . وحمزة . والكسائى بضمتين مع تخفيف اللام . والحسن . وابن أبى إسحق . والزهرى . وابن هرمز . وعبدالله بن عبيدبن عمير . وحفص ابن حميد بضمتين وتشديد اللام ، والأشهب العقيلى . واليمانى . وحماد بن سلمة عن عاصم بكسر الجيم وسكون الباء ، والأعمش بكسرتين وتخفيف اللام جمع جبلة نحو فطرة وفطر ، وقرأ أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه . وبعض الخراسانيين (جيلا) بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف واحد الأجيال وهو الصنف من الناس كالعرب والروم *

﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ٦٢ ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم *

وقرأ طلحة . وعيسى . وعاصم فى رواية عبد بن حميد عنه بياء الغيبة فالضمير للجبل *

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٦٣ ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والالزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أى هذه التى ترونها جهنم التى لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام والمبلغين عنهم بمقابلة عبادة الشيطان ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾ أمر تحقير وإهانة كقوله تعالى (ذق إنك أنت) الخ أى قاسوا حرها فى هذا اليوم الذى لم تستعدوا له، وقال أبو مسلم: أى صيروا صلاها أى وقودها، وقال الطبرسى: ألزموا العذاب بها وأصل الصلا اللزوم ومنه المصلى الذى يجىء فى أثر السابق للزومه أثره *

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٦٤ ﴾ كفركم المستمر فى الدنيا فالباء للسببية وما مصدرية واحتمال كونها موصولة بعيد *

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ كناية عن منعهم من التكلم، ولا مانع من أن يكون هناك ختم على افواههم حقيقة، وجوز أن يكون الختم مستعاراً لمعنى المنع بأن يشبه احداث حالة فى أفواههم مانعة من التكلم بالختم الحقيقى ثم يستعار له الختم ويشتق منه نختم فالاستعارة تبعية أى اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعا شبيها بالختم، والأول

www.Quranpdf.blogspot.in

أولى فى نظرى ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٦٥ ﴾ أى بالذى استمروا على كسبه فى الدنيا وكأن الجار والمجرور قد تنازع فيه تكلم وتشهد، ولعل المعنى والله تعالى أعلم تكلمنا أيديهم بالذى استمروا على عمله ولم يتوبوا عنه وتخبرنا به وتقول انهم فعلوا بنا وبواسطتنا كذا وكذا وتشهد عليهم ارجلهم بذلك .

ونسبة التكليم إلى الايدى دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الاعمال حتى أنها كثر نسبة العمل اليها بطريق الفاعلية كما فى قوله تعالى (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) وقوله سبحانه (وماعملت أيديهم) وقوله عز وجل (بما كسبت ايدى الناس) وقوله جل وعلا (فبما كسبت ايديكم) إلى غير ذلك ولا كذلك الارجل فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف اليها الاعمال فكانت كالاجنبية، وكان التكليم انسب بالايدى لكثرة مباشرتها الأعمال واضافتها اليها فكأنها هى العاملة ، هذا مع ما فى جمع التكليم مع الختم على الافواه المراد منه المنع من التكلم من الحسن .

وكأنه سبحانه لما صدر آية النور وهى قوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) بالشهادة وذكر جل وعلا الاعضاء من الاعالى إلى الاسافل أسندها إلى الجميع ولم يخص سبحانه الايدى بالتكليم لوقوعها بين الشهود مع أن مايصدر منها شهادة أيضا فى الحقيقة فان كونها عاملة ليس على الحقيقة بل هى آلة والعامل هو الانسان حقيقة وكان اعتبار الشهادة من المصدر هناك أوفق بالمقام لسبق قصة الافك ومايتعلق بها ولذا نص فيها على الالسنة ولم ينص ههنا عليها بل الآية ساكتة عن الافصاح بامرها من الشهادة وعدمها، والختم على الافواه ليس بعدم شهادتها إذ المراد منه منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم وهو أمر وراء تكلم الالسنة انفسها وشهادتها بأن يجعل فيها علم وارادة وقدرة على التكلم فتتكلم هى وتشهد بما تشهد وأصحابها مختوم على افواههم لا يتكلمون .

ومنه يعلم أن آية النور ليس فيها ما هو نص فى عدم الختم على الافواه، نعم الظاهر هناك أن لا ختم وهنا أن لا شهادة من الالسنة ، وعلى هذا الظاهر يجوز أن يكون المحدث عنه فى الآيتين واحدا بأن يختم على افواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم أولا ثم يرفع الختم وتشهد السنتهم اما مع تجدد مايكون من الايدى والارجل أو مع عدمه والاكتفاء بما كان قبل منهما وذلك اما فى مقام واحد من مقامات يوم القيامة أو فى مقامين، وليس فى كل من الآيتين مايدل على الحصر ونفى شهادة غير ماذكر من الاعضاء فلا منافاة بينهما وبين قوله تعالى (حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فيجوز أن يكون هناك شهادة السمع والابصار والالسنة والايدى والارجل وسائر الاعضاء كما يشعر بهذا ظاهر قوله تعالى والجلود فى آية السجدة لكن لم يذكر بعض من ذلك فى بعض من الآيات اكتفاء بذكره فى البعض الآخر منها أو دلالته عليه بوجه، ويجوز أن يكون المحدث عنه فى كل طائفة من الناس، وقد جعل بعضهم المحدث عنه فى آية السجدة قوم ثمود، وحمل أعداء الله عليهم بقوله تعالى بعد (وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس) ولا يبعد أن يكون المحدث عنه فى آية النور أصحاب الافك من المنافقين والذين يرمون المحصنات ثم ان آية السجدة ظاهرة فى ان الشهادة عند المجىء إلى النار وآية النور ليس فيها مايدل على ذلك، وأما هذه الآية فيشعر كلام البعض بأن الختم والشهادة فيها بعد خطاب المحدث عنهم بقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) فيكون ذلك عند المجىء إلى النار أيضا، قال فى ارشاد العقل السليم: إن قوله تعالى (اليوم نختم) الخ التفات إلى الغيبة للايذان بأن ذكر احوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم وتحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع مافيه من الايماء إلى أن

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية، لكن قال فى موضع آخر: إن الشهادة تتحقق فى موقف الحساب لابعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار، والاخبار ظاهرة فى ذلك ٠

أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم. عن أبى موسى الاشعرى من حديث « يدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض ربه عليه عمله فيجحد ويقول أى رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا فيقول لا وعزتك أى رب ماعملته فاذا فعل ذلك ختم على فيه فانى أحسب أول ماتنطق منه فخذه اليمنى ثم تلا اليوم نختم على أفواههم الآية» وفى حديث أخرجه مسلم. والترمذى. والبيهقى عن أبى سعيد. وأبى هريرة مرفوعا « إنه يلقى العبد ربه فيقول الله تعالى له أى فل ألم أكرمك إلى أن قال ﷺ فيقول آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير مااستطاع فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك فيفكر فى نفسه من الذى يشهد على فيختم على فيه. ويقال لفخذه انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله » ٠

وفى بعض الاخبار مايدل على أن العبد يطلب شاهدا منه فيختم على فيه، أخرج أحمد. ومسلم وابن أبى الدنيا واللفظ له عن أنس فى قوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) قال كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه قال: أتدرون مم ضحكت؟ قلنا: لا يارسول الله قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يارب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: إنى لا أجيز على الا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق باعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » والجمع بالتزام القول بالتعدد فتارة يكون ذلك عند الحساب وأخرى عند النار والقول باختلاف احوال الناس فيما ذكره

وماتقدم فى حديث أبى موسى من أن الفخذ اليمنى أول ماتنطق على مايحسب جزم به الحسن، وأخرج احمد وجماعة عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن أول عظم من الانسان يتكلم يوم يختم على الافواه فخذه من الرجل الشمال » ثم الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة وذلك بعد اعطاء الله تعالى الاعضاء حياة وعلما وقدرة فيرد بذلك على من زعم أن البنية المخصوصة شرط فيما ذكر واسناد الختم اليه تعالى دون مابعد قيل لئلا يحتمل الجبر على الشهادة والكلام فدل على أن ذلك باختيار الاعضاء المذكورة بعد اقدار الله تعالى فانه أدل على تفضيح المحدث عنهم، وهل يشهد كل عضو بما فعل به أو يشهد بذلك وبما فعل بغيره فيه خلاف والثانى أبلغ فى التفظيع، والعلم بالمشهود به يحتمل أن يكون حصوله بخلق الله تعالى إياه فى ذلك الوقت ولا يكون حاصلا فى الدنيا ويحتمل أن يكون حصوله فى الدنيا بأن تكون الاعضاء قد خلق الله تعالى فيها الادراك فهى تدرك الافعال كما يدركها الفاعل فاذا كان يوم القيامة رد الله تعالى لها ماكان وجعلها مستحضرة لماعملته أولا وأنطقها نطقا يفقهه المشهود عليه، وهذا نحو ماقالوا من تسبيح جميع الاشياء بلسان القال والله تعالى على كل شىء قدير والعقل لايحيل ذلك وليس هو بابعد من خلق الله تعالى فيها العلم والارادة والقدرة حتى تنطق يوم القيامة فمن يؤمن بهذا فليؤمن بذلك، والتشبث بذيل الاستبعاد يجر إلى إنكار الحشر بالكلية والعياذ بالله تعالى أو تأويله بما أوله به الباطنية الذين قتل واحد منهم ــ قال حجة الاسلام الغزالى ــ أفضل من قتل مائة كافر، وعلى هذا تكون الآية من مؤيدات القول بالتسبيح القالى للجمادات ونحوها، وعلى الاحتمال الأول يؤيد القول بجواز شهادة الشاهد إذا حصل عنده العلم الذى يقطع به بأى وجه حصل وإن لم يشهد ذلك ولا حضره. وقد أفاد الشيخ الاكبر

www.Quranpdf.blogspot.in

قدس سره فى تفسيره المسمى بايجاز البيان فى ترجمة القرآن ان قوله تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) يفيد جواز ذلك، وذكر فيه أن الشاهد يأثم ان لم يشهد بعلمه، ولا يخفى عليك ما للفقهاء فى المسئلة من الكلام، وكأن الشهادة على الاحتمال الثانى بعد الاستشهاد بأن يقال للاركان ألم يفعل كذا فتقول بلى فعل *

ويمكن أن تكون بعد أن تؤمر الاركان بالشهادة بأن يقال لها اشهدى بما فعلوا فتشهد معددة افعالهم، وهذا إما بأن تذكر جميع افعالهم من المعاصى وغيرها غير مميزة المعصية عن غيرها، وكون ذلك شهادة عليهم باعتبار الواقع لتضمنها ضررهم بذكر ما هو معصية فى نفس الامر، وإما بأن تذكر المعاصى فقط، وهذا يحتاج إلى التزام القول بأن الاركان تميز فى الدنيا ما كان معصية من الافعال مالم يكن كذلك ولا أظنك تقول به ولم أسمع أن أحدا يدعيه. وذهب بعضهم إلى أن تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها بأن يبدل الله تعالى هيآتها بأخرى يفهم منها أهل الحشر ويستدلون بها على ماصدر منهم فجعلت الدلالة الحالية بمنزلة المقالية مجازا، وفيه أنه لا يصار إلى المجاز مع امكان الحقيقة لاسيما وما يأتى فى سورة السجدة من قوله تعالى (قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) ظاهر جدا فى النطق القالى والاخبار أظهر وأظهر، نعم يهون على هذا القول أمر الاستبعاد ولا يكاد يترك لأجله الظواهر العلماء الامجاد، هذا والآية كالظاهرة فى تكليف الكفار بالفروع إذ لو لم يكونوا مكلفين بها لا فائدة فى شهادة الاعضاء بما كسبوا، واتمام الحجة عليهم بها وتخصيص ما كسبوا بالكفر مما لا يكاد يلتفت اليه ولا أظن أن أحدا يقول به بل ربما يدعى تخصيصه بماسوى الكفر بناء على أنه من أفعال القلب دون الاعضاء التى تشهد لكن الذى يترجح فى نظرى العموم *

وشهادتها به إما بشهادتها بما يدل عليه من الأفعال البدنية والأقوال اللسانية أو بالعلم الضرورى الذى يخلقه الله تعالى لها ذلك اليوم أو بالعلم الحاصل لها بخلق الله تعالى فى الدنيا فتعلمه بواسطة الأفعال والأقوال الدالة عليه أو بطريق آخر يعلمه الله تعالى، وهى ظاهرة فى أن الحشر يكون بأجزاء البدن الأصلية لا ببدن آخر ليس فيه الأجزاء الأصلية للبدن الذى كان فى الدنيا إذ أركان ذلك البدن لم تكن الأعمال السيئة معمولة بها فلا يحسن الشهادة بها منها فليحفظ. وقرىء (يختم مبنيا) للمفعول (وتتكلم أيديهم) بتاءين، وقرىء (ولتكلمنا أيديهم ولتشهد أرجلهم) بلام الأمر على أن الله تعالى يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة. وروى عبد الرحمن بن محمد ابن طلحة عن أبيه عن جده طلحة أنه قرأ (ولتكلمنا أيديهم ولتشهد) بلام كى والنصب على معنى لتكليم الأيدى ايانا ولشهادة الأرجل نختم على أفواههم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بيان أنهم اليوم فى قبضة القدرة ومستحقون للعذاب إلا أنه عز وجل لم يشأ ذلك لحكمته جل وعلا الباهرة، والطمس إزالة الأثر بالمحو، والمعنى لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة ضوئها وصورتها بالكلية بحيث تعود ممسوحة لطمسنا عليها وأذهبنا أثرها *

وجوز أن يراد بالطمس اذهاب الضوء من غير اذهاب العضو وأثره أى ولو نشاء لأعميناهم، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لافادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع المنفى الواقع موقع المضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه *

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ عطف على (لطمسنا) على الفرض والصراط منصوب بنزع الخافض أى فارادوا الاستباق الى الطريق الواضح المألوف لهم ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ٦٦﴾ أى فكيف يبصرون ذلك الطريق

www.Quranpdf.blogspot.in

وجهة السلوك والمقصود إنكارا أبصارهم ، وحاصله لو نشاء لأذهبنا أحداقهم وأبصارهم فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه لا يقدرون عليه ولا يبصرونه، وتأويل استبقوا بارادوا الاستباق مما ذهب اليه البعض، وقيل لاحاجة لتأويله فان الأعمى يجوز شروعه فى السباق، ونصب (الصراط) بنزع الخافض ولم ينصب على الظرفية لأنه كالطريق مكان مختص ومثله لاينتصب على الظرفية، وجوز كونه مفعولا به لتضمين استبقوا معنى ابتدروا، ونقل عن الأساس فى قسم الحقيقة (استبقوا الصراط) ابتدروه، قال فى الكشف: فعليه لاتضمين، وادعى بعضهم توهم دعوى أن ذلك معنى حقيقى وصاحب الأساس إنما ذكره فى آخر قسم المجاز والمعنى لو شئنا لفعلنا ما فعلنا فى أعينهم فلو أرادوا الاستباق متبدرين الطريق لا يبصرون، وقيل يجوز كونه مفعولا به على أن استبقوا بمعنى سبقوا ويجعل الطريق مسبوقا على التجوز فى النسبة أو الاستعارة المكنية أو على أنه بمعنى جاوزوا، قال فى القاموس: استبق الصراط جاوزه وظاهره أنه حقيقة فى ذلك، وقال غير واحد: هو مجاز والعلاقة اللزوم، والمعنى ولو نشاء لفعلنا مافعلنا فى أعينهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذى اعتادوا المشى فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقا يعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ماوراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضربوا به من المقاصد دون غيرها * وذهب ابن الطراوة إلى أن الصراط والطريق وما أشبههما من الظروف المكانية ليست مختصة فيجوز انتصابها على الظرفية، وهذا خلاف ماصرح به سيبويه وجعل انتصابها على الظرفية من الشذوذ وأنشد *

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

والمعنى فى الآية لو انتصب على الظرفية لو نشاء لفعلنا مافعلنا فى أعينهم فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين فى الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا ، وحمل الأعين على ماهو الظاهر منها أعنى الأعضاء المعروفة والصراط على الطريق المحسوس هو المروى عن الحسن . وقتادة، وعن ابن عباس حمل الأعين على البصائر والصراط على الطريق المعقول *

أخرج ابن جرير . وجماعة عنه انه قال: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم أعميناهم وأضللناهم عن الهدى فانى يبصرون فكيف يهتدون وهو خلاف الظاهر . وقرأ عيسى (فاستبقوا) على الأمر وهو على إضمار القول أى فيقال لهم استبقوا وهو أمر تعجيز إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ أى لحولنا صورهم إلى صور أخرى قبيحة . عن ابن عباس أى لمسخناهم قردة وخنازير ، وقيل : لمسخناهم حجارة وروى ذلك عن أبى صالح، ويعلم من هذا الخلاف أن فى مسخ الحيوان المخصوص لا يشترط بقاء الصورة الحيوانية، وسمى بعضهم قلب الحيوان جماداً رسخا وقلبه نباتا فسخا وخص المسخ بقلبه حيوانا آخر، ومفعول المشيئة على قياس السابق أى ولو نشاء مسخهم على مكانتهم لمسخناهم ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أى مكانهم كالمقامة والمقام *

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى معنى الآية لو نشاء لاهلكناهم فى مساكنهم * وقال الحسن . وقتادة . وجماعة المعنى لو نشاء لأقعدناهم وأزمناهم وجعلناهم كسحا لا يقومون . وقرأ الحسن. وأبو بكر (مكاناتهم) بالجمع لتعددهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا ﴾ لذلك ﴿ مُضِيًّا ﴾ أى ذهابا إلى مقاصدهم ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

قيل هو عطف على (مضيا) المفعول به لاستطاعوا وهو من باب ـ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ـ فيكون التقدير فما استطاعوا مضيا ولا رجوعا وإلا فمفعول استطاعوا لا يكون جملة، والتعبير بذلك دون الاسم الصريح قيل للفواصل مع الايماء إلى مغايرة الرجوع للمضى بناء على ما قال الامام من أنه أهون من المضى لأنه ينبىء عن سلوك الطريق من قبل والمضى لا ينبىء عنه، وقيل لذلك مع الايماء إلى استمرار النفى نظراً إلى ظاهر اللفظ ويكون هناك ترق من جهتين إذا لوحظ ما أومأ اليه الامام، وقيل له مع الايماء إلى أن الرجوع المنفى ما كان عن إرادة واختيار فان اعتبارهما فى الفعل المسند إلى الفاعل أقرب إلى التبادر من اعتبارهما فى المصدر *

واقتصر بعضهم فى النكتة على رعاية الفواصل، والامام بعد الاقتصار على رعاية الفواصل فى بيان نكتة العدول عن الظاهر تقصيراً، وقيل هو عطف على جملة ما استطاعوا، والمراد ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم، وقيل هو عطف على ما ذكر إلا أن المعنى ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل المسخ وليس بالبعيد *

وعلى القولين المراد بالمضى الذهاب عن المكان ونفى استطاعته مغن عن نفى استطاعة الرجوع، وأياما كان فالظاهر أن هذا وكذا ماقبله لو كان اكان فى الدنيا، وقال ابن سلام: هذا التوعد كله يوم القيامة وهو خلاف الظاهر ولا يكاد يصح على بعض الأقوال *

وأصل (مضيا) مضوى اجتمعت الواو ساكنة مع الياء فقلبت ياء كما هو القاعدة وأدغمت الياء فى الياء وقلبت ضمة الضاد كسرة لتخف وتناسب الياء. وقرأ أبو حيوة. وأحمد بن جبير الانطاكى عن الكسائى (مضيا) بكسر الميم إتباعا لحركة الضاد كالعتى بضم العين والعتى بكسرها. وقرىء (مضيا) بفتح الميم فيكون من المصادر التى جاءت على فعيل كالرسيم والوجيف والصئى بفتح الصاد المهملة بعدها همزة مكسورة ثم ياء مشددة مصدر صأى الديك أو الفرخ إذا صاح ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ أى نطل عمره *

﴿نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاص بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، وفيه تشبيه التنكيس المعنوى بالتنكيس الحسى واستعارة الحسى له، وعن سفيان أن التنكيس فى سن ثمانين سنة، والحق أن زمان ابتداء الضعف وانتقاص البنية مختلف لاختلاف الأمزجة والعوارض كما لا يخفى *

والكلام عطف على قوله تعالى (ولو نشاء لطمسنا) الخ عطف العلة على المعلول لأنه كالشاهد لذلك *

وقرأ جمع من السبعة (ننكسه) مخففا من الانكاس ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ٦٨﴾ أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم ايقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما *

وقرأ نافع. وابن ذكوان. وأبو عمرو فى رواية عياش (تعقلون) بتاء الخطاب لجرى الخطاب قبله *

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بتعليم الكتاب المشتمل على هذا البيان والتلخيص فى أمر المبدأ والمعاد ﴿الشِّعْرَ﴾ إذ لا يخفى على من به أدنى مسكة أن هذا الكتاب الحكيم المتضمن لجميع المنافع الدينية والدنيوية على أسلوب أفحم كل منطيق يباين الشعر ولا مثل الثريا للثرى، أما لفظا فلعدم وزنه وتقفيته، وأما معنى فلأن الشعر تخيلات مرغبة أو منفرة أو نحو ذلك وهو مقر الأكاذيب، ولذا قيل أعذبه أكذبه، والقرآن حكم وعقائد وشرائع *

والمراد من نفى تعليمه صلى الله عليه وسلم بتعليم الكتاب الشعر نفى أن يكون القرآن شعرا على سبيل الكناية لأن

www.Quranpdf.blogspot.in

ماعلمه الله تعالى هو القرآن وإذا لم يكن المعلم شعرا لم يكن القرآن شعرا البتة، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام ليس بشاعر ادماجا وليس هناك كناية تلويحية كما قيل، وهذا رد لما كانوا يقولونه من أن القرآن شعر والنبي ﷺ شاعر وغرضهم من ذلك أن ماجاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن افتراء وتخييل وحاشاه ثم حاشاه من ذلك ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ اعتراض لتقرير ماأدمج أى لايليق ولايصلح له ﷺ الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والاغراق فى الوصف وأكثره تحسين ماليس بحسن وتقبيح ماليس بقبيح وكل ذلك يستدعى الكذب أو يحاكيه الكذب وجل جناب الشارع عن ذلك كذا قيل *

وقال ابن الحاجب: أى لايستقيم عقلا أن يقول ﷺ الشعر لأنه لو كان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس فى أن ماجاء به من قبل نفسه وأنه من تلك القوة الشعرية ولذا عقب هذا بقوله تعالى (ويحق القول على الكافرين) لأنه إذا انتفت الريبة لم يبق إلا المعاندة فيحق القول عليهم. وتعقب بأن الايجاز يرفع التهمة وإلا فكونه عليه الصلاة والسلام فى المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة فى النثر ليس بأضعف من قول الشعر فى كونه مظنة تطرق التهمة بل ربما يتخيل أنه أعظم من قول الشعر فى ذلك فلو كانت علة منعه عليه الصلاة والسلام من الشعر ما ذكر لزم أن يمنع من الكلام الفصيح البليغ سدا لباب الريبة ودحضا للشبهة وإعظاما للحجة فحيث لم يكن ذلك ا كتفاء بالاعجاز وأن التهمة والريب معه ممالاينبغى أن يصدر من عاقل ولذا نفى الريب مع أنه وقع علم أن العلة فى أنه عليه الصلاة والسلام لاينبغى له الشعر شيء آخر، واختار هذا ابن عطية وجعل العلة مافى قول الشعر من التخييل والتزويق للقول وهو قريب مما سمعت أولا، وهو الذى ينبغى أن يعول عليه، وفى الآية عليه دلالة على غضاضة الشعر وهى ظاهرة فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط طبيعة شعرية اعتناء بشأنه ورفعا لقدره وتبعيدا له ﷺ من أن يكون فيه مبدأ لما يخل بمنصبه فى الجملة *

وإنما لم يعط ﷺ القدرة على الشعر مع حفظه عن إنشائه لأن ذلك سلب القدرة عليه فى الابعاد عما يخل بمنصبه الجليل ﷺ ونظير ما ذكرنا العصمة والحفظ، ويفهم من كلام المواهب اللدنية أن من الناس من ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام كان له قدرة على الشعر إلا أنه يحرم عليه أن يشعر وليس بذاك، ثم القول بحرمة إنشاء الشعر مقبول ومعناه على القول السابق على ماقيل حرمة التوصل إليه، وقد يقال: لاحاجة إلى التأويل وحرمة الشيء تجامع عدم القدرة عليه، وهل عدم الشعر خاص به عليه الصلاة والسلام أو عام لنوع الأنبياء قال بعضهم هو عام لهذه الآية إذ لايظهر للخصوص نكتة، وقيل يجوز أن يكون خاصا والنكتة زيادة التكريم لما أن مقامه ﷺ فوق مقام الأنبياء عليهم السلام ويكون الثابت لهم الحفظ عن الانشاء مع ثبوت القدرة عليه وإن صح خبر إنشاء آدم عليه السلام يوم قتل ولده:

تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح

اتضح أمر الخصوص وعلم أن لاحفظ من الانشاء أيضا، ولعل الحفظ حينئذ مما فيه مايشين ويخل بمنصب النبوة مطلقا، والنكتة فى الخصوص ظاهرة على ما نقل عن ابن الحاجب لأن أعظم معجزاته عليه الصلاة

www.Quranpdf.blogspot.in

والسلام القرآن فربما تحصل التهمة فيه لو قال ﷺ الشعر وكذلك معجزات الأنبياء عليهم السلام فتأمله

وأياما كان لا يرد أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم حنين وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث آخذ بزمامها ولم يبق معه عليه الصلاة والسلام من الناس إلا قليل(١)- أنا النبي لا كذب (٢) أنا ابن عبد المطلب- لأنا لا نسلم أنه شعر فقد عرفوه بأنه الكلام المقفى الموزون على سبيل القصد وهذا مما اتفق له عليه الصلاة والسلام من غير قصد لوزنه ومثله يقع كثيرا فى الكلام المنثور ولا يسمى شعرا ولا قائله شاعرا، ولا يتوهم من انتسابه ﷺ فيه إلى جده دون أبيه دليل القصد لأن النسبة إلى الجد شائعة ولأنه هو الذى قام بتربيته حيث توفى أبوه عليه الصلاة والسلام وهو حمل نحين ولد قام بأمره فوق ما يقوم الوالد بأمر الولد ولأنه كان مشهورا بينهم بالصدق والشرف والعزة فلذا خصه بالذكر ليكون كالدليل على ما قبل أو كمانع آخر من الانهزام ولأن كثيرا من الناس كانوا يدعونه عليه الصلاة والسلام بابن عبد المطلب. ومنه حديث ضمام بن ثعلبة أيكم ابن عبد المطلب على أن منهم من لم يعد الرجز مطلقا وأصله ما كان على مستفعلن ست مرات شعرا ولذا يسمى قائله راجزا لا شاعرا، وعن الخليل أن المشطور منه وهو ما حذف نصفه فبقى وزنه مستفعلن ثلاث مرات، والمنهوك وهو ما حذف ثلثاه فبقى وزنه مستفعلن مرتين ليسا بشعر، وفى رواية أخرى عنه أن المجزو وهو ما حذف من كل مصراع منه جزء فبقى وزنه مستفعلن أربع مرات كذلك فقوله ﷺ أنا النبي لا كذب إن كان نصف بيت فهو مجزو فليس بشعر على هذه الرواية وإن فرض أن هناك قصدا وإن كان بيتا تاما فهو فليس منهوك بشعر أيضا على الرواية الأولى وكونه ليس بشعر على قول من لا يرى الرجز مطلقا شعرا ظاهر *

وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام حرك الباء من كذب والمطلب فلا يكون ذلك موزونا فكونه ليس بشعر أظهر وأظهر، والقول بأن ضمير (له) للقرآن المعلوم من السياق أى وما يصح للقرآن أن يكون شعرا فيجوز صدور الشعر عنه ﷺ ولا يحتاج إلى توجيه ليس بشىء فإنه يكفى فى نفى الشعر عنه عليه الصلاة والسلام قوله سبحانه (وما علمناه الشعر) مع أن الظاهر عود الضمير عليه عليه الصلاة والسلام، وأولى التوجيهات إخراج ذلك من الشعر بانتفاء القصد وبذلك يخرج ما وقع فى القرآن من نظائره منه، وقد ذكرنا لك فيما مر كثيراً منها، وليس فى الآية ما يدل على أن النبى ﷺ لا ينبغى له التكلم بشعر قاله بعض الشعراء والتمثل به، وفى الأخبار ما يدل على وقوع التكلم بالبيت متزنا نادراً كما روى أنه عليه الصلاة والسلام أنشد بيت ابن رواحة :

يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وإنشاده إياه كذلك مذكور فى البحر، وروى أنه ﷺ أصاب أصبعه الشريفة حجر فى بعض غزواته فدميت فتمثل بقول الوليد بن المغيرة : على ما قاله ابن هشام فى السيرة أو ابن رواحة على ما صححه ابن الجوزى

---

(١) نحو مائة او اثنى عشر او عشرة اه منه

(٢) فيه اشارة الى استحالة الكذب على النبي فكأنه قال أنا النبي والنبي لا يكذب فلست بكاذب فيما أقول حتى انهزم وانا متيقن ان الذى وعدنى الله تعالى من النصر حق فلا يجوز على الفرار ثم اشار عليه الصلاة والسلام الى انه لا يليق به من حيث نسبه الجليل الفرار ايضا تدبر اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

ما أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وقيل : هو له عليه الصلاة والسلام والكلام فيه كالكلام فى قوله ﷺ أنا النبى الخ إلا أن هذا يحتمل أن يكون مشطورا إذا كان كل من شطريه بيتا وعلى وقوع التكلم بالبيت غير متزن مع احراز المعنى كثيراً كما روى انه عليه الصلاة والسلام أنشد *

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر . رضى الله تعالى عنه ليس هكذا يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » وفى خبر أخرجه أحمد . وابن أبى شيبة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة ويأتيك من لم تزود بالأخبار *

وأخرج ابن سعد . وابن أبى حاتم عن الحسن أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت * كفى بالاسلام والشيب للمرء ناهيا * فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ماعلمك الشعر وما ينبغى لك، وأخرج ابن سعيد عن عبدالرحمن بن أبى الزناد أن النبى ﷺ قال للعباس بن مرداس : أرأيت قولك :

أتجعل نهبى ونهب العبيـ * ـد بين الأقرع وعيينة

فقال له أبو بكر : رضى الله تعالى عنه بأبى أنت وأمى يارسول الله ما أنت بشاعر ولا راوية ولا ينبغى لك إنما قال بين عيينة والأقرع ، وروى أنه قيل له عليه الصلاة والسلام: من أشعر الناس؟ فقال: الذى يقول :

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

وأخرج البيهقى فى سننه بسند فيه مجهول عن عائشة قالت ماجمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتا واحدا

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشىء كان إلا تحقق

قالت عائشة ولم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعراً، ثم أنه عليه الصلاة والسلام مع هذا لم يكن يحب الشعر ففى مسند أحمد بن حنبل عن عائشة قالت: كان أبغض الحديث اليه ﷺ الشعر، وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» وهذا ظاهر فى ذم الاكثار منه ، وما روى عن الخليل أنه قال كان الشعر أحب الى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام مناف لما سمعت عن المسند، ولعل الجمع بالتفصيل بين شعر وشعر، وقد تقدم الكلام فى الشعر مفصلا فى سورة الشعراء فتذكره *

﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أى عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال سبحانه : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ٦٩﴾ أى كتاب سماوى ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الاعجاز الذى ألقم من تصدى للمعارضة الحجر ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويؤيده قراءة نافع . وابن عامر (لتنذر) بتاء الخطاب . وقرأ اليمانى (لينذر) مبنيا للمفعول ونقلها ابن خالويه عن الجحدرى وقال: عن أبى السمال . واليمانى أنهما قرءا (لينذر) بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشىء بكسر الذال إذا علم به *

﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أى عاقلا كما أخرج ذلك ابن جرير . والبيهقى فى شعب الايمان عن الضحاك، وفيه استعارة

www.Quranpdf.blogspot.in

مصرحة بتشبيه العقل بالحياة أو مؤمنا بقرينة مقابلته بالكافرين، وفيه أيضا استعارة مصرحة لتشبيه الايمان بالحياة، ويجوز كونه مجازاً مرسلا لأنه سبب للحياة الحقيقية الأبدية، والمضى في (كان) باعتبار ما في علمه عز وجل لتحققه، وقيل كان بمعنى يكون، وقيل في الكلام مجاز المشارفة ونزلت منزلة المضى وهو كما ترى، وتخصيص الانذار به لأنه المنتفع بذلك ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ أي تجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ٧٠ ﴾ الموسومين بهذا الوسم المصرين على الكفر، وفي إيرادهم بمقابلة من كان حيا إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها كالمعرفة أموات في الحقيقة، وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية قرينتها استعارة أخرى. وكأنه جيء بقوله سبحانه: (لينذر) الخ رجوعا إلى ما بديء به السورة من قوله عز وجل: (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) ولو نظرت الى هذا التخلص من حديث المعاد إلى حديث القرآن والانذار لقضيت العجب من حسن موقعه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أي ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا أو ألم يعلموا علما يقينيا مشابها للمعاينة زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا) الخ والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم وهذا بالتذكير بالنعم المشار اليها بقوله تعالى: ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات من غير مدخل لغيرنا فيه لا خلقا ولا كسبا *

والكلام استعارة تمثيلية فيما ذكر، وجوز أن يكون قد كنى عن الايجاد بعمل الأيدى فيمن له ذلك ثم بعد الشيوع أريد به ما أريد مجازاً متفرعا على الكناية، وقال بعضهم: المراد بالعمل الاحداث وبالأيدى القدرة مجازاً، وأوثرت صيغة التعظيم والأيدى مجموعة تعظيما لشأن الأثر وانه أمر عجيب وصنع غريب وليس بذاك، وقيل الأيدى مجاز عن الملائكة المأمورين بمباشرة الأعمال حسبما يريده عز وجل في عالم الكون والفساد كملائكة التصوير وملائكة نفخ الأرواح في الأبدان بعد إكمال تصويرها ونحوهم، ولا يخفى ما فيه *

ونحوه ما قيل الأيدى مجاز عن الأسماء فان كل أثر في العالم بواسطة اسم خاص من أسمائه عز وجل *

وأنت تعلم أن الآية من المتشابه عند السلف وهم لا يجعلون اليد مضافة اليه تعالى بمعنى القدرة أفردت - كيد الله فوق أيديهم - أو ثنيت كخلقت بيدى أو جمعت كما هنا بل يثبتون اليد له عز وجل كما أثبتها لنفسه مع التنزيه الناطق به قوله سبحانه: «ليس كمثله شيء» وارتضاه كثير ممن وفقه الله تعالى من الخلق، ولا أرى الطاعنين عليهم إلا جهلة ﴿ أَنْعَامًا ﴾ مفعول (خلقنا) وأخر عن الجارين المتعلقين به اعتناء بالمقدم وتشويقا إلى المؤخر وجمعا بينه وبين ما يتعلق به من أحكامه المتفرعة عليه، والمراد بالانعام الأزواج الثمانية وخصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع، وهذا كقوله تعالى: أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ٧١ ﴾ أي متملكون لها بتمليكنا إياها لهم، والفاء قيل للتفريع على مقدر أي خلقنا لهم أنعاما وملكناها لهم فهم بسبب ذلك مالكون لها، وقيل للتفريع على خلقها لهم وفيه خفاء. وجوز أن يكون الملك بمعنى القدرة والقهر من ملكت العجين إذا أجدت عجنه، ومنه قول الربيع بن منيع الفزارى وقد سئل عن حاله بعد إذ كبر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا … أملك رأس البعير ان نفرا

www.Quranpdf.blogspot.in

والأول أظهر ليكون مابعد تأسيسا لاتأكيداً، وأياما كان فلها متعلق بـالسكون واللام مقوية للعمـل وقدم لرعاية الفواصل مع الاهتمام، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لهـا واستمرارها ه

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ فان الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أي فبعض منهـا مركوبهم فركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب وقزوع وهو مما لا ينقاس. وقرأ أبي. وعائشة (ركوبتهم) بالتاء وهي فعولة بمعنى مفعولة كحلوبة، وقيل جمع ركوب، وتعقب بأنه لم يسمع فعولة بفتح الفاء في الجموع ولا في أسمائها. وقرأ الحسن. والأعمش. وأبو البرهسم (ركوبهم) بضم الراء وبغير تاء وهو مصدر كالقعود والدخول فاما أن يؤول بالمفعول أو يقدر مضاف في الكلام إما في جانب المسند إليه أي ذو ركوبهم أو في جانب المسند أي فمن منافعها ركوبهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه، والتبعيض هنا باعتبار الأجزاء وفيما قبل باعتبار الجزئيات والجملة معطوفة على ماقبلها، وغير الأسلوب لأن الأكل عام في الأنعام جميعها وكثير مستمر بخلاف الركوب كذا قيل، وقيل الفعل موضوع موضع المصدر وهو بمعنى المفعول للفاصلة ه

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الأنعام بكلا قسميها ﴿مَنَافِعُ﴾ غير الركوب والأكل كالجلود والأصواف والأوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع مشرب مصدر بمعنى المفعول والمراد به اللبن، وخص مع دخوله في المنافع لشرفه واعتناء العرب به، وجمع باعتبار أصنافه ولاريب في تعددها، وتعميم المشارب للزبد والسمن والجبن والأقط لا يصح إلا بالتغليب أو التجوز لأنها غير مشروبة ولاحاجة إليه مع دخولهـا في المنافع، وجوز أن تكون المشارب جمع مشرب موضع الشرب ه

قال الامام: وهو الآنية فان من الجلود يتخذ أواني الشرب من القرب ونحوها، وقال الخفاجي: إذا كان موضعا فالمشارب هي نفسها لقوله سبحانه (فيها) فانها مقرة، ولعله أظهر من قول الامام ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾ أي يشاهدون هذه النعم فلايشكرون المنعم بها ويخصونه سبحانه بالعبادة ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى الذي رأوا منه تلك القـدرة الباهرة والنعم الظاهرة وعلموا أنه سبحانه المتفرد بها ﴿آلِهَةً﴾ من الأصنام وأشركوها به عزوجل في العبادة ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ٧٤﴾ رجاء أن ينصروا أو لأجل أن ينصروا من جهتهم فيما نزل بهم وأصابهم من الشدائد أو يشفعوا لهم في الآخرة، وقوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبـة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أي لاتقدر آلهتهم على نصرهم، وقول ابن عطية، يحتمل أن يكون ضمير (يستطيعون) للمشركين وضمير (نصرهم) للأصنام ليس بشيء أصلا ﴿وَهُمْ﴾ أي أولئك المتخذون المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ٧٥﴾ أي معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا ه

أخرجه ابن أبي حاتم. وابن المنذر. عن الحسن. وقتادة، وقيل: المعنى أن المشركين جند لآلهتهم في الدنيا محضرون للنار في الآخرة، وجاء بذلك في رواية أخرجها ابن أبي حاتم عن الحسن، واختار بعض الأجلة

www.Quranpdf.blogspot.in

أن المعنى والمشركون لآلهتهم جند محضرون يوم القيامة اثرهم فى النار وجعلهم جندا من باب التهكم والاستهزاء وكذلك لام لهم الدالة على النفع، وقيل (هم) للالهة وضمير (لهم) للمشركين أى وإن الآلهة معدون محضرون لعذاب أولئك المشركين يوم القيامة لأنهم يجعلون وقود النار أو محضرون عند حساب الكفرة إظهارا لعجزهم واقناطا للمشركين عن شفاعتهم وجعلهم جندا، والتعبير باللام فى الوجهين على مامر آنفاً، واختلاف مراجع الضمائر فى الآية ليس من التفكيك المحظور، والواو فى قوله سبحانه (وهم) الخ على جميع مامر إما عاطفة أو حالية إلا أن الحال مقدرة فى بعض الأوجه كما لا يخفى. والفاء فى قوله تعالى ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فصيحة أى إذا كان هذا حالهم مع ربهم عز وجل فلا تحزن بسبب قولهم عليك هو شاعر أو إذا كان حالهم يوم القيامة ماسمعت فلاتحزن بسبب قولهم على الله سبحانه إن له شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا أو عليك هو شاعر أو على الله تعالى وعليك ما لا يليق بشأنه عز وجل وشأنك ، والاقتصار فى بيان قولهم عليه ﷺ بأنه وحاشاه شاعر لأنه الأوفق بما تقدم من قوله تعالى (وماعلمناه الشعر وماينبغى له) وقد يعمم فيشمل جميع مالا يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال، وتفسير الشرط الذى أفصحت عنه الفاء بما ذكرنا أولا هو المناسب لما روى عن الحسن . وقتادة . فى معنى قوله تعالى (وهم لهم جند محضرون) وبما ذكرنا ثانيا هو المناسب لما ذكر بعد فى معنى ذلك ، وقيل التقدير على الأول إذا كانوا فى هذه المرتبة من سخافة العقول حيث اتخذوا رجاء النصر آلهة من دون الله عز وجل لايقدرون على نصرهم والذب عنهم بل هم يذبون عن تلك الآلهة فلاتحزن بسبب قولهم عليك ما قالوا ولعل الأول أولى، وأياما كان فالنهى وإن كان بحسب الظاهر متوجها إلى قولهم لكنه فى الحقيقة كما أشرنا إليه متوجه إلى رسول الله ﷺ والمراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر من الحزن بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده كما لا يخفى *

وقرأ نافع (فلايحزنك) بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وجاء حزنه وأحزنه *

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦ ﴾ تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الاشعار بناء على التقدير الثانى فى الشرط فان العلم بماذكر مجاز عن مجازاتهم عليه أو كناية عنها للزومها إياه إذ علم الملك القادر الحكيم بماجرى من عدوه الذى تقتضى الحكمة الانتقام منه مقتض لمجازاته والانتقام منه، وهو على التقدير الأول قيل استئناف بيانى وقع جواب سؤال مقدر كأنه قيل: يارب، فاذا كان حالهم معك ومع نبيك ذلك فماذا تصنع بهم؟ فقيل: (انا نعلم) الخ أى نجازيهم بجميع جناياتهم، وقيل هو تعليل لترتيب النهى على الشرط فتأمل، وما موصولة والعائد محذوف أى نعلم الذى يسرونه من العقائد الزائغة والعداوة لك ونحو ذلك والذى يعلنونه من كلمات الاشراك والتكذيب ونحوها ، وجوز أن تكون مصدرية أى نعلم اسرارهم واعلانهم والمفعول محذوف أو الفعلان منزلان منزلة اللازم والمتبادر الأول وهو الأولى *

وتقديم السر على العلن لبيان احاطة علمه سبحانه بحيث ان علم السر عنده تعالى كأنه أقدم من علم العلن، وقيل : لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ مامن شىء يعان الا وهو او مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة ، وقيل : للاشارة إلى الاهتمام باصلاح الباطن فانه ملاك الامر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان ، وشاع أن الوقف على (قولهم) متعين، وقيل : ليس به

www.Quranpdf.blogspot.in

لأنه جوز فى (انا نعلم) الخ كونه مقول القول على أن ذلك من باب الالهاب والتعريض كقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أوعلى أن المراد فلا يحزنك قولهم على سبيل السخرية والاستهزاء إنا نعلم الخ، ومنه يعلم أنه لو قرأ قارئ أنا نعلم بالفتح وجعل ذلك بدلا من (قولهم) لا تنتقض صلاته ولا يكفر لو اعتقد مايعطيه من المعنى كما لو جعله تعليلا على حذف حرف التعليل، والحق أن مثل هذا التوجيه لا بأس بقبوله فى درء الكفر، وأما أمر الوقف فالذى ينبغى أن يقال فيه أنه على قولهم كالمتعين ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الانْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ماشاهدوا فى أنفسهم مايوجب التصديق به، كما أن ماسبق مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله عز وجل بعد ما عاينوا فيما بايديهم مايوجب التوحيد والاسلام، وقيل: إنه تسلية له عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) وذلك بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وليس بشىء.

والهمزة للانكار والتعجب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى قوله تعالى (أولم يروا) الخ أى ألم يتفكر الانسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة أوهى عين تلك الجملة أعيدت تأكيدا للنكير السابق وتمهيدا لانكار ما هو أحق منه بالانكار لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم، ولا ريب فى أن علم الانسان باحوال نفسه أهم وإحاطته بها اسهل واتم فالانكار والتعجيب من الاخلال بذلك كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضا مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الاهمية، ويشير كلام بعض الاجلة إلى أن العطف على (أولم يروا) السابق والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس فانه تعالى خلق للانسان ماخلق ليشكر فكفر وجحد المنعم والنعم وخلقه سبحانه من نطفة قذرة ليكون منقادا متذللا فطغى وتكبر وخاصم، وايراد الانسان مورد الضمير لأن مدار الانكار متعلق باحواله من حيث هو انسان.

وقوله تعالى ﴿فَاذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أى مبالغ فى الخصومة والجدال الباطل ﴿مُبِينٌ ٧٧﴾ ظاهر متجاهر فى ذلك عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتعجيب كأنه قيل: أولم ير انا خلقناه من أخس الاشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا فى أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة، وإيراد الجملة اسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها. وفى الحواشى الخفاجية أن تعقيب الانكار بالفاء وإذا الفجائية على مايقتضى خلافه مقو للتعجيب، والمراد بالانسان الجنس، والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا، نعم نزلت الآية فى كافر مخصوص، أخرج جماعة منهم الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال: يامحمد أيحيى الله تعالى هذا بعد ما أرم؟ قال: نعم يبعث الله تعالى هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات (أولم ير الانسان) إلى آخر السورة، وفى رواية ابن مردويه عنه أن الجائى القائل ذلك أبى بن خلف وهو الذى قتله رسول الله ﷺ يوم أحد بالحربة، وروى ذلك عن أبى مالك ومجاهد. وقتادة. والسدى. وعكرمة. وغيرهم كما فى الدر المنثور، وفى رواية أخرى عن الحبر أنه أبو جهل بن هشام، وفى اخرى عنه أيضا أنه عبد الله بن أبى، وتعقب ذلك أبو حيان بأن نسبة ذلك إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وهم لأن السورة والآية مكية باجماع ولأن عبدالله بن أبى لم يجاهر قط هذه المجاهرة، وحكى عن مجاهد. وقتادة أنه امية بن خلف، والذى اختاره وادعى أنه اصح الاقوال أنه أبى بن خلف ثم قال: ويحتمل أن كلا من هؤلاء الكفرة وقع منه ذلك، وقيل معنى قوله تعالى (فاذا هو خصيم مبين) فاذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز

www.Quranpdf.blogspot.in

منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى ضميره فصيح فهو حينئذ معطوف على «خلقناه» والتعقيب والمفاجاة ناظر ان إلى خلقه ، و(مبين) متعد والكلام من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار ، وأما على الأول فهو عطف على الجملة الفجائية ، والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد فى شاننا قصة عجيبة فى نفس الامر هى فى الغرابة كالمثل وهى إنكار احيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وانكرها أشد الانكار وهى احياؤنا إياها أو وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم ، وقوله تعالى ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أى خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضربه اما عطف على «ضرب» داخل فى حيز الانكار والتعجيب او حال من فاعله باضمار قد أو بدونه ، ونسيان خلقه بان لم يتذكره على ما قيل وفيه دغدغة أو ترك تذكره لكفره وعناده او هو كالناسى لعدم جريه على مقتضى التذكر وقوله سبحانه ﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه قيل : أى مثل ضرب أو ماذا قال ؟ فقيل : قال ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ ﴾ منكرا ذلك ناكرا من أحوال العظام ما تبعد معه من الحياة غاية البعد وهو كونها رميما أى بالية أشد البلى ، والظاهر أن «رميم» صفة لا اسم جامد فان كان من رم اللازم بمعنى بلى فهو فعيل بمعنى فاعل ، وإنما لم يؤنث لأنه غلب استعماله غير جار على موصوف فالحق بالاسماء الجامدة أو حمل على فعيل بمعنى مفعول وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وقال محيي السنة : لم يقل رميمة لأنه معدول من فاعلة فكل ما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن أخواته ، ومثله «بغيا» فى قوله تعالى «ما كانت أمك بغيا» أسقط الهاء منها لأنها كانت مصروفة عن باغية ، وقال الازهرى : إن عظاما لكونه بوزن المفرد ككتاب وقراب عومل معاملته فقيل رميم دون رميمة وذكر له شواهد وهو غريب ، وإن كان من رم المتعدى بمعنى ابلى يقال رمه أى أبلاه ، وأصل معناه الاكل كما ذكره الازهرى من رمت الابل الحشيش فكان ما بلى أكلته الارض فهو فعيل بمعنى مفعول ، وتذكيره على هذا ظاهر للاجماع على أن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . وفى المطلع الرميم اسم غير صفة كالرمة والرفات لا فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولأجل أنه اسم لا صفة لا يقال لم لم يؤنث وقد وقع خبرا لمؤنث ؟ ولا يخفى أن له فعلا وهو رم كما ذكره أهل اللغة وهو وزن من أوزان الصفة فكونه جامدا غير ظاهر ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشاده إلى طريقة الاستشهاد بها ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا ﴾ أى أوجدها وربا ها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى فى أول مرة إذ لم يسبق لها إيجاد ولا شك أن الاحياء بعد أهون من الانشاء قبل فمن قدر على الانشاء كان على الاحياء أقدر واقدر ، ولا احتمال لعروض العجز فان قدرته عز وجل ذاتية أزلية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه . وفى الحواشى الخفاجية كان الفارابى يقول وددت لو أن ارسطو وقف على القياس الجلى فى قوله تعالى «قل يحييها» الخ وهو الله تعالى أنشأ العظام واحياها أول مرة وكل من انشأ شيئا اولا قادر على انشائه واحيائه ثانيا فيلزم أن الله عز وجل قادر على انشائها واحيائها بقواها ثانيا ، والآية ظاهرة فيما ذهب اليه الامام الشافعى قيل ومالك وأحمد من أن العظم تحله الحياة فيؤثر فيه الموت كسائر الاعضاء ، وبنوا على ذلك الحكم بنجاسة عظم الميتة ومسئلة حلول الحياة

www.Quranpdf.blogspot.in

فى العظم وعدمه مما اختلف فيه الفقهاء والحكماء، واستدل من قال منهما بعدم حلولها فيه بان الحياة تستلزم الحس والعظم لااحساس له فانه لا يتألم بقطعه كما يشاهد فى القرن ،وماقد يحصل فى قطع العظم من التألم إنما هو لما يجاوره ، وقال ابن زهر فى كتاب التيسير: اضطرب كلام جالينوس فى العظام هل لها احساس أم لا والذى ظهر لى أن لها حسا بطيئا وليت شعرى مايمنعها من التعفن والتفتت فى الحياة غير حلول الروح الحيوانى فيها انتهى *

وبعض من ذهب من الفقهاء إلى أن العظام لاحياة فيها بنى عليه الحكم بطهارتها من الميتة إذ الموت زوال الحياة فحيث لم تحلها الحياة لم يحلها الموت فلم تكن نجسة. وأورد عليهم هذه الآية فقيل المراد بالعظام فيها صاحبها بتقدير أو تجوز أو المراد باحيائها ردها لما كانت عليه غضة رطبة فى بدن حى حساس، ورجح هذا على إرادة صاحبها بان سبب النزول لابد من دخوله وعلى تلك الارادة لا يدخل، ويدخل على تاويل إحيائها باعادتها لما كانت عليه، ولا يخفى ان حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر، والظاهر مع الشافعية ومن الفقهاء القائلين بعدم نجاسة عظام الميتة من رأى قوة الاستدلال بالآية على أن العظام تحلها الحياة فعلل الطهارة بغير ماسمعت فقال: ان نجاسة الميتة ليست لعينها بل لما فيها من الرطوبة والدم السائل والعظم ليس فيه ذلك فلذا لم يكن نجسا، ومنع الشافعية كون النجاسة للرطوبة وتمام الكلام فى الفروع ﴿ وَهُوَ ﴾ عزوجل ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ ﴾ أى مخلوق ﴿ عَلِيمٌ ٧٩ ﴾ مبالغ فى العلم فيعلم جل وعلا بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل، والجملة إما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماتقدم أو معطوفة على الصلة ، والعدول إلى الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كانشائه للمنشآت *

وقوله تعالى ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ بدل من الموصول الاول وعدم الا كتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة، والظرفان متعلقان بجعل قدما على (نارا) مفعوله الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، و(الأخضر) صفة الشجر وقرىء الخضراء، وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء مثل الشجر إذ يقال فى واحده شجرة ،وأهل نجد يذكرونه إلا ألفاظا استثنيت فى كتب النحو ، وذكر بعضهم أن التذكير لرعاية اللفظ والتأنيث لرعاية المعنى لأنه فى معنى الأشجار والجمع تؤنث صفته، وقيل لأنه فى معنى الشجرة وكما يؤنث صفته يؤنث ضميره كما فى قوله تعالى (من شجر من زقوم فمالئون منها البطون) والمشهور أن المراد بهذا الشجر المرخ والعفار يتخذ من المرخ وهو ذكر الزند الأعلى ومن العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثانى وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار باذن الله تعالى، وكون المرخ بمنزلة الذكر والعفار بمنزله الانثى هو ماذكره الزمخشرى وغيره واللفظ كالشاهد له، وعكس الجوهرى . وعن ابن عباس . والكلبى فى كل شجر نار الا العناب قيل ولذا يتخذ منه مدق القصارين، وأنشد الخفاجى لنفسه :

أياشجر العناب نارك أوقدت بقلبى وماالعناب من شجر النار

واشتهر العموم وعدم الاستثناء فى المثل فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أى استكثرا من

www.Quranpdf.blogspot.in

النار من مجدت الابل إذا وقعت فى مرعى واسع كثير ، ومنه رجل ماجد أى مفضال ، واختار بعضهم حمل الشجر الأخضر على الجنس ومايذ كر من المرخ والعفار من باب التمثيل ، وخصا لكونهما أسرع وريا وأ كثر ناراً كما يرشد إليه المثل ، ومن إرسال المثل المرخ والعفار لا يلدان غير النار *

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ كالتأكيد لما قبله والتحقيق له أى فاذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار لا تشكون فى أنها نار حقيقة تخرج منه وليست كنار الحباحب ، وأشار سبحانه بقوله تعالى (الذى) الخ إلى أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع مافيه من المائية المضادة لها بكيفيته فان الماء بارد رطب والنار حارة يابسة كان جل وعلا أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضا فيبس وبلى ، ثم إن هذه النار يخلقها الله تعالى عند سحق إحدى الشجرتين على الأخرى لا أن هناك ناراً كامنة تخرج بالسحق و(من) (الشجر) لا يصلح دليلا لذلك ، وفى كل شجر نار من مسامحات العرب فلا تغفل ، وإياك واعتقاد الكمون *

وقوله تعالى ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ الخ استئناف مسوق من جهته تعالى لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر ﷺ أن يخاطبهم به ويلزمهم الحجة ، والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أليس الذى أنشاها أول مرة وليس الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا وليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ فى الصغر والحقارة بالنسبة اليهما على أن المراد بمثلهم هم وأمثالهم أو على أن المراد به هم أنفسهم بطريق الكناية كما فى مثلك يفعل كذا ، وقال بعضهم : مثلهم فى أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام فى هذا المقام ، وزعم جماعة من المفسرين عود ضمير (مثلهم) للسموات والأرض لشمولهما لمن فيهما من العقلاء فلذا كان ضمير العقلاء تغليبا والمقصود بالكلام دفع توهم قدم العالم المقتضى لعدم امكان اعادته وهو تكلف ومخالف للظاهر والمشركون لا يقولون بقدم العالم فيما يظهر . وتعقب أيضا بان قدم العالم لو فرض مع قدم النوع الانسانى وعدم تناهى أفراده فى جانب المبدأ لا يأبى الحشر الجسمانى اذ هو بالنسبة الى المكلفين وهم متناهون . وزعم أن ماثبت قدمه استحال عدمه غير تام كما قرر فى محله فلا تغفل ، وقرأ الجحدرى . وابن أبى اسحاق . والأعرج . وسلام . ويعقوب فى رواية (يقدر) بفتح الياء وسكون القاف فعلا مضارعا *

﴿بَلَىٰ﴾ جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الانكارى من تقرير مابعد النفى من القدرة على الخلق وايذان بتعيينه للجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الالتزام ، وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ٨١﴾ عطف على ما يفيده الايجاب أى بلى هو سبحانه قادر على ذلك وهو جل وعلا المبالغ فى الخلق والعلم كيفا وكما *

وقرأ الحسن . والجحدرى . وزيد بن على . ومالك بن دينار (الخالق) بزنة الفاعل ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ أى شأنه تعالى شانه فى الايجاد ، وجوز فيه أن يراد الأمر القولى فيوافق قوله تعالى (انما قولنا لشىء) ويراد به القول النافذ *

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أى ايجاد شىء من الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أى اوجد ﴿فَيَكُونُ ٨٢﴾ أى فهو يكون ويوجد ، والظاهر أن هناك قولا لفظيا هو لفظ كن واليه ذهب معظم السلف وشؤن الله تعالى وراء ما تصل اليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام ، وقيل ليس هناك قول لفظى لئلا يلزم التسلسل ، ويجوز أن يكون

www.Quranpdf.blogspot.in

هناك قول نفسي وقوله للشيء تعلقه به، وفيه ما يأباه السلف غاية الاباء، وذهب غير واحد الى أنه لا قول أصلا وانما المراد تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بامر الآمر المطاع للمأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير امتناع وتوقف على شيء *

وقرأ ابن عامر . والكسائي (فيكون) بالنصب عطفا على (يقول) وجوز كونه منصوبا فى جواب الأمر، وأباه بعضهم لعدم كونه أمرا حقيقة، وفيه بحث ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه له عز وجل عما وصفوه به تعالى وتعجيب عما قالوا فى شأنه عز شأنه، والفاء جزائية أى اذا علم ذلك فسبحان أو سببية لأن ماقبل سبب لتنزيهه سبحانه، والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت فهو الملك التام، وفى تعليق سبحان بما فى حيزه ايماء الى أن كونه تعالى مالكا للملك كله قادرا على كل شيء مقتض للتسبيح، وفسر الملكوت أيضا بعالم الأمر والغيب فتخصيصه بالذكر قيل لاختصاص التصرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة *

وقرأ طلحة . والأعمش (ملكة) على وزن شجرة أى بيده ضبط كل شيء، وقرىء (مملكة) على وزن مفعلة وقرىء (ملك) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣﴾ لا إلى غيره تعالى وهذا وعد للمقرين ووعيد للمنكرين فالخطاب عام المؤمنين والمشركين، وقيل هو وعيد فقط على أن الخطاب للمشركين لا غير توبيخا لهم ولذا عدل عن مقتضى الظاهر وهو واليه يرجع الأمر كله ففيه دلالة على أنهم استحقوا غضبا عظيما . وقرأ زيد بن على (ترجعون) مبنيا للفاعل *

هذا ما لخص من كلامهم فى هذه الآيات الكريمة وفيها دلالة واضحة على المعاد الجسماني وايماء إلى دفع بعض الشبه عنه، وهذه المسئلة من مهمات مسائل الدين وحيث ان هذه السورة الكريمة قد تضمنت من أمره ماله كانت عند أجلة العلماء الصدور قلب القرآن لا بأس بأن يذكر فى إتمام الكلام فيها ما للعلماء فى تحقيق أمر ذلك فأقول طالبا من الله عز وجل التوفيق إلى القول المقبول : اعلم أولا أن المسلمين اختلفوا فى أن الانسان ماهو فقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع أجزاء سارية فيه سريان ماء الورد فى الورد والنار فى الفحم وهى جسم لطيف نوراني مخالف بالحقيقة والماهية للاجسام التى منها ائتلف هذا الهيكل وإن كان لسريانه فيه بشبهه صورة ولا نعلم حقيقة هذا الجسم وهو الروح المشار اليها بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى) عند معظم السلف الصالح وبينه وبين البدن علاقة يعبر عنها بالروح الحيواني وهو بخار لطيف إذا فسد وخرج عن الصلاحية لأن يكون علاقة تخرج الروح عن البدن خروجا اضطراريا وتزول الحياة، ومادام باقيا على الوجه الذى يصلح به لأن يكون علاقة تبقى الروح والحياة، وهذا الجسم المعبر عنه بالروح على ما قال الامام القرطبي فى التذكرة مما له أول وليس له آخر بمعنى أنه لا يفنى وان فارق البدن المحسوس، وذكر فيها أن من قال إنه يفنى فهو ملحد، وقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع النفس الناطقة التى هى جوهر مجرد بل هو الانسان حقيقة على ماصرح به بعضهم، والى إثبات هذا الجوهر ذهب الحليمي . والغزالي. والراغب . وأبو زيد الدبوسي . ومعمر من قدماء المعتزلة . وجمهور متأخرى الامامية. وكثير من الصوفية وهو الروح الأمرية وليست داخلة البدن ولا خارجة عنه فنسبتها اليه نسبة الله سبحانه وتعالى إلى العالم وهى بعد حدوثها الزماني عندهم لا تفنى أيضا *

ورد هذا المذهب ابن القيم فى كتاب الروح بما لا مزيد عليه، وكما اختلفوا فى ذلك اختلفوا فى أن البدن هل يتفرق بعد الموت فقط أم يتفرق وتعدم ذاته بكل قال بعض، ولعل من قال بالثاني استثنى عجب الذنب لصحة خبر

www.Quranpdf.blogspot.in

استثنائه من البلى ، وكل هؤلاء المختلفين اتفقوا على القول بالحشر الجسماني إلا أن منهم من قال بالحشر الجسماني فقط بمعنى أنه لا يحشر إلا جسم إذ ليس وراء الجسم عندهم جوهر مجرد يسمى بالنفس الناطقة، ومنهم من قال بالحشر الجسماني والحشر الروحاني معاً بمعنى أنه يحشر الجسم متعلقا به أمر ليس بجسم هو النفس الناطقة وكل من أصحاب هذين القولين منهم من يقول بأن البدن إذا تفرق تجمع أجزاؤه يوم القيامة للحشر وتقوم فيها الروح أو تتعلق كما في الدنيا بل القيام أو التعلق هناك أتم إذ لا انقطاع له أصلا بعد تحققه فالحشر عند هؤلاء بجمع الاجزاء المتفرقة وعود قيام الروح أو تعلقها اليها، والمراد بالأجزاء الأجزاء الأصلية وهي أجزاء البدن حال نفخ الروح فيه في الدنيا لا الذرة التي أخذ عليها العهد يوم (ألست بربكم) كما قيل : والله تعالى قادر على حفظها من التحلل والتبدل و كذا على حفظها من أن تكون أجزاء بدن آخر وإن تفرقت في أقطار الأرض واختلطت بالعناصر ، وقيل : يجوز أن تكون الأجزاء الأصلية يقبضها الملك باذن الله تعالى عند حضور الموت فلا يتعلق بها الأكل ولا تختلط بالتراب ولا يحصل منها نماء نبات أو حيوان، وهو مجرد احتمال لا دليل عليه بل مخالف لقوله سبحانه : (قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فانه ظاهر في أن المحشور أجزاء رميمة مخلوطة بالتراب، ويجوز أن تكون الأجزاء الأصلية هي الأجزاء الترابية التي ينثرها الملك في الرحم على المني كما ورد في الحديث الصحيح وهو لا ينثر ترابا واحداً مرتين ويحشر البدن بعد الجمع على أكمل حالاته كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام « يحشر الناس حفاة عراة غرلا» ثم يزاد في أجساد أهل الجنة فيكون أحدهم كآدم عليه السلام طولا وعرضا، وكذا يزاد في أجساد أهل النار خلافا للمعتزلة حتى أن سن أحدهم لتكون كجبل أحد، وجاء كل من الزيادتين في الحديث فالمقطوع أو المجذوع مثلا لا يحشر إلا كاملا كما كان قبل القطع أو الجذع ومن خلق في الدنيا بأربع أيد مثلا يحشر على ماهو المعتاد المعروف في بني نوعه وكذا من خلق بلا يد أو رجل مثلا، والقول بانه يلزم تعذيب جسد لم يعص وترك تعذيب جسد عصى ناشيء عن غفلة عظيمة إذ المعذب إنما هو الروح وهو الذي عصى ولا يعقل العصيان والتعذيب لنفس الجسد وحرقه بالنار ليس تعذيبا له نفسه وإلا لكان حرق الخشب تعذيبا له بل هو وسيلة إلى تعذيب الروح وهذا كما لو جعل شخص في صندوق حديد مثلا ووضع في النار أو لف في ثوب وضرب بالسياط حتى تخرق الثوب فالروح بمنزلة هذا الشخص والجسد بمنزلة الصندوق أو الثوب ، وعلى القول بأن لكل شيء حياة لائقة به لا يلزم التعذيب أيضاً إذ ليس كل حي تؤلمه النار ، واعتبر ذلك بالسمند وبالنعامة وكذا بخزنة جهنم وحياتها وعقاربها والعياذ بالله عز وجل. ومنهم من يقول: إن البدن يعدم لا انه تتفرق أجزاؤه فقط ثم يعاد للحشر بعينه، ومنهم من يقول يعدم ثم يخلق يوم القيامة مثله فتقوم فيه الروح أو تتعلق به. واستدل للقول الأول بقوله تعالى : «قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» فانه ظاهر في أن العظام لا تعدم ذواتها في الخارج ولا يكاد يفهم من الرميم أكثر من تفرق الأجزاء وكأن المنكرين استبعدوا جمعها فاشير إلى دفع استبعادهم بان الانشاء أبعد وقد وقع ثم دفع ما عسى يتوهم من أن اختلاط الأجزاء بعد تفرقها وعودها إلى عناصرها يوجب عدم تميزها فلا يتيسر جمعها بقوله سبحانه : (وهو بكل خلق عليم) ثم أشير إلى دفع مايتوهم من أن الانشاء كان تدريجياً نقلت فيه الأجزاء من حالة إلى حالة حتى حصل استعدادها للحياة ومناسبتها للروح ولا كذلك مايكون

www.Quranpdf.blogspot.in

يوم القيامة فلا مناسبة بين الأجزاء التى تجمع وبين الروح والحياة فلا يلزم من صحة الانشاء صحة الحشر بقوله تعالى: (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) وحيث كان هذا معروفا بينهم يشاهده الكبير والصغير منهم إشار سبحانه إلى الدفع به والا فانشاؤه تعالى لما يكون بالتولد من الحيوان كالفار والذباب دافع لذلك ﴿

ومن الناس من زعم أن ما يكون قبيل الساعة من الزلازل وإنزال مطر كمنى الرجال ونحو ذلك لتحصيل استعداد للروح فى تلك الأجزاء، وهو مما لا يحتاج إلى التزامه، وكذا استدل لذلك القول بما أرشد اليه إبراهيم عليه السلام حين قال (رب أرنى كيف تحيي الموتى) وبقوله تعالى: (أيحسب الانسان أن ان نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه) إلى غير ذلك من الآيات وفى الأخبار مايقتضيه أيضا، واستدل لدعوى أن البدن يعدم ذاتا فى القول الثانى بقوله سبحانه: (كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله تعالى: (كل من عليها فان) ورد بأنه يجوز أن يكون التفرق هلاكا بل قال بعض المحققين: إن معنى الآية كل شيء ليس بموجود فى الحال فى حد نفسه إلا ذات الواجب تعالى بناء على أن وجود الممكن مستفاد من الغير فلا وجود فيه مع قطع النظر عن الغير بخلاف وجود الواجب تعالى فانه من ذاته سبحانه بل عين ذاته، ويقال نظير ذلك فى الآية الثانية لو سلم دخول البدن فى عموم من، واستدل لدعوى أنه يخلق يوم القيامة مثله فى القول الثالث بقوله تعالى: (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى) وأجيب بأن المراد مثلهم فى الصغر والقماءة على ماسمعت فيما تقدم، ولا يراد أنه تعالى قادر على أن يخلق يوم القيامة مثل أبدانهم التى كانت فى الدنيا ويعيد أرواحهم إليها إذ لا يكاد يفهم هذا من الآية. ولا داعى لالتزام القول بأن الحشر بخلق مثل البدن السابق وإن قيل بأن ذلك البدن تعدم ذاته فى الخارج. ومن الناس من توهم وجوب التزامه اذ قيل بذلك لاستحالة إعادة المعدوم ﴿

واستدل على الاستحالة بأنه لو أعيد لزم تخلل العدم بين الشيء ونفسه وهو محال ﴿

ورد بناء على أن الوقت ليس من المشخصات المعتبرة فى الوجود بانا لا نسلم أن التخلل ههنا محال لأن معناه أنه كان موجودا زمانا ثم زال عنه الوجود فى زمان آخر ثم اتصف بالوجود فى الزمان الثالث وهو فى الحقيقة تخلل العدم وقطع الاتصال بين زمانى الوجود ولا استحالة فيه لوجود الطرفين المتغايرين بالذات إنما المحال تخلل العدم بين ذات الشيء ونفسه بمعنى قطع الاتصال بين الشيء ونفسه بأن يكون الشيء موجودا ولم يكن نفسه موجودا ثم يوجد نفسه وههنا ليس كذلك فان الشيء وجد مع نفسه فى الزمان الأول ثم اتصف مع نفسه بالعدم فى الزمان الآخر ثم اتصف بالوجود مع نفسه فى الزمان الثالث فلم يتحقق قطع الاتصال بين الشيء ونفسه فى زمان من الازمنة وهل هذا الا كلابس شخص ثوبا معينا ثم خلعه ثم لبسه. واستدل أيضا بانه لو جاز إعادة المعدوم بعينه لجاز اعادته مع مثله من كل وجه واللازم باطل لأن المتماثلين اما أن يكون احدهما معادا دون الآخر وذلك باطل مستلزم للتحكم والترجيح بلا مرجح، وأما أن يكونا معادين وهو أيضا باطل مستلزم لاتحاد الاثنين، وإما أن لا يكون شيء منهما معادا وهو أيضا باطل مستلزم خلاف المفروض اذ قد فرض كون أحدهما معادا، وفيه أنه لا يتم الا باثبات فقدان الذات وبطلان الهوية فيما بين الوجودين السابق واللاحق فانه مدار لزوم التحكم، ويجوز أن يقال: الشيء إذا عدم فى الخارج بقى فى نفس الامر بحسب وجوده الذهنى فيحفظ وحدته الشخصية بحسب ذلك الوجود كما لو كان متميزا ثابتا فى العدم ثبوتا منفكا عن الوجود الخارجى كما

www.Quranpdf.blogspot.in

ذهب اليه المعتزلة وموافقوهم، وزعم أن وحدته الشخصية غير محفوظة فى الذهن إذ لاوحدة بدون الوجود ولاوجود بدون التشخص سواء كان وجودا خارجياأوذهنيا، والهوية الذهنية إنما تكون موجودة فى الذهن بمشخصاتها الذهنية وهى بتلك المشخصات ليست هوية خارجية والالزم اتصاف الهوية الخارجية بالعوارض المختصة بالوجود الذهنى وهو ضرورى البطلان بل بشرط تجريدها عنها، وقولهم باتحادها معها بمعنى أنها بعد التجريد عينها فليست إياها مطلقا بالفعل يتجه عليه أنه ليس معنى تجريد الهوية عن مشخصاتها جعلها خالية عنها فى الواقع بل معناه قطع النظر عنها وعدم اعتبارها ولا يلزم من عدم اعتبارها اعتبار عدمها فضلا عن عدمها فى الواقع وقطع النظر لايمنع من الاتحاد فى الواقع ، والقول بأن قولنا: هذا معاد وهذا مبدأ قضية شخصية خارجية يتوقف صدقها على وجود الموضوع فى الخارج لاذهنية يكفى فى صدقها وجود الموضوع فى الذهن فقط فلا بد من انحفاظ الوحدة فى الخارج ولا يكفى انحفاظها فى الذهن يتجه عليه أن صدق الحكم الذهنى كاف فى اندفاع التحكم فتدبر ، وقيل : كما أن المعدوم موجود فى الذهن كذلك المبتدأ المفروض موجود فيه أيضا فليست نسبة الموجود الثانى إلى المعدوم السابق أولى من نسبته إلى المبتدأ المفروض. وتعقب بأن فيه بحثا، اما على مذهب الفلاسفة فلأن صورة المعدوم السابق مرتسمة فى القوى المنطبعة للافلاك عندهم بناء على أن صور جميع الحوادث الجسمانية منطبعة فيها بزعمهم فله صورة خيالية جزئية محفوظة الوحدة الشخصية بعد عدمه بخلاف المستأنف فانه ليس له تلك الصورة قبل وجوده بصورته الجزئية فاذا وجد بتلك الصورة الجزئية كان معادا وإذا وجد بالصورة الكلية كان مستأنفا ، وأما على مذهب الاشاعرة من المتكلمين فلأن للمعدوم أيضا صورة جزئية حاصلة بتعلق صفة البصر من الموجد تعالى شأنه وليس تلك الصورة للمستأنف وجوده فانها وإن كانت جزئية حقيقية أيضا إلا أنها لم تترتب على تعلق صفة البصر، ولاشك أن المترتب على تعلق صفة البصر أكمل من غير المترتب عليه فبين الصورتين تمايز واضح، وإذا انحفظ وحدة الموجود الخارجى بالصورة الجزئية الخيالية لنا فانحفاظها بالصورة الجزئية الحاصلة له سبحانه بواسطة تعلق البصر بالطريق الأولى، والقول بان نسبة الصورة الخيالية وماهو بمنزلتها إلى كل من المعاد والمستأنف سواء أيضا فتكون الوحدة المحفوظة نوعية لاشخصية يلزم عليه أن لاتكون الصورة الخيالية جزئية بل كلية وهو خلاف ماصرحوا *

واستدل أيضا بأنه لوجاز إعادة المعدوم بعينه لما حصل القطع بحدوث شىء إذ يجوز أن يكون لكل ما نعتقده حادثا وجود سابق يعدم تارة ويعاد أخرى واللازم باطل باتفاق العقلاء. وتعقب بأن التجويز العقلى لاينكر إلا أن الأصل عدم الوجود السابق وبه يحصل نوع من العلم ، ولعل ذلك من قبيل علمنا بأن جبل أحد لا ينقلب ذهبا مع تجويز العقل انقلابه وبالجملة أدلة استحالة إعادة المعدوم غير سليمة من القوادح كما لايخفى على من راجع المطولات من كتب الكلام، وقد أشير فيما تقدم من الآيات إلى دفع شبهة عدم انحفاظ الوحـــدة الشخصية بقوله تعالى (وهو بكل خلق عليم) والذى يترجح من هذه المذاهب أن الحشر بجمع الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره وهى إما أجزاء عنصرية أكثرها ترجع إلى التراب وتختلط به كما تختلط سائر الأجزاء بعناصرها أو أجزاء ترابية فقط على ماسمعت فيما تقدم غير بعيد، وهذا هو الذى ينبغى أن يعول عليه إذ حديث العناصر الاربعة وتركب البدن منها لاسيما حديث عنصر النار لم يصح فيه

www.Quranpdf.blogspot.in

شيء من الشارع ﷺ ولم يذكر في كتب السلف بل هو شيء ولع فيه الفلاسفة، على أن أصحاب الفلسفة الجديدة نسمعهم ينكرون كرة النار التي قال بها المتقدمون فالأجزاء الأصلية بعد أن تتفرق وتصير ترابا يجمعها الله تعالى حيث كانت وهو سبحانه بها عليم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهذا إن ضم إليه القول باعادة الصورة التي هي جزء جوهري من الجسم عند القائلين بتركبه منها ومن الهيولى أو العوارض المختصة بالأنواع التي هي جزء من أفرادا النوع كالصورة النوعية الجوهرية كما هو مذهب النافين لتركب الجسم من الهيولى والصورة من المتكلمين يتوقف القول به على جواز اعادة المعدوم وإذا لم يضم إليه ذلك بل اكتفى بالقول بجمع الأجزاء الأصلية العنصرية وتشكليها بشكل مثل الشكل الأول وتحليتها بعوارض مشابهة للعوارض السابقة لم يتوقف القول به على ذلك أصلا والمغايرة في الشكل وعدم اتحاد العوارض بالذات مما لا يضر في كون المحشور هو المبدأ شرعا وعرفا. ولا يلزم على ذلك التناسخ المصطلح كما لا يخفى. وفي ابكار الأفكار للآمدي بعد التفصيل المشبع بذكر الآيات والأحاديث الدالة على وقوع المعاد الجسماني والأدلة السمعية في ذلك لا يحويها كتاب ولا يحصرها خطاب وكلها ظاهرة في الدلالة على حشر الأجساد ونشرها مع إمكان ذلك في نفسه فلا يجوز تركها من غير دليل لكن هل الاعادة للأجسام بايجادها بعد عدمها أو بتأليف أجزائها بعد تفرقها فقد اختلف فيه، والحق امكان كل واحد من الأمرين والسمع موجب لأحدهما من غير تعيين. وبتقدير أن تكون الاعادة للأجسام بتأليف أجزائها بعد تفرقها فهل تجب إعادة عين ما تقضى ومضى من التأليفات في الدنيا أو ان الله تعالى يجوز أن يؤلفها بتأليف آخر فذهب أبو هاشم إلى المنع من إعادتها بتأليف آخر مصيراً منه إلى أن جواهر الأشخاص متماثلة وإنما يتميز كل واحد من الاجزاء بتعيينه وتأليفه الخاص فاذا لم يعد ذلك التأليف الخاص به فذلك الشخص لا يكون هو العائد بل غيره وهو مخالف حينئذ لما ورد به السمع من حشر أجساد الناس على صورهم، ومذهب من عداه من أهل الحق أن كل واحد من الأمرين جائز عقلا ولا دليل على التعيين من سمع وغيره، وما قيل من أن تعين كل شخص إنما هو بخصوص تأليفه غير مسلم بل جاز أن يكون بلونه أو بعض آخر مع التأليف. ومذهب أبي هاشم أنه لا تجب إعادة غير التأليف من الاعراض فما هو جوابه عن غير التأليف فهو جواب لنا في التأليف وما ورد من حشر الناس على صورهم ليس فيه ما يدل على إعادة عين ما تقضى من التأليف ولا مانع أن يكون الإعادة بمثل ذلك التأليف لا بعينه اه *

وزعم الامام إجماع المسلمين على المعاد بجمع الأجزاء الأصلية بعد افتراقها وليس بذاك لما سمعت من الخلاف في كيفيته وهو مذكور في المواقف وغيره. ومسئلة إعادة الأعراض أكثر خلافا من مسئلة اعادة الجواهر فذهب معظم أهل الحق الى جواز اعادتها مطلقا حتى ان منهم من جوز اعادتها في غير محالها. والمعتزلة اتفقوا على جواز اعادة ما كان منها على أصولهم باقيا غير متولد واختلفوا في جواز اعادة ما لا بقاء له كالحرارة والأصوات والارادات فذهب الأكثرون منهم إلى المنع من اعادتها وجوزها الأقلون كالبلخي وغيره. وذهب الى عدم جواز اعادة المعدوم مطلقا من المسلمين أبو الحسن البصري وبعض الكرامية. ومن الناس من خص المنع فيما عدم ذاتا ووجودا وجوز فيما عدم وجوداً. والى القول بالمعاد الجسماني ذهب اليهود والنصاري على ما نص

www.Quranpdf.blogspot.in

عليه الدوانى لكن ذكر الامام فى المحصل أن سائر الأنبياء سوى نبينا ﷺ لم يقولوا إلا بالمعاد الروحانى *

وقال المحقق الطوسى فى تلخيصه : أما الأنبياء المتقدمون على نبينا ﷺ فالظاهر من كلام أممهم أن موسى عليه السلام لم يذكر المعاد البدنى ولا أنزل عليه فى التوراة لكن جاء ذلك فى كتب الأنبياء الذين جاؤا بعده كحزقيل وشعيا عليهما السلام ولذا أقر اليهود به، وأما الانجيل فالأظهر أن المذكور فيه المعاد الروحانى وهو مخالف لما سمعت عن الامام، ويخالفهما ماقاله حجة الاسلام الغزالى فى كتابه الموسوم بالمضنون به على غير أهله من أن فى التوراة أن أهل الجنة يمكثون فى النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة وأن أهل النار يمكثون بها كذا وأزيد ثم يصيرون شياطين فانه ظاهر فى أن موسى عليه السلام ذكر المعاد الجسمانى ونزل عليه فى التوراة ، والحق أن الأناجيل مملوأة مما يدل ظاهراً على أن الانسان يحشر نفسا وجسما وأما التوراة فليس ماذكر فيها على سبيل التصريح على ما نقل لى بعض المطلعين من مسلمى أهل الكتاب على ذلك وأنكره الفلاسفة الالهيون وقالوا بالمعاد الروحانى فقط، وهذا الانكار مبنى إما على زعم استحالة اعادة المعدوم وفيه ما فيه أو على استحالة عدم تناهى الابعاد فان منهم من قال: الانسان قديم بالنوع والنفوس الناطقة غير متناهية كالابدان فلو قيل بالحشر الجسمانى يلزم اجتماع الأبدان الغير المتناهية فى الوجود إذ لابد لكل نفس من بدن مستقل فيلزم بعد غير متناه لتجتمع فيه تلك الأبدان الغير المتناهية . وقال بعضهم : إن الانسان افراده غير متناهية والعناصر متناهية فاجزاؤها لا تفى بتلك الابدان فكيف تحشر . وتعقب بأن القدم النوعى للانسان وعدم التناهى لافراده مما لا يتم لهم عليه برهان *

وقال ابن الكمال : بناء استحالة الحشر الجسمانى على استحالة عدم تناهى الابعاد وهم سبق اليه وهم بعض أجلة الناظرين وليس الامر كما توهم فان حشر الأجساد اللازم على تقدير وقوع المعاد الجسمانى هو حشر المكلفين من المطيع المستحق للثواب والعاصى المستحق للعقاب لا حشر جميع أفراد البشر مكلفا كان أو غيره فانه ليس من ضروريات الدين لأن الاخبار فيه لم تصل إلى حد التواتر ولم ينعقد عليه الاجماع وقد نبه عليه المحقق الطوسى فى التجريد حيث قال: والسمع دل عليه ويتاول فى المكلف بالتفريق، وقال الشارح: يعنى لا إشكال فى غير المكلفين فانه يجوز أن ينعدم بالكلية ولا يعاد وأما بالنسبة إلى المكلفين فانه يتأول العدم بتفريق الأجزاء *

وفى تلخيص المحصل أيضا حيث قال: وقال القائلون بإمكان إعادة المعدوم ان الله تعالى يعدم المكلفين ثم يعيدهم ونبه على ذلك أيضا الآمدى فى ابكار الأفكار حيث قرر الخلاف فى اعادة المكلف ولا خفاء فى أن عدم تناهى جميع أفراد البشر لا يستلزم عدم تناهى المكلفين منهم ليحتاج أمر حشرهم الى الابعاد الغير المتناهية اه *

والحق الطعن فى قولهم بالقدم النوعى وعدم تناهى أفراد الانسان وبرهان التطبيق متكفل عندنا بابطال الغير المتناهى اجتمعت أجزاؤه فى الوجود أم لم تجتمع ترتبت أم لم تترتب، وأما قصر الحشر على المكلفين دون غيرهم من المجانين والصغار والذين لم تبلغهم الدعوة ونحوهم فليس بشىء، والاخبار فى ذلك كثيرة ولعلها من قبيل المتواتر المعنوى على أنها لو لم تكن كذلك لاداعى إلى عدم اعتبارها والقول بخلاف ماتدل عليه كما لا يخفى ، وذهب القدماء من الفلاسفة الطبيعيين إلى عدم ثبوت شىء من الحشر الجسمانى والحشر الروحانى ، ويحكى ذلك عن التناسخية ماعدا اليهود والتناسخ عندهم غير مستمر بل يقع للنفس الواحدة ثلاث مرات على ماقيل *

www.Quranpdf.blogspot.in

وحكى عن جالينوس التوقف فى أمر الحشر فانه قال: لم يتبين لى أن النفس هل هى المزاج الذى ينعدم عند الموت فيستحيل اعادتها أو هى جوهر باق بعد فساد البنية فيمكن المعاد، والمشركون فى شك منه مريب ولذا ترى كلامهم مضطربا فيه، والمسلمون مجمعون على وقوعه إلا أنهم مختلفون كما سمعت فى كيفيته وكذا هم مختلفون فى وجوبه سمعا أو عقلا، فاهل السنة على وجوبه سمعا مطلقا ،والمعتزلة على أنه المكلفين واجب عقلا لوجوب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية عندهم وكل من الامرين يتوقف على الحشر ، وفيه نظر والله تعالى أعلم . ﴿وقد اشتملت﴾ هذه السورة الكريمة على تقرير مطالب علية وتضمنت أدلة جليلة جلية ألا ترى أنه تعالى أقسم على كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل الرسل وأن طريقه أوضح السبل وأشار سبحانه إلى أن المقصود ماذكر بقوله تعالى (لتنذر) الخ ثم بينه اجمالا أنه اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب وتممه بضرب المثل مدمجا فيه التحريض على التمسك بحبل الكتاب والمنزل عليه وتفضيلهما على الكتب والرسل والتنبيه عليه ثانيا بانه عبادة من اليه الرجعى وحده ثم أخذ فى بيان المقدمات بذكر الآيات وأوثر منها الواضحات الدالة على العلم والقدرة والحكمة والرحمة وضمن فيه أن العبادة شكر المنعم وتلقى النعمة بالصرف فى رضاه والحذر من الركون إلى من سواه ثم فى بيان المتمم بذكر الوعد والوعيد بما ينال فى المعاد وادرج فيه حديث من سلك ومن ترك وذكر غايتهما ولخص فيه أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى بالاخلاص عن شائبتى الهوى والرياء حيث قدم على الامر بعبادته تعالى التجنب عن عبادة الشيطان وضمن فيه أن أساسها التوحيد ولما أنه ذكر الآيات لئلا يكون الكلام خطابيا فى المقدمات ختم بالبرهان على الاعادة ليكون على منواله فى المتممات وجعل سبحانه ختام الخاتمة أنه عز وجل لا يتعاظمه شىء ولا ينقص خزائنه عطاء وأنه لا يخرج عن ملكته من قربه قبول أو بعده اباء تحقيقا لكل ما سلف على الوجه الاتم، ولما كان كلاما صادرا عن مقام العظمة والجلال وجب أن يراعى فيه نكتة الالتفات فى قوله تعالى (واليه ترجعون) ليكون اجمالا لتوضيح التفصيل كذا قرره صاحب الكشف والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل *

﴿ومن باب الاشارة﴾ قيل إن قوله سبحانه (يس) اشارة إلى سيادته عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات فالسيد المتولى للسواد أى الجماعة الكثيرة وهى ههنا جميع الخلق فكأنه قيل : ياسيد الخلق وتوليته عليه الصلاة والسلام عليهم لأنه الواسطة العظمى فى الافاضة والامداد ، وفى الخبر الله تعالى المعطى وأنا القاسم فمنزلته صلى الله تعالى عليه وسلم من العالم بأسره بمنزلة القلب من البدن فما ألطف افتتاح قلب القرآن بقلب الاكوان وفى السين بيناتها وزبرها اسرار لاتحصى وكذا فى مجموع (يس والقرآن) قد يكون اشارة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم فقد ذكر الصوفية أنه يشار به إلى الانسان الكامل وكذا الكتاب المبين وعلى ذلك جاء قول الشيخ الاكبر قدس سره :

انا القرآن والسبع المثانى   وروح الروح لا روح الاوانى

ولا أحد أكمل من النبي عليه الصلاة والسلام، وطبق بعضهم قصة اهل انطاكية على ما فى الانفس بجعل القرية اشارة إلى القلب وأصحابها اشارة إلى النفس وصفاتها والاثنين اشارة إلى الخاطر الرحمانى والالهام الربانى والثالث المعزز به اشارة إلى الجذبة والرجل الجائى من أقصى المدينة اشارة إلى الروح، وطبق كثيرا من آيات هذه السورة

www.Quranpdf.blogspot.in

على هذا الطارز ، وقيل : فى قوله سبحانه (طائركم معكم) إنه اشارة إلى استعدادهم السيء الذى طار بهم عنقاء مغربة * إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم * وقيل : فى (أصحاب الجنة) فى قوله تعالى : (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن) إنه اشارة إلى طائفة من المؤمنين كان الغالب عليهم فى الدنيا طاب الجنة ولذا اضيفوا اليها وهم دون أهل الله تعالى وخاصته الذين لم يلتفتوا إلى شيء سواه عز وجل فاولئك مشغولون بلذائذ ما طلبوه وهؤلاء جلساء الحضرة المشغولون بمولاهم جل شأنه المتنعمون بوصاله ومشاهدة جماله وفرق بين الحالين وشتان مابين الفريقين ،ولذا قيل:أكثر أهل الجنة البله فافهم الاشارة *

والشيطان فى قوله تعالى (ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) اشارة إلى كل مايطاع و يذل له غير الله عز وجل كائنا ماكان وعداوته لما أنه سبب الحجاب عن رب الارباب، وفى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون ومايعلنون) إشارة إلى أنه لاينبغى الاكتراث باذى الاعداء والالتفات اليه فان الله تعالى سيجازيهم عليه إذا أوقفهم بين يديه ، هذا ونسأل الله تعالى أن يحفظنا من شر الاشرار وأن ينور قلوبنا بمعرفته كما نور قلوب عباده الابرار ونصلى ونسلم على حبيبه قلب جسد الاعيان وعلى آله وصحبه مادامت سورة يس قلب القرآن *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يٰس

وهي مكية بإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية؛ إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سَلِمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ، على ما يأتي. وفي كتاب أبي داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبيّ ﷺ: «ٱقرؤوا يٰس على موتاكم». وذكر الآجري من حديث أم الدرداء[1] عن النبيّ ﷺ قال: «ما من ميت يُقرَأ عليه سورة يٰس إلا هوّن الله عليه». وفي مسند الدارِميّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة يٰس في ليلة ٱبتغاء وجهِ الله غُفِر له في تلك الليلة» خرجه أبو نعيم الحافظ أيضاً. وروى الترمذيّ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلبُ القرآن يٰس ومن قرأ ﴿يٰس﴾ كتب الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات» قال: هذا حديث غريب، وفي إسناده هارون أبو محمد شيخ مجهول؛ وفي الباب عن أبي بكر الصدّيق، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده، وإسناده ضعيف. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورةً تَشفع لقارئها ويُغفَر لمستمعها. ألا وهي سورة يٰس تُدْعى في التوراة المعِمَّة» قيل: يا رسول الله وما المعِمَّة؟ قال: «تَعمُّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية» قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «تَدفع عن صاحبها كل سوء وتَقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها في سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدًى ونُزِع

(١) كذا في نسخ الأصل. والذي في «الدر المنثور» أبي الدرداء.

عنه كلُّ داء وغِلّ». ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مسنداً. وفي مسند الدارِميّ عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس: من قرأ ﴿يسۤ﴾ حين يُصبح أُعطي يُسْر يومه حتى يُمسِي ومن قرأها في صدر ليلته أعطي يُسْر ليلته حتى يُصبح. وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهاراً كُفِي همه ومن قرأها ليلاً غفر ذنبه. وقال شهر بن حَوْشَب: يقرأ أهل الجنة ﴿طه﴾ و ﴿يسۤ﴾ فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماورديّ فقال: روى الضحاك عن ٱبن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وإن قلبَ القرآن يسۤ ومن قرأها في ليلة أعطِي يُسْر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أُعطِي يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرؤون شيئاً إلا طه ويسۤ». وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة ﴿يسۤ﴾ ليلاً لم يزل في فرح حتى يُصبح، ومن قرأها حين يُصبح لم يزل في فرح حتى يُمسِي؛ وقد حدّثني من جرّبها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية. قال ٱبن عطية: ويصدّق ذلك التجربة. وذكر الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب ﴿يسۤ﴾ في جام بزعفران ثم يشربه؛ حدّثني أبي رحمه الله، قال حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب، عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن علي، قال قال رسول الله ﷺ: «القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده القرآن شافع مشفَّع وماحِلٌ[1] مصدَّق فمن شَفَع له القرآنُ شفِّع ومن مَحَل به القرآن صُدِّق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَسون نور الله المعلِّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى يا حملة القرآن

(١) قال ابن الأثير: ماحل أي خصم مجادل مصدّق.

ٱستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدْكم حبًا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالي القرآن][1] بلوى الآخرة ومن ٱستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التُّخُوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس». وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة يٓس ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يٓس خفف الله عنهم يومئذٍ وكان له بعدد من فيها حسنات».

[١] ﴿يسٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

[٥] ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿يٓس﴾ في ﴿يس﴾ أوجه من القراءات؛ قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿يٓس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة ﴿يَسِنْ﴾ بإظهار النون. وقرأ عيسى بن عمر ﴿يَسِنَ﴾ بنصب النون. وقرأ ٱبن عباس وٱبن أبي إسحاق ونصر بن عاصم ﴿يسِنِ﴾ بالكسر. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿يَسِنُ﴾ بضم النون؛ فهذه خمس قراءات. القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو. ومن بيّن قال سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج. وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما أن يكون مفعولاً ولا يصرفه؛ لأنه عنده ٱسم أعجمي بمنزلة هابيل والتقدير ٱذكر يسين. وجعله سيبويه ٱسماً للسورة. وقوله الآخر أن يكون مبنياً على الفتح مثل كيفَ وأين. وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل؛ فعلى هذا يكون ﴿يسِنِ﴾ قسماً. وقاله ٱبن عباس. وقيل: مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ. وأما الضم فمشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ، لمن يقف عليه. قال ٱبن السَّميقع وهارون: وقد جاء في تفسيرها

(١) الزيادة من «نوادر الأصول» للترمذي الحكيم.

يا رجل فالأولى بها الضم. قال ٱبن الأنباري: ﴿يٓس﴾ وقف حسن لمن قال هو ٱفتتاح للسورة. ومن قال: معنى ﴿يٓس﴾ يا رجل لم يقف عليه. وروي عن ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ أي على آل محمد. وقال سعيد بن جبير: هو ٱسم من أسماء محمد ﷺ؛ ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال السيد الحميري:

يا نفسي لا تَمحضِي بالنُّصْحِ جاهدةً   عَلَى المودَّةِ إلاّ آلَ ياسينَ

وقال أبو بكر الورّاق: معناه يا سيد البشر. وقيل: إنه ٱسم من أسماء الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهب قال: سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمّى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله ﴿يٓس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ يقول هذا ٱسمي يٓس. قال ٱبن العربي هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى بٱسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله عالم وقادر ومريد ومتكلم. وإنما منع مالك من التسمية بـ ﴿يسين﴾؛ لأنه ٱسم من أسماء الله لا يُدرَى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد. فإن قيل فقد قال الله تعالى ﴿سَلَامٌ عَلَى آل يَاسينَ﴾ قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجًّى هو الذي تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم. وقال بعض العلماء: ٱفتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب أمير على الجسد؛ وكذلك ﴿يٓس﴾ أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن. ثم ٱختلفوا فيه أيضاً؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو بلغة الحبشة. وقال الشعبي: هو بلغة طيّ. الحسن: بلغة كلب. الكلبي: هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في ﴿طه﴾[1] وفي مقدّمة الكتاب مستوفى. وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى ﴿يٓس﴾ فحكى أبو محمد مكيّ أنه روي عن النبيّ ﷺ قال: «لي عند ربي عشرة أسماء» ذكر أن منها طه ويٓس ٱسمان له.

---

(١) راجع ١١/ ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. و ١/ ٦٧ وما بعدها طبعة ثانية.

قلت: وذكر الماورديّ عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمّل والمدثّر وعبد الله» قاله القاضي. وحكى أبو عبد الرحمن السُّلَميّ عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيّد، مخاطبة لنبيه ﷺ. وعن ٱبن عباس: ﴿يس﴾ يا إنسان أراد محمداً ﷺ. وقال: هو قَسَم وهو من أسماء الله سبحانه. وقال الزجاج: قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان. وعن ٱبن الحنفية: ﴿يس﴾ يا محمد. وعن كعب: ﴿يس﴾ قَسَم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال][1] يا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم قال ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾. فإن قدر أنه من أسمائه ﷺ، وصح فيه أنه قَسَم كان فيه من التعظيم ما تقدّم، ويؤكد فيه القَسَم عطف القَسَم الآخر عليه. وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قَسَم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه؛ أي طريق لا ٱعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه، وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم» ٱنتهى كلامه. وحكى القشيري قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلاً وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمداً من المرسلين. ﴿والحكيم﴾ المحكَم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾. وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل. وقد يكون ﴿الحكيم﴾ في حق الله بمعنى المحكِم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم. ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموك؛ [و] قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ خبر إن و ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثانٍ؛ أي إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط مستقيم. وقيل: المعنى لمن المرسلين على ٱستقامة؛ فيكون قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ من صلة المرسلين؛ أي إنك لمن المرسلين

---

(١) زيادة يقتضيها المقام، ويدل عليها ما ورد في «الدر المنثور» للسيوطي عن كعب.

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أي الصراط الذي أمر الله به.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرحِيمِ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف ﴿تَنْزِيلَ﴾ بنصب اللام على المصدر؛ أي نزّل الله ذلك تنزيلاً. وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي فضربا للرقاب. الباقون ﴿تَنْزِيلُ﴾ بالرفع على خبر ابتداء محذوف أي هو تنزيل، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم. هذا وقرىء ﴿تنزيلِ﴾ بالجر على البدل من ﴿القرآن﴾ والتنزيل يرجع إلى القرآن. وقيل: إلى النبيّ ﷺ أي إنك لمن المرسلين، وإنك ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولاً يَتْلُو﴾ ويقال: أرسل الله المطر وأنزله بمعنى. ومحمد ﷺ رحمة الله أنزلها من السماء. ومن نصب قال: إنك لمن المرسلين إرسالاً من العزيز الرحيم. و ﴿العزيزِ﴾ المنتقم ممن خالفه ﴿الرحيم﴾ بأهل طاعته.

[٦] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ﴿ما﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى: لتنذر قوماً ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى الذي فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضاً. وقيل: إن ﴿ما﴾ والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوماً إنذار آبائهم. ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم ينذَروا برسول من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونَسُوا. ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقوم لم يبلغهم خبر نبيّ، وقد قال الله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾

وقال: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لم يأتهم نبيّ. وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه. وقيل: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي وجب العذاب على أكثرهم ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك. وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره. ثم بيّن سبب تركهم الإيمان فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِم أَغْلاَلاً﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخنّ رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلَّت يدُه إلى عنقه فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضَخ رأسه. فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخنّ أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وأنطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خَرَّ على قفاه مغشيّاً عليه. فقيل له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم! رأيت الرجل فلما دنوت منه، وإذا فحل يَخطِر بذنبه ما رأيت فحلاً قط أعظم منه حال بيني وبينه، فوالّلاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾. وقرأ ابن عباس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ﴾. وقال الزجاج: وقرىء ﴿إنا جعلنا في أيدِيهِم﴾. قال النحاس: وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف. وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة؛ التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا. ونظيره ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد؛ لأن الغُلّ إذا كان في العنق فلا بد أن

يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله عز وجل: ﴿فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي. ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلَّت يده إلى ذَقَنه ٱرتفع رأسه. روى عبد الله بن يحيى أن علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه. قال النحاس: وهذا أجل ما روي فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعي. قال: يقال أقمحت الدابةُ إذا جذبت لجامها لترفع رأسها. قال النحاس: والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها. كما يقال: قَهَرته وكَهَرته. قال الأصمعِي: يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها. ومنه قول الشاعر:

... والـــــرأسُ مُكمَــــــحُ[1]

ويقال: أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعي. وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وٱمتنع من الشرب، فهو بعير قامِحٌ وقَمِحٌ؛ يقال: شَرِب فتقمّح وٱنقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا. وقد قامحت إبلُك إذا وردت ولم تشرب، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برْد. وهي إبل مُقامحة وبعير مقامح وناقة مقامح أيضاً، والجمع قِماح على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة:

ونحــن علــى جَـوانبهــا قُعــودٌ نَغُـض الطرفَ كـالإبـل القِمَـاحِ

والإقماح رفع الرأس وغضّ البصر؛ يقال: أقْمَحه الغُلُّ إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه. وشهراً قِماح أشدّ ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها؛ ومنه قَمِحتُ[2] السويقَ. وقيل: هو مثل ضربه الله تعالى لهم في ٱمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول؛ قاله يحيى بن سلاّم وأبو عبيدة. وكما يقال فلان حمار؛ أي لا يبصر الهدى. وكما قال:

لهــم عــن الــرشــدِ أغــلالٌ وأقيــادُ

---

(١) البيت لذي الرمة وتمامه:

تمـور بضبعيهـا وتـرمـي بحـوزهـا حذارا من الإيعاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) إذا ٱستفه.

وفي الخبر: إن أبا ذؤيب كان يهوى ٱمرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهدِ الدارِ يا أُم مَالِكٍ ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسِلُ
وعاد الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ ... سِوى العدلِ شيئاً فٱستراح العواذِلُ(١)

أراد مُنِعْنا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنى والفسق؛ وقال الفراء أيضاً: هذا ضرب مثل؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ وقاله الضحاك. وقيل: إن هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جُعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه، وغاضًا بصره لا يفتحه. والمتكبر يوصف بٱنتصاب العنق. وقال الأزهري: إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُداً كالإبل ترفع رؤوسها. وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم. وقيل: الآية إشارة إلى ما يُفْعَل بأقوام غداً في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ﴾ وأخبر عنه بلفظ الماضي. ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ تقدّم تفسيره. وقال مجاهد: ﴿مُقْمَحُونَ﴾ مُغلُّون عن كل خير.

[٩] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.
[١٠] ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.
[١١] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ

(١) يقول: رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهل، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه. سوى العدل: أي سوى الحق.

الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر. فلما دنا من النبي ﷺ طمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية. وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عُتْبة وشيبة ٱبنا ربيعة، وأبو جهل وأميّة بن خلف، يراصدون النبي ﷺ ليبلغوا من أذاه، فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ ﴿يَس﴾ وفي يده تراب فرماهم به وقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام. وقد مضى هذا في سورة ﴿سبحان﴾[1] ومضى في ﴿الكهف﴾[2] الكلام في ﴿سدّا﴾ بضم السين وفتحها وهما لغتان. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي غطينا أبصارهم: وقد مضى في أول ﴿البقرة﴾[3]. وقرأ ٱبن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر ﴿فأعشيناهم﴾ بالعين غير معجمة من العَشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال:

مَتَــى تــأتِــهِ تَعْشُــو إلــى ضَــوْءِ نــارِهِ[4]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الآية. والمعنى متقارب والمعنى أعميناهم، كما قال

ومـن الحـوادثِ لا أَبَـا لَـكَ أَنّنـي ... ضُـرِبـتْ علـيّ الأرضُ بـالأَسْدَادِ
لا أهتـدي فيهـا لمـوضِـع تَلْعَـةٍ ... بيـنَ العُـذَيْـبِ وبيـنَ أرضِ مُـرَادِ

﴿ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي الهدى؛ قاله قتادة. وقيل: محمداً حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي. وقال الضحاك: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ أي الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي الآخرة؛ أي عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي زيّنوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة. وقيل: على هذا ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ أي غروراً بالدنيا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي تكذيباً بالآخرة. وقيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة ﴿ومِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا. ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ تقدّم في ﴿البقرة﴾[5] والآية رد على القَدَرية وغيرهم

---

(١) راجع ١٠/٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ١١/٥٩ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع ١/١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٤) هو الحطيئة، وتمام البيت:
تجـد خيـر نـار عنـدهـا خيـر مـوقـد
(٥) راجع ١/١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

عن ٱبن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القَدَريّ فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقَدَر؛ فقال: يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ فقال: ٱقرأ يا غيلان فقرأ حتى ٱنتهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ فقال ٱقرأ فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أنّ هذا في كتاب الله قط. فقال له: يا غيلان ٱقرأ أوّل سورة ﴿يَس﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين كأني لم أرها قط قبل اليوم؛ ٱشهد يا أمير المؤمنين أني تائب. فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه وثبته، وإن كان كاذباً فسلّط عليه من لا يرحمه وٱجعله آية للمؤمنين؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه. وقال ٱبن عون: فأنا رأيته مصلوباً على باب دمشق. فقلنا: ما شأنك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن وعمل به. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة. وقيل: أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وٱنفراده بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي الجنة.

[١٢] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردًّا على الكفرة. وقال الضحاك والحسن: أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل. والأوّل أظهر أي نحييهم بالبعث للجزاء. ثم توعدهم بذكره كَتْب الآثار وهي:

الثانية ـ وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان. قال قتادة: معناه من عمل. وقاله مجاهد وٱبن زيد. ونظيره قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وقوله: ﴿يُنَبَّأُ

الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ﴾ وقال: ﴿ٱتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فآثار المرء التي تبقَى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها: من أثر حسن؛ كعلم علَّموه، أو كتاب صنَّفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك؛ أو سيِّىء كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وَمَلاَه، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستنّ بها. وقيل: هي آثار المشَّائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تأوّل الآية عمر وٱبن عباس وسعيد بن جبير. وعن ٱبن عباس أيضاً أن معنى ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ خُطَاهم إلى المساجد. قال النحاس: وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إن الآية نزلت في ذلك؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد. وفي الحديث مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «يُكتبُ له برِجلٍ حسنة وتُحطُّ عنه برِجل سيئة ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد».

قلت: وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سَلِمة[1] في ناحية المدينة فأرادوا النّقلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ونَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تُكتَب فلم ينتقلوا. قال: هذا حديث [حسن][2] غريب من حديث الثوري. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد؛ قال: والبقاع خالية؛ قال: فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «يا بني سَلِمة ديارَكم تُكتب آثارُكم ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم» فقالوا: ما كان يسرنا أنّا كنا تحوّلنا. وقال ثابت البُنَاني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت فحبسني فلما ٱنقضت الصلاة قال: مشيت مع النبيّ ﷺ وأسرعت، فحبسني فلما ٱنقضت الصلاة قال «أما علمت أن الآثار تُكتَب» فهذا ٱحتجاج بالآية. وقال قتادة ومجاهد أيضاً والحسن: الآثار في هذه الآية الخُطَا. وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الآثار هي الخُطَا إلى الجمعة. وواحد الآثار أَثَر ويقال أَثْر.

---

(١) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار.

(٢) الزيادة من «صحيح الترمذي».

الثالثة - في هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل، فلو كان بجوار مسجد، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد؟ ٱختلف فيه؛ فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم. وروي عن غيره: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً. وكره الحسن وغيره هذا؛ وقال: لا يدع مسجداً قربَه ويأتي غيره. وهذا مذهب مالك. وفي تخطي مسجده إلى مسجده الأعظم قولان. وخرج ٱبن ماجه من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةٍ وصلاته في المسجد الذي يُجمَّع(١) فيه بخمسمائة صلاة».

الرابعة - «دياركم» منصوب على الإغراء أي ٱلزموا و «تكتب» جزم على جواب ذلك الأمر. ﴿وكُلَّ﴾ نصب بفعل مضمر يدل عليه ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ كأنه قال وأحصينا كل شيء أحصيناه. ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى، ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل. وهو قول الخليل وسيبويه. والإمام الكتاب المقتدَى به الذي هو حجة. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ. وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال.

[١٣] ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(١) يجمع (بالتشديد) من التجمع، أي يصلى فيه الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [خطاب للنبي ﷺ أمر أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية](١) هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردي. نسبت إلى أهل أنطبيس وهو ٱسم الذي بناها ثم غُيِّر لما عُرِّب. ذكره السهيلي. ويقال فيها: أنتاكية بالتاء بدل الطاء وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام. ذكره المهدوي وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب. فأرسل الله إليه ثلاثة: وهم صادق، وصدوق، وشلوم هو الثالث. هذا قول الطبري. وقال غيره: شمعون ويوحنا. وحكى النقاش: سمعان ويحيى ولم يذكرا صادقاً ولا صدوقاً. ويجوز أن يكون ﴿مَثَلاً﴾ و ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعولين لاضرب، أو ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ بدلاً من ﴿مَثَلاً﴾ أي ٱضرب لهم مثلَ أصحابِ القرية فحذف المضاف. أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل. قيل: رسل من الله على الابتداء. وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي فقوّينا وشدّدنا الرسالة ﴿بِثَالِثٍ﴾. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بالتخفيف وشدّد الباقون. قال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يخفّف ويشدّد، أي قوّينا وشدّدنا. قال الأصمعي: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمّس:

أُجُدٌ إذا رَحَلَت(٢) تَعَزَّزَ لَحْمُهَا ... وإذا تُشَدّ بِنِسْعِهَا لا تَنْبِسُ

أي لا ترغو؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى. وقيل: التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ومنه ﴿وعَزَّنِي في الخِطَابِ﴾ والتشديد بمعنى قوّينا وكثرنا. وفي القصة أن عيسى أرسل

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي.
(٢) وفي «اللسان»: أجد إذا ضمرت. ويروى في غيره: عنس إذا ضمرت.

إليهم رسولين، فلقيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب ﴿يٓس﴾ فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى. وكان له ٱبن مجنون. وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحاً، فآمن الرجل بالله. وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشفيا كثيراً من المرضى، فأرسل الملك إليهما ـ وكان يعبد الأصنام ـ يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتكما؟ قالا: نبرىء الأكمه والأبرص ونبرىء المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده. فهمَّ الملكُ يضربهما. وقال وهب: حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة، فٱنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثاً. قيل: شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، وٱستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته؛ ثم قال يوماً للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما. فقال: إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما. قال: فلو أحضرتهما. فأمر بذلك؛ فقال لهما شمعون: ما برهانكما على ماتدّعيان؟ فقالا: نبرىء الأكمه والأبرص. فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فٱنشق موضع البصر، فأخذا بندقتين طيناً فوضعاها في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما؛ فعجب الملك وقال: إن هاهنا غلاماً مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما؟ فدعوا الله علانية، ودعاه شمعون سراً، فقام الميت حياً، فقال للناس: إني متّ منذ سبعة أيام، فوجدت مشركاً، فأدخلتُ في سبعة أودية من النار، فأحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم فتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم وهو أفضلهم. فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فأثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فآمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون. وحكى القشيري أن الملك آمن ولم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار.

وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبيّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم. فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِروحِ القُدسِ﴾ فقالوا جميعاً ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يأمر به ولا [من شيء][1] ينهى عنه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ في دعواكم الرسالة؛ فقالت الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإن كذبتمونا ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ في أن الله واحد ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم. قال مقاتل؛ حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم. ويقال إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن إنذارنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال الفراء: لنقتلنكم. قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم؛ وقد تقدّم جميعه[2]. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيب المؤلم. وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب. فقالت الرسل: ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي شؤمكم معكم أي حظكم من الخير والشر معكم ولازمٌ في أعناقكم وليس هو من شؤمنا. قال معناه الضحاك. وقال قتادة: أعمالكم معكم. ٱبن عباس معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم. الفراء: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد. وقرأ الحسن. ﴿ٱطَّيْرُكُمْ﴾ أي تطّيركم[3]. ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ قال قتادة: إن ذكرتم تطيرتم. وفيه تسعة أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة ﴿أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بتخفيف الهمزة الثانية. وقرأ أهل الكوفة ﴿أَإِنْ﴾ بتحقيق الهمزتين. والوجه الثالث ﴿ آإِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع ﴿آإِنْ﴾ بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة. والقراءة الخامسة ﴿أَآأَنْ﴾ بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف. والوجه السادس ﴿أَأَنْ﴾ بهمزتين محققتين مفتوحتين. وحكى الفراء: أنّ هذه القراءة قراءة أبي رُزَين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) راجع ٩/ ٩١ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) قال أبو حيان في هذه القراءة: ﴿ٱطيركم﴾ مصدر ٱطير الذي أصله تطير فأدغمت التاء في الطاء. فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر.

قلت: وحكاه الثعلبي عن زرّ بن حبيش وٱبن السَّمَيْقَع. وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة ﴿ذُكِرْتُمْ﴾ بالتخفيف. ذكر جميعه النحاس. وذكره المهدوي عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهَمَذَانِي ﴿آنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة. الماجشون: ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزة واحدة مفتوحة. فهذه تسع قراءات. وقرأ ٱبن هرمز ﴿طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ﴾. ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي لأَن وُعِظتم؛ وهو كلام مستأنف أي إن وعظتم تطيرتم. وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبيّ دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: مسرفون في تطيّركم. يحيى بن سلاّم: مسرفون في كفركم. وقال ٱبن بحر: السرف هاهنا الفساد ومعناه بل أنتم قوم مفسدون. وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف مجاوزة الحدّ والمشرك يجاوز الحدّ.

[٢٠] ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب بن مري وكان نجاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصّاراً. وقال ٱبن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب

ٱبن إسرائيل النجار وكان يَنْحَت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبيّ ﷺ وبينهما ستمائة سنة، كما آمن به تُبَّع الأكبر وورَقة بن نوفل وغيرهما. ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره. قال وهب: وكان حبيب مجذوماً، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة وكان يَعكِفُ على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرّه فما ٱستجابوا له، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك. فقال: إن هذا لعجب لي، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع، [فكيف][1] يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر. فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس، فحينئذٍ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدّق بكسبه، فأطعم عياله نصفاً وتصدّق بنصف، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم فـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية. وقال قتادة: كان يعبد الله في غارٍ، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ـ ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿ٱتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ أي لو كانوا متّهمين لطلبوا منكم المال ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم. ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا ٱحتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم: لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكأن إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً. ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني أصناماً. ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني ما أصابه من السقم. ﴿لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ يخلصوني مما أنا فيه من البلاء. ﴿إِنِّي إِذاً﴾ يعني إن فعلت ذلك ﴿لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ أي خسران ظاهر. ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ قال ٱبن مسعود: خاطب الرسل بأنه

(١) الزيادة من تفسير الألوسي.

مؤمن بالله ربهم؛ ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فٱشهدوا أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به. وقيل: إنه لما قال لقومه ﴿ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. ٱتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدوّنا، فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه. قال ٱبن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه[1] من دبره، وأُلقي في بئر وهي الرَّسُّ وهم أصحاب الرّسّ. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدي رموه بالحجارة وهو يقول اللهم ٱهد قومي حتى قتلوه. وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردماً. وقال الحسن: حرقوه حرقاً، وعلّقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي. وقال القشيري: وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها. وقيل: نشروه بالمِنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا في الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فلما شاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي بغفران ربي لي؛ فما مع الفعل بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف. ويجوز أن تكون ٱستفهاماً فيه معنى التعجب، كأنه قال: ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي؛ قاله الفرّاء. واعترضه الكسائي فقال: لو صح هذا لقال بِم من غير ألف. وقال الفراء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو ٱستفهام وأنشد فيه أبياتاً. الزمخشري: ﴿بِمَ غَفَرَ لِي﴾ بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت. المهدوي: وإثبات الألف في الاستفهام قليل. فيوقف على هذا على ﴿يَعْلَمُونَ﴾. وقال جماعة: معنى ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وجبت لك الجنة؛ فهو خبر بأنه قد ٱستحق دخول الجنة: لأن دخولها يستحق بعد البعث.

---

(١) القصب المعى.

قلت: والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له ٱدخل الجنة. قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ على ما تقدم في ﴿آل عمران﴾[1] بيانه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وقرىء ﴿مِنَ الْمُكَرَّمِينَ﴾ وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته. الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله. قال ابن عباس: نصح قومه حياً وميتاً. رفعه القشيري فقال: وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية «إنه نصح لهم في حياته وبعد موته» وقال ٱبن أبي ليلى: سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين؛ علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصدّيقون. ذكره الزمخشري مرفوعاً عن رسول الله ﷺ. وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في ٱفتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبيّ بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن. قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء. وقيل: الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة. قال معناه ابن مسعود وغيره. فقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء. وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ على من كان قبلهم.

---

(١) راجع ٢٦٨/٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الزمخشري: فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقال: ﴿بِأَلفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ. بِخَمسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

قلت: إنما كان يكفي مَلك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنّه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك. وما كنا نفعل لغيرك. ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قراءة العامة ﴿واحِدةً﴾ بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة.

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع وشيبة والأعرج ﴿صَيْحَةٌ﴾ بالرفع هنا وفي قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث، فكأنه قال: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال إن كان إلا صيحةٌ. قال النحاس: لا يمتنع شيء من هذا، يقال: ما جاءتني إلا جاريتُك بمعنى ما جاءتني ٱمرأةٌ أو جارية إلا جاريتك. والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق، قال: المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، وقدّره غيره ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب. وقرأ عبد الرحمن بن الأسود ـ ويقال إنه في حرف عبد الله كذلك ـ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً﴾. وهذا مخالف للمصحف. وأيضاً فإن اللغة المعروفة زَقَا يَزْقو إذا صاح، ومنه المثل: أثقلُ من الزَّوَاقي؛ فكان يجب على هذا أن يكون زَقْوة. ذكره النحاس.

قلت: وقال الجوهري الزَّقْو والزَّقْي مصدر، وقد زَقَا الصدا يَزْقو زُقاءً أي صاح، وكل صائح زاقٍ، والزَّقْية الصّيحة.

قلت: وعلى هذا يقال زَقْوة وزَقْية لغتان فالقراءة صحيحة لا ٱعتراض عليها. والله أعلم. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي ميتون هامدون تشبيها بالرماد الخامد. وقال قتادة: هلكى. والمعنى واحد.

[٣٠] ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين. وفي حرف أبيّ ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ﴾ على الإضافة. وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. وزعم الفراء أن الاختيار النصب، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صواباً. وٱستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهتمّ. وأنشد:

يا دارُ غَيَّرها البِلَى تَغْييرَا[1]

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره؛ لأنه يرفع النكرة المحضة ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله، ويحذف التنوين متوسطاً، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علّة أوجبت ذلك. فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازه؛ لأنّ تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير، والمعنى يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا. وتقدير البيت يا أيتها الدار ثم حول المخاطبة؛ أي يا هؤلاء غير هذه الدار البلى؛ كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ فـ﴿حسرةً﴾ منصوب على النداء كما تقول يا رجلاً أقبل، ومعنى النداء

(١) البيت للأحوص؛ وتمامه:

وسفت عليها الريح بعدك موراً

هذا موضع حضور الحسرة. الطبري: المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندماً وتلهفاً في ٱستهزائهم برسل الله عليهم السلام. ٱبن عباس: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي يا ويلا على العباد. وعنه أيضاً: حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم. وروى الربيع عن أنس عن أبي العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان، وقاله مجاهد. وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذّبوا الرسل. وقيل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لما وثب القوم لقتله. وقيل: إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحلّ بالقوم العذاب يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا. وقيل: هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة، على ٱختلاف الروايات: يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمنّا بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان. وتم الكلام على هذا، ثم ٱبتدأ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾. وقرأ ٱبن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعِكرمة ﴿يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ﴾ بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك في مثله، وإن لم يكن موضعاً للوقف. ومن ذلك ما روي عن النبيّ ﷺ أنه كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً؛ حرصاً على البيان والإفهام. ويجوز أن يكون ﴿على العِبَادِ﴾ متعلقاً بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف لا بالحسرة، فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء، ثم قال: ﴿على العبادِ﴾ أي أتحسر على العباد. وعن ٱبن عباس والضحاك وغيرهما ﴿يا حسرةَ العِبادِ﴾ مضاف بحذف على. وهو خلاف المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا، فهو كقولك يا قيام زيدٍ. ويجوز أن يكون من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم. وقراءة من قرأ ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ مقوية لهذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: أنّ بدل من كم، ومعنى كم هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون وقال الفراء: ﴿كم﴾ في موضع نصب من وجهين: **أحدهما** - بـ ﴿يَرَوْا﴾ واُستشهد على هذا بأنه في قراءة اُبن مسعود ﴿أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا﴾. والوجه الآخر أن يكون ﴿كم﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾. قال النحاس: القول الأوّل محال؛ لأن ﴿كم﴾ لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنّها اُستفهام، ومحال أن يدخل الاستفهام في خبر ما قبله. وكذا حكمها إذا كانت خبراً، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدلا من كم. وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال: ﴿كم﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و ﴿أَنَّهُمْ﴾ في موضع نصب والمعنى عنده بأنهم أي ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ بالاستئصال. قال: والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله ﴿مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾. وقرأ الحسن ﴿إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف. وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت. ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء. وقرأ اُبن عامر وعاصم وحمزة ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمّا﴾ بشديد لما. وخفف الباقون. فإن مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر. وبطل عملها حين تغير لفظها. ولزمت اللام في الخبر فرقاً بينها وبين إن التي بمعنى ما. وما عند أبي عبيدة زائدة. والتقدير عنده وإن كل لجميع. قال الفرّاء: ومن شدّد جعل ﴿لما﴾ بمعنى إلا و ﴿إن﴾ بمعنى ما أي ما كل إلا لجميع؛ كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾. وحكى سيبويه: في قوله سألتك بالله لَمّا فعلت. وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا. وقد مضى هذا المعنى في ﴿هود﴾[1]. وفي حرف أبيّ ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ إِلاَّ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

---

(١) راجع ٩/ ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

[٣٣] ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحبّ منها. ﴿فَمِنْهُ﴾ أي من الحبّ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذّون. وشدّد أهل المدينة ﴿الْمَيِّتَة﴾ وخفف الباقون. وقد تقدّم[1]. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض. ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين. ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي في البساتين. ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء في ﴿ ثمرِه ﴾ تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه ٱندرج. قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما. وقيل: أي ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ مِنْ ثُمُرِهِ ﴾ بضم الثاء والميم. وفتحهما الباقون. وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم. وقد مضى الكلام فيه في ﴿الأنعام﴾[2]. ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ﴿ما﴾ في موضع خفض على العطف على ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ومما عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ بغير هاء. الباقون ﴿عملته﴾ على الأصل من غير حذف. وحذف الصلة أيضاً في الكلام كثير لطول الاسم. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع. أي ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم. وهذا قول ٱبن عباس والضحاك ومقاتل. وقال غيرهم: المعنى ومِن الذي عملته أيديهم أي من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، ومما

---

(١) راجع ٢/٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية.

(٢) راجع ٧/٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ٱتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون. وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس. روي معناه عن ٱبن عباس أيضاً. ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ نعمه.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ نَزَّه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته. وفيه تقدير الأمر؛ أي سبِّحوه ونزِّهوه عما لا يليق به. وقيل: فيه معنى التعجب؛ أي عجباً لهؤلاءِ في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات، ومن تعجب من شيء قال سبحان الله. والأزواج الأنواع والأصناف، فكل زوج صنف، لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هو أزدواجها. وقال قتادة: يعني الذكر والأنثى. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ يعني من النبات؛ لأنه أصناف. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني وخلق منهم أولاداً أزواجاً ذكوراً وإناثاً. ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض. ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة. ويجوز ألا يعلمه مخلوق. ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا ٱنفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به.

[٣٧] ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٣٨] ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أي وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهيته. والسلخ الكشط والنزع يقال سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج. وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهي ٱستعارة. و ﴿مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام؛ يقال: أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيل: ﴿مِنه﴾ بمعنى عنه، والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي في ظلمة؛ لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء فإذا خرج منه أظلم.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس. ويجوز أن يكون الشمس مرفوعاً بإضمار فعل يفسره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء ﴿تجري﴾ في موضع الخبر أي جارية. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: «مستقرّها تحت العرش». وفيه عن أبي ذرّ أنّ النبيّ ﷺ قال يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس» قالوا الله ورسوله أعلم؛ قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ٱرتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدةً ولا تزال كذلك حتى يقال لها ٱرتفعي ٱرجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثُمَّ تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرّها ذاك تحت العرش فيقال لها ٱرتفعي أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم ذاك حين ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾». ولفظ البخاري عن أبي ذرّ قال قال النبيّ ﷺ لأبي ذرّ حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب» قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذنَ فيؤذنُ لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذنَ فلا يؤذنُ لها يقال لها ٱرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾». ولفظ الترمذي عن أبي ذرّ قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبيّ ﷺ جالس. فقال النبيّ ﷺ: «يا أبا ذرّ أتدري أين تذهب هذه» قال قلت: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنها تذهب فتستأذنُ في السجود فيؤذنُ لها وكأنها قد قيل لها ٱطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» قال: ثم قرأ ﴿ذَلِكَ[1] مُسْتَقَرٌّ لَهَا﴾ قال وذلك قراءة عبد الله. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) كذا في الأصول وفي «صحيح الترمذي» ولعله تحريف، إذ لا تعرف قراءة بهذا النص؛ وقراءة عبد الله بن مسعود ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾ كما سيأتي.

وقال عكرمة: إن الشمس إذا غربت دخلت محراباً تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح، فإذا أصبحت ٱستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب: ولم ذاك؟ قالت: إني إذا خرجت عُبِدت من دونك. فيقول الرب تبارك وتعالى: ٱخرجي فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها. وقال الكلبي وغيره: المعنى تجري إلى أبعد منازلها في الغروب. ثم ترجع إلى أدنى منازلها، فمستقرها بلوغها الموضع الذي لا تتجاوزه بل ترجع منه؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وَطَره، ثم يرجع إلى منزله الأوّل الذي ٱبتدأ منه سفره. وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة، وذلك اليوم أطول الأيام في السنة، وتلك الليلة أقصر الليالي، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ في النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا ٱستوى الليل والنهار، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النَّعائم، وذلك اليوم أقصر الأيام، والليل خمس عشرة ساعة، حتى إذا طلع فَرْغ الدَّلْو المؤخَّر ٱستوى الليل والنهار، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة، وكل عشرة أيام ثلث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة؛ ويأخذ النهار من الليل كذلك. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً، تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزله إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرّها. وهو معنى الذي قبله سواء. وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وٱنتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه ٱستقرّت تحت العرش إلى أن تطلع.

قلت: ما قاله ٱبن عباس يجمع الأقوال فتأمله. وقيل: إلى ٱنتهاء أمدها عند ٱنقضاء الدنيا. وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس ﴿والشمْسُ تَجْرِي لا مُسْتَقَرَّ لَهَا﴾ أي إنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة. وقد ٱحتج من خالف المصحف فقال: أنا أقرأ بقراءة ٱبن مسعود وٱبن عباس. قال أبو بكر الأنباري: وهذا باطل مردود على من نقله؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ٱبن عباس، وٱبن كثير روى

عن مجاهد عن ٱبن عباس ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ فهذان السندان عن ٱبن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع، يبطلان ما روي بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة، وما ٱتفقت عليه الأمة.

قلت: والأحاديث الثابتة التي ذكرناها تردّ قوله فما أجرأه على كتاب الله قاتله الله. وقوله: ﴿لِمستقرٍّ لها﴾ أي إلى مستقرّها والمستقرّ موضع القرار. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدِير ﴿العَزِيزِ العليم﴾.

[٣٩] ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ. ويجوز أن يكون ﴿وَالْقَمَرُ﴾ مرفوعاً بالابتداء. وقرأ الكوفيون ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على إضمار فعل وهو ٱختيار أبـي عبيد. قال: لأن قبله فعلا وبعده فعلاً؛ قبله ﴿نَسْلَخُ﴾ وبعده ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾. النحاس: وأهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال، منهم الفرّاء قال: الرفع أعجب إليّ وإنما كان الرفع عندهم أولى؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ. وقوله: إن قبله ﴿نَسْلَخُ﴾ فقبله ما هو أقرب منه وهو ﴿تَجْرِي﴾ وقبله ﴿وَالشَّمْسُ﴾ بالرفع. والذي ذكره بعده وهو ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ قد عمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفع أولى؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء. ويقال: القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ففي هذا جوابان: أحدهما قدّرناه ذا منازل مثل ﴿وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾. والتقدير الآخر قدّرنا له منازل ثم حذفت اللام، وكان حذفها حسناً لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾. والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل؛ وهي: الشَّرطَان. الْبُطَيْن. الثُّريَّا. الدَّبَران. الهَقْعَة. الهنعة. الذِّراع. النَّثْرة. الطَّرْف. الْجَبْهَة. الخَرَاتانِ، الصَّرْفة. العَوَّاء. السِّمَاك. الغفر.

الزُّبَانَيان. الإكْلِيل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعَائِم. البَلْدَة. سَعْد الذّابح. سَعْد بُلَع. سَعْد السُّعود. سَعْد الأخْبِية. الفَرْغ المقدَّم. الفَرْغ المؤخَّر. بطن الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة. ثم يستسر ثم يطلع هلالا، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث. فللحمَل الشَّرَطان والبُطَين وثلث الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدَّبران وثلثا الهَقْعة، ثم كذلك إلى سائرها. وقد مضى في ﴿الحجر﴾[1] تسمية البروج والحمد لله. وقيل: إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نارٍ ثمّ كُسِيا النور عند الطلوع، فأما نور الشمس فمن نور العرش، وأما نور القمر فمن نور الكرسي، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة. فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق، وأما القمر فأمرَّ الروحُ الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء. فبقي ذلك المحو على ما يراه الخلق، ثم جعل في غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمراً بمقدار ما يقمِر لهم حتى ينتهي بدؤه، ويراه الخلق بكماله واستدارته. ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البدء. ويبتدىء في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهي ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم، وهو العِذْق المتقوّس ليبسه ودقّته. وإنما قيل القمر، لأنه يُقمِر أي يبيض الجوّ ببياضه إلى أن يَسْتسِرّ.

الثانية ـ ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال الزجاج: هو عود العِذْق الذي عليه الشماريخ، وهو فُعْلون من الانعراج وهو الانعطاف، أي سار في منازله، فإذا كان في آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعُرجون. وعلى هذا فالنون زائدة. وقال قتادة: هو العِذْق اليابس المنحني من النخلة. ثعلب: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال: ﴿العرجون﴾ الذي يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و ﴿القديم﴾ البالي. الخليل: في باب الرباعي ﴿العرجون﴾ أصل العِذق وهو أصفر عريض يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى. الجوهري:

(١) راجع ١٠/٩ طبعة أولى أو ثانية.

﴿العرجون﴾ أصل العِذْق الذي يعوجّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً؛ وعَرْجَنه ضربه بالعرجون. فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بني قيس:

شـرق المسـك والعبيـر[1] بهـا فهـي صفـراء كعـرجـون القمـر

فالعرجون إذا عَتق ويَبِس وتقوّس شبّه القمرُ في دقّته وصفرته به. ويقال له أيضاً الإهان والكِبَاسة والقنو، وأهل مصرَ يسمونه الإسباطة. وقرىء ﴿العِرْجَوْن﴾ بوزن الفِرْجَون وهما لغتان كالبُزْيون[2] والبِزْيَون؛ ذكره الزمخشري وقال: هو عود العِذْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وٱعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل: فأوّلها الربيع، وأوله خمسة عشر يوماً من أَذَار، وعدد أيامه ٱثنان وتسعون يوماً. تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: الحَمَل، والثّور، والجوزاء، وسبعة منازل: الشَّرَطان والبُطَين والثُّريا والدَّبَران والهَقْعة والهَنْعة والذِّراع. ثم يدخل فصل الصيف في خمسة عشر يوماً من حَزِيران، وعدد أيامه ٱثنان وتسعون يوماً؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج: الشَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، وسبعة منازل: وهي النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصّرفة والعوّاء والسِّماك. ثم يدخل فصل الخريف في خمسة عشر يوماً من أيلول، وعدد أيامه أحد وتسعون يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج؛ وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعة منازل الغُفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة. ثم يدخل فصل الشتاء في خمسة عشر يوماً من كانون الأوّل، وعدد أيامه تسعون يوماً وربما كان أحداً وتسعين يوماً، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج: وهي الْجَدي والدَّلْو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأَخبِية والفَرْغ المقدَّم، والفَرْغ المؤخَّر وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل، كانون الثاني، أشباط، آذار، نيسان، أيّار، حَزِيران، تَمُّوز، آب، أيلول، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثاني ونيسان وحزِيران وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم.

(١) كذا في الأصل ولم نعثر عليه في ديوانه، ويحتمل أن يكون: شرق العنبر والمسك بها.

(٢) البزيون: السندس. وقيل هو رقيق الديباج.

وإنما أردنا بهذا أن تنظر في قدرة الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ فإذا كانت الشمس في منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله، فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة. وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس فـ ﴿ذلِك تقدِير العزِيزِ العلِيم﴾.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿الْقَدِيم﴾ قال الزمخشري: القديم المحوِل وإذا قَدُم دَقّ وٱنحنى وٱصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه. وقيل: أقلّ عِدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر.

قلت: قد مضى في ﴿البقرة﴾[1] ما يترتب على الأهِلة من الأحكام والحمد لله.

[٤٠] ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ لا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ رفعت الشمس بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل ﴿ لا ﴾ في معرفة. وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها إن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه. أي لكل واحد منهما سلطان على حياله، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم في آخر سورة ﴿ الأنعام ﴾[2] بيانه. وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. روي معناه عن ابن عباس والضحاك. وقال مجاهد: أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال قتادة: لكل حدّ وعَلَم لا يعدوه

(١) راجع ٢/ ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية.

(٢) راجع ٧/ ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة. أي لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر. يحيى بن سلاّم: لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها. وقيل: معناه إذا ٱجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها؛ قاله ٱبن عباس أيضاً. وقيل: القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهي لا تدركه. ذكره النحاس والمهدوي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يُدفَع أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه في السير. ذكره المهدوي أيضاً. فأما قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في آخر ﴿الأنعام﴾[1] ويأتي في سورة ﴿القيامة﴾ أيضاً. وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة. ﴿وَكُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يجرون. وقيل: يدورون. ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل. وقال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصَقة ولو كانت ملصقة ما جرت؛ ذكره الثعلبي والماوردي. وٱستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق. وقيل: كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة؛ كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ أي راحة لأبدانكم من عمل النهار. فقوله: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلاناً أي غلبه. وذكر المبرّد قال: سمعت عمارة يقرأ ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ﴾ فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابِقٌ النهارَ فحذفت التنوين؛ لأنه أخفّ. قال النحاس: يجوز أن يكون ﴿النهارَ﴾ منصوباً بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين.

---

(١) راجع ٧/١٤٦ طبعة أولى أو ثانية.

[٤١] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ .

[٤٢] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

[٤٣] ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

[٤٤] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُم﴾ يحتمل ثلاثة معان: **أحدها** ـ عبرة لهم؛ لأن في الآيات ٱعتباراً. **الثاني** ـ نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاماً. **الثالث** ـ إنذار لهم؛ لأن في الآيات إنذاراً. ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ[١] فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ من أشكل ما في السورة؛ لأنهم هم المحمولون. فقيل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدوي. وحكاه النحاس عن عليّ بن سليمان أنه سمعه يقوله. وقيل: الضميران جميعاً لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم، فالفلك على القول الأوّل سفينة نوح. وعلى الثاني يكون ٱسماً للجنس؛ خبّر جل وعز بلطفه وٱمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشي والركوب من الذرية والضعفاء، فيكون الضميران على هذا متفقين. وقيل: الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام، فالآباء ذرية والأبناء ذرية؛ بدليل هذه الآية؛ قاله أبو عثمان. وسمي الآباء ذرية؛ لأن منهم ذرأ الأبناء. وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفلك المشحون، قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ذكره الماوردي. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٢] ٱشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى. و ﴿المشحون﴾ المملوء الموقَر و ﴿الفلك﴾ يكون واحداً وجمعاً. وقد تقدّم في ﴿يونس﴾[٣] القول فيه.

قوله تعالى: ﴿وخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم[٤] وأنه رأس آية. وفي معناه ثلاثة أقوال: مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير

---

(١) ﴿ذرياتهم﴾ بالجمع قراءة نافع. (٢) راجع ٢/ ١٠٧ وما بعدها طبعة ثانية.

(٣) راجع ٨/ ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٤) كذا في كل نسخ الأصل وفي إعراب القرآن للنحاس.

وروي عن ابن عباس أن معنى ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ للإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن. قال طَرَفة:

كأن حُدُوجَ المالكيةِ غُدوةً خَلاَيَا سفِينٍ بالنواصِفِ مِن دَدِ[1]

جمع خليّة وهي السفينة العظيمة. والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكل ما يركب. والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خلق لهم سفناً أمثالها يركبون فيها. وقال أبو مالك: إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروي عن ابن عباس والحسن. وقال الضحاك وغيره: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح. قال الماورديّ: ويجيء على مقتضى تأويل علي رضي الله عنه في أن الذرية في الفلك المشحون هي النطف في بطون النساء قول خامس في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُوْنَ﴾ أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكياً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي في البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال إن المراد ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ السفن لا الإبل. ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة. وروى شيبان عنه فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان. و ﴿صَرِيخَ﴾ بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل. ويجوز «فلا صرِيخٌ لهم»؛ لأن بعده ما لا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل في الدار ولا زيد. ومعنى ﴿ يُنْقَذُونَ ﴾ يخلصون من الغرق. وقيل: من العذاب. ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال الكسائي: هو نصب على الاستثناء. وقال الزجاج: نصب مفعولٍ من أجله؛ أي للرحمة ﴿وَمَتَاعاً﴾ معطوف عليه. ﴿إِلى حِينٍ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلاّم: إلى القيامة أي إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد ﷺ وإن كذبوه إلى الموت والقيامة.

---

(١) الحدوج جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء. والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة. والنواصف جمع ناصفة وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي. ودد موضع.

[٤٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادة: يعني ﴿ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الآخرة. ٱبن عباس وٱبن جبير ومجاهد: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما يأتي من الذنوب. الحسن: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من أجلكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بقي منه. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ٱبن عباس. قال: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أمر الآخرة وما عملوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا فٱحذروها ولا تغتروا بها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما ظهر لكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما خفي عنكم. والجواب محذوف والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دليله قوله بعد: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ ربهِم إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فٱكتفى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تصدّقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقيل هم المشركون قال لهم فقراء أصحابِ النبي ﷺ أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله. وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذرَأَ مِن الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ فحرموهم وقالوا: لو شاء الله أطعمكم ـ استهزاء ـ فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي أنرزق ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين أن الرازق هو الله. فقالوا هزءاً أنرزق من لو يشاء الله أغناه. وعن ٱبن عباس: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن. وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء الله لأعزّ ولو شاء الله لكان كذا. فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى. وقيل: قالوا هذا تعلقاً بقول المؤمنين لهم ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا؟. وكان هذا الاحتجاج باطلاً؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبداً مالاً ثم أوجب عليه فيه حقّاً فكأنه ٱنتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا في الاحتجاج. ومثله قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين، أي في سؤال المال وفي ٱتباعكم محمداً. قال معناه مقاتل وغيره. وقيل: هو من قول أصحاب النبي ﷺ لهم. وقيل: من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب. وقيل: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: ٱبتلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء. فقال: والله يا أبا بكر ما أنت إلا في ضلال؛ أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت؛ فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآيات. وقيل: نزلت الآية في قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، وٱستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول. ذكره القشيري والماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ لما قيل لهم ﴿ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا

خَلْفَكُمْ﴾ قالوا ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان هذا ٱستهزاء منهم أيضاً أي لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخة الصَّعْق. وفي ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ خمس قراءات: قرأ أبو عمرو وٱبن كثير ﴿ وَهُمْ يَخَصِّمُونَ ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد. وكذا روى ورش عن نافع. فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه ﴿يَخْصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ﴿ وهم يَخْصِمُونَ ﴾ بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه. وقرأ عاصم والكسائي ﴿ وهم يخِصِّمُونَ ﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهم بعضاً. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يبعثون. وقد روى ٱبن جبير عن أبي بكر عن عاصم وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد. قال النحاس: القراءة الأولى أبينها والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء في الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء ـ وفي حرف أبيّ ﴿وهم يختصِمون﴾ ـ وإسكان الخاء لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين. وقيل: أسكنوا الخاء على أصلها، والمعنى يخصم بعضهم بعضاً فحذف المضاف، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلَهم عند أنفسهم فحذف المفعول؛ قال الثعلبي: وهي قراءة أبيّ بن كعب. قال النحاس: فأما ﴿ يَخِصِمُون ﴾ فالأصل فيه أيضاً يختصمون، فأدغمت التاء في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وزعم الفرّاء أن هذه القراءة أجود وأكثر؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء وٱجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة، وزعم أنه أجود وأكثر. وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة! وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع. وقد مضى هذا في ﴿البقرة﴾[1] في ﴿يَخْطَفُ

---

(١) انظر ١/١٩٢ طبعة ثانية أو ثالثة.

﴿أَبْصَارَهُم﴾ وفي ﴿يونس﴾[١] في ﴿يَهِدِّي﴾. وقال عِكرمة في قوله جل وعز ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال: هي النفخة الأولى في الصور. وقال أبو هريرة: يُنفخ في الصّور والناس في أسواقهم؛ فمن حالبٍ لقحة، ومن ذارعٍ ثوباً، ومن مارّ في حاجة. وروى نعيم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يَلِيط[٢] حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبلّعها حتى تقوم الساعة». وفي حديث عبد الله بن عمرو «وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط حوضَ إبله ـ قال ـ فيصعق ويصعَق الناس» الحديث. ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً لما في يده من حقّ. وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم. ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا. وقيل: إن معنى ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يرجعون إليهم قولاً. وقال قتادة: ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى منازلهم، لأنهم قد أعجلوا عن ذلك.

[٥١] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

[٥٢] ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة. وقد بينا في سورة ﴿النمل﴾[٣] أنهما نفختان لا ثلاث. وهذه الآية دالة على ذلك. وروى المبارك بن

(١) راجع ٨/٣٤١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) يليط حوضه وفي رواية يلوط حوضه أي يطينه.

(٣) راجع ١٣/٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية.

فَضَالة عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كلّ حيّ والأخرى يحيي الله بها كلّ ميت». وقال قتادة: الصُّور جمع صُورَة؛ أي نفخ في الصور الأرواح. وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور؛ قال العَجّاج:

ورُبَّ ذِي سُـــرَادِقٍ مَحْجُـــورِ سِرْتُ إليهِ في أَعالِي السُّورِ

وقد روي عن أبي هريرة أنه قرأ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾. النحاس: والصحيح أن ﴿الصور﴾ بإسكان الواو. القَرْن؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله ﷺ، وذلك معروف في كلام العرب. أنشد أهل اللغة:

نحنُ نَطَحْناهُمْ غداةَ الْغُورَيْن بالضَّابِحاتِ في غُبار النَّقْعَيْن
نَطْحــاً شَـديــداً لا كنَطْــحِ الصُّـــورَيْـــن

وقد مضى هذا في ﴿الأنعام﴾[1] مستوفى. ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي القبور. وقرىء بالفاء ﴿مِن الأجدافِ﴾ ذكره الزمخشري. يقال جَدَثٌ وجَدَفٌ. واللغة الفصيحة الجدَث بالثاء والجمع أَجْدُث وأجداث؛ قال المتنخِّل الهُذَليّ:

عَـرفـتُ بـأَجْـدُثٍ فنِعـافِ عِرْقٍ عَــلامَـــاتٍ كتَحْبِيــرِ النِّمَـــاطِ

وٱجتدثَ أي ٱتخذ جَدَثاً. ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي يخرجون؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. ومنه قول ٱمرىء القيس:

فَسُلِّــي ثِيــابــي مِــنْ ثِيــابِــكِ تَنْسُلِــي

ومنه قيل للولد نَسْل، لأنه يخرج من بطن أمه. وقيل: يسرعون، والنَّسَلان والعَسَلان الإسراع في السير، ومنه مشية الذئب؛ قال[2]:

عَسَـلانَ الـذِّئـبِ أَمْسَـى قَـارِبـاً بَـــرَدَ الليـــلُ عليـــه فَنَسَـــلْ

يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل يَعْسِل ويَنْسِل من باب ضرب يضرب، ويقال: يَنسُل بالضم أيضاً وهو الإسراع في المشي، فالمعنى يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ

(١) راجع ٧/ ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) البيت للبيد، وقيل هو للنابغة الجعدي.

إلاَّ كنَفْسٍ واحِدةٍ﴾ وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ وفي «سأل سائل»: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون. وفي الخبر: شكونا إلى النبيّ ﷺ الضعف فقال «عليكم بالنَّسْل» أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنباري: ﴿يا ويلنا﴾ وقف حسن ثم تبتدىء ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾. وروي عن بعض القراء ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا﴾ بكسر مِن والثاء من البعث. روي ذلك عن عليّ رضي الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ حتى يقول ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. وفي قراءة أبيّ بن كعب ﴿مَنْ هَبَّنَا﴾ بالوصل ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوي: قرأ ابن أبي ليلى ﴿قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا﴾ بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ومثله ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾. وقرأ عليّ رضي الله عنه ﴿يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعْثِنَا﴾ فـ ﴿ـمن﴾ متعلقة بالويل أو حال من ﴿ويلتا﴾ فتتعلق بمحذوف، كأنه قال: يا ويلتا كائناً من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبراً عنه كذلك يجوز أن يكون حالاً منه. و ﴿مِن﴾ من قوله ﴿مِنْ مَرقَدِنَا﴾ متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذّبين في قبورهم؟ فالجواب أن أبيّ بن كعب قال: ينامون نومة. وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من أَهَبَّنَا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن ﴿أهبَّنا﴾ من لفظ القرآن كما قاله من طعن في القرآن، ولكنه تفسير ﴿بعثنا﴾ أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته ﴿مَن هَبَّنَا﴾ بغير ألف في أهبنا مع تسكين نون مَن. والصواب فيه على طريق اللغة ﴿مَن اهبَنَا﴾ بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون ﴿من﴾ وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: مَن اخبرك منَ اعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك. ويقال: أهببتُ النائمَ فهبَّ النائمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعَـاذِلَـةٍ هَبَّـتْ بِلَيْـلٍ تَلُـومُنـي ... ولم يَعتمِزْني قبلَ ذاكَ عَذولُ

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾

وقاله ٱبن عباس وقتادة. وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذِّبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم. قال مجاهد: فقال لهم المؤمنون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾. قال قتادة: فقال لهم من هدى الله ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾. وقال الفراء: فقال لهم الملائكة ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾. النحاس: وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل . وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ وكذا الحديث : « المؤمن عند الله خير من كل ما خلق » . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ . وقيل: إن الكفار لما قال بعضهم لبعض ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ صدّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فكذبنا به؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار. وكان حفص يقف على ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ثم يبتدىء فيقول ﴿ هَٰذَا ﴾. قال أبو بكر بن الأنباري: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وقف حسن؛ ثم تبتدىء ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ ويجوز أن تقف على ﴿ مَرْقَدِنَا هَٰذَا ﴾ فتخفض هذا على الإتباع للمرقد ، وتبتدىء ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ على معنى بَعْثكم ما وعد الرحمن ، أي بَعْثكم وعد الرحمن. النحاس: التمام على ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ و ﴿ هَٰذَا ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾. ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ فيكون التمام ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا ﴾ . ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ في موضع رفع من ثلاث جهات. ذكر أبو إسحق منها ٱثنتين قال: يكون بإضمار هذا. والجهة الثانية أن يكون بمعنى حقٌّ ما وعد الرحمن بَعْثكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بَعْثكم ما وعد الرحمن ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهي قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة؛ والشعور المتمزقة! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وهذا معنى قوله الحق : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾. وقال: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ على ما يأتي . وفي قراءة ٱبن مسعود إن صح عنه ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا رقية

وٰاحِدَةً﴾ والزقية الصيحة؛ وقد تقدّم هذا. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ وخبره ﴿جَمِيعٌ﴾ نكرة و ﴿مُحْضَرُونَ﴾ من صفته. ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مجموعون أحضروا موقف الحساب. وهو كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾. قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ أي لا تنقص من ثواب عمل. ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ما﴾ في محل نصب من وجهين: **الأول** ـ أنه مفعول ثانٍ لما لم يسمّ فاعله. **والثاني** ـ بنزع حرف الصفة؛ تقديره: إلا بما كنتم تعملون؛ أي تعملونه فحذف.

[٥٥] ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

[٥٦] ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

[٥٧] ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

[٥٨] ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

[٥٩] ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال ٱبن مسعود وٱبن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم ٱفتضاض العَذارى. وذكر الترمذيّ الحكيم في كتاب مشكل القرآن له: حدّثنا محمد بن حميد الرّازي، حدّثنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال: شغلهم ٱفتضاض العَذارى. حدّثنا محمد بن حميد، حدّثنا هرون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله. وقال أبو قِلاَبة: بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول؛ فيقال تحوّل أيضاً إلى أهلك. وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره. وقال وَكيع: يعني في السماع. وقال ٱبن كيسان: ﴿في شغل﴾ أي في زيارة بعضهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى. وروي أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين عبادي الذين

أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرِّي، ركباناً على نجب من نور أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق؛ حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقول الله جل وعز لهم: السلام على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا ٱصطفيتكم وأنا ٱجتبيتكم وأنا ٱخترتكم، ٱذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب فـ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها. ثم إن الخلق في المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض: يا قوم أين فلان وفلان؛ وذلك حين يسأل بعضهم بعضاً فينادي منادٍ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾. و ﴿شُغُل﴾ و ﴿شُغْلٍ﴾ لغتان قرىء بهما مثل الرُّعُبِ والرُّعْبِ، والسُّحت والسحْت؛ وقد تقدم[1]. ﴿فاكِهُونَ﴾ قال الحسن: مسرورون. وقال ٱبن عباس: فرحون. مجاهد والضحاك: معجَبون. السدي: ناعمون. والمعنى متقارب. والفكاهة المزاح والكلام الطيب. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ﴿فَكِهُونَ﴾ بغير ألف وهما لغتان كالفارِه والفَرِه والحاذِر والحَذِر؛ قاله الفراء. وقال الكسائي وأبو عبيدة: الفاكِه ذو الفاكهة مثل شاحم ولاحِم وتامر ولابِن، والفكه المتفكّه والمتنعّم. و ﴿فكِهون﴾ بغير ألف في قول قتادة معجَبون. وقال أبو زيد: يقال رجل فكِه إذا كان طيب النفس ضحوكاً. وقرأ طلحة بن مُصرِّف ﴿فاكِهين﴾ نصبه على الحال. ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ وخبره. ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ توكيداً ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف على المضمر و ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ نعت لقوله ﴿فاكِهُونَ﴾. وقراءة العامة ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ بكسر الظاء والألف. وقرأ ٱبن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ بضم الظاء من غير ألف؛ فالظلال جمع ظِلّ وظُلَل جمع ظُلّة. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني السُّرر في الحجال واحدها أريكة مثل سفينة وسفائن؛ قال الشاعر:

كأنّ احمرارَ الوردِ فوق غُصُونِهِ ... بوقتِ الضحى في روضةِ المتضاحِك
خُدُودُ عذارَى قد خَجِلن من الحَيَا ... تَهَادَيْنَ بالريحان فوق الأرَائِكِ

(١) راجع ٦/ ١٨٤ طبعة أولى أو ثانية.

وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدْن أبكاراً». وقال ٱبن عباس: إنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكراً، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، فيجامعها بقوة سبعين رجلاً ، لا يكون بينهما منيّ ؛ يأتي من غير منيّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر. ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء، لأنه يفتعلون من دعا أي من دعا بشيء أعطيه. قاله أبو عبيدة: فمعنى ﴿يَدَّعُونَ﴾ يتمنون من الدعاء. وقيل: المعنى أن من ٱدعى منهم شيئاً فهو له؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعي منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه. وقال يحيي بن سلام: ﴿يَدَّعونَ﴾ يشتهون. ٱبن عباس. يسألون. والمعنى متقارب. قال ٱبن الأنباري: ﴿ولهُم مَا يَدَّعُونَ﴾ وقف حسن، ثم تبتدىء ﴿سَلاَمٌ﴾ على معنى ذلك لهم سلام. ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾. وقال الزجاج: ﴿سلام﴾ مرفوع على البدل من ﴿ما﴾ أي ولهم أن يسلّم الله عليهم، وهذا منَى أهلِ الجنة. وروي من حديث جرير بن عبد الله البَجَليّ أن رسول الله ﷺ قال: « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ تعالى قد ٱطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم » ذكره الثعلبي والقشيري. ومعناه ثابت في « صحيح مسلم » وقد بيناه في ﴿ يونس ﴾[1] عند قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ . ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ نكرة و ﴿سَلاَمٌ﴾ نعتاً لها، أي ولهم ما يدعون مسلّم. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ رفع بالابتداء و ﴿سلام﴾ خبر عنها. وعلى هذه الوجوه لا يوقف على ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾. وفي قراءة ٱبن مسعود ﴿سلاماً﴾ يكون مصدراً، وإن شئت في موضع الحال؛ أي ولهم

(١) راجع ٨/ ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّما. فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿يَدَّعُونَ﴾. وقرأ محمد بن كعب القُرَظي ﴿سِلمٌ﴾ على الاستئناف كأنه قال: ذلك سِلم لهم لا يتنازعون فيه ويكون ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ تاماً. ويجوز أن يكون ﴿سلام﴾ بدلاً من قوله ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ وخبر ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ لهم. ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبراً آخر ويكون معنى الكلام أنه لهم خالص من غير منازع فيه. ﴿قَوْلاً﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولاً. أو يقوله قولاً ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره. ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولاً أي عِدة من الله. فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على ﴿يَدَّعُونَ﴾. وقال السجستاني: الوقف على قوله ﴿سلَامٌ﴾ تام؛ وهذا خطأ لأن القول خارج مما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال تميَّزوا وٱمّازوا وٱمتازوا بمعنى؛ ومِزته فٱنماز وٱمتاز، وميّزته فتميّز. أي يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة؛ أي ٱخرجوا من جملتهم. قال قتادة: عُزِلوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة. وعنه أيضاً: إن لكل فرقة في النار بيتاً تدخل فيه ويردّ بابه، فتكون فيه أبداً لا تَرَى ولا تُرى. وقال داود بن الجرّاح: فيمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين.

[٦٠] ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

[٦١] ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

[٦٣] ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية، أي ألم أوصكم وأبلغتكم على ألسنة الرسل ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي . قال الكسائي : لا للنهي ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل ، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادتي دين قويم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ منكُمْ﴾ أي أغوى ﴿جِبِلاًّ كَثِيراً﴾ أي خلقاً كثيراً؛ قاله مجاهد. قتادة: جموعاً كثيرة. الكلبي أمماً كثيرة؛ والمعنى واحد. وقرأ أهل المدينة وعاصم ﴿جِبِلاًّ﴾ بكسر الجيم والباء، وأبو عمرو وابن عامر ﴿جُبْلاً﴾ بضم الجيم وإسكان الباء، الباقون ﴿جُبُلاً﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وشدّدها الحسن وابن أبي إسحق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس. وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي ﴿جِبْلاً﴾ بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام. فهذه خمس قراءات. قال المهدوي والثعلبي: وكلها لغات بمعنى الخلق. النحاس: أبينها القراءة الأولى. والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا ﴿والجِبِلَّةَ الأَوّلِينَ﴾ فيكون ﴿جِبِلاًّ﴾ جمع جِبِلَّةٍ والاشتقاق فيه كله واحد. وإنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أي خلقهم. وقد ذكِرت قراءة سادسة وهي: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِيلاً كَثِيراً﴾ بالياء. وحكي عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردي. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله. ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عُنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي منادٍ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

[٦٥] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون ممّ أضحك ـ قلنا الله ورسوله أعلم قال ـ من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجرني من الظُّلْم قال يقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلاّ شاهداً منّي قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه فيقال لأركانه أنطقي قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكنّ وسُحقاً فعنكنّ كنت أناضِل» خرجه أيضاً من حديث أبي هريرة. وفيه «ثم يقال له الآن نبعث شاهدَنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][1] أنطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه». وخرّج الترمذي عن معاوية بن حَيْدَة عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال «من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرِب عن أحدكم فخذه» في رواية أخرى «فخذه وكفّه» الفِدام مِصْفاة الكوز والإبريق؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذي يجعل على الإبريق. ثم قيل في سبب الختم أربعة أوجه: **أحدها** ـ لأنهم قالوا

---

(١) الزيادة من «صحيح مسلم».

﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم؛ قاله أبو موسى الأشعري. **الثاني ـ** ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم؛ قاله ٱبن زياد. **الثالث ـ** لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق؛ لخروجه مخرج الإعجاز، وإن كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز. **الرابع ـ** ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعواناً في حق نفسه صارت عليه شهوداً في حقّ ربه. فإن قيل لم قال ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فجعل ما كان من اليد كلاماً وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول، وعما صدر من الأرجل بالشهادة. وقد روي عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى» ذكره الماوردي والمهدوي. وقال أبو موسى الأشعري: إني لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى؛ ذكره المهدوي أيضاً. قال الماوردي: فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التي هي في الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها. قال: وتقدمت اليسرى، لأن الشهوة في ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبة الشهوة، أو كلاهما معاً والكفّ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ حكى الكسائي: طَمَسَ يَطمِس ويَطمُس. والمطموس والطَّمِيس عند أهل اللغة الأعمى الذي ليس في عينيه شقّ. قال ٱبن عباس: المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحقّ. وقال الحسن والسدي: المعنى لتركناهم عمياً يتردّدون. فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها. وهذا ٱختيار الطبري. وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي ٱستبقوا الطريق ليجوزوا ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فمن أين يبصرون. وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لفقأنا

أعين ضلالتهم، وأعميناهم عن غيِّهم، وحوَّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فاهتدوا وأبصروا رشدَهم، وتبادروا إلى طريق الآخرة. ثم قال: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ولم نفعل ذلك بهم؛ أي فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلال باقية. وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومُدَّ الصراط، نادى منادٍ ليقم محمد ﷺ وأمته، فيقومون بَرُّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم ينادي منادٍ ليقم عيسى ﷺ وأمته فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. ذكره النحاس وقد كتبناه في التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك في رقائقه. وذكره القشيري. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخذ الأسود بن الأسود حجراً ومعه جماعة من بني مخزوم ليطرحه على النبي ﷺ، فطمس الله على بصره، وألصق الحجر بيده. فما أبصره ولا اهتدى، ونزلت الآية فيه. والمطموس هو الذي لا يكون بين جَفنيه شَقّ، مأخوذ من طَمَس الريحُ الأثرَ؛ قاله الأخفش والقتبي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ المسخ تبديل الخلقة وقلبها حجراً أو جماداً أو بهيمة. قال الحسن: أي لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر. وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعاً تقصده فتتحيّر، فلا تُقبل ولا تُدبِر. ابن عباس رضي الله عنه: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم. وقيل: المعنى لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترءوا فيه على المعصية. ابن سَلاَم هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط. وقرأ الحسن والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبَيش وعاصم في رواية أبي بكر ﴿مَكَانَاتِهِم﴾ على الجمع: الباقون بالتوحيد: وقرأ أبو حَيْوة ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مَضِيًّا﴾ بفتح الميم. والمضي بضم الميم مصدر مضى يَمضي مُضيًّا إذا ذهب.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس. الباقون ﴿ نَنْكُسْهُ ﴾ بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أَنْكسُه نَكْساً قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة: المعنى أنه يصير إلى حال الهَرَم الذي يشبه حال الصبا. وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوّته. قال الشاعر:

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ 		وخانه ثِقَتاه السَّمْع والبصرُ

فطول العمر يصيّر الشباب هَرَما، والقوّة ضعفاً، والزيادة نقصاً، وهذا هو الغالب. وقد تعوّذ ﷺ من أن يردّ إلى أرذل العمر. وقد مضى في ﴿النحل﴾[1] بيانه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم. وقرأ نافع وابن ذكوان ﴿تعقلون﴾ بالتاء. الباقون ياالياء.

[٦٩] ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

[٧٠] ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ أخبر تعالى عن حال نبيّه ﷺ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ. من ذلك أنه أنشد يوماً قول طرفة:

سَتُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً 		ويأتيكَ من لم تزوِدْه بالأخبار

وأنشد يوماً وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول:

ألم ترياني كلّما جئتُ طارقاً 		وجدتُ بها وإن لم تطيَّب طِيبَا

(١) راجع ١٠/ ١٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وأنشد يوماً:

أتجعلُ نَهْبِي وَنَهْبَ العبيدِ بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر. روي أنه أنشد بيت [عبد الله بن رَوَاحة]:

يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشِهِ إذا ٱستثقلت بالمشركين المضاجِعُ

وقال الحسن بن أبي الحسن أنشد النبي عليه السلام:

كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهياً

فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هريرةَ ودِّعْ إن تَجهزْتَ غاديًا كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء نَاهيًا

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن لا يتأتى له.

الثانية - إصابته الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حُنين وغيره:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ اللَّهِ ما لَقيتِ

وقوله:

«أنَا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ٱبن عبدِ المطلبْ»

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام وليس ذلك شعراً ولا في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وقوله: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ٱبن العربي منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: «أنا النبيّ لا كَذِبْ» ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعراً. وروي عنه أنه من منهوك

الرجز. وقد قيل لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب». ومن قوله: «عبد المطلب». ولم يعلم كيف قاله النبيّ ﷺ. قال ابن العربي: والأظهر من حاله أنه قال «لا كَذِبُ» الباء مرفوعة وبخفض الباء من عبد المطلِب على الإضافة. وقال النحاس قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوّل أو ضمها أو نوّنها، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر. وقال بعضهم: ليس هذا الوزن من الشعر. وهذا مكابرة العيان؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره. وأما قوله: «هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيتِ» فقيل إنه من بحر السريع، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت، فإن سكن لا يكون شعراً بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر السريع. ولعل النبيّ ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع. والمعوّل عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبيّ ﷺ عالماً بالشعر ولا شاعراً أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالماً بالشعر، ولا يسمى شاعراً باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطاً لا يكون خياطاً. قال أبو إسحق الزجاج: معنى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل: إنما خبَّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر، ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً، وهذا ظاهر الكلام. وقيل فيه قول بيِّن؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر. وهذا قول بيّن. قالوا: وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العلم بالشعر وأصنافه، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق، ألا ترى أن قريشاً تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم: نقول إنه شاعر. فقال أهل الفطنة منهم: والله لتكذبنكم

العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئاً منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذرّ: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر[1] فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. على ما يأتي بيانه من خبره في سورة ﴿فصلت﴾ إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْن البلغاء. ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرا، وإنما يعدّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدّثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي، ولا يعدّ هذا شعراً. وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: اْذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى.

الثالثة ـ روى ٱبن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري؛ أن ٱجمع الشعراء قبلك؛ وسَلْهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأحْضر لبيداً ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيداً فقال: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الۤمۤ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ قال ٱبن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبيّ ﷺ من عيب الشعر. روي أن المأمون قال لأبي عليّ المِنْقري: بلغني أنك أميّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال يا أمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبيّ ﷺ فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما منع النبيّ ﷺ ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة.

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما ينبغي له أن يقوله، وجعل الله جلّ وعزّ ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه، فيظن أنه قوِي على القرآن بما في طبعه من القوّة على الشعر. ولا ٱعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعراً؛ على ما تقدّم بيانه. وقال الزجاج: معنى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما يتسهّل له قول الشعر لا الإنشاء. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي حيّ القلب؛ قاله قتادة. الضحاك: عاقلاً. وقيل: المعنى لتنذر من كان مؤمناً في علم الله. هذا على قراءة التاء خطاباً للنبيّ عليه السلام، وهي قراءة نافع وٱبن عامر. وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر اللَّهُ عز وجل، أو لينذر محمدٌ ﷺ، أو لينذر القرآنُ. وروي عن ٱبن السَّمَيْقَع ﴿لِيَنْذَر﴾ بفتح الياء والذال. ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة.

[٧١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

[٧٢] ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

[٧٣] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب. أي أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا. ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة. و ﴿ما﴾ بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم، وإن جعلت ﴿ما﴾ مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء. ﴿أَنْعَاماً﴾ جمع نعم والنعم مذكر. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون. ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبيّ الجمل العظيم ويضربه ويُصَرِّفُهُ كيف شاء لا يخرج من طاعته. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أي مركوبهم، كما يقال ناقة

حلوب أي محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وأبن السَّمَيْقَع ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء على المصدر. وروي عن عائشة أنها قرأت ﴿فَمِنْهَا رَكُوبَتُهمْ﴾ وكذا في مصحفها والرَّكوب والرَّكوبة واحد مثل الحلوب والحَلوبة والحَمول والحمولة. وحكى النحويون الكوفيون: أن العرب تقول آمرأة صَبور وشَكور بغير هاء. ويقولون شاة حَلوبة وناقة رَكوبة؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعاً عليه، فحذفوا الهاء مما كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان مفعولاً؛ كما قال(١):

فيهـا ٱثنتـانِ وأربعـون حَلُـوبَـةً سوداً كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم. فأما البصريون فيقولون حذفت الهاء على النسب. والحجة للقول الأول ما رواه الجرمي عن أبي عبيدة قال: الرَّكُوبة تكون للواحد والجماعة والرَّكُوب لا يكون إلا للجماعة. فعلى هذا يكون لتذكير الجمع. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء لأنه مصدر؛ والرَّكُوب ما يركب. وأجاز الفرّاء ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحمانها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانها؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التي لا نظير لها في الواحد. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه.

[٧٤] ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

[٧٦] ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم ٱتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي لما يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شدّاد.

لهم إن نزل بهم عذاب. ومن العرب من يقول لعله أن يفعل. ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة. وجمعوا بالواو والنون؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي للآلهة، ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم. وقال قتادة: أي يغضبون لهم في الدنيا. وقيل: المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وقيل: إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرؤون من عبادتهم. وقيل: الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم. وفي الخبر: إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار، فهم لهم جند محضرون.

قلت: ومعنى هذا الخبر ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة، وفي الترمذيّ عنه أن النبيّ ﷺ قال: «يَجمع اللّهُ الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ أَلاَ لِيتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمثَّل لصاحب الصّليب صليبهُ ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون» وذكر الحديث بطوله. ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغة الفصيحة. ومن العرب من يقول يُحْزِنك. والمراد تسلية نبيه عليه السلام أي لا يحزنك قولهم شاعر ساحر. وتم الكلام ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك.

[٧٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ﴾ قال ٱبن عباس: الإنسان هو عبد الله بن أُبيّ. وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السَّهْميّ. وقال الحسن: هو أبيّ ين خلف الجُمَحيّ.

وقاله ابن إسحق، ورواه ابن وهب عن مالك. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي مجادل في الخصومة مبين للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. وذلك أنه أتى النبيّ ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبيّ ﷺ: «نعم ويبعثك الله ويدخلك النار» فنزلت هذه لآية.

[٧٨] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

[٧٩] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة. أي جوابه من نفسه حاضر ؛ ولهذا قال عليه السلام : « نعم ويبعثك الله ويدخلك النار » ففي هذا دليل على صحة القياس ؛ لأن الله جل وعز احتج على منكري البعث بالنشأة الأولى . ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي بالية . رَمَّ العظمُ فهو رَميمٌ ورِمَام . وإنما قال رميم ولم يقل رميمة ؛ لأنَّها معدولة عن فاعلة ، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه ؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية . وقيل : إن هذا الكافر قال للنبيّ ﷺ : أرأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عَجْم الذَّنَب . ويقال عَجْبُ الذَّنَب بالباء . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي كيف يبدىء ويعيد.

الثانية ـ في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت. وهو قول أبي حنيفة[1] وبعض أصحاب الشافعي. وقال الشافعي رضي الله عنه: لا حياة فيها. وقد تقدّم هذا في ﴿النحل﴾. فإن قيل أراد بقوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ﴾ أصحاب العظام، وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة، موجود في الشريعة. قلنا: إنما يكون إذا ٱحتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذا الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه؛ قاله ٱبن العربي.

[٨٠] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

[٨١] ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

[٨٢] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

[٨٣] ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرَق اليابس من العود النديّ الرطب. وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة. فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِي جعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً﴾ أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضّد من الضّد، وهو على كل شيء قدير. ويعني بالآية

(١) هذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدّم للمؤلف في ١٠/١٥٥ من أن أبا حنيفة يقول بطهارة عظم الميتة.

ما في المَرْخ والعَفَار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولهم: في كل شجر نار وٱسْتمجدَ المَرْخُ والعَفَار[١]، فالعَفَار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحكّ بعضُهما إلى بعض فتخرج منهما النار. وقال: ﴿مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: ﴿مِنْ شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ﴾. ثم قال تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلاّم أبو المنذر ويعقوب الحضرمي: ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ على أنه فِعل. ﴿بَلَى﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ وقرأ الحسن بٱختلاف عنه ﴿الْخَالِقُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾ قرأ الكسائي ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾ أي إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك. ومَلكوتُ ومَلَكُوتَي في كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جَبَرُوتَي خيرٌ مِن رَحَمُوتَي. وقال سعيد عن قتادة: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مفاتح كل شيء. وقرأ طلحة بن مصرِّف وإبراهيم التيمي والأعمش ﴿مَلَكَةُ﴾ وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تردّون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميّ وزرّ بن حُبَيش وأصحاب عبد الله ﴿يَرْجعُونَ﴾ بالياء على الخبر.

---

(١) ٱستمجد المرخ والعفار: أي ٱستكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما. وهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية. قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعني ابن الحارث ـ عن ابن أبي ذئب قال: أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾

قال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾، هي: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيْل، عن أبي مالك الأشجعي، عن رِبْعيّ، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعلت لنا تُربتها طهوراً إذا لم نجد الماء». وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون في الصف». وقال السدي وغيره: معنى قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾: أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾: ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ٥، ٦]. وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، قرىء بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦ـ١٨]. وقوله هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهو السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ أي: مستنير. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فَبَثَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة ـ قال وكيع: يعني بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث.

وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: ﴿أم من عددنا﴾ ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذي يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلاَّل بني آدم. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنما هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدِمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير، رضي الله عنه: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم وغيرهم. وقال سفيان الثوري، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم. وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم. وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: قُرناءهم. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أماكنهم. وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا النُّفَيلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثاً يُحدِّث عن بشر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾. ورواه الترمذي، من حديث ليث بن أبي سليم. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس

مرفوعاً. وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]. قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء. وقال مجاهد: يعني: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه. وقال السدي: تأتوننا عن اليمين من قبل الحق، تزينون لنا الباطل، وتصدونا عن الحق. وقال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ إي والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه. وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به. وقال يزيد الرِّشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾: تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: الجميع في النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدثنا عمي، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعني عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هُرَيرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله في كتابه ـ وذكر قوماً استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾». وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمّاد، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ـ قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير ـ قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجي الله المؤمنين.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيباً لهم، ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾، يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرْعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة،

وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى: مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ ـ ٦]، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]؛ ولهذا قال: هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ قال قتادة، والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: يُخدمون ويرزقون ويرفهون وينعمون، ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ينظر بعضهم إلى بعض. حديث غريب. وقوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولاً ـ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها. وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الكَأْسُ تَغْتَالُنَا وتَذْهَبُ بالأوَّلِ الأوَّلِ

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس: ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة «الصافات».

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن. وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾. وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾؛ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وينشد هاهنا بيت أبي دهبل الشاعر في قصيدة له:

وَهِـيَ زَهْـرَاء مِـثْـلَ لُـؤْلُـؤ الـغَـوّ اص مُـيِّـزَتْ مِـن جَـوهَـر مـكْـنُـون

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ يعني: محصون لم تمسه الأيدي. وقال السدي: البيض في عشه مكنون. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾، يعني: بطن البيض. وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السدي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفي الدمياطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ قال: «رقتهن كرقة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة، التي تلي القشر، وهي الغِرْقِىء».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أبو غسان النهدي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ﷻ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون ـ أو: اللؤلؤ المكنون».

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان، قال الله تعالى ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس]؛ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟ قال: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصري وقتادة، والسدي، وعطاء الخراساني وغيرهم: يعني في وسط الجحيم. وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي. وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: في الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها، فازداد شكراً. ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾، يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العَدَني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أي: لا يموتون فيها. فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾. وقال الحسن البصري: علموا أن كل

نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾، قيل لهم: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠﴾. وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة. وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال: إن رجلين شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك داراً من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاماً. فلما أتاه قال: إني تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعت هذين البستانين. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة. فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوي قراءة من قرى: ﴿أئنك لمن الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بالتشديد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾؟ قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً ـ يعني شريكه الكافر ـ اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً بألف دينار، ثم يموت غداً ويتركها، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار، أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك، أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون بي فيها، ويعملون لي فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً ـ يعني شريكه الكافر ـ اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غداً ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإني أشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة. ثم أصبح فقسمها على المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتني بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً ـ يعني شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا، فيموت غداً فيتركها، أو تموت فتتركه، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيناء في الجنة. ثم أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقي المؤمن ليس عنده شيء. قال: فلبس قميصاً من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرّاً فجعله على رقبته، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرني نفسك مشاهرة، شهراً بشهر، تقوم على دواب لي تعلفها وتكنس سَرْقينها؟

قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهراً بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكي الكافر، فلأعملن في أرضه فيطعمني هذه الكسرة يوماً، ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد في السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لي صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقاً فنم في ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالي وهذه حالك. قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: لا تسألني عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل في أرضك هذه، فتطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضته؟ قال: من؟ قال: المليء الوفي. قال: من؟ قال: الله ربي. قال: وهو مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ـ قال السدي: محاسبون ـ قال: فانطلق الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوي عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هاوية، قال: فيريه الله شريكه في وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾: بمثل ما مَنَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره، من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغيره ذلك من الملاذ ـ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ أي: التي في جنهم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].
وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ غذت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].
وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أصل منبتها في قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها. قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر. وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى

وأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟». ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم.

وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجاً من حميم. وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح الحضرمي، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدني منه شوي وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فيها، فلو أن ماراً يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل - وهو الذي قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. وقال السدي في قراءة عبد الله: ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾ وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. وروى الثوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم». قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: فلنعم المجيبون له، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾، وهو التكذيب والأذى،

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، قال: «سام، وحام، ويافث». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم». ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العَقَدِيّ، عن يزيد بن زُرَيع، عن سعيد ـ وهو ابن أبي عروبة ـ عن قتادة، به. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ: وقد روى عن عمران بن حُصين، عن النبي ﷺ مثله. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سامُ العربَ وفارسَ والرومَ، وولد يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوج ومأجوج، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر. وروي عن وهب بن منبه نحو هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك. ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: أهلكناهم، فلم تبْق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عَوْف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعاناً. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾. قال قتادة: يعني: ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم: يعني قتادة: أنه نظر في السماء متفكراً فيما يلهيهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف. فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: هي أختي». فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ما حَمَل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هي أختي». قال سفيان في

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون. وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

وقال آخرون: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله ﷻ. وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعاماً قرباناً لتُبرّك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه صنم آخر أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بَرَكَت الآلهةُ في طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟! وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾: قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟! أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يحتمل أن تكون «ما» مَصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربْعِيّ بن حراش، عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته». وقرأ بعضهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يعني: أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقيَ إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه

إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فالله أعلم.
وعن ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.
وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وَحْي» ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].
قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت.
وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم. ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغَنَوِيّ، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودِيَ من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش. وذكر تمام الحديث في «المناسك» بطوله. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق». فعن ابن عباس في تسمية الذبيح روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتي بيانه.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلَتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرينه في ميزاب الكعبة قد حَشَّ، يعني: يبس. وقال عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبي ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني قد خَبَأْتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فداك أبي وأمي ـ أو: فداه أبي وأمي ـ أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِيَ ذَبْح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: وَلِم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان في

أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: إنه لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحني؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فلحق بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: وَلِم أذْبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع. وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبي سفيان بن أسيد بن جَارِيَةَ الثقفي أخبره، أن كعباً قال لأبي هريرة... فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إني أدعو أن تستجيب لي: أيُما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبيء شفاعتي، فاختبأت شفاعتي، ورجوت أن تكفر الجَمّ لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كرْبَ الذبح قيل له: يا إسحاق، سَل تُعْطَهْ. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاغفر له وأدخله الجنة». هذا حديث غريب منكر. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حَسَداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق عليهما السلام، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٠﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، منقاداً لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٧].

وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾ قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعْفي، عن أبي الطفيل، عن علي، رضي الله عنه: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة ـ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمَرة في ثَبير. وقال الثوري أيضاً، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العَطّار، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثَبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قَرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق. وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى تَشَقق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر. وعن الحسن البصري: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير. وقال ابن جُرَيْج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾. والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش. وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾ قال: وَعْلٌ. وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأزوى، أهبط عليه من ثبير. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مُسافع، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ـ وَلدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ـ وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك

النبي ﷺ؟ قال: قال: «إني كنتُ رأيتُ قرني الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». قال سفيان: لم يزل قرناً الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا. وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فدي به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟: ذكر من قال: هو إسحاق عليه السلام: قال حمزة الزيات، عن أبي ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا ـ والله ـ يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله. وقال الثوري، عن أبي سنان، عن ابن أبي الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضاً. وقال سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يا رب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه. وإن إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن». وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله صلوات الله وسلامه عليهم. وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلي بن أبي طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهري، والقاسم بن أبي بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضرة، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق. وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهري، عن أبي سفيان بن العلاء بن جارية، عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق. وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضي الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضي الله عنه، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوه عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف واحد مما عنده. وقد حكى البغوي هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهري، والسدي ـ قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس. وقد ورد في ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده ـ قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: هو إسحاق. ففي إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، به مرفوعاً. ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا أشبه وأصح.

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيح المقطوع به: قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام. وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران. وقال الشعبي: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة. وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل. قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل. وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم؛ أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر

فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز ـ فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله ﷺ. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي ـ من ولد عتبة بن أبي سفيان ـ عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني. وهذا حديث غريب جداً. وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي ـ من ولد عتبة بن أبي سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة. وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي «هود» و«الحجر». وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته. وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قال: إنما بشر به نبياً حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبىء. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد لله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾. وقوله: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ

ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: في الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: أبقينا لها من بعدهما ذكراً جميلاً وثناء حسناً، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. . وقال وَهْب بن منبِّه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي: ﴿بَعْلًا﴾ يعني: رباً. قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة قال: هي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها «بعلبك»، غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي للعذاب يوم الحساب، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: ثناء جميلاً، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد. وأنشد بعض بني نمير في ضَبٍّ صَادَه.

يَقُولُ رَبُّ السوق لما جينا ... هذا وربِّ البيت إسْرَائينا

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، طور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: ﴿سلام على إدراسين﴾، وهي قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، يعني: آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: أي: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، في سورة الأنبياء. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى ونَسَبه إلى أمه»، وفي رواية قيل: «إلى أبيه». وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أي: المملوء بالأمتعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام، ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحماً، ولا يكسر له عظماً. فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمْعَة، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوماً، قاله أبو مالك. وقال مُجَالد، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُساً ... وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيَا

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفي حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدي، والحسن، وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، يعني: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلحين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبويه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، هو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرَّقاشي حَدّثه: أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أن يونس النبي ﷺ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عَمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعَراء. ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حُمَيد بن زياد: فأخبرني ابن قُسيَط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدُّباء. قال أبو هريرة: وهَيَّأ الله له أرْوِيَّة وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو قال: هشاش الأرض ـ قال: فَتَتَفَشَّح عليه فَتَرْويه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ، لَوْلا اللهُ أُلْفِي ضَاحِيَا

وقد تقدم حديث أبي هريرة مسنداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء. ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدي: كهيئة الصبي: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضاً. ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس،

ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَساف، وعبد الله بن طاوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين. وفي رواية عنه: كل شجرة تَهْلِك من عَامِها فهي من اليقطين. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من حَوَاشي الصَّحْفة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾: روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثني الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال، عن شهر، به. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعةً وأربعين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البَرْقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زُهيراً عمن سمع أبا العالية قال: حدثني أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، قال: يزيدون عشرين ألفاً. ورواه الترمذي عن علي بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير، به. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد. وقوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات، سبحانه ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨] أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: أيّ شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ أي: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ أي: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزَّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجَوِّزُه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لِكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي هذا الذي قاله نظر.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل. ثم قال تعالى مُنَزِّهاً للملائكة مما نَسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه. وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطّت السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. وقال الضحاك في تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ قال: كان مسروق يَرْوِي عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾. وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مسروق: عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾. وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: نقف صفوفاً في الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾، فصفوا. وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضي الله عنه. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير. وفي صحيح مسلم عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾: الملائكة يسبحون الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾، يعني: المصلون، يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا

أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيَّى ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً في معناها. وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾. ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم. قال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضي الله عنه، قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». ورواه البخاري من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس. وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغدَوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولو مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين. وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي ذي العزة التي لا تُرام، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيته، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين». هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك. وقد أسند ابن أبي حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعين، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ ثم يسلم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا شبابة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل

آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

وروى من وجه آخر متصل موقوف على علي، رضي الله عنه. قال أبو محمد البغوي في تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصبغ بن نباته، عن علي، رضي الله عنه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾. وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر». وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءاً على حدة. فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى.

آخر تفسير سورة الصافات



(٣٧) سورة الصافات مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفاً) بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك فى قوله (فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) والباقون بالإظهار ، وقال الواحدى رحمه الله : إدغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان فى الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص فى الأزيد حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً فى الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء فى الزاى فى قوله (فالزاجرات زجراً) حسن لأن التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان فى الصاد ، وأيضاً حسن إدغام التاء فى الذال فى قوله (فالتاليات ذكراً) لاتفاقهما فى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه (الأول) أنها صفات الملائكة ، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفاً . إما فى السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون) وقيل إنهم يصفون أجنحتهم فى الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة أو فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله (فالزاجرات زجراً) فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته ليمضى ، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أى نهيته فانتهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان

www.besturdubooks.wordpress.com

كالنهى ،إذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الأول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذى وكلوا بالسحاب يزوجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع (الثانى) المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجراً (الثالث) لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والإيذاء ، وأقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر فى شىء ويتأثر عن شىء آخر وهوعالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله ، ثم إنها تؤثر فى عالم الأجسام ، واعلم أن الجهة التى باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله (فالتاليات ذكراً) اشارة إلى الأشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل ، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل فى المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله تعالى (فالملقيات ذكراً) إذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة أخرى وهى أن الكمال المطلق للشىء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ، ومن المعلوم أن كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره ، إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إزالة ما لا ينبغى عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية ، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة ، قال أبو مسلم الأصفهانى لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ، والجواب من وجهين (الأول) أن الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوى ، أما التأنيث فى

www.besturdubooks.wordpress.com

اللفظ فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) أن تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين (الأول) أن قوله تعالى (والصافات صفاً) المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس فى قلوبهم فى أثناء الصلاة وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت ، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبابكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا ؟ فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاث فى هذه الآية أن المراد من قوله (والصافات صفاً) الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله (والزاجرات زجراً) اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات ، والمراد من قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فقوله (والصافات صفاً) المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً) وأما (الزاجرات زجراً) فالزجرة والصيحة سواء ، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل ، وأما (التاليات ذكراً) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله (والصافات صفاً) المراد آيات القرآن فانها أنواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكاليف والأحكام وبعضها فى تعليم الأخلاق الفاضلة ، وهذه الآيات مرتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين فى صفوف معينة وقوله (فالزاجرات زجراً) المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله (فالتاليات ذكراً) المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقال (يس والقرآن الحكيم) قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشىء واحد (وأما الاحتمال الثانى) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله (والصافات صفاً) الطير من قوله تعالى (والطير صافات) (والزاجرات) كل ما زجر عن معاصي الله (والتاليات) كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه

www.besturdubooks.wordpress.com

وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة ، فالأرض وسط العالم وهى محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسمانى فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى . وأما الجواهر الروحانية فهى على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة فى صفتين أحدهما التأثير فى عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الاشارة بقوله (فالزاجرات زجراً) فانا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثانى الإدراك والمعرفة والاستغراق فى معرفة الله تعالى والثناء عليه ، واليه الاشارة بقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف فى الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة فى معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) لاجرم بدأ فى المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال (والصافات صفاً) ثم ذكر فى المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر فى هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهى الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق فى الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثانى) أن الحلف بالشيء فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله . (والثالث) أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به فى بعض السور وهو قوله تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) ، (والقول الثانى) قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثانى) أنه تعالى قال (والسماء وما بناها) فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وأنه لا يجوز (الثالث) أنه لا يبعد أن تكون الحكمة فى قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لاسيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم ، فان قيل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الأول) أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات

www.besturdubooks.wordpress.com

(الثانى) أنه تعالى حلف فى أول هذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف فى أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال (والذاريات ذرواً) إلى قوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء ، والجواب من وجوه (الأول) أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثانى) فى الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الإله واحداً ، وهو قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وذلك لأنه تعالى بين فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد ، فههنا لما قال (إن إلهكم لواحد) أردفه بقوله (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام فى قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة إلى حيث يكفى فى إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم ، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى (ورب المشارق) فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدى المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقا ومغرباً ، فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق ؟ قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله (تقيكم الحر) والثانى أن الشرق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج الأصحاب بقوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما) على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد ، قالوا لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض ، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه ، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله ، وإن قالوا الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والأعراض ليست كذلك ، قلنا إنها لما

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

كانت حاصلة فى الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهى أيضاً حاصلة بين السماء والأرض

قوله تعالى : ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ فى الآية مسائل :

﴿**المسألة الأولى**﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهورد معرفة على نكرة كما قال (بالناصية ناصية) فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد . وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة ، لأن بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الإضافة .

﴿**المسألة الثانية**﴾ بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين (إحداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (**أما الأول**) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلقائل أن يقول إنه ثبت فى علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة ، وأن السيارات الستة مركوزة فى الكرات الست المحطية بسماء الدنيا فكيف يصح قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، وعلى أنا قد بينا فى علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان أن هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة (تبارك الذى بيده الملك) فى تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان :

﴿**البحث الأول**﴾ أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله (بزينة الكواكب) يحتملهما فان أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها

www.besturdubooks.wordpress.com

إنما زينت السماء بحسنها فى أنفسها ، وإن أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها ، وأن يراد ما زينت به الكواكب .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه : (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فأن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس (بزينة الكواكب) أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الإنسان إذا نظر فى الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها فى التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله (وحفظاً من كل شيطان مارد) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ فيما يتعلق باللغة فقوله (وحفظاً) أى وحفظناها ، قال المبرد إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال ، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و (من كل شيطان مارد) يريد الذى تمرد على الله قيل إنه الذى لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله (صرح ممرد) ومنه الأمرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله (مردوا على النفاق) .

﴿البحث الثانى﴾ فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وبقى ههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء ، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثانى : وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال فى سورة (تبارك الذى بيده الملك) ، (ولقد زينا السماء الدنيا

www.besturdubooks.wordpress.com

بمصابيح (وجعلناها رجوماً للشياطين) فالضمير فى قوله (وجعلناها) عائد إلى المصابيح ، فوجب أن تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت ، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية . وأما قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز . أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة (والجواب) أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا فى بعض الأوقات ، وسلموا فى بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، هذا ماذكره أبو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ، ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، وإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين فى البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذى يسلم من الإحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل البتة ، والأقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق فى الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قالوا دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى ﷺ ، فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجىء النبى ﷺ امتنع حمله على مجىء النبى ﷺ ، أجاب القاضى بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبى ﷺ لكنها كثرت فى زمان النبى ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ السؤال الرابع ﴾ الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتنى من نار) وقال(والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فاذا وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالا منهم لاجرم صار الأقوى مبطلا للأضعف ، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع فى النار القوية فانه ينطفىء فكذلك ههنا .

﴿ السؤال الخامس ﴾ أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فان قلتم إن الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا ينفى سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم ؟ (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه فى سورة الملك ، وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (لا يسمعون) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد فى يسمعون ، قال لأن العرب تقول تسمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان ، وقيل فى تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع ، فقد نفى سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) قولان (الأول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا ، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال (يبين الله لكم أن تضلوا) وكما قال (رواسى أن تميد بكم) قال صاحب الكشاف : حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده . أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب ، مدحورون عن ذلك المقصود .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات . وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض .

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الأولى) أنهم لا يسمعون (الثانية) أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً ، وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قد ذكرنا معنى الدحور فى سورة الأعراف عند قوله (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحراً ودحوراً أى دفعته وطردته .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى انتصاب قوله (دحوراً) وجوه (الأول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً ، ودل على الفعل قوله تعالى (ويقذفون) (الثانى) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحوراً مطرودين ، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون بدحرون بما يدحر . ثم قال ولست أشتهى الفتح ، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز فى الجملة كما قال الشاعر :

تعال اللحم للأضياف نيئاً

أى تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولهم عذاب واصب) والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام ، وذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى (وله الدين واصباً) قالوا كلهم إنه الدائم ، قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير .

ثم قال تعالى (إلا من خطف الخطفة) ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشىء بسرعة ، وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف (من) فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على

www.besturdubooks.wordpress.com

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

وجه المسارقة (فأتبعه) يعني لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى فى أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) وقد مر تفسيره وقوله تعالى (شهاب ثاقب) قال الحسن ثاقب أي مضيء وأقول سمي ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء ،قال ابن عباس فى تفسير قوله (والنجم الثاقب) قال إنه رجل(١) سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر . فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات مايدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام فى هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما إثبات الجواز العقلي وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام فى المطلوب الأول فاعلم أن الإستدلال على الشيء يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال إنه قدر على ماهو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه (والثاني) أن يقال إنه قدر عليه فى إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه فى الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين فى بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن . (أما الطريق الأول) فهو المراد من قوله (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد فى العرف من خلق القسم الأول ، فلما ثبت بالدلائل المذكورة فى إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب ، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة فى هذه الأجساد كان أولى ، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى فى آخر يس (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (وأما الطريق الثاني) فهو المراد من قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لولم تكن قابلة للحياة لما صارت حية فى المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة فى هذه الأجسام ، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة فى المرة الأولى ، ولاشك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب إنه نجم، إذ لا معنى لكونه رجلا .

www.besturdubooks.wordpress.com

ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله (قل نعم وأنتم داخرون) وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو فى غاية الحسن والله أعلم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ فى تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله (فاستفتهم) يعنى أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم (أهم أشد خلقاً) أم هذه الأشياء التى بينا كونه تعالى خالقاً لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خالق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) يعنى أنا لما قدرنا على خلق الحياة فى ذواتهم أولا وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً ، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير . وفيه دقيقة أخرى وهى أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لامن الأبوين ؟ فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين ، وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة فى الطين للازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات . وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهى مذكورة فى السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيوانى وإما نباتى أما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الإنسان ، فثبت أن الأصل فى الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما االلازب فقيل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحتد ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء فى لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

www.besturdubooks.wordpress.com

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة الى هذه الأجساد ، وقد تقرر فى صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه . فأنت يامحمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم فى طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك فى قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامه ، فهذا هو المراد من قوله (بل عجبت ويسخرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزه والكسائى (عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبى عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الاول) أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشىء ومعلوم أن الجهل على الله محال (والثانى) أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى آية أخرى فى هذه المسألة فقال (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً) ، (والثالث) أنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه (الأول) أن القراءة بالضم لانسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، وبيانه أنه يكون التقدير قل يامحمد (بل عجبت ويسخرون) ونظيره قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) (الثانى) سلمنا أن ذلك يقتضى إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لايليق إلا بمن لايعلم ، قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول : دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) والمعنى وإن تعجب يامحمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندى ، وأجيب عنه أنه لايمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم « عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة » وإذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال (ويمكرون ويمكر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

الله) وقال (سخر الله منهم) وقال تعالى (وهو خادعهم) والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون فى هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض . وكذلك ههنا من تعجب من شيء فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبى صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه فى إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرفى النقيض وثانيها قوله (وإذا ذكروا لا يذكرون) ، وثالثها قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) ويجب أن يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذى عندى فى هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا فى هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين (أحدهما) أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة

www.besturdubooks.wordpress.com

بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .

(الطريق الثاني) أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولا صادقاً من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) فظهر بالبيان الذى ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .

. واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) . ثم قال (وإذا رأوا آية يستسخرون) فوجب أن يكون المراد من قوله (يستسخرون) غير ما تقدم ذكره من قوله (ويسخرون) فقال هذا القائل المراد من قوله (ويسخرون) اقدامهم على السخرية والمراد من قوله (يستسخرون) طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الأمور التى حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن هذا إلا سحر مبين) يعنى أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها ، والسبب فى تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله (مبين) معناه أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الإلتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هوقولهم إن الذى ماتو تفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض ومافيه من المائيه والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان بمجرد قوله (قل نعم) دليلا قاطعاً على الوقوع . ومن تأمل فى هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .

أما قوله (أو آباؤنا) فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا ، وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الأعراف عند قوله (أو أمن أهل القرى) .

أما قوله تعالى (قل نعم) فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين .

أما قوله تعالى (وأنتم داخرون) أى صاغرون ، قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار . وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله (سجداً لله وهم داخرون) .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة مايدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة ، وأنه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال (فالحالة الأولى) قوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة ، فاذا هم ينظرون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (فانما) جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هى إلا زجرة واحدة .

﴿ البحث الثانى ﴾ الضمير فى قوله (فانما هى) ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فانما البعث زجرة واحدة .

﴿ البحث الثالث ﴾ الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة ، فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى فى قوله (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لا يجوز فى فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الأول) أن تعتبر بها الملائكة (الثانى) أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل لتلك الصيحة تأثير فى إعادة الحياة ؟ الجواب لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها فى الموت ولا فى الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال (الذى خلق الموت والحياة) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ (الجواب) الكل

www.besturdubooks.wordpress.com

جائز إلا أنه روى أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادى : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الألفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى (فاذا هم ينظرون) فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا (يا ويلنا هذا يوم الدين) قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء هذا ، والمقصود أن الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن . أنا نرى فى الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً وصديقاً وزنديقاً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم فى الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة (ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف بشىء ولم يلتفت اليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا ، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فبين أنه لا مالك فى ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لأحد إلا لله ، وإنما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ففيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى (هذا يوم الدين) . وأما قوله (هذا يوم الفصل) فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله (هذا يوم الفصل) الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين : (الأول) أن قوله (كنتم به تكذبون) من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) منسوق على قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فلما كان قوله (احشروا الذين ظلموا) كلام غير الكفار فكذلك قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله (هذا يوم الدين) من كلام الكفار ، وقوله (هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه فى كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا فى أنفسهم كونهم محقين فى إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الأديان الفاسدة فقالوا (هذا يوم الدين) أى هذا اليوم الذى يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون لهم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور فى هذا اليوم فإن هذا اليوم

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار .

قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وفى الآية إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أنه لا نزاع فى أن هذا من كلام الملائكة فان قيل ما معنى (احشروا) مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامه وقالوا (هذا يوم الدين) وقالت الملائكة لهم بل (هذا يوم الفصل) أجاب القاضى عنه ،فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهى النار ، ولذلك قال بعده (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم إنهم مسئولون ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم ، إنما يكون بعد المسألة ، وأجاب أنه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضى ، وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أى سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه .

﴿ البحث الثانى ﴾ الآمر فى قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء : الظالمين ، وأزواجهم ، والأشياء التى كانوا يعبدونها . وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أنه تعالى قال (احشروا الذين ظلموا) ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد فى حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون)

﴿ الفائدة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال: (الأول) المراد بأزواجهم أشباههم أى أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه : (الأول) قوله تعالى (وكنتم

www.besturdubooks.wordpress.com

أزواجاً ثلاثة) أي أشكالا و أشباهاً (الثانى) أنك تقول عندى من هذا أزواج أى أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمى بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثانى فى العدد الصحيح ، قال الواحدى فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً فى كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى (القول الثانى) فى تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) . (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتى على دينهم . أما قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) ففيه قولان : (الأول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت . ونظيره قوله (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التى هى أحجار منحوتة ، فان قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة فى حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضى بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيى تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيى تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية . ثم يلقيها فى جهنم لأن ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) أن المراد من قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ماعبدو فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء . والله أعلم .

ثم قال (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس (فاهدوهم) سوقوهم وقال الأصم : قدموهم ، قال الواحدى : وهذا وهم . لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادى والهاديات الوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم . ثم قال وقفوهم ، يقال وقفت الدابة أقفها وقفاً فوقفت هى وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير ، والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فاذا انتهوا إلى الصراط قيل وقفوهم ، فإن السؤال يقع هناك وقوله (إنهم مسئولون) قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألتهم الخزنة (ألم يأتكم رسل منكم بالبينات ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) أى أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال (مالكم لا تناصرون) قال ابن عباس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ

رضي الله عنهما : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم فى الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين ، وقيل يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ، ومعناه فى الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود .

ثم قال تعالى ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع . ﴿ يتساءلون ﴾ أى يسأل بعضهم بعضاً ، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ، ويقول أولئك لم قبلتم منا ، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقالوا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة ، وفى تفسير اليمين وجوه (الأول) أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح (الرابع) أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شىء (الخامس) أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات (السادس) أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسىء أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات ، فقوله (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) يعنى أنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى) فى التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة ، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا ، أننا عندكم بمنزلة اليمين ، أى بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم ، فمعنى قوله (كنتم تأتوننا عن اليمين) أى من ناحية المواثيق والأيمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر ، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه (الأول) أنهم قالوا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) يعنى أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه (الثانى) قولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان) يعنى لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين غالين فى معصية الله (الرابع) قولهم (لحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوعنا فى العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا فى العذاب لما كان خبر الله حقاً ، بل كان باطلا ، و كان خبر الله أمراً واجباً لاجرم ، كان الوقوع فى العذاب الأليم لازماً ، قال مقاتل قوله تعالى (لحق علينا قول ربنا) إشارة إلى قول الله لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (إنا لذائقون) يعنى لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم (فأغويناكم إنا كنا غاوين) والمعنى أنا إنما أقدمنا على أغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية ، وفيه دقيقة أخرى ، كأنهم قالوا إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاو آخر ولزم التسلسل وذلك محال ، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل ، وهو قوله (لحق علينا قول ربنا) ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده (فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون) يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون فى الوقوع فى العذاب كما كانوا فى الدنيا مشتركين فى الغواية ، ثم قال أيضاً (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) وعنى بالمجرمين ، ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) والضمير فى قوله (إنهم) عائد إلى المذكور السابق وهو قوله (بالمجرمين) وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص فى القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا فى ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) يعنى ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد . وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ويعنون محمداً . ثم إنه تعالى كذبهم فى ذلك الكلام فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلون) وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعانى كان مجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير (أينا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع فى رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى (وصدق المرسلون(١)) يعنى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد ونفى الشريك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) والمعنى أن الحكم يقتضى الأمر بالحسن والطاعة والنهى عن القبيح والمعصية والأمر والنهى لا يكمل المقصود منهما

(١) وصدق المرسلون فى المصحف مرفوعة بالواو والنون . ولكن المفسر جرى فى تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا فى كل ما أخبروا به وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة فى وصفهم بالصدق . وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد . وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عنه .

www.besturdubooks.wordpress.com

أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾

إلا بالترغيب فى الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب، فلهذا السبب وقعوا فى العذاب ثم قال (إلا عباد الله المخلصين) يعنى ولكن عباد الله [المخلصين ناجون وهو] من الاستثناء المنقطع.

قوله تعالى: ﴿أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، فى جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون. فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾.

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين فى كيفية الثواب، وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ذكرنا فى فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى.

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً، ولم يبين أن أى الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال، فقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية، قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً)، وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع، وقيل معناه: القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ماهو فقال (فواكه) وفيه قولان (الأول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات

www.besturdubooks.wordpress.com

فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الأدام أولى بالحضور ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر المأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال (وهم مكرمون) لأن الأكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم .

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال (فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين) ومعناه أنه لا كلفة عليهم فى التلاقى للأنس والتخاطب ، وفى بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال (يطاف عليهم بكأس من معين) يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

وعن الأخفش : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، وقوله (من معين) أى من شراب معين ، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل ، وقيل سمى معيناً لأنه يجرى ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى المسير إذا اشتد فيه ، وقوله (بيضاء) صفة للخمر ، قال الأخفش . خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله (لذة) فيه وجوه (أحدها) أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث : اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى (بيضاء لذة للشاربين) وقال تعالى (من خمر لذة للشاربين) ولذلك سمى النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة . والأقرب من هذه الوجوه الأول .

ثم قال تعالى (لافيها غول) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة الغول أن يغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا ، قال الواحدى رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولا أى أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمى الصداع غولا لأنه يؤدى إلى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولا هم عنها ينزفون) وقرىء بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

لا يذهب عقولهم أى لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد فى شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الأول) قوله (وعندهم قاصرات الطرف) ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى (حور مقصورات فى الخيام) والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (عين) قال الزجاج كبار الأعين حسانها واحدها عيناء .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشىء وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فاذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور .

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فان قيل على أى شىء عطف قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ؟ قلنا على قوله (يطاف عليهم) والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقولون أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر فى أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على

www.besturdubooks.wordpress.com

شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة ، ذكر تعالى فى هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم فى الدنيا مايوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

أما قوله (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) أى قال قائل من أهل الجنة إنى كان لى قرين فى الدنيا (يقول أئنك لمن المصدقين) أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) أى لمحاسبون ومجازون ، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار . ثم إن ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته (هل أنتم مطلعون . فاطلع) والأقرب أنه تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار (فرآه فى سواء الجحيم) أى فى وسط الجحيم قال له موبخاً (تالله إن كدت لتردين) أى لتهلكنى بدعائك إياى إلى إنكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل (لكنت من المحضرين) فى النار مثلك ، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال (أفما نحن بميتين) وفيه قولان (الأول) أن أهل الجنة لايعلمون فى أول دخولهم فى الجنة أنهم لايموتون ، فاذا جىء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) أن الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا لى ؟ أفيبقى هذا لى ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون (إن هذا لهو الفوز العظيم)

وأما قوله (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أى لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ماذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله (واضرب لهم مثلا رجلين) إلى آخر الآيات ، وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإنى أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ، ثم إن الله أعطاه فى الجنة ماطلب

www.besturdubooks.wordpress.com

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ
لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ

فعند هذا قال (إنى كان لى قرين ـ إلى قوله ـ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام . ووافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

وأما قوله (إن كدت لتردين) قرأ نافع برواية ورش لتردينى بإثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقالوا مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سبباً لحصول الهداية للمؤمن . وأن يكون سبباً لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمراً زائداً على تلك الإنعامات التى حصل الاشتراك فيها . وما ذلك إلا بقوة الداعى إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى) فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله (إلا موتتنا الأولى) المراد منه كل ما وقع فى الدنيا والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها

www.besturdubooks.wordpress.com

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾

لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ، إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها (لمثل هذا فليعمل العاملون) أتبعه بقوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر ، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضاً فى هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة (خير نزلا) أى خير حاصلا (أم شجرة الزقوم) وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء . ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلا وهو الشيء الذى يصلح حال من ينزل بسببه ، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لانسبة لأحدهما إلى الآخر فى الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام ، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقيل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم ، وأما (الزقوم) فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيراً إلا الكلبى فانه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم ، فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم ، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال تزقموا . ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر ، قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم . وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ففيه أقوال : (الأول) أنها إنما صارت فتنة للظالمين ، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية ، قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم

www.besturdubooks.wordpress.com

مع أن النار تحرق الشجرة ؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر ، ولأنه إذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة ؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى) فى التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم ، فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار ، فان هذا شىء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف ، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن فى القرآن والنبوة .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات : (الصفة الأولى) قوله إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها (الصفة الثانية) قوله (طلعها كأنه رءوس الشياطين) قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية أو معنوية ، وقال ابن قتيبة سمى (طلعاً) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شىء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (الأول) وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله (إن هذا إلا ملك كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء فى الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة ، والذى يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك ، وقال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل فى القبح ، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) أن رءوس الشياطين ، نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار (لآكلون منها فمالئون منها البطون) واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : (الأول) أنهم أكلوا منها لشدة الجوع ، فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة

www.besturdubooks.wordpress.com

طعمها ؟ قلنا إن الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه فى الضرر ، فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء. وإن كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم .

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب ، فعند هذا وصف الله شرابهم ، فقال (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) قال الزجاج : الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة ، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم ، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما .

واعلم أن الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقاً ، ومنها قوله (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) ومنها ماذكره فى هذه الآية ، فان قيل ماالفائدة فى كلمة (ثم) فى قوله (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب ، (والثانى) أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه ، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب فى البشاعة أعظم من حال المأكول ، ثم قال تعالى (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) قال مقاتل : أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم ، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم ، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الابل إلى الماء ، ثم يوردون إلى الجحيم ، فهذا قول مقاتل ، واحتج على صحته بقوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) قال الفراء : الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث ، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل ، ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم ، فقال(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين) فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا ، فليس عليه إلا البلاغ .

ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا وإن كان فى الظاهر خطاباً مع الرسول ﷺ ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم ، فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

يكون زاجراً لهم عن كفرهم . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) فيه قولان (أحدهما) أنه استثناء من قوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) (والثانى) أنه استثناء من قوله (كيف كان عاقبة المنذرين) فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فانها كانت مقرونة بالخير والراحة .

﴿ القصة الأولى ـ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام (فالقصة الأولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أن اللام فى قوله (فلنعم المجيبون) جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف ، أى فلنعم المجيبون نحن .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أى الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان (الأول) وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا فى إيذائه وقصدوا قتله . ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه . فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة . ثم انه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده (فلنعم المجيبون) وهذه اللفظة تدل على أن

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا

تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال (ولقد نادانا نوح) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم (والثانى) أنه أعاد صيغة الجمع فى قوله (فلنعم المجيبون) وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة . لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله (فلنعم المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء ، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به ، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل فى تلك الإجابة من وجوه (الأول) قوله تعالى (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا ، قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك .

﴿ النعمة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ﴾ يعنى يذكرون هذه الكلمة . فان قيل فما معنى قوله (فى العالمين) قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً أى لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً ، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته .

﴿ القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا

www.besturdubooks.wordpress.com

عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾

عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير فى قوله من شيعته إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أى من شيعة نوح أى من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم ، قالوا وماكان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وروى صاحب الكشاف أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبي ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العامل فى (إذ) ما دل عليه قوله (وإن من شيعته) من معنى المشايعة يعنى وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .

أما قوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (بقلب سليم) قولان (الأول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الأصوليون المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى ، فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد . عن ابن عباس أنه كان يحب للناس مايحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً ، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله ، وهو قوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) واحتج الذاهبون إلى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) مع أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإن قيل ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه ، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت فى التوراة أن الله قال لموسى أجب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال (أئفكا آلهة دون الله تريدون) قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به يعنى أتريدون إفكا، ثم فسر الإفك بقوله (آلهة دون الله) على أنها إفك فى أنفسها، ويجوز أن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين.

ثم قال (فما ظنكم برب العالمين) وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء.

ثم قال (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً فى بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الأول) أن النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم (والثانى) أنه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال إنى سقيم كان ذلك كذباً. واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوهاً كثيرة (الأول) أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال (إنى سقيم) لجعله عذراً فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقاً فيما قال، لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور. فلذلك نظر إبراهيم فى النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال (إنى سقيم) سكنوا إلى قوله.

أما قوله (إنى سقيم) فمعناه سأسقم كقوله (إنك ميت) أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هو قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة، وقوله (إنى سقيم) يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص. وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعاً على تلك الصفة المخصوصة قال (إنى سقيم) أى هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله (إنى سقيم) أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ (لعلك باخع نفسك) (الوجه السادس) فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى

www.besturdubooks.wordpress.com

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام . لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص . فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله (إنى سقيم) على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لاينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة . إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقم . (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما كذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات» قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لاتجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوى وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟(والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فان الأشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة . والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كى يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله (إنى سقيم) والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيما كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال (إنى سقيم) تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى أن لايخرج اليوم فكان ذلك مراده (فراغ إلى آلهتهم) يقال راغ إليه إذا مال إليه فى السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب . وقوله (ألا تأكلون) يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله (ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً) فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم فى معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً . وفى قوله (باليمين) قولان (الأول) معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه (وتالله لأكيدن أصنامكم) ثم قال (فأقبلوا إليه يزفون) قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعى يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطو ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع فى المشى ، فان قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا يقتضى أنهم فى أول الأمر ماعرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لا يبعد أن يقال إن جماعة

www.besturdubooks.wordpress.com

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

عرفوه فعمدوا إليه مسرعين . والأكثرون ماعرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ، وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال (أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وما تعملون) ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ماكان معبوداً للانسان البتة . فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذى ماكان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جمهور الأصحاب بقوله (والله خلقكم وما تعملون) على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع مابعده فى تقدير المصدر فقوله (وما تعملون) معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (أتعبدون ما تنحتون) أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثانى) أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق . فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال : (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) ولولم يكونوا فاعلين لأفعالهم لماجاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لانسلم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع مابعدها فى تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا فى أنه هل يجوز أن يقال أعجبنى

www.besturdubooks.wordpress.com

ماقمت أى قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لايجوز إلا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على أن ما مع مابعدها فى تقدير المفعول عند الأخفش ، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر . لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله (أتعبدون ما تنحتون) والمراد بقوله (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ماعبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثانى) أنه تعالى قال (فاذا هى تلقف ما يأفكون) وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمى محل العمل عملا يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجىء بمعنى المصدر فقد تجىء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ، لأن الذى جرى ذكره فى أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال . واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء (فقالوا ابنوا له بنياناً) واعلم أن كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنو حائطاً من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، والألف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه ، أى فى جحيم ذلك البنيان ، ثم قال تعالى (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) والمعنى أن فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم. واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقال إنى مهاجر إلى ربى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إنى ذاهب إلى ربى) قولان (الأول) المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إنى ذاهب إلى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى : ذاهب بعبادتى إلى ربى ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال (كلا إن معى ربى سيهدين) وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتى

www.besturdubooks.wordpress.com

بشيء من الأعمال إلا لله تعالى . كما قال (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) قيل إن القول الأول أولى . لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشأم ، وأيضاً يبعد حمله على الهداية في الدين ، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه ، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (سيهدين) يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى ، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار . لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي ، وقوله (سيهدين) يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل ، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه . فان قيل إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه ، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به ، بل قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) فما الفرق؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود ، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين ، فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم ، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (إني ذاهب إلى ربي) يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن كلمة إلى موجودة في قوله (إني ذاهب إلى ربي) مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً في ذلك المكان ، فكذلك ههنا .

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال (هب لي من الصالحين) أي هب لي بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب في الولد ، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) وقال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى) وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده : على أبي الأملاك شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب . ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب .

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح (قال ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ثم استسلم لذلك ، وأيضاً فان إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم . إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فبين أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة ، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه . فقال (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين) وطلبه للولد فقال (رب هب لي من الصالحين) وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا ، فقال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ
قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا
وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ
وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (فبشرناه بغلام حليم) أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه . فقال (فلما بلغ معه السعى) ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى ، وقوله (معه) فى موضع الحال والتقدير كائناً معه ، والفائدة فى اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد ، وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ، قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده فى الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليما . بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحه الصدر مافواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الأول) قال السدى : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذراً ففِ بنذرك فلما أصبح (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) .

وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية فى منامه ، كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر ، وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة ، وعلى هذا فتقدير اللفظ : إنى أرى فى المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثانى) أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحى ، وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس إلا أنه يذبح ، فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه فى المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فان كان الأول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له (فانظر ماذا ترى) وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر) ؟، وأيضاً فقد قلتم إنه بقى فى اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه فى النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروى والتفكر حاجة ، وإن كان الثانى ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يرونه فى المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ (والجواب) لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل رضى الله عنهم ، وقيل إنه اسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى ، واحتج القائلون بأنه اسماعيل بوجوه : (الأول) أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابى « يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد إبنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من من الإبل ،والذبيح الثانى إسمعيل» .

﴿ الحجة الثانية ﴾ نقل عن الأصمعى أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال يا أصمعى أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ؟ .

﴿ الحجة الثالثه ﴾ أن الله تعالى وصف اسماعيل بالصبر دون إسحق فى قوله (وإسماعيل

www.besturdubooks.wordpress.com

واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضاً بصدق الوعد فى قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب ، منه أو بعد ذلك (فالأول) باطل لأنه تعالى لما بشرها باسحق ، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه ، وإلا حصل الخلف فى قوله (ومن وراء اسحق يعقوب) (والثانى) باطل لأن قوله (فلما بلغ معه السعى ، قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) يدل على أن ذلك الإبن لما قدر على السعى ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ، وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر ، فثبت أنه لايجوز أن يكون الذبيح هو إسحق .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ حكى الله تعالى عنه أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ثم طلب من من الله تعالى ولداً يستأنس به فى غربته فقال (رب هب لى من الصالحين) وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال وقوله (هب لى من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد ، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله (من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم فى الوجود على إسحق ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو اسماعيل ، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

﴿ الحجة السادسة ﴾ الأخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكأن الذبيح بمكة . ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح بالشام ، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجهين : (الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال (فبشرناه بغلام حليم) فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا اسحق ، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعى) وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق ، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصه الذبيح قال بعده (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين ، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح ، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام .

﴿ الحجة الثانية ﴾ على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من

www.besturdubooks.wordpress.com

يعقوب اسرائيل نبى الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب ، وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم . واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا كان الذبح بمنى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف الناس فى أن ابراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهى أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثانى أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجىء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الأول) أنه عليه السلام قال لولده إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود ، فحينئذ يكون قد أمر بشىء وقد أتى به ، وفى هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح ، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد (الأمر الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين فى وقت معين ، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن ، فإذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب) عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

www.besturdubooks.wordpress.com

أما قوله تعالى (قد صدقت الرؤيا) فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل مارآه فى ذلك المنام . وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء. وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به . وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً فى ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً فى ذاته ، وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشىء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فانه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتى ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الإنقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم فى المسألة الأولى . وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهى عن الشىء يدل على أن الناهى لايريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح ، وثبت أنه تعالى ماأراده ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتمام الكلام فى أن الله تعالى أمر بالذبح ماتقدم فى المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً (الثانى) أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى فى حق محمد ﷺ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) وقال عن يوسف عليه السلام (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وقال فى حق إبراهيم عليه السلام (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الأحوال ، والله أعلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها مايقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشىء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما فى حق إبراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها مايقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ حمزة والكسائى (ترى) بضم التاء وكسر الراء ، أن ماترى من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ماتشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الحكمة فى مشاورة الإبن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للأبن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ، ثم إنه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام أنه قال افعل ماتؤمر ، ومعناه افعل ماتؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت [به]

ثم قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى (فلما أسلما) يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرىء بهن جميعاً إذ انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ، ثم قال تعالى (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، قال ابن الأعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به أى يصرع ، فالمعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جبهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة .

ثم قال تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان (الأول) أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لاجرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا

www.besturdubooks.wordpress.com

وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين .

ثم قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التى لامحنة أصعب منها (وفديناه بذبح عظيم) الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالأول) حكى فى قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يابنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال يا أبت اشدد رباطى فى كيلا أضطرب ، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمى فتراه أمى فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلق ليكون أهون فان الموت شديد . واقرأ على أمى سلامى وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها . فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهي فانك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذى تقرب به هابيل ابن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً ، وقال السدى نودى إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عنه ابراهيم فأخذه فذبحه ، وخلى عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال يابنى اليوم وهبت لى ، وأما قوله (عظيم) فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيما وقد رعى فى الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ، ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) الضمير فى قوله (إنه) عائد إلى ابراهيم ، ثم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فقوله (نبياً) حال مقدرة أى بشرناه بوجود اسحاق مقدرة نبوته ، ولمن يقول إن الذبيح هو اسماعيل أن يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله (نبياً) حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحاق حال كون إسحق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ماحكمنا عليه فصبر ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير اسحاق ، أقصى مافى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التكرير فى النظم ، والله أعلم بالصواب .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ
﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

ثم قال تعالى (وباركنا عليه وعلى اسحق) وفى تفسير هذه البركة وجهان (الأول) أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحاق (والثانى) أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم واسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) وفى ذلك تنبيه على أنه لايلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله (محسن) الأنبياء والمؤمنون وتحت قوله (ظالم) الكافر والفاسق والله أعلم .

﴿ قصة موسى وهرون عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما فى الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص من المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن وجوه الأنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة فى نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله (ولقد مننا على موسى وهارون) إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) إشارة إلى دفع المضار عنهما .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور ، لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) وفيه قولان : قيل إنه الغرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بنى إسرائيل ، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهرون ، فصل أقسام تلك المنة والهاء فى قوله (ونصرناهم) أى نصرنا موسى وهرون وقومهما (وكانوا هم الغالبين) فى كل الأحوال بظهور الحجة وفى آخر الأمر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين) والمراد منه التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج إليها فى مصالح الدين والدنيا ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ، (وثالثها) قوله تعالى (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعاً ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى (وتركنا عليهما فى الآخرين) وفيه قولان (الأول) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ قولهم (سلام على موسى وهرون) (والثانى) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك (سلام على موسى وهرون) هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى (إنهما من عبادنا المؤمنين) والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم .

﴿ قصة إلياس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر (وإن إلياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف ، قال أبو بكر بن مهران : من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشأم ينكرونه ولا يعرفونه ، قال الواحدى وله وجهان (أحدهما) أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما حذفها ابن كثير من قوله (إنها لإحدى الكبر) وكقول الشاعر :

ويلمها فى هواء الجو طالبة

والآخر أنه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله (واليسع).

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ وإن إدريس ، وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون) والتقدير اذكر يامحمد لقومك (إذ قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله ، وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله . واعلم أنه لما خوفهم أولا على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ فى بعل قولان (أحدهما) أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل إسم لصنم من أصنامهم لابأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة ، فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً فى كثير من المعجزات ، لأنه نقل فى معجزات النبى ﷺ كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم ، فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائماً فى الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح فى كون هذه الأشياء معجزات (القول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أى من ربها ، وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى ، قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) وقال تعالى (وهذا بعلى شيخاً) فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله.

﴿ البحث الثانى ﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين . أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين (وجوابه) أن فصاحة

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ . واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء ، فقال (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) وفيه مباحث .

﴿ الأول ﴾ أنا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة فى الإعادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (الله ربكم ورب آبائكم) كلها بالنصب على البدل من قوله (أحسن الخالقين) والباقون بالرفع على الاستئناف ، والأول اختيار أبى حاتم وأبى عبيد ، ونقل صاحب الكشاف أن حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله (لكنت من المحضرين) ثم قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه : (الأول) وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد ﷺ (والثالث) أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الأول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

ثم قال تعالى (إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين) وقد سبق تفسيره والله أعلم ، قوله تعالى : ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

هذا هو القصة الخامسة ، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب ، فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا ، وقد تقدم شرح هذه القصة ، وقد نبههم بقوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل) وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر فى أكثر الأمر إنما يمشى فى الليل وفى أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .

ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها ، والله أعلم .

﴿ قصة يونس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾

إعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة ، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبى ﷺ على أذى قومه .

أما قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء يونس بضم النون وكسرها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لأن قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك) معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك ، ويمكن أن يقال إنه جاء فى كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله (لمن المرسلين) لا يدل على أنه كان فى ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف فى معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من

www.besturdubooks.wordpress.com

قوله (لمن المرسلين) أنه من المرسلين عند الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم إنه أبق من الله تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئاً ، فقيل لأنه أمر بالخروج إلى بنى اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحى أو بلسان نبى آخر ، وقيل إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم . وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان : (الأول) أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لامحالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى فى مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ فى ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله (إذ أبق الى الفلك) ما ذكرناه (الوجه الثانى) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله (إذ أبق الى الفلك) وتمام الكلام فى مشكلات هذه الآية ذكرناه فى قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) وقوله (الى الفلك المشحون) مفسر فى سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة ، ثم قال تعالى (فساهم) المساهمة هى المقارعة ، يقال أسهم القوم اذا اقترعوا ، قال المبرد وانما أخذ من السهام التى تجال للقرعة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أى أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذى هو الزلق ، يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت ، وذكر ابن عباس فى قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بنى اسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بنى اسرائيل نبياً ، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته ، قال يونس الله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس وفى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لا تبعثه ، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل فى السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبى الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فيخرج سهم

www.besturdubooks.wordpress.com

يونس ، فقال يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت «لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلا» ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم ! انطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد ، وقوله تعالى (وهو مليم) يقال ألام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه .

ثم قال تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وفي تفسير كونه من المسبحين قولان (الأول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (الثاني) أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فان يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال الله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه . قال الحسن لم يلبث إلا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ، وعن مقاتل ابن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل » فذاك هو قوله (فنبذناه بالعراء) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه .

﴿ الثاني ﴾ أنه تعالى قال (فنبذناه بالعراء) فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه ، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

ثم قال تعالى (وهو سقيم) قيل المراد أنه بلى لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أى سليب .

ثم قال تعالى (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين ، قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به

ثم قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

﴿ البحث الثانى ﴾ ظاهر قوله (أو يزيدون) يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى (عذراً أو نذراً) وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) وقوله تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أى إلى الوقت الذى جعله الله أجلا لكل واحد منهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ،

www.besturdubooks.wordpress.com

شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى
الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ
سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ
نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾
وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) وهذا معطوف على قوله فى أول السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمن خلقنا) وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم فى أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين ، ونقل الواحدى عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله ، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين : (أحدهما) إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت ، والشيء الذى يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق (والثانى) إثبات أن الملائكة إناث : وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس فمفقود ههنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) وأما الخبر فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقا قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون ، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة ، وهو المراد من قوله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) واما النظر فمفقود وبيانه من وجهين

www.besturdubooks.wordpress.com

(الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب . لأن الله تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله (أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون) يعنى إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فان كان حكم العقل معتبراً فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم.فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله (أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذى ذهبو إليه لم يدل على صحته ، لا الحس ولا الخبر ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلا قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أصطفى البنات على البنين) قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من (أصطفى) ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع ، كقوله تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية ، وقرأ نافع فى بعض الروايات (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) فى زعمه واعتقاده .

ثم قال تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الأول) قال مقاتل أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله ، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة ، وأقول هذا القول عندى مشكل ، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) والعطف يقتضى كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟ قالوا سروات الجن ، وهذا أيضاً عندى بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أن قوماً من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس ، فقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) المراد منه هذا المذهب ، وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل . وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن(١)

ثم قال تعالى (ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون) أى قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون فى العذاب ، فعلى القول الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول ، وعلى القول الثانى عائد إلى الجنة أنفسهم ، ثم إنه تعالى

(١) يزدان واهرمن أى الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى « مانى »

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾
لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال (سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين) وفى هذا الاستثناء وجوه ، قيل استثناء من المحضرين ، يعنى أنهم ناجون ، وقيل هو استثناء من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك ، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار ، وذكر صاحب الكشاف فى قوله (فانكم وما تعبدون ، ماأنتم عليه بفاتنين) قولين (الأول) الضمير فى (عليه) لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار ، فان قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه : (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله (وما تعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله (فانكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر ، لأن معناه فانكم مع ماتعبدون ، والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها ، ثم قال تعالى (ما أنتم عليه) أى على ماتعبدون (بفاتنين) بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . وقرأ الحسن (صال الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء

www.besturdubooks.wordpress.com

الساكنين ، فإن قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله (من هو) قلنا (من) موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) يعنى إلا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائى المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحداً إلا من ثبت فى معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شىء من الأفعال (والجواب) حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن . وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما فى قوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة . واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شىء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب . فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ؟ ولماذا قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدرياً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه الآية أم لا ، فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب ، فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الأفعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله ، فيكون الكل

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

من الله تعالى (الرابع) أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلا وهو محال ، وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى «(وما منا إلا له مقام معلوم) فالجمهور على أنهم الملائكة» وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية ، فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح ، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبوديه ، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعالى (ومامنا إلا له مقام معلوم) وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لايتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم وإلى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله (وإنا لنحن الصافون) والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى (وإنا لنحن المسبحون) والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لاغيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر . وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون (لو أن عندنا ذكراً) أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا . ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) ثم قال تعالى (فسوف يعلمون) أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون﴾

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون ، فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، وأيضاً أن الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض ، وما بالذات أقوى مما بالعرض ، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم (فتول عنهم حتى حين) والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال (وأبصرهم فسوف يبصرون) والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة ، والمراد من الأمر المشاهد بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لامحالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وقوله (فسوف يبصرون) للتهديد والوعيد ، ثم قال (أفبعذابنا يستعجلون) والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكأن طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلا ، ثم قال تعالى في صفة العذاب الذي يستعجلونه (فإذا نزل بساحتهم) أي هذا العذاب (فساء صباح المنذرين) وإنما وقع

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا التعبير عن هذه المعانى كأنهم كانوا يقدمون على العادة فى وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله (فتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون) فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفى هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة فى التهديد والتهويل، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله (رب العزة) فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهى دالة على كمال الحكمة ،والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزهاً فى الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله (رب العزة) يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام فى قوله (العزة) تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكا له وملكا له لم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات فى معرفة إله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغى أن يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية .

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل ، فنبه على هذا الحرف بقوله (وسلام على المرسلين) لأن هذا اللفظ يدل على أنهم فى الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالإعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غنى رحيم ، والغنى الرحيم لا يعذب ، فنبه على هذا الحرف بقوله (والحمد لله رب العالمين) وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعما ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من درارى الكواكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية فى الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٧ — سورة الصافات

(مكية وآياتها مائة واثنتان وثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ ٣٧ الصافات

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ٣٧ الصافات

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ٣٧ الصافات

وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ إن لكل شىء قلباً وإن قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان . وقال ﷺ إن فى القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس .

﴿ سورة الصافات مكية وآياتها مائة واثنتان وثمانون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (والصافات صفاً) إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات ١
للصفوف على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أو الصافات أنفسها أى الناظمات لها
فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم وعلى
هذين المعنيين مدار قوله تعالى وإنا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل أجنحتها فى
الهواء (فالزجرات زاجراً) أى الفاعلات للزجر أو الزاجرت لما نيط بها زجره من الأجرام العلوية ٢
والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن
الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفاً وزجراً مصدران مؤكدان لما قبلهما أى صفاً
بديعاً وزجراً بليغاً وأما ذكراً فى قوله تعالى (فالتاليات ذكراً) فمفعول التاليات أى التاليات ذكراً عظيم ٣
الشأن من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس
والتحميد والتمجيد وقيل هو أيضاً مصدر مؤكد لما قبله فإن التلاوة من باب الذكر ثم إن هذه الصفات
إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم

إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ ٣٧ الصافات

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ٣٧ الصافات

للتلاوة أو على العكس وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات في مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات وأقدامها في الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم في مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو في المعارك طرداً التاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك والكلام في العطف ودلالته على ترتب الصفات في الفضل أو ترتب موصوفاتها فيه كالذي سلف وأما الدلالة على الترتب في الوجود كما في قوله [يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب] فغير ظاهرة في شيء من الطوائف المذكورة فإنه لو سلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرىء

٤ بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال (إن إلهكم لواحد) جواب القسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعني قوله تعالى

٥ (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ورب خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف أي مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها إلى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس وإعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فإنها ثلثمائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم في مغرب منها وأما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا

٦ الصيف والشتاء ومغرباهما (إنا زينا السماء الدنيا) أي القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أي ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة وقرىء بالإضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بياناً لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب ما زينت هي به وهو ضوؤها وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وأما على تقدير كون الزينة مصدراً فالمعنى على

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ٣٧ الصافات

لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ٣٧ الصافات

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ٣٧ الصافات

تقدير إضافتها إلى الفاعل بأن زانت الكواكب إياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير إضافتها إلى
المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى العين
فإن جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا
بصور بديعة وأشكال رائعة ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة
٧ المتوسطة إن ثبت ذلك (وحفظاً) منصوب إما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل إنا خلقنا الكواكب
زينة للسماء وحفظاً (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة برمى الشهب وإما بإضمار فعله وإما بتقدير
فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظاً من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى ولقد
٨ زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) كلام
مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم فى أثناء
ذلك من العذاب ولا سبيل إلى جعله صفة لكل شيطان ولا جواباً عن سؤال مقدر لعدم استقامة
المعنى ولا علة للحفظ على أن يكون الأصل لئلا يسمعوا لحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن
تكرمنى فبقى أن لا يسمعوا ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال [ألا أيهذا الزاجرى أحضر
الوغى] لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى
يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الأعلى الملائكة وعن ابن عباس
رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أى لا يتطلبون السماع والإصغاء
إليهم وقرىء يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء إذا
٩ قصدوا الصعود إليها (دحوراً) علة للقذف أى للدحور أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له
لأنهما من واد واحد وقرىء دحوراً بفتح الدال أى قذفا دحوراً مبالغاً فى الطرد وقد جوز أن يكون
مصدراً كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب
١٠ الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى وأعتدنا لهم عذاب السعير (إلا من خطف
الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة
مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرىء بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ٣٧ الصافات

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ٣٧ الصافات

وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ٣٧ الصافات

وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ٣٧ الصافات

وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ٣٧ الصافات

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ٣٧ الصافات

وتشديدها وأصلهما اختطف (فأتبعه شهاب) أى تبعه ولحقه وقرىء فاتبعه والشهاب مايرى منقضا من
السماء (ثاقب) مضىء فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع
فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وإنما يعود من يسلم منهم حياً طمعاً فى السلامة ونيل المراد كراكب
١١ السفينة (فاستفتهم) فاستخبر مشركى مكة (أهم أشد خلقاً) أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقاً
وأشق إيجاد (أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب
الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من
عددنا وقوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من
الأمم كعاد وثمود ولأن المراد إثبات المعاد ورد استحالتهم والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم
١٢ سواء وقرىء لازم ولاتب (بل عجبت) أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث
(ويسخرون) من تعجيبك وتقريرك للبعث وقرىء بضم التاء على معنى أنه بلغ كمال قدرتى وكثرة مخلوقاتى إلى
حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله ويسخروا
ممن يجوزه والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة
١٣ تعترى الإنسان عند استعظام الشىء وقيل إنه مقدر بالقول أى قل يامحمد بل عجبت (وإذا ذكروا) أى
ودأبهم المستمر أنهم إذا وعظوا بشىء من المواعظ (لايذكرون) لا يتعظون وإذا ذكر لهم مايدل على
١٤ صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (وإذا رأوا آية) أى معجزة تدل على صدق القائل
به (يستسخرون) يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها
١٥، ١٦ (وقالوا إن هذا) أى مايرونه من الآيات الباهرة (إلا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا
تراباً وعظاماً) أى كان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً وتقديم التراب لأنه منقلب من الأجزاء
البادية والعامل فى إذا مادل عليه مبعوثون فى قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) أى نبعث لا نفسه لأن ما بعده خطوباً

أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ٣٧ الصافات

قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ٣٧ الصافات

وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ ٣٧ الصافات

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٣٧ الصافات

ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٧ الصافات

لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع و تقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية
المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك و كذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار
لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى
أفلا تعقلون على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور و قرىء بطرح
الهمزة الأولى و بطرح الثانية فقط (أوآباؤنا الأولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أى ١٧
وآباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون و قيل عطف على محل إن واسمها و قيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة
الإنكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ما أشركنا ولا آباؤنا وأياً ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد
بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرىء أو آباؤنا (قل) تبكيتاً لهم (نعم) والخطاب فى قوله ١٨
تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل مادل عليه نعم أى كلكم
مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرىء نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فإنما هى زاجرة واحدة) ١٩
هى إما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهى مقدر أى إذا كان
كذلك فإنما هى الخ أو لا تستصعبوه فإنما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها
وهى النفخة الثانية (فإذا هم) قائمون من مراقدهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون ما يفعل
بهم (وقالوا) أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) أى هلاكنا احضر ٢٠
فهذا أوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم
الذى نجازى فيه بأعمالنا وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون
بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ٢١
كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء
أو الفرق بين فرق الهدى والضلال وقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة ٢٢

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ٣٧ الصافات

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٧ الصافات

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٧ الصافات

بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٧ الصافات

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ٣٧ الصافات

قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ٣٧ الصافات

أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف وقيل من الموقف إلى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكواكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم أزواجا
٢٣ ثلاثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون) (من دون الله) من الأصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جىء به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا
٢٤ عموم ولا تخصيص (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى عرفوهم طريقها ووجهوهم إليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (إنهم مسئولون) إيذاناً من أول الأمر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم بل عما ينطق
٢٥ به قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وقرىء لا تتناصرون ولا
٢٦ تناصرون بالإدغام (بل هم اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم
٢٧ أو أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر (وأقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الأتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال
٢٨ (قالوا) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء (إنكم كنتم تأتوننا) فى الدنيا (عن اليمين) عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الإنسان الذى هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمى يميناً ويتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الأوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق .

قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٧ الصافات

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ ٣٧ الصافات

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ ٣٧ الصافات

فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٧ الصافات

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ٣٧ الصافات

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ٣٧ الصافات

(قالوا) استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) أى لم نمنعكم من الإيمان ٢٩
بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) ٣٠
من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) ٣١
أى لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (إنا لذائقون)
أى العذاب الذى ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم إلى الغى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم ٣٢
واستحببتم الغى على الرشد (إنا كنا غاوين) فلا عتب علينا فى تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة
لتكونوا أمثالنا فى الغواية (فإنهم) أى الأتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا ٣٣
مشتركين فى الغواية (إنا كذلك) أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل ٣٤
بالمجرمين) المتناهين فى الإجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل ٣٥
لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لا إله إلا الله يستكبرون) عن القبول (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر ٣٦
مجنون) (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان أن ما جاء به من التوحيد هو ٣٧
الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته
الرفيعة (إنكم) بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول ﷺ والاستكبار (لذائقو العذاب الأليم) ٣٨

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ٣٧ الصافات

أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ٣٧ الصافات

فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٧ الصافات

فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ٣٧ الصافات

والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم وقرىء بنصب العذاب على تقدير النون كقوله [ولا ذاكر الله إلا
٣٩ قليلا] وقرىء لذائقون العذاب على الأصل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه
٤٠ من السيئات أو إلا بما كنتم تعملونه منها (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقو ومابينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لايجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فإنهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لا وجه له أصلا لا سيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فإنه ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى إنكم لذائقون العذاب الأليم لكن عباد الله المخلصين
٤١ الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى (أولئك) إشارة إليهم للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص فى عبادة الله تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله
• تعالى (لهم) إما خبر له وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لأولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء إجمالا بياناً تفصيلياً وقيل هي
• خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدأ وقوله تعالى (معلوم) أي معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها
٤٢ بكرة وعشياً وقوله تعالى (فواكه) إما بدل من رزق أو خبر مبتدأ مضمر أي ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه أي مايؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لأنهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل وقيل لأن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة فذكرها مغن عن ذكرها (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن
٤٣ أرزاق الدنيا وقرىء مكرمون بالتشديد (فى جنات النعيم) أي فى جنات ليس فيها إلا النعيم وهو ظرف أو حال من المستكن فى مكرمون أو خبر ثان لأولئك.

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ٣٧ الصافات

يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ٣٧ الصافات

بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ٣٧ الصافات

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ٣٧ الصافات

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ٣٧ الصافات

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ٣٧ الصافات

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٧ الصافات

---

٤٤ وقوله تعالى (على سرر) محتمل للحالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه أو فى
٤٥ مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) إما استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية تكامن مجالس أنسهم
أو حال من الضمير فى متقابلين أو فى أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) بإناء فيه خمر
أو بخمر فإن الكأس تطلق على نفس الخمر كما فى قول من قال [وكأس شربت على لذة ، وأخرى تدوايت
منها بها] (من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو
الجارى على وجه الأرض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء إذا نبع وصف به الخمر وهو
٤٦ للماء لأنها تجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء قال تعالى وأنهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان أيضاً
لكأس ووصفها بلذة إما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال [ولذ
٤٧ كطعم الصرخدى تركته ، بأرض العدا من خيفة الحدثان] بريد به النوم (لا فيها غول) أى غائلة كما فى
خمور الدنيا من غاله إذا أفسده وأهلكه ومنه الغول (ولا هم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب
فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله أفرد هذا بالنفى مع
اندراجه فيما قبله من نفى الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر كأنه جنس برأسه والمعنى لا فيها نوع من
أنواع الفساد من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون وقرىء ينزفون
بكسر الزاى من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وقرىء ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى
٤٨ فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفا إلى غيرهم (عين) نجل
٤٩ العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه
٥٠ فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان (فأقبل بعضهم على بعض
يتساءلون) معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال [وما

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ٣٧ الصافات

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ٣٧ الصافات

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ٣٧ الصافات

قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٧ الصافات

فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ٣٧ الصافات

قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ٣٧ الصافات

بقيت من اللذات إلا ه أحاديث الكرام على المدام] فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل
والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع
٥١، ٥٢ حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (إنى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول)
لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) أى بالبعث
٥٣ وقرىء بتشديد الصاد من التصدق والأول هو الأوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا
لمدينون) أى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث
العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال
أين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى فى الآخرة خيراً منه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو
من المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئاً فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً
٥٤ حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث (قال) أى ذلك القائل بعد ماحكى لجلسائه مقالة قرينه
فى الدنيا (هل أنتم مطلعون) أى إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل
القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين
٥٥ فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل إن فى الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فرآه)
أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى فى وسطها وقرىء فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرىء مطلعون
فأطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى
واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضاً أو عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه
فاطلع هو بعد ذلك وإن جعل الاطلاع متعدياً فالمعنى أنه لما شرط فى إطلاعه إطلاعهم كما هو ديدن
الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرىء مطلعون بكسر النون أراد مطلعون
إياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقولهم [هم الفاعلون الخير والآمرونه] أو شبه اسم الفاعل بالمضارع
٥٦ لما بينهما من التآخى (قال) أى القائل مخاطباً لقرينه (تالله إن كدت لتردين) أى لتهلكنى بالإغواء وقرىء

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ٣٧ الصافات

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ٣٧ الصافات

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ٣٧ الصافات

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ٣٧ الصافات

لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وإن هى المخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام فارقة
أى تالله إن الشأن كدت لتردين (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) أى من ٥٧
الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع إلى محاورة ٥٨
جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجحاً وابتهاجاً بما أتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم
المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى أنحن مخلدون
منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرىء بمائتين (إلا موتتنا الأولى) التى كانت فى الدنيا وهى ٥٩
متناولة لما فى القبر بعد الإحياء للسؤال قاله تصديقاً لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى
وقيل إن أهل الجنة أول مادخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فإذا جىء بالموت على صورة كبش
أملح فذبح ونودى ياأهل الجنة خلود فلاموت وياأهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثاً
بنعمة الله تعالى واغتباطاً بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة
مستوجبة للتحدث بها (إن هذا) أى الأمر العظيم الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول ٦٠
الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له وقرىء لهو الرزق العظيم وهو مارزقوه من السعادة العظمى
(لمثل هذا فليعمل العاملون) أى لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية ٦١
السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضاً يحتمل أن يكون من كلام رب العزة (أذلك خير ٦٢
نزلا أم شجرة الزقوم) أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشىء فانتصابه على التمييز أى
أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال
النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل
الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة
مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة.

لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ٥٦ الواقعة

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ ٥٦ الواقعة

وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ٥٦ الواقعة

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ٥٦ الواقعة

فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ٥٦ الواقعة

وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ٥٦ الواقعة

لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ٥٦ الواقعة

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ٥٦ الواقعة

* جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل وقرىء عرباً بسكون الراء (أتراباً) مستويات
٣٨ فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن واللام فى قوله تعالى (لأصحاب اليمين) متعلقة بأنشأنا أو
جعلنا أو باتراباً كقولك هذا ترب لهذا أى مساو له فى السن وقيل بمحذوف هو صفة لأبكار أى كائنات
٣٩ لأصحاب اليمين أو خبر مبتدأ محذوف أى هن لأصحاب اليمين وقيل خبر لقوله تعالى (ثلة من الأولين)
٤٠ (وثلة من الآخرين) وهو بعيد بل هو خبر مبتدأ محذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أى هم أمة
من الأولين وأمة من الآخرين وقد مر الكلام فيهما وعن أبى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة
من الأولين أى من سابقى هذه الأمة وثلة من الآخرين من هذه الأمة فى آخر الزمان وعن سعيد بن
جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعاً من
٤١ أمتى (وأصحاب الشمال) شروع فى تفصيل أحوالهم التى أشير عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد
* تفصيل حسن حال أصحاب اليمين والكلام فى قوله تعالى (ما أصحاب الشمال) عين ما فصل فى نظيره وكذا
٤٢ فى قوله تعالى (فى سموم وحميم) والسموم حر نار ينفذ فى المسام والحميم الماء المتناهى فى الحرارة
٤٣،٤٤ (وظل من يحموم) من دخان أسود بهيم (لا بارد) كسائر الظلال (ولا كريم) فيه خير ما فى الجملة
سمى ذلك ظلا ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذى عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل
٤٥ وقرىء لا بارد ولا كريم بالرفع أى لا هو بارد ولا كريم وقوله تعالى (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين)
تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب أى إنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بأنواع
النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا

فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٧ الصافات

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ٣٧ الصافات

وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ٣٧ الصافات

الأمر ليس لهم مايصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا ٧٠
أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يزعجون
ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم وقيل هو إسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك ٧١
قريش (أكثر الأولين) من الأمم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا ٧٢
فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ماهم عليه وأنذروهم عاقبته
الوخيمة وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (فانظر كيف كان عاقبة ٧٣
المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأساً والخطاب إما لرسول الله ﷺ
أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا هلاكا فظيعاً استثنى منهم
المخلصون بقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) أى الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل ٧٤
بموجب الإنذار وقرىء المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى (ولقد نادانا نوح) نوع ٧٥
تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض
المنذرين حسبما أشير إليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم
إلياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للإيمان كما أشار إليه الاستثناء كقوم
يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف
وكذا ما فى قوله تعالى (فلنعم المجيبون) أى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد مادعاهم
إليه أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون
نحن لحذف ماحذف ثقة بدلالة ماذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء (ونجيناه وأهله من الكرب ٧٦
العظيم) أى من الغرق وقيل من أذية قومه .

لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ٥٦ الواقعة

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ٥٦ الواقعة

فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ٥٦ الواقعة

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ٥٦ الواقعة

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ٥٦ الواقعة

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ٥٦ الواقعة

---

٥٢ (لآكلون) بعد البعث والجمع ودخول جهنم (من شجرة من زقوم) من الأولى لابتداء الغاية والثانية
لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدئون الأكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية متعلقة بمضمر هو
٥٣،٥٤ وصف لشجر أى كائن من زقوم (فمالئون منها البطون) أى بطونكم من شدة الجوع (فشاربون
عليه) عقيب ذلك بلا ريث (من الحميم) أى الماء الحار فى الغاية وتأنيث ضمير الشجر أولا وتذكيره
ثانياً باعتبار المعنى واللفظ وقرىء من شجرة فضمير عليه حينئذ للزقوم وقيل للآكل وقوله تعالى
٥٥ (فشاربون شرب الهيم) كالتفسير لما قبله على طريقة قوله تعالى فكذبوا عبدنا أى لا يكون شربكم
شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم وهى الإبل التى بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى
جمع أهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال على أنه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل التى لا يتماسك جمع على
فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب
النار فى أحشائهم مايضطرهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فإذا ملئوا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة
والمرارة سلط عليهم من العطش مايضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربون شرب الهيم
٥٦ وقرىء شرب الهيم بالفتح وهو أيضاً مصدر وقرىء بالكسر على أنه اسم المشروب (هذا) الذى ذكر
من أنواع العذاب (نزلهم يوم الدين) أى يوم الجزاء فإذا كان ذلك نزلهم وهو مايعد للنازل مما حضر
فما ظنك بما لهم بعد مااستقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار فى النار وفيه من التهكم بهم مالا يخفى وقرىء
نزلهم بسكون الزاى تخفيفاً والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام
٥٧ الملقن غير داخلة تحت القول وقوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) تلوين للخطاب وتوجيه له
إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ماقبلها أى فهلا تصدقون بالخلق
فإن مالا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبىء عن خلافه ليس من التصديق فى شىء وقيل بالبعث استدلالا
عليه بالإنشاء فإن من قدر عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبراً .

إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ٣٧ الصافات

أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ٣٧ الصافات

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ٣٧ الصافات

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ٣٧ الصافات

فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ٣٧ الصافات

فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ٣٧ الصافات

كان بينهما إلا نبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (إذجاء ٨٤
ربه) منصوب باذكر أو متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة (بقلب سليم) أى من آفات القلوب أو من
العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله عز وجل ومعنى المجىء به ربه إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إياه بطريق
التمثيل (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أى أى شىء تعبدونه ٨٥
(أئفكا آلهة دون الله تريدون) أى أتريدون آلهة من دون الله إفكا أى للإفك فقدم المفعول على الفعل ٨٦
للعناية ثم المفعول له على المفعول به لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم ويجوز أن يكون
إفكا مفعولا به بمعنى أتريدون إفكا ثم يفسر الإفك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها إفك فى نفسها
للمبالغة أو يراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز أن يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين) ٨٧
أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أو فما
ظنكم به أى شىء هو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم
بعد ما فعلتم من الإشراك به (فنظر نظرة فى النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها ٨٨
نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فإذا هى قد حضرت (فقال إنى سقيم) ٨٩
وكان صادقا فى ذلك فجعله عذراً فى تخلفه عن عيدهم وقيل أراد إنى سقيم القلب لكفركم وقيل نظر فى علمها
أو فى كتبها أو فى أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا
أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليتركوه فإن القوم كانوا نجامين فأوهمهم أنه قد استدل
بأمارة فى النجوم على أنه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا
يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى معبدهم وتركوه فى بيت الأصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا ٩٠
عنه مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى .

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ٥٦ الواقعة

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ٥٦ الواقعة

ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ٥٦ الواقعة

لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ٥٦ الواقعة

ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ٥٦ الواقعة

---

* (فظلتم) بسبب ذلك (تفكهون) تتعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتموه على أحسن ما يكون من
الحال أو تندمون على ماتعبتم فيه وأنفقتم عليه أو على ما اقترفتم لأجله من المعاصى فتتحدثون فيه والتفكه
التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث وقرىء تفكنون أى تتندمون وقرىء فظلتم
٦٦ بالكسر وفظللتم على الأصل (إنا لمغرمون) أى لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون بهلاك رزقنا
من الغرام وهو الهلاك وقرىء أئنا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدرة بقول هو فى حيز النصب
٦٧ على الحالية من فاعل تفكهون أى قائلين أو تقولون إنا لمغرمون (بل نحن محرومون) حرمنا رزقنا
٦٨ أو محارفون محدودون لاحظ لنا ولا بخت لا مجدودون (أفرأيتم الماء الذى تشربون) عذباً فراتاً
٦٩ وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (أأنتم أنزلتموه
* من المزن) أى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون)
٧٠ له بقدرتنا (لو نشاء جعلناه أجاجا) ملحاً زعاقا لايمكن شربه وحذف اللام ههنا مع إثباتها فى الشرطية
الأولى للتعويل على علم السامع أو الفرق بين المطعوم والمشروب فى الأهمية وصعوبة الفقد والشرطيتان
مستأنفتان مسوقتان لبيان أن عصمته تعالى للزرع والماء عما يخل بالتمتع بهما نعمة أخرى بعد نعمة
٧١ الإنبات والإنزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى (فلولا تشكرون) تحضيض على شكر الكل (أفرأيتم
٧٢ النار التى تورون) أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد (أأنتم أنشأتم شجرتها) التى منها الزناد وهى
* المرخ والعفار (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالإنشاء المنبىء عن بديع الصنع
المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لاتخلو عن النار
حتى قيل فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء فى قوله تعالى
ثم أنشأناه خلقاً آخر لذلك .

قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَـٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ٣٧ الصافات

فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَـٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ٣٧ الصافات

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ ٣٧ الصافات

رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ٣٧ الصافات

فَبَشَّرۡنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ ٣٧ الصافات

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ
ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ٣٧ الصافات

أولياً مع مافيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع مايعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ماءصدرية
أى عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على
فعلهم أولى بذلك (قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) أى فى النار الشديدة الاتقاد من الجحمة وهى ٩٧
شدة التأجج واللام عوض من المضاف إليه أى جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة
الأنبياء (فأرادوا به كيداً) فإنه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا ماقصدوا ٩٨
لئلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الأسفلين) الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه
عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه برداً وسلاماً (وقال إنى ذاهب إلى ربى) أى مهاجر إلى حيث ٩٩
أمرنى ربى كما قال إنى مهاجر إلى ربى وهو الشام أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) أى إلى
مافيه صلاح دينى أو إلى مقصدى وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى
معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولذلك أتى بصيغة
التوقع (رب هب لى من الصالحين) أى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة ١٠٠
يعنى الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به وإن كان قد ورد مقيداً بالأخوة فى قوله تعالى ووهبنا
له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فإنه صريح فى أن المبشر به عين ما استوهبه ١٠١
عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما
وأى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى
إن شاء الله من الصابرين وقيل مانعت الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده
غير إبراهيم وابنه فإنه تعالى نعتهما به وحالهما المحكية بعد أعدل بينة بذلك والفاء فى قوله تعالى (فلما بلغ ١٠٢
معه السعى) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح

فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ٥٦ الواقعة

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ٥٦ الواقعة

تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ ٥٦ الواقعة

وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ٥٦ الواقعة

فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ ٥٦ الواقعة

أى كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة فى صلاح المعاش والمعاد أو حسن مرضى أو كريم
عند الله تعالى وبقوله تعالى لو تعلمون بين الموصوف وصفته وجواب لو إما متروك أريد به نفى علمهم
٧٨ أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه (فى كتاب مكنون) أى مصون من غير
٧٩ المقربين من الملائكة لايطلع عليه من سواهم وهو اللوح (لا يمسه إلا المطهرون) إما صفة أخرى
لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية وأوضار الأوزار أو للقرآن
فالمراد بهم المطهرون من الأحداث فيكون نفياً بمعنى النهى أى لا ينبغى أن يمسه إلا من كان على طهارة
من الناس على طريقة قوله عليه الصلاة والسلام المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه أى لا ينبغى له
أن يظلمه وقيل لايطلبه إلا المطهرون من الكفر وقرىء المتطهرون والمطهرون بالإدغام والمطهرون
٨٠ من أطهره بمعنى طهره والمطهرون أى أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار أو غيره (تنزيل من رب العالمين)
٨١ صفة أخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرىء تنزيلا (أفبهذا الحديث)
الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم (أنتم مدهنون) أى
٨٢ متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به (وتجعلون رزقكم) أى
شكر رزقكم (أنكم تكذبون) أى تضعون التكذيب موضع الشكر وقرىء وتجعلون شكركم
أنكم تكذبون أى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وقيل الرزق المطر والمعنى وتجعلون
شكر مايرزقكم الله تعالى من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء
٨٣ والأول هو الأوفق لسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله عز وجل (فلولا إذا بلغت الحلقوم) الخ
تبكيت مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم إلى هنا من القوارع الدالة
على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم
كما ستقف عليه ولولا للتحضيض لإظهار عجزهم وإذا ظرفية أى فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقيل

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ٣٧ الصافات

قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ٣٧ الصافات

وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ٣٧ الصافات

سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ٣٧ الصافات

وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم إبراهيم
ابنه وإسماعيل نفسه (وتله للجبين) صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبى الجبهة وقيل
كبه على وجهه بإشارته كيلا يرى منه مايورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من
منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه (وناديناه أن ياإبراهيم) ١٠٤
(قد صدقت الرؤيا) بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وقد روى أنه أمر السكين بقوته ١٠٥
على حلقه مراراً فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك وقع النداء جواب لما محذوف
إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ماكان مما لا يحيط به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما
لله تعالى على ماأنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله وإظهار فضلهما بذلك
على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك (إنا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة
عنهما بإحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً
بالذبح لقوله تعالى افعل ماتؤمر ولم يحصل (إن هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص ١٠٦
عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة إذ لاشىء أصعب منها (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) ١٠٧
أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لأنه يفدى به الله نبياً ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان
ذلك كبشاً من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى
الجنة حتى فدى به إسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب من إبراهيم
عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى أنه رمى الشيطان حين
تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر الله أكبر فقال
الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو إبراهيم
وإنما قيل وفديناه لأنه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء أو الإسناد (وتركنا عليه فى ١٠٨
الآخرين سلام على إبراهيم) قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام. ١٠٩

كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) ٣٧ الصافات

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ٣٧ الصافات

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ٣٧ الصافات

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) ٣٧ الصافات

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) ٣٧ الصافات

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) ٣٧ الصافات

---

١١٠ (كذلك نجزى المحسنين) ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما أشير إليه فيما سبق
١١١ فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بأنا للاكتفاء بما مر آنفاً (إنه من عبادنا المؤمنين) الراسخين فى الإيمان
١١٢ على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) أى مقضياً بنبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة فإن وجود ذى الحال ليس بشرط وإنما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود إسحاق أى بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى فادخلوها خالدين فإن الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول وإسحاق عليه السلام لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد ومن فسر الغلام بإسحاق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد تعظيم لشأنه وإيماء إلى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل
١١٣ بالفعل على الإطلاق (وباركنا عليه) على إبراهيم فى أولاده (وعلى إسحاق) بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرىء وبركنا (ومن ذريتهما محسن) فى عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له فى الهداية والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة
١١٤ ولا عيب (ولقد مننا على موسى وهرون) أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية
١١٥ (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو إسرائيل (من الكرب العظيم) هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى وإذ أنجيناكم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد لأنه
١١٦ لم يكن عليهم كرباً ومشقة (ونصرناهم) أى إياهما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ٣٧ الصافات

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ ٣٧ الصافات

سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ٣٧ الصافات

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٣٧ الصافات

سوء العذاب وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت
بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدىء بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية
المنصور من عدوه من غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه
١١٧ المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) أى البليغ فى البيان
١١٨ والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل إلى الحق والصواب بما فيه
١١٩، ١٢٠ من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام (وتركنا عليهما فى الآخرين) (سلام على موسى وهرون) أى
١٢١ أبقينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (إنا كذلك) الجزاء الكامل (نجزى المحسنين)
١٢٢، ١٢٣ الذين هما من جملتهم لا جزاء قاصراً عنه (إنهما من عبادنا المؤمنين) سبق بيانه (وإن إلياس لمن
المرسلين) هو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخى موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل إدريس لأنه
١٢٤ قرىء مكانه إدريس وإدراس وقرىء إيليس وقرىء الياس بحذف الهمزة (إذ قال لقومه ألا تتقون)
١٢٥ أى عذاب الله تعالى (أتدعون بعلا) أتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لأهل بك من
الشأم وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به
وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة
والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أى أتعبدون بعض البعول (وتذرون «

ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ٣٧ الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ٣٧ الصافات

سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ٣٧ الصافات

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ٣٧ الصافات

أحسن الخالقين) أى وتتركون عبادته وقد أشير إلى المقتضى للإنكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله
١٢٦ تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرىء بالرفع على الابتداء
والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى والإشعار ببطلان آراء آبائهم
١٢٧ أيضاً (فكذبوه فإنهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) أى العذاب والإطلاق للاكتفاء بالقرائن
١٢٨ على أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (إلا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون
١٣٠،١٢٩ (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إلياسين) هو لغة فى إلياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع
له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرىء بإضافة آل
١٣٢،١٣١ إلى ياسين لأنهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا إلياس (إنا كذلك نجزى المحسنين إنه
١٣٤،١٣٣ من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه) أى اذكر وقت تنجيتنا إياه
١٣٦،١٣٥ (وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين) أى الباقين فى العذاب أو الماضين الهالكين (ثم دمرنا
الآخرين) فإن فى ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ٣٧ الصافات

وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ٣٧ الصافات

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ٣٧ الصافات

فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ٣٧ الصافات

فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ٣٧ الصافات

لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ٣٧ الصافات

فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ٣٧ الصافات

---

١٣٧ (وإنكم) ياأهل مكة (لتمرون عليهم) على منازلهم فى متاجركم إلى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فإن
١٣٨ سدوم فى طريق الشام (مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) أى ومساء أو نهاراً وليلا ولعلها وقعت
بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (أفلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون
١٣٩ حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم (وإن يونس لمن المرسلين) وقرىء بكسر النون
١٤٠ (إذ أبق) أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه
١٤١ (إلى الفلك المشحون) أى المملوء (فساهم) فقارع أهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة
وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل
أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا
١٤٢ الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل فى الملامة أو آت بما
١٤٣ يلام عليه أو مليم نفسه وقرىء مليم بالفتح مبنياً من ليم كشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين)
الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت وهو قوله لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت
١٤٤ من الظالمين وقيل من المصلين فإنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء (للبث فى بطنه إلى يوم
يبعثون) حياً وقيل ميتاً وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده
١٤٥ عند الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت روى

وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ ٣٧ الصافات

وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ٣٧ الصافات

فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ٣٧ الصافات

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ٣٧ الصافات

أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأساً يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى
البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف في
مقدار لبثه فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث إلا قليلا ثم أخرج
من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء أنه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت إنى جعلت
١٤٦ بطنك له سجناً ولم أجعله لك طعاما (وهو سقيم) مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد (وأنبتنا
عليه) أى فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ماينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق كشجر
البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به والأكثرون على أنه الدباء غطته
بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ إنك تحب القرع قال أجل
هى شجرة أخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل
١٤٧ كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها (وأرسلناه إلى مائة ألف) هم قومه الذين
هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به إرساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الإطلاق ثم أخبر
بأنه قد أرسل إلى أمة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه إلى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو
ماجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من إنذاره إياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله
وتعللهم وتعليقهم لإيمانهم بظهور أماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم أن إيمانهم الذى سيحكى
بعد لم يكن عقيب الإرسال كما هو المتبادر من ترتيب الإيمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتى وقيل هو
إرسال آخر إليهم وقيل إلى غيرهم وليس بظاهر (أو يزيدون) أى فى مرأى الناظر فإنه إذا نظر إليهم قال
١٤٨ إنهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرىء بالواو (فآمنوا) أى بعد ماشاهدوا علائم
حلول العذاب إيماناً خالصاً (فمتعناهم) أى بالحياة الدنيا (إلى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم
ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولى العزم من
١٤٩ الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة (فاستفتهم) أمر الله عز وجل
فى صدر السورة الكريمة رسوله ﷺ بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء
وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لامحالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب
واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ٣٧ الصافات

أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ ٣٧ الصافات

وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ٣٧ الصافات،

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ٣٧ الصافات

وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبيناً
فى كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفاً لهم تارة بالإخلاص وأخرى بالإيمان ثم أمره ﷺ ههنا
بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة
لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة
وبنى مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الأمر على ماسبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام
الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم
تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم إناثاً ثم أبطل أصل كفرهم المنطوى
على هذين الكفرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ولم ينظمه فى سلك التبكيت
لمشاركتهم النصارى فى ذلك أى فاستخبرهم (ألربك البنات) اللاتى هن أوضع الجنسين (ولهم البنون)
الذين هم أرفعهما فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شىء من العقل وقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثاً) ١٥٠
إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشير إليه أى بل أخلقنا الملائكة
الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثاً والأنوثة من أخس صفات
الحيوان وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى أشهدوا خلقهم وقوله تعالى
ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ
لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلابد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً
عند خلقهم والجملة إما حال من فاعل خلقنا أى بل أخلقناهم إناثاً والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف
على خلقنا أى بل أهم شاهدون وقوله تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله) استئناف ١٥١، ١٥٢
من جهته غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا
الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعاً (وإنهم لكاذبون) فى قولهم
ذلك كذباً بيناً لا ريب فيه وقرىء ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أى الملائكة ولده تعالى عن ذلك
علواً كبيراً فإن الولد فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (أصطفى البنات على ١٥٣
البنين) إثبات لإفكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى
البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشىء لنفسه وقرىء بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ٣٧ الصافات

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ٣٧ الصافات

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ٣٧ الصافات

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ٣٧ الصافات

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ٣٧ الصافات

ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول أى لكاذبون فى قولهم أصطفى
١٥٤، ١٥٥ الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذى يقضى ببطلانه بديهة العقل (أفلا
تذكرون) بحذف إحدى التاءين من تتذكرون وقرىء تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أى
١٥٦ ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فإنه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى (أم لكم سلطان مبين)
إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا
أى بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من
١٥٧ سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (إن
كنتم صادقين) فيها وفى هذه الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد
الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم مالا
١٥٨ يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم
عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين
والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان ومن
طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك وإنما عبر عنهم بذلك الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم مع عظم
شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها إليهم بجهلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات
الله وإنما أعيد ذكره تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أى وبالله لقد علمت
الجنة التى عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسباً وهم الملائكة أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم
وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون
أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكما مؤكداً وقيل إن قوما
من الزنادقة يقولون الله تعالى وإبليس إخوان فالله هو الخير الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم وهو
المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً قال الإمام الرازى وهذا القول عندى أقرب الأقاويل
وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن ويعبرون عنهما بالنور والظلمة وقال مجاهد قالت قريش

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ٣٧ الصافات

مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ٣٧ الصافات

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ٣٧ الصافات

الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فمن أمهاتهم تبكيتاً لهم فقالوا سروات الجن وقيل
معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسباً جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه
الأقاويل يجوز أن يكون الضمير فى إنهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم
النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الأول فإن
قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم ١٥٩
لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) شهادة منهم ببراءة المخلصين ١٦٠
من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على أبلغ وجه وآكده
على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم
ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله
تعالى (فإنكم وما تعبدون) (ما أنتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر ببيان ١٦١، ١٦٢
عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما
تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون
الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليباً وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته
أى أفسدها عليه والمعنى فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم
(إلا من هو صال الجحيم) منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء اختياره ويصير من ١٦٣
أهل النار لا محالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من إفسادهم وإضلالهم فهم لا جرم برآء من أن يفتتنوا
بكم ويسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرىء صال بضم اللام على أنه جمع محمول على
معنى من قد سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) تبيين لجلية أمرهم ١٦٤
وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ماذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ٣٧ الصافات

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ٣٧ الصافات

لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ٣٧ الصافات

لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ٣٧ الصافات

فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ٣٧ الصافات

وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وقماءتهم أى ومامنا إلا له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزيل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعاً لجلاله كما روى فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما فى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه ﷺ قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده مافيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى إلا له
١٦٥،١٦٦ مقام معلوم فى القربة والمشاهدة (وإنا لنحن الصافون) فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وإنا
لنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد
لإبراز أن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير
١٦٧ الآيات الكريمة وإعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق (وإن كانوا ليقولون) إن هى المخففة من الثقيلة
١٦٨ وضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة أى إن الشأن كانت قريش تقول (لو أن عند ذكراً من الأولين)
١٦٩ أى كتاباً من كتب الأولين من التوراة والإنجيل (لكنا عباد الله المخلصين) أى لأخلصنا العبادة لله
تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم والفاء فى قوله
١٧٠ تعالى (فكفروا به) فصيحة كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى لجاءهم ذكر وأى
ذكر سيد الأذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار فكفروا به (فسوف يعلمون) أى عاقبة
١٧١ كفرهم وغائلته (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية
١٧٢ الاعتناء بتحقيق مضمونه أى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة هو قوله تعالى (إنهم

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾	٣٧ الصافات
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾	٣٧ الصافات
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾	٣٧ الصافات
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾	٣٧ الصافات
فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾	٣٧ الصافات
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾	٣٧ الصافات
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾	٣٧ الصافات

١٧٣ لهم المنصورون وإن جندنا) وهم أتباع المرسلين (لهم الغالبون) على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى
ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فإن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب
من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى
الآخرة وقرىء على عبدنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع أنها كلمات لانتظامها فى معنى واحد
١٧٤ وقرىء كلماتنا (فتول عنهم) فأعرض عنهم واصبر (حتى حين) إلى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال
١٧٥ وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) على أسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والأسر والمراد
بالأمر بإبصارهم الإيذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) مايقع حينئذ من الأمور وسوف
١٧٦ للوعيد دون التبعيد (أفبعذابنا يستعجلون) روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل
١٧٧ (فإذا نزل بساحتهم) أى فإذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قدهجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن
عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح وقرىء نزل بساحتهم على
إسناده إلى الجار والمجرور وقرىء نزل مبنياً للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) *
فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول
العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وإن وقعت ليلا روى أن رسول الله ﷺ لما أتى
خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال ﷺ
١٧٨، ١٧٩ الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (فتول عنهم حتى حين) (وأبصر
فسوف يبصرون) تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع مافى إطلاق
الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن مايبصره ﷺ حينئذ من فنون المسار ومايبصرونه من أنواع المضار
لايحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالأول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ٣٧ الصافات

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ٣٧ الصافات

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ٣٧ الصافات

١٨٠ (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل مايصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما ذكر في السورة الكريمة وما لم يذكر من الأمور التي من جملتها ترك إنجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لاسيما في حق رسول الله ﷺ كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ أولا وإلى العزة ثانياً كأنه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء

١٨١ التي منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) لتشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره

١٨٢ فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) إشارة إلى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الجميلة التي من جملتها إفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه عليهم وعلى من تبعهم صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى وإشعار بأن ماوعده ﷺ من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسايط بينهم وبينه عز وعلا في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع مافيه من الإشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد . عن علي رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . عن رسول الله ﷺ من قرأ والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبريء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين .

﴿ سورة الصافات ٣٧ ﴾

مكية ولم يحكوا فى ذلك خلافا وهى مائة واحدى وثمانون آية عند البصريين ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم، وفيها تفصيل احوال القرون المشار إلى اهلا كها فى قوله تعالى فى السورة المتقدمة (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لايرجعون) وفيها من تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة ماهو كالايضاح لما فى تلك السورة من ذلك، وذكر فيها شىء مما يتعلق بالكواكب لم يذكر فيما تقدم، والمجموع ما ذكرت بعدها. وفى البحر مناسبة أول هذه السورة لآخر سورة يس أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته سبحانه على احياء الموتى وأنه هو منشئهم وأنه إذا تعلقت ارادته بشىء كان ذكر عز وجل هنا وحدانيته سبحانه إذ لايتم ماتعلقت به الارادة إيجادا واعداما الا بكون المريد واحدا كما يشير اليه قوله تعالى (لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١ ﴾ اقسام من الله تعالى بالملائكة عليهم السلام كما روى عن ابن عباس. وابن مسعود. ومسروق. ومجاهد. وعكرمة. وقتادة. والسدى، وأبى أبو مسلم ذلك وقال: لايجوز حمل هذا اللفظ وكذا مابعد على الملائكة لأن اللفظ مشعر بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة، وفيه أن هذا فى معنى جمع الجمع فهو جمع صافة أى طائفة أو جماعة صافة، ويجوز أن يكون تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس والتأنيث المعنوى هو الذى لايحسن أن يطلق عليهم وأما اللفظى فلا مانع منه كيف وهم المسمون بالملائكة، والوصف المذكور منزل منزلة اللازم على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أى الفاعلات للصفوف أو المفعول محذوف أى الصافات أنفسها أى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى (وما منا الا له مقام معلوم) وذلك باعتبار تقدم الرتبة والقرب

www.Quranpdf.blogspot.in

من حظيرة القدس او الصافات انفسها القائمات صفوفا للعبادة ، وقيل: الصافات أقدامها للصلاة ، وقيل: الصافات أجنحتها فى الهواء منتظرات أمر الله تعالى، وقيل: المراد بالصافات الطير من قوله تعالى (والطير صافات) ولا يعول على ذلك، و(صفا) مصدر مؤكد وكذا (زجرا) فى قوله تعالى ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ٢ ﴾ وقيل: صفا مفعول به وهو مفرد اريد به الجمع أى الصافات صفوفها وليس بذاك ، والمراد بالزاجرات الملائكة عليهم السلام أيضا عند الجمهور، والزجر فى الاصل الدفع عن الشيء بتسلط وصياح وأنشدوا :

زجر أبى عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

ويستعمل بمعنى السوق والحث وبمعنى المنع ، والنهى وان لم يكن صياح والوصف منزل منزلة اللازم أو مفعوله محذوف أى الفاعلات للزجر أو الزاجرات ما نيط بها زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور، ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى بالهام الخير وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتى قريبا إن شاء الله تعالى ، وعن قتادة المراد بالزاجرات آيات القرآن لتضمنها النواهى الشرعية ، وقيل كل مازجر عن معاصى الله عزوجل ، والمعول عليه ماتقدم، وكذا المراد كما روى عن ابن عباس . وابن مسعود . وغيرهما فى قوله تعالى: ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣ ﴾ الملائكة عليهم السلام *

و(ذكرا) نصب على أنه مفعول وتنوينه للتفخيم ، وهو بمعنى المذكور المتلو وفسر بكتاب الله عز وجل *

قال أبو صالح : هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله عز وجل إلى الناس فالمراد بتلاوته تلاوته على الغير ، وفسره بعضهم بالآيات والمعارف الالهية والملائكة يتلونهما على الأنبياء والأولياء، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى باب الاشارة مايتعلق بتلاوة الملائكة ذلك على الاولياء قدس الله تعالى أسرارهم، وقال بعض: أى فالتاليات آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ، ولعل التلاوة على هذا أعم من التلاوة على الغير وغيرها، وقيل (ذكرا) نصب على أنه مصدر مؤكد على غير اللفظ لتكون المنصوبات على نسق واحد، وقال قتادة : التاليات ذكرا بنو آدم يتلون كتابه تعالى المنزل وتسبيحه وتكبيره ، وجوز أن يكون الله تعالى أقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أنفسها فى صفوف الجماعات أو أقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه أو بطوائف قواد الغزاة فى سبيل الله تعالى التى تصف الصفوف فى مواطن الحروب الزاجرات الخيل للجهاد سوقا أو العدو فى المعارك طردا التاليات آيات الله سبحانه وذكره وتسبيحه فى تضاعيف ذلك *

وجوز أيضا أن يكون أقسم سبحانه بطوائف الاجرام الفلكية المرتبة كالصفوف المرصوصة بعضها فوق بعض والنفوس المدبرة لتلك الاجرام بالتحريك ونحوه والجواهر القدسية المستغرقة فى بحار القدس يسبحون الليل والنهار لايفترون وهم الملائكة الكروبيون ونحوهم، وهذا بعيد بمراحل عن مذهب السلف الصالح بل عن مذهب أهل السنة مطلقا كما لايخفى ، والفاء العاطفة للصفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفية فى الوجود الخارجى إذا كانت الذات المتصفة بها واحدة كما فى قوله :

يالهف زيابة للحادث السـ * ـابح فالغانم فالآيب

www.Quranpdf.blogspot.in

أى الذى صبح فغنم فآب ورجع أو لترتيب معانيها فى الرتبة إذا كانت الذات واحدة أيضاً كما فى قولك : أتم العقل فيك إذا كنت شابا فكهلا أو لترتيب الموصوفات بها فى الوجود كما فى قولك : وقفت كذا على بنى بطنا فبطنا أو فى الرتبة نحو رحم الله تعالى المحلقين فالمقصرين، وكلاهما مع تعدد الموصوف والترتيب الرتبى اما باعتبار الترقى أو باعتبار التدلى، وهى إذا كانت الذات المتصفة بالصفات هنا واحدة وهم الملائكة عليهم السلام بأسرهم تحتمل أن تكون للترتيب الرتبى باعتبار الترقى فالصف فى الرتبة الأولى لأنه عمل قاصر والزجر أعلى منه لما فيه من نفع الغير والتلاوة أعلى وأعلى لما فيها من نفع الخاصة السارى إلى نفع العامة بما فيه صلاح المعاش والمعاد أو للترتيب الخارجى من حيث وجود ذوات الصفات فالصف يوجد أولا لانه كمال للملائكة فى نفسها ثم يوجد بعده الزجر للغير لأنه تكميل للغير يستعد به الشخص مالم يكمل فى نفسه لا يتأهل لأن يكمل غيره ثم توجد التلاوة بناء على أنها إفاضة على الغير المستعد لها وذا لا يتحقق الا بعد حصول الاستعداد الذى هو من آثار الزجر، وإذا كانت الذات المتصفة بها من الملائكة عليهم السلام متعددة بمعنى أن صنفا منهم كذا وصنفا آخر كذا فالظاهر أنها للترتيب الرتبى باعتبار الترقى كما فى الشق الأول فالجماعات الصافات كاملون والزاجرات أكمل منها والتاليات أكمل وأكمل كما يعلم مما سبق، وقيل يجوز ان يكون بعكس ذلك بأن يراد بالصافات جماعات من الملائكة صافات من حول العرش قائمات فى مقام العبودية وهم الكروبيون المقربون أو ملائكة آخرون يقال لهم كما ذكر الشيخ الأكبر قدس الله سره المهيمون مستغرقون بحبه تعالى لا يدرى أحدهم أن الله عز وجل خلق غيره وذكر أنهم لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام لعدم شعورهم باستغراقهم به تعالى وأنهم المعنيون بالعالين فى قوله تعالى : (أستكبرت أم كنت من العالين) وبالزاجرات جماعات أخر أمرت بتسخير العلويات والسفليات وتدبيرها لما خلقت له وهى فى الفضل على مالها من النفع للعباد دون الصافات وبالتاليات ذكرا جماعات أخر أمرت بتلاوة المعارف على خواص الخلق وهى لخصوص نفعها دون الزاجرات أو المراد بالزاجرات الزاجرات الناس عن القبيح بالهام جهة قبحه وماينفر عن ارتكابه وبالتاليات ذكرا المهمات للخير والجهات المرغبة فيه، ولكون دفع الضر أولى من جلب الخير ودرء المفاسد أهم من جلب المصالح ولذا قيل التخلية بالخاء مقدمة على التحلية كانت التاليات دون الزاجرات، وحال الفاء على سائر الأقوال السابقة فى الصفات لا يخفى على من له أدنى تأمل ويجوز عندى والله تعالى أعلم أن يراد بالصافات المصطفون للعبادة من صلاة ومحاربة كفرة مثلا ملائكة كانوا أم أناسى أم غيرهما وبالزاجرات الزاجرون عن ارتكاب المعاصى بأقوالهم أو أفعالهم كائنين من كانوا وبالتاليات ذكرا التالون لآيات الله تعالى على الغير للتعليم أو نحوه كذلك، ولا عناد بين هذه الصفات فتجتمع فى بعض الأشخاص، ولعل الترتيب على سبيل الترقى باعتبار نفس الصفات فالاصطفاف للعبادة كمال والزجر عن ارتكاب المعاصى أكمل والتلاوة لآيات الله تعالى للتعليم لتضمنه الأمر بالطاعات والنهى عن المعاصى والتخلى عن الرذائل والتحلى بالمعارف إلي أمور أخر أكمل وأكمل ؛ وجعل الصفات المذكورة لموصوف واحد من الملائكة على مامر بأن تكون جماعات منهم صافات بمعنى صافات أنفسها فى سلك الصفوف بالقيام فى مقاماتها المعلومة أو القائمات صفوفا للعبادة وتاليات ذكرا بمعنى تاليات الآيات بطريق الوحى على الأنبياء عليهم السلام لايخلو عن بعد فيما أرى على

www.Quranpdf.blogspot.in

أن تعدد الملائكة التالين للوحى سواء كان صنفا مستقلا أم لا مما يشكل عليه ماذكره غير واحد أن الأمين على الوحى التالى للذكر على الأنبياء هو جبريل عليه السلام لاغير ، نعم من الآيات ماينزل مشيعا بجمع من الملائكة عليهم السلام ونطق الكتاب الكريم بالرصد عند إبلاغ الوحى وهذا أمر والتلاوة على الأنبياء عليهم السلام أمر آخر فتأمل جميع ذلك ، وفى المراد بالصفات المتناسقة احتمالات غير ماذكر فلا تغفل *

وايا ماكان فالقسم بتلك الجماعات أنفسها ولا حجر على الله عز وجل فله سبحانه أن يقسم بما شاء فلاحاجة إلى القول بأن الكلام على حذف مضاف أى ورب الصافات مثلا ، والآية ظاهرة الدلالة على مذهب سيبويه . والخليل فى مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) من أن الواو الثانية وما بعدها للعطف خلافا لمذهب غيرهما من أنها للقسم لوقوع الفاء فيها موقع الواو إلا أنها تفيد الترتيب • وأدغم ابن مسعود . ومسروق . والأعمش وأبو عمرو . وحمزة التاآت الثلاث فيما يليها للتقارب فانها من طرف اللسان وأصول الثنايا *

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم وقد جرت عادتهم على تأكيد مايهتم به بتقديم القسم ولذا قدم ههنا فلا يقال : إنه كلام مع منكر مكذب فلا فائدة فى القسم ، وماقيل من أن وحدة الصانع قد ثبتت بالدليل النقلى بعد ثبوتها بالعقل ففائدته ظاهرة هنا غير تام لأن الكلام مع من لا يعترف بالتوحيد، وقد أشير إلى البرهان فى قوله سبحانه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فان وجودها على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدته عز وجل بل فى كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك * وفى كل شىء له آية * تدل على أنه واحد * ورب خبر ثان لأن على مذهب من يجوز تعدد الأخبار أو خبر مبتدأ محذوف أو هو رب السموات الخ *

وجوز أبو البقاء . وغيره كونه بدلا من (واحد) فهو المقصود بالنسبة أى خالق السموات والأرض ومابينهما من الموجودات ويدخل فى عموم الموصول أفعال العباد فتدل الآية على أنها مخلوقة له تعالى ولا ينافى ذلك كون قدرة العبد مؤثرة باذنه عز وجل كما ذهب اليه معظم السلف حتى الاشعرى نفسه فى آخر الامر على ماصرح به بعض الأجلة ، وفسر بعضهم الرب هنا بالمالك وبالمربى ، ولعل الأول أظهر . وفى دلالة الآية على كون افعال العباد مخلوقة له على ذلك بحث ، والمراد بالمشارق عند جمع مشارق الشمس لأنها المعروفة الشائعة فيما بينهم وهى بعدد أيام السنة فانها فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب فى مغرب فالمغارب متعددة تعدد المشارق ، وكان الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ فى النعمة . ولهذا استدل به ابراهيم عليه السلام عند محاجة النمروذ ، وعن ابن عطية أن مشارق الشمس مائة وثمانون ، ووفق بعضهم بين هذا وما يقتضيه ماتقدم من مضاعفة العدد بأن مشارقها من رأس السرطان وهو أول بروج الصيف إلى رأس الجدى وهو أول بروج الشتاء متحدة معها من رأس الجدى إلى رأس السرطان فان اعتبر ماكانت عليه وماعادت اليه واحدا كانت مائة وثمانين وإن نظر إلى تغايرهما كانت ثلثمائة وستين ، وفى هذا اسقاط الكسر فان السنة الشمسية تزيد على ذلك العدد بنحو ستة أيام على مابين فى موضعه ، وفسرت المشارق أيضا بمشارق الكواكب ، ورجح بأنه المناسب لقوله تعالى بعد (انا زينا) الخ ، وهى للسيارات منها متفاوتة فى العدد ، وأكثرها مشارق على ماهو المعروف عند المتقدمين زحل ومشارقه إلى أن يتم دورته أكثر من مشارق الشمس إلى أن تتم دورتها بألوف ، ومشارق الثوابت إلى أن تتم الدورة أكثر وأكثر فلا تغفل وتبصر ، وتثنية المشرق والمغرب فى قوله تعالى (رب المشرقين ورب

www.Quranpdf.blogspot.in

المغربين) على ارادة مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما، واعادة (رب) هنا مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم ﴿ انَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ أى أقرب السموات من أهل الأرض فالدنيا هنا مؤنث أدنى بمعنى أقرب أفعل تفضيل ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ عجيبة بديعة ﴿ الْكَوَاكِبِ ٦ ﴾ بالجر بدل من (زينة) بدل كل على أن المراد بها الاسم أى مايزان به لا المصدر فان الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة :

فكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

وجوز أن تكون عطف بيان . وقرأ الاكثرون (بزينة الكواكب) بالاضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل مايزان به فتقع الكواكب بيانا لها ، ويجوز أن تكون لامية على أن الزينة للكواكب أضواؤها أو أوضاعها ، وتفسيرها بالاضواء منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وجوز أن تكون الزينة مصدرا كالنسبة واضافتها من اضافة المصدر إلى مفعوله أى زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب فيها أو من اضافة المصدر إلى فاعله أى زيناها بأن زينتها الكواكب . وقرأ ابن وثاب . ومسروق بخلاف عنهما . والاعمش . وطلحة . وأبو بكر (بزينة) منونا (الكواكب)نصبا فاحتمل أن يكون زينة مصدرا والكواكب مفعول به كقوله تعالى (أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) وليس هذا من المصدر المحدود كالضربة حتى يقال لا يصح اعماله كما نص عليه ابن مالك لأنه وضع مع التاء كالكتابة والاصابة وليس كل تاء فى المصدر للوحدة ، وأيضا ليست هذه الصيغة صيغة الوحدة ، واحتمل أن يكون (الكواكب) بدلا من (السماء) بدل اشتمال واشتراط الضمير معه للمبدل منه إذا لم يظهر اتصال أحدهما بالآخر كما قرروه فى قوله تعالى (قتل أصحاب الاخدود النار)* وقيل : اللام بدل منه ، وجوز كونه بدلا من محل الجار والمجرور أو المجرور وحده على القولين، وكونه منصوبا بتقدير أعنى . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (بزينة) منونا (الكواكب) رفعا على أنها خبر مبتدا محذوف أى هى الكواكب أو فاعل المصدر ورفعه الفاعل قد أجازه البصريون على قلة ، وزعم الفراء أنه ليس بمسموع . وظاهر الآية أن الكواكب فى السماء الدنيا ولا مانع من ذلك وإن اختلفت حركاتها وتفاوتت سرعة وبطأ لجواز أن تكون فى أفلاكها وأفلاكها فى السماء الدنيا وهى ساكنة ولها من الثخن ما يمكن معه نضد تلك الافلاك المتحركة بالحركات المتفاوتة وارتفاع بعضها فوق بعض . وحكى النيسابورى فى تفسير سورة التكوير عن الكلبى أن الكواكب فى قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور وتلك السلاسل بأيدى الملائكة عليهم السلام ، وهو مما يكذبه الظاهر ولا أراه الاحديث خرافة . وأما ماذهب اليه جل الفلاسفة من أن القمر وحده فى السماء الدنيا وعطارد فى السماء الثانية والزهرة فى الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشترى فى السادسة وزحل فى السابعة والثوابت فى فلك فوق السابعة هو الكرسى بلسان الشرع فمما لا يقوم عليه برهان يفيد اليقين ، وعلى فرض صحته لا يقدح فى الآية لأنه يكفى لصحة كون السماء الدنيا مزينة بالكواكب كونها كذلك فى رأى العين ﴿ وَحِفْظًا ﴾ نصب على أنه مفعول مطلق لفعل معطوف على (زينا) أى وحفظناها حفظا أو عطف على (زينة) باعتبار المعنى فانه معنى مفعول له كأنه قيل : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا لها ، والعطف على المعنى كثير وهو غير العطف على الموضع وغير عطف التوهم

www.Quranpdf.blogspot.in

وجوز كونه مفعولا له بزيادة الواو أو على تأخير العامل أى ولحفظها زيناها . وقوله تعالى :
﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَارِدٍ ٧ ﴾ متعلق بحفظنا المحذوف أو بحفظا ، والمارد كالمريد المتعرى عن الخيرات من قولهم شجر أمرد اذا تعرى من الورق ، ومنه قيل رملة مرداء إذا لم تنبت شيئا ، ومنه الامرد لتجرده عن الشعر ، وفسر هنا أيضا بالخارج عن الطاعة وهو فى معنى التعرى عنها ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى لا يتسمعون وهذا أصله فادغمت التاء فى السين ، وضمير الجمع لكل شيطان لأنه بمعنى الشياطين *

وقرأ الجمهور (لا يسمعون) بالتخفيف ، والملأ فى الاصل جماعة يجتمعون على رأى فيملؤن العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء ، ويطلق على مطلق الجماعه وعلى الاشراف مطلقا ، والمراد بالملأ الاعلى الملائكة عليهم السلام كما روى عن السدى لأنهم فى جهة العلو ويقابله الملأ الاسفل وهم الانس والجن لأنهم فى جهة السفل *

وقال ابن عباس : هم أشراف الملائكة عليهم السلام ، وفى رواية أخرى عنه أنهم كتابهم ، وفسر العلو على الروايتين بالعلو المعنوى *

وتعدية الفعل على قراءة الجمهور بإلى لتضمينه معنى الاصغاء أى لا يسمعون مصغين إلى الملأ الأعلى ، والمراد نفى سماعهم مع كونهم مصغين ، وفيه دلالة على مانع عظيم ودهشة تذهلهم عن الادراك ، وكذا على القراءة الأخرى وهى قراءة ابن عباس بخلاف عنه . وابن وثاب . وعبدالله بن مسلم . وطلحة . والأعمش . وحمزة . والكسائى . وحفص بناء على ما هو الظاهر من أن التفعل لا يخالف ثلاثيه فى التعدية ، واستعمال تسمع مع إلى لا يقتضى كونه غير مضمن ، وقيل لا يحتاج إلى اعتبار التضمين عليها والتفعل مؤذن بالطلب فتسمع بمعنى طلب السماع ، قيل : ويشعر ذلك بالاصغاء لأن طلب السماع يكون بالاصغاء فتتوافق القراءتان وإن لم يقل بالتضمين فى قراءة التشديد ، ولعل الأولى القول بالتضمين ونفى طلبهم السماع مع وقوعه منهم حتى قيل : إنه يركب بعضهم بعضا لذلك اما ادعائى للمبالغة فى نفى سماعهم أو هو على ما قيل بعد وصولهم إلى محل الخطر لخوفهم من الرجم حتى يدهشوا عن طلب السماع ، وقال أبو حيان : إن نفى التسمع لانتفاء ثمرته وهو السمع *

وقال ابن كمال : عدى الفعل فى القراءتين بإلى لتضمنه معنى الانتهاء أى لا ينتهون بالسمع أو التسمع إلى الملأ الاعلى وليس بذاك كما لا يخفى على المتأمل الصادق ، والجملة فى المشهور مستأنفة استئنافا نحويا ولم يجوز كونها صفة لشيطان قالوا إذ لا معنى للحفظ من شياطين لا تسمع أو لا تسمع مع إيهامه لعدم الحفظ عمن عداها . وكذا لم يجوز كونها استئنافا بيانيا واقعا جواب سؤال مقدر إذ المتبادر أن يؤخذ السؤال من فحوى ما قبله فتقديره حينئذ لم تحفظ فيعود محذور الوصفية ، وكذا كونها حالا مقدرة لأن الحال كذلك يقدرها صاحبها والشياطين لا يقدرون عدم السماع أو عدم التسمع ولا يريدونه ، وجوز ابن المنير كونها صفة والمراد حفظ السموات ممن لا يسمع أو لا يسمع بسبب هذا الحفظ ، وهو نظير (ثم أرسلنا رسلنا . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) ومن هنا لم يجعل بعض الأجلة قوله عليه الصلاة والسلام « من قتل قتيلا فله سلبه » من مجاز الأول . وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر ولا يكاد يفهم من اضرب الرجل المضروب كونه مضروبا بهذا الضرب المأمور به لا بضرب آخر قبله ، وكذا جوز صاحب الكشف كونها صفة وكونها مستأنفة استئنافا بيانيا أيضا ودفع المحذور وأبعد فى ذلك المغزى كعادته فى سائر تحقيقاته فقال : المعنى لا يمكنون من السماع

www.Quranpdf.blogspot.in

مع الاصغاء أولا يمكنون من التسمع مبالغة فى نفى السماع كأنهم مع مبالغتهم فى الطلب لا يمكنهم ذلك ، ولا بد من ذلك جعلت الجملة وصفا اولاجمعا بين القراءتين و توفية لحق الاصغاء المدلول عليه بالى وحينئذ يكون الوصف شديد الطباق ، ورد الاستئناف البيانى واردعلى تقدير السؤال لم تحفظ؟ (١) وليس كذلك بل السؤال عما يكون عند الحفظ وعن كيفيته لأن قوله سبحانه (وحفظا من كل شيطان مارد) مما يحرك الذهن له فقيل (لا يسمعون) جوابا عما يكون عنده (ويقذفون) لكيفية الحفظ، وهذا أولى من جعلها مبدأ اقتصاص مستطرد لئلا ينقطع ماليس بمنقطع معنى انتهى *

واستدقه الخفاجي واستحسنه وذكر أن حاصله أنه ليس المنفى هنا السماع المطلق حتى يلزم ماظنوه من فساد المعنى لأنه لما تعدى بالى وتضمن معنى الاصغاء صار المعنى حفظناها من شياطين لا تنصت لما فيها انصاتاتاما تضبط به ما تقوله الملائكة عليهم السلام ، ومآله حفظناها من شياطين مسترقة للسمع، وقوله سبحانه : (إلا من خطف) الخ ينادي على صحته ، والمناقشة بحديث الأوصاف قبل العلم بها أخبار ان جاءت لا تتم فالحديث غير مطرد ، وقيل : إن الأصل لأن لا يسمعوا على أن الجار متعلق بحفظا فحذفت اللام كما فى جئتك أن تكرمنى ثم حذفت أن ورفع الفعل كما فى قوله •

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

وفيه أن حذف اللام وحذف أن ورفع الفعل وإن كان كل منهما واقعا فى الفصيح إلا أن اجتماع الحذفين منكر يصان كلام الله تعالى عنه . وأبو البقاء يجوز كون الجملة صفة وكونها استئنافا وكونها حالا فلا تغفل *

﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أى يرمون ويرجمون ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨ ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود اليها، وليس المراد أن كل واحد يرمى من كل جانب بل هو على التوزيع أى كل من صعد من جانب رمى منه *

وقرأ محبوب عن أبى عمرو (يقذفون) بالبناء للفاعل ولعل الفاعل الملائكة ، وجوز أن يكون الكواكب، وأمر ضمير العقلاء سهل ، وقوله تعالى ﴿ دُحُوراً ﴾ مفعول له وعلة للقذف أى للدحور وهو الطرد والابعاد أو مفعول مطلق ليقذفون كقعدت جلوسا لتنزيل المتلازمين منزلة المتحدين فيقام دحورا مقام قذفا أو (يقذفون) مقام يدحرون ، وعلى التقديرين هو مصدر مؤكد أو حال من ضمير (يقذفون) على أنه مصدر باسم المفعول على القراءة الشائعة وهو فى معنى الجمع لشموله للكثير أى مدحورين ، وجوز كونه جمع داحر بمعنى مدحور كقاعد وقعود ، وكونه جمع داحر من غير تأويل بناء على القراءة الأخرى ، وجوز أن يكون منصوبا بنزع الخافض وهو الباء على أنه جمع دحر كدهر ودهور وهو مايدحر به أى يقذفون بدحور . وقرأ السلمى. وابن أبى عبلة . والطبرانى عن أبى جعفر (دحورا) بفتح الدال فاحتمل كونه نصبا بنزع الخافض أيضا وهو على هذه القراءة أظهر لأن فعولا بالفتح بمعنى مايفعل به كثير كطهور وغسول لما يتطهر ويغسل به ، واحتمل أن يكون صفة كصبور لموصوف مقدر أى قذفا دحورا طاردا لهم ، وأن يكون مصدرا كالقبول وفعول فى المصادر نادر ولم يأت فى كتب التصريف منه إلا خمسة أحرف الوضوء والطهور والولوع والوقود والقبول كما حكى عن سيبويه وزيد عليه الوزوع بالزاى المعجمة والهوى بفتح الهاء بمعنى السقوط والرسول بمعنى الرسالة *

(١) هكذا الاصل فليحرر

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ ﴾ آخر غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب ﴿ وَاصِبٌ ٩ ﴾ أى دائم كما قال قتادة . وعكرمة . وابن عباس ، وأنشدوا لابى الأسود *

لاأشترى الحمد القليل بقاؤه يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وفسره بعضهم بالشديد ، قيل والاول حقيقة معناه وهذا تفسير له بلازمه . والآية على ما سمعت كقوله تعالى : (وأعتدنا لهم عذاب السعير) وجوز أبو حيان أن يكون هذا العذاب فى الدنيا وهو رجمهم دائما وعدم بلوغهم ما يقصدون من استراق السمع ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ استثناء متصل من واو (يسمعون) و (من) بدل منه على ما ذكره الزمخشرى ومتابعوه ، وقال ابن مالك : إذا فصل بين المستثنى والمستثنى منه فالمختار النصب لأن الابدال للتشاكل وقد فات بالتراخى ، وذكره فى البحر هنا وجهاً ثانيا ، وقيل : هو منقطع على أن (من) شرطية جوابها الجملة المقرونة بالفاء بعد وليس بذاك ، والخطف الاختلاس والأخذ بخفة وسرعة على غفلة المأخوذ منه ، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة بلام العهد لأن المراد بها أمر معين معهود فهى نصب على المصدرية ، وجوز أن تكون مفعولا به على إرادة الكلمة . وقرأ الحسن وقتادة (خطف) بكسر الخاء والطاء مشددة ، قال أبو حاتم : ويقال هى لغة بكر بن وائل . وتميم بن مر والأصل اختطف فسكنت التاء للادغام وقبلها خاء ساكنة فالتقى ساكنان فحركت الخاء بالكسر على الأصل وكسرت الطاء للاتباع وحذفت ألف الوصل للاستغناء عنها . وقرئ (خطف) بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة ونسبها ابن خالويه إلى الحسن . وقتادة . وعيسى ، واستشكلت بأن فتح الخاء سديد لالقاء حركة التاء عليها ، وأما كسر الطاء فلا وجه له ، وقيل فى توجيهها : إنهم نقلوا حركة الطاء إلى الخاء وحذفت ألف الوصل ثم قلبوا التاء وأدغموا وحركوا الطاء بالكسر على أصل التقاء الساكنين وهو كما ترى ، وعن ابن عباس (خطف) بكسر الخاء والطاء مخففة أتبع على ما فى البحر حركة الخاء لحركة الطاء كما قالوا نعم ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ أى تبعه ولحقه على أن أتبع من الافعال بمعنى تبع الثلاثى فيتعدى لواحد ﴿ شِهَابٌ ﴾ هو فى الأصل الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، والمراد به العارض المعروف فى الجو الذى يرى كأنه كوكب منقض من السماء ﴿ ثَاقِبٌ ١٠ ﴾ مضىء كما قال الحسن . وقتادة كأنه ثقب الجو بضوئه ، وأخرج ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن يزيد الرقاشى أنه قال : يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر فذكر ذلك لأبى مجلز فقال : ليس ذاك ولكن ثقوبه ضوؤه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد (الثاقب) المتوقد وهو قريب مما تقدم *

وأخرج عن السدى (الثاقب) المحرق ، وليست الشهب نفس الكواكب التى زينت بها السماء فانها لا تنقض وإلا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق ، على أن المنقض إن كان نفس الكواكب بمعنى أنه ينقلع عن مركزه ويرمى به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم أن يقع على الأرض وهو إن لم يكن أعظم منها فلا أقل من أن ما انقض من الكواكب من حين حدث الرمى إلى اليوم أعظم منها بكثير فيلزم أن تكون الأرض اليوم مغشية باجرام الكواكب والمشاهدة تكذب ذلك بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلا *

وأصغر الكواكب عند الاسلاميين كالجبل العظيم ، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم بل صغار الثوابت عندهم

www.Quranpdf.blogspot.in

أعظم من الأرض وإن التزم أنه يرمى به حتى إذا تم الغرض رجع إلى مكانه قيل عليه : إنه حينئذ يلزم أن يسمع لهويه صوت هائل فان الشهب تصل إلى محل قريب من الأرض ، وأيضا عدم مشاهدة جرم كوكب هابطا أو صاعداً يأبى احتمال انقلاع الكوكب والرمى به نفسه ، وإن كان المنقض نوره فالنور لا أذى فيه فالأرض مملوءة من نور الشمس وحشوها الشياطين ، على أنه إن كان المنقض جميع نوره يلزم انتقاص الزينة أو ذهابها بالكلية ، وإن كان بعض نوره يلزم أن تتغير أضواء الكواكب ولم يشاهد فى شىء منها ذلك ، وأمر انقضاضه نفسه أو انفصال ضوئه على تقدير كون الكواكب الثوابت فى الفلك الثامن المسمى بالكرسى عند بعض الاسلاميين وانه لاشىء فى السماء الدنيا سوى القمر أبعد وأبعد . والفلاسفة يزعمون استحالة ذلك لزعمهم عدم قبول الفلك الخرق والالتئام إلى أمور أخر ، ويزعمون فى الشهب أنها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت كرة النار فاشتعلت وانقلبت ناراً ملتهبة فقد ترى ممتدة إلى طرف الدخان ثم ترى كأنها طفئت وقد تمكث زمانا كذوات الأذناب وربما تتعلق بها نفس على ما فصلوه ، وهم مع هذا لا يقولون بكونها ترمى بها الشياطين بل هم ينكرون حديث الرمى مطلقا ، وفى النصوص الالهية رجوم لهم ، ولعل أقرب الاحتمالات فى أمر الشهب أن الكوكب يقذف بشعاع من نوره فيصل أثره إلى هواء متكيف بكيفية مخصوصة يقبل بها الاشتعال بما يقع عليه من شعاع الكوكب بالخاصية فيشتعل فيحصل ما يشاهد من الشهب ، وإن شئت قلت : إن ذلك الهواء المتكيف بالكيفية المخصوصة إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو أثرت فيه أشعة الكواكب بما أودعه الله تعالى فيها من الخاصية فيشتعل فيحصل مايحصل ، وتأثير الأشعة الحرق فى القابل له مما لا ينكر فانا نرى شعاع الشمس إذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة أحرق قابل الاحراق ولو توسط بين المنظرة وبين القابل إناء بلور مملوء ماء ، ويقال : إن الله تعالى يصرف ذلك الحاصل إلى الشيطان المسترق للسمع وقد يحدث ذلك وليس هناك مسترق ، ويمكن أن يقال : إنه سبحانه يخلق الكيفية التى بها يقبل الهواء الاحراق فى الهواء الذى فى جهة الشيطان ، ولعل قرب الشيطان من بعض أجزاء مخصوصة من الهواء معد بخاصية أحدثها الله تعالى فيه لخلقه عز وجل تلك الكيفية فى ذلك الهواء القريب منه مع أنه عز وجل يخلق تلك الكيفية فى بعض أجزاء الهواء الجوية حيث لاشيطان هناك أيضا *

وإن شئت قلت : إنه يخرج شؤبوب من شعاع الكوكب فيتأذى به المارد أو يحترق ، والله عز وجل قادر على أن يحرق بالماء ويروى بالنار والمسببات عند الأسباب لابها وكل الأشياء مسندة اليه تعالى ابتداء عند الأشاعرة ، ولا يلزم على شىء مما ذكر انتقاص ضوء الكوكب ، ولو سلم أنه يلزم انتقاص على بعض الاحتمالات قلنا : إنه عز وجل يخلق بلا فصل فى الكوكب بدل ما نقص منه وأمره سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون *

ولا ينافى ماذكرنا قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) لأن جعلها رجوما يجوز أن يكون لأنه بواسطة وقوع أشعتها على ما ذكرنا من الهواء تحدث الشهب فهى رجوم بذلك الاعتبار ولا يتوقف جعلها رجوما على أن تكون نفسها كذلك بأن تنقلع عن مراكزها ويرجم بها ، وهذا كما تقول : جعل الله تعالى الشمس يحرق بها بعض الأجسام فانه صادق فيما إذا أحرق بها بتوسيط بعض المناظر وانعكاس شعاعها على قابل الاحراق . وزعم بعض الناس أن الشهب شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة

www.Quranpdf.blogspot.in

إلى كرة النار وهى الرجوم ولكونها بواسطة تسخين الكواكب للارض قال سبحانه : (وجعلناها رجوما) على التجوز فى إسناد الجعل اليها أو فى لفظها ، ولا يخفى أن كرة النار مما لم تثبت فى كلام السلف ولا ورد فيها عن الصادق عليه الصلاة والسلام خبر ، وقيل : يجوز أن تكون المصابيح هى الشهب وهى غير الكواكب وزينة السماء بالمصابيح لا يقتضى كونها فيها حقيقة إذ يكفى كونها فى رأى العين كذلك ، وقيل : يجوز أن يراد بالسماء جهة العلو وهى مزينة بالمصابيح والشهب كما هى مزينة بالكواكب . وتعقب هذا بأن وصف السماء بالدنيا يبعد إرادة الجهة منها . وتعقب ماقبله بأن المتبادر أن المصابيح هى الكواكب ولا يكاد يفهم من قوله تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وقوله سبحانه : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) إلا شىء واحد ، وأن كون الشهب المعروفة زينة السماء مع سرعة تقضيها وزوالها وربما دهش من بعضها مما لا يسلم ، والقول بانه يجوز اطلاق الكوكب على الشهاب للمشابهة فيجوز أن يراد بالكواكب مايشمل الشهب وزينة السماء على ما مر آنفا زيد فيه على ماتقدم ما لا يخفى ما فيه ، نعم يجوز أن يقال : إن الكوكب ينفصل منه نور اذا وصل إلى محل مخصوص من الجو انقلب نارا ورؤى منقضا ولا يعجز الله عز وجل شىء ، وقد يقال : إن فى السماء كواكب صغارا جدا غير مرئية ولو بالأرصاد لغاية الصغر وهى التى يرمى بها أنفسها ، وقوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) من باب عندى درهم ونصفه و (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا) الآية ان كان على معنى وحفظا بها فهو من ذلك الباب أيضا وإلا فالأمر أهون فتدبر » واختلف فى أن المرجوم هل يهلك بالشهاب إذا أصابه أو يتأذى به من غير هلاك فعن ابن عباس أن الشياطين لا تقتل بالشهاب ولا تموت ولكنها تحرق وتخبل أى يفسد منها بعض أعضائها ، وقيل تهلك وتموت ومتى أصاب الشهاب من اختطف منهم كلمة قال للذى يليه كان كذا وكذا قبل أن يهلك ، ولا يأبى تأثير الشهاب فيهم كونهم مخلوقين من النار لأنهم ليسوا من النار الصرفة كما أن الانسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة أستهلكتها ، وأياما كان لا يقال : إن الشياطين ذوو فطنة فكيف يعقل منهم العود إلى استراق السمع مرة بعد مرة مع أن المسترق يهلك أو يتأذى الأذى الشديد واستمرار انقضاض الشهب دليل استمرار هذا الفعل منهم لأنا نقول : لانسلم استمرار هذا الفعل منهم واستمرار الانقضاض ليس دليلا عليه لأن الانقضاض يكون للاستراق ويكون لغيره فقد أشرنا فيما سبق أن الهواء قد يتكيف بكيفية مخصوصة فيحترق بسبب أشعة الكواكب وإن لم يكن هناك مسترق ، وقيل : يجوز أن ترى الشهب لتعارض فى الأهوية واصطكاك يحصل منه ما ترى كما يحصل البرق باصطكاك السحاب على ماروى عن بعض السلف وحوادث الجو لا يعلمها إلا الله تعالى فيجوز أن يكونوا قد استرقوا أولا فشاهدوا ماشاهدوا فتركوا واستمرت الشهب تحدث لما ذكر لا لاستراق الشياطين ، ويجوز أن يقع أحيانا ممن حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رءوس المسترقين قبله أو ممن لا يبالى بالأذى ولا بالموت حبا لأن يقال ما أجسره أو ما أشجعه مثلا كما يشاهد فى كثير من الناس يقدمون فى المعارك على ما يتيقنون هلاكهم به حبا لمثل ذلك ، ولعل فى وصف الشيطان بالمارد ما يستأنس به لهذا الاحتمال ، وأما ماقيل : إن الشهاب قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأسا فخلاف المأثور ، فقد أخرج ابن أبى حاتم . وأبو الشيخ

www.Quranpdf.blogspot.in

في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إذا رمي بالشهاب لم يخطىء من رمي به، ثم ان ماذكر من احتمال انهم قد تركوا بعد أن صحت عندهم التجربة لا يتم إلا على ماروى عن الشعبي من أنه لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما قذف بها جعل الناس يسيبون أنعامهم ويعتقون رقيقهم يظنون أنه القيامة فأتوا عبد ياليل الكاهن وقد عمي وأخبروه بذلك فقال : انظروا إن كانت النجوم المعروفة من السيارة والثوابت فهو قيام الساعة وإلا فهو أمر حادث فنظروا فاذا هي غير معروفة فلم يمض زمن حتى أتى خبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووافق على عدم حدوثه قبل ابن الجوزي في المنتظم لكنه قال : إنه حدث بعد عشرين يوماً من مبعثه ، والصحيح أن القذف كان قبل ميلاده عليه الصلاة والسلام، وهو كثير في أشعار الجاهلية إلا انه يحتمل انه لم يكن طاردا للشياطين وأن يكون طارداً لهم لكن لا بالكلية وان يكون طارداً لهم بالكلية، وعلى هذا لا يتأتى الاحتمال السابق ، وعلى الاحتمال الأول من هذه الاحتمالات يكون الحادث يوم الميلاد طردهم بذلك ، وعلى الثاني طردهم بالكلية وتشديد الأمر عليهم لينحسم أمرهم وتخليطهم ويصح الوحي فتكون الحجة أقطع ، والذي يترجح أنه كان قبل الميلاد طارداً لكن لا بالكلية فكان يوجد استراق على الندرة وشدد في بدء البعثة ، وعليه يراد بخبر لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لم يكثر القذف بها ، وعلى هذا يخرج غيره إذا صح كالخبر المنقول في السير أن ابليس كان يخترق السموات قبل عيسى عليه السلام فلما بعث أو ولد حجب عن ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم فقالت قريش : قامت الساعة فقال عتبة بن ربيعة: انظروا إلى العيوق فان كان رمي به فقد آن قيام الساعة وإلا فلا ، وقال بعضهم : اتفق المحدثون على أنه كان قبل لكن كثر وشدد لما جاء الاسلام ولذا قال تعالى (ملئت حرساً شديداً وشهبا) ولم يقل حرست ، وبالجملة لا جزم عندنا بان مايقع من الشهب في هذه الاعصار ونحوها رجوم للشياطين والجزم بذلك رجم بالغيب ﴿ هذا وقد استشكل ﴾ أمر الاستراق بامور، منها ان الملائكة في السماء مشغولون بانواع العبادة أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد فماذا تسترق الشياطين منهم ؟ وإذا قيل : إن منهم من يتكلم بالحوادث الكونية فهم على (محدبها) والشياطين تسترق تحت مقعرها وبينهما كما صح في الأخبار خمسمائة عام فكيف يتأتى السماع لاسيما والظاهر أنهم لا يرفعون أصواتهم إذا تكلموا بالحوادث إذ لا يظهر غرض برفعها ، وعلى تقدير أن يكون هناك رفع صوت فالظاهر أنه ليس بحيث يسمع من مسيرة خمسمائة عام . وعلى تقدير أن يكون بهذه الحيثية فكرة الهواء تنقطع عند كرة النار ولا يسمع صوت بدون هواء *

وأجيب بأن الاستراق من ملائكة العنان وهم يتحدثون فيما بينهم بما أمروا به من السماء من الحوادث الكونية ، و(لمسنا السماء) طلبنا خبرها أو من الملائكة النازلين من السماء بالأمر فان ملائكة على أبواب السماء ومن حيث ينزلون يسألونهم بماذا تذهبون ؟ فيخبرونهم ، وليس الاستراق من الملائكة الذين على محدب السماء، وأمر كرة النار لا يصح ، والهواء غير منقطع وهو كمارق ولطف كان أعون على السماع ، على أن وجود الهواء مما لا يتوقف عليه السماع على أصول الاشاعرة ومثله عدم البعد المفرط ، وظاهر خبر أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن الاستراق من الملائكة في السماء قال : « إذا قضى الله تعالى أمرا تكلم تبارك وتعالى فتخر

www.Quranpdf.blogspot.in

الملائكة كلهم سجدا فتحسب الجن أن أمرا يقضى فتسترق فاذا فزع عن قلوب الملائكة عليهم السلام ورفعوا رؤسهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا جميعا : الحق وهو العلى الكبير » وجاء فى خبر اخرجه ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر عن ابراهيم التيمى « إذا أراد ذو العرش أمرا سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم فاذا قاموا قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قال من شاء الله : الحق وهو العلى الكبير » ولعله بعد هذا الجواب يذكر الامر بخصوصه فيما بين الملائكة عليهم السلام ، وظاهر ماجاء فى بعض الروايات عن ابن عباس من تفسير الملأ الاعلى بكتبة الملائكة عليهم السلام أيضا أن الاستراق من ملائكة فى السماء إذ الظاهر أن الكتبة فى السماء ، ولعله يتلى عليهم من اللوح مايتلى فيكتبونه لامر ما فتطمع الشياطين باستراق شىء منه ، وأمر البعد كأمر الهواء لايضر فى ذلك على الاصول الاشعرية ، ويمكن أن يدعى أن جرم السماء لايحجب الصوت وإن كثف ، وكم خاصية اثبتها الفلاسفة للافلاك ليس عدم الحجب أغرب منها * ومنها أنه يغنى عن الحفظ من استراق الشياطين عدم تمكينهم من الصعود إلى حيث يسترق السمع ، أوأمر الملائكة عليهم السلام باخفاء كلامهم بحيث لايسمعونه ، أوجعل لغتهم مخالفة للغتهم بحيث لايفهمون كلامهم . وأجيب بأن وقوع الامر على ماوقع من باب الابتلاء ، وفيه أيضا من الحكم مافيه ، ولايخفى أن مثل هذا الاشكال يجرى فى أشياء كثيرة إلا أن كون الصانع حكيما وأنه جل شأنه قد راعى الحكمة فيما خلق وأمر على أتم وجه حتى قيل : ليس فى الامكان أبدع مما كان يحل ذلك ولايبقى معه سوى تطلب وجه الحكمة وهو مما يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده ، والكلام فى هذا المقام قد مر شىء منه فارجع اليه ، ومما هنا وما هناك يحصل مايسر الناظرين ويرضى العلماء المحققين *

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى فاستخبرهم ، وأصل الاستفتاء الاستخبار عن أمر حدث ، ومنه الفتى لحداثة سنه ، والضمير لمشركى مكة ، قيل : والآية نزلت فى أبى الاشد بن كلدة الجمحى وكنى بذلك لشدة بطشه وقوته واسمه أسيد ، والفاء فصيحة أى إذا كان لنا من المخلوقات ماسمعت أو إذا عرفت ما مر فاستخبر مشركى مكة واسألهم على سبيل التبكيت ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقا واشق ايجاداً ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكة والسموات والارض ومابينهما والمشارق والكواكب والشياطين والشهب الثواقب ، وتعريف الموصول عهدى أشير به إلى ماتقدم صراحة ودلالة وغلب العقلاء على غيرهم والاستفهام تقريرى ، وجوز أن يكون انكاريا ، وفى مصحف عبدالله (أم من عددنا) وهو مؤيد لدعوى العهد بل قاطع بها . وقرأ الاعمش (أمن) بتخفيف الميم دون أم جعله استفهاما ثانيا تقريريا فمن مبتدأ خبره محذوف أى أمن خلقنا أشد ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ١١ ﴾ أى ملتصق كما أخرج ذلك ابن جرير . وجماعة عن ابن عباس ، وفى رواية أخرى بلفظ ملتزق وبه اجاب ابن الازرق وأنشد له قول النابغه :

فلا تحسبون الخير لاشر بعده ولاتحسبون الشر ضربة لازب

قيل : والمراد ملتزق بعضه ببعض ، وبذلك فسره ابن مسعود كما أخرجه ابن أبى حاتم ويرجع إلى حسن العجن جيد التخمير ، وأخرج ابن المنذر . وغيره عن قتادة أنه يلزق باليد إذا مس بها ، وقال الطبرى : خلق آدم من تراب وماء وهواء ونار وهذا كله إذا خلط صار طينا لازبا يلزم ماجاوره ، واللازب عليه بمعنى اللازم وهو قريب مما تقدم ، وقد قرىء (لازم) بالميم بدل الباء و (لاتب) بالتاء بدل الزاى والمعنى واحد . وحكى فى

www.Quranpdf.blogspot.in

البحر عن ابن عباس أنه عبر عن اللازب بالحر أى الكريم الجيد ، وفى رواية أنه قال : اللازب الجيد *
وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن مجاهد أنه قال : لازب أى لازم منتن ، ولعل وصفه بمنتن مأخوذ من قوله تعالى (من حمأ مسنون) لكن أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : اللازب والحماء والطين واحد كان أوله ترابا ثم صار حمأ منتنا ثم صار طينا لازبا فخلق الله تعالى منه آدم عليه السلام *
وأياما كان فخلقهم من طين لازب إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم فى أمر البعث بأن الطين اللازب الذى خلقوا منه فى ضمن خلق أبيهم آدم عليه السلام تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا منه مرة ثانية حيث قالوا (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون) ويعضد هذا على ما فى الكشاف ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث . وقوله تعالى :
﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ خطاب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وجوز أن يكون لكل من يقبله . (وبل) للاضراب إما عن مقدر يشعر به (فاستفتهم) الخ أى هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أى لا تستفتهم فانهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿ وَيَسْخَرُونَ ١٢ ﴾ أى وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات ، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث ، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الامم الماضية وليس بشئ اذلم يسبق لهذه الامم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسموات والأرض وما سمعت مع ان حرف التعقيب مما يدل على خلافه ، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الامام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السموات والأرض ورب المشارق وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم : فانتظروا الاهلاك كمن قبلكم لأنكم لستم أشد خلقا منهم فوضع موضعه (فاستفتهم أهم أشد خلقا) وقوله تعالى : (انا خلقناهم) تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقا اودليل لاستكبارهم المنتج للعناد . وأيده بدلالة الاضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الاضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفى الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الاهلاك كسالف الامم ؛ وتعليل نفى الاشدية بما عال ليس بشئ لوضوح أن السابقين أشد فى ذلك ، وكم من ذلك فى الكتاب العزيز ، وأما الاضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه (ويسخرون) وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مساخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل . وقرأ حمزة . والكسائى . وابن سعدان . وابن مقسم (عجبت) بتاء المتكلم ورويت عن على كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن مسعود . والنخعى . وابن وثاب . وطلحة . وشقيق . والأعمش *
وأنكر شريح القاضى هذه القراءة وقال : إن الله تعالى لا يعجب من شئ وإنما يعجب من لا يعلم ، وانكار هذا القاضى مما أفتى بعدم قبوله لأنه فى مقابل بينة متواترة ، وقد جاء أيضا فى الخبر عجب ربكم من الكم وقنوطكم *
واولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أى لو كان العجب مما يجوز على لعجبت من هذه الحال أو التخييل فيجعل تعالى كأنه لانكاره لحالهم يعدها أمرا غريبا ثم يثبت له سبحانه العجب منها ، فعلى الأول تكون الاستعارة

www.Quranpdf.blogspot.in

تخييلية تمثيلية كما فى قولهم : قال الحائط للوتد لم تشقنى فقال سل من يدقنى ، وعلى الثانى تكون مكنية وتخييلية كما فى نحو لسان الحال ناطق بكذا والمشهور فى أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازا مرسلا فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيما أى بالغا الغاية فى الحسن أو القبح ، والمراد هنا رؤية ماهم عليه بالغا الغاية فى القبح ، وليس استعظام الشيء مسبوقا بانفعال يحصل فى الروع عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال : إن التأويل المذكور لايحسم مادة الاشكال *

وقال أبو حيان : يؤول على أنه صفة فعل يظهرها الله تعالى فى صفة المتعجب منه من تعظيم أو تحقير حتى يصير الناس متعجبين منه فالمعنى بل عجبت من ضلالتهم وسوء نحلتهم وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن بها من شرعى وهداى متعجباً ، وقال مكى . وعلى بن سليمان: ضمير (عجبت) للنبى عليه الصلاة والسلام والكلام بتقدير القول أى قل بل عجبت ، وعندى لو قدر القول بعد بل كان أحسن أى بل قل عجبت ، والذى يقتضيه كلام السلف ان العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب ولذا قيل : إذ ظهر السبب بطل العجب وهو فى الله تعالى بمعنى يليق لذاته عز وجل هو سبحانه أعلم به فلا يعينون المراد والخلف يعينون *

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ١٣ ﴾ أى ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لايتعظون به أو أنهم إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم ، واستفادة الاستمرار من مقـــام الذم ، ولعل فى إذا والعطف على الماضى ما يؤيده ، وقرأ ابن حبيش (ذكروا) بتخفيف الكاف ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾ أى معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ماهم فيه إلى ماهو خير أو معجزة تدل على صدق القائل بالحشر ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ١٤ ﴾ أى يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يطلب بعضهم من بعض أن يسخر منها ، روى أن ركانة رجلا من المشركين من أهل مكة لقيه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى جبل خال يرعى غنما له وكان من أقوى الناس فقال له : ياركانة أرأيت ان صرعتك أتؤمن بى ؟ قال : نعم فصرعه ثلاثا ثم عرض له بعض الآيات دعا عليه الصلاة والسلام شجرة فاقبلت فلم يؤمن وجاء إلى مكة فقال : يابنى هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الارض فنزلت فيه وفى اضرابه . وقرىء (يستسحرون) بالحاء المهملة أى يعدونها سحراً ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا ﴾ ما يرونه من الآيات الباهرة ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٥ ﴾ ظاهر سحريته فى نفســـه *

﴿ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ أى كان بعض أجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لأنه منقلب عن الأجزاء البادية ، واذا إما شرطية وجوابها محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦ ﴾ أى نبعث وفى عاملها الكلام المشهور ، وإما متمحضة للظرفية فلا جواب لها ومتعلقها محذوف يدل عليه ذلك أيضاً لاهو لأن مابعد إن واللام لايعمل فيما قبله أى انبعث إذا متنا، وان شئت فقدره مؤخراً فتقديم الظرف لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة ، وكذا تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد فى ذلك وكذا تحلية الجملة بان ، واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة . وقرأ ابن عامر بطرح الهمزة الأولى . وقرأ نافع . والكسائى . ويعقوب بطرح الثانية ﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٧ ﴾ مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر إن عليه أى أو آباؤنا الأولون مبعوثون

www.Quranpdf.blogspot.in

أيضاً والجملة معطوفة على الجملة قبلها . وهذا أحد مذاهب فى نحو هذا التركيب . وظاهر كلام أبى حيان فى شرح التسهيل أن حذف الخبر واجب فقد قال : قال من نحا إلى هذا المذهب الاصل فى هذه المسئلة عطف الجمل إلا أنهم لما حذفوا الخبر لدلالة ما قبل عليه أنابوا حرف العطف مكانه ولم يقدروا إذ ذاك الخبر المحذوف فى اللفظ لئلا يكون جمعاً بين العوض والمعوض عنه فأشبه عطف المفردات من جهة ان حرف العطف ليس بعده فى اللفظ إلا مفرد . وثانى المذاهب أن يكون معطوفاً على الضمير المستتر فى خبر إن إن كان مما يتحمل الضمير وكان الضمير مؤكداً أو كان بينه وبين المعطوف فاصل ماوالاضعف العطف.ونسب ابن هشام هذا المذهب والذى قبله إلى المحققين من البصريين . وفى تأتيه هنا من غير ضعف للفصل بالهمزة بحث فقد قال أبو حيان : إن همزة الاستفهام لاتدخل على المعطوف إلا إذا كان جملة لئلا يلزم عمل ماقبل الهمزة فيما بعدها وهو غير جائز لصدارتها . والجواب بأن الهمزة هنا مؤكدة للاستبعاد فهى فى النية مقدمة داخلة على الجملة فى الحقيقة لكن فصل بينهما بما فصل قد بحث فيه بأن الحرف لا يكرر للتوكيد بدون مدخوله والمذكور فى النحو أن الاستفهام له الصدر من غير فرق بين مؤكد ومؤسس مع أن كون الهمزة فى نية التقديم يضعف أمر الاعتداد بالفصل بها لاسيما وهى حرف واحد فلا يقاس الفصل بها على الفصل بلا فى قوله تعالى (ماأشركنا ولاآباؤنا)*

وثالثها أن يكون عطفا على محل إن مع ماعملت فيه ، والظاهر أنه حينئذ من عطف الجمل فى الحقيقة ، ورابعها أن يكون عطفا على محل اسم إن لأنه كان قبل دخولها فى موضع رفع ، والظاهر أنه حينئذ من عطف المفردات *

واعترض بأن الرفع كان بالابتداء وهو عامل معنوى ، وقد بطل بالعامل اللفظى. وأجيب بأن وجوده كلا وجود لشبهه بالزائد من حيث أنه لايغير معنى الجملة وإنما يفيد التاكيد فقط . واعترض أيضا بأن الخبر المذكور كمبعوثون فى الآية يكون حينئذ خبرا عنهما وخبر المبتدا رافعه الابتداء أو المبتدأ أوهما وخبر إن رافعه إن فيتوارد عاملان على معمول واحد . وأجيب بأن العوامل النحوية ليست مؤثرات حقيقية بل هى بمنزلة العلامات فلا يضر تواردها على معمول واحد وهو كما ترى ، وتمام الكلام فى محله ، وعلى كل حال الأولى ماتقدم من كونه مبتدأ حذف خبره ؛ وقد قال أبو حيان : إن أرباب الاقوال الثلاثة الاخيرة متفقون على جواز القول الأول وهو يؤيد القول باولويته ، وأياما كان فمراد الكفرة زيادة استبعاد بعث آبائهم بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على عقولهم القاصرة . وقرأ أبو جعفر . وشيبة . وابن عامر . ونافع فى رواية . وقالون (او) بالسكون على أنها حرف عطف وفيه الاحتمالات الاربعة إلا أن العطف على الضمير على هذه القراءة ضعيف لعدم الفصل بشيء أصلا ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أى تبعثون أنتم وآباؤكم الاولون والخطاب فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ١٨﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة فى موضع الحال من فاعل مادل عليه (نعم) أى تبعثون كلكم والحال إنكم صاغرون أذلاء ، وهذه الحال زيادة فى الجواب نظير ماوقع فى جوابه عليه الصلاة والسلام لأبى بن خلف حين جاء بعظم قد رم وجعل يفته بيده ويقول : يامحمد أترى الله يحيى هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم له على مافى بعض الروايات « نعم ويبعثك ويدخلك جهنم » وقال غير واحد : إن ذلك من الاسلوب الحكيم . وتعقب بأن عد الزيادة منه لاتوافق ماقرر فى المعانى وإن كان ذلك اصطلاحا جديدا فلا مشاحة فى الاصطلاح واكتفى فى الجواب عن إنكارهم البعث على هذا المقدار ولم يقم دليل عليه اكتفاء بسبق ما يدل على جوازه فى قوله سبحانه

www.Quranpdf.blogspot.in

(فاستفتهم) الخ مع أن المخبر قد علم صدقه بمعجزاته الواقعة فى الخارج التى دل عليها قوله سبحانه (وإذا رأوا آية) لآية . وهزؤهم وتسميتهم لها سحرا لا يضر طالب الحق ، والقول بأن ذلك للاكتفاء بقيام الحجة عليهم فى القيامة ليس بشئ . وقرأ ابن وثاب . والكسائى (نعم) بكسر العين وهى لغة فيه . وقرىء (قال) أى الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فانما هى زجرة واحدة ﴾ الضمير راجع إلى البعثة المفهومة مما قبل ، وقيل للبعث والتأنيث باعتبار الخبر . والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه صاح عليها . والمراد بها النفخة الثانية فى الصور ولما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازاً . والفاء واقعة فى جواب شرط مقدر أو تعليلية لنهى مقدر أى إذا كان كذلك فانما البعثة زجرة واحدة أو لا تستصعبوها فانما هى زجرة . وجوز الزجاج أن تكون للتفسير والتفصيل وما بعدها مفسر للبعث . وتعقب بأن تفسير البعث الذى فى كلامهم لا وجه له والذى فى الجواب غير مصرح به . وتفسير ما كنى عنه بنعم بما لم يعهد . والظاهر أنه تفسير لما كنى عنه بنعم وهو بمنزلة المذكور لا سيما وقد ذكر ما يقوى إحضاره من الجملة الحالية . وعدم عهد التفسير فى مثل ذلك مما لا جزم لى به *

وأبو حيان نازع فى تقدير الشرط فقال : لا ضرورة تدعو اليه ولا يحذف الشرط ويبقى جوابه إلا إذا انجزم الفعل فى الذى يطلق عليه أنه جواب الأمر والنهى وما ذكر معهما على قول بعضهم أما ابتداء فلا يجوز حذفه والجمهور على خلافه والحق معهم ، وهذه الجملة اما من تتمة المقول وإما ابتداء كلام من قبله عز وجل ﴿ فاذا هم ينظرون ١٩ ﴾ أى فاذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون كما كانوا فى الدنيا أو ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به ﴿ وقالوا ﴾ أى المبعوثون ، وصيغة الماضى لتحقق الوقوع ﴿ ياويلنا ﴾ أى ياهلاكنا احضر فهذا أوان حضورك ﴿ هذا يوم الدين ٢٠ ﴾ استئناف منهم لتعليل دعائهم الويل *

والدين بمعنى الجزاء كما فى كما تدين تدان أى هذا اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا ، وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضا ، وقوله تعالى: ﴿ هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ٢١ ﴾ كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع ، وقيل: هو من كلام بعضهم لبعض أيضا ، ووقف أبو حاتم على (ياويلنا) وجعل مابعده كلام الله تعالى أو كلام الملائكة عليهم السلام لهم كأنهم أجابوهم بانه لا تنفع الولولة والتلهف ، والفصل القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل عن الآخر بدون قضاء ﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ خطاب من الله تعالى للملائكة أو من الملائكة بعضهم لبعض * أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تقول الملائكة للزبانية : احشروا الخ ، وهو أمر بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ؛ وقيل من الموقف إلى الجحيم ، والسباق والسياق يؤيدان الأول ﴿ وأزواجهم ﴾ أخرج عبد الرزاق . وابن أبى شيبة . وابن منيع فى مسنده . والحاكم وصححه . وجماعة من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انه قال : أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم يحشر أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وأخرج جماعة عن ابن عباس فى لفظ أشباههم وفى آخر نظراءهم . وروى تفسير

www.Quranpdf.blogspot.in

الازواج بذلك أيضا عن ابن جبير . ومجاهد . وعكرمة ، وأصل الزوج المقارن كزوجى النعل فاطلق على لازمه وهو المماثل . وجاء فى رواية عن ابن عباس أنه قال : أى نساءهم الكافرات ورجحه الرمانى . وقيل قرناءهم من الشياطين وروى هذا عن الضحاك . والواو للعطف وجوز أن تكون المعية . وقرأ عيسى ابن سليمان الحجازى (وأزواجهم) بالرفع عطفاً على ضمير (ظلموا) على مافى البحر أى وظلم أزواجهم *

وأنت تعلم ضعف العطف على الضمير المرفوع فى مثله ، والقراءة شاذة ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام ونحوها ، وحشرهم معهم لزيادة التحسير والتخجيل ، و(ما) قيل عام فى كل معبود حتى الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام لكن خص منه البعض بقوله تعالى (أن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية *

وقيل (ما) كناية عن الأصنام والأوثان فهى لما لا يعقل فقط لأن الكلام فى المشركين عبدة ذلك ، وقيل (ما) على عمومها والأصنام ونحوها غير داخلة لأن جميع المشركين إنما عبدوا الشياطين التى حملتهم على عبادتها ، ولا يناسب هذا تفسير (أزواجهم) بقرنائهم من الشياطين ، ومع هذا التخصيص أقرب ، وفى هذا العطف دلالة على ان الذين ظلموا المشركون وهم الأحقاء بهذا الوصف فان الشرك لظلم عظيم ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ٢٣ ﴾ فعرفوهم طريقها وأروهم إياه ، والمراد بالجحيم النار ويطلق على طبقة من طبقاتها وهو من الجحمة شدة تأجج النار ، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أى احبسوهم فى الموقف ﴿ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ٢٤ ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم ، وفى الحديث (لا تزول قدما عبد حتى يسئل عن خمس عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله مما كسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به) وعن ابن مسعود يسئلون عن لا إله إلا الله ، وعنه أيضاً يسئلون عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم . وروى بعض الامامية عن ابن جبير عن ابن عباس يسئلون عن ولاية على كرم الله تعالى وجهه ، ورووه أيضاً عن أبى سعيد الخدرى وأولى هذه الأقوال ان السؤال عن العقائد والأعمال ، ورأس ذلك لا إله إلا الله ، ومن أجله ولاية على كرم الله تعالى وجهه وكذا ولاية إخوانه الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين *

وظاهر الآية أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم بمعنى تعريفهم إياه ودلالتهم عليه لا بمعنى ادخالهم فيه وايصالهم اليه ، وجوز أن يكون صراط الجحيم طريقهم له من قبورهم إلى مقرهم وهو ممتد فيجوز كون الوقف فى بعض منه مؤخراً عن بعض ، وفيه من البعد ما فيه ، وقيل : إن الوقف للسؤال قبل الأمر المذكور والواو لا تقتضى الترتيب ، وقيل الوقف بعد الأمر عند مجيئهم النار والسؤال عما ينطق به قوله تعالى ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ ﴾ أى لا ينصر بعضكم بعضا ، والخطاب لهم وآلهتهم أو لهم فقط أى مالكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء والتقريع والتوبيخ حينئذ أشد وقعا وتأثيراً ، وقيل : السؤال عن هذا فى موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم والأمر بهدايتهم الى الجحيم كأن الملائكة عليهم السلام لما أمروا بهدايتهم إلى النار وتوجيههم اليها سارعوا إلى ما أمروا به فقيل لهم قفوهم انهم مسؤلون ، والذى يترجح عندى أن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما هو بعد إقامة الحجة عليهم وقطع أعذارهم وذلك بعد محاسبتهم ، وعطف (اهدوهم) على (احشروا) بالفاء

www.Quranpdf.blogspot.in

إشارة إلى سرعة وقوع حسابهم ، وسؤالهم مالكم لاتناصرون الأليق أن يكون بعد تحقق مايقتضى التناصر وليس ذلك إلا بعد الحساب والأمر بهم إلى النار فلعل الوقف لهذا السؤال فى ابتداء توجههم إلى النار والله تعالى أعلم . وقرأ عيسى (أنهم) بفتح الهمزة تقدير لأنهم ، وقرأ البزى عن ابن كثير (لاتتناصرون) بتاءين بلاإدغام ، وقرىء بادغام إحداهما فى الأخرى ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٦﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم ، وأصل الاستسلام طلب السلامة والانقياد لازم لذلك عرفا فلذا استعمل فيه أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضا للهلاك ويخذله . وجوز فى الاضراب أن يكون عن مضمون ماقبله أى لاينازعون فى الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون أو عن قوله سبحانه (لاتناصرون) أى لايقدر بعضهم على نصر بعض بل هم منقادون للعذاب أو مخذولون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء المضلون أو الكفرة من الانس وقرناؤهم من الجن ، وروى هذا عن مجاهد . وقتادة . وابن زيد ﴿يَتَسَاءَلُونَ ٢٧﴾ يسأل بعضهم بعضا سؤال تقريع بطريق الخصومة والجدال ﴿قَالُوا﴾ استئناف بيانى كأنه قيل : كيف يتساءلون ؟ فقيل : قالوا أى الأتباع للرؤساء أو الكفرة مطلقا للقرناء ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ فى الدنيا ﴿عَنِ الْيَمِينِ ٢٨﴾ أى من جهة الخير وناحيته فتنهونا عنه وتصدونا قاله قتادة ، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاما دنيا وأخرى استعيرت لجهة الخير استعارة تصريحية تحقيقية ، وجعلت اليمين مجازاً عن جهة الخير مع أنه مجاز فى نفسه فيكون ذلك مجازاً على المجاز لأن جهة الخير لشهرة استعماله التحق بالحقيقة فيجوز فيه المجاز على المجاز كاقالوا فى المسافة فانها موضع الشم فى الأصل لأنه من ساف التراب إذا شمه فان الدليل إذا اشتبه عليه الطريق أخذ ترابا فشمه ليعرف أنه مسلوك أولا ثم جعل عبارة عن البعد بين المكانين ثم استعير لفرق مابين الكلامين ولا بعد هناك ، واستظهر بعضهم حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية واعتبار التجوز فى مجموع (تأتوننا عن اليمين) لمعنى تمنعوننا وتصدوننا عن الخير فيسلم الكلام من دعوى المجاز على المجاز ، وكأن المراد بالخير الايمان بمايجب الايمان به ، وجوز أن يكون المراد به الخير الذى يزعمه المضلون خيراً وأن المعنى تأتوننا من جهة الخير وتزعمون ما أنتم عليه خيرا ودين حق فتخدعوننا وتضلوننا وحكى هذا عن الزجاج *

وقال الجبائى : المعنى كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة فترغبوننا بما أنتم عليه فتضلوننا وهو قريب مما قبله ، وجوزوا أن تكون اليمين مجازا مرسلا عن القوة والقهر فانها موصوفة بالقوة وبها يقع البطش فكأنه أطلق المحل على الحال أو السبب على المسبب ، ويمكن أن يكون ذلك بطريق الاستعارة وتشبيه القوة بالجانب الايمن فى التقدم ونحوه ، والمعنى إنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه واليه ذهب الفراء ، وأن يكون اليمين حقيقة بمعنى القسم ومعنى اتيانهم عنه أنهم يأتونهم مقسمين لهم على حقية ماهم عليه من الباطل ، والجار والمجرور فى موضع الحال ، وعن بمعنى الباء كما فى قوله تعالى (وماينطق عن الهوى) او هو ظرف لغو ، وفيه بعد ، وأبعد منه أن يفسر اليمين بالشهوة والهوى لأن جهة اليمين موضع الكبد ، وهو مخالف لما حكى عن بعض من أن من أتاه الشيطان من جهة

www.Quranpdf.blogspot.in

اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه اتاه من قبل التكذيب بالقيامة والثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة ﴿ قَالُوا ﴾ استئناف على طرز السابق أى قال الرؤساء أو قال القرناء فى جوابهم بطريق الاضراب عما قالوه لهم ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٢٩ ﴾ وهو إنكار لإضلالهم إياهم أى أنتم اضللتم أنفسكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين فى حد ذاتكم لا أنا نحن أضللناكم ، وقولهم : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أى من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ٣٠ ﴾ مجاوزين الحد فى العصيان مختارين له مصرين عليه جواب آخر تسليمي على فرض اضلالهم بأنهم لم يجبروهم عليه وإنما دعوهم له فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دعوا له هواهم ، وقيل : الكل جواب واحد محصله إنكم اتصفتم بالكفر من غير جبر عليه ، وقولهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ٣١ ﴾ تفريع على صريح ماتقدم من عدم إيمان اولئك المخاصمين لهم وكونهم قوما طاغين فى حد ذاتهم وعلى مااقتضاه وأشعر به خصامهم من كفر هؤلاء المجيبين لأولئك الطاغين وغوايتهم فى أنفسهم ، وضمائر الجمع للفريقين فكأنهم قالوا : ولأجل أنا جميعا فى حد ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنا قوما طاغين لزمنا قول ربنا وخالقنا العالم بما نحن عليه وبما يقتضيه استعدادنا وثبت علينا وعيده سبحانه بأنا ذائقون لامحالة لعذابه عز وجل ، ومرادهم أن منشأ الخصام فى الحقيقة الذى هو العذاب أمر مقضى لا محيص عنه وأنه قد ترتب على كل منا بسبب أمر هو عليه فى نفسه وقد اقتضاه استعداده وفعله باختياره فلا يلومن بعضنا بعضا ولكن ليلم كل منا نفسه ، ونظموا أنفسهم معهم فى ذلك للمبالغة فى سد باب اللوم والخصام من اولئك القوم ، والفاء فى قولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى فدعوناكم إلى الغى لتفريع الدعاء المذكور على حقية الوعيد عليهم لالمجرد التعقيب كما قيل ، وعلية ذلك للدعاء باعتبار أن وجوده الخارجي متعلقا بهم كان متفرعا عن ذلك فى نفس الامر لاباعتبار أن اصداره وإيقاعه منهم على المخاطبين كان بملاحظة ذلك كما تلاحظ العلل الغائية فى الافعال الاختيارية لأن الظاهر أن رؤساء الكفر لم يكونوا عالمين فى الدنيا حقية الوعيد عليهم ، نعم لا يبعد أن يكون القرناء من الشياطين عالمين بذلك من أبيهم ، وكذا تسمية دعائهم إياهم إلى ما دعوهم اليه اغواء أى دعاء إلى الغى بناء على أن الكلام المذكور من الرؤساء باعتبار نفس الامر التى ظهرت لهم يوم القيامة ، ومثل هذا يقال فى قولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ٣٢ ﴾ بناء على أنهم إنما علموا ذلك يوم التساؤل والخصام ، والجملة مستأنفة لتعليل ماقبلها ، وكأن ماأشعر به التفريع باعتبار تعلق الاغواء بالمخاطبين وهذا باعتبار صدور الاغواء نفسه منهم ، وهو تصريح بما يستفاد من التفريع السابق •

ويجوز أن يكون إشارة إلى وجه ترتب إغوائهم إياهم على حقية الوعيد عليهم وهو حب أن يتصف أولئك المخاطبون بنحو مااتصفوا به من الغى ويكونوا مثلهم فيه • وملخص كلامهم أنه ليس منافى حقكم على الحقيقة سوى حب أن تكونوا مثلنا وهو غير ضار لكم وإنما الضار سوء اختياركم وقبح استعدادكم فذلك الذى ترتب عليه حقية الوعيد عليكم وثبوت هذا العذاب لكم ، وجوز أن يقال : انهم نفوا عنهم الايمان والاعتقاد الحق وأثبتوا لهم الطغيان ومجاوزة الحد فى العصيان حيث لم يلتفتوا إلى ما يوجب الاعتقاد

www.Quranpdf.blogspot.in

الصحيح مع كثرته وظهوره ورتبوا على ذلك مع مايقتضيه البحث حقية الوعيد وفرعوا على مجموع الامرين أنهم دعوهم إلى الغى مرادا به الكفر لاعتقاد أمر فاسد لامجرد عدم الايمان أى عدم التصديق بما يجب التصديق به بدون اعتقاد أمر آخر يكفر باعتقاده ، وأشاروا إلى وجه ترتب ذلك على ماذكروهو محبة أن يكونوا مثلهم فكأنهم قالوا : كنتم تاركين الاعتقاد الحق غير ملتفتين اليه مع ظهور أدلته وكثرتها وكنا جميعاً قد حق علينا الوعيد فدعونا كم الى ما نحن عليه من الاعتقاد الفاسد حباً لأن تكونوا أسوة أنفسنا وهذا كقولهم (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) قال الراغب : هو إعلام منهم أنا قد فعلنا بهم غاية ماكان فى وسع الانسان أن يفعل بصديقه ما يريد بنفسه أى أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوة أنفسنا وعلى هذا فأغوينا كم إنا كنا غاوين انتهى ، وجوز على هذا التقدير أن يكون (فأغوينا كم) مفرعا على شرح حال المخاطبين من انتفاء كونهم مؤمنين وثبوت كونهم طاغين وعن الآيات معرضين ، وقولهم (فحق علينا) الخ اعتراض لتعجيل بيان أن ما الفريقان فيه أمر مقتضى لا ينفع فيه القيل والقال والخصام والجدال ، ويجوز على هذا ان يراد بضمير الجمع فى (فحق علينا) الخ الرؤساء أو القرناء لامايعمهم والمخاطبين وأشاروا بذلك إلى أن ما هم فيه يكفى عن اللوم ويومىء إلى زيادة عذابهم ، ولا يخفى ان تجويز الاعتراض لايخلو عن اعتراض ، وتجويز كون الضمير فى (علينا) الخ للرؤساء أو القرناء يجرى على غير هذا الاحتمال فتدبره .

وأياما كان فقولهم (إنا لذائقون) هو قول ربهم عز وجل ووعيده سبحانه إياهم ، ولو حكى كما قيل لقيل إنكم لذائقون ولكنه عدل إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك من أنفسهم . ونحوه قول القائل :

لقد زعمت هوازن قل مالى وهل لى غير ما أنفقت مال

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف احلف لأخرجن ولتخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء لاقبال المحلف على المحلف . وقال بعض الأجلة : قول الرب عز وجل هو قوله سبحانه وتعالى: (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) والربط على ماتقدم أظهر ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أى الفريقين المتسائلين ، والكلام تفريع على ما شرح من حالهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ يتساءلون والمراد به يوم القيامة ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٣ ﴾ كما كانوا مشتركين فى الغواية . واستظهر أن المغوين أشد عذابا وذلك فى مقابلة أوزارهم وأوزار مثل أوزارهم فالشركة لا تقتضى المساواة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ٣٤ ﴾ أى بالمشركين لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بطريق الدعوة والتلقين ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥ ﴾ عن القبول •

وفى اعراب هذه الكلمة الطيبة أقوال . الأول ان يكون الاسم الجليل مرفوعا على البدلية من اسم لاباعتبار المحل الأصلى وهو الرفع على الابتداء بدل بعض من كل وإلا مغنية عن الربط بالضمير . واذا قلنا ان البدل فى الاستثناء قسم على حدة مغاير لغيرة من الابدال اندفع عن هذا الوجه كثير من القيل والقال وهو الجارى على ألسنة المعربين والخبر عليه عند الأكثرين مقدر والمشهور تقديره موجود والكلمة الطيبة فى مقابلة المشركين وهم إنما يزعمون وجود آلهة متعددة ولا يقولون بمجرد الامكان . على أن نفى الوجود فى هذا

www.Quranpdf.blogspot.in

المقام يستلزم نفى الامكان وكذا نفى الامكان عمن عداه عز وجل يستلزم ثبوت الوجود بالفعل له تعالى *

وجوز تقديره مستحق للعبادة ونفى استحقاقها يستلزم نفى التعدد لكن لايتم هذا التقدير على تفسير الاله بالمستحق بالعبادة كما لايخفى *

واختار البازلى تقدير الخبر مؤخرا عن الا الله بناء على أن تقديره مقدما يوهم كون الاسم مستثنى مفرغا من ضمير الخبر وهو لا يجوز عند المحققين وأجازه بعض وهو القول الثانى ، والثالث ونسب إلى الكوفيين أن إلا عاطفة والاسم الجليل معطوف على الاله باعتبار المحل وهى عندهم بمنزلة لا العاطفة فى أن ما بعدها يخالف ماقبلها إلا أن لالنفى الايجاب وإلا لايجاب النفى ، والرابع أن الاسم الكريم هو الخبر ولا عمل لها فيه على رأى سيبويه من أن الخبر مرفوع بما كان مرفوعا به قبل دخولها فلا يلزم عملها فى المعارف على رأيه وهو لازم على رأى غيره ، وضعف هذا القول به وكذا بلزوم كون الخاص خبرا عن العام *

وكون الكلام مسوقا لنفى العموم والتخصيص بواحد من أفراد مادل عليه العام لايجدى نفعا ضرورة أن لا هذه عند الجمهور من نواسخ المبتدأ والخبر ، والخامس أن إلا بمعنى غير وهى مع اسمه عز اسمه صفة لاسم لا باعتبار المحل أى لا اله غير الله تعالى فى الوجود ، ولاخلل فيه صناعة وانما الخلل فيه كما قيل معنى لأن المقصود نفى الالوهية عن غيره تعالى واثباتها له سبحانه وعلى الاستثناء يستفاد كل من المنطوق وعلى هذا لايفيد المنطوق الانفى الالوهية من غيره تعالى دون اثباتها له عز وجل ، واعتبار المفهوم غير مجمع عليه لاسيما مفهوم اللقب فانه لم يقل به الا الدقاق وبعض الحنابلة ، والسادس ونسب إلى الزمخشرى أن لااله فى موضع الخبر والا الله فى موضع المبتدا والاصل الله اله فلما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدأ بالا إذ المقصور عليه هو الذى يلى الا والمقصور هو الواقع فى سياق النفى والمبتدأ إذا قرن بإلا وجب تقديم الخبر عليه كما هو مقرر فى موضعه ، وفيه تمحل مع أنه يلزم عليه أن يكون الخبر مبنيا مع لا وهى لا يبنى معها الا المبتدأ وانه لو كان الامر كما ذكر لم يكن لنصب الاسم الواقع بعد الاوجه وقد جوزه جماعة فى هذا الترتيب وترك كلامهم لواحد إن التزمته لاتجد لك ثانيا فيه ، والسابع أن الاسم المعظم مرفوع باله كما هو حال المبتدا إذا كان وصفا فان إلها بمعنى مألوه من أله اذا عبد فيكون قائما مقام الفاعل وسادا مسد الخبر كما فى ما مضروب العمران *

وتعقب بمنع أن يكون إله وصفا وإلا لوجب إعرابه وتنوينه ولا قائل به . ثم ان هذه الكلمة الطيبة يندرج فيها معظم عقائد الايمان لكن المقصود الأهم منها التوحيد ولذا كان المشركون اذا لقنوها أولا يستكبرون وينفرون ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ٣٦ ﴾ يعنون بذلك قاتلهم الله تعالى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وقدجمعوا بين انكار الوحدانية وإنكار الرسالة . ووصفهم الشاعر بالمجنون قيل تخليط وهذيان لأن الشعر يقتضى عقلا تاما به تنظم المعانى الغريبة وتصاغ فى قوالب الألفاظ البديعة . وفيه نظر وكم رأينا شعراء ناقصى العقول ومنهم من يزعم انه لايحسن شعره حتى يشرب المسكر فيسكر ثم يقول ، نعم كل من الوصفين هذيان فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ٣٧ ﴾ رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ما جاء به عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحق الثابت الذى قام عليه البرهان وأجمع عليه كافة المرسلين فأين الشعر والجنون من ساحته صلى الله تعالى عليه وسلم الرفيعة الشأن *

www.Quranpdf.blogspot.in

وقرأ عبدالله (وَصَدَقَ) بتخفيف الدال (المُرْسَلُونَ) بالواو رفعاً أى وصدق المرسلون فى التبشير به وفى أنه يأتى آخرهم ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار ﴿ لَذَائِقُوا العَذَابَ الأَلِيمِ ٣٨ ﴾ والالتفات لاظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين . وقرأ أبو السمال . وأبان رواية عن عاصم (لذائقوا العذاب) بالنصب على ان حذف النون للتخفيف كما حذف التنوين لذلك فى قول أبى الأسود :

فالفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا

بجر ذاكر بلا تنوين ونصب الاسم الجليل . وهذا الحذف قليل فى غير ما كان صلة لأل . أما فيما كان صلة لها فكثير الورود لاستطالة الصلة الداعية للتخفيف نحو قوله :

الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائهم نطف

ونقل ابن عطية عن أبى السمال أنه قرأ (لذائق) بالأفراد والتنوين (العذاب) بالنصب، وخرج الافراد على ان التقدير لجمع ذائق ، وقيل : على تقدير إن جمعكم لذائق . وقرىء (لذائقون) بالنون (العذاب) بالنصب على الأصل ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٩ ﴾ أى الاجزاء ما كنتم تعملونه من السيآت أو إلا بما كنتم تعملونه منها ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ المُخْلَصِينَ ٤٠ ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا فالا مؤولة بلكن ومابعد كخبرها فيصير التقدير لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق وفوا كه الخ *

ويجوز إن يكون المعنى لكن عباد الله المخلصين ليسوا كذلك، وقيل استثناء منقطع من ضمير (تجزون) على ان المعنى تجزون بمثل ما عملتم لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافا مضاعفة بالنسبة الى ماعملوا ، ولا يخفى بعده ، وأبعد منه جعل الاستثناء من ذلك متصلا بتعميم الخطاب فى (تجزون) لجميع المكلفين لما فيه مع احتياجه إلى التكلف الذى فى سابقه من تفكيك الضمائر ، و(المخلصين) صفة مدح حيث كانت الاضافة للتشريف ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أى العباد المذكورون ، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص فى عبادته تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغا ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ اما خبر له وقوله سبحانه : ﴿ رِزْقٌ ﴾ مرتفع على الفاعلية للظرف وإما خبر مقدم و(رزق) مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ والمجموع كالخبر للمستثنى المنقطع على ما أشرنا اليه أو استئناف لما أفاده الاستثناء إجمالا بياناً تفصيلياً وقوله تعالى : ﴿ مَعْلُومٌ ٤١ ﴾ أى معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة الى غير ذلك من الصفات المرغوبة ، فلا يقال: إن الرزق لا يكون معلوما إلا إذا كان مقدرا بمقدار وقد جاء فى آية أخرى (يرزقون فيها بغير حساب) وما لا يدخل تحت الحساب لايحد ولا يقدر فلا يكون معلوما ، وقيل المراد معلوم الوقت لقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وعن قتادة الرزق المعلوم الجنة ، وتعقب بأن (فى جنات) بعد يأباه . واعترض بأنه إذا كان المعنى وهم مكرمون فيها لم يكن به بأس . وأجيب بأن جعلها مقر المرزوقين لايلائم جعلها رزقا

www.Quranpdf.blogspot.in

وأما إذا كان قيدا للرزق فهو ظاهر الاباء ، وكون المساكن رزقا للساكن فاذا اختلاف العنوان لم يكن به بأس لا يدفع ماقرركما لايخفى على المنصف ، وقوله تعالى : ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ بدل من (رزق) بدل كل من كل ، وفيه تنبيه على أنه مع تميزه بخواصه كله فواكه أو خبر مبتدأ محذوف والجملة مستأنفة أى ذلك الرزق فواكه والمراد بها ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأ كله أهل الجنة كذلك حتى اللحم لكونهم مستغنين عن القوت لاحكام خلقتهم وعدم تحلل شىء من أبدانهم بالحرارة الغريزية ليحتاجوا إلى بدل يحصل من القوت ، فالمراد بالفاكهة هنا غير ماأريد بها فى قوله تعالى (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) وهى هناك بالمعنى المعروف فلا منافاة . وجوز أن يكون عطف بيان للرزق المعلوم فوجه الاختصاص ماعلم به من بين الأرزاق أنه فواكه ، وقيل هو بدل بعض من كل ، وتخصيصها بالذكر لأنها من أتباع سائر الأطعمة فتدل على تحقق غيرها ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ٤٢ ﴾ عندالله تعالى لايلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم ، ولعل هذا إشارة إلى النعيم الروحانى بعد النعيم الجسمانى الذى هو بواسطة الأكل *

وقيل مكرمون فى نيل الرزق حيث يصل اليهم من غير كسب وكد وسؤال كما هو شان أرزاق الدنيا *

وقرىء (مكرمون) بالتشديد ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٤٣ ﴾ أى فى جنات ليس فيها إلا النعيم على ان الاضافة على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر . والظرف متعلق بمكرمون او بمعلوم أو بمحذوف حال من المستكن فى (مكرمون) أوخبر ثان لأولئك أو (لهم) وقوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ يحتمل أن يكون حالا من المستكن فى (مكرمون) أو فى الظرف قبله وأن يكون خبراً فيكون قوله سبحانه ﴿ مُتَقَابِلِينَ ٤٤ ﴾ حالا من المستكن فيه أو فى (مكرمون) أو فى الظرف أعنى (فى جنات) وأن يتعلق بمتقابلين فيكون حالا من المستكن فى غيره *

وأشير بتقابلهم إلى استئناس بعضهم ببعض فبعضهم يقابل بعضا للاستئناس والمحادثة . وفى بعض الأحاديث أنه ترفع عنهم الستور أحياناً فينظر بعضهم إلى بعض ، وقرأ أبو السمال (سرر) بفتح الراء وهى لغة بعض تميم وكلب يفتحون ما كان جمعا على فعل من المضعف إذا كان اسما ، واختلف النحويون فى الصفة فمنهم من قاسها على الاسم ففتح فيقول ذلل بفتح اللام على تلك اللغة . ومنهم من خص ذلك بالاسم وهو مورد السماع . وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ إما استئناف لبيان مايكون لهم فى مجالس أنسهم أو حال من الضمير فى (متقابلين) أو فى أحد الجارين : وجوز كونه صفة لمكرمون . وفاعل الطواف على ما قيل من مات من أولاد المشركين قبل التكليف . فنى الصحيح أنهم خدم أهل الجنة . وقد صرح به فى موضع آخر وهو قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) وقوله سبحانه (يطوف عليهم غلمان لهم) ﴿ بِكَأْسٍ ﴾ أى بخمر كما روى عن ابن عباس . وأخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وغيرهما عن الضحاك قال : كل كأس ذكره الله تعالى فى القرآن إنما عنى به الخمر . ونقل ذلك أيضا عن الحبر . والأخفش وهو مجاز مشهور بمنزلة الحقيقة . وعليه قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

ويدل على أنه أراد بها الخمر إطلاقا للمحل على الحال قوله شربت . وتقدير شربت مافيها تكلف . والقرينة ههنا

www.Quranpdf.blogspot.in

ما يأتي بعد . وجوز تفسيره بمعناه الحقيقي وهو إناء فيه خمر ، وأكثر اللغويين على ان إناء الخمر لا يسمى كأساً حقيقة إلا وفيه خمر فان خلا منه فهو قدح ، والخمر ليس بمتعين ، قال في البحر . الكأس ما كان من الزجاج فيه خمر أو نحوه من الأنبذة ولا يسمى كأساً إلا وفيه ذلك ، وقال الراغب : الكأس الاناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كاساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكأس طيبة ، ولعل كلامه أظهر في أن تسمية الخالي كاساً مجاز ، وحكي عن بعضهم أنه قال : الكاس من الأواني كل ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ولا يراعى كونه لخمر أو لغيره ﴿ مِنْ مَعِين ٤٥ ﴾ في موضع الصفة لكاس أي كائنة من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون جار على وجه الأرض كما تجرى الأنهار أو خارج من العيون والمنابع. وأصله معيون من عان الماء إذا ظهر أو نبع على أن ميمه زائدة أو هو من معن فهو فعيل على أن الميم أصلية *

ووصف به خمر الجنة تشبيهاً لها بالماء لكثرتها حتى تكون أنهاراً جارية في الجنان . ويؤذن ذلك برقتها ولطافتها وأنها لم تدس بالأقدام كخمر الدنيا كما ينبيء عن دوسها بها قوله :

بنت كرم يتموها أمها ثم هانوها بدوس بالقدم
ثم عادوا حكموها فيهم ويلهم من جور مظلوم حكم

وقول الآخر : وشمولة من عهد عاد قد غدت صرعى تداس بارجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فتمكنت منهم فصاحت فيهم بالثار

وهذا مبنى على انها خمر في الحقيقة ، وجوز أن تكون ماء فيه لذة الخمر ونشأته فالوصف بذلك ظاهر ، وتفيد الآية وصف مائهم باللذة والنشاة ، وما ذكر أولا هو الظاهر نعم قال غير واحد : لا اشتراك بين ما في الدنيا وما في الجنة إلا بالأسماء فحقيقة خمر الجنة غير حقيقة خمر الدنيا وكذا سائر مافيهما ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ وصف آخر للكاس يدل على انها مؤنثة . وعن الحسن ان خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن. وأخرج ابن جرير عن السدى ان عبدالله قرأ (صفراء) وقد جاء وصف خمر الدنيا بذلك كما في قول أبي نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

والمشهور أن هذا بعد المزج وإلا فهي قبله حمراء كما قال الشاعر :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتت في ثيابي نرجس وشقائق
حكت وجنة المحبوب صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ٤٦ ﴾ وصفت بالمصدر للمبالغة بجعلها نفس اللذة ، وجوز أن تكون لذة تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب بمعنى طبيب حاذق ، وأنشدوا قوله :

ولذ كطعم الصرخدى تركته بارض العدا من خشية الحدثان

يريد وعيش لذيذ كطعم الخمر المنسوب لصرخد بلد بالشام ، وفسره الزمخشري بالنوم وأراد أنه بمعنى لذيذ غلب على النوم لا أنه اسم جامد ، وقوله :

بحديثك اللذ الذي لو كلمت أسد الفلاة به أتين سراعا

www.Quranpdf.blogspot.in

وفي قوله تعالى (للشاربين) دون لهم إشارة إلى أنها يلتذ بها الشارب كائنا من كان ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة كما في خمر الدنيا من غاله يغوله إذا أفسده ، وقال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به يقال غاله يغوله غولا واغتاله اغتيالا ، ومنه سمي السعلاة غولا ، والمراد هنا نفي أن يكون فيها ضرر أصلا ❊

وروى البيهقي. وجماعة عن ابن عباس أنه قال في ذلك ليس فيها صداع ؛ وفي رواية ابن أبي حاتم عنه لا تغول عقولهم من السكر ، وأخرج الطستي عنه ان نافع بن الأزرق قال : اخبرني عن قوله تعالى (لا فيها غول) فقال : ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنيا قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال : نعم أما سمعت قول امرىء القيس :

رب كأس شربت لا غول فيها   وسقيت النديم منها مزاجا

وفي رواية أخرى عنه أنه فسر ذلك بوجع البطن ، وروى ذلك عن مجاهد . وابن زيد . وابن جبير ❊

واختير التعميم وان التنصيص على مخصوص من باب التمثيل، وتقديم الظرف على ما قيل للتخصيص، والمعنى ليس فيها ما في خمور الدنيا من الغول ، وفيه كلام في كتب المعاني ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ أي لا يسكرون كما روى عن ابن عباس وغيره ، وهو بيان لحاصل المعنى ، وأصل النزف نزع الشيء وإذهابه بالتدريج يقال نزفت الماء من البئر إذا نزحته ونزعته كله منها شيئا بعد شيء ، ونزف الهم دمعه نزعه كله ، ويقال شارب نزيف أي نزفت الخمر عقله بالسكر وأذهبته كما ينزف الرجل البئر وينزع ماءها فكأن الشارب ظرف للعقل فنزع منه ، فلا ينزفون مبنياً للمفعول كما قرأ الحرميان . والعربيان معناه لا تنزع عقولهم أي لا تنزع الخمر عقولهم ولا تذهبها أو الفاعل هو الله تعالى وتعدية الفعل بعن قيل لتضمينه معنى يصدرون ، وقيل عن للتعليل والسببية ، وأفرد هذا الفساد بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وله سميت الخمر أم الخبائث ، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار وقرأ حمزة . والكسائي (ينزفون) بضم الياء وكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة على أنه من أنزف الشارب إذا صار ذا نزف أي عقل أو شراب نافد ذاهب فالهمزة فيه للصيرورة ، وقيل للدخول في الشيء ولذا صار لازما فهو مثل كبه فأكب ، وهو أيضاً بمعنى السكر لنفاد عقل السكران أو نفاد شرابه لكثرة شربه فيلزمه عليهما السكر ثم صار حقيقة فيه ، قال الأبيرد اليربوعي :

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم   لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

وفي البحر ان أنزف مشترك بين سكر ونفد فيقال أنزف الرجل إذا سكر وانزف إذا نفد شرابه ، وتعدية الفعل للتضمين كما سبق ، وجوز إرادة معنى النفاد من غير إرادة معنى السكر أي لا ينفد ولا يفنى شرابهم حتى ينغص عيشهم وليس بذاك . وقرأ ابن أبي اسحاق (ينزفون) بفتح الياء وكسر الزاي ، وطلحة بفتح الياء وضم الزاي ، والمراد في جميع ذلك نفي السكر على ما هو المأثور عن الجمهور . ومن الغريب ما أخرج ابن أبي حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فنزه الله تعالى خمر الجنة عنها لا فيها غول لا تغول عقولهم من السكر ولا هم عنها ينزفون لا يقيئون عنها كما يقي صاحب خمر الدنيا عنها ، وهو أقرب لاستعمال النزف في الأمور الحسية كنزف البئر والركية وما أشبه القيء

www.Quranpdf.blogspot.in

واخراج الفضلات من الجوف بنزف البئر واخراج مائها عند نزحها ، ولولا أن الجمهور على ماسمعت أولا حتى ابن عباس فى أكثر الروايات عنه لقلت: إن هذا التفسير هو الأولى ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لايمددن طرفا إلى غيرهم قاله ابن عباس . ومجاهد . وابن زيد فمتعلق القصر محذوف للعلم به ، والكلام إما على ظاهره أو كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن وعدم ميلهن إلى سواهم ، وقيل المراد لايفتحن أعينهن دلالا وغنجا ، والوصف على القولين متعد ، وجوز كونه قاصراً على أن المعنى ذابلات الجفن مراضه ، وما أحيل ذبول الأجفان فى الغوانى الحسان ، ولذا كثر التغزل بذلك قديما وحديثا ، ومنه قول ابن الأزدى :

مرضت سلوتى وصح غرامى من لحاظ هى المراض الصحاح

والطرف فى كل ذلك طرفهن ، وجوز أن يكون الوصف متعديا والطرف طرف غيرهن ، والمعنى قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن فلا يتجاوزهن طرف الناظر اليهن كقول المتنبى :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

وقد ذكر هذا المعنى أيضا ابن رشيق فى قول امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الأنف منها لأثرا

وهو لعمرى رشيق بيد أنى أقول: الظاهر هنا أن العندية فى مجالس الشرب اتماما للذة فلعل الأوفق للغيرة وإن كانت الحظيرة حظيرة قدس المعنى الأول ، والجمهور قد قصروا الطرف عليه ولا يظن بهم أنهم من القاصرين ، والجملة قيل عطف على ماقبلها ، وقيل : فى موضع الحال أى يطاف عليهم بكأس والحال عندهم نساء قاصرات الطرف ﴿عِينٌ ٤٨﴾ جمع عيناء وهى الواسعة العين فى جمال ، ومنه قيل للبقر الوحشى عين ، وقيل: العيناء واسعة العين أى كثيرة محاسن عينها ، والحق أن السعة اتساع الشق والتقييد بالجمال يدفع ماعسى أن يقال ، وما ألطف وأظرف ذكر عين بعد قاصرات الطرف ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ٤٩﴾ البيض معروف وهو اسم جنس الواحدة بيضة ويجمع على بيوض كما فى قوله :

بتيهاء قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

والمراد تشبيههن بالبيض الذى كنه الريش فى العش أو غيره فى غيره فلم تمسه الأيدى ولم يصبه الغبار فى الصفاء وشوب البياض بقليل صفرة مع لمعان كما فى الدر ، والأكثرون على تخصيصه ببيض النعام فى الأداحى لكونه أحسن منظرا من سائر البيض وأبعد عن مس الأيدى ووصول مايغيرلونه اليه ، والعرب تشبه النساء بالبيض ويقولون لهن بيضات الخدور ، ومنه قول امرىء القيس :

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

والبياض المشوب بقليل صفرة فى النساء مرغوب فيه جداً ، قيل وكذا البياض المشوب بقليل حمرة فى الرجال وأما البياض الصرف فغير محمود ولذا ورد فى الحلية الشريفة أبيض ليس بالأمهق *

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس وهو وغيره عن ابن جبير . وابن أبى حاتم . وابن جرير عن السدى

أن البيض المكنون ما تحت القشر الصلب بينه وبين اللباب الأصفر والمراد تشبيههن بذلك بعد الطبخ في النعومة والطراوة فالبيضة إذا طبخت وقشرت ظهر ما تحت القشرة على أتم نعومة وأكمل طراوة، ومن هنا تسمع العامة يقولون في مدح المرأة: كأنها بيضة مقشرة، ورجح ذلك الطبري بأن الوصف بمكنون يقتضيه دون المشهور لأن خارج قشر البيضة ليس بمكنون، وفيه أن المتبادر من البيض مجموع القشر وما فيه وأكلت كذا بيضة الأكل فيه قرينة إرادة ما في القشر دون المجموع إذ لا يؤكل عادة وحينئذ لا يتم ما قاله الطبري فالأول هو المقبول، ومعنى المكنون فيه ظاهر على ما سمعت، وقد نقل الخفاجي هذا المعنى عن بعض المتأخرين وتعقبه بأنه ناشيء من عدم معرفة كلام العرب وكأنه لم يقف على روايته عن الحبر ومن معه وإلا لا يتسنى له ما قال، ولعل الرواية المذكورة غير ثابتة وكذا ما حكاه أبو حيان عن الحبر من أن البيض المكنون الجوهر المصون لنبو ظاهر اللفظ عن ذلك، وقالت فرقة: المراد تشبيههن بالبيض في تناسب الأجزاء والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء والتناسب ممدوح، ومن هنا قال بعض الأدباء متغزلا:

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى بهن اختلافا بل أتين على قدر

وأنت تعلم بعد فرض تسليم أن تناسب الأجزاء في البيضة معروف بينهم أن الوصف بالمكنون مما لا يظهر له دخل في التشبيه، واستشكل التشبيه على ما تقدم بآية عروس القرآن (كأنهن الياقوت والمرجان) فإنها ظاهرة في أن في ألوانهن حمرة وأين هذا من التشبيه بالبيض المكنون على ما سمعت قبل فيتعين أن يراد التشبيه من حيث النعومة والطراوة كما روى ثانيا أو من حيث تناسب الأجزاء كما قيل أخيراً. وأجيب بأنه يجوز أن يكون المشبهات بالبيض المكنون غير المشبهات بالياقوت والمرجان، وكون البياض المشوب بالصفرة أحسن الألوان في النساء غير مسلم بل هو حسن ومثله في الحسن البياض المشوب بحمرة على أن الأحسنية تختلف باختلاف طباع الرائين * وللناس فيما يعشقون مذاهب * والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين *

وقيل يجوز أن يكون تشبيههن بالبيض المكنون بالنظر إلى بياض أبدانهن المشوب بصفرة ماعدا وجوههن وتشبيههن بالياقوت والمرجان بالنظر إلى بياض وجوههن المشوب بحمرة، وقيل تشبيههن بهذا ليس من جهة أن بياضهن مشوب بحمرة بل تشبيههن بالياقوت من حيث الصفاء وبالمرجان من حيث الاملاس وجمال المنظر وإذا أريد بالمرجان الدرر الصغار كما ذهب اليه جمع دون الخرز الأحمر المعروف يجوز أن يكون التشبيه من حيث البياض المشوب بصفرة فلا إشكال أصلا ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ ﴾ معطوف على (يطاف) وما بينهما معترض أو من متعلقات الأول أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادة المجتمعين عليه قال محمد بن فياض:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على الشراب
ولثمك وجنتي قمر منير يجول بوجهه ماء الشباب

وعبر بالماضي مع ان المعطوف عليه مضارع للاشعار بالاعتناء بهذا المعطوف بالنسبة إلى المعطوف عليه فكيف لا يقبلون على الحديث وهو أعظم لذاتهم التي يتعاطونها مع ما في ذلك من الاشارة إلى تحقق الوقوع حتما وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية

www.Quranpdf.blogspot.in

الحال وفراغ البال ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ فى تضاعيف محاورتهم ﴿ إِنِّي كَانَ لِي ﴾ فى الدنيا ﴿ قَرِينٌ ٥١ ﴾ مصاحب ﴿ يَقُولُ ﴾ لى على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الايمان والتصديق بالبعث المفضى إلى ما أنا عليه اليوم ﴿ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢ ﴾ أى بالبعث كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣ ﴾ أى لمبعوثون ومجازون من الدين بمعنى الجزاء ، وقيل لمسوسون مربوبون من دانه إذا ساسه ومنه الحديث «العاقل من دان نفسه». وقرىء (المصدقين) بتشديد الصاد من التصدق، واعترضت هذه القراءة بأن الكلام عليها لايلائم قوله سبحانه (أئذا متنا) الخ، وتعقب بأن فيه غفلة عن سبب النزول، أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال: كان رجلان شريكان وكان لهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فعمد أكبرهما فاشترى بالف دينار أرضاً فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً اشترى بألف دينار أرضاً وانى أشترى منك بألف دينار أرضاً فى الجنة فتصدق بالف دينار ثم ابتنى صاحبه دارا بالف دينار فقال: اللهم ان فلاناً قد ابتنى دارا بالف دينار وانى أشترى منك فى الجنة دارا بالف دينار فتصدق بألف دينار ثم تزوج امرأة فانفق عليها ألف دينار فقال: اللهم ان فلاناً تزوج امرأة فانفق عليها ألف دينار وانى أخطب إليك من نساء الجنة بالف دينار فتصدق بالف دينار ثم اشترى خدماً ومتاعاً بالف دينار فقال: اللهم ان فلاناً اشترى خدماً ومتاعاً بالف دينار وانى اشترى منك خدماً ومتاعاً فى الجنة بالف دينار فتصدق بالف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى هذا لعله ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى حشمه وأهله فقام إليه فنظر الآخر فعرفه فقال: فلان قال: نعم فقال: ماشأنك؟ فقال: أصابتنى بعدك حاجة فاتيتك لتصيبنى بخير قال: فما فعلت بمالك؟ فقص عليه القصة فقال: أئنك لمن المصدقين بهذا اذهب فوالله لا أعطيك شيئاً فرده فقضى لهما أن توفيا فكان مآل المتصدق الجنة ومآل الآخر النار وفيهما نزلت الآية ، وقيل هما اخوان ورثا ثمانية آلاف دينار واقتسماها فكان من خبرهما ما كان ، وكان الاثنان من بنى إسرائيل وهذا السبب يدل على أن أحدهما كان مصدقا ومتصدقا أيضاً والآخر وهو القرين أنكر عليه أنه أنفق ليجازى على انفاقه بما هو أعظم وأبقى فقد ضيع بزعمه ماله فيما لا أصل له وهو الجزاء الأخروى ولا يكون هذا بدون البعث فلذا أنكره، وليت شعرى كيف يتوهم عدم الملاءمة مع قوله تعالى (أئنا لمدينون) ولعله أنسب بتلك القراءة ، وحاصل المعنى أنت المتصدق طلباً للجزاء فى الآخرة فهل نحن بعد ما نفنى نبعث ونجازى، وذكر العظام مع التراب مع ان ذكر التراب يكفى ويغنى عن ذلك لتصوير حال ما يشاهده ذلك الشخص من الأجساد البالية من مصير اللحم وغيره ترابا عليه عظام نخرة ليذكره ويخطر بباله ماينافى مدعاه، وكونه للتنزل فى الانكار أو للتأكيد لايرجحه بل يجوزه ﴿ قَالَ ﴾ أى ذلك القائل الذى كان قرين لجلسائه بعد ما حكى لهم مقالة قرينه له فى الدنيا ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ٥٤ ﴾ على أهل النار لأريكم ذلك القرين الذى قال لى ما حكيت لكم، والمراد من الاستفهام للعرض أو الأمر على ماقيل، والغرض من ذلك إراءتهم سوء حال القرين ليؤنسهم نوع إيناس وقيل يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه ، ولا يخفى ان ظن الكذب فى غاية البعد واطلاع أهل الجنة على أهل النار ومعرفة من فيها مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله تعالى فيهم حدة نظر ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه، ولعلهم إذا أرادوا ذلك وقفوا

www.Quranpdf.blogspot.in

على الأعراف فاطلعوا على من أرادوا من أهل النار ؛ وقيل ان لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو الى أهل النار وعلم القائل بأن القرين من أهل النار لعلمه بانه كان ينكر البعث ومنكره منهم قطعاً والأصل بقاؤه على الكفر وقيل علم ذلك باخبار الملائكة عليهم السلام إياه، وقيل قائل (هل أنتم) الخ هو الله تعالى أو بعض الملائكة عليهم السلام يقول للمتحادثين من أهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، وقيل القائل من كان له قرين والمخاطبون بانتم الملائكة عليهم السلام وفى الكلام حذف كأنه قيل: فقال لهذا القائل حاضروه من الملائكة قرينك هذا يعذب فى النار فقال للملائكة الذين أخبروه : هل أنتم مطلعون ولا يخفى مافيه ﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾ أى على أهل النار ﴿ فَرَءَاهُ ﴾ أى فرأى قرينه ﴿ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ٥٥ ﴾ أى فى وسطها ، ومنه قول عيسى بن عمر لأبى عبيدة كنت أكتب حتى ينقطع سوائى، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. وقرأ أبو عمرو فى رواية حسين الجعفى (مطلعون) باسكان الطاء وفتح النون (فاطلع) بضم الهمزة وسكون الطاء و كسر اللام فعلا ماضياً مبنياً للمفعول، وهى قراءة ابن عباس. وابن محيصن. وعمار ابن أبى عمار. وأبى سراج، وقرىء (مطلعون) مشدداً (فاطلع) مشدداً ايضا مضارعا منصوباً على جواب الاستفهام.

وقرىء مطلعون بالتخفيف (فأطلع) مخففا فعلا ماضيا و(فأطلع) مخففا مضارعا منصوبا. وقرأ أبو البرهسم. وعمار ابن أبى عمار فيما ذكره خلف عنه (مطلعون) بتخفيف الطاء و كسر النون (فاطلع) ماضيا مبنيا للمفعول. ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم والوجه مطلعى كما قال عليه الصلاة والسلام «أو مخرجى هم» ووجهها أبو الفتح على تنزيل اسم الفاعل منزلة المضارع فيقال عنده ضاربونه مثلا كما يقال يضربونه وعليه قوله :

هم الآمرون الخير والفاعلونه ... إذا ماخشوا من محدث الدهر معظما

وأنشد الطبرى قول الشاعر :

وما أدرى وظنى كل ظن ... أمسلمنى إلى قومى شراحى (١)

ومثله قول الآخر :

فهل فتى من سراة الحى يحملنى ... وليس حاملنى إلا ابن حمال

وهذه النون عند جمع نون الوقاية ألحقت مع الوصف حملا له على الفعل وليست مثل النون فى القراءة، وفى البيت وإن كان الحاق كل للحمل . وقال بعضهم: إنها نون التنوين وحركت لالتقاء الساكنين، ورد بأنه سمع الحاقها مع أل كقوله ، وليس الموافينى ومع أفعل التفضيل كما وقع فى الحديث غير الدجال أخوفنى عليكم.

ويعلم من هذا عدم اختصاص الحاقها بالشعر نعم هو فى غيره قليل، وضعف بعضهم ماوجه به أبو الفتح وقال: إن ذلك لا يقع إلا فى الشعر وخرجت أيضا على أنها من وضع المتصل موضع المنفصل وأريد بذلك أن الأصل مطلعون إياى ثم جعل المنفصل متصلا فقيل مطلعونى ثم حذفت الياء واكتفى عنها بالكسرة كما فى قوله تعالى (فكيف كان نكير) ومثله يقال فى الفاعلونه فى البيت السابق، ورد ذلك أبو حيان بأن ماذكر ليس من محال المنفصل حتى يدعى أن المتصل وقع موقعه وادعى أولوية تخريج أبى الفتح، والبيت قيل مصنوع لا يصح الاستشهاد

(١) قال الفراء يريد شراحيل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

به ، وقيل إن الهاء هاء السكت حركت للضرورة وهو فرار من ضرورة لأخرى إذ تحريكها وإثباتها في الوصل غير جائز ، وللنحاة في مسئلة اثبات النون مع اضافة الوصف إلى الضمير كلام طويل، حاصله ان نحو ضاربك وضارباك وضاربوك ذهب سيبويه الى أن الضمير فيه في محل جر بالاضافة ولذا حذف التنوين ونون التثنية والجمع ، وذهب الأخفش وهشام الى أن الضمير في محل نصب وحذفهما للتخفيف حتى وردتا ثابتين كما في الفاعلونه وأمسلمني فالنون عندهما في الأخير ونحوه تنوين حرك لالتقاء الساكنين وقد سمعت مافيه، وحديث الحمل على الفعل على العلات أحسن ماقيل في التوجيه، هذا وطلع واطلع بالتشديد وأطلع بالتخفيف بمعنى واحد والكل لازم ويجيء الاطلاع متعديا يقال أطلعه على كذا فاطلع، و (مطلعون) في قراءة أبي عمرو بمعنى مطلعون بالتشديد ونائب فاعل أطلع ضمير القائل والفاعل هم المخاطبون واطلاعهم اياه باعتبار التسبب كأنه لما أراد الاطلاع وأحب أن لايستبد به أدبا عرض عليهم أن يطلعوا فرغبوا واطلعوا فكان ذلك وسيلة الى اطلاعه فكأنهم هم الذين أطلعوه ففاء (فاطلع) فصيحة والعطف على مقدر، والمعنى على القراءة التي بعدها هل أنتم مطلعون حتى أطلع أنا أيضا فاطلعوا وأطلع هو بعد ذلك فرآه في سواء الجحيم ولا بد من تقدير اطلع بعد ذلك ليصلح ترتب (فرآه) على ماقبله و (هل أنتم مطلعون) عليه بمعنى الأمر تأدبا ومبالغة وعلى القراءة الثانية وهي قراءة التخفيف في الكلمتين والثانية فعل ماض المعنى كما في قراءة الجمهور ، وكذا على القراءة التي بعدها، وعلى قراءة أبي البرهسم ومن معه هل أنتم مطلعي فاطلعوه فرآه الخ، واطلاعهم إياه إذا كان الخطاب للجلساء بطريق التسبب كأنه طالب أن يطلعوا ليوافقهم فيطلع وهو إذا كان (١) الخطاب للملائكة عليهم السلام على ما يتبادر إلى الذهن، وعن صاحب اللوامح انطلع واطلع اطلاعا بمعنى أقبل وجاء والقائم مقام الفاعل على قراءة أطلع مبنيا للمفعول ضمير المصدر أو جار ومجرور محذوفان أي أطلع به لأن أطلع لازم كأقبل وقد علمت أن أطلع يجيء متعديا كأطلعت زيداً . ورد أبو حيان الاحتمال الثاني بأن نائب الفاعل لا يجوز حذفه كالفاعل فتأمل جميع ماذكرنا ولا تغفل ﴿قَالَ﴾ أي القائل لقرينه ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ٥٦﴾ أي لتهلكني، وفي قراءة عبد الله (لتغوين)، و (إن) مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة . وفي البحر أن القسم فيه التعجب من سلامته منه إذ كان قرينه قارب أن يرديه ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علي وهي التوفيق والعصمة ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ٥٧﴾ للعذاب كما أحضرته أنت وأضرابك ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨﴾ الخ رجوع إلى محاورة جلسائه بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما أتاح الله تعالى له من الفضل العظيم والنعيم المقيم وتعريضا للقرين بالتوبيخ، وجوز أن يكون من كلام المتسائلين جميعا وأن يكون من تتمة كلام القائل يسمع قرينه على جهة التوبيخ له ، واختير الأول ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام على ماذهب اليه الزمخشري ومتبعوه أي أنحن مخلدون فما نحن بميتين أي بمن شأنه الموت كما يؤذن به الصفة المشبهة .

وقرىء (بمائتين) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة عند أهل السنة لما في القبر بعد الاحياء للسؤال لعدم الاعتداد بالحياة فيه لكونها غير تامة ولاقارة وزمانها قليل جداً، والاستثناء مفرغ من مصدر مقدر كأنه

(١) قوله وهو اذا كان الخطاب الخ كذا في أصله وانظر اه

www.Quranpdf.blogspot.in

قيل أفما نحن بميتين موتة إلا موتتنا الأولى، وجوز أن يكون منقطعا أى لـكن الموتة الأولى كانت لنا فى الدنيا وعلمهم بأنهم لايموتون ناشىء من إخبار أنبيائهم لهم فى الدنيا واعلامهم اياهم بان أهل الجنة لا يموتون أو من قول الملائكة عليهم السلام لهم حين دخول الجنة (طبتم فادخلوها خالدين) وقولهم (ادخلوها بسلام آمنين) وقيل إن أهل الجنة أول ما دخلوا لا يعلمون أنهم لا يموتون فاذا جىء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فنودى ياأهل الجنة خلود بلا موت و ياأهل النار خلود بلا موت فحينئذ يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها، ولا يخفى أن كون هذا القول المحكى هنا عند علمهم بعدم الموت من ذبحه بعيد فى هذا المقام والظاهر أن هذا بعد الاطلاع والكلام مع القرين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾ كاصحاب النار، والمراد استمرار النفى وتأكيده وكذا فيما تقدم واستمرار هذا النفى نعمة جليلة وهو متضمن نفى زوال نعيمهم المحكى فى قوله تعالى: (أولئك لهم رزق معلوم) الآيات فان زوال النعيم نوع من العذاب بل هو من أعظم أنواعه بل تصور الزوال عذاب أيضا لا يلذ معه عيش، ولذا قيل:

إذا شئت أن تحيا حياة هنية فلا تتخذ شيئا تخاف له فقدا

وكذا يتضمن نفى الهرم واختلال القوى الذى يوهمه نفى الموت فان ذلك نوع من العذاب أيضا، وأنه إنما اختير التعرض لاستمرار نفى العذاب دون اثبات استمرار النعيم لأن نفى العذاب أسرع خطورا ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب، وقيل إن ذاك لأن درء الضرر أهم من جلب المنفعة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٠﴾ الظاهر أن الاشارة إلى ما أخبروا به من استمرار نفى الموت واستمرار نفى التعذيب عنهم، ويجوز أن تكون اشارة الى ماهم فيه من النعيم مع استمرار النفيين فاذا كان الكلام من تتمة كلام القائل (أفما نحن بميتين) الخ فهو متضمن اشارة ذلك القائل الى ظهور النعيم ويكون ترك التعرض للتصريح به للاستغناء بذلك الظهور *

وجوز أن يكون هذا كلامه تعالى قاله سبحانه تقريرا لقول ذلك القائل وتصديقا له مخاطبا جل وعلا به حبيبه عليه الصلاة والسلام وأمته والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر. وقرىء (لهو الرزق العظيم) وهو ما رزقوه من السعادة العظمى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ٦١﴾ أى لنيل مثل هذا الأمر الجليل ينبغى أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام فتقديم الجار والمجرور للحصر وهذا ان كان اشارة الى مشخص من حيث تشخصه فمثل غير مقحمة وان كان اشارة الى الجنس فهى مقحمة كما فى مثلك لا يبخل. والكلام يحتمل أن يكون من تتمة كلام القائل ولا يعكر عليه أن الآخرة ليست بدار عمل إذ ليس المراد الأمر بالعمل فيها ويحتمل أن يكون من كلامه عز وجل *

وأما قوله سبحانه ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ٦٢﴾ فمن كلامه جل وعلا عند الأكثرين وهو متعلق بقوله تعالى: (أولئك لهم رزق معلوم) والقصة بينهما ذكرت بطريق الاستطراد فالاشارة إلى الرزق المعلوم، وزعم بعضهم جواز كونه من كلام القائل السابق وماهو من كلامه عز وجل قطعا هو ما يأتى إن شاء الله تعالى، وأصل النزل الفضل والريع فى الطعام ويستعمل (١) فى الحاصل من الشىء ومنه العسل ليس من انزال الأرض

(١) وهو اما استعارة لفظية اذا رجعت فيها الى التشبيه يأتيك عفوا نحو رأيت أسدا يرمى واما استعارة معنوية اذا

www.Quranpdf.blogspot.in

أى مما يحصل منها ، وقول الشافعى لا يجب فى العسل العشر لأنه نزل طائر ويقال لما يعد للنازل من الرزق ٭ والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون فى تهامة وفى البلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت بها الشجرة الموصوفة بما فى الآية ، وكلا المعنيين للنزل محتمل هنا بيد أنه يتعين على الأول انتصابه على التمييز أى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا وحاصلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ، ومعنى التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن ، والحمل على المشاكلة جائز ، وعلى الثانى الظاهر انتصابه على الحال ، والمعنى ان الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير حال كونه نزلا ، وفيه مامر من التهكم ٭ والحمل على التمييز لا مانع منه لفظاً كما فى نحو هم أكفاهم ناصراً ولكن المعنى على الحال أسد لأن المعنى المفاضلة بين تلك الفواكه وهذا الطعام فى هذه الحال لا التفاضل بينهما فى الوصف وان ذلك فى النزلية أدخل من الآخر فافهم ٭

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٦٣ ﴾ محنة وعذاباً لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم سمعوا انها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر وكذا قال أبو جهل ثم قال استخفافاً بأمرها لإنكاراً للمدلول اللغوى: والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق فالنار لا تحرق إلا باذنه أو ان الاحراق عندها لا بها ٭

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ ﴾ منبتها فى قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها . وقرىء (نابتة) فى أصل الجحيم ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى حملها ، وأصله طلع النخل وهو أول ما يبدو وقبل أن تخرج شماريخه أبيض غض مستطيل كاللوز سمى به حمل هذه الشجرة إما لأنه يشابهه فى الشكل أو الطلوع ولعله الأولى لمكان التشبيه بعد فيكون استعارة تصريحية أو لاستعماله بمعنى مايطلع مطلقاً فيكون كالمرسل للانف فهو مجاز مرسل ٭

﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥ ﴾ أى فى تناهى الكراهة وقبح المنظر والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان فيقولون كأنه وجه شيطان أو رأس شيطان وان لم يروه لما أنه مستقبح جدا فى طباعهم لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيرتسم فى خيالهم باقبح صورة ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كانياب أغوال

فشبه بأنياب الاغوال وهى نوع من الشياطين ولم يرها لما ارتسم فى خياله ، وعلى عكس هذا تشبيههم الصورة الحسنة بالملك وذلك أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شر فيه فارتسم فى خيالهم بأحسن صورة ، وعليه قوله تعالى (ماهذا بشرا إن هذا الاملك كريم) وبهذا يرد على بعض الملاحدة حيث طعن فى هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف ، وحاصله أنه لا يشترط أن يكون معروفا فى الخارج بل يكفى كونه مركوزا فى الذهن والخيال ٭ وحمل التشبيه فى الآية على ماذكر هو المروى عن ابن عباس . ومحمد بن كعب القرظى . وغيرهما ، وزعم الجبائى أن الشياطين حين يدخلون النار تشوه صورهم جدا وتستبشع اعضاؤهم فالمراد كأنه رؤس الشياطين

رجعت فيها الى التشبيه لم يواتك تلك المواتاة نحو اذ اصبحت بيد الشمال زمامها كذا قال نور الدين الحكيم وتمامه فى حواشى الطيبى أه منه

الذين فى النار ، وفيه أن التشبيه عليه أيضاغير معروف فى الخارج عند النزول ، وقيل : رؤس الشياطين شجرة معروفة تكون بناحية اليمن منكرة الصورة يقال لها الاستن وإياها عنى النابغة بقوله :

تحيد عن استن سود أسافله   مثل الاماء الغوادى تحمل الحزما

قال الاصمعى : ويقال لها الصوم وأنشد :

موكل بشدوف الصوم يرقبه   من المغارب مهضوم الحشا زرم (١)

وقيل : الشياطين جنس من الحيات ذوات أعراف ، وأنشد الفراء :

عجيز تحلف حين أحاف   كمثل شيطان الحماط أعرف

أى له عرف ، وأنشد المبرد :

وفى البقل إن لم يدفع الله شره   شياطين يعدو بعضهن على بعض

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ تفريع على جعلها فتنة أى محنة وعذابا للظالمين ، وضمير المؤنث للشجرة ، ومن ابتدائية أو تبعيضية وهناك مضاف مقدر أى من طلعها ، وقيل : من تبعيضية والضمير للطالع وأنث لاضافته إلى المؤنث أو لتأويله بالثمرة أو للشجرة على التجوز ، ولا يخلو كل عن بعدما ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٦٦ ﴾ لغلبة الجوع وإن كرهوها أو للقسر على أكلها ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أى على الشجرة التى ملؤا منها بطونهم ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ٦٧ ﴾ أى لشرابا ممزوجا بماء شديد الحرارة وهذا الشراب هو الغساق أى مايقطر من جراح أهل النار وجلودهم ، وقيل : هذا هو الصديد وأما الغساق فعين فى النار تسيل اليها سموم الحيات والعقارب أو دموع الكفرة فيها ، وشربهم ذلك لغلبة عطشهم بما أكلوا من الشجرة فاذا شربوا تقطعت أمعاؤهم *

وقرىء (لشوبا) بضم الشين وهو اسم لمايشاب به ، وعلى الاول هو مصدر سمى به ، وكلمة ثم قيل للتراخى الزمانى وذلك أنه بعد أن يملؤا البطون من تلك الشجرة يعطشون ويؤخر سقيهم زمانا ليزداد عطشهم فيزداد عذابهم *

واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء فى قوله تعالى (فمالؤن منها البطون فشاربون عليه من الحميم) فلابد من عدم توسط زمان . وأجيب بانه يجوز أن يكون شرب الشراب الممزوج بالحميم متأخرا بزمان عن ملئهم البطون دون شرب الحميم وحده ، وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفا فتارة يتأخر الشرب مطلقا زمانا واخرى لا يتأخر كذلك ، وقال بعضهم : ملؤهم البطون أمر ممتد فباعتبار ابتدائه يعطف بثم وباعتبار انتهائه بالفاء *

وجوز كون ثم للتراخى الرتبى لان شرابهم أشنع من مأكولهم بكثير ، وعطف ملئهم البطون بالفاء لأنه يعقب ماقبله ، ولا يحسن فيه اعتبار التفاوت الرتبى حسنه فى شرب الشراب المشوب بالحميم مع الاكل ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أى مصيرهم ، وقد قرىء كذلك ، وقرىء أيضا (ثم إن منقذهم) ﴿ لَإِلَى الْجَحِيمِ ٦٨ ﴾ أى إلى مقرهم من النار فان فى جهنم مواضع أعد فى كل موضع منها نوع من البلاء فالقوم يخرجون من محل قرارهم حيث تأجج النار ويساقون إلى موضع آخر ممادارت عليه جهنم فيه ذلك الشراب ليردوه ويسقوا منه ثم يردون إلى محالهم كما تخرج الدواب إلى مواضع الماء فى البلد مثلا لترده ثم ترد إلى محلها ، وإلى هذا المعنى أشار قتادة ثم تلا قوله تعالى:

---

(١) يصف وعلا يظن هذا الشجر قناصا فهو يرقبه والشدوف الشخرص واحدها شدف اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

(هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) ويؤيده قراءة ابن مسعود (ثم إن منقلبهم) إذ الانقلاب أظهر في الرد أو المراد ثم إن مرجعهم إلى دركات الجحيم فهم يرددون في الجحيم من مكان إلى آخر أدنى منه ، وقيل : إن الشراب يقدم اليهم قبل دخول النار فيشربون ويصيرون إلى الجحيم ، وهذا يحتاج إلى توقيف والا فهو خلاف الظاهر ، وكأن بين خروج القوم للشرب وعودهم إلى مساكنهم زمانا غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ولذا جيء بثم ، وهذا الشراب في مقابلة مالأهل الجنة من الشراب المدلول عليه بقوله تعالى : (يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين) الخ كما أن الزقوم في مقابلة ما لهم من الفواكه.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم أخرجه ابن أبي شيبة فكيف بمن هو طعامه وشرابه الغساق والصديد مع الحميم ، نسأل الله تعالى رضاه والجنة ونعوذ به عز وجل من غضبه والنار ، وقوله سبحانه :

﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ٦٩ فهم على آثارهم يهرعون ٧٠ ﴾ تعليل لاستحقاقهم ماذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسك به أصلا أي وجدوهم ضالين في نفس الامر ليس لهم مايصلح شبهة فضلا عن صلاحية كونه دليلا فهم (١) من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بادنى تأمل ، والاهراع الاسراع الشديد ، وقيل : هو اسراع فيه شبه رعدة.

وفي بناء الفعل للمفعول اشارة إلى مزيد رغبتهم في الاسراع على آثارهم كأنهم يزعجون ويحثون حثا عليه.

﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء الظالمين الذين جعلت شجرة الزقوم فتنة لهم وهم قريش ﴿ أكثر الأولين ٧١ ﴾ من الامم السابقة ، وهو جواب قسم محذوف ، وكذا قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ٧٢ ﴾ أنبياء أنذروهم سوء عاقبة ماهم عليه من الباطل ، وتكرير القسم لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ٧٣ ﴾ من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الانذار ولم يرفعوا اليه رأسا.

والخطاب إما لسيد المخاطبين ﷺ أو لكل من يتأتى منه مشاهدة آثارهم ، وحيث كان المعنى انهم أهلكوا إهلاكا فظيعا استثنى عنهم المخلصين بقوله عز وجل ﴿ إلا عباد الله المخلصين ٧٤ ﴾ أي الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار . وقرىء (المخلصين) بكسر اللام اي الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى ، والاستثناء على القراءتين اما منقطع إن خصص المنذرين واما متصل أن عمم.

﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين كقوم نوح عليه السلام ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى أو أخلصوا دينهم على القراءتين كقوم يونس عليه السلام ، وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص غني عن البيان ، ونداؤه عليه السلام يتضمن الدعاء على كفار قومه وسؤاله النجاة وطلب النصرة ، واللام واقعة في جواب قسم محذوف ، وكذا مافي قوله تعالى : ﴿ فلنعم المجيبون ٧٥ ﴾ والمخصوص بالمدح فيه محذوف والفاء

---

(١) قوله فهم من غير أن يتدبروا الخ كذا في أصله ولعله سقط من قلمه خبر قوله فهم نحو مقلدون لهم

www.Quranpdf.blogspot.in

فصيحة أي وتالله لقد دعانا نوح حين أيس من ايمان قومه بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ونفورا فأجبناه أحسن الاجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ماحذف ثقة بدلالة ماذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء وفيه من تعظيم أمر الاجابة ما فيه؛ وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا صلى فى بيتى فمر بهذه الآية (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دعى وأقرب من بغى فنعم المدعو ونعم المعطى ونعم المسؤل ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير»،

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦ ﴾ من الغرق على ماروى عن السدى، وقيل: اذى قومه ولامانع من الجمع، والكرب على ماقال الراغب: الغم الشديد، وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس اثارة ذلك، ويصح أن يكون من كربت الشمس إذا دنت للمغيب وقولهم إناء كربان نحو قربان أى قريب من الملء أو من الكرب وهو عقد غليظ فى رشاء الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب *

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧ ﴾ فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا) وقد روى أنه مات كل من فى السفينة ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاث سام وحام ويافث وأزواجهم فانهم بقوا متناسلين إلى يوم القيامة *

أخرج الترمذى وحسنه. وابن سعد. وأحمد. وأبو يعلى. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى. والحاكم وصححه عن سمرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه، نعم أخرج البزار. وابن أبى حاتم. والخطيب فى تالى التلخيص عنه قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولاخير فيهم وولد حام القبط والسودان» ولا أعرف حال الخبر، والأكثرون على أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل له آدم الثانى. وان صح ان لكنعان المغرق ولدا فى السفينة لا يبعد إدراجه فى الذرية فلا يقتصر على الأولاد الثلاثة، وعلى كون الناس كلهم من ذريته عليه السلام استدل بعضهم بالآية. وقالت فرقة: أبقى الله تعالى ذرية نوح عليه السلام ومد فى نسله وليس الناس منحصرين فى نسله بل من الأمم من لايرجع اليه حكاه فى البحر، وكأن هذه الفرقة لاتقول بعموم الغرق، ونوح عليه السلام إنما دعا على الكفار وهو لم يرسل إلى أهل الأرض كافة فان عموم البعثة ابتداء من خواص خاتم المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ووصول خبر دعوته وهو فى جزيرة العرب إلى جميع الأقطار كقطر الصين وغيره غير معلوم *

والحصر فى الآية بالنسبة إلى من فى السفينة ممن عدا أولاده وأزواجهم فكأنه قيل: وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية من معه فى السفينة وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه وكان فى بعض الأقطار الشاسعة التى لم تصل اليها الدعوة ولم يستوجب أهلها الغرق كأهل الصين فيما يزعمون، ويجوز ان تكون قائلة بالعموم وتجعل الحصر بالنسبة إلى المغرقين وتلتزم القول بانه لم يبق عقب لأحد من أهل السفينة هو من ذرية أحد من المغرقين أى وجعلنا ذريته هم الباقين لاذرية أحد غيره من المغرقين، وولد كنعان ان صح وصح بقاء نسله داخل فى ذريته والله تعالى أعلم ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ٧٨ ﴾ فى الباقين غابر الدهر ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ مبتدأ وخبر

www.Quranpdf.blogspot.in

وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء ، والكلام وارد على الحكاية كقولك : قرأت (سورة أنزلناها) وهو على ما قال الفراء وغيره من الكوفيين محكي - بترك - فى موضع نصب بها أى تركنا عليه هذا الكلام بعينه ٭

وقال آخرون : هو محكي بقول مقدر أى تركنا عليه فى الآخرين قولهم سلام على نوح ، والمراد أبقينا له دعاء الناس وتسليمهم عليه أمة بعد أمة ، وقيل : هذا سلام منه عز وجل لا من الآخرين ، ومفعول (تركنا) محذوف أى تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر ، ونسب هذا إلى ابن عباس . ومجاهد وقتادة . والسدى ، وجملة (سلام على نوح) معمول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجى أى وقلنا سلام الخ ، وقال أبو حيان : مستأنفة سلم الله تعالى عليه عليه السلام ليقتدى بذلك البشر فلا يذكره أحد بسوء ، وقرأ عبد الله (سلاما) بالنصب على أنه مفعول (تركنا) وقوله تعالى : ﴿ فِى ٱلْعَالَمِينَ ٧٩ ﴾ متعلق بالظرف لنيابته عن عامله أو بما تعلق الظرف به . وجوز كونه حالا من الضمير المستتر فيه ، وأيا ما كان فهو من تتمة الجملة السابقة وجئ به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث أنه أفاد الكلام عليه ثبوته فى العالمين من الملائكة والثقلين أو أنه حال كونه فى العالمين على نوح . وهذا كما تقول سلام على زيد فى جميع الأمكنة وفى جميع الأزمنة . وزعم بعضهم جواز جعله بدلا من قوله تعالى (فى الآخرين) ويوشك ان يكون غلطاً كما لا يخفى ٭

وقوله تعالى ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠ ﴾ تعليل لما فعل به مما قصه الله عز وجل بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالاحسان الراسخين فيه فيكون ما وقع من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان ، وإحسانه مجاهدته أعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه والصبر الطويل على أذاهم ونحو ما ذكر وذلك إشارة إلى ما ذكر من الكرامات السنية التى وقعت جزاء له عليه السلام ، وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ، والكاف متعلقة بما بعدها أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين فى الاحسان لاجزاء أدنى منه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨١ ﴾ تعليل لكونه عليه السلام محسناً المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته وكمال إيمانه ، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى وإلا فمنصب الرسالة منصب عظيم والرسول لا ينفك عن الخلوص بالعبودية وكمال الايمان فالمقصود بالصفة مدحها نفسها لا مدح موصوفها ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ٨٢ ﴾ أى المغايرين لنوح عليه السلام وأهله وهم كفار قومه أجمعين ، وثم للتراخى الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الاغراق ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى ممن شايع نوحا وتابعه فى أصول الدين ﴿ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣ ﴾ وان اختلفت فروع شريعتيهما أو ممن شايعه فى التصلب فى دين الله تعالى ومصابرة المكذبين ونقل هذا عن ابن عباس ، وجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلى أو أكثرى وللأكثر حكم الكل ، ورأيت فى بعض الكتب ولا أدرى الآن أى كتاب هو أن نوحا عليه السلام لم يرسل إلا بالتوحيد ونحوه من أصول العقائد ولم يرسل بفروع ، قيل : وكان بين ابراهيم وبينه عليهما السلام نبيان هود وصالح لا غير ، ولعله أريد بالنبى الرسول لا ما هو أعم منه ، وهذا بناء على أن ساما كان نبيا وكان بينهما على ما فى جامع الأصول ألف سنة ومائة واثنتان وأربعون سنة ، وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة ٭

وذهب الفراء إلى أن ضمير (شيعته) لنبينا محمد ﷺ ، والظاهر ما أشرنا اليه وهو المروى عن ابن عباس .

www.Quranpdf.blogspot.in

ومجاهد . وقتادة . والسدى ، وقلما يقال للمتقدم هو شيعة للمتأخر ، ومنه قول الكميت الأصغر بن زيد :

وما لى إلا آل أحمد شيعة ومالى الا مشعب الحق مشعب

وذكر قصة إبراهيم عليه السلام بعد قصة نوح لأنه كآدم الثالث بالنسبة الى الأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته الا لوطا وهو بمنزلة ولده عليهما السلام ، ويزيد حسن الارداف أن نوحا نجاه الله تعالى من الغرق وابراهيم نجاه الله تعالى من الحرق ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ منصوب باذكر كما هو المعهود فى نظائره، وجوز تعلقه بفعل مقدر يدل عليه قوله تعالى : (وان من شيعته) كأنه قيل: متى شايعه ؟ فقيل : شايعه إذ جاء ربه ، وقيل :هو متعلق بشيعة لما فيه من معنى المشايعة . ورد بانه يلزم عمل ماقبل لام الابتداء فيما بعدها وهم لايجوزون ذلك للصدارة فلا يقال: إن ضاربا لقادم علينا زيدا ، وكذا يلزم الفصل بين العامل والمعمول باجنبى وهو لايجوز *

وأجيب بانه لا مانع من كل إذا كان المعمول ظرفا لتوسعهم فيه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾ أى سالم من جميع الآفات كفساد العقائد والنيات السيئة والصفات القبيحة كالحسد والغل وغير ذلك ، وعن قتادة تخصيص السلامة بالسلامة من الشرك ، والتعميم الذى ذكرناه أولى أو سالم من العلائق الدنيوية بمعنى انه ليس فيه شىء من محبتها والركون اليها والى أهلها ، وقيل سليم أى حزين وهو مجاز من السليم بمعنى اللديغ من حية أو عقرب فان العرب تسميه سليما تفاؤلا بسلامته وصار حقيقة فيه، وماتقدم أنسب بالمقام، والباء قيل للتعدية * والمراد بمجيئه ربه بقلبه اخلاصه قلبه له تعالى على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية ، ومبناها تشبيه اخلاصه قلبه له عز وجل بمجيئه اليه تعالى بتحفة فى أنه سبب للفوز بالرضا ، ويكتفى بامتناع الحقيقة مع كون المقام مقام المدح قرينة ، فحاصل معنى التركيب اذ أخلص عليه السلام لله تعالى قلبه السليم من الآفات أو المنقطع عن العلائق أو الحزين المنكسر . وتعقب بأن سلامة القلب عن الآفات لاتكون بدون الاخلاص وكذا الانقطاع عن العلائق لا يكون بدونه . وأجيب بانهما قديكونان بدون ذلك كما فى القلوب البله . وفى المطلع معنى مجيئه ربه بقلبه أنه أخلص قلبه لله تعالى وعلم سبحانه ذلك منه كما يعلم الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره فضرب المجىء مثلا لذلك اه ، وجعل فى الكلام عليه استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة المنتزعة من اخلاص ابراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه سبحانه ذلك الاخلاص منه موجودا بالهيئة المنتزعة من المجىء بالغائب بمحضر شخص ومعرفته اياه وعلمه باحواله ثم يستعار مايستعار ، ولتأدية هذا المعنى عدل عن جاء ربه سليم القلب الى مافى النظم الجليل ، وقيل الباء للملابسة ولعله المتبادر، والمراد بمجيئه ربه حلوله فى مقام الامتثال ونحوه، وذكر أن نكتة العدول عما سمعت الى ما فى النظم سلامته من توهم أن الحال منتقلة لما أن الانتقال أغلب حاليها مع أنه أظهر فى أن سلامة القلب كانت له عليه السلام قبل المجىء أيضا فليتدبر *

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أى أى شىء تعبدون ؟*

﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾ أى أتريدون آلهة من دون الله تعالى إفكا أى للافك فقدم المفعول به على الفعل للعناية لأن انكاره أو التقرير به هو المقصود وفيه رعاية الفاصلة أيضا ثم المفعول لأجله لأن الأهم مكافحتهم بانهم على إفك وباطل فى شركهم *

www.Quranpdf.blogspot.in

ويجوز أن يكون (افكا) مفعولا به بمعنى أتريدون (افكا) وتكون آلهة بدلا منه بدل كل من كل، وجعلها عين الإفك على المبالغة أو الكلام على تقدير مضاف أي عبادة آلهة وهي صرف للعبادة عن وجهها. وجوز كونه حالا من ضمير تريدون أي آفكين أو مفعوله أي مأفوكة. وتعقب بأن جعل المصدر حالا لا يطرد إلا مع أما نحو أما علما فعالم ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٧﴾ أي أي شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية أو أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى أو أي شيء ظنكم بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على الافك عليه تعالى ولم تخافوا، وكان قومه عليه السلام يعظمون الكواكب المعروفة ويعتقدون السعود والنحوس والخير والشر في العالم منها ويتخذون لكل كوكب منها هيكلا ويجعلون فيها أصناما تناسب ذلك الكوكب بزعمهم ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها وكانوا يستدلون باوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة فاتفق ان دنا يوم عيد لهم يخرجون فيه فارسل ملكهم إلى إبراهيم عليه السلام ان غدا عيدنا فاحضر معنا فاستشعر حصول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سببا لتوحيدهم فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ٨٨﴾ أي فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في خلق السموات والأرض وتفكرهم في ذلك إذ هو اللائق به عليه السلام لكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي يكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه، والظاهر بعد اعتبار الايهام أنه إيهام التفكر في أحكام طالع ولادته عليه السلام وما يدل عليه بزعمهم ما تجدد له من الأوضاع في ذلك الوقت، وهذا من معاريض الأفعال نظير ما وقع في قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية اخوته بني علاته قبل وعاء شقيقه فان المفتش بدأ باوعيتهم مع علمه ان الصاع ليس فيها وأخر تفتيش وعاء أخيه مع علمه بانه فيها تعريضا بانه لا يعرف في أي وعاء هو ونفيا للتهمة عنه لو بدأ بوعاء الأخ ﴿فَقَالَ﴾ أي لهم ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩﴾ أراد أنه سيسقم ولقد صدق عليه السلام فان كل انسان لا بد أن يسقم وكفى باعتلال المزاج أول سريان الموت في البدن سقاما، وقيل أراد مستعد للسقم الآن أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجا قل من يخلو عنه أو سقيم القلب لكفركم والقوم توهموا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه الخروج معهم إلى معيدهم، وهو على ما روى عن سفيان وابن جبير سقم الطاعون فانهما فسرا (سقيم) بمطعون وكان كما قيل أغلب الأسقام عليهم وكانوا شديدي الخوف منه لاعتقادهم العدوى فيه، وهذا وكذا قوله عليه السلام (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله في زوجته سارة هي أختي من معاريض الأقوال كقول نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لمن قال له في طريق الهجرة: ممن الرجل؟ من ماء حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذكر مبدأ خلقه ففهم السائل أنه بيان قبيلته وكقول صاحبه الصديق وقد سئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك ايضا: هو هاد يهديني حيث اراد شيئا وفهم السائل آخر ولا يعد ذلك كذبا في الحقيقة.

وتسميته به في بعض الاحاديث الصحيحة بالنظر لما فهم الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم وجعله ذنبا في حديث الشفاعة قيل لأنه ينكشف لابراهيم عليه السلام أنه كان منه خلاف الأولى لا أن كل تعريض هو

www.Quranpdf.blogspot.in

كذلك فانه قد يجب والامام لضيق محرابه ومجاله ينكر الحديث الوارد فى ذلك وهو فى الصحيحين ويقول: اسناد الكذب إلى راويه أهون من اسناده إلى الخليل عليه السلام، وقد مر الكلام فى ذلك ، وقيل : كانت له عليه السلام حمى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فاذا هى قد حضرت فقال لهم إنى سقيم، وليس شىء من ذلك من المعاريض، ونحوه ماأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: أرسل اليه عليه السلام ملكهم فقال: إن غدا عيدنا فاخرج معنا فنظر إلى نجم فقال إن ذا النجم لم يطلع قط الاطلع بسقم لى

وأنت تعلم أن النظر المعدى بفى بمعنى التأمل والتفكر والنظر المشار اليه لايحتاج إلى تفكر، وعن أبى مسلم أن المعنى نظر وتفكر فى النجوم ليستدل باحوالها على حدوثها وأنها لا تصلح أن تكون آلهة فقال إنى سقيم أى سقيم النظر حيث لم يحصل له كمال اليقين انتهى، وهذا لعمرى يسلب فيما أرى عن أبى مسلم الاسلام وفيه من الجهل بمقام الانبياء لاسيما الخليل عليه وعليهم السلام مايدل على سقم نظره نعوذ بالله تعالى من خذلانه ومكره

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن (نظر نظرة فى النجوم) كلمة من كلام العرب تقول إذا تفكر الشخص: نظر فى النجوم وعليه فليس هو من المعاريض بل قوله (إنى سقيم) فقط منها وهذا ان أيده نقل من أهل اللغة حسن جدا ، وقيل : المعنى نظر فى أحوال النجوم أو فى علمها أو فى كتبها واحكامها ليستدل على مايحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الامور ليس بممنوع شرعا إذا كان باعتقاد أن الله تعالى جعلها علامة عليه والممنوع الاستدلال باعتقاد أنها مؤثرة بنفسها والجزم بكلية أحكامها ، وقد ذكر الكرمانى فى مناسكه على ماقال الخفاجى أن النبى ﷺ قال لرجل اراد السفر فى آخر الشهر أتريد أن تخسر صفقتك ويخيب سعيك اصبر حتى يهل الهلال انتهى

وهذا البحث من أهم المباحث فانه لم يزل معترك العلماء والفلاسفة الحكماء ، وقد وعدنا بتحقيق الحق فيه وبيان كدره وصافيه فنقول وبالله تعالى التوفيق إلى سلوك اقوم طريق

اعلم أن بعض الناس انكروا أن يكون للكواكب تأثير فى هذا العالم غير وجود الضياء فى المواضع التى تطلع عليها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وماجرى هذا المجرى، وهذا خروج عن الانصاف وسلوك فى مسالك الجور والاعتساف ، وبعضهم قالوا. إن لها تاثيرا مايجرى على الامر الطبيعى مثل ان يكون البلد القليل العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى الحر واليبس وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم ضعيفة وألوانهم سود وصفر كالنوبة والحبشة ، وأن يكون البلد الكثير العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم عبلة وألوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصقالبة، ومثل نمو النبات واشتداده ونضج ثمره بالشمس والقمر ونحو ذلك مما يدرك بالحس، ولا بأس فى نسبته إلى الكوكب على معنى أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة فاثر باذن الله تعالى كما ينسب الاحراق إلى النار والرى إلى الماء مثلا على معنى ذلك وهو مذهب السلف على ماقال الشيخ ابراهيم الكورانى فى جميع الاسباب والمسببات وصرح به بعض الماتريدية، أو على معنى أن الله تعالى خلق ذلك عنده وليس فيه قوة مؤثرة مطلقا على مايقوله الاشاعرة فى كل سبب ومسبب فلا فرق بين الماء والنار مثلا عندهم فى أنه ليس فى كل قوة يترتب عليها مايترتب وإنما الفرق فى أنه جرت عادة الله تعالى بأن يخلق الاحراق دون الرى عند النار دون الماء ويخلق الرى دون الاحراق عند الماء دون النار وليس للنار والماء مدخل فى الاثر من الاحراق والرى سوى أن كلا مقارن لخلق الله تعالى الاثر بلا واسطة

www.Quranpdf.blogspot.in

وظواهر الادلة مع الاولين ولا ينافى مذهبهم توحيد الافعال وأنه عزوجل خالق كل شىء كما حقق فى موضعه.
وبعضهم زعم أن لها تأثيرا يعرفه المنجم غير ذلك كالسعادة والنحوسة وطول العمر وقصره وسعة العيش وضيقه إلى غير ذلك مما لا يخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد وطوالع السنين والكسوف والخسوف والاعمال ونحوها، وهو مما لا ينبغى أن يعول عليه أو يلتفت اليه فليس له دليل عقلى أو نقلى بل الادلة قائمة على بطلانه متكفلة بهدم أركانه، والقائلون به بعد اتفاقهم على أن الخير والشر والاعطاء والمنع وما أشبه ذلك يكون فى العالم بالكواكب على حسب السعود والنحوس وكونها فى البروج المنافرة لها أو الموافقة وحسب نظر بعضها إلى بعض بالتسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وحسب كونها فى شرفها وهبوطها ووبالها ورجعتها واستقامتها واقامتها اختلفوا فى كثير من الاصول وتكلموا بكلام يضحك منه أرباب العقول، وذلك أنهم اختلفوا فى أنه على أى وجه يكون ذلك؟ فزعم قوم منهم أن فعلها بطباعها، وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلا لها لكنها تدل عليه بطبائعها، وزعم آخرون أنها تفعل فى البعض بالعرض وفى البعض بالذات، وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع إلا أن السعد منها لا يختار الا الخير والنحس لا يختار الا الشر وهذا مع قولهم انها قد تتفق على الخير وقد تتفق على الشر مما يتعجب منه، وزعم آخرون أنها لا تفعل بالاختيار بل تدل به وهو كلام لا يعقل معناه.
واختلفوا أيضا فقالت فرقة: من الكواكب ما هو سعد ومنها ما هو نحس وهى تسعد غيرها وتنحسه. وقالت أخرى: هى فى أنفسها طبيعة واحدة وإنما تختلف دلالتها على السعود والنحوس، وهذا قول من يقول منهم إن للفلك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة وأنها لا حارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا سعد ولا نحس فيها وإنما يدل بعض أجرامها وبعض أجزائها على الخير والبعض على الشر وارتباط الخير والشر والسعد والنحس بها ارتباط المدلولات بادلتها لا ارتباط المعلولات بعللها وهو أعقل من أصحاب القول بالاقتضاء الطبيعى والعلية وإن كان قوله أيضا عند بعض الاجلة ليس بشىء لأن الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض.
واختلفوا أيضا فقالت فرقة: تفعل فى الابدان والانفس جميعا وهو قول بطليموس وأتباعه، وقال الاكثرون: تفعل فى الانفس دون الابدان، ولعل الخلاف لفظى، واختلف رؤساؤهم بطليموس ودوروسوس وانطيقوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل فى الحدود وغيرها وتضادوا فى المواضع التى يأخذون منها دليلهم، ومن ذلك اختلافهم فى أمر سهم السعادة فزعم بطليموس أنه يعلم بأن يؤخذ أبدا العدد الذى يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر ويبتدئ من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد على التوالى فمنتهى العدد موضع السهم، وزعم بعضهم أنه يبتدىء من الطالع فيعد مثل ذلك على خلاف التوالى، وزعم بعض الفرس أن سهم السعادة يؤخذ بالليل من القمر إلى الشمس وبالنهار من الشمس إلى القمر، وزعم أهل مصر فى الحدود أنها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم الكلدانيون انها تؤخذ من مدبرى المثلثات، واختلفوا أيضا فرتبت طائفة البروج المذكرة والمؤنثة من الطالع فعدوا واحدا مذكرا وآخر مؤنثا وصيروا الابتداء بالمذكر، وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء وجعلوا المذكرة هى التى من الطالع إلى وسط السماء والتى تقابلها من الغارب إلى وتد الأرض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين، ومما يضحك العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارده وجعلوا الحار منها ذكرا والبارد أنثى وابتدؤا بالحمل فقالوا: هو ذكر حار والذى بعده مؤنث بارد وهكذا إلى آخرها فصارت ستة ذكورا وستة إناثا.

www.Quranpdf.blogspot.in

وقال بعضهم : الأول ذكر والثلاثة بعده اناث والخامس ذكر والثلاثة بعده اناث والتاسع ذكر ومابعده إناث فالذكور ثلاثة وبعد كل ذكر إناث ثلاث مخالفة له فى الطبيعة ، ثم ان هذه القسمة للذكر والمؤنث ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهى أنهم يبدؤن من الطالع الى الثانى عشر فيأخذون واحدا ذكرا وآخر أنثى *

وبعضهم يقول هى أربعة أقسام فمن وتد المشرق الى وتد العاشر ذكر شرقى مجفف سريع ، ومن وتد العاشر الى وتد الغارب مؤنث جنوبى محرق وسط ، ومن وتد الغارب الى وتد الرابع ذكر معتدل رطب غربى بطىء ، ومن وتد الرابع الى الطالع مؤنث ذليل مبرد شمالى وسط ، وبعض الأوائل منهم لم يقتصر على ذلك بل ابتدأ بالدرجة الأولى من الحمل فقال هى ذكر والدرجة الثانية أنثى وهكذا الى آخر الحوت ، ولبطليموس هذيان آخر فانه ابتدأ باول درجة كل برج ذكر فنسب منها الى تمام اثنتى عشرة درجة ونصف الى الذكورية ومنه الى تمام خمس وعشرين درجة الى الأنوثية ثم قسم باقى البروج الى قسمين فنسب النصف الأول الى الذكر والآخر الى الأنثى وفعل مثل ذلك فى كل برج أنثى ، ولدوروسوس هذيان آخر أيضا فانه يقسم البروج كل برج ثمانية وخمسين دقيقة ومائة وخمسين دقيقة ثم ينظر الى الطالع فان كان برجا ذكرا أعطى القسمة الأولى للذكر ثم الثانية للانثى الى أن يأتى على البروج كلها وان كان أنثى أعطى القسمة الأولى للانثى ثم الثانية للذكر الى أن ياتى على آخرها ، وما لهم فى شىء من ذلك دليل مع أن قولهم ببساطة الفلك يابى اختلاف أجزائه بالحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة ، ومثل هذيانهم فى قسمة الأجزاء الفلكية الى ماذكر قسمتهم الكواكب الى ذلك فزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وأن الشمس وزحل والمشترى والمريخ مذكرة وان عطارد ذكر أنثى وان سائر الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الاشكال التى تكون لها بالقياس الى الشمس وذلك أنها اذا كانت مشرقة متقدمة على الشمس فهى مذكرة وان كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وان ذلك يكون لها بالقياس الى أشكالها من الأفق ، وذلك أنها اذا كانت فى الاشكال التى من المشرق الى وسط السماء مما تحت الأرض فهى مذكرة واذا كانت فى الربعين الباقيين فهى مؤنثة ، ويلزم عليه انقلاب المذكر مؤنثا والمؤنث مذكرا *

وأجاب بعضهم عن هذا الهذيان أنه لا مانع من اتصاف شىء بامر بالقياس الى شىء وبضده بالقياس الى آخر وهو فى نفسه غير متصف بشىء منهما كالأدكن فانه يقال فيه أبيض بالقياس الى الأسود وأسود بالقياس الى الأبيض وهو فى نفسه لا أسود ولا أبيض فكذا الكواكب يقال انها ذكران وإناث بالقياس الى الاشكال أعنى الجهات والجهات الى الرياح كالصبا والدبور والرياح الى الكيفيات لا انها ذكران وإناث فى أنفسها ، وهو تلبيس فان الأدكن فيه شائبة بياض وسواد فمقتضى التشبيه يلزم أن يكون فى الكوكب شائبة ذكورة وأنوثة ، وأيضا الظاهر أن الانقسام المذكور بحسب الطبيعة والتأثير والتأثر ولا يكاد يعرف انقلاب الحقيقة والطبيعة بحسب الموضع والقرب والبعد ، ومنه يعلم فساد ماقالوا : إن القمر من أول مايهل الى وقت انتصافه الأول فى الضوء يكون فاعلا للرطوبة خاصة ومن ذلك الى وقت الامتلاء يكون فاعلا للحرارة ومنه الى وقت الانتصاف الثانى فى الضوء يكون فاعلا لليبس ومن ذلك الى وقت خفائه يكون فاعلا للبرودة وقاسوا ذلك على تاثيرات الشمس فى الفصول والفرق مثل الشمس ظاهر ، ويلزم عليه كون الشهر الواحد ذا فصول والحس يدفعه ، وأيضا كلامهم هذا يخالف ماقالوه من أن قوة القمر الترطيب لقرب فلكه من الأرض وقبوله للبخارات الرطبة التى ترتفع منها اليه ، ثم ان هذا القول باطل فى نفسه لما أنه يلزم عليه ازدياد رطوبة القمر

www.Quranpdf.blogspot.in

فى كل يوم لو سلم تصاعد البخارات الرطبة اليه وتأثره منها ، وكذا القول بأن قوة زحل أن يبرد ويجفف تجفيفا يسيراً لبعده عن حرارة الشمس والبخارات الرطبة ، وان قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلة لونه لون النار ولقربه من الشمس ، وكوكب الدب الأكبر كالمريخ ، وان عطاردا معتدل فى التجفيف والترطيب لأنه لا يبعد عن الشمس بعدا كثيراً ولا وضعه فوق كرة القمر . ومن العجائب استدلال فضلائهم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها حيث قالوا : لما كان لون زحل الغبرة والكمودة حكمنا بانه على طبع السوداء وهو البرد واليبس فان لها من الألوان الغبرة ، ولما كان لون المريخ كلون النار قلنا طبعه حار يابس والحرارة واليبس فى الشمس ظاهرتان ، ولما كان لون الزهرة كالمركب من البياض والصفرة والبياض أظهر فيها قلنا طبعها البرودة والرطوبة كالبلغم ، ولما كان صفرة المشترى أكثر مما فى الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان فى غاية الاعتدال ، وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيدل بياضه على البرودة ه

وأما عطارد فتختلف ألوانه فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغبر وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك فى أوقات مختلفة مع كونه من الأفق على ارتفاع واحد فلا جرم يكون له طبائع مختلفة الا انا لما وجدناه فى الأغلب أغبر كالأرض قلنا هو مثلها فى الطبع ، ويرد عليه أن المشاركة فى بعض الصفات لا تقتضى المشاركة فى الطبيعة ولا فى صفة أخرى ، وأن دلالة مجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جدا لاشتراك الكثير فى لون مع اختلاف الطبائع ، وأيضا الزرقة أظهر فى الزهرة واختلاف ألوان عطارد لأنا نراه قريب الأفق فيكون بيننا وبينه بخارات مختلفة ، وقال أبو معشر : إن القمر لا ينسب لونه الى البياض الا من عدم قوة الحس البصرى وفيه بعد ما فيه ولو سلم جميع ما قالوه من اختلاف طبائع البروج والكواكب بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقصارى مايترتب على ذلك مانجده من اختلاف الأقاليم حرارة وبرودة مثلا واختلاف أشجارها وأثمارها واختلاف أجسام أهلها وألوانهم واختلاف حيواناتها الى غير ذلك من الاختلافات ، ومع هذا نقول: إن الكواكب جزء السبب فى ذلك لكن من أين لهم القول بأن جميع الحوادث فى هذا العالم خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع أشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكون الجنين ومدة لبثه فى بطن أمه وخروجه الى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه الى ما لا يحصى من أحواله وانقسام الحيوان الى الطير وأصنافه والى الحيوان البحرى وأنواعه والبرى وأقسامه واختلاف صور الحيوانات وأفعالها وأخلاقها وثبوت العداوة بين أفراد نوع وأفراد نوع آخر منها كالذئاب والغنم وثبوت الصداقة كذلك وكذا ثبوت العداوة أو الصداقة بين أفراد النوع الواحد الى غير ذلك مما يكون فى العالم لا يكون الا بتأثير الكواكب وهو مما لا يكاد يصح لأن طريق صحته إما الخبر الصادق أو الحس الذى يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشىء من هذا كله غير موجود ، ولا يمكن الأحكاميين أن يدعوا واحدا من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن التجربة قادتهم الى ذلك ، ولا شك أن أقل ما لابد منه فيها أن يحصل ذلك الشىء على حالة واحدة مرتين والوضع المعين لمجموع الكواكب لا يتكرر أصلا أو يتكرر بعد ألوف ألوف من السنين وعمر الانسان الواحد

www.Quranpdf.blogspot.in

بل عمر البشر لاتفي به . وزعم بعضهم لذلك أن مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها الى بعض غير شرط في التأثير لتتوقف التجربة على تكراره بل يكفي بعض الاتصالات وقد يكفي واحد منها وذلك يتكرر في أزمنة قليلة فتتأتى التجربة ، مثلا رداءة السفر وقد نزل القمر برج العقرب يستند الى هذا النزول بالتجربة فانا وجدنا تكرر ذلك وترتب الرداءة عليه كل مرة وهذا هو التجربة وكذا يقال في نظائره . وأنت تعلم أن التجارب التي دلت على كذب مايقولون بوقوع خلافه أضعاف التجارب التي دلت على صدقه ، فقد أجمع حذاقهم سنة سبع وثلاثين عام خروج علي كرم الله تعالى وجهه الى صفين على أنه يقتل ويقهر جيشه فانتصر على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص إلا بالحيلة ، وان لم يسلم هذا الاجماع فاجماعهم على مثله في خروجه كرم الله تعالى وجهه لحرب الخوارج حيث كان القمر في العقرب وقوله رضي الله تعالى عنه: نخرج ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه سبحانه وتكذيبا لقول المنجم ، ونصرته الخارجة عن القياس مما شاع وذاع ولو قيل بتواتره لم يبعد ، وأجمعوا سنة ست وستين على غلبة عبيدالله بن زياد وقد سار بنحو من ثمانين ألف مقاتل على المختار بن أبي عبيد فلقيه ابراهيم بن الأشتر صاحب المختار بارض نصيبين فيما دون سبعة آلاف مقاتل فقتل من عسكره نحوا من ثلاثة وسبعين ألفا وضربه وهو لايعرفه فقتله ولم يقتل من أصحابه أكثر من مائة *

وأجمعوا يوم أسست بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقضي بانه لايموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى قال بعض شعراء المنصور مهنئا له :

يهنيك منها بلدة تقضي لنا ... ان الممات بها عليك حرام

لما قضت أحكام طالع وقتها ... أن لايرى فيها يموت امام

فاول ماظهر كذب ذلك بقتل الأمين بشارع باب الانبار فقال بعض الشعراء :

كذب المنجم في مقالته التي ... كان ادعاها في بنا بغدان

قتل الأمين بها لعمري يقتضي ... تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات فيها جماعة من الخلفاء كالواثق . والمتوكل . والمعتضد . والناصر . وغيرهم إلى أمور أخر لاتكاد تحصى أجمعوا فيها على حكم وتبين كذبهم فيه ، على أنه قد يقال لهم : المؤثر في السعود والنحوس ونحوهما هل هو الكوكب وحده أو البرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله في البرج ؟ فان قالوا بأحد الامرين الاولين لزمهم دوام الاثر لدوام المؤثر ، وإن قالوا بالثالث لزمهم القول باختلاف البروج في الطبيعة والا لاتحدت آثار الكوكب فيها وكلهم مجموعون على أن الفلك بسيط لاتركيب فيه ، والتزام التركيب من طبائع مختلفة ينافي قولهم بامتناع الانحلال . وزعم بعضهم أنها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعي الغاء أمر الاتصال والانفصال والمقارنة والهبوط ونحو ذلك ، وكون ماذكر شرطا للاختيار لايخفى حاله ، والقول بأنها تستدعي من حيث طبيعة أشعتها التسخين والتبريد وهما يوجبان اختلاف أمزجة الابدان واختلافها يوجب اختلاف أفعال النفس يرد عليه أنا نرى التسخين مثلا يقتضي حرارة وحدة في المزاج يفعل بها شخص غاية الخير والافعال الحميدة وآخر غاية الشر والافعال الخبيثة فلابد لهذا الاختلاف من موجب غير التسخين ، وأيضا هم يقولون: جميع الحوادث الكونية مستند إلى الكواكب وحديث التسخين والتبريد واستلزامهما اختلاف أفعال النفس لايتم به

www.Quranpdf.blogspot.in

هذا الغرض ، وذكر الامام الرازى عليه الرحمة أن المثبتين لعلم الاحكام والتأثيرات أى من الاسلاميين احتجوا من كتاب الله تعالى بآيات وهى أنواع ، الأول الآيات الدالة على تعظيم الكواكب فمنها قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التى تصير راجعة تارة ومستقيمة أخرى ، ومنها قوله تعالى (فلا اقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وقد صرح سبحانه بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها ، ومنها قوله تعالى (والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق النجم الثاقب) قال ابن عباس: الثاقب هو زحل لأنه يثقب بنوره سمك السموات السبع، ومنها قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) فقد بين سبحانه إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره ، النوع الثانى ما يدل على وصفه تعالى بعض الأيام بالنحوسة كقوله سبحانه (فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات) النوع الثالث الآيات الدالة على أن لها تأثيرا فى هذا العالم كقوله تعالى (فالمدبرات أمرا) وقوله تعالى (فالمقسمات أمرا) قال بعضهم المراد هذه الكواكب *

الرابع الآيات الدالة على انه تعالى جعل حركات هذه الاجرام وخلقها على وجه ينتفع بها فى مصالح هذا العالم كقوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) *

النوع الخامس انه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تمسك بعلم النجوم فقال سبحانه (فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم) السادس أنه تعالى قال (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولا يكون المراد كبر الجثة لأن كل أحد يعلمه فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف ، وقال سبحانه (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) ولا يجوز أن يكون المراد انه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل فى تركيب البعوضة ودلالة حصول الحياة فى بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الاجرام الفلكية عليه لأن الحياة لا يقدر عليها غيره تعالى وجنس التركيب يقدر عليه الغير فلما خصها سبحانه وتعالى بهذا التشريف المستفاد من قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا) علمنا أن فى تخليقها أسراراً عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن ادراكها ، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) ولا يمكن أن يكون المراد انه تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز محدث وكل محدث مفتقر الى الفاعل فثبت ان دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن بسبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل الآية على هذا الوجه فوجب حملها على الوجه الذى ذكر *

النوع السابع روى أن عمر بن الخيام كان يقرأ كتاب المجسطى على أستاذه فدخل عليهم واحد من المتفقهة فقال: ما تقرءون ؟ فقال عمر : نحن فى تفسير آية من كتاب الله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) فنحن ننظر كيف خلق السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج *

الثامن أن إبراهيم عليه السلام لما استدل على اثبات الصانع تعالى بقوله (ربى الذى يحيى ويميت) قال له نمروذ :

www.Quranpdf.blogspot.in

أتدعي أنه يحيي ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أولا بواسطتها فان ادعيت الأول فذلك مما لا تجده البتة لأن كل ما يحدث فى هذا العالم فهو بواسطة العناصر والحركات الفلكية وان ادعيت الثانى فمثل هذا الاحياء والاماتة حاصل منى ومن كل أحد وهو المراد بقوله (أنا أحيي وأميت) ثم ان إبراهيم عليه السلام لم ينازع فى كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية بل أجاب بان الله تعالى هو المبدأ لتلك الحركات فيكون الفعل منه سبحانه حقيقة والواحد منا لا يقدر على تحريك الأفلاك على خلاف التحريك الإلهي وهذا هو المراد بقوله (فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وإذا عرفت نهج الكلام فى هذا الباب عرفت ان القرآن العظيم مملوء من تعظيم الأجرام الفلكية وتشريف الكرات الكوكبية، وأما الأخبار فكثيرة منها ما روى أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما عند قضاء الحاجة، ومنها أنه لما مات ولده صلى الله تعالى عليه وسلم إبراهيم انكسفت الشمس فقال: الناس إنما انكسفت لموت إبراهيم فقال عليه الصلاة والسلام: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة» ومنها ماروى ابن مسعود ان النبي ﷺ قال «إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر اصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فامسكوا» ومن الناس من يروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا تسافروا والقمر فى العقرب» ومنهم من يرويه عن على كرم الله تعالى وجهه وإن كان المحدثون لا يقبلونه، وأما الآثار فكثيرة أيضا فعن على كرم الله تعالى وجهه أن رجلا اتاه آخر الشهر فقال: أريد الخروج فى تجارة فقال: تريد أن يمحق الله تعالى تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج *

وعن عكرمة أن يهود يا منجما قال له ابن عباس: ويحك تخبر الناس بما لا تدرى فقال: إن لك ابنا فى المكتب يحم غدا ويموت فى اليوم العاشر فقال ابن عباس: ومتى تموت أنت؟ قال: على رأس السنة ثم قال له: ولا تموت أنت حتى تعمى فكان كل ذلك. وعن الشعبي قال: «قال أبو الدرداء لقد فارق رسول الله ﷺ وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه الا ونحن ندعى فيه علما» وليست الكواكب موكلة بالفساد والصلاح ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة، وجاء فى الآثار ان أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه فى الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم نظر فى النجوم فعرفه *

وعن ميمون بن مهران أنه قال: إياكم والتكذيب بالنجوم فانه من علم النبوة، وروى عن الشافعي أنه كان عالما بالنجوم، وجاء لبعض جيرانه ولد فحكم له بأن هذا الولد ينبغى أن يكون على عضوه الفلانى خال صفته كذا وكذا فوجد الأمر كما قال، وروى ابن اسحاق أن المنجمين أخبروا فرعون أنه سيجيء ولد من بنى إسرائيل يكون هلاكه على يده. وكذا كان كما قص الله تعالى (يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم) وأما المعقول فهو أن هذا العلم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولم يزالوا مشتغلين به معولين عليه فى معرفة المصالح، ولو كان فاسدا بالكلية لاستحال اطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم الى آخره عليه، والتجارب فى هذا الباب أكثر من أن تحصى اه كلامه *

ولعمرى لقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروج وبهرج وقعقع وفرقع ومن غير

www.Quranpdf.blogspot.in

طحن جعجع وجمع بين ما يعلم بالضرورة أنه كذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أصحابه وما يعلم بالضرورة انه خطأ فى تأويل كلام الله تعالى ومعرفة مراده سبحانه، ولا يروج ماذكره إلا على مفرط فى الجهل أو مقلد لأهل الباطل من المنجمين ﴿وان أردت الايضاح وأحببت الاتضاح﴾ فاسمع لما نقول: ماذكره من الاستدلالات أوهى من بيوت العناكب وأشبه شيء بنار الحباحب؛ فاما الاستدلال بقوله تعالى: (فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس) ففيه انا لانسلم ان هناك قسما بالنجوم فقد روى عن ابن مسعود أن المراد بالخنس بقر الوحش وهى رواية عن ابن عباس واختاره ابن جبير، وحكى الماوردى أنها الملائكة، وإذا سلم ذلك بناء على أنه الذى ذهب اليه الجهور فأى دلالة فيه على التأثير وقد أقسم سبحانه بالليل والنهار والضحى ومكة والوالد وما ولد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والارض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات والتين والزيتون وطور سينين إلى غير ذلك فلو كان الاقسام بشيء دليلا على تأثيره ازم أن يكون جميع ما أقسم به تعالى مؤثراً وهم لايقولون به وإن لم يكن دليلا فالاستدلال به باطل، ومثله فى ذلك الاستدلال بقوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقد فسر غير واحد مواقع النجوم بمنازل القرآن ونجومه التى نزلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مدة ثلاث وعشرين سنة، وكذا الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى: (والسماء والطارق)*

وأما قوله تعالى (فالمدبرات أمرا) فلم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير انه اقسام بالنجوم فهذا ابن عباس، وعطاء، وعبدالرحمن بن سابط. وابن قتيبة، وغيرهم قالوا: ان المراد بالمدبرات أمرا الملائكة حتى قال ابن عطية: لاأحفظ خلافا فى ذلك، وكذلك (المقسمات أمرا) فتفسيرهما بالنجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم وهو تفسير بالرأى والعياذ بالله تعالى؛ وأما وصفه تعالى بعض الايام بالنحوسة كما فى الآية التى ذكرها فليس ذلك لتأثير الكواكب ونحوستها بحسب ما يزعم المنجم بل لأن الله تعالى عذب أعداءه فيها فهى أيام مشائيم على الأعداء فوصف تلك الأيام بنحسات كوصف يوم القيامة بانه عسير على الكافرين*

وكذا يقال فى قوله تعالى (فى يوم نحس مستمر) وليس (مستمر) فيه صفة (يوم) بل هو صفة (نحس) أى نحس دائم لايقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها، والقول بانه صفة (يوم) وان المراد به يوم أربعاء آخر الشهر وانه نحس أبداً غلط ولا يكاد المنجم يزعم نحوسة يوم أربعاء آخر الشهر ولو شهر صفر أبداً بل كثيراً مايحكم بغاية سعده حسبما تقتضيه الأوضاع الفلكية فيه بزعمه*

وأما استدلاله بالآيات الدالة على أنه سبحانه وضع حركات هذه الاجرام على وجه ينتفع بها فى مصالح هذا العالم فمن الطرائف إذ الاليق لوصح زعم المنجم أن يذكر فى الآية ماتقتضيه النجوم من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من الاعمار والارزاق والعلوم والمعارف وسائر مافى العالم من الخير والشر فان العبرة بذلك اعظم من العبرة بمجرد الضياء والنور ومعرفة عدد السنين والحساب، وأما ماذكره عن ابراهيم عليه السلام من أنه تمسك بعلم النجوم حين قال (إنى سقيم) فسقيم جدا وقد سمعت ماقيل فى الآية، ولاينبغى أن يظن بامام الحنفاء وشيخ الانبياء وخليل رب الارض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث ولو فتح هذا الباب على الانبياء عليهم السلام لاحتمل أن يكون جميع أخبارهم عن المستقبلات من

www.Quranpdf.blogspot.in

أوضاع النجوم لا من الوحي وهو كما ترى، وأما الاستدلال بقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وإن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد فإن المراد من الخلق ههنا الفعل لا المفعول، والآية للدلالة على المعاد أي ان الذي خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلقكم كيف يعجزه أن يعيدكم بعد الموت، ونظيرها قوله تعالى (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وأين هذا من بحث أحكام النجوم وتأثيراتها، ومثل هذا الاستدلال بقوله تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا) فان خلق السموات والأرض من أعظم الادلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وحكمته وعلمه وانفراده بالربوبية ومن سوى بينهما وبين البقة فقد كابر، ولذا ترى الاشياء الضعيفة كالبعوضة والذباب والعنكبوت إنما تذكر في سياق ضرب الامثال مبالغة في الاحتقار والضعف ولا تذكر في سياق الاستدلال على عظمة ذي الجلال جل شأنه، على أن الآية لو دلت على أن للكواكب تأثيرا لدلت على أن للارض تاثيرا أيضا كالكواكب وهم لم يقولوا به، وماذكره بعد من أن دلالة حصول الحياة في أبدان الحيوانات أقوى من دلالة السموات والأرض إلى آخر ماقال في حيز المنع، ونظير ذلك الاستدلال بقوله تعالى (وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا) فانه لا يدل أيضا على أن للكواكب تأثيرا، وغاية ماتدل عليه هذه الآية ونظائرها أن تلك المخلوقات فيها حكم ومصالح وليست باطلة أي خالية عن ذلك، ونحن نقول بما تدل عليه ولكن لانقول بأن تلك الحكم هي الاسعاد والاشقاء وهبة الاعمار والارزاق إلى غير ذلك مما يزعمه المنجمون بل هي الآثار الظاهرة في عالم الطبيعة على ماسمعت ونحوها كالدلالة على وجود الصانع وكثير من صفاته جل شأنه التي ينكرها الكفرة ولا مانع من أن يقال خلق الله تعالى كذا لتظهر دلالته على كذا، ولا تتعين العبارة التي ذكرها على أنه لا باس بها عند تدقيق النظر، ولعل ماقاله من فروع كون الماهيات غير مجعولة والكلام فيه شهير، وأما ماذكره عن عمر بن الخيام فهو على طرف الثمام، وأما ماذكره في محاجة ابراهيم عليه السلام وتقرير المناظرة على ماقرره فلم يقل به أحد من المفسرين سلفهم وخلفهم بل قد يقطع بانه لم يخطر بقلب المشرك المناظر وماهو الا تفسير بالرأي والتشهي نعوذ بالله تعالى من ذلك، وأما استدلاله بما روي من نهيه عليه الصلاة والسلام عن استقبال الشمس والقمر عند قضاء الحاجة فبعيد عن حاجته بل لادلالة للنهي المذكور على تاثير الكواكب الذي يزعمونه والا لدل النهي عن استقبال الكعبة عند قضاء الحاجة على أن لها تاثيراً، على أن بعض الاجلة (١) قد ذكر أن ذلك النهي لم ينقل فيه عن رسول الله ﷺ كلمة واحدة لاباسناد صحيح ولا ضعيف ولا متصل ولا مرسل وإنما قال بعض الفقهاء في آداب التخلي ولا يستقبل الشمس والقمر فقيل لأن ذلك أبلغ في التستر، وقيل: لأن نورهما من نوره تعالى، وقيل: لأن اسم الله تعالى مكتوب عليهما *

وأما ماذكر من حديث كسوف الشمس يوم موت إبراهيم وقوله عليه الصلاة والسلام ماقال فصحيح لكن لا يدل على مايزعمه المنجمون، وصدر الحديث يدل على ان الشمس والقمر آيتان وليسا بربين ولا إلهين ففيه إشارة إلى نفي التصرف عنهما، وفي قوله عليه الصلاة والسلام لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان، أحدهما أن موت أحد وحياته لايكونان سبباً لانكسافهما، وثانيهما أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة وإنما

(١) هو ابن القيم اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك تخويف من الله تعالى لعباده أجرى العادة بحصوله فى أوقات معلومة بالحساب لطلوع الهلال وإبداره وسراره، فاما سبب كسوف الشمس فتوسط القمر بين جرم الشمس وأبصارنا كسحابة تمر تحتهافان لم يكن للقمر عرض ستر عنا كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر مايوجبه عرضه، وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس حتى يصير ممنوعا من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض المخروط فى ممره فقد يقع كله فى المخروط وقد يقع بعضه فيه ويبقى بعضه الآخرخارجا الى آخر ما قرر فى موضعه وليس فى الشرع ماياباه والوقوف على وقت الكسوف والخسوف ومقدارهما أمر سهل ولا يلزم من صدق المنجم فى ذلك صدقه فيما يزعم من التأثيرات وما الأخبار بهما إلا كالأخبار بوقت طلوع الشمس فى يوم كذا فى ساعة كذا وكالأخبار بوقت الهلال والابدار والسرار، ثم انا لاننكر ان الله تعالى يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره مايكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سبباً لذلك ولهذا أمر صلى الله تعالى عليه وسلم عند الكسوف بالفزع الى ذكر الله تعالى والصلاة والعتاقة والصدقة لان هذه الأشياء تكون سببا لدفع موجب الكسف الذى جعله الله تعالى سبباً لما جعله فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبه بهذه العبادات، ولله تعالى فى أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضى من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قامت به أو يقلله أو يخففه فمن فزع الى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذى جعل الله تعالى الكسوف سببا له أو بعضه، ولهذا قل مايسلم أطراف الارض حيث يخفى الايمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف ويسلم منه الأماكن التى يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل أو يقل فيها جداً.

وقد جاء أنه ﷺ لما كسفت الشمس فى عهده قام فزعا مسرعا يجر رداءه ونادى فى الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك فى الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة وما ذلك الا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله تعالى وبامره وشانه وتصريفه أمور مخلوقاته وتدبيره وأنصحهم للامة وأشفقهم على العباد ولم يبين لهم عليه الصلاة والسلام أسباب الكسوفين وحسابهما لأن الجهل بذلك لا يضر والعلم به لا ينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وقد يقال: الأمر بالصلاة عندهما كالأمر بالصلاة عند طلوع الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك رفع موجبهما الذى جعلهما الله تعالى سبباً له، ومن الناس من أنكر أن يكون الكسوفان سببين لشىء من البلاء اصلا وأن سبب حصولها ليس ما أطال الكلام فيه المنجمون ومر بعضه بل السبب هو تجلى الله تعالى عليهما لما أخرجه ابن ماجه فى سننه، والامام أحمد. والنسائى من حديث النعمان بن بشير قال: «انكسفت الشمس على عهد النبي ﷺ فخرج فزعا يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصلى حتى انجلت ثم قال: إن ناسا يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان الالموت عظيم من العظماء وليس كذلك إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا تجلى الله تعالى لشىء من خلقه خشع له وان الأمر بالصلاة لظهور آثار تجلى الجلال فى هذين الجرمين العظيمين أوهو كالأمر بالصلاة عند غروب الشمس وطلوع الفجر مثلا وحكمته كحكمته والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة فى أشياء لا ينبغى المكابرة فيها ولعلها تضر بالدين وتصير سبباً لطعن الملحدين

www.Quranpdf.blogspot.in

فيكابرون فى كون الأفلاك مستديرة والأرض كرية وأن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وأن الكسوف القمرى عبارة عن انمحاء نور القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أن نوره مقتبس منها وأن الكسوف الشمسى عبارة عن وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة وقولهم بتاثير الأسباب المحسوسة فى مسبباتها واثبات القوى والطبائع والأفعال والانفعالات الى غير ذلك مما تقوم عليه الأدلة اليقينية ولا تعارضه النصوص الشرعية القطعية ، وما ذكروه من الحديث تعقبه حجة الاسلام الغزالى فقال : إن زيادة فان الله الخ لم يصح نقلها فيجب تكذيب قائلها ولو صحت لكان تأويلها أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التى لم تبلغ فى الوضوح الى هذا الحد وأعظم مايفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بان هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه ابطال الشرع ان كان شرطه أمثال ذلك اه وليس الأمر فى هذه كما قال من عدم الصحة فان اسنادها لامطعن فيه ، فابن ماجه يروى الحديث بهذه الزيادة عن محمد بن المثنى . وأحمد بن ثابت . وحميد بن الحسن وهم يروونه عن عبد الوهاب عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن النعمان بن بشير وكل هؤلاء ثقات حفاظ، نعم الحديث الخالى عنها رواه بضعة عشر صحابيا منهم على كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وعائشة . وأسماء أختها . وأبى بن كعب . وجابر ابن عبد الله . وسمرة بن جندب . وقبيصة الهلالى . وعبد الله بن عمرو ، ومن هنا خاف بعض الأجلة أن تكون مدرجة فى الحديث لكنه خلاف الظاهر وحينئذ يقال : إن كسوف الشمس والقمر يوجب لهما ضعف سلطانهما وبهائهما وذلك يوجب لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله سبحانه مايكون سبباً لتجليه عز وجل لهما ، ولا يستنكر أن يكون تجلى الله سبحانه لهما فى وقت معين كما يدنو سبحانه من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا عند مضى نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلى خشوعا آخر ليس هو الكسوف فانه إنما حدث بالسبب الذى عرفت ولم يقل النبى ﷺ ان الله تعالى إذا تجلى لهما انكسفا بل قال فاذا تجلى الله لشىء من خلقه خشع له . وفى رواية الامام أحمد «إذا بدا الله لشىء من خلقه خشع له» فههنا خشوعان خشوع أوجبه كسوفهما الحادث من وضعهما الخاص وخشوع أوجبه تجليه تعالى لهما لذلك الخشوع الذى أوجبه الكسوف . وهذا توجيه لطيف المنزع يقبله العقل المستقيم والفطرة السليمة ان شاء الله تعالى . وأما استدلاله بحديث ابن مسعود ففيه على ماقيل أن الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لا له إذ لو كان علم النجوم حقا لم يأمر ﷺ بالامساك عند ذكر النجوم فالظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يامر بذلك إلا لأن الخوض فى ذلك خوض فيما لاعلم للخائض به فتامل *

وأما حديث النهى عن السفر والقمر فى العقرب فصحيح من كلام المنجمين دون رسول رب العالمين ﷺ ، وروايته عن على كرم الله تعالى وجهه كذب أيضا والمشهور عنه خلاف ذلك كما سمعت فى قصة خروجه لقتال الخوارج ، وأما مااحتج به من الاثر عن على كرم تعالى وجهه أن رجلا أتاه الخ فلا يعلم ثبوته عنه رضى الله تعالى عنه ، والكذابون كثيرا ماينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها اليه أو إلى أهل بيته ، ثم لو صح عنه فليس فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه ، وقد جاء عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » ونسبة أول الشهر اليه كنسبة أول النهار اليه ، وكان صخر راوى الحديث إذا بعث تجارة له بعثها فى

www.Quranpdf.blogspot.in

أول النهار فأثرى وكثر ماله ولا يبعد أن يكون أول السنة كأول النهار أيضا فللاوائل مزية القوة كما هو مشاهد في الشباب والشيخوخة ، ولله تعالى تجليات في الازمنة والامكنة والاشخاص وليس ذلك من تأثير الكواكب في شيء ، ومثل هذا يقال فيما ذكره الكرماني وقد مر ، وأما ماذكره عن اليهودي الذي أخبر ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلا نسلم صحته ، وإن سلم ذلك فهو من جنس إخبار الكهان بشيء من المغيبات ، وقد أخبر ابن الصياد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما اخبر فقال عليه الصلاة والسلام له « إنما أنت من اخوان الكهان » وعلم مقدمة المعرفة لا يختص بماذكر المنجمون بل له عدة أسباب يصدق الحكم معها ويكذب منها الكهانة ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر وضرب الحصى والخط والكتف والكشف المستند إلى الرياضة وهو كشف جزئي عن بعض الحوادث ويشترك فيه المؤمن والكافر ومنها غير ذلك ، وللعمال في البحر والسعاة ونحوهم في البر علامات يعرفون بها أوقات المطر والصحو والبرد والريح وغيرها وقلما يخطئون في اخبارهم بل صوابهم في ذلك أكثر من صواب المنجم *

وأما ماذكره من حديث أبي الدرداء فالمحفوظ فيه « توفي رسول صلى الله تعالى عليه وسلم وتركنا وماطائر يقلب جناحيه الاوقد ذكر لنا منه علما » وفيه روايات أخر صحيحة أيضا وكلها ليس فيها وليست الكواكب الخ فهو من أعظم الادلة على بطلان دعوى المنجمين إذ لم يذكر عليه الصلاة والسلام من أحكام النجوم شيئاً البتة وقد علمهم علم كل شيء حتى الخرأة ، وأما قوله إنه جاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام الخ فكذب وافتراء على آدم عليه السلام ، وقد عمل هذا الكاذب المفتري بالمثل السائر إذا كذبت فأبعد شاهدك ، ونحوه ماروى عن ميمون بن مهران ، وأما مانسب إلى الشافعي فهو بعض من حكاية ذكرها أبو عبد الله الحاكم فيما ألفه في مناقبه والحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم ثلاث . احداها قال الحاكم: قريء على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي وأكثر ظني أني حضرته ثنا أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن العباس الازدي في آخرين قالوا ثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال الدينوري ثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة ابن زيد قال: كنت صديقا لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوما على هرون الرشيد فسأله ثم إني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول: إن محمد بن ادريس يزعم أنه للخلافة أهل قال فاستشاط هرون من قوله غضبا ثم قال: علي به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه اليه فقال: أيها قال الشافعي: ما ايها ياأمير المؤمنين أنت الداعي وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها إلى أن قال: كيف علمك بالنجوم؟ قال: أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري وماكانت العرب تسميه الانواء ومنازل النيرين والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيآتها وطبائعها ومااستدل به في بري وبحري وأستدل في أوقات صلاتي وأعرف ما مضى من الأوقات في إمسائي واصباحي وظعني في أسفاري ثم ساق العلوم على هذا النحو ، ومن له علم بالمنقولات يعلم ان هذه الحكاية كذب مختلق وافك مفترى على الشافعي والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي فانه كذاب وضاع وهو الذي وضع رحلة الشافعي وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قط وإنما دخل بغداد بعد موته ويشهد بكذبها أنها تدل على ان محمدا وشى بالشافعي إلى الرشيد وأراد قتله ومحمد أجل من أن ينسب إليه ذلك

www.Quranpdf.blogspot.in

وتعظيمه للشافعى ومحبته إياه هو المعروف كتعظيم الشافعى له وثنائه عليه ، وفيها شواهد أخر على الكذب يعرفها العالم بالمنقول إذا اطلع عليها كلها، وثانيتها وهى التى أخذت منها ماذكرها الامام ، قال الحاكم : أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة ; قال : كان الشافعى يديم النظر فى كتب النجوم وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما ويكون فى فخذ الولد الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت فكان الأمر كما قال فاحرق بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر فى شىء منها، وهذا الاسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث الحسن عن حرملة، ويدل على كذب الحكاية أنها لو صحت لوجب أن تثنى الخناصر على هذا العلم وتشد به الأيدى لا أن تحرق كتبه ولا يعاود النظر فى شىء منها، وان الطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلى الذى يزعمون دلالته على وقت الولادة والحكاية لم تتضمن أن الشافعى نظر فيه ولو كان لتضمنته وطالع الولادة وإخبار الشافعى قبلها ضرورة أنه قال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما، وثالثتها قال الحاكم: أنبأنى عبدالرحمن بن الحسن القاضى أن زكريا بن يحيى الساجى حدثهم قال أخبرنى أحمد بن محمد بن بنت الشافعى قال سمعت أبى يقول : كان الشافعى وهو حدث ينظر فى النجوم وما نظر فى شىء إلا فاق فيه فجلس يوما وامرأة تلد فحسب فقال: تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً ، وأمر هذه الحكاية كالتى قبلها فان ابن بنت الشافعى لم يلق الشافعى ولا رآه والشأن فيمن حدث بها عنه، وأيضاً طالع مسقط النطفة لم يؤخذ والخبر قبل تحقق طالع الولادة ، ثم ان تحقق هذه الحكاية إن كان قبل تحقق الحكاية التى قبلها لم تكد تحقق وإن كان تحقق تلك قبل لم تكد هذه تحقق كما لا يخفى على المنصف، والذى صح عن الشافعى فى أمر النجوم أنه كان يعرف ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم فى الطرقات وأما غير ذلك من الأحكام التى يزعمها المنجمون فلا، وكان رضى الله تعالى عنه شديد الانكار على المتكلمين مزريا بهم حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل فما تراه يرى فى المنجمين الذين شاع هذيانهم وقبح عند ذوى العقول السليمة شأنهم ، نعم كانت له رضى الله تعالى عنه اليد الطولى فى علم الفراسة وقد خرج إلى اليمن لجمع كتبه فجمع منها ماجمع وله فيها حكايات يقضى منها العجب، ولعل إخباره بأمر المولود لو صح من ذلك العلم والناقل لجهله أو لأمر آخر أسنده للنظر فى أحكام النجوم وقال ماقال. وأما ماذكر عن ابن اسحق من أن فرعون كان يقتل أبناء بنى إسرائيل لأخبار المنجمين إياه بأنه سيولد لهم مولود يكون هلاكه على يده فهو كما قال بعض الأجلة من أخبار أهل الكتاب ومخالف لروايات أكثر المفسرين فانهم أحالوا ذلك على اخبار الكهان . وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بنى إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه وفى أخبار الكهان ماهو أعجب من ذلك. ومنها خبرهم بظهور خاتم الرسل ﷺ وانتشار أمره، ونحن لاننكر علم تقدمة المعرفة بأسباب مفضية إلى مثل ذلك يختلف قوى الناس فى إدراكها وتحصيلها وإنما كلامنا مع المنجمين فى أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التى يسندونها اليها ، وأما ماذكره فى الاستدلال بالمعقول من أنه ماخلت عن هذا العلم ملة من الملل ولا أمة من الأمم وأنهم لم يزالوا مشتغلين

www.Quranpdf.blogspot.in

به معولين فى معرفة المصالح عليه إلى آخر ماقال ففرية من غير مرية، ويا عجبا من دعواه إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وهم يقولون إنما أسست أصوله وأوضاعه فى زمن هرمس الهرامسة يعنون به إدريس عليه السلام وهو بعد بناء العالم بكثير، وأيضا قد رده كثير من الفلاسفة وجمع غفير من أساطين الاسلام حتى أنه قد ألف مايزيده على مائة مصنف فى رده وابطاله. وقد قال أبو نصر الفارابى: اعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار باردا والبارد حاراً والسعد نحسا والنحس سعداً والذكر أنثى والأنثى ذكرا ثم حكمت لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطىء تارات، وقد زيف أمرهم ابن سينا فى كتابيه الشفاء والنجاة، وكذا أبو البركات البغدادى فى كتاب التعبير له، هذا ما اختاره بعض المحققين فى الرد على المنجمين وأعود فأقول: الذى أراه فى هذا المقام و يترجح عندى من كلام العلماء الأعلام أن الله عز وجل لم يخلق شيئا باطلا خاليا عن حكمة ومنفعة بل خلق الأشياء علويها وسفليها جليلها ودنيها مشتملة على حكم لاتحصى ومنافع لاتستقصى وإن تفاوتت فى أفرادها قلة وكثرة وخص كلا منها بخاصة لاتوجد فى غيرها مع اشتراك الكل فى الدلالة على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته:

وفى كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فالاجرام العلوية مشتركة فى هذه الدلالة مختص كل منها بخاصة وشأن الكواكب فى خواصها وتأثيراتها كشأن النباتات والمعدنيات والحيوانيات فى خواصها وتأثيراتها، فمنها ماخاصته فى نفسه غير متوقفة على ضم شئ آخر اليه، ومنها ماخاصته متوقفة على ضم شىء آخر، ومنها ما اذا ضم اليه شىء أسقط خاصته، وأبطل منفعته ومنها مايعقل وجه تاثيره ومنها مالا يعقل، ومنها مايؤثر فى مكان دون مكان وزمان دون زمان، ومنها مايؤثر فى جميع الأزمنة والأمكنة الى غير ذلك من الأحوال، وكونها زينة للسماء لايستدعى نفى أن يكون فيها منفعة أخرى على حد ما فى الأرض فقد قال سبحانه: (إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها) مع اشتمال الأزهار وغيرها على ماتعلم ومالا تعلم من المنافع، وكذلك كونها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وكونها رجوماً للشياطين. ولا أقول ببساطة الأفلاك ولا ببساطة الكواكب ولا بانحصارها فيما يشاهد ببصر أو رصد ولا بذكورة بعض وأنوثة آخر إلى كثير مما يزعمه المنجمون، وأقول: ان الله تعالى أودع فى بعضها تاثيراً حسبما أودع فى أزهار الارض ونحوها وانها لاتؤثر إلا باذنه عز وجل كما هو مذهب السلف فى سائر الأسباب العادية وان شئت فقل كما قال الأشاعرة فيها، وأنه لايبعد أن يكون بعضها علامات لاحداثه تعالى أموراً لابواسطتها فى أحد العالمين العلوى والسفلى يعرفها من يوقفه الله تعالى عليها من ملائكته وخواص عباده، وارتباط كثير من السفليات بالعلويات مما قال به الأكابر ولاينكره إلا مكابر، ولا أنسب أثراً من الآثار إلى كوكب بخصوصه على القطع لاحتمال شركة كوكب أو أمر آخر، نعم الظاهر يقتضى كثرة مدخلية بعض الكواكب فى بعض الآثار كالقمر فى مد البحار وجزرها فان منها مايأخذ فى الازدياد حين يفارق القمر الشمس إلى وقت الامتلاء ثم انه ياخذ فى الانتقاص ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر إلى المحاق ومنها مايحصل فيه المد فى كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه كبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين، وكيفيته انه اذا بلغ

www.Quranpdf.blogspot.in

القمر مشرقا من مشارق البحر ابتدأ البحر بالمد ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر فى وسط سماء ذلك الموضع فاذا زال عن مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد من تحت الأرض ولا يزال زائداً إلى أن يصل القمر إلى وتد الارض فحينئذ ينتهى المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانيا ويرجع الماء كما كان، ومثل المد والجزر بحرانات الامراض فانها بحسب زيادة القمر ونقصانه على معنى كثرة مدخلية ذلك ظاهرا فيها إلى أمور كثيرة، ولا أقول: ان لكوكب تأثيرا فى السعادة والشقاوة ونحوهما، ولا يبعد أن يكون كوكب أو كواكب باعتبار بعض الأحوال علامة لنحو ذلك يعرفها بعض الخواص، ولا وثوق بما قاله الأحكاميون وكل مايقولونه ظن وتخمين لادليل لهم عليه وهم فيما أسسوا عليه أحكامهم متناقضون وفى المذاهب مختلفون فللبابليين مذهب وللفرس مذهب ولأهل الهند مذهب ولأهل الصين مذهب وقد رد بعضهم على بعض وشهد بعض على بعض بفساد أصولهم ومبنى أحكامهم فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالارس قد حكموا حكما فى الكواكب واتفقوا على صحته وأقام الناس على تقليدهم وبناء الأمر على ما قالوه أكثر من سبعمائة سنة فجاء من بعدهم خالد بن عبدالملك المروزى. وحسن صاحب الزيج المامونى. ومحمد بن الجهم. ويحيى بن أبى منصور فامتحنوا ماقالوا فوجدوهم غالطين وأجمعوا على غلطهم وسموا رصدهم الرصد الممتحن * ثم حدثت بعدهم بنحو ستين سنة طائفة أخرى زعيمهم أبو معشر محمد بن جعفر فرد عليهم وبين خطاهم كما ذكره أبو سعيد شاذان المنجم فى كتاب أسرار النجوم له وفيه قلت لأبى معشر الذنب بارد يابس فلم قلتم إنه يدل على التانيث؟ فقال: هكذا قالوا قلت: فقد قالوا انه ليس بصادق اليبس لكنه بارد عفن ملتوى كل الأعراض الغائبة توهم لايكون شىء منها يقينياً وإنما يكون توهم اقوى من توهم *

ومن تأمل أحوال القوم علم أن مامعهم تفرس يصيبون معه ويخطئون، ثم حدثت بعدهم طائفة أخرى بنحو سبعين سنة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر المعروف بالصوفى فرد على من قبله وغلطه وألف كتابا بين فيه من الأغلاط مابين وحمله إلى عضد الدولة ابن بويه فاستحسنه وأجزل ثوابه، ثم جاءت بعد نحو ثلاثين سنة طائفة أخرى منهم كوشيار الديلمى فالف المجمل فى الاحكام وجهل فيه من يحتج للأحكام من الأحكاميين، وقال عن صناعة التنجيم: هى صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون فيها مجال إلى أن قال: ومن المنفردين بعلم الأحكام من ياتى على جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان وطبيعته، ثم حدثت طائفة أخرى منهم منجم الحاكم بالديار المصرية المعروف بالمكرى فوضع هو وأصحابه رصداً آخر سموه الرصد الحاكمى فخالفوا فيه أصحاب الرصد الممتحن وبنوا أمر الأحكام عليه *

ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الريحان البيروتى مؤلف كتاب التفهيم إلى صناعة التنجيم وكان بعد كوشيار بنحو أربعين سنة فخالف من تقدمه وأتى من مناقضاتهم والرد عليهم بما هو دال على فساد صناعتهم وختم كتابه بقوله فى الخبء والضمير ما أكثر افتضاح المنجمين فيه وما أكثر اصابة الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقت السؤال ويرونه بادياً من الآثار والأفعال على السائل إلى آخر ماقال، ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى وكان بعد البيروتى بنحو ثمانين عاما وكان رأساً فى الصناعة ومع هذا اعترف بان قول المنجمين هذيان، ثم حدثت طائفة أخرى بالمغرب منهم أبو اسحق الزرقال

www.Quranpdf.blogspot.in

وأصحابه وكان بعد أبي الصلت بنحو مائة سنة فخالف الأوائل والأواخر فى الصناعتين الرصدية والاحكامية ه

وآخر ما نعلم حدوثه زيج لالنت والقسيني وفيه من المخالفة لما قبله من الازياج ما فيه . وقد ذكر فيه تقويم هرشل ومقدار حركته وهو كوكب سيار ظفر به هرشل أحد فلاسفة الافرنج وسماه باسمه ولم يظفر به أحد قبله ، وهذا الزيج أضبط الأزياج فيما يزعم المنجمون اليوم، والافرنج على مهارة كثير منهم بعلم الرصد لا يقولون بشيء مما يقول به الأحكاميون الأوائل والأواخر ويسخرون منهم ، وقد ذكر من يوثق به وجوها تدل على فساد ما بايديهم من العلم وأنه لا يوثق به، الأول ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية مما لا تتأتى، اما أولا فلأنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب إلا بواسطة القوى الباصرة وإذا كان المرئي صغيراً أو فى غاية البعد يتعذر رؤيته فان اصغر الكواكب التى فى فلك الثوابت وهو الذى به قوة البصر مثل كرة الارض بضعة عشر مرة وكرة الارض أعظم من كرة عطارد كذا مرة فلو قدرنا أنه حصل فى الفلك الأعظم كواكب كثيرة كل منها كعطارد حجما فكيف ترى ، ونفي هذا الاحتمال لا بد له من دليل ومع قيامه لا يحصل الجزم بمعرفة جميع المؤثرات ، وان قالوا: جاز ذلك إلا ان آثار هذا الكوكب لصغره ضعيفة فلا تصل إلى هذا العالم، قلنا: صغر الجرم لا يوجب ضعف الأثر فقد أثبتم لعطارد آثاراً قوية مع صغره بالنسبة الى سائر السيارات بل أثبتم للرأس والذنب وسهم السعادة وسهم الغيب آثاراً قوية وهى أمور وهمية ، وأما ثانيا فالمرصود من الكواكب المرئية أقل قليل بالنسبة الى غير المرصود فمن أين لهم الوقوف على طبيعة غير المرصود؟ وأما ثالثا فلأنه لم يحصل الوقوف على طبائع جميع المرصود أيضا وقلما تكلموا فى معرفة غير الثوابت التى من القدر الأول والثانى ، وأما رابعا فآلات الرصد لا تفي بضبط الثوانى والثوالث فما فوق ولا شك ان الثانية الواحدة مثل الارض كذا ألف مرة أو أقل أو أكثر ، ومع هذا التفاوت العظيم كيف الوصول إلى الغرض وقد قيل ان الانسان الشديد الجرى بين رفعه رجله ووضعه الأخرى يتحرك جرم الفلك الأقصى ثلاثة آلاف ميل فاذا كان كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات ؟ وأما خامسا فبتقدير انهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها فهل وقفوا على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض والامتزاجات الحاصلة من طبائع الف كوكب أو أكثر بحسب الأجزاء الفلكية تبلغ فى الكثرة إلى حيث لا يقدر العقل على ضبطها. وأما سادسا فيقال: هب أنا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة فى ذلك الوقت فلا ريب انه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التى كانت حاصلة قبله مع أنا نعلم قطعاً ان الاشكال السالفة ربما كانت عائقة ومانعة عن مقتضيات الاشكال الحاصلة فى الحال، ولا ريب إنا نشاهد أشخاصا كثيرة من النبات والحيوان والانسان تحدث مقارنة لطالع واحد مع ان كل واحد منها مخالف للآخر فى أكثر الامور ، وذلك ان الاحوال السابقة فى حق كل واحد تكون مخالفة للاحوال السابقة فى حق الآخر وذلك يدل على أنه لا اعتماد على مقتضى طالع الوقت بل لا بد من الاحاطة بالطوالع السالفة وذلك مما لا وقوف عليه فانه ربما كانت تلك الطوالع دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر، وعلى هذا الوجه عول ابن سينا فى كتابيه الشفاء والنجاة فى إبطال هذا العلم، الثانى ان تاثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الاول أثر بوقوعه على الدرجة وان لم تضبط الدقيقة، وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة ، ولا ريب بجهالة مقادير جميع الكواكب فكيف تضبط الآثار، الثالث فساد أصولهم وتناقض آرائهم

www.Quranpdf.blogspot.in

واختلافهم اختلافا عظيما من غير دليل ومتى تعارضت الأقوال وتعذر الترجيح فيما بينها لا يعول على شيء منها*

الرابع أن أرصادهم لاتنفك عن نوع خلل وهى مبنى أحكامهم، وقد صنف أبو على بن الهيثم رسالة بليغة فى أقسام الخلل الواقع فى آلات الرصد وبين ان ذلك ليس فى وسع الانسان دفعه وإزالته وإصابتهم فى أوقات الخسوف والكسوف مع ذلك الخلل لا تستدعى إصابتهم فى غيرها معه، الخامس أنا نشاهد عالما كثيراً يقتلون فى ساعة واحدة فى حرب وخلقا كثيراً يغرقون فى ساعة واحدة مع اختلاف طوالعهم واقتضائها أحوالا مختلفة عندكم وهذا يدل على عدم اعتبار مااعتبرتموه أولا، فان قلتم: ان الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض فلعل طالع الوقت أقوى من طالع الاصل فكان الحكم، قلنا: هذا بعينه يبطل عليكم اعتبار طالع المولود فان الطوالع بعده مختلفة كثيرة ولعل بعضها أقوى منه فلا يفيد اعتباره شيئا، السادس ان العقل لامساغ له فى اقتضاء كوكب معين أو وضع معين تأثيرا خاصا والتجربة على قصورها معارضة بتجربة اقتضت خلافها الى غير ذلك من الوجوه، وأبو البركات البغدادى وإن زيف ماهم عليه إلا أنه يقر بقبول بعض الاحكام فانه قال بعد ذكر شيء من أقوالهم التى لا دليل لهم عليها: وهذه أقوال قالها قائل فقبلها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واغتر بها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجيد ورديء وسلب وايجاب وسعد ونحوس فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فاغتر به المغترون ولم يلتفتوا إلى كذب فيه بل عذروه وقالوا: هو منجم ما هو نبي حتى يصدق فى كل مايقول واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به ولو أحاط به لصدق فى كل شيء، ولعمر الله تعالى أنه لو أحاط به علما صادقا لصدق والشان أن يحيط به على الحقيقة لا على أن يفرض فرضاً ويتوهم وهما فينقله إلى الوجود ويثبته فى الموجود وينسب اليه ويقيس عليه، والذى يصح منه ويلتفت اليه العقلاء هى أشيا. غير هذه الخرافات التى لا أصل لها مما حصل بتوقيف أو تجربة حقيقية كالقرانات والانتقالات والمقابلة ومر كوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة وما يعرض للمتحيرة من رجوع واستقامة ورجوع فى شمال وانخفاض فى جنوب وغير ذلك، وكأنى أريد أن أختصر الكلام ههنا وأوافق إشارتك وأعمل بحساب اختيارك رسالة فى ذلك أذكر ما قيل فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أو وهمية أو غلطية وفروع نتائج أنتجت عن تلك الأصول وأذكر الجائز من ذلك والممتنع والقريب والبعيد فلا أرد علم الاحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا أقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد وموضع الترقيف والتجويز والذى من المنجم والذى من التنجيم والذى منهما وأوضح لك أنه لو أمكن الانسان أن يحيط بشكل كل مافى الفلك علما لأحاط بكل ما يحويه الفلك لأن منه مبادى الأسباب لكنه لا يمكن ويبعد عن الامكان بعداً عظيما والبعض الممكن منه لا يهدى إلى بعض الحكم لأن البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم فى حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلوم إلى المجهول من الأسباب وكفى بذلك بعدا انتهى، وفيه من التأييد لبعض ما تقدم من الأوجه ما فيه *

وأنا أقول: إن الاحاطة بالأسرار المودعة فى الأجرام لا يبعد أن تحصل لبعض الخواص ذوى النفوس القدسية لكن بطريق الكشف أو نحوه دون الاستدلال الفكرى والأعمال الرصدية مثلا وهو الذى

www.Quranpdf.blogspot.in

يقتضيه كلام الشيخ الأكبر قدس سره قال فى الباب الثالث والسبعين من الفتوحات : ومن الاولياء النقباء وهم اثنا عشر نقيبا فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الاثنى عشر كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى فى مقامه من الاسرار والتأثيرات وما يعطى للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت ثم قال : ومنهم النجباء وهم ثمانية فى كل زمان إلى أن قال : ولهم القدم الراسخة فى علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشان ، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع والنجباء حازوا علم الثمانية الافلاك التى دونه وهى كل فلك فيه كوكب ، ويفهم من هذا القول بالتأثيرات وأنها مفاضة من البرج على النازل فيه من الكواكب .

وقد تكررت الاشارة منه إلى ذلك ففى الفصل الثالث من الباب الحادى والسبعين والثلثمائة من الفتوحات أن الله تعالى خلق فى جوف الكرسى جسما شفافا مستديرا يعنى الفلك الاطلس قسمه اثنى عشر قسما هى البروج وأسكن كل برج منها ملكا إلى أن قال: وجعل لكل نائب من هؤلاء الاملاك الاثنى عشر فى كل برج ملكه اياه ثلاثين خزانة تحتوى كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبته وهى الخزائن التى قال الله تعالى فيها (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك والنازلون بها هم الجوارى والمنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الإلهية هى ما يظهر فى عالم الاركان من التأثيرات بل ما يظهر فى مقعر فلك الثوابت إلى الأرض ، وجعل لهؤلاء الاثنى عشر نظرا فى الجنان وأهلها وما فيها مخلصا من غير حجاب فما فى الجنان من حكم فهو عن تولى هؤلاء بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنة وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم من الحكم إلا بالنواب وهم النازلون عليهم الذين ذكرناهم، وقال قدس سره: فى الفصل الرابع إن الله تعالى جعل لكل كوكب من هذه الكواكب قطعا فى الفلك الأطلس ليحصل من تلك الخزائن التى فى بروجه وبأيدى ملائكته الاثنى عشر من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب وجعلها على حقائق مختلفة . انتهى المراد منه .

وله قدس سره كلام غير هذا أيضاً وقد صرح بنحو ما صرح به المنجمون من اختلاف طبائع البروج وأن كل ثلاثة منها على مرتبة واحدة فى المزاج وأنا لا أزيد على القول بأن للاجرام العلوية كواكبها وأفلاكها أسرارا وحكما وتأثيرات غير ذاتية بل مفاضة عليها من جانب الحق والفياض المطلق جل شأنه وعظم سلطانه ومنها ماهو علامة لما شاء الله تعالى ولا يتم دليل على نفى ما ذكر ولا يعلم كمية ذلك ولا كيفيته ولا أن تأثير كذا من كوكب كذا أو كوكب كذا علامة لكذا فى نفس الأمر إلا الله تعالى العليم البصير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) إلا أنه سبحانه قد يطلع بعض خواص عباده من البشر والملك على شىء من ذلك، ولا يبعد أن يطلع سبحانه البعض على الكل ووقوع ذلك لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما لا أكاد أشك فيه .

وقد نص بعض ساداتنا الصوفية قدست أسرارهم وأشرقت علينا أنوارهم على أن علومه عليه الصلاة والسلام التى وهبت له ثلاثة أنواع نوع أوجب عليه اظهاره وتبليغه وهو علم الشريعة والتكاليف الالهية وقوله تعالى (يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ناظر إلى ذلك دون العموم

www.Quranpdf.blogspot.in

المطاق او خصوص خلافة على كرم الله تعالى وجهه كما يقوله الشيعة، ونوع اوجب عليه كتمانه وهو علم الاسرار الالهية التى لاتتحملها قوة غير قوته القدسية عليه الصلاة والسلام فكما أن الله تعالى علما استأثر به دون أحد من خلقه كذلك لحبيبه الاعظم صلى الله تعالى عليه وسلم علم استأثر به بعد ربه سبحانه لكنه مفاض منه تعالى عليه ولعله أشير اليه فى قوله تعالى (فأوحى إلى عبده ماأوحى) وقد يكون بين المحب والمحبوب من الاسرار مايضن به على الاغيار، ومن هذا قيل :

ومستخبر عن سر ليلى تركته بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فانت أمينها وما انا إن خبرتهم بامين

ونوع خيره الله تعالى فيه بين الامرين، وهذا منه ماأظهره لمن رآه أهلا له ومنه مالم يظهره لامر ما فاعل ماوهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق اسرار الاجرام العلوية وحكمها وما اراد الله تعالى بها لم يظهره للناس كعلم الشريعة لأنه مما لا ينضبط بقاعدة وتفصيل الامر فيه لايكاد يتيسر والبعض مرتبط بالبعض ومع هذا لا يستطيع العالم به أن يجعل الاقامة سفرا ولا الهزيمة ظفرا ولا العقد فلا ولا الابرام نقضا ولا اليأس رجاء ولا العدو صديقا ولا البعيد قريبا ولا ولا ويوشك لو انتشر أمره وظهر حلوه ومره أن يضعف توكل كثير من العوام على الله تعالى والانقطاع اليه والرغبة فيما عنده وأن يلهوا به عن غيره وينبذوا ماسواه من العلوم النافعة لأجله فكل يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك مايكون فى غد أو يجد سبيلا اليه بل ربما يكون ذلك سببا لبعض الاشخاص مفضيا إلى الاعتقاد القبيح والشرك الصريح ، وقد كان فى العرب شىء من ذلك فلو فتح هذا الباب لاتسع الخرق وعظم الشر، وقد ترك ﷺ هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد ابراهيم عليه السلام لنحو هذه الملاحظة، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضى الله تعالى عنها: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وأسستها على قواعد ابراهيم» ولا يبعد أيضا أن يكون فى علم الله تعالى اظهار ذلك وعلم الناس به سببا لتعطل المصالح الدنيوية ومنافيا للحكمة الالهية فاوجب على رسوله ﷺ كتمه وترك تعليمه كما علم الشرائع *

ويمكن أن يكون قد علم صلى الله تعالى عليه وسلم ان العلم بذلك من العلوم الوهبية التى يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده وأن من وهب سبحانه له من أمته قوة قدسية يهب سبحانه له ماتتحمله قوته منه، وقد سمعت ماسمعت فى النقباء والنجباء ، ويمكن أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام ذلك أمثالهم ومن هو أعلى قدرا منهم كالأمير على كرم الله تعالى وجهه وهو باب مدينة العلم بطريق من طرق التعليم ومنها الافاضة التى يذكرها بعض أهل الطرائق من الصوفية ، ويجوز أن يقال: إن سر البعثة انما هو ارشاد الخلق إلى ما يقربهم اليه سبحانه زلفى ، وليس فى معرفة التأثيرات الفلكية والحوادث الكونية قرب الى الله تعالى والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأل جهدا فى دعوة الخلق وارشادهم الى ما يقربهم لديه سبحانه وينفعهم يوم قدومهم عليه جل شأنه وما يتوقف عليه من أمر النجوم أمور دياناتهم كمعرفة القبلة وأوقات العبادات قد أرشد اليه من أرشد منهم وترك مايحتاجون اليه من ذلك فى أمور دنياهم كالزراعة الى عاداتهم وما جربه كل قوم فى أماكنهم وأشار اشارة اجمالية الى بعض الحوادث الكونية لبعض الكواكب فى بعض أحوالها كما فى حديث

www.Quranpdf.blogspot.in

الكسوف والخسوف السابق وأرشدهم الى ما ينفعهم إذا ظهر مثل ذلك ويتضمن الاشارة الاجمالية ايضا أمره تعالى بالاستعاذة من شر القمر فى بعض حالاته وذلك فى قوله تعالى (قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب) على ما جاء فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها ويقرب فى بعض الوجوه من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر النباتات ونحوها فبين لهم ما يحل ويحرم من ذلك وأشار الى منفعة بعض الاشياء من نبات وغيره ولم يفصل القول فى الخواص وترك الناس فيما يأكلون ويشربون مما هو حلال على عاداتهم إلا أنه قال: (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) نعم نهى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الخوض فى علم النجوم لطلب معرفة الحوادث المستقبلة بواسطة الاوضاع المتوقف بزعم المنجمين على معرفة الطبائع سداً لباب الشر والوقوع فى الباطل لأن معرفة ذلك على التحقيق ليست كسبية كمعرفة خواص النباتات ونحوها والمعرفة الكسبية التى يزعمها المنجمون ليست بمعرفة وإنما هى ظنون لا دليل لهم عليها كما تقدم وصرح به ارسطاليس أيضا فانه قال فى أول كتابه السماع الطبيعى: إنه لا سبيل إلى اليقين بمعرفة تاثير الكواكب وحكى نحوه عن بطليموس، وكون المنهى عنه ذلك هو الذى صرح به بعض الاجلة وعليه حمل خبر أبى داود. وابن ماجه «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر» وأما الخوض فى علم النجوم لتحصيل ما يعرف به أوقات الصلوات وجهة القبلة وكم مضى من الليل أو النهار وكم بقى وأوائل الشهور الشمسية ونحو ذلك ومنه فيما أرى ما يعرف به وقت الكسوف والخسوف فغير منهى عنه بل العلم المؤدى لبعض ما ذكر من فروض الكفاية بل ان كان علم النجوم عبارة عن العلم الباحث عن النجوم باعتبار ما يعرض لها من المقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس وكيفية سيرها ومقدار حركاتها ونحو ذلك مما يبحث عنه فى الزيج أو كان عبارة عما يعم ذلك والعلم الذى يتوصل به إلى معرفة ارتفاع الكوكب وانخفاضه ومعرفة الماضى من الليل والنهار ومعرفة الاطوال والاعراض ونحو ذلك مما تضمنه علم الاسطرلاب والربع المجيب ونحوهما فهو مما لا أرى بأسا فى تعلمه مطلقا وإن كان عبارة عن العلم الباحث عن أحكامها وتأثيراتها التى تقتضيها باعتبار أوضاعها وطبائعها على ما يزعمه الاحكاميون فهذا الذى اختلف فى أمره فقال بعضهم بحرمة تعلمه لحديث أبى داود. وابن ماجه السابق والقائل بهذا قائل بحرمة تعلم السحر وهو أحد أقوال فى المسئلة فيها الافراط والتفريط، ثانيها أنه مكروه، ثالثها أنه مباح، رابعها أنه فرض كفاية، خامسها أنه كفر والجمهور على الأول ولأن فيه ترويج الباطل وتعريض الجهلة لاعتقاد أن أحكام النجوم المعروفة بين أهلها حق والكواكب مؤثرة بنفسها، وقيل: يحرم تعلمه لأنه منسوخ فقد قال الكرمانى فى عجائبه: كان علم النجوم علما نبويا فنسخ. وتعقب هذا بأنه لا معنى لنسخ العلم نفسه وإن حمل الكلام على معنى كان تعلمه مباحا فنسخ ذلك إلى التحريم كان فى الاستدلال مصادرة، وقال بعضهم: لا حرمة فى تعلمه إنما الحرمة فى اعتقاد صحة الاحكام وتأثيرات الكواكب على الوجه الذى يقوله جهلة الاحكاميين لا مطلقا، وأجيب عن الخبر السابق بانه محمول على تعلم شىء من علم النجوم على وجه الاعتناء بشانه كما يرمز اليه ـ اقتبس ـ وذلك لا يتم بدون اعتقاد صحة حكمه وأن الكواكب مؤثرات، وتعلمه على هذا الوجه حرام وبدونه مباح وفيه بحث، وقيل: فى الجواب أن الخبر فيمن ادعى علما بحكم من الاحكام آخذا له من النجوم قائلا الامر كذا ولا بد لأن النجم يقتضيه البتة وهو لا شك فى اثمه وحرمة دعواه التى قامت الادلة على كذبها وهو كما ترى، وكلام بعض

www.Quranpdf.blogspot.in

أجلة العلماء صريح فى إباحة تعلمه متى اعتقد أن الله تعالى أجرى العادة بوقوع كذا عند حلول الكوكب الفلانى منزلة كذا مثلا مع جواز التخلف، واستظهر بعض حرمة التعلم مطلقا متى كان فيه اغراء الجهلة بذلك العلم وإيقاعهم فى محذور اعتقاد التأثير أو كان فيه غير ذلك من المفاسد و كراهته إن سلم من ذلك لمافيه من تضييع الاوقات فيما لافائدة فيه ومبناه ظنون وأوهام وتخيلات، ولايبعد القول بانه يباح للعالم الراسخ النظر فى كتبه للاطلاع على ماقالوا والوقوف على مناقضاتهم واختلافاتهم التى سمعت بعضا منها لينفر عنها الناس و يرد العاكفين عليها كما يباح له النظر فى كتب سائر أهل الباطل كاليهود والنصارى لذلك بل لو قيل بسنيته لهذا الغرض لم يبعد لكن أنت تعلم أن السلف الصالح لم يحوموا حول شىء منه بسوى ذمه وذم أهله ولم يتطلبوا كتابا من كتبه لينظروا فيه على أى وجه كان النظر، ونسبة خلاف ذلك إلى أحد منهم لاتصح فالحزم اتباعهم فى ذلك وسلوك مسلكهم فهو لعمرى أقوم المسالك، هذا واعترض القول باطلاعه صلى الله تعالى عليه وسلم على ماذكر من شان الاجرام العلوية بان فيه فتح باب الشبهة فى كون اخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بالغيوب من الوحى لجواز أن تكون من أحكام النجوم على ذلك القول. وأجيب بان الشبهة إنما تتاتى لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام رصد ولو مرة كوكبا من الكواكب وحقق منزلته وأخبر بغيب إذ مجرد العلم بان لكوكب كذا حكم كذا إذا حل بمنزلة كذا لا يفيد بدون معرفة أنه حل فى تلك المنزلة فحيث لم يثبت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم فعل ذلك لا يفتح باب الشبهة وفيه بحث ظاهر، وبأن علمه ﷺ بما تدل عليه الأوضاع عند القائلين به ليس إلا عن وحى فغاية ما يلزم على تلك الشبهة أن يكون خبره بالغيب بواسطة علم أحكام النجوم الذى علمه بالوحى وأى خلل يحصل من هذا فى نبوته عليه الصلاة والسلام بل هذه الشبهة تستدعى كونه نبيا كما أن عدمها كذلك *

وتعقب بأنه متى سلم أن للاوضاع الفلكية دلالة على الأمور الغيبية وأنه ﷺ يعلم ماتدل عليه يقع الاشتباه بينه وبين غيره من علماء ذلك العلم المخبرين بالغيب إذا وقع كما أخبروا والتفرقة بانه عليه الصلاة والسلام قد أوحى إليه بذلك دون الغير فرع كونه نبيا وهو أول المسئلة، واختير فى الجواب أن يقال: إن أخباره ﷺ بالغيب إن كان بعد ثبوت نبوته بمعجز غير ذلك لا تتأتى الشبهة إن أفهم أن خبره بواسطة الوحى ولا تضر إن لم يفهم إذ غاية ما فى الباب أنه نبى لظهور المعجز على يده قبل أن أخبر بغيب بواسطة وضع فلكى وشاركه غيره فى ذلك، وإن كان قبل ثبوت نبوته بمعجز غيره بأن كان التحدى بذلك الخبر ووقوع ماأخبر به فالذى يدفع الشبهة حينئذ عدم القدرة على المعارضة فلا يستطيع منجم أن يخبر صادقا بمثل ذلك بمقتضى علمه بالأوضاع ومقتضياتها فتدبر، ثم الظاهر على ماذكره الشيخ الأكبر قدس سره فى النقباء والنجباء أن لكل من الأنبياء عليهم السلام اطلاعا على ذلك إذ رتبة النبى فوق رتبة الولى وعلمه فوق علمه إذ هو الركن الأعظم فى الفضل *

ولاحجة فى قصة موسى والخضر عليهما السلام على خلافه، أما على القول بنبوة الخضر عليه السلام فظاهر وكذا على القول بولايته وأنه فعل مافعل عن أمر الله تعالى بواسطة نبى، وأما على القول بولايته وأنه فعل ذلك لعلم أوتيه بلاواسطة نبى فلأنه لايدل إلا على فقدان موسى عليه السلام العلم بتلك الأمور الثلاثة وعلم الخضر بها ولا يلزم من ذلك أن يكون الخضر أعلم منه مطلقا وهو ظاهر، وعلى هذا جوز ابقاء الآية على ظاهرها فيكون ابراهيم عليه السلام قد نظر فى النجوم حسبما علمه الله تعالى من أحوال الملكوت الأعلى

www.Quranpdf.blogspot.in

واستدل على أنه سيسقم بما استدل، ولعل نظره كان فى طالع الوقت أونحوه أو طالع ولادته أو طالع سقوط النطفة التى خلق منها والعلم به بالوحى أو بواسطة العلم بطالع الولادة ، والاعتراض على ذلك بأنه يلزم عليه تقويته عليه السلام ما هم عليه من الباطـــل فى أمر النجوم وارد أيضا على حمل مافى الآية على التعريض والجواب هو الجواب ؛ هذا وإذا أحطت خبراً بجميع ماذكرت لك فى هذا المقام فأحسن التأمل فيما تضمنه من النقض والابرام وقد جمعت لك مالم أعلم أنه جمع فى تفسير ولاأبرئ نفسى عن الخطأ والسهو والتقصير والله سبحانه ولى التوفيق وبيده عز وجل أزمة التحقيق، وقوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ٩٠ ﴾ تفريع على قوله عليه السلام (إنى سقيم) أى أعرضوا وتركوا قربه، والمراد انهم ذهبوا إلى معيدهم وتركوه، و(مدبرين) إما حال مؤكدة أو حال مقيدة بناء على أن المراد بسقيم مطعون أوأنهم توهموا مرضا له عدوى مرض الطاعون أو غيره فان المرض الذى له عدوى بزعم الأطباء لايختص بمرض الطاعون فكأنه قيل : فاعرضوا عنه هاربين مخافة العدوى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ فذهب بخفية إلى أصنامهم التى يعبدونها ، وأصل الروغان ميل الشخص فى جانب ليخدع من خلفه فتجوز به عما ذكر لأنه المناسب هنا ﴿ فَقَالَ ﴾ للاصنام استهزاء ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١ ﴾ من الطعام الذى عندكم ، وكان المشركون يضعون فى أيام أعيادهم طعاما لدى الأصنام لتبرك عليه، وأتى بضمير العقلاء لمعاملته عليه السلام إياهم معاملتهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ٩٢ ﴾ بجوابى ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمال مستعليا عليهم وقوله تعالى ﴿ ضَرْبًا ﴾ مصدر لراغ عليهم باعتبار المعنى فان المراد منه ضربهم أو لفعل مضمر هو مع فاعله حال من فاعله أى فراغ عليهم يضربهم ضربا أو هو حال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى ضاربا أو مفعول له أى لأجل ضرب . وقرأ الحسن (سفقا وصفقا) أيضا ﴿ بِالْيَمِينِ ٩٣ ﴾ أى باليد اليمين كما روى عن ابن عباس، وتقييد الضرب باليمين للدلالة على شدته وقوته لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما فى الغالب وقوة الآلة تقتضى شدة الفعل وقوته أو بالقوة على أن اليمين مجاز عنها ﴿

روى أنه عليه السلام كان يجمع يديه فى الآلة التى يضربها بها وهى الفأس فيضربهـا بكمال قوته، وقيـل المراد باليمين الحلف ، وسمى الحلف يمينا إما لأن العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف أو لأن الحلف يقوى الكلام ويؤكده ، وأريد باليمين قوله عليه السلام (تالله لأكيدن أصنامكم) والباء عليه للسببية أى ضربا بسبب اليمين الذى حلفه قبل وهى على ما تقدم للاستعانة أو للملابسة ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ أى إلى ابراهيم عليه السلام بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم (فأتوا به على أعين الناس) ﴿ يَزِفُّونَ ٩٤ ﴾ حال من واو أقبلوا أى يسرعون من زف النعام أسرع لخلطه الطيران بالمشى ومصدره الزف والزفيف ، وقيل (يزفون) أى يمشون على تؤدة ومهل من زفاف العروس إذ كانوا فى طمأنينة من أن ينـال أصنامهم بشئ لعزتها، وليس بشئ ﴿

وقرأ حمزة . ومجاهد . وابن وثاب . والأعمش (يزفون) بضم الياء من أزف دخل فى الزفيف فالهمزة ليست للتعدية أو حمل غيره على الزفيف فهى لها قاله الأصمعى . وقرأ مجاهد أيضا وعبد الله بن يزيد . والضحاك

www.Quranpdf.blogspot.in

ويحيي بن عبدالرحمن المقرى . وابن أبي عبلة (يزفون) مضارع وزف بمعنى أسرع ، قال الكسائى ، والفراء: لانعرف وزف بمعنى زف وقد أثبته الثقات فلايضر عدم معرفتهما. وقرئ (يزفون) بالبناء للمفعول، وقرئ (يزفون) بسكون الزاى من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه ﴿قَالَ﴾ بعد أن أتوا به عليه السلام وجرى ماجرى من المحاورة على سبيل التوبيخ والانكار عليهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ٩٥﴾ أى الذى تنحتونه من الأصنام فما موصولة حذف عائدها وهو الظاهر المتبادر، وجوز كونها مصدرية أى أتعبدون نحتكم ، وتوبيخهم على عبادة النحت مع أنهم يعبدون الأصنام وهى ليست نفس النحت للاشارة إلى أنهم فى الحقيقة إنما عبدوا النحت لأن الأصنام قبله حجارة ولم يكونوا يعبدونها وإنما عبدوها بعد أن نحتوها ففى الحقيقة ماعبدوا إلا نحتهم ، وفيه مافيه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ فى موضع الحال من ضمير (تعبدون) لتأكيد الانكار والتوبيخ والاحتجاج على أنه لا ينبغى تلك العبادة، وما موصولة حذف عائدها أيضا أى خلقكم وخالق الذى تعملونه أى من الأصنام كما هو الظاهر، وهى عبارة عن مواد وهى الجواهر الحجرية وصور حصلت لها بالنحت ؛ وكون المواد مخلوقة له عز وجل ظاهر، وكون الصور والأشكال كذلك مع أنها بفعلهم باعتبار أن الاقدار على الفعل وخلق ما يتوقف عليه من الدواعى والأسباب منه تعالى، وكون الأصنام وهى ماسمعت معمولة لهم باعتبار جزئها الصورى فهو مع كونه معمولا لهم مخلوق لله تعالى بذلك الاعتبار فلا إشكال *

وفى المتمة للمسألة المهمة تأليف الشيخ ابراهيم الكورانى عليه الرحمة صريح الكلام دال على أن الله تعالى خالق للاصنام بجميع أجزائها التى منها الاشكال ، ومعلوم أن الاشكال إنما حصلت بتشكيلهم فتكون الاشكال مخلوقة لله تعالى معمولة لهم لكون نحتهم وتشكيلهم عين خلق الله تعالى الاشكال بهم *

ولا استحالة فى ذلك لأن العبد لاقوة له إلا بالله تعالى بالنص ومن لاقوة له إلا بغيره فالقوة لذلك الغير لا له فلا قوة حقيقة إلا لله تعالى ، ومن المعلوم أنه لافعل للعبد إلا بقوة فلا فعل له إلا بالله تعالى فلافعل حقيقة إلا لله تعالى، وكل ما كان كذلك كان النحت والتشكيل عين خلق الله سبحانه الأشكال بهم وفيهم بالذات وغيره بالاعتبار فيكون المعمول عين المخلوق بالذات وغيره بالاعتبار فان إيجاد الله عز وجل يتعلق بذات الفعل من حيث هو وفعل العبد بالمعنى المصدرى يتعلق بالفعل بمعنى الحاصل بالمصدر من حيث كونه طاعة أو معصية أو مباحا لكونه مكلفا والله تعالى له الاطلاق ولاحاكم عليه سبحانه انتهى فافهم *

والزمخشرى جعل أيضا ما موصولة إلا أنه جعل المخلوق له تعالى هو الجواهر ومعمولهم هو الشكل والصورة إما على أن الكلام على حذف مضاف أى وما تعملون شكله وصورته، واما على أن الشائع فى الاستعمال ذلك فانهم يقولون عمل النجار الباب والصائغ الخلخال والبناء البناء ولا يعنون إلا عمل الشكل بدون تقدير شكل فى النظم كأن تعلق العمل بالشىء هو هذا التعلق لاتعلق التكوين ، وهو مبنى على اعتقاده الفاسد من أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والاحتجاج فى الآية على الأول بأن يقال: إنه تعالى خلق العابد والمعبود مادة وصورة فكيف يعبد المخلوق المخلوق ؟ وعلى الثانى بانه تعالى خلق العابد ومادة المعبود فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذى عمل صورة المعبود، والأول أظهر، وعدل عن ضمير (ماتنحتون) أو

www.Quranpdf.blogspot.in

الاتيان به دون ماتعملون للايذان بأن مخلوقية الأصنام لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضا من التصوير والتحلية والتزيين. وفى الكشف فائدة العدول الدلالة على أن تأثيرهم فيها ليس النحت ثم العمل يقع على النحت والأثر الحاصل منه ولايقع النحت على الثانى فلابد من العدول لهذه النكتة وبه يتم الاحتجاج أى الذى قيل على اعتبار الزمخشرى . وجوز أن يكون الموصول عاما للاصنام وغيرها وتدخل أوليا ولا يتأتى عليه حديث العدول، وقيل مامصدرية والمصدر مؤول باسم المفعول ليطابق (ماتنحتون) على ماهو الظاهر فيه ويتحد المعنى مع ماتقدم على احتمال الموصولية، وجوز بقاء المصدر على مصدريته والمراد به الحاصل بالمصدر أعنى الأثر وكثيرا مايراد به ذلك حتى قيل: إنه مشترك بينه وبين التأثير والايقاع أى خلقكم وخلق عملكم، واحتج بالآية على المعتزلة. وتعقب بأنه لايصح لأن الاستدلال بذلك على أن العابد والمعبود جميعا خلق الله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقا ولو قيل: إن العابد وعمله من خلق الله تعالى لفات الملاءمة والاحتجاج، ولأن (ما) فى الأول موصولة فهى فى الثانى كذلك لئلا ينفك النظم، وماقاله القاضى البيضاوى من أنه لا يفوت الاحتجاج بل أنه أبلغ فيه لأن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك ، وأيد بأن الأسلوب يصير من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح ولافائدة فى العدول عن الظاهر إلا هذا فيجب صونا لكلام الله تعالى عن العبث تعقبه فى الكشف بانه لا يتم لأن الملازمة ممنوعة عند القوم ألا ترى أنهم معترفون بأن العبد وقدرته وارادته من خلق الله تعالى ثم المتوقف عليهما وهو الفعل يجعلونه خلق العبد ، والتحقيق أنه يفيد التوقف عليه تعالى وهم لاينكرونه إنما الكلام فى الايجاد والاحداث ثم قال : وأظهر منه أن يقال: لأن المعمول من حيث المادة كانوا لا ينكرون أنه من خلق الله تعالى فقيل هو من حيث الصورة أيضا خلقه فهو مخلوق من جميع الوجوه مثلكم من غير فرق فلم تسوونه بالخالق ومازداد بفعلكم إلا بعد استحقاق عن العبادة ولما كان هذا المعنى فى تقرير الزمخشرى على أبلغ وجه كان هذا البناء متداعيا كيفما قرر، على أن فائدة العدول قد اتضحت حق الوضوح فبطل الحصر أيضا، وقد قيل عليه : إن المراد بالفعل الحاصل بالمصدر لأنه بالمعنى الآخر أعنى الايقاع من النسب التى ليست بموجودة عندهم، وتوقف الحاصل بالايقاع على قدرة العبد وارادته توقف بعيد بخلاف توقفه على الايقاع الذى لاوجود له فيكون ماذكره فى معرض السند مجتمعا مع المقدمة الممنوعة فلايصلح للسندية، والمراد بمفعولهم أشكال الأصنام المتوقف على ذلك المعنى القائم بهم، إذا كان ذاك بخلقه تعالى فلأن يكون الذى لايقوم بهم بل بما يباينهم بخلقه تعالى أولى .

ولا مجال للخصم أن يمنع هذه الملازمة إذ قد أثبت خلق المتولدات مطلقا للعباد بواسطة خلقهم لما يقوم بهم، وانتفاء الأول ملزوم لانتفاء الثانى فتأمل، وقال فى التقريب انتصارا لمن قال بالمصدرية: إن الجواهر مخلوقة له تعالى وفاقا والأعمال مخلوقة أيضا لعموم الآية فكيف يعبد مالا مدخل له فى الخلق فدعوى فوات الاحتجاج باطلة وكذلك فك النظم والتبتير، وتعقبه فى الكشف أيضا فقال فيه : إن المقدمة الوفاقية إذا لم يكن بد منها ولم تكن معلومة من هذا السياق يلزم فوات الاحتجاج، وأما الحمل على التغليب فى الخطاب فتوجيه لاترجيح والكلام فى الثانى .

ثم قال : وأما أن المصدرية أولى لئلا يلزم حذف الضمير فمعارض بأن الموصولة أكثر

www.Quranpdf.blogspot.in

استعمالا وهى أنسب بالسياق السابق على أنه لابد من تقدير عملهم فى المنحوت فيزداد الحذف *

واعترض بانا لانسلم الأكثرية وكذا لانسلم أنها أنسب بالسياق لما سمعت من أن الأسلوب على ذلك من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح والتقدير المذكور ليس بلازم لجواز ابقاء الكلام على عمومه الشامل للمنحوت بالطريق الأولى أو يقدر بمصدر مضاف إضافة عهدية ، وبعضهم جعلها موصولة كناية عن العمل لئلا ينفك النظم ويظهر احتجاج الأصحاب على خلق أفعال العباد ، وتعقبه أيضا بأنه أفسد من الأول لما فيه من التعقيد وفوات الاحتجاج ، وكون الموصول فى الأول عبارة عن الأعيان وفى الثانى كناية عن المعانى وانفكاك النظم ليس لخصوص الموصولية والمصدرية بل لتباين المعنيين وهو باق. وصاحب الانتصاف قال بتعين حملها على المصدرية لأنهم لم يعبدوا الأصنام من حيث كونها حجارة وإنما عبدوها من حيث أشكالها فهم فى الحقيقة إنما عبدوا عملهم وبذلك تبتلج الحجة عليهم بأنهم وعملهم مخلوقان لله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقا مثله مع أن المعبود كسب العابد وعمله ، وأجاب عن حديث لزوم انفكاك النظم بأن لنا أن نحمل الأولى على المصدرية أيضا فانهم فى الحقيقة إنما عبدوا نحتهم ، وفى دعوى التعين بحث ، وجوز كون ما الثانية استفهامية للانكار والتحقير أى وأى شىء تعملون فى عبادتكم أصناما تنحتونها أى لا عمل لكم يعتبر ، وكونها نافية أى وما أنتم تعملون شيئا فى وقت خلقكم ولا تقدرون على شىء ، ولا يخفى أن كلا الاحتمالين خلاف الظاهر بل لا ينبغى أن يحمل عليه التنزيل ، وأظهر الوجوه كونها موصولة وتوجيه ذلك على ما يقوله الأصحاب ثم كونها مصدرية ، والاستدلال بالآية عليه ظاهر ، وقول صاحب الكشف: والانصاف أن استدلال الاصحاب بهذه الآية لا يتم ان أراد به ترجيح احتجاج المعتزلة خارج عن دائرة الانصاف ، ثم إنها على تقدير أن لا تكون دليلا لهم لا تكون دليلا للمعتزلة أيضا كما لا يخفى على المنصف ، هذا ولما غلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة مالوا إلى الغلبة بقوة الشوكة ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ حائطا توقدون فيه النار ، وقيل: منجنيقاً *

﴿ فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ ٩٧ ﴾ فى النار الشديدة من الجحمة وهى شدة التأجج والاتقاد ، واللام بدل عن المضاف اليه أو للعهد ، والمراد جحيم ذلك البنيان التى هى فيه أو عنده ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ سوأ باحتيال فانه عليه السلام لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ٩٨ ﴾ الأذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا ظاهرا ظهور نار القرى ليلا على علم على علو شأنه عليه السلام حيث جعل سبحانه النار عليه بردا وسلاما ، وقيل : أى الهالكين ، وقيل : أى المعذبين فى الدرك الأسفل من النار والأول أنسب *

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى ﴾ إلى حيث أمرنى أو حيث أتجرد فيه لعبادته عز وجل جعل الذهاب إلى المكان الذى أمره ربه تعالى بالذهاب اليه ذهابا اليه وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه لا أن الكلام بتقدير مضاف ، والمراد بذلك المكان الشام ، وقيل مصر وكأن المراد إظهار اليأس من إيمانهم وكراهة البقاء معهم أى إنى مفارقكم ومهاجر منكم إلى ربى ﴿ سَيَهْدِينِ ٩٩ ﴾ إلى ما فيه صلاح دينى أو إلى مقصدى *

والسين لتأكيد الوقوع فى المستقبل لأنها فى مقابلة لن المؤكد للنفى كما ذكره سيبويه ، وبت عليه السلام القول لسبق وعده تعالى إياه بالهداية لما أمره سبحانه بالذهاب أو لفرط توكله عليه السلام أو للبناء على عادته تعالى معه

www.Quranpdf.blogspot.in

وإنما لم يقل موسى عليه السلام مثل ذلك بل قال : (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) بصيغة التوقع قيل : لعدم سبق وعد وعدم تقدم عادة واقتضاء مقامه رعاية الأدب معه تعالى بأن لا يقطع عليه سبحانه بأمر قبل وقوعه ، وتقديمه على رعاية فرط التوكل ومقامات الانبياء متفاوتة وكلها عالية ، وقيل لأن موسى عليه السلام قال ما قال قبل البعثة وابراهيم عليه السلام قال ذلك بعدها ، وقيل لأن ابراهيم كان بصدد أمر دينى فناسبه الجزم وموسى كان بصدد أمر دنيوى فناسبه عدم الجزم ، ومن الغريب ماقيل ونحا إليه قتادة أنه لم يكن مراد ابراهيم عليه السلام بقوله (إنى) الخ الهجرة وإنما أراد بذلك لقاء الله تعالى بعد الاحراق ظانا إنه يموت فى النار إذا ألقى فيهـــا وأراد بقوله (سيهدينى) الهداية إلى الجنة ، ويدفع هذا القول دعاؤه بالولد حيث قال :

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠﴾ بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة ، والتقدير ولداً من الصالحين وحذف لدلالة الهبة عليه فانها فى القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع العقلاء فى الأولاد ، وقوله تعالى (ووهبنا له أخاه هارون نبيا) من غير الغالب أو المراد فيه هبة نبوته لاهبة ذاته وهو شيء آخر ، ولقوله تعالى ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ فانه ظاهر فى أن مابشر به عين ما استوهبه مع أن مثله إنما يقال عرفا فى حق الأولاد ، ولقد جمع بهذا القول بشارات أنه ذكر لاختصاص الغلام به وأنه يبلغ أوان البلوغ بالسن المعروف فانه لازم لوصفه بالحليم لأنه لازم لذلك السن بحسب العادة إذ قلما يوجد فى الصبيان سعة صدر وحسن صبر واغضاء فى كل أمر ، وجوز أن يكون ذلك مفهوما من قوله تعالى (غلام) فانه قد يختص بمابعد البلوغ وإن كان ورد عاما وعليه العرف كما ذكره الفقهاء وأنه يكون حليما وأى حلم مثل حلمه عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فما ظنك به بعد بلوغه ، وقيل مانعت الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه عليهما السلام ، وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ما ذكر فيهما ه

والفاء فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ﴾ فصيحة تعرب عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وإيذانا بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف أى فوهبناه له ونشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه فى أشغاله وحوائجه ، و(مع) ظرف للسعى وهى تدل على معنى الصحبة واستحداثها ، وتعلقها بمحذوف دل عليه المذكور لأن صلة المصدر لا تتقدمه لأنه عند العمل مؤول بأن المصدرية والفعل ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول لأنه كتقدم جزء الشيء المرتب الاجزاء عليه أو لضعفه عن العمل فيه بحث ، أما أولا فلأن التأويل المذكور على المشهور فى المصدر المنكر دون المعرف ، وأما ثانيا فلأنه إذا سلم العموم فليس كل ماأول بشيء حكمه حكم ما أول به ، وأما ثالثاً فلأن المقدم هنا ظرف وقد اشتهر أنه يغتفر فيه ما لا يغتفر فى غيره ه

وصرحوا بأنه يكفيه رائحة الفعل وبهذا يضعف حديث المنع لضعف العامل عن العمل فالحق أنه لاحاجة فى مثل ذلك إلى التقدير معرفا كان المصدر أو منكرا كقوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة) وهو الذى ارتضاه الرضى وقال به العلامة الثانى ، واختار صاحب الفرائد كونها متعلقة بمحذوف وقع حالا من (السعى) أى فلما بلغ السعى حال كون ذلك السعى كائنا معه ، وفيه أن السعى معه معناه اتفاقهما فيه فالصحبة بين الشخصين فيه ، وماقدره يقتضى الصحبة بين السعى وابراهيم عليه السلام ولا يطابق المقام ، وجوز تعلقه ببلغ ، ورد بأنه يقتضى بلوغهما معا حد السعى لما سمعت من معنى مع وهو غير صحيح ، وأجيب بأن مع على ذلك لمجرد الصحبة على

www.Quranpdf.blogspot.in

أن تكون مرادفة عند نحو فلان يتغنى مع السلطان أى عنده ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه وفى صحبته متخلقا بأخلاقه متطبعا بطباعه ويستدعى ذلك كمال محبة الأب إياه، ويجوز على هذا أن تتعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل (بلغ) ومن مجىء مع لمجرد الصحبة قوله تعالى حكاية عن بلقيس (أسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فلتكن فيما نحن فيه مثلها فى تلك الآية. وتعقب بأن ذاك معنى مجازى والحمل على المجاز هنالك للصارف ولا صارف فيما نحن فيه فليحمل على الحقيقة على أنه لا يتعين هنالك أن تكون لمعية الفاعل لجواز أن يراد أسلمت لله ولرسوله مثلا ، وتقديم (مع) اشعاراً منها بانها كانت تظن أنها على دين قبل وأنها مسلمة لله تعالى فيما كانت تعبد من الشمس فدل على أنه إسلام يعتد به من أثر متابعة نبيه لا إسلام كالأول فاسد ، قال صاحب الكشف : وهذا معنى صحيح حمل الآية عليه أولى وإن حمل على معية الفاعل لم يكن بد من محذوف نحو مع بلوغ دعوته وإظهار معجزته لأن فرق ما بين المقيد ومطلق الجمع معلوم بالضرورة، وزعم بعض أنه لا مانع من إرادة الحقيقة واستحداث إسلامهما معا على معنى أنه عليه السلام وافقها أو لقنها وليس بشىء كما لا يخفى *

وقيل يراد بالسعى على تقدير تعلق مع ببلغ المسعى وهو الجبل المقصود إليه بالمشى وهو تكلف لا يصار إليه *

وبالجملة الأولى تعلقها بالسعى، والتخصيص لأن الأب أكمل فى الرفق وبالاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه أو لأنه عليه السلام استوهبه لذلك، وفيه على الأول بيان أوانه وأنه فى غضاضة عوده كان فيه ما فيه من رصانة العقل ورزانة الحلم حتى أجاب بما أجاب ، وعلى الثانى بيان استجابة دعائه عليه السلام وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة والولد أحب ما يكون عند أبيه فى سن يقدر فيه على إعانة الأب وقضاء حاجه ولا يقدر فيه على العصيان ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أنه عليه السلام رأى فى منامه أنه فعل ذبحه فحمله على ما هو الأغلب فى رؤيا الأنبياء عليهم السلام من وقوعها بعينها ، ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك لكن لم يذكره وذكر التأويل كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب فى سفينة رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة ، وقيل إنه رأى معالجة الذبح ولم ير إنهار الدم فأنى أذبحك إنى أعالج ذبحك، ويشعر صنيع بعضهم اختيار أنه عليه السلام أتى فى المنام فقيل له اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة، وفى رواية أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح روأى فى ذلك وفكر من الصباح إلى الرواح أمن الله تعالى هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثم سمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر، وقيل إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال هو إذن ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك، ولعل هذا القول كان فى المنام وإلا فما يصنع بقوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) وفى كلام التوراة التى بأيدى اليهود اليوم ما يرمز إلى أن الأمر بالذبح كان ليلا فانه بعد أن ذكر قول الله تعالى له عليه السلام خذ ابنك وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قربانا على أحد الجبال الذى أعرفك به قيل فأدلج ابراهيم بالغداة الخ فالأمر إما مناما وإما يقظة لكن وقع تأكيداً لما فى المنام إذ لا محيص عن الايمان بما قصه الله تعالى علينا فيما أعجز به الثقلين من القرآن والحزم الجزم بكونه فى المنام لا غير إذ لا يعول على ما فى أيدى اليهود وليس فى الأخبار الصحيحة ما يدل على وقوعه يقظة أيضا .

www.Quranpdf.blogspot.in

ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص * وقيل : كان ذلك فى المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتى الأنبياء يقظة ومناما سواء فى الصدق، والأول أولى ، والتأكيد لما فى تحقق المخبر به من الاستبعاد ، وصيغة المضارع فى الموضعين قيل لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة ، وقيل : فى الأول لتكرر الرؤيا وفى الثانى للاستحضار المذكور أو لتكرر الذبح حسب تكرر الرؤيا أو للمشاكلة ، ومن نظر بعد ظهر له غير ذلك *

﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ من الرأى ، وإنما شاوره فى ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله وليكون سنة فى المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة فى أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك ، وقرأ حمزة . والكسائى (ماذا ترى) بضم التاء وكسر الراء خالصة أى ما الذى تريني إياه من الصبر وغيره أو أى شئ تريني على أن ما مبتدأ وذا موصول خبره ومفعولى ترى محذوفان أو ماذا كالشيء الواحد مفعول ثان لترى والمفعول الأول محذوف ، وقرىء (ماذا ترى) بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول أى ماذا تريك نفسك من الرأى ، و(انظر) فى جميع القراءات معلقة عن العمل وفى (ماذا) الاحتمالان فلا تغفل *

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى الذى تؤمر به فحذف الجار والمجرور دفعة أو حذف الجار أولا فعدى الفعل بنفسه نحو أمرتك الخير ثم حذف المجرور بعد أن صار منصوبا ثانيا ، والحذف الأول شائع مع الأمر حتى كاد يعد متعديا بنفسه فكأنه لم يجتمع حذفان أو افعل أمرك على أن ما مصدرية والمراد بالمصدر الحاصل بالمصدر أى المأمور به ، ولا فرق فى جواز إرادة ذلك من المصدر بين أن يكون صريحا وأن يكون مسبوكا * وإضافته إلى ضمير إبراهيم إضافة إلى المفعول ولا يخفى بعد هذا الوجه ، وهذا الكلام يقتضى تقدم الأمر وهو غير مذكور فاما أن يكون فهم من كلامه عليه السلام أنه رأى أنه يذبحه مأمورا أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بامر ، وصيغة المضارع للايذان بغرابة ذلك مثلها فى كلام إبراهيم على وجه وفيه إشارة إلى أن ما قاله لم يكن إلا عن حلم غير مشوب بجهل بحال المأمور به ، وقيل : للدلالة على أن الأمر متعلق به متوجه اليه مستمر إلى حين الامتثال به ، وقيل : لتكرر الرؤيا ، وقيل : جىء بها لأنه لم يكن بعد أمر وإنما كانت رؤيا الذبح فاخبره بها فعلم لعلمه بمقام أبيه وانه ممن لا يجد الشيطان سبيلا بالقاء الخيالات الباطلة اليه فى المنام أنه سيكون ذلك ولا يكون إلا بامر إلهى فقال له افعل ما تؤمر بعد من الذبح الذى رأيته فى منامك، ولما كان خطاب الأب (يا بنى) على سبيل الترحم قال هو (يا أبت) على سبيل التوقير والتعظيم ومع ذلك أتى بجواب حكيم لأنه فوض الأمر حيث استشاره فاجاب بانه ليس مجازها وإنما الواجب إمضاء الأمر *

﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾ على قضاء الله تعالى ذبحا كان أو غيره ، وقيل : على الذبح والأول أولى للعموم ويدخل الذبح دخولا أوليا ، وفى قوله (من الصابرين) دون صابرا وإن كانت رؤس الآى تقتضى ذلك من التواضع ما فيه ، قيل ولعله وفق للصبر ببركته مع بركة الاستثناء وموسى عليه السلام لما لم يسلك هذا المسلك من التواضع فى قوله : (ستجدنى إن شاء الله صابرا) حيث لم ينظم نفسه الكريمة فى سلك

www.Quranpdf.blogspot.in

الصابرين بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابر سواه لم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء ❊ وفيه أيضا إغراء لأبيه عليه السلام على الصبر لما يعلم من شفقته عليه مع عظم البلاء حيث أشار إلى أن الله تعالى عبادا صابرين وهى زهرة ربيع لا تتحمل الفرك ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى استسلما وانقادا لأمر الله تعالى فالفعل لازم أو سلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه على أنه متعد والمفعول محذوف ❊

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس. وعبدالله ٠ ومجاهد. والضحاك. وجعفر بن محمد ٠ والاعمش ٠ والثورى (سلما) وخرجت على ما سمعت. ويجوز أن يكون المعنى فوضا اليه تعالى فى قضائه وقدره ، وقرىء (استسلما) وأصل الافعال الثلاثة سلم هذا لفلان اذا خلص له فانه سلم من أن ينازع فيه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٣ ﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض ، وأصل التل الرمى على التل وهو التراب المجتمع ثم عمم فى كل صرع ، والجبين أحد جانبى الجبهة وشذ جمعه على أجبن وقياسه فى القلة أجبنة ككثيب وأكثبة وفى الكثرة جبنان وجبن ككثبان وكثب ، واللام لبيان ما خر عليه كما فى قوله تعالى (يخرون للاذقان) وقوله ❊ وخر صريعا لليدين وللفم ❊ وليست للتعدية ، وقيل المراد كبه على وجهه وكان ذلك باشارة منه . أخرج غير واحد عن مجاهد أنه قال لابيه : لا تذبحنى وأنت تنظر الى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز على اربط يدى الى رقبتى ثم ضع وجهى الارض ففعل فكان ما كان ، ولا يخفى ان ارادة ذلك من الآية بعيد ، نعم لا يبعد أن يكون الذبيح قال هذا ❊

وفى الآثار حكاية اقوال غير ذلك ايضا ، منها ما فى خبر للسدى انه قال لابيه عليهما السلام : ياابت اشدد رباطى حتى لا اضطرب واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شىء فتراه امى فتحزن واسرع مر السكين على حلقى فيكون أهون للموت على فاذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى فاقبل عليه ابراهيم يقبله . وكل منهما يبكى ، ومنها ما فى حديث أخرجه أحمد ٠ وجماعة عن ابن عباس انه قال لابيه وكان عليه قميص أبيض يا أبت ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره فاخلعه حتى تكفننى فيه فعالجه ليخلعه فكان ما قص الله عز وجل ❊ وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى ، وعن الحسن فى الموضع المشرف على مسجد منى ، وعن الضحاك فى المنحر الذى ينحر فيه اليوم ، وقيل كان ببيت المقدس وحكى ذلك عن كعب ، وحكى الامام مع هذا القول أنه كان بالشام ❊

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ قيل ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى بذلك ، و (أن) مفسرة بمعنى أى (١) وقرأ زيد بن على قد صدقت بحذفها ، وقرىء (صدقت) بالتخفيف ، وقرأ فياض (الريا) بكسر الراء والادغام ، وتصديقه عليه السلام الرؤيا توفيته حقها من العمل وبذل وسعه فى ايقاعها وذلك بالعزم والاتيان بالمقدمات ولا يلزم فيه وقوع ما رآه بعينه ، وقيل هو ايقاع تأويلها وتأويلها ما وقع ، ويفهم من كلام الامام انه الاعتراف بوجوب العمل بها ، ولا يدل على الاتيان بكل ما رآه فى المنام ، وهل أمر عليه السلام الشفرة على حلقه أم لا قولان ذهب الى الثانى منهما كثير من الاجلة ، وقد أخرج الامام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودى من خلفه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا ، وأخرج هو . وابن جرير . وابن أبى حاتم ٠ والطبرانى . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الايمان عنه أنه عالج قميصه ليخلعه فنودى بذلك ❊ وأخرج ابن المنذر ٠ والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضا فلما أدخل يده ليذبحه فلم يحمل المدية حتى

(١) قوله وقرأ زيد بن على قد صدقت بحذفها كذا فى الاصل ولعل قد صدقت من زيادة القلم وحرر القراءة اه

www.Quranpdf.blogspot.in

نودى ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده، وأخرج عبد بن حميد. وغيره عن مجاهد فلما أدخل يده ليذبحه نودى أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا فامسك يده ورفع رأسه فرأى الكبش ينحط اليه حتى وقع عليه فذبحه، وفى رواية أخرى عنه أخرجها عبد بن حميد أيضا وابن المنذر انه أمر السكين فانقلبت، والى عدم الامرار ذهبت اليهود أيضا لما فى توراتهم مد ابراهيم يده فاخذ السكين فقال له ملاك الله من السماء قائلا: يا ابراهيم يا ابراهيم قال: لبيك قال: لا تمد يدك الى الغلام ولا تصنع به شيئا، وذهب الى الاول طائفة فمنهم من قال: انه أمرها ولم تقطع مع عدم المانع لأن القطع بخلق الله تعالى فيها أو عندها عادة وقد لا يخلق سبحانه، ومنهم من قال: انه أمرها ولم تقطع لمانع، فقد أخرج سعيد بن منصور . وابن المنذر عن عطاء بن يسار انه عليه السلام قام اليه بالشفرة فبرك عليه فجعل الله تعالى ما بين لبته الى منحره نحاسا لا تؤثر فيه الشفرة، وأخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم عن السدى انه عليه السلام جر السكين على حلقه فلم ينحر وضرب الله تعالى على حلقه صفيحة من نحاس، وأخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن فضيل بن عياض قال: أضجعه ووضع الشفرة فقلبها جبريل عليه السلام، وأخرج الحاكم بسند فيه الواقدى عن عطاء انه نحر فى حلقه فاذا هو قد نحر فى نحاس فشحذ الشفرة مرتين أو ثلاثا بالحجر، وضعف جميع ذلك. وقيل انه عليه السلام ذبح لكن كان كلما قطع موضعا من الحلق أوصله الله تعالى، وزعموا ورود ذلك فى بعض الاخبار ولا يكاد يصح، وسيأتى قريبا ان شاء الله تعالى ما يتعلق بهذا المقام من الكلام، وجواب لما محذوف مقدر بعد (صدقت الرؤيا) أى كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله واظهار فضلهما مع احراز الثواب العظيم الى غير ذلك، وهو أولى من تقدير فاذا ونحوه، وقدره بعض البصريين بعد (وتله للجبين) أى أجزلنا أجرهما، وعن الخليل. وسيبويه تقديره قبل (وتله) قال فى البحر: والتقدير فلما أسلما أسلما وتله، وقال ابن عطية: وهو عندهم كقول امرىء القيس * فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى * أى أجزنا وانتحى، وهو كما ترى، وقال الكوفيون: الجواب مثبت وهو (وناديناه) على زيادة الواو، وقالت فرقة: هو (وتله) على زيادتها أيضا، ولعل الاولى ما تقدم *

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥ ﴾ ابتداء كلام غير داخل فى النداء وهو تعليل لافراج تلك الشدة المفهوم من الجواب المقدر أو من الجواب المذكور أعنى نادينا الخ على القول بأنه الجواب أو منه وان لم يكن الجواب والعلة فى المعنى احسانهما، وكونه تعليلا لما انطوى عليه الجواب من الشكر ليس بشىء *

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ١٠٦ ﴾ أى الابتلاء والاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره أو المحنة البينة وهى المحنة الظاهرة صعوبتها وما وقع لا شىء أصعب منه ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد ولله عز وجل ان يبتلى من شاء بما شاء وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد. ولعل هذه الجملة لبيان كونهما من المحسنين، وقيل لبيان حكمة ما نالهما، وعلى التقديرين هى مستأنفة استئنافا بيانيا فليتدبر *

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ ﴾ بحيوان يذبح بدله ﴿ عَظِيمٍ ١٠٧ ﴾ قيل أى عظيم الجثة سمين وهو كبش أبيض أقرن أعين وفى رواية أملح بدل أبيض، وعن الحسن أنه وعل أهبط عن ثبير، والجمهور على الأول ووافقهم الحسن فى رواية رواها عنه ابن أبى حاتم وفيها أن اسمه حرير، واليهود على أنه كبش أيضا. وفسر المعظم العظيم بعظيم القدر

www.Quranpdf.blogspot.in

وذلك على ما روى عن ابن عباس لأنه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وبقى يرعى فى الجنة إلى يوم هذا الفداء ، وفى رواية عنه وعن ابن جبير أنهما قالا : عظمه كونه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفا *

وقال مجاهد وصف بالعظم لأنه متقبل يقينا ، وقال الحسن بن الفضل: لأنه كان من عند الله عز وجل ، وقال أبو بكر الوراق : لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين ، وقال عمرو بن عبيد: لأنه جرت السنة به وصار دينا باقيا آخر الدهر ، وقيل لأنه فدى به نبي وابن نبي ، وهبوطه من ثبير كما قال الحسن فى الوعل وجاء ذلك فى رواية عن ابن عباس *

وفى رواية عن على كرم الله تعالى وجهه أنه وجده عليه السلام قد ربط بسمرة فى أصل ثبير . وعن عطاء ابن السائب أنه قال: كنت قاعدا بالمنحر فحدثنى قرشى عن أبيه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال له: ان الكبش نزل على ابراهيم فى هذا المكان . وفى رواية عن ابن عباس أنه خرج عليه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا فارسل ابراهيم عليه السلام ابنه واتبعه فرماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الأولى فافلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الوسطى فافلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الكبرى فاتى به المنحر من منى فذبح قيل وهذا أصل سنية رمى الجمار ، والمشهور أن أصل السنية رمى الشيطان هناك ففى خبر عن قتادة أن الشيطان أراد أن يصيب حاجته من ابراهيم وابنه يوم أمر بذبحه فتمثل بصديق له فاراد أن يصده عن ذلك فلم يتمكن فتعرض لابنه فلم يتمكن فاتى الجمرة فانتفخ حتى سد الوادى ومع ابراهيم ملك فقال له : ارم يا براهيم فرمى بسبع حصيات يكبر فى أثر كل حصاة فافرج له عن الطريق ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثانية فسد الوادى أيضاً فقال الملك: ارم ياابراهيم فرمى كما فى الأولى وهكذا فى الثالثة ، وظاهر الآية أن الفداء كان بحيوان واحد وهو المعروف . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه فدى بكبشين أملحين أقرنين أعينين ولا أعرف له صحة ، ويراد بالذبح عليه لو صح الجنس ، والفادى على الحقيقة ابراهيم عليه السلام ، وقال سبحانه: (فديناه) على التجوز فى الفداء أى أمرنا أو أعطينا أو فى اسناده اليه تعالى ، وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية أيضا ، وفائدة العدول عن الأصل التعظيم *

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ ١٠٨ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ١٠٩ ﴾ سبق ما يعلم منه بيانه عند تفسير نظيره فى آخر قصة نوح ، ولعل ذكر فى العالمين هناك وعدم ذكره هنا لما أن لنوح عليه السلام من الشهرة لكونه كآدم ثان للبشر ونجاة من نجا من أهل الطوفان ببركته ماليس لابراهيم عليه السلام *

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ١١٠ ﴾ ذلك إشارة الى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا الى ما يشير اليه فيما سبق فلا تكرار وطرح هنا (إنا) قيل مبالغة فى دفع توهم اتحاده مع ماسبق كيف وقد سيق الأول تعليلا لجزاء ابراهيم وابنه عليهما السلام بما أشير اليه قبل وسيق هذا تعليلا لجزاء ابراهيم وحده بما تضمنه قوله تعالى (وتركنا عليه) الخ وما ألطف الحذف هنا اقتصارا حيث كان فيما قبله ما يشبه ذلك من عدم ذكر الابن والاقتصار على ابراهيم *

وقيل لعل ذلك اكتفاء بذكر (انا) مرة فى هذه القصة ، وقال بعض الأجلة: انه للاشارة إلى ان قصة ابراهيم عليه السلام لم تتم فان ما بعد من قوله تعالى (وبشرناه باسحق) الخ من تكملة ما يتعلق به عليه السلام بخلاف سائر القصص التى جعل (إنا كذلك نجزى المحسنين) مقطعا لها فان ما بعد ليس مما يتعلق بما قبل ومع هذا لم تخل القصة من مثل تلك الجملة بجميع كلماتها وسلك فيها هذا المسلك اعتناء بها فتأمل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١١١ ﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

الكلام فيه كما تقدم ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا﴾ حال من اسحق، و كذا قوله تعالى ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٢﴾ وفى ذلك تعظيم شأن الصلاح، وفى تأخيره ايماء إلى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل، والمقصود منهما الاتيان بالأفعال الحسنة السديدة وهو فى الاستعمال يختص بها ٭

وجوز كون (من الصالحين) حالا وكون (نبيا) حالا من الضمير المستتر فيه، وقدم فى اللفظ للاهتمام ولئلا تختل رؤس الآى وفيه من البعد ما فيه، على أن فى جواز تقديم الحال مطلقا أو إطراده فى مثل هذا التركيب كلاما لا يخفى على من راجع الألفية وشروحها وفيه ما فيه بعد، وجوز أيضا كونه فى موضع الصفة لنبيا والكلام على الأول وهو الذى عليه الجمهور أمدح كما لا يخفى، والمراد كونه نبيا وكونه من الصالحين فى قضاء الله تعالى وتقديره أى مقضيا كونه نبيا مقضيا كونه من الصالحين وإن شئت فقل مقدراً ولا يكونان بذلك من الحال المقدرة التى تذكر فى مقابلة المقارنة بل هما بهذا الاعتبار حالان مقارنان للعامل وهو فعل البشارة أو شيء آخر محذوف أى بشرناه بوجود إسحق نبيا الخ، وأوجب غير واحد تقدير ذلك معللا بأن البشارة لا تتعلق بالأعيان بل بالمعانى. وتعقب بأنه إن أريد أنها لا تستعمل إلا متعلقة بالأعيان فالواقع خلافه كبشر أحدهم بالأنثى، فان قيل إنما يصح بتقدير ولادة ونحوه من المعانى فهو محل النزاع فلا وجه له، والذى يميل إليه القلب أن المعنى على إرادة ذلك، وربما يدعى أن معنى البشارة تستدعى تقدير معنى من المعانى، وقيل هما حالان مقدران كقوله تعالى (ادخلوها خالدين) وفيه بحث ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أى على ابراهيم عليه السلام ﴿وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أى أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما وجعلنا منهم أنبياء ورسلا ٭

وقرىء (بركنا) بالتشديد للمبالغة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ فى عمله أو على نفسه بالايمان والطاعة ٭ ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصى ويدخل فيها ظلم الغير ﴿مُبِينٌ ١١٣﴾ ظاهر ظلمه، وفى ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال وأن الظلم فى الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب، هذا وفى الآيات بعد أبحاث (الأول) أنهم اختلفوا فى الذبيح فقال ـ على ماذكره الجلال السيوطى فى رسالته القول الفصيح فى تعيين الذبيح ـ على. وابن عمر، وأبو هريرة. وأبو الطفيل. وسعيد بن جبير. ومجاهد. والشعبي ويوسف بن مهران. والحسن البصرى. ومحمد بن كعب القرظى. وسعيد بن المسيب. وأبو جعفر الباقر. وأبو صالح. والربيع بن أنس. والكلبي. وأبو عمرو بن العلاء. وأحمد بن حنبل وغيرهم انه إسمعيل عليه السلام لا إسحق عليه السلام وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ورجحه جماعة خصوصاً غالب المحدثين وقال أبو حاتم: هو الصحيح، وفى الهدى أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وسئل أبو سعيد الضرير عن ذلك فأنشد:

إن الذبيح هديت إسمعيل ... نص الكتاب بذاك والتنزيل
شرف به خص الاله نبينا ... وأتى به التفسير والتأويل
إن كنت أمته فلا تنكر له ... شرفا به قد خصه التفضيل

وفى دعواه النص نظر وهو المشهور عند العرب قبل البعثة أيضا كما يشعر به أبيات نقلها الثعالبى فى تفسير عن أمية بن أبى الصلت واستدل له بانه الذى وهب لابراهيم عليه السلام اثر الهجرة وبان البشارة باسحق

www.Quranpdf.blogspot.in

بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ، والظاهر التغاير فيتعين كونه إسمعيل وبانه بشر بان يوجد وينبأ فلا يجوز ابتلاء ابراهيم عليه السلام بذبحه لأنه علم أن شرط وقوعه منتف ، والجواب بان الأول بشارة بالوجود وهذا بشارة بالنبوة ولكن بعد الذبح- قال صاحب الكشف- ضعيف لأن نظم الآية لا يدل على أن البشارة بنبوته بل على أن البشارة بامر مقيد بالنبوة فاما أن يقدر بوجود اسحق بعد الذبح ولا دلالة فى اللفظ عليه وإما أن يقدر الوجود مطلقا وهو المطلوب، فان قلت: يكفى فى الدلالة تقدم البشارة بالوجود أولا قلت: ذاك عليك لا لك ومن يسلم أن المتقدم بشارة باسحق حتى يستتب لك المرام وبان البشارة به وقعت مقرونة بولادة يعقوب منه على ما هو الظاهر فى قوله تعالى فى هود (فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب) ومتى بشر بالولد وولد الولد دفعة كيف يتصور الأمر بذبح الولد مراهقا قبل ولادة ولده ،ومنع كونه إذ ذاك مراهقا لجواز أن يكون بالغا كما ذهب إليه اليهود قد ولد له يعقوب وغيره مكابرة لا يلتفت إليها وبانه تعالى وصف اسمعيل عليه السلام بالصبر فى قوله سبحانه (واسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) وبانه عزوجل وصفه بصدق الوعد فى قوله تعالى (إنه كان صادق الوعد) ولم يصف سبحانه إسحق بشىء منهما فهو الأنسب دونه بأن يقول القائل (ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) المصدق قوله بفعله وبان ما وقع كان بمكة واسمعيل هو الذى كان فيها وبان قرنى الكبش كانا معلقين فى الكعبة حتى احترقا معها أيام حصار الحجاج بن الزبير رضى الله تعالى عنه وكانا قد توارثهما قريش خلفا عن سلف، والظاهر أن ذاك لم يكن منهم إلا للفخر ولا يتم لهم إذا كان الكبش فدى لاسحق دون أبيهم اسمعيل، وبانه روى الحاكم فى المستدرك وابن جرير فى تفسيره. والأموى فى مغازيه. والخلعى فى فوائده من طريق اسمعيل بن أبى كريمة عن عمر بن أبى محمد الخطابى عن العتبى عن أبيه عن عبدالله بن سعيد الصنابحى قال : حضرنا مجلس معاوية فتذاكر القوم اسمعيل واسحق أيهما الذبيح؟ فقال بعض القوم: اسمعيل وقال بعضهم: بل اسحق فقال معاوية: على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله ﷺ فاتاه أعرابى فقال: يارسول الله خلفت الكلأ يابسا والماء عابسا هلك العيال وضاع المال فعد على مما أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه فقال القوم: من الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ قال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله تعالى إن سهل أمرها أن ينحر بعض بنيه فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبدالله فاراد أن ينحره فمنعه أخواله بنو مخزوم وقالوا : ارض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة قال معاوية: هذا واحد والآخر اسماعيل وبانه ذكر فى التوراة أن الله تعالى امتحن ابراهيم فقال له: ياابراهيم فقال: لبيك قال: خذ ابنك وحيدك الذى تحبه وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قربانا على أحد الجبال الذى أعرفك به فان معنى وحيدك الذى ليس لك غيره ولا يصدق ذلك على اسحق حين الأمر بالذبح لأن اسمعيل كان موجوداً إذ ذاك لأنه ولد لابراهيم على مافى التوراة وهو ابن ست وثمانين سنة وولد اسحق على ما فيها أيضا وهو ابن مائة سنة، وأيضا قوله تعالى الذى تحبه أليق باسمعيل لأن أول ولد له من المحبة فى الأغلب ماليس لمن بعده من الأولاد، ويعلم مما ذكر أن مافى التوراة الموجودة بايدى اليهود اليوم من ذكر هو إسحق بعد الذى تحبه من زياداتهم وأباطيلهم التى أدرجوها فى كلام الله تعالى إذ لا يكاد يلتئم مع ماقبله، وأجاب بعض اليهود عن ذلك بان إطلاق الوحيد على اسحق لأن

www.Quranpdf.blogspot.in

اسمعيل كان إذ ذاك بمكة وهو تحريف وتاويل باطل لأنه لا يقال الوحيد وصفا للابن إلا إذا كان واحدا في البنوة ولم يكن له شريك فيها، وقال لي بعضهم: إن إطلاق ذلك عليه لأنه كان واحدا لأمه ولم يكن لها ابن غيره فقلت: يبعد ذلك كل التبعيد إضافته إلى ضمير إبراهيم عليه السلام، ويؤيد ماقلنا ماقاله ابن إسحق ذكر محمد بن كعب أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى رجل كان يهوديا فاسلم وحسن اسلامه وكان من علمائهم فسأله أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسمعيل: والله ياأمير المؤمنين وان يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، وذكر ابن كثير أن في بعض نسخ التوراة بكرك بدل وحيدك وهو أظهر في المطلوب، وقيل: هو إسحق ونسبه القرطبي للاكثرين وعزاه البغوي . وغيره إلى عمر . وعلي . وابن مسعود. والعباس. وعكرمة. وسعيد بن جبير . ومجاهد . والشعبي . وعبيد بن عمير . وأبي ميسرة . وزيد بن أسلم . وعبد الله بن شقيق . والزهري . والقاسم بن يزيد . ومكحول . وكعب . وعثمان بن حاضر . والسدي . والحسن . وقتادة . وأبي الهذيل . وابن سابط . ومسروق . وعطاء . ومقاتل وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس واختاره أبو جعفر ابن جرير الطبري وجزم به القاضي عياض في الشفاء . والسهيلي في التعريف والأعلام واستدل له بأنه لم يذكر الله تعالى أنه بشر باسمعيل قبل كونه فهو إسحق لثبوته بالنص ولأنه لم تكن تحته هاجر أم إسمعيل فالمدعو ولد من سارة، وأجيب بأنه كفى هذه الآية دليلا على أنه مبشر به أيضا لأن قوله تعالى: (وبشرناه باسحق) بعد استيفاء هذه القصة وتذييلها بما ذيل ظاهر الدلالة على أن هنالك بشارتين متغايرتين ثم عدم الذكر لا يدل على عدم الوجود ولا يلزم أن يكون طالب ولد من سارة ولا علم أنه عليه السلام دعا بذلك قبل أن وهبت هاجر منه لأنها أهديت اليه في حران قبل الوصول إلى الشام على أن البشارة باسحق كانت في الشام نصا فظاهر هذه الآية أنها قبل الوصول اليها لأن البشارة عقيب الدعا وكان قبل الوصول الى الشام قاله في الكشف *

وبما رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « الذبيح إسحق » *

وتعقب بأن الحسن بن دينار متروك وشيخه منكر الحديث، وبما أخرج الديلمي في مسند الفردوس من طريق عبد الله بن ناجية عن محمد بن حرب النسائي عن عبد المؤمن بن عباد عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن داود سأل ربه مسألة فقال اجعلني مثل ابراهيم وإسحق ويعقوب فاوحى الله تعالى اليه إني ابتليت ابراهيم بالنار فصبر وابتليت اسحق بالذبح فصبر وابتليت يعقوب فصبر » وبما أخرجه الدارقطني . والديلمي في مسند الفردوس من طريقه عن محمد بن أحمد بن ابراهيم الكاتب عن الحسين بن فهم عن خلف بن سالم عن بهز بن أسد عن شعبة عن أبي إسحق عن أبي الاحوص عن ابن مسعود قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذبيح اسحق» وبما أخرجه الطبراني في الأوسط. وابن أبي حاتم في تفسيره من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى وسلم ان الله تعالى خيرني بين أن يغفر انصف أمتي او شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأمتي ولولا الذي سبقني اليه العبد الصالح لعجلت دعوتي إن الله تعالى لما فرج عن إسحق كرب الذبح قيل له: يا اسحق سل تعطه قال: أما والله لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان

www.Quranpdf.blogspot.in

اللهم من مات لايشرك بك شيئا قد أحسن فاغفر له » وتعقب هذا بأن عبد الرحمن ضعيف ، وقال ابن كثير الحديث غريب منكر وأخشى أن يكون فيه زيادة مدرجة وهى قوله: إن الله تعالى لما فرج الخ وإن كان محفوظا فالأشبه ان السياق عن اسمعيل وحرفوه باسحاق إلى غير ذلك من الأخبار وفيها من الموقوف والضعيف والموضوع كثير ، ومتى صح حديث مرفوع فى أنه اسحق قبلناه ووضعناه على العين والرأس *

والذاهبون الى هذا القول يدعون صحة شيء منها فى ذلك. وأجيب عن بعض ما استدل به للاول بأن وقوع القصة بمكة غير مسلم بل كان ذلك بالشام وتعليق القرنين فى الكعبة لا يدل على وقوعها بمكة لجواز أنهما نقلا من بلاد الشام الى مكة فعلقا فيها، وعلى تسليم الوقوع بمكة لا مانع من أن يكون ابراهيم قد سار به من الشام اليها بل قد روى القول به، أخرج عبد الله بن احمد فى زوائد الزهد عن سعيد بن جبير قال: لما رأى ابراهيم فى المنام ذبح اسحق سار به من منزله الى المنحر بمنى مسيرة شهر فى غداة واحدة فلما صرف عنه الذبح وأمر بذبح الكبش ذبحه ثم راح به رواحا إلى منزله فى عشية واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال، وأمر الفخر لو سلم ليس بالاستدلال به كثير فخر، والخبر الذى فيه يا ابن الذبيحين غريب وفى اسناده من لا يعرف حاله وفيه ماهو ظاهر الدلالة على عدم صحته من قوله فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبد الله فان عبد الله باجماع أهل الاخبار لم يكن مولودا عند حفر زمزم، وقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده تروى بوجه آخر وهو انه نذر الذبح اذا بلغ أولاده عشرا فلما بلغوها بولادة عبد الله كان ما كان *

وما شاع من خبر أنا ابن الذبيحين قال العراقى لم أقف عليه، والخبر السابق بعد ماعرف حاله لا يكفى لثبوته حديثا فلا حاجة إلى تأويله بأنه أريد بالذبيحين فيه اسحق وعبد الله بناء على أن الأب قد يطلق على العم أو أريد بهما الذابحان وهما ابراهيم وعبد المطلب بحمل فعيل على معنى فاعل لا مفعول، وحمل هؤلاء (وبشرناه باسحق نبياً) على البشارة بنبوته وماتقدم على البشارة بأن يوجد قبل ولما كان التبشير هناك قبل الولادة والتسمية إنما تكون بعدها فى الأغلب لم يسم هناك وسماه هنا لأنه بعد الولادة واستأنس للاتحاد بوصفه بكونه من الصالحين لأن مطلوبه كان ذلك فكأنه قيل له هذا الغلام الذى بشرت به أولا هو ماطابته بقولك (رب هب لى من الصالحين) وأنت تعلم أن حمله على البشارة بالنبوة خلاف الظاهر إذ كان الظاهر أن يقال لو أريد ذلك بشرناه بنبوته ونحوه. وتقدير أن يوجد نبيا لا يدفعه كما لا يخفى وكذا وصفه بالصلاح الذى طلبه فتامل *

ومن العلماء من رأى قوة الأدلة من الطرفين ولم يترجح شيء منها عنده فتوقف فى التعيين كالجلال السيوطى عليه الرحمة فانه قال فى آخر رسالته السابقة: كنت مات إلى القول بان الذبيح اسحق فى التفسير وأنا الآن متوقف عن ذلك ، وقال بعضهم كما نقله الخفاجى: إن فى الدلالة على كونه إسحق أدلة كثيرة وعليه جلة أهل الكتاب ولم ينقل فى الحديث ما يعارضه فلعله وقع مرتين مرة بالشام لاسحق ومرة بمكة لاسمعيل عليهما السلام، والتوقف عندى خير من هذا القول، والذى أميل أنا إليه أنه اسمعيل عليه السلام بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الالباب ،

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ البحث الثاني ﴾ أنه استدل بما في القصة على جواز النسخ قبل الفعل وهو مذهب كثير من الاصوليين وخالف فيه المعتزلة والصيرفي، ووجه الاستدلال على ماقرره بعض الاجلة أن ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ولده بدليل قوله (افعل ماتؤمر) ولانه عليه السلام أقدم على الذبح وترويع الولد ولولم يكن مأمورا به لكان ذلك ممتنعا شرعا وعادة ونسخ عنه قبل الفعل لأنه لم يفعل ولوكان ترك الفعل مع حضور الوقت لكان عاصيا ه

واعترض عليه بانا لانسلم أنه لولم يفعل وقدحضر الوقت لكان عاصيا لجواز أن يكون الوقت موسعا فيحصل التمكن فلا يعصى بالتأخير ثم ينسخ. وأجيب أما اولا فبأنه لوكان موسعا لكان الوجوب متعلقا بالمستقبل لأن الأمر باق عليه قطعا فاذا نسخ فقد نسخ تعلق الوجوب بالمستقبل وهو المانع من النسخ عندهم فانهم يقولون: إذا تعلق الوجوب بالمستقبل مع بقاء الأمر عليه امتنع رفع ذلك التعلق بالنهي عنه والالزم توارد الامر والنهي على شيء واحد وهو محال، فاذا جوزوا النسخ في الواجب الموسع في وقته قبل فعله مع أن الوجوب فيه تعلق بالمستقبل والامر باق عليه فقد اعترفوا بجواز مامنعوه وهو المطلوب، وأما ثانيا فبانه لوكان موسعا لأخر الفعل ولم يقدم على الذبح وترويع الولد عادة إما رجاء أن ينسخ عنه وإما رجاء أن يموت فيسقط عنه لعظم الامر ومثله مما يؤخر عادة. وتعقب هـــذا بأن عادة الانبياء عليهم السلام المبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى على خلاف عادة أكثر الناس ولاتستبعد منهم خوارق العادات وابراهيم من أجلهم قدرا سلمنا أن العادة ولو بالنسبة إلى الانبياء تقتضي التأخير لكن من أين علم أنه عليه السلام لم يؤخر إلى آخر الوقت اتباعا للعادة فالمعول عليه الجواب الأول وبه يتم الاستدلال، وربما دفعوه بوجوه أخر، منها أنه لم يؤمر بشيء وإنما توهم ذلك توهما بارادة الرؤيا ولو سلم فلم يؤمر بالذبح إنما أمر بمقدماته من اخراج الولد وأخذه المدية وتله للجبين، وتعقب هذا بأنه ليس بشيء لما مر من قوله (افعل ماتؤمر) واقدامه على الذبح والترويع المحرم لولا الامر كيف ويدل على خلافه قوله تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) وقوله سبحانه (وفديناه بذبح عظيم) ولولا الامر لما كان بلاء مبينا ولما احتاج إلى الفداء، وكون الفداء عن ظنه أنه مأمور بالذبح لايخفى حاله، وعلى أصل المعتزلة هو توريط لابراهيم عليه السلام في الجهل بما يظهر أنه أمر وليس بامر وذلك غير جائز، ومن لايجوز الظن الفاسد على الانبياء عليهم السلام فهذا عنده أدنى من لاشيء، ومنها أنا لانسلم أنه لم يذبح بل روى أنه ذبح وكان كلما قطع شيئا يلتحم عقيب القطع وأنه خلق صفيحة نحاس أوحديد تمنع الذبح، وتعقب بأن هذا لايسمع، أما أولا فلأنه خلاف العادة والظاهر ولم ينقل نقلا معتبرا. واجيب بأن الرواية سند للمنع والضعف لاينافيه والاحتمال كاف في المقام ولاريب في جوازه كارسال الكبش من الجنة. وأما ثانيا فلأنه لوذبح لما احتيج إلى الفداء، وكونه لأن الازهاق لم يحصل ليس بشيء، ولومنع الذبح بالصفيحة مع الامر به لكان تكليفا بالمحال وهم لايجوزونه ثم قد نسخ عنه والا لأثم بتركه فيكون نسخا قبل التمكن فهو لنا لا علينا. ومن السادة الحنفية من قال: مانحن فيه ليس من النسخ لأنه رفع الحكم لا إلى بدل وهنا له بدل قائم مقامه كالفدية للصوم في حق الشيخ الفاني فعلم أنه لم يرفع حكم المأمور به. وفي التلويح فان قيل: هب أن الخلف قام مقام الاصل لكنه استلزم حرمة الاصل أي ذبحه وتحريم الشيء بعد وجوبه نسخ لامحالة لرفع حكمه، قيل: لانسلم كونه نسخا وإنما يلزم لوكان حكما شرعيا

www.Quranpdf.blogspot.in

وهو ممنوع فان حرمة ذبح الولد ثابتة فى الاصل فزالت بالوجوب ثم عادت بقيام الشاة مقام الولد فلاتكون حكما شرعيا حتى يكون ثبوتها نسخا للوجوب انتهى، وتعقب بأن هذا بناء على ماتقرر من أن رفع الاباحة الاصلية ليس نسخا أما على أنه نسخ كما التزمه بعض الحنفية اذ لااباحة ولاتحريم الابشرع كما قرروه يكون رفع الحرمة الأصلية نسخا وإذا كان رفعها نسخا أيضا يبقى الايراد المذكور من غير جواب على ماقرر فى شرح التحرير، هذا وتمام الكلام فى حجة الفريقين مفصل فى أصول الفقه وهذا المقدار كاف لغرض المفسر •

(البحث الثالث) أنه استدل أبو حنيفة بالقصة على أن لو نذر أن يذبح ولده فعليه شاة، ووافقه فى ذلك محمد، ونقله الامام القرطبي عن مالك. وفى تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار نذر أن يذبح ولده فعليه شاة لقصة الخليل عليه السلام وألغاه الثانى والشافعي كنذره قتله (١) ونقل الجصاص أن نذر القتل كنذر الذبح، واعترض على الامام بانه نذر معصية وجاء لانذر فى معصية الله تعالى، وقال هو: إن ذلك فى شرع ابراهيم عليه السلام عبارة عن ذبح شاة ولم يثبت نسخه فليس معصية، وقال بعض الشافعية: ليس فى النظم الجليل ما يدل على أنه كان نذرا من ابراهيم عليه السلام حتى يستدل به. وأجيب بأنه ورد فى التفسير المأثور أنه نذر ذلك وهو فى حكم النص ولذا قيل له لما بلغ معه السعي: أوف بنذرك، وبأنه إذا قامت الشاة مقام ماأوجبه الله تعالى عليه علم قيامها مقام مايوجبه على نفسه بالطريق الأولى فيكون ثابتا بدلالة النص، والانصاف أن مدرك الشافعي. وأبي يوسف عليهما الرحمة أظهر وأقوى من مدرك الامام الأعظم رضى الله تعالى عنه فى هذه المسألة فتأمل ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ١١٤﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ١١٥﴾ هذا ومابعده من قبيل عطف الخاص على العام، والكرب العظيم تغلب فرعون ومن معه من القبط، وقيل الغرق وليس بذاك ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ الضمير لهما مع القوم وقيل لهما فقط وجيء به ضمير جمع لتعظيمهما ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ١١٦﴾ بسبب ذلك على فرعون وقومه، و(هم) يجوز أن يكون فصلا أو توكيداً أو بدلا، والتنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص عن المكروه بدأ بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغلب عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها ﴿وَآتَيْنَاهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ١١٧﴾ أى البليغ فى البيان والتفصيل كما يشعر به زيادة البنية وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ بذلك ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١١٨﴾ الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ ١١٩ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٢٢﴾ الكلام فيه نظير ماسبق فى نظيره ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ قال الطبرى: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هرون أخى موسى عليهما السلام فهو إسرائيلي من سبط هرون، وحكى القتيبي أنه من سبط

(١) قوله «كنذره قتله» قال الخفاجي عليه كفارة يمين عند الثاني نذر الذبح أو القتل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

يوشع ، وحكى الطبرسى أنه ابن عم اليسع وأنه بعث بعد حزقيل، وفى العجائب للكرمانى أنه ذو الكفل، وعن وهب أنه عمر كما عمر الخضر ويبقى إلى فناء الدنيا *

وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه موكل بالفيافى والخضر بالبحار والجزائر وانهما يجتمعان بالموسم فى كل عام، وحديث اجتماعه مع النبى ﷺ فى بعض الأسفار وأكله معه من مائدة نزلت عليهما عليهما الصلاة والسلام من السماء هى خبز وحوت وكرفس وصلاتهما العصر معا رواه الحاكم عن أنس وقال: هذا حديث صحيح الاسناد وكل ذلك من التعمير ومابعده لايعول عليه . وحديث الحاكم ضعفه البيهقى ، وقال الذهبى . موضوع قبح الله تعالى من وضعه ثم قال: وما كنت أحسب ولاأجوز أن الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحح هذا ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن عساكر : عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس، ونقل عنه أنه قرأ (وإن إدريس لمن المرسلين) والمستفيض عنه أنه قرأ كالجمهور نعم قرأ ابن وثاب. والأعمش. والمنهال بن عمرو. والحكم بن عتيبة الكوفى كذلك *

وقرئ (إدراس) وهو لغة فى إدريس كابراهام فى ابراهيم، وإذا فسر إلياس بادريس على أن أحد اللفظين اسم والآخر لقب فان كان المراد بهما من سمعت نسبه فلا بأس به وإن كان المراد بهما إدريس المشهور الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا وهو على ماقيل أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم وكان على ماذكره المؤرخون قبل نوح، وفى المستدرك عن ابن عباس أن بينه وبين نوح ألف سنة، وعن وهب أنه جد نوح أشكل الأمر فى قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) لأن ضمير (ذريته) إما أن يكون لابراهيم لأن الكلام فيه وإما أن يكون لنوح لأنه أقرب ولأن يونس ولوطا ليسا من ذرية ابراهيم، وعلى التقديرين لايتسنى نظم إلياس المراد به ادريس الذى هو قبل نوح على ماسمعت فى عداد الذرية، ويرد على القول بالاتحاد مطلقا أنه خلاف الظاهر فلا تغفل *

وقرأ عكرمة . والحسن بخلاف عنهما. والأعرج . وأبو رجاء . وابن عامر . وابن محيصن (وإن الياس) بوصل الهمزة فاحتمل أن يكون قد وصل همزة القطع واحتمل أن يكون اسمه يأسا ودخلت عليه أل كما قيل فى اليسع، وفى حرف أبى ومصحفه (وإن ايليس) بهمزة مكسورة بعدها ياء أيضا ساكنة آخر الحروف بعدها لام مكسورة بعدها ياء أيضا ساكنة وسين مهملة مفتوحة *

﴿ إذْ قَالَ لِقَوْمِه ﴾ وهم على المشهور فى الياس سبط من بنى اسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة اليوم ببعلبك وزعم بعضهم أنها كانت تسمى بكة وقيل بك بلا هاء ثم سميت بما عرف على طريق التركيب المزجى، و(إذ) عند جمع مفعول اذكر محذوفا أى اذكر وقت قوله لقومه ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ ﴾ عذاب الله تعالى ونقمته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أى أتعبدونه أو تطلبون حاجكم منه، وهو اسم صنم لهم كما قال الضحاك. والحسن وابن زيد ، وفى بعض نسخ القاموس أنه لقوم يونس، ولامانع من أن يكون لهما أو ذلك تحريف، قيل وكان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى

www.Quranpdf.blogspot.in

أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل فى جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وقيل هو اسم امرأة أتتهم بضلالة فاتبعوها واستؤنس له بقراءة بعضهم، (بعلاء) بالمد على وزن حمراء، وظاهر صرفه أنه عربى على القولين فلا تغفل.

وقال عكرمة. وقتادة، البعل الرب بلغة اليمن: وفى رواية أخرى عن قتادة بلغة أزدشنوءة، واستام ابن عباس ناقة رجل من حمير فقال له أنت صاحبها؟ قال: بعلها فقال ابن عباس أتدعون بعلا: أتدعون ربا ممن أنت؟ قال: من حمير، والمراد عليه أتدعون بعض البعول أى الأرباب والمراد بها الأصنام أو المعبودات الباطلة فالتنكير للتبعيض فيرجع لما قيل قبله ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ١٢٥ ﴾ أى وتتركون عبادته تعالى أو طلب جميع حاجكم منه عز وجل على أن الكلام على حذف مضاف، وقيل إن المراد بتركهم اياه سبحانه تركهم عبادته عز وجل والمراد بالخالق من يطلق عليه ذلك، وله بهذا الاعتبار أفراد وان اختلفت جهة الاطلاق فيها فلا اشكال فى اضافة افعل الى مابعده، وهاهنا سؤال مشهور وهو ماوجه العدول عن تدعون بفتح التاء والدال مضارع ودع بمعنى ترك الى (تذرون) مع مناسبته ومجانسته لتدعون قبله دون تذرون وأجيب عن ذلك باجوبة. الأول أن فى ذلك نوع تكلف والجناس المتكلف غير ممدوح عند البلغاء ولا يمدح عندهم مالم يجىء عفوا بطريق الاقتضاء ولذا ذموا متكلفه فقيل فيه:

طبع المجنس فيه نوع قيادة   أو ماترى تأليفه للأحرف

قاله الخفاجى، وفى كون هذا البيت فى خصوص المتكلف نظر وبعد فيه مافيه، الثانى أن فى تدعون إلباسا على من يقرأ من المصحف دون حفظ من العوام بأن يقرأه كتدعون الاول ويظن أن المراد إنكار بين دعاء بعل ودعاء احسن الخالقين، وليس بالوجه إذ ليس من سنة الكتاب ترك ما يلبس على العوام كما لا يخفى على الخواص.

والصحابة أيضا لم يراعوهم والا لما كتبوا المصحف غير منقوط ولا اذا شكل كما هو المعروف اليوم، وفى بقاء الرسم العثمانى معتبرا إلى انقضاء الصحابة مايؤيد ماقلنا، الثالث أن التجنيس تحسين وإنما يستعمل فى مقام الرضا والاحسان لا فى مقام الغضب والتهويل، وفيه أنه وقع فيما نفاه قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) وقال سبحانه (يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الابصار) وفيهما الجناس التام ولا يخفى حال المقام، الرابع مانقل عن الامام فانه سئل عن سبب ترك تدعون إلى (تذرون) فقال: ترك لانهم اتخذوا الاصنام آلهة وتركوا الله تعالى بعد ماعلموا أن الله سبحانه ربهم ورب آبائهم الأولين استكبارا واستنكارا فلذلك قيل (وتذرون) ولم يقل وتدعون، وفيه القول بأن دع أمر بالترك قبل العلم وذر أمر بالترك بعده ولا تساعده اللغة والاشتقاق، الخامس أن لا انكار كل من فعلى دعاء بعل وترك احسن الخالقين علة غير علة إنكار الآخر فترك التجنيس رمزاً إلى شدة المغايرة بين الفعلين، السادس أنه لما لم يكن مجانسة بين المفعولين بوجه من الوجوه ترك التجنيس فى الفعلين المتعلقين بهما وإن كانت المجانسة المنفية بين المفعولين شيئاً والمجانسة التى نحن بصددها بين الفعلين شيئاً آخر، وكلا الجوابين كما ترى، السابع أن يدع إنما استعملته العرب فى الترك الذى لا يذم مرتكبه لأنه من الدعة بمعنى الراحة ويذر بخلافه لأنه يتضمن اهانة وعدم اعتداد لانه من الوذر قطعة اللحم الحقيرة التى لا يعتد بها. واعترض بأن المتبادر من قوله بخلافه أن يذر إنما استعملته العرب فى الترك

www.Quranpdf.blogspot.in

الذى ينم مرتكبه فيرد عليه قوله تعالى (فذرهم وما كانوا يفترون) وقوله سبحانه (وذروا ما بقى من الربا) إلى غير ذلك وفيه تأمل . الثامن أن يدع أخص من يذر لانه بمعنى ترك الشيء مع اعتناء به بشهادة الاشتقاق نحو الايداع فانه ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها ونحوه موادعة الاحباب وأما يذر فمعناه الترك مطلقا أو مع الاعراض والرفض الكلى، قال الراغب: يقال فلان يذر الشيء أى يقذفه لقلة الاعتداد به ومنه الوذر وهو ما سمعت آنفا، ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول إذ المراد تبشيع حالهم فى الاعراض عن ربهم وهو قريب من سابقه لكنه سالم عن بعض ما فيه. التاسع أن فى تدعون بفتح التاء والدال ثقلا ما لا يخفى على ذى الذوق السليم والطبع المستقيم (وتذرون) سالم عنه فلذا اختير عليه فتأمل والله تعالى أعلم، وقد أشار سبحانه وتعالى بقوله (أحسن الخالقين) إلى المقتضى للانكار المعنى بالهمز وصرح به للاعتناء بشأنه فى قوله تعالى :

﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ١٢٦﴾ بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين، قال أبو حيان: ويجوز كون ذاك عطف بيان إن قلنا إن إضافة أفعل التفضيل محضة ، وقرأ غير واحد من السبعة بالرفع على أن الاسم الجليل مبتدأ و(ربكم) خبره أو هو خبر مبتدا محذوف وربكم عطف بيان أو بدل منه، وروى عن حمزة أنه إذا وصل نصب و إذا وقف رفع ، والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم الاولين لتأكيد انكار تركهم إياه تعالى والاشعار ببطلان آراء آبائهم أيضا ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما تضمنه كلامه من إيجاب الله تعالى التوحيد وتحريمه سبحانه الاشراك وتعذيبه تعالى عليه ، وجوز أن يكون تكذيبهم راجعا إلى ما تضمنه قوله الله ربكم ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧ ﴾ أى فى العذاب وإنما اطلقه اكتفاء بالقرينة أو لأن الاحضار المطلق مخصوص بالشر فى العرف العام أو حيث استعمل فى القرآن لاشعاره بالجبر ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ١٢٨ ﴾ استثناء متصل من الواو فى كذبوه فيدل على أن من قومه مخلصين لم يكذبوه، ومنع كونه استثناء متصلا من ضمير (محضرون) لأنه للمكذبين فاذا استثنى منه اقتضى أنهم كذبوه ولم يحضروا وفساده ظاهر ، وقيل : لأنه إذا لم يستثن من ضمير كذبوا كانوا كلهم مكذبين فليس فيهم مخلص فضلا عن مخلصين وما آله ما ذكر ، لكن اعترضه ابن كمال بانه لافساد فيه لأن استثناءهم من القوم المحضرين لعدم تكذيبهم على ما دل عليه التوصيف بالمخلصين لامن المكذبين فما آل المعنى واحد.

ورد بأن ضمير محضرين للقوم كضمير كذبوا . وقال الخفاجى: لايخفى أن اختصاص الاحضار بالعذاب كما صرح به غير واحد يعين كون ضمير محضرين للمكذبين لالمطلق القوم فان لم يسلمه فهو أمر آخر، وفى البحر ولا يناسب أن يكون استثناء منقطعا إذ يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير قومه لا يحضرون فى العذاب وفيه بحث.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٢٩ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٣٢ ﴾ الكلام فيه كما فى نظيره بيد أنه يقال ههنا إن ال ياسين لغة فى الياس وكثيرا ما يتصرفون فى الاسماء الغير العربية . وفى الكشاف لعل لزيادة الياء والنون معنى فى اللغة السريانية ، ومن هذا الباب سيناء وسينين، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل ، وقيل : هو جمع الياس على طريق التغليب باطلاقه على قومه وأتباعه كالمهلبين للمهلب وقومه.

وضعف بما ذكره النحاة من أن العلم إذا جمع أو ثنى وجب تعريفه باللام جبرا لما فاته من العلمية ، ولا فرق فيه بين ما فيه تغليب وبين غيره كما صرح به ابن الحاجب فى شرح المفصل، لكن هذا غير متفق عليه ، قال ابن يعيش:

www.Quranpdf.blogspot.in

فى شرح المفصل:(١) يجوز استعماله نكرة بعد التثنية والجمع نحو زيدان كريمان وزيدون كريمون ، وهو مختار الشيخ عبد القاهر وقد أشبعوا الكلام على ذلك فى مفصلات كتب النحو ، ثم أن هذا البحث إنما يتأتى مع من لم يجعل لام الياس للتعريف أما من جعلها له فلا يتأتى البحث معه ، وقيل : هو جمع الياسى بياء النسبة فخفف لاجتماع الياآت فى الجر والنصب كما قيل اعجمين فى أعجميين وأشعرين فى أشعريين ، والمراد بالياسين قوم الياس المخلصون فانهم الاحقاء بأن ينسبوا اليه ، وضعف بقلة ذلك والباسه بالياس إذا جمع وإن قيل : حذف لام الياس مزيل للالباس ، وأيضا هو غير مناسب للسياق والسباق إذ لم يذكر آل أحد من الانبياء‌ه

وقرأ نافع . وابن عامر . ويعقوب .وزيد بن على (آل ياسين) بالاضافة ، وكتب فى المصحف العثمانى منفصلا ففيه نوع تأييد لهذه القراءة ، وخرجت عن أن ياسين أسم أبى الياس ويحمل الآل على الياس وفى الكناية عنه تفخيم له كما فى آل ابراهيم عن نبينا ﷺ ، وجوز أن يكون الآل مقحما على أن ياسين هو الياس نفسه‌ه

وقيل : ياسين فيها اسم لمحمد ﷺ فآل ياسين آله عليه الصلاة والسلام ، أخرج ابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى (سلام على آل ياسين) نحن آل محمد آل ياسين ، وهو ظاهر فى جعل ياسين اسماله ﷺ ، وقيل: هو اسم للسورة المعروفة ، وقيل: اسم للقرآن فآل ياسين هذه الامة المحمدية أو خواصها‌ه

وقيل : اسم لغير القرآن من الكتب ، ولا يخفى عليك أن السياق والسباق يأبيان أكثر هذه الاقوال ‌ه

وقرأ أبو رجاء .والحسن (على الياسين) بوصل الهمزة وتخريجها يعلم مما مر . وقرأ ابن مسعود ومن قرأ معه فيما سبق ادريس (سلام على ادراسين) وعن قتادة (وأن ادريس) وقرأ (على ادريسين) وقرأ أبى (على ايليس) كما قرأ (وان ايليس لمن المرسلين) ‌ه

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٣٤ (١) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ١٣٦ ﴾ سبق بيانه فى الشعراء ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ على منازلهم فى متاجركم إلى الشام فان سذوم (٢) فى طريقه ﴿ مُصْبِحِينَ ١٣٧ ﴾ داخلين فى الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ قيل أى ومساء بأن يراد بالليل أوله لأنه زمان السير ولوقوعه مقابل الصباح ، وقيل : أى نهارا وليلا وهو تأويل قبل الحاجة ولذا اختير الأول ، ووجه التخصيص عليه بأنه لعل سدوم وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد مساء ، وقال بعض الاجلة : لو أبقى على ظاهره لأن ديار العرب لحرها يسافر فيها فى الليل إلى الصباح خلا عن التكلف فى توجيه المقابلة ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨ ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فان منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ومخالفة الرسول قدر مشترك بينكم ‌ه

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٩ ﴾ يروى على ما فى البحر أنه عليه السلام نبىء وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وحكى فى البحر أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس وهو ابن متى بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور ، وهل هذا اسم أمه أو أبيه فيه خلاف فقيل اسم امه وهو المذكور فى تفسير عبد الرزاق ، وقيل :

---

(١) وهو فى عشرة أجزاء من أنفس كتب النحو وقد طبعناه والحمد لله (٢) قال الضحاك مسخت حجراً وكانت تسمى هيشفع انتهى منه (٣) سذوم بالدال المهملة والذال المعجمة بلد قوم لوط عليه السلام ‌ه

www.Quranpdf.blogspot.in

اسم أبيه وهذا - كما قال ابن حجر - أصح ، وبعض أهل الكتاب يسميه يونان ابن مائى ، وبعضهم يسميه يونه ابن امتياى ، ولم نقف فى شىء من الاخبار على اتصال نسبه ، وفى اسمه عند العرب ست لغات تثليث النون مع الواو والياء والهمزة ، والقراءة المشهورة بضم النون مع الواو . وقرأ أبو طلحة بن مصرف بكسر النون قيل أراد أن يجعله عربيا مشتقا من أنس وهو كما ترى ﴿ إذْ أَبَقَ ﴾ هرب ، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه كما هو الانسب بحال الانبياء عليهم السلام حسن اطلاقه عليه فهو إما استعارة أو مجاز مرسل من استعمال المقيد فى المطلق ، والأول أبلغ ، وقال بعض الكمل : الاباق الفرار من السيد بحيث لا يهتدى اليه طالب أى بهذا القصد ، وكان عليه السلام هرب من قومه بغير اذن ربه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجدوه فاستعير الاباق لهربه باعتبار هذا القيد لا باعتبار القيد الاول ، وفيه بعد تسليم اعتبار هذا القيد على ماذكره بعض أهل اللغة أنه لا مانع من اعتبار ذلك القيد فلا اعتبار بنفى اعتباره ﴿ إلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١٤٠ ﴾ المملوء ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ فقارع عليه السلام من فى الفلك ، واستدل به من قال بمشروعية القرعة

﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ١٤١ ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة ، وأصله المزلق اسم مفعول عن مقام الظفر ، يروى أنه وعد قومه العذاب وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة ايام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن يأذن الله تعالى له ففقده قومه فخرجوا بالكبير والصغير والدواب وفرقوا بين كل والدة وولدها فشارف نزول العذاب بهم فعجوا إلى الله تعالى وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله تعالى وصرف عنهم العذاب فلما لم ير يونس نزول العذاب استحى أن يرجع اليهم وقال : لا أرجع اليهم كذابا أبدا ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت فلم تسر فقال صاحبها . ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشؤما فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة فى الماء فوقعت على يونس ثم أعادوا فوقعت عليه ثم أعادوا فوقعت عليه فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى الماء ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ أى ابتلعه من اللقمة ، وفى خبر أخرجه أحمد . وغيره عن ابن مسعود أنه أتى قوما فى سفينة فحملوه وعرفوه فلما دخلها ركدت والسفن تسير يمينا وشمالا فقال : مابال سفينتكم؟ قالوا : ماندرى قال : ولكنى ادرى إن فيها عبدا آبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه قالوا : أما أنت والله يانبى الله فلا نلقيك فقال لهم : اقترعوا فمن قرع فليلق فاقترعوا ثلاث مرات وفى كل مرة تقع القرعة عليه فرمى بنفسه فكان ماقص الله تعالى . وكيفية اقتراعهم على مافى البحر عن ابن مسعود أنهم أخذوا لكل سهما على أن من طفا سهمه فهو ومن غرق سهمه فليس اياه فطفا سهم يونس . وروى أنه لما وقف على شفير السفينة ليرمى بنفسه رأى حوتا - واسمه على ماأخرج ابن أبى حاتم وجماعة عن قتادة نجم - قد رفع رأسه من الماء قدر ثلاثة أذرع يرقبه ويترصده فذهب إلى ركن آخر فاستقبله الحوت فانتقل إلى آخر فوجده وهكذا حتى استدار بالسفينة فلما رأى ذلك عرف أنه أمر من الله تعالى فطرح نفسه فاخذه قبل أن يصل إلى الماء ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ ﴾ أى داخل فى الملامة على أن بناء افعل للدخول فى الشىء نحو أحرم إذا دخل الحرم أو آت بما يلام عليه على أن الهمزة فيه للصيرورة نحو أغد البعير أى صار ذا غدة فهو هنا لما أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم أو مليم نفسه على أن الهمزة فيه للتعدية نحو أقدمته والمفعول محذوف ، وماروى عن ابن عباس . ومجاهد من تفسيره

www.Quranpdf.blogspot.in

بالمسىء والمذنب فبيان لحاصل المعنى وحسنات الابرار سيئات المقربين . وقرىء (مليم) بفتح أوله اسم مفعول وقياسه ملوم لأنه واوى يقال لمته ألومه لوما لكنه جىء به على ليم كما قالوا مشيب ومدعى فى مشوب ومدعو بناء على شيب ودعى وذلك أنه لما قلبت الواو ياء فى المجهول جعل كالاصل فحمل الوصف عليه *

(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ١٤٣) أى من الذاكرين الله تعالى كثيرا بالتسبيح كما قيل ، وفى كلام قتادة مايشعر باعتبار الكثرة ، واستفادتها على ماقال الخفاجى من جعله من المسبحين دون أن يقال مسبحا فانه يشعر بأنه عريق فيهم منسوب اليهم معدود فى عدادهم ومثله يستلزم الكثرة ، وقيل : من التفعيل . ورد بأن معنى سبح لم يعتبر فيه ذلك إذ هو قال سبحان الله ، وقد يقال : هى من ارادة الثبوت من (المسبحين) فانه يشعر بأن التسبيح ديدن لهم ، والمراد بالتسبيح ههنا حقيقته وهو القول المذكور أومافى معناه وروى ذلك عن ابن جبير *

وهذا الكون عند بعض قبل التقام الحوت إياه أيام الرخاء ، واستظهر أبو حيان أنه فى بطن الحوت وأن التسبيح ماذكره الله تعالى فى قوله سبحانه : (فنادى فى الظلمات أن لا إله إنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وحمله بعضهم على الذكر مطلقا ، وبعض آخر على العبادة كذلك ، وجماعة منهم ابن عباس على الصلاة بل روى عنه أنه قال : كل مافى القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة، وأنت تعلم أنه ان كان اللفظ فيما ذكر حقيقة شرعية ولم يكن للتسبيح حقيقة أخرى شرعية أيضا لم يحتج إلى قرينة ، وان كان مجازا أو كان للتسبيح حقيقة شرعية أخرى احتيج الى قرينة فان وجدت فذاك والافالأمر غير خفى عليك، وكما اختلف فى زمان التسبيح بالمعنى السابق اختلف فى زمانه بالمعانى الآخر ، أخرج أحمد فى الزهد . وغيره عن ابن جبير فى قوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين) قال : من المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت ، وأخرج أحمد وغيره أيضا عن الحسن فى الآية قال : ما كان الا صلاة أحدثها فى بطن الحوت فذكر ذلك لقتادة فقال : لا إنما كان يعمل فى الرخاء ،وروى عن الحسن غير ماذكر ، فقد أخرج عنه ابن أبى حاتم . والبيهقى فى شعب الايمان . والحاكم أنه قال فى الآية : كان يكثر الصلاة فى الرخاء فلما حصل فى بطن الحوت ظن أنه الموت فحرك رجليه فاذا هى تتحرك فسجد وقال : يارب اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يسجد فيه أحد *

وأخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك بن قيس قال : اذكروا الله تعالى فى الرخاء يذكركم فى الشدة فان يونس عليه السلام كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين) الخ وإن فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله تعالى فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فقيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) *

والأولى حمل زمان كونه من المسبحين على مايعم زمان الرخاء وزمان كونه فى بطن الحوت فان لاتصافه بذلك فى كلا الزمانين مدخلا فى خروجه من بطن الحوت المفهوم من قوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين)

(لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤) كما يشعر به مافى حديث أخرجه عبدالرزاق . وابن جرير . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أنس مرفوعا من أنه عليه السلام لما التقمه الحوت وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الارض سمع تسبيح الأرض فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة : ياربنا انا نسمع صوتا ضعيفا من بلاد غربة قال سبحانه : وماتدرون

www.Quranpdf.blogspot.in

ماذا ؟ قالوا : لا يا ربنا قال : ذاك عبدي يونس قالوا : الذي كنا لانزال نرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة؟ قال: نعم قالوا : يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء وتنجيه عند البلاء ؟ قال: بلى فأمر عز وجل الحوت فلفظه ﻫ

واستظهر ابو حيان أن المراد بقوله سبحانه (للبث فى بطنه) الخ لبقى فى بطنه حيا الى يوم البعث وبه أقول. وتعقب بأنه ينافيه ماورد من أنه لايبقى عند النفخة الأولى ذو روح من البشر والحيوان فى البر والبحر . وأجيب بعد تسليم ورود ذلك أو ما يدل عليه بأنه مبالغة فى طول المدة مع أنه فى حيز لو فلا يرد رأسا (١) أو المراد بوقت البعث ما يشمل زمان النفخة لأنه من مقدماته فكأنه منه ، وعن قتادة لكان بطن الحوت قبرا له ، وظاهره أنه أريد للبث ميتا فى بطنه الى يوم البعث ، ولا مانع من بقاء بنية الحوت كبنيته من غير تساقط البلاء الى ذلك اليوم ، وضمير (يبعثون) لغير مذكور وهو ظاهر ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه فالاسناد مجازى ، والنبذ على ما فى القاموس طرحك الشيء أماما أو وراءأو هو عام ﻫ

وقال الراغب : النبذ القاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، والمراد به هنا الطرح والرمى والقيد الذى ذكره الراغب لا أرغب فيه فانه عليه السلام وان أبق وخرج من غير اذن مولاه واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه فالرب عز وجل بأنبيائه رحيم وله سبحانه فى كل شأن اعتدادبهم عظيم فهو عليه السلام معتد به فى حال الالقاء وان كان ذلك ﴿بِالعَرَاءِ﴾ أى بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت ، يروى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس ويونس يسبح حتى انتهوا الى البر فلفظه . ورد بأنه يأباه قوله تعالى (فنادى فى الظلمات) وأجيب بأنه بمجرد رفع رأسه للتنفس لايخرج منها ، ثم ان هذا لئلا يختنق يونس أو تنحصر نفسه بحكم العادة لا ليمتنع دخول الماء جوف الحوت حتى يقال السمك لا يحتاج لذلك ، ومع هذا نحن لا نجزم بصحة الخبر فقد روى أيضا أنه طاف به البحار كلها ثم نبذه على شط دجلة قريب نينوى بكسر النون الأولى وضم الثانية كما فى الكشف من أرض الموصل ، والالتقام كان فى دجلة أيضا على ماصرح به البعض وخالف فيه أهل الكتاب ، وسيأتى ان شاء الله تعالى نقل كلامهم لك فى هذه القصة لتقف على مافيه ﻫ

والظاهر أن الحوت من حيتان دجلة أيضا وقد شاهدنا فيها حيتانا عظيمة جدا ، وقيل كان من حيتان النيل. أخرج ابن أبى شيبة عن وهب أنه جلس هو وطاوس ونحوهما من أهل ذلك الزمان فذكروا أى أمر الله تعالى أسرع ؟ فقال بعضهم : قول الله تعالى (كلمح البصر) وقال بعضهم : السرير حين أتى به سليمان ، وقال وهب : أسرع أمر الله تعالى أن يونس على حافة السفينة إذ أوحى الله سبحانه إلى نون فى نيل مصر فما خرج من حافتها الا فى جوفه ، ولا شبهة فى أن قدرة الله عز وجل أعظم من ذلك لكن الشبهة فى صحة الخبر ﻫ

وكأنى بك تقول: لا شبهة فى عدم صحته ·واختلف فى مدة لبثه فأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد · وغيره عن الشعبي قال : التقمه الحوت ضحى ، ولفظه عشية وكأنه أراد حين أظلم الليل ، وأخرج عبد بن حميد . وغيره عن قتادة قال : إنه لبث فى جوفه ثلاثا ، وفى كتب أهل الكتاب ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وعن عطاء وابن جبير سبعة أيام ، وعن الضحاك عشرين يوما ، وعن ابن عباس . وابن جريج · وأبى مالك · والسدى. ومقاتل بن سليمان . والكلبي · وعكرمة أربعين يوما ، وفى البحر مايدل على أنه لم يصح خبر فى مدة لبثه عليه

(١) أو أنه يبقى حيا الى وقت النفخة ثم يموت مع من يموت ويبقى الى يوم البعث فى بطن الحوت فلا اشكال اﻫ عبد الله نجل المصنف

www.Quranpdf.blogspot.in

السلام فى بطن الحوت ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ ﴾ مما ناله ، قال ابن عباس . والسدى : إنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد ، وعن ابن جبير أنه عليه السلام ألقى ولا شعر له ولا جلد ولاظفر ، ولعل ذلك يستدعي بحكم العادة ان لمدة لبثه فى بطن الحوت طولا ما *

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ١٤٦ ﴾ أى أنبتناها مطلة عليه مظلة له كالخيمة فعليه حال من (شجرة) قدمت عليها لانها نكرة ، واليقطين يفعيل من قطن بالمكان إذا اقام به ، وزاد الطبرسى إقامة زائل لاإقامة راسخ ، والمراد به على ما جاء عن الحسن السبط . وابن عباس فى رواية . وابن مسعود . وأبى هريرة . وعمرو بن ميمون . وقتادة . وعكرمة . وابن جبير . ومجاهد فى إحدى الروايتين عنهما الدباء وهو القرع المعروف ، وكان النبي ﷺ يحبه ، وأنبتها الله تعالى مطلة عليه لأنها تجمع خصالا برد الظل والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقع عليها على ما قيل ، وكان عليه السلام لرقة جلده بمكثه فى بطن الحوت يؤذيه الذباب ومماسة مافيه خشونة ويؤلمه حر الشمس ويستطيب بارد الظل فلطف الله تعالى به بذلك ، وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده ، واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشكل تفسير الشجرة هنا بالدباء *

وأجاب أبو حيان بأنه يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقا للعادة ، وقال الكرمانى : العامة تخصص الشجر بماله ساق ، وعند العرب كل شيء له أرومة تبقى فهو شجر وغيره نجم ، ويشهد له قول أفصح الفصحاء ﷺ شجرة الثوم انتهى *

وقال بعض الأجلة : لك أن تقول أصل معناه ماله أرومة لكنه غلب فى عرف أهل اللغة على ماله ساق وأغصان فاذا أطلق يتبادر منه المعنى الثانى وإذا قيد كما هنا * وفى الحديث يرد على أصله وهو الظاهر ، ثم ذكر أن ما قاله أبو حيان تمحل فى محل لامجال للرأى فيه . وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن ابن جبير أنه قال : كل شجرة لاساق لها فهى من اليقطين والذى يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء ، وفى رواية اخرى عنه أنه سئل عن اليقطين أهو القرع ؟ قال : لاولكنها شجرة سماها الله تعالى اليقطين أظلته *

وفى رواية عن ابن عباس أنه كل شيء ينبت ثم يموت من عامه ، وفى أخرى كل شيء يذهب على وجه الأرض *

وقيل شجرة اليقطين هى شجرة الموز تغطى بورقها واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها ، وقيل شجرة التين والأصح ما تقدم *

وروى عن قتادة أنه عليه السلام كان يأكل من ذلك القرع ، وجاء فى رواية عن أبى هريرة أنه قال : طرح بالعراء فأنبت الله تعالى عليه يقطينة فقيل له : ما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء هيأ الله تعالى له أروية وحشية تأكل من حشاش الأرض فتفسح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبتت ، وقيل : إنه كان يستظل بالشجرة وتختلف إليه الأروية فيشرب من لبنها ، وفى بعض الآثار أنها نبتت وأظلته فى يومها *

أخرج أحمد فى الزهد . وغيره عن وهب أنه لما خرج من البحر نام نومة فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين وهى الدباء فأظلته وبلغت فى يومها فرآها قد أظلته ورأى خضرتها فاعجبته ثم نام نومة فاستيقظ فاذا هى قد يبست فجعل يحزن عليها فقيل له : أنت الذى لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن عليها وأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق عليك وهؤلاء هم أهل نينوى المعنيون بقوله تعالى :

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ والارسال على ماأخرج غير واحد عن مجاهد . والحسن. وقتادة هو الارسال الأول الذى كان قبل أن يلتقمه الحوت فالعطف على قوله تعالى : (وإن يونس) الخ على سبيل البيان لدلالته على ابتداء الحال وانتهائه وعلى ماهو المقصود من الارسال من الايمان ، واعترض بينهما بقصته اعتناء بها لغرابتها . وأورد عليه أنه يأبى عن حمله على الارسال الأول الفاء فى قوله تعالى : ﴿فَآمَنُوا﴾ فان أولئك لم يؤمنوا عقيب ارساله الأول بل بعدما فارقهم . وأجيب بأنه تعقيب عرفى نحو تزوج فولد له ه

وقيل :الأقرب أن الفاء للتفصيل أو السببية ، وقيل هو إرسال ثان إليهم بعد أن أصابه ما أصابه فالعطف على ماعنده ه

وأورد عليه أن المروى أنهم بعد مفارقته لهم رأوا العذاب أو خافوه فآمنوا فقوله تعالى (فآمنوا) فى النظم الجليل هنا يأبى عن حمله على إرسال ثان . وأجيب بأنه يجوز أن يكون الايمان المقرون بحرف التعقيب إيمانا مخصوصاً أو أن آمنوا بتأويل أخلصوا الايمان وجددوه لأن الأول كان إيمان بأس ، وقيل هو إرسال إلى غيرهم ، وقيل : إن الأولين بعد أن آمنوا سالوه أن يرجع اليهم فابى لأن النبى إذا هاجر عن قومه لم يرجع اليهم مقيما فيهم وقال لهم : إن الله تعالى باعث إليكم نبيا . وفى خبر طويل أخرجه أحمد فى الزهد . وجماعة عن ابن مسعود أنه عليه السلام بعد أن نبذ بالعراء وأنبت الله تعالى عليه الشجرة وحسن حاله خرج فاذا هو بغلام يرعى غنما فقال : ممن أنت ياغلام؟ قال :من قوم يونس قال :فاذا رجعت اليهم فاقرئهم السلام وأخبرهم أنك لقيت يونس فقال له الغلام : إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قتل فمن يشهد لى؟ قال : تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة فقال الغلام ليونس :مرهما فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له قالتا : نعم فرجع الغلام إلى قومه وكان له اخوة فكان فى منعة فاتى الملك فقال : إنى لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام فامر به الملك أن يقتل فقال : إن لى بينة فارسل معه فانتهوا إلى الشجرة والبقعة فقال لهما الغلام نشدتكما بالله هل أشهدكما يونس قالتا : نعم فرجع القوم مذعورين يقولون : تشهد لك الشجرة والأرض فاتوا الملك فحدثوه بما رأوا فتناول الملك يد الغلام فاجلسه فى مجلسه وقال : أنت أحق بهذا المكان منى وأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ، وهذا دال بظاهره أنه عليه السلام لم يرجع بعد أن أصابه ما أصابه إليهم فان صح يراد بالارسال هنا إما الارسال الأول الذى تضمنه قوله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين) وإما إرسال آخر إلى غير أولئك القوم ، والمعروف عند أهل الكتاب أنه عليه السلام لم يرسل الا الى أهل نينوى، وسيأتى ان شاء الله تعالى قريبا تفصيل قصته عندهم ؛ و(أو) على مانقل عن ابن عباس بمعنى بل، وقيل: بمعنى الواو وبها قرأ جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنهما، وقيل: للابهام على المخاطب ، وقال المبرد . وكثير من البصريين: للشك نظرا الى الناظر من البشر على معنى من رآهم شك فى عددهم وقال مائة ألف أو يزيدون والمقصود بيان كثرتهم أو أن الزيادة ليست كثيرة كثرة مفرطة كما يقال هم ألف وزيادة ، وقال ابن كمال :المراد يزيدون باعتبار آخر وذلك أن المكلفين بالفعل منهم كانوا مائة ألف واذا ضم اليهم المراهقون الذين بصدد التكليف كانوا أكثر ؛ ومن ههنا ظهر وجه التعبير بصيغة التجدد دون الثبات . وتعقب بانه مع أن المناسب له الواو تكلف ركيك ، وأقرب منه أن الزيادة بحسب الارسال الثانى ويناسبه صيغة التجدد وان كانت للفاصلة ، وهو معطوف على جملة (أرسلنا) بتقدير هم يزيدون لا على (مائة) بتقدير أشخاص يزيدون أو تجريده للمصدرية

www.Quranpdf.blogspot.in

فانه ضعيف ، والزيادة على ماروى عن ابن عباس ثلاثون الفا ، وفى أخرى عنه بضعة وثلاثون ألفا ، وفى أخرى بضعة وأبعون ألفا ، وعن نوف . وابن جبير سبعون ألفا ، وأخرج الترمذى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى (وأرسلناه الى مائة ألف أويزيدون) قال: يزيدون عشرين الفا ، واذا صح هذا الخبر بطل ماسواه ٭

﴿ فَتَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ بالحياة ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨ ﴾ إلى آجالهم المسماة فى الأزل قاله قتادة . والسدى ، وزعم بعضهم أن تمتيعهم بالحياة إلى زمان المهدى وهم إذا ظهر من أنصاره فهم اليوم احياء فى الجبال والقفار لايراهم كل أحد كالمهدى عند الامامية والخضر عند بعض العلماء والصوفية، وربما يكشف لبعض الناس فيرى أحدا منهم ، وهو كذب مفترى ، ولعل عدم ختم هذه القصة والقصة التى قبلها بنحو ماختم به سائر القصص من قوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين سلام) الخ تفرقة بين شأن لوط . ويونس عليهما السلام وشأن أصحاب الشرائع الكبر وأولى العزم من المرسلين مع الاكتفاء فيهما بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور فى آخر السورة ولتأخرهما فى الذكر قربا منه والله تعالى أعلم ٭ والمذكور فى شأن يونس عليه السلام فى كتب أهل الكتاب أن الله عز وجل أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى وكانت إذ ذاك عظيمة جدا لاتقطع إلا فى نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم فاستعظم الأمر وهرب الى ترسيس فجاء يافافوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها الى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق ففزع الملاحون ورموا فى البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس الى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم اليه الرئيس فقال له : مابالك نائما ؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا ، وقال بعضهم لبعض : تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له : أخبرنا ماذا عملت ومن أين أتيت والى أين تمضى ومن أى كورة أنت ومن أى شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفا عظيما . وقالوا له : لم صنعت ما صنعت يلومونه على ذلك ثم قالوا له : مانصنع الآن بك ليسكن البحر عنا ؟ فقال : ألقونى فى البحر يسكن فانه من أجلى صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوها الى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه فى البحر لنجاة جميع من فى السفينة فسكن البحر وأمر الله تعالى حوتا عظيما فابتلعه فبقى فى بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى فى بطنه الى ربه واستغاث به ، فأمر سبحانه الحوت فالقاه إلى اليبس ثم قال عز وجل له : قم وامض إلى نينوى وناد فى اهلها كما امرتك من قبل فمضى عليه السلام ونادى وقال : تخسف نينوى بعد ثلاثة ايام فآمنت رجال نينوى بالله تعالى ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعا ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحا وجلس على الرماد ونودى أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاما ولاشرابا وجأروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله تعالى فلم ينزل بهم العذاب فحزن يونس وقال : الهى من هذا هربت فانى علمت أنك الرحيم الرؤف الصبور التواب يارب خذ نفسى فالموت خير لى من الحياة فقال : يايونس حزنت من هذا جدا ؟ فقال: نعم يارب وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى مايكون فى المدينة

www.Quranpdf.blogspot.in

فأمر الله تعالى يقطينا فصعد على رأسه ليكون ظلا له من كربه ففرح باليقطين فرحا عظيما وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس عليه السلام فعظم الامر عليه واستطيب الموت فقال له الرب: يايونس احزنت جدا على اليقطين؟ فقال: نعم يارب حزنت جدا فقال سبحانه: حزنت عليه وانت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فانا لااشفق على نينوى المدينة العظيمة التى فيها سكان اكثر من اثنى عشر ربوة من الناس قوم لايعلمون يمينهم ولاشمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى، وفيه من المخالفة للحق مافيه؛ ولتطلع على حاله نقلته لك وكم لأهل الكتاب من باطل:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ١٤٩﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ فى صدر السورة الكريمة بتبكيت قريش وابطال مذهبهم فى انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين الناطقة بتحققه لامحالة وبين وقوعه ومايلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل سبحانه مالهم من النعيم المقيم، ثم ذكر سبحانه أنه قد ضل من قبلهم اكثر الأولين وأنه تعالى ارسل اليهم منذرين على وجه الاجمال، ثم اورد قصص بعض الانبياء عليهم السلام بنوع تفصيل متضمنا كل منها مايدل على فضلهم وعبوديتهم له عز وجل، ثم امره ﷺ ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ماتنكره العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض اجناس العرب جهينة. وسليم. وخزاعة. وبنى مليح: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا، ثم بتبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثا، ثم أبطل سبحانه أصل كفرهم المنطوى على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ولم ينظمه سبحانه فى سلك التبكيت لمشاركتهم اليهود القائلين عزير ابن الله والنصارى المعتقدين عيسى ابن الله تعالى الله عن ذلك، والفاء قيل لترتيب الامر على مايعلم مما سبق من كون أولئك الرسل اعلام الخلق عليهم السلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد فكأنه قيل: إذا كان رسل ربك من علمت حالهم فاستخبر هؤلاء الكفرة عن وجه كون البنات وهن أوضع الجنسين له تعالى بزعمهم والبنين الذين هم أرفعهما لهم فانهم لايستطيعون أن يثبتوا له وجها لأنه فى غاية البطلان لايقوله من له أدنى شيء من العقل، وقال بعض الاجلة: الكلام متصل بقوله تعالى فى أول السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقا) على أن الفاء هنا للعطف على ذلك، والتعقيب لأنه امر بهما من غير تراخ، وهى هناك جزائية فى جواب شرط مقدر؛ وبهذا القول اقول. واورد عليه ابوحيان أن فيه الفصل الطويل وقد استقبح النحاة الفصل بجملة نحو اكلت لحما واضرب زيدا وخبزا فما ظنك بالفصل بجمل بل بما يقرب من سورة. وأجيب بأن ماذكر فى عطف المفردات وأما الجمل فلاستقلالها يغتفر فيها ذلك، والكلام هنا لما تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه واخذ بعضها بحجز بعض حتى كأن الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعدا كما قيل:

وليس يضير البعد بين جسومنا ... إذا كان مابين القلوب قريبا

ووجه ترتب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه فان كونه تعالى رب السموات والأرض وتلك الخلائق العظيمة كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال على تنزهه سبحانه عن الولد، ألا ترى الى قوله جل شأنه (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد) والمناسبة بين الرد على منكرى البعث

www.Quranpdf.blogspot.in

والرد على مثبتي الولد ظاهرة ، وقد اتحد في الجملتين السائل والمسؤول والأمر ؛ وجوز بعضهم كون ضمير (استفتهم) للمذكورين من الرسل عليهم السلام والبواقي لقريش ، والمراد الاستفتاء ممن يعلم أخبارهم ممن يوثق بهم ومن كتبهم وصحفهم أي ما منهم أحد الا وينزه الله تعالى عن أمثال ذلك حتى يونس عليه السلام في بطن الحوت ، ولعمري أن الرجل قد بلغ الغاية من التكلف من غير احتياج اليه ، ولعله لو استغنى عن ارتكاب التجوز بالتزام كون الاستفتاء من المرسلين المذكورين حيث يجتمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معهم اجتماعا روحانيا كما يدعيه لنفسه الشيخ محيي الدين قدس سره مع غير واحد من الأنبياء عليهم السلام ويدعى أن الأمر بالسؤال المستدعي للاجتماع أيضا في قوله تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) على هذا النمط لكان الأمر أهون وإن كان ذلك منزعا صوفيا *

وأضيف الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دون ضميرهم تشريفاً لنبيه ﷺ وإشارة إلى أنهم في قولهم بالبنات له عز وجل كالنافين لربوبيته سبحانه لهم ، وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا ﴾ اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأقواهم وأعظمهم تقدسا عن النقائص الطبيعية إناثا والأنوثة من أخس صفات الحيوان *

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ١٥٠ ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى : (أشهدوا خلقهم) فان أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة اذ لا سبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً عند خلقهم ، والجملة اما حال من فاعل (خلقنا) أي بل أخلقناهم إناثا والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف على (خلقنا) أي بل أهم شاهدون *

وقوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء مسوق لابطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الافك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٥٢ ﴾ فيما يتدينون به مطلقا أو في هذا القول ، وفيه تأكيد لقوله تعالى : (من افكهم) وقرىء (ولد الله) بالاضافة ورفع ولد على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ليقولون الملائكة ولد الله والولد فعل بمعنى مفعول يقع على المذكر والمؤنث والواحد والجمع ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدر ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ١٥٣ ﴾ بهمزة مفتوحة هي حرف استفهام حذفت بعدها همزة الوصل والاستفهام للانكار والمراد اثبات افكهم وتقرير كذبهم ، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه *

وقرأ نافع في رواية اسمعيل . وابن جماز . وجماعة . واسماعيل عن أبي جعفر . وشيبة (اصطفى) بكسر الهمزة وهي همزة الوصل وتكسر اذا ابتدىء بها وخرجت على حذف أداة الاستفهام لدلالة أم بعد وان كانت منقطعة غير معادلة لها لكثرة استعمالها معها ، وجوز ابقاء الكلام على الاخبار اما على اضمار القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ أو يقولون اصطفى الخ على ماقيل : أو على الابدال من قولهم ولد الله أو الملائكة ولد الله وليس دخيلا بين نسيبين ، والأولى التخريج على حذف الأداة وحسم البحث فتأمل *

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ ﴾ بهذا الحكم الذي تقضي ببطلانه بداهة العقول والالتفات لزيادة التوبيخ

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾ بحذف أحد التاءين من تتذكرون . وقرأ طلحة بن مصرف تذكرون بسكون الذال وضم الكاف من ذكر . والفاء للعطف على مقدر أى تلاحظون ذلك فلا تذكرون بطلانه فانه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ١٥٦﴾ اضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا أى بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٥٧﴾ فيها، والأمر للتعجيز، واضافة الكتاب اليهم للتهكم، وفى الآيات من الانباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم مالا يخفى على من تأمل فيها، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفات إلى الغيبة للايذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى لآخرين جناياتهم، واستظهر أن المراد بالجنة الشياطين وأريد بالنسب المجعول المصاهرة.

أخرج آدم بن أبى أياس . وعبد بن حميد . وابن جرير . وغيرهم عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله تعالى فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أى على سبيل التبكيت: فمن أمهاتهم؟ فقالوا: بنات سروات الجن وروى هذا ابن أبى حاتم عن عطية، أو أريد جعلوا بينه سبحانه وبينهم مناسبة حيث أشركوهم به تعالى فى استحقاق العبادة وروى هذا عن الحسن، وقيل إن قوما من الزنادقة يقولون الله عز وجل وإبليس عليه اللعنة أخوان فالله تعالى هو الخير الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله سبحانه: (وجعلوا) الخ وحكى هذا الطبرسى عن الكلبى، وقال الامام الرازى: وهذا القول عندى أقرب الأقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن ويعبرون عنهما بالنور والظلمة، ويبعد هذا القول عندى أن الظاهر أن ضمير (جعلوا) كالضمائر السابقة لقريش ولم يشتهر ذلك عنهم بل ولا عن قبيلة من قبائل العرب وليس المقام للرد على الكفرة مطلقا.

وأخرج غير واحد عن مجاهد . وعبد بن حميد عن عكرمة . وابن أبى شيبة عن أبى صالح أن المراد بالجنة الملائكة، وحكاه فى مجمع البيان عن قتادة واختاره الجبائى، والمراد بالجعل المذكور ماتضمنه قولهم الملائكة بنات الله، وأعيد تمهيدا لما يعقبه، وهو مبنى على أن الجن والملك جنس واحد مخلوقون من عنصر واحد وهو النار لكن من كان من كثيفها الدخانى فهو شيطان وهو شرذ وتمرد ومن كان من صافى نورها فهو ملك وهو خير كله، ووجه التسمية بالجن الاستتار عن عيوننا فالجن والجنة بمعنى مفعول من جنه إذا ستره، ويكون على هذا تخصيص الجن بأحد نوعيه تخصيصا طارئا كتخصيص الدابة، وعلى الأصل جاء ماهنا، ونقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان نوعا من الملائكة عليهم السلام يسمى الجن ومنهم إبليس، وعبر عن الملائكة بالجنة حطا لهم مع عظم شأنهم فى أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها اليهم فى قولهم ذلك، وقد يقال: إن الاستتار كالداعى لهم الى ذلك الزعم الباطل بناء على توهمهم بأنه إنما يليق بالاناث فقالوا: لو لم يكونوا بناته سبحانه وتعالى لما سترهم عن العيون فلذا عبر عنهم بالجنة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٥٨﴾ أى والله لقد علمت الشياطين أى جنسهم ان الله تعالى يحضرهم ولا بد النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو

www.Quranpdf.blogspot.in

شركاء في استحقاق العبادة أو التصرف لما عذبهم سبحانه فضمير (انهم) للجنة على ماعدا الوجه الأخير من الأوجه السابقة واما عليه فهو للكفرة أي والله لقد علمت الملائكة الذين جعلوا بينه تعالى وبينهم نسبا وقالوا هم بناته أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم في قولهم ذلك، والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان ان الذين يدعى لهم هؤلاء تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ويحكمون بانهم معذبون لأجله حكما مؤكدا، ويجوز على الأوجه الأول عود الضمير على الكفرة أيضا والمعنى على نحو ماذكر، وعلم الملائكة أن الكفرة معذبون ظاهر، وعلم الشياطين بانهم أنفسهم وكذا سائر الكفرة معذبون لما أن الله عز وجل توعد إبليس عليه اللعنة بما يدل على ذلك *

وقوله سبحانه ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ ﴾ على جميع الأوجه السابقة تنزيه من جهته تعالى لنفسه عن الوصف الذي لايليق به، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٠ ﴾ استثناء منقطع من المحضرين ومابينهما اعتراض أي ولكن المخلصون ناجون، وجوز كونه استثناء متصلا منه ويفسر ضمير (أنهم) بما يعم وهو خلاف الظاهر

وجوز كونه استثناء منقطعا من ضمير (يصفون) وكونه استثناء متصلا منه وهو خلاف الظاهر أيضا *

وجوز كونه استثناء من ضمير (جعلوا) على الانقطاع لاغير ومافي البين اعتراض، واختار الواحدي الوجه الأول. قال الطيبي: ويحسن كل الحسن إذا فسر الجنة بالشياطين أي وضمير (أنهم) بالكفرة ليرجع معناه إلى قوله تعالى حكاية عن اللعين (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) أي أنهم لمحضرون النار ومعذبون حيث أطاعونا في اغوائنا إياهم لكن الذين أخلصوا الطاعة لله تعالى وطهروا قلوبهم من أرجاس الشرك وأنجاس الكفر والرذائل ما عمل فيهم كيدنا فلا يحضرون ويكون ذلك مدحا للمخلصين وتعريضا بالمشركين وارغاما لأنوفهم ومزيدا لغيظهم أي أنهم بخلاف ماهم عليه من سفه الأحلام وجهل النفوس وركاكة العقول اه. وفي بيان المعنى نوع قصور، وقوله تعالى:

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ١٦٣ ﴾ عود إلى خطابهم، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم هذا أو إذا كان المخلصون ناجين (فانكم) الخ، والواو للعطف (وما تعبدون) معطوف على الضمير في (إنكم) وضمير (عليه) لله عز وجل والجار متعلق بفاتنين وعدى بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء وهو استعارة من قولهم فتن غلامه أو امرأته عليه إذا أفسده والباء زائدة وهو خبر ما، والجملة خبر إن والاستثناء مفرغ من مفعول فاتنين المقدر و(أنتم) خطاب للكفرة ومعبوديهم على سبيل التغليب نحو أنت وزيد تخرجان أي ماأنتم ومعبودوكم مفسدين أحدا على الله عز وجل باغوائكم إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها ويدخلها لامحالة .

وجوز كون الواو هنا مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فجملة (ماأنتم عليه) الخ مستقلة ليست خبرا لإن وضمير (عليه) لما بتقدير مضاف وهو متعلق بفاتنين أيضا بتضمينه معنى البعث أو الحمل ولاتغليب في الخطاب كأنه قيل: إنكم وآلهتكم قرناء لاتبرحون تعبدونها ثم قيل ماأنتم على عبادة ماتعبدون بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والاضلال أحدا الا من سبق في علمه تعالى أنه من أهل النار، وظاهر صنيع بعضهم أن أمر

www.Quranpdf.blogspot.in

التغليب فى (أنتم) على هذا على حاله، وأنت تعلم أن الظاهر الاتصال، وجوز أن يراد معنى المعية وخبر إن جملة (ما أنتم عليه) الخ ويكون الكلام على أسلوب قول الوليد بن عقبة بن أبى معيط عامله الله تعالى بما هو أهله يحض معاوية على حرب الأمير على كرم الله تعالى وجهه :

فانك والكتاب إلى على كدابغة وقد حلم الأديم

قال فى الكشف : ومعنى الآية أى عليه أنكم يا كفرة مع معبوديكم لايتسهل لكم إلا أن تفتنوا من هو صال مثلكم ، وهو بيان لخلاصة المعنى، واستظهر أبو حيان العطف وكون الضمير للعبادة وتضمين فاتنين معنى الحمل وتغليب المخاطب على الغائب فى (أنتم) وكون الجملة المنفية خبر إن . وحكى عن بعضهم القول بأن على بمعنى الباء والضمير المجرور به لما تعبدون فتأمل ، وقرأ الحسن ، وابن أبى عبلة (صالوا الجحيم) بالواو وعلى ما فى كتاب الكامل للهذلى ، وفى كتاب ابن خالويه عنهما (صال) بالضم ولا واو . وفى اللوامح والكشاف عن الحسن (صالوا الجحيم) بضم اللام فعلى إثبات الواو هو جمع سلامة سقطت النون للاضافة، وفى الكلام مراعاة لفظ من أولا ومعناها ثانيا كما هو قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وعلى عدم إثباتها فيه ثلاثة أوجه ، الأول أن يكون جمعاً حذفت النون منه للاضافة ثم واو الجمع لالتقاء الساكنين وأتبع الخط اللفظ *

الثانى أن يكون مفردا حذفت لامه وهى الياء تخفيفا وجعلت كالمنسى وجرى الاعراب على عينه كما جرى على عين يد ودم وعلى ذلك قوله تعالى : (وجنى الجنتين دان) وقوله سبحانه (وله الجوار المنشآت) بضم نون (دان) وراء (الجوار) وقولهم ماباليت به بالة فان أصل بالة بالية بوزن عافية حذفت لامه فأجرى الاعراب على عينه ولما لحقته الهاء انتقل اليها ، الثالث أن يكون مفرداً أيضا ويكون أصله صائل على القلب المكانى بتقديم اللام على العين ثم حذفت اللام المقدمة وهى الياء فبقى صال بوزن فاع وصار معربا كباب ونظيره شاك الجارى إعرابه على الكاف فى لغة، وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ١٦٤﴾ حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية للرد على من يزعم فيهم خلافها فهو من كلامه تعالى لكنه حكى بلفظهم وأصله وما منهم إلا الخ أى وما منا إلا له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى فى تدبير العالم مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته تعالى وخشوعا لهيبته سبحانه وتواضعا لجلاله جل شأنه كما روى «فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لايرفع رأسه» وقد أخرج الترمذى وحسنه . وابن ماجه . وابن مردويه عن أبى ذر قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إنى أرى مالاترون وأسمع مالاتسمعون إن السماء أطت وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضعاً جبهته ساجداً لله»*

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . وأبو الشيخ . ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «مافى السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة وما منا إلا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون » وعن السدى (إلا له مقام معلوم) فى القرب والمشاهدة ، وجعل بعضهم ذلك من كلام الجنة بمعنى الملائكة متصلا بما قبله من كلامهم وهو من قوله تعالى (سبحان الله عما يصفون) إلى (المسبحون) فقال بعد أن فسر الجنة بالملائكة: إن (سبحان الله عما يصفون) حكاية

www.Quranpdf.blogspot.in

لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على (علمت) و(إلا عباد الله المخلصين) شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئتهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على أبلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو (يصفون) كأنه قيل: ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفون لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف، و(فإنكم) الخ تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبريهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) وقولهم (وما منا إلا له مقام) الخ تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ماذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وجعل تفسير الجنة بالملائكة هو الوجه لاقتضاء ربط الآيات وتوجيهها بما ذكر إياه وفى التعليل شىء، نعم إن هذه الآية تقوى قول من يقول: المراد بالجنة فيما سبق الملائكة عليهم السلام تقوية ظاهرة جدا وإن الربط الذى ذكر فى غاية الحسن، وقيل: هو من قول الرسول عليه الصلاة والسلام أى وما من المسلمين إلا له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وهو متصل بقوله (فاستفتهم) كأنه قيل فاستفتهم وقل وما منا الخ على معنى بكتهم بذلك وانع عليهم كفرانهم وعدد ما أنت وأصحابك متصف به من أضدادها، وإن شئت لم تقدر قل بعد علمك بأن المعنى ينساق إليه وهو بعيد فافهم والله تعالى أعلم.

و(منا) خبر مقدم والمبتدأ محذوف للاكتفاء بصفته وهى جملة له مقام أى (ما منا) أحد إلا له مقام معلوم. وحذف الموصوف بجملة أو شبهها إذا كان بعض ماقبله من مجرور بمن أو فى مطرد وهذا اختيار الزمخشرى.

وقال أبو حيان (منا) صفة لمبتدأ محذوف والجملة المذكورة هى الخبر أى وما أحد كائن منا إلا له مقام معلوم وتعقب مامر بأنه لاينعقد كلام من ما منا أحد، وقوله سبحانه (إلا له مقام معلوم) هو محط الفائدة فيكون هو الخبر وإن تخيل أن إلا بمعنى غير وهى صفة لايصح لأنه لايجوز حذف موصوفها وفارقت غيرا إذا كانت صفة فى ذلك لتمكن غير فى الوصف وقلة تمكن إلا فيه، وقال غيره: إن فيه أيضا التفريغ فى الصفات وهم منعوا ذلك، ودفع بأنه ينعقد منه كلام مفيد مناسب للمقام إذ معناه ما منا أحد متصف بشىء من الصفات إلا بصفة أن يكون له مقام معلوم لايتجاوزه والمقصود بالحصر المبالغة أو يقال إنه صفة بدل محذوف أى ما منا أحد إلا أحد له مقام معلوم كما قاله ابن مالك فى نظيره، وفيه أن فيه اعترافا بأن المقصود بالافادة تلك الجملة وهو يستلزم أولوية كونها خبرا وما ذكر من احتمال كونه صفة لبدل محذوف فليس بشىء لأن فيه حذف المبدل والمبدل منه ولا نظير له، وبالجملة ماذكره أبو حيان أسلم من القيل والقال، نعم قيل يجوز أن يقال: القصد هنا ليس إفادة مضمون الخبر بل الرد على الكفرة ولذا جعل الظرف خبرا وقدم فالمعنى ليس منا أحد يتجاوز مقام العبودية لغيرها بخلافكم أنتم فقد صدر منكم ما أخرجكم عن رتبة الطاعة، وفيه نظر.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ١٦٥﴾ أنفسنا أو أقدامنا فى الصلاة، وقال ناصر الدين: أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة، وقيل: الصافون حول العرش ننتظر الأمر الإلهى، وفى البحر داعين للمؤمنين، وقيل: صافون أجنحتنا فى الهواء منتظرين مايؤمر.

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت (وإنا لنحن الصافون) وأخرج مسلم عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجدا وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء» وأخرج هو أيضا. وأبو داود. والنسائى. وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم» وهذه الأخبار ونحوها ترجح التفسير الأول ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ١٦٦ ﴾ أى المنزهون الله تعالى عما لا يليق به سبحانه ويدخل فيه مانسبه اليه تعالى الكفرة، وقيل: أى القائلون سبحان الله.

وأخرج عبد بن حميد. وغيره عن قتادة أنه قال: المسبحون أى المصلون ويقتضيه ماروى عن ابن عباس أن كل تسبيح فى القرآن بمعنى الصلاة، والظاهر ماتقدم، ولعل الأول إشارة إلى مزيد أدبهم الظاهر مع ربهم عز وجل والثانى اشارة الى كمال عرفانهم به سبحانه، وقال ناصر الدين: لعل الأول إشارة الى درجاتهم فى الطاعة وهذا فى المعارف، وما فى ان واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لانهم المواظبون على ذلك دائما من غير فترة وخواص البشر لاتخلو من الاشتغال بالمعاش، ولعل الكلام لايخلو عن تعريض بالكفرة، والظاهر أن الآيات الثلاث أعنى قوله تعالى (وما منا) إلى هنا نزلت كما نزلت أخواتها.

وعن هبة الله المفسر أنها نزلت لافى الارض ولا فى السماء وعد معها آيتين من آخر سورة البقرة وآية من الزخرف (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) الآية قال ابن العربى: ولعله أراد فى الفضاء بين السماء والارض.

وقال الجلال السيوطى: لم أقف على مستند لماذكره الا آخر البقرة فيمكن أن يستدل له بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى الحديث وفيه فاعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله شيئا المقحمات انتهى فلا تغفل ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ١٦٧ ﴾ إن هى المخففة واللام هى الفارقة والضمير لكفار قريش كانوا يقولون قبل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٦٨ ﴾ أى كتابا من جنس الكتب التى نزلت عليهم ومثلها فى كونه من عند الله تعالى: ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٩ ﴾ لأخلصنا العبادة له تعالى ولكنا أهدى منهم، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ فصيحة مثلها فى قوله تعالى (فاضرب بعصاك الحجر فانفلق) أى فجاءهم ذكر وأى ذكر سيد الاذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والاخبار فكفروا به ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ ﴾ أى عاقبة كفرهم ومايحل بهم من الانتقام، وقيل أريد بالذكر العلم أى لو أن عندنا علما من الذين تقدمونا ومافعل الله تعالى بهم بعد أن ماتوا هل اثابهم أم عذبهم لأخلصنا العبادة له تعالى فجاءهم ذلك فى القرآن العظيم فكفروا به، ولا يخفى بعده ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ١٧١ ﴾ استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ١٧٣ ﴾ فيكون تفسيرا أو بدلا من (كلمتنا) وجوز أن يكون مستأنفا والوعد مافى محل آخر من قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) والأول أظهر، والمراد بالجند اتباع المرسلين واضافهم

www.Quranpdf.blogspot.in

اليه تعالى تشريفا لهم وتنويها بهم ، وقال بعض الاجلة: هو تعميم بعد تخصيص وفيه من التأكيد مافيه، والمراد عند السدى بالنصرة والغلبة ماكان بالحجة ، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة فى الحرب فانه لم يقتل نبي من الانبياء فى الحرب وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر فى غير الحرب وإن مات نبى قبل النصرة أو قتل فقد اجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون فى نصرة قومه نصرة له، وقريب منه ما قيل إن القصرين باعتبار عاقبة الحال وملاحظة المآل، وقال ناصر الدين: هما باعتبار الغالب والمقضى بالذات لأن الخير هو مراده تعالى بالذات وغيره مقضى بالتبع لحكمة وغرض آخر أو للاستحقاق بما صدر من العباد، ولذا قيل بيده الخير ولم يذكر الشر مع أن الكل من عنده عز وجل، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة ، وظاهر السياق يقتضى أن ذلك فى الدنيا وأنه بطريق القهر والاستيلاء والنيل من الاعداء أما بقتلهم أو تشريدهم أو اجلائهم عن أوطانهم أو استئسارهم أو نحو ذلك، والجملتان دالتان على الثبات والاستمرار فلا بد من أن يقال: إن استمرار ذلك عرفى ، وقيل : هو على ظاهره واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الاضافة فلا يغلب اتباع المرسلين فى حرب الالاخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى أو نحو ذلك ، ويكفى فى نصرة المرسلين اعلاء كلمتهم وتعجيز الخلق عن معارضتهم وحفظهم من القتل فى الحروب ومن الفرار فيها ولو عظمت هنالك الكروب فافهم، ولايخفى وجه التعبير بمنصورون مع المرسلين وبالغالبون مع الجند فلا تغفل، وسمى الله عز وجل وعده بذلك كلمة وهى كلمات لانها لما اجتمعت وتضامت وارتبطت غاية الارتباط صارت فى حكم شئ واحد فيكون ذلك من باب الاستعارة، والمشهور أن اطلاق الكلمة على الكلام مجاز مرسل من اطلاق الجزء على الكل ، وقال بعض العلماء: إنه حقيقة لغوية واختصاص الكلمة بالمفرد اصطلاح لاهل العربية فعليه لايحتاج إلى التأويل، وقرأ الضحاك (كلماتنا) بالجمع، ويجوز أن يراد عليها وعودنا فتفطن ، وفى قراءة ابن مسعود (على عبادنا) على تضمين (سبقت) معنى حقت ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤ ﴾ إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال، وعن السدى إلى يوم بدر ورجحه الطبرى وقيل : إلى يوم الفتح وكان قبله مهادنة الحديبية ، وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال: إلى يوم موتهم وحكاه الطبرسى عن ابن عباس أيضا ، وقال ابن زيد: إلى يوم القيامة، وهو والذى قبله ظاهران فى عدم اختصاص النصرة بما كان فى الدنيا ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ وهم حينئذ على اسوأ حال وأفظع نكال قد حل بهم ما حل من الاسر والقتل أو أبصر بلاءهم على أن الكلام على حذف مضاف، والامر بمشاهدة ذلك وهو غير واقع للدلالة على أنه لشدة قربه كأنه حاضر قدامه وبين يديه مشاهد خصوصا إذا قيل إن الامر للحال أو الفور ه

﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥ ﴾ مايكون لك من التأييد والنصر، وقيل: المعنى أبصر مايكون عليهم يوم القيامة من العذاب فسوف يبصرون مايكون لك من مزيد الثواب، وسوف للوعيد لا للتسويف والتبعيد الذى هو حقيقتها وقرب ما حل بهم مستلزم لقرب مايكون له عليه الصلاة والسلام فهو قرينة على عدم ارادة التبعيد منه ه

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ ﴾ استفهام توبيخ أخرج جويبر عن ابن عباس قال قالوا يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به وعجله لنا فنزلت، وروى أنه لما نزل (فسوف يبصرون) قالوا متى هذا؟ فنزلت ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ أى العذاب الموعود

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ (١) وهى العرصة الواسعة عند الدور والمكان الواسع مطلقا وتجمع على سوح قال الشاعر :

فكان سيان أن لا يسرحوا نعما أو يسرحوه بها واغبرت السوح

وفى الضمير استعارة مكنية شبه العذاب بجيش يهجم على قوم وهم فى ديارهم بغتة فيحل بها والنزول تخييل ٭ وقرأ ابن مسعود (نزل) بالتخفيف والبناء للمجهول وهو لازم فالجار والمجرور نائب الفاعل. وقرىء نزل بالتشديد والبناء للمجهول أيضا وهو متعد فنائب الفاعل ضمير العذاب ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ١٧٧ ﴾ أى فبئس صباح المنذرين صباحهم على أن ساء بمعنى بئس وبها قرأ عبدالله والمخصوص بالذم محذوف واللام فى المنذرين للجنس لا للعهد لاشتراطهم الشيوع فيما بعد فعلى الذم والمدح ليكون التفسير بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال ولو كان ساء بمعنى قبح على أصله جاز اعتبار العهد من غير تقدير، والصباح مستعار لوقت نزول العذاب أى وقت كان من صباح الجيش المبيت للعدو وهو السائر اليه ليلا ليهجم عليه وهو فى غفلته صباحا، وكثيرا ما يسمون الغارة صباحا لما أنها فى الاعم الاغلب تقع فيه، وهو مجاز مرسل أطلق فيه الزمان وأريد ما وقع فيه كما يقال أيام العرب لوقائعهم ٭

وجوز حمل الصباح هنا على ذلك، وفى الكشاف مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قوما بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا اهبتهم ولا دبروا امرهم تدبيرا ينجيهم حتى اناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم اصباحا فسميت الغارة صباحا وإن وقعت فى وقت آخر؛ ومافصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى يحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك الا لمجيئها على طريقة التمثيل انتهى، وظاهره أن الكلام على الاستعارة التمثيلية وفضلها على غيرها اشهر من أن يذكر واجل من أن ينكر، وقيل: ضمير نزل للنبى ﷺ ويراد حينئذ نزوله يوم الفتح لا يوم بدر لأنه ليس بساحتهم الاعلى تأويل ولا بخيبر لقوله ﷺ حين صبحها: الله أكبر خربت خيبر انا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين لأن تلاوته عليه الصلاة والسلام ثمت لاستشهاده بها والكلام هنا مع المشركين، ولا يخفى بعد رجوع الضمير اليه عليه الصلاة والسلام ٭

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٩ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ اثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما فى اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان ظاهرا بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف والبيان، وجوز أن يراد بما تقدم عذاب الدنيا وبهذا عذاب الآخرة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ ﴾ تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما حكى عنهم فى السورة الكريمة وما لم يحك من الأمور التى من جملتها ترك انجاز الموعود على موجب كلمته تعالى السابقة لاسيما فى حق الرسول ﷺ كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا وإلى العزة ثانيا كأنه قيل: سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم

(١) قال الفراء العرب تقول نزل بساحتهم ويريدون نزل بهم فلا تغفل اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

بالعذاب ، ومعنى ملكه تعالى العزة على الاطلاق أنه مامن عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو عزوجل مالكها ، وقال الزمخشري : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه تعالى بها كأنه قيل ذوالعزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق ، ثم ذكر جواز ارادة المعنى الذى ذكرناه ، والفرق أن الاضافة على ماذكرنا على أنه سبحانه المعز وعلى الآخر على أنه عز وجل العزيز بنفسه. ولكل وجه من المبالغة خلاعنه الآخر، وقوله تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ١٨١ ﴾ تشريف للرسل كلهم بعد تنزيهه تعالى عما ذكروتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بكل المآرب، وقوله سبحانه: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨٢ ﴾ إشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه عز وجل بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للافعال الحميدة التى من جملتها افاضته تعالى على المرسلين من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه جل وعلا عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بأن ما وعده عليه السلام من النصرة والغلبة قد تحقق، والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه سبحانه وتحميده والتسليم على رسله عليهم السلام الذين هم وسائط بينه تعالى وبينهم فى فيضان الكمالات مطلقا عليهم *

وهو ظاهر فى عدم كراهة إفراد السلام عليهم، ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم من جملة نعمه تعالى الموجبة للحمد كذا فى ارشاد العقل السليم ، وقد يقال: تقديم التنزيه لأهميته ذاتا ومقاما، ولما كان التنزيه عما يصف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم من أن يصفوه سبحانه بمالا يليق به تعالى وضمن ذلك الاشارة إلى سوء حالهم وفظاعة منقلبهم أردف جلا وعلا ذلك بالاشارة إلى حسن حال المرسلين الداعين إلى تنزيهه تعالى عما يصفه به المشركون ، وفيه من الاهتمام بامر التنزيه مافيه، وأتى عزوجل بالحمد للاشارة إلى أنه سبحانه متصف بالصفات الثبوتية كما أنه سبحانه متصف بالصفات السلبية وهذا وإن استدعى إيقاع الحمد بعد التسبيح بلا فصل كما فى قولهم سبحان الله والحمد لله وهو المذكور فى الأخبار والمشهور فى الأذكار إلا أن الفصل بينهما هنا بالسلام على المرسلين مما اقتضاه مقام ذكرهم فيما مر وجدد الالتفات اليهم تقديم التنزيه عما يصفه به من يرسلون اليه، ولعل من يدقق النظر يرى أن السلام هنا أهم من الحمد نظرا للمقام وإن كان هو اهم منه ذاتا والأهمية بالنظر للمقام أولى بالاعتبار عندهم ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به ، ولعله من تتمة جملة التسبيح وبهذا ينحل ما يقال من أن حمده تعالى أجل من السلام على الرسل عليهم السلام فكان ينبغى تقديمه عليه على ماهو المنهج المعروف فى الكتب والخطب ، ولا يحتاج إلى ماقيل: إن المراد بالحمد هنا الشكر على النعم وهى الباعثة عليه ومن أجلها إرسال الرسل الذى هو وسيلة لخيرى الدارين فقدم عليه لأن الباعث على الشئ يتقدم عليه فى الوجود وإن كان هو متقدما على الباعث فى الرتبة فتدبر *

وهذه الآية من الجوامع والكوامل ووقوعها فى موقعها هذا ينادي بلسان ذلق أنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة جل جلاله وعم نواله. وقد أخرج الخطيب عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول بعد أن يسلم : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على

www.Quranpdf.blogspot.in

المرسلين والحمد لله رب العالمين *

وأخرج الطبرانى عن زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: من قال دبر كل صلاة «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر» وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبي قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم سبحان ربك رب العزة» الى آخر السورة، وأخرجه البغوى من وجه آخر متصل عن على كرم الله تعالى وجهه موقوفا، وجاء فى ختم المجلس بالتسبيح غير هذا ولعله أصح منه، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ولا يقولهن فى مجالس خير وذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بخاتم على الصحيفة سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك» لكن المشهور اليوم بين الناس أنهم يقرؤن عند ختم مجلس القراءة أو الذكر أو نحوهما الآية المذكورة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) *

﴿ومن باب الاشارة فى الآيات ماقالوا﴾ (والصافات صفا) هى الأرواح الكاملة المكملة من الصف الأول وهو صف الأنبياء عليهم السلام والصف الثانى وهو صف الأصفياء (فالزاجرات زجرا) عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح والهمم القدسية (فالتاليات ذكرا) آيات الله تعالى وشرائعه عز وجل، وقيل الصافات جماعة الملائكة المهيمين والزاجرات جماعة الملائكة الزاجرين للأجرام العلوية والأجسام السفلية بالتدبير والتاليات جماعة الملائكة التالية آيات الله تعالى وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه، وتنزل الملائكة على الأولياء مما قال به الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم وقد نطق بأصل التنزل عليهم قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وقد يطلقون على بعض الأولياء أنبياء الأولياء *

قال الشعراوى فى رسالة الفتح فى تأويل ماصدر عن الكمل من الشطح: أنبياء الأولياء هم كل ولى أقامه الحق تعالى فى تجل من مظهر تجلياته وأقام له محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومظهر جبريل عليه السلام فاسمعه ذلك المظهر الروحانى خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الولى عقل صاحب هذا المشهد جميع ماتضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة فى هذه الأمة المحمدية فيأخذها هذا الولى كما أخذها المظهر المحمدى فيرد إلى حسه وقد وعى ماخاطب الروح به مظهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلم صحته علم يقين بل عين يقين فمثل هذا يعمل بما شاء من الأحاديث لا التفات له الى تصحيح غيره أو تضعيفه فقد يكون ما قال بعض المحدثين بانه صحيح لم يقله النبى عليه الصلاة والسلام وقد يكون ما قالوا فيه انه ضعيف سمعه هذا الولى من الروح الأمين يلقيه على حقيقة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما سمع بعض الصحابة حديث جبريل فى بيان الاسلام والايمان والاحسان فهؤلاء هم أنبياء الأولياء ولا ينفردون قط بشريعة ولا يكون لهم خطاب بها الا بتعريف أن هذا هو شرع محمد عليه الصلاة والسلام أو يشاهدن المنزل على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حضرة التمثل الخارج عن ذاتهم والداخل المعبر

www.Quranpdf.blogspot.in

عنه بالمبشرات فى حق النائم غير أن الولى يشترك مع النبي فى إدراك ماتدركه العامة فى النوم فى حال اليقظة فهؤلاء فى هذه الأمة كالأنبياء فى بنى إسرائيل على مرتبة تعبد هرون بشريعة موسى مع كونه نبيا وهم الذين يحفظون الشريعة الصحيحة التى لاشك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة فهم أعلم الناس بالشرع غيرأن غالب علماء الشريعة لايسلمون لهم ذلك وهم لايلزمهم إقامة الدليل على صدقهم لأنهم ليسوا مشرعين فهم حفاظ الحال النبوى والعلم اللدنى والسرالالهى وغيرهم حفاظ الأحكام الظاهرة، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى الميزان اه ، وقال بعيد هذا فى رسالته المذكورة : اعلم أن بعض العلماء أنكروا نزول الملك على قلب غير النبي ﷺ لعدم ذوقه له ، والحق أنه ينزل ولكن بشريعة نبيه ﷺ فالخلاف إنما ينبغى أن يكون فيما ينزل به الملك لافى نزول الملك واذا نزل على غير نبي لايظهر له حال الكلام أبدا إنما يسمع كلامه ولا يرى شخصه أو يرى شخصه من غير كلام فلا يجمع بين الكلام والرؤية إلا نبي والسلام اه ، وقد تقدم لك طرف من الكلام فى رؤية الملك فتذكر . (إن الحكم لواحد) اخبار بذلك ليعلموه ولا يتخذوا من دونه تعالى آلهة من الدنيا والهوى والشيطان ، ومعنى كونه عز وجل واحدا تفرده فى الذات والصفات والأفعال وعدم شركة أحد معه سبحانه فى شىء من الأشياء ، وطبقوا أكثر الآيات بعد على مافى الأنفس ، وقيل فى قوله تعالى : (وقفوهم إنهم مسؤلون) فيه إشارة الى أن للسالك فى كل مقام وقفة تناسب ذلك المقام وهو مسؤل عن أداء حقوق ذلك المقام فان خرج عن عهدة جوابه أذن له بالعبور والا بقى موقوفا رهينا بأحواله الى أن يؤدى حقوقه ، وكذا طبقوا ماجاء من قصص المرسلين بعد على مافى الأنفس ، وقيل فى قوله تعالى : (ومامنا الاله مقام معلوم) يشير الى أن الملك لايتعدى مقامه الى مافوقه ولا يهبط عنه الى مادونه وهذا بخلاف نوع الانسان فان من أفراده من سار الى مقام قاب قوسين بل طار الى منزل أو أدنى وجر هناك مطارف (فأوحى الى عبده ما أوحى) ومنها من هوى الى أسفل سافلين وانحط الى قعر سجين (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) وقد ذكروا أن الانسان قد يترقى حتى يصل الى مقام الملك فيعبره الى مقام قرب النوافل ومقام قرب الفرائض وقد يهبط الى درك البهيمية فما دونها (أولئك كالأنعام بل هم أضل) نسأل الله تعالى أن يرقينا الى مقام يرضاه ويرزقنا رضاه يوم لقاه وأن يجعلنا من جنده الغالبين وعباده المخلصين بحرمة سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ه

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١﴾.

[٢] ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ٢﴾.

[٣] ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣﴾.

[٤] ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٤﴾.

[٥] ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ هذه قراءة أكثر القرّاء. وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ. وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها. النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات؛ إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الذال، ولا من أخواتهن، وإنما أختاها الطاء والدال، وأخت الزاي الصاد والسين، وأخت الذال الظاء والثاء. والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى. والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابة وشابة. ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف. ﴿والصَّافَّاتِ﴾ قسم؛ الواو بدل من الباء. والمعنى برب الصافات ﴿وَالزَّاجِرَاتِ﴾ عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم. وأجاز الكسائي فتح إن في القسم والمراد بـ ﴿الصافاتِ﴾ وما بعدها إلى قوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. تصفّ في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة. وقيل: تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: ﴿صَفًّا﴾ لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم. وقيل: هي الطير؛ دليله قوله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾. والصفّ ترتيب الجمع على خط كالصفّ في الصلاة. ﴿والصَّافَّاتِ﴾ جمع الجمع، يقال: جماعة صافة ثم يجمع صافّات. وقيل: الصافّات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفّاً في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري. ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السدّي. وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن. ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع. وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه. وقيل: هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري. وذكر الماوردي أن المراد بالتاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم. فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات، قيل له: إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله[1]:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ[1] للحارثِ الصَّـ ـابِح فالغَانِم فالآيِبِ

كأنه قال: الذي صَبَّح فغَنِم فآب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلِّقين فالمقصِّرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري. ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم. قال مقاتل: وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله! فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً.

---

(١) هو سلمة بن ذهل ويعرف بابن زيابة وزيابة أبوه، وقيل اسم أمه. يقول يا لهف أبي على الحرث إذ صبح قومي بالغارة فغنم وآب سالماً ألا أكون لقيته فقتلته. ويريد يا لهف نفسي. والحرث هو الحرث بن همام الشيباني كما في «شرح أشعار الحماسة». وبعد هذا البيت:

والله لـو لاقيتـه خـاليـاً لآب سيفـانـا مـع الغـالـب

ونزلت الآية. قال ابن الأنباري: وهو وقف حسن، ثم تبتدىء ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات. النحاس: ويجوز أن يكون ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خبراً بعد خبرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿وَاحِدٌ﴾.

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف على ﴿لَوَاحِدٌ﴾. وحكى الأخفش ﴿رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْمَشَارِقِ﴾ بالنصب على النعت لاسم إن. بيّن سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومالكهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي مالك مطالع الشمس. ابن عباس: للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوّة في مطلعها، ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع في كل يوم في كوّة منها، وتغيب في كوّة، لا تطلع في تلك الكوّة إلا في ذلك اليوم من العام المقبل. ولا تطلع إلا وهي كارهة فتقول: ربّ لا تطلعني على عبادك فإني أراهم يعصونك. ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد، وابن الأنباري في كتاب الرد عن عكرمة؛ قال: قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أميّة بن أبي الصَّلْت «آمن شعرُه وكفر قلبُه» قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبحُ لونُها يَتورَّدَ
ليست بطالعةٍ لَهمْ في رِسْلِها ... إلاَّ مُعَذَّبةً وإلاّ تُجْلَدُ

ما بال الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده ما طلعت شمس قط حتى يَنخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها اطلُعي اطلُعي، فتقول لا أطلُع على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملَك فيستقلّ لضياء بني آدم، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلُع بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول رسول الله ﷺ: «ما طلعت إلا بين قرني شيطان ولا غربت إلا بين قرني شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها» لفظ ابن الأنباري. وذكر

عن عِكرمة عن ابن عباس قال: صدَّق رسول الله ﷺ أميّة بن أبي الصَّلْت في هذا الشعر:

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمِينِه والنّسر للأخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُع كلَّ آخرِ ليلةٍ حمراءَ يصبِحُ لونُها يَتورَّدُ
ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها إلاّ مُعذَّبةً وإلاّ تُجلَدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس يا مولاي أتجلد الشمس؟ فقال: إنما اضطره الرويّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب. ودلّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾. وخصَّ المشارق بالذكر؛ لأن الشروق قبل الغروب. وقال في سورة ﴿الرحمن﴾ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلُع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار على ما تقدّم في ﴿يس﴾[1] والله أعلم.

[٦] ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

[٨] ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

[٩] ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خلقت النجوم ثلاثاً؛ رجوماً للشياطين، ونوراً يهتدى بها، وزينة لسماء الدنيا. وقرأ مسروق والأعمش والنَّخعي وعاصم وحمزة ﴿بِزِينَةٍ﴾ مخفوض منوّن ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ خفض على البدل من ﴿زِينَةٍ﴾ لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب ﴿الكواكِبَ﴾ بالمصدر الذي هو زينة. والمعنى بأن زينا الكواكب فيها. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: وإنَّا زيناها ﴿بِزِينة﴾ أعني ﴿الكواكِبَ﴾. وقيل: هي بدل من زينة على الموضع.

(١) راجع ص ٢٧ وما بعدها من هذا الجزء.

ويجوز ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبُ﴾ بمعنى بأن زينتها الكواكبُ. أو بمعنى هي الكواكبُ. الباقون ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ على الإضافة. والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب. أي بحسن الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نوّن إلا أنه حذف التنوين ٱستخفافاً. ﴿وَحِفْظاً﴾ مصدر أي حفظناها حفظاً. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن ٱستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب. والمارد العاتي من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطاناً.

قوله تعالى: ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَىٰ الْمَلإِ الأَعْلَىٰ﴾ قال أبو حاتم: أي لئلا يسمعوا ثم حذف أن فرفع الفعل. الملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض. الضمير في ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ للشياطين. وقرأ جمهور الناس ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم من التسميع. فينتفي على القراءة الأولى سماعهم، وإن كانوا يستمعون وهو المعنى الصحيح. ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّهم عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾. وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع منهم ٱستماع أو سماع. قال مجاهد: كانوا يتسمَّعون ولكن لا يسمعون. وروي عن ٱبن عباس ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإَ﴾ قال: هم لا يسمَّعون ولا يتسمعون. وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ يتسمّعون فأدغمت التاء في السين لقربها منها. وٱختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي يُرمَون من كل جانب؛ أي بالشهب. ﴿دُحُوراً﴾ مصدر؛ لأن معنى ﴿يُقْذَفُونَ﴾ يُدحَرون. دحرته دَحْراً ودُحُوراً أي طردته. وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحضرمي ﴿دَحُوراً﴾ بفتح الدال يكون مصدراً على فَعول. وأما الفرّاء فإنه قدره على أنه ٱسم الفاعل. أي ويقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا](1).

تَمــرُّونَ الــديــارَ ولَــمْ تَعــوجُــوا

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس. والبيت لجرير وتمامه:

كــلامكــم علــيَّ إذن حــرام

وٱختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة ﴿الجن﴾ عن ٱبن عباس. وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمَى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت؛ أي لم تكن تُرمَى رمياً يقطعها عن السمع، ولكنها كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً، وتُرمَى من جانب ولا تُرمَى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصباً. وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويَسلَم واحد ولا يَسلَم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة. فإن قيل: إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فلم دام بعد النبي ﷺ؟ فالجواب أنه دام بدوام النبوّة، فإن النبيّ ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: « ليس منا من تكهّن » فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوّة، فصح أن الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته ﷺ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ واصِبٌ﴾ أي دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ٱبن عباس: شديد. الكلبي والسدّي وأبو صالح: موجع؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿إلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ٱستثناء من قوله: ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾. وقيل: الاستثناء يرجع إلى غير

الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذٍ. وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمّنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه. فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيناه في ﴿الأنعام﴾[1]. فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة. والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا. وقد مضى في هذا الباب في سورة ﴿الحجر﴾[2] من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في ﴿سبإ﴾[3] حديث أبي هريرة. وفيه «والشياطين بعضهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح. وفيه عن ابن عباس: «ويختطف الشياطين السمع فيُرمَون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حقّ ولكنهم يحرّفونه ويزيدون». قال هذا حديث حسن صحيح. والخطف أخذ الشيء بسرعة؛ [يقال][4] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطِّفَ وَخِطِّفَ. والأصل في المشدّدات اختطف فأدغم التاء في الطاء؛ لأنها أختها وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها. ومن كسرها فلالتقاء الساكنين. ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما. وقيل: المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في «الشهب» تحرقهم من غير موت. وليست الشهب التي يرجم الناس بها

(١) راجع ٧/٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ١٠/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ١٤/٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية.
(٤) زيادة يقتضيها السياق، ويدل عليها ما في إعراب القرآن للنحاس.

من الكواكب الثوابت. يدل على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة تجري ولا ترى حركاتها لبعدها. وقد مضى هذا. وجمع شهاب شهب والقياس في القليل أشهِبة وإن لم يسمع من العرب. و ﴿ثَاقِبٌ﴾ معناه مضيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز. ومنه قوله:

وزَنْـــدُكَ أَثْقَـــبُ أزنـــادِهـــا

أي أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثِقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبتِ النارُ تَثقُب ثَقابةً وثُقوباً إذا ٱتقدت وأثقبتها أنا. وقال زيد بن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك أي ٱستوقد نارَك. وقاله الأخفش: وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ ضَربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمدْ

[١١] ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾.
[١٢] ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.
[١٣] ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.
[١٤] ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.
[١٥] ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.
[١٦] ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾.
[١٧] ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سلهم يعني أهل مكة؛ مأخوذ من ٱستفتاء المفتي. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ قال مجاهد: أي من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية. يدل على ذلك أنه أخبر عنهم ﴿بمن﴾ قال سعيد بن جبير: الملائكة. وقال غيره: ﴿مَنْ﴾ الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقاً منهم. نزلت في أبي الأشد بن كَلَدَة، سمي بأبي الأشد لشدّة بطشه وقوّته. وسيأتي في ﴿البلد﴾ ذكره. ونظير هذه ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾ أي لاصق؛ قاله ٱبن عباس. ومنه قول عليّ رضي الله عنه:

تَعَلَّمْ فإنَّ اللَّهَ زادكَ بَسطةً وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

وقال قتادة وٱبن زيد: معنى ﴿لَازِبٍ﴾ لازق. الماوردي: والفرق بين اللاصق واللاّزق أن اللاّصق هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللاّزق هو الذي يلتزق بما أصابه. وقال عِكرمة: ﴿لَازِبٍ﴾ لزج. سعيد بن جبير: أي جيد حرّ يلصق باليد. مجاهد ﴿لازب﴾ لازم. والعرب تقول: طينٌ لازِب ولازِم، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم لاتِب ولازِم. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيءُ ضربةَ لازبٍ، وهو أفصح من لازم. قال النابغة:

ولا تَحْسَبونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ ... ولا تَحْسَبونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب: طين لاتِب بمعنى لازِم. واللاتِب الثابت؛ تقول منه: لَتَبَ يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً، مثل لَزَب يَلْزُب بالضم لزوباً؛ وأنشد أبو الجرّاح في اللاّتِب:

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شَرِبْتُهُ ... فإنِّيَ من شُرْبِ النَّبيذِ لَتَائِبُ
صُدَاعٌ وتَوْصيمٌ العِظَامِ وفَتْرَةٌ ... وغَمٌّ مع الإشْراقِ في الْجَوْفِ لاَتِبُ(١)

واللاّتب أيضاً اللاّصق مثل اللاّزب، عن الأصمعي حكاه الجوهري. وقال السدّي والكلبي في اللاّزب: إنه الخالص. مجاهد والضحاك: إنه المنتن.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبي ﷺ ؛ أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهي قراءة شُرَيح و [أنكر قراءة الضم وقال :](٢) إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء. وٱختارها أبو عبيد والفرّاء وهي مروية عن عليّ وٱبن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ ﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾ بضم التاء . ويروى عن ٱبن عباس. قال الفرّاء في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب

(١) قوله: وغم مع الإشراق كرواية اللسان. ورواية الطبري: وغثي مع الإشراق.
(٢) الزيادة من تفسير الألوسي.

التاء ورفعها والرفع أحبّ إليّ؛ لأنها عن عليّ وعبد الله وٱبن عباس. وقال أبو زكريا الفرّاء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعني ٱبن مسعود ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ قال شريح: إن الله لا يعجب من شيء إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحاً كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيْح وكان يقرؤها عبد الله ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾. قال الهَرَويّ: وقال بعض الأئمة معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ بل جازيتهم على عجبهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجاب﴾. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ بل جازيتهم على التعجب.

قلت: وهذا تمام معنى قول الفرّاء وٱختاره البيهقي. وقال عليّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد التقدير قل يا محمد بل عجبت؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. النحاس: وهذا قول حسن وإضمار القول كثير. البيهقي: والأول أصح. المهدوي: ويجوز أن يكون إخبار اللَّهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ ـ على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً وٱتساعاً. قال الهرويّ: ويقال معنى «عَجبَ رَبُّكُمْ» أي رضي وأثاب فسماه عجباً وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله في الحديث «عَجبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم». وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بل عجبت﴾ أي بل عظم فعلهم عندي. قال البيهقي: ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» وكذلك ما خرجه البخاري عن [أبي هريرة[١] عن النبيّ ﷺ قال «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»] قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة. وقيل: معنى ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ بل أنكرت. حكاه النقاش. وقال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب. وقد جاء في الخبر «عجب ربكم من إلّكم وقُنوطكم». ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال أي عجبت منهم في حال سخريتهم. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ثم ٱستأنف فقال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي مما جئت به إذا تلوته عليهم. وقيل: يسخرون منك إذا دعوتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي وعظوا بالقرآن في قول قتادة. ﴿لاَ يَذْكُرُونَ﴾ لا ينتفعون به. وقال سعيد بن جبير. أي إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا. ﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً﴾ أي معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يسخرون في قول قتادة. ويقولون إنها سحر. وٱستسخر وسخر بمعنًى مثل استقر وقرّ وٱستعجب وعجب. وقيل: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يستدعون السخرى من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون. وقيل: أي يظنون أن تلك الآية سخرية. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع. ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ أي أَنُبْعَثُ إذا متنا؟ فهو ٱستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ أي أو تبعث آبَاؤنا. دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع ﴿أَوْ آبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو. وقد مضى هذا في سورة ﴿الأعراف﴾[٢]. في قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾.

---

(١) الزيادة من البخاري وفي الأصل بياض. (٢) راجع ٧/ ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية.

[١٨] ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ١٨﴾.

[١٩] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾.

[٢٠] ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ٢٠﴾.

[٢١] ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي نعم تبعثون. ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون أذلاء؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون. وقيل: أي ستقوم القيامة وإن كرهتم، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة؛ قاله الحسن وهي النفخة الثانية. وسميت الصيحة زجرة؛ لأن مقصودها الزجر؛ أي يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل: أي ينظرون إلى البعث الذي أنكروه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم. وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفرّاء أن تقديره ياوَيْ لَنَا وَوَيْ بمعنى حُزْن. النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلاً وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً. و ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء. ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض، أي هذا اليوم الذي كذّبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم. وقيل: من قول الملائكة؛ أي هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل. فـ ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

[٢٢] ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٢٢﴾.

[٢٣] ﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ٢٣﴾.

[٢٤] ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ٢٤﴾.

[٢٥] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾.

[٢٦] ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٦﴾.

[٢٧] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱحْشُرُوا﴾ المشركين ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشياعهم في الشرك، والشرك الظلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فيحشرُ الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية. وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة. وقال ابن عباس: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشباههم. وهذا يرجع إلى قول عمر. وقيل: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ نساؤهم المرافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب. وقال الضحاك: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قرناءهم من الشياطين. وهذا قول مقاتل أيضاً: يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الأصنام والشياطين وإبليس. ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي سوقوهم إلى النار. وقيل: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي دُلّوهم. يقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق؛ أي دللته عليه. وأَهديتُ الهديةَ وهَديتُ العروسَ، ويقال أهديتها. أي جعلتها بمنزلة الهديّة.

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي لأنهم وبأنهم. يقال: وَقفتُ الدابةَ أقفها وَقْفاً فوقفت هي وقوفاً يتعدى ولا يتعدى؛ أي احبسوهم. وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم وفيه تقديم وتأخير

أي قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار. وقيل: يساقون إلى النار أولاً ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القرظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ٱبن عباس: عن لا إله إلا الله. وعنه أيضاً: عن ظلم الخلق. وفي هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب. وقد مضى في ﴿الحجر﴾[1] الكلام فيه. وقيل: سؤالهم أن يقال لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي ينصر بعضكم بعضاً فيمنعه من عذاب الله. وقيل: هو إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾. وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً، وشدّد البزّي التاء في الوصل.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل. ٱبن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: منقادون. الأخفش: ملقونَ بأيديهم. والمعنى متقارب. ﴿وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون. ويقال لا يتساءلون فسقطت لا. النحاس؛ وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله ﴿فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ إنما هو لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدهم أسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعتني أو أسقطت لي حقاً لك عليّ أو وهبت لي حسنة. وهذا بيّن؛ لأن قبله ﴿فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم كما جاء في الحديث «إن الرجل ليسر بأن يصح له على أبيه أو على ٱبنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات». وفي حديث آخر «رحم الله ٱمرءاً كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فٱستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب». و ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضاً ويوبخه في أنه أضله أو فتح له باباً من المعصية ؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. قتادة: هو قول الإنس للجن. وقيل: هو من قول

---

(١) راجع ١٠/ ٦٠ طبعة أولى أو ثانية.

الأتباع للمتبوعين: دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ الآية. قال سعيد عن قتادة: أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها. وعن ٱبن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح. والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح. وقيل: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدّقناه وقيل: تأتوننا من قبل الدِّين فتهوِّنون علينا أمر الشريعة وتنفِّروننا عنها.

قلت: وهذا القول حسن جداً؛ لأن من جهة الدّين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدّين. أي كنتم تزينون لنا الضلالة. وقيل: اليمين بمعنى القوّة. أي تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أي بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا مَـا رَايـةٌ رُفِعـتْ لمجـدٍ تلقّـاهـا عَـرابَـةُ بـاليمـيـن

أي بالقوّة والقدرة. وهذا قول ٱبن عباس. وقال مجاهد: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من قبل الحق أنه معكم. وكله متقارب المعنى. ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قول الشياطين لهم. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾ أي ضالين متجاوزين الحد. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وهذا موافق للحديث «إن الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم». ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضال والمضل. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي المشركين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول.

و ﴿يستكبرون﴾ في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ وكان ملغاة. ولما قال النبيّ ﷺ لأبي طالب عند موته وٱجتماع قريش «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم» أبوا وأنفوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل الله تعالى في كتابه فذكر قوماً ٱستكبروا فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَته عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ٱستكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدّة. ذكر هذا الخبر البيهقي والذي قبله القشيري.

[٣٦] ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.
[٣٧] ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.
[٣٨] ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.
[٣٩] ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.
[٤٠] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي لقول شاعر مجنون، فردّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد. ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون ٱستخفافاً وخفضت للإضافة. ويجوز النصب كما أنشد سيبويه:

فــأَلْفَيْتُــهُ غيــرَ مُسْتَعتِــبٍ ... وَلاَ ذَاكــرِ اللَّــهَ إلاّ قليــلاَ

وأجاز سيبويه ﴿والمقِيمي الصَّلاَةَ﴾ على هذا. ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إلاّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا بما عملتم من الشرك ﴿إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ٱستثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة ﴿المخلَصِين﴾ بفتح اللام يعني الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو ٱستثناء منقطع؛ أي إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب.

[٤١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٞ مَّعْلُومٞ ٤١﴾ .

[٤٢] ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ٤٢﴾ .

[٤٣] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾ .

[٤٤] ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾ .

[٤٥] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥﴾ .

[٤٦] ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦﴾ .

[٤٧] ﴿لَا فِيهَا غَوْلٞ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ .

[٤٨] ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٞ ٤٨﴾ .

[٤٩] ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٞ مَّكْنُونٞ ٤٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ يعني المخلصين؛ أي لهم عطية معلومة لا تنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكه التي ذكر. قال مقاتل: حين يشتهونه. وقال ٱبن السائب: إنه بمقدار الغداة والعشيّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ﴿فَوَاكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ وهي الثمار كلها رطبها ويابسها؛ قاله ٱبن عباس. ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في بساتين يتنعمون فيها. وقد تقدّم أن الجنان سبع في سورة ﴿يونس﴾[1] منها النعيم.

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض تواصلاً وتحاباً. وقيل: الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد. وقال ٱبن عباس على سرر مكلَّلة بالدرّ والياقوت والزبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عدن إلى أيلة. وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم. والكأس عند أهل اللغة ٱسم شامل لكل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. قال الضحاك والسدي: كل كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح. النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة

---

(١) راجع ٨/٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة. وقال الزجاج: ﴿بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض. والمعين الماء الجاري الظاهر. ﴿بَيْضَاءَ﴾ صفة للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشدّ بياضاً من اللبن. ﴿لذة﴾ قال الزجاج: أي ذات لذة فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل آسماً أي بيضاء لذيذة؛ يقال شراب لذٌّ ولذيذ مثل نبات غَضٌّ وغضيض. فأما قول القائل(١):

ولذٍ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تركتُهُ   بأرض العِدَا مِنْ خَشيةِ الحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم. وقيل: ﴿بيضاء﴾ أي لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع. ﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي لا تذهب عقولهم بشربها، يقال: الخمر غول للحِلْم، والحرب غول للنفوس؛ أي تذهب بها. ويقال: نُزِف الرجلُ يُنْزَف فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر. قال آمرؤ القيس:

وإذ هي تَمشِي كمشي النَّزِيـ   ـفِ يَصْرَعُهُ بالكثيب البَهَرْ(٢)

وقال أيضاً:

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تَمايَلتْ   تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألاَّ تَخَتَّرَا(٣)

وقال آخر(٤):

فلثمتُ فَاهَا آخِذاً بقرونها   شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعي. ويروى:

ولـذ كطعـم الصـرخـدي طـرحتـه   عشيةَ خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد موضع ينسب إليه الشراب. أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(٢) البهر: الكلال وانقطاع النفس. (٣) الختر: ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم. يقول: هي سكرى من الشراب، إذا قامت به لوجه وجدت فتوراً في عظامها وكسلاً، فهي تداري فؤادها وتراشيه ألا يعذبها في مشيتها. (٤) هو جميل بن معمر. وقيل البيت: لعمر بن أبي ربيعة. والحشرج نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف القومُ إذا حان منهم النَّزْف وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه، وأَقطَف الكرمُ إذا حان قِطافُه، وأركبَ المهرُ إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرابهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنْزف الرجلُ فهو منزوف إذا فنيت خمره. قال الحطيئة[1]:

لَعَمْرِي لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتُمُ   لبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرَا

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى ﴿يُنْزَفُونَ﴾ عند جِلّة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. ومعنى ﴿يُنْزِفُونَ﴾ الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبداً. وقيل: ﴿لاَ يُنْزِفُون﴾ بكسر الزاي لا يسكَرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القشيري. المهدوي: ولا يكون معناه يسكَرون؛ لأن قبله ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في ﴿الواقعة﴾. ويجوز أن يكون معنى ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا يمرضون فيكون معنى ﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ لا يسكَرون أو لا ينفد شرابهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ لا فيها صداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: في الخمر أربع خصال؛ السكر والصداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبي: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي إثم؛ نظيره ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾. وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا   وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

(١) نسبه الجوهري إلى الأبيردي. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانياً.

أي تصرع واحداً واحداً. وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم. قال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء. يقال: ٱغتاله ٱغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية. ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي نساء قد قَصَرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي محبوسات على أزواجهنّ. والتفسير الأوّل أبين؛ لأنه ليس في الآية مقصورات ولكن في موضع آخر ﴿مقصورات﴾ يأتي بيانه، و ﴿قاصرات﴾ مأخوذ من قولهم: قد ٱقتصر على كذا إذا ٱقتنع به وعدل عن غيره؛ قال ٱمرؤ القيس:

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ منها لأَثَّرا

ويروى: فوق الخد: والأوّل أبلغ. والإتب القميص، والمحول الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه لا يَغَرْن. ﴿عِينٌ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء؛ وقاله السدي. مجاهد: ﴿عِينٌ﴾ حسان العيون. الحسن: الشديدات بياض العين الشديدات سوادها. والأوّل أشهر في اللغة. يقال: رجل أعين واسع العين بَيِّنُ العَيَن والجمع عِين. وأصله فُعل بالضم فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش عِين والثور أعين والبقرة عيناء. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي مصون. قال الحسن وٱبن زيد: شبهن ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء. وقال ٱبن عباس وٱبن جبير والسدي: شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي. وقال عطاء: شبهن بالسَّحاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيض. وسَحَاة كل شيء قشره والجمع سَحاً. قاله الجوهري. ونحوه قول الطبري؛ قال: هو القشر الرقيق الذي على البيضة بين ذلك. وروي نحوه عن النبيّ ﷺ. والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها. قال ٱمرؤ القيس:

وبيضةِ خِدرٍ لا يرامُ خِباؤُها ... تَمتعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطَّى بالريش. وقيل: المكنون المصون عن الكسر أي إنهن عذارى. وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كأَمْثَالِ اللُّؤْلؤِ المَكْنُونِ﴾ أي في أصدافه. قاله ابن عباس أيضاً ومنه قول الشاعر:

وهــي بيضــاءُ مِثــلُ لُـؤْلُـؤةِ الغـ ـوّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ.

[٥٠] ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾.

[٥١] ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾.

[٥٢] ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾.

[٥٣] ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾.

[٥٤] ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾.

[٥٥] ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾.

[٥٦] ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾.

[٥٧] ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾.

[٥٨] ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨﴾.

[٥٩] ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾.

[٦٠] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠﴾.

[٦١] ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا. وهو من تمام الأنس في الجنة. وهو معطوف على معنى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ المعنى يشربون فيتحادثون على الشّراب كعادة الشُّراب. قال بعضهم:

ومــا بَقِيــتْ مــن اللّــذاتِ إلاّ أحــاديثُ الكِـرامِ علـى المُـدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ منهُمْ﴾ أي من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِين﴾ أي صديق ملازم ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي بالبعث والجزاء. وقال سعيد بن جبير: قرينه شريكه. وقد مضى في ﴿الكهف﴾ ذكرهما وقصتهما والاختلاف في أسميهما مستوفى عند قوله تعالى: ﴿وٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[1] وفيهما أنزل الله جل وعز ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ الْمُحْضرينَ﴾ وقيل: أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث. وقرىء ﴿أَئِنَّكَ لمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد. رواه عليّ بن كيسة عن سليم عن حمزة. قال النحاس: ولا يجوز ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ لأنه لا معنى للصدقة هاهنا. وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِين﴾ بتشديد الصاد وٱعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبيّ ﷺ فلا مجال للطعن فيها. فالمعنى ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِين﴾ بالمال طلباً في ثواب الآخرة. ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيون محاسبون بعد الموت فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين. وقيل: هو من قول الملائكة. وليس ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾. بٱستفهام، إنما هو بمعنى الأمر أي ٱطلِعوا؛ قاله ٱبن الأعرابي وغيره. ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائماً بين يدي النبيّ ﷺ، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: يا رب بياناً أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: فنادى عمر ٱنتهينا يا ربنا ٱنتهينا يا ربنا. وقرأ ٱبن عباس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ بإسكان الطاء خفيفة ﴿فأُطْلِعَ﴾ بقطع الألف مخفَّفة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل. قال النحاس: ﴿فَأُطْلِعَ فَرَآهُ﴾ فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً معناه فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام. والقول الثاني أن يكون فعلاً ماضياً ويكون ٱطَّلَعَ وأُطلِعَ واحداً. قال الزجاج: يقال طَلَع وأطْلَع وٱطَّلَعَ بمعنى واحد. وقد حكى

(١) راجع ٣٩٩/١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ﴾ بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره. النحاس: وهو لحن لا يجوز؛ لأنه جمع بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان هل أنتم مُطْلِعِيّ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله. وأنشدا:

هُمُ القائلونَ الخيرَ والآمِرونَهُ إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحده:

ولم يَرْتفِق والناسُ محتضِرونهُ[1]

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب، وما كان مثل هذا لم يحتجّ به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى ٱسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه، فجرى ﴿مُطْلِعُونِ﴾ مجرى يطلعون. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني وأنشد:

أرأيتَ إن جئتُ به أمْلُودَا مُرَجَّلاً ويَلْبَسُ الْبُرُودَا

أقائِلُنَّ أحضِروا[2] الشُّهُودَا

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتقولُن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ﴾ إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلِها. وكذلك قال كعب فيما ذكر ٱبن المبارك؛ قال: إن بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا ٱطلع من بعض الكُوَى. قال الله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي في وسط النار والحَسَكُ حواليه؛ قاله ٱبن مسعود. ويقال: تعبت حتى ٱنقطع سَوَائي. أي وسطي. وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بن عمر كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائي. وعن قتادة قال قال بعض العلماء: لولا أن الله جل وعز عرَّفه إياه لما عرفه، لقد تغيَّر حِبْرُه وسِبْرُه[3]. فعند ذلك يقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

---

(١) تمامه:

جميعاً وأيدي المعتفين رواهقه

يقول: غشيه المعتفون وهم السائلون، واحتضره الناس جميعاً للعطاء، فجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق. (٢) وروي: أحضري؛ خطاب للمرأة، وهو الوجه، على ما أورده الرضي في «خزانة الأدب» حيث قال: ورواه العيني أحضروا بواو الجمع ولا وجه له. والرجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ: أقائلون أعجلي الشهودا. (٣) الحبر والسبر: اللون والهيئة.

تدخل على كان. ونحوه ﴿إِنْ كَادَ لَيَضِلُّنَا﴾ واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أي لتهلكني والردى الهلاك. وقال المبرد: لو قيل ﴿لتردِينِ﴾ لتوقعني في النار لكان جائزاً. ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء. وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال الفراء: أي لكنت معك في النار محضراً. وأحضر لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر، قاله الماوردي.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرىء ﴿بِمائِتِين﴾ والهمزة في ﴿أَفَمَا﴾ للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذَّبين. ﴿إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ يكون ٱستثناء ليس من الأول ويكون مصدراً؛ لأنه منعوت. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت. وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يعذّبون. أي هذه حالنا وصفتنا. وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لما كان ينكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مشيراً إلى ما هو فيه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يكون ﴿هو﴾ مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إنّ. ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ فاصلاً. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُوْنَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعدّ الله له في الجنة وما أعطاه قال ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ العطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُوْنَ﴾ نظير ما قال له الكافر ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾. ويحتمل أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا. أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء و ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ الجزاء ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ﴾. النحاس: وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل: الفاء في العربية تدل على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنْوى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة.

[٦٢] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾.

[٦٣] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُزُلاً﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ خير نزلاً. والنُّزُل في اللغة الرزق الذي له سعة ـ النحاس ـ وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل ومنه أقيم للقوم نُزُلهم وٱشتقاقه أنه الغِذاء الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة ﴿آل عمران﴾[1] وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها. قال المفسرون: وهي في الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء، فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل. وٱختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا على قولين **أحدهما ـ** أنها معروفة من شجر الدنيا. ومن قال بهذا ٱختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. **القول الثاني ـ** إنها لا تعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال: هو عندنا الزُّبْد والتّمر. فقال ابن الزِّبَعْرى: أكثر الله في بيوتنا الزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: زَقِّمينا؛ فأتته بزبد وتمر. ثم قال لأصحابه: تزَقَّموا؛ هذا الذي يخوّفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر.

---

(١) راجع ٤/ ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة وهي تحرق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى في ﴿سبحان﴾[1] وآستخفافهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. ما الذي يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم: أنا أكفيكم منهم كذا فٱكفوني الباقين. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والفتنة الاختبار، وكان هذا القول منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار. وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معاني زوروها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن. وقيل إنها فتنة أي عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي قعر النار ومنها منشؤها ثم هي متفرّعة في جهنم. ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها؛ سمي طلعاً لطلوعه. ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قيل: يعني الشياطين بأعيانهم شبهها برؤوسهم لقبحهم، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غير مرئيّ. ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة هو كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مخبراً عن صواحب يوسف: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا تشبيه تخييلي؛ روي معناه عن ٱبن عباس والقُرَظيّ. ومنه قول ٱمرىء القيس:

ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوالِ[2]

---

(١) راجع ١/ ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) أراد بالمسنونة الزرق سهاماً محددة الأزجة صافية. وصدر البيت:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي

وإن كانت الغَول لا تعرف؛ ولكن لما تصوّر من قبحها في النفوس. وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإنْسِ وَالْجِنِّ﴾ فمردة الإنس شياطين مرئية. وفي الحديث الصحيح «ولكأنّ نخلها رؤوس الشياطين» وقد ٱدعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان. وقال الزجاج والفرّاء: الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً. قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف:

عَنْجَـرِدٌ تَحْلِـفُ حيـنَ أحلِـفُ ... كمِثـلِ شيطـانِ الحمَـاطِ أَعْـرَفُ

الواحدة حَمَاطة والأعرف الذي له عُرْف. وقال الشاعر يصف ناقته:

تُـلاعِـبُ مَثْنَـى حَضْـرمـيٍّ كـأنّـه ... تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج الاعوجاج في السير، وسهم عَمُوج يتلوّى في ذهابه، وتَعمَّجت الحيّة إذا تلوّت في سيرها. وقال يصف زمام الناقة[1]:

تُـلاعِـبُ مَثْنَـى حَضْـرمـيٍّ كـأنـه ... تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوعٍ قَفْرِ

وقيل: إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري: هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين. النحاس: وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح. ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة. وقال في ﴿الغاشية﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وسيأتي. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ الشَّوب الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر. قال الفراء: شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة. فأخبر أنه يشاب لهم. والحميم الماء الحار ليكون أشنع. قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾. السدي: يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم. وقيل يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظاً لعذابهم وتجديداً

(١) كذا في الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق، وصواب العبارة الأولى «قال الشاعر يصف زمام ناقته» بزيادة لفظ زمام.

لبلائهم. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ قيل: إن هذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غيرِ النار ثم يردّون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾. وقرأ ٱبن مسعود ﴿ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وقال أبو عبيدة: يجوز أن تكون ﴿ثم﴾ بمعنى الواو. القشيري: ولعل الحميم في موضع من جهنم على طرف منها.

[٦٩] ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

[٧٠] ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

[٧١] ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[٧٢] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

[٧٣] ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[٧٤] ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي صادفوهم كذلك فٱقتدوا بهم. ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي يسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة. قال الفراء: الإهراع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يُستحثَون من خلفهم. ونحوه قول المبرّد. قال: المُهرَع المستحثّ؛ يقال: جاء فلان يُهرَع إلى النار إذا ٱستحثه البرد إليها. وقيل: يُزعَجون من شدّة الإسراع؛ قاله الفضل. الزجاج: يقال هُرِع وأُهْرِع إذا ٱستحث وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي من الأمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِيْنَ﴾ أي رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي آخر أمرهم. ﴿إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ﴾ أي الذين ٱستخلصهم الله من الكفر. وقد تقدّم[١]. ثم قيل: هو ٱستثناء من ﴿المنذَرِين﴾. وقيل هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾.

(١) راجع ١/٢٨ طبعة أولى أو ثانية.

[٧٥] ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾.

[٧٦] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾.

[٧٧] ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾.

[٧٨] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨﴾.

[٧٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾.

[٨٠] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾.

[٨١] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾.

[٨٢] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾. ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ له كنا. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهل دينه، وهم من آمن معه، وكانوا ثمانين على ما تقدّم[١]. ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الغرق. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾. وقال سعيد بن المسيّب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم، ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان][٢] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾. وقوله: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعلى هذا معنى الآية ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك.

---

(١) راجع ٩/٣٥ طبعة أولى أو ثانية. (٢) في «الأصول»: «والأبر» ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم والذي ذكره المسعودي وغيره واللان من ولد يافث.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون. روي معناه عن مجاهد وغيره. وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىَ نُوحٍ﴾ أي تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد. أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني يسلمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المحكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾. والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه؛ وتم الكلام ثم ٱبتدأ فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ أي سلامة له من أن يذكر بسوء ﴿فِي الآخِرِينَ﴾. قال الكسائي: وفي قراءة ٱبن مسعود ﴿سلاماً﴾ منصوب بـ﴿ـتركنا﴾. أي تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً. وقيل: ﴿فِي الآخِرِين﴾ أي في أمة محمد ﷺ. وقيل: في الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا أمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾. وقال سعيد بن المسيّب: وبلغني أنه من قال حين يمسي ﴿سلامٌ على نوحٍ فِي العالِمين﴾ لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد. وفي «الموطأ» عن خَوْلة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: «من نزل منزلاً فليقل أعوذ بكلمات الله التامّاتِ من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل». وفيه عن أبي هريرة أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «من أي شيء» فقال: لدغتني عقرب؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نبقي عليهم الثناء الحسن. والكاف في موضع نصب. أي جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان إحسانه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أي من كفر. وجمعه أُخر. والأصل فيه أن يكون معه ﴿مِن﴾ إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخراً إلا وقبله شيء من جنسه. و ﴿ثمّ﴾ ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ثم أخبركم أني قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان.

[٨٣] ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾.
[٨٤] ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾.
[٨٥] ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.
[٨٦] ﴿ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.
[٨٧] ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.
[٨٨] ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾.
[٨٩] ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ ﴾.
[٩٠] ﴿ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ قال ٱبن عباس: أي من أهل دينه. وقال مجاهد: أي على منهاجه وسنته. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء: المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في ﴿شيعته﴾ على هذا لمحمد عليه السلام. وعلى الأوّل لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أوّلا، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيّان هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة. حكاه الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي مخلص من الشرك والشك. وقال عوف الأعرابي: سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم؟ فقال: الناصح لله عز وجل في خلقه. وذكر الطبري عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحَجَّاج: مسكين أبو محمد إن عذبه الله فبذنبه، وإن غفر له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوب من هو خير منه. قال عوف: فقلت لمحمد ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يابَنيّ لا تكونوا لَعَّانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني عند إلقائه في النار. ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ وهو آزر وقد مضى الكلام[1] فيه. ﴿وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون ﴿ما﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿ذا﴾ خبره. ويجوز أن تكون

(١) راجع ٧/ ٢٢ طبعة أولى أو ثانية.

﴿ما﴾ و ﴿ذا﴾ في موضع نصب بـ ﴿تعبدون﴾. ﴿أَئِفْكاً﴾ نصب على المفعول به بمعنى أتريدون إفكا. قال المبرّد: والإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض. ﴿آلِهَةً﴾ بدل من إفك ﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين. ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. وقيل: أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه: أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدُنا فٱخرج معنا. فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي. وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم. وقال ٱبن عباس: كان علم النجوم من النبوّة ، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها عِلماً نبوياً. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان علم النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم في علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد؛ فصار حكمها في الشرع محظوراً، وعلمها في الناس مجهولاً. قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هِرمزجرد[1] ، وكانوا ينظرون في النجوم . فهذا قول. وقال الحسن : المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل . فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي؛ أي فيما طلع له منه، فعلم أن كل حيّ يسقم فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبّره نظر في النجوم . وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحمّى. وقيل: المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقاً

---

(١) ذكر هذا الاسم الطبري في تاريخه ٢/٣٤٦ طبعة ليدن م ١.

ومدبِّرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال الضحاك: معنى ﴿سَقِيمٌ﴾ سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملِك لما سأله عن سارّة هي أختي؛ يعني أخوّة الدين. وقال ٱبن عباس وٱبن جبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، وكانوا يَهربُون من الطاعون، ﴿فَـ﴾ ـلذلك ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي فارّين منه خوفاً من العدوى. وروى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السديّ عن أبي مالك وأبي صالح عن ٱبن عباس. وعن سَمُرة عن الهَمْداني عن ٱبن مسعود قال قال أبو إبراهيم: إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا. فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إني سقيم أشتكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ٱبن عباس وٱبن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد ٱجتمع له أمران.

قلت: وفي «الصحيح» عن النبيّ ﷺ: «لَمْ يكذبْ إبراهيم النبيّ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات» الحديث. وقد مضى في سورة ﴿الأنبياء﴾[(١)]. وهو يدل على أنه لم يكن سقيماً وإنما عرَّض لهم. وقد قال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة. وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا، ومنه المثل السائر[(٢)] ﴿كَفَى بالسلامة داءً﴾ وقول لبيد:

فدعوتُ ربِّي بالسَّلاَمَةِ جاهِداً ليُصِحَّنِـي فـإذا السَّـلامَـةُ داءُ

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح! فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم وٱصطفائهم عُدَّ هذا ذنبا؛ ولهذا قال ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقد مضى هذا كله مبيناً والحمد[(٣)] لله. وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم. والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحداً مصدراً.

---

(١) راجع ١١/ ٣٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديثاً عن ابن عباس بإسناد ضعيف. (٣) راجع ١١/ ٣٠٠ و ١٣/ ١١ طبعة أولى أو ثانية.

[٩١] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

[٩٢] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

[٩٣] ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾.

[٩٤] ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾.

[٩٥] ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

[٩٦] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ قال السدي: ذهب إليهم. وقال أبو مالك: جاء إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عَدَل. والمعنى متقارب. فراغ يَرُوغ رَوْغا ورَوَغانا إذا مال. وطريق رائغ أي مائل. وقال الشاعر:

ويُرِيكَ مِنْ طَرَفِ اللسانِ حَلاَوة ويَرُوغ عنكَ كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال: ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ﴾. قيل: كان بين يدي الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم. وقيل: تركوه للسَّدَنة. وقيل: قرّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حَلَفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾. وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة واليمين القوة. وقيل: بالعَدْل واليمين هاهنا العَدْل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال. ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصي عن الشمال والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من قِبل الطاعة. فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور. ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق، فالبيعة باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه؛ لأنه وفى بالبيعة، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله؛ لأن الجور هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أي بذلك العدل الذي كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذَاذا، أي فُتَاتا كالجَذِيذة

وهي السَّويق وليس من قبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة ﴿يُزِفُّونَ﴾ بضم الياء. الباقون بفتحها. أي يسرعون؛ قاله ابن زيد. قتادة والسدي: يمشون. وقيل: المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء. وقيل: المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعَدْو، ومنه زَفِيف النعامة. وقال الضحاك: يسعون. وحكى يحيى بن سلاّم: يُرعَدون غضبا. وقيل: يختالون وهو مشي الخيلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها. وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّولِ قبلَ إفَالِهَا ... يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهي زُفَّفُ(١)

ومن قرأ ﴿يُزِفُّونَ﴾ فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل أي حملتها على أن تَزِفّ. وقيل: هما لغتان يقال زَفَّ القومُ وأزفُّوا وزففت العروسَ وأزففتها وازدففتها بمعنى، والمزفّة المحفّة التي تُزَفّ فيها العروس. حكي ذلك عن الخليل. النحاس: ﴿يُزِفُّونَ﴾ بضم الياء زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها بقولهم: أطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك وطردته نحيته؛ وأنشد هو وغيره:

تمنَّى حُصينٌ أن يسودَ جِذَاعةً ... فأمسى حُصينٌ قد أُذِلَّ وأُقهِرَا(٢)

أي صير إلى ذلك؛ فكذلك ﴿يُزِفّون﴾ يصيرون إلى الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحق: الزفيف أول عَدْو النعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوماً قرءوا ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ خفيفة من وَزَف يَزِف مثل وَزَن يَزِن. قال النحاس: فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً. وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف ﴿يَزِفُونَ﴾ مخففة. قال الفراء: وأنا لا أعرفها. قال

(١) القريع: الفحل المختار للضراب. الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس، وهي الناقة التي أتى عليها حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها. وإفالها: صغارها. ويزف: يعدو. يريد أن القريع يفر من شدة البرد وكذا الإفال.

(٢) البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان وقومه، وهم المعروفون بالجذاع. والأصمعي يرويه كما في اللسان مادة قهر؛ قد أذل وأقهرا بالبناء للمعلوم؛ أي صار أمره إلى الذل والقهر.

أبو إسحق: وقد عرفها غيرهما [أنه يقال][١] وَزَف يَزِف إذا أسرع. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ يَزِفون.

قلت: هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي. الزمخشري: و ﴿يُزَفُّونَ﴾ على البناء للمفعول؛ و ﴿يُزْفُونَ﴾ من زَفَاه إذا حَدَاه؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه. وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وٱبن السَّمَيْقع ﴿يَرْفُونَ﴾ بالراء [من] رفيف النعام وهو ركض بين المشي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي قالوا من فعل هذا بآلهتنا، فقال محتجا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم تَنجرُونها. والنّحت النجر والبري؛ نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه والنُّحَاتة البُرَاية والمِنحَت ما ينحت به. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ ﴿ما﴾ في موضع نصب أي وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعني الخشب والحجارة وغيرهما. كقوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وقيل: إن ﴿ما﴾ ٱستفهام ومعناه التحقير لعملهم. وقيل: هي نفي والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه. والأحسن أن تكون ﴿ما﴾ مع الفعل مصدراً، والتقدير والله خلقكم وعملكم. وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إن اللهِ خالق كل صانع وصنعته» ذكره الثعلبي. وخرّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه» وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

[٩٧] ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝٩٧﴾.

[٩٨] ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم في ﴿الأنبياء﴾[١] بيانه فـ ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ تملئونه حطباً فتضرمونه، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال ٱبن عباس: بنوا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وملئوه ناراً وطرحوه فيها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل. والألف واللام في ﴿الجحِيمِ﴾. تدل على الكناية؛ أي في جحيمه؛ أي في جحيم ذلك البنيان. وذكر الطبري أن قائل ذلك ٱسمه الهيزن[٢] رجل من أعراب فارس وهم الترك، وهو الذي جاء فيه الحديث «بينما رجل يمشي في حُلّة له يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» والله أعلم. ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ أي بإبراهيم والكيد المكر أي ٱحتالوا لإهلاكه. ﴿فَجعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

[٩٩] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

[١٠٠] ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

[١٠١] ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة. وأوّل من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربـي فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل: هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة، إلى الأرض المقدّسة وهي أرض الشام. وقيل: ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيتي. فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيان هذا في ﴿الكهف﴾[٣] مستوفى. وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس.

---

(١) راجع ١١/٣٠٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) تقدّم في ١١/٣٠٣ أن اسمه هيزر.

(٣) راجع ١٠/٣٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وقيل: خرج إلى حَرّان فأقام بها مدّة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيباً. وقيل: قال هذا قبل إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما - إني ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي. الثاني - إني ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها، إلى أن قيل لها ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً﴾ فحينئذ سلم إبراهيم منها. وفي قوله: ﴿سَيَهْدِيْن﴾ على هذا القول تأويلان: أحدهما - ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى الخلاص منها. الثاني - إلى الجنة. وقال سليمان بن صُرَد وهو ممن أدرك النبيّ ﷺ: لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب، فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول: أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا؛ فلما ذُهِب به ليطرح في النار ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ فلما طرح في النار قال: (حسبي الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً﴾ فقال أبو لوط وكان ٱبن عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني. فأرسل الله عنقاً من النار فأحرقه.

الثانية - قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به في غربته. وقد مضى في ﴿آل عمران﴾[1] القول في هذا. وفي الكلام حذف أي هب لي ولداً صالحاً من الصالحين وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي إنه يكون حليماً في كبره فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم في ﴿هود﴾[2]. ويأتي أيضاً في ﴿الذاريات﴾[3].

[١٠٢] ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

(١) راجع ٤/٧٣ طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ٩/٦٢ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) في تفسير آية ٢٨ من السورة المذكورة.

[١٠٣] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

[١٠٤] ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

[١٠٥] ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

[١٠٦] ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

[١٠٧] ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

[١٠٨] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

[١٠٩] ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

[١١٠] ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

[١١١] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

[١١٢] ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

[١١٣] ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعي﴾ أي فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور دنياه معينا له على أعماله ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي شب وأدرك سعيُه سعي إبراهيم. وقال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام. قتادة: مشى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة. ابن زيد: هو السعي في العبادة، ابن عباس: صام وصلى ألم تسمع الله عز وجل يقول ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾.

واختلف العلماء في المأمور بذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحق. وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وهو الصحيح عنه. روى الثوريّ وابن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: يابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلّم. وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ﷺ».

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحق. وذلك مروي أيضاً عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح إسحق. وهو قول عمر رضي الله عنه. فهؤلاء سبعة من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعْبي ومجاهد وسعيد بن جُبَير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهريّ والسديّ وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحق. وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبري وغيرهما. قال سعيد بن جبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبح إسحق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من مِنًى؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال. وهذا القول أقوى في النقل عن النبيّ ﷺ وعن الصحابة والتابعين. وقال آخرون: هو إسمعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة. وروي ذلك عن ٱبن عمر وٱبن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشَّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة. وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسمعيلُ ... نَطقَ الكتابُ بِذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإله نبيَّنَا ... وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنكِرْ لَهُ ... شرفاً به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة؟ وإنما كان إسمعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. وروي عن النبيّ ﷺ «أن الذبيح

(١) في التهذيب قال ابن أبي خيثمة سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط ومن قال عبد الرحمن بن سابط فقد أخطأ، وكذا ذكره البخاري. وفي اسم أبيه خلاف.

(٢) في نسخة: النقاش.

إسمعيل» والأوّل أكثر عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين. وٱحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع ٱمرأته سارّة وٱبن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ ولأن الله قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشّر به إبراهيمُ وإنما بُشّر بإسحق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ وقال هنا: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبل أن يتزوّج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلاّ إسحق. ٱحتج من قال إنه إسمعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسمعيل، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس. وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع؛ أما قولهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبياً، فإنه يحتمل أن يكون المعنى؛ وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان؛ قاله ٱبن عباس. وسيأتي. ولعله أُمِر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب. ويقال لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدّم. وقال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح، وهذا مذهب ثالث.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات. وقال محمد بن كعب:

كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً ورقوداً، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم. وهذا ثابت في الخبر المرفوع. قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا». وقال ٱبن عباس: رؤيا الأنبياء وحي؛ وٱستدل بهذه الآية. وقال السدي: لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرت نذراً فَفِ بنذرك. ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلاً يقول: إن الله يأمرك بذبح ٱبنك، فلما أصبح رَوَّى في نفسه أي فَكَّر أهذا الحُلْم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التّرْوِية. فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضاً وقيل له الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فَسُمِّيَ يوم عرفة. ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمَّ بنحره فَسُمِّيَ يوم النَّحْر. وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر والحمد لله. فبقي سُنة. وقد ٱختلف الناس في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة ـ فقال أهل السنة: إن نفس الذبح لم يقع، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغ من ٱمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفِداء. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾: أي حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم ٱمتنعت لما منعناك. هذا أصح ما قيل به في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. وٱستدل على هذا بقول مجاهد: قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إليّ فترحمني. ولكن ٱجعل وجهي إلى الأرض، فأخذ إبراهيم السكين فأمرَّها على حلقه فانقلبت. فقال له ما لَكَ؟ قال: ٱنقلبت السكين. قال ٱطعنّي بها طعناً. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التأم. وقالت طائفة: وجد حلقه نحاساً أو مغشّى بنحاس، وكان كلما أراد قطعاً وجد منعاً. وهذا كله جائز في القدرة الإلهية، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر. ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيماً لرتبة إسمعيل

وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفِداء. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فَرْي الأوداج وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وهذا كله خارج عن المفهوم. ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم. وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما ٱحتيج إلى الفداء.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم ﴿مَاذَا تُرِي﴾ بضم التاء وكسر الراء من أرِيَ يُرِي. قال الفرّاء: أي فٱنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، وإنما قال العلماء ماذا تشير: أي ما تريك نفسك من الرأي. وأنكر أبو عبيد ﴿تُرِي﴾ وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم. النحاس: وهذا غلط، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور، يقال: أريت فلاناً الصواب وأريته رشده، وهذا ليس من رؤية العين. الباقون ﴿تَرَى﴾ مضارع رَأَيْتَ. وقد روي عن الضحاك والأعمش ﴿تُرَى﴾ غير مسمى الفاعل. ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، أو لتقرّ عينه إذا رأى من ٱبنه طاعة في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله:

أَمَـرْتُـكَ الخيـرَ فَـٱفعـلْ مَـا أُمِـرْتَ بِـهِ

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ ٱصطَفَى﴾ أي ٱصطفاهم على ما تقدّم[1]. و ﴿ما﴾ بمعنى الذي. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ قال بعض أهل الإشارة: لمَّا ٱستثنى وفقه الله للصبر. وقد مضى الكلام في ﴿يَا أَبَتِ﴾ وكذلك في ﴿يَا بُنَيَّ﴾ في ﴿يوسف﴾[2] وغيرها.

---

(١) راجع ١٣/ ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية.
(٢) راجع ٩/ ١٢١ طبعة أولى أو ثانية. و ٢/ ١٣٦ طبعة ثانية.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي ٱنقادا لأمر اللَّهِ. وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس وعليّ رضوان الله عليهم ﴿فَلَمَّا سَلَّمَا﴾ أي فوضا أمرهما إلى الله. وقال ٱبن عباس: ٱستسلما. وقال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ٱبنه. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قال قتادة: كبه وحوّل وجهه إلى القبلة. وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ فديناه بكبش. وقال الكوفيون: الجواب ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ والواو زائدة مقحمة، كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا﴾ أي أوحينا. وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وٱقْتَرَبَ﴾ أي ٱقترب. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ﴾ أي قال لهم. وقال ٱمرؤ القيس:

فلمّا أَجَزْنَا ساحةَ الْحَيِّ وٱنتحى(١)

أي ٱنتحى والواو زائدة. وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ ورأيتُم أبناءَكم شَبُّوا
وقَلَبْتُمْ ظهرَ المِجَنِّ لنا إن اللَّئِيمَ الفاجِرَ الخِبُّ

أراد قلبتم. النحاس: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد. وفي الخبر: إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت ٱشدد رباطي حتى لا أضطرب، وٱكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأسرعْ مَرَّ السكين على حَلْقي ليكون الموت أهون عليّ وٱقذفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني؛ ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيمُ عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحزّ في قفاه فلم تعمل السكين شيئاً. فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ كذلك قال ابن عباس: معناه كبه على وجهه فنودي ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فٱلتفت فإذا بكبش. ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل؛ هذا بهيئة

---

(١) تمامه:

بنا بطنُ خبتٍ ذي قِفافٍ عقنقلِ

الذبح، وهذا بصورة المذبوح، أعطيا محلاً للذبح فِداء ولم يكن هنا مرّ سكين. وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدّم. والله أعلم قال الجوهري: ﴿وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه؛ كما تقول: كبه لوجهه. الهروي: والتل الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه: «وتركوك لِمَتَلِّك» أي لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقة كَوْمَاءَ فَتَلَّهَا» أي أناخها وفي الحديث «بينا أنا نائم أُوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت في يدي» قال ٱبن الأنباري: أي فألقيت في يدي، يقال: تَلَلْت الرجل إذا ألقيته. قال ٱبن الأعرابي: فصبَّت في يدي؛ والتَّل الصّب، يقال: تلّ يتُلُّ إذا صبّ، وتَلّ يتِلّ بالكسر إذا سقط. قلت: وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد الساعدي أن رسولَ الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده؛ يريد جعله في يده. وقال بعض أهل الإشارة: إن إبراهيم ٱدعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة؛ فقيل له: يا إبراهيم ٱذبح ولدك في مرضاتي، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبله منى في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك. وقال كعب وغيره: لما أرى إبراهيم ذبح ولده في منامه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً. فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال: أتدرين أين يذهب إبراهيم بٱبنك؟ قالت لا. قال: إنه يذهب به ليذبحه. قالت: كلا هو أرأف به من ذلك. فقال: إنه يزعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه. ثم أتى الغلام فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فليفعل ما أمره الله به، سمعاً وطاعة لأمر الله. ثم جاء إبراهيم فقال: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك

بذبح ٱبنك. فعرفه إبراهيم فقال: إليك عني يا عدوّ الله فوالله لأمضين لأمر ربي. فلم يصب، الملعون منهم شيئاً. وقال ٱبن عباس: لما أمر إبراهيم بذبح ٱبنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى. وٱختلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام. وقيل: في المنحر بمنى عند الجمار التي رمي بها إبليس لعنه الله، قاله ٱبن عباس وٱبن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب. وحكى عن سعيد بن جبير أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمِنىً. وقال ٱبن جُرَيج: ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين. والأول أكثر؛ فإنه ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أنه ذبحه بمكة. وقال ٱبن عباس: فوالذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس. أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام: لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة. والله أعلم.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي النعمة الظاهرة. يقال: أبلاه الله إِبْلاءً وبَلاَءً إذا أنعم عليه. وقد يقال: بَلاهُ. قال زهير:

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو(١)

فزعم قوم أنه جاء باللغتين. وقال آخرون: بل الثاني من بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا ٱختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتِلاء يبلوه. وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. وقال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ٱبنه؛ قال: وهذا من البلاء المكروه.

---

(١) صدر البيت:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذِّبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطِّحْن اسم المطحون. والذَّبح بالفتح المصدر. ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه متقبل. قال النحاس: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف، أو المتقبّل. وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرّب به هابيل، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل. وعنه أيضاً: إنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فُدِيَ إسمعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه، وهذا قول علي رضي الله عنه. فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه. وقال: يا بني اليوم وُهِبت لي. وقال أبو إسحق الزجاج: قد قيل أنه فدى بوعل والوعل التيس الجبلي. وأهل التفسير على أنه فُدِي بكبش.

الثامنة ـ في هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهذا مذهب مالك وأصحابه. قالوا: أفضل الضحايا الفحول من الضأن وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر. وحجتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة. وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل إني نذرت أن أنحر ابني فقال: يجزيك كبش سمين ثم قرأ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وقال بعضهم: لو علم الله حيواناً أفضل من الكبش لفدى به إسحق. وضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين. وأكثر ما ضحى به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة عن الليث عن مجاهد قال: الذِّبح العظيم الشاة.

التاسعة ـ واختلفوا أيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية. حكاه أبو عمر. وقال ابن المنذر: وروينا عن بلال أنه قال: ما أبالي ألا أضحي إلا بديك ولأن أضعه في يتيم قد تَرِب فيه ـ

هكذا قال المحدث ـ أحب إليّ من أن أضحي به. وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثانٍ: إن الضحية أفضل؛ هذا قول ربيعة وأبي الزناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا: الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية سنّة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل. وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوّع كله. قال أبو عمر: وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان، فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زَنْبَر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من نفقة بعد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم» قال أبو عمر: وهو حديث غريب من حديث مالك. وعن عائشة قالت: يا أيها الناس ضحوا وطِيبوا أنفساً؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسناتٍ محضراتٍ في ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع في التراب فإنما يقع في حِرْز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب التمهيد. وخرجه الترمذي أيضاً عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمِل آدميٌّ من عملٍ يوم النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم. وهذا حديث حسن.

العاشرة ـ إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف. وقال عكرمة: كان ٱبن عباس يبعثني يوم الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: من لقيتَ فقل هذه أضحية ٱبن عباس. قال أبو عمر: ومحمل هذا وما روي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند أهل العلم؛ لئلا يعتقد في المواظبة عليها أنها واجبة فرض، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطة بين النبي ﷺ وبين أمته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم. وقد حكى الطحاوي

في مختصره: وقال ابو حنيفة: الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال: وتجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذي تجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ. قال أبو عمر: وهذا قول مالك؛ قال: لا ينبغي لأحد تركها مسافراً كان أو مقيماً، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنى. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليس بواجبة. وقد ٱحتج من أوجبها بأن النبي ﷺ أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى؛ لأن ما لم يكن فرضاً لا يؤمر فيه بالإعادة. ٱحتج آخرون بحديث أمّ سَلَمة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي» قالوا فلو كان ذلك واجباً لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّي. وهو قول أبي بكر وعمر وأبي مسعود البدريّ وبلال.

الحادية عشرة ـ والذي يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية؛ وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. قال ٱبن المنذر: وقد حكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يضحى ببقرة الوحش عن سبعة وبالظبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي: لو نزا ثور وحشي على بقرة أنسية أو ثور أنسي على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية. وقال أصحاب الرأي: جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

الثانية عشرة ـ قد مضى في سورة ﴿ الحج ﴾[1] الكلام في وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى. وفي « صحيح مسلم » عن أنس قال: « ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما » في رواية قال « ويقول بسم الله والله أكبر » وقد مضى في آخر ﴿الأنعام ﴾[2] حديث عمران بن حُصَين ومضى في ﴿ المائدة ﴾[3] القول في التذكية وبيانها وما يُذكّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمّه مستوفى. وفي «صحيح مسلم»

---

(١) راجع ١٢/ ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ٧/ ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية. (٣) راجع ٦/ ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عن عائشة أن رسول الله ﷺ «أمر بكبش أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأُتي به ليضحى به» فقال لها: «يا عائشة هَلُمِّي المدية» ثم قال «أشحذيها بحجر» ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، ثم قال: «بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحّى به. وقد ٱختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية: بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان. وقال مالك: إن فعل ذلك فحسن، وإن لم يفعل وسمى الله أجزأه. وقال الشافعي: والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئاً من ذكر الله، أو صلى على محمد عليه السلام لم أكرهه، أو قال اللهم تقبل مني، أو قال تقبل من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يكره أن يذكر مع ٱسم الله غيره؛ يكره أن يقول: اللهم تقبل من فلان عند الذبح. وقال: لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح. وحديث عائشة يردّ هذا القول. وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح ٱبنه: الله أكبر والحمد لله. فبقي سنة.

الثالثة عشرة ـ روى البَراء بن عازِب أن رسول الله ﷺ سئل ؛ ماذا يُتَّقى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً ـ وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله ﷺ ـ العرجاء البيِّن ظَلَعُها والعوراء البيِّن عَوَرُها والمريضة البيِّن مرضُها والعجفاء التي لا تُنْقى»[1] لفظ مالك ولا خلاف فيه. وٱختلف في اليسير من ذلك. وفي الترمذيّ عن عليّ رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَستَشرِف[2] العين والأذن وألاّ نضحّي بمقابَلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. قال: والمقابَلة ما قطع طرف أذنها، والمدَابَرة ما قطِع من جانب الأذن، والشَّرقاء المشقوقة، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح. وفي «الموطإ» عن نافع: أن عبد الله بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبدن التي لم تُسْنَن والتي نقص من خَلْقها. قال مالك: وهذا أحبّ ما سمعت إليَّ. قال

---

(١) النقي: مخ العظام وشحمها. يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها.

(٢) نستشرف؛ يعني نتطلع العين والأذن، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب.

القتبي: لم تُسنَّن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسناناً. وهذا كما يقال: فلان لم يُلْبَن أي لم يُعطَ لبناً، ولم يُسمَن أي لم يُعطَ سمناً، ولم يُعسَل أي لم يُعطَ عسلاً[1]. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء. قال أبو عمر: ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة، فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحى بها؛ لأنه عيب غير خفيف. والنقصان كله مكروه وشرحه وتفصيله في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبي ﷺ: «ٱستشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» ذكره الزمخشري.

الرابعة عشر ـ ودلت الآية على أن من نذر نحر ٱبنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فَدَى به إبراهيم ٱبنه؛ قاله ٱبن عباس. وعنه رواية أخرى: ينحر مائة من الإبل كما فَدَى بها عبد المطلب ٱبنه. روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يجزيه كفارة يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه. وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث. وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هديٌ. قال: ومن نذر أن ينحر ٱبنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراده فلا شيء عليه. قال: ومن جعل ٱبنه هدياً أهدى عنه؛ قال القاضي ٱبن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة، وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة؛ لأن الله تعالى قال:

---

(١) عقب صاحب لسان العرب في مادة «سنن» على رواية القتبي وتفسيره بقوله: «وقد وهم القتبي في الرواية والتفسير؛ لأنه روى الحديث «لم تسنن» بفتح النون الأولى، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه، وأهل الثبت والضبط رووه «لم تسنن» بكسر النون وهو الصواب في العربية، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة، كما يقال: لم يجلل. وإنما أراد ابن عمر أنه يضحي بأضحية لم تثن؛ أي لم تصر ثنية وإذا أثنت فقد أسنت. ثم قال: وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله: سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح، وقوله: لم يلبن ولم يسمن أي لم يعط لبناً وسمناً غير صحيح، وإنما معناهما لم يطعم سمناً ولم يسق لبناً».

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ والإيمان التزام أصليّ والنذر التزام فرعيّ فيجب أن يكون محمولاً عليه. فإن قيل كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز. قلنا هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وٱبتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية. فإن قيل: كيف يصير نذراً وهو معصية. قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء؟ فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟ قلنا: لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعاً.

الخامسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي على إبراهيم ثناءً جميلاً في الأمم بعده، فما من أمة إلا تصلي عليه وتحبه. وقيل: هو دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿واْجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾. وقال عكرمة: هو السلام على إبراهيم أي سلاماً منا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ حسب ما تقدّم. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى.

السادسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال ابن عباس: بشر بنبوّته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين[1] ؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحاق بشر بنبوّته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه وٱستسلامه له. ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ ﴾ أي ثنّينا عليهما النعمة . وقيل كثّرنا ولدهما ؛ أي باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني

---

(١) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي: بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين.

إسرائيل من صلبه. وقد قيل: إن الكناية في ﴿عَلَيْهِ﴾ تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح. قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآنه أنه إسماعيل وذلك أنه قصّ قصّة الذبيح، فلما قال في آخر القصّة: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نبياً مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إسماعيل ﴿وَعَلَى إِسْحَقَ﴾ كنى عنه؛ لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة.

قلت: قد ذكرنا أوّلاً ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل، وأن المبشر به هو إسحاق بنص التنزيل؛ فإذا كانت البشارة بإسحاق نصاً فالذبيح لا شك هو إسحاق، وبشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى بولادته والثانية بنبوّته؛ كما قال ابن عباس، ولا تكون النبوّة إلا في حال الكبر و ﴿نبياً﴾ نصب على الحال والهاء في ﴿عليهِ﴾ عائدة إلى إبراهيم وليس لإسماعيل في الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه. وأما ما روي من طريق معاوية قال: سمعت رجلاً يقول للنبيﷺ يابن الذبيحين؛ فضحك النبيﷺ. ثم قال معاوية: إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السّهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا: أفد ابنك؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيح الثاني فلا حجة فيه؛ لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه في كتاب «الأعلام في معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العرب تجعل العم أباً؛ قال الله تعالى: ﴿ قَالوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهما أبوه وخالته. وكذلك ما روي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ لو صح إسناده فكيف والفرزدق في نفسه مقال.

السابعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال: منهم محسن ومنهم مسيء، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوّة، فاليهود والنصارى

وإن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية؛ أي أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلاً. وقد تقدّم[1].

[١١٤] ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

[١١٥] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

[١١٦] ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

[١١٧] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

[١١٨] ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

[١١٩] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

[١٢٠] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

[١٢١] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

[١٢٢] ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ﴾ لما ذكر إنجاء إسحاق من الذبح، وما منّ به عليه بعد النبوّة، ذكر ما منّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرق الذي لحق بني إسرائيل. وقيل من الغرق الذي لحق فرعون. ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهارون وحدهما؛ وعلى هذا إن الاثنين جمع؛ دليله قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾. وقيل: الضمير لموسى وهارون وقومهما وهذا هو الصواب؛ لأن قبله ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾. و ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال ٱستبان كذا أي صار بيّنا، وٱستبانه فلان مثل تبين الشيء بنفسه وتبينه فلانٌ. و ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّين القويم الذي لا ٱعوجاج فيه وهو دين الإسلام. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ يريد الثناء الجميل. ﴿سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدّم.

(١) راجع ٦/١٢٠ طبعة أولى أو ثانية.

[١٢٣] ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾.

[١٢٤] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾.

[١٢٥] ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾.

[١٢٦] ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٢٦﴾.

[١٢٧] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧﴾.

[١٢٨] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٢٨﴾.

[١٢٩] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ١٢٩﴾.

[١٣٠] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠﴾.

[١٣١] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣١﴾.

[١٣٢] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياس نبيّ من بني إسرائيل. وروي عن ابن مسعود قال: إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس. وقرأ ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ﴾ وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عمّ اليسع[1]. وقال ابن إسحاق وغيره: كان القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حِزقيل، ثم لما قبض الله حِزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث الله إليهم إلياس نبياً وتبعه اليسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له: أخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه. فخرج ومعه اليسع فقال: يا إلياس ما تأمرني. فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخر العهد به. وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب، وكساه الريش وألبسه النور، فطار مع الملائكة، فكان إنسياً مَلَكياً سماوياً أرضياً. قال ابن قتيبة: وذلك أن الله تعالى قال لإلياس: «سلني أعطك». قال: ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت. فصار يطير مع الملائكة. وقال بعضهم: كان قد مرض وأحس الموت فبكى، فأوحى الله إليه، لم تبك؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا ولا شيء من هذا وعزتك، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمدك، ويذكرك

---

(١) قال بعض المفسرين هو ابن عم اليسع.

الذاكرون بعدي ولا أذكرك، ويصوم الصائمون بعدي ولا أصوم، ويصلّي المصلون ولا أصلّي. فقيل له: «يا إلياس وعزتي لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرني فيه ذاكر». يعني يوم القيامة. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان في كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم في كل عام. وذكر ابن أبي الدنيا؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل. وقد مضى في ﴿الكهف﴾[1]. وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفجِّ الناقة عند الحجر، إذا نحن بصوت يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة، المغفور لها، المتوب عليها، المستجاب لها. فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس ٱنظر ما هذا الصوت» فدخلت الجبل، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس، عليه ثياب بيض، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع، فلما نظر إليّ قال: أنت رسول النبي؟ قلت نعم؛ قال: ارجع إليه فأقرئه مني السلام وقل له: هذا أخوك إلياس يريد لقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدّم النبي ﷺ وتأخرت، فتحدّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السّفرة فدعواني فأكلت معهما، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس، فلما أكلت قمت فتنحيت، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به؛ فقلت للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي! هذا الطعام الذي أكلنا أمن السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألته عنه فقال يأتيني به جبريل في كل أربعين يوماً أكلة وفي كل حول شربة من ماء زمزم وربما رأيته على الجبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقاني».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني لبني إسرائيل. ﴿أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ يعني الله عز وجل وتخافون عقابه. ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك.

---

(١) راجع ٤٣/١١ طبعة أولى أو ثانية.

قال ثعلب: اختلف الناس في قوله عز وجل هاهنا ﴿بَعْلاً﴾ فقالت طائفة: البعل هاهنا الصنم. وقالت طائفة: البعل هاهنا ملك. وقال ٱبن إسحاق: ٱمرأة كانوا يعبدونها. والأوّل أكثر. وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ٱبن عباس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ قال: صنماً. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ٱبن عباس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ قال: ربًّا. النحاس: والقولان صحيحان؛ أي أتدعون صنماً عملتموه ربًّا. يقال: هذا بعل الدار أي ربّها. فالمعنى أتدعون ربًّا ٱختلقتموه، و ﴿أتدعون﴾ بمعنى أتُسمُّون. حكى ذلك سيبويه. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: البعل الرب بلغة اليمن. وسمع ٱبن عباس رجلاً من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال: من بعل هذه؟. أي من ربّها ومنه سمي الزوج بعلاً. قال أبو دؤاد[(١)]:

ورأيتُ بَعْلَكِ في الوغى مُتقلِّداً سيفاً ورُمْحَا

مقاتل: صنم كسره إلياس وهرب منهم. وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربعمائة سادِن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسَّدَنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي أحسن من يقال له خالق. وقيل: المعنى أحسن الصانعين؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون. ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وابن أبي إسحاق وٱبن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي. وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عبيد أنها على النعت. النحاس: وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتخلية. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو الله ربكم. قال النحاس: وأولى مما قال إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

---

(١) هكذا في كل نسخ الأصل ونسبه في الكامل لعبد الله بن الزبعرى ورواه كما في المعاجم: يا ليتَ زوجك في الوغى الخ وقد مضى للمصنف.

أولى وأحسن؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى. ٱبن الأنباري: من نصب أو رفع لم يقف على ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ على جهة التمام؛ لأن الله عز وجل مترجم عن ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب. ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي من قومه فإنهم نجوا من العذاب. وقرىء ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام وقد تقدّم. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ تقدّم. ﴿سَلاَمٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع. وقرأ عكرمة وأبو عمرو وٱبن كثير وحمزة والكسائي: ﴿سلام على إلياسِين﴾. وقرأ الحسن ﴿سلام على الياسِين﴾ بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التي للتعريف. والمراد إلياس عليه السلام وعليه وقع التسليم ولكنه ٱسم أعجمي. والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جِني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد. الزمخشريّ: وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع. وقرىء ﴿على إلياسينَ﴾ و ﴿إِدْرِيسينَ وإِدْرَسِينَ وإِدْرَاسِينَ﴾ على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. النحاس: ومن قرأ ﴿سَلاَمٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ فكأنه والله أعلم جعل ٱسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله؛ أي أهل دينه ومن كان على مذهبه، وعلِم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل في السلام؛ كما قال النبيّ ﷺ: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. ومن قرأ ﴿إلياسِين﴾ فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له. وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد:

قَدْنِيَ مِن نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي[1]

---

(١) تمامه:

ليس الإمام بالشحيح الملحد

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان، ويعرض بعبد الله بن الزبير؛ يرميه بالبخل والإلحاد في الحرم. وقيل هو لأبي بحدلة.

يقال: قِدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب. وإنما يريد أبا خُبَيْب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه. وغير أبي عبيدة يرويه: الخُبَيْبَين على التثنية، يريد عبد الله ومُصْعَبا. ورأيت عليّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا؛ [قال](١) فإن العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالِبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلّب. قال: فعلى هذا ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ سمّي كل رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في كتابه شيئاً من هذا، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة، فيقولون: الأشعرون يريدون به النسب. المهدوي: ومن قرأ ﴿إلياسِين﴾ فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسيّ فحذفت ياء النسبة؛ كما حذفت ياء النسبة في جمع المكسّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حذفت في المسلَّم فقيل المهلَّبون. وقد حكى سيبويه: الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين. السهيليّ: وهذا لا يصح بل هي لغة في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: ﴿سَلَامٌ على الإلياسِين﴾ لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام؛ لا تقول: سلام على زيدين، بل على الزيدين بالألف واللام. فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات. النحاس: وٱحتج أبو عبيد في قراءته ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ وأنه ٱسمه كما أن ٱسمه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلام على ﴿آل﴾ لغيره من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هـو . وهذا الاحتجاج أصله لأبـي عمرو وهو غير لازم؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه. والقول بأن ٱسمه ﴿ إلياسين ﴾ يحتاج إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال. قال الماوردي : وقرأ الحسن ﴿سَلَامٌ على يَاسِينَ﴾ بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان: **أحدهما** ـ أنهم آل محمد ﷺ؛ قاله ٱبن عباس. **الثاني** ـ أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: **أحدهما** ـ أنها زيدت لتساوي الآي ، كما قال في موضع: ﴿طورِ سَيناء﴾ وفي موضع آخر ﴿طورِ سِينِين﴾ فعلى هذا يكون

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس.

السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفاً له. الثاني - أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم. قال السهيلي: قال بعض المتكلمين في معاني القرآن آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال في تفسير ﴿يس﴾ يا محمد؛ وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة: **أحدها** - أن سياقة الكلام في قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون وأن التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل في تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضاً؛ فإن ﴿يس﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿الم﴾ ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هي حروف مقطَّعة، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كل كتاب سرّ، وسرّه في القرآن فواتح القرآن. وأيضاً فإن رسول الله ﷺ قال: «لي خمسة أسماء» ولم يذكر فيها ﴿يس﴾. وأيضاً فإن ﴿يس﴾ جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال ﴿يسِنُ﴾ بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه فـ ﴿إلياسين﴾ هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم. وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل إدريس وإدراسين، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم قال: ﴿سلام على إدراسين﴾. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدّم.

[١٣٣] ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

[١٣٤] ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

[١٣٥] ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

[١٣٦] ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

[١٣٧] ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

[١٣٨] ﴿ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ تقدم قصة لوط[١]. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ أي بالعقوبة. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾

(١) راجع ٧/ ٢٤٥ و ٩/ ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

خاطب العرب أي تمرون على منازلهم وآثارهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح ﴿وَبِاللَّيلِ﴾ تمرون عليهم أيضاً. وتم الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعتبرون وتتدبرون.

[١٣٩] ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

[١٤٠] ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾.

[١٤١] ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

[١٤٢] ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

[١٤٣] ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

[١٤٤] ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متّى، وهو ٱبن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبيّ يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها. ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونسُ، فخرجت في إثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس بن متّى بدعوة إلياس عليه السلام. وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدّم بيانه في سورة ﴿يونس﴾[(١)] ومضى في ﴿الأنبياء﴾[(٢)] قصة يونس في خروجه مغاضباً. واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده. قال الطبري عن شهر بن حَوْشَب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال: ٱنطلق إلى أهل نِينَوَى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال: ألتمس دابة. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: ألتمس حِذاء. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر. قال: فتساهموا،

(١) ٨/ ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية. (٢) ١١/ ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال: فسُهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه؛ فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقاً؛ إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبُلّة، ثم ٱنطلق به حتى مر به على دجلة، ثم ٱنطلق حتى ألقاه في نِينوى. حدّثنا الحرث قال حدّثنا الحسن قال حدّثنا أبو هلال قال حدّثنا شهر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضباً لربه. فكان ما جرى منه قبل النبوّة. وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقّته لهم، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيله ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جرّبوا عليه الكذب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد مضى هذا في «الأنبياء» وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مَائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. ولم ينصرف يونس؛ لأنه ٱسم أعجمي ولو كان عربياً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سميت بيُعْفُرَ صرفته[1] وإن سَميت بيَعْفُر لم تصرفه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد ومنه غلام آبق. وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء. ﴿والفلك﴾ يذكر ويؤنث ويكون واحداً وجمعاً وقد تقدم[2]. قال الترمذي الحكيم: سماه آبقاً لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عندما اشتدّت عليه العزمة من المَلك حسب ما تقدّم بيانه في «الأنبياء»، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة المَلك في أمر الله

---

(١) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فإنه على وزن يقتل فمنع الصرف.

(٢) راجع ٢/ ١٩٤ طبعة ثانية.

لا في أمر نفسه؛ وبحظّ حقّ الله لا بحظ نفسه، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه آبقاً ومُلِيماً.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرد: فقارع قال: وأصله من السهام التي تُجَال. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفرّاء: دحضت حجتُه وأدحضها الله. وأصله من الزلق؛ قال الشاعر:

قَتَلْنَا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ ... فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أي المغلوبين.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي أتى بما يلام عليه. فأما الملوم فهو الذي يلام ٱستحق ذلك أو لم يستحق. وقيل: المليم المعيب. يقال لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل. ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر أن لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب لولا. ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي من المصلِّين ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي عقوبة له؛ أي يكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وٱختلف كم أقام في بطن الحوت. فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة. والله أعلم.

الخامسة ـ روى الطبري من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله ـ تعالى ذكره ـ حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ولا تكسر عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر فلما ٱنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دوابّ البحر» قال: «فسبح وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة» قال: «ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان

يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾». وكان سقمه الذي وصفه به الله تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى ٱنتهوا إلى البر، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا؛ ذكره الزمخشريّ في تفسيره. وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سئل عن الباري في جهة؟ فقال: لا؛ هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبيّ ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متّى» فقيل له: ما وجه الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقول حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديناً. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها ٱثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إن يونس بن متّى رمى بنفسه في البحر فٱلتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وٱرتقى به صعداً، حتى ٱنتهى به إلى موضع يسمع فيه صَرِيف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظلمة البحر.

السادسة ـ ذكر الطبري: أن يونس عليه السلام لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر ، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت . وروي أنه لما ركب في السفينة تَقَنَّع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

ريح كادت السفينة أن تغرَق، فٱجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح، ثم ٱنطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فٱرتفعت الريح. قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم! هذا من أجلي فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر. قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قوم ٱطرحوني فمن أجلي أوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم ٱطرحوني فمن أجلي أوتيتم. فذلك قول الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي وقع السهم عليه؛ فٱنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر فإذا بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فٱلتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات ﴿أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد تقدم ويأتي. ففي هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في ﴿آل عمران﴾[1] قال ٱبن العربي: وقد وردت القُرْعة في الشرع في ثلاثة مواطن؛ **الأول ـ** كان النبيﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، **الثاني ـ** أن النبيﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبدٍ لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم؛ فأعتق ٱثنين وأرقّ أربعة. **الثالث ـ** أن رجلين ٱختصما إليه في مواريث قد درست فقال: «ٱذهبا وتوخَّيا الحق وٱستهِما وليحلل كل واحد منكما صاحبه». فهذه ثلاثة مواطن، وهي القَسْم في النكاح والعِتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(١) راجع ٤/٨٦ طبعة أولى أو ثانية.

وحسم داء التشهي. وٱختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الإقراع. وبه قال فقهاء الأمصار؛ وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، وٱختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة. وكذلك في مسألة الأعبد الستة؛ فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً، فلم يبق إلا القرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل. قال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق.

السابعة ـ الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يقتل ولا يرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فٱضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً؛ وهذا فاسد؛ فإنها لا تخفّ برمي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل.

الثامنة ـ أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين، وأن تسبيحه كان سبب نجاته؛ ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. قال ٱبن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلّين. قال قتادة: كان يصلّي قبل ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح ﴿لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: ومكتوب في الحكمة ـ إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر. وقال مقاتل: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلّين المطيعين قبل المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدّم عملاً صالحاً في حال الرخاء فذكره الله به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأ.

قلت: ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «من ٱستطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل» فيجتهد العبد، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربّه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه. وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث ٱبن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثة نفر ـ في رواية ممن كان قبلكم ـ يتماشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل فٱنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فٱنطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض ٱنظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فٱدعوا الله بها لعله يفرجها عنكم» الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه وقال سعيد بن جبير: لما قال في بطن الحوت ﴿لَاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قذفه الحوت. وقيل: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة. وتكون ﴿كان﴾ عل هذا القول زائدة. أي فلولا أنه من المسبِّحين. وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاء ذي النون في بطون الحوت ﴿لَاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا ٱستجيب له» وقد مضى هذا في سورة ﴿الأنبياء﴾(١) فيونس عليه السلام كان قبل مصلّياً مسبحاً، وفي بطن الحوت كذلك. وفي الخبر: فنودي الحوت؛ إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. وقد تقدم.

[١٤٥] ﴿۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

[١٤٦] ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

[١٤٧] ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

[١٤٨] ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

---

(١) راجع ١١/٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. وقال ٱبن قُسَيْط عن أبي هريرة: طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة؛ فقلنا يا أبا هريرة: وما اليقطينة؟ قال؛ شجرة الدُّبَّاء؛ هيأ الله له أُرْوِيةً[١] وحشية تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو هَشَاش الأرض ـ فَتَفَشّج[٢] عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لَفَظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء. وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهي فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوّته. ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست، فحزن وبكى عليها فعوتب؛ فقيل له: أحزنت على شجرة وبكيت عليها، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيم خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردت إهلاكهم جميعاً. وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تَغطّى بورقها، وٱستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي. ثم إن الله تبارك وتعالى ٱجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمد إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له: فأخبرهم أني قد لقيت يونس . فقال: لا أستطيع إلا بشاهد. فسمى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس. وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهمّوا به شراً فقال : لا تعجلوا عليّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فٱستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، وٱستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك

---

(١) الأروية: الأنثى من الوعول.

(٢) تفشج: تفرج ما بين رجليها.

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله. ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ طرحناه. وقيل: تركناه. ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالصحراء؛ قاله ٱبن الأعرابي. الأخفش: بالفضاء. أبو عبيدة: الواسع من الأرض. الفراء: العراء المكان الخالي. قال وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعتُ رِجْلاً لا أخافُ عِثارَها ... ونَبَذْتُ بالبلَدِ العَرَاءِ ثِيابِي

وحكى الأخفش في قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ جمع سقيم [سقمى[1] و] سقامى وسِقام. وقال في هذه السورة: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ وقال في ﴿نون والقلم﴾: ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ والجواب أن الله عز وجل خبرها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس. وقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ يعني ﴿عَلَيْهِ﴾ أي عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي عندي. وقيل: ﴿عَلَيْهِ﴾ بمعنى له. ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ اليقطين شجر الدُّبّاء: وقيل: غيرها؛ ذكره ٱبن الأعرابي. وفي الخبر: «الدُّبّاء والبطيخ من الجنة» وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدُّبّاء والبطيخ والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم. قال الله تعالى: ﴿والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ وروي نحوه عن ٱبن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كل نبت يمتدّ ويبسط على الأرض ولا يبقى على ٱستواءٍ وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مما له ساق. الجوهري: واليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج: ٱشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذاأقام به فهو يَفعيل. وقيل: هو ٱسم أعجمي. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب. وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس، وهي عبارته عن الأخفش.

فأنبته الله في الحال . القشيري : وفي الآية ما يدل على أنه كان مفروشاً ليكون له ظل . الثعلبي : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يتحزّن عليها ؛ فقيل له : يا يونس أنت الذي لم تَخلق ولم تَسقِ ولم تُنْبت تحزن على شجيرة ، فأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد مني أن أستأصلهم في ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم! فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين. وروي عن النبيّ ﷺ أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : « إنها شجرة أخي يونس » وقال أنس : قدم للنبيّ ﷺ مرَقَ فيه دُبّاء وقَدِيد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالي القَصْعة . قال أنس : فلم أزل أحبّ الدُّبّاء من يومئذ. أخرجه الأئمة.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مَائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدّم عن ٱبن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت. وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب. النحاس: وأجود منه إسناداً وأصح ما حدّثناه عن عليّ بن الحسين قال: حدّثنا الحسن بن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِيّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ ﷺ قال: إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل وٱستغفروا، فكفَّ الله عز وجل عنهم العذاب، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئاً ـ وكان من كَذَبَ ولم تكن له بينة قُتِل ـ فخرج يونس مغاضباً، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يميناً وشمالاً؛ فقالوا: ما لسفينتكم؟ فقالوا: لا ندري. فقال يونس عليه السلام: إن فيها عبداً آبقاً من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبيّ الله فإنا لا نلقيك . قال: فٱقترِعوا فمن قُرِع فليقع ، فٱقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال: فٱقترعوا ثلاثاً فمن قُرِع فليقع. فٱقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثاً فوقع. وقد وكل الله به جل وعز حوتاً فٱبتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض، فسمع يونس عليه السلام

تسبيح الحصى ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها، فيبست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم! قال: وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس. قال: إن كنت يونس فقد علمت أنه من كَذَب قُتِل إذا لم تكن له بَينة فمن يشهد لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فمرهما؛ فقال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فأشهدا له. قالتا نعم. قال: فرجع الغلام إلى قومه وكان في منعة وكان له إخوة، فأتى الملك فقال: إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمر به أن يقتل؛ فقالوا: إن له بيّنة فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما: نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أني لقيت يونس؟ قالتا: نعم! قال: فرجع القوم مذعورين يقولون له: شهدت له الشجرة والأرض! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان مني. قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة. قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذي لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل. وهذا هو الصحيح في الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية.

وقال بعض العلماء: إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا. وهذا لا يمتنع، وقد تقدّم ما للعلماء في هذا في سورة ﴿يونس﴾[١] فلينظر هناك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد مضى في ﴿البقرة﴾[٢] محامل ﴿أو﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء: ﴿أو﴾ بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلمّا اشتد أمرُ الحربِ فينا ... تأمّلنا رِياحاً أو رِزَامَا

أي ورزاما. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾. وقرأ جعفر بن محمد ﴿إلى مِائةِ ألفٍ ويزِيدون﴾ بغير همز فـ ﴿يزِيدون﴾ في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف أي وهم يزيدون. النحاس: ولا يصح هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كون ﴿أو﴾ بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك؛ والواو معناه خلاف معنى ﴿أو﴾ فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر. وقال المبرد: المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون. وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب. وقال الأخفش والزجاج: أي أو يزيدون في تقديركم. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفاً. ورواه أبيّ بن كعب مرفوعاً. وعن ابن عباس أيضاً: ثلاثين ألفاً. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً. ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى منتهى آجالهم.

---

(١) راجع ٨/ ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) راجع ١/ ٤٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

[١٤٩] ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

[١٥٠] ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

[١٥١] ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

[١٥٢] ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

[١٥٣] ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

[١٥٤] ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

[١٥٥] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

[١٥٦] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

[١٥٧] ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي ﷺ ٱحتج على كفار قريش في قولهم: إن الملائكة بنات الله؛ فقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾. وهو معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة؛ أي فسل يا محمد أهل مكة ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾. وذلك أن جُهَينة وخُزَاعة وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله. وهذا سؤال توبيخ. ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثاً. وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن لله ولداً وهو الذي لا يلد ولا يولد. و ﴿إِنّ﴾ بعد ﴿أَلَا﴾ مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمَا مفتوحة أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أمَا بمعنى حقًّا والكسر على أن تكون أمَا بمعنى ألاَ. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد ألاَ تشبيهاً بأمَا، وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع. وتمام الكلام ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ ثم يبتدىء ﴿أَصْطَفَى﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: ويحكم ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ أي ٱختار البناتِ وترك البنين. وقراءة العامة «أَصْطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألف ٱستفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة على

حالها مثل ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ على ما تقدّم[١]. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة ﴿اَصْطَفَى﴾ بوصل الألف على الخبر بغير ٱستفهام. وإذا ٱبتدأ كسر الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين: **إحداهما** ـ أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبله. **والجهة الثانية** ـ أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخ يكون بٱستفهام وبغير ٱستفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وقيل: هو على إضمار القول؛ أي ويقولون ﴿اَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾. أو يكون بدلاً من قوله: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ لأن ولادة البنات وٱتخاذهنّ اصطفاء لهنّ، فأبدل مثال الماضي من مثال الماضي فلا يوقف على هذا على ﴿لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكون له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة وبرهان. ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ أي بحججكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم.

[١٥٨] ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

[١٥٩] ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

[١٦٠] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ أكثر أهل التفسير أن الجِنة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: فمن أمهاتهن. قالوا: مخدّرات الجنّ. وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم جِنّة لأنهم لا يُرَوْن. وقال مجاهد: إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجِنّة. وروي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم جِنّة لأنهم خُزان على الجِنان والملائكة كلهم جِنّة. ﴿نَسَباً﴾ مصاهرة، قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع ١١/١٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدي ومقاتل أيضاً: القائل ذلك كنانة وخُزَاعة؛ قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النّسب الذي جعلوه.

قلت: قول الحسن في هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً. هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ﴾ أي الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب. الثعلبي: الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر في هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيهاً لله عما يصفون. ﴿إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

[١٦١] ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

[١٦٢] ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

[١٦٣] ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام. وقيل: أي فإنكم مع ما تعبدون من دون الله. يقال: جاء فلان وفلان. وجاء فلان مع فلان. ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلّين. النحاس. أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى؛ ما أنتم بمضلّين أحداً إلا من قدّر الله عز وجل عليه أن يضِل. وقال الشاعر:

فَـرَدّ بنعمتـه كيـدَهُ عليـهِ وكـان لنـا فـاتِنَـا

أي مضلاً.

الثانية ـ في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية. قال عمرو بن ذرّ: قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد الله ألاّ يُعصَى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وأن في ذلك لعلماً في كتاب الله جلّ وعز، عرفه من عرفه، وجهله من جهله؛ ثم قرأ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم. وقال: فصَلَت هذه الآية بين الناس، وفيها من المعاني أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدي لحال بينه وبينهم. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي لست تصل منهم إلى شيء إلا إلى ما في علمي. وقال لَبِيد بن ربيعة في تثبيت القدَرِ فأحسن:

إنّ تَقْوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ الله رَيْثِي وعَجَلْ
أَحمَدُ اللَّهَ فلا نِدَّ لهُ ... بيديهِ الخيرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى ... ناعِمَ البالِ ومَنْ شاء أَضَلْ

قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل وأهل نجد يقولون أفتنته.

الثالثة ـ روي عن الحسن أنه قرأ ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ﴾ بضم اللام. النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت علي بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمول على المعنى؛ لأن معنى ﴿من﴾ جماعة، فالتقدير صالون، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصله فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾. ووجه ثالث أن تحذف لام صال تخفيفاً وتجري الإعراب على عينه، كما حذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى؛ ونظيره قراءة من قرأ ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ ﴿وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَئَاتُ﴾ أجرى الإعراب على العين. والأصل في قراءة الجماعة صالِيُ بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها في اللفظ.

[١٦٤] ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾.

[١٦٥] ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾.

[١٦٦] ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾.

هذا من قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادة من عبدهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاثة الآيات نزلت ورسول الله ﷺ عند سِدْرة المنتهَى، فتأخر جبريل، فقال النبي ﷺ: «أهنا تفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ الآيات. والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا من له مقام معلوم. فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين. وما منا ملَك إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبَير. وقال ابن عباس: ما في السموات موضع شبرٍ إلا وعليه ملَك يصلّي ويسبّح. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: « ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملَك ساجد أو قائم » . وعن أبي ذرّ قال قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضعٍ جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد » خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن][1] غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : لوددت أني كنت سجرة تُعْضَد. ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً . وقال قتادة: كان يصلي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ . قال : فتقدّم الرجال وتأخر النساء. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ قال الكلبي: صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض . وفي « صحيح مسلم » عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد ؛ فقال : « ألا تَصُفُّون كما تُصفّ الملائكة عند ربها» فقلنا يا رسول الله كيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ قال؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذي.

«يُتمون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون في الصفّ» وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هَدْي الملائكة عند ربها ويقرأ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ تأخر يا فلان تقدّم يلا فلان؛ ثم يتقدّم فيكبر. وقد مضى في سورة ﴿الحجر﴾[1] بيانه. وقال أبو مالك: كان الناس يصلون متبدّدين فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يصطفوا. وقال الشعبي: جاء جبريل أو ملك إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلي وتسبّح ما في السماء ملك فارغ. وقيل: أي لنحن الصافّون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظر ما نؤمر به. وقيل: أي نحن الصافّون حول العرش. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المصلّون؛ قاله قتادة: وقيل: أي المنزِّهون الله عما أضافه إليه المشركون. والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله. وقيل: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي لكل واحد منا ومنكم في الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب. وقيل: أي منّا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص، ومنّا من له مقام الشكر. إلى غيرها من المقامات.

قلت: والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ والله أعلم.

[١٦٧] ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧﴾.

[١٦٨] ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨﴾.

[١٦٩] ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩﴾.

[١٧٠] ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾.

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي كانوا قبل بعثة محمد ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي لو بُعِث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لاتبعناه. ولمّا خففت ﴿إن﴾ دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقاً بين النفي والإيجاب. والكوفيون

(١) راجع ١٠/١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

يقولون: ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما واللام بمعنى إلا. وقيل: معنى ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً﴾ أي كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لو جاءنا ذكر كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادة لله. ﴿فكَفَرُوا بِهِ﴾ أي بالذكر. والفراء يقدره على حذف؛ أي فجاءهم محمد ﷺ بالذكر فكفروا به. وهذا تعجيب منهم، أي فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج: يعلمون مغبة كفرهم.

[١٧١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.
[١٧٢] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.
[١٧٣] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.
[١٧٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾.
[١٧٥] ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾.
[١٧٦] ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.
[١٧٧] ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.
[١٧٨] ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾.
[١٧٩] ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء: أي بالسعادة. وقيل: أراد بالكلمة قوله عز وجل ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ قال الحسن: لم يُقتَل من أصحاب الشرائع قط أحد. ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة. ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾. وقال الشيباني: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم. ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج: إلى الوقت الذي أمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل يعني فتح مكة. وقيل: الآية منسوخة بآية السيف. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار. وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي عن قريب يبصرون: وقيل: المعنى فسوف يبصرون

العذاب يوم القيامة. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هذا العذاب، أي لا تستعجلوه فإنه واقع بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي العذاب. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل. ومعنى ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي بدارهم؛ عن السدي وغيره. والساحة والسَّحْسَة في اللغة فِنَاء الدار الواسع. الفرّاء: ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ ونزل بهم سواء. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب. وفيه إضمار أي فساء الصباح صباحهم. وخصّ الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: لما أتى رسول الله ﷺ خَيْبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المسَاحي، فقالوا: محمد والخميس[1]، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال ﷺ: «الله أكبر خَرِبت خيبر إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين» وهو يبين معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يريد النبيَّ ﷺ. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ كرر تأكيداً وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد أيضاً.

[١٨٠] ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

[١٨١] ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

[١٨٢] ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ على البدل. ويجوز النصب على المدح، والرفع بمعنى هو ربّ العزة. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي من الصاحبة والولد. وسئل رسول الله ﷺ عن معنى ﴿سبحان الله﴾ فقال: «هو تنزيه الله عن كل سوء» وقد مضى في ﴿البقرة﴾[2] مستوفى.

الثانية ـ سئل محمد بن سُحْنون عن معنى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ لِم جاز ذلك والعزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال: العزة تكون

---

(١) الخميس الجيش.

(٢) راجع ١/٢٧٦ و ٢٨٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة و ٢/٧٦ وما بعدها طبعة ثانية.

صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والمعنى ربّ العزّة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. قال وقد جاء في «التفسير»: إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة. قال وقال بعض علمائنا: من حلف بعزّة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفّارة عليه. الماوردي: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يحتمل وجهين، **أحدهما** ـ مالك العزّة، **الثاني** ـ ربّ كل شيء متعزِّز من مِلك أو متجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف.

الثالثة ـ روي من حديث أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله ﷺ كان يقول قبل أن يُسلِّم ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبَالة المنصورة من الديار المصرية ، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسمعيل بن أبي بكر القارىء، قال حدّثنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسيّ ، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفراييني ، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدّثنا هُشَيم عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدريّ قال سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردي : روى الشعبي قال قال رسول الله ﷺ « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبي من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعاً.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة. وقال أنس قال النبي ﷺ: «إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين» وقيل: معنى ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي أَمْن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين. وقيل: أي على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين. وقيل: أي على هلاك المشركين؛ دليله ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قلت: والكل مراد والحمد يعم. ومعنى ﴿يَصِفُونَ﴾ يكذبون، والتقدير عما يصفون من الكذب. تم تفسير سورة الصافات.

❀ ❀ ❀

تفسير سورة صٓ

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة، وأبو حصين، وأبو صالح، والسدي: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ [ص: ٦٤]، حكاهما ابن جرير، وهذا الثاني فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير. وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾، واختاره ابن جرير. وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم. ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذي الذكر. وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون ولأنهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: مخالفة له ومعاندة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوا۟﴾ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾ [الأنبياء: ١٢] أي: يهربون ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء: ١٣]. قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نزو، ولا فرار. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَـذَكَّـر لـيـلـى لاتَ حـيـن تـذَكَّـر

وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس

بحين فرار ولا إجابة. وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء في غير حين النداء. وهذه الكلمة وهي «لات»، هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء، كما تزاد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب فيقولون: ربت. وهي مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب حين، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لاتَ حِينا ... وأضْحَى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرِينا

ومنهم من جوز الجرّ بها، وأنشد:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ ... فأجَبْنَا أن لَيْسَ حِينُ بَقاءِ

وأنشد بعضهم أيضاً:

وَلاتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾. قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات: قال السدي: إن أناساً من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبده؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء. فتعيرنا به العرب، يقولون: «تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه». فبعثوا رجلاً منهم يقال له: «المطلب»، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا. قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال أبو جعفر بن جبير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ لفظ أبي كريب. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه، ورواه الترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير أيضاً، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمارة الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذي: حسن.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدي. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾، يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص. وقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعّا. ثم قال مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ أي: العزيز الذي لا يرام جنابة، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة، بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعني طرق السماء. وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر، ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة، وأكثر أموالاً

وأولاداً، فما دافع ذلك عنهم عن عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ١٥﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مَثْنَوية، أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي: قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾ هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس وابن زيد والسدي: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة، وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقول ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر. وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى».

وإنه كان أواباً، وهو الرجاع إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨﴾ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له. قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن موسى بن أبي كثير، عن ابن عباس أنه بلغه: أن أم هانيء ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثماني ركعات، قال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾. ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاه عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانيء فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني به، فقالت أم هانيء: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صب في قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بيني وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق. ولهذا قال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له. قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع.

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً. وقال السدي: كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف. وقال بعض السلف: بلغني أنه كان حَرَسُه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل. وقال غيره: أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح. وقد ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقراً، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال: يا نبي الله، علام تقتلني وقد اغتصبني

هذا بقري؟ فقال: إن الله ﷻ أمرني بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه، وإني لصادق فيما ادعيت، ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل. قال ابن عباس: فاشتدت هيبته في بني إسرائيل، وهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدي: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: النبوة. وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضي، والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي. وقال مجاهد، والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميري، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز ابن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بردة، عن أبيه عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود، عليه السلام، وهو فصل الخطاب. وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله ﷻ؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غَلَبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه. وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾. ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضي الله عنهم، في سجدة ص، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسماعيل ـ وهو ابن علية ـ عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن ـ هو المقسمي ـ حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكراً». تفرد بروايته النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع: أخبرنا أبو إسحاق المدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامي، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذي، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج: يا حسن، حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم، اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، وأقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة. رواه الترمذي عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس، نحوه. وقال الترمذي: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا

محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حميد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المزني ـ أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال: فقصها على النبي ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به الإمام أحمد. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنتُم». فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا». وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً، إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً، إمام جائر». ورواه الترمذي من حديث فضيل ـ وهو ابن مرزوق الأغر ـ عن عطية، به. وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلون عنه فيضلوا عن سبيله. وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ـ ﷻ ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل،

الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآنُ في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً، كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه السلام، قال له: يا بني، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبي. وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ قال: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس، فعقرها. وهذا أشبه، والله أعلم. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عُمَارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ـ أو خيبر ـ وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة ـ لُعَب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ.

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد المغرب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضي الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضي الله عنهم، في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله ﷻ بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهي الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ

قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما عمله الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله -عز وجل- إلا أعطاك الله خيراً منه».

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعني شيطاناً. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته. قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخراً. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضاً. وقيل: حبقيق. قاله السدي. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة. وقد قال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين في البحر يَرِدُها في كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خَمْر، فجاء يوم وزده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فَذَلّ. قال: وكان ملكه في خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به. حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء ـ أو: الحمام ـ لم يدخل بخاتمه فانطلق يوماً إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونُزع مُلك سليمان منه، وألقى على الشيطان شَبَه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبي الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبي الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبي الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ فقال: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال: هو الشيطان صخر. وقال السدي: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوماً. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: جرادة، وهي آثر نسائه وآمَنُهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها، فأعطاها يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه، فقالوا بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل دمه، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاء الطير التي حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا به، فقال: ما أحمدكم على عذركم، ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لا بد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر

به فألقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسخر له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال: شيطاناً يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ـ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى اعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فاراً. وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه ـ وكانت الجرادة امرأته، وكانت أحب نسائه إليه ـ فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَف أنه من أمر الله ﷻ. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرون من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنه قد فُطن له، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه في البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر له تخت من رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال: يعني الشيطان الذي كان سلط عليه. إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبي عمرو السيباني: وجد سليمان خاتمه في عسقلان، فمشى في خرقة إلى بيت المقدس، تواضعاً لله ﷻ. رواه ابن أبي حاتم. وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبراً عجيباً، فقال: حدثنا أبي، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرني عن كرسي سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أي شيء هو؟ فقال: كان كرسي سليمان من أنياب الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جُعل له درجة منها مُفَصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فحُفّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسي طواويس من ذهب، ثم جُعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أَسَدَان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسي، وجعل عناقيدها دراً

وياقوتاً أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكاً وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب، يعقد عليها سبعون قاضياً من بني إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبراً من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السلفى، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد سليمان على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضي الله عنه: وما الذي يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسُد والطواويس التي في أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان ابن داود عليه السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان على الناس. وذكر تمام الخبر، وهو غريب جداً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ. قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تَفَلَّت عليّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾» قال روح: فرده خاسئاً. وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يَزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثاً ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة». وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعي هاتين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل». وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبي سُرَيج، عن أبي أحمد الزبيري، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بُشرب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله، ﷻ، له توبَةً أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه إلا الصلاة فيه، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عَلَيّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد ـ قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه

من رَدْغَة الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله ﷻ. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها». وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، ﷻ، خلالا ثلاثاً. . .» وذكره.

وقد روي من حديث رافع بن عمير، رضي الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبَة العسقلاني، حدثنا محمد بن أيوب بن سُوَيْد، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي عَبْلَة، عن أبي الزاهرية، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ لداود، عليه السلام: ابن لي بيتاً في الأرض. فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتي؟ قال: يا رب، هكذا قضيت، من ملك استأثر. ثم أخذ في بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثاً، فشكا ذلك إلى الله ﷻ، فقال: يا داود، إنك لا تصلح أن تبنى لي بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادي، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بني إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورَك ببنيان بيتي، فسلني أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحه بـ«سبحان الله ربي الأعلى العلي الوهاب». وقد قال أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما السلام: أن سلني حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك، كما كان قلب أبي، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبدي وسألته حاجته، فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني، وأن أجعل قلبه يحبني. لأهَبَنّ له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، والتي بعدها، قال: فأعطاه الله ما أعطاه، وفي الآخرة لا حساب عليه. هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة سليمان، عليه السلام، في تاريخه. وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغني عن داود عليه السلام أنه قال: «إلهي، كن لسليمان كما كنت لي»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لي كما كنت لي، أكون له كما كنتُ لك. وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾: قال الحسن البصري، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضباً لله، ﷻ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر. وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾أي: حيث أراد من البلاد. وقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾أي: موثوقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرَّدَ وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى. وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولاً ـ وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكاً نبياً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة في المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان في الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾أي: في الدار الآخرة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مَغْرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولـم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فَسُلبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمة قال: رَبّ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهب ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحداً من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشفَ ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، ﷻ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خَرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك». انفرد بإخراجه البخاري، من حديث عبد الرزاق، به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها في أمر فعلته. قيل: إنها باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها من هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، ﷻ، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد بَرّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وأخذوها بمقتضاها، ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب، عليه السلام،

فلذلك رخص له في ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مِن نَّفَادٍ﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، يعني: القوة في طاعة الله، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني: البصر في الحق. وقال قتادة والسدي: أعطُوا قوة في العبادة وبَصراً في الدين. وقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراساني. وقال سعيد بن جُبَيْر: يعني بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصةً أفضل شيء في الدار الآخرة. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون. وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾ أي: هذا فصل فيه ذكر لم يتذكر. وقال السدي: يعني القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها أي: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّاري، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا عبد الله بن مسلم ـ يعني: ابن هرمز ـ عن ابن سابط، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله ـ أو: لا يسكنه ـ إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل». وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضروا كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويات في السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسّدّي. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله، ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغسّاق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ

أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسّاق يهراق في الدنيا، لأنتن أهل الدنيا». ورواه الترمذي، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين». كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به. وقال كعب الأحبار: غساق: عين في جهنم، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويُجَر لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه. رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾: ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾ [الأعراف: ٨٣]، يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي: داخل معكم، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم. ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾، كما قال ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: في الدنيا، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩] وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يعني: القرآن. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا جهضم اليمامي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضي الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعاً فثُوِّب بالصلاة فصلى، وتَجوّز في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قُدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا

أنا بربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب ـ أعادها ثلاثاً ـ فرأيته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي» به. وقال: «حسن صحيح» وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن إن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سبحان، والكهف، وهاهنا. وهي أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً و احتراماً، وامتثالاً لأمر الله ﷻ. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، في زعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه إبليس، إعلاماً له بأنه قد أبلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يَعْجَل على من عصاه فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه: أن الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة. قال سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾. أخرجاه من حديث الأعمش، به. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة ص،

ولله الحمد والمنة



(٣٨) سُورَةُ صٓ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا
مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكلام المستقصى فى أمثال هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه (فالأول) أنه مفتاح أسماء الله تعالى التى أولها صاد ، كقولنا صادق الوعد ، صانع المصنوعات ، صمد (والثانى) معناه صدق محمد فى كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (الرابع) معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن، فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهى المعارضة ومنها الصدى وهو مايعارض صوتك فى الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه (السادس) أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ، فإن قيل ههنا إشكالان (أحدهما) أن قوله (والقرآن ذى الذكر) قسم وأين المقسم عليه ؟ (والثانى) أن كلمة (بل) تقتضى رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا المعنى ههنا ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (الأول) أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد ﷺ ، فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله (والقرآن ذى الذكر) هو القسم (الثانى) أن يكون المقسم عليه محذوفاً ، والتقدير سورة (ص والقرآن ذى الذكر) أنه لكلام معجز، لأنا بينا أن قوله (ص) تنبيه على التحدى (والثالث) أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص والقرآن ذى الذكر ، ولما كان المشهور أن محمداً عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه (ص) جارياً مجرى قوله : هذه هى السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أى هذا هو المشهور

www.besturdubooks.wordpress.com

بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثانى أن الحكم المذكور قبل كلمة (بل[1]) أما ماذكره المفسر كون محمد صادقاً فى تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة (بل) ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك لحصل المطلوب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله ذى الذكر وجهان (الأول) المراد ذى الشرف ، قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقال تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر فى الناس ، كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيانين أى فيه قصص الأولين والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الأول) قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك ، وهذا ذكر مبارك ، والقرآن ذى الذكر ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) و (بيان الثانى) قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) (والجواب) أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهى محدثة .

أما قوله (بل الذين كفروا) فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الإنقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان فى نفسه من الأحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق ، فيريد أن يكون فى شقة نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة ، وهى جانب الوادى ، وكذلك المحادة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا) والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر بأى شىء نادوا ، وفيه وجوه (الأول) وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أى ارفع صوتاً ، ثم قال (ولات حين مناص) يعنى

---

(١) الحكم الذى قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والايمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمه ذى الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية ، وبهذا يكون للاضراب بيل معنى ويجرى الكلام على الأساليب العربية . فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ماجاء بعد(بل) من الآيات والاضراب لا يكون عن حكم لم يذكر .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾

ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا) وقال (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله (آلآن وقد عصيت قبل) وقوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) بقي ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها ، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان (وحين مناص) منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالإبتداء أي ولات حين مناص كائن لهم .

﴿ البحث الثاني ﴾ الجمهور يقفون على التاء من قوله (ولات) والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة ، قال صاحب الكشاف : وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

﴿ البحث الثالث ﴾ المناص المنجا والغوث ، يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه ، واستناص طلب المناص ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) في قوله (منهم) وجهان (الأول) أنهم قالوا إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال

www.besturdubooks.wordpress.com

جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب فى الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً من الكذب والتهمة ؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ومعناه أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم فى الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

ثم قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وإنما لم يقل وقالوا بل قال (وقال الكافرون) إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فان الساحر هو الذى يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذى يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التى تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه فى إثبات كونه كاذباً وهى ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالإلهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهى قولهم (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا الشيء عجاب) روى أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال ﷺ ماذا يسألونني ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوننى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) أى بليغ فى التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الأول) هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا فى الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفى قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا لا بد فى حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (الوجه الثانى) أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك ، فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الأقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محقاً صادقاً ، وأقول لعمرى لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً . وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة فى الذات وكلام المشبهة فى الأفعال ، أما المشبهة

www.besturdubooks.wordpress.com

فى الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود فى الشاهد يجب أن يكون جسما ومختصاً بحيز وجب فى الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة فى الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلانى قبيح منا، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة فى الذات وفى الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد . وأما الشبهة الثانية فلعمرى لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقى ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأولى ﴾ أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى (ومكروا مكراً كباراً) .

﴿ الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى (مكراً كباراً) .

ثم قال تعالى (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا فى المجلس فانه تمتلىء القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، وقوله (منهم) أى من قريش انطلقوا عن مجلس أبى طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أى لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجرى فى المجلس المتقدم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملأ منهم يمشون .

﴿ البحث الثانى ﴾ معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ، إن هذا لشىء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره ليس إلا لأن الله يريده ، وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) أن الأمر كشىء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) أن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم ، قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد .

ثم قال (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذى أتى به محمد ﷺ ما سمعناه فى دين النصارى ، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا (إن هذا إلا اختلاق) افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلا ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل .

www.besturdubooks.wordpress.com

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى :﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم إن محمداً لما كان مساوياً لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) فانه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضاً أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لاتحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لاتحصل له النبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدونها هى الخارجية وهى المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد فى أفكارهم ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله تعالى (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله (بل هم فى شك من ذكرى) أى من الدلائل التى لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهى كلمات ضعيفة وأما الدلائل التى تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهى دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل فى الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التى تمسكوا بها فى إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال ، فأما قوله تعالى (بل لما

www.besturdubooks.wordpress.com

يذوقوا عذاب) فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأنى لم أذقهم عذابى ، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله (بل هم فى شك من ذكرى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ، ثم إنهم أصروا على الكفر ، ولم ينزل عليهم العذاب ، فصار ذلك سبباً لشكهم فى صدقه ، وقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) فقال (بل هم فى شك من ذكرى) معناه ماذكرناه ، وقوله تعالى (بل لما يذوقوا عذاب) معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثانى) من الوجوه التى ذكرها الله تعالى فى الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أى كامل القدرة ووهاباً أى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود ، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً ، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث) فى الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب) واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض ، فلما ذكرنا الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر (ملك السموات والأرض وما بينهما) يعنى أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله ، فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم ، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى ، فهذا ما أمكننى ذكره فى الفرق بين الكلامين ، أما قوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) فالمعنى أنهم أن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا فى الأسباب واصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون ، واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله (فليرتقوا فى الأسباب) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ماقلناه والله أعلم ، أما قوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الألفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الأول) فقوله (جند) مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لأمر ما ، وعندى طعام ما ، و(من الأحزاب) صفة لجند و (مهزوم) خبر المبتدأ وأما قوله (هنالك) فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك ، أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

فيه هذه الكلمات الطاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثانى) فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات و الأرض فليرتقوا فى الأسباب ، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون ، فكيف يكونون مالكى السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندى حمله على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين فى مكة وما ذاك إلا يوم الفتح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا فى النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بين تعالى فى هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول فى إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثانى) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه (الأول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... فى ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضى حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيما لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك

www.besturdubooks.wordpress.com

مع قوة أمره أبلغ (والثانى) أنه كان ينصب الخشب فى الهواء وكان يمد يدى المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الاربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ، ويتركه معلقاً فى الهواء إلى أن يموت (والثالث) أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيرى الأهبة عظيمى النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء[1] . وأما الإيكة فهى الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى (أولئك الأحزاب) وفيه أقوال (الاول) أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بين بقوله (جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب ، أى من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد ﷺ (الثانى) أن معنى قوله (أولئك الأحزاب) مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين.

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ، ثم قال إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب ، لاجرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الأول) أن يكون المراد عذاباً يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة ،كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر : صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى (فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) الآية (والقول الثانى) أن هذه الصيحة هى صيحة النفخة الأولى فى الصور ، كما قال تعالى فى سورة يس (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذى ينتظر الشىء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة فى حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال (مالها من فواق) قرأ حمزة والكسائى (فواق) بضم الفاء ، والباقون بفتحها، قال الكسائى والفراء

(١) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فانها خاصة بالفراعين فى مصر ، وإنما جاز أن نسميها أوتادا تشبيها لها بالجبال فى الرسوخ فى الأرض والعظم والسموق والعلو والارتفاع ، والله تعالى سمى الجبال أوتاداً فى القرآن بقوله و(الجبال أوتاداً) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

وأبو عبيدة والأخفش : هما لغتان من فواق الناقة . وهو ما بين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع ، يقال أفاق من مرضه ، أى رجع إلى الصحة ، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم ، كقولك قصاص الشعر وقصاصه . قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الأفاقة ، والأفاقة معناها الرجوع والسكون كأفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن إلى الضرع ، وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية « يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع ، قال فيمدها ويطولها » وهى التى يقول (مالها من فواق) ثم قال الواحدى:وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون(والثانى)ما لها رجوع ، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون ، ويقال لكل من بقى على حالة واحدة ، إنه لا يفيق منه ولا يستفيق ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾

اعلم أنا ذكرنا فى تفسير قوله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالإلهيات ، وهو قوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) (والثانية) تتعلق بالنبوات ، وهو قوله (أأنزل عليه الذكر من بيننا) (والثالثة)تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وذلك لأن القوم كانوا فى نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ، والقط القطعة من الشىء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة ، قالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا من الجنة ، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها .

واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) وقالوا له على سبيل الاستهزاء (عجل لنا قطنا) أمره الله بالصبر على سفاهتهم ، فقال (اصبر على ما يقولون) فإن قيل . أى تعلق بين قوله (اصبر على ما يقولون) وبين قوله(واذكر عبدنا داود)؟ قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الأول) كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر ، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن

www.besturdubooks.wordpress.com

يوم الحشر ، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الضد الآخر نقصاناً (والثانى) كأنه قيل لمحمد ﷺ لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك (والثالث) أن للناس فى قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد ﷺ إن حزنك ليس إلا ، لأن الكفار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه فى ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل فى قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثانى) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجىء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدى به فى حسن الخلق (والخامس) أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم فى أكثر الأمر إنه يتيم فقير ، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه مع ذلك ماسلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لاسبيل إليه فى الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود) غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال (اصبر على ما يقولون) واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص ، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها فى هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ماتقدم ، وسيجىء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

﴿ فالقصة الأولى ﴾ قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى فى هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالأول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التى توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثانى) شرح تلك الواقعة التى وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الأول) وهو شرح الصفات التى آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهى عشرة (الأول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدى فى الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى به فى مكارم الأخلاق (والثانى) أنه قال فى حقه (عبدنا داود) فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال (سبحان الذى أسرى بعبده)

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضاً ، فان وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (والثالث) قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح ، والقوة التى توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه (والأيد) المذكور ههنا كالقوة المذكورة فى قوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ؛ فخذها بقوة) أى باجتهاد فى أداء الأمانة وتشدد فى القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف (والأيد) والقوة سواء . ومنه قوله تعالى (هو الذى أيدك بنصره) وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) وقال (والسماء بنيناها بأيد) وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقهاً فى الدين . وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله (إنه أواب) أى أن داود كان رجاعا فى أموره كلها إلى طاعتى والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى (إن الينا إيابهم) وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) .

قوله تعالى ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾

ونظير هذه الآية قوله تعالى (ياجبال اوبى معه والطير) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ وفيه وجوه : (الأول) أن الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) فان معناه أنه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى) فى التأويل ما رواه القفال فى تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن ، وما يصغى الطير إليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحاً ، وذكر محمد بن إسحق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف (يسبحن) فى معنى مسبحات ، فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوى فى كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (يسبحن) يدل على

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالا بعد حال وكان السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق .

﴿ البحث الرابع ﴾ احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانىء قالت « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق » وعن طاووس عن ابن عباس قال « هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل فى نفسى شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى قوله (يسبحن بالعشى والإشراق) »

﴿ الصفة السادسة ﴾ من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطير محشورة كل له أواب[1]) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (والطير) معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (محشورة) فى مقابلة (يسبحن) إلا أنه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلاجرم جيء به اسماً لا فعلا ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرىء (والطير محشورة)بالرفع .

﴿ الصفة السابعة ﴾ من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى (كل له أواب) ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أى رجاع ، أى كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله (كل له أواب) لله تعالى أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله تعالى (وشددنا ملكه) أى قويناه وقال تعالى (سنشد عضدك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

بأخيك) وقيل شددنا على المبالغة ، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهى إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجهين (الأول) روى الواحدى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً . قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً . وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند دواد على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه ، فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود فى منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعدذلك بأن تقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله ، فقال المدعى عليه صدق الله إنى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود . فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

﴿ الصفة التاسعة ﴾ قوله (وآتيناه الحكمة) واعلم أنه تعالى قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمى هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الأحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

﴿ الصفة العاشرة ﴾ قوله (وفصل الخطاب) واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التى عرفوها فى الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان (وثالثها) الذى يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ، ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله (وآتيناه الحكمة) أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرماناً عظيماً(١) والله أعلم ، وقول من قال المراد معرفة الأمور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر فى الخيال ، بحيث لا يختلط شىء بشىء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم ، وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له

(١) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا إيتاء داود الحكمة بأنه أول من قال: أما بعد ، لبعدهم عن الفهم وعن الصواب ، وقد روى أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الايادى الخطيب المشهور .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة فى هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم .

أما قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) فهو نظير قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ، ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها : أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه . فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

والذى أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه (الثانى) أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته (أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ « من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » (وأما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وإن أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة فى البيان .

فنقول (أما الصفات الأولى) فهى أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله .

(وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاماً فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة . فحينئذ ما كان داود كاملا

www.besturdubooks.wordpress.com

فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة.

(الصفة الثالثة) هو قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين ؛ لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة فى الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم ؟.

(الصفة الرابعة) كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفاً بالقتل والفجور ؟.

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه) أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

(الصفة السادسة) قوله (والطير محشورة) ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شىء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟.

(الصفة السابعة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟.

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملا ، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى إنا (آتيناه الحكمة وفصل الخطاب) مع إصراره على مايستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه فى الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الأول) قوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله (وإن له عندنا لزلفى) لائقاً به (الثانى) قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إنى فوضت إليك خلافتى ونيابتى ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو

www.besturdubooks.wordpress.com

ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) فثبت أن هذا الذى نختاره أولى (والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله الله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبتلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعى فى قتل النفس بغير الحق والإفراط فى العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التى ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) أن داود عليه السلام قال (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا) استثنى الذين آمنوا عن البغى ،فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغى لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت فى بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لا شك أن داود عليه كان من أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه ، وأيضاً فبتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شىء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التى ذكرتموها حقيقية صحيحة فان روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التى هذا شأنها وصفتها ، فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت . ولم يذكر شيئاً (السابع) أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا) (الثامن) لو سعى داود فى قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله « من سعى

www.besturdubooks.wordpress.com

فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » وأيضاً لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب عليه السلام قال « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين » وهو حد الفرية على الأنبياء ، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فانه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل . يعنى فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوه ، وإذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من من أكابر الأنبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما فى كتاب الله تعالى فقال لا ينبغى أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (١) « سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها أن القصة التى ذكروها فاسدة باطلة ، فان قال قائل إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيقى أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة .

أما الاحتمال الثانى : وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه : (الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له فى هذا ذنب البتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس فى وسعه ، فلا يكون مكلفاً به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذياً عظيماً بسبب

(١) لم ينص فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه ، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذى حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولا ندرى أهو عمر بن الخطاب أم ابن عبد العزيز أم شخص غيرهما ولعله سقط بيان ذلك من الناسخ أو المطبعة الأميرية .

www.besturdubooks.wordpress.com

قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة اوى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً فى ظاهر الشريعة ، إلا أنه لا يليق بك ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

وأما الإحتمال الثالث : وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام ، بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام ، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه ، فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب ، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً ، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة ، وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله (وظن داود أنما فتناه) ، (وثانيها) قوله تعالى (فاستغفر ربه) (وثالثها) قوله (وأناب) (ورابعها) قوله (فغفرنا له ذلك) ثم نقول ، وهذه الألفاظ لا يدل شىء منها على ماذكروه ، وتقريره من وجوه (الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق ، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم ، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله ، قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الإنتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب ، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثانى) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه ، إلا أنه ندم على ذلك الظن ، وقال لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك ، فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردىء ، فكان هذا هو المراد من قوله (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام ، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله ، كما قال فى حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب ، أى رجع إلى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل ، وقوله (فغفرنا له ذلك) أى غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه ، كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه ، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة ، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت ، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثانى ، فإنه

www.besturdubooks.wordpress.com

لما قال (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) لحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة . إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى(١) فثبت بهذه البيانات أما إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لايلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الأول) أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي ، لاسيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل (والثاني) أنه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزأوا به حيث قالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال تعالى في أول الآية : اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب ، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً (والرابع) أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين ، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً ، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين (أحدهما) إسناد الكذب إلى الملائكة (والثاني) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء ، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء ، فكان قولنا أولى ، فهذا ما عندنا في هذا الباب ، والله أعلم بأسرار كلامه ، ونرجع الآن إلى تفسير الآيات . أما قوله(وهل أتاك نبأ الخصم) قال الواحدي : الخصم مصدر خصمته أخصمه خصماً ، ثم يسمى به الإثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع ، يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل ، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم ، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام . وقوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته ، ومعنى (تسوروا المحراب) أي أتوه من سوره وهو أعلاه ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها . وأما المحراب فالمراد منه البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه ، وسمي ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه ، وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهي أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع في هذه الآيات في

(١) أقول : إلا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التي نفشت في الزرع وجاء ذكرها في سورة الأنبياء ، وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد في الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام ، والقاعدة أن من اجتهد في حكم وأخطأ فله أجر ، ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها في عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعي إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ، ومنها قوله وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض والتعقيب بقوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) .

www.besturdubooks.wordpress.com

أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) ، (وثانيها) قوله (إذ دخلوا) ، (وثالثها) قوله (منهم) ، (ورابعها) قوله (قالوا لا تخف) فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى (إذ دخلوا على داود) والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال (إذ دخلوا عليه) دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً ، ثم قال تعالى (ففزع منهم) والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد ، علم أنهم إنما دخلوا عليه لشر ، فلا جرم فزع منهم ، ثم قال تعالى (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أي نحن خصمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قولان (الأول) أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه (والثاني) أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجدانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر . وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما خصمان ، فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين في قولهما (بغى بعضنا على بعض) ولكانا كاذبين في قولهما (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) ولقوله (ويفعلون ما يؤمرون) أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل ، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الأول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثاني) أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى (قالوا لا تخف) كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) أن قولهما (ولا تشطط) كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق . واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (بغى بعضنا على بعض) أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح

www.besturdubooks.wordpress.com

إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية ، ويقال بغت المرأة إذا زنت ، لأن الزنا كبيرة منكرة ، قال تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ثم قال (فاحكم بيننا بالحق) معنى الحكم إحكام الأمر فى إمضاء تكليف الله عليهما فى الواقعة ، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماح ، ومنه بناء محكم إذا كان قوياً ، وقوله (بالحق) أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به (ولا تشطط) يقال شطط الرجل إذا بعد ، ومنه قوله : شطت الدار إذا بعدت ، قال تعالى (لقد قلنا إذاً شططاً) أى قولا بعيداً عن الحق ، فقوله (ولا تشطط) أى لا تبعد فى هذا الحكم عن الحق ، ثم قال (واهدنا إلى سواء الصراط) وسواء الصراط هو وسطه ، قال تعالى (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) ووسط الشىء أفضله وأعدله ، قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم (ولا تشطط) وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم (واهدنا إلى سواء الصراط) يعنى يجب أن يكون سعيك فى إيجاد هذا الحق . وفى الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب ، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (أخى) بدل من هذا أو خبر لقوله (إن) والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة وهى الأنثى من العقبان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الليث : النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ عبد الله (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) ، ثم قال (أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) قال صاحب الكشاف (أكفلنيها) حقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى (وعزنى) غلبنى ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به ، وقرىء وعازنى من المعازة ، وهى المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

ثم قال تعالى (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أى سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وروى أنه قال له إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجبهة

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال ياداود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال ، فان قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال محمد بن اسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً فى دعواه (والثانى) قال ابن الأنبارى : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثانى فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت ، وقال تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق ، والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذى هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) قال الليث خليط الرجل مخالطه ، وقال الزجاج : الخلطاء الشركاء ، فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل مايملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضى ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لاتكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة ، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لابد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغى والعدوان ، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغى بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى (وقليل ماهم) واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير فى القرآن ، قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقال داود عليه السلام فى هذا الموضع (وقليل ماهم) وحكى تعالى عن إبليس أنه قال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وسبب القلة أن الدواعى إلى الدنيا كثيرة ، وهى الحواس الباطنة والظاهرة وهى عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن ، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية ، وأما الداعى إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم ، فلهذا السبب وقعت القلة فى جانب أهل الخير والكثرة فى جانب أهل الشر ، قال صاحب الكشاف وما فى قوله (وقليل ماهم) للابهام وفيه تعجب من قلتهم ، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس : وحديث ما على قصره - وانظر هل بقى له معنى قط .

ثم قال تعالى (وظن داود أنما فتناه) قالوا معناه وعلم داود أنما فتناه أى امتحناه ، قالوا

www.besturdubooks.wordpress.com

والسبب الذى أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعدا إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالى يشبه الظن مشابهة عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز . وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

أما قوله (فاستغفر ربه) أى سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه . حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديد القهر عظيم القوة ، ثم إنه مع أنه بمع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع فى قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل فى قلبه شىء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله ، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثانى) لعله هم بإيذاء القوم ، ثم قال إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعى ولا ظنى على التزام المنكرات التى يذكرونها ، فما الذى يحملنا على التزامها والقول بها ، والذى يؤكد أن الذى ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن فى حق من صدر منه عمل كثير فى الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد فى الموافقة والانقياد ، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به . قال مالك بن دينار إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع فى الجنة ، ويقال ياداود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا والله أعلم . بقى ههنا مباحث : (فالأول) قرىء فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين (الثانى) المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله (خر راكعاً وأناب) يدل على حصول الركوع ، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار (الرابع) أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأن توبة نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود .

www.besturdubooks.wordpress.com

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأوض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً فى سفك دماء المسلمين ، راغباً فى انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الأول) جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء فى الدعاء إلى الله تعالى ، وفى سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال (الثانى) إنا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله ، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى (فاحكم بين الناس بالحق) واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخيط ، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم ، وينتظم من

www.besturdubooks.wordpress.com

أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الانسان مدنى بالطبع وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق ، وذلك يفضى بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك ، اما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقه الإلهية انتظمت مصالح العالم . واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قولهم (فاحكم بين الناس بالحق) يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق فى اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

أما المقام الثانى : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسى بالكلية أحواله الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل دياراً ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه . فكان لامحالة فى أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان فى غاية الكمال .

ثم قال تعالى (بما نسوا يوم الحساب) يعنى أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً فى هذه اللذات الفاسدة .

روى عن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لايجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال ياأمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟! ثم تلا هذه الاية (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ثم قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ونظيره قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل . فلما بين تعالى أنه (ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا) دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد . ومثله قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل ، وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال (ذلك ظن الذين كفروا) أى كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر ، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل ما بين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة ، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم . فإما أن يقال إنه خلقهم للاضرار أو للانفاع أولا للانفاع ولا للاضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للانفاع ، فنقول وذلك الإنفاع ، إما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة ، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاستقصاء ، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى (ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلا) وإذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أنا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً فى الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

ثم قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكافر .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول . لسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار ، أنهم بالغوا فى إنكار البعث والقيامة ، وقالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله (وما خلقنا السماء والأرض) ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لاتعلق للبعض منها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلا ؟ هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول : أن العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه فى تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، وأن يخوض فى كلام آخر أجنبى عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب فى ذلك الكلام الأجنبى ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبى ونسى المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج فى أثناء الكلام فى هذا الفصل الأجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلمها ، فحينئذ يتمسك بها فى إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحماً ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا فى إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الإستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسألة ، واشرع فى كلام آخر أجنبى بالكلية عن هذه المسألة ، وهى قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح تلك القصة ، ثم قال فى آخر القصة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أنى رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضى بالباطل ، فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم فى إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكرى الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحماً ملزماً بهذا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الإلزام فى القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب) فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهى لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم ، حيث يراه فى ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ .

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله (نعم العبد) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ نقول المخصوص بالمدح فى (نعم العبد) محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده (إنه أواب) ولا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لأبيه فى صفات الكمال فى الفضيلة ، فكان هذا أولى .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه قال أولا (نعم العبد) ثم قال بعده (إنه أواب) وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان (نعم العبد)لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فى أكثر الأوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه (نعم العبد) وهذا هو الحق الذى لاشبهة فيه ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شىء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون (نعم العبد) .

أما قوله (إذ عرض عليه) ففيه وجوه (الأول) التقدير (نعم العبد) هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا (الثانى) أنه ابتداء كلام . والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشى

www.besturdubooks.wordpress.com

هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها ، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات ، قال صاحب الصحاح : الصافن الذى يصفن قدميه ، وفى الحديث « كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا » أى قمنا صافنين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى ، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل ، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها . أما حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعنى أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها على أحسن الأشكال ، فإذا جرت كانت سراعاً فى جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى (قال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) وفى تفسير هذه اللفظة وجوه (الأول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى (والثانى) أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أنى ألزمت حب الخيل عن ذكر ربى ، أى عن كتاب ربى وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه فى القرآن ممدوح فكذلك فى التوراة ممدوح (والثالث) أن الإنسان قد يحب شيئاً لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذى يشتهى مايزيد فى مرضه ، والأب الذى يحب ولده الردىء ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل .

ثم قال (عن ذكر ربى) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى (حتى توارت) أقول الضمير فى قوله (حتى توارت) ، وفى قوله (ردوها) يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشى ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثانى بالصافنات ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لامزيد عليها (فالأول) أن يعود الضميران معاً إلى الصافنات ، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات على ، والاحتمال (الثانى) أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله (ردوها على) إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندى بعيد والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الصافنات مذكورة تصريحاً ، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر (الثانى) أنه قال (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى . وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن

www.besturdubooks.wordpress.com

توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا فى غاية البعد (الثالث) أنا لو حكمنا بعود الضمير فى قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله (أحببت حب الخير عن ذكر ربى) فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسى الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) أنه بتقدير أنه عليه السلام بقى مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ ، فكان ذلك ذنباً عظيما وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة فى إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ، ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم ! (الخامس) أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على ، فان قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله (ردوها) لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعى على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) أنه تعالى قال (إذ عرض بالعشى الصافنات الجياد) ثم قال (حتى توارت بالحجاب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشى فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله (حتى توارت بالحجاب) على توارى الشمس وأن حمل قوله (ردوها على) على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام فى غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أى قطعها ، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندى أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثانى) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسى الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » (وثالثها)

www.besturdubooks.wordpress.com

أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها على) وهذه كلمة لايذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس ، (وخامسها) أنه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها وأعناقها ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأ كله » ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شىء منها (وسادسها) أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغوا فى السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يامحمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يامحمد على مايقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لوكان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور (الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو (الثانى) أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه (الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

﴿ المقام الأول ﴾ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

﴿ المقام الثانى ﴾ أن يقال هب أن لفظ الآية لايدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى
وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ
مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة الدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ، قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا فى المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) ولأهل الحشو والرواية فيه قول ، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر ، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات :

﴿ الأولى ﴾ قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة فى البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها ، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكى أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فى خاتمه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان . وقال يا أمينة خاتمى فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس ، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته . فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال

www.besturdubooks.wordpress.com

أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فانكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاها فى البحر .

﴿ والرواية الثانية ﴾ للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله .

﴿ والرواية الثالثة ﴾ لهم قالوا إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرنى خاتمك أخبرك فلما أعطاه اياه نبذه فى البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) أن الله تعالى ابتلاه وقوله (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

﴿ والرواية الرابعة ﴾ أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شىء من الشرائع ، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية (الثانى) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبى الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله فى حق أكابر الأنبياء أولى (والثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح (الرابع) لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة فى عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التى ذكرها أهل التحقيق فى هذا الباب فأشياء : (الاول) أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثانى) روى عن النبى ﷺ أنه قال « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى

www.besturdubooks.wordpress.com

سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع فى حجره ، فوالذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم فى سبيل الله فرساناً أجمعون » فذلك قوله (ولقد فتنا سليمان) (الثالث) قوله (ولقدفتنا سليمان) بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، (وألقيناعلى كرسيه)منه (جسداً) وذلك لشدة المرض . والعرب تقول فى الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أى رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى (قال رب اغفر لى) فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبداً فى مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم .

ثم قال تعالى (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة ، وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال لمحمد ﷺ (وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) فإن قيل قوله عليه السلام (ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغى لأحد من بعدى ، هو أن يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ، ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى . والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال (عقيبه فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله (لا ينبغى لأحد من بعدى) يعنى لا يقدر

www.besturdubooks.wordpress.com

أحد على معارضته (والوجه الثانى) فى الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره ، وذلك الذى سأله بقوله (ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) أى ملكا لا يمكن أن ينتقل عنى إلى غيرى (الوجه الثالث) فى الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها ، فكأنه قال : يا إلهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية ، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب ، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة ، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة ، فقال سليمان أعطنى يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر ، حتى أنى أبقى مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الإحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة ، فقال سليمان يارب العزة أعطنى أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها ، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها ، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ، ثم قال (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) رخاء أى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لاتزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى آية أخرى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) قلنا الجواب من وجهين (الأول) لا منافاة بين الآيتين فان المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثانى) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى (حيث أصاب) أى قصد وأراد ، وحكى الأصمعى عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما ، فقال أين تصيبان ؟ فقالا هذا مطلوبنا . وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجرى بأمره على وفق إرادته ، ثم قال والشياطين كل بناء وغواص ، قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله (كل بناء) وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وقوله (مقرنين) يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة (والأصفاد) الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً ، قال النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته ، وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته ، وههنا بحث ، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التى لا يقدر عليها البشر ، وقدروا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم
مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ

على الغوص فى البحار ، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة ، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم ، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها ، وذلك دخول فى السفسطة ، وإن كان الثانى وهو أن أجسادهم ليست كثيفة ، بل لطيفة رقيقة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة ، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا فى الحال ، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية ، وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة ، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد فى زماننا ؟ ولم لا يخربون ديار الناس ؟ مع أن المسلمين مبالغون فى إظهار لعنهم وعداوتهم . وحيث لم يحس شيء من ذلك ، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها ، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق . وأما الجبائى فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم فى زمن سليمان ، ثم إنه لما توفى سليمان عليه السلام ، أمات الله أولئك الجن والشياطين ، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم فى غاية الرقة ، ولا يكون لهم شيء من القوة ، والموجود فى زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس .

ثم قال تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب ، أى ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثانى) أن هذا فى أمر الشياطين خاصة ، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه ، واحبس من شئت منهم فى العمل بغير حساب .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان فى الدنيا ، أردفه بإنعامه عليه فى الآخرة ، فقال (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وقد سبق تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار . كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتمال منه (أنى مسنى) أى بأنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ، وقرىء (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب ، كالرشد والرشد ، والعدم والعدم . والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد فى الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) أن الآلام والأسقام الحاصلة فى جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف فى هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

وأما القول الأول : فتقريره ما روى أن إبليس سأل ربه ، فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى ؟ فقال الله : نعم عبدى أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال يارب إنه قد امتنع على فسلطنى على ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال يارب إن أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يارب لا يبالى بماله وولده فسلطنى على جسده ، فأذن فيه ، فنفخ فى جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث فى ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال

www.besturdubooks.wordpress.com

(إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاءه وأوحى إليه (أن اركض برجلك) فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله .

والقول الثانى : أن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس فى الأمراض والآلام ، والدليل عليه وجوه (الأول) أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان ، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات ، فقد حصل بفعل الشيطان ، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطى الحياة والموت والصحة والسقم ، هو الله تعالى (الثانى) أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الأنبياء والأولياء ، ولم لا يخرب دورهم ، ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فصرح بأنه لا قدرة له فى حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة ، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الأمراض والآفات . فان قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ قلنا فاذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى ، فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك ؟ بل الحق أن المراد من قوله (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى أنواع العذاب والعناء ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن علته كانت شديدة الألم . ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ، ولم يبق له شىء من الأموال البتة . وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت ، وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس ، فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع إلى الله ، وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد . (الثانى) أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان) ، (الثالث) قيل إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعنى زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك ، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) . (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين ، ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء ، فذكروا ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

لأيوب عليه السلام ، فقال لاأدرى ماتقولان غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأنفر عنهما كراهية أن يذكرا الله تعالى إلا فى الحق » (الخامس) قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به إلى أيوب ، فاتفق أنهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ، ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة . وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه ، فعند ذلك قال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) ، (السادس) قال فى بعض الأيام يارب لقد علمت مااجتمع على أمران إلا آثرت طاعتك ، ولما أعطيتنى المال كنت للأرامل قيماً ، ولابن السبيل معيناً ، ولليتامى أباً ! فنودى من غمامة ياأيوب ممن كان ذلك التوفيق ؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه ، وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الأول فقال (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقد ذكروا أقوالا أخرى ، والله أعلم بحقيقة الحال . وسمعت بعض اليهود يقول إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً فى واقعة أيوب ، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة ، مبالغاً فى التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ثم إنه وقع فى البلاء الشديد والعناء العظيم ، فهل كان ذلك لحكمة أم لا ؟ فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم فى الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب فى مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة . وحينئذ لايبقى فى تلك الأمراض والآفات فائدة ، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهى دالة على أن أفعال ذى الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ، والحق الصريح (أنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل فى بدنه من الأمراض ، وعلى القول الثانى عبارة عن الأحزان الحاصلة فى قلبه بسبب إلقاء الوساوس ، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان ، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لاننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم .

أما قوله تعالى (أركض برجلك) فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان ، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له (أركض برجلك) والركض هو الدفع القوى بالرجل ، ومنه ركضك الفرس ، والتقدير قلنا له أركض برجلك ، قيل إنه ضرب برجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أى هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك ، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه . والمفسرون قالوا نبعت له

www.besturdubooks.wordpress.com

عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها

ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، (والأول) أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا . وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله (ومثلهم معهم) فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

ثم قال (رحمة منا) أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال (وذكرى لأولى الألباب) يعني سلطنا البلاء عليه أولا فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولى الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبيه على ماوقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود) وقالت المعتزلة قوله تعالى (رحمة مناوذكرى لأولى الألباب) يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثاً) فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفي الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روى أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برىء ، ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال « خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة » .

ثم قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) فان قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه : (الأول) أنه شكى من الشيطان إليه وماشكى منه إلى أحد (الثاني) أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) أن الشيطان عدو . والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ، ثم قال (نعم العبد إنه أواب)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد ، إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان عليه السلام تارة ، وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم فى قلوب أمة محمد ﷺ ، وقالوا إن قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان تشريف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه ، فكيف السبيل إلى تحصيله . فأنزل الله تعالى قوله (نعم المولى ونعم النصير) والمراد أنك إن لم تكن (نعم العبد) فأنا (نعم المولى) وإن كان منك الفضول ، فمنى الفضل ، وإن كان منك التقصير ، فمنى الرحمة والتيسير .

قوله تعالى : ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير (عبدنا) على الواحد وهى قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله (عبدنا) تشريف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين فى هذه الاية وهو إبراهيم وقرأ الباقون (عبادنا) قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجرى عليه هذا الوصف فجاء فى عيسى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وفى أيوب (نعم العبد) وفى نوح (إنه كان عبداً شكوراً) فمن قرأ عبدنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهى إسحق ويعقوب ، ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .

﴿المسألة الثانية﴾ تقدير الآية كأنه تعالى قال (فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) إلى أن قال (واذكر عبدنا إبراهيم) أى واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقى فى النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره . ثم قال (أولى الأيدى والأبصار) ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر . إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة

www.besturdubooks.wordpress.com

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا

الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل ، فقوله (أولى الأيدى والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين .

قوله تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (بخالصة) قرىء بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير (أخلصناهم) أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهى ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار ، يعنى أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ذكرى الدار وجوه : (الاولى) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

ثم قال تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير أو خير على التخفيف كأموات فى جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية فى إثبات عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق ، وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد فى دين الله ، وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الأسماء وفى صفات هؤلاء الأنبياء فى سورة الأنبياء وفى سورة الأنعام ، فلا فائدة فى الإعادة ، وههنا آخر الكلام فى قصص الأنبياء فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ،

www.besturdubooks.wordpress.com

لَرِزْقُنَا مَالَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾.

إعلم أن فى قوله (ذكر) وجهين (الأول) أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال ، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لاجرم قال (هذا ذكر) ، ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال (وإن للمتقين) كما أن المصنف إذا تم كلاماً قال هذا باب ، ثم شرع فى باب آخر ، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاغين) (الوجه الثانى) فى التأويل ، أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً ، والأول هو الصحيح .

أما قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) .

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا) فعند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة ، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الأول) أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد ، فيجب عليك أن تقتدى بهم فى هذا المعنى (الثانى) أنه تعالى بين فى هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى ، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف .

أما قوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب) المآب ، المرجع . واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية ، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وكانت فى حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان ، فعند انفصالها عن الابدان يسمى ذلك رجوعاً (وجوابه) أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان ، ولا يدل على قدم الأرواح .

ثم قال تعالى (جنات عدن) وهو بدل من قوله (لحسن مآب) ثم قال (مفتحة لهم الأبواب) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تأويل هذا اللفظ وجوهاً (الأول) قال الفراء : معناه مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، تقول العرب : مررت برجل حسن الوجه ، فالألف واللام فى الوجه بدل من الإضافة (والثانى) قال الزجاج : المعنى (مفتحة لهم الأبواب) منها (الثالث) قال صاحب الكشاف : (الأبواب) بدل من الضمير ، وتقديره مفتحة

www.besturdubooks.wordpress.com

هى الأبواب ، كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (جنات عدن) مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله (جنات عدن) مبتدأ ومفتحة خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف . أى هو (جنات عدن مفتحة لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة فى هذه الآية أشياء (الأول) أحوال مساكنهم ، فقوله (جنات عدن) يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثانى) كونها دائمة آمنة من الانقضاء .

وفى قوله (مفتحة لهم الأبواب) وجوه (الأول) أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ، (الثانى) أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافرة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى (متكئين فيها) يدعون فيها ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى ذكر فى هذه الآية كونهم متكئين فى الجنة ، وذكر فى سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال فى آية (على الأرائك متكئون) وقال فى آية أخرى (متكئين على رفرف خضر) .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (متكئين فيها) حال قدمت على العامل فيها وهو قوله (يدعون فيها) والمعنى يدعون فى الجنات (متكئين فيها) ثم قال(بفاكهة كثيرة وشراب) والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب ، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب فى ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال (وعندهم قاصرات الطرف) وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى (كونهن قاصرات الطرف) عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله (أتراب) أى على سن واحد ، ويحتمل كون الجوارى أتراباً ، ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب فى اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضى عدم الغيرة .

ثم قال تعالى (هذا ما توعدون ليوم الحساب) يعنى أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

www.besturdubooks.wordpress.com

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾
هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ
أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾
أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ
﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعاً (فالأول) مرجعهم ومآبهم ، فقال (هذا وإن للطاغين لشر مآب) وهذا فى مقابلة قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين ، واختلفوا فى المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ، وقال الجبائى : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج الأولون بوجوه (الأول) أن قوله (لشر مآب) يقتضى أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ، وذلك لا يليق إلا بالكفار (الثانى) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وذلك لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً (الثالث) أنه اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل ، والكامل فى الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

(إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى) وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ، إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضى الله عنهما . المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب ، أى شر مرجع ومصير ، ثم قال (جهنم يصلونها) والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله (جهنم يصلونها) ثم قال (فبئس المهاد) وهو كقوله (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم .

ثم قال تعالى (هذا فليذوقوه حميم وغساق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيه وجهان (الأول) أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه . ثم يبتدىء فيقول : حميم وغساق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الأول) أنه الذى يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها . وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره . والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهرى : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار (الثالث) أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لانتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب : الغساق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف . قال أبو على الفارسى الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسماً أو صفة ،فان كان اسما فالأسماء لم تجىء على هذا الوزن إلا قليلا ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى (وآخر من شكله أزواج) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمر (وأخر) بضم الألف على جمع أخرى أى أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر ، أما على القراءة الأولى فقوله وأخر أى ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق ، أى من مثله فى الشدة والفظاعة ، أزواج أى أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله . قال صاحب الكشاف : وقرىء من شكله بالكسر وهى لغة ، وأما الغنج فبالكسر لاغير .

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم

www.besturdubooks.wordpress.com

فى الدنيا أولا ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا ثانياً (أما الأول) فهو قوله (هذا فوج مقتحم معكم) واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله (قالوا بل أنتم لامرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا) ، وقيل إن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى أتباعهم ، وقوله (لامرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء ، وقوله (هذا فوج مقتحم معكم) أى هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

وقوله تعالى (لامرحباً بهم) دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أى أتيت رحباً فى البلاد لاضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ، ثم يدخل عليه كلمة لا فى دعاء السوء ، وقوله (بهم) بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قالوا أى الأتباع (بل أنتم لامرحباً بكم) يريدون أن الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أو لصليهم ، فان قيل مامعنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلنا الذى أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى (وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم) إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير فى قوله (قدمتموه) كناية عن الطغيان الذى دل عليه قوله (وإن للطاغين لشر مآب) وقوله (فبئس القرار) أى بئس المستقر والمسكن جهنم ، ثم قالت الأتباع (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) أى مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وكذلك قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب) فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظلماً وإنه لايجوز . قلنا المراد منه قوله عليه السلام « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثانى عذاب الإضلال والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحباباً لهم فى الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا فهو قوله (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنى أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فحينئذ يقولون (ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ
﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ
أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى (من الأشرار اتخذناهم) بوصل ألف (اتخذناهم) والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم فى قوله (مالنا لانرى رجالا) ، ولأن المشركين لا يشكون فى اتخاذهم المؤمنين فى الدنيا سخرياً ، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك فى قوله (فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى) فكيف يحسن أن يستفهموا عن شىء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذى معناه التعجيب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشىء المعلوم ، أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لابد من المصير إليه ليعادل قوله (اتخذناهم) بأم فى قوله (أم زاغت عنهم) فان قيل فما الجملة المعادلة لقوله (أم زاغت) على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الابصار ،

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قرأ نافع (سخرياً) بضم السين والباقون بكسرها ، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾، اختلفوا فى نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار . ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم (اتخذناهم سخريا) وأما القراءة على سبيل الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار ، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذى حكينا عنهم لحق لابد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذى حكيناه عنهم ماهو ، فقال (تخاصم أهل النار) وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء (لا مرحباً بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحباً بكم) من باب الخصومة .

قوله تعالى :﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾.

www.besturdubooks.wordpress.com

اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمدا ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد ،وإلى أنه رسول مبين من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله . ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين (الأول) ليصير ذلك حاملا لمحمد ﷺ على التأسى بالأنبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان ، ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب . فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال قل يامحمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار ، فان الترتيب الصحيح أن نذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب ، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب ، لأن إزالة مالا ينبغى مقدمة على إثبات ماينبغى ، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ، ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم .

أما قوله (قل إنما أنا منذر) يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد ، وأحوال ثواب من أقر بها ، وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وفى هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير ، وبيانه أن الذى يجعل شريكا له فى الإلهية ، إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف فى العالم أولا يكون كذلك ، بل يكون جماداً عاجزاً (والأول) باطل لأنه لوكان شريكه قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً ، لأن بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشىء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر ، فيفضى إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر ، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً ، والعاجز لا يصلح للالهية ، فقوله (إلا الله الواحد القهار) إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً (وأما الثانى) وهو أن يقال إن الذى جعل شريكا له لا يقدر على شىء البتة مثل هذه الأوثان ، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً فقوله (وما من إله إلا الله الواحد القهار) يدل على هذه الدلائل ، واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعر بالترهيب والتخويف ، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال (رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) فكونه رباً مشعر بالتربيـــة والإحسان والكرم والجود ، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب ، وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته ،لأنه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه.

www.besturdubooks.wordpress.com

ونذكر طريقة أخرى فى تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار ، أما كونه واحداً فهو الذى وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لا ساحل له فاذا تأملت فى آثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزاً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربى وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء (وثالثها) كونه غفاراً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم تاب فانى أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار . واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهاً فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم ، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى أول السورة ولأجلها انجر الكلام إلى كل ما سبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) واعلم أن قوله (أنتم عنه معرضون) ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع فى أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية نهية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة .

أما قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الأربعة ، وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه : (الأول) أن كل واحد منها نبأ عظيم ، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون) والمعنى أنهم قالوا أى فائدة فى خلق

www.besturdubooks.wordpress.com

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ
إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله (من يفسد فيها) وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله (ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك) فقال الله سبحانه وتعالى (إنى أعلم ما لا تعلمون) وتقرير هذا الجواب والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (ثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الأشياء الخالية عن القسمين ، وهى الجمادات وبقى فى التقسيم (قسم رابع) وهو الذى حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى فى تحصيل هذه الصفات ، وأن يجتهد فى اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام . فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فان المخاصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول (إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين) يعنى أنا ماعرفت هذه المخاصمة إلا بالوحى ، وإنما أوحى الله إلى هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،

www.besturdubooks.wordpress.com

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي
مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾

إعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين فى النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر فى تقريره أموراً أربعة (أولها) أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثانى) أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة فى تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية فى تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما . فهذا هو وجه النظم فى هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها فى سور كثيرة ، فلا فائدة فى الإعادة إلا مالابد منه وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (إنى خالق بشراً من طين) سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ سواراً من ذهب ، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ الثانى ﴾ ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين ، وفى سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى فى آدم إنه خلقه من تراب وكقوله (من صلصال من حمأ مسنون) وكقوله (خلق الإنسان من عجل) .

﴿ الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خالق بشراً من طين . لم يقولوا شيئاً ، وفى الآية الأخرى وهى التى قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض ، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال (إنى خالق بشراً من طين) فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات ، إنما أخلقه من الطين . والجواب عن الثانى أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل ، والجواب عن الثالث أنه فى الآية المذكورة فى سورة البقرة بين لهم أنه يخلق فى الأرض خليفة ، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولا ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس .

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المنى ، والمنى إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهى إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد فى حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التى فى مثلها حصل ذلك المزاج الذى لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة .

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحى) ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوى قدسى ، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة من تدل على التبعيض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا فى غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل ، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث .

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء ، وسريان النار فى الفحم ، فهذا القدر معلوم . أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفاء فى قوله (فقعوا له ساجدين) تدل على أنه كما تم نفخ الروح فى الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور فى قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ففيه مباحث عميقة . وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها فى بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة ،

www.besturdubooks.wordpress.com

وإبليس الذى لم يسجد هو القوة الوهمية التى هى المنازعة لجوهر العقل . والكلام فيه طويل. وأما بقية المسائل وهى : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً أصلياً أم لا. فكل ذلك تقدم فى سورة البقرة وغيرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) فى إثبات يدين الله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه . فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

واعلم أن الدلائل الدالة على نفى كونه تعالى جسما مركباً من الأجزاء والأعضاء . قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة (فالأول) أن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التى ورد ذكرها فى القرآن ولا يزيد عليها . وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها فى القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) ويلزمه أن يثبت فى تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله (تجرى بأعيننا) وأن يثبت جنبا واحداً لقوله تعالى (ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وأن يثبت على ذلك الجنب أيدى كثيرة لقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فيكون الحاصل من هذه الصورة . مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة . وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد فى شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثانى : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة فى القرآن ، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه فى الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

﴿ الحجة الثانية ﴾ فى إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى . فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل ، وإن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوهما فهو خصى أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه فى ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسما صلباً لا ينغمز البتة ، فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلا للانغماز ، فيكون ليناً قابلا للتفرق والتمزق . وتعالى الله عن ذلك

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالزمن المقعد العاجز، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه، كان محلا للتغيرات ، فدخل تحت قوله (لا أحب الآفلين).

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ الحجة الخامسة ﴾ إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء ، كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

﴿ الحجة السادسة ﴾ أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن إلهية العرش والسموات .

﴿ الحجة السابعة ﴾ أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي ، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل.

﴿ الحجة الثامنة ﴾ ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسما محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب . فيكون إله العالم على هذا القول فلكا من الأفلاك .

﴿ الحجة التاسعة ﴾ لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض ، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلا عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش البتة .

﴿ الحجة العاشرة ﴾ أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض (وثانيها) كونه محدوداً متناهياً (وثالثها) كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً ، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهياً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للألهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية للألهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر .

﴿ الحجة الحادية عشرة ﴾ قوله تعالى (قل هو الله أحد) ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة ، وذلك ينافي كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

﴿ الحجة الثانية عشرة ﴾ قوله تعالى (والله الغني وأنتم الفقراء) ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهاً (الأول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالي بهذا الأمر من يد ، أي من قوة وطاقة ، قال تعالى (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) ،

www.besturdubooks.wordpress.com

(الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى (نشراً بين يدى رحمته) .

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه (الأول) أن ظاهر الآية يقتضى إثبات اليدين ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) أن الآية تقتضى أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة ، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى ، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى ، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة ، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم ، وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) أنه جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « كلتا يديه يمين » ومعلوم أن هذا الوصف لايليق بالقدرة .

(وأما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه (الأول) أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنتين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لايكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات ، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله (تبارك الذى بيده الملك) معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله « بيدك الخير » معناه بنعمتك الخير ولكان قوله (يداه مبسوطتان) معناه نعمتاه مبسوطتان ، ومعلوم أن كل ذلك فاسد .

(وأما التأويل الثالث) وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لايكون هذا العضو حاصلا فى حقه (أما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب فى هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة ، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة ، وقد تقدم إبطال هذا الوجه (وأما الثانى) فكقوله (بين يدى عذاب شديد) وقوله (بين يدى الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لايقاس عليه ولايكون مطرداً ، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ، ونحن نسلم أن قوله (لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة ، أما المذكور فى هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى (خلقت بيدى) وإن كان القياس فى المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية ، فهذا منتهى البحث فى هذا الباب .

والذى تلخص عندى فى هذا الباب أن السلطان العظيم لايقدر على عمل شىء بيده إلا إذا كانت

www.besturdubooks.wordpress.com

غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل ، فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة . فهذا مالخصناه فى هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (استكبرت أم كنت من العالين) فالمعنى : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فالمعنى أنى لو كنت مساوياً له فى الشرف لكان يقبح أمرى بسجودى له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أن إبليس مخلوق من النار ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نارالسموم) .

﴿ المقدمة الثانية ﴾ أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الأول) أن الاجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض (الثانى) أن النار خليفة الشمس والقمر فى إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، فخليفتهما فى الإضاءة أفضل من الأرض (الثالث) أن الكيفية الفاعلة الأصلية . إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح (السابع) النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذى يبدأ من نقطة الإستواء الشمالى ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضى (التاسع) أن الاجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر) أن القوة الباصرة قوة فى غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادى عشر) أن أشرف أجسام العالم الجسمانى هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار فى صورته وطبيعته وأثره (الثانى عشر) أن النضج والهضم والحياة لاتتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث العاشر) أن أقوى العناصر

www.besturdubooks.wordpress.com

الأربعة فى قوة الفعل هو النار وأكملها فى قوة الإنفعال هو الأرض والفعل فضل من الإنفعال فالنار أفضل من الأرض . أما القائلون بتفضيل الأرض على النارفذكروا أيضاً وجوهاً (الأول) أن الأرض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنارخائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثانى) أن الحس البصرى أثنى على النار (١) فليستمع ما يقوله الحس اللمسى (الثالث) أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لاتؤثر فى الأرض الخالصة .

﴿ وأما المقدمة الثالثة ﴾ فهى أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه ، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجارالمثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذى لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها ، فالمقدمة الكاذبة فى القياس الذى ذكره إبليس هو هذه المقدمة ، فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ فى هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه (الأول) أن قوله (اسجدوا) أمر والأمر لا يقتضى الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر ، وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثانى) هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس (الثالث) هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس (الرابع) هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب ، وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى (أستكبرت أم كنت من العالين) فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح فى أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) .

واعلم أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله (منها) أى من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

---

(١) العبارة مصحفة لأن الحس البصرى فيما نعلم لم يثن على النار وإنما يتأذى به كما أن الحس اللمسى يحترق بالنار . ولعله نظر إلى المعنى من ناحية أخرى هى أن فضل النار لم يظهره إلا البصر واللمس وهما من طبيعة الأرض . فبسببهما بان فضل الأرض على النار .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ الأول ﴾ أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله (رجيم) على الطرد لكان قوله بعد ذلك (وإن عليك لعنتى) تكراراً والجواب من وجهين (الأول) انا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثانى) أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

﴿ والقول الثانى ﴾ فى تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم . فإن قيل كلمة إلى لإنتهاء الغاية فقوله (إلى يوم الدين) يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجىء يوم الدين ، أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه فى الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملعوناً قال (فأنظرنى إلى يوم يبعثون) قيل إنما طلب الانظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجىء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه ، فقال إبليس (فبعزتك) وهو قسم بعزة الله وسلطانه (لأغوينهم أجمعين) فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى (رب بما أغويتنى) فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير فى هذه المسألة .

وأما قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ففيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ قيل غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع فى كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال إنما ذكرت هذا الإستثناء لئلا يقع الكذب فى هذا الكلام ، وعندهذا يقال إن الكذب شىء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله (وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ؟ قلنا إن إبليس لم يقل إنى لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوى عباد الله المخلصين ، وقال تعالى فى صفة يوسف (إنه من عبادنا المخلصين) فتحصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وفيه مسائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما . أما الرفع فتقديره فالحق قسمي . وأما النصب فعلى القسم ، أى فبالحق ، كقولك والله لأفعلن . وأما قوله (والحق أقول) انتصب قوله (والحق) بقوله (أقول) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قوله (منك) أى من جنسك ، وهم الشياطين (وممن تبعك منهم) من ذرية آدم ، فإن قيل قوله (أجمعين) تأكيد لماذا ؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير فى منهم ، أو الكاف فى منك مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الأول) أنه تعالى قال فى حق إبليس (اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالا مع أنه أمر به (والثانى) أنه قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فالله تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادراً على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به ، فإن قالوا لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال ، ويخلص بنى آدم عن الضلال ، وهذا عين المصلحة (الثالث) أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة ، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل فى حق الله تعالى (الرابع) أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين ، وأن يميت إبليس والشياطين ، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد (الخامس) أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان ، يقتضى تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة ، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة ، وذلك تكليف بما لا يطاق ، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذى أدعو الناس إليه يجب أن ينظر فى حال الداعى ، وفى حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل . أما الداعى وهو أنا . فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالا ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة ، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها . وأما كيفية الدعوة

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال : وما أنا من المتكلفين والمفسرون ، ذكروا فيه وجوها ، والذى يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذى أدعوكم إليه دين ليس يحتاج فى معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإنى أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله (أولا) ثم أدعوكم (ثانياً) إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، يقوى ذلك قوله (ليس كمثله شىء) وأمثاله ، ثم أدعوكم (ثالثاً) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ثم أدعوكم (رابعاً) إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والإضداد ، ثم أدعوكم (خامساً) إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التى هى جمادات خسيسة ولا منفعة فى عبادتها ولا مضرة فى الإعراض عنها ، ثم أدعوكم (سادساً) إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء . ثم أدعوكم (سابعاً) إلى الإقرار بالبعث والقيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ثم أدعوكم (ثامناً) إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هى الأصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانيـة ، فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) ولما بين هذه المقدمات قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأبيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين فى هذا الإعراض أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لامزيد عليه فى التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمة الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه . والصلاة على المطهرين من عباده فى أرضه وسمائه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه . والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

www.besturdubooks.wordpress.com

٣٨ — سورة ص

(مكية وآياتها ثمان وثمانون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ٣٨ ص

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ٣٨ ص

﴿ سورة ص مكية وآياتها ثمان وثمانون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ص) بالسكون على الوقف وقرىء بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصباً بإضمار اذكر أو اقرأ كامر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على أنه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر أمر من المصاداة وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم إن جعل اسماً للحرف مسروداً على منهاج التحدى أو الرمز إلى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسماً للسورة خبراً لمبتدأ محذوف أو نصباً على اضمار اذكر أو اقرأ أو أمراً من المصاداة فالواو فى قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) للقسم وإن جعل مقسماً به فهى للعطف عليه فإن أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وإن أريد عين السورة فهى اعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياً ما كان ففى التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج إليه فى أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الأول والرابع والخامس محذوف هو ما ينبىء عنه التحدى والأمر والإقسام به من كون المتحدى به معجزاً وكون المأمور به واجباً وكون المقسم به حقيقاً بالإعظام أى أقسم بالقرآن أو بصاد وبه إنه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالإعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز إليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فإن التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أى إنه لصادق والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان

٢ كل واحد من هذه الأجوبة منبئاً عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية إنباء بيناً كان قوله تعالى (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) إضراباً عن ذلك كأنه قيل لا ريب فيه قطعاً وليس عدم إذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لا يذعنون له

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ٣٨ ص

وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ٣٨ ص

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ٣٨ ص

وقيل الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ
٣ وقرىء فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادى الإيمان ودواعيه (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين مناص) حال من ضمير نادوا أى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناصه أى فاته لا من ناص بمعنى تأخر ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الأحيان ولم يبرز إلا أحد معموليها والأكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الأحيان وحين مناص منصوب على أنه اسمها أى ولا حين مناص لهم أو بفعل مضمر أى ولا أرى حين مناص وقرىء بالرفع فهو على الأول اسمها والخبر محذوف أى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر أى ولا حين مناص كائن لهم وقرىء بالكسر كما فى قوله [طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن لات حين بقاء] إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله [لولاك هذا العام لم أحج] أو لأن أوان شبه بإذ فى قوله [نهيتك عن طلابك أم عمرو * بعافية وأنت إذ صحيح] فى أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأن أصله أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف إليه من مناص إذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن وقرىء لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالأسماء والبصريون بالتاء كالأفعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين لاتصالها به فى الإمام مما لا وجه له فإن خط المصحف خارج عن القياس
٤ (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل أدون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمراً عجيباً خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون فى الكفر والفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده إلى الله
٥ تعالى من الإرسال والإنزال (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد (إن هذا لشىء عجاب) بليغ فى العجب وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم

وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ٣٨ ص

مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ٣٨ ص

وواظبوا على عبادتهم كابراً عن كابر فإن هذا مدار كل ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لآلهتهم علماً وقدرة ومدخلا فى حدوث شىء من الأشياء حتى يلزم من نفى ألوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرىء عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال ﷺ ماذا تسألوننى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ماسألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشراً فقال قولوا

٦ لا إله إلا الله فقاموا وقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أى وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه ﷺ فى الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبى طالب من المصالحة على الوجه المذكور (أن امشوا) أى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) أى واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح وأن هى المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أى اجتمعوا وكثروا وقرىء امشوا بغير أن على إضمار القول وقرىء يمشون أن اصبروا (إن هذا الشىء يراد) تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به أى هذا الذى شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد ونفى آلهتنا وإبطال أمرها لشىء يراد أى من جهته ﷺ إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبى طالب وشفاعته وحسبكم أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه فى حقها من القدح وسوء القالة وقيل إن هذا الأمر لشىء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر وقيل إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل إن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل إن هذا الذى يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب

٧ والعجم لشىء يتمنى ويريده كل أحد فتأمل فى هذه الأقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل (ما سمعنا بهذا) الذى يقوله (فى الملة الآخرة) أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فإنهم مثلثة أو فى الملة التى

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ٣٨ ص

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ٣٨ ص

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ٣٨ ص

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ٣٨ ص

أدركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أى ماسمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا
الكهان كائناً فى الملة المترقبة ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور
٨ قبل الظهور (إن هذا) أى ماهذا (إلا اختلاق) أى كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) أى القرآن
(من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم
ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلا من عند الله عز وجل كقولهم لوكان خيراً ماسبقونا إليه وأمثال هذه
المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى (بل هم
فى شك من ذكرى) أى من القرآن أو الوحى لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر فى الأدلة المؤدية
إلى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم مايبتون به فهم مذبذبون بين الأوهام ينسبونه تارة إلى السحر وأخرى
إلى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) أى بل لم يذوقوا بعد عذابى فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى
لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا
٩ عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم
خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاءون حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا
ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عز وجل
يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لا مانع له فإنه العزيز أى الغالب الذى لا يغالب الوهاب
الذى له أن يهب كل مايشاء لكل من يشاء وفى إضافة اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى
١٠ ضميره ﷺ من تشريفه واللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما)
ترشيح لما سبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ويتحكموا
فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) جواب شرط
محذوف أى إن كان لهم ماذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها إلى العرش حتى
يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم مالا
غاية وراءه والسبب فى الأصل هو الوصلة وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث
١١ السفلية وقيل أبوابها (جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) أى هم جند مامن الكفار المتحزبين على
الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بمايقولون ولا تكترث بمايهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ٣٨ ص

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ٣٨ ص

إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ٣٨ ص

نحو قولك أكلت شيئاً ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل
ذلك القول العظيم وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد) الخ استئناف مقرر ١٢
لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من
العقاب وذو الأوتاد معناه ذو الملك الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاد فاستعير لثبات الملك ورسوخ
السلطنة واستقامة الأمر قال الأسود بن يعفر [ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ٭ فى ظل ملك ثابت الأوتاد]
أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان
يمد يدى المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد
فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه (وثمود وقوم ١٣
لوط وأصحاب الأيكة) أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الأحزاب)
إما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من الم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه
على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (إن كل إلا كذب الرسل) استئناف جيء به تقريراً ١٤
لتكذيبهم وبياناً لكيفيته وتمهيداً لما يعقبه أى ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب أو ما كل حزب منهم
كذب الرسل لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعاً لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب إلا كذب
رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأياً ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العلل فى خبر المبتدأ أى ما كل أحد
منهم محكوما عليه بحكم إلا محكوم عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبراً عنه بخبر إلا مخبر عنه
بأنه كذب الرسل وفى إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام أولا والإيذان بأن كلا
منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانياً وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثاً فنون من المبالغة
مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى (فحق عقاب) أى ثبت ووقع
على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة فى مواقعها وإما بالمبتدأ
وقوله تعالى إن كل إلا كذب الرسل خبره بحذف العائد أى إن كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله
مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما
ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر والمعنى أن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد
منهم التكذيب فتدبر وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى وعاد الخ أو قوله وقوم لوط الخ فمما يجب
تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ٣٨ ص

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٣٨ ص

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ٣٨ ص

١٥ (وما ينظر هؤلاء) شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم من الأحزاب الذين أخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فإن ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه إلى بيانه قطعاً وفى الإشارة إليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لأمرهم وأما جعله إشارة إلى الأحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم فى علم الله عز وجل فليس فى حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء إنما يتصور فى حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وإنما الذين فى مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لأشد العقوبات مثل ما ارتكب الأحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئاً من غوائلها أى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب (إلا صيحة واحدة) هى النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فإنها داهية يعم هولها جميع الأمم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعدلهم من العقاب الفظيع إلا هى حيث أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبى ﷺ بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فمما لا وجه له أصلا لما أنه لا يشاهد هو لها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعاً عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخر إليها بل يحل بهم من حين موتهم (ما لها من فواق) أى من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين وقرىء بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى

١٦ (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطة من الشىء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وقيل ذكر رسول الله ﷺ وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على ما يقولون) من

١٧ أمثال هذه المقالات الباطلة (واذكر) لهم (عبدنا داود) أى قصته تهويلا لأمر المعصية فى أعينهم وتنبيهاً لهم على كمال قبح ما اجترءوا عليه من المعاصى فإنه ﷺ مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ٣٨ ص

وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ٣٨ ص

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ٣٨ ص

من كل ذليل المرتكبين لأكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصى أو تذكر قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كيلا يلقاك مالقيه من المعاتبة (ذا الأيد) أى ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد بمعنى وأياد كل شىء مايتقوى به (إنه أواب) رجاع إلى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين فإنه عليه الصلاة والسلام كان
١٨ يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (إنا سخرا الجبال معه) استئناف مسوق لتعليل قوته فى الدين وأوابيته إلى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وإيثارها على اللام لما أشير إليه فى سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها إليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة إلى ما فى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال واستئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشى والإشراق) أى ووقت الإشراق وهو حين تشرق أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانىء رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الإشراق وعن ابن
١٩ عباس رضى الله عنهما ماعرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة) حال من الطير والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرىء والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له أواب) استئناف مقرر لمضمون ماقبله مصرح بما فهم منه إجمالا من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس
٢٠ وقيل الضمير لله عز وجل أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرىء بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه فى المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحى فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال إن الله تعالى لم يأخذنى

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ٣٨ ص

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ٣٨ ص

بهذا الذنب ولكن بأنى قتلت أبا هذا غيلة فقال الناس إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته فى القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم وإتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة (وفصل الخطاب) أى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإظهار والإضمار والحذف والتكرار وإنما سمى به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق تمهيداً له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه إيجاز مخل ولا أطناب ممل كما
٢١ جاء فى نعت كلام النبوة فصل لا نزر ولا هذر (وهل أتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التى حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (إذ تسوروا المحراب) إذ تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته وإذ متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن إسناده الإتيان إليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه
٢٢ من معنى الخصومة لا بأتى لأن إتيانه الرسول ﷺ لم يكن حينئذ وقوله تعالى (إذ دخلوا على داود) بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا (ففزع منهم) روى أنه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير (قالوا) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا إزالة لفزعه (لا تخف خصمان) أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على بعض) هو على الفرض وقصد التعرض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر فى الحكومة وقرىء ولا تشطط أى لا تبعد عن الحق وقرىء ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق (واهدنا إلى سواء الصراط) إلى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل .

إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ٣٨ ص
قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ
رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ٣٨ ص

(إن هذا أخى) استئناف لبيان مافيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد ٢٣
لبيان كمال قبح مافعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الأنثى من الضأن وقد يكنى
بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرىء تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون
وقرىء ولى نعجة بسكون الياء (فقال أكفلنيها) أى ملكنيها وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت
يدى وقيل اجعلها كفلى أى نصيبى (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى مخاطبته إياى محاجة بأن جاء بحجاج
لم أقدر على رده أو فى مغالبته إياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطاباً أى غالبنى
فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرىء وعازنى أى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طالباً للخفة وهو
تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) جواب قسم ٢٤
محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له
غيرها مع أن له قطيعاً منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه أو بناه
على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى
الإضافة والضم (وإن كثيراً من الخلطاء) أى الشركاء الذين خلطوا أموالهم (ليبغى) ليتعدى وقرىء
بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع
لحق الصحبة والشركة (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فإنهم يتحامون عن البغى والعدوان
(وقليل ماهم) أى وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود أنما فتناه) *
الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما
قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام أنه
تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد
من كلمة إنما إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى
متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والإثبات فيها كما فى مثل قولك إنما ضربت زيداً وإنما ضربته
تأديباً بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى مايغايره
من الأفعال لكن لا باعتبار النفى والإثبات معاً فى خصوصية الفعل فإنه غير ممكن قطعاً بل باعتبار النفى فيما فيه
من معنى مطلق الفعل واعتبار الإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فإن كل فعل من الأفعال المخصوصة ينحل

عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فإن معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء والمنع فورد القصر فى الحقيقة مايتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والإثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لاغير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وإيثار طريق التمثيل لأنه أبلغ فى التوبيخ فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيراً فى قلبه وأدعى إلى التنبه للخطأ مع مافيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والإشعار بأنه أمر يستحيى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لإلجائه عليه الصلاة والسلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) إثر ماعلم أن ماصدر عنه ذنب (وخر راكعاً) أى ساجداً على تسمية السجود ركوعا لأنه مبدؤه أو خر للسجود راكعاً أى مصلياً كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة. وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزاً فى شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وقد كان الأنصار فى صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى مايتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ماامتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها دواد عليه السلام فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما مايذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لايحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فإفك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئسما مكروه تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتباً لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب.

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ٣٨ ص

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ٣٨ ص

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ٣٨ ص

---

٢٥ (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقى ساجداً أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا الصلاة مكتوبة أو لما لا بد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له أيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه (وإن له عندنا لزلفى) لقرابة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع فى الجنة (ياداود

٢٦ إنا جعلناك خليفة فى الأرض) إما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل وإما مقول قول مقدر هو معطوف على غفرنا أو حال من فاعله أى وقلنا له أو قائلين له ياداود الخ أى استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على أن حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فإن الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما (ولا تتبع الهوى) أى هوى النفس فى الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على أنه جواب النهى وقيل هو مجزوم بالعطف على النهى مفتوح لالتقاء الساكنين أى فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التى نصبها على الحق تكوينا وتشريعاً وقوله تعالى (إن الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) ٥

جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبراً لأن أو الظرف خبر لأن وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) إما مفعول لنسوا فيكون تعليلا ٥

صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلية مايستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله ٢٧

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ٣٨ ص

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ٣٨ ص

من أمر البعث والحساب والجزاء أى وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار فى فهمه العقول خلقاً باطلا أى خالياً عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطوياً على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ماخلقنا نفوساً أودعناها العقل والتميز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف بل أرسلنا إليها رسلا وأنزلنا عليها كتابا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها (ذلك) إشارة إلى مانفى من خلق ماذكر باطلا (ظن الذين كفروا) أى مظنونهم فإن جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ماذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بما فى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولا تنافى بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحاً بعد الإشعار بعلية مايؤدى إليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم
٢٨ بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض) أم
منقطعة وما فيها من بل للإضراب الانتقالى عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خالياً عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظاً منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) إضراب وانتقال عن إثبات ماذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ماهو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطى فى الآخرة من الخير مالا تعطون
٢٩ فنزلت (كتاب) خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى (أنزلناه إليك) صفته

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ٣٨ ص

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) ٣٨ ص

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) ٣٨ ص

وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدأ أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح
وقرىء مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى
(ليدبروا آياته) متعلق بأنزلناه أى أنزلناه ليتفكروا فى آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار
التكوين والتشريع فيعرفوا مايدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات اللائقة وقرىء ليتدبروا على
الأصل ولتدبروا على الخطاب أى أنت وعلماء أمتك بحذف إحدى التاءين (وليتذكر أولو الألباب) *
أى وليتعظ به ذوو العقول السليمة أو ليستحضروا ماهو كالمركوز فى عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته
لما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية مبينة لما لا يعرف إلا بالشرع ومرشدة إلى مالا سبيل للعقل
٣٠ إليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرىء نعم العبد أى سليمان كما ينبىء عنه تأخيره عن داود مع
كونه مفعولا صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى (إنه أواب) أى رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو إلى التسبيح
٣١ مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور فى قوله تعالى (إذ عرض عليه) راجع إليه عليه
الصلاة والسلام قطعاً وإذ منصوب باذكر أى اذكر ماصدر عنه إذ عرض عليه (بالعشى) هو من الظهر
إلى آخر النهار (الصافنات) فإنه يشهد بأنه أواب وقيل ظرف لأواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن
الظرفين لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل
وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لايكاد يتفق إلا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه
ويسويهما وأما الذى يقف على سنبكه فهو المنخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه
وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة
وجارية أى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو
جمع جيد روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من
العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعدما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها
فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم
يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله تعالى وبقى مائة فما فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل
٣٢ لما عقرها أبدله الله خيراً منها وهى الريح تجرى بأمره (فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) قاله عليه
الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه
وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ٣٨ ص

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ٣٨ ص

والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن يعدى بعلى لأنه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه وخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها قال ﷺ الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة وقرىء إنى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس تشبيهاً لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير
٣٣ للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل أى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام ومرمى غرضه من تقديم ماقدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فطفق مسحاً) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر أى فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً (بالسوق والأعناق) أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته أى ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حباً لها وإعجاباً بها وليس بذاك وقرىء بالسؤق على همز الواو لضمتها كما فى أدؤر وقرىء بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو
٣٤ وقرىء بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) أظهر ماقيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ماروى مرفوعا أنه قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لوقال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به إلى أن ألقى على كرسيه ميتاً فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بنتاً له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت حبها وكان لايرقأ دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى باكياً متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شىء إلا فى نسائه وغير سليمان

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ٣٨ ص

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ٣٨ ص

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ٣٨ ص

وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ٣٨ ص

عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت
يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه
كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ماعبد الوثن فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل
حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا
هو بالخاتم فتختم به وخر ساجداً وعاد إليه ملكه وجاب صخرة لصخر لجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم
أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لا روح
فيه لأنه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن
٣٥ محظوراً حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من أناب وتفسير له (رب اغفر لى) أى
ماصدر عنى من الزلة (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة
لى مناسبة لحالى فإنه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معاً استدعى من ربه
معجزة جامعة لحكمهما أو لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدى
لعظمته كقولك لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى
أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى
وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جرياً على سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
والصالحين وكون ذلك أدخل فى الإجابة وقرىء لى بفتح الياء (إنك أنت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة
٣٦ والهبة معاً لا بالأخيرة فقط فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً (فسخرنا له الريح) أى
أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة والسلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة وقرىء
الرياح (تجرى بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) أى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة لا تمتنع
عليه كالمأمور المنقاد (حيث أصاب) أى حيث قصد وأراد حكى الأصمعى عن العرب أصاب الصواب
٣٧ - ٣٨ فأخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين
مقرنين فى الأصفاد) عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام فصل الشياطين
إلى عملة استعملهم فى الأعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك وإلى مردة قرن بعضهم مع بعض فى
السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ ٣٨ ص

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٣٨ ص

الأعمال الصعبة وقد جوز أن يكون الإقران فى الأصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لأنه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده
٣٩ أعطاه على عكس وعد وأوعده وقوله تعالى (هذا) الخ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتى من الملك وأنه مفوض إليه تفويضاً كلياً وإما مقول مقدر هو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كما مر فى خاتمة قصة داود عليه السلام أى وقلنا له أو قائلين له هذا الأمر الذى أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على مالم يسلط عليه غيرك (عطاؤنا) الخاص بك (فامنن أو أمسك) فأعط من شئت وامنع من شئت (بغير حساب) حال من المستكن فى الأمر أى غير محاسب على شىء منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق أو من العطاء أى هذا عطاؤنا ملتبساً بغير حساب لغاية كثرته أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين
٤٠ والمراد بالمن والإمساك الإطلاق والتقييد (وإن له عندنا لزلفى) فى الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (وحسن مآب) هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ماملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فى تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه فى عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار إلى تهامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكر الله تعالى وغزا بلاد المغرب الأندلس
٤١ وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم (واذكر عبدنا أيوب) عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وأيوب هو ابن عيص بن إسحاق عليه السلام (إذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له (أنى) بأنى (مسنى الشيطان) بفتح ياء مسنى وقرىء بإسكانها وإسقاطها (بنصب) أى تعب وقرىء بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل (وعذاب) أى ألم ووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله أنى مسنى الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته وإلا لقيل إنه مسه الخ والإسناد إلى الشيطان إما لأنه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافاً بالذنب أو

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ٣٨ ص

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ٣٨ ص

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ٣٨ ص

مراعاة للأدب أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم أو لأن المراد بالنصب
ماكان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة
والجزع فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس
هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله وأنت أرحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى
٤٢ سورة الأنبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ إما حكاية
لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى فقلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الأرض
وكذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) فإنه أيضاً إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع
الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل فضربها فنبعت عين فقلنا له
هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة
٤٣ للشرب ويأباه ظاهر النظم الكريم وقوله تعالى (ووهبنا له أهله) معطوف على مقدر مترتب على مقدر
آخر يقتضيه القول المقدر آنفاً كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر كما فى سورة الأنبياء
ووهبنا له أهله إما بإحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن أو بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل (ومثلهم
معهم) عطف على أهله فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل (رحمة منا) أى لرحمة عظيمة عليه من
قبلنا (وذكرى لأولى الألباب) ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجأوا إلى الله عز
٤٤ وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة (وخذ بيدك ضغثاً) معطوف على اركض
أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والأول أقرب لفظاً وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى
هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة فإن امرأته رحمة بنت إفرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل
ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ليضربنها مائة ضربة فأمره
الله تعالى بأخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما
قبضة من الشجر وقال (فاضرب به) أى بذلك الضغث (ولا تحنث) فى يمينك فإن البر يتحقق به ولقد
شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهى باقية ويجب أن يصيب
المضروب كل واحد من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب (إنا وجدناه صابراً)
فيما أصابه فى النفس والأهل والمال وليس فى شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك فإنه لا يسمى جزعاً
كتمنى العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ٣٨ ص

إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ٣٨ ص

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ٣٨ ص

بأنه لوكان نبياً لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب
واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع
قلبى بصرى ولم يهبنى ماملكت يمينى ولم آكل إلا ومعى يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع
أو عريان فكشف الله تعالى عنه (نعم العبد) أى أيوب (إنه أواب) تعليل لمدحه أى رجاع إلى الله
٤٥ تعالى (واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب) عطف بيان لعبادنا وقرىء عبدنا إما على أن إبراهيم
وحده لمزيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب بإضمار أعنى والباقيان عطف على عبدنا وإما على
أن عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع (أولى الأيدى والأبصار) أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى
الدين أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها تباشر بها
وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين أنهم كالزمنى والعماة وتوبيخ
على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرىء أولى الأيد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرىء
٤٦ أولى الأيادى على جمع الجمع (إنا أخلصناهم بخالصة) تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو
الرتبة فى العلم والعمل أى جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كما ينبىء عنه التنكير التفخيمى
وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد إبهامها للتفخيم أى تذكر الدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم
فى الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لأن مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم فى كل ما يأتون وما يذرون
جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك إلا فى الآخرة وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم
فى اختيارها ويعضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة وإنما الدنيا
معبر وقرىء بإضافة خالصة إلى ذكرى أى بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم
آخر أصلا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة
٤٧ والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم (وإنهم عندنا لمن
المصطفين الأخيار) لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم فى الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار
٤٨ وقيل جمع خير أو خير مخفف منه كأموات فى جمع ميت وميت (واذكر إسمعيل) فصل ذكره عن ذكر
أبيه وأخيه للإشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير (واليسع) هو ابن خطوب بن العجوز
استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ثم استنبىء واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما فى قول من

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ۳۸ ص

جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ۳۸ ص

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۳۸ ص

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ۳۸ ص

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ۳۸ ص

قال [رأيت الوليد بن اليزيد مباركا] وقرىء واليسع كأن أصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف
التعريف وقيل هو على القراءتين علم أعجمى دخل عليه اللام وقيل هو يوشع (وذا الكفل) هو ابن عم
يسع أو بشر بن أيوب واختلف فى نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبى من بنى إسرائيل من القتل فآواهم
وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة (وكل) أى وكلهم (من الأخيار)
المشهور بن بالخيرية (هذا) إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم (ذكر) أى شرف لهم وذكر
٤٩ جميل يذكرون به أبداً أو نوع من الذكر الذى هو القرآن وباب منه مشتمل على أنباء الأنبياء عليهم السلام
وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الأنبياء وقوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب)
شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من أبواب
التنزيل والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أولياً وإما نفس المذكورين عبر عنهم
بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال (جنات عدن) عطف بيان لحسن مآب عند
٥٠ من يجوز تخالفهما تعريفاً وتنكيراً فإن عدناً معرفة لقوله تعالى جنات عدن التى وعد الرحمن عباده أو بدل
منه أو نصب على المدح وقوله تعالى (مفتحة لهم الأبواب) حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى للمتقين
من معنى الفعل والأبواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها إما ضمير مقدر كما هو رأى
البصريين أى الأبواب منها أو الألف واللام القائمة مقامه كما هو رأى الكوفيين إذ الأصل أبوابها
وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو على أنهما خبران لمحذوف أى هى جنات عدن هى مفتحة
(متكئين فيها) حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى (يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب)
٥١ استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضاً حال مما ذكر أو من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة
للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى فإنه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل ثمة (وعندهم
٥٢ قاصرات الطرف) أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم (أتراب) لدات لهم فإن التحاب بين الأقران
أرسخ أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فإنه يمسهم فى وقت واحد (هذا
٥٣ ما توعدون ليوم الحساب) أى لأجله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء وقرىء بالياء ليوافق ما قبله

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ ٣٨ ص

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ٣٨ ص

وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ٣٨ ص

٥٤ والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم (إن هذا) أى ماذكر من ألوان النعم والكرامات (لرزقنا)
٥٥ أعطينا كموه (ماله من نفاد) انقطاع أبداً (هذا) أى الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر وقوله
٥٦ تعالى (وإن للطاغين لشر مآب) شروع فى بيان أضداد الفريق السابق (جهنم) إعرابه كما سلف (يصلونها)
أى يدخلونها حال من جهنم (فبئس المهاد) وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص
٥٧ بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى لهم من جهنم مهاد (هذا فليذوقوه) أى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله
تعالى وإياى فارهبون أو العذاب هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأ خبره (حميم وغساق) ومابينهما اعتراض
وهو على الأولين خبر مبتدأ محذوف أى هو حميم والغساق مايغسق من صديد أهل النار من غسقت
العين إذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق
لنتنت أهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لنتنت أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله
٥٨ تعالى وقرىء بتخفيف السين (وآخر من شكله) أى ومذوق آخر أو عذاب آخر من مثل هذا المذوق
أو العذاب فى الشدة والفظاعة وقرىء وأخر أى ومذوقات أخر أو أنواع عذاب أخر وتوحيد ضمير
شكله بتأويل ماذكر أو الشراب الشامل للحميم والغساق أو هو راجع إلى الغساق (أزواج) أى أجناس
وهو خبر لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل
٥٩ لهم (هذا فوج مقتحم معكم) حكاية مايقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها
معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة والاقتحام الدخول فى الشىء بشدة قال الراغب الاقتحام
توسط شدة مخيفة وقوله تعالى (لا مرحباً بهم) من إتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة
للفوج أو حال منه أى مقول أو مقولا فى حقهم لا مرحباً بهم أى لا أتوا مرحباً أو لا رحبت بهم الدار
مرحباً (إنهم صلوا النار) تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر وقيل لا مرحباً
بهم إلى هنا كلام الرؤساء فى حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجراً من مقارنتهم

قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ٣٨ ص

قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ٣٨ ص

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ٣٨ ص

أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ٣٨ ص

٦٠ وتنفروا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الأتباع (قالوا) أى الأتباع
عند سماعهم ماقيل فى حقهم ووجه خطابهم الرؤساء فى قولهم (بل أنتم لا مرحباً بكم) الخ على الوجهين
الأخيرين ظاهر وأما على الوجه الأول فلعلهم إنما خاطبوهم مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار
إلى الخزنة بل هم لا مرحباً بهم الخ قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة
طمعاً فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو قلتم وقوله
تعالى (أنتم قدمتموه لنا) تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم
مايؤدى إليه من العقائد الزائغة والأعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا وإغرائنا عليها لا أنا باشرناها من تلقاء
٦١ أنفسنا (فبئس القرار) أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم (وقالوا) أى
الأتباع أيضاً وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتاً وخطاباً أى قالوا معرضين عن
خصومتهم متضرعين إلى الله تعالى (ربنا من قدم لنا هـذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار) كقولهم ربنا
هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار أى عذاباً مضاعفاً أى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله
٦٢ ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب أو قيل المراد بالضعف الحيات والأفاعى (وقالوا)
أى الطاغون (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم
٦٣ ويسخرون منهم (أتخذناهم سخرياً) بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل
لها من الإعراب قالوه إنكاراً على أنفسهم وتأنيباً لها فى الاستسخار منهم (أم زاغت عنهم الأبصار)
متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أى الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم
وتحقيرهم وإن أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخاً
لها أو على أنها منقطعة والمعنى أتخذناهم سخرياً بل أزاغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك أم عندك
عمرو على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء
والتحقير وقرىء اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى لرجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله مالنا
لا نرى والمعنى مالنا لا نراهم فى النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم أم زاغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد جوز
أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرىء سخرياً بضم السين .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ٣٨ ص

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ٣٨ ص

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ٣٨ ص

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ٣٨ ص

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٨ ص

مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ٣٨ ص

---

٦٤ (إن ذلك) أى الذى حكى من أحوالهم (لحق) لا بد من وقوعه البتة وقوله تعالى (تخاصم أهل النار)
خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفى الإبهام أولا والتبيين ثانياً مزيد تقرير له وقيل بدل من محل
ذلك وقيل بدل من حق أو عطف بيان له وقرىء بالنصب على أنه بدل من ذلك وما قيل من أنه صفة له
فقد قيل عليه إن اسم الإشارة لا يوصف إلا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل
٦٥ (قل) أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين (إنما أنا منذر) من جهته تعالى أنذركم عذابه (وما من
من إله) فى الوجود (إلا الله الواحد) الذى لا يقبل الشركة والكثرة أصلا (القهار) لكل شىء سواه
٦٦ (رب السموات والأرض وما بينهما) من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها (العزيز)
الذى لا يغلب فى أمر من أموره (الغفار) المبالغ فى المغفرة يغفر مايشاء لمن يشاء وفى هذه النعوت من
تقرير التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين مالا يخفى وتثنية مايشعر بالوعيد من وصفى القهر
٦٧ والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الإنذار حقه (قل) تكرير الأمر للإيذان بأن المقول
أمر جليل له شأن خطير لابد من الاعتناء به أمراً وائتماراً (هو) أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته
تعالى وأنه تعالى واحد لا شريك له وأنه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والأظهر أنه القرآن وما
ذكر داخل فيه دخولا أولياً كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة
٦٨ (نبأ عظيم) وارد من جهته تعالى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم
به ببيان أنهم لا يقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجباً للإقبال الكلى
٦٩ عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة أخرى لنبأ وقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى) الخ استئناف
مسوق لتحقيق أنه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة
به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله
تعالى وأن سائر أنبائه أيضاً كذلك والملأ الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وقوله
تعالى (إذ يختصمون) متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ٣٨ ص

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ٣٨ ص

لا بذواتهم والتقدير ماكان لى فيما سبق علم مابوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم وتقدير
الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فإن علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ماجرى بينهم
من الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضاً من سجود الملائكة واستكبار إبليس وكفره حسبما ينطق
٧٠ به الوحى فلابد من اعتبار العموم فى نفيه أيضاً لا محالة وقوله تعالى (إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير
مبين) اعتراض وسط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا
لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئاً عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه الصلاة
والسلام بشىء من مباديه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحى حتما فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت
غنياً عن الإخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة والمقصود إخبار ماهو داع إلى الوحى ومصحح له
تحقيقاً لقوله تعالى إنما أنا منذر فى ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملأ الأعلى فالقائم مقام
الفاعل ليوحى إما ضمير عائد إلى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى ما يوحى إلى حال الملأ الأعلى
أو ما يوحى إلى ما يوحى من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته
تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى إليه ومن موجباته حتما وأما أن القائم
مقام الفاعل هو الجار والمجرور أو هو إنما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وأن المعنى ما يوحى إلى إلا للإنذار
أو ما يوحى إلى إلا أن أنذر وأبلغ ولا أفرط فى ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار إلى التكلف فى
توجيه قصر الوحى على كونه للإنذار فى الأول وقصره على الإنذار فى الثانى فلا يساعده سباق النظم
الكريم وسياقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبياً مما توسط بينهما من إجمال الاختصام وتفصيله
٧١ فتأمل والله المرشد وقرىء إنما بالكسر على الحكاية وقوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) شروع فى تفصيل
ما أجمل من الاختصام الذى هو ماجرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك
صح إسناد الاختصام إلى الملائكة وإذ بدل من إذ الأولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس
الاختصام بل يكفى اشتمال ما فى حيزها عليه فإن القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية
مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والإيذان بأن وحى هذا النبأ إليه تربية وتأييد له
عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحياً منزلا من عنده تعالى
كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الخ دون حال المأمور وإلا لقيل ربى لأنه داخل
فى حيز الأمر (إنى خالق) أى فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل •
له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه (بشراً) قيل أى جسما كثيفاً يلاقى ويباشر وقيل خلقاً بادى •
البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ماجرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ
فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية (من طين) لم يتعرض

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٨ ص

فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ٣٨ ص

إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٨ ص

قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ٣٨ ص

٧٢ لأوصافه من التغير والاسوداد والمسنونية اكتفاء بما ذكر فى مواقع أخر (فإذا سويته) أى صورته
بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى)
النفخ إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو
تمثيل لإفاضة مابه الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فإذا كملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من
الروح التى هى من أمرى (فقعوا له) أمر من وقع وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما
٧٣ قيل أى اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتكريماً (فسجد الملائكة) أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح
فسجد له الملائكة (كلهم) بحيث لم يبق منهم أحد إلا سجد (أجمعون) أى بطريق المعية بحيث لم يتأخر
فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيد التأكيد أيضاً وقيل أكد
بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الأمر التعليقى كما
تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الحجر فإن ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من غير أن يتوسط
بينهما شىء غير مايفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح أو على الأمر التنجيزى كما
يقتضيه مافى سورة البقرة وما فى سورة الأعراف وما فى سورة بنى إسرائيل وما فى سورة الكهف
ومافى سورة طه من الآيات الكريمة فقد مر تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة الأعراف
٧٤ (إلا إبليس) استثناء متصل لما أنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة موصوفاً بصفاتهم فغلبوا
عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم أو منقطع وقوله تعالى
(استكبر) على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن تركه يحتمل أن
يكون للتأمل والتروى وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز اتصاله بما قبله أى لكن
إبليس استكبر (وكان من الكافرين) أى وصار منهم بمخالفته الأمر واستكباره عن الطاعة أو كان منهم
٧٥ فى علم الله تعالى عز وجل (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى خلقته بالذات من غير
توسط أب وأم والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه الصلاة والسلام المستدعى لإجلاله وإعظامه
قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ (أستكبرت) بهمزة الإنكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت
من غير استحقاق (أم كنت من العالين) المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت
من المستكبرين وقرىء بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ٣٨ ص

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ٣٨ ص

---

٧٦ وقوله تعالى (قال أنا خير منه) ادعاء منه لشيء مستلزم لمنعه من السجود على زعمه وإشعار بأنه لا يليق أن يسجد
الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون وقوله تعالى
(خلقتني من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه الصلاة والسلام ولقد أخطأ اللعين حيث
خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى لما خلقت بيدي
وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ونفخت فيه من روحي وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر
ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض
٧٧ وأن له خواص ليست لغيره (قال فاخرج منها) الفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر
الجليل وتعليلها بالأباطيل أي فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو المراد بالأمر بالهبوط لا
الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لآدم عليه السلام بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته في سورة
البقرة وقيل اخرج من الخلقة التي كنت فيها وانسلخ منها فإنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود
بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى (فإنك رجيم) تعليل
الأمر بالخروج أي مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب
٧٨ (وأن عليك لعنتي) أي إبعادي عن الرحمة وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى وأن عليك
اللعنة لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى
وإبعاده من الرحمة (إلى يوم الدين) أي يوم الجزاء والعقوبة وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها
ليست جزاء لجنايته بل هي أنموذج لما سيلقاه مستمراً إلى ذلك اليوم لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه
ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير
كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضاً
٧٩ (قال رب فأنظرني) أي أمهلني وأخرني والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أي إذا جعلتني
رجيما فأمهلني ولا تمتني (إلى يوم يبعثون) أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد
٨٠ فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد يوم البعث (قال فإنك
من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر

إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ٣٨ ص

إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ٣٨ ص

لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ٣٨ ص

بكون السائل تبعاً لهم فى ذلك دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار
خاص به قد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلباً لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا
لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أى إنك من جملة الذين أخرت آجالهم
٨١ أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين (إلى يوم الوقت المعلوم) الذى قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو
وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول فالفاء ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار
بل لربط الإخبار المذكور به كما فى قول من قال [فإن ترحم فأنت لذاك أهل] فإنه لا إمكان لجعل الفاء
فيه لربط ماله تعالى من الأهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الإخبار بتلك الأهلية
للرحمة بوقوعها هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الأعراف كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والإنظار
تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة الحجر وإن خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لابد
أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع إلا
دفعة فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال
والبالغ إلى رتبة البلاغة ودرجة الإعجاز وأما ما عداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا
٨٢ عن العروج إلى معارج الإعجاز فقد سلف تحقيقه فى سورة الأعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه (قال
فبعزتك) الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما أغويتنى وقوله
رب بما أغويتنى فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته
فمآل الإقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أى
٨٣ فأقسم بعزتك (لأغوينهم أجمعين) أى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم (إلا عبادك منهم المخلصين) وهم
الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية وقرىء المخلصين على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا
٨٤ قلوبهم وأعمالهم لله تعالى (قال) أى الله عز وجل (فالحق والحق أقول) برفع الأول على أنه مبتدأ
محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أى لا أقول
٨٥ إلا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمى (لأملأن جهنم) على أن الحق إما اسمه تعالى

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ٣٨ ص

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ٣٨ ص

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ٣٨ ص

أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى بإقسامه به أو فأنا الحق أو فقولى الحق وقوله تعالى لأملأن جهنم الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أى والله لأملأن الخ وقوله تعالى والحق أقول على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولى الحق وقرئا منصوبين على أن الأول مقسم به كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لأفعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية (منك) أى من جنسك من الشياطين (وممن تبعك) فى الغواية والإضلال (منهم) من ذرية آدم (أجمعين) تأكيد للكاف وما عطف عليه أى لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين كقوله تعالى لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وحيث كان مناط الحكم ههنا أتباع الشيطان اتضح أن مدار عدم المشيئة فى قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر (قل ما أسألكم عليه) على القرآن أو على تبليغ مايوحى ٨٦
إلى (من أجر) دنيوى (وما أنا من المتكلفين) أى المتصنعين مما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن (إن هو) أى ماهو (إلا ذكر) من الله عز وجل (للعالمين) أى للثقلين كافة (ولتعلمن نبأه) أى ٨٧، ٨٨
ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وأنه الحق والصدق (بعد حين) بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من التهديد مالا يخفى * عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصم أن يصر على ذنب صغير أو كبير وقال أبو أمامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغير أو كبير والله أعلم .

﴿سورة ص ٣٨﴾

مكية كما روى عن ابن عباس وغيره ، وقيل مدنية وليس بصحيح كما قال الداني ؛ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي وخمس وثمانون في عد أيوب بن المتوكل وحده ، قيل ولم يقل أحد إن (ص) وحدها آية كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور ، وفيه بحث ؛ وهي كالمتممة لما قبلها من حيث انه ذكر فيها مالم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان ، ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا (لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة مافيه ، ومن دقق النظر لاح له مناسبات أخر والله تعالى الموفق *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿بسم الله الرحمن الرحيم صٓ﴾ بالسكون على الوقف عند الجمهور ، وقرأ أبي . والحسن . وابن أبي اسحق وأبو السمال . وابن أبي عبلة . ونصر بن عاصم (صاد) بكسر الدال ، والظاهر أنه كسر لالتقاء الساكنين وهو حرف من حروف المعجم نحو (ق) و (ن) *

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه أمر من صادى أى عارض ، ومنه الصدى وهو مايعارض الصوت الأول ويقابله بمثله فى الأماكن الخالية والأجسام الصلبة العالية ، والمعنى عارض القرآن بعملك أى اعمل بأوامره ونواهيه ، وقال عبدالوهاب : أى أعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن ، وقيل هو أمر من صادى أى حادث ، والمعنى حادث القرآن ، وهو رواية عن الحسن أيضا وله قرب من الأول . وقرأ عيسى . ومحبوب عن أبي عمرو . وفرقة (صاد) بفتح الدال ، وكذا قرؤا قاف ونون بالفتح فيهما فقيل هو لالتقاء الساكنين أيضا طلبا للخفة ، وقيل هو حركة اعراب على أن (صاد) منصوب بفعل مضمر أى اذكر أو اقرأ صاد أو بفعل القسم بعد نزع الخافض لما فيه من معنى التعظيم المتعدى بنفسه نحو الله لأفعلن أو مجرور باضمار حرف القسم ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بناء على أنه علم للسورة ، وقد ذكر الشريف أنه إذا اشتهر مسمى باطلاق لفظ عليه يلاحظ المسمى فى ضمن ذلك اللفظ وأنه بهذا الاعتبار يصح اعتبار التأنيث فى الاسم . وقرأ ابن أبي اسحق فى رواية (صاد) بالجر والتنوين ، وذلك إما لأن الثلاثى الساكن الوسط يجوز صرفه بل قيل إنه الأرجح ، وإما لاعتبار ذلك اسما للقرآن كما هو أحد الاحتمالات فيه فلم يتحقق فيه العلتان فوجب صرفه ، والقول بأن ذاك لكونه علما لمعنى السورة لا للفظها فلا تأنيث فيه مع العلمية ليكون هناك علتان لايخلو عن دغدغة . وقرأ ابن السميقع . وهرون الأعور . والحسن فى رواية « صاد » بضم الدال ، وكأنه اعتبر اسما للسورة وجعل خبر مبتدأ محذوف أى هذه صاد ، ولهم فى معناه غير متقيدين بقراءة الجمهور اختلاف كاضرابه من أوائل السور ، فاخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئل جابر بن عبدالله وابن عباس عن «ص» فقالا : ماندرى ما هو ، وهو مذهب كثير فى نظائره ، وقال عكرمة : سئل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن «ص» فقال : ص كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لاليل ولا نهار *

وقال ابن جبير : هو بحر يحيي الله تعالى به الموتى بين النفختين ، والله تعالى أعلم بصحة هذين الخبرين *

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال «ص» صدق الله ، وأخرج ابن مردويه عنه أنه قال «ص» يقول إنى أنا الله الصادق ، وقال محمد بن كعب القرظى : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد *

وقيل هو إشارة إلى صدود الكفار عن القرآن ، وقيل حرف مسرود على منهاج التحدى ، وجنح اليه غير واحد من أرباب التحقيق ، وقيل اسم للسورة واليه ذهب الخليل . وسيبويه . والأكثرون ، وقيل اسم للقرآن وقيل غير ذلك باعتبار بعض القراآت كما سمعت عن قريب ، ومن الغريب أن المعنى صاد محمد ﷺ قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ولعل القائل به اعتبره فعلا ماضيا مفتوح الآخر أو ساكنه للوقف ، وأنا لاأقول به ولا أرتضيه وجها ، وهو على بعض هذه الأوجه لاحظ له من الاعراب ، وعلى بعضها يجوز أن يكون مقسما به ومفعولا لمضمر وخبر مبتدا محذوف ، وعلى بعضها يتعين كونه مقسما به ، وعلى بعض ماتقدم فى القراءات يتأتى ماياتى مما لا يخفى عليك ، وبالجملة ان لم يعتبر مقسما به فالواو فى قوله سبحانه ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ للقسم وان اعتبر

www.Quranpdf.blogspot.in

مقسما به فهي للعطف عليه لكن إذا كان قسما منصوبا على الحذف والايصال يكون العطف عليه باعتبار المعنى والأصل، ثم المغايرة بينهما قد تكون حقيقية كما إذا أريد بالقرآن كله و (بص) السورة أو بالعكس أو أريد (بص) البحر الذي قيل به فيما مر وبالقرآن كله أو السورة، وقد تكون اعتبارية كما إذا أريد بكل السورة أو القرآن على ماقيل، ولا يخفى ماتقتضيه الجزالة الخالية عن التكلف *

وضعف جعل الواو للقسم أيضا بناء على قول جمع أن توارد قسمين على مقسم عليه واحد ضعيف، والذكر كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس الشرف ومنه قوله تعالى (وإنه لذكرلك ولقومك) أو الذكرى والموعظة للناس على ماروى عن قتادة. والضحاك، أو ذكر مايحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والاحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد على ماقيل، وجواب القسم قيل مذكور فقال الكوفيون. والزجاج: هو قوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وتعقبه الفراء بقوله: لانجده مستقيما لتأخر ذلك جدا عن القسم، وقال الأخفش: (هو ان كل إلا كذب الرسل) وقال قوم: (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وحذفت اللام أي لكم لما طال الكلام كما حذفت من (قد أفلح) بعد قوله تعالى: (والشمس) حكاه الفراء. وثعلب، وتعقبه الطبرسي بأنه غلط لأن اللام لاتدخل على المفعول و (كم) مفعول *

وقال أبو حيان: إن هذه الأقوال يجب اطراحها، ونقل السمرقندي عن بعضهم أنه (بل الذين كفروا) الخ فان (بل) لنفي ما قبله وإثبات مابعده فمعناه ليس الذين كفروا إلا في عزة وشقاق *

وجوز أن يريد هذا القائل أن (بل) زائدة في الجواب أو ربط بها الجواب لتجريدها لمعنى الاثبات، وقيل هو صاد إذ معناه صدق الله تعالى أو صدق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ونسب ذلك إلى الفراء. وثعلب، وهو مبني على جواز تقدم جواب القسم واعتقاد أن (ص) تدل على ماذكر، ومع هذا في كون ص نفسه هو الجواب خفاء، وقيل هو جملة هذه صاد على معنى السورة التي أعجزت العرب فكأنه: قيل هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر وهذا كما تقول: هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله، وهو مبني على جواز التقدم أيضا، وقيل هو محذوف فقدره الحوفي لقد جاءكم الحق ونحوه، وابن عطية ما الأمر كما تزعمون ونحوه، وقدره بعض المحققين ما كفر من كفر لخلل وجده ودل عليه بقوله تعالى (بل الذين) الخ، وآخر إنه لمعجز ودل عليه ما في (ص) من الدلالة على التحدي بناء على أنه اسم حرف من حروف المعجم ذكر على سبيل التحدي والتنبيه على الاعجاز أو ما في أقسم بص أو هذه ص من الدلالة على ذلك بناء على أنه اسم للسورة أو انه لواجب العمل به دل عليه (ص) بناء على كونه أمرا من المصاداة، وقدره بعضهم غير ذلك، وفي البحر ينبغي أن يقدر هنا ما أثبت جوابا للقسم بالقرآن في قوله تعالى: (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) *

ويقوى هذا التقدير ذكر النذارة هنا في قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) وهناك في قوله سبحانه: (لتنذر قوما) فالرسالة تتضمن النذارة والبشارة، وجعل بل في قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ٢﴾ للانتقال من هذا القسم والمقسم عليه إلى ذكر حال تعزز الكفار ومشاقتهم في قبولهم رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم وامتثال ما جاء به وهي كذلك على كثير من الوجوه السابقة، وقد تحمل على بعضها للاضراب عن الجواب بأن يقال مثلا: إنه لمعجز بل الذين كفروا في استكبار من الاذعان لاعجازه أو هذه السورة التي

www.Quranpdf.blogspot.in

أعجزت العرب بل الذين كفروا لا يذعنون، وجعلها بعضهم للاضراب عما يفهم مما ذكر ونحوه من أن من كفر لم يكفر لخلل فيه فكأنه قيل: من كفر لم يكفر لخلل فيه بل كفر تكبرا عن اتباع الحق وعنادا، وهو أظهر من جعل ذلك اضرابا عن صريحه، وإن قدر نحو هذا المفهوم جوابا فالاضراب عنه قطعا. وفي الكشف عد هذا الاضراب من قبيل الاضراب المعنوي على نحو زيد عفيف عالم بل قومه استخفوا به على الاضراب عما يلزم الأوصاف من التعظيم كما نقل عن بعضهم عدول عن الظاهر، ويمكن أن يكون الجواب الذي عنه الاضراب ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم، ويشعر به الآيات بعد وسبب النزول الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فكأنه قيل ص والقرآن ذي الذكر ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم بل الذين كفروا مقصرون في اتباعك والاعتراف بالحق، ووجه دلالة ما في النظم الجليل على قولنا بل الذين كفروا مقصرون الخ ظاهر، وهذه عدة احتمالات بين يديك وإليك أمر الاختيار والسلام عليك.

والمراد بالعزة ما يظهرونه من الاستكبار عن الحق لا العزة الحقيقية فإنها لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وللمؤمنين، وأصل الشقاق المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه، والمراد مخالفة الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، والتنكير للدلالة على شدتهما، والتعبير بفي على استغراقهم فيهما.

وقرأ حماد بن الزبرقان . وسورة عن الكسائي . وميمونة عن أبي جعفر . والجحدري من طريق العقيلي في (غرة) بالغين المعجمة المكسورة والراء المهملة أي في غفلة عظيمة عما يجب عليهم من النظر فيه، ونقل عن ابن الأنباري أنه قال في كتاب الرد على من خالف الامام: إنه قرأ بها رجل وقال: إنها أنسب بالشقاق وهو القتال بجد واجتهاد وهذه القراءة افتراء على الله تعالى اه وفيه ما فيه.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضرابهم، و (كم) مفعول (أهلكنا) و (من قرن) تمييز، والمعنى قرنا كثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿ فَنَادَوْا ﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة لينجوا من ذلك، وقال الحسن . وقتادة: رفعوا أصواتهم بالتوبة حين عاينوا العذاب لينجوا منه ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ٣ ﴾ حال من ضمير (نادوا) والعائد مقدر وإن لم يلزم أي مناصهم ولات هي لا المشبهة بليس عند سيبويه زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أو لأن التاء تكون للمبالغة كما في علامة أو لتأكيد شبهها بليس بجعلها على ثلاثة أحرف ساكنة الوسط، وقال الرضي: إنها التأنيث الكلمة فتكون لتأكيد التأنيث واختصت بلزوم الأحيان ولا يتعين لفظ الحين إلا عند بعض وهو محجوج بسماع دخولها على مرادفه، وقول المتنبي: لقد تصبرت حتى لات مصطبر والآن أقحم حتى لات مقتحم

وإن لم يهمنا أمره مخرج على ذلك بجعل المصطبر والمقتحم اسمي زمان أو القول بأنها داخلة فيه على لفظ حين مقدر بعدها، والتزموا حذف أحد الجزأين والغالب حذف المرفوع كما هنا على قراءة الجمهور أي ليس الحين حين مناص، ومذهب الأخفش أنها لا النافية للجنس العاملة عمل إن زيدت عليها التاء فحين مناص اسمها والخبر محذوف أي لهم، وقيل إنها لا النافية للفعل زيدت عليها التاء ولا عمل لها أصلا فإن وليها مرفوع فمبتدأ حذف خبره أو منصوب كما هنا فبعدها فعل مقدر عامل فيه أي ولا ترى حين مناص، وقرأ أبو السمال (ولات حين) بضم التاء ورفع النون فعلى مذهب سيبويه (حين) اسم (لات) والخبر محذوف أي ليس حين مناص حاصلا

www.Quranpdf.blogspot.in

لهم، وعلى القول الأخير مبتدأ خبره محذوف وكذا على مذهب الأخفش فان من مذهبه كما فى البحر أنه إذا ارتفع ما بعدها فعلى الابتداء أى فلاحين مناص كائن لهم. وقرأ عيسى بن عمر (ولات حين) بكسر التاء مع النون كما فى قول المنذر بن حرملة الطائى النصرانى :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

وخرج ذلك إما على أن لات تجر الاحيان كما أن لولا تجر الضمائر كلولاك ولولاه عند سيبويه، وإما على اضمار من كأنه قيل: لات من حين مناص ولات من أوان صلح كما جروا بها مضمرة فى قولهم على كم جذع بيتك أى من جذع فى أصح القولين، وقولهم: ألا رجل جزاه الله خيرا * يريدون ألا من رجل، ويكون موضع من حين مناص رفعا على أنه اسم لات بمعنى ليس كما تقول ليس من رجل قائما، والخبر محذوف على قول سيبويه وعلى أنه مبتدأ والخبر محذوف على قول غيره، وخرج الاخفش ولات أوان على اضمار حين أى ولات حين أوان صلح فحذفت حين وأبقى أوان على جره، وقيل: أن أوان فى البيت مبنى على الكسر وهو مشبه باذ فى قول أبى ذؤيب :

نهيتك عن طلابك أم عمرو بعاقبة وأنت إذ صحيح

ووجه التشبيه أنه زمان قطع عنه المضاف اليه لأن الاصل أوان صلح وعوض التنوين فكسر لالتقاء الساكنين لكونه مبنيا مثله فهما شبهان فى أنهما مبنيان مع وجود تنوين فى آخرهما للعوض يوجب تحريك الآخر بالكسر وإن كان سبب البناء فى أوان دون إذ شبه الغايات حيث جعل زمانا قطع عنه المضاف اليه وهو مراد وليس تنوين العوض مانعا عن الالحاق بها فانها تبنى إذا لم يكن تنوين لأن علته الاحتياج إلى المحذوف كاحتياج الحرف إلى مايتم به، وهذا المعنى قائم نون أولم ينون فان التنوين عوض لفظى لامعنوى فلاتنافى بين التعويض والبناء لكن اتفق أنهم لم يعوضوا التنوين الافى حال اعرابها وكأن ذلك لئلا يتمحض للتعويض بل يكون فيها معنى التمكن أيضا فلا منافاة، وثبت البناء فيما نحن فيه بدليل الكسر وكانت العلة التى فى الغايات قائمة فاحيل البناء عليها، واتفق أنهم عوضوا التنوين ههنا تشبيها باذ فى أنها لما قطعت عن الاضافة نونت أو توفية لحق اللفظ لما فات حق المعنى، وخرجت القراءة على حمل (مناص) على أوان فى البيت تنزيلا لما أضيف اليه الظرف وهو (حين) منزلة الظرف لأن المضاف والمضاف اليه كشىء واحد فقدرت ظرفيته وهو قد كان مضافا إذا أصله مناصهم فقطع وصار كأنه ظرف مبنى مقطوع عن الاضافة منون لقطعه ثم بنى ما أضيف اليه وهو (حين) على الكسر لاضافته إلى ماهو مبنى فرضا وتقديرا وهو (مناص) المشابه لاوان. وأورد عليه أن ماذكر من الحمل لم يؤثر فى المحمول نفسه فكيف يؤثر فيما يضاف اليه على أن فى تخريج الجر فى البيت على ذلك مافيه، والعجب كل العجب ممن يرتضيه، وضم التاء على قراءة أبى السمال وكسرها على قراءة عيسى للبناء، وروى عن عيسى (ولات حين) بالضم (مناص) بالفتح، قال صاحب اللوامح: فان صح ذلك فلعله بنى (حين) على الضم تشبيها بالغايات وبنى (مناص) على الفتح مع (لات) وفى الكلام تقديم وتأخير أى ولات مناص حين لكن لا إنما تعمل فى النكرات المتصلة بها دون المنفصلة عنها ولو بظرف، وقد يجوز أن يكون لذلك معنى لا أعرفه انتهى، وأهون من هذا فيما أرى كون (حين) معربا مضافا إلى (مناص) والفتح للمجاورة واو العطف فى قوله تعالى (وعجبوا) نظير فتح الراء من غير فى قوله :

www.Quranpdf.blogspot.in

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات ارقال

على قول والاغلب على الظن عدم صحة هذه القراءة . وقرأ عيسى أيضا كقراءة الجمهور إلا أنه كسر تاء (لات) وعلم من هذه القراءات أن فى تائها ثلاث لغات ، واختلفوا فى أمر الوقف عليها فقال سيبويه ، والفراء وابن كيسان . والزجاج: يوقف عليها بالتاء ، وقال الكسائى: والمبرد. بالهاء ، وقال أبو على: ينبغى أن لا يكون خلاف فى ان الوقف بالتاء لأن قلب التاء هاء مخصوص بالاسماء ، وزعم قوم أن التاء ليست ملحقة بلا وإنما هى مزيدة فى أول ما بعدها واختاره أبو عبيدة ، وذكر أنه رأى فى الامام (ولا تحين مناص) برسم التاء مخلوطا بأول حين ، ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس الخطى إذ لم يقع فى الامام فى محل آخر مرسوما على خلاف ذلك حتى يقال ماهنا مخالف للقياس والاصل اعتباره الافيما خصه الدليل ، ومن هنا قال السخاوى فى شرح الرائية . انا أستحب الوقف على لا بعد ماشاهدته فى مصحف عثمان رضى الله تعالى عنه ، وقد سمعناهم يقولون: اذهب تلان وتحين بدون لا وهو كثير فى النثر والنظم انتهى ، ومنه قوله :

العاطفون تحين لا من عاطف والمطعمون زمان مامن مطعم

وكون أصله العاطفونه بها السكت فلما أثبتت فى الدرج قلبت تاء مما لا يصغى اليه ، نعم الأولى اعتبار التاء مع لا لشهرة حين دون تحين ، وقال بعضهم : إن لات هى ليس بعينها وأصل ليس ليس بكسر الياء فابدلت ألفا لتحركها بعد فتحة وأبدلت السين تاء كما فى ست فان أصله سدس ، وقيل : إنها فعل ماض ولات بمعنى نقص وقل فاستعملت فى النفى كقل وليس بالمعول عليه ، والمناص المنجا والفوت يقال: ناصه ينوصه إذا فاته ، وقال الفراء: النوص التأخر يقال ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا أى فر وزاغ ، ويقال استناص طلب المناص قال حارثة بن بدر يصف فرسا له :

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدى استناص ورام جرى المسحل

وعلى المعنى الأول حمله بعضهم هنا وقال: المعنى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين فوات ونجاة ، وعن مجاهد تفسيره بالفرار ، وأخرج الطستى عن ابن عباس أن نافع بن الازرق قال له: اخبرنى عن قوله تعالى (ولات حين مناص) فقال :ليس بحين فرار وأنشد له قول الاعشى :

تذكرت ليلى لات حين تذكر وقد بنت عنها والمناص بعيد

وعن الكلبى أنه قال: كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض: مناص أى عليكم بالفرار فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص فقال الله تعالى (ولات حين مناص) قال القشيرى: فعلى هذا يكون التقدير فنادوا مناص فحذف لدلالة ما بعده عليه أى ليس الوقت وقت ندائكم به ، والظاهر أن الجملة على هذا التفسير حالية أى نادوا بالفرار وليس الوقت وقت فرار ، وقال أبو حيان: فى تقرير الحالية وهم لات حين مناص أى لهم ، وقال الجرجانى: أى فنادوا حين لا مناص أى ساعة لا منجا ولا فوت فلما قدم لا وأخر حين اقتضى ذلك الواو كما يقتضى الحال إذا جعل مبتدأ وخبرا مثل جاء زيد راكبا ثم تقول جاء زيد وهو راكب فحين ظرف لقوله تعالى (فنادوا) انتهى ، وكون الاصل ماذكر أن (حين) ظرف لنادوا دعوى أعجمية مخالفة لذوق الكلام العربى لا سيما ما هو أفصح الكلام ولا أدرى ما الذى دعاه لذلك ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ماحكى

www.Quranpdf.blogspot.in

من استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم أى بشر أو من نوعهم وهم معروفون بالامية فيكون المعنى رسول أمى، والمراد أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الانكار لأنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وذما لهم وايذانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون الا المتوغلون فى الكفر والفسوق ﴿ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره مما لا نستطيع له مثلا ﴿ كَذَّابٌ ٤ ﴾ فيما يسنده إلى الله عز وجل من الارسال والانزال *

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ بأن نفى الالوهية عنها وقصرها على واحد فالجعل بمعنى التصيير وليس تصييرا فى الخارج بل فى القول والتسمية كما فى قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) وليس ذلك من باب إنكار وحدة الوجود فى شىء ليقال إن الله سبحانه نعى على الكفرة ذلك الانكار فتثبت الوحدة فانه عليه الصلاة والسلام ما قال باتحاد آلهتهم معه عز وجل فى الوجود ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥ ﴾ أى بليغ فى العجب فان فعالا بناء مبالغة كرجل طوال وسراع، ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها وقد كان مدارهم فى كل ما يأتون و يذرون التقليد فيعدون خلاف ما اعتادوه عجيبا بل محالا، وقيل مدار تعجبهم زعمهم عدم وفاء علم الواحد وقدره بالأشياء الكثيرة وهو لا يتم إلا إن ادعوا لآلهتهم علما وقدرة، والظاهر أنهم لم يدعوهما لها (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والسلمى . وعيسى . وابن مقسم (عجاب) بشد الجيم وهو أبلغ من المخفف، وقال مقاتل (عجاب) لغة أزد شنوءة، أخرج أحمد . وابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . والترمذى وصححه . والنسائى . وابن جرير . وغيرهم عن ابن عباس قال. لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه فجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس فخشى أبو جهل إن جلس إلى أبى طالب أن يكون أرق عليه فوثب فجلس فى ذلك المجلس فلم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجلسا قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب: أى ابن أخى ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: ياعم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب وتؤدى اليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله فقال القوم : ما هى ؟ وأبيك لنعطينكها وعشرا قال : لا إله إلا الله فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب . وفى رواية أنهم قالوا: سلنا غير هذا فقال عليه الصلاة والسلام «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها فغضبوا وقاموا غضابا وقالوا والله لنشتمنك وإلهك الذى يأمرك بهذا *

﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أى وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ وشاهدوا تصلبه فى الدين ويئسوا مما كانوا يرجونه منه عليه الصلاة والسلام بواسطة عمه وكان منهم أبو جهل . والعاص بن وائل . والأسود بن المطلب بن عبد يغوث . وعقبة بن أبى معيط *

www.Quranpdf.blogspot.in

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مجاز قال: قال رجل يوم بدر ماهم إلا النساء فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: بل هم الملأ وتلا (وانطلق الملأ منهم) ﴿أَنِ امْشُوا﴾ الظاهر أنه أمر بالمشى بمعنى نقل الاقدام عن ذلك المجلس، و(أن) مفسرة فقيل فى الكلام محذوف وقع حالا من الملأ أى انطلق الملأ يتحاورون والتفسير لذلك المحذوف وهو متضمن معنى القول دون لفظه، وقيل لا حاجة الى اعتبار الحذف فان الانطلاق عن مجلس التقاول يستلزم عادة تفاوض المنطلقين وتحاورهم بما جرى فيه وتضمن المفسر لمعنى القول أعم من كونه بطريق الدلالة وغيرها كالمقارنة ومثل ذلك كاف فيه، وقيل الانطلاق هنا الاندفاع فى القول فهو متضمن لمعنى القول بطريق الدلالة، واطلاق الانطلاق على ذلك الظاهر أنه مجاز مشهور نزل منزلة الحقيقة، وجوز أن يكون التجوز فى الاسناد وأصله انطلقت ألسنتهم والمعنى شرعوا فى التكلم بهذا القول، وقال بعضهم: المراد بامشوا سيروا على طريقتكم وداوموا على سيرتكم، وقيل هو من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية وسميت بذلك لأنها من شأنها كثرة الولادة أو تفاؤلا بذلك والمراد لازم معناه أى أكثروا واجتمعوا، وقيل هو دعاء بكثرة الماشية افتتحوا به كلامهم للتعظيم كما يقال اسلم أيها الأمير واختاروه من بين الأدعيه لعظم شأن الماشية عندهم. وتعقب بانه خطأ لأن فعله مزيد يقال أمشى إذا كثرت ماشيته فكان يلزم قطع همزته والقراءة بخلافه مع أن إرادة هذا المعنى هنا فى غاية البعد، وأياما كان فالبعض قال للبعض ذلك، وقيل قال الأشراف لأتباعهم وعوامهم، وقرىء (امشوا) بغير أن على اضمار القول دون اضمارها أى قائلين امشوا ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أى أثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح.

وقرأ ابن مسعود (وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا) فجملة (يمشون) حالية أو مستأنفة والكلام فى (ان اصبروا) كما فى (ان امشوا) سواء تعلق بانطلق أو بما يليه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٦﴾ تعليل للامر بالصبر أو لوجوب الامتثال به، والاشارة إلى ماوقع وشاهدوه من أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتصلبه فى امر التوحيد ونفى الوهية آلهتهم أى ان هذا لشىء عظيم يراد من جهته صلى الله تعالى عليه وسلم امضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان أوامر يرجى فيه المسامحة بشفاعة انسان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى ارادتكم واصبروا على عبادة آلهتكم، وقيل: إن هذا الامر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة الا تجرع مرارة الصبر، وقيل: إن هذا الذى يدعيه من أمر التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشىء يتمنى أو يريده كل أحد ولكن لا يكون لكل ما يتمناه أو يريده فاصبروا، وقيل: أن هذا أى دينكم يطلب لينتزع منكم ويطرح أو يراد ابطاله، وقيل: الاشارة إلى الصبر المفهوم من (اصبروا) أى ان الصبر لشىء مطلوب لأنه محمود العاقبة.

وقال القفال: هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف، والمعنى أنه ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد فتأمل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذى يقوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس. ومجاهد. ومحمد بن كعب. ومقاتل أرادوا ملة النصارى، والتوصيف بالآخرة بحسب الاعتقاد لأنهم الذين لا يؤمنون بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه

www.Quranpdf.blogspot.in

وسلم ومرادهم من قولهم «اسمعنا الخ انا سمعنا خلافه وهو عدم التوحيد فان النصارى كانوا يثلثون ويزعمون أنه الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه، وعن مجاهد أيضا . وقتادة أرادوا ملة العرب ونحلتها التى أدركوا عليها آباءهم، وجوز أن يكون فى الملة الآخرة حالا من اسم الاشارة لامتعلقا بسمعنا أى ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه من التوحيد كائنا فى الملة التى تكون آخر الزمان أرادوا أنهم لم يسمعوا من أهل الكتاب والكهان الذين كانوا يحدثونهم قبل بعثة النبى ﷺ بظهور نبى أن فى دينه التوحيد ولقد كذبوا فى ذلك فان حديث إن النبى المبعوث آخر الزمان يكسر الأصنام ويدعو إلى توحيد الملك العلام كان أشهر الأمور قبل الظهور، وإن أرادوا على هذا المعنى إنا سمعنا خلاف ذلك فكذبهم أقبح ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أى ماهذا *

﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ ٧﴾ أى افتعال وافتراء من غير سبق مثل له ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أى القرآن ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلا من عند الله تعالى كقولهم (لو كان خيرا ماسبقونا إليه) وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ من القرآن الذى أنزلته على رسولى المشحون بالتوحيد لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم مايقطعون به فلذا تراهم ينسبونه إلى السحر تارة وإلى الاختلاق أخرى فبل للاضراب عن جميع ماقبله، وبل فى قوله تعالى ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ٨﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين حديث الحسد فى قوله تعالى (أأنزل) الخ وحديث الشك فى قوله تعالى (بل هم فى شك) أى لم يذوقوا عذابى بعد فاذا ذاقوه زال عنهم مابهم من الحسد والشك حينئذ يعنى أنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب فيضطروا إلى التصديق أو اضراب عن الاضراب قبله أى لم يذوقوا عذابى بعد فاذا ذاقوه زال شكهم واضطروا إلى التصديق بذكرى، والأول على مافى الكشف هو الوجه السديد وينطبق عليه مابعد من الآيات، وقيل المعنى لم يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه وهو كما ترى، وفى التعبير بلما دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع، وقوله تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩﴾ فى مقابلة قوله سبحانه (أأنزل) الخ، ونظيره فى رد نظيره (أهم يقسمون رحمة ربك) وأم منقطعة مقدرة ببل والهمزة، والمراد بالعندية الملك والتصرف لا مجرد الحضور *

وتقديم الظرف لأنه محل الانكار أى بل أيملكون خزائن رحمته تعالى ويتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى أنهم يصيبون بها من شاؤا ويصرفونها عمن شاؤا ويتحكمون فيها بمقتضى رأيهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم *

واضافة الرب إلى ضميره ﷺ للتشريف واللطف به عليه الصلاة والسلام، والعزيز القاهر على خلقه، والوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، وحديث العزة والقهر يناسب ما كانوا عليه من ترفعهم بالنبوة عنه ﷺ تجبراه والمبالغة فى الوهاب من طريق الكمية تناسب قوله تعالى (خزائن) وتدل على حرمانهم عظيم، وفى ذلك ادماج أن النبوة ليست عطاء واحدا بالحقيقة بل يتضمن عطايا جمة تفوت الحصر وهى من طريق الكيفية المشار إليها باصابة المواقع للدلالة على أن مستحق العطاء ومحله من وهب ذلك وهو النبى ﷺ وفى الوصف المذكور

www.Quranpdf.blogspot.in

أيضا إشارة إلى أن النبوة موهبة ربانية، وقوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ترشيح لما سبق أي بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الالهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، وقوله تعالى :﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا في المعارج والمناهج الذي يتوصل بها الى السموات فليدبروها وليتصرفوا فيها فانهم لاطريق لهم إلى تدبيرها والتصرف فيها إلا ذاك أو إن ادعوا ما ذكر من الملك فليصعدوا وليتصرفوا حتى يظن صدق دعواهم فانه لا أمارة عندهم على صدقها فلا أقل من أن يجعلوا ذلك امارة ، وقال الزمخشري ومتابعوه : أي فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، وهو مناسب للمقام بيد أن فيه دغدغة ، وأياما كان ففي أمرهم بذلك تهكم بهم لايخفى، والسبب في الأصل الوصلة من الحبل ونحوه .

وعن مجاهد الاسباب هنا أبواب السموات، وقيل السموات أنفسها لأن الله تعالى جعلها أسبابا عادية للحوادث السفلية ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ١١ ﴾ أي هم جند الخ، فجند خبر مبتدأ محذوف مقدر مقدما كما هو الظاهر وما مزيدة قيل للتقليل والتحقير نحو أكلت شيئا ما، وقيل للتعظيم والتكثير، واعترض بأنه لا يلائمه (مهزوم) وأجيب بأن الوصف بالعظمة والكثرة على سبيل الاستهزاء فهي بحسب اللفظ عظمة وكثرة وفي نفس الأمر ذلة وقلة ، ورجح بأن الأكثر في كلامهم كونها للتعظيم نحو لأمر ما جدع قصير أنفه. لأمر ما يسود من يسود . وقول امرىء القيس :

وحديث الركب يوم هنا وحديث ما على قصره

مع أن الكلام لتسليته ﷺ وتبشيره بانهزامهم وذلك أكمل على هذا التقدير بل قيل إن التبشير بخذلان عدد حقير ربما أشعر باهانة وتحقير .

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وفيه نظر، و(هنالك) صفة (جند) أو ظرف (مهزوم) وهو إشارة إلى المكان البعيد وأريد به على قول المكان الذي تفاوضوا فيه مع الرسول ﷺ بتلك الكلمات السابقة وهو مكة وجعل ذلك إخباراً بالغيب عن هزيمتهم يوم الفتح، وقيل يوم بدر وروى ذلك عن مجاهد. وقتادة، وأنت خبير بأن هنالك إذا كان إشارة إلى مكة ومتعلقا بمهزوم لايتسنى هذا إلا إذا أريد من مكة مايشمل بدرا، و(مهزوم) خبر بعد خبر، وأصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن وهزم القثاء والبطيخ ومنه الهزيمة لأنه كما يعبر عنه بالحطم والكسر ، والتعبير عما لم يقع باسم المفعول المؤذن بالوقوع على مافي بعض شروح الكشاف للايذان بشدة قربه حتى كأنه محقق، و(من الأحزاب) صفة (جند) أي هم جند قليلون أذلاء أو كثيرون عظماء كائنون هنالك من الكفار المتحزبين على الرسل مكسورون عن قريب أو جند من الأحزاب مكسورون عن قريب في مكانهم الذي تكلموا فيه بما تكلموا فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون . وقال أبو البقاء (جند) مبتدأ وما زائدة وهنالك نعت وكذا من الأحزاب ومهزوم خبر ، وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعد التفاتة عن

www.Quranpdf.blogspot.in

الكلام الذى قبله ، واعتبر الزمخشرى الحصر أى ماهم إلا جند من المتحزبين مهزوم عن قريب لايتجاوزون الجندية المذكورة إلى الأمور الربانيـة ، وهو حسن إلا أنه اختلف فى منشأ ذلك فقيـل : إنه كان حق الجنـد أن يعرف لكونه معلوما فنكر سوقا للمعلوم مساق المجهول كأنه لايعرف منهم إلا هـذا القدر وهو أنهم جند بهذه الصفة *

وقال صاحب الكشف: انه التفخيم المدلول عليه بالتنكير ، وزيادة ما الدالة على الشيوع وغاية التعظيم لدلالتهما على اختصاص الوصف بالجندية من بين سائر الصفات كأنه لاوصف لهم غيرها، وفيه منع ظاهر، ويفهم كلام العلامة الثانى أنه اعتبار كون (جند) خبرا مقدما لمبتدا محذوف لأن المقام يقتضى الحصر فتدبر ولا تغفل *

وجعل الزمخشرى (هنالك) الموضوع للاشارة إلى المكان البعيد مستعاراً للمرتبة من العلو والشرف على أنه إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم كما فى قولهم لمن انتدب لأمر ليس من أهله لست هنالك ، وفيه إيماء إلى علة الذم، وجوز على هذا أن تكون ما نافية أى هم جند ليسوا حيث وضعوا أنفسهم *

وتعقب بأنه مما لم يقله أحد من أهل العربيه ولا يليق بالمقام وفيه بحث ، وجوز أن تكون (هنالك) إشارة إلى الزمان البعيد وهى كما قال ابن مالك قد يشار بها اليه نحو قوله تعالى : (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) وتتعلق بمهزوم ، والكلام اخبار بالغيب اما عن هزيمتهم يوم الفتح أو يوم بدر كما تقدم حكايته أو يوم الخندق ولا يخفى ما فيه ، وقيل : إشارة إلى زمان الارتقاء فى الأسباب أى هؤلاء القوم جند مهزوم إذا ارتقوا فى الأسباب وليس بالمرضى ، وقيل : ما اسم موصول مبتدأ وهنالك فى موضع الصلة وجند خبر مقدم ومهزوم ومن الأحزاب صفتان وهما المقصودان بالافادة وما هنالك إشارة إلى مكة، والمراد من الذين فيها المشركون والتعبير عنهم بما لأنهم كالأنعام بل هم أضل، وقيل الأصنام وعبدتها، وأمر التعبير بما عليه أظهر ويقال فيه نحو ماقاله أبو حيان فى كلام أبى البقاء وزيادة لاتخفى *

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ١٢ ﴾ إلى آخره استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب، و(ذو الأوتاد) صفة فرعون لا لجميع ما قبله وإلا لقيل ذوو الأوتاد، و(الأوتاد) جمع وتد وهو معروف، وكسر التاء فيه أشهر من فتحها ويقال وتد واتد كما يقال شغل شاغل قاله الأصمعى وأنشد *

لاقت على الماء جذيلا واتدا ولم يكن يخلفها المواعدا

وقالوا : ود بابدال التاء دالا والادغام ووت بابدال الدال تاء وفيه قلب الثانى للاول وهو قليل، وأصل اطلاق ذلك على البيت المطنب بأوتاده وهو لايثبت بدونها كما قال الأعشى :

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فقيل إنه شبه هنا فرعون فى ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده تشبيهاً مضمرا فى النفس على طريق الاستعارة المكنية ووصف بذى الأوتاد على سبيل التخييل، فالمعنى كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون الثابت ملكه وسلطنته وقيل : شبه الملك الثابت من حيث الثبات والرسوخ بذى الأوتاد وهو البيت المطنب بأوتاده واستعير ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية قيل وهو أظهر مما مر نهايته أنه

www.Quranpdf.blogspot.in

وصف بذلك فرعون مبالغة لجعله عين ملكه، والمعنى على وصفه بثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر ه

وقال ابن مسعود . وابن عباس فى رواية عطية : الأوتاد الجنود يقوون ملكه كما يقوى الوتد الشيء أى وفرعون ذو الجنود فالاستعارة عليه تصريحية فى الأوتاد ، وقيل :هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند، وقيل المبانى العظيمة الثابتة وفيه مجاز أيضا، وقال ابن عباس فى رواية أخرى. وقتادة . وعطاء: كانت له عليه اللعنة أوتاد وخشب يلعب له بها وعليها، وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية ويضرب فى كل وتداً من حديد ويتركه حتى يموت ، وروى معناه عن الحسن . ومجاهد . وقيل : كان يمده بين أربعة أوتاد فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات ، وقيل : يشده بأربعة أوتاد ثم يرفع صخرة فتلقى عليه فتشدخه ه

وعلى هذه الأقوال الأربعة فالأوتاد ثابتة على حقيقتها ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أصحاب الغيضة وهم الذين أرسل اليهم شعيب عليه السلام نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل الأيكة اسم بلدهم ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ المكذبون ﴿ الْأَحْزَابُ ١٣ ﴾ أى الكفار المتحزبون على الرسل عليهم السلام المهزومون ، وهو مبتدأ وخبر ويفهم من ذلك أن الاحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب لأن المبتدأ والخبر فى مثله متعاكسان رأساً برأس لا لأن (أولئك) إشارة إلى الاحزاب أولا والأحزاب ثانياً هم المكذبون ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ استئناف جيء به تقريراً لتكذيبهم على أبلغ وجه وتمهيدا لما يعقبه، فان نافية ولا عمل لها لانتقاض النفى بالا ، و(كل) مبتدأ والاستثناء مفرغ من أعم العام وهو الخبر أى ما كل حزب من الاحزاب محكوماً عليه بحكم الا محكوما عليه بأنه كذب الرسل أو مخبراً عنه بخبر الا مخبراً عنه بأنه كذب الرسل لأن الرسل يصدق كل منهم الكل وكلهم متفقون على الحق فتكذيب كل واحد منهم تكذيب لهم جميعا ، وجوز أن يكون من مقابلة الجمع بالجمع أى ما كلهم محكوماً عليه بحكم أو مخبراً عنه بشيء إلا محكوما عليه أو إلا مخبراً عنه بأنه كذب رسوله، والحصر مبالغة كأن سائر أوصافهم بالنظر إلى ما أثبت لهم بمنزلة العدم فيدل على أنهم غالون فى التكذيب ، ويدل على غلوهم فيه أيضاً اعادته متعلقا بالرسل وتنويع الجملتين إلى اسمية استثنائية وغيرها أعنى قوله تعالى: (كذبت قبلهم) الخ، وجعل كل فرقة مكذبة للجميع على الوجه الأول، ويسجل ذلك عليهم استحقاقهم أشد العقاب ولذا رتب عليه قوله تعالى ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤ ﴾ أى ثبت ووقع على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات فأغرق قوم نوح وأهلك فرعون بالغرق وقوم هود بالريح وثمود بالصيحة وقوم لوط بالخسف وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة . وجوز أن يكون (أولئك الأحزاب) بدلا من الطوائف المذكورة والجملة بعد مستأنفة لما سمعت وأن يكون مبتدأ والجملة بعده خبر بحذف العائد أى ان كل منهم أو كلهم إلا كذب الرسل ، والمجموع استئناف مقرر لما قبله مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم وكلاهما خلاف الظاهر ، وأما ماقيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى (وعاد) الخ أو قوله تعالى (وقوم لوط) الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ه

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ١٥ ﴾ شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب اضرابهم فان الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه ، والنظر بمعنى الانتظار وعبر به مجازا بجعل محقق

www.Quranpdf.blogspot.in

الوقوع كأنه أمر منتظر لهم، والاشارة بهؤلاء للتحقير، والمراد بالصيحة الواحدة النفخة الثانية، أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة الحقيرون الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب شيئاً إلا النفخة الثانية التي تقوم بها الساعة قاله قتادة وليس المراد أنها نفسها عقاب لهم لعمومها للبر والفاجر من جميع الأمم بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أعد لهم من العذاب إلاهي لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي ﷺ موجود خارج عن السنة الالهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) إذ المراد من (وأنت فيهم) وجوده عليه الصلاة والسلام لامجاورته لهم كما توهم حتى يقال: لادلالة في الآية على امتناع وقوعه بعد الهجرة لمخالفته للتفسير المشهور، وقيل المراد بالصيحة المذكورة النفخة الأولى. وتعقب بأنه مما لاوجه له أصلا لما أنه لايشاهد هولها ولا يصعق بها إلا من كان حيا عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا اليها بل يحل بهم من حين موتهم *

وقيل المراد صيحة يهلكون بها في الدنيا كما هلكت ثمود، ولا يخفى أن هذا تعذيب بالاستئصال وهو مما لا يقع كما سمعت فلا يكون منتظرا، وقال أبو حيان: الصيحة ما نالهم من قتل وأسر وغلبة كما تقول صاح بهم الدهر فهي مجاز عن الشر كما في قولهم ما ينتظرون إلا مثل صيحة الحبلى أي شراً يعاجلهم، وفيه بعد *

وجوز جعل هؤلاء إشارة إلى الأحزاب ولما سبق ذكرهم مكرراً مؤكداً استحضرهم المخاطب في ذهنه فنزل الوجود الذهني منزلة الخارجي المحسوس وأشير اليهم بما يشار به للحاضر المشاهد، واحتمال التحقير قائم ولا يفبو عنه التعبير بأولئك لأن البعد في الواقع مع أنه قد يقصد به التحقير أيضا والكلام بيان لما يصيرون اليه في الآخرة من العقاب بعد ما نزل بهم في الدنيا من العذاب، وجعلهم منتظرين له لأن ما أصابهم من عذاب الاستئصال ليس هو نتيجة ماجنوه من قبيح الأعمال إذ لا يعتد به بالنسبة إلى ما ثمت من الأهوال فهو تحذير لكفار قريش وتخويف لمن يساق له الحديث فلا وجه لما قاله أبو السعود من أن هذا ليس في حيز الاحتمال أصلا لأن الانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء إنما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد، وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر بخلاف كفار قريش حيث ارتكبوا ما ارتكبوا ولما يلاقوا بعد شيئاً قاله الخفاجي، ولا يخفى أن المنساق إلى الذهن هو الاحتمال الأول وهو المأثور عن السلف، والفواق الزمن الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع ويقال للبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين فيقة ويجمع على أفواق وأفاويق جمع الجمع، والكلام على تقدير مضافين أي ما ينتظرون الا صيحة واحدة مالها من توقف مقدار فواق أو على ذكر الملزوم الذي هو الفواق وإرادة اللازم الذي هو التوقف مقداره، وهو مجاز مشهور والمعنى أن الصيحة إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان *

وعن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة تفسيره بالرجوع والترداد، وهو مجاز أطلق فيه الملزوم وأريد اللازم فان في الزمان بين الحلبتين يرجع اللبن إلى الضرع، والمعنى أنها صيحة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد فالجملة عليه صفة مؤكدة لوحدة الصيحة *

وقرأ السلمي. وابن وثاب. والأعمش. وحمزة. والكسائي. وطلحة بضم الفاء فقيل هما بمعنى واحد وهو ما تقدم كقصاص الشعر وقصاصه، وقيل: المفتوح اسم مصدر من أفاق المريض إفاقة وفاقة إذا رجع إلى الصحة

www.Quranpdf.blogspot.in

واليه يرجع تفسير ابن زيد . والسدى . وأبي عبيدة . والمراد له بالافاقة والاستراحة ، والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع *

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ١٦ ﴾ حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة ، وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للامعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال والقائل على ماروى عن عطاء النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة وهو الذي قال الله تعالى فيه (سأل سائل بعذاب واقع) وأبو جهل على ماروى عن قتادة، وعلى القولين الباقون راضون فلذا جيء بضمير الجمع ، والقط القطعة من الشيء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس، ومن ذلك قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بنعمته يعطى القطوط ويطلق

قيل وهو في ذلك أكثر استعمالا وقد فسرها هنا أبو العالية . والكلبي أي عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وهي رواية عن الحسن، وجاء في رواية أخرى عنه أنهم أرادوا نصيبهم من الجنة ، وروي هذا أيضا عن قتادة . وابن جبير ، وذلك أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها لنتنعم به في الدنيا، قال السمرقندي: أقوى التفاسير أنهم سألوا أن يعجل لهم النعيم الذي كان يعده عليه الصلاة والسلام من آمن لقولهم ربنا ولو كان على مايحمله أهل التأويل من سؤال العذاب أو الكتاب استهزاء لسألوا رسول الله ﷺ ولم يسألوا ربهم، وفيه بحث يعلم مما مر آنفا *

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ على ما يتجدد من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ أي اذكر لهم قصته عليه السلام تعظيما للمعصية في أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه فانه عليه السلام مع علو شأنه وإيتائه النبوة والملك لما ألم بما هو خلاف الأولى ناله ما ناله وأدام غمه وندمه فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين أو اذكر قصته عليه السلام في نفسك وتحفظ من ارتكاب مايوجب العتاب ، وقيل إنه تعالى أمره عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الذين عرض لهم ما عرض فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم ، ترغيباً له في الصبر وتسهيلا لامره عليه وإيذانا ببلوغ ما يريده بذلك، وهو كما ترى، وقيل أمره بالصبر وذكر قصص الأنبياء ليكون ذلك برهانا على صحة نبوته ﷺ ،والذكر على هذا والأول لساني وعلى ماينهما قلبي وهو مراد من فسر (اذكر) على ذلك بتذكر ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ أي ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأياد بمعنى وأياد كل شيء مايتقوى به *

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٧ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى وطاعته عز وجل، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس. ومجاهد أنهما قالا: الأواب المسبح ،وعن عمرو بن شرحبيل أنه المسبح بلغة الحبشة، وأخرج الديلمي عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت النبي ﷺ عنه فقال: هو الرجل يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله تعالى، وهذا إن صح لايعدل عنه، والجملة تعليل لكونه عليه السلام ذا الأيد وتدل بأي معنى كان الأواب فيها على أن المراد

www.Quranpdf.blogspot.in

بالأيد القوة الدينية وهى القوة على العبادة كما قال مجاهد . وقتادة . والحسن . وغيرهم إذ لايحسن التعليل لو حملت القوة على القوة فى الجسم ، نعم قد كان عليه السلام قوى الجسم أيضاً إلا أن ذلك غير مرادهنا، وفى التعبير عنه بعبدنا ووصفه بذى الأيد والتعليل بما ذكر دلالة على كثرة عبادته ووفور طاعته .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه عن أبى الدرداء قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحدث عنه قال: كان أعبد البشر، وأخرج الديلمى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينبغى لأحد أن يقول انى أعبد من داود» ، وروى أنه كان يصوم يوما ويفطر يوما وكان يقوم نصف الليل وفى ذلك دلالة على قوته فى العبادة لما فى كل من الصيام والقيام المذكورين من ترك راحة تذكرها قريبا .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ ﴾ استئناف لبيان قصته عليه السلام ، وجوز كونه لتعليل قوته فى الدين وأوابيته إلى الله عز وجل ، ومع متعلقة بسخر، وإيثارها على اللام لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها اليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق الاقتداء به فى عبادة الله تعالى .

وأخر الظرف المذكور عن (الجبال) وقدم فى سورة الأنبياء فقيل : (وسخرنا مع داود الجبال) قال بعض الفضلاء : لذكر داود. وسليمان ثمت فقدم مسارعة للتعيين ولا كذلك هنا، وجوز تعلقها بقوله تعالى ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ وهو أقرب بالنسبة إلى آية الأنبياء ، وتسبيحهن تقديس بلسان قال لا ئق بهن نظير تسبيح الحصى المسموع فى كف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : تقديس بلسان الحال وتقييده بالوقتين المذكورين بعد يأباه إذ لا اختصاص لتسبيحهن الحالى بهما وكذا لا اختصاص له بكونه معه، وقيل المعنى يسرن معه على أن يسبحن من السباحة، والجملة حال من (الجبال) والعدول عن مسبحات مع أن الأصل فى الحال الافراد للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال نظير ما فى قول الأعشى :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى يفاع تحرق

وجوز أن تكون مستأنفة لبيان كيفية التسخير ومقابلتها بمحشورة هنا كالمعينة للحالية ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ هو كما قال الراغب : من زوال الشمس إلى الصباح أى يسبحن بهذا الوقت وليس ذلك نصاً فى استيعابه بالتسبيح ﴿ وَالْإِشْرَاقِ ١٨ ﴾ أى ووقت الاشراق، قال ثعلب: يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وصفت فوقت الاشراق وقت ارتفاعها عن الأفق الشرقى وصفاء شعاعها وهو الضحوة الصغرى، وروى عن أم هانىء بنت أبى طالب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى صلاة الضحى وقال: هذه صلاة الاشراق، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراسانى أن ابن عباس قال: لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى شىء حتى قرأت هذه الآية (يسبحن بالعشى والاشراق) وفى رواية عنه أيضا ماعرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية، ووجه فهم الحبر إياها من الآية أى كل تسبيح وردفى القرآن فهو عنده مالم يرد به التعجب والتنزيه بمعنى الصلاة فحيث كانت صلاة لداود عليه السلام وقصت على طريق المدح علم منه مشروعيتها ، وفى الكشف وجهه أن الآية دلت على تخصيصه عليه السلام ذينك الوقتين بالتسبيح وقد علم من الرواية أنه كان يصلى مسبحا فيهما فحكى فى القرآن ما كان عليه وإن لم يذكر كيفيته فيكون فى الآية ذكر صلاة الضحى وهو المطلوب أو نقول: ان تسبيح الجبال

www.Quranpdf.blogspot.in

غير تسبيح داود عليه السلام لأن الأول مجاز فحمل تسبيح داود على المجاز أيضاً لأن المجاز بالمجاز أنسب اهـ
وتعقب بأنه إذا علم من الرواية فكيف يقال انه أخذه من الآية والتجوز ينبغي تقليله ما أمكن، وهذا بناء على أن (معه) متعلق بيسبحن حتى يكون هو عليه السلام مسبحاً أي مصلياً وإلا فتسبيح الجبال لا دلالة له على الصلاة، ومع هذا ففيه حينئذ جمع بين معنيين مجازيين إلا أن يقال به، أو يجعل بمعنى يعظمن ويجعل تعظيم كل محمولا على ما يناسبه، وبعد اللتيا والتي لا يخلو عن كدر، وارتضى الخفاجي الأول وأراه لا يخلو عن كدر أيضاً
وقال الجلبي: في ذلك يجوز أن يقال: تخصيص هذين الوقتين بالذكر دل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح ذلك الشرف سبباً لتعينهما للصلاة والعبادة فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات، وهذا عندي أصفى مما تقدم، ويشعر به ما أخرجه الطبراني في الأوسط. وابن مردويه عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية (يسبحن بالعشي والاشراق) فما أدرى ماهي حتى حدثتني أم هانىء أن رسول الله ﷺ صلى يوم فتح مكة صلاة الضحى ثمان ركعات فقال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة لقوله تعالى: (يسبحن بالعشي والاشراق) هذا ولهم في صلاة الضحى كلام طويل والحق سنيتها وقد وردفيها كما قال الشيخ ولي الدين ابن العراقي: أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبري أنها بلغت مبلغ التواتر
ومن ذلك حديث أم هانىء الذي في الصحيحين وزعم أن تلك الصلاة كانت صلاة شكر لذلك الفتح العظيم صادفت ذلك الوقت لا أنها عبادة مخصوصة فيه دون سبب أوانها كانت قضاء عما شغل صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الليلة من حزبه فيها خلاف ظاهر الخبر السابق عنها
وكذا ما رواه أبو داود من طريق كريب عنها أنها قالت صلى عليه الصلاة والسلام سبحة الضحى، ومسلم في كتاب الطهارة من طريق أبي مرة عنها أيضا ففيه ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى. وابن عبد البر في التمهيد من طريق عكرمة بن خالد أنها قالت: قدم رسول الله ﷺ مكة فصلى ثمان ركعات فقلت ما هذه الصلاة؟ قال: هذه صلاة الضحى، واحتج القائلون بالنفي بحديث عائشة ان كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم وما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط وإني لأسبحها، رواه البخاري. ومسلم. وأبو داود. وأبو مالك، وحمله القائلون بالاثبات على نفي رؤيتها ذلك لما أنه روى عنها مسلم. وأحمد. وابن ماجه أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعا ويزيد ماشاء الله تعالى، وقد شهد أيضا بانه عليه الصلاة والسلام كان يصليها على ما قال الحاكم أبو ذر الغفاري وأبو سعيد. وزيد بن أرقم. وأبو هريرة. وبريدة الأسلمي، وأبو الدرداء. وعبد الله بن أبي أوفى. وعتبان بن مالك. وعتبة بن عبد السلمي. ونعيم بن همام الغطفاني. وأبو أمامة الباهلي. وأم هانىء. وأم سلمة، ومن القواعد المعروفة أن المثبت مقدم على النافي مع أن رواية الاثبات أكثر بكثير من رواية النفي وتأويلها أهون من تأويل تلك، وذكر الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب لكن النووي في شرح المهذب قدم عليها صلاة التراويح فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى والمذهب عنهم وجوبها عليه ﷺ وأن ذلك من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، واحتج له بما أخرجه ابن العربي بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا

www.Quranpdf.blogspot.in

بها» رواه الدارقطنى أيضا ، وقال شيخ الحفاظ أبو الفضل بن حجر: انه لم يثبت ذلك فى خبر صحيح ، وفى الأخبار ما يعكر على القول به ، وذكر أن أقلها ركعتان لخبر البخارى عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام أوصاه بهما وأن لا يدعهما ، وأدنى كمالها أربع لما صح كان صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى الضحى أربعا ويزيد ماشاء فست فثمان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة لخبر ضعيف يعمل به فى مثل ذلك، وذهب الكثير إلى أن الأكثر ثمانه

وذكروا أنها أفضل من اثنتى عشرة والعمل القليل قد يفضل الكثير فما يقتضيه أجرك على قدر نصبك أغلبي

وصرح ابن حجر الهيتمى عليه الرحمة بالمغايرة بين صلاة الضحى وصلاة الإشراق قال: ومما لا يسن جماعة ركعتان عقب الاشراق بعد خروج وقت الكراهه وهى غير الضحى، وتقدم لك مايفيد اتحادهما ويدل عليه غير ذلك من الأخبار، وصح إطلاق صلاة الأوابين على صلاة الضحى كاطلاقها على الصلاة المعروفة بعد المغرب ؛ هذا وتمام الكلام فيها فى كتب الفقه والحديث، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على (الجبال) على ماهو الظاهر ﴿مَحْشُورَةً﴾ حال من (الطير) والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة ، عن ابن عباس كان عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها، ولم يؤت بالحال فعلا مضارعا كالحال السابقة ليدل على الحشر الدفعى الذى هو أدل على القدرة وذلك بتوسط مقابلته للفعل أو لأن الدفعية هى الأصل عند عدم القرينة على خلافها .

وقرأ ابن أبى عبلة والجحدرى (والطير محشورة) برفعهما مبتدأ وخبراً، ولعل الجملة على ذلك حال من ضمير يسبحن ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ١٩﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله مصرح بما فهم منه إجمالا من تسبيح الطير، واللام تعليلية، والضمير لداود أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح، ووضع الاواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى كما هو المشهور ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس ، وقيل يجوز أن يكون المراد كل من الطير فالجملة للتصريح بما فهم، وكذا يجوز أن يراد كل من داود عليه السلام ومن الجبال والطير والضمير لله تعالى أى كل من داود والجبال والطير لله تعالى أواب أى مسبح مرجع للتسبيح ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة، واقتصر بعضهم على الهيبة ، والسدى على الجنود ، وروى عنه ابن جرير. والحاكم أنه كان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف .

وحكى أنه كان حول محرابه أربعون ألف مستلئم يحرسونه، وهذا فى غاية البعد عادة مع عدم احتياج مثله عليه السلام إليه، وكذا القول الأول كما لا يخفى على منصف ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ادعى رجل من بنى إسرائيل عند داود عليه السلام رجلا ببقرة فجحده فسئل البينة فلم تكن بينة فقال لهما عليه السلام: قوما حتى أنظر فى أمركما فقاما من عنده فأتى داود فى منامه فقيل له : اقتل الرجل المدعى عليه فقال : إن هذه رؤيا ولست أعجل فأتى الليلة الثانية فقيل له: اقتل الرجل فلم يفعل ثم أتى الليلة الثالثة فقيل له : اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله تعالى فأرسل عليه السلام إلى الرجل فقال: إن الله تعالى أمرنى أن أقتلك فقال : تقتلنى بغير بينة ولاثبت قال نعم : والله لأنفذن أمر الله عز وجل فيك فقال له الرجل

www.Quranpdf.blogspot.in

لا تعجل على حتى أخبرك إنى والله ماأخذت بهذا الذنب ولكننى كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود عليه السلام فقتل فعظمت بذلك هيبته فى بنى إسرائيل وشد به ملكه ﴿

وقرأ ابن أبى عبلة بشد الدال ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل كل كلام وافق الحكمة فهو حكمة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ ٢٠﴾ أى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل فالفصل بمعناه المصدرى والخطاب الخصام لاشتماله عليه أو لأنه أحد أنواعه خص به لأنه المحتاج للفصل أو الكلام الذى يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ وهو كلامه عليه السلام فى القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات .فالخطاب الكلام المخاطب به والفصل مصدر بمعنى اسم الفاعل أو الكلام الذى ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاضمار والحذف والتكرار ونحوها فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به أيضا والفصل مصدر إما بمعنى اسم الفاعل أى الفاصل المميز للمقصود عن غيره أو بمعنى اسم المفعول أى المقصود أى الذى فصل من بين أفراد الكلام بتلخيصه ومراعاة ماسمعت فيه أو الذى فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبسا مختلطا ﴿

وجوز أن يراد بفصل الخطاب الخطاب القصد الذى ليس فيه اختصار مخل ولا اشباع ممل كما جاء فى وصف كلام نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم «لا نزر ولا هذر» فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به كما سلف والفصل إما بمعنى الفاصل لأن القصد أى المتوسط فاصل بين الطرفين وهما هنا المختصر المخل والمطنب الممل او لأن الفصل والتمييز بين المقصود وغيره أظهر تحققا فى الكلام القصد لما فى أحد الطرفين من الاخلال وفى الطرف الآخر من الاملال المفضى إلى اهمال بعض المقصود وإما بمعنى المفصول لأن الكلام المذكور مفصول مميز عند السامع على المخل والممل بسلامته عن الاخلال والاملال، والاضافة على الوجه الأول من اضافة المصدر إلى مفعوله وعلى ماعداه من اضافة الصفة لموصوفها، وماروى عن على كرم الله تعالى وجهه والشعبى وحكاه الطبرسى عن الاكثرين من أن فصل الخطاب هو قوله: البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه فقيل هو داخل فى فصل الخطاب على الوجه الثانى فان فيه الفصل بين المدعى والمدعى عليه وهو من الفصل بين الحق والباطل؛ وجاء فى بعض الروايات هو ايجاب البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه فلعله أريد أن فصل الخطاب على الوجه الأول اعنى فصل الخصام كان بذاك وجعله نفسه على سبيل المبالغة، وماروى عن ابن عباس . ومجاهد . والسدى من أنه القضاء بين الناس بالحق والاصابة والفهم فهو ليس شيئا وراء ماذكر أولا ، وأخرج ابن جرير عن الشعبى وابن أبى حاتم . والديلمى عن أبى موسى الاشعرى أن فصل الخطاب الذى أوتيه عليه السلام هو أما بعد،وذكر أبو موسى أنه عليه السلام أول من قال ذلك فقيل:هو داخل فى فصل الخطاب وليس فصل الخطاب منحصرا فيه لأنه يفصل المقصود عما سيق مقدمة له من الحمد والصلاة أو من ذكر الله عز وجل مطلقا ، وظاهره اعتبار فصل الخطاب بمعنى الكلام الذى ينبه المخاطب على المقصود إلى آخر مامر، ويوهم صنيع بعضهم دخوله فيه باعتبار المعنى الثانى لفصل الخطاب ولا يتسنى ذلك، وحمل الخبر على الانحصار مالاينبغى إذ ليس فى إيتاء هذا اللفظ كثير امتنان، ثم الظاهر أن المراد من أما بعد مايؤدى مؤداه من الالفاظ لانفس هذا اللفظ لأنه لفظ

www.Quranpdf.blogspot.in

عربي وداود لم يكن من العرب ولا نبيهم بل ولا بيئهم فالظاهر أنه لم يكن يتكلم بالعربية، والذي يترجح عندي أن المراد بفصل الخطاب فصل الخصام وهو يتوقف على مزيد علم وفهم وتفهيم وغير ذلك فايتاؤه يتضمن إيتاء جميع مايتوقف هو عليه وفيه من الامتنان مافيه، ويلائمه أتم ملاءمة قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ ﴾ استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع مافي حيزه لايذانه بأنه من الانباء البديعة التي حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وبادي، والجملة قيل عطف على (إنا سخرنا) من قبيل عطف القصة على القصة، وقيل: على اذكر *

والخصم في الاصل مصدر خصمه بمعنى خاصمه أو غلبه ويراد منه المخاصم ويستعمل للمفرد والمذكر وفروعهما، وجاء للجمع هنا على ماقال جمع لظاهر ضمائره بعد وربما ثني وجمع على خصوم واخصام، وأصل المخاصمة على ما قال الراغب أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي بجانبه أوأن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب *

﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ٢١ ﴾ أي علوا سوره ونزلوا اليه فتفعل للعلو على أصله نحو تسنم الجمل أي علا سنامه وتذرى الجبل علا ذروته، والسور الجدار المحيط المرتفع، والمحراب الغرفة وهي العلية ومحراب المسجد مأخوذ منه لانفصاله عما عداه أولشرفه المنزل منزلة علوه قاله الخفاجي ، وقال الراغب: محراب المسجد قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى ، وقيل : لكون حق الانسان فيه أن يكون حريبا من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر ، وقيل : الاصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم لما اتخذت المساجد سمي صدره به ، وقيل: بل المحراب أصله في المسجد وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد وكأن هذا أصح انتهى . وصرح الجلال السيوطي أن المحاريب التي في المساجد بهيئتها المعروفة اليوم لم تكن في عهد النبي ﷺ وله رسالة في تحقيق ذلك ، وإذ متعلقة بمحذوف مضاف إلى الخصم أي نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام، واسناد الاتيان اليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم، وجوز تعلقها به بلا حذف على جعل اسناد الاتيان اليه مجازيا أو بالخصم وهو في الاصل مصدر والظرف قنوع يكفيه رائحة الفعل ، وزعم الحوفي تعلقها بأتى ولا يكاد يصح لأن اتيان نبأ الخصم لم يكن وقت تسورهم المحراب ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ﴾ إذ هذه بدل من إذ الأولى بدل كل من كل بأن يجعل زمان التسور وزمان الدخول لقربهما بمنزلة المتحدين أو بدل اشتمال بأن يعتبر الامتداد أو ظرف لتسوروا ويعتبر امتداد وقته والا فالتسور ليس في وقت الدخول، ويجوز أن يراد بالدخول ارادته وفيه تكلف لأنه مع كونه مجازا لا يتفرع عليه قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ فيحتاج إلى تفريعه على التسور وهو أيضا كما ترى، وجوز تعلقه باذكر مقدرا، والفزع انقباض ونفار يعتري الانسان من الشيء المخيف. روى أن الله تعالى بعث اليه ملكين في صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب فلم يشعر الاوهما بين يديه جالسان، وكان عليه السلام كما روى عن ابن عباس جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما لجميع بني اسرائيل فيعظهم ويبكيهم، وسبب الفزع قيل: انهم نزلوا من فوق الحائط وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يريد الدخول عليه فخاف عليه السلام أن يؤذوه لاسيما على ما حكي أنه كان ليلا ، وقيل : إن الفزع من أجل أنه ظن أن أهل مملكته قد استهانوه

www.Quranpdf.blogspot.in

حتى ترك بعضهم الاستئذان فيكون فى الحقيقة فزعا من فساد السيرة لا من الداخلين ، وقال ابو الاحوص: فزع منهم لانهما دخلا عليه وكل منهما آخذ برأس صاحبه ، وقيل : فزع منهم لما رأى من تسورهم موضعا مرتفعا جداً لا يمكن أن يرتقي اليه بعد أشهر مع أعوان وكثرة عدد ، والظاهر ان فزعه ليس الا لتوقع الاذى لمخالفة المعتاد فلما رأوه قد فزع ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه السلام كأنه قيل: فماذا قالوا عند مشاهدتهم فزعه؟ فقيل: قالوا له ازالة لفزعه لاتخف ﴿ خَصْمَانِ ﴾ خبر مبتدا محذوف أى نحن خصمان ، والمراد هنا فوجان لا شخصان متخاصمان وقد تقدم أن الخصم يشمل الكثير فيطابق ما مر من جمع الضمائر ، ويؤيده على ما قيل قوله سبحانه ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ فان نحو هذا أكثر استعمالا فى قول الجماعة ، وقراءة بعضهم (بغى بعضهم على بعض) أظهر فى التأييد ، ولا يمنع ذلك كون التحاكم إنما وقع بين اثنين لجواز أن يصحب كلا منهما من يعاضده والعرف يطلق الخصم على المخاصم ومعاضده وإن لم يخاصم بالفعل ، وجوز أن يكون المراد اثنين والضمائر المجموعة مراد بها التثنية فيتوافقان وأيد بقوله سبحانه (إن هذا أخى) وقيل : يجوز أن يقدر خصمان مبتدأ خبره محذوف أى فينا خصمان وهو كما ترى ، والظاهر أن جملة (بغى) الخ فى موضع الصفة لخصمان وأن جملة نحن خصمان الخ استئناف فى موضع التعليل للنهى فهى موصولة بلا تخف ، وجوز أن يكونوا قد قالوا لاتخف وسكتوا حتى سئلوا ما أمركم؟ فقالوا: خصمان بغى الخ أى جار بعضنا على بعض ، واستشكل قولهم هذا على القول بأنهم كانوا ملائكة بأنه إخبار عن أنفسهم بما لم يقع منهم وهو كذب والملائكة منزهون عنه. وأجيب بأنه إنما يكون كذبا لو كانوا قصدوا به الاخبار حقيقة أما لو كان فرضا لأمر صوروه فى أنفسهم لما أتوا على صورة البشر كما يذكر العالم إذا صور مسئلة لأحد أو كان كناية وتعريضا بما وقع من داود عليه السلام فلا ، وقرأ أبو يزيد الجرار عن الكسائى (خصمان) بكسر الخاء

﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى ولا تتجاوزه ، وقرأ أبو رجاء وابن أبى عبلة وقتادة والحسن وأبو حيوة (ولا تشطط) من شط ثلاثيا أى ولا تبعد عن الحق ، وقرأ قتادة أيضا (تشط) مدغما من أشط رباعيا ، وقرأ زر (تشاطط) بضم التاء وبالف على وزن تفاعل مفكوكا ، وعنه أيضا (تشطط) من شطط ، والمراد فى الجميع لا تجر فى الحكومة وأرادوا بهذا الأمر والنهى اظهار الحرص على ظهور الحق والرضا به من غير ارتياب بأنه عليه السلام يحكم بالحق ولا يجور فى الحكم وأحد الخصمين قد يقول نحو ذلك للايماء إلى أنه المحق وقد يقوله اتهاما للحاكم وفيه حينئذ من الفظاظة ما فيه ، وعلى ما ذكرنا أولا فيه بعض فظاظة ، وفى تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لا سيما إذا كان من معه الحق فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى ه

والعجب من حاكم أو محكم أو من للخصوم نوع رجوع اليه كالمفتى كيف لا يقتدى بهذا النبى الأواب عليه الصلاة والسلام فى ذلك بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره ولو فكر فى نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبى الأواب لا يعدل والله العظيم متك ذباب ، اللهم وفقنا لأحسن الاخلاق واعصمنا من الاغلاط ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ٢٢ ﴾ أى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وارشاده إلى منهاج العدل ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ الخ استئناف لبيان ما فيه الخصومة ، والمراد

www.Quranpdf.blogspot.in

بالاخوة اخوة الدين أواخوة الصداقة والالفة أوأخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحد من هذه الاخوات يدلى بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقيل: هى اخوة فى النسب وكان المتحاكمان أخوين من بنى اسرائيل لأب وام، ولا يخفى أن المشهور أنهما كانا من الملائكة بل قيل لاخلاف فى ذلك* و(اخى) بيان عند ابن عطية وبدل أوخبر لأن عند الزمخشرى، ولعل المقصود بالافادة على الثانى قوله تعالى: ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهى الانثى من بقر الوحش ومن الضأن والشاء الجبلى وتستعار للمرأة كالشاة كثيرا نحو قول ابن عون:

أنا أبوهن ثلاث هنه ... رابعة فى البيت صغرا هنه
ونعجتى خمسا توفيهنه ... ألافتى سمح يغذيهنه

وقول عنترة:

ياشاة ماقنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحرم

وقول الاعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته ... فاصبت حبة قلبها وطحالها

والظاهر إبقاؤها على حقيقتها هنا ويراد بها أنثى الضان، وجوز ارادة الامرأة، وسيأتى إن شاء تعالى ما يتعلق بذلك، وقرأ الحسن .وزيد بن على (تسع وتسعون) بفتح التاء فيهما، وكثر مجىء الفعل والفعل بمعنى واحد نحو السكر والسكر ولا يبعد ذلك فى التسع لاسيما وقد جاور العشر، والحسن. وابن هرمز (نعجة) بكسر النون وهى لغة لبعض بنى تميم، وقرأ ابن مسعود (ولى نعجة أنثى) ووجه ذلك الزمخشرى بأنه يقال امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة فى لين الانوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد فى تكسرها وتثنيها ألاترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال، وقوله:

فتور القيام قطيع الكلام ... لغوب العشاء إذا لم تنم

وقول قيس بن الخطيم:

تنام عن كبر شأنها فاذا ... قامت رويدا تكاد تنغرف

وفى الكلام عليه توفية حق القسمين أعنى مايرجع إلى الظالم ومايرجع إلى المظلوم كأنه قيل: إنه مع وفور استغنائه وشدة حاجتى ظلمنى حقى، وهذا ظاهر إذا كانت النعجة مستعارة وإلا فالمناسب تأكيد الأنوثة بأنها كاملة فيها فيكون أدر وأحلب لما يطلب منها على أن فيه رمزاً إلى ماورى عنه ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ملكنيها، وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت يدى، وقال ابن كيسان: اجعلها كفلى أى نصيبى، وعن ابن عباس. وابن مسعود تحول لى عنها وهو بيان للمراد وألصق بوجه الاستعارة ﴿ وَعَزَّنِى ﴾ أى غلبنى، وفى المثل من عز بزأى من غلب سلب وقال الشاعر:

قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

﴿ فِى الْخِطَابِ ٢٣ ﴾ أى مخاطبته إياى محاجة بأن جاء بحجاج لم أطق رده، وقال الضحاك: أى إن تكلم

www.Quranpdf.blogspot.in

كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني ، وقال ابن عطية : كان أوجه مني وأقوى فاذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي وقوته أعظم من قوتي ، وقيل : أي غلبني في مغالبته إياي في الخطبة على أن الخطاب من خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابا أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني، وهو قول من يجعل النعجة مستعارة ، وتعقبه صاحب الكشف فقال : حمل الخطاب على المغالبة في خطبة النساء لايلائم فصاحة التنزيل لأن التمثيل قاصر عنه لنبو قوله : (ولي نعجة) عن ذلك أشد النبوة وكذاقوله : (أكفلنيها) إذ ينبغي على ذلك أن يخاطب به ولي المخطوبة إلا أن يجعل الأول مجازا عما يؤول اليه الحال ظنا والشرط في حسنه تحقق الانتهاء كما في (أعصر خمرا) والثاني مجاز عن ترك الخطبة، ولايخفى مافيهما من التعقيد، ثم إنه لتصريحه ينافي الغرض من التمثيل وهو التنبيه على عظم ما كان منه عليه السلام وأنه أمر يستحي من كشفه مع الستر عليه والاحتفاظ بحرمته انتهى فتأمل *

وقرأ أبو حيوة . وطلحة (وعزني) بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح : حذفت إحدى الزائين تخفيفا كما حذفت إحدى السينين في قول أبي زبيد : * أحسن به فهن اليه شوس * وروى كذلك عن عاصم *

وقرأ عبد الله . وأبو وائل . ومسروق . والضحاك . والحسن . وعبيد بن عمير (وعازني) بالف بعد العين وتشديد الزاي أي وغالبني *

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل ذي النعجات الكثيرة وتهجين طمعه، وليس هذا ابتداء من داود عليه السلام إثر فراغ المدعي من كلامه ولافتيا بظاهر كلامه قبل ظهور الحال لديه فقيل : ذلك على تقدير (لقد ظلمك) إن كان ما تقول حقا ؛ وقيل ثم كلام محذوف أي فاقر المدعى عليه فقال (لقد ظلمك) الخ ولم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه لأنه معلوم من الشرائع كلها انه لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه ، وجاء في رواية أنه عليه السلام لما سمع كلام الشاكي قال للآخر ماتقول فاقر فقال له: لترجعن إلى الحق أولأكسرن الذي فيه عيناك ، وقال للثاني :(لقد ظلمك) الخ فتبسما عند ذلك وذهبا ولم يرهما لحينه ، وقيل : ذهبا نحو السماء بمرأى منه ، وقال الحليمي : إنه عليه السلام رأى في المدعي مخايل الضعف والهضيمة فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول فدعاه ذلك الى أن لا يسأل المدعى عليه فاستعجل بقوله : (لقد ظلمك) ولا يخفى أنه قول ضعيف لا يعول عليه لأن مخايل الصدق كثيرا ماتظهر على الكاذب والحيلة أكثر من أن تحصى قديما وحديثا ، وفيما وقع من إخوة يوسف عليه السلام ولم يكونوا أنبياء على الأصح ما يزيل الاعتماد في هذا الباب، وبعض الجهلة ذهب إلى نحو هذا ، وزعم أن ذنب داود عليه السلام ما كان إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته، والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة كأنه قيل : (لقد ظلمك) باضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب أو لقد ظلمك بسؤال نعجتك مضافة إلى نعاجه ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية وفي حكمها عند الفقهاء كلام ذكر بعضه الزمخشري ﴿ لَيَبْغِي ﴾ ليتعدى ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ غير مراع حق الشركة والصحبة *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ أى وهم قليل جداً فقليل خبر مقدم و (هم) مبتدأ وما زائدة ، وقد جاءت المبالغة فى القلة من التنكير وزيادة ما الابهامية ويتضمن ذلك التعجب فان الشىء اذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه فكأنه قيل : ما أقلهم ، والجملة اعتراض تذييلى ، وقرىء (ليبغى) بفتح الياء على تقدير حذف النون الخفيفة وأصله ليبغين كما قال طرفة بن العبد :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

يريد اضربن ، ويكون على تقدير قسم محذوف وذلك القسم وجوابه خبر لان ، وعلى قراءة الجمهور اللام هى الواقعة فى خبر ان وجملة (يبغى) الخ هو الخبر ، وقرىء (ليبغ) بحذف الياء للتخفيف كما فى قوله تعالى : (والليل إذا يسر) وقوله :

محمد تفد نفسك كل نفس اذا ما خفت من أمر تبالا

والظاهر أن قوله تعالى : (وان كثيرا من الخلطاء) الخ من كلام داود عليه السلام تتمة لما ذكره أولا وقد نظر فيه ما كان عليه التداعى كما هو ظاهر التعبير بالخلطاء فانه غالب فى الشركاء الذين خلطوا أموالهم فى الماشية وجعل على وجه استعارة النعجة ابتداء تمثيل لم ينظر فيه إلى ما كان عليه التداعى كأنه قيل : وان البغى أمر يوجد فيما بين المتلابسين وخص الخلطاء لكثرته فيما بينهم فلا عجب مما شجر بينكم ويترتب عليه قصد الموعظة الحسنة والترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره اليهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له فى أكثر الخلطاء أسوة أو كأنه قيل : ان هذا الأمر الذى جرى بينكما أيها الخليطان كثيرا ما يجرى بين الخلطاء فينظر فيه الى خصوص حالهما، قال فى الكشف : والمحمل الاظهر هذا ه

وعلى التقديرين هو تذييل يترتب عليه ما ذكر . ثم قال : ولعل الأظهر حمل الخلطاء على المتعارفين والمتضادين واضرابهم ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج على نحو * إن الخليط أجدوا البين فانجردوا * والغلبة فى الشركاء الذين خلطوا أموالهم فى عرف الفقهاء فذكر الخلطاء لا ينافى ذكر الحلائل إذ لم ترد الخلطة اه . وأنت خبير بأن ذلك وإن لم يناف ذكر الحلائل لكن أولوية عدم إرادة الحلائل وإبقاء النعجة على معناها الحقيقى مما لا ينبغى أن ينتطح فيه كبشان ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة ، وفى البحر لما كان الظن الغالب يقارب العلم استعير له ، فالمعنى وعلم داود وأيقن بما جرى فى مجلس الحكومة أن الله تعالى ابتلاه ، وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم بذلك أنه تعالى ابتلاه ، وجوز إبقاء الظن على حقيقته ، وأنكر ابن عطية مجىء الظن (١) بعد العلم اليقينى وقال : لسنا نجده فى كلام العرب وإنما هو توقيف بين معتقدين غلب أحدهما على الآخر وتوقعه العرب على العلم الذى ليس بواسطة الحواس فانه اليقين التام ولكن يخلط الناس فى هذا ويقولون : ظن بمعنى أيقن إلى آخر ما أطال، ويفهم منه أن إطلاق الظن على العلم الاستدلالى حقيقة والمشهور أنه مجاز، وظاهر ما بعد أنه هنا بمعنى العلم و (أنما) المفتوحة على ما حقق بعض الأجلة لا تدل على الحصر كالمكسورة، ومن قال بافادتها إياه

(١) قوله بعد العلم هكذا فى خط المؤلف ولعله بمعنى العلم اه

www.Quranpdf.blogspot.in

حملا على المكسورة كالزمخشري لم يدع الأطرد فليس المقصود ههنا قصر الفتنة عليه عليه السلام لأنه يقتضى انفصال الضمير، ولا قصر ما فعل به على الفعل لأن كل فعل ينحل إلى عام وخاص فمعنى ضربته فعلت ضربه على أن المعنى ما فعلنا به إلا الفتنة كما قال أبو السعود لأنه على ماقيل تعسف وإلغاز، ومن يدعى الأطراد يلتزم الثانى من القصرين المنفيين ويمنع كون ماذكر تعسفا وإلغازاً.

وقرأ عمر بن الخطاب. وأبو رجاء. والحسن بخلاف عنه (فتناه) بتشديد التاء والنون مبالغة، والضحاك (افتناه) كقوله على مانقله الجوهرى عن أبي عبيدة:

لئن فتنتنى لهى بالأمس افتتنت سعيدا فأمسى قد غوى كل مسلم

وقتادة. وأبو عمرو فى رواية (أنما فتناه) بضمير التثنية وهو راجع الى الخصمين ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ إثر ما علم أن ماصدر عنه ذنب ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ اى ساجدا على أن الركوع مجاز عن السجود لأنه لافضائه إليه جعل كالسبب، ثم تجوز به عنه أو هو استعارة لمشابهته له فى الانحناء والخضوع والعرب تقول نخلة راكعة ونخلة ساجدة، وقال الشاعر:

فخر على وجهه راكعاً وتاب إلى الله من كل ذنب

وقيل أى خر للسجود راكعاً أى مصليا على أن الركوع بمعنى الصلاة لاشتهار التجوز به عنها، وتقدير متعلق لخر يدل عليه غالبة فحواه لأنه بمعنى سقط على الأرض كما فى قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم).

وقال الحسين بن الفضل: أى خر من ركوعه أى سجد بعد إن كان راكعا، وظاهره إبقاء الركوع على حقيقته وجعل خر بمعنى سجد، والجمهور على ماقدمنا، واستشهد به أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وأصحابه على أن الركوع يقوم مقام السجود فى سجدة التلاوة وهو قول الخطابى من الشافعية ولا فرق فى ذلك بين الصلاة وخارجها كما فى البزازية وغيرها. وفى الكشف قالوا أى الحنفية: إن القياس يقتضى أن يقوم الركوع مقام السجود لأن الشارع جعله ركوعا وتجوز بأحدهما عن الآخر لقيامه مقامه وإغنائه غناءه.

وأيدوه بأن السجود لم يؤمر به لعينه ولهذا لم يشرع قربة مقصودة بل للخضوع وهو حاصل بالركوع ﴿فان قلت﴾: إن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر والكلام فى سجدة التلاوة قلت: لا على فى ذلك لأنى لم أستدل بفعل داود عليه السلام بل بجعل الشارع إياه مغنيا غناء السجود، ولأصحابنا يعنى الشافعية أن يمنعوا أن علاقة المجاز ماذكروه بل مطلق الميل عن الخضوع المشترك بينهما أو لأنه مقدمته كما قال الحسن: لا يكون ساجداً حتى يركع (١) أو خر مصليا والمعتبر غاية الخضوع وليست فى الركوع اه.

ولا يخفى أن المعروف من النبى ﷺ السجود ولم نقف فى خبر على أنه عليه الصلاة والسلام ركع للتلاوة بدله ولو مرة وكذا أصحابه رضى الله تعالى عنهم، وليس أمر القياس المذكور بالقوى فالأحوط فعل الوارد لا غير بل قال بعض الشافعية: إن قول الأصحاب لا يقوم الركوع مقام السجدة ظاهر فى جواز الركوع وهو بعيد والقياس حرمته، وعنى صاحب الكشف بما ذكر فى السؤال من أن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر أنها كانت كذلك من نبينا ﷺ فقد أخرج النسائى. وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس أن النبى

(قوله) أو خر مصليا هكذا فى خط المؤلف وانظر موقع هذه الجملة هنا

صلى الله تعالى عليه وسلم سجد فى (ص) وقال: سجدها داود توبة ونسجدها شكراً أى على قبول توبة داود عليه السلام من خلاف الأولى بعلى شأنه وقد لقى عليه السلام على ذلك من القلق المزعج مالم يلقه غيره كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وآدم عليه السلام وإن لقى أمرا عظيما أيضا لكنه كان مشوبا بالحزن على فراق الجنة فجوزى لذلك بأمر هذه الأمة بمعرفة قدره وانه أنعم عليه نعمة تستوجب دوام الشكر إلى قيام الساعة، ولقصته على ما فى بعض الروايات شبه لما وقع لنبينا ﷺ فى قصة زينب المقتضى للعتب عليه بقوله تعالى: (وتخفى فى نفسك) الآية فيكون ذكرها مذكرا له عليه الصلاة والسلام ماوقع وما آل الأمر اليه مما هو أرفع وأجل فكأن ذلك اقتضى دوام الشكر باظهار السجود له، ولعل ذلك وجه تخصيص داود بذلك مع وقوع نظيره لغيره من الأنبياء عليهم السلام فتأمله، ولا تغفل عن كون السورة مكية على الصحيح وقصة زينب رضى الله تعالى عنها مدنية، وينحل الاشكال بالتزام كون السجود بعد القصة فليتقر، وهى عند الحنفية إحدى سجدات التلاوة الواجبة كما ذكر فى الكتب الفقهية، ومن فسر (خر راكعا) بخر للسجود مصليا ذهب إلى أن ماوقع من داود عليه السلام صلاة مشتملة على السجود وكانت للاستغفار وقد جاء فى شريعتنا مشروعية صلاة ركعتين عند التوبة لكن لم نقف فى خبر على مايشعر بحمل ماهنا على صلاة داود عليه السلام لذلك وإنما وقفنا على أنه سجد ﴿وَأَنَابَ ٢٤﴾ أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ أى ما استغفرنا منه *

أخرج أحمد. وعبد بن حميد عن يونس بن حبان أن داود عليه السلام بكى أربعين ليلة حتى نبت العشب حوله من دموعه ثم قال: يارب قرح الجبين ورقأ الدمع وخطيئتى على كما هى فنودى ياداود أجائع فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم مظلوم فينتصر لك؟ فنحب نحبة هاج ماهنالك من الخضرة فغفر له عند ذلك، وفى رواية عبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد عن مجاهد أنه خر ساجداً أربعين ليلة حتى نبت من دموع عينيه من البقل ماغطى رأسه ثم قال الخ، وروى أنه لم يشرب ماء إلا وثلثاه من دمعه وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع اليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه *

وأخرج أحمد عن ثابت أنه عليه السلام اتخذ سبع حشايا وحشاهن من الرماد حتى أنفذها دموعا ولم يشرب شرابا إلا مزجه بدمع عينيه، وأخرج عن وهب أنه اعتزل النساء وبكى حتى رعش وخددت الدموع فى وجهه، ولم ينقطع خوفه عليه السلام وقلقه بعد المغفرة، فقد أخرج أحمد. والحكيم الترمذى. وابن جرير عن عطاء الخراسانى أن داود نقش خطيئته فى كفه لكى لاينساها وكان إذا رآها اضطربت يداه *

وأخرج أحمد. وغيره عن ثابت عن صفوان. وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبى عبد الله الجدلى مارفع داود رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربة بعد المغفرة *

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ ٢٥﴾ وحسن مرجع فى الجنة، وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنه قال فى الآية: يدنو من ربه سبحانه حتى يضع يده عليه، وهو إن صح من المتشابه. وأخرج أحمد فى الزهد. والحكيم الترمذى. وابن المنذر. وابن أبى حاتم عن مالك بن دينار أنه قال فيها: يقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول الرب عز وجل: ياداود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى

www.Quranpdf.blogspot.in

الدنيا فيقول : يارب كيف وقد سلبته؟ فيقول: إني راده عليك اليوم فيندفع بصوت يستغرق نعيم أهل الجنة *

هذا واختلف فى أصل قصته التى ترتب عليها ماترتب فقيل إنه عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا من مؤمنى قومه ـ وفى بعض الآثار أنه وزيره ـ فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان وكان ذلك جائزاً فى شريعته معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وقد كان الرجل من الأنصار فى صدر الاسلام بعد الهجرة إذا كانت له زوجتان نزل عن احداهما لمن اتخذه أخا له من المهاجرين لكنه عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى مايتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب ميله الطبيعى ويقهر نفسه ويصبر على ماامتحن به ، وقيل إنه أضمر فى نفسه إن قتل أوريا تزوج بها وإليه مال ابن حجر فى تحفته *

وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها هو فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، وفى بعض الآثار أنه فعل ذلك ولم يكن عالما بخطبة أخيه فعوتب على ترك السؤال هل خطبها أحد أم لا ؟ وقيل إنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأة فاولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها فلما قتل أوريا خطب امرأته ظانا أن أولياءه رغبوا عنها فلما سمعوا امنعتهم هيبته وجلالته أن يخطبوها *

وقيل أنه كان فى عبادة فأتاه رجل وامرأة متحا كمين اليه فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وهو نظر مباح فمالت نفسه ميلا طبيعيا اليها فشغل عن بعض نوافله فعوتب لذلك ، وقيل إنه لم يتثبت فى الحكم وظلم المدعى عليه قبل سؤاله لما ناله من الفزع وكانت الخصومة بين المتخاصمين وكانا من الانس على الحقيقة إما على ظاهر ماقص أو على جعل النعجة فيه كناية عن المرأة ، ونقل هذا عن أبى مسلم، والمقبول من هذه الأقوال ما بعد من الاخلال بمنصب النبوة ، وللقصاص كلام مشهور لايكاد يصح لمافيه من مزيد الاخلال بمنصبه عليه السلام *

ولذا قال على كرم الله تعالى وجهه على مافى بعض الكتب: من حدث بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وهذا اجتهاد منه كرم الله تعالى وجهه ، ووجه مضاعفة الحد على حد الاحرار أنهم عليهم السلام سادة السادة وهو وجه مستحسن إلا أن الزين العراقى ذكر ان الخبر نفسه لم يصح عن الامير كرم الله تعالى وجهه ، وقال أبو حيان: الذى نذهب اليه مادل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الانس دخلوا عليه من غير المدخل وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه عز وجل فلما اتضح له انهم جاؤا فى حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه فى ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى له أن يغتالوه فلم يقع ماكان ظنه فاستغفر من ذلك الظن حيث أخلف ولم يكن ليقع مظنونه وخر ساجداً ورجع إلى الله تعالى وأنه سبحانه غفر له ذلك الظن فانه عز وجل قال (فغفرنا له ذلك) ولم يتقدم سوى قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه) ونعلم قطعا أن الانبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شئ منها ضرورة انا لوجوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ولم يوثق بشئ مما يذكرون أنه وحى من الله تعالى فماحكى الله تعالى فى كتابه يمر على ماأراده الله تعالى وماحكى القصاص ممافيه

www.Quranpdf.blogspot.in

نقص لمنصب الرسالة طرحناه، ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل فى كل شبهة إذا آثر الاخبار جلاس قصاص

انتهى، ويقرب من هذا من وجه ماقيل إن قوما قصدوا أن يقتلوه عليه السلام فتسوروا المحراب فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بما قص الله تعالى من التحاكم فعلم غرضهم فقصد أن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى وامتحان له هل يغضب لنفسه أم لا فاستغفر ربه مما عزم عليه من الانتقام منهم وتأديبهم لحق نفسه لعدوله عن العفو الاليق به، وقيل : الاستغفار كان لمن هجم عليه وقوله تعالى (فغفرنا له) على معنى فغفرنا لأجله ، وهذا تعسف وإن وقع فى بعض كتب الكلام، وعندى أن ترك الاخبار بالكلية فى القصة مما لا يكاد يقبله المنصف ، نعم لا يقبل منها مافيه اخلال بمنصب النبوة ولا يقبل تأويلا يندفع معه ذلك ولابد من القول بانه لم يكن منه عليه السلام الا ترك ماهو الاولى بعلى شأنه والاستغفار منه وهو لا يخل بالعصمة *

﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ﴾ إما حكاية لما خوطب به عليه السلام مبينة لزلفاه عنده عزوجل وإما مقول لقول مقدر معطوف على (غفرنا) أو حال من فاعله أى وقلنا له أو قائلين له ياداود إنا جعلناك خليفة فى الارض أى استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الانبياء القائمين بالحق، وهو على الاول مثل فلان خليفة السلطان إذا كان منصوبا من قبله لتنفيذ مايريده، وعلى الثانى من قبيل هذا الولد خليفة عن أبيه أى ساد مسده قائم بما كان يقوم به من غير اعتبار لحياة وموت وغيرهما، والأول أظهر والمنة به أعظم فهو عليه السلام خليفة الله تعالى بالمعنى الذى سمعت، قال ابن عطية: ولا يقال خليفة الله تعالى إلا لرسوله وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة من قبله، ومايجيء فى الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز كما قال قيس الرقيات :

خليفة الله فى بريته جفت بذاك الاقلام والكتب

وقالت الصحابة لأبى بكر: خليفة رسول الله وبذلك كان يدعى إلى أن توفى فلما ولى عمر قالوا خليفة خليفة رسول الله فعدل عنه اختصارا إلى أمير المؤمنين . وذهب الشيخ الأكبر محى الدين قدس سره إلى أن الخليفة من الرسل من فوض اليه التشريع ولعله من جملة اصطلاحاته ولا مشاحة فى الاصطلاح ، واستدل بعضهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله عز وجل وهو قول من أوجب على الله تعالى نصب الامام لأنه من اللطف الواجب عليه سبحانه، والجماعة لا يقولون بذلك والامامة عندهم من الفروع وإن ذكروها فى كتب العقائد ، وليس فى الآية مايلزم منه ذلك كما لا يخفى وتحقيق المطلب فى محله ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ الذى شرعه الله تعالى لك فالحق خلاف الباطل وأل فيه للعهد، وجوز أن يراد به ماهو من أسمائه تعالى أى بحكم الحق أى الله عز وجل للعلم بأن الذوات لا يكون محكوما بها. وتعقب بأن مقابلته بالهوى تأبى ذلك، ولعل من يقول به يجعل المقابل المضاف المحذوف والمقابلة باعتبار أن حكم الله تعالى لا يكون إلا بالحق، وفرع الأمر بالحكم بالحق على ما تقدم لأن الاستخلاف بكلا المعنيين مقتض للحكم العدل لاسيما على المعنى الأول لظهور اقتضاء كونه عليه السلام خليفة له تعالى أن لا يخالف حكمه حكم من استخلفه بل يكون على وفق إرادته ورضاه *

وقيل المترتب مطلق الحكم لظهور ترتبه على كونه خليفة . وذكر الحق لأن به سداده، وقيل ترتب ذلك لأن

www.Quranpdf.blogspot.in

الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل . وفى البحر أن هذا أمر بالديمومة وتنبيه لغيره ممن ولى أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق وإلا فهو من حيث انه معصوم لايحكم إلا بالحق، وعلى نحو هذا يخرج النهى عندى فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ فان اتباع الهوى مما لا يكاد يقع من المعصوم. وظاهر السياق أن المراد ولا تتبع هوى النفس فى الحكومات ، وعمم بعضهم فقال: أى فى الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا ه

وأيد بهذا النهى ما قيل إن ذنبه عليه السلام المبادرة الى تصديق المدعى وتظليم الآخر قبل مساءلته لا الميل إلى امرأة أوريا فكأنه قيل ولا تتبع الهوى فى الحكم كما اتبعته أولا ، وفيه أن اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غير مناسب لمقامه لاسيما وقد أخبر الله تعالى قبل الاخبار بمسئلة المتحاكمين انه أتاه الحكم وفصل الخطاب فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصب الخلافة وتنبيهاً لمن هو دونه عليه السلام، وأصل الهوى ميل النفس إلى الشهوة، ويقال للنفس المائلة اليها ويكون بمعنى المهوى كما فى قوله :

هواى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق

وبه فسره هنا بعضهم فقال: أى لاتتبع ماتهوى الأنفس ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بالنصب على أنه جواب النهى، وقيل هو مجزوم بالعطف على النهى مفتوح لالتقاء الساكنين أى فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التى نصبها على الحق وهى أعم من الدلائل العقلية والنقلية، وصد ذلك عن الدلائل إما لعدم فهمها أو العمل بموجبها، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال عنه، وخبر إن إما جملة (لهم عذاب) على أن (لهم) خبر مقدم وعذاب مبتدأ وإما الظرف وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار ه

وقرأ ابن عباس . والحسن بخلاف عنهما . وأبو حيوة (يضلون) بضم الياء قال أبو حيان : وهذه القراءة أعم لأنه لايضل إلا ضال فى نفسه، وقراءة الجمهور أوضح لأن المراد بالموصول من أضلهم اتباع الهوى وهم بعد أن أضلهم صاروا ضالين ه

وقوله تعالى: ﴿ بِمَا نَسُوا ﴾ متعلق بالاستقرار والباء سببية وما مصدرية، وقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَ الْحِسَابِ ٢٦ ﴾ مفعول (نسوا) على ما هو الظاهر أى ثابت لهم ذلك العذاب بسبب نسيانهم وعدم ذكرهم يوم الحساب ، وعليه يكون تعليلا صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فانه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده ه

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن الكلام من التقديم والتأخير أى لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا فيكون يوم الحساب ظرفا لقوله تعالى : (لهم) وجعل النسيان عليه مجازا عن ضلالهم عن سبيل الله بعلاقة السببية ومن ضرورته جعل مفعول النسيان سبيل الله تعالى ، وعليه يكون التعليل المصرح به عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان فتدبر ه

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى خلقا باطلا فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق نحو كل هنيئا أى أكلا هنيئاً، والباطل ما لا حكمة فيه، وجوز كونه حالا من فاعل (خلقنا) بتقدير مضاف

www.Quranpdf.blogspot.in

أى ذوى باطل ، والباطل اللعب والعبث أى ماخلقنا ذلك مبطلين لاعبين كقوله تعالى : (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) وجوز كونه حالا من المفعول أيضاً بنحو هذا التأويل، وأياما كان فالكلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر المعاد والحساب فان خالق السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات مشتملا على الحكم الباهرة والأسرار البالغة والفوائد الجمة أقوى دليل على عظم القدرة وأنه لايتعاصاها أمر المعاد والحساب فان خلق ذلك كذلك مؤذن بأنه عز وجل لا يترك الناس إذا ماتوا سدى بل يعيدهم ويحاسبهم ولعله الأولى ه

وجوز كون الجملة فى موضع الحال فى فاعل (نسوا) جىء بها لتفظيع أمر النسيان كأنه قيل: بما نسوا يوم الحساب مع وجود مايؤذن به وهو كما ترى ، وجوز كون (باطلا) مفعولا له ويفسر بخلاف الحق ويراد به متابعة الهوى كأنه قيل: ماخلقنا هذا العالم للباطل الذى هو متابعة الهوى بل للحق الذى هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ولا يخفى بعده، وعليه تكون الجملة مستأنفة لتقرير أمر النهى عن اتباع الهوى ، وقيل: تكون عطفاً على ماقبلها بحسب المعنى كأنه قيل: لا تتبع الهوى لأنه يكون سبباً لضلالك ولأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل متابعة الهوى بل خلقه للتوحيد والتمسك بالشرع فلا تغفل ه

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اشارة إلى مانفى من خلق ماذكر باطلا ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى مظنونهم ليصح الحمل أو يقدر مضاف أى ظن ذلك ظن الذين كفروا فان إنكارهم المعاد والجزاء قول بأن خلق ماذكر خال عن الحكمة وإنما هو عبث ولذا قال سبحانه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون) أو فان إنكارهم ذلك قول بنفى عظم القدرة وهو قول بنفى دليله وهو خلق ماذكر مشتملا على الحكم الباهرة والاسرار، وهذا بناء على الوجه الأول فى بيان التقرير وهو كما ترى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مبتدأ وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم لاشعار مافى حيز الصلة بعلية كفرهم له، ولاتنافى بينهما لان ظنهم من باب كفرهم فيتأكد أمر التعليل، و(من) فى قوله تعالى ﴿ مِنَ النَّارِ ٢٧ ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية كما فى قوله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم) ونظائره وتفيد على هذا علية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار بعلية مايؤدى اليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم، قيل والكلام عليه على تقدير مضاف أى من دخول النار ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أم منقطعة وتقدر ببل والهمزة، والهمزة لانكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده، وبل للاضراب الانتقالى من تقرير أمر البعث والحساب بما مر من نفى خلق العالم باطلا إلى تقريره وتحقيقه بانكار التسوية بين الفريقين أى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى الأرض التى جعلت مقرا لهم كما يقتضيه عدم البعث ومايترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع فى الحياة الدنيا بل أكثر الكفرة أوفر حظا منها من أكثر المؤمنين لكن ذلك الجعل محال مخالف للحكمة فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين كذا قالوا ، وظاهره أن محالية جعل الفريقين سواء حكمة تقتضى تعين المعاد الجسمانى، وفيه خفاء ، والظاهر ان المعاد الروحانى يكفى لمقتضى الحكمة من اثابة الأولين وتعذيب الآخرين فالدليل العقلى الذى تشير اليه الآية ظاهر فى اثبات معاد لكن بعد ابطال التناسخ وهو كاف فى الرد على كفرة

www.Quranpdf.blogspot.in

العرب فانهم لا يقولون بمعاد بالكلية ولم يخطر ببالهم التناسخ أصلا، ولاثبات المعاد الجسماني طريق آخر مشهور بين المتكلمين، وجعل هذا الدليل العقلي طريقا لاثباته يحتاج إلى تأمل فتأمل، وقوله تعالى:

﴿امْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٢٨﴾ اضراب وانتقال عن اثبات ماذكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الاطلاق إلى اثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهي التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في انكار التسوية من الوصفين الاولين، وأياما كان فليس المراد من الجمعين في الموضعين اناسا باعيانهم ولذا قال ابن عباس: الآية عامة في جميع المسلمين والكافرين.

وقيل: هي في قوم مخصوصين من مشركي قريش قالوا للمؤمنين انا نعطى في الآخرة من الخير مالا تعطون فنزلت، وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أخرجها ابن عساكر أنه قال: الذين آمنوا علي وحمزة. وعبيدة بن الحرث رضي الله تعالى عنهم والمفسدين في الارض عتبة. والوليد ابن عتبة وشيبة وهم الذين تبارزوا يوم بدر، ولعله أراد أنهم سبب النزول، وقوله تعالى ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدا محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة، ويجوز على الثاني تقديره مذكراً أي هو أو هذا وهو الأولى عند جمع رعاية للخبر وتقديره مؤنثا رعاية للمرجع، وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ صفته، وقوله سبحانه ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير المنافع الدينية والدنيوية خبر ثان للمبتدأ أو صفة (كتاب) عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح. وقرىء (مباركا) بالنصب على أنه حال من مفعول (أنزلنا) وهي حال لازمة لأن البركة لا تفارقه، جعلنا الله تعالى في بركاته ونفعنا بشريف آياته، وقوله عز وجل ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ متعلق بانزلناه، وجوز أن يكون متعلقا بمحذوف يدل عليه وأصله ليتدبروا بتاء بعد الياء آخر الحروف، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه بهذا الاصل أي انزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن اسرار التكوين والتشريع فيعرفوا مايدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة، وضمير الرفع لاولي الالباب على التنازع واعمال الثاني أو للمؤمنين فقط أو لهم وللمفسدين، وقرأ أبو جعفر (لتدبروا) بتاء الخطاب وتخفيف الدال وجاء كذلك عن عاصم. والكسائي بخلاف عنهما، والاصل لتتدبروا بتاءين فحذفت احداهما على الخلاف الذي فيها أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها، والخطاب للنبي ﷺ وعلماء امته على التغليب أي لتدبر أنت وعلماء امتك ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٢٩﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب اوليستحضروا ماهو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان ارسال الرسل وانزال الكتب لبيان مالا يعرف الامن جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس والارشاد إلى مايستقل العقل بادراكه كوجود الصانع القديم جل جلاله وعم نواله ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ وقرىء (نعم) على الاصل، والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم العبد هو أي سليمان كما ينبىء عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا لوهبنا ولأن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ٣٠﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بالتوبة كما يشعر به السياق أو إلى التسبيح مرجع له أو إلى مرضاته عز وجل تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في قوله سبحانه ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يعود

www.Quranpdf.blogspot.in

اليه عليه السلام قطعا، وإذ منصوب باذكر، والمراد من ذكر الزمان ذكر ماوقع فيه أوظرف لاواب أو لنعم والظرف قنوع لكن يرد على الوجهين أن التقييد يخل بكمال المدح فالأول أولى وهو كالاستشهاد على أنه أواب أي اذكر ماصدر عنه إذ عرض عليه ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ الخ فانه يشهد بذلك، والعشي على ماقال الراغب من زوال الشمس إلى الصباح ، وقال بعض: منه إلى آخر النهار، والظرفان متعلقان بعرض، وقوله تعالى : ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ نائب الفاعل وتأخيره عنهما لما مر غير مرة من التشويق إلى المؤخر، والصافن من الخيل الذي يرفع احدى يديه أورجليه ويقف على مقدم حافرها وأنشد الزجاج :

ألف الصفون فما يزال كأنه ❊ مما يقوم على الثلاث كثيرا

وقال أبو عبيدة: هو الذي يجمع يديه ويسوبهما وأما الذي يقف على طرف الحافر فهو المتخيم، وعن التهذيب ومتن اللغة هو المخيم ، وقال القتبي الصافن الواقف في الخيل وغيرها، وفي الحديث «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار» أي يديمون له القيام حكاه قطرب وأنشد للنابغة :

لنا قبة مضروبة بفنائها ❊ عتاق المهارى والجياد الصوافن

وقال الفراء : رأيت العرب على هذا وأشعارهم تدل على أنه القيام خاصة والمشهور في الصفون ما تقدم وهو من الصفات المحمودة في الخيل لاتكاد تتحقق إلا في العرب الخلص ﴿ الْجِيَادُ ٣١ ﴾ جمع جواد للذكر والأنثى يقال جاد الفرس صار رائضا يجود جودة بالضم وهو جواد ويجمع أيضا على أجواد وأجاويد ، وقال بعضهم: هو جمع جود كثوب وأثواب وفسر بالذي يسرع في مشيه ، وقيل هو الذي يجود بالركض ، وقيل: وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها ، والخيل تمدح بالسكون في الموقف كما تمدح بالسرعة في الجري، ومن ذلك قول مسلم بن الوليد :

وإذا احتبى قربوسه بعنانه ❊ علك الشكيم إلى انصراف الزائر

وقيل جيد ككيس ضد الردىء ويجمع على جيادات وجيائد، وضعف بأنه لافائدة في ذكره مع (الصافنات) حينئذ وبأنه يفوت عليه مدح الخيل باعتبار حاليها وكون الجياد أعم فذكره تعميم بعد تخصيص فيه نظر *

وفي البحر قيل الجياد الطوال الأعناق من الجيد وهو العنق، وأنا في شك من ثبوته، قال في القاموس: الجيد بالكسر العنق أو مقلده أو مقدمه جمعه أجياد وجيود وبالتحريك طولها أو دقتها مع طول وهو أجيد وهي جيداء وجيدانة جمعه جود اه، وراجعت غيره فلم أجد فيه زيادة على ذلك فلينقر ، ويمكن أن يقال: أن الجياد جمع شاذ لأجيد أو جيداء أو جيدانة أو هو جمع لجيد بالتحريك كجمل وجمال ويراد بجيد أجيد أو نحوه نظير مايراد بالخلق المخلوق والله تعالى أعلم، وأياما كان فالوصفان يوصف بهما المذكر والمؤنث من الخيل، والجمع بألف وتاء لايخص المؤنث فلا حاجة بعد القول بأن ماعرض كان مشتملا على ذكور الخيل واناثها إلى القول بأن في الصافنات تغليب المؤنث على المذكر وأنه يجوز بقلة ، وأريد بالجمع هنا الكثرة فعن الكلبي أن هذه الخيل كانت ألف فرس غزا سليمان عليه السلام دمشق ونصيبين فأصابها . واستشكلت هذه الرواية بأن الغنائم لم تحل لغير نبينا ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح . وأجيب بأنه يحتمل أن تكون فيئا لاغنيمة، وعن مقاتل أنها

www.Quranpdf.blogspot.in

ألف فرس ورثها من أبيه داود وكان عليه السلام قد أصابها من العمالقة وهم بنو عمليق بن عوص بن عاد بن ارم ه

واستشكلت هذه زيادة على الأولى بأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه محتجاً به فى مسئلة فدك والعوالى بمحضر الصحابة وهم الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ه

وأجيب بان المراد بالارث حيازة التصرف لا الملك ، وعقرها تقربا على مافى الأوجه فى الآية بعد وجاء فى بعض الروايات لا يقتضى الملك ، وقال عوف : بلغنى أنها كانت خيلا ذات أجنحة أخرجت له من البحر لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وروى كونها كذلك عن الحسن ، وأخرج ابن جرير وغيره عن إبراهيم التيمى أنها كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ، وليس فى هذا شىء سوى الاستبعاد ، وإذا لم يلتفت إلى الأخبار فى ذلك إذ ليس فيها خبر صحيح مرفوع أو مافى حكمه يعول عليه فيما أعلم فلنا أن نقول : هى خيل كانت له كالخيل التى تكون عند الملوك وصلت اليه بسبب من أسباب الملك فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس ، قيل وغفل عن صلاة العصر ، وحكى هذا الطبرسى عن على كرم الله تعالى وجهه . وقتادة . والسدى ثم قال : وفى روايات أصحابنا أنه فاته أول الوقت . وقال الجبائى : لم يفته الفرض وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار ه

﴿ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ﴾ قاله عليه السلام اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال وندما عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها على ماهو المشهور ، والخير كثر استعماله فى المال ومنه قوله تعالى . (ان ترك خيرا) وقوله سبحانه : (وما تنفقوا من خير يعلمه الله) وقوله عز وجل : (وإنه لحب الخير لشديد) وقال بعض العلماء : لا يقال للمال خير حتى يكون كثيرا ومن مكان طيب كما روى أن علياً كرم الله تعالى وجهه دخل على مولى له فقال : ألا أوصى ياأمير المؤمنين ؟ قال ، لا لأن الله تعالى يقول : (ان ترك خيرا) وليس لك مال كثير ، وروى تفسيره بالمال هنا عن الضحاك . وابن جبير ، وقال أبو حيان : يراد بالخير الخيل والعرب تسمى الخيل الخير ، وحكى ذلك عن قتادة . والسدى ، ولعل ذلك لتعلق الخير بها ، ففى الخبر « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » والأحباب على مانقل عن الفراء مضمن معنى الايثار وهو ملحق بالحقيقة لشهرته فى ذلك ، وظاهر كلام بعضهم أنه حقيقة فيه فهو مما يتعدى بعلى لكن عدى هنا بعن لتضمينه معنى الانابة (وحب الخير) مفعول به أى آثرت حب الخير منيباً له عن ذكر ربى أو أنبت حب الخير عن ذكر ربى ، وُثراله ه

وجوز كون (حب) منصوبا على المصدر التشبيهى ويكون مفعول (أحببت) محذوفا أى أحببت الصافنات أو عرضها حبا مثل حب الخير منيبا لذلك عن ذكر ربى ، وليس المراد بالخير عليه الخيل وذكر أبو الفتح الهمدانى أن أحببت بمعنى لزمت من قوله « ضرب بعير السوء إذ أحبا » واعترض بان أحب بهذا المعنى غريب لم يرد إلا فى هذا البيت وغرابة اللفظ تدل على اللكنة وكلام الله عز وجل منزه عن ذلك ، مع أن اللزوم لا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى يتعدى به أو تجوز به عنه فلم يبق فائدة فى العدول عن المعنى المشهور مع صحته أيضا بالتضمين وجعل بعضهم الأحباب من أول الأمر بمعنى التقاعد والاحتباس وحب الخير مفعولا لأجله أى تقاعدت واحتبست عن ذكر ربى لحب الخير . وتعقب بأن الذى يدل عليه كلام اللغويين أنه لزوم عن تعب أو مرض ونحوه فلا يناسب تقاعد النشاط والتلهى الذى كان عليه السلام فيه وقول بعض الأجلة : بعد التنزل عن جواز استعمال المقيد فى المطلق لما كان لزوم المكان لمحبة الخيل على خلاف مرضاة الله تعالى جعلها من

www.Quranpdf.blogspot.in

الأمراض التي تحتاج إلى التداوى باضدادها ولذلك عقرهافى (أحببت) استعارة تبعية لايخفى حسنها ومناسبتها للمقام ليس بشيء لخفاء هذه الاستعارة نفسها وعدم ظهور قرينتها، وبالجملة ماذكره أبو الفتح مما لا ينبغي أن يفتح له باب الاستحسان عند ذوى العرفان، وجوز حمل (أحببت) على ظاهره من غير اعتبار تضمينه ما يتعدى بعن وجعل عن متعلقة بمقدر كمعرضا وبعيدا وهو حال من ضمير (أحببت)، وجوز في عن كونها تعليلية وسيأتى إن شاء الله تعالى و (ذكر) مضاف إلى مفعوله وجوز أن يكون مضافا إلى فاعله. وقيل الاضافة على معنى اللام ولا يراد بالذكر المعنى المصدرى بل يراد به الصلاة فمعنى عن ذكر ربى عن صلاة ربى التي شرعها وهو كما ترى.

وبعض من جعل عن للتعليل فسر ذلك الرب بكتابه عز وجل وهو التوراة أى أحببت الخيل بسبب كتاب الله تعالى وهو التوراة فان فيه مدح ارتباطها وروى ذلك عن أبى مسلم، وقرأ أبو جعفر. ونافع. وابن كثير. وأبو عمرو (إنى أحببت) بفتح الياء ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٣٢﴾ متعلق بقوله تعالى: (أحببت) باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتوارى المخبأة بحجابها على طريق الاستعارة التبعية، ويجوز أن يكون هناك استعارة مكنية تخييلية وأياما كان فما أخرجه ابن المنذر. وابن أبى حاتم. وأبو الشيخ عن كعب، قال: الحجاب هو حجاب من ياقوت أخضر محيط بالخلائق منه اخضرت السماء، وما قيل إنه جبل دون قاف بسنة تغرب الشمس وراءه لا يخفى حاله، والناس في ثبوت جبل قاف بين مصدق ومكذب والقرافى يقول لا وجود له والية أميل وإن قال المثبتون ماقالوا، والباء للظرفية أو الاستعانة أو الملابسة، وعود الضمير إلى الشمس من غير ذكر لدلالة العشى عليها، والضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ للصافنات على ماقال غير واحد.

وظاهر كلامهم أنه للصافنات المذكور في الآية، ولعلك تختار أنه للخيل الدال عليها الحال المشاهدة أو الخير في قوله: (إنى أحببت حب الخير) لأن ردوها من تتمة مقالته عليه السلام والصافنات غير مذكورة في كلامه بل في كلام الله تعالى لنبينا ﷺ، والكلام على ماقال الزمخشرى على اضمار القول أى قال ردوها على، والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل: فماذا قال سليمان؟ فقيل قال: ردوها، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يحتاج إلى الاضمار إذ الجملة مندرجة تحت حكاية القول في قوله تعالى: (فقال إنى) الخ، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذانا بغاية سرعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى (قلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) أى فردوها عليه فطفق الخ وطفق من أفعال الشروع واسمها ضمير سليمان و (مسحا) مفعول مطلق لفعل مقدر هو خبرها أى شرع يمسح مسحا لا حال مؤول بماسحا كما جوزه أبو البقاء إذ لابد لطفق من الخبر وليس هذا مما يسد الحال فيه مسده، وقرأ زيد بن على (مساحا) على وزن قتال ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ٣٣﴾ أى بسوقها وأعناقها على أن التعريف للعهد وإن أل قائمة مقام الضمير المضاف اليه، والباء متعلقة بالمسح على معنى شرع يمسح السيف بسوقها وأعناقها، وقال: جمع هى زائدة أى شرع يمسح سوقها وأعناقها بالسيف، ومسحته بالسيف كما قال الراغب: كناية عن الضرب.

وفي الكشاف يمسح السيف بسوقها وأعناقها يقطعها تقول مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر

www.Quranpdf.blogspot.in

الكتاب إذا قطع اطرافه بسيفه، وعن الحسن كسف عراقيبها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف فى ألقاب الزحاف والعروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف، وكون المراد القطع قد دل عليه بعض الاخبار *
أخرج الطبرانى فى الاوسط . والاسمعيلى فى معجمه . وابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) قطع سوقها وأعناقها بالسيف، وقد جعلها عليه السلام بذلك قربانا لله تعالى وكان تقريب الخيل مشروعا فى دينه، ولعل كسف العراقيب ليتأتى ذبحها بسهولة، وقيل: إنه عليه السلام حبسها فى سبيل الله تعالى وكان ذلك المسح الصادر منه وسما لها لتعرف أنها خيل محبوسة فى سبيل الله تعالى وهو نظير مايفعل اليوم من الوسم بالنار ولابأس به فى شرعنا مالم يكن فى الوجه، ولعله عليه السلام رأى الوسم بالسيف أهون من الوسم بالنار فاختاره أوكان هو المعروف فى تلك الاعصار بينهم، ويروى أنه عليه السلام لما فعل ذلك سخر له الريح كرامة له، وقيل: إنه عليه السلام أراد بذلك اتلافها حيث شغلته عن عبادة ربه عز وجل وصار تعلق قلبه بها سببا لغفلته، واستدل بذلك الشبلى قدس سره على حل تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربه جل جلاله؛ وهذا قول باطل لاينبغى أن يلتفت اليه وحاشا نبى الله أن يتلف مالا محترما لمجرد أنه شغل به عن عبادة وله سبيل لأن يخرجه عن ملكه مع نفعه هو من أجل القرب اليه عز وجل على أن تلك الخيل لم يكن عليه السلام اقتناها واستعرضها بطرا وافتخارا معاذ الله تعالى من ذلك وإنما اقتناها للانتفاع بها فى طاعة الله سبحانه واستعرضها للتطلع على أحوالها ليصلح من شأنها مايحتاج إلى اصلاح وكل ذلك عبادة فغاية مايلزم أنه عليه السلام نسى عبادة لشغله بعبادة أخرى فاستدلال الشبلى قدس سره غير صحيح، وقد نبه أيضا على عدم صحته عبدالوهاب الشعرانى من السادة الصوفية فى كتابه اليواقيت والجواهر فى عقائد الاكابر ولكن بحمل الآية على محمل آخر، وماذكرناه فى محملها وتفسيرها هو المشهور بين الجمهور ولهم فيها كلام غير ذلك فقيل ضمير (ردوها) للشمس والخطاب للملائكة عليهم السلام الموكلين بها، قالوا: طلب ردها لما فاته صلاة العصر لشغله بالخيل فردت له حتى صلى العصر، وروى هذا القول عن على كرم الله تعالى وجهه قال الخفاجى. والطبرسى. وتعقب ذلك الرازى بأن القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على دون (ردوها) بضمير الجمع، فان قالوا: هو للتعظيم كما فى (رب ارجعون) قلنا. لفظ ردوها مشعر بأعظم أنواع الاهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم، وأيضا إن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعى على نقله وحيث لم ينقله أحد علم فساده *
والذى يقول برد الشمس لسليمان يقول هو كردها ليوشع وردها لنبينا ﷺ فى حديث العير ويوم الخندق حين شغل عن صلاة العصر وردها لعلى كرم الله تعالى وجهه ورضى عنه بدعائه عليه الصلاة والسلام، فقد روى عن أسماء بنت عميس أن النبى ﷺ كان يوحى اليه ورأسه فى حجر على كرم الله تعالى وجهه فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال رسول الله ﷺ: صليت ياعلى؟ قال: لا فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس قالت اسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ماغربت ووقعت على الارض وذلك بالصهباء فى خيبر، وهذا الخبر فى صحته خلاف فقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، وقال إنه موضوع

www.Quranpdf.blogspot.in

بلا شك وفى سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب كما قاله الدارقطنى ، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث ، وقال ابن الجوزي: قد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: وهذا حديث باطل ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة ولم يلمح عدم الفائدة فيها وأن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاء ورجوع الشمس لايعيدها أداء انتهى . وقد أفرد ابن تيمية تصنيفا فى الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع ، وقال الامام أحمد: لاأصل له ، وصححه الطحاوى والقاضى عياض ، ورواه الطبرانى فى معجمه الكبير باسناد حسن كما حكاه شيخ الاسلام ابن العراقى فى شرح التقريب عن أسماء أيضا لكن بلفظ آخر ورواه ابن مردويه عن أبى هريرة وكان أحمد بن صالح يقول: لاينبغى لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة ، وكذا اختلف فى حديث الرد يوم الخندق فقيل ضعيف ، وقيل: موضوع ، وادعى العلامة ابن حجر الهيتمى صحته ، ومافى حديث العير وأظن أنهم اختلفوا فى صحته أيضا ليس صريحا فى الرد فان لفظ الخبر أنه لما أسرى بالنبى ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير قالوا: متى يجىء؟ قال: يوم الاربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم يجىء فدعا رسول الله ﷺ فزيد له فى النهار ساعة وحبست عليه الشمس والحبس غير الرد ولو كان هناك رد لأدركه قريش ولقالوا فيه ماقالوا فى انشقاق القمر ولم ينقل ، وقيل : كأن ذلك كان بركة فى الزمان نحو مايذكره الصوفية مما يعبرون عنه بنشر الزمان ولمن لم يتعقله الكثير وكذا ماكان ليوشع عليه السلام فقد جاء فى الحديث الصحيح لم تحبس الشمس على أحد الا ليوشع ابن نون والقصة مشهورة وهذا الحديث الصحيح عند الكل يعارض جميع ماتقدم ، وتأويله بأن المراد لم تحبس على أحد من الانبياء غيرى الا ليوشع أو بالتزام أن المتكلم غير داخل فى عموم كلامه بعد تسليم قبوله لا ينفى معارضته خبر الرد لسليمان عليه السلام فانه بظاهره يستدعى نفى الرد الذى هو أعظم من الحبس له عليه السلام ه

وبالجملة القول برد الشمس لسليمان عليه السلام غير مسلم ، وعدم قولى بذلك ليس لامتناع الرد فى نفسه كما يزعمه الفلاسفة بل لعدم ثبوته عندى ، والذوق السليم يأبى حمل الآية على ذلك لنحو ماقال الرازى ولغيره من تعقيب طلب الرد بقوله تعالى (فطفق) الخ ثم ماقدمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الرد قضاء هو ماذهب اليه البعض ه

وفى تحفة العلامة ابن حجر الهيتمى لو عادت الشمس بعد الغروب عاد الوقت كما ذكره ابن العماد ، وقضية كلام الزركشى خلافه وأنه لو تأخر غروبها عن وقته المعتاد قدر غروبها عنده وخرج الوقت وإن كانت موجودة انتهى كلام الزركشى ، وماذكره آخرا بعيد وكذا أولا فالاوجه كلام ابن العماد ولا يضر كون عودها معجزة له ﷺ لأن المعجزة نفس العود وأما بقاء الوقت بعودها فحكم الشرع ومن ثم لما عادت صلى على كرم الله تعالى وجهه العصر اداء بل عودها لم يكن الا لذلك انتهى ه

ولا يحضرنى الآن مالأصحابنا الحنفية فى ذلك بيد أنى رأيت فى حواشى تفسير البيضاوى لشهاب الدين الخفاجى وهو من أجلة الاصحاب ادعاء أن الظاهر أن الصلاة بعد الرد أداء ثم قال : وقد بحث الفقهاء فيه بحثا طويلا ليس هذا محله ، وقيل ضمير (توارت) للخيل كضمير (ردوها) واختاره جمع فقيل الحجاب اصطبلاتها أى حتى دخلت اصطبلاتها ، وقيل حتى توارت فى المسابقة بما يحجبها عن النظر ، وبعض من قال بارجاع الضمير للخيل جعل عن للتعليل ولم يجعل المسح بالسوق والاعناق بالمعنى السابق فقالت طائفة : عرض على سليمان

www.Quranpdf.blogspot.in

الخيل وهو في الصلاة فأشار إليهم إني في صلاة فأزالوها عنه حتى دخلت في الاصطبلات فقال لما فرغ من صلاته: (إني أحببت حب الخير) أي الذي لي عند الله تعالى في الآخرة بسبب ذكر ربي كأنه يقول فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت اصطبلاتها ردوها علي فطفق يمسح أعرافها وسوقها محبة لها وتكريما. وروي أن المسح كان لذلك عن ابن عباس. والزهري. وابن كيسان ورجحه الطبري، وقيل كان غسلا بالماء ولا يخفى أن تطبيق هذه الطائفة الآية على مايقولون ركيك جدا.

وقال الرازي: قال الأكثرون إنه عليه السلام فاته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى الخيل فاستردها وعقر سوقها وأعناقها تقربا إلى الله تعالى، وعندي أنه بعيد ويدل عليه وجوه، الأول أنه لو كان مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى (وامسحوا برؤسكم) اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه ذلك البتة، الثاني أن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان أنواعا من الأفعال المذمومة، فأولها ترك الصلاة، وثانيها أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة» وثالثها أنه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة، ورابعها على القول برجوع ضمير (ردوها) إلى الشمس أنه خاطب رب العالمين بكلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل سوقها وأعناقها وقد ورد النهي عن ذبح الحيوان إلا لأكله. فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لا يدل على شيء منها، وسادسها أن ذكر هذه القصة وكذا التي قبلها بعد أمره بالصبر على سفاهة الكفار يقتضي أن تكون مشتملة على الأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة والصبر على طاعة الله تعالى والاعراض عن الشهوات واللذات وأما اشتمالها على الاقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة فبمراحل عن مقتضى التعقيب فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد. والصواب أن يقال: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين نبينا ﷺ ثم أن سليمان احتاج إلى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه وهو المراد من قوله (عن ذكر ربي) ثم أنه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور.

الأول تشريف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، والثاني أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض، فهذا التفسير الذي ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا موافقا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام، ثم قال: وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا ماشاع من الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردانها وليس لهم في اثباتها شبهة فضلا عن حجة ولفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهورا لا يرتاب العاقل فيه، وبفرض الدلالة يقال: إن الدلائل الكثيرة

www.Quranpdf.blogspot.in

قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة تلك الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم انتهى كلامه *

وكان عليه الرحمة قد اعترض القول برجوع ضمير (توارت) إلى الشمس دون الصافنات بأن الصافنات مذكورة بصريحها والشمس ليست كذلك وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر، وأيضا أنه (قال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) وظاهره يدل على أنه كان يعيد ويكرر قوله إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى إلى أن توارت بالحجاب فاذا كانت المتوارية الشمس يلزم القول بأنه كرر ذلك من العصر إلى المغرب وهو بعيد، وإذا كانت الصافنات كان المعنى أنه حين وقع بصره عليها حال عرضها كان يقول ذلك إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب، وأيضا القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر ويأباه أنى أحببت الخ لأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله تعالى لما نسى الصلاة ولما ترك ذكر الله عز وجل، وأقول: ما عند الجمهور أولى بالقبول وما ذكره عليهم من الوجوه لا يلتفت إليه ولا يعول عليه * أما ما قاله من أنه لو كان مسح السوق والأعناق بمعنى القطع لكان امسحوا برؤسكم أمراً بقطعها ففيه أن هذا إنما يتم لو قيل إن المسح كلما ذكر بمعنى القطع ولم يقل ولا يقال وإنما قالوا: إن المسح فى الآية بمعنى القطع وقد قال بذلك رسول الله ﷺ كما جاء فى خبر حسن وقد قدمناه لك عن الطبرانى والاسمعيلى. وابن مردويه وليس بعد قوله عليه الصلاة والسلام قول لقائل، ويكفى مثل ذلك الخبر فى مثل هذا المطلب إذ ليس فيه ما يخالف العقل أو نقلا أقوى كما ستعرفه إن شاء الله تعالى *

وقد ذكر هذا المعنى للمسح الزمخشرى أيضا وهو من أجلة علماء هذا الشأن، وصح نقله عن جماعة من السلف، وقال الخفاجى: استعمال المسح بمعنى ضرب العنق استعارة وقعت فى كلامهم قديما، نعم احتياج ذلك للقرينة مما لا شبهة فيه، والقرينة عند من يدعيه ههنا السياق وعود ضمير (توارت) على الشمس وهو كالمتعين كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى *

وأما قوله: انهم جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة فقرية من غير مرية. وقوله: أولها ترك الصلاة فيه أن الترك المذموم ما كان عن عمد وهم لا يقولون به وما يقولون به الترك نسيانا وهو ليس بمذموم إذ النسيان لا يدخل تحت التكليف على أن كون ما ترك فرضا مما لم يجزم به الجميع، وقوله: ثانيها أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث ترك الصلاة، فيه أن ذلك اشتغال بخيل الجهاد وهو عبادة *

وقوله: ثالثها أنه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة، فيه أنا لا نسلم أنه عليه السلام ارتكب ذنبا حقيقة فضلا عن كونه عظيما، نعم ربما يقال: إنه عليه السلام لم يستحسن ذلك بمقامه فاتبعه التقرب بالخيل التى شغل بسببها وذلك يدل على التوبة دلالة قوية ولم يكن ليتعطل أمر الجهاد به فقد أوتى عليه السلام غير ذلك على أن كون ما ذكر كالاستشهاد على قوله تعالى (إنه أواب) مشعر بتضمنه الأوبة وإن ذهبنا إلى تعلق (إذ عرض) بأواب يكاد لا يرد هذا الكلام رأسا *

وقوله: رابعها أنه خاطب ربه عز وجل بلفظ غير مناسب، فيه أنه إن ورد فانما يرد على القول برجوع ضمير (ردوها) إلى الشمس ونحن لا نقول به فلا يلزمنا الجواب عنه، والذى نقوله: إن الضمير للخيل والخطاب

www.Quranpdf.blogspot.in

لخدمته ومع هذا لم يقل تلك الكلمة تهوراً وتجبراً كما يتوهم، وقوله: خامسها أنه اتبع هذه المعاصى بعقر الخيل وقد ورد النهى الخ، فيه أنه عليه السلام لم يفعل معصية ليقال اتبع هذه المعاصى وأن الخيل عقرت قربانا وكان تقريبها مشروعا فى دينه فهو طاعة، ومن مجموع ماذكرنا يعلم مافى قوله سادسها الخ على أنه قد تقدم لك وجه ربط هذه القصص بماقبلها وهو لايتوقف على التزام ماقاله فى هذه القصة ومازعمه من أنه الصواب ففيه إرجاع ضمير توارت إلى الخيل، ولايخفى على ذى ذوق سليم وطبع مستقيم أن توارى الخيل بالحجاب عبارة ركيكة يجل عنها الكتاب المتين، وفيه أيضا أنه لايكاد ينساق إلى الذهن متعلق (حتى توارت) الذى أشار إليه فى تقرير مازعم صوابيته وتعلقه بقال على مايشير إليه كلامه المنقول آخراً مما يستبعد جدا فان الظاهر أن قوله: (حتى توارت بالحجاب) من المحكى كالذى قبله والذى بعده لامن الحكاية، وأيضا كون الرد للمسح الذى ذكره خلاف ماجاء فى الخبر الحسن وهو فى نفسه بعيد، والأغراض التى ذكرها فيه لايخفى حالها، ودعواه أن هذا التفسير هو الذى ينطبق عليه لفظ القرآن مما لايتم لها دليل ولعل الدليل على عدم الانطباق ظاهر *

وقوله: أنا شديد التعجب من الناس الخ أقول فيه: أنا تعجبى منه أشد من تعجبه من الناس حيث خفى عليه حسن الوجه الذى استحسنه الجمهور ولم يطلع على ماورد فيه من الأخبار الحسان وظن أن القول به مناف القول بعصمة الأنبياء عليهم السلام حتى قال ماقال ورشق على الجمهور النبال، وقوله فى ترجيح رجوع ضمير (توارت) إلى (الصافنات) على رجوعه إلى الشمس انها مذكورة بصريحها دون الشمس ليس بشىء فان رجوعه إلى الشمس يجعل الكلام ركيكا فلا ينبغى ارتكابه لمجرد أن فيه رجوع الضمير إلى مذكور صريحا على أن فى كونه راجعا إلى الصافنات المذكورة صريحا بحثا، ولا يرد على الجمهور لزوم تخالف الضمائر فى المرجع وهو تفكيك لأن التخالف مع القرينة لاضير فيه، وأعجب مما ذكر زعمه أنه يلزم على ماقال الجمهور أن سليمان عليه السلام كرر قوله (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) من العصر إلى المغرب فان الجمهور ماحاموا حول مايلزم منه ذلك أصلا إذ لم يقل أحد منهم بأن حتى متعلقة بقال كما زعم هو بل هى عندهم متعلقة بأحببت على المعنى الذى أسلفناه، ومن أنصف لايرتضى أيضا القول بانه عليه السلام كرر ذلك القول إلى أن غابت الخيل عن عينه كما قال به هذا الامام، ويرد على قوله القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر ويأباه (إنى أحببت) الخ. لأن تلك المحبة لوكانت عن ذكر الله تعالى لما نسى الصلاة أن الجمهور لايقولون بأن على للتعليل والاباء المذكور على تقدير تسليمه لايتسنى إلا على ذلك ومايقولونه وقد أسلفناه لك بمراحل عنه

وبالجملة قد اختلت أقوال هذا الامام فى هذا المقام ولم ينصف مع الجمهور وهم أعرف منه بالمأثور، نعم ماذكره فى الآية وجه ممكن فيها على بعد إذا قطع النظر عن الاخبار وما جاء عن السلف من الآثار، وقد ذكر نحوه عبدالوهاب الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر وهو فى الحقيقة والله تعالى أعلم من كلام الشيخ الأكبر محيى الدين قدس سره وقد خالف الجمهور كالامام، قال فى الباب المائة والعشرين من الفتوحات: ليس للمفسرين الذين جعلوا التوارى للشمس دليل فان الشمس ليس لها هنا ذكر ولا للصلاة التى يزعمون ومساق الآية لايدل على ماقالوه بوجه ظاهر البتة، وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله تعالى: (ولقد فتنا سليمان) فالمراد بتلك الفتنة إنما هو الاختبار بالخيل هل يحبها عن ذكر ربه تعالى لها أو يحبها لعينها فأخبر عليه السلام عن نفسه

www.Quranpdf.blogspot.in

أنه أحبها عن ذكر ربه سبحانه اياها لا لحسنها وكمالها وحاجته اليها إلى آخر ماقال، وقدكان قدس سره معاصرا للامام وكتب اليه رسالة يرغبه فيها بسلوك طريقة القوم ولم يجتمعا ، وغالب الظن أنه لم يأخذ أحدهما من الآخر ما قال فى الآية بل لم يسمعه وعلم كل منهما لا ينكر والشيخ بحر لايدرك قعره، وماذكره فى الاسترواح مما لم أقف عليه لأحد من المفسرين والله تعالى أعلم . وقرأ ابن كثير (بالسؤق) بهمزة ساكنة قال أبو على: وهى ضعيفة لكن وجهها فى القياس أن الضمة لما كانت تلى الواو قدر أنها عليها كما يفعلون بالواو المضمومة حيث يبدلونها همزة ، ووجهها من القياس أن أباحية النميرى كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة وكان ينشده أحب الوافدين إلى مؤسى * وقال أبو حيان : ليست ضعيفة لأن الساق فيه الهمزة فوزنه فعل بسكون العين فجاءت هـــذه القراءة على هذه اللغة . وتعقب بأن همز الساق ابدال على غير القياس إذ لا شبهة فى كونه أجوف فلا بد من التوجيه بما تقدم . وقرأ ابن محيصن (بالسؤوق) بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة بوزن الفسوق، ورواها بكار عن قنبل وهو جمع ساق أيضا . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (بالساق) مفردا اكتفى به عن الجمع لأمن اللبس ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ ﴾ أظهر ماقيل فى فتنته عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا وفيه «فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا» لكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين وأن الملك قال له: قل إن شاء الله فلم يقل وغايته ترك الأولى فليس بذنب وان عده هو عليه السلام ذنبا ، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولد له ، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع القابلة له عليه ليراه *

وروى الامامية عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه أنه ولد لسليمان ابن فقالت الجن والشياطين: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء فأشفق عليه السلام منهم فجعله وظئره فى السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقى على كرسيه ميتا تنبيها على أن الحذر لا ينجى من القدر وعوتب على تركه التوكل اللائق بالخواص من ترك مباشرة الأسباب ، وروى ذلك عن الشعبى أيضا ، ورواه بعضهم عن أبى هريرة على وجه لا يشك فى وضعه إلا من يشك فى عصمة الأنبياء عليهم السلام، وأنا فى صحة هذا الخبر لست على يقين بل ظاهر الآية أن تسخير الريح بعد الفتنة وهو ظاهر فى عدم صحة الخبر لأن الوضع فى السحاب يقتضى ذلك *

وأخرج عبد بن حميد . والحكيم الترمذى من طريق على بن زيد عن سعيد بن المسيب أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة ايام فأوحى الله تعالى اليه أن ياسليمان احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمور عبادى ولم تنصف مظلوما من ظالم وكان ملكه فى خاتمه وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاء الشيطان فاخذه فاقبل الناس على الشيطان فقال سليمان : ياأيها الناس أنا سليمان نبى الله تعالى فدفعوه فساح أربعين يوما فأتى أهل سفينة فاعطوه حوتا فشقها فاذا هو بالخاتم فيها فتختم به ثم جاء فاخذ بناصيته فقال عند ذلك: (رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) *

وأخرج النسائى . وابن جرير . وابن أبى حاتم قال ابن حجر . والسيوطى بسند قوى عن ابن عباس أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فاعطى لجرادة خاتمه وكانت امرأته وكانت أحب نسائه اليه فجاء الشيطان

www.Quranpdf.blogspot.in

فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى فاعطته فلما لبسه دانت الانس والجن والشياطين فلما خرج سليمان قال لها: هاتى خاتمى قالت: قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت لست سليمان فجعل لا يأتى أحداً فيقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله تعالى وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تعالى أن يرد عليه سلطانه ألقى فى قلوب الناس انكار ذلك الشيطان فارسلوا إلى نساء سليمان فقالوا: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم إنه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فامر الشياطين فكتبوا كتبا فيها سحر ومكر فدفنوها تحت كرسى سليمان ثم أثاروها وقرؤها على الناس وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فا كفر الناس سليمان وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه فى البحر فتلقته سمكة فاخذته وكان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة، فدعا سليمان فحمل معه السمك إلى باب داره فاعطاه تلك السمكة فشق بطنها فاذا الخاتم فيه فاخذه فلبسه فدانت له الإنس والجن والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان إلى جزيرة فى البحر فارسل فى طلبه وكان مريدا فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائما فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فاوثقوه وجاؤا به إلى سليمان فامر فنقر له صندوق من رخام فادخل فى جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح فى البحر. وذكر فى سبب ذلك أنه عليه السلام كان قد غزا صيدون فى الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته وهى جرادة المذكورة فاحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها فامر الشياطين فمثلوا لها صورته وكان ذلك جائزا فى شريعته وكانت تغدو اليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن فى ملكه فاخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة فعوتب بذلك حيث تغافل عن حال أهله. واختلف فى اسم ذلك الشيطان فعن السدى أنه حبقيق؛ وعن الأكثرين أنه صخر وهو المشهور، وإنما قال سبحانه: (جسدا) لأنه إنما تمثل بصورة غيره وهو سليمان عليه السلام وتلك الصورة المتمثلة ليس فيها روح صاحبها الحقيقى وإنما حل فى قالبها ذلك الشيطان فلذا سميت جسدا وعبارة القاموس صريحة فى أن الجسد يطلق على الجنى *

وقال أبو حيان وغيره: إن هذه المقالة من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية ولا ينبغى لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبى حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبى، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بارسال نبى نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض الله أكبر هذا بهتان عظيم وخطب جسيم ونسبة الخبر إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تسلم صحتها، وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده إليه وإن قال بها من سمعت *

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق. وابن المنذر ما هو ظاهر فى أن ذلك من أخبار كعب ومعلوم أن كعبا يرويه عن كتب اليهود وهى لا يوثق بها على أن اشعار ما يأتى بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبى صحة هذه المقالة كما لا يخفى، ثم ان أمر خاتم سليمان عليه السلام فى غاية الشهرة بين الخواص والعوام ويستبعد جداً أن يكون الله تعالى قد ربط ما أعطى نبيه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم وعندى أنه لو كان فى ذلك الخاتم السر الذى يقولون لذكره الله عز وجل فى كتابه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال *

وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضا كالاغماء حتى صار على كرسيه كأنه جسد بلا روح وقد شاع

www.Quranpdf.blogspot.in

قولهم فى الضعيف :لحم على وضم وجسد بلاروح فالجسد الملقى على الكرسى هو عليه السلام نفسه ٭
وروى ذلك عن أبى مسلم وقال فى قوله تعالى : (ثم أناب) أى رجع إلى الصحة (وجعل جسداً) حالا من مفعول ألقينا المحذوف كأنه قيل ولقد فتنا سليمان أى ابتليناه وأمرضناه وألقيناه على كرسيه ضعيفاً كأنه جسد بلاروح ثم رجع إلى صحته ،ولا يخفى سقمه،والحق ماذكر أولا فى الحديث المرفوع ،وعطف (أناب) بثم وكان الظاهر الفاء كما فى قوله تعالى (واستغفر ربه) قيل إشارة إلى استمرار إنابته وامتدادها فان الممتد يعطف بها نظرا لأواخره بخلاف الاستغفار فانه ينبغى المسارعة إليه ولا امتداد فى وقته، وقيل: ان العطف بثم هنا لما أنه عليه السلام لم يعلم الداعى إلى الانابة عقيب وقوعه وهذا بخلاف ما كان فى قصة داود عليه السلام فان العطف هناك على ظن الفتنة واللائق به أن لا يؤخر الاستغفار عنه ، وقيل: العطف بها هنا لما إن بين زمان الانابة وأول زمان ماوقع منه عليه السلام من ترك الاستثناء مدة طويلة وهى مدة الحمل وليس بين زمان استغفار داود عليه السلام وأول زمان ماوقع منه كذلك ٭﴿قَالَ﴾ بدل من (أناب) وتفسير له على ما فى إرشاد العقل السليم وهو الظاهر. ويمكن أن يكون استئنافا بيانيا نشأ من حكاية ماتقدم كأنه قيل فهل كان له حال لا يضر معه مسح الخيل سوقها وأعناقها وهل كان بحيث تقتضى الحكمة فتنته ؟ فأجيب بماأجيب وحاصله نعم كان له حال لا يضر معه المسح وكان بحيث تقتضى الحكمة فتنته فقد دعا بملك عظيم فوهب له،ويمكن ان يقرر الاستئناف على وجه آخر ، وكذا يمكن أن يكون استئنافا نحويا لحكاية شىء من أحواله عليه السلام فتأمل ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى﴾ مالم أستحسن صدوره عنى ٭

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى﴾ أى لا يصح لأحد غيرى لعظمته فبعد هنا نظير ما فى قوله تعالى: (فمن يهديه من بعد الله) أى غير الله تعالى، وهو أعم من أن يكون الغير فى عصره ،والمراد وصف الملك بالعظمة على سبيل الكناية كقولك لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال وربما كان فى الناس أمثاله تريد أن له من ذلك شيئا عظيما لا أن لا يعطى أحد مثله ليكون منافسة ، وماأخرج عبد بن حميد . والبخارى . ومسلم. والنسائى . والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن عفريتا جعل يتفلت على البارحة ليقطع على صلاتى وإن الله تعالى أمكننى منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرده الله تعالى خاسئا » لا ينافى ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كمال رعاية دعوة أخيه سليمان عليه السلام بترك شىء تضمنه ذلك الملك العظيم وإلا فالملك العظيم ليس مجرد ربط عفريت إلى سارية بل هو سائر ماتضمنه قوله تعالى الآتى (فسخرنا له الريح) الخ .وقيل :إن عدم المنافاة لأن الكناية تجامع إرادة الحقيقة كما تجامع إرادة عدمها، ولعله إنما طلب عليه السلام ذلك ليكون علامة على قبول سؤاله المغفرة وجبر قلب عما فاته بترك الاستثناء أو ليتوصل به إلى تكثير طاعته لله عز وجل ونعمة الدنيا الصالحة للعبد الصالح فلا إشكال فى طلب الملك فى هذا المقام إذا قلنا بما يقتضيه ظاهر النظم الجليل من صدور الطلبين معاً ٭
وقال الزمخشرى: كان سليمان عليه السلام ناشئا فى بيت الملك والنبوة ووارثا لهما فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب على حسب إلفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الاعجاز ليكون

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك دليلا على نبوته قاهرا للمبعوث إليهم ولن تكون معجزة حتى تخرق العادات فذلك معنى (لا ينبغى لأحد من بعدى) فقوله من بعدى بمعنى من دونى وغيرى كما فى الوجه السابق، وحسن طلب ذلك معجزة مع قطع النظر عن الألف أنه عليه السلام كان زمن الجبارين وتفاخرهم بالملك ومعجزة كل نبي من جنس مااشتهر فى عصره، ألا ترى أنه لما اشتهر السحر وغلب فى عهد الكليم عليه السلام جاءهم بما يتلقف ماأتوا به. ولما اشتهر الطب فى عهد المسيح عليه السلام جاءهم بابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولما اشتهر فى عهد خاتم الرسل ﷺ الفصاحة أتاهم بكلام لم يقدروا على أقصر فصل من فصوله. واعترض بأن اللائق بطلب المعجزة أن يكون فى ابتداء النبوة وظاهر النظم الجليل أن هذا الطلب كان بعد الفتنة والانابة كيف لا وقوله تعالى (قال) الخ بدل من (أناب) وتفسير له والفتنة لم تكن فى الابتداء كما يشعر به النظم. وأجيب بانا لا نسلم أن اللائق بطلب المعجزة كونها فى ابتداء النبوة وإن سلم فليس فى الآية ماينافى وقوعه، وكذا وقوع الفتنة فى ابتدائها لاسيما إن قلنا: إن قوله تعالى (قال رب اغفرلى) الخ ليس تفسيراً لأناب. وأجيب على القول بأن الفتنة كانت سلب الملك بأن رجوعه بعد كالابتداء *

وذكر بعض الذاهبين إلى ذلك أنه عليه السلام أقام فى ملكه قبل هذه الفتنة عشرين سنة وأقام بعدها عشرين سنة أيضا وقالوا فى هذه الآية: إن مصب الدعاء الوصف فمعنى الآية هب لى ملكا لا ينبغى لأحد غيرى ممن هو فى عصرى بان يسلبه منى كهذه السلبة *

وروى هذا المعنى عن عطاء بن أبى رباح. وقتادة، وحاصله الدعاء بعدم سلب ملكه عنه فى حياته، ويفهم مما فى سياق التفريع إجابة سؤاله عليه السلام وأن ماوهب له لايسلب عنه بعد. وجوز أن يكون هذا دعاء بعدم السلب وإن لم يتقدم سلب ودوام نعمة لله عز وجل مما يحسن الدعاء به والآثار ملأى من ذلك فهذا الوجه لا يتعين بناؤه على تفسير الفتنة بسلب الملك على ماحكى سابقا *

وقال الجبائى: إنه عليه السلام طلب ملكا لا يكون لغيره أبدا ولم يطلب ذلك إلا بعد الاذن فان الأنبياء عليهم السلام لا يطلبون إلا مايؤذن لهم فى طلبه وجائز أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه إن سأل ذلك كان أصلح له فى الدين وأعلمه أن لاصلاح لغيره فيه وهو نظير قول القائل: اللهم اجعلنى أكثر أهل زمانى مالا إذا علمت أن ذلك أصلح لى فانه حسن لا ينسب قائله إلى شح اه. قيل ويجوز أن يكون معنى الآية عليه هب لى ملكا ينبغى لى حكمة ولا ينبغى حكمة لأحد غيرى وأراد بذلك طلب أن يكون عليه السلام متأهلا لنعم الله عز وجل وهو كما ترى. وقيل غير ذلك، ومن أعجب مارأيت ماقاله السيد المرتضى: إنه يجوز أن يكون إنما سأل ملك الآخرة وثواب الجنة ويكون معنى قوله (لا ينبغى لأحد من بعدى) لا يستحقه بعد وصوله اليه من حيث لايصح أن يعمل مايستحق به ذلك لانقطاع التكليف، ولايخفى أنه مما لا يرتضيه الذوق والتفريع الآتى آب عنه كل الاباء، واستدل بعضهم بالآية على بعض الأقوال المذكورة فيها على تكفير من ادعى استخدام الجن وطاعتهم له وأيد ذلك بالحديث السابق، والحق أن استخدام الجن الثابت لسليمان عليه السلام لم يكن بواسطة أسماء ورياضات بل هو تسخير إلهى من غير واسطة شىء وكان أيضا على وجه أتم وهو مع

www.Quranpdf.blogspot.in

ذلك بعض الملك الذى استوهبه فالمختص على تقدير إفادة الآية الاختصاص مجموع ماتضمنه قوله تعالى : (فسخرنا) الخ فالظاهر عدم إكفار من يدعى استخدام شىء من الجن ، ونحن قد شاهدنا مرارا من يدعى ذلك وشاهدنا آثار صدق دعواه على وجه لا ينكره الاسوفسطائى أو مكابر ٭

ومن الاتفاقيات الغريبة انى اجتمعت يوم تفسيرى لهذه الآية برجل موصلى يدعى ذلك وامتحنته بما يصدق دعواه فى محفل عظيم ففعل وأتى بالعجب العجاب ، وكانت الأدلة على نفى احتمال الشعبذة ونحوها ظاهرة لذوى الألباب إلا أن لى إشكالا فى هذا المقام وهو أن الخادم الجنى قد يحضر الشىء الكثيف من نحو صندوق مقفل بين جمع فى حجرة أغلقت أبوابها وسدت منافذها ولم يشعر به أحد ، ووجه الاشكال أن الجنى لطيف فكيف ستر الكثيف فلم ير فى الطريق وكيف أخرجه من الصندوق وأدخله الحجرة وقد سددت المنافذ ، وتلطف الكثيف ثم تكثفه بعدما لا يقبله إلا كثيف أو سخيف ، ومثل ذلك كون الاحضار المذكور على نحو احضار عرش بلقيس بالاعدام والايجاد كما يقوله الشيخ الأكبر أو بوجه آخر كما يقول غيره ، ولعل الشرع أيضا يأبى هذا ، وسرعة المرور ان نفعت فى عدم الرؤية فى الطريق ، وقصارى مايقال لعل للجنى سحرا أو نحوه سلب به الاحساس فتصرف بالصندوق ومنافذ الحجرة حسبما أراد وأتى بالكثيف يحمله ولم يشعر به أحد من الناس فان تم هذا فبها وإلا فالأمر مشكل ، وظاهر جعل جملة (قال رب اغفر لى) تفسيرا للانابة يقتضى أن الاستغفار مقصود لذاته لا وسيلة للاستيهاب ، وفى كون الاستيهاب مقصودا لذاته أيضا احتمالان ٭

وتقديم الاستغفار على تقدير كونهما مقصودين بالذات لمزيد اهتمامه بامر الدين وقد يجعل مع هذا وسيلة للاستيهاب المقصود أيضا فان افتتاح الدعاء بنحو ذلك أرجى للاجابة ، وجوز على بعد بعد التزام الاستئناف ، فى الجملة كون الاستيهاب هو المقصود لذاته والاستغفار وسيلة له ، وسيجىء إن شاء الله تعالى ماقيل فى الاستئناس له ٭

وقرىء (من بعدى) بفتح الياء وحكى القراءة به فى لى ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥ ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً لا للدعاء بالأخيرة فقط فان المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية قطعا ، ومن جوز كون الاستيهاب هو المقصود استأنس له بهذا التعليل ظنا منه أنه للدعاء بالأخيرة فقط وكذا بعدم التعرض لاجابة الدعاء بالأولى فان الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ إلى آخره تفريع على طلبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ولو كان الاستغفار مقصودا أيضا لقيل فغفرنا له وسخرنا له الريح الخ . وأجيب بانه يجوز أن يقال : إن المغفرة لمن استغفر لاسيما الأنبياء عليهم السلام لما كانت أمرا معلوما بخلاف هبة ملك لمن استوهب لم يصرح بها واكتفى بدلالة ماذكر فى حيز الفاء مع مافى الآية بعد على ذلك ، وتقوى هذه الدلالة على تقدير أن يكون طلب الملك علامة على قبول استغفاره وإجابة دعائه فتأمل ، والتسخير التذليل أى فذللناها لطاعته اجابة لدعوته ، وقيل أدمنا تذليلها كما كان وقرأ الحسن . وأبو رجاء . وقتادة . وأبو جعفر (الرياح) بالجمع قيل : وهو أوفق لما شاع من أن الريح تستعمل فى الشر والرياح فى الخير ، وقد علمت أن ذلك ليس بمطرد ، وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ بيان لتسخيرها له عليه السلام أو حال أى جارية بأمره ﴿ رُخَاءً ﴾ أى لينة من الرخاوة لا تحرك لشدتها . واستشكل هذا بانه ينافى قوله تعالى : (ولسليمان الريح عاصفة) لوصفها ثمت بالشدة وهنا باللين ٭

وأجيب بأنها كانت فى أصل الخلقة شديدة لكنها صارت لسليمان لينة سهلة أو انها تشتد عند الحمل وتلين

www.Quranpdf.blogspot.in

عند السير فوصفت باعتبار حالين أو أنها شديدة فى نفسها فاذا أراد سليمان عليه السلام لينها لانت على ما يشير اليه قوله تعالى : (بأمره) أو انها تلين وتعصف باقتضاء الحال، وقال ابن عباس . والحسن . والضحاك: رخاء مطيعة لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد ، فالمراد بلينها انقيادها له وهو لا ينافى عصفها، واللين يكون بمعنى الاطاعة وكذا الصلابة تكون بمعنى العصيان ﴿حَيْثُ أَصَابَ ٣٦﴾ أى قصد وأراد كما روى عن ابن عباس. والضحاك . وقتادة، وحكى الزجاج عن العرب أصاب الصواب فاخطأ الجواب، وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج اليهما فقال: أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله تعالى بك خيرا، وأنشد الثعلبي :

أصاب الكلام فلم يستطع فاخطا الجواب لدى المعضل

وعن قتادة أن أصاب بمعنى أراد لغة هجر وقيل لغة حمير، وجوز أن يكون أصاب من صاب يصوب بمعنى نزل، والهمزة للتعدية أى حيث أنزل جنوده. وحيث متعلقة بسخرنا أو بتجرى ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ بدل من (الشياطين) وهو بدل كل من كل ان أريد المعهودون المسخرون أو أريد من له قوة البناء والغوص والتمكن منهما أو بدل بعض ان لم يرد ذلك فيقدر ضمير أى منهم والغوص لاستخراج الحلية وهو عليه السلام على ما قيل أول من استخرج الدر ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨﴾ عطف على (كل) لا على (الشياطين) لأنهم منهم إلا أن يراد العهد ولا على ما أضيف اليه (كل) لأنه لا يحسن فيه إلا الاضافة إلى مفرد منكر أو جمع معرف، والأصفاد جمع صفد وهو القيد فى المشهور، وقيل الجامعة أعنى الغل الذى يجمع اليدين إلى العنق قيل وهو الأنسب بمقرنين لأن التقرين بها غالبا ويسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول على كرم الله تعالى وجهه: من برك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك، وقول القائل : غل يدا مطلقها وفك رقبة معتقها، وقال أبو تمام :

همى معلقة عليك رقابها مغلولة إن العطاء إسار

وتبعه المتنبي فى قوله : وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

وفرقوا بين فعليهما فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعده وأوعده. ولهم فى ذلك كلام طويل قال فيه الخفاجي ما قال ثم قال : والتحقيق عندى أن ههنا مادتين فى كل منهما ضار ونافع وقليل اللفظ وكثيره وقد ورد فى إحداهما الضار بلفظ قليل مقدم والنافع بلفظ كثير مؤخر وفى الأخرى عكسه ووجهه فى الأول انه أمر واقع لأنه وضع للقيد ثم أطلق على العطاء لأنه يقيد صاحبه وعبر بالأقل فى القيد لضيقه المناسب لقلة حروفه وبالأكثر فى العطاء لأنه من شأن الكرم. وقدم الأول لأنه أصل أخف وعكس ذلك فى وعد وأوعد فعبر فى النافع بالأقل وقدم وأخر الضار وكثر حروفه لأنه مستقبل غير واقع والخير الموعود به يحمد سرعة انجازه وقلة مدة وقوعه فان أهنا البر عاجله وهذا يناسب قلة حروفه وفى الوعيد يحمد تأخيره لحسن الخلف والعفو عنه فناسب كثرة حروفه ثم قال: وهذا تحقيق فى غاية الحسن وما عداه وهم فارغ فاعرفه والمراد بهؤلاء المقرنين المردة فتفيد الآية تفصيل الشياطين إلى عملة استعملهم عليه السلام فى الأعمال الشاقة كالبناء والغوص

www.Quranpdf.blogspot.in

ومردة قرن بعضهم ببعض بالجوامع ليكفوا عن الشر، وظاهره أن هناك تقييدا حقيقة وهو مشكل لأن الشياطين إما أجسام نارية لطيفة قابلة للتشكل ، وإما أرواح خبيثة مجردة ، وأياما كان لا يمكن تقييدها ولا إمساك القيد لها. وأجيب باختيار الأول وهو الصحيح ٭

والاصفاد غير ما هو المعروف بل هي أصفاد يتأتى بها تقييد اللطيف على وجه يمنعه عن التصرف، والامر من أوله خارق للعادة ، وقيل : إن لطافة أجسامهم بمعنى شفافتها والشفافة لاتأبى الصلابة كما في الزجاج والفلك عند الفلاسفة فيمكن أن تكون أجسامهم شفافة وصلبة فلا ترى لشفافتها ويتأتى تقييدها لصلابتها ، وانكر بعضهم الصلابة لتحقق نفوذ الشياطين فيما لا يمكن نفوذ الصلب فيه وأنهم لا يدركون باللمس والصلب يدرك به ٭

وقيل : لا مانع من أنه عليه السلام يقيدهم بشكل صلب فيقيدهم حينئذ بالاصفاد والشيطان إذا ظهر متشكلا بشكل قد يتقيد به ولا يمكنه التشكل بغيره ولا العود إلى ما كان ، وقد نص الشيخ الاكبر محيي الدين قدس سره أن نظر الانسان يقيد الشيطان بالشكل الذي يراه فيه فمتى رأى الانسان شيطانا بشكل ولم يصرف نظره عنه بالكلية لم يستطع الشيطان الخفاء عنه ولا التشكل بشكل آخر إلى أن يجد فرصة صرف النظر عنه ولو برمشة عين٭

وزعم الجبائي أن الشيطان كان كثيف الجسم في زمن سليمان عليه السلام ويشاهده الناس ثم لما توفى عليه السلام أمات الله عز وجل ذلك الجن وخلق نوعا آخر لطيف الجسم بحيث لا يرى ولا يقوى على الاعمال الشاقة، وهذا لا يقبل أصلا الا برواية صحيحة وأنى هي ، وقيل : الاقرب أن المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالاقران في الصفد وليس هناك قيد ولا تقييد حقيقة ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ ﴾ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتي من الملك وأنه مفوض اليه تفويضا كليا، وإما مقول لقول مقدر هو معطوف على (سخرنا) أو حال من فاعله أي وقلنا أو قائلين له هذا الخ والاشارة إلى ما أعطاه مما تقدم أي هذا الذي اعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسليط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا الخاص بك فأعط من شئت وامنع من شئت غير محاسب على شيء من الامرين ولا مسئول عنه في الآخرة لتفويض التصرف فيه اليك على الاطلاق، فبغير حساب حال من المستكن في الامر والفاء جزائية و(هذا عطاؤنا) مبتدأ وخبر، والاخبار مفيد لما أشرنا اليه من اعتبار الخصوص أي عطاؤنا الخاص بك أو يقال: إن ذكره ليس للاخبار به بل ليترتب عليه ما بعده كقوله :

هذه دارهم وأنت مشوق ما بقاء الدموع في الآماق

وجوز أن يكون (بغير حساب) حالا من العطاء نحو (هذا بعلي شيخا) أي هذا عطاؤنا متلبسا بغير حساب عليه في الآخرة أو هذا عطاؤنا كثيرا جدا لا يعد ولا يحسب لغاية كثرته، وأن يكون صلة العطاء واعتبره بعضهم قيدا له لتتم الفائدة ولا يحتاج لاعتبار ما تقدم، وعلى التقديرين ما في البين اعتراض فلا يضر الفصل به، والفاء اعتراضية وجاء اقتران الاعتراض بها كما جاء بالواو كقوله :

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقيل: الاشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمن والامساك اطلاقهم وابقاؤهم في الاصفاد، والمن قد يكون بمعنى الاطلاق كما في قوله تعالى (فاما منا بعد واما فداء) والأولى في قوله تعالى (بغير حساب) حينئذ كونه حالا

www.Quranpdf.blogspot.in

من المستكن فى الامر، وهذا القول رواه ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس، وماروى عنه من أنه اشارة إلى ماوهب له عليه السلام من النساء والقدرة على جماعهن لايكاد يصح إذ لم يجر لذلك ذكر فى الآية، وإلى الأول ذهب الجمهور وهو الاظهر، وقرأ ابن مسعود (هذا فامنن أوامسك عطاؤنا بغير حساب) ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة وكرامة مع ماله من الملك العظيم فهو اشارة إلى أن ملكه لايضره ولاينقصه شيئاً من مقامه *

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ ٤٠﴾ حسن مرجع فى الجنة وهو عطف على (زلفى) وقرأ الحسن. وابن أبى عبلة (وحسن) بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى له، والوقف عندهما على (ازلفى) هذا وأمر سليمان عليه السلام من أعظم الامور وكان مع ما آتاه الله تعالى من الملك العظيم يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير ويطعم بنى اسرائيل الحوارى أخرجه أحمد فى الزهد عن عطاء، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما رفع سليمان عليه السلام طرفه إلى السماء تخشعا» حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه وكان فى عصره من ملوك الفرس كيخسرو فقد ذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فى تاريخه أنه عليه السلام ورث ملك أبيه فى عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاوز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها اياما ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ سار إلى تهامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ماذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الاندلس وطنجة وغيرهما ثم انطوى البساط وضرب له بين عساكر الموتى الفسطاط فسبحان الملك الدائم الذى لايزول ملكه ولاينقضى سلطانه *

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ قال ابن اسحق: الصحيح أنه كان من بنى اسرائيل ولم يصح فى نسبه شىء غير ان اسم أبيه أموص، وقال ابن جرير: هو أيوب ابن أموص بن روم بن عيص بن اسحق عليه السلام، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط وأن أباه ممن آمن بابراهيم فعلى هذا كان عليه السلام قبل موسى، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب، وقال ابن أبى خيثمة: كان بعد سليمان، وقوله تعالى (اذكر) الخ عطف على (اذكر عبدنا داود) وعدم تصدير قصة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام، و(أيوب) عطف بيان لعبدنا أو بدل منه بدل كل من كل، وقوله تعالى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال منه أو من (أيوب) ﴿أَنِّي﴾ أى بأنى *

وقرأ عيسى بكسر همزة (إنى) ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ وقرىء باسكان ياء (مسنى) وباسقاطها ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون وسكون الصاد التعب كالنصب بفتحتين، وقيل: هو جمع نصب كوثن ووثن، وقرأ أبو جعفر. وشيبة. وأبو عمارة عن حفص. والجعفى عن أبى بكر. وأبو معاذ عن نافع بضمتين وهى لغة، ولامانع من كون الضمة الثانية عارضة للاتباع، وربما يقال: إن فى ذلك رمزا إلى ثقل تعبه وشدته، وقرأ زيد بن على. والحسن. والسدى. وابن أبى عبلة. ويعقوب. والجحدرى بفتحتين وهى لغة أيضا كالرشد والرشد، وقرأ أبو حيوة. ويعقوب فى رواية وهبيرة عن حفص بفتح النون وسكون الصاد. قال الزمخشرى: على أصل المصدر، ونص ابن عطية على أن ذلك لغة أيضا قال: بعد ذكر القراآت: وذلك كله بمعنى واحد وهو المشقة وكثيرا مايستعمل النصب فى مشقة الاعياء. وفرق بعض الناس بين هذه الالفاظ والصواب أنها لغات بمعنى من قولهم أنصبني الامر إذا شق على انتهى *

www.Quranpdf.blogspot.in

والتنوين للتفخيم وكذا فى قوله تعالى ﴿ وَعَذَابٍ ٤١ ﴾ وأراد به الالم وهو المراد بالضر فى قوله (إنى مسنى الضر)*

وقيل : النصب والضر فى الجسد والعذاب فى الاهل والمال، وهذا حكاية لكلامه عليه السلام الذى نادى به ربه عز وجل بعبارته والا لقيل إنه مسه الخ بالغيبة، واسناد المس إلى الشيطان قيل على ظاهره وذلك أنه عليه اللعنة سمع ثناء الملائكة عليهم السلام على أيوب عليه السلام فحسده وسأل الله تعالى أن يسلطه على جسده وماله وولده ففعل عز وجل ابتلاء له، والقصة مشهورة *

وفى بعض الآثار أن الماس له شيطان يقال له مسوط، وأنكر الزمخشرى ذلك فقال: لا يجوز أن يسلط الله تعالى الشيطان على أنبيائه عليهم السلام ليقضى من اتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب، وجعل إسناد المس اليه هنا مجازا فقال: لما كانت وسوسته اليه وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله تعالى به من النصب والعذاب نسبه اليه، وقد راعى عليه السلام الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله سبحانه فى دعائه مع أنه جل وعلا فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، وهذه الوسوسة قيل وسوسته اليه عليه السلام أن يسأل الله تعالى البلاء ليمتحن ويجرب صبره على ما يصيبه كما قال شرف الدين عمر بن الفارض *

وبما شئت فى هواك اختبرنى فاختيارى ما كان فيه رضاكا

وسؤاله البلاء دون العافية ذنب بالنسبة لمقامه عليه لا حقيقة، والمقصود من ندائه بذلك الاعتراف بالذنب*
وقيل إن رجلا استغاثه على ظالم فوسوس اليه الشيطان بترك اغاثته فلم يغثه فمسه الله تعالى بسبب ذلك بما مسه*

وقيل : كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وسوسة من الشيطان فعاتبه الله تعالى بالبلاء، وقيل وسوس اليه فاعجب بكثرة ماله وولده فابتلاه الله تعالى لذلك وكل هذه الأقوال عندى متضمنة ما لا يليق بمنصب الأنبياء عليهم السلام. وذهب جمع إلى أن النصب والعذاب ليسا ما كانا له من المرض والألم أو المرض وذهاب الأهل والمال بل أمران عرضا له وهو مريض فاقد الأهل والمال فقيل هما ما كانا له من وسوسة الشيطان اليه فى مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة والاغراء على الجزع كان الشيطان يوسوس اليه بذلك وهو يجاهده فى دفع ذلك حتى تعب وتألم على ما هو فيه من البلاء فنادى ربه يستصرفه عنه ويستعينه عليه (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقيل كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره فقيل: ان الشيطان تعرض لامرأته بصورة طبيب فقالت له: ان ههنا مبتلى فهل لك أن تداويه فقال: نعم بشرط أن يقول: إذا شفيته أنت شفيتنى فمالت لذلك وعرضت كلامه لأيوب عليه السلام فعرف أنه الشيطان وكان عليه ذلك أشد مما هو فيه (فنادى ربه أنى مسنى) الخ، وقيل: إن الشيطان طلب منها أن تذبح لغير الله تعالى إذا عالجه وبرأ فمالت لذلك فعظم عليه عليه السلام الأمر فنادى، وقيل: إنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل له: ألقى إليه الشيطان أن الله تعالى لا يبتلى الأنبياء والصالحين فتألم من ذلك جداً فقال ما قال وفى رواية مر به نفر من بنى إسرائيل فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب أصابه وهذا نوع من وسوسة الشيطان فعظم عليه ذلك فقال ما قال، والاسناد على جميع ما ذكر باعتبار الوسوسة، وقيل: غير ذلك والله تعالى أعلم . وقوله سبحانه : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ إما حكاية لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على (نادى) أى فقلنا له اركض برجلك

www.Quranpdf.blogspot.in

أى اضرب بها و كذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ٤٢﴾ فانه أيضا إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل: نضربها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به و تشرب منه فيبرأ ظاهرك و باطنك، فالمغتسل اسم مفعول على الحذف والايصال وكذا الشراب، وعن مقاتل أن المغتسل اسم مكان أى هذا مكان تغتسل فيه وليس بشيء، وظاهر الآية اتحاد المخبر عنه بمغتسل وشراب، وقيل: إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها وبرجله اليسرى فنبعت باردة فشرب منها، وقال الحسن: ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها ثم مشى نحوا من أربعين ذراعا ثم ركض برجله فنبعت أخرى فشرب منها، ولعله عنى بالاولى عينا حارة، وظاهر النظم عدم التعدد *

و (بارد) على ذلك صفة (شراب) مع أنه مقدم عليه صفة (مغتسل) و كون هذا إشارة إلى جنس النابع أو يقدر وهذا بارد الخ تكلف لا يخرج ذلك عن الضعف، وقيل أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء بجسده *

وكان ذلك على ماروى عن قتادة . والحسن . ومقاتل بأرض الجابية من الشام، وفى الكلام حذف أيضا أى فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك مابه من ضر ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بإحيائهم بعد هلاكهم على ماروى عن الحسن *

وروى الطبرسى عن أبى عبدالله رضى الله تعالى عنه أن الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو فى البلية، وفى البحر الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تشتت منهم، وقيل واليه أميل وهبه من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فكان له ضعف ما كان، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا، وزعم بعض أن هذا وعد وتكون تلك الهبة فى الآخرة ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا *

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٤٣﴾ وتذكيرا لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجؤا إلى الله تعالى فيما يصيبهم كما لجأ ليفعل سبحانه بهم مافعل به من حسن العاقبة . روى عن قتادة أنه عليه السلام ابتلى سبع سنين وأشهرا وألقى على كناسة بنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده فصبر ففرج الله تعالى عنه وأعظم له الأجر وأحسن، وعن ابن عباس أنه صار مابين قدميه إلى قرنه قرحة واحدة وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه فكانت امرأته تسعى اليه فقالت له يوما: أما ترى ياأيوب قد نزل بى والله من الجهد والفاقة ماان بعت قرونى برغيف فاطعمتك فادع الله تعالى أن يشفيك ويريحك فقال: ويحك كنا فى النعيم سبعين عاما فاصبرى حتى نكون فى الضر سبعين عاما فكان فى البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل عليه السلام فاخذ بيده ثم قال: قم فقام عن مكانه وقال (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة فتنحى فجلس فى ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: ياعبدالله أين المبتلى الذى كان ههنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله تعالى على جسدى ورد الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم وأمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ الجراد بيده ويجعله فى ثوبه وينشر كساءه فيجعل فيه فاوحى الله تعالى اليه ياأيوب أما شبعت؟ قال: يارب من الذى يشبع من فضلك ورحمتك، وفى البحر روى أنس عن النبى ﷺ وأن أيوب بقى فى محنته ثمانى عشرة سنة يتساقط لحمه حتى

www.Quranpdf.blogspot.in

مله العالم ولم يصبر عليه إلا امرأته» وعظم بلائه عليه السلام مما شاع وذاع ولم يختلف فيه اثنان لكن فى بلوغ أمره إلى أن ألقى على كناسة ونحو ذلك فيه خلاف قال الطبرسى: قال أهل التحقيق انه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها لأن فى ذلك تنفيرا فاما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك *

وفى هداية المريد للقانى أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشرى ليس محرما ولا مكروها ولا مباحا مزريا ولا مزمنا ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدى إلى النفرة ثم قال بعد ورقتين ، واحترزنا بقولنا ولا مزمنا ولا مما تعافه الأنفس عما كان كذلك كالاقعاد والبرص والجذام والعمى والجنون ، وأما الاغماء فقال النووى لاشك فى جوازه عليهم لأنه مرض بخلاف الجنون فانه نقص ، وقيد أبو حامد الاغماء بغير الطويل وجزم به البلقينى ، قال السبكى: وليس كاغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم لأنها معصومة من النوم الأخف ، قال: ويمتنع عليهم الجنون وإن قل لأنه نقص ويلحق به العمى ولم يعم نبى قط ، وما ذكر عن شعيب من كونه كان ضريرا لم يثبت ، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت اه *

وفرق بعضهم فى عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة فيجوز وبين أن يكون قبل فلا يجوز ، ولعلك تختار القول بحفظهم مما تعافه النفوس ويؤدى الى الاستقذار والنفرة مطلقا وحينئذ فلابد من القول بأن ما ابتلى به أيوب عليه السلام لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روى عن قتادة ونقله القصاص فى كتبهم ، وذكر بعضهم أن داءه كان الجدرى ولا أعتقد صحة ذلك والله تعالى أعلم *

وقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عطف على (اركض) أو على (وهبنا) بتقدير قلنا خذ بيدك الخ. والأول أقرب لفظا وهذا أنسب معنى فان الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة واعتدال الوقت فان امرأته رحمة بنت إفرائيم أو مشيا بن يوسف أو ليا بنت يعقوب أو ماخير بنت ميشا بن يوسف على اختلاف الروايات *

ولا يخفى لطف (رحمة منا) على الرواية الأولى ذهبت لحاجة فأبطأت أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محذورة فيبرأ وأشارت عليه بذلك فقالت له إلى متى هذا البلاء كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك أو جاءته بزيادة على ما كانت تأتى به من الخبز نظن أنها ارتكبت فى ذلك محرما فحلف ليضربنها ان برىء مائة ضربة فأمره الله تعالى باخذ الضغث وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان ، وقيل : القبضة الكبيرة من القضبان ، ومنه ضغث على ابالة والابالة الحزمة من الحطب والضغث القبضة من الحطب أيضا عليها ، ومنه قول الشاعر :

وأسفل منى نهدة قد ربطتها   وألقيت ضغثا من خلى متطيب

وقال ابن عباس هنا: الضغث عثكال النخل ، وقال مجاهد: الاثل وهو نبت له شوك ، وقال الضحاك: حزمة من الحشيش مختلفة ، وقال الاخفش: الشجر الرطب ، وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أمر أخذ ضغثا من ثمام فيه مائة عود ، وقال قتادة: هو عود فيه تسعة وتسعون عوداً والاصل تمام المائة فان كان هذا معتبرا فى مفهوم الضغث ولا أظن فذاك والا فالكلام على ارادة المائة فكأنه قيل : خذ بيدك ضغثا فيه مائة عود ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ أى بذلك الضغث ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بيمينك فان البر يتحقق به ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهى رخصة باقية فى الحدود فى شريعتنا وفى غيرها أيضا لكن غير

www.Quranpdf.blogspot.in

الحدود يعلم منها بالطريق الأولى فقد أخرج عبد الرزاق . وسعيد بن منصور . وابن جرير . وابن المنذر عن أبي امامة بن سهل بن حنيف قال: حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا فقيل لها: ممن حملك؟ قالت: من فلان المقعد فسئل المقعد فقال: صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة ففعلوا ، وأخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان أن رجلا أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ وهو مريض على شفا موت فأخبر اهله بما صنع فأمر النبي ﷺ بقنو فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة ، وأخرج الطبرانى عن سهل بن سعد أن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بشيخ قد ظهرت عروقه قد زنى بامرأة فضربه بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، ولا دلالة فى هذه الاخبار على عموم الحكم من يطيق الجلد المتعارف لكن القائل ببقاء حكم الآية قائل بالعموم لكن شرطوا فى ذلك أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة اما باطرافها قائمة أو باعراضها مبسوطة على هيئة الضرب *

وقال الخفاجي: إنهم شرطوا فيه الايلام أما مع عدمه بالكلية فلا فلو ضرب بسوط واحد له شعبتان خمسين مرة من حلف على ضربه مائة بر إذا تألم فان لم يتألم لايبر ولو ضربه مائة لأن الضرب وضع لفعل مؤلم بالبدن بآلة التأديب ، وقيل : يحنث بكل حال كما فصل فى شروح الهداية وغيرها انتهى *

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لايجوز ذلك لأحد بعد أيوب الا الانبياء عليهم السلام ، وفى أحكام القرآن العظيم للجلال السيوطي عن مجاهد قال: كانت هذه لايوب خاصة ، وقال الكيا: ذهب الشافعي . وأبو حنيفة . وزفر إلى أن من فعل ذلك فقد بر فى يمينه، وخالف مالك ورآه خاصا بايوب عليه السلام ، وقال بعضهم: إن الحكم كان عاما ثم نسخ والصحيح بقاء الحكم ، واستدل بالآية على أن للزوج ضرب زوجته وأن يحلف ولا يستثنى وعلى أن الاستثناء شرطه الاتصال إذ لو لم يشترط لأمره سبحانه وتعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث *

واستدل عطاء بها على مسئلة أخرى فاخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عنه أن رجلا قال له: إنى حلفت أن لاأكسو امرأتى درعا حتى تقف بعرفة فقال: احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة فقال: إنما عنيت يوم عرفة فقال عطاء : أيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة أنوى أن يضربها بالضغث إنما أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثا فيضربها به ثم قال : إنما القرآن عبر إنما القرآن عبر. وللبحث فى ذلك مجال، وكثير من الناس استدل بها على جواز الحيل وجعلها أصلا لصحتها، وعندى أن كل حيلة أوجبت ابطال حكمة شرعية لاتقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط فى المسئلة فان من العلماء من يجوز الحيلة مطلقا ومنهم من لايجوزها مطلقا، وقد أطال الكلام فى ذلك العلامة ابن تيمية ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه فى النفس والاهل والمال *

وقد كان عليه السلام يقول كلما أصابته مصيبة: اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ويحمد الله عز وجل، ولا يخل بذلك شكواه إلى الله تعالى من الشيطان لأن الصبر عدم الجزع ولا جزع فيما ذكر كتمنى العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك على ماقيل خيفة الفتنة فى الدين كما سمعت فيما تقدم، ويروى أنه قال فى مناجاته : الهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يلهنى ماملكت يمينى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أى أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ٤٤﴾ تعليل لمدحه

www.Quranpdf.blogspot.in

وتقدم معنى الاواب ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الثلاثه عطف بيان لعبادنا أو بدل منه * وقيل: نصب باضمار أعنى، وقرأ ابن عباس. وابن كثير. وأهل مكة (عبدنا) بالافراد فابراهيم وحده بدل أو عطف بيان أو مفعول لأعنى، وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه، ومابعده عطف على (عبدنا) وجوز أن يكون المراد بعبدنا عبادنا وضعا للجنس موضع الجمع فتتحد القراءتان ﴿ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ٤٥ ﴾ أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين على أن الايدى مجاز مرسل عن القوة، والابصار جمع بصر بمعنى بصيرة وهو مجاز أيضا لكنه مشهور فيه أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة على أن ذكر الايدى من ذكر السبب وارادة المسبب، والابصار بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من العلوم كالاول أيضا، وفى ذلك على الوجهين تعريض بالجهلة البطالين أنهم كفاقدى الايدى والابصار وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما، وقيل: الايدى النعم أى أولى التى اسداها الله تعالى اليهم من النبوة والمكانة أو أولى النعم والاحسانات على الناس بارشادهم وتعليمهم إياهم، وفيه مافيه. وقرى‌ء (الايادى) على جمع الجمع كاوطف واواطف، وقرأ عبدالله. والحسن. وعيسى. والاعمش (الايد) بغير ياء فقيل يراد الايدى بالياء وحذفت اجتزاء بالكسرة عنها، ولما كانت أل تعاقب التنوين حذفت الياء معها كما حذفت مع التنوين حكاه أبو حيان ثم قال: وهذا تخريج لايسوغ لأن حذف هذه الياء مع وجود أل ذكره سيبويه فى الضرائر، وقيل: الايد القوة فى طاعة الله تعالى نظير ماتقدم . وقال الزمخشرى بعد تعليل الحذف بالاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالايد من التأييد قلق غير متمكن وعلل بأن فيه فوات المقابلة وفوات النكتة البيانية فلا تغفل ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ تعليل لما وصفوا به، والباء للسببية وخالصة اسم فاعل وتنوينها للتفخيم، وقوله تعالى ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ٤٦ ﴾ بيان لها بعد ابهامها للتفخيم، وجوز أن يكون خبرا عن ضميرها المقدر أى هى ذكرى الدار، وأياما كان فذكرى مصدر مضاف لمفعوله وتعريف الدار للعهد أى الدار الآخرة، وفيه اشعار بانها الدار فى الحقيقة وإنما الدنيا مجاز أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن لاشوب فيها هى تذكرهم دائما الدار الآخرة فان خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم اياها وذلك لأن مطمح انظارهم ومطرح افكارهم فى كل ما يأتون ويذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولايتسنى ذلك الا فى الآخرة .

وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم فى اختيارها والباء كما فى الوجه الأول للسببية والكلام نحو قولك: أكرمته بالعلم أى بسبب أنه عالم أكرمته أو أكرمته بسبب أنك جعلته عالما، وقد يتخيل فى الثانى أنه صلة، ويعضد الوجه الأول قراءة الأعمش. وطلحة (بخالصتهم) .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك أن ذكرى الدار تذكيرهم الناس الآخرة وترغيبهم اياهم فيها وتزهيدهم (١) إياهم فيها على وجه خالص من الحظوظ النفسانية كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام، وقيل المراد بالدار الدار الدنيا وبذكراها الثناء الجميل ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم . وحكى ذلك عن الجبائى . وأبى مسلم وذكره ابن عطية احتمالا ، وحاصل الآية عليه كما قال الطبرسى إنا خصصناهم بالذكر الجميل فى الأعقاب *

وقرأ أبو جعفر. وشيبة . والأعرج . ونافع . وهشام باضافة (خالصة) إلى (ذكرى) للبيان أى بما خلص من

(١) وتزهيدهم اياهم فيها كذا فى خط المؤلف رحمه الله وعبارة الكشاف تذكيرهم الناس الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم فى الدنيا

www.Quranpdf.blogspot.in

ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلا أو على غير ذلك من المعانى ، وجوز على هذه القراءة أن تكون (خالصة) مصدرا كالعاقبة والكاذبة مضافا إلى الفاعل أى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار . وظاهر كلام أبى حيان أن احتمال المصدرية ممكن فى القراءة الأولى أيضا لكنه قال: الأظهر أن تكون اسم فاعل ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ أى المختارين من بين أبناء جنسهم، وفيه إعلال معروف .

وعندنا يجوز فيه أن يكون من صلة الخبر وإن يكون من صلة محذوف دل عليه (لمن المصطفين) أى وإنهم مصطفون عندنا ، ولم يجوزوا أن يكون من صلة (المصطفين) المذكور لأن أل فيه موصولة ومصطفين صلة وما فى حيز الصلة لا يتقدم معموله على الموصول لئلا يلزم تقدم الصلة على الموصول: واعترض بأنا لانسلم أن أل فيه موصولة إذ لم يرد منه الحدوث ولو سلم فالمتقدم ظرف وهو يتوسع فيه مالا يتوسع فى غيره ، والظاهر أن الجملة عطف على ماقبلها ، وتأكيدها لمزيد الاعتناء بكونهم عنده تعالى من المصطفين من الناس ﴿الْأَخْيَارِ ٤٧﴾ الفاضلين عليهم فى الخير وهو جمع خير مقابل شر الذى هو أفعل تفضيل فى الأصل ، وكان قياس أفعل التفضيل أن لا يجمع على أفعال لكنه للزوم تخفيفه حتى أنه لايقال أخير إلاشذوذا أو فى ضرورة جعل كأنه بنية أصلية ، وقيل جمع خير المشدد أو خير المخفف منه كأموات فى جمع ميت بالتشديد أو ميت بالتخفيف .

﴿وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه اعتناء بشأنه من حيث أنه لا يشرك العرب فيه غيرهم أو للاشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالذكر ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير هو ابن أخطوب بن العجوز ، وذكر أنه استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ثم استنبىء ، واللام فيه زائدة لازمة لمقارنتها للوضع ، ولا ينافى كونه غير عربى فانها قد لزمت فى بعض الأعلام الأعجمية كالاسكندر فقد لحن التبريزى من قال اسكندر مجردا له منها ، والأولى عندى أنه إذا كان اسما أعجميا وأل فيه مقارنة للوضع أن لا يقال بزيادتها فيه ، وقيل هو اسم عربى منقول من يسع مضارع وسع حكاه الجلال السيوطى فى الاتقان . وفى القاموس يسع كيضع اسم أعجمى أدخل عليه أل ولا تدخل على نظائره كيزيد .

وقرأ حمزة . والكسائى (والليسع) بلامين والتشديد كان أصله ليسع بوزن فيعل من اللسع دخل عليه أل تشبيها بالمنقول الذى تدخله للمح أصله ، وجزم بعضهم بأنه على هذه القراءة أيضا علم أعجمى دخل عليه اللام .

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قيل هو ابن أيوب ، وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وكان مقيما بالشام عمره حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة .

وفى العجائب للكرمانى قيل هو الياس، وقيل هو يوشع بن نون، وقيل هو نبى اسمه ذو الكفل، وقيل كان رجلا صالحا تكفل بأمور فوفى بها، وقيل هو زكريا من قوله تعالى : (وكفلها زكريا) اهـ، وقال ابن عساكر: هو نبى تكفل الله تعالى له فى عمله بضعف عمل غيره من الانبياء ، وقيل لم يكن نبيا وان اليسع استخلفه فتكفل له أن يصوم النهار ويقوم الليل، وقيل أن يصلى كل يوم مائة ركعة، وقيل كان رجلا من الصالحين كان فى زمانه أربعمائة نبى من بنى إسرائيل فقتلهم ملك جبار الا مائة منهم فروا من القتل فآواهم وأخفاهم وقام بمؤنتهم فسماه الله تعالى ذا الكفل ، وقيل هو اليسع وأن له اسمين ويأباه ظاهر النظم ﴿وَكُلٌّ﴾ أى وكلهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ ٤٨﴾

www.Quranpdf.blogspot.in

المشهورين بالخيرية ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أى شرف لهم وشاع الذكر بهذا المعنى لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس فتجوز به عنه بعلاقة اللزوم، والمراد فى ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم أو المعنى هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو القرآن، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر كما يقول الجاحظ فى كتبه: فهذا باب ثم شرع فى باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر: هذا وكان كيت وكيت، ويحذف على ما قيل الخبر فى مثل ذلك كثيرا وعليه (هذا وإن للطاغين لشر مآب) وستسمع إن شاء الله تعالى الكلام فيه فلا يقال: إنه لا فائدة فيه لأنه معلوم أنه من القرآن، وقال ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ٤٩﴾ أى مرجع شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل، والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وإما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القصوى فى الكمال، والجملة فيما أرى عطف على الجملة قبلها كأنه قيل: هذا شرف لهم فى الدنيا وإن لهم ولأضرابهم أو إن لهم فى الآخرة لحسن مآب أو هى من قبيل عطف القصة على القصة، وقال الشهاب الخفاجى عليه الرحمة: هى حالية ولم يبين صاحب الحال، ويبعد أن يكون (ذكرا) لأنه نكرة متقدمة وأن يكون (هذا) لأنه مبتدأ ومع ذلك فى المعنى على تقدير الحالية خفاء، وقال بعض اجلة المعاصرين: إنه أراد أن الكلام على معنى والحال كذا أى الأمر والشأن كذا ولم يرد أن الجملة حال بالمعنى المعروف الذى يقتضى ذا حال وعاملا فى الحال إلى غير ذلك وادعى أن الأمر كذلك فى كل جملة يقال إنها حال وليس فيها ضمير يعود على ما قبلها نحو جاء زيد والشمس طالعة وقال: إنه الذى ينبغى أن يعول عليه وإن لم يذكره النحويون اه، والحال لا يخفى على ذى تمييز، وإضافة (حسن) إلى (مآب) من إضافة الصفة إلى الموصوف إما بتأويل مآب ذى حسن أو حسن وأما بدونه قصداً للمبالغة *

وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل اشتمال، وجوز أن يكون نصبا على المدح، وجعله الزمخشرى عطف بيان لحسن مآب، وعدن قيل من الاعلام الغالبة غلبة تقديرية ولزوم الاضافة فيها أو تعريفها باللام أغلبى كما صرح به ابن مالك فى التسهيل، وجنات عدن كمدينة طيبة لا كانسان زيد فانه قبيح، وقيل العلم مجموع (جنات عدن) وهو أيضا من غير الغالب لأن المراد من الاضافة التى تعوضها العلم بالغلبة إضافة تفيده تعريفا، وعلى القولين هو معين فيصلح للبيان لكن تعقب ذلك أبو حيان بأن للنحويين فى عطف البيان مذهبين، أحدهما أن ذلك لا يكون إلا فى المعارف فلا يكون عطف البيان إلا تابعا لمعرفة وهو مذهب البصريين، والثانى أنه يجوز أن يكون فى النكرات فيكون عطف البيان تابعا لنكرة كما تكون المعرفة فيه تابعة لمعرفة وهذا مذهب الكوفيين وتبعهم الفارسى، وأما تخالفهما فى التنكير والتعريف فلم يذهب اليه أحد سوى الزمخشرى كما قد صرح به ابن مالك فى التسهيل فهو بناء للامر على مذهبه *

وذهب آخرون أن عدنا مصدر عدن بمكان كذا استقر، ومنه المعدن لمستقر الجواهر ولا علمية ولا نقل هناك ومعنى (جنات عدن) جنات استقرار وثبات فان كان عطف بيان فهو على مذهب الكوفيين والفارسى *

ومن الغريب ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: سألت كعبا عن قوله تعالى: (جنات عدن) فقال: جنات

www.Quranpdf.blogspot.in

كرم وأعناب بالسريانية ، وفى تفسير ابن جرير أنه بالرومية، وقوله تعالى :
﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ٥٠﴾ إما صفة لجنات عدن وإليه ذهب ابن اسحق وتبعه ابن عطية أو حال من ضميرها المستتر فى خبر إن والعامل فيه الاستقرار المقدر أو نفس الظرف لتضمنه معناه ونيابته عنه واليه ذهب الزمخشرى ومختصرو كلامه أو حال من ضميرها المحذوف مع العامل لدلالة المعنى عليه والتقدير يدخلونها مفتحة واليه ذهب الحوفى، و(الأبواب) نائب فاعل (مفتحة) عند الجمهور والرابط العائد على الجنات محذوف تقديره الأبواب منها ، وا كتفى الكوفيون عن ذلك بأل لقيامها مقام الضمير فكأنه قيل: مفتحة لهم أبوابها، وذهب أبو على الى أن نائب فاعل (مفتحة) ضمير الجنات والأبواب بدل منه بدل اشتمال كما هو ظاهر كلام الزمخشرى، ولا يصح أن يكون بدل بعض من كل لأن أبواب الجنات ليست بعضا من الجنات على ما قال أبو حيان . وقرأ زيد ابن على . وعبدالله بن رفيع . وأبو حيوة (جنات عدن مفتحة) برفعهما على أنهما خبران لمحذوف أى هو أى المآب جنات عدن مفتحة لهم أبوابه أو هو جنات عدن هى مفتحة لهم أبوابها أو على أنهما مبتدأ وخبر ه
ووجه ارتباط الجملة بما قبلها انها مفسرة لحسن المآب لأن محصلها جنات أبوابها فتحت ا كراما لهم اوهى معترضة ه

وقوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ وقوله سبحانه ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٥١﴾ قيل حالان من ضمير (لهم) وهما حالان مقدران لأن الاتكاء ومابعده ليس فى حال تفتيح الابواب بل بعده ، وقيل : الأول حال مقدرة من الضمير المذكور والثانى حال من ضمير متكئين، وجوز جعلهما حالين من المتقين، ولا يصح إلا إن قلنا بأن الفاصل ليس باجنبي والظاهر أنه اجنبي ، وقال بعض الاجلة: الاظهر ان (متكئين) حال من ضمير (يدعون) قدم رعاية للفاصلة ويدعون استئناف لبيان حالهم كأنه قيل ماحالهم بعد دخولها؟ فقيل: يدعون فيها بفا كهة كثيرة وشراب متكئين فيها، والاقتصار على الفا كهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى فانه لتحصيل بدل ولا تحلل ثمت ولما كانت الفا كهة تتنوع وصفها سبحانه بالكثرة وكثرتها باختلاف أنواعها وكثرة كل نوع منها، ولما كان الشراب نوعا واحدا وهو الخمر افرد ، وقيل: وصفت الفا كهة بالكثرة ولم يوصف الشراب للايذان بأنه يكون على الشراب نقل كثير سواء تعددت انواعه ام اتحدت، ويمكن ان يقال والله تعالى أعلم: التقدير وشراب كثير لكن حذف كثير لدلالة ماقبل ورعاية للفاصلة ه

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم أو قاصرات طرف أزواجهن عليهن فلا ينظرون إلى غيرهن لشدة حسنهن، وتمام الكلام قد مر وحلا ﴿أَتْرَابٌ ٥٢﴾ أى لدات على سن واحدة تشبيها فى التساوى والتماثل بالترائب التى هى ضلوع الصدر أو لسقوطهن معا على الأرض حين الولادة ومسهن ترابها فكأن الترب بمعنى المتارب كالمثل بمعنى المماثل ، والظاهر أن هذا الوصف بينهن فيكون فى ذلك إشارة إلى محبة بعضهن لبعض وتصادقهن فيما بينهن فان النساء الأتراب يتحابين ويتصادقن وفى ذلك راحه عظيمة لأزواجهن كما أن فى تباغض الضرائر نصبا عظيما وخطبا جسيما لهم، وقد جرب ذلك وصح نسأل الله تعالى العفو والعافية ه
وقيل: إن ذلك بينهن وبين أزواجهن أى أن اسنانهن كاسنانهم ليحصل كمال التحاب، ورجح بأن اهتمام الرجل بحصول المحبة بينه وبين زوجته أشد من اهتمامه بحصولها بين زوجاته ، وفيه توقف، ثم أن الوصف الأول

www.Quranpdf.blogspot.in

على المعنى الأول متكفل بالدلالة على محبتهن لأزواجهن وعلى المعنى الثانى متكفل بالدلالة على محبة أزواجهن لهن وإذا حصلت المحبة من طرف فالغالب حصولها من الطرف الآخر، وقد قيل: من القلب إلى القلب سبيل والأمر فى الشاهد أن كون الزوجات أصغر من الأزواج أحب لهم لا التساوى، واختار بعضهم كون ذلك بينهن وبين أزواجهن ويلزم منه مساواة بعضهن لبعض وهذا إذا كان المراد بقوله تعالى: (وعندهم) الخ وعند كل واحد منهم ولو كان المراد وعند مجموعهم وكان الجمع موزعا بأن يكون لكل واحد واحد من أهل الجنة واحدة واحدة من قاصرات الطرف الأتراب كان اعتبار كون الوصف بينهن وبين الأزواج كالمتعين لكن هذا الفرض خلاف ما نطقت به الأخبار سواء قلنا بما روى عن ابن عباس من أن الآية فى الآدميات أو قلنا بما قاله صاحب الفينان من أنها فى الحور، وقيل بناء على ما هو الظاهر فى الوصف إن التساوى فى الأعمار بين الحور وبين نساء الجنة فالآية فيهما ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٣﴾ أى لأجل يوم الحساب فان ما أوعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة وهى تظهر بالحساب فجعل كأنه علة لتوقف انجاز الوعد فالنسبة لليوم والحساب مجازية، وجوز أن تكون اللام بمعنى بعد كما فى كتب لخمس خلون من جمادى الآخرة مثلا وهو أقل مؤنة *

وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو (يوعدون) بياء الغيبة وعلى قراءة الجمهور بتاء الخطاب فيه التفات ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أى ماذكر من ألوان النعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أعطيناكموه ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ انقطاع أبدا ﴿هَٰذَا﴾ قال الزجاج: أى الأمر هذا على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقال أبو على: أى هذا للمؤمنين على أنه مبتدأ خبره محذوف وقدره بعضهم كما ذكر *

وجوز أبو البقاء احتمال كونه مبتدأ محذوف الخبر واحتمال كونه خبرا محذوف المبتدأ، وجوز بعضهم كونه فاعل فعل محذوف أى مضى هذا وكونه مفعولا لفعل محذوف أى خذ هذا، وجوز أيضا كون ها اسم فعل بمعنى خذ وذا مفعوله من غير تقدير ورسمه متصلا لا يبعده والتقدير أسهل منه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ٥٥﴾ عطف على ما قبله، ولزوم عطف الخبر على الانشاء على بعض الاحتمالات جوابه سهل، وأشار الخفاجى إلى الحالية هنا أيضا ولعل أمرها على بعض الأقوال المذكورة هين، والطاغون هنا الكفار كما يدل عليه كلام ابن عباس حيث قال: أى الذين طغوا على وكذبوا رسلى، وقال الجبائى: أصحاب الكبائر كفارا كانوا أولم يكونوا، وإضافة (شر) إلى (مآب) كاضافة (حسن) إليه فيما تقدم، وظاهر المقابلة يقتضى أن يقال: لقبح مآب هنا أو لخير مآب فيما مضى لكن مثله لا يلتفت إليه إذا تقابلت المعانى لأنه من تكلف الصنعة البديعية كما صرح به المرزوقى فى شرح الحماسة كذا قيل، وقيل إنه من الاحتباك وأصله إن للمتقين لخير مآب وحسن مآب وإن للطاغين لقبح مآب وشر مآب واستحسنه الخفاجى وفيه نوع بعد، وقوله تعالى:

﴿جَهَنَّمَ﴾ يعلم إعرابه مما سلف؛ وقوله سبحانه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أى يدخلونها ويقاسون حرها حال من جهنم نفسها أو من الضمير المستتر فى خبر إن الراجع لشر مآب المراد به هى والحال مقدرة ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ٥٦﴾ أى هى يعنى جهنم فالمخصوص بالذم محذوف، والمهاد كالفراش لفظا ومعنى وقد استعير مما يفترشه النائم والمهد كالمهاد وقد يخص بمقر الطفل ﴿هَٰذَا﴾ خبر مبتدأ محذوف أى العذاب هذا، وقوله تعالى ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملة

www.Quranpdf.blogspot.in

مرتبة على الجملة قبلها فهى بمنزلة جزاء شرط محذوف، وقوله تعالى: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ٥٧﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو حميم وغساق وذا قد يشار به المتعدد أو مبتدأ محذوف الخبر أى منه حميم ومنه غساق كما فى قوله:

حتى إذا ما أضاء الصبح فى غلس وغودر البقل ملوى ومحصود

أى منه ملوى ومنه محصود أو (هذا) مبتدأ خبره (حميم) وجملة (فليذوقوه) معترضة كقولك زيد فافهم رجل صالح أو هذا مبتدأ خبره (فليذوقوه) على مذهب الأخفش فى إجازته زيد فاضربه مستدلا بقوله * وقائلة خولان فانكح فتاتهم * أو (هذا) فى محل نصب بفعل مضمر يفسره (فليذوقوه) أى ليذوقوا هذا فليذوقوه، ولعلك تختار القول بأن (هذا) مبتدأ وحميم خبره وما فى البين اعتراض وقد قدمه فى الكشاف والفاء تفسيرية تعقيبية وتشعر بأن لهم اذاقة بعد اذاقة، وفى حميم وغساق على هذين الوجهين الاحتمالان المذكوران أولا والحميم الماء الشديد الحرارة*

والغساق بالتشديد كما قرأ به ابن أبى اسحاق. وقتادة. وابن وثاب. وطلحة. وحمزة. والكسائى. وحفص والفضل. وابن سعدان. وهرون عن أبى عمرو، وبالتخفيف كما قرأ به باقى السبعة اسم لما يجرى من صديد أهل النار كما روى عن عطاء. وقتادة. وابن زيد، وعن السدى مايسيل من دموعهم. وأخرج ابن جرير عن كعب انه عين فى جهنم تسيل اليها حمة كل ذى حمة من حية وعقرب وغيرهما يغمس فيها الكافر فيتساقط جلده ولحمه وأخرج ابن جرير. وابن المنذر عن ابن عباس أنه الزمهرير، وقيل: هو مشددا ومخففا وصف من غسق كضرب وسمع بمعنى سال يقال غسقت العين إذا سال دمعها فيكون على ما فى البحر صفة حذف موصوفها أى ومذوق غساق ويراد به سائل من جلود أهل النار مثلا، والوصفية فى المشدد أظهر لأن فعالا بالتشديد قليل فى الأسماء، ومنه الغياد ذكر البوم والخطار دهن يتخذ من الزيت والعقار مايتداوى به من النبات، ومن الغريب ماقاله الجواليقى. والواسطى أن الغساق هو البارد المنتن بلسان الترك والحق أنه عربى نعم النتونة وصف له فى الواقع وليست مأخوذة فى المفهوم، فقد أخرج أحمد. والترمذى. وابن حبان. وجماعة وصححه الحاكم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «لو أن دلوا من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا» وقيل الغساق عذاب لايعلمه إلا الله عز وجل ويبعده هذا الخبر ﴿وَآخَرُ﴾ أى ومذوق آخر وفسره ابن مسعود كما رواه عنه جمع بالزمهرير أو وعذاب آخر *

وقرأ الحسن. ومجاهد. والجحدرى. وابن جبير. وعيسى. وأبو عمرو و(أخر) على الجمع أى ومذوقات أو أنواع عذاب أخر ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ أى من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والفظاعة، وتوحيد الضمير دون تثنيته نظرا للحميم والغساق على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق. وقرأ مجاهد (شكله) بكسر الشين وهى لغة فيه كمثل وإذا كان بمعنى الغنج فهو بالكسر لاغير ﴿أَزْوَاجٌ ٥٨﴾ أى أجناس و(آخر) على القراءتين يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أى وهذا مذوق أو عذاب آخر أو هذه مذوقات أو أنواع عذاب أخر، والجملة معطوفة على هذا حميم، وإن شئت فقدر هو أو هى واعطف الجملة على هو حميم، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف أى ومنه مذوق أو عذاب آخر أو ومنه مذوقات أو أنواع عذاب أخر والعطف على منه حميم وجوز أن يقدر الخبر لهم أى ولهم مذوق أو عذاب آخر أو ولهم مذوقات أو أنواع عذاب

www.Quranpdf.blogspot.in

أخر والعطف على (هذا فليذوقوه) ومن شكله وأزواج فى جميع ذلك صفتان لآخر أوأخر. و (آخر) وإن كان مفردا فى اللفظ فهو جمع وصادق على متعدد فى المعنى *

ويحتمل أن يكون آخر أوأخر مبتدأ و(من شكله) صفته و(أزواج) خبر والجواب عن عدم المطابقة على قراءة الأفراد ماسمعت ، وأن يكون ذلك عطفا على حميم عطف المفرد على المفرد ومن شكله صفته وأزواج صفة للثلاثة المتعاطفة ، وجوز أن يكون آخر مبتدأ ومن شكله خبره وأزواج فاعل الظرف ، وأن يكون الأول مبتدأ ومن شكله خبر مقدم وأزواج مبتدأ والجملة خبر المبتدأ الأول أعنى آخر ، وصح الابتداء به لأنه من باب ضعيف عاذ بقرملة فالمبتدأ فى الحقيقة الموصوف المحذوف أى نوع آخر أومذوق آخر ، وقيل لأنه جىء به للتفصيل ، ومما ذكروا من المسوغات أن تكون النكرة للتفصيل نحو الناس رجلان رجل أكرمته ورجل أهنته وبحث فيه ابن هشام فى المغنى ، وجعلوا ضمير شكله على الوجهين عائداً على آخر وهما لا يكادان يتسنيان على القراءة بالجمع فتدبر ولاتغفل ، ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمع كثير من أتباعكم فى الضلال ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ راكب الشدة داخل فيها أو متوسط شدة مخيفة ﴿مَّعَكُمْ﴾ والمراد هذا فوج داخل معكم النار مقاس فيها ماتقاسونه ، وهذا حكاية ماتقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعاً لهم فهو بتقدير فيقال لهم عند الدخول هذا الخ *

وفى الكشاف واستظهره أبو حيان أنه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض يخاطب بعضهم بعضا فى شأن أتباعهم يقول هذا فوج مقتحم معكم ، والظرف متعلق بمقتحم ، وجوز فيه أن يكون نعتا ثانيا لفوج أو حالا منه لأنه قد وصف أو من الضمير المستتر فيه ، ومنع أبو البقاء جواز كونه ظرفا قائلا: إنه يلزم عليه فساد المعنى وتبعه الكواشى وصاحب الأنوار . وتعقبه صاحب الكشف بأنه إن كان الفساد لانبائه عن تزاحمهم فى الدخول وليس المعنى على المزاحمة بين الفريقين الأتباع والمتبوعين لأنهم بعد الدخول يقولون ذلك لاعند المزاحمة فغير لازم لأن الاقتحام لاينبىء عن التزاحم ولاهو لازم له وإنما مثل ضربت معه زيداً ينبىء عن المشاركة فى الضرب والمقارنة فكذلك اقتحام المتبوعين النار مع الأتباع ينبىء عن المشاركة فى ركوب كل من الطائفتين قحمة النار ومقاساة شدتها فى زمان متقارب عرفا ، ولو قيل هذا فوج معكم مقتحمون لم يفد أن المخاطبين أيضا كذلك وفسد المعنى المقصود ، والعجب ممن جوز أن يكون حالا من ضمير (مقتحم) ولم يجوز أن يكون ظرفا وإن كان بغير ذلك فليفد أولا ثم ليعترض انتهى ، وقال بعضهم: إن وجه فساد الظرفية دون الحالية أنه ليس المراد أنهم اقتحموا فى الصحبة ودخلوا فيها بل اقتحموا فى النار مصاحبين لكم ومقارنين إياكم ، وهو كلام فاسد لامحصل له لأن مدلول مع المعبر عنه بالصحبة معناه الاجتماع فى التلبس بمدلول متعلقها فيفيد اشتراك الطائفتين فى الاقتحام لافى الصحبة كما توهمه ولا يدل على اتحاد زمانيهما كما صرح به فى المغنى ، ولو سلم فهو لتقاربه عد متحدا كما أشير فى عبارة الكشف اليه فالحق أنه لافساد ، وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم سواء كان قائل ماتقدم الملائكة عليهم السلام أوبعض الرؤساء لبعض أوصفة لفوج أوحال منه لوصفه أومن ضميره ، وأياما كان يؤول بمقول لهم لامرحبا لأنه دعاء فهو انشاء لايوصف به ، وكذا لا يكون حالا بدون تأويل ، والمعنى على استحقاقهم ان يقال لهم ذلك لا أنهم قيل لهم ذلك بالفعل ، وهو على الوصفية والحالية من كلام الملائكة

www.Quranpdf.blogspot.in

عليهم السلام ان كانوا هم القائلين أو من كلام بعض الرؤساء، وجوز كونه ابتداء كلام منهم و(مرحبا) من الرحب بضم الراء وهو السعة ومنه الرحبة للفضاء الواسع وهو مفعول به لفعل واجب الاضمار و(بهم) بيان للمدعو عليهم، وتكون الباء للبيان كاللام في نحو سقيا له، و كون اللام دون الباء كذلك دعوى من غير دليل أى ما أتوا بهم رحبا وسعة ، وقيل : الباء للتعدية فمجرورها مفعول ثان لاتوا وهو مبنى على زعم أن اللام لا تكون للبيان، وكفى بكلام الزمخشرى وأبى حيان دليلا على خلافه، ويقال: مرحبا بك على معنى رحبت بلادك رحبا كما يقال على معنى أتيت رحبا من البلاد لاضيقا، ويفهم من كلام بعضهم جواز ان يكون (مرحبا) مفعولا مطلقا لمحذوف أى لارحبت بهم الدار مرحبا، والجمهور على الاول، وأياما كان فالمراد بذلك مثبتا الدعاء بالخير ومنفيا الدعاء بالسوء

﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ٥٩ ﴾ تعليل من جهة الملائكة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر أو تعليل من الرؤساء لذلك، والكلام عليه يتضمن الاشارة إلى عدم انتفاعهم بهم كأنه قيل: إنهم داخلون النار باعمالهم مثلنا فأى نفع لنا منهم فلا مرحبا بهم ﴿ قَالُوا ﴾ أى الاتباع وهم الفوج المقتحم للرؤساء ه

﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو بما قلتم لنا، ولعلهم إنما خاطبوهم بذلك على تقدير كون القائل الملائكة الخزنة عليهم السلام مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى أولئك القائلين بل هم لامرحبا بهم قصداً منهم إلى اظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعا فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم ه

وفى البحر خاطبوهم لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم فى الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم حيث تسببوا فى كفرهم وأنكى للرؤساء ، وهذا أيضا بتأويل القول بناء على أن الانشاء لا يكون خبرا أى بل أنتم مقول فيكم أى أحق أن يقال فيكم لامرحبا بكم ﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك، وضمير الغيبة فى (قدمتموه) للعذاب لفهمه مما قبله أو للمصدر الذى تضمنه (صالوا) وهو الصلى أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى ودخول النار لنا باغوائنا واغرائنا على ماقدمنا من العقائد الزائغة والاعمال السيئة لأنا باشرناها من تلقاء أنفسنا ه

وفى الكلام مجازان عقليان ، الاول اسناد التقديم إلى الرؤساء لانهم السبب فيه باغوائهم ، والثانى إيقاعه على العذاب أو الصلى مع أنه ليس المقدم بل المقدم عمل السوء الذى هو سبب له ، وقيل : أطلق الضمير الذى هو عبارة عن العذاب أو الصلى المسبب عن العمل على العمل مجازا لغويا ، وقيل : لاحاجة إلى ارتكاب المجاز فيه فتقديم العذاب أو الصلى بتأخير الرحمة منهم ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ٦٠ ﴾ أى فبئس المقر جهنم، وهو من كلام الاتباع وكأنهم قصدوا بذلك التشفى والانكاء وإن ذلك المقر مشترك ، وقيل . قصدوا بالذم المذكور تغليظ جناية الرؤساء عليهم ﴿ قَالُوا ﴾ أى الاتباع أيضا، وقول ابن السائب: القائل جميع أهل النار خلاف الظاهر جدا فلا يصار اليه، وتوسيط الفعل بين كلاميهم لما بينهما من التباين ذاتا وخطابا أى قالوا معرضين عن خصومة رؤسائهم متضرعين إلى الله عز وجل ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ ٦١ ﴾ أى مضاعفا ومعناه ذا ضعف أى مثل وهو ان يزيد على عذابه مثله فيصير بتلك الزيادة مثلين لعذاب غيره، و يطلق الضعف على الزيادة المطلقة ه

وقال ابن مسعود هنا: الضعف حيات وعقارب، والظاهر من بعض عباراتهم أن (من) موصولة، ونص الخفاجى

www.Quranpdf.blogspot.in

على أنها شرطية. وفي البحر (من قدم) هم الرؤساء ، وقال الضحاك : هو ابليس وقابيل، وهو أنسب بخلاف الظاهر المحكي عن ابن السائب ﴿ وَقَالُوا ﴾ الضمير للطاغين عند جمع أي قال الطاغون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر ﴿ مَالَنَا لَانَرَى رِجَالاً كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ٦٢ ﴾ أي الأراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى يعنون بذلك فقراء المؤمنين وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم اياهم في الدين ، وقيل :الضمير لصناديد قريش كأبي جهل ·وأمية بن خلف وأصحاب القليب، والرجال عمار. وصهيب . وسلمان ·وخباب.وبلال وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم بناء على ماروي عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم، واستضعفه صاحب الكشف وسبب النزول لا يكون دليلا على الخصوص،واستظهر بعضهم أن الضمير للاتباع لأنه فيما قبل يعني قوله تعالى (قالوا بل أنتم) الخ لهم أيضا، وكانوا أيضا يسخرون من فقراء المؤمنين تبعا لرؤسائهم ، وأياما كان فجملة (كنا) الخ صفة (رجالا) ٭

وقوله تعالى ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل كما قرأ بذلك الحجازيان وابن عامر .وعاصم . وأبو جعفر .والأعرج . والحسن. وقتادة استئناف لامحل له من الاعراب قالوه حيث لم يروهم معهم انكاراً على أنفسهم وتأنيباً لها في الاستسخار منهم ،وقوله تعالى ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ٦٣ ﴾ متصل بقوله تعالى (ما لنا لانرى) الخ، وأم فيه متصلة وتقدم مافيه معنى الهمزة يغني عن تقدمها على مايقتضيه كلام الزمخشري ، والمعنى مالنا لانراهم في النار أليسوا فيها فلذلك لانراهم بل أزاغت عنهم أبصارنا فلانراهم وهم فيها أو بقوله تعالى (اتخذناهم) الخ، وأم فيه إما متصلة أيضا، والمقابلة باعتبار اللازم، والمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم، وإما منقطعة كأنهم أضربوا عن انكار الاستسخار وأنكروا على أنفسهم أشد منه وهو أنهم جعلوهم محقرين لاينظر اليهم بوجه ، وفي (زاغت) دون أزغنا مبالغة عظيمة كأن العين بنفسها تمجهم لقبح منظرهم وأين هذا من السخر فقد يكون المسخور منه محبوبا مكرما . وجوز أن يكون معنى أم زاغت على الانقطاع بل زاغت أبصارنا وكلت أفهامنا حتى خفي عنا مكانهم وأنهم على الحق المبين . وقرأ النحويان· وحمزة (اتخذناهم) بغير همزة فجوز أن تكون مقدرة لدلالة أم عليها فتتحد القراءتان ، وأن لاتكون كذلك ويكون الكلام اخبارا فقال ابن الانباري: الجملة حال أي وقد اتخذناهم ، وجوز كونها مستأنفة لبيان ماقبلها .وقال الزمخشري· وجماعة: صفة ثانية لرجالا و(أم زاغت) متصل بقوله تعالى (مالنا لانرى) الخ كما سمعت أولا ٭

وجوز أن تكون أم فيه منقطعة كأنهم أضربوا عما قبل وأنكروا على أنفسهم ماهو أشد منه أوأضربوا عن ذلك إلى بيان ان ما وقع منهم في حقهم كان لزيغ أبصارهم وكلال أفهامهم عن إدراك أنهم على الحق بسبب رثاثة حالهم ، وقرأ عبدالله . وأصحابه· ومجاهد · والضحاك وأبو جعفر. وشيبة . والأعرج. ونافع . وحمزة. والكسائي (سخريا) بضم السين ومعناه على مافي البحر من السخرة والاستخدام ، ومعنى سخريا بالكسر على المشهور من السخر وهو الهزء. وهو معنى ماحكي عن أبي عمرو قال: ما كان من مثل العبودية فسخري بالضم وما كان من مثل الهزء فسخري بالكسر ، وقيل : هو بالكسر من التسخير ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي الذي حكى عنهم

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿لَحَقٌّ﴾ لابد أن يتكلموا به فالمراد من حقيته تحققه فى المستقبل *

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ٦٤﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو تخاصم، والجملة بيان لذلك، وفى الابهام أولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له، وقال ابن عطية: بدل من حق والمبدل منه ليس فى حكم السقوط حقيقة، وقيل بدل من محل اسم إن، والمراد بالتخاصم التقاول، وجوز ارادة ظاهره فان قول الرؤساء (لامرحبا بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لامرحبا بكم) من باب الخصومة فسمى التفاوض كله تخاصما لاشتماله عليه، قيل وهذا ظاهر أن التقاول بين المتبوعين والأتباع أما لو جعل الكل من كلام الخزنة فلا، ولو جعل (لامرحبا) من كلام الرؤساء و(هذا فوج) من كلام الخزنة فيصح أن يجعل تخاصما مجازا . وقرأ ابن أبى عبلة (تخاصم) بالنصب فهو بدل من ذلك *

وقال الزمخشرى: صفة له، وتعقب بأن وصف اسم الاشارة وإن جاز أن يكون بغير المشتق إلا أنه يلزم أن يكون معرفا بأل كما ذكره فى المفصل من غير نقل خلاف فيه فبينه وبين مايستدعيه القول بالوصفية تناقض مع مافى ذلك من الفصل الممتنع أو القبيح. وأجاب صاحب الكشف بأن القياس يقتضى التجويز لأن اسم الاشارة يحتاج إلى رافع لابهامه دال على ذات معينة سواء كان فيه اختصاص بحقيقة أخرى أو بحقائق أولا، وهذا القدر لايخرج الاسم عن الدلالة على حقيقة الذات المعينة التى يصح بها أن يكون وصفا لاسم الاشارة، وأما الاستعمال فمعارض بأصل الاستعمال فى الصفة فكما أن الجمهور حملوا على الصفة فى نحو هذا الرجل مع احتمال البدل والبيان كذلك الزمخشرى حمل على الوصف مع احتمال البدل لأنه التفت لفت المعنى، ولا يناقض مافى المفصل لأنه ذكر ذلك فى باب النداء خاصة على تقدير عدم استقلال اسم الاشارة ولأن حال الاستقلال أقل لم يتعرض له، وقد بين فى موضعه أنه فى النداء خاصة يمتنع وصف اسم الاشارة إذا لم يستقل بالمضاف إلى المعرف باللام على أنه كثيرا مايخالف فى أحد الكتابين الكشاف والمفصل الآخر، والاشكال بأنه يلزم الفصل غير قادح فانه يجوز لاسيما على تقدير استقلال اسم الاشارة اه. ولا يخلو عن شىء *

وقرأ ابن السميقع (تخاصم) فعلا ماضيا (أهل) بالرفع على أنه فاعل له ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركى مكة ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أنذرتكم عذاب الله تعالى للمشركين، والكلام رد لقولهم هذا ساحر كذاب فان الانذار ينافى السحر والكذب *

وقد يقال: المراد إنما أنا رسول منذر لاساحر كذاب، وفيه من الحسن مافيه فان كل واحد من وصفى الرسالة والانذار ينافى كل واحد من وصفى السحر والكذب لكن منافاة الرسالة للسحر أظهر وبينهما طباق فكذلك الانذار للكذب، وضم إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ لافادة أن له ﷺ صفة الدعوة إلى توحيده عز وجل أيضا فالأمران مستقلان بالافادة *

و(من) زائدة للتأكيد أى ما إله أصلا إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ أى الذى لايحتمل الكثرة فى ذاته بحسب الجزئيات بأن يكون له سبحانه ماهية كلية ولابحسب الأجزاء ﴿الْقَهَّارُ ٦٥﴾ لكل شىء *

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات منه سبحانه خلقها واليه تدبير جميع أمورها ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى يغلب ولايغلب فى أمر من أموره جل شأنه فتندرج فى ذلك المعاقبة ﴿الْغَفَّارُ ٦٦﴾ المبالغ فى المغفرة يغفر مايشاء لمن يشاء تقرير للتوحيد، أما الوصف الأول فظاهر فى ذلك غير محتاج للبيان، وأما القهار

www.Quranpdf.blogspot.in

لكل شيء فلأنه لو كان إله غيره سبحانه لم يكن قهارا له ضرورة أنه لا يكون حينئذ الها بل ربما يلزم أن يكون مقهورا وذلك مناف للالوهية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وأما (رب السموات) الخ فلأنه لو أمكن غيره معه تعالى شأنه جاء دليل التمانع المشار اليه بقوله سبحانه : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فلم تتكون السموات والارض وما بينهما ، وقيل : لأن معنى (رب السموات) الخ رب كل موجود فيدخل فيه كل ما سواه فلا يكون إلها، وأما العزيز فلأنه يقتضى أن يغلب غيره ولا يغلب ومع الشركة لا يتم ذلك *

وأما الغفار فلأنه يقتضى أن يغفر ما يشاء لمن يشاء فربما شاء مغفرة لأحد وشاء لآخر منه العقاب فان حصل مراده فالآخر ليس باله وإن حصل مراد الآخر ولم يحصل مراده لم يكن هو إلها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وماقيل فى برهان التمانع سؤالا وجوابا يقال هنا، وفى هذه الأوصاف من الدلالة على الوعد والوعيد ما لا يخفى ، وللاقتصار على وصف الانذار صريحا فيما تقدم قدم وصف القهار على وصف الغفار هنا، وجوز أن يكون المقصود هو تحقيق الانذار وجيء بالثانى تتميما له وإيضاحا لما فيه من الاجمال أى قل لهم ما أنا إلا منذر لكم بما أعلم وإنما أنذرتكم عقوبة من هذه صفته فان مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه ، والوجه الأول أوفق لمقتضى المقام لأن التعقيب بتلك الصفات فى الدلالة على أن الدعوة إلى التوحيد مقصودة بالذات بمكان لا ينكر ولأن هذا بالنسبة إلى ما مر من صدر السورة إلى هنا بمنزلة أن يقول المستدل بعد تمام تقريره فالحاصل فالأولى أن يكون على وزان المبسوط وفيه قوله تعالى: (أجعل الآلهة إلها واحدا) فافهم *

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر للايذان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمرا وائتمارا ﴿ هُوَ ﴾ أى ما أنبأتكم به من كونى رسولا منذرا وأن الله تعالى واحدا لا شريك له ﴿ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ٦٧ ﴾ خبر ذو فائدة عظيمة جدا لاريب فيه أصلا ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ٦٨ ﴾ متمادون فى الاعراض عنه لتمادى غفلتكم ، وهذه الجملة صفة ثانية لنبأ والكلام بجملته تحسير لهم وتنبيه على مكان الخطأ وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذى يقتضيه مقام الدعوة. واستظهر بعض الأجلة أن (هو) للقرآن كما روى عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة ، واستشهد بآخر السورة وقال : انه يدخل ما ذكر دخولا أوليا ، واختار كون هذه الجملة استئنافا ناعيا عليهم سوء حالهم بالنسبة اليه وأنهم لا يقدرون قدره الجليل مع غاية عظمته الموجبة للاقبال عليه وتلقيه بحسن القبول، وكأن الكلام عليه ناظر إلى ما فى أول السورة من قوله تعالى : (والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) جيء به ليستدل على أنه وارد من جهته تعالى بما يشير اليه قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٦٩ ﴾ الخ حيث تضمن ذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة كالنظر فى الكتب الالهية والسماع من الكتابيين وهو حجة بينة دالة على أنه بطريق الوحى من عند الله تعالى وأن سائر أنبائه ايضا كذلك، وهو على ماقلنا تذكير لإثبات النبوة بذكر مختصر منه تمهيدا لارشاد الطريق وتذكيرا للباقى وتسلقا منه إلى استماع ما ذكره لطف للمدعوين وتنويه للداعى، وعدم التعرض لنحو ذلك فى أمر التوحيد لظهور أدلته مع كونه ذكر شيء منها غضا طريا وهو ما أشارت اليه الصفات المذكورة آنفا، فلا يقال: إن التعرض لإثبات النبوة دون التوحيد دليل على

www.Quranpdf.blogspot.in

أن المقصود بالافادة هو النبوة وأن الثانى جيء به تتميا لذلك *

وأنت تعلم أن النبوة وكون القرآن وحيا من عند الله تعالى متلازمان متى ثبت أحدهما ثبت الآخر، لكن يرجح جعل الآية فى النبوة واثباتها القرب وتصدير هذه الآية بنحو ما صدرت به الآية المتضمنة دعوى النبوة قبلها من قوله تعالى (قل) فان سلم لك هذا المرجح فذاك والا فلا تعدل عما روى عن ابن عباس ومن معه ،وعن الحسن أن ذلك يوم القيامة كما فى قوله تعالى (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) وقيل: ماتقدم من أنباء الانبياء عليهم السلام ، وقيل: تخاصم أهل النار، وعدى العلم بالباء نظرا إلى معنى الاحاطة، والملأ الجماعة الاشراف لانهم يملؤن العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء وهو اسم جمع ولذا وصف بالمفرد اعنى (الاعلى) والمراد به عند ملأ الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس عليه اللعنة وكانوا فى السماء فالعلو حسى وكان التقاول بينهم على ماستعلمه إن شاء الله تعالى ، وإذ متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لابذواتهم، والتقدير ما كان لى فيما سبق علم مابوجه من الوجوه بحال الملا الاعلى وقت اختصامهم، وهو أولى من تقدير الكلام كما ذهب اليه الجمهور أى ما كان لى علم بكلام الملا الاعلى وقت اختصامهم لأن علمه ﷺ غير مقصور على ما جرى بينهم من الاقوال فقط بل عام لها وللافعال أيضا من سجود الملائكة عليهم السلام وإباء ابليس واستكباره حسبما ينطق به الوحى فالأولى اعتبار العموم فى نفيه أيضا ، وقيل: إذ بدل اشتمال من (الملأ) أوظرف لعلم وفيه بحث والاختصام فيما يشير اليه سبحانه بقوله عز وجل (إذ قال ربك) الخ، والتعبير بيختصمون المضارع لأنه أمر غريب فأتى به لاستحضاره حكاية للحال، وضمير الجمع للملأ. وحكى أبو حيان كونه لقريش واستبعده وكأن فى (يختصمون) حينئذ التفاتا من الخطاب فى (أنتم عنه معرضون) إلى الغيبة والاختصام فى شأن رسالته ﷺ أو فى شأن القرآن أو شأن المعاد وفيه عدول عن المأثور وارتكاب لما لايكاد يفهم من الآية من غير داع إلى ذلك ومع هذا لا يقبله الذوق السليم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ ٧٠﴾ اعتراض وسط بين اجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئا عن ثبوته الآن، ومن البين عدم ملابسته ﷺ بشيء من مباديه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحى حتما فجعل ذلك أمرا مسلم الثبوت غنيا عن الاخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة اخباره بما هو داع إلى الوحى ومصحح له، فالقائم مقام الفاعل ليوحى اما ضمير عائد إلى الحال المقدر كما أشير اليه سابقا أو مايعمه وغيره، فالمعنى مايوحى إلى حال الملأ الأعلى أو مايوحى إلى الذى يوحى من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم لأمر من الأمور الالأنى نذير مبين من جهته تعالى فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى اليه ومصححاته، وجوز كون الضمير القائم مقام الفاعل عائدا إلى المصدر المفهوم من (يوحى) أى مايفعل الايحاء إلى بحال الملأ الأعلى أو بشيء من الآمور الغيبية التى من جملتها حالهم لأمر من الأمور الا لأنى الخ *

وجوز أيضا كون الجار والمجرور نائب الفاعل (وأنما) على تقدير اللام، قال فى الكشف: ومعنى الحصر أنه ﷺ لم يوح اليه لأمر إلا لأنه نذير مبين وأى مبين كقولك: لم تستقض يافلان إلالأنك عالم عامل مرشد ه وجوز الزمخشرى أن يكون بعد حذف اللام مقاما مقام الفاعل، ومعنى الحصر أنى لم أومر إلا بهذا الأمر

www.Quranpdf.blogspot.in

وحده وليس إلى غير ذلك لأنه الأمر الذى يشتمل على كل الأوامر إما تضمنا وإما التزاما أو لم أومر إلا بانذاركم لا بهدايتكم وصدكم عن العناد فان ذلك ليس إلى، وما ذكر أولا أوفق بحال الاعتراض كما لا يخفى على من ليس أجنبيا عن إدراك اللطائف. وقرأ أبو جعفر (إنما) بالكسر على الحكاية أى ما يوحى إلى إلا هذه الجملة وإيحاؤها اليه أمره عليه الصلاة والسلام أن يقولها وحاصل معنى الحصر قريب مما ذكر آنفاء وجوز أن يراد لم أومر إلا بأن أقول لكم هذا القول دون أن أقول أعلم الغيب بدون وحى مثلا فتدبر ولا تغفل «

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الخ شروع فى تفصيل ما أجمل من الاختصام الذى هو ما جرى بينهم من التقاول فهو بدل من (إذ يختصمون) بدل كل من كل، وجوز كونه بدل بعض، وصح إسناد الاختصام إلى الملائكة مع أن التقاول كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه (إذ قال ربك) الخ لأن تكليمه تعالى إياهم كان بواسطة الملك فمعنى المقاولة بين الملا الأعلى مقاولة ملك من الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام فى شأن الاستخلاف ومع إبليس فى شأن السجود ومع آدم فى قوله : (أنبئهم بأسمائهم) ومعنى كون المقاولة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم فى الجملة ولا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز فى الاسناد فالكل حقيقة لأن الملا الأعلى شامل للملك المتوسط وهو المقاول بالحقيقة وهو عز وجل مقاول بالمجاز، ولا تقل المخاصم ليكون الأمر بالعكس، وما يقال: إن قوله تعالى : (إذ قال ربك) يقتضى أن تكون مقاولته تعالى إياهم بلا واسطة فهو ممنوع لأنه ابدال زمان قصة عن زمان التفاوض فيها، والغرض أن تعلم القصة لا مطابقه كل جزء جزء لكل جزء جزء فذلك غير لازم ولا مراد، ثم فيه فائدة جليلة وهى ان مقاولة الملك إياهم أو إياهما عن الله تعالى فهم مقاولوه تعالى أيضا ، وأريد هذا المعنى من هذا الايراد لا من اللفظ ليلزم الجمع المذكور آنفا ، وجعل الله عز وجل من الملا الأعلى بأن يراد به ماعدا البشر ليكون الاختصام قائما به تعالى وبهم على معنى أنه سبحانه فى مقابلتهم يخاصمونه ويخاصمهم مع ما فيه من ايهام الجهة له عز وجل ينبو المقام عنه نبوا ظاهرا ،ولم يذكر سبحانه جواب الملائكة عليهم السلام لتتم المقاولة اختصارا بما كرر مرارا ولهذا لم يقل جل شانه إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت جاعل إياه خليفة «

وروعى هذا النسق ههنا لنكتة سرية وهى أن يجعل مصب الغرض من القصة حديث ابليس ليلائم ما كان فيه أهل مكة وأنه بامتناعه عن امتثال أمر واحد جرى عليه ما جرى فكيف يكون حالهم وهم مغمورون فى المعاصى، وفيه أنه أول من سن العصيان فهو إمامهم وقائدهم إلى النار ، وذكر حديث سجود الملائكة وطى مقاولتهم فى شأن الاستخلاف ليفرق بين المقاولتين وأن السؤال قبل الامر ليس مثله بعده فان الثانى يلزمه التوانى ، ثم فيه حديث تكريم آدم عليه السلام ضمنا دلالة على أن المعلم والناصح يعظم وأنه شرع منه تعالى قديم، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبى ﷺ معاملة الملائكة لآدم لا معاملة ابليس له قاله صاحب الكشف وهو حسن بيد أن ما علل به الاختصار من تكرار ذلك مراراً لا يتم إلا إذا كان ذلك فى سورة مكية نزلت قبل هذه السورة ، وقد علل بعضهم ترك الذكر بالاكتفاء بما فى البقرة، وفيه أن نزولها متأخر عن نزول هذه السورة لانها مدنية وهذه مكية فلا يصح الاكتفاء احالة عليها قبل نزولها، وكون المراد اكتفاء السامعين للقرآن بعد ذلك لا يخفى حاله، ولعل القصة كانت معلومة سماعا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وكان عالما بها بواسطة الوحى

www.Quranpdf.blogspot.in

وإن لم تكن إذ ذاك نازلة قرآنا فاختصرت ههنا لما ذكر فى الكشف اكتفاء بذلك ، وقال فيه أيضا: وذلك أن تقول التقاول بين الملائكة وآدم عليهم السلام حيث قال (انبؤنى باسماء هؤلاء) تبكيتا لهم بما نسبوا اليه من قولهم (أتجعل) فيها وبينه وبين ابليس إما لانه داخل فى الانكار والتبكيت بل هو أشدهم فى ذلك لكن غلب الله تعالى الملائكة لأنه أخس من أن يقرن مع هؤلاء مفردا فى الذكر أولانه أمر بالسجود لمعلمه فامتنع وأسمعه ما اسمعه

وقوله تعالى (واذ قال ربك) الخ للاتيان بطرف مشتمل على قصة المقاولة وتصوير أصلها فلم يلزم منه أن يكون الرب جل شأنه من المقاولين وإن كان بينه سبحانه وبينهم تقاول قد حكاه الله تعالى ، وهذا أقل تكلفا مما فيه دعوى أن تكليمه تعالى كان بواسطة الملك إذ للمانع أن يمنع التوسط على أصلنا وعلى أصل المعتزلة أيضا لاسيما إذا جعل المبكتون الملائكة كلهم ، وعلى الوجهين ظهر فائدة ابدال (إذ قال ربك) من (إذ يختصمون) على وجه بين ، والاعتراض بأنه لوكان بدلا لكان الظاهر إذ قال ربى لقوله (ما كان لى من علم) فليس المقام مما يقتضى الالتفات غير قادح فانه على أسلوب قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض) فالخطاب بلكم نظرا إلى أنه من قول الله تعالى تمم قولهم وذنبه كذلك ههنا هو من قول الله تعالى لتتميم قول النبي ﷺ وهذا على نحو ما يقول: مخاطبك جاءنى الامير فتقول الذى أكرمك وحباك أو يقول رأيت الامير يوم الجمعة فتقول: يوم خلع عليك الخلعة الفلانية، ومنه علم أنه ليس من الالتفات فى شىء وانهذا الابدال على هذا الاسلوب لمزيد الحسن انتهى، وجوز أن يقال: إن (إذ) قوله تعالى (إذ قال ربك) ظرف ليختصمون ، والمراد بالملا الاعلى الملائكة وباختصامهم قولهم لله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فى مقابلة قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض) إلى غير ذلك، ولا يتوقف صحة ارادة ذلك على جعل الله تعالى من الملأ ولا على أنه سبحانه كلمهم بواسطة ملك ولا تقدم تفصيل الاختصام مطلقا بل يكفى ذكره بعد النزول سواء ذكر قرآنا أم لا، ويرجح تفسير الملأ بما ذكر على تفسيره بما يعم آدم عليه السلام أن ذاك على ما سمعت يستدعى القول بأن آدم كان فى السماء وهو ظاهر فى أنه عليه السلام خلق فى السماء أو رفع اليها بعد خلقه فى الأرض وكلا الامرين لا يسلمهما كثير من الناس، وقد نقل ابن القيم فى كتابه مفتاح دار السعادة عن جمع أن آدم عليه السلام إنما خلق فى الأرض وأن الجنة التى أسكنها بعد أن جرى ما جرى كانت فيها أيضا وأتى بادلة كثيرة قوية على ذلك ولم يجب عن شىء منها فتدبر. وذهب بعضهم إلى أن الملأ الاعلى الملائكة وأن اختصامهم كان فى الدرجات والكفارات، فقد أخرج الترمذى وصححه. والطبرانى وغيرهما عن معاذ بن جبل قال: «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعا فثوب بالصلاة فصلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما سلم دعا بصوته فقال: على مصافكم ثم التفت الينا ثم قال: أما إنى احدثكم بما حبسنى عنكم الغداة انى قمت الليلة فقمت وصليت ما قدر لى ونعست فى صلاتى حتى استثقلت فاذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة فقال: يا محمد قلت: لبيك ربى قال: فيم يختصم الملأ الاعلى؟ قلت: لاأدرى فوضع كفه بين كتفى فوجدت برد أنامله بين ثديى فتجلى لى كل شىء وعرفته فقال: يا محمد قلت: لبيك قال: فيم يختصم الملأ الاعلى؟ قلت: فى الدرجات والكفارات فقال: ما الدرجات؟ فقلت: اطعام الطعام وافشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام قال: صدقت فما الكفارات؟ قلت: اسباغ الوضوء فى المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة ونقل الاقدام

إلى الجماعات قال: صدقت سل يا محمد فقلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون اللهم إنى اسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: تعلموهن وادرسوهن فانهن حق» ومعنى اختصامهم فى ذلك على ما فى البحر اختلافهم فى قدر ثوابه، ولا يخفى أن حمل الاختصام فى الآية على ماذكر بمراحل عن السياق فانه مما لم يعرفه أهل الكتاب فلا يسلمه المشركون له عليه الصلاة والسلام أصلا، نعم هو اختصام آخر لا تعلق له بالمقام، وجعل هؤلاء إذ فى (إذ قال) منصوبا باذكر مقدرا، وكذا كل من قال: ان الاختصام ليس فى شأن آدم عليه السلام يجعله كذلك. والشهاب الخفاجى قال: الاظهر أى مطلقا تعلق إذ باذكر المقدر على ما عهد فى مثله ليبقى (إذ يختصمون) على عمومه ولئلا يفصل بين البدل والمبدل منه وليشمل ما فى الحديث الصحيح من اختصامهم فى الكفارات والدرجات ولئلا يحتاج إلى توجيه العدول عن ربى إلى (ربك) انتهى، وفيه شيء لا يخفى.

ومن غريب ماقيل فى اختصامهم ماحكاه الكرمانى فى عجائبه أنه عبارة عن مناظرتهم بينهم فى استنباط العلوم كمناظرة أهل العلم فى الأرض، ويرد به على من يزعم أن جميع علومهم بالفعل، والمعروف عن السلف أنه المقاولة فى شأن آدم عليه السلام والرد به حاصل أيضا، والمراد بالملائكة فى (إذ قال ربك للملائكة) مايعم ابليس لأنه إذ ذاك كان مغمورا فيهم، ولعل التعبير بهم دون الضمير الراجع إلى الملا الاعلى على القول بالاتحاد لشيوع تعلق القول بهم بين أهل الكتاب بهذا العنوان او لشهرة المقابلة بين الملك والبشر فيلطف جدا قوله سبحانه (إذ قال ربك للملائكة) ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ٧١ ﴾ وقيل: عبر بذلك اظهارا للاستغراق فى المقول له، والمراد انى خالق فيما سيأتى، وفى التعبير بماذكر ماليس فى التعبير بصيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل البتة من غير صارف، والبشر الجسم الكثيف يلاقى ويباشر أو بادى البشرة ظاهر الجلد غير مستور بشعر أو وبر أو صوف، والمراد به آدم عليه السلام، وذكر هنا خلقه من طين وفى آل عمران خلقه من تراب وفى الحجر من صلصال من حمإ مسنون وفى الانبياء مَن عجل ولا منافاة غاية مافى الباب أنه ذكر فى بعض المادة القريبة وفى بعض المادة البعيدة، ثم ان ماجرى عند وقوع المحكى ليس اسم البشر الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فليس ثمت نفخ ولا منفوخ أى فاذا أكملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من الروح الطاهرة التى هى أمرى ﴿ فَقَعُوا لَهُ ﴾ أمر من وقع، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل: أى فاسقطوا له ﴿ سَاجِدِينَ ٧٢ ﴾ تحية له وتكريما ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يبق أحد منهم إلا سجد ﴿ أَجْمَعُونَ ٧٣ ﴾ أى بطريق المعية بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد فكل للاحاطة وأجمع للاجتماع، ولا اختصاص لافادته ذلك بالحالية خلافا لبعضهم، وتحقيقه على مافى الكشف أن الاشتقاق الواضح يرشد إلى أن فيه معنى الجمع والضم والأصل فى الاطلاق الخطابى التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا

www.Quranpdf.blogspot.in

خفاء. فى أن الجمع فى وقت واحد أكمل أصنافه لكن لما شاع استعماله تأكيدا أقيم مقام كل فى إفادة الاحاطة من غير نظر إلى الكمال فاذا فهمت الاحاطة بلفظ آخر لم يكن بد من ملاحظة الأصل صونا للكلام عن الالغاء. ولو سلم فكل تأكيد الشمول باخراجه عن الظهور إلى النصوص، و(أجمعون) تأكيد ذلك التأكيد فيفيد أتم أنواع الاحاطة وهو الاحاطة فى وقت واحد، واستخراج هذه الفائدة من جعله كاقامة المظهر مقام المضمر لا يلوح وجهه، والنقض بقوله سبحانه (لأغوينهم أجمعين) منشؤه عدم تصور وجه الدلالة، وظاهر هذه الآية وآية الحجر أن سجودهم مترتب على ما حكى من الأمر التعليقى و كثير من الآيات الكريمة كالتى فى البقرة والأعراف وغيرهما ظاهرة فى أنه مترتب على الأمر التنجيزى وقد مر تحقيق ذلك فليراجع ه

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ استثناء متصل لما أنه وإن كان جنيا معدود فى زمرة الملائكة موصوف بصفاتهم لا يقوم ولا يقعد إلا معهم فشملته الملائكة تغليبا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم أو هو استثناء منقطع، وقوله تعالى: ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴾ على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فان تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروى وبه يتحقق أنه للاباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز اتصاله بما قبله أى لكن إبليس استكبر وتعظم ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٧٤ ﴾ أى وصار منهم باستكباره وتعاظمه على امر الله تعالى، وترك الفاء المؤذنة بالسببية إحالة على فطنة السامع أو لظهور المراد ه

وكون التعاظم على أمره عز وجل لاسيما الشفاهى موجبا للكفر مما لا ينبغى أن يشك فيه على أن هذا الاستكبار كان متضمنا استقباح الأمر وعده جورا، ويجوز أن يكون المعنى وكان من الكافرين فى علم الله تعالى لعلمه عز وجل أنه سيعصيه ويصدر عنه مايصدر باختياره وخبث طويته واستعداده ﴿ قَالَ ﴾ عز وجل على سبيل الانكار والتوبيخ ﴿ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى من السجود ﴿ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ أى للذى خلقته على أن ما موصولة والعائد محذوف، واستدل به على جواز إطلاق (ما) على آحاد من يعقل ومن لم يجز قال: إن (ما) مصدرية ويراد بالمصدر المفعول أى أن تسجد لمخلوق ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ وهذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه عليه السلام معتنى بخلقه فان من شأن المعتنى به أن يعمل باليدين، ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب وأم وكونه جسما صغيرا انطوى فيه العالم الأكبر وكونه أهلا لأن يفاض عليه مالا يفاض على غيره إلى غير ذلك من مزايا الآدمية. وعند بعض آخر منهم اليد بمعنى القدرة والتثنية للتاكيد الدال على مزيد قدرته تعالى لأنها ترد لمجرد التكرير نحو (فارجع البصر كرتين) فاريد به لازمه وهو التاكيد وذلك لأن الله تعالى فى خلقه أفعالا مختلفة من جعله طينا مخمرا ثم جسما ذا لحم وعظم ثم نفخ الروح فيه وإعطائه قوة العلم والعمل ونحو ذلك مما هو دال على مزيد قدرة خالق القوى والقدر، وجوز أن يكون ذلك لاختلاف فعل آدم فقد يصدر منه أفعال ملكية كانها من آثار اليمين وقد يصدر منه أفعال حيوانية كأنها من آثار الشمال وكلتا يديه سبحانه يمين. وعند بعض اليد بمعنى النعمة والتثنية إما لنحو مامر وإما على إرادة نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ه

والسلف يقولون: اليد مفردة وغير مفردة ثابتة لله عز وجل على المعنى اللائق به سبحانه ولا يقولون فى مثل هذا الموضع إنها بمعنى القدرة أو النعمة، وظاهر الأخبار أن للمخلوق بها مزية على غيره، فقد ثبت

www.Quranpdf.blogspot.in

فى الصحيح أنه سبحانه قال فى جواب الملائكة: اجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة وعزتى وجلالى لا أجعل من خلقته بيدى كمن قلت له كن فكان *

وأخرج ابن جرير . وأبو الشيخ فى العظمة. والبيهقى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: خلق الله تعالى أربعا بيده.العرش. وجنات عدن.والقلم. وءادم ثم قال لكل شئ كن فكان، وجاء فى غير ماخبر أنه تعالى كتب التوراة بيده، وفى حديث محاجة ءادم وموسى عليهما السلام مايدل على أن المخلوقية بها وصف تعظيم حيث قال له موسى: أنت ءادم الذى خلقك الله تعالى بيده، وكذلك فى حديث الشفاعة أن أهل الموقف يأتون ءادم ويقولون له: أنت ءادم أبو الناس خلقك الله تعالى بيده ،ويعلم من ذلك أن ترتيب الانكار فى (ما منعك أن تسجد) على خلق الله تعالى إياه بيديه لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ كأنه قيل: مامنعك أن تعظم بالسجود من هو أهل للتعظيم للعناية الربانية التى حفت إيجاده *

وزعم الزمخشرى أن (خلقت بيدى) من باب رأيته بعينى فبيدى لتأكيد أنه مخلوق لاشك فيه وحيث أن ابليس ترك السجود لآدم عليه السلام لشبهة أنه سجود لمخلوق وانضم إلى ذلك أنه مخلوق من طين وأنه هو مخلوق من نار وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر من هو أجل منه وأقرب عباده إليه زلفى وهم الملائكة امتثلوا ولم يلتفتوا الى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه ذكر له مايتشبث به من الشبهة وأخرج له الكلام مخرج القول بالموجب مع التنبيه على مزلة القدم فكأنه قيل له مامنعك من السجود لشىء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدى لاشك فى كونه مخلوقا امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ولا يخفى أن المقام ناب عما ذكره أشد النبو، وجعل ذلك من باب رأيت بعينى لا يفيد إلا تأكيد المخلوقية ، وإخراج الكلام مخرج القول بالموجب مما لا يكاد يقبل فان سياق القول بالموجب أن يسلم له ثم ينكر عليه لا أن يقدم الانكار أصلا ويؤتى به كالرمز بل كالالغاز ، وأيضا الأخبار الصحيحة ظاهرة فى أن ذلك وصف تعظيم لا كما زعمه ، وأيضا جعل سجود الملائكة لآدم راجعا إلى محض الامتثال من غير نظر إلى تكريم آدم عليه السلام مردود بما سلم فى عدة مواضع أنه سجود تكريم كيف وهو يقابل (أتجعل فيها) وكذلك تعليمه إياهم فليلحظ فيه جانب الآمر تعالى شأنه وجانب المسجود له عليه الصلاة والسلام توفية للحقين وكأنه قال ما قال وأخرج الآية على وجه لم يخطر ببال إبليس حذراً من خرم مذهبه ولاعليه أن يسلم دلالة الآية على التكريم ويخصه بوجه وحينئذ لا تدل على الأفضلية مطلقا حتى يلزم خرم مذهبه ، ولعمرى أن هذا الرجل عق أباه آدم عليه السلام فى هذا المبحث من كشافه حيث أورد فيه مثالا لماقرره فى الآية جعل فيه سقاط الحشم مثالا لآدم عليه السلام وبر عدو الله تعالى إبليس حيث أقام له عذره وصوب اعتقاده أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين وإنما غلطه من جهة أخرى وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة اذ سجدوا له على علمهم أنه بالنسبة اليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة وكم له من عثرة لا يقال لصاحبها لعا مع الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم فى هذا المقام، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مهاوى الهوى ويثبت لنا الأقدام،وقرىء (بيدى) بكسر الذال كمصرخي و(بيدى) على التوحيد ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الانكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ٧٥﴾ أو كنت مستحقا للعلو فائقا فيه، وقيل المعنى أحدث لك الاستكبار أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه

www.Quranpdf.blogspot.in

وعلى الثانى باعتبار الحدوث والقدم ولذا قيل (كنت من العالين) دون أنت من العالين، وقيل إن العالين صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون مستغرقون بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق غيره لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام أو هم ملائكة السماء كلهم ولم يؤمروا بالسجود وإنما المأمور ملائكة الأرض فالمعنى أتركت السجود استكباراً أم تركته لكونك ممن لم يؤمر به ولا يخفى ما فيه، وأم فى كل ذلك متصلة ونقل ابن عطية عن كثير من النحويين أنها لا تكون كذلك إذا اختلف الفعلان نحو أضربت زيداً أم قتلته *

وتعقبه أبو حيان بأنه مذهب غير صحيح وأن سيبويه صرح بخلافه. وقرأت فرقة منهم ابن كثير فيما قيل (استكبرت) بصلة الألف وهى قراءة أهل مكة وليست فى مشهور ابن كثير فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام قد حذفت لدلالة أم عليها كقوله :

* بسبع رمينا الجمر أم بثمان * واحتمل أن يكون الكلام إخباراً وأم منقطعة والمعنى بل أنت من العالين والمراد استخفافه سبحانه به ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قيل هو جواب عن الاستفهام الأخير يؤدى مؤدى أنه كذلك أى هو من العالين على الوجه الأول وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً فى شيء على الوجه الثانى ويجرى مجرى التعليل لكونه فائقاً إلا أنه لما لم يكن وافياً بالمقصود لأنه مجرد دعوى أوثر بيانه بما يفيد ذلك وزيادة وهو قوله ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ٧٦﴾ أما الأول فظاهر وأما الثانى فلأنه ذكر النوعين تنبيها على أن المماثلة كافية فضلا عن الأفضلية ولهذا أبهم وفصل وقابل وآثر (خلقتنى. وخلقته) دون أنا من نار وهو من طين ليدل على أن المماثلة فى المخلوقية مانعة فكيف إذا انضم اليها خيرية المادة، وفيه تنبيه على أن الآمر كان أولى أن يستنكف فانه أعنى السجود حق الآمر، واستلطفه صاحب الكشف ثم قال: ومنه يعلم أن جواب إبليس من الأسلوب الأحمق. وجعل غير واحد قوله (أنا خير منه) جوابا أولا وبالذات عن الاستفهام بقوله تعالى : (مامنعك أن تسجد) بادعاء شيء مستلزم للمانع من السجود على زعمه، وقوله (خلقتنى) الخ تعليلا لدعوى الخيرية *

وأياما كان فقد أخطأ اللعين إذ لا مماثلة فى المخلوقية فمخلوقية آدم عليه السلام باليدين ولا كذلك مخلوقيته وأمر خيرية المادة على العكس فى النظر الدقيق ومع هذا الفضل غير منحصر بما كان من جهتها بل يكون من جهة الصورة والغاية أيضا وفضل آدم عليه السلام فى ذلك لا يخفى، وكأن خطاه لظهوره لم يتعرض لبيانه بل جعل جوابه طرده وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للامر الجليل وتعليلها باظهر الأباطيل أى فاخرج من الجنة، والاضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها *

وعن ابن عباس أنه كان فى عدن لا فى جنة الخلد ثم انه يكفى فى صحة الأمر كونه ممن اتخذ الجنة وطنا ومسكنا ولا تتوقف على كونه فيها بالفعل وقت الخطاب كما هو شائع فى المحاورات يقول من يخاصم صاحبه فى السوق أو غيره فى دار : أخرج من الدار مع أنه وقت المخاصمة ليس فيها بالفعل وهذا إن قيل : إن المحاورة لم تكن فى الجنة، وقيل : منها أى من زمرة الملائكة المعززين وهو المراد بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فان وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وكانت على ما روى عن الحسن بطريق النداء من باب الجنة على أن كثيراً من العلماء أنكروا الهبوط من السماء بالكلية، بناء على أن الجنة التى أسكنها آدم عليه السلام كانت فى الأرض، وقيل : أخرج من الخلقة التى أنت فيها وانسلخ منها والأمر للتكوين، وكان عليه اللعنة يفتخر

www.Quranpdf.blogspot.in

بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا *

وقوله تعالى ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧﴾ تعليل للامر بالخروج أي مطرود من كل خير وكرامة فالرجم كناية عن الطرد لأن المطرود يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب كذا قالوا، وقد يقال: المراد برجيم ذليل فان الرجم يستدعي الذلة، وهو أبعد من توهم التكرار مع الجملة بعد من الوجه الأول وأوفق لما في الأعراف من قوله تعالى: (فاخرج إنك من الصاغرين) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي إبعادي عن الرحمة، وفي الحجر (اللعنة) فان كانت أل فيه للعهد أو عوضا عن الضمير المضاف اليه فعدم الفرق بين ما هناك وما هنا ظاهر وإن أريد كل لعنة فذاك لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى فهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٧٨﴾ يوم الجزاء والعقوبة، وفيه إيذان بان اللعنة مع كمال فظاعتها ليست كافية في جزاء جنايته بل هي أنموذج مما سيلقاه مستمرة إلى ذلك اليوم، لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت ونسب القول به إلى بعض الصوفية بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ماتنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى: (فاذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) وقوله تعالى: (ويلعن بعضكم بعضا) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي أمهلني وأخرني، والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام كأنه قال: إذا جعلتني رجيما فامهلني ولا تمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩﴾ أي آدم وذريته للجزاء بعد الموت وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من اغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث وكان أمر البعث معروفا بين الملائكة فسمعه منهم فقال ماقال، ويمكن أن يكون قد عرفه عقلا حيث عرف ببعض الأمارات أو بطريق آخر من طرق المعرفة أن أفراد هذا الجنس لا تخلو من وقوع ظلم بينها وأن الدار ليست دار قرار بل لا بد من الموت فيها وأن الحكمة تقتضي الجزاء *

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٨٠﴾ وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله الآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم في ذلك صريح في أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لانظار خاص به قد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فان ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أي إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٨١﴾ الذي قدرته وعينته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤل فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المؤكد به كما في قوله تعالى (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وقول الشافعي: * فان ترحم فأنت لذلك أهل *

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ قسم بسلطان الله عزوجل وقهره وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة فالباء للقسم على ما عليه الأكثرون والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار أي فاقسم بعزتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢﴾ أي أفراد هذا النوع بتزيين المعاصي لهم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الغواية. وقرىء (المخلصين) على صيغة الفاعل أي الذين أخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى *

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿قَالَ﴾ أى الله عزوجل ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ٨٤﴾ برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أى لاأقول إلا الحق، والفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أن الحق إما إسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى باقسامه به، ورجح بحديث إعادة الاسم معرفة أو فأنا الحق أو فقولى الحق، وقوله تعالى (لأملان) الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أى والله لأملأن الخ، وقوله تعالى (والحق أقول) على تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولى الحق * وقول (فالحق) مبتدأ خبره (لأملان) لأن المعنى أن أملأ ليس بشىء أصلا. وقرأ الجمهور (فالحق والحق) بنصبهما وخرج على أن الثانى مفعول مقدم كما تقدم والأول مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب كما فى بيت الكتاب

إن عليـــك الله أن تبايعا   تؤخذ كرها أو تجىء طائعا

وقولك: الله لأفعلن وجوابه (لأملأن) وما بينهما اعتراض وقيل هو منصوب على الاغراء أى فالزموا الحق و(لأملأن) جواب قسم محذوف، وقال الفراء: هو على معنى قولك حقا لآتينك ووجود أل وطرحها سواء أى لأملأن جهنم حقا فهو عنده نصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة، ولا يخفى أن هذا المصدر لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة وأنه مخصوص بالجملة التى جزآها معرفتان جامدان جموداً محضا. وقال صاحب البسيط: وقد يجوز أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ يكون ضميرا نحو هو زيد معروفا وهو الحق بينا وأنا الأمير مفتخرا ويكون ظاهرا نحو زيد أبوك عطوفا وأخوك زيد معروفا اهـ فكأن الفراء لا يشترط فى ذلك ما يشترطون *

وقرأ ابن عباس. ومجاهد. والأعمش بالرفع فيهما، وخرج رفع الأول على ما مر ورفع الثانى على أنه مبتدأ والجملة بعده خبر والرابط محذوف أى أقوله كقراءة ابن عامر (وكل وعد الله الحسنى) وقول أبى النجم:

قد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنـــع

برفع كل ليتأتى السلب الكلى المقصود للشاعر، وقرأ الحسن. وعيسى. وعبد الرحمن بن أبى حماد عن أبى بكر بجرهما، وخرج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة أى فوالحق، والثانى مجرور بالعطف عليه كما تقول: والله والله لأقومن، و(أقول) اعتراض بين القسم وجوابه، وجعله الزمخشرى مفعولا مقدما لأقول والجر على حكاية لفظ المقسم به قال: ومعناه التوكيد والتشديد وإفادته ذلك زيادة على ما يفيده أصل الاعتراض لأن العدول عما يقتضيه من الاعراب إلى الحكاية لما كان لاستبقاء الصورة الأولى دل على أنها من العناية فى شأنها بمكان وهذا جار فى كل حكاية من دون فعل قول وما يقوم مقامه فيدل فيما نحن فيه على فضل عناية بشأن القسم ويفيد التشديد والتوكيد. وقرىء بجر الأول على اضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية ﴿مِنْكَ﴾ أى جنسك من الشياطين ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ﴾ فى الغواية والضلالة ﴿مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم عليه السلام ﴿أَجْمَعِينَ ٨٥﴾ توكيد للضمير فى «منك» والضمير المجرور بمن الثانية، والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحدا أو توكيد للتابعين فحسب والمعنى لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم، وتأكيد التابعين دون المتبوعين لما

www.Quranpdf.blogspot.in

أن حال التابعين إذا بلغ الى أن اتصل إلى أولاد الأنبياء فما بال المتبوعين. وقال صاحب الكشف: صاحب هذا القول اعتبر القرب وأن الكلام بين الحق تعالى شأنه وبين الملعون فى شأن التابعين فأكد ما هو المقصود وترك توكيد الآخر للاكتفاء. هذا واعلم أن هذه القصة قد ذكرت فى عدة سور وقد ترك فى بعضها بعض ما ذكر فى البعض الآخر للايجاز ثقة ماذكر فى ذلك وقد يكون فيها فى موضعين مثلا لفظان متحدان ما لا يختلفان لفظا رعاية للتفنن، وقد يحمل الاختلاف على تعدد الصدور فيقال مثلا: إن اللعين أقسم مرة بالعزة فحكى ذلك فى سورة (ص) بقوله تعالى: (قال فبعزتك) وأخرى باغواء الله تعالى الذى هو أثر من آثار قدرته وعزته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه فحكى ذلك فى سورة الاعراف بقوله تعالى: (قال فبما أغويتنى) وقد يحمل الاختلاف على اختلاف المقامات كترك الفاء من قوله (انظرنى إلى يوم يبعثون) ومن قوله تعالى: (إنك من المنظرين) فى الأعراف مع ذكرها فيهما فى (ص) والذى يجب اعتباره فى نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاء المقام، ولا يقدح فى أصل الكلام تجريده عنها بل قد تراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا حيث أن مقام الحكاية اقتضتها وهى ملاك الأمر ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى كما قد حققه صدر المفتين أبو السعود وأطال الكلام فيه فليراجع ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على القرآن كما روى عن ابن عباس أو على تبليغ ما يوحى إلى أو على الدعاء إلى الله تعالى على ما قيل ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أى أجرا دنيويا جل أو قل ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا ما ليس عندى حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن فامره ﷺ أن يقول لهم عن نفسه هذه المقالة ليس لاعلامهم بالمضمون بل للاستشهاد بما عرفوه منه عليه الصلاة والسلام وللتذكير بما علموه وفى ذلك ذم التكلف *

وأخرج ابن عدى عن أبى برزة قال: «قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: هم الرحماء بينهم قال: ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا: بلى قال: هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلفون» وعلامة المتكلف كما أخرجه البيهقى فى شعب الايمان عن ابن المنذر ثلاث أن ينازل من فوقه ويتعاطى مالا ينال ويقول ما لا يعلم، وفى الصحيحين أن ابن مسعود قال: أيها الناس من علم منكم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله تعالى أعلم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما هو أى القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ جليل الشان من الله تعالى ﴿لِلْعَالَمِينَ ٨٧﴾ للثقلين كافة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أى ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو خبره الذى يقال فيه فى نفس الأمر وهو انه الحق والصدق ﴿بَعْدَ حِينٍ ٨٨﴾ قال ابن عباس. وعكرمة. وابن زيد: يعنى يوم القيامة، وقال قتادة. والفراء. والزجاج: بعد الموت، وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين، وفسر نبؤه بالوعد والوعيد الكائنين فى الدنيا، والمراد لتعلمن ذلك بتحققه إذا أخذتكم سيوف المسلمين وذلك يوم بدر وأشار إلى هذا السدى، وأياما كان ففى الآية من التهديد مالا يخفى *

www.Quranpdf.blogspot.in

هذا ﴿وَمِمَّا قَالَهُ بَعْضُ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ فِى بَعْضِ الآيَاتِ﴾ قالوا فى قوله تعالى : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له أواب) انه ظاهر فى أن الجماد والحيوان الذى هو عند أهل الحجاب غير ناطق حى دراك له علم بالله عز وجل ، ونقل الشعرانى عن شيخه على الخواص قدس سره القول بتكليف البهائم من حيث لا يشعر المحجوبون ، وجوز أن يكون نذيرها من ذواتها وأن يكون خارجا عنها من جنسها ، وقال: ماسميت بهائم إلا لكون أمر كلامها وأحوالها قد أبهم على غالب الخلق لا لأن الأمر مبهم عليها نفسها. وحكى عنه أنه كان يعامل كل جماد فى الوجود معاملة الحى ويقول: إنه يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان ه

وقيل : فى قوله تعالى : (وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إشارة إلى ان النفوس مجبولة على الظلم وسائر الصفات الذميمة وإلى أن الذين تزكت أنفسهم قليل جداً بالنسبة إلى الآخرين (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) نقل الشعرانى أن خلافته عليه السلام وكذا خلافة آدم كانت فى عالم الصور وعالم الأنفس المدبرة لهــا دون العالم النورانى فان لكل شخص من أهله مقاما معلوما عينه له ربه سبحانه ، وللشيخ الأكبر قدس سره كلام طويل فى الخلافة، ويحكى عن بعض الزنادقة أن الخليفة لا يكتب عليه خطيئة ولا هو داخل فى ربقة التكليف لأن مرتبته مرتبة مستخلفه وهو كفر صراح ، وفرق العلماء بين الخليفة والملك ه

أخرج الثعلبى من طريق العوام بن حوشب قال: حدثنى رجل من قومى شهد عمر رضى الله تعالى عنه أنه سأل طلحة . والزبير . وكعبا . وسلمان رضى الله تعالى عنهم ماالخليفة من الملك؟ فقال طلحة . والزبير: ماندرى فقال سلمان : الخليفة الذى يعدل فى الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ويقضى بكتاب الله تعالى فقال كعب : ما كنت أحسب أحداً يعرف الخليفة من الملك غيرى فقوله تعالى : (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) كالتفسير لهذه الخلافة وفيه إشارة إلى ذم الهوى، وفى بعض الآثار ماعبد إله فى الأرض أبغض على الله تعالى من الهوى فهو أعظم الأصنام ه

وقوله تعالى (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) فيه اشارة بناء على المشهور فى القصة إلى أن كل محبوب سوى الله تعالى إذا حجبك عن الله تعالى لحظة يلزمك أن تعالجه بسيف نفى لا إله إلا الله وقد سمعت استدلال الشبلى بذلك على تخريق ثيابه وماقيل فيه قال (رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) لم يقصد بذلك السؤال الاما يوجب مزيد القرب اليه عز وجل وليس فيه ما يخل بكماله عليه السلام والالعوتب عليه، وقد تقدم الكلام فى ذلك ومنه يعلم كذب ما فى الجواهر والدرر نقلا عن الخواص قال: بلغنا أن النملة التى كلمت سليمان عليه السلام قالت : يانبى الله أعطنى الامان وأنا أنصحك بشىء ماأظنك تعلمه فاعطاها الامان فاسرت اليه فى أذنه وقالت : انى أشم من قولك (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) رائحة الحسد فتغير سليمان واغبر لونه ثم قالت له : قد تركت الادب مع الله تعالى من وجوه، منها عدم خروجك من شح النفس الذى نهاك الله تعالى عنه إلى حضرة الكرم الذى امرك الله تعالى به، ومنها مبالغتك فى السؤال بأن لا يكون ذلك العطاء لأحد من عبيد سيدك من بعدك فحجرت على الحق تعالى بان لا يعطى احدا بعد موتك ماأعطاه كل ذلك لمبالغتك فى شدة الحرص ، ومنها طلبك أن يكون ملك سيدك لك وحدك تقول هب لى وغاب عنك أنك عبد له لا يصح

www.Quranpdf.blogspot.in

أن تملك معه شيئا مع أن فرحك بالعطاء لا يكون الا مع شهود ملكك له وكفى بذلك جهلا ثم قالت له: ياسليمان وماذا ملكك الذى سألته ان يعطيكه فقال: خاتمي قالت: اف لملك يحويه خاتم انتهى، ويدل على كذب ما بلغه وجوه أيضا لا تخفى على الخواص والعجب من أنها خفيت على الخواص، وقوله تعالى (ياابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) يشير إلى فضل آدم عليه السلام وأنه أكمل المظاهر. واليدان عندهم اشارة إلى صفتي اللطف والقهر وكل الصفات ترجع اليهما، ولاشك عندنا فى أنه أفضل من الملائكة عليهم السلام. وذكر الشعرانى أنه سأل الخواص عن مسئلة التفضيل الذى أشرنا اليه فقال: الذى ذهب اليه جماعة من الصوفية أن التفاضل إنما يصح بين الاجناس المشتركة كما يقال أفضل الجواهر الياقوت وأفضل الثياب الحلة وأما إذا اختلفت الاجناس فلا تفاضل فلا يقال أيما أفضل الياقوت أم الحلة؟ ثم قال: والذى نذهب اليه أن الارواح جميعها لا يصح فيها تفاضل الا بطريق الاخبار عن الله تعالى فمن أخبره الحق تعالى بذلك فهو الذى حصل له العلم التام وقد تنوعت الارواح إلى ثلاثة أنواع. أرواح تدبر أجسادا نورية وهم الملأ الاعلى. وأرواح تدبر أجسادا نارية وهم الجن وأرواح تدبر أجسادا ترابية وهم البشر، فالارواح جميعها ملائكة حقيقة واحدة وجنس واحد فمن فاضل من غير علم الهى فليس عنده تحقيق فانا لو نظرنا التفاضل من حيث النشاة مطلقا قال العقل بتفضيل الملائكة ولو نظرنا إلى كمال النشأة وجمعيتها حكمنا بتفضيل البشر، ومن أين لنا ركون إلى ترجيح جانب على آخر مع أن الملك جزء من الانسان من حيث روحه لأن الارواح ملائكة فالكل من الجزء والجزء من الكل، ولا يقال ايما افضل جزء الانسان أوكله فافهم انتهى، والكلام فى امر التفضيل طويل محله كتب الكلام ثم ان حظ العارف من القصص المذكورة فى هذه السورة الجليلة لا يخفى الاعلى ذوى الابصار الكليلة نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه بحرمة سيد انبيائه وأحبابه ﷺ وشرف وعظم وكرم ٭

سورة صٓ

مكية في قول الجميع، وهي ست وثمانون آية. وقيل ثمان وثمانون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾.

[٢] ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾.

[٣] ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

قوله تعالى: ﴿صٓ﴾ قراءة العامة ﴿صٓ﴾ بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓر﴾. وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحق ونصر بن عاصم ﴿صادِ﴾ بكسر الدال بغير تنوين. ولقراءته مذهبان: **أحدهما** ـ أنه من صادى يصادى إذا عارض، ومنه ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي تعرّض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية. فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك؛ أي عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وٱنته عن نواهيه. النحاس: وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة. وعنه أن المعنى ٱتلُه وتعرّض

لقراءته. والمذهب الآخر أن تكون الدّال مكسورة لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر ﴿صادَ﴾ بفتح الدّال ومثله ﴿قافَ﴾ و ﴿نونَ﴾ بفتح آخرها. وله في ذلك ثلاثة مذاهب: أحدهنّ ـ أن يكون بمعنى ٱتلُ. والثاني ـ أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وٱختار الفتح للإتباع؛ ولأنه أخفّ الحركات. والثالث ـ أن يكون منصوباً على القسم بغير حرف؛ كقولك: اللَّهَ لأفعلنّ، وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه صادَ محمدٌ قلوبَ الخلق وٱستمالها حتى آمنوا به. وقرأ ٱبن أبي إسحق أيضاً ﴿صادٍ﴾ بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها. وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع ﴿صادُ﴾ و ﴿قافُ﴾ و ﴿نونُ﴾ بضم آخرهن؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ و ﴿صٓ﴾ إذا جعلته ٱسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سميت مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه. وقال ٱبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن ﴿صٓ﴾ فقالا: لا ندري ما هي. وقال عكرمة: سأل نافع بن الأزرق ٱبن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقال: ﴿صٓ﴾ كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار. وقال سعيد بن جبير: ﴿صٓ﴾ بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين. وقال الضحاك: معناه صدق الله. وعنه أن ﴿صٓ﴾ قَسمٌ أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، وروي عن ٱبن عباس. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدُ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد. وقال قتادة: هو ٱسم من أسماء الرحمن. وعنه أنه ٱسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة. وقيل: هو مما ٱستأثر الله تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل. وقد تقدّم جميع هذا في ﴿البقرة﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ. ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو ٱسم معتل والأصل فيه ذَوَى عل فَعَل. قال ٱبن عباس ومقاتل: معنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي البيان. الضحاك:

(١) راجع ١/ ١٥٥ طبعة ثانية أو ثالثة.

ذي الشرف أي من آمن به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرفكم. وأيضاً القرآن شريف في نفسه لإعجازه وٱشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره. وقيل: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: ﴿ذِي الذكرِ﴾ أي فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. وقيل: أي ذي الموعظة والذكر. وجواب القسم محذوف. وٱختلف فيه على أوجه: فقيل جواب القسم ﴿صٓ﴾؛ لأن معناه حقّ فهي جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ كما تقول: حقًّا واللَّهِ، نزل واللَّهِ، وجب واللَّهِ، فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ حسناً وعلى ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تماماً. قاله ٱبن الأنباري. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء. وقيل: الجواب ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن ﴿بل﴾ نفي لأمر سبق وإثبات لغيره؛ قاله القتبيّ؛ فكأنه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ عن قبول الحق وعداوة لمحمد ﷺ. أو ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذكْرِ﴾ ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله: ﴿قٓ. وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا﴾ وقيل: الجواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كأنه قال: والقرآنِ لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخرت ﴿كم﴾ حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي لقد أفلح. قال المهدوي: وهذا مذهب الفراء. ٱبن الأنباري: فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وشِقَاقٍ﴾. وقال الأخفش: جواب القسم ﴿إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾. ٱبن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص. وقال الكسائي: جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. ٱبن الأنباري: وهذا أقبح من الأوّل؛ لأن الكلام أشدّ طولاً فيما بين القسم وجوابه. وقيل الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾. وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ لتبعثنّ ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ أي في تكبر وأمتناع من قبول الحق؛ كما قال جل وعز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ والعزَّة عند العرب الغَلَبة والقَهْر. يقال: من عَزَّ بَزَّ يعني من غَلَب سَلَب. ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أراد غلبني. وقال جرير:

يَعُـزُّ علـى الطّـريـق بمَنْكِبيـهِ كما آبْتَرَكَ الْخَلِيعُ على القِدَاحِ[١]

أراد يغلب. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي في إظهار خلاف ومباينة. وهو من الشَّق كأنّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٢] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من قوم كانوا أمنع من هؤلاء. و ﴿كم﴾ لفظ التكثير ﴿فَنَادَوْا﴾ أي بالاستغاثة والتوبة. والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: «ألقِه على بلالٍ فإنه أنْدَى منكَ صوتاً» أي أرفع. ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس: وهذا تفسير منه لقوله عز وجل: ﴿وَلَاتَ حينَ مَنَاصٍ﴾ فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحق عن التميمي عن آبن عباس ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال: ليس بحين نَزْوٍ[٣] ولا فِرار؛ قال: ضُبِطَ القوم جميعاً قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فآضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أي عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص ؛ فقال الله عز وجل: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَناصٍ ﴾ قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير؛ فنادوا مناص فحذف لدلالة بقيـة الكلام عليـه ؛ أي ليس الوقت وقت مـا تنادون بـه . وفي هـذا نوع تحكم ؛ إذ يبعد أن يقال : كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه. قال القشيري: وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو في ﴿وَلَاتَ حِينَ

---

(١) البيت في وصف جمل؛ يقول: يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق، وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله. والخليع المخلوع المقمور ماله.

(٢) راجع ٢/ ١٤٣ طبعة ثانية.

(٣) النزو: ضرب من العدو.

مَناصٍ﴾ وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص؛ أي ساعة لا منجًى ولا فوت، فلما قدم ﴿لا﴾ وأخر ﴿حين﴾ ٱقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبراً ٱقتضى الواو مثل جاءني زيد وهو راكب، فحين ظرف لقوله ﴿فَنَادَوْا﴾ والمناص بمعنى التأخر والفِرار والخلاص؛ أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفرّاء:

أَمِـنْ ذكـر ليلـى إذ نَـأتـكَ تَنُـوصُ[1]

يقال: ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومَناصاً أي فَرَّ وزاغ. النحاس: ويقال: ناص ينوص إذا تقدم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشي وٱستناص أي تأخر؛ قاله الجوهري. وتكلم النحويون في ﴿وَلاَتَ حِينَ﴾ وفي الوقف عليه، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلاّم في كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيراً مردود. فقال سيبويه: ﴿لات﴾ مشبهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي ليست أحياننا حين مناص. وحكي أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينُ مناصٍ. وحكي أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفاً كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقف عليها عند سيبويه والفراء ﴿ولات﴾ بالتاء ثم تبتدىء ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ وهو قول ٱبن كيسان والزجاج. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء وَلاهْ. وهو قول المبرّد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ. وقال القشيري: وقد يقال ثُمَّتْ بمعنى ثُمّ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في لا هاء فقالوا لاَهْ، كما قالوا في ثُمَّ ثُمَّهْ ثم عند الوصل صارت تاء. وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة و ﴿لاَتَ حِينَ﴾ مفتوحتان كأنهما

---

(١) تمامه:

فتقصـــر عنهـــا خطـــوة وتبـــوص

والبوص بالباء الموحدة التقدّم.

كلمة واحدة، وإنما هي ﴿لا﴾ زيدت فيها التاء نحو ربّ ورُبّتْ وثمّ وثُمّتْ. قال أبو زبيد الطائي

طَلَبُــوا صُلْحَنـــا وَلاَتَ أَوَانٍ ‏ فَـأَجَبْنَـا أَنْ ليس حيـنَ بقَـاءِ

وقال آخر:

تـذكّـر حُـبَّ ليلـى لاَتَ حِينَـا ‏ وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ الْقَرِينَا

ومن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْـرِفَـنّ خَـلاَئقـاً مَشْمُـولَـةً ‏ وَلَتَنْـدَمَـنَّ ولاتَ سـاعـةِ مَنْـدَمِ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن ﴿ولات حين﴾ التاء منقطعة من حين، ويقولون معناها وليست. وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم. الوقف عندي على هذا الحرف ﴿ولا﴾ والابتداء ﴿تَحِينَ مَنَاصٍ﴾ فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: ﴿لات﴾ ثم يبتدىء فيقول ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾. قال المهدوي: وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين، وهو خلاف قول المفسرين. ومن حجة أبي عبيد أن قال: إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن. وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعديّ:

العاطفونَ تَحِينَ ما مِنْ عاطِفٍ ‏ والمُطْعِمون زَمَانَ أَيْنَ الْمُطْعِمُ

وأنشد لأبـي زبيد الطائي:

طلبـــوا صلحنـــا ولا تـــأوانٍ ‏ فـــأجبنـا أن ليـس حيـــن بقـــاءِ

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عبيد: ومن إدخالهم التاء في الآن، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذكر مناقبه ثم قال: اذْهَب بها تَلاَنَ معك. وكذلك قول الشاعر[1]:

نَـوِّلـي قَبْـلَ نَـأْيِ دَارِي جُمَـانَـا ‏ وصِلِينـا كمـا زَعَمْـتِ تَـلاَنَـا

---

(١) هو جميل بن معمر وبعده:

إن خيـــر المــــواصليـــن صفـــاء ‏ مــن يــوافـي خليلـه حيـث كـانـا

قال أبو عبيد: ثم مع هذا كله إني تعمدت النظر في الذي يقال له الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين. قال أبو جعفر النحاس: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزَة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفٍ

والرواية الثانية:

العاطِفونَ ولاتَ حينَ تعاطُفٍ

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان:

العاطِفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِفٍ

جعلها هاء في الوقف وتاء في الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث. والرواية الرابعة:

العاطِفونَهُ حِينَ ما مِن عاطِفٍ

وفي هذه الرواية تقديران: **أحدهما** ـ وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً فإذا كنيت قلت الضاربوهُ. وأجاز سيبويه في الشعر الضاربونهُ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه في إجازته مثله. والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة، كما تقول: مرّ بنا المسلمونهْ في الوقف، ثم أجريت في الوصل مجراها في الوقف؛ كما قرأ أهل المدينة ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ وأما البيت الثاني فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئاً مشكلاً؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإن كان قد روي عن عيسى بن عمر أنه قرأ ﴿ولاتِ حِينِ مناصٍ﴾ [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ ﴿ولاتِ حينَ مناص﴾[1]] فبنى ﴿لاتِ﴾ على الكسر ونصب ﴿حينَ﴾ فأما (ولاَتَ أوانٍ) ففيه تقديران؛ قال الأخفش: فيه مضمر أي ولات حين أوان.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس.

قال النحاس: وهذا القول بيّن الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال: تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين. وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانُ) بالرفع. وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة. على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الآن). وقال غيره: المعنى كما زعمت أنت الآن. فأسقط الهمزة من أنت والنون. وأما ٱحتجاجه بحديث ٱبن عمر، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له: ٱذهب بها تَلاَنَ إلى أصحابك فلا حجة فيه؛ لأن المحدّث إنما يروي هذا على المعنى. والدليل على هذا أن مجاهداً يروي عن ٱبن عمر هذا الحديث وقال فيه: ٱذهب فٱجهد جهدك. ورواه آخر: ٱذهب بها الآن معك. وأما ٱحتجاجه بأنه وجدها في الإمام ﴿تَحِينَ﴾ فلا حجة فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلها ﴿ولات﴾ فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعاً. وجمع مناص مناوص.

[٤] ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾.

[٥] ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ ﴿أن﴾ في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم. قيل: هو متصل بقوله ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي في عز وشقاق وعجبوا، وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ معترض. وقيل: لا بل هذا ابتداء كلام؛ أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم. ﴿فقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس؛ وقيل: يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي في دعوى النبوّة.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ مفعولان أي صيّر الآلهة إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي عجيب. وقرأ السلمي ﴿عُجَّابٌ﴾ بالتشديد. والعُجَاب والعُجّاب

والعَجَب سواء. وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطُّوَال، الذي قد تجاوز حدّ الطُّول. وقال الجوهري: العَجِيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال مقاتل: ﴿عُجَّابٌ﴾ لغة أزد شنوءة. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبي ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يٱبن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عمّ إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّي إليهم بها الجزية العجم» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ قال: فنزل فيهم القرآن ﴿صۤ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ ٱخْتِلَاقٌ﴾ خرّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقيل: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شقّ على قريش إسلامه فٱجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: ٱقض بيننا وبين ٱبن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء[1]، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني» قالوا: ٱرفضنا وٱرفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك. فقال النبي ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: لله أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا؛ فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد. فأنزل الله فيهم هذا الآيات إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

---

(١) في نسخ الأصل: يسألك ذا السواء. وفي أبي السعود: يسألونك السواء والإنصاف. وفي «البيضاوي» كما في «الكشاف»: يسألونك السؤال. وعلق عليه الشهاب بقوله: والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أي العدل كما وقع في غيره من التفاسير اهـ.

[٦] ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ .

[٧] ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

[٨] ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ .

[٩] ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ .

[١٠] ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

[١١] ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَٱنْطَلَقَ الْمَلأُ مِنهُمْ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ ﴿ الملأ ﴾ الأشراف، والانطلاق الذهاب بسرعة؛ أي ٱنطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض ﴿ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ أي ٱمضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ . وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق . وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبة وعُتبة ٱبنا ربيعة ابن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو معيط ؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا، فٱكفنا أمر ٱبن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا في ديننا. فأرسل أبـو طالب إلى النبي ﷺ ؛ فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفة . فقال النبي ﷺ : « إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة » فقال أبو جهل وعشرا. قال: «تقولون لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً وَاحِداً ﴾ الآيات . ﴿ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ ﴿ أن ﴾ في موضع نصب والمعنى بأن ٱمشوا. وقيل : ﴿ أن ﴾ بمعنى أي؛ أي ﴿وَٱنْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ أي ٱمشوا؛ وهذا تفسير ٱنطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ. وقيل: المعنى وٱنطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام: ﴿ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي على عبادة آلهتكم ﴿إِنَّ هَذَا ﴾ أي هذا الذي جاء به محمد عليه السلام ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

وغير تنزل بهم. وقيل: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد، فٱحذروا أن تطيعوه. وقال مقاتل: إن عمر لما أسلم وقوي به الإسلام شقّ ذلك على قريش فقالوا: إن إسلام عمر في قوّة الإسلام لشيء يراد.

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسديّ: يعنون ملّة عيسى النصرانية وهي آخر الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يعنون ملة قريش. وقال الحسن: ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول حقّ. ﴿إِنْ هَذَا إِلا ٱخْتِلاَقٌ﴾ أي كذب وتخرّص؛ عن ابن عباس وغيره. يقال: خلق وٱختلق أي ٱبتدع، وخلق الله عز وجل الخلق من هذا؛ أي ٱبتدعهم على غير مثال.

قوله تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو استفهام إنكار، والذكر هاهنا القرآن. أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي من وحْيي وهو القرآن. أي قد علموا أنك لم تزل صدوقاً فيما بينهم، وإنما شكُّوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا. ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي إنما ٱغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك، ولما قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذٍ. و ﴿لَمَّا﴾ بمعنى لم وما زائدة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ و ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ قيل: أم لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة. و ﴿أم﴾ قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلاً بكلام قبله؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾. وقد قيل إن قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ متصل بقوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السموات والأرض له. ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

أي فإن ٱدعوا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أي فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وٱرتقى إذا صَعِد. ورَقَى يَرْقِي رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِي رَمْياً من الرقية. قال الربيع بن أنس: الأسباب أرقّ من الشعر وأشدّ من الحديد ولكن لا ترى. والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره. وقيل: الأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها؛ قاله مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولَــوْ رَامَ أسبــابَ السمــاءِ بسُلَّــمِ[1]

وقيل: الأسباب السموات نفسها؛ أي فليصعدوا سماء سماء. وقال السدي: ﴿في الأَسْبَابِ﴾ في الفضل والدين. وقيل: أي فليعلوا في أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عبيدة. وقيل: الأسباب الحبال؛ يعني إن وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز. ثم وعد نبيه ﷺ النصر عليهم فقال: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ ﴿ما﴾ صلة وتقديره هم جند، فـ ﴿جُنْدٌ﴾ خبر ابتداء محذوف. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي مقموع ذليل قد ٱنقطعت حجتهم؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا. ويقال: هُزِمت القربة إذا ٱنكسرت، وهزمتُ الجيش كسرته. والكلام مرتبط بما قبل؛ أي ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تغمك عزتهم وشقاقهم، فإني أهزم جمعهم وأسلب عزهم. وهذا تأنيس للنبي ﷺ، وقد فُعِل بهم هذا في يوم بَدْر. قال قتادة: وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بَدْر. و ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة لبدر وهو موضع تحزبهم لقتال محمد ﷺ. وقيل: المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزّبوا على النبيّ ﷺ. وقد مضى ذلك في ﴿الأحزاب﴾[2]. والأحزاب الجند، كما يقال جند من قبائل شتّى. وقيل: أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفّار. أي هؤلاء جند على طريقة أولئك؛ كقوله

---

(١) صدر البيت:

ومــن هــاب أسبــاب المنــايــا ينلنــه

(٢) راجع ١٤/١٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

تعالى: ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي على ديني ومذهبي. وقال الفراء: المعنى هم جندٌ مغلوب؛ أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء. وقال القتبي: يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا من ملك السمواتِ والأرض.

[١٢] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزية للنبي ﷺ وتسلية له، أي هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدّمين الذي تحزّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، وٱختلف أهل العربية في ذلك على قولين: **أحدهما** ـ أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث. **الثاني** ـ أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ولم يقل ذكرها؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكراً ذكره، وإن كان اللفظ مقتضياً للتأنيث. ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد ٱختلف في تأويل ذلك؛ فقال ٱبن عباس: المعنى ذو البناء المحكم. وقال الضحاك: كان كثير البنيان والبنيان يسمى أوتاداً. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعَب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوّة والبطش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يعذّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت. وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ: كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسمِيت

الجنود أوتاداً؛ لأنهم يقوّون أمره كما يقوّي الوتِد البيت. وقال ٱبن قتيبة: العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائماً شديداً. وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيشةٍ   في ظلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

وواحد الأوتاد وَتِد بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال وَتد واتِد كما يقال شغل شاغل. وأنشد[1]:

لاقتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدَا   ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدَا

قال: شبه الرجل بالجِذْل. ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ أي الغيضة. وقد مضى ذكرها في ﴿ الشعراء ﴾[2]. وقرأ نافع وٱبن كثير وٱبن عامر ﴿ لَيْكَةَ ﴾ بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء. وقد تقدّم هذا. ﴿ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أي هم الموصوفون بالقوّة والكثرة؛ كقولك فلان هو الرجل. ﴿إِنْ كُلٌّ ﴾ بمعنى ما كلّ. ﴿ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب. وأثبت يعقوب الياء في ﴿ عذابِي ﴾ و ﴿ عِقابِي ﴾ في الحالين وحذفها الباقون في الحالين. ونظير هذه الآية قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فسمى هذه الأمم أحزاباً.

[١٥] ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿يَنْظُرُ﴾ بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. ﴿هَؤُلاَءِ﴾ يعني كفار مكة. ﴿إِلاَّ صَيْحَةً

(١) البيت لأبي محمد الفقعسي. والضمير في لاقت ضمير الإبل.
(٢) راجع ١٣/ ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

واحِدَةً﴾ أي نفخة القيامة. أي ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة. وقيل: ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت. وقيل: أي ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتديِّنين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحة في السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض. ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: ما لها من مثنوية. السدّي: ما لها من إفاقة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ﴾ بضم الفاء. الباقون بالفتح. الجوهري: والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرَّ ثم تُحلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُوَاقا؛ وفي الحديث: «العيادة قدر فواق الناقة». وقوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يقرأ بالفتح والضم أي مالها من نظرة وراحة وإفاقة. والفِيقة بالكسر آسم اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين: صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة:

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها آجتمعتْ ... جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعا

والجمع فِيَق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق. قال آبن همّام السَّلُوليّ:

وذَمُّوا لنا الدُّنْيا وهُمْ يَرْضَعُونَها ... أَفاوِيقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْلُ[1]

والأفاويق أيضاً ما آجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعة بعد ساعة. وأفاقت الناقة إفاقة أي آجتمعت الفِيقة في ضرعها، فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق. وقال الفرّاء وأبو عبيدة وغيرهما: ﴿مِنْ فَواقٍ﴾ بفتح الفاء أي راحة لا يفيقون فيها، كما يفيق المريض والمغشيّ عليه. و ﴿مِنْ فُواقٍ﴾ بضم الفاء من آنتظار. وقد تقدّم أنهما بمعنى وهو ما بين الحَلْبتين.

(١) البيت في ذم علماء الدنيا. والثعل زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة؛ وهو لا يدر وإنما ذكره للمبالغة.

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدّثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه؛ الحديث. وفيه «يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول ٱنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول الله عز وجل: ﴿مَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾» وذكر الحديث، خرجه علي بن معبد وغيره كما ذكرناه في كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لنتنعم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جبير. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِطٌّ. قال الفراء: القِطّ في كلام العرب الحظّ والنصيب. ومنه قيل للصك قِطّ. وقال أبو عبيدة والكسائي: القِطّ الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملِكُ النّعْمَانُ يومَ لَقِيتُهُ بِغِبْطَتِهِ يُعطِي القُطوطَ وَيَأْفِقُ

يعني كتب الجوائز. ويروى: بأُمَّتِهِ بدل بغبطته، أي بنعمته وحاله الجليلة، ويأفِق يصلح. ويقال في جمع قِط أيضاً قِططة وفي القليل أُقط وأَقْطاط. ذكره النحاس. وقال السدي: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا. وقيل: معناه عجل لنا ما يكفينا؛ من قولهم: قَطْنِي؛ أي يكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك ٱستعجالاً لكتبهم التي يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلي عليهم بذلك القرآن. وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾. وأصل القِطّ القَطّ وهو القطع، ومنه قَطّ القلم؛ فالقِط ٱسم للقطعة من الشيء كالقَسْمِ والقِسْمِ فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر ٱستعمالاً وأقوى حقيقة. قال أمية بن أبي الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما يُجْبَى إليهِ وَالقِطُ والقَلَمُ

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد. وكل هذا ٱستهزاء منهم.

[١٧] ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أمر نبيه ﷺ بالصبر لما ٱستهزؤوا به. وهذه منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلاّه بكل ما تقدّم ذكره. ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم؛ وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء. وقيل: المعنى ٱصبر على قولهم، وٱذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوّتك. ﴿ذَا الأَيْدِ﴾ ذا القوّة في العبادة. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد الصوم وأفضله؛ وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ، وكان قوياً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ إظهاراً لشرفه بهذه الإضافة. ويقال: الأَيْدُ والآدُ كما تقول العيب والعاب. قال[1]:

لَمْ يَكُ يَنْآدُ فَأَمْسَى ٱنْآدا

ومنه رجل أَيِّدٌ أي قويّ. وتَأَيَّدَ الشيء تقوّى؛ قال الشاعر:

إذا القوسُ وَتَّرَها أَيِّدٌ ... رَمَى فأَصَابَ الكُلَى والذُّرَا

يقول: إذا الله وَتَّر القوسَ التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأسنِمتَها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي توّاب. وعن غيره: أنه كلما ذكر

---

(١) هو العجاج. وٱنآد العود ينآد ٱنئياداً فهو منآد إذا انثنى وأعوج. وصدر البيت:
مـن أن تبـدلـت بـآدي آدا

ذنبه أو خطر على باله ٱستغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة». ويقال آب يؤوب إذا رجع؛ كما قال[1]:

وكــلُّ ذي غَيْبَــةٍ يــؤوبُ وغــائــبُ المــوتِ لا يــؤوبُ

فكان داود رجَّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به.

[١٨] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ ﴿يُسبِّحْنَ﴾ في موضع نصب على الحال. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال ابن عباس: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يصلين. وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دويّ حسن، وما تصغي لحسنه [الطير][2] وتصوّت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير. وقيل: سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين. وقد مضى القول في هذا في ﴿سبأ﴾[3] وفي ﴿سبحان﴾[4] عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم. ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ الإشراق أيضاً ٱبيضاض الشمس بعد طلوعها. يقال: شَرَقت الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

الثانية ـ روي عن ٱبن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ولا أدري مـا هـي، حتـى حـدّثتني أم هـانـىء أن رسـول الله ﷺ دخـل عليهـا،

---

(١) هو عبيد بن الأبرص.
(٢) زيادة يقتضيها المعنى.
(٣) راجع ١٤/ ٢٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٤) راجع ١٠/ ٢٦٨ طبعة أولى أو ثانية.

فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال: «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق». وقال عكرمة قال ٱبن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في القرآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. قال عكرمة: وكان ٱبن عباس لا يصلي صلاة الضحى ثم صلاها بعد. وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هي صلاة الأوّابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن؛ ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة ـ صلاة الضحى نافلة مستحبة، وهي في الغداة بإزاء العصر في العشيّ، لا ينبغي أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة؛ ويرتفع كدرها؛ وتشرق بنورها؛ كما لا تصلى العصر إذا ٱصفرّت الشمس. وفي «صحيح مسلم» عن زيد بن أَرْقَم أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الأوّابين حين تَرْمَض الفصالُ» الفصال والفصلان جمع فَصيل، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل. والرمضاء شدّة الحر في الأرض. وخصّ الفصال هنا بالذكر؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبل ٱنتهاء شدّة الحر التي تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جَلَدها، وذلك يكون في الضحى أو بعده بقليل، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك ٱستعجالاً؛ لأجل شغله فيخسر عمله؛ لأنه يصليها في الوقت المنهي عنه ويأتي بعمل هو عليه لا له.

الرابعة ـ روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً من ذهب في الجنة» قال حديث غريب. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ أنه قال: «يصبح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». وفي «الترمذي» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على شَفْعة الضحى غُفر له ذنوبُه وإن كانت مثل زَبَد البحر». وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة

قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهنّ حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر» لفظ البخاري. وقال مسلم: «وركعتي الضحى» وخرّجه من حديث أبي الدرداء كما خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة. وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة. والله أعلم. وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم ٱستعمل في سائر عظام الجسد. ومفاصله. وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺقال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله وٱستغفر الله وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار» قال أبو توبة: وربما قال «يمسي» كذا خرجه مسلم. وقوله: «ويجزي من ذلك ركعتان» أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم.

[١٩] ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء: ولو قرىء «وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ» لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال وٱجتمعت إليه الطير فسبحت معه. فٱجتماعها إليه حشرها. فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه. وقيل: أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور ﴿كُلٌّ لَهُ﴾ أي لداود ﴿أَوَّاب﴾ أي مطيع؛ أي تأتيه وتسبِّح معه. وقيل: الهاء لله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قويناه حتى ثبت. قيل: بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب. وقيل: بكثرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنصر. وهذا ٱختيار ابن العربي.

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطاناً. كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيّ الله. والمُلْك عبارة عن كثرة المِلك، فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون ملِكاً حتى يكثر ذلك؛ فلو ملك الرجل داراً وامرأة لم يكن ملكاً حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية. وقد مضى هذا المعنى في ﴿براءة﴾[1] وحقيقة الملك في ﴿النمل﴾ مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي النبوّة؛ قاله السدي. مجاهد: العدل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شريح: العلم والفقه. ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيان الكلام. عليّ بن أبي طالب: هو البينة على المدّعي واليمين على من أنكر. وقاله شُرَيح والشَّعْبِيّ وقتادة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشَّعبي أيضاً: هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها. وقيل: ﴿فَصْلُ الْخِطَابِ﴾ البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول عليّ رضي الله عنه يجمعه؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: فأما علم القضاء فَلَعَمْرُ إلهِك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث «أقضاكم عليّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل» وقد يكون الرجل بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء. يروى أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زُبْيَة للأسد،

---

(١) راجع ٨/ ١٧١ طبعة أولى أو ثانية.

فوقع فيها الأسد، وأزدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال؛ قال فأتيتهم فقلت: أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحق بالقضاء. فجعل للأوّل ربع الدية، وجعل للثاني ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية، وجعل الديات على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربع؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقصوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن علياً قد قضى بيننا. فأخبروه بما قضى عليّ؛ فقال رسول الله ﷺ: «القضاء كما قضى عليّ» في رواية: فأمضى رسول الله ﷺ قضاء عليّ. وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال: إن ٱبن أبي ليلى ـ وكان قاضياً بالكوفة ـ جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ٱبن الزانيين حدّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه . قال ٱبن العربي: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء. فأما قضية عليّ فلا يدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف المتمادي. وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولون خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثةٍ بالمجاذبة، فله الديةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالإثنين اللذين قتلهما بالمجادبة. وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه . وهذا من بديع الاستنباط. وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة : الأول أن المجنون لا حدّ عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف. وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون ، وأما إذا كان يجنّ مرة ويفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف في حالة إفاقته. والثاني قولها يا ٱبن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه في أن حدّ

القذف يتداخل؛ لأنه عنده حق الله تعالى كحدّ الخمر والزنى، وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حقّ للآدمي، فيتعدد بتعدد المقذوف. الثالث أنه جَلَدَ بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة، إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حقّ لله تعالى ومن يقول إنّه حقّ الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقّ للآدمي؛ إذ لو كان حقاً لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى. الرابع أنه والى بين الحدّين، ومن وجب عليه حدّان لم يُوالَ بينهما، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب، [أو يستبل المضروب][(١)] ثم يقام عليه الحدّ الآخر. الخامس أنه حدّها قائمة، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل. السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف. قال القاضي: فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ». وأما من قال؛ إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بين هذا بقوله: «وأوتيت جوامع الكلم». وأما من قال: إنه قوله أما بعد؛ فكان النبي ﷺ يقول في خطبته «أما بعد». ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أوّل من آمن بالبعث، وأوّل من توكأ على عصا، وعمِّر مائة وثمانين سنة. ولو صح أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم.

[٢١] ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾.

(١) الزيادة من ابن العربي.

[٢٤] ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فيه أربع وعشرون مسألة.

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَاب﴾ ﴿الخَصْمُ﴾ يقع على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأن أصله المصدر. قال الشاعر:

وخَصْمٌ غِضَابٌ يَنْفُضونَ لِحَاهُمُ كنفِض البَرَاذِينِ العِرَابِ المَخَالِيَا

النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكان. وقيل: ﴿تَسَورُوا﴾ وإن كانا أثنين حملاً على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الركب والصحب. وتقديره للاثنين ذوا خصمٍ وللجماعة ذوو خصمٍ. ومعنى ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أتوه من أعلى سوره. يقال: تسوّر الحائط تسلّقه، والسور حائط المدينة وهو بغير همز؛ وكذلك السُّوَرُ جمع سورة مثل بُسْرَةٍ وبُسَرٍ وهي كل منزلة من البناء. ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعةً عن الأخرى. وقد مضى في مقدمة الكتاب بيان هذا(١). وقول النابغة:

ألـم تَـرَ أنَّ الله أَعْطَـاكَ سُـورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء. ابن العربي: والسؤر الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: إن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب «إن جابراً قد صنع لكم سؤراً فَحَيَّهَلاً بكم» والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقد مضى القول فيه في غير موضع(٢). ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ جاءت ﴿إِذْ﴾ مرتين؛ لأنهما فعلان. وزعم

(١) راجع ١/ ٦٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.
(٢) راجع ٤/ ٧١ و ١١/ ٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

الفرّاء: أن إحداهما بمعنى لما. وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبييناً لما قبلها. قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش. وقيل: مَلَكين؛ قاله جماعة. وعينهما جماعة فقالوا: إنهما جبريل وميكائيل. وقيل: مَلَكين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس الدخول، فتسوّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وسبب ذلك ما حكاه ٱبن عباس أن داود عليه السلام حدّث نفسه إن ٱبتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حِذرك. فأخذ الزَّبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه، فهمّ أن يتناوله بيده، فٱستدرج حتى وقع في كوّة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فٱطلع ليبصره فأشرف على ٱمرأة تغتسل، فلما رأته غطت جسدها بشعرها. قال السدي: فوقعت في قلبه. قال ٱبن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أورِيا بن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حَمَلة التابوت، وكان حَمَلة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدّمه فيهم فقتل، فلما ٱنقضت عدّتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشَبَّ، وتسوّر المَلكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه. ذكره الماوردي وغيره. ولا يصح، قال ٱبن العربي: وهوأمثل ما روي في ذلك[1].

---

(١) ما أورده القرطبي هنا في حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لها، وهو هراء وٱفتراء كما قال البيضاوي، ومما يقدح في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول: ويعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها، ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم، فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه؛ ونحن كما قال الشاعر:

ونـؤثـر حكـم العقـل فـي كـل شبهـة ... إذ آثـر الأخبـار جـلاس قصـاص

والرقاشي مطروح الرواية عند التحقيق. وسيأتي للمؤلف أن ينقل عن النحاس في صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشيّ، سمع أنس بن مالك يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً وأوصى صاحب البَعْث فقال إذا حضر العدوّ قَرِّب فلاناً وسماه قال فقرَّبه بين يدي التابوت ـ قال ـ وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُسْتنصَر به فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوجُ المرأة ونزل الملكان على داود فقصّا عليه القصّة». وقال سعيد عن قتادة: كتب إلى زوجها وذلك في حِصار عَمَّان مدينة بلقاء[١] أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدّم فقتل. وقال الثعلبي قال قوم من العلماء: إنما ٱمتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوماً على ربه منزلة إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما ٱمتحنهم، ويعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله. وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب. فقال: يا ربّ! إن الخير كله قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ٱبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها؛ ٱبتلي إبراهيم بنمروذ وبالنار وبذبح ٱبنه، وٱبتلي إسحق بالذبح وٱبتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فٱبتلني بمثل ما ٱبتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فيها من كل لون حسن، فوقفت بين رجليه، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لابن له صغير، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها، فامتدّ إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة، فذهب ليأخذها فطارت ونَظرُ داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها، فنظر ٱمرأة في بستان على شط بركة

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء.

تغتسل؛ قاله الكلبي. وقال السدي: تغتسل عريانة على سطح لها؛ فرأى أجمل النساء خَلْقاً، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجها أوريا بن حنان، في غزوة مع أيوب بن صوريا ٱبن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب أن ٱبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقَدِّمه قبل التابوت، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد. فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتكبّر ملائكة العرش بتكبيره. قال: وكان سيوف الله ثلاثة[1]؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله ﷺ. فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه: أن ٱبعثه في بعث كذا وقدّمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقتل في الثالثة شهيداً. فتزوج داود تلك المرأة حين ٱنقضت عدّتها. فهي أم سليمان بن داود. وقيل: سبب ٱمتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء. قال الحسن: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء؛ جزءاً لنسائه، وجزءاً للعبادة، وجزءاً لبني إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوماً للقضاء، فتذاكروا هل يمرّ على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك، فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكب على قراءة الزبور، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدّم. قال علماؤنا: وفي هذا دليل وهي:

الثانية ـ على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه، وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضى هذا المعنى في ﴿النساء﴾[2]. وحكم كعب بذلك في زمن عمر بمحضره رضي الله عنهما. وقد قال عليه السلام

---

(١) في النسخة الخيرية: وكان سيوف الله هكذا ثلاثة.

(٢) راجع ١٩/٥ طبعة أولى أو ثانية.

لعبد الله بن عمر: «إنّ لزوجك عليك حقاً» الحديث. وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين ٱستخلِف: والله لأعدلنّ بينكم، ولم يستثن فابتلي بهذا. وقال أبو بكر الورّاق: كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحد يعمل كعملي. [فأرسل][1] الله إليه جبريل؛ فقال إن الله تعالى يقول لك: عجبتَ بعبادتك، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب، فإن أعجبتَ ثانية وَكَلْتك إلى نفسك. قال: يا رب كِلْني إلى نفسي سنة. قال: إن ذلك لكثير. قال: فشهراً. قال: إن ذلك لكثير. قال: فيوما. قال: إن ذلك لكثير. قال: يا ربّ فكِلْني إلى نفسي ساعة. قال: فشأنك بها. فوكّل الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المحراب، ووضع الزّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان. وقال سفيان الثوري قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داود منك ذلك أو مني؟ وعزتي لأكلنك إلى نفسك. قال: يا رب ٱعف عنّي. قال: أكلك إلى نفسك سنة. قال: لا بعزّتك. قال: فشهراً. قال: لا بعزّتك. قال: فأسبوعاً. قال: لا بعزّتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزّتك. قال: فساعة. قال: لا بعزّتك. قال: فلحظة. فقال له الشيطان: وما قدر لحظة. قال: كِلْني إلى نفسي لحظة. فوكله الله إلى نفسه لحظة. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة، ووكل الأحراس حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربه، ونشر الزّبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسل الله عز وجل إليه المَلكين بعد ولادة سليمان، وضربا له المثل بالنعاج، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجداً أربعين ليلة على ما يأتي.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب.

---

(١) في «الأصول»: «فأوحى».

قال ابن العربي: وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آدميّ بحيلة إلا أن يقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جَمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبراً عن ذلك ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازاً؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعاً أنهما مَلَكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلْويّ. قال الثعلبي: وقد قيل كان المتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة: فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسن أنهما كانا مَلَكين نبها داود على ما فعل.

قلت: وعلى هذا أكثر أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وذلك كذب والملائكة عن مثله منزَّهون. فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قدِّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، وعلى ذلك يحمل قولهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم.

الرابعة ـ إن قيل: لِمَ فزِع داود وهو نبيّ، وقد قويت نفسه بالنبوّة، واطمأنت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟ قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والإذاية ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ فقال الله عز وجل ﴿لاَ تَخَافَا﴾. وقالت الرسل للوط: ﴿لاَ تَخَفْ﴾. ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وكذا قال الملكان هنا: ﴿لاَ تَخَفْ﴾. قال محمد بن إسحق: بعث الله إليه ملَكين يختصمان إليه وهو في محرابه ـ مثلاً ضربه الله له ولأوريا ـ فرآهما واقفين على رأسه فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: ﴿لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فجئناك لتقضي بيننا.

الخامسة ـ قال ٱبن العربي: فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه: **الأوّل** ـ أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ٱبتداء شرعنا مهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان. **الثاني** ـ أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتمل أن يكون الفزع الطارىء عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له. **الثالث** ـ أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما ٱنكشف أنه بلاء ومحنة، ومثل ضربه الله في القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة. **الرابع** ـ أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد.

قلت: وقول خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا: لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسوّر، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا. فقبل داود عذرهم، وأصغى إلى قولهم.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿خَصْمَانِ﴾ وقبل هذا ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما ٱثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما ٱنقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان. وقال الزجاج: المعنى نحن خصمان. وقال غيره: القول محذوف؛ أي يقول: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ قال الكسائي: ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز. الماورديّ: وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يأتي منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول: إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض. وقيل: أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض. وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين ٱثنين ومع كل واحد جمع. ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

مع كل واحد من الفريق الآخر، فحضروا الخصومات ولكن ٱبتدأ منهم ٱثنان، فعرف داود بذكر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرّض للخصومات الأخر. والبغي التعدّي والخروج عن الواجب. يقال بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾ أي لا تَجُرْ؛ قاله السدّي. وحكى أبو عبيد: شططت عليه وأشططت أي جُرت. وفي حديث تَميم الدارِيّ: «إنكَ لَشَاطِّي» أي جائر عليّ في الحكم. وقال قتادة: لا تَمِل. الأخفش: لا تُسرِف. وقيل: لا تفرط. والمعنى متقارب. والأصل فيه البعد من شطتِ الدارُ أي بعدت؛ شطّتِ الدارُ تَشِطّ وتَشُطّ شطّاً وشُطُوطاً بعدت. وأَشطَّ في القضية أي جار، وأَشطَّ في السَّوْم وٱشتط أي أبعد، وأشطُّوا في طلبي أي أمعنوا. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء. وفي الحديث: «لها مهر مثلها لا وَكْسَ ولا شَطَطَ» أي لا نقصان ولا زيادة. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إذاً شَطَطاً﴾ أي جَوراً من القول وبُعداً عن الحقّ. ﴿وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي أرشدنا إلى قصد السبيل.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي قال المَلك الذي تكلم عن أُورِيا ﴿إِنّ هَذَا أَخِي﴾ أي على ديني، وأشار إلى المدّعَى عليه. وقيل: أخي أي صاحبي. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وقرأ الحسن: ﴿تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً﴾ بفتح التاء فيهما وهي لغة شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس. والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لما هي عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب. وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة؛ لأن الكل مركوب قال ٱبن عون:

أنـا أبـوهـنّ ثـلاثٌ هُنَّـهْ ... رابعـةٌ فـي البيـت صُغْـراً هُنَّـهْ
ونعجتـي خمسـاً تُـوَفِّيهِنَّـهْ ... أَلاَ فتـى سمـحٌ يغـذِّيهِنّـهْ
طَـيُّ النَّقَـا فـي الْجـوع يَطْـوِيهِنَّـهْ ... ويـلُ الـرّغيـفِ ويلَـهُ مِنْهُنَّـهْ

وقال عنترة:

يا شاةَ مَا قَنَصٍ لِمن حَلَّتْ لَهُ ... حَرُمتْ عليَّ وليتَها لم تَحْرُمِ
فَبَعْثتُ جاريتي فقلتُ لها ٱذْهَبِي ... فتَجَسَّسِي أخبارَها لي وٱعْلَمِ
قالتْ رأيتُ مِن الأعادي غِرَّةً ... والشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنَّما ٱلْتَفَتَتْ بجِيدِ جِدايةٍ ... رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

وقال آخر[١]:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِه عَنْ شَاتِه ... فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَهَا

وهذا من أحسن التعريض حيث كني بالنعاج عن النساء. قال الحسين بن الفضل: هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمراً، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال نحن خصمان هذه حالنا. قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل في هذا أن المعنى؛ يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة؛ كما تقول: رجل يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟.

قلت: وقد تأوّل المزنيّ صاحب الشافعي هذه الآية، وقوله ﷺ في حديث ٱبن شهاب الذي خرجه «الموطأ» وغيره: «هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَة» على نحو هذا؛ قال المزني: يحتمل هذا الحديث عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبي ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أنّ هذا يكون إذا ٱدعى صاحب فراش وصاحب زنى، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد، ولا على زَمْعَة قول ٱبنه إنه ولد زنى[٢]، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرِف بها ما أرادوا تعريفه. فيحتمل أن يكون النبي ﷺ

---

(١) هو الأعشى.
(٢) قوله: «إنه ولد زنى» أولى بقول سعد بن أبي وقاص. راجع الحديث في «الموطأ» ٤/٦ طبعة السلطان عبد الحفيظ.

حكم في هذه القصة على المسألة، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث؛ فإنه عندي صحيح. والله أعلم.

التاسعة ـ قال النحاس: وفي قراءة ٱبن مسعود ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى﴾ و ﴿كان﴾ هنا مثل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فأما قوله: ﴿أنثى﴾ فهو تأكيد، كما يقال: هو رجل ذكر وهو تأكيد. وقيل: لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها. وفي «التفسير»: له تسع وتسعون ٱمرأة. قال ٱبن العربي: إن كان جميعهن أحراراً فذلك شرعه، وإن كنّ إماء فذلك شرعنا. والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في شريعة محمد ﷺ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار. وقال القشيري: ويجوز أن يقال لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مائة مرة لم أقض حاجتك، أي مراراً كثيرة. قال ٱبن العربي: قال بعض المفسرين لم يكن لداود مائة ٱمرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غنيّ عن الزوجة وأنا مفتقر إليها، وهذا فاسد من وجهين: **أحدهما** ـ أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا. **الثاني** ـ أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال: «لأطوفن الليلة على مائة ٱمرأة تلِد كل ٱمرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله» وهذا نص.

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي ٱمرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ٱنزل لي عنها حتى أكفلها. وقال ٱبن عباس: أعطنيها. وعنه: تحوّل لي عنها. وقاله ٱبن مسعود. وقال أبو العالية: ضمها إليّ حتى أكفلها. وقال ٱبن كيسان: ٱجعلها كِفلي ونصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني. قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني. يقال: عزّه يعُزُّه (بضم العين في المستقبل) عَزًّا غلبه. وفي المثل: مَن عَزَّ بَزَّ؛ أي من غَلَب سَلَب. والاسم العِزة وهي القوّة والغلبة. قال الشاعر:

قَطـاةٌ عَـزَّهـا شَـرَكٌ فبـاتَـتْ ... تُجـاذِبُـه وقـد عَلِـقَ الْجنَـاحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير ﴿وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غالبني؛ من المعازَّة وهي المغالبة؛ عازَّه أي غالبه. قال ٱبن العربي: وٱختلف في سبب الغلبة؛ فقيل: معناه غلبني ببيانه. وقيل: غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه. كان ببلادنا أمير يقال له سير بن أبي بكر[1] فكلمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها. فقلت: أما إذا كان عدلاً فلا. فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي له وٱستغربه.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ قال النحاس: فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت ببيِّنة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول.

وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وٱبن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل ٱنزل لي عن ٱمرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن». وقال في كتاب «معاني القرآن» له بمثله. قال رضي الله عنه: قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ٱنزل لي عنها. وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ، قال أبو جعفر: فهذا أجل ما روي في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق ٱمرأته، كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يبيعه جاريته، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده. اهـ نفح الطيب.

عز وجل على ذلك، وعاتبه لما كان نبياً وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه. قال ابن العربي: وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعاً؛ فإن داودﷺ لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: أنزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول اللهﷺ بينهما: إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك. وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوّجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هذا ويسند؟! وعلى من في نقله يعتمد، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد. أمَا أن في سورة ﴿الأحزاب﴾ نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة، وذلك قوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوّج النبيﷺ زينب بنت جحش، إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق، بل أمره بالتمسك بزوجته، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها. فكانت هذه المنقبة لمحمدﷺ على داود مضافة إلى مناقبه العليةﷺ. ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة؛ وهذا نص القرآن. وروي أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم. وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآية؛ ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر، أن داود عليه

السلام كان قد أقدم على خِطبة ٱمرأة قد خطبها غيره، يقال هو أوريا؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأوّل، ولم يكن بذلك داود عارفاً، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفاً أو مشاهدة على غير تعمد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير، وذلك الخاطب لا ٱمرأة له، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسوّر الملَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ٱبن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ٱدعى والآخر سلم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر» وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى ٱعترف صاحبه بذلك. وقيل: تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك. والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد ٱعترافه. وقد روي هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه. قال ويحتمل أن يقال: كان من شرعهم التعويل على قول المدّعي عند سكوت المدّعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول. وقال الحليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين» له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافية فظهرت السجود لله عز وجل. قال والأصل في ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

الْخصم ﴾ إلى قوله : ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام، أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه ، فكان ظاهر ذلك أنه رأى في المتكلم مخائل الضعف والهضيمة، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول، ودعاه ذلك إلى ألاّ يسأل الخصم؛ فقال له مستعجلاً : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول: كانت لي مائة نعجة ولا شيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له ٱرددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أني مرافعه إليك، فجرّني قبل أن أجرّه، وجاءك متظلماً من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأني أنا الظالم. ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه في ذلك الوقت ، وهو الفتنة التي ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فٱستغفر ربه وخر راكعاً لله تعالى شكراً على أن عصمه ، بأن ٱقتصر على تظليم المشكو ، ولم يزده على ذلك شيئاً من ٱنتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصور في القلب أنه ظالم ، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه ؛ فقال : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة، التي توخاه بها بعد المغفرة، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه. ثم جاء عن ٱبن عباس أنه قال سجدها داود شكراً، وسجدها النبي ﷺ ٱتباعاً، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أي بسؤاله نعجتك ؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي من دعائه الخير.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يقال: خليط وخلطاء ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة في الواو. وفيه وجهان: أحدهما ـ أنهما الأصحاب. الثاني ـ أنهما الشركاء.

قلت: إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد ٱختلف العلماء في صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدّلو والمراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخلطاء إلا الشركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجمَع بين مفترق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية» وروي «فإنهما يترادّان الفضل» ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء؛ فٱعلمه. وأحكام الخلطة مذكورة في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون [الصدقة][1] على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المصدِّق بهذا ترادّوا بينهم للاختلاف في ذلك، وتكون كحكم حاكم ٱختلف فيه.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي يتعدّى ويظلم. ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ يعني الصالحين أي وقليل هم فـ﴿ ما ﴾ زائدة. وقيل: بمعنى الذي وتقديره وقليل الذين هم. وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه: اللهم ٱجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟. فقال أردت قول الله عز وجل: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر.

الخامسة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي ٱبتليناه. ﴿وظن﴾ معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين. والقراءة ﴿فَتَنَّاهُ﴾ بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿فَتَّنَّاهُ﴾ بتشديد التاء والنون على المبالغة. وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وٱبن السَّمَيْقَع ﴿فَتَنَاه﴾ بتخفيفهما. ورواه عليّ بن نصر عن أبي عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

السادسة عشرة ـ قيل: لما قضى داود بينهما في المسجد، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فلم يفطن داود؛ فأحبا أن يعرفهما، فصعدا إلى السماء حيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى ٱبتلاه بذلك، ونبهه على ما ٱبتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لما أقرهم داود على ذلك. ويقول: ٱنصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبي ﷺ والخلفاء يقضون في المسجد، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يجلس في رحبته؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحب.

السابعة عشرة ـ قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم، وأوّل من ٱستقضى معاوية. قال مالك: وينبغي للقضاة مشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضى حتى يكون عالماً بآثار من مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نزهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثير التحذر من الحيل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بد له منه من العربية؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبل إنجاز الحكم للمطلوب: أبقيتْ لك حجةٌ؟ فإن قال لا حكم عليه، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجه أو بينة. وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ ٱختلف المفسرون في الذنب الذي ٱستغفر منه على أقوال ستة؛ **الأول** ـ أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها. قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة. قال أبو إسحاق: ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، فصارت الأولى له والثانية عليه. **الثاني** ـ أنه أغزى زوجها في حملة التابوت. **الثالث** ـ

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. **الرابع** ـ أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته، فٱغتم لذلك أوريا، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها، وقد كان عنده تسع وتسعون ٱمرأة. **الخامس** ـ أنه لم يجزع على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هلك من الجند، ثم تزوج ٱمرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله. **السادس** أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر. قال القاضي ٱبن العربي: أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريض زوجها للقتل؛ وأما من قال: إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب! وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً لجلدته ستين ومائة؛ لأن حدّ [قاذف] الناس ثمانون وحدّ [قاذف] الأنبياء ستون ومائة. ذكره الماوردي والثعلبي أيضاً. قال الثعلبي وقال الحرث الأعور عن عليّ: من حدث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقداً جلدته حدّين؛ لعظم ما ٱرتكب برمي من قد رفع الله محله، وٱرتضاه من خلقه رحمة للعالمين، وحجة للمجتهدين. قال ٱبن العربي: وهذا مما لم يصح عن عليّ. فإن قيل: فما حكمه عندكم؟ قلنا: أما من قال إن نبياً زنى فإنه يقتل، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة، فقد ٱختلف [نقل][1] الناس في ذلك؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته، فإنه يناقض التعزير المأمور به، فأما قولهم: إنه وقع بصره على ٱمرأة تغتسل عريانة، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأئمة؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها. وأما قولهم: إنه [نوى][1] إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرّضه للموت، وأما قولهم: إنه خطب على خِطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها.

---

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريباً من داود عليه السلام وهي من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت وأتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموع عينيه. قال ابن العربي وأما قول المفسرين: إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه وأتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما أتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه، وإنما ذِكرهم لحسن الطائر خرقٌ في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في «الصحيح»: «إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عرياناً فخر عليه رِجل من جراد [من ذهب][1] فجعل يحثي منه ويجعل في ثوبه». فقال الله تعالى له: «يا أيوب ألم أكن أغنيتك» قال: «بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك» وقال القشيري: فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كوّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً وقد تقدّم.

التاسعة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ أي خر ساجداً، وقد يعبر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخــرَّ علــى وَجْهِــهِ راكِعــاً   وتـابَ إلـى الله مِـنْ كُـلِّ ذَنْـبِ

قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الانحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمي السجود ركوعاً. وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عز وجل. أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله.

---

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً﴾ فهل يقال للراكع خرَّ؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها فخرّ بعد أن كان راكعاً أي سجد.

الموفية عشرين ـ وٱختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأ بها فَتشَزَّنَ[1] الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنها توبة نبيّ ولكني رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود» ونزل وسجد. وهذا لفظ أبي داود. وفي «البخاري» وغيره عن ٱبن عباس أنه قال: ﴿ صٓ ﴾ ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها. وقد روي من طريق عن ٱبن مسعود أنه قال: ﴿ صٓ ﴾ توبة نبيّ ولا يسجد فيها؛ وعن ٱبن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به. قال ٱبن العربي: والذي عندي أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي ﷺ سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داود سجد خاضعاً لربه، معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي ٱتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون ـ قال ٱبن خُوَيْزمنداد: قوله ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ فيه دلالة على أن السجود للشكر مفرداً لا يجوز؛ لأنه ذكر معه الركوع، وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله ﷺ والأئمة بعده، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لنقل نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة.

---

(١) التشزن التأهب والتهيؤ للشيء.

قلت: وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صلّى يوم بُشر برأس أبي جهل ركعتين. وخرّج من حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسرّه ـ أو يسرّ به ـ خر ساجداً شكراً لله. وهذا قول الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون ـ روى الترمذي وغيره واللفظ للغير: أن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ كان يصلي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهم أعظم لي بهذه السجدة أجراً، وٱرزقني بها شكراً.

قلت: خرّج ٱبن ماجه في سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم، كأني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة [فسجدت](1) فسجدتْ الشجرةُ لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم ٱحطط بها عني وزراً، وٱكتب لي بها أجراً، وٱجعلها لي عندك ذخراً. قال ابن عباس: فرأيت رسول الله ﷺ قرأ ﴿السجدة﴾ فسجد، فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة. ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلت يا رسول الله رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرة تقرأ ﴿صٓ﴾ فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها، فسمعتها تقول في سجودها: اللهم ٱكتب لي بها أجراً، وحُطَّ عنّي بها وزراً، وٱرزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته. فقال لي النبي ﷺ «أفسجدت أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «لقد كنت أحقّ بالسجود من الشجرة» ثم قرأ النبي ﷺ ﴿صٓ﴾ حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة.

الثالثة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي فغفرنا له ذنبه. قال ٱبن الأنباري: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تام، ثم تبتدىء ﴿وإنّ له﴾ وقال القشيري: ويجوز الوقف على ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ ثم تبتدىء ﴿ذَلِكَ وإنّ لَهُ﴾ كقوله: ﴿هَذَا وإنّ لِلطَّاغِينَ﴾ أي الأمر ذلك.

(١) الزيادة من سنن ٱبن ماجه.

وقال عطاء الخراساني وغيره: إن داود سجد أربعين يوماً حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودي: أجائع فتطعَم وأعارٍ فَتُكْسَى؛ فنحب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه، فغفِر له وستِر بها. فقال: يا رب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة. قال: يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة. ثم قيل: يا داود ٱرفع رأسك. فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نَشِب في الأرض، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها. رواه الوليد بن مسلم عن ٱبن جابر عن عطاء. قال الوليد: وأخبرني مُنِير بن الزبير، قال: فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد قال ابن لَهيعة: فكان يقول في سجوده سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. في رواية: إنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه. وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهَمّ الذي هممْتَ به» وقال وهب: إن داود عليه السلام نودي إني قد غفرت لك. فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال: لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك؟ قال: يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: ٱذهب إلى داود فقل له يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمعه نداءه. فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا، ونادى يا أوريا فقال: لبيك! من هذا الذي قطع عليّ لذتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني في حلٍّ فإني عرّضتك للقتل؛ قال: عرّضتني للجنة فأنت في حلّ. وقال الحسن وغيره: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخطَّاء، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قَصْعة فلا يزال

يبكي حتى يبتل بدموعه، وكان يذرّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكل الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله، وقال: يا رب ٱجعل خطيئتي في كفّي فصارت خطيئته منقوشة في كفّه، فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته، وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه. وروى الوليد بن مسلم: حدثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل عيني داود مثل القِربتين تَنْطُفان ولقد خدّد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض». قال الوليد: وحدثنا عثمان بن أبي العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلوٌ من الخطيئة شدة قوله في الخاطئين أن كان يقول: اللهم لا تغفر للخاطئين. ثم صار إلى أن يقول: اللهم رب ٱغفر للخاطئين لكي تغفر لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني. إلهي! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحبها عليّ، وإذا ذكرت رحمتك ٱرتد إليّ روحي. وفي الخبر: إن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فٱستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكانِ ينادي: إلهي! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ٱرتد إليّ روحي؛ رب! ٱغفر للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها. وكان إذا كان يوم نَوْحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إن هذا يوم نَوْحِ داود، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكّفٌ، وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العويل والنوح، وأثارت الحرقات منابع دموعه، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحاً وبكاءً، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم. ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل؛

فقال: جئت لأقبض روحك. فقال: دعني حتى أنزل أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ٱبنه سليمان بالخلافة.

الرابعة والعشرون ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾ قربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قالا: والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود. وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة. وعن مجاهد: يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده؛ فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له هاهنا؛ ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا؛ [حتى يقرّب فيسكن][1] فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدّثنا الفضل بن محمد، قال حدّثنا عبد الملك بن الأصبغ، قال حدّثنا الوليد بن مسلم، قال حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره. قال الترمذي: ولقد كنت أمرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقِط الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ تلا عليهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال لهم «إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم» فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾ فقص قصة خطيئته إلى منتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف اتصل هذا بذاك؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني الله له

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد في آخر القصة.

يوماً فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم ٱستهزاء بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من ٱستهزائهم، فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها ٱضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ(١) سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى ٱسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرةً إلاَّ أَحصَاهَا﴾ فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق حتى يُقرب فيسكن.

[٢٦] ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقد مضى في ﴿البقرة﴾(٢) القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

---

(١) لعل الأصل: حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ.

(٢) راجع ١/ ٢٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

الثانيـة ـ قولـه تعالـى : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل. وهو أمر على الوجوب وقد ٱرتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذي عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا فٱحكم بين الناس بالعدل ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ أي لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي عن طريق الجنة . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي يحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في النار ﴿ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله : ﴿ نسُوا ﴾ أي تركوا الإيمان به، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين. ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته.

الثالثة ـ الأصل في الأقضية قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاك خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية. وقد تقدّم الكلام فيه[١].

الرابعة ـ قال ٱبن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال: إن ٱرتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى، فلا تشته في نفسك الحق له لِيفلُج على صاحبه[٢]، فإن فعلتَ محوتُ ٱسمك من نبوّتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي. فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألاّ يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة، أو غيرهما. وقال ابن عباس: إنما ٱبتلي سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوِي أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل، بلغ من ٱجتهاده أن طلب إلى ربه

---

(١) راجع ٥/ ٣٧٥ وما بعدها و ١٠٩/٦ وما بعدها وص ٢١٢ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) يفلج على صاحبه: يظفر ويفوز.

أن يجعل بينه وبينه علَماً، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك؛ وإذا هو قصّر عرف ذلك، فقيل له: ٱدخل منزلك، ثم مدّ يدك في جدارك، ثم ٱنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فٱخطط عندها خطاً؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فٱرجع إلى ذلك الخط فٱمدد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصّرت عن الحق قصّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاماً ولا شراباً، ولم يفضِ إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب. فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه، فوقع في نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديق وخدن، فتحرّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضي له، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه فخرّ ساجداً وهو يقول: يا ربّ شيئاً لم أتعمده ولم أردْه فبينه لي. فقيل له: أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضي له به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره. وعن ليث قال: تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له في ذلك فقال: تقدّما إليّ فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما. وقال الشعبي: كان بين عمر وأُبيٍّ خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أوّل جورك؛ أجلسني وإياه مجلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه.

الخامسة - هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه ويهلك عدوّه إلا ٱدعى علمه فيما حكم به. ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيت رجلاً على حدّ من حدود

الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري. وروي أن ٱمرأة جاءت إلى عمر فقالت له: ٱحكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده. فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا. وفي «صحيح مسلم» عن ٱبن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد؛ وروي عن النبيّ ﷺ أنه ٱشترى فرساً فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال: «من يشهد لي» فقام خزيمة فشهد فحكم. خرّج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1].

[٢٧] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ أي هزلاً ولعباً. أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا. ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلاً. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿أَم نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والميم صلة تقديره؛ أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردّ على المرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ٱبن عباس. وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو ردّ على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

---

(١) راجع ٣/ ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ﴾ أي هذا كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ أي ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ[1]؛ إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه في كتاب التذكار. وقال الحسن: تدبر آيات الله اتباعها. وقراءة العامة ﴿لِيَدَّبرُوا﴾. وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿لِتَدَبَّرُوا﴾ بتاء وتخفيف الدال، وهي قراءة عليّ[2] رضي الله عنه، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التائين تخفيفاً ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ أي أصحاب العقول واحدها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبٍّ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤسٍ، ونُعْم على أنعم؛ قال أبو طالب:

قلبـــي إليـــه مُشـــرِفُ الأَلُـــبِّ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت:

إليكـم ذوِي آلِ النَّبـيّ تطَلَّعَـتْ   نـوازعُ مـن قلبِي ظِمـاءٌ وَأَلْبُـبُ

[٣٠] ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان. و﴿أَوَّابٌ﴾ معناه مطيع. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال: قوم أجواد وخيل جِياد، جاد الرجلُ بماله يجود جُوداً فهو جَواد، وقوم جُود مثال

---

(١) الهذ: سرعة القراءة.

(٢) وفي «الألوسي» أن علياً قرأ «ليتدبروا» بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا في «البحر» لأبي حيان.

قَذَالٍ وقُذُلٍ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر[(١)]:

صَناعٌ بِإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها ... جوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول: سِرنا عُقْبة جَوَادا، وعُقْبَتين جَوَادَين، وعُقَبَا جِيادا. وجاد الفرس أي صار رائعاً يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جِياد وأجياد وأجاويد. وقيل: إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهتها. وفي الصافنات أيضاً وجهان: **أحدهما ـ** أن صفونها قيامها. قال القتبي والفراء: الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها. ومنه ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار» أي يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لنـا قُبَّـةٌ مضْـروبَـةٌ بِفِنـائهـا ... عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن

وهذا قول قتادة. **الثاني ـ** أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفُـونَ فمـا يَزَالُ كَـأنَّهُ ... مِمَّا يقومُ على الثَّلَاثِ كَسِيرَا[(٢)]

وقال عمرو بن كُلْثوم:

تَـرِكْنـا الخَيْـلَ عـاكِفَـةً عَلَيْـهِ ... مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَهَـا صُفُـونَـا

وهذا قول مجاهد. قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل: ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة. ابن زيد: أخرج

(١) هو أبو شهاب الهذلي ورواه ابن السكيت: والعرض وافر، وروى: جواد بزاد الركب والعرق زاخر. وامرأة صنّاع أي ماهرة حاذقة عمل اليدين، والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفي. والشكر الفرج. والعرق زاخر أراد به الجوع يعني تجود بقوتها مع شدة الجوع.

(٢) ورد في «اللسان» في مادة صفن أن قوله مما يقوم لم يرد من قيامه، وإنما أراد من الجنس الذي يقوم على الثلاث، وجعل «كسيراً» حالاً من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال علي رضي الله عنه: كانت عشرين فرساً ذوات أجنحة. وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً؛ فالله أعلم. فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك، وتعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول: ٱنهملتِ العين وٱنهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» فكأنها سميت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي ﷺ قال له: «أنت زيد الخير» وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيراً لما فيها من المنافع. وفي «الخبر»: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له: ٱختر منها واحداً فاختار الفرس؛ فقيل له: ٱخترت عزك؛ فصار ٱسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلاً؛ لأنها موسومة بالعز. وسمي فرساً لأنه يفترس مسافات الجَوِّ افتراس الأسد وثباناً، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمي عربياً لأنه جيء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسمعيل عربي فصارت له نِحْلة من الله؛ فَسُمِّيَ عربياً. و ﴿حُبَّ﴾ مفعول في قول الفراء. المعنى إني آثرت حبّ الخير. وغيره يقدره مصدراً أضيف إلى المفعول؛ أي أحببت الخير حباً فألهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾ قعدت وتأخرت من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال بعير مُحِبٌّ وقد أحبّ إحباباً وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير مُحِبٌّ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و ﴿حُبَّ﴾ على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمت من قوله[1]:

مِثْلَ بَعِيرِ السَّوْءِ إذْ أَحبّا

---

(١) هو أبو محمد الفقعسي؛ وصدر البيت:

حلت عليه بالقفيل ضربا

والقفيل السوط. وفي كتب اللغة: ضرب بعير السوء... الخ.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردة أي هاجت الريح باردة. وقال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحَلْقُومَ﴾ أي بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ولم يتقدّم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر ، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾. والعشي ما بعد الزوال ، والتواري الاستتار عن الأبصار ، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل: جبل دون قاف. والحجاب الليل سمي حجاباً ؛ لأنه يستر ما فيه. وقيل : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ ﴾ أي الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل ، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده ، لأنه كان يصلي حتى توارت الخيل ، وسترتْها جُدُرُ الأصطبلات ، فلما فرغ من صلاته قال: ﴿رُدّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ أي فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدهما ـ أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، وليرَى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله. وقال قائل هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له. وقيل: المسح هاهنا هو القطع أذِن له في قتلها. قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، وكانت ألف فرس، فعرض عليه منها تسعمائة فتنبّه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم؛ فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فردّت فعقرها بالسيف؛ قربة لله وبقي منها مائة، فما في أيدي الناس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل.

قال القشيري : وقيل ما كان في ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها. وكان سليمان عليه السلام رجلاً مهيباً، فلم يذكّره أحد ما نسي من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحاً، فتذكر سليمان تلك

الصلاة الفائتة، وقال على سبيل التلهّف: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي عن الصلاة، وأمر برد الأفراس إليه، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة. ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها في الحال ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى الله عليه بهذا، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يوم ما يقطع مثله على الخيل في شهرين غُدوّاً ورَوَاحا. وقد قيل: إن الهاء في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ للشمس لا للخيل. قال ابن عباس: سألت علياً عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت سمعت كعباً يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي آثرت ﴿حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ الآية ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس وكانت أربع عشرة؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت؛ أي غربت الشمس بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: ﴿رُدُّوهَا﴾ يعني الشمس فردوها حتى صلى العصر في وقتها، وأن أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون.

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها؛ حسب ما تقدّم بيانه. وكثيراً ما يضمرون الشمس؛ قال لبيد:

حتّى إذا أَلْقَتْ يَداً في كَافِرٍ   وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغُورِ ظَلاَمُهَا

والهاء في ﴿رُدُّوهَا﴾ للخيل، ومسحها قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حُبّاً لها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس. وفي الحديث أن النبيّ ﷺ رؤي وهو يمسح فرسه بردائه. وقال: «إني عوتبت الليلة في الخيل»

خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلاً. وهو في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس. وقد مضى في ﴿الأنفال﴾[1] قوله عليه السلام: «وٱمسحوا بنواصيها وأكفالها» وروى ٱبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف.

قلت: وقد ٱستدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو ٱستدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبيّ معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون ٱختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكراماً لها وقال أنت في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عرقبها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز. وقد مضى في ﴿النحل﴾[2] بيانه. وعلى هذا فما فعل شيئاً عليه فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون في شرعنا. وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك. وقد قيل: إن مسحه إياها وَسْمُها بالكيّ وجعلها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال. وقد يقال: الكي على الساق علاطٌ، وعلى العنق وِثاق. والذي في «الصحاح» للجوهري: عَلَط البعيرَ عَلْطاً كواه في عنقه بسمة العِلَاط. والعِلَاطان جانبا العنق.

قلت: ومن قال إن الهاء في ﴿رُدُّوهَا﴾ ترجع للشمس فذلك من معجزاته. وقد ٱتفق مثل ذلك لنبينا ﷺ. خرج الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبيّ ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر عليّ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا عليّ» قال؛ لا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فٱردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها بعدما غربت طلعت على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان. ورواتهما ثقات.

(١) راجع ٨/٣٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قلت: وضعف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث فقال: وغلوّ الرافضة في حب عليّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا عليه السلام العصر فردّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت. ومن قال: إن الهاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان في السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع. وقد مضى القول فيه في ﴿يوسف﴾(١).

[٣٤] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ قيل: فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكره الزمخشري. و ﴿فَتَنَّا﴾ أي ٱبتلينا وعاقبنا. وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال: ٱختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة ٱمرأة سليمان؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى. وقال سعيد بن المسيّب: إن سليمان عليه السلام ٱحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد، ولا ينصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي، ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم.

(١) راجع ٩/ ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون، فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شزراً، ولا تكلمه إلا نزراً، وكان لا يرقأ لها دمع حزناً على أبيها، وكانت في غاية من الجمال، ثم أنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره، وحرّقه ثم ذرّاه في البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب ٱبنة ملك صيدون وٱسمها جرادة ـ فيما ذكر الزمخشري ـ أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت: ٱقتلني ولا أسلم، فتزوّجها وهي مشركة، فكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أُمِر ألا يتزوّج ٱمرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوّج ٱمرأة من غيرهم فعوقب على ذلك؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قيل: شيطان في قول أكثر المفسرين؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، وٱسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوّت. قال ٱبن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من ٱمرأة من نساء سليمان أمّ ولد له يقال لها الأمينة؛ قاله شهر ووهب. وقال ٱبن عباس وٱبن جبير: ٱسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى ردّ الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيِّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته.

وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان ٱسمه آصف: كيف تضلون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان، متشبهاً بصورته، داخلاً على نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب(١). وٱختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكي عن ٱبن عباس ووهب بن منبّه أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ. وقال مجاهد: منع من إتيانهنّ. وزال عن سليمان ملكه فخرج هارباً إلى ساحل البحر يَتضيَّف الناس؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه؛ قال قتادة: ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد. قيل: إنه ٱستطعمها. وقال ٱبن عباس: أخذها أجرة في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها، وذلك بعد أربعين يوماً من زوال ملكه، وهي عدد الأيام التي عُبِد [فيها] الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بينما سليمان على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه. وقال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله». وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ٱبن عباس وغيره: ثم إن

---

(١) هذه الأقوال لا تصح قطعاً لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولو صح شيء منها لكان الوحي محل الشك والارتياب؛ وقد قال أبو حيان في تفسيره: نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. إلى أن قال: لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوّه به، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصوّر هو النبي. ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها.

وقال الألوسي: ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض. الله أكبر!! هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم. وسيأتي للمؤلف تضعيف هذا القول أيضاً.

سليمان لما ردّ الله عليه ملكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا محبسك إلى يوم القيامة. وقال عليّ رضي الله عنه: لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله، فأتى جزيرة في البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدر عليه حتى يسكر! قال: فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمراً. فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله إنكِ لشراب طيّب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً. ثم عطش عطشاً شديداً ثم أتاها فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله؛ فأروه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا: إن الدخان الذي ترون من نفسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بوله. وقال مجاهد: ٱسم ذلك الشيطان آصف. وقال السدى ٱسمه حبقيق؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حقّ، وهم مع الشيطان في باطل. وقيل: إن الجسد وَلدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما ولد ٱجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إن عاش له ٱبن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله. فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا ٱبنه في السحاب خوفاً من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾.

وحكى النقاش وغيره: أن أكثر ما وطىء سليمان جواريه طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه، جاءت به القابلة فألقته هناك. وفي «صحيح البخاري ومسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان لأطوفنّ الليلة على

تسعين ٱمرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعاً فلم تحمل منهن إلا ٱمرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيمُ الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك في يدك، ففِرّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقوم مقامك في عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوماً. ففرّ سليمان هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب. وقام آصف في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردّ الله عليه ملكه؛ فأقام آصفَ في مجلسه، وجلس على كرسيّه وأخذ الخاتم. وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى.

صفة كرسيّ سليمان وملكه

روي عن ٱبن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة كرسيّ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتي أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتقلّهم، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر. وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ٱرتدع وتهيب، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدرّ والياقوت والزبرجد، وأن يحفَّ بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، وٱتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دوران الرحى المسرعة؛ وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان، فإذا ٱستوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسيّ التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء. قالوا: ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسيّ، ثم تحفّ بهم الطير تظلهم، ويتقدّم الناس لفصل القضاء. فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاوسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحقّ. وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب ذلك الكرسيّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النُّسور والأُسْد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفي سليمان بعث بُخْتَنصَّر فأخذ الكرسيّ فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنصَّر وحمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدرِ أحد عاقبة أمره ولعله رُفع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي اغفر لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا، مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته؛ ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطي سليمان المملكة. وقد قيل: إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال: ﴿لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ وهذا فيه نظر. والأوّل أصح. ثم قال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعة في نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال: ﴿هذا عَطَاؤُنَا﴾ الآية.

قلت: وهذا يردّ ما روي في الخبر: إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفاً، ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه، لأنّه من طريق المنة، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة، وهو سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. وفي «الصحيح»: «لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجّل كل نبيّ دعوته» الحديث. وقد تقدّم فجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية، فلذلك لم تكن عليه تبعة. ومعنى قوله: ﴿لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي أن يسأله. فكأنه سأل منع السؤال بعده، حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إن سؤاله ملكاً لا ينبغي

لأحد من بعده؛ ليكون محله وكرامته من الله ظاهراً في خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس في المحل عنده، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محله عنده ، ولهذا لما أخذ النبيّ ﷺ العفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فرده خاسِئاً. فلو أعطي أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية ، فكأنه كره ﷺ أن يزاحمه في تلك الخصوصية ، بعد أن علم أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين ، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده . والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ أي لينة مع قوتها وشدّتها حتى لا تضرّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخا في فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، في كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عَيَّاش عن إدريس بن وهب بن منبّه، قال حدّثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمر بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً! فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتي آل داود. فقال الحرّاث: أذهب الله هَمَّك كما أذهبتَ هَمِّي.

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أراد؛ قاله مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصوابَ وأخطأ الجوابَ. أي أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي. وقال الشاعر:

أَصَابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ   فأَخطَا الجوابَ لَدَى المفصَلِ

وقيل: أصاب أراد بلغة حِمْير. وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله. ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال[١]:

إلاّ سُلَيْمَانَ إذ قال الإلهُ لهُ ... قُمْ في البرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عنِ الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إنِّي قد أَذِنتُ لهمْ ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعُمُدِ

﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يعني في البحر يستخرجون له الدرّ. فسليمان أول من استخرج له اللؤلؤ من البحر. ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ أي وسخرنا له مَرَدة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السدي: في الأغلال. ابن عباس: في وثاق. ومنه قول الشاعر[٢]:

فآبُوا بالنِّهَاب وبالسَّبَايَا ... وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلاّم: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أي هذا الملك عطاؤنا، فأعطِ من شئت أو امنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما. قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية، وكان في ظهره ماء مائة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن[٣] عباس. ومعناه في «البخاري». وعلى هذا ﴿فَامْنُنْ﴾ من المنِيّ؛ يقال: أَمْنَى يُمْنِي ومَنَى يَمنِي لغتان، فإذا أمرت من أمني قلت أَمْنِ، ويقال: من مَنَى يَمْنِي في الأمر امنِ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت امنن. ومن

---

(١) هو النابغة الذبياني: ويروى إذ قال المليك له. ويروى فازجرها عن الفند. أي الخطأ. وخيس أي ذلل والصفاح جمع صفاحة بشدّ الفاء وهي حجارة رقاق عراض.

(٢) هو عمرو بن كلثوم والبيت من معلقته. (٣) قال أبو حيان في تفسيره: ولعله لا يصح عن ابن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

ذهب به إلى المِنّة قال: مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال اُمنُنْ. فيروى في الخبر أنه سخر له الشياطين فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدي. وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس: أي جامع من شئت من نسائك واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي إن أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قربة وحسن مرجع.

[٤١] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبيّ ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المكاره. ﴿أيوب﴾ بدل. ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر ﴿إِني﴾ بكسر الهمزة أي قال. قال الفراء: وأجمعت القراء على أن قرؤوا ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضاً؛ لأنه قال أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ ﴿بِنَصَبٍ﴾ بفتح النون والصاد فغلط على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر ﴿بِنُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروي عن الحسن. فأما ﴿بِنَصَبٍ﴾ فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ. وقد رويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكى ﴿بِنَصْبٍ﴾ بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ؛ فنُصْب ونَصَبٍ كحُزْن وحَزَن. وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَبٍ كوُثْن ووَثَنٍ؛ ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة، فأما ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عبيدة وغيره: النُّصْبُ الشر والبلاء والنَّصَب التعب والإعياء. وقد قيل في معنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم.

ذكره النحاس. وقيل: إن النصب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله؛ وفيه بعد. وقال المفسرون: إن أيوب كان رومياً[١] من البَثَنِيَّة وكنيته أبو عبد الله في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكراً لأنعم الله، مواسياً لعباد الله، برا رحيما. ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر. وكان لإبليس موقف من السماء السابعة في يوم من العام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدي أيوب على شيء؟! فقال: يا رب! وكيف أقدر منه على شيء، وقد ابتليته بالمال والعافية، فلو ابتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله، ولخرج عن طاعتك. قال الله قد سلطتك على أهله وماله. فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله هو أعطاه وهو منعه. ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يا رب سلطني على بدنه. قال: قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل [منها][٢] فصار في جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾. ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاث سنين. فلما غلبه أيوب اعترض لامرأته في هيئة أعظم من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت بصاحبِك ما صنعت ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددتُ عليه أهله وماله وهم عندي . وعرض لها في بطن الوادي ذلك كله في صورته؛ أي أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب[٣] بلائه و] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي

---

(١) صحح المحققون أنه من بني إسرائيل كما جزم به الألوسي وغيره. والبثنية بالتحريك وكسر النون وياء مشدّدة قرية بدمشق بينها وبين أذرعات.

(٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبي. (٣) زيادة يقتضيها السياق.

نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: ٱستعان به مظلوم فلم ينصره فٱبتلي بسبب ذلك. وقيل: ٱستضاف يوما الناس فمنع فقيراً الدخول فٱبتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكاً وكان له غنم في ولايته، فداهنه لأجلها بترك غزوه فٱبتلي. وقيل: كان الناس يتعدّون ٱمرأته ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: ﴿مَسَّنِي الشَّيْطَانُ﴾. وٱمرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ٱبنة لوط. وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ٱبن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولهم: إن الله تعالى قال له هل قدرتَ من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلَّطه عليه فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقرّ له ـ لعنةُ الله عليه ـ عينٌ بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم. وأما قولهم: إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تَركتِ ذكر الله وسَجدتِ أنتِ لي لعافيته، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألمٌ وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجَدُ له، وأنه يعافِي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبيّ؟! ولو كانت زوجة سواديّ أو فَدْم[1] بربريّ ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في وادٍ للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه.

(١) الفدم من الناس القليل الفهم والفطنة.

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحرِ وحديثه وجريه بين الناس وتصويره. قال القاضي: والذي جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكنّ الشر لا ينسب إليه ذكرا، وإن كان موجوداً منه خَلقا؛ أدباً أدّبنا به، وتحميداً علّمناه، وكان من ذكر محمدﷺ لربه به قوله من جملته: «والخير في يديك والشر ليس إليك» على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ وأما قولهم: إنه ٱستعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزَّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأما قولهم: إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى. ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام. قال ٱبن العربـي القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ والثانية في ﴿ص﴾ ﴿أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبيّﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوب يغتسل إذ خَرّ عليه رِجْلٌ من جَرَاد من ذهب» الحديث. وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

وفي «الصحيح» واللفظ للبخاري أن ٱبن عباس قال: يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة.

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرَّكْض الدفع بالرجل. يقال: رَكَضَ الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرد: الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال رُكِضَت الدابةُ ولا يقال رَكَضتْ هي؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فجَبَرَ وحَزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار أي قلنا له ﴿ٱركض﴾ قاله الكسائي. وهذا لما عافاه الله. ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فركض فنبعت عين ماء فٱغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية، فٱغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه. ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل: نبعت عين حارّة وٱغتسل فيها فخرج صحيحاً، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده، والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهري: وٱغتسلت بالماء، والغَسُول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمغتسل أيضاً الذي يغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل. وٱختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبّه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين

وعُذِّب بُخْتَنَصَّر وحُوِّل[1] في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمان عشرة سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي.

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب، وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة. وذكر الحديث القشيري. وقيل أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ ﴾ تقدّم في ﴿ الأنبياء ﴾[2] الكلام فيه. ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي نعمة منا. و﴿ ذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ أي عبرة لذوي العقول.

[٤٤] ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل.

الأولى ـ كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب آمرأته مائة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال: **أحدها** ـ ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب؛ فقال أداويه على أنه إذا برىء قال أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه. قالت: نعم! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها. وقال؛ وَيْحَكِ ذلك الشيطان. **الثاني** ـ ما حكاه سعيد بن المسيَّب أنَّها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. **الثالث** ـ ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره أن الشيطان أغواها؛ أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّباً إليه وأنه يبرأ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة. **والرابع** ـ قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً فيضرب به،

---

(١) حول بمعنى مسخ؛ راجع قصة دانيال في قصص الأنبياء للثعلبي.

(٢) راجع ١١/٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. وقال ٱبن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه.

الثانية ـ تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل ٱمرأته تأديباً. وذلك أن ٱمرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب ٱمرأته فوق حدّ الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب ٱمرأته فوق حدّ الأدب؛ ولهذا قال عليه السلام: «وٱضربوهنّ ضرباً غير مُبرِّح» على ما تقدّم في ﴿النساء﴾[1] بيانه.

الثالثة ـ وٱختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ٱبن العربي. وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب. وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي ربَاح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باقٍ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة برَّ. وروى نحوه الشافعي. وروي نحوه عن النبي ﷺ في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري: وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع. ٱبن العربي: وروي عن عطاء أنها لأيوب خاصة. وكذلك روى أبو زيد عن ٱبن القاسم عن مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا. قال ٱبن المنذر: وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فَٱجْلِدُوا كُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وهذا مذهب أصحاب الرأي. وقد ٱحتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي ٱحتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال: حدّثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال حدّثنا ابن وهب، قال أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال أخبرني

(١) راجع ٥/ ١٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه آشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: آستفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإني قد وقعت على جارية دخلت عليّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة، أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنث. قال ابن المنذر؛ وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضرباً خفيفاً فهو بارّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذي يؤلم.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخياً. وقد مضى القول فيه في ﴿ المائدة ﴾[1] يقال: حنِث في يمينه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أي فاضرب لا تحنث.

الخامسة - قال ابن العربي قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحِنث. **والثاني** - أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معيناً فلا كفارة فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة، كما في حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنباً ما أظنّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنّ ربي

---

(١) راجع ٦/ ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عز وجل يعلم أني كنت أمرّ على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق[1] فَنَادى ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وذكر الحديث. فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة ـ آستدل بعض جهّال المتزهدة، وطَغَام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرقص. قال أبو الفرج الجوزي: وهذا آحتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحاً كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء. قال آبن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى: ﴿ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ دلالة على ضرب المحادّ[2] بالقضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع. وقد آحتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت مني وأنا منك» فَحَجَلَ. وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي» فَحَجَلَ. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجَلَ. ومنهم من آحتج بأن الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم. **والجواب** ـ أما الحَجْل فهو نوع من المشي يُفعَل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشي يُفعَل عند اللقاء للحرب.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ أي على البلاء. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي توّاب رجاع مطيع. وسئل سفيان عن عبدين آبتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) في نسخة إلا نحن.

(٢) كذا في «الأصل» وفي بعض النسخ «بالمخاد» بالخاء المعجمة.

قلت: وقد ردّ هذا الكلام صاحب «القوت» وٱستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ. وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومحجّة السالكين والزهاد». وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ٱبتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به ٱمتحِنوا وفُتنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال، فقد ٱجتمع[١] مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم. وفي حديث ٱبن شهاب عن النبي ﷺ: «إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فٱغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان في جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فٱئتزر بأحدهما وٱرتدى بالآخر ثم أقبل يمشي إلى منزله ورَاثَ[٢] على ٱمرأته فأقبلت حتى لقيته وهي لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أي يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى قال من هو قالت نبيّ الله أيوب أما والله ما رأيت أحداً قط أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال فإني أيوب وأخذ ضِغْثاً فضربها به» فزعم ٱبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُمَاماً[٣]. وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سَجَلت[٤] في أَنْدَر[٥] قمحه ذهباً حتى ٱمتلأ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أَنْدَر شعيره وقَطَانِيّه[٦] فسَجَلت فيه وَرِقا حتى ٱمتلأ.

---

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام.
(٢) راث: أبطأ.
(٣) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص.
(٤) السجل الانصباب المتواصل.
(٥) الأندر: الموضع الذي يدرس فيه القمح وغيره.
(٦) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحمص والعدس واللوبيا وما شاكلها.

[٤٥] ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

[٤٦] ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ .

[٤٧] ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ٱبن عباس: ﴿عَبْدَنَا﴾ بإسناد صحيح؛ رواه ٱبن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه، وهي قراءة مجاهد وحميد وٱبن محيصن وٱبن كثير؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿إبراهيم﴾ بدلاً من ﴿عبدنا﴾ و ﴿إسحق ويعقوب﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم، ويكون ﴿إبراهيم﴾ وما بعده على البدل. النحاس: وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيت أصحابنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيداً وعمراً وخالداً فزيد وحده بدل وهو صاحبنا، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية. وقد ٱستدل بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحق لا إسمعيل، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام». ﴿أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ قال النحاس: ﴿أما الأَبْصَارِ﴾ فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما ﴿ الأَيْدِي ﴾ فمختلف في تأويلها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوّة في الدين. وقوم يقولون: ﴿الأَيْدِي﴾ جمع يد وهي النعمة؛ أي هم أصحاب النعم؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل: هم أصحاب النعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدّموا خيراً. وهذا ٱختيار الطبري. ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَينَ الأَخْيَارِ﴾ أي الذين ٱصطفاهم من الأدناس وٱختارهم لرسالته. ومصطفَين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1] عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ ﴿والأخيار﴾ جمع خير. وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

(١) راجع ٢/ ١٣٣ في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد ٱصطفيناه في الدنيا﴾ ففيه الكلام على ٱشتقاق اللفظ وليس في الآية المذكورة.

وعيسى الثقفي ﴿أولي الأيدِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوّة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ منونة وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ٱبن عامر ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بالإضافة فمن نون خالصة فـ ﴿ـذِكْرَى الدَّارِ﴾ بدل منها؛ التقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها، ويَرْغبوا فيها ويُرغِّبوا الناس فيها. ويجوز أن يكون ﴿خالصة﴾ مصدراً لخلَص و ﴿ذكرى﴾ في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار؛ أي تذكير الدار الآخرة. ويجوز أن يكون ﴿خالصة﴾ مصدراً لأخلصت فحذفت الزيادة، فيكون ﴿ذكرى﴾ على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار. والدار يجوز أن يراد بها الدنيا؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أي بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم. وقال ٱبن زيد: معنى أخلصناهم أي بذكر الآخرة؛ أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى؛ إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم.

[٤٨] ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

[٥١] ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

[٥٢] ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

[٥٣] ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾.

[٥٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في ﴿الأنعام﴾[١] وذكر ذي الكفل في ﴿الأنبياء﴾[٢]. ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي ممن ٱختير للنبوّة. ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به في الدنيا أبداً. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة. ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ والعَدْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمر: إن في الجنة قصراً[٣] يقال له عَدْن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرَة[٤] لا يدخله إلا نبيّ أو صِدّيق أو شهيد. ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ رفعت الأبواب لأنه ٱسم ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: أي مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفرّاء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفرّاء: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابَ﴾ بالنصب. قال الفرّاء: أي مفتحة الأبوابِ ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

ونـأخـذُ بعـدهُ بِـذِنَـابِ عَيْشٍ أجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ[٥]

وإنما قال ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يقل مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلَّم: ٱنفتحي فتنفتح ٱنغلقي فتنغلق. وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي يدعون في الجنات متكئين فيها. ﴿بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي بألوان الفواكه ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى في ﴿الصافات﴾[٦]. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي على سن واحد، وميلاد ٱمرأة واحدة، وقد

---

(١) راجع ٧/٣٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ١١/٣٢٧ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) تقدّمت هذه الرواية في ٩/٣١١ بهذا اللفظ وهي توافق ما في «تفسير الطبري» وغيره عن عبد الله بن عمرو، ولفظ الأصل هنا «جنة عدن قصر في الجنة» الخ.

(٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط. (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظهر بأجب على نية التنوين؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس في أسوأ حال وأضيق عيش، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذي لا سنام له من الهزال. (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء.

تساوين في الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ٱبن عباس: يريد الآدميات. و ﴿أَتْرَابٌ﴾ جمع ترب وهو نعت لقاصرات؛ لأن ﴿قَاصِرَاتُ﴾ نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِنَ القاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ من الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ مِنها لأَثَّرا[1]

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء أي ما توعدون أيها المؤمنون. وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهي قراءة السُّلَمي وٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فهو خبر. ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي في يوم الحساب، قال الأعشى:

المهِينِينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السَّـ ـوءِ حتى إذا أفاقَ أفاقُوا

أي في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

[٥٥] ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾.
[٥٦] ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.
[٥٧] ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾.
[٥٨] ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.
[٥٩] ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.
[٦٠] ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.
[٦١] ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين. قال الزجاج: ﴿هَذَا﴾ خبر ٱبتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على «هذا». قال ٱبن الأنباري: «هذا» وقف حسن ثم تبتدىء ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الذين كذبوا الرسل.

---

(١) قائله ٱمرؤ القيس. المحول؛ الصغير. والإتب: درع المرأة. وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب.

﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ أي بئس ما مهدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم. ومنه مهد الصبي. وقيل: فيه حذف أي بئس موضع المهاد. وقيل: أي هذا الذي وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على ﴿هذا﴾ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ﴿هذا﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿حَمِيمٌ﴾ على التقديم والتأخير؛ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويجوز أن يكون ﴿هذا﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في ﴿هذا﴾ فيوقف على ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويرتفع ﴿حميم﴾ على تقدير هذا حميم. قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغسّاق إذا لم تجعلهما خبراً فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق. والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد:

حتّى إذا ما أضاءَ الصُّبْحُ[1] في غَلَسٍ وغُـودِرَ البَقْـلُ مَلْـوِيٌّ ومَحْصُـودُ

وقال آخر[2]:

لهـا مَتَـاعٌ وأَعْـوانٌ غَـدَوْنَ بِـهِ قِتْبٌ وغَرْب إذا ما أُفرِغَ انْسَحَقَا

ويجوز أن يكون ﴿ هذا ﴾ في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ كما تقول زيداً اضربه . والنصب في هذا أولى فيوقف على ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ وتبتدىء ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ على تقدير الأمر حميم وغسّاق. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في ﴿وغَسَّاق﴾. وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي ﴿وغساق﴾ بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد في قول الأخفش. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسم مثل عذَاب وجوَاب وصوَاب ، ومن شدّد قال : هو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة ، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق. قال ابن عباس: هو الزمهرير يخوّفهم

---

(١) رواه السمين: أضاء البرق. (٢) قائله زهير بن أبي سلمى يصف الناقة التي يستقي عليها. وقتب وغرب بيان للمتاع. والقتب أداة السانية، الغرب الدلو العظيمة. وانسحقا أي مضى وبعد سيلانه.

ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد ٱنتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره. وقال عبد الله بن عمرو: هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتن من في المشرق. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نَتَنْ لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن. وقال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غَسَق الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها إليّ جَرَى دَمْعٌ من الليلِ[1] غاسِقُ

أي بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدي: الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم. وقال ٱبن زيد: الحميم دموع أعينهم، يجمع في حياض النار فيسقونه، والصديد الذي يخرج من جلودهم. والاختيار على هذا ﴿وغسَّاق﴾ حتى يكون مثل سَيّال. وقال كعب: الغَسّاق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حُمَةٍ من عقرب وحية. وقيل: هو مأخوذ من الظلمة والسواد. والغَسَق أول ظلمة الليل، وقد غَسَق الليلُ يغسِق إذا أظلم. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لو أن دَلْواً من غساق يُهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلماً فيصح الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وَأُخَرُ﴾. جمع أخرى مثل الكبرى والكُبَر. الباقون ﴿ وَآخَرُ ﴾ مفرد مذكر. وأنكر أبو عمرو ﴿ وَآخَرُ ﴾ لقوله تعالى: ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي لا يخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدريّ ﴿ وَأُخَرُ ﴾ قال: ولو كانت ﴿وَأُخَرُ﴾ لكان من شكلها. وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان. ﴿وَآخَرُ﴾ أي وعذاب آخر سوى الحميم والغساق. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ قال قتادة: من نحوه. قال ٱبن مسعود: هو

(١) لعله من العين.

الزمهرير. وٱرتفع ﴿وآخر﴾ بالابتداء و ﴿أَزْوَاجٌ﴾ مبتدأ ثانٍ و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ خبره والجملة خبر ﴿آخر﴾. ويجوز أن يكون ﴿وآخر﴾ مبتدأ والخبر مضمر دل عليه ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر ويكون ﴿مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و ﴿أَزْوَاجٌ﴾ مرفوع بالظرف. ومن قرأ ﴿وَأُخَرُ﴾ أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً ثم جمع كما قالوا: شابت مفارقه. أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ والضمير في ﴿شَكْلِهِ﴾ يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق. أو على معنى ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ ما ذكرنا، ورفع ﴿أُخَرُ﴾ على قراءة الجمع بالابتداء و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدأ و ﴿أَزْوَاجٌ﴾ خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و ﴿من شكله﴾ صفة لأخر و ﴿أَزْوَاجٌ﴾ مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ٱرتفع ﴿أَزْوَاجٌ﴾ بالظرف ولا ضمير في الظرف والهاء في ﴿شكله﴾ لا تعود على ﴿أُخَرُ﴾ لأنه جمع والضمير مفرد؛ قاله أبو علي. و ﴿أزواجٌ﴾ أي أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل[1].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ قال ٱبن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباع والفوج الجماعة ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي داخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لاَ مَرْحَباً بِهِمْ﴾ أي لا ٱتسعت منازلهم في النار. والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مَـرْحَـبـاً بِغَـدٍ ولا أَهْـلاً بِـهِ   إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبةِ في غَد

(١) يقال أمرأة ذات شكل (بالكسر) أي ذات دلال، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة.

قال أبو عبيدة العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي لا رحبت عليك الأرض ولا ٱتسعت. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي إنهم صالوا النار كما صليناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ و ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ﴾ هو من قول الأتباع. وحكى النقاش: إن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر. والظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع. ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ قال الفراء: من سوّغ لنا هذا وسَنَّه. وقال غيره: من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعفاً في النارِ﴾ وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً. وقال ٱبن مسعود: معنى سذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾.

[٦٢] ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

[٦٣] ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[٦٤] ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَالَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾ قال ٱبن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال أين صُهَيْب أين عَمَّار أولئك في الفردوس! واعجباً لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ٱبنه عكرمة، وٱبنته جُوَيرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونُوراً أضاءَ الأرضَ شَرْقاً ومَغْرِباً ومَوضِعُ رِجلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قال مجاهد: أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ فلم نعلم مكانهم. قال الحسن: كلّ ذلك قد فعلوا؛ ٱتخذوهم سخريّاً، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لهم. وقيل: معنى ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ أي أهم معنا في النار فلا

نراهم. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون ﴿مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على ﴿الأَشْرَارِ﴾ لأن ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بقطع الألف وقف على ﴿الأَشْرَارِ﴾ قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدّم. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿لحَقٌّ﴾ خبر إنّ و ﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع. أي إن تخاصم أهل النار في النار لحقّ. يعني قولهم: ﴿لاَ مَرْحَباً بِكُمْ﴾ الآية وشبهه من قول أهل النار.

[٦٥] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

[٦٩] ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

[٧٠] ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ أي معبود ﴿إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح. ﴿والْعَزِيزُ﴾ معناه المنيع الذي لا مثل له. ﴿الْغَفَّارُ﴾ الستار لذنوب خلقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي وقل لهم يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يُستخفَّ به. قال معناه قتادة. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾. وقال ٱبن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأكم به خبر جليل. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ٱبن عباس والسدي ٱختصموا في أمر آدم حين خلق فـ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وقال إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وفي هٰذا بيان أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾. وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «سألني ربي فقال يا محمد فيم ٱختصم الملأ الأعلى قلت في الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشي على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في السَّبْرَات[١] والتعقيب في المساجد بٱنتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» خرجه الترمذي بمعناه عن ٱبن عباس، وقال فيه حديث غريب. وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال حديث حسن صحيح. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، وأوضحنا إشكاله والحمد لله. وقد مضى في ﴿يٰس﴾[٢] القول في المشي إلى المساجد، وأن الخُطَا تكفّر السيئات، وترفع الدرجات. وقيل: الملأ الأعلى الملائكة والضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ لفرقتين يعني قول من قال منهم الملائكة بنات الله،

---

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهي شدّة البرد.

(٢) راجع ص ١٢ وما بعدها من هذا الجزء.

[ومن قال آلهة تعبد][1]. وقيل: الملأ الأعلى ههنا قريش؛ يعني ٱختصامهم فيما بينهم سراً، فأطلع الله نبيه على ذلك. ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي إن يوحى إليّ إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ﴿إِلاَّ إِنَّمَا﴾ بكسر الهمزة؛ لأن الوحي قول، كأنه قال: يقال لي إنما أنت نذير مبين، ومن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها ٱسم ما لم يسمّ فاعله. قال الفراء: كأنك قلت ما يوحى إليّ إلا الإنذار، النحاس: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما. والله أعلم.

[٧١] ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾.

[٧٢] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾.

[٧٣] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾.

[٧٤] ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ ﴿إذ﴾ من صلة ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ المعنى؛ ما كان لي من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾. وقيل: ﴿إذ قال﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ و ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتعلق بمحذوف؛ لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت ٱختصامهم. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ ﴿إذا﴾ تردّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحِي﴾ أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مُجوَّداً في ﴿النساء﴾[2] في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[3]. ﴿فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي ٱمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلاً بأن السجود له طاعة لله، والأنفة من طاعة الله ٱستكباراً كفر، ولذلك كان من الكافرين بٱستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلام في هذا في ﴿البقرة﴾[4] مستوفى.

---

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان في تفسيره.

(٢) راجع ٦/ ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ١/ ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة. (٤) راجع ١/ ٢٩٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

[٧٥] ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾.
[٧٦] ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾.
[٧٧] ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾.
[٧٨] ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾.
[٧٩] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾.
[٨٠] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠﴾.
[٨١] ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾.
[٨٢] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾.
[٨٣] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي صرفك وصدّك ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ أي عن أن تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء. وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا. قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد والصلة؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة، يقال مالي بهذا الأمر يد. ومالي بالحِمْل الثقيلِ يَدَانِ. ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحمَّلْتُ مِن [عَفْرَاءَ][(١)] ما ليس لِي بِهِ ... ولا لِلجبالِ الرّاسِياتِ يَدَانِ

وقيل ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لما خلقت بغير واسطة. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي المتكبرين على ربك. وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة ﴿بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ﴾ موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل ﴿أَمْ يَقُولُونَ

(١) في «الأصول» ذلفاء وهو تحريف. والبيت لعروة بن حزام.

ٱفْتَرَاهُ﴾ وشبهه. ومن ٱستفهم فأم معادلة لهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ. أي أستكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قال الفرّاء: من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال. ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فَضَّل النار على الطين وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1] بيانه. ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم بالكواكب والشهب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذٍ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجَب إلى ذلك، وأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأخّر إليه تهاوناً به. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم، فمعنى ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولهذا قال: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم مني. وقد مضى في ﴿الحجر﴾[2] بيانه.

[٨٤] ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

[٨٥] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

[٨٦] ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

[٨٧] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

[٨٨] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي. وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول. وأجاز الفرّاء فيه

(١) راجع ٧/ ١٧١ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ١٠/ ٢٨ طبعة أولى أو ثانية.

الخفض. ولا ٱختلاف في الثاني في أنه منصوب بـ ﴿أقول﴾ ونصب الأوّل على الإغراء أي فٱتبعوا الحق واستمعوا الحق، والثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أُحِقُّ الحقّ أي أفعله. قال أبو علي: الحق الأوّل منصوب بفعل مضمر أي يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجر؛ كما تقول: اللَّهِ لأفعلنّ؛ ومجازه: قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه. ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة ٱعترضت بين القسم والمقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحقّ منصوباً بإضمار فعل كان ﴿لأَمْلأَنّ﴾ على إرادة القسم. وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحقّ منصوباً بمعنى حقّاً ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز زيداً لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّاً. ومن رفع ﴿الحقّ﴾ رفعه بالابتداء؛ أي فأنا الحقّ أو الحقّ مني. رويا جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق. وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم. وفي الخفض قولان وهي قراءة ٱبن السُّمَيْقع وطلحة بن مُصرِّف: أحدهما أنه على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال كما يقول: اللَّهِ عز وجل لأفعلنّ. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تضمر، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا[1]:

فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع

﴿ لأَمْلأَنّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أي من نفسك وذريتك ﴿ ومِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بني آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾. قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي من جُعل على تبليغ الوحي وكنى به عن غير مذكور. وقيل هو راجع إلى قوله: ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾. ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال:

---

(١) البيت لامرىء القيس من معلقته وتمامه:

فألهيتها عن ذي تمائم محول

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف؛ فإن قوله لا أعلم عِلمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم». وروى الدارَقطْني من حديث نافع عن ٱبن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة[1] له، فقال له عمر: يا صاحب المَقْرَاة أولغت السباع الليلة في مَقْرَاتك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا صاحب المَقْرَاة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور». وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: إن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض! هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا، فإنا نرد على السباع وترد علينا. وقد مضى القول في المياه في سورة ﴿الفرقان﴾[2].

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال قتادة: بعد الموت. وقاله الزجاج: وقال ٱبن عباس وعكرمة وٱبن زيد: يعني يوم القيامة. وقال الفراء: بعد الموت وقبله. أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين. قال السدي: وذلك يوم بدر. وكان الحسن يقول: يٱبن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر. وقد مضى القول في هذا في ﴿البقرة﴾[3] و ﴿إبراهيم﴾[4] والحمد لله.

(١) المقراة الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية لابن الأثير.

(٢) راجع ١٣/ ٤٥ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) راجع ١/ ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

(٤) راجع ٩/ ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.